جامع شروحات كتاب

التوحيد

جمع وإعداد

راشد علي الطنيجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الكتاب الثالث من سلسلة "جامع شروحات كتب العقيدة" وهو: (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) للشيخ الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب التميمي رحمه الله تعالى.

مما أقره أهل العلم، أن أساس بداية أي طالب علم، هو تعلم التوحيد، إذ أن التوحيد هو بمثابة القواعد الأساسية لبناء المسلم؛ وقد بقي النبي ﷺ يدعو إلى التوحيد فقط عشر سنين.

قال الإمامُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ: (أَخَذَ عَلَىٰ هٰذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ).

قال الشيخُ عبدُ الرَّحمٰن بن محمَّد بن قاسم رَحِمَهُ اللهُ: "أَيْ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيهِ، وَبَيَانِ الشِّرْكِ وَالْإِنْذَارِ عَنْهُ، وَالتَّحْذِيْرِ مِنْهُ عَشْرَ سِنِينَ، قَبْلَ فَرْضِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِي عِمَادُ الدِّينِ، وَقَبْلَ بَقِيَّةِ الشَّرَائعِ. وَبِهٰذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ حَقِيقَةُ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَدَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ: هُوَ الْإِنْذَارُ عَنِ الشِّرْكِ، وَالنَّهْيُ عَنْهُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَيَانُهُ وَتَوْضِيحُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيه أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النَّحل: مِنَ الآية ٣٦)، وَقَالَ عَنْ نَوْحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وشعيبٍ؛ أَوَّلَ شَيْءٍ بَدَأُوا بِهِ قَوْمَهُمْ أَنْ قَالُوا: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُه﴾ (الأعراف: مِنَ الآية ٥٩)؛ وَخَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوَّلُ شَيْءٍ دَعَاهُمْ إِلَيْهِ أَنْ قَالَ: «قُوْلُوا: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ؛ تُفْلِحُوا»[١]، فَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (صٓ: ٥).

وَهٰذِهِ الرِّوَايَاتُ يُفَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا بُعِثَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ؛ وَذٰلِكَ لِأَنَّه أَسَاسُ الْمِلَّةِ الَّذِي تُبْنَىٰ عَلَيْهِ، وَبِدُوْنِهِ لَا يَنْبَنِي شَيْءٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَصْلُ، وَبَقِيَّةُ شَرَائِعِ الدِّيْنِ

فَرْعٌ عَنْهُ، فَإِذَا زَالَ الْأَصْلُ زَالَ الْفَرْعُ، فَأَيُّ بَيَانٍ أَبْيَنُ مِنْ هٰذَا عَلَىٰ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوْجَبُ الْوَاجِبَاتِ، وَمَعْرِفَتَهُ أَفْرَضُ الْفَرَائِضِ؛ كَوْنُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَيُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْهِ الْفَرَائِضُ؟!" انتهى من "حاشية ثلاثة الأصول".

وعليه، فلما كان عليَّ دراسة التوحيد، وكتاب التوحيد من الكتب الضرورية جداً في كتب التوحيد، بل من أهم كتب التوحيد، وكان يمكن أن آخذ من عالم واحد وأكتفي، لكن وجدت ضيق في نفسي من ذلك، إذ يمكن أن هذا العالم الذي آخذ عنه لم يفصل بشكل أوسع، أو أنه سها عن معلومة ما أو قال قول وغيره قال قول آخر، أو كانت مسألة خلافية أو فيها عدة أقوال، فأردت أن أتوسع في المعلومة مع جمع الفائدة، ومعرفة الخلاف فيما فيه خلاف بين الشروحات على قلتها، فبفضل الله المسائل المختلف فيها في مسائل التوحيد قليلة جداً؛ كذلك أُسهل على نفسي دراستي كطالب علم، فأتتني فكرة جمع شروحات كتاب التوحيد في كتاب واحد، بحيث تأتي شروحات العلماء مجمعة في مكان واحد متتالية متناسقة دون زيادة ولا تكرار.

بدأت بفضل الله أخرج الكتب التي عندي من مكتبتي الخاصة بمنزلي، كما قمت بالبحث على الشبكة المعلوماتية (الإنترنت) وتنزيل بعض الكتب المصورة، وبعضها مكتوباً.

بطبيعة الحال توجد شروحات أخرى لكتاب التوحيد، لكني اقتصرت على أكثر العلماء المُعتبرين والمعروفين في عموم المسلمين، وكذلك تجنباً للإطالة دون داع.

عن جمعي للشروحات: لم أكتب أي شيء من عندي، ولم أكتب رأياً لنفسي، بل نقلاً حرفياً لما ورد عن العلماء الأفاضل دون تعديل أو تحريف أو زيادة أو نقص أو أدنى تصرف؛ ولو كانت مسألة خلافية، فلم أرجح رأيٍ على آخر، إنما نسقت بين أقوالهم بحيث يتم عرض المسألة الواحدة بكل ما

قاله العلماء المعتمد عليهم في كتاب "جامع شروحات كتاب التوحيد" من شروحات بشكل متتالي ومنسق. مع التنبيه أني تَلافَيْتُ تكرار الكلام إلا إذا كان لزيادة بيان أو تثبيت معلومة أو مراجعة.

وأما المراجع، فلم آتي بها من عند نفسي، إنما هي مراجع كتب الشروحات التي اعتمدت عليها.

وأما تقسيم الكتاب، فلم أقسمه بل كما هو كتاب التوحيد، فلم أزد على ما بوب له الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقط رحمه الله.

الكتب التي تم استخراج الشروح والفوائد منها وترتيبها:

١- "تيسير العزيز الحميد" للشيخ سليمان بن عبدالله.

٢- "فتح المجيد" للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

٣- "التمهيد لشرح كتاب التوحيد" للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

٤- "إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد" للشيخ صالح الفوزان.

٥- "القول المفيد على كتاب التوحيد" للشيخ صالح العثيمين.

٦- شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد العزيز ابن باز.

٧- "قرة عيون الموحدين المسمى (خاتمة البحر المفيد في بيان مسائل التوحيد)" للعلامة مجدد السنة في زمانه الشيخ عبدالرحمن بن حسن ابن محمد بن عبدالوهاب.

٨- "القصد السديد على كتاب التوحيد" تأليف الشيخ العلامة فيصل بن عبد العزيز آل مبارك.

٩- "كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله وقفات و تأملات"، إعداد أ.د فالح بن محمد بن فالح الصغير.

ترمز الأرقام عند انتهاء كل شرح إلى:

الرقم	الكتاب
١	تيسير العزيز الحميد
٢	فتح المجيد
٣	التمهيد لشرح كتاب التوحيد
٤	إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد
٥	القول المفيد على كتاب التوحيد
٦	شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد العزيز بن باز
٧	قرة عيون الموحدين
٨	القصد السديد على كتاب التوحيد
٩	كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله وقفات وتأملات

هذا وبالله التوفيق.

كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

نبذة عن الكتاب

وكتاب التوحيد -الذي نحن بصدد شرحه- كتاب عظيم جداً، أجمع علماء التوحيد، على أنه لم يصنف في الإسلام في موضوعه مثله، فهو كتاب وحيد وفريد في بابه، لم ينسج على منواله مثله؛ لأن المؤلف -رحمه الله- طرق في هذا الكتاب مسائل توحيد العبادة، وما يضاد ذلك التوحيد، من أصله، أو يضاد كماله، فامتاز الكتاب بسياق أبواب توحيد العبادة مفصلة، مُدَلَّلَةً، وعلى هذا النحو، بتفصيل، وترتيب، وتبويب لمسائل التوحيد، لم يوجد من سبق الشيخ إلى ذلك، فحاجة طلاب العلم إليه، وإلى معرفة معانيه ماسة؛ لما اشتمل عليه من الآيات، والأحاديث، والفوائد.

وقد شبه بعض العلماءِ هذا الكتاب بأنه قطعة من صحيح البخاري -رحمه الله- وهذا ظاهر، ذلك أن الشيخ -رحمه الله- نَسَج كتابه هذا نَسْج الإمام البخاري صحيحه من جهة أن التراجم التي يعقدها، تحتوي على آية وحديث -غالباً- والحديث والآية على الترجمة، وما بعدها مفسِّرٌ لها، وكذلك ما يسوقه -رحمه الله- من كلام أهل العلم من الصحابة، أو التابعين، أو أئمة الإسلام، هو نسق طريقة الإمام أبي عبد الله البخاري -رحمه الله- فإنه يسوق أقوال أهل العلم في بيان المعاني.

وهذا الكتاب صنفه إمام الدعوة ابتداءً في البصرة لـمَّا رحل إليها، وكان الداعي إلى تأليف ما رأى من شيوع الشرك بالله –جل جلاله– ومن ضياع مفهوم التوحيد الحق عند بعض المسلمين، وما رآه عندهم من مظاهر الشرك: الأكبر، والأصغر، والخفي، فابتدأ في البصرة جمع هذا الكتاب، وتحرير الدلائل لمسائله، ذكر ذلك تلميذه، وحفيده الشيخ الإمام عبد الرحمن بن حسن –رحمه الله– في "المقامات"، ثم إن الشيخ لـمَّا قدم نجداً حرر الكتاب، وأكمله، فصار كتابه هذا –بحق– كتاب دعوة إلى التوحيد الحق؛ لأن الشيخ –رحمه الله– بين فيه أصول دلائل التوحيد، وبيَّن فيه معناه وفصله، كما بيَّن فيه ما يضاده، والخوف مما يضاده، وبيَّن –أيضاً– أفراد توحيد العبادة، وأفراد توحيد الأسماء والصفات إجمالاً، واعتنى ببيان الأكبر والأصغر وصورهما، والذرائع المؤدية إليهما، وبيَّن ما يُحْمى به التوحيد، والوسائل إلى ذلك، وبين أيضاً شيئاً من أفراد توحيد الربوبية. فـ "كتاب التوحيد" كتاب عظيم النفع جداً، جدير بأن يعنى به عناية حفظ، ودرس، وتأمل؛ فالعبد محتاج إليه للعمل به، ولتبليغ ما فيه من العلم لمن وراءه من الناس، سواءً أكانوا في المسجد، أم في البيت، أم في مقر عمله، أم في أي جهة أخرى. والمقصود: أن مَن فهم هذا الكتاب فقد فهم أكثر مسائل توحيد العبادة، بل يكون قد فهم جل مسائله وأغلبها. ٣

وهذا الكتاب من أنفس الكتب المؤلَّفة في باب التّوحيد؛ لأنه مبني على الكتاب والسنة، بحيث إنه رحمه الله، يورد في كل باب من أبوابه آيات من القرآن وأحاديث من السنة الصحيحة السند أو المعنى، وكلام أهل العلم الأئمة؛ الذين بَيَّنوا معاني هذه الآيات وهذه الأحاديث، فعل هذا في كل باب من أبواب الكتاب.

فلم يكن هذا الكتاب قولاً لفلان أو فلان، أو أنه كلام من عند المؤلف، وإنما هو كلام الله وكلام رسول الله، وكلام أئمة هذه الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة المقتدى بهم.

فتأتي أهمية هذا الكتاب من هذه الناحية؛ أنه مبني على الكتاب والسنة من الآيات والأحاديث، فلا يقال: إن هذا كلام فلان، أو كلام ابن عبد الوهاب، بل يقال: هذا كلام الله وكلام رسول الله، وكلام أئمة الإسلام. وهكذا ينبغي أن يكون التأليف. ٤

ولم يورد الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب إلاَّ ما صح من الأحاديث، أو كان حسن الإسناد، أو هو ضعيف الإسناد وله شواهد تقوّيه. أو هو داخل تحت أصل عام يشهد له الكتاب والسنة، مما ترجم له الشيخ في أبواب الكتاب.

ثم إن الشيخ رحمه الله يذكر في آخر كل باب ما يستفاد من الآيات والأحاديث التي أوردها فيه من مسائل العقيدة؛ مما يعتبر فقهاً لنصوص الباب، بحيث يخرج القارئ بحصيلة علمية جيدة من كل باب.

وهذا الكتاب العظيم الذي انتفع به الخاص والعام وقد لقي قبولاً عظيماً لدى العلماء والمتعلمين واعتنوا به وأولهم المعاصرون لمؤلفه فتلقوه بلهف وشوق فقرأوا أبوابه عليه وحفظوها واستمعوا إلى شرحه وتقريره عليه واستمرت العناية بهذا الكتاب إلى يومنا هذا والحمد لله وقد كثرت نسخة الخطية قبل انتشار الطباعة. وانتشر بين العلماء وفي خزائن الكتب وقد أثنى على هذا الكتاب كل من عرفه فمن ذلك قول بن بشر عليه رحمة الله "ما وضع المصنفون في متنه أحسن منه فإنه أحسن فيه وأجاد وبلغ الغاية والمراد" [1].

ويقول الشيخ العلامة المحقق سليمان بن عبدالرحمن بن حمدان عليه رحمة الله "كتاب بديع الوضع عظيم النفع لم أر من سبقه إلى مثاله أو نسج في تأليفه على منواله فكل باب منه قاعدة من القواعد ينبني عليها الكثير من الفوائد وأكثر أهل زمانه قد وقعوا في الشرك الأكبر

---

[1] عنوان المجد ١ / ٩٢.

والأصغر واعتقدوه ديناً فلا يتاب منه ولا يستغفر فألفه عن خبرة ومشاهدة للواقع فكان لذاك الداء كالدواء النافع" [1].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله: "وهو كتاب فرد في معناه لم يسبقه له سابق ولا لحقه فيه لاحق" [2].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن: "جمع على اختصاره خيراً كثيراً وضمنه من أوله التوحيد ما يكفي من وفقه الله وبين فيه من الأدلة في بيان الشرك الذي لايغفره الله" [3].

وقال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن "وصنف كتابه المشهور في التوحيد وأعلن بالدعوة إلى الله العزيز الحميد وقرأ عليه هذا الكتاب المفيد وسمعه كثير من طالب ومستفيد وشاعت نسخه في البلاد وطار ذكره في الغور والانجاد" [4،5].

---

[1] الدر النضيد على كتاب التوحيد.

[2] تيسير العزيز الحميد ص ٢٤.

[3] الدر النضيد ٣ / ١٦٩.

[4] عبداللطيف عبدالرحمن، الرسائل والمسائل ٣٨١/٣.

[5] عبدالله بن سفر العبدلي الغامدي تلميذ الشيخ عبدالرحمن بن سعد العياف.

منهج الكتاب:

الكتاب يتلخص منهجه في اعتماده على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية، ورتب الكتاب حسب أهمية كل موضوع كما بينت لكم سابقاً، وقد ذيل المؤلف رحمه الله كل باب بمسائل هي خلاصة لأحكام الباب.

وقد استدل في هذا الكتاب بـ ١٢٥ حديثاً وأكثرها صحيحة والأحاديث الضعيفة قليلة وضعفها ليس متفقاً على ضعفه عند العلماء وأما الأحاديث الموضوعة والباطلة فكتاب التوحيد والحمد لله منزه عنها.

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: "إن جميع الأحاديث التي في كتاب التوحيد لابأس بها ولها شواهد وليست ضعيفة ولقد أعتنى بها المؤلف رحمه الله".

وقال الشيخ صالح الفوزان: "لم يورد الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب إلا ما صح من الأحاديث أو كان حسن الإسناد أو ضعيف الإسناد وله شواهد أو هو داخل تحت أصل عام يشهد له الكتاب والسنة كما ترجم له الشيخ في أبواب الكتاب"[١].

وقد قام الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين بذكر عدد الأحاديث التي في كتاب التوحيد فقال:[٢]

الأحاديث التي اتفق على إخراجها البخاري ومسلم ٣١ حديثاً.

والأحاديث المنسوبة للبخاري ٦ أحاديث.

والأحاديث المنسوبة لمسلم ٨ أحاديث.

والأحاديث المنسوبة لأحمد ٧ أحاديث.

---

[١] إغاثة المستفيد ١٣/١.

[٢] بواسطة كتاب عناية العلماء بكتاب التوحيد للشايع.

أما عدد مسائل كتاب التوحيد فقد بلغت ٥٩١ مسألة وقد عني بعض العلماء بشرحها منهم الشيخ عبدالله بن محمد الدويش رحمه الله فقد شرحها في كتابه التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد. وهو مطبوع ضمن مجموع مؤلفاته رحمه الله وقد قام شيخنا سليمان رحمه الله بتفريقها في مواضعها في ضمن شرحه لكتاب التوحيد، كما شرحها الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه (القو ل المفيد) وكذلك الشيخ صالح الفوزان في كتابه (إعانة المستفيد) وقد وعد الشيخ عبدالله بن منيع كما ذكر في مقابلة معه في (مجلة العدل) أنه سيقوم بشرحها وقد ذكر عبدالإله الشايع في كتابه (عناية العلماء بكتاب التوحيد)، أن هناك بحث لم ينشر عنوانه (مختصر كتاب التوحيد علق به على مسائل كتاب التوحيد للأستاذ إبراهيم بن عبدالله السماري)[١].

عناية العلماء بكتاب التوحيد:

لفضائل كتاب التوحيد وفوائده وخصائصه ومميزاته التي استمعت إلى شيء منها قد أوصى العلماء بدراسة هذا الكتاب القيم وتدريسه فما من حلقة من حلقات أهل العلم إلا وقد دُرِّسَ فيها هذا الكتاب من عهد مؤلفه رحمه الله إلى يومنا هذا وخاصة في بلدنا المملكة العربية السعودية فهو مقرر تدريسه في المراحل التعليمية بالمرحلة المتوسطة من التعليم العام وكذلك في المعاهد العلمية والمدارس الشرعية الخاصة وغيرها وقد تناوله العلماء بالشرح وشروحه كثيرة نذكر أهمها:

١ . تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب.

٢ . فتح المجيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن وهو من أحسن الشروح وأكثرها فؤائد وقد درسناه مراراً والحمد لله.

---

[١] عبدالله بن سفر العبدلي الغامدي تلميذ الشيخ عبدالرحمن بن سعد العياف.

٣ ـ قرة عيون الموحدين، للشيخ عبد الرحمن بن حسن.

٤ ـ إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد، تأليف الشيخ حمد بن علي.

٥ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ عبدالرحمن السعدي.

٦ ـ حاشية الشيخ عبد الرحمن بن قاسم.

٧ ـ شرح شيخنا العلامة سليمان بن عبدالرحمن الحمدان رحمه الله، الدر النضيد شرح كتاب التوحيد.

ومن شروح المعاصرين:

شرح الشيخ ابن باز ـ الفوزان ـ ابن جبرين ـ ابن عثيمين ـ الجندول ـ الجطيلي، وغيرهم.

كما قد قام بعض أهل العلم بالعناية بتخريج أحاديث هذا الكتاب أو أحد شروحه ومن ذلك:

١ ـ النهج السديد بتخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد لسليمان بن جاسم الدوسري. وكذلك يليه تحقيق أحاديث فتح المجيد وقد بلغ عدد الأحاديث المتكلم عليها ٦١٥ ما بين حديث وأثر.

٢ ـ الدر النضيد في تخريج أحاديث كتاب التوحيد بقلم صالح بن عبدالله العصيمي.

٣ ـ تخريج أحاديث في كتاب التوحيد للشيخ فريج بن صالح البهلال وهو مناقشة لكتاب ضعيف كتاب التوحيد لصغير علي الشمري.

٤ ـ تخريج وتحقيق أحاديث فتح المجيد للشيخ الدكتور الوليد الفريان.

٥ ـ تخريج أحاديث كتاب التوحيد لناصر الفهيد.

وهناك غيرها من الجهود.[١]

---

[١] عبدالله بن سفر العبدلي الغامدي تلميذ الشيخ عبدالرحمن بن سعد العياف.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإن عقيدة التّوحيد هي أساس الدين، وكل الأوامر والنواهي والعبادات والطاعات كلها مؤسسة على عقيدة التّوحيد، التي هي معنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، الشهادتان اللتان هما الركن الأول من أركان الإسلام؛ فلا يصح عملٌ، ولا تقبل عبادةٌ ولا ينجو أحد من النار ويدخل الجنة؛ إلاَّ إذا أتى بهذا التّوحيد، وصحّح العقيدة.

ولهذا كان اهتمام العلماء -رحمهم الله- في هذا الجانب اهتماماً عظيماً؛ لأنه هو الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، كما يأتي شرحه -إن شاء الله-، ثم بعد ما تصح العقيدة فإنه حينئذٍ يُطلب من الإنسان أن يأتي ببقية الأعمال.

ولهذا سيأتي في الحديث: أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة)) إلى آخر الحديث.

الشاهد منه: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاَّ الله)).

وقال ﷺ: ((أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاَّ الله؛ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل)).

فدلّ هذا على أن عقيدة التّوحيد هي الأساس الذي يجب العناية به أولاً وقبل كل شيء، ثم بعدما يتحقق فإنه يتوجه إلى بقية أمور الدين، وأمور العبادات.

ولهذا -كما ذكرنا- كان اهتمام العلماء -رحمهم الله- بهذا الجانب اهتماماً عظيماً، ألَّفوا فيه كتباً كثيرة، مختصرة ومطوّلة، سموها: (كتب التّوحيد)، أو (كتب العقيدة) أو (كتب السنة). ومن هذه الكتب هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو: كتاب التّوحيد الذي هو حق الله على العبيد.٤

ومعلوم عند أهل السنة ما لكتاب التوحيد من المكانة العلية، والمنزلة العلمية؛ فقاموا بخدمته خدمة عظيمة بشرحه، والتعليق عليه، وشرح مسائله، وتخريج أحاديثه، والدفاع عنه وعن مؤلفه رحمه الله.

التّوحيد هو الأصل في بني آدم، والشرك طارئ ودخيل، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على التّوحيد".

وأول ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح لما غلوا في الصالحين، وصوروا صورهم، فآل بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله، فبعث الله نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام ينهى عن الشرك ويأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وجاء الرسل من بعده كلهم على هذا النمط، كما قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إليه أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وأما الشرك في قوم موسى فحدث عندما اتخذوا العجل، وكان موقف كليم الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام معهم ما قصه الله في كتابه.

وأما الشرك في النصارى فحدث بعد رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، على يد اليهودي (بولس)، الذي أظهر الإيمان بالمسيح مكراً وخداعاً، فأدخل في دين النصارى التثليث وعبادة الصليب، وكثيراً من الوثنيات.

وأما الشرك في بني إسماعيل عليه السلام وهم العرب فحدث على يد عمرو بن لحي الخزاعي، الذي غير دين إبراهيم عليه السلام وجلب الأصنام إلى أرض الحجاز، وأمر بعبادتها.

وأما الشرك في بعض المسلمين فحدث على يد الشيعة الفاطميين بعد المائة الرابعة، حينما بنوا المشاهد على القبور، وأحدثوا بدعة الموالد في الإسلام، والغلو في الصالحين.

وكذلك عندما حدث التصوف المنحرف المتمثل بالغلو في المشايخ وأصحاب الطرق.

ولكن الله سبحانه قد تكفل بحفظ هذا الدين بعد رسول الله ﷺ على يد العلماء المصلحين والدعاة المجددين، الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة، كما في الحديث، فبقي للحق أنصاره وللدين حماته، كما قال النبي ﷺ: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وهم على ذلك)).

ولهذا يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مقدمة كتابه: الرد على الجهمية: "الحمد لله الذي جعل في وقت كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم؛ ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، فكم من ضال قد هدوه، وكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم".

ومن هؤلاء الذين وصفهم الإمام أحمد بهذه الأوصاف العظيمة؟ شيخ الإسلام الإمام المجدد الشيخ: محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فقد وقف موقفاً عظيماً، من مواقف هؤلاء الأئمة في مواجهة التغيرات التي حدثت في مجتمعه؛ من انحراف في العقيدة، وانقسام في الحكم، واستشراء للعادات الجاهلية في الحاضرة والبادية، شرك في العبادة، ومخالفات للشرع في الحكم بين الناس، ورواج لسوق الشعوذة والسحر، وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ رغم كثرة وجود

العلماء فيهم؛ المتبحرين في مسائل الفقه الفرعية، لكن العبرة ليست بوجود العلماء ووفرتهم دون أن يكون لهم أثر فعال في الإصلاح، فبنوا إسرائيل هلكوا وفيهم العلماء، فما لم يقم علماؤهم بما أوجب الله عليهم من النصح والإصلاح تسلط عليهم الشيطان، قال تعالى:

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٢-٦٣].

إنه لما وقف هذا الإمام من مجتمعه المنحرف موقف الصدق والنصيحة؛ خلص هذا المجتمع مما وقع فيه من أسباب هلاكه، مع أنه رجل واحد، ولكن كما قيل:

والناس ألف منهموا كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى

وهكذا سنة الله لا تتغير، فالأمة لا تنهض من كبوتها ولا تستيقظ من رقدتها إلاّ بتوفيق الله ثم بجهود علمائها المخلصين ودعاتها الناصحين، ورحم الله الإمام مالكاً حيث يقول: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ ما أصلح أولها".

وما امتازت هذه الأمة على غيرها من الأمم إلا بقيامها بالإصلاح والدعوة إلى الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ٤

شرح الكتاب:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كِتابُ التَّوْحِيد

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ (الذَّارِيَات). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُل أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الْآيَةُ؛ وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ الْآيَات.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْها خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكَمْ عَلَيْكَمْ –(إلى قَوْلِهِ)– وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ الْآيَةُ".

وَعَن مَعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْت رَدِيفَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: ((يا مَعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَاد، ومَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟))، فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولهُ أعلم. قَالَ: ((حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدوهُ وَلَا يُشْرِكوا به شيئاً ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِك به شيئاً))، فَقُلْتُ: يا رَسُول اللَّهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: ((لَا تُبَشِّرْهُم فِيتَّكُلوا)). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحيحَيْنِ.

الشرح:

قال رحمه الله: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" بدأ كتابه بـ"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"؛ اقتداء بالنبي ﷺ، حيث كان يكتب ((بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) في أول رسائله إلى الناس، وكان يبدأ –عليه الصلاة والسلام– أحاديثه مع أصحابه بـ ((بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ))، وقال ﷺ: ((كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم؛ فهو أبتر)) أي: ناقص البركة.

وفي رواية: ((بالحمد لله))؛ وكما كتبها سليمان عليه السلام فيما ذكر الله عنه لمَّا كتب إلى بلقيس ملكة سبأ، وقرأت الكتاب على قومها: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

فالبداءة بـ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" في الأمور المهمّة في المؤلَّفات، والخطب، والمحاضرات، والأكل والشرب، وجميع الأمور التي هي من الأمور المهمة؟ تُبدأ بـ"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" تبركاً بهذه الكلمة العظيمة، وافتتاحاً للأمور بها.

ومن هنا نعلم أن هؤلاء الذين لا يكتبون "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" في أول مؤلفاتهم في هذا العصر؛ أنهم قد خالفوا السنة، واقتدوا بالغربيين، وإلاَّ فإن المشروع في حق المسلم أن يبدأ بهذه الكلمة في أموره؛ في مؤلفاته، في خطبه، في محاضراته، في رسائله، إلاَّ أن هذه الكلمة لا تُكتب أمام الشعر الذي فيه هجاء أو فيه ذَم، ولا تُكتب أمام الكلام الذي فيه سِباب أو شتم أو كلام قبيح، تُنزّه هذه الكلمة، لا تُكتب أمام الشعر، وأعني: الشعر غير المحترم، أما الشعر النزيه الطيب فلا بأس، كذلك لا تُكتب أمام الهجاء، وأمام السب والشتم، وإنما تكتب أمام الكلام النزيه، ولهذا جاءت هذه الكلمة العظيمة في مبدأ كل سورة من سور القرآن العظيم، سوى براءة والأنفال فإنها لم تأتِ بينهما؛ وقد أجاب أهل العلم عن ذلك، والله أعلم أنهما سورة واحدة، لأنهما في موضوع القتال، فهما في موضوع واحد وكأنهما سورة واحدة، أما في بقية السور فإنها تأتي في أول ومطلع كل سورة.

ومعناها –كما قرر أهل العلم–: "بِسْمِ اللهِ" الجار والمجرور متعلق بمحذوف يجب أن يكون مؤخَّراً، تقديره: أستعين، بـ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، أو أبتدئ بـ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" كتابي ومؤلَّفي، أو ابتدئ كلامي بـ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فالجار والمجرور متعلق بمحذوف مؤخر. ٤

قد يسأل سائل فيقول: لماذا لم يبدأ كتابه بالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي ﷺ؟ الجواب: أنه اكتفى رحمه الله بـ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"؛ فإنها كافية في الثناء على الله سبحانه وتعالى، وكافية بالابتداء؛ هذا جواب.

والجواب الثاني كما ذكر الشارح العلامة الشيخ: عبد الرحمن بن حسن رحمه الله يقول: "عندي نسخة بخط المؤلِّف فيها أنه بدأ هذا الكتاب بقوله: "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد". فإذاً، يكون في هذه النسخة جمع بين الفضيلتين؛ البداءة بـ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، والبداءة بـ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، وهذا أكمل بلا شك. ٤

جرت عادة المصنفين والمؤلفين، أن يضعوا بعد البسملة والحمدلة خطبة للكتاب، يبينون فيها طريقتهم فيه، ومرادهم من تأليفه، وها هنا سؤال معروف، وهو: لماذا خالف الشيخ -رحمه الله- طريقة المصنفين فلم يجعل للكتاب خطبة يبين فيها طريقته، بل قال: "كتاب التوحيد" وقول الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]، فأخلاه من الخطبة.

والسبب في ذلك، والسر فيه -فيما يظهر لي- أن التوحيد الذي سيبينه الشيخ -رحمه الله- في هذا الكتاب هو توحيد الله -جل وجلاله- وتوحيد الله قد بينه الله -جل وعلا- في القرآن، فكان -لذلك- من الأدب في مقام التوحيد ألا يَجعل فاصلاً بين الحق والدال على الحق وكلام الدال عليه، فالحق الذي لله هو التوحيد، والذي دل على هذا الحق هو الله -جل جلاله- والدليل عليه هو كلامه، وكلام رسوله ﷺ وهذا من لطائف أثر التوحيد في القلب، وهذا كصنيع الإمام البخاري، رحمه الله- في صحيحه.[1]

[1] انظر البخاري في كتاب بدء الوحي ص١.

إذ لم يجعل لصحيحه خطبة، بل جعل صحيحه مبتدأ بالحديث؛ ذلك أن كتابه كتاب سنة، ومن المعلوم أن من الأدب، أو من مراعاة الأدب: ألا يُتقدَّم بين يدي الله ورسوله، فلم يقدِّم كلامه على كلام رسوله ﷺ فجعل البخاري صحيحه مفتتحاً بقول الرسول ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[٢،١] لأن كتابه كتاب سنة، فجعل كتابه في ابتدائه مبتدأ بكلام صاحب السنة -عليه الصلاة والسلام-؛ وهذا من لطيف المعاني التي يرعاها من نور الله قلوبهم لمعرفة حقه، وحق رسوله ﷺ. ٣

فإن قلت هلا أتى المصنف رحمه الله بخطبه تنبيء عن مقصده كما صنع غيره قيل كأنه والله أعلم اكتفى بدلالة الترجمة الأولى على مقصوده فإنه صَدَّره بقوله كتاب التوحيد وبالآيات التي ذكرها وما يتبعها مما يدل على مقصوده فكأنه قال قصدت جمع أنواع توحيد الألوهية التي وقع أكثر الناس في الإشراك فيها وهم لا يشعرون وبيان شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك فاكتفى بالتلويح عن التصريح. ١

قوله: (كتاب التوحيد)

كتاب: مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابة وكتباً، ومدار المادة على الجمع. ومنه: تكتب بنو فلان، إذا اجتمعوا. والكتيبة لجماعة الخيل، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف. وسمي الكتاب كتاباً: لجمعه ما وضع له. ٢

---

[١] البخاري بدء الوحي (١)، مسلم الإمارة (١٩٠٧)، الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧)، النسائي الطهارة (٧٥)، أبو داود الطلاق (٢٢٠١)، ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧)، أحمد (٤٣/١).

[٢] أخرجه البخاري (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩) و(٣٨٩٨) و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٩٥٣) ومسلم (١٩٠٧).

التوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً، فهو مصدر وحد يوحد، أي: جعل الشيء واحداً.

وفي الشرع: إفراد الله –سبحانه– بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. ٥

وقد جاء هذا اللفظ (التوحيد) بقلة، وجاء في السنة الدعوة إلى توحيد الله، كما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: ((إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يوحدوا الله))[1،2] ف((يوحدوا)) مصدره "التوحيد"، وفي الرواية الأخرى من حديث ابن عباس –رضي الله عنهما– الذي فيه قصة بعث معاذ إلى اليمن –وهي في الصحيحين– أنه عليه الصلاة والسلام قال: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله))[3،4] فدل هذا على أن التوحيد هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تحقيق هاتين الشهادتين، هو: تحقيق للتوحيد.

وتوحيد الشيء: جعله واحداً، تقول: وَحَّدْتُ المتكلم: إذا جعلتَه واحداً، ووحد المسلمون الله: إذا جعلوا المعبود واحداً، وهو الله –جل وعلا–. والتوحيد المطلوب يشمل ما أمر الله –جل وعلا– به في كتابه من توحيده، وهو ثلاثة أنواع:

١ – توحيد الربوبية.

٢ – وتوحيد الألوهية. ٣

---

[1] البخاري الزكاة (١٣٨٩)، مسلم الإيمان (١٩)، الترمذي الزكاة (٦٢٥)، النسائي الزكاة (٢٤٣٥)، أبو داود الزكاة (١٥٨٤)، ابن ماجه الزكاة (١٧٨٣)، أحمد (١/٢٣٣)، الدارمي الزكاة (١٦١٤).

[2] أخرجه البخاري (١٤٥٨) و(١٤٩٦) و(٢٤٤٨) و(٤٣٤٧) و(٧٣٧١) ومسلم (١٩) (٣١).

[3] البخاري الزكاة (١٣٨٩)، مسلم الإيمان (١٩)، الترمذي الزكاة (٦٢٥)، النسائي الزكاة (٢٤٣٥)، أبو داود الزكاة (١٥٨٤)، ابن ماجه الزكاة (١٧٨٣)، أحمد (١/٢٣٣)، الدارمي الزكاة (١٦١٤).

[4] أخرجه البخاري (١٣٩٥) و(١٤٩٦) و(٤٣٤٧) و(٧٣٧١) ومسلم (١٩) (٣١).

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه كما قال النبي ﷺ: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومِ رمضان، وحج البيت)) رواه البخاري ومسلم.

فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة، وهي الأعمال، فدل على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له بفعل المأمور وترك المحظور، والإخلاص في ذلك لله، وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة، فيجب إخلاصها لله تعالى، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم. ١

٣ - وتوحيد الأسماء والصفات. ٣

فهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد ذكرها الشيخ -رحمه الله- في هذا الكتاب، لكن لما كانت التصانيف قبله اعتنى فيها العلماء -أعني علماء السنة والعقيدة- ببيان النوعين: الأول، والثالث، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، لما اعتنى العلماء بهما لم يبسط الشيخ -رحمه الله- القول فيهما، وإنما بسط القول فيما الناس أحوج إليه، ويفتقدون التصنيف فيه، وهذه طريقة الإمام -رحمه الله- فإن كتاباته المختلفة، ومؤلفاته المتنوعة: إنما كانت بحسب حاجة الناس إليها، ليست للتكاثر، أو للاستكثار، أو للتفنن، وإنما كتب فيما الناس بحاجة إليه، فلم يكتب لأجل أن يكتب، ولكن كتب لأجل أن يدعو، وبين الأمرين فرق، فالشيخ -إذًا- بيَّن في هذا الكتاب توحيد الأولهية والعبودية، وبين أفراده من: التوكل، والخوف، والمحبة، والرجاء، والرغبة، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، ونحو ذلك، فكل هذه عبادات لله -سبحانه وحده- دون من سواه. ثم إن الشيخ -رحمه الله- لما بسط ذلك بَيَّنَ أيضاً ضده وهو الشرك. فهذا الكتاب الذي هو كتاب التوحيد، فيه بيان توحيد العبادة، والربوبية، والأسماء والصفات، وفيه -أيضاً- بيان ضد ذلك، وضد التوحيد: الشرك.

والشرك معناه: اتخاذ الشريك، وهو: أن يُجْعَلَ واحدٌ شريكًا لآخر؛ يقال: أشرك بينهما: إذا جعلهما اثنين، أو أشرك في أمره غيره: إذا جعل ذلك الأمر لاثنين: فالشرك فيه تشريك، والله -جل وعلا- نهى عن الشرك، كما سيأتي الكلام على ذلك -إن شاء الله-.

وقد بين أهل العلم عند كلامهم عن الشرك: أنه بحسب ما دلت عليه النصوص: يُقسَّم إلى قسمين باعتبار، ويقسم إلى ثلاثة أقسام باعتبار آخر؛ فهو إما أن يقسَّم إلى: شرك أكبر، وشرك أصغر. فهذا باعتبار انقسامه إلى قسمين، أو يقسم إلى شرك أكبر، وشرك أصغر وشرك خفي. فهذا باعتبار انقسامه إلى ثلاثة أقسام.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله -جل وعلا- في الربوبية، أو في العبادة، أو في الأسماء والصفات. والمقصود هنا: النهي عن اتخاذ شريك مع الله -جل وعلا- في العبادة، والأمر بتوحيده -سبحانه-.

التقسيم الأول: وهو تقسيم الشرك إلى أكبر وأصغر، فالأكبر: هو المخرج من الملة، والأصغر: ما حكم الشارع عليه بأنه شرك. وليس فيه تنديد كامل يُلْحِقُهُ بالشرك الأكبر، وعبَّر عنه بعض العلماء بقوله: ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر، فعلى هذا يكون الشرك الأكبر منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن خفي.

فمثال الظاهر من الشرك الأكبر: عبادة الأوثان، والأصنام، وعبادة القبور، والأموات والغائبين. ومثال الباطن: شرك المتوكلين على المشايخ، أو على الآلهة المختلفة، أو كشرك المنافقين؛ لأن المنافقين مشركون في الباطن؛ فشركهم أكبر، ولكنه خفي، أي في الباطن، وليس في الظاهر.

وكذلك الشرك الأصغر -على هذا التقسيم- منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن خفي، فمثال الظاهر من الشرك الأصغر: لبس الحلقة، والخيط، وتعليق التمائم، والحلف بغير الله، ونحو ذلك من الأعمال والأقوال؛ ومثال الباطن الخفي منه: يسير الرياء ونحو ذلك.

فيكون الرياء -على هذا التقسيم أيضاً- منه ما هو أكبر كرياء المنافقين الذين قال الله في وصفهم: ﴿يرائون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٤٢]، ومنه: ما يقع فيه بعض المصلين المتصنعين في صلواتهم؛ لأجل نظر الناس إليهم، ومنه ما هو أصغر كمن يحب التسميع أو المراءات.

التقسيم الثاني للشرك -وهو جعله ثلاثة أقسام-: أكبر، وأصغر، وخفي، وهذا التقسيم يعني به أن الأكبر: ما كان مخرجاً من الملة؛ مما فيه صرف العبادة لغير الله -جل وجلاله-، والأصغر: ما كان وسيلة لذلك الشرك الأكبر، وفيه تنديد لا يبلغ به أن يخرج من الإسلام، وقد حكم الشارع على فاعله بالشرك، وحقيقة الحال: أنه ندد وأشرك.

وأما الشرك الخفي، فهو: كيسير الرياء، ونحو ذلك. وبعض أهل العلم يقول بالتقسيم الأول، ومنهم من يقول بالثاني. والتحقيق أنهما متساويان، أحدهما يوافق الآخر، وليس بينهما اختلاف. فإذا سمعت من يقول: إن الشرك ينقسم إلى أكبر، وأصغر: فقوله هذا صحيح، وإذا سمعت من يقول -وهو قول أئمة الدعوة-: إن الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر وخفي: فهذا -أيضاً- قوله صحيح.

فإذا تبين ذلك، فأعلم أن الشرك يعبر عنه بالتنديد، كما قال -جل وعلا-: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال النبي ﷺ حينما سئل أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً، وهو خلقك)).[١،٢]

فالتنديد منه ما هو تنديد أعظم، ومنه ما هو تنديد أصغر ليس فيه صرف العبادة لغير الله، فإذا كان التنديد بجعل العبادة لغير الله: صار التنديد شركاً أكبر، وإذا كان التنديد بجعل غير الله -جل وعلا- ندا لله في عمل، ولم يبلغ ذلك الشرك الأكبر: فإنه يكون تنديداً أصغر،

---

[١] البخاري تفسير القرآن (٤٢٠٧)، مسلم الإيمان (٨٦)، الترمذي تفسير القرآن (٣١٨٣)، النسائي تحريم الدم (٤٠١٤)، أبو داود الطلاق (٢٣١٠)، أحمد (١/٣٨٠).

[٢] أخرجه البخاري (٤٧٦١) و(٦٨١١) و(٧٥٢٠) مسلم (٨٦) (١٤١).

وهو المسمى بالشرك الأصغر، فهذه مقدمات، وتعريفات، وتنبيهات، جعلتها بين يدي هذا الشرح لأهميتها، ولمسيس الحاجة إليها. والله أعلم. ٣

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات :٥٦]

تفسير التوحيد والغاية من خلق الجن والإنس

لاحظوا دِقّة الشيخ رحمه الله، قال: "كتاب التّوحيد، وقول الله- تعالى- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾" ليُبَيّن لكم ما هو معنى التّوحيد؟، بأن التّوحيد معناه: إفراد الله بالعبادة، وليس معناه: الإقرار بالربوبية، بل معناه: إفراد الله بالعبادة، بدليل هذه الآية وغيرها. ٤

هذه الآية فيها بيان التوحيد، ووجه ذلك: أن السلف فسروا قوله تعالى: ﴿إلا ليعبدون﴾ بمعنى: إلا ليوحدون[1] ودليل هذا الفهم: أن الرسل إنما بعثت لأجل التوحيد، أعني: توحيد العبادة، فقوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ يعني: إلا ليوحدون. ٣

قول الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ يُبَيّن الله سبحانه وتعالى الحِكمة من خلقه للجن وخلقه للإنس. ٤

الله سبحانه وتعالى بَيّن لنا الحِكمة من خلقه الثقلين: الجن والإنس، وهي: أنه إنما خلقهم لشيء واحد، وهو: العبادة، ولهذا جاء بالحصر ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ حَصَر الحِكمة من خلق الجن والإنس في شيء واحد وهو: أنهم يعبدونه، فالحِكمة من خلق المخلوقات هي: عبادة الله سبحانه وتعالى، خلق الله الجن والإنس للعبادة، وخلق كل الأشياء لمصالحهم، سَخَّرها لهم ليستعينوا بها على عبادته سبحانه وتعالى.

ومعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: يفردوني بالعبادة، أو تقول بعبارة أخرى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوحّدون، لأن التّوحيد والعبادة شيء واحد. ٤

---

[1] تفسير ابن كثير ج ٤ / ٢٣٨.

هذه الآية فيها حصر؛ لأن من المعلوم أن (ما) النافية مع (إلا) تفيد الحصر والقصر، فيكون معنى الكلام -على هذا-: أني خلقت الجن والأنس لغاية واحدة هي العبادة دون ما سواها. ففيه قصر علة الخلق على العبادة.

وقوله: ﴿إلا ليعبدون﴾، و(إلا) هذه أداة استثناء، والاستثناء هنا مفرغ -أي مفرغ من أعم الأحوال كما يقول النحاة- يعني: وما خلقت الجن والإنس لشيء، أو لغاية من الغايات أبداً إلا لغاية واحدة، هي: أن يعبدوني.

وقوله: ﴿ليعبدون﴾ هذه اللام تسمى لام التعليل، ولام التعليل هذه قد يكون معناها: إما تعليل غاية، أو تعليل علة.

فتعليل الغاية: يكون ما بعدها مطلوباً ولكن قد يكون، وقد لا يكون، يعني: هذه الغاية. ويسميها بعض العلماء. لام الحكمة. وفرق بين العلة والحكمة، يُوَضِّحُهُ: إذا قيل: ما الحكمة من خلق الجن والإنس؟ فالجواب: أن يعبدوا الله وحده دون ما سواه فهذا التعليل لقوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ هو تعليل غاية؛ ولو سألت شخصاً -مثلاً-: لم أحضرت الكتاب؟ قال لك: أحضرته لأقرأ، كانت علة الإحضار أو الحكمة من الإحضار القراءة فقد يقرأ وقد لا يقرأ بخلاف اللام التي يكون معناها العلة؛ وهي التي يترتب عليها معلولها، والتي يقول العلماء في نحوها: الحكم دائر مع علته وجوداً وعدماً، فتلك هي علة القياس التي لا يتخلف فيها المعلول عن العلة. فتكون اللام هنا: علة الغاية؛ لأن من الخلق من أُوجد، وخلقه الله -جل وعلا- لكن عبد غيره.

ولام الحكمة شرعية، ويكون ما بعدها مطلوبا شرعاً؛ وقد قال -جل وعلا- هنا: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. ٣

واللام في قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول؛ إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عباداً يتعبدون له، وليس الأمر كذلك، فهذه العلة غائية، وليست موجبة.

فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، لكنها قد تقع، وقد لا تقع، مثل: بريت القلم لأكتب به؛ فقد تكتب، وقد لا تكتب.

والعلة الموجبة معناها: أن المعلول مبني عليها؛ فلابد أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، ولازمة له، مثل: انكسر الزجاج لشدة الحرة. ٥

فنفهم من هذا: أن هذه الآية دالة على التوحيد، من جهة أن الغاية من الخلق هي التوحيد، والعبادة هنا هي التوحيد. ٣

ويشهد لهذا المعنى: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: ((يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدي بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم؛ أن لا تشرك – أحسبه قال: ولا أدخلك النار– فأبيت إلا الشرك))[1]، فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه: من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً ، فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره. وهذه هي الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم. ٢

ومع كونه سبحانه وتعالى خلقهم لعبادته؛ فمنهم من قام بالعبادة وعبد الله، ومنهم من لم يعبد الله، إذ لا يلزم من كونه خلقهم لعبادته أن يعبدوه كلهم، بل يعبده من شاء الله – سبحانه وتعالى– له الهداية، ويكفر به من شاء الله له الضلالة، ومعنى: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلاَّ لآمرهم بعبادتي، أو لآمرهم وأنهاهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣٦)﴾ [القيامة:٣٦] أي: لا يؤمر ولا يُنَهى.

وما دام أن الله سبحانه وتعالى خلق الثقلين لعبادته فهذا يدل على أن العبادة هي الأصل، وأن التّوحيد هو الأصل والأساس. ٤

---

[1] البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٥٦)، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٥)، أحمد (٢١٨/٣).

ثم قال –جل وعلا–: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ [الذاريات:٥٧] هذا فيه بيان أن الله –جل وعلا– ليس بحاجة إلى عبادتهم، وإنما هم المحتاجون إلى عبادة الله ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات:٥٧–٥٨]، فالله خلق الثقلين لعبادته، ولكنه –جل وعلا– ليس محتاجاً إلى عبادتهم، إذا من هو المحتاج إلى العبادة؟. هم العباد أنفسهم.

ولهذا قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جميعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾ [إبراهيم:٨]، فالله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما الطاعة تنفع صاحبها، والمعصية تضر صاحبها، قال– تعالى–: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] وفي الحديث القدسي، أن الله سبحانه وتعالى يقول: ((يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً))، وفي ختام الحديث العظيم، قال: ((يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إيّاها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاَّ نفسه)).

والله يقول: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾، لا ليتكثَر بهم من قِلّة، ولا ليتعزّز بهم من ذِلَّة سبحانه وتعالى، وإنما خلقهم لعبادته، ومصلحة العبادة راجعة إليهم هم.

فهذه الآية فيها بيان معنى (التّوحيد) وأنه: العبادة، وليس "التّوحيد" المطلوب معناه: الإقرار بالربوبية –كما يقول الضُلَّال–، إنما معناه العبادة، أي إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى.٤

وحقيقة العبادة: الخضوع والذل، فإذا انضاف إليها المحبة والانقياد صارت عبادة شرعية ...

والعبادة شرعاً: هي امتثال الأمر والنهي على جهة المحبة والرجاء والخوف. وقال بعض العلماء: "إن العبادة هي ما أُمر به من غير اقتضاء عقلي ولا إطراد عرفي" وهذا تعريف الأصوليين.

وقال شيخ الإسلام -في بيان معناها في أول رسالة "العبودية"-: "العبادة: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة".

فتكون دلالة هذه الآية -إذًا-: أن كل فرد من أفراد العبادة يجب أن يكون لله وحده دون ما سواه؛ لأن الذي خلقهم إنما خلقهم لأجل أن يعبدوه، فكونهم يعبدون غيره -وهو الذي خلقهم- يعد من الاعتداء والظلم العظيم؛ لأنه ليس من يخلق كمن لا يخلق؛ كما قال -جل وعلا-: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ [النحل: ١٧]. ٣

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] الآية.

الغرض من إرسال الرسل يبين معنى التوحيد

هذه الآية تفسير للآية قبلها، الآية قبلها فيها بيان معنى العبادة، فيها بيان الغرض من الخلق، وأنه لأجل العبادة، هذه العبادة أُرسلت بها الرسل بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَن اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. ٣

يُخبِر سبحانه وتعالى أنه بعث في كل أمة، و(الأمة) معناها: الجماعة والجيل والطائفة من الناس ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾، و(الرسول) هو: من أوحي إليه بشرع. ٤

فكل أمة بعث فيها رسول من عهد نوح إلى عهد نبينا محمد ﷺ. ٥

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا مثل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، فكما أن الله خلق الخلق لعبادته كذلك أرسل الرسل -أيضاً- لعبادته سبحانه وتعالى، ما أرسل الرسل يعلمون الناس الفلاحة والزراعة والصناعة، ولا ليعلموهم الأكل والشرب، ولا ليعلموهم أن يقروا بوجود الرب والربوبية، إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بعبادة الله سبحانه وتعالى الذي هو ربهم، والذي يعترفون أنه ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ هذا أمر، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا أمر بمعنى النهي. ٤

قال العماد ابن كثير في هذه الآية: "كلهم -أي الرسل- يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [سورة الأنبياء آية: ٢٥].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [سورة النحل آية: ٣٦]؛ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ [سورة النحل آية: ٣٥.]؛ فمشيئة الله تعالى الشرعية عبادتهم لها منفية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله، وأما مشيئته الكونية -وهي تمكينهم من ذلك قدراً- فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة، ..."[1]. انتهى.

بُعثت الرسل بهاتين الكلمتين ﴿أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ففي قوله ﴿أُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إثبات، وفي قوله ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفي، وهذا معنى التوحيد، وهو أنه مشتمل على إثبات ونفي، لا إله إلا الله؛ أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت؛ لأن النفي فيه اجتناب الطاغوت، وهو كل إله عُبد بالبَغي والظلم والعدوان، والإثبات؛ إثبات العبادة في الله وحده دون ما سواه، ففي قوله: ﴿أُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ التوحيد المثبت، وفي قوله: ﴿اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفي الإشراك.[3]

وهذه الآية هي معنى لا إله إلا الله فإنها تضمنت النفي والإثبات كما تضمنته لا إله إلا الله ففي قوله اعبدوا الله الإثبات وفي قوله اجتنبوا الطاغوت النفي فدلت الآية على أنه لا بد في الإسلام من النفي والإثبات فيثبت العبادة لله وحده وينفي عبادة ما سوا ... قال ابن القيم:

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/٤٨٩.

"وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله وثبت عبادته وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات وهذا حقيقة لا إله إلا الله" انتهى.[1]

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحَدّ في كل شيء، والطاغوت يُطلق ويُراد به الشيطان، وهو رأس الطواغيت -لعنه الله- ويُطلق ويُراد به الساحر والكاهن، والحاكم بغير ما أنزل الله، والذي يأمر الناس باتباعه في غير طاعة الله، فالطاغوت -كما يقول ابن القيم-: "كل ما تجاوز به العبد حَدّه من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله فهو طاغوت." ٤

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "الطاغوت الشيطان"؛ وقال جابر رضي الله عنه: "الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشياطين" رواهما ابن أبي حاتم. وقال مالك: "الطاغوت كل ما عبد من دون الله".

قلت: وذلك المذكور بعض أفراده، وقد حده العلامة ابن القيم حداً جامعاً فقال: "الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده: من معبود أو متبوع أو مطاع. فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم". ٢

فالله أمرنا بعبادته سبحانه وتعالى واجتناب الطاغوت، والمراد بالطاغوت هنا: كل ما عُبِد من دون الله من الأصنام والأوثان، والقبور والأضرحة وغير ذلك، كلها تسمى طواغيت، لكن من عُبد من دون الله ولم يرضَ بذلك فهذا لا يُسمى طاغوتاً، مثل: عيسى عليه السلام؛ كذلك: عباد الله الصالحين كالحسن والحسين، والأولياء الذين لم يرضوا أن يُعبَدوا من دون الله؛ هؤلاء لا يسمون طواغيت، ولكن عبادتهم عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان، فهؤلاء الذين يعبدون الحسين وأمثاله، هؤلاء يعبدون الشيطان؛ لأنه هو الذي أمرهم بهذا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] يعني: الشياطين، ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

ف﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يعني: كل ما يُعبد من دون الله عز وجل.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦] فهذا هو معنى "لا إله إلاَّ الله"، لأن "لا إله إلاَّ الله" معناها: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، مثل قوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفيٌ وإثبات.

ولاحظوا قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾، ما قال: اتركوا عبادة الطاغوت؛ لأن "اجتنبوا" أبلغ؛ يعني: اتركوا كل الوسائل التي توصِّل إلى الشرك. ٤

والاجتناب أبلغ من الترك، فالاجتناب معناه: أننا نترك الشيء ونترك الوسائل والطرق التي توصِّل إليه، فهذه الآية فيها: أن الرسل بُعثوا بالتّوحيد، الذي هو عبادة الله وترك عبادة الطاغوت، من أولهم إلى آخرهم. ٤

إذاً جميع الرسل جاءوا بالدعوة إلى التّوحيد والنهي عن الشرك، هذه مِلَّة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهي مِلَّة واحدة، وإن اختلفت شرائعهم، إلاَّ إن أصل دينهم وعقيدتهم هو: التّوحيد، وعبادة الله في كل وقت بما شرع. ٤

فدين الرسل واحد وإن اختلفت شرائعهم، وقد شبههم النبي ﷺ بالإخوة لعلات، وهم الإخوة من الأب، أبوهم واحد ولكن أمهاتهم مختلفات، كذلك الرسل دينهم واحد وشرائعهم مختلفة، حسب حِكمة الله سبحانه وتعالى، لأن الله يشرع لكل وقت ما يناسبه، ولكل أمة ما يصلحها وهو أعلم سبحانه وتعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ فما دام الدين لم ينسخ فهو عبادة لله، وإذا نُسِخ فالعبادة لله هي الانتقال إلى الناسِخ وترك المنسوخ.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ﴾ يعني: منهم من أجاب الرسل، ومنهم من أبى، و﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ القدر السابق المقدّر باللوح المحفوظ بسبب كفره وعناده. ٤

ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.٥

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣] الآية.

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء:٢٣] القضاء له عِدة معان، منها: القضاء والقدر، ومنها: الحُكم والشرع، ومنها: الإخبار ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ يعني: أخبرناهم، ومنها: الفراغ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ﴾ يعني: فرغتم منها. فالقضاء له عدة إطلاقات، المراد منها هنا: الأمر والشرع، و﴿وَقَضَى﴾ معناه: شرع ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾. ٤

﴿قَضَى﴾ -كما فسّرها عدد من الصحابة- هنا بمعنى: أمر ووصَّى، وأمر ووصى فيهما معنى القول دون حروف القول، فتكون ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾؛ ﴿أنْ﴾ هنا تفسيرية، يعني أمر ووصى، بماذا؟ بـ: لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً. ٣

قال مجاهد: "(قضى) يعني: وصى"، وكذا قرأ أبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم، ولابن جرير عن ابن عباس: "(وقضى ربك) يعني: أمر".[١]

والله لم يشرع عبادة غيره أبداً، لم يشرع عبادة الأصنام، ولم يشرع عبادة الأولياء والصالحين، ولم يشرع عبادة الأضرحة والقبور، ولم يشرع عبادة الأشجار والأحجار، أبداً، هذا شرعه الشيطان، أما شرع الله فهو عبادة الله -سبحانه- وحده لا شريك له.

وهذا هو معنى "لا إله إلاَّ الله" ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ هذا نفي، ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هذا إثبات، فهو معنى "لا إله إلاَّ الله" تماماً. ٤

هذا معنى لا إله إلا الله بالمطابقة؛ لأنّ ﴿لاَ﴾ النفي في الجملتين وهنا ﴿تَعْبُدُوا﴾، وفي كلمة التوحيد إله والإله هو المعبود، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ يعني أُحصروا العبادة فيه وحده دون ما سواه.٣

---

[١] ابن جرير: التفسير: ٤٨/١٥.

ولما أمر بحقه –سبحانه– أمر بحق الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ فيأتي حق الوالدين بعد حق الله سبحانه وتعالى مباشرة؛ لأن الوالدين هما أعظم محسِن عليك بعد الله –سبحانه– ومعنى ﴿إِحْسَاناً﴾ يعني: أحسن إليهما كما أحسنا إليك. ٤

وعطف حقهما على حق الله تعالى دليل على تأكد حقهما وأنه أوجب الحقوق بعد حق الله وهذا كثير في القرآن يقرن بين حقه عز وجل وبين حق الوالدين كقوله: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ [لقمان: ١٤] وقال: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾ [البقرة:٨٣]. ١

والشاهد من الآية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ لأنها تفسِّر التّوحيد، وهو: عبادة الله وترك عبادة ما سواه، هذا هو التّوحيد، أما عبادة الله بدون ترك عبادة ما سواه فهذا لا يسمى توحيداً، فالمشركون يعبدون الله ولكنهم يعبدون معه غيره فصاروا مشركين، فليس المهم أن الإنسان يعبد الله فقط، بل لابد أن يعبد الله ويترك عبادة ما سواه، وإلاَّ لا يكون عابداً لله، ولا موحِّداً، فالذي يصلي ويصوم ويحج ولكنه لا يترك عبادة غير الله ليس بمسلم، ولا تنفعه صلاته ولا صيامه ولا حجّه؛ لأنه لم يتمثل قوله –تعالى–: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ يعني: لا تعبدوا معه غيره، وفي الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى أنه يقول: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) وفي رواية: ((فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء)). ٤

وهذا معنى التوحيد؛ فإن دِلالة الآية على التوحيد ظاهرة؛ في أنَّ التوحيد إفراد العبادة لله، أو تحقيق كلمة لا إله إلا الله، وهذا الذي دلت عليه هذه الآية. ٣

وقوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شيئاً ﴾[النساء:٣٦] الآية.

والآية الرابعة: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ [النساء:٣٦]، الآيات على نَسَق واحد، ومنهجها واحد ف﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ مثل: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ تماماً؛ لأنها تخرج من مِشكاة واحدة ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ﴾ هذا أمر من الله سبحانه وتعالى بعبادته ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ هذا نهي عن الشرك، وهذا هو معنى ﴿لا إله إلاَّ الله﴾، لأن ﴿لا إله إلاَّ الله﴾ معناها: نفي الشرك وإثبات العبادة لله عز وجل، ومعنى ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة ... ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ لـمَّا أمر بعبادته –سبحانه– نهى عن الشرك، لأن الشرك يفسد العبادة، كما أن الحدث يفسد الصلاة والطواف، كذلك الشرك يفسد العبادة، ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عنه. ٤

قوله هنا ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ لاحظ أن (لاَ) هنا نافية، ومن المتقرّر في علم الأصول، أنَّ النفي إذا تسلَّط على نكرة فإنه يفيد العموم، و(لا) بعدها نكرة، وهو المصدر المسْتكِن في الفعل؛ لأن الفعل المضارع مشتمل على مصدر وزمن، ﴿لَا تُشْرِكُوا﴾ يعني لا إشراكًا به، ف(تُشْرِكُوا) متضمنة لمصدر، والمصدر نكرة، فيكون قوله ﴿لَا تُشْرِكُوا﴾ يعني بأي نوع من الشرك، ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾، و﴿شيئاً﴾ أيضاً هنا نكرة في سياق النفي، ﴿لَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾، فدلّت على عموم الأشياء، فصار –إذن– عندنا في قوله تعالى ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ ثَمَّ عمومان:

- الأول: دلَّت الآية على النهي عن جميع أنواع الشرك، وذلك لأن النهي تسلّط على الفعل، والفعل فيه مصدر مُسْتكِنّ، والمصدر نكرة.
- والثانية: أنَّ مفعول (تُشْرِكُ)؛ (شيئاً)، و(شيئاً) نكرة، والنكرة جاءت في سياق النهي، وذلك يدل على عموم الأشياء، يعني لا الشرك الأصغر مأذونا به، ولا الأكبر، ولا الخفي، لدِلالة قوله ﴿لَا تُشْرِكُوا بِهِ﴾، وكذلك ليس مأذونا أن يُشرك لا بملك، ولا بنبيّ، ولا بصالح، ولا بعالم، ولا بطالح، ولا بقريب، ولا ببعيد، بدلالة قوله ﴿شيئاً﴾. ٣

بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال ﷺ: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة))[1]. ٥

وهذا استدلال ظاهر الوضوح في الدلالة على التوحيد بالجمع بين النفي والإثبات. ٣

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شيئاً ﴾ [الأنعام:١٥١] الآيات.

قال ابن مسعود ﵁: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ –إلى قوله– ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا...﴾[2] الآية."

ثم يواصل الشيخ رحمه الله سياق الآيات والأحاديث في هذا الباب فيقول: وقول الله –تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث في آخر سورة الأنعام، التي آخرها: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قال عبد الله بن مسعود ﵁ عن هذه الآيات الثلاث: "من أراد أن ينظر إلى وصّية محمد ﷺ التي عليها خاتَمه فليقرأ هذه الآيات الثلاث". ٤

"التي عليها خاتمه"، يعني التي كانت من آخر ما وصّى به، من آخر ما أمر به، يعني التي لو قُدِّر أنه وصّى وختم على هذه الوصية، وفُتحت بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، لكانت هذه الآيات التي فيها الوصايا العشر. ٣

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة. ٢

﴿أَتْلُ﴾ أي: أقرأ، ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ دلّ على أن التحليل حقٌّ للربوبية؛ فالرب هو الذي يحلّل ويحرِّم؛ لا ما حرّمتموه، أو حرّمه أولياؤكم من الشياطين من الإنس والجن، كالأنعام التي يحرّمونها للأصنام. ٤

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/ باب الحراسة في الغزو.

[2] رواه الترمذي (رقم٣٠٧٢)، وابن أبي حاتم في التفسير (رقم ٨٠٥٦)، والطبراني في المعجم.

وقال: ﴿ربكم﴾ ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته. ٥

قال العلماء: ﴿أن﴾ هنا تفسيرية متعلقة بمحذوف تقديره وصاكم؛ لأن ﴿أن﴾ التفسيرية تتعلق كما ذكرت لك بكلمة فيها معنى القول دون حروف القول وحددوها بقوله ﴿وَصَّاكُم﴾ لأنه في آخر الآي جاء ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ في الآية الأولى، ثم ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون﴾ في الآية الثانية، ثم ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُون﴾ في الآية الثالثة كلها فيها الوصية. فإذن يكون تقدير الكلام: قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم وصاكم ألا تشركوا به شيئاً . يعني: أمركم، والوصية هنا شرعية، وإذا كانت الوصية من الله شرعية، فهي أمر واجب، فقوله ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ دلالتها على التوحيد كدلالة آية النساء قبلها. ٣

بدأ بأعظم المحرمات فقال: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾، فأعظم المحرمات هو: -الشرك بالله سبحانه-؛ فإذا قيل لك: ما هو أعظم المحرمات ؟، تقول: الشرك بالله عز وجل، وإذا قيل لك: ما أعظم ما نهى الله عنه؟، تقول: الشرك بالله؛ وإذا قيل: ما أعظم المنكرات؟ تقول: الشرك بالله؛ وإذا قيل: ما هو أكبر الكبائر؟، تقول: الشرك بالله، كما قال النبي ﷺ: ((أكبر الكبائر: الشرك بالله)).

فالشرك -والعياذ بالله- هو أخطر الذنوب، وأعظم ذنب عُصي الله به، وهو: عبادة غيره معه سبحانه وتعالى بصرف أيِّ نوع من أنواع العبادة لغير الله.

فقوله: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ هذا نهيٌ من الله سبحانه وتعالى عن الشرك به؛ وهو أعظم ما حرم ربكم عليكم؛ فأنتم تستحلُّون أعظم المحرمات - وهو الشرك-.

وكلمة ﴿شيئاً﴾ يقول العلماء: نكرة في سياق النهي تعمُّ كلّ ما عُبد من دون الله عز وجل، سواءً كان مَلَكاً أو نبياً أو وليًّا أو صالحاً من الصالحين أو شجراً أو حجراً أو قبْراً أو غير ذلك؛ كله يعمُّه كلمة: ﴿شيئاً﴾ فهي كلمة عامة؛ يعني: أي شيء من الأشياء لا يجوز أن يُصرف له شيء من عبادة الله سبحانه وتعالى.

وأيضاً ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ يشمل كل أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فليس هناك شيء من الشرك يُتَسامَح فيه لا أكبر ولا أصغر، لأن قوله -تعالى-: ﴿شيئاً﴾ كلمة عامّة تنفي جميع الشرك كبيره وصغيره، كما أنها تمنع أن يُشرك مع الله أحد كائناً من كان، لا الملائكة المقرّبون، ولا الأنبياء والصالحون، ولا الجمادات، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا القبور، ولا أيّ شيء؛ لا يجوز أن يُصرف شيءٌ من العبادة لغير الله، لا النذور، ولا الذبائح، ولا الطواف، ولا الدعاء، ولا الخوف، ولا الرجاء، ولا الرغبة، ولا الرهبة؛ لا يجوز ذلك سواءً كان شركاً أكبر أو شركاً أصغر، سواء كان شركاً جَلياً ظاهراً أو شركاً خفياً في القلوب. ٤

ثم ختم هذه الوصايا بالوصية العاشرة العظيمة فقال -جل وعلا-: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾: الصراط في اللغة معناه: الطريق؛ والمراد بالصراط هنا: كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، لأنهما طريقٌ إلى الجنة، أي: ما أوحيته إليكم بواسطة رسولي من الأوامر والنواهي في هذا القرآن العظيم وفي السنة النبوية هذا هو الصراط. فالذي يسأل عن الطريق إلى الله، نقول هو كتاب الله، وكذلك سنة النبي ﷺ لأنها، تابعة للقرآن، ومفسِّرة للقرآن؛ فالسنة داخلة في كتاب الله عز وجل.

﴿مُسْتَقِيماً﴾ نُصب على الحال؛ والمستقيم هو: المعتدل، فطريق الله عز وجل معتدل، ليس فيه ميلان، وليس فيه منعطَفات، وليس فيه غموض، طريق واضح يوصلك إلى الجنة، تمشي فيه على نور، وعلى برهان، وعلى طريق واضح.

وأضاف ﴿الصِّرَاطَ﴾ إليه سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتكريم؛ ثم وصفه بأنه مستقيم، يعني: معتدلٌ بخلاف الطرق الأخرى فإنها معوجَّة ومتعرِّجة، تضلِّل صاحبها؛ لأن هناك طرقاً كثيرة للشياطين؛ شياطين الإنس والجن، ومذاهب، وهناك جماعات متعدّدة، هناك... وهناك...، لكن طريق الله واحدة، ما فيها تعدُّد، ولا فيها انقسام، ولهذا وحّد صراطه وعدّد السبل قال: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾. ٤

وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وعباد القبور وسائر أهل الملل والأوثان والبدع والضلالات من أهل الشذوذ والأهواء والتعمق في الجدل والخوض في الكلام فاتباع هذه من اتباع السبل التي تذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم إلى موافقة أصحاب الجحيم كما قال النبي ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))، وفي رواية ((كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)) حديث صحيح؛ قال ابن مسعود: "تعلموا العلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله إلا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق". رواه الدارمي.

قلت: العتيق: هو القديم يعني ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من الهدى دون ما حدث بعدهم فالهرب والنجاء النجاء والتمسك الطريق المستقيم والسنن القويم وهو الذي كان عليه السلف الصالح وفيه المتجر الرابح. قاله القرطبي. ١

لأن الطرق والسبل التي غير القرآن وغير الشريعة طرقٌ كثيرة ليس لها حصر، كل صاحب مذهب له طريقة، وكل صاحب نِحْلة له طريق، وكل جماعة من الضُّلاَّل لهم طريق، وكل مَن اخْتلف عن الحق صار له طريق غير طريق الآخر؛ وهذه علامة أهل الضَّلاَّل أنهم لا يجتمعون على شيء، ولا يتوافقون أبداً، بخلاف أهل الحق فإنهم يتوافقون، لماذا؟ لأنهم يسيرون على طريق الله سبحانه وتعالى.

فميزة أهل الحق أنهم لا يختلفون، وإن حصل اختلاف فإنه يُحْسَم بالرجوع إلى كتاب الله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [النساء:٥٩]؛ فالصحابة ﷺ قد يقع بينهم اختلافات لكن سرعان ما تذهب، لماذا؟، لأنهم يرجعون إلى كتاب الله؛ فقد اختلفوا بعد موت الرسول ﷺ من الخليفة بعده؟، ثم سَرْعان ما انْحَسَم النزاع وعاهدوا أبا بكر الصدِّيق ﷺ لما رجعوا إلى السنة، واختلفوا في حروب الردة، وسرعان ما اتّفقوا على قتال المرتدِّين، لأنهم رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله.

فأهل الحق حتى لو حصل بينهم خلاف ناتج عن اجتهاد، فإنهم يرجعون إلى كتاب الله، بخلاف أهل الضلال فإن كل واحد يركب رأسه، ولا يُصْغي للآخر، كل واحد يريد أن يكون هو الشيخ والمعظَّم، لأنه يريد تعظيم نفسه، ولا يريد الحق؛ فلذلك تجدون أهل الضلال دائماً في اختلاف، ودائماً في صراع، وتجدون أهل الضلال تتشعّب مناهجهم، وتتنوّع، وكل حين يخرج مذهب جديد، هذه صفة أهل الضلال -والعياذ بالله- وهذا مذكور في هذه الآية: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وضّح النبي ﷺ هذه الآية بتوضيحٍ محسوسٌ: ذلكم أنه خط ﷺ على الأرض خطّاً معتدلاً، ثم خطّ على جَنَبَتَيْه خطوطاً، فقال ﷺ للخط المعتدِل: ((هذا صراط الله))، وقال لهذه الطرق: ((وهذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إليه))، هذا مثال واضح من الرسول ﷺ لبيان الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وفي سنة رسول الله ﷺ: يقول: ((ومن يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي؛ تمسّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومحدَثات الأمور، فإن كلّ محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة))، وقال ﷺ: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاَّ واحدة))، فقالوا: من هي يا رسول الله؟، قال: ((مَنْ كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي)) هذا صراط الله عز وجل في الآيات وفي الأحاديث.

ولا نستغرب إذ حصل اختلافات، ونشأتْ مذاهب ضالّة، وحصل صراعات بين الناس، لا نستغرب هذا، لأن هذه سنة الله سبحانه وتعالى لابتلاء العباد وامتحانهم، ومن هو الذي يثبت على الطريق ومن هو الذي لا يثبت؟

والنبي ﷺ عندما حضرته الوفاة أراد أن يكتُب كتاباً لأصحابه، يَعْهَد إليهم فيه، ولكنه عدل عن ذلك، وتُوفي رسول الله ﷺ ولم يوص ولم يَعْهَد إليهم، فتأسّف بعضهم، فابن مسعود يقول: لستم بحاجة إلى كتاب يكتبه الرسول ﷺ لأن عندكم القرآن. ٤

وقوله: "وصية محمد ﷺ" ليست وصية مكتوبة مختوماً عليها؛ لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: "هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟" فقال: "لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر".[1]

فلا يظنّ أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كلّه؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأمته.

وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها؛ حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى. ٥

فقول ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه" يعني: التي تعوِّض عن هذه الكتابة التي هَمّ بها رسول الله ﷺ.

"فليقرأ هذه الآيات" لأن الرسول ﷺ لا يوصي إلاَّ بكتاب الله، وأيضاً الرسول ﷺ يقول: ((إني تاركٌ فيكم ما إنْ تمسَّكْتم به لن تضلوا من بعدي: كتاب الله وسنتي)).

---

[1] البخاري: كتاب الديات/باب العاقلة.

فالحمد لله، عندنا ما أوصى به الرسول ﷺ، لأنه أوصانا باتّباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ٤
قلت وقد روى عبادة بن الصامت قال: "قال رسول الله ﷺ: ((أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث)) ثم تلا ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: ((من وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه)) رواه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه [ووافقه الذهبي] فهذا يدل على أن النبي ﷺ يعتني بهن ويبالغ في الحث على العمل بهن. ١

هذا من ابن مسعود للدَّلالة على عظم شأن هذه الآيات، التي افتتحت بالنهي عن الشرك، والنبي ﷺ ابتدأ دعوته بالأمر بعبادة الله وحده والنهي على الشرك، واختتمها أيضاً -كما دل عليه كلام ابن مسعود هذا- بالأمر التوحيد، والنهي عن الشرك؛ فدل على أن ذلك، أولى المطالب، وأول المطالب، وأهم المطالب. ٣

وقوله: "محمد ﷺ"، أي: رسول الله محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي ﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ، ووصية محمد ﷺ، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣]؛ لأن دعاء الرسول هنا أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله! أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابعٌ لمحمد ﷺ، أو اللهم! صل على محمد، وما أشبه ذلك. ٥

في هذه الآية واللواتي قبلها دليل على أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره فأسروا بالتوحيد وهو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وفيهن دليل على أن التوحيد أول واجب على المكلف وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله المستلزم لعبادته وحده لا شريك له وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك سواء كان المعبود ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً. ١

وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: ((يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟)) فقلت: "الله ورسوله أعلم". قال: ((حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) فقلت: "يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟" قال: ((لا تبشرهم فيتكلوا)) أخرجاه في الصحيحين.

في هذا الحديث العظيم: فضيلة لمعاذ ﷺ، وفضائله كثيرة، وهو معاذ بن جبل الخَزْرَجي الأنصاري، أحد أَوْعِيَة العلم، وأعلم هذه الأمة بالحلال والحرام. ٤

صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها. وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن. وقال النبي ﷺ ((معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة)) أي: بخطوة، قال في القاموس: "والرتوة: الخطوة وشرف من الأرض، وسويعة من الزمان، والدعوة، والفطرة، ورمية بسهم، أو نحو ميل أو مدى البصر. والراتي: العالم الرباني". انتهى.

وقال في النهاية: "إنه يتقدم العلماء برتوة أي: برمية سهم. وقيل: بميل، وقيل: مد البصر. وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث. ٢

وقد استخلفه النبي ﷺ على مكة لما فتحها قاضياً ومعلِّماً، ثم أرسله –أيضاً– في السنة التاسعة أو العاشرة إلى اليمن قاضياً ومعلِّماً –كما سيأتي–، ثم جاء من اليمن بعد وفاة النبي ﷺ فأرسله عمر إلى الشام قاضياً ومعلّماً، وتوفي هناك ﷺ في الشام في طاعون عُمْوَاس المشهور.

قوله: "قال: كنت رديف النبي ﷺ"، يعني: راكباً معه.

"على حمار" هذا فيه: تواضع النبي ﷺ وأنه يركب الحمار، مع أنه أشرف الخلق على الإطلاق، وتواضعه –أيضاً– ﷺ في إرداف صاحبه معه، وفيه: جواز الإرداف على الدّابّة إذا كانت تُطيق ذلك، ولا يشق عليها.

"فقال لي: ((يا معاذ))" أراد النبي ﷺ أن يعلمه هذا الحكم العظيم، ولكنه ﷺ أراد أن يُلْقِيَه إليه بطريقة السؤال والجواب، ليكون ذلك أَدْعى إلى الانتباه والاهتمام، فإن التعليم عن طريق السؤال والجواب من أعظم الطرق الناجحة في تعليم العلم، لأنك لما تسأل الطالب عن شيء يجهله ثم يتطلع إلى الجواب، أحسن من أن تلقي إليه المسألة ابتداءً، وهو على غير انتباه واستعداد لاستقبالها، وهذه طريقة من طرق التعليم، وهي طريقة نبويّة، استعملها النبي ﷺ في كثير من الأحوال.

((أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله)) هذه مسألة عظيمة. ٤

قوله: ((ما حق الله على العباد؟))، أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به.٥

قال معاذ: "قلت: الله ورسوله أعلم" هذا فيه: تأدب طالب العلم في أنه إذا سُئل عن شيء وهو لا يعرفه، أن يقول: الله ورسوله أعلم، ولا يدخل ويَتَخَرَّص في شيء لا يعرفه، بل يَكِلُ العلم إلى عالِمه، هذه -أيضاً- من طرق التعلُّم الناجحة، هي: أن الإنسان إذا سُئل عن علم لا يعلمه أو عن مسألة وهو لا يعرفها، لا يحمله الأنفة بأن لا يقول: لا أدري، بل يقول: لا أدري، أو يقول: الله أعلم، ولا غَضَاضة عليه في ذلك، بل هذا يدل على فضله وورعه وأدبه مع الله سبحانه وتعالى، وأدبه مع المعلم.

وقد سُئل الإمام مالك عن أربعين مسألة، فأجاب عن أربع مسائل منها، وقال عن البقيّة: لا أدري، فقال السائل: جئتك من بلاد كذا وكذا أسألك عن مسائل، وتقول لا أدري؟ فقال له: "اركب راحلتك واذهب إلى البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكاً وقال: لا أدري". هكذا أدب العلماء.

وهذا معاذ رضي الله عنه يقول للنبي ﷺ: "الله ورسوله أعلم"، ففي هذا: رَدُّ العلم إلى عالمه، وعدم تدخُّل الإنسان في شيء وهو لا يدري عن حكمه، والله -تعالى- يقول: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، ويقول سبحانه وتعالى لما ذكر المحرمات في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]، ختمها بقوله:

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾ [الأنعام:١٤٤]، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة، فمن يريد النجاة لنفسه، ويريد السلامة، وأيضاً يريد السلامة للناس؛ فإنه لا يتدخل في شيء لا يعرفه، لأنه يُوَرِّطُ نفسه، ويُوَرِّطُ الآخرين معه، لأنه إذا أجاب بخطأ ضلّل الناس ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فهذه مسألة عظيمة، يجب علينا أن نتعقّلها، وأن الإنسان لا يتسرّع في الإجابة عن شيء، إلاَّ إذا كان يعلمه تماماً، وإلاَّ فليقف على شاطئ السلامة، ولا يدخل في لجَّة البحر وهو لا يُحسن السباحة.

"قلت: الله ورسوله أعلم" هذا يُقال في حياة النبي ﷺ: الله ورسوله أعلم، أما بعد وفاة النبي ﷺ فإنه يقال: الله أعلم، لأن النبي ﷺ قد انتقل من هذه الدار إلى الرّفيق الأعلى إلى الدار الآخرة، فيُوكل العلم إلى الله سبحانه وتعالى لأن الله سبحانه وتعالى أعطى رسوله علماً عظيماً ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣]، فالرسول ﷺ عنده علم عظيم من الله، ويجيب في حياته، ولكن بعد وفاته قد بلّغ البلاغ المُبين ﷺ وأنهى مهمّته ورسالته، وانتقل إلى ربه عز وجل، فلا يجيب في مسألة؛ فلما تهيّأ معاذ للجواب وتنبّه وتطلع؛ ألقى عليه النبي ﷺ الجواب، فقال: ((حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)). ٤

قَالَ: ((حَقّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوه وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً)) هذا موطن الشاهد، ((حَقّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوه وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً)) وهذا قد مرَّ بيان معناه؛ لكن الشاهد من هذا الحديث، ومناسبة الابتداء؛ ابتداء كتاب التوحيد أنه أتى فيه بلفظ (حَقّ)، ((أَتَدْرِي مَا حَقّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟)) ثم قال: قَالَ: ((حَقّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوه وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً))، هذا الحق؛ حق واجب لله جل وعلا؛ لأن الكتاب والسُنة؛ بل ولأن المرسلين جميعاً أتوا بهذا الحق وببيانه، وأنه أوجب الواجبات على العباد. ٣

هذا هو حق الله سبحانه وتعالى على عباده، من أولهم إلى آخرهم، كما في الآية التي في مطلع الباب: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات:٥٦]، هذا هو حق الله على العباد، وهو أول الحقوق، وآكد الحقوق، لأن الإنسان منّا عليه حقوق، أعظمها: حق الله، ثم حق الوالدين، ثم حق الأقارب، ثم حق اليتامى والمساكين والجيران والمماليك، كما في قوله –تعالى–: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣٦] فهذه عشرة حقوق، ذكرها الله –سبحانه– في هذه الآية، أولها: حق الله سبحانه وتعالى وكما في الآيات في سورة الإسراء التي ذكر الله فيها خمسة عشر حقًّا، أولها: حق الله في قوله –تعالى–: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾، ثم جاء بحق الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾، إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [الإسراء:٣٩]، ختم الآيات بما بدأها به وهو حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يكفي هذا، أن يعبدوه، بل ولا يشركوا به شيئاً ، لأن العبادة لا تكون عبادة إلاَّ إذا خَلَصَتْ من الشرك، أما إذا خالطها شرك فإنها لا تكون عبادة لله، كما قال –تعالى–: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف:١١٠]، لأن الشرك يُبطل العبادة، ويُبطل سائر الأعمال، ولا يصحُّ معه عمل، مهما كلّف الإنسان نفسه بالعبادات، إذا كان عنده شيء من الشرك الأكبر فإن عبادته تكون هباءً منثوراً: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شيئاً ﴾ [النور:٣٩]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ [الزمر:٦٥–٦٦]، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام:٨٤] إلى آخر الأنبياء الذين ذكرهم الله، قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، فالشرك يُحبط الأعمال، ولهذا كثيراً ما يأتي الأمر بالعبادة

مقروناً بالنهي عن الشرك: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ ((أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً))، وهذا هو معنى لا إله إلاَّ الله، لأن لا إله إلا الله تشتمل على النفي وعلى الإثبات، النفي: نفى الشرك، والإثبات: إثبات التّوحيد. ٤

قوله: ((ولا يشركوا به شيئاً))، أي: في عبادته وما يختص به، وشيئاً نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولاً ولا ملكاً ولا ولياً ولا غيرهم. ٥

((أن يعبدوه)) والعبادة -أيضاً- كما أنها لا تكون عبادة إلاَّ مع التّوحيد، كذلك لا تكون عبادة إلاَّ إذا كانت موافقة لما شرعه النبي ﷺ، فالعبادة وسائر الأعمال لا تصح إلاَّ بشرطين:

-الشرط الأول: الإخلاص لله عز وجل.

-الشرط الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

فلو أن الإنسان جاء بعبادات مُحْدَثة ليس فيها شرك أبداً كلها خالصة لله، ولكنها ليست من شريعة النبي ﷺ، فهي بدع مردودة لا تُقبل، قال ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدْ)) وفي رواية: ((من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رَدْ))، فالعبادة لا تكون عبادة إلاَّ بشرطين: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للرسول ﷺ، وهذا هو معنى الشهادتين: شهادة أن لا إله إلاَّ الله، فمعناها: الإخلاص لله عز وجل، وشهادة أن محمداً رسول الله ومعناها: المتابعة للرسول ﷺ، فالعبادات لا يصلح أن يكون فيها شيء من الاستحسانات البشريّة، أو استدراكات العقول، أو غير ذلك، مهما حَسُنت نية الفاعل ما دام أنه بدعة: فلو أن إنساناً -مثلاً- قال: الصلوات خمس، أنا أريد زيادة خير، أصَلِّي فريضة سادسة، زيادة خير، نقول: لا، هذا باطل، لأن هذا شيء لم يَشْرعه الله ولا رسوله، وإن كان قصدك حسناً، فهو عمل مردود وباطل، ولهذا لما جاء ثلاثة نفر من الصحابة إلى بيت النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ من أجل أن يقتدوا به، فذكر أزواج النبي ﷺ لهؤلاء الرَّهْط عبادة النبي ﷺ فكأنهم تقالُّوها، ولكن اعتذروا بأن الرسول ﷺ مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، وقالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ فقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أنا أصلي ولا

أنام، وقال الآخر: أنا لا أتزوج النساء -يعني: يريد التَّبَتُّل-، وقال الثالث: أنا أصوم ولا أُفطر، -وفي رواية: ولا آكل اللحم-، فلما بلغ ذلك رسول الله غضب غضباً شديداً، وقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له وأخشاكم له، وإني أصلي وأنام، وأصوم وأُفطر، وأتزوج النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني))، وهكذا، فالعبادة لابد أن تكون مطابقة لما جاء به النبي ﷺ ليس فيها بدع، ولا خرافات، ولا محدثات، ولا استحسانات للعقول، أو اقتداء بفلان أو علاَّن، ما دام أن هذا المُقتدى به ليس متبعاً للرسول ﷺ فليس بقدوة، هذه هي العبادة، ولهذا يقول العلامة ابن القيّم رحمه الله في "النونية:"

حق الإله عبادة بالأمر لا ... بهوى النفوس فذاك للشيطان

حق الإله عبادة بالأمر، يعني: بالشرع، فالأمر المراد به: الشرع؛ فلا تحدث شيئاً من عندك.

لا بهوى النفوس فذاك للشيطان، فالذي يعبد الله باستحسان عقله، وشهوة نفسه بشيء لم يَشرعه الرسول ﷺ ليس عابداً لله، وإنما هو عابد للشيطان، لأنه هو الذي أمره بذلك، فالشيطان يأمر بالبدع والخرافات.

وقال في موضع آخر:

وعبادة الرحمن غاية حُبّــه ... مع ذُلِّ عـابده هما قُطْبـان

وعليهما فَلَك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القُطْبان

ومداره بالأمر أمــر رسولـه ... لا بالهوى والنفس والشيطان

هكذا تكون العبادة، لابد أن تكون العبادة خالصة لوجه الله عز وجل، ليس فيها شرك، وأن تكون -أيضاً- على وفق ما جاء به رسول الله ﷺ تماماً ليس فيها بدعة.

((وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً))، هذا الحق للعباد على الله ليس بحق واجب على الله، وإنما هو تفضُّل منه سبحانه وتعالى، لأن الله لا يجب عليه حق لأحد، ولا أحد يوجب على الله شيئاً ، كما هو مذهب المعتزلة، فهم الذين يرون أن الله يجب عليه أن يعمل كذا، يوجبون على الله بعقولهم، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: الله سبحانه

وتعالى ليس عليه حق واجب لخلقه، وإنما هو شيء تفضَّل به -سبحانه- وتكرَّم به، كما قال -تعالى-: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم:٤٧]، هذا حق تفضل به، ونظم ذلك الشاعر بقوله:

ما للعباد عليه حق وجـب ... كلا ولا سـعي لديـه ضائع

إن عُذِّبوا فبعد له أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

فمعنى ((حق العباد على الله)) يعني: الحق الذي تفضل الله تعالى به، وأوجبه على نفسه، من دون أن يوجبه عليه أحد من خلقه، بل هو الذي أوجبه على نفسه، تكرّماً منه بموجب وعده الكريم الذي لا يُخلفه -سبحانه- ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾[الروم:٦]. ٤

((حَقّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ)) هذا حق أحقَّه الله على نفسه، باتفاق أهل العلم، وبإيجابه على نفسه في بعض أقوالهم، كما قاله الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله.

((حَقّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ)) هل هذا حق واجب أم لا؟ نقول: نعم هو حق واجب، لكن بإيجاب الله ذلك الحق على نفسه، والله جل وعلا يحرِّم على نفسه ما يشاء، بما يوافق حكمته، ويوجب على نفسه ما يشاء بما يوافق حكمته، ((إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ محرماً ؛ فَلاَ تَظَالَمُوا))، حرم الله الظلم على نفسه، كذلك أوجب على نفسه أشياء.

بعض أهل العلم تحاشى لفظ الإيجاب على الله، وقال: يعبَّر بأنه حق يتفضَّلُ به، حق تفضُّلٍ، لا حق إيجاب. وهذا ليس بمُتَعَيِّن؛ لأنّ الحق الواجب، أوجبه الله على نفسه، والعباد لا يوجبون على الله جلّ وعلا شيئاً من الحقوق، وهو جلّ وعلا أوجبه على نفسه؛ لأنه تفضَّل على عباده بذلك، والله جلّ جلاله لا يخلف الميعاد. ٣

وحق الله على العباد هو ما يستحقه عليهم ويجعله متحتماً وحق العباد على الله معناه أنه متحقق لا محالة لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده ووعده حق ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾.[الرعد:٣١]. ١

((أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) فدلّ هذا على أن من سَلِم من الشرك الأكبر والأصغر فإنه يسلم من العذاب، وهذا إذا جَمعته مع النصوص الأخرى التي جاءت بالوعيد على العُصاة والفسقة، فإنك تقول: العُصاة من الموحّدين الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، ولكن عندهم ذنوب دون الشرك من سرقة، أو زنا، أو شرب خمر، أو غيبة، أو نميمة أو، إلى آخره، فهذه ذنوب يستحق أصحابها العذاب، ولكن هي تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر لهم من دون عذاب وأدخلهم الجنة، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، ثم يخرجهم بتوحيدهم، ويدخلهم الجنة، فالموحّدون مآلهم إلى الجنة، إما ابتداءً وإما انتهاءً، وقد جاء في الأحاديث أنه يُخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، ويُخرج من النار أُناس كالفحم، قد امتحشوا، ثم يُنبت الله أجسامهم بأن يُلقوا في نهر على باب الجنة، يُقال له نهر الحياة، فتنبت أجسامهم، ثم يدخلون الجنة، ويُخَلَّدون فيها، فأهل التّوحيد مآلهم إلى الجنة، حتى ولو عذبوا في النار فإنهم لا يخلدون فيها وذلك بسبب التّوحيد، أما الكفار والمشركون والمنافقون النفاق الأكبر، فهؤلاء مآهلم النار خالدين مخلَّدين فيها، لا يدخلون الجنة أبداً ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٠]. ٤

قوله: ((وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً))[١] قال الخلخالي: "تقديره أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئاً والعبادة هي الاتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي لأن مجرد عدم الاشتراك لا يقتضي نفي العذاب وقد علم ذلك من القرآن والأحاديث الواردة في تهديد الظالمين والعصاة"[٢].

---

[١] البخاري الجهاد والسير (٢٧٠١)، مسلم الإيمان (٣٠)، الترمذي الإيمان (٢٦٤٣)، ابن ماجه الزهد (٤٢٩٦)، أحمد (٢٣٨/٥).

[٢] انظر مرقاة المفاتيح ١ /١٧٣.

وقال الحافظ: "اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك. وهو مثل قول القائل: ومن توضأ صحت صلاته، أي: مع سائر الشروط. اهـ. ١

فقوله ﷺ: ((أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) هذا وعد من الله سبحانه وتعالى؛ إن شاء غفر هذه الذنوب، وإن شاء عذب أصحابها، ثم يدخلهم الجنة بعد ذلك، وقد يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، وقد يخرجهم برحمته سبحانه وتعالى، فحتى ولو عذَّبوا مآلهم إلى الجنة ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، فالتّوحيد يَعصم من الخلود في النار، وإذا كان التّوحيد كاملاً فإنه يَعصم من دخول النار أصلاً، وإذا كان ناقصاً فإنه يَعصم من الخلود فيها، ولا يعصم من الدخول فيها، وإنما يَعصم من الخلود فيها، كما قال -تعالى- لما ذكر مناظرة إبراهيم الخليل عليه السلام مع عَبَدَة الأصنام قال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾، المؤمنون أو المشركون، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١] قال الله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، هؤلاء هم أهل التّوحيد، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يعني: بشرك، ولهذا لما نزلت هذه الآية شقَّتْ على الصحابة وقالوا: "أيُّنا لم يظلم نفسه؟"، فقال ﷺ: ((ليس الذي تَعْنُون، إنه الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣])) ، فالمراد بالظلم هنا: الشرك، فالذين سلِموا من الشرك لهم الأمن، إما الأمن المطلق، وإما مطلق الأمن، والأمن المطلق هو الذي ليس معه عذاب، وأما مطلق الأمن فهذا الذي قد يكون معه شيء من العذاب على حسب الذنوب، فالحاصل: أن أهل التّوحيد لهم الأمن بلا شك، ولكن قد يكون أمناً مطلقاً، وقد يكون مطلق أمنٍ، هذا هو الجواب الصحيح عن هذه المسألة.

بخلاف مذهب الخوارج والمعتزلة، فعندهم أن أصحاب الكبائر مخلّدون في النار- والعياذ بالله، من هذا المذهب الباطل، فعندهم أن متى دخل النار لا يخرج منها بزعمهم، ويغالطون النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة التي تدل على أن أهل التّوحيد ولو كان عندهم ذنوب ومعاص فإنهم لا يخلدون في النار، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] يعني: هذه الأمة، والمراد بالكتاب: القرآن، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر:٣٢-٣٣]، انظروا كيف ذكر الظالم لنفسه مع المقتصد ومع السابق بالخيرات، ووعدهم جميعاً بالجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾ [فاطر:٣٣-٣٥]، ذكر منهم الظالم لنفسه -بل بدأ به-؛ مما يدل على أن أهل التّوحيد يرجى لهم الخير، ويرجى لهم دخول الجنة، ولو كان عندهم ذنوب كبائر دون الشرك. وسيأتي في الأحاديث: ((من مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار، ومن مات وهو لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة))، ((إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله))، إلى غير ذلك من الأحاديث التي فيها أن التّوحيد يعصم من دخول النار، أو يعصم من الخلود فيها، وسيأتي باب مستقل في هذا الكتاب المبارك اسمه "باب فضل التّوحيد وما يكفِّر من الذنوب".٤

ولما قال النبي ﷺ: ((حق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) فمعاذ رضي الله عنه استبشر بهذا الحديث الشريف، وفرح به غاية الفرح، وقال: "يا رسول الله ألا أبشر الناس؟".٤

قوله: "أفلا أبشر الناس؟"[1] فيه: استحباب بشارة المسلم بما يسره، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا. قاله المصنف -رحمه الله-. ٢

قال النبي ﷺ:((لا تبشرهم فيَتَّكِلُوا))

يعني: أن النبي ﷺ خشي إذا سمعه الناس فإنهم يتّكِلون على جانب الرجاء ويتساهلون في المعاصي، ويقولون: ما دمنا موحّدين فالمعاصي لا تضرنا، لأن الرسول يقول: "أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً "، ونحن والحمد لله لسنا مشركين، ونحن لا نعبد إلاَّ الله، فيتساهلون في المعاصي، فيغلِّبون جانب الرجاء على جانب الخوف، فهذا من الحكمة؛ أن العلم لا يوضع إلاَّ في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل على بعض الناس محذور أكبر، فإنهم تُكتم عنهم بعض المسائل من أجل الشفقة بهم، ورحمتهم من الوقوع في المحذور، فإن النبي ﷺ أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذاً، لأن معاذاً من الجهابذة، ومن خواص العلماء، فدلَّ على أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة، إذا كان يترتب على أيضاَح بعض المسائل للناس محذور: بأن يفهموا خطأً، أو يَتَّكِلوا على ما سمعوا، فإنهم لا يُخبَرون بذلك، وإنما تلقى هذه المسائل على خواص العلماء الذين لا يُخشى منهم الوقوع في المحذور، فأخذ العلماء من هذا الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة، وإنما أخبر معاذ رضي الله عنه بهذا الحديث عند وفاته، خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلِّغه للناس، كما في حديث علي رضي الله عنه: "حدِثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله"، يعني: لا يُلقى على كل الناس بعض المسائل التي فيها أمور يَخفى عليهم معناها، أو تشوِّش عليهم، وإنما يُلقى على الناس ما يفهمونه، ويستفيدون منه، أما نوادر المسائل، وخواص المسائل، فهذه تلقى على طلبة العلم، والمتفقهين المتمكِّنين، وهذا من الحكمة ووضع الشيء في موضعه، لما

---

[1] البخاري الرقاق (٦١٣٥)، مسلم الإيمان (٣٠)، الترمذي الإيمان (٢٦٤٣)، ابن ماجه الزهد (٤٢٩٦)، أحمد (٥/٢٣٨).

تكون أمام عُصاة يشربون الخمور، ويزنون، ويسرقون، وتقول: الله غفور رحيم، الله قريب مجيب، الله سبحانه وتعالى يغفر ويسمح، فيزيدون في الشرور، لكن حين تقول لهم: اتقوا الله، الله سبحانه وتعالى توعّد الزناة بالعذاب وتوعّد على السرقة، وعلى المعاصي بالعذاب الشديد، فتذكر لهم نصوص الوعيد، من أجل التوبة، ولو أتيت عند متمسِّكين وطيبين فذكرت لهم آيات الوعيد، فهذا ربما يزيدهم وسواساً، أو تشدّداً، فأنت تذكر لهم آيات التيسير، وأحاديث التيسير، والتسهيل، والرحمة، الفرج، إلى غير ذلك، من أجل أن لا يزيدوا ويشتدوا ويغلوا، فكل مقام له مقال، وتوضع الأمور في مواضعها، هذا هو الميزان الصحيح، والناس ليسوا على حد سواء، كل يخاطب بما يستفيد منه ولا يتضرر به، فلا تأتي بآيات الوعد والرجاء عند المتساهلين، ولا تأتي بآيات الوعيد عند المتشددّين، بل تكون كالطبيب تضع الدواء في موضعه المناسب، هكذا يكون طالب العلم، إذا كانت هناك أمور غامضة، لا يعرفها العوام، ولا تتسع لها عقولهم، من المسائل العلمية، فلا تُلقى على العوام، وإنما تُلقى على طلبة العلم، وعلى الناس الذين يستوعبونها، ولهذا يقول ابن مسعود: "ما أنت بمحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة" وقال علي ﷺ: "حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله".

فالحاصل؛ أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يُلقى عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلاَّ الراسخون في العلم، بل تعلمهم مبادئ مبسطة سهلة يتدرّجون بها شيئاً فشيئاً، لا تطلب من طالب مبتدئ أن يقرأ في "صحيح البخاري"، لأنه لم يصل إلى هذا الحد لكن لَقِّنه "الأربعين النووية"، والأحاديث القريبة، وشروط الصلاة، وأحكام الطهارة، إلى آخره، وإنسان مبتدئ بعلم العربية، لا تأمره بقراءة كتاب سيبويه؟، لكن تأمره بقراءة "الأجرُّوميَّة"، ومسائل مبسطة، يدخل بها على اللغة العربية والنحو، شيئاً فشيئاً ، ولذلك ألف العلماء المختصرات

والمتوسطات والمطوّلات، من أجل إن طالب العلم يمشي مراحل، شيئاً فشيئاً ، الحاصل: أن كل شيء له شيء، وكل مقام له مقال. ٤

نبه عليه المصنف قوله: ((قال لا تبشرهم فيتكلوا)) وفي رواية: ((إني أخاف أن يتكلوا)) أي يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة وفي رواية: ((فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً)) أي تحرجاً من الإثم قال الوزير أبو المظفر: "لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا ازدادوا في الطاعة ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة فلا وجه لكتمانها عنهم"[1]، وقال الحافظ: "دل هذا على أن النهي للتبشير ليس على التحريم وإلا لما أخبر به أصلاً أو أنه ظهر له أن المنع إنما هو من الإخبار عموماً فبادر قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس".[2] ١

وقوله رحمه الله: "**أخرجاه في الصحيحين**"

أخرجه البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه "الجامع الصحيح"، الذي هو أصح كتاب عند المسلمين بعد كتاب الله عز وجل، وبالمنزلة الأولى من كتب السنة، ثم يليه "صحيح الإمام مسلم" رحمه الله، فالصحيحان: "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" هما أعلى شيء في كتب السنّة، وأصح الأحاديث ما اتفق عليه البخاري ومسلم، ثم ما رواه البخاري، ثم ما رواه مسلم، ثم بقية الأحاديث، لأن هناك صحاحاً غير الصحيحين: مثل: "صحيح ابن خزيمة"، وهذا يُثني عليه أهل العلم، و"صحيح الحاكم"، و"صحيح ابن حبّان"، وهذه يشترط أهلها الصحة، ولكن تصحيحهم دون تصحيح الإمامين البخاري ومسلم.٤

ومعنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم؛ لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣]. ٥

[1] نقله عن ابن مفلح في االآداب الشرعية

[2] فتح الباري١/٢٢٧

وفيه: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه. ٢

فهذا الباب اشتمل على فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: بيان تفسير التّوحيد، وأنه عبادة الله وحده لا شريك له، هذا هو التّوحيد، لأن كل الآيات التي في الباب تأمر بالعبادة وتنهى عن الشرك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات:٥٦]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ [النساء:٣٦]، فهذه الآيات تفسر التّوحيد بأنه العبادة.

الفائدة الثانية: أن الرسل بعثوا بالدعوة إلى توحيد العبادة، لا بالدعوة إلى توحيد الربوبية، فليس هناك آية واحدة قالت أقروا بالربوبية، أو أَقِرُّوا أن الله هو الخالق الرازق، لماذا؟، لأن هذا موجود في الناس. فهم مقرُّون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبّر، فتوحيد الرُّبوبية موجود في غالب البشر، لأن الفِطَر تقتضيه، لأن العاقل من الناس يعلم أن هذا الخلق لابد له من خالق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾ [النحل:١٧]، فالآيات ما جاء تطالب الناس بالإقرار بتوحيد الرّبوبية، لأن هذا موجود، والإقرار به لا يكفي في الدخول في الإسلام، وإنما جاءت كلها على نَسَق واحد تأمر بالعبادة، وإنما تذكر توحيد الربوبية للاستدلال به على توحيد الألوهية.

الفائدة الثالثة: في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ هذه الآية فيها: أن الحكمة من خلق الجن والإنس هي عبادة الله سبحانه وتعالى، الآية الثانية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فيها: أن الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم جاءوا بالأمر بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فدلّ على أن التّوحيد هو الذي بُعثت به الرسل، كما أنه هو الذي خلق الخلق من أجله.

الفائدة الرابعة: أن العبادة لا تنفع مع الشرك، فمن أشرك بالله شيئاً فإنه لم يُؤَدِّ حق الله سبحانه وتعالى، فالذي لا يَعبد الله مطلقاً كالملاحدة، وكذلك الذي يعبد الله مع الشرك، كلهم سواء، الملحد والمشرك، إنما الذي يعبد الله حقاً هو الذي يعبده ولا يشرك به شيئاً ، هذا هو الذي يعبد الله حق عبادته وهو الذي تنفعه عبادته. ٤

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله تعالى: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمَّت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله...﴾.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبِد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف. وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾؛ وختمها بقوله: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾.

الثانية عشرة:التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله تعالى علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس. أخذها رحمه الله من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح. ٥

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

أي: أن العبادة مبنية على التوحيد؛ فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعباده، لاسيما أن بعض السلف فسروا قوله تعالى: ﴿إلا ليعبدون﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تماماً لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد؛ فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: ((قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه)) [1].

وقوله: "لأن الخصومة فيه"، أي: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش؛ فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشرعي؛ فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ [التوبة: ٥٤]. ٥

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله تعالى: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾.

معناه: لستم عابدين عبادتي؛ لأن عبادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة لله تعالى. ٥

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦]. فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت. ٥

الخامسة: أن الرسالة عمَّت كل أمة. أخذها من قوله تعال: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾ [النحل: ٣٦]. ٥

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

أخذها من قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ [المائدة:٤٨]؛ لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل

---

[1] مسلم: كتاب الزهد/ باب من أشرك في عمله غير الله.

الدين؛ فواحد، قال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [الشورى: ١٣]. ٥

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله...﴾.

ودليله قوله تعالى: ﴿**واجتنبوا الطاغوت**﴾، فمن عبَدَ الله ولم يكفر بالطاغوت؛ فليس بموحد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن. ٥

تنبيه

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئاً من ذلك؛ لأن الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع؛ فلا نقول لمن أكل الربا: ملعون؛ لأنه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه؛ كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركاً؛ فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيماناً واحتساباً؛ غفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين، إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصاً يتبرز في الطريق؛ فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: ((اتقوا الملاعن)) [١] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بالأدب مؤذياً للمسلمين؛ فهذا شيء آخر.

---

[١] مسند الإمام أحمد ١/٢٩٩، سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، وابن ماجة: كتاب الطهارة/ باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق، والحاكم – وقال: "صحيح"، ووافقه الذهبي

فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك؛ حتى نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هذا مشرك باعتبار ظاهر حاله. ٥

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبِد من دون الله.

فكل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، وقد عرّفه ابن القيم: بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير. ٥

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف. وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك. المحكمات؛ أي: التي ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه. ٥

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لا تجعل مع الله إلها آخرفتقعد مذموماً مخذولاً﴾؛ وختمها بقوله: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾.

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾، والقاعد ليس قائماً؛ لأنه لا خير لمن أشرك بالله، مذموماً عند الله وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾ [الإسراء: ٣٩]، فهذه عقوبته عندما يلقى في النار كلٌّ يلومه ويدحره فيندحر والعياذ بالله. ٥

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾.

فأحق الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به فبدئت هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبي ﷺ حكيم بن حزام عمن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟

فقال النبي ﷺ: ((أسلمت على ما أسلفت من الخير))[1]؛ فدل على أنه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله. ٥

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته. وذلك من حديث ابن مسعود رضى الله عنه، ولكن النبي ﷺ لم يوص بها حقيقةً، بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله؛ فلن نضلّ بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب الله قوله تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم**﴾ [الأنعام: ١٥١]. ٥

الثالثة عشرة: معرفة حق الله تعالى علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه. وذلك بأن لا يعذّب من لا يشرك به شيئاً ، أما من أشرك؛ فإنه حقيقٌ أن يعذّب. ٥

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

وذلك أن معاذاً أخبر بها تأثماً، أي خروجاً من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة؛ وكأنه ﷺ علم أن النبيﷺ كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلوا، ولم يرد ﷺ كتمها مطلقاً؛ لأنه لو أراد ذلك لم يخبر بها معاذاً ولا غيره. ٥

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

هذه ليست على إطلاقها؛ إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوز لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي ﷺ معاذاً ولم يكتم ذلك مطلقاً، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق؛ فجائزٌ للمصلحة؛ كما كتم النبي ﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتّكلوا عليه، وقال لمعاذ: ((لا تبشّرهم فيتّكلوا)).

[1] البخاري: كتاب الأدب/ باب شراء من وصل رحمه في الشرك ثم أسلم، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده.

ونظير هذا الحديث قوله ﷺ لأبي هريرة: ((بشّر الناس أن من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنّة))[1] .

بل قد تقتضي المصلحة ترك العمل؛ وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما هم النبي ﷺ أن يهدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس، لأنهم حديثو عهد بكفرٍ[2]. ٥

وجواز كتمان العلم للمصلحة ولا سيما أحاديث الرجاء التي إذا سمعها الجهال ازدادوا من الآثام كما قال بعضهم: "فأكثر ما استطعت من الخطايا... إذا كان القدوم على كريم". ١

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

لقوله: "أفلا أبشّر الناس؟"، وهذه من أحسن الفوائد. ٥

وفي قوله: "أفلا أبشّر الناس؟" دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسرّ من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشّرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى: ﴿وبشّروه بغلام عليم﴾ [الذريات: ٢٨]، وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشّر النبي ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: ((ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم))؛ فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خيرٌ كثيرٌ وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

وعليه، فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبي ﷺ: ((لا يحدثني أحدٌ عن أحد بشيء، فإني أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصّدر)) [3]

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

[2] البخاري: كتاب العلم/ باب ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، ومسلم: كتاب الحج/باب نقض الكعبة.

[3] مسند الإمام أحمد ٣٩٦/١، وقال أحمد شاكر: إسناده حسن على الأقل. وسنن أبي داود: كتاب الأدب/باب في رفع الحديث من المجلس، -وسكت عنه-.

وهذا الحديث فيه ضعفٌ، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجلٌ بسوءٍ؛ فسيكون في قلبك عليه شيءٌ ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لا تعلم عن سيئاته، ولا محذور في أن تتعامل معه؛ كان هذا طيباً، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعضٍ قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقةٌ تظهر للعاقل بالتأمّل. ٥

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

وذلك لقوله: ((لا تبشّرهم فيتكلوا))، لأن الاتّكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: "ينبغي أن يكون سائراً إلى الله بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه" فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

وقال بعض العلماء: إن كان مريضاً غلّب جانب الرجاء، وإن كان صحيحاً غلّب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضله غلّب جانب الرّجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أي: خائفة أن لا يكون تقبّل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد، وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات الله. ٥

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذاً لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ على معاذٍ، حيث عطف رسول الله ﷺ على الله بالواو، وأنكر على من قال: "ما شاء الله وشئت"، وقال: ((أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده))[١].

فيُقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل، ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ.

[١] مسند الإمام أحمد (٢١٤/١)، وابن ماجة: كتاب الكفارات/باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، وقال أحمد شاكر، إسناده صحيح (١٨٣٩).

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فيبينها لهم، ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول: الله ورسوله أعلم، لأنه من العلوم الكونية. ٥

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

وذلك لأن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض، حيث أن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افتتن، قال ابن مسعود: "إنك لن تحدث قوماً بحدث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[١]، وقال علي: "حدثوا الناس بما يعرفون"[٢]، فيحدث كل أحد حسب مقدرته وفهمه وعقله.٥

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

النبي ﷺ أشرف الخلق جاهاً، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعاً. حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا في غاية التواضع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛ إذ إن من توضع لله -عز وجل- رفعه. ٥

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة. وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذاً، لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك. ٥

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل. وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار. ٥

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

[١] رواه: مسلم: المقدمة/ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

[٢] البخاري: كتاب العلم/ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا.

(باب: فَضْلُ التَّوْحِيد وَمَا يُكَفرَ مِنَ الذُّنوبِ)

(باب: فَضْلُ التَّوْحِيد وَمَا يُكَفرَ مِنَ الذُّنوبِ)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَّهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ الْأَنْعَام.

عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِت رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدَخَلهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ.)) أَخْرَجَاهُ .

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عُتْبانَ: ((فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ)).

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رضي الله عنه عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شيئاً أَذْكُرُك وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: يا مُوسَى: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا . قَالَ: يا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّموَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، والْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولا إله إلا الله فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)). رَوَاهُ ابْنُ حِبَّان، وَالْحَاكِمْ وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شيئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)).

أراد المؤلف به بيان شيء من فضل التوحيد وأنه أعظم الأعمال في تكفير الذنوب، لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لا تصح إلا بعد وجوده. وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن ويكون أكثر إقبالاً عليه وتشوقاً إليه. ٦

التوحيد بأنواعه له فضل عظيم على أهله، ومن أعظم فضله أنه به تُكفّر الذنوب، ولهذا قال الشيخ رحمه الله في التبويب "**باب فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب**"، **(ما يكفّر)**،

(ما) هنا موصولة؛ موصول حرفي، يعني تقدَّر مع ما بعدها بمصدر، يكون المعنى: باب فضل التوحيد وتكفيرِه الذنوبَ، فالتوحيد يكفر الذنوب جميعاً، لا يكفر بعض الذنوب دون بعض، فإن التوحيد حسنة عظيمة، لا تقابلها معصية إلا وأحرق نورُ تلك الحسنة أثر تلك المعصية، إذا كَمُل ذلك النور.

(باب فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب) يعني وتكفيرِه الذنوبَ، فالتوحيد يعني من كمّله؛ كمَّل توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية وتوحيد الأسماء والصفات، فإنه تُكفّر ذنوبه –كما سيأتي في الباب بعده– أنه من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وكلما زاد التوحيد كلما محا من الذنوب بمقدار عظمه، وكلّما زاد التوحيد كلما أمِنَ العبد في الدنيا وفي الآخرة بمقدار عِظمه، وكلما زاد العبد في تحقيق التوحيد كلما كان متعرّضا لدخول الجنة على ما كان عليه من العمل. ٣

سبق أن ذكر المؤلف كتاب التوحيد؛ أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بد منه، وأن معنى قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات: ٥٦]: أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد.

وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره.

ومن ذلك صلاة الجماعة ثبت فضلها بقوله ﷺ: ((صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة)). متفق عليه.[١]

ولا يلزم من ثبوت الفضل فيها أن تكون غير واجبة؛ إذ إن التوحيد أوجب الواجبات، ولا تقبل الأعمال إلا به، ولا يتقرب العبد إلى ربه إلا به، ومع ذلك؛ ففيه فضل. ٥

ثم ساق في هذا الباب آية من كتاب الله، وأحاديث عن رسول الله ﷺ تُبيّن فضل التّوحيد، وتُبيّن ما يكفِّره من الذنوب، والمناسبة بين هذا الباب والذي قبله، مناسبة ظاهرة، فإنه رحمه الله لما بيّن في الباب الذي قبله حقيقة التّوحيد، ومعنى التّوحيد المطلوب، ووضّح ذلك

---

[١] البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب فضل صلاة الجماعة، ومسلم: كتاب المساجد/ باب فضل صلاة الجماعة.

بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ناسب أن يذكِّر فضله ليرغب فيه، ويحث عليه، لأن الشيء إذا عُرفت مزاياه فإن النفس تتعلق به وتحرص عليه، وهذا التصنيف بين البابين في غاية الحكمة، مما يدل على دقة فهمه رحمه الله، لأنه لو ذكر فضل التّوحيد قبل أن يبيّن معنى التّوحيد لم يكن ذلك مناسباً، فلابد أن تُبيّن حقيقة الشيء ومعناه، ثم بعد ذلك تبين فضله، أما أن تذكر الفضائل لشيء غير معروف، فهذا لا يُجْدِي شيئاً ، ومن هنا نُدرك خطأ كثير من الدعاة اليوم، أو من المؤلفين المعاصرين، الذي يزعمون أنهم يكتبون عن الإسلام، وعن الدعوة، ويمدحون الإسلام مدحاً كثيراً، في محاضراتهم، وفي كتبهم، وهذا حق، لكن ما هو الإسلام أوّلاً، لم يبيّنوا ما هو الإسلام، تقرأ الكتاب من أوله إلى آخره، أو تستمع إلى المحاضرة -أو الشريط- من أوله إلى آخره، وهو مدح للإسلام وثناء عليه، وبيان لمزاياه، لكن ما هو الإسلام، لأن كل واحدة من الفرق الضالة والمنحرفة تفسِّر الإسلام بمذهبها، وينزِّلون هذا المدح، وهذا الثناء على مذهبهم، فلا يكفي أننا نمدح الإسلام ونثني عليه فقط، لابد أن تبيّن ما هو الإسلام، ما هي حقيقة الإسلام الذي يُنجي من الكفر، ويدخل في التّوحيد، ويُنجي من النار ويدخل في الجنة، وما هي نواقض الإسلام التي تُفسد الإسلام، وتُخرج منه، وما هي مكمِّلاته، وما هي منقِّصاته، لابد من هذا، أما مجرد المدح، وذكر الفضائل بدون إنك تبيّن حقيقة الشيء، فهذا خطأ عظيم، والإسلام هو ما جاء به رسول الله ﷺ وكان عليه صحابته الكرام، وكان عليه القرون المفضلة، أما ما خالف ذلك فليس من الإسلام في شيء، وإن كان صاحبه يدَّعي أنه هو الإسلام، ومن هنا تجدون الشيخ بيّن في الباب الأول حقيقة التّوحيد لئلا يدعي كل واحد أن مذهبه هو التّوحيد، أو ما هو عليه هو التّوحيد، وهذا أمر مهم جدًّا، لأنهم يقولون أدعوا إلى الإسلام وبينوا مزايا الإسلام فقط، ولا تبينوا للناس حقيقة الإسلام، لأن هذا يفرق عنكم الناس. ٤

فمن فوائد التوحيد:

١- أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله -سبحانه وتعالى-؛ وعليه، فهو يعمل سراً وعلانية، أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلاً، فإنه يتصدق ويصلى، ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: "إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو".

٢- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام: ٨٢]. ٥

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الْأَنْعَام] .

قوله: ﴿لم يلبسوا﴾، أي: يخلطوا. ٥

الظلم هنا هو الشرك، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال في هذه الآية حينما استعظم الصحابة هذه الآية وقالوا: "يا رسول أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟" فقال: ((ليس الذي تذهبون إليه، الظلم الشرك، ألم تسمعوا لقول العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣])), فالظلم هنا في مراد الشيخ الشرك، فيكون معنى الآية بما يناسب هذا الباب: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، ففضْل الذي آمَنَ يعني وَحَّد، لم يلبس إيمانه بشرك، لم يلبس توحيده بشرك، أن له الأمن التام والاهتداء التام. ٣

هذا هو الحكم الإلهي يعني: الذين وحّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾؛ الظلم -كما بيّن أهل العلم- ثلاثة أنواع:

النوع الأول: وهو أعظمها-: ظلم الشرك، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لماذا سُمي الشرك ظلماً؟ لأن الظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه، والشرك معناه: وضع العبادة في غير موضعها، وهذا أعظم الظلم، لأنهم لما وضعوا العبادة في غير موضعها، أعطوها لغير مستحقها، وسوَّوْ المخلوق بالخالق، سوَّوْ الضعيف بالقوي الذي لا يُعجزه شيء، وهل بعد هذا ظلم؟

والنوع الثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي، فالعاصي إنما ظلم نفسه، لأنه عرّض نفسه للعقوبة، وكان الواجب عليه أن يُنقذ نفسه، وأن يضعها في موضعها اللائق بها، وهو الطاعة، والكرامة ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

النوع الثالث: ظلم العبد للناس: بأخذ أموالهم، أو غيبتهم، أو نميمتهم، أو سرقة أموالهم، أو التعدي عليهم في أعراضهم بالغيبة والنميمة والقذف والهمز واللمز وغير ذلك من التنقُّص، أو في دمائهم بقتل الأبرياء بغير حق، أو بالضرب والجرح والإهانة بغير حق، فهذا تعدٍّ على الناس.

هذه هي أنواع الظلم: ظلم الشرك؛ وهذا أعظم أنواعه، وظلم العبد نفسه، وظلم العبد لغيره من المخلوقين.

أما النوع الأول وهو: ظلم الشرك، فهذا لا يغفره الله أبداً إلاَّ بالتوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وأما النوع الثالث وهو: ظلم العبد للناس، فهذا لا يترك الله منه شيئاً ، لابد من القصاص، إلاَّ أن يسمح المظلومون، جاء في الحديث: ((لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القَرْنَاء)) الشاة الجَلحَاء هي التي ليس لها قرون، والشاة القَرْنَاء التي لها قرون، إذا نطحتها بقرونها لابد من القصاص يوم القيامة حتى بين البهائم، قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥] تحشر البهائم يوم القيامة، ويُقْتَصُّ بعضها من بعض، ثم يقول الله لها: "كوني تراباً"، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ [النبأ:٤٠] ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

وكذلك بنو آدم، يقام القصاص بينهم يوم القيامة، فيُقْتَصُّ من المظلومين للظلمة، ولا يُترك من حقوقهم شيء إلاَّ إذا سمحوا بها، أما النوع الثاني وهو ظلم العبد لنفسه بما دون الشرك فهذا تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفره، وإن شاء عذب به، كما يقول أهل العلم:

الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفره الله، وهو الشرك. وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وهو مظالم العباد. وديوان تحت المشيئة إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه، وهو الذنوب والمعاصي التي دون الشرك.

فهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يعني: بشرك، هذا هو الذي فسَّرها به رسول الله ﷺ، فإنها لما نزلت هذه الآية شقت على الصحابة، قالوا: يا رسول الله أيُّنا لم يظلم نفسه؟، قال رسول الله ﷺ: ((إنه ليس بالذي تَعْنُون، إنه الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾)). ٤

قال ابن جرير: "حدثني المثنى -وساق بسنده- عن الربيع بن أنس قال: "الإيمان الإخلاص لله وحده".

وقال ابن كثير في الآية: "أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة". ٢

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ هل المراد في: الأمن المطلق يعني: أنهم لا يعذبون أبداً، أو المراد مطلق الأمن أي أنهم وإن عذبوا فلابد أن يدخلوا الجنة؟، الآية محتملة، وعلى كلا التفسيرين فالآية تدلُّ على فضل التّوحيد، وأنه أمن من العذاب إما مطلقاً وإما يُؤَمّن من العذاب المؤبّد. ٤

وفي شرح الآية بين الرسول أن الهداية والأمن المطلقين لا يحصلان إلا بترك الشرك، لكن دلت النصوص الأخرى أن الهداية لا تكمل والأمن لا يكمل إلا بالسلامة من المعاصي وظلم العباد وسائر أنواع الشرك الأصغر. ٦

لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: أنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصيةٌ؛ فالأمن أمنٌ مطلق، أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمانٍ -غير كامل-؛ فله مطلق الأمن؛ أي: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، أمنٌ من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ١١٦].

قال شيخ الإسلام: "والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ [فاطر آية: ٣٢] وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ۞ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [سورة الزلزلة الآيتان: ٧، ٨] وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله، أينا لم يعمل سوءاً؟" فقال: ((يا أبا بكر ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به))[١] فبين أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب؛ فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام.

ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى: وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه وليس مراد النبي ﷺ بقوله إنما هو الشرك أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام. فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذي يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم. بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة.[٢]

[١] الترمذي تفسير القرآن (٣٠٣٩)، أحمد (١١/١).

[٢] مجموع الفتاوى كتاب الإيمان ٧/٨٠-٨٢.

فالآية فيها فضل التّوحيد، وأنه يمنح الله لأصحابه الأمن على حسب درجاتهم في التّوحيد والسلامة من الذنوب والمعاصي، ودلّت الآية بمفهومها على أن من أشرك بالله وخلط توحيده بشرك أنه ليس له أمن –والعياذ بالله–، فهذا فيه خطر الشرك، وأن من عبد الله، ولكنه يدعو مع الله غيره، ويستغيث بالموتى، ويذبح للقبور، ويطوف بالأضرحة مستعيناً بها، فهذا خلط إيمانه بشرك، وليس له أمن أبداً حتى يتوب إلى الله عزّ وجلّ، ويُخلص التّوحيد، فليس المقصود أن الإنسان يعبد الله فقط، بل لابد –أيضاً– أن يتجنّب الشرك، وإلاَّ فالمشركون لهم عبادات، كانوا يحجون، وكانوا يتصدقون، وكانوا يطعمون الأضياف، وكانوا يُكرمون الجيران، ولهم أعمال لكنها ليست مبنيّة على التّوحيد، فهي هباء منثور، لا تنفعهم شيئاً يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣)﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور:٣٩] ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم:١٨] لا يثبّت الأعمال إلاَّ التّوحيد، ما دام هناك شرك فالأعمال لا قيمة لها، مهما أتعب الإنسان نفسه فيها، وهذا يدلُّنا على فضل التّوحيد، ومكانة التّوحيد، وأنه مُؤَمّن من عذاب الله عزّ وجلّ بخلاف المشرك فإنه لا أمن له من عذاب الله، والأمن يكون في الدنيا، كالأمن من الأعداء، والأمن من الحروب، تعرفون قيمته، وخطر الخوف، هذا في الدنيا فكيف بالأمن في الآخرة من النار؟، النار أشد من الحروب، وأشد من الأعداء، وأشد من كل شيء، إذا كان الأمن في الدنيا هذه قيمته، وهذه منافعه، فكيف بالأمن في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هذه مزيّة ثانية من مزايا التّوحيد، وهي حصول الهداية للموحّدين المخلصين لله، أنهم في الدنيا يكونون مهتدين في أعمالهم، يعبدون الله على بصيرة، سالمين من الشرك في الأعمال، وسالمين من البدع والخرافات، بخلاف أهل الشرك، فإنهم غير مهتدين في الدنيا، بل هم ضالون، لأنهم يعبدون الله، ويخلطون العبادة بالشرك، ويعبدون غير الله، فهم ضالون لا مهتدون، إذا الموحّد يعطيه الله مزيتين:

المزيّة الأولى: الأمن من العذاب.

المزيّة الثانية: الهداية من الضلال.

بحيث أنه يعبد الله على بصيرة وعلى نور وبرهان، متبعاً للسنّة متبعاً للرسول ﷺ يمشي على الجادة الصحيحة، بخلاف المشرك فإنه يمشي على غير هدى، وعلى غير دين، وعلى غير برهان، يتعب نفسه في هذه الدنيا، وهو يتقدم إلى النار، ويمشي إلى النار، كما قال -تعالى- في الآية الأخرى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] لا يضل في الدنيا عن الحق، ولا يشقى في الآخرة، وهذا ضمان من الله سبحانه وتعالى لمن اتبع القرآن أنه لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ٤

وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ...﴾ إلى قوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]؛ فقال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم...﴾ [الأنعام: ٨٢]، على أنه قد يقول قائلٌ: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ [الأنعام ٨٣]. ٥

قال زيد بن أسلم وابن إسحاق: "هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه". ٢

وجه الدلالة أن قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، أن قوله ﴿بِظُلْمٍ﴾ هنا نكرة في سياق ﴿لَمْ يَلْبِسُوا﴾، وهذا يدل على عموم أنواع الظلم.

هل العموم هنا العموم المخصوص أو العموم الذي يراد به الخصوص؟ هنا يُراد العموم الذي يُراد به الخصوص؛ لأننا قلنا -فيما سبق لك آنفاً- أن النكرة في سياق النفي أو النهي تدل على العموم.

العموم عند الأصوليين:

- تارة يكون باقياً على عمومه، هذه حالة.
- وتارة يكون عموماً مخصوصاً، يعني دخله التخصيص.
- وتارة يكون عموماً مراداً به الخصوص، يعني لفظه عام ولكن يُراد به الخصوص.

وهذا الثالث هو الذي أراد به الشيخ رحمه الله وجه الاستدلال من الآية، فيكون الظلم هنا -صحيح- نكرة في سياق (لم) تدل على العموم؛ لكن عموم مُرادٌ به الخصوص، وهو خصوص أحد أنواع الظلم؛ وهو الشرك، فيصير العموم في أنواع الشرك، لا في أنواع الظلم كلها؛ لأن من أنواع الظلم ما هو من جهة ظلم العبد نفسه بالمعاصي، ومن جهة ظلم العبد غيره بأنواع التعديات، ومنه ما هو ظلم من جهة حق الله جل وعلا بالشرك، فهذا هو المراد بهذا العموم، فيكون عموما في أنواع الشرك.

وبهذا يحصل وجه الاستدلال من الآية، فيكون المعنى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾، يعني توحيدهم، بنوع من أنواع الشرك ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، و(الْأَمْنُ) هنا هو الأمن التام في الدنيا، المراد به أمن القلب، وعدم حزنه على غير الله جل وعلا، والاهتداء التام في الدنيا والآخرة، وكلما صار ثَمَّ نقص في التوحيد؛ بغشيان العبد بعض أنواع الظلم الذي هو الشرك؛ الشرك الأصغر أو الشرك الخفي، وسائر الشرك، ونحو ذلك، فيذهب منه من الأمن والاهتداء بقدر ذلك، هذا من جهة تفسير الظلم بأنه الشرك.

فإذا فسَّرتَ الظلم بأنه جميع أنواع الظلم، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه يكون هناك مقابلة بين الأمن والاهتداء، وبين حصول الظلم، فكلما انتفى الظلم، وُجد الأمن والاهتداء، كلما كمُل التوحيد وانتفت المعصية، عظُم الأمن والاهتداء، وإذا زاد الظلم، قل الأمن والاهتداء، بحسب ذلك. ٣

مناسبة الآية للترجمة:

أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحداً؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن. ٥

وبه تظهر مطابقة الآية للترجمة فدلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام ودخل الجنة بلا عذاب ومن أتى به ناقصاً بالذنوب التي لم يتب منها فإن كانت صغائر كفرت باجتناب الكبائر لآية النساء والنجم وإن كانت كبائر فهو في حكم المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه ومآله إلى الجنة والله أعلم. ١

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)). أخرجاه. [1]

قوله: ((من شهد أن لا إله إلا الله))، الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦]، وهذا العلم قد يكون مكتسباً وقد يكون غريزياً.

فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزيٌ، قال ﷺ: ((كل مولودٍ يولد على الفطرة))[2]؛ وقد يكون مكتسباً، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها. ولابد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها. ٥

قوله: ((من شهد أن لا إله إلا الله)) أي: من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، باطناً وظاهراً، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولهما، كما قال الله تعالى: ﴿فأعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [محمد ١٩] وقوله: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف-٨٦] أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع.

---

[1] البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٥٢)، مسلم الإيمان (٢٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٨)، أحمد (٥/٣١٤).

[2] البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم: كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم: "باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل، لا بد من استيقان القلب" وفي هذا الحديث ما يدل على هذا. وهو قوله: ((من شهد)) فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق. ١
قال القاضي عياض: "وما ورد في حديث عبادة يكون خصوصاً لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة".[١] ١
قوله: ((من شهد أن لا إله إلاَّ الله))، يعني: نطق بالشهادة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، موقناً بها، لأنه لا يكفي التلفظ، بالشهادة من غير معرفة لمعناها، كذلك النطق بالشهادة مع معرفة بمعناها، لكن لا يعمل بمقتضاها، هذا –أيضاً– لا يكفي، بل لابد من النطق والعلم والعمل بمقتضى هذه الكلمة العظيمة، فليست هي مجرد لفظ يردَّدُ على اللسان من غير فهم لمعناها، ولا يكفي العلم بمعناها، بل لابد من العمل بمقتضاها، بأن يُفرد الله بالعبادة، ويترك عبادة ما سواه، هذا معنى "أشهد أن لا إله إلاَّ الله" فإذا لم ينطق بها فإنه لا يحكم بإسلامه، ولو كان يعرفها بقلبه، ولو كان يعبد الله في أعماله، لكنه أبى أن ينطق بالشهادة، فهذا لا يُعتبر مسلماً، حتى ينطق بالشهادة، لقوله ﷺ: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاَّ الله)) وكذلك من نطق بها بلسانه ولكنه لا يعتقدها في قلبه، هذا –أيضاً– ليس بمسلم، بل هو منافق، فالمنافقون يقولون: لا إله إلاَّ الله، وهم في الدرك الأسفل من النار، لماذا؟ لأنهم لا يعتقدون معناها، وعُبّاد القبور اليوم يقولون لا إله إلا الله بألسنتهم، لكنهم لا يعملون بمقتضاها، بل يعبدون القبور والأضرحة، ويدعون الأولياء والصالحين، فهم أقرُّوا بها لفظاً، وخالفوها معنىً، فالمشركون جحدوا لفظها ومعناها، والقبوريُّون أقرُّوا بلفظها وجحدوا معناها، هم سواء لا فرق بينهم أبداً، كذلك المنافقون تلفّظوا بها، لكنهم لا يؤمنون بها في قلوبهم –أيضاً– هم سواء، بل هم شر من الكفّار، قال –تعالى–: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ

---

[١] إكمال المعلِم :١/٢٥٥

مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء:١٤٥] وهم ينطقون، ويقولون: لا إله إلاَّ الله، ويصلّون، ويصومون، لكن لما كانوا مُنكرين بقلوبهم، غير معترفين بها في قلوبهم، وإنما قالوها لأجل المصالح الدنيوية فقط، صاروا -والعياذ بالله- في الدرك الأسفل، من النار.

فالحاصل أنها كلمة عظيمة، لكن لابد أن يتوفّر.

أولاً: النطق بها.

وثانياً: العلم بمعناها.

وثالثاً: العمل بمقتضاها.

ومعنى: (لا إله إلاَّ الله) نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله سبحانه وتعالى، يعني: إبطال عبادة كل ما سوى الله، وإثبات العبادة لله، فقوله: (لاَ إله): هذا إبطال لجميع المعبودات من دون الله عزّ وجلّ، وإنكار لها (إلاَّ اللهَ): هذا إثبات للعبادة لله سبحانه وتعالى، فعلى هذا معنى لا إله إلاَّ الله: لا معبود بحق -أو لا معبود حقاً- إلاَّ الله سبحانه وتعالى، أما لو قلت: معناها: لا معبود إلاَّ الله، نقول: هذا ضلال عظيم، لأنك أدخلت كل المعبودات وجعلتها هي الله، جعلت الأصنام والأضرحة والكواكب وكل ما عُبد من دون الله هو الله، وهذا غلط، وهو مذهب أهل وحدة الوجود. فلابد أن تأتي بكلمة "حق"، لأن المعبودات على قسمين: معبود بحق، ومعبود بالباطل، المعبود بحق هو الله، والمعبود بالباطل هو ما سوى الله من كل المعبودات، قال -تعالى-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢، لقمان:٣٠]، هذا معنى: لا إله إلاَّ الله.

وقوله: ((وحده لا شريك له)) كلمتان جيء بهما للتأكيد، وحده: تأكيد للإثبات، لا شريك له: تأكيد للنّفي، فهما كلمتان مؤكِّدتان للا إله إلاَّ الله، لما فيها من النفي والإثبات. ٤

((وحده لا شريك له))، وحده: توكيد للإثبات، لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات... وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النّافين للصفات؛ لأن النّافين للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله -عز وجل-؛ حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به. ٥

وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله ((وحده لا شريك له)) تنبيهاً على أن الإنسان قد يقولها وهو مشرك كاليهود والمنافقين وعباد القبور لما رأوا أن النبي ﷺ دعا قومه إلى قول لا إله إلا الله ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط وهذا جهل عظيم. وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله ولهذا قالوا ﴿أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات:٣٦] وقالوا ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ [ص:٥] فلهذا أبوا عن النطق بها وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع. ١

وهذه الكلمة كلمة عظيمة، جاءت في القرآن بلفظها وجاءت بمعناها، كما في قوله تعالى: ﴿فَأعلم أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:١٩] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إله إلا الله يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)﴾ [الصافات:٣٥-٣٦] وجاءت بمعناها مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ هذا هو معنى النّفي: لا إله، ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا هو معنى الإثبات: إلاَّ الله، فهي كلمة عظيمة.

وقوله: ((وأن محمداً عبده ورسوله)) هذا يدل على أنه لا يكفيه شهادة أن لا إله إلاَّ الله، بل لابد معها من شهادة أن محمداً رسول الله، فلو شهد أن لا إله إلاَّ الله، وأبى أن يشهد أن محمداً رسول الله؛ لم يدخل في الإسلام، لأن هذه قرينة هذه، وكما في الأذان، وفي الإقامة، وفي الخطب، وإذا جاءت لا إله إلا الله وحدها، تدخل فيها شهادة أن محمداً رسول الله ضِمناً. ٤

قيل وقدم العبد هنا على الرسول ترقياً من الأدنى إلى الأعلى وجمع بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذي وقع في شأن عيسى عليه السلام وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: ((لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)). ١

وقوله: "وأن محمداً عبده ورسوله" هذا نفي للإفراط والتفريط، عبده هذا نفي للإفراط والغلو في حق الرسول ﷺ بجعل شيء له من الربوبية، كما يعتقد المخرِّفون، فالرسول ﷺ عبدٌ ليس له من الرُّبوبية شيء، وقد سمَّاه الله عبداً في أشرف المقامات، في مقام الوحي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] وفي مقام الإنزال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١)﴾ [الفرقان:١] وفي مقام التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ فهو عبد لا يُعبد -عليه الصلاة والسلام-، ورسول لا يُكذّب ﷺ بل يُطاع ويُتبع، فليس له من العبادة شيء، فالذين يطلبون منه المدد، ويطلبون منه النصر على الأعداء، ويطلبون منه قضاء الحاجات، وتفريج الكُرُبات، هؤلاء رفعوه من العبودية إلى الألوهية -والعياذ بالله-، ما أقرُّوا أنه عبد الله، بل جعلوه شريكاً لله في ربوبيّته وأُلوهيّته، والرسول ﷺ يقول: ((لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله))، يقول الله سبحانه وتعالى له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أعلم الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢١-٢٣]. ٤

فالرسول ﷺ عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئاً واحداً، وهو ما يعود إلى أسافل الأخلاق؛ فهو منزه معصوم منه، قال تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾ [الإعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً. قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحى إليه، قال تعال: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد﴾ [فصلت: ٦].

ومن قال: إن الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشى في الشمس؛ فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "كنت أمد رجلي بين يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح"، فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضي الله عنها، ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيري في "البردة" المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي   فضلاً وإلا فقل يا زلـــة القدم
فإن من جودك الدنيـــا وضرتـها   ومن علومــك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: "إنه لم يترك لله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ.

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمداً عبدالله، بل شهد أن محمداً فوق الله! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد؟!

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: ((من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني))[١]، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلى التالي "المخرّف" كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأن الرسول ﷺ حضر

---

[١] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب الحث على ذكر الله تعالى.

مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالاً له، والصحابة ﭫ أشدّ إجلالاً منهم ومنا، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حيٌ يكلمهم لا يقومون له، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئاً، فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبدالله ورسوله، وهؤلاء المخرفون مساكين، إن نظرنا إليهم بعين القدر؛ فنرق لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننابذهم بالحجة حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشد الناس عبودية لله، أخشاهم لله، واتقاهم لله، قام يصلي حتى تورمت قدماه، وقيل له في ذلك؛ فقال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))[1]، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا تحقيق العبادة العظيمة. ٥

وقوله: ((ورسوله)) هذا رد على أهل التفريط، الذين لا يقدِّرون الرسول حق قدره، إما يجحدون رسالته -عليه الصلاة والسلام-، وإما أنهم يقرُّن برسالته، لكنهم لا يتبعونه الإتباع المطلوب، فهؤلاء لم يشهدوا أنه رسول الله، وشهادتهم إما باطلة وإما ناقصة، باطلة إن كانوا لا يتبعونه أبداً، وناقصة إن كانوا يتبعونه في بعض الأشياء ويخالفونه في بعض الأشياء رغبة لنفوسهم وشهواتهم.

فقوله: ((ورسوله)) هذا رد على أهل التفريط والتساهل في حق الرسول ﷺ، وهو أعظم الخلق -عليه الصلاة والسلام-، وأشرف الخلق، وأفضل الرسل، فلا يُتساهل في حقه ﷺ لكن ليس معنى هذا أننا نغلوا فيه، ونجعل له شيئاً من الربوبية، فلا إفراط ولا تفريط.

قوله ﷺ: ((وأن عيسى عبد الله ورسوله))

قوله ((وأن عيسى عبد الله ورسوله)) وفي رواية: ((وابن أمته)) أي: خلافاً لما يعتقده النصارى أنه الله، أو ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٩١) عالم

[1] البخاري: كتاب التهجد/ باب قيام النبي ﷺ حتى تورم قدماه، ومسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب إكثار الأعمال.

الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢] فيشهد بأنه عبد الله، أي: عابد مملوك لله لا مالك فليس له من الربوبية ولا من الألُوهية شيء، ورسول صادق خلافاً لقول اليهود إنه ولد بغي، بل يقال فيه ما قال عن نفسه كما قال تعالى قال:
﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ [مريم:٣٠] الآيات وقال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء:١٧٢]. ١
قال القرطبي: "ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم".[١] ١
هذا فيه ردٌّ على اليهود وردٌّ على النصارى. أما اليهود فلأنهم جحدوا رسالة عيسى عليه السلام، ورموه بالبُهْت -والعياذ بالله- وقالوا: إنه ولد بغي، قبّحهم الله وأخزاهم، وحاولوا قتله، وسلّمه الله منهم ورفعه إليه، وألقى عليهم الخزي.
وفيه ردٌّ على النصارى الذين لم يقرِّوا بأن عيسى عبد الله، وإنما ادعوا أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أنه هو الله، ثلاث مقالات لهم، ذكرها الله جل وعلا في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة:٣٠] ولا يزالون يقولون هذا إلى الآن في إذاعتهم يرددون هذه الأقوال الكفرية الشنيعة، ولا يزالون يقولون: إن عيسى هو ابن الله، وأنه مخلِّص، ويرددون عقائد النصارى السابقة، المهم أنهم لا يزالون على هذه الفِرية: أن عيسى ابن الله، تعالى الله عما يقولون، وأنه الإله المخلِّص، وأنه مَكَّن من نفسه للقتل، وقتلوه وصلبوه من أجل أن يخلِّص العباد من الخطيئة التي ارتكبها آدم عليه السلام، كما يقولون، قبْحهم الله، فيسمونه المخلِّص ويسمون هذا العمل الفداء، وأن عيسى فعل هذا من باب الفداء لبني آدم، ليخلِّصهم من إثم العقوبة. ٤
فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنه عبد الله ورسوله. ٢

---

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم.

وقوله: ((وكلمته))، الكلمة قوله تعالى لعيسى: (كُن)، لأن عيسى وُجد من غير أب، بل وُجد بكلمة (كُن) وليس هو الكلمة، وإنما سُمِّيَ بالكلمة لأنه خُلق بها، بخلاف بقية البشر فإنهم يُخلقون من أب وأم، وكما قال في آدم: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فإذا كنتم تعجبون من كون عيسى وُلد من أم بلا أب، ووجد على أثر الكلمة (كُن) فكيف لا تعجبون من خلق آدم من تراب بدون أم ولا أب، بل بكلمة (كُن)، ليس في هذا غرابة على قدرة الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله و((كلمته)) إنما سمي عليه السلام (كلمة الله) لصدوره بكلمة (كن) بلا أب. قاله قتادة وغيره من السلف.

قال الإمام أحمد فيما أملاه في الرد على الجهمية: "الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى، كن وليس عيسى هو بكن، ولكن كن كان فكن من الله قول وليس كن مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالت عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارى عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال إن هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة". انتهى. يعني به ما قال قتادة وغيره. ١

قوله: ((وكلمته))، أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛ فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ أن كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أما عيسى؛ فهو ذات بائنة عن الله –سبحانه– ، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.

قوله: ((ألقاها إلى مريم))، أي: وجّهها إليها بقوله: ﴿كن فيكون﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩]. ٥

قوله: ((ألقاها إلى مريم)) قال ابن كثير: "خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل فكان عيسى بإذن الله عز وجل فهو ناشئ عن الكلمة التي قال له كن فكان والروح التي أرسل بها: هو جبريل عليه السلام. ١

((روح منه)): أي روح من الأرواح التي خلقها وأوجدها. ٦

وقوله: ((وروح منه)) ليس المراد أن عيسى روح من الله، بمعنى أنه من ذات الله، وإنما من روحه المخلوق، لأن الله خلق الأرواح جميعاً، ومنها روح عيسى -عليه الصلاة والسلام-، فكلمة ((منه)) لابتداء الغاية، يعني كلمة مبتدأة من الله، وروح مبتدأة من الله، كما تقول مثلاً هذا الرزق من الله، معناه أن الله هو الذي يسّر هذا الشيء، وهو الذي هيّأه وخلقه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جميعاً مِنْهُ﴾ معناه: أنه حاصل ونازل وكائن من الله سبحانه وتعالى، فـ "مِنْ" لابتداء الغاية، وقد تسأل وتقول كل أرواح بني آدم من الله على هذا التفسير، فما وجه اختصاص عيسى بذلك نقول: نعم كل أرواح بني آدم من الله، لكن عيسى عليه السلام خُصَّ بذلك لأنه من غير أب، بل هو روح من دون أب. ٤

قوله: ((وروح منه))، أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحاً، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ [المائدة: ٧٥].

فبالنفخ صار جسداً ، وبالروح صار جسداً وروحاً.

قوله: ((منه))، هذه هي التي أضلّت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله، فضلوا وأضلوا كثيراً، ولكننا نقول: إن الله قد أعمى بصائركم؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضاً أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدّعى أنه قتل وصلب؟!

وعلى هذا تكون((من)) للابتداء، وليس للتبعيض؛ فهي كقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.
فقوله: **((منه))**؛ أي: روح صادرة من الله –عز وجل–، وليست جزءً من الله كما تزعم النصارى.٥
قال أبي بن كعب: "عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله تعالى واستنطقها بقوله: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف . ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل فيها" رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم.[1]
وقال أبو روق: "((وروح منه)): أي نفخة منه إذ هي من جبرائيل بأمره وسمي روحاً لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام"[2] وقال الإمام أحمد: "((وروح منه)) يقول: من أمره كان الروح فيه كقوله ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ يقول: "من أمره".[3]١
وأعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق؛ كقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿إن أرضي واسعة﴾ [العنكبوت: ٥٦].
وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه، كقوله تعالى: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ [الحج: ٢٦]، وكقوله تعالى: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ [الشمس: ١٣]، وهذا القسم مخلوق.
الثاني: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالى: ﴿وروح منه﴾ [النساء: ١٧١]؛ فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفاً؛ فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءً أو روحاً من الله؛ إذ أنّ هذه الروح حلت في عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضاً.

[1] رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند (١٣٥/٥)، وابن جرير (٢٦/٦)، والحاكم (٣٢٣/٢-٣٢٤)، وصححه ووافقه الذهبي واللألكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ٩٩١) وسند الإمام عبد الله ابن الإمام أحمد حسن، كما قال الشيخ الألباني في تحقيق المشكاة (٤٤/١)
[2] انظر: زاد المسير٢٦١/٢
[3] الرد على الزنادقة والجهمية ص ٣٢

الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فالرسالة والكلام أضيفاً إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة؛ فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق؛ لأنه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله: ((كلمته، وروح منه))؛ فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا، فتكون كلمته صفة من صفات الله.

((وروح منه)): هذه أضيفت إلى عين، لأن الروح حلت في عيسى، فهي مخلوقة. ٥

قوله: ((والجنة حق، والنار حق)) أي: وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله بها في كتابه أنه أعدها لمن آمن به وبرسوله حق، أي: ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للكافرين به وبرسله حق كذلك، كما قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ الآية، وقال تعالى ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾. ١

يعني: ومن شهد أن الجنة -وهي دار المتقين-، والنار -دار الكافرين-؛ كل منهما حق، وأنهما داران موجودتان مخلوقتان، وباقيتان لا تفنيان أبداً، الجنة للمتقين، والنار للكافرين، فالدُّور -كما ذكر ابن القيّم- ثلاث:

الأولى: دار الدنيا، وهي دار العمل والاكتساب.

الدار الثانية: دار البرزخ، وهي دار القبور، برزخ بين الدنيا والآخرة، والبرزخ معناه الفاصل، والحياة في القبور، تسمى بالحياة البرزخيّة، وفيها عجائب، فيها نعيم أو عذاب، إما حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، ويبقى الأموات في قبورهم إلى أن يشاء الله جل وعلا بَعْثَهُم وحَشْرَهُم للحساب والجزاء، وهذه الدار، مَحَطَّة انتظار.

والثالثة: دار الجزاء، التي هي يوم القيامة، الجنة أو النار، وهذه الدار لا تفنى ولا تبيد أبداً، وإذا آمن الإنسان بهاتين الدارين، فإن ذلك يحمله على العمل الصالح والتوبة من الذنوب والسيئات، فإذا تيقّن أن هناك جنة، وأن هذه الجنة لا يدخلها إلاَّ بالأعمال الصالحة، فإنه يعمل، وإذا تيقن أن هناك ناراً، وأنه يدخلها بالمعاصي والكفر والسيئات، فإنه يحذر من ذلك ويتوب إلى الله عزّ وجلّ، فالإيمان باليوم الآخر والجنة والنار يحمل العبد على العمل الصالح والتوبة من الذنوب والسيئات، أما الذي لا يؤمن بالآخرة، فهذا يعمل ما تُمليه عليه شهواته، وما ترغبه نفسه ولا يحاسب نفسه أبداً، لأنه لا يؤمن ببعث ولا بحساب، تعالى الله عما يقوله الظالمون والكافرون علواً كبيراً، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] ينكرون البعث، ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٧]، هكذا يقولون، لأن الكفار الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ينكرون البعث والنشور، ومثلهم الملاحدة والدهريون الذين لا يؤمنون برب ولا ببعث ولا بحساب، ومثلهم الفلاسفة الذين يقولون: "إن هذه الأمور إنما هي من باب التخييلات من أجل مصالح الناس"، فالرسل أو الأنبياء يقولون: هذه الأشياء من باب التخييلات من أجل مصالح الناس، وإلاَّ ليس هناك جنة، وليس هناك نار، وليس هناك بعث، وإنما يخيِّلون هذه الأشياء، من باب الكذب للمصلحة، من أجل أن الناس يستقيمون، ويتركون الأعمال الدنيئة، ويعملون الأعمال الطيبة، وإن لم يكن هناك حقيقة للجنة والنار.

وهؤلاء يسمّون (المخيّلة)، وهم فئة من الفلاسفة؛ ومن الطوائف الباطنية من ينكر الجنة والنار، ويقولون: هما عبارة عن رموز فقط، وليس هناك حقائق، فالكَفَرَة على اختلاف أصنافهم: من مشركيّة، ودهريّة، وفلاسفة، وباطنية، كلهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ولهذا توعد الله سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾

[المؤمنون:١١٥] يعني: لو كان ليس هناك بعث ولا حساب، صار خلق الله لهذه المخلوقات في باب العبث، لأنها لا تؤدِّي إلى غاية ولا نتيجة، فالظالم يظلم في هذه الدنيا، والقاتل يقتل، والعاصي يعصي، والمطيع يُتعبُ نفسه بالطاعة والعبادة ولا يلقى جزاءً، -تعالى الله عما يقولون-؛ أما إذا كان هناك بعث ونشور وجزاء على الأعمال. المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كان خلق الخلق إذا لحكمة وغاية، وليس عبثاً، فهناك من الظَلَمة من يموت وهو ما جوزي في هذه الدنيا، وهناك من الصالحين من يموت وهو فقير مريض، لماذا؟ لأن الجزاء في الآخرة، هؤلاء ينتظرهم جزاؤهم في الآخرة. هذا الكافر، وهذا الظالم، وهذا الطاغية، وهذا الجبّار، ينتظرهم جزاؤهم في الآخرة، وهذا المؤمن التقي الصالح الذي مات بالمرض والفقر هذا ينتظره جزاؤه في الآخرة في الجنّة، لأن الله ما خلق الخلق وأجرى هذه الأمور عبثاً، لا بد لها من نتيجة، ولا بد لها من غاية تنتهي إليها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣٦)﴾ [القيامة:٣٦] يعني: لا يُؤمر، ولا يُنهى، ولا يُبعث، ولا يُجازى، يأكل ويشرب ويمكر ويفسق وينتهي أمره إلى لا شيء؟، أو يتقي ويطيع ويتعب نفسه بالعبادة وينتهي أمره إلى لا شيء؟، فهذا وجه النص على الإيمان بالجنة والنار، لأن الإيمان بهما يحدو على العمل الصالح، والتوبة من العمل السيئ، ولأن البعث والحساب أنكره كثير من الطوائف الكافرة، فلابد من الإيمان به، والتصديق به، والإقرار به، وهو أحد أركان الإيمان الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وقد ذكر في هذا الحديث البراءة من الملل الثلاث: "ملة اليهود؛ وملة النصارى، وملة المشركين" فهو حديث عظيم.

فقوله ﷺ: ((من شهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله)) هذا فيه البراءة من دين المشركين.

وفي قوله: ((وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم)) هذا فيه البراءة من دين اليهود والنصارى، لأن اليهود كفروا بعيسى، والنصارى غلوا فيه، حتى جعلوه ربًّا، وأيضاً اليهود والنصارى كل منهم كفر بمحمد ﷺ.

فهذا فيه البراءة من الملل الثلاث: ملة المشركين، وذلك بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والبراءة من ملة اليهود والنصارى، وذلك في شهادة أن عيسى عبد الله ورسوله.

والشاهد من هذا الحديث للباب: "باب فضل التّوحيد وما يكفر من الذنوب" أن الرسول ﷺ قال في آخره: ((أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)) هذا وعد من الله سبحانه وتعالى لأهل التّوحيد بأن الله يدخلهم الجنة، وأهل التّوحيد هم: الذين شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، هؤلاء هم أهل التّوحيد، وعدهم الله أن يدخلوا الجنة، فهذا فيه فضل التّوحيد، وأنه سبب لدخول الجنة.

لكن ما معنى: ((على ما كان من العمل))؟، في ذلك قولان لأهل العلم:

القول الأول: أدخله الله على ما كان من العمل، يعني: ولو كان له سيئات دون الشرك فإن ذلك لا يحول بينه وبين دخول الجنة، إما من أول وَهْلَة، وإما في النهاية، ففيه: فضل التّوحيد، وأنه يكفر الذنوب بإذن الله أو يمنع من الخلود في النار.

والمعنى الثاني: أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، أي: أنه يدخل الجنة، فتكون منزلته فيها بحسب عمله، لأن أهل الجنة يتفاوتون في منازلهم بحسب أعمالهم، فمنهم من هو في أعلى الجنة، ومنهم من هو دون ذلك، فأهل الجنة يتفاضلون في منازلهم، والجنة درجات، بعضها فوق بعض، كما أن النار دركات بعضها تحت بعض، والنار أسفل سافلين، أما الجنة فإنها أعلى عِلِّيِّين، والنبي ﷺ يقول: ((إن في الجنة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله))، دلّ على أن الجنة درجات، وأن الناس ينزلون منها فيها بحسب أعمالهم، منهم من يُرى منزله كالكوكب الدُّرِّي الغابر في المشرق أو المغرب لبعد ما بينهم من التفاضل، ومنهم من يكون دون ذلك. ٤

قال الحافظ: معنى قوله: ((على ما كان من العمل)) "أي: من صلاح أو فساد، لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: ((على ما كان من العمل)) أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات". ٢

مناسبة هذا الحديث للباب قوله ((على ما كان من العمل)) وقوله ((على ما كان)) يعني على الذي كان عليه من العمل، ولو كان مقصِّراً في العمل، وعنده ذنوب وعصيان، فإن فضل توحيده لله وشهادته لله بالوحدانية، ولِنَبِيِّهِ بالرسالة، ونفي إشراك المشركين بعيسى، وإقراره بالغيب وبالبعث، فإن ذلك له فضل عليه؛ وهو أن يدخله الله الجنة، ولو كان مقصِّراً في العمل، وهذا من فضل التوحيد على أهله. ٣

وفي هذا الحديث الرد على سائر الطوائف الكفريّة، ففيه ردٌّ على المشركين الوثنيين، وفيه ردٌّ على اليهود، وفيه ردٌّ على النصارى.

وفي الحديث -أيضاً-: وجوب الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، لأنه نص على الإيمان بعيسى وبمحمد ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى أنه يجب الإيمان بجميع الرسل كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فلابد من الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بالجميع، فاليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بموسى قد كفروا بموسى، لأنهم بكفرهم بمحمد ﷺ كفروا بموسى، لأن موسى أخبر ببعثة محمد ﷺ كما هو موجود في التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجيل يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] كذلك عيسى عليه السلام أخبر بمحمد ﷺ وأمر بالإيمان به ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فعيسى عليه السلام بشّر بني إسرائيل بمحمد ﷺ، وهذا معناه: أنه

أمرهم بالإيمان به، فالنصارى لما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ كفروا بعيسى، لأنه بشرهم بمحمد ﷺ فمعنى هذا: أنهم كذبوا نبيّهم عيسى الذي يزعمون أنهم آمنوا به، والرسل كلهم يصدِّق بعضهم بعضاً، ويؤمن بعضهم ببعض، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- سلسلة واحدة من أولهم إلى آخرهم، أولهم يُبشر بلاحقهم ومتأخرهم، وآخرهم يصدِّق بأولهم ويؤمن بأولهم، فهم سلسلة واحدة، ولهذا يقول جل وعلا في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء:١٠٥] مع أنهم ما كذبوا إلاَّ نبيهم فقط، لكن لما كذبوا نبيهم كذبوا جميع المرسلين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:١٠٥] إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾ [النساء:١٠٦].

قوله: "أخرجاه" أي: "البخاري ومسلم" في صحيحيهما. ٤

التوحيد عند المتكلمين:

يقولون: إن معنى إله: آله، والآله: القادر على الاختراع؛ فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله، فتقول: هو واحد في ذاته، لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولآمنت به وصدقت؛ لأن قريشاً تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر، لأن القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أما الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه، فصار فهم المشركين خيراً من فهم هؤلاء المتكلمين والمنتسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ أي من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله.

ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكُتَّاب الآن الذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية، لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوى هو نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر فيها هوى الإنسان على نفسه حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذي همه الدرهم والدينار ونحوهما عابداً[1]، وقال الله -عز وجل-: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك. وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

١- شرك أكبر.

٢- شرك أصغر.

٣- معصية كبيرة.

٤- معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: "كل معصية، فهي نوع من الشرك".

وقال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص"، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قيل لابن عباس: "إنّ اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خرب؟!"؛ فالشيطان لا يأتي ليخرّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرّب المعمور، ولهذا لما شُكي إلى النبي ﷺ أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلم به؛ قال: ((وجدتم ذلك؟)). قالوا: نعم.

---

[1] سبق تخريجه.

قال: ((ذاك صريح الإيمان))[1]؛ أي: أن ذاك هو العلامة البينة على أنّ إيمانكم صريح لأنّه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص. ٥

ولهما في حديث عتبان: ((فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)).

وقوله: "ولهما" أي: البخاري ومسلم.

"في حديث عتبان" هو عتبان بن مالك الأنصاري، صحابي مشهور رضي الله عنه.

((حرّم على النار)) التحريم: المنع، أي: منعه من دخول النار، أو منع النار أن تمسه. ٤

قوله ((مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إلاّ الله)) المراد بالقول هنا، الذي معه تمام الشروط، كقول النبي ﷺ ((الحجُّ عرفة)) يعني إذا أتى ببقية الأركان والواجبات، قوله هنا ((مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله)) يعني باجتماع شروطها، وبالإتيان بلازمها، ((يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله)) ليخرج حال المنافقين – لأنهم حين قالوها لا يبتغون بذلك وجه الله– فإن الله حرم عليه النار. ٣

((من قال: لا إله إلاَّ الله)) أي: نطق بها بلسانه وأعلنها.

((يبتغي بذلك)) أي: بقوله لها ونطقه بها.

((وجه الله)) أي: مخلصاً له بها، لم يقلها رياءً ولا سمعةً ولا نفاقاً، بل يعتقد ما دلّت عليه من إفراد الله بالعبادة؛ وترك عبادة ما سواه، واعتقاد بطلانها، والبراءة منها ومن أهلها. ٤

قوله: ((من قال: لا إله إلا الله))، أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: ((يبتغي بذلك وجه الله)).٥

دل هذا الحديث: على أنه لا يكفي مجرّد النطق بلا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها، وعمل بمقتضاها، واعتقاد لمدلولها. ٤

الحديث واضح الدلالة على شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا الله، حيث قال: ((يبتغي بذلك وجه الله))، ولهذا قال بعض السلف عن قول النبي ﷺ: "((مفتاح الجنة: لا إله إلا الله))[2]، لكن من أتى بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له". ٥

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الوسوسة في الإيمان.

[2] الإمام أحمد في "المسند" ٢٤٢/٥، والهيثمي في "المجمع" ١٦/١، والخطيب في "المشكاة" ٩١/١، قال الهيثمي: "رواه أحمد والبزار وفيه انقطاع"، وضعفه الألباني في "الضعيفة" ٤٧٧/٣.

وقوله: ((حَرّمَ عَلَى النّارِ)) التحريم في نصوص الكتاب والسنَّة -تحريم النار- يأتي على درجتين: الأولى تحريم مؤبد، والثانية تحريم بعد أمد:

- التحريم المؤبد: يقتضي أن من حرَّم اللهُ عليه النار، فإنه إذا كان التحريم تحريماً مؤبداً فإنه لن يدخلها، يغفر الله له، أو يكون من الذين يدخلون الجنَّة بلا حساب ولا عذاب.

- التحريم بعد أمد: إذا كان التحريم بعد أمد، يعني ربما يدخلها ثم يحرم عليه البقاء فيها.

وهذا الحديث يحتمل الأول، ويحتمل الثاني، ((فَإِنّ الله قَدْ حَرّمَ عَلَى النّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله))، والذي أتى بالتوحيد، وانتهى عن ضدِّه، وكانت عنده بعض الذنوب والمعاصي، ومات من غير توبة، فهو تحت المشيئة؛ إن شاء اللهُ عذَّبه، ثم حرّم عليه النار، وإن شاء اللهُ غفر له، وحرَّم عليه النار ابتداءً. ٣

قال شيخ الإسلام: "إنّ المبتغي لا بد أن يكمّل وسائل البغية، وإذا أكملها حرمت عليه النار تحريماً مطلقاً، وإن أتى بالحسنات على الوجه الأكمل؛ فإنّ النار تحرم عليه تحريماً مطلقاً، وإن أتى بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئاً من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إله إلا الله ابتغي بذلك وجه الله؛ فهو كاذب في زعمه؛ لأن النبي ﷺ قال: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن))[1]، فضلاً عن أن يكون مبتغياً وجه الله". ٥

ومن قالها مخلصاً وصادقاً فإنه لا يصر على السيئات لأن إيمانه وإخلاصه الكامل يردعه عن الاستمرار والإصرار على المعاصي فيدخل الجنة ابتداءً مع أول الداخلين. ٦

ووجه العلماء هذا الحديث بوجهين:

الأول: أن هذا في حق من قالها صادقاً مخلصاً لم يصر على سيئة أصلاً فأحكم هذه الكلمة حتى صار مؤدياً لجميع الواجبات تاركاً لجميع المنهيات مستقيماً على شرع الله في كل شيء.

---

[1] البخاري: كتاب الأشربة/ باب قوله تعال: ﴿إنما الخمر والميسر...﴾ ، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بالمعاصي.

الثاني: أن هذا في حق من قالها وأتى إلى الله تائباً من خطاياه مقلعاً عن ذنوبه وسيئاته فكل الخطايا ساقطة بهذه الكلمة.

وهذا المعنى لا بد منه لأن الآيات والأحاديث دلت على أن أهل المعاصي على خطر وأنهم متوعدون بالنار، والنصوص لا تعارض بعضها بعضاً ولا تتناقض بينها فوجب حمل النصوص على هذا المعنى حتى لا يكون هناك اختلاف وتناقض. وقد تعلق بعض الجهلة بمثل إطلاقات هذه النصوص وطن أن هذه الكلمة تكفي بمجرد القول وإن ترك الواجبات وفعل المعاصي. وهذا مخالف لما أجمع عليه سلف الأمة من أنه: لا بد من أداء الواجبات وترك المحرمات والوقوف عند حدود الله.

ومن ترك الواجبات أو فعل المنهيات فإنه معرض لعقوبة الله تعالى وإن كان يقول هذه الكلمة ويوقن لها. ٦

والدليل على أن من مات على معاصي فهو تحت المشيئة قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء:٤٨] ودلت الأحاديث أن أهل المعاصي معرضون للوعيد وأنهم يدخلون النار ثم يخرجون بشفاعة الأنبياء وغيرهم، لأنهم أضعفوا توحيدهم ولطخوه بالمعاصي. ٦

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة وهو المعنى الحقيقي الذي خلا عنه أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والمرجئة و غيرهم. ٦

وفي الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يقولون: يكفي قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه ردٌّ على الخوارج والمعتزلة؛ لأن ظاهر الحديث أن من فعل هذه المحرمات لا يخلد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار. ٥

من كفر بالله فإن الشهادة لا تنفعه وإن شهدها. ٦

فإذن وجه الشاهد من الحديث للباب، أنَّ هذه الكلمة وهي كلمة التوحيد، وسيأتي بيان معناها مفصّلاً إن شاء الله تعالى، هذه الكلمة لما ابتغى بها صاحبها وجه الله، وأتى بشروطها، وبلوازمها، تفضَّل الله عليه، وأعطاه ما يستحقه من أنَّه حرّم عليه النار، وهذا فضل عظيم، نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من أهله. ٣

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((قال موسى: يا رب، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: يا موسى: قل لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله)) [رواه ابن حبان، والحاكم وصححه].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أن ((نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله))[1]. ١

قوله: "وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه" هو سَعْدُ بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه صحابي.

"عن رسول الله ﷺ قال: ((قال موسى: يا رب، علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به)) طلب من ربه أن يعلمه كلاماً يعظّمه به، ويطلب منه به حاجاته، ويتوسل به إليه.

((قل يا موسى: لا إله إلاَّ الله)) أي: لا معبود بحق إلاَّ الله.

((قال)) أي: موسى، ((يا رب، كل عبادك يقولون هذا)) أي: وإنما أريد شيئاً تخصني به من بين عموم عبادك.

((قال)) أي: الرب سبحانه وتعالى مبيناً لموسى وغيره فضل هذه الكلمة على غيرها من ألفاظ الذكر، ((لو أن السماوات السبع)) أي: الطباق، ((وعامرهن)) أي: من فيهن من العمّار ((غيري)) أي: غير الله سبحانه، لأنه سبحانه في السماء. ففيه دليل على إثبات العلو. ٤

[1] أحمد (٢/١٧٠). والبخاري في الأدب المفرد رقم ٥٤٨، والنسائي...

قوله: ((غيري))، استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأن قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء؛ فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء؛ لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانٌّ أن السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظل لهم، أما بالنسبة لله؛ فهي جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يقله شيء من خلقه. ٥

((والأرضين السبع)) أي: ومن فيهن من السكان. وفيه أن الأرض سبع طباق كالسماء، ((في كِفَّة)) أي: إحدى كفتي الميزان، ((ولا إله إلا الله في كفة)) أي: في الكفة الأخرى، ((مالت بهن لا إله إلاَّ الله)) أي: رجحت بالسماوات السبع ومن فيهن غير الله، وبالأرضين السبع ومن فيهن، وذلك لما اشتملت عليه هذه الكلمة من نفي عبادة غير الله، وإثبات العبادة لله، وتقرير التّوحيد، وإبطال الشرك. ٤

قوله: ((كل عبادك يقولون هذا))، ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأنّ موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظَم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعة؛ فبين الله لموسى أنه مهما أعطي فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأنّ لا إله إلا الله أعظم من السماوات والأرض وما فيهن؛ لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظَمها، لكن لابد من الإتيان بشروطها، أما مجرد أن يقولها القائل بلسانه؛ فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئاً ؛ لأنّه لم يقلها على الوجه الذي تمت به الشروط وانتفت به الموانع. ٥

قوله: ((مالت بهن لا إله إلا الله)) أي رجحت عليهن وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة ورأس اللبن فمن قالها بإخلاص ويقين وعمل بمقتضاها ولوازمها واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ١

لا إله إلا الله كلمة توحيد فيها ثِقَلٌ لميزان من قالها، وعظم في الفضل لمن اعتقدها، وما دلت عليه، فلهذا قال: ((مالت بهن لا إله إلا الله)). ٣

ولما كان بالناس -بل بالعالم كله- من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة. ٢

ففي هذا الحديث:

- فضل لا إله إلاَّ الله، وأنها أفضل الذكر، وأنه لابد من الإتيان بها كلها، وما فيها من النفي والإثبات، وأنه لا يكفي الإتيان بلفظ الجلالة (الله) أو لفظ (هو هو) كما تفعله الصوفية الضُلاَّل.
- وفيه أن الذكر وغيره من أنواع العبادة توقيفي، لأن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يعلمه شيئاً يذكره به، فيه أن لا إله إلا الله ذكر ودعاء. ٤

"قل لا إله إلا الله"، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته إذاً؛ فهو متضمن للدعاء. ٥

ودعاء: لأن قائلها يرجوا ثوابها وهكذا كل الأذكار من تسبيح وتحميد وحوقلة. ٦

- في هذا الحديث دلالة على أن أهل الفضل والرفعة في الدين والإخلاص والتوحيد قد يُنبَّهون على شيء من مسائل التوحيد، فهذا موسى عليه السلام -وهو أحد أولي العزم من الرسل-، وهو كليم الله جل وعلا، أراد شيئاً يختص به غير ما عند الناس، وأعظم ما يختص به أولياء الله وأنبيائه ورسله وأولوا العزم منهم، هو كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فأراد شيئاً أخص، فعلم أنه لا أخص من كلمة التوحيد؛ فهي أفضل شيء، وهي التي دُلّ عليها أُولوا العزم من الرسل، ومَنْ دونهم من الناس. ٣
- وفي الحديث دليل على أن الله تعالى فوق السماوات. ١

وجه الدِّلالة: أنَّه لو تُصُوِّر أن ذنوب العبد بلغت ثقل السماوات السبع، وثقل ما فيها من العُبَّاد والملائكة، وثقل الأرض، لكانت لا إله إلا الله مائلة بذلك الثقل من الذنوب.

وهذا هو الذي دل عليه حديث البطاقة؛ حيث جُعل على أحد العصاة سجلات عظيمة، فقيل: له هل لك من عمل؟ فقال: لا، فقيل: بلا، ثم أخرجت له بطاقة فيها لا إله إلا الله فوُضعت في الكفة الأخرى فطاشت سجلات الذنوب وثقُلت البطاقة.

وهذا الفضل العظيم لكلمة التوحيد إنما هو لمن قويت في قلبه؛ ذلك أنها في قلب بعض العباد تكون قوية؛ لأنه مخلص فيها، مصدِّق، لا ريب عنده فيما دلت عليه، معتقد ما فيها، محب لما دلت عليه، فيقوى أثرُها في القلب ونورُها، وما كان كذلك فإنها تُحرق ما يقابلها من الذنوب، وأما من لم يكن من أهل تمام الإخلاص فيها فإنه لا تطيش له سجلات الذنوب.

فإذن يكون هذا الحديث، وحديث البطاقة، يدل على أن لا إله إلا الله لا يقابلها ذنب، ولا تقابلها خطيئة؛ لكن هذا في حق من كمّلها وحقّقها بحيث لم يخالطها في قلبه في معناها ريب ولا تردد؛ ومعناها مشتمل على الربوبية بالتضمن، وعلى الأسماء والصفات باللزوم، وعلى الإلهية بالمطابقة.

فإذن يكون من يَكمُل له الانتفاع بهذه الكلمة، ولا يقابلها ذنوب وسجلاّت ولو كانت في ثقل السماوات وما فيها والأرض، يكون ذلك في حق من كمَّل ما دلت عليه من التوحيد، وهذا معنى هذا الحديث وحديث البطاقة. ٣

قال ابن القيم: "فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب فتكون صورة العمل واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض". قال: "تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه" [١].١

---

[١] مدارج السالكين ١/٣٣١

وهذا أيضاً هو الذي دل عليه الحديث الآخِر في الباب عن أنسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ؛ يقول: ((قال الله تعالى: يا ابنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بي شيئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))، وهذا من فضل التوحيد وتكفيره الذنوب، ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة، وهي أنه من أتى بذنوب عظيمة ولو كانت كقُراب الأرض خطايا يعني كعظم وقدر الأرض خطايا، ولكن لقي الله لا يشرك به شيئاً ، لأتى اللهُ لذلك العبد بمقدار تلك الخطايا مغفرة، وهذا لأجل فضل التوحيد وعِظم فضل الله جل وعلا على عباده لأن هداهم إليه ثم أثابهم عليه. ٣

<u>وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)).</u>

ذكر المصنف -رحمه الله- الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال: "عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني))[١]- الحديث ". ٢

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وهذا لفظه: ((ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي جعلت له مثلها مغفرة)) [٢] ورواه مسلم، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ. ٢

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "لـما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى، فأعطي ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً : المقحمات".[٣] رواه مسلم. ٢

---

[١] الترمذي الدعوات (٣٥٤٠).

[٢] مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٧)، ابن ماجه الأدب (٣٨٢١)، أحمد (١٥٣/٥)، الدارمي الرقاق (٢٧٨٨).

[٣] مسلم الإيمان (١٧٣)، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٧٦)، النسائي الصلاة (٤٥١)، أحمد (٤٢٢/١).

شرح الحديث:

هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله –عز وجل–. ٥

قوله "وللترمذي وحسّنه" أي: رواه في سننه، وقال: إنه حديث حسن.

"عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا)) قراب الأرض– بضم القاف–: ملؤها أو ما يقاربه، ((لأتيتك بقرابها مغفرة)). ٤

قوله: ((شيئاً)) نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا شركاً أصغر ولا أكبر.

وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري؛ فحب المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراك، قال النبي ﷺ: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة ...)) الحديث. فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه سماه: عبداً له. ٥

قال ابن رجب: "من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل فإن شاء غفر له وأن شاء أخذه بذنوبه ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة فان كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالا ومهابة وخشية وتوكلاً وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر وربما قلبتها حسنات فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات"[١]. ١

قال العلامة ابن القيم –رحمه الله تعالى– في معنى الحديث: "ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك. فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده.

---

[١] جامع العلوم و الحكم ٢/٤١٦-٤١٧

فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي." اهـ. ٢

فوائد الحديث:

- فيه: أن مغفرة الذنوب مشروطة بتجنب الشرك.
- وفيه فضل التّوحيد.
- وفيه الرد على الخوارج الذين يكفّرون بالكبائر. ٤

وعلى المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين وهي منزلة الفاسق فيقولون ليس بمؤمن ولا كافر ويخلد في النار والصواب في ذلك قول أهل السنة أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق ولا يعطاه على الإطلاق بل يقال هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة. ١

- وفيه سعة فضل الله ورحمته. ٤

مناسبة الحديث للترجمة:

أن في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب؛ فهو مطابق لقوله في الترجمة: "وما يكفر من الذنوب". ٥

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: (لا إله إلا الله) وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: ((فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)) أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: ((على ما كان من العمل)).

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله. لقوله: ((أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)). ٥

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله. لقوله: ((مالت بهن لا إله إلا الله)). ٥

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب. لقوله: ((لأتيتك بقرابها مغفرة))؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها. ٥

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام. وهي قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالظلم﴾؛ فالظلم هنا الشّرك، لقوله عز و جل: ((ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾)). ٥

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة. ١،٢- الشهادتان. ٣- أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.٤- أن الجنة حق.٥- أن النار حق. ٥

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: (لا إله إلا الله) وتبين لك خطأ المغرورين. لأنّه لا بد أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلابد أن تحمل المرء على العمل الصالح. ٥

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان. وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم. ٥

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله. فغيرهم من باب أولى. ٥

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه. فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنه قد يكون اختل شرطٌ من الشروط؛ أو وجد مانع من الموانع؛ فإنها تخف بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات. ٥

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات. لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحاً أن السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿قل من رب السماوات السبع﴾ [المؤمنون: ٨٦]، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد. ٥

الحادية عشرة: أن لهن عُماراً. أي: السماوات، وعمارهن الملائكة. ٥

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية.

وفي بعض النسخ خلافاً للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنها أعم، حيث تشمل الأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم؛ ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: "يبتغي وجه الله"، وإثبات الكلام بقوله: "وكلمته ألقاها"، وإثبات القول في قوله: "قل لا إله إلا الله". ٥

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: ((فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)) أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

وفي بعض النسخ: إذا ترك الشرك. أي: أن قوله: "حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك (يعني: ترك الشرك)"، وليس مجرد قولها باللسان؛ لأن من ابتغى وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يشرك أبداً. ٥

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه. وتأمل الجميع من وجهين:الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة. الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل محمد، وأنه عبد ورسول، وليس رباً ولا ابناً للرب -سبحانه-. ٥

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله. أي: أن عيسى انفرد عن محمد في أصل الخلقة؛ فقد كان بكلمة، أما محمد ﷺ؛ فقد خلق من ماء أبيه. ٥

السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه. أي: أن عيسى روح من الله، و"من" هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قبل الله وليست بعضاً من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة. ٥

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار. لقوله في حديث عبادة: ((وأن الجنة حق، والنار حق))، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة. ٥

الثامنة عشرة: معرفة قوله: ((على ما كان من العمل)). أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قل، أو على ما كان من العمل السيئ ولو كثر، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج، ولم تذكر أركان الإسلام هنا؛ لأن منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإن الصحيح أنه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روي عن الإمام أحمد أن جميع أركان الإسلام يكفر بتركها، لكن الصحيح خلاف ذلك. ٥

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان. أخذها المؤلف من قوله: ((لو أن السماوات...)) إلخ، ((وضعت في كفّة ولا إله إلا الله في كفة))، والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل، يعني أن قول: لا إله إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أن هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة. ٥

العشرون: معرفة ذكر الوجه. يعني: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأن من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالى أبعاض؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى الله. ٥

(بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَل الْجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَل الْجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ)

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل: ١٢٠]، وقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِم لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بِنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذي انْقَضَّ الْبارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ قَالَ :فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَديثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الْحُصيبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إلى مَا سَمِعَ. وَلكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِيَ سَوادٌ عَظيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذا سَوادٌ عَظيمٌ، فَقِيلَ لِيَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُم سَبْعونَ ألفاً يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ))، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَل مَنْزَلَهُ. فَخاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإسلام فَلَمْ يُشْرِكُوا باللَّهِ شيئاً ، وَذَكَرُوا أَشْياءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فقَالَ: ((هُم الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقونَ وَلَا يَكْتَوونَ وَلَا يَتطَيَّرونَ وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ))، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم. قَالَ: ((أَنْتَ مِنْهُم)) ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فقَالَ :ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم. فَقَالَ: ((سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ .))

هذا هو الباب الثالث من أبواب هذا الكتاب المبارك (كتاب التّوحيد) وهو: "باب من حقق التّوحيد دخل الجنة بغير حساب".

ولما ذكر الشيخ رحمه الله في الباب الأول معنى التّوحيد، وحقيقته من الكتاب والسنّة، وليس من كلام البشر الذين يؤلفون في العقائد، وكلٌّ يفسر التَّوحيد على حسب مذهبه، من المعتزلة، والأشاعرة، وعلماء الكلام، أما الشيخ رحمه الله فإنه فسَّر التّوحيد من الكتاب والسنة، بالآيات والأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

ثم ذكر الباب الثاني وهو فضل هذا التّوحيد، الذي جاء به الكتاب والسنّة، وما يكفِّر من الذنوب، ثم جاء هذا الباب الثالث من حقّق هذا التّوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وتحقيق التّوحيد: تصفيته من الشرك والبدع والذنوب.

فإن قيل: (باب فضل التّوحيد)، و(باب من حقّق التّوحيد) ما الفرق بينهما؟:"

الفرق: فضل التّوحيد في حق الموحّد الذي ليس عنده شرك، ولكن قد يكون عنده بعض المعاصي التي تكفر بالتّوحيد.

أما هذا الباب فهو أعلى من الباب الذي قبله: "من حقق التوحيد" يعني: أنه لم يشرك بالله شيئاً ، ولم يكن عنده شيء من المعاصي، هذا تحقيق التّوحيد، ومن بلغ هذه المرتبة دخل الجنة بلا حساب، أما من كان في المرتبة التي قبلها، وهو الموحّد الذي عنده ذنوب فهذا قد يُغفر له، وقد يعذب بالنار، ثم يُخرج منها. ٤

هذا الباب (باب من حقق التوحيد؛ دخل الجنة بغير حساب)، وقد ذكر في الباب قبله (فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب)، وهذا الباب أرفع رتبة من بيان فضل التوحيد، فإن فضل التوحيد يشترك فيه أهله.

وأهل التوحيد هم أهل الإسلام، فلكلٍّ من التوحيد فضل، ولكل مسلم نصيب من التوحيد، وله بالتالي نصيب من فضل التوحيد، وتكفير الذنوب.

أمّا خاصة هذه الأمة فهم الذين حققوا التوحيد، ولهذا عطف هذا الباب على ما قبله لأنه أخص (باب من حقق التوحيد؛ دخل الجنة بغير حساب). ٣

لأن الموحّدين على ثلاث طبقات:

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [فاطر:٣٢ -٣٣] الآية.

الطبقة الأولى: الذين سلموا من الشرك، وقد لا يسلمون من الذنوب التي هي دون الشرك وهم الظالمون لأنفسهم وهم معرضون للوعيد.

الطبقة الثانية: المقتصدون الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات وقد يفعلون بعض المكروهات ويتركون بعض المستحبات وهم الأبرار.

الطبقة الثالثة: التي سَلِمَت من الشرك الأكبر والأصغر ومن البدع وتركت المحرمات والمكروهات وبعض المباحات واجتهدت في الطاعات من واجبات ومستحبات وهؤلاء هم السابقون بالخيرات ومن كان بهذه المرتبة دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب. ٤

وتحقيق التوحيد هو مدار هذا الباب، تحقيقه بمعنى تحقيق الشهادتين: لا إله إلاَّ الله، محمد رسول الله. ومعنى تحقيق الشهادتين تصفية الدين -يعني ما يدين به المرء- من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

فصار تحقيق التوحيد يرجع إلى ثلاثة أشياء:

الأول: ترك الشرك بأنواعه الأكبر والأصغر والخفي.

والثاني: ترك البدع بأنواعها.

والثالث: ترك المعاصي بأنواعها.

وتحقيق التوحيد صار تصفيته من: أنواع الشرك، وأنواع البدع، وأنواع المعاصي.

وتحقيق التوحيد يكون على هذا على درجتين:

- درجة واجبة.
- ودرجة مستحبة.

وعليها يكون الذين حققوا التوحيد على درجتين أيضاً:

فالدرجة الواجبة: أن يترك ما يجب عليه تركه من الثلاث التي ذكرت؛ يترك الشرك خفيَّه وجليه صغيرَه وكبيره، ويترك البدع ويترك المعاصي، فهذه الدرجة الواجبة.

والدرجة المستحبة من تحقيق التوحيد: وهي التي يتفاضل فيها الناس من المحققين للتوحيد أعظم تفاضل، ألا وهي: ألاّ يكون في القلب شيء من التوجّه أو القصد لغير الله جلّ وعلا؛ يعني أن يكون القلب متوجهاً إلى الله بكليته، ليس فيه التفات إلى غير الله؛ نُطْقه لله وفعله وعمله لله؛ بل وحركةُ قلبه لله جلّ جلاله، وقد عبّر عنها بعض أهل العلم –أعني هذه الدرجة المستحبة–: أن يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، يعني في مجال أعمال القلوب، وأعمال اللسان، وأعمال الجوارح.

فإذن رجع تحقيق التوحيد –الذي هذا فضله؛ وهو أن يدخل أهله الجنة بغير حساب ولا عذاب–، رجع إلى تَيْنِكَ المرتبتين، وتحقيقه تحقيق الشهادتين لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ لأن في قوله لا إله إلا الله الإتيان بالتوحيد والبعد عن الشرك بأنواعه. ولأن في قوله أشهد أن محمداً رسول الله البعد عن المعصية والبعد عن البدع؛ لأن مقتضى الشهادة بأن محمداً رسول الله أن يطاع فيما أمر، وأن يصدَّق فيما أخبر، وأن يجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع.

فمن أتى شيئاً من المعاصي والذنوب ثم لم يتب منها، أو لم تُكفَّر له، فإنه لم يحقق التوحيدَ الواجب، وإذا أتى شيئاً من البدع فإنه لم يحقق التوحيد الواجب، وإذا لم يأتِ شيئاً من البدع، ولكن حسّنها بقلبه، أو قال لا شيء فيها، فإن حركة القلب كانت في غير تحقيق التوحيد، في غير تحقيق شهادة أنَّ محمداً رسول الله فلا يكون من أهل تحقيق التوحيد.

كذلك أهل الشرك بأنواعه ليسوا من أهل تحقيق التوحيد.

وأمّا مرتبة الخاصة التي ذكرتُ، ففيها يتنافس المتنافسون، وما ثَمَّ إلاّ عفو الله ومغفرته ورضوانه. ٣

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئاً قبل أن تعلمه، قال الله تعالى:

﴿فأعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [محمد: ١٩].

الثاني: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص:٥]؛ فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأن هذا حكاية حكم ثابت شرعاً، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله.

أما بالنسبة للرجل المعين؛ فإننا نقول: إن شاء الله. ٥

وتحقيق التوحيد: هو معرفته والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفاً، وإنابة وتوكلاً، ودعاءً وإخلاصاً، وإجلالاً وهيبةً، وتعظيماً وعبادةً.

وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله ولا إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود وما أحسن ما قال ابن القيم:

"فلواحد كن واحداً في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان"

وذلك هو حقيقة الشهادتين فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. ١

"بلا حساب" أي: لا يحاسب لا على المعاصي ولا على غيرها. ٥

فمن حقق توحيده وسلم من الشرك والبدع والمعاصي دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ لأن الشرك الأكبر ينافي التوحيد، والأصغر ينافي كمال الواجب، والبدع والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه. ٦

استدل الشيخ في هذا الباب بآيتين وبحديث أما الآية الأولى قال رحمه الله: ٣

قال: "**وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** إبراهيم عليه السلام هو إمام المحققين للتوحيد، بعثه الله عزّ وجلّ لما غطّى الشرك على وجه الأرض في وقته، وهو وقت النَّمرود الكافر الملحد الذي ادعى الربوبية، وكان قومه يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل ويُسَمَّوْن بالصابئة، وهم في أرض بابل من العراق، ثم حصل بينه وبينهم مصادمة ذكرها الله تعالى في القرآن، انتهى بهجرة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- من أرض العراق إلى أرض الشام وإلى الحجاز، حيث جعل قسماً من ذريته في الشام وهم إسحاق وذرّيته، أولاد زوجه سارة، وذهب بإسماعيل بن سُرّيته هاجر وأمه إلى مكة، أرض الحرم، بأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] أي: مهاجر من أرض الكفر والشرك إلى أرض التّوحيد بالشام والحجاز، تلك المواطن المباركة، التي صار فيها بيت المقدس، وفيها البيت العتيق أول بيت وُضع للناس، وهو الكعبة المشرفة بمكة، فأورثه الله هذه البلاد وهذه البيوت إكراماً له ولذريّته -عليه الصلاة والسلام-، عوّضه الله أرضاً خيراً من أرضه، وقد وصفه الله تعالى في هذه الآية بأربع صفات، كلها من تحقيق التّوحيد". ٤

مناسبة الآية للترجمة: من جهة أن الله تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التي هي أعلى درجات تحقيق التوحيد ترغيباً في اتباعه في التوحيد وتحقيق العبودية باتباع الأوامر وترك النواهي فمن اتبعه في ذلك فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم عليه السلام. ١

هذه الآية فيها الدِّلالة على أنَّ إبراهيم عليه السلام كان محققاً للتوحيد؛ وجه الدلالة أن الله جلّ وعلا وصفه بصفات. ٣

الصفة الأولى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، والأمة معناها: القدوة في الخير، فهو إمامٌ للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة:١٢٤] يعني: قدوة لأهل الخير إلى أن تقوم الساعة، فقوله أُمّة يعني: إماماً وقدوة. ٤

أنه كان أُمّة، والأمة هو الإمام الذي جمع جميع صفات الكمال البشري وصفات الخير، وهذا يعني أنه لم ينقص من صفات الخير شيئاً ، وهذا هو معنى تحقيق التوحيد. ٣

لأن الأمة لها ثلاث إطلاقات في القرآن، هذا أحدها؛ أُمَّة بمعنى قدوة، كما في هذه الآية. الإطلاق الثاني: الأمة بمعنى: مقدار من الزمان ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] أي: بعد زمن وبعد مدة. وتطلق الأمة ويراد بها الجماعة من الناس ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون:٥٢، الأنبياء:٩٢] يعني: جماعة، لأن دين الإسلام دين جماعة، لا دين تفرّق واختلاف، فليس فيه تفرّق وأحزاب، وجماعات وجمعيات متفرقة ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ [آل عمران:١٠٥]، فالمطلوب من المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، على منهج واحد، وعلى دين واحد، وعلى ملة واحدة، كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، وكالجسد إذا اشتكى منه عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ولا يكون ذلك إلاَّ بعقيدة التّوحيد، أما التفرّق والاختلاف والتناحر والتهاجر والتباغض والتنابُذ بين الجماعات وبين الفرق فهذا ليس من دين الإسلام وهذا يكون مع فساد العقيدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾ [الأنعام:١٥٩] نعم قد يوجد الاختلاف في الاجتهاد، ولكن هذا الاختلاف يحسم بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فالمخطئ يرجع، والمصيب يثبت قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩].

الوصف الثاني الذي فيه تحقيق التوحيد: ٣

الصفة الثانية لإبراهيم أنه: ﴿قَانِتاً لِلَّهِ﴾ والقنوت في اللغة معناه: الثبوت والدّوام، أي: مداوماً وثابتاً على طاعة الله، لا يتزحزح عنها، ويُطلق القنوت على طول القيام في الصلاة، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ (٩)﴾ [الزمر:٩]، فمعنى وصف إبراهيم بأنه كان قانتاً أي: أنه كان مداوماً على طاعة الله، ثابتاً عليها، بخلاف الذي يجتهد في يوم أو شهر أو سنة ثم بعد ذلك يتراجع انتكاساً بعدما بدأ بالخير لكنه لم يُكمل، فالمطلوب من الإنسان أن يثبت على الخير، بمعنى أنه يلازم عمل الخير، ولا يتخلى عنه، ولو كان قليلاً فـ((أحب العمل إلى الله أدومه وإن قَلَّ)).

وكذلك ﴿قَانِتاً لِلَّهِ﴾ يعني: أنه يعمل هذا مخلصاً لله، لا يقصد به رياءً ولا سُمعة، ويؤخذ من هذا وجوب الإخلاص، لأن بعض الناس قد يصلي ويحسن صلاته، ويطول قيامه وركوعه من أجل رياء الناس، فإذا أحَسَّ أن عنده أحد يطوّل الركوع والسجود؛ من أجل أن يوصف بأنه صاحب طاعة، وإذا صلى وحده نقر الصلاة، وخفّفها، والإخلاص: أن الإنسان يقصد بعمله وجه الله، ولا يقصد بذلك طمعاً من مطامع الدنيا، أو مدحاً، وثناءً من الخلق، ولا يستمع إلى لومهم إذا لاموه في طاعة الله. قالوا: فلان متشدّد، فلان كذا، ما دام أنه على الطريق الصحيح، وعلى السنة، فلا يضره ما يقوله الناس، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ٤

فمن معاني القنوت: دوام الطاعة، وقنوته كان لله وحده فلم يكن يعبد الله غيره. ٦

الصفة الثالثة: ﴿حَنِيفاً﴾ والحنيف من الحَنَف وهو في اللغة: الميل، والمراد به هنا: الإقبال على الله، وأنه مُعرض عن الناس مُقبل على الله سبحانه وتعالى، يطلب الخير أمن الله وحده. ٤

الصفة الرابعة: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ جمع تصحيح للمشرك، والمشرك اسم فاعل الشرك، و(ال) -كما هو معلوم في العربية- إذا جاءت قبل اسم الفاعل، أو اسم المفعول، فإنها تكون موصولة كما قال ابن مالك في الألفية:

وَصِفَةٌ صَرِيحَةٌ صِلَةُ أَلْ ... وَكَوْنُهَا بِمُعْرَبِ الأَفْعَالِ قَلْ

والاسم الموصول عند الأصوليين يدل على العموم، فكان إذن المعنى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني ولم يكُ فاعلاً للشرك بأنواعه؛ لم يكُ منهم، ولم يكُ من الذين يفعلون الشرك بأنواعه. ٣

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا محل الشاهد من الباب، ومعناه: أنه تبرّأ من المشركين، براءة تامة، أي: قطع ما بينه وبين المشركين من المودّة من أجل الله سبحانه وتعالى، لأنهم أعداء الله، والمؤمن لا يحب أعداء الله.

فإبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين لا بقليل ولا بكثير، قطع صلة المحبة بينه وبينهم، أما صلة التعامل الدنيوي في المصالح المباحة فهذا شيء آخر، إنما المراد قطع صلة المحبة والموالاة والمناصرة، هذا هو المطلوب، أما التعاون الدنيوي فيما فيه نفع للمسلمين، فهذا لا بأس به، يوضِّح هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني: من أتباعه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]؛ يعني: لا تقارب بيننا وبينكم في المودة والمناصرة والمؤاخاة أبداً، إلاَّ إذا آمنتم بالله وحده، وكفرتم بما يعبد من دون الله عزّ وجلّ، وتركتم عبادة الأصنام، فحينئذٍ نكون إخواناً ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ ثم قال في الآية التي بعدها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾ [الممتحنة:٦] ثم قال بعدها: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [الممتحنة:٨].

فهذه أربع صفات وصف الله بها إبراهيم: وهي:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، يعني: قدوة في الخير.

الصفة الثانية: أنه كان قانتاً لله ثابتاً على الطاعة مخلصاً عمله لله.

الصفة الثالثة: أنه كان حنيفاً، مقبلاً على الله معرضاً عما سواه.

الصفة الرابعة: أنه لم يك من المشركين. أي بريء منهم ومن دينهم.

وهذا هو تحقيق التّوحيد يكون بهذه الأمور، وأعظمها البراءة من المشركين، فمن تبرأ من المشركين فهو ممن حقق التّوحيد، ولو كانوا أقرب الناس إليه، فإبراهيم تبرأ من أبيه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شيئاً (٤٢)﴾ [مريم: ٤١-٤٢] إلى أن انتهت المحاورة بقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً (٤٩)﴾ [مريم:٤٨-٤٩] ((من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه)) لما تبرأ من المشركين عوضه الله ذرية أنبياء.

واليوم جماعات يدَّعون أنهم دعاة إلى الله لا يتبرءون من المشركين ما داموا على منهجهم الحزبي!! ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

والواجب على المسلم أن يتقي الله سبحانه وتعالى، وإذا كان يريد أن يدعو إلى الله فليعرف ما هي الدعوة، وما هي أصول الدعوة، وما المطلوب من الداعية، وأن يكون على طريقة إبراهيم عليه السلام وغيره من النبيّين الذين تبرّأوا من المشركين وقاطعوهم بعدما تبرءوا من الشرك وأخلصوا العبادة لله وحده. ٤

المقصود أن الشيخ رحمه الله استحضر هذه المعاني من الآية، فدلته الآية على أنها في تحقيق التوحيد، قال جل وعلا ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ذلك لأن من جمع تلك الصفات فقد حقق التوحيد، ومن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

في تفسير إمام الدعوة المصنف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ في تفسيره لآخر سورة النحل؛ فسر هذه الآية فقال رحمه الله: "إنَّ إبراهيم ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ لأنْ لا يستوحش سالكُ الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينا ولا شمالا، كحال العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثّر سوادهم وزعم أنه من المسلمين".

وهو من التفاسير الرائقة، الفائقة، البعيدة المعاني، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]. ٣

ثم قال الشيخ رحمه الله: "**وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [المؤمنون:٥٩]**

هذه صفة من الصفات التي ذكرها الله في سورة المؤمنون، في السابقين بالخيرات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧)﴾ هذه الصفة الأولى.الصفة الثانية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾. الصفة الثالثة -وهي العظيمة-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾. الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾ [المؤمنون:٦٠].

هذه الصفات العظيمة هي تحقيق التّوحيد من جميع الشوائب، هذا مجملها وإليك تفصيلها:
الصفة الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧)﴾ [المؤمنون:٥٧] الخشية من أعمال القلب، وهي الوَجَل من الله عزّ وجلّ، والخوف من عقابه، خشيةً منه سبحانه وتعالى أن يعاقب العاصي والمذنب على معصيته، ومن أعظم أنواع العبادة، الخوف والخشية والرغبة والرهبة والرجاء، وكل هذه من أعمال القلب، إلاَّ أن الخوف لا يجوز أن يصل إلى حد القنوط، بل يكون خوفاً مقروناً بالرجاء، لا يَيْأَسُون من روح الله ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، والرجاء لا يكون بدون خوف من مكر الله. ولا يأمنون من مكر الله، ويعتمدون على الرجاء فقط، ويتركون الخوف: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف:٩٩]، بل المطلوب الجمع بين الخوف والرجاء، فلا يخاف حتى يَقْنَط، ولا يرجوا حتى يأمن من مكر الله، بل يكون متعادلاً، ولهذا يقول العلماء: "المؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بجناحين لو اختل جناح من الأجنحة سقط الطائر، كذلك المؤمن إذا اختل خوفه أو رجاؤه سقط".

الصفة الثانية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾ [المؤمنون:٥٨]، يؤمنون بآيات الله أي يصدقون بها، ويعملون بها، وآيات الله: القرآن، ويؤمنون به بمعنى: أنهم يصدقون أنه كلام الله سبحانه وتعالى، تكلم الله به وَحْياً، ونزل به جبريل إلى النبي ﷺ، وحفظه النبي ﷺ من جبريل، وبلّغه للناس، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣] يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء:١٩٤-١٩٥]، هذه صفات القرآن، فيؤمن هؤلاء المؤمنون بأن هذا القرآن هو خطاب ربهم لهم أمراً ونهياً، وتعريفاً به سبحانه وبصفاته، وإخباراً لهم عن الغيوث الماضية والغيوب المستقبَلة، وهذا القرآن أعظم الكتب التي نزلت من السماء، وقد أودع الله فيه من العلوم العظيمة والأسرار العظيمة ما لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى. والعوام يفهمون من القرآن، والمبتدءون في التعليم يفهمون من القرآن، والراسخون في العلم يفهمون أكثر من غيرهم، كل على قدر ما أعطاه الله سبحانه وتعالى، لأن القرآن -كما يقول ابن عباس- على أربعة أنواع: منه ما تعرفه العرب من لغتها، كالنار، والجنة، والزنا، والخمر، والشرك، والكفر، والربا. ومنه ما لا يُعذر أحد بجهل الله مثل: معرفة الصلاة، والصيام، والحج، وأركان الإسلام، كل واحد مطالب بأن يعرفها. ومنه ما يعرفه العلماء، خاصة كالمحكم، والمتشابه، والمطلق، والمقيد، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، هذه الأنواع إنما يعرفها العلماء الذين درسوا علوم الشريعة. والنوع الرابع: ما لا يعلمه إلاَّ الله، وهو حقائق ما ذكره الله في القرآن من الجنة والنار، وكيفية صفات الرب سبحانه وتعالى، فنحن نعرف معانيها، لكن كيفيَّتها لا يعلمها إلاَّ هو سبحانه وتعالى؛ سمعه، وبصره، وعلمه ووجهه، ويده سبحانه وتعالى، لا يعلم كيفيّتها إلاَّ الله، ونزوله إلى السماء الدنيا، واستواؤه على العرش، كيفيتها لا يعلمها إلاَّ الله سبحانه وتعالى، لكن المعاني اللغوية نعرفها ونفهمها.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾ [المؤمنون:٥٨] أي: يصدقون بهذا القرآن ويتدبّرونه، ويشتغلون به، ويعتنون به، ويعملون بما فيه، ما أمرهم به فعلوه، وما نهاهم عنه تركوه، وما أخبرهم به صدّقوه وآمنوا به، وما اشتبه عليهم ردُّوا علمه إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، هذه طريقة المؤمنين مع القرآن، بخلاف المنحرفين فإنهم لهم مع القرآن مواقف سيّئة، فمنهم الذين قالوا إن القرآن مخلوق، والذين قالوا إن القرآن: له ظاهر وله باطن، وهم الباطنية هؤلاء لا يؤمنون بآيات الله عزّ وجلّ. والذين قالوا إن ظاهر القرآن غير مراد لأنه يوهم التشبيه والتجسيم فيما يخبر عن الله عزّ وجلّ.

الصفة الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [المؤمنون:٥٩] هذا هو تحقيق التّوحيد، لا يشركون أبداً، شركاً أصغر ولا شركاً أكبر، يعني: لا يقع منهم شرك أبداً، هؤلاء الذين حقّقوا التّوحيد، وسلموا من الشرك الأكبر والأصغر والخفي والجلي، وكل أنواع الشرك والبدع والمخالفات. ٤

قال ابن كثير: "﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي: لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له". ١

ووجه الاستدلال من الآية على الباب أنه قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ نفي للشرك -كما ذكرتُ لكم من قبل- أنَّ النفي إذا تسلَّط على الفعل المضارع فإنه يفيد عموم المصدر الذي استكنَّ في الفعل؛ يعني كأنه قال جل وعلا: والذين هم بربهم لا يفعلون شركاً، أو لا يشركون لا بشرك أكبر، ولا أصغر، ولا خفي. ٣

فالمعاصي بالمعنى الأعم -كما سبق- شرك؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣].

أما بالنسبة للمعنى الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

١- شرك. ٢- فسوق.

وقوله: ﴿لا يشركون﴾، يراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ٥

قال العلماء: قدّم هنا قوله ﴿بِرَبِّهِمْ﴾، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ لأن الربوبية تستلزم العبودية. فصار عدم الإشراك في الربوبية معناه عدم الإشراك في الطاعة وعدم الإشراك في العبودية، وهذا وصف الذين حققوا التوحيد؛ لأنه يلزم من عدم الإشراك ألاَّ يُشرك هواه، وإذا أشرك المرء هواه أتى بالبدع أو أتى بالمعصية، فصار نفي الشرك نفياً للشرك بأنواعه، ونفياً للبدعة، ونفيا للمعصية، وهذا هو تحقيق التوحيد لله جل وعلا. ٣

الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ من الطاعات، ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يعني: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ نفى عنهم الإعجاب بأعمالهم، فهم يعملون الأعمال الجليلة، ويخافون من الله أن يردّها عليهم. فهم يخافون أن تردّ عليهم أعمالهم بخلل وقع فيها، لأن الإنسان ليس معصوماً، فهم جمعوا بين الطاعة والخوف، أما أهل التفريط فجمعوا بين الكسل والأمن من مكر الله عزّ وجلّ.

ولذلك يقول ﷺ: ((لن يدخل أحدكم الجنة بعمله))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: ((ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل))، هذا هو مقام تحقيق التّوحيد، فالجنة لا تُدرك بالأعمال، وإنما الأعمال سبب لدخول الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، قال العلماء: الباء باء السببيّة، وليست الباء للثمنيّه، فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وإدخاله عباده الصالحين الجنة تفضل منه، وإحسان منه سبحانه وتعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨] إذا كنت لا تستطيع عدَّها، فكيف تستطيع الشكر؟، ولهذا يقول ﷺ في دعاء

القنوت ((أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك))، هذا سيّد الأنبياء، وإمام المرسلين، وأفضل الخلق يعترف أنه لا يُحصي الثناء على الله سبحانه وتعالى، فكيف بغيره؟

فهؤلاء يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، لأن أعمالهم أقل بكثير مما يجب عليهم، ثم -أيضاً- لا يضمنون أنها تكون متقبلة، قد تكون مردودة بسبب من الأسباب، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ومن يضمن لنفسه أنه من المتقين؟، لكن الإنسان يعمل ولا ييأس ولا يقنط، ويُحسن الظن بالله عزّ وجلّ، إنما لا يستكثر عمله، أو يتمنّن على الله، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، للنبي ﷺ لَمَّا سمعت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت: يا رسول الله، أهم الذين يزنون ويسرقون ويشربون الخمر، ويخافون أن يعذبوا بذنوبهم؟، قال: ((لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم يصلون ويصومون ويجاهدون، ويخافون أن تُردّ عليهم أعمالهم)). ٤

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ((عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب))، ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)) فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: ((أنت منهم)) ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: ((سبقك بها عكاشة)).[١]

[١] رواه البخاري في صحيحه ٥٤٢٠ ومسلم في صحيحه ١٩٩/١رقم ٢٠٠ الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٤٦)، أحمد (٢٧١/١)

ساق الشيخ رحمه الله، هذا الحديث، في "باب من حقق التّوحيد"، بعد أن ذكر الآيات السابقة، لأن هذا الحديث، هو فيمن حقق التّوحيد وما له عند الله من الكرامة، وسبق لنا معنى تحقيق التّوحيد، وأنه تخليصه من شوائب الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع والمخالفات وهذه مرتبة السابقين من هذه الأمة.

قال: "عن حُصين بن عبد الرحمن" السُّلمي، أحد التابعين الثقات.

"قال: كنت عند سعيد بن جُبير" سعيد بن جُبير من أكابر التابعين علماً وورعاً وفقهاً، وهو من تلاميذ ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قتله الحجّاج بن يوسف الثَّقفي قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، وبقتله أُصيبت الأمة بفقد عالم من أجلِّ علمائها.

"فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي أنقض البارحة؟"، يسأل الجالسين عنده، والكوكب معناه: الشِّهاب الذي يُرمى به الشياطين الذين يَسْتَرِقُون السمع، وليس معناه أن الكوكب نفسه يسقط، ولكن ينفصل منه شَظِيَّة.

"الذي انقض البارحة"، أي: الذي سقط

قال: حُصين بن عبد الرحمن: "أنا"، والبارحة كلمة تُطلق على الليلة الماضية، ما قبل الزوال يقال له: الليلة، وما بعد الزوال يقال له: البارحة، مِن "بَرَح الشيء" إذا فات وذهب، هذا عند العرب.

وقوله: "قلت: أنا" يعني: أنا رأيت الكوكب، فدلّ هذا على أن هذا الرجل لم يَنَم.

ثم إنه خشي على نفسه من الرياء، فاستدرك وقال: "أما إني لم أكن في صلاة" يعني: لا تظنوا أني سهرت أتهجّد، خشِي على نفسه الرياء، أن يمدح بشيء ليس فيه، وهذا من ورع السّلف وابتعادهم عن الرياء وتزكية النفس، لأن هذا ينافي الإخلاص. ٤

وقال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل، وهذا خلاف ما عليه بعضهم، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رحمه الله ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعات خوفاً من الرياء؛ لأن الشيطان قد يلعب على الإنسان، ويزيِّن له ترك الطاعة خشية الرياء، بل أفعل الطاعة، ولكن لا يكن في قلبك أنك ترائي الناس. ٥

قوله: "غير أني لم أكن في صلاة": فيه صفة من صفات السلف وهي أنهم كانوا يتحرزون من إظهار أعمالهم خوفاً من الرياء و تزكية النفوس. ٦

وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول فعلت وفعلت ليوهم الأغمار أنه من الاولياء وربما علق السبحه في عنقه أو أخذها في يده يمشي بها بين الناس اعلاما للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز. ١

وقوله: "ولكني لُدِغْت" يعني: السبب في كوني كنت مستيقظاً وقت نزول الشهاب أنني لُدِغْت، واللَّدْغ معناه: إصابة ذات السموم من العقارب ونحوها.

"قال: فما صنعت؟" لأن من عادة المَلْدُوغ أنه يتعاطى شيئاً من العلاج.

وقوله: "ارْتَقَيت"، ٤ ولفظ مسلم: "استرقيت"١ يعني: طلبت من يَرْقِينِي بالقرآن، والرُّقية معناها: أن يُقرأ على المصاب بالمرض أو باللَّدْغ من القرآن والأدعية، ويُنْفَث على موضع الإصابة وموضع الألم. وهذا من أنفع العلاج إذا صدر عن يقين من الرّاقي ويقين من المرْقي، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن شفاءً للأمراض المعنويّة: أمراض الشِّرك، والنفاق، والمعاصي، والأمراض الحسيّة: أمراض الأجساد، لأنه كلام رب العالمين سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ فالرُّقية مشروعة، وقد رَقَى النبي ﷺ ورُقي -عليه الصلاة والسلام-، رَقَاه جبريل لما أصابه السحر، ورَقَى ﷺ بعض أصحابه، فالرُّقية بالكتاب والأدعية أمر مشروع.

قوله: "قال: فما حملك على هذا؟" هذا فيه أن السلف يطلبون الدليل على ما يفعلون وما يقولون، وفيه طلب الدليل على المذهب والاجتهاد. فمن قال بمسألة من المسائل، أو فعل فعلاً، فإنه يطلب منه الدليل على جوازه، أو على مشروعيّته من الكتاب والسنّة.

هذا أدب السلف -رحمهم الله- أنهم لا يُقْدِمون على شيء إلاَّ بدليل من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ خصوصاً في أمور العلاج، لأن النفوس تتشبث بأي شيء لطلب الشفاء، حتى ولو كان غير مشروع. فسعيد بن جُبير ﵀ خَشِي من هذا الأمر. ٤

قوله: "حديث حدثنيه الشعبي"، وهذا يدل على أن السلف ﵃ يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة، فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده. ٥

فهذا فيه أن العلاج لا يكون إلاَّ بما دل عليه دليل من كتاب الله وسنّة رسوله، أما الذهاب إلى المشعوذين والدجّالين والسَّحرة والكَذَبة فهو محرّم، وقد يكون شركاً أكبر يُخرج صاحبه من الملّة؛ إذا ذبح لغير الله، أو دعا غير الله، أو استغاث بالجن أو الشياطين، فإنه يخرج من الملّة، ولو فرضنا أنه شُفي، ماذا ينفعه إذا ذهبت عقيدته وصحّ جسمه، هذا أمر وباب خطير جدًّا، ويجب التحرُّز منه.

وقوله: "قلت: حديث حدثنيه الشَّعْبي" يعني: هذا دليلي على ما فعلت، والشعبي هو: عامر بن شُرَاحيل، الإمام الجليل من أئمة التابعين.

"قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحُصيب" بُريدة بن الحُصيب الأسلمي، من صحابة رسول الله ﷺ، فهذا التابعي- الذي هو الشَّعْبي- يروي عن هذا الصحابي.

قوله: أن النبي ﷺ قال: ((لا رُقية إلاَّ من عين أوُ حمة)) لا رُقية يعني: أنفع وأشفى إلاَّ من عين، أي: إصابة العين بسبب الحسد الذي يكون في بعض الناس، إذا نظر إلى الأشياء أصيبت على أثر نظرته، لأن نظره مسموم، وهذا من عجائب -خلق الله سبحانه وتعالى وقدرته، أنه يجعل بعض الأنظار مسمومة، إذا نظر صاحبها إلى شخص، أو إلى حيوان، أو إلى شيء، أصيب بإذن الله عزّ وجلّ، والعين حق- كما في الحديث، قال ﷺ: ((العين حق، ولو أن شيئاً سبق القدر لسبقته العين))، هذا في الصحيح، وقد أصيب رجل في عهد النبي ﷺ فطلب النبي ﷺ من الذي عانه، أن يغتسل، ثم أخذت غُسالته وصبّت على المصاب،

فشُفي بإذن الله، وقال: ((العين حق، وإن استغسلتم فاغسلوا))، هذا هو علاجها، أنه يَأمر العائن أن يغتسل، ويغسل بواطن إزاره، ثم تُصَب هذه الغُسالة على المصاب، فيُشفى -بإذن الله-، كما فعل النبي ﷺ وكذلك مِن علاجها: الرُّقية، بأن يُقرأ على المصاب بالعين، فاتحة الكتاب، والمعوّذتان.

وقوله: "أو حُمَة" الحُمَة هي: اللَّدْغة من ذوات السّموم، وهذا محل الشاهد من الحديث لما فعله حصين رحمه الله.

ثم قوله: "لا رُقية إلاَّ من عين أو حُمَة" قال العلماء: هذا من باب التأكيد، لا من باب الحَصْر، فالرُّقية تنفع من غير العين والحُمَة أيضاً ومن سائر الأمراض، ولكن أنفع ما يُشفى بالرُّقية هذان المرضان: العين والحُمَة، وإلاّ فإن الرّقية تنفع -أيضاً- من جميع الأمراض -بإذن الله-، فهذا من باب الحصر النِّسبي والتأكيد، كما قال ﷺ: ((لا ربا إلاَّ في النّسيئة))، مع أن هناك ربا الفضل، فمعنى الحديث: ((لا ربا إلاَّ في النسيئة)) يعني: لا ربا أعظم وأشد من ربا النسيئة، فهو أشد من ربا الفضل، لأنه ربا الجاهلية، فليس هذا من باب الحَصْر، وإنما هو حَصْر إضافي. ٤

إذن، فحصين استند على حديث: "لا رقية إلا من عين أو حمة"، وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرُّقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً، وكثير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي ﷺ في سرية، فاستضافوا قوماً، فلم يضيفوهم، فلدغ سيدهم لدغة عقرب، فقالوا: من يرقي؟ فقالواً: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم، فقالوا: نعطيكم. فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: ((وما يدريك أنها رقية؟)) (يعني: الفاتحة)[١]، وكذا القراءة من العين مفيدة.

---

[١] البخاري: كتاب الطب/ باب الرقي بفاتحة الكتاب، ومسلم: كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضاً، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره، أي: ما يلي جسمه من الثياب، كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مجرب.

وأما العائن؛ فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يبرّك عليه؛ لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: ((هلا برّكت عليه))[1]؛ أي: قلت: بارك الله عليك. ٥

ولما أتى حُصين بن عبد الرحمن بالدليل على ما فعل، قال له سعيد بن جبير رحمه الله: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع" أثنى عليه، وصوّبه على هذا الفعل، ء وأنه عَمِل عملاً جائزاً ومباحاً، واستدل بدليل صحيح عن النبي ﷺ، فتأدّب سعيد مع الحديث، ولم يكن مثل بعض الجهّال الذين إذا بلغهم الحديث وهو لا يوافق هواهم، أو لا يوافق مذهبهم، راحوا يطعنون فيه أكبر الطّعن، ويجرّحون ولو كان الحديث في "البخاري"، فإنهم قالوا في أحاديث في "البخاري": "حتى ولو قالها الرسول ﷺ فإن معناها ليس بصحيح عندهم"!!، قال ذلك بعض الكُتّاب، فهذا أمر خطير.

وسعيد بن جُبير لما بلغه حديث رسول الله ﷺ قال: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع"، هذا هو أدب العلماء، وهذا أدب الصحابة ﷺ، والتابعين، وسائر أئمة العلماء، فهم يتأدّبون مع السنّة إذا بلغتهم عن رسول الله. ٤

وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم في تبليغ العلم وارشادهم من أخذ بشيء وإن كان مشروعا إلى ما هو أفضل منه وإن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم. ١

---

[1] مسند الإمام أحمد (٤٨٦/٣)، وموطأ الإمام مالك (٩٣٨/٢١١)، وشرح السنة (١٦٤/١٢١١).

قوله: "ولكن حدثنا ابن عباس" معناه أن: سعيد بن جُبير عنده دليل آخر، العمل به أحسن من العمل بحديث حُصين بن عبد الرحمن، وإن كان العمل بحديث حُصين بن عبد الرحمن حسناً، ولكن هناك حسن وهناك ما هو أحسن، فأراد أن يرقيه من الحسن إلى الأحسن.

قال: "حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ((عُرضت عليّ الأمم))

قوله ((عرضت علي الأمم)) في رواية الترمذي والنسائي من رواية عبشر ابن القاسم عن حصين بن عبدالرحمن أن ذلك كان ليلة الاسراء، ولفظة: ((لما أسري بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد)).[1] ١

فيه معجزة من معجزات النبي ﷺ حيث عُرضت عليه الأمم، أي: أُرِيَ الأمم السابقة. قيل: كان هذا ليلة الإسراء والمعراج. ٤

ويقول الشيخ ابن عثيمين: "وهذا في المنام فيما يظهر. وانظر: "فتح الباري" (١١/٤٠٧، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، كتاب الرقاق)". ٥

كان هذا ليلة الإسراء والمعراج على الصحيح. ٦

((فرأيت النبي ومعه الرَّهْط)) الرَّهْط: هم الجماعة دون العشرة، يعني: لم يتبعه من أمته إلاَّ دون العشرة، وبقية الأمة كفروا به.

((والنبي ومعه الرجل والرجلان)) هذا أقل، تبعه من قومه رجل أو رجلان، والبقيّة أَبَوْ أن يؤمنوا بالله ورسوله.

((والنبي وليس معه أحد)) فيه من الأنبياء من كذبه قومه كلهم، ولم يتبعه أحد، فهذا فيه دليل على أنه لا يُحتج بالكثرة، وإنما يُحتج بمن كان على الحق، ومعه الدليل، ولو كانوا قليلين، ولو كان شخصاً واحداً، فمن كان على الحق، ومعه دليل من كتاب الله وسنّة رسوله، فهذا هو الذي يُؤخذ بقوله ويُقتدى به، أما من خالف الدليل فلا عبرة به حتى ولو كانوا كثرة، والله تعالى يقول في نوح: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ﴾[هود:٤٠] ويقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ

---

[1] رواه الترمذي في سننه ٢٤٤٦ والنسائي في السنن الكبرى ٧٦٠٤

النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] ويقول جل وعلا: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ [الأنعام:١١٦]، فالكثرة ليست هي الضابط في إصابة الحق، ولا يُغتر بها، فربما تكون الكثرة على الباطل، إنما إذا اجتمع الكثرة مع إصابة الحق، فهذا طيّب، أما إذا كانت كثرة بدون حق فلا، ولا يُزَهِّدُنا في الحق قلّة أتباعه، لأن بعض الناس اليوم إذا نُبّه على خطأ يقول: هذا عليه أكثر الناس ... ويجب على المسلم أنه يتبع الحق، ولا يكابر بكثرة من خالفه أو جانبه، نبي من أنبياء الله ليس معه إلاَّ دون عشرة، ونبي من أنبياء الله ليس معه إلاَّ رجل أو رجلان، ونبي من أنبياء الله ليس معه أحد. نسأل الله أن يوفقنا وإيّاكم لقول الحق والعمل به، ومخالفة الهوى والنفس والشيطان. ٤

وفيه الرد على من احتج بالأكثر وزعم أن الحق محصور فيهم وليس كذلك بل الواجب اتباع الكتاب والسنة مع من كان وأين كان. ١

قوله: ((إذ رُفع لي سواد عظيم)) السواد هو: الأشباح البعيدة. ٤

قوله: ((سواد عظيم))، المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده، أي: شخصه، أي أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً. ٥

والمراد هنا الشخص الذي يرى من بعيد أي رفع لي أشخاص كثيرة. ١

((فظننت أنهم أمتي)) ظن النبي ﷺ أن هذا السواد العظيم هم أمته، لأنه أكثر الأنبياء أتباعاً، عليه الصلاة والسلام.

((فقيل لي: هذا موسى وقومه)) هذا فيه فضل موسى عليه السلام، كليم الله، وأنه اتبعه من قومه خَلْق كثير، آمنوا به واتبعوه، فهو من أكثر الرسل أتباعاً بعد نبينا محمد ﷺ، وفيه فضيلة لموسى عليه الصلاة والسلام.

فهذا يدل على أن موسى عليه السلام آمن به خَلْقٌ كثير من بني إسرائيل، وإنما حدث التحريف والكفر بعد موسى عليه السلام.

قوله: ((فنظرت فإذا سوادٌ عظيم))، وفي رواية: ((ولكن انظر إلى الأفق))، والرواية في "صحيح مسلم". ٤

وفي رواية: ((أنهم سدوا الأفق))، وفي رواية: ((أنهم سدوا الأفق الآخر)) وهذا يدل على عظم هذه الأمة وأنهم أكثر أتباعاًلأنهم آخر الأمم ونبيها خاتمها، وهم نصف الجنة أو ثلثاها كما جاء في الحديث. ٦

قوله: ((فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك))، وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام. ٥

((فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هده أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب))، وفي رواية: ((ومنهم سبعون ألفاً))، السبعون الألف هؤلاء من أمّة محمد ﷺ يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. ٤

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين ((أنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)).[1] ٢

قوله: ((بغير حساب ولا عذاب))، أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة. ٥

هذا فضل عظيم، والبقيّة من الخلائق تُحاسب، منهم من يُحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يناقش الحساب. واختلف العلماء في الكُفار هل يُحاسبون أو يدخلون النار بدون حساب؟، والذي قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية -كما في "العقيدة الواسطية"- أنهم يقرّرون بأعمالهم فقط، ولا يحاسبون محاسبة من يوازن بين حسناته وسيئاته، لأنهم لا حسنات لهم، ولكنهم يقرّرون بكفرهم وأعمالهم الكفريّة، ثم يُؤمر بهم إلى النار -والعياذ بالله-. وان كان لهم حسنات في الدنيا فإنهم يجازون بها في الدنيا، وتعجّل لهم حسناتهم، فإن الله لا يظلم أحداً، أما في الآخرة فليس لهم ثواب ولا حسنات والعياذ بالله.

قوله: ((ثم نهض ﷺ)) أي: قام.

---

[1] البخاري الرقاق (٦١٧٦)، مسلم الإيمان (٢١٦)، أحمد (٢/٤٠١).

((ودخل منزله)) دون أن يبيّن من هم هؤلاء السبعون الألف.

والصحابة ﷺ اهتموا بهذا الأمر، لأن هذا أمر عظيم، فصاروا يخوضون في هؤلاء السبعين من هم؟.

فقوله: ((خاض الناس في أولئك)) يعني: بحثوا من هم، وهذا من حرص الصحابة ﷺ على الخير، واهتمامهم بأمور الآخرة، لأنهم لا يهتمُّون بأمور الدنيا، وإنما يهتمُّون بأمور الآخرة، بخلاف أهل الدنيا، إذا سمعوا بتجارة صاروا يتحدثون عنها ولا يهمهم أمر الآخرة.

قوله: "فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله ﷺ" لأن أفضل الأمة هم الصحابة ﷺ، لا أحد يساوي الصحابة في الفضيلة، قال ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه))، فالصحابة هم أفضل الأمة، ولا أحد يساويهم في الفضل -رضي الله تعالى عنهم-، بسَبْقِهم إلى الإسلام، وصحبتهم لرسول الله ﷺ وجهادهم في سبيل الله، وبذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله عزّ وجلّ، فلذلك قالوا: "فلعلهم الذين صحبوا"، لأنهم لا يعلمون أحداً أفضل من صحابة رسول الله ﷺ.

وقوله: "وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً " يعني: الذين وُلدوا بعد بِعْثَة النبي ﷺ من أولاد المسلمين، وبقوا على الفطرة الصحيحة، وآمنوا بالله ورسوله، ولم يشركوا بالله شيئاً . وهذا -أيضاً- فيه فضل من سَلِم من الشرك، بحيث إن الصحابة توقَّعوا أنهم هم الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ففيه فضل من سَلِم من الشرك، ولكن من وقع في الشرك ثم تاب تاب الله عليه، وصار من أفضل المسلمين لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغفرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ولكن الصحابة توقَّعوا أن مواليد الإسلام الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، هم المعنيُّون بهذا الحديث.

وهذا -أيضاً- يدل على المحافظة على الأولاد، والمحافظة على فطرتهم؛ ويدل على وجوب التربية على الإسلام، والتربية على التّوحيد، وتصحيح العقيدة، لأن بعض الناس اليوم لا تهمهم العقيدة، ويقولون العقيدة أمرها سهل، والناس أحرار في عقائدهم، ولا يهتمون بأمر الشرك، ويقولون هذه اجتهادات، ولا يهتمون بالدعوة إلى التّوحيد، والتحذير من الشرك، وتصحيح العقائد.

فقول الصحابة: "فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً " يدل على خطر الشرك، وأن الإنسان لو وُلد في الإسلام فإن هذا لا يكفي، لابد أن يَسْلم من الشرك، ولا يسلم من الشرك إلاَّ إذا عرفه وعرف طرقه، حتى يتجنّبه ويحذّر منه، أما من يجهل الشيء فربما يقع فيه، لأنه لا يدري عنه؛ وعمر بن الخطاب ﷺ يقول: "إنما تُنْقَضُ عُرى الإسلام عُروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"، وحذيفة بن اليمان ﷺ يقول: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه"، فهذا أمر عظيم جدًّا، الاهتمام بأمر العقيدة، والخوف من الشرك، ومن خاف من شيء فإنه يهرب منه، ولا يمكن أن يهرب منه إلاَّ إذا عرف من أن يأتيه هذا العدو، ومن أين يدركه، فهذا أمر عظيم.

وقوله: "ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه" ذكروا ما بحثوا فيه، وما خاضوا فيه، والاجتهادات التي أبدَوْها حول هذا الأمر. وهذا فيه دليل على مشروعية المباحثة في أمور العلم، والبحث عن معاني كلام الله وكلام رسوله ﷺ حتى نعمل به، وننتفع به. ٤

أمَّا الحديث فهو حديث طويل، وموضع الشاهد منه؛ قوله عليه الصلاة والسلام ((فَنَظَرْتُ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ. فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ. وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ)). فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ. فَقَالَ: ((هُمُ الّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَكْتَوُون وَلاَ يَتَطَيّرُونَ وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ)) هذه في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهذه صفة من صفاتهم، وتلك الصفة خاصة بهم لا يلتبس أمرهم بغيرهم؛ لأن هذه الصفة كالشامة يُعرفون بها.

من هم الذين حققوا التوحيد؟ قال ((هُمُ الّذِينَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَكْتَوُون وَلاَ يَتَطَيّرُونَ [وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ])) فذكر أربع صفات:٣

وقوله: ((قال: هم الذين لا يَسْتَرْقُون)) يعني: لا يطلبون من غيرهم أن يَرقيهم، لماذا؟، لأن طلب الرُّقية من الناس سؤال للمخلوق، والسؤال للمخلوق فيه ذِلّة، فهم يستغنون عن الناس، ويعتمدون على الله سبحانه وتعالى، وهذا من تمام التّوحيد: أن الإنسان لا يسأل الناس،

والنبي ﷺ بايع بعض أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً ، فكان أحدهم إذا سقط سوطه من على راحلته لا يقول لأحد: ناولني السوط، لأنهم يريدون الاستغناء عن الناس، لكن سؤال أهل العلم عما أشكل ليس من هذا، وهو واجب قال تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، إذا كان ذلك عن حاجة، أما سؤال التعنّت والاستكبار وتعجيز المسؤول، فهذا لا يجوز، لأنه ليس عن حاجة، وإنما هو عن إظهار عَظَمة، وأن السائل أعلم من المسؤول، وهذا لا يجوز، وسؤال المال، يجوز للحاجة إذا كان الإنسان مضطرًّا، فإنه يجوز أن يسأل الناس حتى ترتفع ضرورته، أما سؤال الإنسان وهو غني، فهذا حرام: ((من سأل الناس تكثّراً، فإنما يسأل جمراً، فليُقِل أو ليستكثر)). ٤

ومعنى ((لاَ يَسْتَرْقُونَ)) لا يطلبون الرقية، والطالب للرقية في قلبه ميل للراقي حتى يرفع ما به من جهة السبب. وهذا النفي ((لاَ يَسْتَرْقُونَ))؛ لأن الناس في شأن الرقية تتعلق قلوبهم جداً أكثر من تعلقهم بالطب ونحوه، فالرقية عند العرب في الجاهلية –وهكذا حال أكثر الناس– لهم تعلُّقٌ بها، فالقلب يتعلق بالراقي، ويتعلق بالرقية، وهذا ينافي كمال التوكل على الله جل جلاله. ٣

واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم، لما يلي:

١– لقوة اعتمادهم على الله.

٢– لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣– ولما في ذلك من التعلق بغير الله. ٥

وأما ما جاء في بعض الروايات أنهم الذين ((لاَ يَرْقُون)) فهذا غلط؛ لأنّ الراقي محسن إلى غيره، وهي لفظة شاذة، والصواب ما جاء في هذه الرواية من أنهم الذين ((لاَ يَسْتَرْقُونَ))، يعني لا يطلبون الرقية؛ وذلك لأن طالب الرقية يكون في قلبه ميل إلى هذا الذي رقاه وإلى الرقية، ونَوْعُ تَوَكُّلٍ أو نوع استرواحٍ لهذا الذي يَرقي أو للرقية. ٣

في بعض روايات مسلم[1]: ((لا يرقون)) ولكن هذه الرواية خطأ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن الرسول ﷺ كان يرقي[2]، ورقاه جبريل[3]، وعائشة[4]، وكذلك الصحابة كانوا يرقون[5]. ٥

قال شيخ الإسلام: "هذه الزيادة وهم من الراوي لم يقل النبي ﷺ: ((لا يرقون)) لأن الراقي محسن إلى أخيه وقد قال ﷺ وقد سئل عن الرقى قال: ((من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه)) [6] وقال: ((لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً))[7]."

قال وأيضاً: "فقد رقى جبريل النبي ﷺ ورقى النبي ﷺ أصحابه".

قال: "والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه والراقي محسن".

قال: "وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون".

وكذا قال ابن القيم. ١

((من اكتوى أو استرقى فقد برىء من التوكل)) رواه أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم[8]. ١

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.

[2] البخاري: كتاب الطب/ باب رقية النبي ﷺ، ومسلم: كتاب السلام/باب استحباب الرقية من العين.

[3] مسلم: كتاب السلام/ باب الطب والمرض والرقى.

[4] البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات، ومسلم: كتاب السلام/ باب رقية المرضي.

[5] كما في قصة صاحب السرية.

[6] رواه مسلم في صحيحه رقم ٢١٩٩

[7] رواه مسلم في صحيحه رقم ٢٢٠٠

[8] ورواه كذلك ابن أبي شيبة في مصنفه، وعبد ابن حميد في مسنده، والنسائي والحاكم في المستدرك على الصحيحين وصححه ووافقه الذهبي وهو حديث صحيح كما قال أولئك الأئمة

لكن لم ينه عن هذا وإنما ذكر فضل تركه فقط، فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس من العلاج وتركه أفضل عند عدم الحاجة.

فائدة: الرقية بدون سؤال من الأسباب المباحة أما مع السؤال فتركه أولى عند عدم الحاجة لحديث ((لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً)).

والرقية جائزة بثلاثة شروط:

١- الأول: أن تكون بلسان معروف المعنى.

٢- الثاني: وأن لا يكون فيه محذور من جهة الشرع.

٣- الثالث: أن يفعل ذلك طلباً للشفاء من الله ولا يعتمد على الأسباب نفسها فلا بأس بالرقية على هذا الوجه. ٦

ولا بأس للإنسان أن يرقي نفسه، لكن طلب الرقية من الغير تركه أولى. ٦

وقوله: ((ولا يَكْتَوُون)) كذلك لا يطلبون من غيرهم أن يكويهم بالنار من أجل العلاج. ٤

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: ((ولا يسترقون)). ٥

والكَيْ بالنار نوع من أنواع الطب، وقد قال النبي ﷺ: ((الشفاء في ثلاث: شَرْبة عسل، أو شَرْطة مِحْجَم، أو كيّة بنار))، وفي رواية أخرى: ((وأنا أكره الكَيْ))، فالكَيُّ عند الحاجة علاج مباح، ولكنه إذا طلبته من غيرك، يكون مكروهاً لأنه من مسألة الناس، وكذلك يكره الكيّ ذاته، لما فيه من التعذيب بالنار. ٤

أما بالنسبة لمن أعد للكي من قبل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذل؛ لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتاج إلى الكي، وليس سؤال تذلل. ٥

((وَلاَ يَكْتَوُون)): والكيُّ مكروه في أصله؛ لأن فيه تعذيباً بالنار، مع أنَّه مأذون به شرعاً؛ لكن فيه كراهة. والعرب تعتقد أن الكيَّ يُحدث المقصود دائماً، فلهذا تتعلق قلوبهم بالكي، فصار تعلق القلب بهذا الكي من جهة أنَّه سبب يؤثر دائماً، ومعلوم أن الكيَّ يؤثر بإذن الله جل وعلا إذا اجتمعت الأسباب وانتفت الموانع. فالنفي لأجل أن في الكيِّ بخصوصه ما يتعلق الناس به من أجله. ٣

تركه أفضل عند عدم الحاجة لأنه نوع تعذيب، فإذا تيسر دواء غيره فهو أولى، فإن دعت الحاجة إليه إليه فلا كراهة لحديث: ((الشفاء في ثلاث: كية نار أو شربة عسل، أو شرطة محجن)) وفي لفظ ((و أنهى أمتي عن الكي)) فالنهي للتنزيه لا للتحريم. ولهذا كوى بعض أصحابه وكوى الصحابة من أمراض إصابتهم فهو جائز عند الحاجة إليه والاستغناء عنه بدواء آخر أفضل –فهو من صفات السبعين– فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس. ٦

قال ابن القيم: "فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع:

أحدها: فعله.

والثاني: عدم محبته له.

والثالث: الثناء على من تركه.

والرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينهما بحمد الله؛ فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركيه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية". [1] ١

قوله: ((ولا يَتَطَيَّرون)) التطيّر هو: التشاؤم بالطيور وغيرها، ثم يرجع المتطير عن ما عزم عليه، هذا هو التّطيُّر، أما التفاؤل فهو مشروع، وكان النبي يعجبه الفَأْل، لأن الفَأْل حسن ظن بالله سبحانه وتعالى، أما الطِّيَرة فهي سوء الظن بالله. ٤

والطِّيَرة شيء يعرض على القلب من جرَّاء شيء يحدث أمامه، إما أن يجعله يُقدم على أمرٍ، أو أن يُحجم عنه، وهذه صفة من لم يكن التوكل في قلبه عظيماً. ٣

قوله: ((ولا يتطيرون))، مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتطير، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده، ومنهم من إذا سمع

---

[1] زاد المعاد ٤/٦٥-٦٦

صوتاً أو رأى شخصاً تشاءم، ومنهم من يتشاءم من شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة ﵂: "عقد علي رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال؛ فأيكن كان أحظى عنده"[١]، ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر، وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور، هذا هو التوكل على الله، ولهذا ختم المسألة بقوله: ((وعلى ربهم يتوكلون))؛ فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكلهم. ٥

والطيرة هي الشرك وهي التشاؤم بالمرئيات أو المسموعات حتى يرده ويوقفه عن حاجته. وهذا منكر منهي عنه، وقال: ((الطيرة شرك)) وقال ((لا ترد مسلماً)). وقال ((إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك)).

والحسنات: هي النعم. والسيئات هي المصائب والنقم. وأخبر أن كفارة الطيرة أن يقول ((اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إلاه غيرك)). ٦

((وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)): ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال. ١

أي يعتمدون على الله ويفوضون أمورهم إليه فهذا شأنهم فهم معتمدون على الله واثقون به ويعلمون أنه لن يصيبهم إلا ما كتب لهم ومع ذلك يبتعدون عن الشركيات وعن المكروهات كالكي والاسترقاء ثقة به واعتماداً عليه وحرصاً على كمال دينهم وسلامته.

فهذه صفات السبعين وهم الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات والشركيات، واعتمدوا وتوكلوا على الله، وفوضوا أمورهم إليه مع أخذهم بالأسباب المباحة لطلب الرزق والتجارة وأنواع الطب المباح لكن تركوا ما يحوجهم إلى الناس كالاسترقاء أو ما فيه نوع تعذيب إذا لم يضطروا إليه، وابتعدوا عن بعض المباحات التي فيها نقص فجازاهم الله بأن أدخلهم الجنة لا حساب و لا عذاب. ٦

---

[١] مسلم: كتاب النكاح/ باب استحباب التزوج والتزويج في شوال.

هذه الصفات لا يُعنى بذكرها أن الذين حققوا التوحيد لا يباشرون الأسباب، كما فهمه بعضهم من أن تحقيق التوحيد أو أن الكمال أن لا يباشر سبباً البتة، أو أن لا يتداوى البتة، هذا غلط؛ لأن النبي ﷺ رُقِيَ عليه الصلاة والسلام، ولأنه عليه الصلاة والسلام تداوى، وأمر بالتداوى، وأمر أيضاً الصحابة بأن يكتوي ونحو ذلك، فليس فيه أن أولئك لا يباشرون الأسباب مطلقاً، أو لا يباشرون الدواء، إنما فيها ذكر هذه الثلاث بخصوصها؛ لأنها يكثر تعلق القلب والتفاته إلى الراقي أو الكي أو الكاوي أو إلى التطير، ففيها إنقاص من التوكل.

أما التداوي فهو مشروع، إمّا واجب أو مستحب، وفي بعض الأحوال يكون مباحاً، وقد قال النبي ﷺ ((تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام))، المقصود من هذا أن التداوي فعلاً، يعني أن يفعل التداوي وأن يطلب الدواء، ليس خارماً لتحقيق التوحيد؛ ولكن الذي هو من صفة أهل تحقيق التوحيد أنهم لا يسترقون -بخصوص الرقية-، ولا يكتوون -بخصوص الكيّ-، ولا يتطيرون، وأمّا ما عدا ذلك مما أُذِن به فلا يدخل فيما يختصّ به أهل تحقيق التوحيد.

فإذن يكون الأظهر عندي؛ مما في هذا الحديث أنه مخصوص بهذه الثلاثة ((لاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَكْتَوُون وَلاَ يَتَطَيّرُونَ))، أمّا الأسباب الأخرى المأذون بها فلا تدخل في صفة الذين حققوا التوحيد. ٣

فهؤلاء السبعون الألف استحقوا هذه المنزلة، لأنهم تركوا أموراً محرمة وهي الطيرة، أو مكروهة وهي طلب الرقية والكي من الناس، فهم تركوها استغناء عن الناس، وتوكلاً على الله سبحانه وتعالى.

أما أن الإنسان يَرْقِي نفسه أو يَرْقِي غيره، فهذا فعله النبي ﷺ فرقى نفسه ورقى غيره ورقاه غيره فلا كراهة في ذلك.

يبقى قضية التداوي بالمباح كالحبوب -مثلاً-، أو بالأعشاب، أو بإجراء العمليّات الجراحيّة: واستئصال الأورام أو الزوائد؛ فهذا مباح، من غير كراهة لقول النبي ﷺ: ((تداووا ولا تداووا بحرام))، وقوله ﷺ: ((ما أنزل الله داءاً إلاّ وأنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله))

ومن العلماء من يرى أن التداوي مستحب، ومن العلماء من يرى أنه واجب، والتدواي سواءً كان مباحاً أو مستحبًّا أو واجباً لا ينافي التوكل، لأن بعض الجهّال يقول: اتْرُكْ التدواي توكّلاً على الله، نقول: الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل، والتداوي سبب، والأخذ بالأسباب قد أمر الله تعالى به. ٤

وأعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة فان مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ اي كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلا على الله كالاسترقاء والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت.

أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعاً كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً ((ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)) وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا يا رسول الله أنتداوى فقال: ((نعم يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داءا إلا وضع له شفاء غير داء واحد)) قالوا ما هو قال: ((الهرم)) رواه أحمد.

قال ابن القيم: "فقد تضمنت هذه الاحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها والامر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدداها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً وان تعطيلها يقدح بمباشرته في نفس التوكل كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه و دنياه ودفع ما يضره في دينه ودنياه ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلا للأمر والحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزاً".[١] ١

[١] زاد المعاد ٤/١٤-١٥

قال "فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ. فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: ((أَنْتَ مِنْهُمْ)) وللبخاري في رواية: فقال: ((اللهم اجعله منهم)) [1]. ٢

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: ((سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)) هذا فيه دليل على أنّ أهل تحقيق التوحيد قليل، وليسوا بكثير؛ ولهذا جاء عددهم في هذا الحديث بأنهم سبعون ألفاً، قد جاء في بعض الروايات عند الإمام أحمد وعند غيره، بأنّ الله جل وعلا أعطى النبي ﷺ مع كل ألف من السبعين ألفا أعطاه سبعين ألفا، فيكون العدد قَرابة خمسة ملايين من هذه الأمة، فإن كان ذلك الحديث صحيحاً -وقد صحح إسناده بعض أهل العلم- فإنه لا يكون للعدد في هذا الحديث مفهوم، أو كان قبل سؤال النبي ﷺ أن يُزاد في عدد أولئك الذين حققوا التوحيد.

ما معني أن يُزاد في عددهم؟ يعني أن الله جلّ وعلا يمنُّ على أناس من هذه الأمة أكثر من السبعين ألفاً ممن سيأتون، فيوفقهم لعمل تحقيق التوحيد، والله جل وعلا هو الذي يوفق، وهو الذي يهدي، ثم هو الذي يجازي فما أعظمه من محسن، برٍّ، كريم، رحيم. ٣

قال: ((فاستزدت ربي فزادني مع كل الف سبعين الفاً)) [2] ١

وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني.وعن حذيفة عند احمد.وعن أنس عند البزار. وعن ثوبان عند أبي عاصم. قال فهذه طرق يقوي بعضها بعضاً، قال: "وجاء في احاديث أخر أكثر من ذلك، فأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني، وابن حبان في ((صحيحه)) من حديث أبي أمامة رفعه: ((وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين الفا مع كل ألف سبعين الفا لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربي))". [3] ١

---

[1] البخاري اللباس (٥٤٧٤)، مسلم الإيمان (٢١٦)، أحمد (٤٠١/٢).

[2] رواه الإمام أحمد في المسند ٣٥٩/٢، وابن مندة في الإيمان ٨٩٥/٢) والبيهقي في البعث والنشور رقم ٤١٦، قال ابن مندة: إسناده صحيح على رسم مسلم)) وهو كما قال قال الحافظ: وسنده جيد. فتح الباري (٤١٠/١١)

[3] رواه الإمام أحمد في المسند ٢٦٨/٥، ٢٥٠، وابن أبي شيبة في المصنف، والترمذي في سننه، وابن ماجة في سننه، وابن أبي عاصم في السنة، والآحاد والمثاني، والطبراني في الكبير... وهو حديث صحيح.

قوله: "فقام عُكّاشة بن مُحصَن" عُكّاشة بن مُحصَن الأسدي، من السابقين إلى الإسلام، شهد غزوة بدر، وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وعاش بعد النبي ﷺ وقاتل في حروب الرّدة حتى قُتل، رضي الله عنه.

"فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم" هذا فيه مشروعيّة طلب الدعاء من أهل الخير، الأحياء، لأن هذا الصحابي طلب الدعاء من رسول الله ﷺ وأقرّه على ذلك، فدلّ على جواز، طلب الدعاء من الصالحين الأحياء. ٤

ولا بأس بأن يسأل الإنسان من أخيه أن يدعوا له كما جاء في الحديث: لا تنسانا من دعائك. ٦

"قال: ((أنت منهم))" أخبر ﷺ أن عُكّاشة من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فإنه قُتل شهيداً في سبيل الله عزّ وجلّ وفي هذا دليل من أدلة النبوّة، حيث أخبر ﷺ أن عُكّاشة من السبعين الألف، وقتل شهيداً في سبيل الله عزّ وجلّ، فصار في زُمْرة الشهداء في سبيل الله، مع سَبْقه إلى الإسلام، وشهوده بدراً وغيرها مع الرسول ﷺ. ٤

قوله: "فقال: ((أنت منهم))"، وقول الرسول ﷺ هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحياً إقرارياً.

لكن رواية البخاري: ((اللهم اجعله منهم)) تدل على أن الجملة: ((أنت منهم)) خبر بمعنى الدعاء. ٥

"ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: ((سبقك بها عُكّاشة))، كأن الرسول ﷺ علم أن هذا الرجل لا يصل إلى هذه المرتبة، ولكن ما جابه بكلام يكرهه، ولم يقل له: أنت لا تستحق، أو أنت لست من أهل هذه المنزلة، وهذا من حُسن أدب الرسول ﷺ بل جاء بكلمة لم تؤثر على الرجل، وهي وافية بالمقصود، فقال: ((سبقك بها عُكّاشة)).٤

وأخذ العلماء منه جواز استعمال المعاذير وهي الكلمات التي تسد باباً لا يحمد عقباه فيستعملها من دون أن يتعرض لإهانة أحد أو فضيحة. ٦

قال الشيخ رحمه الله في مسائله: "هذا فيه استعمال المعاريض" يعني: الكلمات التي تُستعمل بدل الكلمات المكروهة، لأنه لو قال لا تستحق هذا، أو أنت لا تصل إلى هذه المرتبة، لحصل عند الرجل انكسار نفس وخجل، فالرسول ﷺ كان كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فالرسول ﷺ علم أن هذا الرجل -بما علّمه الله سبحانه وتعالى- لا يصل إلى هذه المرتبة، ولكنه جاء بكلمة ليّنة لطيفة ليس فيها تجريح، فهذا فيه حُسن الأدب مع المسلمين، وعدم مواجهتهم بما يكرهون من الكلمات النابية، حتى ولو كانوا على خطأ، فهم يواجهون بكلمات فيها تطييب لخواطرهم، وعدم تجريح لنفوسهم. ٤

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقاً، فأراد الرسول ﷺ ألا يجابهه بما يكره تأليفاً.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم؛ فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً، وهذا أقرب. ٥

قوله ((سبقك بها عكاشة)): قال سداً للباب لئلا يقوم من ليس أهل. ٦

قال القرطبي: "لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضرا فيتسلسل الأمر فسد الباب بقوله ذلك. وهذا أولى من قول من قال كان منافقا لوجهين:

أحدهما: أن الأصل في الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح.

والثاني: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول ﷺ وكيف يصدر ذلك من منافق؟!"[١]. ١

---

[١] المفهم ٤٦٩/١

[الأسئلة]

س/ من يوصي أحد بالبحث عن راق يرقي له، دون أن يطلب الرقية من الراقي بنفسه، هل هذا يدخل في الذين (يَسْتَرْقُونَ)؟

ج/ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

فإن قول النبي ﷺ في وصف السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب قال ((هُمُ الّذِينَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ)) يعني لا يطلبون الرقية، وفَهْم جواب السؤال يتبع فهم التعليل؛ ذلك أن أولئك كانوا لا يسترقون يعني لا يطلبون الرقية لأجل ما قام في قلوبهم من الاستغناء بالله وعدم الحاجة إلى الخلق، ولم تتعلق قلوبهم بالخلق في هذا الأمر الذي سيرفع ما بهم.

وكما ذكرتُ لك أنّ مدار العلة على تعلق القلب بالراقي أو بالرقية في رفع ما بالمرقي من أذى أو في دفع ما قد يُتوقع من السوء.

وعليه فيكون الحالان سواءً؛ يعني إن كان طلب بنفسه أو طلب بغيره فإنه طالب، والقلب متعلق بمن طَلب منه الرقية إما بالأصالة أو بواسطة.[1]. ٣

- وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلاً. ٥

- وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وهو أكمل الخلق توكلاً على الله وثقةً به، ولأن هذا الحديث: ((لا يسترقون...)) إلخ إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب. ٥

---

[1] مأخوذ من الوجه الأول من الشريط الرابع من باب ما جاء في الرقى والتمائم.

فهذا حديث عظيم دلَّ على مسائل:

- دلَّ على جواز الرُّقية من العين ومن الحُمة وغيرهما، لأنه فعله حُصين بن عبد الرحمن، واستدل بحديث الرسول ﷺ.
- في الحديث دليل على فضل موسى عليه السلام وأمته الذين آمنوا به.
- فيه حرص الصحابة على مسائل العلم ومعرفتها، حيث خاضوا في طلب معنى هذا الحديث الذي ألقاه عليهم رسول الله ﷺ وبحثوا فيه، قال الشيخ: "فيه المناظرة في العلم".
- في الحديث دليل على كراهية سؤال الناس: ((لا يَسْتَرْقُون، ولايُكْتَوُون))، ففيه كراهيّة سؤال الناس، وأن سؤال الناس فيه تنقيص للتوحيد، أما الاستغناء عنهم فهذا فيه كمال للتّوحيد، وهو من تحقيق التّوحيد.
- الحديث دليل على جواز العلاج بالكَيْ، مع الكراهة بشرط أن يكون المعالج به من أهل المعرفة، الذي يعرفون موضع الألم وموضع الكَيْ، ومقدار الكَيْ، وفيه دليل على أن الإصابة بالعين حق، وأنها تُعالج بالرُّقية، وتعالج بما أرشد إليه النبي ﷺ من الاستغسال -أيضاً-.
- وفيه دليل على استعمال المعاريض في الأمور التي يُكره مواجهة الناس بها، وحُسن خلقه ﷺ في تعامله مع أصحابه، وكذلك يجب أن يقتدي به أهل العلم وأهل الدعوة في مخاطبتهم للناس.
- وفيه دليل على طلب الدليل على المذهب، حيث إن سعيد بن جُبير طلب من حُصين بن عبد الرحمن الدليل على ما فعله من طلب الرقية فلما جاء بالدليل استحسنه، وقال له: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع".
- وفيه دليل على ما تَرْجَم له المصنف، وهو الشاهد للباب أن من حقّق التّوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، وأن تفسير ذلك بأن يترك الشرك الأكبر والأصغر، ويترك الأمور المكروهة، احتياطاً لعقيدته. ٤

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: (أنت منهم) علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.

فيه مسائل: أي: في هذا الباب مسائل: ٥

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد. وهذه مأخوذة من قوله: ((يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)). ثم قال: ((هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون)). ٥

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين.، وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين**﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك على أن كل **من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله –سبحانه وتعالى–. ٥**

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك. لقوله تعالى: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ ... فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد رحمه الله السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذي هم سادات الخلق. ٥

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد. لقوله: ((الذين لا يسترقون ولا يكتوون))؛ فالمراد بقول المؤلف: "الرقية والكي": الاسترقاء والاكتواء. ٥

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل. الخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير، يعني أن العامل المشترك لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله –عز وجل. ٥

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل. أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء. ٥

الثامنة: حرصهم على الخير. وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها. ٥

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية. أما الكميّة، فلأن النبي ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفيّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون. ٥

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى. وهو مأخوذ من قوله: ((إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ))، ولكن قد يقال: إن التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأن الحديث يقول: ((سواد عظيم فظننت أنهم أمتي))، وهذا يدل على الكثرة. ٥

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام.

وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد، فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثر أتباعاً وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان. ٥

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

لقوله: ((رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان))، ولولا أنّ كل نبي متميز عن النبي الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وترى كل أمةٍ جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ فإنه يدل على أن كل أمة تكون وحدها. ٥

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء. وهو واضح من قوله: ((والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد)). ٥

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده. لقوله: ((والنبي وليس معه أحد)). ٥

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

فإن الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [الأنعام: ١١٦]، وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغتر الإنسان بكثرة وظن لن يغلب أو أنّه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان؛ فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضُلَّال لا تغتر بهم، فلا تقل: إن الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟.

كذلك أيضاً لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان:

الوجه الأول: أن لا نغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة، أي أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيراً من الكثرة. ٥

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة. مأخوذ من **قوله: ((لا رقية إلا من عين أو حمة)). ٥**

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

لأن قوله: ((لا رقية إلا من عينٍ أو حمة)) لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: ((ولا يسترقون))، لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالث: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحداً أن يرقيهم؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل. ٥

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

يؤخذ من قوله: "أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت"؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظان، واليقظان: إما أن يصلي، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما أن يكون لديه مانع من النوم. ٥

التاسعة عشرة: قوله: ((أنت منهم)) علم من أعلام النبوة.

يعني: دليلاً على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟، لأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه بقي محروساً من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون في هذا علم، يعني: دليلاً من دلائل نبوة الرسول ﷺ، هذا إذا قلنا: إن الجملة خبرية وليس جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية، فقد نقول أيضاً: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي، وحينئذ لا يمكن أن تكون علماً من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة. ٥

العشرون: فضيلة عكاشة. بكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم، لأن الرسول ﷺ شهد له بها. ٥

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: **((سبقك بها عكاشة))**؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقاً فلم يرد النبي ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما خوفاً من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها. ٥

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ. وذلك لأنه رد هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة. ٥

(بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ)

(بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَام (٣٥)﴾ [إبراهِيم].

وَفِي حَدِيثِ: ((أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ))، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: ((الرِّيَاءُ)).

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِداً دَخَلَ النَّارَ))، رَوَاهُ الْبُخَارِيّ.

وَلِمُسْلِم عَنْ جابِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ به شيئاً دَخَل الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شيئاً دَخَلَ النَّارَ)).

لما كان الشرك أعظم ذنب عصي الله به ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه.

ولهذا قال حذيفة: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه" رواه البخاري.[1]

وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فأما أن يقع فيه وأما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية". ١

هذا الباب في غاية المناسبة للأبواب السابقة، وهذا من دقّة فقهه وفهمه رحمه الله، وحُسن تأليفه، فإنه لما ذكر في الباب الأول: معرفة حقيقة التّوحيد، وذكر في الباب الثاني: فضل

[1] ومسلم.

التّوحيد وما يكفّر من الذنوب، وذكر في الباب الثالث: من حقّق التّوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

لما ذكر هذه الأبواب ناسب أن يذكر ضدّ التّوحيد وهو الشرك، لأنه لا يكفي أنّ الإنسان يعرف التّوحيد ويعمل به، بل لابد أن يعرف ضدّه وهو الشرك، خشية أن يقع فيه، ويُفسد عليه توحيده، لأن من لا يعرف الشيَّء يوشك أن يقع فيه، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يوشك أن تُنْقَض عُرى الإسلام عُروة عُروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية" لأنه لا يدري عن أمور الجاهلية أو يحسبها شيئاً طيّباً وهي من أمور الجاهلية، فبجهله بحقيقتها الْتَبَسَتْ، فصار يفعلها وهي من الجاهلية، فكذلك وأخطر من ذلك من لا يعرف الشرك ومداخله، وأنواعه، وأخطاره، فإنه حَرِّيٌ أن يقع في الشرك من حيث لا يدري، لأن الجهل داء قاتل، والشاعر يقول:

والضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتبين الأشياء

فلا يعرف قيمة الصحة إلاَّ من ذاق المرض، ولا يعرف قيمة النور إلاَّ من وقع في الظلام، ولا يعرف قيمة الماء إلاَّ من عطش، وهكذا، ولا يعرف قيمة الطعام إلاَّ من مسّه الجوع، ولا يعرف قيمة الأمن إلاَّ من أصابه الخوف، إذا لا يعرف قيمة التّوحيد، وفضل التّوحيد، وتحقيق التّوحيد إلاَّ من عرف الشرك وأمور الجاهلية حتى يتجنّبها، ويحافظ على التّوحيد. ٤

وكل من حقق التوحيد، فلا بد أن يخاف من الشرك، ولهذا سيدُ المحققين للتوحيد محمد عليه الصلاة والسلام كان يكثر من الدعاء، بأن يُبعَد عنه الشرك، وكذلك إبراهيم عليه السلام كان من الدعاء بأن لا يدركه الشرك أو عبادة الأصنام.

فمناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة؛ من أن تحقيق التوحيد عند أهله معه الخوف من الشرك، وقلَّ من يكون مخاطراً بتوحيده، أو غير خائف من الشرك ويكون على مراتب الكمال؛ بل لا يوجد، فكل محقق للتوحيد، كل راغب فيه، حريص عليه، يخاف من الشرك، وإذا خاف من الشرك فإنَّ الخوف –وهو فزع القلب، وهلعه، وهربه، من ذلك الشيء– فإن هذا الذي يخاف من الشرك سيسعى في البعد عنه. ٣

ومِن هنا يظهر خطأ هؤلاء الذين يقولون: لا داعي أن نتعلم العقائد الباطلة ونعرف المذاهب الباطلة، ونرد على المعتزلة والجهمية، لأنهم بادوا وذهبوا، علموا الناس التّوحيد ويكفي، أو بعضهم يقول لا تعلّموهم التّوحيد لأنهم أولاد فطرة، ونشأوا في بلاد المسلمين، علّموهم أمور الدنيا: الصناعات والاختراعات والأمور الحديثة، أما التّوحيد فيحصلونه بفطرتهم وبيئتهم، نعم وجُد من يقول هذا، وبعض الناس يقول: الناس تجاوزوا مرحلة الخرافات، لأنهم تثقفوا وعرفوا، فلا يمكن أنهم يشركون تتعد ذلك، لأن الشرك كان في الجاهلية، يوم كان الناس سذج ويسمون الشرك في العبادة شركاً ساذجاً، والشرك عندهم ما يسمونه بالشرك السياسي أو شرك السلاطين أو شرك الحاكمية.

ولذلك لا يهتمون بإنكار هذا الشرك الذي بعثت الرسل لإنكاره، وإنما ينصبّ إنكارهم على الشرك في الحاكمية فقط.

وكل هذه من حيَل الشيطان لبني آدم، والواجب أننا، كما نعرف الحق؛ يجب أن نعرف الباطل، من أجل أن نعمل بالحق، ونتجنّب الباطل، ولهذه المناسبة العظيمة ذكر الشيخ "باب الخوف من الشرك" بعدما ذكر أبواب التّوحيد وفضله، وما يكفر من الذنوب، وتحقيق التّوحيد وهذه نعمة عظيمة لكن إذا حازها الإنسان، فإنه يخشى من ضدها، فلابد أن يعرف ضدّها حتى يتجنّبه، فلنتنبّه لهذا الأمر، فإن هناك أناساً الآن كثيرين يزهِّدون في تعلم هذه الأمور: تعلّم التّوحيد، تعلّم الشرك، معرفة الشُّبَه والضلال، يزهدون في هذه الأمور، وهذا إما من جهلهم، وعدم معرفتهم، وإما لأنهم يريدون الدّس على المسلمين، وإفساد عقيدة المسلمين، فلنحذر من هذا الأمر، سمعنا من يقول إن الذي يدرس عقائد المعتزلة والرد عليهم مثل الذي يرجم القبر، لأنهم ماتوا، يقولون كذا، نقول: يا سبحان الله هم ماتوا بأشخاصهم، لكن مذاهبهم باقية، وشبهاتهم باقية، وكتبهم، تطبع الآن وتحقق، وينفق عليها الأموال، وتُرَوّج، فكيف نقول نتركهم لأنهم ماتوا، والله تعالى ذكر شبهات المشركين من الأمم السابقة:

فرعون وهامان وقارون وقوم ونوح وعاد وثمود، مع أنها أمم بائدة، ذكر شبهها ورد عليها، فالعبرة ليست بالأشخاص، العبرة بالمذاهب، والعبرة بالشُّبَه الباقية ولكل قوم وارث.

ولهذا قال الشيخ: "باب الخوف من الشرك" أي: أن الموحّد يجب أن يخاف من الشرك، ولا يقول أنا موحّد وأنا عرفت التّوحيد، ولا خطر علي من الشرك، هذا إغراء من الشيطان، لا أحد يزكي نفسه، ولا أحد لا يخاف من الفتنة ما دام على قيد الحياة، فالإنسان معرّض للفتنة، ضلّ علماء أحبار، وزلّت أقدامهم، وخُتم لهم بالسّوء، وهم علماء، فالخطر شديد، ولا يأمن الإنسان على نفسه أن تَنْزَلِق قدمه في لضلال، وأن يقع في الشرك، إلاَّ إذا تعلم هذه الأمور من أجل أن يجتنبّها، واستعان بالله، وطلب منه العصمة والهداية: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨] خافوا من الزّيغ بعد الهداية، والمهتدي يكون أشد خوفاً أن يزيغ، وأن تزلّ قدمه، وأن تسوء خاتمته، وأن يكون من أهل النار، نسأل الله العافية. ٤

والخوف من الشرك يُثمر ثمرات:

- منها أن يكون متعلماً للشرك بأنواعه، حتى لا يقع فيه.
- ومنها أن يكون متعلماً للتوحيد بأنواعه، حتى يقوم في قلبه الخوف من الشرك، ويَعْظُم، ويستمر على ذلك.
- ومنها أنّ الخائف من الشرك يكون قلبه دائماً مستقيماً على طاعة الله، مبتغيا مرضاة الله، فإن عصى، أو غفل، كان استغفاره استغفار من يعلم عِظم شأن الاستغفار، وعِظم حاجته للاستغفار؛ لأنّ الذين يستغفرون أنواع، لكن من علم حقَّ الله جل وعلا، وسعى في توحيده، وتعلّم ذلك، وسعى في الهرب من الشرك، فإنه إذا غفَل وجد أنه أشد ما يكون حاجةً إلى الاستغفار.

بهذا، لصلاح القلب بوّب الشيخ رحمه الله هذا الباب (باب الخوف من الشرك)، وكأنه قال لك إذا كنت تخاف من الشرك كما خاف منه إبراهيم عليه السلام، وكما توعّد الله أهل الشرك بأنه لا يغفر شركهم، فإذن تعلَّم ما سيأتي في هذا الكتاب، فإن هذا الكتاب إنما هو لأجل الخوف من الشرك، ولأجل تحقيق التوحيد.

فهذا الكتاب موضوعٌ لتحقيق التوحيد، وللخوف من الشرك والبعد عنه، فما بعد هذين البابين؛ باب من حقق التوحيد، وباب الخوف من الشرك، ما بعد ذلك تفصيل لهاتين المسألتين العظيمتين؛ تحقيق التوحيد، والخوف من الشرك ببيان معناه وبيان أنواعه. ٣

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]

قال ابن كثير: "أخبر تعالى أنه ﴿لا يغفر أن يشرك به﴾ أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ أي من الذنوب لمن يشاء من عباده"[1]. ١

والمغفرة: هي السَّتر لما يُخاف وقوع أثره.

وفي اللغة: يقال غَفَرَ إذا سَتَرَ ومنه سُمِّي ما يوضع على الرأس مِغْفَرَة؛ لأنه يستر الرأس ويقيه الأثر المكروه من وقع السيف ونحوه على الرأس.

فمادة (المغفرة) راجعة إلى ستر الأثر الذي يُخاف منه، والشرك أو المعصية لها أثرها إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرة، أو فيهما جميعاً، وأعظم ما يُمَنُّ به على العبد أن يُغفر ذنبه، وذلك بأن يُستر عليه، وأن يُمحى أثره، فلا يؤاخذ به في الدنيا، ولا يؤاخذ به في الآخرة، ولولا المغفرة لهلك الناس.

قال جل وعلا هنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ يعني أبدًا، ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ يعني أنه بوعده هذا لم يجعل مغفرته لمن أشرك به. ٣

هذا خبر من الله عن نفسه سبحانه وتعالى مؤكّد بـ "إنّ".

أنه: ﴿لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فهذا فيه خطورة الشرك، فالله لا يغفر للمشرك مع أن رحمته وسعت كل شيء، ولكن المشرك لا يدخل فيها، لعِظم جريمته -والعياذ بالله-، فمن مات على الشرك فإنه لا يغفر له، وهذا يدلّ على خطورة الشرك، فإذا كان الشرك بهذه الخطورة، فإنه يجب الحذر منه غاية الحذر، كل الذنوب مَظِنّة المغفرة ورجاء المغفرة إلاَّ الشرك، والشرك لا يمكن تجنبه إلاَّ إذا عرف وعرف خطره.

---

[1] تفسير ابن كثير ٥٠٩/١.

وفي الآية الأخرى أخبر سبحانه أنه حرم الجنة على المشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢] والحرام: الممنوع، فلا يمكن أنّ المشرك يذوق طعم الجنة، أو يشم رائحة الجنة.

وفي الآية الثالثة: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨]، منعهم الله من دخول المسجد الحرام لأنهم نجس، ونجاسة الشرك نجاسة معنويّة، والمسجد الحرام لا يدخله إلاَّ أهل التّوحيد ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤] كذلك المشرك حلال الدم والمال، قال ﷺ: ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها، وحسابهم على الله عزّ وجلّ)). ٤

قال هنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾:

قال العلماء: في هذه الآية دليل على أن المغفرة لا تكون لمن أشرك شركاً أكبر أو أشرك شركاً أصغر، فإن الشرك لا يدخل تحت المغفرة؛ بل يكون بالموازنة، ما يُغفر إلاَّ بالتوبة؛ فمن مات على ذلك غير تائب فهو غير مغفور له ما فعله من الشرك، قد يُغفر غير الشرك كما قال ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

فجعلوا الآية دليلاً على أن الشرك الأكبر والأصغر لا يدخل تحت المشيئة، وجه الاستدلال من الآية أن قوله ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ هذه ﴿أَنْ﴾ موصول حرفي مع ﴿يُشْرَكَ﴾ فِعل، وتُقَدَّر ﴿أَنْ﴾ المصدرية مع ما بعدها من الفعل -كما هو معلوم- بمصدر؛ والمصدر نكرة وقع في سياق النفي، وإذا وقعت النكرة في سياق النفي عمّت، قالوا: فهذا يدل على أن الشرك هنا الذي نفي الأكبر والأصغر والخفي، كل أنواع الشرك لا يغفرها الله جل وعلا؛ لعظم خطيئة الشرك؛ لأن الله جل وعلا هو الذي خلق، وهو الذي رزق، وهو الذي أعطى، وهو الذي تفضّل، فكيف يتوجه القلب عنه إلى غيره؟ لا شك أن هذا ظلم وهو ظلم في حق الله جل وعلا، ولذلك لم يُغفر، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وأكثر علماء الدعوة.

قال آخرون من أهل العلم: إن قوله هنا ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ دالة على العموم، ولكن هذا عموم مخصوص؛ هذا عموم مراد به خصوص الشرك الأكبر ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ يعني الشرك الأكبر فقط دون غيره، وأمّا ما دون الشرك الأكبر فإنه يكون داخلاً تحت المشيئة، فيكون العموم في الآية مراداً به الخصوص، لماذا؟ قالوا: لأن القرآن فيه هذا اللفظ ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ونحو ذلك، ويُراد به الشرك الأكبر دون الأصغر غالباً، فالشرك غالباً ما يطلق في القرآن على الأكبر دون الأصغر، قال جل وعلا ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]، ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ هنا ﴿يُشْرِكْ﴾ أيضاً فعل داخل في سياق الشرط فيكون عامّاً. فهل يدخل الشرك الأصغر والخفي فيه؟ بالإجماع لا يدخل؛ لأن تحريم الجنة وإدخال النار والتخليد فيها إنما هو لأهل الموت على الشرك الأكبر، فدلّنا ذلك على أن المراد بقوله ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أنهم أهل الإشراك الشرك الأكبر، فلم يدخل الأصغر، ولم يدخل ما دونه أو أنواع الأصغر، فيكون إذن فهم آية النساء على فهم آية المائدة ونحوها، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] في الشرك الأكبر، ونحو ذلك.

فيكون -إذن- على هذا القول، المراد بما نُفي هنا أن يغفر الشرك الأكبر.

ولما كان اختيار إمام الدعوة كما اختيار عدد من المحققين؛ كشيخ الإسلام وابن القيم وكغيرهما: أن العموم هنا للأكبر و الأصغر والخفي؛ بأنواع الشرك. قام الاستدلال بهذه الآية صحيحاً؛ لأنّ الشرك أنواع، وإذا كان الشرك بأنواعه لا يُغفر فهذا يوجب الخوف منه أعظم الخوف؛ إذا كان الرياء لا يُغفر، إذا كان الشرك الأصغر؛ الحلف بغير الله، أو تعليق التميمة أو حلقة أو خيط، أو نحو ذلك من أنواع الشرك الأصغر؛ ما شاء الله وشئت، نسبة النعم إلى غير الله، إذا كان لا يُغفر؛ فإنه يُوجب أعظم الخوف منه، كذلك الشرك الأكبر.

وإذا كان كذلك، فيجتمع -إذن- في الخوف من الشرك من هم على غير التوحيد؛ يعني من يعبدون غير الله، ويستغيثون بغير الله، ويتوجهون إلى غير الله، ويذبحون وينذرون لغير الله، ويحبون محبة العبادة لغير الله، ويرجون غير الله رجاء العبادة، ويخافون خوف السّر من غير الله، إلى غير ذلك، يكون هؤلاء أوْلى بالخوف من الشرك؛ لأنهم وقعوا فيما هو متفق عليه في أنه لا يُغفر.

كذلك يقع في الخوف، ويكون الخوف أعظم ما يكون في أهل الإسلام الذين قد يُشركون بعض أنواع الشرك من الشرك الخفي والشرك الأصغر بأنواعه وهم لا يشعرون أو وهم لا يحذرون، فيكون الخوف إذا علِم العبد أن الشرك بأنواعه لا يُغفر وأنه مؤاخذ به؛ فليست الصلاة إلى الصلاة يُغفر بها الشرك الأصغر، وليس رمضان إلى رمضان يُغفر به الشرك الأصغر، وليست الجمعة إلى الجمعة يُغفر به الشرك الأصغر.

فإذن يُغفر بماذا؟ يُغفر بالتوبة فقط، فإن لم يتب فإنه ثمّ الموازنة بين الحسنات وبين السيئات، وما ظنكم بسيئة فيها التشريك بالله مع حسنات، من ينجو من ذلك؟ ليس ثَمَّ إلا من عظُمت حسناته فزادت على سيئة ما وقع فيه من أنواع الشرك، ولا شك أنَّ هذا يوجب الخوف الشديد؛ لأن المرء على خطر في أنه تُوزن حسناته وسيئاته، ثم يكون في سيئاته أنواع الشرك، وهي -كما هو معلوم عندكم- أن الشرك بأنواعه من حيث الجنس أعظم من الكبائر؛ كبائر الأعمال المعروفة.

إذن وجه الاستدلال من آية النساء أن قوله جل وعلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أن فيها عموماً يشمل أنواع الشرك جميعاً، وهذه لا تُغفر، فيكون ذلك موجباً للخوف من الشرك، وإذا وقع وحصل الشرك في القلب، فإن العبد يطلب معرفة أنواعه حتى لا يشرك، ومعرفة أصنافه وأفراده حتى لا يقع فيها، وحتى يحذّر أحبابه ومن حوله منها.

لذلك كان أحب الخلق أو أحب الناس وخير الناس للناس من يحذِّرهم من هذا الأمر، ولو لم يشعروا ولو لم يعقلوا، قال جل وعلا ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛

لأنهم يدلُّون الخلق على ما ينجيهم، فالذي يحب للخلق النجاة هو الذي يحذِّرهم من الشرك بأنواعه، ويدعوهم إلى التوحيد بأنواعه؛ لأن هذا أعظم ما يُدعى إليه.

ولهذا لمّا حصل من بعض القرى في زمن إمام الدعوة تردد، وشك، ورجوع عن مناصرة الدعوة، وفهم ما جاء به الشيخ رحمه الله تعالى، وكتبوا للشيخ، وغلظوا، وقالوا: إنَّ ما جئت به ليس بصحيح وأنّك تريد كذا وكذا، قال في آخرها بعد أن شرح التوحيد وضده ورغّب ورهب، قال في آخرها رحمه الله: "ولو كنتم تعقلون حقيقة ما دعوتكم إليه لكنتُ أغلى عندكم من آبائكم وأمهاتكم وأبنائكم ولكنكم قوم لا تعقلون".

وهذا صحيح، ولكن لا يعقله إلاَّ من عرف حق الله جل وعلا، رحمه الله تعالى وأجز له المثوبة وجزاه عنّا وعن المسلمين خير الجزاء ورفع درجته في المهديين والنبيين والصالحين. ٣

قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾، المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك. ٥

- فيه بيان عظم الشرك وخطورته لأن الإنسان إذا مات عليه لم يغفر له بل هو خالد مخلد في النار بخلاف سائر المعاصي فهي تحت المشيئة إن شاء عذبه بقدرها و دخل الجنة، وإن شاء غفرها له، أما الشرك فقد قال تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]. ٦

فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره أي إلا بالتوبة منه وما عداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبة وإن شاء عذب به وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وصرف خالص حقه لغيره وعدل غيره به كما قال تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾.

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه وذلك غاية المعاندة لرب العالمين والاستكبار عن طاعته والذل له والانقياد لأوامره الذي لاصلاح للعالم الا بذلك فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة كما قال ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله)) رواه مسلم.

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده.

فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فضلا عن غيره شبيها بمن له الخلق كله وله الملك كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الذي إذا فتح للناس رحمة ﴿فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ [فاطر:٢].

فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل: كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره. فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله. فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلام ابن القيم -رحمه الله-.

- وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولا بد ولا يخرجون منها وهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين. ١

وقال الخليل عليه السلام: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ [إبراهيم:٣٥]

الخليل هو إبراهيم عليه السلام، سمي بالخليل لأن الله سبحانه اتخذه خليلاً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥] من الخُلَّة، وهي أعلى درجات المحبة، أي: أن الله يحبه أعلى المحبة، وهذه مرتبة لم ينلها إلاَّ إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أي أبعدني واجعلني في جانب بعيد ﴿أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾خاف من عبادتها.٤

ومعنى: ﴿اجنبني﴾، أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبني من عبادة الأصنام، لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد. ٥

﴿الْأَصْنَامَ﴾ جمع صنم.

والصنم: هو ما كان على صورة مما يُعبد من دون الله، يُصوِّر صورة على شكل وجه رجل، أو على شكل جسم حيوان، أو رأس حيوان، أو على شكل صورة كوكب أو نجم، أو على شكل الشمس والقمر ونحو ذلك، فإذا صور صورة فتلك الصورة يُقال لها صنم.

والوثن: هو ما عُبد من دون الله مما هو ليس على شكل صورة؛ فالقبر وثن وليس بصنم، ومشاهد القبور عند عُبَّادها هذه أوثان وليست بأصنام، وقد يُطلق على الصنم أنه وثن كما قال جل وعلا في قصة إبراهيم في صورة العنكبوت ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أوثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧]، قد يُطلق على قلة، وقال بعض أهل العلم هم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأوثان جميعاً، فصار في بعض الآيات ذكر الأصنام لعبادتهم الأصنام، وفي بعض الآيات ذكر الأوثان لعبادتهم الأوثان، والأول أظهر؛ لأنه قد يُطلق على الصنم أنه وثن، ولهذا قال النبي ﷺ ((اللّهُمّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ)) فدعا لله ألاّ يجعل قبره وثنا، فصار الوثن ما يعبد من دون الله، مما ليس على هيئة صورة. ٣

أما الوثن، فهو ما عبد من دون الله على أي وجه كان، وفي الحديث: ((لا تجعل قبري وثناً يعبد))[1]، فالوثن أعم من الصنم. ٥

والمشركون كانوا أقساماً: منهم من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد غير الأصنام كالشجر والبحر والشمس والقمر وكلهم يجمعهم؛ صرف العبادة لغير الله عز وجل. ٦

---

[1] موطأ الإمام مالك (١٧٢/١).

الذي دعا بهذه الدعوة هو إبراهيم عليه السلام، ومرَّ معنا في الباب قبله أنّ إبراهيم قد حقق التوحيد، وقد وصفه الله بأنه كان أمة، قانتا لله، حنيفاً، وبأنه لم يكُ من المشركين، فمن كان على هذه الحال، هل يطمئن من أنه لن يعبد غير الله؟ ولن يعبد الأصنام؟ أم يظل على خوفه؟ حال الكُمَّل الذين حققوا التوحيد هل هم يطمئنون أم يخافون؟

هذا إبراهيم عليه السلام -كما هو في هذه الآية- خاف الشركَ، وخاف عبادَة الأصنام، فدعا الله بقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦]، فكيف بمن دون إبراهيم ممن ليس من السبعين ألفاً وهم عامة هذه الأمة؟ والواقع أن عامة الأمة لا يخافون من الشرك، فمن الذي يخاف؟ هو الذي يسعى في تحقيق التوحيد.

قال إبراهيم التيمي رحمه الله -من سادات التابعين- لما تلا هذه الآية قال: "ومن يأمن البلاءَ بعد إبراهيم".

إذا كان إبراهيم عليه السلام هو الذي حقق التوحيد، وهو الذي وُصف بما وُصف به، وهو الذي كسر الأصنام بيده، ويخاف؟ فمن يأمن البلاء بعده؟

إذن ما ثمَّ إلا غرور وأهل الغرور، وهذا يوجب الخوف الشديد، لأنه ما أُعطي إبراهيم الضمانَ على أن لا يُشرِك، وعلى أن لا يزيغ قلبه، مع أنه سيد المحققين للتوحيد في زمانه؛ بل وبعد زمانه إلى نبينا ﷺ فهو سيد ولد آدم، ومع ذلك خاف. ٣

مع هذه المنزلة العظيمة التي نالها إبراهيم عليه السلام من ربه، ومع أنه قاوم الشرك وكسر الأصنام بيده، وتعرض لأشد الأذى في سبيل ذلك حتى ألقي في النار، مع ذلك خاف على نفسه من الوقوع في الشرك، لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحي لا تؤمن عليه الفتنة، ولهذا قال بعض السلف: "ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟"، فإبراهيم خاف على نفسه الوقوع في الشرك لما رأى كثرة وقوعه في الناس، وقال عن الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾.

وفي هذا أبلغ الرد على هؤلاء الذين يقولون: لا خوف على المسلمين من الوقوع في الشرك بعدما تعلموا وتثقفوا، لأن الشرك بعبادة الأصنام شرك ساذج يترفع عنه المثقف والفاهم، وإنما الخوف على الناس من الشرك في الحاكمية، ويركزون على هذا النوع خاصة، وأما الشرك في الألوهية والعبادة فلا يهتمون بإنكاره، وعلى هذا يكون الخليل عليه السلام وغيره من الرسل إنما ينكرون شركاً ساذجاً!!، ويتركون الشرك الخطير وهو شرك الحاكمية كما يقول هؤلاء. ٤

الشاهد من هذه الآية: أن إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ. ٥

وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك لا كما يقول الجُهال إن الشرك لا يقع في هذه الأمة ولهذا أمنوا الشرك فوقعوا فيه، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة. ١

وفي حديث: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، فسئل عنه فقال: ((الرياء))[1]

أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزو. وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي، وهذا لفظ أحمد: حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد –يعنى ابن الهاد– عن عمرو عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر.)) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: ((الرياء. يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء))[2]؟". ٢

هذا الحديث رواه أحمد بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ وله شواهد قوية كلها تدل على وجوب الحذر من الرياء وأنه خطير ويبتلى به الصلحاء لأنه قد يرائي بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهيه وفي الحديث: ((من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به)). وتمام الحديث: ((أن الله يقول للمرائين يوم القيامة اذهبوا إلى من كنتم ترائون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء)). ٦

---

[1] مسند الإمام أحمد (٤٢٨/٥) وشرح السنة (٣٢٤/١٤).

[2] أحمد (٤٢٨/٥).

قال: "وفي الحديث" أي الحديث الذي رواه أحمد والطبراني والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، الرسول ﷺ يقول لأبي بكر وعمر ولسادات المهاجرين والأنصار، الذين بلغوا القمّة في التّوحيد والإيمان والجهاد في سبيل الله، ومع هذا الرسول يخاف عليهم، فمن يأمن بعد هؤلاء؟: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، فسئل عنه فقال: ((الرياء)) هذا دليل على اهتمام الصحابة في الأمر؛ والرياء معناه: أن الإنسان يتصنّع أمام الناس بالتقوى، والعمل الصالح، وإتقان الصلاة، وغير ذلك، من أجل أن يمدحوه، فالرياء من الرؤية أن يحب الإنسان أن يراه الناس وهو يعمل العمل الصالح من أجل أن يمدحوه، والسُّمعة أن يحب الإنسان أن الناس يسمعون كلامه ويسمعون عمله ويمدحونه، فالرياء لما يُرى من الأعمال، والسُّمعة لما يسمع منها. ٤

الرياء قسمان: رياء المسلم ورياء المنافق.

رياء المنافق: رياء في أصل الدين، يعني رَاءَ بإظهار الإسلام وأبْطَنَ الكفر، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

ورياء المسلم الموحد: أن يُحَسِّنَ صلاته من أجل نظر الرجل، أو أن يُحَسِّنَ تلاوته لأجل التسميع؛ أن يُمدح ويُسمَّع لا لأجل التأثير. فالرياء مشتق من الرؤية، فما كان من جهة الرؤية، يعني: أن يحسن عبادة لأجل أن يُرَى من المتعبدين، يطيل في صلاته، يطيل في ركوعه في سجوده، يقرأ في صلاته أكثر من العادة من أجل أن يُرَى ذلك منه، يقوم الليل لأجل أن يقول الناس عنه أنه يقوم الليل، هذا شرك أصغر.

والشرك الأصغر هذا الذي هو الرياء: قد يكون محبطاً لأصل العمل الذي تعبد به، وقد يكون محبطا للزيادة التي زادها:[1]

فيكون محبطاً لأصل العمل الذي تعبَّد به إذا ابتدأ النية بالرياء؛ يعني فيما لو صلى دخل الصلاة لأجل أن يُرى أنه يصلي، ليس عنده رغبة في أن يصلي الراتبة، لكن لما رأى أنه يُرى ولأجل أن يُمدح بما يراه الناس منه صلى، فهذا عمله يعني تلك الصلاة حابطة ليس له فيها ثواب.

---

[1] سقط من الأشرطة، وقد تم نقله عن تفريغ جامع ابن تيمية.

وإن جاء الرياء في أثناء العبادة، فإن ما زاده لأجل الرؤية يبطل كما قال عليه الصلاة والسلام ((قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشركاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)). ٣

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في "الصحيح" مرفوعاً، قال الله تعال: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)).

الثاني: أن يكون الرياء طارئاً على العبادة، أي أن أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء، فهذا ينقسم إلى قسمين:

-الأول: أن يدافعه، فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه، فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

-القسم الثاني: أن استرسل معه، فكل عمل ينشأ عن الرياء فهو باطل، كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى، فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأولى: أن يكون آخر العبادة مبيناً على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها، فهذه كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة، فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء، فهو صحيح، وما كان بعده، فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء، فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة، لأن آخرها منفك عن أولها.

فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء، هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

فالجواب: يحتمل هذا وهذا، فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني بعضها على بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه، لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء، فأعاد تطهيره وحد لم يضر، لأن تكرر غسل الوضوء لا يبطل الوضوء ولو كان عمداً بخلاف الصلاة. فإنه إذا كرر جزءاً منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي، بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه، لم يبطل وضوؤه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع، لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضاً، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءاً لأنه غير شرعي، وربما يكون في الأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتب أي سيغسل وجهه ثم يديه، فوضوءه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوت على نفسي فضيلة، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرات، فتبطل صلاته، فالمهم أن هناك فرقاً بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبت فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى. ٥

والرياء شرك خفي، لأن الشرك على نوعين: شرك ظاهر وشرك خفي، الشرك الظاهر: الذي يتمثل في الأعمال والأقوال، بأن يدعو غير الله، أو يذبح لغير الله، أو يستغيث بغير الله، هذا ظاهر يراه الناس ويسمعونه، لكن هناك شرك خفي لا يدري عنه الناس، لأنه في القلب، لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وهو الشرك في النيّة والإرادة، فالإنسان إذا سَلِم من الشرك الأكبر فإنه قد لا يسلم من الشرك الأصغر الذي يكون في القلوب، وهذا مما يُعطي المؤمن الحذر الشديد.

والرياء من صفات المنافقين، يقول الله تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً (١٤٢)﴾ [النساء:١٤٢] والله تعالى توعّد المرائين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦)﴾ [الماعون:٤-٦] فوعدهم الله بالويل، وجاء في الحديث أن الله يقول للمرائين يوم القيامة: ((اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم في الدنيا هل تجدون عندهم جزاءً)). ٤

والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس، لأنه لو أراد ذلك، لكان شركاً أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا، فقد يكون رياء، وقد يكون سماعاً، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب.

أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله -عز وجل-، والرسول ﷺ يقول: ((فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي)).[1] ٥

الشاهد من الحديث قوله عليه الصلاة والسلام ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) هو أخوف الذنوب التي خافها النبي عليه الصلاة والسلام على أهل التوحيد؛ لأنهم ما داموا أهل توحيد فإنهم ليسوا من أهل الشرك الأكبر، فبقي ما يُخاف عليهم الشرك الأصغر، والشرك الأصغر تارة يكون في النِّيَّات، وتارة يكون في الأقوال، وتارة يكون في الأعمال، يعني في القلب يكون الشرك الأصغر وفي المقال وفي الفعال أيضاً وسيأتي في هذا الكتاب بيان أصناف من كلِّ واحدة من هذه الثلاث.

---

[1] البخاري: كتاب الجمعة/باب الخطبة على المنبر، ومسلم: كتاب المساجد/باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة.

إذن النبي عليه الصلاة والسلام قال ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) فهو أخوف الذنوب على هذه الأمة، لماذا خافه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وكان أعظم الذنوب خوفاً؟ لأجل أثره وهو أنه لا يغفر، ولأجل أن الناس قد يغفلون عنه، فلهذا خافه عليهم عليه الصلاة والسلام، والشيطان حرصه على أهل التوحيد أن يدخل فيهم الشرك الأصغر من جهة الرياء، ومن جهة الأقوال والأعمال والنيات، أعظم من فرحه بغير ذلك من الذنوب. ٣

فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته دون الشرك الأكبر، لما تقدم مع أنه أخبر أنه لا بد من وقوع عبادة الأوثان في أمته فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله فهذا وجه ايراد المصنف له هنا مع أن الترجمة تشمل النوعين. ١

فهذا الحديث فيه الخوف من الشرك، لأن النبي ﷺ خافه على سادات المهاجرين والأنصار، وعلى أفضل هذه الأمة، فكيف بمن دونهم، وإذا كان هذا في الشرك الأصغر الذي لا يُخرج من الملّة فكيف بالشرك الأكبر- والعياذ بالله-. ٤

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله. ٢

وفيه دليل على وجوب إخلاص النية لله عزّ وجلّ، وان الإنسان لا يقصد مدح الناس أو ثناء الناس أو مطامع دنيا بأعماله الصالحة، وإنما يخلص النيّة لله عزّ وجلّ، يريد وجه الله، فإن عَمِل من أجل الرياء فعمله باطل.

فهذا الحديث يدل أولاً: على الخوف من الشرك.

ثانياً: أن الرياء شرك، ومعناه -كما ذكرنا-: أن يحب الإنسان أن يراه الناس على الطاعة فيُثنوا عليه بها.

وثالثاً: أن الرياء شرك خفي، لا يعلمه الناس، وإنما الله جل وعلا هو الذي يعلمه، لأنه في القلوب. ٤

وعن ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)) [رواه البخاري].[١]

هذا خبر من الرسول ﷺ أنّ من مات على الشرك فهو من أهل النار، ولا يُغفر له. ٤

قال ابن القيم: "الند الشبه يقال فلان ند فلان ونديده أي مثله وشبهه". انتهى[٢]. ١

قوله: ((من مات وهو يدعو لله نداً))[٣] أي: يجعل لله ندا في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار.

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-: "أي: يجعل لله نداً في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار".

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-:

والشـرك فاحـذره، فشـرك ظـاهر ... ذا الـــقسم يقابـــل الغفـــران

وهـــو اتخـــاذ النـــد للـــرحمن أيـــاً ... كـــان مـــن حجـــر ومـــن إنســـان

يـــدعوه أو يرجـــوه ثم يخافـــه ... ويحبـــه كمحبـــة الديـــان. ٢

ومعنى اتخاذ الأنداد: تشريك غير الله معه في العبادة من الصالحين والأنبياء أو شجر أو حجر. ٦

---

[١] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾.

[٢] إغاثة اللهفان ٢/٢٢٩.

[٣] البخاري تفسير القرآن (٤٢٢٧)، مسلم الإيمان (٩٢)، أحمد (١/٣٧٤).

وهذا كما قال تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ أي: ((من مات وهو يدعو لله نداً)): أي يجعل لله ندا فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار لأنه مشرك، فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر إليه مقهور بالعبودية له تجري عليه أقداره وأحكامه طوعاً وكرهاً، فكيف يصلح أن يكون نداً؟ قال الله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسان لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [الزخرف:١٥] وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣)﴾ [مريم] الآيتان، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر:١٥] فبطل أن يكون له نديد من خلقه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إذا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون:٩١].١

وجه الاستدلال منه أنه قال ((من ماتَ وهوَ يَدعو من دون اللهِ نِدّاً)) ودعوة النِّد من دون الله من الشرك الأكبر؛ لأن الدعاء عبادة، وهو أعظم العبادة، فقد جاء في الحديث الصحيح ((الدعاء هو العبادة)) وفي معناه حديث أنس في السنن ((الدعاء مخ العبادة)) فهو أعظم أنواع العبادة، فمن مات وهو يصرف هذه العبادة أو شيئاً منها لغير الله –ند من الأنداد– فقد استوجب النار.٣

قوله: ((من)). هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى.

قوله: ((يدعو من دون الله نداً))، أي: يتخذ لله نداً سواء دعاء عبادة أم دعاء مسألة، لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام، فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال.

ويدل لهذا القسم قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ [غافر: ٦٠]، فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله، فقد كفر كفراً مخرجاً له عن الملة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود، لكان مشركاً، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عن الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن يحني له؟ قال: ((لا)) [١].

خلافاً لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنى لك، فيجب على كل مؤمن بالله أن ينكره، لأنه عظمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة، فهذا ليس كله شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك، فليس بشرك، كقوله: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال ﷺ ((من دعاكم فأجيبوه)) [٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨].

فإذا مد الفقير يده، وقال: ارزقني، أي: اعطني، فليس بشرك، كما قال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، وأما أن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله، فإن دعوته شرك مخرج عن الملة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن ينزل الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك.

والمراد بقول الرسول ﷺ: ((من مات وهو يدعو من دون لله نداً)) المراد الند في العبادة، أما الند في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف، ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقى جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا -والعياذ بالله- شرك أكبر مخرج من الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا واللواط، لأنه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.ه

[١] مسند الإمام أحمد (١٩٨/٣)، والترمذي: كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في المصافحة، وقال: "حديث حسن"، وابن ماجة: كتاب الأدب/ باب في المصافحة.

[٢] مسند الإمام أحمد (٦٨/٢)، وأبو داود (١٧/٣)، والنسائي (٢٨/٥)، والحاكم وصححه.

وقوله ((دخل النار)) يعني كحال الكفار خالداً فيها؛ لأن الشرك الأكبر إذا وقع من المسلم فإنه ولو كان أصلح الصالحين يُحبِط العمل، قد قال جل وعلا لنبيه ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]، فلو أشرك النبي عليه الصلاة والسلام -فإن الله عظيم والله أكبر وخلقه هم المحتاجون إليه، العبيد له سبحانه- فلو أشرك النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لحبِط عمله ولكان في الآخرة من الخاسرين، أفلا يوجب هذا الخوف منه ودونه ممن يدّعي الصلاح والعلم من الشرك؟ بل قد شاع في هذه الأمة أن بعض المنتسبين إلى العلم يدعو إلى الشرك ويحض عليه ويبغّض ويكرّه في التوحيد، وهذا كما قال الله جلّ علا عن أسلافهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥].

فإذن وجه الاستدلال ظاهر، ((من ماتَ وهوَ يَدعو من دون اللهِ نِدّاً دخلَ النار))، وذلك يوجب الخوف لأن قصد المسلم لفظ ((من دون الله)) يكثر في القرآن والسنة، و((من دون الله)) عند علماء التفسير وعلماء التحقيق يراد بها شيئاً ن:

الأول: أن تكون بمعنى (مع)، (من دون اللهِ) يعني مع الله، وعبَّر عن المعية بلفظ (من دون اللهِ) لأن كل من دُعِيَ مع الله فهو دون الله جل وعلا فهم دونه، والله جل وعلا هو الأكبر هو العظيم وفي هذا دليل على بشاعة عمله.

والثاني: أن قوله (من دون اللهِ) يعني غير الله؛ ((من ماتَ وهوَ يَدعو من دون اللهِ)) يعني وهو يدعو إلهاً غير الله، فتكون (من دون اللهِ) يعني أنه لم يعبد الله وأشرك معه غيره؛ بل دعا غيره استقلالاً، فشملت من دون الله الحالين: من دعا الله ودعا غيره، ومن دعا غير الله وتوجه إليه استقلالاً.

بل قصد العاقل أن يكون ناجياً من النار ومتعرّضا لثواب الله بالجنة. ٣

ومن يدري متى يموت؟، ومن يدري ماذا يموت عليه؟، فالإنسان يخاف على نفسه من سوء الخاتمة، وأن يموت وهو يشرك بالله، فيكون من أهل النار، فالإنسان يجب عليه أن يحذر من الشرك طول حياته لأنه لا يدري في أي لحظة يموت، فيكون من أهل النار.

فهذا فيه الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يُختم له بالشرك فيكون من أهل النار، ولو كان من أهل التّوحيد قبل ذلك، وعارف به، ومستقيم، لكن يخاف على نفسه من أنه يتنكس بعد ذلك، ويشرك بالله، ويموت على ذلك فيكون من أهل النار، فنسأل الله الثبات، فيكون عنده حذر دائماً وأبداً من الشرك. ٤

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي، كطلب الشفاعة من الأموات، فإنها ملك لله تعالى وبيده، ليس بيد غيره منها شيء، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر. كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى. ٢

لمسلم عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار)).[1]

هذا فيه فضل التّوحيد، وأن من مات عليه دخل الجنة، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى، والله لا يخلف وعده، حتى ولو كان عنده ذنوب ومعاص دون الشرك، فقد يغفرها الله له ويدخله الجنة من غير عذاب، وقد يعذبه الله بها ثم يدخله الجنة، فمآل الموحّد إلى الجنة، إما ابتداءً وإما في النهاية.

فقوله: ((من لقي الله)) يعني: مات.

((ومن لقيه يُشرك به شيئاً دخل النار)) هذا مثل حديث ابن مسعود، من مات على الشرك، فإنه من أهل النار، -نسأل الله العافية-.

فهذا فيه الحذر من سوء الخاتمة. ٤

---

[1] مسلم كتاب الإيمان/ من مات ولا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

ولاحظوا كلمة ((شيئاً)) تعم الشرك كله، ما أشرك مع الله من نبي أو ولي أو ملك، لأن الشرك لا يقبله الله أبداً: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.٤

ذكرت لكم بالأمس أن قوله ((لاَ يُشْرِكُ بِهِ شيئاً)) هذا فيه نوعان من العموم:

- عموم في أنواع الشرك، فهي منفية.
- وعموم في المتوجَّه إليهم في المشرَك بهم في قوله ((شيئاً)).

((مَنْ لَقِيَ الله لاَ يُشْرِكُ)) يعني بأي أنواع من الشرك.

((بِهِ شيئاً)) يعني لم يتوجه إلى أي أحد، لا لملك ولا لنبي ولا لصالح ولا لجني ولا لطالح ولا لحجر ولا لشجر إلى غير ذلك.

((دَخَلَ الْجَنّةَ)) يعني أنَّ الله جل وعلا وعده بدخول الجنة برحمته سبحانه وتفضُّله وبوعده الصادق الذي لا يخلَف.٣

((مَنْ لَقِيَ الله لاَ يُشْرِكُ بِهِ شيئاً)) قال القرطبي: "أي: من لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية ولا في الخلق، ولا في العبادة. ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة . أن من مات على ذلك، فلا بد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وإن مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد من غير انقطاع عذاب، ولا تصرم آماد، وهذا معلوم ضروري من الدين، مجمع عليه بين المسلمين". ١

قال النووي: "وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة، ولا وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً وإلا عذب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة"[1].١

قال: ((وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شيئاً دَخَلَ النّارَ)) فكل مشرك متوعَّد بالنار؛ بل وجه الدلالة كما يستقيم مع استدلال الشيخ بالآية بأن من لقي الله وهو على شيء من الشرك الأكبر أو الأصغر أو الخفي فإنه سينال العقوبة والعذاب في النار والعياذ بالله.

---

[1] شرح صحيح مسلم للنووي ٩٧/٢

قال: ﴿وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شيئاً﴾ هذه فيها عموم أيضاً كما ذكرنا؛ لأن ﴿مَنْ﴾ شرطية و﴿يُشْرِكُ﴾ فيها نكرة وهي عامة لأنواع الشرك و﴿شيئاً﴾ عامة في المتوجه إليه.

﴿دَخَلَ النّارَ﴾ وهنا دخول النار هل هو أبدي أم أمدي؟ بحسب الشرك:

- فإن كان الشرك أكبر ومات عليه فإنه يدخل النار دخولاً أبدياً.
- وإن كان الشرك ما دون الشرك الأكبر أصغر أو خفي فإنه متوعد بالنار وسيدخل النار ويخرج منها لأنه من أهل التوحيد.

هل يدخل الشرك الأصغر في الموازنة أم لا؟ ذكرت لك في أول الدرس أن الشرك الأصغر يدخل في الموازنة؛ موازنة الحسنات والسيئات، وأنه إذا رَجَحت حسناته أنه لا يعذَّب على الشرك الأصغر؛ لكن هذا ليس في كل الخلق؛ لكن منهم من يعذب على الشرك الأصغر لأن الموازنة بين الحسنات والسيئات ليست في كل الخَلْق وليست في كل الذنوب؛ بل قد يكون من الذنوب ما يستوجب النار ولو رَجَحت الحسنات على السيّئات، فإنه يستوجب الجنة ولكن لابد من أن يطهَّر في النار.

وهذا دليل على وجوب الخوف من الشرك؛ لأن مَنْ لَقِيَ الله يُشْرِكُ بِهِ شيئاً دَخَلَ النّارَ، إذا كان كذلك وهذا يشمل الشرك الأكبر والأصغر والخفي فإن المرء يجب عليه أن يهرَب أشد الهرب من ذلك.

والشرك الأصغر والخفي يستعيذ المرء بالله جل وعلا منه، ويقول: ((اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه، وأستغفرك مما لا أعلم)). لأنه إذا علم فأشرك فإنه سيترتب الأثر الذي ذكرناه وهو عدم المغفرة ففي هذا الدعاء الذي علمناه رسول الله ﷺ فيه التفريق بين الشرك الأصغر مع العلم والشرك الأصغر مع الجهل، فقال: أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه؛ لأن أمر الشرك الأصغر مع العلم عظيم، فيستعيذ المرء بالله من أن يشرك شركاً أصغراً وما هو أعلى منه من باب أولى وهو يعلم، وقال: ((وأستغفرك مما لا أعلم))، لأن المرء قد يكون شيئاً على فلتات لسانه وهو لا يعلم ولم يقصد ذلك ويستغفر الله جل وعلا منه.

هذا يدلكم على أن الشرك أمره عظيم، ولا يتهاون أحد بهذا الأمر لأن من تهاون بالشرك وبالتوحيد فإنه تهاون بأصل دين الإسلام؛ بل تهاون بدعوة النبي ﷺ في مكة سنين عدداً؛ بل تهاون بدعوة الأنبياء والمرسلين فإنهم اجتمعوا على شيء ألاَ وهو العقيدة وهو توحيد العبادة والربوبية والأسماء والصفات، وأما الشرائع فشتى.

ولهذا الحذر كل الحذر من الشرك بأنواعه وأن تتعلم ضدَّه، وأن تتعلم أيضاً أفراد الشرك وأفراد التوحيد، وإنما يستقيم العلم بذلك إذا تعلمت الأفراد، أمّا التعلم الإجمالي لذلك فهذا -كما يقال- نحن على الفطرة لكن إذا أتت الأفراد ربما رأيت بعض الناس فيما بين ظهرانيكم يخوضون في بعض الأقوال أو الأعمال التي هي من جنس الشرك وهم لا يشعرون؛ وذلك لعدم خوفهم وهربهم من الشرك.

نسأل الله جل وعلا العفو والعافية.

فإذن احرص على تعلم هذا الكتاب ومدارسته، وعلى كثرة مذاكرته، وفهم ما فيه من الحجج والبيّنات؛ لأنه هو خير ما يكون في صدرك بعد كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه ﷺ لأن به إن شاء الله سبباً عظيماً من أسباب النجاة والفلاح. ٣

فهذا الحديث فيه الخوف من الشرك، وأن الإنسان يخشى أن يلقى الله وهو على الشرك فيكون من أهل النار، والعياذ بالله. ٤

والحديث فيه موجبتان: الأولى: أن من لقي الله لا يشرك به دخل الجنة.

والثانية: أن من لقيه وهو مشرك دخل النار.

ولذا في لفظ آخر قال رسول الله ﷺ ((ألا أخبركم بالموجبتين))، قالوا: بلى، قال: ((من لقي الله...)). ٦

وفي نصوص الباب أن الإنسان لا يغتر بنفسه مهما بلغ من العلم والإيمان والمعرفة، بل يعترف بعجزه وفقره إلى الله سبحانه وتعالى، وأنه إن لم يعصمه الله فإنه على خطر. ٤

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

العاشرة: فيه تفسير (لا إله إلا الله) كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك. لقوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾، ولقوله: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾. ٥

الثانية: أن الرياء من الشرك. لحديث: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، فسئل عنه فقال "الرياء". ٥

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر. لأن النبي ﷺ لما سئل عنه فقال: ((الرياء))، فسماه شركاً أصغر، وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظاهر الحديث لا يمكن، لأنه قال: ((الشرك الأصغر))، فسئل عنه، فقال: ((الرياء)).

لكن في عبارات ابن القيم رحمه الله أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: "كيسير الرياء"، فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية، فنعم، لأنه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية، فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقاً. ٥

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين. وتؤخذ من قوله: ((أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر))، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيراً من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد لله. ٥

الخامسة: قرب الجنة والنار.

فما بينه وبين الجنة والنار إلاَّ أن يموت، ولا يدري، ربما يموت في الحال، ربما يموت بعد دقائق، أو بعد شهر، أو بعد سنة، ما بينه وبين النار والجنة إلاَّ الموت، فإذا مات دخل النار أو دخل الجنة، ففيه قُرب الجنة والنار من الإنسان، والنبي ﷺ يقول: ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله، والنار مثل ذلك)). ٤

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد. ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً ...)) الحديث.٥

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

تؤخذ من العموم في قوله: ((من لقي الله))، لأن ((من)) للعموم، لكن إن كان شركه أكبر، لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس، لقوله تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ [المائدة: ٧٢]، وإن كان أصغر، عذب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة. ٥

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**﴾. ٥

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

العاشرة: فيه تفسير (لا إله إلا الله) كما ذكره البخاري.

وذلك في الحديث الأخير: ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار))، هذا هو معنى لا إله إلاَّ الله، لأن في هذا الحديث التّوحيد والشرك، ولا إله إلا الله أثبتت التّوحيد ونفت الشرك، فـ(لا إله) نفي للشرك، و(إلاَّ الله) إثبات للتّوحيد. ٤

الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب، لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات. ٥

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

لقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾، وقوله: ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً ، دخل الجنة)). ٥

نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يرزقنا وإياكم الثبات على دينه، وأن يُرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يُرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن لا يجعله ملتبساً علينا فنضل، ونعوذ بالله من الغرور، ونعوذ بالله من الإعجاب، ونعوذ بالله من تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أعلم بِمَنِ اتَّقَى﴾. ٤

(بَابُ الدُّعَاءِ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ اللَّهُ)

وَقَوْلُهُ اللَّه تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: ((إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إليه شَهَادَةُ أَنْ لا إله إلا الله –وفِي رِوَايَةْ: إِلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ– فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأعلمهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأعلمهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِم، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)) أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرٍ: ((لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ))، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: ((أَيْنَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟)) فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إليه، فَأُتِي به فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فقَالَ: ((انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تنزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُم إلى الإسلام وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)) –يَدُوكُونَ: يَخُوضُونَ– .

مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب ظاهرة جدّاً، فإنه في الأبواب السابقة ذكر في الباب الأول: معرفة التّوحيد، وفي الباب الثاني: ذكر فضل التّوحيد، وفي الباب الثالث: ذكر فضل من حقق التّوحيد، وفي الباب الرابع: ذكر ما يضاد التّوحيد، وهو الشرك. فإذا كان طالب العلم ألَمَّ بهذه الأبواب، وعرفها معرفة جيدة، عرف التّوحيد وفضله وتحقيقه، وعرف ما يضاده من الشرك الأكبر أو ينقصه من الشرك الأصغر والبدع وسائر المعاصي، فإنه حينئذٍ تأهّل للدعوة إلى الله عزّ وجلّ، لأنه لا يجوز للإنسان إذا علم شيئاً من هذا العلم أن يختزنه في

صدره، ويُغلق عليه، ويختصه لنفسه، هذا العلم مشتَرك بين الأمة، فمن عرف شيئاً منه فإنه يجب عليه أن ينشره، وأن يدعو الناس إليه، فإن هذه الأمة أمة دعوة، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران:١٠٤]، فلا يجوز للمسلم الذي عرف شيئاً من العلم أن يسكت عليه وهو يرى الناس في حاجة إليه، خصوصاً علم التّوحيد وعلم العقيدة، لأنه إذا فعل ذلك فقد ترك واجباً عظيماً، ولا يقول الإنسان أنا ما علي إلاَّ من نفسي -كما يقوله بعض الجهلة أو الكسالى-، أنا ما عليَّ من الناس!! بل عليك نفسك أولاً، ثم عليك أن تدعو الناس إلى دين الله عزّ وجلّ، فإن اقتصرت على نفسك تركت واجباً عظيماً تحاسب عنه يوم القيامة، وتعرّض نفسك لغضب الله عزّ وجلّ حيث تركت ما أوجبه عليك من الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، هذا وجه المناسبة، وهي ظاهرة. ٤

بوَّب الشيخ رحمه بهذا الباب ليدل على أن من تمام الخوف من الشرك ومن تمام التوحيد أن يدعو المرء إلى التوحيد، فإنه لا يتم في القلب حتى تدعو إليه، وهذه حقيقة شهادة أن لا إله إلاَّ الله؛ لأن الدعوة إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله عُلمت حيث شهِد العبد المسلم لله بالوحدانية.

قال: أشهد أن لا إله إلاَّ الله. وشهادته معناها اعتقاده ونُطْقه وإخباره الغير بما دلت عليه، فلابد إذن في حقيقة الشهادة وفي تمامها من أن يكون المرء من أن يكون المكلَّف الموحد داعياً إلى التوحيد.

لهذا ناسب أن يذكر هذا الباب بعد الأبواب قبله. ٣

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون، لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك، لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿والعصر (١) إن الإنسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر(٣)﴾ [سورة العصر].

فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا، كان ناقصاً، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقاً في اعتقاده، فلابد أن يكون داعياً إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به. ٥

فقوله: "باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله" أي: الدعوة، وأن المسلم الذي منّ الله عليه بمعرفة التّوحيد، ومعرفة الشرك لا يسعه أن يسكت وهو يرى الناس يجهلون التّوحيد، ويقعون في الشرك الأكبر والأصغر، ويسكت على ذلك، كما هو واقع كثير من طلبة العلم والعلماء، الذين يرون الناس على العقائد الفاسدة والعقائد الباطلة وعبادة الأضرحة، ويسكتون على ذلك، ويقولون: نحن لا نهتم إلاَّ بأنفسنا. بهذا ضيّعوا واجباً عظيماً، ولو أن العلماء وطلبة العلم قاموا بما أوجب الله عليهم من هذا الأمر في جميع الأمصار لرأيت للمسلمين حالة غير هذه الحالة، فالآن بلاد الإسلام تعج بالشرك الأكبر، تُبنى فيها المشاهد، والمزارات الشركية، ويُنفق عليها الأموال، ودول الكفر تساعد على ذلك، والمسلمون ساكتون على هذا الوضع، وهذا خطر عظيم أصاب الأمة، وما أصيبت به من حروب ومجاعات وأمور تعرفونها إنما هو نتيجة لهذا الإهمال -والعياذ بالله-، فهذا واجب عظيم. ٤

ثم له مناسبة أخرى لطيفة وهي: أنّ ما بعد هذا الباب هو تفسيرٌ للتوحيد وبيان أفراده، وتفسير للشرك وبيان أفراده، فيكون -إذن- الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، الدعوة إلى التوحيد دعوة إلى تفاصيل ذلك، وهذا من المهمات؛ لأن كثيرين من المنتسبين للعلم من أهل الأمصار يسلِّمون بالدعوة إلى التوحيد إجمالاً؛ ولكن إذا أتى التفصيل في بيان مسائل التوحيد، أو جاء التفصيل لبيان أفراد الشرك فإنهم يخالفون في ذلك وتغلبهم نفوسهم في مواجهة الناس في حقائق أفراد التوحيد وأفراد الشرك.

إذن فالذي تميزت به هذه الدعوة؛ دعوة الإمام المصلح رحمه الله أنَّ الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله دعوة تفصيلية ليست إجمالية، أمَّا الإجمال فيدعوا إليه كثيرون؛ نهتم بالتوحيد ونبرأ من الشرك؛ لكن لا يذكرون تفاصيل ذلك، والذي ذكره الإمام رحمه الله في بعض رسائله أنه

لما عَرَضَ هذا الأمر يعني الدعوة إلى التوحيد عرضه على علماء الأمصار قال: وافقوني على ما قلت وخالفوني في مسألتين في مسألة التكفير وفي مسألة القتال. وهاتان المسألتان سبب المخالفة، مخالفة أولئك العلماء فيها أنهما فرعان ومتفرعتان عن البيان والدعوة إلى أفراد التوحيد والنهي عن أفراد الشرك.

إذن الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله هو الدعاء إلى ما دلَّت عليه من التوحيد، والدعاء إلى ما دلَّت عليه من نفي الشريك في العبادة وفي الربوبية وفي الأسماء والصفات عن الله جل وعلا.

وهذه الدعوة دعوة تفصيلية لا إجمالية، ولهذا فصَّل الإمام رحمه الله في هذا الكتاب أنواع التوحيد وأفراد توحيد العبادة، وفصَّل الشرك الأكبر والأصغر وبين أفراداً من ذا وذاك.

يأتي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله في الباب الذي بعده؛ لأنه باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلاَّ الله. ٣

وقوله الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] الآية.

هذه الآية في آخر سورة يوسف، يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن يُعلن للناس عن بيان منهجه ومنهج أتباعه، وهو الدعوة إلى الله على بصيرة، فدل على أن من لم يدع على بصيرة فإنه لم يحقق اتباع النبي ﷺ وإن كان عالماً وفقيهاً. ٤

قال أبو جعفر بن جرير: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قل﴾ يا محمد ﴿هذه﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان. والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته ﴿سبيلي﴾ طريقتي، ودعوتي ﴿أدعو إلى الله﴾ تعالى وحده لا شريك له ﴿على بصيرة﴾ بذلك، ويقين علم مني به ﴿أنا و﴾ ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتبعني وصدقني وآمن بي ﴿وسبحان الله﴾ يقول له تعالى ذكره: وقل تنزيها لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه ﴿وما أنا من المشركين﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به. لست منهم ولا هم مني". انتهى. ٢

قال ابن كثير: "يقول تعالى لرسوله ﷺ آمرا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله: أي طريقته وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله يدعو إلى الله بها على ﴿بصيرة﴾ من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه تدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان عقلي شرعي وقوله ﴿سبحان الله﴾ أي وأنزه الله وأجل وأعظم عن أن يكون له شريك ونديد تبارك وتعالى عن ذلك علوا كبيراً". ١

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد للناس.

﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ السبيل معناها: الطريق التي أسير عليها.

﴿أَدْعُو إلى اللهِ﴾ إلى توحيد الله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، وكذلك الدعوة إلى بقيّة شرائع الدين، فتكون الدعوة للكفار للدخول في الإسلام، وتكون الدعوة للعصاة من المسلمين للتوبة إلى الله عزّ وجلّ وأداء الواجبات والتحذير من الوقوع في الشرك، واجتناب المحرمات ، فالدعوة ليست مقصورة على دعوة الكفار، بل حتى المسلمون الذين هم بحاجة إلى الدعوة لوقوعهم في المعاصي والمخالفات يحتاجون إلى دعوة، دعوة إلى التوبة، وأداء الواجبات، وترك المحرمات ، والمخافة من الله عزّ وجلّ، فالدعوة عامة. والدعوة إلى معرفة التّوحيد ومعرفة ضده. ٤

وأحسن الأقوال قول من دعا إلى الله وأحسن الأعمال عمل من دعا إلى الله جل وعلا، ولهذا قال سبحانه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إلى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، قال الحسن البصري رحمه الله في تفسير هذه الآية ما معناه قال: "هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله من خلقه أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، هذا حبيب الله". وهذا أمر عظيم في أن الداعي إلى الله هو أحسن أهل الأقوال قولا، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إلى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾.٣

وكما حرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين وإذا أراد الدعوة إلى ذلك فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله إذ لا تصح الأعمال إلا به فهو أصلها الذي تبنى عليه ومتى لم يوجد لم ينفع العمل بل هو حابط إذ لا تصح العبادة مع الشرك كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد فكان أول ما يبدأ به في الدعوة. ١

﴿أَدْعُو إلى اللهِ﴾ قال الشيخ رحمه الله: "فيه التنبيه على الإخلاص، فإن بعض الناس إنما يدعو إلى نفسه" فقد يكون الإنسان يدعو، ويحاضر ويخطب، لكن قصده من ذلك أنه يتبيّن شأنه عند الناس، ويصير له مكانة، ويمدح من الناس، ويتجمهرون عليه، ويكثرون حوله، فإذا كان هذا قصده، فهو لم يدع إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسه والإنسان الذي يترك الدعوة فإنه ترك واجباً عظيماً، والإنسان الذي لم يُخلص في الدعوة يقع في محظور عظيم، بل لابد من الدعوة وأن تكون خالصة لوجه الله عزّ وجلّ، ويكون القصد منها إقامة شرع الله، والقصد منها هداية الناس ونفع الناس، مدحوك أو ذمُّوك، فبعض الناس، إذا لم يُمدح ويشجّع تَرَكَ الدعوة، وهذا دليل على أنه لا يدعو إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسه، فليتنبّه المسلم ويكون رائده وقصده من دعوته هو الإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ، ونفع الناس، وتخليصهم من الشرك، ومن البدع، ومن المخالفات، وأن يؤدي الواجب الذي عليه، والكثرة حول الشخص لا تدل على فضله، بعض الأنبياء لم يتبعه إلاَّ القليل: ((النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحداً))، هل هذا يدل على عدم فضل هذا النبي؟، لا، حاشا وكلاّ، فالإنسان لا ينظر إلى كثرة الحاضرين، ((لأن يهدي الله بك وجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم)).

اجتمع الناس على باب ابن مسعود رضي الله عنه وهو يريد الخروج إلى الصلاة فلما خرج ومشوا خلفه، التفت إليهم وقال: "ارجعوا، فإنه فتنة للمتبوع، ذِلّة للتابع". ٤

قوله ﴿أَدْعُو إلى اللَّهِ﴾ هذا موطن الشاهد فإنه دعاء إلى الله جل وعلا لا إلى غيره، وهذه فيها فائدتان:

الأولى: أن الدعوة إلى الله دعوة إلى توحيده، دعوة إلى دينه، كما سيأتي تفسير هذه الكلمة في الحديثين بعدها؛ حديث ابن عباس بإرسال معاذ إلى اليمن، وحديث سهل بن سعد ﷺ في إعطاء عليٍّ الراية.

الثانية: أن في قوله ﴿أَدْعُو إلى اللَّهِ﴾ التنبيه على الإخلاص، وهذا يحتاجه من أراد الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله والدعاء إلى الإسلام؛ يعني الدعوة إلى الإسلام، يحتاج أن يكون مخلصا في ذلك، ولهذا قال الشيخ رحمه الله في مسائل هذا الباب: في قوله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ "تنبيه على الإخلاص" لأن كثيرين وإن دعوا إلى الحق فإنما يدعون إلى أنفسهم، أو نحو ذلك. ٣

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة، ...، فإذا دعا إلى الله ولم يجب، فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يتبع، لا لأنه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا، فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد، كفى، وإذا لم يستجب أحد، فقد أبرأ ذمته أيضاً، وفي الحديث: ((والنبي وليس معه أحد)).

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل، لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقر الباطل مع طول الزمن، ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً. ٥

﴿أَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ البصيرة معناها: العلم، بل هي أعلى درجات العلم. وفي هذا دليل على أنه يُشترط في الداعية أن يكون على بصيرة، أي: على علم بما يدعو إليه، أما الجاهل فلا يصلح للدعوة، بل لابد أن يتزوّد بالعلم قبل أن يَشْرَع في الدعوة، لأنه في دعوته يتعرض إلى شبهات ومناظرات، فمن أين يجيب إذا وقف في وجه معاند أو معارض أو مشبِّه، كيف يستطيع الخلاص. إنه يفشل، ويصير نَكْسَة على الدعوة، أو يجيب بجهل ويكون الأمر أخطر، إما أن يسكت عن الجواب وينتصر عليه الخصم، وإما أن يجيب بجهل

فيكون الأمر أخطر. هذا من ناحية. والناحية الثانية: أن الداعية يحتاج إلى معرفة الحلال والحرام، فقد يقول بجهله هذا الشيء حرام وهو حلال، وقد يقول بجهله: هذا الشيء حلال وهو حرام، فالداعية يجب أن يكون على علم بما يدعو إليه، بحيث أنه يعرف الحلال والحرام، ويعرف الواجب والمستحب والمحرّم والمكروه والمباح، ويعرف كيف يجيب على الاعتراضات والشبه والمجادلات، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، كيف يستطيع أن يجادل بالتي هي أحسن وهو ليس عنده علم؟!، فيُشترط في الداعية: أن يتأهل بالعلم، فإن بعض الدعاة اليوم ليس عندهم علم، وإنما يجيد الكلام والشَّقْشَقَة والخطابة، لكن ليس عنده علم، بحيث لو عرضت له أدنى شُبهة، أو سئل عن أدنى مسألة في الحرام والحلال تخبّط فيها. ٤

فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم، لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله ﴿على بصيرة﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل، العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: ((إنك تأتي قوماً أهل كتاب)).[1]

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي، لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع، كقوله ﷺ: ((من قتل قتيلاً، فله سلبه))[2]، أو بالتأليف، فالنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلى مئة بعير[3]، فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح. ٥

---

[1] البخاري: كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين.

[2] البخاري: كتاب المغازي/ باب قول الله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم...﴾، ومسلم: كتاب الجهاد/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

[3] البخاري: كتاب الخمس/ باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة.

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- في معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلم بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أعلم بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل . ١٢٥].

"ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له. مؤثراً له على غيره إذا عرفه. فهذا يدعى بالحكمة. ولا يحتاج إلى موعظة وجدال. وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادل بالتي هي أحسن. فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن". انتهى. ٢

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: وأتباعي يدعون إلى الله على بصيرة، فدلّ على أن من لم يدع إلى الله لم يحقق اتباع الرسول ﷺ وأن من دعا إلى الله على جهل لم يحقق اتباع الرسول ﷺ، بل إنه أدخل نفسه فيما ليس من شأنه، وصار خطراً على الدعوة، وعلى الدعاة. ٤

فإذن المتبعون للرسول عليه الصلاة والسلام الموحدون لابد لهم من الدعوة إلى الله؛ بل هذه صفتهم التي أمر الله نبيه أن يُخبر عن صفته وعن صفتهم، قال ﴿قُلْ﴾ يعني يا محمد، ﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ فهذه إذن خصلة أتباع الأنبياء أنهم لم يخافوا من الشرك فحسب، ولم يعلموا التوحيد ويعملوا به فحسب؛ بل أنهم دعوا إلى ذلك.

وهذا أمر حتمي؛ لأن من عرف عِظم حق الله جل وعلا فإنه يغار على حق الرب سبحانه وتعالى، يغار على حق مولاه، يغار على حق من أحبه فوق كل محبوب أن يكون توجُّه الخلق إلى غيره بنوع من أنواع التوجهات، فلابد -إذن- أن يدعو إلى أصل الدين وأصل الملة الذي اجتمعت عليه الأنبياء والمرسلون ألا وهو توحيده جل وعلا في عبادته وفي ربوبيته وفي أسمائه وصفاته جل وعلا وعزَّ سبحانه. ٣

ثم قال: ﴿وَسُبْحَنَ اللهِ﴾ سبحان: اسم مصدر من سبّح بمعنى: نَزَّه الله عما لا يليق به من الشرك والقول عليه سبحانه وتعالى بلا علم، فإن الله يُنَزَّه عن الشرك ويُنَزَّه عن القول عليه بلا علم، فهذا فيه وجوب تنزيه الله سبحانه وتعالى عن النقائص، وأعظمها الشرك. ٤

قوله: ﴿وسبحان الله﴾، أي: أن أكون أدعو على غير بصيرة! ٥

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذه براءة من الرسول ﷺ من المشركين، كما تبرَّأ منهم خليل الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]، ففيه البراءة من المشركين، يعني: قطع المحبة والمودّة والمناصرة بينك وبين المشركين، لأنهم أعداء الله وأعداء رسوله، فلا يجوز لك أن تَوَدَّهم بقلبك أو تناصرهم أو تدافع عنهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إليهمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليهود وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

ففي هذا دليل على أنه يجب البراءة من المشركين، وأن من أصول الدعوة إلى الله: البراءة من المشركين، أما الداعية الذي لا يتبرأ من المشركين، فهذا ليس بداعية، وليس على طريقة الرسول ﷺ وإن زعم أنه يدعو إلى الله، والكفر بالطاغوت مقدم على الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]، فلابد من البراءة من المشركين، أما الذين يقولون: "ما علينا من عقائد الناس، من دخل في جماعتنا وصار معنا فهو أخونا، وعقيدته له"، هذه ليست دعوة إلى الله عزّ وجلّ، وإنما هي دعوة إلى الحزبية والعصبية. ٤

ففي هذه الآية الكريمة مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أن طريقة النبي ﷺ وطريقة أتباعه على الحقيقة: الدّعوة إلى الله.

المسألة الثانية: أن من لم يدع إلى الله وهو يستطيع الدعوة إلى الله، فإنه لم يحقق اتباعه للرسول ﷺ بل اتباعه فيه نقص عظيم.

المسألة الثالثة: وهي المسألة التي نبّه عليها الشيخ في مسائله: التنبيه على الإخلاص في الدعوة لقوله: ﴿إِلَى اللهِ﴾ فإن بعض الناس إنما يدعو إلى نفسه، فالذي يقصد المدح والثناء وكثرة الأتباع وكثرة الجماعة وكذا وكذا والفَخْفَخَة، هذا لا يدعو إلى الله.

المسألة الرابعة: -وهي المسألة العظيمة-: أن الداعية إلى الله لابد أن يكون على بصيرة، مؤهّلاً بالعلم النافع الذي يستطيع به أن يدعوَ إلى الله، وأن يجادله المغرضين والمعارضين، ويَدْحضَ حججهم بلسانه وبقلمه، الدعوة إلى الله تكون باللسان وتكون بالقلم أيضاً، وتكون بالسيف والجهاد، فيُشترط في الداعية شرط أساسي، بل أصلي، بأن يكون على علم، وأما الجاهل فلا يصلح للدعوة، وإن كان عنده عبادة، وعنده ورع، وعنده تُقى، وعنده غيرة على الدين، وعنده محبة للدين، هذا شيء طيّب، وصفات طيّبة، لكن نقول له: يا أخ الدعوة لا يدخل فيها إلاَّ من كان على علم، أما مجرّد الخوف والخشية والعبادة والورع والغيرة والصلاح، فهذا شيء طيّب، لكن أنت لا تصلح للدعوة لأنك لست على علم، والله تعالى يقول: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

ويقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾، والحكمة هي العلم، فأنت لا تصلح للدعوة، تعلّم أولاً، فإذا تعلّمت تعال للدعوة، فالدعوة ليست بالمسألة الهيّنة، ولذلك عندما حصل هذا الإهمال في الدعوة حصل ما ترون الآن من التفكك والتخاذل لأن الدعوة دخل فيها ما هب ودب، من الجهال والمغرضين وأصحاب المطامع، ولا تنجح دعوة لم يتوفر فيها الشروط الإلهية التي اشترطها الله تعالى، ولا يبقى إلاَّ الأصلح دائماً وأبداً، ولو كثرت الجماعات الدعوية، ما دامت أنها ليست على الشروط التي اشترطها الله، والمنهج الذي رسمه الله ورسوله، فإنها لا

تنجح مهما بلغت من الكثرة والقوة، وستتلاشى وتصاب بالنَكْسَة والفشل، أما إذا كانت مؤسَّسة على العلم وعلى الإخلاص والنصيحة، فهذه هي التي تنجح بإذن الله ولو كانت من فرد واحد.

المسألة الخامسة: أن الشرك نقص عظيم يجب تنزيه الله عنه، لأن الله عزّ وجلّ كامل، له الكمال المطلق فمن أشرك به فقد تنقصه ومن نفى صفات الله عزّ وجلّ أو أوّلها فقد تنقص الله عزّ وجلّ، فالمؤوّلة والمشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، أو يؤوِّلون صفات الله، أو يُلحدون في أسمائه، هؤلاء تنقّصوا الله عزّ وجلّ، وهذا نقص ينزّه الله جل وعلا عنه، ومن وصفه بما لا يليق به أو سماه بغير ما سمى به نفسه فقد تنقصه، ومن حكم بغير ما أنزل فقد تنقصه، ومن عصى أمره أو ارتكب نهيه فقد تنقصه سبحانه.

المسألة السادسة:- وهي مهمة جدًّا-: البراءة من المشركين، فالذي يدعو إلى الله -بل وكل مسلم- لكن الذي يدعو إلى الله من باب أولى، لأنه قدوة، يجب عليه أن يتبرّأ من المشركين، لأنهم أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء المؤمنين، ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فمن لم يتبرأ من المشركين فإنه لم يحقق الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، حتى وإن انتسب إليها، وهذه مسألة عظيمة. ٤

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله)) وفي رواية: ((إلى أن يوحدوا الله)) ((فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك: فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)) أخرجاه.

قوله: ((بعث معاذاً)) البعث معناه: الإرسال.

((إلى اليمن)) القُطر المعروف، جنوب الجزيرة، سُمِّيَ باليمن لأنه يقع أيمن الكعبة، والشام سُمِّيَ بالشام لأنه يقع شاميَّ الكعبة.

وكان بعث معاذ في السنة العاشرة، وقيل: في آخر السنة التاسعة قبل وفاته ﷺ. أرسل قاضياً ومعلّماً وداعياً إلى الله عزّ وجلّ، ينوب عن الرسول ﷺ في هذه المهمات.

وبعثه هو وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذاً إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها، وأمرهما: ((أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا وذكرا ولا تنفرا))[1]. ٥

فهذا أولاً: فيه مشروعية إرسال الدعاة إلى الله عزّ وجلّ، وأنه سنة نبوية.

وثانياً: فيه فضيلة لمعاذ رضي الله عنه، حيث إن النبي ﷺ اختاره لهذه المهمة العظيمة، مما يدل على فضله وعلمه، لأن الرسول لا يرسل إلاَّ من توفّرت فيه الشروط المطلوبة، وقد توفّرت في معاذ رضي الله عنه، وكان أعلم الناس بالحلال والحرام.

وفيه -أيضاً- العمل بخبر الواحد، لأن الرسول ﷺ أرسل معاذاً وحده.

وهذا يدل على أنه يعتمد خبر الواحد ولا يشترط التواتر -كما يقوله بعض الضُّلاّل-، يقولون: أمور العقائد لا يقبل فيها خبر الواحد. والرسول ﷺ اكتفى بخبر الواحد، فأرسل معاذاً إلى اليمن يدعو إلى الله ويعلم التّوحيد، وهكذا، ما كان الرسول يُرسل رسله جماعات وإنما كان يرسلهم أفراداً، كما بعث عليًّا، وبعث معاذاً، وبعث أبا عبيدة بن الجرّاح، وهذا يدل على قبول خبر الواحد في أصول الدين وفروعه، وأما ما قاله علماء الكلام فهو باطل.

قال له: ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب)) هذا فيه وصية الإمام لمندوبه حينما يرسله، أنه يخط له المنهج، ويرسم له الطريق الذي يسير عليه، وهذه سنة الرسول ﷺ في بعوثه، أنه إذا أرسل جيشاً أو سَرِيَّة يوصيهم.

((أهل الكتاب)) أهل الكتاب المراد بهم: اليهود والنصارى، سُمُّوا أهل الكتاب لأن الله أنزل عليهم التوراة والإنجيل، التوراة على موسى عليه السلام والإنجيل على عيسى -عليهما الصلاة والسلام-، فسُمَّيَ أتباع الرسولين بأهل الكتاب، فرقاً بينهم وبين الوثنيين، الذين ليس لهم كتاب، ولا يؤمنون بالرسل. ٤

[1] البخاري: كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

قال القرطبي: "يعني به اليهود والنصارى لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب وانما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم ويعد الأدلة لإمتحانهم لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان". ١

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر. ٥

وقصْد النبي ﷺ من هذا أن يتأهّب معاذ لمن سيقدَم عليهم، وأنهم أهل كتاب يحتاجون إلى استعداد علمي للمجادلة والمناظرة. ٤

وأخبره النبي ﷺ بذلك، لأمرين:

الأول: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعداً لهم، لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم. ٥

قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم، فله طريقان:

١- الوحي. ٢

- العلم والتجربة. ٥

قلت: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل والتنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه لئلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين ففيه التنبيه على الاحتراز من الشبه والحرص على طلب العلم. ١

وفي هذا أنه يجب على الداعية معرفة حالة المدعوين، وهذا من منهج الدعوة: أن الداعية ينظر في حالة المدعوين، ويخاطب كلاً منهم بحسب ما يليق به، فإن كان يخاطب علماء فإنه يخاطبهم بما يليق بهم، وإن كان يخاطب عواماً يخاطبهم بما يليق بهم، الناس ليسوا على حد سواء، فلا يليق بالداعية أنه يخاطب العلماء بخطاب الجهال، ولا يليق به أنه يخاطب الجهال

بخطاب العلماء، ولا يليق بالداعية أنه يخاطب السلاطين بخطاب عامة الناس، أو يخاطب عامة الناس بخطاب السلاطين، كل يخاطبه بما يرى أنه أقرب إلى قبوله للحق، قال الله تعالى لرسوليْه موسى وهارون عليه السلام لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. ٤

قوله: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلاَّ الله)) هذا موطن الشاهد وهو أن النبي ﷺ أمر معاذاً إذا دعا أن يكون أول الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وفسَّرتها الرواية الأخرى للبخاري في كتاب التوحيد من صحيحه قال ((إلى أن يوحِّدوا الله)) فشهادة أن لا إله إلا الله الدعوة إليها مأمور بها، وهي الدعوة إلى التوحيد، فالنبي عليه الصلاة والسلام أمر معاذاً أن يدعو أهل اليمن وهم من أهل الكتاب؛ يعني من أهل الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل؛ بعضهم يهود وبعضهم نصارى، أمَّا المشركون فهم فيهم قليل؛ بل أكثرهم على أحد اتباع الملتين. ٣

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدو ولياً والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله في بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان"١

قوله: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلاَّ الله)) هذا فيه التدرّج في الدعوة، وأنه يبدأ بالأهم فالأهم، وهذه طريقة الرسل، أنهم أول ما يبدءون بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، لأنها الأصل والأساس، الذي يُبنى عليه الدين، فإذا تحققت شهادة أن لا إله إلاَّ الله، فإنه يمكن البناء عليها بالأمور الأخرى، أما إذا لم تحقق شهادة أن لا إله إلاَّ الله، فلا فائدة من بقية الأمور، فلا تأمر الناس بالصلاة وعندهم شرك، ولا تأمرهم بالصيام والصدقة والزكاة وصلة الأرحام وكذا وكذا وهم يشركون بالته، لأنك لم تضع الأساس أولاً، وهذا بخلاف كثير من دعاة اليوم الذين لا يهتمون بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، وإنما يدعون الناس

إلى ترك الربا، والى المعاملات الحسنة، وإلى الحكم بما أنزل الله، وإلى، وإلى، لكن التّوحيد لا يذكرونه، ولا يلتفتون له، وكأنه ليس مفروضاً، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فهؤلاء مهما أتعبوا أنفسهم فإن عملهم لا ينفع، حتى يحققوا الأصل في الأساس الذي تُبنى عليه أمور الدين، من: حاكمية، ومن صلاة، ومن زكاة، ومن حج، إلى آخره، هذا منهج الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وكذلك ذكر الله عن نوح عليه السلام أنه قال أول ما قال لقومه: ﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٦١]، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤]، فكل رسول أول ما يبدأ بالدعوة يبدأ بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، فيدعو إلى التّوحيد، وإلى تصحيح العقيدة، ثم بعد ذلك يأمرهم ببقية أوامر الدين، أما إنه يبدأ بالعكس، يبدأ بالأمور الجزئية والأمور الفرعية، ويترك الأصل، فهذا العمل لا ينفع، فلو فرضنا أن المجتمع صار بعيداً عن الربا، ويحافظ على الصلاة، وتمتلئ المساجد، وكل الأعمال تُعمل، لكن ليس هناك إخلاص في التّوحيد فهم يدعون غير الله، يدعون الأولياء والصالحين والأنبياء والقبور، فلا فائدة في أعمالهم، وهؤلاء ليسوا مسلمين، مهما صلوا وصاموا. ٤

في قوله هنا ((فَلْيَكُنْ أَوّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إليه شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله)) هذه تقرأ على وجهين:

الأول: ((فَلْيَكُنْ أَوّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إليه شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله))، فتكون ((أَوّلُ)) اسم ((يَكُنْ)) وتكون ((شَهَادَةَ)) هي الخبر، وهذا من جهة المعنى معناه: أنه أخبره عن الأولية، فابتدأ بالأولية ثم أخبره بذلك الأول.

والضبط الثاني أو القراءة الثانية أن تقرأها هكذا ((فَلْيَكُنْ أَوّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إليه شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ الله)) فيكون ((أَوّلَ)) خبر ((يَكُنْ)) مقدم و((شَهَادَةُ)) اسم ((يَكُنْ)) مؤخر مرفوع، وهذا معناه الإخبار عن الشهادة بأنها أول ما يدعا إليه.

وهذان الوجهان جائزان والمشهور هو الوجه الثاني هذا بِجَعِل ((أَوّلَ)) منصوبة؛ وذلك لأنّ مقام ذكر الشهادة والابتداء بها هو الأعظم وهو المقصود ليلتفت السامع والمتلقي وهو معاذ إلى ما يراد أن يخبر عنه من جهة الشهادة.

فإذن موطن الشاهد من هذا الحديث ومناسبة إيراد هذا الحديث في الباب هو ذكر أنَّ أول ما يدعا إليه هو التوحيد وهو شهادة أن لا إله إلا الله. ٣

قوله: ((شهادة))، الشهادة هنا من العلم، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦]، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان، لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان، أي: انقياد. فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى ينطق بها، لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق، فالنية فقط لا تجزئ، ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي ﷺ قال لعمه أبي طالب: ((قل))[1]، ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا الله. ٥

"وفي رواية: ((إلى أن يوحدوا الله)) لماذا جاء الشيخ بهذه الرواية؟، لأنها تفسِّر شهادة أن لا إله إلاَّ الله، بأن معناها: توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة، ليس المقصود منها اللفظ فقط، بأن يقول أشهد أن لا إله إلاَّ الله، بل لابد أن يوحّد الله في العبادة، أما إذا نطق بها بلسانه ولم يوحّد الله في العبادة، فلا تنفعه شهادة أن لا إله إلاَّ الله. ٤

وأشار المصنف رحمه الله بايراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله إذ معناها توحيد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ ((شهادة أن لا إله إلا الله)) ومرة ((إلى أن يوحدوا الله)) ومرة ((فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات))[2]. ١

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

[2] البخاري الزكاة (١٣٨٩)، مسلم الإيمان (١٩)، الترمذي الزكاة (٦٢٥)، النسائي الزكاة (٢٤٣٥)، أبو داود.

وفي هذا دليل على عموم رسالة محمد ﷺ، فإنه مبعوث إلى العالم كله، بما فيهم أهل الكتاب، كما كتب ﷺ لهِرَقْل عظيم الروم، وكما كتب للمُقَوْقِس ملك مصر، وكما كتب لكِسْرى ملك الفُرس، وكما كتب لملوك الأرض، لأن الله أرسله إلى الناس عامة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ:٢٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان:١].

وقوله: ((فإن هم أطاعوك لذلك)) يعني: شهدوا أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله وعملوا بمقتضاهما.

((فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة)) هذا الركن الثاني: لما حقق الركن الأول والأساس، انتقل إلى الركن الثاني وهو الصلاة، وهذا يدل على أهمية الصلاة، وأنها تأتي بعد التّوحيد مباشرة.

فمن لم يصل فإنه ليس بمسلم، وإن كان يشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله. كما دلت على ذلك الأدلة مثل قوله ﷺ: ((بين العبد وبين الكفر والشرك ترك الصلاة)) وغيره من الأدلة.٤

وقوله: ((فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم)) فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة. ١

هذه هي الزكاة، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ وهي الركن الثالث من أركان الإسلام.

((تُؤخذ من أغنيائهم)) في هذا دليل على أن الزكاة لا تجب على الفقير، وإنما تجب على الغني وهو من يملك النِّصاب فأكثر.

((فتردُّ في فقرائهم)) هذا فيه مصرف من مصارف الزكاة، فالفقراء صنف واحد من الأصناف الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى آخر الآية.

واستدل العلماء –رحمهم الله– بهذا على أن الزكاة لا تحل لغني، وأن مصرف الزكاة يجوز الاقتصار فيه على صنف واحد من الأصناف الثمانية، لأن الرسول ﷺ هنا اقتصر على الفقراء، ويدخل فيهم المساكين.

واستدلوا به –أيضاً– على أن مصرف الزكاة في البلد الذي فيه المال، لا ينبغي نقلها إلى بلد آخر، إلاَّ إذا كان البلد الذي فيه المال ليس فيه فقراء، فإنها تنقل إلى أقرب بلد فيه فقراء من بلدان المسلمين.

((فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم)). الكرائم جمع كريمة وهي: النفيسة من المال، يعني: لا تأخذ في الزكاة أحسن الأموال، لأن هذا فيه إجحاف بهم، كما أنك لا تأخذ أردأ المال، لأن هذا فيه ظلم للفقراء، ولكن خذ المتوسط، بين النفيس وبين الرديء، هذا هو العدل، إن أخذت النفيس ظلمت أصحاب الأموال، وإن أخذت الرديء ظلمت الفقراء، إذا أخذت الوسط اعتدلت.

((وإياك وكرائم)) تحذير من الرسول ﷺ وفيه وجب العدل على الولاة، وعدم الظلم. ٤

والكرائم جمع كريمة أي نفيسة قال صاحب المطالع: "هي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم وصوف" ذكره النووي، وفيه أنه يحرم على العامل اخذ كرائم المال في الزكاة بل يأخذ الوسط، ويحرم على صاحب المال إخراج شر المال بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز. ١

((واتق دعوة المظلوم)) هذه وصيّة هامة، يجب على الراعي والأمير وكل مسلم أن يحذر من دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، أي دعوة المظلوم مستجابة، حتى ولو كان كافراً: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨] فالمظلوم ترفع دعوته إلى الله عزّ وجلّ، والله جل وعلا يجيب دعوة المظلوم. ٤

وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم إشارة إلى أن أخذها ظلم، ذكره الحافظ. ١

وهنا سؤال أورده العلماء على هذا الحديث، يقولون: الرسول ﷺ ذكر ثلاثة أركان، الشهادتان والصلاة والزكاة، ولم يذكر الصيام، ولم يذكر الحج، فما الجواب عن هذا؟

فيه أجوبة كثيرة، لكن أصحها والذي اختاره الشيخ تقي الدين رحمه الله: "أن الرسول ﷺ اقتصر على الأركان العظيمة الأساسية التي يقاتَل من تركها، وهي: الشهادتان والصلاة والزكاة، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا﴾ يعني: شهدوا أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥].

فالرسول ﷺ في هذا الحديث ذكر الأركان التي يُقاتل عليها، وهي: الشهادتان والصلاة والزكاة. هذا من ناحية.

والناحية الثانية: أن هذه أركان ظاهرة، يراها الناس ويسمعونها، أما الصيام فهو أمر خفي بين العبد وبين ربه، والحج لا يجب على كل أحد، وإنما يجب على من استطاع إليه سبيلاً، وأيضاً إنما يجب مرة في العمر، بخلاف الشهادتين، فإن الإنسان يلازمها طول الحياة، ولا يتخلى عنها، والصلاة تتكرر في اليوم والليلة خمس مرّات، والزكاة كل عام، أما الحج فإنه يجب مرة واحدة في العمر، ولا يجب إلاَّ على المستطيع، وأما الصيام فلأنه أمر خفي، وأيضاً من حافظ على الشهادتين، وأقام الصلاة وآتى الزكاة فإنه سيحافظ على الصيام ويحافظ على الحج من باب أولى. ٤

قوله (أخرجاه): أي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. ١

ما يستفاد من الحديث:

دل هذا الحديث على مسائل كثيرة:

أوّلاً: فيه إرسال الدعاة إلى الله عزّ وجلّ.

ثانياً: فيه فضيلة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه.

ثالثاً: فيه قبول خبر الواحد في العقائد وغيرها.

رابعاً: فيه بيان منهج الدعوة، وهذا أصل عظيم، وهو أنه يتدرج فيها، ويبدأ بالأهم فالأهم.

خامساً: في الحديث دليل على عظم رسالته ﷺ وأنه مبعوث إلى جميع العالم اليهود والنصارى وغيرهم، وإذا كان مبعوثاً إلى اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، فغيرهم من باب أولى.

سادساً: فيه المسألة التي أشار إليها الشيخ، وهي أن من العلماء من يجهل معنى لا إله إلاَّ الله، لأن أهل الكتاب يدعون إليها وهم أهل كتاب وأهل علم.

سابعاً: في الحديث دليل على أنه لا يجوز أخذ الكرايم في الزكاة، وإنما يُؤخذ المتوسط.

ثامناً: فيه دليل على التحذير من دعوة المظلوم، وأنه ليس بينها وبين الله حجاب. ٤

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه.)) فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: ((أين علي بن أبي طالب؟)) فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: ((انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم)). يدوكون: يخوضون.

قال الشيخ رحمه الله: "ولهما" يعني: البخاري ومسلم.

"عن سهل بن سعد رضي الله عنه" راوي الحديث هو سهل بن سعد الساعدي الأنصاري الخزرجي- رضي الله تعالى عنه، هو وأبوه صحابيان.

"أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر" خَيْبَر: حصن لليهود شمالي الحجاز، وكان به مزارع ونخيل، ولا يزال يحمل هذا الاسم إلى الآن، كانت بلاداً زراعيّة، وبلاد نخيل وإنتاج للتمور ... وكانت خيبر بلاداً يَقْطُنُها اليهود، وجلا إليها اليهود من المدينة، لما أجلاهم رسول الله ﷺ وهم بنو النضير الذين غدروا بالعهد فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى اصطلحوا مع النبي ﷺ

على أن يتركوا له ما معهم من السلاح والقوة، ويجلوا إلى خَيْبَر وإلى أَذْرِعات بأرض الشام، كما ذكر الله ذلك في أول سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾[الحشر:٢] إلى آخر الآيات، فهؤلاء هم بنوا النضير من اليهود، ثم إن رسول الله ﷺ غزاهم في السنة السابعة من الهجرة، بعد صُلح الحُدَيْبِيَة، وقبل فتح مكة، ومكّنه الله منهم، وفتح خَيْبَر، وحصل المسلمون منها على خيرات كثيرة، ثم إنهم تعاقدوا مع النبي ﷺ على أن يبقوا فيها عمّالاً للمسلمين، يزرعونها بأجرة، فأقرّهم النبي ﷺ وبقوا فيها إلى أن أجلاهم عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- بعد ذلك، لأن النبي ﷺ لم يقرهم فيها إقراراً دائماً، وإنما قال: ((نُقِرُّكُم فيها ما شئنا))، حاصرها رسول الله ﷺ واشتد الأمر بالمسلمين في الحصار من قلّة ذات اليد، ومن طول الحصار فبشرهم رسول الله ﷺ بهذه البشارة من أجل أن يَذهب عنهم ما يجدون من المشقّة وطول الانتظار.

قال الشيخ رحمه الله: "في هذا ما يجري على أولياء الله من الجوع، ومن الوباء" يعني: ما جرى عليهم في هذا الحصار من المشقّة، مع أنهم أولياء الله، وفيهم رسوله ﷺ ومع هذا نالهم مشقّة وجوع في هذا الحصار، وفي هذا دليل على أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وأن الجوع والفقر ليسا دليلاً على بغض الله لمن يصيبه ذلك، فإن هذا قد يصيب أفضل الخلق.

قال ((لأعطين الراية))، الراية هي: العَلَمِ الذي يحمله الجُند، من أجل أن يهتدوا به، ويَلْتَفُّوا حوله في القتال، وحمل العَلَم في الغزو من سنة النبي ﷺ وكان له رايات، وكان مكتوباً في رايته ﷺ: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ٤

قوله: ((الراية))، العلم، وسمي راية، لأنه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه. ٥

((رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسله))، هذه مِيزة عظيمة لهذا الرجل الذي يُعطيه رسول الله ﷺ الراية، ففيه فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن الرسول ﷺ شهد له بهذه الشهادة العظيمة أنه يحب الله ورسوله، وأنه يحبه الله ورسوله، وله فضائل كثيرة، وإن كان الله جل وعلا يحب المؤمنين كلهم، والمؤمنون يحبون الله، كما قال الله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

فالحاصل؛ أن مِيزة محبة الله ورسوله للمؤمنين موجودة في كل مؤمن ومؤمنة عموماً، ولكن شهادة الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب بخصوصه فيها مزية له. ففي هذا ردٌّ على الخوارج، الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكفّروه، كما أن فيها ردّاً على النواصب الذين يُبغضون علياً، ويسبُّونه، وفيها إثبات فضيلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم الرسول، ورابع الخلفاء الراشدين، وفي هذا –أيضاً– إثبات صفة لله سبحانه وتعالى، وأنه يحب عباده المؤمنين، فالله يحب عباده المؤمنين، ويحب أولياءه، ففيه إثبات المحبة لله عزّ وجلّ، ردًّا على من ينفي هذه الصفة من الأشاعرة وغيرهم. ٤

وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب، فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب، فقد يبغض الله إنساناً في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب. ٥

((يفتح الله على يديه)) هذه المِيزة الثانية لعلي بن أبي طالب أن الله جل وعلا يفتح هذا البلد المستعصي على يد هذا الولي من أوليائه.

وفيه: علامة من علامات النبوّة، حيث إن الرسول ﷺ أخبر عما يحصل في المستقبل، وقد حصل كما أخبر به ﷺ. ٤

((باتَ))، البيتوتة هي المكث في الليل معه نوم أو ليس معه نوم؛ ((باتَ الناسُ يَدوكون ليلَتهم)) يعني يخوضون في تلك الليلة، باتوا: يعني ظلوا ليلا يتحدثون من دون نوم لشدة الفضل الذي ذكره عليه الصلاة والسلام. ٣

فالناس لما سمعوا هذه البشارة العظيمة، وسمعوا وصف هذا الرجل الذي يتولى ذلك، من صحابة رسول الله ﷺ اهتموا بهذا الأمر لمحبتهم للخير، وباتوا ليلتهم ((يَدُوكُون))؛ يبحثون عنه، مثل ما مَرّ معنا في السبعين الألف الذين أخبر عنهم رسول الله: "ثم نهض ودخل منزله، فخاض الناس في أولئك"، وهذا دليل على أن الصحابة يهتمون بالفضائل، ويهتمون بأمور الآخرة، أكثر مما يهتم أهل الدنيا بدنياهم، وأنهم يتنافسون في الخيرات.

حتى إن عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "ما تمنيت الإمارة إلاَّ هذه الليلة"، تمنى أن يكون هو ذلك الأمير الذي يقود الجيش، ويفتح هذا البلد، حتى ينال هذه الميزة: ((يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)).

وقوله: "فلما أصبحوا غدوا على رسول الله" يعني: ذهبوا إليه مبكِّرين، من الغَدْوة، يقال: غدا إذا ذهب في الغُدُو وهو الصباح، ويقال راح إذا ذهب في المساء، وقت الرّواح، فالغُدُوُّ: الذهاب في أول النهار، والرواح: الذهاب في آخر النهار.

"كلهم يرجو أن يُعطاها" أي: كلٌ يرجو أن يكون هو ذلك الرجل، لرغبتهم في الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، والحصول على هذه البَشارة العظيمة.

قال رسول الله ﷺ: ((أين علي بن أبي طالب؟)) قال الشيخ رحمه الله: في هذا دليل على: "الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى"، وأن الإنسان وإن فعل السبب فإنه قد لا يحصل على المطلوب، لكنا مأمورون بفعل الأسباب، أما النتائج فأمرها إلى الله سبحانه وتعالى، لكن يُؤجرون على مسعاهم، وعلى نيتهم الطيّبة، وعلى رغبتهم في الخير، وعلى خطواتهم ومشيهم إلى الرسول ﷺ.

وقال الشيخ -أيضاً-: "فيه تَفَقُّد الإمام أو القائد لجنده" يعني: من حضر ومن تخلف.

قال: ((أين علي؟)) هذا تَفَقُّد للجند، ما سكت وترك الذي لم يحضر، بل تَفَقُّده، فالإمام والقائد يَتَفَقَّد جنوده، يَتَفَقَّد رعيّته، ولا يسمح لأحد أن يتخلف من غير عذر. ٤

"قيل: هو يشتكي عينيه" قوله: "يشتكي عينيه"، أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى الله، لأن عينية مريضة. ٥

أي أصابه رمد، وهو مرض من أمراض العيون المعروفة عند الأطباء. ٤

قوله: ((فقيل: هو يشتكي عينيه))[١] أي: من الرمد، كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال: ((ادعوا لي علياً فأتي به أرمد))[٢] الحديث. ٢

---

[١] البخاري الجهاد والسير (٢٧٨٣)، مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٦)، أحمد (٣٣٣/٥).

[٢] مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٤)، ابن ماجه المقدمة (١٢١)، أحمد (١٨٥/١).

ويُروى أنه أصابه في المدينة، وأنه لم يخرج مع النبي ﷺ بسبب المرض، ولكن بعدما ذهب النبي ﷺ هو وأصحابه من المدينة، ضاقت عليه نفسه، وقال: كيف أتخلف عن رسول الله ﷺ؟، فخرج وهو مريض، ولحق بالنبي ﷺ وما طابت نفسه أن يبقى بعد رسول الله ﷺ.
وهكذا كان صحابة الرسول ﷺ: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

"فأرسلوا إليه" أرسل إليه من يأتي به. ٤

"فأتي به، فبصق في عينيه".

قوله: "فأتى به"، كأنه ﷺ قد عمم على عينيه، لأن قوله: "أتي به"، أي: يقاد. ٥

ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: "فأرسلني إلى علي فجئت به أقوده أرمد فبصق في عينيه فبرأ". ١

يعني: تفل من ريقه الطيب الطاهر في عيني علي بن أبي طالب ﷺ.

"ودعا له" بالشفاء.

"فبرأ كأن لم يكن به وجع" وهذا -أيضاً- كن معجزاته ﷺ، حتى قال علي "لم يصبني رمد بعد ذلك" يعني: استمر هذا الشفاء طول حياته ﷺ؛ ببركة ريق رسول الله ﷺ. ٤

قوله (فبرأ): فيها فائدتان: إنها من علامات صدق النبي ﷺ، وهي آية من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة. ٦

ولا شك أن التبرك بريق النبي ﷺ وبعَرَقِه وبوضوئه أمر مشروع، وهذا خاص بالنبي ﷺ، أما غيره فلا يُتبرك بشيء منه، لا يتبرك بشيء من الصالحين والأولياء، لأن هذا خاص بالرسول ﷺ، وأفضل الأمة بعد نبيّها هو أبو بكر ﷺ، ومع ذلك لم يُتبرك بريقه ولا بعرقه ﷺ، ما فعله الصحابة معه لعلمهم أن هذا لا يجوز إلاَّ في حق النبي ﷺ، وفيما انفصل من جسده ﷺ، أما أن يُتبرّك بحجرته أو بقبره، فهذا لا يجوز، لأن هذا ليس منفصلاً عن جسد النبي ﷺ، وسوف يأتينا باب خاص بمن تبرّك بشجرة أو حجر أو نحوها.

ثم إنه ﷺ أرشده وأوصاه على عادته ﷺ مع قُوّاده وأمرائه إنه كان يوصي القُوّاد والأمراء حينما يبعثهم.

فهذا فيه دليل على أن وليّ الأمر يوصي قُوَّاده ويخط لهم الخِطط النافعة التي يسيرون عليها في مهمّتهم، ولا يتركهم لأنفسهم يذهبون بدون وصية، وبدون إرشاد، وبدون وضع خطة يسيرون عليها.

وقال: ((انفذ على رِسْلِك)) ((انفذ)) يعني: أمض ((على رِسْلِك)). ٤

قوله: ((انفذ على رسلك))، أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة، أي: حليبها يحلب شيئاً فشيئاً ، والمعنى: امش هويناً هويناً، لأن المقام خطير، لأنه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر. ٥

يعني: على هيّنتك، لا تُسرع في المشي، ولا يكون هناك أصوات أو صخب، بل يكون هناك هدوء تام، وسير بالرفق.

فهذا فيه دليل على مشروعية الهدوء في الجهاد، وترك العجلة ورفع الأصوات، لأن ذلك يدل على الثبات والشجاعة، ويدل على التدبر في الأمر، وعدم العجلة والتسرع، بخلاف الطيش والركض ورفع الأصوات، فإن هذا يدل على الجبن، ويدل على عدم الثبات.

((حتى تنزل بساحتهم)) الساحة يُراد بها: ما قَرُب من المكان، أي: حتى تنزل قريباً من الحصن، وهذا فيه أن المجاهدين ينزلون قريباً من البلاد المحاصرة، ويقربون منها. ٤

قوله ((بساحتهم)): أي بقربهم ليكون أشجع للمؤمنين و أرهب للأعداء. أما البعيد فيضعف الجند ويشجع الأعداء. ٦

وقوله: ((ثم ادعهم إلى الإسلام)) هذا محل الشاهد من الحديث للباب، "باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله". حيث قال: ((ادعهم إلى الإسلام)) فهذا فيه دليل على وجوب الدعوة إلى الإسلام، وأن العدو يُدعى قبل أن يُقاتل، ولا يُبدأ بالقتال قبل الدعوة. ٤

ولو كانوا قد دعوا من قبل من باب إقامة الحجة وكمال المعذرة وهذا يدل على أنه ينبغي الاهتمام بالدعوة والحرص عليها قبل القتال ولو كانوا قد دعوا لعلهم يهتدون. ويستحب التكرار إذا دعت الحاجة خاصة من اليهود الذين يعرفون الحق ولكنهم يحبون الدنيا ويحسدون المؤمنين.٦
لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما في معناه وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم. ١
والإسلام هو: "الاستسلام لله بالتّوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله"، هذا هو الإسلام، انقياد مع خضوع وتعبد لله تعالى، من لم يستسلم لله كان مستكبراً، ومن استسلم لله ولغيره كان مشركاً، ومن استسلم لله وحده كان موحّداً مسلماً. ٤
قوله: ((ثم ادعهم إلى الإسلام)) أي الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: "فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه الراية وقال: ((أمش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك)) فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس فقال: ((قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)). ١
((وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)) يعني: اشرح لهم معنى الإسلام، وبينّه لهم، وما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من أركان الإسلام، فلا يكفي الدعاء إلى الإسلام مجملاً، كما يُثَرْثِرُ به بعض الدعاة اليوم ممن يقومون بالدعوة المجملة إلى الإسلام. ولو تسألهم ما هو الإسلام؟، ما استطاعوا أن يُعرِّفوه، فكيف يدعون إلى شيء وهم لا يعرفونه؟، الذي يدعو إلى الإسلام لابد أن يعرف الإسلام ما هو، ويبينه للمدعوِّين، ويشرحه لهم، وإلاَّ ما معنى ((ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)).

أما الإسلام المجمل، فكل يقول: إنما هو عليه هو الإسلام؛ من الطوائف الضآلة والمنحرفة والكافرة، كل يفسر الإسلام بمذهبه، وكلمة الإسلام غطاء كل يدّعيها الآن من الطوائف المنحرفة والضالة والكافرة: القاديانية، والباطنية، والقبورية، وغيرهم من الطوائف المنحرفة، كلهم يدّعون أن الإسلام هو ما هم عليه، لكن لو شُرح الإسلام بأنه التّوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من المشركين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، وإفراد الله بجميع أنواع العبادات من الذبح والنذر والاستغاثة والاستعاذة، حينئذٍ يتبيّن الإسلام الصحيح من الإسلام المزيّف، وهذا لا يريدونه، لا يريدون أن يبين الإسلام على حقيقته لأنه يتبين بطلان ما هم عليه، والرسول ﷺ قال: ادعوا إلى الإسلام وبيّنوا ما هو الإسلام، كما أوصى علي بن أبي طالب بقوله: ((ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه))، ولهذا لما ارتد من ارتد عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ وعزمَ أبو بكر على قتالهم، قال له الصحابة -ومنهم عمر-: يا خليفة رسول الله، كيف تقاتلهم وهم يقولون: لا إله إلاَّ الله؟، قال: "إن رسول الله ﷺ يقول: ((إلاَّ بحقها))، وإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه".

فالإسلام ليس مجرّد انتساب ودعوى فقط، أو قول: لا إله إلا الله بدون التزام بمعناها ومدلولها، حتى لو كان عِقالاً يؤدونه إلى رسول الله ﷺ يعتبر من حق لا إله إلاَّ الله، فكيف بالذي لا يصلي وهو يقول: أنه مسلم؟، كيف بالذي يجحد وجوب الزكاة ويقول: أنا مسلم؟، كيف بالذي يجحد وجوب الصوم ويقول: أنا مسلم؟، بل أعظم من ذلك كيف بالذي يدعو غير الله وهو يقول أنا مسلم؟، يدعو القبور والأضرحة ويذبح لها وينذر لها ويقول أنا مسلم؟. هل هذا هو الإسلام؟.

يجب أن نعرف هذا الأمر العظيم، وهذا الأصل العظيم، وهذه القاعدة العظيمة، وهذا الذي يجب أن يركِّز الدعاة عليه، إذا كانوا يريدون أن تكون دعوتهم إلى الله دعوة صحيحة، أما إذا كانت مجرد انتساب، كلٌ يدخل تحتها، ويجعل الإسلام مجرد غطاء، فهذا لا يُرضي الله عزّ وجلّ، وليس هو الإسلام، لأن كلاًّ يدعِّي أنه، على الإسلام ولو كان مشركاً.

الإسلام والإيمان ليس مجرد دعوى، أو انتساب، أو هويّة تُكتب في حفيظة النفوس، أو يُكتب أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام؛ والعمل على خلافه، يأبى الله ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

خذوا منهج الدعوة من هذا وأمثاله، لا تأخذوا، منهم الدعوة من نظام الجماعة الفلانية أو الجماعة العلاّنية، خذوا نظام الدعوة، ومنهج الدعوة من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ، هذا هو منهج الدعوة. ٤

وقوله: ((وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)) أي: في الإسلام، أي إذا اجابوا إلى الإسلام فأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التي لابد من فعلها كالصلاة والزكاة، وهذا كقوله في حديث أبي هريرة: ((فإذا فعلوا ذلك فعد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها)) وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر رضي الله عنه لم قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فقال له عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ ((أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها)) قال أبو بكر: "فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها". وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذي هو التوحيد فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى في الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقا وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باقٍ بحاله إجماعاً. ١

قوله: ((وأخبرهم بما يجب عليهم))، أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا، فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع، فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه، لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا. ٥

والمناسبة في إيراد هذا الحديث في الباب قال ((ثم ادُعهم إلى الإسلام، وَأَخْبِرْهُم بما يَجِبُ عليهم من حقّ اللهِ تعالى فيه)) الدعوة إلى الإسلام هي الدعوة إلى التوحيد؛ لأن أعظم أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وضَمَّ إليها عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم أيضاً إلى حق الله فيه؛ يعني إلى ما يجب عليهم من حق الله فيه، قال ((وَأَخْبِرْهُم بما يَجِبُ عليهم من حقّ اللهِ فيه)) يعني في الإسلام من جهة التوحيد، ومن جهة الفرائض واجتناب المحرمات ، ولهذا كانت الدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون في أصله وهو التوحيد وبيان معنى الشهادتين، ثم بيان المحرمات والواجبات؛ لأن أصل الأصول هو المقدَّم فهو أول واجب. ٣

ثم بيّن ﷺ فضيلة الدعوة إلى الله، فقال: ((فوالله)) أقسم ﷺ وهو الصادق المصدوق، والقَسَم أحياناً يُؤتى به من أجل الاهتمام بالشيء وتوكيده، ولهذا يقول الشيخ في مسائله فيه: "الحَلِف على الفتيا"، الإنسان إذا أفتى بفتوى وهو يتأكد أنها هي حكم الله عزّ وجلّ يقسم عليها، ويحلف عليها.

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعم)) هذا ترغيب في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ. ٤

قوله: ((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعم)) فيه عظم الدعوة إلى الله وأنها أهم من القتال بل هي المقصودة من القتال ولذلك بعثت الرسل. ٦

و((حُمْر النعم)) الإبل الحُمْر، جمع حمراء، وهتي الناقة النفيسة، لأن الإبل الحُمْر أنفس أموال العرب.

فكيف إذا اهتدى على يديك جماعة؟، أو اهتدى على يدك أمة، أو اهتدى على يدك أجيال تأتي من بعدك؟. ٤

قيل: المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل: تقتنيها وتملكها.

قلت: هذا هو الأظهر والأول لا دليل عليه؛ أي إنكم تحبون متاع الدنيا وهذا خير منه قال النووي: "وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها". ١

وقوله: ((لأن يهدي الله بك))، ولم يقل: لأن تهدي، لأن الذي يهدي هو الله.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة. ٥

هذا فيه: فضل الدعوة إلى الله.

انظروا ماذا حقق الله من الخير بسبب دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ومن اهتدى بسببه من الأجيال التي لا تزال إلى الآن والحمد لله، ومن بركات دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية: دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تتلمذ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في أمور العقيدة، فقام بهذه الدعوة المباركة.

إذاً ماذا يحصل للداعية الأول من الأجر؟ كما قال ﷺ في الحديث الآخر: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً))، فكيف بالأجر الذي يحصل للرسول ﷺ سيّد الدعاة، وإمام الدعاة؟، من يؤمن من الخلق إلى يوم القيامة يحصل للرسول مثل أجره، وكذلك الأئمة من بعده، الدعاة الذين جاءوا بعد الرسول، يحصل لهم من الأجور مثل أجور من تبعهم، نسأل الله الكريم من فضله.

فهذا فيه: فضل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، والدعوة إلى الله أن تدعو الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإخلاص العبادة لله عزّ وجلّ، والحكم بما أنزل الله، هذه هي الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ليست مجرد انتساب، أو مجرّد شكليّات، أو مجرّد شعارات، ولهذا كل دعوة ترتكز على المنهج الصحيح تنجح بإذن الله ولو بعد حين.

هذا شيخ الإسلام عُذِّب ومات في السجن؛ لكن نجحت دعوته فيما بعد، لماذا؟، لأنها دعوة أصيلة، ترتكز على الكتاب والسنّة، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

أما دعاة الضلال –حتى ولو تَجَمْهَر حولهم مئات الألوف– فإن هذا غثاء كغثاء السيل.

فالدعوة الصحيحة يبقى خيرها وأثرها على مرِّ الأجيال، أما الدعوة غير الصحيحة، أو الدعوة المغرضة التي يُقصد منها أشياء أخرى؛ فهذه وإن تَجَمْهَر الناس حولها في وقت من الأوقات، إلاَّ أنها لا بركة فيها، ولا خير فيها، ولا تؤثر في الناس خيراً. ٤

فيه بيان أهمية الدعوة و تعليم الناس، فإن أبوا قوتلوا ليكف شرهم ولا يكونوا عقبة في طريق غيرهم إلى الإسلام ويستعان بهم وبأموالهم في سبيل الله. ٦

وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها ولم يفرق النبي ﷺ في الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركي العرب فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها واعتقاد معناها والعمل به وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران:٦٤].١

وهذا الحديث فيه من المسائل ما مررنا عليه، ويمكن أن نجمله فيما يلي:

أولاً: فيه مشروعية إرسال الدعاة، لأن رسول الله ﷺ أرسل علي بن أبي طالب داعياً إلى الله قبل الجهاد.

ثانياً: –وهي مسألة مهمة–: أن الدعوة تكون قبل القتال، ولا يجوز أن يكون القتال قبل الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

ثالثاً: فيه وصية الإمام لمن يبعثه للدعوة إلى الله، وأنه يخطط له المنهج السليم، ويُرشده إلى الطريق الصحيح الذي يسير عليه، وأن المُرسل يستمد الإرشادات من قائده ومن إمامه، ولا يستبد هو بشيء، لأن هذا أضبط للأمور.

رابعاً: في الحديث دليل على إثبات صفة من صفات الله عزّ وجلّ، وهي المحبة، ردًّا على نُفاة الصفات، الذين ينفون صفات الله عزّ وجلّ.

خامساً: في الحديث دليل على معجزات من معجزات النبي ﷺ.

أحدها: قوله: ((لأعطيّن الراية غداً))، وقد وقع هذا.

ثانيها: إخباره عن وقوع الفتح، وقد وقع.

ثالثها: بصقه ﷺ في عيني المريض فيُشفى في الحال.

هذه كلها من معجزاته ﷺ وعلامات نبوته عليه الصلاة والسلام.

سادساً: فيه فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ردّاً على أعدائه من

الخوارج والنواصب وغيرهم ممَن يتنقّصون الصحابة، ويقلّلون من قدرهم وشأنهم، رضي الله عنهم وأرضاهم، ولاسيّما الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم.

سابعاً: في الحديث دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير، وأنهم يتنافسون في أمور الخير، لأنهم باتوا ليلتهم "يَدُوكون" يعني: يبحثون من سيحصل على هذه الميزة العظيمة، وأيضاً بادروا كلهم في الصباح، كلهم يرجوا أن يُعطاها.

ثامناً: فيه الإيمان بالقدر، وهو أن الأمر قد يحصل لمن لم يسع إليه، ولا يحصل لـمن سعى إليه لكن السعي إلى الخير مأمور به وحصول النتائج من الله سبحانه.

تاسعاً: -وهي المسألة المهمة التي ساق الشيخ رحمه الله- هذا الحديث في الباب من أجلها: وهي بيان منهج الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وأن الداعية يدعو إلى الإسلام ويشرحه للناس.

عاشراً: فيه بيان خطة الجهاد الشرع، حيث إن الرسول ﷺ قال: ((اذهب على رِسْلِك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام))، هذا فيه التدرّج في الدعوة، والتهيُّء لها شيئاً فشيئاً ، بدون تسرّع، وبدون جَلَبَة، وفَخْفَخَة.

حادي عشر: فيه كما ذكر الشيخ رحمه الله: دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، مع أنهم أهل كتاب، ويزعمون أنهم مؤمنون، وأنهم على الإسلام، وبيان أن ما هم عليه ليس هو الإسلام، وإن كان ينتسبون إلى الأنبياء، فهم ليسوا على الإسلام، لماذا؟، لأن الله أوجب إتباع هذا الرسول محمد ﷺ على كل مخلوق على وجه الأرض، من اليهود والنصارى وغيرهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، لأن الله نسخ الأديان السابقة بهذا الدين العظيم، وجعله هو الدين الباقي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾[فاطر:٣٢] يعني: هذه الأمة، فتحول الكتاب والدين والدعوة إلى ما جاء به هذا الرسول ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جميعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٥٨]، أي: كما أنه يملك السموات والأرض فهو الذي أرسلني، والأمر له سبحانه وتعالى.

ثاني عشر: فيه فضل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وأن الداعية يحصل له من الأجر مثل أجر المدعويّن، وأيضاً يحصل له من الأجر ما هو خير وأنفس مما في الدنيا من الأموال. ٤

لاحظ أن الآية آية سورة يوسف فيها بيان أن كل الصحابة دعاة إلى الله جل وعلا دعاة إلى التوحيد.

وحديث معاذ فيه أن معاذاً كان من الدعاة إلى الله، وفُصِّل فيه نوع تلك الدعوة إلى الله جل وعلا.

وكذلك حديث سهل بن سعد الذي فيه قصة علي فيه الدعوة إلى الإسلام.

فيكون هذان الحديثان كالتفصيل في قوله في الآية ﴿أَدْعُو إلى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾، فالدعوة على بصيرة هي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، إلى أن يوحدوا الله، الدعوة إلى الإسلام وما يجب على العِباد من حق الله فيه.٣

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: كونه تنزيهاً لله تعالى عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

السادسة: وهي من أهمها – إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة. التاسعة: أن معنى: ((أن يوحدوا الله))، معنى شهادة: أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: ((لأعطين الراية)) إلخ. علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً.

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: ((على رسلك)).

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: ((أخبرهم بما يجب عليهم)).

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يده رجل واحد.

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ.

وتؤخذ من قوله تعال: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم. ٥

الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

وتؤخذ من قوله: ﴿أدعو إلى الله﴾، ولهذا قال: "لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه"، فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً. ٥

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض، لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة. فيكون العلم بذلك فريضة. ٥

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: كونه تنزيهاً لله تعالى عن المسبة.

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سبحان الله وما أنا من المشركين﴾، فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله. ومعنى عن المسبة، أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق، إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصاً. قال الشاعر: ألم تر أن السيف ينقص قدره... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا؟!٥

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله. وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وما أنا من المشركين﴾ بعد قوله: ﴿وسبحان الله﴾. ٥

السادسة: وهي من أهمها – إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

لقوله تعالى: ﴿وما أنا من المشركين﴾، ولم يقل: "وما أنا مشرك"، لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركاً، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾ [البقرة: ٣٤]، توجه الخطاب له ولهم. ٥

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

تؤخذ من قوله ﷺ: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله))، وفي رواية: ((أن يوحدوا الله)). وقال بعض العلماء، أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة. ٥

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة. تؤخذ من قوله ﷺ: ((ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)). ٥

التاسعة: أن معنى: (أن يوحدوا الله)، معنى شهادة: أن لا إله إلا الله. تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في رواية بقوله: ((شهادة أن لا إله إلا الله))، وفي رواية عبر بقوله: ((أن يوحدوا الله)). ٥

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

ومراده بقوله: "لا يعرفها، أو يعرفها" شهادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: ((فليكن أو ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله))، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها. ٥

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: ((ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم...)) إلخ الحديث. ٥

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم. تؤخذ من أمره ﷺ معاذاً بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة. ٥

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة. تؤخذ من قوله: ((فترد على فقرائهم)). ٥

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم. المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل. تؤخذ من قوله: ((إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم))، فبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء. ٥

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال. تؤخذ من قوله: ((فإياك وكرائم أموالهم))، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي. ٥

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم. تؤخذ من قوله: ((واتق دعوة المظلوم)). ٥

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب. تؤخذ من قوله: ((فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))، فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيباً، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيباً، لقوله: ((اتق دعوة المظلوم))، فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب، خافت ونفرت من ذلك. ٥

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها في عهد النبي ﷺ جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأما الوباء، فهو ما وقع في عهد علي رضي الله عنه، وأما المشقة، فظاهرة.

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أن الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء. ٥

التاسعة عشرة: قوله: ((لأعطين الراية)) إلخ. علم من أعلام النبوة. لأن هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ٥

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً. لأن بصق في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.ه

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه. وهذا ظاهر، لأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.ه

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح. لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ه

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى. لأن الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية. ه

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: ((على رسلك)). ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع. ه

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال. لقوله: ((انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام)). ه

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: ((أخبرهم بما يجب عليهم)). لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام، لأنه قد يطبق هذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر. ه

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام. تؤخذ من قوله: ((وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه)). ه

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يده رجل واحد.

لقوله: ((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم))، أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم، خير لك من أن تتصدق بنعم حمر. ه

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

لقوله: ((فوالله لأن يهدي الله...)) إلخ، فأقسم النبي ﷺ هو لم يستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة، لأنه قد يفهم السامع أن المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد رحمه الله أحياناً يقول في إجابته: إي والله، وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن:

في قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق﴾ [يونس: ٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن﴾. [التغابن: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بل وربي لتأتينكم﴾ [سبأ: ٣].

فإذا كان في القسم مصلحة ابتداءً، أو جواباً لسؤال، جاز وربما يكون مطلوباً. ٥

(بَابُ تَفْسيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(بَابُ تَفْسيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُم أَقْرَبُ﴾[الْإِسْراء:٥٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف]، وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ قَالَ لا إله إلا الله وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)).

وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ، مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوابِ .

مناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة؛ لأن الباب الذي قبله: "باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله"، وهذا الباب في تفسير هذه الكلمة، وبيان معناها، لأن الذي يدعو إلى شيء ويطلب من الناس أن يفعلوه، فلابد أن يبيّنه لهم، ويوضّحه لهم توضيحاً تامًّا، ولا يكتفي بمجرد أن يقول للناس قولوا: لا إله إلا الله أو يقول للناس: ادخلوا في الإسلام، بل لابد أن يبين لهم معنى لا إله إلاَّ الله، وأن يبين لهم معنى الإسلام الذي يدعوهم إليه، ولابد مع ذلك أن يبَيّن لهم ما يناقض الإسلام، وما يناقض لا إله إلاَّ الله، من أنواع الرِّدّة، وأنواع الشرك، حتى تكون دعوته مُثمرة، وحتى يستفيد الناس من دعوته، أما أن يدعوَهم إلى شيء مجمل، فهذا لا يكفي.

وكثير من الذين يتسمَّون بالدعوة في هذه الأيام من الجماعات أو الأفراد، أكثرهم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله على الحقيقة، ولا يعرفون معنى الإسلام على الحقيقة، ولا يعرفون نواقض الإسلام، ونواقض الشهادتين، وإنما يَدْعُون إلى شيء مجمل، وربما أن بعضهم يفهم هذا، ولكن

لا يحب أن يبين للناس هذه الأشياء لأنهم -بزعمه- يَنْفُرون منه، وهو يريد أن يجمِّع الناس، يُجمعهم على ماذا؟، على جهالة؟، يجمعهم على ضلالة؟. لابد أن تبين ما تدعو إليه، وتوضح ما تدعو إليه كما قال تعالى في حق نبيه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨] والبصيرة معناها: العلم بما يدعو إليه، ومعرفة معناه، حتى يوضحه للناس، والنبي ﷺ -كما سبق في آخر الباب الذي قبل هذا- لما بعث عليًّا ﵁ وأعطاه الراية، قال: ((ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه))، ما قال: ((ادعهم إلى الإسلام)) واكتفى بهذا، بل قال: ((أخبرهم بما يجب عليهم))، إذا قبلوا أن يدخلوا في الإسلام، فبيّن لهم: معنى الإسلام، واشرحه لهم، حتى يدخلوا فيه على بصيرة.

وقال ﷺ لمعاذ: ((إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلاَّ الله، فإن هم أجابوك لذلك، فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات))، إلى آخر الحديث، ولم يقف عند قوله: ((ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله))، بل أمره أن يبيّن لهم بعدما ينطقون بالشهادتين، أن يبيّن لهم مقتضى هاتين الشهادتين، وأنه ليس المراد مجرد النُّطق بهما والتلفظ بهما، بل لابد من الالتزام والعمل.

من هنا عقد الشيخ رحمه الله هذا الباب، بعد "باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله"؛ ليتبين من ذلك أن من دعا إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، فلابد أن يفسِّرها، ويفسِّر التّوحيد، حتى تكون دعوته على بصيرة، أما إن كان لا يعرف هذا، فلا يدخل فيما ليس من شأنه، حتى يتعلم هو بنفسه أولاً، أو إن كان يعرف هذا ولكن لا يريد أن يبينه للناس لغَرَض في نفسه، أو لإرضاء جماعته أو حزبه؛ فليبتعد عن هذا، ولا يكون محسوباً على الدعوة، وهو لا يقوم بواجبها، لأن هذا يصبح سُبَّةً على الدعوة، ونَكْسَة على الدعوة.

فهؤلاء الذين شغلونا بهموم الدعوة -كما يقولون-، هم لا يفهمون معنى الدعوة، ولا يفهمون ما يُطلب من الداعية، فالواجب أن يكون الدعاة على بصيرة، حتى تُجدي دعوتهم، وحتى تنفع، وحتى يكتب لهم الأجر عند الله سبحانه وتعالى. ٤

ولما ذكر المصنف في الابواب السابقة التوحيد وفضائله والدعوة إليه والخوف من ضده الذي هو الشرك فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الامر الذي خلقت له الخليقة والذي بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له وإن لقيه بملء الارض خطايا، بين رحمه الله في هذا الباب أنه ليس اسماً لا معنى له أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معنى الاله هو الخالق المتفرد بالملك؛ فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد ولا هو أيضاً معنى "لا إله إلا الله" وإن كان لا بد منه في التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني.

وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، وهو معنى "لا إله إلا الله" كما قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإليه تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إذا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يس:٢٢-٢٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١١) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم (١٢) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ٣(١٣) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي(١٤)﴾ [الزمر:١١-١٤] وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إلى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إلى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إليه لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ ﴾ [غافر:٤١-٤٣] والآيات في هذا كثيرة تبين أن معنى "لا إله إلا الله" هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله بالعبادة. فهذا هو الهدى، ودين الحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه. ١

أما قول الإنسان "لا إله إلا الله" من غير معرفة لمعناها ولا عمل به أو دعواه أنه من أهل التوحيد وهو لا يعرف التوحيد، بل ربما يخلص لغير الله من عباداته من الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفي في التوحيد بل لا يكون إلا مشركاً، والحالة هذه كما هو شأن عباد القبور. ١

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى "لا إله إلا الله" وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء ـ ٢٣] وسابقها ولاحقها، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها، فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة. وفيها: الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم؛ لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء ـ ٥٦]. ٢

بين المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلاه إلا الله بما يوافق لفظها وما يضادها لأن الشيء يعرف بضده وقد قيل: والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد، وحقيقته: هو إفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة. ٦

التفسير معناه: الكشف والأيضاَح، مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي، فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم. ٣

وقول الشيخ: "تفسير التّوحيد، وشهادة أن لا إله إلاّ الله" أي تفسير هاتين الكلمتين والعطف لتغاير اللفظين وإلا فالمعنى واحد. ١

هذا من عطف الدال على المدلول، المدلول هو التّوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله هو الدال، لأن شهادة أن لا إله إلا الله تدل على التّوحيد، فهو من عطف الدال على المدلول، والشيخ رحمه الله جمع بينهما في الترجمة ليبين أن معناهما واحد، فمعنى التّوحيد هو لا إله إلاّ الله، ومعنى

لا إله إلا الله هو التّوحيد، من أجل أن لا يخفى هذا على أحد، فيظن أن التّوحيد غير لا إله إلاّ الله، بل هما شيء واحد، فهذا معنى جمع الشيخ رحمه الله، بين اللفظتين في الترجمة. ٤

"باب تفسير التوحيد وشهادةِ أن لا إله إلا الله"، مرَّ معنا أنَّ التوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا قال العلماء: العطف هنا: "التوحيد وشهادة أن لا اله إلا الله" هذا من عطف المترادفات؛ ولكن هذا فيه نظر من جهة أن التَّرادف غير موجود –الترادف الكامل–، لكن الترادف الناقص موجود.

فإذن فهو من قبيل عطف المترادفات بمعناها واحد؛ لكن يختلف بعضها عن بعض في بعض المعنى.

فالتوحيد مر معنا تعريفه في أول الكتاب، وقوله (باب تفسير التوحيد) يعني الكشف والأيضاًح عن معنى التوحيد.

فقد قلت لك إن التوحيد: هو اعتقاد أن الله جل وعلا:

واحد في ربوبيته لا شريك له.

واحد في ألوهيته لا ند له.

واحد في أسمائه وصفاته لا مِثْل له سبحانه وتعالى، قال جل وعلا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ويشمل ذلك أنواع التوحيد جميعاً، فإذن التوحيد اعتقاد أن الله واحد في هذه الثلاثة أشياء.٣

والتوحيد تقدم تعريفه، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد في ألوهيته. ٥

(وشهادة أن لا إله إلا الله) يعني تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، هذه الشهادة أعظم كلمة قالها مكلَّف ولا شيء أعظم منها؛ وذلك لأن معناها هو الذي قامت عليه الأرض والسماوات، وما تعبَّد المتعبدون إلا لتحقيقها ولامتثالها.

شهادة أن لا إله إلا الله.

الشهادة:

تارة تكون شهادة حضور وبصر.

وتارة تكون شهادة علم.
يعني يشهد على شيء حضرَه ورآه أو يشهد على شيء علمه.
هذان نوعان بمعنى الشهادة، فإذا قال قائل: أشهد، فيحتمل أنه سيأتي بشيء رآه أو بشيء علمه.
وأشهد أن لا إله إلا الله هذه شهادة علمية، ولهذا في قوله: أشهد، العلم.
والشهادة في اللغة وفي الشرع وفي تفاسير السلف لآي القرآن التي فيها لفظ ﴿شَهِدَ﴾ كقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨]، وكقوله: ﴿مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] (شَهِدَ) تتضمن أشياء:
الأول الاعتقاد بما سينطق به: الاعتقاد بما شهده؛ شهد أن لا إله إلاَّ الله؛ يعني اعتقد بقلبه معنى هذه الكلمة، وهذا فيه العلم وفيه اليقين؛ لأن الشهادة فيها الاعتقاد، والاعتقاد لا يسمى اعتقادا إلاَّ إذا كان ثمَّ علم ويقين.
الثاني التكلم بها ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، صار اعتقاداً وصار أيضاً إعلاماً ونطقاً بها.
والثالث الإخبار بذلك والإعلام به: فيَنطقه بلسانه من جهة الواجب، وأيضاً لا يسمى شاهداً حتى يخبر غيره بما شهد.
هذا من جهة الشهادة.
فإذن يكون أشهد أن لا إله إلا الله معناها: اعتقد وأتكلم وأعلم وأخبر بأن لا إله إلا الله، فافترقت -إذن- عن حال الاعتقاد، وافترقت -إذن- عن حال القول، وافترقت -إذن- عن حال الإخبار المجرد عن الاعتقاد، فلا بد من الثلاثة مجتمعة.
ولهذا نقول في الإيمان أنه اعتقاد الجنان وقول اللسان وعمل الجوارح والأركان. ٣
وقد ذكر الشيخ في هذا الباب أربع آيات، وذكر حديثاً واحداً. ٤

وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] الآية

الرد على المشركين الذين يَدْعون الصالحين، و أن هذا من الشرك الأكبر.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، تتمة الآية: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ [الإسراء:٥٧]. ٤

أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دعي وهو داع، كعيسى بن مريم، والملائكة، والأولياء، والصالحين، وأما الشجر والحجر، فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان، لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال تعالى مبيناً حال هؤلاء المدعوين: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٤) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. ٥

أراد بهم من يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين لذلك قال: ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ أي أولئك المدعون صالحون في أنفسهم ومع ذلك لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فغيرهم من الأصنام من باب أولى. ٦

قال جمهور المفسرين: إن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يعبدون المسيح وأُمَّه وعُزَيْراً، فبيّن الله سبحانه أن هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي يدعونني، وهم فقراء إليّ يدعونني، ويتقربون إليّ بالطاعة، فهم عباد من عبادي، والعبد لا يصلح أن يكون معبوداً، وليس هناك في السموات والأرض إلاَّ من هو عبد لله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣)﴾ [مريم:٩٣]، ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، فكل الخلق، كل سكان السموات والأرض كلهم عباد لله، فلا يصلح أن يُعبدوا من دون الله عزّ وجلّ، ولذلك قال الله في الآية التي قبلها: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦)﴾ [الإسراء:٥٦] هذا تعجيز للمشركين، وتعجيز لآلهتهم التي يعبدونها من دون الله.

﴿قل ادعوا﴾ هذا أمر تهديد ووعيد، ﴿الذين زعمتم﴾ والزّعم مَطِيَّة الكذب، الزّعم يُطلق على الأمر الذي لا حقيقة له، ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم ينفعون أو يضرون من دون الله عزّ وجلّ.

﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: غير الله سبحانه وتعالى، ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ إذا نزل بكم مرض فإن كل هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله -بما فيهم الملائكة والأنبياء والصالحون والأولياء- كلهم لا يملكون كشف الضر، إذا أنزل الله ضرًّا بعبد فلن يستطيع أحد رفعه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر:٣٨] لا يملكون كشف الضر، لا يملك كشف الضر إذا نزل ولا يرفعه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وبذلك تبطل عبادة هؤلاء، ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾ أي: نقله من محل إلى محل، لا يملكون نقل المرض من عضو إلى عضو، إذا أنزله الله بالرأس فلا يستطيع كل الخلق أو الأطباء المهَرَة، لا يستطيعون أن يحولوا وجع الرأس إلى اليد، أو وجع اليد إلى الرِّجل، أبداً، وكذلك لا يستطيعون أن يحولوه من شخص إلى شخص آخر، إذا نزل مرض بعبد من العباد فلن يستطيع أطباء العالم والمستشفيات والمنظمات الصحية العالمية أن تنقل المرض من شخص إلى شخص، ويصبح المنقول عنه بريئاً صحيحاً، أو ينقلون المرض من بلد إلى بلد، لا يستطيعون هذا، وإنما هذا تقدير العزيز العليم، هو الذي يقدر على كشف الضر ورفعه نهائياً، ويقدر على تحويله من محل إلى محل إذا شاء سبحانه وتعالى.

وهذا من التحديات التي يتحدّى الله بها المشركين، ولن يجيبوا عنها إلى أن تقوم الساعة، فدلّ على انقطاع حجتهم.

لا أحد قال: بلى آلهتنا تستطيع كشف الضر، أو تستطيع تحويل الضر، ما أحد قال هذا، فدلّ على انقطاع حجتهم وانخصامهم، وعاد الأمر لله سبحانه وتعالى.

ثم بيّن سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله أنهم عباد لله، هم بأنفسهم يدعون الله عزّ وجلّ؛ يرجون رحمته، ويخافون عذابه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، فالملائكة وعيسى عليه السلام وأُمُّه، وعُزَيْر، وكل الصالحين، والأولياء بهذه المثابة، كلهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

والوسيلة معناها في الأصل السبب الذي يُوَصِّل إلى المقصود، فالسبب الذي يُوَصِّل إلى المقصود يسمى: وسيلة.

وأما معناها هنا: فالوسيلة: الطاعة والقُرب، فالملائكة -عليهم الصلاة والسلام-، وعيسى -عليه الصلاة والسلام-، وعُزَيْر عليه السلام، والأولياء والصالحون كلهم يتقرّبون إلى الله بالطاعة، يعبدون الله، يعبدون الله لأجل أي شيء؟. ٤

قوله: (الوسيلة)، أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله، يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله -سبحانه وتعالى - أيهم اقرب إلى الله، وكذلك أيضاً يرجون رحمته ويخافون عذابه. ٥

الوسيلة: التقرب إلى الله بالطاعة. ٦

قوله تعالى: ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ قال قتادة: "تقربوا إليه بطاعته والعمل فيما يرضيه وقرأ ابن زيد: "﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. قال العماد ابن كثير: "وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين". وذكره عن عدة من أئمة التفسير. ٢

هذه الآية تفسير للتوحيد، وذلك أننا عرّفنا التوحيد بأنه إفراد الله بالعبادة وهو توحيد الإلهية، وهذه الآية اشتملت على الثناء على خاصة عباد الله لأنهم وحدوا الله بالإلهية، وهذه مناسبة الآية للباب فقد وصفهم الله جل وعلا ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ و﴿يَدْعُونَ﴾ بمعنى يعبدون لأن الدعاء هو العبادة والدعاء نوعان كما سيأتي تفصيله:

دعاء مسألة.

ودعاء عبادة. ٣

قوله: ﴿يدعون﴾، أي: دعاء مسألة، كمن يدعو علياً عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة، كمن يتذلل لهم بالتقرب، والنذر، والركوع، والسجود. ٥

قال هنا ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني يعبدون، ﴿يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾ ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ هي القصد والحاجة؛ يعني أن حاجاتهم يبتغونها إلى ربهم ذي الربوبية الذي يملك الإجابة، وفي قول الله جل وعلا في سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥]، سئل ابن عباس رضي الله عنهما -وهي من مسائل نافع بن الأزرق المعروفة- سئل عن قوله ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ في قوله ﴿وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ﴾ ما معنى الوسيلة؟ قال: "الوسيلة الحاجة". فقالا: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: "نعم، ألم تسمعا إلى قول الشاعر -وهو عنتر- يخاطب امرأة:

إنَّ الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

"لهم إليك وسيلة" يعني لهم إليك حاجة.

ووجه الاستدلال من آية المائدة: أنه قال ﴿وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ﴾ قدم الجار والمجرور على لفظ ﴿الْوَسِيلَةَ﴾، وتقديم الجار والمجرور -وحقه التأخير- يفيد للحصر والقصر، وعند عدد من علماء المعاني يفيد الاختصاص.

وهذا أو ذاك فوجه الاستدلال ظاهر في أن قوله في آية الإسراء ﴿يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾ أن حاجاتهم إنما يبتغونها عند الله، فقد اختص الله عز وجل بذلك فلا يتوجهون إلى غيره، وقد حصروا وقصروا التوجه في الله جل وعلا.

وقد جاء بلفظ الربوبية دون لفظ الألوهية يعني قال (يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ) ولم يقل يبتغون إلى الله الوسيلة؛ لأن إجابة الدعاء والإثابة هي من مفردات الربوبية؛ لأن ربوبية الله على خلقه تقتضي أن يجيب دعاءهم وأن يعطيهم سُؤلهم؛ لأن ذلك من أفراد الربوبية.

فإذن ظهر من قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾ أن فيها تفسير التوحيد وهو أن كل حاجة من الحاجات إنما تُنزلها بالله جل وعلا، ﴿يَدْعُونَ﴾؛ يعبدون وهم إنما يطلبون حاجاتهم من الله جل وعلا، فلا يعبدون بنوع من العبادات ويتوجهون به لغير الله، فإذا نحروا فإنما ينحرون يبتغون إلى ربهم الحاجة، وإذا صلوا فإنما يصلون يبتغون إلى ربهم الحاجة، وإذا استغاثوا فإنما يستغيثون بالله يبتغون إليه الحاجة دونما سواه، إلى آخر مفردات توحيد العبادة.

فهذه الآية دالة بظهور على أن قوله ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾ أنه هو بالتوحيد.

وقد استشكل بعض أهل العلم إيراد هذه الآية في هذا الباب، وقال: ما مناسبة هذه الآية لهذا الباب؟ وبما ذكرت لك تتضح المناسبة جلياً. ٣

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ كل واحد يرجو أن يكون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى، يتقرّبون إليه بطاعته، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فدلّ على أنهم عباد فقراء إلى الله سبحانه وتعالى، يرجون رحمة الله لأنهم بحاجة إليها، ويخافون عذاب الله أن ينزل بهم، إذا هم لا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم النفع، ولا يستطيعون أن يدفعوا عنها الضرر، فكيف يملكون ذلك لكم يا من تعبدونهم؟.

فالوسيلة هنا معناها: الطاعة والعبادة، وليس معناها ما يظنُّه، القبوريُّون والمخرِّفون أن الوسيلة معناها: أن تجعل بينك وبين الله شخصاً يرفع حوائجك إلى الله. هذه هي الوسيلة عند المشركين قديماً وحديثاً، كما يتخذ الناس الوسائط عند الملوك وعند السلاطين، قاسوا الله جل وعلا بالخلق، فكما أن الناس لا يتوصلون إلى الملوك والسلاطين إلاَّ بوسائط من الوزراء والمقرّبين لدى الملوك ليبلّغوا حوائجهم إلى الملوك والسلاطين، قاسوا الله جل وعلا على خلقه، فقالوا: لابد أن نجعل بيننا وبين الله واسطة ترفع حوائجنا إلى الله عزّ وجلّ. وتقرّبوا إلى هؤلاء الوسائط بأنواع العبادات: فذبحوا لهم من دون الله، ونذروا لهم من دون الله، كالحاصل عند قبور الأولياء اليوم، يذبحون للقبور، وينذرون لها، ويطوفون بها، ويتمرّغون على ترابها، ويتمسحون بجدرانها وشبابيكها؛ من أجل أن هؤلاء الموتى رجال صالحون، يرفعون حوائج هؤلاء إلى الله بزعمهم.

هذه هي الوسيلة عند هؤلاء، الذين انتكست أفهامهم، وهذا تنقُّص لله سبحانه وتعالى، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، اتخذوا الوسائط من الأولياء بزعمهم أنهم يقرّبونهم إلى الله زلفى، أو يشفعون لهم عند الله، فعبدوهم من دون الله، فصرفوا العبادة للمخلوقين من أجل أن المخلوقين يتوسطون عند الله سبحانه وتعالى.

هذا شرك الأولين وشرك أهل هذا الزمان باتخاذ الوسائط والشفعاء من الأموات والغائبين بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وصرفوا لهم أنواع العبادات والقُربات، بما زيّن لهم شياطين الإنس والجن من هذه الأباطيل، هذه هي الوسيلة عند هؤلاء.

أما الوسيلة في القرآن والسنة فمعناها: الطاعة والعبادة، وليست اتخاذ الأشخاص وسائط، وإنما هي الطاعة والعبادة لله عزّ وجلّ، والله تعالى قريب مجيب، يعلم كل شيء، ليس بحاجة بأن تجعل بينك وبينه وسائط، بل ارفع حوائجك إليه، مباشرة، وصلِّ له، وانحر له، وانذر له، واعبده، وهو سبحانه وتعالى قريب مجيب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ما الداعي إلى إنك تجعل بينك وبين الله وسائط وهو قريب يسمعك ويراك سبحانه وتعالى ويجيب؟، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، باب الله مفتوح في الليل والنهار، وهو قريب من عباده سبحانه وتعالى، لا يغيب، ولا يخفى عليه شيء، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: ((هل من سائل فأعطيه؟، هل من داع فأستجيب له؟، هل من مستغفر فأغفر له؟، هل من تائب فأتوب عليه؟)) .

فالله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أنك تتخذ بينك وبينه وسائط من الأشخاص؛ من الأنبياء والصالحين والملائكة، بل ادعُهُ مباشرة، وتقرّب إليه مباشرة. وخواص عباده من

الملائكة والأنبياء يبتغون إليه الوسيلة، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ [الإسراء:٥٧]، يخاف منه أولياء الله سبحانه وتعالى العارفون به.

فهذه الآية فيها أن من معنى لا إله إلاَّ الله: أن لا يُدعى إلاَّ الله، وأنها لا تتخذ الوسائط بين العباد وبين الله من الخلق، فمن اتخذ بينه وبين الله واسطة فقد أخلّ بمعنى: لا إله إلاَّ الله.

هذه الآية الأولى في الباب: تدل على أن من معنى لا إله إلا الله أن يُصرف الدعاء والتقرّب والعبادة لله سبحانه وتعالى، لا تُصرف لأحد من خلقه بحجة أنه واسطة بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ، لأن الله ليس بينه وبين عباده واسطة من هذا النوع.

أما الواسطة في تبليغ الوحي فإن بين الله وبين عباده واسطة لتبليغ الوحي والرسالات.

أما الواسطة بين العباد وبين الله في رفع حوائجهم؛ فهذه غير موجودة، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "هناك واسطة من جحدها فقد كفر، وهناك واسطة من أقرّ بها فقد كفر". فما هي هذه الواسطة التي من جحدها فقد كفر؟

هم الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فهم واسطة بين الله وبين عباده في تبليغ الرسالات والأوامر والنواهي، فمن جحدها فقد كفر، لأنه جحد رسالة الرسل.

وهناك واسطة من اقرّ بها فقد كفر، وهي أن يجعل إنسان بينه وبين الله واسطة في تبليغ حوائجه ورفع دعائه، يتقرّب إلى هذه الواسطة بالعبادة، وهذه الواسطة -بزعمه- تطلب له من الله ما يحتاجه. ٤

وجه مناسبة الآية للباب باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى، فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم، فكيف يغنون غيرهم؟! ٥

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦] الآية.

الآية الثانية: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]... ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ﴾ أول ما بدأ بأبيه. ﴿وَقَوْمِهِ﴾ الذين بعثهم الله إليهم، وهم الأمة التي كانت تعبد الكواكب، وهم الصابئة المشركون الذين كانوا يعبدون الكواكب...

قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ براء وبريء بمعنىً واحد، معناه: قطع الصِّلة والبعد عن المُتَبَرَّأُ منه، بخلاف الموالاة، فإن معناها: القُرب والاتصال بالمُوَالى، أما البراءة فمعناها: البعد والانقطاع، يقال برأ القلم إذا قطعه. ٤

تبرأ من عبادة غير الله إذا أبغضها وكفر بها وعاداها، وهذه لابد منها، لا يصح إسلام أحد حتى تقوم هذه البراءة في قلبه؛ لأنه إنّ لم تقم هذه البراءة في قلبه فلا يكون موحدا، البراءة هي أن يكون مبغضا لعبادة غير الله، كافرا بعبادة غير الله، معادياً لعبادة غير الله، كما قال هنا ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

أمَّا البراءة من العابدين فإنها من اللوازم وليست من أصل كلمة التوحيد؛ البراءة من العابدين، فقد يعادي وقد لا يعادي وهذه لها مقامات منها ما هو مُكفِّر ومنها ما هو نوع موالاة ولا يصل بصاحبه إلى الكفر. ٣

﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني مما تعبدون من الأصنام والكواكب وغيرها، وهذا تحدٍّ لهم، تحدَّى آلهتهم وتبرَّأ منها، ولو كانت قادرة لانتقمت منه، لأنه يتبرّأ منها على رؤوس الأشهاد، ويكفر بها، ومع ذلك لا تمسُّه بسوء؟، هذا دليل على بُطلانها. ٤

﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني: الله سبحانه وتعالى، و﴿فَطَرَنِي﴾، يعني: خلقني، فالفَطْر معناه: ابتداء الخلق من غير مثال سابق، فلم يتبرأ منه لأنه ربه وحده لا شريك له. ٤

فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده، ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهؤلاء يعبدون الله ويعبدون غيره، لأنه قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم. ٥

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: "ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أنَّ الله ربه، وأنَّ الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، قد عرف أنَّهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون"، قال: "فليس أحد يشرك إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول: "لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"، المشركون كانوا يقولون هذا".[1]

وعن قتادة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال: "إنهم يقولون إن الله ربنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] فلم يبرأ من ربه". رواه عبد بن حميد.[2]

قلت: يعني أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره فتبرأ مما يعبدون إلا الله، لا كما يظن الجهال أن الكفار لا يعرفون الله ولا يعبدونه أصلاً.١

وفي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إلا الذي فطرني﴾، ولم يقل إلا الله لفائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة، لأنه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، لأنها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام. ٥

---

[1] تفسير ابن جرير الطبري (٧٧٧٩/٨).

[2] رواه ابن جرير في تفسيره ٢٥-٦٣.

﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وهذا معنى: لا إله إلاَّ الله، لأن قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ معناه: النفي؛ لا إله، ﴿إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ معناه، الإثبات؛ إلاَّ الله. فهذه الآية فيها معنى لا إله إلاَّ الله، إذا فهي تفسر لا إله إلا الله بأن معناها ترك عبادة الأصنام، والبراءة منها، وإخلاص العبادة لله.

أما الذي يعبد الله ويعبد معه غيره، فهذا لم يحقق لا إله إلاَّ الله، وان كان يتلفظ بها بلسانه، فالذي يقول: لا إله إلا الله ثم يذهب إلى القبور، ويطلب منها الحوائج، ويتمسح بها، ويستغيث بها، يطلب المدد منها، ويطوف بها. فهذا لم يتبرأ من الشرك، فلا تنفعه لا إله إلا الله ولو قالها عدد الأنفاس، لأن لا إله إلا الله ليست مجرد لفظ يقال باللسان، وإنما لها مقتضى ومدلول ومعنى لابد أن يحقق، وهو عبادة الله والبراءة من الشرك والمشركين. فالذي لا يتبرَّأ من الشرك فإنه لم يحقق لا إله إلاَّ الله، وإن تلفظ بها، وجعل له منها أوراداً صباحية ومسائية، ومعه سبْحَة طول الباع يسبِّح بها، ومعه أوراد يردِّدها وفيها لا إله إلا الله آلاف المرّات، لا تنفعه أبداً حتى يفعل ما فعل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فيتبرّأ من الشرك.٤

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾

قال ابن كثير: "﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً في عقبه﴾ أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي "لا إله إلا الله" أي جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام".

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً في عقبه﴾ يعني: "لا إله إلا الله" لا يزال في ذريته من يقولها. وقال ابن زيد: "كلمة الإسلام". وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة"[١].١

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً في عقبه﴾ قال: "الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته يوحد الله ويعبده".[٢] فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبد من دون الله وإفراد الله بالعبادة وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله وملكه

---

[١] رواه ابن جرير في تفسيره (٢٥-٦٣)

[٢] تفسير الطبري ٢٥-٦٣

وقدرته وخلقه لكل شيء فإن هذا يقربه الكفار وذلك هو معنى قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة أن لا إله إلا الله. ١

فتدبر كيف عبر الخليل –عليه السلام– عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه. ووضعت له من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج: كالكواكب والهياكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره، وهو الله وحده لا شريك له، فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص. كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ . [الحج: ٦٢] فكل عبادة يقصد بها غير الله: من دعاء وغيره فهي باطلة، وهي الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ(٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شيئاً ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر :٧٣- ٧٤]. ٢

جعل لا إله إلا الله كلمة باقية في عقبه، في ذرية إبراهيم –عليه الصلاة والسلام–، فلا يزال فيها من يقول هذه الكلمة ويعمل بها إلى أن بعث محمد ﷺ بها، ودعا إليها. بقيت في عَقِبه، وإن خالفها الأكثر، إلاَّ أنه يوجد في ذرية إبراهيم عليه السلام من التزم بها ولو كانوا قليلين، إلى أن بُعث محمد ﷺ، فلم تَخْلُ الأرض من التّوحيد ولله الحمد، ولا تخلو إلاَّ عند قيام الساعة، وإذا خلت الأرض من التّوحيد قامت القيامة، كما في الحديث: ((لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله الله))، لأن الأرض لا تبقى إلاَّ مع التّوحيد، لأن لا إله إلا الله كلمة قامت بها السموات والأرض، ونُصبت من أجلها الموازين، وأُسست المِلّة، وفُرض الجهاد، من أجل لا إله إلاَّ الله، فهذه الكلمة لا تزال، لكن أحياناً يكثر أنصارها والقائمون بها، وأحياناً يقلُّون، إلاَّ أنهم لا ينعدمون إلاَّ عند قيام الساعة، حتى ولو كثر الشرك، فإنه يكون في الأرض من يعبد الله وحده لا شريك له إلى قرب قيام الساعة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها، ويحققونها، وهذا حاصل والحمد لله، فإنه وإن حصل الشرك وكثر، فإن من ذرية إبراهيم عليه السلام من يرجع إلى التّوحيد الصحيح ويدعو إليه ويجدّده للناس، فهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى. ٤

وجه الاستدلال من هذه الآية في قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذه الجملة فيها البراءة وفيها الإثبات؛ البراءة مما يعبدون، قال بعض أهل العلم: تبرأ من العبادة والمعبودين قبل أن يتبرأ من العابدين؛ لأنه إذا تبرأ من أولئك فقد بلغ به الحَنَق والكراهة والبغضاء والكفر بتلك العبادة مبلغها الأعظم، وقد جاء تفصيل ذلك في آية الممتحنة كما هو معلوم.

إذن مناسبة هذه الآية للباب أن قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ اشتملت على نفي وإثبات، فهي مساوية لكلمة التوحيد؛ بل هي دِلالة كلمة التوحيد، ففي هذه الآية تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا قال جل وعلا بعدها ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ما هذه الكلمة؟ هي قول: لا إله إلا الله. كما عليه تفاسير السلف.

فإذن قوله عز وجل ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا فيه النفي الذي نعلمه من قوله (لا إله)، فتفسير شهادة أن لا إله إلا الله في هذه الآية:

(لا إله) معناها ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

(إلاَّ الله) معناها ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾. ٣

فهذه الآية –كما ذكرنا– دلّت على أن معنى التّوحيد، وشهادة أن لا إله إلاَّ الله: البراءة من الشرك، وإفراد الله تعالى بالعبادة، فهي تفسِّر لا إله إلاَّ الله. ٤

يستفاد من الآية أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لا بد من إخلاصه لله، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم يعبد الله وحده.

وقسم يعبد غيره فقط.

وقسم يعبد الله وغيره.

والأول فقط هو الموحد. ٥

وقوله: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ [التوبة: ٣]الآية.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تتمة الآية: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣] ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾

الأحبار: جمع حَبْر، أو حِبر، وهو العالم. والرهبان: جمع راهب، وهو العابد.

والأحبار والرهبان موجودون في اليهود والنصارى، فاليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، بأيِّ شيءٍ اتخذوهم أرباباً من دون الله؟

فسرّ ذلك النبي ﷺ لَعَدِّي بن حاتم الطائي؛ لما جاء إلى النبي ﷺ وقرأ عليه الرسول ﷺ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، واستشكلها عدي، لأنه كان نصرانيًا، فقال: "يا رسول الله لسنا نعبدهم"، فقال النبي ﷺ: ((أليسوا يحرّمون ما أحل الله، فتحرمونه؟))، قال: بلى، قال: ((أليسوا يحلُّون ما حرّم الله، فتحلُّونه؟))، قال: بلى، قال: ((فتلك عبادتهم)). ٤

وهكذا قال جميع المفسرين.١

﴿أَرْبَابًا﴾ جمع رب، والربوبية هنا هي العبادة؛ يعني اتخذوا أحبارهم ورهبانهم معبودين، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ يعني مع الله، وذلك لأنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، والطاعة من التوحيد، فَرْدٌ من أفراد العبادة أن يطيع في التحليل والتحريم فإذا أطاع غير الله في التحليل والتحريم فإنه قد عبد ذلك الغير، فهذه الآية فيها ذكر أحد أفراد التوحيد، أحد أفراد العبادة وهو الطاعة، وسيأتي إيرادها في باب مستقل -إن شاء الله تعالى- مع بيان ما تشتمل عليه من المعاني. ٣

فمعنى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ فدلّ هذا على أن من أطاع مخلوقاً في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذه ربًّا يعبده من دون الله، وهذا ما يسميه العلماء بشرك الطاعة. ٤
فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابا، كما هو الواقع في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة لا إله إلا الله. ٢

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص "لا إله إلا الله" فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسماهم أربابا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾ [آل عمران: ٨٠] أي: شركاًء لله تعالى في العبادة ... ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وهذا هو الشرك.

فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذا المطيع المتبع رباً ومعبوداً، كما قال تعالى في آية الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام :١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة. ٢

ويشهد لهذه آيات أخر كما ذكر الله في سورة الأنعام لما ذكر أن المشركين يستبيحون الميتة، مع أن الله حرّمها ونهى عباده عنها، وأخبر أن المشركين سيجادلون المؤمنين في ذلك، ثم

قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ إن أطعتم المشركين في استباحة الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ويقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شركاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ يعني: من الحلال والحرام والعبادة ما لم يأذن به الله، فالتشريع حق لله سبحانه وتعالى، لا يجوز أن يُطاع فيه أحد من المخلوقين غير الرسل، فمن أطاع أحداً من المخلوقين في التشريع؛ فإنه قد اتخذه شريكاً لله عزّ وجلّ، وهذا من معنى لا إله إلا الله وهو إفراد الله تعالى بالطاعة في تحريم ما حرّمه وتحليل ما أحلّه. ٤

والشاهد من الآية للباب: أنها دلّت على أن من معنى لا إله إلاَّ الله: أن لا يُطاع إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وأن من أطاع أحداً في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذه ربًّا من دون الله. ٤

إذاً، فتفسير التوحيد أيضاً بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر، قال: ((إنما الطاعة في المعروف))[1]. ٥

ومراد المصنف رحمه الله بإيراد الآية هنا أن الطاعة في تحريم الحلال وتحليل الحرام من العبادة المنفية من غير الله تعالى، ولهذا فسرت العبادة بالطاعة وفسر الإله بالمعبود المطاع فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عبده اذ معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة فإن من أطاع الرسول ﷺ فعد أطاع الله وهذا أعظم ما يبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، لأنها تقتضي نفي الشرك في الطاعة، فما ظنك بشرك العبادة؛كالدعاء والاستغاثة والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من انواع الشرك في العبادة، وسيأتي مزيد لهذا ان شاء الله تعالى في باب من أطاع العلماء والأمراء. ١

التفصيل في المسألة

---

[1] البخار: كتاب الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

لكن إذا كان يعتقد أن تحليل الحرام وتحريم الحلال أمر جائز، فهذا شرك أكبر يخرجه من الملّة، أما إذا لم يعتقد جواز هذا، بل يعتقد أن التحليل والتحريم حقٌّ لله سبحانه وتعالى، ولكنه فعله من باب الهوى، أو من باب تحصيل بعض المصالح، فهذه معصية عظيمة، لكنها لا تصل إلى حد الشرك الأكبر فطاعة المخلوقين في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا تجوز أبداً، لكن فيها تفصيل من حيث الكفر والشرك وعدم ذلك.

والحاصل من هذا كله: أن الآية الكريمة دلّت على أن من تفسير التّوحيد وشهادة أن لا إلاَّ الله أن لا يُطاع إلاَّ الله سبحانه وتعالى في الحلال والحرام، وأن من أطاع مخلوقاً في التحليل والتحريم فقد اتخذه ربًّا من دون الله عزّ وجلّ. ٤

قال شيخ الإسلام في معنى قوله ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾: "وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين: **أحدهما**: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنما الطاعة في المعروف))"[1]. ٢

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسل لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

[1] البخاري الأحكام (٦٧٢٦)، مسلم الإمارة (١٨٤٠)، النسائي البيعة (٤٢٠٥)، أبو داود الجهاد (٢٦٢٥)، أحمد (٨٢/١).

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول. فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان مع علمه أنه مخالف للرسول. فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال. وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه. فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره ...

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفضيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله: من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة. وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً؛ كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبدا له، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك.

وفي الحديث: ((إن يسير الرياء شرك))[1] وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب. انتهى. ٢

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية.

شرك المحبة

[1] ابن ماجه الفتن (٣٩٨٩)

إن من مقتضيات التوحيد وأصول العبادة أن نفرد الله تعالى بالمحبة الخاصة التي لا تصلح إلا له، وهي "حب طاعته، والانقياد لأمره"[1]، وهي محبة العبودية التي تستلزم الذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة لله تعالى وإيثاره على غيره.

فإذا توجه الإنسان بهذه المحبة لغير الله تعالى كان مشركاً شرك المحبة. ومن هنا جاء التقريع للمشركين الذين جعلوا لله تعالى أنداداً ونظراء يحبونهم كحبه، ويعبدونهم معه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

هذه المحبة ليست هي المحبة الطبيعية للشيء، ولا محبة الرحمة والإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل، ولا محبة الألف والأُنس كمحبة الأخوة لبعضهم أو لمن يجمعهم عمل واحد أو صناعة واحدة ... وإنما هي المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله تعالى، ومتى أحب العبد بها غيره كانت شركاً لا يغفره الله، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثاره سبحانه على غيره.

فهذه المحبة لا يجوز تعلقها أصلاً بغير الله، وهي التي سوى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].[2]

قال ابن القيم رحمه الله: "كل الأمور تسير بالمحبة، فأنت مثلاً لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إن جميع الحركات مبناها على المحبة، فالمحبة أساس العمل، فالإشراك في المحبة إشراك بالله.

---

[1] "الوسيط في تفسير القرآن"، للواحدي: ١/ ١٣٦.

[2] انظر ((العبودية)) ص: ٧١ وما بعدها، ((مدارج السالكين)): ٣\٦-٤٢، تيسير العزيز الحميد ص: ٤٦٦-٤٨٣، ((روضة المحبين)) لابن القيم، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية د.عثمان جمعة ضميرية.

والمحبة أنواع: الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء، لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد...

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله، كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: ((عائشة)). قيل: فمن الرجال؟ قال: ((أبوها))[1].

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة نداً لمحبة الله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها. ٥

الآية الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ تتمة الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ بعض الناس يعني: المشركين.

﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يعني: غير الله.

﴿أَنْدَاداً﴾ جمع نِدْ، والنِّد معناه: الشبيه والنظير والمثيل، يقال: فلان نِدُّ فلان، بمعنى: أنه يشبهه، وأنه نظيره، وأنه يساويه.

فاتخاذ الأنداد من دون الله معناه اتخاذ الشركاء، سُمُّوا أنداداً لأن المشركين سوّوهم بالله عزّ وجلّ، وشبّهوهم بالله عزّ وجلّ وأحبوهم محبة عبادة وتذلل.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ الحب عمل قلبي ضد البُغض. ٤

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قول النبي ﷺ: ((لو كنت متخذاً خليلاً))، ومسلم: كتاب الفضائل/باب فضائل أبي بكر.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يعني ساووا محبة تلك الآلهة بمحبة الله، فهم يحبون الله حباً عظيماً؛ ولكنهم يحبون كذلك تلك الآلهة حباً عظيماً، وهذا التساوي هو الشرك، والتسوية هذه هي التي جعلتهم من أهل النار، كما قال جل و علا في سورة الشعراء مخبرا عن قول أهل النار ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، ومعلوم أنهم ما سوَّوْا تلك الآلهة برب العالمين في الخَلق والرَّزق ومفردات الربوبية وإنما سووهم برب العالمين في المحبة والعبادة. ٣

فالمشركون اتخذوا من الأحجار والأشجار والأصنام شركاًء لله سوّوهم بالله في المحبة، يحبونهم كما يحبون الله عزّ وجلّ، فالمراد هنا محبة العبادة، فالمشركون يحبون أصنامهم كما يحبون الله عزّ وجلّ محبة عبادة وتذلل. ٤

ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله ؟! ١

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– ما معناه: "فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة: لزم أن يكون محباً له، ومحبته هي الأصل في ذلك." انتهى. ٢

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ من المشركين لله، فالمشركون يحبون الله، والمؤمنون يحبون الله، ولكن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره، أما المؤمنون فيحبون الله وحده، ولا يشركون معه غيره في المحبة، فلذلك صار المؤمنون أشد حبًّا لله، لأن محبتهم خالصة، ومحبة المشركين مشتركة، فدلّت الآية على أن المشركين يحبون الله، ولكنهم لمّا أحبوا معه غيره صاروا مشركين، وأن التّوحيد لا يصح إلاَّ بإخلاص المحبة لله عزّ وجلّ. ٤

الشاهد من هذه الآية: أن الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً. ٥

فدلّت الآية الكريمة على: أن من تفسير لا إله إلا الله وتفسير التّوحيد إفراد الله بالمحبّة، وأن لا يُحَبَّ معه غيره محبة عبادة بل يُفرد الله جل وعلا بالمحبّة، ولا يُحَبَّ معه غيره، محبة العبادة. ٤
وجه الاستدلال للآية ومناسبتها للباب ظاهرة: في أن التشريك في المحبة منافٍ لكلمة التوحيد، مناف للتوحيد من أصله؛ بل حَكَم الله عليهم بأنهم اتخذوا أنداداً من دون الله، ووصفهم بأنهم اتخذوا الأنداد في المحبة، والمحبة محركة وهي تبعث على التصرفات.
فإذن هنا فيه ذكر للمحبة. والمحبة نوع من أنواع العبادة ولما لم يفردوا الله بهذه العبادة صاروا متخذين أنداداً من دون الله، وهذا معنى التوحيد ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله. ٣
قلت مراده أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: هو إفراد الله بأصل الحب الذي يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل في هذا الأصل، وما ينبني عليه من الأعمال الصالحة؛ يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه في الآخرة. ١

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: أحلف بالله، حلف صادقاً أو كاذباً، أما الولي، فلا يحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثيراً منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر الرسول ﷺ أعظم من زيارة البيت، لأنهم يجدون في نفوسهم حباً لرسول الله ﷺ كحب الله أو أعظم، وهذا شرك، لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله ﷺ إلا لحب الله، ولأنه رسول الله، ما أحببناه لأنه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه، لأنه رسول الله، فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول ﷺ إنه أحبوا الله. ٥

وفي (الصحيح) عن النبي ﷺ أنه قال: ((من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل)).

"وفي الصحيح" يعني: صحيح الإمام مسلم. ٤

في هذا الحديث بيان التوحيد وشهادة أن لا إلا الله؛ ذلك أن ثمة فرقاً بين قول لا إله إلا الله وبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، فالتوحيد والشهادة أرفع درجة ومختلف عن مجرد القول، وهذا الحديث فيه قيد زائد عن مجرد القول؛ قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ اللّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ))

فيكون الواو تعطف ويكون ما بعدها غير ما قبلها؛ لأن الأصل في العطف المغايرة، ويكون ((كَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ)) هذه زيادة على مجرد القول، فيكون قال ((لاَ إِلَهَ إِلاّ اللّهُ)) ومع قوله: ((كَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ)) يعني تبرَّأ مما يعبد من دون الله. هذا قول.

والقول الثاني الواو هنا ليست عاطفة عطف مغايرة شيء عن شيء أصلاً، وإنما هي من باب عطف التفسير؛ يعني يكون ما بعدها بعض ما قبلها، كقوله جل وعلا ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨]، ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ بعض الملائكة فعطفهم وخصهم بالذكر، وأظهر اسم جبريل وميكال لبيان أهمية هذين الاسمين وأهمية الملكين؛ لأن أولئك اليهود لهم كلام في جبريل وميكال.

المقصود أن يكون العطف هنا عطف خاصٍ بعد عام أو عطف تفسير؛ لأن ما بعدها داخل في ما قبلها، وهذا تفسير لقوله (لاَ إِلَهَ إِلاّ اللّهُ).

فيكون إذن (لاَ إِلَهَ إِلاّ اللّهُ) على هذا القول الثاني متضمنة للكفر بما يعبد من دون الله.

وهذا هو الذي ذكرته لك في معنى البراءة في آية الزخرف ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قلنا البراءة تتضمن البغض والكفر والمعاداة؛ الكفر بما يُعبد من دون الله، وهذا تفسير ظاهر لكلمة التوحيد. ٣

وقوله ((من قال لا إلاه إلا الله)) وفي رواية: ((من وحد الله)). وهذا يبين معنى لا إله إلا الله وأنه هو التوحيد. ٦

علّق حُرمة المال والدم على شيئين:

الشيء الأول: أن ينطق بكلمة لا إله إلاَّ الله.

الشيء الثاني: أن يكفر بما يُعبد من دون الله، فإذا تحقق هذان الشيئاً ن حرُم ماله ودمه، لأنه صار مسلماً، والمسلم يحرُم دمه وماله. ٤

فلم يكتف بلفظ المجرد عن المعنى بل لا بد من قولها والعمل بها. ١

((وحسابه على الله)) فإن كان صادقاً في قول هذه الكلمة فإنه يكون مسلماً حقًّا، باطناً وظاهراً ويدخل الجنة، وإن كان قالها ظاهراً فقط فهذا هو النفاق، وذلك يحقن دمه ويحرم ماله، ولكنه في الآخرة يكون في النار ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

فمن قال لا إله إلا الله كَفَفْنا عنه وحقنا دمه وحرّمنا ماله، أما دخوله الجنة، وكونه مؤمناً حقًّا، فهذا عند الله سبحانه وتعالى، هو الذي يعلم ما في القلوب، ويجازي عليها، وحسابه على الله عزّ وجلّ. وإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حكم عليه بالردة.

الحاصل؛ أن هذا الحديث بيّن معنى التّوحيد، ومعنى لا إله إلاَّ الله، وأنه النطق بالشهادة مع الكفر بما يُعبد من دون الله عزّ وجلّ والبراءة منه، أما لو قال لا إله إلا الله وهو لا يكفر بما يُعبد من دون الله بأن كان يعبد القبور، ويدعو الأولياء والأضرحة، فهذا لم يكفر بما يُعبد من دون الله، ولا يحرُم دمه ولا يحرُم ماله، لأنه لم يأت بالأمرين، وإنما أتى بأمر واحد، وهو قول: لا إله إلاَّ الله، ولكنه لم يكفر بما يُعبد من دون الله، لأنه يقول إن عبادة القبور ليست بشرك، فهو لم يكفر بما يُعبد من دون الله، فمعناه أنه لا يحقن دمه، ولا يَحْرُم ماله، لأنه ما دام أنه لم يكفر بما يُعبد من دون الله، فإنه لم يحصل المقصود.

فهذا الحديث عظيم جدًّا، وهو حجة للموحّدين على أصحاب الشبه والمشركين، الذين يقولون: من قال لا إله إلا الله فهو المسلم ظاهراً وباطناً ولو فعل ما فعل، يعبد القبور، ويذبح

للأولياء والصالحين، ويعمل السحر والشعوذة، ويعمل كل شيء، هو مسلم حقاً ما دام يقول: لا إله إلاَّ الله. ولهذا يقول الشيخ رحمه الله: "لم يجعل النطق بلا إله إلاَّ الله، بل ولا كونه لا يدعو إلاَّ الله، بل ولا معرفة معنى هذه الكلمة، لم يجعل كل هذه الأمور عاصمة للدم والمال حتى يضيف إليها الكفر بما يُعبد من دون الله"، فالذي يقول أنا ما أكفِّر هؤلاء، أنا ما أكفر من يعبدون الحسن والحسين والبدوي، لا أكفّرهم لأنهم يقولون: لا إله إلاَّ الله؛ هم إخواننا، لكن أخطئوا، نقول له: أنت مشرك مثلهم، لأنك لم تكفر بما يُعبد من دون الله، والله تعالى قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦] فلا بد من الكفر بالطاغوت، ولا بد من الكفر بما يعبد من دون الله عزّ وجلّ، واعتقاد بطلانه، والبراءة منه ومن أهله، وإلا فلا يصير الإنسان مسلماً، لأن هذا تلفيق بين الإسلام والكفر، ولا يجتمع الكفر والإسلام أبداً.

فهذا الحديث على اختصاره منهج عظيم، يبيّن معنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأنها ليست مجرد لفظ يقال باللسان ويردّد في الأذكار والأوراد، وإنما هي حقيقة تقتضي منك أن تكفر بما يُعبد من دون الله، وأن تتبرأ من المشركين، ولو كان أقرب الناس إليك، كما تبرأ الخليل -عليه الصلاة والسلام- من أبيه وأقرب الناس إليه. ٤

وفيه وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

وفيه أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله.

وفيه أن شرط الإيمان الإقرار بالشهادة والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ.

وفيه أن أحكام الدنيا على الظاهر وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصاً ونحوه وتغريمه قيمة ما يتلفه. ١

إذن يظهر لك من هذه الترجمة وما فيها من الآيات والحديث أنَّ تفسير التوحيد وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله يحتاج منك إلى مزيد عناية ونظر وتأمل وتأنِّي حتى تفهمه بحجته وببيان وجه الحجة في ذلك. ٣

عصمة الدم والمال

وقد أجمع العلماء على أن من قال: "لا إله إلا الله" ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها. أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات. ٢

وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلا بد في العصمة من الإتيان بالتوحيد والتزام أحكامه وترك الشرك كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩] والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك فالقتال باق بحاله كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦] وقال تعالى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ [التوبة:٥] فأمر بقتالهم على فعل التوحيد وترك الشرك وإقامه شعائر الدين الظاهرة فإذا فعلوها خلي سبيلهم ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باق بحاله إجماعاً، ولو قالوا لا إله إلا الله.

وكذلك النبي ﷺ علق العصمة بما علقها الله به في كتابه كما في هذا الحديث وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)).[١]

وفي الصحيحين عنه قال: "لما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: "كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله))، فقال أبو بكر: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله

---

[١] صحيح مسلم: ٥٢/١ رقم ٢١.

لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه". فقال عمر بن الخطاب: "فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق". لفظ مسلم.

فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها فكان ذلك هو الصواب واتفق عليه الصحابة ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنة.

وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)).

فهذا الحديث كآية برآءة بين فيه ما يقاتل عليه الناس ابتدآء فإذا فعلوه وجب الكف عنهم إلا بحقه فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام وجب القتال حتى يكون الدين كله لله بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها وأبوا عن فعل الوضوء للصلاة ونحوه أو عن تحريم بعض محرماً ت الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعاً ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان.

وهذا من أعظم ما بين معنى لا إله إلا الله وأنه ليس المراد منها مجرد النطق فإذا كانت لا تعصم من استباح محرماً أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك حتى يفعله فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله واحبه ومدحه وأثنى على أهله ووالى عليه وعادى عليه وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وتبرأ منه وحارب أهله وكفرهم وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور؟!

وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد.

ذكر التنبيه على كلام العلماء في ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور في تعلقهم بهذه الأحاديث وما في معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

قال ابو سليمان الخطابي في قوله ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)): "معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب لأنهم يقولون لا إله إلا الله، ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف".[1]

وقال القاضي عياض: "اختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحد وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله لا إله إلا الله، إذ كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر ((ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)).[2]

وقال النووي: "لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ، وكما جاء في الرواية الأخرى ((ويؤمنوا بي وبما جئت به))"[3].

وقال شيخ الإسلام لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام فقال: "كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل ابو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم، قال: فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو ضرب الجزية على أهل الكتاب أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماً ته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها التي يكفر الواحد بجحودها فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

---

[1] معالم السنن ٢/٢٠٦

[2] إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم ٢/٢٠٥-٢٠٦

[3] شرح مسلم ١/٢٠٧

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة ما نعي الزكاة".[1]

ومثل هذا كثير في كلام العلماء، والمقصود التنبيه على ذلك ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان ولو أتى بجميع الدين وهو صريح في كفر عباد القبور ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده. ١

وشرح هذا الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

أي: أن الأبواب الآتية إلى آخر كتاب التّوحيد، كلها تفسير لهذه الكلمة، مثل باب: النهي عن لبس الحَلْقَة والخيط، والتبرك بالأشجار والأحجار وباب السِّحر، وباب التَّنْجيم، وباب ما جاء في الطِّيَرة، وباب الرُّقى والتمائم، إلى آخر ما في هذا الكتاب من الأبواب، كله يفسِّر التّوحيد، ويفسِّر معنى: لا إله إلاَّ الله. ٤

أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى "لا إله إلا الله" وفيه أيضاً: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركه من مضمون "لا إله إلا الله" فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى "لا إله إلا الله" وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقاً، وبمعرفة وسائل الشرك والنهي عنها لتجتنب تعرف الغايات التي نهي عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه. وفيه أيضاً من أدلة التوحيد إثبات الصفات وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له،

---

[1] مجموع الفتاوى ٥٠٣/٢٨

وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله. ٢

فالكتاب كله هو تفسير للتوحيد وتفسير لكلمة لا إله إلا الله، وبيان ما ينافي أصل التوحيد وبيان ما ينافي كمال التوحيد، وبيان الشرك الأكبر والشرك الخفي وشرك الألفاظ، وبيان بعض مستلزمات التوحيد؛ توحيد العبادة من الإقرار لله بالأسماء والصفات، وبيان ما يتضمنه توحيد العبادة من الإقرار لله جل وعلا بالربوبية. ٣

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيَّنَها بأمور واضحة.

منها: آية الإسراء، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعباد في المعصية، لادعائهم إياهم.

ومنها قول الخليل (عليه السلام) للكفار: ﴿إنني برآء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني﴾ فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله. فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾.

ومنها: آية البقرة: في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! فكيف لمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

ومنها قوله ﷺ: ((من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله)) وهذا من أعظم ما يبيّن معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويالها من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيَّنَها بأمور واضحة.

فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: نفى الألوهية عما سوى الله عز وجل.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده، فلا بد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد، لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيدة والعمل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم، أثبت له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به.

وإذا قلت: الله إله أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره، فالتوحيد لم يتم، وإذا قلت: لا إله إلا الله، أثبت الألوهية لله ونفيتها عما سواه.

الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه فقول: أشهد أن لا إله إلا الله. أي أنطق بلساني معبراً عما يكنه قلبي من اليقين وهو أنه لا إله إلا الله. ٥

منها: آية الإسراء، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

فبين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هو الشرك الأكبر، لأن الدعاء من العبادة، قال تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر: ٦٠]، فدل على أن الدعاء عبادة، لأن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحداً غير الله حياً أو ميتاً، فهو مشرك شركاً أكبر.

ودعاء المخلوق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقاً بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة، فهذا ليس من دعاء العباد، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: ((وإذا دعاك فأجبه)).[١]

---

[١] البخاري: كتاب الجنائز/ باب الأمر باتباع الجنائز، ومسلم: كتاب السلام/ باب من حق المسلم للمسلم رد السلام.

الثاني: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً، سواء كان حياً أو ميتاً فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكراً.
الثالث: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة، فهذا شرك أكبر أيضاً لأنه لا يدعو من كان هذه حالة حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً في الكون. ٥

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعباد في المعصية، لادعائهم إياهم.

وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية، لأن الحكم شرعياً كان أو كونياً إلى الله تعالى، فهو من تمام ربوبية، قال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾ [القصص: ٧٠].

والشيخ رحمه الله جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتي إن شاء الله في باب من أطاع الأمراء والعلماء في تحليل ما حرم الله أو بالعكس. ٥

ومنها قول الخليل (عليه السلام) للكفار: ﴿إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله. فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾.

قوله: "ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾، فاستثنى من المعبودين ربه". فدل هذا على أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحدة.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾، وهي لا إله إلا الله، فكان معنى قوله: ﴿إنني براءة مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ هو معنى قول: لا إله إلا الله. ٥

ومنها: آية البقرة: في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! فكيف لمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

فجعل الله المحبة شركاً إذا أحب شيئاً سوى الله كمحبته لله، فيكون مشركاً مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ ، فلولا أنه رسول ما وجب طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته، كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك محبة الله، قال المؤلف: "فكيف بمن أحب الند أكبر من حسب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!".

فالأقسام الأربعة:

الأول: أن يحب الله حباً أشد من غيره، فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس في قلبه محبة لله تعالى، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقة وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب، فليس هذا كفرحة بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾. ٥

ومنها قوله ﷺ: ((من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله)) وهذا من أعظم ما يبيّن معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل

لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

إذاً، فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ٥

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لِبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلاءِ أَوْدَفْعِهِ)

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لِبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلاءِ أَوْدَفْعِهِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر:٣٨].

عَنْ عِمْرانَ بنِ حُصينٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حِلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: ((مَا هَذِهِ؟))، قَالَ: مِنَ الْواهِنَةِ. فَقَال:((انْزِعْها فَأَنَّهُا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَناً، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ، مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً)) رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامرٍ رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ)) وَفِي رِوَايَةٍ: ((مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ))، وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّى فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف].

مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب: أن الشيخ رحمه الله لما ذكر في الباب الذي قبله بيان معنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وتفسير التّوحيد، وأن ذلك هو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه؛ ناسب أن يذكر في هذا الباب وما بعده أشياء من الشرك الأكبر أو الأصغر، الذي هو ضدّ التّوحيد، وضدّ شهادة أن لا إله إلا الله أو منقص لهما. ٤

هذا بابٌ شرع به الشيخ رحمه الله في تفصيل ما سبق، فقال (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه) هذا شروع في بيان التوحيد ببيان ضده، ومن المعلوم أن الشيء يعرف ويتميز بشيئين:

- بحقيقته. - بمعرفة ضده.

والتوحيد يتميز بمعرفته في نفسه؛ بمعرفة معناه وأفراده، وبمعرفة ضده أيضاً، وقد قال الشاعر:

وبضدها تتميز الأشياءُ.

وهذا صحيح فإنما التوحيد يعرف حسنه بمعرفة قبح الشرك. ٣

فمن لم يعرف الشرك لم يعرف التوحيد، وبالعكس. ١

والإمام رحمه الله بدأ بذكر ما هو مضاد للتوحيد، وما يضادُّ التوحيد منه:

- ما يضاد أصله، وهو الشرك الأكبر الذي إذا أتى به المكلَّف، فإنه ينقض توحيده؛ يعني يكون مشركاً شركاً أكبر مخرجاً من الملة، هذا يقال فيه ينافي التوحيد، أو ينافي أصل التوحيد.

- والثاني ما ينافي كمال التوحيد الواجب: وهو ما كان من جهة الشرك الأصغر ينافي كماله، فإذا أتى بشيء منه فقد نافى بذلك كمال التوحيد؛ لأن كمال التوحيد إنما يكون بالتخلص من أنواع الشرك جميعاً، وكذلك الرياء فإنه من أفراد الشرك الأصغر؛ أعني يسير الرياء، وهذا ينافي كمال التوحيد، ومنها أشياء يقول العلماء فيها أنها نوع شرك، فيعبرون عن بعض المسائل من الشركيات أنها نوع شرك أو نوع تشريك.

فصار عندها في ألفاظها في هذا الباب أربعة:

الأول: الشرك الأكبر.

الثاني: الشرك الأصغر.

الثالث: الشرك الخفي.

الرابع: قولهم نوع شرك أو نوع تشريك: وذلك من مثل ما سيأتي في قوله جل وعلا ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]، وفي نحو قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ

يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١] في قصة آدم وحواء حين عبَّدَ ابنَهما للشيطان، فهذا في الطاعة كما سيأتي بيانه مفصلاً إن شاء الله.

بدأ الشيخ رحمه الله في تفصيل الشرك ببيان صور من الشرك الأصغر التي يكثر وقوعُها.

وقدَّم الأصغر على الأكبر انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى؛ لأن الشبهة في الأدنى ضعيفة بخلاف الشبهة في الأعلى؛ يعني أن تعلق المتعلق بالخيط، تعلق المتعلق بالتميمة، هذا شبهته أضعف، فتعلق ذلك المتعلق بذلك المتعلق بغير الله إذا وَعَى أنه تعلق بغير الله فإنه يكون مقدمة مهمة ومنتِجة للمطلوب في إقناعه بأنَّ التعلق بغير الله في الشرك الأكبر أنه قبيح.

أمّا إذا أتى إلى ما هو من جهة الشرك الأكبر كالتعلق بالأولياء ودعائهم وسؤالهم، أو الذبح للجن أو الذبح للأولياء فإنه يكون هناك شبهة؛ وهي أنّ أولئك لهم مقامات عند الله جل وعلا، والناس الذين يتوجهون إلى أولئك ويشركون بهم الشرك الأكبر المخرج من الملة -والعياذ بالله-، يقولون: إنما أردنا الوسيلة هؤلاء لهم مقامات عند الله، إنما أردنا الوسيلة. كحال المشركين في زمن النبي ﷺ الذين قال الله جل وعلا فيهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

فإذن الشيخ رحمه الله بدأ بما هو من الشرك الأصغر انتقالاً من الأدنى على الأعلى حتى يكون ذلك أقوى في الحجة وأمكن في النفوس من جهة ضرورة التعلق بالله وإبطال التعلق بغيره. ٣

فما ذُكر وهو لبُس الحلقة أو الخيط أحد نوعي الشرك وهو الشرك الأصغر، وهو أحد أفراد الشرك بعمومه؛ لأنها صورة من صور الإشراك. ٣

وقوله رحمه الله تعالى: "بابٌ من الشرك" أي: من أنواع الشرك. ٤

"لبس الحلْقة والخيط ونحوهما"

قوله: "ونحوهما"، كالمرصعات، وكمن يصنع شكلاً معيناً من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق على نفسه شيئاً من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يعلقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين. ٥

نحو الحلقة والخيط مثل الخرز والتمائم والحديد، ونحو ذلك مما قد يُلبس، كذلك مما يعلق أيضاً في البيوت وفي السيارات أو يعلق على الصغار، ونحو ذلك مما فيه لبس أو تعليق، كل ذلك يدخل في هذا الباب وأنه من الشرك. ٣

مما يعلّق على البدن أو على الدابة، أو على السيارة أو على الأبواب من الأشياء التي يعتقدون فيها أنها تدفع عين الحاسد، وأنّها تحرس البدن، أو تحرس الدابة، أو تحرس السيارة أو تحرس البيت أو المتجر من الشرور والمحاذير. ٤

(الحلْقة) إمّا أن تكون من صُفْر يعني من نحاس، وإمّا تكون من حديد، أو تكون من أي معدن، و(الخيط) مجرد خيط يعقده في يده والخيط معروف.

الحلقة والخيط كانا عند العرب فيها اعتقادات، في أشباههما مثل التمائم وغيرها يعتقدون أنَّ من تعلق شيئاً من ذلك أثَّر فيه ونفع:

- إمَّا من جهة دفع البلاء قبل وقوعه.
- وإمَّا من جهة رفع البلاء أو المرض بعد وقوعه.

ولهذا قال الشيخ رحمه الله (لرفع البلاء أو دفعه) لأن الحالتين موجودتان:

منهم من يعلق قبل أن يأتي البلاء ليدفعه، وهو أعظم، أن يعلق خيطاً، أن يعلق حلقة، يلبس حلقة أو يلبس خيطاً ليدفع الشيء قبل وقوعه، وهذا أعظم؛ لأنه يعتقد أن هذه الأشياء الخسيسة أو الوضيعة تدفع قدر الله جل وعلا.

وكذلك منها أن يلبس ليرفع البلاء بعد حصوله؛ مرض فلبس خيطاً ليرفع ذلك المرض، أصابته عين فلبس خيط ليرفع تلك العين، وهكذا في أصناف شتى من أحوال الناس في ذلك، واعتقادات الناس كثيرة. ٣

وهذه عادة جاهلية لا تزال في بعض الناس إلى اليوم، بل تتزايد بسبب الجهل، فإنهم يعلّقون هذه الأشياء على أجسامهم، وعلى أجسام الأطفال، وعلى السيارات، والدكاكين، والبيوت، قصدهم من ذلك أن هذه الأشياء تدفع عنهم الشرور والمحاذير. ٤

سبب كونه من الشرك

وهذا من الشرك لأنه تعلق على غير الله سبحانه وتعالى، لأن الله جل وعلا وهو الذي يدفع الشر، وهو الذي إذا أراد بعبده شيئاً فلابد أن يقع إما في نفسه أو في ماله أو في أهله، فلا أحد يدفعه، وإذا منع شيئاً فلا أحد ينزله ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر:٢]، الأمر كله بيد الله جلّ وعلا، فيجب أن تتعلق القلوب بالله عزّ وجلّ، وأن تُخلص العبادة لله عزّ وجلّ، وأن لا يخاف إلاَّ من الله عزّ وجلّ، فمن تعلّق قلبه بالله ووحّد الله، فإنه لا يضره شيء إلاَّ بإذن الله سبحانه وتعالى، أما من تعلّق على غير الله، فإن الله يَكِلُه إلى ما تعلق عليه، ويبتليه -كما يأتي-. ٤

وكان لبس هذه الأشياء من الشرك، لأن كل من أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً شرعياً ولا قدرياً، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله.

فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء.

وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدري، لأنه يعلم بالتجارب.

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله، كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سبباً شرعياً أو كونياً.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقياً، وآمنوا بحكمته، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة. ٥

هذه (لُبس الحلقة أو الخيط) من الشرك، لم كان شركاً؟ قلنا إنه شرك أصغر، لم كان شركاً أصغر؟ لأنه تعلّق قلبُه بها وجعلها سبباً لرفع البلاء أو سبباً لدفعه.

والقاعدة في هذا الباب: أنَّ إثبات الأسباب المؤثرة لا يجوز إلاَّ:

-أن يكون من جهة الشرع، لا يجوز إثبات سبب إلا أنْ يكون سبباً شرعياً.

-أو أن يكون سبباً قد ثبت بالتجربة الواقعة أنه يؤثر ظاهراً لا خفيًّا.

فهذا من لبس فإنه جعل سبباً ليس بمأذون به في الشرع، وكذلك من جهة التجربة لا يحصل ذلك على وجه الظهور؛ وإنما هو مجرد اعتقاد ممن لبس في هذا الشيء، فقد يوافق القدر أنه يُشفى حين لبس أو بعد لبسه أو يُدفع عنه أشياء يعتقد أنها ستأتيه فيبقى معلقاً بذلك ويثبت أن تلك سبباً من الأسباب، وهذا باطل.

إذن صار لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه شركاً أصغر؛ لأن من لبسها تعلق قلبه بها وجعلها تدفع أو تنفع أو جعلها تؤثر في رفع الضرر عنه أو في جلب المنافع له، وهذا إنما يستقل به الله جل وعلا وحده إذْ هو النافع الضار، وهو جل وعلا الذي يفيض الرحمة ويفيض الخير أو يمسك ذلك.

وأما الأسباب التي تكون سبباً لمسبباتها فهذه لابد أن يكون مأذوناً بها في الشرع، ولهذا بعض العلماء يعبر عما ذكرت بقوله: من أثبت سبباً -يعني يُحدث المسبَّب يُحدث النتيجة- لم يجعله الله سبباً لا شرعاً ولا قدراً، فقد أشرك؛ يعني الشرك الأصغر، هذه القاعدة في الجملة صحيحة، قد بعض الأمثلة قد يشكل هل تدخل أو لا تدخل، لكن هو المقصود من هذا الباب؛ أن إثبات الأسباب لابد أن يكون أتى من جهة الشرع وإمّا من جهة التجربة الظاهرة، مثل دواء الطبيب، ومثل الانتفاع ببعض الأسباب التي فيها الانتفاع ظاهراً؛ تتدفى بالنار أو تتبرد بالماء، أو نحو ذلك، هذه أسباب ظاهرة بيّن أثرها؛ لكن إذا كان السبب من جهة التعلق الذي لم يأذن به الشرع فإن التعلق القلبي بشيء لم يأذن به الشرع يكون نوع شرك إذا كان لدفع البلاء أو لرفعه. ٣

ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها. ٥

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركاً أكبر في توحيد الربوبية، لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً غيره.

وإن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثراً بنفسه، فهو مشرك شركاً أصغر لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسب سبباً فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سبباً. ٥

إذن عماد هذا الباب من جهة تعلق القلب، تعلق بهذه الأشياء بالحلقة أو الخيط لدفع ما يسوؤه أو في لرفع ما حل به من مصايب. ٣

كل أصناف الشرك الأصغر قد تتحول إلى الأكبر بحسب حال من فعلها.

كل أصناف الشرك الأصغر قد تكون شركاً أكبر بحسب حال من فعلها؛ اللبس، تعليق التمائم، الحلف بغير الله، قول ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك من الأعمال والاعتقادات والأقوال، الأصل فيها أن نقول أنها شرك أصغر، قد تكون تلك شركاً أكبر بحسب الحال؛ يعني أن اعتقد في الحلقة والخيط أنها تؤثر بنفسها فهذا شرك أكبر، إذا اعتقد أنها ليست سبب؛ ولكن هي تؤثر بنفسها؛ لأن هذه تدفع بنفسها، تدفع المرض بنفسها، تدفع العين بنفسها أو ترفع المرض بنفسها، أو ترفع العين بنفسها، وليست أسباباً؛ ولكن هي بنفسها مؤثرة، فهذا شرك بالله شرك أكبر؛ لأنه جعل التصرف في هذا الكون لأشياء مع الله جل وعلا، ومعلوم أن هذا من أفراد الربوبية فيكون ذلك شركاً في الربوبية. ٣

طريق العلم بأن الشيء سبب من الأسباب

إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل ﴿فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩]، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال الله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء: ٨٢].

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعاً في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهراً مباشراً كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أن جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشراً، كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثراً بيناً، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسي ليس طريقاً شرعياً لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس طريقاً للتشريع. ٥

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر:٣٨] الآية.

تتمة الآية: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

هذه الآية من سورة الزمر، السورة العظيمة التي قرّر الله فيها التّوحيد، وأبطل فيها أنواع الشرك، فالسورة من أولها إلى آخرها تعالج قضية العقيدة، وتعالج قضية أنواع الشرك التي كان المشركون يزاولونها، فأبطلتها هذه السورة ونقضتها، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، الخطاب للنبي ﷺ، أي قل لهؤلاء المشركين: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والأحجار والأشجار والقبور والأضرحة والأولياء والصالحين، وكل ما يُعبد من دون الله. فالسؤال موجّه إلى كل مشرك على وجه الأرض إلى أن تقوم الساعة، هل يستطيع الإجابة عنه؟، لا.

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني. ٤

العلماء يقولون: إن الفاء إذا جاءت بعد همزة الاستفهام فإنها تكون عاطفة على جملة محذوفة يدل عليها السياق.

وهذه الآية أولها ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ [الزمر:٣٨]؛ يعني قل أَتُقِرُّون بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده فتدعون غيره؟ فتتوجهون لغيره؟ أتقرون بذلك فتفعلون هذه الأشياء؟ قال جل وعلا ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

أو يكون التقدير: أتقرون بأن الله هو الواحد في ربوبيته هو الذي خلق السموات والأرض وحده، إذا أقررتم فرأيتم هذه الأشياء التي تتوجهون لها من دون الله، هل تدفع عنكم المضار؟ أو هل تجلب لي ضراً؟ أو تجلب لكم رحمة من دون إِذْن الله؟

إذن تكون هنا الفاء ترتيبية ترتبت ما بعدها على ما قبلها، وهذا هو المقصود أيضاً من الاحتجاج؛ لأن طريقة القرآن أنه يحتج على المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية، وهم أقروا بالربوبية فرتب على إقرارهم أنه يلزمهم أن يبطلوا عبادة غير الله جل وعلا. ٣

﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ﴿مَا﴾ عامة لكل ما يُدعى من دون الله، لا يُستثنى منها شيء، سواء كان من البشر أو من الجماد أو غير ذلك. ٤

(مَا) هنا عامة لأنها هنا اسم موصول بمعنى الذي؛ أفرأيتم الذي تدعونه من دون الله، والذي يدعونه من دون الله الذي شملته هذه الآية أنواع، وهو كل ما دُعي من دون الله مما جاء بيانه في القرآن، وجاء في القرآن بيان أن الأصناف التي أشرك بها من دون الله جل وعلا وتوجه لها بالعبادة أنواع:

الأول: الأنبياء، بعض الأنبياء والرسل والصالحون كما قال جل وعلا في آخر سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة:١١٦] الآيات، فهذا في هذا النوع.

ونوع آخر: اتخذوا الملائكة كما جاء في آخر سورة سبأ بيان ذلك ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبإ: ٤٠-٤١]. هذا في الملائكة نوع آخر.

أيضاً: كانوا يتوجهون للكواكب؛ الشمس والقمر؛ يعني طائفة من الناس كانوا يتوجهون لهذه الأشياء فيعبدونها.

أيضاً من الأنواع: أنهم كانوا يتوجهون للأشجار والأحجار.

ومن الأنواع: أنهم كانوا يتوجهون للأصنام والأوثان.

فإذن قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يدخل فيه توجُّه أولئك في كل ما أشركوا به من دون الله جل وعلا، في كل ما أشركوا به مع الله جل وعلا في نوع من أنواع العبادة. ٣

﴿تَدْعُونَ﴾ يعني تعبدون، وقد تكون العبادة بدعاء المسألة، وقد يكون بأنواع العبادة الأخرى، أو نقول ﴿تَدْعُونَ﴾ هذه تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة لأنه حالتان من أحوال أهل الإشراك بالله. ٣

المراد بالدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبدون لها بالنذر والذبح والركوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع. ٥

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ يعني: بضرر، أو بفقر، أو بموت، أو أرادني بضياع مال، أو إصابة في قريب، أو غير ذلك مما يضرّني في بدني أو في مالي أو في أهلي.

﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ هل هذه المعبودات التي تعبدونها تستطيع أن تكشف الضر عمّن دعاها؟، وهذا مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦)﴾ [الإسراء:٥٦]، ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾؟، سؤال استنكار ونفي، أي. لا تكشف الضر عمن دعاها. ولذلك المشركون يمرضون، ويُقتلون، ويُصابون، وتذهب أموالهم، ولا تستطيع معبوداتهم أن تدفع عنهم شيئاً نزل من الله سبحانه وتعالى.

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ من صحة وغنىً وغير ذلك من أنواع الرحمة، هل أحد من الخلق يستطيع أن يمنع نزول الرحمة على أحد من عباد الله؟، فظهر بذلك عجز آلهة المشركين.

والنبي ﷺ قال لهم هذا وتلا عليهم القرآن، وسألهم هذا السؤال، وأعلنه على رؤوس الأشهاد، ولم يُجيبوه، ولن يجيبوه إلى أن تقوم الساعة. ٤

قال مقاتل: "فسألهم النبي ﷺ فسكتوا"[١] أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، وإنما كانوا يدعونها على معنى انها وسائط وشفعاء عند الله، لا لأنهم يكشفون الضر، ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون ۞ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ [النحل:٥٣-٥٤] ١

هذه من جملة الأسئلة التي وجهها الله في القرآن إلى المشركين ولم يجيبوا عنها. فدلّ على بطلان الشرك.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: هو كافيني، لأن الحَسْب معناه: الكافي، فهذا فيه تفويض الأمور إلى الله سبحانه وتعالى، وتعليق القلوب بالله سبحانه وتعالى دون ما سواه، لما أبطل الشرك في أول الآية قرّر التّوحيد بقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: هو كافيني ولن يستطيع أحد أن يضرني من دون الله أو ينفعني من دون الله، ولهذا يقول هود –عليه الصلاة والسلام– لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (٥٥)﴾ [هود:٥٤-٥٥] ثم قال ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود:٥٦]. ٤

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. ٥

ولا يتوكلون على الحلْقة والخيط والصنم والقبر والولي أو غير ذلك، بل الذي يُتوكّل عليه هو الله سبحانه وتعالى، لأنه بيده مقادير الأشياء. ٤

---

[١] ذكره عنه البغوي في تفسيره ٤/٨٠، والقرطبي (٢٥٩/١٥

وجه الاستدلال:

فإذن بَطَل أن يكون ثمَّ تعلق فالآلهة العظيمة التي يُظن أن لها مقامات عند الله جل وعلا موجبة لشفاعتها.

إذا تبين ذلك فقد قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية في الشرك الأكبر، فلِم جعلها الشيخ رحمه الله في صدر بيان أصناف من الشرك الأصغر؟

والجواب على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنَّ إيراد الآيات في الشرك الأكبر من جهة معناه والتعلق بغيره، ووجوب التعلق بالله جل وعلا ونحو ذلك، هذا يورده السلف فيما هو من الشرك الأصغر، فالآيات التي في الشرك الأكبر تورَد في إبطال الشرك الأصغر، بجامع أن كلا الشريكين تعلُّق بغير الله جلّ وعلا، فإذا بطل في الأعظم بطل التعلق فيما هو دونه من باب أولى.

الثاني: أن هذه الآية في الشرك الأكبر؛ ولكن المعنى الذي دارت عليه هو:

أنه في إبطال إضرار أحدٍ من دون الله.

أو أنَّ الله إذا أصاب أحدا بضُر أن ثَم من يستطيع أن يرفعه بدون إذن الله.

أو إذا أراد الله رحمةَ أن ثَم من يصرف تلك الرحمة بدون إذنه جل وعلا.

وهذا المعنى الذي هو التعلق بما يضر وبما ينفع، هو المعنى الذي من أجله تعلَّق المشرك الشرك الأصغر بالحلقة أو بالخيط؛ لأنه ما علق الخيط ولا علق الحلقة أو لبس الحلقة والخيط إلاّ لأنه يعتقد أن في الحلقة تأثيراً من جهة رفع البلاء أو دفع الضر وأنها تجلب النفع وتدفع الضر، وهذه الأشياء مهينة أشياء وضيعة، فإذا نفي عن الأشياء العظيمة كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين أو الأوثان التي لها روحانيات كما يقولون، فإنه انتفاء النفع والضر عما سواها مما هو أدنى لاشك أنه أظهر في البرهان وأبين. ٣

فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وأن ذلك شرك بالله.٢

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر، فقال: ((ما هذه))؟ قال: من الواهنة. فقال: ((انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً)) رواه أحمد بسند لا بأس به.

هو وأبوه صحابيّان رضي الله عنهما، ومن أفاضل الصحابة.

"أن النبي ﷺ رأى رجلاً": الرجل مُبْهَم، ولكن جاءت الرّوايات أنه هو نفس عمران بن حُصين، دخل على النبي ﷺ.

"وفي يده حلقة" الحلْقة هي: الشيء المستدير الذي يُدار على العضد، أو على الذِّراع، أو على الأصبع. فالشيء المستدير يسمى حلْقة، ومنه تحلّق القوم إذا استداروا في الجلوس.

"من صُفر" الصفر نوع من المعدن معروف.

"فقال النبي ﷺ: ((ما هذا؟)). ٤

هذا السؤال:

من أهل العلم من قال: إنه استفهام إنكار؛ ولكن الرجل ما فهم أنه إنكار فهم أنه استفصال فلذلك أجاب، فقال: "مِنَ الْوَاهِنَةِ".

وقال آخرون من أهل العلم: قوله عليه الصلاة والسلام ((مَا هَذِهِ؟)) يحتمل أن يكون استفهام استفصال أو استفهام إنكار، فلهذا أجاب الرجل فقال: "مِنَ الْوَاهِنَةِ".

والاستفهام الأول يعني في القول الأول للإنكار الشديد، وهو الأظهر من حيث دلالة السياق عليه؛ لأن النبي ﷺ في السياق ما ذَكر الحالة الأخرى.

والحالة الأخرى التي يمكن أن يكون لبسها من أجله أن تكون للتحلي، والتحلي بالصفر غير أن يلبسه لدفع البلاء أو رفعه.

المقصود أن الاستفصال هنا في قوله ((مَا هَذِهِ؟)) هذا السؤال لا يعني أنه يحتمل أن يكون اللُّبس شركاً ويحتمل أن يكون اللبس غير شرك؛ ولكن هذا للإنكار وإذا كان استفهام استفصال فإنه لأجل أنه يكون قد يلبس لأجل التحلي، لا لأجل التعلق؛ تعلق القلب لذلك، فلما أجاب "مِنَ الْوَاهِنَةِ" تعيَّن على كلا القولين أنه لبسها لأجل تعلقه بها لرفع المرض أو لدفعه. ٣

الظاهر أنه سؤال إنكار، وقيل: إنه سؤال استفهام. ٤
وقال الشيخ ابن عثيمين: "والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار"[١]. ٥
فالنبي ﷺ سأله عن قصده في هذه الحلقة.
ففيه دليل على وجوب إنكار المنكر، وفيه دليل على أن الإنسان لا ينكر شيئاً حتى يعرف مقصود صاحبه إذا كان الشيء محتمِلاً، فإن كان مقصود صاحبه شرًّا فإنه ينكره.
"قال: من الواهنة" يعني: لبستها من أجل دفع الواهنة، لتقيني منها، والواهنة مرض يصيب اليد، يُسَمَّى عند العرب بالواهنة، وكان من عادتهم لبس الحلْقة من أجل توقِّي هذا الوجع، يزعمون أن هذه الحلْقة تدفع هذا الوجع.
"فقال النبي ﷺ: ((انزعها))" النزع معناه: الرفع بشدّة، أي: ارفعها مسرعاً بنزعها ونشيطاً في رفعها لا تتوانى، في تركها على جسمك، لأنها مظهر شرك -والعياذ بالله-.
ففيه المبادرة بإزالة مظاهر الشرك، وأن الإنسان لا يتوانى في تركه. ٤
((انْزِعْهَا)) هذا أمر، وإنكار المنكر يكون باللسان إذا كان المأمور به يطيع، إذا كان المأمور به يطيع الأمر فإنك تأمره باللسان ولا تنكر عليه باليد، والنبي عليه الصلاة والسلام له وِلاية وينزع هذا المنكر بيده؛ لكن علم من حال ذاك أنه يمتثل الأمر، فقال له ((انْزِعْهَا)).
فلا تعارض بين هذا وبين ما سيأتي من أنَّ حُذيفة ﵁ قطع خيطاً من رجل، فإن ذلك مبني على حالٍ أخرى، فالنبي عليه الصلاة والسلام أمره فامتثل ذلك الأمر. ٣
ثم علّل ﷺ ما في بقائها عليه من الضرر، قال: ((فإنها لا تزيدك إلاَّ وهناً)): إلا ضعفاً، فالوهن معناها: الضعف والمرض.
فهذا فيه دليل على أن لبس هذه الأشياء فمن الحلْقة ونحوها بقصد دفع الضرر أنه يسبّب عكس المقصود، فإنه لبسها من أجل توقِّي المرض، والنبي ﷺ أخبر أنها تجلب المرض، وذلك ظاهر في الذين يتعاطون هذه الأشياء؛ تجدهم دائماً في قَلَق وفي خوف، لكن الذي يتوكل

---

[١] تنبيه: إن كان هناك خلاف بين أهل العلم فإني أورد الأقوال بدون ترجيح أحد منها كهذه المسألة.

على الله لا يهمّه شيء فتجده نشيطاً، قويّ العزيمة، مرتاح الضمير، منشرح الصدر، وتجد الذي يخاف من غير الله ويستعمل هذه، الرباطات ضعيف الجسم، منهك القوى، مهموماً حزيناً، يتخوّف من كل شيء. ٤

أما وهن النفس، فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله -عز وجل-؛ والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان، فأحياناً يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحياناً يتناسى الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحاً، فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا، فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلى وهناً، لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف في النفس. ٥

((فَإِنَّهَا لاَ تَزِيدُكَ إِلاّ وَهْناً)) يعني أن ضررها أقرب من نفعها، وهذا في جميع أنواع الشرك، فإن ما أشرك به ضرره أعظم من نفعه لو فُرض أن فيه نفعا. ٣

وهذا كل من أشرك فإنه من ضرر إلى ضرر أكثر منه ولو ظن أنه في انتفاع. ٣

((فإنك لو متّ وهي عليك ما أفلحت أبداً)) أي: لو مات ولم يتب منها ما أفلح أبداً.

فهذا فيه دليل على أن الشرك لا يُغفر حتى ولو كان شركاً أصغر، يُعذّب به، وإن كان لا يعذّب تعذيب المشرك الشرك الأكبر؛ فلا يخلّد في النار، لكن يعذّب بها بقدره.

قال الشيخ رحمه الله في مسائله: "فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر"، فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، لأن المعاصي وإن كانت كبائر إذا لم تكن شركاً، فلا تخل بالعقيدة وأما الشرك الأصغر فإنه يخلّ بالعقيدة، وأيضاً لا يُغفر على الصحيح، والمعاصي الكبائر التي دونه مظِنّة المغفرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]. ٤

((فإنَّكَ لوْ مِتَّ وهي عليْك، ما أَفْلَحتَ أبداً)) هذا القول منه عليه الصلاة والسلام؛ لأن حال المعلِّق يختلف:

- قد يكون علَّقها اعتقاداً فيها استقلالاً.
- وقد يكون علَّقها من جهة التسبّب.

والاستقلال إذا كان الذي رُئي في يد الصحابي لا شك أنه منفي؛ ولكن العبرة هنا في هذا اللفظ بالفائدة منه لغيره، فإن من مات وهي عليه فقد يحتمل أنه علقها لأجل الاستقلال أو علقها لأجل التسبب، وبالتالي يكون الفلاح على قسمين:

القسم الأول: الفلاح المنفي هو الفلاح المطلق، وهو دخول الجنة والنجاة من النار، وهذا في حال من أشرك الشرك الأكبر بأن اعتقد أن تلك الحلقة من الصُّفر أو ذلك الخيط الذي يعلق بأنه ينفع استقلالاً.

أو يكون المنفي نوع من الفلاح أو مطلق الفلاح؛ درجة من درجات الفلاح ذلك إذا كان فاعله جعل سبباً مما لم يجعله الله جل وعلا لا شرعاً ولا قدراً؛ يعني كان مشركاً الشرك الأصغر، فإنه يكون الفلاح هنا المراد به مطلق الفلاح؛ يعني درجة من درجات الفلاح.

وهذان لفظان يكثران في كتب أهل العلم وفي التوحيد بخصوصه:

الأول: مطلق الشيء.

والثاني: الشيء المطلق.

يقول مثلاً: التوحيد المطلق ومطلق التوحيد، الإسلام المطلق ومطلق الإسلام، الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، الشرك المطلق ومطلق الشرك، الفلاح المطلق ومطلق الفلاح، الدخول المطلق ومطلق الدخول، التحريم المطلق -يعني تحريم دخول الجنة أو النار- ومطلق التحريم.

ومن المهم أن تعلم أن:

الشيء المطلق: هو الكامل، الإيمان المطلق هو الكامل، الإسلام المطلق هو الكامل، التوحيد المطلق هو الكامل، الفلاح المطلق هو الكامل.

أما مطلق الشيء: فهو أقل درجاته أو درجة من درجاته، فمطلق الإيمان هذا أقل درجاته.

فنقول مثلاً: هذا ينافي الإيمان المطلق؛ يعني ينافي كمال الإيمان، أو نقول: هذا ينافي كمال الإيمان، أو نقول: ينافي مطلق الإيمان. ينافي أقل درجات الإيمان فهو ينافي الإيمان من أصله.

فإذن الفلاح المنفي يحتمل أن يكون الفلاح المطلق، يعني كل الفلاح أو درجة من درجاته بحسب حال المعلق، فكل من لبس حلقة أو خيط ومات عليه من غير توبة فإنه لن يفلح أبدا، لن يفلح؛ يعني لن يكون مفلحاً، وهذا الفلاح بحسب اعتقاده إن كان معتقداً فيها كما ذكرت أنها تنفع باستقلال فهو من أهل النار، أو كان اعتقد أنها سبب فهو من أهل النار كعصاة الموحدين. ٣

والشاهد من هذا الحديث ظاهر: لأن النبي ﷺ استنكر لبس الحلْقة التي يُقصد منها دفع الضرر، وأخبر أنها لا تزيد صاحبها إلاَّ مرضاً، وأنه لو مات وهي عليه ما أفلح أبداً، وهذا فيه دليل على منع لبس الحلْقة ونحوها من أجل دفع الضرر، أو من أجل دفع العين، أو غير ذلك من المقاصد السيّئة.

ومثله: ربط الخيط على الساق، فبعض الناس يربطون خيوطاً على سيقانهم، أو على أذرعهم، أو على أصابعهم، ويقولون: إن هذا يمنع من المرض، وهذا هو نفسه فعل الجاهلية، وهو مثل الذي استنكره النبي ﷺ في هذا الحديث. ٤

في هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١- أن ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال، لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكراً، ودليله أن الرسول ﷺ قال: ((ما هذه)).

٢- وجوب إزالة المنكر، لقوله: ((انزعها))، فأمره بنزعها، لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله: ((إنها لا تزيدك إلا وهناً)) ...

٣- أن الأسباب لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

٤- أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك، لقوله: ((لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً))، وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران ...

٥- أن الأعمال بالخواتيم، لقوله: ((لو مت وهي عليك))، فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له. ٥

٦- وفيه النهي عن تعليق الحلق والخرز ونحوهما على المريض أو غيره. ١

٧- وفيه أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح أبداً ففيه رد على المغرورين الذين يفتخرون بكونهم من ذرية الصالحين أو من أصحابهم ويظنون أنهم يشفون لهم عند الله وإن فعلوا المعاصي.

٨- وفيه أن رتب الإنكار متفاوتة فإذا كفى الكلام في إزالة المنكر لم يحتج إلى ضرب ونحوه.

٩- وفيه أن المسلم إذا فعل ذنباً وأنكر عليه فتاب منه فإن ذلك لا ينقصه وأنه ليس من شرط أولياء الله عدم الذنوب. ١

هذا الحديث: "رواه أحمد" في مسنده "بسند لا بأس به"، ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الإمام الذهبي رحمه الله. ٤

وقال الحاكم: أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران. ٢

وله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً: ((من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)) وفي رواية: ((من تعلق تميمة فقد أشرك)).

قال: "وله" أي: للإمام أحمد رحمه الله ((من تعلق تميمة فلا أتم الله له)) إلخ. ٤

الحديث الأول رواه أحمد كما قال المصنف ورواه أيضاً أبو يعلى والحاكم وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي. ١

قوله: ((من تَعَلَّق)) أي: من علّق هذا الشيء على جسمه، أو علّق قلبه به، واعتقد فيه أنه ينفعه أو يضره من دون الله عزّ وجلّ. ٤

((تعلَّق)) يعني أنه علَّق وتعلَّق قلبُه بما علَّق، لفظ ((تعلَّق)) يشمل التعليق وتعلُّق القلب بما عُلِّق، فهو لبِس وتعلَّق قلبه بما لبس، علق في صدره وتعلق قلبه بما علق. ٣

((تميمية)) التَمِيمَة: خرزات تعلّق على الأولاد يتّقون بها العين، وكذلك ما شابهها من كل ما يُعلّق من الخرزات وغيرها من الحُرُوز والحُجُب، فهذا ليس بخاص بالخرز، وإنما هذا التفسير لبيان نوع من أنواع المعلّقات، ومنهم من يعلّق النعل على الباب، ويجعل وجه النعل مقابلاً للشخص الآتي، أو على السيارة، ويظنون أن هذه الأشياء تدفع عنهم شر الحسد، وكل هذا من أمور الجاهلية. ٤

والتميمة لها باب يأتي إن شاء الله تعالى. ٣

وقوله: ((فلا أتم الله له)) هذا دعاء من النبي ﷺ بأن الله لا يتمّ له أموره، ويعكس مقصوده عليه؛ والرسول ﷺ مجاب الدعوة، فهذه الدعوة تتناول كل من علّق على نفسه أو على غيره شيئاً من الحُجُب والحُرُوز والتمائم يريد بها كفّ الشر عنه إلى يوم القيامة، إلاَّ أن يتوب إلى الله عزّ وجلّ، فمن تاب تاب الله عليه، ومن لم يتب ((فلا أتمّ الله له)) يعني: لا أتم الله له أمره ومقصوده، بل أصابه بعكس ما يريد من الضرر والشر والخوف والقلق، ولهذا تجدون من يعلِّقون هذه الأشياء من أكثر الناس خوفاً وهمًّا وحزناً وضعفاً وخوراً، بعكس الموحّدين المعتمدين على الله، فتجدونهم أقوى الناس عزيمة وأقوى الناس عملاً، وتجدونهم لأن أيضاً –في أمن واستقرار وانشراح الصدور، لأنهم يؤمنون بالله عزّ وجلّ وحده، ويعلّقون آمالهم بالله عزّ وجلّ، والله يكفيهم سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨] ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق:٣]. ٤

وهنا دعا عليه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ألاَّ يُتم الله له؛ لأن التميمة أُخذت من تمام الأمر، سُميت تميمة لأنه يُعتقد فيها أنها تتم الأمر، فدعا عليه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ بأن لا يتم الله جلّ وعلا له المراد. ٣

وقوله: ((فلا أتم الله له)). الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرمة، سواء نفى الرسول ﷺ أن يتم الله له أو دعا بأن لا يتم الله له، فإن كان الرسول ﷺ أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبي ﷺ، وإلا، فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ. ٥

وقوله: ((ومن تعلق وَدْعَة؛ فلا وَدَع الله له)) الوَدْع: شيء يُستخرج من البحر، يشبه الصّدف، يعلقونه على صدورهم أو على أعناقهم أو على دوابهم يتقون به العين. ٤ أو لا يصيبه الجن. ٥

((فلا وَدَعَ الله له)) أي: لا تركه في دَعَة وسُكُون وراحة، بل سلّط عليه الهموم والأحزان والوساوس والأعداء حتى يُصبح في قلق وهمّ وغمّ دائم، وهذا دعاء من الرسول ﷺ بأن يسلب الله راحته واستقراره وأمنه، ويصبح في خوف وهمّ وقلق دائم، يخاف من كل شيء، إلى أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا ظاهر في كل من يتعاطون هذه الأشياء، تجدونهم من أشد الناس قلقاً وهمًّا وخوفاً وتوقُّعاً للمكروه في كل لحظة ومن كل شخص.

قال: "وفي رواية" يعني: للإمام أحمد رحمه الله. ٤

قوله: "وفي رواية" أي: من حديث آخر رواه أحمد فقال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور عن دجين الحجري "عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: ((إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: من تعلق تميمة فقد أشرك))[1] ورواه الحاكم ونحوه، ورواته ثقات. ١

---

[1] أحمد (٤/١٥٦). والبخاري في التاريخ الكبير (٣/٢٥٦) ولم يسق لفظه، والحارث بن أبي أسامة (رقم٥٦٣-بغية الباحث)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧-٣١٩) مختصرا ولم يسق اللفظ المرفوع، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/٢١٩) وإسناده صحيح. قال الهيثمي في المجمع (٥/١٠٣) رواة أحمد ثقات. ١

((من تعلّق تَمِيمَة؛ فقد أشرك)) هذه فيها زيادة على دعاء الرسول ﷺ عليه بأنه قد أشرك، فهذا تصيبه مصيبتان: مصيبة دعوة الرسول ﷺ عليه، والمصيبة الثانية في عقيدته، وهي أنه قد أشرك بالله عزّ وجلّ باتخاذ هذا الشيء، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب، لأن الباب: (باب من الشرك تعليق الحلْقة والخيط ونحوهما).

فإن قلت: ما نوع هذا الشرك؟، هل هو الشرك الأكبر، نقول: فيه تفصيل إن كان يرى أنها تقيه من دون الله فهذا شرك أكبر. وإن كان يعتقد أنها سبب فقط والواقي هو الله سبحانه وتعالى فهذا شرك أصغر لأن الله لم يجعل هذه الأشياء سبباً. ٤

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف:١٠٦].

وحذيفة صحابي جليل من السابقين ويقال له صاحب السر وأبوه أيضاً صحابي؛ مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين. ١

قوله: "من الحمى"، "من" هنا للسببية، أي: في يده خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه، أو يشفى منها. ٥

يعني: اتخذه أن يقيه من الحُمّى، والحُمّى: ارتفاع الحرارة في الجسم. فالرجل ربط الخيط من أجل أن يتقي الحُمّى، فحذيفة بن اليمان رضي الله عنه قطع هذا الخيط من هذا الرجل، فهذا فيه إزالة المنكر، كما أن النبي ﷺ لما رأى الحلْقة قال: ((انزعها)). ٤

قال: "فقطعه" وهذا يدل على أن هذا منكر عظيم يجب لإنكاره ويجب قطعه. ٣

وروى وكيع عن حذيفة: أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيء رقي لي فيه، فقطعه وقال: "لو مت وهو عليك ما صليت عليك"[1]. ١

[1] رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥/٥)، وابن بطة في الإبانة رقم ١٠٣٠-١٠٣١ من طريقين عن حذيفة به، وهو أثر صحيح.

قوله "قطعه" وفيه إنكار مثل هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها. فكيف بما هو شرك؛ كالتمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال؟

وفيه إزالة المنكر باليد بغير إذن الفاعل، وإن كان يظن أن الفاعل يزيله، وإن إتلاف آلات المنكر واللهو جائزة وإن لم يأذن صاحبها. ١

قوله: "وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)﴾"، ومعنى الآية أن الله أخبر عن المشركين أنهم يجمعون بين الإيمان بالله أي بوجوده وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ثم مع ذلك يشركون في عبادته فسرها بذلك ابن عباس وعطاء ومجاهد والضحاك وابن زيد وغيرهم[١]. ١

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر الناس ﴿وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قيل معناه أنهم لا يؤمنون بالربوبية إلاَّ وهم مشركون في الألوهية، لأن المشركين كلهم يقرُّون بالربوبية، ولكنهم يشركون في الألوهية، إما الشرك الأكبر وإما الشرك الأصغر.

وربط الخيط حسب ما فصّلنا من أنه إذا كان يرى أن النفع والضرر بيد الله، وإنما الخيط سبب؛ فهذا شرك أصغر، لأن الله لم يجعل ربط الخيط سبباً من الأسباب الواقية. أما إذا كان يعتمد على هذا الخيط من دون الله في دفع الضرر؛ فهذا شرك أكبر.

فدلّ على أن الشرك قد يقع ويكثر وقوعه حتى من أهل الإيمان، إن كان المراد الشرك الأصغر، فالشرك الأصغر قد يصدر من المؤمن، كما قد يصدر منه النفاق لا العملي، ويصدر منه الرياء. أما إذا كان القصد الاعتماد عليه فإنه يكون من الشرك الأكبر المنافي للإيمان، فالشرك الأصغر ينقّص الإيمان، وينقّص التّوحيد، أما الشرك الأكبر فإنه ينافي الإيمان وينافي التّوحيد.

---

[١] انظر تفسير الطبري ٣١-٧٧، والدر المنثور ٥٩٣/٣، وتفسير ابن كثير ٤٩٥/٢

قال الشيخ رحمه الله في مسائله فيه: "أن الصحابة يستدلُّون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر"، لأن حذيفة بن اليمان استدل بالآية النازلة في الشرّك الأكبر على الشرك الأصغر، هذا إذا فُسِّرت الآية بأن المراد بها أهل الجاهلية، لأن أهل الجاهلية يقرّون بتوحيد الربوبية ويشركون في توحيد الألوهية، ولكن إقرارهم بتوحيد الربوبية لا يدخلهم في الإسلام، فيكون حذيفة ﷺ استدل بالآية النازلة على الشرك الأكبر على الشرك الأصغر، لأنها تتناوله بعمومها، مثل ما استدل ابن عباس بقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] قال: "هو قول الرجل: ما شاء الله وشئت، لولا الله وأنت، لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص وما أشبه ذلك"، فسّرها بالشرك الأصغر، لأن الآية شاملة للشرك الأكبر والشرك الأصغر، فهو استدل بها على بعض ما دلّت عليه، كذلك حذيفة استدل بهذه الآية على بعض ما دلت عليه، لأنها تشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وبعض المسلمين يؤمنون بالله في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولكن يصدر منهم بعض الشرك الأصغر الذي لا ينافي الإيمان، فدلّ على الحذر من الشرك، وأنه إذا كان هذا يحصل من بعض المؤمنين، فإن الإنسان لا يأمنه على نفسه، ويستعيذ بالله من الشرك الأكبر والأصغر ويقول: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم"، وفي الدعاء المشهور: "أعوذ بك من الشك والشرك والكفر والنفاق وسوء الأخلاق"، فالمسلم يخاف على نفسه، ويدعو الله عزّ وجلّ بالعافية من هذه الأمور، ولا يزكي نفسه، ولا يأمن على نفسه. ٤

وفي هذه الآثار عن الصحابة: ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كماله. ٢

[الأسئلة]:

س/ وهذا يقول قرأت في كتاب من أحد المؤلفين ينقل فيه: إذا خفت على ولدك أو نفسك من العين فضع نقطة سوداء على الجبهة لتصرف عنك العين.

ج/ اعتقادات الناس في دفع العين لا حصر لها، والجامع لذلك أنّ كل شيء يفعله الناس مما يعتقدونه سبباً وليس هو بسبب شرعي ولا قدري فإنه لا يجوز اتخاذه، وهذا يختلف عما جاء عن عمر ﷺ أنه رأى غلاماً صغيراً حسن الصورة وخاف عليه العين فقال لأهله: دسموا

نونته. ففعلوا هذا من إظهار عدم الحسن، ليس التدسيم -وهو وضع النقطة في بعض الوجه-، ليس لأجل أن تدفع تلك النقطة العين؛ ولكن لأجل أن يظهر بمظهر ليس بحسن، فلا تتعلق النفوس الشريرة به.

فإذا وضع هذه النقطة في التي ذكر لأجل اعتقاد أنها تدفع العين هذا من اتخاذ الأسباب الشركية التي لا تجوز.

وإن كان لأجل إظهار عدم الحسن فتلك الصورة الجميلة أو ذلك الجسد المعافى أو نحو ذلك فإن هذا لا بأس به والله أعلم[١]. ٣

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح.

فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: ((لا تزيدك إلا وهناً)).

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر بن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي لا ترك الله له.

---

[١] مأخوذ من الوجه الثاني للشريط السابع من باب الشفاعة.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

لقوله ﷺ: ((أنزعها – لا تزيدك إلا وهناً .، لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً))، وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها. ٥

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. هذا وهو صحابي، فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح. ٥

فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. أي: لقولهم، وهو كذلك، فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً"[١]، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة، لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر، فإنها تحت المشيئة. ٥

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

هذا فيه نظر، لأنه قوله ﷺ: ((لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً)) ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: ((لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً))، أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها.

وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل، فنقول: الجهل نوعان:

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشئاً عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم، فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئاً عن خلاف ذلك، أي أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام فإنه يعذر فيه فإن كان منتسباً إلى الإسلام، لم يضره، وإن كان منتسباً إلى

---

[١] مصنف عبد الرزاق (٨/٤٦٩)، والهيثمي في "مجمع الزوائد" (٤/١٧٧)، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح".

الكفر، فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلى الله على القول الراجح، يمتحن، فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيد ليس عنده علماء ولم يخطر ببالة أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب، فهذا يعذر، وله أمثلة:

منها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم، ولم يسمع عن العلم شيئاً ، ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشر سنة، فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابه، فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة، فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي.

وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة، فهذا لا يعذر، لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة، فهو مفرط، فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل. ٥

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: ((لا تزيدك إلا وهناً)).

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك. أي: ينبغي أن ينكر إنكاراً مغلظاً على من فعل مثل هذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضاً قوله: ((من تعلق تميمة، فلا أتم الله له)). ٥

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه. تؤخذ من قوله: ((من تعلق تميمة، فلا أتم الله له)) إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة، فإن الله لا يتم له، فيكون موكولاً إلى هذه

التميمة، ومن وكل إلى مخلوق، فقد خذل، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة، ((من تعلق شيئاً وكل إليه)).[1] ٥

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك. وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر. ٥

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك. يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾. ٥

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر بن عباس في آية البقرة.

أي أن قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر على الأصغر، لأن الأصغر شرك في الحقيقة وإن كان لا يخرج من الملة، ولهذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: "كما ذكر ابن عباس في آية البقرة"، وهي قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله...﴾ [البقرة: ١٦٥]، فجعل المحبة التي تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله عز وجل. ٥

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك. أي: من تعليق التمائم الشركية، لأنه لا أثر لها ثابت شرعاً ولا قدراً. ٥

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي لا ترك الله له.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٤/٣١٠)، والترمذي (أبواب الطب، باب ما جاء في كراهة التعليق (٢٠٧٣).

تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعاً، وليس هذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خالف وعصى، فقد قال النبي ﷺ:

((إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد، فقولوا: لا ردها الله عليك))[1]، ((وإذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك)). [2]

فهنا أيضاً تقول له: لا أتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول ﷺ على سبيل العموم، فلا نخاطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة: لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعيين سوف يكون سبباً لنفوره، ولكن نقولك دع التمائم أو الودع، فإن النبي ﷺ يقولك ((من تعلق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له)). ٥

---

[1] مسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن نشد الضالة في المسجد.

[2] الترمذي: كتاب البيوع/ باب النهي عن البيع في المسجد، ٢٧٤/٢، وحسنه وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: "حديث صحيح" الإرواء ١٣٤/٥.

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَي وَالتَّمَائِمِ)

فِي الصحيح عَنْ أَبِي بشير الْأَنْصَارِيِّ ﵁ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً أَنْ لَا يَبْقِيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ. وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول: ((إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ وأَبُو دَاوُدَ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ مرفوعاً: ((مَنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه)) رَوَاهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيّ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ مِنَ الْعَيْنِ، لَكِنْ إذا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁.

وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمُ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَّةِ.

وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إلى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إلى امْرَأَتِهِ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِع قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يا رُوَيْفُعُ! لَعَلَّ الْحَيَاةَ تَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ)). وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ ﵁، قَالَ: "مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إنسان كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ" رَوَاهُ وَكِيعُ، وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ:" كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا، مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ" .

قال الشيخ رحمه الله: "باب ما جاء في الرّقى والتمائم" أي: ما جاء عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين من الأحاديث والآثار في النهي عن الرُّقى والتّمائم.

هذا الباب مناسبته لما قبله: وهو: "بابٌ من الشرك لبس الحلْقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه"؛ أن هذا الباب مكمِّلٌ للباب الذي قبله، لأنه ذكر أنواعاً أخرى مكمِّلة لما ذُكر في

الباب الذي قبله، ولكن الباب الذي قبله صرّح الشيخ في ترجمته بأن لبس الحلْقة والخيط من الشرك، وأما هنا فلم يصرّح، بل قال: "ما جاء في الرُّقى والتمائم". ٤

ولم يقل: باب من الشرك الرقى والتمائم؛ ذلك لأن الرقى منها ماهو جائز مشروع ومنها ما هو شرك، والتمائم منها ما هو متفق عليه أنه شرك ومنها ما قد اختلف الصحابة فيه هل هو من الشرك أم لا؟ لهذا عبّر رحمه الله بقوله "باب ما جاء في الرقى والتمائم" وهذا من أدب التصنيف. ٣

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب، فلم يذكر أنها شرك، لأن من الرقى ما ليس بشرك، ولهذا قال: "باب ما جاء في الرقى والتمائم". ٥

ولما كانت الرقى على ثلاثة أقسام: قسم يجوز، وقسم لا يجوز، وقسم في جوازه خلاف؛ لم يجزم المصنف بكونهما من الشرك، لأن في ذلك تفصيلاً بخلاف لبس الحلقة والخيط ونحوهما لما ذكر فان ذلك شرك مطلقاً. ١

وهذا من دقّة فقهه ومعرفته رحمه الله، فإنه إذا كان الحُكم واضحاً منصوصاً عليه في الحديث ذكره في الترجمة، وإذا كان الحكم فيه تفصيل، أو فيه احتمال؛ فإنه لا يجزم في الترجمة، وإنما يورد الأدلة في الباب ويُؤخذ منها الحكم مفصّلاً. فهذا من دقّة فقهه رحمه الله، وشدّة تورّعه عن إطلاق الأحكام، مما يُرَبِّي في طلبة العلم هذه الخَصْلَة الطيّبة، وهي أنهم يتورّعون في إطلاق الأحكام ويتثبتون فيها، لأن الأمر خطير جدًّا. ٤

"باب ما جاء في الرقى والتمائم"

أي النصوص التي جائت في تحريم التمائم والتفصيل في الرقى. لأن التمائم جنسها محرم وبعضهم فصل فيها والصحيح أنها محرمة.٦

قوله: "الرقى"، جمع رقية، وهي القراءة، فيقال: رقى عليه –بالألف– من القراءة، ورقي عليه –بالياء– من الصعود. ٥

والرقية معروفة قد كانت العرب تستعملها، وحقيقتها أنها أدعية وألفاظ تُقال أو تتلا ثم يُنْفَثُ بها، ومنها ما له أثر عضوي في البدن، ومنها ما له أثر على الأرواح، ومنها ما هو جائز مشروع، ومنها ما هو شرك.

والنبي عليه الصلاة والسلام رَقَى ورُقِيَ؛ رقى غيره ورَقى نفسه عليه الصلاة والسلام ورُقي أيضاً؛ رقاه جبريل ورقته عائشة ونحو ذلك.

فهذا الباب معقود لبيان حكم الرقى، قال (باب ما جاء في الرقى والتمائم)، وقد رخّص الشرع من الرقى بالتي ليس فيها شرك؛ بالرقى التي خلت من الشرك، وقد قال بعض الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام يسأله عن الرقى فقال ((اعْرِضُوا علَيّ رُقَاكُمْ. لاَ بَأْسَ بِالرّقَىَ مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكٌ)).

قال العلماء: الرقية تجوز بثلاثة شروط أُجمع عليها:

الأول: أن تكون بالقرآن أو بأسماء الله أو بصفاته.

الثاني: أن تكون بالكلام العربي أي بلسان عربي مفهوم؛ يُعلم معناه.

والثالث: أن لا يعتقد أنها تنفع بنفسها؛ بل الله جل وعلا هو الذي ينفع بالرقى.

قال بعض العلماء يدخل في الأول السنة أيضاً بما ثبت في السنة؛ يعني يكون الشرط الأول: أن تكون من القرآن أو بالسنة أوبأسماء الله وبصفاته.

هذه شروط ثلاثة لكون الرقى جائزة بالإجماع.

إذا لم تكن من الأول أو الثاني يعني إذا تخلف الأول أو الثاني ففيها خلاف بين أهل العلم.

والثالث لابد منه؛ شرط متفق عليه، من أن الرقى لابد لمن تعاطاها أن لا يعتقد فيها.

وأمّا من جهة كونها بأسماء الله وصفاته أو بالكتاب والسنة أو أن تكون بلسان عربي مفهوم فإن هذا مختلف فيه.

وقال بعضهم يسوغ أن تكون الرقية بما يعلم معناه ويصح المعنى بلغة أخرى، لا يشترط أن تكون بالعربية، ولا يشترط أن تكون من القرآن أو السنة.

وهذه مسائل فيها خلاف وبحث ومن جهة تأثير أيضاً غير القرآن على المرقي، وفي هذا مسائل نُرْجِئ تفصيل ذلك إلى موضع آخر إن شاء الله.

المقصود أن الرقى الجائزة هي بالإجماع هي من أجمعت فيه ثلاث شروط.

وأمَّا الرقى الشركية فهي التي فيها استعاذة أو استغاثة بغير الله، أو كان فيها شيء من أسماء الشياطين، أو اعتقد أن المرقي فيها بأنها تؤثر بنفسها، فهذا يكون الرقية غير جائزة، ومن الرقى الشركية، قد قال عليه الصلاة والسلام ((إنّ الرّقَى وَالتّمائمَ وَالتّوَلَةَ شِرْك)) كما سيأتي.

إذن الحاصل من ذلك أنَّ الرقى منها ما هو جائز مشروع ومنها ما هو شركي، علمتَ ضابط الجائز المشروع، وعلمت ما هو من جهة الشرك.

(والتمائم) التمائم جمع تميمة وقد ذُكر تفسيرها مختصر من قبل، وهي تجمع أنواعاً كثيرة، فالتمائم تجمع كل ما يُعلَّق أو يُتخذ مما يراد منه تتميم أمر الخير للعبد أو دفع الضرر عنه، ويَعتقد فيه أنه سبب، ولم يجعل الله جل وعلا ذلك الشيء سبباً لا شرعاً ولا قدراً.

فالتميمة شيء يُعلق إمّا جلد مثلاً، يكون من جلد خاص يعلق على الصدر، أو يكون فيه أذكارا وأدعية وتعوُّذات تُجعل أيضاً معلقة على الصدر أو في العضد، أو خرزات وحبال ونحو ذلك تجعل على الصدر تعلق، أو شيء يُجعل على باب البيت أو يجعل في السيارة أو يُجعل في مكان ما، يَجمع التمائم أنها شيء يراد منه تتميم أمر الخير وتتميم أمر دفع الضر، وذلك الشيء لم يُؤذن به شرعاً ولم يؤذن به أيضاً قدَراً.

فإذن كالتميمة ليست خاصة بصورة معينة؛ بل تشمل أحوالاً كثيرة، تشمل أصنافاً عديدة.

منها مما هو في زمننا الحاضر ما تراه على كثيرين من شيء يعلقونه في صدورهم، يعلق شيء ثم تكون جلدة صغيرة في الصدر، أو على العضد، أو يربط في البطن تميمة لدفع مثلاً أمراض البطن أو الإسهال أو التقيُّؤ ونحو ذلك.

أو شيء يتخذ في السيارة، كما ترى بعض السيارات فيها رأس دب مثلاً، أو أرنب أو يضع بعض الأشكال كحذوة الفرس أو يضع خرز على المراية الإمامية، أو يضع مسبحة على شكل معين من خشب ونحو ذلك، هذه وأصنافها من أنواع التمائم، ولها أشكال كثيرة تختلف مع إختلاف الأزمان، ويُحدث منها الناس شيئاً كثيراً.

أو يلبس سلسلة وعليها شكل عين صغيرة، أو يعلق على مدخل الباب رأس ذئب أو رأس غزال، أو يضع على مَطْرَق الباب حذوة فرس.

هذه من التمائم التي يريد منها أصحابها أن تدفع عنهم العين، أو أن تجلب لهم نفعاً.

بعض الناس يقول أعلِّق ولا أستحضر هذه المعاني؛ أعلِّق هذا في السيارة للزينة، أعلقه في البيت للجمال، ونحو ذلك من قول طائفة قليلة من الناس.

ونقول: إن علّق التمائم للدفع أو الرفع فإنه شرك أصغر إن اعتقد أنها سبب، وإن علقها للزينة فهو محرَّم لأجل مشابهته من يشرك الشرك الأصغر.

فإذن دار الأمر على أن التمائم كلها منهي عنها، سواء اعتقد فيها أو لم يعتقد؛ لأن حاله إن اعتقد فهو في شركٍ أصغر، وإن لم يعتقد فإنه شابه أولئك المشركين، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ تَشَبّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ)). ٣

في (الصحيح) عن أبي بشير الأنصاري ﵁ أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت.[1]

"أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره" لم يعين هذا السفر، قال الحافظ: لم أقف على تعيينه[2]".

"فأرسل رسولاً" أي: مندوباً.

"أن لا يبقيّن في رقبة بعير قلادة" "يبقيّن" مؤكّد بنون التأكيد الثقيلة، وقلادة فاعل. كانوا في الجاهلية يعلّقون القلائد على رقاب الإبل، يعتقدون أن ذلك يدفع عنها العين والضرر، والنبي ﷺ أراد أن يزيل هذه العادة الجاهلية، ويقرر التّوحيد. والقلادة ما أحاط بالعنق.

وال "وَتَر" –بفتح الواو– المراد به: وَتَر القوس، والقوس آلة كانوا يرمون بها السهام. وكانوا في الجاهلية إذا اخْلَقَّ الوَتَر أخذوه وعلّقوه على رقاب الدواب، وأبدلوه بوَتَر جديد، يعتقدون أن هذا الوَتَر القديم الذي استعمل ورُمي به أنه يدفع العين عن الإبل.

وقوله: "أو قلادة" هذا شك من الراوي، هل الرسول ﷺ قال: قلادة من وَتَر، أو قال: قلادة مطلقة، سواء كانت من وَتَر أو من غيره؟. وهذا من دقتهم ﵃ في الرواية. ٤

والأولى أرجح، لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد، لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك، لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سبباً لم يثبته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ أن نقطع هذه القلائد. ٥

وعلى كل حال؛ فيه دليل على منع هذا الشيء من أي نوع كان، سواء كان من وَتَر أو من غيره، ما دام أن المقصود منه عقيدة فاسدة، حتى ولو كان من السُّيور، أو من الخيوط، أو من الخرز، أو من غير ذلك، كل قلادة يُقصد بها هذا المقصد الشركي فهي ممنوعة.

[1] رواه البخاري في صحيحه (٣٠٠٥)، البخاري الجهاد والسير (٢٨٤٣)، . ومسلم في صحيحه ٢١١٥، أبو داود الجهاد (٢٥٥٢)، أحمد (٥/٢١٦)، مالك الجامع (١٧٤٥).

[2] فتح الباري ١٤١/٦.

أما القلائد التي لا يُقصد منها مقصد شركي، مثل قلاد الهَدْي الذي يُهدى للبيت العتيق؛ فلا حرج فيها. ٤

قوله: "في رقبة بعير"، ذكر البعير، لأن هذا هو الذي كان منتشراً حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص. ٥

"إلاّ قُطِعت" هذا فيه إزالة المنكر، ولاسيّما إذا كان هذا المنكر في العقيدة، فإن إزالته متأكِّدة.

وفيه: أن الحاكم أو الإمام يرسل نوّاباً عنه في إزالة المنكر، وليس من شرط ذلك أن يباشره بنفسه.

الشاهد من الحديث: تحريم عقد القلائد على الدواب، أو على الآدميين بقصد أن ذلك يدفع العين لأنه لا يدفع الضرر ولا يدفعه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وليست القلائد هي التي تدفع الضرر، أو تجلب النفع، وليست سبباً في ذلك وإنما هذا بيد الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس:١٠٧]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر:٢]، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨]. ٤

قال الحافظ: "ويؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه: ((من تعلق تميمة فلا أتم الله له)) رواه أبو داود، وهي ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك" انتهى.

فعلى هذا يكون تقليد الإبل وغيرها الأوتار وما في معناها لهذا المعنى حراماً بل شركاً لأنه من تعليق التمائم المحرمة ((ومن تعلق تميمة فقد أشرك)) ولم يصب من قال إنه مكروه كراهة تنزيه. ١

قال البغوي في شرح السنة: "تأول مالك أمره –عليه الصلاة والسلام– بقطع القلائد على أنه من أجل العين وذلك أنهم كانوا يشدون الأوتار والتمائم ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصمها من الآفات. فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً ". ٢

هذا الحديث وجه الاستدلال منه على أن تعليق القلادة من الوتر على البعير مأمور بقطعه، والأمر بقطعه لأجل أن العرب تعتقد أنها تدفع العين عن الأبعرة، تدفع العين عن النَّعم، فيعلقون الأوتار على شكل قلائد وربما ناطوا بالأوتار أشياء إمّا خرز وإمّا شعر أو نحو ذلك ليدفع، فهذا نوع من أنواع التمائم. ٣

فمناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة وهي أن قوله "لاَ يَبْقَيَنّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلاَدَةٌ، إِلاّ قُطِعَتْ" ظاهر في النهي عن التمائم وأن هذا النوع يجب قطعه، لم يجب قطعه؟ لأن في تعليقه اعتقاد أنه يدفع أو يجلب النفع، وهذا الاعتقاد اعتقاد شركي. ٣

يستفاد من الحديث:

١- أنه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعياً لأحوالهم، فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.
٢- أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة، فإذا فعلوا محرماً منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثهم عليه.
٣- أنه لا يجوز أن تعلق في أعناق الإبل أشياء تجعل سبباً في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليس كذلك لا شرعاً ولا قدراً، لأنه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جعلت في اليد أو الرجل، فلها حكم الرقبة، لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها، فالمكان لا يؤثر.
٤- أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده. ٥

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) [رواه أحمد وأبو داود]. [١]

---

[١] أبو داود الطب (٣٨٨٣)، ابن ماجه الطب (٣٥٣٠)، أحمد (٣٨١/١).

قال: "وعن ابن مسعود" هو: عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذلي الصحابي الجليل، من أئمة العلم المعروفين في الصحابة ... وفضائله كثيرة ﵁، وكان من السابقين الأولين. ٤

وفيه قصة كان المصنف اختصرها، ولفظ أبي داود: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: "إن عبد الله بن مسعود رأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)). فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت. فقال عبد الله: إنما ذاك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها. إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: ((أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما))"[1] ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي.[2] ١

هذا الحديث فيه التأكيد، قال: ((إنّ الرّقَى وَالتّمائمَ وَالتّوَلَةَ شِرْك)) ومعلوم أن دخول (إنّ) على الجملة الخبرية يفيد تأكيد ما تضمنته، و(الرّقى) هنا لما دخلت عليها الألف واللام عمت، فهذا الحديث أفاد أن كل الرقى من الشرك. وأن كل التمائم من الشرك وأن كل التولة من الشرك، قال: إن الرقى شرك. فكل الرقى شرك، وقال: إن التمائم شرك. فإذن كل التمائم شرك، وقال: إن التولة شرك. فإذن كل أنواع التِّولة شرك.

فهذا العموم خُص في الرقى بالنص وحدها، خُص في الرقى لقوله: ((لاَ بَأْسَ بِالرّقَىَ مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكٌ)) وبأن النبي عليه الصلاة والسلام رقى ورُقي عليه الصلاة والسلام.

فإذن الرقى دلّ الدليل على أنّ العموم هاهنا مخصوص، وليس كل أنواع الرقية شرك؛ بل بعض أنواع الرقية وهي التي اشتملت على شرك.

---

[1] أبو داود الطب (٣٨٨٣)، ابن ماجه الطب (٣٥٣٠)، أحمد (١/٣٨١).

[2] قال ابن كثير في تفسيره: "إسناده صحيح ".

فإذن العموم هنا مخصوص بأنه خرج من ذلك ما لم يكن فيه شرك ((لاَ بَأْسَ بِالرّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شركاً))، وفي لفظ آخر قال ((لاَ بَأْسَ بِالرّقَى مَا لَمْ يَكُنْ شِرْكٌ)). ٣

قوله: ((إن الرقى)) قال المصنف: "هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة" يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي الرقى التي فيها شرك من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة به كالرقى بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له، فليست شركاً، بل ولا ممنوعه، بل مستحبة أو جائزة. ١

قوله "فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة" كما تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد. وكذا رخص في الرقى من غيرها، كما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك: "كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: ((اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً))[١]. ٢

وفيه عن أنس قال: "رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة"[٢]؛ في باب أحاديث كثيرة. ١

قال الخطابي: وكان عليه السلام قد رقى ورقي وأمر بها وأجازها فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة أو مأمور بها وإنما جاءت الكراهية والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب فإنه ربما كان كفرا أو قولا يدخله الشرك.[٣] ١

وهل المراد بالرقي في الحديث ما لم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟ الجواب: الثاني، لأن كلام النبي ﷺ لا يناقض بعضه بعضاً، فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة.

---

[١] مسلم السلام (٢٢٠٠)، أبو داود الطب (٣٨٨٦).

[٢] رواه مسلم في صحيحه رقم ٢١٩٦

[٣] انظر معالم السنن ٤/٢١٠

وكذا الرقي المباحة التي يرقى بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائز أيضاً.٥

أما التمائم فلم يأت دليل يخصُّ نوعا من نوع؛ بل يبقى هذا اللفظ على عمومه ((إنّ الرّقَى وَالتّمائمَ وَالتّوَلَةَ شِرْك)) فما جاء ما يخصُّ نوعا من التمائم دون نوع من الشرك، فتكون إذن التمائم بأنواعها شرك؛ لأن ما لم يرد فيه تخصيص من الشارع فإن العموم يجب أن يبقى؛ لأن التخصيص شرع، وهذا الشرع لابد أن يأتيَ من الشارع، فنُبقي العموم على عمومه.

قال: ((وَالتّوَلَةَ))، التِّولة كما فسرها الشيخ رحمه الله "شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى زوجه" نوع من الشرك. هو يسمى عند العامة والصرف والعطف، نوع من السحر يُصنع فيجلب شيئاً ويدفع شيئاً بحسب اعتقادهم، وهي في الحقيقة نوع من أنواع التمائم لأنها تُصنع ويكون الساحر هو الذي يرقي فيها الرقية الشركية، فيجعل المرأة تحب زوجها أو يجعل الرجل يحب زوجته.

وهذا نوع من أنواع السحر، والسحر شرك بالله جل وعلا وكفر، وهذا أيضاً عموم وكل أنواعه شرك. ٣

قال الحافظ :التولة بكسر المثناه وفتح الواو واللام مخففاً شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله.[1] ١

قوله: ((التولة))، شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك، لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحب.

ومثل ذلك الدبلة، والدبلة: خاتم يشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج، قالت المرأة: إنه لا يحبها، فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج، فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية، فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية -وهي بعيدة ألا تصحبها-، ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم.

---

[1] فتح الباري ١٩٦/٦.

وإن كانت من الذهب، فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب، فهي إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك، فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: ((شرك))، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله، فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها، فهي شرك أكبر. ٥

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: ((من تعلق شيئاً وكل إليه)). [رواه أحمد والترمذي]. [1]

عبد الله بن عُكيم أدرك النبي ﷺ، لكنه لم يثبت له سماع من النبي ﷺ؛ فيكون تحديثه عن الرسول من باب المرسل، لأنه لم يسمع من النبي ﷺ، ولهذا قال الشيخ: "مرفوعاً." ٤

قوله: ((من تعلق))، أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به.٥

((من تعلق))، ولم يقل: من علق، لأن المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به، وليس كذلك من علق. ٥

قوله: ((ومن تعلق شيئاً وكل إليه)) التعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما جميعاً. ١

((شيئاً)) هنا نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الأشياء، فكل من علّق شيئاً وُكل إليه، فمن أخرج صورة من صور التعليق كانت الحجة عليه؛ لأنَّ هذا الدليل عام، فهذا الدليل فيه أن من تعلق أيَّ شيء من الأشياء فإنه يوكل إليه، والعبد إذا وُكل إلى غير الله جل وعلا فإنّ الخسارة أحاطت به من جنباته، والعبد إنما يكون عِزُّه ويكون فلاحه ونجاحه وحُسن قصده وحسن عمله أن يكون متعلِّقاً بالله وحده؛ يتعلق بالله وحده في أعماله، في أقواله، في مستقبله، في دفع المضار عنه، قلبه يكون أُنسه بالله، وسروره بالله وتعلقه بالله وتفويض أمره إلى الله وتوكله على الله جل وعلا.

---

[1] الترمذي الطب (٢٠٧٢).

ومن كذلك وتوكل على الله وطرد الخلق من قلبه، فإنه لو كادته السموات والأرض من بينها لجعل له من بينها مخرجاً؛ لأنه توكل وفوض أمره على الله العظيم جل جلاله وتقدست أسماؤه. ٣

((من تعلّق شيئاً)) سواءً قلادة، أو تَمِيمَة، أو حِرْزاً من الحُرُوز، أو خيطاً، أو حلقة، يعني: علّق قلبه بشيء أيّ شيء، يظن أنه ينفع ويضر، ((وُكِل إليه)) وَكَلَه الله إلى ما تعلق به. وهذه عقوبة من الله سبحانه وتعالى، وإهانة له من الله سبحانه وتعالى، لأن الله إذا تخلّى عنه وَوَكَلَه إلى غيره هلك. أما من توكّل على الله عزّ وجلّ وحده فإن الله سبحانه وتعالى يتولى أمره. أما من اعتقد بغيره فإنه يَكِلُه إليه ويتخلّى عنه، يَكِلُه إلى حلْقة من صُفْر، أو خيط، أو إلى تَمِيمَة، أو إلى وليّ من الأولياء، أو قبر من القبور، أو ضريح من الأضرحة، يَكِلُه إلى من اعتقد فيه.

فهذا فيه خطر عظيم، وفيه حث على أن يعلِّق الإنسان قلبه بالله عزّ وجلّ، وأن يعتقد أنه لا ينفع إلاَّ الله، ولا يضر إلاَّ الله، ولا يشفي إلاَّ الله، ولا يرزق إلاَّ الله، ولا يُعطي ولا يمنع إلاَّ الله، يتوكّل على الله، مع أخذه بالأسباب المباحة التي جعلها الله أسباباً كالدواء المباح، وغير ذلك من الأسباب المباحة، لكن القلب يتعلق بالله.

فقوله: ((من تعلّق شيئاً وُكِل إليه)) قاعدة عامة، تعمّ كل شيء يعلّق الإنسان قلبه به من دون الله عزّ وجلّ؟ من بشر، أو حجر، أو شجر، أو قبر، أو حلْقة، أو خيط، أو تَمِيمَة، أو غير ذلك، أو جن، أو إنس. ٤

فينبغي للإنسان أن يعتمد ويتوكل على الله وحده فهذا هو الذي ينفعه مع الأخذ بالأسباب كما في الحديث ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) فالأخذ بالأسباب أمر لازم من الأدوية والاستقامة على شرعه وتعاطي أسباب العافية وطلب الرزق. فالأسباب ما بين الواجب والجائز فعليه أن يتعاطى الأسباب الجائزة والواجبة والأخذ بذلك لا يقدح في التوحيد بل تركها يقدح في العقل والتوحيد جميعاً. ٦

ففي هذا وجوب التوكّل على الله، والنهي عن الاعتماد على غير الله في جلب خير أو دفع ضُر، والقرآن يقرّر هذا في آيات كثيرة. ٤

فمن تعلق بالله -سبحانه وتعالى- ، وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه، فإن الله تعالى يقول: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد واصحابه حين قيل لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم﴾[1] [آل عمران: ١٧٣]. ٥

فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ إليه، وفوض أمره إليه، كفاه وقرب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه، واعتمد على حوله وقوته، وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب، قال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه ...﴾ [الطلاق: ٣]. ١

أقسام التعلق بغير الله:

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتماداً معرضاً عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! أنقذنا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله -عز وجل- ، وعدم صرف قلبه إليه، فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر، لأن هذا السبب جعله الله سبباً.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿الذي قال لهم الناس...﴾.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط، مع اعتماده الأصلي على الله، فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله -عز وجل-، فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً، وعلى هذا لا إثم فيه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله.

فالموظف الذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقاً كاملاً، مع الغفلة عن المسبب، وهو، قد وقع في نوع من الشرك، أما إذا اعتقد ان المرتب سبب، والمسبب هو الله -سبحانه وتعالى-، وجعل الاعتماد على الله، وهو يشعر أن المرتب سبب، فهذا لا ينافي التوكل.

وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب، وهو الله عز وجل. ٥

التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

ثم إن الشيخ محمد رحمه الله شرح هذه الألفاظ، فقال: "التّمائم شيء يعلِّقون على الأولاد يتّقون به العين". ٤

شيء يشمل أي شيء يعلق دون صفة معينة بعض العلماء التمائم خرز وبعضهم قال جلدة ونحو ذلك، وهذا ليس بجيد؛ بل التمائم اسم يعم كل ما يعلق لدفع العين لاتقاء الضرر أو لجلب خير نفسي. ٣

من الشرك، لأن الشارع لم يجعلها سبباً تتقى به العين.

وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثة وبالية خوفاً من العين، فهل هذا جائز؟

الظاهر أنه لا بأس به، لأنه لم يفعل شيئاً ، وإنما ترك شيئاً ، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في "زاد المعاد" أن عثمان رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته، والنونة: هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقوة، ومعنى دسموا، أي: سودوا. ٥

ثم قال مفصِّلاً الحكم في هذا: "لكن إذا كان هذا المعلَّق من القرآن؛ فقد رخّص فيه بعض السلف" يعني: إذا كانت التَمِيمَة مكتوبة من القرآن؛ ٤

بمعنى أنه جعل في منزله مصحفاً ليدفع العين، أو علق على صدره شيئاً –سورة الإخلاص أو آية الكرسي– ليدفع العين أو ليدفع الضرر عنه، هذا من حيث التعليق تميمة، فهل هذه التميمة جائزة أم غير جائزة؟. ٣

إذا كان المعلق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الواردة. ٥

فقد رخّص فيها بعض السّلف، مثل: عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄، وعائشة، لأنها من القرآن، والتشافي بالقرآن ليس فيه محذور شركي، فهو كلام الله سبحانه وتعالى.

"وبعضهم" أي: بعض الصحابة، "لم يرخِّص فيه" حتى لو كان من القرآن، منهم: عبد الله بن مسعود –راوي الحديث–، وسيأتي الأثر عن إبراهيم أنه قال: "كانوا يكرهون التّمائم من القرآن ومن غير القرآن"، وإبراهيم النخعي تلميذ لابن مسعود. ٤

فقال بعضهم بجوازها "رخص فيها بعض السلف"؛ يعني ببعض السلف بعض كبار الصحابة ومالَ إليه بعض أهل العلم الكبار، وبعضهم لم يرخص فيها كابن مسعود ﵁ وكأصحاب ابن مسعود الكبار إبراهيم وعلقمة وعَبِيدة والربيع ابن خيثم والأسود وأصحاب ابن مسعود جميعاً. فالسلف اختلفوا في ذلك. ٣

قال في تيسير العزيز الحميد: أعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته، فقالت طائفة:

يجوز ذلك، وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص[1] وغيره[2] وهو ظاهر ما روي عن عائشة وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية وحملوا الحديث على التمائم الشركية أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته فكالرقية بذلك. قلت: وهو ظاهر اختيار ابن القيم.

---

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن أبي شيبة، والبخاري في خلق أفعال العباد...

[2] ابن أبي شيبة في المصنف ٥/٤٣-٤٤.

وقالت طائفة لا يجوز ذلك وبه قال ابن مسعود[1] وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم ﷺ وبه قال جماعة من التابعين منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد في روايه اختارها كثير من أصحابه وجزم بها المتأخرون واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه فإن ظاهره العموم لم يفرق بين التي في القرآن وغيرها بخلاف الرقى فقد فرق فيها ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم كما تقدم عن ابن مسعود".١

هذا اختلاف السلف في تعليق التّمائم من القرآن، فقد اختلفوا في هذا على قولين: منهم من أجاز، نظراً لأن هذا من القرآن، وهو كلام الله سبحانه وتعالى، والتداوي بكتاب الله والاستشفاء بكتاب الله مشروع، ٤ لعموم قوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولم يذكر الوسيلة التي نتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن، فدل على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءاً حسياً. ٥

ومنهم من منع هذا ولم يرخِّص فيه لعموم النهي عن التمائم. ٤

لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنك تقرأ على المريض به، فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد، فمعنى ذلك أننا فعلنا سبباً ليس مشروعاً [2]. ٥

وبناءً على ذلك اختلف الفقهاء من بعد الصحابة في هذه المسألة على قولين:

منهم من أجاز؛ أخذاً برأي من أجاز من الصحابة، ومنهم من منع.

والصحيح: الرأي الثاني وهو المنع، والشيخ عبد الرحمن بن حسن وقبله الشيخ سليمان بن عبد الله رجَّحا منعه. ٤

قال في فتح المجيد: "قلت: هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل:

الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم

الثاني: سد الذريعة، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

---

[1] ابن أبي شيبة في المصنف ٥/٤٣-٤٤

[2] أنظر: "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين"، (٥٨/١).

الثالث: أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك". ٢

وهو الصواب وعليه تدل الأدلة. ٦

وأما القياس على الرقية بذلك فقد يقال بالفرق فكيف يقاس التعليق الذي لا بد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على مالا يوجد ذلك فيه فهذا إلى الرقى المركبة من حق باطل أقرب. ١

والذين أجازوا –وهم أصحاب الرأي الأول– اشترطوا ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن تكون التَمِيمَة من القرآن.

الشرط الثاني: أن تكون مكتوبة باللفظ العربي، فلا تُكتب بلفظ أعجمي أو بخط لا يُقرأ.

الشرط الثالث: أن يعتقد أن الشفاء من الله لا من هذه التَمِيمَة، وإنما هذه التَمِيمَة سبب فقط.٤

هذا اختلاف العلماء في تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته فما ظنك بما حدث بعدهم من الرقى بأسماء الشياطين وغيرهم وتعليقها بل والتعلق عليهم والاستعاذة بهم والذبح لهم وسؤالهم كشف الضر وجلب الخير مما هو شرك محض وهو غالب على كثير من الناس إلا من سلم الله فتأمل ما ذكره النبي ﷺ وما كان عليه أصحابه والتابعون وما ذكره العلماء بعدهم في هذا الباب وغيره من أبواب الكتاب ثم انظر إلى ما حدث في الخلوف المتأخرة يتبين لك دين الرسول ﷺ وغربته الآن في كل شيء فالله المستعان. ١

وأما الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل على يده أو رقبته، ففيها خلاف بين العلماء.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث، فهو إهانة للقرآن الكريم، لأن هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعاً من التبرك فقط، مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل وصدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحجر: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأي رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"[1]. ٥

التفصيل في تفضيل القول الثاني

ومن المعلوم أن القاعدة أن السلف من الصحابة ومن بعدهم إذا اختلفوا في مسألة وجب الرجوع فيها إلى الدليل.

والدليل دلَّ على أن كل أنواع التمائم منهي عنها ((مَنْ تَعَلّقَ شيئاً وُكِلَ إليه))، إن التمائم شرك؛ ((إنّ الرّقَى وَالتّمائمَ وَالتّوَلَةَ شِرْك))، فمن تعلَّق القرآن؛ من علَّقه كان داخلا في المنهيِّ عنه؛ لكن لما كان معلِّقا للقرآن بأنه لم يشرك لأنه علق شيئاً من صفات الله جل وعلا وهو كلام الله جل وعلا، فما أشرك مخلوقاً؛ لأن الشرك معناه أن تُشرك مخلوقاً مع الله جل وعلا، والقرآن ليس بمخلوق؛ لأنه كلام الله جل وعلا منه بدأ وإليه يعود.

فإذن صار تعليق التميمة من القرآن خرجت؛ لأجل كون القرآن ليس بمخلوق من العموم، وهو قوله: إن التمائم شرك.

فبقي هل هي منهي عنها أم غير منهي عنها؟ قال عليه والسلام ((مَنْ تَعَلّقَ شيئاً وُكِلَ إليه)) ونهى عن التمائم بأنواعها، فدلَّ ذلك على أن تخصيص القرآن بالإذن من بين التمائم ومن بين ما يعلق يحتاج إلى دليل فيه؛ لأنّ إبقاء العموم على عمومه هذا إبقاء لدلالة ما أراد الشارع الدلالة عليه من الألفاظ اللغوية، والتخصيص نوع من أنواع التشريع لابد فيه من دليل واضح.

لهذا صارت الحجة مع من يجعل التمائم التي من القرآن مما لا يُرخص فيه كابن مسعود وكغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك هو قول عامة أهل العلم، وهو رواية عن الإمام أحمد اختارها المحققون من أصحابه، وعليها المذهب عند المتأخرين.

---

[1] البخاري: كتاب الحج/ باب تقبيل الحجر، ومسلم: كتاب الحج/ باب أصحاب تقبيل الحجر.

بقي أن نقول إن في إجازة اتخاذ التمائم من القرآن، إن في تجويزها مفاسد، وفي تجويز اتخاذ التمائم من القرآن أنواع من المنكر:

الأول: أنه إذا اتُّخذت التميمة من القرآن، فإننا إذا رأينا من عليه التميمة فسيشتبه علينا الأمر، هل هذه تميمة شركية أم من القرآن؟ وإذا ورد الاحتمال فإن المنكِر على الشركيات يضعف يقول احتمال أنها من القرآن، فإجازة تعليق التمائم من القرآن فيه إبقاء التمائم الشركية؛ لأن حقيقة التميمة التي تعلَّق أنها تكون مخفية غالبا في جلد، أو في نوع من القماش ونحو ذلك، فإذا رأينا صورة التعليق وقلنا هذا يحتمل أن يكون كذا، فإذا استفصلت منه وقلت له هل هذه تميمة شركية أو من القرآن، معلوم أن صاحب المنكر دائما سيختار أن تكون من القرآن حتى ينجو من الإنكار؛ لأنه يعتقد في هذه؛ يُريد أنه يسلم له تعليقها، فهذا من المفاسد العظيمة؛ أن في إبقائها إبقاء للتمائم الشركية، وفي النهي عنها سد لذريعة الإشراك بالتمائم الشركية، ولو لم يكن إلا هذا لكان كافياً.

الثاني: أن الجهلة من الناس إذا علقوا التمائم من القرآن فإنهم يتعلقون بها؛ يتعلق قلبهم بها، ولا تكون عندهم مجرد أسباب، وإنما تكون عندهم فيها خاصية من الخصائص التي تكون بنفسها يأتي بالشيء أو تدفع الشيء، وهذا الأشياء فتح لباب اعتقادات فاسدة على الناس يجب أيضاً وصده، ومن المعلوم أن الشريعة جاءت بسد الذرائع.

أيضاً من المفاسد المتحققة عامة في ذلك أنه إذا علق شيئاً من القرآن فإنه يمتهنه، ينام عليه أو يدخل به مواضع قذرة، أو يكون معه في حالات لا يكون من الحسن أن يكون معه قرآن فيها أو آيات، وهذا مما ينبغي اجتنابه وتركه.

إذن لم تتحصل أن تعليق التمائم بالدليل وبالتعليل لا يجوز، فما كان منها من القرآن فنقول يحرم على الصحيح ولا يجوز ويجب إنكاره، وما كان منها من غير القرآن وتعلَّق تمائم عامة فهذا نقول إنه من الشرك بالله لقول النبي ﷺ ((إنّ الرّقَى وَالتّمائمَ وَالتّوَلَةَ شِرْك))، والتخصيص نوع من العلم يجب أن يكون فيه دليل. ٣

ومنهم من منع ذلك وقال: لا يجوز تعليق القرآن للاستشفاء به، لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنك تقرأ على المريض به، فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد، فمعنى ذلك أننا فعلنا سبباً ليس مشروعاً [1]، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن ابن مسعود ﷺ.

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء، لكان انتفاء السببية على هذه الصورة أمراً ظاهراً، فإن التعليق ليس له علاقة بالمرضى، بخلاف النفث على مكان الألم، فإنه يتأثر بذلك.
ولهذا نقول: الأقرب أن يقال: إنه لا ينبغي أن تعلق الآيات للاستشفاء بها، لا سيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن، كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلاء، وأيضاً إذا علق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة، فمثلاً: علق آية الكرسي على صدره، وقال: ما دام أن آية الكرسي على صدري فلن أقرأها، فيستغني بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره.
وإن كان صبياً، فربما بال ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلق، وأيضاً لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء.

فالأقرب أن يقال: أنه لا يفعل، أما أن يصل إلى درجة التحريم، فأنا أتوقف فيه، لكن إذا تضمن محظوراً، فإنه محرماً بسبب ذلك المحظور. ٥

والرقى: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

قال الشيخ: "والرُّقى: هي التي تُسمى العزائم" الرُّقى: جمع رقية، والرُّقْيَة: القراءة على المريض. ويسميها العوام العزيمة. ٤
قوله: "التي تسمى العزائم". أي: في عرف الناس، وعزم عليه، أي: قرأ عليه، وهذه عزيمة: أي قراءة. ٥

[1] انظر: "مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين"، (٥٨/١).

قال الشيخ: "وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك" أي: الأشياء الخالية من الشرك، فهي جائزة، سواء كان مما ورد بلفظه مثل: ((اللهم رب الناس أذهب الباس، اشف أنت الشافي...))[1]، أو لم يرد بلفظه مثل: "اللهم عافه، الله اشفه"، ٥ استثناه من التحريم فهناك أدلة تفصِّل بأنه إن كانت الرُّقْية من القرآن أو من الأدعية المباحة فإنها ليست بشرك، بدليل أن النبي ﷺ رخّص في الرُّقْية من العين ومن الحُمَة كما جاء في حديث بُريدة بن الحُصين الذي سبق في "باب من حقق التّوحيد"، وكذلك النبي ﷺ رَقى المرضى، ورُقي ﷺ ؛ رَقاه جبريل، وكذلك لما جاءوا إلى النبي ﷺ يسألونه قالوا: كنا في الجاهلية لنا رُقى نرقي بها وأدوية نتداوى بها، قال ﷺ: ((اعرضوا علي رُقَاكُم، لا بأس بها ما لم تكن شركاً)). ٤

وإن كان فيها شرك، فإنها غير جائزة، مثل: "يا جني أنقذه، ويا فلان الميت اشفه"، ونحو ذلك ٥

قوله: "من العين والحمة"، سبق تعريفهما في باب من حقق التوحيد دخل الجنة. وظاهر كلام المؤلف: أن الدليل لم يرخص بجواز القراءة إلا في هذين الأمرين: "العين، والحمة"، لكن ورد بغيرهما، فقد كان النبي ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده [2]، وهذا من الرقية، وليس عيباً ولا حمة. ٥

وقوله: "فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة" الرُخصة عند الأصوليين:

ما ثبت على خلاف دليل شرعي لمعارض راجح، لأن الأحكام على قسمين: رُخصة، وعزيمة. فالشيء المستثنى من الممنوع بدليل يسمى: رُخصة، مثل: الأكل من الميتة، وقصر الصلاة للمسافر، هذا يسمى رخصة، كذلك الإفطار في نهار رمضان، كل هذه رُخص، رخّص فيها الشارع من أشياء كانت في الأصل ممنوعة، وذلك من أجل الرّحمة بالخلق، وكذلك الرقية في القرآن استثنيت من الرقى الممنوعة بقوله ﷺ: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك"، فهي رخصة. ٤

---

[1] البخاري: كتاب المرضى/ باب دعاء العائد للمريض، ومسلم: كتاب السلام/ باب استحباب رقية المريض.

[2] البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات، ومسلم: كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات والنفث.

شروط جواز الرقية:

الأول: أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنها تنفع بذاتها من دون الله، فهو محرم، بل شرك، بل يعتقد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله.

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع، كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك، فإنها محرمة، بل شرك.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة، فإنها لا تجوز.٥

والتولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وكذا قال غيره أيضاً.

وبهذا فسره ابن مسعود راوي الحديث كما في صحيح ابن حبان والحاكم، قالوا: "يا أبا عبدالرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناهما فما التولة؟ قال: "شيء يضعه النساء يتحببن إلى أزواجهن".[1]

قال الحافظ: "التولة بكسر المثناه وفتح الواو واللام مخففاً؛ شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله.[2]١

"يزعمون" أي: يكذبون، والزعم: الكذب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ [النساء:٦٠]، يعني: يكذبون في قولهم أنهم آمنوا.

هذا يسمونه: الصّرف والعطف، وهو سحر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، فهو سحر يفرّق ويَجْمع، لأنه عمل شيطاني، يعمل أشياء تنفِّر الإنسان من الإنسان، أو الرجل من زوجته، أو الزوجة من زوجها، وهو من عمل الشياطين. فالسحرة لما تقرّبوا من الشياطين وخدموهم وأشركوا بالله، فالشياطين في مقابل ذلك ساعدتهم في هذه الأمور. وهذا كثير في الناس، خصوصاً إذا ضعف في الإيمان،

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه ٦٣٠/٧ والحاكم في المستدرك ٤١٨/١

[2] فتح الباري ١٩٦/٦

وخصوصاً في البلاد التي لا يُعتنى فيها بأمر العقيدة، فإن السحر يُتخذ حِرْفَة ومهنة في بعض البلاد، ولكن من نعمة الله على هذه البلاد أن هذا الشيء لا يوجد فيها إلاَّ خُفية، لكنه يُطارد، وأهله -والحمد لله- أذِلاء. ٤

وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((يا رويفع لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه)). [1]

"رُوَيْفِع" هو رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- تولّى إمارة بُرْقة في عهد الخلفاء في مصر، وتوفي هناك ﵁، وقد طال عمره. ٤

هذا الحديث في باب ما جاء في الرقى والتمائم فيه ذكر تقلُّد الوتر وأنَّ محمدا عليه الصلاة والسلام بريء ممن تقلد وترا.

وقد مر معنا في أول الباب في حديث أبي بشير أن النبي ﷺ أرسل أن لا يبقين في عنق بعير قلادة من وتر أو قال قلادة إلا قُطعت. وهذا في معناه. ٣

قال: ((لعل الحياة ستطول بك)) هذا إخبار من النبي ﷺ أن رُوَيْفِعاً يعمّر، وقد عُمّر، ففيه: عَلَم من أعلام النبوة، وهو الإخبار عن شيء مستقبَل، ويقع كما أخبر به ﷺ، وهذا مما أطلعه الله تعالى عليه. ٤

هذا على سبيل الظن والرجاء وقد طالت به الحياة ومتع. ٦

((فأخبر الناس)) هذا فيه دليل على تبليغ العلم، ونشر العقيدة، والدعوة إليها، وإنكار الشرك، وأن الإنسان محمّل هذه الأمانة، لا يتخلى عنها، ويترك الناس يقعون في الشرك وفساد العقيدة، وهو ساكت، ثم يقول: اتركوا الناس مجتمعين، لا تفرقوا بين الناس، حاربوا الشيوعية وحاربوا المذاهب الهدّامة، واتركوا الشرك وهل هناك أشد من الشرك؟، الشرك هو أكبر المذاهب الهدّامة، وهذا القول يدسّه علينا الأعداء إما من اليهود والماسونية أو غيرهم، ويأخذه بعض المغرورين من شبابنا على أنه صحيح، وهو يقصد منه هدم الإسلام، وهدم العقيدة، لأنه إذا تُرك الشرك فسدت العقيدة. ٤

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند ١٠٨/٤، وأبو داوود في سننه رقم٣٦، والنسائي في سننه ١٣٥/٨، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٤٤٩١، والبيهقي في السنن الكبرى ١١٠/١، وغيرهم... وإسناده صحيح.١

قوله: ((فأخبر الناس)) دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصاً برويفع، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبو زرعة في شرح سنن أبي داود. ٢

قوله: ((أن من عقد لحيته)) اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

الثاني: الخوف من العين، لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك، فإن الرسول ﷺ بريء منه. ٥

عقد اللحية اختلف العلماء في تفسيره، منهم من قال: عقد اللحية عادة عند الفُرس، أنهم كانوا عند الحروب يعقدون لحاهم تكبّراً وتجبّراً، ونحن قد نهينا عن التشبّه بالكفّار.

والقول الثاني: المراد به عقد اللحية في الصلاة، لأن هذا من العبث في الصلاة، والحركة في الصلاة، وهذا مكروه في الصلاة، لأنه يدل على عدم الخشوع.

القول الثالث: أن المراد بعقد اللحية ما يفعله أهل الترف من تجعيد لحاهم وتحسينها وكدّها، حتى تتجعّد، يقصدون بها الجمال، فهذا يكون من الترف، نعم لا بأس أن اللحية تصلح وأنها تُنظّف، وأنها تُكرم لكن لا يصل هذا إلى حد الإسراف. ٤

جعدها ونفشها للتكبر والتعاظم، وقيل: أي صففها تصفيفاً يناسب ميوعة النساء وأهل التخنث.٦

أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التوضيع و التأنيث[1]. ١

أما العناية بها تسريحاً و تكريماً فهذا ليس منه. ٦

((أو تقلد وَتَراً)) يعني: جعل الوَتَر قلادة عليه، أو على دابته، أو على ولده من أجل أن يتّقي به العين والضرر، كما كانت الجاهلية تفعل. ٤

---

[1] معالم السنن ٢٤/١

وفي رواية محمد بن الربيع ((أو تقلد وتراً – يريد: تميمة)). ١

وهذا محل الشاهد في الحديث، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: "وإذا كان هذا فيمن تقلدوا وتراً، فكيف بمن تعلّق على الأموات يسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات؟؟؟!!". ٤

وقوله ((تقلَّد وتراً)) التقليد بالوتر هذا له مفهوم، وهو أنّ النهي ليس راجع إلى القلادة من حيث هي؛ بل إلى القلادة التي يُعتقد فيها أنها تدفع العين، وخصّ الوتر منها هنا لأنه كان أهل الجاهلية يقلدون الأوتار وينوطون بها بعض الخِرق أو بعض الشعر أو بعض العظام لكي تدفع العين عن الأبعرة، وأن مجرد التقليد فإن النبي ﷺ أشعر هديه وأيضاً فُتِلت له قلائد وعلق القلائد لبيان أن ما أرسله إلى مكة هدي.

فالتقليد هنا خُصّ بالوتر فيقال القلادة التي تجعل على الحيوان أو على غيره إذا كانت مما يعتقد فيها أو يختص بها الاعتقادات فإنه ينهى عنها، ولهذا قيدها في حديث أبي بشير الأول قال ((لاَ يَبْقَيَنّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِنْ وَتَرٍ)) و((مِنْ)) هاهنا بيانية، وكذلك هنا قال ((أو تقلَّد وتراً))، وهذا واضح المعنى من أنه جعل الوتر الذي قُلِّد تميمة. ٣

((أو استنجي)) الاستنجاء: إزالة أثر الخارج من السبيلين.

لأن الواجب أن الإنسان إذا قضى حاجته أن ينقي المخرج إما بماء وإما باستجمار بالحجارة، فإن جمع بينهما فهذا أفضل.

((برجيع دابة)) الرجيع روث الدواب، ((أو عظم، فإن محمداً ﷺ بريء منه)) وهذا وعيد شديد يدل على تحريم هذا الفعل، وهو الاستجمار بروث الدواب والعظام، لأن هاتين المادتين طعام الجن وطعام دوابهم فلا يلوثهما عليهم. ٤

فيه النهي عن الاستنجاء برجيع الدواب والعظام، وقد ورد بذلك أحاديث، منها ما في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا تستنجوا بالروث ولا العظام فإنه زاد إخوانكم من الجن))[1]. ١

---

[1] مسلم الصلاة (٤٥٠)، الترمذي الطهارة (١٨)، أحمد (٤٥٩/١).

جائت الأحاديث بالنهي عن الاستنجاء بهما لأنهما لا يطهران وفيه التشبه بالجاهلية. ٦
وعليه لا يجزئ الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد، لما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة: "أن النبي ﷺ ((نهى أن يستنجى بعظم أو روث، وقال: إنهما لا يطهران)).٢

قوله ((فإن محمداً بريءٌ منه)) وعيد شديد وليس معناه أنه مشرك. ٦
وقوله في ذلك ((فإن محمداً بريءٌ منه)) هذا من الألفاظ التي تدلّ أن الفعل من الكبائر؛ لأن من الأدلة على أن فعلاً ما من الكبائر أو عملاً ما أو قولاً ما من الكبائر أن يقال فيه: الله ورسوله منه بريئان، أو يتبرأ النبي ﷺ منه؛ لأن ذلك يدل على عِظم المعصية، والشرك الأصغر من الكبائر كما أن الشرك الأكبر من الكبائر، والكبائر العملية التي ليس معها اعتقاد -يعني كبائر من جهة العمل- كالزنى والسرقة وكشرب الخمر التي ليس معها اعتقاد، هذه من حيث الجنس أقل مرتبة من حيث جنس المحرم والكبيرة أقل مرتبة من الشرك الأصغر فضلا عن الشرك الأكبر، ولهذا نقول الشرك الأصغر اتخاذ التمائم أو نحو ذلك هذا جنسه أعظم -من حيث الذنب والكبيرة- من جنس الكبائر العملية التي لا يَصْحَب فاعلها حين فعلها اعتقاد؛ يعني أن يعتقد في شيء ما، نُريد بذلك تقييد ذلك بنحو الخمر والزنى وما أشبه ذلك وأكل الربا ونحوه. ٣

<u>وعن سعيد بن جبير رحمه الله، قال: "من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة" [رواه وكيع].</u>
أي: كان كمن أعتق رقبة من الرّق، والمناسبة أن اعتاق العبد فيه اعتاق من الرّق، وقطع التَمِيمَة فيه إعتاق من الشرك، لأن الشرك رِقّ للشيطان بدل الرّق للرحمن، ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يقول: هربوا من الرّق الذي خلقوا له ... فبُلُوا برق النفس والشيطان
يعني: هم أرقاء لله، عبيد لله، لكن لما أشركوا به صاروا عبيداً للشيطان، وعبيداً للنفس والهوى، فالإنسان خلق لعبادة الله، فإذا تركها صار عبداً للشيطان، فهو عبد ولا بد.
فالذي يزيل هذه الظاهرة الشركية عن مسلم يكون كمن أعتقه من الرّق في الأجر والثواب.

وسعيد بن جبير رحمه الله اعتبر الشرك رقًّا، من أزاله فكأنما أعتق هذا العبد من هذا الرِّق الذّليل المهين، وجعله حُرًّا من عبادة المخلوق، عبداً لله سبحانه وتعالى لا يعبد غيره، فعبادة الله جل وعلا هي الحرية الصحيحة، ليست الحرية أن الإنسان يشرك ويكفر ويعتقد ما شاء، كما يقولون: الناس أحرار في اعتقادهم لا بل الناس خلقوا لعبادة الله، وعبادة الله ليست من باب الذل والمهانة، وإنما هو من الإكرام، ومن الرِّفعة، وهذا شرف، والله جل وعلا أكرم نبيه بالعبودية له، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١]، فعبودية الله شرف، أما عبودية غيره فهي ذلّ ومهانة. ٤

هذا فيه فضيلة قطع التمائم؛ وذلك لأنها شرك بالله جل وعلا، والشرك الأصغر مدخل للنار من حيث الوعيد، والتوعد عليه بالنار جاء في نحو قوله جل وعلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ونحو قوله ((مَن ماتَ وهوَ يَدعو من دون اللهِ نِدّاً دخلَ النار))، وفي نحو قوله: ((مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ باللهِ شيئاً دَخَلَ النّارَ))، وإذا قطع التميمة من عنقه فهو في مقام إعتاق رقبة ذاك الذي قُطعت منه التميمة من النار؛ لأنه استوجب بذلك الفعل الوعيد بالنار فإذا قَطع تميمة فكان جزاءه من جنس فعله، فكما أنه أعتق رقبة هذا المسلم من النار فأُثيب بأن له مثل إعتاق رقبة. ٣

ووجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أنه إذا قطع التميمة من إنسان، فكأنه اعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن، لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن، كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة، فله أن يقطعها مباشرة. ٥

"رواه وكيع" ووكيع هو: وكيع بن الجراح، الإمام الجليل، روى عنه الإمام أحمد وغيره. ٤

وهذا القول من سعيد بن جبير محمول على أنه مما سمعه من الصحابة رضوان الله عليهم؛ لأن هذا مما لا يقال بالرأي، وإذا كان كذلك فله حكم المرسل، فيكون هذا مرسلاً؛ لأنه إذا كان مما يقال بالرأي لأن فيه فضيلة خاصة جعلها سعيد بن جبير لمن قطع تميمة من رقبة إنسان، فيكون ذلك من قبيل المرسل؛ يعني من قبيل المرفوع، وسعيد بن جبير تابعي من أصحاب بن

عباس فيكون مرسلاً، ففيه الكلام في حجية المرسل والإمام أحمد ومالك والشافعي يحتجون بالمرسل وكذلك الإمام أبو حنيفة يحتجون بالمرسل، منهم من يجعل له شروطا كالشافعي، ومنهم من يحتج بالمرسل إذا كان المعنى معروفاً في الباب، وهذا ما هو موجود هنا.

قال بعض أهل العلم قول التابعي في الأشياء التي لا تُدرك بالاجتهاد ولا يُناط بها الرأي يكون محمولاً على أنه قول صحابي؛ يعني أنه سمعه من الصحابي فيكون اجتهاد صحابي.

وهذا ليس يقول بأنه إذا كان محمولاً على أنه سمعه من الصحابي، فنقول الصحابي لا يقوله من جهة الرأي، فلا بد إذن أن يكون سمعه؛ لأن مثل هذا لا يدخل فيه الاجتهاد، والأول هو المعروف وأن هذه الصيغة من قبيل المرسل. ٣

هذا عند أهل العلم له حكم الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي، ويكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيداً تابعي. ١

ويحتمل أن يكون من اجتهاده وفقهه.

ولكن عند التحقيق والنظر هو أعظم من عتق الرقبة التي يكون بها الإنسان حراً، وتعليق التمائم من الشرك الأصغر وقد يكون خطره عظيم، وقد يجر إلى الشرك الأكبر. ٦

وله عن إبراهيم قال: "كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن".

"وعن إبراهيم" أي: عن إبراهيم النخعي، أحد الأئمة من التابعين. ٤

(كانوا) هذا يرجع إلى أصحاب ابن مسعود، إبراهيم النخعي أظنه لم يأخذ من ابن مسعود وإنما أخذ عن تلامذة ابن مسعود؛[1] فيعني بقوله كانوا يكرهون، أصحاب ابن مسعود كالأسود وعلقمة وكالربيع ابن خيثم وعبيدة السلماني ونحو هؤلاء. ٣

وقوله: "يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن" أي: كان كبار التابعين من أصحاب ابن مسعود لا يفصِّلون في التّمائم، بل كانوا يكرهونها عموماً، كما سبق أن الراجح هو: تحريم

---

[1] قال الشيخ عبد العزيز ابن باز في شرحه: ابراهيم بن يزيد النخعي من التابعين من أصحاب أصحاب ابن مسعود.

تعليق التّمائم، ولو كانت من القرآن؛ من أجل الأمور الثلاثة التي ذكرناها هناك. وقوله: "يكرهون" أي يحرمون، لأن الكراهة عند السلف يريدون بها التحريم.

فكلام إبراهيم هذا يؤيّد ترجيح المنع مطلقاً، ولأن هذا قول عبد الله بن مسعود، وتلاميذه من أئمة التابعين، أن التّمائم لا تفصيل فيها، حتى ولو كانت من القرآن، لا تُعلّق على الرِّقاب على شكل حُروز، أو على شكل رقاع، أو على شكل أكياس تعبّأ بالأوراق المكتوب فيها ويسمونها خطوطاً، أو عزائم، هذا لا يجوز وإن كان من القرآن، ولا تعلّق على السيارات أو الجدران لأن هذا وسيلة إلى الشرك، ولأنه لم يرد دليل على جوازه، ولأنه تعريض للقرآن للامتهان والابتذال كما سبق.

وفي هذا دليل على بعد السلف عما يخدش العقيدة. ٤

[الأسئلة]

س/ هذا أيضاً يسأل يقول: ما حكم من يضع آية الكرسي في السيارة، أو يضع مجسم فيه أدعية، أدعية ركوب السيارة أو أدعية السفر وغيرها من الأدعية؟

ج/ نقول: هذا فيه تفصيل:

فإن كان وضع هذه الأشياء ليتحفظها ويتذكر قراءتها فهذا جائز، كمن يضع المصحف أمام السيارة أو يضعه معه لأجل أنه إذا كانت فرصة هو أو من معه أن يقرأ فيه، فهذا جائز لا بأس به.

لكن إن وضعها تعلقا لأجل أن تدفع عنه فهذا هو الكلام في مسألة تعليق التمائم من القرآن فلا يجوز ذلك على الصحيح ويحرم.

س/ ما رأي فضيلتكم ببعض الأواني التي يكتب عليها بعض الآيات، والتي تباع في بعض المحلات التجارية؟

ج/ هذه الأواني يختلف حالها:

إن كان يستخدمها؛ لأجل أن يتبرك بما كتب فيها من الآيات فيجعل فيها ماء ويشربه؛ لأجل أن الماء يلامس هذه الآيات، فهذا من الرقية غير المشروعة؛ لأن الرقية المشروعة ما

كانت الآيات في الماء، وهذه الآيات لم تنحلَّ في الماء؛ لأنها من معدن أو من نحاس، والتصاق الماء بتلك الكتابات آيات أو أدعية لا يجعل الماء بذلك مباركاً أو مقروءاً فيه، فإذا أُتخذت لذلك فهذا من الرقية غير المشروعة.

وأما إذا أخذها للزينة أو لجعلها في البيت أو لتعليقها فهذا كرهه كثير من أهل العلم؛ لأن القرآن ما نزل لتزيَّن به الأواني أو تزين به الحيطان، وإنما نزل للهداية ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

س/ بعض الناس يضع المصحف في درج السيارة وذلك بقصد أن للمصحف أثر في رد العين والبلاء نرجو التوضيح؟

ج/ إذا كان يقصد من وضع المصحف في درج السيارة أو على طبلون السيارة الإمامي أو خلف السيارة أن يدفع عنه وجود المصحف العين، فهذا من اتخاذ المصحف تميمة، وقد مرّ معكم بالأمس حكم التمائم من القرآن، وأن الصحيح لا يجوز أن يجعل القرآن تميمة ولا أن يجعل القرآن لوجوده يعني المصحف دافعاً للعين؛ لكن الذي يدفع العين قراءة القرآن والأدعية المشروعة والاستعاذة بالله جل وعلا ونحو ذلك مما جاء في الرقية.

فتحصَّل على أن وضع القرآن لهذه الغاية داخل في المنهي عنه، وهو من اتخاذ التمائم من القرآن، لما كان القرآن غير مخلوق وهو كلام الله جل وعلا لم تصر هذه التميمة شركية، وإنما يُنهى عنها لأن النبي ﷺ لم يستعمل هذا ولم يجعل في عنق أحد من الصحابة لا الصغار ولا الكبار، ولا أذِنَ ولا وجّه بأن يُجعل القرآن في شيء من صدورهم أو في عضد أحدهم أو في بطنه، ومعلوم أن مثل هذا لو كان دواءً مشروعاً أو رقية سائغة أو تميمة مأذون بها لرُخِّص فيها، سيما مع شدة حاجة الصحابة إلى ذلك.

وتعليق القرآن أيسر من البحث عن راق يرقي ويطلب منه وربما يكافَأ على رقيته، فلما كان هذا أيسر والنبي ﷺ لم يرشدهم إلى الأيسر وقد بعث ميسراً، عُلم مع ضميمة الأدلة التي ذكرتها لكم بالأمس أنَّ هذا من جنس غير المشروع. والله أعلم.

[س/ ما حكم من يضع على السيارات أو المنازل عبارات مثل ما شاء الله أو تبارك الله أو هذا من فضل ربي؟

ج/ هذا له نفس حكم تعليق بعض الآي أو الآي على الحيطان أو في السيارات أو نحو ذلك.

فإن كان المقصود منها الإرشاد إلى عمل شرعي مسنون فهذا مشروع أو مباح.

وأما إن كان القصد منها الحِفظ أن تحفظه وأن تحرسه من العين أو من الأذى فهذا راجع إلى اتخاذ التمائم من القرآن ونحوه.] [1]

[س/ بعض أصحاب السيارات الخاصة [كالليموزين] وسيارات النقل الكبيرة يضعون على أطراف السيارة خرقاً سوداء اعتقادا منهم بأنها حروز تمنعهم الحوادث، فهل نقوم بنزعها أم ماذا نفعل؟

ج/ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أمّا بعد:

إذا كان الأمر كما وصفه السائل من جهة وضع تلك الشارات أو الخرق ومن جهة اعتقاد أهلها فيها فيجب نزعها، ومن نزعها فله فضل نزع التمائم من أماكنها، أو تخليص أصحابها منها؛ لكن هذا متوقف على أن يعلم أنهم وضعوها لهذا الغرض، فإن وضع الشارات لمثل هذا الغرض غير معروف أنه لأجل دفع التمائم، فإذا كان بعض الناس يستعملها لدفع الشر ويستعملها لأنها تمائم، فهذه يجب نزعها، ومن رآها لا يحل له أن يتعداها حتى ينزعها لأنها اعتقاد في غير الله ولأنها نوع من أنواع المنكر واعتقاد ذلك فيها كبيرة من الكبائر وشرك أصغر بالله جل وعلا][2]. ٣

---

[1] مأخوذ من الوجه الثاني للشريط السابع من باب الشفاعة.

[2] مأخوذ من الوجه الأول من الشريط الثامن.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقي والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين، من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقي والتمائم.

الثانية: تفسير التولة. وقد سبق ذلك، وعندي أن منها ما يسمى بالدبلة إن اعتقدوا إنها صلة بين المرء وزوجته. ٥

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر، لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقى ويرقى، ولكنه لا يسترقي، أي: لا يطلب الرقية، فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر، وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم، فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضاً. وأما على رأي ابن مسعود، فصحيح، وبالنسبة للتولة، فهي شرك بدون استثناء. ٥

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

قوله: (الكلام الحق)، ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل.

والمؤلف رحمه الله تعالى خصص العين أو الحمة فقط استناداً لقول الرسول ﷺ: ((لا رقية إلى من عين أو حمة))، ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما، كالسحر. ٥

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟.

قوله: "ذلك" المشار إليه: التمائم المحرمة.

وقد سبق بيان هذا الخلاف، والأحوط مذهب ابن مسعود، لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة. ٥

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين، من ذلك.

أي: من الشرك.

(تنبيه):

ظهر في الأسواق في الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنها تنفع من الروماتيزم، يزعمون الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح، لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلك، وهي لا تؤثر على الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها، فالأصل أنها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها. ٥

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وتراً، بل ظاهره أنه كفر مخرج من الملة، قال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، لكن قال أهل العلم: إن البراءة هنا براءة من هذا الفعل، كقوله ﷺ: ((من غشنا، فليس منا))[١]. ٥

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

لقول سعيد بن جبير: "كان كعدل رقبة"، ولكن هل قوله حجة أم لا؟.

---

[١] مسلم: كتاب الإيمان/ باب قول النبي ﷺ: ((من غشنا فليس منا)).

إن قيل: ليس بحجة، فكيف يقول المؤلف: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؟!

فيقال: أنه إنما كان كذلك، لأنه إنقاذ له من رق الشرك، فهو كمن أعتقه، بل أبلغ.

فهو من باب القياس، فمن أنقذ نفساً من الشرك، فهو كمن أنقذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

فائدة:

إذا قال التابعي: من السنة كذا، فهل يعتبر موقوفاً متصلاً ويكون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعاً مرسلاً؟

اختلف أهل العلم في هذا، فبعضهم قال: إنه يكون موقوفاً.

وبعضهم قال: يكون مرفوعاً مرسلاً.

وتقدم لنا أنه ينبغي أن يفصل في هذا، وإن التابعي إذا قاله محتجاً به، فإنه يكون مرفوعاً مرسلاً، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج، فهذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي. ٥

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً. ٥

(بَابُ مَنْ تبَرَّكَ بِشَجَرةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا)

(بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)﴾ [النجم] الْآيَاتُ.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ أجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((اللَّهُ أَكْبَرُ! إنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ .كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)). رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ.

هذا الباب مكمِّلٌ للأبواب التي قبله، لأن الأبواب التي قبله في لبس الحلْقة والخيط ونحوهما، أو تعليق الرُّقى والتّمائم، وهذا فيه النهي عن التبرّك بالأشجار والأحجار، فهذه الأبواب كلها مؤدّاها الاعتقاد بغير الله سبحانه وتعالى أنه يضر أو ينفع، وهذا شرك، لأن الذي يقدر على دفع الضر وجلب النفع هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، هو القادر سبحانه وتعالى على ذلك، لا يشاركه أحد، وإن كان هناك أشياء يترتّب على استعمالها أو أكلها أو شُربها ضرر، أو يترتّب عليه نفع؛ فهذه أسباب فقط، أما الذي يخلق ذلك فهو الله سبحانه.

مثلاً: الأكل والشرب من الطيبات هذا فيه نفع، لكن ليس الأكل والشرب هو الذي يخلق النفع، إنما الذي يخلق النفع هو الله سبحانه وتعالى.

مثلاً: السُّم يقتل، والنار تُحرق، لكن ليست هي التي تفعل هذه الأشياء، لأنها مخلوقات لله سبحانه وتعالى، ولكنها أسباب، يقدِر القادر سبحانه أن يسلبها هذه الخاصيات، كما سلب النار الحرارة لما أُلقي فيها إبراهيم، وصارت برداً وسلاماً، فدلّ على أنها لا تستقل بالضرر.

وقوله: "باب من تبرّك" أي: طلب البركة، وهي حصول الخير ونماؤه وثبوته وكثرته.

"بحَجَر أو شجر" أي: طلب البركة من حَجَر أو من شجر، أو اعتقد أنها سبب للبركة وهي لم يجعلها الله أسباباً لها فقد أشرك بالله سبحانه وتعالى، لأن الحجر والشجر لا يخلق البركة ولا يوجدها، ولا هو مسبب في حصولها إلاَّ ما جعله سبباً في حصولها وإنما الذي يوجدها هو الله سبحانه وتعالى، وهو سبب الأسباب نعم قد يجعل الله بعض الأشياء مباركة، مثل: ماء زمزم، ومثل: الأنبياء عليهم السلام، ومثل: الكعبة المشرفة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مباركاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران:٩٦]، فالله هو الذي جعل الكعبة مباركة، أما الكعبة فليست هي التي تُوجِد البركة، أو تخلق البركة، لكن الله جعلها مباركة، فالبركة من الله سبحانه وتعالى وبركتها بالحج والعمرة واستقبالها في الصلاة والطواف بها والتعبد عندها في المسجد الحرام.

وقد يجعل الله بعض الأشياء مباركة، كما أن الله يجعل بعض الأشياء شرّيرة، فقد جعل الشياطين شرّيرة، وجعل بعض الدواب شرّيرة، فالاعتماد على الله سبحانه وتعالى في كل الأمور، وإنما نتخذ الأسباب لأن الله أمرنا باتخاذ الأسباب، وأما النتائج فهي عند الله سبحانه وتعالى، نحن لا نعتمد على الأسباب، وإنما نعتمد على الله، ونحن لا نعطّل الأسباب، لأن الله أمرنا باتخاذها، وتعطيل الأسباب عجز وتعطيل للمنافع، التي جعلها الله سبحانه وتعالى في الأشياء، كما قال بعض العلماء: "الاعتماد على السبب شرك، وترك السبب قدح في الشرع" لأن الشرع أمرك باتخاذ الأسباب، و"الاعتماد على الأسباب شرك" لأنه اعتماد على غير الله.

فهذه مسألة يجب على طالب العلم أن يفقهها وأن يعرفها، وأن يتأملها جيداً، وأن يوضحها للمسلمين، لإزاحة الشُّبُهات، وإزاحة التضليل الذي يَرُوج عند بعض الناس بسبب الجهل، أو بسبب سوء القصد. ٤

(باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) يعني ما حكمه؟ ٣

وترك الحكم ليأخذه الطالب مما ذكره من النصوص. والحكم هو أنه قد أشرك لما سيذكره المؤلف. ٦

الجواب هو مشرك؛ يعني: باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فهو مشرك.

وقوله (من تبرَّك)، التبرك: تفعُّلٌ من البركة، وهو طلب البركة، والبركة مأخوذة من حيث الاشتقاق من مادة بُرُوك أو من كلمة بِرْكة.

أما البروك فبروك البعير يدلّ على ملازمته وثبوته في ذلك المكان.

والبِرْكة وهي مجمتع الماء يدل على كثرة الماء في هذا الموضع وعلى لزومه له وعلى ثباته في هذا الموضع.

فيكون إذا معنى البركة كثرة الشيء الذي فيه الخير وثباته ولزومه.

فالتبرك: هو طلب الخير الكثير وطلب ثباته وطلب لزومه، تبرَّك يعني طلب البركة، والنصوص في القرآن والسنة دلّت على أنَّ البركة من الله جل وعلا، وأن الخلق لا أحد يبارك أحداً وإنما هو جل وعلا يبارك قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]؛ يعني عَظُم خير من نزل الفرقان على عبده وكثر ودام وثبت، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وقال سبحانه: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ [الصافات:١١٣]، وقال ﴿وَجَعَلَنِي مباركاً﴾ [مريم:١٣١]، فالذي يُبارك هو الله جل وعلا، فلا يجوز للمخلوق أن يقول باركتُ على الشيء أو أبارك فعلكم؛ لأن لفظ البركة ومعنى البركة، إنما من الله؛ لأن الخير كثرته وثباته ولزومه إنما هو من الذي بيده الأمر.

والنصوص في الكتاب والسنة دلت على أن البركة التي أعطاها الله جل وعلا بالأشياء:

- إمّا تكون الأشياء هذه أمكنة أو أزمنة.
- وإمّا أن تكون تلك الأشياء من بني آدم؛ يعني مخلوقات آدمية.

أمَّا الأمكنة والأزمنة: فظاهر أن الله جل وعلا حين بارك بعض الأماكن كبيت الله الحرام، وكما حول بيت المقدس ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١]، بالأرض المباركة ونحو ذلك، أنّ معنى أنها المباركة أن يكون فيها الخير الكثير اللازم الدائم لها، ليكون ذلك أشجع في أن يلازمها أهلُها الذين دُعوا إليها.

وهذا لا يعني أن يُتمسح بأرضها، أو أن يُتمسح بحيطانها، فهذه بركة لازمة لا تنتقل بالذات؛ فبركة الأماكن أو بركة الأرض ونحو ذلك هي بركة لا تنتقل بالذات؛ يعني إذا لمست الأرض أو دفنت فيها أو تبركت بها فإن البركة لا تنتقل بالذات، وإنما الأرض المباركة من جهة المعنى.
كذلك بيت الله الحرام هو مبارَك لا من جهة ذاته؛ يعني أن يُتمسح به فتنتقل البركة، وإنما هو مبارك من جهة ذاته من جهة المعنى؛ يعني اجتمعت فيه البركة التي جعلها الله في هذه البِنية من جهة تعلق القلوب بها وكثرة الخير الذي يكون لمن أرادها وأتاها وطاف بها وتعبَّد عندها.
حتى الحجر الأسود هو حجر مبارَك، ولكن بركته لأجل العبادة؛ يعني أنه من استلمه تعبُّداً مطيعاً للنبي ﷺ في استلامه له وفي تقبيله فإنه يناله به بركة الإتباع، وقد قال عمر رضي الله عنه لمّا قبّل الحجر: "إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر" -قوله (لا تنفع ولا تضر) يعني لا ينقل لأحد شيء من النفع ولا يدفع عن أحد شيء من الضر - ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. هذا من جهة الأمكنة.
وأمّا الأزمنة: فمعنى كون الزمان مباركاً مثل شهر رمضان أو بعض أيام الله الفاضلة؛ يعني أن من تعبد فيها ورَامَ الخير فيها، فإنه يناله من كثرة الثواب ما لا يناله في ذلك الزمان.
والقسم الثاني البركة المنوطة ببني آدم: والبركة التي جعلها الله جل وعلا في الناس إنما هي بركة فيمن آمن؛ لأن البركة من الله جل وعلا، وجعل بركته للمؤمنين به، وسادة المؤمنين هم الأنبياء والرسل، والأنبياء والرسل بركتهم بركة ذاتية؛ يعني أن أجسامهم مباركة، فالله جل وعلا جعل جسد آدم مباركاً، وجعل جسد إبراهيم عليه السلام مباركاً، وجعل جسد نوح مباركاً، وهكذا جسد عيسى وموسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام، جعل أجسادهم مباركة؛ بمعنى أنه لو تبرك أحد من أقوامهم بأجسادهم إما بالتمسح بها أو بأخذ عَرَقها أو بأخذ بعض الشعر فهذا جائز؛ لأن الله جعل أجسادهم مباركة.

وهكذا النبي ﷺ محمد بن عبد الله جسده أيضاً جسد مبارك، ولهذا جاءت الأدلة في السنة أن الصحابة كانوا يتبركون بعرقه، يتبركون بشعره، وإذا توضأ اقتتلوا على وَضوئه، وهكذا في أشياء شتى.

ذلك لأن أجساد الأنبياء فيها بركة ذاتية يمكن معها نقل أثر هذه البركة أو نقل البركة والفضل والخير من أجسادهم إلى غيرهم.

وهذا مخصوص بالأنبياء والرسل، أما غيرهم فلم يرد دليل على أنّ ثَم من أصحاب الأنبياء من بركتهم بركة ذاتية، حتى أفضل هذه الأمة أبو بكر وعمر فقد جاء بالتواتر القطعي أنَّ الصحابة والتابعين والمخضرمين لم يكونوا يتبركون بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بجنس تبركهم بالنبي ﷺ بالتبرك بالشعر أو بالوضوء أو بالنُّخامة أو بالعَرَق أو بالملابس ونحو ذلك.

فعلمنا من ذلك التواتر القطعي أنّ بركة أبي بكر وعمر إنما هي بركة عمل، ليست بركة ذات تنتقل كما هي بركة النبي ﷺ.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: ((إنّ منَ الشجَر لما بَرَكتُه كبركةِ المسلم))، فدلّ على أن في كل مسلم بركة، وأيضاً فيه يعني في البخاري قال أحد الصحابة: ما هذه بأَوّلِ برَكَتِكمْ يا آلَ أبي بكرٍ. هذه البركة التي أُضيفت لكل مسلم وأضيفت لآل أبي بكر بركة عمل، هذه البركة راجعة إلى الإيمان وإلى العلم والدعوة والعمل.

فنقول: كل مسلم فيه بركة، هذه البركة ليست بركة ذات، وإنما هي بركة عمل، بركة ما معه من الإسلام والإيمان وما في قلبه من والإيقان والتعظيم لله جل وعلا والإجلال له، والإتباع لرسوله ﷺ.

هذه البركة بركة العلم أو بركة العمل أو بركة الصلاح لا تنتقل، وبالتالي يكون التبرك بأهل الصلاح هو الإقتداء بهم في صلاحهم؛ التبرك بأهل العلم هو الأخذ من علمهم والاستفادة من علومهم، وهكذا، ولا يجوز أن يُتبرك بهم بمعنى يتمسح بهم أو يُتبرك بريقهم؛ لأن أهل

الخلق من هذه الأمة لم يفعلوا ذلك مع خير هذه الأمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وهذا أمر مقطوع به.

تبرّك المشركين أنهم كانوا يرجون كثرة الخير ودوام الخير ولزوم الخير وثبات الخير بالتوجه إلى الآلهة، وهذه الآلهة:

- يكون منها الصنم الذي من الحجارة.
- ويكون منها القبر من التراب.
- ويكون منها الوثن.
- ويكون منها الشجر.
- ويكون منها البقاع المختلفة؛ غار أو عين ماء أو نحو ذلك.

هذه تبركات مختلفة جميعها تبركات شركية، ولهذا جاء الشيخ رحمه الله قال (بابُ من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما)...

الشجر جمع شجرة والشجر معروف والحجر معروف، ذلك أن المشركين كانوا يتبركون بالأشجار والأحجار، حتى في أول الدعوة في هذه البلاد كانت الأشجار كثيرة التي يتبرك بها الأحجار كثيرة. ٣

ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها. ٥

"وحجر"، اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس، فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد الله بمسحه وتقبيله، اتباعاً للرسول ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك، ما قبلتك".

فتقبيله عبادة محضة خلافاً للعامة، يظنون أن به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركاً بذلك. ٥

قال (ونحوهما) يعني نحو الشجر والحجر مثل البقاع المختلفة أو غار معين أو قبر معين أو عين ما أو نحو ذلك من الأشياء التي يَعتقد فيها أهل الجهالة. ٣

قوله: "ونحوهما"، أي: من البيوت، والقباب، والحجر، حتى حجرة قبر النبي ﷺ، فلا يتمسح بها تبركاً، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا، فلا بأس، إلا إن خشي أن يقتدى به، فلا يمسحه. ٥

ما حكمه؟ الجواب: أنه مشرك كما صرّح به الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه فتح المجيد.

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فهو مشرك.

الشراح في هذا الموضع لم يُفصحوا هل المتبرك بالشجر والحجر شرك أكبر؟ أو شرك أصغر؟ وإنما أدار المعنى الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير بعد أن ساق تفسير آية النجم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:١٩]، قال في آخره: مناسبة الآية للترجمة أنه إن كان إن كان التبرك شركاً أكبر فظاهر، وإن كان شركاً أصغر فالسلف يستدلون بالآيات التي نزلت في الأكبر على الأصغر.

وتحقيق هذا المقام: أن التبرك بالشجر أو الحجر أو بالقبر أو ببقاع مختلفة قد يكون شركاً أكبر وقد يكون شركاً أصغر:

- يكون شركاً أكبر: إذا طلب بركتها معتقداً أن هذا الشجر أو الحجر أو القبر إذا تمسح به أو تمرَّغ عليه أو التصق به يتوسط له عند الله، فإذا اعتقد فيه أنه وسيلة إلى الله، فهذا اتخاذ إله مع الله جل وعلا وشرك أكبر، وهذا هو الذي كان يزعمه أهل الجاهلية للأحجار والأشجار التي يعبدونها، وبالقبور التي يتبركون بها، يعتقدون أنهم إذا عكفوا عندها وتمسحوا بها وبالقبور أو تثروا التراب عليها فإن هذه البقعة أو صاحب هذه البقعة أو الرَّوحانية؛ الروح التي تخدم هذه البقعة أنه يتوسط له عند الله جل وعلا، فهذا راجع إلى اتخاذ أنداد مع الله جل وعلا، قد قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

- ويكون التبرك شركاً أصغر: إذا كان هذا التبرك بنثر التراب عليه، أو إلصاق الجسم بذلك، أو التبرك بعين ونحوها، إذا كان من جهة أنه جعله سبباً لحصول البركة، بدون اعتقاد أنه يوصل إلى الله؛ يعني جعله مثل ما يجعل لابس التميمة أو لابس الحلقة أو لابس الخيط، جعل تلك الأشياء سبباً، فإذا أخذ تراب القبر ونثره عليه لاعتقاده أن هذا التراب مبارك وإذا لامس جسمه فإن جسمه يتبارك من جهة السببية فهذا شرك أصغر؛ لأنه ما صرف عبادة لغير الله جل وعلا، وإنما اعتقد ما ليس سبباً مأذونا به شرعاً سبباً.

وأما إذا تمسح بها -كما هي الحال الأولى- تمسح بها وتمرغ بها والتصق بها لتوصله إلى الله جل وعلا، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة، ولهذا قال الشيخ سليمان -كما ذكرت لك-:

- إن كان الشرك شركاً أكبر فظاهر بالاستدلال بالآية.

- وإن كان شركاً أصغر فالسلف يستدلون بما نزل في الأكبر على ما يريدون من الاستدلال في مسائل الشرك الأصغر. ٣

والتبرك طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١- أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن، قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مباركاً﴾ [ص: ٢٩]، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمماً كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢- أن يكون بأمر حسي معلوم، مثل: التعليم، والدعاء، ونحو، فهذا الرجل يتبرك بعمله ودعوته إلى الخير، فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيراً كثيراً.

وقال أسيد بن حضير: "ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر" [١]، فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر.

وهناك بركات موهومة باطلة، مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلاناً الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك، فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنا لا تعدو أن تكون آثاراً حسية، بحيث أن الشيطان يخدم هذا الشيخ، فيكون في ذلك فتنة.

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيح، فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة، فإن الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته.

---

[١] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قولهﷺ: "لو كنت متخذاً خليلاً"، ومسلم: كتاب الحيض/ باب التيمم.

أما إن كان مخالفاً للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل، فإن بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أن يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه[1]. ٥

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:١٩] الآيات.

هذه الآيات في تقرير التّوحيد وتثبيت العقيدة في قلوب المؤمنين، والرد على المشركين.

يقول الله تعالى للمشركين الذي يعبدون الأصنام، وفي مقدمتها الأصنام الثلاثة المشهورة عند العرب: اللات والعُزَّى ومَنَاة، هل تنفع هذه الأصنام أو تضر؟، فيقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩)﴾ [النجم:١٩] هل نفعتكم؟، هل دفعت عنكم الضرر؟، هل جلبت لكم شيئاً من الرزق؟، فلا يستطيعون الجواب بأنها تضر أو تنفع، لم تنفعهم في بدر وغيرها من الغزوات، ولم تدفع عنهم ما أوقع الله بهم من الهزائم، ما أجابوا عن هذا السؤال العظيم؛ فدلّ على انقطاع حجتهم.

وهكذا في كل أسئلة القرآن الكريم التي هي من باب التحدِّي والتعجيز، لم يصدر لها جواب من قبل المشركين، ولن يصدر لها جواب إلى أن تقوم الساعة. ٤

ذكر صفة هذه الأوثان

ليعرف المؤمن كيفية الأوثان وكيفية عبادتها وما هو شرك العرب الذين كانوا يفعلونه حتى يفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر. ١

(اللَّاتَ) هذه صخرة بيضاء عند أهل الطائف، وما هُدمت إلاّ بعد أن أسلمت ثقيف؛ أرسل لها النبي ﷺ المغيرة بن شعبة فهدَمَها وكسّرها، وكان عليها بيت ولها سدنة ولها خدم.

المقصود أن (اللَّاتَ) صخرة وصفت أنها بيضاء. ٣

[1] "مجموع الفتاوى" (٨٣/١).

قال ابن كثير: "اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار". ٢

(اللَّاتَ)

وفي تفسيرها قولان لأهل العلم: ٤

قرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب بتشديد التاء. ٢

القول الأول: أنها بالتخفيف، وهو اسم حجر كبير أملس عليه نقوش، كانوا يتبرّكون به، ويطلبون منه قضاء حاجتهم، وتفريج كرباتهم. ٤

وأما على قراءة التخفيف، فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإله، فهم اشتقوا من أسماء الله اسماً لهذا الصنم، وسموه اللات. ٥

والقول الثاني: أنه بالتشدّيد اسم فاعل من لَتَّ يَلُتُّ: وهو في الأصل رجل صالح، كان يَلُتُّ السّويق للحجاج، وكان يُطعم الحجّاج من هذا الطعام تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى، فلما مات عَكَفُوا على قبره يتبرّكون به، كما حصل لقوم نوح لما غَلَوْ في الصالحين. ٤

وفي قراءة ابن عباس وغيره من السلف قرؤوها (اللَّاتَّ)، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاتَّ﴾، واللاتَّ هذا رجل كان يلتُّ السويق، وكان يعطيهم السويق:

- في رواية على صخرة، فعظموا تلك الصخرة. ٣ قال ابن عباس: "كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويلته عليها فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق"[1]. ١ وعن مجاهد نحوه وقال: "فلما مات عَبَدُوه" رواه سعيد بن منصور. وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس "أنهم عبدوه" وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم.٢

[1] تفسير البغوي، وتفسير القرطبي والدر المنثور ٦٥٣/٧

– وفي رواية أخرى –يعني على السلف– أنه كان يلتُّ لهم السويق فلما مات عكفوا على قبره.٣
قال ابن عباس: "كان رجلاً يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره". [١] ١
فتحصَّل من هذا أن اللاتَ صخرة، وإذا قُرئت اللاتَّ فيكون قبر أو صخرة كان يتعبد عندها ويتصدق ذاك الذي كان يلتّ السويق. ٣
قلت: لا منافاة بين القولين؛ فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تإليهاً وتعظيماً. ٢
فإن من قال إنها صخرة لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حوإليه فعظمت وعبدت تبعاً لا قصداً فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر فهو الذي عبدوه بالأصالة يدل على ذلك ما روى الفاكهي عن ابن عباس "أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتا" [٢].١
ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً .
وفيه: بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام. ٢
و(الْعُزَّى) شجرة كانت بين مكة والطائف، وكانت في الأصل شجرة ثم بني بناء على ثلاث سَمُرَات، وكان هناك لها سدنة وكانت امرأة كاهنة هي التي كانت تخدم ذلك الشرك، ولما فتح النبي ﷺ مكة أرسل إليها خالد بن الوليد فقطع الأشجار الثلاث؛ السمرات الثلاث، وقتل من قتل ولماّ رجع وأخبر النبي ﷺ، قال له ((ارجع فإنك لم تصنع شيئاً))، فرجع فرآه السدنة ففروا إلى الجبل، ثم رأى امرأة ناشرة شعرها عُريانة –هي الكاهنة التي كانت تخدم ذلك الشرك وتُحضر الجن لإضلال الناس في ذلك الموضع–، فرآها فعلاها بالسيف حتى قتلها، فرجع إلى النبي ﷺ قال ((تلك العُزَّى)).
المقصود أن العزى اسم لشجرة كانت في ذلك الموضع، وفي الحقيقة تعلق الناس كان بتلك الشجرة وبالمرأة التي كانت تخدم ذلك الشرك، فلو قُطعت الأشجار وبقيت المرأة فإن المرأة

---

[١] رواه البخاري في صحيحه ١٨٤١/٤

[٢] أخبار مكة للفاكهي ١٦٤/٥، وانظر فتح الباري ٦١٢/٨

ستغري الناس مرة أخرى بما تذكره لهم أو ما تحكيه لهم أو ما تجيب به مطلبهم عن طريق الجن، فيكون الشرك ما انقطع، ولهذا قال النبي ﷺ ((تلك العُزّى)). يعني في الحقيقة هي المرأة التي تغري الناس بذلك وإلاّ فهي شجرة. ٣

والواقع أن المشركين ليست عبادتهم لهذه الأصنام، وإنما عبادتهم للشياطين، فالشياطين هي التي تُغريهم، وتدعوهم إلى عبادتها، وهي التي تكلّمهم أحياناً، ويظنون أن الصنم هو الذي يتكلم، أو أن الميت هو الذي يتكلم. ٤

قال أبو صالح: "العزى: نخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن" رواه عبد بن حميد وابن جرير. فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن ووازن بينه وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها والذبح عندها وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق في ضرائح الأموات ونحو ذلك فالله المستعان. ١

أما ﴿وَمَنَاةَ﴾ فهي صنم قريب من المدينة، وكانت لقبائل من العرب. وكانوا يُحْرِمُون من عندها للحج والعمرة. ٤

(مَنَاة) هذه أيضاً صخرة، سُميت (مَنَاة) لكثرة ما يُمْنى عليها من دماء تعظيماً لها. ٣

(الْأُخْرَى) يعني الوضيعة الحقيرة، ٣

قوله: (الثالثة الأخرى)، إشارة إلى أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها: أنها أخرى بمعنى متأخرة، أي: ذميمة حقيرة، مأخوذة من قولهم: فلا أخر، أي: ذميم، حقير، متأخر. ٥

ولما فتح النبي ﷺ مكة أرسل إلى مَنَاة علي بن أبي طالب ﵁ فهدمها.

فأين ذهبت هذه الأصنام؟، لو كانت آلهة لدفعت عن نفسها. ٤

قال ابن اسحاق في السيرة: "وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدي لها كما يهدى للكعبة وتطوف بها وتنحر

عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها لانها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده"[1].

قلت: هذا الذي ذكره ابن اسحق من شرك العرب هو بعينه الذي يفعله عباد القبور، بل زادوا على الاولين. ١

وإنما ذكر هذه الأصنام الثلاثة لأنها اشهر الأصنام وأعظمها عند العرب. ٥

قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣]، أي: هذه الأصنام (اللات والعزى ومناة) التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هي مجرد أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان، أي: من حجة ودليل. ٥

والشاهد من الآية الكريمة: بطلان التبرّك بالأشجار والأحجار، لأن هذه أشجار وأحجار، ولم تدفع عن نفسها فضلاً عن أن تدفع عن غيرها.

ففي هذا: بُطلان التبرك بالأحجار والأشجار، وفيه: أن من تبرّك بقبر أو بحجر أو شجر يعتقد فيه أنه ينفع ويضر من دون الله، أو أنه سبب لحصول البركة، أو تقرب إليه بشيء من العبادة؛ فهو مثل من عبد اللات والعُزَّى سواء، ولا فرق، بل من غلا في قبر من القبور فهو كمن عبد اللات، لأن اللات -على التفسير الثاني- هو رجل صالح، غَلَوا في قبره بعد موته، فالذين يعبدون القبور اليوم مثل الذين يعبدون اللاتّ سواء بسواء، والقرآن واضح في هذا، لكن يحتاج إلى التدبّر، ونبذ للتقاليد والعادات والبيئات الفاسدة، والتحرر من الخرافات والأباطيل، ورجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما الشفاء للقلوب.

فالغُلُّو في الصالحين قديم، ولا يزال مستمرًّا وهو سنّة جاهلية من قديم الزمان، من عهد قوم نوح، ولا تزال.

فعلى التفسير الأول هو: تبرّك بالأحجار، وعلى التفسير الثاني هو: تبرّك بالقبور. وكِلا التفسيرين حق، فالآية تدلّ على منع التبرّك بالأحجار، ومنع التبرّك بالقبور، وما زال هذا

---

[1] السيرة النبوية لابن إسحاق ص٦٣-٦٤ بتصرف يسير.

الصنم يُعبد من دون الله إلى أن فتح النبي ﷺ مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وأمر بهدم هذا الصنم كغيره من الأصنام التي هدمت. ٤

وجه مناسبة الآية للترجمة أن اللاتَ صخرة ومناة صخرة والعزّى شجرة، وما كان يفعله المشركون عند هذه الثلاث فهو عين ما يفعله المشركون في الأزمنة المتأخرة عند الأشجار والأحجار والغيران والقبور، ومن قرأ شيئاً مما يصنعه المشركون علم غربة الإسلام في هذه البلاد قبل هذه الدعوة، وأن الناس كانوا على شرك عظيم، وإذا تأملت أحوال ما حولك من البلاد التي ينتشر فيها الشرك وجدت من اتخاذ الأشجار والأحجار آلهة ويُتبرك بها الشيء الكثير. أعظم من ذلك اتخاذ القبور آلهة يُتوجه إليها ويُتعبد عندها. ٣

فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبَّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك. فالله المستعان. ٢

عن أبي واقد الليثي قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: ((الله أكبر! إنها السنن، قلتم . والذي نفسي بيده . كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ [الأعراف: ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم))". [١]

هذا الحديث حديث صحيح عظيم. ٣

قال "وعن أبي واقد الليثي" هذه كنيته، أما اسمه فهو الحارث بن عوف، و"الليثي" من بني الليث.

---

[١] مسند الإمام أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي: أبواب الفتن/ باب ما جاء: "لتركبن سنن من كان قبلكم"، ٦/٣٤٣. وقال: "حسن صحيح".

قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ" أي: غزوة حنين، وحنين اسم وادٍ بين مكة والطائف، وغزوة حُنَيْن كانت في شوال من السنة الثامنة من الهجرة، وذلك أن الرسول ﷺ لما فتح مكة، ونصره الله على قريش؛ خافت هوازِن على نفسها أن يصلها الرسول ﷺ، فأرادوا أن يغزوا الرسول ﷺ قبل أن يغزوهم، وجمّعوا أمرهم ليغزوا رسول الله ﷺ، يريدون الدفاع عن أنفسهم، فلم يمهلهم الرسول ﷺ، بل غزاهم هو بنفسه ﷺ. وهذا هو الحزم والسياسة؛ أن ولي أمر المسلمين إذا علم أن هناك من الكفار من يريد غزو المسلمين يبادر إلى ذلك العدو، ولا يمهله.

"ونحن حُدَثاء عهد بكفر"

وأبو واقد كان من الذين أسلموا في هذا العام، ولهذا قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن ونحن حُدَثاء عهد بكفر" يعني: أن إسلامهم كان جديداً متأخراً، وهو يريد بذلك بيان العذر مما وقع منهم، أنهم كانوا جُهّالاً، لم يتفقّهوا كما كان الصحابة الذين مع الرسول ﷺ فقهاء، عرفوا العقيدة ودرسوها. ٤

ففيه: دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا. ٢

لكن هؤلاء أسلموا قريباً، ولم يتمكّنوا من التفقّه في العقيدة، وكانوا آلفين لأشياء من دين الجاهلية، لم يتخلّصوا منها بعد.

قال العلماء: فهذا فيه دليل على أن الإنسان إذا عاش في بيئة فاسدة ثم انتقل منها؛ أنه قد يبقى في نفسه منها شيء. فهذا كان في بيئة شركية، وأسلم قريباً.

وهذا دليل على آفة الجهل، وأن الإنسان قد يقع في الشرك بسبب الجهل، وفيه الحث على تعلم العقيدة ومعرفتها والتبصّر فيها خشية أن يقع الإنسان في مثل ما وقع فيه هؤلاء، فالذين ينادون اليوم بتهوين أمر العقيدة، ويقولون: لماذا يدرسون العقيدة وهم مسلمون؟، يا سبحان الله، المسلم هو أولى بدراسة العقيدة من أجل أن يصحِّح إسلامه، ومن أجل أن يحفظ دينه، هؤلاء مسلمون ومع هذا وقعوا في هذه القضية بسبب أنهم لم يتعلموا، ففي هذا دليل على

وجوب تعلم العقيدة الصحيحة، ووجوب تعلّم ما يضادها من الشرك والبدع والخرافات؛ حتى يكون الإنسان على حذر منها، وما أوقع اليوم عُبّاد الأضرحة -أو كثير منهم- في عبادة القبور إلاَّ بسبب الجهل، ويظنون أن هذه من الإسلام، فهذه مصيبة عظيمة، حتى سمعنا أن بعض الدعاة يدعون -في أمريكا وفي غيرها- إلى دين الصوفية وإلى دين القبوريّة، فهم أخرجوهم من كفر إلى كفر، وكونه يبقى على كفره، أخف من كونه ينتقل إلى كفر يسمّى باسم الإسلام.

وقوله: "وللمشركين سِدْرَة يَعْكُفُون عندها".

العُكُوف هو: البقاء في المكان، يقال: اعتكف في المكان إذا أطال الجلوس فيه، واعتكف في المسجد يعنى: جلس في المسجد للعبادة.

"ويُنَوطُون بها أسلحتهم"

النَّوْط هو: التعليق، وغرضهم من هذا العكوف والنوط التبرك بهذه الشجرة. ٤

والمشركون كانت لهم سدرة شجرة لهم فيها اعتقاد، واعتقادهم فيها يشمل ثلاثة أشياء:

الأول: أنهم كانوا يعظمونها.

الثاني: أنهم كانوا يعكفون عندها.

الثالث: أنهم كانوا ينوطون بها الأسلحة رجاء نقل البركة من الشجرة إلى السلاح؛ حتى يكون أمضى وحتى يكون خيره لحامله أكثر.

وفعلهم هذا شرك أكبر لأنهم عظموها وعكفوا عندها، والعكوف عبادة وهو ملازمة الشيء على وجه التعظيم والقربة، والثالث أنهم طلبوا منها البركة.

فصار شركهم أكبر لأجل هذه الثلاث مجتمعة. ٣

قلت: ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها. ٢

"فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أَنْوَاط كما لهم ذات أَنْوَاط".

ظنوا أن هذا لا يدخل في الشرك وأن كلمة التوحيد لا تهدم هذا الفعل.

ولهذا قال العلماء: قد يغيب عن بعض الفضلاء بعض مسائل الشرك؛ لأن الصحابة وهم أعرف الناس باللغة، هؤلاء الذين كان إسلامهم بعد الفتح خَفِيَت عليهم بعض أفراد توحيد العبادة. ٣

أعجبهم عمل المشركين، فظنوا أن هذا عمل سائغ، وهم يحرصون على تحصيل البركة، فطلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم شجرة يَعْكُفُون عندها، ويَنُوطُون بها أسلحتهم طلباً للبركة، ولكن انظروا إلى أدب الصحابة مع الرسول ﷺ حيث لم يقدموا إلى هذا الأمر من عند أنفسهم، بل رجعوا إلى الرسول ﷺ، فالمسلم إذا أعجبه شيء ويظن أنه خير فلا يستعجل حتى يعرض هذا على الكتاب والسنة ويسأل عنه أهل العلم الثقات.

فهذا فيه دليل على وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة في أمور العبادة، وأن الإنسان لا يعمل باستحساناته، أو استحسانات غيره، بدون أنه يرجع إلى الكتاب والسنة، وهذا يدل على أن العبادات توقيفية.

فقوله: "فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أَنْواط"

يعني: شجرة نعلّق بها أسلحتنا للبركة، ونجلس عندها للبركة.

"فقال ﷺ: "الله كبر، إنها السُّنَن"

النبي ﷺ غضب لما قالوا له هذا الكلام وتعجّب، وكبّر الله سبحانه وتعالى تنزيهاً لله عزّ وجلّ عن هذا العمل. وهذه عادة النبي ﷺ أنه كان إذا أعجبه شيء أو استنكر شيئاً أنه يسبح أو يكبر.

"إنها السُّنن".

أي: الطرق المسلوكة، أي: السبب أن الذي أوقعكم في هذا هو التَّشَبُّه بما عليه الناس، فالتَّشَبُّه بالكفار في عباداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم، آفة خطيرة: ((من تشبه بقوم فهو منهم))، وما أصاب بعض المسلمين من الأمور الشنيعة، أغلبه من جهة التَّشَبُّه بالكفار، أوّل ما حدث الشرك في مكة هو بسبب التَّشَبُّه بالكفار، لأنه لما ذهب عمرو بن لُحَيْ إلى

الشام، ووجد أهل الشام يعبدون الأصنام، أعجبه ذلك، وجلبها إلى الحجاز، ومن ذلك الوقت فشا الشرك في أرض الحجاز، فهو أول من غير دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، فهذه هي الآفة، هذه هي السُّنَن التي تعجّب منها النبي ﷺ. ٤

"لتركبن سنن من كان قبلكم"

أي أن هذه الأمة ستبتلى بما ابتليت به الجاهلية من عبادة القبور والأحجار والتبرك بها وهذا حصل. وقاله ﷺ إخباراً بأنه سيقع فحذر منه وأن الواجب هو الثبات على عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء أما التبرك بالقبور وغير الله فهذا من فعل اليهود والنصارى وأهل الكفر. ٦

ثم بيّن ﷺ خطر هذه المقالة، فقال: ((قلتم والذي نفسي بيده))

أقسم ﷺ ففي هذا مشروعية القسم على الفتوى إذا تحقق من إصابة الحق.

((كما قالت بنوا إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾))

النبي ﷺ بيّن أن هذه عادة قديمة في العالم، وأنها حصلت على عهد موسى عليه السلام، وذلك أن الله لما نجّى بني إسرائيل من فرعون، وأغرق فرعون وقومه، ونجّى موسى وقومه، ومرّوا في طريقهم على قوم يعكفون على أصنام لهم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] طلبوا من موسى أنه يجعل لهم صنماً يعبدونه كهؤلاء الذين يعبدون الصنم، قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨] السبب الذي أوقعكم في هذا هو الجهل بالتّوحيد، وهذا -كما ذكرنا- يُوجب على المسلمين أن يتعلموا العقيدة، ولا يكتفوا بقولهم: نحن مسلمون، نحن في بلاد إسلام، نحن في بيئة إسلامية، كما يقوله الجهال أو الذين يُثَبِّطون عن تعلّم العقيدة.

ففيه آفة الجهل، وان الجهل قد يوقع في الكفر بالله عزّ وجلّ، وهذه خطورة عظيمة، ولا يُنجّي من هذا الجهل إلاَّ تعلّم العقيدة الصحيحة، والتأكُّد منها، وتدريسها، وتكرارها على الناس، وتعليمها للناس، ونشرها بكل وسيلة في المساجد، وفي المدارس، وفي وسائل الإعلام،

وفي المجالس، وفي البيوت، وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾، أي: عمل هؤلاء زائل وتالف ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٩] لأنه شرك بالله عزّ وجلّ، ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾ [الأعراف:١٤٠] أي: أنا لا أَشْرَع لكم الشرك، وهل هذا جزاء النعمة أن الله فضلكم على العالمين، يعني: عالم زمانهم، أما بعد بِعثة محمد ﷺ فأفضل العالمين هم أمة محمد ﷺ.

فالحاصل؛ أن التبرّك بالأشجار والأحجار هو من سنة المشركين، ومن سنة الجاهلية، ومن فعله فهو متشبه بالكفار، وهو كافر مثلهم، لا فرق بين من يعبد القبر ومن يعبد اللات والعُزَّى، أو الذي يطلب البركة من الشجرة والذي يطلبها من الصنم، لا فرق بينهما.

ففي هذا: بُطلان التبرّك بالأشجار والأحجار، وأنه شرك، لأن موسى عليه السلام قال: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً﴾، فدلّ على أن من تبرّك بشجر أو حجر فقد اتخذه إلهاً، وهذا هو الشرك، واختلاف اللفظ لا يؤثر مع اتفاق المعنى، هؤلاء قالوا: "اجعل لنا ذات أَنْوَاط كما لهم ذات أَنْوَاط"، وبنوا إسرائيل قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، والرسول ﷺ جعل هذا مثل هذا، وإن اختلف اللفظ. ٤

وهذا يدل على أن الاعتبار بالحقائق لا بالألفاظ لأنهم طلبوا شيئاً يعظمونه ويتبركون به كما فعل بنو إسرائيل وإن اختلفت ألفاظ الفريقين، فالباطل باطل و إن اختلفت الألفاظ. ٦

شبه مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان. فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة. ٢

والآن عَبَدَة القبور يقولون: هذا ليس بشرك، هذا توسُّل، وهذا محبة للأولياء والصالحين. إن أولياء الله الصالحين لا يرضون بهذا العمل، ولا يرضون أن تُجعل قبورهم أوثاناً تُعبد من دون الله، والنبي ﷺ يقول: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))، فدلّ على أن تعظيم القبور والتبرك بها يجعلها أوثاناً تُعبد من دون الله.

فالحاصل؛ أن هذا فيه دليل على أن العبرة في المعاني لا في الألفاظ، فاختلاف الألفاظ لا يؤثر، وإن سموه توسّلاً، أو سمّوه إظهاراً لشرك الصالحين، أو وفاءً بحقهم علينا -كما يقولون، هذا هو الشرك، سواء بسواء، فالذي يتبرّك بالحجر أو بالشجر أو بالقبر قد اتخذه إلهاً، وإن كان يزعم أنه ليس بإله، فالأسماء لا تغير الحقائق، إذا سمّيت الشرك، توسلاً، أو محبة للصالحين، أو وفاءً بحقهم، نقول: الأسماء لا تغير الحقائق.

وفيه -أيضاً- مسألة مهمة: وهي أن حُسن المقاصد لا يغير من الحكم الشرعي شيئاً ، هؤلاء لهم مقصد حسن، ولكن النبي ﷺ لم يعتبر مقاصدهم، بل أنكر هذا، لأن الوسائل التي تُفضي إلى المحاذير ممنوعة، صحابي مع رسول الله ﷺ يحمل السيف للجهاد، ما قصد إلاّ الخير هو ومن معه، ومع هذا غضب النبي ﷺ عند مقالتهم، وجعلها مثل مقالة بني إسرائيل، فدلّ على أن المقاصد الحسنة لا تبرِّر الغايات السيّئة والمنكرة.

وفيه -أيضاً-: القاعدة العظيمة، وهي: خطورة التَّشَبُّه بالكفار والمشركين، لأنها تؤدِّي إلى الشرك، ولهذا قال ﷺ: ((لتركبن سُنَن من قبلكم)) وهذا فيه -أيضاً- عَلَم من أعلام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر أنه في المستقبَل سيكون في المسلمين من يقلِّد الكفار، وهذا وقع كما أخبر ﷺ، فتقليد الكفار الآن على قدم وساق، إلاَّ من رحم الله سبحانه وتعالى وهذا خبر معناه التحذير وليس مجرد خبر.

فهذا الحديث فيه التحذير من التَّشَبُّه بالمشركين والكفار في أفعالهم وعاداتهم الخاصة وتقاليدهم وطقوسهم.

أما الأمور المباحة فلا بأس بالأخذ بها، نأخذ من المشركين الخِبْرات المفيدة، نأخذ منهم البضائع، نأخذ منهم الأسلحة، هذه أمور كانت في الأصل لنا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، هذه المنافع في الأصل للمسلمين، ولكن لما تكاسل المسلمون أخذها أعداؤهم، فلا مانع أن المسلمين يأخذون بهذه الأشياء المفيدة،

وليس هذا من التَّشَبُّه، إنما لتَّشَبُّه هو تقليدهم في الأمور التي لا فائدة منها ولا قيمة لها، أو الأمور التي تدخل في العبادة والعقيدة والدين.

قد يُقال: أنتم تحرمون التبرّك بالأشجار والأحجار والقبور، في حين أن الصحابة ﵃ كانوا يتبرّكون بريق النبي ﷺ وشعره ووضوئه، أليس هذا تبركاً بمخلوق.

فالجواب عن ذلك: أن هذا خاص بالنبي ﷺ وبما انفصل من جسده ﷺ لأنه مبارك، فما انفصل من جسده من ريق، أو عرق، أو شعر، أو وضوء، فإنه يُتبرّك به، أما التبرّك بغير النبي ﷺ فهذا لم يَرِد حتى مع أفضل الأمة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والعشرة المبشرين بالجنة، وأصحاب بدر، وأصحاب بيعة الرضوان، ما ذُكر أن المسلمين كانوا يتبرّكون بهؤلاء، لا بريقهم، ولا بعرقهم، ولا بشعورهم.

فالتبرك لا يجوز؛ لا بالأشجار، ولا بالأحجار، ولا بالأشخاص، ولا بالحُجْرة النبوية، ولا بقبر النبي ﷺ، كل هذا لا يجوز، لأن هذه أمور لم تكن منفصلة عن النبي ﷺ وليست من جسده ﷺ فلابد أن نعرف الجواب عن هذه الشُّبَه، لأنهم يُدْلُون بها. ٤

التفصيل في المسألة

قلتم كما قال أصحاب موسى لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

شبّه عليه الصلاة والسلام -وانتبه لهذا- شبّه المقالة بالمقالة.

معلوم أن أولئك عبدوا غير الله؛ عبدوا ذات الأنواط، وأمّا أولئك فإنما طلبوا بالقول، والنبي ﷺ شبه القول بقول قوم موسى ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ولم يفعلوا ما طلبوا ولما نهاهم النبي ﷺ انتهوا، ولو فعلوا ما طلبوا لكان شركاً أكبر؛ لكن لما قالوا وطلبوا دون فعل صار قولهم شركاً أصغر؛ لأنه كان فيه نوع تعلق بغير الله جل وعلا.

لهذا نقول: إن أولئك الصحابة الذين طلبوا هذا الطلب لما نهاهم النبي ﷺ انتهوا، وهم لا يعلمون أن هذا الذي طلبوه غير جائز، وإلاّ فلا يظن بهم أنهم يخالفون أمر النبي ﷺ ويرغبون في معصيته.

فإذن صار الشرك في مقالهم، وأمّا الفعل فلم يفعلوا شيئاً من الشرك، وهذا الذي قالوه قال العلماء: هو شرك أصغر وليس بشرك أكبر، ولهذا لم يأمرهم النبي ﷺ بتجديد إسلامهم.

ودلّ على ذلك قوله ((قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى)) فشبه المقالة بالمقالة، وقد قال الشيخ رحمه الله في المسائل: إنهم لم يكفروا، وأن الشرك منه أكبر ومنه أصغر؛ لأنه لم يأمرهم عليه الصلاة والسلام بتجديد الإسلام.

ظاهر من هذا أن الشرك الأكبر الذي كان فيه المشركون لم يكن راجعاً إلى التبرك بذات الأنواط فقط، وإنما كان بالتعظيم والعكوف والتبرك بالتعليق، وقد قلتُ لك إن التبرك بالشجر والحجر ونحو ذلك إذا كان فيه اعتقاد أن هذا الشيء يُقرِّب إلى الله، وأنه يرفع الحاجة إلى الله، أو أن تكون حاجاتهم أرجى إجابة، وأمورهم أحسن إذا تبركوا بهذا الموضع، فهذا شرك أكبر، وهذا الذي كان يصنعه أهل الجاهلية لهذا قلت لك إن فعلهم يشمل ثلاثة أشياء:

- التعظيم -تعظيم العبادة- وهذا لا يجوز إلا لله؛ تعظيم أن هذا يتوصل ويتوسط لهم عند الله جل وعلا وهذا لا يجوز وهذا من أنواع العبادة، واعتقاد شركي.

- والثاني أنهم عكفوا عندها ولازموا، والعكوف والملازمة نوع عبادة، فإذا عكف ولازم تقرباً ورجاء ورغبة ورهبة ومحبة هذا نوع من العبادة.

- والثالث التبرك.

فإذن يكون الشرك الأكبر ما ضمّ هذه الثلاث.

وإذا تأملت ما يصنعه عباد القبور والخرافيون في الأزمنة المتأخرة وفي زماننا هذا، وجدت أنهم يصنعون كما كان المشركون الأولون يصنعوا عند اللات وعند العزى وعند مناة وعند ذات أنواط، فإنهم يعتقدون في القبر؛ بل يعتقدون في الحديد الذي يُسيَّج به القبر، فالمشاهد المختلفة في البلاد التي يفشو فيها الشرك أو يظهر فيها الشرك، تجد أنّ الناس يعتقدون في الحائط الذي على القبر، أو في الشُّباك الحديدي الذي يحيط بالقبر، فإذا مسحوا به كأنهم تمسحوا بالمقبور، واتصلت روحهم بأنه سيتوسط لهم لأنهم عظموه، هذا شرك أكبر

بالله جل وعلا لأنه رجع إلى تعلق القلب في جلب النفع وفي دفع الضَّر بغير الله جل وعلا وجعله وسيلة إلى الله جل وعلا كفعل الأولين الذين قال الله فيهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

وأمّا في الحال الأخرى -التي نبهتُكَ في أول المقام عليها- مِن أنه يجعل بعض التمسحات أسباباً، مثل ما ترى بعض الناس الجهلة يأتي في الحرم ويتمسح بأبواب الحرم الخارجية، أو ببعض الجدران، أو ببعض الأعمدة.

فهذا إن ظن أن ثَمّ روحاً في هذا العمود، أو هناك أحد مدفون بالقرب منه، أو ثم من يخدم هذا العمود من الأرواح الطيبة -كما يقولون-، فتمسح لأجل أن يصل إلى الله جل وعلا فهذا شرك أكبر.

وأما إذا تمسح باعتقاد أن هذا المقام مبارك وأن هذا سبب قد يشفيه، إذن قلنا إذا كان يتمسح لجعله سبباً فهذا يكون شركاً أصغر.

وإذا كان تعلق قلبه بهذا الذي المتمسح به والمتبرك به وعظمه ولازمه واعتقد أن ثمّة روحا هنا، أو أنه يتوسل به إلى الله فإن هذا شركاً أكبر. ٣

فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات والأستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركا؟!

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: "فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها".

وقال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب (البدع والحوادث): "ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث". ١

وفيها: أن من عُبِدَ فهو إله لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق وإنما أرادوا البركة والعكوف عندها فكان ذلك اتخاذا إله مع الله تعالى.

وفيها: أن معنى الإله هو المعبود. وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهي عن ذلك فانتهى لا يكفر وأن لا إله إلا الله تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة ذكره المصنف، فكيف بما هو أعظم منه؟! ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء وأن ما سواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهلاً. ١

وفيه: أن الشرك لابد أن يقع في هذه الأمة كما وقع فيمن قبلها ففيه رد على من قال إن الشرك لا يقع في هذه الأمة. ١

فيه: الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله، وهو أشد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها، ويحسبون أنهم على شيء وهو الذنب الذي لا يغفره الله. ٢

وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنا وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف – ١٣٨] فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية، فأكثروا فعله واتخذوه قربة. ٢

وفيها: أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط. فالمشرك مشرك وإن سمى شركه ما سماه. كمن يسمي دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. ٢

ومنها: أن في المنع عن ذلك سداً لذريعة الشرك كما لا يخفى. ٢

تنبيه

ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم والتمسح بهم أو بثيابهم وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين والتبرك بعرقهم ونحو ذلك وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في شرح مسلم في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبي ﷺ وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ وهذا خطأ صريح لوجوه منها:

– عدم المقاربة فضلا عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة.

- ومنها عدم تحقق الصلاح فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص كالصحابة الذين أثني الله عليهم ورسوله أو أئمة التابعين أو من شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم.
- ومنها انا لو ظننا صلاح شخص فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء والأعمال بالخواتيم فلا يكون أهلا للتبرك بآثاره ومنها أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته ولا بعد موته ولو كان خيرا لسبقونا إليه فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس القرني والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ.
- ومنها أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه وتعجبه نفسه فيورثه العجب والكبر والرياء فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم.١

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: ((الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم)) فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾.

التاسعة: أن نفي هذا معنى (لا إله إلا الله)، مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: (ونحن حدثاء عهد بكفر) فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية، لقوله ((إنها السنن)).

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما (من ربك)؟ فواضح، وأما (من نبيك)؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما (ما دينك)؟ فمن قولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ إلخ.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا. وهو أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبركوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها، فدل ذلك على أن التبرك بالأشجار ممنوع، وأن هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم. ٥

الثالثة: كونهم لم يفعلوا. أي: لم يعلقوا أنواطاً على الشجرة، ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يقرهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذلك. ٥

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه. أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول ﷺ، ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا المعنى العبادة. ٥

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

لأن الصحابة لا شك أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أن التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهاً، فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف رحمه الله بهذا أن لا نغتر بعمل الناس، لأن عمل الناس قد يكون عن جهل، فالعبرة بما دل عليه الشرع لا بعمل الناس. ٥

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾ [الحديد: ١٠]، فالصحابة ﵃ لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي ﷺ بهذا الطلب. بل رد عليهم بقول الله أكبر ((إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم)). ٥

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: ((الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم)) فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

وهي قوله: ((الله أكبر))، وقوله: ((إنها السنن))، وقوله: ((لتركبن سنن من كان قبلكم))، فغلظ الأمر بهذا لأن التكبير استعظاماً للأمر الذي طلبوه، و((أنها السنن)): تحذير، و((لتركبن سنن من كان قبلكم)) كذلك أيضاً تحذير. ٥

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾.

فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهاً كما لهم آلهة، فيكون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد، لأن التبرك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذه إلهاً شرك واضح. ٥

التاسعة: أن نفي هذا معنى (لا إله إلا الله)، مع دقته وخفائه على أولئك.

أي: أن نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إله إلا الله، فإن لا إله إلا الله تنفي كل إله سوى الله، وتنفي الألوهية عما سوى الله عز وجل، فكذلك البركة لا تكون من غير الله سبحانه وتعالى. ٥

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

أي: أن النبي ﷺ حلف على الفتيا في قوله: ((قلتم، والذي نفسي بيده))، والنبي ﷺ لا يحلف إلا لمصلحة، أو دفع مضرة ومفسدة، فليس ممن يحلف على أي سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس. ٥

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بها، والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي.

فالشرك الأكبر: ما يخرج الإنسان من الله.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة (ما دون ذلك) ليس ميزاناً واضحاً. ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أن الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنه شرك ودلت النصوص على أنه ليس من الأكبر، مثل: ((من حلف بغير الله، فقد أشرك))[1]، فالشرك هنا اصغر، لأنه دلت النصوص على أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان شيء كاعتماده على الله، لكنه لم يتخذه إلهاً، فهذا شرك أصغر، لأن

[1] مسند الإمام أحمد (١٢٥/٢)، وسنن أبي داود: كتاب الإيمان/ باب من كراهية الحلف بالآباء – وسكت عنه؛ والترمذي: النذور/ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى –وحسنه –.

هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول، لأن الأول يمنع أن تطلق على شيء أنه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف: إن المعاصي كلها شرك أصغر، لأن الحامل عليها الهوى، وقد قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ من إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولهذا أطلق النبي ﷺ الشرك على تارك الصلاة، مع أنه لم يشرك، فقال: ((بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة))[١].

فالحاصل أن المؤلف رحمه الله يقولك إن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

الجلي والخفي، فبعضهم قال: إن الجلي والخفي هو الأكبر والأصغر، وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر، كالحلف بغير الله، والسجود للصنم.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر، كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهاً آخر.

وقد يقال: إن الجلي ما انجلى أمره وظهر كونه شركاً، ولو كان أصغر، والخفي: ما سوى ذلك.

وأيهما الذي لا يغفر؟. ٥

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الشرك لا يغفره الله لو كان أصغر، لعموم قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [النساء: ١١٦]، و﴿أن يشرك به﴾ مؤول بمصدر تقديره: شركاً به، وهو نكر في سياق النفي، فيفيد العموم.

وقال بعض العلماء: إن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وإن المراد بقوله: ﴿إن يشرك به﴾ الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر، فإنه يغفر لأنه لا يخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة، فإنه تحت المشيئة، وعلى كل، فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً". ٥

---

[١] مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

الثانية عشرة: قولهم: (ونحن حدثاء عهد بكفر) فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

معناه: أنه يعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط، فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه، فلا يجهل ذلك.

وعلى هذا، فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يعرض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيه، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول ﷺ وهو معتكف، فمر رجلان من الأنصار، فقال: ((إنها صفية بنت حيي))[١].ه

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

تؤخذ من قوله: ((الله أكبر))، أي: الله أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: ((سبحان الله))، أي: تنزيهاً لله عما لا يليق به. ه

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان:

أ. ذرائع إلى أمور مطلوبة، فهذه لا تسد، بل تفتح وتطلب.

ب. ذرائع إلى أمور مذمومة، فهذه تسد، وهو مراد المؤلف رحمه الله تعالى.

وذات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبركوا بها، يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سد النبي ﷺ الذرائع. ه

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

تؤخذ من قوله: ((قلتم كما قالت بنو إسرائيل))، فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختص بمن كان قبل زمن النبي ﷺ، بل كان من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين، فهو من أهل الجاهلية. ه

---

[١] البخاري: كتاب الاعتكاف/ باب هل يخرج المعتكف...، ومسلم: كتاب السلام/ باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم. والحديث ليس بصريح في ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: ((الله أكبر إنها السنن ...))، لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب. ٥

السابعة عشرة: القاعدة الكلية، لقوله ((إنها السنن)).

أي: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحل والإباحة، ولكنه للتحذير، كما قال الرسول ﷺ: ((ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة))، وقال: ((ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير ...))[١] الحديث، وقال: ((إن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله)) [٢]، وما أشبه ذلك من الأمور التي أخبر النبي ﷺ عن وقوعها مع تحريمها. ٥

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.

يعني اتباع سنن من كان قبلنا.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ قد خطب الناس بعرفة، وقال: ((إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب))[٣]، فكيف تقع عبادته.

فالجواب: أن إخبار النبي ﷺ بيأسه لا يدل على عدم الوقوع، بل يجوز أن يقع، على خلاف ما توقعه الشيطان، لأن الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوي الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، يئس أن يعبد سوى الله في هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولا بد، لئلا يقال: إن جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة العربية لا يمكن أن تكون شركاً، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله جدد التوحيد في الجزيرة العربية، وأن الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك.

---

[١] البخاري تعليقاً: كتاب الأشربة/ باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.

[٢] البخاري: كتاب المناقب/ باب علامات النبوة.

[٣] مسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب تحريش الشيطان.

فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع، وهذا الرسول ﷺ يقول: ((لتركبن سنن من كان قبلكم))، وهو يخاطب الصحابة وهم في جزيرة العرب. ٥

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

هذا ليس على إطلاقه وظاهرة بل يحمل قوله: "لنا"، أي: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع، كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل كانوا من الإنس فقط.

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى، فإن الذم الذي يكون لهم يكون لنا، وما من أحد من الناس غالباً إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى، فالذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذي يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، وهلم جرا.

وإن كان يقصد رحمه الله أنه لا بد أن يكون في الأمة خصلة، فهذا على إطلاقه وظاهره، لأنه قل من يسلم.

وإن أراد أن كل ما ذم به اليهود والنصارى، فهو لهذه الأمة على سبيل العموم، فلا. ٥

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما (من ربك)؟ فواضح، وأما (من نبيك)؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما (ما دينك)؟ فمن قولهم: (اجعل لنا إلهاً) إلخ.

وهذا واضح، فالعبادات مبناها على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع، فهو بدعة، قال ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد))[1]، وقال: ((إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)).[2]

---

[1] مسلم: كتاب الأقضية/ باب نقض الأحكام الباطلة.

[2] مسند الإمام أحمد (١٢٦/٤)، وسنن أبي داود: كتاب السنة/ باب لزوم السنة، ١٣/٥، والترمذي: العلم/ باب الأخذ بالسنة، رقم ٢٦٧٨ – وقال: "حسن صحيح".

فمن تعبد بعبادة طولب بالدليل، لأن الأصل في العبادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها.

وأما الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها، فالأصل فيها الإباحة، إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقوله: "مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟".

ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلاً على أن الإنسان يسأل في قبره، بل فيها دليل على إثبات الربوبية والنبوة والعبادة.

أما "من ربك"، فواضح، يعني أنه لا رب إلا الله تعالى.

وأما "من نبيك" فمن إخباره بالغيب، قال ﷺ: ((لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة))، فوقع كما أخبر.

أما "ما دينك"، فمن قولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾، أي: مألوهاً معبوداً، والعبادة هي الدين.

والمؤلف محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فهمه دقيق جداً لمعاني النصوص، فأحياناً يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل. ٥

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

تؤخذ من قوله: ((كما قالت بنو إسرائيل لموسى)). ٥

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء، سواء كان باطلاً أو لا، لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة، لقول: "ونحن حدثاء عهد بكفر"، فكأنه يقول:

ما سألناه إلا لأن عندنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة، لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشرك والفسوق، حتى لا يقع في قلبه شيء منها.ه

[الأسئلة]

[س/ ما معنى قولهم الشرك الأصغر أكبر من الكبائر؟ وكيف يكون كذلك والشرك الأكبر من الكبائر إذ هو من الكبائر؟ فنرجوا إزالة الإشكال.

ج/ هذا أيضاً أوضحته بالأمس: وهو أن الكبائر قسمان:

- قسم منها راجع إلى جهة الاعتقاد والعمل الذي يصحبه اعتقاد.

- وقسم منها راجع إلى جهة العمل الذي لا يصحبه اعتقاد.

مثال الأول الذي يصحبه اعتقاد: أنواع الشرك بالله من الاستغاثة بغيره، ومن الذبح لغير الله، ومن النذر لغير الله نحو ذلك، هذه الأعمال ظاهرة هي كبائر يصحبها اعتقاد جعلها شركاً أكبر، فهي في ظاهرها صرف عبادة لغير الله جل وعلا، وقام بقلب صاحبها الشرك بالله بتعظيم المخلوق وجعله يستحق هذا النوع من العبادة إما على جهة الاستقلال أو لأجل أن يتوسط.

والقسم الثاني الكبائر العملية التي تعمل لا على وجه اعتقاد، مثل الزنا وشرب الخمر والسرقة وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف ونحو ذلك من الكبائر والموبقات، فهذه تعمل دون اعتقاد لهذا صارت الكبائر على قسمين.

نقول: الشرك الأصغر، ومن باب أولى الشرك الأكبر هذا جنسه أكبر من الكبائر؛ يعني العملية، فأنواع الشرك الأصغر ولو كان لفظيا مثل قول ما شاء الله وشئت، مثل الحلف بغير الله، أو نسبة النِّعم إلى غير الله، أو نسبة اندفاع النقم إلى غير الله، أو تعليق التمائم ونحو ذلك. هذه من حيث الجنس أعظم -هي كبائر- من كبائر العمل الذي لا يصاحبه اعتقاد؛ وذاك لأن الأعمال تلك كالزنا والسرقة ونحوها من الكبائر العملية هذه ليس فيها سوء ظن بالله جل وعلا وليس فيها صرف عبادة لغير الله أو نسبة شيء لغير الله جل وعلا، وإنما هي

من جهة الشهوات، والأخرى هي من جهة الاعتقاد لغير الله وجعل غير الله جل وعلا نِدًّا لله سبحانه وتعالى.

وأعظم الذنب أن يجعل المرء لله نداً وهو خلقه جل وعلا.

س/ لماذا لم يبين الرسول ﷺ الشرك للصحابة قبل أن يقعوا فيه في حديث ذات الأنواط؟

ج/ من المعلوم أنَّ الشريعة جاءت بالإثبات المفصَّل والنفي المجمل، والنفي إذا كان مجملاً فإنه ينبني تحته صور كثيرة يُدخلها من فهم النفي في الدلالة، فلا يحتاج مع النفي على أن ينبه كل فَرد فرد.

لهذا نقول من فهم لا إله إلا الله لم يُحتج إلى أن يفصل له كل مسألة من المسائل، فمثلاً النذر لغير الله ليس فيه حديث النذر لغير الله شرك، والذبح لغير الله ليس فيه حديث الذبح لغير الله شرك، ونحو ذلك من الألفاظ الصريحة، وهكذا في العكوف عند القبور، أو العكوف والتبرك عند الأشجار والأحجار، لم يأتِ به الشيء الصريح؛ لكن نفي إلهية غير الله جل وعلا يدخل فيها عند من فهم معنى العبادة كل الصور الشركية.

ولهذا الصحابة رضي الله عنهم فهموا ما دخل تحت هذا النفي، ولم يطلب ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط إلا من كان حديث عهد بكفر؛ يعني لم يسلم إلا قريباً، وهم قلة ممن كانوا مع النبي ﷺ في مسيره إلى حنين.

والإثبات يكون مفصلاً، وتفصيل الإثبات:

تارة يكون بالتنصيص.

وتارة يكون بالدلالة العامة من وجوب إفراد الله جل وعلا بالعبادة مثلا، ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[1] ونحو ذلك من الآيات.

والأدلة الخاصة بالعبادة كقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧]، وكقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، وكقوله: ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾

---

[1] الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود:٥٠، ٦١، ٨٤، المؤمنون:٢٣، ٣٢

[الأنفال:٩]، فهذه أدلة إثبات تثبت أن تلك المسائل من العبادات، وإذا كانت من العبادات فنقول لا إله إلا الله يقتضي بالمطابقة أنه لا تصرف العبادة إلا لله جل وعلا.

إذن فيكون ما طلبه أولئك من القول الذي يعملوه راجع إلى عدم فهمهم أن تلك الصورة داخلة فيما نُفي لهم مجملاً بقوله إله إلا الله.

س/ فضيلة الشيخ: ما حكم التبرك بالصالحين وبماء زمزم والتعلق بأستار الكعبة؟

التبرك بالصالحين قسمان:

- تبرك بذواتهم، بعرقهم، بسؤرهم؛ يعني بقية الشراب، بلعابهم الذي اختلط بالنوى مثلاً أو ببعض الطعام، أو التبرك بشعرهم، أو نحو ذلك، فهذا لا يجوز وهو من البدع المحدثة، وقد ذكرت لكم أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يعملون مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي -وهم سادة أولياء هذه الأمة- شيئاً من ذلك، وإنما فعله الخُلوف الذين يفعلون مالا يؤمرون ويتركون ما أُمِروا به.

- والقسم الثاني بركة عمل: وهي الاقتداء بالصالحين في صلاحهم، والاستفادة من أهل العلم، التأثر بأهل الصلاح، وهذا أمر مطلوب، والتبرك بالصالحين بهذا المعنى مطلوب شرعاً.

أما التبرك بالذات كما كان يفعل مع النبي ﷺ فهذا ليس لأحد إلا للنبي عليه الصلاة والسلام.

أما التبرك بماء زمزم فإن شُرب ماء زمزم بما جاء به الدليل ولما جاء به الدليل لا بأس به، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال في ماء زمزم ((إنها طعام طعم وشفاء سقم)) فمن شربها طعاماً أو شفاء سقم شرب بما دل عليه الدليل، كذلك شربها لغرض من الأغراض التي يريد أن يحققها لنفسه فهذا أيضاً جائز؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((ماء زمزم لما شرب له)).

فإذن: أن يجعل ماء زمزم سبباً لأشياء يريدها، فهذا راجع إلى أنه أُذن به شرعاً، ولو شرب ماء آخر مثلاً، ماء صحة وأراد بشرب هذا الماء أن يحفظ القرآن، فيكون هذا اعتقاداً خاطئاً؛ لأن ما جاء فيه الدليل هو الذي يجعل ذلك السبب مؤثراً أو جائزاً أن يُعتقد أنه مؤثر.

أما التعلق بأستار الكعبة رجاء البركة هذا من وسائل الشرك ومن الشرك الأصغر كما ذكرت لكم بالأمس إذا اعتقد أن ذلك التبرك سبب.

أما إذا اعتقد أن الكعبة ترفع أمره إلى الله أو أنه إذا فعل ذلك عَظُم قدره عند الله وأن الكعبة يكون بها شفاعة عند الله أو نحو تلك الاعتقادات التي فيها اتخاذ الوسائل إلى الله جل وعلا فهذا يكون التبرك على ذاك النحو شرك أكبر.

ولهذا يقول كثير من أهل العلم: إن أنواع هذا التبرك بحيطان المسجد المحرم أو بالكعبة ونحو ذلك، أو بمقام إبراهيم التمسح بذلك رجاء البركة من وسائل الشرك؛ بل هو من الشرك، من وسائل الشرك الأكبر، بل هو من الشرك يعني الشرك الأصغر كما قرر ذلك الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله.

[**س**/ وهذا يقول ما رأيكم في امرأة طلبت من قريب لها ذاهب إلى مكة أن يشتري لها كفناً من هناك وأن يغسل الكفن بماء زمزم، يقول وهذا الأمر منتشر وجزاكم الله خيرا؟

ج/ هذا تبرك بما يباع في مكة واعتقاد فيه، وهذا باطل، ولا يجوز؛ لأنّ ما يباع في مكة ليس له خصوصية في البركة وليس له خصوصية في النفع؛ بل هو وما يباع في غيره سواء، هو وما يباع في غير الحرم سواء.

وأما غسله بماء زمزم لرجاء أن يكون ذلك الكفن فيه بركة ماء زمزم فكذلك هذا غلط؛ لأن بركة ماء زمزم مقيدة بما ورد فيه الدليل، ليست بركة عامة إنما هي بركة خاصة بما جاء فيه الدليل، ولهذا الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يستعملون ماء زمزم إلا فيما جاءت به الأدلة من مثل ((ماء زمزم لما شرب له)) ومن مثل قوله عليه الصلاة والسلام في زمزم ((إنما طعام طعم وشفاء سقم))، أما التبرك بها في غير ذلك فهذا ليس له أصل شرعي. ٣

(بَابُ مَا جاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ)

(بَابُ مَا جاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ)

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الْأَنْعَام] الْآيَات، وَقَوْلُهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ الكوثر.

عَنْ عَلِيٍّ ط قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ. لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوى مُحْدِثاً، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ)) رَوَاهُ مُسْلِمُ. وَعَنْ طَارِقَ بن شِهَابٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ)) قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: ((مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شيئاً ، فقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شيئاً دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ.

باب ما جاء في الذبح لغير الله من الوعيد وأنه شرك بالله جل وعلا. ٣

هذا الباب كالأبواب التي قبله في بيان أنواع من الشرك التي يمارسها بعض الناس في مختلف الأزمان، من عهد الجاهلية، ولا تزال مستمرَّة، وذلك من أجل أن يتميَّز الخبيث من الطيّب، ولله الحكمة سبحانه وتعالى في بقاء هذا الشرك والكفر؛ من أجل أن يتميَّز الخبيث من الطيّب، والموحِّد من المشرك، والمهتدي من الضال: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جميعاً﴾، ولكن لو هداهم جميعاً لم تكن هناك مِيزَة لأحد على أحد، ولكن اقْتَضَتْ حكمته سبحانه أن يُجري الامتحان من أجل أن يتميّز الخبيث من الطيّب. ٤

وقوله في الترجمة: "باب ما جاء في الذبح لغير الله"، أشار إلى الدليل دون الحكم، ومثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأما الأمور التي يجزمون بها، فإنهم يقولونها بالجزم، مثل باب وجوب الصلاة، وباب تحريم الغيبة، ونحو ذلك.

والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنه يرى تحريم الذبح لغير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب على أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحاً، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب، فيحكم به على حسب ما سيق له من هذه الأدلة، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب ثلاث آيات. ٥

(الذبح) معروف وهو إراقة الدم، و(لغير الله) اللام هذه يعني متقرباً به إلى غير الله، ذبح لأجل غير الله. ٣

وقوله: "لغير الله" يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم، فكل من ذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً، فإنه داخل في هذه الكلمة بأي شيء كان. ٥

والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

١- أن يذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

٢- أن يذبح لغير الله فرحاً وإكراماً، فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحياناً وغير مطلوبة أحياناً، فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول. ٥

الذبح فيه شيئاً ن مهمان، وهما نكتة هذا الباب وعقدته:

الأول: الذبح باسم الله، أو الذبح بالإهلال باسم ما.

والثاني: أن يذبح متقرباً لما يريد أن يتقرب إليه.

فإذن ثَمَّ تسمية، وثَم القصد.

- أما التسمية فظاهر أن ما ذكر اسم الله عليه فإنه جائز ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨]، وأن ما لم يذكر اسم الله عليه فهذا الذي أُهِلَّ لغير الله؛ يعني ذكر غير اسم الله عليه فهذا أهل لغير لله به، ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٣]، ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة:٣، النحل:١١٥].

التسمية على الذبيحة من جهة المعنى استعانة، فإذا سمّى اللهَ فإنه استعان في هذا الذبح بالله جل وعلا؛ لأن الباء في قولك بسم الله، يعني أذبح متبركاً ومستعيناً بكل اسم لله جل وعلا، أو بالله جل وعلا الذي له الأسماء الحسنى.

فإذن جهة التسمية جهة استعانة.

- فأما القصد فهذه جهة عبودية ومقاصد، فذبح بسم الله لله، كانت الاستعانة بالله والقصد من الذبح أنه لوجه الله تقرب لله جل وعلا.

فصارت الأحوال عندنا أربعة:

الأول: أن يذبح بسم الله لله، وهذا هو التوحيد.

الثانية: أن يذبح بسم الله لغير الله، وهذا شرك في العبادة.

الثالثة: أن يذبح بسم غير الله لغير الله، وهذا شرك في الاستعانة، وشرك في العبادة أيضاً.

الرابعة: أن يذبح بغير بسم الله ويجعل الذبيحة لله وهذا شرك في الربوبية.

فإذن الأحوال عندنا أربعة إما أن يكون تسمية مع القصد لله جل وعلا وحده وهذا هو التوحيد وهو العبادة.

فالواجب أن يذبح لله قصداً، تقرباً، وأن يسمي الله على الذبيحة:

- فإن لم يسمِّ الله جل وعلا وترك التسمية عمدا فإن الذبيحة لا تحل.

- وإن لم يقصد بالذبيحة التقرب إلى الله جل وعلا ولا التقرب لغيره، وإنما ذبحها لأجل أضياف عنده أو لأجل أن يأكلها؛ يعني ذبحها لقصد اللحم لم يقصد بها التقرب فهذا جائز وهو من المأذون فيه؛ لأن الذبح فيه لا يُشترط فيه أن ينوي الذابح التقرب بالذبيحة إلى الله جل وعلا.

فإذن صار عندك في المسألة الأولى أو الحالة الأولى: -مهمة- أن تعلم أن ذكر اسم الله على الذبيحة واجب، وأن يكون قصدك بالتقرب بهذه الذبيحة -إن نويت بها تقرباً- أن يكون لله لا لغيره، وهذا مثل ما يُذبح من الأضاحي أو يُذبح من الهدي أو نحو ذلك مما يذبحه المرء تعظيماً لله جل وعلا، عقيقة، ونحو ذلك مما أمر به شرعاً فهذا تذبحه لله؛ يعني أن يقصد التقرب لله بالذبيحة، فهذا من العبادات العظيمة التي يحبها الله جل وعلا، وهي عبادة النحر والذبح.

قد يذبح بسم الله؛ لكن أريدها للأضياف أريدها للحم آكل لحما ولم أتقرب بها لغير الله، أيضاً لم أتقرب بها لله، فنقول: هذه الحالة جائزة لأنه سمى بسم الله ولم يذبح لغير الله فليس داخلا في الوعيد ولا في النهي؛ بل ذلك من المأذون فيه.

الحال الثانية: أن يذبح بسم الله ويقصد بالتقرب أن هذه الذبيحة لغير الله، فيقول مثلاً بسم الله وينحر الدم، وهو ينوي بإزهاق النفس وبإراقة الدم ينوي التقرب لهذا العظيم المدفون، لهذا النبي أو لهذا الصالح، فهو لو ذبح بسم الله فإن الشرك حاصل من جهة أنه أراق الدم تعظيماً للمدفون، تعظيماً لغير الله، كذلك يدخل فيه أن يذكر اسم الله على الذبيحة أو على المنحور ويكون قصده بالذبح أن يتقرب به للسلطان أو للملوك أو لأمير ما، وهذا يحدث عند بعض البادية أو كذلك بعض الحضر إذا أرادوا أن يعظموا ملكا قادما، أميرا قادما، أو أن يعظموا سلطانا أو شيخ قبيلة فإنهم يستقبلونه بالجِمَال، يستقبلونه بالبقر، يستقبلونه بالشياه يعني بالضأن، الخرفان، ويذبحونها في وجهه فيسيل الدم عند إقباله، هذا ذبح ولو سمى الله عليه لكن تكون الذبيحة قُصِد بها غير الله جل وعلا وهذه أفتى العلماء بتحريمها؛ لأن فيها إراقة دم لغير الله جل وعلا فلا يجوز أكلها ومن باب أولى قبل ذلك لا يجوز تعظيم أولئك بمثل هذا التعظيم؛ لأن إراقة الدم إنما يعظم به الله جل وعلا وحده؛ لأنه هو الذي سبحانه يستحق العبادة والتعظيم بهذه الأشياء وهو الذي أجرى الدماء في العروق سبحانه وتعالى.

الحال الثالثة: أن يذكر غير اسم الله وأن يقصد بالذبيحة غير الله جل وعلا، فيقول مثلاً باسم المسيح ويحرِّك يده ويقصد بها التقرب للمسيح، فهذا الشرك جمع شرك الاستعانة وشركاً في العبادة، أو أن يذبح باسم البدوي أو باسم الحسين أو باسم السيدة زينب أو باسم العيدروس أو باسم المرغناني أو نحو ذلك من الناس الذين توجه إليهم بعض الخلق بالعبادة، فيذبح باسمها ويقصد بها هذا المخلوق؛ يعني ينوى حين ذبح أن يريق الدم تقرباً لهذا المخلوق.

فهذا الشرك جاء من جهتين:

الجهة الأولى: جهة الاستعانة.

والجهة الثانية: جهة العبودية والتعظيم وإراقة الدم لغير الله جلَّ وعلا.

والرابع: أن يذبح باسم غير الله ويجعل ذلك لله جل وعلا، وهذا نادر، وربما حصل من أنه يذبح البدوي، أو يذبح للعيدروس أو يذبح للشيخ عبد القادر أو نحو ذلك ثم ينوي بهذا أن يتقرب إلى الله جل وعلا، وهذا في الحقيقة راجع إلى الشرك في الاستعانة والشرك في العبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض كلام له في هذه المسائل: ومعلوم أن الشرك في العبودية أعظم من الاستعانة بغير الله. فهذه المراتب أعظمها كلها شرك بالله جل وعلا.

والحالة الثانية صورة منها أن يذبح لسلطان أو نحوه. بعض العلماء ما أطلق عليها أنها شرك وإنما قال تحرم لأجل أنه لا يقصد بذلك تعظيم ذلك كتعظيم الله جل وعلا. ٣

فلو قدم السلطان إلى بلد، فذبحنا له، فإن كان تقرباً وتعظيماً، فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها.

أما لو ذبحنا له إكراماً وضيافة، وطبخت، وأكلت، فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك. ٥

المقصود أن الشرك يقصد الذبح لغير الله شرك في العبودية والشرك بذكر غير اسم الله على الذبيحة شرك في الاستعانة، ولهذا قال جل وعلا ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]؛ يعني إن أطعتموهم في الشرك فإنكم لمشركون كما أنهم مشركون. ٣

وقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] الآية.

قال ابن كثير: "يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى". ١

قال: "وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ تتمة الآيات: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٤] ختم الله هذه السورة العظيمة بهذه الآيات، لأن السورة تدور كلها على التّوحيد وبيان الشرك، وبيان ما يفعله المشركون مع الأصنام، وما حرّموه من المزارع والأنعام لأصنامهم. وختمها سبحانه وتعالى بالبراءة من كل ما يفعله المشركون، وهذا الغالب على السور المكية، فالسور المكية غالبها، بل تكاد تكون كلها في التّوحيد والنّهي عن الشرك، لأن النبي ﷺ مكث في مكة ثلاثة عشرة سنة يدعو إلى التّوحيد، وينهى عن الشرك، وينزل عليه القرآن في ذلك، ومن جُملة ما نزل عليه في مكة هذه السورة العظيمة: سورة الأنعام.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ هذا أمر من الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ أن يُعلن للناس، ليس لناس وقته فقط، بل للناس جميعاً إلى أن تقوم الساعة، وليس لناس بلده، بل لناس العالم ﴿إِنَّ صَلاتِي﴾ الصلاة في الشرع يُراد بها: العبادة المبتدئة بالتكبير المختتمة بالتسليم، التي تشتمل على عبادات قلبيّة وقوليّة وعملية، فالصلاة تشتمل على أنواع العبادة في القلب: من الخشوع، والخشية، والإقبال على الله سبحانه وتعالى، وباللسان: من التكبير، والتحميد، والثناء على الله، وتلاوة كتابه الكريم، ومناجاة الرب سبحانه وتعالى، وبالجوارح: من القيام، والرّكوع، والسجود، والجلوس. فالصلاة عبادة عظيمة، يجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها من أنواع العبادات، ولذلك جعلها الله عمود الإسلام، وجعلها الركن الثاني من أركان الإسلام.

﴿وَنُسُكِي﴾ النُّسُك المراد به: ما يذبح من بهيمة الأنعام على وجه التقرّب والعبادة، كهَدْي التمتُّع والقِران، وهَدْي التطوُّع، وهَدْي الجُبران، والأضاحي، والعقيقة، هذه كلها تُسمى نُسُكاً، فما ذُبح من بهيمة الأنعام على وجه التقرّب إلى الله تعالى بذبحه، فهو النُّسُك.٤

قال مجاهد في قوله: ﴿صَلاتِي ونُسُكِي﴾ النسك: الذبح في الحج والعمرة.

وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿ونُسُكِي﴾ ذبحي، وكذا قال الضحاك.[1] ١

قال هنا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ والنسك هو الذبح أو النحر؛ يعني التقرب بالدم، والتقرب بالدم لله جل وعلا عبادة عظيمة؛ لأن الذبائح أو المنحورات -الإبل؛ البقر، الغنم من الضأن والماعز- هذه مما تعظم في نفوس أهلها.

ونحرُها تقرباً لله جل وعلا والصدقة بها عبادة عظيمة:

فيها إراقة الدم لله.

وفيها تعلق القلب بحسن الثواب من الله جل وعلا.

وفيها حسن الظن بالله تبارك وتعالى.

وفيها التخلص من الشُّح والرغب فيما عند الله سبحانه بإزهاق نفس ما هو عزيز عند أهله.

ولهذا كان النحر والذبح من العبادات العظيمة التي يحبها الله جل وعلا، وهذه الآية دلَّت على أن النحر والصلاة عبادتان؛ لأنه جعل النسيكة لله، والله جل وعلا له من أعمال خلقه العبادات.

فلهذا صار وجه الدلالة أن قوله ﴿وَنُسُكِي﴾ فيه دلالة على أنَّ النُّسك عبادة من العبادات وأنه مستحَق لله جل وعلا. ٣

وكان الذبح على وجه التقرُّب موجوداً في الجاهلية، كانوا يذبحون للأصنام، ويذبحون للجن، ويذبحون للكواكب، يذبحون لغير الله عزّ وجلّ، ولهذا يقول النابغة في قصيدته:

لا والذي قد زردته حججا ... وما هريق على الأنصاب من جسد.

الأنصاب: الأصنام.

---

[1] رواه ابن جرير في تفسيره١١٢/٨

وهُرِيق، يعني: سُفك من الدماء من جسد، يعني: من ذبيحة.

فالنبي ﷺ بيّن أن دينه مخالف لدين المشركين، فالمشركون يذبحون لغير الله، والنبي ﷺ ومَن اتبعه يذبحون لله وحده لا شريك له، كما أنهم لا يصلُّون إلاَّ لله فكذلك لا يذبحون إلاَّ لله سبحانه وتعالى، وقَرْن النُّسُك بالصلاة يدلّ على أنه عبادة عظيمة، لا يجوز صرفها لغير الله، والنسك قد تساهل فيه كثير من الناس فصاروا يذبحون للجن طاعة للمُشَعْوِذِين من أجل العلاج بزعمهم.

﴿وَمَحْيَايَ﴾: ما أحيا عليه في عمري من العبادة كله لله عزّ وجلّ.

﴿وَمَمَاتِي﴾: ما أموت عليه –أيضاً– لله عزّ وجلّ، فيموت على التّوحيد، فمعنى الآية: أنه يحيا على التّوحيد، ويموت على التّوحيد، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لا شَرِيكَ لَهُ﴾ في ذلك وفي سائر أنواع العبادة. ٤

قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اللام هنا المتعلقة بقوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لام الاستحقاق.

لأن اللام في اللغة وفيما جاء من الاستعمال في القرآن:

تأتي لام المِلْك ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف:٧٩]؛ يعني يملكونها.

أو تكون لام الاختصاص وهو شبه الملك.

أو تكون لام الاستحقاق مثل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني جميع أنواع المحامد مستحَقة لله.

كذلك اللام هنا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي... لِلَّهِ﴾ يعني مستحَقّة لله جل وعلا.

قال سبحانه ﴿وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾، وهنا ﴿وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّه﴾ تكون اللام هذه –مع أنها واحدة–؛ لكن لكي يكون معناها رجوعها للأول غير معناها في رجوعها للمحيى والممات، فإن الله جل وعلا قال في هذه الآية من آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ المحيى والممات يعني الإحياء والإماتة وهذه بيد الله جل وعلا ولله مِلكاً فهو الذي يملكها سبحانه لأنها من أفراد ربوبيته جل وعلا على خلقه.

فهذه الآية بما اشتملت عليه من هذه الألفاظ الأربع دلت على توحيد الإلهية وعلى توحيد لربوبية؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ هذا توحيد الإلهية، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ هذا توحيد الربوبية لله، اللام إذا أرجعتها للأوليين الصلاة والنسك صار معناها الاستحقاق، وإذا أرجعتها للأخير صار معناها المِلك، ولهذا يقول أهل التفسير هنا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقاً، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ لله ملكاً وتدبيراً وتصرفاً. ٣

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب هو: المالك، والعالمين جمع عالَم، وهو: ما سوى الله عزّ وجلّ من المخلوقات، فكل المخلوقات ربها واحد، هو الله سبحانه وتعالى، لكن قد يُقال لمالك الشيء: ربه، مثل: رب البيت، رب الحاجة، رب السيارة، رب الدراهم، وهذا مقيّد، أما إذا قلت الرب، أو رب العالمين، فهذا لا يكون إلاّ لله سبحانه وتعالى.

أما هذه الأصنام وهذه الأوثان، فلا تستحق العبادة لأنها مملوكة لله سبحانه وتعالى، ومعبدة لله سبحانه وتعالى، والعبد لا يُعبد، حتى ولو كان من أشرف العباد كالملائكة والرسل والأولياء، كلهم عبيد لله سبحانه وتعالى.

وذكر عبادتين عظيمتين: الصلاة والنُّسُك، لأن الصلاة عبادة بدنيّة، والنُّسُك عبادة ماليّة، وهي من أفضل العبادات المالية. ٤

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ وهذا وجه استدلال ثالث بحيث قال ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ يعني في ما مر؛ لا شريك له في الصلاة والنسك فلا يتوجه بالصلاة والنسك إلى أحد مع الله جل وعلا أو من دونه، وكذلك لاشريك له في الملك في المحيي والممات؛ بل هو المتفرد سبحانه بأنواع الجلال وأنواع الكمال وهو المستحق للعبادة وهو ذو الملكوت الأعظم. ٣

قال: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرني ربي سبحانه وتعالى، فدلّ على أن العبادات توقيفيّة، لا يصلح منها شيء إلاَّ بأمر الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: ﴿بذلك﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أمرت﴾، فيكون دالاً على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك، لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله –سبحانه وتعالى– في جميع الأمور.٥

ثم قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، فالأوليّة هنا نِسْبِيَّة، وإلاَّ فالرسل والمؤمنون من قبل النبي ﷺ كلهم مسلمون، بمعنى أنهم مخلصون العبادة لله عزّ وجلّ.

والإسلام هو الاستسلام لله بالتّوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو الإسلام، وهذا دين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة.

كما أنّ الآية –أيضاً– تدلّ على أن الرسول أول من يبادر إلى امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يتأخر عن امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، فكذلك يجب على المسلم أن لا يتأخر عن الامتثال والمبادرة إذا أمره الله بشيء يكون من أول من يفعل ذلك، فمن أمر بشيء من المعروف والطاعة، فإنه يجب عليه أن يكون أول من يفعله. ٤

وقال هنا ﴿قُلْ إِنَّ﴾ و(إن) من المؤكدات، ومجيء التأكيد في الجمل الخبرية معناه أنَّ من خوطِب بذلك منكر لهذا الأمر أو منزَّل منزلة المنكر له، ولهذا يكون الاستدلال بهذه الآية على أنه خوطب بها من ينكر أن الصلاة لله وحده استحقاقاً وأن الذبح لله وحده استحقاقاً، وهم المشركون، فدلّ على أن هذه الآية في التوحيد؛ يعني في توحيد الذبح لأجل الله جل وعلا وأن الذبح لغيره مخالف لما يستحقه الرب جل وعلا. ٣

قوله: ﴿إن صلاتي﴾، الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة الله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿ونسكي﴾، النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان.

فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟

سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أن ما جاء في لسان العرف، فهو محمول على الحقيقة العرفية وفي لسان العرب على الحقيقة اللغوية.

فعندما أقول لشخص: عندك شاة؟ يفهم الأنثى من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق على الواحدة من الضأن والمعز، ذكراً كان أو أنثى، وعلى هذا، فيحمل النسك في الآية على المعنى الشرعي.

وقيل: تحمل على المعنى اللغوي، لأنه أعم، فالنسك العبادة، كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد. ٥

وإذا حملت على المعنى الشرعي، صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي: الصلاة، والنسك، ويكون هذا كمثال، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية، والذبح أعلى العبادات المالية، لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلى قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أن القربان أعلى أنواع العبادات المالية، فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية.

وهناك رأي ثالث يقول: إن الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعاً، والنسك: العبادة مطلقاً، ويكون ذلك من عطف العام على الخاص. ٥

ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن الله تعالى تعبد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك، كما تعبدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكاً في عبادته، وهو ظاهر في قوله: ﴿لا شريك له﴾ نفى أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح. ٢

وفي الآية دلائل متعددة على أن الذبح لغير الله شرك كما هو بين عند التأمل. ١

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾. [الكوثر:٢]

هذا أمر من الله لنبيه أن يُخلص الصلاة لله عزّ وجلّ، وأن يخلص النحر –وهو: الذبح– لله عزّ وجلّ. قالوا: وهذا شكر لله سبحانه وتعالى لما أعطاه الكوثر، فإن الله سبحانه وتعالى أمره أن يشكره على هذه النعمة العظيمة، بأن يصلِّي ويذبح لله عزّ وجلّ، ولهذا ربط بما قبله بفاء السببيّة.٤

قال سبحانه ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، (الْكَوْثَرَ) هو الخير العظيم الذي منه النهر الذي في الجنة، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ الفاء هذه سببية؛ يعني بسبب ذلك أشكر الله جل وعلا بتوحيده بأن صلِّ إلى ربك الذي أعطاك ذلك الخير الكثير وتقرب إليه بالنحر وبنَسك النسائك لله سبحانه؛ لأن الخير إنما أسداً هـ جل وعلا وحده. ٣

قال ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فأمر بالصلاة وأمر بالنحر، وإذا أمر به فهو داخل في حد العبادة؛ لأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والصلاة أمر بها الله جل وعلا وهي محبوبة لديه إذن، والنحر أمر الله جل وعلا به فهو محبوب ومرضي له إذن، فيكون إذن النحر عبادة لله جل وعلا، وفي التعريف الآخر أنّ العبادة هي كل ما يتقرب به العبد جل وعلا ممتثلاً به الأمر والنهي، صادقٌ على هذا؛ لأن النحر يعمل تقرباً إلى الله جل وعلا بامتثال الأمر والنهي. ٣

الشاهد من الآية: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾، ومن الآية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾: أن الله جل وعلا قَرَن النحر بالصلاة في الآيتين، فدلّ على أنه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله. ٤

إذن وجه الدلالة من هذه الآية على هذا الباب أن النحر عبادة وقد قال الله جل الله وعلا ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يعني وانحر لربك، فصار النحر لغير الله والذبح لغير الله خارج عمّا أمر الله به، فهو إذا صرف للعبادة لغير الله جل وعلا. ٣

وقوله: ﴿وانحر﴾، مطلق، فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته، وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها. ٥

عن علي ﷺ قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: ((لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه. لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غير منار الأرض)) [رواه مسلم].

قوله: "بأربع كلمات" يعني: أربع جُمَل، فالكلمات المراد بها الجمل. ٤

قال شيخ الإسلام: "لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا على الجملة المفيدة". ٥

وقوله: ((لعن الله)) اللعن معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله سبحانه وتعالى.

((من ذبح لغير الله)) أي: تقرَّب بالذبح لغير الله من الأصنام، ومن الأضرحة، ومن الأشجار والأحجار، والجن، وغير ذلك. ٤

قوله: ((من ذبح لغير الله))، عام يشمل من ذبح بعيراً، أو بقرة، أو دجاجة، أو غيرها.

قوله: ((لغير الله))، يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جنى، أو غيرهم. ٥

فكل من تقرَّب بالذبح إلى غير الله فإنه قد لعنه الله سبحانه وتعالى، وهذا يدلّ على شدّة هذه الجريمة، فإن الله جل وعلا لا يلعن إلا على جريمة خطيرة، فدلّ على شدة جريمة من ذبح لغير الله، أيًّا كان هذا الذبح كثيراً أو قليلاً جليلاً أو حقيراً.

وذلك بأن يذكر على الذبيحة غير اسم الله أو يكون في نيّته وقلبه واعتقاده أنه يتقرّب بهذه الذبيحة إلى غير الله، أو يريد بهذه الذبيحة دفع شر هذا المذبوح له، فيذبح للجن من أجل دفع شرهم، وخوفاً منهم، أو يذبح للصنم من أجل أن الصنم يجلب له الخير، كما يفعل بعض الجُهّال؛ إذا تأخر المطر ذهبوا بِثَوْر أو غيره من الحيوان وذبحوه في مكان معيّن، أو عند قبر يريدون نزول المطر، وقد يُبتلون فينزل المطر، وتحصل لهم حاجتهم ابتلاءً وامتحاناً من الله سبحانه وتعالى، وهذا لا يدلّ على جواز ما فعلوه، من الشرك والتقرّب لغير الله سبحانه وتعالى.

فمن فعل ذلك فهو مشرك وملعون، سواء تلفّظ وقال: هذه الذبيحة للقبر، أو للبدوي، أو للسيد الحسين، أو لفلان أو لفلان، أو ونوى بقلبه فقط. وهذه الذبيحة حرام، لأنها تدخل في قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ [البقرة:١٧٣] فما أهلّ به لغير الله يشمل ما ذُبح باسم غير الله، ويشمل ما ذُبح باسم الله ويُنْوى به الصنم أو الجن أو العفاريت، والمشَعْوِذُون الآن إذا جاءهم المرضى يأمرونهم بالذبح لغير الله لأجل أن يشفوا من مرضهم.

ويدخل في الذبح لغير الله أصناف: ما ذُبح لغير الله على وجه التقرّب، ولو قيل عليه: بسم الله، وهذا حرام بإجماع المسلمين، وهو شرك بالله عزّ وجلّ. وما ذُبح للّحم وسمي عليه بغير اسم الله. وما ذُبح من أجل التحيّة والتعظيم، مثل: ما يُذبح للملوك والرؤساء عند قدومهم إذا نزل من الطائرة، أو من السيارة، أو من الدابة؛ ذبحوا عند نزوله. وما يُذبح عند ابتداء

المشروع، فبعض الجُهّال، أو بعض الذين لا يُبالون، إذا أنشؤوا مشروعاً -مصنعاً أو غير ذلك- يذبحون عند تحريك الآلة.

وما يُذبح عند أول نزول البيت خوفاً من الجن، وهذا شرك، لأنه مما ذُبح لغير الله عزّ وجلّ. أما إذا ذبح ذبيحة عند نزول البيت من باب الفرح والسرور، ودعوة الجيران والأقارب، فهذا لا بأس به.

فالحاصل؛ أن قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾ وقول الرسول: ((لعن الله من ذبح لغير الله)) يشمل كل هذه الأمور:

١- ما ذُبح للأصنام تقرباً إليها.

٢- ما ذُبح للحم وذكر عليه اسم غير الله سبحانه وتعالى.

٣- ما ذُبح تعظيماً لمخلوق وتحيّة له عند نزوله ووصوله إلى المكان الذي تستقبل فيه.

٤- ما ذُبح عند انحباس المطر في مكان معين أو عند قبر لأجل نزول المطر.

٥- ما يُذبح عند نزول البيوت خوفاً من الجن أن تصيبه، كل هذا يدخل في الذبح لغير الله، ويكون شركاً بالله سبحانه وتعالى. ٤

وبدأ بها لأن الشرك أعظم الذنوب. ٦

وقوله: ((لعن)) يحتمل أن يكون الجملة خبرية، وأن الرسول ﷺ يخبر أن الله لعن من ذبح لغير الله، ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر، أي: اللهم العن من ذبح لغير الله، والخبر أبلغ، لأن الدعاء قد يستجاب، وقد لا يستجاب. ٥

((لعن الله)): هذا يدل على أنه من الكبائر الشركية كما في الحديث ((أكبر الكبائر الشرك بالله)). ٦

قال النووي: "المراد به أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى كمن يذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم أو للكعبة ونحو ذلك وكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفراً فإن كان

الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً". ذكره في شرح مسلم ونقله غير واحد من الشافعية وغيرهم. ١

وقال شيخ الإسلام: "قوله تعالى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ [البقرة:١٧٣] ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا. وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيه: باسم المسيح أو نحوه. كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله. وعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقربا إليه يحرم. وإن قال فيه: باسم الله. كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، الأول: أنه مما أهل به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مرتد. ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن،..."[١]. ٢

قوله: ((لعن الله من لعن والديه)) إن الله سبحانه وتعالى قَرَن حق الوالدين بحقه سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [النساء:٣٦]، فحق الوالدين يأتي دائماً بعد حق الله سبحانه وتعالى، كذلك النهي عن الإساءة إلى الوالدين تأتي بعد الإساءة في حق الله سبحانه وتعالى كما في حديث السبع الموبقات. فالذبح لغير الله، إساءة في حق الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر تنقّص الوالدين والإساءة إليهم بلعنهم، ٤

قوله: ((من لعن والديه))، أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنساناً أو شتمته، فهذا لعنه لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: ((يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه))[٢]. ٥

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم

[٢] البخاري: كتاب الأدب/ باب لا يسب الرجل والديه، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر.

فإذا كان هذا حال المتسبب فما ظنك بالمباشر ؟!. ١

فلا يجوز للولد أن يشتم والديه، وهذا من الكبائر، لأن الرسول ﷺ لعن من فعله، واللعن على الشيء يدل على أنه كبيرة، سواء لعنهما بالمباشرة أو بالتسبّب، فبعض الناس لا يلعن والديه مباشرة، لكن يتسبّب في ذلك، بأن يلعن والدي رجل آخر، ثم يرد عليه بالمثل، فيكون متسبباً في لعن والديه، وقد قال النبي ﷺ: ((إن من الكبائر أن يشتم الرجل والديه))، قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه يا رسول الله؟ قال: ((يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أم الرجل فيسبّ أمه))، والمسلم لا يجوز أن يكون لعّاناً، ولا سبّاباً، ولا بذيئاً، المسلم يجب أن يكون مؤدباً، ويتكلم بالكلام الطيّب ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة:٨٣] ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت:٣٤]، هكذا ينبغي للمسلم أنه يحفظ لسانه عن القول البذيء، ولاسيّما إذا كان هذا القول من أقبح الكلام كاللعن والسبّ والشتم، حتى البهائم والدواب والدُّور والمساكن لا يجوز لعنها، فقد لعنت امرأة ناقة لها وهي تسير مع النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بأخذ ما على الناقة وتركها تمشي، لا يتعرّض لها أحد، من باب التأديب والتعزير فلا يجوز لعن الآدميين، ولا لعن الدواب، ولا لعن المساكن، أو السيارات، أو غير ذلك. ٤

قوله: ((والديه))، يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم.

والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى، لأنه أولى بالبر، ولعنه ينافي البر. ٥

وسب الناس من الكبائر إن كان بغير حق، و في الحديث ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) و روى البخاري من حديث ثابت بن الضحاك قول الرسول عليه الصلاة و السلام ((لعن المؤمن كقتله)) وأخرج مسلم ((إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)). ٦

وقوله: ((لعن الله من آوى محدثاً)) آوى معناها: حَمَى، فالإيواء معناه: الحَمَى والدفع.

والمُحْدِث: هو الذي فعل جُرماً يستحق عليه إقامة الحد، فيأتي واحد من الناس ويَحُول دون هذا المجرم ودون إقامة الحد عليه، بجاهه، أو بقوته وسلطانه، أو بجنوده، أو بغير ذلك، فيمنع هذا المجرم من أن يقام عليه الحد. وهذا لعنه رسول الله.

وفي الحديث الآخر: ((من حالت شفاعته دون حد من حدود الله؛ فقد ضادّ الله في أمره))، وفي حديث آخر: ((تعافوا الحدود فيما بينكم، فإذا بلغت السلطان فلعن الله الشافع والمشفع)). ولما سرق رجل رِدَاء صفوان بن أُميّة، وهو بالمسجد، فأمسكه صفوان، وذهب به إلى النبي ﷺ فأمر النبي ﷺ بقطع يده، فقال صفوان: الرداء له يا رسول الله، أنا ما أردت هذا، قال: ((هلاّ قبل أن تأتيني به))، يعني: هلا سمحت عنه قبل أن تأتني به؟.

فإذا تقرّر الحد في المحكمة الشرعية فلابد من تنفيذه، إلاَّ إذا كان في إقامة الحد عليه ضرر على غيره، كالحامل إذا أُقيم عليها الحد تأثّر الحمل، فيؤخّر إلى أن تلد، وتجد من يرضعه وإلاّ تركت حتى تفطمه.

الحاصل؛ أن إيواء أصحاب الجرائم التي تستوجب الحدود، ومنع إقامة الحدود عليهم، من الكبائر، لأن النبي ﷺ لعن من فعله.

وفي بعض الروايات بفتح الدال ((لعن الله من آوى محدثاً)) والمحدَث معناه: البدعة، ومعنى آوى المحدَث أي: رضي به. فمن رضي بالبدعة، ولم يُنكرها وهو يقدر فقد آواها، يعني: من رأى البدع وسكت ولم يتكلم في إنكارها والبيان للناس أنها بدع، فقد آواها، يعني حماها بسكوته وتَرْكِه لها، فيكون مستوجباً للعنة، فكيف إذا دعا إليها ودافع عنها -والعياذ بالله-. ٤

والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم.

والإحداث في الأمر: أي في شؤون الأمة، كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثاً، فهو ملعون، وكذا من ناصرهم، لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه، فمن ناصره، فهو أشد وأعظم.

والمحدث أشد منه، لأنه إذا كان إيواؤه سبباً للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: ((إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة))، وظاهر الحديث: ولو كان أمراً يسيراً. ٥

قلت الظاهر أنه على الرواية الأولى يعم المعنيين لأن المحدث أعم من أن يكون بجناية أو ببدعة في الدين بل المحدث بالبدعة في الدين شر من المحدث بالجناية فإيواؤه أعظم إثم. ١

ثم قال ﷺ: ((لعن الله من غيّر منار الأرض)) المنار: جمع منارة، وهي: العلامة. والمراد بمنار الأرض للعلماء فيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المراد بمنار الأرض: المراسيم... .٤ أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيرها ظلماً، فهو ملعون وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض، لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: ((من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً، طوقه من سبع أرضين)) فالأمر عظيم، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري: قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.٥

سميت منار: لأنها تميز وتبين وتعرف حدود الأراضي وتدل عليها، فالذي يغيرها ملعون لأنه قد تؤدي إلى المشاكل والمصائب المقاتلة. ٦

والقول الثاني: أن المراد بمنار الأرض: أعلام الحَرَم الذي يحرم قتل صيده وَتَنْفِيره، ويحرم قطع شجره وحشيشيه، وأخذ لُقَطَتِه فقد جعل الله حول الكعبة حرماً من كل جانب، وهذه المنطقة، لا يدخلها مشرك، ولا يُنَفَّر صيدها، ولا يُخْتلى خلاها، ولا تُلْتَقَط لقطتها إلاَّ لمنشد، ولا يجوز القتال فيها إلاَّ دفاعاً، فالمراد بمنار الأرض على هذا القول: أنصاب الحَرَم، أي: الأعلام المجعولة على الحَرَم من كل جانب، من جهة التَّنْعيم، ومن جهة الحُدَيْبِيَة، ومن جهة عرفات ونَمِرة، ومن جهة الجِعْرانة، أنصاب مبنيّة وأعلام مقامة على حدود الحَرَم.

القول الثالث: أن المراد بمنار الأرض: العلامات التي على الطرق، وكانت معروفة، وفي وقتنا الحاضر اللوحات التي تجعلها المواصلات على الطريق، هذه من منار الأرض، فلا يجوز لأحد أن يغير هذه الأعلام، لأنه يضلل الناس والراجح من هذه الأقوال هو القول الأول. ٤

فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبي ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم، وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله -سبحانه وتعالى- حتى لا يقع فيه. ٥

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: ((دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب)) قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: ((مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما قرب قال: ليس عندي شيء أقرب قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة)) [رواه أحمد].

في الحديث علتان:

الأولى: أن طارق بن شهاب اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ، واختلفوا في صحبته، والأكثرون على أنه صحابي.

لكن إذا قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ، لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي، فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين، وهذا آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين.

ثم للحديث علة ثالثة، وهي أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفاً من قوله، وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل. ٥

قال: "وعن طارق بن شهاب" طارق بن شهاب البَجَلي الأَحْمَسي، صحابي جليل، أدرك النبي ﷺ ولكنه لم يسمع من الرسول ﷺ، فيكون حديثه عن الرسول مرسل صحابي، ومراسيل الصحابة مقبولة من غير شك، لأن الصحابي لا يرسل إلاّ عن صحابي مثله، فمراسيل الصحابة ليست كمراسيل غيرهم لأنهم كلهم عدول. ٤

وطارق من صغار الصحابة وغالب روايته من طريق أبي موسى الأشعري فهي مرسلة صحيحة فمرسل الصحابي صحيح. ٦

((دخل الجنة رجل في ذباب)) هذا حديث عجيب، ولذلك تعجّب منه الصحابة. ٤

فكأنهم تقالوا ذلك وتعجبوا واحتقروه، فبين لهم النبي ﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة ويستحق الآخر عليه النار. ١

والرسول ﷺ ساقه ولم يبيّنه من أجل أن ينتبهوا ويتشوقوا لمعرفة معناه. "قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: ((مرّ رجلان على قوم))" يعني: من الأمم السابقة.

((لهم صنم)) الصنم هو: ما كان على صورة حيوان، أما ما عُبد وهو على غير صورة حيوان، كالشجر والحجر والقبر فهذا يسمى وثناً، فالوثن أعم من الصنم، لأن الصنم لا يُطلق إلاَّ على التِّمثال، وأما الوثن فيُطلق على التِّمثال وغيره، حتى القبر وثن إذا عُبد، قال ﷺ: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد))، فالوثن كل ما عُبد من دون الله على أي شكل كان. ((لا يجوزه أحد)) أي: يتجاوزه ولا يمرّ عليه أحد، ((حتى يقرِّب له شيئاً)) يعني: يذبح له تعظيماً له.

((فقال لأحدهما: قرّب)) ٤

وقوله هنا ((قرِّب)) يعني اذبح تقرباً. ٣

((قال: ليس عندي شيء أقرِّبه)) اعتذر بالعدم، ولم يقل: إن الذبح لغير الله لا يجوز، أو هذا منكر –والعياذ بالله–، وهذا يدلّ على أنه لو كان عنده شيء لقربه.

((قالوا له: قرِّب ولو ذباباً)) فقرب ذباباً، يعني: اذبحه للصنم، ((فقرّب ذباباً فخلوا سبيله)) سمحوا له بالمرور، ((فدخل النار)) بسبب الشرك، وأنه ذبح لغير الله، والعبرة بالنيّة والقصد لا بالمذبوح. والقصد أنه ما استنكر هذا الشيء، ولا تمنع منه، وإنما اعتذر بعدم وجود شيء فلذلك دخل النار –والعياذ بالله–. ٤

في هذا بيان عظمة الشرك ولو في شيء قليل وأنه يوجب النار ألا ترى إلى هذا لما قرب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسه وهو الذباب كان جزاؤه النار لإشراكه في عبادة الله إذ الذبح على سبيل القربة والتعظيم عبادة وهذا مطابق لقوله تعالى ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾. ١

((وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئاً دون الله عزّ وجلّ)) امتنع وأنكر الشرك، ((فضربوا عنقه)) يعني: قتلوه، ((فدخل الجنة)) بسبب التّوحيد. ٤

والْحَظْ هنا أنهم لم يكرهوهم بالفعل، فالحديث لم يدلَّ على أنهم أُكرهوا؛ لأنه قال ((مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئاً))، فظاهر قوله ((لا يجوزه أحد)) يعني أنهم لا يأذنون لأحد بمجاوزته عند ذلك الطريق حتى يقرب وهذا ليس إكراها إذ يمكن أن يقول سأرجع من حيث أتيت، ولا يجوز ذلك الموضع ويتخلص من ذلك.

وهذا يدل على أن الإكراه بالفعل لم يحصل من أولئك فلا يدخل هذا في قوله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل:١٠٦]؛ لأنه ليس في الحديث دلالة -كما هو ظاهر- على حصول الإكراه وإنما قال ((مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرّب له شيئاً))، ((لا يجوزه أحد)) ما صفة عدم السماح بعدم المجاوزة؟ هل هو أنه لا يجوزه حتى يقتل أو يقرب؟ أو لا يجوزه حتى يقرب أو يرجع؟

بعض العلماء استظهر من قوله في آخر الحديث من قتلهم لأحد الرجلين: أنه لا يجوزه حتى يُقتل، وأن هذا عُلم بالسياق، فصار ذلك نوع إكراه. فلهذا استشكلوا كون هذا الحديث دالا على أنّ من فعل هذا الفعل يدخل النار مع أنه مكره.

والجواب عن هذا الإشكال: أن هذا الحديث على هذا القول -وهو أنه حصل منهم الإكراه بالقتل- أن هذا الحديث فيمن كان قبلنا، ورفع الإكراه أو جواز قول كلمة الكفر أو عمل الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان هذا خاص بهذه الأمة، هذا أجاب به بعض أهل العلم.

والثاني وهو ما قدمتُ: أنّ السياق ليس بمتعين على أنهم هددوه بالقتل، وإذا كان غير متعين بأنهم هددوه بالقتل فإنه لا يُحمل على شيء مجمل لم يُعيَّن، ودلالة قوله هنا ((فضربوا عنقه)) يعني فيمن لم يقرب فدخل الجنة ربما لأنه أهان صنمهم بقوله ((ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل)).

لهذا لاستشكل هذا الحديث طائفة من أهل العلم وهو بحمد الله ليس فيه إشكال؛ لأنه:

إمّا أن يُحمل على أنه كان فيمن كان قبلنا فلا وجه إذا لدخول الإكراه.

أو يُحمل على أنهم لم يكرهوه حين أراد المجاوزة ولكن قتلوه لأجل قوله ((لم أكن لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل)). ٣

((فضربوا عنقه فدخل الجنة))

وهذا فيه أمرين:

الأول: إما أن شريعتهم ليس فيها عذر بالإكراه ولهذا لم يأخذ بالرخصة ويتخلص من شرهم.

الثاني: يحتمل أنه ترك الرخصة و أخذ بالعزيمة لقوة إيمانه ويقينه فقتلوه.

وفي شريعتنا أنه من أكره على الشرك ففعل ما أكره عليه بقصد التخلص من شرهم ولم يطمئن قلبه بذلك فلا حرج لقوله تعالى: ﴿إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان﴾ فيأخذ بالرخصة حتى و لو قال الكفر بلسانه. ٦

وجه الدلالة من هذا الحديث أن التقريب للصنم بالذبح كان سبباً لدخول النار، وذلك من حيث ظاهر المعنى أن من فعله كان مسلما فدخل النار بسبب ما فعل وهذا يدل على أن الذبح لغير الله شرك بالله جل وعلا-شرك أكبر-؛ لأن ظاهر قوله دخل النار يعني استوجبها مع من يخلد فيها.

ووجه الدلالة أيضاً أن تقريب هذا الذي لا قيمة له -وهو الذباب- يدل على أن من قرَّب ما هو أبلغ وأعظم منفعة وأعظم عند أهله وأغلى أنه سبب أعظم لدخول النار. ٣

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: هذا الحديث فيه جواز الإخبار عن الأمم السابقة، والتحدّث عنها بما ثبت لأجل العظة والعبرة.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على تحريم الذبح لغير الله، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك، لأن هذا الرجل الذي ذبح الذباب دخل النار، وحتى لو كان المذبوح شيئاً تافهاً، والرجل الثاني عظّم الشرك، وتجنبه ولو كان شيئاً حقيراً، فدخل الجنة.

المسألة الثالثة: كما قال الشيخ رحمه الله في مسائله: أن المدار على أعمال القلوب، وإن كان الشيء الظاهر تافهاً، لكن المدار على عمل القلب.

المسألة الرابعة: فيه دليل -كما قال الشيخ رحمه الله- على قُرب الجنة والنار من الإنسان، كما قال ﷺ: ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله، والنار مثل ذلك))، هذا ضربوا عنقه فدخل الجنة، وذاك خلو سبيله فدخل النار.

المسألة الخامسة: أن هذا الرجل الذي ذبح الذباب كان مؤمناً، فدخل النار بذبحه الذباب، لأنه لو كان كافراً لدخل النار بكفره، لا بذبح الذباب، فدلّ على أنه كان مؤمناً. ٤

وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل: دخل النار في ذباب. ٢

وهذه مسألة خطيرة جدًّا، فأين الذين يذبحون للقبور وللجن، وللشياطين، وللعفاريت، وللسحرة؟، فدلّ على أن الشرك الأكبر يخرج من الملة ولو كان شيئاً يسيراً، فأمور التّوحيد وأمور العقيدة لا يُتسامح فيها. ٤

إذن هذا الباب وهو قوله (باب ما جاء في الذبح لغير الله) ظاهر في الدلالة على أن التقرب لغير الله جل وعلا بالذبح أنه شرك بالله جل وعلا في العبادة، فمن ذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة. ٣

[الأسئلة]

س/ وهذا يقول: يقول: أهلي يذبح الذبيحة يوزعها على المساكين لدفع البلاء فهل تجوز تلك النية؟

ج/ هذا فيه تفصيل: ذلك أن ذبح الذبائح إذا كان:

من جهة الصدقة ولم يكن لدفع شيء متوقَّع أو لرفع شيء حاصل ولكن من جهة الصدقة وإطعام الفقراء، فهذا لا بأس به، داخل في عموم الأدلة التي فيها الحض على الإطعام وفضيلة إطعام المساكين.

وأما إن كان الذبح؛ لأن بالبيت مريضا فيذبح لأجل أن يرتفع ما بالمريض من أذى، فهذا لا يجوز ويحرم. قال العلماء: سداً للذريعة. ذلك لأنّ كثيرين يذبحون حين يكون بهم مرض لظنهم أن المرض كان بسبب الجن أو كان بسبب مؤذ من المؤْذين، إذا ذبح الذبيحة وأراق الدم فإنه يندفع شره أو يرتفع ما أحدث، وهذا لا شك أنه اعتقاد محرم ولا يجوز.

والذبيحة لرفع المرض والصدقة بها عن المريض. قال العلماء: هي حرام ولا تجوز سداً للذريعة، وللشيخ العلامة سعد بن حمد بن عتيق رسالة خاصة في الذبح للمريض.

كذلك إذا كان الذبح لدفع أذى متوقع مثلاً كان بالبلد داءً معين فذبح لدفع هذا الداء، أو كان في الجهات التي حول البيت ثَمَّ شيء يؤذي، فيذبح ليندفع ذلك المؤذي؛ إما لص مثلاً يتسلط على البيوت، أو أذى يأتي للبيوت فيذبح ويتصدق بها لأجل أن يندفع ذلك الأذى، هذا أيضاً غير جائز ومنهي عنه سداً للذريعة؛ لأن من الناس من يذبح لدفع أذى الجن وهو شرك بالله جل وعلا.

فإذن تحصَّل من ذلك أنّ قول النبي ﷺ ((داووا مرضاكم بالصدقة)) فيما رواه أبو داوود وغيره، وقد حسنه بعض أهل العلم وضعفه آخرون، أن معنى ((داووا مرضاكم بالصدقة)) يعني بغير إراقة الدم، فيكون إراقة الدم مخصوص من ذلك من المداواة بالصدقة؛ لأجل ما فيه من وسيلة إلى الاعتقادات الباطلة.

ومعلوم أن الشريعة جاءت لسد الذرائع جميعاً -يعني الذرائع الموصلة إلى الشرك-، وجاءت أيضاً بفتح الذرائع الموصلة إلى الخير، فما كان من ذريعة يوصل إلى الشرك والاعتقاد الباطل فإنه يُنهى عنه]. [1]

س/ وهذا يقول: عندنا عادة وهي أن من حصل بينه وبين شخص عداوة أو بغضاء بتعدٍّ من أحدهما على الآخر، فيطلبون من أحدهما أن يذبح ويسمون ذلك ذبح صلح، فيذبح؛ يحضرون معهم من حصلت معه هذه العداوة، فما حكم ذلك؟

ج/ ذبح الصلح الذي تعمله بعض القبائل في صورته المشتهرة المعروفة لا يجوز؛ لأنهم يجعلون الذبح أمام من يريدون إرضاءه، ويريقون الدم تعظيماً له أو إجلالا لإرضائه. وهذا يكون محرماً ؛ لأنه لم يُرِق الدم لله جل وعلا وإنما أراقه لأجل إرضاء فلان، وهذا الذبح محرم والذبيحة أيضاً لا يجوز أكلها؛ لأنها لم تُهَلَّ أو لم تذبح لله جل وعلا وإنما ذبحت لغيره.

فإن كان الذبح أن هذا صفته من جهة التقرب والتعظيم صار شركاً أكبر، وإن لم يكن من جهة التقرب والتعظيم صار محرماً ؛ لأنه لم يَخلص من أن يكون لغير الله.

فصار عندنا في مثل هذه الحالة وكذلك في الذبح للسلطان ونحوه في المسألة التي مرت علينا بالأمس أن يكون الذبح في مقدمة وأن يراق الدم بقدومه وبحضرته، هذا قد يكون على جهة التقرب والتعظيم، فيكون الذبح حينئذ شركاً أكبر بالله جل وعلا؛ لأنه ذبح وإراقة الدم تعظيماً للمخلوق وتقرباً إليه.

وإن لم يذبح تقرباً أو تعظيماً وإنما ذبح لغاية أخرى مثل الإرضاء ولكنه شابه أهل الشرك في ما يذبحونه تقرباً وتعظيماً، فنقول الذبيحة لا تجوز ولا تحل والأكل منها حرام.

ويمكن للإخوة الذين يشيع عندهم في بلادهم أو في قبائلهم مثل هذا الذي المسمى ذبح الصلح ونحوه أن يبدلوه بخير منه وهو أن تكون وليمة للصلح، فيذبحون للضيافة يعني يذبحون لا بحضرة من يريدون إرضاءه، ويدعونهم ويكرمونهم، وهذا من الأمر المرغب فيه أن يكون الذبح كما يذبح المسلم عادة لضيافة أضيافه ونحو ذلك.

[1] مأخوذ من الوجه الأول من الشريط الرابع، من باب ما جاء في الرقى والتمائم.

[س/ وهذا يقول ما الحكم إذا ذبح العبد ذبيحة من أجل أن الله قد شاف مريضه وخرج من المستشفى؟

ج/ هذا يرجع إلى نيته في ذبح هذه الذبيحة، فإذا كانت بعد الانتهاء من المرض وبعد إن ارتفع المرض وعوفي وشفي ذلك المريض بفضل الله جل وعلا وبنعمته، فهذا يختلف حاله:

إذا قصد أنها شكر الله جل وعلا يتصدق بلحمها فهذا حسن لأن المرض قد انتهى وارتفع فهو لا يقصد بها الاستشفاء، وإنما هي نوع شكر لله جل وعلا أو دعا عليها أحداً من أقربائه أو من ما يحبون ذلك المريض ونحو ذلك فهذا من باب الإكرام.

وإما إذا كان مقاصده أو نياته في هذا الذبح أن يدفع رجوع هذا المرض مرة أخرى، أو إن يدفع شيئاً من انتكاسات المرض أن يدفع شيئاً مما يخاف فهذا داخل في عدم الجواز سداً لذريعة الاعتقادات الباطلة.][1] ٣

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوى محدثاً وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك في الأرض وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

[1] مأخوذ من الوجه الثاني للشريط السابع من باب الشفاعة.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: ((دخل النار في ذباب)).

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك)).

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾. وقد سبق ذلك في أول الباب. ٥

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾. وقد سبق ذلك في أول الباب. ٥

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

بدأ به، لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد، لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء: ٢٣]، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته. ٥

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه، لأن الرسول ﷺ فسره بقوله: ((بسبب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)). ٥

الخامسة: لعن من آوى محدثاً وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك. وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوى محدثاً ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثاً بجريمة، فهو داخل في ذلك. ٥

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك في الأرض وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير. وسواء كانت بينك وبين جارك أو بينك وبين السوق مثلاً، لأن الحديث عام. ٥

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

فالأول ممنوع، والثاني جائز، فإذا رأيت من آوى محدثاً، فلا تقل: لعنك الله، بل قل: لعن الله من آوى محدثاً على سبيل العموم، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما صار يلعن أناساً من المشركين من أهل الجاهلية بقولك: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً)) نهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ [1][آل عمران: ١٢٨]، فالمعين ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن، فجاء هذا الحديث لاعناً للعموم، فيبقى الخصوص على أصله، لأن المسلم ليس بالطعان ولا باللعان، والرسول ﷺ ليس طعاناً ولا لعاناً، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلا، فالحديث لا تفريق فيه. ٥

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قرب ولو ذباباً يقتضي أنه فعله قاصداً التقرب، أما لو فعله تخلصاً من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهذا قال الفقهاء:

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب قول الله تعالى: ﴿وليس لك من الأمر شيء﴾

لو أكره على طلاق امرأته فطلق تبعاً لقول المكره، لم يقع الطلاق، بخلاف ما لو نوى الطلاق، فإن الطلاق يقع، وإن طلق دفعاً للإكراه، لم يقع، وهذا حق لقوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات))[1].

وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب، لأن الأصل أن الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف رحمه الله، أي أنه لو فعله بقصد التخلص ولو ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر، لعموم قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمان وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصاً مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضاً: أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره على القول لم يكفر، وإذا أكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها، وفيها نظر من حيث الدلالة، لما سبق أن الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصاً من شرهم، فإن لدينا: نصاً محكماً في الموضوع، وهو قوله تعالى: ﴿من كفر بالله...﴾ [النحل: ١٠٦] الآية، ولم يقل: بالقول، فما دام عندنا نص قرآني صحيح، فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه، فإنها تحمل على النص المحكم.

الخلاصة أن من أكره على الكفر، لم يكن كافراً ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدراً. ه

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب قول النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات".

مسألة:

هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهراً وباطناً، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانياً: أن يوافق ظاهراً لا باطناً، ولكن يقصد التخلص من الإكراه، فهذا جائز.

ثالثاً: أن لا يوافق لا ظاهراً ولا باطناً ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهراً؟

فيه تفصيل:

إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة، فإن الأولى أن يوافق ظاهراً لا باطناً، لا سيما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما نفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتى وإن لم يكن فيه مصلحة، ففي بقائه على الإسلام زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رخص له أن يكفر ظاهراً عند الإكراه، فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهراً لا باطناً.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام، فإنه يصبر، وقد يجب الصبر، لأنه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين، قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد[1] ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

ولو حصل من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة، لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد رحمه الله في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهراً، لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.٥

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: ((دخل النار في ذباب)).

وهذا صحيح، أي أنه كان مسلماً ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار. ولو كان كافراً قبل أن يقرب الذباب، لكان دخوله النار لكفره أولى، لا بتقريبه الذباب. ٥

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح ((الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك)).

والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا علم أن الجنة أقرب إليه من شراك النعل، فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيدة، كقوله ﷺ لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: ((لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه))[١]، والنار إذا قيل له: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشية لئلا يزل فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين. ٥

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض، لأنه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر، فقال: بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصاً من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله حق بالنسبة إلى أن المدار على القلب.

والحقيقة أن العمل مركب على القلب، والناس يختلفون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفرق بينهم قصداً وذلاً أعظم من الفرق بين أعمالهم البدنية، لأن من الناس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذل معه ولا يذعن لكل حق، وبعضهم يكون عنده ذل للحق، لكن عنده نقص في القصد، فتجد عنده نوعاً من الرياء مثلاً.

---

[١] مسند الإمام أحمد (٥/٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة – وقال: "حسن صحيح".

فأعمال القلب وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلى الإنسان أن يخلصها لله.

وأقوال القلب هي اعتقاداته، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأعماله هي تحركاته، كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا. ٥

(بَابُ لا يُذْبَحُ لِلهِ بِمَكَانَ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)

(بَابُ لا يُذْبَحُ لِلهِ بِمَكَانَ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨] الْآيَةُ .

عَنْ ثَابِتَ بْنِ الضَّحَّاكِ ط، قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فقَالَ: ((هَلْ كَانَ فِيها وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟)) قَالُوا: لَا. قَالَ: ((فَهَلْ كَانَ فِيها عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟)) قَالُوا: لَا. فقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعَصيةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَإِسْنَادُهَا عَلَى شَرْطِهِمَا .

هذا الباب تابعٌ للباب الذي قبله؛ لأن الباب الذي قبله: "ما جاء في الذبح لغير الله" يعني: أنه محرَّمٌ وأنه شرك، وهذا الباب فيه سدُّ الذريعة المُفْضية إلى الذبح لغير الله.

وقوله: "لا يذبحُ لله في مكان يذبح فيه لغير الله" لأن الذبح في هذا المكان وإن كان لله عزّ وجلّ، فإنه وسيلة إلى الشرك، وكذلك في الذبح في هذا المكان تعظيم له ومشابهة للمشركين، وقد نهى النبي ﷺ عن الوسائل المفْضية إلى الشرك، مثل: نهيه عن الصلاة إلى القُبور وإنْ

كان المصلي لا يصلي إلاَّ لله عزّ وجلّ، ونهي عن الدعاء عند القُبور وإن كان الداعي لا يدعو إلاَّ الله وحده، لكن هذا المكان لا يصلُح التعبد لله فيه، لأنه وسيلةٌ إلى الشرك، وكذلك نهى عن الصلاة عند غروب الشمس لأنه وسيلة إلى عبادتها لأن المشركين كانوا يسجدون لها عند الغروب، ونهى عن الصلاة عند شروق الشمس لأن المشركين كانوا يسجدون لها في هذا الوقت؛ فكل موطن وكلُّ زمان قد اتخذه المشركون لعبادتهم فإننا نهينا أن نُشاركهم فيه، وأمرنا أن نبتعد عنه، من باب سدِّ الذرائع، ومن باب قطْع المشابهة للمشركين، ممّا يعطي دينَ الإسلام استقلالية تامّة عن كلِّ دين سواه في الأديان الباطلة. ٤

(بمكان يذبح فيه لغير الله)، قال الإمام (بمكان) والباء هنا لها معنى زائد على كلمة (في)، وهذا المعنى الزائد أنها أفهمت معنى الظرفية ومعنى المجاورة جميعاً؛ لأن الباء تكون للمجاورة أيضاً كما تقول: مررت بزيد؛ يعني بمكان قريب من مكان زيد أو مكان مجاور لمكان زيد، والظرفية بـ(في) تفيد أنه في نفس المكان، واستعمال حرف الباء يفيد أنه مجاور لذلك المكان.

وهذان المعنيان جميعاً مقصودان وهو أن لا يذبح لله:

بمجاورة المكان الذي يذبح فيه لغير الله.

ولا في نفس المكان الذي يذبح فيه لغير الله.

لأن الجميع فيها اشتراك مع الذين يذبحون لغير الله جل وعلا. ٣

صورة المسألة أنّ مكاناً ما يذبح فيه لغير الله، مثلاً عند قبر أو عند مشهد أو عند مكان معظّم، المشركون أو الخرافيون اعتادوا أن يكون هذا المكان مما يتقربون فيه بالذبح لهذا الصنم أو الوثن أو القبر أو البقعة ... إلى آخره، فإذا كانوا يتقربون لهذا المكان للقبر أو نحوه، ويذبحون لصاحب هذا القبر يعني من أجله، فإنه لا يحل أن يذبح المسلم الموحّد في هذا المكان، ولو كانت ذبيحته مخلصا فيها لله جل وعلا؛ لأنه يكون قد شابهَ أولئك المشركين في تعظيم الأمكنة التي يتعبدون فيها بأنواع العبادات ويصرفونها لغير الله جل وعلا.

فالذبح لله وحده دونما سواه بإخلاص في المكان الذي يتقرب فيه لغير الله لا يحلّ ولا يجوز؛ بل هو من وسائل الشرك ومما يغري بتعظيم ذلك المكان، وحكمه أنه محرم ووسيلة من وسائل الشرك. ٣

وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر. ٥

وقول الله تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدً﴾ الآية.

أي: في مسجد الضرار، نهيٌ للنبي ﷺ عن الصلاة في هذا المسجد.

وقصته: أنّ أبا عامر الفاسق كان قد قرأ الكتب السابقة في الجاهلية، وتعبّد حتى صار يُقال له: "أبو عامر الراهب"، ويعظِّمه الناس لِمَا يظهر عليه من الدين؛ فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حسده وكفر به، وأبغض الرسول ﷺ ؛ وسمّاه النبي بـ "أبي عامر الفاسق"، لأنه خرج عن طاعة الله وكفر برسول الله ﷺ.

ثم ذهب هذا الكافر إلى الشام يؤلِّب النصارى على رسول الله ﷺ، وكتب وهو في الشام إلى جماعة من المنافقين في المدينة: أنِ ابْنوا لنا مكاناً من أجل أن نجتمع فيه ونتشاور. يريدون أن يكون هذَا المكان محل اجتماع لأعداء الرسول ﷺ، يتشاورون فيه للكيْد للإسلام، وكانوا لم يجرءوا على أن ينوه على أنه مَجْمَع، فأظهروه بصورة المسجد، وقالوا: بنيناه من أجل الضعيف والمريض والليلة المطيرة أو الليلة الشاتَية، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلّي فيه، يريدون من هذا التغطية والخديعة.

فوعدهم ﷺ وقال: ((إنا على سفر إلى غزوة تبوك، إنْ شاء الله إذا رجعنا نصلي فيه))، فلما رجع النبي ﷺ من تبوك ولم يبق على وصوله إلى المدينة إلاَّ ليلة –أو ليلتان– أتاه الوحي من السماء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾، وبيّن سبحانه مقاصدهم الخبيثة في هذا البناء.

وقوله: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ فيه: منع الرسول ﷺ من الصلاة في هذا المسجد وتيئيس لهؤلاء. ٤

مسجد الضرار أُقيم إرصاداً ومحادة لله ورسوله وتفريقاً بين المؤمنين، فهو مكان أُقيم على الخيانة وعلى مضادة الإسلام وأهله، فلهذا لما كانت هذه غاية من أقامه فإن مشاركتهم فيه

بالصلاة لا تجوز؛ لأنه إقرار لهم أو تكثير لسوادهم وإغراء للناس بالصلاة فيه، فنهى الله جل وعلا نبيه ﷺ ونهى المؤمنين عن أن يصلوا في مسجد الضرار. ٣

قوله: ﴿أبداً﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق. ٥

ففي هذه الآيات: أن النّيات تؤثّر في الأمْكنة والمباني، النيّات الخبيثة تؤثر في الأمكنة والبِقاع خبثاً، والنيّات الصالحة تؤثّر فيها بركة وخيراً. ففيها: الحث على إصلاح المقاصد، وفيها: دليلٌ على أن الاعتبار بالمقاصد لا بالمظاهر؛ هؤلاء بنوا مسجداً في الظاهر، ولكن ليس مقصودهم المسجد، فدلّ على أن ما كل من أظهر الصلاح يُقبَل منه حتى تُعرف حقيقته. وفيه: التنبيه على خِداع المخادِعين، وأن يكون المؤمنون على حذر دائماً من المشبوهين ومن تضليلهم، وأنهم قد يتظاهرون بالصلاح، ويتظاهرون بالمشاريع الخيرية، ولكن ما دامت سوابقهم وما دامت، تصرُّفاتهم تشهد بكذبهم فإنه لا يُقبل منهم، ولا ننخدع بالمظاهر دون نظر إلى المقاصد وإلى ما يترتب –ولو على المدى البعيد– على هذه المظاهر. ففيه: تنبيه المسلمين إلى الحذر في كل زمان ومكان من تضليل المشبوهين، وأن كل من تظاهر بالخير والصلاح والمشاريع الخيرية لا يكون صالحاً، إلاَّ من لم يكن له سوابق في الإجرام، ولم يُعرف عنه إلاَّ الخير؛ فهذا يُقبل منه، لكن من كان معروفاً بالسوابِق السيّئة والمكائد الخبيثة، أو يظهر عليه أو على فلتات لسانه أو على كَلامه شيء؛ فإننا نأخذ الحذر منه ولا ننخدع، لأنّ الله جل وعلا نهى رسوله أن يصليَ في مكان أُعِدَّ للمعصية،

فدلّ هذا على أنه لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله، كما لا يصلى لله في مكان أُعِدَّ للمعصية والكفر، كذلك لا يُذبح لله في مكان أُعِدَ للمعصية. وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ هو مسجد قباء لصلاح نية أهله ﷺ.

وفيه: دليلٌ على فضيلة مسجد قباء، وفضل أهله رضوان الله عليهم، وأنّ هذا المسجد بقيَ له الفضل في الإسلام إلى أنْ تقوم الساعة، ويقصد للصلاة فيه ممّن كان في المدينة اقتداءً بالنبي ﷺ. ٤

فمعنى ذلك أن محلات الكفر والضلال يجب التخلص منها وعدم إبقاؤها حتى لا يستعان بها على الفساد. واستدل به المؤلف على أن المكان المعد للذبح لغير الله أو الصلاة لغير الله أو معد للفسق والمعاصي يجب أن لا يبقى حتا لا يفسد المسلمين ولا ينسب إليهم وهذا قياس جلي والقياس ثابت كما في حديث: ((فلعل ابنك هذا نزعه عرق)). ٦

مناسبة الآية للباب ظاهرة وهو أن الله جل وعلا نهى عن أن يُصليَ النبي ﷺ في مسجد الضرار، ومعلوم أن صلاته عليه الصلاة والسلام وصلاة المؤمنين معه هي خالصة لله جل وعلا دون من سواه، ونُهوا مع أنهم مخلصون ليس عندهم نية الإضرار ولا التفريق ولا الإرصاد؛ لكن نهوا لأجل هذه المشاركة والمشابهة التي تغري بإتيان ذلك المكان.

وهذه هي الصورة الموجودة فيمن ذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله؛ فإنه وإن كان مخلصا لكن دعا إلى تعظيم ذلك المكان بفعله. ٣

ووجه الدلالة من الآية على الترجمة من جهة القياس لأنه إذا منع الله رسوله ﷺ عن القيام لله تعالى في هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة مع أنه لا يقوم فيه إلا لله فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله لا يذبح فيها الموحد لله لأنها قد أسست على معصية الله والشرك به يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي. ١

هنا إشكال أو إيراد وهو أنه جاء الإذن عن الصحابة بالصلاة في الكنيسة،[1] وقد صلى عمر رضي الله عنه في كنيسة بيت المقدس، والصحابة رضوان الله عليهم منهم من صلى ببعض كنائس البلاد، فصلاتهم في الكنائس لله جل وعلا أليست مشابهة للصلاة في مسجد الضرار أو للذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله؟ .

---

[1] قال ابن عبد البر في التمهيد ج٥ص٢٢٩: وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بيعة في موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة.

الجواب: أن هذا الإيراد ليس بوجيه؛ ذلك أن النهي عن صلاة النبي ﷺ في مسجد الضرار وعن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله هذا لأجل أن صورة العبادة واحدة، فصورة الذبح من الموحد ومن المشرك واحدة وهي إمرار السكين -آلة الذبح- على الموضع وإزهاق الدم[١] في ذلك المكان، وهذا يحصل من الموحد ومن المشرك غير الموحد، الصورة واحدة، ولهذا لا يميز بين هذا وهذا، كذلك صلاة النبي ﷺ لو صلى والصحابة في مسجد الضرار صلاتهم مشابهة من حيث الصورة لصلاة المنافقين رجع الاختلاف إلى اختلاف ما في القلب، والنيات ومقاصد القلوب لا تُشرح للناس ولهذا تقع المفسدة ولا تحصل المصلحة.
وأما الصلاة في الكنيسة فإن صورة الفعل مختلفة؛ لأن صلاة النصارى ليست على هيئة وصورة صلاة المسلمين، فيعلم من رأى المسلم يصلي أنه لا يصلي صلاة النصارى وليس فيه إغراء بصلاة النصارى ومشاركتهم فيها، فهذا الفرق بين المسألتين. ٣

أمر عمر بن الخطاب بالصلاة في الكنيسة لأنهم اتخذوها معبداً لله لكن عبادتهم ليست مستقيمة و فيها شرك وباطلة فلعل الشبهة أنهم اتخذوها معبداً لله أو أن المؤمنين مضطرون للصلاة فيها عند مرورهم منها عند أسفارهم، فقد يكون للضرورة أو لأن جنس عبادة الله متفق عليها بينهم فيما يتعلق بالصلاة. ٦

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأله النبي ﷺ فقال: ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد))؟ قالوا: لا. قال: ((فهل كان فيها عيد من أعيادهم))؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: ((أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم)) [رواه أبو داود، وإسنادها على شرطهما].

[١] الشيخ يريد: إراقة الدم وإزهاق الروح.

قال: "وعن ثابت بن الضحّاك" الأشهلي ﷺ، صحابيٌّ جليل، "أن رجلاً نذر" النذر في اللغة هو: الالتزام؛ يقال: نذر كذا إذا التزمه، ونذر دم فلان بمعنى أنه التزم أن يقتله. وأما في الشرع: فالنذر معناه: "إلزام المكلَّف نفسه طاعة لله لم تجب عليه بأصل الشرع" من صلاة وصيام وحجٍ وعمرة وصدقة وغير ذلك. والنذر -في الأصل- غير مشروع، ولا يُستحب للإنسان أنه ينذر لنهيه ﷺ عن النذر وقال: ((إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل))، وفي رواية: ((لا تنذروا)) -بالنهي- ((فإن النذر لا يأتي بخير))، فما دام الإنسان على السَّعَة فإنه لا ينبغي له أن ينذر ليكون في سَعة، إنْ أراد أن يتعبّد ويأتي بالطاعة أتى بها، وإلاّ فليست لازمة له، ولكنه إذا نذر ورَّط نفسه، ووجب عليه الوفاء بالنذر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧)﴾، وقال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠]، وقال ﷺ: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه)). ٤

ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يميناً وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول: إن الله لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر. ٥

"أن ينحر إبلاً" النحر معناه: ذبح الإبل في النحر -وهو اللَّبَّة-، يقال: نحر البعير، وذبح الشاة والبقرة. فالنحر خاصٌّ بالإبل، وأما الذبح فيكون لغير الإبل.

"ببُوانة" (بُوانة) اسم موضع بين مكة والمدينة، قيل: إن قريبٌ من مكة عند (السعديّة) التي هي (يَلَمْلَم) ميقات أهل اليمن، وقيل إنه قريبٌ من المدينة عند (ينبع). فالحاصل؛ أنه اسم موضع بين مكة والمدينة. "فسَأل النبي ﷺ" فيه دليل: على الرجوع إلى أهل العلم، وأن الإنسان لا يقدِم على شيء من العبادات حتى يعرف هل هو مشروع أو غير مشروع؟. "فقال النبي ﷺ: ((هل كان فيها وَثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟))" يعني: هل كان في هذا المكان -ببُوانة- وثن من أوثان الجاهلية يُعبد، يعني: وأُزيل الآن. ٤

النبي عليه الصلاة والسلام استفصله؛ لأن المقام يقتضي الاستفصال، يتبادر للذهن لم خص هذا الرجل بوانة بأن ينحر فيها الإبل؟ لم؟ قد يكون لأن فيها عيداً من أعيادهم أو لأن فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد أو كان في ذلك الموضع؟ لأن التخصيص في الغالب يكون لغرض العبادة، لهذا استفصله النبي عليه الصلاة والسلام فقال: ((هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيّةِ يُعْبَدُ؟)). قالُوا: لاَ هذا السؤال يدل على أنه لو تخلّف هذا الوصف لم يجز؛ لو وجد هذا الوصف وهو أنه كان ثمة وثن من أوثان الجاهلية يعبد لم يجز النحر في ذلك الموضع، وهو المراد من إيراد هذا الحديث في الباب. ٣

السائل واحد، لكنه لما كان عنده ناس أجابوا النبي ﷺ، ولا مانع أن يكون المجيب غير المسؤول.٥

والوثن: كل ما عُبد من دون الله من حجر ومن شجر أو صورة أو قبر، أما الصنم فهو خاصٌّ بما كان على صورة. و((الجاهلية)) المراد بها: ما كان قبل الإسلام. وقد زالتْ -بحمد الله- ببعثة النبي ﷺ، لكن قد يبقى منها أشياء في بعض الناس، مثل قول النبي ﷺ لبعض أصحابه: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))، ومثل قوله ﷺ: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية؛ الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب والاستقاء بالنجوم والنياحة على الميّت)). فقد يبقى من أعمال الجاهلية شيء في بعض المسلمين. أما الجاهلية العامة فقد زالتْ ببعثة النبي ﷺ، لا كما يقول بعض الكُتّاب: "جاهلية القرن العشرين"، أو "الجاهلية الحديثة" فلا يجوز مثل هذا التعبير لما فيه من التعميم. فهذا فيه: دليلٌ على أنّ الصنم ولو زال وأن الوثن ولو زال من المكان أنّ هذا المكان يُترك ولا يُذبح فيه، لأنه قال: ((هل كان فيها؟))، يعني: في الزمان الماضي؛ فدلّ على أنّ مكان الوثن يجب أن يُهجَر قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾ [المدثر:٥] الرجز الأصنام وهجرها: تركها وترك المكان الذي كانت فيه.

ثم قال: ((فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟)) العيد: اسم لِمَا يعود ويتكرّر من الزمان أو المكان. فالعيد الزماني مثل: عيد الفطر وعيد الأضحى. والعيد المكاني: وهو المكان الذي يجتمع الناس فيه للعبادة مثل: عرفة، ومزدلفة، ومنى، هذه أعياد للمسلمين المكانية والزمانية.٤

قالَ: ((فهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أعْيَادِهِمْ؟)) العيد هو المكان أو الزمان الذي يعود أو يعاد إليه، فالعيد قد يكون مكانياً بأنه اسم للمكان الذي يُعتاد المجيء إليه ويرجع إليه في وقت معتاد، ولهذا قال النبي ﷺ في المكان ((لا تجعلوا قبري عيداً)) يعني هذا المكان لا تجعلوه مكاناً تعتادون المجيء إليه، وكذلك الأزمنة تكون أعياداً لأنه تعود في وقت معين، فقوله ((هلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أعْيَادِهِمْ؟))؛ يعني عيد مكاني؛ لأنه قال ((هلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أعْيَادِهِمْ؟)) ويحتمل أيضاً أن بكون عيداً زمانياً.

وأعياد المشركين من ناحية الأمكنة أو الأزمنة معلوم أنها راجعة إلى أديانهم ودينهم شركي، فإذن يكون المعنى أنهم يتعبدون في تلك الأعياد بعباداتهم الشركية ومما يفعل في أعياد المشركين وأعظم ما يفعل التقرب بالذبح وإراقة الدماء، فدل على أن مشاركة المشركين في مكان يتقربون فيه لغير الله بصورة مشابهة لفعلهم ظاهراً أن هذا لا يجوز؛ لأنه مشاركة لهم في الفعل الظاهر ولو كان مخلصاً لا يذبح إلا لله أو لا يصلي إلا لله جل وعلا. ٣

والشاهد من هذا الحديث للباب في قوله ﷺ: ((هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد فهل كان فيها عيد من أعيادهم)) فدلّ على أنه لا يُذبح لله في مكان كان في السابق يُذبح فيه لغير الله، لأن هذا وسيلةٌ إلى الذبح لغير الله عزّ وجلّ، كالصلاة عند القبر، وكالدعاء عند القبر، كل الوسائل التي تُفضي إلى الشرك ممنوعة؛ وكإسراج القبور نهى عنه النبي ﷺ لأنه وسيلةٌ إلى الشرك، والبناء عنى القبور نهى عنه الرسول ﷺ لأنه وسيلة إلى الشرك؛ كل الوسائل التي تُفضي إلى الشرك نهى عنها ﷺ، ومنها: الذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله.
وقوله: ((أوف بنذرك)) فيه دليل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة. وقوله: ((فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله)) فيه تحريم الوفاء بنذر المعصية ومنه نذر الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله. ٤

وفيه أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع. ١

أقسام النذر:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة، لقوله ﷺ: ((من نذر أن يطيع الله، فليطعه)) [1]

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية، لقوله ﷺ: ((ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه))[2]، وقوله: ((فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله)). [3]

الثالث: ما يجري مجر اليمين، وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم، لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالباً، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً، فعلي لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل، فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين، لأنه إن صام فقد وفى بنذره، وإن لم يصف حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صيغة النذر، مثل أن يقول: لله علي نذر، فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبي ﷺ: ((كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين)) [4].

مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: ((من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه))، ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففي قوله: ((فلا يعصه)) دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.

[2] البخاري: كتاب الإيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.

[3] مسلم: كتاب النذر/ باب لا وفاء لنذر في معصية الله.

[4] رواه ابن ماجة والترمذي وصححه، وأصله في مسلم.

وإذا انعقد: هل تلزمه كفارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: ((لا وفاء لنذر في معصية الله)).

وبقوله ﷺ: ((ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه))، ولم يذكر النبي ﷺ كفارة، ولو كانت واجبة، لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب، لأن الرسول ﷺ ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفارة يمين وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه، فعدم الذكر ليس ذكراً للعدم، نعم، لو قال الرسول: لا كفارة، صار في الحديثين تعارض، وحينئذ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف الكفارة، بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتماداً على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل، فاعتماداً عليه لم يقله، لأنه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا، لكانت تطول السنة، لكن الرسول ﷺ إذا ذكر حديثاً عاماً وله ما يخصصه في مكان آخر حمل عليه، وإن لم يذكره حين تكلم بالعموم.

وأيضاً من حيث القياس لو أن الإنسان اقسم ليفعلن محرماً ، وقال: والله، لأفعلن هذا الشيء وهو محرم، فلا يفعله، ويكفر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا، فكفارته كفارة يمين، وهذا القول أصح. ٥

جاء عدة أخبار تدل على وجوب الكفارة وهو الراجح. ٦

وقوله: ((ولا فيما لا يملك ابن آدم)) الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعاً، كما لو قال: لله على أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدراً كما لو قال: لله عليّ نذر أن أطير بيدي فهذا لا يصح لأنه لا يملكه والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل. ٥

فالشاهد: أن المؤمن لا ينبغي أن يفعل الطاعة في مكان من أماكن الجاهلية والشرك والمعاصي، إلا إذا غير هذا المكان وصار مسجداً مثلاً أو بيتاً وزالت عنه آثار الجاهلية ونسيت فلا بأس كما أمر النبي بهدم اللات وبناء مسجد مكانه؛ فهذا يجوز التعبد فيه. ٦

فهذا الحديث يدلُّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أنّ الذبح عبادة لا تجوز لغير الله.

المسألة الثانية: فيه: مشروعية الرجوع إلى أهل العلم وسؤال أهل العلم؛ لأن هذا الرجل لم يُقدِم على تنفيذ النذر إلاَّ بعد أن سأل النبي ﷺ.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على مشروعية تثبُّت المفتي من حال السائل، ومقاصده قبل إصدار الفتوى؛ لأن الرسول ﷺ تثبّت قبل الفتوى؛ وبعض الناس يتسرّع في الفتوى مباشرة قبل أن يكمِّل السائل السؤال أو قبل أن يعرف مقصده.

المسألة الرابعة: وهي الشاهد للباب: أنه لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله عزّ وجلّ، لأن هذا من وسائل الشرك.

المسألة الخامسة: فيه: خطورة الذبح لغير الله؛ لأنه إذا كان لا يُذبح لله في المكان الذي يُذبح فيه لغير الله فكيف بالذبح لغير الله؟.

المسألة السادسة: فيه: وُجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة.

المسألة السابعة: فيه: أنّ النذر إذا كان نذر معصية أو أنه لا يجوز الوفاء به أو في شيء لا يملكه الناذر فإنه لا يلزمه؛ وإنما اختلف العلماء: هل عليه كفّارة يمين أو لا؟، على قولين أرجحهما ليس عليه شيء.

المسألة الثامنة: في الحديث: دليلٌ على تحريم نذر المعصية، كمن نذر أن يقتل فلاناً – أو نذر الذبح لغير الله، أو نذر الذبح في مكان يُذبح فيه لغير الله، وفيه: دليل على تحريم الوفاء بنذر المعصية. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البيّنة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. وقد سبق ذلك في أول الباب. ٥

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حرم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل، بخلاف الذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا، فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد. ٥

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البيِّنة ليزول الإشكال. فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل لكن الرسول ﷺ بين ذلك بالاستفصال. ٥

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

لأن النبي ﷺ استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال، لأننا لو استفصلنا في كل مسألة، لطال الأمر.

فمثلاً: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن: هل هو معلوم؟ وعن المثمن: هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلقاً أو غير معلق؟ وهل كان ملكاً للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟.

أما إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق أو لأم؟ فإن كان لأم، سقط، وأخذ الباقي العم، وإلا، سقط العم، وأخذ الباقي الأخ. ٥

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

لقوله: ((أوف بنذرك))، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خشي، كان ممنوعاً، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزية، كان ممنوعاً. ٥

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

لقوله: ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟))، لأن "كان" فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنه ربما يعاد. ٥

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله. لقوله: ((فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟)). ٥

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية. لقوله: ((فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله)). ٥

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد، فإنه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشد إثماً، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد عبد الوهاب: ولو لم يقصده. ٥

العاشرة: لا نذر في معصية.

هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: ((لا وفاء لنذر))، وبينهما فرق.

فإذا قيل لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد، وإذا قيل: لا وفاء، فالمعنى أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا.

لكن: ((لا نذر)) يحمل على أن المراد لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: ((ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه)). ٥

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

يقال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.

والمعنى: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعاً، وما لا يملكه قدراً.٥

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ)

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ)

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الْإنسان:٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ)).

النذر في اللغة: التزام فعل الشيء. وفي الشرع: التزام مكلّف فعل طاعة لم تجب عليه بأصل الشرع. وهذا منهيٌّ عنه؛ لما فيه من إحراج الإنسان لنفسه، وتحميلها شيئاً قد يشق عليها، وكان قبل أن ينذر في سعة من أمره؛ إن شاء فعل هذه الطاعة المستحبة، وإن شاء لم يفعلها، فلمّا نذر فِعْلها لزمَتْه.

والدليل على أن الوفاء بنذر الطاعة عبادة: أن الله سبحانه ذكر أن من صفات الأبرار: أنهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧]، وأمر بالوفاء به بقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، وقال النبي ﷺ: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه)).

وإذا كان كذلك فهو من أنواع العبادة، لأن العبادة كما عرّفها شيخ الإسلام ابن تيمية: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة"، فكل أنواع الطاعات التي أمر الله بها، أو أمر بها رسوله ﷺ ومنها الوفاء بالنذر عبادة، فمن صرف شيئاً من هذه الأنواع لغير الله صار مشركاً الشرك الأكبر الذي يُخرجه من المِلّة. ٤

وقال الإمام ابن النحاس الشافعي[١] في كتاب (الكبائر): "ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار والأشجار والعيون والآبار ويقولون انها تقبل النذر وهذه كلها بدع شنيعة ومنكرات قبيحة

[١] توفي في معركة ضد الفرنجة سنة ٨١٤هـ

تجب إزالتها ومحو أثرها فإن أكثر الجهال يعتقدون إنها تنفع وتضر وتجلب وتدفع وتشفي المرض وترد الغائب إذا نذر لها وهذا شرك ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ".[1] ١

النذر لغير الله كائنٌ من الشرك، والشرك هنا المقصود به الشرك الأكبر؛ النذر لغير الله شرك أكبر بالله جل وعلا، ووجه كون النذر شركاً بالله جل وعلا أنّ النذر المطلق والمقيَّد إيجاب عبادة على المكلف؛ لأن النذر هو إلزام المكلف نفسَه بعبادة لله جل وعلا، هذه حقيقة النذر، فالنذر إلزام بعبادة، فهو عبادة و يلزم المرء نفسه بعبادة إما مطلقاً أو بقيد.

ويدل أيضاً على أن النذر عبادة أن الله جل وعلا مدح الذين يوفون بالنذر فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ [الإنسان:٧] فهذا يدل على أن الوفاء بالنذر أمر مشروع واجب أو مستحب، وهو محبوب لله جل وعلا؛ يعني من حيث الدلالة، وإلا فإن الوفاء بالنذر واجب لأنه إلزام بالطاعة، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((منْ نذَرَ أنْ يطيعَ اللهَ، فليطعْه)).

فإذن الوفاء بالنذر مدح الله أهله وإذا كان كذلك فيكون عبادة لأنه محبوب لله جل وعلا. ٣

قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: "قد نهي عن النذر وندب إلى الدعاء والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة ويظهر به التوجه إلى الله تعالى والتضرع له وهذا بخلاف النذر فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة". فقد نص أبو بكر على ان الدعاء والنذر عبادتان.[2] ١

وهنا قاعدة في أنواع الاستدلال على أن عملا من الأعمال صرفه لغير الله جل وعلا شرك أكبر، وذلك أن الاستدلال له نوعان:

– فكل دليل من الكتاب أو السنة فيه إفراد لله بالعبادة يكون دليلاً على أن كل عبادة لا تصلح إلا لله، هذا نوع من الأدلة، كل دليل فيه إفراد الله جل وعلا بالعبادة، يصلح أن تستدل به على أن عبادة ما لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا، بأي مقدمة؟ بأن تقول دل

[1] تنبيه الغافلين لابن النحاس ص٣٢٣

[2] نقله عنه في فتح الباري ١١/٥٨٠

الدليل على وجوب صرف العبادة لله وحده وعلى أنه لا يجوز صرف العبادة لغير الله جل وعلا، وأن من صرفها لغير لله جل وعلا فقد أشرك، وتلك العبادة الخاصة مثلاً عندنا هنا النذر تقول هذه عبادة من العبادات، فهي داخلة في ذلك النوع من الأدلة.

- والنوع الثاني من الاستدلال: أن تستدل على المسائل بأدلة خاصة وردت فيها، تستدل على الذبح بأدلة خاصة وردت في الذبح، تستدل على وجوب الاستغاثة بالله وحده دون ما سواه على أدلة خاصة بالاستغاثة، وعلى أدلة خاصة بالاستعاذة ونحو ذلك.

فإذن الأدلة على وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة تفصيلاً وإجمالاً وعلى أن صرفها لغير الله شرك أكبر يستقيم بهذين النوعين من الاستدلال.

استدلال عام بكل آية أو حديث فيها أمر بإفراد الله بالعبادة والنهي عن الشرك فتُدخل هذه الصورة فيها لأنها عبادة بجامع تعريف العبادة.

والثاني أن تستدل على المسألة بخصوص ما ورد فيها من الأدلة.

لهذا قال الشيخ رحمه الله هنا (باب الشرك النذر لغير الله) واستدلّ عليها بخصوص أدلة وردت في النذر.

والآيات التي قدّمها في أول الكتاب كقوله جل وعلا ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وكقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ [النساء:٣٦]، وكقوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ [الأنعام: ١٥١]، هذه أدلة تصلح لأن تستدل بها على أن صرف النذر لغير الله شرك، فتقول: النذر لغير الله عبادة والله جل وعلا نهى أن تصرف العبادة لغيره، وأن من صرف العبادة لغير الله فهوّ مشرك، وتقول: النذر عبادة لأنه كذا وكذا لأنه داخل في حد العبادة حيث إنه يرضاه الله جل وعلا ومدح الموفين به.

الدليل الخاص أن تستدل بخصوص ما جاء في الكتاب والسنة من الأدلة على النذر، ولهذا الشيخ هنا أتى بالدليل التفصيلي وفي أول الكتاب أتى بالأدلة العامة على كل مسائل العبادة.

وهذا من الفقه الدّقيق في التصنيف وفِقْهِ الأدلة الشرعية من أن المستدل على مسائل التوحيد ينبغي له أن يدرك التنويع؛ لأن في تنويع الاستدلال وإيراد الأدلة من جهة ومن جهة أخرى ثالثة ورابعة ما يضعف حجة الخصوم الذين يدعون الناس لعبادة غير الله وللشرك به جل وعلا، وإذا أتيت مرة بدليل عام ومرة بدليل خاص ونوّعت فإنه يضيق، أما إذا ليس ثم دليل واحد فربما أوّلَه لكَ أو ناقشك فيه فيحصل ضعف عند المستدل، أما إذا أنتبه لمقاصد أهل العلم وحفظ الأدلة فإنه يقوى على الخصوم والله جل وعلا وعد عباده بالنصر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥٩]، وقد قال الشيخ رحمه الله في كشف الشبهات: والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين. وهذا صحيح فإن عند العوام الذين علموا مسائل التوحيد وأخذوها عن أهلها عندهم من الحجج ووضوح البينات في ذلك ما ليس عند بعض المتعلمين. ٣

النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك. ٥

وشرك الجاهلية وشرك عباد القبور الذين ينذرون لهم ويستغيثون بهم ويطلبون الحوائج منهم وهو الذي بعث الأنبياء لإنكاره وهذا كان عند الجاهلية. ٦

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله على نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي، لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرم، مثل: والله، لأسرقن، ونظيره نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك، لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة، فقد صرفها لغير الله، فيكون مشركاً.

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقاً، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله فلا ينعقد وليس فيه كفارة.

وأما نذر المعصية، فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله على المحرم ينعقد، وفيه كفارة. ٥

والشيخ رحمه الله في هذه الأبواب إنما يحكي أنواعاً تقع من بعض الناس وهي من الشرك، يريد أن يحذر المسلمين منها، ومن ذلك: النذر لغير الله من الجن، أو الأولياء والصالحين، أو أصحاب القبور، وهذا عبادة لغير الله عزّ وجلّ فهو شرك، وهذا واقع في هذه الأمة بكثرة، من حين وُجدت الأضرحة، وبُنيت على القبور، وصار كثير من الناس يتجهون إليها، لأنهم قيل لهم: إن هذه القبور فيها بركة، وفيها نفع، وفيها دفع ضرر، وإنها مجرَّبة، فمن نذر للقبر الفلاني، أو للشيخ الفلاني، فإنه يحصل له مقصوده، إن كان مريضاً يُشفى، وإن كانت امرأة تريد الحمل فإنها إذا نذرت للشيخ الفلاني أو للقبر الفلاني تحمل، وإذا حصل بالناس تأخر مطر ونذروا لهذه القبور نزل المطر، إلى غير ذلك من المغْريات.

وقد يفعلون هذا ويحصل لهم مقصودهم ابتلاءً وامتحاناً من الله سبحانه وتعالى، أو أن هذا يصادف قضاءً وقدراً فيحصل، ويظنوا أنه بسبب النذر لهذا الميت أو لهذا القبر أو هذا الوليّ -بزعمهم.- وحصول المقصود لا يدل على جواز الفعل، فيجب أن يُتنبّه لهذه الشبهة، لأنهم أهلكوا بها كثيراً من الناس، يقولون: القبر الفلاني مجرَّب، إذا فعل الإنسان عنده نذراً أو ذبح ذبيحة يحصل له مقصوده، فبذلك انصرفت قلوب كثير من العوام والجُهَّال، أو حتى بعض من العلماء غير المحقِّقين إلى فعل هذا، والنبي ﷺ يقول: ((وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين))، فالخطر شديد من هذه الأمور، لأنها كثُرت في الأمة، بسبب وجود هذه الأوثان التي يسمونها الأضرحة: ضريح السِتِّ نفيسة، ضريح البدوي، ضريح لفلان، صُرفت لها العبادات، من نذور، وذبح لغير الله، وتبرّك بها، وطواف بها، ودعاء عندها، إلى غير ذلك، أو استغاثة بها من دون الله عزّ وجلّ، يدعونها: المدد يا فلان، المدد يا سيّدي فلان، أو يا رسول الله، أو يا عليّ، أو يا أي شخص ينادونه، حتى في حالة الشدائد التي كان المشركون الأولون يُخلصون فيها الدعاء لله، هؤلاء كلما اشتد بهم الكَرْب زاد شركهم، فصاروا يستغيثون

بالأولياء، فالسفينة -أو المركب- إذا غرق في البحر -أو أشفى على الغرق- صاروا ينادون عليًّا، أو فلاناً، أو فلاناً؛ أدركنا، المدد يا فلان، ولا يقولون: يا الله، مع أن المشركين الأوّلين إذا مسّهم الضر في البحر ضل من يدعون إلاَّ الله سبحانه وتعالى، فينادون الله، ويُخلصون له الدين، فإذا أنجاهم إلى البر عادوا إلى الشرك. ٤

هاهنا سؤال معروف في هذا المقام: وهو أن النذر مكروه، قد كره النبي ﷺ النذر وسئل عنه فكرهه وقال ((إنه لا يأتي بخير))، فكيف إذن يكون عبادة وقد كرهه عليه الصلاة والسلام؟

والجواب: أن النذر قسمان: نذر مطلق، ونذر مقيد.

والنذر المطلق: هو أن يلزم العبد نفسه بعبادة لله حل وعلا، هكذا بلا قيد؛ يعني يقول مثلاً: لله علي نذر أن أصلي ركعتين، ليس في مقابله شيء يحدث في المستقبل أو شيء حدث له، فيُلزم نفسه بعبادة صلاة أو عبادة صيام أو نحو ذلك، فهذا النذر المطلق وهو إلزام العبد نفسه بطاعة لله جل وعلا أو بعبادة ليس هو الذي كرهه عليه الصلاة والسلام؛ لأن الذي كرهه وصفه بقوله ((إنما يستخرج به من البخيل)) وهذا هو:

النذر المقيد: الذي يجعل إلزام نفسه بطاعة لله جل وعلا مقابَلا بشيء يحدثه الله جل وعلا له ويقدره ويقضيه له، يقول مثلاً إن شفى الله مريضي فلله علي نذر أن أتصدق بكذا وكذا، إن نجحت فسأصلي ليلة، إن عينت في هذه الوظيفة فسأصوم أسبوعاً ونحو ذلك، فهذا كأنه يشترط به على الله جل وعلا، فيقول: يا ربي إن أعطيتني كذا وكذا صمت لك، إن أنجحتني صليت أو تصدقت، إن شفيت مريضي فعلت كذا وكذا، وهذا بالمقابلة، وهذا الذي وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((إنما يستخرج به من البخيل)) لأن البخيل هو الذي لا يعمل العبادة حتى يقاضى عليها، فصار ما أعطاه الله من النعمة أو دفع عنه من النقمة كأنه في حس ذلك الناذر قد أعطي الأجر وأعطي ثمن تلك العبادة.

وهذا يستحضره كثير من العوام والذين يستعملون النذور فإنهم يظنون أن حاجاتهم لا تحصل إلا بالنذر. وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله وغيره من أهل العلم: إن من ظن أنه لا تحصل

حاجة من حاجاته إلا بالنذر فإنه في اعتقاد محرم؛ لأنه ظن أن الله لا يعطي إلا بمقابل، وهذا سوء ظن بالله جل وعلا، وسوء اعتقاد فيه سبحانه وتعالى؛ بل هو المتفضل المنعم على خلقه.

فإذن إذا تبين ذلك، فالنذر المطلق لا يدخل في الكراهة، وإذا قلنا النذر عبادة فنظر فيه إلى جهة المطلق وإلى جهة عدم التقييد فيما إذا قيد ووفي بالنذر فإنه يكون قد تعبد الله بتلك العبادة وألزم نفسه بها، فيكون النذر على ذلك نذرا يظهر أنه عبادة لله جل وعلا، والكراهة إنما جاءت لصفة الاعتقاد لا لصفة أصل العبادة، فإنه في النذر المقيد إذا قال إن كان كذا وكذا فلله عليّ كذا وكذا الكراهة راجعة إلى ذلك التقييد لا إلى أصل النذر، دلّ على ذلك التعليل حيث قال ((فإنما يستخرجه له من البخيل)) إذن فلا إشكال إذن، والنذر عبادة من العبادات العظيمة. ٣

والنذر على قسمين. نذر طاعة، ونذر معصية.

فنذر الطاعة مثل: الاعتكاف في المسجد الحرام، أو الصلاة في المسجد الحرام، أو المسجد الأقصى، أو المسجد النبوي أو غيرها من المساجد ينذر أن يصلي في أحد المساجد الثلاثة، ويسافر إليه من أجل ذلك، هذا نذر طاعة، وهو في الأصل غير واجب، لكن لما نذره وجب عليه بنذره، والدخول في النذر ابتداءً غير مرغّب فيه، والنبي ﷺ نهى عن النذر، قال: ((لا تنذروا، فإن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل))، وذلك لأن الإنسان في سَعَة في أمور الطاعة غير الواجبة، إن شاء فعلها وله أجر، وإن شاء تركها ولا حرج عليه، والله لا يحب لنا أن نكلف أنفسنا شيئاً لم يوجبه علينا: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وإدخال الإنسان نفسه في نذر غير واجب عليه في الأصل، قد يعجز، وقد يشق عليه، وعلى هذا تُنزَّل الأدلة التي تمدح الذين يوفون بالنذر. ٤

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾

وجه الاستدلال ظاهر وهو أن الله جل وعلا مدح الموفين بالنذر، ومدحه للموفين بالنذر يقتضي أن هذه العبادة محبوبة له جل وعلا وأنها مشروعة وما كان كذلك فهو من أنواع العبادات فيكون صرفه لغير الله جل وعلا شرك أكبر. ٣

قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧)﴾ [الإنسان:٧] هذا مدح لهم، بعد أن ينذروا، ليس مدحاً للدخول في النذر، وإنما هو مدح للوفاء به بعد لزومه، فالإنسان إذا التزم شيئاً لله من الطاعة وجب عليه الوفاء، قال ﷺ: ((اقضوا الله، فالله أحق بالقضاء)).

ونذر الطاعة دَين في ذمة المسلم؛ يجب عليه الوفاء به، ومن هنا مدحهم الله.

فوجه الاستدلال من الآية الكريمة على أن النذر لغير الله شرك: لأنها دلّت على أن النذر عبادة، لأن الله مدح الموفين به، وإذا كان عبادة فصرفه لغير الله شرك. ٤

وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك: أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سبباً يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك. ٥

وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى مدح الموفين بالنذر والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم لا يمدح على فعل المباح المجرد وذلك هو العباده فمن فعل ذلك لغير الله متقرباً إليه فقد أشرك. ١

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ [الحج: ٢٩]، لكان أوضح، لأن قوله: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة، لأن العبادة ما أمر به شرعاً.٥

وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي الآية الثانية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ ولازم ذلك: أن يجازيكم عليه، وهذا من باب الحث على الوفاء بالنذر.

ووجه الاستدلال من الآية الكريمة من وجهين:

الوجه الأول: أن الله قرن النذر بالنفقة، والنفقة في سبيل الله طاعة، فدلّ على أن النذر طاعة.
الوجه الثاني: قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ وهذا من باب الحث على النفقة، وعلى الوفاء بالنذر؛ فدلّ على أنه طاعة، وإذا كان النذر طاعة، فإن صرفه لغير الله شرك. هذا وجه استدلال المصنّف رحمه الله. ٤

النذر عظمه الله جل وعلا بقوله ﴿فإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ وعظَّم أهله، وهذا يدل على أن الوفاء به عبادة محبوبة لله جل وعلا. ٣

قوله ﴿فإن الله يعلمه﴾، تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدل على أنه من العبادة التي يجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية. ٥

وقال الشيخ قاسم الحنفي[1] في شرح درر البحار: "النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ويقول ياسيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا أو من الطعام كذا أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقاد ذلك كفر" -إلى أن قال -: "إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحرام بإجماع المسلمين" نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق في آخر كتاب الصوم

---

[1] قاسم بن قطلوبغا بن عبدالله المصري، الحنفي: محدث فقيه أصولي، مؤرخ، مات سنة ٨٧٩هـ. انظر الضوء اللامع للسخاوي ١٨٤/٦، ومعجم المؤلفين٦٤٨/٢

ومنه نقله المرشدي أيضاً في تذكرته ونقله غيرهما عنه وزاد "وقد ابتلي الناس بهذا لا سيما في مولد أحمد البدوي".

وقال الشيخ صُنعُ الله الحلبي الحنفي[1] في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء وأثبت الأجر في ذلك: "فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله فيكون باطلاً وفي التنزيل ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ وقوله: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له﴾ أي صلاتي وذبحي لله كما فسر به، قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ [الكوثر:٢] وفي الحديث: ((لا نذر في معصية الله)) رواه أبو داود وغيره، والنذر لغير الله إشراك مع الله"-إلى أن قال-: " فالنذر لغير الله كالذبح لغيره."١

وفي (الصحيح) عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)).٢

وجه الدلالة من هذا الحديث أنّ النبي ﷺ أوجب الوفاء بالنذر فقال ((منْ نذَرَ أنْ يطيعَ اللهَ، فليطعْه)) وذلك إيجاب الوفاء بالنذر الذي يكون على طاعة؛ كأن يقول: لله عليَّ أن أصلي كذا وكذا. هذا يجب عليه أن يوفي بهذا النذر أو أن يكون نذرا مقيدا فيقول: إن شفى الله مريضي فلله علي أن أتصدق بمائة ريال. فهذا يجب عليه أن يوفي بنذره لله جل وعلا، وإيجاب ذلك يدل على أنه عبادة محبوبة لأن الواجب من أنواع العبادات، وأن ما كان وسيلة إليه فإنه أيضاً عبادة لأن الوسيلة للوفاء بالنذر هو النذر، فلولا النذر لم يأت الوفاء، فأُوجب الوفاء ولأجل أن المكلف هو الذي ألزم نفسه بهذه العبادة. ٣

---

[1] هو الإمام العلامة: صنع الله بن صنع الله الخلبي المكي الحنفي: واعظ فقيه، محدث، أديب، .... توفي سنة ١١٢٠هـ، هدية العارفين ٤٢٨/١، ومعجم المؤلفين ٦٢٤١

[2] البخاري الأيمان والنذور (٦٣١٨)، الترمذي النذور والأيمان (١٥٢٦)، النسائي الأيمان والنذور (٣٨٠٧)، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٨٩)، ابن ماجه الكفارات (٢١٢٦)، أحمد (٣٦/٦)، مالك النذور والأيمان (١٠٣١)، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٣٨).

الحديث صريح في أن النذر يكون طاعة، وإذا كان طاعة فهو عبادة، وإذا كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر.

هذا وجه استدلال المصنف رحمه الله بهذا الحديث للباب.

فقوله: ((من نذر أن يطيع الله)) بصلاة، بصيام، بحج، بعمرة، بصدقة، باعتكاف، أو بغير ذلك من أنواع الطاعات.

((فليطعه)) بفعل هذا النذر.

فدلّ هذا على أن النذر عبادة، وعلى أنه يجب الوفاء به، لأنه دَين لله عزّ وجلّ في ذمة النادر.

((ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)) كان نذر أن يقطع رحمه، وأن لا يصل أباه أو أمه أو أخاه. فهذا نذر معصية لا يجوز له الوفاء به، أو نذر أن يقتل فلاناً؛ فهذا لا يجوز الوفاء به لأنه معصية، لأن القتل بغير حق معصية كبيرة، فلا يجوز الوفاء به، أو نذر أن يترك الصلاة، أو أن يشرب الخمر. كل هذه نذور معصية، سواء كانت المعصية بترك واجب أو بفعل محرّم، من نذر ذلك فإنه لا يجوز له الوفاء بهذا النذر، لأنه معصية لله.

ومن ذلك -بل أولى-: إذا نذر للقبور، لأن النذر للقبور شرك وهو من أعظم المعاصي، فلا يجوز له الوفاء به كما إذا نذر أن يذبح للبدوي، أن يذبح لأيّ ضريح من الأضرحة، أو أن يذبح للجن، أو أن يذبح للأولياء والصالحين يرجو نفعهم أو دفع الضرر عنه بالذبح لهم؛ فهذا من أعظم أنواع المعصية، ويدخل في قوله: ((ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه))، لأن المعصية قد تكون شركاً، وقد تكون دون ذلك. ٤

المقصود من هذا أن استدلال الشيخ رحمه الله بالشِّق الأول وهو قوله ((منْ نذَرَ أنْ يطيعَ اللهَ، فليطعْه)) وهذا ظاهر، وكذلك في قوله ((ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه)) وأوجب عليه كفارة يمين فهذا يدل على أن أصله منعقد، وإنما انعقد لكونه عبادة، وإذا كان عبادة فصرفها لغير الله شرك أكبر به جل وعلا. ٣

فالحديث إذا دليل على أن النذر عبادة، وأنه إذا نذر عبادة وجب عليه الوفاء بها، ولو صرفها لغير الله صار مشركاً، وعلى أنه لو نذر فعل الشرك، فإنه لا يجوز له الوفاء به، وكذلك إذا نذر المعصية التي هي دون الشرك، لا يجوز له الوفاء بنذر المعصية، وهذا محل إجماع:
أنه لا يجوز له الوفاء بنذر المعصية، ولكن اختلفوا: هل تجب عليه كفّارة يمين أو لا تجب؟، من العلماء من رأى أنه تجب عليه كفّارة يمين بدل النذر، ومنهم من يرى أنه لا يجب عليه كفّارة يمين، نظراً لأن نذر المعصية غير مُنْعَقِد أصلاً، فليس فيه كفّارة يمين. ولأن النبي ﷺ في هذا الحديث نهى عن فعله ولم يأمر بالكفارة.

وعلى كل حال؛ تبيّن لنا من خلال هذه الآيات الكريمة وهذا الحديث أن النذر عبادة، وإذا كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

فما يفعله عُبّاد القبور، والمتصوّفة، والمخرّفون، من هذه النذور التي تقدّم للقبور، أو تقدّم للجن والشياطين، أو حتى للأولياء والصالحين، أنها عبادة لغير الله عزّ وجلّ، وشرك بالله عزّ وجلّ، فلا يجوز عملها، ويجب المنع منها، والتحذير منها، وأن هذه النذور باطلة، لا يجوز له الوفاء بها، فإن وَفَى بها ونفّذها صار مشركاً بالله الشرك الأكبر، فيجب عليه أن يتوب وأن يدخل في الإسلام من جديد. فهذا في النذر الواحد، فكيف بالذي أفنى عمره بالنذور، وضيع ماله بالنذور، كلما أحسَّ بشيء، أو خاف من شيء صار يَنْذُر للأولياء والصالحين؟!. فالمسألة خطيرة جداً.

ولكن مهما عمل الإنسان من الشرك والكفر إذا تاب، تاب الله عليه، ولو أفنى عمره في الشرك والكفر ثم تاب توبة صحيحة تاب الله عليه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً﴾ [الزمر:٥٣] فلو أن هؤلاء القبوريّين تابوا إلى الله لتاب الله عليهم. ٤

[الأسئلة]

[س/ هل يعتبر نذر مطلق أم مقيد إذا حصل للعبد منفعة مثل نجح أو حصل على وظيفة ونذر أن يصوم ثلاثة أيام لله سبحانه وتعالى مع العلم أنه لم ينذر قبل نجاحه أو حصوله على الوظيفة.

ج/ الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه أما بعد:

النذر المطلق: هو الذي لم يعلق بشيء سيحصل في المستقبل.

والنذر المقيد: هو المعلق الذي علق الوفاء به بحصول من الله جل وعلا للعبد، وهذا يكون في المستقبل؛ إن شفى الله مريضي فسأصوم ثلاثة أيام، إن نجحت فسأصوم، هذا هو النذر المعلق المقيد.

أما المطلق فهو أن ينذر نذراً لله جل وعلا تبرراً منه، إمّا بسبب حادثة حدثت أو نعمة تجدّدت، أو نقمة اندفعت أو بدون سبب، فهذا كله يدخل في المطلق أمّا المقيد فهو المعلق بشرط في المستقبل]. ٣

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غير شرك

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

يعني: نذر الطاعة فقط، لقوله: ((من نذر أن يطيع الله، فليطعه))، ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به. ٥

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غير شرك. وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأي فعل كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك. ٥

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به. لقوله ﷺ: ((من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه)). ٥

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ الْاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ)

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ الْاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ)

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُم رَهَقًا(٦)﴾ [الجن]. وَعَن خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ ﵂ قَالَتْ: سَمِعَتُ رَسُول اللَّه ﷺ يَقُول: ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعوذُ بِكُلِّمَاتِ اللَّهِ التامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتّى يَرْحَلَ مِنْ مَنَزِلِهِ ذَلِكَ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وهذا كالأبواب التي قبله في بيان أنواع الشرك التي يمارسها بعض الناس في مختلف الأزمان، ولا تزال تُمارس عند كثير من الناس. ٤

فهذا الباب ترجمة الإمام رحمه الله تعالى بقوله (باب من الشرك الاستغاثة بغير الله) وهذا الباب مع الباب الذي قبله والأبواب أيضاً التي سلفت كلها في بيان قصد هذا الكتاب وبيان الغرض من تأليفه وأن التوحيد إنما يُعرف بضده، فمن طلب التوحيد فليطلب ضد التوحيد؛ لأنه -أعني التوحيد- يجمع بين الإثبات والنفي يجمع بين الإيمان بالله وبين الكفر بالطاغوت، فمن جمع بين هذين فإنه قد عرف التوحيد، ولهذا شيخ رحمه الله فصّل في أفراد توحيد العبادة وفصّل في أفراد الشرك، فبّين أصناف الشرك الأصغر القول والعمل وبين أصناف الشرك الأكبر العملي والاعتقادي، فذكر الذبح لغير الله وذكر النذر لغير الله والذبح والنذر عبادتان عظيمتان، وعبادة الذبح وعبادة النذر ظاهرة:

عبادة الذبح فعلية عملية.

والنذر قولية إنشاءً وعملية وفاءً.
فذكر العمليات أو الذبح من العمليات؛ يعني من أنواع الشرك الأكبر الذي يكون من جهة العمل، وذكر النذر لغير الله وهو يحصل بالقول.
والذبح والنذر، العمل والقول كل منهما معه اعتقاد تعظيم المخلوق كتعظيم الله جل وعلا ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٩٧)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].
وعطف على ذلك (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله) والاستعاذة بغير الله تكون بالقول الذي معه اعتقاد، فهي مناسبة لأنْ تكون بعد (باب من الشرك النذر لغير الله). ٣
وقوله رحمه الله (من الشرك) من هاهنا تبعيضية -كما ذكرنا فيما سبق من هذه الأبواب-، وهذا الشرك هو الشرك الأكبر؛ من الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله أن الاستعاذة بغير الله شرك أكبر بالله جل جلاله. ٣
وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز، كالاستعانة. ٥

والاستعاذة معناها: الاعتصام والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى في دفع المكروه والشرور. ٤

"الاستعاذة" الالتجاء والاعتصام، ولهذا يسمى المستعاذ به: مَعاذاً ومَلجأ، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه، واعتصم واستجار به، والتجأ إليه وهذا تمثيل. وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل له، أمر لا تحيط به العبارة. قاله ابن القيم رحمه الله. ١
ومادة استفعل مثل ما هاهنا استعاذ -وكما سيأتي استغاث، استعان- ونحو هذه المادة هي موضوعة في الغالب للطلب، فغالب مجيء السين والتاء للطلب؛ استسقى إذا طلب السقيا، واستغاث إذا طلب الغوث، واستعاذ إذا طلب العياذ.

قلنا في الغالب؛ لأنها تأتي أحيانا للدلالة على كثرة الوصف في الفعل كما في قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾[التغابن:٦]، (اسْتَغْنَى) ليس معناها طلب الغنى، وإنما جاء بالسين والتاء هنا للدلالة على عِظَم الاتصاف بالوصف الذي اشتمل عليه الفعل وهو الغنى.

فهذه المادة: استغاث، واستعاذ، واستعان، وأشباه ذلك فيها طلب، والطلب من أنواعه التوجه والدعاء إذا طلب فإن هناك مطلوبا منه، والمطلوب منه لما كان أرفع درجة من الطالب كان الفعل المتوجه إليه يسمى دعاء، ولهذا في حقيقة اللغة وفي دلالة الشرع:

الاستعاذة: طلب العوذ أو طلب العياذ، هو الدعاء المشتمل على ذلك.

والاستغاثة هو طلب الغوث دعاء مشتمل على ذلك.

وهكذا في كل ما فيه طلب نقول: إنه دعاء. وإذا كان دعاء فإنه عبادة والعبادة لله جل وعلا بالإجماع ولما دلت عليه النصوص ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ [النساء:٣٦].

إذن فكل فعل من الأفعال أو قول من الأقوال فيه طلب عبادة لم؟ لأنه دعاء لأن كل طلب دعاء.

فالذي يطلب شيئاً :

إذا طلبه مِن مقارن فيقال هذا التماس.

إذا طلبه ممن هو دونه يقال هذا أمر.

وإذا طلبه ممن هو أعلى منه فهذا دعاء.

والمستعيذ والمستغيث لاشك أنه طالب ممن هو أعلى منه لحاجته إليه، فلهذا كل دليل فيه ذكر إفراد الله جل وعلا بالدعاء والعبادة دليل على خصوص هذه المسألة وهي أنّ الاستعاذة عبادة من العبادات العظيمة، وإذْ كانت كذلك فإن إفراد الله بها واجب. ٣

وهو نوع من أنواع العبادة، لأن دفع الضرر، ودفع الشرور لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، فكل ما لا يقدر عليه إلاَّ الله فإنه لا يُطلب إلاَّ من الله، فإن طُلب من غيره كان

ذلك شركاً، هذا وجه كون الاستعاذة بغير الله من الشرك، لأن الاستعاذة عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك، لماذا كانت عبادة؟، لأنها طلب دفع الضرر الذي لا يقدر على دفعه إلاَّ الله، وطلب ما لا يقدر عليه إلاَّ الله من غير الله شرك، ولأن الله تعالى أمر بالاستعاذة به دون غيره، قال تعالى في آيات من القرآن: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس:١]، كما أنه سبحانه بيّن أن الاستعاذة بغيره من الشرك وذلك في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦)﴾ [الجن:٦]، وفي سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]، ففي هذه الآيات ما يبيّن أن الله أمر بالاستعاذة به وحده، ومنع من الاستعاذة بغيره، فدلّ على أن الاستعاذة عبادة، لا يجوز أن تُصرف لغير الله سبحانه وتعالى.٤

وقوله (الاستعاذة بغير الله) هذا الغير يشمل كل ما يتوجه الناس إليه بالشرك، ويدخل في ذلك بالأوَّلية ما كان المشركون الجاهليون يتوجهون إليه بذلك من الجن والملائكة ومن الصالحين ومن الأشجار والأحجار ومن الأنبياء والرسل إلى غير ذلك.

هل قوله هنا (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله) (الاستعاذة بغير الله) هل هذا المقصود منه: أن الاستعاذة جميعاً لا تصلح إلا لله، وأنه لو استعاذ بمخلوق فيما يقدر عليه أنه يدخل في الشرك؟

الجواب: هذا فيه تفصيل.

ومن أهل العلم من قال: الاستعاذة لا تصلح إلا لله، وليس ثَم استعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن الاستعاذة توجُّه القلب واعتصامه والتجاؤه ورغبه ورهبه فيها هذه المعاني جميعاً، فهي توجُّهٌ للقلب، وهذه المعاني جميعاً لا تصلح إلا لله جل وعلا.

وقال آخرون: قد جاءت أدلة بأنه يستعاذ بالمخلوق فيما يقدر عليه لأن حقيقة الاستعاذة طلب انكفاف الشر، طلب العياذ وهو أن يعيذ من شر أحدق به، وإذا كان كذلك فإنه قد يكون المخلوق يملك شيئاً من ذلك، قالوا فإذن تكون الاستعاذة بغير الله شركاً أكبر إذا كان ذلك المخلوق لا يقدر على أن يعيذ أو لا يقدر على الإعاذة مما طلب إلا الله جل وعلا.

والذي يظهر من ذاك أن المقام -كما ذكرت لك فيه تفصيل-، وذاك أن الاستعاذة فيها عمل ظاهر وعمل باطن:

فالعمل الظاهر أن يطلب العوذ، أن يطلب العياذ؛ وهو أن يُعصم من هذا الشر أو ينجو من هذا الشر.

وفيها عمل باطن وهو توجه القلب وسكينته واضطراره وحاجته إلى هذا المستعاذ به واعتصامه بهذا المستعاذ به وتفويض أمر نجاته إليه.

إذا كان هذان في الاستعاذة:

فإذا قيل الاستعاذة لا تصلح إلا لله؛ يعني لا تصلح إلا بالله، لا يستعاذ بمخلوق مطلقا يُعنى أنه لا يستعاذ به من جهة النوعين جميعاً؛ لأن منه القلب -يعني النوعين معاً-؛ لأن منه عمل القلب الذي وصفتُ، بالإجماع لا يصلح إلا لله جل وعلا.

وإذا قيل الاستعاذة تصلح بالمخلوق فيما يقدر عليه فهذا لما جاء في بعض الأدلة من الدلالة على ذلك، وهذا إنما يراد منه الاستعاذة بالقول ورغب القلب في أن يَخْلُص مما هو فيه من البلاء، وهذا يجوز أن يتوجه به إلى المخلوق.

فإذن حقيقة الاستعاذة تجمع الطلب الظاهر وتجمع المعنى الباطن، ولهذا اختلف أهل العلم فيها، فالذي ينبغي أن يكون منك دائما على ذُكر أن توجه أهل العبادات الشركية لمن

يشركون به من الأولياء أو الجن أو الصالحين أو الطالحين أو غير ذلك أنهم جمعوا بين القول باللسان وبين أعمال القلوب التي لا تصلح إلا لله جل وعلا.

وبهذا يبطل ما يقوله أولئك الخرافيون من أنّ الاستعاذة بهم إنما هي فيما يقدرون عليه، وأنّ الله أقدرهم على ذلك، فيكون إبطال مقالهم راجعاً إلى جهتين:

الجهة الأولى أن يبطل قولهم في الاستعاذة وفي أشباهها أن هذا الميْت أو هذا الجن لا يقدر على هذا الأمر، وإذا لم يقتنع بذلك أو حصل هنالك إيراد اشتباه فيه.

فالأعظم أن يتوجه المورد إلى الأدلة السنية أن يتوجه إلى أعمال القلب وأن هذا الذي توجه إلى ذلك الميْت أو الولي قد قام بقلب من العبوديات ما لا يصلح إلا لله جل جلاله.

إذن فنقول الاستعاذة لغير الله شرك أكبر لأنها صرف العبادة لغير الله جل جلاله، فإن كان ذلك في الظاهر مع طمأنينة القلب بالله وتوجه القلب إلى الله وحسن ظن بالله وأن هذا العبد إنما هو سبب أن القلب مطمئن فيما عند الله، فإن هذه تكون استعاذة بالظاهر، وأما القلب فإن لم تقم به حقيقة الاستعاذة وإذا كان كذلك كان هذا جائزاً.٣

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]

هذه من جُملة الانتقادات التي انتقدها الجن الذين استمعوا للقرآن وآمنوا به، انتقدوها على قومهم من الجن، كما في قوله تعالى في أول السورة: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً (٣)﴾[الجن:١-٣]، وبعد ما نزّهوا الله عن الشرك، وتبرءوا منه، جعلوا ينتقدون أقوامهم وما يفعلونه مما يخالف التّوحيد، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ

أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (٧)﴾ [الجن:٤-٧] إلى آخر السورة، وذلك أن النبي ﷺ لما خرج إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، فردُّوه ردًّا قبيحاً، وأَغْرَوْ عبيدهم وسفهاءهم يرجمونه بالحجارة عليه الصلاة والسلام رجع إلى مكة، وقد خرج من مكة على حالة شديدة: مات عمه الذي كان يدافع عنه، وماتت زوجته خديجة التي كانت تُؤَنِّسه، وكانت له نِعْم المعين على دعوته، ثم لما خرج إلى الطائف أُصيب بهذا الرد القبيح، اشتدت به الحال ﷺ جدًّا، وبينما هو كذلك يسّر الله له من الجن من استمع إلى القرآن وآمن به، وذلك أنه لما رجع من الطائف، وبلغ وادي نَخْلَة - بين مكة والطائف-، قام يصلي الفجر ويقرأ القرآن، واستمع له الجن، فأُعجبوا بالقرآن- كما في هذه السورة، وفي سورة الأحقاف-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠] يعني: بعد التوراة، ﴿يَهْدِي إلى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف:٣٠-٣١]، وفي سورة الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، فهذا فيه فرج من الله سبحانه وتعالى لنبيه، وتسلية لنبيه، وأن الله يقيّض له من يتبعه ويؤمن به، لأنه مبعوث إلى الإنس والجن.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ﴾ الإنس: بنو آدم.

﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ الجن المراد بهم: عالم من عالم الغيب، يعيشون معنا في هذه الأرض، وهم مكلّفون، مأمورون بطاعة الله، ومَنْهِيُّون عن معصية الله، مثل الإنس، لكننا لا نراهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ ﴾ يعني: إبليس ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ يعني: جماعته من الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، فهم يروننا ونحن لا نراهم، وقد يتصوّرون بصور متشكّلة، ويتصوّرون بصور حيّات، وبصور حيوانات، وبصور آدميين، أعطاهم الله القُدرة على ذلك، وهم عالم مخلوق من نار، والإنس خُلقوا من الطين، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإنسان مِنْ

صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن:١٤] يعني: من الطين، ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥)﴾ [الرحمن:١٥] الجان: جمع جنّي، سُمُّوا بالجن لاجتنانهم أي: استتارهم عن الأنظار، ومنه سُمِّي الجَنين في بطن أمه لأنه لا يُرى، فهو مُجْتَنّ في بطن أمه، ومنه المِجن الذي يتّخذ في الحرب يتوقّى به المقاتل سهام العدو، سُمِّي مِجَنًّا لأنه يُجِنُّه من السهام، ومنه قوله ﷺ: ((الصوم جُنّة)) بمعنى: أنه ساتر بين العبد وبين المعاصي، يستتر به من المعاصي، ومن كيد الشيطان، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً﴾ [الأنعام:٧٦] ﴿جَنَّ عَلَيْهِ﴾ يعني: غطّاه ظلام الليل.

فالحاصل؛ أن الجن عالم خفي، لا نراهم، وهم يعيشون معنا، وهم مكلّفون كما كُلِّفنا بالأوامر والنواهي. والإيمان بوجودهم من الإيمان بالقلب، تصديقاً لخبر الله سبحانه وتعالى، وخبر رسوله ﷺ، فوجود الجن ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، ومن جحد وجود الجن فهو كافر، لأنه مكذِّب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين، وهل كل ما لا يراه الإنسان يُنكر؟.

وقد ظهرت طائفة من جهلة الأطباء- كما يقول الإمام ابن القيّم-، وكذلك من بعض المفكِّرين والكُتّاب المنتسبين للإسلام؛ ينكرون وجود الجن، لأنهم لا يؤمنون إلاَّ بما تقرّه عقولهم، وعقولهم لا تتّسع للتصديق بهذه المغيّبات، وكذلك الجن يمسُّون الإنس ويخالطونهم ويصرعونهم، وهذا شيء ثابت، لكن من جَهَلَة الناس من يُنكر صَرْع الجن للإنس، وهذا لا يَكْفُر، لأن هذه مسألة خفيّة، ولكنه يُخطّأ، فالذي يُنكر مسّ الجن للإنس لا يُكَفَّر، ولكن يضلّل، لأنه يُكذِّب بشيء ثابت، أما الذي يُنكر وجودهم أصلاً فهذا كافر، فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: يلتجئون إليهم ليدفعوا عنهم الشرور.

﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زاد الجن الإنس، ﴿رَهَقاً﴾ أي: خوفاً، فالجن تسلّطوا على الإنس لما رأوهم يعوذون بهم، وزادوهم خوفاً وقلقاً، وأُعجبوا بأنفسهم، وقالوا: إننا أَخَفْنا الإنس، وصاروا يستعيذون بنا.

وسبب نزول هذه الآية: أن العرب كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قال أحدهم: أعوذ بسيّد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾.٤

وقد كان المشركون إذا نزلوا بواد أو بمكان مخوف كانوا يعتقدون أن لكل مكان مخوف جني أو سيّد من الجن يخدم ذلك المكان هو له ويسيطر عليه، فكانوا إذا نزلوا واديا أو مكاناً قالوا نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه يعنون الجن فعاذوا بالجن لأجل أن يكفَّ عنهم الشر مدة مقامهم. ٣

﴿ فَزَادُوهُمْ﴾ يعني زاد الجنُّ الإنسَ خوفاً واضطراباً وتعباً في الأنفس والأرواح وإذا كان كذلك كان هذا مما هو من العقوبة عليهم، والعقوبة إنما تكون على ذنب، فدلت الآية على ذم أولئك، وإنما ذُموا لأنهم صرفوا تلك العبادة لغير الله جل وعلا، والله سبحانه أمر أن يُستعاذ به دون ما سواه فقال سبحانه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، وقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١].وقال ﴿قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُون﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨] والآيات في ذلك كثيرة كقوله ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بالله﴾ [الأعراف:٢٠٠، فصلت:٣٦] فعُلم من التنصيص على المستعاذ به وهو الله جل وعلا على أنّ الاستعاذة حصلت بالله وبغيره وأن الله أمر نبيه أن تكون استعاذته به وحده دون ما سواه، وذكرتُ لكم أصل الدليل في ذلك أن الإستعاذة عبادة وإذا كانت عبادة فتدخل فيما دلت عليه لآيات من أفراد العبادة بالله وحده.

وفي قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ ثَم قولًا آخر -وهو قول قتادة وبعض السلف- من أن ﴿رَهَقاً﴾ معناه إثماً؛ فزادوهم إثماً وهذا أيضاً ظاهر من جهة الاستدلال إذا كانت الإستعاذة موجبة للإثم، فهي إذن عبادة إذا صرفت لغير الله وعبادة مطلوبة إذا صرفت لله جل جلاله، وهذا يستقيم مع الترجمة من أن الاستعاذة بغير الله شرك.٣

وجه الاستدلال بالآية على الترجمة أن الله حكى عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها في الجاهلية من جملتها الاستعاذة بغير الله. وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يعرف معناها خشية ان يكون فيها شيء من ذلك.

قال ملا علي القاري الحنفي: "ولا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فزادوهم رهقاً﴾ إلى أن قال:" وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ الآية ؛ فاستمتاع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه وامتثال أوامره أو إخباره بشيء من المغيبات واستمتاع الجني بالإنسي: تعظيمه إياه واستعاذته به واستغاثته وخضوعه له".[1]

وفيه: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيويه من كف شرا وجلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك. ذكره المصنف.١

فهذه عقيدة جاهليّة، أبطلها الله سبحانه وتعالى بالأمر بالاستعاذة به وحده لا شريك له، وذلك في قوله: "عن خَوْلَة بنت حكيم"- رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله ﷺ قال: ((من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)) رواه مسلم.٤

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)) [رواه مسلم].

هذه هي الاستعاذة الشرعية البديلة من الاستعاذة الشركية.٤

[1] الكلام لأبن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٧٠-٥٧١

وقوله: ((من نزل منزلاً)) يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.٥

و هكذا إذا ركب الطائرة أو السيارة أو القطار أو نحوه. أن يقول ذلك، و جاء في الحديث أنه يستحب تكرارها ثلاثاً، وكان النبي ﷺ، إذا دعا دعا ثلاثاً.٦

فقوله: ((أعوذ بكلمات الله التّامّات من شر ما خلق)) كلمات الله: المُراد. بها: كلامه سبحانه وتعالى المنزّل على رسوله ﷺ. والاستعاذة بالقرآن مشروعة، لأن القرآن كلام الله، فالاستعاذة بالقرآن استعاذة بصفة من صفات الله، وهي الكلام، وليست استعاذة بمخلوق.

واستدلّ أهل السنّة والجماعة بهذا الحديث على أن القرآن غير مخلوق، لأنه لا تجوز الاستعاذة بالمخلوق، فلو كان القرآن مخلوقاً- كما تقوله الجهمية والمعتزلة- لصار هذا من الاستعاذة بالمخلوق، وهي شرك، كما دلّ هذا الحديث على مشروعية الاستعاذة بالله عزّ وجلّ، وترك الاستعاذة بغيره سبحانه وتعالى.٤

وجه الدلالة من هذا الحديث أن النبي ﷺ بيّن فضل الاستعاذة بكلمات الله فقال ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التّامّاتِ مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ)) وجعل المستعاذ منه المخلوقات الشريرة، والمستعاذ به هو كلمات الله، وقد استدل أهل العلم -حين ناظروا المعتزلة وردوا عليهم- استدلوا بهذا الحديث على أن كلمات الله ليست بمخلوقة قالوا: لأن المخلوق لا يستعاذ به والإستعاذة به شرك. كما قاله الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة.

فوجه الدلالة من الحديث إجماع أهل السنة على الاستدلال به على أن الاستعاذة بالمخلوق شرك، وأنه لما أمر بالاستعاذة بكلمات الله فإن كلمات الله جل وعلا ليست بمخلوقة.٣

والتعوذ بغير الله و بغير صفاته لا يجوز بالإجماع و إنه شرك.٦

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.[1] ١

[1] مجموع الفتاوى ٣٣٦/١

قال((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التّامّاتِ مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ)) فالمقصود بـ((كَلِمَاتِ اللهِ التّامّاتِ)) هنا: الكلمات الكونية التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهي المقصودة بقوله جل وعلا ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف:١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام:١١٥]، وفي قراءة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هذه الآية في الكلمات الشرعية وكذا في الكلمات الكونية.

إذن فقوله ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التّامّاتِ)) يعني الكلمات الكونية.٣

و((كلمات)): جمع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى: ((قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً)) [الكهف: ١٠٩].

وأبلغ من هذا قوله تعالى: ((ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)) [لقمان: ٢٧].

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.٥

وقوله: ((التّامّات)) أي: الصادقات العادلات، التي لا يتطرّق إليها نقص، لأن كلام الله سبحانه وتعالى كامل، لأن الله جل وعلا كامل وصفاته كاملة، وكلامه كامل لا يتطرّق إليه النقص: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت:٤٢]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ [الأنعام:١١٥].

فكلمات الله تامّة، لا يتطرّق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولذلك كان القرآن الكريم كاملاً، لا يتطرّق إليه نقص، واف بحوائج الناس، والحكم فيما بينهم، وإزالة الشكوك والشرك والكفر

والإلحاد، وبيان الأحكام والعدل بين الناس، كل هذا في القرآن، لأنه كلام الله سبحانه وتعالى، وفضل كلام الله على كلام غيره كفضل الله سبحانه وتعالى على خلقه.٤

قال القرطبي في المفهم :" قيل: معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه الشافية الكافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإن الله أخبر عنه بأنه:... ﴿هدى وشفاء﴾ [فصلت: ٤٤] وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى. ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.[١] ١

وكل هذا حق و كلها وصف له سبحانه. ٦

قوله: ((لم يضره شيء))، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم من شر كل ذي شر من الجن والإنس وغيرهم والظاهر الخفي حتى يرتحل من منزله، لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف، فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع، فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

---

[١] ٣٦/٧

قال القرطبي: "وقد جربت ذلك، حتى إني نسيت ذات يوم، فدخلت منزلي ولم أقل ذلك، فلدغتني عقرب".

والشاهد من الحديث: قوله: ((أعوذ بكلمات الله)).

والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله، فلماذا؟

أجيب: أن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته غير مخلوق، لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي ﷺ إلى الاستعاذة بها.

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله، أي: أو صفة من صفاته.

وفي الحديث: ((أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر))[١]، وهنا استعاذ بعزة الله وقدرته، ولم يستعذ بالله، والعزة والقدرة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته، لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات، فإن أراد الآيات الشرعية، فجائز، وإن أراد الآيات الكونية، فغير جائز.

أما الاستعاذة بالمخلوق، ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه، فهي من الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة"، وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله، لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله، سوى الله.

ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بأصحاب القبور، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيداً عنهم.

---

[١] مسلم: كتاب السلام/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم.

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في "تيسير العزيز الحميد"، وهو مقتضى الأحاديث الواردة في "صحيح مسلم" لما ذكر النبي ﷺ الفتن، قال: ((فمن وجد من ذلك ملجأ، فليعذ به))[١]

وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة[٢]، والغلام الذي عاذ بالنبي ﷺ[٣]...

وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم، فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه في الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ، فهذا شرك، لأن هذا لا يكون إلا الله.

وعلى هذا، فكلام الشيخ رحمه الله في قوله: "إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق" مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقاً. ه

فالحاصل؛ أن الكتاب والسنّة قد دلاّ على أن الاستعاذة عبادة، وما دام أنها عبادة، فالاستعاذة بغير الله تكون شركاً أكبر يَخرج به صاحبه من الملّة، فالذي يستعيذ بالجن أو بالشياطين يكون كافراً الكفر الأكبر، مشركاً بالله عزّ وجلّ، كالذين يكتبون الحُجُب والطلاسم، ويستعيذون بالشياطين وبِمَرَدَة الجن، ويكتبون أسماء الشياطين في كتاباتهم، وفي طلاسمهم، وكذلك الذين ينادون الجن عند الشدّة وعند الخوف هذا -أيضاً- كله من الشرك الأكبر لأنه استعاذة بغير الله سبحانه وتعالى، ومن هذا -أيضاً- من يستعين بالجن عندما يتخاصم مع أحد فيقول: يا جن خذوه، افعلوا به كذا وكذا. وهذا شرك بالله عزّ وجلّ إذا

---

[١] البخاري: كتاب الفتن/ باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ومسلم: كتاب الفتن/ باب نزول الفتن.

[٢] مسلم: كتاب الحدود/ باب حد قطع السارق الشريف وغيره...

[٣] مسلم: كتاب الإيمان/ باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده.

كان يقصد الاستعانة بهم، وكذلك الذي يعالج الناس بالاستعانة بالجن وسؤالهم عن المرض أو عن الذي سحر المريض.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:١٢٨]، قال العلماء في تفسير هذه الآية: "استمتاع الإنس بالجن: أنهم يستعيذون بهم مما يكرهون، ويطلبون منهم ما يريدون، فالجن تخدمهم، وتحضّر لهم الغائب والبعيد، وتقضي بعض حوائجهم، لأن هناك أشياء لا يقدر عليها الإنس، فهم يستعيذون بالجن، ويستمتعون بالجن، بمعنى: أن الإنس يستخدمون الجن في بعض أمورهم، هذا استمتاع الإنس بالجن.

واستمتاع الجن بالإنس: أن الإنس يخضعون لهم ويعظمونهم ويجلّونهم، ففي هذا استمتاع للجن بالإنس، فكل من الفريقين استمتع بالآخر، هذا استمتع بحصول حوائجه، وهذا استمتع بتعظيمه، وصرفه هذا الإنسي إلى الكفر بدل الإيمان.

فدلّ على أن الاستعانة بالجن شرك أكبر، ولو سميت بغير الشرك، لو سميت: بالاستخدام، أو الزار، أو ما أشبه ذلك من الأسماء.

فالواجب أن الإنس يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى من ممارسة هذه الأعمال مع الجن. والواجب على الجن: أن يتوبوا إلى الله من إضلال الإنس وإغوائهم، لأن الكُل عباد من عباد الله، يجب عليهم مخافة الله وخشيته والرغبة إليه، وطاعته، وطاعة رسله، وترك ما حرّم الله. وقد تلاعب بعض الأشرار من الإنس بعقائد الناس، وبأكله لأموالهم، وشعوذته عليهم، ولاسيما عند البوادي والقرى البعيدة عن حضور مجالس الذكر، فإن هذا يكثر كلما كثر الجهل، وحقيقة هذا أنه عَمِيل للجن، وأنه مشرك بالله عزّ وجلّ، ولا يقتصر شره على نفسه، بل يضلِّل الناس، ويُفسد عقائد الناس، ويأتي إليه الناس ويسألونه، ويُخبرهم بالمغيّبات، أو يأمرهم بالذبح لغير الله، أو غير ذلك من أنواع الشرك.

فهذه مسألة خطيرة، يجب على أهل العلم وعلى الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى أن يبيّنوها للناس، وأن يتجوّلوا في القرى، وفي البوادي، ويوضِّحوا هذا الأمر للناس، لأنهم -والله أمانة في أعناق طلبة العلم، وفي أعناق الدعاة-، هذا هو المطلوب.

أما أنك تتكلّم أمام الناس عن قضايا السياسة ونحوها؛ فهذه ما فائدة الناس منها؟، ما فائدة البدو في الصحراء، أو الناس في القرية، ما فائدتهم من هذه الأمور؟، وهم واقعون في الشرك، أو يجهلون قراءة الفاتحة التي هي ركن من أركان الصلاة؟!، يجب علينا أن نتقي الله سبحانه وتعالى، وأن نعلم أن منهج الرسول ﷺ: دعوة، وتعليم، وإرشاد، وتوجيه فيما ينفع الناس، وأيضاً معالجة ما وقع فيه الناس في بلدهم وفي أنفسهم. أما أنك تجلب لهم مشاكل من بعيد، وتريد منهم أن يعالجوا قضية أمريكا، أو قضية الجزائر، أو قضية السودان؟، وهم مساكين، ما بيديهم شيء، وأيضاً هم واقعون فيما هو أخطر من ذلك وهو الجهل وفساد العقيدة، لماذا لا تعالج هذا الأمر؟.

وأنا ليس غرضي بهذا الكلام أن أتنقّص أحداً، لا والله، ولكن غرضي أن أبيّن الطريقة الصحيحة للدعوة، ونفع الناس فإن هذه الأبواب من أبواب "كتاب التّوحيد" تُعالج واقع الناس، لماذا لنشرحها للناس، ونبيّنها للناس، ونوضِّحها، ونحفِّظهم هذه الآيات وهذه الأحاديث ونشرحها لهم، ولو شرحاً وجيزاً على قدر أفهامهم، ينتفعون بها؟. هذه هي الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وهذا العلم النافع. تعلمون ما للدعاة من الأثر وماذا حصل بسبب دعوتهم من الخير: فالشيخ: محمد بن عبد الوهاب، كيف أثر في دعوته من الإصلاح والنّفع للمسلمين، الذي لا نزال ننتفع به -ولله الحمد-.

الشيخ عبد الله القرعاوي في الجنوب، كما تعلمون إلى عهد قريب، والآن تلاميذه وطلاّبه ماذا أثّر من الخير.

الشيخ: فيصل بن مبارك في الشمال، ماذا أثّر من الخير، ولا يزال تلاميذه الآن مصابيح هدى، يبيِّنون للناس الحق.

أما أن تجلب للناس مشاكل الخارج وتشغلهم بها؛ فهذه ما هي بدعوة إلى الله، وإنما هي اشتغال بأمور لا تفيد الناس، ولا تحل مشاكلهم، ولا تُصلح فسادهم، وإنما تُحْبِط أفهامهم، وقد تسبِّب سوء الظن بالمسلمين وبولاة الأمور، وتفرّق الكلمة؛ فالواجب علينا أن نتنبّه لهذا. أنا ما أقول هذا من أجل الغَمْط من أحد، لا والله، ولكني أتأسف من واقع بعض الدعاة الذي تردّى إلى هذا المستوى.

ونسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا وأيديهم إلى الصلاح والفلاح والاستقامة، والسير على منهج الرسول ﷺ فيما ينفعنا وفيما ينفع الناس، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران: ١٠٤]، هذا منهج الرسل- عليهم الصلاة والسلام-.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفقنا جميعاً لما فيه خيرنا وخير أمتنا، وصلاحنا وصلاحهم، وأن يصلح ولاة أمورنا، وأن يأخذ بأيديهم إلى ما فيه الخير للأمة، وما فيه صلاح الأمة. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: **الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.**

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: **أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كف شر أو جلب نفع – لا يدل على أنه ليس من شرك.**

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن. وقد سبق ذلك في أول الباب. ٥

الثانية: كونه من الشرك. أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك. ٥

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

وجه الاستشهاد: أن الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنها صفة من صفاته. ه

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره. أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل. ه

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كف شر أو جلب نفع –لا يدل على أنه ليس من شرك.

ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة، فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك، فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن، فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصوراً، وهذا شرك مع أن فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم لأجل العطاء، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة، وهي: أن الشرع لا يبطل أمراً من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه، ففي الجاهلية كانوا يستعيذون بالجن، فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية، أنه إذا سد الناس باب الشر، وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فلما نهاهم عن قول ﴿راعنا﴾ ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو ﴿انظرنا﴾.

ومن السنة قوله ﷺ لمن نهاه عن بيع الصاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: ((بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيباً)) [١].

فلما منعه من المحذور، فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه. ٥

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتغيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)

(بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتغيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلَتَ فَإِنَّكَ إذا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس]، وَقَوْلُهُ : ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العَنْكَبوت:١٧] الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الْآيَتَان، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]. وَرَوَي الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنينَ، فقَالَ بَعْضُهُم: قُومُوا بِنا نَسْتَغيثُ بِرَسُول اللَّه ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)).

هذا الباب جاء في سياق الأبواب التي تبيّن أنواعاً من الشرك يقع فيها بعض الناس في مختلف العصور والأزمان.

فقوله: "من الشرك"، أي: من أنواع الشرك الأكبر: "أن يستغيث بغير الله" فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله".

---

[١] البخاري: كتاب البيوع/ باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل.

والاستغاثة: طلب الغوث، ولا تكون إلاَّ في وقت الشدّة. ٤

والغوث يحصل لمن وقع في شدة وكرب يخشى معه المضرّة الشديدة أو الهلاك، فيقال أغاثه إذا فزع إليه وأعانه على ما به وخلّصه منه، ٣

وأما الدعاء فهو عام في وقت الشدّة وفي غيرها، فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص. ٤

وهذا ظاهر في أن الاستغاثة كما ذكرنا طلب، والطلب نوع من أنواع الدعاء، ولهذا قال العلماء: إن في قوله (أو يدعو غيره) بعد (أن يستغيث بغير الله) فيه عطف للعام على الخاص، ومن المعلوم أن الخاص قد يُعطف على العام وأن العام قد يُعطف على الخاص.

وقوله (أن يستغيث بغير الله) هذا أحد أفراد الدعاء كما ذكرنا؛ لأن الاستغاثة طلب والطلب دعاء، (أو يدعو غيره) هذا عام الذي يشمل الاستغاثة ويشمل الاستعاذة ويشمل أصنافا كثيرة من أنواع الدعاء. ٣

قلت: فيصلح فيه الاستدلال بآية النهي عن دعاء غير الله.

والاستغاثة بالمخلوق على قسمين:

القسم الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، فهذه هي الشرك الأكبر، لأنها صرف للعبادة لغير الله سبحانه وتعالى. ٤

إما لكونه ميتاً، أو غائباً، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بميت ليدافع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر فهذا كله من الشرك ٥

فالاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه -كالاستغاثة بالأموات والغائبين- شرك أكبر، لأنه يستغيث بمن لا يقدرون على شيء أبداً، فالذين يستغيثون بالأضرحة، وبالأولياء وبالصالحين، والأموات، أو يستغيثون بالغائبين من الجن، أو بالشياطين، كل هذا من النوع الممنوع. ٤

وضابط هذا: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث به رسوله ٢

بعض العلماء يقول: نضبط ذلك بقولنا الاستغاثة شرك أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه ذلك المخلوق.

وقال آخرون: الاستغاثة شرك أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله.

وهاتان مختلفتان، والأصح منهما الأخيرة؛ لأن المرء إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، والمخلوق يعلم أن لا يقدر عليه إلا الله فإنه شرك أكبر بالله جل وعلا، أو في حقيقة الأمر أنه لا يقدر عليه إلا الله.

أما قول من قال من أهل العلم أن الاستغاثة شرك أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، فإن هذا يَرِدُ عليه أن ثمة أشياء قد يكون في الظاهر يقدر عليها المخلوق لكن في الحقيقة لا يقدر عليها، فإذن يكون هذا الضابط غير منضبط.

لأن مثلاً من وقع في شدة وهو في غرق مثلاً وتوجه لرجل يراه بأنه يغيثه، فقال استغيث بك استغيث بك وذاك لا يحسن السباحة ولا الإنجاء من الغرق فهذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق. فهل يكون شركاً أكبر؟ لا، لم؟ لأن الإغاثة عادة من الغرق ونحوه يصلح أن يكون المخلوق قادرا عليها.

فيكون الضابط الثاني هو الصحيح هو أن يقال: الاستغاثة شرك بغير الله شرك أكبر إذا كان استغاث فيما لا يقدر عليه إلا الله.

أما إذا استغاث فيما يقدر عليه غير الله من المخلوقين؛ لكن هذا المخلوق المعين لم يقدر على هذا الشيء، فإنه لا يكون شركاً؛ لأنه ما اعتقد في المخلوق شيئاً لا يصلح إلا لله جل جلاله. ٣

أما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق كاستغاثة بغيره في الحرب ليساعده ويناصره على عدّوه؛ فهذا جائز، كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:١٥]

وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه، فإنه يجب عليك تصحيحاً لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب، وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة، لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد. ٥

أما الدعاء، فهو أعم من الاستغاثة -كما سبق-، وهو نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

ودعاء العبادة هو: الثناء على الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته. ٤

كما قال جل وعلا ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، يعني لا تعبدوا مع الله أحداً أو لا تسألوا مع الله أحداً، وكما قال النبي ﷺ ((الدعاءُ هو العبادة)).

دعاء المسألة غير دعاء العبادة؛ دعاء العبادة كحال من صلى، كحال من زكى، كل صنف من أصناف العبادة يقال له دعاء؛ لكنه دعاء عبادة.

ودعاء المسألة هو: طلب الحاجات من الله سبحانه وتعالى. ٤

قال العلماء: دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة.

يعني أن من سأل الله جل وعلا شيئاً فهو داعٍ دعاء مسألة وهذا متضمن أنه يعبد الله؛ لأن الدعاء دعاء المسألة أحد أنواع العبادة، فدعاء المسألة متضمن للعبادة لأنه جل وعلا يحب من عباده أن يسألوه.

دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة؛ يعني من صلى فيلزم أنه أنشأ الصلاة أنه يسأل الله القبول يسأل الله الثواب، فيكون دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة.

إذا تقرر ذلك فهذا التفصيل أو هذا التقسيم مهم جداً في الحجة في القرآن وفي فهم الحجج التي يريدها أهل العلم؛ لأنه قد حصل من الخرافيين والداعين إلى الشرك أنهم يؤولون الآية التي في الدعاء بالمسألة، أو الآية التي في المسألة بالدعاء.

وإذا تبين لك ذلك يعني ما ذكرنا فإنه لا انفكاك في الحقيقة بين دعاء المسألة ودعاء العبادة، فهذا هو ذاك إما بالتضمن أو باللزوم، ومعلوم أن دلالة التضمن واللزوم دلالات لغوية واضحة جاءت في القرآن وجاءت في السنة. ٣

وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذ احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له قالوا: ((المراد به العبادة)) فيقولون في مثل قوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] أي: لا تعبدوا مع الله أحداً؛ فيقال لهم وإن أريد به دعاء العبادة فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة فكيف وقد ذكره الله في القرآن في غير موضع:

قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف:٥٥] وقال تعالى: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥] وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٣٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إليه إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾ [الأنعام:٤٠-٤١] وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد:١٤] وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] وقال عنه أيضاً: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم:٤٨-٤٩] الآية وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإليه تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إذا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾ وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا

تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسان كَفُورًا (٦٧)﴾ [الإسراء:٦٧] وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم:٤] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شركاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص:٦٤] الآية، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥] فكفى بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهانا في الفرق بين التوحيد والشرك عموما وفي هذه المسألة خصوصاً، وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[1] [العنكبوت:١٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إليه ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)﴾ [الزمر:٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٣-١٤] وقال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر:٦٠] وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي ﷺ مالا يحصى ... ((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول من يدعوني فأستجب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له)) رواه البخاري ومسلم وقوله ((ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وقوله ((من لم يدع الله يغضب عليه)) رواه أحمد وابن أبي شيبه والحاكم وقوله ((سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن

[1] ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾.

يسأل))رواه الترمذي وقوله ((الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والارض)) رواه الحاكم وصححه وقوله ((الدعاء هو العبادة)) رواه أحمد والترمذي وفي حديث ((آخر الدعاء مخ العبادة)) رواه الترمذي وقوله لما سئل أي العبادة أفضل قال ((دعاء المرء لنفسه)) رواه البخاري في الأدب وقوله ((لن ينفع حذر من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء يا عباد الله)) رواه أحمد؛ والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى.

فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات بل هو أكرمها على الله كما تقدم فإن لم يكن الإشراك فيه شركاً فليس في الارض شرك وإن كان في الارض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركاً من الإشراك في غيره من أنواع العبادة بل الإشراك في الدعاء وهو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون يا الله يا الله لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢] فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك على أنه هو الإله الحق وعلى بطلان الهية ما سواه.

وقال تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت:٦٥] فهذه حال المشركين الأولين.

وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برًّا وبحرًا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهجيراه إن قام وإن قعد وإن عثر .هذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا عبد القادر، وهذا يقول :يا ابن علوان، وهذا يدعو البدوي، وهذا يدعو العيدروس. وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات. بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان،

ودخول الجنة والنجاة من النار، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله. وقد يسألون ذلك من أناس يدعون الولاية، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضر التي هي خواص الإلهية، ويلفقون لهم من الأكاذيب في ذلك عجائب. منها أنهم يدعون أنهم يخلصون مَنِ ٱلْتَجَأَ إليهم وَلاَذَ بِحماهم من النار والعذاب، فيقول أحدهم: إنه يقف عند النار فلا يدع أحدًا ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها أو نحو هذا، وقد قال تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩] فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر على تخليص أحد من النار فكيف بغيره بل كيف بمن يدعي نفسه أنه هو يفعل ذلك؟!

ومنها: أن أكثرهم يلفق حكايات في أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاثه أو دعا الولي الفلاني فأجابه أو في كربة ففرج عنه وعند عباد القبور من ذلك شيء كثير من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين ولعبوا بهم لعب الصبيان بالكرة ...

وكثير من عباد القبور ينادون الميت من مسافة شهر وأكثر يسألونه حوائجهم ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم وتسمع عندهم حال ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لايخطر على بال وكذلك إذا أصابتهم الشدائد من مرض أو كسوف أو ريح شديدة أو غير ذلك فالولي في ذلك نصب أعينهم والاستغاثة به هي ملاذهم ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام ...

أعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئاً من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون: لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعاً.

ذكر شيء من كلام العلماء في ذلك

وإن كنا غنيين بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ عن كل كلام إلا أنه قد صار بعض الناس منتسباً إلى طائفة معينة فلو أتيته بكل آية من كتاب الله وكل سنة عن رسول الله ﷺ لم يقبل حتى تأتيه بشيء من كلام العلماء أو بشيء من كلام طائفته التي ينتسب إليها.

- قال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي صاحب كتاب الفنون الذي ألفه في نحو أربعمائة مجلد وغيره من التصانيف قال في الكتاب المذكور: "لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم وهم عندي كفار لهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا أو إلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى" نقله غير واحد مقررين له راضين به منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزي[1] والإمام ابن مفلح صاحب كتاب الفروع[2] وغيرهما.

- وقال شيخ الإسلام في (الرسالة السنية): "فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الازمان أيضاً قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾ [النساء:١٧١] الآية وكذلك الغلو في بعض المشايخ بل الغلو في علي بن أبي طالب بل الغلو في المسيح عليه السلام فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو اجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الاقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يدعى معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والاصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو

---

[1] في تلبيس إبليس ص٤٨٣

[2] في الآداب الشرعية ١٨٦/٢

يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم يقولون ﴿نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ويقولون ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] فبعث الله رسله أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة انتهى.[١]

– وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المقريزي صاحب كتاب (الخطط)في كتاب له في التوحيد على أن دعاء غير الله شرك.[٢]

– وقال شيخ الإسلام "من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم يدعوهم ويسألهم كفر إجماعا."[٣] نقله عنه غير واحد مقررين له منهم ابن مفلح في الفروع وصاحب الانصاف وصاحب الغاية وصاحب الاقناع وشارحهم وغيرهم ونقله صاحب القواطع في كتابه عن صاحب الفروع.

قلت: وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم في باب حكم المرتد على أن من أشرك بالله فهو كافر أي عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن دعاء الله عبادة له فيكون صرفه لغير الله شركاً.

– وقال الإمام ابن النحاس الشافعي[٤] في كتاب (الكبائر): "ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار والأشجار والعيون والآبار ويقولون انها تقبل النذر وهذه كلها بدع شنيعة ومنكرات قبيحة تجب إزالتها ومحو أثرها فإن أكثر الجهال يعتقدون إنها تنفع وتضر وتجلب وتدفع وتشفي المرض وترد الغائب إذا نذر لها وهذا شرك ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ".[٥]

قلت: فصرح رحمه الله أن الاعتقاد في هذه الأمور أنها تضر وتنفع وتجلب وتدفع وتشفي المريض وترد الغائب إذا نذر لها أن ذلك شرك وإذا ثبت أنه شرك فلا فرق في ذلك بين

---

[١] الوصية الكبرى – ضمن مجموع الفتاوى ٣/٣٨٣-٣٩٥

[٢] تجريد التوحيد المفيد

[٣] مجموع الفتاوى ١/١٢٤

[٤] توفي في معركة ضد الفرنجة سنة ٨١٤هـ

[٥] تنبيه الغافلين لابن النحاس ص٣٢٣

اعتقاده في الملائكة والنبيين ولا بين اعتقاده في الأصنام والأوثان إذ لا يجوز الاشراك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق سبحانه كما قال تعالى ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠] وهذا بعينه هو الذي يعتقده من دعا الأنبياء والصالحين ولهذا يسألونهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات وشفاء ذوي الأمراض والعاهات فثبت أن ذلك شرك.

– وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في (شرح المنازل): "ومن أنواعه –أي الشرك– طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فضلا لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سبباً لأذنه، وإنما السبب لأذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم وندعو لهم ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيادة العبادة وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا وأنهم أمروهم به وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم ولله در خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله".[١]

– وقال الإمام الحافظ ابن عبد الهادي في رده على السبكي: "وقوله –أي قول السبكي– "إن المبالغة في تعظيمه– أي تعظيم الرسول ﷺ واجبة" إن أُريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل

---

[١] مدارج السالكين ١/٣٧٥-٣٧٦

أحد تعظيماً حتى الحج إلى قبره والسجود له والطواف به واعتقاد أنه يعلم الغيب وأنه يعطي ويمنع ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين".[1]

قلت: هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون الرسول ﷺ فضلاً عن الرسول ﷺ كما تقدم بعض ذلك والأمر أعظم وأطم من ذلك.

- وفي ((الفتاوى البزازية)) من كتب الحنفية: "قال علماؤنا من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر".[2]

فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للاجماع على كفر معتقد ذلك وان اراد علماء الحنفية خاصة فهو حكاية لاتفاقهم على كفر معتقد ذلك وعلى التقديرين تأمله تجده صريحا في كفر من دعى أهل القبور لأنه ما دعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك ويقدرون على إجابة سؤاله وقضاء مأمور له.

- وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه الذي ألفه في الرد على من ادعى ان للأولياء تصرفاً في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: "هذا وانه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات مستدلين على أن ذلك منهم كرامات وقالوا منهم أبدال ونقباء وأوتاد ونجباء وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس وعليه المدار بلا التباس وجوزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا لهم فيها الأجور" قال: "وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ومخالف لعقائد

---

[1] الصارم المنكي ص٣٤٩

[2] انظر البحر الرائق ١٤٣/٥، و مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ٥٠٥/٢٠

الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنْزيل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥]، إلى أن قال: الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك الوخيم والشرك العظيم. إلى أن قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيرده قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، ونحوه من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا، وإحياء وإماتة، وخلقًا، وتمدح الرب سبحانه بانفراده في ملكه بآيات من كتابه كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال :فقوله في الآيات كلها ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، أي :من غيره، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته من ولي وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره، إلى أن قال :فكيف يتصور لغيره من ممكن أن يتصرف، إن هذا من السفاهة لقول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال :وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة .قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وفي الحديث: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله))[1] الحديث، فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل ذلك أن ليس للميت تصرفًا في ذاته فضلاً عن غيره بحركة، وأن روحه محبوسة مرهونة بعملها من خير وشر، فإذا عجز عن

---

[1] مسلم: الوصية (١٦٣١)، والترمذي: الأحكام (١٣٧٦)، والنسائي: الوصايا (٣٦٥١)، وأبو داود: الوصايا (٢٨٨٠)، وأحمد (٢/٣٧٢)، والدارمي: المقدمة (٥٥٩).

حركة نفسه فكيف يتصرف في غيره؟! فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة. قل أأنتم أعلم أم الله؟.

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله، وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الأنعام: ٦٣] وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، والقادر على إيصال الخير، فهو المنفرد بذلك فإذا تعين هو جل ذكره، خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقولهم: يا لزيد يا لقوم يا للمسلمين كما ذكروا ذلك في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الله، فلا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية والجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم، فهذا من المنكرات، إلى أن قال: فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربه أو قضاء حاجته تأثيرًا، فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير. وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة، فهذا ظن أهل الأوثان كذا أخبر الرحمن ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾ [يس:٢٣] فإنَّ

ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نَبِيٍّ وولي وغيره على وجه الإمداد منه إشراك مع الله، إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره قال: وأما ما قالوه: من أن منهم أبدالاً ونقباء، وأوتادًا ونجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره القاضي المحدث ابن العربي في "سراج المريدين" وابن الجوزي وابن تيمية. انتهى باختصار. ومثل هذا يوجد في كلام غيرهم من العلماء. ١

ثم ساق الشيخ رحمه الله بعض الأدلة على أن الدعاء إنما يُتوجه به إلى الله وأنه الاستغاثة إنما يُتوجه بها إلى الله جل وعلا فيما لا يقدر عليه إلا الله. ٣

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إذا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ [يونس:١٠٦-١٠٧] الآية.

قال أبو جعفر بن جرير في هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنياً، يعني بذلك: الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدهاً راجياً نفعها أو خائفاً ضرها؛ فإنها لا تنفع ولا تضر. فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول: من المشركين بالله أي الظالم لنفسه. ٢

يقول الله جل وعلا لنبيه ﷺ: ﴿وَلا تَدْعُ﴾ هذا نهي من الله لنبيه عن دعاء غير الله، والخطاب الموجه للنبي ﷺ موجه إلى أمته، إلاَّ إذا دلّ دليل على اختصاصه به، فهذا النداء عام للنبي ﷺ ولأمته، ولأنه إذا نُهي النبي ﷺ عن ذلك، فغيره من باب أولى. ٤

﴿وَلاَ تَدْعُ﴾ هذا نهي، والنهي توجه إلى الفعل ﴿تَدْعُ﴾ وإذا كان كذلك فإنه يعم أنواع الدعاء، وقد ذكرت لك أن الدعاء منه دعاء مسألة ومنه دعاء عبادة؛ لأن النكرة إذا جاءت في سياق النهي أو في سياق النفي أو في سياق الشرط فإنها تعمّ، و﴿تَدْعُ﴾ نكرة لأنها فعل

مشتمل على مصدر، والمصدر حدث نكرة، فإذن هذا يعم نوعي الدعاء وهذا مراد الشيخ أو أحد مراداته من الاستدلال بهذه الآية. ٣

﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: غير الله. ٤

يعني نهى الله جل وعلا أن يُتوجه لغير الله بدعاء المسألة أو بدعاء العبادة؛ يعني بالطلب أو بأي نوع من أنواع العبادات، فلا طلب يصلح فيما لا يقدر عليه إلا منه جل وعلا ويدخل في ذلك الاستغاثة التي هي طلب الغوث.

كذلك دعاء العبادة بأنواعه من الصلاة والزكاة والتسبيح والتهليل والسجود وتلاوة القرآن لا تصلح إلا لله، كذلك الذبح النذر أنواع أعمال القلوب التوكل محبة العبادة ورجاء العبادة وخوف السر كلها أنواع العبادة من أنواع دعاء العبادة، فهذه الآية دلت على النهي أن يتوجه أحد إلى من هو دون الله جل وعلا بدعاء مسألة أو بدعاء عبادة.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ذكرت لك من قبل أنه قوله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تشمل مع الله أو مَن دون الله استقلالاً. ٣

﴿مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة، أي: الذي لا ينفعك ولا يضرك، وذلك لأن المدعو إما أن يُطلب منه جلب خير، وإما أن يطلب منه دفع ضرر، وهذا إنما يختص بالله سبحانه وتعالى، فإنه هو الذي يقدر على دفع الضرر وجلب الخير، ودعاء الأموات وأصحاب القبور والأصنام والأوثان والأشجار والأحجار، لا يجلب خيراً ولا يدفع ضرراً. وكل ما يُدعى من دون الله فهو بهذه المثابة، لا ينفع ولا يضر، لأنها إما أحجار جامدة، وإمّا صور وتماثيل، وإما قبور هامدة، وإما أشجار، أو غير ذلك، فهي مخلوقات لا تقدر على جلب نفع ولا دفع ضرر، فالدعاء إنما يصلح أن يوجه لمن يقدر على ذلك، وهو الله سبحانه وتعالى. ٤

و﴿مَا﴾ تشمل العقلاء وغير العقلاء يعني تشمل أن يُعنى بها الملائكة والأنبياء والرسل ويُعنى بها الصالحون ويُعنى بها ما لا يعقل كالأصنام والأحجار والأشجار، وهذا من جهة دلالة اللغة.٣

﴿ولا يضرك﴾: قيل: لا يدفع عنك الضر، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرك، لأنه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾، أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، وهذا القيد ليس شرطاً بحيث يكون له مفهوم، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرك، بل هو لبيان الواقع، لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ – ٦]. ٥

وفي الآية تنبيه على أن المدعو لابد أن يكون مالكاً للنفع والضرر حتى يعطي من دعاه أو يبطش بمن عصاه وليس ذلك إلا لله وحده فتعين أن يكون هو المدعو دون ما سواه والآية شاملة لنوعي الدعاء. ١

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ يعني: دعوت غير الله مما لا ينفعك ولا يضرك، وهذا من باب الافتراض، وإلاّ محال أن النبي ﷺ سيفعل ذلك، ولكن لو قُدِّر أنه فعله وهو أكرم الخلق، فإنه يكون من الظالمين، فكيف بغيره، إذا دعا غير الله؟، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر:٦٥] يعني: أوحي إلى الرسول ﷺ، وإلى غيره من الأنبياء السابقين أنه لو قُدِّر أن أحداً منهم- وحاشاهم عليهم الصلاة والسلام- دعا غير الله، وأشرك بالله حبط عمله، وصار من الخاسرين ولو كان من الأنبياء، فكيف بغيرهم؟، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى إبراهيم وذريته، فقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾ [الأنعام:٨٤-٨٦]، لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنبياءه في هذه الآيات قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، لو أشرك هؤلاء الأنبياء ﴿لَحَبِطَ﴾ أي: لبطَلَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطلت جميع أعمالهم.

فدلّ على أن الشرك مُحبط للأعمال، ولو صدر من خير الخلق، وهم الأنبياء، فكيف إذا صدر ممن هو دونهم؟ ٤

فهذا تخويف لمن هو دونه ممن لم يعصم ولم يعط العصمة من ذلك. ٣

إذا هو يُخرج من المِلّة، ويُحبط جميع الأعمال، فالدعاء عبادة، بل هو أعظم أنواع العبادة، قال ﷺ: ((الدعاء هو العبادة)) كما قال ﷺ: ((الحج عرفة)) يعني: أعظم أركان الحج عرفة، فكذلك أعظم أنواع العمادة الدعاء.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إذا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: من المشركين، لأن الشرك أعظم أنواع الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، والظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه، والشرك وضع للعبادة في غير مستحقها، فلذلك صار أعظم أنواع الظلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ هذا تقرير لإبطال دعاء غير الله، ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧] هذا أيضاً فيه إبطال دعاء غير الله، لأن هذه المدعوات لا تقدر على كشف الضر، ولا تقدر على جلب الخير، وهذا كما في قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦)﴾ [الإسراء:٥٦]، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨]، وفي قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر:٢]، وكما في قوله ﷺ: ((وأعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجَفَّتِ الصحف)).

فالنفع والضرر إنما هو من الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يستحق أن يُدعى لطلب الخير، ويُدعى –أيضاً– لرفع الشر، وكشف الضر، هو الذي يملك ذلك سبحانه وتعالى، لا تملكه

جميع المخلوقات، وكذلك في سورة الأنعام: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾ [الأنعام:١٧]، فالنفع والضر بيد الله سبحانه وتعالى، فيجب على العباد أن يتوجهوا إلى الله، وأن يدعو الله وحده، ولا يدعوا معه غيره سبحانه وتعالى. ٤

الغرض من أن يسأل أحدٌ غيرَ الله في إنجاء ما به طلب كشف الضر، الغرض من أن تستغيث بغير الله طلب كشف الضر، الغرض من أن يستعيذ بغير الله طلب كشف الضر؛ ولهذا ذكر الله جل وعلا القاعدة العامة في ذلك التي تقطع عروق الشرك من القلب حيث قال ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾، إذا مسك الله بضر فمن يكشف الضر؟ يكشفه من قدّره ومن قضاه عليك، فهذا يقطع التوجه لغير الله تعالى ولكن ما دام أنه أذن فيما يقدر عليه المخلوق أن يتوجه عليه بطلب الغوث أو طلب السُّقيا أو نحو ذلك يكون ممن رُخص به والحمد لله.

﴿بِضُرٍّ﴾ هنا أيضاً نكرة جاءت في سياق الشرط فيعم جميع أنواع الضر، سواء كان ضُراً في الدين أو كان ضراً في الدنيا، سواء كان ضراً في الدنيا من جهة الأبدان أو من جهة الأموال أو من جهة الأولاد أو من جهة الأعراض أو من أي شيء، ف ﴿إِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ بأي نوع من أنواع الضر ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ في الحقيقة الذي يكشف الضر هو الله جل وعلا، لا يكشف البلوى إلا الله سبحانه وتعالى، وإذا كان المخلوق يقدر على ذلك الكشف فإنما هو من جهة أنه سبب جعله الله سبباً يقدر على أن يكشف بإذن الله جل وعلا، وإلا فالكاشف في الحقيقة هو الله جل وعلا، والمخلوق ولو كان يقدر فإنما قدر بإقدار الله له إذ هو سبب من الأسباب، فإذن ولا يكشف على الحقيقة إلا الله جل وعلا.

وإذا تبين ذلك ظهر لك وجه استدلال المصنف لهذه الآية هو مناسبة الآية للترجمة من عدة جهات كما ذكرنا. ٣

الشاهد قوله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ في الآية الأولى، فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحداً من دون الله (أي: من سواه) لا ينفعه ولا يضره.

وقوله في الآية الثاني: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾. ٥

والآية نص في أن دعاء غير الله والاستغاثة به شرك أكبر، ولهذا قال ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧] لأنه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع ولازم ذلك إفراده بتوحيد الإلهية لأنهما متلازمان وإفراده بسؤال كشف الضر وجلب الخير لأنه لا يكشف الضر إلا هو ولا يجلب الخير إلا هو ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر:٢] فتعين أن لا يدعى لذلك إلا هو وبطل دعاء من سواه ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلا عن غيره وهذا ضد ما عليه عباد القبور فإنهم يعتقدون أن الأولياء والطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب ينفعون ويضرون ويمسون بالضر ويكشفونه وأن لهم التصرف المطلق في الملك أي على سبيل الكرامة وهذا فوق شرك كفار العرب وإما على سبيل الوساطة بينهم وبين الله بالشفاعة وهذا شرك الذين قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]. ١

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] الآية.

وكمال الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إليه تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧] هذا من جملة ما ذكره الله تعالى عن خليله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مما خاطب به قومه قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

أوثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إليه تُرْجَعُونَ (١٧)﴾ [العنكبوت:١٦-١٧].

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ لأن الرزق من الله سبحانه وتعالى فهو الرزاق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك:٢١]، فلو أنّ الله منع المطر من السماء الذي هو سبب الرزق واجتمع أهل الأرض كلهم أن يُوجدوا المطر لن يستطيعوا أبداً. ٤

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾... فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقاً أبداً، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بر، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق، فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال:﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ ٥

﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾

يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئاً . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص. ٢

أي: اطلبوا الرزق من الله سبحانه وتعالى، فإن الله قريب مجيب لمن دعاه، ولا تطلبوا الرزق من الأوثان التي لا تملك شيئاً . ٤

أمر الله تعالى بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره ممن لا يملك رزقا من الأوثان والأصنام وغيرها، كما قال في أول الآية: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أوثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾. ١

الدعاء من أعظم ما يتعلق به الخلق إذا كان من جهة طلب الرزق؛ لأن طلب الرزق أعظم أسباب الحياة، فإذا لم يكن عنده رزق يوشك على الهلاك، ولهذا ذكر الإمام هذه الآية التي فيها توحيد طلب الرزق لم؟ لأن معظم حال المستغيثين إنما هي لطلب الرزق، والرزق اسم عام يشمل كلْ ما يصلح أن يرزق؛ يعني أن يمنح ويعطى، فيدخل في ذلك الصحة والعافية،

يدخل في ذلك المال الطعام، يدخل في ذلك البيت، يدخل في ذلك الدواب، ويدخل في ذلك أنواع ما يحتاجه المرء.

قال ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ أصل تركيب الكلام فابتغوا الرزق عند الله، و﴿ابْتَغُوا﴾ فعل أمر و﴿الرِّزْقَ﴾ مفعول و﴿عِنْدَ اللهِ﴾ الأصل أن يتأخر على المفعول؛ قال علماء المعاني من علوم البلاغة: إن تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الاختصاص، فابتغوا عند الله الرزق واجعلوا ذلك الابتغاء مختصا بالله جل وعلا، هكذا يفهم العربي هذه الآية ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ يعني فليكن ابتغاؤكم الرزق من عند الله وحده فلا تستغيثوا بغيره في طلب رزق ولا تستنجدوا بغيره في طلب رزق وإنما ذلك لله جل وعلا. ٣

قال ابن كثير: "وهذا أبلغ في الحصر كقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١] ولهذا قال ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ أي لا عند غيره لأنه المالك له، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك ﴿واعبدوه﴾ أي أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له..."[١]. ١

وقوله: ﴿واعبدوه﴾ من عطف العام على الخاص؛ فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها. ٢

قلت: في الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا لهم عنده في جلب الرزق فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم واستغاث بهم ليرزقوه وينصروه كما هو الواقع من عباد القبور؟ ١

فهذه الآية كالتي قبلها فيها وجوب التَّوَجُّه إلى الله سبحانه بالدعاء، وطلب الحاجات، وتفريج الكُرُبات، وطلب الرزق، وأن أحداً غيره لا يملك رزقاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾، فكيف يطلب الرزق ممن لا يملكه.

---

[١] تفسير ابن كثير (٣/٤٠٨-٤٠٩) بتصرف من الشيخ سليمان – رحمه الله، والنص كما في التفسير: "وهذا أبلغ في الحصر ﴿فابتغوا﴾: أي فاطلبوا ﴿عند الله الرزق﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً...".

وفاقد الشيء لا يعطيه. ٤

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيتان.

وتتمة الآية: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف:٥-٦]، الآيات من سورة الأحقاف. ٤

حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى حكم بأنه لا أضل ممن يدعو من دون الله لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة واستغاثة من هذه حاله، ومعنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دام في الدنيا وإلى أن تقوم القيامة كما قال تعالى ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إلى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤]. ١

والآية تعم كل من يدعى من دون الله. ٢

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ لا أحد أشدّ ضلالاً. ٤

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح. ٥

قوله: ﴿ممن يدعو﴾، متعلق بأضل، ويراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة. ٥

﴿مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: غير الله.

﴿مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هل الصنم استجاب لأحد في يوم من الأيام؟، هل القبر استجاب لأحد في يوم من الأيام؟، هل الشجرة التي -تُعبد من دون الله استجابت لأحد؟، أبداً، ولو قُدِّر أنه يحصل للمشرك مقصوده، فهذا ليس من المعبود من دون الله، وإنما هو من الله سبحانه وتعالى، أجراه امتحاناً له، واستدراجاً له، حتى يظن أن هذا من القبر،

فيستمر في الشرك- والعياذ بالله.

وقد ذكر شيخ الإسلام في إحدى رسائله -أو في كثير من رسائله- ما معناه: أن ما يحصل لعبّاد القبور من قضاء الحاجات، فليس ذلك دليلاً على صحة مذهبهم، لأن حصول المقصود يكون ابتلاءً وامتحاناً من الله سبحانه وتعالى، ويكون من أجل الاستدراج كما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ(٤٤)﴾ [القلم]، ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾ [آل عمران:١٧٨]، فالله سبحانه وتعالى يُمْهِل ويستدرج، من أجل أن يزداد هذا الكافر وهذا المشرك آثاماً يُعَذَّب بها يوم القيامة، فليس هذا من صالحه، فإذا حصل لعبّاد القبور شيء من مقاصدهم، فهذا من إهانة الله لهم، واستدراجهم.

وذكر الشيخ -أيضاً- أنه يمكن أن الشياطين تتصوّر أحياناً بصورة المقبور، وتخرج على الناس الذين يدعون القبر بصورة المقبور وتخاطبهم، وتقول نحن نقضي حوائجك، والشيطان قد يأتي لهم بأشياء بعيدة، قد يسرق من أموال الناس أشياء ويأتي بها لهم، ويظنون أن هذا من الميت، والميت ما درى عن شيء من هذه الأمور، الميت مشغول بنفسه إما في نعيم وإما في عذاب في قبره. ٤

دلالة الآية ظاهرة في الدعاء؛ لأن الله قال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللّهِ﴾ فهي ظاهرة في أن ثم داعي وثم مدعو والمدعو غير الله جل وعلا ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٩(٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وجه دلالة من الآية أن استعمل كلمة ﴿يَدْعُواْ﴾ فجاء الوصف بأبشع الضلال على من دعا من دون الله أمواتاً غير أحياء، والدليل على أنه أراد الأموات ولم يرد الأصنام والأحجار أنه قال ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ فجعل غاية الاستجابة إلى يوم القيامة؛ المنع من

الاستجابة إلى يوم القيامة، وهذه في الأموات لأن الميْت إذا كان يوم القيامة نُشر وصار يسمع وربُما أجاب من طلبه إذْ هو حي يكون في ذلك المقال حي وهو كان قادرا، وأما الميْت -من هو في البرزخ- فهو الذي يصدق عليه وصف الله جل وعلا بقوله ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾.

ولفظ ﴿مَن﴾ في اللغة الأصل فيه أنها للعقلاء، هكذا يقول النحاة.

ونقول الأصح: أن يقال ﴿مَن﴾ الأصل فيها في اللغة لمن يَعلم؛ يعني عند علماء النحو يقولون (من) للعقلاء وما لغير العقلاء والأصح أن نقول من لمن يعلم لأنها يدخل فيها الله جل وعلا في بعض الآيات.

فإذن (مَن) لمن يصح أن يعلم وهؤلاء هم من كانوا بشراً يخاطِبون ويخَاطبون ويعلمون ويُعلم منهم، قال ﴿إلى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وهذا الوصف ليس للأصنام إنما هو للأموات ثم قال ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ولذلك قال جل وعلا في سورة النحل ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٢١) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٢١-٢٢].٣

وقوله ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا يشعرون بدعاء من دعاهم لأنهم إما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كالملائكة وإما أموات كالأنبياء والصالحين وإما أصنام وأوثان.

وقوله ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: إذا قامت القيامة وحشر الناس للحساب عادوهم وكانوا بعبادتهم -الدعاء وغيره من أنواع العبادة- كافرين كما قال تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم بالاستجابة في الدنيا وتجحد عبادتهم في الآخرة وهم أحوج ما كانوا إليها.١

قال أبو جعفر بن جرير في قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ

كَافِرِينَ﴾ "يقول تعالى ذكره: وإذا جمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرأون منهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرنا بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا... تبرأنا إليك منهم يا ربنا. كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧- ١٨]".

قال ابن جرير: "﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ من الملائكة والإنس والجن" وساق بسنده عن مجاهد قال: "عيسى وعزير والملائكة". ثم قال: "يقول تعالى ذكره قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى تنزيها لك يا ربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون:.. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾... [الفرقان: ١٨] نواليهم، أنت ولينا من دونهم." انتهى. ٢

وفي الآيتين مسائل نبه عليها المصنف:

أحدها: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الثانية: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثالثة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الرابعة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الخامسة: كفر المدعو بتلك العبادة.

السادسة: أن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس. ١

الأدلة على أن دعاء المسألة عبادة

وفي حديث أنس مرفوعاً: ((الدعاء مخ العبادة))[1] وفي الحديث الصحيح: ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة))[2] وفي آخر: ((من لم يسأل الله يغضب عليه))[3] وحديث: ((ليس شيء أكرم على الله من الدعاء))[4] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه. وقوله: ((الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض)) رواه الحاكم وصححه. وقوله: ((سلوا الله كل شيء حتى الشسع إذا انقطع)) - الحديث". وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾... [غافر: ٦٠]". رواه ابن المنذر والحاكم وصححه. وحديث: ((اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان))[5] - الحديث "وحديث: ((اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد))[6] وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر في الدعاء الذي هو السؤال والطلب، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفا وخلفا. ٢

يدل على أن الدعاء عبادة قول الله جل وعلا ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة:١٨٦] وقوله ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ الإجابة؛ إجابة الدعوة يكون في السؤال؛ يعني إذا سئل أجاب، ويكون أيضاً بالعطاء والإثابة فيما إذا عُبِدَ، فيجيب الدعوة بإعطاء السائل سؤله، ويجيب أيضاً الدعاء بإثابة الداعي العابد على عبادته.

---

[1] الترمذي الدعوات (٣٣٧١).

[2] الترمذي الدعوات (٣٤٧٩).

[3] الترمذي الدعوات (٣٣٧٣)، ابن ماجه الدعاء (٣٨٢٧).

[4] الترمذي الدعوات (٣٣٧٠)، ابن ماجه الدعاء (٣٨٢٩)، أحمد (٢/٣٦٢)

[5] النسائي السهو (١٣٠٠)، أبو داود الصلاة (١٤٩٥).

[6] الترمذي الدعوات (٣٤٧٥)، ابن ماجه الدعاء (٣٨٥٧).

ولهذا يفسر السلف الآيات التي فيها إجابة الدعاء ونحو ذلك بأن فيها إعطاء سؤل السائل وإثابة العابد؛ لأن الصحابة والسلف يعلمون أن الدعاء يشمل هذا وهذا ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ فهنا ﴿دَعَانِ﴾ يعني سألني أو عبدني مع أنها في السؤال ظاهرة في الدعاء بينة.

والآيات في مثل ذلك كثيرة كقوله جل وعلا —قال إبراهيم عليه السلام– ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨]، وقال بعدها جل وعلا ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ [مريم:٤٩]، إبراهيم عليه السلام قال (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ)، قال الله ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدل على أن الدعاء هو العبادة، والعبادة هي الدعاء، والدعاء يفسر تارة بدعاء المسألة ودعاء العبادة وهذا حاصل وهذا حاصل من هؤلاء لأصنامهم وأوثانهم. ٣

وفي الآية السابقة فائدة عظيمة وهي: أن الله سمّى الدعاء عبادة، فقال: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، لأنه في أول الآية قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو﴾، وإذا كان الدعاء عبادة فصرفه لغير الله شرك، كما في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، يعني: عن دعائي، فسمّي الدعاء عبادة، وإذا كان الدعاء عبادة فصرفه لغير الله شرك. ٤

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [الأحقاف: ٥]

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ﴾ هذا استفهام من الله تعالى للمشركين، يقول: أنتم تشركون بالله عزّ وجلّ في حالة الرخاء، ولكن إذا وقعتم في الشدة والاضطرار دعوتم الله مخلصين له الدين فأنقذكم، فلماذا تُشركون به في حالة الرخاء؟، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإنسان كَفُوراً (٦٧)﴾ [الإسراء:٦٧]، فالله سبحانه وتعالى يقول: إذا كان لا ينقذكم من الشدائد إلاَّ الله باعترافكم–، فكيف تُشركون به في حالة الرخاء، هل هذا إلاَّ التناقض؟.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أي: لا أحد يكشف السوء سواه، والمشركون يعترفون أنه لا أحد يكشف السوء إلاَّ الله سبحانه وتعالى، فلماذا يعبدون غيره؟. ٤

يقرر تعالى أنه الاله الواحد الذي لا شريك له ولا معبود سواه مما يشترك في معرفته المؤمن والكافر لأن القلوب مفطورة على ذلك فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة وزال ما ينازعها فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ثُمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإليه تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٥٣-٥٤] وقال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إليه ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إليه مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ى[الزمر:٨] ومثل هذا كثير في القرآن.

يبين تعالى أنه المدعو عند الشدائد الكاشف للسوء وحده فيكون هو المعبود وحده وكذا قال في هذه الآية ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه والذي لا يكشف ضر المضطرين سواه، ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر على هذه الأمور إلا الله وحده وإذا جاءتهم الشدائد أخلصوا الدعاء لله كما قال تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

فتبين أن من اعتقد في غير الله أنه يكشف السوء أو يجيب دعوة المضطر أو دعاه لذلك فقد اشرك شركاً أكبر من شرك العرب كما هو الواقع من عباد القبور. ١

بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده فذكر ذلك سبحانه محتجا عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأحقاف:٥] يعني يفعل ذلك. فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار، فلا يصلح أن يجعلوها شركاًء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده.

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه: من قصر العبادة جميعها عليه، كما في فاتحة الكتاب: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥]. ٢
وتمام الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ من هو الذي يداول الدنيا بين الناس، يداول الغنى والفقر، ويداول العز والذل، ويداول الملك بين الناس، فقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ تخلفون الجيل الذي قبلكم في الملك، وفي الأموال، وفي العقارات، وفي كل شيء، جيل يخلف جيلاً، من هو هذا الذي يدبر هذا التدبير؟، هل هي الأصنام؟، كلا، بل هو الله، وهم يعترفون بهذا. ٤

قال أبو جعفر بن جرير قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ... [النمل: ٦٢] يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير أم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه؟ وقوله ﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ يقول: يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم، وقوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم؟ وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تذكرا قليلا من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرا. فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته. ا هـ.٢

إشكال وجوابه:
وهو أن الإنسان المضطر يسأل غير الله ويستجاب له، كمن اضطر إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟
الجواب: أن هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنه مستقل، فالله يجعل لكل شيء سبباً، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويعطيك. ٥

وروي الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: ((إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل)).

قوله: "بإسناده"، يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه، فيجب أن يراجع هذا الإسناد فليس كان إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في "مجمع الزوائد": "إن رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه"، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه. ٥

قوله: "كان رجل" لم يذكر اسمه هنا، وورد أنه عبد الله بن أبي، رأس المنافقين. ٤

"يؤذي المؤمنين" بمعنى: أنه يضايق المسلمين بكلامه وبتصرّفاته، يسخر من المسلمين، يتلّمس معايب المسلمين، ينال من الرسول ﷺ، وينال من المؤمنين، ويتتبّع العثرات. فدلّ على أن إيذاء المسلمين من النفاق. ٤

قوله "قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ" مرادهم الاستغاثة به فيما يقدر عليه بكف المنافق عن أذاهم بنحو ضربه أو زجره لا الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله. ١

طلب الصحابة الاستغاثة بالنبي ﷺ هذا طلب جائز لأنهم طلبوا الإغاثة من النبي عليه الصلاة والسلام فيما يقدر عليه؛ لأن عليه الصلاة والسلام في هذا المقام يقدر أن يُغيث بالأمر بقتل المنافق أو الأمر بسجنه أو بتهديده أو بأخذ عقوبة عليه؛ لأنه كان يؤذي المؤمنين بتعزير أو بغيره، فإذن استغاثتهم إنما هي في قولهم "قوموا بنا نستغيث برسول الله" استغاثتهم برسول الله فيما يقدر عليه. ٣

وحقيقة الاستغاثة على وجه الكمال إنما هي بالله جل وعلا لا بنبيه ﷺ فكان حصل منهم نوع التفات للنبي عليه الصلاة والسلام فيما يقدر عليه، فبين لهم أن الواجب عليهم أن يستغيثوا بالله جل وعلا أولا فقال ((إنه لا يستغاث بي)) و((لا يستغاث بي)) هذا نفي فيه معنى النهي؛ يعني لا تستغيثوا بي إنما أستغيث بالله في هذا الأمر، وإذا أغاثهم الله جل وعلا كفّ شر ذلك المنافق عنهم. ٣

قوله((إن لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله)) قال بعضهم: فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ في الأمور وإنما يستغاث بالله والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله في الالفاظ لإن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدر عليها إما بزجره أو تعزيره ونحو ذلك فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ والحماية منه ﷺ لجانب التوحيد وتعظيم الله تبارك وتعالى. ١

قوله: ((إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله)) فيه: النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه. كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته؛ حماية لجناب التوحيد، وسداً لذرائع الشرك وأدباً وتواضعاً لربه، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال. ٢

والنبي ﷺ استنكر هذه اللفظة، فقال: ((إنه لا يستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله عزّ وجلّ)) مع أن الرسول ﷺ قادراً على أن يَرْدَع هذا المنافق؟، وأن يُغيث المسلمين من شرّه؟، بلى، هذا من الاستغاثة الجائزة، لأنه استغاثة بالرسول ﷺ فيما يقدر عليه، لكن الرسول تأدُّباً مع الله سبحانه وتعالى، وتعليماً للمسلمين أن يتركوا الألفاظ التي فيها سوء أدب مع الله عزّ وجلّ، وإن كانت جائزة في الأصل، فقال: ((إنه لا يُستغاث بي)) وهذا من باب التعليم وسدّ الذرائع لئلا يُتَطَرَّق من الاستغاثة الجائزة إلى الاستغاثة الممنوعة، فالرسول ﷺ منع من شيء جائز خوفاً أن يُفضي إلى شيء غير جائز، مثل ما منع من الصلاة عند القبور، والدعاء عند القبور، وإن كان المصلي والداعي لا يدعو إلاَّ الله، ولا يصلِّي إلاَّ لله، لكن هذا وسيلة من وسائل الشرك، كذلك هنا؛ فالرسول أنكر هذه اللفظة سداً للذرائع، وتعليماً للمسلمين، أن يتجنّبوا الألفاظ غير اللائقة.

فإذا كان الرسول أنكر الاستغاثة به فيما يقدر عليه، فكيف بالاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله سبحانه وتعالى؟، وكيف بالاستغاثة بالأموات؟. هذا أشد إنكاراً.
وإذا كان الرسول ﷺ منع من الاستغاثة الجائزة به في حياته تأدُّباً مع الله، فكيف بالاستغاثة به بعد وفاته ﷺ ؟، وكيف بالاستغاثة بمن هو دونه من الناس؟. هذا أمر ممنوع ومحرّم. وهذا وجه استشهاد المصنف رحمه الله بالحديث للترجمة. ٤
فإذا كان هذا كلامه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدر عليه فكيف بالاستغاثة به أو بغيره في الأمور المهمة التي لا يقدر عليها أحد إلا الله كما هو جار على ألسنة كثير من الشعراء وغيرهم وقل من يعرف أن ذلك منكر فضلاً عن معرفة كونه شركاً. ١
فإن قيل: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:١٥] فإن ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ الاستغاثة على المخلوق فيما يقدر عليه وظاهر الآية جوازه.
قيل: تحمل الآية على الجواز والحديث على الأدب والأَولى والله أعلم. ١
الحاصل؛ أن الرسول ﷺ إذا كان أنكر على خواص أصحابه هذه الكلمة، وقال: ((إنه لا يستغاث بي)) وهذا في الدنيا، مع أنه قادر على أن يغيثهم من المنافق، فكيف يُستغاث به بعد وفاته ﷺ، كيف يُستغاث بمن هو دونه من الأولياء والصالحين؟، هذا أمر باطل، والاستغاثة لا تجوز إلاَّ بالله، فيكون في هذا شاهد للترجمة: "بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعوَ غيره" والمناسبة ظاهرة ولله الحمد والمنة، وكل هذا من أجل حماية التّوحيد، وصفاء العقيدة، والمنع من كل ما يُفضي إلى الشرك ولو على المدى البعيد.
الشرك لا يُتساهل فيه أبداً، والطُّرُق التي توصِّل إلى الشرك لا يُتساهل فيها أبداً، وأنتم تعلمون ماذا حصل في قوم نوح، وأن الشرك حصل فيهم بسبب تعليق الصور، والغلو في الصالحين، وكانوا في وقتهم لم يشركوا، ولكن صار هذا وسيلة إلى الشرك فيما بعد؛ لما مات أولئك، ونُسي العلم أو نُسخ العلم عُبدت هذه الصور، فالوسائل إذا تُسوهل فيها أدّت إلى الشرك.

فالواجب علينا منع الشرك، ومنع وسائله، وأسبابه، وأن لا نسمح بالألفاظ الشركية، ولا بأي شيء يُفضي إلى الشرك، وعلينا أن نحذر من ذلك صيانةً للعقيدة، وحماية للتّوحيد، وإشفاقاً على المسلمين من الضلال والكفر والإلحاد، فإنه ما حصل هذا الشرك في الأمة، وما حصل هذا الضلال في الأمة إلاَّ لما تساهل الناس في أمر العقيدة، وسكت العلماء عن بيان خطر الشرك، والتحذير من أسباب الشرك، ورأو الناس على الشرك وعبادة القبور ولم ينهوهم. هذا إذا أحسنّا بهم الظن، وقلنا: إنهم ينكرون هذا بأنفسهم، ولكن ما قاموا بواجب الأنكار، إما إذا كانوا يرون هذا جائزاً، فهذا شرك وكفر لأن من رضي به صار مثل من يفعله.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يحفظ لنا ديننا وعقيدتنا، وأن يجعلنا من الدعاة إليه بالحكمة، والدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. ٤

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "قوله: ((إنه لا يستغاث بي))، ظاهر هذه الجملة النفي مطلقاً، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القضية المعينة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأدب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم، لأن نفي الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعينة التي استغاثوا بالنبي ﷺ منها، فإنه يكون على الحقيقة، أي: على النفي الحقيقي، أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضية، لأن النبي ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقاماً ظاهراً، إذ إن المنافقين يستترون، وعلى هذا، فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله". ٥

هذا الحديث بعض العلماء قال إن في إسناده ابن لهيعة وحاله معروف، وإيراد الأئمة أئمة الحديث للأحاديث التي قد يكون إسناد بعض مقال هذا هو الصواب إذا كان ما في الحديث من المعنى قد عضدته الأدلة من القرآن أو من السنة، وما في هذا الحديث من قوله النبي عليه الصلاة والسلام ((إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله))، قد دلت عليه الآيات التي سلفت، وهذا صنيع أهل الحديث، صنيع الراسخون في العلم من أهل الحديث كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض كلام له في الفتاوى قال: "أهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في أصل من الأصول؛ بل إما في تأييده -يعني في تأييد ذلك الأصل- أو في جزء من الفروع". وهذا هو صنيع الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب، فإنهم يستدلون بأحاديث هي من جهة المعنى التي اشتملت عليه صحيحاً، فقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث مستدلاً به في رده على البكري المعروف بالاستغاثة، كتاب الاستغاثة الكبرى أو الرد على البكري، وقال: إن هذا حديث هو في معنى ما جاء في النصوص. ٣

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى عليه الصلاة و السلام حمى التوحيد والتأدب مع الله عز وجل.

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

يعني: حيث قال في الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غير، ووجه ذلك في الاستغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذا الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعم، فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧]. ٥

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إذا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ٥

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاء لغيره، صار من الظالمين، حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاء لذلك المشرك، فإنه يكون مشركاً، إذا لا تجوز المحاباة في دين الله. ٥

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٧]، فإن كان لا يكشف الضر إلا الله، وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده. ه

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، فلا ينتفع من دعائه هذا، فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفر". ه

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

هي قوله تعالى: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾.

وقوله: ﴿عند الله﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده. ه

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]. ه

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي. ه

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾، أي: المدعوون، ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾، أي: دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إياهم، فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله: ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾، أما الضمير الأول، فإنه يعود إلى المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل. ه

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. ه

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. ه

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

معنى كفر المدعو: رده وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره. تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. ٥

الخامسة عشرة: أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس.

وذلك لأمور، هي:

١- أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.

٢- أن المدعوين غافلون عن دعائهم.

٣- أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.

٤- أنه كافر بعبادتهم. ٥

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة. وهي قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وقد سبق ذلك. ٥

السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

وهو كما قال رحمه الله: وهذا موجود الآن، فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيماً، فإذا وقعوا في الشدة دعو الله مخلص له الدين، وكان عليهم أن يلجئوا للأصنام لو كانت عبادتها حقاً، إلا أن المشركين اليوم من هو أشد شركاً من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشدة دعو أولياءهم، كعلي والحسين، وإذا كان الأمر سهلاً دعوا الله، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه صادقون حلفوا بعلي أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا. ٥

الثامنة عشرة: حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام حمى التوحيد والتأدب مع الله عز وجل.

اختار المؤلف أن قوله: ((لا يستغاث بي)) من باب التأدب بالألفاظ، والبعد عن التعلق بغير الله، وأن يكون تعلق الإنسان دائماً بالله وحده، فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُم﴾)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُم يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُم نَصْرًا﴾ [الْأَعراف:١٩١-١٩٢] الْآيَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِير (١٣)﴾ [فاطر:١٣] الْآيَةُ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ، فَقَالَ: ((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ))؟ فنزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ: ((اللَّهُم إلْعَنْ فُلَاناً وَفُلَاناً)) بَعْدَمَا يَقُولُ: ((سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)) فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الْآيَةُ، وَفِي رُوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بن أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرُو وَالْحَارِثَ بنِ هِشَام، فنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: ((يا مَعشرَ قُرَيْشٍ)) أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا. ((اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شيئاً، يا عَبّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شيئاً، يا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّه ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيئاً، وَيا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيئاً)).

بيان بطلان عبادة غير الله من الملائكة والنبيين والصالحين ومن دونهم

المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعوين من دون الله أنهم لا ينفعون ولا يضرون وسواء في ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام فكل من دعي من دون الله فهذه حاله. ١

ما في هذا الباب من الأدلة من الكتاب والسنّة أراد الشيخ رحمه الله من سياقها بيان أدلة بُطلان الشرك، لأن القرآن الكريم جاء بالدعوة إلى التّوحيد، وعبادة الله وحدة لا شريك له، وجاء بالنهي عن الشرك، وهو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، والنهي عن ذلك. ٤

هذا الباب (باب قول الله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢]) هذا الباب إيراده بعد الأبواب المتقدمة من أحسن الإيراد وأعظمها فقها ورسوخا في العلم؛ ذلك أنّ برهان وجوب توحيد الله جل وعلا في إلهيته هو ما رُكِزَ في الفطر من أن الله جل وعلا واحد في ربوبيته، والربوبية وأنّ الله واحد في ربوبيته هذه يقر بها المشركون ويقر بها كل أحد، فهي البرهان على أن المستحق للعبادة هو من توحَّد في الربوبية، فهذا الباب والباب الذي بعده أيضاً برهان لاستحقاق الله العبادة وحده دون ما سواه بدليل فطري ودليل واقعي ودليل عقلي.

ومن المعلوم أن الأدلة العقلية عندنا أهل السنة والجماعة نأخذها من الكتاب والسنة؛ لأن في الكتاب والسنة من الأدلة العقلية ما يغني عن تكلُّف أدلة عقلية أخرى لمن تأمل ذلك في نصوص الوحيين.

فهذا الباب في بيان أن الذي يخلق هو الله وحده والذي يرزق هو الله وحده والذي يملك هو الله وحده وأن غير الله جل وعلا ليس له نصيب من الخلق وليس له نصيب من الرَّزق وليس له نصيب من الإحياء وليس له نصيب من الإماتة وليس له نصيب من الأمر وليس له ملك حقيقي في أمر من الأمور ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، حتى أعلى الخلق مقاما وهو النبي عليه الصلاة والسلام قال له الله جل وعلا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ يعني لست مالكا لشيء من الأمر، ليس من الأمر شيء تملكه، اللام هنا لام الملك، فمن الذي يملك إذن؟ هو الله جل وعلا. ٣

ويكفيك في ذلك قوله تعالى لأكرم الخلق: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢١-٢٣] وقال ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أعلم الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ١

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يُنفى عنه ذلك فإنّ نفيه عمن هو دونه من باب أولى.

والذين توجّهوا إلى أصحاب القبور أو إلى الصالحين والأولياء والأنبياء في داخلهم زعْمٌ بأنهم يملكون أشياء، إمّا أن يملكوا شيئاً من الرزق أو يملكوا شيئاً من التوسط والشفاعة بدون إذن من الله جل وعلا ومشيئته.

فإذن هذا الباب أحد الأبواب التي فيها البرهان على استحقاق الله للعبادة وحده دون ما سواه، والقرآن فيه كثير من البراهين على أنّ المستحق للعبادة هو الله جل وعلا وحده دون ما سواه.

من الأدلة والبراهين على استحقاق الله للعبادة

فمن تلك الأدلة والبراهين ما في القرآن من أدلة فيها إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، كل ذلك النوع من الأدلة فيه دليل على أنَّ المستحق للعبادة هو من أقررتم له بالربوبية.

ومن الأدلة والبراهين على ذلك ما في القرآن من أن الله جل جلاله نصر رسله وأولياءه على أعدائهم وأنّ كل طائفة من طوائف الشرك ذلت وخضعت وغلبت أمام طوائف أهل الإيمان أمام جند الله جل وعلا من الرسل وأتباع الرسل والأنبياء، وهذا نوع آخر من الأدلة أنه ما من طائفة موحدة بعث الله جل وعلا إمامها ورسولها بقتال المشركين إلا وظهرت عليهم، إلا وغلبتهم حتى صارت العاقبة لهم، وهذا أمر في القرآن كثير وأدلته كثيرة، قصص الأنبياء، وقصص القرى، وكل قرية خالفت رسولها عوقبت وهكذا كل القرى، هذا دليل على أن التوحيد هو الحق وأنّ الشرك باطل.

من الأدلة نوع آخر في القرآن -من البراهين نوع آخر في القرآن- مِن أن المخلوق ضعيف، أن العابد الذي يسمع هذا القرآن، كل مخلوق، كل مكلف يعلم من نفسه الضعف، وأنه جاء إلى الحياة بغير إختياره؛ بل الله جل وعلا هو الذي أتى به إلى هذه الحياة، وأنه سيخرج من هذه الحياة بغير إختياره أيضاً، فهو أيضاً مقهور، ويعلم قطعاً أن الذي قهره وأذله وجعله على هذه الحالة ليس هو تلك الآلهة إنما هو الله جل وعلا وحده هو الذي يحيي ويميت، وهذا إقرار عام يعلمه كل أحد من فطرته.

من الأدلة و البراهين أنّ الله جل وعلا له الأسماء الحسنى وله الصفات العلا وأنه ذو النعوت الكاملة وذو النعوت الجليلة -نعوت الجلال ونعوت الجمال ونعوت الكمال-، وهو سبحانه كل الكمال المطلق في كل إسم له وفي كل نعت ووصف له، له الكمال المطلق الذي يعتريه نقص في وجه من الوجوه. ٣

وفي هذا الكتاب تنويع أيضاً -كما سيأتي- براهين التوحيد -توحيد العبادة- بأدلة من القرآن متنوعة. ٣

هذا الباب ذكر فيه الشيخ رحمه الله أحد أنواع أدلة الربوبية أو براهين التوحيد، وأنه الله جل وعلا هو الواحد في ربوبيته. ٣

هذا الباب مع الباب الذي يليه مناسبته لكتاب التوحيد أنّ هذين البابين هما برهان للتوحيد؛ برهان لاستحقاق الله جل وعلا العبادة وحده وعلى بطلان عبادة ما سواه، وهذا البرهان هو بتقرير أنّ الله حل وعلا واحد في ربوبيته، ودليل ذلك الفطرة ودليل ذلك العقل ودليل ذلك أيضاً النص من الكتاب والسنة، فلا أحد ينكر أن الله جل وعلا هو مالك الملك، وهو الذي بيده تصريف الأمر كيف يشاء، إلا شرذمة قليلة من الناس -كما قال الشهرستاني وغيره- لا يصح أن تنسب لهم مقالة.

فالناس مفطورون على الإقرار بالرب وعلى الإقرار بأنهم مخلوقون، وإذا كان كذلك فإن الحجة عليه في وجوب توحيد الألوهية أن الله جعل في فطرهم الإقرار بأن الله واحد في ربوبيته، ولهذا المشركون لا ينكرون أن الله جل جلاله واحد في خلقه واحد في رَزْقه؛ يعني أنه هو الخلاق وحده، وأنه هو الرزاق وحده، وأنه جل وعلا هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي ينبت النبات، وهو الذي يُنزل الماء، إلى آخر أفراد تدبيره جل وعلا للأمر وأفراد توحيد الربوبية.

فالبرهان على أنّ الله هو المستحق للعبادة وحده أنه جل وعلا هو مالك الملك وحده، وهو الذي يدبر هذا الملكوت وحده، وهو الذي خلق العباد والعباد صائرون إليه، وأما الآلهة التي توجه إليها العباد بالعبادة من الأنبياء والأولياء والملائكة فإنما هم مخلوقون مربوبون لا يَخْلُقُون شيئاً وهم يُخْلَقُون، وأيضاً لا يستطيعون نصرا لمن سألهم، وإنما ذلك لله جل وعلا.

فإذا كان أولئك ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم من الملك شيء، وليس لهم من الخلق شيء، وليس لهم من تدبير الأمر شيء، وإنما تدبير أمر السماوات وتدبير أمر الأرض بيد الله وحده دونما سواه، فإن الذي يستحقّ العبادة وحده هو الذي يفعل تلك الأفعال، وهو الذي يتصف بتلك الصفات، هو الذي وحّده العباد في ربوبيته.

فإذا كان كذلك يجب أن يكون إذن واحدا في أفعالهم لكي لا يتوجهوا في العبادة إلا إليه وحده.

وهذا كثير في القرآن جداً، فإنك تجد في القرآن أنّ أعظم الأدلة والبراهين على المشركين في إبطال عبادتهم لغير الله وفي إحقاق عبادة الله وحده دونما سواه أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، فالإقرار بتوحيد الربوبية برهان توحيد الإلهية، فالله جل وعلا احتج في القرآن على المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية.

ولهذا قال جل وعلا ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِن السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]؛ يعني أتقرون بذلك فلا تتقون الشرك -لأني ذكرتُ لكم أن الفائدة

أتت بعد الهمزة فهي تعطف ما بعدها على جملة محذوفة دلّ عليها السياق-، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أتقرون بأن الله واحد في ربوبيته فلا تتقون الشرك به؟ ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ﴾ باعترافكم وبإيقانكم، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ [يونس:٣٢]، وهذا نوع احتجاج بما أقروا به وهو توحيد الربوبية على ما أنكروه وهو توحيد الإلهية.

كذلك الآيات العظيمة في سورة النمل قال جل وعلا ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٥٩-٦٠] ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ هنا إنكار عليهم، أنكر لماذا؟ لأن ما سبق يقرون به، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يقرون بأن الذي خلقها هو الله، فإذن كيف يتخذون إلها مع الله، كان هذا إنكار، من الذي أنزل لهم من السماء ماء فأنبت لهم به حدائق ذات بهجة؟ هو الله، فإذن كيف يتخذون إلها معه، ولهذا قال جل وعلا ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾، هذا إنكار عليهم، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يعني يعدلون بالله غيرَه أو يعدلون غير الله جل وعلا به؛ يعني يساوون هذا بهذا، أو ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يعني يصرفون عن الحق ويُصرفون عنه إلى غيره، فكيف يعدلون عن الحق لا غيره أو كيف يعدلون بالله غيره من الآلهة وهكذا الآية التي بعدها قوله ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل:٦١]، جواب المشركين على هذا السؤال (أَمَّنْ) جوابهم هو الله، قال جل وعلا ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١]، ثم قال جل وعلا ﴿أَمَّن يُجِيبُ المضْطَرَّ إذا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢] رجع من الآيات التي في الآفاق وفيما حولهم إلى الشيء الذي يعلمونه علم اليقين ﴿أَمَّن يُجِيبُ المضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، ثم قال جل وعلا ﴿أَمَّن يَّهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَن يُّرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَّعَ الله تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَّرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ الله

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٣-٦٤]، وفي الحقيقة أنه لا برهان لهم، ولهذا قال في آية المؤمنون ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون:١١٧]، ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ فكل إله لا برهان له، ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ يعني لا حجة قائمة على إنه إله وإنما اتخذه البشر بالطغيان وبالظلم، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، فهذا الباب قائم على هذه الحجة، ولهذا من أعظم الحجة على المشركين وعلى الذين توجهوا إلى الأموات توجهوا إلى المقبورين بطلب تفريج الكربات وطلب إغاثة اللهفات وطلب إنجاح الحاجات وسؤال ما يحتاجه الناس، أعظم الحجة عليهم أنْ تحتج عليهم بتوحيد الربوبية.

وهؤلاء المشركون في هذه الأزمنة زادوا -كما قال الشيخ رحمه الله في القواعد الأربع- زادوا على مشركي الجاهلية بأنهم اعتقدوا أن لتلك الآلهة، لتلك الأموات، أن لهم تصرفاً في الكون أيضاً، فنسبوا إليهم شيئاً من الربوبية ولم يجعلوا توحيد الربوبية أيضاً خالصاً.

وهذا البرهان برهان عظيم ينبغي لك أن تتوسع في دلائله وأن تعلم الحجة في القرآن منه؛ لأن القرآن كثيراً ما يحتجّ بهذا البرهان وهو توحيد الربوبية على ما ينكره المشركون وهو توحيد الإلهية.

من ذلك ما ساقه الشيخ رحمه الله في هذا الباب قال (باب قول الله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾) هذا إنكار وتوبيخ لهم كيف يشركون الذي لا يخلق وهم يخلقون ومن الذي خلقهم هو الله جل وعلا هو الذي خلق من عبدوا وهو الذي خلق العابد أيضاً، فالذي يستحق العبادة وحده دون ما سواه إنما هو الله ذو الجلال والإكرام. ٣

قال المفسرون: في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كل مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين. ٢

فقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا استفهام، معناه: الإنكار.

﴿مَا لا يَخْلُقُ شيئاً ﴾ أي: هذا الشرك باطل؛ بدليل أن هذه المعبودات من دون الله لا تخلق شيئاً ، فهي عاجزة لأن الذي يستحق العبادة هو الخالق، فالذي يقدر على الخلق هو الذي يستحق العبادة، أما الذي لا يقدر على الخلق فهذا لا يستحق العبادة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة:٢١-٢٢] لا تجعلوا لله شركاًء وأنتم تعلمون أن هذه الشركاًء لا تقدر على خلق شيء، ولا على رَزْق، ولا على إحياء، ولا إماتة، فهي عاجزة، وكما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾ [النحل:١٧]، فالذي يستحق العبادة هو الخالق، أما الذي لا يقدر على الخلق فهذا عاجز لا يستحق العبادة، فكيف يُسَوَّى العاجز بالقادر؟، كيف يُسَوَّى المخلوق بالخالق سبحانه وتعالى؟: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾ [النحل:٢٠-٢١]، وقال تعالى في تعجيز المشركين وآلهتهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج:٧٣]، فهذه المعبودات بجميع أنواعها سواءً كانت أحجاراً، أو أشجاراً، أو قبوراً وأضرحة، أو ملائكة، أو أنبياء، أو صالحين من المؤمنين، كلهم يدخلون تحت هذا الوصف؛ لا يقدرون على خلق شيء، لأن المخلوق لا يستطيع أن يخلق، فكيف يُتخذ معبوداً مع الله سبحانه وتعالى؟.

وفي هذه الآية يقول: ﴿لا يَخْلُقُ شيئاً﴾ وشيئاً نَكِرَة في سياق النفي تَعُم، يعني: لا يخلقون أي شيء ولو كان قليلاً، ولو يجتمع العالم كله بما فيهم المهَرة والصنّاع والمهندسون والأطباء، ويُطلب منهم أن يخلقوا حبة شعير ما استطاعوا.

ثم قال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: هذه المعبودات التي تعبدونها مخلوقات لله سبحانه وتعالى: فهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا غيرهم، فكيف تتّخذونهم مع الخالق سبحانه وتعالى؟، هل هذا إلاّ من باب المكابرة، ومن باب العِناد.

فالذي يُشرك بالله أيًّا كان هذا الشيء قد قامت عليه هذه الحجة في أن هذا المعبود عاجز، لكن أين العقول التي تفكِّر؟، هؤلاء الذين يزعمون أنهم مفكِّرون، وأنهم مَهَرَة، وأنهم مثقفون، وأنهم.. وأنهم، تجدهم يخضعون للقبور، ويعبدون الأموات، ويذبحون لها، وينذرون لها، ويستغيثون بها، وهم يسمعون هذا القرآن.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ [الأعراف:١٩٢] أي: هذه المعبودات وهذه الأصنام لا تملك نصراً لمن دعاها، إذا وقع المشرك في كُربة، أو في ضيق، أو في مرض، لا يستطيع أحد من الخلق أن يُنقذه إلاّ بإذن الله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧]، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل:٦٢]، ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨]، وهنا يقول: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا يملك المعبودون ﴿لَهُمْ﴾ للعابدين ﴿نَصْراً﴾ عندما يتسلط عليهم عدو، أو يتسلط عليهم سَبُع، أو يتسلط عليهم خوف، فإنها لا تستطيع هذه المعبودات أن تنصرهم على عدوهم، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمرا:١٦٠]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:١٢٦] فالنصر من الله سبحانه وتعالى، ولو كانت هذه المعبودات تُغني عن المشركين شيئاً ما انهزموا في بدر، ولا انهزموا في الأحزاب، ولا انهزموا يوم فتح مكة، وفي يوم حنين، وأما المؤمنون فالله نصرهم سبحانه وتعالى، وهم قِلّة، كانوا في بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، والمشركون يزيدون على الألف، والمسلمون ليس معهم عُدّة ولا سلاح إلاّ قليل، والمشركون مُدَجَّجُون بالسلاح: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ

اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [آل عمران:١٣]، حتى الشيطان لما تراءى الجمعان قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال:٤٨]، أما الله جل وعلا فكان مع أوليائه، وكان مع عباده، فنصرهم على عدوّهم مع قلّة عددهم وضعف عُددهم، والمشركون لم يجدوا من ينصرهم، أين ذهبت آلهتهم؟ ﴿وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي: هذا المعبود الضعيف إذا نزل به آفة لا يستطيع أن يُنقذ نفسه، فكيف ينقذكم؟

هذا الميت المقبور المدفون لا يستطيع أن يتخلص من الموت ومن القبر ومما هو فيه، مشغول عنكم بنفسه؛ إما في عذاب وإما في نعيم، لا يسمع دعاءكم.

وهذه الأشجار والأحجار التي تعبدونها جمادات لا تستطيع نصركم ولا تنصر نفسها، الصنم الكبير يحطمه الطفل ولا يستطيع أن ينصر نفسه، يقع عليه الذباب ويقذّره ولا يستطيع أن يَنْفي عن نفسه، الذباب الضعيف: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣].

يُروى أن بعض المشركين له صنم، فجاء الثعلب وبال عليه، فلما رآه عابده فكّر وقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ... لقد هان من بالت عليه الثعالب

فعند ذلك فكّر وترك عبادة الأصنام.

ويدخل في هذه الآية كل ما عُبد من دون الله من الملائكة، والأنبياء، والصالحين، والأشجار، والأحجار، كلها مخلوقات ضعيفة، لا تستطيع أن تنصر نفسها، فكيف تنصر غيرها؟. ٤

فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هي:

١- أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يعبد.

٢- أنهم مخلوقون من العدم، فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودواماً.

٣- أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿لا يستطيعون﴾ أبلغ من قوله: "لا ينصرونهم"، لأنه لو قال: "لا ينصرونهم"، فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿لا يستطيعون لهم نصراً﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤- أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم. ٥

وهذه الآية كقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)﴾ [الفرقان: ٣] وقوله: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أعلم الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢١ – ٢٣].

فكفى بهذه الآيات برهانا على بطلان دعوة غير الله كائنا من كان. فإن كان نبياً أو صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضا به ربا ومعبودا، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبودا مع توجيه الخطاب بالنهي عن هذا الشرك؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإليه تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره، وهذا هو دينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو دين الإسلام، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام، قال "يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: ((الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان)) [1] الحديث". ٢

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة. ٥

---

[1] البخاري تفسير القرآن (٤٤٩٩)، مسلم الإيمان (٩)، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩١)، ابن ماجه المقدمة (٦٤)، أحمد (٢/٤٢٦).

﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غير الله سبحانه وتعالى، وهذا يشمل كل ما عُبد من دون الله، لأن الاسم الموصول من صيغ العموم، فيشمل كل ما عُبد من دون الله من آدميّين، أو أحجار، أو أشجار، أو ملائكة، أو غير ذلك. ٤

قال ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ وهذا موطن الشاهد ٤

والقطمير هو الغشاء الرقيق الذي يكون على النواة وهو شيء حقير. ٤

حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره: "انه تعالى يخبر عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو وهي الملك وسماع الدعاء والقدرة على استجابته فمتى عدم شرط بطل أن يكون مدعوا فكيف إذا عدمت كلها فنفى عنهم الملك بقوله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾."

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة: "القطمير: اللفافة التي تكون على نواة التمر، أي ولا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير.[1] ١

وقوله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ حتى هذا القطمير وهو غلاف النواة أو الحبل الواصل من أعلى النواة إلى ظهر الثمرة هذا لا يملكونه، فغيره مما هو أعلى منه من باب أولى وأولى، وحتى هذا الشيء الحقير لا يملكون مما لا يحتاجه الناس ولا يطلبونه، فكيف إذن يطلبون منهم أشياء لا يملكونها؟ قال جل وعلا هنا ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا...﴾، ﴿الَّذِينَ﴾ اسم موصول يعم كل ما دعي من دون الله -الملائكة أو الأنبياء والرسل أو الصالحين من الأموات أو الطالحين أو الجن أو الأصنام والأشجار والأحجار-؛ كل ما دعي وما دعي فإنه لا يملك ولو قطميرا لا يملك هذا، فإذن لم يسأل؟ فالواجب أن يتوجه بالسؤال لمن يملك ذلك. ٣

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء.

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي على النواة.

---

[1] تفسير ابن كثير ٥٥٢/٣

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير. ٥

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شيئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾ [النحل: ٧٣] وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)﴾... [سبأ: ٢٢- ٢٣]٢

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

يُشترط في المدعُو ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون مالكاً لما يطلب منه.

الثاني: أن يكون يسمع الداعي.

الثالث: أن يكون يقدر على الإجابة.

وهذه الأمور لا تتّفق إلاّ في الله سبحانه وتعالى، فإنه المالك، السميع، القادر على الإجابة، أما هذه المعبودات فهي أولاً: فقيرة، ليس لها ملك. ثانياً: لا تسمع من دعاها.

وثالثاً: لو سمعت فإنها لا تقدر على الإجابة.

ففي قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ انتفى الشرط الأول.

وفي قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤] انتفى الشرط الثاني. ٤

ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شيئاً ﴾ [مريم: ٤٢] ٥

وفي قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤] انتفى الشرط الثالث.

إذاً بَطل دعاؤها.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]. ٤

فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك. ٢

إذا جاء يوم القيامة يتبرّؤون منكم، وكل المعبودات من دون الله تتبرأ ممن عبدها يوم القيامة، حتى الشيطان يتبرأ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢]، يعني: ما أنا بمغيثكم. والصريخ: المغيث. يعني: لا أقدر على إغاثتكم ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أنتم لا تقدرون على إغاثتي، كقوله سبحانه: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

وكذلك الملائكة يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، يعني: يعبدون الشياطين التي دعتهم إلى هذا، أما نحن براء منهم، وحاشا وكلا أن ترضى ملائكة الرحمن بأن تُعبد من دون الله، فضلاً عن أن تدعَو إلى ذلك، وإنما هذا من عمل الشياطين.

وعيسى عليه السلام يقول الله له يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أعلم مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة:١١٦-١١٧].وكذلك سائر المعبودات: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧] يتمنون ﴿ كَرَّةً﴾ يعني: رجوعاً إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ نتبرأ من هذه الأصنام والمعبودات، ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ لكن أين؟، ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] نعوذ بالله.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف:٥] لا يسمعون دعاءهم في الدنيا، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف:٦] هذا خبر من الله سبحانه وتعالى عن مصير هؤلاء المشركين يوم القيامة، يُخبرهم بما يكون إليه الأمر يوم القيامة من أجل أن يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا رحمة منه بعباده، ولهذا قال: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] لا ينبئك ويُخبرك عن الأشياء مثل خبير بها وهو الله سبحانه وتعالى، هو الذي يعلم الأشياء والعواقب، ويعلم المآل والمصير، وهو يُخبركم أيها الناس بأن من عبد غير الله فإنه سيتبرأ منه يوم القيامة، فخذوا حذركم. وهذا رحمة من الله سبحانه وتعالى، وأخبر أنه لا ينبئك بالأمور وعواقبها ونتائجها وثمراتها إلاّ الخبير بالأمور، أما الجاهل فإنه لا يستطيع أن يُخبرك عن شيء، ولو أخبرك فإن خبره يكون غير صحيح، أما الله جل وعلا إذا أخبر بخبر فإنه يكون واقعاً لابد منه، وكذلك رُسُلُه، لأنهم يخبرون عن الله سبحانه وتعالى.

أما هؤلاء المشعوذون والصوفيّة والمخرّفون الذين يُدعون الناس إلى عبادة الأضرحة والمقامات، ويقولون: هذه فيها بركة، وفيها ... وفيها ... هؤلاء كذبة، فلا تصدقوهم. ٤

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون، فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيزاً والمسيح.

وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها، فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها، فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وما ثبت في "الصحيحين" عن النبي ﷺ: ((أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون الله))[١]، فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتحصب في النار إهانة لعابديها وتحضر لتتبع إلى النار، فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت. ٥

---

[١] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية.

وصف الله آلهتهم بأربع صفات كذلك:

١- أنهم لا يملكون شيئاً حتى القطمير

٢- أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم.

٣- أنهم لو سمعوا ما استجابوا.

٤- أنهم يكفرون يوم القيامة بشرك هؤلاء. فهذه حالة المشركين وإنهم خسروا الدنيا والآخرة.٦

مسألة:

هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلم عليهم؟

اختلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول النبي ﷺ حين زيارة القبور: ((السلام عليكم)) دعاء لا يقصد به المخاطبة، ثم على فرض أنهم يسمعون كما جاء الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: "بأن الإنسان إذا سلم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام"[١]، وعلى تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه، فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنهم يسمعون غير السلام، فإن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعونهم، فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعاء من يدعون، لأن هذا كفر بالقرآن، فتبين هذا أنه لا تعارض بين قوله ﷺ: ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين))[٢]، وبين هذه الآية.

وأما قوله: ﴿ولو سمعوا﴾، فمعناه، لو سمعوا فرضاً ما استجابوا لكم، لأنهم لا يستطيعون.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

---

[١] ذكره السيوطي في "الجامع الصغير"، ١٥١/٢، وابن عبد البر في "الاستذكار"، ١٦٤/٢، وانظر "الروح" لابن القيم (١٦٧/١)، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٣١/٢٤)

[٢] مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبور.

واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في "الصحيح" من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المشيع قرع نعالهم.[1]

والجواب عن هذين الدليلين: أما الأول، فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلمون على النبي ﷺ في حياته في التشهد[2]، وهو لا يسمعهم قطعاً.

أما الثاني، فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن، وعلى كل، فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال. ٥

وفي (الصحيح) عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: ((كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم))؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً)) بعدما يقول: ((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد)) فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال: "وفي الصحيح" يعني: الصحيحين.

"عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ" الشَّجَّة هي: الجرْح في الرأس والوجه خاصة، أما الجرح إذا كان في البدن فهذا لا يُسمى شَجَّةً، وإنما يُسمى جراحة. ٤

قوله: "وكسرت رباعيته"، السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين. ٥

"يوم أحد": جبل يقع في الشمال الشرقي من المدينة، حصلت عنده وقعة أحد في السنة التي بعد وقعة بدر، فالمشركون تجمعوا وأرادوا الانتصار لأنفسهم، وجمعوا جنوداً بقيادة أبي سفيان بن حرب، وجاءوا يريدون الانتقام من الرسول ﷺ وأصحابه، الذين أصابوهم يوم بدر، جاءوا ونزلوا عند هذا الجبل، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه الكرام من المهاجرين

---

[1] البخاري/ كتاب الجنائز/باب الميت يسمع خفق النعال، ومسلم: كتاب الجنة ونعيمها/باب عرض مقعد الميت.

[2] البخاري/ كتاب الاستئذان/ باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، ومسلم: كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة.

والأنصار، والْتقى بهم في هذا المكان، ونظّم ﷺ المقاتلين، وجعل على الجبل الذي خلفهم جماعة من الرُّماة يحمون ظهور المسلمين، ودارت المعركة، والرُّماة على الجبل يحرسون المسلمين، وصار النصر في الأول للمسلمين لما كانوا يمشون على خُطّة الرسول ﷺ، وشرعوا يجمعون الغنائم، فلما رآهم الرُّماة الذين على الجبل ظنُّوا أن المعركة انتهت، فقالوا: نَنْزِل نساعد إخواننا على جمع الغنائم، فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير ﵁: لا تنزلوا، لأن الرسول ﷺ قال لنا: لا تتركوا الجبل، سواءً انتصرنا أو هُزمنا. ولكنهم خالفوا قائدهم ونزلوا، فلما رأى خالد بن الوليد–وكان يوم ذاك مشركاً–، لما رأى الجبل فَرَغ –وهو كان من الشُّجعان وساسة الحرب– عرف أن هذه الثغرة انفتحت لهم، فدار بمن معه، وانقضوا على المسلمين من الخلف، وما شعر المسلمون إلاّ والمشركون يضربونهم من الخلف، فحينئذ اختلط الجمعان: المسلمون والكفّار، ودارت المعركة من جديد، وأصيب المسلمون عقوبة لهم بسبب مخالفة أمر النبي ﷺ. وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾[آل عمرا:١٥٢]، يعني: تقتلونهم، وهذا في أول المعركة، ﴿حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمرا:١٥٢] عقوبة لكم.

والنبي ﷺ شُجَّ في رأسه، وهشم المغفرُ على رأسَه، وغاصت حلقتان في وجنته ﷺ، وكُسِرت رُباعِيّته –عليه الصلاة والسلام–، ووقع في حفرة، وأشاع المشركون أن محمداً قد قُتل، فلما أشاع المشركون هذه الشائعة وصاح الشيطان بذلك، حصل على المسلمين مصيبة أكبر من مصيبة القتل، كل هذا بسبب المعصية.

انظروا يا عباد الله، معصية واحدة وليست من الجميع، وإنما هي من بعض الصحابة حصل بسببها هذه العقوبة على خير الخلق، فكيف بنا نحن، ونحن نرتكب من المعاصي والمخالفات الشيء الكثير؟، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، فهذا فيه خطورة المعاصي، ومخالفة أمر النبي ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمرا:١٥٢] هذا تطمين لهم بعدما وبَّخهم ﷺ، لأنهم أحبابه وأولياؤه.

وقد "شُجَّ النبي ﷺ" وهذا دليل على أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فلا تجوز عبادته.٤

قال القاضي: "وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم". ١

وهذا من أدلة بطلان الشرك؛ أن المخلوق وإن بلغ من المنزلة العالية فإنه مخلوق، لا يستحق شيئاً من العبادة، فأشرف الخلق محمد ﷺ وقع عليه الضرر، وجُرح- عليه الصلاة والسلام-، فدلّ على أنه لا تجوز عبادته من دون الله، وإذا كان كذلك فغيره من باب أولى، فلا تجوز عبادة الأولياء والصالحين ومَن دون ذلك، لأن كل الخلق لا تجوز عبادتهم، لا الملائكة، ولا النبييون، ولا الأولياء، ولا الصالحون. العبادة حق لله سبحانه وتعالى، لا يجوز صرفها لغيره، وقال تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إلاّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أعلم الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إلاّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا كان الرسول لا تجوز عبادته من دون الله عزّ وجلّ، فكيف بغيره من الخلق؟، والرسول لم يستطع الدفع عن نفسه: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢)﴾ [الجن:٢١-٢٢].

ولما شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد قال -عليه الصلاة والسلام-: ((كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم؟)) استبعد ﷺ فلاحهم، واستبعد استجابتهم للدعوة، لأنهم بلغوا من العناد، وبلغوا من المشاقة إلى هذا الحد، فهؤلاء بعيد أن يستجيبوا، وإذا لم يستجيبوا فلن يفلحوا، ولكن الله جل وعلا يعلم المستقبل وما يكون، فعاتبه وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾ [آل عمران:١٢٨]. ٤

و﴿شيء﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم.

قوله: ﴿الأمر﴾، أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ﷺ ليس له فيهم شيء.

ففي الآية خطاب للرسول ﷺ وقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله- سبحانه- في كلمة واحدة: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟))، فإذا كان الأمر كذلك، فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شيء، كالأصنام، والأوثان، والأولياء، والأنبياء، فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه، لأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملك لغيره؟. ٥

وهذا -أيضاً- دليل آخر على عدم استحقاقه لشيء من العبادة، الأمر في هذا الكون والتدبير لله سبحانه وتعالى، وإنما الرسول ﷺ مبلّغ عن الله، والأمر لله سبحانه وتعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالأمر لله ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وإنما الرسل -عليهم الصلاة والسلام- مبعوثون عن الله فقط، ودعاة إلى الله.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] لا أمر النصر، ولا أمر الهزيمة، ولا أمر التوبة، ولا أمر الفلاح، ولا أمر الدخول في الإسلام والهداية، وإنما كل هذا بيد الله سبحانه وتعالى، أنت ليس عليك إلاّ البلاغ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى:٤٨]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، هذه وظيفة الرسول ﷺ أنه مبلِّغ عن الله فقط، أما أنه يملك النفع والضَّر والنصر والرِّزق والحياة والموت؛ فهذا لا يملكه أحد إلاّ الله سبحانه وتعالى. ٤

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلا نستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم، قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

والرجل المطيع الذي يمر بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: ((والله، لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتألى علي على أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك))[1]، فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة؟!

وما دام الإنسان لم يمت، فكل شيء ممكن، كما أن المسلم -نسأل الله الحماية- قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة.

فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصياً. ٥

قال "وفيه" أي: في الصحيح، يعني: صحيح مسلم.

"عن ابن عمر" هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما-، من فقهاء الصحابة، ومن العُبّاد.

أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً")) يدعو الرسول ﷺ على فلان وفلان أن يطردهم الله من رحمته؛ بسبب أنهم أَلَّبُوا المشركين، وجاءوا لحرب الرسول ﷺ، وأوْقعوا بالمسلمين هذه المصيبة. ٤

قوله: "فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ "، هنا قال: "فأنزل"، وفي الحديث السابق قال: "فنزلت"، وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ على هؤلاء، وقوله: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟))، ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان. ٥

فيه دليل على مشروعيّة القنوت في صلاة الفجر عند النوازل، أي: ما تنزل بالمسلمين نازلة من مداهمة عدو، أو حصول بلاء فيه خطورة على المسلمين، فإنهم يُشرع لهم أن يقنتوا في صلاة الفجر، بمعنى أنهم يدعون في صلاة الفجر لرفع هذا البلاء الذي عليهم، أو على

---

[1] مسلم: كتاب البر والصلة/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله.

إخوانهم من المسلمين، فالقنوت عند النوازل من سنّة الرسول ﷺ، كما في هذا الحديث، أما القنوت في صلاة الفجر في غير النوازل على صفة مستمرّة؛ فهذا ليس بمشروع عند جمهور أهل العلم.

قال: "وفي رواية: يدعو على صفوان بن أُميّة، وسُهيل بن عمرو، والحارث بن هشام" هذا تفسير لقوله: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً))، وأن المراد بهم هؤلاء الأشخاص، لأنهم من قادة المشركين يوم أحد مع أبي سفيان، وكان النبي ﷺ يدعو عليهم لِما وقع منهم، ولكن الله يعلم من حال هؤلاء وما يؤول إليه أمرهم ما لا يعلمه الرسول ﷺ، فإن هؤلاء تاب الله عليهم وأسلموا، وحسُن إسلامهم رضي الله عنهم.

ولما ارتدّ الناس بعد وفاة النبي ﷺ وقف سهيل بن عمرو خطيباً في أهل مكة يُثبِّتهم على الإسلام، وقال لهم: "يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأوّلُ من ارتد."

فثبت أهل مكة على الإسلام، ولم يرتدُّوا بسبب هذا الرجل الذي جعل الله فيه الخير. فهذا دليل على أن الإنسان مهما بلغ من الضلال، ومهما بلغ من الكفر، فإنه لا ييأس من هدايته، لأن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى.

وهذا دليل على أنه لا يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه وتعالى، وأنك لا تحكم على المعينين بالنار إلاّ من حكم عليه الله سبحانه وتعالى في القرآن، أو حكم عليه الرسول ﷺ.

ولهذا من عقيدة أهل السنّة والجماعة: أنهم لا يشهدون لأحد بجنة ولا نار إلاّ من شهد له رسول الله ﷺ، ولكنهم يرجون للمحسنين، ويخافون على المسيئين، ولا يجزمون لأحد لأن العواقب بيد الله سبحانه وتعالى، والإنسان مهما بلغ من الكفر والشرك والعناد، فإنه قد يهديه الله سبحانه وتعالى، ويُصبح من أولياء الله الصالحين.

فهؤلاء أسلموا، وحسُن إسلامهم -رضي الله تعالى عنهم-، مع أنهم آذوا الرسول، وقاتلوه، وآذوا المسلمين، ولكن منّ الله عليهم بالهداية.

ولهذا من عقيدة أهل السنّة والجماعة: أنهم لا يشهدون لأحد بجنة ولا نار إلاّ من شهد له رسول الله ﷺ، ولكنهم يرجون للمحسنين، ويخافون على المسيئين، ولا يجزمون لأحد لأن العواقب بيد الله سبحانه وتعالى، والإنسان مهما بلغ من الكفر والشرك والعناد، فإنه قد يهديه الله سبحانه وتعالى، ويُصبح من أولياء الله الصالحين.

فهؤلاء أسلموا، وحسُن إسلامهم -رضي الله تعالى عنهم-، مع أنهم آذوا الرسول، وقاتلوه، وآذوا المسلمين، ولكن منّ الله عليهم بالهداية. ٤

فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية، لان القلوب بيد الله -سبحانه وتعالى-، ولو أن الأمر كان على ظن النبي ﷺ، لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة، لم يبق إلا العذاب.

ولكن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله، ولهذا هدى الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله الذابين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين ضده، ولله -سبحانه- يمن على من يشاء من عباده. ٥

فتاب الله عليهم وآمنوا مع أنهم فعلوا أشياء لم يفعلها أكثر الكفار منها: غزوهم نبيهم ﷺ في بلاده وشجهم له وكسر رباعيته وقتلهم بني عمهم المؤمنين وقتلهم الأنصار والتمثيل بقتلى المسلمين وإعلانهم بشركهم وكفرهم ومع هذا كله لم يقدر النبي ﷺ أن يدفعهم عن نفسه ولا عن أصحابه كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن:٢١-٢٣] بل لجأ ﷺ إلى ربه المالك القادر على النفع والضر وإهلاكهم ودعا عليهم ﷺ في الصلاة المكتوبة جهراً وخلفه سادات الأولياء يؤمنون على دعائه.

ومع هذا كله ما استجاب الله له فيهم بل تاب عليهم وآمنوا فلو كان عنده ﷺ من النفع والضر شيء لكان يفعل بهم ما يستحقونه على هذه الأفعال العظيمة ولكن الأمر كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[إبراهيم:٥٢] فأين هذا مما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين بل في الطواغيت الذين يسمونهم المجاذيب والفقراء أنهم ينفعون من دعاهم وينصرون من لاذ بحماهم ويدعونهم براً وبحراً في غيبتهم وحضرتهم. ١

وفي هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين، بل في الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم؛ فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب، وذلك عدله سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة. ٢

وفيه عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: ((يا معشر قريش ـأو كلمة نحوهاـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً)).[١]

وله: "وفيه" يعني: في صحيح البخاري.

"عن أبي هريرة" أبو هريرة اشتهر بكنيته، أما اسمه فاختلف فيه العلماء على أقوال كثيرة، أصحها أنه: عبد الرحمن بن صخر، من قبيلة دوس المشهورة، قَدِم على النبي وأعلن إسلامه، ولازم النبي ﷺ ملازمة تامة، يروي عنه الأحاديث، واهتمّ بذلك اهتماماً عظيماً، حتى أصبح من أكثر الصحابة رواية للحديث، فإنه يوجد له في كتب السنّة ما يزيد على خمسة آلاف حديث، فهو أكثر الصحابة رواية للحديث، لأنه تفرغ لذلك، تفرّغاً تامّاً، واهتم به، اهتماماً تاماً، فأعانه الله على ذلك، وحفظ لهذه الأمة قسماً كبيراً من سنة رسول الله ﷺ، فهو راوية الإسلام رضي الله تعالى عنه. ٤

"قال: قام فينا رسول الله ﷺ " جاء في الحديث الآخر: أنه قام على الصفا.

---

[١] البخاري الوصايا (٢٦٠٢)، مسلم الإيمان (٢٠٦)، النسائي الوصايا (٣٦٤٦)، أحمد (٣٦١/٢)، الدارمي الرقاق (٢٧٣٢).

"حين أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء:٢١٤] أمره الله سبحانه وتعالى أن يُنذر عشيرته الأقربين، كما أمره الله أن يُنذر الناس عامة، لأنه رسول إلى العالم كله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان:١]، رسالته ﷺ عامة للثقلين الجن والإنس، وقد بلّغ البلاغ المبين، ولكنه اختص عشيرته، لأمر الله له بذلك.

وفي هذا دليل على وجوب المبادرة إلى فعل الأوامر، فإنه ﷺ لما نزل عليه ﴿أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء:٢١٤] بادر بتنفيذ ذلك وإبلاغه، ففيه دليل على وجوب المبادرة بامتثال أوامر الله سبحانه وتعالى، وأن الإنسان لا يتوانى إذا بلغه أمر من أوامر الله، أو أمر من أوامر رسول الله ﷺ ؛ فإنه يبادر إلى تنفيذه، ولا يتوانى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

والإنذار معناه: الإخبار والتحذير من وقوع أمر مكروه، وأما البشارة فهي الإخبار عن أمر سار، فالله جل وعلا بعث هذا النبي بشيراً ونذيراً، بشيراً للمؤمنين بالخير والجنة، ونذيراً للكافرين بالنار والعذاب إلاّ أن يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى.

والعشيرة: جماعة الرجل الذين ينتسب إليهم.

والأقربين يعني: أقرب الناس إلى الإنسان، لأن القرابة تتفاوت، منها القرابة القريبة كالآباء، والأمهات، والإخوان، والأخوات، والأعمام، والعمّات، ومنهم أقارب أباعد مثل أبناء الأعمام، وأبناء أبناء الأعمام إلى آخره، فهم أقارب، ولكنهم أقارب بعيدون.

وفى هذا دليل على أن الداعية والأمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبدأ بأهل بيته وخاصته أوّلاً. ٤ لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الديني والدنيوي كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] الآية.

وقال النبي ﷺ لمن قال له من أبر قال: ((أمك)) قال: ثم من؟ قال: ((ثم أباك، ثم أختك وأخاك)).[1] ١

[1] هذا الحديث مركب من حديثين: الأول حديث أبي هريرة ﵁ قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: ((أمك))، قال ثم من: قال: ((أمك))...

ثم بجيرانه وأهل بلده، ثم يتمدّد بالخير إلى من حوله من البلاد، أما العكس وهو أن يذهب إلى الأباعد أو إلى البلاد البعيدة ويترك أهله، ويترك بلده، ويترك أقاربه، فهذا خلاف منهج الرسول ﷺ الذي أمره الله تعالى به في هذه الآية، فمن منهج الدعوة البداية بالأقارب، وبأهل البيت، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] أمر بوقاية النفس أوّلاً، ثم بوقاية الأهلين، وذلك لأن الأقارب لهم حق، ومن أعظم حقوقهم: إرشادهم إلى ما فيه خيرهم، وصلاحهم، وفلاحهم، فهذا أنفع من أن تعطيهم الذهب والفضة والأموال، بل تبدأ بإرشادهم، وتوجيهم، ودعوتهم إلى الله تعالى، لأن لهم حقًّا عليك، وليس حقهم مقصوراً على الإنفاق وإعطائهم المال.

وثانياً: لأجل القدوة، لأنك إذا دعوت الناس وتركت أهل بيتك، فإن الناس سينقمون عليك، ولا يقبلون دعوتك، ولا توجيهاتك، يقولون لو كان صادقاً لبدأ بأهل بيته، يذهب إلى الناس ويترك أهل بيته على المخالفات، وعلى المنكر، وعلى الجهل، ويذهب إلى الناس يدعوهم إلى الله، هذا ليس من منهج الدعوة، منهج الدعوة أن تبدأ بالأقربين، ثم ينتشر الخير شيئاً فشيئاً على من حولهم، هذا المنهج السليم، أما الذي يتعدّى بيته،. ويتعدّى بلده، ويذهب إلى الناس البعيدين يدعوهم إلى الله، وبيته فيه الجهل، وفيه الأخطاء الكثيرة، والمخالفات، أو في بلده وجماعته الأخطاء الكثيرة والمخالفات، فهذا ليس من منهج الدعوة.٤

لما نزلت عليه هذه الآية الكريمة بادر -عليه الصلاة والسلام- بامتثال أمر الله، وصعد على الصفا، الجبل المعروف، وكونه "صعد الصفا" فيه مشروعية أن يكون الخطيب والمبلّغ على مُرْتَفَع من أجل أن يراه الناس، ومن أجل أن يَبْلُغ صوته إلى الحاضرين والمستمعين. فقال: ((يا معشر قريش)) المعشر: الجماعة، أي: يا جماعة قريش، يقال: إنهم من العشرة فأكثر. وقريش: القبيلة المشهورة التي بُعث منها رسول الله ﷺ، لأنه ﷺ من بني هاشم، وبنو هاشم من قريش، صميم العرب، وجيران بيت الله العتيق.

((اشتروا أنفسكم)) أي: افتدوها من عذاب الله، أنقذوها من عذاب الله. بماذا يشترون أنفسهم؟، يشترون أنفسهم بالدخول في الإسلام، وتوحيد الله عزّ وجلّ، وترك عبادة ما سواه، هذا هو الذي يشترون به أنفسهم. ٤

قوله ((اشتروا أنفسكم)) أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وعدم الإشراك به وطاعته فيما أمر والانتهاء عما عنه زجر فإن جميع ذلك ثمن النجاة والخلاص من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب وترك الأسباب فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب. ١

فافتداء الإنسان نفسه من النار إنما يكون بطاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، وبدون ذلك لا يمكن أن ينجوَ من عذاب الله، ولو قدّم الأموال الطائلة، فمن مات على الكفر، فإنه لو قدّم ملء الأرض من الذهب يشتري نفسه من النار لا يمكن هذا، لكن لو مات على التّوحيد، وعلى العقيدة الصحيحة، فقد اشترى نفسه من النار، فلا نجاة من النار إلاّ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والموت على عقيدة التّوحيد الخالص، والسلامة من الشرك: ((من مات وهو لا يدعو لله نِدًّا دخل الجنّة، ومن مات وهو يدعو لله نِدًّا دخل النار)).

((لا أُغني عنكم من الله شيئاً)) أي: لا ينفعكم أني منكم، وأنتم قبيلتي، هذا لا ينفعكم عند الله شيئاً. ٤

قوله: ﴿لا أغني عنكم من الله شيئاً﴾ فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الذي حرمه الله تعالى.٢

ودفع بقوله ((لا أغني عنكم من الله شيئاً)) ما عساه أن يتوهم بعضهم أنه يغني عنهم من الله شيئاً بشفاعته فإذا كان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يدفع عن نفسه عذاب ربه لو عصاه كما قال تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ فكيف يملك لغيره نفعاً أو ضراً أو يدفع عنه عذاب الله وأما شفاعته ﷺ في بعض العصاة فهو أمر من الله ابتداء فضلا عليه وعليهم لا أنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء.١

قوله: ((لا أغني عنكم من الله شيئاً))، هذا هو الشاهد، أي: لا أدفع أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم، لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢)﴾ [الجن: ٢١-٢٢]. ٥

وفي هذا دليل على بُطلان التعلق على الأشخاص، والتعلق على الأولياء والصالحين، واعتقاد أنهم يقرّبون إلى الله زُلفى، كما يفعله المشركون قديماً وحديثاً، الذين يتعلقون على الأولياء والصالحين، ويعتقدون أنهم يشفعون لهم عند الله، وأنهم يتوسّطون لهم عند الله، ويتقرّبون إلى الأولياء والصالحين بالذبح، والنذر، والاستغاثة، والاستعاذة، والدعاء، كما قال الله سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، هذا زعمهم.

ولا يزال هذا عند بعض الناس إلى اليوم، هناك طوائف كثيرة من عُبّاد القبور، والصوفية، وغيرهم يعتقدون أن الأولياء والسادة أنهم يُكْفونهم المؤنة، ويذهبون إلى أضرحتهم، ويتمسحون بها، ويذبحون عندها، وينذرون لها، ويهتفون بأسمائهم ويظنون أن هذا ينفعهم عند الله تعالى، وفي هذا الحديث وغيره ردٌّ على هؤلاء، لأنه إذا كان الرسول ﷺ فالواجب أن يتعلق الناس بربهم سبحانه وتعالى، وأن يتقربوا إليه بالطاعة والعبادة، ويُخلصوا له التّوحيد، هذا هو طريق النجاة، أما التعدي عدى المخلوقين، ولو كانوا أنبياء أو صالحين أو أولياء، فإنهم لا ينفعون من تعلق بهم، وتوسل بهم، أو بجاههم أو بحقهم، هذا كله باطل، وتعبٌ بلا فائدة، بل هو ضلالة، وقد صرّح الله جل وعلا في القرآن بهذا، حينما قال لنبيه: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أعلم الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾ [الأعراف:١٨٨]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي

لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن:٢١-٢٣]، هذا صريح لا يحتاج إلى كثير تأمّل، لأنه واضح من الكتاب والسنّة، ولكن الشيطان سَوَّل لهم وأملى لهم، اتبعوا العوائد، واتبعوا وقلّدوا أهل الضلال، ومشوا على طريقهم، وتركوا الكتاب والسنّة والله جل وعلا قريب مجيب، لا يحتاج إلى من يبلّغه عن خلقه، هو سبحانه وتعالى قريب مجيب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة:١٨٦]، ((ينزل سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟، هل من مستغفر فأغفر له؟، هل من تائب فأتوب عليه؟))، لم يقل لنا قدِّموا حوائجكم إلى الأولياء والوسائط، وهم يقدِّموها لي، بل إنه سبحانه هو الذي تكفّل بالإجابة، وطلب من عباده أن يتقرّبوا إليه، وأن يدعوه، وأن يستغفروه، وأن يسألوه، لماذا يذهب المخلوق إلى غير الله سبحانه وتعالى؟، هذا من غرور الشيطان، نسأل الله العافية والسلامة، الحق واضح -ولله الحمد-، ما فيه خفاء، لو أن الناس سَلِمُوا من دعاة الضلال، ومن المخرفين، ومن الدجالين، لو أن الناس استعملوا عقولهم وبصائرهم، وأقبلوا على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، لوجدوا الحق واضحاً لا خفاء فيه.

فقوله: ((يا معشر قريش، لا أُغني عنكم من الله شيئاً)) عمّم ﷺ في الإنذار لجميع قريش، وجميع بطونها، وجميع أفخاذها وقبائلها.

ثم خص ﷺ الأقربين إليه، فقال: ((يا عبّاس ابن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئاً)) العبّاس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فإذا كان لا يُغني عن عمه شيئاً ، فكيف يغني عن غيره؟، وإذا كان أبو لهب عم الرسول ﷺ أيضاً، ولكنه أبى أن يدخل في الإسلام، واستمر على الشرك وآذى رسول الله ﷺ، أنزل الله فيه سورة تُقرأ إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد:١]، التَّبُ هو: الخسارة، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾

[سورة المسد]، هذا عمّ الرسول ﷺ، لكنه كان كافراً، فلم ينفعه قرابته من الرسول ﷺ، وكذلك أبو طالب مع قُرْبِه من الرسول ﷺ، وحمايته للرسول، ودفاعه عنه، لما أبى أن يُسلم، وقال: "هو على ملّه عبد المطلب" وأراد النبي ﷺ أن يستغفر له، أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾ [التوبة:١١٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

ثم قال: ((يا صفية عمّة رسول الله ﷺ لا أُغني عنك من الله شيئاً)) مثل عمه العباس.

ثم خص أقرب من هؤلاء، وهي بنته، التي هي بَضْعَة منه، فقال: ((يا فاطمة بنت محمد؛ سليني من مالي)) يعني: اطلبي مني شيئاً أملكه وهو المال، أما النجاة من النار فهذه لا أملكها: ((لا أُغني عنك من الله شيئاً)) أما الآخرة، والنجاة من النار، والدخول في الجنة، فهذا إنما يُطلب من الله سبحانه وتعالى، ويحصل عليه بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. ٤

انظروا كيف أن الرسول ﷺ عمّم أوّلاً جميع قريش، ثم خصّ عمه وعمّته ثم خصّ بنته، فهذا بيان واضح بأنه ﷺ لا يملك النجاة والإنقاذ من النار لمن هُم أقرب الناس إليه: قبيلته قريش، وعمه وعمته إخوان أبيه، بل ولده، عمّم وخصص ﷺ في هذا. ٤

فبين ﷺ أنه لا ينجيهم من عذاب الله ولا يدخلهم الجنة ولا يقربهم إلى الله وإنما الذي يقرب إلى الله ويدخل الجنة وينجي من النار برحمة الله هو طاعة الله. ١

فأين من يقول:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم ٤

فهذا كلام النبي ﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟! فعدم إغنائه عنهم شيئاً من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول ﷺ هو الإيمان به واتباعه.

أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه، فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول ﷺ، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبي ﷺ لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام، فدعا وعم وخصص، وبيَّن أنه لا ينجي أحداً من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به.

وإذا كان القرب من النبي ﷺ لا يغني عن القريب شيئاً ، دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي ﷺ، لأن جاه النبي ﷺ لا ينتفع به إلا النبي ﷺ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي ﷺ. ٥

فهذا فيه دليل على مسألة مهمة وهي: أنه لا يجوز الاعتماد على النسب والقرابة من الأنبياء والصالحين، لأنه لا يُغني عند الله شيئاً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون:١٠١]، هذا عام في كل الناس وقرابات الأنبياء وغيرهم، وقال ﷺ: ((من بَطَّأَ به عمله لم يُسرع به نسبه))، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فالاعتبار بالتقوى لا بالنسب، النسب إنما يُستعمل في الدنيا: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ يعرف بعضكم بعضاً، كلٌّ يعرف قرابته وقبيلته، أما في الآخرة فلا ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون:١٠١]، لا يبقى إلاّ الأعمال فقط، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [سبأ:٣٧]، فالله سبحانه وتعالى لا ينفع عنده إلاّ العمل الصالح.

وقال الخليل -عليه الصلاة والسلام-: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، يقول بعضهم: أنا من أهل البيت، ويتكّل على هذا، ولا يَحْفَل بالأعمال الصالحة، يظن أن كونه من أهل البيت يكفي، وهذا غرور من الشيطان، هذا الرسول ﷺ يقول لابنته سيدة نساء العالمين، يقول لها: ((سليني من مالي ما

شئت، لا أُغني عنك من الله شيئاً)) وهي بنته، أليست في مقدمة أهل البيت؟، ((لا أُغني عنك من الله شيئاً)) فكيف يأتي من يأتي ويقول: أنا من أهل البيت، ويتكِّل على هذا، ويتبرك الناس به، ويتمسّحون به، ويَلْحَسُون أقدامه، ويظنون أن هذا ينجيهم من عذاب الله، هذا باطل وغرور، ولا نجاة إلاّ بالأعمال الصالحة.

هذا أبو لهب، وأبو طالب، وهم أعمام الرسول ﷺ، لما لم يؤمنوا لم ينفعهم قرابتهم من الرسول ﷺ.

وهذا بلال، وعمّار بن ياسر، وصُهَيب، وخبّاب موالي، وصاروا من سادات المهاجرين، ومن سادات المؤمنين، ما ضرهم أنهم موالي، وقال في سلمان الفارسي: ((سلمان منّا أهل البيت)) رضي الله تعالى عن الجميع، والسبب: الإيمان والعمل الصالح، فمجرد كون الرجل من أهل البيت، أو من قرابة الرسول لا يُغني عنه شيئاً ، ولا ينفعه شيئاً ، كما لم ينفع أبا طالب وأبا لهب وغيرهم من عشيرة الرسول ﷺ لما لم يؤمنوا، بل إن بعض الغُلاة يقول: إن التسمي بمحمد يكفي، يقول صاحب "البُرْدة:"

فإن لي ذمّة منه بتسميتي محمداً ... وهو أوفى الخلق بالذمم

لا ينفع عند الله إلاّ العمل الصالح، لا الأسماء، ولا القبائل، ولا شرف النسب، ولا كون الإنسان من بيت النبوّة، كل هذا لا ينفع إلاّ مع العمل الصالح والاستقامة على دين الله عزّ وجلّ.

نعم، القرابة من الرسول ﷺ إذا كانت مع العمل الصالح لها فضل لا شك فيه، فأهل البيت الصالحون المستقيمون على دين الله لهم حق، ولهم شرف، ولهم كرامة، ويجب الوفاء بحقهم، طاعة للرسول ﷺ، فإنه أوصى بقرابته وأهل بيته، لكن يريد القرابة وأهل البيت المستقيمين على طاعة الله عزّ وجلّ، أما المخرّف والدجّال والمشعوذ الذي يعتمد على قرابته من الرسول، ولكنه في العمل مخالف للرسول ﷺ، فهذا لا يُغنيه شيئاً عند الله، لو كان هذا ينفع لنفع أبا لهب، ونفع أبا طالب، ونفع غيرهم ممن لم يدخلوا في دين الله، وهم من قرابة الرسول ﷺ، فالواجب أن نتنبّه لهذا. ٤

تالله لقد تاهت عقول تركت كلام ربها وكلام نبيها لوساوس صدرها وما ألقاه الشيطان في نفوسها.

ومن العجب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله فأظهر لهم هذا الشرك في صورة محبته ﷺ وتعظيمه ومحبة الصالحين وتعظيمهم ولعمر الله ان تبرئتهم من هذا التعظيم والمحبة هوالتعظيم لهم والمحبة وهوالواجب المتعين.

وأظهر لهم التوحيد والإخلاص في صورة بغض النبي ﷺ وبغض الصالحين والتنقص بهم وما شعروا أنهم تنقصوا الخالق سبحانه وتعالى وبخسوه حقه وتنقصوا النبي ﷺ والصالحين بذلك.

أما تنقصهم للخالق تعالى فلأنهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب القادر في القدرة على النفع والضر.

وأما بخسهم حقه تعالى فلأن العبادة بجميع أنواعها حق لله تعالى فإذا جعلوا شيئاً منها لغيره فقد بخسوه حقه –تعالى–. وأما تنقصهم للنبي ﷺ وللصالحين فلأنهم ظنوا أنهم راضون منهم بذلك أو أمروهم به وحاشا لله أن يرضوا بذلك أو يأمروا به كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إليه أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥]. ١

ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين، لا باتخاذهم أندادا من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكا بالله، وعبادة لغير الله، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أعلم مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٧].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق: ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد تَوفي الله له لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل المتفرد بعد توفيه له بالاطلاع عليهم فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم. ا هـ.

فهذا الحديث اشتمل على مسائل عظيمة كما ذكرت:

المسألة الأولى: المبادرة إلى تنفيذ أمر الله، وأن الإنسان لا يتوانى في ذلك.

المسألة الثانية: أن الداعية يبدأ بأقرب الناس إليه، وبأهل بيته أوّلاً.

المسألة الثالثة: أنه لا يجوز الاعتماد على الأشخاص والأولياء والصالحين، واعتقاد أنهم يقرِّبون إلى الله، بل على الإنسان أن يعمل لنفسه، وأن يتقّي الله في نفسه، وأن يتقرّب إلى الله مباشرة، بدون واسطة أحد، لأن الله قريب مجيب.

المسألة الرابعة: وهي مهمة جدًّا: أن الانتساب إلى أهل البيت، أو القرابة من الرسول ﷺ لا تنفع إلاّ مع العمل الصالح، أما بدون ذلك فإنها لا تنفع عن الله.

والواجب أن يتنبّه المسلمون لهذه الأمور. ٤

الخلاصة:

وجه الاستدلال من هذه الأحاديث وإيراد هذه الآية: أن هذا النفي توجه إلى رسول الله ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم، ليس لك يا محمد من الأمر شيء، واللام في قوله لك لام الإستحقاق أو لام الملك؛ يعني لا تستحق شيئاً أو لا تملك شيئاً يعني لا تستحقه بذاتك وإنما بما أمر الله جل وعلا وبما أذن به، فتعظيم النبي ﷺ ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام هي فرع عن محبة الله وعن تعظيم الله جل وعلا، فما هو أبعد أو أعظم مما أذن الله به فليس له ذلك، أو كذلك المِلك؛ مِلك الأشياء أو مُلك شيء من الأمر فإنه ليس له عليه

الصلاة والسلام ، ذلك قال جل وعلا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ولو كان له عليه الصلاة والسلام من الأمر شيء لنصر نفسه وأصحابه يوم أحد ولكن في يوم أحد حصل ما حصل فأنزل الله جل وعلا قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨].

كذلك الحديث الآخر لما لعن النبي ﷺ في قنوت الفجر فلاناً وفلاناً من الناس الذين آذوا المؤمنين نزل قول الله جل وعلا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ يعني لست تملك شيئاً من الأمر.

وهكذا الحديث الذي بعده.

وهذه الأحاديث دالة على أن النبي ﷺ نُفي عنه أن يملك شيئاً من ملكوت الله، وإذا كان كذلك فإنه عليه الصلاة والسلام قد بلّغ ذلك وبيّنه، ومن هو دونه عليه الصلاة والسلام من باب أولى، فالملائكة أولى أن ينفى عنهم ذلك، والأنبياء أولى أن ينفى عنهم ذلك، وكذلك الصالحون من أتباع الرسل وأتباع محمد ﷺ كذلك أولى أن يُنفى عنهم ذلك.

فإذا كان كذلك بطلت كل التوجُّهات إلى غير الله جل وعلا، ووجب أن يُتوجه بالعبادة وبأنواع العبادة من الدعاء والإستغاثة والإستعاذة والذبح والنذر وأنواع التوجّهات إلى الحق جل وعلا وحده دون ما سواه.

الحديث الأخير لما نزلت ﴿وأنذِرْ عَشيرتَكَ الأقرَبين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال النبي ﷺ: ((يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنكِ من الله شيئاً)) وهذا ظاهر في أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يفعل شيئاً بما ينفع به الأقربين إلا ما جعل الله له من الرسالة وبلاغ وأداء الأمانة، وأما أنه يغني عنهم من الله شيئاً ؛ يغني عنهم العذاب يغني عنهم النكال يغني عنهم العقوبة فالله جل وعلا لم يجعل لأحد من خلقه من ملكوته شيء، وإنما هو سبحانه المتفرد بالملكوت والجبروت والمتفرد بالكمال والجمال والجلال. ٣

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار. منها: شجهم نبيهم وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعنه المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿أَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

الثانية عشرة: جدّه ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: ((لا أغني عنك من الله شيئاً)) حتى قال: ((يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً)) فإذا صرح ﷺ وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن ـ تبين له التوحيد وغربة الدين.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين. وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر. ٥

الثانية: قصة أحد. يعني: حيث شج النبي ﷺ الحديث. ٥

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادت الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم، فكيف ينقذون غيرهم؟ وليس مراده رحمه الله مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات، فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجئون إلى الله -سبحانه- في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله، فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات؟ فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية. ٥

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾، فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفاراً.

وهذه المسألة -أي أن المدعو عليهم كفار- ترمي إلى أن الرسول ﷺ وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق، فقد قطع الله -سبحانه وتعالى- أن يكون له من الأمر شيء لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً، أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟.

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئاً ، هذا وجه قول المؤلف أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم، لأن هذا معلوم لا يستحق أن يعنون له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبي ﷺ شيئاً بالنسبة إليهم. ٥

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار. منها: شجهم نبيهم وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

أي: إنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقهم: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، وإلا، فهم شجوا النبي ﷺ، ومثلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبد المطلب، وكذلك أيضاً حرصوا على قتل النبي ﷺ، مع أن كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار. ٥

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي: مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قطع عنه هذا الشيء، فغيره من باب أولى. ٥

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فتاب عليهم فآمنوا.

وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضي الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى، فرسول الله ﷺ ومن دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من أمر الله. ٥

الثامنة: القنوت في النوازل.

وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة، فإنه ينبغي أن يدعى لهم حتى تنكشف. وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره[1]، إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[2] رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنه شهادة، فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله، فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف، فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٣٠١/١)، والحاكم (٢٥٥/١)، وصححه ووافقه الذهبي.

[2] البخاري: كتاب الحيل/ باب ما يكره من الاحتيال في القرار من الطاعون...، ومسلم: كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة.

وما علمت لساعتي هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك، فإنه يقنت اتباعاً للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت، الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصل؟

المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح، لعموم قول النبي ﷺ: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))[1]، وهذا يتناول قنوته عليه الصلاة والسلام عند النوازل. ٥

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز، وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم مصلحة، كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز، لأنه لا يعد من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: ((إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس))[2].

مسألة: هل الذي نهي عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عموماً، فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنه كان يقنت ويلعن الكفرة عموماً، ولفظ ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: "لأقربن صلاة النبي ﷺ، فكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخرى من صلاة

[1] البخاري: كتاب الآذان/ باب الآذان للمسافرين.

[2] مسلم: كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته.

الظهر وصلاة العشاء وصلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار"[١]، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار، فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ على قريش بالهلاك، بل قال: ((اللهم عليك بهم، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف))[٢]، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: ((اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً))[٣] على جواز ذلك، لأنه وقع في عهد الرسول ﷺ.

ولن الأمر وقع كما دعا، فإنه ما بقي منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك، ولا أنكره النبي ﷺ، بل إن إجابة الله دعاءه يدل على رضاه به وإقراره عليه.

فهذا قد يستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن ينظر في القصة، فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتى في كل شيء.

ثم إن خبيباً دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

وفيه أيضاً إن صح الحديث: دعاؤه على عتبة بن أبي لهب: ((اللهم سلط عليه كلباً من كلابك))[٤]، فيه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.ه

---

[١] البخاري: كتاب صفة الصلاة/ باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد، ومسلم: كتاب المساجد/ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة.

[٢] البخاري: كتاب الاستسقاء/ باب دعاء النبي ﷺ: ((اجعلها عليهم سنين كسني يوسف))، ومسلم: كتاب المساجد/ باب استحباب القنوت.

[٣] البخاري: كتاب المغازي/ باب فضل من شهد بدراً.

[٤] الحاكم في "المستدرك" (كتاب التفسير، تفسير سورة أبي لهب، ٢/٥٣٩)، وقال: "صحيح الإسناد"، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

العاشرة: لعنه المعين في القنوت. هذا غريب، فإن أراد المؤلف رحمه الله أن هذا أمر وقع، ثم نهي عنه، فلا إشكال، وإن أراد أنه يستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبداً، فهذا فيه نظر لأن النبي ﷺ نهي عن ذلك. ٥

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وهي أنه لما نزلت عليه الآية نادى قريشاً، فعم، ثم خصص، فامتثل أمر الله في هذه الآية. ٥

الثانية عشرة: جدّه ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

أي: اجتهاده ﷺ في هذا الأمر، بحيث قالوا: إن محمداً جن، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء؟ وقوله: ((وكذلك لو يفعله مسلم الآن))، أي: لو أن إنساناً جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ﷺ، لقالوا: مجنون، إلا إذا كان معتاداً عند الناس، قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ [النور: ٤٤]، فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم أنه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي ﷺ قام بهذا الأمر ولم يبال بما رمي به من الجنون. ٥

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: ((لا أغني عنك من الله شيئاً)) حتى قال: ((يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً)) فإذا صرح ﷺ وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن ـ تبين له التوحيد وغربة الدين.

صدق رحمه الله فيما قال، فإنه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق، وأنه لا يغني عن ابنته شيئاً ، تبين لنا الآن أن ما يفعله خواص الناس ترك للتوحيد، لأنه يوجد أناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم

من حولهم علماء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول ﷺ لكشف الضر وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردوا على المنكر بأنه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند الله، وأنه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنه خلق من نور العرش، ويلبسون بذلك على العامة، فيصدقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له، لأن سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ثم إن المؤمن عاطفته وميله للرسول ﷺ أمر لا ينكر، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسنة وأيده العقل الصريح السلام من الشبهات والشهوات.

ولهذا نعى الله -سبحانه- على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق، فإن من تأمل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين. ه

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾ [سبأ:٢٣]

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سَلْسَلَةً عَلَى صَفْوَانَ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ. (حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهُم قَالَوا: مَاذا قَالَ ربكَمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلَّي الْكَبِيرُ) فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ . وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ .)) وَصَفَهُ سُفْيانُ بِكَفِّهِ فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ .)) فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فِيُلْقِيهَا إلى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إلى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانَ السَّاحِرِ أَو الْكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مَائة كِذْبَةً فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)).

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاواتِ مِنْهُ رَجْفَة –أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ– شَدِيدَةٌ خَوْفاً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهَلُ السَّمَاواتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّداً. فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءْ سَأَلَهُ مَلَائكَتُهَا: مَاذا قَالَ رَبُّنَا يا جِبْرِيلُ؟ فِيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ العَلَّيُّ الْكَبيرُ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إلى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .))

بطلان عبادة الملائكة

مُراد الشيخ رحمه الله بهذا الباب: أن يبيّن تفسير هذه الآية، كما جاءت بذلك السنّة عن النبي ﷺ، فإن هذه الآية فسّرتها السنّة بالأحاديث التي ذكرها الشيخ في هذا الباب، والغرض من ذلك إتمام ما سبق في الأبواب السابقة من بيان أدلة بُطلان الشرك. ففي الأبواب السابقة بيّن الشيخ رحمه الله بيان بُطلان عبادة الأنبياء والصالحين من بني آدم، بالأدلة التي سبقت من الكتاب والسنّة.

وفي هذا الباب يبيّن بُطلان عبادة الملائكة، لأن الملائكة عُبدوا من دون الله، فهذا الباب مكمِّلٌ للأبواب السابقة التي قبله في بيان بُطلان عبادة كل من عُبد من دون الله من الأنبياء، والأولياء، والصالحين، والملائكة، لأنهم إذا بطلت عبادة هؤلاء، فبُطلان عبادة من دونهم من باب أولى، وإذا بطل ذلك في حق الملائكة وهم أقوى الخلق خِلقة، ومن أقربهم إلى الله سبحانه وتعالى منزلة فلأن تبطل عبادة من سواهم من الآدميين والجن والإنس من باب أولى، هذا فقه هذه الترجمة. ٤

فبين أن الملائكة إن كانت تخاف الله و تخاف عذابه إن خالفت أمره، فكيف تستحق أن تعبد من دون الله ؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤]. ٦

قوله تعالى: ﴿حتى إذ فزع عن قلوبهم﴾،... أي: أزيل الفزع عن قلوبهم. ٥

والفزع: الخوف المفاجئ، لأن الخوف المستمر لا يسمى فزعاً. ٥

وقوله تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِم﴾، أي: قلوب الملائكة، لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول الله ﷺ. ٥

وقال ابن جرير: "قال بعضهم: الذين فزع عن قلوبهم: الملائكة. قالوا: وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي."

وقال ابن عطية: "في الكلام حذف يدل عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون لله أبداً، يعني: ينقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم.

والمراد: الملائكة، على ما اختاره ابن جرير وغيره."

قال ابن كثير: "وهو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار".

وقال أبو حيان: "تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣] إنما هو في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به". ٢

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ جواب الشرط، والمعنى: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن في الكلام قائلاً ومقولاً له، فلو جعلنا الضمير في قالوا عائداً على الجميع، فأين المقول له؟ ٥

وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾، أي: قال المسؤولون. ٥

والمعنى: أن الله -سبحانه- قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلً﴾ [الأنعام: ١١٥]. ٥

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء وهي العظمة التي لا يدانيها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للتوحيد: أنه إذا كان منفرداً في العظمة والكبرياء، فيجب أن يكون منفرداً في العبادة.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من ينتسب للإسلام حتى الجهمية ونحوهم.

الثانية: علو الذات، وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم، فإن المحققين منهم أثبتوا علو الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم، لأنه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وفي الآية فوائد:

١- أن الملائكة يخافون الله، كما قال تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ [النحل: ٥٠]

٢- إثبات القلوب للملائكة، لقوله: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

٣- إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحاً مجردة من الجسمية، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١]، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح قد سد الأفق[١]، فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل. لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أكلهم وشربهم التسبيح، بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ففي هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملؤان بذلك، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ﴾، ولم يقل: يسبحون في الليل، أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

٤- أن لهم عقولاً، إذا إن القلوب هي محل العقول خلافاً لمن قال: إنهم لا يعقلون، ولأنهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

إثبات القول لله -سبحانه وتعالى-، وأنه متعلق بمشيئته، لأنه جاء بالشرط: ﴿إِذَا فُزِّعَ﴾، وإذا الشرطية تدل على حدوث الشرط والمشروط.

٥- إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء في القرآن: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص ٨٤]، فالله تعالى لا يقول إلا حقاً، لأنه هو الحق، ولا يصدر عن الحق إلا الحق. ٥

[١] البخاري: كتاب التفسير/ باب قول الله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب في ذكر سدرة المنتهى.

وفي (الصحيح) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك. حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع . ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض)) . وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه . ((فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)).

قوله: ((إذا قضى الله الأمر)) معناه: إذا تكلّم الله بالوحي، كما في حديث النواس بن سَمْعان الذي في آخر الباب بهذا اللفظ: ((إذا تكلم الله بالوحي)) وهذا معنى قوله: ((قضى الله الأمر في السماء)). ٤

قوله: **((قضى الله الأمر في السماء))**، المراد بالأمر الشأن، ويكون القضاء بالقول، لقوله تعالى: ﴿اذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. ٥

أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراده، كما صرح به في الحديث الآتي، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود: "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصة كجر السلسلة على الصفوان". ٢

ففي ذلك إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى، وأنه كلام يُسمع، تسمعه الملائكة، وإذا سمعوه صَعِقوا وخَرُّوا -كما يأتي-، خَرُّوا لله سُجّداً، تعظيماً لله عزّ وجلّ. ٤

وفي قوله: ((في السماء)) هذا فيه إثبات علوّ الله سبحانه وتعالى، فهو كقوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ [الملك:١٦-١٧]، والذي في السماء هو الله سبحانه وتعالى، أي: العلو، هو العلي الأعلى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، والعرش هو أعلى المخلوقات، وسقف المخلوقات وأعظمها.

وقال النبي ﷺ للجارية: ((أين الله؟)) قالت: في السماء، قال لسيّدها: ((أعتقها، فإنها مؤمنة)) والأدّلة على ذلك كثيرة، وقد صنّف الحافظ الذهبي رحمه الله كتاباً سمّاه: "العلو للعليّ الغفّار" ساق فيه الأدلة على علو الله على عرشه، وهي كثيرة.

قال العلماء: إن أدلة علو الله على عرشه تبلغ ألف دليل أو أكثر من الوحي، ومن الفطرة، ومن الأدلة العقلية، وهذا ثابت لا شك فيه، ولا ينكره إلاّ الملاحدة من الجهميّة وغيرهم.

وقوله: ((ضربت الملائكة بأجنحتها)) الملائكة من أعظم المخلوقات، لا يعلم عِظَمِ خِلْقة الملائكة إلاّ الله سبحانه وتعالى، وإذا كانوا على هذه الحالة من العِظَم، ومع هذا لا تصلح عبادتهم من دون الله، فهم مع قوّتهم وعِظَم خِلْقَتهم يخافون من الله سبحانه وتعالى، إذا سمعوا كلامه ضربوا بأجنحتهم. وهذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة، وهي ثابتة بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١].

((خضَعاناً)) هذا مفعول لأجله، يعني: لماذا ضربوا بأجنحتهم؟، لأجل الخضوع لله. وتعظيماً له، وخوفاً منه عزّ وجلّ. ٤

ولذلك كان الأعرف به في السماء الملائكة فإن الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠]، وقال وعلا في وصفهم أيضاً ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فصفات الجلال لله جل وعلا وصفات الكمال له سبحانه وصفات الجمال له سبحانه هذه كلها دلائل على أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، فمن المتصف بالعظمة على كمالها؟ من الذي يُهاب منه ويُخاف على الحقيقة؟ من الذي يكون كل ما في السماوات وما في الأرض على وفق أمره؟ هو الله جل وعلا. ٣

فإن كانت هذه حالتهم فلا يجوز أن يُعبدوا مع الله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، قال تعالى في حقهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧] يعني: الملائكة ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾. [الأنبياء:٢٧]٤

((لقوله)) أي: لقول الله سبحانه وتعالى، فيه إثبات القول لله، وإثبات الكلام لله جلّ وعلا، وأنه يتكلّم كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، كلاماً يُسمع، تسمعه الملائكة، ويسمعه جبريل، وإذا سمعه الملائكة أصابهم هذا الرُّعب والخوف من الله.
قوله: ((كأنه)) أي: كأن قوله تعالى ويكَلُّمه سبحانه بالوحي.
((سلسلة على صفوان)) تشبيه لصوت الوحي الذي يأتي إلى المِلَك، أو صوت المِلَك نفسه بصوت السلسلة إذا جُرّت على حجر أمْلَس. ٤
قوله: ((صفوان)) هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا، لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان. ٥

قال ابن كثير: "هذا مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي". قاله ابن مسعود ومسروق وغيرهما".[١] ١
((ينفذهم ذلك)) أي: أن كلام الله يبلغ إلى قلوبهم فيخافون. ٤
والمعنى: إن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ. ٥

الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى وهيبتهم منه وخشيتهم له فكيف يدعوهم أحد من دون الله.
وإذا كانوا لا يُدعون مع الله تعالى لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات والأصنام أولى أن لا يُدعى ولا يعبد. ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يدعون مع الله من لا يداني الملائكة ولا يساويهم في صفة من صفاتهم. ١

---

[١] تفسير ابن كثير.

﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أُزيل عنها الفزع. ٤

قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبدالرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم. ١

يعني أزيل الفزع عن قلوب الملائكة، فالملائكة مع أنهم مقربون إلا أنهم شديدوا المعرفة بالله جل وعلا، شديدوا العلم به، عظيم علمهم بالرب جل وعلا، ومما يعلمونه عن الله جل وعلا أنه هو الجبار وأنه هو الجليل سبحانه وأنه ذو الملكوت، فلهذا يشتد فزعهم منه سبحانه؛ لأنه لا غِنى بهم عنه جل وعلا طرفة عين. ٣

تساءلوا بينهم: ماذا قال ربكم؟.

﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: قال الله الحق، لأن كلامه حق سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: ((فيسمعها مسترق السمع)). ٤

قوله: ((فيسمعها مسترق السمع))، أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة. ٥

المسترق هو: الذي يأخذ الشيء بسرعة وخُفية، ومنه سمّي السارق الذي يأخذ المال على وجه الخُفية والسرعة حيث لا يراه أحد، ومسترق السمع، هو الشيطان الذي يخطف الكلمة من الوحي الذي تتكلم به الملائكة في السماء، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)﴾. [الحجر:١٨] ٤

وتأمل كلمة "مسترق"، ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاساً بسرعة، ويؤيده قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. ٥

و((مسترق السمع هكذا بعضهم فوق بعض)) معناه: أن الشياطين يَعْلُو بعضها بعضاً حتى تصل إلى عنان السماء، كل واحد يركب على الآخر، من أجل استراق السمع. ٤

فالجن يتراكبون واحداً فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ [الجن: ٩]. ٥

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلى السماء الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فلا يمكن نفوذه إلى ما فوقه. ٥

في صحيح البخاري عن عائشة مرفوعاً: ((إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم)) [1]. وظاهر هذا أنهم لا يسمعون كلام الملائكة الذين في السماء الدنيا وإنما يسمعون كلام الملائكة الذين في السحاب. ١

في صحيح البخاري عن عائشة مرفوعاً ((إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قُضِي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوجه إلى الكهان)) [2]. ٢

وهذا امتحان من الله لعباده و إلا لو شاء ما استرقوا شيئاً. ٦

"وصفه سفيان" يعني: راوي الحديث، وهو سفيان بن عيينة، أحد كبار المحدِّثين المشهورين الثقات الإثبات رحمه الله.

يعني: وصف تراكمهم ووصف ركوب بعضهم فوق بعض في الجو.

"بكفه، فحرّفها" يعني: أمالها، وفرّق أصابعها، والأصابع يكون بعضها فوق بعض، هذا معناه: أن سفيان أراد أن يوضّح لتلاميذه والرواة عنه بالمثال المحسوس المشاهد عملية الشياطين في الهواء، فهذا فيه من وسائل التعليم: ضرب الأمثلة للطلاّب حتى يفهموا، مثل ما فعل النبي ﷺ لما أراد أن يفسّر قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فالنبي ﷺ أراد أن يوضّح هذه الآية بمثال

---

[1] رواه البخاري في صحيحه رقم ٣٢١٠

[2] البخاري بدء الخلق (٣٠٣٨).

محسوس: خطّ خطّاً مستقيماً على الأرض، وخطّ عن يمينه وشماله خطوطاً، وقال للمستقيم: ((هذا صراط الله)) وقال للأخرى: ((هذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إليها)) هذا توضيح للمعاني بالمحسوسات، وهي طريقة شرعية، وطريقة ناجحة في الإفهام، وهذا ما أراده سفيان ﷺ من وصفه عمليّة الشياطين في الهوى بكفه وجعْل أصابعه بعضها فوق بعض مفرّجة من أجل أن يوضّح لهم. ٤

وقوله: ((فيسمع الكلمة)) أي: يسمع مسترق السّمع الكلمة مما تكلّمت به الملائكة، فيُلقيها إلى من تحته من الشياطين، والذي تحته يُلقيها إلى الآخر، واحداً بعد واحد، حتى يُلقيها الأخير على لسان الساحر أو الكاهن من بني آدم.

فهذا فيه دليل على أن السّحرة والكهان يتلقون عن الشياطين، ففيه إبطال لعمل السّحرة والكهان، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]، هذا خبر من الله سبحانه وتعالى أنّ الكهان والسحرة يتلّقون عن الشياطين، فهذا فيه بُطلان السحر والكهانة، وأن مصدرهما واحد؛ عن الشياطين الذين هم أكفر الخلق، وأَغَشُّ الخلق للخلق.

والسحر معروف، وهو: عملية يعلمها الساحر إما بالعُقَد والنَّفْث ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ [الفلق:٤]، وإما بكلام الكفر والشرك، فهو عزائم ورُقى شيطانية، وإما بمواد خبيثة تركّب بعضها مع بعض ثم يتكوّن منها السحر، فالسحر عمل شيطاني، والسحر كفر، والساحر كافر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، فدلّ على أن الذي يتعلم السحر يكفر، لأن السحر كفر. ٤

وأما الكِهانة فمعناها: الإخبار عن المغيبات بسبب ما يتلقاه الكاهن عن الشيطان، لأن الشيطان يخبر الكاهن بأمور غائبة عن بني آدم، لأن الشيطان عنده قدرة أكبر من قدرة بني آدم، فهو يطير في الهواء، ويصل إلى السحاب، ويسترق السمع، ويطير بسرعة من الأمكنة

البعيدة، فعنده مقدرة ليست عند الإنسي، فالإنسي يخضع للشيطان، ويتقرب إلى الشيطان بما يحب من الكفر بالله والشرك بالله حتى يخدمه الشيطان بما يريد من الأمور الغائبة عن بني آدم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾ [الأنعام:١٢٨]، هذا فيه أن الله سبحانه وتعالى إذا حشر الشياطين يوم القيامة وحشر الكهان وعملاء الشياطين يوبخهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ﴾، يعني: أهلكتم كثيراً من الإنس، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ﴾، يعني: الكهان والسحرة وكل من يتعامل مع الشياطين ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ هم خدمونا ونحن خدمناهم في الدنيا ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ الآن وقفنا بين يديك يا ربنا، فيقول: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، هذا مآل السحرة والكهان مع أوليائهم من الشياطين.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦)﴾ [الجن:٦] يقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ أي: خوفاً. أما لو أنهم عاذوا بالله لأعاذهم وقوّاهم، وأذهب ما بهم من الفزع، ولا يضرهم أحد إذا توكلوا على الله وعاذوا بالله، لكن عاذوا بمخلوق فأذلهم الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ((حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن)) دلّ على أنهما من فصيلة واحدة، وأنهم يتلقون عن الشياطين.

قال سبحانه مبيّناً سند الكهان والسحرة والمشعوذين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]. ٤

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضى، فهو كاهن، لكن ما مضى مما يقع في الأرض ليس غيباً مطلقاً، بل هو غيب نسبي، مثل ما يقع في المسجد يعد غيباً بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيباً بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتصل الإنسان بجني، فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيداً، فيستخدم الجن، لكن ليس على وجه محرم، فلا يسمى كاهناً، لأن الكاهن من خيبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع، إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة، أما إذا كان يخبر عما في الضمير استناداً إلى فراسة، فإنه ليس من الكهانة في شيء، لأن بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتماداً على أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه على وجه التفصيل، لكن يعلمه على سبيل الإجمال.

فمن يخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهان، ولكن ينظر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه، فإننا لا نصدقه، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

وإن كان موثوقاً في دينه، ونعلم أنه لا يتوصل إلى ذلك بمحرم من شرك أو غيره، فإننا لا ندخله في الكهان الذين يحرم الرجوع إلى قولهم، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجوداً فيه، فلا يسمى كاهناً، لأنه لم يخبر عن مغيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم، إما محبة لله -عز وجل-؛ أو لعلم يحصله منه، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة. ٥

قوله: ((فيكذب معها مائة كذبة)) هذا المقصود من استراق السمع؟، من أجل أن يخدعوا الإنس، ومن أجل أن يخلطوا الحق بالباطل، ويلبسوا الحق بالباطل، لأنهم لو جاءوا بالباطل الخالص المحض ما صدقهم أحد، لكن إذا خلطوه بشيء من الحق صدقهم الناس، فيكون هذا فيه فتنة لضعفاء الإيمان وضعفاء العقول، يأخذون الباطل الكثير بسبب حق يسير خالطه.

وهذا واقع في النّاس الآن فكثير من النّاس يتبع أئمة الضلال، ويتبع الفرق الضالة والجماعات المنحرفة بسبب أن عندهم شيئاً من الحسنات أو شيئاً من الحق، ولا ينظر إلى كثرة الباطل الذي هم عليه، وهذا بلاء وفتنة للناس، ليس هذا خاصًّا بالكهان والسحرة، بل هذا عام في كل من تقبل الباطل بسبب التباسه بشيء من الحق.

قوله: ((فيقال: أليس قد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا. فيُصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء)) هذه الفتنة العظيمة: لبس الحق بالباطل، لأن الباطل لو كان مكشوفاً واضحاً خالصاً ما قبله أحد، وإنما يُقبل الباطل إذا لُبِّس معه شيء من الحق، وهذه فتنة عظيمة يجب أن نتنبه لها. ٤

قوله: ((فربما أدركه الشهاب... إلخ))

الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها. فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدعاً فيها أما النجم، فلو وصل إلى الأرض، لأحرقها.

واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلى الأبد أو انقطعوا في وقته فقط؟ والثاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا. ٥

فوائد الحديث

فالحاصل: أن هذا حديث عظيم، فيه فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه أن السنّة النبوية تفسر القرآن، فهذا الحديث فسر هذه الآية: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]، ففيه رد على الطائفة الخبيثة التي تريد رفض السنّة والاقتصار على القرآن، وإذا اقتصر على القرآن من أين نفسر القرآن؟، القرآن يفسر بأحد أربعة أمور:

أولاً: يفسّر القرآن بالقرآن.

ثانياً: إذا لم يكن فيه تفسير من القرآن يفسر بسنة الرسول ﷺ.

ثالثاً: إذا لم يكن فيه تفسير من الرسول ﷺ يفسر بأقوال الصحابة، لأنهم تلاميذ الرسول ﷺ، وعنه تعلموا وتلقوا العلم فهم أدرى النّاس بسنة الرسول ﷺ.

رابعاً: إذا لم يكن هناك تفسير من الصحابة يفسر بمقتضى لغة العرب التي نزل بها، ينظر إلى معنى الكلمة في لغة العرب ويفسر بلغة العرب التي نزل بها.

أما أن يفسر القرآن بغير هذه الطرق فهذا باطل، إما بالقرآن، وإما بالسنّة، وإما بقول الصحابي، وإما بلغة العرب التي نزل بها، ولا يفسر القرآن بغير هذه الوجوه.

نعم، اختلفوا في قول التابعي: هل يفسر به القرآن؟، منهم من يرى ذلك، فيكون وجهاً خامساً، لأن التابعي له خاصية، لأنه تتلمذ على صحابة الرسول ﷺ، فله ميزة على غيره ممن تتلمذ على غير الصحابة.

أما تفسير القرآن بغير هذه الوجوه فلا يجوز، لأنه قول على الله بلا علم، فالذين يفسرون القرآن بالنظريّات الحديثة -أو ما يسمونه بالعلم الحديث- فهذا خطأ، وهذا قول على الله بلا علم، فالنظريّات هذه عمل بشر، تصدق وتكذب، وكثير منها يكذب، ويأتي نظرية أخرى تبطل هذه النظرية السابقة، مثل: ما عند الأطباء، ومثل: ما عند الفلاسفة، لأنه عمل بشر، فالنظريّات الحديثة لا يفسر بها كلام رب العالمين، ولا يقال: هذا من الإعجاز العلمي -كما يسمونه-، هذا ليس بإعجاز علمي أبداً، كلام الله يُصان عن نظريّات البشر، وعن أقوال البشر، لأن هذه النظريّات تضطرب ويكذب بعضها بعضاً، فهل يفسّر كلام ربنا بنظريّات مضطّربة؟، هذا باطل ولا يجوز، ويجب رفض هذا التفسير، والاقتصار على الوجوه الأربعة -أو الخمسة- التي نصّ عليها أهل العلم، كما ذكرها ابن كثير رحمه الله، في أول التفسير. ٤

وهذا الحديث مطابق للآية تماماً، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل أي قائل أن يفسرها بغيره، لأن تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنة، فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.

وأما تفسير الصحابي، فإنه حجة عند أكثر المفسرين، وأما التابعين، فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلا من اختص منهم بشيء، كمجاهد، فإنه عرض المصحف على ابن عباس عشرين مرة أو أكثر، يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأما من بعد التابعين، فليس تفسيره حجة على غيره، لكن إن أيده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن. ٥

الفائدة الثانية: إثبات صفات الله سبحانه وتعالى، فقد أثبت في هذا الحديث علو الله على خلقه، وأنه في السماء سبحانه وتعالى، وأثبت أن الله يتكلم بكلام يُسمع، تسمعه الملائكة وترتعد عند سماعه.

الفائدة الثالثة: وهي التي عقد المصنف رحمه الله بهذا الباب من أجلها: بطلان التعلق على الملائكة، عكس ما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الملائكة، واعتقاد أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً.

ففي هذا بطلان الشرك، لأنه إذا بطلت عبادة الملائكة وهم من هم في القوة والمكانة عند الله والقرب من الله، إذا بطل عبادتهم والتعلق عليهم وطلب الحوائج منهم فلأن يبطل ذلك في حق غيرهم من باب أولى، فالذين يتعلقون على القبور وعلى الأضرحة وعلى الأشجار والأحجار، ويتبركون بها، كل هذا باطل، لأن هذه مخلوقات ليس لها من الأمر شيء، مسخرة ليس لها من الأمر شيء، إنما التعلق يكون بالله عزّ وجلّ، والتوكل على الله، لأن الملائكة مفتقرون إلى الله، وكل المخلوقات مفتقرة إلى الله سبحانه وتعالى، وهو الغني الحميد، هو غني عن غيره، وأما غيره فهم فقراء إليه سبحانه وتعالى.

الفائدة الرابعة: في الحديث إثبات استراق السمع، وأن الشياطين قد يسترقون السمع، وهذا كان في الجاهلية كثيراً، فلما بُعث النبي ﷺ حُرست السماء بالشُّهب، وقلّ استراق السمع،

قال بعضهم لبعض: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن:٩] يعني: هذا في الجاهلية، ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ﴾ يعني: بعد بعثة النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠)﴾ [الجن:٩-١٠].

الفائدة الخامسة: فيه بُطلان السحر والكِهانة، وأن مصدرهما واحد، التلقي عن الشياطين، فلا يُقبل السحر، ولا خبر الساحر، ولا تُقبل الكِهانة ولا خبر الكاهن لأن مصدرها باطل، وقد جاء في الحديث: ((من أتى كاهناً أو عرّافًا لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً)) وفي الحديث الآخر: ((من أتى كاهناً أو عرّافاُ فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمّد ﷺ)) فهذا فيه بطلان السحر والكِهانة، وأنه لا يجوز تصديق السحرة، ولا تصديق الكُهَّان، ولا الذهاب إليهم، لكن في وقتنا الحاضر السحرة والكهان خرجوا على الناس باسم أطباء ومعالجين، وفتحوا محلات، يعالجون فيها المرضى بالسحر والكهانة، لكن لا يقولون: هذا سحر، ولا يقولون: هذا كهانة، بل يُظهرون أنهم يعالجون النّاس بأمور مباحة، ويذكرون الله عند الناس، وقد يقرءون شيئاً من القرآن من أجل التلبيس، ولكن في الخفاء يقول للمريض اذبح شاة على صفة كذا وكذا، ولا تأكل منها، خذ من دمها واعمل كذا وكذا، أو اذبح ديكاً أو دجاجة، يصفه بأوصاف، ويقول له: ولا تذكر اسم الله عليه، أو يسأله عن اسم أمه واسم أبيه، أو يأخذ ثوبه وطاقيته من أجل أن يسأل عملاءه من الشياطين لأن الشياطين يخبر بعضهم بعضاً. ثمّ يقول الساحر أو الكاهن-: فلان هو الذي سحرك، وهو كله تدجيل، والواجب على المسلمين أن يتنبهوا لهذا، وأن يحذروا هؤلاء المشعوذين والدجالين الذين يفسدون عقائد الناس، ويأكلون أموالهم بالباطل.

الفائدة السادسة: ذكرها الشَّيخ رحمه الله في قوله: "قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟" بحيث تُقبل مائة كذبة بسبب كلمة واحدة من الحق، فالنفوس تقبل الباطل، حيث إنها تقبل مائة كذبة بسبب كلمة واحدة من الحق، وهذا فيه: التحذير من لبس الحق بالباطل، وأن لا نغتر بمن يلبس علينا، يأتي لنا بأشياء من الحق، ويدخل تحتها كثيراً من الباطل والخداع، والواجب على المؤمن أن يكون كَيّساً فطناً كما قال النبي ﷺ:

((المؤمن كَيِّسٌ فطن)) ويقول ﷺ: ((لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين))، فالمؤمن لا يتسرع بقبول الأقوال أو المذاهب أو المناهج حتى يفحصها تماماً، وكيف يفحصها؟، يعرضها على الكتاب والسنّة إن كان يعرف، وإن كان لا يعرف يسأل عنها أهل العلم وأهل البصيرة، حتى يميزوا له الصحيح من السقيم، هذا واجب علينا جميعاً أننا لا ننخدع بالدعايات المزَوَّقَة والمستورة والمغلّفة بشيء من المحسّنات حتى نَسْبُرَ غَوْرَها، وَنَخْبُرَ ما بداخلها إن كنا نستطيع ذلك فالحمد لله، وإلاَّ فإننا نسأل أهل العلم وأهل البصيرة الذين يميّزون بين الحق والباطل. ٤

وفيه من الفوائد:

- عظمة الله -سبحانه وتعالى-.
- إثبات الأجنحة للملائكة.
- خوف الملائكة من الله -عز وجل- وخضوعهم له.
- أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.
- أنه لا يصدر عن الله إلا الحق.
- أن الله -سبحانه- يمكن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وهي ما يلقونه على الكهان، فيحصل بذلك فتنة، والله -عز وجل- حكيم.

وقد يوجد الله أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى امتحاناً وابتلاءً.

- كثرة الجن، لأنه يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جداً، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيراناً.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات، فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أن أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة، فيفعلون هذا، وشيخ

الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسيئون حتى من الناحية العملية، لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه.

- أن الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ما سمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجري عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

- أن الساحر يصر للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنهم إن صدقوا في شيء، فيجب الحذر منهم بكل حال. ٥

وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة –أو قال رعدة– شديدة خوفاً من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجداً. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل. فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله جل وعلا)).

هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة، وهي أن في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة، فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم[1] وأحمد من حديث ابن عباس حديثاً قد يكون شاهداً له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود، لكن يدل على أن له أصلاً. ٥

---

[1] (كتاب السلام/ باب تحريم الكهانة).

قوله ﷺ: ((إذا أراد الله أن يوحي بالأمر)) فهذا فيه: إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى، وهي صفة من صفاته، دلّت عليها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، فالله جل وعلا له إرادة، وإرادته على نوعين:

إرادة كونية، بها يخلق ويرزق، ويهدي ويضل، ويحيي ويميت.

وإرادة شرعية دينية بها يأمر عباده بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦-٢٧] ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، هذه إرادة دينية، كما فصّل ذلك أهل العلم. ٤

قوله: ((إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر..)) الخ هذا والله أعلم في جميع الأمور التي يقضيها الرب تبارك وتعالى، كما يدل عليه عموم اللفظ، ويدل على ذلك –أيضاً– حديث أبي هريرة الذي تقدم، وغيره من الأحاديث المتقدمة. ١

((أن يوحي)) الوحي هو: الإعلام بسرعة وخفاء، وهو على نوعين: وحي إلهام ووحي إرسال.

وحي الإلهام: يكون بإلهام الله بعض المخلوقات ببعض الأمور مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] أي: ألهمها، ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص:٧] ألهم الله أم موسى أن تعمل هذا العمل بولدها لما ولدته، وكان فرعون يقتِّل الذكور، فالله ألهمها أن تعمل هذا العمل من أجل نجاة موسى من هذا الجبار.

وأما وحي الإرسال فهو الذي ينزل به جبريل عليه السلام إلى الرسل.

((بالأمر)) أي: بالشأن من شؤون الكون والمخلوقات، أو بالأمر من الوحي المنزل على الرسل، فهو عام.

فالأمر على نوعين: كوني وشرعي

((تكلم بالوحي)) تكلماً يليق بجلاله، وهذا فيه: إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: ((تكلم بالوحي))، جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط، فالإرادة سابقة، والكلام لاحق، فيكون فيه رد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي، كالسمع والبصر، ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يقال: إنه لا يتلكم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه. ٥

((أخذت السماوات منه رجفة (أو قال: رعدة شديدة))) هذا شك من الراوي، أي: إذا سمعت كلام الله يصيبها خوف وهيبة لكلام الله، وهذا فيه: أن الجمادات تدرك عظمة ربها، وتسبّحه، وتعظمه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى:٥]، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت:١١]، في هذا: أن السماوات والأرض تتكلم، وأنها تسبح كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤].

((فإذا سمع ذلك أهل السماوات)) يعني: سمع الملائكة كلام الله أيضاً.

((صعِقُوا)) بمعنى: أنهم يغشى عليهم من الخوف من الله عزّ وجلّ والهيبة والجلال.

((وخروا لله)) يعني: ينحطّون لله ((سُجّداً)) على وجوههم تعظيماً لله وتعبدًا لله. ٤

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: "إذا قضى الله أمرا تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال وخرت الملائكة كلهم سجدا". ١

فإن قيل: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجداً؟

فالجواب: أن الصعق هنا- والله أعلم- يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا. ٥

والله أعلم أيهما قبل الآخر فإن الواو لا تقتضي ترتيباً. ١

قد يكون السجود قبل الصعق، وقد يكون بعد الصعق، لأن الواو لا تقتضي الترتيب. وفي هذا دليل على أن الملائكة عباد لله، يخافونه ويهابونه.

وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين يعبدون الملائكة، ويزعمون أن الملائكة تقرّبهم إلى الله، كما يقرب خاصة الملوك إلى الملوك من يريد قضاء حاجته منهم، قاسوا الخالق على المخلوقين، تعالى الله عما يقولون، فهذا فيه ردّ عليهم، وهو أن الملائكة عباد، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء:٢٦]، عباد من عباد الله، يخافون من الله، ويسجدون له، والعبد لا يجوز أن يُعبد، ولا أن يُدعى، ويُستغاث به، وإنما يُعبد الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الذي ساق المصنّف رحمه الله هذا الحديث من أجله، وهو: الرد على المشركين الذين يتعلقون على المخلوقين في قضاء الحاجات التي لا يقدر عليها إلاّ الله، وتفريج الكربات، وهو أنه إذا كانت الملائكة مع عظمتهم وقوتهم ومكانتهم -بما فيهم جبريل عليه الصلاة والسلام-، كانوا بهذه المثابة إذا سمعوا كلام الله، دلَّ على أنهم ليس لهم من الأمر شيء، وأنه لا يجوز أن يُدعوا، ويُستغاث بهم، وإذا كان هذا في حق الملائكة ففي حق غيرهم من باب أولى، فلا يجوز دعاء الصالحين، أو الاستغاثة بهم، أو التقرب إليهم بالعبادة، أو الذبح، أو النذر، أو غير ذلك، كل هذا باطل، وشرك أكبر.

وفيه دليل على أن السماوات متعددة وأنها سبع طِباق كما تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (١٥)﴾ [نوح:١٥]، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣]، ولكل سماء سكان من الملائكة.

((فيكون أول من يرفع رأسه)) يعني: من السجود.

((جبريل)) وهو: أعظم الملائكة، وهو موكّل بالوحي كما أن ميكائيل موكّل بالقطر والنّبات، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصُّور، وكل نوع من الملائكة له عمل، منهم ملائكة الموت، ورئيسهم مَلَك الموت: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١]. وهناك ملائكة موكّلون بالأَجِنَّة في الأرحام، كما جاء في الحديث:

((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثمّ يكون عَلَقَة مثل ذلك، ثمّ يكون مُضْغَة مثل ذلك، ثمّ يُرسل إليه المِلَكَ في الطَّوْر الرابع)) ويؤمر بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد" فهؤلاء موكّلون بالأَجنَّة في الأرحام.

وهناك ملائكة موكّلون بحفظ أعمال بني آدم، بكتابة الحسنات والسيّئات يلازمون بني آدم، إلاّ في الأحوال الخاصة، دائماً معهم في الليل والنهار يكتبون ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال طيّبة أو رديئة، وهؤلاء يسمون بالحَفَظَة.

وهناك ملائكة موكّلون بحفظ الإنسان نفسه، يحفظون الإنسان من المخاطر، ورفع المؤذيات: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١].

وهناك أنواع من الملائكة لا يعلمهم إلاّ الله.

((ثم يمر جبريل على الملائكة)) هذا فيه: فضل جبريل عليه السلام، وأن الله اختصه بائتمانه على الوحي، وأن أهل السماوات يسألونه وهذا دليل على فضله كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة:٤٠] ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير:٢٠]، يعني: ذا مكانة عند الله سبحانه وتعالى، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١] أمين على الوحي، لا يزيد فيه ولا ينقص عليه الصلاة والسلام.

((كلما مر بسماء)) هذا كما سبق فيه دليل على تعدّد السموات.

((سأله ملائكتها)) هذا فيه دليل على أن لكل سماء ملائكة خاصّون بها.

((ماذا قال ربنا يا جبريل؟، فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل)) تعظيماً لله سبحانه وتعالى. ٤

فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه، بل يقول: قال الحق مبهماً، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يبوح بالسر. ٥

وهذا فيه دليل على أن كلام الله حق لا ريب فيه، وأن الملائكة لا تعلم الغيب ولذلك تسأل جبريل.

((وهو العلى)) هذا فيه إثبات العلو لله عزّ وجلّ، والعلو ثلاثة أقسام: علو الذات. وعلو القدر. وعلو القهر. وكلها ثابتة لله سبحانه وتعالى.

فهو عليٌّ بذاته فوق مخلوقاته، وهو عليُّ القدر سبحانه وتعالى، وهو عليُّ القهر، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] بجميع أنواع العلو.

وأهل السنّة والجماعة يثبتون العلو بأنواعه الثلاثة.

أما المبتدعة فلا يُثبتون إلاّ علو القدر والقهر فقط، وأما علوّ الذات فينفونه، ولا يثبتون العلو لله عزّ وجلّ، تعالى الله عما يقولون علوًّ كبيراً.

((الكبير)) الذي لا أكبر منه سبحانه وتعالى، كل المخلوقات صغيرة بالنّسبة إلى الله سبحانه وتعالى، ليست بشيء: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، هذا من عظمته سبحانه وتعالى. ٤

معناه ظاهر فإذا كان هذا حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله وشدة خشيتهم من الله وهيبتهم له مع ما أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه كما قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦] وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عمن دعاهم ولا تحويله فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] وفي ضمن ذلك النهي عن دعائهم وعبادتهم الشفاعة أو غيرها كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ [الزمر:٤٣-٤٤] فكيف يدعوهم المشرك ويظن أنهم يشفعون له عند الله كما يشفع الوزراء عند الملوك.

وإذا بطلت دعوتهم مع أنهم أحياء ناطقون مقربون عند الله فدعاء غيرهم من الأموات الذين لا يستطيعون سمعاً ولا يملكون ضراً ولا نفعا أولى بالبطلان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤] وقال: ﴿وَالَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢٢]. ١

فوائد الحديث:

فدلّ هذا الحديث على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى، وهذا بإجماع أهل السنّة والجماعة، لم يخالف فيه إلاّ المبتدعة.

المسألة الثانية: إثبات الإدراك للسماوات والخوف من الله، وأنها تُدرك عظمة الله، وتخافه، وهي جمادات، كما دلّت على ذلك الأدلة الأخرى فإذا كانت السماوات تخافه، فكيف لا يخافه ابن آدم هذا الضعيف المسكين؟، كيف لا يخاف من الله سبحانه وتعالى؟.

المسألة الثالثة: وهي المسألة التي ساق المصنف هذا الحديث من أجلها، فيه: أن الملائكة يخافون من الله، ويسجدون له، فدلّ على أنهم عباد محتاجون إلى الله سبحانه وتعالى فقراء إلى الله، فهذا يدل على بُطلان دعائهم من دون الله، واتخاذهم وسائط، وشفعاء عند الله عزّ وجلّ، الملائكة يشفعون، لكن لا يشفعون إلاّ بإذن الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦]، فلا تحصل الشفاعة عند الله إلاّ بشرطين: الإذن بالشفاعة، ورضاه عن المشفوع فيه، بأن يكون المشفوع فيه من أهل الإيمان، أما الكافر، فقال الله تعالى فيه: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وليس الله مثل ملوك الدنيا يشفع الشفعاء عندهم ولو لم يأذنوا، ويضَطَّرُّ الملوك إلى قبول الشفاعة من أجل تأليف الكلمة، ومن أجل حاجتهم للوزراء، أما الله جل وعلا فإنه غني عن عباده، ولا أحد يتقدّم بالشفاعة عنده إلاّ بإذنه، ومحمَّد ﷺ أفضل الخلق، في يوم القيامة في المحشر إذا تقدّمت الخلائق إلى محمَّد تطلب منه الشفاعة لفصل القضاء، لا

يشفع إلاّ بعد أن يسجد لله عزّ وجلّ، ويحمد الله بمحامد عظيمة، ويدعوه بدعاء، ثمّ يقال له: يا محمَّد، ارفع رأسك، وسَلْ تُعط، واشفع تشفّع، فالشفاعة ملك لله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ [الزمر:٤٤]، وتُطلب الشفاعة من الله، تقول: اللهم شفِّع فيّ نبيّك محمداً ﷺ، اللهم شفِّع فيّ عبادك الصالحين، تطلبها من الله، أما أن تقول بعد موت الرسول: يا محمّد اشفع لي، أو يا فلان اشفع لي، تطلبها من الميّت فهذا لا يجوز.

فطلب الشفاعة من القبور شرك أكبر، أما الحي فتُطلب منه الشفاعة بأن يطلب منه أن يدعو الله عزّ وجلّ لمن احتاج إلى ذلك، أما الميّت فلا يقدر على دعاء، ولا يطلب منه شيء.

هذا هو المقصود من إيراد هذا الحديث، وهو بيان حالة الملائكة مع الله سبحانه وتعالى، وأنهم يخافونه، ويَصْعَقُون من هيبته سبحانه وتعالى، ومن سماع كلامه، ويخرُّون لله سجّداً، فدلّ على أنهم عباد فقراء إلى الله، ليس بيدهم شيء إلاّ ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى، فلا تجوز دعوتهم من دون الله عزّ وجلّ، وإذا كان هذا في حق الملائكة ففي حق غيرهم من باب أولى وأحرى.

المسألة الرابعة: فيه دليل على تعظيم كلام الله، وتعظيم القرآن الكريم، لأنه كلام الله، ووحي من الله، فيجب تعظيمه، والخشوع عند سماعه، والخوف مما فيه من الوعيد، والتهديد، والرجاء بما فيه من الوعد الكريم، فكلام الله سبحانه وتعالى يكرّم، ويُهاب، ويعظّم، ليس مثل كلام المخلوقين، وكذلك حديث الرسول ﷺ يجلّ ويعظم، لأنه وحي من الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم:٣-٤]، فهو وحي من الله، وكلام رسوله ﷺ.

المسألة الخامسة: فيه فضل جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وأنّه موكّل بالوحي، وأن الملائكة كلهم يسألونه: ماذا قال ربنا؟، هذا دليل على فضله ومكانته عند الله عزّ وجلّ. ٤

فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: "هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى"[١]، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

[١] البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي.

أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله -عز وجل-، فيكون فيه رد على الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى محمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب، لأنه كان يقول في غزوة خيبر، أنا الذي سمتني أمي حيدرة[١].

وفي هذا تناقض منهم، لأن وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة. ٥

المسألة السادسة: فيه دليل على ما ذكرنا أن السماوات طِباق متعدِّدة إلى سبع سماوات، وفي كل سماءٍ سكّان من الملائكة، يعمرونها بعبادة الله عزّ وجلّ من التسبيح والتهليل، وتعظيم الله عزّ وجلّ.

المسألة السابعة: في الحديث دليل -أيضاً- على أن الملائكة كلٌّ له عمل موكّل به، إذا كان جبريل موكلاً بالوحي، فكذلك ميكائيل موكل بالقطر والنبات كما جاء في الحديث، وكذلك إسرافيل موكل بالنفخ في الصُّور، وكذلك بقية الملائكة، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في استفتاحه إذا قام يتهجّد من الليل: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل)) لماذا خص هؤلاء، مع أن الله رب لكل شيء؟، لمكانة هؤلاء، لأن جبرائيل موكّل بالوحي الذي به حياة القلوب، وميكائيل موكّل بالفطر والنبات الذي فيه حياة الأرض بعد موتها، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصُّور الذي فيه حياة الأجسام بعد موتها، فكلّهم موكلون بالحياة، هذا بحياة القلوب بالوحي، وهذا بحياة الأرض بالماء والقطر، وهذا بحياة الأجساد يوم القيامة ونفخ الأرواح فيها. المسألة الثامنة: أن الملائكة لا يعلمون الغيب، ويسألون غيرهم عما خفي عليهم. ٤

وفيه من الفوائد:

- إثبات الإرادة لقوله: ((إذا أراد الله))، وهي قسمان: شرعية، وكونية.

والفرق بينهما أولاً: من حيث المتعلق، فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله عز وجل، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية، فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه.

---

[١] مسلم: كتاب الجهاد/ باب غزوة ذي قرد.

ثانياً: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المراد، فالشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، أما الكونية، فيلزم منها وقوع المراد.

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] هذه إرادة شرعية، لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضاً متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] هذه كونية، لأن الله لا يريد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً، فقد يريده.

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية، لأنه قال: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] هذه شرعية، لأن قوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لا يمكن أن تكون كونية، إذ إن العسر يقع ولو كان الله لا يريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

- أن المخلوقات وإن كانت جماداً تحس بعظمة الخالق، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

- إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ ويجابون: قال ﴿الْحَقَّ﴾، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك، فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

- إثبات تعدد السماوات، لقوله: ((كلما مر بسماء)).

- أن لكل سماء ملائكة مخصصين، لقوله: ((سأله ملائكتها)). ٥

- إثبات العزة والجلال لله -عز وجل- ـ، لقوله: ((عز وجل))، والعزة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

١- عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.

٢- عزيز: بمعنى ذي قدر لا يشاركه فيه أحد.

٣- عزيز: بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم في النونية:

وهو العزيز فلن يرام جنابه أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم يغلبه شيء، هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التي ليس فوقها عظمة. ٥

الخلاصة

أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله، لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله -عز وجل-، ما عدا خواص بني آدم يحصل منهم عند كلام الله -سبحانه- الفزع. ٥

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الملك العظيم الذي تصعق الأملاك من كلامه خوفا منه ومهابة وترجف منه المخلوقات، الكامل في ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته وملكه وعزه، وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعاً إليه، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته -لا يجوز شرعاً ولا عقلا أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم، فكيف يجعل المربوب ربا، والعبد معبودا؟ أين ذهبت عقول المشركين؟ سبحان الله عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ — ٩٥] فإذا كان الجميع عبيدا فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من

أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله. انتهى من شرح سنن ابن ماجه. ٢

والصفات التي فيها هذا البرهان هي صفات الجلال لله جل وعلا، وصفات الجلال هي الصفات التي تورث الخوف في القلب؛ لأن الصفات تنقسم إلى أقسام متنوعة بإعتبارات، ومن تقسيمات الصفات أنها تنقسم إلى صفات جلال وصفات جمال.

فالصفات التي تحدث في القلب الخوف والهلع والرهبة من الرب جل وعلا هذه تسمى صفات الجلال، والذي يتصف بصفات الجلال على الحقيقة هو الله جل وعلا؛ لأنه هو الكامل في صفاته سبحانه، فإذا كان كذلك كان الكامل في صفاته هو المستحق للعبادة. وأمّا البشر، أمّا المخلوقين فإنهم ناقصون في صفاتهم يعلمون أن حياتهم ليست حياة كاملة، وإنما هي حياة إذا عرض لها أي عارض صار المخلوق ميْتة، وإذا عرض له أي عارض صار مريضا، إذا عرض له أي عارض صار ضعيفاً لا يستطيع أن يعمل شيء، فهم ضعاف فقراء محتاجون ليست لهم صفات الكمال، وهذا ودليل نقصهم ودليل عجزهم ودليل أنهم مقهورون مربوبون، فيجب أن يتوجه العباد إلى من له صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، وهو الله جل وعلا وحده سبحانه وتعالى.

هذا المراد من هذا الباب وهذا ظاهر بحمد الله. ٣

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله: ((قال كذا وكذا)).

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أن يقول لأهل السماوات كلهم، لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!.

التاسعة عشرة: كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية. أي قوله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم...﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها. ه

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

وذلك أن الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم الله، فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقل منهم بكثير، فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل: إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب، لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي، فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها؟!

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعله تحت القدر، والراب -وهو أحسنها- يجعلها إلهاً له. ه

الثالثة: تفسير قوله: ﴿رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. وسبق تفسيرها. ه

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب. ه

الخامسة: أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله: ((قال كذا وكذا)). أي: يقول: قال الحق.ه

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل. لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل. ه

السابعة: أن يقول لأهل السماوات كلهم، لأنهم يسألونه. وفي هذا دليل على عظمته بينهم. ٥

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم. تؤخذ من قوله: ((فإذا سمع ذلك أهل السماوات، صعقوا وخروا لله سجداً)). ٥

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله. أي: لأجله تعظيماً لله. ٥

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله. أي: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به، لأنه الأمين على الوحي. ٥

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين. أي: الذين يسترقون ما يسمع في السماوات، فيلقونه على الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون. ٥

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً. وصفها سفيان رحمه الله بأن حرف يده وبدد بين أصابعه. ٥

الثالثة عشرة: إرسال الشهب. يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالى: إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر، ١٨]. ٥

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء، صار صادقاً.

اعتراض وجوابه:

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ.

أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها، فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع. ٥

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة. أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.

وقوله: ((مئة كذبة)) هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد. ٥

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. أما ما قاله من عنده، فهو تخرص، فالكلمة التي تسمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به على الناس. ٥

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!.

وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفه، فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة، فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان، ولهذا لما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة، فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع. ٥

التاسعة عشرة: كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

الكلمة: هي الصدق، لأن هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس. ٥

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

الأشعرية: هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة، فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون

بالأسماء، هؤلاء عامتهم، وإلا، فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة، فهم معطلة اعتباراً بالأكثر، لأنهم لا يثبتون من الصفات إلى سبعاً، وصفاته وتعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف، فمثلاً: الكلام عند أهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف.

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزومه الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئته، وهذا الذي يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق، فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله، لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجتهم في إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلي:

١- أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها، فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول، فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها، فتثبتها بالدليل السمعي.

٢- أنها ثابتة بالدليل العقلي بنظير ما أثبتم هذه السبع، فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماءً والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد، إذ لولا الإرادة، لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضي لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الله، فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس، فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا، فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق. ٥

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي كانا خوفاً من الله عز وجل.

فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ. ٥

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً. أي: تعظيماً لله واتقاء لما يخشونه، فتفيد تعظيم الله -عز وجل- كالتي قبلها. ٥

(بَابُ الشَّفَاعَة)

(بَابُ الشَّفَاعَة)

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الْأَنْعَامُ]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)﴾ [النجم:٢٦]، وَقَوْلُه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢] الْآيَتَيْن .قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : "نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْناً لله، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَى﴾، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ، لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يُقَالَ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

وقَالَ له أَبُو هُرَيْرَةَ:"مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((مَنْ قَالَ لا إله إلا الله خالصاً مِنْ قَلْبِهِ))، فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الإخلاص بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإخلاص فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أُذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيها شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ والإخلاص."انْتَهى كَلَامُهُ.

قال الشيخ الإمام رحمه الله: "باب الشفاعة".٤

لما كان المشركون في قديم الزمان وحديثه إنما وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة كما قال تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾

[يونس:١٨] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

ولذلك قطع الله أطماع المشركين منها وأخبر أنه شرك ونزه نفسه عنه ونفى أن يكون للخلق من دونه ولي أو شفيع كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤] أراد المصنف في هذا الباب إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك وأن الشفاعة التي يظنها من دعا غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفيه دنيا وأخرى وإنما الله هو الذي يأذن للشافع ابتداء لا يشفع ابتداء كما يظنه أعداء الله. ١

وإيراد هذا الباب بعد البابين قبله مناسب جدا، ذلك أن الذين يسألون النبي عليه الصلاة والسلام ويستغيثون به ويطلبون منه أو يسألون غيره من الأولياء أو الأنبياء إذا أقمت عليهم الحجة بما ذُكر من توحيد الربوبية، قالوا: نحن نعتقد ذلك؛ ولكن هؤلاء مقربون عند الله معظمون، ورفعهم جل وعلا عندهم ولهم الجاه عند الرب جل وعلا، وإذا كانوا كذلك فهم يشفعون عند الله؛ لأن لهم جاهاً عنده، فمن توجه إليهم أرضوه بالشفاعة وهم ممن رفعهم الله، ولهذا يقبل شفاعتهم.

فكأن الشيخ رحمه الله رأى حال المشركين وحال الخرافيين واستحضر حججهم وهو كذلك؛ إذ هو أَخْبَرْ أهل هذه العصور المتأخرة بحجج المشركين.

استحضر ذلك فقال لم يبق إلا الشفاعة لهم إذا حاججتم فهذا باب الشفاعة. ٣

معنى الشفاعة وأقسامها بين الناس

والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣].

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. ٥

الشفاعة معناها: التوسط في قضاء حاجة المحتاج لدى من هي عنده. سميت بذلك لأن طالب الحاجة كان منفرداً في الأول، ثمّ لما انضم إليه الشافع صار شفعاً، لأن الشفع ضد الوتر. فلما كان طالب الحاجة منفرداً، ثمّ انضم إليه الواسطة شفعه في الطلب، ولذلك سمّي شافعاً، وسمّي هذا العمل شفاعة،

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء:٨٥]، فالذي يشفع عند السلاطين، أو عند الأغنياء، أو عند غيرهم لقضاء حاجة المحتاجين يعتبر عمله شفاعة طيبة يؤجر عليها، قال ﷺ: ((اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء)).

أما إذا كانت الشفاعة في أمر محرّم، فهذه شفاعة سيئة، كالذي يشفع عند السلطان في تعطيل الحدود، إذا وجب الحد على شخص شفع عنده ليسقط الحد عنه، هذه شفاعة سيئة، ولهذا لما تقرر الحد على امرأة من بني مخزوم في عهد النبي ﷺ، كانت تستعير المتاع وتجحده، شقّ على أهلها وذويها قطع يدها، تراجعوا بمن يشفع عند رسول الله ﷺ، فتقرّر رأيهم أن يطلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه، حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حِبَّه، ليشفع عند رسول الله ﷺ في ترك قطع يد هذه المرأة، فكلم أسامة رسول الله ﷺ في ذلك، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وتغيّظ على أسامة رضي الله عنه، وقال له: ((أتشفع في حد من حدود الله؟، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها ((وقال: ((إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع)). والحاصل؛ أن هذا تعريف الشفاعة، وانقسامها إلى شفاعة حسنة وشفاعة سيئة، هذا فيما بين النّاس، والمراد هنا: الشفاعة عند الله تعالى.

ومراد المصنف رحمه الله من هذا الباب: أنه لما كان المشركون قديماً وحديثاً يعبدون من دون الله الأصنام والأشجار والأحجار والقبور والأضرحة والأولياء والصالحين والملائكة والأنبياء، فإذا أنكر عليهم ذلك قالوا: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، نحن نعلم أنهم مخلوقون، وأن الأمر بيد الله، ولكن هؤلاء لهم مكانة عند الله، ونريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله.

فيذبحون للأولياء والصالحين والأشجار والأحجار، ويستغيثون بهم، ويصرفون لهم أنواع العبادة، فإذا أنكر عليهم قالوا: غرضنا من ذلك هو الشفاعة فقط. فبين الله أن ذلك هو الشرك، وأن تلك هي عبادة غير الله، فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ [يونس:١٨]﴾، يقولون: نحن نعلم أنهم مخلوقون، وأنهم ليس لهم من الأمر شيء، ولكننا فعلنا ذلك من أجل أن يشفعوا لنا عند الله لأن لهم مكانة عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الزمر:٣] يعني: يعبدونهم، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، اعترفوا أنهم يعبدونهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] سَمَّى فعلهم هذا كذباً، وسَمّاه كفراً، ولم تنفعهم اعتذاراتهم، وذلك لأنهم قاسوا الخالق سبحانه وتعالى على ملوك الدنيا، فكما أنهم من عادتهم عند ملوك الدّنيا أنهم يوسطون الشفعاء بينهم وبين الملوك في قضاء حوائجهم، قاسوا الله جل وعلا بخلقه، اتخذوا عند الله الشفعاء كما يتخذونهم عند الملوك والرؤساء، وهذا باطل، لأنه تسوية بين الخالق والمخلوق، فإن ملوك الدنيا أو سلاطين الدّنيا أو رؤساء النّاس في الدّنيا يقبلون الشفاعة لحاجتهم إلى ذلك، وذلك لأن الملك أو الرئيس بحاجة إلى الوزراء والمستشارين ليعينوه على أمور الملك، فلو لم يقبل شفاعتهم لنفروا منه، ولم يعينوه، والله جل وعلا غني عن خلقه، ليس بحاجة إلى أن يعينه أحد، بخلاف الملوك والسلاطين فهم بحاجة.

وأيضاً ملوك الدّنيا والسلاطين لا يعلمون أحوال الرّعيّة، فهم بحاجة إلى هؤلاء ليبلغوا حاجات النّاس وأحوال الناس، فإذا بلغهم هؤلاء الوسائط والشفعاء، فقد بلّغوهم ما لم يعرفوا من أحوال رعيتهم، أما الله جل وعلا فإنه يعلم كل شيء، لا تخفى عليه أحوال عباده، يعلم المحتاجين والمرضى والفقراء وأصحاب الحاجات، يعلم ذلك بدون أن يخبره أحد سبحانه وتعالى، فلا يقاس الخالق بالمخلوق.

وأيضاً الملوك والرؤساء ولو علموا بأحوال الناس، فإنهم قد لا يلينون لهم، ولا يلتفتون إليهم، لكن إذا جاءهم هؤلاء الوسطاء، وتكلموا معهم أثّروا فيهم، فقبلوا الشفاعة، أما الله –جل وعلا– فإنه لا يؤثر عليه أحد، الله جل وعلا يريد الرحمة لعباده، ويريد المغفرة، ويريد قضاء حاجات الناس، وإعطاءهم، ورزقهم، هو مريد لذلك سبحانه وتعالى بدون أن يؤثّر عليه أحد.

ففيه فرق بين الخالق والمخلوق من هذه الوجوه، من ناحية أن الله غني لا يحتاج إلى إعانة الشّفيع، ومن ناحية أن الله عليم لا يحتاج إلى إخبار الشفيع عن أحوال خلقه، ومن ناحية أن الله سبحانه وتعالى مريد للخير والرحمة لعباده، وقضاء حوائجهم، إذا هم طلبوا من الله بصدق، ولجؤا إليه لإخلاص قضى حوائجهم، بدون أن يكون هناك واسطة.

فتبيّن لنا إذا الفرق بين الخالق والمخلوق، فغلِط المشركون في ذلك حيث سووا الخالق بالمخلوق، واتخذوا الشفعاء عنده كما يتخذون الشفعاء عند الملوك والرؤساء.

الشفاعة في كتاب الله

والشفاعة في كتاب الله جاءت على قسمين: قسم منفي، وقسم مثبت.

–فالقسم المنفي: هو الشفاعة التي تطلب من غير الله.

هذه الشفاعة منفية، لأن الشفاعة ملك لله، لا تطلب إلاّ منه، وكذلك الشفاعة التي تطلب فيمن لا تقبل فيه، وهو الكافر، فالكافر والمشرك لا تقبل فيه الشفاعة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ﴾ [البقرة:٤٨]. –والشفاعة المثبتة: هي التي توفر فيها الشرطان:

الشرط الأول: أن تُطلب من الله. ٤

والشفاعة هي الدعاء، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء، فإذا قال قائل: أستشفع برسول الله. كأنه قال: أطلب من الرسول ﷺ أن يدعو لي عند الله. فالشفاعة طلب، ولهذا من استشفع فقد طلب الشفاعة، فالشفاعة دعاء، وهي الدعاء أيضاً.

فلهذا صار كل دليل تقدم لنا، وكل دليل في الكتاب أو في السنة فيه إبطال أن يدعى مع الله جل وعلا إلها آخر يصلح أن يكون دليلاً للشفاعة؛ يعني لإبطال الاستشفاع بالموتى وبالذين غابوا عن دار التكليف، لأن حقيقة الشافع أنه طالب، وأن حقيقة المستشفع أنه طالب، فالشافع في ظن المستشفع يدعو، والمستشفع يدعو من أراد منه الشفاعة؛ يعني إذا أتى آتٍ إلى قبر النبي أو قبر ولي أو نحو ذلك فقال: استشفع بك أو أسألك الشفاعة. يعني طلب منه ودعاه أن يدعوا له.

فلهذا صار صرفها أو صار التوجه بها إلى غير الله جل وعلا شرك أكبر؛ لأنها في الحقيقة دعوة لغير الله؛ لأنها في الحقيقة سؤال من هذا الميْت، سؤال والتوجه بالطلب والدعاء من غير الله جل وعلا، فيتوجه إلى غير الله بالسؤال والطلب والدعاء.

إذن فالشفاعة عرفتَ معناها، وأنَّ التوجه إلى غير الله بالشفاعة -يعني بطلب الشفاعة- شرك أكبر إذا كان هذا المتوجَّه إليه من الأموات، أما إذا كان حياً فإنه في دار التكليف يُطلب منه أن يشفع عند الله بمعنى أن يدعُوَ وقد يجاب دُعاءه وقد لا يجاب، أو كما يحصل أن يشفع بعض الناس لبعض بالشفاعة الحسنة أو بالشفاعة السيئة، من يشفع شفاعة حسنة ومن يشفع شفاعة سيئة، فهذا يحصل لأنهم في دار تكليف ويقدرون على الإجابة، وقد أذن الله في طلب الشفاعة منهم بأن يدعوا، لهذا كان الصحابة في عهد النبي ﷺ ربما أتى بعضهم النبي عليه الصلاة والسلام وطلب أن يشفع له -يعني أن يدعوا له-. ٣

قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، هذا الشرط الأول. ٤

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان،

ولكن الله -عز وجل- كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته. ٥

الشرط الثاني: أن تكون فيمن تقبل فيه الشفاعة، وهو المؤمن الموحِّد الذي عنده شيء من المعاصي دون الشرك، فهذا تُقبل فيه الشفاعة بإذن الله. ٤

﴿لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨]، وهم أهل الإيمان.وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ﴾ [النجم:٢٦] هذا الشرط الأول. ﴿وَيَرْضَى﴾، هذا هو الشرط الثاني. ٤

ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله —سبحانه- في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ولكن يقصد بها أمران، هما:

١- إكرام الشافع. ٢- نفع المشفوع له. ٥

الشفاعة المثبتة

أنواع الشفاعة المثبتة

والشفاعة المثبتة ستة أنواع: -النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وهي التي تكون من الرسول ﷺ لأهل الموقف، إذا طال الوقوف على أهل الموقف التمسوا من يشفع لهم إلى الله في القضاء بينهم، وإراحتهم من الموقف، فيأتون إلى آدم عليه السلام ثمّ إلى الأنبياء نبيًّا نبيًّا كلهم يعتذرون، حتى ينتهوا إلى محمَّد ﷺ، فيقول: ((أنا لها، أنا لها)) ثمّ يخر ساجداً بين يدي ربه عزّ وجل، ويفتح الله عليه بمحامد، فلا يزال ساجداً حتى يقال له: ((يا محمَّد ارفع رأسك، وسَلْ تعط، واشفع تشفّع))، هذا فيه أن الرسول لا يشفع ابتداءً، وإنما يشفع بعد الاستئذان، بعد أن يخر ساجداً لله، ولا يشفع إلاّ بعد أن يؤذن له، ويقال: اشفع تشفّع، ثمّ يشفع في أهل الموقف، فيحاسبون، ثمّ ينصرفون من الموقف إما إلى الجنة وإما إلى النار.

هذه الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي قال تعالى فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء:٧٩]، لأنه يحمده عليه الأولون والآخرون -عليه الصلاة والسلام-، وهذه لم يخالف فيها أحد وحقيقتها أن الخلائق يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو الله لهم بأن يريحهم من الموقف الطويل

- النوع الثاني: شفاعته ﷺ لأهل الجنة في أن يدّخلوا الجنة.

- النوع الثالث: شفاعته ﷺ في بعض أهل الجنة في رفعة درجاتهم في الجنة.

- النوع الرابع: شفاعته ﷺ في عمّه أبي طالب، وذلك أن أبا طالب كانت مواقفه مع الرسول ﷺ، وتأييده له، وحمايته من أذى قومه، كلها معروفة، وأنه صبر معه على الأذى وعلى الحصار والضيّق، فهو بذل مع الرسول ﷺ شيئاً عظيماً من الحماية والنُّصرة والدفاع عنه، وهذا من تسخير الله سبحانه وتعالى، وتيسير الله، حيث سخّر هذا الكافر لحماية النبي ﷺ، وحرص النبي ﷺ على هدايته، ودخوله في الإسلام، حتى إنه زاره وهو يُحتضر، وقال له: ((يا عم، قل: لا إله إلاّ الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)) إلاّ أنه كان عنده حَضْرة من المشركين قالوا له: أترغب عن مِلّة عبد المطلب؟. فأخذته النّخوة -والعياذ بالله-، والحَمِيَّة الجاهلية وقال: هو على ملّة عبد المطلب، ومات ولم يقل لا إله إلاّ الله، فصار من أهل النار، فالنبي ﷺ يشفع له في تخفيف العذاب عنه يوم القيامة، لا في إخراجه من النار، فلا يتعارض هذا مع قوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر:٤٨]، لأنها لم تنفع أبا طالب بالخروج من النار، وإنما نفعته في تخفيف العذاب عنه .

- النوع الخامس: الشفاعة فيمن استحق النار من أهل التّوحيد أن لا يدخلها.

- النوع السادس: الشفاعة فيمن دخل النار من أهل التّوحيد أن يخرج منها، وهاتان الشفاعتان الأخيرتان ليستا خاصتين بالنبي ﷺ، بل هما عامتان في الأنبياء والأولياء، والصالحين، والأفراط. فالأولياء يشفعون، والصالحون، والأفراط -وهم الأولاد الصغار- يشفعون لآبائهم.وهذه الشفاعة يثبتها أهل السنّة والجماعة للأحاديث الواردة الصحيحة

فيها، ويخالف فيها المبتدعة من المعتزلة، والخوارج الذين يقولون إن من دخل النار لا يخرج منها، ويخالفون بذلك الأحاديث الصحيحة الواردة فيها عن النبي ﷺ، هذه أنواع الشفاعات الثابتة الصحيحة التي توفر فيها الشرطان المذكوران.

وأمر الشفاعة أمر عظيم، لأنه غلط فيها أمم من النّاس قديماً وحديثاً، وفهموها على غير المقصود، فجمهور المشركين -أو كل المشركين- فهموها على غير المقصود، وبعض المبتدعة من المسلمين أنكروا بعضها، فحصل الغلط، فلابد من التفصيل والأيضاًح في أمر الشفاعة، لأنها أصبحت مزلة أقدام، يجب على طلبة العلم أن يهتموا بهذا الأمر، لأن فيها مغالطات عند القبوريين والخرافيين، لأنهم لا يفقهون معنى الشفاعة، أو أنهم يتعمّدون المعاندة والمخالفة، ويصرون على ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ومشايخهم من الضلال في هذا الباب.

فالشفاعة ليست منفية مطلقة، ولا مثبتة مطلقة، بل فيها تفصيل، وفيها أيضاًح لابد من معرفته، ولذلك عقد المصنف رحمه الله هذا الباب لها من أجل هذا الغرض. ٤

مسألة الشفاعة من المسائل التي تخفى على كثيرين، ولهذا وقع بعض أهل العلم في أغلاط من جهة طلب الشفاعة من النبي عليه الصلاة والسلام، فأوردوا قصصا في كتبهم فيها استشفاع بالنبي عليه الصلاة والسلام دون إنكار -كما فعل النووي وكما فعل ابن قدامة في المغني ونحو ذلك-، وهذا لا يعدّ خلافا في المسألة؛ لأن هذا الخلاف راجع إلى عدم فهم حقيقة هذا الأمر.

ومسألة الشفاعة مسألة فيها خفاء، ولهذا يقول أهل العلم من أئمة الدعوة رحمهم الله: إقامة الحجة في مسائل التوحيد تختلف بحسب قوة الشبهة، فأقل الشبهات ورودا وأيسر الحجج قدوما على المخالف فيما يتعلق بأصل دعوة غير الله معه، وبالاستغاثة بغير الله وفي الذبح لغير الله ونحو ذلك، ومن أكثرها اشتباها إلا على المحقق من أهل العلم مسألة الشفاعة.

ولهذا الشيخ رحمه الله أتى بهذا الباب وقال (باب الشفاعة)، وبين لك بما ساق من الأدلة من الكتاب والسنة أن الشفاعة لا تصح إلا بشروط، فالشفاعة التي تنفع فإنها لا تصح إلا

بشروط، وكذلك هناك شفاعة منفية، ليست كل شفاعة تقبل، وإنما هناك شفاعة تقبل وهناك شفاعة تردُّ، تقبل بشروط وتردُّ أيضاً بأوصاف.

فإذن صار عندنا أن الشفاعة قسمان في القرآن والسنة: شفاعة منفية وشفاعة مثبتة. ٣

فإن قلت إذا كان من اتخذ شفيعاً عند الله إنما قصده تعظيم الرب تعالى وتقدس أن يتوصل إليه بالشفعاء فلما كان هذا القدر شركاً؟!

قيل قصده للتعظيم لا يدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه ولهذا قيل في المثل المشهور: يضر الصديق الجاهل ولا يضر العدو العاقل.

فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية وتنقص للعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين كما قال تعالى ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] الآية فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده.

ولهذا أخبر -سبحانه وتعالى- عن المشركين إنهم ما قدروه حق قدره وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه نداً أو شفيعاً يحبه ويخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته ويدعوه ويذبح له وينذر وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلاً وضلالاً فيقولون وهم في النار ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء٩٧-٩٨] ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا إن آلهتكم خلقت السموات والأرض وانها تحيي وتميت وإنما ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبادة كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية وتنقصاً لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين.

لأن المتخذ للشفعاء والأنداد إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين وهذا أعظم التنقص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع وإما أن يظن

أنه لا يعلم حتى يعلمه الشفيع أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم أو لا يكفي وحده أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده كما يشفع عند المخلوق أولا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه كما هو حال ملوك الدنيا وهذا أصل شرك الخلق أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك أو يظن أن للشفيع عليه حقا فهو يقسم عليه بحقه ويتوسل إليه بذلك الشفيع كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا تمكنهم مخالفته وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها ذكر معناه ابن القيم.

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك شرك ونزه نفسه عنه فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

فإن قلت: إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء أما من دعاهم للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم فلا يكون ذلك شركاً.

قيل: مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك والشرك لازم له كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله لا وجود له في الخارج وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم فإن الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى. ١

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

هذا أمر من الله للنبي ﷺ.يقول: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الإنذار هو: الإعلام بشيء مَخُوْف. أما البشارة فهي: الإعلام بشيء محبوب، والنبي ﷺ بشير ونذير، بشير لأهل الإيمان بالأجر والثواب والجنة، ونذير لأهل الشرك والمعاصي بالعذاب والنار. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الحشر معناه: الجمع، لأن الله يجمع الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم في صعيد واحد، لا يخفى منهم أحد؛ لأجل فصل القضاء بينهم، وجزائهم بأعمالهم. وهذا الموقف لابد منه،

فأنت أيها الرسول أنذر المؤمنين بهذا الموقف، ولماذا خص المؤمنين؟، لأنهم هم الذين يمتثلون، وإلاَّ فإنه مأمور بأن يبلغ النّاس كلهم، ولكنه -أحياناً- يؤمر بتخصيص المؤمنين، لأنهم هم الذين يمتثلون، وفي إنذارهم نفع لهم، أما المشركون والكفار فهم يبلغون من أجل إقامة الحجة عليهم، وأما المؤمنون فإنهم يبلغون من أجل نفعهم بذلك.

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غير الله. ﴿وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ لا أحد يتولاّهم يوم القيامة من الخلق، و﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، يوم القيامة ما أحد يسأل عن أحد، قال تعالى: ﴿وَرُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٣٠]، ﴿فهُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ يوم القيامة ما أحد يلوي على أحد، ولا أحد يسأل عن أحد، بل إن القريب إذا رأى أقرب النّاس إليه يفر منه. ﴿وَلا شَفِيعٌ﴾ أي: واسطة، يتوسط له عند الله، ما أحد يشفع له يوم القيامة إلاّ بإذن الله سبحانه وتعالى، وبشرط أن يكون هذا الشخص ممن يرضى الله عنه، هذه شفاعة منفيّة فبطل أمر هؤلاء الذين يتخذون الشفعاء ويظنون أنهم يخلصونهم يوم القيامة من عذاب الله كما يقول صاحب (البردة):

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به.

سواك عند حلول الحادث العمم إن لم تكن في معادي آخذاً. بيدي فضلاً وإلاَّ قل يا زلّة القدم هذا على اعتقاد المشركين أن الرسول يأخذ بيده ويخلصه من النار، وهذا ليس بصحيح، لا يخلصه من النار إلاّ الله سبحانه وتعالى إذا كان من أهل الإيمان.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذا تعليل لقوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾، من أجل ماذا؟، أي: من أجل أن يتقوا ربهم سبحانه وتعالى، والتقوى معناها: أن يتخذوا ما يقيهم من عذاب الله يوم القيامة، وذلك بالأعمال الصالحة، بفعل الطاعات وترك المحرمأت، ولا يقي من عذاب الله يوم القيامة إلاّ التقوى. فهذا فيه الرد على المشركين الذين يتخذون الشفعاء بيّن الله أنه سيأتي يوم القيامة ولا أحد يشفع لهم كما يزعمون. ٤

فنفى سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولي أو شفيع من دون الله كما هو دين المشركين.١

هذه الشفاعة الباطلة فإن العباد ليس لهم ولي ولا شفيع بالكلية إلا من رضي الله قوله وعمله فقط، لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء وشفعاء ينقذونهم من النار ولا يدخلون النار بسببهم حتا عبدوهم من دون الله وقالوا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وقالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] فبين سبحانه أنه ليس للعباد ولي ولا شفيع دونه وأن شفاعة الكفار هذه باطلة، وأن الشفاعة الحق هي التي يأذن الله فيها لأنبياءه، وأولياءه، وأهل طاعته في أهل التوحيد والإيمان، لا في أهل الكفر والنفاق. ٦

ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي من دون إذنه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود، الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة. ٥

فإذن قوله هنا ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني أنَّ الشفيع في الحقيقة هو الله جل جلاله دون ما سواه، ولهذا أعقبها بالآية الأُخرى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ [الزمر:٤٤]، فالشفاعة جميعاً ملك لله، وأهل الإيمان وغيرهم في الحقيقة ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، ليس أحد يشفع لهم من دون الله -جل وعلا-؛ بل لابد أن تكون الشفاعة بالله؛ يعني بإذنه وبرضاه.

فإذن إذا تقرر ذلك، فإنه إذا نُفيت الشفاعة عن أحد سوى الله جل وعلا وأن الذي يملك الشفاعة إنما هو الله -جل وعلا- وحده، فإذن بطل التعلق -تعلق قلوب أهل الذين يسألون الموتى الشفاعة- بطل تعلقهم بمسألة الشفاعة لأن الشفاعة ملك لله وهذا لا يملكها. ٢

وقوله: ﴿قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ [الزمر: ٤٤].

نتكلم عليها وعلى الآية التي قبلها ليتضح المعنى قال الله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شيئاً وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً ۖ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر:٤٣-٤٤].

فقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي: بل اتخذوا، أي المشركون، والهمزة للانكار ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: تشفع لهم عند الله بزعمهم، كما قال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] الآية وقال ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] فكذبهم وكفرهم بذلك.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٨] فهذا هو مقصود المشركين ممن عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله.

قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من دون إذنه وأمره والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه وأن يكون المشفوع له مرتضى وههنا الشرطان مفقودان فإن الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سبباً لإذنه ورضاه بل ذلك سبب لمنعه وغضبه.

قوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شيئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم، أو أموات كذلك، حتى ولا يملكون الشفاعة كما قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ أي: هو مالكها كلها فليس لمن تدعونهم منها شيء. ١

أي: هو مالكها، فليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه، لأن ذلك عبادة وتإليه لا يصلح إلا لله. ٢

قال البيضاوي: "لعله رد لما عسى أن يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون"[1] ٢

﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾، مبتدأ وخبر، وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته. ٥

إذاً تُطلب الشفاعة من الله –سبحانه وتعالى–، ولم تطلب من غيره. ٤

---

[1] تفسير البيضاوي ٥-٧٠

أي: قل للناس أن الشفاعة لله وحده، وقبل هذه الآية أنكر على من ادعى الشفاعة من دون الله من المشركين الذين يدعون الشفاعة لأصنامهم وأحجارهم وغيرها من المعبودات فنفى الله ذلك كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [الدثر:٤٨] و﴿ما لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾ [غافر:١٨] فالشفاعة له وحده سبحانه، وإنما يشفع الأنبياء والصالحون بإذنه وهو يعطيها من يشاء فيجب أن تطلب منه. ويقول: "اللهم شفع في نبيك وشفع في عبادك الصالحون" ولا مانع أن تطلب الشفاعة من الحي في حياته كأن يقول: يا رسول الله اشفع لي أن يرزقني الله أو تقول للرجل الصالح اشفع لي أن يغفر الله لي وادع أن يهديني. أما الأصنام والأموات والغائب كالملائكة فلا يطلب منهم ذلك لأنه لا يشعر ولا يدري عنك ولا يطلع على الغيب كما يعتقده الجهال والكفار. ٦

وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه بأنه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائناً من كان. ١
قال ابن جرير: "نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلى ليقربونا إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾[١]. ٢

وقوله ﴿ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾ أي: فتعلمون أنهم لا يشفعون ويخيب سعيكم في عبادتهم بل يكونون عليكم ضدا ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تعالى: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشركاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شركاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:٢٨-٢٩]. ١
فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها: أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف وممتنع، وأن اتخاذهم شفعاء شرك، يتنزه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن

[١] تفسير ابن جرير ٥- ٣٩٥

دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]

فبين تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألههم. أن ذلك منهم إفك وافتراء. ٢

فأفادت الآية في قوله: ﴿جميعاً﴾ أن هناك أنواعاً للشفاعة.

وقد قسم أهل العلم رحمه الله الشفاعة إلى قسمين رئيسيين، هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ، وهي أنواع:

– النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله، فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله بها: أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! فيعتذر لأنه عصى الله بأكله من الشجرة، ومعلوم أن الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه، فإنه لا يشفع لخجله من ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢٢) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١–١٢٢]، لكن لقوة حيائه من الله اعتذر.

ثم يذهبون إلى نوح، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

ثم يذهبون إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، فلا يعتذر بشيء، لكن يحيل إلى من هو أعلى مقاماً، فيقول: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيحيلهم إلى محمد ﷺ دون أن يذكر عذراً يحول بينه وبين الشفاعة[١]، فيأتون محمداً ﷺ، فيشفع إلى الله ليريح أهل الموقف.

---

[١] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة

– الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع له، فيشفع النبي ﷺ إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، فقال: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، فهناك شيء محذوف، أي: وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أما النار، فقال فيها: ﴿حَتَّى إذا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ الآية.

– الثالث: شفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب[١]، وهذه مستثناة من قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه: ١٠٩]، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لكن خفف عنه حتى صار –والعياذ بالله– في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ لا أحد يشفع في كافر أبداً إلا النبي ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين.

وهي أنواع:

– النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: ((ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً ، إلا شفعهم الله فيه[٢])) ، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك.

– النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمع عليها الصحابة، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين، وهما: المعتزلة والخوارج، فإنهم ينكرون

[١] البخاري: كتاب الفضائل/ باب قصة أبي طالب، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب.
[٢] مسلم: كتاب الجنائز/ باب من صلى عليه أربعون.

الشفاعة في أهل المعاصي مطلقاً لأنهم يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، ومن استحق الخلود، فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبي ﷺ أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخولها أن يخرجوا منها، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع.

– النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال ﷺ في أبي سلمة: ((اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه))[1]، والدعاء شفاعة، كما قال ﷺ: ((ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً ، إلا شفعهم الله فيه)).

إشكال وجوابه:

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذن وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبوديهم، فهي شفاعة باطلة لأن الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

إذا قوله: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ تفيد أن الشفاعة متعددة كما سبق. ٥

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

قال: وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ هذا جزء من آية الكرسي: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا

[1] مسلم: كتاب الجنائز/ باب في إغماض الميت.

بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهي أعظم آية في كتاب الله عزّ وجلّ، لماذا صارت أعظم آية في كتاب الله؟، لأنها اشتملت على النفي والإثبات: نفي النقائص عن الله تعالى، وإثبات الكمال لله عزّ وجلّ والشاهد منها قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿مَنْ﴾ نفي، أي: لا أحد. ٤
﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾

وسبق أن النفي إذا جاء في سياق الاستفهام، فإنه يكون مضمناً معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به. ٥

﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ أي: عند الله تعالى، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فهو الذي يأذن للشفعاء أن يشفعوا، وبدون إذنه لا يمكن لأحد أن يشفع أبداً، لا الأنبياء، ولا الملائكة، ولا الأولياء، ولا الصالحين، وهذا محل الشاهد؛ أن الشفاعة لا تكون إلاّ بإذن الله، ففي هذا رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سبحانه وتعالى في ذلك، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء يقومون بما يريدون منهم عند الله عزّ وجلّ، ولذلك صرفوا لهم العبادة، فصاروا يذبحون للقبور، وينذرون لها، ويطوفون بها، ويتبركون بها، ويتمسحون بترابها، وبجدرانها، يعبدونها من دون الله، لأنهم يقولون: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، تركوا الله عزّ وجلّ وعبدوا غيره، فعملهم هذا حابط باطل، لأنهم يضعونه في غير محله، وقاسوا الخالق على المخلوق. ٤
قال ابن جرير في هذه الآية "نزلت لما قال الكفار ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.[1] ١
في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين وغيرهم وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم وبين عظيم ملكوته وكبريائه وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام كقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ﴾ [النبأ:٣٨] وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥]. ١

[1] تفسير ابن جرير ٣\٨

أفادت الآية: أنه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلما كمل سلطان الملك، فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير إلا بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلاً على أنه ليس كبيراً في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسول ﷺ كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلا إذا فتح الكلام، فإنهم يتكلمون. ٥

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]

كم هنا بمعنى: كثير، فهي خبريّة، أي: كثير من الملائكة.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ لأن موطن الملائكة: السماوات، ومع كثرتهم ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً﴾ هذا نفي، لأن ﴿شيئاً﴾: نَكِرة في سياق النفي، أي: لا تغني شيئاً أبداً إلاّ بشرطين: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ هذا الشرط الأول. ﴿وَيَرْضَى﴾ هذا الشرط الثاني. ويأذن للشافع أن يشفع، ويرضى عن المشفوع فيه أن يُشفع فيه، وهو المؤمن الموحّد الذي عنده ذنوب يستحق بها العذاب، فإذا أذن الله جل وعلا في الشفاعة فيه، فإنه تنفعه الشفاعة، ويسلم من العذاب بإذن الله عزّ وجلّ. ٤

وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، أي: العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم.

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩- ٢٠]، وهذا استفهام للتحقير، فبعد أن ذكر الله هذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير، ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى(٢١) تِلْكَ إذا قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣) أَمْ لِلإنسان مَا تَمَنَّى(٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى(٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ...﴾ الآية [النجم: ٢١-٢٦].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه، فكيف باللات والعزى وهي في الأرض؟!

ولهذا قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾، مع أن الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السماوات العلى، وهي عند الله –سبحانه– ، فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ٥

فدلّ على أن الأمر كله لله سبحانه وتعالى، وتُطلب الشفاعة وغيرها من الله، ولا يُتعلّق على غيره، ولا تُصرف العبادة إلاّ له، ولا يُدعى إلاّ هو سبحانه وتعالى، ولا يجوز اتخاذ الوسائط بين الخلق وبين الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإجابة الدعوات، لا يجوز هذا، وإنما العباد يجب عليهم أن يتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى في عباداتهم، وفي دعواتهم، وفي سائر أمورهم.

ومهمّة الرسل هي: التبليغ عن الله سبحانه وتعالى، أما أنهم يكونون وسطاء بين الله وبين خلقه في قضاء الحوائج فهذا أمر باطل، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة: "هناك واسطة من أثبتها كفر، وواسطة من أنكرها كفر"فالواسطة التي من أنكرها كفر: هم الرسل –عليهم الصلاة والسلام– في تبليغ أمر الله سبحانه وتعالى، يعني: من جحد رسالة الرسول كفر، فالرسول واسطة بين الله وبين النَّاس في تبليغ الرسالة، أما الواسطة التي من أثبتها كفر، فهي: جعل الوسائط بين الخلق وبين الله في قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، هذه من أثبتها كفر، لأن الله كفّر المشركين في ذلك، والله جل وعلا أمرنا أن نتوجّه إليه مباشرة بدون أن نوسّط أحداً، أو نسأل بجاه أحد، أو بحق أحد، حتى ولو كان هذا الأحد له مكانة عند الله كالرسل والملائكة لأن الله لم يشرع لنا أن نوسطهم في قضاء حوائجنا، بل الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ما قال: ادعوني بواسطة فلان، أو وسّطوا فلاناً بيني وبينكم، قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وفي الحديث: ((ينزل ربنا سبحانه وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟، هل من مستغفر فأغفر له؟)) فالباب مفتوح بينك وبين الله عزّ وجلّ، لماذا هذا التعريج، وهذه

الأباطيل التي تجعلها بينك وبين الله؟، اتصل بالله مباشرة، وهو سميع مجيب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فهذا إبطال الوسائط التي يضعونها بينهم وبين الله، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، لا أصحاب القبور، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا الأصنام، ولا أي مخلوق حتى ولا الأنبياء ولا الملائكة ليسوا الواسطة بين الله وبين خلقه في قضاء الحاجات غير الأعمال الصالحة أمر منفي، أما الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ الرسالات، فهذا أمر ثابت. ٤

(جواب من يقعون في الشرك بدعاء الأولياء و الصالحين و غيرهم، والرد عليه.)

كثيراً -أو جميع- من يقع منهم الشرك في العبادة بدعاء الأولياء والصالحين والموتى إذا سُئلوا وقيل لهم: هذا شرك، قالوا: لا، هذا ليس بشرك، لأننا لم نقصد أن نعبد من دون الله أحداً، لأننا نعلم أن العبادة حق لله، ولكن هؤلاء أناس صالحون لهم مكانة عند الله، ومن العادة أن الإنسان إذا كان له حاجة عند السلطان أو عند الملك أنه لا يتقدم إليه حاجته مباشرة، لأنه يخشى أن لا يُقبل منه أو لا يُعرف، فحتى لا يُرد طلبه يجعل بينه وبين المطلوب منه واسطة، فهذه الواسطة تشفع له عند من عنده طلب المحتاج. هذا حاصل ما يجيبون به. وهو جواب باطل، لأن قياس الخالق على المخلوق قياس باطل، لأنّ الله سبحانه وتعالى ينزّه أن يقاس بأحد من خلقه، قال سبحانه: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾ [النحل:٧٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص:٤]، إلى غير ذلك مما بيّن الله سبحانه أنه لا يجوز أن يُقاس بخلقه أو أن يشبّه بخلقه لوجود الفرق العظيم بين الخالق والمخلوق، فإذا كان ملوك الدنيا تسوغ عندهم شفاعة الشافعين بغير إذنهم، فإن الخالق جل وعلا لا تسوغ عنده لأنه أعظم من ذلك، لأن ملوك الدّنيا بحاجة إلى هؤلاء الشفعاء لإعانتهم على أمور الملك، فيشفعونهم من أجل أن يعينوهم على أمور الملك، أو لأن ملوك الدّنيا لا يعلمون أحوال الرعيّة، فهم بحاجة إلى من يبلّغهم، أو

لأن ملوك الدّنيا لا يريدون قضاء الحوائج أحياناً، ولا يريدون الرحمة حتى يأتي من الشفعاء من يتكلم معهم، حتى تتأثر قلوبهم بالعطف، وهذه الأمور كلها منتفية عن الله سبحانه وتعالى، فهو ليس بحاجة إلى من يعينه على أمور الملك، لأنه غني كريم، قادر على كل شيء، وليس بحاجة إلى من يبلّغه عن أحوال خلقه، لأنه يعلم كل شيء، وليس بحاجة إلى من يؤثر عليه ويعطفه، لأنه بعباده رؤوف رحيم، يريد لهم الخير، ويريد لهم الإعانة، ويحب العفو والمغفرة، ويجود على خلقه بدون أن يؤثر عليه أحد أو يتوسط عنده أحد، فهذه الأمور كلها منتفية، وبذلك بطلت حجة المشركين، وتبيّن أن فعلهم هذا هو الشرك، سماه الله شركاً في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ هذا هو الشرك، وفي الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، ثمّ توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، فسمّى فعلهم هذا كذباً وسماه كفراً، بل سماه مبالغة في الكفر، لأن كفّار صيغة مبالغة، فالذي يفعل هذا قد بلغ غاية الكفر وأعظم الكفر والعياذ بالله. ٤

قلت في هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها مالا يخفى لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداء فلأي معنى يدعون ويعبدون؟!

وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله وهو الموحد لا المشرك كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩] والله لا يرتضي إلا التوحيد كما قال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] وقال النبي ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) فلم يقل أسعد الناس بشفاعتي من دعاني.

فإن قال المشرك: أنا أعلم أنهم لا يشفعون إلا بإذنه لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي، قيل: فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سبباً لإذنه ورضاه بل ذلك سبب لغضبه ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية كقوله ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إذا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس ١٠٦]

فتبين أن دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك كما كان المشركون الأولون يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله فأنكر الله عليهم ذلك وأخبر أنه لا يرضاه ولا يأمر به. ١

(إلقاء الشيطان و إغواء المشركين)

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إذا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج:٥٢] الآيات.

وروى ابن أبي حاتم عن الزهري قال: "نزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من السب والشتم والشر وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما نال أصحابه من أذاهم وتكذيبهم واحزنه ضلالتهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩- ٢٠] ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت فقال: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته.

فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه.

فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة، فأنزل الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إذا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الآيات.

فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بعداوتهم وضلالتهم للمسلمين واشتدوا عليه".[1]

وهي قصة مشهورة صحيحة رويت عن ابن عباس من طرق بعضها صحيح.

ورويت عن جماعة من التابعين بأسانيد صحيحة منهم عروة وسعيد بن جبير وأبو العالية وأبو بكر بن عبدالرحمن وعكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس والسدي وغيرهم.

وذكرها أيضاً أهل السير وغيرهم وأصلها في الصحيحين.

والمقصود منها قوله تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فإن الغرانيق هي الملائكة على قول وعلى آخر هي الأصنام ولا تنافي بينهما فإن المقصود بعبادتهم الأصنام الملائكة والصالحين كما تقدم عن البيضاوي.

فلما سمع المشركون هذا الكلام المقتضى لجواز عبادة الملائكة رجاء شفاعتهم عند الله ظنوا أن رسول الله ﷺ قاله فرضوا عنه وسجدوا معه وحكموا بأنه قد وافقهم على دينهم من دعاء الملائكة والأصنام للشفاعة حتى طارت الكلمة كل مطار وبلغ المهاجرين إلى الحبشة أنهم صالحوا رسول الله ﷺ.

فعرفت أن الفارق بينهم وبين رسول الله ﷺ هي مسألة الشفاعة لأنهم يقولون نريد من الملائكة والأصنام المصورة على صورهم بزعمهم أن يشفعوا لنا عند الله والرسول ﷺ قد أتاهم بإبطال ذلك والنهي عنه وتكفير من دان به وتضليلهم وتسفيه عقولهم ولم يرخص لهم في سؤال الشفاعة من الملائكة ولا من الأنبياء ولا الأصنام بل أتاهم بقوله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ [الزمر:٤٤] وقوله ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إذا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٣-٢٤] وهذا كثير جداً لمن تتبعه. ١

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره –كما في تفسير ابن كثير (٣-٢٣٠)...

هذه الآيتين اشتملت على شروط الشفاعة

هل تنفع الشفاعة مطلقاً أم لابدَّ أيضاً من قيود؟ نعم الشفاعة تنفع؛ لكن لا بدَّ من شروط، ولهذا أورد الآيتين بعدها، قال جل وعلا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قال وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦]) فوجه الاستدلال من الآية الأولى أن فيها قيد الإذن؛ فليس أحد أن يشفع إلا بشرط أن يأذن الله له ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يعني لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه لا الملائكة ولا الأنبياء ولا المقربون، وإنما الله جل وعلا هو الذي يملك الشفاعة.

إذا كان كذلك وأنه لا بد من إذنه جل وعلا، فمن الذين يأذن الله جل وعلا لهم؟

لا أحد -إذن- يبتدئ بالشفاعة دون أن يؤذن له، فإذا كان كذلك فإذن رجع الأمر إلى أنَّ الله هو الذي يوفق للشفاعة وهو الذي يأذن بها، ولا أحد يبتدئ بالشفاعة.

كذلك الآية الأخرى قال: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني من الشافعين ﴿وَيَرْضَى﴾ يرضى قول الشافع ويرضى أيضاً عن المشفوع له.

هذه الشروط فائدتها -وهي فائدة هذا الباب- أنه لا أحد يتعلق -إذن- بأنّ هذا الذي طُلبت منه الشفاعة أن له مقاما عند الله يملك به أن يشفع كما يعتقد أهل الشرك في أنّ آلهتهم تشفع ولا بد أن تشفع، فاعتقاد المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ سواء أكانوا من الأميين أو من أهل الكتاب يعتقدون أن من توجهوا له بالشفاعة من الآلهة أنه يشفع جزما، إذا تُوجه إليه وكل له وتقرب إليه بالعبادات وطُلبت فيه الشفاعة عند الله فانه يشفع جزما، وأن الله جل وعلا لا يرد شفاعته.

فهذه الآيات فيها إبطال لدعوى أولئك المشركين في أنه ثَم أحد يملك الشفاعة بدون إذن الله وبدون رضاه عن المشفوع له.

وإذا ثبت انه لا أحد يملكها وأن من يشفع إنما يشفع بإكرام الله له وبإذنه جل وعلا له، فإذن كيف يتعلق المتعلق بهذا المخلوق؟ إنما يتعلق بالذي يملك الشفاعة، ولهذا شفاعة النبي

عليه الصلاة والسلام يوم القيامة حاصلة لكن نطلبها ممن؟ نطلبها من الله؛ فنقول: اللهم شفّع فينا نبيك. لأنه هو الذي يفتح ويُلهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يشفع في فلان وفي فلان؛ في من سألوا الله أن يشفع لهم النبي عليه الصلاة والسلام.

لهذا أعقبها الشيخ رحمه بالله بآية سبأ قال (وقوله ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبإ:٢٢]). ٢

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢] الآيتين.

في هذه الآية يقول: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣] هذه الآية والتي بعدها يقول العلماء عنها: إنها قطعت عروق الشرك من أصله. ٤

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ هذا أمر لرسوله محمَّد ﷺ بأن يقول لهؤلاء الذين يدعون الملائكة وغيرهم من دون الله ويزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله بغير إذنه سبحانه وتعالى، قل لهم يا أيها الرسول، بلّغهم، أخبرهم، بيّن لهم.

﴿ادْعُوا﴾ هذا أمر توبيخ وتعجيز، لأن الأمر يأتي -أحياناً- للتّوبيخ والتعجيز، لا لطلب الشيء أو تشريع الشيء، كما في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، ليس هذا أمراً بالكفر، وإنما هذا أمر توبيخ وتهديد، وإلاّ فالله سبحانه وتعالى لا يأمر بالكفر، وإنما ﴿فلْيَكْفُر﴾ معناه أمر تهديد وتوبيخ وقد يكون الأمر للتعجيز ﴿يَمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ [الرحمن:٣٣] هذا أمر تعجيز.

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ هذا فيه رد عليهم وذلك لأنهم لم يبنوا فعلهم هذا على دليل من الشرع النازل من عند الله، فالله لم يشرع دعاء غيره أبداً، وإنما أمر بدعائه وحده لا شريك له، فمن

دعا غيره فهذا زعم منه، والزعم باطل، وكذلك لم يعتمدوا على دليل عقلي فطري، لأن العقل يدل على أن العبادة لا تكون إلاّ لمستحقها وهو الله سبحانه وتعالى، أما العبد الفقير العاجز، فإنه لا يستحق العبادة، هذا دليل العقل مع دليل الشرع بأن العبادة والدعاء لا يصلحان إلاّ لله سبحانه وتعالى، والزعم معناه: الكذب، دلّ على أنهم كاذبون في عملهم هذا، لأنه إذا لم يكن عليه دليل فهو كذب.

ومعنى: ﴿زَعَمْتُمْ﴾ أي: زعمتم أنهم ينفعون أو يضرون.

﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: غير الله سبحانه وتعالى.

﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]، وذلك أن المدعو لابد أن يتوفر فيه أحد هذه الأحوال:

- الحالة الأولى: إما أن يكون مالكاً للمطلوب منه، فأنت إذا طلبت من أحد شيئاً فلابد أن يكون مالكاً له، وهؤلاء المدعوون لا يملكون شيئاً مما يطلب منهم؟ إذا دعاؤهم باطل، كيف تطلبون من أناس لا يملكون ما تطلبونه منهم فهم: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: ليس لهم ملك ولو قلّ، والذّرّة معروفة هي أصغر شيء، إما أنها؛ الهَبَاءَة التي تطير في الهواء، أو أنها: النملة الصغيرة التي لا وزن لها، ودائماً يضرب الله هذا المثل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨)﴾، أقل شيء من الخير والشر: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فالظلم منتفٍ عن الله سبحانه وتعالى قليله وكثيره، إذا كيف تدعونهم وتطلبونهم وهم لا يملكون ما تدعونهم له وتطلبونه منهم؟، هذا من العبث، كيف تُعرضون عن الذي يملك السماوات والأرض ومن فيها، وهو الله، وتنصرفون إلى دعاء من لا يملك شيئاً .

- ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾

الحالة الثانية: إذا لم يكن مالكاً فلا أقل من أن يكون شريكاً للمالك، وهذا منتفٍ في حق الخلق، لأنهم لا يشاركون الله في ملكه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ

هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]، فلا أحد يشارك الله في ملك السماوات والأرض أبداً، لا الملائكة، ولا الأنبياء، ولا الأولياء، الملك لله.

- الحالة الثالثة: إذا لم يكن مالكاً للشيء ولا شريكاً فيه فربما يكون معيناً للمالك، وإذا كان معيناً للمالك جاز أن يستشفع به إليه. ٤

لأنه يتبادر إلى ذهن بعض الناس أن ثمة من يعين الله على أمره مثل الملائكة أو مثل الأنبياء، فإذا تُوُجِّه إلى أولئك بالدعاء وبالطلب كان التوجه إلى من يعين الله، فيكون إذا طلب من الله فإن الله لا يرده لأنه يعينه.

بنوا ذلك على تشبيه الخالق جل وعلا بما يحصل من المخلوقين، فإن الملك في هذه الدنيا أو الحاكم أو الأمير إذا كان له من يعينه ومن ظاهره وشفع لأحد فإنه لا يرد شفاعة لأنه يحتاجه؛ فلأجل هذه الحاجة لا يرد أي عمل أو الملك شفاعة من له ظهير، من كان له ظهير، فيظن المشركون أن بعض تلك الآلهة معاونة الله جل وعلا، فنفى الله هذا الاعتقاد الجاهلي. ٣

والله نفى هذا وقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ لا أحد يعين الله من خلقه، لم يتخذ من خلقه من يعينه على تدبير خلقه سبحانه وتعالى، انفرد بخلق السماوات والأرض، وخلق المخلوقات، ولم يتخذ من يعينه على ذلك، لأنه قادر سبحانه وتعالى على كل شيء.

- الحالة الرابعة: قد يكون شفيعاً عند المالك مثل ما يشفع الناس عند الملوك، وهم ليسوا ملوكاً، وليسوا شركاء للملوك، وليسوا وزراء للملوك وأعواناً، لكنهم شفعاء، يأتي ذو جاه ومكانة فيدخل على السلطان ويشفع عنده، وهو ليس معيناً له ولا شريكاً له، هذا جائز في حق المخلوقين، لكن في حق الخالق لا يجوز، لأن الشفاعة لا تكون إلاّ بإذنه ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ أي: عند الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، هذا بخلاف المخلوقين، قد يشفع عندهم بدون أن يأذنوا، وهل الله أذن في الشفاعة في المشركين من المستحيل أن تقع، الشفاعة في مشرك أو كافر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، إذا بطلت شفاعتهم من كل الوجوه الأربعة، فهي شفاعة باطلة، وإنما الشفاعة الصحيحة هي الشفاعة التي يتوفر فيها شرطان: الشرط الأول: أن تكون بإذن الله. الشرط الثاني: أن تكون في أهل التّوحيد والإخلاص. ٤

فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لم يبق إلا الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء، لأن هذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام، لأنها لا تنفع عابديها لا استقلالاً ولا مشاركة ولا مساعدة ولا شفاعة، فتكون عبادتها باطلة. ٥

هذه الآية هي التي قال فيها بعض العلماء إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها.

قال ابن القيم في الكلام عليها: "وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها قطعا يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليا فمثله ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت:٤١] فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع والنفع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع إما مالك لما يريد عابده منه فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعاً عنده فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مرتبا منتقلا من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه".

قال: "فهو الذي يأذن للشافع وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها وأما كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه فكفى بهذه الآية نورا وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول

الواقع تحته وتضمنه له ويظنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا وهذا الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية". [١]

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما دعا به القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فتنتقض بذلك عرى الإسلام ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان و تجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا فالله المستعان.

وقال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى وما أعز من يخلص من هذا بل ما أعز من يعادي من أنكره والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وهذا عين الشرك وقد أنكره الله عليهم في كتابه وأبطله وأخبر أن الشفاعة كلها له وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله تعالى أن يشفع له فيه ورضي قوله وعمله وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء فإنه سبحانه وتعالى يأذن في الشفاعة فيهم لمن يشاء حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه فيكون أسعد الناس بشفاعته من يأذن الله تعالى له صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله.

والشفاعة التي أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده والتي نفاها الله تعالى هي الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم ويفوز بها الموحدون". انتهى.[٢] ١

---

[١] انظر: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الاسلام(٥\٢٥٩)

[٢] مدارج السالكين (١\٣٤٣-٣٤٤)

قال ابن القيم: "ومن أنواعه -أي الشرك- طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلا عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها.

وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى تنقص الأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذا ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، وما نجى من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعا لأمره متطلبا لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله وبالله ومع الله". ٢

تأملات في الآية

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئاً فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذي ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله.

وهذه الآية نزلت في دعوة الملائكة ودخول غيرهم فيها من باب الأولى كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يقول: "من عون من الملائكة" [1] وكما يدل عليه قوله تعالى ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣] كما تقدم.

فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً فكيف باتخاذ الأموات ؟!كما يفعله عباد القبور أم كيف باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشياطين من المجاذيب الذين جذبهم إبليس إلى جانبه وطاعته شفعاء؟! وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية في هؤلاء الملاعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور وأنواع الفسوق وترك الصلوات وفعل المنكرات والمشي في الأسواق عراة.

من العجب أنهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشياطين من جملة المسلمين فضلا عن كونهم أولياء فضلا عن كونهم يدعون ويستغاث بهم إلا بشيء من المخاريق والسحر والشعبذة يدعون أن لهم كرامات وأنهم أولياء لما ليظهرونه من المخاريق.

وأعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم وإحسان الظن بمن سحرهم ودعا إلى نفسه واقتصارهم على القوانين والدعاوي والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم وإلا فلو قرؤوا كتاب الله وعلموا بما فيه ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا فيه الهدى والشفاء والنور ولكن نبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون. ١

فالحاصل؛ أن هذه الآية الكريمة قد أبطلت ما يعتقده المشركون في معبوداتهم، وردّت عليهم ردًّا مفحماً: هل يستطيع المشركون أن يقولوا: إن معبوداتنا هذه تملك في السماوات أو في الأرض شيئاً؟ لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنها شريكة لله؟، لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنها تعين الله في تدبير الملك؟، لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا إنها تشفع عند الله بغير إذنه؟، لا يستطيعون.

---

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره –كما في الدر المنثور (٦\٦٩٦)

هل يستطيعون أن يقولوا: إن الشفاعة تنفع المشركين وتنفع الكفار؟ لا يستطيعون. كل هذا لا يستطيعونه أبداً.

هل أحد منهم عارض هذه الآية، وقال: إن معبوداتنا تملك، أو أنها شريكة لله، أو أنها معينة لله، أو أنها تشفع عنده بغير إذنه؟، ما أحد يستطيع أن يعارض كلام الله سبحانه وتعالى، لأن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولكن إذ عميت البصائر، وصار الناس يعملون على حسب أهوائهم، وحسب التقاليد الفاسدة؛ حينئذٍ يقعون في المهالك، يقعون فيما وقعوا فيه.

ولو سألت أي خرافي أو أي مشرك من عباد الأضرحة قلت له: أجب عن هذه الآيات؟. ما استطاع الجواب. وإذا لم يستطع الجواب، تبيّن أنه مكابر، وأن عمله باطل.

كان الواجب على من يدّعي الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ الواجب أن يرجع إلى القرآن، وأن يتدبرّ القرآن، وأن يعمل به، وأن يراجع سنة الرسول ﷺ، ويعمل بها، ولا يذهب مع التقاليد الفاسدة، أو يتبع ما كان عليه الناس، أو الدعاوى الباطلة أن هذه القبور تنفع، أو أن هؤلاء الأموات ينفعون من دعاهم، أو من تقرّب إليهم، هذا كله إذا عُرِضَ على الكتاب والسنّة تبيّن بطلانه.

نعم، قد يقع لهؤلاء الذين يدعون الأولياء أو القبور أن تحصل لهم حاجاتهم التي طلبوها، لكن هذا لا يدل على صحة ما هم عليه، لأنهم قد يُعطون ما طلبوا من باب الفتنة، ومن باب الاستدراج، أو أنه يصادف ذلك قضاءً وقدراً من الله سبحانه وتعالى في إعطائهم هذا الشيء، فيظنون أنه بسبب القبور، وهو في الواقع بقضاء الله وقدره، فحصول المطلوب لا يدل على صحة الطلب، إنما الاحتجاج يكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا بالعادات، والتقاليد، والحكايات، والمنامات، والخرافات، أو أن فلاناً قد حصل له كذا، فلان ذهب إلى القبر الفلاني، فلانة ذهبت إلى القبر الفلاني فحملت، هذا ليس بدليل أبداً، لأن إعطاء

الإنسان شيئاً مما يحتاج إليه، لا يدل على صحة ما ذهب إليه، أو ما فعل من الشرك والعادات السيئة.

يقول شيخ الإسلام: "قد يرون عند القبور أو يسمعون عند القبور من يكلمهم، أو يخرج عليهم من القبر ويقول: أنا فلان الذي تطلب، وأنا أقضي حاجتك. يتمثل لهم الشيطان، ليس هو الميت، وإنما هو الشيطان، يتمثل لهم بصورة الميت، ويخاطبهم، وقد يجلب لهم شيئاً مما يطلبون من بعيد، وهو شيطان يريد أن يضلهم، ويريد أن يهلكهم، وأن يغرر بهم".

فحصول المقصود لا يدل على صحة العمل، وكذلك كونهم يشاهدون الشخص الذي بصورة الميت، أو يسمعون كلاماً يكلمهم، كل هذا ليس بحجة، لأن هذه أعمال شيطانية، يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت، أو يكلمهم بصوت الميت، أو هو شيطان يريد أن يضلهم عن سبيل الله، أو يعطيهم بعض الحوائج، لأن الشيطان يستطيع أن يسير إلى الأمكنة البعيدة، وحمل الأشياء والمجيء بها، وتحضيرها، والجن يتعاونون على هذا الشيء ويحضرون مطلوب هؤلاء، ويعطونهم إياه.

الحاصل؛ أنها كلها أعمال شيطانية، لأنها مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهذه من البلايا، يعني: كونهم يحتجّون بأن فلاناً شفي لما ذهب إلى القبر، فلانة حملت لما ذهبت إلى القبر، فلان أعطي كذا وكذا، وهذا ليس بحجة أبداً. هذا فتنة وابتلاء وامتحان، وهو من أعمال الشياطين.

قد يقولون: إنه رأى الميّت في الرؤيا، وأنه قال له كذا وكذا، والرؤيا هذه من الشيطان، الشيطان قد يأتي النائم ويكلمه، أو يتمثل له بصورة من يعرف من الأموات، يأتيه في الرؤيا وهو شيطان، لأنه ليس كل رؤيا تكون صحيحة. ٤

قال أبو العباس: "نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفع.

وقال له أبو هريرة: "من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص". انتهى كلامه.

"أبو عباس"، هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله يكنى بذلك. ٥

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات. ٢

قوله: "لغيره ملك"، أي: لغير الله في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢].

قوله: "أو قسط منه" في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

قوله: "أو يكون عوناً لله" في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢] بدون استثناء.

قوله: "ولم يبق إلا الشفاعة"، فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية.

"فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن"

يعني أن الشفاعة التي يطلبها المشركون من الشفعاء والأنبياء من دون الله منتفية دنيا وأخرى كما قال تعالى عن مؤمن يس ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إذا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٢٣-٢٤] وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إليه لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ [غافر:٤٣] وقال تعالى ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٨] وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شركاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٩٤] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شركاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٦٤] فهذه حال كل من دعي من دون الله لشفاعة أو غيرها في الدنيا والآخرة. ١

(منتفية يوم القيامة) يعني عن جميع الخلق إلا لمن أثبت الله جل وعلا له الاستحقاق أو أن يكون نائلا تلك الشفاعة؛ يعني الأصل لا شفاعة إلا لمن رضي الله قوله أو أذن له جل وعلا. ٣

قول الشيخ رحمه الله (فهذه الشفاعة التي يضنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن) يعني منتفية بدون شروط لأن المشركين يعتقدون أنها تحصل بدون إذن من الله ولا رضاه؛ لأن الشافع عندهم يملك الشفاعة، ولكن هي تحصل بالشرط كما أثبت ذلك الكتاب والسنة.٣

(وأخبر النبي أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً ثم يقال له ارفع رأسك وقل يُسمع وسل تُعطى واشفع تشفع، وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه))).

قوله: "وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه"، أي: وكما أخبر، فالواو عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية، فإذا كان الرسول ﷺ وهو أعظم الناس جاهاً عند الله لا يشفع إلا بعد أن يحمد الله ويثني عليه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده، فكيف بهذه الأصنام هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: ((ارفع رأسك))، أي: من السجود.

قوله: ((وقل يسمع))، السامع هو الله، و"يسمع": جواب الأمر مجزوم.

قوله: ((وسل تعط))، أي: سل ما بدا لك تعط إياه، وتعط: مجزوم بحذف حرف العلة جواباً لسل.

قوله: ((واشفع تشفع))، وحينئذ يشفع النبي ﷺ في الخلائق أن يقضى بينهم. ٥

فالدليل الأول من السنة في أنّ النبي ﷺ وهو سيد ولد آدم لا يشفع حتى يؤذن له، ((يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع)) هذا في دليل الإذن، من الذي يؤذن له؟ يؤذن للنبي عليه الصلاة و السلام ويؤذن لغيره، لا يبتدئون وإنما يستأذنون في الشفاعة فيؤذن لهم لم؟ لأنهم لا يملكونها وإنما الذي يملكها عند الله إنما هو الله جل وعلا سبحانه وتعالى.

من الذي يؤذن في الشفاعة فيه؟ من الذين يرضى عنه في الشفاعة؟ جاء بالحديث الآخر حيث قال أبو هريرة للنبي ﷺ "من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: ((من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) فهذا الذي يرضى عنه فيشفع فيه بعد إذن الله جل وعلا هو صاحب الإخلاص؛ هم أهل التوحيد. ٣

قال ابن القيم ما معناه "تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليا أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده إحد إلا بإذنه ولا يأذن في الشفاعة الا من رضي قوله وعمله.

كما قال تعالى في الفصل الأول ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥] وفي الفصل الثاني ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨] وبقي فصل ثالث وهو أنه لا

يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها." انتهى ملخصاً.١

فإذن تلك الشفاعة منتفية عن أهل الشرك ولهذا قال "فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله". ٣

قوله: "فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص"، لأن من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]. ٥

فدلّ هذا على أنه لا حظ لأهل الشرك في الشفاعة. ٤

فإذا كان كذلك يكون الذي توجه إلى الموتى؛ إلى الرسل أو إلى الأنبياء أو إلى الصالحين أو الطالحين يطلب منهم الشفاعة فإنه مشرك؛ لأنه توجه بالدعاء لغير الله، وأولئك لا يملكون الشفاعة وإنما يشفعون بعد الإذن والرضى، والرضى يكون عن أهل التوحيد وأهل التوحيد هم الذين لا يسألون الشفاعة أحداً من الموتى.

فإذن كل من سأل ميْتاً الشفاعة فقد حرم نفسه الشفاعة لأنه أشرك بالله جل وعلا، والشفاعة المثبتة إنما هي لأهل الإخلاص ليس لأهل الشرك فيها نصيب. ٣

إذاً كل هؤلاء المشركون القدامى والمحدثون، هؤلاء الذين يأتون إلى القبور، ويجثون عندها على ركبهم، ويتمرّغون بجباههم على ترابها، ويذبحون لها، وينذرون لها، ويتمسحون بها، ويقولون: هؤلاء أولياء يشفعون لنا عند الله. هؤلاء كلهم محرومون من هذه الشفاعة، وفعلهم هذا تعب بلا فائدة، وضرر بلا منفعة، لأن هذا هو عين فعل المشركين السابقين. ٤

حقيقة الشفاعة

والسبب في جعل الله سبحانه وتعالى هذه الشفاعة أنها إكرام للشافع، يأذن الله لمن شاء من عباده أن يشفع إكراماً له، مثل ما يحصل لمحمد ﷺ في المقام المحمود، إكراماً له ﷺ، ورحمة

للمشفوع فيه إذا كان من أهل الشفاعة والرحمة، هذا هو الحكمة في جعل الله هذه الشفاعة، فالأمر لله سبحانه وتعالى. ٤

هذا في حقيقة الشفاعة، فإننا ذكرنا لكم أن الشفاعة نُفي أن يملكها أحد إلا الله جل وعلا ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ [الزمر:٤٤]، لام هذه لام المِلك يعني الذي يملك الشفاعة هو الله جل وعلا، فقال ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، فإنّ الشفاعة إنما هي لله تبارك وتعالى، وجاء في الأدلة أن الشفاعة منفية عن المشركين وأن الشفاعة النافعة إنما هي لأهل الإخلاص بشرطين الإذن والرضى.

إذا تقرر ذلك فما حقيقة الشفاعة؟ يعني ما حقيقة حصولها وكيف تحصل؟

الجواب في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله "حقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضّل على أهل الإخلاص" يعني الذين شُفع لهم إنما ذلك بتفضّل الله جل وعلا عليهم وهم أهل الإخلاص، حيث جاء في حديث أبو هريرة: قال عليه الصلاة والسلام ((أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)) أو قال ((خالصاً من قلبه ونفسه))، فأهل الإخلاص هم الذين يُكرمهم الله بالشفاعة، فالمتفضل بالشفاعة هو الله جل وعلا.

فإذا ثبت ذلك انقطع القلب من التعلق بغير الله لأجل الشفاعة، فإن الذين توجهوا إلى المعبودات المختلفة –إلى الأولياء إلى الصالحين إلى الملائكة إلى غير ذلك– توجهوا إليهم رجاء الشفاعة، كما قال جل وعلا عنهم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فإذا بطل أن تكون لهم الشفاعة وأن المتفضل بالشفاعة هو الله جل وعلا فإن الله جل جلاله إنما يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة من دعا، بواسطة دعاء الذي أذن له أن يشفع.

وها هنا سؤال: لِمَ لم يتفضل الله عليهم أن غفر لهم بدون واسطة الشفاعة؟

والجواب عند ذلك ما ذكره شيخ الإسلام هنا بقوله "ليكرمه" فهو إظهار فضل الشافع، إظهار إكرام الله جل وعلا للشافع في ذلك المقام، إذْ –كما هو معلوم– أن الشافع الذي قُبلت شفاعته ليس في المقام مثل المشفوع له فالله جل وعلا يُظهر إكرامه لمن أذن له أن

يشفع، ويُظهر رحمته بالشافع؛ لأن الشافع له قرابة يريد أن يشفع لهم، له أحباب يريد أن يشفع لهم، لذلك الشفاعة يوم القيامة لأهل الكبائر ليست خاصة بالنبي ﷺ؛ بل يشفع للأنبياء وتشفع الملائكة ويشفع أيضاً الصالحون، فهذه شفاعات مختلفة في أهل الكبائر بإكرام الله جل وعلا للشافع ورحمة بالشافع، وأيضاً رحمة بالمشفوع له وإظهار فضل الله جل وعلا على الشافع والمشفوع له.

هذه هي حقيقة الشفاعة أنّ الله جل وعلا يتفضل فيقبل الشفاعة بإذنه، يتفضل على الشافع ويكرمه بأن يشفع، يتفضل ويرحم المشفوع له فيقبل فيه الشفاعة.

فإذن هي كلها دالة -لمن كان له قلب- على عظم الله جل وعلا وتفرده بالملك وتفرده بتدبير الأمر وأنه الذي يجير ولا يجار عليه سبحانه وتعالى، هو الذي له الشفاعة كلها، هو الذي له ملك الأمر كله، ليس لأحد منه شيء، وإنما يُظهر فضله ويُظهر إحسانه ويُظهر رحمته ويظهر كرمه لتتعلق القلوب به.

فبطل إذن أن يكون ثمة تعلق للقلب لغير الله جل وعلا لأجل الشفاعة، فالذين تعلقوا بالأولياء أو تعلقوا بالصالحين أو بالأنبياء أو بالملائكة لأجل الشفاعة هذه هي حقيقة الشفاعة من أنها فضل من الله جل وعلا وإكرام.

فإذا كانت كذلك وجب أن تتعلق القلوب به سبحانه وتعالى في رجاء الشفاعة؛ إذ هو المتفضل بها على الحقيقة، والعباد مكرمون بها لا يبتدئون بالقول ولا يسبقون بالقول، وإنما يجلون ويخافون ويثنون على الله ويحمدون حتى يؤذن لهم بالشفاعة. ٣

فهذا هو حقيقة الشفاعة لا كما يظن المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء فيدخله الجنة وينجيه من النار ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم وذلك أنهم قالوا إن الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا تزال تأتيه الألطاف من الله وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له.

قالوا: "فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به وشفاعته له".

قال ابن القيم: "وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها وقالوا إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنام المجسدة لها وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد وتعليق الستور عليها وإيقاد السرج عليها وبناء المساجد عليها وهو الذي قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية وسد الذرائع المفضية إليه فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده وكان ﷺ في شق وهؤلاء في شق وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها وتشفع لهم عند الله.

قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله وتوجه بهمته إليه وعكف بقلبه عليه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان فهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به.

فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه ولعنهم واباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم واوجب لهم النار والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم." انتهى.[1]

الشفاعة المنفية والشفاعة المثبتة

" فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك"

---

[1] إغاثة اللهفان (١/٢١٨-٢١٩)

يعني أن الشفاعة التي نفاها الله في القرآن هي الشفاعة التي فيها شرك بالله من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله فإن الله سبحانه نفى هذه الشفاعة وأخبر أنها لا تكون أبدا بل أخبر أن ذلك شرك ونزه نفسه عنه ونفى أن يكون للمؤمنين ولي أو شفيع من دونه مع أن الشفاعة يوم القيامة لهم بإذنه لا للمشركين كما قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:١٠٩] فنفى سبحانه أن تنفع الشفاعة أحدا الا من أذن له الرحمن ورضي قوله وعمله وهو المؤمن المخلص.

وأما المشرك الداعي لغير الله ليشفع له فلا تنفعه الشفاعة ولا يؤذن لأحد في الشفاعة فيه كما قال﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨] وقال تعالى ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شركَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص٦٤]. ١

التي نفاها القرآن في مثل قوله جل وعلا ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، هذه شفاعة منفية، هي الشفاعة التي فيها شرك، كذلك الشفاعة للمشركين منفية لأنهم لم يُرض عنهم.

فالشفاعة التي فيها شرك من جهة الطلب أو من جهة من سئل له بأن ذلك مشركاً فإنها منفية عن أهلها لا تنفعهم.

فإذن يثبت في ذلك أن الذي هو حقيق بالشفاعة هو الذي أنعم عليه بالإخلاص ووفقه لتعظيمه وتعليق القلب به وحده دون ما سواه.

فإذن كل مشرك الشفاعة عنه منفية؛ كل مشرك الشرك الأكبر فالشفاعة عنه منفية؛ لأن الشفاعة فضل من الله لأهل الإخلاص.

أما الشفاعة المثبتة فهي التي أثبتت؛ يعني جاء إثباتها بشرط الإذن والرضى.

قال شيخ الإسلام بعد ذلك "ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع" وهذه هي الشفاعة المثبتة، أثبتها بإذنه في مواضع يعني بشرط الإذن.

والإذن: إذن كوني وإذن شرعي.

فالمأذون له لا يمكن أن تحصل له الشفاعة إلاّ أن يؤذن الله له كونا بأن يشفع، فإذا منعه الله كونا أن يشفع ما حصلت منه الشفاعة ولا تحرك بها لسانه.

كذلك الإذن الشرعي في الشفاعة بأن تكون الشفاعة ليس فيها شرك وأن يكون المشفوع له ليس من أهل الشرك، ويخص من ذلك أبو طالب حيث يشفع له النبي عليه الصلاة والسلام في تخفيف العذاب عنه، فهي شفاعة في الانتفاع بالإخراج من النار إنما هي في تخفيف العذاب، وهي خاصة هذه بالنبي عليه الصلاة والسلام بما أوحي الله جل وعلا إليه وأذن له بذلك.

قال رحمه الله في آخر كلامه (وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص وهذه هي الشفاعة المثبتة).

فتبين في هذا الباب أن الشفاعة التي تعلقت بها قلوب الخرافيين والمتعلقون بغير الله أن ذلك باطل وأن قولهم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، هذا قول باطل إذْ الشفاعة التي تنفع إنما هي لأهل الإخلاص، وما دام أنهم طلبوا الشفاعة من غير الله فقد سألوا غير الله جل وعلا الشفاعة وهذا مؤذِنٌ بحرمانهم من الشفاعة فإنما هي لأهل الإخلاص.

وخلاصة الباب أن تعلق أولئك بالشفاعة إنما هو عليهم ليس لهم؛ لأنهم لما تعلقوا بالشفاعة حرموها لأنهم تعلقوا بشيء لم يأذن الله جل وعلا به شرعاً بأن استخدموا الشفاعات الشركية وتوجهوا إلى غير الله وتعلقت قلوبهم بغير الله. ٣

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً، بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات. وهي خمس، وسبق تفسيرها في محالها. ٥

الثانية:صفة الشفاعة المنفية. وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك، فإنها منفية.٥

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة. وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له. ٥

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود. وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، وقول الشيخ: "وهي المقام المحمود"، أي: منه. ٥

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً، بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟. هم أهم التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه. ٥

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله. لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: ((خالصاً من قلبه)). ٥

الثامنة: بيان حقيقتها. وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. ٥

الفرق بين الشفاعة والتوسل

[س/ ما الفرق بين التوسل والشفاعة؟ نرجو التوضيح وجزاكم الله خيرا.

ج/ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

التوسل هو إتخاذ الوسيلة، والوسيلة هي الحاجة نفسُها أو من يوصل إلى الحاجة، قد يكون ذلك التوسل باستشفاع؛ يعني بطلب الشفاعة؛ يعني يصل إلى حاجته -بحسب ظنه- بالاستشفاع، وقد يصل إلى حاجته -بحسب ظنه- بغير الاستشفاع، فيتوسل مثلاً بالذوات يسأل الله بالذات، يسأل الله بالجاه، يسأل الله بحرمة فلان، مثلاً ما يقول:

أسألك اللهم بنبيك محمد، بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، أو يقول: أسألك اللهم بأبي بكر أو بعمر أو بالإمام أحمد أو بابن تيمية -أو إلى آخره- بالولي الفلاني، بأهل بدر، بأهل بيعة الرضوان، يسأله بهم.

هذا هو الذي يسمونه توسلا، وهذا التوسل معناه أنه جعل أولئك وسيلة، وأحيانا يقول لفظ (الحرمة) أسألك بحرمتهم أسألك بجاههم ونحو ذلك.

أما الاستشفاع فهو أن يسألهم الشفاعة، يطلب منهم أن يشفعوا له.

وتحصَّل من ذلك أن التوسل يختلف عن الاستشفاع؛ فإن المستشفِع طالب للشفاعة، والشفاعة إذا طلبها من العبد فيكون قد سأل غير الله، وأما المتوسل بحسب العُرف -عُرف الاستعمال- المتوسل يسأل الله لكن يجعل ذلك بوسيلة أحد.

فالاستشفاع سؤال لغير الله، وأما الوسيلة فهي سؤال الله بفلان بحرمته بجاهه.

والتوسل بالذوات وبالجاه وبالحرمة لا يجوز لأنه اعتداء في الدعاء ولأنه بدعة محدثة، وهو وسيلة إلى الإشراك.

وأما الاستشفاع بالمخلوق الذي لا يملك الدعاء وهو الميت أو الغائب أو نحو ذلك فهذا طلب ودعاء لغير الله وهو شرك أكبر.

فالتوسل بحسب العرف هذا من البدع المحدثة ومن وسائل الشرك.

وأما طلب الشفاعة من غير الله فهو دعاء غير الله وهو شرك أكبر.

الجاهليون والخرافيون والقبوريون يسمون عباداتهم جميعاً من طلب الشفاعة ومن الذبح والنذر ومن الإستغاثة ودعاء الموتى يسمونها توسلا، وهذا غلط على اللغة وعلى الشرع.

والكلام في أصله ما يصح المعنى به لغةً، وبين التوسل والشفاعة في أصل ما يصح لغة، أما إذا أخطأ الناس وسمو العبادات المختلفة توسلا فهذا غلط من عندهم].

[س/ وهذا يقول بعض العلماء أجاز التوسل ودليلهم حديث إلى الأعمى، فكيف يرد عليهم وجهازكم الله خيرا ؟

ج/ حديث الأعمى رواه الترمذي وغيره وهو حديث حسن، وهناك رواية أخرى طويلة في معجم الطبراني الصغير لهذا الحديث، وفيها زيادة: أن أحد الصحابة وهو عثمان بين حنيف رضي الله عنه أنه أرشد إلى استعمال ذلك الدعاء بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

القدر الأول وهو أن الأعمى توسل بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته، هذا صحيح وجار على الأصول، توسل بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته توسل بدعائه، وهو عليه الصلاة والسلام يملك ذلك ويستطيعه ويقدر عليه.

أما توسل بالنبي عليه الصلاة والسلام أي بدعائه أو بذاته بعد وفاته فإنه لا يجوز أنه من طلب الشيء مما لا يملكه.

والرواية التي بالطبراني الصغير ضعيفة وفيها مجاهيل، ولذلك ليست بحجة في ما وردت في استعمال الصحابة ذلك بعد وفاته.

والذي يدل على أيضاً عن ذلك خاص بالأعمى وعلى أصل الاستشفاع أنه رحمة من الله جل وعلا للمستشفع وفضل منه عليه وإزالة عما به أن ذلك الأعمى رأى النور و أبصر بعد دعاء النبي عليه الصلاة والسلام له، وتوجه ذلك الأعمى إلى الله جل وعلا أن يجيب فيه دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام.

الصحابة الآخرون الذين كانوا مكفوفين لم يدعوا بهذا الدعاء، فكان في المدينة أناس عده كفت أبصارهم، منهم ابن أم مكتوم وجماعة فما دعوا بهذا الدعاء، وإنما كان ذلك خاصة بذلك الأعمى.

فالعلماء لهم بذلك توجيهان:

التوجيه الأول: أن ذلك الدعاء كان خاصا بذلك الأعمى بدليل عدم استعمال بقية الصحابة ذلك الدعاء، وعدم إرشاد النبي عليه الصلاة والسلام لهم أن يزال ما بهم من عمى البصر بذلك الدعاء.

والتوجيه الثاني: أن ذلك خاص بحياته عليه الصلاة والسلام، ولا يكون بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

وهذا الثاني والأول جميعاً ظاهرة صحيحة والصحابة فهموا ذلك.

ولهذا ثبت في البخاري وغيره أنّ عمر ؓ لما أجدبوا قال وهو يخطب الاستسقاء قال: "اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا بنبيك، وإنّا نتوسل إليك اليوم بعم نبيك، يا عباس قم فادع الله لنا".

قال العلماء انتقل عمر من الفاضل وهو النبي عليه الصلاة والسلام إلى المفضول وهو العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام لعلة شرعية، وهو أن الدعاء من الحي ممكن وأما من غير الحي -حياة الدنيا المعروفة- فإنه غير ممكن، وإلا يكون عمر ؓ انتقل من الفاضل إلى المفضول بغير علة شرعية، وهذا ممتنع فقها للصحابة رضوان الله عليهم. ٣

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾)

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] الْآيَةُ)

وَفِي (الصَّحِيحِ) عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فقَالَ لَهُ: ((يا عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ))، فقَالَا له: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ))، فأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ للنبي والَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] الْآيَةُ. وأَنزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياءِ والصالحين أنهم ينفعون ويضرون فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكروب وهداية القلوب وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة. ١

غرض المصنّف رحمه الله من عقد هذا الباب: الردّ على الذين غلو في النبي ﷺ، وعلى المشركين الذين يتعلّقون بالأولياء والصالحين، يدعونهم من دون الله، ويستغيثون بهم، لأنه إذا كان رسول الله ﷺ لم يملك لعمه أبي طالب شيئاً ، وأنه نُهي عن الاستغفار له، ففي حق غير النبي ﷺ من باب أولى، فدلّ ذلك على أنه ﷺ لا يُدعى من دون الله، ولا يُطلب منه شيء من الأمور التي لا يقدر عليها إلاّ الله، لأنه لم يملك هذا لعمه أبي طالب مع حرصه على نفعه، وعاتبه الله بقوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، وبقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣]، فإذا كان هذا في حق النبي ﷺ، وهو أفضل الخلق، دلّ على أنه لا يُدعى من دون الله، ولا يُطلب منه شيء من الأمور التي لا يقدر عليها إلاّ الله، فغيره من باب أولى من الأولياء، والصالحين، وأصحاب الأضرحة، مهما بلغوا من الصلاح،

ومهما بلغوا من المكانة في الدين، فإنهم لا يُطلب منهم إلاّ ما يقدرون عليه من أمور الدنيا، إذا كانوا على قيد الحياة، أما أمور الهداية، وأمور قضاء الحاجات التي لا يقدر عليها إلاّ الله من شفاء المرضى، وإنزال المطر، وجلب الأرزاق، وإعطاء الأولاد، هذا كله لا يُطلب إلاّ من الله سبحانه وتعالى، ولا يطلب من غير الله، لا من نبي، ولا من ولي، ولا من أي مخلوق، ومن طلبه من غير الله فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملّة.

فهذا غرض المصنّف رحمه الله من عقد هذا الباب.

الهداية من أعز المطالب وأعظم ما تعلق به الذين تعلقوا بغير الله أن يكون لهم النفع في الاستشفاع وفي التوجه في الدنيا والأخرى، والنبي عليه الصلاة والسلام -وهو سيد ولد آدم وهو أفضل الخلق عند ربه -جل وعلا- نفي عنه أن يملك الهداية وهي نوع من أنواع المنافع، فدلّ على أنه عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء كما جاء في ما سبق في باب قول الله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١] في سبب نزول قول الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء ولا يستطيع أن ينفع قرابته، ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً)) إذا كان هذا في المصطفى ﷺ وأنه لا يغني من الله جل وعلا من أحبابه شيئاً وعن أقاربه شيئاً ، وأنه لا يملك شيئاً من الأمر وأنه ليس بيده هداية التوفيق، فإنه أن ينتفي ذلك وما دونه عن غير النبي ﷺ من باب أوْلى، فبطل إذن كل تعلق للمشركين من هذه الأمة بغير الله جل وعلا؛ لأن كل من تعلقوا به هو دون النبي عليه الصلاة والسلام بالإجماع.

فإذا كانت هذه حال النبي عليه الصلاة والسلام وما نُفي عنه فإن نفي ذلك عن غيره ﷺ من باب أولى. ٣

ففي هذا أعظم البيان وأوضح البرهان على أنه ﷺ لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا عطاءً ولا منعاً وأن الأمر كله بيد الله فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء ويكشف الضر عمن يشاء ويصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم. ١

فبَطَل -إذن- تعلق القلوب في المطالب المهمة في الهداية وفي المغفرة وفي الرضوان وفي البعد -بعد الشرور- وفي جلب الخيرات إلا بالله جل وعلا فإنه هو الذي تتعلق القلوب به جل وعلا خضوعاً وإنابةً ورغباً ورهباً وإقبالاً عليه وإعراضاً عما سواه سبحانه وتعالى. ٣

الشرح

قال: "في الصحيح" يعني: في الصحيحين صحيح البخاريّ وصحيح مسلم.

"عن ابن المسيّب" هو: سعيد بن المسيّب بن حَزَن بن أبي وهب المخزومي، أحد أكابر التابعين، وكان له منزلة في العلم عظيمة، فهو من أكبر علماء التابعين، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتوى في الدّنيا في زمانهم.

وأبوه المسيّب بن حَزَن، صحابي، وجده الحَزَن -أيضاً- صحابي، فهو من كبار التابعين، وأبوه وجده صحابيّان.

"عن أبيه" المسيّب.

"قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة" معناه: قارب الوفاة، وليس المراد أنه نزل به الموت، لأنه إذا نزل الموت بالمحتضر، وبلغت الروح الغرغرة لا تُقبل منه توبة، كما جاء في الحديث: ((إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)) فالمراد بهذا -والله أعلم- أنه لما حضرته الوفاة وظهرت عليه علامات الموت قبل أن تبلغ روحه الغرغرة، وقبل أن يأتي الوقت الذي لا تُقبل منه التوبة. ويَحتمل أنه حضرته الوفاة يعني: بلغ نزع الروح، فيكون هذا خاصًّا بأبي طالب، وأما غيره فإذا وصل إلى هذا الحد فإنه لا تُقبل منه توبة. والله أعلم.

وأبو طالب هو: أبو طالب بن عبد المطّلب عم الرسول ﷺ، كَفَل الرسول ﷺ بعد موت جدّه عبد المطّلب، وبقي أبو طالب حول الرسول ﷺ قبل البعثة وبعد البعثة، يدافع عنه،

ويحميه، إلى سنة ثمان من البعثة، وهو لم يفارقه، يدافع عنه، ويحميه من أذى قومه، ويصبر معه على مضايقات المشركين، وبذل معه شيئاً كثيراً، وحرص النبي ﷺ على هدايته، لعلّ الله أن ينقذه من النار، ومن ذلك أنه لما حضرته الوفاة جاء إليه، وهذا من حرصه ﷺ على الدعوة إلى الله خصوصاً مع أقاربه، ففيه حرصه ﷺ على الدعوة إلى الله، وصبره على ذلك.

"وعنده عبد الله بن أبي أمية المخزومي، وأبو جهل" المخزومي، أما عبد الله بن أبي أمية فقد منّ الله عليه بالإسلام فأسلم، وأما أبو جهل عمرو بن هشام -قبّحه الله- فهذا ألدّ أعداء الإسلام، وأعظم الذين آذوا رسول الله ﷺ، وسمّاه رسول الله ﷺ: ((فرعون هذه الأمّة))، وقُتل يوم بدر، وهو الذي قاد المشركين إلى بدر، وهو الذي حرّضهم على رسول الله ﷺ، فقُتل مع صناديد قريش في غزوة بدر كافراً -والعياذ بالله.-

"فقال له" أي: قال النبي ﷺ لأبي طالب.

((يا عم)) هذا فمه استعطاف.

((قل: لا إله إلاّ الله)) يعني: انطق بهذه الكلمة، معتقداً لها بقلبك. ٤

في هذا القدر من الفائدة أن هذه الكلمة كلمة (لا إله إلا الله) ليست مجردة عن المعنى، تنفع من قالها ولو لم يُقِرَّ بمعناها، والعرب كانوا لصلابتهم وعزتهم ورجولتهم ومعرفتهم بما يقولون كانوا إذا تكلموا بكلام يعون ما يتكلمون به، يعون كل حرف وكل كلمة خوطبوا به أو نطقوا به هم، فلما قيل لهم قولوا لا إله إلا الله مع أنها كلمة يسيرة لكن أبوا؛ لأنهم يعلمون أن هذه الكلمة معناها إبطال إلهة من سوى الله جل وعلا، ولهذا قال جل وعلا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إله إلا الله يَسْتَكْبِرُونَ(٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ(٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٥-٣٧]الآيات، وكذلك قوله في أول سورة ص فجاء قول الله جل وعلا مخبرا عن قولهم ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥] استنكروا لا إله إلا الله، وهذا هو الذي حصل مع أبي طالب حيث قال له النبي ﷺ ((قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله)) فلو كانت مجردة من المعنى عندهم أو يمكن أن يقولها دون اعتقاد وما فيها ورضى بما

فيها ويقين وانتفاء الريب لقالها؛ ولكن ليس هذا هو المقصود من قول الله بل المقصود وهو قولها مع تمام اليقين بها وانتفاء الريب والعلم والمحبة إلى آخر الشروط. ٣

((كلمة أحاج لك بها عند الله)) "كلمة" منصوب على أنه بدل من: لا إله إلاّ الله، لأن لا إله إلا الله في محل نصب، مقول القول، وكلمة بدل منها، وبدل المنصوب منصوب، لأنه أحد التوابع الأربع.

((أحاج لك بها عند الله)) يعني: أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، من أجل نجاتك من النار، و"أحاج" مجزوم على أنه جواب الأمر، وحرّك بالفتح من أجل التقاء الساكنين، وإلاّ أصله: أحاجج، فأدغمت الجيم في الجيم فصارت أحاج، التقى ساكنان، فحرّك بالفتح للتخلّص من التقاء الساكنين.

بيّن له ﷺ فائدة ذلك، ترغيباً له.

ففيه أن الداعية إلى الله يبيّن للناس الترغيب، يرغّبهم في الخير، ويبيّن لهم العواقب الحسنة إن استجابوا، ويحذرهم من العواقب الوخيمة إن لم يستجيبوا، فالداعية يبشر وينذر.

ولكن جلساء السوء -والعياذ بالله- تسببوا في شقاوة هذا الرجل: "فقالا له" قال: أبو جهل وعبد الله بن أمية لأبي طالب معارضين لرسول الله ﷺ: "أترغب عن ملة عبد المطّلب؟".
أي: أتترك ملّة أبيك؟، وهذا من إثارة النخوة الجاهلية، والحميّة الجاهلية، وهي: التعصّب الممقوت، وأتيا بالحجة الملعونة، وهي: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، وهذه يحتج بها المشركون، إذا جاءتهم الرسل قالوا: نحن وجدنا آباءنا على هذا، لا نقدر أن نترك دين آبائنا ونتبعكم. وفرعون لما جاءه موسى وهارون عليهما السلام قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه:٥١]، يحتج عليهم بما كانت عليه القرون الأولى من الكفر والشرك، فهي حجة مطّردة عند المشركين، الاحتجاج بما عليه النّاس، والآباء، والأجداد، وهذه الحجة حالت بين كثير من النّاس وبين الإيمان -والعياذ بالله- إلاّ من هداه الله.

"فأعاد عليه رسول الله ﷺ "هذا فيه: أن الداعية لا ييأس، أي: طلب منه أن يقول: لا إله إلاّ الله.
"فأعادا عليه" أعاد عليه الرّجلان، قولتهم القبيحة: "أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟". ٤
فيه: معرفتهما لمعنى "لا إله إلا الله" لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرىء من ملة عبد المطلب. فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته. وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم.
وقد قال عبد المطلب لأبرهة: "أنا رب الإبل، والبيت له رب يمنعه منك".[1] ٢
فعند ذلك أخذته الحميّة الجاهلية، فقال: "هو على ملة عبد المطّلب".
"هو" هذا ضمير الغائب، يَحتمل أن الرّاوي صرفه، ولم يقل: أنا، من باب كراهة هذا اللّفظ.
وجاء في بعض الروايات: "أنا على ملّة عبد المطلب".
"وأبى أن يقول: لا إله إلاّ الله" ومات – والعياذ بالله– على الشرك. ٤
ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ –الذي هو أفضل خلقه– من هداية القلوب وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء –لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده. ٢

فعند ذلك النبي ﷺ من شفقته على عمه، ولما رأى أنه مات على الشرك، وكان منه في حياته من النُّصرة والتأييد قال: ((لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك)) هذا كله من كمال شفقته ﷺ، ومن مجازاته على المعروف، ووفائه ﷺ.
"فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] نهاه الله عن ذلك، ونهى المؤمنين، لأن المسلمين لما رأوا رسول الله ﷺ يستغفر لعمّه قالوا: إذا نستغفر لموتانا، فأنزل الله هذه الآية. ٤

[1] أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٩٠)

((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)) وهذا هو موطن الشاهد من هذا الحديث، ومناسبة هذا الحديث لهذا الباب أن النبي ﷺ قال ((لأستغفرن لك))واللام هنا هي التي تقع في جواب القسم، فثَم قسم مقدر تقديره: والله لأستغفرن لك. وحصل من النبي ﷺ أن استغفر لعمه؛ ولكن هل نفع عمَّه استغفار النبي ﷺ له؟ لم ينفعه ذلك، وطلب الشفاعة والاستشفاع هو من جنس طلب المغفرة، فالإستغفار طلب المغفرة، والشفاعة قد يكون منها طلب المغفرة فرُدت، رُدّ ذلك لأن المطلوب له المستشفع له هو مشرك؛ لأن المستشفع له المشفوع له مشرك بالله، والإستغفار والشفاعة لا تنفع أهل الشرك، والنبي ﷺ لا يملك أن ينفع مشركاً بمغفرة ذنوبه أو أن ينفع أحداً ممن توجه إليه بشرك في إزالة ما به من كربات أو جلب الخيرات له، لهذا قال ((لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك)) فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]. ٣

وإذا كان كذلك فالميت الذي هو من الأولياء، من الأنبياء، من الرسل فإذا نُهي في الحياة الدنيا أن يستغفر لمشرك، فهو أيضاً لو فرض أنه يقدر على الاستغفار في حال البرزخ فإنه لن يستغفر لمشرك توجه إليه بالاستشفاع أو توجه إليه بالاستغاثة أو بالذبح أو بالنذر أو تأله أو توكل عليه أو أنزل به حاجاته من دون الله جل وعلا. ٣

﴿مَا كَانَ﴾ أي: لا يليق ولا ينبغي، وهذا خبر معناه: النهي والتحذير. ٤

وأعلم أن (ما كان) أو (ما ينبغي) أو (لا ينبغي) ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث، فالمراد أن ذلك ممتنع غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠]، وقوله ﷺ: ((إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام))[١]. ٥

[١] مسلم: كتاب الإيمان/ باب في قوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينام".

﴿لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المشرك لا يجوز الاستغفار له ولا التّرحّم عليه إذا مات على الشرك، وكذلك في حالة الحياة فالمشرك لا يستغفر له وهو حي، ولا يُترحّم عليه، وإنما يطلب له الهداية، يُقال: اللهم اهده، أما الاستغفار والترحّم فإنه لا يجوز للمشركين، لا أحياءً ولا أمواتاً، لأنه لا تجوز محبتهم وموالاتهم ما داموا على الشرك، وإبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه لأنه وعده أن يستغفر له، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

"وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الرسول، ﴿لا تَهْدِي﴾ لا تملك هداية".

﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من أقاربك وعمك. ٤

ومعلوم أنه إذا أحب هدايته، فسوق يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر، لأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِليه يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]. ٥

والمراد بالمحبة هنا: المحبة الطبيعية، ليست المحبة الدينيّة، فالمحبة الدينيّة لا تجوز للمشرك، ولو كان أقرب الناس: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، فالمودة الدينيّة لا تجوز، أما الحب الطبيعي فهذا لا يدخل في الأمور الدينيّة. ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أعلم بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] فنفى سبحانه وتعالى عن نبيه محمَّد ﷺ أنه يملك الهداية لأحد، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف:١٠٣]. ٤

الهداية المنفية هنا هي هداية التوفيق والإلهام الخاص والإعانة الخاصة، هي التي يُسميها العلماء هداية التوفيق والإلهام، ومعناها أنّ الله جل وعلا يجعل هداية التوفيق، معناها أن الله جل وعلا يجعل في قلب العبد من الإعانة الخاصة على قَبول الهدى ما لا يجعله لغيره،

فالتوفيق إعانة خاصة لمن أراد الله توفيقه، بحيث يقبل الهدى ويسعى فيه، فجعل هذا في القلوب ليس إلى النبي ﷺ ؛ إذ القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، حتى من أحب لايستطيع عليه الصلاة والسلام أن يجعله مسلماً مهتدياً، فمِن أنفع قرابته له أبو طالب ومع ذلك لم يستطع أن يهديه هداية توفيق، فالمنفي هنا هو هداية التوفيق. ٣

فإن قلت: أليس الله جل وعلا قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، فأثبت في هذه الآية أن الرسول يهدي إلى صراط مستقيم؟.

فالجواب عن ذلك: أن الهداية هدايتان: هداية يملكها الرسول ﷺ، وهداية لا يملكها. أما الهداية التي يملكها الرسول فهي: هداية الإرشاد والدعوة والبيان ويملكها كل عالم يدعو إلى الخير. ٤

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣]، ﴿لَتَهْدِي﴾ يعني تدل وترشد إلى صراط مستقيم بأبلغ أنواع الدلالة وأبلغ أنواع الإرشاد، الدلالة والإرشاد المؤيّدان بالمعجزات والبراهين والآيات الدالة على صدق ذلك الهادي وصدق ذلك المرشد. ٣
أما الهداية المنفيّة فهي: هداية القلوب، وإدخال الإيمان في القلوب، فهذه لا يملكها أحد إلاّ الله سبحانه وتعالى. فنحن علينا الدعوة، وهداية الإرشاد والإبلاغ، أما هداية القلوب فهذه بيد الله سبحانه وتعالى، لا أحد يستطيع أن يوجد الإيمان في قلب أحد إلاّ الله عزّ وجلّ، هذا هو الجواب عن الآيتين الكريمتين .﴿وَهُوَ أعلم بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم:٧] فلا يضع هداية القلب إلاّ فيمن يستحقّها، أما الذي لا يستحقّها فإن الله يحرمه منها، والله عليم حكيم جلّ وعلا، ما يُعطي هداية القلب لكل أحد، وإنما يُعطيها سبحانه من يعلم أنه يستحقّها، وأنه أهل لها، أما الذي يعلم منه أنه ليس أهلا لها، ولا يستحقّها، فإن الله يحرمه منها، ومن ذلك حرمان أبي طالب، حرمه الله من الهداية لأنه لا يستحقّها، فلذلك حرمه منها، والحرمان له أسباب:

ومنها: التعصّب للباطل، وحميّة الجاهلية تسبّبان أن الإنسان لا يوفّقه الله جل وعلا، فمن تبيّن له الحق ولم يقبله فإنه يعاقب بالحرمان -والعياذ بالله-، يعاقب بالزّيغ والضلال، ولا يقبل

الحق بعد ذلك، فهذا فيه الحثّ على أن من بلغه الحق وجب عليه أن يقبله مباشرة، ولا يتلكّأ ولا يتأخر، لأنه إن تأخر فحريّ أن يُحرم منه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]. ٤

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجئون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياماً عظيماً، ناصره وآزره في دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟! ٥

الإشكالات الواردة في الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثاني: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾ [النساء: ١٨]، وظاهر الحديث قبول توبته.

والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا، فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ. أنه قال: ((كلمة أحاج لك بها عند الله))، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.
ب. أنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: "لما حضرت أبا طالب الوفاة" مطابقاً تماماً لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا **حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ**﴾، وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي ﷺ مع أبي طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] في سورة التوبة، وهي متأخرة مدنية، وقصة أبي طالب مكية، وهذا يدل على تأخر النهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمه وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي، فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، وليس المعنى أنها نزلت في ذلك الوقت.

وقيل: إن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان. ٥

ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد عن علي قال: "سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية" [١] قاله الحافظ.[٢]

فلا منافاة لأن أسباب النزول قد تتعدد.٢

ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره. ٢

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنه ربما مع الضجر يقول: لا، لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: "قل".

---

[١] رواه الطيالسي في مسنده رقم١٣١، وأحمد في مسنده، والترمذي في سننه. وهو حديث صحيح

[٢] فتح الباري (٥٠٨/٨)

والجواب: إن أبا طالب كان كافراً، فإذا قيل له: قل وأبى، فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهذا، فإما أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه بهذا التلقين، وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه. ٥

فوائد هذا الباب

وهذا الحديث مع الآية يدلان على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه مشروعية الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، فإن الرسول ﷺ أتى عمه وهو في سياق الموت، من أجل ماذا؟، من أجل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ففيه: الدعوة إلى الله، وأن الداعية لا ييأس، ولا يقنط من القبول، أو يكسل عن مواصلة الدعوة، ويقول: النّاس ما هم بقابلين، النّاس ما فيهم خير، الإنسان يدعو إلى الله، من قَبِل فالحمد لله، ومن لم يقبل قامت عليه الحجّة، وحصل الأجر للداعية.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على مشروعية عيادة المريض المشرك من أجل دعوته إلى الله عزّ وجلّ، فإن الرسول عاد عمه وهو مشرك من أجل دعوته إلى الله.

المسألة الثالثة: -وهي مهمة جدًّا-: أن من قال: لا إله إلا الله فإنه يُقبل منه، ويُحكم بإسلامه، ما لم يظهر منه ما يُناقض هذه الكلمة من قول أو فعل، فإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حُكم بردّته، أما ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة، فإنه يُحكم بإسلامه، فإن كان صادقاً فيما بينه وبين الله، فهو مسلم حقًّا، وإن كان كاذباً فيما بينه وبين الله فهو منافق، أمره إلى الله عزّ وجلّ، أما نحن فليس لنا إلاّ الظاهر.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فأبو طالب عاش على الكفر والشرك، لكنه لو قال: لا إله إلا الله عند الوفاة، واستجاب للرسول ﷺ لختم له بالإسلام، فدلّ على أن الأعمال بالخواتيم، وهذا يصدقه قول الرسول ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)) فالأعمال بالخواتيم.

المسألة الخامسة: فيه التحذير من جلساء السوء، ماذا جرّ على أبي طالب هؤلاء الجلساء، ومات على الكفر بسبب مشورتهما -والعياذ بالله-.

المسألة السادسة: في الحديث ردٌّ على من زعم إسلام أبي طالب من الشيعة والخرافيين لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلاّ الله.

المسألة السابعة: وهي عظيمة جدًّا: تفسير لا إله إلا الله كما يقول الشيخ رحمه الله، وأن معناها: ترك عبادة غير الله، لأن أبا جهل وزميله فهما أنه إذا قال: لا إله إلا الله فقد ترك ملّة عبد المطّلب، وأن لا إله إلا الله ليست مجرّد كلمة تُقال، وإنما هي كفر بالطّاغوت وإيمان بالله عزّ وجلّ، بخلاف ما يعتقده كثير من الخرافيين في هذا الزمان، يقولون: لا إله إلاّ الله، ويقولون: يا حسين، ويا فلان، ويذبحون للموتى، ويستغيثون بهم، وهم يقولون: لا إله إلاّ الله!!، بل لهم أوراد صباحية ومسائية يقولونها بالمئات، ثم يذبحون للضريح ويطوفون به، ويستغيثون به. فدلّ على أن أبا جهل أفهم منهم بمعنى لا إله إلاّ الله، لأن أبا جهل فهم أن معنى لا إله إلاّ الله: ترك عبادة الأوثان، وهؤلاء ما فهموا هذا، ما فهموا أن لا إله إلا الله معناها؛ ترك عبادة القبور، وهذا من الفقه العظيم، وهذه هي العقيدة الصحيحة، والداعي إلى الله يجب أن يفهم هذا الفقه، لأن هذا هو فقه الدعوة.

المسألة الثامنة: فيه الردّ على المرجئة، الذين يقولون: إن الإيمان هو مجرّد المعرفة أو الاعتقاد، فإذا عرف الإنسان بقلبه أو اعتقد أنه لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، ولو لم يعمل؛ فإنه يكون مسلماً، لأن الأعمال ليست شرطاً في الإيمان، بل مجرّد المعرفة أو الاعتقاد بالقلب يكفي عندهم، وهذا باطل، لأنها لم تعتبر معرفة أبي طالب لرسالة النبي ﷺ، لم تعتبر إسلاماً، والله تعالى قال عن المشركين: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، فهم يعرفون أنه رسول الله، لكن الكبر والحمية الجاهلية، جعلتهم لا يقبلون

الدعوة، مع أنهم يعرفونها بقلوبهم، والله جل وعلا حكى عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، ففرعون عارف بقلبه صحّة ما جاء به موسى، ولكن منعه الكبر والمعاندة، وقال تعالى عن المشركين: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ [النمل:١٤]، وأيضاً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فاليهود يعرفون أنه رسول الله -أيضاً- كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام:٢٠] يعرفون أنه رسول الله.

وكان أبو طالب يعرف أنه رسول الله، وصرّح بهذا في قصائده، يقول:

"ولقد علمت أن دين محمَّد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لرأيتني سمحاً بذاك مبيناً "

فالذي منعه هو ما جاء في هذا الحديث: أبى أن يقول: لا إله إلا الله وقال: "وهو على ملّة عبد المطلب"، وهو يعرف أنه رسول الله.

المسألة التاسعة: فيه تحريم الاستغفار للمشركين، والترحّم عليهم، وموالاتهم، ومحبتهم، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾ [التوبة:١١٣].

المسألة العاشرة: فيه التحذير من التعصّب لدين الآباء والأجداد إذا كان يخالف ما جاءت به الرسل، فإن الذي حمل أبا طالب على ما وقع فيه هو التعصّب لدين عبد المطّلب، وأنه سبب لسوء الخاتمة -والعياذ بالله-، فليحذر المسلم من هذا. الواجب على المسلم أن يقبل الحق ولو خالف ما عليه آباؤه وأجداده، أما إذا كان آباؤه وأجداده على حق، فأتباعهم

حق، ويوسف عليه السلام يقول: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ [يوسف:٣٨].

فاتباع الآباء والأجداد على الحق مشروع.

المسألة الحادية عشرة: وهي المقصودة بالذات من عقد هذا الباب، وهي: الردّ على المشركين الذين يتعلّقون بالأولياء والصالحين، ويدعوهم من دون الله، لأنه إذا كان الرسول ﷺ لم يملك لعمه أبي طالب الهداية فغيره من باب أولى، وهذه هي المناسبة للترّجمة.

والله تعالى أعلم. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾.

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

الثالثة: وهي المسألة الكبرى – تفسير قوله ﷺ: ((قل: لا إله إلا الله)) بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل: ((قل لا إله إلا الله)). فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾.

أي: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبينا أن الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحداً وهو حي، فكيف يستطيع أن يهدي أحداً وهو ميت؟! وأنه كما قال الله تعالى في حقه: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً﴾ [الجن: ٢١]. ٥

الثانية: تفسير قوله:﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربى.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحوم، فإنه حرام لأن هذا مضادة لله -سبحانه وتعالى-، وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره، لأن المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كله لله. ٥

الثالثة: وهي المسألة الكبرى – تفسير قوله ﷺ: ((قل: لا إله إلا الله)) بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

أي: الكبير من هذا الباب، وقوله (أي قول النبي ﷺ) لعمه: ((قل: لا إله إلا الله))، وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله، ولهذا أبى أن يقولها لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: "بخلاف ما عليه من يدعي العلم" كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إله إلا الله، حيث يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، وإنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله، وهذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلا الله، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا الله، ولكن المعنى: لا معبود حق إلا الله، لأننا لو قلنا: إن معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين، فالظاهر

من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إله إلا الله. ٥

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل: ((قل لا إله إلا الله)). فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

أبو جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: "أترغب عن ملة عبد المطلب؟"، وهو أيضاً أبى أن يقولها لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

فالحاصل أن الذين يدعون أن معنى لا إله إلا الله، أي: لا قادر على الاختراع إلا هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل.

واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنهم أسلموا، وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه الله. ٥

الخامسة: جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

حرصه عليه الصلاة والسلام وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث، لسببين هما:

١- القرابة.

٢- لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف، فهو على هذا مشكور، وإن كان على كفره مأزوراً وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنه هجر قومه من أجل معاضدة النبي ﷺ ومناصرته، وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلب القلوب كما في الحديث: ((إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب

واحد، يصرفه حيث يشاء))، ثم قال ﷺ في نفس الحديث: ((اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك))[1]. ٥

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

وفي الحديث رد على من قال بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبحهم الله، لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. ٥

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإليه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون.

وكذا أمه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها، فدل على أن أهل الكفر ليسوا أهلاً للمغفرة بأي حال، ولا يجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يدعى لهم بالهداية وهم أحياء. ٥

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

المعنى أنه لولا هذان الرجلان، لربما وفق أبو طالب القبول ما عرضه النبي ﷺ، لكن هؤلاء -والعياذ بالله- ذكراه نعرة الجاهلية ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصاً بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[2]، وقال ﷺ: ((فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))، وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به: ((المرء على دين خليله،

---

[1] مسلم: كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف يشاء.

[2] البخاري: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك، ومسلم: كتاب البر/ باب استحباب مجالسة الصالحين.

فلينظر أحدكم من يخالل))[1]، فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يفكر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداء من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير، فعليه بهم. ٥

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه، فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضر، بل هو خير، فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسن، فليس فيه مضرة، وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل، فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً: من يعظم أبا جهل لأنه سيد أهل الوادي، وكذلك عبد المطلب وغيره فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر، لأنهم أعداء الله – عز وجل–، وكذلك لا يعظم الرؤساء من الكفار في زمانه، فإن فيه مضره لأنه قد يورث ما يضاد الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة. ٥

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: "أترغب عن ملة عبد المطلب؟"، وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه؟

---

[1] مسند الإمام أحمد (٣٠٣/٢)، والترمذي: كتاب الزهد/ باب الرجل على دين خليله). – وقال: "حسن غريب" .، والحاكم (١٨٨/٤) – وقال: "صحيح ووافقه الذهبي" –.

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآناً ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلن معصومين، كالرافضة، والتيجانية، والقاديانية، وغيرهم، فهم يرون أن إماماهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئاً.

فالواجب على المرء أن يكون تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وأما من خالفه من الكبراء والأئمة، فإنهم لا يحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له. ٥

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

وهذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة، أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.٥

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها. وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر. ٥

ولما ذكر المصنف رحمه الله بعض ما يفعله عباد القبور مع الأموات من الشرك أراد أن يبين السبب في ذلك ليحذر وهو الغلو مطلقاً لا سيما في الصالحين فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً لقرب الشرك بالصالحين من النفوس، فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم. ١

جاء الشيخ رحمه الله بهذا الباب وما بعده ليبين أن سبب الشرك وسبب الكفر هو الغلو الذي نهى الله جل وعلا عنه ونهى عنه رسوله ﷺ سواءٌ في هذه الأمة أم في أمم من قبل، فسبب وقوع الشرك هو الغلو في الصالحين، هذا أحد أسباب وقوع الكفر والشرك؛ بل هو سببها الأعظم. ٣

وهناك أسباب أخرى كالحسد والبغي والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلوا فيهم وكفروا.٦

قال هنا (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) هذا ذكر للأسباب بعد ذكر الأصول والعقائد. ٣

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ)

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ)

وقول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٧٧].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ م فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا(٢٣)﴾ [نوح]، قَالَ: "هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلَوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إذا هَلَكَ أُوْلئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ، عُبِدَتْ".

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم ثُمَّ صَوَّرُوا تَماثيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ".

وَعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا :عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)) أَخْرَجَاهُ. وقَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ)).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)) قَالَهَا ثَلَاثاً.

قال الشيخ رحمه الله: "باب ما جاء" يعني: ما ورد من الأدلة من أن "سبب كفر بني آدم" السبب في اللغة:

ما يُتوصّل به إلى الشيء، ولذلك سمّي الحبل سبباً، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني: فليمدد بحبل إلى السماء.

أما السبب عند الأصوليين فهو: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته. ٤

أي: إذا وجد السبب وجد المسبب، وإذا عدم عُدِمَ المسبب، إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب. ٥

" كفر بني آدم " يعني: كفرهم بالله عزّ وجلّ.

"وتركهم" باجر عطفاً على كفر المضاف إليه، لأن المعطوف على المجرور مجرور.

"دينهم" دينهم منصوب على المفعوليّة، لأن المصدر إذا أضيف أو دخلت عليه "أل" فإنه يعمل عمل فعله.

"هو الغلو في الصالحين" الغلو في اللغة: هو الزيادة عن الحد، يقال: غلى القدر إذا زاد ومنه يقال: غلى السعر؛ إذا زاد في الأسواق، فالغلو في اللغة: هو الزيادة عن الحد.

أما في الشرع: هو الزيادة عن الحد المشروع، يسمّى غلوًّا، ويسمّى طُغياناً. ٤

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ لما رمى الجمرات بحصيات قال ((بمثل هذه فارموا وإياكم والغلو)) يعني مجاوزة الحد حتى في حجم تلك الحصاة وفي مقدار الحصى، قال ((بمثل هذه فارموا)) فإذا جاوز في المثلية بأن رمى بكبيرة فإنه قد غلا؛ يعني جاوز الحدَّ الذي حُدّ له في ذلك. فإذن الغلو هو مجاوزة الحد. ٣

والغلو في الصالحين، هو: الزيادة في مدحهم، ورفعهم فوق مكانتهم؛ بأن يُجعل لهم شيءٌ من العبادة. ٤

والصالحون يشمل الأنبياء والرسل ويشمل أيضاً الأولياء ويشمل كل من اتصف بالصلاح في الأمم، وأصل كلمة (الصالحون) أصلها جمع الصالح، والصالح هو اسم من قام به الصلاح، والصلاح في الكتاب والسنة:

- تارة يكون بمعنى نفي الفساد؛ ما يقابل الفساد.
- وتارة بمعنى ما يقابل السيئات.

فيقال صالح بمعنى ليس بذي فساد، ويقال أيضاً صالح بمعنى ليس بسيئ، فهذا جاء وهذا جاء. والصالحون هنا المراد بهم أهل الصلاح؛ يعني أهل الطاعة والإخلاص لله جل وعلا الذين اجتنبوا الفساد واجتنبوا السيئات، وهم الذين اشتركوا في فعل الطاعات وترك المحرماًت أو كانوا من السابقين بالخيرات، فاسم الصالح يقع شرعاً على المقتصد وعلى السابق بالخيرات؛ فالمقتصد صالح والسابق بالخيرات صالح وكلٌّ درجات عند الله جل وعلا. ٣

الحد الذي أذن به الشرع في الصالحين

ما هو الحد الذي أَذِن به الشرع في الصالحين حتى نعلم ما الذي يكون مجاوزة له؟ الصالحون أُذِن في حقهم بأن يحبّوا في الله وأن يوقروا في الله وأنْ يُقتدى بهم في صلاحهم وفي علمهم، وإذا كانوا من الرسل والأنبياء فإنه يؤخذ بشرائعهم وبما أمروا به ويتبع ذلك ويقتدى بآثارهم.

هذا هو الحد الذي أُذن به؛ احترام ومحبة وموالاة لهم ودفع عنهم ونصرة لهم ونحو ذلك من المعاني.

أما الغلو فيهم بأن يجاوز ذلك الحد فهو بحر لا ساحل له، فمما حصل من الغلو فيه أنهم جُعلت فيهم خصائص الإلهية، جُعل بعض البشر أنه يعلم سر اللوح والقلم، وأنه من جوده الدنيا وضرتها كما قال البوصيري في قصيدته المشهورة:

فإن من جودك الدنيا وضُرَّتَها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا ليس إلاّ لله جل وعلا، وهدا من الغلو المنهي عنه.

كذلك قوله في النبي عليه الصلاة والسلام غاليا فيه أعظم الغلو قال:

لو ناسبت قدره آياتُه عظما أحيى اسمه حين يدعى دارس الرمم

فهذا البوصيري يقول (لو ناسبت قدره) يعني النبي عليه الصلاة والسلام (لو ناسبت قدره آياته عظماً) يعني في العظمة (أحيى اسمه حين يدعى دارس الرمم) لكان لا يناسب قدره إلا إذا ذكر اسمه على ميْت قد درس وذهب رميمه في الأرض وذهبت عظامه لتجمعت هذه العظام وحيي لأجل ذكر اسم النبي ﷺ عليه، وهذا من أنواع الغلو الذي يحصل من الذين يعبدون غير الله جل وعلا ويتوجهون إلى الأنبياء والرسل فيجعلون في حقهم من خصائص

الألوهية ما لا إذن لهم به؛ بل هو من الشرك الأكبر بالله جل وعلا ومن سوء الظن بالله ومن تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا كفر والعياذ بالله.

يقابل ذلك -هناك حد مأذون به، وهناك غلو- والحالة الثالثة الجفاء، الجفاء في حق الصالحين وهذا بعدم موالاتهم وعدم احترامهم وعدم إعطائهم حقَّهم وترك محبة الصالحين.

فكل تقصير في الأمر يعدّ جفاء وكل زيادة فيه يعد غلوا. ٣

وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾.

المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، سُمّوا بأهل الكتاب: لأن الله سبحانه أنزل على أنبيائهم الكتب. اليهود أنزل الله على نبيهم موسى عليه السلام التوراة. والنصارى أنزل الله على نبيهم عيسى -عليه الصلاة والسلام- الإنجيل، فلذلك سُمّوا أهل الكتاب فَرْقاً بينهم وبين الأُميّين والوثنيّين الذين لا كتاب لهم.

وهذا فيه تنبيه على أن المطلوب منهم أن يتقيّدوا بالكتاب الذي أنزل عليهم، وعدم مجاوزته، وهو تنبيه لكل عالم بأن يلتزم الاعتدال.

﴿لا تَغْلُوا﴾ هذا نهي من الله تعالى لهم عن الغلو، لأن الغلو أن يكون في شخص، أو يكون في دين.

والغلو في الشخص هو: المبالغة في مدحه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله فيها.

وأما الغلو في الدين فهو: الزيادة عن الحد المشروع في العبادات، في مقاديرها، أو في كيفيّتها، كما في قصة الثلاثة الذي جاءوا يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالّوها، ولكنهم قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر؟، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي ولا أنام، قال الآخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء [يعني: يتبتّل]، وفي رواية: لا أكل اللحم [من باب التّقشّف وحِرمان النفس]. هذا غلو أيضاً، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال لهم: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟، أما والله إني لأرجو أن أكون أعرفكم بالله عزّ وجلّ، وأخشاكم لله، وإني أصلّي وأنام، أصوم

وأفطر، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منّي))، هذا غلو نهى عنه الرسول ﷺ، وأمر بالتّوسّط وعدم الغلو.

ولما لُقطت له -عليه الصلاة والسلام- حصى الجمار أمثال حصى الخَذْف -يعني: أكبر من الحِمَّص بقليل- أخذها ﷺ في كفّه وقال: ((أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)).

واليهود والنصارى غلو في أنبيائهم، وغلو في دينهم -أيضاً-، غلو في أنبيائهم، حيث قالت النصارى للمسيح: ابن الله، فرفعوه فوق منزلة البشرية إلى منزلة الربوبية ويسمُّونه الرب. وأما اليهود فقد غلوا في عزير، قالوا: هو ابن الله.

وكذلك النصارى غلو في دينهم فابتدعوا الرهبانية، وهي: التّبتّل والتّعبدّ، ولزوم الصّوامع، وعدم الخروج منها، رهبانية ابتدعوها، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧]، هذا من الغلو في الدين، قال تعالى: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]، وفي الآية الأخرى في سورة النساء يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (١٧١)﴾ [النساء:١٧١].

فكذلك الذين غلو في الصالحين من هذه الأمة حتى عبدوهم مع الله سبحانه وتعالى، وجعلوا لهم شيئاً من الرّبوبيّة والألوهيّة، سواءً بسواء. ٤

فحصل الغلو من أهل الكتاب، تارة بأن جعلوا الرسل والأنبياء لهم خصائص الألوهية من جهة التوجه لهم، وقد قال الله جل وعلا ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(٧٢)لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾

[المائدة:٧٢-٧٣]، وفي آخر سورة المائدة أيضاً قال الله جل وعلا ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة:١١٦]؛ يعني تنزيها وتعظيماً لك أن أقول لهم ذلك وذلك من الشرك فكيف أقول لهم ذلك قال ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أعلم مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦-١١٧]، وهذا كله في التوحيد، فحصل أن غلا أتباع الرسل وأتباع الأنبياء في الأنبياء والرسل وغلوا أيضاً في الصالحين من أتباعهم وجعلوا لهم بعض خصائص الإلهية؛ جعلوا لهم الشفاعة جعلوا لهم نصيبا من الملك أو أنهم يدبرون الأمر أو أنهم يصرفون شيئاً من الملكوت، فيعتقد الآن بعض الصوفية أن للكون أقطابا أربعة وأن ربما في ربع العالم المسئول عن فلان وفي الربع الثاني المسؤول عن فلان وإلى آخره، فجعلوا لهم نصيبا من الملك، جعلوا لهم نصيباً من الربوبية، وجعلوا لهم أيضاً نصيباً من الإلهية فتقربوا إليهم بأنواع القربات من الذبح والاستغاثة والتذلل والخضوع والمحبة والتوكل والرغب والرهب وخوف السر، إلى آخر أنواع العبادات القلبية والعملية.٣

والخطاب -وإن كان لأهل الكتاب- فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيرا لهم أن يفعلوا بنبيهم عليه الصلاة و السلام فعل النصارى في عيسى، واليهود في العزير كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] ولهذا قال النبي ﷺ ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)) [1] ويأتي.

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلها، وضاهأ النصارى في شركهم، وضاهأ اليهود في تفريطهم. ٢

[1] البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١)، أحمد (٥٦/١).

قال شيخ الإسلام: "فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام وقد مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب منها:

الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفهم فيها واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتلهم لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق وهو قول أكثر العلماء" [1]. ١

ووجه الاستدلال أنه قال ﴿لاَ تَغْلُواْ﴾، و﴿تَغْلُواْ﴾ هنا فعل جاء في سياق النهي وهذا يعم جميع أنواع الغلو في الدين، ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ يعني لا تغلوا بأي نوع من أنواع الغلو في الدين، فنهوا عن أي نوع من أنواع الغلو. ٣

فنهاهم عن الغلو في الدين ونحن كذلك كما قال تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢] هذا موطن الشاهد ووجه الاستدلال من الآية على الحديث.

وإذا كان كذلك دخل في هذا العموم الغلو في الصالحين. ٣

والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾، فنهى عن الغلو في الدين، لأنه يتضمن مفاسد كثيرة، منها:

١- أنه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.

٢- أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣- أنه يصد عن تعظيم الله -سبحانه وتعالى- ، لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه، تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

---

[1] انظر مجموع الفتاوى (٣/٣٤٩-٣٥٠)

٤- أن المغلو فيه إن كان موجوداً، فإنه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحاً. ٥

شرح بقية الآية

قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، نداء، وهم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود والإنجيل للنصارى.

قوله: ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾، أي: لا تتجاوزوا الحد مدحاً أو قدحاً، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عموماً، فإنهم غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام مدحاً وقدحاً، حيث قال النصارى: إنه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة.

واليهود غلوا فيه قدحاً، وقالوا: إنه أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم الله؟ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط وتفريط.

قوله: ﴿وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾، هذه صيغة حصر، وطريقه ﴿إِنَّمَا﴾، فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول الله، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذي يضيفونه إلى الله.

وفي قوله: ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه كذاب، ولقول النصارى: إنه إله.

وفي قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ﴾: أن قال له كن فكان.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، أي: إنه عز وجل جعل عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من بين آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إلى تشريفاً وتكريماً، كما في قوله تعالى في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾، الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله محمد ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾، أي: إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾، ﴿خيراً﴾: خبر ليكن المحذوفة، أي: انتهوا يكن خيراً لكم.

قوله: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: تنزيهاً له أن يكون له ولد، لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، فهو من جملة المملوكين المربوبين، فكيف يكون إلهاً مع الله أو ولداً لله؟. ٥

وفي (الصحيح) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح:٢٣] قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت".

وقال ابن القيم: "قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم".

قال: "في الصحيح" يعني: صحيح البخاريّ.

"عن ابن عباس ﷺ في قول الله تعالى" يعني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣)﴾ [نوح:٢٣]، قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح... إلخ" ٤ وهكذا روي عن عكرمة والضحاك وابن اسحق نحو هذا.[١] ١

هذه القصة أو هذا الأثر عن ابن عباس ﷺ محمول على الرّفع؛ لأن هذا خبر غيبي وهذا الخبر الغيبي فيه أنه لا يستقى إلا من مشكاة النبوة. ٣

في القرآن ذكرٌ لأصلين من أصول الشرك –وثَمّ غيرهما أيضاً–:

الأصل الأول: شرك قوم نوح. والأصل الثاني: شرك قوم إبراهيم.

وشرك قوم نوح كان بالصالحين؛ بالغلو في الصالحين وأرواح الصالحين، فجاءهم الشيطان من جهة روح ذلك العبد الصالح وأثر تلك الروح وأن من تعلق به فإنه يشفع له، ثم ساقهم من ذلك التعظيم إلى الصور والأنصاب والأوثان والأصنام.

والنوع الثاني شرك قوم إبراهيم، وذلك شرك في تأثير من جهة النظر في الكواكب ومن يؤثر ويحرك، فهذا شرك في الربوبية وما تبعهم من الشرك في الإلهية؛ لأنهم جعلوا لتلك الكواكب أصناماً وجعلوا لها صوراً، جعلوها أوثاناً فعبدوها من دون الله جل وعلا وتوجهوا إليها. ٣

قوم نوح لما نهاهم نبي الله نوح –عليه الصلاة والسلام– عن الشرك وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له؛ تواصوا فيما بينهم بهذه الوصية الكافرة:

﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ يعني: لا تطيعوا نوحاً عليه السلام، لا تتركوا آلهتكم التي تعبدونها من دون الله. ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾.

---

[١] انظر تفسير الطبري (٢٩/٩٨-٩٩)، وتاريخ دمشق (٦٢/٢٥٢)

قوله تعالى: ﴿وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾، هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها، لأن قوله: ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنها كبار آلهتهم، فخصوها بالذكر. ٥

هذه أسماء رجال صالحين، وكان هذا في الأوّل، لأن النّاس كانوا بعد آدم عليه السلام على دين التّوحيد -كما قال ابن عباس-، كانوا على دين التّوحيد دين أبيهم آدم -عليه الصلاة والسلام- عشرة قرون، ٤ ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة. ٥
وكان هؤلاء الصالحون في هذا العهد -عهد التّوحيد-، فلما ماتوا -ويُروى: أنهم ماتوا في سنة واحدة- حزنوا عليهم حزناً شديداً، وبكوا عليهم، فاستغل الشيطان -لعنه الله- هذه العاطفة فيهم، وأشار عليهم بمشورة ظاهرها النصح، وباطنها الخديعة والمكر، أشار عليهم بأن يصوّروا تماثيلهم، يعني: يجعلوا لهم صوراً على شكل تماثيل، كل واحد له صورة، وأن ينصبوا هذه التماثيل على مجالسهم؛ من أجل أن ينشطوا على العبادة، إذا رأوهم تذكّروا حالتهم فنشطوا على العبادة، فهو جاءهم من باب النصح، وأشار عليهم بمشورة ظاهرها الخير، وأن هذه وسيلة للنشاط على العبادة، والتقوى، والصلاح، والإقتداء بهؤلاء، إذا رأوا صورهم تذكّروا صلاحهم وحالتهم فاقتدوا بهم، هذا ظاهر نصيحته، ولكنه في الباطن يمكر بهم، لأنه يرمي إلى مرمى بعيد -لعنه الله-، ينظر إلى العواقب، إلى الأجيال القادمة، يؤسس هذا الأساس للأجيال القادمة، وإلاَّ فإنه يعرف أن هؤلاء -ما دام العلم موجوداً، وما دام أنهم على التّوحيد- لن يتركوا عبادة الله عزّ وجلّ، فقبلوا هذه المشورة لأن ظاهرها أنها خير، وابتدعوا هذه البدعة.وهذا دليل على أن البدع لا تجوز وإن كان ظاهرها الخير، وإن كانت نيّة أصحابها الخير.ابتدعوا هذه البدعة، وصوّروا هذه التماثيل على مجالس هؤلاء الصالحين ولم تُعبد في هذا الجيل، لأنهم على علم وعلى دين، لكن لما مات هذا الجيل، ونُسي العلم -وفي رواية: ((نُسِخ العلم بموت العلماء-))، لأن الشيطان لا يتسلّط -في الغالب- مع وجود العلماء، لأن العلماء يكافحونه، ويردّون كيده، إنما يتسلّط عند عدم العلماء.

"حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم" يعني: بموت العلماء الذي يحذّرون من الشرك، "عُبدت" هذه الصور لأن الشيطان قال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلاّ من أجل أن يتقرّبوا إليها، ويسقون بها المطر، فصدّقوه في هذا. ٤

وفي رواية أنهم قالوا: "ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله" فعبدوهم فهذا هو السبب في عبادة هؤلاء الصالحين وهو رجاء شفاعتهم عند الله، وكذلك هو السبب في عبادة صورهم وهذه هي الشبهة التي ألقاها الشيطان على المشركين من الأولين والآخرين وقد بين الله ذلك في القرآن بياناً شافياً وتقدم في هذا الكتاب من الكلام على ذلك ما يكفي لمن هداه الله. ١

"أوحى الشيطان إلى قومهم" والوحي إلقاء في الخفاء، الشيطان ما يتحدث علنا، "أوحى" يعني ألقى في خفاء، الوحي هو إلقاء الخبر في خفاء، فألقى في روعهم، ألقى في أنفسهم، ذلك الأمر فكان سبباً للشرك بالله جل وعلا. ٣

قوله "أوحى الشيطان"، أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام. ٥

ومقالته لهذا الجيل المتأخِّر تخالف مقالته للجيل السابق، هذا من باب المكر، فصدّقوه في هذا فعبدوهم، ومن حينها حدث الشرك في الأرض، وغُيّر دين آدم -عليه الصلاة والسلام- فبعث الله نبيّه نوحاً عليه السلام أول الرّسل. ٤

قال القرطبي: "وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها". ا.هـ.[1]. ٢

---

[1] القرطبي: أحكام القرآن (١٨-٣٠٨)

وهذا أول شرك حدث في الأرض، وسببه هو الغلو في الصالحين ثمّ بعث الله نبيّه نوحاً عليه السلام ينهى عن ذلك، ويريد ردّهم إلى التّوحيد، ولكن لم يؤمن معه إلاّ القليل كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، كما قال كفّار قريش لما نهاهم محمّد ﷺ عن الشرك: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦]، لا تطيعوا محمّداً فدين المشركين واحد من قديم الزمان وحديثه.

"قال ابن القيم" ابن القيّم هو: محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الإمام الجليل، الحافظ، صاحب المصنّفات المشهورة في التّوحيد والأصول والفقه ومختلف العلوم، وهو أكبر تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميّة -رحمهما الله- علماً وقدراً.

قال: "لما ماتوا" يعني: لما مات هؤلاء الصالحون، وهذا تفسير وتوضيح لما قاله ابن عباس رضي الله عنه.

"عَكَفوا على قبورهم" العُكوف هو: طول البقاء في المكان، ومنه: الاعتكاف في المساجد، كما عرّفه الفقهاء بأنه: لزوم مسجد لطاعة الله. ٤

ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم. وذلك من وسائل الشرك، بل هو الشرك؛ لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيماً ومحبة عبادة لها. ٢

"ثم صوّروا تماثيلهم" هذه خطوة ثانية.

"ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم" هذه خطوة ثالثة. ٤

الشاهد من هذا أن أولئك توجهوا إلى الصور -صور الصالحين- فكانوا أهل علم يعلمون أنهم إذا اتخذوا الصور فإنهم لن يعبدوها؛ لكن كانت الصور تلك للصالحين والمعظمين وسيلة وطريق وسبب لأنْ عُبدت في المستقبل لما نسي العلم، والشيطان ربما أتى إلى الصورة فجعل في عيني الناظر إليها والمخاطب لها أنها تتحدث وأن فم المصوَّر يتكلم وأنه يُسمعُ منه وأنه يُسمع منه كلاما ونحو ذلك من الأشياء وأصناف التصرفات التي تجعل القلوب تتعلق بتلك الرّوحانيات -كما يقول- وتلك الأرواح، فيُغرى أولئك بهم.

وهذا هو الذي حصل عند القوم الذين عكفوا على القبور وعبدوا أهلها مع الله جل وعلا، يأتي ويقول: ذهبتُ إلى القبر الفلاني فكلّمني أبي. وهو شيطان نطق على لسان أبيه، وربما تصور بصورة أبيه فخرج له في ظلام ونحوه، فيحدثه أبوه بصوته الذي يعرفه، أو يحدثه العالم أو الولي بصوته الذي يعرفه منه، فتقع الفتنة وهذا من الشيطان. ٣

فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها واعتقاد النحوس فيها والسعود ونحو ذلك وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم كما أن ذاك هو الغالب على عباد القبور ونحوهم وهو أصل عبادة الأصنام فإنهم عظموا الأموات تعظيماً مبتدعاً فصوروا صورهم وتبركوا بها فآل الأمر إلى أن عبدت الصور ومن صورته، وهذا أول شرك حدث في الأرض، وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان؛ فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم، وأن الدعاء عندها أرجى في الاجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد، فاعتادوها لذلك، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى الدعاء به والاقسام على الله به. ١

قال ابن القيم رحمه الله: "وما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه".

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل، ويحج إليه ويذبح عنده.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجديد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية،

وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَلاَ ؤْمِنُونَ الْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبي الله ذلك. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]. "اهـ كلام ابن القيم رحمه الله.[١] ٢

أول من غير دين إبراهيم عند العرب

روى الفاكهي عن ابن الكلبي قال: "كان لعمرو بن ربيعة رِئْيٌ من الجن فأتاه، فقال: أجب أبا ثُمامة وادخل بلا ملامة، ثم أئت سيف جُدَّهْ، تجد بها أصناما مُعَدَّهْ، ثم أوردها تِهامةَ ولا تهب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تُجَب. قال: فأتى عمرو ساحل جُدَّة فوجد بها وَدّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا، وهي الأصنام التي عبدت على عهد نوح وإدريس ثم إن الطوفان طرحها هناك فسفى عليها الرمل فاستثارها عمرو وخرج بها إلى تِهامة وحضر الموسم ودعا إلى عبادتها فأجيب.

وعمرو بن ربيعة هو عمرو بن لحي قاله الحافظ.[٢]

قلت: وهو سيد خزاعة وكان أول من سَيَّبَ السوائب وغير دين ابراهيم عليه السلام وكانت العرب قبله على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام حتى نشأ فيهم عمرو فأحدث الشرك كما روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: ((يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك)) فقال أكثم: "أتخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟، فقال رسول الله ﷺ: ((إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم وبجر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي))[٣] إسناده حسن.

---

[١] إغاثة اللهفان (٢٣١/١).

[٢] فتح الباري (٦٦٨/٨) وانظر أخبار مكة للفاكهي (١٦١/٥).

[٣]رواه ابن إسحاق – كما في السيرة لابن هشام (٢٠١/١-٢٠٢)، وابن جرير في تفسيره (٨٦/٧) وغيرهما وإسناده حسن كما قال الشيخ سليمان رحمه الله، وهو حديث صحيح

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: ((رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب)).[1] ١

فهذه الآثار مع الآية الكريمة تدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: تحريم الغلو في الصالحين، بمعنى ما ذكرناه في الغلو، وأنه يؤول إلى الشرك، فإن غلو قوم نوح في الصالحين آل بهم إلى الشرك -والعياذ بالله-، فهذا شاهد للترّجمة: "باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين" وهذا ظاهر، فإن ما وقع في قوم نوح كان سببه الغلو في الصالحين.

وفيه ردٌّ على عبّاد القبور اليوم، الذين يقولون: البناء على القبور من باب المحبة للصالحين. وكوننا نستغيث بهم، ونستشفع بهم، ونذبح لهم، وننذر لهم، ونتبرّك بتربتهم، هذا ليس من الشرك، هذا من باب محبة الصالحين. ويقولون: للذين ينكرون هذا أنتم تبغضون الصالحين. هكذا فسروا المحبة والبُغض، بأن المحبة: عبادتهم، والبغض: ترك عبادتهم، هذا من انتكاس الفِطَر -والعياذ بالله-.

فالآية والأثر يردّان عليهم، لأن هذا ليس من محبة الصالحين، وإنما هو من الغلو فيهم الذي يؤول إلى الشرك -والعياذ بالله-.

المسألة الثانية: في هذه الآثار دليل على أن الغلو في الصالحين من سنّة اليهود والنصارى، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، فالغلو في الصالحين من سنة اليهود والنصارى، وليس من سنة المسلمين، فهؤلاء القبوريون سلفهم اليهود والنصارى، وبئس السلف.

المسألة الثالثة: فيه التحذير من التصوير، ونشر الصور، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، فأول شرك حدث في الأرض هو بسبب الصور المنصوبة، وهذه إحدى علّتي تحريم التصوير، لأن التصوير ممنوع لعلّتين:

العلّة الأولى: أنه وسيلة إلى الشرك.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم٣٣٣٣- البغا)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٨٥٦)

العلّة الثانية: أن فيه مُضاهاة لخلق الله سبحانه وتعالى.

وقد قال تعالى كما في الحديث القدسي: ((ومن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبّة، أو ليخلقوا شعيرة))، فالمصوّر يحاول أن يضاهي خلق الله تعالى بإيجاد الصورة، فلذلك يجعل لها أعضاء، ويجعل لها عينين، ويجعل لها أنفاً، ويجعل لها شفتين، ويجعل لها وجهاً، ويجعل لها يدين، ويجعل لها رجلين، يضاهي خلق الله، إلاّ أنه لا يقدر على نفخ الروح فيها، ويجعل الصورة على شكل ضاحكة، أو على شكل باكية، أو شكل مقطّبة الجبين، أو مسرورة، كل هذا مضاهاة لخلق الله، وإن كانوا يسمون هذا من باب الفنون، وهي فنون شيطانية، والجنون فنون، فتسميته من باب الفنون لا يسوغ عمله، والتصوير ملعون من فعله، ففيه: التحذير من التصوير ونصب الصور. لأن ذلك يؤول إلى الشرك بالله عزّ وجلّ، وهذا أعظم العلّتين في النهي عن التصوير ونصب الصور، لاسيّما صور المعظمين من الملوك والرؤساء ومن الصالحين والمشايخ إذا نُصبت فإن هذا يؤول إلى عبادتها، ولو على المدى البعيد، لأن الشيطان حاضر ويشغل الجهل والعواطف.

المسألة الرابعة: في الآية والآثار دليل على تحريم البدع في الدين، وأنها تؤول إلى الشرك، ولذلك قال العلماء: البدعة توصل إلى الشرك ولو على المدى البعيد. وهذه بدعة قوم نوح وصّلت إلى الشرك، وهذا شيء واضح.

المسألة الخامسة: فيه دليل على أن حسن النيّة لا يسوغ العمل غير المشروع، لأن قوم نوح نيّتهم حسنة، عندما صوّروا الصور يريدون النشاط على العبادة، وتذكر أحوال هؤلاء الصالحين، ولا قصدوا الشرك أبداً، وإنما قصدوا مقصداً حسناً، لكن لما كان هذا الأمر بدعة صار محرماً لأنه يُفضي إلى الشرك ولو على المدى البعيد، فالنية الحسنة لا تسوغ العمل غير المشروع.

المسألة السادسة: وهي عظيمة جداً: فيه بيان فضيلة وجود العلم والعلماء في النّاس، ومضرّة فقدهم، لأن الشيطان ما تجرّأ على الدعوة إلى الشرك مع وجود العلم ووجود العلماء، إنما تجرّأ لما فُقد العلم ومات العلماء، فهذا دليل على أن وجود العلم ووجود العلماء فيه خير كثير للأمة، وأن فقدهم فيه شر كثير.

المسألة السابعة: فيه التحذير من مكر الشيطان، وأنه يُظهر الأشياء القبيحة بمظهر الأشياء الطيبّة حتى يغرِّر بالناس. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه يتدرّج بالناس شيئاً فشيئاً ، لأنه تدرّج بقوم نوح من تذكّر العبادة والنشاط والمقصد الحسن، تدرّج بهم إلى المقصد السيء والشرك بالله عزّ وجلّ.

وليسو هذا مقصوراً على شيطان الجن، بل وشيطان الإنس كذلك يعمل هذا العمل، فدعاة السوء ودعاة الضلال -أيضاً- يمكرون بالأمة الإسلامية مثل ما يمكر الشيطان: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام:١١٢].

المسألة الثامنة: فيه دليل على تحريم الغلو في قبور الصالحين، ، فقول ابن القيم: "لما ماتوا عكفوا على قبورهم" فيه: التحذير من الغلو في قبور الصالحين، وذلك بالعكوف عندها، أو البناء عليها، أو غير ذلك من أي مظاهر الغلو، والنبي ﷺ حذّر من البناء على القبور، وحذّر ﷺ من الصلاة عند القبور، والدعاء عند القبور، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، وحذّر ﷺ من إسراج القبور، فقال: ((لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسّرج)) لأن هذا يغرّ العوام، ويقولون: ما عمل به هذا العمل إلاّ لأنه يضر أو ينفع، ولذلك أوصى النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﵁ قال: ((لا تدع قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته)) المشرف: هو المرتفع بالبناء، ((إلاّ سوّيته)) يعني: هدمت البناء الذي عليه، وكذلك نهى ﷺ عن تجصيص القبور، وطلائها بالجص، أو بالنورة، أو بالبويات، أو الألوان المزخرفة، لأن هذا يغرّ العوام، ويظنون أنه ما عمل به هذا العمل إلاّ لأنه له خاصية، ونهى ﷺ عن الكتابة على القبور، فلا يكتب على القبور اسم الميت، ولا تاريخ وفاته، ولا مكانته، فلا يقال: هذا قبر العالم الفلاني الذي عمل كذا

وكذا، كل هذا لا يجوز، لأن هذا يغرر بالناس فيما بعد، ويقولون: ما كُتبت هذه الكتابة إلاّ لأن هذا الميّت له خاصيّة. كل هذه الأمور نهى عنها الشارع، لأنها وسائل إلى الشرك.

والمشروع في القبور أن تُدفن كما كان على عهد النبي ﷺ تُدفن بترابها، وتُرفع عن الأرض قدر شبر بالتراب من أجل أن تُعرف أنها قبور فلا تُداس، ويجعل عليها نصائب من طرفيها لتحديد القبر، لأجل أن لا يوطأ، وما زاد عن ذلك فهو ممنوع.

هكذا كانت القبور في عهد النبي ﷺ، وهذه سنة النبي ﷺ في دفن الأموات.

المسألة التاسعة: فيه أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذه قاعدة مشهورة، لأن عمل قوم نوح فيه مصلحة جزئية وهي: تذكر حالة الصالحين، لكن المفسدة أكبر من هذا، وهو أن ذلك يؤول إلى الشرك والعياذ بالله. ٤

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)) [أخرجاه].

قوله: "وعن عمر" المراد به: عمر بن الخطاب بن عمرو بن نُفَيْل العدوي القرشي، ثاني الخلفاء الراشدين، وأفضل هذه الأمة بعد أبي بكر الصدّيق، رضي الله تعالى عن الجميع. فهو عمر بن الخطاب الذي أعزّ الله به الإسلام والمسلمين، وفتح الله على يديه الفتوحات في المشرق والمغرب، حتى اتسعت رُقْعة الإسلام في الأرض، وله من الفضائل الشيء الكثير، رضي الله تعالى عنه وأرضاه وعن جميع صحابة رسول الله والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

"أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تُطْروني)) هذا نهي منه ﷺ عن الإطراء في حقهّ، ٤

والإطراء: هو مجاوزة الحد -أيضاً- في المدح. ٣

الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه قاله أبو السعادات[1] وقال غيره: ((لا تطروني)) بضم التاء وسكون الطاء المهملة من الاطراء أي: لا تمدحوني بالباطل أو لا تجاوزوا الحد في مدحي".[2][1]

الغلو عام في أشياء كثيرة قد يكون في المدح، قد يكون في الذم، قد يكون في الفهم، قد يكون في العلم، قد يكون في العمل.

لكن الإطراء الغلو في المدح، الغلو في الثناء، الغلو في الوصف، والنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن إطرائه. ٣

والإطراء هو: زيادة المدح والمبالغة فيه، كما هي عادة بعض المدّاحين من الشعراء وغيرهم، وهذه صفة ذميمة، فإن كثرة المدح والزيادة في ذلك منهي عنها في حق الرسول ﷺ وفي حق غيره، ولكن في حق الرسول أعظم، لأن ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر، فإن الغلو في مدح الأنبياء يؤدي إلى الشرك، كما حصل للنصارى واليهود حينما غلو في الأنبياء. فمعنى قوله: ((لا تُطروني)) يعني: لا تزيدوا في مدحي.

((كما أطرت النصارى ابن مريم)) النصارى المراد بهم: أتباع عيسى عليه السلام، قيل: سُمُّوا نصارى نسبة إلى البلد: الناصرة في فلسطين، أو من قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [آل عمران:٥٢]، وهم أهل ملّة من الملل الكتابيّة، ويسمّون بالنصارى، أما أن يسمّوا بالمسيحيين -كما عليه النّاس الآن- فهذا غلط، لأنه لا يقال: المسيحيون إلاّ لمن اتبع المسيح عليه السلام، أما الذي لم يتبعه فإنه ليس مسيحيًّا، وإنما هو نصراني، فاسمهم في الكتاب والسنّة: النصارى.

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر(١٢٣/٣)

[2] غريب الحديث لابن الجوزي (٣٠/١)، وعمدة القاري للعيني (٣٧/١٦)

كما أن اليهود نفروا من الاسم الخاص بهم في الكتاب والسنّة وهو اليهود فسموا أنفسهم إسرائيل، وإسرائيل هو نبي الله يعقوب -عليه الصلاة والسلام- فليسوا هم إسرائيل، وإنما هم اليهود. هذا هو اللفظ الموضوع لهم، الذي رُبطت به اللعنة والغضب من الله سبحانه وتعالى بسبب كفرهم بالله وعنادهم وتعنتّهم، فهم اليهود.

نعم، يُقال: بنو إسرائيل -كما سمّاهم الله بذلك- لأنهم من ذرية يعقوب عليه السلام في الغالب، وفيهم أناس يهود ليسوا من ذرية إسرائيل، لكن الغالب عليهم أنهم من بني إسرائيل. وعلى كل حال؛ لا يجوز أن يُقال: إسرائيل، وإنما يُقال: اليهود، أو يقال: بنوا إسرائيل.

((كما أطرت النصارى)) أي: كما غلت النصارى في مدح المسيح عليه السلام.

((ابن مريم)) يُنسب إلى أمه عليها السلام لأنه ليس له أب، لأن الله خلقه من أم بلا أب بقوله: (كُن)، فهو تكوّن بالكلمة من قوله: (كُن)، ولذلك يُقال: (كلمة الله)، لأنه تكوّن بها من غير أب، فتكوّن بأمر الله سبحانه وتعالى حين قال له: "كُن" فكان بأمر الله، هذا سبب تسميته كلمة الله، والله قادر على كل شيء، فالله خلق آدم من غير أب ولا أم، خلقه من تراب بشراً سوياً، وخلق حوّاء من غير أم، خلقها من آدم: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]، وخلق عيسى أم بلا أب، وخلق سائر البشر من أم وأب، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩]، فإذا كنتم تعجبون من خلق عيسى من أم بلا أب، فآدم عليه السلام أولى بالعجب، لأن الله خلقه من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فلا غرابة في قدرة الله سبحانه وتعالى، فالله قادر على كل شيء، لا تتحكّم فيه الأسباب، وإنما هو سبحانه يتحكّم في الأسباب والمخلوقات: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [القصص:٦٨] سبحانه وتعالى، ولا حَجْر على قدرته سبحانه وتعالى.

وكيف أطرت النصارى ابن مريم؟، قالوا: إنه ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة. ولا يزالون على هذه المقالة إلى الآن، في إذاعاتهم، وفي كتاباتهم.

فسبب وقوعهم في هذا الكفر هو: الغلو -والعياذ بالله-، لأنهم لم يرتضوا أن يصفوا عيسى بأنه عبد الله ورسوله، وإنما زادوا وقالوا: إنه ابن الله جاء ليخلّص النّاس من الخطيئة، وقُتل وصُلب من أجل أن يخلّص النّاس من الخطيئة، ثمّ بعد قتله وصلبه قام وصعد إلى السماء. وهذا كذب مَحْضٌ، كذبه الله وردّه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، فالذي قُتل وصُلب هو شخص غير المسيح، ألقى الله شبه المسيح عليه، فقُتل وصُلب، لأنه خان ودلَّ الكفرة على مكان المسيح، أما المسيح فإنه رفعه الله إليه، ولهذا لم يجزموا أن الذي قتلوه هو المسيح: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النساء:١٥٧].

فالحاصل؛ أن هذا هو غلو النصارى، أنهم مدحوا المسيح ورفعوه فوق منزلته، حتى عبدوه من دون الله، وادّعوا فيه الربوبية بسبب الغلو، وعيسى عليه السلام يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠) وَجَعَلَنِي مباركاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١)﴾ [مريم:٣٠-٣١]، وفي يوم القيامة يتبرأ من هؤلاء: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]، فالعبادة حق الله ليست حقاً لمخلوق، ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغي ولا يليق ولا يصح ﴿أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لأن العبادة حق لله سبحانه وتعالى، ثمّ ردّ ذلك إلى الله ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أعلم مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦]، والله يعلم سبحانه وتعالى أن عيسى لم يقل هذه المقالة، وإنما هذا من باب التوبيخ لهؤلاء، ثمّ قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٧-١١٩] هذا تصديق للمسيح عليه السلام على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، حينما يجتمع الأولون والآخرون يوم القيامة، فهذا مآلهم -والعياذ

بالله–، وهذا موقف المسيح –عليه الصلاة والسلام– في الدنيا والآخرة أنه عبد الله ورسوله، ليس له من الربوبية شيء، ولا يستحق من العبادة شيئاً ، وإنما العبادة حق لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك، وإذا كان المسيح ليس له حق في العبادة، ومحمد ﷺ ليس له حق في العبادة، وجميع الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين.

ففي هذا الحديث دليل على ما ساقه المصنّف من أجله، وهو أن الغلو في الصالحين يسبِّبُ كفرَ بني آدم وتركهم دينهم.

وفي هذا شفقته ﷺ بأمته، حيث حذّرهم مما وقعت فيه النصارى.

وفيه: النهي عن التشبّه بالكفار.

ثمّ قال ﷺ: ((إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)) ((إنما)) هذه كلمة حَصْر، أي: أن شأني ومكانتي أنني عبد الله سبحانه وتعالى، ليس لي من الربوبية شيء، والعبد لا يُغلى فيه ويُطرأ، ويُرفع فوق منزلته.

((فقولوا: عبد الله ورسوله)) أرشدنا ﷺ إلى أن نقول فيه الكلام الواقع واللاّئق به ﷺ، وهو أنه عبد الله ورسوله. فدلّ هذا على أنه يُمدح ﷺ بصفاته من غير زيادة ومن غير نقص، وهي: العبودية والرسالة، والله جل وعلا وصف محمّداً بأنه عبد في كثير من الآيات، في مقام التنزيل قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا (١)﴾ [الكهف:١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١)﴾ [الفرقان:١]، وفي مقام الإسراء قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء:١]، والمعراج في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)﴾ [النجم:٨–١٠]، وفي مقام التحدّي وصفه الله بالعبودية قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ [البقرة:٢٣].

ففي قوله: ((عبد الله)) ردٌّ على الغلاة الذين يغلون في حقه ﷺ.

وفي قوله: ((رسوله)) ردٌّ على المكذبين الذين يكذّبون برسالته ﷺ، والمؤمنون يقولون: هو عبد الله ورسوله.

هذا وجه الجمع بين هذين اللّفظين، أن فيهما رداً على أهل الإفراط وأهل التفريط في حقه ﷺ.٤

قوله: ((فقولوا عبدالله ورسوله))، هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عباداً لله -عز وجل- أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به.

فمحمد ﷺ عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فهذا أفضل وصف اختاره النبي عليه الصلاة والسلام لنفسه. ٥

وفيه: ردٌّ على الذين غلو في مدحه ﷺ من أصحاب القصائد، كقصيدة البُردة والهمزية وغيرهما من القصائد الشركية التي غلت في مدحه ﷺ. ٤

ومن أشعار الغالين في مدحه ﷺ

ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ وعصوه في نهيه من الغلو فيه وإطرائه كما أطرت النصارى ابن مريم وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد والغلو الزائد مع عصيانهم له في أمره ونهيه فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه.

ويقع من ذلك كثير في مدح غيره فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا في مدحه وأنزلوه منزلة الربوبية وصرفوا له خالص العبودية حتى انهم إذا جاءهم رجل وادعى أنه رأى رؤيا مضمونها أنه دفن في المحل الفلاني رجل صالح بادروا إلى المحل وبنوا عليه قبة وزخرفوها بأنواع الزخارف وعبدوها بأنواع من العبادات.

وأما القبور المعروفة أو المتوهمة فأفعالهم معها وعندها لا يمكن حصره فكثير منهم إذا رأوا القباب التي يقصدونها كشفوا الرؤوس فنزلوا عن الاكوار فإذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها وتمسحوا بها وصلوا عندها ركعتين وحلقوا عندها الرؤوس ووقفوا باكين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم وهذا هو الحج وكثير منهم يسجدون لها إذا رأوها ويعفرون وجوههم في التراب تعظيماً لها وخضوعا لمن فيها فإن كان الإنسان منهم حاجة من شفاء مريض أو غير ذلك نادى صاحب القبر يا سيدي فلان جئتك قاصدا من مكان بعيد لا تخيبنى وكذلك إذا قحط المطر أو عقرت المرأة عن الولد أو دهمهم عدو أو جراد فزعوا إلى صاحب القبر وبكوا عنده فإن جرى المقدور بحصول شيء مما يريدون استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلى صاحب القبر فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن صاحب القبر بأنه إما غائب في مكان آخر أو ساخط لبعض أعمالهم أو ان اعتقادهم في الولي ضعيف أو أنهم لم يعطوه نذره ونحو هذه الخرافات.

ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلى باسم منتقم

فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم١

أليس هذا من أكبر الشرك؟

يقول: ما ينقذ يوم القيامة إلاَّ الرسول ﷺ، ولا يخرج من النار إلاَّ الرسول، أين الله سبحانه وتعالى؟.

ثم قال: إن الدنيا والآخرة كلها من جود الرسول ﷺ، وعلم اللّوح المحفوظ والقلم الذي كتب في اللوح المحفوظ بأمر الله هو بعض علم الرسول، إذ الرسول يعلم الغيب.

وهذه القصيدة -مع الأسف- تُطبع بشكل جميل وحرف عريض، وتوزّع، وتُقرأ، ويُعتنى بها أكثر مما يُعتنى بكتاب الله عزّ وجلّ، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم. ٤

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك منها أنه نفى أن يكون له ملاذا إذا حلت به الحوادث إلا النبي ﷺ وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثاني: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب الا من الله وذلك هو الشرك في الأُلوهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله "ولن يضيق رسول الله" البيت.

وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه وهو الجاه والشفاعة عند الله وذلك هو الشرك وأيضاً فان الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لأن الشافع يشفع ابتداءً.

الرابع: قوله "فإن لي ذمة" إلى آخره.

كذب على الله وعلى رسوله ﷺ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة لا بمجرد الاشراك في الاسم مع الشرك.

الخامس: قوله "إن لم يكن في معادي البيت" تناقض عظيم وشرك ظاهر فإنه طلب أولا أن لا يضيق به جاهه ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلا وإحسانا وإلا فيا هلاكه.

فيقال: كيف طلبت منه أولا الشفاعة ثم طلبت منه هنا أن يتفضل عليك؟! فان كنت تقول إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فكيف تدعو النبي ﷺ وترجوه وتسأله الشفاعة فهلا سألتها من له الشفاعة جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض، الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله.

وإن قلت: ما أريد إلا جاهه وشفاعته [بإذن الله]

قيل: فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين فهذا مضاد لقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئاًۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٧-١٩] فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا.

وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي ويتفضل علي بجاهه وشفاعته.

قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله وذلك هو محض الشرك.

السادس: في هذه الأبيات من التبري من الخالق تعالى وتقدس والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة مالا يخفى على مؤمن فأين هذا من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن:٢١-٢٣].

فإن قيل هو لم يسأله أن يتفضل عليه وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيا هلاكه.
قيل: المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لاملاذ له سواه ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].
ومن شعر البرعي قوله:

مــاذا تعامــل يا شمــس النبــوة مــن	أضحى إليك من الأشواق في كبدي
فـامنع جنـاب صـريع لا صـريخ لـه	نائـي المـزار غريـب الـدار مبتعـدي
حليـــف ودك واه الصـــبر منتظـــر	لغـارة منـك يا ركـني ويا عضـدي
أســـير ذنـــبي وزلاتي ولا عمـــل	أرجـو النجـاة بـه إن أنـت لم تجـدِ

وجرى في شركه إلى أن قال:

وحــل عقــدة كــربي يا محمــد مــن ... هــم علــى خطـرات القلــب مطــردِ

أرجـوك في سـكرات المـوت تشـهدني ... كيمــا يهــون إذ الأنفــاس في صــعدِ

وإن نزلــت ضــريحا لا أنــيس بــه ... فكــن أنــيس وحيــد فيــه منفــردِ

وارحــم مؤلفهــا عبــد الــرحيم ومــن ... يليــه مــن أجلــه وانعشــه وافتقــدِ

وإن دعــا فأجبــه واحــم جانبــه ... مــن حاسـد شـامت أو ظــالم نكــدِ

وقوله من أخرى:

يا رســـــول الله ياذا الفضــــــل ... يا بهجــة الحشــر جاهــا ومقامــا

عــد علــى عبــد الــرحيم الملتجــي ... بحمــى عــزك ياغــوث اليتــامى

وأقلــــني عثــــرتي يا ســــيدي في ... اكتســاب الــذنب فى خمســين عامــا

وقوله:

يا ســـيدي يا رســـول الله يا أملـــي ... يا مـــوئلي يا مـــلاذي يـــوم يلقـــاني

هبـني بجاهـك مـا قـدمت مـن زلـل ... جـودا ورجـح بفضـل منـك ميـزاني

واسمع دعـائي واكشـف مـا يساورني ... مـن الخطـوب ونفـس كـل أحـزاني

فأنــت أقــرب مــن ترجــى عواطفــه ... عنــدي وإن بعــدت داري وأوطــاني

إني دعوتـــك مـــن نيـــابتي بـــرع ... وأنــت أسمــع مــن يــدعوه ذو شــان

فـــامنع جنـــابي وأكـــرمني وصـــل ... نســـبي برحمـــة وكرامـــات وغفـــران

لقد أنسانا هذا ما قبله وهذا بعينه هو الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها وترك الاسم إذ في الاسم نوع تمييز فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم قرب إلى ترويج الباطل

وقبوله عند ذوي العقول السخيفة إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى في عيسى عليه السلام كفر فلو أتاهم بدعوى النصارى اسما ومعنى لردوه وأنكروه فأخذ المعنى وأعطاه البرعي وأضرابه وترك الاسم للنصارى وإلا فما ندري ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب فالله المستعان.

وهذا كثير جداً في أشعار المادحين لرسول الله ﷺ وهو حجة أعداء دينه الذين يجوزون الشرك بالله ويحتجون بأشعار هؤلاء ولم يقتصروا أيضاً على طلب ذلك من النبي ﷺ بل يطلبون مثل ذلك من غيره كما حدث بعض التقاة أنه رأى في رابية صاحب مشهد من المشاهد "هذه راية البحر التيار به أستغيث وأستجير وبه أعوذ من النار".

وقال بعضهم من قصيدة في بعض آلهتهم:

يا سيدي ويا صفي الدين يا سندي يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري

أنت الملاذ لما أخشى ضرورته وأنت لي ملجأ من حادث الدهرِ

إلى أن قال:

وامنن علي بتوفيق وعافية وخير خاتمة مهما انقضى عمري

وكف عنا أكف الظالمين إذا امتدت بسوء لأمر مؤلم نكري

فإنني عبدك الراجي بودك ما أملته يا صفي السادة الغررِ

قال بعض العلماء: "فلا ندري أي معنى اختص به الخالق تعالى بعد هذه المنزلة وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر فان المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبدوه لشيء من هذا." انتهى.١

وكذلك من نهج على نهج البردة ممن جاء بعده، وحاكاه في هذا الغلو، هذا كله من الغلو في مدح النبي ﷺ ومن الإطراء.

أما المؤمنون فيمدحون الرسول ﷺ بما فيه من الصفات الحميدة والرسالة والعبودية، كما أرشد إلى ذلك النبي ﷺ، كما عليه شعراء الرسول صﷺ الذين مدحوه وأقرّهم، مثل: حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زُهير، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم من شعراء الرسول ﷺ الذين مدحوه بصفاته ﷺ، وردوا على الكفّار والمشركين.

هذا هو المدح الصحيح المعتدل، الذي فيه الأجر وفيه الخير، وهو وصفه ﷺ بصفاته الكريمة من غير زيادة ولا نُقصان. ٤

كأن يقال خير الرسل و خير الخلق و خاتم النبيين، مبلغ الرسالة. ٦

قوله هنا ((كما أطرت النصارى ابن مريم))

- الكاف هنا بعض الناس يظن أنها كاف المثلية؛ يعني لا تطروني بمثل ما أطرت النصارى ابن مريم ويقول: إن النصارى أطرت ابن مريم في شيء واحد وهو أنْ قالوا إنه ولد لله جل وعلا. والنبي عليه الصلاة والسلام فهي أن تجعل له رتبة البنوة، فإذا كان كذلك ما عداه فجائز وهذا هو قول الخرافيين، كما البوصيري في هذا المقام:

دَعْ ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم كما شئت فيه واحتكم

يعني لا تقل إنه ولد لله أو أنه ابن الله، وبعد ذلك قل ما شئت غير ملوم وغير مثرّب عليك.

- الوجه الثاني: -وهو الفهم الصحيح وهو الذي يدل عليه السياق- أن الكاف هنا هي كاف القياس، لا تطروني إطراءً كما أطرت النصارى ابن مريم، وكاف القياس هي كاف التمثيل الناقص بأن يكون هناك شَبَهٌ بين ما بعدها وما قبلها في أصل الفعل ((لا تطروني كما أطرت)) فهنا نهى أن يطرى عليه الصلاة والسلام كما حصل أن النصارى أطرت، فهو تمثيل للحدث بالحدث، لا تمثيل أو نهي عن نوع الإطراء، قال ((لا تطروني كما أطرت)) فنهى عن إطراءٍ له عليه الصلاة والسلام لأجل أن النصارى أطرت ابن مريم فقادهم ذلك إلى الكفر والشرك بالله وادعاء أنه ولد لله جل وعلا، ولهذا قال ((إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)). ٣

والدليل على أن المراد هذا قوله: ((إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله)). ٥

وأعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهي:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فهذا حق مشترك، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] هذا خاص بالله -سبحانه وتعالى.- والذين يغلون في الرسول ﷺ يجعلون حق الله له، فيقولون: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أي: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنه شرك، لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به، بخلاف الإيمان، فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله. ه

ونهى عن الإطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: ((كما أطرت النصارى عيسى بن مريم))، لأن الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله، فيقول: يا رسول الله! المدد، المدد، يا رسول الله! أغثنا، يا رسول الله! بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعيني رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة مولياً ظهره البيت مستقبلاً المدينة، لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله. ه

فأبى عباد القبور إلا مخالفة لأمره وارتكابا لنهيه وناقضوه اعظم المناقضة وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبدالله ورسوله وأنه لا يدعى ولا يستغاث به ولا ينذر له ولا يطاف بحجرته وأنه ليس له من الأمر شيء ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله أن في ذلك هضماً لجنابه وغضا من قدره فرفعوه فوق منزلته وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى أو قريبا منه فسألوه مغفرة الذنوب وتفريج الكروب.

وقد ذكر شيخ الإسلام في كتب الاستغاثة عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله وصنف فيه مصنفاً وكان يقول إن النبي ﷺ يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله وحكي عن آخر من جنسه يباشر التدريس وينسب إلى الفتيا أنه كان يقول أن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر الله عليه وإن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن ثم انتقل في ذرية الحسن إلى أبي الحسن الشاذلي وقالوا هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع ومن هؤلاء من يقول في قول الله تعالى ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤٢] إن الرسول ﷺ هو الذي يسبح بكرة وأصيلا ومنهم من يقول نحن نعبد الله ورسوله فيجعلون الرسول معبودا.

قلت وقال البوصيري: -فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم- فجعل الدنيا والآخرة من جوده وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرس وكل ذلك كفر صريح ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته عليه السلام وتعظيمه ومتابعته وهذا شأن اللعين لابد وأن يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام اتباع كل ناعق الذين لم يستضيؤا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق لأن هذا ليس بتعظيم فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه فإن التعظيم بالقلب ما يتبع اعتقاد كونه عبداً رسولاً من تقديم محبته على النفس والولد والوالد والناس أجمعين.

ويصدق هذه المحبة أمران:

- أحدهما تجريد التوحيد فإنه ﷺ كان أحرص الخلق على تجريده حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات حتى قال له رجل ما شاء الله وشئت قال: ((أجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده)) ونهى أن يحلف بغير الله وأخبر أن ذلك شرك ونهى أن يصلى إلى القبر أو يتخذ مسجدا أو عيدا أو يوقد عليه سراج بل مدار دينه على هذا الأصل الذي هو قطب رحا النجاة ولم يقرر أحد ما قرره ﷺ بقوله وفعله وسد الذرائع المنافية له فتعظيمه ﷺ بموافقته على ذلك لا بمناقضته فيه.

– الثاني: تجريد متابعته وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه والرضى بحكمه والانقياد له والتسليم والاعراض عما خالفه وعدم الالتفات إلى ما خالفه حتى يكون وحده هو الحاكم المتبع المقبول قوله المردود ما خالفه كما كان ربه تعالى وحده هو المعبود المألوه المخوف المرجو المستغاث به المتوكل عليه الذي إليه الرغبة والرهبة الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد ومغفرة الذنوب الذي من جوده الدنيا والآخرة الذي خلق الخلق وحده ورزقهم وحده ويبعثهم وحده ويغفر ويرحم ويهدي ويضل ويسعد ويشقي وحده وليس لغيره من الأمر شيء كائنا من كان لا النبي ﷺ ولا جبريل عليه السلام ولا غيرهما فهذا هو التعظيم الحق المطابق لحال المعظم النافع للمعظم في معاشه ومعاده والذي هو لازم إيمانه وملزومه.

أما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به عليه ربه وأنثى على نفسه من غير غلو ولا تقصير كما فعل عباد القبور فإنهم غلوا في مدحه إلى الغاية.

وأما التعظيم بالجوارح فهل العمل بطاعته والسعي في إظهار دينه ونصر ما جاء به وجهاد ما خالفه. وبالجملة فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما عنه نهى وزجر والموالاة والمعاداة والحب والبعض لأجله وتحكيمه وحده والرضى بحكمه وأن يتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم إلى أقواله فما وافقها من قوله ﷺ قبله وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه والله سبحانه يشهد وكفى به شهيدا وملائكته ورسله وأولياؤه أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك والله المستعان. ١

وقال: قال رسول الله ﷺ: ((إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)).

هكذا ذكره المصنف رحمه الله من غير أن يذكر راويه، ومن غير أن يعزوه إلى مخرّج من أصحاب الكتب، بل جعل مكان ذلك بياضاً.

والحديث رواه ابن عباس، وخرّجه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، وابن ماجه في سننه.
وهذا حصل في مُنْصَرَفه ﷺ في حجة الوداع من مزدلفة إلى منى من أجل رمي جمرة العقبة، ولما كان في الطريق بين مزدلفة ومنى قال لابن عباس ((التقط لي الحصى))، فلقط له سبع حصيات مثل حصى الخَذَف، وهي الصغار التي تُخْذَف على رؤوس الأصابع، وهي أكبر من الحِمَّص بقليل، فأخذها ﷺ بيده الكريمة، ثمّ نفضها والناس ينظرون إليه، ثمّ قال ﷺ: ((أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو))، وهذا يدل على أن الواجب علينا أن نتقيد بالعبادة كما جاءت.
فـ ((إياكم)) هذه كلمة تحذير.
((والغلو)) تقدم معناه، وهو: الزيادة على الحد المشروع، وهذا لا يجوز، وهو مردود وهلاك، بل نتقيّد بضوابط العبادة كما جاءت في سنة رسول الله ﷺ، وليس لنا تدخّل في تحديد العبادة ومواقيتها وصفاتها، وهيئاتها، وإنما يتبع في هذا ما دلّ عليه الدليل من كتاس الله وسنة رسوله ﷺ، علينا الامتثال فقط.
((فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)) مثل النصارى غلو في عيسى عليه السلام، يعني: فأخرجهم الغلو من الدين إلى الكفر -والعياذ بالله- فهلكوا، وهم يريدون النجاة، لكن لما كانت طريقتهم غير مشروعة لم تحصل لهم النجاة، وإنما حصل لهم الهلاك، فكل أحد يريد النجاة من غير أن يسلك طريقها فإنه هالك، لا نجاة إلاّ بإتباع الرسول ﷺ، مهما كلّف الإنسان نفسه إذا خالف منهج الرسول ﷺ فإنه غالٍ وهالك، وهو مشابه لمن كان قبلنا من الغلاة.
ففي هذا: التحذير من الغلو في العبادات، والغلو في الأشخاص، والغلو في كل شيء، فالغلو في كل شيء ممنوع، والمثل يقول: "كل شيء جاوز حدّه انقلب إلى ضده"، كل غلو فهو طريق هلاك، وإنما طريق النجاة هو الاعتدال والاستقامة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا ﴾ [هود:١١٢].
وما هلكت الخوارج والمعتزلة وعلماء الكلام إلاّ بسبب غلوهم.

فالخوارج عندهم عبادة عظيمة، حتى إن الصحابة يحقرون صلاتهم إلى صلاتهم، وعندهم قراءة للقرآن كثيرة، لكنهم لم يقتصروا على المشروع، زادوا -والعياذ بالله- حتى هلكوا، وكل من فعل هذا فإنه يهلك، والتجربة موجودة، وما وصل أحد من المتنطّعين والغلاة إلى النتيجة المطلوبة أبداً، وإنما يكون سبيلهم الهلاك في الدّنيا والآخرة فهذا مما يحذّر منه في هذا الزمان، لأن ظاهرة الغلو والتّنطع كثرت إلاّ من رحم الله عزّ وجلّ، وذلك لما فشا الجهل في الناس جاء الغلو وجاءت المخالفات بتزيين شياطين الإنس والجن.

فالواجب علينا أن نحذر من هذا، وأن نلزم طريق الاستقامة في كل شيء.

أما المعتزلة فغلوا في تنزيه الله، حتى نفو صفات الله التي وصف بها نفسه.

والممثلة غلو في إثبات الصفات، حتى شبّهوا الخالق بالمخلوق، فغلو في ذلك، فَضَلّوا -والعياذ بالله-.

وأهل السنّة والجماعة توسطوا؛ فأثبتوا لله الأسماء والصفات كما جاءت، تنزيهاً بلا تعطيل، هذا نفي للغلو في التنزيه، وإثباتاً بلا تمثيل، هذا نفي للغلو في الإثبات، فهم توسطوا.

أما المعتزلة فهم غلو في التنزيه حتى نفو الصفات.

والممثلة غلو في الإثبات حتى شبهوا الله بخلقه، تعالى الله عما يقولون.

والخوراج والمعتزلة غلوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى خرجوا على أئمة المسلمين، ومن أصولهم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بمعنى: الخروج على الأئمة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلوب، ولكن في حدود الشريعة، قال ﷺ: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه)) فجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب حسب الاستطاعة، ولم يأمر بالخروج على الولاة، ونقض البيعة، والتفريق بين المسلمين، وهذه طريقة المعتزلة والخوراج.

والخوارج خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وانتهى بهم الأمر إلى أن قتلوه رضي الله عنه، هذا كله بسبب الغلو، بزعمهم أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فسبب لهم هذا الهلاك، وهذا مصداق قوله ﷺ ((فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)).

فالغلو هلاك في الدّنيا، وهلاك في الآخرة، ولا يأتي بخير أبداً، ودين الله بيّن الغالي فيه والجافي عنه، دين الله وسط: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة:١٤٣]، وسط بين الغلو وبين الجفاء، وهذه الأمة عدول خيار، ليس فيهم غلو، وليس فيهم جفاء، وإنما فيهم الاعتدال، هذا هو طريق النجاة دائماً وأبداً. ٤

((إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)): هذا نهي عن الغلو بأنواعه، وأن من قبلنا إنما أهلكهم الغلو؛ أهلكهم من جهة الدين، وأهلكهم -أيضاً- من جهة الدنيا، فالغلو سبب لكل شر، والاقتصاد سبب في كل فلاح وخير، والغلو منهي عنه بجميع صوره، في الأقوال والأعمال يعني: في جميع أقوال القلب وأعماله، وكذلك أقوال اللسان وأعمال الجوارح، فالغلو سبب لهلاك العبد في دينه ودنياه. ٣

قال شيخ الإسلام: "هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار وهو داخل فيه مثل الرمي بالحجارة الكبار بناء على أنه أبلغ من الصغار ثم علله بما يقتضي مجانبة هديهم أي هدي من كان قبلنا إبعادا عن الوقوع فيما هلكوا به وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك" [1]. ١

وهل الحصر في قوله: ((فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)) حقيقي أو إضافي؟

الجواب: إن قيل: إنه حقيقي، حصل إشكال، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبي ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: ((إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد))[2]، فهنا حصران متقابلان، فإذا قلنا: إنه حقيقي بمعنى أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة، صار بين الحديثين تناقض.

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٠٦)

[2] البخاري: كتاب الأنبياء/ باب قول الله تعالى: ﴿أم حسب أنَّ أصحاب الكهف﴾، ومسلم: كتاب الحدود/ باب قط السارق الشريف وغيره.

وإن قيل: إن الحصر إضافي، أي: باعتبار عمل معين، فإنه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لئلا يكون في حديثه ﷺ تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافياً، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار الغلو في التعبد في الحديث الأول، وفي الآخر يقال من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث يحذر الرسول ﷺ أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة، فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ﷺ، والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا، وما كان سبباً للهلاك كان محرماً .

أقسام الناس في العبادة:

والناس في العبادة طرفان ووسط، فمنهم المفرط، ومنهم المفرط، ومنهم المتوسط.

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلاً لا يميل إلى هذا ولا إلى هذا هذا هو الواجب، فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطاً بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة، منها: الغلو في العقيدة، ومنها: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي:

أما الغلو في العقيدة، فمثل ما تشدق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإن أهل الكلام تشدقوا وتعمقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعاً، حتى أدى بهم هذا التعمق إلى واحد من أمرين: إما التمثيل، أو التعطيل.

إما أنهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنى إثبات الصفات، فغلوا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفى الله عن نفسه، أو عطلوه وقالوا: هذا معنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أن إثبات الصفات تشبيه، فنفوا ما أثبته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك، فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه، فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيد على ذلك، فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين، صاروا يتعمقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبداً، حتى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردها المتأخرون من هذه الأمة على النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات، فهو التشدد فيها، بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: إن من فعل كبيرة من الكبائر، فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة، فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر، فهذا تشدد أدى إلى الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئاً ، وإنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ لأنه لا يختلف الناس في الإيمان حتى إنهم ليقولون: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن الله كفره، قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان، ولا شك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر.

وأما الغلو في المعاملات، فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة، وأنه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفية، حيث قالوا: من اشتغل بالدنيا، فهو غير مريد للآخرة، وقالوا: لا يجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدد تساهل من قال: يحل كل شيء ينمي المال ويقوي الاقتصاد، حتى الربا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء -والعياذ بالله- متطرفون بالتساهل، فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلساً أو فلسين، وهذا لا شك أنه تطرف.

والتوسط أن يقال: تحل المعاملات وفق ما جاست به النصوص، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فليس كل شيء حراماً، فالنبي ﷺ با ع واشترى، والصحابة ﭫ يبيعون ويشترون، والنبي ﷺ يقرهم.

وأما الغلو في العادات، فإذا كانت هذه العادة يخشى أن الإنسان إذا تحول عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة، فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلى عادة جديدة، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلى عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولى، فهذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحداً تمسك بعادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها نقول: هذا في الحقيقة غال ومفرط في هذه العادة.

وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع في العادة التي قد تخل بالشرف أو الدين، فلا يتحول إلى العادة الجديدة. ٥

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ((هلك المتنطعون)) قالها ثلاثاً.

قال "ولمسلم" يعني روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه.

"عن ابن مسعود" عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، الصحابي الجليل، والعالم الكبير، الذي يُعد من أكابر علماء الصحابة، وإليه المرجع في الفتوى، ورواية الحديث، وغير ذلك، فهو من أكابر الصحابة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، رضي الله تعالى عنه، وكان – أيضاً– من أشد الناس تحذيراً من البدع "والغلو" ومواقفه من المبتدعة مشهورة، وكلماته رضي الله تعالى عنه في ذلك مأثورة.

"أن رسول الله ﷺ قال((هلك المتنطعون)) قالها ثلاثا" ٤

المتنطع: هو الغالي المتشدد المتكلف الذي يزيد في الأمور ولا يكتفي بالحد المحدود. ٦

((هلك المتنطعون)) يعني الذين تنطعوا فيما يأتون به –في أفعالهم أو أقوالهم–، وهم الذين جاوزوا الحد في ذلك، وابتغوا علم شيء أو تكلفوا شيئاً لم يأذن به الله، فزادوا عما أذن لهم فأتوا بأشياء لم يؤذن لهم فيها.

والتنطع والإطراء والغلو متقاربة يجمعها الغلو؛ الغلو يشمل الإطراء ويشمل التنطع، فكل تنطع وكل إطراء غلو، والغلو اسم جامع لهذه جميعاً. ٣

المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعال، فهو هالك، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة، فبعض الناس يكون بهذه الحال، حتى إنه ربما يقترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن به الكبر، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه فتسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

والتنطع بالأفعال كذلك أيضاً قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبر، ولهذا قال: ((هلك المتنطعون)).

والتنطع أيضاً في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها، فهو أيضاً من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع في صفات الله تعالى والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة ﷺ، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصاً على العلم، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم. ٥

المتنطعون: جمع متنطع، وأصل التنطع هو التقعّر في الكلام إظهاراً للفصاحة، هذا هو أصل التنطع في اللغة. والمراد هنا: التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال، والتنطع في العبادة.
والتنطع في الكلام معناه: أن يتكلم الإنسان بالكلمات الغريبة من اللغة التي لا يفهمها الناس، فيأتي بأسلوب وألفاظ من وحشي اللغة لا يعرفها النّاس. ٤
قال النووي: فيه: كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشى اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم. [١]١
وكذلك من التنطع في الكلام: أن يخاطب الحاضرين بأشياء لا يفهمونها، فالنّاس بحاجة إلى أن يبيّن لهم عقيدتهم وعبادتهم وطهارتهم ومعاملاتهم، ثمّ يذهب يتكلم في أشياء بعيدة عنهم، بل بعيدة من مجتمعهم، يتكلم في أمور السياسة، والأمور البعيدة، وأمور الدول، وأمور وسائل الإعلام، وأمور بعيدة، العوام لا يعرفون منها شيئاً ، ولا يستفيدون منها شيئاً ، ويخرجون من عنده بجهلهم، لا يعرفون أمور دينهم، بل منهم من لا يعرف كيف يصلي، منهم من لا يعرف كيف يتوضأ، ومنهم من لا يعرف كيف يغتسل من الجنابة، فيخرجون بجهلهم، وما انتفعوا بهذا الكلام البعيد الغريب عن أسماعهم.. هذا من التنطع.
وغرض المتكلم أن يبيّن للناس أنه فاهم، وأنه مثقّف ولو على حساب الحاضرين، ولو ما فهموا، ولو ما عرفوا شيئاً .
وهذا من التنطع.
والمطلوب من الخطيب والمحاضر والمتكلم والمدرس: أن يتكلم في حدود ما يفهمه الحاضرون، وما هم بحاجة إليه في أمور دينهم، وفي أمور معاملاتهم وأخلاقهم، هذا هو المطلوب.
وأن يكون قصده نفع الحاضرين، وتعليم الحاضرين، لا يكون قصده إظهار شخصيته، وإظهار فصاحته، فهذا هالك كما قال النبي ﷺ: ((هلك المتنطعون)).

---

[١] رياض الصالحين ص ٣٩٣

فلنحذر من هذا حينما نتكلم في درس، حينما نخطب في الجمعة، أو عيد أو استسقاء، حينما نلقي محاضرة، علينا أن نراعي حالة الحاضرين، وأن نأتي من الكلام بما يفهمونه، وما يستفيدون منه، وأيضاً يكون بأسلوب سهل، لا نتعمّد المجيء بأساليب لا يفهمونها، وكلمات لا يفهمونها، بل يختار الموضوع المناسب، والأسلوب المناسب، واللغة التي يفهمونها. هذا الذي يريد الخير للناس، ويريد تعليم الناس.

أما الذي يريد أن يُظهر نفسه على حساب الناس، فهذا هو المتنطع، وهذا لا يفيد شيئاً، ويَخرج كما دخل من غير فائدة.

فعلينا أن نتنبّه لذلك، لئلا نكون من المتنطعين في الكلام.

وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: ﴿حدثوا النّاس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟﴾ .

أما التنطع في الاستدلال فهو: طريقة أهل الكلام وأهل المنطق الذين عدلوا عن الاستدلال بالكتاب والسنّة إلى الاستدلال بقواعد المنطق، ومصطلحات المتكلمين.

والمنطق هذا من أين جاء؟، وقواعد المنطق من أين جاءت؟، جاءت من اليونان، استجلبوها واستعملوها في الإسلام، وتركوا الاستدلال بالكتاب والسنّة، وقالوا: إن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين، وإنما الذي يفيد اليقين هو الأدلة العقلية -بزعمهم-، فبذلك هلكوا.

الواجب أن يكون الاستدلال بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنّة وإجماع المسلمين والقياس الصحيح كما عليه علماء أهل السنّة والجماعة، ولهذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "حكمي في أهل الكلام: أن يضربوا بالجريد والنعال، وأن يطاف بهم في القبائل، وأن يقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنّة واشتغل بعلم الكلام."

فمن هؤلاء من يترك كلام الله وكلام رسوله ويأتي بقواعد المنطق، حتى في العقائد وهو ما يسمونه الآن علم التّوحيد، يسمون علم المنطق، وعلم الكلام، علم التّوحيد، ولذلك وقعوا في الهلاك، وضلوا وأضلوا، وقد انتهى أمرهم إلى الحيرة، كما شهد بذلك أكابرهم، وبعضهم عند

الوفاة أشهد الحاضرين بأنه مات وهو لا يعرف شيئاً ، مع أنه أفنى عمره في علم الكلام والجدل والمنطق، هذا مآل المتنطعين -والعياذ بالله-، وشهاداتهم على أنفسهم موجودة، مما يدل على صدق قول الرسول ﷺ: ((هلك المتنطعون)).

أما التنطع في العبادة فهو كما سلف، هو: أن يزيد الإنسان في العبادة على الحد المشروع، وهذه رهبانية النصارى، أما الحد المشروع فهو كما قال ﷺ: ((أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، ومن رغب عن سنتي فليس مني)) هذا هو الاعتدال، وأما التبتّل وعدم التزوج، والصيام دائماً ولا يُفطر، والصلاة كل الليل ولا ينام، هذا كله من الغلو ومن التنطع الذي يَهْلك صاحبه كما هلكت النصارى في رهبانيتهم، والنبي ﷺ حذّر من الغلو، وحذّر من رهبانية النصارى، وأمر بالاعتدال والتوسط، وقال ((هذا الدين متين، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾))، وقال ﷺ:)) إن المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى ((والمنبت هو: الذي يكلّف نفسه بالسير ولا يستريح ولا يريح راحلته، هذا ينبت، يعني: ينقطع وتموت راحلته، ويقف في وسط الطريق:)) فلا ظهراً أبقى ((لأن راحلته ماتت، ولا أرضاً قطع لأن المسافة باقية. أما لو أخذ الطريق على مراحل، وشيئاً فشيئاً ، وأراح نفسه، وأراح راحلته لقطع الطريق، وبلغ المقصود ولهذا قال ﷺ أوغلوا فيه برفق)).

فالحاصل؛ أن التنطع في العبادة هو: الزيادة فيها عن الحد المشروع، والمطلوب أن الإنسان يتوسط في العبادة من غير زيادة، ومن غير نقصان. ٤

ونبيّن هنا ما يُستفاد من هذه الأحاديث باختصار:

المسألة الأولى: التحذير من الغلو في مدحه ﷺ، لأن ذلك يؤدي إلى الشرك، كما أدى بالنصارى إلى الشرك.

المسألة الثانية: فيه الرد على أصحاب المدائح النبوية التي غلوا فيها في حقه ﷺ، كصاحب البردة، وغيره.

المسألة الثالثة: فيه النهي عن التشبه بالنصارى، لقوله: ((كما أطرت النصارى ابن مريم)).

ومن الغلو في حقه ﷺ إحياء المولد كل سنة، لأن النصارى يحيون المولد بالنسبة للمسيح على رأس كل سنة من تاريخهم، فبعض المسلمين تشبّه بالنصارى فأحدث المولد في الإسلام بعد مضي القرون المفضلة، لأن المولد ليس له ذكر في القرون المفضلة كلها، وإنما حدث بعد المائة الرابعة، أو بعد المائة السادسة لما انقرض عهد القرون المفضلة، فهو بدعة، وهو من التشبه بالنصارى.

المسألة الرابعة: فيه مشروعية مدحه ﷺ بصفاته الكريمة: عبد الله، ورسوله، الداعي إلى الله، بلّغ البلاغ المبين، جاهد في الله حق جهاده، كل هذا من صفاته ﷺ؛ فذكره طيّب.

المسألة الخامسة: يُستفاد من ذلك: كمال شفقته ﷺ على أمته، وأنه حذّرها من الإطراء في حقه ﷺ، وحذّرها من الغلو، وحذّرها من التنطع.

ثلاثة أساليب جاء بها ﷺ: الإطراء والغلو والتنطع. نوّعها ﷺ من باب التأكيد والتحذير من الغلو.

المسألة السادسة: فيه أن من نهى عن شيء فإنه يذكر البديل الصالح عنه إن كان له بديل، فإنه ﷺ لما نهاهم عن الإطراء قال ((إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)) هذا البديل الصالح.

المسألة السابعة: في الحديث: النهي عن الغلو في العبادات، ومنها حصى الجمار، قال فيها ﷺ ((إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو))، والغلو في العبادات، هو: الزيادة فيها عن الحد المشروع: كميّة وكيفيّة ووقتاً، إلى غير ذلك، نحن لا نُحدث شيئاً من عند أنفسنا.

والبدعة تنقسم إلى قسمين: بدعة حقيقية، وبدعة إضافية.

البدعة الحقيقية: إذا أُحدث شيء لا أصل له، مثل المولد والتبرك بالآثار.

والإضافية: أن نُحدِث للعبادة المشروعة وقتاً أو صفة لم يشرعها الله ورسوله، كما لو قلنا: ليلة النصف من شعبان يصلون النّاس ويتهجّدون، أو نصوم النصف من شعبان.

فالصيام مشروع، وقيام الليل مشروع، لكن إذا حدّدناه بوقت لا دليل عليه فهذا بدعة إضافية، لأن أصل العبادة مشروع، ولكن تقييدها بوقت محدّد، منه إضافة إلى العبادة وهي غير مشروعة، فهذه بدعة تسمى إضافية.

ذكر الله مشروع؛ التسبيح والتهليل والتكبير، لكن إذا قلنا للناس: سبِّحوا ألف تسبيحة، كبروا ألف تكبيرة، قولوا: كذا ألف مرة بدون دليل. فهذا يُعتبر بدعة إضافية.

المسألة الثامنة: فيه التحذير من التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال، والتنطع في العبادة، وعرفنا بماذا يكون التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال، والتنطع في العبادة.

المسألة التاسعة: فيه تكرار النصيحة حتى ترسخ وتثبت، لأن النبي ﷺ كرّر قوله: ((هلك المتنطعون ((قالها ثلاثاً، من أجل أن ترسخ هذه النصيحة، وتثبت في قلوب السامعين.

والله تعالى أعلم. ٤

فالشيخ رحمه الله في هذا الباب بيّن أن سبب كفر بني آدم وسبب تركهم دينهم هو الغلو في الصالحين بأن جاوزوا الحد فيهم.

جاوز قوم نوح الحد في الصالحين فيهم فعكفوا على قبورهم وألهوها فصارت آلهة.

والنصارى غلت في رسولهم عيسى عليه السلام وفي الحواريين وفي البطارقة حتى جعلوهم آلهة مع الله جل وعلا يستغيثون بهم ويؤلهونهم ويسألونهم ويعبدونهم.

وكذلك في هذه الأمة جعل للنبي عليه الصلاة والسلام نصيب من خصائص الإله وهذا هو عين ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله ((لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن ريم إنما عبد فقولوا عبد الله ورسوله)). ٣

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غيّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة: النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم) فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

أي: بما مر من تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام. وهذا حق، فإن الإسلام المبني على التوحيد خالص غريب، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلا تجد بلداً مسلماً إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهماً، مثل قبر الحسين بن علي ﷺ، فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب، فصار الحسين إما أنه أربعة رجال، أو مقطع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح، فالمهم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام أي في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويحج إليها وتقصد، ولكن بتوفيق الله -سبحانه وتعالى- أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله الحمد على التوحيد الخالص. ٥

الثانية: معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين. وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواماً صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله، ففيه الحذر من الغلو في الصالحين. ٥

الثالثة: أول شيء غيّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: "مع معرفة أن الله أرسلهم"، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم. ٥

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

أي: أن النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع تردها، وكذلك الفطر السليمة تردها، لأنها الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فالفطر السليمة لا تقبل تشريعاً إلا ممن يملك ذلك. ٥

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أن من أراد تقوية دينه ببدعة، فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها، لأنها تعطي الإنسان نشاطاً غير مشروع في وقت معين، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع فاترين في الأمور المشروعة الواضحة ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا مما يدل على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زينها أصحابها، فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً، لأن النبي ﷺ يقول: ((كل بدعة ضلالة))[1].

---

[1] مسلم: كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة.

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده ﷺ أصلاً من السنة، وهو أن النبي ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: ((ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل على فيه))[١]، وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: ((إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على الله، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم)).[٢]

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هو صوم وإمساك، أما هؤلاء الذين يجعلون له الموالد، فاحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أن هذا اليوم إذا صامه الإنسان، فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه على فرض أن يكون هذا أصلاً، فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد، لأن العبادات توقيفية، ولو كان الاحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعاً لبينه النبي ﷺ، إما بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أن هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك، فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة، لأنه لم يكن معروفاً على عهد النبي ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه.

---

[١] مسلم: كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

[٢] الترمذي: كتاب الصوم/ باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس، ٣/٩٤، وقال: "حديث حسن غريب".

مسألة حكم الاحتفال بعيد ميلاد الأطفال:

فائدة: كل شيء يتخذ عيداً يتكرر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعاً، فهو من البدع، والدليل على ذلك: أن الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنهم شبهوها بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام لا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلا الأعياد الشرعية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع، وهو يوم الجمعة.

وليس هذا من باب العادات لأنه يتكرر، ولهذا لما قدم النبي ﷺ فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما، قال: ((إن الله أبدلكما بخير منهما: عيد الأضحى وعيد الفطر))[1]، مع أن هذا من الأمور العادية عندهم. ٥

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

وقد سبق ذلك وبيان أنهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمي هذا الأمر الذي هو عليه.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

هذه العبارة تقيد من حيث كون آدمياً بقطع النظر على من يمن الله عليه من تزكية النفس، فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

قوله: "جبلة" على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه، أي: يخلق عليه ويطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكى نفسه أو دساها.

---

[1] مسند الإمام أحمد (١٠٣/٣)، وسنن أبي داود: كتاب الصلاة/ باب صلاة العيدين.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح، فإنه يرتقي عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦]، فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدى، فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية، كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم، كأبي الحسن الأشعري، كان معتزلياً، ثم كلابياً، ثم سنياً، وابن القيم كان صوفياً، ثم من الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية، فهداه الله على يده حتى كان ربانياً.٥

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

قال أهل العلم: إن الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إن البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً ، حتى يصل إلى الكفر، واستدلوا بقوله ﷺ: ((كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)).

وقالوا أيضاً: "إن المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية".

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم على القلب، فتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب، صقل قلبه وبيض[1]، وإلا، فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلماً.

[1] مسند الإمام أحمد (٢/٢٩٧) وصححه أحمد شاكر، والترمذي: كتاب التفسير/ باب ﴿ويل للمطففين﴾، ٦/٦٩. وقال: "حسن صحيح" ،. والحاكم(٢/٥١٧) – وصححه ووافقه الذهبي.

وكذلك حذر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضاً، فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي[١]، فالمعاصي لها تأثير قوي على القلب، وأشدها تأثيراً الشهوة فهي أشد من الشبهة، لأن الشبهة أيسر زوالاً على من يسرها الله عليه، إذ إن مصدرها الجهل، وهو يزول بالتعلم.

أما الشهوة، وهي إرادة الإنسان الباطل، فهي البلاء الذي يقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى، لأن معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا كانت البدع غالبها شبهة، ولكن كثيراً منها سببه الشهوة، ولهذا يبين الحق لأهل الشهود من أهل البدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظن في نفسه ويملي عليه الشيطان أنه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك، فأبو الحسن الأشعري مضرب المثل في هذا الباب، فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السنة صار إماماً، فكل من رجع إلى الحق ازدادت منزلته عند الله –سبحانه–، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أن البدعة سبب للكفر، ولا يرد على هذا قول بعض أهل العلم، إن المعاصي بريد الكفر، لأنه لا مانع من تعدد الأسباب. ٥

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

وأنها أحب إلى ابليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها.١

لأن الشيطان هو الذي سول لهؤلاء المشركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير، لأنه يعرف أن هذه البدعة تؤول إلى الشرك.

---

[١] مسند الإمام أحمد (٣٣١/٥). وصححه الألباني في "الصحيحة" (٣٨٩/١).

وقوله: "ولو حسن قصد الفاعل"، أي: إن البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالماً أنها بدعة ولو حسن قصده، لأنه أقدم على المعصية كم يجيز الكذب والغش ويدعي أنه مصلحة، أما لو كان جاهلاً فإنه لا يأثم، لأن جميع المعاصي لا يأثم بها إلا مع العلم، وقد يثاب على حسن قصده، وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم"، فيثاب على نيته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضي، لكن لحسن نيته مع الجهل يكون له أجر، ولهذا قال ﷺ للرجل الذي صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلى ثانية: ((لك الأجر مرتين))[١]، لحسن قصده، ولأن عمله عمل صالح في الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع، لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة، فقد قال النبي ﷺ للذي لم يعد، ((أصبت السنة)).[٢]

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول ﷺ، لأنه اتهام له بالتقصير أو القصور، أي مقصر في الإخبار عن ذلك أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، أما إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أن هذا بدعة، فإنه يثاب على نيته ولا يثاب على عمله، لأن عمله شر حابط كما قال النبي ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد)).

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لبس عليهم هذه البدعة وغيرها، نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به، فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلهم.

---

[١] سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب في المتيمم يجد الماء بعد ما صلى، والحاكم (١/١٧٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، صحيح أبي داود (١/٦٩)

[٢] الحديث السابق (رقم ١)

ولهذا يوجد في مجاهل أفريقيا وغير من لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، فلو ماتوا لا نقول: إنهم مسلمون ونصلي عليهم ونترحم عليهم مع أنهم لم تقم عليهم الحجة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أما في الآخرة، فأمرهم إلى الله. ٥

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يؤول إليه.

هذا ما حذر منه النبي ﷺ، لأن الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها. ٥

الحادية عشر: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قرئ القرآن عند قبر رجل صالح، أو تصدق عند هذا القبر يعتقد أن لذلك مزية على غيره، فإن هذا من البدع، وهذه البدعة قد تؤدي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر. ٥

الثانية عشر: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنها تطلق على ما صنع ليعبد من دون الله، والحكمة في إزالتها سد ذرائع الشرك. ٥

الثالثة عشر: معرفة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله، فتجب معرفة هذه القصة، وأن أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة، فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة، والناس لو تدبرت أحوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية. ٥

الرابعة عشر: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عما كان في زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المرء أن يعتقد السيء حسناً، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

قوله: "واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال"، أي: من اعتقد أن الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنه مقرب إلى الله، فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لي ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهي عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو، فلا نهي فيه، والله أعلم. ٥

الخامسة عشر: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة. أي: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك. ٥

السادسة عشر: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك. أي: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنوا أنها تنشطهم على العبادة، وهذا ظن فاسد كما سبق. ٥

السابعة عشر: البيان العظيم في قوله ﷺ: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)) فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.

معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذي نهى عنه عليه الصلاة والسلام وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشد، حتى جعلوا النبي ﷺ المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة.

ومعنى: "**بلغ**"، أي: أوصل وبين. ٥

الثامنة عشر: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين. فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.٥

التاسعة عشر: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

أي: لم تعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نسي العلم واضمحل، ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أي العلم، وأن وجوه أمر ضروري للأمة، لأنه إذا فقد العلم، حل الجهل محله، وإذا حل الجهل، فلا تسأل عن حال الناس، فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه. ٥

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء، لم يبق إلى جهال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضاً: الغفلة والإغراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إن العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثر القراء الذين يقرؤون العلم ولا يعملون به، وقل الفقهاء الذين يعملون به، فبهذا يصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إن في جوده ضرراً على الأمة، لأن العامة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتاً غير عامل بما علم، ظنوا أن ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل، فإن الناس قد يطلبون العلم ويتلمسونه.

الخلاصة للباب:

بيان أن الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأن خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة، فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم، فلا يستوي الصالح والفاسد، بل ينزل كل منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه، فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س٢: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع، وسواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل، فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصة هذا من البدع.

وإنما اختلف السلف فيما إذا قُرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضاً أنها ليس بسنة، والسنة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إذا عَبَدَهُ)

(بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إذا عَبَدَهُ)

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ. فقَالَ: ((أُوْلَئِكَ إذا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ بَنُوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُوْلَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ))، فهَؤُلَاءِ جمَعَوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ، فِتْنَةَ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةَ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عنها قَالَت: لَمَا نَزَلَ برَسُول الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: ((لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليهود وَالنَّصَارى، اتّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً. أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بن عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: ((إِنِّي أَبْرَأُ إلى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَليلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بِكْرٍ خَليلاً، اَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَت فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ أَنَّهُ لَعَنَ –وَهُوَ فِي السِّيَاقِ– مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعَنى قَوْلِهَا: خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيه يُسَمَّى مَسْجِداً، كَمَا قَالَ ﷺ: ((جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً)). وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مرفوعاً: ((إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ))رَوَاهُ أَبُو حَاتِمْ فِي صَحِيحِه.

المؤلف رحمه الله في الباب الذي قبل هذا: التحذير من الغلو في الصالحين، وأنه سبب لكفر بني آدم، وتركهم دينهم، ذكر في هذا الباب الغلو في قبورهم، لأنه نوع من الغلو فيهم.
والتغليظ معناه :بيان شدّة الأمر، خلاف التسهيل أو التخفيف. ٤

هذا الباب مع الأبواب بعده في بيان أن النبي ﷺ كان حريصا على هذه الأمة وكان بالمؤمنين عليه الصلاة والسلام رءوفاً رحيماً، ومن تمام حرصه على الأمة أن حذرهم كل وسيلة من وسائل الشرك التي تصل بهم إلى الشرك، وسد جميع الذرائع الموصلة إلى الشرك، وغلظ في ذلك وشدّدَ فيه وأبدى وأعاد حتى إنه بيّن ذلك خشية أن يفوته تأكيده وهو في النزع وهو يعاني سكرات الموت عليه الصلاة والسلام.
فهذه الأبواب في بيان وسائل الشرك الأكبر، وأن الشرك الأكبر له وسائل وله ذرائع يجب سدها ويجب منعها رعاية وحماية للتوحيد؛ ولأن النبي عليه الصلاة والسلام غلّظ فيمن يفعلون شيئاً من تلك الوسائل أو الذرائع الموصلة إلى الشرك.
هذا الباب في بيان أحد الوسائل الموصلة إلى الشرك والذرائع التي يجب منعُها. ٣
قال رحمه الله (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح)، صورة ذلك: أن يأتي إلى قبر رجل صالح يعلم صلاحه –إما أن يكون من الأنبياء والمرسلين، أو أن يكون من صالحي هذه الأمة، أو صالحي أمة غير هذه الأمة– فيتحرّى ذلك المكان لكي يعبد الله وحده دون ما سواه. ٣
عمل عملاً تعبد الله به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك. ٥
فيأتي إلى هذا القبر أو يأتي إلى هذه البقعة لكي يعبد الله فيها رجاء بركة هذه البقعة، وهذا يروج عند كثيرين في أنّ ما حول القبور –قبور الصالحين أو قبور الأنبياء– مبارك وأن العبادة عندها ليست كالعبادة عند غيرها، والنبي عليه الصلاة والسلام غلّظ في ذلك مع أن المغلَّظ عليه لم يعبد إلا الله جل وعلا ولم يعبد صاحب القبر؛ لكنه اتخذ ذلك المكان رجاء بركته

ورجاء تنزل الرحمات -كما يقولون- ورجاء تنزل النسمات والفضل من الله عليه واختاره لأجل بركته؛ ولكنه لم يعبد إلا الله جل وعلا، ومع ذلك لعن النبي ﷺ ذلك الصِّنف الذين يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ٣

وقوله هنا (فيمن عبد الله) يعني لم يشرك بالله، عبد الله وحده، صلى لله مخلصاً، أو دعا لله مخلصاً، أو تضرّع واستغاث واستعاذ لله جل وعلا مخلصاً عند قبر رجل صالح؛ لكنه تحرى القبر لأجل البركة. ٣

"فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح" عبد الله بدعاء الله عند القبر رجاء الإجابة، يظن أن الدعاء في هذا المكان سبب للإجابة، أو بالصلاة، يظن أن الصلاة عند القبر سبب للإجابة، أو الذبح عند القبر، وإن كان الفاعل يعبد الله بهذه العبادات ولكنه فعلها عند القبر رجاء أن تُقبل، وأن العبادة عند القبر لها مزية عن العبادة في مكان آخر، فهذا مبني على ظن فاسد، لأن القبور ليست مكاناً للعبادة، وأن العبادة عندها وإن كانت خالصة لله فإنها سبب للشرك، ولهذا حذّر النبي ﷺ من العبادة عند القبور سداً للذريعة.

أما إذا كان يدعو القبر، ويستغيث بالميت؛ فهذا شرك أكبر.

وأما إذا كان يعبد الله مخلصاً له العبادة لكن عند القبر، فهذا وسيلة إلى الشرك، وطريق إلى الشرك، فهو محرّم، فكيف إذا عبده؟

والذي عليه القبوريون اليوم، أنهم يعبدون القبور صراحة؛ ويستغيثون بها، ويذبحون لها، وينادون الموتى: المدد يا فلان، المدد يا بدوي، المدد يا علي، يطلبون منهم المدد صراحة، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويصرفون لهم أنواعاً من العبادة، فهم داخلون فيمن عبد القبر. ٤

قال (فكيف إذا عبده؟) يعني هذا التغليظ جاء فيمن اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ومن أسرج على القبور أو من عظم القبور وعظم من فيها وعبد الله جل وعلا عندها؛ عبد الله وحده، جاء فيه اللعن وجاء فيه أنه من شرار الخلق عند الله.

فكيف إذا توجّه ذلك العابد، إلى ذلك القبر يدعوه، أو يرجوه، أو يخافه، أو يأمل منه، أو يستغيث به، أو يصلي له، أو يذبح له، أو يستشفع به؟ لاشك أن هذا أعظم وأعظم في التغليظ من عبادة الله وحده عند قبر رجل صالح. ٣

قال: (فكيف إذا عبده؟)، (عبده) يعني عبد القبر أو عبد الرجل؛ لأن العبادة –عبادة القبوريين– تارة تتوجه إلى القبر، وتارة تتوجه إلى صاحب القبر؛ بل وتارة توجه إلى ما حول القبر، فالأبنية المحاطة بالقبور في قبور الأولياء عندهم التي بنيت على القبور وصارت مشاهد تارة تتخذ تلك الستور الحديدية أنها آلهة، فإذا تمسحوا بها رجوا منها البركة واتخذوها وسيلة إلى الله جل وعلا، يعكفون عندها فيتخذون تلك المشاهد أوثاناً يعبدونها ويرجونها ويخافونها، وإذا ضم أحدهم إلى صدره تلك المشاهد أو الحديد أو الستور ونحو ذلك فكأنه صار مقرّبا عند الله وقبلت وسيلته تلك، وهذا نوع من أنواع اتخاذ المشاهد أوثاناً .

كذلك اتخاذ القبور أوثاناً ، أو اتخاذ الرجل الصالح الذي هو متبرئ من أولئك ومن عبادتهم له يتخذونهم آلهة مع الله إذا توجهوا إليهم بالعبادة، وقد علمنا أن العبادة معناها واسع، وأنه قد تكون بالصلاة له، أو بدعوته، بسؤاله، بطلبه كشف المدلهمات أو جلب الخيرات، أو الذبح له، أو وضع النذور له ونحو ذلك من أنواع العبادة.

وهذا هو الواقع عند أولئك الذين يعبدون الأوثان وقبور الصالحين. ٣

في (الصحيح) عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور.

فقال: ((أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله)) [1] فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

---

[1] البخاري: كتاب الصلاة/ باب بناء المساجد على القبر، ومسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

قال: "في الصحيح" يعني: في الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم.
"عن عائشة" أم المؤمنين، بنت أبي بكر الصديق.
"أن أم سلمة" اسمها: هند بنت أبي أمية المخزومية، القرشية، زوج أبي سلمة، هاجرت هي وزوجها أبو سلمة الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى المدينة، وتوفي أبو سلمة ﷺ في المدينة، فتزوجها رسول الله ﷺ فصارت من أمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنها.-
"أنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة" الكنيسة: هي معبد النصارى الذي يجتمعون فيه يوم الأحد لعبادتهم. أما الصومعة فهي معبد خاص لفرد من النصارى يخلو فيه، وينقطع عن الدنيا. فالصومعة للأفراد من النصارى، وأما الكنيسة فهي للجميع.
"وما فيها من الصور" يعني: من صور الصالحين.
((أولئكِ)) بالكسر خطاب لأم سلمة، ويجوز الفتح: أولئكَ ((خطاب للمذكر، ولكن الكسر أشهر، لأنه يخاطب امرأة.
((أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح)) هذا شك من الراوي: هل قال الرسول ﷺ رجل أو عبد، وهذا من تحرّيهم ﷺ في الرواية، وأنه لم يجزم باللّفظ الذي قاله النبي ﷺ.
((بنوا على قبره مسجداً)) أي: مصلى، فالمراد بالمسجد هنا: المصلى والمتعبَّد، يعني: اتخذوا عليه كنيسة يتعبّدون فيها، فسمي مسجداً. ٤
المسجد وهو مكان العبادة في اللغة بما يدخل فيه الكنيسة.
مكان العبادة يقال له مسجد، والمسجد مكان السجود، والسجود هو الخضوع والتذلل لله جل وعلا، فالمسجد يطلق على كل مكان يعبد فيه، كل مكان يتخذ لعبادة الله جل وعلا، كما قال النبي ﷺ ((جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً)) فمكان العبادة يقال له مسجد.
فالكنيسة هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام في شأنها بنوا على قبره مسجداً يعني مكان للعبادة. ٣
((وصوّروا فيه تلك الصور)).

جعلوا صورة ذلك العبد جعلوا على قبره أو فوق قبره على الحائط؛ لكي يدلوا الناس على عبادة الله بتعظيم ذلك الرجل الصالح وتعظيم قبره، فاتخذوا البناء على القبور الذي هو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر ومن البدع التي يحدثها الخلوف بعد الأنبياء، اتخذوا ذلك فوق القبور وتعبّدوا فيها ٣

أي: صور الصالحين، ينصبونها في هذا المكان، من باب الغلو في الصالحين وتخليد شخصياتهم، واتخاذ التماثيل تخليداً للشخصيات من هذا الباب، هو من باب تعظيم الصالحين، أو تعظيم العظماء، ولو كانوا من غير الصالحين كالرؤساء والسلاطين والملوك، وهذا لا يجوز في الإسلام، لأنه وسيلة إلى الشرك، ولاسيّما في مواطن العبادة، كالمساجد ومحلات العبادة، فهذا الأمر أشد.

ثم قال ﷺ ((أولئكِ شرار الخلّق عند الله)) فدلّ على أن من بنى المسجد على القبر، أو صوّر الصور ونصبها؛ أنه من شرار الخلق. وشرار: جمع شر، وهو أفعل تفضيل، والمراد به: أشد الناس شرًّا، فدلّ على أن الذي يبني المساجد على القبور أنه أشد الناس شرًّا –والعياذ بالله–. ٤

من هم شرار الخلق عند الله؟ هم الذين عظّموا الصالحين فبنوا على قبورهم مساجد، هل في هذا الحديث أنهم توجهوا بالعبادة لأولئك الصالحين؟ لا؛ إنما عظموا قبور الصالحين وجعلوا لهم صوراً. ٣

وفي الحديث الآخر الذي سيأتي: ((إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين ينبون المساجد على القبور)) لأنهم فتحوا للنّاس باب الشرك بهذا الفعل، وتسبّبوا في انحراف الأمة، وما حدث الشرك في هذه الأمة إلاّ بسبب البناء على القبور.

وأول من بنى على القبور في الإسلام –كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– هم :الشيعة، الفاطميون، ثمّ قلدهم من قلدهم من المنتسبين إلى السنّة من الصوفية وغيرهم، فبنيت المساجد على القبور في الأمصار.

ولا تزال الأمة الإسلامية تعاني من شر هذه القبور وفتنتها، وحدوث الشرك في الأمة، الذي لا يقره من يؤمن بالله ورسوله، لأنه شرك صُراح، وأصبحت هذه المساجد المبنية على القبور أوثاناً تُعبد من دون الله، ويظن أصحابها أن ذلك من الإسلام، وأن من أنكره فهو خارج عن الإسلام، كالذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، فهم شرار الخلق، وإن كانوا يزعمون في أنفسهم أن ذلك إصلاح، وأنهم خير الخلق.

ثم ذكر الشيخ عبارة لشيخ الإسلام ابن تيمية بعد الحديث وهي قوله "فهؤلاء" يعني: اليهود والنصارى.

"جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل" فتنة القبور هي الغلو في القبور، وتعظيم القبور حتى تتخذ متعبدات، هذه فتنة عظيمة في الأمم السابقة وفي هذه الأمة.

والفتنة الثانية: فتنة التماثيل، وهي فتنة قديمة كما في قصة قوم نوح، فقوم نوح إنما وقع الشرك فيهم بسبب نصب التماثيل، ووقع الشرك في اليهود بسبب تمثال العِجل الذي عمله السامري، ووقع الشرك في النصارى بسبب نصب الصليب على صورة المسيح بزعمهم، ويُخشى أن يقع الشرك في هذه الأمة بسبب نصب التماثيل للعلماء والعباد الصالحين، فهذه فتنة عظيمة، حذّر منها النبي ﷺ. ٤

وإنما سمي ذلك فتنة، لأنها سبب لصد الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك، فإنه من الفتنة، قال تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠]، أي: صدوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله. ٥

هذا نفهم منه التحذير عند الأمة أن يبنوا على قبر أحد مسجدا لأنه إن بُني على قبر أحد مسجد فإنه من بنى ذلك ودل الخلق على تعظيم ذلك القبر فإنه من شرار الخلق عند الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراع بذراع)). ٣

ومن فعل هذا الفعل فقد تشبه بالنصارى وعمل عملهم ومن تشبه بقوم فهو منهم. ٦
قال البيضاوي: "لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي ﷺ ومنع المسلمين عن مثل ذلك".
قال القرطبي: "وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عند قبورهم ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك سداً للزريعة المؤدية إلى ذلك".
قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور وهي التى أوقعت كثيرا من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم لكواكب ونحو ذلك فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبه أو حجر ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة "قال" وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها وأنه لعن من اتخذها مساجد فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه، وقد

صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي ان تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه."[١] ١

ولهما عنها قالت: "لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال –وهو كذلك–: ((لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً" [أخرجاه].

قال: "ولهما" أي: البخاريّ ومسلم.

"عنها قالت: لما نُزل برسول الله" يعني: نزل به الموت عليه الصلاة والسلام. ٤

أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه. ٥

"طَفِقَ" طَفِقَ: من أفعال الشروع عند أهل اللغة، أي: جعل يفعل كذا.

"يطرح خميصة" أي: يضعها، والخميصة: كساء له أعلام، أي فيه خطوط.

"على وجهه" يغطّي وجهه ﷺ بها وهو في هذه الحالة.

"فإذا اغتم بها" أي: ضيّقت نفسه –عليه الصلاة والسلام.–

"كشفها" من أجل أن يتنفّس.

"فقال –وهو كذلك"– يعني: في هذه الحالة الحرجة، لم يشتغل عن الدعوة إلى التّوحيد، وإنكار الشرك، ونصيحة الأمة، صلوات الله وسلامه عليه.

---

[١] ابن تيمية (اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٧٤)

والمناسبة: أنه لما شعر بالموت خشي على أمته أن تفعل عند قبره ما فعل من قبلها من الأمم عند قبور الأنبياء والصالحين، فلم يترك الفرصة تذهب، وإنما استغلها بالنصيحة للأمة – عليه الصلاة والسلام.

فإذا كان النبي ﷺ يحذّر من الشرك وهو في هذه الحالة، فهذا دليل على أن التحذير من الشرك أمر متعيّن، وأنه يجب على الدعاة أن يهتموا بهذا الأمر اهتماماً بالغاً قبل غيره، قبل أن يحثوا النّاس على الصلاة والصيام، وترك الربا، وترك الزنا، وترك شرب الخمر، قبل ذلك ينهوهم عن الشرك، لاسيّما إذا كان واقعاً في الأمة، فالسكوت عنه من الغش للأمة، فلابد أن يُبدأ به، وأن يُعمل على إزالته قبل كل شيء، لأنه إذا صلحت العقيدة صلحت بقية الأعمال.

أما إذا فسدت العقيدة فلا فائدة في الأعمال كلها، ولو ترك الربا، وتصدق بماله، وصلى الليل والنهار، وصام الدهر، وحج، واعتمر، وعنده شيء من الشرك الأكبر، فإن أعماله تكون هباءً منثوراً، لا فائدة منها، أما إذا كان موحّداً خالياً من الشرك، فلو وقع في الكبائر، ولو وقع في الزنا، ووقع في الربا، ووقع في المحرمات التي دون الشرك، فإنه يُرجى له المغفرة، وإن عذب بذنوبه فإنه لا يخلد في النار وهو مؤمن موحد، حكمه حكم المؤمنين، ولابد له من دخول الجنة بتوحيده وإيمانه، وإن كان ضعيفاً، أما إذا كان عنده شرك أكبر، فهذا لا فائدة في أعماله، لو ترك المحرمات كلها، وأدى الواجبات كلها ولم يتجنب الشرك، فإنه لا فائدة في أعماله كلها.

فكيف إذا نهتم بجوانب فرعية، أو جوانب جزئية، ونترك هذا الأمر الخطير يعجّ في جسم الأمة الإسلامية، ولا نحذّر منه، ولا ندعوا إلى تركه، ولا نسعى في إزالته عن الأمة؟؟ بحجة أننا نريد أن نجمع الأمة كما يقولون.

هذا هو صميم الدعوة، هذا هو الذي جاءت الرسل من أولهم إلى آخرهم للتحذير منه، كل رسول يقول لقومه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ [النساء:٣٦]، لان العبادة لا تنفع مع وجود الشرك، فهذا أمر عظيم.

قوله ﷺ: ((لعنة الله على اليهود والنصارى)) اللعنة هي: الطرد والإبعاد من رحمة الله. ٤
وذلك يدل على أنهم فعلوا كبيرة من كبائر الذنوب وهذا كذلك؛ فإن البناء على القبور واتخاذ قبور الأنبياء مساجد هذا من وسائل الشرك وهو كبيرة من الكبائر. ٣
واليهود: الأمة المغضوب عليها، والنصار: الأمة الضالة.
﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧] المغضوب عليهم: اليهود، ومن اقتدى بهم من هذه الأمة، ممن علم ولم يعمل بعلمه، والضالون هم: النصارى الذين يعبدون الله على غير علم، بل بالبدع والمحدثات والخرافات من النصارى وكل من اقتدى بهم.
((اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يعني: أمكنة للعبادة يصلون عندها، يدعون الله عندها، ظنًّا منهم أن العبادة عند القبور أفضل من العبادة في الأمكنة الأخرى، مع أن العبادة عند القبور لا تجوز، لأنها وسيلة إلى الشرك. ٤
لعنهم ﷺ على هذا الفعل بعينه وهو اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد أي كنائس وبيع يتعبدون ويسجدون فيها لله وإن لم يسموها مساجد فإن الاعتبار بالمعنى لا بالاسم ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين فإنها هي المساجد الملعون من بناها على قبورهم وإن لم يسمها من بناها مساجد وفيه رد على من أجاز البناء على قبور العلماء والصالحين تمييزا لهم عن غيرهم فإذا كان ﷺ لعن من بنى المساجد على قبور الأنبياء فكيف بمن بناها على قبور غيرهم. ١

قال ((اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) اتخاذ القبور مساجد يكون على أحد ثلاثة صور:
الصورة الأولى: أن يسجد على القبر؛ يعني يجعل القبر مكان سجوده، ((اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) يعني جعلوا القبر مكان السجود، هذه صورة، وهذه الصورة في الواقع لم تحصل بانتشار؛ لأن قبور الأنبياء في اليهود والنصارى لم تكن مباشِرة للناس يمكن أن يصلوا على القبر وأن يسجدوا عليه؛ بل كانوا يعظمون قبور أنبيائهم فلا يصَلُّوا عليها مباشرة؛ لكن قوله ((اتَّخَذُوا

قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) أبلغ صورة أن يتخذ القبر نفسه مسجدا يعني يصلي عليه مباشرة، وهذه أفضع تلك الأنواع، وهي التي تدل على أعظم وسيلة من وسائل الشرك والغلو بالقبر.

الصورة الثانية: أن يصلي إلى القبر، أن يتخذ القبر مسجدا؛ يعني أن يكون أمام القبر يصلي إليه، فإنه اتخذ القبر –وما حوله له حكمه– اتخذه مكاناً للتذلل والخضوع، والمسجد لا يعنى به مكان السجود ووضع الجبهة على الأرض فقط وإنما يعني به مكان التذلل والخضوع، فاتخذوا قبورهم مساجد يعني جعلوها قبلة لهم، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يصلى إلى القبر لأجل أن الصلاة إليه وسيلة من وسائل التعظيم، وهذا يوافق قول الشيخ رحمه الله في الباب (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح) قوله: عند قبره نفهم من هذه الصورة التي هي أن يكون أمامه القبر بينه وبين القبلة تعظيماً للقبر.

الصورة الثالثة: أن يتخذ القبر مسجدا بأن يجعل القبر في داخل بناء وذلك البناء هو المسجد، فإذا دفن النبي قام أولئك بالبناء عليه، فجعلوا حول قبره مسجداً واتخذوا ذلك المكان للتعبد وللصلاة فيه، هذه هي الصورة الثالثة، وهي أيضاً موافقته لقول الشيخ رحمه الله (عند قبر رجل صالح). ٣

قالت عائشة رضي الله عنها: "يحذّر ما صنعوا" أي: أن الذي حمل النبي ﷺ على أن يقول هذه الكلمة في هذه الحالة الحرِجة: أنه يحذّر أمته مما صنع اليهود والنصارى، لئلا يفعلوا بقبر نبيهم ما فعل اليهود والنصارى مع قبور أنبيائهم. فالذي حمله على هذا تحذير هذه الأمة لئلا تعمل هذا العمل، فلا تتخذ القبور مساجد، سواء بُني عليها أو لم يُبن عليها، إذا بُني عليها فالأمر أشد، وإذا لم يُبن عليها، وصلّي عندها، ودعا عندها فكذلك، هذا من اتخاذها مساجد كما يأتي. ٤

قال القرطبي: "وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام". ١

"ولولا ذلك" أي: ولولا الخوف من أن يحصل عند قبره ﷺ مثل ما حصل عند قبور أنبياء بني إسرائيل.

"أبرز قبره" أي: لدفن في مكان بارز يراه الناس. ٤

"أُبْرِزَ قَبْرُهُ" يعني أُظهر وجعل قبره مع سائر القبور في البقيع أو نحو ذلك؛ ولكن كان من العلل التي جعلتهم لا ينقلونه عليه الصلاة والسلام من مكانه الذي يُتوفى فيه قوله هنا عليه الصلاة والسلام ((لَعْنَة اللهُ على اليهود وَالنّصَارىَ. اتّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) يُحَذّرُ مَا صَنَعُوا، ولَوْلاَ ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ" فهذه أحد العلتين.

والعلة الثانية قول أبي بكر رضي الله عنه إنه سمع النبي ﷺ يقول: ((إنّ الأنبياء يُقبرون حيث يُقبضون)). ٣

ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثر، كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب. ٥

"ولكنه خَشي" بالفتح، أو "خُشي" بالضم. ٤

خشي فيها روايتان: خَشي، وخُشي[1].

فعلى رواية خُشي يكون الذي وقعت منهم الخشية الصحابة رضى الله عنهم.

وعلى رواية خَشي يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ.

والحقيقة أن الأمر كله حاصل، فالرسول ﷺ أخبر بأنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفاً من اتخاذ قبره مسجداً، والصحابة رضي أي عنهم اتفقوا على أن يدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن بدفن في بيته، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته وعنده علم بأنه ﷺ قال: ((ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض))، وخوفاً من اتخاذه مسجداً. ٥

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما جاء في قبر النبي ﷺ.

﴿أن يتخذ قبره مسجداً﴾ يعني: مكان صلاة ودعاء، كما فعل اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم.

فقطعاً لهذه الذريعة وسداً لهذا الباب دُفِنَ -عليه الصلاة والسلام- في بيته في حجرة عائشة، داخل الجدران وتحت السقف، لا يراه أحد.

"ولا يزال -والحمد لله- في صيانة وأمانة، فلا يزال في بيته ﷺ محاطاً بالجدران لا يراه أحد، صيانة لقبره أن يُفعل عنده كما فعلت اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم.

هذه هي الحكمة في دفنه ﷺ في بيته، وعدم دفنه في المقبرة مع أصحابه في البقيع.

قال ابن القيم:

ودعـــا بأن لا يجعـــل القـــبر الـــذي قـــــد ضـــــمه وثنـــاً مـــن الأوثان

فأجـــاب رب العـــالمين دعـــاءه وأحاطـــه بثلاثـــة الجـــدران

حـــتى اغـــترت أرجـــاؤه بدعائـــه في عـــزة وحمايـــة وصـــيان

فدلّ ذلك على تحريم الغلو في القبور، والبناء عليها، واتخاذ بقاعها أمكنة للصلاة عندها، والدعاء عندها. ٤

الصحابة رضوان الله عليهم قبلوا هذه الوصية، وجعلوا دفنه عليه الصلاة والسلام في مكانه، وحجرة عائشة التي دُفن فيها عليه الصلاة والسلام كانت عائشة تقيم أو أقامت جدارا بينها وبين القبور، فكانت غرفة عائشة فيها قسمان قسم فيه القبر وقسم هي فيه.

كذلك لما توفي أبو بكر رضي الله عنه ودُفن بعد رسول الله ﷺ -من جهة الشمال-، كانت أيضاً في ذلك المقام في جزء من الغرفة من الحجرة.

ثم بعد ذلك لما دفن عمر تركت الحجرة رضي الله عنها.

ثم أغلقت الحجرة، فلم يكن ثم باب فيها يدخل وإنما كان فيها نافذة صغيرة، وكانت الحجرة -كما تعلمون- من بناء ليس حَجَر ولا من بناء مُجَصّص وإنما كانت من البناء الذي كان في عهده عليه الصلاة والسلام من خشب ونحو ذلك.

ثم بعد ذلك لما جاءت الزيادة في المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، وكان أمير المدينة يوم ذاك عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وأخذوا شيئاً من حُجَر زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، بقيت حجرة النبي عليه الصلاة والسلام كذلك، فأخذوا من الروضة -روضة المسجد- أخذوا منها شيئاً وجعلوا عليه بناء، فبنوه من ثلاث جهات، جدار آخر غير الجدار الأول، بنوه من ثلاث جهات، وجعلوا الجهة التي تكون شمالا -يعني من جهة الشمال- جعلوها مسنمة؛ جعلوها مثلثة قائمة هكذا، وصار عندنا الآن جداران:

الجدار الأول مغلق تماما، وهو جدار حجرة عائشة.

والجدار الثاني الذي عُمِل في زمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه في زمن الوليد بن عبد الملك، جعلوا جهة الشمال -وهي عكس جهة القبلة- جعلوها مسنمة؛ لأنه في تلك الجهة جاءت التوسعة وسعوها من جهة الشمال، فخشوا أن يكون ذلك الجدار مربعاً يعني مسامتا للمستقبِل؛ فيكون إذا استقبله أحد استقبال للقبر، فجعلوه مثلثا يبعد كثيرا عن الجدار الأول وهو جدار حجرة عائشة؛ لأجل أن لا يمكن أحد أن يستقبل لبعد المسافة؛ ولأجل أن الجدار صار مثلثاً.

ثم بعد ذلك بأزمان جاء جدار ثالث أيضاً وبُني حول ذينك الجدارين، وهو الذي قال فيه ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية في وصف دعاء النبي ﷺ في قوله ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)) قال:

فأجـــاب رب العـــالمين دعـــاءه وأحاطـــه بثلاثـــة الجـــدران

حـــتى اغـــترت أرجـــاؤه بدعائـــه في عـــزة وحمايـــة وصـــيان

فالنبي عليه الصلاة والسلام صار قبره في ثلاثة جدران، وكل جدار ليس فيه باب، ولا يمكن لأحد حتى في زمن الصحابة أن -يعني في زمن المتأخرين منهم في عهد الوليد وما قبله- لا يمكن أن يدخل ويقف على القبر بنفسه؛ لأنه صار ثَم جداران وكل جدار ليس له باب.

ثم بعد ذلك وضع الجدار الثالث وهذا الجدار أيضاً كبير مرتفع إلى فوق، وُضعت عليه القبة فيما بعد، وهذا الجدار أيضاً ليس له باب.

فلا يستطيع الآن أحد أن يدخل إلى القبر أو أن يصل القبر أو أن يتمسح بالقبر أو أن يرى قبر النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم بعد ذلك وضع السور الحديدي هذا، وهذا السور الحديدي بينه وبين الجدار الثالث -الذي ذكرتُ لكم- بينه نحو متر ونصف في بعض المناطق ونحو متر في بعضها وبعضها نحو متر وثمانين إلى مترين في بعضها، يضيق ويزداد؛ لكن من مشى فإنه يمشي بين ذلك الجدار الحديدي وذلك الجدار الثالث.

فقبر النبي عليه الصلاة والسلام، عمل المسلمون بوصيته عليه الصلاة والسلام، وأُبعد تماماً فلا يمكن أن يصل أحد إلى القبر، ولا يمكن أيضاً أن يُتخذ ذلك القبر مسجداً.

ولهذا لما جاء الخرافيون في الدولة العثمانية جعلوا التوسعة التي هي من جهة الشرق جعلوا فيها ممر لكي يمكن من يريد أن يطوف بالقبر أو أن يصلي في تلك الجهة، ذلك الممر الشرقي -الذي هو قدر مترين أو نحو ذلك أو يزيد قليلا-، ذلك الممر الشرقي في عهد الدولة السعودية الأولى وما بعدها مُنع من الصلاة فيه، فكأنه أُخرج من كونه مسجدا؛ لأنه إذا كان من مسجد النبي عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز أن يمنعوا أحدا من الصلاة فيه، فلما منعوا أحدا من الصلاة فيه جعلوا له حكم المقبرة ولم يجعلوا له حكم المسجد، فلا يمكن لأحد أن يصلي فيه بل يغلقونه وقت الصلاة أمّا وقت السلام أو وقت الزيارة فإنهم يفتحونه للمرور. ٣

قال القرطبي: "ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلو حيطان تربته وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقبره ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحدا من استقبال قبره". ١

فإذن تبين بذلك أن قبر النبي عليه الصلاة والسلام لم يُتخذ مسجدا، وإنما دخلت الغرف في التوسعة في عهد التابعين في المسجد؛ ولكن جهتُها الشرقية خارجة عن المسجد فصارت كالشيء الذي دخل في المسجد؛ ولكن حيطان متعددة تمنع أن يكون القبر في داخل مسجد النبي ﷺ، وإنما أربع جدارات تفصل بين المسجد وبين قبر النبي ﷺ يعني مكان الدفن.

وأعظم من ذلك مما يدل على أخذ الصحابة والتابعين ومن بعدهم بوصية النبي ﷺ هذه، وسد الطرق الموصلة إلى الشرك به عليه الصلاة والسلام، وباتخاذ قبره مسجداً: أنهم أخذوا من الروضة الشريفة أخذوا من الروضة التي هي روضة من رياض الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام ((ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)) أخذوا منها قدر ثلاثة أمتار لكي يقوم الجدار الثاني ثم يقوم الجدار الثالث ثم يقوم السور الحديدي وأكثر من ثلاثة أمتار، فهذا من أعظم التطبيب وهو أنهم أخذوا من الروضة وأجازوا أن يأخذوا من المسجد لأجل أن يحمى قبر النبي عليه الصلاة والسلام من أن يتخذ مسجداً.

وهذا ولا شك من أعظم الفقه فيمن فعل ذلك، ومن رحمة الله جل وعلا في هذه الأمة، ومن إجابة دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بقوله فيما سيأتي بعد هذا الباب ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)).

إذن فقوله عليه الصلاة والسلام ((لَعْنَة اللهُ على اليهود وَالنّصَارىَ اتّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) (يُحَذّرُ مَا صَنَعُوا) فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُتَّخذ قبره مسجداً.

واليوم الموجود قد يكون صورته عند غير المتأمل وغير الفقيه صورته صورة قبر في داخل مسجد، وفي الحقيقة ليست صورته وليست حقيقته قبر في داخل المسجد؛ لوجود الجدران المختلفة التي تفصل بين المسجد وبين القبر؛ ولأن الجهة الشرقية منه ليست من المسجد، وهذا لما جاءت التوسعة الأخيرة كان مبتدؤها من جهة الشمال بعد نهاية الحجرة بكثير حتى لا تكون الحجرة في وسط المسجد من جهة أنه يكون ثمة توسعة من جهة الشرق وثم الروضة من جهة الغرب فتكون وسط المسجد فيكون ذلك من اتخاذ قبره مسجداً عليه الصلاة والسلام.

المقصود من هذا البيان المهم -الذي ينبغي أن تعيه جيداً- أن قبر النبي عليه الصلاة والسلام ما أتخذ مسجدا ولكن وصيته عليه الصلاة والسلام من التحذير قد أتخذ بها في مسجده وفي قبره؛ ولكن خالفتها الأمة في قبور الصالحين من هذه الأمة فاتخذوا قبور بعض آل البيت مساجد وعظموها كما تُعظم الأوثان. ٣

مراجعة للإشكال السابق

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول ﷺ الآن، فإنه في وسط المسجد، فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن على القبر، بل بني المسجد في حياة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك عام ٩٤هـ تقريباً، فليس مما أجازة الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، وممن خالف أيضاً سعيد بن المسيب من التابعين، فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله، لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد، فليس المسجد مبنياً عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه، فنقول: إن الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين، وليس محل إجماع، وعلى فرض أنه إجماع، فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها. ٥

هذا الحديث من أعظم الأحاديث التي فيها التغليظ في وسائل الشرك وبناء المساجد على القبور واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

ووجه ذلك أنه عليه الصلاة والسلام وهو في ذلك الغم وتلك الشدة ونزول سكرات الموت به عليه الصلاة والسلام يعانيها لم يفعل عليه الصلاة والسلام؛ بل اهتمَّ اهتماما عظيما وهو في تلك الحال بتحذير الأمة من وسيلة من وسائل الشرك، وتوجيه اللعن والدعاء على اليهود والنصارى بلعنة الله؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، سبب ذلك أنه عليه الصلاة والسلام يخشى أن يُتخذ قبره مسجدا كما اتخذت قبور الأنبياء قبله مساجد. ٣

والنبي عليه الصلاة والسلام يلعن ويحذر وهو في ذلك الموقف العصيب، فقام ذلك مقام آخر وصية أوصى بها عليه الصلاة والسلام ألا تُتخذ القبور مساجد فخالف كثير من الفئام في هذه الأمة خالفوا وصية عليه الصلاة والسلام. ٣

في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين، لأن مرتبة النبيين هي المرتبة الأولى من المراتب الأربع التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. ٥

ويُستفاد من هذين الحديثين مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: تحريم البناء على القبور، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك بالله عزّ وجلّ، لأن القبر إذا بُني عليه بنيّة، أو جُعل عليه ستائر وزُخرف، فإن العوام والجهّال يفتتنون به، ويظنون أنه ما عُمل به هذا العمل إلاّ لأن فيه سراً، وأنه محل للعبادة والدعاء وطلب الحاجات -كما هو الواقع-، ولهذا كان هدي الإسلام في القبور أن الميت يُدفن في المقبرة العامة مع أموات المسلمين، ويُدفن في تراب قبره الذي حُفر منه، لا يزاد عليه، ويُرفع عن الأرض قدر شبر من التراب من أجل أن يعرف أنه قبر فلا يُداس، ولا يُبنى عليه شيء، هكذا كان قبر النبي وكانت قبور الصحابة في عهد رسول الله ﷺ، وهذا هو هدي الإسلام في القبور، لا يُبنى عليها بنيّة، ولا يُكتب عليها، ولا تزخرف، ولا تجصّص، لأن هذه الأمور إذا فُعلت صارت وسيلة إلى الشرك، وقد أمر النبي ﷺ بهدم القبور المشرفة، فقال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((لا تدع قبراً مشرفاً [يعني: مرتفعاً] إلاّ سوّيته)) يعني: هدمت ما عليه من البناء، حتى يصبح كسائر القبور لا يُلفت النظر، ولا يُفتتن به، فالقبور إذا كانت على الهدي الشرعي لا يُفتتن بها، أما إذا بُني على بعضها، وجصّص، وزُخرف، فإن النّاس سينصرفون إليه ولابد.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على تحريم العبادة عند القبر، حتى ولو لم يُبْنَ عليه بنيّة، لا بدعاء، ولا بصلاة، ولا بذبح، ولا بنذر، ولا بغير ذلك، وإنما هدي الإسلام أن القبور تُزار من أجل السلام على الأموات، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، واتعاظ الزائر بأحوال الموتى، هذا هو هدي الإسلام في القبور، وأن لا تُهان القبور -أيضاً-، ولا تُمتهن، بل يُحافظ عليها، فلا تُهان ولا تُداس.

فهدي الإسلام وسط بين إفراط وتفريط، بين الغلو فيها، وبين التساهل في شأنها وإهانتها، يُحافظ عليها الإسلام، ولكنه لا يغلو فيها، هدي الإسلام هو الوسط في كل شيء -والحمد لله-، لأن من النّاس من يمتهن القبور، ويبني عليها المساكن، أو يجعلها محلاً للقمامات والقاذورات، أو بِدَوْسِ الأقدام عليها، أو مرور الحيوانات عليها، أو يقضون حوائجهم ويبولون عليها، وهذا حرام لا يقرّه الإسلام.

المسألة الثالثة فيه دليل على تحريم نصب الصور من التماثيل وغيرها، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك بهذه الصور ولو على المدى البعيد، كما حصل لقوم نوح.

المسألة الرابعة فيه دليل على أن النيّة الصالحة لا تسوغ العمل السيء، فهؤلاء إنما فعلوا هذا لظنهم أن فيه خيراً، وفيه تذكراً لأحوال هؤلاء الصالحين، أو إكراماً للصالحين -كما يقولون، أو تخليداً لذكراهم-، فهذا وإن كان قصدهم فيه حسناً، فإن هذا العمل غير مشروع لأنه يُفضي إلى الشرك في العبادة، والشارع جاء بسدّ الذرائع المفضية إلى الشرك دون نظر إلى نيات أصحابها.

المسألة الخامسة: فيه دليل على جواز لعن الكفار وأصحاب الكبائر على وجه العموم، لأن النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى، وهذا لعن على العموم، فلعن الكفار وأصحاب الكبائر على العموم لا بأس به لأجل التنفير في فعلهم، وأما لعن المعيّن ففيه خلاف.

المسألة السادسة: في الحديثين دليل على التحذير من التشبه بالنصارى، لأن البناء على القبور والصلاة عندها من هدي النصارى، ونحن منهيون عن هدي النصارى، ففي قول عائشة رضي الله عنها: "يحذّر ما صنعوا" دليل على النهي عن التشبه بالنصارى، ولاسيما في أمور العقيدة.

المسألة السابعة: أن الذين يبنون على القبور والذين يذهبون إليها للتعبد عندها هم شرار الخلق، لا أحد شرٌّ منهم، لأن معصيتهم فوق كل معصية، فالزاني وشارب الخمر والسارق أخف من الذي يبني على القبور، ولو كان زاهداً عابداً.

فالزاني والشارب -الذي يشرب الخمر- ومعه أصل التّوحيد وأصل العقيدة هذا خير من الذين يبنون على القبور، والذين يذهبون للعبادة عندها، وإن كانوا يبكون الليل والنهار، ويصومون، فهم شرار الخلق -والعياذ بالله-.

المسألة الثامنة: فيه دليل على أن المصورين هم شرار الخلق، لأن فعلهم هذا وسيلة إلى الشرك، ولأنه مضاهاة لخلق الله، قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((ومن اظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) يعني: المصورين، ((فليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)) لما وهذا تعجيز لهم، فدلّ على أن المصورين هم شرار الخلق، سواء كانوا يصورون ببناء التماثيل، أو يصورون

بالرسم، أو يصورون بالتقاط الصور بالآلة الفوتوغرافية، كل ذلك داخل في الوعيد والنهي الشديد، وأنهم شرار الخلق عند الله. ومن أخرج التصوير بالكمرة عن حكم التصوير المنهي عنه فليس له دليل ولا عبرة بقوله.

المسألة التاسعة: في الحديث دليل على وجوب الاهتمام بأمر العقيدة، والدعوة إليها قبل كل شيء من أنواع الفساد، نبدأ بإصلاح العقيدة قبل إصلاح الأمور الأخرى، لأن هذا منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

المسألة العاشرة: في الحديث دليل على كمال حرصه ﷺ على أمته، ونصيحته لأمته، وأنه بلّغ البلاغ المبين حتى في آخر لحظة من حياته ﷺ، بل في حالة حرِجة، وهي حالة الاحتضار.

المسألة الحادية عشر: فيه دليل على بيان الحكمة من دفنه ﷺ في بيته.

وعدم دفنه في المقبرة العامة، وأن ذلك لأجل الحفاظ على عقيدة المسلمين من الغلو في حقه ﷺ، وأن يُفعل عند قبره كما فُعل عند قبور الأنبياء والصالحين في بني إسرائيل، هذا هو بيان الحكمة.

وهذا فيه بيان الإشكال الذي لا يزال يتردّد عند بعض الناس، ويقولون: إن مسجد الرسول مبني على القبر، فهذا دليل على جواز البناء على القبور بزعمهم.

ونقول: إن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد، وإنما دفن في بيته خارج المسجد، والحكمة في ذلك ما ذكرته أم المؤمنين أنه خشي أن يتخذ مسجداً، فالبيت منفرد عن المسجد، وفي معزل عن المسجد، وإنما أدخل البيت في المسجد بعد عهد الخلفاء الراشدين في وقت الوليد بن عبد الملك؛ لما أراد أن يوسع المسجد عمّم التوسعة من جهة المشرق، فأدخل حجرة النبي ﷺ، ولم يكن هذا بمشورة أهل العلم، وإنما هذا عمل الخليفة بدون مشورة أهل العلم، ولكن مع هذا فالبيت لا يزال على شكله وحيازته، والمسجد لا يزال على وضعه والحمد لله، وما يحصل من النّاس الجهّال إنما يكون في مسجد الرسول وليس عند القبر، لأن القبر بعيد عنهم، ومَصُون عنهم، ولا يرونه، ولهذا لما دعا النبي ﷺ ربه قال: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) استجاب الله دعاءه، فصانه في بيته، ولهذا يقول العلامة ابن القيم:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

يعني: صار القبر داخل الجدران، فلا يُرى أبداً، وذلك صيانة له عن الغلو عليه الصلاة والسلام. ٤

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: ((إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك))[1].

قوله: "ولمسلم عن جُندب بن عبد الله" هو: جُندب بن عبد الله البَجَلي، رضي الله تعالى عنه.

"قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس" يحتمل أن المراد: خمس سنين، ويحتمل أن المراد: خمس ليال.

"وهو يقول: ((إني أبرأ إلى الله)) البراءة معناها: نفي الشيء والابتعاد عنه، كما يقال: برأ القلم إذا قطعه وأبعد جزءا منه، فالبرء هو: البعد والانقطاع، فـ ((أبرأ إلى الله)) أي: ابتعد عن ذلك وأكرهه.

((أن يكون لي منكم خليل)) من الصحابة، فليس له من الصحابة خليل، والسبب في ذلك، أن الله اتخذه خليلاً، والخُلّة لا تقبل الاشتراك، فلا يمكن أن يكون خليل الله وخليل أحد من الخلق، لأن الخُلّة لابد أن تكون لواحد، لا تقبل الاشتراك، ٤

سبب ذلك أن الخلة هي أعظم درجات المحبة وهي التي تتخلل الروح وتتخلل القلب وشغاف الصدر بحيث لا يكون ثَم مكان لغير ذلك الخليل، لهذا النبي عليه الصلاة والسلام ليس له من أصحابه خليل. ٣

قال القرطبي: "وإنما كان في ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع لمخالة غيره".[2] ١

---

[1] مسلم: كتاب المساجد/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور.

[2] المفهم (١٢٩/٢)

والخُلّة هي أعلى درجات المحبة، كما قال الشاعر:

تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمّي الخليل خليلاً

وعباد الله وأنبياؤه كلهم يشتركون في المحبة، فالله يحب التوابين، ويحب المتطهرين ويحب المتقين، ويحب المحسنين، أما الخُلّة فهي لم تحصل إلاّ لاثنين فقط، هما: محمَّد ﷺ وإبراهيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥]، أما بقية الأنبياء والمؤمنين فإن الله يحبهم ويحبونه كما جاءت بذلك النصوص لكن لم يتخذ الله منهم خليلاً.

ثمّ قال ﷺ: ((ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً)) يعني: على فرض لو صحّ لي وجاز لي أن أتخذ من أمتي خليلاً.

((لاتخذت أبا بكر خليلاً)) فهذا فيه فضيلة أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-، وأنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ.

وأبو بكر كنيته، أما اسمه: فعبد الله بن عثمان، ولُقّب بالصديق لكثرة صدقه مع الله سبحانه وتعالى ومع رسوله ﷺ ومع عباد الله، فهو كثير الصدق، رضي الله تعالى عنه.

وفي قوله: ((ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً)) هذا فيه إشارة إلى استخلاف أبي بكر من بعده لأن الرسول ﷺ قال هذا في آخر حياته، كما أنه ﷺ في مرض موته أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ولما قيل له عن عمر؛ أبى وغضب، وأمر أن يُؤمر أبو بكر أن يصلّي بالناس، فهذا فيه إشارة إلى خلافته.

وفي ذلك رد على الرافضة الذين يُغضون أبا بكر الصديق، ويطعنون في خلافته وخلافة إخوانه: عمر وعثمان، ويقولون: إن الخلافة لعلي بعد الرسول، وإنما الصحابة اغتصبوها، وظلموا عليًّا، هكذا يقولون -قبحهم الله-، فعلي رضي الله هو الخليفة الرابع وهذا بإجماع المسلمين. ٤

وهذا نص صريح على أن أبا بكر أفضل من علي، ﷺ، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أن علياً أفضل من أبي بكر. ٥

وجه الشاهد من هذا الحديث قوله بعد ذلك ((أَلاَ وَإِنّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. فإِنّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)) وهذا أيضاً جاء في رواية أخرى أيضاً ((كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد)) ٣

((ألا وإن من كان قبلكم)) ((ألا)): حرف تنبيه، ((وإن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد)) يعني أن اليهود والنصارى يغلون في قبور الأنبياء ويبنون عليها المساجد ويصلون عندها.

((ألا فلا تتخذوا القبور مساجد)) كرّر كلمة ((ألا)) مرة ثانية لأجل التنبيه والتأكيد. ومعنى اتخاذها مساجد أي: مصليات.

ثمّ لم يقتصر على هذا، بل قال: ((فإني أنهاكم عن ذلك)) تأكيد بعد تأكيد، لأهمية هذا الأمر.٤ وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره. ٥

ومنع من هذا بثلاثة طرق:

١- ذم ما فعلوه

٢- قوله: لا تتخذوا.

٣- قوله: فإني أنهاكم عن ذلك.

وهذا مبالغة منه في النهي عن ذلك. لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن. ٦

قال الخلخالي: "وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم.

والثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والسجود في مقابرهم والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

والأول: هو الشرك الجلي. والثاني: الخفي فلذلك استحقوا اللعن"[١].

قلت: الحديث أعم من ذلك فيشمله ويشمل بناء المساجد والقباب عليها. ١

واتخاذ القبور مساجد على معنيين:

---

[١] مرقاة المصأبيح (٣٨٩/٢)

المعنى الأول: وهو المراد بهذا الحديث-: اتخاذها مصليات يُصلّى عندها وإن لم يُبن مسجد، كما يأتي.
المعنى الثاني: أن يُبنى عليها مسجد كما حصل من اليهود والنصارى وكما حصل في القرون المتأخرة من هذه الأمة.
وأول من بني المساجد على القبور – كما يقول الشَّيخ: تقي الدين هم: الشيعة الفاطميون في مصر والمغرب، ثمّ قلّدهم الخرافيون الذين ينتسبون إلى أهل السنّة من الصوفية وغيرهم، وبنوا على القبور، وهذا إنما حدث بعد القرون المفضلة، التي أثنى عليها رسول الله ﷺ.
ثم نقل الشَّيخ رحمه الله كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فقال". ٤

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد، وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)).
يعني الصلاة عند القبور لا تجوز سواء صلى إليها أو صلى عندها رجاء بركة ذلك المكان أو لم يرج بركة ذلك المكان وإنما صلى صلاة نافلة غير صلاة الجنازة عندها، كل هذا لا يجوز سواء كان ثم بناء على القبر كمسجد أو كان قبرا أو قبرين في غير بناء عليهما فإن الصلاة لا تجوز، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها قبورا)) وفي البخاري أيضاً معلقا من كلام عمر ؓ أنه رأى أَنَس يصلي عند قبر فقال له: القبرَ القبر. يعني احذر القبر، احذر القبر، وهذا يدل على أن الصلاة عند القبور لا تجوز لأنها وسيلة من وسائل الشرك، وأعظم إذا كان ثم بنيان واتخاذ لما حول القبر من الأبنية مسجدا للصلاة والدعاء والقراءة ونحو ذلك. ٣
"فقد نهى عنه في آخر حياته" يعني: قبل أن يموت بخمس –كما في حديث جُندب–.

"ثم" إنه لعن -وهو في السياق- في سياق الموت، كما في حديث عائشة الذي سبق: أنه ﷺ لما نزل به جعل يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك -يعني: في هذه الحالة الحرِجة:- ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)).
قالت عائشة رضي الله عنها: يحذّر ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً. ٤
قوله: "والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجداً" يعني أن الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله وإن لم يبن مسجدا فتحرم الصلاة في المقبرة وإلى القبور بل لا تنعقد أصلاً لما في هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها من لعن من اتخذها مساجد.
وروى مسلم عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ((لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها))[1] وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ((الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام)) رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين، وفي صحيح البخاري[2]: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال "القبر القبر" وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ من الصلاة عند القبور.
وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه فإنه لعله لم يره ولم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه فلما نبهه عمر تنبه. ١
قال الشيخ: "فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً" لأنهم معصومون عن ذلك رضي الله عنهم، ولا يمكن ذلك أبداً في حقهم. ٤
أي لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه ولعن من فعله فكيف يتخذون على قبره مسجداً وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده من غير شعور من الصحابة بذلك فلذلك دفنوه في بيته.

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (٩٧٢) عن أبي مرئد الغنوي.
[2] رواه البخاري (٥٢٣/١).

بل لم تبن المساجد في القرون الأربعة كلها، لأن القرون الأربعة أثنى عليها رسول الله ﷺ بقوله: ((خيركم قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم))، فإذا كانت القرون الأربعة لم يبن فيها على القبور مساجد فكيف يُبنى في عهد الصحابة الذين هم القرن الأول، رضي الله تعالى عنهم؟، فدلّ على أن المراد باتخاذها مساجد: تحرّي الصلاة عندها ظنًّاً أن الصلاة عندها فيها مزيّة، وأنها يُستجاب الدعاء عندها، لأن ذلك وسيلة من وسائل الشرك، والنبي ﷺ نهى عن الصلاة عند القبور، واتخاذها مساجد سداً لذريعة الشرك، لأنه إذا صُلّي عندها، ودُعِيَ عندها، فإن ذلك يتطوّر وتُدعى من دون الله، وتُعبد من دون الله، كما حصل عند الأضرحة الآن حيث صارت تُعبد من دون الله؛ فيُذبح لها، وينذر لها، ويُستغاث بالموتى، ويُتمرّغ على تُربتها، ويُعكف عندها، ويُطاف حولها كما يُطاف بالكعبة، كل ذلك لأن الباب فُتح لما بُني عليها.

ثمّ قال رحمه الله: "وكل موضع قُصدت الصلاة فيه" أي: كل موضع يُتردّد عليه ويصلى فيه، سواء كان عنده قبر أو ليس عنده قبر "فقد اتُّخذ مسجداً" وإن لم يُبن، ولو كان صحراء فهو يسمّى مسجداً، يعني: مكان صلاة ومكان سجود. ٤

"بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً" حتى لو لم يُبْنَ عليه.

"كما قال ﷺ: ((جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) يعني: صالحة للصلاة فيها. ٤

أي فسمى الأرض مسجداً وليست مسجداً مبنياً لكن لما كانت يسجد فيها سميت مسجداً فدل هذا الحديث أن من صلى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد. ١

قوله: "وكل موضع قصدت الصلاة فيه، فقد اتخذ مسجداً".

وهذا يشهد له العرف، فإن الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم، كالوزارات والإدارات لو سألت واحداً منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذي اتخذوه مصلى يصلون فيه، مع أنه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه، صار يسمى مسجداً.

قوله: "بل كل موضع يصلى..."، فقوله: "مسجداً"، أي: مكاناً للسجود، وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلي فيه، فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما قال للسجادة التي تصلي عليها مسجد أو مصلى وإن كان الغالب عليها اسم مصلى. ٥

فدلّ على أن المكان الذي يُصلى فيه يسمى مسجداً، سواءٌ قُصد أو لم يُقصد، سواءٌ بُني عليه أولم يُبن. ٤

قال البغوي في شرح السنة: "أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم واباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا تخفيفاً عليهم وتيسيراً ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس"[١] ١.

فالحاصل؛ أن معنى اتخاذ القبور مساجد يشمل معنيين:

المعنى الأول: الصلاة عندها وإن لم يُبن مسجد، وهذا هو المعنى المراد من الأحاديث. ٤

فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلى، فإن هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضاً من اتخاذها مساجد. ٥

والمعنى الثاني: بناء المساجد فيها والقِباب، وهذا -أيضاً- منهي عنه، فإن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: ((لا تدع قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته)) يعني: إلاّ هدمته، وسوّيته بالأرض، لأن هذا يفتن الناس، ويصبح وسيلة من وسائل الشرك. ٤

وهذا هو الذي وقع في هذه الأمة، وهذا وسيلة من وسائل الشرك، مناسبته للباب ظاهرة من أن تحريم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد مع أنه قد يكون العابد لا يعبد إلا الله لأنها وسيلة من وسائل الشرك الأكبر، والوسائل تفضي إلى ما بعدها، وقد تقرر في القواعد الشرعية وأجمع عليها المحققون أنّ سد الذرائع الموصلة إلى الشرك وإلى المحرمات واجبة، فإن الذريعة التي توصل إلى محرم يجب سدُّها لأن الشريعة جاءت لسد الأصول وسد الذرائع بسد أصول المحرمات وسد الذرائع إليها، فيجب أن يُغلق كل باب من أبواب الشرك بالله ومن ذلك اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

---

[١] شرح السنة (٢/٤١٢)

ولهذا لا تصح الصلاة في مسجد بُني على قبر، المسجد الذي يبنى على قبر فإنه لا تصح الصلاة فيه؛ لأن ذلك مناف لنهي النبي ﷺ فالنبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام نهى وهم فعلوا، والنهي توجه إلى بقعة الصلاة فبطلت الصلاة، فالذي يصلي في مسجد أقيم على قبر صلاته باطلة لا تصح لقوله عليه الصلاة والسلام ((أَلاَ فَلاَ تَتّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)) يعني بالبناء عليها وبالصلاة حولها ((فإِنّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)). ٣

من فوائد الحديث:

١- أن النبي ﷺ تبرأ من أن يتخذ أحداً خليلاً، لأن قلبه مملوء بمحبة الله تعالى.

٢- أن الله تعالى اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ففيه فضيلة لرسول الله ﷺ.

٣- فضيلة إبراهيم عليه السلام باتخاذه خليلاً.

٤- فضيلة أبي بكر، وأنه أفضل الصحابة لأن الحديث يدل على أنه أحب الصحابة إلى الرسول ﷺ.

٥- التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: ((ألا فلا تتخذوا القبور مساجد))، وقوله: ((فإني أنهاكم عن ذلك)).

٦- أن من دفن شخصاً في مسجد وجب عليه نبشه إخراجه من المسجد.

٧- حرص النبي ﷺ على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه، لأن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه، ولهذا حرص النبي ﷺ على تحذير أمته منه، وهذا من كما رأفته ورحمته بالأمة.

٨- أن من بنى مسجداً على قبر وجب عليه هدمه. ٥

وفي حديث جندب من الفوائد أيضاً: العبرة في مبالغته ﷺ في النهي عن بناء المساجد على القبور كيف بين لهم ذلك أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في النزع لم يكتف بما تقدم بل لعن من فعل ذلك؛ فدلت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء

على القبور مطلقاً، فلذلك اكتفى المصنف بايرادها عن غيرها كحديث جابر أن النبي ﷺ نهى أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه رواه مسلم وغيره وزاد أبو داوود والحاكم ((وأن يكتب عليه)). ١

الخلاصة:

إنه لا يجوز بناء المساجد على القبور، لأنها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر.

ولا يجوز أيضاً أن تقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد، لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فرض أن رجلاً يذهب إلى المقبرة ويصلي عند قبر ولي من الأولياء على زعمه، قلنا: إنك اتخذت هذا القبر مسجداً، وإنك مستحق لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية دليل على صحة تسمية كل شيء يصلى فيه مسجداً بالمعنى العام. ٥

إبطال قول بعض من قال النهي جاء للنجاسة.

وفي هذا كله إبطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ بل العلة في ذلك الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى وعباد اللات والعزى من الشرك ويدل على ذلك أن النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة لأن قبور الأنبياء من اطهر البقاع فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم فهم في قبورهم طريون.

وقد لعن النبي ﷺ متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما هو لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليها المشركون كما هو الواقع فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

قال ابن القيم: "وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده؛ جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه: صيغة (لا تفعلوا)، وصيغة (إني أنهاكم) ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه وقل نصيبه أو عدم من تحقيق لا إله الا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابا لنهيه وغرهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلوا كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الالهية عنهم".

قلت: وممن علل بخوف الفتنة والشرك: الشافعي وأبو بكر الأثرم وأبو محمد المقدسي وشيخ الإسلام وغيرهم وهو الحق. ١

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: ((إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)) [رواه أبو حاتم في صحيحه].[1]

ثمّ قال: "ولأحمد" أي: لأحمد بن حنبل رحمه الله.

"بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً" إلى النبي ﷺ، يعني: وليس من كلام ابن مسعود، وإنما هو من كلام الرسول ﷺ. ٤

"ورواه أبو حاتم" يعني ابن حبان (في صحيحه). ٣

---

[1] رواه البخاري في صحيحه٧٠٦٧ معلقا، ومعمر في جامعه، والإمام أحمد في مسنده، وابن أبي شيبة في المصنف،... وغيرهم، وهو حديث صحيح بشواهده...

((إن من شرار النّاس)) شرار جمع: شر، وشر أفعل تفضيل، بمعنى أشر، أي: أشدّ الناس شرًّا.

((الذين تدركهم الساعة)) أي: قيام الساعة، وذلك عند نفخة الصعق التي يموت بها الخلق -إلاّ من شاء الله-، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] صعقوا أي: ماتوا مرة واحدة من أثر الصعقة، إذا نفخ إسرافيل في الصورة النفخة الأولى صعق كل الأحياء، إلاّ من استثنى الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] وهذه نفخة البعث. الأولى نفخة الموت، والثانية: نفخة البعث، ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور مرّة ثانية، فيقومون من قبورهم أحياء يمشون: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، وهذا بقدرة الله سبحانه وتعالى، فهاتان نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث.

وهناك نفخة ثالثة ذكرها الله في آخر سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل:٨٧] فهذه نفخة الفزع، وبعض العلماء -كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره- يرون أن النفخات ثلاثة:

نفخة الفزع، وهي المذكورة في سورة النمل.

ونفخة الموت. ونفخة البعث. وهما المذكورتان في سورة الزمر.

وبعض العلماء يرى أنه ليس هناك إلاّ نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث، ونفخة الصعق هذه عندهم هي نفخة الفزع، يفزعون ثمّ يموتون.

فالذين يحضرون هذا الحدث الهائل -وهو: نفخة الصعق- هم شرار الناس، لأن المؤمنين يموتون قبل ذلك، كما قال ﷺ: ((لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله، الله)) لأنه إذا كان فيها من يقول: الله، الله، ويذكر الله فالحياة تبقى في هذه الدنيا، لأن ذكر الله والتّوحيد والعبادة عِمارة لهذه الأرض، فإذا فُقد ذلك أستحق أهلها العقوبة، فيحصل بذلك الموت العام.

أما قوله ﷺ: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله)) فالمراد بذلك أنهم يموتون قبل ذلك، يقبض الله أرواحهم قبل ذلك بريح يرسلها الله تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ولا يحضرون هذا الحدث المروّع، رحمة من الله تعالى بهم. ٤

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد. ٥

وجه الشاهد من هذا أنه قال ((والذين يتخذون القبور مساجد)) يعني أنهم من شرار الناس، فالذين يتخذون القبور مساجد من شرار الناس، وذلك لأن اتخاذ القبور مساجد كما ذكرنا وسيلة من وسائل الشرك بالله جل وعلا، وقوله ((والذين يتخذون القبور مساجد)) هذا يعم كل متخذ القبر مسجدا –سواء اتخذه بالصلاة عليه أو بالصلاة إليه أو بالصلاة عنده– فذلك القصد للصلاة عند القبر يجعل من قَصَدَ في شرار الناس الذين وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك.

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة؛ فإنه ذكر أن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، والقصد من اتخاذ القبر مسجد أن يعبد الله عند قبر ذلك الرجل الصالح، فكيف حال الذي توجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالعبادة؟ القبر لا يخلص إليه، والاستغاثة بالنبي عليه الصلاة والسلام وتإليه النبي عليه الصلاة والسلام هذا قد يقع بحسب الاعتقادات وبحسب المناداة، كما حصل من الجاهلين مناداة الملائكة واتخاذ الملائكة آلهة مع الله جل جلاله، كذلك اتخاذ الأولياء معبودين هل هؤلاء من خيار الناس عند الله؟ بل هم أشر من الذين وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد)) فإن الذي اتخذ القبر مسجداً ملعون بلعنة النبي عليه الصلاة والسلام ولو كان لم يعبد إلا الله جل وعلا، فكيف حال الذي عبد صاحب ذلك القبر؟

نسأل الله جل وعلا العاقبة والسلامة من كل وسائل الشرك، تأمل هذا مع ما فشا في بلاد المسلمين من البناء على القبور والقباب عليها، ومن بناء المشاهد وتعظيم ذلك وتوجيه الناس إليها، وذكر الحكايات الطويلة في مناقب أولئك الأولياء، وفي إجابتهم للدعوات وإغاثتهم للهفات ونحو ذلك، يتبين لك غربة الإسلام أشد غربة في هذه الأزمنة وما قبلها، كيف إذا قالوا إن ذلك جائز وذلك توحيد؛ بل كيف إذا اتهموا من نهاهم عن ذلك بعدم المعرفة وعدم الفهم وهو يدعوهم إلى الله جل وعلا وهم يدعونه إلى النار نسأل الله السلامة والعافية. ٣

يُستفاد من هذين الحديثين مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: يُستفاد من الحديثين إثبات المحبة الله سبحانه وتعالى، وأنها صفة من صفاته، وأنه يحب أولياءه ورسله، ويحب عباده المؤمنين، وهذه صفة من صفاته اللائقة بجلاله، كما يُبغض الكافرين والمنافقين، ويكره، ويمقت، ويغضب، ويرضى، ويضحك، كل هذه من صفاته سبحانه وتعالى، وهي صفات لائقة به جلّ وعلا.

وهذا مذهب أهل السنّة والجماعة أنهم يثبتون ما جاء في الكتاب والسنّة من صفاته الذاتية، ومن صفاته الفعلية سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله، ومن ذلك: أثبات المحبة، وأنه يحب. وتكرّر ذكر محبته لعباده في آيات كثيرة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف:٤]، إلى غير من الآيات والأحاديث التي تثبت أن الله يحب عباده المؤمنين.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على أن الخُلّة أعلى درجات المحبة، ولذلك لم تحصل إلاّ للخليلين: محمد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، أما بقية الأنبياء والصالحين فإن الله يحبهم، لكن لم تصل محبتهم إلى مرتبة الخُلّة.

وكذلك النبي ﷺ يحب أصحابه؛ فيحب عائشة، ويحب أبا بكر، ويحب عمر، وقال لمعاذ: ((يا معاذ إني أحبك)) فهو يحب أصحابه -عليه الصلاة والسلام-، أما الخُلّة فإنه لم يخالل أحداً منهم حتى ولا أبا بكر، لأن الخُلّة لا تقبل الاشتراك، فلم تكن إلاّ لله سبحانه وتعالى خالصة، فهذا فيه دليل على أن الخُلّة أعلى درجات المحبة. وقول بعض الصحابة: خليلي رسول الله هذا من قبل الصحابي لا من قبل الرسول ﷺ.

المسألة الثالثة: فيه دليل على فضل الخليلين: محمَّد وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، حيث نالا هذه المرتبة التي لم ينلها أحد غيرهم.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على فضل أبي بكر الصدّيق، لأن الرسول ﷺ قال: ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً)) فهذا فيه فضيلة أبي بكر، وفيه إشارة إلى استخلافه من بعده.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على تحريم الصلاة عند القبور، وبناء المساجد عليها، لأن قوله ﷺ: ((فلا تتخذوا القبور مساجد)) يشمل المعنيين: الصلاة المجردة عن البناء، أو مع البناء على القبر، كله من اتخاذها مساجد، وذلك سداً لذريعة الشرك، لا كما يقوله من قل فهمه أو أراد التضليل ممن زعم أن العلة هي: نجاسة المكان، فهذه علة غير صحيحة، لأن المكان ليس فيه نجاسة. أو من قال: المراد لا يصلي فوق القبر.

المسألة السادسة: في الحديث دليل على بطلان الصلاة عند القبور، أو في المساجد المبنيّة على القبور، لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك، والنهي يقتضي الفساد عند الأصوليين، فالذي يصلي عند القبر صلاته غير صحيحة، فعليه أن يعيد الفريضة، لأن صلاته عند القبر أو في المسجد المبني على القبر غير صحيحة، لأنها صلاة منهي عنها، والصلاة المنهي عنها غير مشروعة، فهي لا تصحّ.

المسألة السابعة: في الحديث دليل على أن الذين يتخذون القبور مساجد شرار الخلق، فالذين يفعلون هذا الفعل سواء كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنتسبين إلى الإسلام هم شر الخلق، لا أحد شر منهم، والعياذ بالله.

المسألة الثامنة: أن الحديث يدل على أن الساعة لا تقوم على أهل الإيمان، وإنما تقوم على الكفار، لأن أهل الإيمان من خير الناس، وليسوا شر الناس، فلا تقوم عليهم الساعة، وإنما يموتون قبل ذلك، تُقبض أرواحهم كما دلّت على ذلك الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ، وأن الله يُرسل ريحاً قبل قيام الساعة تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى في الأرض إلاّ الكفّار وشرار الخلق، يتهارجون كما تتهارج الحُمُر، لأنهم ليس عندهم دين، ولا خلق، ولا مروءة. ٤

وخلاصة الباب:

أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف رحمه الله في قوله: "فيمن عبدالله" يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنه رحمه الله كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره، فهو شبيه بمن اتخذه مسجداً لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شأناً يفضل به على غيره، فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بذلك أن العلة هي تعظيم هذا المكان، لكونه قبراً، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات، فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النص له لفظاً. ٥

تنبيه:

لا يضر قرب المسجد من المقبرة وإن فصل بينهم بطريق فهو أولى. ٦

أقوال العلماء في تحريم البناء على القبور

وقد أجمع العلماء على النهي عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا مطعن فيها بوجه من الوجوه ولا فرق في ذلك بين البناء في مقبرة مسبلة أو مملوكة إلا أنه في المملوكة أشد ولا عبرة بمن شذ من المتأخرين فأباح ذلك إما مطلقا واما في المملوكة قال الإمام أبو محمد بن قدامة: "ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لأن النبي ﷺ قال ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها وقال شيخ الإسلام: "أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة علماء الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه".

قال: "ولا ريب في القطع بتحريمه" ثم ذكر الأحاديث في ذلك... إلى أن قال "فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو بغيره هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين"[١].

وقال ابن القيم: "يجب هدم القباب التي على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ"

وقال أبو حفص [٢]: "تحرم الحجرة بل تهدم" فإذا كان هذا كلامه في الحجرة فكيف بالقبة؟

وقال الشافعي: "أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس".

وقال أيضاً: "تسطح القبور ولا تبنى ولا ترفع وتكون على وجه الأرض.

---

[١] اقتضاء الصراط (٢/٦٦٧)

[٢] عمر بن إبراهيم بن عبدالله، أبو حفص العكبري، يعرف بابن المسلم، معرفته بالمذهب المعرفة العالية، له التصانيف السائرة...مات سنة ٣٨٧هـ طبقات الحنابلة (٢/١٦٣)

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنيه؛ منهم: ابن الجميزى والظهير التزمنتي وغيرهما.[١]

وقال القاضي بن كج[٢]: "ولا يجوز أن تجصص القبور ولا أن يبنى عليها قباب ولا غير قباب والوصية بها باطلة".

وقال الأذرعي: "وما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة وإنفاق الأموال الكثيرة فلا ريب في تحريمه".

قلت وجزم النووي في شرح المهذب[٣] بتحريم البناء مطلقا وذكر في شرح مسلم[٤] نحوه أيضاً.

وقال القرطبي في حديث جابر: ((نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه)): "وبظاهر هذا الحديث قال مالك وكره البناء والجص على القبور وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور أن ذلك مباهاة واستعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة وتشبه بمن كان يعبد القبور ويعظمها وباعتبار هذه المعاني وبظاهر هذا النص ينبغي أن يقال هو حرام كما قال به بعض أهل العلم".[٥]

وقال ابن مرشد: "كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة وهو من بدع أهل الطول احدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة وهو مما لا اختلاف فيه".[٦]

وقال الزيلعي في (شرح الكنز): "ويكره أن يبني على القبر".[٧]

---

[١] نقل ذلك ابن الحاج في المدخل (١/٢٥٣)، وعنه ابن النحاسفي تنبيه الغافلين (ص:٢٩٥)

[٢] قال الذهبي: القاضي العلامة، شيخ الشافعية، وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب.

[٣] المجموع شرح المهذب (٥/٢٦٠)

[٤] شرح صحيح مسلم (٧/٢٧) وفيه وفي المجموع تقييد التحريم إذا كان البناء في المقابر المسَبَّلة، أما المملوكة فعلى الكراهة، وهذا فيه نظر، والصواب التحريم مطلقاً.

[٥] المفهم (٢/٢٦٢-٢٦٧)

[٦] البيان والتحصيل لابن رشد (٢/٢٢٠)

[٧] تبيين الحقائق وشرح كنز الدقائق لابن نجيم (١/٢٤٦)

وفي ((الخلاصة)): "ولا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بناء".[1]

وذكر أيضاً قاضي خان أنه: "لا يجصص القبر ولا يبنى عليه لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص وعن البناء فوق القبر".[2]

والمراد بالكراهة عند الحنفية كراهة التحريم التي هي في مقابلة ترك الواجب وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز[3] ومثل هذا كثير في كلام العلماء أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم والمقصود أن كلام العلماء موافق لما دلت عليه السنة الصحيحة في النهي عن البناء على القبور. ١

مفاسد البناء على القبور

وأعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاسد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله ما يغضب لله من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان كما نبه عليه ابن القيم وغيره فمنها:

اعتيادها للصلاة عندها وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنها: تحري الدعاء عندها ويقولون من دعا الله عند قبر فلان استجاب له وقبر فلان الترياق المجرب وهذا بدعة منكرة.

ومنها: ظنهم ان لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء ويقولون إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والاجماع فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله فلما عصوا الرسول وخالفوا ما أمرهم الله به سلط الله عليهم من انتقم منهم وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير جرى عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك وهذا أكثر من أن يحصر.

ومنها: الدخول في لعنة رسول الله ﷺ باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

---

[1] البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم (٢٠٩/٢)

[2] البحر الرائق (٢٠٩/٢)

[3] البحر الرائق (٢٠٩/٢)

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد كما هو الواقع ودين الله بضد ذلك.

ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال وما يقع في ضمن ذلك من الفواحش وترك الصلوات ويزعمون أن صاحب التربة تحملها عنهم بل اشتهر أن البغايا يسقطن أجرتهن على البغاء في أيام زيارة المشايخ كالبدوي وغيره تقرباً إلى الله بذلك فهل بعد هذا في الكفر غاية.

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك.

ومنها: جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك.

ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور ولسدنتها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية وكفر، فإنهم الذين يكذبون على الجهال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فأجابه واستغاثه فأغاثه ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.

ومنها: جعل السدنة لها كسدنة عباد الأصنام.

ومنها: الاقسام على الله في الدعاء بالمدفون فيها.

ومنها: أن كثيراً من الزوار إذا رأى البناء الذي على قبر صاحب التربة سجد له ولا ريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هذا هو عبادة الأوثان لأن السجود للقبة عبادة لها وهو من جنس عبادة النصارى للصور التي في كنائسهم على صور من يعبدونه بزعمهم الباطل، فإنهم عبدوها ومن هي صورته وكذلك عبادة القبور لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عز وجل.

ومنها: النذر للمدفون فيها وفرض نصيب من المال والولد وهذا هو الذي قال الله فيه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشركَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦] الآية، بل هذا أبلغ فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.

ومنها: أن المدفون فيها أعظم في قلوب عباد القبور من الله وأخوف ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الإيمان كاذباً أو صادقاً وإذا طلبت بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً، ولا ريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله كما في قصة القسامة وغيرها.

ومنها: سؤال الميت قضاء الحاجات وتفريج الكربات والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات.

ومنها: التضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهيبة والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهي المساجد فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف في المساجد وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف المشاهد أفضل من العكوف في المساجد.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ في زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة كما قال ((زوروا القبور فإنها تذكر الآخرة)) والإحسان إلى المزور بالترحم عليه والدعاء له والاستغفار وسؤال العافية له فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب عباد القبور الأمر وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت، ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدعاء والترحم عليه والاستغفار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم وكل هذه المفاسد العظيمة وغيرها مما لم يذكر إنما حدثت بسبب البناء على القبور ولهذا تجد القبور التي ليس عليها قباب لا يأتيها أحد ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد ولعن من فعله، فالخير والهدى في طاعته والشر والضلال في معصيته ومخالفته.

والعجب ممن يشاهد هذه المفاسد العظيمة عند القبور ثم يظن أن النبي ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة كما يظنه بعض متاخري الفقهاء ولو كان ذلك لأجل النجاسة كما يظنه بعض متأخري الفقهاء ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر المجازر والحشوش بل ذكر التحرز من البول والغائط أولى وإنما ذلك لأجل نجاسة الشرك التي وقعت من عباد القبور لما خالفوا ذلك ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].١

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلّة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: "ولو صحت نية"، لأن الحكم علق على مجرد صورته، فهذا العمل لا يحتاج إلى نية لأنه معلق مجرد الفعل.

فالنية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطي أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق على فعل مجرد، فلا حاجة فيه إلى النية.

أي: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك، وهذه النقطة نتدرج منها إلى نقطة أخرى، وهي التحذير من مشابهة المشركين وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنما يحرم إذا قصدت المشابه، والشرع إنما علق الحكم بالتشبه، أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك، فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة ((إنما الأعمال بالنيات)) هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لا تعارضه، لأن ما علق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل، كالأشياء المحرمة، كالظهار، والزنا، وما أشبهها. ٥

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

تؤخذ من قوله: ((وصوروا فيه تلك الصور))، ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظمة عادة، كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم؛ أو شرعاً، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك. ٥

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

وهذا مما يدل على حرص النبي ﷺ على حماية جانب التوحيد، لأنه خلاصة دعوة الرسل، ولأن التوحيد أعظم الطاعات، فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال بن مسعود: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً"، لأن الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداً، ونحن نحذر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلقوا له، واشتغلوا بما خلق لهم، فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا، ليس في أفكارهم إلا الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك، لأنه يوجب الغفلة عن الله عز وجل ، ولهذا سمى النبي ﷺ من فعل ذلك عبداً لما تعبد له، فقال: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة))، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قدر له من الدنيا، فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان، كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

فالحاصل: أن النبي ﷺ بعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصاً على سد كل الأبواب التي تؤدي إلى الشرك، فالرسول ﷺ حذر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: في سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهو في السياق. ٥

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

تؤخذ من قوله: ((ألا فلا تتخذوا القبور مساجد))، فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه. ٥

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

تؤخذ من قوله ﷺ: ((اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))، وبئس رجلاً جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم في قبيح أعمالهم. ٥

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

تؤخذ من قوله: ((لعنة الله على اليهود والنصارى)). ٥

السابعة: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

تؤخذ من قول عائشة: "يحذر ما صنعوا" أي: ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم. ٥

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

تؤخذ من قول عائشة: "ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً".

هناك علة أخرى، وهي: إخباره بأنه من نبي يموت إلا دفن حيث يموت، ولا يمتنع أن يكون للحكم علتان، كما لا يمتنع أن يكون للعلة حكمان. ٥

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً.

سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

١- بناء المساجد عليها.

٢- اتخاذها مكاناً للصلاة تقصد فيصلى عندها، بل إن من صلى عندها ولم يتخذها للصلاة، فقد اتخذها مسجداً بالمعنى العام. ٥

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: "مع خاتمته"، وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء، هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر. ٥

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

وإنما تكلم المؤلف رحمه الله عن حال الرافضة والجهمية وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على معرفتهما والاطلاع عليهما، لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه، صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية، فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولاً.

وحالهما: أنها أشر أهل البدع.

وحكمهم: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيراً جدي. فرفضوه وتركوه، وكانوا في السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم، نفروا منه والعياذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودي تلبس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والغلو فيهم ليشغل الناس عن دين الإسلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبس بالنصرانية.

وأول ما أظهر ابن سبأ بدعته في عهد علي بن أبي طالب، حتى إنه جاءه وقال: أنت الله حقاً -والعياذ بالله-، فأمر علي بالأخدود فحفرت، وأمر
بالحطب فجمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقهم بها، إلا أنه يقال: إن عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته، فالله أعلم.

فالمهم أن علياً ﷺ رأى أمراً لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقاً، ثم بدأت هذه الفرقة الخبيثة تتكاثر، لأن شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسمونه التقية، ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون على الإسلام، لأنها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة، كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن، فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام، وذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كثير من كتبه قولاً إذا أطلع عليه الإنسان عرف حالهم: "إنهم أشد الناس ضرراً على الإسلام، وأنهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد"، فهم يقولون: لا نصلي جماعة إلا خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أول من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق -وهما أبو بكر وعمر- بالنفاق، وإنهما ماتا على ذلك، كعبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه والعياذ بالله، فأنظر بماذا تحكم على هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟

وأما الجهمية، فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأت هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية، كالمعتزلة ومتأخري الرافضة، لأن الرافضة كانوا بالأول مشبهة، ولهذا قال أهل العلم: أول من عرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحولوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إن الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصائبة وعباد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضاً ما أخذ، فصارت هذه البدعة مركبة من اليهودية والصائبة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة في الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته، فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون الله متصفاً بالإثبات أو العدم، فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة، حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم، لأننا إن قلنا موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات، فنقول: لا موجود ولا معدوم، فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن، لأن تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالممتنعات على قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إن الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إنه صلى، فهو مجبر، وإن قتل، فهو مجبر، وهكذا، فعطلوا بذلك حكمة الله لأنه إذا كان كل عامل مجبراً على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمه، لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتم أن الله أظلم الظالمين، لأنه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق، وعاقب من لا يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم، لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل، لأن المالك إذا كان متصفاً بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هضماً﴾ [طه: ١١٢]، فلو أخلف هذا الوعد، لكان نقصاً في حقه وظلماً لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إن الإيمان مجرد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأن الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إن أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا إن فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر، لأنه ادعى الربوبية لنفسه فقط، فصار ذلك كافراً.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، "إن جميع البدع أصلها من الرافضة، فهم أصل البلية في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: "أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة"، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أن الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين، أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه، لأن المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلى واحده، وهي من كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: "شر أهل البدع".
وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار لأن أظهر هذا المذهب ونشره.
وقول المؤلف: "وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بني عليها المساجد"، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض، فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره. ٥

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.

وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كاد الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان[١] من الناس، وهذا من حكمة الله عز وجل؛ فهو ﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيذاء عظيماً، وكذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجات الصبر، لأن الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.
والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء، فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين. ٥

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلّة.

ويدل عليها قوله ﷺ: ((إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً))، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة، لأننا لا نعلم أحداً نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه السلام.٥

---

[١] البخاري: كتاب المرضى/ باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ومسلم: كتاب البر والصلة/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

ودليل ذلك أنه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه، فأثبت له المحبة، ونفى عنه الخلة، فدل هذا على أنها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره، فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: ((بأن أبا بكر أحب الرجال إليه))[١]، ثم قال هنا ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً)) فدل على أن الخلة أعلى من المحبة. ٥

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

تؤخذ من قوله ﷺ: ((ولو كنت متخذاً من أمتى خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً))، فلو كان غيره أفضل منه عند النبي ﷺ، لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضاً:

أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب، لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب، لكان حمزة بن عبد المطلب والعباس رضي الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلك، ومن ثم قدم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي ﷺ. ٥

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة، لأن النبي ﷺ لم يقل: إن أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً)) علم أنه رضي الله عنه أولى الناس برسول الله ﷺ، فيكون أحق الناس بخلافته. ٥

---

[١] البخاري: كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر، ومسلم: كتاب الفضائل/ باب فضائل أبي بكر.

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أوثاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أوثاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

رَوَى مَالِكُ فِي الْمُوَطَّأ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((اللَّهُم لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثناً يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائهُمْ مَسَاجِدَ))، وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءيتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾، قَالَ: "كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ"، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: "كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ".

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرَجَ". رَوَاهُ أَهَلُ السُّنَنِ.

قوله رحمه الله: "باب ما جاء" أي: من الوعيد.

"إن الغلو في قبور الصالحين" الغلو تقدم لنا معناه، وهو: الزيادة عن الحد المشروع.

والغلو في قبور الصالحين هو: الزيادة في تعظيمها، لأن ذلك يؤدي إلى الشرك، لأن المشروع في قبور الصالحين –وقبور المسلمين عموماً– احترامها، وعدم إهانتها، وصيانتها عن الأذى، وزيارتها للسلام على الأموات، والدعاء لهم، والاعتبار بأحوالهم، هذا هو المشروع، أما الغلو فهو قصدها للتبرّك، أو الدعاء عندها، أو الصلاة عندها رجاء الإجابة، هذا هو الغلو، لأن هذا لم يشرعه الله ولا رسوله، ولأنه وسيلة إلى الشرك. ٤

الغلو في قبور الصالحين وسيلة من وسائل الشرك؛ بل يصل الغلو إلى أن يكون شركاً بالله جل وعلا وأن يُصيَّر ذلك القبر وثنا يعبد، فالغلو درجات مرّ علينا في الأبواب قبله بعض الغلو في القبور، وهنا بيّن أن الغلو يصل إلى أن يصيّر تلك القبور أوثاناً تعبد من دون الله.٣

"يصيّرها" أي: يجعلها في المستقبل، وعلى امتداد الزمان.

"أوثاناً تعبد" الأوثان: جمع وثن، والوثن ما عُبد من دون الله من قبر، أو شجر، أو حجر، أو بقاع، أو غير ذلك، أما الصنم فهو: ما عُبد من دون الله وهو على صورة إنسان أو حيوان،

كما كان قوم إبراهيم يعبدون التماثيل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء:٥٢]، والتماثيل جمع تمثال، وهو: ما كان على صورة إنسان، أو حيوان هذا هو الفرق بين الوثن والصنم، وقد يراد بالصنم الوثن، والعكس.

والشارح رحمه الله يقول: إذا ذكر أحدهما شمل الآخر، إذا ذكر الصنم فقط دخل فيه الوثن، وإذا ذُكر الوثن فقط دخل فيه الصنم، أما إذا ذُكرا جميعاً افترقا في المعنى، فصار الصنم: ما كان على شكل تمثال، وأما الوثن فيراد به: ما عبد من دون الله من الشجر، والحجر، والقبور والصور وغير ذلك، ولم يكن على صورة تمثال، فبينهما عموم وخصوص مطلق، يجمعها أنها تُعبد من دون الله عزّ وجلّ. ٤

قلنا أن الغلو هو مجاوزة الحد، والقبور -قبور الصالحين وغير الصالحين- صفتها في الشرع واحدة، لم يميز الشرع ولم يأتِ دليل في الشريعة بأن قبر الصالح يميز عن قبر غيره؛ بل القبور تتساوى هذا وهذا لا يفرق بين قبر صالح وبين قبر طالح؛ بل الصفة واحدة وهي إما أن يكون القبر في ظاهره مسنما وإما أن يكون مربعا، وهذه الصورة من حيث الظاهر واحدة.

نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن الكتابة عليها وعن تجصيص القبر وعن رفع القبر وفي أنواع من السنن التي جاءت في أحكام القبور، وهذا لأجل سد الطرق التي توصل إلى الغلو في قبور الصالحين.

فإذن مجاوزة الحد في قبور الصالحين هي مجاوزةُ ما أمِر به أو نُهي عنه في القبور؛ لأن قبور الصالحين لا تختلف عن قبور غير الصالحين، فالغلو فيها:

- يكون بالكتابة عليها، يكون برفعها، يكون بالبناء عليها، يكون بأن تتخذ مساجد.
- يكون الغلو فيها -ذلك الذي سبق كله من جهة الوسائل؛ يكون الغلو في قبور الصالحين بأن يجعل القبر وسيلة من الوسائل التي تقرِّب إلى الله جل وعلا، ويجعل القبر أو من في القبر شفيعاً لهم عند الله جل وعلا، يجعل القبر له حق أن يُنذر له، أو أن يُذبح له، أو أن

يستشفع بترابه إعتقادا أنه وسيلة عند الله جل وعلا، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله تبارك وتعالى.

لهذا الغلو في قبور الصالحين يكون بمجاوزة ما أُذن فيها:

- من المجاوزة ما هو من الوسائل.
- ومن المجاوزة ما هو من إتخاذها أوثاناً من دون الله جل وعلا. ٣

وهذا هو الذي حصل ويرى في البلاء من أن القبور صارت أوثاناً تعبد من دون الله لما أقيمت عليها المشاهد القباب ودعي الناس إليها وذُبح لها وقُبلت النذور لها وصار يطاف حولها ويعكف عندها، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله. ٣

فالغلو يجعل المغلو فيه معبوداً من دون الله و لهذا لما غلا أناس في بعض الصالحين من الحسن والحسين وفاطمة وغير ذلك. وهكذا هذه الأمة غلو في الرسول فعبدوه واستغاثوا به ودعوه من دون الله. وفي سابق الزمان لما غلى قوم نوح في الصالحين أدى إلى عبادتهم، وتقدم ذلك.٦

قوله: "تعبد من دون الله"، أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله، لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإن قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله، وقد ثبت في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: ((أنا أغنى الشركاَء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)). ٥

أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة أموراً:

الأول: التحذير من الغلو في قبور الصالحين.

الثاني: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها.

الثالث: أنها إذا عبدت سميت أوثاناً ولو كانت قبور الصالحين.

الرابع: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد. ١

روى مالك في (الموطأ): أن رسول الله ﷺ قال: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))

قال "روى مالك" هو: مالك بن أنس إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة المجتهدين: الذين هم أبو حنيفة، ومالك، والشافعي وأحمد أصحاب المذاهب الأربعة الباقية.

وهناك مذاهب لأهل السنّة، لكن انقرضت، مثل: مذهب سفيان الثوري، ومذهب ابن جرير الطبري.

فمالك هو أحد الأئمة الأربعة المقلَّدين، وهو إمام جليل، يسمى -بإمام دار الهجرة- يعني: المدينة-، ويسمى عالم المدينة، واشتهر في وقته، حتى قيل: لا يُفتى ومالك في المدينة، وذلك لعظيم منزلته وثقة النّاس به، رحمه الله رحمة واسعة.

"في الموطأ" الموطأ: كتاب أَلَّفَه مالك في الحديث والفقه، حيث يذكر فيه الأحاديث ويذكر فقهها، وما يؤخذ منها، فهو كتاب عظيم من الكتب التي جمعت بين الفقه والحديث، ومرجع من مراجع الأمة الإسلامية. ٤

كتاب مشهور من أصح الكتب، لأنه رحمه الله تحرى فيه صحة السند، وسنده أعلى من سند البخاري لقربه من الرسول ﷺ، وكلما كان السند أعلى كان إلى الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضاً كلام وبحث للإمام مالك نفسه. ٥

شرحه علماء كثيرون، لكن أشهر شروحه "التمهيد" لابن عبد البر، وشرحه أبو الوليد الباجي في كتابه "المنتقى"، وشرحه الزُّرقاني-أيضاً-، وشرحه السيوطي، وله شروح كثيرة، لكن أشهرها وأعظمها وأكثرها فائدة هو: كتاب "التمهيد" للإمام ابن عبد البر النَّمَري رحمه الله.

سُمي الموطأ من التوطئة وهي: التسهيل والتقريب، لأنه رحمه الله سهَّله للناس، ووطّأه للناس بترتيبه وتبويبه، حتى أصبح سهلاً، هذا معنى تسميته بالموطأ.

"إن رسول الله ﷺ قال: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) هذا دعاء من الرسول ﷺ، دعا به ربه أن يصون قبره من الغلو به، كما حصل لقبور الأنبياء السابقين من اليهود والنصارى حيث غلوا في قبور أنبيائهم، فقال: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)) فدلّ على أن الغلو في القبر يصيّره وثناً، وهذا الشاهد من الحديث للباب، ولكن الله حماه ولله الحمد، حماه بأن دفن في بيته، ومُنع النّاس من الوصول إليه وسيبقى مصوناً -بإذن الله- استجابة لدعوة رسوله ﷺ، ودفن في بيته من أجل هذا، كما مر قول عائشة: "ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خُشي أن يُتخذ مسجداً" فدفنه ﷺ في بيته له سرٌّ عظيم، هو: صيانته من قصد النّاس له بالدعاء، والصلاة عنده، والتبرّك به، يقول ابن القيم رحمه الله:

فأجاب ربُ العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران ٤

صحيح أنه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثناً، ولكن قد يعبدون الرسول ﷺ ولو في مكان بعيد، فإن وجد من يتوجه له ﷺ بدعائه عند قبره، فيكون قد اتخذه وثناً، لكن القبر نفسه لم يجعل وثناً. ٥

قال: ((اللّهُمّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ)) معنى ذلك أنّ القبر يمكن أن يكون وثنا يُعبد،.

ودل الحديث عن أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثنا، فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله وإذا أريد تغيير شيء من ذلك انف عبادها واشمأزت قلوبهم واستكبرت نفوسهم وقالوا تنقص أهل الرتب العالية ورموهم بالعظائم فماذا يقولون لو قيل لهم إنها أوثان تعبد من دون الله؟! فالله المستعان على غربة الإسلام، وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود "كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير تجري على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت قيل غيرت السنة" [1]. ١

[1] رواه الدارمي (٦٤/١)والحاكم (٥١٤/٤) عن ابن مسعود وسنده صحيح

ثمّ قال: ﷺ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) تحذير بعد تحذير، حيث سبق عدة مرات أن الرسول ﷺ لعن اليهود والنصارى وهو في سياق الموت لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ يحذّر ما صنعوا، وقال -قبل أن يموت بخمس:- ((ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد إلاَّ فلا تتخذوا القبور مساجد)) وهنا يقول: ((اشتد غضب الله)) ((غضب الله)) والغضب صفة من صفاته سبحانه وتعالى فالله يغضب، كما أنه يفرح ويضحك ويحب، كما جاءت بذلك النصوص، وكل هذه الصفات تليق بجلاله، ليس كغضب المخلوق، ولا كفرح المخلوق، ولا كضحك المخلوق، ويحب كما يليق بجلاله لا كمحبة المخلوق.

ونُثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله من الصفات من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فنُثبت أن الله يغضب، وأنه يشتدّ غضبه، وأنه يمقت، والمقت أشد الغضب: ﴿لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، فالله يمقت بمعنى: أنه يشتد غضبه.

وهذا فيه أن من جعل القبر مسجداً فقد اتخذه وثناً يُعبد.

ودلّ على أن هذه الأضرحة المبنية على القبور التي يُطاف بها الآن، وينذر لها، ويُذبح لها، ويُستغاث بها أوثان، لا فرق بينها وبين اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، وإن سموها مساجد، أو سموها مقامات للصالحين، فالتسمية لا تغير المعنى، فهي أوثان كما سماها الرسول ﷺ. ٤

قال عليه الصلاة والسلام ((اللّهُمّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ))، فالغاية أن يكون القبر وثناً يعبد، ودعا النبي ﷺ بأن لا يكون، والوسيلة إلى ذلك ما جاء بعد ذلك قال ((اشْتَدّ غَضَبُ اللهِ عَلَىَ قَوْمٍ اتّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) وهذا هو الغلو؛ غلو الوسائل، فاتخاذ قبور الأنبياء مساجد غلو من غلو الوسائل يصيّر تلك القبور أوثاناً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث جمع بين ذِكر الوسيلة والتنفير منها واشتداد غضب الله على من فعلها، وذكر نهاية ما تصل إليه بأصحابها تلك الوسيلة وهي أن تكون القبور أوثاناً تعبد من دون الله جل وعلا.

فإذاً هذا الحديث فيه بيان أن القبر يمكن أن يكون وثناً.
والخرافيون يقولون: القبور لا يمكن أن تكون أوثاناً ، والأوثان هي أوثان الجاهلية وأصنام الجاهلية.
ونقول: إنّ الجاهليين إذا كانوا تعلّقوا بأصنام وبأحجار وبأشجار وبغير ذلك من الأشياء، واعتقدوا فيها ووصلوا فيها إلى الشرك الأكبر، مع أن المبرر العقلي والمبرر النفسي غير قوي فيها، فلأن تتخذ قبور الصالحين والأنبياء والمرسلين أوثاناً أو أن يتوجه إلى أصحابها بالعبادة ذلك من باب أولى؛ لأن تعلُّق القلوب بالصالحين أولى من تعلقها بالأحجار، تعلُّق القلوب بالأنبياء والمرسلين أولى من تعلقها بالجن أو تعلقها بالأشجار أو الأحجار أو نحو ذلك.
فإذاً سبب الشرك ووسيلة الشرك في القبور أولى وأظهر من النظر في الأصنام ونحو ذلك؛ لأنها جميعاً من جهة اعتقاد القلب وتأثير تلك الأصنام والأوثان في الحالين جميعاً في الشفاعة عند الله، فأولئك المشركون يقولون في آلهتهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وقالوا أيضاً ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨].
وأهل العصر أو العصور التي فشا فيها الشرك إذا سألتهم يقولون: هذا توسل وهذا استشفاع.
والحال واحدة، والسبيل الذي جعل تلك القبور أوثاناً هو اتخاذ تلك مساجد و البناء عليها والحث على مجيئها وذكر الكرامات التي تحصل عندها أو إجابة الدعوات عندها أو التبرك بها إلى غير ذلك. ٣

المشروع عند قبر الرسول ﷺ

والمشروع: السلام عليه من غير مكوث عنده وطول قيام ولا تكرر زيارة كما كان الصحابة يفعلون ذلك:
فقد كان ابن عمر يقف -إذا جاء من سفر- مقابل وجه النبي ﷺ فيقول: السلام عليك يا رسول الله، ثمّ يتأخر إلى جهة الشرق قليلاً فيقول: السلام عليك يا أبا بكر، ثمّ يتأخر قليلاً فيقول: السلام عليك يا أبت، ثمّ ينصرف.

وهكذا كان عمل المسلمين عند السلام على الرسول ﷺ وعلى صاحبيه رضي الله عنهما، ما كانوا يجلسون، وما كانوا يتردّدون، حتى إن الصحابة في المدينة ما كانوا كلما دخلوا إلى المسجد راحوا يسلمون على الرسول، لأن هذا يُعتبر من الغلو، إنما كانوا يسلمون على الرسول إذا جاءوا من سفر-كما فعل ابن عمر رضي الله تعالى عنه-، فالصحابة يأتون إلى المسجد، ويتردّدون عليه للصلاة، ولطلب العلم، وللاعتكاف فيه، لكن ما كانوا كلما دخلوا ذهبوا يسلمون على الرسول ﷺ، لأنهم عرفوا أن هذا من الغلو الذي حذّر منه النبي ﷺ، وهم أعلم النّاس وافقه النّاس بمقاصد الرسول. ومن أجل ذلك ما كانوا يتردّدون على القبر، حتى إن مالكاً رحمه الله، كان يكره أن يقول الإنسان: زرت قبر الرسول ﷺ، لأن زيارة قبر الرسول ﷺ لم يرِد بها دليل خاص، والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها موضوعة أو ضعيفة شديدة الضعف، لم يثبت منها شيء، وإنما تدخل زيارة قبره ﷺ في عموم قوله ﷺ: ((زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة))، فزيارة قبره تدخل في عموم زيارة القبور التي أمر بها النبي ﷺ، أما أنه ورد لفظ خاص بزيارة قبر الرسول ﷺ، فهذا لم يثبت أبداً، كما نبّه على ذلك الحفاظ؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن حجر، وابن عبد الهادي، وغيرهم من الأئمة الحفاظ.

ولابن عبد الهادي كتاب مستقل اسمه: "الصارم المنكي في الرد على السبكي" تناول الأحاديث التي استدل بها السبكي على مشروعية السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ، فبين ما فيها من المقال واحداً واحداً، حتى أتى على آخرها.

فهذا الكتاب-الصارم المنكي- كتاب نفيس جدًّا، يحتاجه طالب العلم، ليتسلح به ضد الخرافيين الذي يحتجون بهذه الأحاديث التي لا تصلح للاحتجاج. ٤

وفي القرى للطبري عن أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ وعلل ذلك بقوله ﷺ ((اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد))[١] الحديث: كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة. [٢]

[١] مالك النداء للصلاة (٤١٦)

[٢] الطبري ((القرى لقاصد أم القرى)) (٦٢٩)

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: "ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ" -إلى أن قال- "وقد ذكروا أسباب كراهته لأن يقول: "زرت قبر النبي ﷺ لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به. أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى. ألا ترى إلى قوله: ((فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة))[1] مع زيارته لقبر أمه. فإن هذا يتناول القبور العامة. فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظما في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيرا ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة." [2] اهـ. ٢

ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين كقبورهم ومجالسهم ومواضع صلاتهم للصلاة والدعاء عندها فإن ذلك من البدع أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم ولا نعلم أحدا أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عباد القبور وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك.

ومع ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة بل خالفه أبوه وغيره لئلا يفضي ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع.

---

[1] مسلم الجنائز (٩٧٦)، النسائي الجنائز (٢٠٣٤)، أبو داود الجنائز (٣٢٣٤)، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٦٩)، أحمد (٤٤١/٢).

[2] مجموع فتاوي ابن تيمية ٣٥٨/٢٤، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٧٦٢/٢)

قال ابن عبد الباقي في شرح الموطأ: "روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك ان يدفن في المسجد، قال: وإذا منع من ذلك فسائر آثاره أحرى بذلك.

وقد كره مالك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى". انتهى[1].

وقال ابن وضاح: "سمعت عيسى بن يونس يقول أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة، قال عيسى بن يونس وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضي الله عنه.

وقال المعرور بن سويد صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:١] و﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: "أين يذهب هؤلاء؟" فقيل: "يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه".

فقال: "إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعا فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها"[2].

وفي (مغازي بن اسحاق) من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: "لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب؛ قرأته مثل ما أقرأ القرآن" فقلت لأبي العالية: "ما كان فيه؟" قال: "سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد".

---

[1] شرح الزرقاني لموطأمالك (٣٥١/١)

[2] البدع والنهي عنها لابن وضاح (ص/٨٨ رقم ١٠٦ /١٠٧). وأثر عمر رضي الله عنه: رواه سعيد بن منصور في سننه كما في الاقتضاء (ص/٣٨٦). وإسناده صحيح

قلت: "فما صنعتم بالرجل؟"، قال: "حضرنا له بالنهار ثلاثة عشرة قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعمينه على الناس لا ينبشونه".
قلت: "وما يرجون منه؟" قال: "كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون".
فقلت: "من كنتم تظنون الرجل؟" قال: "رجل يقال له دانيال" فقلت: "منذ كم وجدتموه مات؟" قال: "منذ ثلاث مائة سنة"[١]؛ قلت: "ما كان تغير منه شيء؟" قال: "لا، إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض".[٢]

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله".[٣]
قال شيخ الإسلام رحمه الله: "وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً، لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها من يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمر في طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلم عليها ويسأل العافية له وللموتى كما جاءت به السنة فإن ذلك ونحوه لا بأس به.
وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره فهذا هو المنهي عنه.

---

[١] قال ابن كثير في النهاية والبداية (٢/٤٠-٤١) معلقاً على كلام أبي العالية: إن كان تاريخ وفاته محفوظاً منذ ثلاثمئة سنة...
[٢] البداية والنهاية لابن كثير (٢/٤٠-٤١)
[٣] إغاثة اللهفان (١/٢٢٢)

والفرق بين النوعين ظاهر فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل أو أتى بعض أصدقائه ودعا الله في بيته لم يكن بهذا بأس ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفرا" [١]. ١

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: "كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره"، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: "كان يلت السويق للحاج".

ثم قال: "ولابن جرير" ابن جرير هو: الإمام الجليل، إمام المفسرين، محمَّد بن جرير الطبري، صاحب كتاب "التفسير "الذي أصبح مرجعاً للمفسرين الذين جاءوا من بعده، فأعظم التفاسير هو تفسير ابن جرير، أما تفاسير أهل الكلام وأهل المنطق فليس مرجعها كتب أهل السنّة، بل مرجعها قواعد المنطق وعلم الكلام، مثل: "تفسير الرازي" و"تفسير الزمخشري" وفيها من الخلط، وفيها من الشر الشيء الكثير، وإن كان فيها فوائد، "تفسير الزمخشري" فيه فوائد لغوية، وأسرار بلاغية، وبيان لتفسير الألفاظ من جهة اللغة، فهو جيد من هذه الناحية، ولكنه من ناحية العقيدة ومن ناحية التأويل يشتمل على كثير من الشر والقول بخلق القرآن، فهو من هذه الناحية تفسير مختلط، لا يصلح أن يطالع فيه إلاَّ طالب العلم المتأصّل من أجل أن يأخذ ما فيه من الفوائد، ويترك ما فيه من الأباطيل، أما المبتدئ والجاهل فلا يصلح أن يطالع في تفسير الزمخشري.

وأما: "تفسير الرازي" فهو أكثر شيئاً شرًّا من: "تفسير الزمخشري" لأنه كله جدل وافتراضات، وأحياناً يأتي بإشكالات ولا يُجيب عليها.

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم (ص /٣١٥-٣٣٧-فقي) بتصرف واختصار

إنما التفاسير الموثوقة هي التفاسير المبنية على كلام الله عزّ وجلّ على قواعد التفسير المعروفة: تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنّة، أو تفسير القرآن بأقوال الصحابة، أو تفسير القرآن بمقتضى اللغة العربية، هذه وجوه التفسير.

أما أن يُدخل فيها علم الكلام وعلم المنطق، فهذا ليس من التفسير.

فأوثق التفاسير هو: "تفسير ابن جرير "وكذلك" : تفسير ابن كثير"، وكذلك "تفسير البغوي" هذه كتب موثوقة، تنهج منهج السلف، وتفسر القرآن بالوجوه المعروفة التي هي وجوه التفسير الصحيحة، وما عداها ففيه خلط.

وكل مفسر له اتجاه، بعضهم يتجه إلى النحو كأبي حيّان، وبعضهم يتجه إلى البلاغة كالزمخشري، وبعضهم يتجه إلى الأحكام الفقهية كالقرطبي.

قال: "عن سفيان": سفيان هذا يحتمل أنه سفيان بن عيينة، الإمام المشهور، ويحتمل أنه: سفيان الثوري، وهذا هو الذي رجّحه الشارح.

وسفيان الثّوريّ إمام جليل في علم الحديث وفي علم الفقه، وله مذهب مستقلّ، لكنه انقرض.

"عن منصور" منصور هو: منصور بن المعتمر، إمام جليل وثقة.

"عن مجاهد" مجاهد بن جَبْر، التابعي الجليل، من أكبر تلاميذ عبد الله بن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وهو الذي يقول: "عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أقف عند كل آية، وأسأله عن معناها" هذا هو مجاهد بن جَبْر، من أكبر أئمة المفسرين، ومن أكبر تلاميذ عبد الله بن عباس –رضي الله تعالى عنهما.–

في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩)﴾ [النجم:١٩] "هذه أسماء أصنام العرب. اللاّت في الطائف، والعزى في مكّة عند عرفات، ومناة على طريق المدينة بالمشلّل عند قُدَيْد، كان يُحرِم منها المشركون إذا جاءوا للحج. والشاهد من ذلك: اللاّت".

قال: "كان يَلُتُّ لهم السّويق" ولَتُّ السويق هو: خلطه بالسمن. ٤

قوله: "السويق"، هو عبارة عن الشعير، يحمص ثم يطحن ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.٥

كان هذا الرجل يعمل هذا العمل من أجل إطعام النّاس، يعني: يُحسن إلى النّاس، فأحبوه، وتعلقت قلوبهم به، لأنه يبذل الطعام، فلما مات عكفوا على قبره حتى صار وثناً.
"فمات، فعكفوا على قبره" دل على أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله، لأن اللاّت رجل صالح ما صار قبره وثناً إلاَّ بسبب الغلو فيه، والعكوف عند قبره. ٤

الشاهد قول مجاهد "مات فعكفوا على قبره" لأجل أنه رجل كان ينفعهم بِلَتّ السويق لهم على قراءة ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَّ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:١٩] ووجه المناسبة ظاهر من أن صلاح ذلك الرجل جعلهم يغلون في قبره فعكفوا على قبره، والعكوف على القبور يصيرها أوثاناً، العكوف معناه لزوم القبر بتعظيمه واعتقاد البركة في لزومه والثواب والنفع ودفع الضُّر، هذا معنى العكوف. ٣
أما على قراءة التخفيف، فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام، أي: حذف منها التضعيف تخفيفاً.
وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.
وأصله: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات، عظموه، وعكفوا على قبره، ثم جعلوه إلهاً، وجعلوا التسمية الأولى مقترنة بالتسمية الأخيرة، فيكون أصله من لت السويق، ثم جعلوه من الإله، وهذا على قراءة التخفيف أظهر من التشديد، فالتخفيف يرجح أنه من الإله، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويق.
وغلوا في قبره، وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبدوه، فصار الغلو في القبور يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله. ٥
وكذا قال أبو الجوزاء "وأبو الجوزاء" هو: سفيان بن عبد الله الرَّبَعي.
"عن ابن عباس قال: كان يَلُتُّ السّويق للحاج" هذا مثل رواية ابن جرير، في أن اللات اسم رجل غلو في قبره حتى صار وثناً يعبد. ٤

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. [رواه أهل السنن].[1]

قال: "وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:" لعن رسول الله ﷺ "اللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله عزّ وجلّ".

ومعنى "لعن رسول الله:" دعا عليهم باللعنة.

فهذا فيه دليل على لعن أصحاب الكبائر.

"زائرات القبور" أي: النساء اللاتي تزور القبور. ٤

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: "نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا".[2]

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المرأة: التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: ((اتقي الله واصبر))". فقالت: "إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتي." فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ. فجاءت إليه تعتذر، فلم يقبل عذرها، وقال: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى)) [3]، فالنبي ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٢٢٩/١)، وسنن أبو داود: كتاب الجنائز/ باب في زيارة النساء القبور، ٩٥/٤، والترمذي: الصلاة/ باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجداً، ٣٢٠- وقال: "حديث حسن" -.

[2] البخاري: كتاب الجنائز/ باب اتباع النساء للجنائز، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب نهي النساء عن اتباع الجنائز.

[3] البخاري: كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى.

ولما ثبت في "صحيح مسلم"[1] من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفياً عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: ((قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...)) إلخ.

قالوا: فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال، لقوله ﷺ: ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة))[2]، وهذا عام للرجال والنساء.

ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبدالله بن أبي مليكة، أليس النبي ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: "إنه أمر بها بعد ذلك".[3]

وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، فمن ذلك:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة، لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

١- تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر، لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها)) للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم: هل يدخل النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول -وهو الصحيح-؛ فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلى هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول قد خص النبي ﷺ النساء من هذا

[1] مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبر...

[2] مسند الإمام أحمد (١/١٤٥)، ومسلم بلفظ: "نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي..."

[3] الترمذي: كتاب الجنائز/ باب زيارة النساء للقبور، وذكره الهيثمي في "المجمع"، وقال: رواه الطبراني في "الكبير" ورجاله رجال الصحيح، والبغوي في "شرح السنة".

الحكم، فأمره بالزيارة للرجال فقط، لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضاً مما يبطل النسخ قوله: "لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج))، ومن المعلوم أن قوله: "والمتخذين عليها المساجد والسرج"، لا أحد يدعي أنه منسوخ، والحديث واحد، فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكماً غير منسوخ.

٢- العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ، لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور بل قال: ((كنت نهيتكم))، والنهي دون اللعن.

وأيضاً قوله: ((كنت نهيتكم)) خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء، فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء، إذاً، فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

وثانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة، أن المرأة لم تخرج للزيارة قطعاً، لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يدل على أن في قلبها شيئاً عظيماً لم تتحمله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر، لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة، فالحديث ليس صريحاً بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحاً، فلا يمكن أن يعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة، فإنها قالت للرسول ﷺ: ماذا أقول؟ فقال: ((قولي: السلام عليكم))، فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل، فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة، إذا من الممكن أن يراد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحاً، فلا يعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضي الله عنهما، فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبدالله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقاً، لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور، لكنا ننظر بماذا ستجيبه.

فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عاماً، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنا نقول: إن عائشة ﵂ استدلت بلفظ العموم، فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ، على أنه روي عنها، أنها قالت: "لو شهدتك ما زرتك"، وهذا دليل على أنها ﵂ خرجت لتدعو له، لأنها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إنها لا تصح عن عائشة ﵂، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة، إذا ليس فيها دليل على أن الرسول ﷺ نسخه، وإذا فهمت هي، فلا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

إشكال وجوابه في قوله: ((زوارات القبور)) ألا يمكن أن يحمل النهي عن تكرار الزيارة لأن "زوارات" صيغة مبالغة.

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك، فإننا أضعنا دلالة المطلق "زائرات".

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لأن على كثرة الفعل، فـ "زوارات" يعني: النساء إذا كن مئة كان فعلهن كثيراً، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف، إذا الباب لا يفتح إلا مرة واحدة، وأيضاً قراءة ﴿حَتَّى إذا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾ [الزمر: ٧٣]، فهي مثلها.

فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنها من كبائر الذنوب.

وأنظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٤/٣٤٣). ٥

فدلّ هذا على تحريم زيارة النساء للقبور، وهذا مذهب الجمهور أهل العلم، أنه لا يجوز للنساء أن تزور القبور لهذا الحديث.

قال العلماء: لأن المرأة ضعيفة، فإذا رأت قبر قريبها من ابنها، أو أبيها، أو أخيها، أو زوجها، فإنها لا تملك نفسها من النياحة ومن الجزع.

وأيضاً :المرأة عورة، فإذا ذهبت إلى المقابر واختلطت بالرجال حصل من ذلك فواحش وزنى وشر، لأنها فتنة، كما هو الواقع الآن عند الأضرحة من اختلاط النساء بالرجال، وما يحصل من المفاسد.

وذهب بعض العلماء إلى جواز زيارة النساء للقبور أخذاً من عموم قوله: ﷺ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر بالآخرة)) قالوا: هذا لفظ عام يدخل فيه الرجال والنساء.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن قوله: ((فزوروها)) هذا الخطاب للرجال، وخطاب الرجال لا تدخل فيه النساء.

الوجه الثاني: أنه على فرض أن هذا الخطاب عام للرجال والنساء، فإنه مخصوص بهذا الحديث.

واحتجّوا –أيضاً– بأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن قالوا: فهذا دليل على جواز زيارة النساء للقبور.

والجواب عن ذلك: أن فعل عائشة هذا محمول على أنها لم يبلغها النهي، ولو بلغها النهي لم تكن لتخالف رسول الله ﷺ.

والجواب الثاني: وعلى فرض أنها بلغها هذا الحديث، فهذا اجتهاد منها، ولا شك أن الحجة في حديث رسول الله ﷺ لا في اجتهاد المجتهدين.

فبناءً على ذلك فالقول الصحيح الراجح هو: منع النساء من زيارة القبور، وأن كان بعض الباحثين في هذا العصر أظهر هذه المسألة وكتب فيها، وأباح للنساء زيارة القبور، فهذا قول مرجوح، ولم يأت بجديد وإنما أثار هذه المسألة فقط، ولا يجوز لطالب العلم أنه يتتبّع المسائل الغريبة ويذهب يثيرها من جديد، ويبعثها على النّاس من جديد، لما يترتب على ذلك من المفاسد. ٤

وقد توسع في ذكر الخلاف، والرد على المجيزين: شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (٢٤/٣٣٣-٣٥٦) ولخصه في فتح المجيد (١/٤١٦-٤١٩)[١]

---

[١] الشيخ أسامة بن عطايا عند تحقيقه كتاب تيسير العزيز الحميد

مسألة: لا يجوز زيارة النساء حتى إلى قبر النبي ﷺ على الصحيح لأن الحديث عام. ٦
مسألة: المرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلي فيها، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلم، ولا مانع فيه.
والأحسن البعد عن الزحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظن من يشاهدها أن المرأة يجوز لها قصد الزيارة، فيقع الإنسان في محذور، وتسليم المرء على النبيﷺ يبلغه حيث كان. ٥

قوله: ((زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرج)) أما لعنه المتخذين عليها المساجد فهذا سبق في قوله: ﷺ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)).
وأما لعنة المتخذين عليها السّرج، فالمراد بذلك: إضاءة المقبرة بالأنوار. لأن هذا وسيلة إلى الغلو في القبور، ويُفضي إلى الشرك، فإن هذا يجلب إليها أنظار النّاس والجُهّال، ثمّ يزورونها، ويتردّدون عليها، ثمّ يؤول هذا إلى الشرك، فلا يجوز أن تُضاء المقابر، بل تُجعل المقابر خالية من الإضاءة، وإذا احتاج النّاس إلى دفن ميّت في الليل فإنهم يأخذون معهم سراجاً، كما فعل النبي ﷺ والصحابة عند الدفن بالليل. ٤
قال أبو محمد المقدسي: "لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام".[1] ١
وجه الدلالة من الحديث ظاهرة أن النبي ﷺ لعن المتخذين على القبور المساجد والسرج، المساجد مر معنى الكلام عليها، والسّرج لأنها وسيلة لتعظيم تلك القبور ونوع من أنواع الغلو فيها، فتُسرج القبور ويجعل عليها في الزمن الماضي القناديل، واليوم تجعل عليها الأنوار العظيمة التي تبين أن هذا المكان مقصود وأنه مطلوب ويُجعل عليها من عقود اللمبات وعقود الأنوار والكشافات التي تسطع ما يدلَّ الناس على تعظيم هذا القبر، فهؤلاء ملعونون بلعنة رسول الله ﷺ، فلا يجوز أن تتخذ السرج على القبور؛ لأن اتخاذ السّرج على القبور من نوع الغلو فيها؛ ولأنه يوجه الناس إليها وذلك قد يكون بعده أن تتخذ آلهة وأوثاناً مع الله جل وعلا. ٣

---

[1] المغني (١٩٣/٢-الفكر).

قال محمد بن اسماعيل الصنعاني -رحمه الله- في كتابه تطهير الاعتقاد: "فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه: غالب -بل كل- من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الورود والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع. حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة". انتهى.[1] ٢

ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذي قبله هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج وقرن بينهما فهما قرينان في اللعنة فدل ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة بل لأجل نجاسة الشرك ولذلك قرن بينه وبين من لا سراج عليها وليس النهي عن الاسراج لأجل النجاسة فكذلك البناء. ١

والمهم أن وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعاداً عظيماً، ولا يقدر للزمن الذين هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة، فالمسألة ليست هينة. ٥

وفي هذه النصوص فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن الغلو في قبور الأنبياء يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله بدليل قوله ﷺ: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد)).

---

[1] ابن الأمير ((تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد)) (٤٨)

ومن الغلو فيها: اتخاذها مساجد، كما قال: ﷺ ((اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يعني: مصليات، يصلون عندها رجاء الإجابة.

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه صان قبر رسوله ﷺ، وأجاب دعاءه، فحفظ من الغلو فيه، وأحيط بالجُدارن التي تمنع الوصول إليه، بل تمنع رؤيته والوصول إليه، كل ذلك من أجل منع الغلو في قبره ﷺ.

الفائدة الثالثة: فيه أن العكوف على قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله، كما حصل لقبر اللاّت، فإنه صار وثناً بسبب العكوف عنده بعد موته، كما أن الشرك حصل في قوم نوح بسبب الغلو في الصالحين، فسياسة إبليس -لعنه الله- واحدة مع الأولين والآخرين، يأتي النّاس من باب الغلو في الصالحين.

الفائدة الرابعة: فيه الردّ على من زعم أن البناء على قبور الصالحين من محبة الصالحين، ويقولون: أنتم لا تبنون على قبور الصالحين لأنكم تبغضون الصالحين.

ففي هذا الحديث وهذه الآية ردٌّ عليهم وأن البناء على قبورهم والغلو فيها ليس من محبتهم، وإنما هو من اتخاذهم أوثاناً تُعبد من دون الله.

الفائدة الخامسة: في الحديث دليل على تحريم زيارة النساء للقبور، وهو مخصِّص لقوله: ﷺ ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها))، فالرسول ﷺ في أول الأمر منع من زيارة القبور مطلقاً للرجال والنساء، لأنهم كانوا حديثي عهد بالشرك وبالجاهلية، فمنعهم من زيارة القبور خشية من أن يترسّب فيهم شيء من أمور الجاهلية عند القبور، فلما استقر التّوحيد في قلوبهم، وعرفوا التّوحيد، أَذِن للرجال في زيارة القبور خاصة، ومنع النساء، لأن المحذور باق في حقهن.

الفائدة السادسة: في الحديث دليل على تحريم إضاءة المقابر بالأنوار، بأي وسيلة، سواء كان بالسُّرج، أو كان بالكهرباء، أو غير ذلك، كل أنواع الإضاءة على حسب الأزمنة ممنوعة، والواجب أن تكون القبور خالية من الإضاءة، لأن الإضاءة وسيلة إلى اتخاذها أوثاناً، والرسول ﷺ لعن من فعل ذلك، لأنه وسيلة إلى الشرك. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها – معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زَوَّارَات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان. وهي: كل ما عبد من دون الله، سواء كان صنماً أو قبراً أو غيره. ٥

الثانية: تفسير العبادة. وهي: التذلل والخضوع للمعبود خوفاً ورجاء ومحبة وتعظيماً، لقوله: ((لا تجعل قبري وثناً يعبد)). ٥

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. وذلك في قوله: ((اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد)). ٥

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد. وذلك في قوله: ((اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). ٥

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

تؤخذ من قوله: ((اشتد غضب الله)).

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: ((إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ولا بعده)). ٥

السادسة: وهي من أهمها – معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

وذلك في قوله: "فمات، فعكفوا على قبره".

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

تؤخذ من قوله: "كان يلت لهم السويق"، أي: للحجاج، لأنه معظم عندهم، والغالب لا يكون معظماً إلا صاحب دين. ٥

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية. وهو أنه كان يلت السويق. ٥

التاسعة: لعنه زَوَّارَات القبور. أي: النبي ﷺ، وذكر رحمه الله لفظ: ((زوارات القبور)) مراعاة للفظ الآخر. ٥

العاشرة: لعنه من أسرجها.

وذلك في قوله: ((والمتخذين عليها المساجد والسرج)).

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهي أن: الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً كما في قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل، ولم يذكرها المؤلف رحمه الله، ولعله اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات، فإذا قيل بذلك، فله وجه. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إلى الشِّرْكِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إلى الشِّرْكِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾الْآيَةُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ط قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلَيِّ بنِ الْحُسَيْنِ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إلى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَصَلُّوا عَلَيّ فَإِنَّ تَسْليمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ)) رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ.

هذا الباب عقده الشَّيخ رحمه الله في بيان حماية المصطفى ﷺ لجناب التّوحيد، والأبواب التي قبله -أيضاً- هي في حماية التّوحيد، لكن الأبواب التي قبله عامة، وما في هذا الباب أمور خاصة، وإلاَّ كل الأبواب السابقة: الغلو في الصالحين، وبناء المساجد على القبور، والغلو في القبور، كل هذا من الوسائل المفضية إلى الشرك، وقد نهى النبي ﷺ عنها سداً للطريق الموصِّل إلى الشرك، وهذه الأبواب كلها في موضوع واحد.

ولا تعجبوا من كون الشَّيخ كرّر هذه الأبواب واحداً بعد واحد، لأن هذه المسألة عظيمة، فالشرك إنما حصل في هذه الأمة بسبب الفتنة في القبور والغلو فيها، وبسبب الغلو في الصالحين، والغلو في الرسول ﷺ، فالشرك إنما حصل في هذه الأمة بسبب هذه الأمور، منذ أن بُنيت المساجد على القبور، ومنذ أن ظهر التصّوف في هذه الأمة، والشرك يكثر ويتعاظم في هذه الأمة، إلا من رحم الله عزّ وجلّ، فالأمر خطير جدًّا، ولذلك كرّر الشَّيخ رحمه الله في

هذا الموضوع، وأبدى وأعاد، لأنه هو المرض الذي أصاب الأمة في أجل أن ينبه العلماء، وينبه المسلمين على هذا الخطر الشديد ليقوموا بعلاجه، والدعوة إلى التّوحيد، ونفي الشرك من هذه الأمة، وإلاَّ إن سكت العلماء عن هذا الأمر فإنه يتعاظم، وبالتالي في النّهاية يكثر الجهل، وتعتبر هذه الأمور من الدين، ويعتبر من نهى عنها من الخارجين عن الدين كما حصل الآن؛ أن من ينكر هذه الأمور، وينبه النّاس إلى خطرها، ويدعو إلى التّوحيد يرمونه بأنه متشدد، وأنه خارج عن الأمة، لأن الأمة عندهم هم عباد القبور، ومن أنكر عبادة القبور صار خارجاً عن الأمة، وهذا من قلب الحقائق -والعياذ بالله-، فالدين الذي جاءت به الرسل هو إخلاص العبادة لله عزّ وجلّ، هذا هو الدين.

أما عبادة القبور فهي دين أبي جهل وأبي لهب ودين المشركين، ليست في دين الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ولكن إذا ظهر الجهل، وظهر إتباع الهوى حصل في الأمة ما حصل من جعل هذه الأمور الشركية من الدين، وجعل التّوحيد هو الخروج عن الدين، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

قوله: "باب ما جاء في حماية المصطفى" المصطفى معناه: المختار، من الصفوة، أصله: مصتفى بالتاء، ثم أُبدلت التاء طاء، فصار مصطفى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥] يعني: يختار، ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)﴾ [ص:٤٧]، أي: المختارين، ومنهم: نبينا محمَّد ﷺ، بل هو خيرهم وأفضلهم، فهو المصطفى ﷺ، اختاره الله للرسالة، والقيام بدعوته على فترة من الرسل، وهو خاتم النبيين ﷺ.

وقوله: "جناب التّوحيد" الجناب هو: الجانب، فالجناب والجانب بمعنى واحد، أي: حمايته ﷺ حدود التّوحيد من أن يدخل عليه الشرك بسبب وسائل الشرك والتساهل فيها، فالرسول ﷺ حمى حدود التّوحيد حماية بليغة، بحيث أنه نهى عن كل سبب أو وسيلة توصّل إلى الشرك، ولو كانت هذه الوسيلة في أصلها مشروعة كالصلاة، فإذا فُعلت عند القبور، فهو وسيلة إلى الشرك، ولو حسُنت نية فاعلها، فالنية لا تبرّر ولا تزكي العمل إذا كان يؤدي إلى

محذور، والدعاء مشروع، ولكن إذا دعى عند القبر، فهذا ممنوع، لأنه وسيلة إلى الشرك بهذا القبر، هذا سدّ الوسائل.

فالرسول نهى عن الصلاة عند القبور، ونهى عن الدعاء عند القبور، ونهى عن البناء على القبور، ونهى عن العكوف عند القبور، واتخاذ القبور عيداً، إلى غير ذلك، كل هذا من الوسائل التي تُفضي إلى الشرك، وهي ليست شركاً في نفسها، بل قد تكون مشروعة في الأصل، ولكنها تؤدي إلى الشرك بالله عزّ وجلّ، ولذلك منعها ﷺ. ٤

قوله: "وسده كل طريق"، أي: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشرك، لأن الشرك أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الشرك الأصغر لا يغفره الله، لعموم قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وعلى هذا، فجميع الذنوب دونه لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها، فالشرك ليس بالأمر الهين الذي يتهاون به، فالشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل، إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦]، وقال: ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات)).

إذاً، فالرسول عليه الصلاة والسلام حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيد، لأن من سار على الدرب وصل، والشيطان يزين للإنسان أعمال السوء شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الغاية. ٥

ولقد بالغ ﷺ وحذر وأنذر وأبدأ وأعاد وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل كما قال بعض العلماء: "هي أشد الشرائع في التوحيد والابعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل". ١

و هنا ذكر الوسائل الفعلية لحماية التوحيد من الشرك، وفي باب حماية التوحيد وسد طرق الشرك –وسيأتي ذكره– فيه الحماية القولية أي حمى التوحيد بالتحذير من الشرك وما يوصل إليه من أقوال و أفعال. ٦

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]

وتمام الآية: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، هذه الآية في ختام سورة التوبة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ اللاّم لام القسم، تدلّ على قسم مقدّر، تقديره: والله لقد جاءكم، وقد حرف تحقيق. والخطاب للعرب خاصة، وهو للناس عامة – أيضاً، لكن للعرب خاصة لأن الرسول عربي، بُعث بلسانهم، فالمنة عليهم به أعظم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها المسلمون عمومًا والعرب خصوصاً.

﴿رَسُولٌ﴾ الرسول هو: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

وأما النبي فهو: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

هذا التعريف المشهور عند أهل العلم، ويذكره المفسرون عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إلاَّ إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج:٥٢]، من سورة الحج، يذكرون هناك تعريف الرسول وتعريف النبي، والفرق بينهما، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه، وأشهرها كتابه: "النبوات" "الرسول من أوحي إليه بشرع، بخلاف النبي فإن النبي يبعث بشريعة من قبله، كأنبياء بني إسرائيل، يُبعثون بالدعوة إلى التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام".

وقد يوحى إلى النبي وحي خاص في بعض القضايا، لكن الغالب أنه يُعث بشريعة سابقة، كأنبياء بني إسرائيل، أما الرسول فإنه يُعث بشريعة مستقلّة.

والمراد بتبليغه هنا: الجهاد والإلزام، أي: أُمر أن يُلزم النّاس بإتباعه، ويجاهدهم على ذلك، خلاف النبي فإنه يؤمر بالتبليغ، بمعنى: تعليم النّاس شرع من قبله وإفتائهم فيه. وهذا مأمور به غير الأنبياء، حتى العلماء.

فالتبليغ الذي معناه التعليم والإفتاء، وبيان الحلال والحرام والحق من الباطل، هذا مأمور به كل من عنده علم، إنما المراد بالتبليغ هنا: التبليغ الخاص الذي هو الإلزام، والجهاد على ذلك. والنبي أيضاً يجاهد. لكن يجاهد على شرع من قبله. ٤

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ هذا خطاب من الله تعالى للعرب في قول الجمهور. ١

أي: من جنسكم من العرب، تعرفون لسانه، ويخاطبكم بما تعرفون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، فهذا من نعمة الله أن جعل هذا الرسول عربيًّا يتكلم بلغتنا، ولم يجعله أعجمياً لا نفهم ما يقول، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت:٤٤].

فمن رحمة الله أن جعل هذا الرسول يتكلم بلغتنا، ونعرف نسبه، ونعرف لغته، ولم يكن أجنبياً لا نعرفه، أو يكن أعجمياً لا نفهم لغته، هذا من تمام النعمة على هذه الأمة، ولم يكن من الملائكة، وهم جنس آخر من غير بني آدم، بل هو من جنسنا، ويتكلم بلغتنا. ٤

والخطاب في قوله: ﴿جَاءَكُمْ﴾ قيل: للعرب، لقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، فالرسول ﷺ من العرب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

ويحتمل أن يكون عاماً للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس، أي: ليس من الجن ولا من الملائكة، بل هو من جنسكم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعلى الاحتمال الأول فيه إشكال، لأن النبي ﷺ بعث إلى جميع الناس من العرب والعجم.

ولكن يقال في الجواب: إنه خوطب العرب بهذا، لأن منة الله عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولى، للعموم، ولقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ولما كان المراد العرب، قال: ﴿مِنْهُمْ﴾ لا "من أنفسهم"، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾ [البقرة:١٢٩]، وعلى هذا، فإذا جاءت "من أنفسهم"، فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت "منهم"، فالمراد: العرب، فعلى الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية. ٥

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أي: شاقٌّ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العنت معناه: التعب والمشقّة، ومعناه: أن الرسول ﷺ يشق عليه ما يشق على أمته، وكان يحب لهم التسهيل دائماً، ولهذا كان ﷺ يحب أن يأتي بعض الأعمال ولكنه يتركها رحمة بأمته خشية أن يشق عليهم، ومن ذلك: صلاة التراويح، فإنه صلاها بأصحابه ليالي من رمضان، ثم تخلف عنهم في الليلة الثالثة أو الرابعة، فلما صلّى الفجر، بيّن لهم ﷺ أنه لم يتخلّف عنهم إلاَّ خوف أن تُفرض عليهم صلاة التراويح، ثمّ يعجزوا عنها، هذا من رحمته وشفقته بأمته.

وقال: ﷺ ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة))، فلم يمنعه من ذلك إلاَّ خوف المشقة على أمته، وكان يحب تأخير صلاة العشاء إلى ثلث الليل، ولكنه خشي المشقة على أمته عليه الصلاة والسلام.

وهكذا كل أوامره–، يراعي فيها التوسيع على الأمة، وعدم المشقة، لا يحب لهم المشقة أبداً، ويحب لهم دائماً التيسير عليهم، ولذلك جاءت شريعته سمحة سهلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦].

ولما ذكر الإفطار في رمضان للمسافر والمريض ذكر أنه شرع ذلك من أجلا التسهيل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

هذا من صفة هذا الرسول ﷺ أنه يحب التيسير لأمته، ويكره المشقة عليها. ٤

ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: ((بعثت بالحنيفية السمحة))[١] وفي الصحيح: ((إن هذا الدين يسر))[٢] وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه. ٢

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بليغ الحرص عليكم، أي: على نفعكم وإيمانكم وهداكم، والحرص: شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه.

وروى الطبراني بإسناد جيد عن أبي ذر ﵁ قال: "تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهوى إلا وهو يذكر لنا منه علماً"، قال: "وقال: ((ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم)).[٣]

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله: ﷺ((مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها)) قال: ((فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبونني وتقحمون فيها)).[٤] ١.

فهو عليه الصلاة والسلام عزيز عليه عنت أمته وهذا يؤدي أن يأمرهم بكل خير وأن ينهاهم عن كل شر، وأن يحمي حمى ما أمرهم به وما نهاهم عنه؛ لأن الناس إذا أقدموا على ما نُهوا عنه فإنهم أقدموا على مهلكتهم وأقدموا على ما فيه عنتهم في الدنيا وفي الأخرى، والنبي عليه

---

[١] أحمد (٥/٢٦٦).

[٢] البخاري المرضى (٥٣٤٩)، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤)، أحمد (٢/٥١٤).

[٣] رواه الطبراني في المعجم الكبير (رقم١٦٤٧)، وهو حديث حسن...

[٤] رواه البخاري في صحيحه (رقم٦٤٨٣)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٨٤) واللفظ له.

الصلاة والسلام عزيز عليه عنتهم، عزيز عليه أن يقعوا في وبال عليهم وفي مشقة عليهم، ولهذا قال بعدها ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ لأن هذه وهذه متلازمة، ومن حرصه علينا عليه الصلاة والسلام ومن كونه يعز عليه عنتنا عليه الصلاة والسلام أنْ حَمى حِمى التوحيد وحمى جناب التوحيد وسد كل طريق قد نصل بها إلى الشرك عليه الصلاة والسلام، وهذا وجه الاستدلال من الآية على الباب. ٣

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وخاصة. ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرأفة هي: شدّة الشفقة، ٤
والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أما بالنسبة لله تعالى، فلا نفسرها بهذا التفسير، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها، فقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: ((إن لله مئة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)).[1]

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا الله -عز وجل- الذي خلقها؟

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟

الجواب: أبداً، لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنها صفة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة، لأنها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة، لأنها من صفاته، فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن، لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها. ٥

---

[1] البخاري: كتاب الأدب/ باب جعل الله الرحمة في مئة جزء، ومسلم: كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله.

﴿رَحِيمٌ﴾ يعني: عظيم الرحمة بأمته ﷺ، أما بالكفّار فإنه كان شديداً على الكفّار، كما وصفه الله تعالى بذلك :﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤] يعني: رحماء، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] يعني: يتصفون بالغلظة والشدة على الكافرين، لأنهم أعداء لله وأعداء لرسوله، فتناسبهم الشدة والغلظة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣] لأنهم كفار، لا تأخذكم بهم الرحمة والشفقة فلا تقاتلونهم، بل قاتلوهم، واقتلوهم، ما داموا مصرين على الكفر ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:٥] الكافر ليس له جزاء إلاَّ القتل إذا أصر على الكفر، أو يخضع لحكم الإسلام ويدفع الجزية صاغراً، هذا في الدنيا. وأما في الآخرة فله النار -والعياذ بالله-، وهذا أشد من القتل، لأنه عدو لله، وعدو لرسوله، وعدو لدينه، فلا تناسب معه الرحمة والشفقة.

فهذه الآية الكريمة مناسبة إيراد الشَّيخ رحمه الله قي هذا الباب: أنه إذا كان الرسول ﷺ متصفاً بهذه الصفات التي هي أنه: عربي، يتكلم بلساننا ونفهم لغته، وأنه يشق عليه ما يشق علينا، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فهل يليق بمن هذه صفاته أن يترك الأمة تقع في الشرك الذي يُبعدها عن الله، ويُسبب لها دخول النار؟، هل يليق بمن هذه صفاته أن يتساهل بأمر الشرك؟، أو أن يتركه ولا يهتم بالتحذير منه، ى لأن هذا هو أعظم الخطر على الأمة؟ وهذا هو الذي يشق على الأمة، لأنه يفسد عليها حياتها، ولا يجعل لها مستقبلاً عند الله عزّ وجلّ، لأن المشرك مستقبله النار، ليس له مستقبل إلاَّ العذاب، فهل يليق بهذا الرسول الذي هذه صفاته أن يتساهل في أمر الشرك؟، لا، بل اللاّئق به أن يبالغ أشد المبالغة في حماية الأمة من الشرك، وقد فعل ﷺ، فقد سد كل الطرق الموصلة إلى الشرك بالأحاديث التي مرت في الأبواب السابقة. ٤

فتأمل هذه الآية وما فيها من أوصافه الكريمة ومحاسنه الجمة التي تقتضي أن ينصح لأمته ويبلغ البلاغ المبين ويسد الطرق الموصلة إلى الشرك ويحمي جناب التوحيد غاية الحماية ويبالغ أشد المبالغة في ذلك لئلا تقع الأمة في الشرك، وأعظم ذلك الفتنة بالقبور فإن الغلو فيها هو الذي جر الناس في قديم الزمان وحديثه إلى الشرك، لاجرم فَعَلَ النبي ﷺ ذلك وحمى جناب التوحيد حتى في قبره الذي هو أشرف القبور حتى نهى عن جعله عيدا ودعا الله أن لا يجعله وثنا يعبد. ١

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب. ٢

هناك ناس الآن يقولون: لا تذكروا الشرك، ولا تذكروا العقائد، يكفي التسمّي بالإسلام، لأن هذا ينفّر النّاس ويفرق الناس، اتركوا كلاًّ على عقيدته، دعونا نجتمع ولا تفرقونا.

يا سبحان الله، نترك الشرك ولا نتكلم في أمر التّوحيد من أجل أن نجمع الناس؟.!!

وهذا الكلام باطل من وجوه:

أولاً: لا يمكن اجتماع النّاس إلاَّ على العقيدة الصحيحة.

وثانياً: ما الفائدة من الاجتماع على غير عقيدة، هذا ماذا يؤدي إليه؟، لا يؤدي إلى نتيجة أبداً.

فلا بد من الاهتمام بالعقيدة، ولابد من تخليصها من الشرك،

ولابد من بيان التّوحيد، حتى يحصل الاجتماع الصحيح على الدين، لا يجتمع النّاس إلاَّ على التّوحيد، لا يوحد النّاس إلاَّ كلمة: لا إله إلاَّ الله؛ قولاً وعملاً واعتقاداً.

هذا هو الذي جمع العرب على عهد الرسول ﷺ، وجعلهم أمة واحدة هو الذي يجمعهم في آخر الزمان، أما بدون ذلك فلا يمكن الاجتماع مهما حاولتم، فلا تتعبوا أنفسكم أبداً، وهذا من الجهل أو من المغالطة.

فالتّوحيد ليس هو الذي يفرق الناس، بل العكس؛ الذي يفرق النّاس هو الشرك، والعقائد الفاسدة، والبدع والمنهجيات هذه هي التي تفرق الناس، أما التّوحيد والإتباع للرسول ﷺ فهذا هو الذي يوحد الناس، كما وحّدهم في أول الأمر، ولا يُصلح آخر هذه الأمة إلاَّ ما أصلح أولها. ٤

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: ﷺ ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات.[1]

ثلاث كلمات قالها: ﷺ في هذا الحديث.

الكلمة الأولى: قوله ﷺ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)). ٤

وهذه الجملة اختلف في معناها، فمنهم من قال: لا تجعلوها قبوراً، أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي ﷺ في بيته.

وأجيب عنه بأن من خصائصه ﷺ، فالنبي ﷺ دفن في بيته لسببين:

١- ما وري عن أبي بكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((ما من نبي يموت إلا دفن حيث قبض))، وهذا ضعفه بعض العلماء.

٢- ما روته عائشة رضي الله عنها: "أنه خشي أن يتخذ مسجداً".

وقال بعض العلماء: المراد بـ ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً))، أي: لا تجعلوها مثل القبور، أي: المقبرة لا تصلون فيها، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة في بعض الطرق: ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً))، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦٧/٢)، وأبو داوود في سننه (رقم ٢٠٤٢)، والبيهقي شعب الإيمان (رقم ٤١٦٢)، وفي حياة الأنبياء (ص / ٩٥) وغيرهم بسند حسن، وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ٣١٦).

وكلا المعنيين صحيح، فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين، لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي ﷺ إلى اليوم، ولأنه إذا دفن في بيته، فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يساوي إلا شيئاً قليلاً، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع، فإن الرسول ﷺ يقول: ((زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة)). ٥

قال شيخ الإسلام: -نور الله ضريحه- "أي لاتعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم.

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً: ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا))[١]
وفي صحيح مسلم عن ابن عمر[٢] مرفوعاً ((لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه)) [٣]...
وفي حديث أبي هريرة (يعني حديث: فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة) الذي ذكرنا كراهة القراءة في المقابر وكل هذا إبعاد لأمته عن الشرك.[٤] ١

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٣٢) ومسلم في صحيحه (رقم ٧٧٧).

[٢] كذا في نسخ التيسير وهو خطأ. وفي الاقتضاء، وصحيح مسلم: عن أبي هريرة، بل قد صرح الشيخ سليمان بعده بسطر واحد بأنه من حديث أبي هريرة فظهر أنه إما خطأ من النساخ وإما زلة قلم والله أعلم.

[٣] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٧٦٠) عن أبي هريرة.

[٤] اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٥٧- العاصمة).

يعني: لا تعطلوا البيوت من ذكر الله، ومن صلاة النافلة، وتلاوة القرآن، لأنها إذا عُطلت صارت مثل القبور، لأن القبور ليس فيها عمل، خاوية خالية، حفر مظلمة، إلاَّ من نورها الله عليه بنور الإيمان الذي سبق لهم في الحياة الدنيا.

فهذا فيه العناية بالبيوت، بيوت المسلمين، وأن تُعمر بذكر الله، وبتلاوة القرآن، وصلاة النافلة، والإكثار من ذكر الله، بل إن الرسول ﷺ أمر بأن تُجعل النوافل التي لا تُشرع لها الجماعة كلها في البيوت، أما الفرائض فإنها تكون في المساجد، وذلك لعمارة البيوت، لأنها إذا عمرت بذكر الله ابتعدت عنها الشياطين، ونشأ أهل البيوت من النساء والذرية والساكنين فيها على طاعة الله، وصارت هذه البيوت مدارس خير، يتخرج منها المسلم الموحد.

أما إذا كانت هذه البيوت خالية من ذكر الله، فإن أهلها يعيشون في الجهل، ويعيشون في الغفلة، ويصيرون مثل الموتى، فما بالكم إذا خلت البيوت من ذكر الله، وجُلب إليها وسائل الشر من الأفلام الخليعة، وجلب إليها الجهاز الذي يستقبل محطات التلفزيون من العالم بما فيها من فساد وخلاعة ومجون وكفر وإلحاد وشرور عظيمة، كلها تدخل في هذا البيت بواسطة هذا الجهاز الشيطاني الذي يُنصبه صاحب البيت ماذا تكون هذه البيوت؟، تكون بيوتاً للشيطان، لا تكون مقابر فقط، وإنما تكون مآوي للشياطين -والعياذ بالله-، ويتخرج منها أشرار من الذرية والنساء، يصاحبهم عدم الحياء، وعدم الغيرة، وحب الشر، والحرص على تنفيذ ما يرونه في هذه المبثوثات من الشرور، وفساد الأخلاق، وفساد الأمور، سيطبقون هذه الأمور التي يرونها ويشاهدونها، وتؤثر على أخلاقهم وعلى عفتهم، ويتكاسلون عن الصلاة، بل يضيعون الصلاة بسببها، ويقولون :هذا العالم المتحضر، انظروا إلى العالم ماذا يفعلون؟.

هذه هي الحياة، وهذه الحضارة، وهذا هو الرُّقي، نحن مشتغلون بأمور بعيدة عن الحياة.

سيقولون هذا شئتم أم أبيتم أيها الآباء، وأنتم السبب في هذا، أنتم المسئولون أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، الله قال لكم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، أنتم ما وقيتم أنفسكم، ولا وقيتم أهليكم من النار، بل جلبتم النار إلى بيوتكم.

اتقوا الله يا من ابتليتم بهذه الآلة الخبيثة؛ أزيلوها عن بيوتكم، فالرسول ﷺ يقول: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) وأمركم بالعناية بالبيوت، بأن تعمروها بطاعة الله،

وأخبر ﷺ أن الشيطان يفرّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة، وقال: ((إنها لا تطيقها البَطَلَة)) أي: الشياطين، أي لا تطيق سماع سورة البقرة، فتنبهوا لبيوتكم)) لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) هذا فيه العناية بالبيوت المسلمة، وأن لا تُهمل، ولا تُجلب إليها وسائل الشر والتدمير الخلقي، بل يُعتنى بها غاية الاعتناء، يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيها. ٤

وفيه أيضاً: أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها.

إذاً، فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلا تشبه المقابر، فيكون فيه دليل واضح على أن المقابر ليست محلاً للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب، لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جداً للشرك. ٥

كما أن في الحديث الحث على عمارة البيوت بذكر الله فيه النهي عن الصلاة عند القبور؛ من مفهوم الحديث، لأن الذي لا يصلى عنده هو القبر، فالبيت الذي لا يصلى فيه نافلة، ولا يُقرأ فيه قرآن، ولا يُدعى فيه صار مثل القبر، لأنه ممنوع من الصلاة عنده، والدعاء عنده، فالحديث يدل بمفهومه على منع الصلاة عند القبر، ومنع الدعاء عند القبور. ٤

والحديث يدل على أن الأفضل: أن المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك جميع النوافل، لقوله: ﷺ((أفضل صلاة المرء في بيته، إلا المكتوبة))[1]، إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد، مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولو كنت في المدينة النبوية، لأن النبي ﷺ قال ذلك وهو في المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة. ٥

الكلمة الثانية، قوله: ﷺ ((ولا تجعلوا قبري عيداً)). ٤

قوله: ((عيداً))، العيد: اسم لما يعتاد فعله، أو التردد إليه. ٥

---

[1] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، ومسلم: كتاب صلاة المساف/ باب استحباب صلاة النافلة في بيته.

العيد: اسم لما يعود ويتكرّر في اليوم أو في الأسبوع، أو في الشهر، أو في السنّة، سمي عيداً من العود، وهو التكرّر.

والعيد ينقسم إلى قسمين: عيد زماني، وعيد مكاني.

فالعيد الزماني المشروع: عيد الفطر، وعيد الأضحى، هذه أعياد الإسلام المشروعة .والعيد الزماني الممنوع :أعياد الموالد، فهي الأعياد الزمانية المحرمة، وأعياد الجاهلية التي كانوا يعملونها في الجاهلية، أعياد الفُرس النيروز والمهرجان، وعيد الميلاد المسيحي، بل الميلاد النصراني ولا نقول المسيحي لأن الله برّأ المسيح من هذا، وإنما هو العيد النصراني، ومثله كل عيد فعله بعض المسلمين أو المنتسبين للإسلام مما لم يشرعه الله كعيد المولد للرسول، أو المولد للشيخ، أو الموالد للعظماء، أو لغير ذلك، كل هذه أعياد جاهلية، وهي أعياد زمانية جاهلية، لا يجوز عملها.

لأن الله شرع لنا عيدين: عيد الأضحى، وعيد الفطر، وكل عيد من هذين العيدين بعد أداء ركن من أركان الإسلام، فعيد الفطر بعد أداء ركن الصيام، وعيد الأضحى بعد أداء ركن الحج وهو الوقوف بعرفة، لأن الوقوف بعرفة هو الركن الأعظم للحج كما قال النبي: ﷺ ((الحج عرفة)) وما بعده من المناسك فهي تابعة له، فمن وقف بعرفة فقد أدّى الركن الأكبر للحج، ويتبعه بقية الأركان، أما من لم يقف بعرفة فقد فاته الحج، فلا فائدة من أنه يأتي ببقية الأركان، لأنه لم يأت بالأساس وهو الوقوف بعرفة، فجعل الله عيد الأضحى شكراً لله بعد أداء الركن الأعظم من أركان الحج، هذه أعياد الإسلام الزمانية.

أما الأعياد المكانية: فهي-أيضاً- تنقسم إلى قسمين:

أعياد شرعية، وأعياد محرّمة.

الأعياد الشرعية مثل الاجتماع في المساجد في اليوم والليلة خمس مرات، فهذا عيد مكاني مشروع.

كذلك الاجتماع في الأسبوع لصلاة الجمعة؛ هذا عيد الأسبوع عيد مكاني.

وكذلك من الأعياد المكانية المشاعر: المسجد الحرام، ومنى، وعرفة، ومزدلفة، التي يجتمع فيها المسلمون أيام الحج لأداء المناسك، هذه أعياد إسلامية مكانية.

أما الأعياد المكانية المحرمة فهي: الاجتماع عند القبور، سواء قبر الرسول ﷺ أو قبر غيره، والسفر إلى القبور، والتردد على القبور من أجل الدعاء عندها، والصلاة عندها، ولهذا قال: ﷺ ((لا تجعلوا قبري عيداً)) أي: مكاناً للعبادة، تصلون عنده، وتدعون عنده، وترددون عليه. وهذا من حمايته ﷺ لجناب التّوحيد. ٤

((لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً)) يعني مكاناً تعودون إليه في وقت معلوم من السنة، أو في أوقات معلومة تعتادون المجيء إلى القبر، فإنّ هذا قد يوصل إلى أن يعظَّم النبي عليه الصلاة والسلام وأن يُجعل تعظيمه كتعظيم الله جل وعلا، فإن اتخاذ القبور عيدا من وسائل الشرك، ولهذا قال ((وَصَلّوا عَلَيّ فإنّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)). ٣

كذلك من العيد: أن تعتاد شيئاً فتتردد إليه، مثل: ما يفعل بعض الجهلة في شهر رجب وهو ما يسمى بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون إلى مكة إلى المدينة، ويزورون كما زعموا قبر النبي ﷺ، وإذا أقبلوا على المدينة تسمع لهم صياحاً، وكانوا سابقاً يذهبون من مكة إلى المدينة على الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات.

وأيهما المراد من كلام النبي ﷺ:

الظاهر الأول: أي العمل الذي يتكرر بتكرر العام، أو التردد إلى المكان؟

الظاهر الثاني أي: لا ترددوا على قبري وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع، فإنه ﷺ نهى عن ذلك، وإنما يزار لسبب، كما لو قدم الإنسان من سفر، فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي ﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر، يظنون أن هذا مثل زيارته في حياته، فهذا من الجهل، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه في أي مكان، فإن تسليمهم يبلغه. ٥

فنلخص معنى قوله ((عيداً)) أي[1]: بتكرار المجئ إليه و الدعاء عنده أو الصلاة عنده أو الاستغاثة به ونحو ذلك. ٦

ولايدخل في هذا زيارته عليه الصلاة والسلام بدون شد الرحل وبدون غلو فيها وعبادة عندها.٦

إذا تبين ذلك فمعنى الحديث نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، واجتماع معهود، كالعيد الذي يكون على وجه مخصوص في زمان مخصوص وذلك يدل على المنع في جميع القبور وغيرها لأن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى عن اتخاذه عيدا فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان. ١

ففيه شاهد للباب من حيث إن النبي ﷺ نهى عن اتخاذ قبره عيداً، أي: مكاناً يُجتمع عنده للعبادة، فالعبادة لا تُشرع عند القبور، لا قبور الأنبياء والرسل، ولا قبور غيرهم من الأولياء والصالحين أبداً، فالمقابر ليست محلاً للعبادة، فمن تردد عليها، وجلس عندها، أو وقف عندها للتبرك بها، أو للدعاء عندها، أو للصلاة عندها أو سافر إليها فقد اتخذها عيداً جاهليًّا وعيداً محرماً ، ولهذا لما جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله بأنه نذر أن ينحر إبلاً ببوانة- اسم مكان-، فقال له النبي: ﷺ((هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟)) قالوا: لا، قال: ((هل كان فيها عيد من أعيادهم؟)) يعني: مكان لاجتماع أهل الجاهلية، قالوا: لا، قال: ((فأوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملكه ابن آدم)) والشاهد منه: أنه قال: ((هل كان فيها عيد من أعيادهم؟)) يعني: هل هذا المكان الذي خصّصته هل كان الجاهليون يخصّصونه؟، فدلّ على أن تخصيص مكان للعبادة لم يخصصه الله ولا رسوله أنه من أعياد الجاهلية، لا تجوز العبادة فيه أبداً، ومن ذلك: القبور، فالتردّد عليها، والجلوس عندها من أجل التبرّك بتربتها، أو من أجل الدعاء عندها، أو الصلاة عندها، كل هذا من اتخاذها عيداً، وهو وسيلة من وسائل الشرك.

---
[1] من عندي.

كما هو واقع الآن عند الأضرحة مما لا يخفاكم، وتسمعون عنه في البلاد الأخرى التي بُليت بهذه الفتنة –والعياذ بالله–، ولم تجد من دعاة التّوحيد من يقوم بنصيحة المسلمين عنها والأمر بإزالتها.
نرجو الله أن يهيء للمسلمين من يقوم بإصلاح عقيدتهم، وإزاحة هذه الفتنة العظيمة عنهم، كما منّ على هذه البلاد –ولله الحمد– بهذه الدعوة المباركة التي أزاحت عنها هذه الأوثان الجاهلية.
نسأل الله أن يثبتنا وإياكم وإخواننا المسلمين على هذا الدين، وأن يتم علينا هذه النعمة، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وإلاَّ فنحن معرضون للفتنة، ولا نزكي أنفسنا، ولا نأمن أن نصاب بمثل ما أصيب به أولئك، إذا تساهلنا وغفلنا وتركنا الدعوة إلى الله وتركنا بيان التّوحيد والتحذير من الشرك فإنه يدب إلينا ما وقع في البلاد المجاورة لنا. ٤

الكلمة الثالثة الواردة في هذا الحديث قوله: ﷺ((وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) هذا أمر بالصلاة عليه ﷺ، وقد أمر الله بذلك في محكم كتابه فقال: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦)﴾ [الأحزاب:٥٦]، أمرنا الله بالصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وذكر سبحانه أنه هو وملائكته يصلّون عليه.
والصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى. والصلاة من الملائكة: الاستغفار ومن الآدميين الدعاء كما ذكر الإمام البخاري عن أبي العالية.
وقوله: ((صلّوا عليّ)) هذا أمر يفيد الوجوب، فالصلاة على النبي ﷺ مشروعة ومتأكدة، وتجب في بعض المواضع.
فتجب في الخطبتين للجمعة والعيد وخطبة الاستسقاء، وتجب الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير في الصلاة، وكذلك تجب الصلاة على رسول الله عند ذكره ﷺ، وتستحب في بقية الأحوال، وكلما أكثر الإنسان من الصلاة على الرسول ﷺ كثر أجره، كما قال ﷺ: ((من صلّى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً)).

قوله: ((فإن صلاتكم تبلغني)). ٤

قال شيخ الإسلام: "يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً"[١]. ١

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب، فالواجب أن يقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي ﷺ ((أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي ﷺ سلام أمته عليه))[٢]، فإن صح، فهذه هي الكيفية. ٥

فالله جل وعلا وكّل بصلاة المصلين على النبي ﷺ من يبلغ الرسول إياها وهو في قبره ﷺ، ففي أي مكان صليت عليه فإن صلاتك تبلغه ولو كنت في المشرق أو في المغرب، وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى، أنها تبلغه الصلاة عليه في قبره ﷺ، وهذا من أمور البرزخ التي لا يعلمها إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

فقوله: ((فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) أي: أينما كنتم في بر، أو في بحر، قريبين أو بعيدين، في المشرق أو المغرب.

وفي هذا الحديث دليل على أنه ليس للصلاة عليه عند قبره خاصية، بل إذا قصد الإنسان القبر لأجل الصلاة عليه فهذا منهي عنه، لكن إذا قصد قبره للسلام عليه ويصلى عليه فهذا مشروع، فتسلم وتصلي على الرسول عند قبره إذا قدمت من سفر، أما أن تقصده من أجل أن تجلس أو تقف وتصلي عليه دائماً فهذا غير مشروع، لأنه مطلوب منك الصلاة والسلام عليه في أي مكان. ٤

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٥٧- العاصمة)

[٢] النسائي: كتاب السهو/ باب السلام على النبي ﷺ، وقال ابن القيم في "جلاء الإفهام" (ص: ٢٣): "وهذا إسناد صحيح".

الرد على قول باطل

و هو أن: "هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه ونهى أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه كالعيد الذي يكون من الحول إلى الحول واقصدوه كل ساعة وكل وقت".[1]

قال ابن القيم رحمه الله: "وهذا مراغمةً ومحادةً ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ، وقلب للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلى التلبيس والتدليس بعد التناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنىَ يؤفكون. ولا ريب أن من أَمَرَ الناس باعتياد أَمْرٍ، وملازمته، وكثرة انْتِيابه بقوله: ((لا تجعلوه عيداً))؛ فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، وهكذا غيرت أديان الرسل، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله. ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضلال لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن من اتَّخذها مساجد يعبد الله فيها؛ فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها وأن يعتاد قصدها وانتيابها، ولا تُجْعَل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول؟!

وكيف يسال ربه أن لا يجعل قبره وثناً يُعْبَدْ؟! وكيف يقول أعلم الخلق بذلك: "ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشي أن يتخذ مسجدا" ؟! وكيف يقول: ((لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني))؟!

وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟!

وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنهما نهى ذلك الرجل ان يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رضي الله عنهم، هوأعلم بمعناه من هؤلاء الضلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته؛ كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدا. انتهى.[2]

---

[1] نقله ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (ص ٣٠٧) عن السبكي عن زكي الدين المنذري

[2] إغاثة اللهفان (١/١٩٣-١٩٤)، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٣٤٤-٣٤٥حرستاني)

قلت: وكيف يريد النبي ﷺ هذا المعنى ويعبر عنه بهذا الكلام، مع أنه أفصح الخلق وأنصحهم، وكان يمكنه أن يقول: أكثروا زيارة قبري، أو اجعلوه عيداً تعتادون المجيء إليه والعبادة عنده؟! فظهر بطلان هذا القول. ١

وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: "ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: ((لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم))". [رواه في المختارة][١].

قال: "عن علي بن الحسين" أحد أعلام التابعين، وهو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وجدّته فاطمة بنت الرسول ﷺ، وأبو جدّته هو رسول الله ﷺ، فهو من بيت النبوّة، وهو يلقب بزين العابدين، وهو من كبار أئمة التابعين، رضي الله تعالى عنه.

"أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجَة كانت عند قبر النبي ﷺ" قبر الرسول ﷺ في بيته، في حجرة عائشة، وفي أحد الجدران فُرْجَة، أي: نَقْبٌ في الجدار، رآه هذا الرجل، فصار يتردد، ويأتي ويدخل من هذه الفُرْجَة، ويدعو عند قبر النبي ﷺ. ٤

قوله: "يجيء إلى فرجة"، هذا الرجل لا شك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلاً ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر، له مزية فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر، فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة. ٥

---

[١] البخاري في "التاريخ الكبير، وأبو يعلى، كما في "مجمع الزوائد".

وقال الهيثمي: "وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري، ذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقية رجاله ثقات".

وفيه أيضاً على بن عمر بن الحسين، مستور، كما في "التقريب.

ورواه أيضاً: الضياء في "المختارة"، كما في "اقتضاء الصراط المستقيم" (ص ٣٢٢).

فلما رآه علي بن الحسين رحمه الله نهاه عن ذلك، قال له: لا تفعل هذا، لا تتردد على قبر الرسول، ولا تدع عنده. وهذا من إنكار المنكر، ولاسيما ما يؤدي إلى الشرك.

فالتردّد على قبر الرسول والدعاء عنده من وسائل الشرك به، فيجب إنكاره، ولذلك أنكر علي بن الحسين على هذا الرجل ونهاه.

ثمّ لم يكتف بهذا، بل بين الدليل والحجة على هذا الإنكار، فقال: ((ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي)) يعني: الحسين ﵁ "عن جدَّي" يعني: علي بن أبي طالب ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: ((لا تتخذوا قبري عيداً)) هذا مثل ما في حديث أبي هريرة السابق ومعنى اتخاذ القبر عيداً: بأن يُتردّد عليه، ويجتمع عنده لأجل الدعاء أو التبرك أو الصلاة على الرسول ﷺ.

فهذا مثل حديث أبي هريرة الذي قبله إلاَّ أنه زاد عليه: الإنكار على من يأتي ويدعو عند قبر الرسول ﷺ، فهو يعد مفسّراً لحديث أبي هريرة، يبين معنى اتخاذه عيداً، وأنه يكون في الدعاء عنده، والتردّد عليه. ٤

هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها كما تقدم بعض ذلك لأن ذلك من اتخاذها عيدا كما فهمه علي بن الحسين من الحديث فنهى ذلك الرجل عن المجيء إلى قبر النبي ﷺ للدعاء عنده فكيف بقبر غيره. ١

إذا كان كذلك فمن باب أولى قبور الصالحين وقبور الأنبياء والمرسلين غيره عليه الصلاة والسلام فإنهم أولى بذلك؛ لأنه أفضل خلق الله عليه الصلاة والسلام.

فالذي حصل أن هذه الأمة لم تقبل في كثير من فئامها حماية النبي عليه الصلاة والسلام ذلك، واتخذت القبور مساجد، واتخذت القبور عيداً؛ بل بنيت عليها المشاهد؛ بل أسرجتها؛ بل قبلت لها الذبائح والنذور وطيفَ حولها وجعلت كالكعبة وجعلت الأمكنة حولها مقدسة أعظم من تقديس بقاع الله المباركة؛ بل إن عبّاد القبور تجد عندهم من الذل والخضوع والإنابة والرغب والرهب حين يأتون إلى قبر النبي أو قبر الرجل الصالح أو قبر الولي ما ليس في قلوبهم إذا كانوا في خلوة مع الله جل جلاله وهذا عين المحادّة لله جل وعلا ولرسوله ﷺ. ٣

ويدل أيضاً على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيدا المنهي عنه. ١

قال شيخ الإسلام: "ما علمت أحدا -أي من علماء السلف- رخص فيه (أي قصد القبر دون المسجد) لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه ؛لأن ذلك من اتخاذه عيداً، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: "ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"، بل كان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجده ﷺ فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ثم إذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل.

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم بقوله: ((لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني))؛ فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام.

ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب إذ كانت عائشة فيها، وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمهم كلاماً او سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عن قبره وقبر غيره حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم وأن روح الميت تجسدت لهم، فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود أن الصحابة ما كانوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر كما كان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل.

قال عبيد الله بن عمر عن نافع: "كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: "السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبتاه" ثم ينصرف. قال عبيد الله: "ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر." [1]

وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: "إن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعة محضة.

وفي المبسوط قال مالك: "لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن ليسلم ويمضي".

ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره؛ لئلا يستدبره، وذلك بعد تحيته والسلام عليه، فظاهر هذا أنه يقف للدعاء بعد السلام، وذكر أصحاب مالك أنه يدعو مستقبلاً القبلة يوليه ظهره.

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟

ومن الحجة في ذلك ما روى ابن زَبَالَةَ وهو في أخبار المدينة عن عمر بن هارون عن سلمة بن وردان وهما ساقطان قال: "رأيت أنس بن مالك يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو".[2]. ١

---

[1] رواه عبدالرزاق في مصنفه (٥٧٦/٣) بتمامه –مقتصراً على فعل ابن عمر– ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٨/٣) وأسانيده صحيحة

[2] مجموع الفتاوي (٢٢٧/١)

ثم قال: "رواه في المختارة" المختارة: كتاب اسمه: الأحاديث الجياد المختارة "ومؤلفه هو: عبد الله بن محمَّد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، ألّف هذا الكتاب، وجمع فيه الأحاديث الجياد الزائدة على ما في الصحيحين، فهو كالمستدرك، لكنها أحسن من "مستدرك الحاكم."

ما يُستفاد من الآية الكريمة ومن الحديثين:

أولاً: يستفاد من الآية: امتنان الله على هذه الأمة ببعثة هذا الرسول ﷺ، وهي نعمة عظيمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، هذه أعظم منّة على الخلق، لأنه ببعثة هذا الرسول واتباعه خرجوا من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن النار إلى الجنة.

المسألة الثانية: في الآية دليل على صفات عظيمة من صفاته ﷺ:

الصفة الأولى: ﴿رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

الثانية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

الثالثة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾.

الرابعة: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ﴾.

الخامسة: ﴿رَحِيمٌ﴾.

خمس صفات من صفاته ﷺ.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على أنه ﷺ قد سدّ الطريق المفضية إلى الشرك، بمقتضى هذه الصفات العظيمة التي ذكرها الله جل وعلا فيه، ولهذا جاء في الحديث أنه ﷺ قال: ((ما تركت شيئاً مما يقربكم إلى الله إلاَّ وبينته لكم، وما تركت شيئاً يُبعدكم عن الله إلاَّ وبينته لكم)) أو كما قال ﷺ، ويقول أبو ذر: ((لقد توفي رسول الله وما طائر يقلب جناحيه إلاَّ وذكر لنا منه علماً، علمه من علمه، وجهله من جهله))، والله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣]، فلا يمكن أنه يترك النّاس ولا يبين لهم أعظم خطر عليهم وهو الشرك.

المسألة الرابعة: حديث أبي هريرة يدلّ على وجوب العناية بالبيوت -بيوت المسلمين- وعمارتها بالعبادة، وإبعاد وسائل الشر عنها، وهذه مسألة عظيمة يجب التنبه لها في هذا الزمان أكثر من غيره.

المسألة الخامسة: فيه أن القبور لا تصلح للصلاة عندها من مفهوم حديث أبي هريرة، فدلّ على أن القبور لا تصلح للصلاة عندها، وللدعاء، ولا للعبادة، وإنما هذا إما أن يكون في بيوت المسلمين إذا كان نافلة وإما أن يكون في بيوت الله المساجد إذا كان فريضة.

المسألة السادسة: في حديث أبي هريرة النهي عن التردد على قبره ﷺ، والقيام أو الجلوس عنده، والدعاء والصلاة ﷺ، لأن هذا من اتخاذه عيداً، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ.

المسألة السابعة: في حديث أبي هريرة أن الرسول سدّ الطريق المفضية إلى الشرك، بنهيه عن اتخاذ قبره عيداً، لأن هذا من وسائل الشرك، ومن الطرق الموصلة إلى الشرك.

المسألة الثامنة: في حديث أبي هريرة مشروعية الصلاة عليه ﷺ في أي مكان.

المسألة التاسعة: في الحديث النهي عن التردّد على قبر الرسول ﷺ من أجل الصلاة عليه والسلام عليه، لأن هذا وسيلة إلى الشرك، ومن اتخاذه عيداً، ولهذا ما كان الصحابة رضي الله عنهم كلما دخلوا المسجد يذهبون إلى قبر الرسول ليسلموا عليه أو يصلوا عليه، أبداً، إنما يفعلون هذا إذا جاءوا من سفر فقط، لأنك إذا أكثرت التردّد عليه صار من اتخاذه عيداً.

المسألة العاشرة: في حديث علي بن الحسين رحمه الله وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، لأنه لما رأى هذا الرجل وما يفعله من وسائل الشرك لم يسكت على هذا، بل نهاه عن ذلك، وحذّره من ذلك، وكان في ذلك الخير والبركة لهذه الأمة.

المسألة الحادية عشرة: في الحديث دليل على أن من أنكر شيئاً أو أمر بشيء فإنه يُطالب بالدليل، لأن علي بن الحسين لما نهى هذا الرجل ذكر له الدليل عن رسول الله ﷺ، من أجل إقامة الحجة، ومن أجل معرفة الحق بدليله، وهذا منهج من مناهج الدعوة: أن الداعية إلى الله إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء يذكر الدليل ويوضحه للناس من أجل أن يقتنعوا، ومن أجل أن تقوم الحجة على المخالف.

المسألة الثانية عشرة: في عموم الآية والحديثين أن النبي ﷺ سدّ الطرق المفضية إلى الشرك، وهو الشاهد للباب من الآية والحديثين. ٤

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً، بل من أعظم الأسباب الإشراك بأصحابها كما وقع من عباد القبور الذين يشدُّون إليها الرحال وينفقون في ذلك الكثير من الأموال، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة للقبور تبركًا بتلك القباب والجدران فوقعوا في الشرك. ١

المسألة الثالثة عشرة: في الحديثين دليل على أن الرسول ﷺ تبلغه صلوات أمته عليه في أي مكان كانوا من الأرض، وهذا مما يحث المسلمين على الإكثار من الصلاة والسلام عليه، لأن هذا يبلغه ﷺ، وقد قال: ﷺ ((من صلّى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً)).

وفي الصلاة على الرسول ﷺ أُلّفت كتب، منها -أو من أحسنها- كتاب: "جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام "للإمام ابن القيم، فهو كتاب جيد في هذا الموضوع، حيث جمع فيه الأدلة وفقهها، وما تدل عليه، وبسط الكلام في هذا.

أما الكتب التي أُلفت في الصلاة والسلام عليه، والتبرّك به، والتوسل به، مثل كتاب "دلائل الخيرات"، ومثل كتب الخرافيين؛ فهذه يجب الحذر منها، وإن سموها كتب الصلاة على الرسول ﷺ، فإنهم دسوا فيها من الشرور والفتن والشركيّات الشيء الكثير -والعياذ بالله.-

وكذلك صلاة الفاتح عند التيجانية -أيضاً- هي من الأمور المحدثة، وفيها غلو في حقه ﷺ، وهي صلاة لا دليل عليها من كتاب الله ولا من سنة نبيه ﷺ، إنما من أراد أن يعرف أحكام الصلاة عليه وأدلتها مع الأمانة العلمية فيراجع كتاب "جلاء الأفهام" للإمام ابن القيّم، هذا هو الكتاب الذي يستفيد منه طالب العلم، ويأمن من الدسّ الذي في الكتب الأخرى. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة. وسبق ذلك في أول الباب. ٥

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد. تؤخذ من قوله: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً)). ٥

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته. وهذا مذكور في آية براءة. ٥

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

هذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبي ﷺ من أفضل الأعمال من جنسها، فزيارته فيها سلام عليه، وحقه ﷺ أعظم من غيره.

وأما من حيث التذكير بالآخرة، فلا فرق بين قبره وقبر غيره. ٥

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

تؤخذ من قوله: ((لا تجعلوا قبري عيداً))، لكنه لا يلزم منه الإكثار، لأنه قد لا يأتي إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيداً، فإن فيه نوعاً من الإكثار. ٥

السادسة: حثه على النافلة في البيت. تؤخذ من قوله: ((ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً)). ٥

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة. تؤخذ من قوله: ((لا تجعلوا بيوتكم قبراً))، لأن المعنى: لا تجعلوها قبرواً، أي: لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين، فكأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها. ٥

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

أي: كونه نهى ﷺ أن يجعل قبره عيداً، العلة في ذلك: أن الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان، فلا حاجة إلى أن يأتي إلى قبره، ولهذا نسلم ونصلي عليه في أي مكان، فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال علي بن الحسين: "ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء". ٥

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

أي: فقط فكل من صلى عليه أو سلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: ((فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم)). ٥

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ)

(بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١)﴾ [الكهف].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) قَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليهود وَالنَّصَارى؟ قَالَ: ((فَمَنْ))؟ أَخْرَجَاهُ، وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يا مُحَمَّدُ إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِم مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا))، وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: ((وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ لَمْ يُرْفَعْ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَةٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)).

كتاب التوحيد من أول ما أخذنا إلى هذا الموضع ذكر فيه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مسائل كثيرة من بيان وجوب معرفة التوحيد والعلم به والخوف من الشرك، وبيان بعض أفراد التوحيد وبعض أفراد الشرك الأكبر والأصغر، ثم بين شيئاً مما يتعلق بوسائل ذلك وما يتعلق بالصور المختلفة التي وقعت من هذا الشرك في الأمم قبلنا وعند الجاهليين يعني في الأميين وفي أهل الكتاب، وكذلك مما وقع في هذه الأمة، ثم ذكر وسائل ذلك وطرقه الموصلة إلى الشرك وسائل الشرك التي توصل إليه وطرق الشرك التي توصل إليه.

بعد هذا يأتي احتجاج المشركين والخرافيين من أنّ هذه الأمة حماها الله جل وعلا من أن تعود إلى عبادة الأوثان، فاستحضر بعد كل ما سبق أن قائلا يقول له: كل هذا صحيح؛ ولكن هذه الأمة عصمت أن تقع في الشرك الأكبر، وذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام ((إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَلَكِنْ فِي التّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)) فلما قال عليه الصلاة والسلام ((إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَب)) علمنا أن عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة وأن الشرك الأكبر لا يكون. هكذا قال الخرافيون.

والجواب: أن هذا الاحتجاج في غير موضعه وفهم ذلك الدليل وذلك الحديث ليس على ذلك النحو، وجواب ما قالوا من أن قوله عليه الصلاة والسلام ((إِنّ الشّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ)) تقول أَيِسَ الشيطان والشيطان لا يعلم الغيب وهو حريص على إغواء بني آدم ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، هو أيس؛ ولكن لم يُؤيسهُ الله جل وعلا أيس بنفسه لما رأى عز الإسلام ولما رأى ظهور التوحيد على الكفر في جزيرة العرب، فأيس لما رأى ذلك؛ ولكن لم يؤيسه الله جل وعلا من أن يعبد في جزيرة العرب ثم إن في قوله ((أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلّونَ)) أن المصلون لاشك أنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر لأن المصلي هو الذي أقام الصلاة ومن أقام الصلاة فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكر الذي سينكره المصلي هو الشرك بالله جل وعلا، فإن الشيطان ييأس أن يعبده من قام بالصلاة على حقيقتها وأقامها كما أراد الله جل وعلا.

فإذن نقول هذا الحديث ليس فيه أن العبادة عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة بل فيه أن الشيطان أيس لما رأى عز الإسلام؛ ولكنه لم يؤيّس ولهذا لما كان بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بقليل وارتدت طائفة من العرب كان ذلك من عبادة الشيطان؛ لأن عبادة الشيطان بطاعته كما قال جل وعلا ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس:٦٠]، وعبادة الشيطان كما في تفسير الآية بطاعته في الأمر والنهي، طاعته في الشرك وطاعته في ترك الإيمان وترك لوازمه. ٣

هل يئس معصوم ؟ فهو غير معصوم، قد يئس من الشئ و يحصل فلما ظهر الدين يئس، ولكن الشرك وقع كما هو مشاهد وقد يرجوا الشيء ولا يحصل.

وقيل أنه يئس أن يعودوا إلى حالهم الأولى تماماً، لأنه سيبقى طائفة من الامة على الحق.

وقيل أن المراد: الصحابة لرواية ((المصلين)) وأل للعهد، أي المصلين الصحابة لأن الله وفقهم ورزقهم العلم. وكل الإجابات الثلاثة صحيحة. ٦

إذن هذا الدليل استحضره الإمام رحمه الله وقال: إن هذا الدليل ليس واقعا كما زعمه أولئك، والدليل على ذلك التفسير ما جاء في الأدلة أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، فيصحح ما فهمنا من أن معنى الحديث أن الشيطان أيس بنفسه ولم يُؤَيَّس وإياسه بنفسه لأجل عدم إطلاعه على علم الغيب مع حرصه على دعوة الناس إلى عبادة غير الله تبارك وتعالى وجل وتقدس. ٣

قوله رحمه الله: "باب ما جاء" أي: من الأدلة في الكتاب والسنّة.

"أن بعض هذه الأمة" يعني: وليس كلها، فالأمة لا تجتمع على ضلالة –ولله الحمد–، بل يبقى فيها من يثبت على الحق، كما قال: ﷺ ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله))، فهذه الأمة لا تضل كلها، وإنما يضل الكثير، ولكن يبقى من هذه الأمة من يثبت على الحق إلى أن تقوم الساعة. فهذا من فضل الله ورحمته.

ولهذا قال المصنف رحمه الله: "أن بعض هذه الأمة"، وهذا من دقة فقهه رحمه الله، وعدم تسرعه في الأحكام، بخلاف الذين يكفرون عوام الأمة كما عليه بعض الكتاب المعاصرين.

"يعبد الأوثان" أي: يشرك بالله عزّ وجلّ. ٤

يعني أن عبادة الأوثان واقعة في هذه الأمة بنص النبي ﷺ كما وقعت في الأمم السالفة، فهذه الأمة تقع فيها عبادة غير الله جل وعلا. ٣

والأوثان -كما سبق-: جمع وثن، والمراد به كل ما عبد من دون الله من صنم، أو قبر، أو حجر، أو شجر، أو جن، أو إنس، كله يسمّى وثناً؛ فالوثن كل ما عبد من دون الله؛ مأخوذ من وثن بالمكان إذا ثبت وبقي فيه. ٤

والأوثان جمع وثن، والوثن هو كل شيء توجه إليه الناس بالعبادة، إما بأن يدعوه مع الله جل وعلا، أو أن يستغيثوا به، أو أن يعتقدوا فيه أنه ينفع ويضر بدون إذن الله جل وعلا، أو أنه يُرجى رجاء العبادة ويُخاف منه كخوف من الله جل وعلا خوف السر ونحو ذلك من الأشياء، من اعتقد فيه ذلك فذلك الشيء وثن من الأوثان، وقد يكون راضيا بتلك العبادة وقد لا يكون راضيا بتلك العبادة.

والوثن ليس مُصورا على شكل صورة.

والصنم هم ما كان على شكل صورة كما سبق أن ذكرنا.

فالفرق بين الأوثان والأصنام هي الآلهة التي صورت على شكل صور؛ كأن يجعل لشيء من الأشياء صورة ويعبدها أو يجعل لرجل من الرجال كبوذا ونحوه صورة ويسجد لها ويعبدها هذه أصنام، أو أن تكون أوثاناً والأوثان هي الأشياء التي تعبد، قد يكون جدارًا، قد يكون قبرا، قد يكون رجلا ميْتا، قد يكون صفة من الصفات يتخذها معبودة من دون الله فكل ما توجه إليه العباد بنوع من أنواع العبادة فهو وثن من الأوثان. ٣

المقصود بقوله (هذه الأمة) أمة الدعوة أم أمة الإجابة؟

إذا قلنا: أمة الدعوة فلا شك أن هناك من أمة الدعوة وهم جميع الناس؛ بل من الجن والإنس أن منهم من عبد الأوثان واستمر على عبادتها بعد بعثة النبي ﷺ ولم يرض ببعثته ولم يقبل ذلك.

وإذا قلنا: إن المراد بالأمة أمة الإجابة يعني أن من أجاب الرسول ﷺ في دعوته تتقادم بهم العهود حتى يرتدوا على أدبارهم ويتركوا دينهم كما جاء في باب سلف في أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الغلو في الصالحين.

فإذن الظاهر هنا أن قوله (بعض هذه الأمة يعبد الأوثان) يعني به أمة الإجابة في أنهم يتركون دينهم ويتوجهون إلى الأوثان يعبدونها. ٣

وقصد الشَّيخ رحمه الله من هذه الترجمة: الرد على من زعم أنه لا يقع في هذه الأمة شرك، وهم عباد القبور يقولون: هذا الذي نعمله ليس بشرك، لأن هذه الأمة لا يقع فيها شرك؟ وإنما هو من باب التوسل بالصالحين، أو محبة الصالحين، أو ما أشبه ذلك من الأعذار الباردة.
وهذه مقالة المشركين الأولين :﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، لكن هؤلاء -والعياذ بالله- يقرأون القرآن ولا يفقهون معناه، أو يعرفون معناه، ويغالطون ويكابرون تبعاً لهواهم. ٤

وقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء ٥١]

قال" وقوله تعالى :﴿أَلَمْ تَرَ﴾، هذا استفهام تقرير، أي: قد رأيت وعلمت يا محمَّد.
﴿إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: حظّاً من الكتاب فالنصيب: الحظ؛ والمراد بهم اليهود، لأن الله أعطاهم التوراة التي أنزلها على موسى-عليه الصلاة والسلام- من عند الله، فهو كتاب عظيم من عند الله.
وهذا من باب الإنكار عليهم، لأن المفروض أن الذي أوتي نصيباً من الكتاب وعلم الحق يجب عليه أن يعمل به :فكونهم يخالفون الحق -وعندهم الكتاب- هذا دليل على غِلظ كفرهم وعنادهم. ٤

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾
والجبت: قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك. ٥

قال الجوهري "الجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر" ونحو ذلك[١]. ٢
أي: يصدقون بالجبت، وهو الشرك، أو السحر، أو الساحر، أو الكاهن، أو الشيطان، كل ذلك يسمى جبتاً. ٤

(الْجِبْت) اسم عام لكل ما فيه مخالفة لأمر الله جل وعلا وأمر رسوله ﷺ في الاعتقاد.
قد يكون الجبت سحرا، وهذا هو الذي فسَّرها كثير من السلف بأن الجبت السحر.
وقد يكون الجبت الكاهن.
وقد يكون الشيء المرذول الذي يضر صاحبه.
﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ يعني يؤمنون بالسحر ويؤمنون بالباطل وعبادة غير الله جل وعلا.٣
﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ في اللغة: مأخوذ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد؛ والمراد به هنا: ما تجاوز به العبد حدّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة"الله، كله طاغوت. ٤
ولهذا يعرِّف ابن القيم رحمه الله الطاغوت بأنه: كل ما تجاوز به العبد حده، من معبود أو متبوع أو مطاع.
فإذا (تجاوز به العبد حده)؛ يعني حد ذلك الشيء الذي توجهوا إليه -الذي أُذِن به شرعاً له تجاوزا الحد به، فتوجهوا إليه بالعبادة، اعتقدوا فيه بعض خصائص الإلهية من أنه يغيثهم كيف ما شاء، ومن أنه يملك غَوْثهم، ويملك الاستشفاع لهم، ويملك أن يغفر لهم، وأن يعطيهم، ويملك أن يقربهم إلى الله جل وعلا ونحو ذلك مما لا يملكه المعبودون، فإن ذلك مجاوزة بذلك عن الحد الذي جُعل له في الشرع، مجاوزة الحد في المعبودين أو المتبوعين، (ما تجاوز العبد

---
[١] الجوهري (الصحاح) (٢٤٥/١)

حده من معبود أو متبوع)، (أو متبوع) مثل العلماء أو القادة في أمر الدين، إذا تجاوز الناس بهم حدهم فصاروا يتبعونهم في كل ما قالوا وإن أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال أو جعلوا لهم السنة بدعة أو البدعة سنة وهم يعلمون أصل الدين ولكنهم خالفوا لأجل ما قال فلان فإن هذا قد تُجُوِّز به حدّه، فإن حد المتبوع في الدين أن يكون آمرا بما أمر به الشرع، ناهيا عن ما نهى عنه الشرع، فإذا أحل الحرام أو حرّم الحلال فإنه يُعتبر طاغوتا، ومن اتبعه فإنه يكون قد تجاوز به حده وقد أقرّ بأنه طاغوت واتخذه كذلك، (أو مطاع) يطاع كذلك من الأمراء والملوك والحكام والرؤساء الذين يأمرون بالحرام فيطاعون ويأمرون بتحريم الحلال فيطاعون في ذلك، مع علم المطيع بما أمر الله جل وعلا به، فهؤلاء اتخذوهم طواغيت لأنهم جاوزوا بهم حدهم. ٣

ويقول العلامة ابن القيم: "الطواغيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة: إبليس –لعنه الله– ومن عُبد وهو راض. ومن دعا النّاس إلى عبادة نفسه. ومن ادعى شيئاً من علم الغيب. ومن حكم بغير ما أنزل الله". ٤

قال ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ فيدخل في الطاغوت كل هذه الأنواع الذين عبدوا والذين اتبعوا والذين أطيعوا. ٣

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: يقول هؤلاء اليهود.﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مشركوا قريش ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ أي: هؤلاء الكفار أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، أي: منهج الكفار أهدى من منهج المسلمين المتبعين لمحمد ﷺ. وهذا وهم عندهم الكتاب، ويعرفون الحق من الباطل.

وسبب ذلك: أن الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وبايعه الأنصار من الأوس والخزرج، وصارت للمسلمين دولة عظيمة في المدينة، اغتاظ اليهود الذين كانوا في المدينة من المسلمين، وضاقوا بهم ذرعًا، فذهب كعب بن الأشرف وحيّي بن أخطب إلى المشركين في مكة يستنجدونهم على قتال الرسول ﷺ وأصحابه، فانتهز المشركون الفرصة وقالوا: أنتم أهل كتاب، تعرفون الحق من الباطل، بينوا لنا أنحن أهدى أم محمّد؟، فقالوا: وما أنتم وما محمّد؟

يعني: بينوا لنا صفتكم وصفة محمّد-، قالوا: محمَّد صنبور مبتور، قطّع أرحامنا وسب آلهتنا. ونحن نذبح الكوم، ونطعم الحجيج، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، ونصل الأرحام. يصفون أنفسهم بهذه الصفات.

ومحمد قطع أرحامنا، وتبعه سراق الحجيج من غفار.

قالوا: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً. ٤

وجه المناسبة في الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث، وهو ((لتركبن سنن من كان قبلكم)). ٥

وجه المناسبة من هذه الآية للباب أنّ ذلك وهو الإيمان بالجبت والطاغوت حصل ووقع من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب -من اليهود والنصارى-، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر أن ما وقع في الأمم قبلنا سيقع في هذه الأمة كما قال في حديث أبي سعيد الآتي ((لَتتّبِعُنّ سَنَنَ من كان قبلَكم حَذْوَ القذة بالقذة، حتّى لو دَخَلوا جُحرَ ضَبّ لَدَخلتُموهُ)) فمثل بشيء صغير وهو دخول جحر الضب الذي لا يمكن أن يُفعل تنبيها على أن ما هو أعلى من ذلك سيقع من هذه الأمة كما وقع من الأمم قبلنا.

قال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِن الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١] وهذا حصل من هذه الأمة، فإن منهم من آمن بالسحر، ومنهم من آمن بعبادة غير الله، ومنهم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، فكانوا بذلك متبعين سنن من كان قبلهم، وحصل منهم إيمان بالجبت والطاغوت، كما حصل من الأمم قبلهم. ٣

وكذلك يوجد في هذه الأمة من يمجّد الكفار، وينتقّص المسلمين، كما كان اليهود يقولون: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾، فمن النّاس من يثني اليوم على دول الكفر والإلحاد، ويصفهم بصفات الكمال والعظمة، ويتنقص المسلمين، ويصفهم بالتأخر والرجعية، إلى آخره، فهذا شيء موجود.

فدلّ على أن هذه الأمة يقع فيها ما وقع في اليهود من الإيمان بالجبت والطاغوت، ومن الشرك بالله عزّ وجلّ.

وكل ما وقع في اليهود أو في النصارى فإنه سيقع في هذه الأمة من بعض أفرادها أو طوائفها من يفعله تشبّهاً بهم، فها هي الأضرحة، والبناء على القبور، والطواف بها، وإقامة الموالد، والاستغاثة بالأموات، والذبح والنذر لهم موجود، كما كان في اليهود.

وهذا الشاهد من الآية للترجمة.٤

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

قال: وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ تمام الآية ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠]، هذه الآية في الرد على الذين يسخرون من المسلمين ومن دينهم من اليهود والنصارى والوثنيين.

يقول تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم والاستفهام هنا المراد به: التقرير والتوبيخ.

﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾: الذي زعمتم فينا.

﴿مَثُوبَةً﴾ منصوب على التمييز، يعني جزاء عند الله سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته بسبب كفره، وهو أنتم أيها اليهود والنصارى.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ والغضب ضد الرضا، فالله جلّ وعلا يرضى على عباده المؤمنين ويغضب على الكافرين، وغضبه لا يقوم له شيء، والمغضوب عليهم هم الذين عندهم علم ولم يعملوا به، لأنهم عصوا الله على بصيرة.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ مسخهم قردة وخنازير، بسبب كفرهم. ٤

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب، الطاعنين في دينكم -الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾، أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا: هم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المذمومة المفسرة بقوله ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾
أي: أبعده وطرده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضبا لا يرضى بعده ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: مسخ منهم الذين عصوا أمره فجعلهم قردة وخنازير. ١
والشاهد في قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ دلّ على أن في أهل الكتاب من يعبد كل الطاغوت، فلا بد أن يكون في هذه الأمة من يتشبّه بهم ويعبد الطاغوت.
فالآية الأولى فيها: أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وهذه الآية فيها أن فيهم من عبد الطاغوت، فلا بد أن يكون من هذه الأمة من يتشبّه بهم في ذلك. ٤

فإذا كان من قبلنا عبد الطاغوت: و هو الشيطان، و كل ما يعبد من دون الله. فهكذا يوجد في هذه الأمة من يعبد الطاغوت و الأوثان لحديث ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)). ٦

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]

هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة، كما قال تعالى: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في آياتنا عجباً﴾ [الكهف: ٩]، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله – عز وجل ـ، فيسر الله لهم غاراً، فدخلوا فيه، وناموا نومة طويلة بلغت ﴿ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً﴾ [الكهف: ٢٥] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أن الله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يترسب الدم في أحد الجانبين. ٥

ثم أحياهم الله جل وعلا وأطلع الناس أنهم مكثوا أحياء هذه المدة الطويلة أنهم أماتهم الله ثم أحياهم اعتقدوا فيهم، ولما اعتقدوا فيهم وماتوا تنازعوا في أمرهم، فمنهم من قال افعلوا لهم كذا ابنوا عليهم بنياناً، ومنهم من قال اجعلوا لهم فناء ودارا وعظِّموا مكانهم، واختلف الناس فيهم في ذلك الزمان، قال الله جل وعلا ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ من الذين غلبوا على أمرهم؟ اختلف المفسرون في ذلك.

فقال قائلون: هم مُسْلِمُو ذلك الزمان حصل منهم تعظيم لأصحاب الكهف ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ [الكهف:٢١]، وقالوا اتخذوا عليهم مسجداً تعظيماً لهم ودِلالة للناس عليهم، فإذا كان هذا القول راجحا فإن من وسائل الشرك بالله ويؤدي إلى عبادة تلك القبور والاعتقاد في أصحاب الكهف، وهذا القدر حصل في هذه الأمة.

والقول الثاني: أن ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ هم المشركون؛ يعني أتباع ذلك الدِّين لاعتقادهم الجاهلي ولما في قلوبهم من الشرك والبدع التي خالفوا بها أنبيائهم قالوا ابنوا عليهم مسجداً كما قال جل وعلا هنا ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

والقول الثالث وهو الذي رجحه ابن كثير رحمه الله أن ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ هم الكبراء والأمراء وأصحاب النفوذ فيهم؛ يعني الذين كانت لهم الغلبة في الأمر، والذي له الغلبة في الأمر هو الذي يملك الأمر والنهي في الناس وهم الكبراء وأصحاب النفوذ وملوك ذلك الزمان وأمراء ذلك الزمان، فأولئك عظّموا أولئك الصالحين قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ٣

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ فقالوا: هؤلاء رجال صالحون، فيهم بركة، فيهم خير، نبني عليهم مسجداً من أجل التبرُّك بهم، والصلاة عندهم، والدعاء عندهم، لأنهم من أولياء الله، ونفّذوا ذلك بقوة السلطة لا بقوة الحجة، لأنهم غلبوا على أمرهم، أي: تمكنوا من تنفيذ ما أرادوا بقوتهم. ٤

وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق. ٥

فهم مذمومون لأن النبي ﷺ قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد)) -يحذر ما فعلوا- "رواه البخاري ومسلم". ولما يفضي إليه ذلك من الإشراك بأصحابها كما هو الواقع، ولهذا لما فعلته اليهود والنصارى جرهم ذلك إلى الشرك، فدل ذلك على أن هذه الأمة تفعله كما فعلته اليهود والنصارى، فيجرها ذلك إلى الشرك؛ لأن ما فعلته اليهود والنصارى ستفعله هذه الأمة شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤] وبهذا يظهر وجه استشهاد المصنف بهذه الآيات. ١

حصل هذا في تلك الأمة وما دام أنه حصل فإنه سيحصل في هذه الأمة؛ لأنه ما من خصلة من الشرك حصلت في الأمم قبلنا إلا وحصلت في هذه الأمة حتى ادعى بعض هذه الأمة هو الله جل وعلا وأن الله يحل فيه ونحو ذلك؛ بل قد ادعوا أن روح الإله تتناسخ في أناس معينين كما هو اعتقاد طوائف من الباطنيين ونحو ذلك. ٣

فالشاهد من الآية: أنه كان في أول الخليقة من يبني المساجد على القبور، فلا بدّ أن يكون في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور، تشبُّهاً بهم، وقد وقع هذا، ووُجِد في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور، فدلّ على وقوع الشرك في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة عن طريق التشبُّه والمحاكاة. ٤

فوائد الآيات السابقة:

من فوائد الآية الأولى ما يلي:

١- أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيباً من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

٢- أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية، لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دون من المعاصي.

٣- وجوب إنكار الجبت والطاغوت، لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم، فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.

٤- ما ساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله ﷺ: ((لتركبن سنن من كان من قبلكم))، فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت، فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضاً من يؤمن بالجبت والطاغوت.

ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

١- تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنى أنك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره فإن اليهود يعرفون بأن فيهم قوماً غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين، فنقول لهم: أين محل الاستهزاء؟! الذين حلت عليهم هذه العقوبات أم الذين سلموا منها؟ والجواب: الذين حلت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

٢- اختلاف الناس بالمنزلة عند الله، لقوله: ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، ولا شك أن الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣- سوء حال اليهود الذي حلت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤- إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء، لقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾، فإن اللعن من صفات الأفعال.

٥- إثبات الغضب لله، لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

٦- إثبات القدرة لله، لقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا، لما ثبت في "صحيح مسلم" عن النبي ﷺ: ((أن كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل))[1]، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك، وعلى هذا، فليس هذا الموجود من القردة والخنازير هو بقية أولئك الممسوخين.

٧- أن العقوبات من جنس العمل، لأن هؤلاء الذين مسخوا قردة، والقرد أشبه ما يكون شبهاً بالإنسان، فعلوا فعلاً ظاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنه حرم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتان، وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكاً، فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت، فإذا أتى يوم الأحد أخذوها، وهذه حيلة ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تماماً، ولهذا مسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان، وهو القرد، قال تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وهو يفيد أن الجزاء من جنس العمل، ويدل عليه صراحة قوله تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

٨- أن هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت، لقوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، ولا شك أنهم حتى الآن يعبدونه، لأنه عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:

١- ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وحكمته.

٢- أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور، لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد، لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام غلوا فيهم.

٣- أن الغلو في القبور وإن قل قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي ﷺ لعلي حين بعثه: ((ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته))[2]. ٥

---

[1] مسلم: كتاب القدر/ باب بيان أن الأرزاق والآجال لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر.

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر.

عن أبي سعيد ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) قالوا: "يا رسول الله، اليهود والنصارى؟" قال: ((فمن))؟ أخرجاه.

قوله: "عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لتتبعن)) سبق أن اللاّم هذه لام قسم، فهي على تقدير والله لتتّبعن، وأكّده بالنون الثقيلة.

((سنن)) أي: طريق.

فالسَّنن -بالفتح-: الطريق، أما السُّنن-بالضم- فهي جمع: سنَّة، وهي الطرق. فمن قرأه سَنَن فالمراد به: الطريق، وهذا هو المشهور.

ومن قرأه سُنَن فالمراد به: جمع: سُنّة وهي: الطرق.

والمعنى واحد. ٤

يعني كأنه قال لَتتّبِعُنّ سُنن من كان قبلكم يعني طرائق من كان قبلكم يعني في الدين. ٣

واللام في قوله ((لَتتّبِعُنّ)) هي الواقعة في جواب القسم، نفهم من وجود اللام أنّ النبي عليه الصلاة والسلام أقسم على ذلك؛ فقال مؤكداً والله لتتبعن سَنن من كان قبلكم؛ لأن اللام هذه واقعة في جواب القسم، فإذا رأيت اللام هذه المفتوحة فهي الواقعة في جواب القسم؛ بل أقسم عليه والقسم محذوف واللام واقعة في جوابه، لم أقسم عليه الصلاة والسلام؟ ليؤكد هذا الأمر تأكيدا عظيما بأن هذه الأمة ستتبع طريقة وسبيل من كان قبلها من الأمم، وهذا تحذير لأن الأمم السالفة إما أن تكون من أهل الكتاب -اليهود والنصارى-، وهؤلاء قد وصفهم الله جل وعلا بأنهم مغضوب عليهم وضالون، فإذا أُتخذت سبيلهم سبيلا في هذه الأمة معنى ذلك أن هذه الأمة تعرضت للغضب واللعنة، وهذا حصل في هذه الأمة فإن منهم من سلك سبيل اليهود ومنهم من سلك سبيل النصارى، ولهذا قال بعض السلف: "من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عُبّادنا فيه شبه من النصارى". لأن اليهود خالفوا على علم، والنصارى خالفت على ضلالة، وقد قال جل وعلا ﴿غَيْرِ المغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ﴾ [الفاتحة:٧]، والمغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى كما فسرها النبي ﷺ. ٣

ومن المعلوم أن من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئاً من هذه السنن.

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين، فإنها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

ومن ذلك الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد جاء في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب، فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: إن الله تعب من خلق السماوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه، فقد وجد من قال: ليس له يد، ومن قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بإنه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجاً عنه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها أكل السحت، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظاً ومعنى، كاليهود حين قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك، فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إن اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود في (حطة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

أمر اليهود بأن يقولوا حطة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقاً للواقع: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم)) ٥

وقضاء الله نافذ بما أخبر به رسوله ﷺ بما سبق في علمه لكن ليس الحديث إخبارا عن جميع الأمة لما تواتر عنه أنها لا تجتمع على ضلالة.[١] ١

((حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة)) حَذْوَ: منصوب على الحال، والقُذَّة: ريشة السهم الذي يُرمى به. ٤

وله قذتان متساويتان. ١

والمعنى: تُشبونهم كما أشبهت ريشة السهم ريشة السهم الأخرى. ٤

يعني من التساوي، القذة والقذة تكون في السهم، وتكون هذه مساوية لتلك لا تفرق بين واحدة والأخرى، فإذا نظرت في هذه ونظرت في هذه وجدت أنهما متماثلان وجدت أن هذه وهذه متماثلتان لا فرق بينهما، وهذا هو الواقع فإن في هذه الأمة وقع التماثل، ففي

---

[١] انظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني (ص ١٦١)

هذه الأمة حصل مثل ما حصل من الأمم قبلنا في أبواب الربوبية وفي أبواب الألوهية وفي الأسماء والصفات وكذلك في العمل وكذلك في السلوك وكذلك في أفعال الله جل وعلا، فكل شيء كان فيمن قبلنا وقع في هذه الأمة نسأل الله جل وعلا السلامة. ٣

(تنبيه):

قوله: ((حذو القذة بالقذة)) [١] لم أجده في مظانه في "الصحيحين"، فليحرر. ٥

((حتى لو دخلوا جُحْر ضب لدخلتموه)) الجُحر -بالضم- هو: السَّرَب الذي يكون في الأرض، ومنه جُحر الضب، لأنه يحفر جحراً من أعسر الجحور، ومع هذا لو دخله اليهود والنصارى لكان في هذه الأمة من يفعل ذلك تقليداً لهم.

وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فالتقليد والتشبه بالكفار قائم على قدم وساق بأتفه الأشياء وأحقر الأشياء، لا لشيء إلاَّ لأنهم يفعلونه، والمقلد يرى أنهم أهل العقول، وأنهم أهل التقدم والحضارة، فيقلدهم من أجل ذلك. ٤

وقوله: (قال: ((فمن ؟))) استفهام إنكار أي فمن هم غير أولئك؟. ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى، وفي رواية أبي هريرة في البخاري ((بفارس والروم)) ولا تعارض كما قال بعضهم[٢] لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام، فحيث قيل: فارس والروم كان ثم قرينة تتعلق بالحكم بين الناس، وسياسة الرعية، وحيث قيل: اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها، كذا قال. ولا يلزم وجود قرينة بل الظاهر أنه أخبر أن هذه الأمة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات والعادات والسياسات مطلقاً، والتفسير ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرى إذ المقصود التمثيل لا الحصر. ١

ولكن يبقى النظر: هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟ ٥

---

[١] قوله "خذوا القذة بالقذة" لم تخرج في الصحيحين وإنما هي من حديث شداد بن أوس أخرجه الإمام في المسند.

[٢] هو الحافظ في فتح الباري (١٣/٣١٤ عند حديث رقم ٧٣٢٠)

قال شيخ الإسلام: "هذا خرج مخرج الخبر والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يكون بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمة"[1]. ١

هذا الحديث خبر بمعنى النهي، أي: لا تتشبّهوا بهم، ولا تقلّدوهم، وقد جاء النهي عن التشبّه بهم بقوله: ((لا تشبّهوا باليهود والنصارى))، وقوله: ((ومن تشبه بقوم فهو منهم)). ٤

الجواب: لا شك أنه للتحذير وليس للإقرار، فلا يقول أحد سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق، لأن الرسول ﷺ قال ذلك، فمن قال ذلك، فإننا نقول له: أخطأت، لأن قول النبي ﷺ لا شك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: ((فمن؟))

ثم نقول لهم أيضاً: إن الرسول ﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أن الإنسان يعصي أباه ويدني صديقه[2]، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لضالون، ووجد في هذه الأمة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لرجعيون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

والحاصل: أنك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجدت لها أصلاً في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثاً في هذه الأمة. ٥

---

[1] نقله عنه المناوي في فيض القدير (٥/٢٦١)

[2] الترمذي: كتاب الفتن/ باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، قال الألباني: "ضعيف" السلسلة الضعيفة.

والشاهد من هذا الحديث واضح: أنه يكون في هذه الأمة من يتشبّه باليهود والنصارى في كل شيء، واليهود والنصارى يعملون الشرك فلا بد أن يوجد في هذه الأمة من يعمل الشرك مثلهم سواء بسواء.

نعم، اليهود والنصارى بنوا على القبور، فيؤخذ في هذه الأمة من يبني على القبور تشبُّهاً بهم، والنصارى يعملون عيد المولد للمسيح عليه السلام فيُوجد في هذه الأمة من يعمل عيد المولد لمحمد ﷺ تشبُّهاً بالنصارى.

كما وُجد في اليهود والنصارى من يحلق لحيته ويُوَفِّر شاربه، فوُجد من هذه الأمة من يحلق لحيته ويوفّر شاربه، إلى غير ذلك من أنواع التشبُّه التي لا تُحصى مصداقاً لقوله من باب التحذير والنهي: ((لتتبعن سَنن من كان قبلكم حَذْو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضب لدخلتموه)).

فالشاهد منه: أنه لا بد أن يوجد في هذه الأمة من يتشبّه باليهود والنصارى في الشرك بالله عزّ وجلّ، كما أنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١] فلا بدّ أن يوجد في هذه الأمة من يغلو بالأئمة، ويتخذهم أرباباً من دون الله، كما عند الصوفية الذين يتخذون رؤساء الطرق والمشايخ أرباباً من دون الله، يحلّلون ويحرّمون، ويقولون: المريد ينبغي أن يكون مع الشَّيخ كالميّت بين يدي غاسله. وكذلك من يتعصّب لشيخه ولو خالف الدليل إلى غير ذلك. ٤

وجه الدلالة من هذا الحديث ظاهرة؛ بل عماد هذا الباب على هذا الحديث من أن كل كُفْرٍ وشرك وقع في الأمم السالفة فسيقع في هذه الأمة، الأمم السالفة عبدت الأوثان وكفرت بالله جل وعلا فسيقع في هذه الأمة من يعبد الأوثان ومن يكفر بالله جل وعلا في الربوبية وفي الإلهية وفي الأسماء والصفات وفي أفعال الله جل وعلا وفي الحكم والتحاكم، وهكذا في أنواع كثيرة مما حصل فيمن قبلنا حتى في أمور السلوك والبدع؛ بل حتى في أمور الأخلاق والعادات التي قد تتصل بالدين فإنه سلكت هذه الأمة مسلك الأمم قبلها مخالفة نهي النبي ﷺ. ٣

من فوائد الحديث:

١- ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، لأنه من سنن من قبلنا، وقد أخبر عليه الصلاة و السلام أننا سنتبعهم.

٢- ويستفاد أيضاً من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.

٣- أنه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك -ولله الحمد- موجود في القرآن والسنة.

٤- استعظام هذا الأمر عند الصحابة، لقولهم اليهود والنصارى، فإن الاستفهام للاستعظام، أي: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى من النبي ﷺ.

٥- أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة، فإنه يكون أبعد من الحق، لأنه أخبر عن مستقبل ولم يخبر عن الحاضر، وأن من سنن من قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فإذا كان طول الأمد سبباً لقسوة القلب فيمن قبلنا، فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في "البخاري" من حديث أنس رضي الله عنه، أنه قال: "سمعت النبي ﷺ يقول: ((لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده شره منه، حتى تلقوا ربكم))[١]، ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد، لحديث أنس رضي الله عنه حديث صحيح سنداً ومتناً، فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في "البخاري"، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين، فلا تيأسوا، فتقولوا: إذا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مثل من سبق، لأننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتضح الأمر، فأنظرو إلى جنس الرجال وجنس النساء، أيهما خير؟

[١] كتاب الفتن/ باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه.

والجواب: جنس الرجال خير، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان، فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم، فإنهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أما الصحابة، فلا أحد يساويهم في فضل الصحبة، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل، لأنه لم يدرك الصحبة. ه

أما فقه هذه النصوص، فإنها تدلّ على مسائل كثيرة:

المسألة الأولى: في الآية الأولى دليل على أن من اليهود والنصارى من يؤمن بالجبت والطاغوت، الذي هو: الشرك، والسحر، والكِهانة، والطِّيرَة، والتّنجيم، والحكم بغير ما أنزل الله. فسيوجد في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ تشبُّهاً بهم.

المسألة الثانية: في الآية دليل على أن الموافقة لهم في الظاهر تسمّى إيماناً ولو لم يوافقهم في الباطن، لأن اليهود لما قالوا كفّار قريش: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. هم في الباطن يعتقدون بُطلان هذا الكلام، لكنهم وافقوهم في الظاهر ليحصلوا على مناصرتهم لهم، ومع هذا سمّى الله هذا إيماناً بالجبت والطاغوت.

فالذي يمدح الكفر والكفار ولو بلسانه، ويفضّل الكفر والكفار على المؤمنين؛ يُعتبر مؤمناً بالجبت والطاغوت، ولو كان قلبه لا يوافق على هذا؛ ما لم يكن مُكرهاً، ففيه رد على مرجئة هذا العصر الذين يقولون: إن من تكلم بكلام الكفر لا يكفر حتى يعتقد بقلبه صحة ما يقول.

وهذه دقيقة عظيمة ذكرها الشَّيخ في المسائل، وهي عظيمة جداً.

المسألة الثالثة: في الآية الثانية بيان أن في أهل الكتاب من عبد الطاغوت، بمعنى: أنه دعا غير الله، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، فلا بد أن يكون في هذه الأمة من يعبد الطاغوت تشبُّهاً بهم.

ففيه الرد على من زعم أنه لا يقع في هذه الأمة شرك، لأن الحديث يدلّ على أنه يوجد من يتشبّه باليهود والنصارى في عبادة الطاغوت التي منها عبادة القبور والأضرحة، ومنها الحكم بغير ما أنزل الله، ومنها الشيء الكثير الذي كله من عبادة الطاغوت.

المسألة الرابعة: في الآية الثانية دليل على ذكر عيوب المردود عليه، وذلك في قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠] ففيه ذكر معائب المردود عليه حتى يَخْتَزِي ويُفْحَم في الخصومة.

المسألة الخامسة: في الآية رد على من يقول: إنه ينبغي ذكر محاسن المردود عليه وهو ما يسمونه بالموازنات.

وذكر محاسن الطوائف الضالّة والأشخاص الضالين من المبتدعة وغيرهم، ووجه الرد: أن الله ذكر في هذه الآية معايبهم، ولم يذكر لهم شيئاً من المحاسن.

ففي الآية ردٌّ صريح على هذه المقالة التي يراد منها السكوت عن البدع والخرافات أو ذكر محاسن المبتدعة والمخالفين للحق.

المسألة السادسة: في الآية الثالثة دليل على أنه كان في الأمم السابقة من يبني المساجد على القبور، فلا بد أن يوجد في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور وقد وقع هذا.

ففيه ردٌّ على من زعم أنه لا يقع في هذه الأمة شرك، ووجه الرد: لأن بناء المساجد على القبور وسيلة إلى الشرك.

المسألة السابعة: في الحديث دليل على معجزة من معجزاته ﷺ، حيث أخبر أنه سيكون في هذه الأمة من يتشبّه باليهود والنصارى، وقد وقع كما أخبر ﷺ.

المسألة الثامنة: في الحديث دليل على تحريم التشبّه باليهود والنصارى، لأن الحديث خبرٌ معناه النهي والإنكار على من فعل ذلك.

المسألة التاسعة: في الحديث دليل للترّجمة: أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، لأن في اليهود والنصارى من يعبد الأوثان، فلا بد أن يوجد في هذه الأمة من يتشبّه بهم فيعبد الأوثان،

كما هو واقع وحاصل في عبادة القبور والأضرحة الآن لا بكثرة وعلى مَسْمع من علماء المسلمين ومرأى ولم ينكر ذلك الكثير منهم، بل بعضهم أجازه وشجع عليه.
ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم. ٤

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضًا))، ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: ((وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئة من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)).

هذا حديث عظيم فيه أمور مخيفة، وفيه أخبار عظيمة، وفيه بشارة: فقوله: "عن ثوبان"، ثوبان هو: مولى رسول الله ﷺ، والمولى معناه: العتيق، لازم الرسول ﷺ، وله فضائل كثيرة رضي الله عنه.
"أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله زَوَى لِيَ الأرض)) يعني: جمعها، وحواها وطواها له ﷺ حتى صارت حجماً صغيراً، يرى النبي ﷺ أطرافه ما بعُد منها وما قرُب، والله قادر على كل شيء.
أو أن المراد –والله أعلم– أنه قوّى بصر رسوله ﷺ فصار يري كل الأرض مشارقها ومغاربها، كما حصل له ﷺ لما سأله المشركون عن بيت المقدس، حيث قوّى بصر رسوله فصار ينظر إلى بيت المقدس وهو في مكّة يخطب في المشركين، ويصف لهم المسجد عن معاينة

ومشاهدة، حتى ذكر لهم علاماته والأشياء التي يعرفونها فيه، وحتى إنه أخبرهم عن عيرهم التي في الطريق التي كانوا ينتظرونها، أخبرهم أين هي؟. ٤

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد؟ ٥

اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع، فليس بموافق للواقع، لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي ﷺ المجرد، فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف ولِمَ، بل نقول: إن الله على كل شيء قدير، إذ قوة –الله سبحانه– أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[1]، فلا يجوز أن نقول: كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.٥

((فرأيت مشارقها ومغاربها)) رأى المشرق والمغرب وجمعها لكثرة الطالع والغارب من الكواكب.

((وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زَوَى لي منها)) بالبناء على الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، أو((ما زُوِي لي منها)) بالبناء للمفعول، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى. ٤

والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ. ٥

ولم يذكر ﷺ الشمال والجنوب من الأرض لقلة سكانها ولأن هذا لم تبلغه الفتوحات، وإنما الفتوحات امتدّت من المشرق إلى المغرب.

((وإن أمتي سيبلغ ملكها)) هذا خبر عن المستقبل، وهو لا ينطق عن الهوى ﷺ.

---

[1] البخاري: كتاب الاعتكاف/ باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ومسلم: كتاب السلام/ باب يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة...

ففيه دليل من أدلّة نبوّته ﷺ.

الدّليل الأول: زَوي الأرض له. هذا دليل على نبوّته.

الدليل الثاني: أنه أخبر عن ملك أمته، وأنه سيتّسع ويبلغ المشرق والمغرب في يوم أن كان ملك المسلمين في المدينة وما حولها فقط.

فهذا من علامات نبوّته ﷺ.

وقد وقع كما أخبر، فانتشرت الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس حتى سقطت دولة الفُرْس بالمشرق، وسقطت دولة الروم بالمغرب، وامتدّ سلطان المسلمين في الشرق إلى أن وصل السّند، وفي المغرب إلى أن وصل إلى طَنْجَة في أقصى المغرب، بل امتدّ إلى أن وصل إلى جبال البَرَانِس وهي حدود فرنسا، حيث دخلت الأندلس في الخلافة الأمويّة في ملك المسلمين، وهذا مِصْداق لخبره ﷺ: ((وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها)).

((وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض ((المراد بالكنزين: الأموال النّفيسة، ((الأحمر)): الذهب، ((والأبيض)): الفضة، وهذا عبارة عن أموال الفرس والروم. فأموال الفرس من الذهب، وأموال الروم من الفضة، أو العكس، قولان في المسألة. ٤

وقوله: ((أعطيت)) هل النبي ﷺ أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته، فهو كالمعطى له، لأن امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ. ٥

وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فقد جيء بأموال الفرس والروم في خلافة عمر بن الخطاب، ووزّعت بين المسلمين في المدينة، حتى إنه جيء بتاج كسرى الذي يلبسه على رأسه، وجيء بسواريه الذين يلبسهما في يديه، وهذا مصداق ما أخبر به ﷺ.

وقوله: ((وإني سألت ربي لأمتي)) هذا من شفقته ﷺ بأمته.

((أن لا يهلكها بسنة بعامة)) المراد بالسنة: الجُدْب، أي: لا يعمّ الجدب والقحط كل بلاد المسلمين، فتَهلك أموالهم وزروعهم وما يأكلون منه، فالسنّة المراد بها :الجَدْب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠] يعني: بالجَدْب.

دعا النبي ﷺ ربه أن لا يُنزل الجَدْب والقَحْط على أمة محمَّد كلهم، لأنه إذا نزل بهم كلهم هلكوا.

وقوله: ((وأن لا يسلط عليهم عدَوّاً من سوى أنفسهم)) يعني: من الكفار، أي: لا يسلط الكفار على المسلمين.

((فيستبيح بيضتهم)) البيضة: الحوزة، يعني: لا يستبيح الكفار حوزة المسلمين وبلادهم، أو المراد بالبيضة اجتماع الكلمة. والمعنى عام ومعناه: لا يستبيح بلادهم وجماعتهم.

((وإن ربي قال: يا محمَّد)) هذه إجابة الله لدعوة رسوله ﷺ.

((إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يردّ)) إذا قدّر الله قدراً فلا بد من نفاذه، فأقدار الله نافذة في المسلمين والكفّار وعموم الناس، لا أحد يستطيع رد القضاء والقدر، فهذا فيه إثبات القدر، وأن قدر الله نافذ، لا يستطيع أحد رده. ٤

أعلم أن قضاء الله نوعان:

١- قضاء شرعي قد يرد، فقد يريده الله ولا يقبلونه.

٢- قضاء كوني لا يرد، ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

ومثال القضاء الشرعي: قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، لأنه لو كان كونياً، لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، لأن الله تعالى لا يقضي شرعاً بالفساد، لكنه يقضي به كوناً وإن كان يكرهه سبحانه، فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسم خلقه إلى مؤمنين وكافرين، لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني، فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق، فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتواً واستكباراً، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمرهم. ٥

وأعلم أن قضاء الله كمشيئته بالحكمة، فهو لا يقضي قضاء إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئاً إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فتبين أنه لا يشاء شيئاً إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة. ٥

((وإني أعطيتك لأمتك: أن لا أهلكهم بسنة بعامة)) استجاب الله الدعوة الأولى مطلقاً، وأنه سبحانه لا ينزل قحطاً عامًّا للبلاد كلها، وإنما ينزل القحط في بعض البلاد دون بعض بخلاف الأمم السابقة، فإن الله ينزل القحط العام عليهم فيضرهم، كما حصل لقوم فرعون، أما هذه الأمة لكرامتها على الله فإن الله لا ينزل عليها القحط العام.

((وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً)) استجاب الله له الدعوة الثانية استجابة معلّقة. ٤

وهذه الإجابة قيدت بقوله: ((حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً)) إذا وقع ذلك منهم، فقد يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، فكأن إجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفى الجملة الثانية باستثناء ((حتى يكون بعضهم...)).

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: ((إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد))، فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيدة. ٥

يعني: ما دامت أمتك مجتمعة على الحق كلمتها واحدة، فإن الله لا يسلّط عليهم عدوًّا من الكفار، أما إذا حصل في الأمة افتراق كلمة، وحصل بينهم قتال فيما بينهم، وسبى بعضهم بعضاً، فحينئذ يعاقبهم الله عزّ وجلّ ويسلط عليهم الكفّار.

قوله: ((ولو اجتمع عليهم من بأقطارها)) أي: إذا اجتمعت كلمة المسلمين، ولم يكن بينهم اختلاف ولا تقاتل فيما بينهم، فلو اجتمع أهل الأرض كلهم على قتال المسلمين أو أراد سلب شيء من ملكهم فلن يستطيعوا، وأما إذا اختلفوا فيما بينهم، وتقاتلوا فيما بينهم، وأخذ بعضهم أموال بعض، فإن الله يعاقبهم، ويسلّط عليهم الكفّار.

وقد حصل مصداق هذا، فإنه لما كانت الأمة مجتمعة في عهد أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب، وأول خلافة أمير المؤمنين عثمان، وسلطان المسلمين ظاهر في الأرض، قد خافتهم الأمم، فصار الكفار يخافون من المسلمين.

ولما وقعت الفتنة بين المسلمين في خلافة عثمان –رضي الله تعالى عنه– بسبب اليهوديّ الذي ادّعى الإسلام وهو: عبد الله بن سبأ اليماني، وصار يحرّض المسلمين على الخليفة عثمان ذي النورين ﵁، واجتمع حوله من الأوباش وضعاف الإيمان من الشباب الطائش، اجتمعوا على هذه الطاغية، وفي النّهاية حاصروا عثمان ﵁ وقتلوه، ولما قتلوا عثمان عاقب الله المسلمين فجعل بأسهم بينهم، وسلّط عليهم عدّوهم.

وما زالت المداولات والحروب بين المسلمين بعضهم مع بعض وبين المسلمين والكفار.

صحيح أنها قامت دولة بني أمية بعد ذلك وانتشر الإسلام، ودولة بني العباس، ولكن لم تخل الأمة من اقتتال ومن فتن فيما بينها، إلى أن جاءت الداهية الدهياء في آخر خلافة بني العباس، فغزا التّتار بلاد المسلمين، واستباحوا عاصمة المسلمين بغداد، وقتلوا الخليفة العباس، وقتلوا من المسلمين مئات الألوف، واحرقوا –كتب المسلمين– وألقوها في نهر دِجلة حتى تغير الماء بمداد الكتب، وتسلّلوا إلى بقية البلاد، وحصل من الحروب الطاحنة ما سجّله التاريخ. ٤

وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطاً لا نظير له، فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسراً على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونه، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في "الكامل": "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذين يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكن نسياً منسياً إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي... "، وذكر كلاماً طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيداً من ذلك، فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور. ٥

وكذلك الصليبيّون زحفوا على المسلمين واستولوا على الأندلس، وزحفوا إلى بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس، وبقي بيت المقدس حوالي مائة سنة تحت أيدي الصليبيّين، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فخلّص بيت المقدس من أيدي الصليبيّين.
ولا يزال الخلاف وتسلط الكفار على المسلمين إلى وقتنا هذا، بل في وقتنا هذا اشتدّ فيه الأمر، والسبب في هذا هو اختلاف المسلمين فيما بينهم، كما في هذا الحديث: ((حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ((ويسبي بعضهم بعضاً)) فإذا حصل للمسلمين هذا سلّط الله عليهم الكفار بسبب الاختلاف، واستباحة حرمة المسلمين فيما بينهم، هذا يقتل هذا، وهذا يسبي هذا، مع أنهم إخوة مسلمون.

والواجب على المسلمين أن يكونوا أمة واحدة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)﴾ [الأنبياء:٩٢]، ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال:٤٦]، ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران:١٠٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، فالاختلاف عذاب، وسبب لتسلّط الكفار، والاجتماع رحمة وقوة وعزّة للمسلمين ولن يحصل الاجتماع إلاَّ تحت عقيدة التّوحيد. ٤

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم. ٥

قوله: "رواه البَرْقاني في صحيحه" البَرْقاني هو: أبو بكر محمَّد الخوارزمي الشافعي، وكتابه يسمّى بالمسند الصحيح، جمع فيه الأحاديث الصحيحة، ويقول: أنه جمع فيه أحاديث الصحيحين وزاد عليهما ما صح عنده من الأحاديث.

"وزاد" يعني: على رواية مسلم.

أن الرسول ﷺ قال: ((وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) هذا سبب آخر، السبب السبب الأول: الاختلاف بينهم.

السبب الثاني: وجود دعاة الفتنة، ودعاة الضّلال.

فهؤلاء سبب آخر لهلاك المسلمين، وسبب لتفرق كلمتهم، وتسلط العدوّ عليهم، بأن يكون هناك دعاة ضلال، ودعاة فتنة، ودعاة فُرقة، وتحريش بين المسلمين، كما حصل من الداعية الخبيث الأول عبد الله بن سبأ.

والأئمة جمع: إمام، والإمام هو القدوة الذي يُقتدى به في الخير أو الشر.

فإذا كانت القدوة من أهل الضلال ضلّت الأمة، وحصل فيهم الشر، ويراد بهم الأمراء الضالون، والعلماء الضالون، والعُبّاد الضالون، والدُّعاة الضالون، كل هؤلاء من الأئمة المضلّين، فإذا قاد الأمة هؤلاء قادوها إلى الهلاك، أما إذا قاد الأمة دعاة الحق قادوها إلى الصلاح والسلامة. ٤

والأئمة المضلون هم الذين اتخذهم الناس أئمة، قد يكون من جهة الدين، وقد يكون من جهة الوِلاية -يعني ولاية الحُكم-، والأئمة المضلون يملكون زمام الناس فيضلون الناس بالبدع وبالشركيات ويُحسِّنونها لهم حتى تغدوا في أعينهم حقاً، وكذلك أصحاب النفوذ وأصحاب الحكم فإنهم إذا كانوا مضلين فإن بيدهم الأمر الذي يجعلهم يَفرضون على الناس أشياء ويُلزمونهم بأشياء مضادة لشرع محمد ﷺ من أمور العقيدة والتوحيد ومن أمور السلوك والعمل ومن أمور الحكم والتحاكم. ٣

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه "هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين" رواه الدارمي. [١] ٢

قال الإمام أحمد رحمه الله: "لو كان لي دعوة متسجابة، لصرفتها للسلطان، فإن بصلاحه صلاح الأمة". ٥

وصدق النبي ﷺ، إن أعظم ما يخاف على الأمة الأئمة المضلون، كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم. ٥

وهكذا وقع في هذه الأمة وخوف النبي عليه الصلاة والسلام من الأئمة المضلين وقع ما خاف منه عليه الصلاة والسلام فكثر الأئمة المضلون في الأمة؛ الأئمة المضلون من جهة الأتباع والأئمة المضلون من جهة الطاعة. ٣

ففي قوله: ((أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) مفهومه؛ أن الأئمة المصلحين خير للأمة، يجمعون كلمتها، ويصلحون عقيدتها، ويردونها إلى منهج السلف الصالح، ويحصل بهم الخير. أما دعاة الضلال فإنهم يصدونها عن الحق، ويدعونها إلى خلاف منهج السلف.

---

[١] الدارمي في السنن رقم ٢٢٠، وأخرجه ابن المبارك في الزهد رقم ١٤٧...

والآن فيما بيننا ظهر من يزهّد في منهج السلف ويعتبره من الأمور الرجعية، ومن الأمور القاصرة، ويريد من المسلمين أن ينهجوا مناهج حديثة، ابتكرها جهّال أو ضُلاّل، يريدون أن الدعاة يسيرون على هذا المنهج المبتكر المحدث، ويتركون منهج السلف الصالح الذي فيه الخير، وفيه الصلاح والفلاح، هذا ظهر وقد أخبر ﷺ أنه يكون في هذه الأمة دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها، قالوا: "صفهم لنا يا رسول الله" قال: ((هم قوم من جِلْدَتنا، ويتكلمون بألسنتنا)) فلنحذر من هؤلاء غاية الحذر.

لا نجاة لنا إلاَّ بإتباع دعاة الصلاح الذين يدعون إلى منهج السلف الصالح وإلى إتباع الكتاب والسنّة، هؤلاء هم الخير على الأمة.

أما من أراد بالأمة خلاف ذلك، وابتكر لها منهجاً أو خطّط لها تخطيطاً جديداً يخالف منهج السلف، فهذا لا يريد للأمة خيراً سواءً كان متعمداً أو لم يتعمّد.

وأخطر ما على الأمة الآن الدعاة الجُهّال الذين لا يعرفون العلم، ويدعون النّاس بجهل وضلال، أو الدعاة المغرضون الذين يعرفون الحق لكنهم معرضون، يريدون صرف الأمة عن جادّة الصواب.

الحاصل، أن الأمة على خطر من هؤلاء، فعلينا أن نتنبّه لهذا الأمر، وأن نعالج هذا الأمر قبل أن يستحفل.

قوله: ((وإذا وضع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة)) كذلك خاف عليهم النبي ﷺ أنه إذا بدأ القتال بين المسلمين فإنه لا يُرفع إلى يوم القيامة، وهذه بليّة أخرى.

البليّة الأولى: تسلُّط الكفار على المسلمين.

والبليّة الثانية: إذا وقع القتال بين المسلمين فإنه لا يُرفع إلى يوم القيامة عقوبة لهم.

وذلك حصل كما أخبر به ﷺ فإنه لما قُتل الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان فإنه لا يزال القتال مستمرًّا بين المسلمين، وسيستمر إلى يوم القيامة. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله كما أخبر النبي ﷺ.

قوله: ((ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين)) الحي: المراد به: القبيلة، ومعنى يلحق: يتبع؛ إما بأن يذهبوا إلى بلادهم ويسكنوا معهم ويكونوا من دولتهم، وإما بأن يبقوا في بلاد المسلمين ولكن يكونون على منهج الكفار ويرتدّون عن الإسلام. ٤

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معاً؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك. ٥

ووقع هذا كما أخبر به ﷺ، ففيهم من ذهب إلى بلاد الكفار وثم يرجع وصار يوافق الكفار في أمورهم الدينية، ويجري عليهم حكمهم وهو مختار للإقامة بينهم. وفيهم من بقي في بلاد المسلمين ويعتنق مذاهب الكفر من شيوعية وبعثية وقومية وغير ذلك، وهؤلاء لحقوا بالمشركين في قلوبهم وعقائدهم كما أخبر ﷺ وإن لم يلحقوا بهم في أبدانهم.

قوله: ((وحتى تعبد فِئام من أمتي الأوثان)) الفِئام: الجماعات، والأوثان: كل ما عبد من دون الله. وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فعَبَدت جماعات من هذه الأمة القبور والأضرحة، واعتبروا هذا هو الدين الصحيح. ٤

ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفئام، أي: ليسوا أحياء، فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة، فيجتمعون. ٥

وهذا مع ما قبله هو الشاهد من هذا الحديث للباب.

وفيه رد على من زعم أن هذه الأمة لا يقع فيها شرك، ووجه الرد: لأن الرسول ﷺ أخبر -وهو الصادق المصدوق- أنه لا بدّ أن تعبد جماعات وليسوا أفراداً من هذه الأمة الأوثان.

وقوله ﷺ: ((وإنه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون كلّهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيّين، لا نبي بعدي))، هذا فيه إخبار منه ﷺ بظهور المتنبِّئين الكَذَبَة الذين يدعون النبوة.

وقد حصل ما أخبر به ﷺ، وأول من ظهر في حياته ﷺ اثنان:
مُسَيْلِمة الكذّاب في اليمامة، والأسود العَنْسي في اليمن.
أما الأسود العَنْسي فقد قتله المسلمون قبل موت النبي ﷺ.
وأما مُسَيْلِمة الكذّاب فإنه قد تبعه قوم من أهل اليمامة، ولما بُويع أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- بالخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ جهّز له الصديق جيشاً من المسلمين من المهاجرين والأنصار بقيادة خالد بن الوليد اليمامة، وحصل قتال شديد جدًّا، وقُتل فيه من المسلمين ومن أفاضلهم ومن قُرّاء القرآن العدد الكثير، ولكن في النّهاية قَتل الله مُسَيْلِمة الكذّاب على يد المسلمين في خلافة أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-، وأراح الله المسلمين من شرِّه.
ثم ظهر طُليحة الأسدي وادّعى النبوّة، وظهرت سَجَاح التميمية وادّعت النبوة، ولكن الله منّ على طُلَيحة فتاب إلى الله عزّ وجلّ، وجاهد في سبيل الله، وتوفّي على الإسلام، وكذلك سَجَاح تابت إلى الله عزّ وجلّ.
ثمّ ظهر المختار بن أبي عُبيد الثقفي في خلافة عبد الملك بن مروان، وادّعى النبوّة، وقتله الله سبحانه وتعالى على أيدي المسلمين.
ولا يزال المتنبئون الكذَبَة يظهرون بين الحين والآخر، إلى أن ظهر منذ سنين رجل في الباكستان يسمّى غلام أحمد القادياني، ادّعى النبوّة، وتَبِعه قوم، وصار له أتباع الآن يسمّون القاديانية، وقد كفّرهم المسلمون، ونبذوهم -ولله الحمد-. ٤
و هؤلاء المدعون هم الذين يكون لهم شوكة و صولة و شبهة و إلا فالمدعون كثير بعضهم يقولها بجنون و هذيان و غيره. ٦

وقوله ﷺ: ((وأنا خاتم النبيّين، لا نبيّ بعدي)) هذا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، والخاتم -بفتح التاء-: الذي يختم على الشيء فلا يزاد فيه، يقال: ختم الكتاب، يعني: وضع الختم عليه بحيث لا يُزاد فيه، وختم الكيس، بمعنى أنه أغلقه بحيث لا يُزاد فيه ولا يُنقص، فالرسول ﷺ ختم الأنبياء، بمعنى انه هو آخرهم، ولا يأتي بعده نبي.

وأما لفظ خاتِم -بالكسر- فهو: اسم فاعل، فالنبي ﷺ هو خاتِم النبيّين، أي: الذي كمّلهم وانتهى به عددهم، فلا يُبعث نبي بعد رسول الله ﷺ إلى أن تقوم الساعة، كما أن شريعته لا تُنسخ إلى أن تقوم الساعة، وأرسله الله إلى العالمين كافّة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان:١]، أرسله إلى العالم كافّة -عليه الصلاة والسلام-، إلى العرب والعجم، والجن والإنس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ:٢٨]، وأنزل عليه شريعة كاملة، شاملة لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

فالذي يدّعي النبوة بعد محمَّد ﷺ فهو كافر، لأنه مكذِّب لله، لأن الله قال: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ومكذِّب لرسول الله في قوله: ((أنا خاتم النبيين)) ومكذِّب لإجماع المسلمين، لأن المسلمين أجمعوا على أنه لا نبيّ بعد محمَّد ﷺ. ٤

فمن زعم أنه نبي بعد الرسول ﷺ، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدقه في ذلك، فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ، ومن زعم أنه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال. ٥

فإن قال قائل: "أليس المسيح عيسى بن مريم ينزل في آخر الزمان كما تواتر ذلك في الأحاديث؟.

قلنا: نعم، ينزل في آخر الزمان، ولكن لا ينزل بشريعة جديدة، وإنما ينزل ليعمل بشريعة محمَّد ﷺ، فهو يُعتبر مجدِّداً من المجدِّدين، ومصلحاً من المصلحين، يحكم بشريعة الإسلام، ويتبع محمداً ﷺ، فنزول عيسى عليه السلام لا يختلف مع قوله ﷺ: ((أنا خاتم النبيين)) وقول الله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، لأنه لا ينزل بشريعة، ولا ينزل على أنه نبي يُبعث إلى الناس، وإنما ينزل على أنه حاكم بشريعة محمَّد ﷺ، وتابع لمحمد عليه الصلاة والسلام. ٤

وقوله: ((كذابون ثلاثون)) هل ظهروا أم لا؟

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر، لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معين، وما دامت الساعة لم تقم، فهم ينتظرون. ٥

ثم قال مبشراً لأمته بعد هذه الأخبار المروِّعة: ((ولا تزال طائفة من أمتي على الحق)) يعني: مع هذه الحوادث العظيمة، وهذا الابتلاء العظيم، ووقوع الشرك، ووقوع اللَّحاق بالمشركين من بعض القبائل وتسلّط الكفّار، وقلّة أهل الحق، وكثرة أهل الباطل، مع هذا يبقي في هذه الأمة بقية صالحة إلى أن يأتي أمر الله تبارك وتعالى.

والطائفة في الأصل الجماعة. والمراد هنا من كان على الحق ولو كان واحداً. بدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] وهو واحد.

((على الحق ظاهرين)) يعني: غالبين. ٤

قوله: ((لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم))، خذلهم، أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم، لأن الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: ((وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك))، وكذلك لا يضرهم من خالفهم، لأنهم منصورون بنصر الله، فالله –عز وجل– إذا نصر أحداً فلن يستطيع أحد أن يذله. ٥

مع هذه الشرور كلها، وهذه الفتن كلها، هذه الطائفة لا تتضرّر، بل تبقى على الحق الذي بُعث به محمَّد ﷺ، ولم يعيّن ﷺ عددها، ولم يعيّن مكانها، لأن العدد قد يقلّ وقد يكثر، وكذلك المكان قد تكون تارة في المشرق، وتارة في المغرب، وتارة في العرب، وتارة في العجم، المهم أنها تبقى هذه الطائفة من الأمة، لتبقى حجّة الله سبحانه وتعالى على خلقه.

وقد قال أهل العلم –كالإمام أحمد وغيره–: "إن هذه الطائفة هم أهل الحديث". ٤
قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: "إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟" وكذلك قال انهم أهل الحديث: عبدالله بن المبارك، وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم.[1] ١

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث، فما مدى صحة هذا القول؟
الجواب: هذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لا بد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما اشبه ذلك، فهذا ليس بصحيح، لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون البناء على الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة، لأن العلوم الشرعية تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.
فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة، فهو من أهل الحديث بالمعنى العام.
وأهل الحديث هم: كل من يتحرى العمل بسنة رسول الله ﷺ، فيشمل الفقهاء الذين يتحرون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحاً.

---

[1] عن يزيد أخرجه الرامهرمزي في (المحدث الفاصل) رقم (٢٧)، وعن أحمد: أخرجه الخطيب في (المصدر السابق) رقم (٤٨). وإسناده صحيح كما قال ابن حجر في فتح الباري (٢٩٣/١٣)
عن ابن المبارك أخرجه الخطيب في (شرف أصحاب الحديث) رقم (٤٧)، وعن ابن المديني: أخرجه الترمذي في (الجامع (٨/٧)، وعن ابن سنان: اخرجه الخطيب في (شرف أصحاب الحديث (رقم ٤٩)، وعن البخاري: أخرجه الخطيب في (المصدر السابق رقم (٥١)).

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً لا يعتبر اصطلاحاً، من المحدثين، ومع ذلك، فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدث. وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسكاً بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحاً، فيخرج غيرهم.

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحاً واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به، فيحنئذ يكون صحيحاً. ٥

أي: الذي يتمسّكون بسنّة الرسول ﷺ، كما قال ﷺ -لما ذكر افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة:- ((كلها في النار إلاَّ واحدة)) قالوا: من هي يا رسول الله؟، قال: ((من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي))، فهم أهل الحديث الذين يتمسّكون بحديث الرسول ﷺ، ولا يتمسّكون بالآراء والأقوال وعلم الكلام والمنطق.

فهم الطائفة المنصورة وهم الفرقة الناجية وهم أهل الحديث وهم أهل السنّة والجماعة، لا كما يقول بعض المعاصرين إن الفرقة الناجية غير الطائفة المنصورة، وهذا تفريق بغير علم. ٤

هذه الطائفة المنصورة هي التي قال فيها عليه الصلاة والسلام في حديث آخر ((لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقّ))، وهي التي قال فيها عليه الصلاة والسلام ((وَسَتَفْتَرِقُ هذه الأمَّة عَلَى ثلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً. كُلّهَا فِي النّارِ، إلاّ وَاحِدَةً. وَهِيَ الْجَمَاعَةُ)) فالطائفة المنصورة هي الفرقة الناجية وهي الجماعة بجمع أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وسميت منصورة لأن الله جل وعلا نصرها على من ناوأها بالحجة والبيان، نَصْرُها الذي وعدت به ليس نصرا بالسنان ولكنه نصر بالحجة والبيان، فهم وإن هزموا في بعض المعارك أو أُدينت دولتهم في بعض الأحيان فهم الظاهرون على من سواهم بالحجة والبيان، وهم المنصورون بما أعطاهم الله جل وعلا من الحجة والنصوص والصواب والحق على من سواهم فهم على الحق وسواهم على الباطل.

هذان اللفظان فرقة ناجية وطائفة منصورة اسمان لشيء واحد وإنما هو من باب تنوع الصفات، فقال عنها الطائفة المنصورة هنا ((لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقّ منصورة)) لأنها موعودة بالنصر كما قال جل وعلا ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥٩]، فهم منصورون، كما قال أيضاً ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١)إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ(١٧٢)وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، فقولهم هو المنصور وهو الظاهر وحجتهم هي الظاهرة، وقد يكون من النصر والتمكين في أرض الله ما أعطاهم الله جل وعلا من ذلك، وهم أيضاً الفرقة الناجية التي جاءت في حديث الافتراق، ناجية يعني موعودة بالنجاة من النار، فهم موصوفون بالنصر وموصوفون بالنجاة من النار، وموصوفون بالنصر على عدوهم بالحجة والبيان، وقد يكون مع ذلك نصر بالسيف والسنان ونحو ذلك. ٣

وقوله: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة))، هذه لم يحدد مكانها، فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق وغيرهما.

فالمهم أن هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار، فهي طائفة واحد منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالقهم حتى يأتي أمر الله. ٥

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولا فأولا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. اهـ ملخصاً مع زيادة فيه. قاله الحافظ. [1]

---

[1] ابن حجر في فتح الباري (٢٩٥/١٣)

قلت: واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة. ٢

وقوله: ((حتى يأتي أمر الله)) المراد بأمر الله ما يكون في آخر الزمان من قبض أرواح أهل الإيمان، حين يبعث الله ريحًا طيّبة في آخر الزمان قبل قيام الساعة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى شرار الناس، وحينئذ تقوم الساعة. ٤

ما يستفاد من هذا الحديث:

هذا الحديث يدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: في هذا الحديث دلائل من دلائل النبوة، وهي:

أولا: قوله ﷺ: ((إن الله زَوَى ليَ الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها)).

ثانياً: قوله ﷺ: ((سيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها)).

ثالثاً: إخباره ﷺ بأن هذه الأمة إذا افترقت وتقاتلت يتسلّط عليها العدّو. وقد وقع ما أخبر به ﷺ.

رابعاً: إخباره ﷺ عن وقوع الشرك في أمته. وقد وقع ما أخبر ﷺ.

خامساً: إخباره بظهور المتنبّئين الكَذَبَة. وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فلا يزال المتنبئون الكَذَبَة يظهرون بين الحين والآخر، لكن منهم من له شوكة، ومنهم من ليس له شوكة.

سادساً: إخباره ﷺ ببقاء الطائفة المنصورة على الحق. وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فلا تزال هذه الأمة –ولله الحمد– يبقى فيها من أهل الصلاح والإصلاح من يبقى بهم هذا الدين، وتقوم به حجّة الله على العالمين، مع اشتداد الغُربة، وعظيم الكُرْبة، ولكنهم يصبرون، ويثبتون على الحق.

المسألة الثانية: في هذا الحديث كمال شفقته ﷺ بأمته، حيث دعا لهم ﷺ بهذه الدعوات المباركاَت العظيمة، واستجاب الله له.

المسألة الثالثة: في هذا الحديث أن تفرّق الأمة وتناحرها فيما بينها سبب لتسلُّط العدوّ عليها، وأن اجتماعها وتوحّدها على الحق سبب لمنع الكفّار من الاستيلاء على شيء من بلادها.
المسألة الرابعة: في الحديث دليل على خطر الأئمة المضلّين، أي: القيادات الفاسدة من الأمراء والعلماء والعبّاد والدعاة الفاسدين، أما الأئمة المصلحون فهؤلاء خير على الأمة وصلاح لها.
المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أنه إذا وقع في هذه الأمة قتال فيما بينهم أنه سيستمرّ إلى أن تقوم الساعة، ولا يُرفع، ولكن يكثر ويقل أحياناً.
المسألة السادسة: في الحديث دليل فيما ترجم له المصّنف رحمه الله من وقوع الشرك والردّة في بعض هذه الأمة، فهذا شاهد لقول المصنِّف: "باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان".
المسألة السابعة: في الحديث دليل على خَتْم النبوة به ﷺ، وأن من ادّعى النبوة بعده فهو كافر، لأنه مكذِّب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين ولما عُلم بالدين بالضرورة.
المسألة الثامنة: في الحديث دليل على بقاء الفرقة الناجية المنصورة، مع كثرة الفتن والمحن والشرور، فإن الله سبحانه وتعالى لا يُخلي الأرض من الدعاة إلى الحق القائمين عليه من الأئمة المصلحين. ٤

ومن الأحاديث التي تدل على أن بعض هذه الأمة من يعبد الأوثان

ومن ذلك الحديث الذي رواه البخاري مرفوعاً ((لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة))، ودوس: قبيلة في الجنوب في بلاد غامد وزهران فقد وقع في عهد قريب قبل هذه الدولة من عبد هذا الصنم وطاف حوله وسيقع مرة أخرى. ٦
قال: وذو الخلصة: طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية [١]. ١
وعن عائشة مرفوعاً: "لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى"[٢] وسيقع هذا كله.٦

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٧١١٦)، ومسلم (رقم ٢٩٠٦)
[٢] رواه مسلم في صحيحه (رقم٢٩٠٧)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع؟: هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟.

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة – أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد. **السابعة:** التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدّعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح. وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء. وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١]، وقد سبق ذلك ٥

الثانية: تفسير آية المائدة. وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، وقد سبق تفسيرها، والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. ٥

الثالثة: تفسير آية الكهف. يعني: قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها. ٥

الرابعة: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع؟: هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟.

أما إيمان القلب واعتقاده، فهذا لا شك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها، فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناء على أنها صحيحة فهذا كفر وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة، فإنه لا يكفر، لكنه لا شك على خطر عظيم يخشى أن يؤدي به الحال إلى الكفر والعياذ بالله. ٥

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

يعني: إن هذا القول كفر وردة، لأن من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان. ٥

السادسة: وهي المقصود بالترجمة – أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد. السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله: "باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان"، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟)). أخرجاه. وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها. ٥

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدّعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح. وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنهما، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين، فتتبعهم، وقتل كثيراً ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفى القرآن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين، فكيف صادقاً، وكيف يصدق من هذا التناقض؟ ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. ٥

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

يعني: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة. يؤخذ هذا من آخر الحديث: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)). ٥

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

وهذه آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرونهم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ٥

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة. وقد سبق. ٥

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول.

أي: ما في هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة على صدقهم.

فمما في هذا الحديث: إخباره بأن الله –سبحانه وتعالى– زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين، وهما كنزا كسرى وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته في الإثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً... إلخ، ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها، فإن هذا سوف يكون كما صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: "إن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاء طويلاً، وانصرف إلينا، فقال: ((سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها))[١]، أي: منعني إياها.

---

[١] مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب هلاك هذه الأمة بعضهم بعضاً.

ومن هذه الآيات التي تضمنها هذا الحديث: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع، فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك، فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هذا إلى يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، هذا أيضاً واقع.

ومنها: خوفه على أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدى به، إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر: "هذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المتنبئين بذلك، لأنهم أكثر من ذلك".

قلت: فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى، أي أنهم لا ينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا –والله أعلم– هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ –رحمه الله–: "مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول". ٥

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد، فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنه متبوعون، فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء له التوجيه والإرشاد، والعباد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم، فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم، لأنهم إذا كانوا مضلين ضل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس. ٥

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

يعني أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله فيحله الناس، ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]،

وَقَوْلُهُ: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

قَالَ عُمَرُ:"الْجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ". وَقَالَ جَابِرُ: "الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ".

وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ ط أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)) قَالَوا: يا رَسُول اللَّه: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)).

وَعَن جُنْدُبَ مرفوعاً: ((حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ)) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

وفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بُجَالَةَ بن عَبْدَةَ قَالَ: "كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ".

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ ك: أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ، وكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ. قَالَ أَحْمَدُ: "عَنْ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ".

مناسبة هذا الباب للأبواب السابقة: أن الشَّيخ رحمه الله في الأبواب السابقة ذكر أنواعاً من الشرك، ووسائل الشرك. ٤

ومناسبة ذكر السحر لكتاب التوحيد أن السحر نوع من الشرك، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((من سحر فقد أشرك))، فالسحر أحد أنواع الشرك الأكبر بالله جل وعلا؛ فمناسبته ظاهرة أنه مضادٌّ لأصل التوحيد. ٣

ولما كان السحر نوعاً من أنواع الشرك عقد له هذا الباب لأن السحر لا يمكن الوصول إليه إلاَّ عن طريق الشياطين، فالسحرة يخضعون للشياطين، ويستعينون بهم في سحرهم، وهذا شرك بالله عزّ وجلّ.

والسحر في اللغة هو: كل ما لَطُفَ وخَفِيَ سببه، ومنه سُمّي السَّحَر سَحَراً في آخر الليل، لأنه خفيٌّ. ٤

وكذلك قيل في أكْلة آخر الليل سحور وذلك لأنها تقع على وجه الخفاء وعدم الاشتهار والظهور من الناس. ٣

وكل ما لَطُف يعني: دقّ، وخَفِيَ سببه عن النّاس يُسمّى سحراً في اللغة، ومنه قوله ﷺ: ((إن من البيان لسحراً)) البيان معناه: الكلام البليغ، لأنه يستميل النفوس ويؤثّر فيها كما يؤثر السحر، إلاَّ أنه ليس حراماً وكذلك النميمة، سُمّيّت سحراً [١] لأنها تعمل عمل السحر في الإفساد بين الناس، وأحداث البغضاء في القلوب، وإن لم تكن سحراً في الحقيقة، لكنها سحر لغوي، هذا تعريف السحر في اللغة. ٤

فهذه اللفظة (سِحْرٌ) وما أشتقت منه تدل على خفاء في الشيء ولهذا فإنه في اللغة يُطلق السحر على أشياء كثيرة:

- منها ما يكون في جهة المقال.
- ومنها ما يكون من الفعل.
- ومنها ما يكون من جهة الاعتقاد.

وسيأتي في هذا الباب الذي بعده عن بيان شيء من أنواع السحر ما يتصل بذلك. ٣

أما تعريفه في الشرع: فالسحر عبارة عن عزائم ورُقى وعُقد يؤثر في بدن المسحور بالقتل أو بالمرض، أو بالإخلال بعقله، أو يفرّق بين الزوجين، أو يأخذ الزوج عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ [الفلق:٤] يعني: السواحر.

---

[١] في قوله ﷺ: ((ألا أنبئكم ما العضة -يعني السحر- هي النميمة القالة بين الناس)).

فالساحر يعقد العقد بالخيط ثمّ ينفث فيها من ريقه، ويستعين بالشيطان، ويؤثّر هذا بإذن الله في المسحور إما قتلاً، وإما مرضاً، وإما تفريقاً بينه وبين حبيبه، وإما أن يمنعه عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها. ٤

السحر الذي هو كفر أو شرك أكبر بالله جل وعلا فهو استخدام الشياطين والاستعانة بها لحصول أمر بواسطة التقرب لذلك الشيطان بشيء من أنواع العبادة. ٣

فإذن حقيقة السحر أنه استخدام للشياطين في التأثير، ولا يمكن للساحر أن يصل إلى انفاذ سحره حتى يكون متقربا إلى الشياطين، فإذا تقرب إليها خدمته الجن -يعني شياطين الجن- بأن أثرت في بدن المسحور، فلكل سحر خادم من الشياطين يخدمه، ولكل ساحر مستعان به من الشياطين، فلا يمكن للساحر أن يكون ساحرا على الحقيقة إلا وهو يتقرب إلى الشياطين.

ولهذا نقول: السحر شرك بالله جل وعلا. ٣

وقد سحر يهودي النبي ﷺ في مُشط ومُشاطة؛ أي في شيء من شعره، وحتى يخيل للنبي عليه الصلاة والسلام أنه يفعل الشيء ولا يفعله من جهة نسائه عليه الصلاة والسلام؛ يعني كان سحر ذلك اليهودي مؤثرا في بدنه عليه الصلاة والسلام؛ لكنه لم يكن مؤثرا في علمه ولا في عقله ولا في روحه عليه الصلاة والسلام، وإنما في بدنه يخيل إليه أنه قد واقع نسائه وهو لم يواقع ونحو ذلك.٣

ورقاه جبريل فبرئ بإذن الله.

فالسحر له حقيقة، ويؤثر في بدن المسحور، ولكنه لا يؤثّر إلاّ بإذن الله القدريّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: إذن الله القدريّ الكونيّ. ٤

هذا السحر الذي فيه استخدام الشياطين شرك وكفر بالله جل وعلا، قد قال سبحانه ﴿اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:١٠٢]، والذي تلته الشياطين على ملك سليمان هو ما قرأوا في كتب السحر وما يتصل بذلك من عمل السحر قال جل وعلا ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢] فعلل كفر

الشياطين بقوله ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢]، قال سبحانه ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢] فإذن تعلم السحر، تعلمه من جهة فهم كيف يكون السحر وكيف يَعمل السحر لا يكون إلا بالكفر والشرك؛ لكن هناك مرتبة أنه يتعلم ذلك نظرياً ولا يعمله، وهناك مرتبة أنه يتعلمه ويعمله ولو مرة، وهناك مرتبة الساحر الذي يتعلم ويعمله دائماً، قال جل وعلا ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ فدلّ على أن تعلمه بمجرده كفر.

ولهذا نقول: الصحيح أن تعلم السحر ولو بدون عمل شرك وكفر بالله جل وعلا بنص الآية، لم؟ لأنه لا يمكن أن يتعلم السحر إلا بتعلم الشرك بالله جل وعلا وكيف يشرك، وإذا تعلم الشرك فهو مشرك بالله جل وعلا. ٣

إذن فتحصَّل أن السحر بجميع أنواعه فيه استخدام للشياطين واستعانة بها، والشياطين لا تخدم إلا من تقرب إليها، يتقرب إليها بأي شيء؟ بالذبح، يتقرب إليها بأي شيء؟ بالاستغاثة، يتقرب إليها بالاستعاذة ونحو ذلك يعني يصرف إليها شيئاً من أنواع العبادة.

بل قد نظرتُ في بعض كتب السحر فوجدتُ أن الساحر بحسب ما وصف ذلك الكاتب لا يصل إلى حقيقة السحر وتخدمه الجن كما ينبغي حتى يُهين القرآن ويُهين المصحف، وحتى يكفر بالله ويسبّ الله جل وعلا ونبيه ﷺ.

وهذا قد ذكره بعض أيضاً من قد اطلع على حقيقة الحال.

إذن نقول السحر شرك بالله سبحانه وتعالى، وكل ساحر مشرك، وقتل الساحر فيها سيأتي على الصحيح أنه قتل ردّة لا قتل تعزير كما سيأتي. ٣

وقد ذكر العلماء أن السحر المحرم على نوعين٤: (كقول الشافعي وغيره) ٣

- سحر حقيقي، وهو هذا الذي ذكرنا.٤ ما يكون بالاستعانة بالشياطين فهذا كفر وشرك أكبر. ٣

- والنوع الثاني: سحر تخييلي، ليس له حقيقة، وإنما هو خيال وشعوذة، وهو ما يسمّى بالقُمْرة. ٤

يكون بالأدوية والتدخينات فهذا فسق ومحرم، ولا يكفر فاعله إلا إذا استحله. ٣

الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها. ٥

وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراماً لمضرته، يُعَزَّرْ من يفعله تعزيراً بليغاً. ١

فهو من المحرمات والكبائر و المنكرات التي فيها ظلم العباد والتعدي عليهم لأنهم يفسدون بها العقول ويغيرونها به. ٦

فالساحر يخيِّل للناس شيئاً وهو ليس حقيقة، كأن يخيِّل للناس أنه دخل في النار، وليس كذلك، أو يخيِّل للناس أنه يمشي على حبل، وهو ليس كذلك، أو يخيِّل للناس أن السيارة تمشي على بطنه، وليس كذلك، أو يخيِّل للناس أنه يطعن نفسه بالسلاح ولا يؤثِّر فيه، وليس كذلك، والحقيقة أنه عمل شيئاً من التخيل والقُمْرة فأثر على الأبصار. كما قال الله تعالى في قوم فرعون: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، فسحروا الأعين فقط، وذلك بما يعملونه من الحِيَل، ويجعلون في العِصِيّ التي معهم مواد تحرّكها، وتجعل العصى كأنها حيّة، وهي ليست كذلك كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:٦٦]، حيث حشوها بشيء من الزِّئْبق وشيء من الأمور التي لا يراها الناس، وظنوا أنها تتحرك.

وأنكرت المعتزلة النوع الأول، مع أن النوع الأول هو الخطير، وقالوا: السحر كله تخييلي.

وهذا غير صحيح، لأنه لو كان كذلك لما أثّر في المسحور ولما قتل المسحور، ولما أمرضه، ولما فرّق بينه وبين زوجه، فدلّ على أنه حقيقي، وعمل شيطاني، لأنه عُقد وعزائم، ولهذا يقول تعالى لنبيه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١)﴾ [الفلق:١]، إلى قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ [الفلق:٤] فدل على أنه حقيقي. ٤

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟
اختلف في هذا أهل العلم:
فمنهم من قال: إنه يكفر.
ومنهم من قال: إنه لا يكفر.
ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشيطان، فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالباً، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها، فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً. ٥

واختلفوا هل يكفر الساحر أولاً؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.
وقيل لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر، وهذا قول الشافعي وجماعته.[١]
قال الشافعي رحمه الله: "إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر."[٢]

[١] انظر قول أصحاب أحمد في "كشاف القناع (١٨٧/٦)، وشرح منتهى الإرادات (٤٠٤/٣) وانظر الخلاف في: الفروع للقرافي (١٥٢/٤)، والمغني (٣٠١/١٢).
[٢] انظر: الأم (٢٥٦/١)، وتفسير ابن كثير (١٤٨/١)، وعمدة القاري للعيني (٦٣/١٤)

وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف فإن من لم يُكَفِّرْ لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كفرا في قوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. ١

والذي ذكره الشَّيخ في هذا الباب من النصوص على نوعين:

النوع الأول: في حكم السحر.

والنوع الثاني: في حكم الساحر. ٤

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ [البقرة ١٠٢]

قال: "وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾" أي: اليهود، لأن الآية في سياق الآيات التي تتحدّث عن اليهود، أي :تحققوا.

﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: استبدل السحر بالتوراة.

﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي: الساحر ليس له نصيب من الجنة.

وهذا دليل على أنه كافر، فالسحر كفر بالله عزّ وجلّ، وذلك من عدة مواضع في الآية:

أولاً: قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

ثانياً: قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا﴾ أي: الملكان ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾.

ثالثاً: قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: السحر ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾، أي: نصيب من الجنة. ٤

وجه الاستدلال بهذه الآية قوله ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَة مِنْ خَلاَقٍ﴾ يعني ما له في الآخرة من نصيب، الخلاق بمعنى النصيب، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني اشترى السحر، والاشتراء فيه دفع

شيء؛ يعني أن يأخذ شيئاً ويدفع عوضه، حقيقة الشراء أن تشتري سلعة مثلاً تدفع ثمنها تأخذ مُثمنا وتدفع ثمناً.

والساحر اشترى، من تعلم السحر، اشترى أي شيء؟ اشترى السحر بدل أي شيء بدل توحيده، فالثمن هو التوحيد، الثمن هو الإيمان بالله وحده والمثمن هو السحر؛ ولهذا قال جل وعلا هنا ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني من دفع دينه عوضاً عن ذلك الشيء الذي أخذه وهو السحر، ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ يعني من نصيب، وهكذا المشرك ليس له في الآخرة من نصيب، فوجه الاستدلال ظاهر من أن الساحر قد جعل دينه عوضا عن ذلك الذي اشتراه وتعلَّمه وعمل به. ٣

قال ابن جريج في الآية: "لا يجترىء على السحر إلا الكافر"[١]. ١

واستدل بها بعضهم على كفر الساحر لعموم قوله ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يدل عليه قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه[٢]. ١

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء ٥١].قال عمر: "(الجبت): السحر، (والطاغوت): الشيطان."

وقال جابر: "الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد." [٣]

ثمّ ذكر تفسير الجبت والطاغوت بقوله: "قال عمر: الجبت: السحر" فاليهود يؤمنون بالسحر، وهو كفر بالله عزّ وجلّ. ٤

[١] و الأثر رواه ابن جرير في تفسيره (٤٦٢/١) وغيره وإسناده صحيح

[٢] انظر: الكافي (١٦٥/٤)، والمغني (٣٠٠/١٢)، والمبدع (١٨٨/٩)

[٣] علقه البخاري في صحيحه (١٦٧٣/٤- البغا)، ووصله: ابن جيرير في تفسيره (١٩/٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٥٤٥٢) وغيرهما وإسناده صحيح.

وهذا في ذم أهل الكتاب، فإن أهل الكتاب لما آمنوا بالسحر ذمهم الله جل وعلا ولعنهم وغضب عليهم، وهذا يكثر في اليهود، يكثر السحر واستعمال السحر في اليهود، ولهذا ذمهم الله جل وعلا ولعنهم وغضب عليهم.

وإذا كان الله جل وعلا ذمهم ولعنهم وغضب عليهم لأجل ذلك فهذا يفيد أنه من المحرمات ومن الكبائر، وإذا كان فيه إشراك بالله جل وعلا فظاهرٌ أنه شرك بالله جل وعلا وهكذا جميع أصنافه كذلك. ٣

"والطاغوت: الشيطان" أي: هو رأس الطواغيت، والطاغوت مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، كما سبق. ٤

وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثال. ٥

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحياناً بمثال يحتذى عليه، مثل قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذي لا يصلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال، لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت، كما قال تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يعتبرون طواغيت، لأنه طغوا وزادوا ما ليس لهم به حق. ٥

في قوله: "وقال جابر: الطواغيت: كُهَّان تنزل عليهم الشياطين، في كل حيٍّ منهم واحد" أراد أن الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنى. ٢

هذا أيضاً من باب التفسير بالمثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان. ٥
وهذا يأتي بيانه في باب ما جاء في الكهان. ٣

الكاهن هو الذي يدّعي علم الغيب، وكانوا في الجاهلية يتخذون حُكّاماً من الكهّان، يحكمون بين الناس.

وكان هؤلاء الكُهَّان تنزل عليهم الشياطين التي تسترق السمع، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]، وكما جاء في الحديث أن مسترق السمع قد يسمع الكلمة من السماء فيُلقيها على الكاهن، فيكذب الكاهن معها مائة كذبة، فيصدِّقه النّاس بسبب هذه الكلمة التي سُمعت من السماء.

فالكاهن هو: الذي يخبر النّاس عن المغَيّبات، بسبب أنه يسأل الشياطين، وتُخبره الشياطين عن الأشياء الغائبة، والأشياء المسروقة والمفقودة، والأشياء البعيدة، فهو يخبر الناس، فيظنون أن هذا الكاهن يعلم الغيب، وهو ليس كذلك، لا يعلم الغيب، وإنما أخبرته الشياطين بأشياء غائبة، لأن الشياطين لهم قدرة على الطيران السريع، والوصول إلى الأمكنة البعيدة، حتى إنهم يصعدون إلى السحاب، ويطيرون في الآفاق، فهم يجوبون الآفاق بسرعة، فيأتون بالأخبار ويُخبرون الكهّان، ويرون الأشياء المغيبة في البيوت أو في الأمكنة، لأنهم يدخلون بعض البيوت، وعندهم مقدرة ليست عند الإنس، فإذا تقرّب إليهم الإنسي بما يريدون من الشرك والذبح لغير الله والسجود لهم؛ فإنهم يخدمونه بما يريد، فيظن الإنس أن هذا الكاهن عنده خبر من الغيب، وأنه له خاصّية، والحقيقة أن هذا كله من الشيطان.

وكانوا يحكِّمونهم في المنازعات والخصومات، وكان عند كل حي كاهن، يعني :عند كل قبيلة كاهن يحكم بينهم.

فلما جاء الإسلام أبطل الله ذلك كله، لكن لا يزال عند بعض البوادي والجهّال نوع من هذا الشيء، يسألون الكُهّان، ويحكّمونهم، ويرجعون إليهم وقد جاء في الحديث: ((من أتى كاهناً أو عَرَّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمَّد ﷺ)).

فلا يجوز الذهاب إلى الكُهَّان والمشعوذين والدجّالين لا للعلاج، ولا للسؤال عن الأشياء الضائعة، ولا الأشياء الغائبة، وهذا كفر بما أنزل الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز إقرارهم وتركهم، بل يجب القضاء عليهم، وإراحة البلاد والعباد منهم، لأنهم دُعاة كفر وشرك، يُفسدون العقائد، ويأكلون أموال النّاس بالباطل ويُحدثون الشر في الأمة، فلا يجوز تركهم وإقرارهم، فضلاً عن الذهاب إليهم وتصديقهم فيما يقولون، إنما هذا من عادات الجاهلية كما قال جابر رضي الله عنه.

فالكُهَّان لا يأتون بالأخبار من عند أنفسهم، وإنما جاءتهم بها الشياطين؛ لما عبدوهم من دون الله، وأطاعوهم في معصية الله، وتقرّبوا إليهم بالعبادة. ٤

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: ((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)).[١]

قال: ((اجتنبوا)) أي: ابتعدوا.

ولفظة: ((اجتنبوا)) أبلغ من: لا تفعلوا، لأن الاجتناب يعني: ترك الشيء وترك الأسباب الموصلة إليه. ٤

وهي أبلغ من قوله: اتركوا، لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم٢٧٦٦)، ومسلم في صحيحه (رقم٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

و((اجتنبوا))، أي: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك، لأن الإنسان قدر يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه، يعني: اتركه مع البعد. ٥

((السبع)) أي: المعاصي السبع.

((الموبقات)) يعني: المهلكات. ٤

والموبقات هي التي تُوبق صاحبها وتجعله في هلاك وخسار في الدنيا وفي الآخرة، وهي أكبر الكبائر هذه السبع. ٣

وقوله: ((السبع الموبقات)). هذا لا يقتضي الحصر، فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحياناً بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك الحديث: ((السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله))[1]، فهناك غيرهم، ومثله:

((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم))، ثم قال: ((المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب))[2]، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة في الباب على الحصر لكونه وقع بـ "أل" المعرفة، فإنه حصرها لأن هذه أعظم الكبائر. ٥

واخرج إسماعيل القاضي بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: "هن عشر" فذكر السبع التي في الاصل وزاد عقوق الوالدين واليمين الغموس وشرب الخمر.[3]

ولابن أبي حاتم عن علي قال: "الكبائر..." فذكر السبع إلا مال اليتيم وزاد العقوق والتعرب بعد الهجرة وفراق الجماعة ونكث الصفقة.[1]

---

[1] أخرجه البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة.

[2] أخرجه مسلم في (الإيمان، باب غلظ تحريم إسبال الإزار).

[3] انظر فتح الباري (١٢/ ١٨٢)

وقد جاء في أحاديث غير ما ذكرنا جملة من الكبائر منها اليمين الغموس وشهادة الزور والامن من مكر الله والقنوط من رحمة الله وسوء الظن بالله والزنا والسرقة وغير ذلك.
قال الحافظ: "ويحتاج عند هذا إلى الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع؟ ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو جواب ضعيف أو بأنه أعلم أولا بالمذكورات ثم أعلم بما زاد فيجب الاخذ بالزائد أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك، وقد أخرج الطبري واسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له "الكبائر سبع "فقال:" هن أكثر من سبع وسبع" [٢] وفي رواية عنه: "هي إلى السبعين أقرب" [٣] وفي رواية: "إلى السبع مئة". [٤] [١]

"قالوا: يا رسول الله، وما هن؟" سألوه ﷺ: ما هي هذه السبع حتى نتجنبها؟، لأن الإنسان لا يمكن يتجنّب الشيء إلاَّ بعد أن يعرفه.
ففي هذا دليل على أنه يجب على المسلم أن يسأل عن الأمور المحرّمة، ويعرف الأمور الشركيّة، حتى يتجنبها.
وهناك من يقولون: علّموا النّاس التّوحيد واتركوا الكلام في الشرك، والكلام في المحرمات، علِّموهم الخير فقط، ولا تبيّنوا لهم الشرك والأمور المحرّمة.
وهذا خداع من الشيطان، لأنه لا بد أن يعرف الإنسان الخير ويعرف الشر من أجل أن يعمل بالخير ويترك الشر، والله قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله فقال تعالى: ﴿فَمَنْ

---

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم٥٢١٢)- واللفظ له-، والإمام أحمد في العلل (رقم ٥٣٩٦) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (رقم ٣٣٦٩١)...

[٢] رواه ابن جرير في تفسيره (٤١/٥) وإسناده صحيح.

[٣] رواه معمر في جامعه (رقم ١٩٧٠٨)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٥٥/١)، وابن جرير(٤١/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٢٩٤) بسند صحيح.

[٤] رواه ابن جرير في تفسيره (٤١/٥) وإسناده صحيح

يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦] وكيف يكفر بالطاغوت وهو لا يعرفه؟، لا بدّ أن يعرفه من أجل أن يكفر به، إلاَّ إذا لم يعرفه ظنّه خيراً.

"قال: ((الشرك بالله))" هذا أكبر الكبائر، وأعظم الموبقات، وأعظم ذنب عُصي الله به. ٤

عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم عن أبيه عن جده قال: كتب رسول الله ﷺ كتاب الفرائض والديات والسنن وبعث به مع عمرو بن حزم إلى اليمن... الحديث بطوله وفيه: وكان في الكتاب: ((وإن أكبر الكبائر الشرك))[١]. ١

وما هو الشرك؟، الشرك هو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، بأن يصرف له شيئاً من العبادة إما دعاءاً أو استغاثة: كأن يقول: يا سيدي فلان أغثني اشفني من المرض، أو يذهبون إلى القبور والأضرحة ويقولون: يا سيدي فلان أنا بحسبك، أغثني، أو اشفني من المرض، أو اعطني ولداً، أو هب لي زوجة... إلى آخره. وهذا شرك بالله عزّ وجلّ، لأنه دعاء لغير الله.

كذلك الذبح لغير الله، كان يذبح للقمر أو الضريح من أجل أن يُعطى ولداً، أو يُدفع عنه البلاء، أو يُشفى من المرض، ينذر للقبور، هذا هو الشرك بالله عزّ وجلّ.

فليس الشرك مقصوراً على عبادة الأصنام، بل الشرك في كل ما صُرِف لغير الله من العبادة أياً كان المصروف له، سواء كان صنماً أو قبراً أو شجراً أو حجراً أو غير ذلك. ٤

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معيناً، فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يعبد، فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده، فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً في أسمائه، فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته، فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى، فهو مشرك. ٥

---

[١] رواه النسائي في سننه (٥٧-٥٨)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٦٥٥٩)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٣٩٥/١-٣٩٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٤) وغيرهم وهو حديث صحيح لغيره.

والشرك لا يغفره الله عزّ وجلّ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨]. والمشرك لا يدخل الجنة أبداً، ومأواه النار، قال تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، ﴿حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ يعني: منعه من دخولها منعاً باتاً، ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ مقرّه ومصيره الأبدي ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. ٤

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من جناية والجرم بقوله حين سئل: أي الذنب أعظم ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك))[1].

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له نداً؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجلعت له نظيراً، لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً. ٥

ثم قال ﷺ: ((والسحر)) وهذا محل الشاهد من الحديث، لأن السحر كفر وشرك بالله عزّ وجلّ، وعطفه على الشرك من باب عطف الخاص على العام، وإلاَّ فالسحر نوع من أنواع الشرك، لكن الرسول ﷺخصّه بالذكر، وعطفه على الشرك من باب عطف الخاص على العام من أجل الاهتمام بتجنبه. ٤

فالشرك بالله يكون بالسحر ويكون بغيره، فعطَف السحر على الشرك للتنصيص عليه، والسحر –كما ذكرنا– أحد أفراد الشرك بالله جل وعلا.

وعطف الخاص على العام أمثلته كثيرة كقوله جل وعلا ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، هنا عطف جبريل وميكال على الملائكة وهذا من عطف الخاص على العام. ٣

وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير. لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم، فهو داخل في الشرك بالله.

---

[1] أخرجه البخاري (كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً...﴾)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب).

وإن كان دون ذلك، فهو أيضاً جرم عظيم، لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويقلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك، لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي، فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله عز وجل. ٥

((وقتل النفس التي حرّم الله إلاَّ بالحق)) النفس التي حرم الله هي نفس المؤمن ونفس المعاهد، فالمؤمن عصم الله دمه وماله وعرضه، فلا يجوز الاعتداء عليه، قال ﷺ: ((أُمرت أن أُقاتل النّاس حتى يقولوا: لا إله إلاَّ الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها، وحسابهم على الله عزّ وجلّ))، وقال ﷺ: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألاَّ هل بلغت؟)).

فالمؤمن حرّم الله قتله بغير الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣)﴾ [النساء:٩٣].

وكذلك الكافر المعاهَد، لا يجوز قتله، فقد جاء في الحديث: ((من قتل معاهَداً لم يَرَحْ رائحة الجنة)) [١]. ٤

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن، بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة ـ الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة، أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصوماً مع بذل الجزية.

وأما المعاهد، فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٣١٦٦) عن عبدالله ابن عمرو.

وأما المستأمن، فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمناه في وقت محدد، كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنه ليست على حد سواء في التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟

أشك في ذلك، لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأياً كان، فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال. ٥

وقوله ﷺ: ((إلاّ بالحق)) أي: إلاَّ بسبب يبيح قتل المؤمن أو المعاهد، وقد بيّنه رسول الله ﷺ بقوله: ((لا يحل دم امرئ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: الثّيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)).

و((الثيب الزاني)) المراد به: المحْصَن الذي تزوج ووطئ زوجته بنكاح صحيح، ثمّ زنى فإنه يُقتل، وكيفيّة قتله: أنه يُرجم بالحجارة حتى يموت، كما تواترت بذلك سنّة الرسول ﷺ، وذلك حماية للأعراض.

((والنفس بالنفس)) والمراد به: القصاص، إذا قتل مُكافِئاً له عمداً عدواناً، فإنه يُقتل قصاصاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[البقرة:١٧٨]، وقال

تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة:١٧٩]، وذلك حماية للأنفس.

((والتارك لدينه المفارق للجماعة)) وهو المرتد، وهو الذي ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، فهذا يُستتاب، فإن تاب ورجع إلى الإسلام وإلاَّ قُتل مرتداً، حماية للدين من العبث.

ثم قال ﷺ: ((وأكل الربا)) والربا لغة: الزيادة، ٤ ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، يعني: زادت. ٥

والمراد به هنا: زيادة مخصوصة في مال مخصوص، وهي الأصناف التي حرم الرسول ﷺ الزيادة فيها بقوله: ((الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُرّ بالبُرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، سواءً بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيفما شئتم إذا كان يداً بيد)) وألحق جمهور العلماء بهذه الستة ما شابهها في العلة.

والربا من أكبر الكبائر بعد الشرك، قد توعّد الله عليه بأشد الوعيد، كما في آخر سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾ [البقرة:٢٧٥-٢٧٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقد لعن النبي ﷺ آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه، فالربا من أعظم الكبائر بعد الشرك.

قوله: ((وأكل الربا)) ليس المراد خصوص الأكل، وإنما كل الاستعمالات: من أكله ولبسه وإهدائه، إلى غيره، كل استعمالات الربا حرام، وكذلك من ادّخره عنده أو جعله رصيداً له في البنك.

وإنما ذكر الأكل لأنه غالب وجوه الانتفاع، وإلاَّ فكل وجوه استعمالات الريا محرّمة.

قال ﷺ: ((وأكل مال اليتيم)) المراد باليتيم: من مات أبوه وهو دون البلوغ، ٤
أما من ماتت أمه قبل بلوغه، فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الإنفراد، أي: انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذي يكسب له. ٥

والواجب الإحسان إلى اليتيم، لأنه فقد أباه وعطفه، فيجب على المسلمين أن يسدّوا محلّ والده بالإحسان إليه ورعايته، وإن كان له مال فيجب أن يحافظ عليه حتى يبلغ رشيداً، ويسلم له ماله بالتمام، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إذا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إليهمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء:٦] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)﴾ [النساء:١٠].

لأن اليتيم ضعيف لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، فإذا تسلّط عليه ظالم وأكل ماله فهذا من أعظم الظلم، وليس المراد خصوص الأكل، بل كل استعمالات مال اليتيم حرام، إلاَّ ما فيه مصلحة له.

قال ﷺ: ((والتولّي يوم الزحف)) التولي يوم الزحف، هو: الفرار من القتال بين المسلمين والكفار إذا حضر المعركة.

فمن حضر المعركة بين المسلمين والكفار وهو يستطيع القتال فلا يجوز له أن ينصرف، بل يجب عليه أن يقاتل مع المسلمين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ [الأنفال:١٥-١٦].٤

لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال، أي: متهيئاً له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته، فهذا لا يعد متولياً، إنما يعد متهيئاً.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها، فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز، لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ، لقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا، لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل، ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلماً يرد إليهم[١]، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أعلم بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ٥

قال ﷺ: ((وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)) المراد بالقذف: الرمي بالفاحشة، من زنا أو لواط. والمراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا من الحرائر، ومثلهن الرجال العفيفون.

---

[١] أخرجه البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية).

والواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، ولا يرمي أحداً بالزنى، أو باللواط، وإذا قذفه ولم يُقم البيّنة فإنه يُجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل شهادته ويكون فاسقاً، فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٢]، ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [النور: ٣].

وهذا الاستثناء لا يشمل أو الجمل بالاتفاق، ويشمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف العلماء في الجملة الثانية، وهي قوله: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾، فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود.

وبناءً على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم.

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤]، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقاً.

وقال آخرون: بل تقبل، لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة، زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين، فليفعل.

وإلا، فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة، لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد، لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضرراً أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له، لأنه لبيان الواقع. ٥

والشاهد من هذا الحديث: أن الرسول ﷺ عدّ السحر من السبع الموبقات.
أما ما يُستفاد من هذه النصوص فهو كما يلي:
أولاً: يُستفاد من هذه النصوص تحريم تعلّم السحر، وتعليمه، والعمل به، وأنه من السبع الموبقات، وأنه من الإيمان بالجبت وأنه كفر يخرج من الملة.
ثانياً: في هذه النصوص الأمر بالابتعاد عن الكبائر خصوصاً، والمعاصي عموماً، وترك أسبابها، لأن كلمة "اجتنبوا " معناها: أن الإنسان يترك الأسباب الموصِّلة إلى الحرام.
ثالثاً: يُستفاد من الحديث أن الشرك أكبر الكبائر، لأن الرسول ﷺ بدأ به في هذا الحديث، فدلّ على أن الشرك بالله أكبر الكبائر. ٤

وعن جندب مرفوعاً: ((حد الساحر ضربه بالسيف)) رواه الترمذي، وقال: "الصحيح أنه موقوف." [١]

روي بالتاء بعد الباء، وروي بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ، لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان على أنها ضربة قوية قاضية. ٥
رُويت هكذا (ضَرْبُهُ) وهو الأصح، ورويت (ضَرْبَة) حد الساحر ضربة بالسيف، فعلى رواية (ضربة) لا يكون لها مفهوم؛ يعني إن مات بضربة أو يضرب ضربتين أو ثلاث لأن العدد لا مفهوم له. ٣
قوله: "عن جُندب" قيل هو: جُندب بن عبد الله البَجَلي، وقيل غيره. والله أعلم. ٤
قوله: "مرفوعاً"، أي: إلى النبي ﷺ، فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام، لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: والصحيح أنه موقوف، أي: من قول جندب. ٥

---

[١] أخرجه الترمذي في (الحدود، باب ما جاء في الساحر)، والطبراني في "الكبير" (رقم ١٦٦٥)، والدارقطني (١١٤/٣)، والحاكم (٣٦٠/٤). قال الترمذي: "لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث والصحيح عن جندب موقوف، وقال الحافظ في "الفتح" (٢٣٦/١٠): "إسناده ضعيف"، وضعفه الألباني" السلسلة الضعيفة (٦٤١/٣).

والصواب ما قاله الترمذي من أنه موقوف. ٦

((حدّ الساحر ضربه بالسيف)) المعنى: أن حكم الساحر وجوب قتله، لأنه يُفسد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، فالساحر مفسد في الأرض، يجب قتله، وأيضاً هو كافر، والكافر يجب قتله، إن كان كافراً أصلياً وجب قتله بكفره وإفساده، وإن كان مسلماً ثمّ استعمل السحر وجب قتله لردّته.

والسحر ناقض من نواقض الإسلام، كما ذكر ذلك الشَّيخ في نواقض الإسلام العشرة، قال: "ومنها تعلّم السحر، وتعليمه." ٤

لا تفصيل بين سحر و سحر

قوله ((حد الساحر)) هنا لم يفصِّل بين ساحر وساحر فقال ((حد الساحر))، ولم يأتِ في أدلة الكتاب والسنة التفصيل في اسم الساحر الذي يُحدّ أو وصف بالكفر بين نوع ونوع من التأثير، فالأنواع التي يستخدمها السَّحرة مما يصدق عليه أنه سحر في التأثير، وفي الإمراض، وفي التفريق، وفي التأثير على العقول وعلى القلوب، ونحو ذلك من أنواع التأثير الخفي الذي يكون باستخدام الشياطين أو بأمور خفية، فهذا كله لا يفرق فيه بين فاعل وفاعل والأدلة ما فرقت.

فلهذا قال العلماء: الصحيح أن الساحر من أي نوع حده أن يقتل. ٣

وبهذا الحديث أخذ أحمد، ومالك، وأبو حنيفة، فقالوا يقتل الساحر.

وروي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبدالله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبدالعزيز.

ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد.

والأول أولى للحديث، ولأثر عمر الذي ذكره المصنف وعمل به الناس في خلافته من غير نكير؛ فكان إجماعاً. ١

وهل حده حد كفر وردة أو حد لأجل أنه قَتَلَ فيكون حدًّا لأجل القتل أو حد تعزير؟
اختلف العلماء في ذلك والصحيح في هذه أنه في الجميع حدّ ردة؛ لأن حقيقة السحر لابدّ أن يكون فيه إشراك بالله جل وعلا، فمن أشرك بالله جل وعلا فقد ارتد وحلّ دمه وماله.
شيخ الإسلام له تفصيل يقول فيه ما مقتضاه: إن الساحر قد لا تدرك حقيقة سحره، فيترك أمره في قتله إلى الإمام، إذا رأى المصلحة في قَتْلِهِ قَتَلَهُ وإن لم يرَ المصلحة في قتله لم يقتله؛ ويعني بالمصلحة المصلحة الشرعية.
فتحصَّل في ذلك أنه ثَم أقوال في حدِّ الساحر:
الأول: أنه يقتل مطلقا ردّة؛ لأنه لا يكون السحر إلا بشرك.
والقول الثاني: أنه يقتل ردّة إذا كان سحره بشرك، ويقتل حدّا إذا كان سحره أدى إلى قتل غيره بغير ما فيه إشراك مثل الأدوية وتعويذات ونحو ذلك التي ذكرنا.
والثالث: القول الذي عُزِي لشيخ الإسلام من أنه كالزنديق يترك أمره إلى الإمام بحسب ما يراه إن رأى المصلحة الشرعية في قتْله قتله وإلا عاقبه بما دون القتل. ٣
وأما قتل الساحر، فإن كان سحره كفراً، قتل قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر، قتل قتل الصائل، أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الإمام وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال. ٥
وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السابق في كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقول: من خرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر من باب دفع الصائل يجب تنفيذه حيث رآه الإمام.

والحاصل: أنه يجب أن تقتل السحرة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل، لأنهم يمرضون ويقتلون، ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس، فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم، فإن بعضهم قد يسحر أحداً ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها، ولأنهم كانوا يسعون في الأرض فساداً، فكان واجباً على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه لدفع ضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد. ٥

وفي (صحيح البخاري) عن بجالة بن عبدة قال: "كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة"، قال: "فقتلنا ثلاث سواحر". [1]

قوله: وفي صحيح البخاريّ

قوله: "وفي صحيح البخاري"، ذكر في الشرح ـ أعني "تيسير العزيز الحميد"، أن هذا اللفظ ليس في "البخاري"، والذي في "البخاري" أنه: "أمر بأن يفرق بين كل ذي محرم من المجوس"[2]، لأنهم يجوزون نكاح المحارم ـ والعياذ بالله، فأمر عمر أن يفرق بين ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح صاحب "تيسير العزيز الحميد" أن: القطيعي رواه في الجزء الثاني من "فوائد"، وفيه: "ثم اقتلوا كل كاهن وساحر"، وقال (أي: الشارح): إسناده حسن. قال: وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه. أهـ. ٥

عن بَجَالة بن عَبَدة، قال: كتب عمر بن الخطاب" أمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين".

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (١/١٩٠)، وأبو داود في "السنن" (٣٠٤٣).

[2] البخاري: كتاب الجزية/ باب الجزية والموادعة.

"أن اقتلوا كل ساحر وساحرة"

فهذا يؤيِّد حديث جُنْدب: ((حدّ الساحر: ضربه بالسيف)).

إذا كان عمر بن الخطاب -أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين- كتب إلى الأمصار وإلى ولاته: "أن اقتلوا كل ساحر وساحرة" واشتهر ذلك، والنبي ﷺ يقول: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي))؛ إذا فقتل الساحر دلّ عليه الحديث، وفعل عمر بن الخطاب.

وكان بَجَالة بن عَبَدة كاتباً لبعض الوُلاة، فهو يذكر ما وصلهم من عمر.

قال: "فقتلنا ثلاث سواحر" يعني: نفّذنا ما كتب به أمير المؤمنين، وسواحر: جمع ساحرة، وهي المرأة التي تتعاطى السحر. ٤

هذا ظاهر في الأمر بقتل الساحر والساحرة بدون تفصيل؛ ولأن حقيقة السحر لا تكون إلا بشرك بالله جل وعلا وذلك ردّة. ٣

هل تقبل توبة الساحر ؟

وظاهره أنه يقتل من غير استتابة وهو كذلك على المشهور عن أحمد وبه قال مالك إن الصحابة لم يستتيبوهم ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة.

وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلي سبيله وبه قال الشافعي لأن ذنبه لا يزيد على الشرك والمشرك يستتاب وتقبل توبته فكذلك الساحر وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قلت: الأول أصح؛ لظاهر عمل الصحابة، فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بينوها، وأما قياسه على المشرك فلا يصح؛ لأنه أكثر فساداً وتشبيهاً من المشرك، وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب لأن الإسلام يَجِبُّ ما قبله، وهذا الخلاف إنما هو في اسقاط الحد عنه بالتوبة أما فيما بينه وبين الله فإن كان صادقاً قبلت توبته. ١

لما سبق من ضررهم الذي لا يزال إلا بقتلهم ولربما يظهرون التوبة وهو كاذب كالمنافقين، والساحر يقتل كفراً ولا يستتاب على الصحيح. ٦

وصح عن حفصة ﵂: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فَقُتِلَتْ [١]

وكذلك صح عن جندب. [٢]

قال: "وصحّ عن حفصة" هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب، أم المؤمنين ﵂.

"أنها أمرت بقتل جارية لها" أي: مملوكة لها.

"سحرتها"سحرت حفصة ﵂ فأمرت بقتلها.

وهذا أيضاً فعل صحابيّة، وهي أم المؤمنين، أمرت بقتل مملوكتها لما سحرت. ٤

(وكذا صح عن جندب) المراد به هنا قطعاً جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، وهو جندب ابن كعب بن عبدالله قال أبو حاتم: "جندب بن كعب قاتل الساحر". ١

قال أحمد: "عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ"

ولذلك "قال أحمد "هو أحمد بن حنبل، إمام أهل السنّة، والصابر على المحنة، أحد الأئمة الأربعة المشهورين في الإسلام الذين بقِيت مذاهبهم حيّة، وله من الفضائل رحمه الله الشيء الكثير، وكُتب في مناقبه وترجمته مؤلّفات، كان إماماً في السنّة، ومناصراً للحق، وصابراً على المحنة، حتى ثبّته الله، وثبّت به عقيدة المسلمين من الزيغ حينما امتُحن النّاس بالقول بخلق القرآن، فثبت، وصبر على الجلد، وعلى السجن، وعلى الإهانة حتى أظهره الله، ونشر به الحق.٤

---

[١] الإمام مالك في "الموطأ" (كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر).

[٢] البخاري في "التاريخ الكبير" (٢/٢٢٢)، والبيهقي (٨/١٣٦)، والطبراني في "الكبير" (١٧٢٥).

قال أحمد: "عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ" يعني أن الساحر يجب أن يقتل وهذا حده، سواء قلنا يقتل لحد الردة أو يقتل لحد القتل أو يقتل تعزيرا، فالصحابة رضوان الله عليهم أفتوا بقتله وأمروا بقتله، وذلك بدون تفريق، وهذا هو الواجب أن لا يفرق بين نوع ونوع. ٣
قال: "صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ" يعني: صح قتل الساحر عن عمر بن الخطاب، وحفصة أم المؤمنين، وجُنْدب، وهو جُنْدب بن كعب الأزدي الغامدي، وله قصة[١]، وهي:
أن الوليد كان يلعب عنده ساحر، ومن جملة سحره أنه يُظهر للناس بأنه يقتل الرجل ثمّ يحييه، حيث يستعمل القُمْرة، أي: السحر التخييلي، فيخيّل إلى النّاس أنه يقطع رأس الرجل ثمّ يعيد الرأس مكانه، فيما يظهر للنّاس، فجاء جُنْدب بن كعب رضي الله عنه مُخْفيًّا السيف، فلما وصله قطع رأسه، وقال: "إن كان صادقاً فليحيي نفسه".
قتله غَيْرة على دين الله عزّ وجلّ، وتحدِّياً لهذا الساحر الذي يُحيي الموتى بزعمه، فبذلك بطلت هذه الحيلة الشيطانية، وانقشعت هذه القُمْرة، وتبيّن أنه كاذب. ٤
والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية، لأنهم يسعون في الأرض فساداً، وفسادهم من أعظم الفاسد، فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم، لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر. ٥

ويُستفاد من هذه الآثار فوائد عظيمة:
الفائدة الأولى: كُفر الساحر، لأن الصحابة قتلوه، وما قتلوه إلاَّ لكفره.
هذا مع الآيات التي تدل على كفره، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، يعني: ما استعمل السحر كما يظن اليهود، فدلّ على أن استعمال السحر كفر، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، يعني: سبب كفرهم أنهم ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فدلّ على أن تعليم السحر كفر.

---
[١] البخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٢٢) قال الذهبي في (تاريخ الإسلام) (٣/٣): إسناده صحيح.

وأن الله قال في الملكين: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى﴾ ينصحاه ﴿يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ يعني: نحن امتحان واختبار، فمن قبل السحر فهو كافر، ﴿فَلا تَكْفُرْ﴾ بتعلُّم السحر.
﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ يعني: من الملكين، ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يؤثِّر ويفرّق بين المرء وزوجه بإحداث البغضاء، فهو دليل لمذهب أهل السنّة على أن السحر له حقيقة يؤثّر، ولو لم يكن له حقيقة لم يؤثّر البغضاء.
ثمّ قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾، أي :القدري الكوني، لأن الإذن على نوعين:
النوع الأول: القدري الكوني، الذي تنتج عنه المقدَّرات، خيرها وشرّها.
والنوع الثاني: الإذن الشرعي المذكور في هذه الآية: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢١٣] أي: بشرعه.
وهذا فيه: أن الإنسان يتوكّل على الله، ومن توكّل على الله كفاه شرّ السحرة وغيرهم، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به من السحرة: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ [الفلق:٤] أي: من شر السواحر.
ثمّ قال جل وعلا: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ﴾، دلّ على أن تعلم السحر ضرر محض، ليس فيه مصلحة، لأن الأمور على خمسة أقسام:
النوع الأول: ما كان ضرراً محضاً، ومنه السحر والكفر والمعاصي.
النوع الثاني: ما كان مصلحة محضة، ليس فيه ضرر البتّة كالطاعات.
النوع الثالث: ما كان فيه مضرّة ومصلحة، لكن مضرّته أكثر من مصلحته.
النوع الرابع: ما كان مصلحته أكثر من ضرره، كالجهاد في سبيل الله على ما فيه من القتل والجراح.
النوع الخامس: ما تساوى ضرره ومصلحته.

الموضع الرابع: مما يدل عدى كفر الساحر: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي: قد علم اليهود أن من تعلم السحر وعلمه ما له نصيب في الجنة، وهذا هو الكافر.

والموضع الخامس: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة:١٠٢-١٠٣]، قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾، أي: تركوا السحر، وهذا دليل على أن السحر كفر ينافي الإيمان، لكنهم لم يتركوا السحر بل اتخذوه بدل الإيمان فكفروا.

فهده خمسة مواضع من هذه الآيات تدل على كفر الساحر، مع عمل الصحابة، وقتلهم للسحرة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩]، دليل على كفر الساحر، حيث نفي فلاحه، والمؤمن يفلح ولو كان إيمانه ضعيفاً، ولو لم يكن عنده إلاَّ ذرّة من الإيمان فإنه يُفلح، وإن عُذِّب، والله نفى عن الساحر الفلاح مطلقاً، فدلّ على أنه كافر، والعياذ بالله.

هذه المسألة الأولى، وهي مسألة مهمة جدًّا، ذكرنا فيها الأدلة التي تدلّ على كفر الساحر.

وكفر الساحر مطلقاً كما ذكر الشارح هو مذهب الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة، ومالك، وأحمد؛ يرون كفر الساحر، وقد سبقهم جمع من الصحابة.

والإمام الشافعي يقول: "نقول للساحر: صف لنا سحرك، فإن وصفه بما يُقتضى الكفر فهو كافر، وإلاَّ فلا".

ولكن هذا المذهب مرجوح، لأنه لا يمكن السحر إلاَّ بالتعاون مع الشياطين، والخضوع لهم، وحينئذ يكون كافراً.

الفائدة الثانية: في الحديث دليل على وجوب قتل الساحر قتل ردّة، لأنه صحّ عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ :عمر وحفصة وجُنْدب، ولم يظهر لهم مخالف من الصحابة، فدلّ على وجوب قتله، لأنه مرتدّ، والمرتدّ يجب قتله لقوله ﷺ: ((من بدل دينه فاقتلوه))، وقوله ﷺ:

((لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاَّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)) فالساحر من هذا القسم الأخير التارك لدينه المفارق لجماعة المسلمين. فيجب قتله.

الفائدة الثالثة: في هذه الآثار دليل على أنه يُقتل ولا يُستتاب، لأنه لم يذكر في هذه الآثار أن الصحابة استتابوه، وإنما فيها أنهم قتلوه، ولم يذكر أنهم استتابوه.

وأيضاً إذا تاب في الظاهر فعلم السحر لا يزول من قلبه، فهو وإن أظهر التوبة فإنه يُقتل في كل حال، لأن التوبة لا تزيل السحر من قلبه بعدما تعلّمه، ومن أجل دفع فساده، لأنه قد يُظهر التوبة وهو غير صادق، بل من أجل أن يتّقي القتل.

قال الشارح: "هذا قول الإمام مالك، ورواية عن الإمام أحمد".

والقول الثاني -وهو قول الشافعي-، ورواية عن أحمد: أنه يُستتاب كغيره من المرتدّين، لأن المشرك يُستتاب، فالساحر -أيضاً- يُستتاب.

ولكن الرأي الأول أرجح، فيُقتل ولا يُستتاب لِغِلَظ ردّته، ولأجل كفِّ شرِّهِ عن المسلمين، ولأنه يُظهر التوبة ويخدع النّاس.

لكن إن كان صادقاً في توبته فهذا فيما بينه وبين الله، أما الحد فلا يسقط عنه. وهذا حكمه في الدنيا.

وعلى كل حال؛ أمر السحر أمرٌ خطير.

وفي هذا الزمان كثر شرّ السحرة، وصاروا يستعملون السحر من أجل ابتزاز أموال الناس، واللعب عليهم، وأمر الأموال أخف من أمر العقيدة، وإن كانت الأموال شيئاً مهمًّا يجب الحفاظ عليه، ولكن العقيدة أهمّ، ووجود السحرة في المجتمعات الإسلامية وباء خطير فتَّاك، يجب علاجه، ويجب القضاء عليه.

فالسحرة في العالم في هذا الزمان يقيمون نوادي، يجتمعون فيها، ومؤتمرات يعقدونها من أجل إهلاك البشر، وتعاظَم شرّهم وخطرهم، فيجب على المسلمين أن يحذروا منهم غاية الحذر، ويجب على من علم بوجود ساحر في البلد أن يبلِّغ ولاة الأمور عنه.

ولا يجوز الذهاب إلى السحرة وتصديق السحرة، فالسحرة مثل الكُهَّان أو شرّ من الكُهَّان، وقد قال النبي ﷺ: ((من أتى كاهناً لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً))، وقال ﷺ: ((من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمَّد ﷺ))، والسحر من الطاغوت ومن الجبت -كما سبق-، وهو شرّ من الكِهانة.

وإذا كان الكاهن يجب على المسلمين هجره والابتعاد عنه، وأن من أتاه لا تُقبل صلاته أربعين يوماً، ومن صدقه يكفر بما أنزل على محمَّد ﷺ، فكيف يذهب بعض النّاس إلى السحرة والمشعوذين، وقد يأمرونه بالشرك، فيأمرونه بالذبح لغير الله؟! فالأمر خطير جدًّا فيجب على المسلمين أن يحذروا من هذا البلاء، ومن هذا الوباء، وهذا الخطر؛ أن لا يتفشَّى بين المسلمين. ٤

[الأسئلة]

[س/ هل يجوز الذهاب للعلاج عند من يزعم أنه يعالج بمساعدة جن مسلمين، وهل هذه المساعدة من الجن للقارئ من الاستعانة الجائزة أم المحرمة؟

ج/ الاستعانة بالجن -سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين- وسيلة من وسائل الشرك، والاستعانة معناها طلب الإعانة، ولهذا من المتقرر عند أهل العلم أنهم لا يطلبون الإعانة من مسلمي الجن، فلم يطلب الإعانة منهم الصحابة رضوان الله عليهم وهم أَوْلى أن تخدمهم الجن وأن تعينهم.

وأصل الإعانة من الجن من أسباب إغراء الإنس بالتوسل إلى الجن وبرفعة مقامه وبالاستمتاع به، وقد قال جل وعلا ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنْسِ وَقَالَ

أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨]، فحصل الاستمتاع -كما قال المفسرون- من الجن بالإنس لأن الإنسي يتقرب إليه ويخضع له ويذل ويكون في حاجته، ويحصل الاستمتاع من الإنسي بالجني بأن الجنيَّ يخدمه، وقد يكون مع ذلك الاستمتاع ذبحٌ من الإنس للجن و تقرب بأنواع العبادات أو -والعياذ بالله- بالكفر بالله جل وعلا بإهانة المصحف أو بامتهانه أو نحو ذلك.

ولهذا نقول أن تلك الاستعانة بأنواعها لا تجوز، منها ما هو شرك وهي الاستعانة بشياطين الجن يعني الكفار، ومنها ما هو وسيلة إلى الشرك وهو الاستعانة بمسلمي الجن.

بعض أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية قال: إن الجن قد تخدم الإنسيَّ، وهذا المقام فيه نظر وتفصيل ذلك أن ذكر في آخر كتاب النبوات أن أولياء الله لا يستخدمون الجن إلا بما فعله معهم رسول الله ﷺ بأن أمرهم ونهاهم، أما طلب خدمتهم وطلب إعانتهم فإنه ليس من سجايا أولياء الله وليس من أفعال أولياء الله. قال: مع قد تنفع الجن الإنس وقد تقدم له بعض الخدمة ونحو ذلك.

وهذا صحيح، فحصل أن المقام فيه تفصيل:

فإذا كان الاستخدام بطلب الخدمة فهذا وسيلة إلى الشرك إذا توجه إلى جني مسلماً، ولا يجوز أن يؤتى إلى أحد يقرأ يعرف من أنه يستخدم الجن المسلمين.

وإذا كانت الجن تخدم بعض الناس بدون طلبه فإن هذا قد يحصل؛ لكن لم يكن من خلق أولياء الله ولم مما سخّره الله جل وعلا لخاصة عباده، فلا بد أن يكون عند هذا نوع خلل حتى كانت الجن تُكثر من خدمته وإخباره بالأمور ونحو ذلك.

فإذا كان ذلك بطلب منه فهذا لا يجوز وهذا نوع من أنواع المحرمات؛ لأنه نوع استمتاع.

وإذا كان بغير طلب منه فينبغي له أن يستعيذ بالله من الشياطين، فيستعيذ بالله من شر مردة الجن؛ لأنه قد يكون بعد ذلك فيه -يعني فيما فعل في قبول ذلك الخبر واعتماده عليه وأنسه به لما تعلمه الجن منه- ليكون فيه فتح على أبواب قلبه بأن يتوسل بالجن أو أن يستخدمهم.

إذا تبين، فإن خبر الجن عند أهل العلم ضعيف لا يجوز الاحتجاج به عند أهل الحديث، وذكر ذلك أيضاً الفقهاء، وهذا صحيح لأنّ البناء على الخبر وتصديق الخبر هو فرع عن تعديل المخبِر، والجني غائب وعدالته غير معروفة وغير معلومة عند السامع، فإذا بنى الخبر عن من جاء به له من الجن وهو لم يرهم ولم يتحقق عدالتهم إلا بما سمع وهي لا تكفي، فإنه قد يكون قد قبل خبر الفاسق، ولهذا قال جل وعلا ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، والذين يقبلون إخبار الجن وإعلام الجن ببعض الحوادث حصل منهم مفاسد متنوعة كثيرة، حيث إنهم جزموا بصحة ما أخبرتهم به الجن، فربما حصل منهم قيل وقال -يعني من الناس في ذلك الذين أُخبروا بذلك- ويحصل بعد ذلك من جرائها مفاسد، وقد تفرقت بعض البيوت من جرّاء خبر قارئ جاهل بأنَّ هذا الذي فعل كذا هو فلان باعتبار الخبر الذي جاءه، ويكون الخبر الذي جاءه من الجني خبر كذِب، ويكون هو اعتمد على نبأ هذا الذي لا يعلم عدالته وبنى عليه وأخبر عليه وصار من جرائه فرقة واختلاف وتفرق وشتات في البيوت، ونعلم أنه قد تثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم رحمه الله: أن إبليس ينصب عرشه على الماء ويبعث سراياه فيكون أحب جنوده إليه من يقول له فرقت بين المرأة وزوجها. وهذا في جملة التفريق بين المرأة وزوجها؛ لأنه هو الغالب وأحب ما يكون لعدو الله أن يفرق بين المؤمنين، ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أيضاً مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال ((إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم)).

فهذه المسألة يجب عليكم كطلبة علم أن تسعوا في إنكارها، وأن تبذلوا الجهد فإقامة الحجة على من يستخدم الجن ويتذرّع أن بعض العلماء أباح ذلك، وهذا وسيلة من وسائل الشرك لله جل وعلا.

واقرأوا أول كتاب تاريخ نجد لابن بشر حيث قال: إن بسبب دخول الشرك إلى قرى نجد أن كان بعض البادية إذا أتى وقت الحصاد أو أتى وقت خرف النخيل فإنهم يقطنون بجانب

تلك القرى والأودية ومعهم بعض الأعشاب، فإذا كانوا كذلك ربما سألهم جهلة تلك القرى حتى حببوا إليهم بعض الأفعال من جرّاء سؤالهم؛ حببوا لهم بعض الشركيات أو بعض البدع، ثم شيئاً فشيئاً حتى فشا ذلك.

وعليه يكون من أسباب انتشار الشرك في هذه الديار يعني في نجد وما حولها -بحسب ما ذكر ابن غنام- يعني من جهة المتطببين الجهلة أو من جهة القراء المشعوذين أو القراء الجهلة.

وقد حصل أيضاً في هذا أن بعض من يستخدم الجن كثر عنده الناس، ولما كثر عنده الناس صار يعالج علاجا نافعا، وبعد ذلك تسخرت له فئات من الجن أكثر من ضعف تأثيره، فلما ضعف تأثيره وعرف أن ما عنده من الحالات التي تأتيه للقراءة أو للعلاج لم يستطع شيئاً صار تعلقه بالجن أكثر، ولا زال ينحدر ما في قلبه من قوة اليقين وعدم الاعتماد بقلبه على الجن حتى اعتمد عليهم شيئاً فشيئاً ، ثم حرفوه والعياذ بالله عن السنة وعن ما يجب أن يكون في القلب من توحيد الله وإعظامه وعدم استخدام الجن في الأغراض الشركية، فجعلوه يستخدم الجن في هذه أغراض شركية وأغراض لا تجوز بالاتفاق.

فإذن هذا مما يجب وَصْدُه، ووسائل الشرك يجب علينا أن ننكرها، وسائل الغواية يجب أن ننكرها، ووجود من يستخدم الجن ويعلن ذلك ويطلب خدمتهم بالإخبار هذا مبني على الجهل في الحقيقة بالشرع وعلى جهل بوسائل الشرك وما يُصلح المجتمعات وما يفسدها والله المستعان].٣

وقفات :

١- ذكر المؤلف رحمه الله في كتاب التوحيد في أوله، أبواباً في تقرير التوحيد وبيان فضله، ثم ذكر أبواباً مترتبة على التوحيد، ثم ذكر شيئاً من مناقضات التوحيد، فمنها ما يناقض كمال التوحيد، ومنها ما يناقض أصل التوحيد، وهذا الباب فيما يتعلق بالسحر بيان لمناقضة أصل التوحيد.

٢- السحر معروف وواقع ويؤثر على المسحور، وذلك لعدة أدلة منها:

- أن الله عز وجل أمر بالاستعاذة من شره بقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ [الفلق: ٤].

- أن الله تعالى ذكر نوعاً من فعلهم فقال: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

- أن عمل السحر أو ضرره لا يخرج عن إرادة الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾.

ويتمكن الساحر بالإضرار بالمسحور: بواسطة الشياطين، فالشيطان يتلبس بالإنسان ويؤثر عليه إما صرفاً أو عطفاً أو تغييراً في خلقته، أو تغييراً في طبيعته على حسب ما يطلب منه الساحر.

ولكن لماذا السحر يناقض دين الله؟ أو لماذا يكفر الساحر إذا عمل السحر؟ لأن الشياطين لا يمكن أن تخدم الساحر حتى يطيعها في معصية الله، إما بالذبح لها أو إهانة القرآن الكريم أو بترك الصلاة وغير ذلك، وهذه كلها أعمال شركية وكفرية تخرج من دائرة الإسلام.

أما حكم الإتيان إليه: ففيه تفصيل:

إن كان هذا الشخص يعتقد أن هذا الساحر يملك النفع أو الضر أو أ، له تأثير في الكون فهذا قد خرج من الإسلام إلى الكفر.

أما إذا كان يعتقد أن الأمور بيد الله، ولكن أريد الانتقام من فلان مثلاً فهذا على خطر عظيم، وهذا من أكبر الكبائر.

تنبيه:

السحرة ليسوا كما يظنهم البعض أن بيدهم كل شيء، وأنهم لا يقهرون، ويتخوف منهم، ولو كان هؤلاء السحرة لهم هذه القوة المزعومة لجلبوها لأنفسهم و لملكوا الدنيا، ولكنهم بالعكس لا يعيشون إلا بالأمكنة القذرة، ولا يملكون الضر والنفع لأنفسهم فكيف يملكونه لغيرهم ؟.[1]

---

[1] وقفات و تأملات (أعداد أ.د فالح بن محمد بن فالح الصغير) ص١٩٥

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: نصيب، ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر، إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن ماله إلى الجنة.٥

الثانية: تفسير آية النساء.

وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وفسر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت، فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع. ٥

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما. وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه. ٥

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق، فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس. ٥

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي. وقد سبق بيانها. ٥

السادسة: أن الساحر يكفر. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ...﴾ [البقرة: ١٠٢]. ٥

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

يؤخذ من قوله ((حد الساحر ضربة بالسيف))، والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر، فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود، لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود، فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر، لا يصلى عليه، ولا يغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين. ٥

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

تؤخذ من قوله: "كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة"، فهذا إذا كان في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها، فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه؟ فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة، فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول: من عمل سوء بجهالة، فهو آثم، ومن عمل سوء بجهل، فليس بآثم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ الآية [النساء: ١٧]، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه. ٥

(بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ)

(بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ)

قَالَ أَحْمَدُ: "حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنا عَوْفُ عَنْ حَيَّانَ بنِ الْعَلَاء، حَدَّثَنا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ)). قَالَ عَوْفُ: الْعِيَافَةَ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ وَالْجِبْتُ، قَالَ: الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِه، الْمُسْنَدِ مِنْهُ.

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ م قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ ((مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ط: ((مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه)).

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ ط أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعِضَةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)) رَوَاهُ مُسْلِمُ. وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عُمَرَ م، أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً)).

مناسبة هذا الباب بعد الباب الذي قبله ظاهرة، لأنه في الباب الذي قبله بَيّن ما جاء من الأدلة في كتاب الله وسنّة رسوله في حكم السحر وحكم الساحر، فتطلَّعت الأنظار إلى أن يعرف النّاس ما هو السحر، وما هي أنواعه حتى يتجنّبوه.

ومن ثَمّ يتعيّن على العلماء وطلبة العلم أن يبيّنوا للناس الحق والباطل، أن يبينوا للناس الحق وأدلّته، وأن يبيّنوا للناس الباطل وأدلّته وأنواعه؛ من أجل أن يأخذوا بالحق على بصيرة، وأن يتركوا الباطل على بصيرة، وإلاَّ فإنه إذا لم يبيّن الحق والباطل التبس على الناس، وظنوا الحق باطلاً والباطل حقّاً.

ومن هنا يتعيّن على الدعاة وعلى الخطباء في المساجد وعلى المدرِّسين أن يعتنوا بهذا الأمر، وأن يبيّنوا للناس أمور عقيدتهم، وأمور دينهم.

ومما حمل المصنِّف –أيضاً– رحمه الله على عقد هذا الباب: أن هناك خوارق تجري على أيدي بعض النّاس خارجة عن الأسباب المعروفة، مثل: المشي على الماء، والطَّيَران في الهواء، والإخبار عن الأشياء الغائبة، وإحضار الشيء البعيد.

وهذه الخوارق إن جرت على أيدي الصالحين فهي كرامات من الله سبحانه وتعالى، والكرامات ثابتة عند أهل السنّة والجماعة، تجري على أيدي الصالحين إكراماً لهم من الله سبحانه وتعالى، وقد تجري على أيدي الكفرة، والفسّاق، والمنافقين، فتكون هذه الخوارق شيطانية، يفتِنون بها الناس، ويلبِّسون بها على الناس، وهي إما سحر، وإما بسبب استخدام هؤلاء الفسّاق للشياطين، فيخدمهم الشياطين بهذه الأمور التي ليست من مقدور بني آدم، وإما أن لها أسباباً خفيّة لم تظهر للنّاس من حِيَل، يعملونها.

فمن أجل التباس الحق بالباطل في هذه الخوارق أراد الشَّيخ أن يعقد هذا الباب ليبيّن أن هذه الخوارق من السحر، وليست من الكرامات.

فيجب أن نعرف هذا الباب، والفرق بين الكرامات وخوارق الشيطان، لئلا يلتبس الأمر، ولئلا يتخذ المخرِّفون والمنحرفون الخوارق الشيطانية دليلاً على الولاية لله عزّ وجلّ، فيعبدون هؤلاء من دون الله عزّ وجلّ. ٤

الكرامة الرحمانية والكرامة الشيطانية

لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء وعدوها من كرمات الأولياء وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجي منهم النفع والضر والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتا بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق.

فأعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون وليا لله تعالى لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع وفعل الشياطين بأناس ممن ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وبحيل وأدوية كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن النارنج.[١]

وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به على وقوع ما لم يقع وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر وقد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى وقد يكون ذلك استدراجاً والأحوال الشيطانية كثيرة.

وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه فاعتصم به وحده لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣] فذكر تعالى أن أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون ولم يشترط أن يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة فدل أن الشخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمناً متقياً.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطناً وظاهراً ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلا عن أن يكون وليا لله تعالى، وإنما أحبهم الله تعالى

---

[١] النارنج: شجرة مثمرة دائمة الخضرة تسمو بضعة أمتار، أوراقها جلدية خضرٌ لامعة، لها رائحة عطرية، وأزهارها بيض عبقة الرائحة، تظهر في الربيع، والثمرة لبية، تعرف كذلك بالنارنج، عصارتها حمضية مرة، وتستعمل أزهارها في صنع ماء الزهر، وفي زيت طيار يستعمل في العطور، المعجم الوسيط (٩١٢/٢) والذي يستعمله أهل الشعوذة هو باطن قشرة بذرة النارنج، وأما الإدهان فيدهنون بدهن الضفادع! كما قال شيخ الإسلام عن أهل الشعوذة والخداع: (يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارنج ودهن الضفادع، وغير ذلك، من الحيل الطبيعية مجموع الفتاوي (٣١٠/١١) وانظر مجموع الفتاوي (٤٥٩/١١، ٤٦٥، ٤٩٦)

لأنهم والوه فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما يرضى وسخطوا ما يسخط وأمروا بما يأمر ونهوا عما ينهى وأعطوا من يجب أن يعطى ومنعوا من يجب أن يمنع، وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد.

وبالجملة فأولياء الله هم أحبابه المقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئاً وإن لم تجر على أيديهم خوارق.

فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله فلتكن دليلا على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفرس ورهبان اليهود والنصارى وعباد الاصنام فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف ولكن هي من قبل الشياطين فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم في الأفعال والأقوال كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

وقد طارت الشياطين ببعض من ينتسب إلى الولاية فقال: "لا إله إلا الله"؛ فسقط، وتجد عمدة كثير من الناس في اعتقادهم الولاية في شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أحياناً أو يمشي على الماء أو يملأ إبريقاً من الهواء أو يخبر في بعض الأوقات بشيء من الغيب أو يختفي أحياناً عن أعين الناس أو يخبر بعض الناس بما سرق له أو بحال غائب أو مريض أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك.

وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها مسلم فضلاً من أن يكون ولياً لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.

ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها وليا لله وقد يكون عدوا له؛ فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع، وتكون لهؤلاء من قبل الشياطين

أو تكون استدراجاً، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور فهو ولي لله، بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة.

وأكثر هذه الأمور قد توجد في أشخاص يكون أحدهم لا يتوضأ، ولا يصلي المكتوبة، ولا يتنظف، ولا يتطهر الطهارة الشرعية، بل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب، يأوي إلى المزابل، رائحته خبيثة، رَكَّاباً للفواحش، يمشي في الأسواق كاشفاً لعورته، غامزاً للشرع، مستهزئاً به وبِحَمَلَتِهِ، يأكل العقارب والخبائث التي تحبها الشياطين، كافراً بالله، ساجداً لغير الله من القبور وغيرها، يكره سماع القرآن وينفر منه، ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشيطان على كلام الرحمن، فلو جرى على يدي شخص من الخوارق ماذا عساه أن يجري فلا يكون ولياً لله محبوباً عنده حتى يكون متبعاً لرسوله ﷺ باطناً وظاهراً.

فإن قلت: فعلى هذا ما الفرق بين الكرامة وبين الاستدراج والأحوال الشيطانية؟

قيل: إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق، لأنه إذا كان الشخص مخالفاً للشرع، فما يجري له من هذه الأمور ليس بكرامة، بل هي إما استدراج وإما من عمل الشياطين، ويكون سببها هو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فإن المعاصي لا تكون سبباً لكرامة الله، ولا يستعان بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصل بما تحبه الشياطين كالاستغاثة بغير الله، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش؛ فهي من الأحوال الشيطانية، لا من الكرامات الرحمانية.

وكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة؛ كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره، فإن الجن الذي يقترنون بالإنس من جنسهم، فإن كان كافراً ووافقهم على ما يختارونه من الكفر والفسوق والضلال، والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه، وللسجود لهم، وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة؛ فعلوا معه كثيراً مما يشتهيه بسبب ما برطلهم به من الكفر، وقد يأتونه بما يهواه من امرأة وصبي.

بخلاف الكرامة، فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله، والتقرب إليه، ودعائه وحده لا شريك له، والتمسك بكتابه، واجتناب المحرمات ، فما يجري من هذا الضرب فهو كرامة. وقد اتفق على هذا الفرق جميع العلماء.

وبالجملة فإن عرفت الأسباب التي بها تنال ولاية الله؛ عرفت أهلها، وعرفت أنهم أهل الكرامة، وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها، بل يميل مع كل ناعق وساحر وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

ولشيخ الإسلام كتاب "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين.١

هذا (باب بيان شيء من أنواع السحر) لما ذكر الإمام رحمه الله تعالى ما جاء في السحر وما اتصل بذلك من حُكمه وتفصيل الكلام عليه، ذكر أن السحر قد يأتي في النصوص ولا يُراد منه السحر الذي يكون بالشرك بالله جل وعلا.

فإن اسم السحر عام في اللغة يدخل فيه ذلك الاسم الخاص الذي فيه استغاثة بالشياطين وتقرب إلى الشياطين وعبادة الشياطين لتخدم الساحر، وقد يكون بأسماء أُخَر يطلق عليها الشارع أنها سحر وليست كالسحر الأول في الحقيقة ولا في الحكم، وهو درجات.

فمما يسمى سحراً البيان، والبيان كما جاء في آخر الباب ((إنّ من الْبَيَانِ لسِحْراً))، البيان ليس سحراً فيه استعانة بالشياطين ولكنه داخل في حقيقة السحر اللغوية؛ لأنه تأثير خفي على القلوب، فإن الرجل البليغ ذا البيان وذا الأيضاَح وذا اللسان الجميل الفصيح يؤثر على القلوب حتى يسبيها وربما قَلَبَ الحق باطلاً والباطل حقاً ببيانه، فسُمي سحراً لخفاء وصوله إلى القلوب، وقلْب الرأي وفهم المخاطب من شيء إلى آخر.

كذلك ما ذكر من أن الطيرة من السحر فالطيرة نوع اعتقاد، كذلك العيافة وهي شبيهة بها أو بعض أنواعها، كذلك الخط في الرمل، ونحو ذلك من الأشياء التي ربما أطلق عليها أنها سحر وهي ليست كالسحر الأول في الحد والحقيقة ولا في الحُكم.

إذن هذا الباب قال فيه الإمام رحمه الله تعالى (باب بيان شيء من أنواع السحر) وأنواع السحر منها ما هو شرك أكبر بالله جل وعلا، والمراد إذا قلنا السحر وهذه هي الحقيقة العرفية.

وهناك في ألفاظ الشرع أشياء يكون المرجع فيها إلى الحقيقة اللغوية، وهناك أشياء يكون المرجع فيها إلى الحقيقة العرفية، ويكون هناك أشياء المرجع فيها إلى الحقيقة الشرعية.

وهنا في هذا الباب فيما يشمل ما يطلق عليه لغة أنه سحر، ويطلق عليه عرفاً أنه سحر، ويطلق عليه شرعاً أنه سحر.

فإذن التفريق بين هذه الأنواع مهم، ولهذا ذكر الإمام هذا الباب حتى تفرّق بين نوع وآخر، فالحد الذي فيه حد الساحر ضربه بالسيف لا ينطبق على كل هذه الأنواع التي ستذكر؛ لأنها سحر لغة وليست بسحر شرعاً. ٣

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين:

كفر، وفسق، فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك، فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر: منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية. ٥

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: ((إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)).[1]

[1] أحمد في المسند (٥/٦٠، ٣/٤٧٧) وفيه: قال الحسن: أنه الشيطان. وهو الصواب والله أعلم، وأبو داود (رقم ٣٩٠٧، ٣٩٠٨). قال النووي رحمه الله في رياض الصالحين رقم (١٦٧٩) رواه أبو داود بإسناد حسن.

قال عوف: "العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت، قال: الحسن: رنة الشيطان. "إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، المسند منه.

قوله: "قال أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر" المراد به: غُنْدُر.

"حدثنا عوف" هو: عوف بن أبي جميلة، المسمى بعوف الأعرابي، إمام ثقة مشهور.

"حدثنا حيان بن العلاء" حيان -بالياء المثنّاة- بن العلاء، بصريٌّ مقبول.

"حدثنا قَطَن بن قَبِيصة" قَطَن بن قَبِيصة تابعي، بصري ثقة.

"عن أبيه" قَبِيصة بن المخَارق الهلالي، صحابي معروف.

"أنه" يعني: قبيصة رضي الله عنه.

"سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن العِيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجبت)).

وتفسير هذه الألفاظ مروي عن: "عوف"، وهو: عوف بن أبي جميلة، المسمى بعوف الأعرابي؛ أحد رواة هذا الحديث.

قال: "العيافة: زَجْر الطير" ومعناه: التشاؤم بأصواتها وأسمائها ومسارها. ٤

قال أبو السعادات: "العيافة زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادة العرب كثيراً، وهو كثير في أشعارهم، يقال: عافَ يَعيفُ عَيْفاً إذا زجر وحدس وظن" [١]. ١

(العيافة) مأخوذة من عياف الشيء وهو تركه، عاف الشيءَ يعافه إذا تركه فلم تبْغِهِ نفسه.

والعيافة كما فسرها عَوْف زَجْرُ الطَّيْرِ، وهذا أحد تفسير العيافة، وزجر الطير أنْ يحرّك طيراً حتى ينظر إلى أين تتحرك ويزجر الطير في حركته، ثم يفهم من ذلك الزجر هل هذا الأمر الذي سيُقدم عليه أنه أمر محمود أو أمر مذموم، أو يطّلع بحقيقة زجر الطير على مستقبل الحال، فهذا نوع من الجِبت وهو السحر لم؟ وذكرت لكم ذكرت لكم أن معنى الجبت هو الشيء المرذول المطّرح الذي يصرف الواحد عن الحق.

---

[١] النهاية في غريب الحديث والأثر (١٢١/٣)

والسحر شيء خفي يؤثر على النفوس، والعيافة من التأثر بالطير وبزجرها وبانتقال من هنا إلى هنا أو بحركتها شيء خفي دخل في النفس فأثر عليها من جهة الإقدام أو الكف، فصار نوعا من السحر لأجل ذلك، وهو جبت لأنه شيء مرذول أدّى إلى الإقبال أو الامتناع. ٤

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له: فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك، فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة. ٥

والطيور ليس عندها خير ولا شر، ولكن هذا من جهلهم وضلالهم كما يتشاءمون بالغراب أو البومة أو حيوان سيء الخلقة، ويتيمنون بالحيوان الحسن الخلقة ويقولون هذا مخرج طيب والعكس كذلك. ٦

(الطرق): هو الخط يخط في الأرض، يخطه الساحر أو الدجال فيظن المقابل أنه بهذه الخطوط يعلم من خلالها الغيب. ٩

وأمّا الطَّرق فهو مأخوذ من وضع طرق في الأرض وهي في الخطوط، فيأتي بخطوط متنوعة ويخطها في الأرض، خطوط كثيرة ليس لها عدد، ثم يبدأ الكاهن الذي يستخدم الخطوط فيمسح خطا خطا، أو يمسح خطين خطين بسرعة، ثم ينظر ما بقي فيقول هذا الذي بقي يدل على كذا وكذا، هذا الذي بقي يدل على أنك ستغتني، يدل على أنك سيصيبك كذا وكذا ونحو ذلك، وهو نوع من أنواع الكِهانة، والكهانة ضرب من السحر. ٣

والطَّرْق: الخطُّ يخطّ في الأرض "من أجل استطلاع الأمور الغائبة، وهي طريقة جاهلية، وهم لا يعلمون بها الغيب بذاتها، وإنما الشياطين هي التي تأتي لهم بما يريدون إذا تقرّبوا إليهم بالعبادة، وكفروا بالله عزّ وجلّ، لأن الشياطين تريد إضلال بني آدم مهما استطاعت. ٤

وكذلك الطرق من السحر، لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه. ٥

ومنه: الضرب بالحصى. ٨

قال أبو السعادات: "هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء".[1]. ١
أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك، فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط، فقال: من وافق خطه، فذاك[2].

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يتحقق الوصول إليه، لأنه قال: فمن وافق خطه فذاك، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي، فلا بأس به، لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السحرية، فهي من الوحي الشيطاني، فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة في موضوع الشرك، فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟

فالجواب: كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط، فلا بد أن يجيب عنه الرسول ﷺ. ٣

وقوله: "الطيرة" أي: من الجبت، على وزن فعلة، وهم اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع، كالتطير بالزمان. ٥

والطِّيَرَة أعم من العيافة؛ لأن العيافة على حسب تفسير عوف وهو أحد تفسيراتها متعلق بالطير وحده، وأما الطيرة فهو اسم عام لما فيه تشاؤم أو تفاؤل بشيء من الأشياء. ٣

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر (١٢١/٣)

[2] مسلم: كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة.

وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطير، لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا، فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ. ٥

وحقيقة الطيرة أنه يرى شيئاً كان في الأول من الطير تحرك يمينا أو يسارا، فلما رآه تحرك يميناً قال هذا تفاؤل أنني سأنجح في هذا العمل أو في هذا السفر، وإذا رآه تحرك شِمالاً قال هذا معناه أني سأنضرُّ في هذا السفر أو سيصيبني مكروه فرجع، وقد قال عليه الصلاة والسلام ((من ردّته الطيرةُ عن حاجته فقد أشرك))، قد يتشاءم بحركة شيء، بكلمة يسمعها، بشيء في الجو، بتصادم سيارة أمامه، بسواد في الجو حصل أمامه أو في ذلك اليوم الذي سينتقل فيه، أو تشاءم بشيء حصل له في أول زواجه ونحو ذلك من أنواع التشاؤم، أو التشاؤم بالأشهر أو بالأيام، هذا كله من أنواع الطيرة.

ومتى يكون طيرة؟ إذا رده عن حاجته أو جعله يُقْبِلُ عن حاجته، فإذا تشاءم وذلك التشاؤم حينما سيْطر على قلبه جعله يقبل أو يحجم فإنه يكون متطيراً.

وكذلك في باب التفاؤل إذا رأى شيئاً فجعله ذلك الشيء يقدم ولو لذلك الشيء أنه رآه لما جعله يقدم، فإن ذلك أيضاً من الطيرة وهو نوع من أنواع التأثيرات الخفية على القلوب، وذلك ضرب من السحر. ٣

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم، ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر. والعياذ بالله؛ وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: أنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما

في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها في شوال، وبنى بها في شوال، فكانت تقول: "أيكن كان أحظى عنده مني؟"[1] والجواب: لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال، لأنه ينكد عليه عيشه، فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل[2]، فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ، فكل شيء ترى فيه المصلحة، فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك. ٥

والطيرة كذلك -من السحر-، لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه. ٥

وسيأتي باب مستقل لذكر أحكام الطِّيرة وصورتها وما يقي منها يأتي إن شاء الله تعالى. ٣

قوله "من الجبت": أي من أعمال السحر.

قال القاضي: "والجبت في الاصل الفشل الذي لا خير فيه ثم استعير لما يعبد من دون الله وللساحر والسحر".[3]

وقال الطيبي[4]: "(من) فيه إما ابتدائية أو تبعيضية؛ فعلى الأول: المعنى الطيرة ناشئة من الساحر، وعلى الثاني: المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة، أو من جملة عبادة غير الله، أي: الشرك يؤيده قوله في الحديث الآتي ((الطيرة شرك))." انتهى.١

قوله: "قال الحسن" هو الحسن البصري إمام التابعين. ٤

---

[1] مسلم: كتاب النكاح/ باب التزوج في شوال.

[2] البخاري: (كتاب الطب، باب لا عدوى)، ومسلم (كتاب السلام، باب الطيرة والفأل).

[3] انظر: فيض القدير للمناوي (٣٩٥/٤)

[4] شرح الطيبي على المشكاة (٣١٩/٨)

الجبت: "رنّة الشيطان" أي: صوت الشيطان، وصوت الشيطان يشمل أشياء كثيرة، منها: الأغاني والمزامير، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء:٦٤] وصوت الشيطان: كل كلام باطل، وكل كلام كفر أو شرك. ٤

وأما قول الحسن: الجبت: رنة الشيطان، قال صاحب "تيسير العزيز الحميد"[١]: لم أجد فيه كلاماً.

والظاهر أن رنة الشيطان، أي: وحي الشيطان، فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً الكفر، وقول الحسن جاء في "تفسير ابن كثير" باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في "المسند" (٥/٦٠) بلفظ: إنه الشيطان. ٥

فهذا فيه بيان الشيء من أنواع السحر:

فالعِيافة نوع من أنواع السحر.

والطَّرْق نوع من أنواع السحر.

والطِّيَرة نوع من أنواع السحر.

كلها من أنواع السحر؛ لأنها من الجبت، والجبت السحر كما سبق، فالسحر إذا كلمة عامة تجمع شروراً كثيرة، إما قولية، وإما عمليّة.

ثم قال المصنِّف رحمه الله: "إسناده جيّد" أي: إسناد الإمام أحمد جيد، لأن رواته ليس فيهم أحد مجروح.

قال: "وروى أبو داود والنسائي وابن حيان في صحيحه المسنَدَ منة" أي: رووا أصل الحديث، دون التفسير المذكور الذي ذكره عوف.

"وأبو داود"، هو الإمام المشهور، سليمان بن الأشعث، صاحب السنن المشهورة بسنن أبي داود وهي إحدى السنن الأربع.

---

[١] أنظر: "تيسير العزيز الحميد" (ص ٣٩٨).

"والنسائي" هو: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، الإمام الجليل، صاحب "السنن الكبرى" إحدى السنن الأربع.
"وابن حبّان في صحيحه" ابن حبّان هو: أبو حاتم، محمَّد بن حبان البُسْتي، صاحب الصحيح المسمّى بـ"صحيح ابن حبان". ٤

[قد ذكرنا أن هذا الباب عقده الإمام رحمه الله تعالى لبيان أن هناك من الأعمال ما أطلق عليه أنه سحر، ولكن لا يشترك مع السحر في الذي في الباب قبله في جميع الأحكام، ثم إن بعض هذه الأنواع يجهل كثير من المسلمين أنها من السحر فتارة يدخلونها في غير باب السحر، وهي مع السحر مشتركة في حقيقته وفي بيان أصله أو في أصله ووضعه اللغوي].٣
وقفة:
إذا ضعف الإيمان والتوكل على الله عند العبد فإنه سيتبع أي سبيل يبعث عنده روح الإرادة والقوة في نفسه، ولهذا تجد الكثير يريد أن يعرف مستقبله القريب أو البعيد، سواء كان ذلك عن طريق العيافة أو الطرق أوالطيرة أو الاستدلال بالنجوم لمعرفة ما ينتظره في المستقبل، كل هذا يدل على ضعف اليقين وضعف التوكل، فليتنبه المسلم إلى ذلك، ويقوي وكله على الله تعالى وارتباطه به، فلا يلجأ إلى تلك الوسائل الضعيفة، فترديه المهالك في الدنيا والآخرة. ٩
وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ((من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد)) [رواه أبو داود] وإسناده صحيح.[1]
قوله ﷺ: ((من اقتبس شُعبة)) يعني: تعلَّم. والشُّعبة: الطائفة أو القطعة.
((من النجوم)) يعني: من علم التنجيم. ٤

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٢٢٧/١، ٣٣١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٥٦٤٦)، وأبو داود في سننه (رقم ٣٩٠٥)، وابن ماجة في سننه (رقم٣٧٢٦)، والطبراني في الكبير (رقم ١١٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٨/٨) وإسناده صحيح، والحديث صححه النووي في رياض الصالحين (ص/٣٠٧)، والذهبي في كتاب الكبائر (ص/١٢٠)، وغيرهم.

قوله هنا ((مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً)) يعني من تعلم بعض من علم النجوم؛ لأن الشعبة هي الطائفة من الشيء أو جزء من أجزائه فكل جزء من أجزاء علم النجوم الذي هو علم التأثير نوع من أنواع السحر. ٣

والتنجيم معناه: اعتقاد أن النجوم تؤثِّر في الكون، -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- هو: "نسبة الحوادث الأرضيّة إلى الأحوال الفلكيّة". ٤

والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية، فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقياً، فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية، قال: "صلى بنا رسول الله ذات ليلة على إثر سماء من الليل، فقال: ((قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا.)) - بنوء يعني: بنجم، والباء للسببية، يعني: هذا المطر من النجم.-، ((فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب))[١].

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي بالرياح أيضاً، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلاني، لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر، فهي ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر. ٥

ومنه التعلق بالنجوم في موت أحداً وحياته أو زوال ملك فلان وغيره. ٦

---

[١] البخاري: كتاب الأذان/ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

ولا تزال آثار هذه الخصلة الجاهلية في عصرنا الحاضر فيما يظفر عند المنجِّمين والذين يذهبون إليهم، وبما يُكتب في بعض الصُّحف والمجلاّت من أحوال البُرُوج، لأن نسبة هذه الأمور إليها في طلوعها أو غروبها، أو إلى الأفلاك في تحرُّكها؛ شرك بالله عزّ وجلّ، لأن الذي يدبِّر النجوم، ويدبِّر الأفلاك، ويدبِّر الكون كله هو الله سبحانه وتعالى، فيجب أن نؤمن بذلك.

أما النجوم، وأما الأفلاك، وأما جميع المخلوقات فليس لها تدبير، وليس لها إحداث شيء، أو جَلْبُ نفع، أو دفع ضر إلاَّ بإذن الله سبحانه وتعالى، فالأمر يرجع كلّه إلى الله. ويجب على المسلم أن يعتمد على الله، وأن يتوكّل على الله، ولا يتأثّر بما يقوله المنجِّمون والفلكيُّون.

أما تعلّم حساب منازل القمر من أجل معرفة مواقيت العبادات، ومواقيت الزراعة والبذور؛ فلا بأس به، وهذا ما يسمِّيه العلماء بعلم التَّسْيِير.

وأما الاعتقاد بالنجوم بأنها تؤثِّر فهو علم التَّأْثير، وهو المحرّم.

قوله: ((فقد اقتبس شُعبة من السحر)) وهذا هو الشاهد من الحديث للباب، حيث دلّ على أن التنجيم نوع من أنواع السحر، لأن كلاًّ من المنجِّم والساحر يدّعي علم الغيب الذي اختص الله تعالى بعلمه. ٤

ويأتي أن التنجيم منه، علم التأثير وهو جعْل الكواكب والنجوم في حركتها والتقاءها وافتراقها وطلوعها وغروبها مؤثرة في الحوادث الأرضية أو دالة على ما سيحدث في الأرض، فيجعلونها دالة على علم الغيب، دالة على المغيبات.

وهذا القدر من السحر؛ لأنه يشترك معه في حقيقته لأنه جعْلٌ للتأثير لأمر خفي. ٣

المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف، لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له، فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال. ٥

هذا فيه بيان أن تعلم النجوم تعلم للسحر، ويأتي في باب خاص (باب ما جاء في التنجيم) أنواع تعلم النجوم وما جعل الله جل وعلا النجوم له. ٣

وقوله: ((زاد ما زاد)) يعني: كل ما زاد من الاقتباس زاد من السحر، فمُقِلٌّ ومُسْتَكْثِر. فهذا تحذير من الرسول ﷺ. ٤

يعني كل ما زاد في تعلم علم النجوم كلما زاد في تعلم السحر حتى يصل إلى آخر حقيقة علم التأثير -كما يسمونه- فيصبح سحرا وكهانة حقيقة. ٣

فالإنسان لا يجوز له أن يتعلم التنجيم الذي عليه المشركون، لأنه سحر وشرك بالله سبحانه وتعالى، وادِّعاءٌ لعلم الغيب الذي لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

والنجوم إنما خُلقت لفوائد بيّنها الله سبحانه وتعالى في كتابه. ٤

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: ((من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر))، وقوله في حديث زيد بن خالد: ((من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب))، ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: ((إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته))[١]، فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية، فقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالاستدلال بهذه

[١] البخاري: كتاب الكسوف/ باب الصلاة في كسوف الشمس، ومسلم: كتاب الكسوف/ باب ذكر النداء بصلاة الكسوف.

النجوم على الأزمات لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن، كالقبلة، والشمال، والجنوب. ٥

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:

أن من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى الصحيح تشهد له النصوص الأخرى. ٥

وللنسائي من حديث أبي هريرة ﷺ: ((من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه)).

قال: ((من عقد عُقدة)) هذا من عمل السحرة؛ يعقدون الخيوط ثمّ ينفثون فيها، والنفث هو: النفخ مع الرِّيق، ينفث فيها من ريقه الخبيث، لأنه متكيِّف بالشيطان، فريقه ممزوج بالخُبث وتأثير الشيطان. ٤

والنفث المقصود به هنا النفث الذي فيه استعاذة واستعانة بالشياطين، فليس كل نفث في عقدة يعقد السحر؛ بل لابد أن يكون النفث بأدعية معينة ورقى شركية وتعويذات وكلام تَحْضُر الجن عند تلاوته وتخدم هذه العقدة السحرية. ٣

وقد يضرّ من وُجّه إليه بإذن الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقد أمر الله نبيّه بالاستعاذة منه في سورة الفلق، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾ [الفلق:٤]، ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾: السواحر، و﴿الْعُقَدِ﴾ هي: العُقد التي في الخيوط.

وقوله: ((فقد سحر)) يدل على أن هذا العمل سحر. ٤

قال ((فَقَدْ سَحَرَ)) لأن الجني يخدم هذا السحر بالنفث في العقدة، وفائدة العقدة عند السحرة أنه لا ينحلْ السحر ما دامت معقودة، فينعقد الأمر الذي أراه السحر بشيئين:

العقدة وبالنفث. العقدة عقدة حبل أو خيط أو نحو ذلك، وبالنفث فيها بالأدعية الشركية والاستعانة بالشياطين.

ومن الأمور المهمة أن تُعلم في هذا الباب أن العقد هذه تارة تكون مرئية واضحة، وتارة تكون صغيرة جدا، وما كان صغيرا جدا أو ما كان مرئيا فإنه ينبغي لمن اطلع عليه أو نظر فيه أن يحل العقدة فينتهي تأثير السحر بإذن الله أو يضعف تأثيره. ٣

وقوله: ((ومن سحر فقد أشرك)) هذا هو الشاهد من الحديث؛ أن من أنواع الشرك: عقد العُقد والنفث فيها بقصد السحر، لأن الساحر لا يتوصّل إلى سحره إلاَّ بالاستعانة بالشياطين، وإذا استعان بالشياطين فقد أشرك بالله عزّ وجلّ. ٤

((وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ)) هذا عام؛ لأنه رتَّب جزاء على فعل بصيغة ((مَنْ)) كأنه قال: كل من سحر فقد أشرك. يعني: سحر بذلك النحو الذي ذُكر وهو أن يعقد عقدة ثم ينفث فيها، ((مَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ)) هذا دليل لما ذكرنا لكم في الباب قبله أنّ كل سحر يعدّ من أنواع الشرك؛ لأنه لا يمكن أن يحدث السحر إلا بالنفث في العقد أو باستحضار الجن وبعبادة الجن ونحو ذلك وهذا شرك بالله، قوله ((وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ)) ليس معناه أنه أشرك بعقد العقدة مثلا، وإنما ((فَقَدْ أَشْرَكَ)) يعني حين سحر. ومن المعلوم أنه قبل أن يعقد العقدة وينفث فيها فلا بد من تعلمه؛ ولهذا يكون مشركاً قبل أن يعقد وينفث ما دام أنه تعلم ذلك ليعمل به فإنه مشرك بالله؛ لأن تعلمه فيه الشرك بالله جل وعلا. ٣

نص في أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك، كما حكاه الحافظ عن بعضهم[١]. ١

وقوله: ((فقد أشرك)). هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بالطرق الشيطانية.

---

[١] فتح الباري (٢٢٥/١٠)

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها، فقد سبق أنه لا يكون مشركاً، لكن الذي يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد، فهذا لا شك أنه مشرك. ٥

قوله: ((ومن تعلّق شيئاً وُكِل إليه)) أي: من اعتقد في شيء من دون الله أنه ينفع أو يضر وَكَله الله إلى ذلك الشيء.

فمن اعتقد في السحرة والكُهّان والمشعوذين والمنجّمين والأموات والأولياء أنهم ينفعون أو يضرُّون من دون الله وُكِل إليهم؛ عقوبةً له، وتخلّى الله سبحانه وتعالى عنه، وَوَكَله إلى هؤلاء الذين لا يملكون ضرًّا ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا وتنقطع صلته بالله الذي بيده المُلْك، والذي بيده الخير، والذي يرحم عباده ويرزقهم، ويكلِه الله إلى هذه المخلوقات الضعيفة، لأنه اعتمد عليها، وتوكّل عليها، وخاف منها، ورجاها، فيوكل إليها.

فمن ذهب إلى مشعوذ يريد منه العلاج والشفاء من المرض وَكَله الله سبحانه وتعالى، ومن سأل كاهناً أو عرَّافاً عن شيء من الأشياء وَكَله الله إليه إذ اعتمد عليه.

ومن توكّل على الله، وتعلّق بالله سبحانه وتعالى، وخاف الله ورجاه فإن الله يتولّى أمره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق:٣]، فالذي يتوكّل على الله، ويؤمن بالله، ويعتمد على الله؛ فإن الله يكفيه، ويصونه من شر عباده، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

فمن توكّل على الله كفاه، ومن توكل على غير الله وَكَله الله إلى ضعيف، عاجز لا يُغني عنه من الله شيئاً، لا في الدّنيا ولا في الآخرة.

أما في الدّنيا فيكِله الله إلى هؤلاء الذين يضلُّونه، ويُفسدون عقيدته، أو يوهّمونه، ويتسلَّطون عليه حتى يعيش عيشة القلق والأوهام والضّعف والخَوَر.

ولذلك نجد الخرافيّين والقبوريين دائماً في قلق، ودائماً في خوف، ودائماً في ذلّ، لأنهم تعلّقوا بغير الله.

أما في الآخرة فمعلوم مصيره إن لم يتب.

ونجد الموحِّدين الصادقين في قوة وفي أمن، وفي سرور بال وراحة نفس وطُمأنينة، لأنهم توكّلوا على الله.

ومن عبد الله وحده تولى الله أمره في الدُنيا والآخرة، ونجاه من العذاب، وأدخله الجنة.

ومن عبد الشياطين والمخلوقين والقبوريين وغير ذلك وَكَله الله إليهم يوم القيامة، يقول لهم: اذهبوا إلى من كنتم تعبدونهم في الدنيا، وإذا ذهبوا إليهم تبرأوا منهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:١٦٦]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف:٥]، هذا في الدّنيا.

وفي الآخرة: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف:٦]، وقت الحاجة ووقت الخطر كفروا بعبادتهم وتبرأوا منهم، فيذهبون إلى النار، لأنهم لم يعقدوا مع الله صلة تصلهم بالله عزّ وجلّ، ولم يعبدوا الله ويوحِّدوه، بل عبدوا غيره.٤

فمن أنزل حاجته بالله أفلح، ومن تعلق قلبه بالله أفلح، وأمّا من تعلق بالخرافات أو تعلق بالأمور الشركية كالسحر وكالذهاب إلى الأولياء وطلب المدد منهم أو طلب الإغاثة منهم فإنه يوكل إلى المخلوق، ومن وكل إلى المخلوق فإنه يضره ذلك أعظم الضرر كما قال جل وعلا ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج:١٣]. ٣

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراء والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، وإذا كان الله حسبك، فلا بد أن تصل إلى ما تريد. ٥

وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجباً بما يقول ويفعل، فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائماً متعلقاً بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور. ٥

ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها، فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية، حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من القبور، وجعلها ملجأه ومغيثه عند طلب الأمور، فإنه يوكل إليه، والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..﴾ [الأحقاف: ٣]، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده. ٥

وإسناد هذا الحديث فيه ضعف لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة. وقد ذكر جمع من العلماء أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة فيكون منقطعاً و هو من رواية عباد بن ميسرة وفيه ضعف، لكن له شواهد من حيث المعنى. ٦

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ألا هل أنبئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمة، القالة بين الناس)) [رواه مسلم].

((العَضْهُ)) هكذا تروى في كتب الحديث ((العَضْهُ))، وفي كتب غريب الحديث واللغة تنطق هكذا ((العِضَهْ))، ((هل أنبئكم ما العِضَهْ)) لأشباهها في وزنها. ٣

وأصل العَضْه في اللغة يطلق على أشياء منها السحر. ٣

قال في القاموس: "عضه: عضها كذب، وسحر، ونم وجاء بالإفك والبهتان، كأعضه وفلاناً: بهته، وقال فيه ما لم يكون، والعضه: الكذب والبهتان والسحر، والعاضه: الساحر." انتهى ملخصاً. [١]

العَضْهُ: السحر، أي: ما هو السحر؟.

وهذا فيه التعليم وطريقة السؤال الجواب، لأن ذلك أوقع في النفس، إذا صار الشيء مهمًّا وخطيراً فإنه يُلقى على النّاس بطريق السؤال، من أجل أن يتنبّهوا.

ثمّ قال ﷺ في الجواب: ((هي النميمة)) وهذا لبيان خطر النميمة، كأن النبي ﷺ حصر السحر فيها تحذيراً منها. ٤

وهي من نم الحديث إلى غيره، أي: نقله، والنميمة فسرها بقوله: ((القالة بين الناس))، أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذباً فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً، فهو نميمة. ٥

والنميمة معناها: نقل الحديث بين النّاس على وجة الوشاية والإفساد، يذهب إلى شخص فيقول له: إن فلاناً يسبُّك ويتنقَّصك، ويقول فيك كيت وكيت. ثمّ يغضب هذا الشخص على فلان. ثمّ يذهب إلى الثاني، ويقول: إن فلاناً يقول فيك كذا وكذا، ويسبّك، ويتنقّصك. فيغضب هذا على هذا، وهذا على هذا، ثمّ تقوم القطيعة بين الوالد وولده، وبين الأخ وأخيه، وبين المسلم وأخيه المسلم، حتى ربّما تقوم الحروب الطاحنة بين النّاس بسبب النميمة.

والنميمة من الكبائر، وقد بين النبي ﷺ أن النميمة من أسباب عذاب القبر، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: ((إنهما ليعذّبان، ما يعذّبان في كبير، أما إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله)).

فدلّ على أن النميمة تسبِّب عذاب القبر.

---

[١] القاموس المحيط للفيروز أبادي باب الهاء فصل العين (ص١٢٤٩-١٢٥٠)

وفي الحديث الصحيح: ((لا يدخل الجنة نمّام)) وفي رواية: ((لا يدخل الجنة قتّات)). ٤

ولماذا صارت النميمة بهذه الخطورة؟، لأن النميمة تعمل عمل السحر، فتفرِّق بيّن النّاس كما يفرِّق بينهم السحر، بل هي أشد، كما قال بعضهم: "يُفسد النمّام في ساعة ما يُفسده الساحر في سنة"، فالنميمة أشدّ تأثيراً من السحر، لأنها تفرِّق بين المسلمين والسحر إنما يؤثر فيمن وقع عليه. ٤

قال ابو الخطاب في عيون المسائل: "ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس"[1]

قال في الفروع: "ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعلمه على وجه المكر والحيلة؛ أشبه السحر، ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر، فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكنه يقال: الساحر إنما كفر لوصف السحر وهو أمر خاص، ودليله خاص، وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة." انتهى ملخصا.[2] ١

والنمام ليس له حكم الساحر، فلا يكفر كما يكفر الساحر.

وإنما النميمة محرَّمة كما يحرُم السحر، إلاَّ أن السحر كفر، والنميمة فسق. ٤

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب، فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١١]، وأعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك، فاحذره.

---

[1] نقله عنه ابن مفلح في الفروع (١٧٠/٦)

[2] الفروع (١٧٠/٦-١٧١)

وهي أيضاً من أسباب فساد المجتمع، لأن هذا النمام إذا أراد أن يعتدي على كل صديقين متحابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع، لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد، فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعاً، فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قوة، ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحدٍ أهل بيت ... فضعيفان يغلبان قوياً

وقال الآخر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً ... فإذا افترقن تكسرت أفراداً

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية، لوجدناها تحرم كل ما يكون سبباً للتفرق والقطيعة، قال ﷺ: ((ولا يبيع بعضكم على بيع أخيه))[1]، وقال: ((لا يخطب الرجل على خطبة أخيه))[2]، وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس. ٥

أضرار النميمة :

١- إفساد الود والمحبة والأخوة بين الناس

٢- انتشار سوء الظن بين الناس

٣- التقول على الإنسان بما لم يقله، وهذا جمع بين جريمتين: النميمة والكذب، وكلاهما ذنبان كبيران.

٤- دخول الشيطان بين الناس، وإذا دخل عليهم الشيطان أفسد عليهم عباداتهم، ومعاملاتهم، وأخلاقهم وسلوكهم.

---

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ومسلم: كتاب البيوع/ باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه.

[2] البخاري: كتاب النكاح/ باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم: كتاب النكاح/ باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه.

٥- النميمة سبب في عذاب القبر، كما صح في الحديث. ٩

ولهما عن ابن عمر ﷺ، ان رسول الله ﷺ قال: ((إن من البيان لسحراً)).

قال: "ولهما" أي للشيخين: البخاري ومسلم.

البيان هو: البلاغة والفصاحة، لأن النّاس يُصغون إلى المتكلِّم إذا كان فصيحاً في كلامه، وبليغاً في منطقه، بخلاف ما إذا كان ثَرْثَاراً، فإنهم لا يُصغون إلى كلامه، ويستثقلونه، ويملُّون من سماعه. ٤

وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسان (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤]. ٥

والمقصود بالبيان هنا التبيين عما في النفس بالألفاظ الفصيحة البيّنة التي تأخذ المسامع والقلوب، فتسحر القلوب فتقلب ربما الحق باطلاً والباطل حقاً، حتى يغدو ذلك الذي يُعدّ من أهل البيان والفصاحة يغدو في قلوب الناس أن ما قاله هو الحق وأن ما لم يقله أو رده هو الباطل، وهذا ضرب من السحر؛ لأنه تأثير خفي على النفوس بالألفاظ، هذا التأثير الخفي بقلب الحق باطلاً وقلب الباطل حقا تأثيره خفي كتأثير السحر في الخفاء، ولهذا قال ((إنّ من الْبَيَانِ لسِحْراً)).

والصحيح من أقوال أهل العلم أن هذا فيه ذم للبيان وليس مدحاً له، قال ((إنّ من الْبَيَانِ لسِحْراً)) على جهة الذم.

وبعض أهل العلم قال إن ذلك على جهة المدح؛ لأنه يصل بالتأثير إلى أن يثر تأثيرا بالغاً كتأثير السحر في النفوس، والتأثير البالغ إن كان من جهة البيان يقولون فإنه جائز، وهذا من جهة المدح له وبيان عظم تأثيره.

ولكن هذا فيه نظر، والظاهر أنه لما جعل البيان سحرا علمنا أن الشرع ذمه، ولهذا أورد الشيخ رحمه الله في هذا الباب الذي اشتمل على أنواع من المحرمات ، فالذي يستغل ما أتاه الله جل وعلا من اللسان والبيان والفصاحة في قلب الباطل حقا وفي قلب الحق باطلاً، هذا

لا شك أنه من أهل الوعيد ومذموم على فعله؛ لأن البيان إنما يقصد به نصرة الحق لا أن يجعل ما أبطله الله جل وعلا حقا في أنفس الناس وفي قلوبهم. ٣

قلت: الأول أصح وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله، وهو الذي فيه تصويب الباطل وتحسينه، حتى يتوهم السامع انه حق أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة في الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق ونحو ذلك، وسماه سحرا، لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: ((إن من البيان لسحراً))كما رواه مالك والبخاري وغيرهما.

وأما جنس البيان فمحمود، بخلاف الشعر فجنسه مذموم إلا ما كان حِكَماً، ولكن لا يحمد البيان إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، أو تصوير الباطل في صورة الحق، فإذا خرج إلى هذا الحد فهو مذموم.

وعلى هذا تدل الاحاديث، كقوله ﷺ: ((إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها)) [١] رواه أحمد وأبو داود. وقوله: ((لقد رأيت أو لقد أُمِرْتُ أن أتجوزَ في القول، فإن الجواز هو خير)) [٢]رواه أبو داود. ١

وأصل الحديث قال الجمهمور: إن فيه مدح البيان إذا كان في الحق.

وقيل: أنه يراد به الذم، حكاه ابن عبد البر عن جماعة من العلماء.

لكن يقال: إن البيان إذا كان في الحق والدعوة إلى الكتاب والسنة فهذا ممدوح. أما إذا أريد به الخداع واللبس فهذا ذم وعيب والحديث يحتمل الاثنين.

---

[١] رواه الإمام أحمد في المسند (١٦٥/٢، ١٨٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٦٢٩٧)، وأبو داود في سننه (رقم ٥٠٠٥)، والترمذي في سننه (٢٨٥٣). وإسناده حسن، وصححه أبو حاتم في العلل (٣٤١/٢).

[٢] رواه أبو داود في سننه (رقم٥٠٠٨) والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٤٩٥٧) عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه وإسناده حسن كما قاله الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (رقم ٥٠٠٨)، وضعفه المناوي وابن مفلح.

والكتاب والسنة قد جاءت بأوضح البيان وأفصحه في بيان الحق ودعوة الناس.
وخطب رجل عند عمر بن عبد العزيز فأحسن فقال: هذا و الله السحر الحلال. ٦
وقوله: ((إن من البيان لسحراً))، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟
الجواب: الأخير هو المراد، فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل، فهو مذموم، لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل، فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله وفي الدعوة إلى الله، فهو خير من العي، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله، فهذا لا خير فيه، والعي خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسان، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]. ٥

فإن استعمل هذه القوّة البيانيّة في الخير والدفاع عن الحق، والردّ على الباطل، فهو مأجور، أما إن استعملها بضدّ ذلك، فاستعملها في نُصرة الباطل، وهدم الحق فهو آثم، وهذا هو المذموم.
والنبي ﷺ لم يذم البيان مطلقاً، وإنما ذم البيان الذي يقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا، فإن البليغ الفصيح يستطيع بأسلوبه أن يزيّن للناس الباطل، وان يزوّره بكلامه حتى يظنّوه صحيحاً، ويستطيع أن يؤثِّر على الحق حتى يخيّل إلى النّاس أنه باطل.
فالواجب على المسلم إذا أعطاه الله مقدرة في الكلام والمحاورة أن يستعمل هذا في طاعة الله سبحانه وتعالى، وفي الدعوة إلى الخير، وترغيب النّاس في الخير، وتنفيرهم من الشرّ.
أما أن يستعمله بضدّ ذلك بأن يستعمله بالكلام في أعراض العلماء الربانيين وتبديعهم، وتجهيلهم؛ فهذا من السحر.

أو يستعمله في تزيين الشرك، وعبادة القبور، وتزيين البدع والخرافات والمحدثات؛ فهذا من السحر، لأن السحر يقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا، كذلك البليغ الذي يستعمل فصاحته في الدعوة إلى الشر.

وما ضلّ كثير من النّاس إلاَّ بسبب الدعاة البُلغاء المنحرفين إما في الإذاعات، وإما في الصحف، وإما فوق المنابر، وإما في مدرّجات الجامعات، إذا تكلموا استمالوا الحاضرين، وملئوا أدمغتهم بكلام مزوّر، حتى يخرجوا وهم يُبغضون الحق ويحبون الباطل -والعياذ بالله-، فهذا خطر عظيم. ٤

وجه مناسبة الحديث للباب:

المؤلف كان حكيماً في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء، لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره. ٥

ما يُستفاد من هده الأحاديث:

أولاً: في حديث قبيصة ﷺ أن العِيَافة والطَّرْق والطِّيَرَة من الجبت، والجبت هو السحر، وكما سبق: أن الجبت كلمة عامة تشمل السحر، وتشمل الكهانة، وتشمل العِيَافة، وتشمل الخطّ يخطّ في الأرض. يعني: تشمل كل ما فيه ادّعاءٌ لعلم الغيب.

ثانياً: في حديث ابن عباس تحريم تعلّم التنجيم، وأنه نوع من أنواع السحر.

ثالثاً: في حديث أبي هريرة أن عقد الخيوط والنفث فيها بقصد التأثير والإضرار بالنّاس أن هذا سحر، ومن سحر فقد أشرك، فالسحر نوع من أنواع الشرك، لأن الساحر يستعين بالشيطان، ويتقرّب إلى الشيطان، وهذا هو الشرك.

رابعاً: في حديث أبي هريرة أن من تعلّق على السحرة والمشعوذين والدجّالين أنه يوكل إليهم، ويتخلى الله سبحانه وتعالى عنه، وإذا تخلى الله عنه وَوَكَله إلى غيره هلك.
خامساً: في حديث ابن مسعود ﷺ تحريم النميمة، وأنها من الكبائر، وأنها نوع من أنواع السحر.
سادساً: في حديث ابن عمر تحريم البلاغة التي تُستخدم لنصر الباطل والدعوة إليه، والتنفير من الحق، وتشويه الحق، وأن هذا نوع من أنواع السحر. ٤

وقفة:

ما وجه كون العيافة والطرق والطيرة والتنجيم والنميمة والبيان من السحر ؟

الجواب على ذلك:

أن العيافة: كونها من السحر لأن الإنسان يستند فيها إلى أمر لا حقيقة له، فكون الطير يذهب يميناً أو شمالاً أو غير ذلك فلا أصل له و ليس بسبب شرعي و لا حسي، فإذا اعتمد عليه فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، و هذا سحر بالمعنى اللغوي.

والطيرة: لأنها مثل العيافة تستند على أمر خفي لا حقيقة له.

والطرق: من السحر لأنهم يستعملونه في السحر و يتوصلون به إليه.

والتنجيم: أيضاً لأنها تستند على أمر خفي لا حقيقة له.

والنميمة: أشبهت السحر من جهة الإفساد، فنقل الحديث بين الناس سواء كان صدقاً أو كذباً على وجه الإفساد؛ فإنه بذلك يفرق بينهم ويجعلهم أحزاباً، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أم الجماعات.

والبيان: كونه يشبه السحر وذلك لأنه يأخذ بلب السمع فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم فينصرف إليه، فخو من جنس السحر الذي يسمى عطفاً وصرفاً. ٩

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.ه

الثانية: تفسير العيافة والطرق. وقد بينت في الباب أيضاً وشرحت ه

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر. لقوله: ((من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر))، وسبق الكلام عليها أيضاً. ه

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك. لحديث أبي هريرة: ((من عقد عقدة ثم نفث فيها، فقد سحر))، وقد تقدم الكلام على ذلك. ه

الخامسة: أن النميمة من ذلك. لحديث ابن مسعود: ((ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة))، وهي من السحر، لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك. ه

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

أي: من السحر بعض الفصاحة، لقول النبي ﷺ: ((إن من البيان لسحراً))، والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة استدلالاً بقوله: ((إن من البيان))، لأن "من" هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه كون ذلك من السحر أن لسان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب ما عنده من الفصاحة. ه

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ)

رَوَى مُسْلِمُ فِي صَحِيحِه، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)).

وَعَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ، وَالْحَاكِمِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ((مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)). وَلِأَبِي يَعْلى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَوْقُوفاً.

وَعَن عِمْرَانَ بن حُصَينٍ رضي الله عنه مرفوعاً: ((لَيْسَ مِنّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيِّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: ((وَمَنْ أَتَى ...)) إلخ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: "الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ".

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ".

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -فِي قَوْمٍ يَكْتُبونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ-: "مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ".

مناسبة هذا الباب لما قبله: أن ما قبله في بيان السحر وحكم الساحر، وبيان بعض أنواع السحر. وهذا في حكم الكُهّان، وذلك للتشابه بين الكُهّان والسحرة، لأن كلاًّ من السحر والكهانة عمل شيطاني يُنافي العقيدة ويضادّها. ٤

هذا الباب أتى بعد أبواب السحر؛ لأن حقيقة عمل الكاهن أنه يستخدم الجن لإخباره بالأمور المغيبة، إما التي غابت في الماضي أو الأمور المغيبة في المستقبل التي لا يعلمها إلا الله جل جلاله، فالكاهن يجتمع مع الساحر في أنّ كلاًّ منهما يستخدم الجن لغرضه ويستمتع بالجن لغرضه.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أن الكِهانة استخدام الجن كفر وشرك أكبر بالله جل وعلا؛ لأنه لا يجوز أن يستخدم الجن في مثل هذه الأشياء واستخدام الجن في مثل هذه الأشياء لا يكون إلا بأن يتقرّب إلى الجن بشيء من العبادات، فالكهان لابد حتى يُخدموا بذكر الأمور المغيبة لهم أن يتقربوا إلى الجن ببعض العبادات؛ إمّا بالذبح أو الاستغاثة أو بالكفر بالله جل وعلا بإهانة المصحف أو بسب الله أو نحو ذلك من الأعمال الشركية الكفرية.

فالكهانة صنعة مضادة لأصل التوحيد، والكاهن مشرك بالله جل وعلا؛ لأنه يستخدم الجن ويتقرّب إلى الجن بالعبادات حتى تخدمه الجن، حتى تخبره الجن بالمغيبات، هذا لا يمكن إلا أن يتقرب إلى الجن بأنواع العبادات. ٣

والشيخ رحمه الله في هذا الكتاب يبيّن العقيدة الصحيحة، ويبيّن ما يضادّها من الشركيّات والكفريّات أو ينقصها من البدع والمحدثات.

وهذه هي الطريقة الصحيحة المتمشِّية مع الكتاب والسنّة؛ أنه يبيّن الخير ويوضِّحه، ثمّ يبيّن ضدّه من الشر؛ من أجل أن يكون المسلم على حذر، لأنه لا يكفي أن الإنسان يعرف الخير فقط، بل لابد مع معرفته للخير أن يعرف الشر؛ من أجل أن يتجنّبه، وإلاَّ إذا لم يعرف الشر فإنه حريٌّ أن يقع فيه وهو لا يدري بل قد يظنه خيراً.

فقوله: "باب ما جاء في الكُهّان ونحوهم" يعني: ومن كان مثلهم من العرّافين والرّمّالين وغير ذلك، لأن هذا باب يشمل كل ما هو من نوع الكِهانة.

والكِهانة معناها: ادّعاء علم الغيب، بطرق شيطانية. ٤

الكهان: جمع كاهن، وهو الذي يأخذ من مسترق السمع ويخبر عن المغيبات في المستقبل. ٩
والكاهن: لفظ يطلق على العراف، والذي يضرب الحصى، والمنجم.
وقال في المحكم: "الكاهن: القاضي بالغيب" [١].
وقال الخطابي: "الكهان فيما علم بشهادة الامتحان قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطبائع نارية فهم يفزعون إلى الجن في أمورهم ويستفتونهم في الحوادث فيلقون إليهم الكلمات"[٢]. ١
فالكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيّبات من الأشياء المستقبَلَة، والأشياء المفقودة والضالّة، بسبب أنه يخضع للشياطين، لأن الشياطين عندهم مقدرة ليست عند الإنس، فهم يرتفعون في الجوّ ويحاولون استراق السمع من السماء، ثمّ يُخبرون بما يسمعون من يخضع لهم من الإنس، ثمّ هذا الإنسي يأخذ الكلمة التي سُمعت من السماء، ويكذب معها مائة كذبة، من أجل أن يلبِّس على النّاس. ٤
والجن تصل إلى الأمور المغيبة التي تَصْدق فيها عن طريق استراق السمع، فإن بعضهم يركب بعضا حتى يسمعوا الوحي الذي يوحيه الله جل وعلا في السماء، فربما أدرك الشهاب الجني قبل أن يعطي الكلمة لمن تحته، وربما أدرك الشهاب الجني بعد أن ألقى الكلمة فتأتي هذه الكلمة للجن فيعطونها الكاهن فيكذب معها الكاهن أو تكذب معها الجن مائة كذبة حتى يعظم شأن الكاهن وتعظم عبادة الإنس للجن. ٣
ولا تُخبره الشياطين إلاَّ إذا أطاعهم، وكفر بالله سبحانه وتعالى، وأشرك بالله، ونفّذ ما تمليه عليه الشياطين من الكفر والشرك، وإلاَّ فالشياطين لا تطيع المؤمن، الموحّد لأنه لا يطيعها، وإنما تطيع من يأتي على رغبتهم في الكفر بالله والشرك بالله.

---

[١] المحكم (١٤٣/٤)
[٢] نقله الحافظ في فتح الباري (٢٢٩/١٠ شرح حديث ٥٧٥٨)

وكانت الكهانة سوقاً رائجة عند العرب في الجاهلية، وكان الكُهّان لهم شأن عند العرب، كل قبيلة لها كاهن يتحاكمون إليه، وكانت الشياطين تسترق السمع، وتُخبر به هؤلاء الكُهّان، فلما أراد الله بعثة نبيه محمداً ﷺ حُرست السماء بالشُّهب، ومنعوا من استراق السمع. كما قال تعالى حكاية عن الجن في أول سورة الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (٩)﴾ [الجن:٩]. ٤

وقبل بعثه النبي عليه الصلاة والسلام كان استراق السمع كثيرا جدا، وبعد بعثته عليه الصلاة والسلام حُرست السماء من أن تسترق الجن السمع؛ لأجل تنزل القرآن والوحي حتى لا يقع الاشتباه في أصل الوحي والنبوّة، وبعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام يقع الاستراق؛ ولكنه قليل بالنسبة لما كان عليه قبل البعثة.

فصارت عندنا أحوال استراق السمع ثلاثة:

قبل البعثة كثير جداً.

وبعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لم يحصل استراق من الجن، وإن حصل فهو نادر في غير وحي الله جل وعلا بكتابه لنبيه.

والحالة الثالثة: بعد وفاته عليه الصلاة والسلام رجع استراق السمع أيضاً؛ ولكنه ليس بالكثرة التي كانت قبل ذلك لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً.

والله جل وعلا بين ذلك في القرآن في آيات كثيرة من أن النجوم والشهب ترمي الجن كما قال جل وعلا ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر:١٨] ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن الشهب مُرْصَدَةٌ للجن. ٣

فلما بعث الله نبيّه ﷺ قَلّت الكِهانة عمّا كانت عليه في الجاهلية، وذلك لظهور الإسلام، ومعرفة الحق من الباطل، لكن لهم وجود مستمرّ إلى يومنا هذا.

وكلما فشا الجهل في الأمة ظهر الكُهّان، وكلما كثر العلم والتمسك بالدين والعقيدة الصحيحة قلّ الكُهّان، أو انقرضوا.

فالجهات التي فيها توحيد، وفيها إسلام صحيح، لا يوجد فيها كُهّان، وإن وُجدوا فإنهم لا يظهرون، ولا يُعرفون إلاَّ نادراً.

أما المجتمعات الهمجيّة، والمجتمعات التي فشا فيها الجهل والخرافات، فإن الكُهّان يكثرون فيها، وتكون لهم سوق رائجة فيها، كما كانت لهم في الجاهلية.

فمن أجل ذلك عقد الشَّيخ رحمه الله هذا الباب في موضوع الكُهّان، وبيان حكمهم، وحكم من يأتي إليهم وحكم من يسألهم ويصدّقهم؛ من أجل أن يكون المسلمون على حذر منهم، وأن لا يغتروا بهم، ولو ظهروا للناس باسم أطبّاء أو معالجين أو أصحاب خِبرة، فإن هذه الأسماء أسماء خدّاعة، لا تغيّر الحقيقة، فالكاهن كاهن مهما تسمّى بالأسماء التي يستتر بها.٤

تبينت لك حقيقة الكاهن، إذا ظهر ذلك فالكاهن قد يطلق عليه العراف، وهذا الاسم الكاهن أو العراف اسمان متداخلان، قد يكون أحدهما يدل على الآخر، وعند بعض الناس أو في بعض الفئات يُستخدم الكاهن للإخبار بما يحصل في المستقبل، ويُستخدم كلمة أو لفظ العراف لمن يُخبر عن الغائب عن الأعين مما حصل في الماضي ممثل مكان المسروق أو السارق من هو ونحو ذلك مما هو غائب عن الأنظار، وإنما يعلمه العراف بواسطة الجن.

والصحيح في ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أن العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم، ممن يتكلمون في معرفة الأمور بتلك الطرق، من تكلم بمعرفة الأمور المغيبة إما الماضية أو المستقبلة بتلك الطرق - طريق التنجيم، أو طريق الخط في الرمل، أو طريق الطرق على الحصى، أو الخط في الرمل بطريق الطرق، أو بالودع أو نحو ذلك من الأساليب أو بالخشبة المكتوب عليها أبا جاد، ونحو ذلك من قراءة الفنجان أو قراءة الكف- كل من يخبر عن الأمور المغيبة بشيء يجعله وسيلة لمعرفة الأمور المغيبة يسمى كاهنا ويسمى عرّافا؛ لأنه لا يحصل له أمرُه إلا بنوع من أنواع الكهانة. وسيأتي ذلك إن شاء الله.

قال رحمه الله (باب ما جاء في الكهان ونحوهم) يعني من العرّافين والمنجمين والذين يخطّون في الرمل والذين يكتبون على الخشب ونحو ذلك. ٣

ليس من الكهانة

وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب، فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهانة، لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلاً في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهانة في شيء، لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب، فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو، لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس، فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح، كما قال السفاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا ... فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك إلى الشرع، لكان ذلك طعناً بالشرع. ٥

خدمة الجن للأنس

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس، لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله عز وجل، إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط، لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: ((كل عظم ذكر اسم لله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة، فهي علف لدوابكم))[١]، وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئي من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها، فقالوا: ابحثي لنا عنه. فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة [٢]. ه.

روى مسلم في صحيحه، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((من أتى عرَّافاً فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)).[٣]

---

[١]مسلم: كتاب الصلاة/ باب الجهر بالقراءة في الصبح.

[٢]"آكام المرجان في أحكام الجان" (ص ٣٨).

[٣] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٢٢٣٠) دون زيادة (فصدقه)، وهي عند الإمام أحمد في مسنده (٦٨/٤) و(٣٨٠/٥) بسند صحيح.

قال: "روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ" ورد في رواية أخرى بأنها حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

عن النبي ﷺ قال: ((من أتى عرّافاً))

العرّاف قيل: هو الذي يُخبر عن الأمور الغائبة عن طريق الحَدْس والتّخمين والظّن. وقيل: هو الكاهن. فلا فرق بينهما -كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية-؛ أن العرَّاف اسم عام يدخل فيه كلّ من أخبر عن المغيّبات، سواء عن طريق الشياطين، أو عن طريق الحَدْس والتّخمين، أو عن طريق الخطّ في الرّمل، أو قراءة الكف والفِنْجَان، أو غير ذلك. ٤

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المسقيل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق، إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة. ٥

قال البغوي: "العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقتدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير". ٧

((فصدَّقه بما يقول لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً)) هذه اللَّفظة (فصدَّقه) ليست في صحيح مسلم، وإنما وردت في رواية الإمام أحمد في المسند. ٤

فالشيخ رحمه الله ذكر هذا اللفظ وعزاه لمسلم على طريقة أهل العلم في عزو الحديث لأحد صاحبي الصحيح إذا كان أصله فيهما لإتحاد الطريق أو نحو ذلك. ٣

ليست هذه اللفظة في مسلم فلعل المؤلف وهم أو نقله من نسخة فيها هذه الكلمة في مجموعة التوحيد. ٦

والذي في صحيح مسلم: ((من أتى عرَّافاً لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً))، فالحكم مرتّب على مجيء العرَّاف فقط، لأن إتيان العرّاف والذهاب إليه جريمة ومحرم حتى ولو لم يصدِّقه.
ولهذا لما سأل معاوية بن الحكم رسول الله ﷺ عن العرَّافين قال: ((لا تأتهم)) فالنبي ﷺ نهاه عن مجرّد إتيانهم. ٤
فـ ((مَنْ أَتَى عَرّافاً فَسَأَلَهُ)) بمجرد سؤال ولم يصدقه فإنه لا تقبل له صلاة أربعين يوماً. ٣

فهذا الحديث يدلّ على تحريم الذهاب إلى العرَّافين، حتى ولو لم يصدِّقهم، ولو قال: أنا أذهب من باب الإطلاع، فهذا لا يجوز.
((لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً)) في رواية: ((أربعين يوماً وليلة)).
فدلّ هذا على شدّة عقوبة من يأتي العرَّاف، وأن صلاته لا تُقبل عند الله، ولا ثواب له عند الله فيها، وإن كان لا يؤمر بالإعادة، لأنه صلّى في الظاهر، لكن فيما بينه وبين الله صلاته لا ثواب له فيها لأنها غير مقبولة.
وهذا وعيد شديد يدلّ على تحريم الذهاب إلى العرَّافين مجرّد الذهاب، ولو لم يصدِّق، أما إذا صدّقهم فسيأتي في الأحاديث ما عليه من الوعيد الشديد، والعياذ بالله. ٤
والمقصود من قوله ((لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا)) أنها تقع مجزئة لا يجب عليه قضاؤها؛ ولكن لا ثواب له فيها؛ لأن الذنب والإثم الذي حصّله حين أتى العرّاف فسأله عن شيء، يقابل ثواب الصلاة أربعين يوماً، فأسقط هذا هَذا، ويدل ذلك على عظم ذنب الذي يأتي العراف فيسأله العراف عن شيء ولو لم يصدقه، وهذا عند أهل العلم في حق من أتى العراف فسأله عن شيء رغبة في الإطلاع.
أما من أتى العراف فسأله للإنكار عليه وحتى يتحقق أنه عرّاف فلا يدخل في ذلك؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد. ٣

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام، أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازياً لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته. ٥

قوله ((لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)) إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول؟. ١

ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً، ولكنه ليس على إطلاقه، فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجرداً، فهذا حرام لقول النبي ﷺ: ((من أتى عرافاً...))، فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذا لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله: فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: ٦٥].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله، فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد، فقال: ((ماذا خبأت لك؟ قال: الدخ فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك))[١]، فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره، لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجباً.

---

[١] البخاري: كتاب الجهاد/ باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، ومسلم: كتاب الفتن/ باب ذكر ابن صياد.

وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجباً، فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى. ٥

فرواية مسلم تدل على أن السؤال المجرد لا يجوز لأن فيه رفعاً من شأنهم وسؤالهم وسيلة إلى تصديقهم وتعظيماً لقدرهم ولما يقومون به من الشعوذة فينبغي تركهم وتناسيهم، وعند مسلم عن معاوية بن الحكم قال "ليسوا بشئ، ولا تأتوهم" احتقاراً لهم وإعراضا عنهم وإماتة لهم ولشأنهم. ٦

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: ((من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)) رواه أبو داود.[1]

قوله: ((من أتى كاهناً)). تقدم معنى الكهان، وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: ((فصدقه)). أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: ((بما يقول)). "ما" عامة في كل ما يقول: حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه، لأن الأصل فيهم الكذب. ٥

هذا الحديث فيه شيئاًن:

الشيء الأول: المجيء إلى الكاهن.

والشيء الثاني: تصديقه بما يخبر به من أمر الكِهانة.

وحكمه: أنه يكون كافراً بما أنزل على محمَّد ﷺ، لأنه لا يجتمع التصديق بما أنزل على محمَّد والتصديق بما عند الكُهّان من عمل الشياطين. ضدّان لا يجتمعان، لا يمكن أن يصدِّق بالقرآن ويصدِّق بالكِهانة.

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٤٠٨/٢-٤٧٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (رقم٤٨٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٦/٣) ... وإسناده صحيح، وجود إسناده الحافظ في فتح الباري (٢١٧/١٠).

وظاهر هذا أنه يخرج من الملّة.

وعن أحمد روايتان في نوع هذا الكفر: رواية أنه كفر أكبر يُخرج من الملّة.

ورواية أنه دون ذلك. وفيه قول ثالث: وهو التوقّف، وأن يُقرأ الحديث كما جاء من غير أن يفسّر بالكفر الأكبر أو الكفر الأصغر، فنقول ما قاله الرسول ﷺ ويكفي.

ولكن الظاهر –والله أعلم– هو القول الأول؛ أنه كفر يُخرج من الملّة، لأنه لا يجتمع التصديق بالقرآن والتصديق بالكهانة، لأن الله أبطل الكِهانة، وأخبر أنها من عمل الشياطين، فمن صدّقها وصوّبها كان كافراً بالله كفراً أكبر. هذا هو الظاهر من الحديث. ٤

قوله: ((كفر بما أنزل على محمد)). وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى طرق الحصر، لأن فيه النفي والإثبات، فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب، فكفره كفر دون كفر. ٥

وكذلك الكاهن كافر إذا ادعى علم الغيب ومن صدقه كفر لأنه لم يؤمن بقوله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ٦

الحالة الثانية أن يأتي العراف فيسأل عن شيء فإذا أخبره الكاهن أو العراف صدّقه بما يقول. فالحديث الأول عن بعض أزواج النبي ﷺ فيه أنه ((لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا))، والحديث الثاني فيه أنه ((كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّدٍﷺ)) فيتضح بالحديثين أنّ الحالة الثانية هي من أتى العراف والكاهن فسأله عن شيء فصدقه أنه كفر بما أنزل على محمد ﷺ وأنه لا تقبل له صلاة أربعين يوماً.

وهذا الحال يدل على أن الذي أتى الكاهن أو العراف فصدقه، أنه لم يخرج من الملة؛ لأنه حد عليه الصلاة والسلام عدم قبول صلاته أربعين يوما، والكافر الذي حُكم عليه أنه كافر كفراً أكبر ومرتد وخارج من الملة فإن صلاته لا تقبل بتاتاً حتى يرجع إلى الإسلام.

- قال طائفة من أهل العلم دل قوله ((فَصَدّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا)) على أن قوله ((كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّدٍ)) أنه كفر أصغر وليس بالكفر المخرج من الملة، وهذا القول صحيح، وهو الذي يتعين الجميع بين النصوص فإن قول النبي عليه الصلاة والسلام ((مَنْ أَتَى عَرّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا)) يدل على أنه لم يخرج من الإسلام، والحديث الآخر وهو قوله ((مَنْ أَتَىَ كَاهِناً، فَصَدّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّدٍ)) يدل على كفره، فعلمنا بذلك على أن كفره كفر أصغر وليس كفر مخرج من الملة.

وهذا أحد الأقوال من مسألة كفر من أتى الكاهن فصدقه بما يقول.

- والقول الثاني أنه يتوقف فيه فلا يقال يكفر كفر أكبر ولا يقال أصغر، وإنما يقال هو كفر إتيان الكاهن وتصديقه كفر بالله جل وعلا ويسكت عن ذلك، ويطلق القول كما جاء في الأحاديث، وهذا لأجل التهديد والتخويف وهذا حتى لا يتجاسر الناس على هذا الأمر. وهذا هو مذهب الإمام أحمد، في المنصوص عنه.

- والقول الثالث من أقوال أهل العلم في ذلك أن الذي يصدق الكاهن كافر كفرا أكبر، كفره مخرج من الملة إذا أتى الكاهن فسأله فصدقه، أو صدق الكهان بما يقولون، قال طائفة من أهل العلم كفره كفر مخرج من الملة، وهذا القول فيه نظر من جهتين:

الجهة الأولى: ما ذكرناه من الدليل؛ من أن قوله عليه الصلاة والسلام ((لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يومًا)) يدل على أنه لم يكفر الكفر الأكبر، ولو كان كفر الكفر الأكبر يحدّ عدم قبول صلاته تلك المدة من الأيام.

والثاني: أن تصديق الكاهن فيه شبهة، وادّعاء علم الغيب أو تصديق أحد ممن يدعي علم الغيب كفر بالله جل وعلا كفر أكبر؛ لكن هذا الكاهن الذي ادعى علم الغيب -كما نعلم أنه يخبر بالأمور المغيبة فيما سبق فيه-، عن طريق استراق الجن للسمع، فيكون -إذن- هو نقل ذلك الخبر عن الجن، والجن نقلوه عمن سمعوه في السماء، وهذه شبهة قد يأتي الآتي الذي يأتي للكاهن ويقول أنا أصدقه فيما أخبر من الغيب؛ لأنه قد جاءه علم ذلك الغيب

من السماء عن طريق الجن، وهذه الشبهة تمنع من التكفير –تكفير تصديق الكاهن، تكفير من صدّق الكاهن–، الكفر الأكبر.

فصار عندنا أيضاً أن القول الأظهر أن كفره كفر أصغر وليس بأكبر لدلالة الأحاديث ولظهور التعليل في ذلك.

قال ((فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّدٍﷺ)) وهو القرآن؛ لأنه قد جاء في القرآن وما بينه النبي عليه الصلاة والسلام من السنة أن الكاهن والساحر والعراف لا يفلحون وأنهم إنما يكذبون ولا يصدقون. ٣

قوله: ((بما أنزل على محمد)). ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله، لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به. ٥

وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة ((من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)).[١]

قوله: "وللأربعة والحاكم". الأربعة هم: أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم ليس من أهل "السنن"، لكن له كتاب سمي "صحيح الحاكم".

قوله: "صحيح على شرطهما"، أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قول "على شرطهما" هذا على ما يعتقد، وإلا، فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: "على شرطهما"، أي: أن رجاله رجال "الصحيحين"، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

---

[١]رواه الإمام أحمد في المسند (٤٢٩/٢) ن والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٨/١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٥/٨) من طريق خلاس عن أبي هريرة، وصححه الحاكم على شرط البخاري وسلم، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح بشواهده.[١]

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخاري ومسلم، لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها. ٥

عزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك، فإنه لم يَرْوِهِ أحد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ، فإنه عزاه في الفتح إلى أصحاب السنن والحاكم؛ فوهم، ولعله أراد الذي قبله. ١

في هذا الحديث جمع بين الاثنين: العرَّاف والكاهن، فإذا جُمع بينهما فالكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيّبات بسبب ما تُلقيه عليه الشياطين. وأما العرّاف فهو الذي يُخبر عن المغيّبات بسبب الحَدْس والتّخمين والخطّ في الأرض، وما أشبه ذلك.

فإذا ذُكر الاثنان جميعاً صار لكل واحد معنى.

أما إذا ذُكر الكاهن وحده دخل فيه العرّاف، وإذا ذُكر العراف وحده دخل فيه الكاهن. ٤

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفاً.

قال: "ولأبي يعلى" أبو يعلى هو: أبو يعلى الموصلي، الإمام الحافظ.

"بسند جيّد عن ابن مسعود مثله" أي: مثل حديث أبي هريرة: ((من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمَّد ﷺ)) إلاَّ أنه موقوف على ابن مسعود، ولم يُرفع إلى النبي ﷺ، والموقوف: ما كان من كلام الصحابي. ٤

وهذا له حكم الرفع لأنه لا يقوله من رأيه بل لا يكون إلا عن النبي ﷺ. ٦

وهذا الأثر رواه البزار أيضاً وإسناده على شرط مسلم ولفظه: ((من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ))[1] وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما؛ لأنهما يدعيان علم الغيب، وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً. ١

[1] رواه الطبراني في الكبير (رقم١٠٠٠٥)، والبزار في مسنده (رقم ١٩٣١)، وأبو يعلى في مسنده (رقم٥٤٠٨)، والجصاص في أحكام القرآن (٦١/١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٦/٨) وغيرهم من طرق عن ابن مسعود به موقوفاً وهو أثر صحيح. وقال الحافظ في الفتح (٢١٧/١٠) عن سند أبي يعلى: (جيد).

فهذا يؤيّد ما سبق.

الأحاديث كلها تدل على تحريم الذهاب إلى الكهان والعرّافين، وتصديقهم بما يقولون. ٤

قوله: ((من أتى كاهنا)) إلى آخره قال بعضهم: "لا تعارض بين هذا الخبر، وبين حديث: ((من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة))، إذ الغرض في هذا الحديث أنه سأله معتقداً صدقه وأنه يعلم الغيب، فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة، أو أنه بالهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر"[1] كذا قال، وفيه نظر. وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان، لاعتقاده أنه يعلم الغيب، وسواء كان ذلك من قبل الشياطين أو من قبل الإلهام، لا سيما وغالب الكهان في وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين. ١

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه، لأن كثرة الأدلة مما يقوي المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقاً وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين. ٥

فقد دلت هذه الأحاديث على مسائل:

المسألة الأولى: بُطلان الكِهانة ومشتقّاتها من العِرافة وغير ذلك من دعاوى علم الغيب، وأن هذا كله باطل، لأن الغيب لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، والنبي ﷺ يقول الله عنه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أعلم الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فالرسول لا يعلم الغيب إلاَّ ما علمه الله، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧)﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، فقد يطلع الله أنبياءه على شيء من الغيب من أجل إقامة الحجّة على الخلق، وتكون معجزة لهذا الرسول.

---

[1] القائل هو المناوي في فيض القدير (٦/٢٣)

المسألة الثانية: في الحديث دليل على وجوب تكذيب الكُهّان ونحوهم، وأن لا يقع في نفس الإنسان أدنى شك في كذبهم، فمن صدّقهم، أو شك في كذبهم، أو توقّف؛ فقد كفر بما أُنزل على محمَّد ﷺ، لأنه يجب الجزم بكذبهم.

المسألة الثالثة: فيه دليل على تحريم الذهاب إلى الكهّان ولو لم يصدِّقهم، وأنه إذا فعل ذلك لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً.

المسألة الرابعة: فيه دليل على أن تصديق خبر الكُهّان كفر بما أنزل الله على رسوله محمَّد ﷺ، والذي أنزل الله على رسوله هو الكتاب والسنّة.

المسألة الخامسة: تدلّ هذه الأحاديث على وجوب معاقبة الكهان ومن يذهب إليهم من قِبَل ولاة الأمور، لأجل إراحة المسلمين من شرّهم، ووقاية المجتمع من خطرهم، لأن خطر الكُهّان في المجتمع خطر شديد يقضي على عقيدة التّوحيد، وينشر الخوف والرّعب بين الناس، لأن هؤلاء الكُهّان يُرهبون النّاس بما يقولون لهم من الكذب والوعيد والترهيب حتى يخيفوهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦)﴾ [الجن:٦]، يعني: خوفاً.

فهؤلاء وجودهم في المجتمع يسبب الإرهاب، ويسبب التشويش على عقول الناس، والخوف، ويروِّجون الكذب والشر، حتى يُصبح النّاس في خوف وقلق بسبب الكهّان، يأتونهم ويقولون لأحدهم: إن فلاناً عمل لك سحراً، أو ربطك، أو ربط فيك الجن، أو غير ذلك من أكاذيبهم وإرجافاتهم. ٤

وعن عمران بن حصين ﷺ مرفوعاً: ((ليس منا من تَطير أو تُطير له أو تَكهن أو تُكهن له أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)) رواه البراز بإسناد جيد[1]، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: ((ومن أتى..))[2] إلخ.

[1] رواه البزار في مسنده (رقم ٣٥٧٨) والطبراني في الكبير (١٦٢/١٨) وغيرها وإسناده حسن. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣/٤): إسناده جيد وحسنه غير واحد.[1]

[2] رواه الطبراني في الأوسط (رقم ٤٢٦٢)، وأبو يعلى في مسنده والبزار –كما في المطالب العالية (رقم ٢٤٩٥). والحديث صحيح لغيره.[1]

الطيرة: سيأتي لها باب خاص. ٤

قوله ((تطير)). التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذ شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم، فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً، فغامر فيه، ولا تشاءم، لأنك لم توفق فيه لأول مرة، فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة؟!

ويقال: إن الكسائي إمام النحو. طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته، فقال: سبحان الله! هذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذن أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح. فكابد، فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: ((أو تطير له)). بالبناء للمفعول، أي: أمر من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك، فقد تبرأ منه الرسول ﷺ. ٥

ومعنى: ((تكهّن)) فعل الكهانة. ومعنى: ((تُكُهِّن له)) فعلت الكهانة من أجله بطلبه. ٤

وهذا الحديث كالذي سبقه، يدل على تحريم الكِهانة، والذهاب إلى الكهان، لأنهم يفسدون عقيدة من يذهب إليهم، وبعضهم ربما تظاهر بذكر اسم الله أو يصلي، أو غير ذلك، حتى يقول من رآه: رأيته يصلي، رأيته يذهب للمسجد.

وما كل مَنْ يصلي يصير مسلماً، قد يصلي الإنسان ويزكّي ويصوم ويحج وهو كافر، إذا فعل ذلك نفاقاً أو ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، فالكاهن لو صلى ولو صام ولو حج، ولو تصدّق ولو زكّى لا تُقبل أعماله لأنه مشرك كافر، وكذلك الساحر.

وبعضهم يقول: أنا انتفعت من ذهابي إلى هؤلاء، أنا كنت مريضاً وانتفعت، وحصول الحاجة أو حصول الغرض ليس دليلاً على الجواز، فقد يُعطى الإنسان حاجته من باب الفتنة ومن باب الاستدراج والاختبار، والعبرة في كونه دلّ الدليل الشرعي على جواز هذا الشيء أو على تحريمه هذا هو الشأن.

والنبي ﷺ يقول: ((ليس منّا من تكهّن أو تُكُهِّن له، أو سحر أو سُحر له))، ويقول: ((ومن أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمَّد ﷺ)). ٤

الشاهد من هذا الحديث: قوله: ((ومن أتى كاهناً...)) إلخ، وقوله: "ورواه الطبراني في "الأوسط" بإسناد حسن من حديث ابن عباس..." إلخ، فيكون هذا مقوياً للأول. ٥

فمن ذهب إلى الكهّان فله حالتان:

الحالة الأولى: أن لا يصدِّقهم، ولكن يقول: أريد أن أرى ماذا عندهم؟.

فهذا لا تُقبل له صلاةٌ أربعين يوماً، لأن ذهابه إليهم محرّم، فعوقب بأنه لا تُقبل له صلاةٌ أربعين يوماً، إلاَّ إذا ذهب إليهم من أجل التثبت في شأنهم من أجل منعهم والقضاء على فسادهم.

أما إذا صدّقهم فقد كفر بما أُنزل على محمَّد ﷺ. ٤

و تصديقهم كفر أكبر. ٦

فهو لا يرجع سالماً أبداً، ممّا يدل على تحريم الذهاب إلى الكُهّان والمشعوذين والمدجِّلين. ٤

((ليس منا)) يدل على أن الفعل محرم، وبعض أهل العلم يقول إن قوله عليه الصلاة والسلام ((ليس منا)) يدل على أنه من الكبائر، فقال ((ليس منا من تَطير أو تُطير له)) والطيرة من الكبائر ((أو تكهن)) يعني ادعى علم الغيب وادعى أنه كاهن أو أخبر بأمور من المغيبة يخدع من رآه بأنه كاهن، قال ((أو تُكهن له)) يعني من رضي أن يتكهن له فأتى فسأل عن شيء ((أو سَحر أو سُحر له، ومَنْ أَتَى كَاهِناً، فَصَدّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمّدٍﷺ))، وهذا كله لأجل أنّ تصديق الكاهن فيه إعانة له على الشرك الأكبر بالله جل وعلا، هذا حكم الذي يأتي الكاهن.

أما الكاهن فذكرنا حكمه فإنه شرك الشرك الأكبر بالله؛ لأنه لا يمكن له أن يخبر بالأمور المغيبة إلا بأن يشرك. ٣

قوله ((ليس منا)) دليل على نفي الإيمان الواجب، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك والكهانة كفر. ٧

قوله: ((ليس منا)). تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال. ٥

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركاً، كالطيرة، أو كفرا كالكهانة والسحر، فمن رضي بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل: لقبوله الباطل واتباعه. ٢

ومن ادعى علم الغيب يستتاب وإلا قتل، وإذا لم يدع علم الغيب فإنه يعزر حتى لا يعود إليه.٦

وقوله "رواه البزّار بإسناد جيّد" البزّار هو: أبو بكر أحمد البزّار: صاحب "المسند "المعروف بـ "مسند البزّار"، وهو إمامٌ جليل، توفي على رأس القرن الثالث رحمه الله، ومسنده يعرف عند العلماء بـ "مسند البزّار".

وقوله: "ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عبّاس" أي: روى الطبراني هذا الحديث الذي رواه عمران بن حُصين من حديث ابن عباس.

"دون قوله: ((ومن أتى)) إلى آخره" يعني: روى منه أوله: ((ليس منا من تكهّن أو تُكُهِّن له، أو تطيّر أو تُطيِّر له، أو سحر أو سُحر له))، وبإسناد حسن، فهو يؤيِّد رواية البزّار عن عمران بن حُصين. ٤

قال البغوي: "العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

ثم ذكر الشَّيخ رحمه الله تفسير هذه الألفاظ التي وردتْ في الباب نقلاً عن "البغوي" وهو: الإمام الحافظ الجليل، محيي السنّة، الحسين بن مسعود البغوي، نسبة إلى "بَغْ" من بلاد المشرق، لأنها من حرفين، فإذا نُسب إلى اسم من حرفين تُزاد فيه (واو) فيقال: (بغوي) مثلاً. وهو: إمام جليل، سلفي العقيدة، وله مؤلَّفات جليلة، منها: "تفسير البغوي" المطبوع المعروف المتداوَل، وهو يشبه "تفسير ابن كثير" في التحقيق والأصالة وسلامة العقيدة، إلاَّ أنه أخصر من "تفسير ابن كثير"، ومنها: "شرح السنّة" الذي يتكوّن من حوالي أربعة عشر مجلّد، وقد طُبع والحمد لله، ومنها: "مصابيح السنّة" التي رتّبها وزاد عليها التِّبْريزي في كتاب "مِشْكاة المصابيح".

فهو إمامٌ جليل رحمه الله، وهو من أئمة الشافعية ويُلقّب بمحيي السنّة، لأنه إمامٌ مجدِّد رحمه الله.

"العرّاف: الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك" وهذا من الشيطان، فالشياطين تأتيه بذلك، لكن يتظاهر بعمل أشياء يظن النّاس أنّ هذه الأشياء من الأمور المباحة، لكن هذه رموز فقط، وإلاَّ في الحقيقة هو يتعامل مع الشيطان، وإلاَّ ما الذي يدريه عن مكان المسروق، وما الذي يدريه عن مكان الضالّة لولا أنه يتعامل مع الجن ومع الشياطين.

قال: "وقيل هو: الكاهن" أي: العرَّاف والكاهن سواء، لأنّ كلاًّ منهما يخبر عن الأمور الغائبة بواسطة الشياطين، فكلهم عملاء للشياطين، وإنِ اختلفوا في الاسم، هذا عرّاف، وهذا كاهن، فالمعنى واحد، والمهنة واحدة، وهي ادّعاء علم الغيب، وإن اختلف اللفظ.

"والكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيِّبات في المستقبل "بسبب أن الشياطين تُخبره بما تعلَم ممّا لا يعلمه الإنسان، لأن الشياطين تدري عن أشياء لا يعرفها الناس، فيخبرون النّاس في مقابل إن النّاس يخضعون لهم، ويفعلون ما يطلبونه منهم من الشرك والكفر بالله عزّ وجلّ، ويتقرّبون إليهم، فإذا تقرّب الإنسي إلى الجنيّ بما يريد خدمه الجني بما يطلبه منه من الأمور الغائبة.

"وقيل: هو الذي يُخبر عمّا في الضمير" يعني: عمّا في النفس، ولا يعلم ما في القلوب إلاَّ الله سبحانه وتعالى، لكن الشيطان قد يعرف شيئاً من هواجس الإنسان، لأنه هو الذي يوسوس للإنسان، ولأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيعرف الشيطان من الإنسان ما لا يعرفه الإنسان عن الإنسان.

هذا تفسير البغوي رحمه الله. ٤

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف، فقيل: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. ٥

وقال أبو العباس ابن تيمية: "العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق." [١]

قال: "وقال أبو العبّاس ابن تيمية" أبو العبّاس هذه كنيته، وليس له ابن اسمه العباس، لأنه لم يتزوّج رحمه الله، ولكن يجوز أنّ الإنسان يُكَنَّى بأبي فلان ولو لم يكن له ابن. ٤

ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه والله أعلم كان مشغولاً بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولداً مدفوناً إلى جانبه في دمشق، فإنه غير صحيح قطعاً. ٥

---

[١] مجموع الفتاوى (١٣٧/٣٥).

وهو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، شيخ الإسلام، الإمام المجدِّد المشهور، الذي نفع الله بعلومه، ولا يزال نفعه مستمرًّاً ولله الحمد، وكتبه لا تزال موضع تنافُس طلاب العلم للحصول عليها والإطلاع عليها، وهذا ممّا كتبه الله من الكرامة لهذا العالم الجليل؛ لصدْق نيّته، وإخلاصه وجهاده في سبيل الله عزّ وجلّ، وصبره واحتسابه.

قال: "العرّاف: اسم للكاهن والمنجِّم والرمّال ونحوهم" لأن كلمة العرّاف عامّة، يدخل تحتها كل من يدّعي معرفة المستقبل، سواءٌ بِكِهانة أو بتنجيم، أو بخط في الرمل، فكلهم يتعاملون مع الشياطين ويتقربون إليهم .ولهذا يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣]، وهذا يدخل فيه الكاهن والمنجِّم والرمّال والعرّاف، كلهم يدخلون تحت كلمة ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، وتتنزّل عليهم الشياطين، بخلاف الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإنهم تتنزّل عليهم الملائكة، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠)﴾، يعني: القرآن، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢]، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تتنزّل عليهم الملائكة من الرحمن، وأما الكهّان فتتنزّل عليهم الشياطين.

فهذا يشمل كل من يتكلّم في معرفة الأمور بهذه الطرق ممّن يُخبر عن هذه الأشياء بتلك الأمور التي يسمونها خطًّا في الرمل، إلى آخره. ٤

المنجم هو الذي يستخدم علم التأثير، يقول ظهر نجم كذا والتقى بنجم كذا فمعناه أنه سيحدث كذا وكذا، أو إذا ولد فلان أو إذا ولد لفلان ولد في برج كذا فإنه سيحصل كذا وكذا له من الفتن والفقر أو السعادة أو الشقاوة ونحو ذلك، فيستدلون على حركة النجوم على حال الأرض وحال الناس فيها، وسيأتي تفصيله إن شاء الله. قال (والرمال) الرمال هو صاحب الطرق أو يخط في الرمل أو يستخدم الحصى على الرمل يقال رمّال، (ونحوهم) يعني من مثل الذين يقرؤون الكف ويقرؤون الفنجان، أو في هذا العصر الذين يكتبون في الصحف والجرائد والمجلات البروج وما يحصل في ذلك البرج، وأنت إذا ولدت في هذا البرج معناه سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا، هذا كلها من أنواع الكهانة كما سيأتي. ٣

فهذا تفسير جامع.

وأما اختلاف الوسائل؛ هذا يستعمل كذا، وذا يستعمل كذا فلا عبرة بها، لأن النتيجة وهي ادّعاء علم الغيب؛ نتيجة واحدة.

والذي يهمنا النتيجة والحكم، فالنتيجة: الإخبار بعلم الغيب، وادعاء مشاركة الله سبحانه وتعالى في علم الغيب.

والحكم: أن كل هؤلاء كفرة، لأنهم يدّعون مشاركة الله تعالى في صفة من أعظم صفاته وهي علم الغيب. ٤

وقال أيضاً: "والمنجم يدخل في اسم العراف وعند بعضهم هو في معناه".[1]

وقال أيضاً: "والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين من جنس الكاهن وأسوء حالا منه فيلحق به من جهة المعنى".[2]

وقال الإمام أحمد: "العراف طرف من السحر والساحر أخبث".[3]

وقال أبو السعادات: "العراف المنجم والحازر الذي يدعي علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به".[4]

وقال ابن القيم: "من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً وعرافاً".[5]

والمقصود من هذا معرفة أن من يدعي علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن وإما مشارك له في المعنى فيلحق به وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطير والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة السحر ونحو هذا من علوم الجاهلية.

ونعني بالجاهلية كل من ليس من اتباع الرسل كالفلاسفة والكهان المنجمين وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ فان هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٩٣/٣٥)[1].

[2] مجوع الفتاوى (١٩٣/٣٥-١٩٤)[1].

[3] نقله أبن قدامة في الكافي (١٦٦/٤) باللفظ الذي ذكره الشيخ سليمان، وأورده في المغني (٣٧/٩). بلفظ: (العرافة طرف من السحر، والساحر أخبث)[1].

[4] النهاية في غريب الحديث والإثر (٢١٨/٣)[1].

[5] مفتاح دار السعادة (٢٢٩/٢)[1].

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناهما فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد. ١

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذا، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال، فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمال والمنجم ونحوهم، فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي، لأن عندنا عموماً معنوياً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموماً لفظياً، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملاً له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات.

الحال الأولى: أن يستخدم في طاعة الله، كأن يكون له نائباً في تبليغ الشرع، فمثلاً: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعاً، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمراً محموداً أو مطلوباً، وهو من الدعوة إلى الله ـ عز وجل، والجن حضروا النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء، لأن المنذر لابد أن يكون عالماً بما ينذر، عابداً مطيعاً لله سبحانه في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حراماً، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبل الصدقة في المكان الفلاني[1]، فهذا استخدام في أمر مباح.

---

[1] تقدم تخريجه

الحال الثلاثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كان الوسيلة شركاً صار شركاً، وإن كان وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثماً وعدواناً، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ [1]، وهي: ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم...)) الآية. ٥

وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات؛ فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقي؛ إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها بخلاف من يدعي أنه ولي لله ويقول للناس: أعلموا إني أعلم المغيبات فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسبابا محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال ﷺ في وصف الكهان ((فيكذبون معها مائة كذبة))[2] فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة.

وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه، لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم :٣٢] وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم، وعيبهم لها وخوفهم من ربهم.

فكيف يأتون الناس يقولون: اعرفوا أنَّا أولياء، وأنَّا نعلم الغيب.

---

[1] البخاري: كتاب الخلق/ باب صفة إبليس وجنوده.

[2] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٥٧٦٢)، ومسلم في صحيحه (رقم٢٢٢٨) عن عائشة

وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟ لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصِّدِّيق.[١]

وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته[٢]، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالي قيعودونه الناس[٣]، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلا خوفا من النار، ثم يقوم إلى صلاته ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الاولياء الأصفياء لا أهل الدعوى، والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك وليا لله؟ ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش البصائر، نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

فإن قلت: كيف يكون علم الخط من الكهانة؟ وقد روى أحمد ومسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ: "ومنا رجال يخطون فقال: ((كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك))[٤].

قلت: قال النووي: "معناه أن من وافق خطه، فهو مباح له، لكن لا طريق لنا إلى العلم باليقين بالموافقة، فلا يباح. والقصد أنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين"[٥].

---

[١] انظر: صحيح البخاري (رقم ٧١٦)، وصحيح مسلم (رقم٤١٨).

[٢] علقه البخاري في صحيحه (٢٥٢/١-البغا) عن عبد الله بن شداد، ووصله عبدالرزاق في مصنفه (رقم٢٧١٦). وإسناده صحيح كما قال النووي في خلاصة الأحكام (٤٩٧/١).[١]

[٣] رواه ابن أبي شيبة في المصنف (رقم ٣٤٤٥٧)، وأحمد في الزهد (رقم١١٩)، وأبو والحسن لم يدرك عمر بن الخطاب فسنده منقطع.[١]

[٤] رواه مسلم في صحيحه (٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

[٥] شرح صحيح مسلم (٢٣/٥)

وقال غيره: "المراد به النهي عنه والزجر عن تعاطيه، لأن خط ذلك النبي كان معجزة وعَلَماً لنبوته، وقد انقطعت نبوته ولم يقل: فذلك الخط حرام دفعاً لتوهم أن خط ذلك النبي حرام"[1].

قلت: ويحتمل أن المعنى أن سبب إصابة صاحب الخط هو موافقته لخط ذلك النبي، فمن وافق خطه أصاب. وإذا كان كذلك وكانت الاصابة نادرة بالنسبة إلى الخط –ولا طريق إلى اليقين بالموافقة– صار ذلك بالنسبة إلى من يتعاطاه من أنواع الكهانة لمشاركته لها في المعنى.

إذا علمت ذلك، فأعلم أن مذهب الإمام أحمد أن حكم الكاهن والعراف: الاستتابة، فإن تاباً وإلا قتلا. ذكره غير واحد من الأصحاب.

فأما المعَزِّمُ الذي يَعْزِمُ على المصروع، ويزعم أنه يجمع الجن وأنها تطيعه، والذي يحل السحر، فقال في (الكافي): "ذكرهما أصحابنا في السحرة الذين ذكرنا حكمهم. وقد توقف أحمد لما سئل عن الرجل يحل السحر، فقال قد رخص فيه بعض الناس. قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده[2] وقال: ما أدري ما هذا؟! قيل له: فترى أن يؤتى مثل هذا؟ يَحِلُّ؟ قال ما أدري ما هذا؟![3]

قال: "وهذا يدل على أنه لا يكفر صاحبه ولا يقتل".[4]

قلت: إن كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلى الجن، فإنه يكفر ويقتل، ونص أحمد لا يدل على أنه لا يكفر، فإنه قد يقول مثل هذا في الحرام البين. ا

وقال ابن عباس –في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم–: "ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق". [5]

---

[1] قاله المناوي في فيض القدير (٥٤٥/٤)

[2] في الكافي: فنفض يده كالمنْكِرِ

[3] رواه الأثرم ومن طريقه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤٤/٦)

[4] الكافي (١٦٦/٤)

[5] رواه ابن وهب في جامعه (رقم ٦٩٠)، ومعمر في جامعه (رقم ١٩٨٠٥) – واللفظ له –، وعبد الرزاق في مصنفه (رقم١٩٨٠٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٩/٨) وغيرهم عن ابن عباس وسنده صحيح.[1]

(أبا جاد) المراد بها: حروف الجُمَّل، التي هي: (أَبْجَدْ، هَوِّزْ، حُطِّيْ، كَلِمَنْ) إلى آخره، وهي حروف مقطّعة يكتبونها لتمييز الجمل، والمشعوذ إذا كتب هذه الحروف قال: يحدث كذا ويكون كذا. وهذه في الحقيقة طلاسِم. ٤

وقوله: "أبا جاد" هي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

جد بالرضا واعط المنى ... من ساعدوا في ذا البنا

فقوله: "اغفر لنا" لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢هـ.

وقد اعتنى بها العلماء في العصور الوسطى، حتى في القصائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثاني: محرم، وهو كتابة "أبا جاد" كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض، إما على سبيل العموم، كالجذب والمرض والجرب وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع في الأرض. ٥

وهؤلاء هم الذين قال فيهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:" ما أرى مَنْ فعَل ذلك" أي: كتب هذه الحروف، ونظر في النجوم، وأخبر أنه سيحدث كذا وكذا.

"له عند الله من خَلاق" أي: ليس له نصيبٌ من الجنّة عند الله عزّ وجلّ، ومعناه: أنه كافر، لأن الذي ليس له عند الله مِنْ خلاق هو الكافر، كما قال تعالى في السَّحَرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]. ٤

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله. ٥

ذلك لأن كتابة (أبا جاد) والنظر في النجوم يعني للتأثير نوع من أنواع الكهانة، والكهانة محرمة وكفر بالله جل وعلا. ٣

لأن فيه ادعاء لعلم الغيب وهو كفر. ٦

فهذا حكم عبد الله بن عبّاس ﷺ على أصحاب الطلاسم الذين يكتبون الحروف المقطّعة، وينظرون في النجوم، ويقولون: سيحدث كذا. فهذا من ادّعاء علم الغيب، وهو طريقة من طرق الكِهانة أو العِرافة أو التنجيم أو السحر، سمِّها ما شئت، لا يهمّنا الأسماء، الذي يهمّنا النتيجة والحكم الشرعي.

أما الذي يكتب (حروف الجُمل) لتمييز الجُمَل فقط وهو تمييز الفقرات؛ فهذا لا بأس به، مثلاً يقول: الفقرة (أ)، الفقرة (ب)، الفقرة (ج)، الفقرة (د) لا يدّعي به علم الغيب، وإنما يريد ترتيب الجمل فقط. ٤

بقي أن نقول: إن أصناف الكهانة كثيرة جدا وجامعها الذي يجمعها أنه يستخدم الكاهن وسيلة ظاهرية عنده ليُقنع السائل بأنه وصل إليه العلم عن طريق أمور ظاهرية علمية، تارة يقول عن طريق النجوم، وتارة يقول عن طريق الخط أو عن طريق الطرق، أو عن طريق الوَدَع، أو عن طريق الفنجان، أو عن طريق الكف، أو عن طريق النظر في الأرض في حصى يجعله، أو عن طريق الخشب ونحو ذلك، هذه كلها وسائل يغرُّ بها الكاهن من يأتيه.

في الحقيقة هي وسائل لا تحصِّل العلم ذاك؛ لكن العلم جاءه عن طريق الجن فهذه الوسيلة إنما هي وسيلة للضحك على الناس، وسيلة لكي يظن الظان أنها تؤدي إلى العلم، وأن هؤلاء أصحاب علم وفهم بهذه الأمور.

وفي الواقع هو لا يتحصَّل على العلم الغيبي عن طريق خط أو عن طريق فنجان أو عن طريق النظر في البروج أو نحو ذلك، وإنما يأتيه العلم عن طريق الجن، وهو يُظهر هذه الأشياء حتى يحصل على المقصود، حتى تصدقه الناس أنه لا يستخدم الجن ولكنه ولي من الأولياء.

كيف يستنتج هذه المغيبات كيف يستنتج المغيبات من هذه الأمور الظاهرية؟ في بعض البلاد كغرب إفريقيا وبعض شمالها ونحو ذلك، وهذا منتشر أيضاً في الشرق وفي كثير من البلاد، يجعلون من يتعاطى هذه الأشياء وليّا من الأولياء، ويقولون الملائكة تخبره بكذا، فهو لا يفعل الفعل إلا بإرشاد من الملائكة، فالذين يفعلون هذه الأفعال من الأمور السحرية أو الكهانية عندهم أنهم أولياء، ولهذا ترى بعض الشراح يذكر في مقدمة هذه الأبواب أن أولياء الله جل وعلا لا يتعاطون الشرك ولا يتعاطون مثل هذه الأمور، فأولياء الله مقيَّدون بالشرع وليسوا من أولياء الجن. ٣

والحاصل؛ أن هذا بابٌ عظيم؛ لأنه يعالج أمراضاً واقعة في العالم اليوم، لا أقول في العالم الكافر، لأنه ليس بعد الكفر ذنب، لكن في العالم الإسلامي، وربما يسمونه أعمالاً رياضية وفنوناً تشكيلية، ووُجود هذا الوباء؛ وباء السحرة والمشعوذين والدّجالين والكَهَنة والمنجِّمين، ويسمون هذا من باب الفنون، أو يسمونهم بأسماء تدلُّ على تبجيلهم، وعلى أنهم أصحاب علم، وأصحاب خبرة، أو أشد من ذلك يدّعون أنهم أولياء الله، وأنّ هذه كرامات تدلُّ على أنهم من أولياء الله، وهذه ليستْ كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، لأن الكرامات هي التي تجري على أيدي الصالحين، وليس لهم فيها تصرُّف منهم، وإنما هي من الله سبحانه وتعالى.

فالكرامات تجري على أيدي رجال صالحين مستقيمين على الكتاب والسنّة. والخوارق الشيطانية تجري على أيدي كفرة مشعوذين.

وأيضاً الكرامات لا صنع للآدمي فيها، وإنما يجريها الله سبحانه وتعالى، بخلاف هذه الخوارق الشيطانية، فهي حِيَل ومِهَن وحِرَف وتدجيل يعملونه هم، ويتظاهرون أمام النّاس أنه بسبب هذه الأشياء حصل ما حصل. وهو في الحقيقة إنما هو من عمل الشياطين الذين لا يراهم الناس.

فالحاصل؛ أنّ هذا بابٌ عظيم، ويشتمل على علاج لمرض خطير يتفشّى الآن في العالم الإسلامي، وهو مرض الكهنة والسحرة والمنجّمين والعرّافين؛ الذين صار لهم صوْلة وجولة في العالم، وأشدّ من ذلك إذا ادُّعِي أن هؤلاء من أولياء الله، وأنّ هؤلاء لهم كرامات، مع أنهم كفرة لا يصلون ولا يصومون ولا يتطهّرون من الجنابة!، وربما يقولون: هذا دليل على كرامتهم، وكونه لا يصلي لأنه وُضِعَتْ عنه التكاليف، ووصل إلى الله، والتكاليف هذه على النّاس العوام!

فالحاصل؛ أن هذا الباب إذا تأمّلته وجدت أن الشَّيخ رحمه الله لم يكتبه من فراغ، وإنما كتبه ليعالِج به أمراضاً متفشِّية، وازدادت الآن بحكم تأخر الزمان، وبحكم فُشُوِّ الجهل، وبحكم تقارب العالم وارتباط بعضه ببعض، وسريان الشرور في العالم بسرعة.

فيجب على طلبة العلم أن يتنبّهوا لهذه الأمور ويقوموا بالتحذير منها وإنكارها، لأن أكثر النّاس سُذَّج لا يعرفون هذه الأمور، فيغرِّرون بهم.

وأيضاً هم محتاجون للعلاج من الأمراض، فيقولون: هذه فيها منافع، وفيها علاج، ولا يدرون أن المضار التي فيها أكبر من المنافع، إن كان فيها منافع أو يدخلونها في قسم الفنون والمهارات.

فيجب على طلبة العلم أن يهتمُّوا بهذا الأمر وأن يتفهّموا هذا الأمر، ويتفقهوا فيه، ويعالجوا هذه الأمراض المتفشيّةِ التي تقضي على العقيدة، وتقضي على دين الإسلام، والعياذ بالله. ٤

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة، فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن لها شركاً، فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج من الملة، ولكن يسمى كفراً، لقول النبي ﷺ على إثر سماء كانت من الليل: ((هل تدرون ماذا قال ربكم؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)).

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه، فهذا من الأمور المباحة، لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين. ٥

[الأسئلة]

[س/ هناك رجل في منطقتنا يأتي إليه الناس عند فقْد أموالهم، فيعطيهم خيطا معقدا، ويقرأ عليه، ويطلب منهم أن يضعوه في المكان الذي فقده، فما حكم ذلك؟ وما حكم الصلاة خلفه؟

ج/ هذا من الكِهانة؛ لأن هذا الذي يعمل هذه الأشياء عراف، أو كاهن، وقد يكون ساحرا -أيضاً-، فلا يجوز عمل مثل هذا العمل، ولا يحل لأحد أن يعين أحدا يدَّعي معرفة شيء من علم الغيب، والصلاة خلفه لا تجوز؛ لأن هذا إما أن يكون عرافا، أو كاهنا، أو ساحرا، وهؤلاء لا تجوز الصلاة خلفهم. نعم]. ٣

وقفة:

حكم العراف والكهانة وحكم سؤال العرافين والكهان:

١- حكم الكهانة والعرافة: الكاهن والعراف يكفر من وجهين:

- إذا كان يستخدم الجن فيما يدعي علمه به فهو كافر كفر أكبر؛ لأن الجن لا تخدمه حتى يكفر بالله ويهين القرآن وغير ذلك من أعمال الكفر التي تخالف التوحيد.

- إدعاؤه للغيب وهذا مكفر آخر.

٢- أما حكم سؤالهما: له حالات:

- أن يسأله سؤالاً مجرداً، فهذا حرام لا تقبل له صلاة أربعين يوماً كما في الحديث.

- أن يسأله ويصدقه وهذا في تفصيل: (قلت: وهذا فيه خلاف كما تقدم)[١].

إن صدقه على أنه فعلاً يعلم الغيب فقد كفر للحديث.

إن سأله وهو يعلم أنه يستخدم الشياطين وقد يصيب وقد يخطئ فهذا فهذا على خطر عظيم، وقد وقع في كبيرة من الكبائر.

أن يسأله ليختبره فلا بأس به لسؤل النبي ﷺ ابن صياج عن الخبيء الذي خبأه له.

أن يسأله ليبين كذبه وعجزه فهذا مطلوب، بل قد يكون واجباً.

٣- على المسلم أن يقوي صلته بالله، ويعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، وأن الأمر كله بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومقاليد الأمور كلها عنده سبحانه، فعلق نفسك به واطلب منه العون، وتوكل عليه في شؤونك كلها، فلا تطلب من دونه وكيلاً. ٩

ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا، قتلوا كفراً.

---

[١] من عندي.

وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون، لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم، لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم، فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا، قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام. ٥

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

إن أعمال الكهانة وغيرها إما أن تكون ناقضة لأصل التوحيد وقد تكون قادحة في كمال التوحيد إذا استعملها من باب العبث. ٩

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

تؤخذ من قوله: ((من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد))، ووجهه: أنه كذب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر. ٥

الثانية: التصريح بأنه كفر.

تؤخذ من قوله: ((فقد كفر بما أنزل على محمد)). ٥

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

تؤخذ من حديث عمران بن حصين، حيث قال: ((ليس منا))، أي: إنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه. ٥

الرابعة: ذكر من تُطير له. تؤخذ من قوله: ((أو تطير له)). ٥

الخامسة: ذكر من سحر له.

تؤخذ من قوله: ((أو سحر له)). ٥

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له، أو سحر له، أو تطير له، لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا من المتطيرين، وهذا في السحرة، فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك، فهو مثلهم في العقوبة. ٥

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد. وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم، إلا على حسب الحال التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك. ٥

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن، فمهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها، فهو أعم من الكاهن، لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل، فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان، فالكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل والعراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. ه

(بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّشْرَةِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّشْرَةِ)

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ النَّشْرَةِ فقَالَ: ((هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)). رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ. وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا فقَالَ: "ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ".

وَفِي البُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: "قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ". ا.هـ.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: "لَا يَحِلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ".

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: "النَّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

أَحْدَاهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، وَيُبطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.

وَالثَّانِي: النَّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فهَذَا جَائِزٌ".

مناسبة هذا الباب لِما قبله: أن الشَّيخ لَمّا ذكر في الأبواب السابقة السّحر وما جاء فيه، وذكر أنواعاً من السحر، وذكر ما يعمّ السحر وغيره من أعمال الشياطين؛ وهو الكِهانة والعِرافة وكل ما هو من هذا القبيل من الشعوذات؛ انتقل إلى بيان حكم النُّشرة، فقال:

"باب ما جاء في النُّشرة "يعني: من الأحاديث والآثار التي تدلّ على حكمها في الشرع.

وهذا في غاية المناسبة؛ لأن النّاس في حاجة إلى معرفة ذلك، لأن السحر موجود، ومن النّاس من يُبتلى به ويقع عليه السحر ويتضرّر به، والله تعالى ما أنزل داء إلاَّ أنزل له شفاء، عِلِمه مَنْ علِمه وجهله مَن جهِله، فلابد أن نعرف ما هو الدواء الصحيح للسحر، الدواء الذي لا يمس العقيدة، ونعرف- أيضاً ما يخالف العقيدة فنتجنّبه، وأيضاً: هناك من السحرة من يقول للناس: أنا أُعالج السحر، وأنا وأنا؛ فهذا أمرٌ واقع لابد من معرفته وبيان حكمه للناس.

والنُّشرة -بضم النون وسكون الشين- مأخوذة من (النّشر) وهو التفريق؛ وهي -كما فسّرها الإمام ابن القيم-: حلّ السحر عن المسحور. وهي ضرب من العلاج، سمي نشرة: لأنه يُنشر به، أي: يزال ما أصاب المريض وما خامره من الداء. ٤

في اللغة، بضم النون: فعلة من النشر، وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه. ٥

النشرة متعلقة بالسحر وأصلها من النَّشْر وهو قيام المريض صحيحاً، النشرة اسم لعلاج المسحور، سميت نُشرة لأنه ينتشر بها أي يقوم ويرجع إلى حالته المعتادة.

وقول الشيخ رحمه الله هنا (باب ما جاء في النشرة) يعني من التفصيل يعني وهل النشرة جميعاً وهي حل السحر مذمومة؟ أو أن منها ما هو مذموم ومنها ما هو مأذون به؟

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهي أنه كما أن السحر شرك بالله جل وعلا يقدح في أصل التوحيد، وأن الساحر مشرك الشرك الأكبر بالله، فالنُّشرة التي هي حل السحر قد يكون من ساحر، وقد يكون من غير ساحر بالأدوية المأذون بها أو الأدعية ونحو ذلك، فإذا كان من ساحر فإنها مناقضة لأصل التوحيد ومنافية لأصله.

فإذن المناسبة ظاهرة في الصلة بين هذا الباب وباب ما جاء في السحر، وكذلك مناسبتها لباب التوحيد؛ لأن كثيرين ممن يستعملون النشرة يُشركون بالله جل وعلا.

والنشرة -كما سمعتم- في الباب قسمان: نشرة جائزة ونشرة ممنوعة.

النشرة الجائزة: هي ما كانت بالقرآن أو بالأدعية المعروفة أو بالأدوية عند الأطباء ونحو ذلك، فإن السحر يكون كما ذكرنا عن طريق الجن، والسحر يحصل منه إمرار حقيقة في البدن، ويحصل منه تغيير حقيقة في العقل والذهن والفهم، وإذا كان كذلك فإنه يعالَج بالمضادات التي تزيل ذلك السحر، فمما يزيله القرآن، والقرآن هو أعظم ما ينفع في إزالة السحر، كذلك الأدعية والأوراد ونحو ذلك مما هو معروف من الرقى الشرعية.

ونوع من السحر يكون في البدن يعني من جهة عضوية فهذا أحيانا يعالَج بالرقى والأدعية والقرآن، وأحيانا يعالَج عن طريق الأطباء العضويين، وذلك لأن السحر -كما قلنا- يمرض حقيقة فإذا أزيل المرض أو سبب المرض فإنه يبطل السحر، ولهذا قال لك ابن القيم في آخر الكلام "والثاني النشرة بالرقية والتعويذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز" لأنه يحصل منه المرض وإذا كان كذلك فإنه يعالج بما أذن به شرعاً من الرقى والأدوية المباحة.

والقسم الثاني من النشرة: وهي التي من أنواع الشرك أن يُنشَّر عنه -بغير الطريق الأول- بطريق السحر، فيحل السحر بسحر آخر، يحل السحر الأول بسحر آخر، وذكرنا أن السحر لا ينعقد أصلا إلا بأن يتقرب الساحر إلى الجني أو أن يكون الجني يخدم الساحر الذي يشرك بالله دائما فيخدم، كذلك حل السحر لا بد فيه من إزالة سببه وهو خدمة شياطين الجن للسحر، وهذا لا يمكن إلا الجن، فإن الساحر الثاني الذي يُنَشِّر السحر ويرفع السحر لابد أن يستغيث أو يتوجه إلى بعض جنه في أن يرفع أولئك الجن الذين عقدوا هذا السحر أن يرفعوا أثره، فصار إذن هذه الجهة أنها من حيث العقد والابتداء لا يكون إلا بالشرك بالله، ومن حيث الرفع والنشر لا تكون إلا بالشرك بالله جل وعلا، ولهذا قال "لا يحل السحر إلا ساحر" يعني لا يحل السحر بغير الطريق الشرعية المعروفة إلا ساحر، لا يأتي أحد ويقول أنا أحل السحر هل تستخدم القراءة والتلاوة والأدعية؟ قال: لا، قال: أنت طبيب تُطِبُّ ذلك المسحور؟ قال: لا، إذن فهو ساحر، إذا لم يستخدم الطريق الثانية فإنه لا يمكن أن يحل السحر إلا ساحر؛ لأنه فكُّ أثر الجن في ذلك السحر ولا يمكن إلا عن طريق شياطين الجن الذين يؤثرون على ذاك. ٣

عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: ((هي من عمل الشيطان))[1] رواه أحمد بسند جيد. وأبو داود، وقال: سئل أحمد عنها فقال: "ابن مسعود يكره هذا كله"[2].

السائل سأله عما كان معهوداً معروفاً عندهم في هذا الاسم وهو اسم النشرة، والذي كان معروفاً معهوداً هو أن اسم النشرة إنما هو من جهة الساحر، النشرة عند العرب هو حل السحر بمثله، هذه هي النشرة عند العرب، ولهذا سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن النشرة فقال ((هي من عمل الشيطان)) وقال العلماء (ال) ألف ولام التعريف في قوله (النشرة) هذه للعهد؛ يعني النشرة المعهود استعمالها وهي حل السحر بمثله، فقال عليه الصلاة والسلام ((هي من عمل الشيطان)) لأن رفع السحر لا يكون إلا بعمل شيطان جني ولهذا قال عليه الصلاة والسلام هي يعني الرفع والنشر من عمل الشيطان؛ لأن العقد أصلا من عمل الشيطان والرفع والنشر من عمل الشيطان.

فإذن هو سؤال عن النشرة التي كانت تستخدم في الجاهلية. ٣

قوله: ((من عمل الشيطان))، أي: من العمل الذي يأمر به الشيطان ويوحي به، لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحي إلى أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد، لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجواز، بل إذا رتبت العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه. ٥

وهي على نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك، كانت شركاً، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك، كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر، كالأدوية والرقى والعقد والنفث وما أشبه ذلك، فهذا له حكم السحر على ما سبق.

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٢٩٤/٣)، وأبو داود في سننه (رقم ٣٨٦٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥١/٩)، وغيرهم وإسناده حسن كما قال الحافظ في الفتح (٢٣٣/١٠).

[2] قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٦٣/٣): "قال جعفر: سمعت أبا عبد الله سئل عن النشرة فقال: ابن مسعود يكره هذا كله".

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طستاً فيه ماء ويصبون عليه رصاصاً ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الرصاص، فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال: إن بعض الناس أجازها، فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طست، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ما هذا؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر وكره الخوض فيه. ٥

رواه "الإمام" أحمد في "مسنده بسند جيِّد، وأبو داود" في سننه.

"وقال" أي: أبو داود، لأن أبا داود من تلاميذ الإمام أحمد، وروى عنه كثيراً من المسائل في المذهب، ويوجد الآن مجلّد مطبوع اسمه "مسائل أبي داود" وهي المسائل التي رواها أبو داود من أجوبة الإمام أحمد على الأسئلة التي تَرِدُ عليه.

"قال: سُئل أحمد عنها" يعني: عن النُّشرة؛ ما حكمها؟ "فقال: ابن مسعود يكره هذا كله" أي: يحرم النُّشرة، لأن السلف يريدون بالكراهة التحريم، والمراد النُّشرة التي هي من عمل الجاهلية. ٤

فقال: "ابن مسعود يكره هذا كلَّه"، "يكره هذا كلَّه" يعني أن تكون النشرة عن طريق التمائم التي فيها القرآن؛ لأنه مرّ معنا فيما سبق أن ابن مسعود كان يكره جميع أنواع التمائم حتى من القرآن كما قال إبراهيم النخعي رحمه الله: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن ومن غير القرآن. يعني أصحاب ابن مسعود، وابن مسعود كذلك، فابن مسعود كان يكره التمائم من القرآن وهو أن يعلق شيء من القرآن لأي غرض لدفع العين أو لإزالة السحر ورفع الضرر، لهذا الإمام أحمد لما قال أبو داود (سئل أحمد عنها) يعني عن النشرة التي تكون بالتمائم من القرآن (فقال: ابن مسعود يكره هذا كله).

أما النشرة باستخدام النفث والرقية من غير تعليق، فلا يمكن للإمام أحمد ولا لابن مسعود أن يكرهوا ذلك؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام استخدام ذلك وأذن به عملا في نفسه وكذلك في غيره عليه الصلاة والسلام. ٣

والمشار إليه في قوله: "يكره هذا كله" كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح على ما يأتي، لكنه غير مراد، لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهته، وسبق أن ابن مسعود ﷺ كان يكره تعليق التمائم من القرآن وغير القرآن.

وعلى هذا، فالكلية في قول أحمد: "يكره هذا كله" يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان، وهي النشرة بالسحر والنشرة التي من التمائم.

وقوله: "يكره". الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى، فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم. ٥

وفي "البخاري" عن قتادة: "قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه".[١] ا.هـ.

قال: "وفي البخاري" أي: في "صحيح البخاري".

عن قَتادة هو: قتادة بن دِعامة السدوسي، نسبةً إلى جده سَدوس، وكان من أكبر علماء التابعين، ويُقال: إنه وُلد أكْمه يعني: ليس له عينان. وكان نادراً في الحفظ والذّكاء والفقه رحمه الله، حتى كان من كبار التّابعين.

"قلت لابن المسيّب" المراد به: سعيد بن المسيّب، أحد أعلام التّابعين وأحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتوى في زمانهم، وهو عالِم المدينة وفقيهها.

---

[١] علقه البخاري في صحيحه. كتاب الطب. باب هل يُستخرج السحر (٢١٧٥/٥)، ووصله ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم٢٣٥٢٣) بنحوه، والأثرم في السنن —كما في التغليف (٤٩/٥)-، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤٤/٦) وإسناده صحيح كما قال الحافظ في تغليف التعليق.

"رجلٌ به طِب" يعني: أنّ قتادة بن دِعامة سأل شيخه سعيد بن المسيّب عن رجل به طبّ.
والطِّبّ معناه: السحر، يقال: مطبوب يعني: مسحور، قالوا: وهذا من باب التّفاؤل، لأنّ الطب معناه العلاج، كما يقولون لِلَّديغِ: سليم، من باب التفاؤل بالشّفاء.
"أو يؤخّذ عن امرأته" يؤخّذ: معناه: يُمنع عن جماع امرأته فلا يستطيع جماعها بسبب السّحر.٤
وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها، فينفك السحر.
لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح، فالطلاق هنا جائز، لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً . ٥

"أَيُحَلُّ عنه أو يُنشر"؟
قوله: "أيحل عنه أو ينشر". لا شك أن "أو" هنا للشك، لأن الحل هو النشرة. ٥

يُحَل وينشَّر بمعنىً واحد، يعني: هل يجوز أن يحلّ عن هذا المطبوب أو هذا المؤخَّذ ما أصابه؟.
فأجابه ابن المسيّب رحمه الله بقوله: "لا بأس" لا بأس أن يحلّ عنه أو ينشّر.
وقوله: "إنّما يريدون به الإصلاح" أي: حلّ السحر يراد به االإصلاح، بخلاف السحر نفسه فإنّما يُراد به الضّرر، أما حلّه فيُراد به الإصلاح وإزالة المرض عن الإنسان.
"فأمّا ما ينفع فلم يُنْهَ عنه" أي: أنّ الشارع جاء بإباحة ما ينفع وتحريم ما يضرّ، والنُّشرة من القسم الثني، أي: من الشيء النّافع. ٤
يريد ابن المسيب بذلك ما ينفع من النشرة بالتعوذات والأدعية والقرآن والدواء المباح ونحو ذلك، أما النشرة التي هي بالسحر فابن مسعود[١] أرفع من أن يقول: إنها جائزة ولم ينه عنها. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول ((هي من عمل الشيطان)).

---
[١] الشيخ حفظه الله يريد ابن المسيب.

"لهذا قال لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينهَ عنه"، "أما ما ينفع" يعني من الأدوية المباحة ومن الرقى والتعويذات الشرعية وقراءة القرآن ونحو ذلك فهذا لم ينه عنه؛ بل أذن فيه.

إذن فالسحر بلاء، وسئل ابن المسيب عن هذا الذي به طب -يعني سحر- أو يأخّذ عن امرأته بصرف القلب عنها: أيُحَلُّ عنه أو يُنشّر بأصل الحل والنشر؟ يعني أيجوز أن يُرفع ذلك الطَبِّ الذي به، أو ذلك الأخذ عن امرأته بأي وسيلة؟ فقال: نعم؛ ما ينفع فلم ينه عنه إنما يريدون به الإصلاح. ومعلوم أنه يريد بذلك ما أذن به في الشرع من القسم الذي ذكرناه فيه من جواز من استخدام الرقى والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. ٣

وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا؟ فأما أن يكون ابن المسيب يفتي بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر؛ فلا يُظَنُّ به ذلك، بل حاشاه منه، ويدل على ذلك قوله: إنما يريدون به الإصلاح، فأيُّ إصلاحٍ في السحر؟ بل كله فساد وكفر. والله أعلم.[1] ١

كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روي عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روي عن ابن المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر، فلا يحل، والله أعلم.

ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزاً في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: ((هي من عمل الشيطان)). ٥

---

[1] راجع تفصيل المسألة في فتح الباري (١٠/٢٣٣)

وروي عن الحسن أنه قال: "لا يحل السحر إلا ساحر"[1].

قال ابن القيم: "النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، ويبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز".

قوله: "ورويَ عن الحسن" الحسن هو: ابن أبي الحسن البصري، أحد أعلام التّابعين بالفقه والعلم والوَرِع والعبادة -رحمه الله-.

وقوله: "لا يحلّ السحر إلاَّ ساحر" هذا يتّفق مع الحديث ومع قول ابن مسعود، ويختلف مع قول ابن المسيب.

قوله: قال ابن القيم: "النُّشرة حلّ السحر عن المسحور، وهي نوعان".

جمع ابن القيم -رحمه الله- بين هذا الحديث وهذه الآثار في كتابه "زاد المعاد" فقال: "وهي نوعان: أحدهما: حلٌّ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن" يعني: في قوله السابق: "لا يحلّ السحر إلاَّ ساحر" وقصده: حلّ السحر بسحر مثله، وهذه هي النُّشرة التي سُئل عنها رسول الله ﷺ.

قوله: فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب" النّاشر هو: الذي يعمل النُّشرة.

والمنتشر هو: الذي تُعمل له النُّشرة، كلٌّ منهما -المريض والساحر- يتقرّب إلى الشيطان بما يحبّه، فيخضعان له، فيطيعانه فيما يريده منهما من الشرّك والكفر بالله عزّ وجلّ، وفعل المحرمات ، فيبطل الشيطان عمله عن المسحور، لأنّ السحر من عمل الشيطان، وذلك في مقابل إفساد دينهم وعقيدتهم. فهذا هو الممنوع.

---

[1] أخرجه ابن جرير الطبري في التهذيب كما في فتح الباري (١٠/٢٣٣)[2]

فلا يجوز لمن أصابه السحر أن يذهب إلى السحرة، لأنّه إذا ذهب إلى السّحرة فإنه حينئذ يتقرّب إلى الشيطان بما يحبّ، وحينئذ يُزيل الشيطان عمله عن المسحور، لكن بعدما يفسد عقيدته ودينه، فيخسر الدّنيا والآخرة.

قال الإمام ابن القيم: "والثاني: النُّشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة؛ فهذا جائز" أي: النّوع الثّاني من النُّشرة: حلّ السحر بغير السّحر ممّا أباحه الله عزّ وجلّ، فالله ما أنزل داء إلاَّ أنزل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله، والسحر داء ولابد أن الله أنزل له شفاء والرقية المباحة أنواع:

النوع الأول: حلُّ السحر "بالرقية" بأن يُقرأ على المسحور من كتاب الله عزّ وجلّ، فتُقرأ عليه الفاتحة التي هي أعظم الرقى، ويقرأ عليه الآيات التي تتعلّق بذكر السحر وإبطاله، مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢]، وفي سورة يونس: ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾ [يونس:٨١-٨١]، وفي سورة طه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)﴾ [طه:٦٩-٧٠].

هذه الآيات من سورة الأعراف ومن سورة يونس ومن سورة طه، يقرأها الرّاقي على المسحور بقلب حاضر وتوكّل على الله سبحانه وتعالى، وحسن ظنّ بالله، واعتقاد أنّ الله يشفي هذا المريض.

ثم على المقروء عليه أن يعتقد هذه العقيدة؛ فيرجو الشفاء من الله، ويثق بالله عزّ وجلّ، ويتوكّل عليه، ويعتقد أنّ كلام الله جل وعلا فيه الشّفاء.

فإذا حصل هذا التوجه إلى الله والتوكّل عليه من الرّاقي والمرقي حصلت النتيجة بلا شكّ ولا رَيْب.

وإنّما تتخلّف النتيجة إذا تخلّف اعتقاد الإنسان، أو غفل عن ذلك. ٤

ويجب أن نعلم أن القرآن كله شفاء، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾.

فالقرآن يفك السحر إن طال الزمن أو قصر، لكن لنعلم أمرين:

– الأمر الأول: قوة الراقي بالقرآن فيعتقد الراقي أن الشفاء بالقرآن، ولا يقول: أجرب، فالقضايا والحقائق القرآنية غير قابلة للتجربة.

– الأمر الثاني: المريض المسحور أو غير المسحور يجب أن يعتقد أن القرآن شفاء، لا يقل: ذهبت إلى البلد الفلاني ولم استفد، وذهبت إلى المستشفى الفلاني ولم أستفد، فإذاً (أُجرب القرآن) فالقرآن ليس ميداناً للتجربة، فيجب أن يتلقاها المريض بكل يقين لأن فيه الشفاء، فالشفاء قد يكون في يوم أو شهر أو سنة أو قد يطول، فعليه بالمواصلى والدعاء. ٩

النوع الثاني: حلّ السِّحر "بالتعوذات"، وهي الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ، فإننا نذكر بعضاً منها: ((أعيذك بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلَق))، ((أُعيذك بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة))، ((أُعيذك بكلمات الله التّامّات التي لا يجاوزهنّ بَرّ ولا فاجر، من شرّ ما خلق وذَرَأَ وبرأَ، ومن شرّ طوارق اللّيل والنهار، إلاَّ طارقاً يطرق بخير يا رحمن))، ((باسم الله أرقيك، من كلّ داء يؤذيك، من شر كلّ نفس وعين حاسد، الله يشفيك))، ((باسم الله، أذهب البأس ربّ النّاس، واشفه أنت الشّافي لا شفاء إلاَّ شفاءُك، شفاء لا يغادر سقماً))، ((ربّنا الله الذي في السّماء، تقدّس اسمك، أمرُك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت ربّ الطيّبين، أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا المرض. فيبرأ بإذن الله)). هذه هي التعوّذات.

النوع الثالث: الرقية بـ "الأدوية المباحة" فهناك أدوية مباحة يُذهب الله بها السّحر، يعرفها الحُذّاق وأهل التجربة وأهل العقيدة السليمة. ٤

ومن ذلك ما ذكره بعض المتقدمين أنه تؤخذ ورقات من شجر السدر الأخصر فتدق ويجعل في ماء ثم يقرأ عليه هذه الآيات فيشرب المسحور منه أو المحبوس ثلاث مرات ما تيسر ثم يغتسل بالباقي فيزول عنه ما أصابه. ٦

قال ابن بطال في كتاب وهب بن منبه: "أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله"[1]. ١

تنفع بإذن الله في إزالة السحر، مع ذكر الله، ومع التعوّذ، ومع الرّقية، ومع قراءة القرآن، فإذا اجتمعت هذه الأمور المباحة نفع الله بها، لكن بشرط حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ واعتقاد أن الشّفاء من الله سبحانه وتعالى.

فالحاصل؛ أنّ النشرة كما ذكر ابن القيِّم: منها شيء محرّم، وهي النّشرة التي كانت تُعمل في الجاهليّة، وهي ما يعمله السحرة.

ومنها شيء مباح وهي النشرة الشرعية، لكن يشترط لها أن يتولاها من يوثق بعلمه ودينه، لا أن يتولاها أصحاب المطامع الدنيوية، أو المشعوذين الذين يفسدون عقائد الناس، ويرهبونهم بالكذب والتدجيل. ٤

إذا تبين ذلك فإن حكم حل السحر بمثله أنه لا يجوز ومحرم؛ بل هو شرك بالله جل وعلا؛ لأنه لا يحل السحر إلا ساحر.

بعض العلماء من أتباع المذاهب يرى جواز حل السحر بمثله إذا كان للضرورة كما قال فقهاء مذهب الإمام أحمد في بعض كتبهم: ويجوز حل السحر بمثله ضرورة.

وهذا القول ليس بصواب؛ بل هو غلط لأن الضرورة لا تكون جائزة ببذل الدين والتوحيد عوضاً عنها.

---

[1] شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٤٦/٩)، وانظر فتح الباري (٢٣٣/١٠)

معروف أنّ الأصول الخمسة أوّلُها -يعني التي جاءت بها الشرائع- حفظ الدين، وما هو دونها مرتبة لا يبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى، وضرورة الحفاظ على النفس هذه لا شك أنها من الضروريات الخمس لكنها دون حفظ الدين مرتبةً، ولهذا لا يقدم ما هو أدنى على ما هو أعلى، أو أن يُبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى من الضروريات الخمس، والأنفس لا يجوز حفظها بالشرك، وهذا أن يموت هو على التوحيد لا شك أنه خير له من أن يعافى وقد أتى بشرك بالله جل وعلا.

والسحر لا يكون إلاَّ بشرك، والذي يأتي الساحر ويطلب منه حل السحر هذا معناه أنه رضي قوله وعمله ورضي أن يعمل به ذاك ورضي أن يشرك ذاك بالله لأجل منفعته، وهذا غير جائز.

فإذن تحصّل أن السحر وقوعا وأنَّ السحر نشْرا لا يكون إلا بالشرك الأكبر بالله جل وعلا وعليه، فلا يجوز أن يحل لا من جهة الضرورة ولا من غير الضرورة من باب أولى بسحر مثله؛ بل يحل وينشر بالرقى الشرعية. ٣

قال في "تيسير العزيز الحميد": "هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب، أو على نوع لا يدري هل هو من السحر أم لا؟ وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة، فإنه محمول على ذلك.

وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية، وليس في كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال: "قد رخص فيه بعض الناس." قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه فنفض يده، وقال: "لا أدري ما هذا"؟ قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: "لا أدري ما هذ"؟ وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه. وكيف يجيزه؟ وهو الذي روى الحديث: ((إنها من عمل الشيطان))، لكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائزة والتي من عمل الشيطان، ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك. ١

وقفة:

ذهاب المسحور للساحر لا يجوز لأمور:

١- أن المسحور لما ذهب إلى الساحر ليفكه فهو اعتقد أنه هو الذي يحل هذا السحر، وقد يستطيع حله لأنه بحسب نوع الشياطين الذين معه، فإن كانت الشياطين التي مع هذا الساحر أقوى من الشياطين التي سُحِرَ بها فهذا قد يقدر، وأما إذا كانت الشياطين أضعف فلا يستطيع ولا يقدر.

وقد يكون هنالك تنسيق بينهما. وكل هذا من التلاعب بالإنسان، وفي الأغلب يرجع إليه السحر مرة أخرى ليتلاعب به وهكذا، والله جل وعلا لم يجعل الإنسان لعبة للشياطين، وذهابه إليهم يجعله كذلك.

٢- أن الله سبحانه وتعالى حرم السحر وجعله كفراً، فإن قلنا: إنه يجوز أن يحل السحر بسحر مثله كأننا نروج لبضاعة هؤلاء الشياطين بهؤلاء السحرة.

٣- ما دامت هذه المسألة متعلقة بالشياطين فما يمنع هذا الشيطان الذي فك السحر أن يجعله يوماً أو يومين أو ثلاثة ثم يعيده، فهو فكه بناءً على التقرب له من الساحر من ذبح أو نذر أو خدمة معينة، فقد يعيده بعد فترة لكي يتقرب إليه الساحر لتستمر العملية بهذا الدوران، ومن ثم ينتشر هؤلاء السحرة وتنتشر أعمالهم ويتعلق بهم الناس.

٤- أنه يقذف في قلبه قدرة هذا الساحر على أمور لم يقدر عليها كل الناس، وهذا ابتلاء شديد، بأن يضعف توحيد الإنسان وتعلقه بالله سبحانه وتعالى.

٥- أن الذين ذهبوا إلى أولئك من الواقع العملي أن يرجع إليهم السحر بعد مدة، وهذا الغالب؛ لأن هذا الذي ضعف وأتى إليهم معنى ذلك أن لديه الاستعداد إلى أن يعود مرة أخرى إذا شفي من مرض فيسحر بسحر آخر ليأتي إليه من غير السحر الذي سحر به أولاً، فيستمر يطرق الباب على هؤلاء السحرة، لأن لديه الاستعداد الكامل لتقبل ما يقول هؤلاء. ٩

إشكال وجوابه:

ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر؟ الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع، فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء على الساحر، فله نظر آخر، والله أعلم. ٥

انتهى الجزء الأول

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الثاني، وأوله:

"باب ما جاء في التطيّر" ٤

فيه مسألتان:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الأشكال.

فيه مسألتان:

الأولى: النهي عن النشرة. تؤخذ من قوله ﷺ: ((هي من عمل الشيطان))، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي، لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي. ٥

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الأشكال. تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)) [الأعراف:١٣١]، وَقَوْلُهُ: (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ط، أن الرَسُول ﷺ قَالَ: ((لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَّةٍ، وَلَا صَفَرَ)) أَخْرَجَاهُ، زَادَ مُسْلِمُ: ((وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولٌ)).

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ ط قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ)) قَالُوا: "وَمَا الْفَأْلُ؟" قَالَ: ((الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ)).

وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ ط قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)).

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ ط مرفوعاً: ((الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ .

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: ((مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ)) قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ: ((أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ))، وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ م: ((إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ)).

قول الشيخ رحمه الله: "باب ما جاء في التطيُّر" أي: ما ورد في التطيُّر من الوعيد، وبيان أنه شرك.
ومناسبة هذا الباب لِمَا قبله أنّ: فيه بيان نوع من أنواع الشرك والاعتقاد الباطل المُخِلُّ بالتّوحيد.
وكان الشيخ رحمه الله يذكُر في هذا الكتاب حقيقة التّوحيد وما يناقضه أو ينقّصه من العقائد والأقوال والأفعال الباطلة، ومن ذلك: التطيُّر. ٤

والشرك الذي يكون من جهة التطير منافٍ لكمال التوحيد الواجب لأنه شرك أصغر، وحقيقة التطير أنه التشاؤم أو التفاؤل بحركة الطير من السوانح والبوارح أو النطيح أو القعيد،

أو بغير الطير مما يحدث إذا أراد أحد أن يذهب إلى مكان أو يمضي إلى سفر أو يعقد له خياراً، فيستدل بما يحدث له من أنواع حركات الطيور أو بما يحدث له من الحوادث أن السفر سفر سعيد فيمضى فيه، أو أنّه سفر سيء وعليه فيه وَبَال فيرجع عنه. ٣

ومرّ معنا أن الطِيَرَة من أنواع السحر، ولهذا جاء الشيخ رحمه الله بهذا الباب مع الأبواب المتعلقة بالسحر؛ لأنها من أنواعه لنص الحديث. ٣

والتطيُّر مصدر: تطيّر تطيُّراً وطِيَرة، وهو: التشاؤم بالأشياء، واعتقاد أنه يصيب الإنسان منها شيء من الشر. ٤

وإن شئت، فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئي، أو مسموعٍ، أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً.

أو مسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب، فيتشاءم.

أو معلوم، كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض الشهور أو بعض السنوات، فهذه لا ترى ولا تسمع. ٥

وأصله مأخوذٌ من الطير، لأنهم كانوا في الجاهلية يتشاءمون بالطيور وفي طَيَرانها؛ إذا رأوها تطير على جهةٍ مخصوصة عندهم تشاءموا بها، ورجعوا عمّا عزموا عليه من الأسفار أو الزيجات أو غيرها، ثمّ عَمَّ هذا وصاروا يتطيّرون بكل شيء، فيتطيّرون بالبِقاع، ويتطيّرون بالآدميِّن، ويتطيّرون بالبهائم، ويتطيّرون بكل شيء.

لكن أصل التطيُّر مأخوذٌ من الطير؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يتطيّرون من الطير في حركاتها وطيَرانها وتحريكها لأجنحتها واتّجاهاتها في الطَيران، إلى غير ذلك.

فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر. ١

ضابط التطير الشركي

ولذلك ضابط الطيرة الشركية التي من قامت في قلبه وحصل له شرطها وضابطها فهو مشرك الشرك الأصغر ما جاء في آخر الباب؛ أنه قال عليه الصلاة والسلام ((إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)) فالطيرة شرك وهي التي تقع في القلب ويبني عليها المرء مضاءً في الفعل أو ردًّا عن الفعل.

فإذا خرج –مثلاً– من البيت وحصل أمامه –وهو ينوي سفر أو ينوي رحلة أو ينوي القيام بصفقة تجارة ونحو ذلك– فحصل أمامه حادث، فهذا الحادث الذي حصل أمامه من تصادم سيارة أو اعتداء من واحد على آخر أو نحو ذلك، جعل من هذا الحادث في قلبه شؤما، ثم استدل بهذا الحادث على أنه سيفشل في سفره أو في تجارته أو أنه سيصيبه مكروه في سفره، فإذا رجع ولم يمضِ فقد حصل له التطير الشركي، أمّا إذا وقع ذلك في قلبه مجرد وقوع، وحصل له نوع تشاؤم؛ ولكنه مضى وتوكل على الله فهذا لا يكاد يسلم منه أحد، وكما جاء في حديث ابن مسعود ((وَمَا مِنّا إلاّ وَلَكِنّ الله يُذْهِبُهُ بِالتّوَكّلِ)) كما سيأتي.

إذن فهذه حقيقة التطير الشركي وضابطه، وبيان أن التطير اسم عام ليس خاصا بالطير وحركاتها.

مرّ معنا العيافة فيما سبق في (باب ما جاء في شيء من أنواع السحر)، وأن العيافة متعلقة بالطير كما فسرها عوف الأعرابي بقوله: "العيافة زجر الطير." متعلقة بالطير من حيث أنه يحرك الطير ويزجرها حتى ينظر أين تتحرك.

وأما الطيرة فهو أن يتشاءم أو يتفاءل ويعني أو يرجع بحركة تحصل أمامه ولو لم يزجر أو يفعل، أو بشيء يحصل أمامه إمّا من الطير أو من غيره. ٣

وأعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل، فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد، لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:
الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.
الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.
وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله -عز وجل-، ولا تسيء الظن بالله -عز وجل-. ٥
وأعلم أن من كان مُعْتَنِياً بها قائلاً بها؛ كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويُعْطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه فالواجب على العبد التوكل على الله، ومتابعة رسول الله ﷺ، وأن يمضي لشأنه لا يرده شيء من الطيرة عن حاجته فيدخل في الشرك. ١
قال الشيخ رحمه الله (باب ما جاء في التطير) يعني من أنه شرك بالله جل وعلا إذا أمضى أو ردَّ، وكفارة التطير إذا وقع في القلب، ونحو ذلك من الأحكام. ٣

وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١]. ٨

فهو عقيدة جاهلية، بل إنه موجود في الأمم القديمة؛ فهؤلاء قوم فرعون تطيّروا بموسى ومن معه، يعني: تشاءموا بموسى عليه السلام وبمن معه من المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ الحسنة المراد بها هنا: الخصْب والأرزاق ونزول الأمطار، ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ استحقيناها على الله بأفعالنا، فنحن نستحقُّ هذا، ولا يعترفون أنه فضلٌ من الله تعالى، بل ينسبون هذا إلى استحقاقهم، وأنهم حصلوا على هذه الشيء بسبب أنهم ناسٌ أهل خير، فما يصيبهم من الحسنات قي السنين يقولون: هذا بسبب أفعالنا، وبسبب صفاتنا، وبسبب كسبنا وكدِّنا، جحدوا نعمة الله عليهم.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ المراد بالسيئة هنا: الجدْب، وانحباس الأمطار، وشُحُّ الآبار، وتلف الثمار. فإنهم ينسبون هذا إلى موسى عليه السلام، ومنْ معه من المؤمنين، فيقولون هذا الذي أصابنا بسببهم، فيتطيّرون بخير النّاس والعياذ بالله.

والحق أنّ موسى ومن معه من المؤمنين هم سبب الخيرات، وهم سبب البركات، لأن الرسل-عليهم الصلاة والسلام- يُصلحون في الأرض بالطاعات فتنزل الخيرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف:٩٦].

فالمؤمنون هم سبب الخير لا سبب الشر كما يظنه أهل الجاهلية، إنما سبب الشر هم العُصاة والمشركون والكَفَرة، فما يصيب أهل الأرض من الكوارث والمصائب إنما هو بسبب العُصاة، وما يصيبها من الخيرات فهو بفضل الله، وسببه أهل الطاعات وأهل الصلاح والتقوى؛ ولهذا إذا خَلَت الأرض من الصالحين في آخر الزمان تقوم القيامة وتخرب الدنيا، ((ولا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله، الله))، و((لا تقوم الساعة إلاَّ على شرار الخلق)). فإذا خلت الأرض من الصالحين قامت القيامة، أما ما دام الصالحون موجودين فإن الله سبحانه وتعالى ينزل على أهل الأرض الخيرات والبركات بسبب وجودهم، عكس ما يعتقده آل فرعون من التطيُّر بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك ثمود، تطيّروا بصالح عليه السلام لَمّا دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى: من ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل:٤٧]. ٤

﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ اللهِ﴾ قال ابن عباس: "طائرهم ما قضي عليهم وقُدِّرَ لهم" [١] وفي رواية ذكرها ابن جرير عنه قال: "الأمر من قِبَلِ الله" [٢] وفي رواية: "شؤمهم عند الله ومن قِبَلِهِ" [٣] أي: إنما جاءهم الشؤم من قِبَلِهِ بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله. ١

---

[١] ذكره عنه البغوي في تفسيره(١٩٠/٢)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة (٢٣٢/٢)، وروى ابن جرير في تفسيره (٣٠/٩) عن ابن عباس: "مصائبهم عند الله " وإسناده لا بأس به.

[٢] رواه ابن جرير في تفسيره (٣٠/٩) وإسناده منقطع.

[٣] ذكره عنه البغوي (١٩٠/٢)، وتفسير السمعاني (٢٠٧/٢)، ومفتاح دار السعادة (٢٣٢/٢).

﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ اللهِ﴾، (طَائِرُهُم) يعني ما يطير عنهم من عمل صالح أو طالح وأنهم يستحقون الحسنات أو يستحقون السيئات كل هذا عند الله جل وعلا، أو أن معنى قوله ﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ اللهِ﴾ يعني أن سبب ما يأتيهم من الحسنات أو ما يأتيهم من السيئات أن ذلك من جهة القضاء والقدر فهو عند الله جل وعلا. ٣

ومناسبة هذه الآية لهذا الباب أن هذه الخصلة من صفات أعداء الرسل من صفات المشركين، فالتطير من صفات أهل الإشراك، من صفات أعداء الرسل، وإذا كان كذلك فهو مذموم ومن خصال المشركين الشركية، وهذا هو سبب إيراد الآية تحت هذا الباب من جهة أنه خصلة من خصال أعداء الرسل، وليست من خصال أتباع الرسل، وإنما أتباع الرسل فإنهم يعلقون ذلك بما عند الله من القضاء والقدر، أو بما جعله الله جل وعلا من ثواب أعمالهم أو العقاب على أعمالهم كما قال ألا إن طائرهم عند الله. ٣

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس :١٩]

وكذلك أهل القرية الذين ذكرهم الله في سورة "يس" لَمّا جاءتهم الرسل قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مثلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إليهمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس:١٣-١٨] يعني: تشاء منا بكم، وما جئتمونا بخير ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨] هدّدوا الرسل وقالوا: ما رأينا منكم إلاَّ الشرّ فرد عليهم الرسل: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس:١٩] أي: ما أصابكم فأنتم سببه، لأن سببه الذنوب والمعاصي التي تصدُر منكم والكفر، فأنتم السبب، ونحن سبب الخير، نحن رسلٌ من عند الله جئناكم، لو أطعتمونا لحصلتم على الخير؛ فهذا ردٌ عليهم، فهذا فيه: بيان أن الشر والشؤم سببه المعاصي والكفر والشرك بالله. ٤

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ [يس:١٩] الذي تطيّر أولئك هم المشركون أصحاب تلك القرية حيث قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨]؛ قال أتباع الرسل ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ يعني حقيقة سبب السيئات عليكم أو سبب قدوم الحسنات عليكم هذه من شيء فيكم، فالسوء الذي سينالكم والعقاب الذي سينالكم ملازم لكم ملازمة ما يطير عنكم لكم، فما يطير عنكم من عمل سوء ومن معاداة للرسل وتكذيب للرسل، هذا ملازم لكم وستتطيرون به، قال ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ لأنه من جهة أنهم فعلوا السيئات وكذّبوا الرسل وهذا سيقع عليهم وباله. ٣

﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾، أي: مصاحب لكم، فما يحصل لكم، فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

ولا منافاة بين هذه الآية والتي ذكرها المؤلف قبلها، لأن الأولى تدل على أن المقدر لها الشيء هو الله، والثانية تبين سببه، وهو أنه منهم، فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) الحاصل عليهم معهم ملازم لهم، لأن أعمالهم تستلزمه،

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ٥

وكذلك المشركون تطيّروا بمحمد ﷺ خاتم الرسل وأفضل الرسل، تطيّروا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:٧٨] يخاطبون النبي ﷺ، ﴿تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني: خير وخصب ونبات وزروع وخيرات، يقولون: هذه من عند الله، نعم، صحيح أنها من عند الله، الله هو الذي أنزلها، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قحطٌ جذب شحٌّ في الأرزاق ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ بسببك يا محمد، وبسبب أتباعك، ﴿قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ كلٌّ بقضاء الله وقدره، الخصب والخيرات

والجدب والقحط كله من عند الله وبقضائه وقدره، ولكن الخصب والخيرات سببها الطاعات، وأما الجدْب والقَحْط وانحباس الأمطار فسببه المعاصي والسيّئات، فالسبب من قِبل بني آدم وأما المقدِّر فهو الله تعالى، هو الخالق وهو الموجِد سبحانه وتعالى، ويعطي كلاًّ على حسب عمله؛ المحسِن يحسن إليه، والمسيء يعاقبه إذا شاء سبحانه وتعالى، فالأمر كله بيد الله.

فالحاصل؛ أن التطيُّر عادةٌ جاهلية، ذكرها الله سبحانه وتعالى عن الأمم الكافرة من قوم فرعون، وثمود، وأصحاب ياسين، وأهل الجاهلية الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا به، بل تطيّروا به.

وهذه العادة الجاهلية لا تزال في النّاس إلى أن تقوم الساعة. ٤

ومناسبة هذه الآية للباب كمناسبة الآية قبلها من أنَّ هذه هي قَالَة المشركين وأعداء الرسل.

٣

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: ((لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر)) أخرجاه. زاد مسلم: ((ولا نوء، ولا غول)).

وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفياً للوجود، لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان منها سبباً معلوماً، فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً، فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه إن كان صحيحاً، ولكونه سبباً إن كان باطلاً. ٥

قوله ﷺ: ((لا عدوى)) المراد بالعدوى: انتقال المرض من شخص إلى شخص، أو من بهيمة إلى بهيمة، أو من مكان إلى مكان.

والمرض يتعدّى من محل إلى محل، ويتعدّى من المريض إلى السليم، ويتعدّى من الجربى إلى الصحيحة، هذا شيءٌ موجود.

والرسول ﷺ لا ينفي هذا، وإنما ينفي العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية من أنّ المرض يتعدّى بنفسه بدون تقدير الله سبحانه وتعالى، فالعدوى وهي: انتقال المرض من محل إلى

محل بسبب قرب الصحيح من المريض، والمقدر لها هو الله تعالى، فقد يقرُب الصحيح من المريض ولا يصيبه شيء، وقد يقرُب ويُصاب، والسبب: أن هذا راجعٌ إلى الله، إن شاء سبحانه وتعالى انتقل هذا المرض، وإنْ شاء لم ينتقل، فمجرّد مقاربة المريض أو القدوم على المحل الموبوء هذا سبب، أما التأثُّر فهو بيد الله سبحانه وتعالى، فقد يدخل الإنسان في الأرض الموبوءة ولا يصاب، وقد يورِد الممرض على المصح ولا يُصاب، قد ينام المريض بجانب الصحيح ولا يصاب، وقد يصاب، فما وجه التفريق بين الحالتين؟ وجه التفريق أن: هذا راجعٌ إلى مشيئة الله تعالى.

أما أهل الجاهلية فلا يفرِّقون بل عندهم أن: كل من قارب المرض-أو كل من قارب المريض- أنه يُصاب، ولا ينسبون هذا إلى قضاء الله وقدره، ولا يتوكّلون على الله سبحانه وتعالى، ويفرِطون في التشاؤم والتطيُّر وانتقال العدوى، ويعملون أعمالاً تُضحك. ٤

((لا طيرة)) ومن المعلوم أن المنفي هنا ليس هو وجود الطيرة؛ لأن الطيرة موجودة من جهة اعتقاد الناس ومن جهة استعمالها؛ ولكنها باطلة، كذلك العدوى موجودة من جهة الوقوع.

ولهذا قال العلماء النفي هنا راجع إلى ما تعتقده العرب ويعتقده أهل الجاهلية بأن ((لاَ)) نافية للجنس واسمها مذكور وخبرها محذوف لأجل العلم به، فإن الجاهليين ينازعون في أصل وجود هذه الأشياء، فإنما الجاهليين يؤمنون بوجود هذه الأشياء ويؤمنون أيضاً بتأثيرها، فالمنفي ليس هو وجودها وإنما هو تأثيرها، فيكون التطبيق هنا لا عدوى مؤثرة بطبعها ونفسها، وإنما تنتقل العدوى بإذن الله جل وعلا، وأهل الجاهلية يعتقدون أن العدوى تنتقل بنفسها، فأبطل ذلك الله جل وعلا، فأبطل ذلك لاعتقاد، فقال عليه الصلاة والسلام ((لاَ عَدْوَى)) يعني مؤثرة بنفسها، ((وَلاَ طِيَرَةَ)) مؤثرة أيضاً، فإن الطيرة شيء وهمي يكون في القلب لا أثر له في قضاء الله وفي قدره، فحركة الطائر يميناً أو شمالاً أو السانح أو البارح أو النطيح أو القعيد لا أثر لها في حكم الله وفي ملكوت الله وفي قضائه وقدره، فإذن الخبر قوله تقدره بقوله: لا طيرة مؤثرة؛ بل الطيرة شيء وهمي، ولا هامة ولا صفر إلى آخر الحديث.

وسبق أن ذكرتُ لكم أن خبر (لا) النافية للجنس يحذف كثيرا في لغة العرب كما قال بن مالك في آخر باب لا النافية للجنس في الألفية:

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الخَبَر إذا الْمُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَر

وهذا مهم في العربية. ٣

فقوله ﷺ: ((لا عدوى)) يعني: على ما كان يعتقده أهل الجاهلية، أما أنّ العدوى تحصُل بإذن الله فهذا أمرٌ واقع، ولهذا نهى ﷺ عن مخالطة المجذوم، ونهى ﷺ عن القدوم على الأرض الموبوءة. ٤

قوله ﷺ: ((لا يورد ممرض على مصح))[١]، أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى.

وقوله ﷺ: ((فر من المجذوم فرارك من الأسد))[٢].

والجذام مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، حتى قيل: إنه الطاعون، فالأمر بالفرار من المجذوم لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتمياً، بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي ﷺ بالفرار، وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سبباً للبلاء، لقوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى. ٥

ونهى من كان في أرض فيها وباء أن يخرج منها ومن كان خارجها لا يدخل فيها، لأن هذه أسبابٌ لانتشار المرض، والامتناع عنها أخذٌ بالأسباب الواقية، والإقدام عليها إلقاءٌ إلى

---

[١] مسلم: كتاب السلام/ باب لا عدوى ولا طيرة.

[٢] البخاري في "الصحيح" تعليقاً في (كتاب الطب، باب الجذام).

التَّهْلُكة، والله نهى عن ذلك، إلاَّ من قَوِيَ إيمانه وتوكُّله على الله تعالى؛ فهذا قد يُقدم على الوباء ويخالط المرضى ولا يصاب، لأنه متوكِّلٌ على الله سبحانه وتعالى، لكن هذا لا يكون إلاَّ لأهل الإيمان القوي، أما أهل الإيمان الضعيف فهؤلاء يبتعدون عن هذه المواطن لئلا يصابوا، ثمّ تسوء عقيدتهم.

والإقدام على محلاَّت الخطر من الإلقاء إلى التهلُكة، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، إلاَّ إذا كان هناك مصلحة راجحة من الإقدام على هذه الأمور فيُقدم عليها، أما إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة فالأخذ بالأسباب الواقية أحسن، وإذا كان هناك مصلحة راجحة فالإقدام أحسن، على حسب الأحوال. ٤

فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: ((لا عدوى.)) قال رجل: يا رسول الله الإبل تكون صحيحة مثل الظباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبي ﷺ: ((فمن أعدى الأول؟))[١]، يعني أن المرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله ـ عز وجل ـ، فكذلك إذا انتقل بالعدوى فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فجرب الأول ليس سببه معلوماً، إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالى لم يجرب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

فعلى الإنسان أن يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم، فأخذ بيده وقال له: ((كل)) يعني من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ"[٢]، لقوة توكله ﷺ، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

---

[١] البخاري: كتاب الطب/ باب لا صفر، ومسلم: كتاب السلام/ باب لا عدوى ولا طيرة.

[٢] أبو داود: كتاب الطب/ باب في الطيرة، والترمذي: كتاب الأطعمة/ باب في الأكل مع المجذوم، وابن ماجة: كتاب الطب/ باب الجذام، والحاكم (٤/١٣٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وادعى بعضهم النسخ، فمنهم من قال: إن الناسخ قوله: ((لا عدوى))، والمنسوخ قوله: ((فر من المجذوم))، و((ولا يورد ممرض على مصح))، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ، لأن من شروط النسخ تعذر الجمع، وإذا أمكن الجمع وجب الرجوع إليه، لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما، لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه لا نسخ. ٤

قال في تيسير العزيز الحميد: قلت: وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقي[١]، وتبعه ابن وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيره[٢] أن قوله ((لا عدوى)) على الوجه الذي كانوا يعقتدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك. ولهذا قال: ((فر من المجذوم كما تفر من الأسد))[٣] وقال ((لا يورد ممرض على مصح))[٤]وقال في الطاعون: ((من سمع به بأرض فلا يقدم عليه)) وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال: ((فمن أعدى الأول؟)) يشير إلى أن الأول انما جرب بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده.

وروى الإمام أحمد والترمذي عن بن مسعود مرفوعاً: ((لا يعدي شيءٌ))[٥] قالها ثلاثاً، فقال الاعرابي: يا رسول الله، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة

---

[١] السنن الكبرى (٢١٦/٧)

[٢] انظر: علوم الحديث لابن الصلاح (ص/٤١٥)، ومفتاح دار السعادة (٢٣٤/٢)، ولطائف المعارف لابن رجب (ص/٧٥)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣٦٣/٣)، والمفهم (٦٢٥/٥)

[٣] رواه البخاري في صحيحه (رقم٥٧٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه

[٤] رواه مسلم في صحيحه (٢٢٢١)

[٥] زيادة من مصادر تخريج الحديث

فتجرب كلها، فقال رسول الله ﷺ: ((فمن أجرب الأول؟! لا عدوى، ولا هامة، ولا صفر، خلق الله كل نفس، وكتب حياتها، ومصابها ورزقها)) [1].

فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، كما دل عليه قوله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد:٢٢].

وأما أمره بالفرار من المجذوم، ونهيه عن ايراد الممرض على المصح، وعن الدخول إلى موضع الطاعون؛ فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذى، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها، لا خالق غيره، ولا مقدر غيره.

وأما إذا قوي التوكل على الله، والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب؛ اعتمادا على الله، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة، وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: ((كل باسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه)) [2] وقد أخذ به الإمام أحمد. وروي ذلك عن عمر [3] وابنه [1]. وسلمان [2] رضي الله عنهم.

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٤٤٠/١)، والترمذي في سننه (رقم ٢١٤٣)، وأبو يعلى في مسنده (رقم ٥١٨٢) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٠٨/٤) عن ابن مسعود وهو حديث صحيح بشواهده.

[2] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٤٥٣٦)، وعبْدُ بن حميد في مسنده (رقم ١٠٩٢)، وأبو داود في سننه (رقم٣٩٢٥) والترمذي في سننه (رقم ١٨١٧)..وغيرهم ومداره على المفضل بن فضالة وهو مختلف فيه، وقد أعله البخاري...

[3] رواه ابن جرير في تهذيب الآثار (رقم ٧٦، ٧٥، ٧٤) من طريقين صحيحين عن عمر...

ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد من أكل السم [٣].١

وقوله: ((ولا طَيرة)) هذا نفيٌ معناه: النهي، يعني: لا تتطيّروا، وإنْ كان الإنسان يجد في نفسه شيئاً فلا يمنعه ما يجد في نفسه من المضي والعزم، لأن إيمانه يسوقه، بخلاف ضعيف الإيمان فإن التشاؤم يتغلّب عليه فيتراجع، ويكون هذا من الخلل في العقيدة، وضعف التوكُّل على الله سبحانه وتعالى.

وإذا وجدت في نفسك تشاؤماً أو كراهية فتوكّل على الله وأقدِم.

والطيرة ليس لها أصل، بخلاف العدوى، وإنما هي من الشيطان، فهي تخيُّلٌ من الإنسان بسبب وسوسة الشيطان.

فالتطيُّر ليس له أصل، ومن وجد في نفسه شيئاً من الكراهية فليتوكّل على الله وليعزم، ولا ترده الطيَرة عن مقصوده. ٤

قال ابن القيم: "هذا يحتمل أن يكون نفياً أو يكون نهياً، أي: لا تتطيروا، ولكن قوله في الحديث ((ولا عدوى ولا صفر ولا هامة)) يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

---

[١] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٤٥٣٤) وابن جرير في تهذيب الآثار (رقم٨١) من طريقين ضعيفين- فيهما لين وجهالة -

[٢] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٤٥٣٣) والعقيلي في الضعفاء (٢٤٢/٤)، وابن جرير في تهذيب الآثار (رقم ٧٨) وغيرهم. وإسناده صحيح إن كان ابن بريدة لقي سلمان الفارسي رضي الله عنه.

[٣] رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٨١٦/٢ رقم ١٤٨١) عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت خالداً رضي الله عنه يقول "لقد اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فلم يبق في يدي إلا صفيحة يمانية" وأُتِيَ بالسم فقال: "ما هذا ؟" قالو: "السم". قال: "بسم الله، فشربه". وإسناده صحيح. ورواه أيضا مقتصراً على ذكر شربه السم (رقم ١٤٨٢) وانظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٦/١).

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ: "ومنا أناس يتطيرون" فقال: ((ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم))[1] فأخبر أن تَأَذِّيَهُ وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به، فَوَهْمُهُ وخوفه واشراكه[2] هو الذي يُطَيِّرُهُ ويصده لا ما رآه وسمعه.

فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا ان الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعَمَرَ الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد، فقطع ﷺ عُلَقَ الشرك من قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها عُلْقةٌ منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة.

فما استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله؛ قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها، قال عكرمة: "كنا جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خيرٌ، فقال ابن عباس: "لا خير ولا شر" [3]، فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر، وخرج طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: "خيرٌ"، فقال طاووس: "وأي خير عند هذا؟! لا تَصْحَبْني"[4]. "انتهى ملخصا[5]. ا

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٥٣٧) عن معاوية بن الحكم السلمي.

[2] مفتاح دار السعادة: و إدراكه.

[3] انظر: التمهيد (١٩٤/٢٤)، وفتح الباري (١٠ /٢١٥)، والمقاصد الحسنة للسخاوي (ص/٣٣٣)

[4] رواه عبد الرزاق في مصنفه (رقم ١٩٥١٣) والخلال –كما في الآداب الشرعية لابن مفلح (٣٦٦/٣)– وإسناده صحيح

[5] مفتاح دار السعادة (٢٣٤/٢-٢٣٥)

وقوله ﷺ: ((ولا هامَة)) الهامة: طائر يسمّى البومة، وكان العرب يتشاءمون به إذا وقع على بيت أحدهم قال: نعى إليَّ نفسي أو أحداً من أهلي. كانوا يتشاءمون بها، ويقولون: البوم لا يقع إلاَّ على الخراب. فهذا من عقيدة الجاهلية.

وبعض أهل الجاهلية يزعمون أنه إذا قُتل القتيل ولم يؤخذ له بالثأر فإنه يخرج منه طائر يسمّى الهامة، ويصوِّت: أسقوني، أسقوني "يعني: خذوا بالثأر، ولهذا يقول الشاعر:

يا عمرو إن لم تدع ذمي ومثلبتي ... أضربك حتى تقول الهامة أسقوني. ٤

الهامة، بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل، صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

التفسير الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت، قال: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله ـ بلا شك ـ عقيدة باطلة. ٥

قوله ﷺ: ((ولا صَفَر)) هذا فيه قولان لأهل العلم:

القول الأول: أن المراد بالصفر: شهر صفر، لأنهم كانوا في الجاهلية يتشاءمون بهذا الشهر، فلا يتزوّجون فيه، ولا يسافرون، ولا يتاجرون، ويعتقدون أنه شهرٌ مشؤوم.

فردّ عليهم النبي ﷺ بأنه ليس هناك صفر مشؤم، وإنما صفرٌ شهر من أشهر الله، ليس فيه شؤم ولا شرٌّ.

فهذا فيه: إبطال لتشاؤمهم بشهر صفر. ٤

والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله. عز وجل، فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أرّخ ذلك وقال: انتهى في صفر

الخير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان، قولنا: إنه شهر خير، فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم، بناء على أنه من الأشهر الحرم.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور. ٥

والقول الثاني: أن المراد بصفر: مرض يكون في المعدة، يزعمون أنه يُعْدي غير المصاب به. ٤ داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام. ٥

والأقرب أن صفر يعني الشهر، وأن المراد نفي كونه مشؤوماً، أي: لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر. ٥

وروى أبو داود عن محمد ابن راشد عمن سمعه يقول: "إن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك" [1].

قال ابن رجب "ولعل هذا القول أشبه الأقوال."[2]

وكثير من الجهال يتشاءم بصفر، وربما ينهي عن السفر فيه، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام، كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة. ١

ولكن سواءٌ قيل هذا أو هذا، كله منفي سواء تشاءموا من الشهر أو تشاءموا من المرض، كله لا أصل له، فليس في الشهر شؤم ولا في المرض. وإنما الأمراض بيد الله سبحانه وتعالى، هو

---

[1] رواه أبو داوود في سننه (رقم ٣٩١٥) وسنده صحيح إلى محمد بن راشد المكحولي وهو من كبار أتباع التابعين.

[2] لطائف المعارف (ص/٧٤)

الذي ينزلها، وهو الذي يرفعها، هو الذي يُمرض، وهو الذي يشفي سبحانه وتعالى، لا دخل للشهور، ولا دخل لغيرها في هذا الأمر.

قوله: "أخرجاه" أي: أخرجه البخاري ومسلم. ٤

فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأشياء، لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك، فيكون حينئذ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأشياء التي نفاها الرسول ﷺ مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله ـ عز وجل ـ.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب، فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقاً، فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سبباً بل نفاها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل: ربنا عليك توكلنا.٥

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة حيث إنه قال: ((ولا طيرة))، ففيه: النهي عن الطيّرة.

قوله: "زاد مسلم" أي: في روايته، يعني: زاد على الأربعة المذكورة فصارت ((لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، ولا نوء، ولا غول)) فصارت ستة أشياء.

والنوء المراد به: أحد الأنواء، وهو: النجم، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ نزول الأمطار وهُبوب الرياح بسبب طلوع النجوم، ويُسندون هذا إلى النجوم والكواكب، وهذا من اعتقاد الجاهلية، لأن نزول الأمطار وحصول الرياح وغير ذلك إنما هو بقضاء الله وقدره، أما هذه

النجوم وهذه الكواكب فإنها لا تُحْدِثُ شيئاً ، نعم، وقت طلوع النجم وقت للمطر بإذن الله، أو هبوب الرياح، هذا من ناحية الوقت لا من ناحية الخلق والإيجاد، فهي لا توجِد ولا تسبب ولا تُحدِث، ولكن يكون طلوعها وقتاً لنزول الأمطار إذا شاء الله، وقد يطلع النجم ولا يحصل مطر، وهذا راجع إلى مشيئة الله وقدره، فقد يكون هناك مواقيت للأمطار ولا ينزل مطر، قد يكون هناك مواقيت لهبوب الرياح ولا تهب الريح لأن هذا بيد الله سبحانه وتعالى، وكم من بلاد كانتْ تنزل عليها الأمطار صيفاً وشتاءً، وامتنع عنها المطر وأجدبتْ، كما تسمعون الآن بما يسمونه بالجفاف في بلاد كانتْ تدوم عليها الأمطار، فإذا أراد الله مَنَعَه وحَبَسَهُ، وبلاد مجدبة قاحلة يابسة يسوق الله إليها المطر فتمطر فتهتز بالنبات والزهور، هذا بيد الله سبحانه وتعالى، فنزول المطر لا تصرُّف لأحد فيه لا النجوم ولا غير النجوم.

وسيأتي مزيد بيان للتنجيم في "باب بيان ما جاء في التنجيم."

ولَمّا صلى النبي ﷺ صلاة الفجر بأصحابه يوم الحديبية على إِثْر سماء كانت من الليل قال ﷺ: ((أتدرون ماذا قال ربكم؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب .وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذاك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب))، فالذي ينسب الأمطار إلى الكواكب أو الأنواء مشركٌ بالله.

أما الذي يقول: إن الأنواء وقت للأمطار، فلا شيء فيه، لأن الله جعل للأشياء مواقيت، قد تحصل في هذه المواقيت وقد لا تحصل. ٤

قوله: ((لا نوء)). واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، وأجرى الله العادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف، فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها، فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له، فقولنا: طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس، فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سبباً حقيقياً، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِه﴾ [الروم: ٤٨].

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه ـ سبحانه وتعالى ـ.

نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سبباً لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها، فتنبه.٥

فالحاصل؛ أن هذا حديثٌ عظيم، جمع فيه النبي ﷺ كثيراً من عقائد الجاهلية وأبطلها ونفاها، وقرّر ﷺ عقيدة التّوحيد.

وقوله ﷺ: ((ولا غُول)) –بضم الغين–: أحد الغيلان. ٤

قال أبو السعادات: "الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس فَتَتَغَوَّلُ تَغَوُّلاً، أي: تتلون تلونا في صور شتى، وتَغُولُهُمْ أي: تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله.

وقيل قوله ((لا غُولَ)): ليس نفيا لعين الغول ووجوده وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلونه بالصور المختلفة واغْتِيالِهِ، فيكون المعنى بقوله ((لا غول)): أنها لا تستطيع أن تضل أحداً، ويشهد له الحديث الآخر ((لا غول، ولكن السعالي سحرة الجن))[1] أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل، ومنه الحديث ((إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان))[2] أي: ادفعوا

---

[1] رواه الخطأبي في غريب الحديث: (٤٦٣/١)عن الحسن بن محمد بن علي رَفَعَهُ: ((السعالي سحرة الجن)) وإسناده ضعيف لأنه مرسل، وله شواهد رواه ابن وهب في جامعه (رقم ٦٣٢) وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان –كما في آكام المرجان (ص ٤١) – عن عبد الله بن عبيد بن عمير – وهو ثقة من كبار التابعين–: أن رسول الله ﷺ سئل عن الغيلان فقال: ((هم سحرة الجن)) وهو مرسل أيضا، ووصله أبو الشيخ في العظمة (١٦٤١/٥)عن جابر رضي الله عنه وفي إسناده إبراهيم بن هراسة وهو متروك.

[2] رواه الإمام أحمد في المسند (٣-٣٠٥ وغيرها)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم٢٩٧٤١)، والنسائي في السنن الكبرى (رقم ١٠٧٩١)، وله شواهد من حديث أبي هريرة، وسعد وابن عمر وكلها ضعيفة، وأصح ما ورد في ذلك ما رواه عبد الرزاق في مصنفه (رقم ٩٢٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٩٧٤٢) عن يُسَيْرٍ عن عمرو قال: ((ذُكِرَ عند عمر الغيلان فقال: ((إنه لا يتحول شيءٌ عن خلقه الذي خُلِقَ له، ولكن فيهم سحرة كَسَحَرَتكِم، فإذا رأيتم من ذلك شيئاً فأذنوا)) وإسناده صحيح كما قال الحافظ في الفتح: (٣٤٤/٦) وانظر: صحيح مسلم (٢٩١/١رقم٣٨٩)

تنبيه: نظرت إلى تحقيقات بعض الكتب ورأيت اختلافاً في الحكم على الحديث –المذكور في متن تيسير العزيز الحميد– والله أعلم.

شرها بذكر الله، وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها، ومنه حديث أبي أيوب ((كان لي تمر في سَهْوةٍ فكانت الغول تجيء فتأخذ)) [1].[2]

قوله: ((ولا غول)). جمع غَولة أو غُولة، ونحن نسميها باللغة العامية: (الهولة)، لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لاشك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شيئاً إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقاً بها، أما إن كان معتمدا على الله غير مبال بها، فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده. ٥

والغيلان من أعمال شياطين تتشكّل أمام النّاس في الفلوات، خصوصاً إذا استوحش الإنسان تتشكّل أمامه أشياء تضله عن الطريق، إما بإنْ يرى أمامه ناراً تتنقّل، أو أصواتاً يسمعها، أو غير ذلك، ولهذا يقول ﷺ: ((إذا تغوّلت الغيلان فبادروا بالأذان)) بمعنى: أنه إذا تغوّل الغول أمامك فبادر إلى ذكر الله، فإن ذكر الله يطرد الشيطان، فإذا ذكرت الله أو تلوت القرآن ذهب عنك هذا العمل الشيطاني.

فالنبي ﷺ نفى هذا أيضاً.

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٤٢٣/٥)، والترمذي في سننه (رقم ٢٨٨٠)، والطبراني في المعجم الكبير (رقم ٤٠١١)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (رقم ٥٩٣٤-٥٩٣٢)، وإسناد الحاكم صحيح، وأصله في صحيح البخاري (رقم ٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٩٦/٣)

وكانوا في الجاهلية يعتقدون في هذه الغيلان أنها تُحدِث لهم شرًّا، والنبي ﷺ نفى هذا، وقال: لا أصل لها، وهي أعمال شيطانية لا تضر أحداً إلاَّ بإذن الله، وذكر لها علاجاً شافياً وهو: ذكر الله.

فهذه أمراضٌ جاهلية عالجها النبي عليه الصلاة والسلام. ٤

وهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل)) قالوا: وما الفأل؟ قال: ((الكلمة الطيبة))[١].

وهذه الأحاديث والآثار في موضوع حكم الطيَرَة، والفرق بينهما وبين الفأل، وبيان ما تُعالَج به الطيرة.

فقوله ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: ((لا عدوى)) العدوى سبق الكلام فيها، وأن معناها: انتقال المرض من شخص إلى شخص بحكم مقاربته له، أو ملامسته له، ونحو ذلك. ٤

يعني لا عدوى مؤثرة بنفسها؛ بل بإذن الله جل وعلا. ٣

ولذلك كان أهل الجاهلية يعملون أعمالاً فظيعة خوفاً من العدوى، والرسول ﷺ نفى ذلك، وأمر باتّخاذ الأسباب الواقية مع التوكُّل على الله سبحانه وتعالى.

فقوله: ((لا عدوى)) يعني: على ما كان تعتقده الجاهلية، وإنما العدوى بأمر الله سبحانه وتعالى ومشيئته، فإذا توكلت على الله، وآمنت بالله، وقوِيَ يقينك بالله، واتخذت الأسباب التي أمر الله بها؛ فحينئذ تكون قد فعلت المشروع، والتوكل ليس معناه أنك تترك الأسباب، بل تأخذ بالأسباب الواقية، ولا تقْدم على البلد الذي فيه الوباء، ولا تخرج منه إذا وقع وأنت فيه، ولا تخالط الممرضين وأنت تقدر على الابتعاد عنهم، إلاَّ إذا دعت الضرورة إلى ذلك، بأن كان المريض ليس له أحدٌ يعالجه، والمصاب ليس له أحد يعالجه ويقوم بشؤونه؛ فتوكل على الله وقُم بمعالجة المريض، وقُم بخدمته وتوكّل على الله سبحانه وتعالى، وأنت مأجور، فالله

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٥٧٧٦)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٢٤)

جل وعلا إذا علم من نيّتك الإيمان والإخلاص كفاك سبحانه وتعالى، أما ما دمت في غنىً عن مخالطته فلا حاجة بك إلى مخالطته، فأنت لا تُقدِم عليه من باب أخذ الأسباب. ٤

((ولا طيرة))

ولا طيرة مؤثرة أصلاً، وإنما ذلك راجع إلى قضاء الله وقدره. ٣

وقوله ﷺ: ((ويعجبني الفأل)) ٤

بين لهم ﷺ ان الفأل يعجبه، فدل أنه ليس من الطيرة المنهي عنها. ١

قال الحليمي: "وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال".[1] ١

الفأل: تأميل الخير.

والطيرة: تأميل الشر.

وتأميل الخير مطلوب، والطيرة ممنوعة لأن الطيرة سوء ظنٍ بالله، والفأل حسن ظنٍ بالله جل وعلا.

فإذا سمع الشخص كلمة طيّبة انشرح صدره، أو رأى شخصاً طيّباً جاء إليه انشرح صدره وأمّل خيراً، وأحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، فهذا أمرٌ طيّب، ولهذا كان الفأل يعجب الرسول ﷺ، فإذا سمع ﷺ اسماً حسناً، أو كلمة طيبة، أو مرّ بمكان طيّب، انشرح صدره ﷺ من حسن الظن بالله جل وعلا.

ولِمّا أقبل سُهيل بن عمرو في قصة الحديبية ليتفاوض مع الرسول ﷺ، ورآه مقبلاً قال ﷺ: ((سُهّل لكم من أمركم))، وكان كما أمّل الرسول ﷺ، فكان مجيئه سبب خير. ٤

(الْفَأْلُ) كان عليه الصلاة والسلام يحبه وفسره بأنه الكلمة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة إذا سمعها فتفاءل بها أنه سيحصل له كذا وكذا من الخيرات، ففيها أنها حسن ظنٍّ بالله جل وعلا، الفأل حسن ظن بالله، والتشاؤم سوء ظن بالله جل وعلا، ولهذا صار الفأل ممدوحاً

---

[1] انظر: فتح الباري (١٠/٢١٥)

ومحموداً وصار الشؤم مذموما، والفأل ممدوح من جهة أنه فيه تحسين الظن بالرب جل وعلا، وهذا مأمور العبد به، لهذا كان عليه الصلاة والسلام يتفاءل، وكل ذلك من تعظيم الله جل وعلا وحسن الظن به وتعلق القلب به وأنه لا يفعل للعبد إلا ما هو أصلح له. ٣
ف"الكلمة الطيبة" تعجبه ﷺ، لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قدماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان، لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً.
وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء، لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سبباً لخيرات كثيرة، حتى إنها تدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة. ٥

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك"، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكان يحب الحلواء والعسل، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم.
وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع؛ استبشرت بها النفوس، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب، وإذا سمعت أضدادها، أوجب لها ضد هذه الحال. فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضررا في الدنيا، ونقصاً في الإيمان، ومقارفة الشرك. [1] ١

---

[1] مفتاح دار السعادة (٥٩٢)

وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب، فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حسن تعليم النبي ﷺ، فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوباً، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا. ٥

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: ((أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولاحول ولاقوة إلا بك)).[1]

قوله: "عن عقبة بن عامر". صوابه عن عروة بن عامر، كما ذكره في "التيسير"، وقد اختلف في نسبه وصحبته. ٥

قد تقدم أنه ﷺ كان يعجبه الفأل، وروى الترمذي وصححه عن أنس: (أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع يا نجيح، يا راشد)[2]. ١

قال ابن القيم: "في الكلام على الحديث المشروح أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خير منها، فَفَصَلَ بين الفأل والطيرة لما بينهما

---

[1] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ((رقم ٢٩٥٤٢-٢٩٥٤١-٢٦٣٩٢))، وأبو داود في سننه (رقم ٣٩١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٩٣). وغيرهم من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة بن عامر رضي الله عنه، وقد اختلف العلماء في صحبة عروة بن عامر، والجمهور على أنه تابعي، والأصل أنه لا تضر عنعنه حبيب، فقد احتمل الأئمة عنعنته، وصححو روايات كثيرة لم يصرح فيها بالتحديث، وإنما يُخشى من عنعنته إذا روى حديثاً منكراً، أو إذا أرسل عمن لم يلقه والحديث صححه النووي في رياض الصالحين (ص/٣٨١).

[2] رواه الترمذي في سننه (رقم١٦١٦) وقال حسن غريب صحيح، والطبراني في المعجم الأوسط (رقم ٤١٨١)، والصغير (رقم ٥٤٩) وغيرهم وإسناده صحيح، وصححه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (رقم ١٨٤٨)، والضياء في المختارة (رقم ١٦٦٣)، وقد أعل بما لا يقدح إن شاء الله.

من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقى بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الخالية عن المفسدة."[1]
الطيرة يعني التأثر بالكلمة؛ لأننا ذكرنا لكم أن الطيرة عامة تشمل الأقوال والأعمال التي تحصل أمام العبد، فإذا كان ثَم تطير فإن أحسنه الفأل يعني أن يقع في قلبه أنه سيحصل له كذا وكذا من جراء كلمة سمعها أو من جراء فعل حصل له أحسن ذلك الفأل، وغيره مذموم، لِم كان الفأل محمودا وممدوحا ومأذونا به؟ لما ذكرنا من أنه إذا تطير متفائلا فإنه محسن الظن بالله جل وعلا، وأمّا الفأل في نفسه فهو مطلوب لأن التفاؤل يشرح الصدر ويُونس العبد ويُذهب الضيق الذي يُوحيه الشيطان ويسببه الشيطان في قلب العبد، والشيطان يأتي للعبد فيجعله يَتوهم أشياء وأشياء كلها في مضرَّته، فإذا فتح العبد على قلبه باب التفاؤل أبعد عن قلبه باب تأثير الشيطان على النفس. ٣
قوله: ((أحسنها الفأل)). سبق أن الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما توجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا، فبينهما فرق لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به، وضعف توكله على الله، ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً، فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما. ٥
قال ((وَلاَ تَرُدّ مُسْلِماً))، ((لاَ تَرُدّ مُسْلِماً)) هذا خبر لكنه مضمن للنهي، وقد ذكرت لكم أن النهي قد يُعدل عنه للخبر، كما أنّ الأمر قد يعدل عنه إلى الخبر لتأكيد النهي ولتأكيد الأمر، قال ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] هذا خبر لكنه كالأمر المؤكد، هذا خبر مثبت، والخبر المنفي كقوله هنا ((لاَ تَرُدّ مُسْلِماً)) هذا خبر؛ لكن فيه النهي أن ترد الطيرة مسلماً عن حاجته، فإذا ردّته عن حاجته فقد حصل له الشرك بالتطير. ٣

[1] مفتاح دار السعادة (٢/٢٤٥)

قوله: ((ولا ترد مسلماً)). يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته فليس بمسلم. ٥

قال: ((فَإذا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ اللّهُمّ لاَ يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إلاّ أنْتَ وَلاَ يَدْفَعُ السّيّئَاتِ إلاّ أنْتَ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إلاّ بِك)) هذا دعاء عظيم في دفع ما يأتي للقلب من أنواع التشاؤم وأنواع الطيرة. ٣

قوله: ((فإذا رأى أحدكم ما يكره)). فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: ((فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات...)) إلخ. ٥

قوله: ((فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل)) إلخ فيه ما تعالج به الطيرة وهو هذا الدعاء الذي ذكره. ٤

قوله: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت)). وهذا هو حقيقة التوكل ٥

قوله: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت)) أي :لا تأتي الطيرة بالحسنات، ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك، الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات. وهذا دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً. ١

قوله: ((لا يأتي بالحسنات إلا أنت)). أي: لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب، لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله، صار الموجد هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية، كالصلاة والزكاة وغيرها، لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية، كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ

مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قوله: ((ولا يدفع السيئات إلا أنت)). السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينافي هذا أن يكون دفعها بأسباب، فمثلاً لو رأى رجلاً غريقاً، فأنقذه فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه، فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وبمقتضى هذه العقيدة، فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات، قال تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً. ٥

قوله: ((ولا حول ولا قوة إلا بك)) استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات، ودفع المكروهات.

والحول: التحول والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك، أي: لا حول ولا قوة على ذلك الحول إلا بك. ١

قوله: ((ولا حول ولا قوة إلا بك)). في معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، فالباء بمعنى في، يعني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة

المطلقة، لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة، فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

الثاني: أنه لا يوجد لنا حول ولا قوة إلا بالله، فالباء للاستعانة أو للسببية، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها، إذ إننا لا نتحول من حول إلى حول ولا نقوى على ذلك إلا بالله فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صح الحديث، فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)). ٥

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل))[١] رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

قوله: "مرفوعاً". أي: إلى النبي ﷺ. ٥

وفي حديث ابن مسعود قال: ((الطيرة شرك، الطيرة شرك)) كرِّر هذا مرّتين أو ثلاثاً تأكيداً، وقد قدّمنا بيان معنى كونها شركاً. ٤

((الطِّيَرَةُ شِرْكٌ)) يعني الشرك الأصغر بالله جل وعلا. ٣

قوله ((الطيرة شرك)) صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله.

قال في ((شرح السنن)): "وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى."[١]. ١

---

[١] حديث صحيح، سبق تخريجه ي باب بيان شيء من أنواع السحر

وقوله: ((شرك)). أي: إنها من أنواع الشرك، وليس الشرك كله، وإلا، لقال: الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج من الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

نقول: هي نوع من أنواع الشرك، كقوله ﷺ: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر))[2]، أي: ليس الكفر المخرج عن الملة، وإلا، لقال: "هما بهم الكفر"، بل هما نوع من الكفر.

لكن في ترك الصلاة قال: ((بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة))[3]، فقال:((الكفر))، فيجب أن نعرف الفرق بين "أل" المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر، فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر، فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه، فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية، والقاعدة: "إن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً، فإنه مشرك شركاً أصغر".

وهذا نوع من الإشراك مع الله، إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونياً، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله، فهو مشرك شركاً أكبر، لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد. ٥

قوله: ((وما منّا إلاّ... ولكن الله يُذهبه بالتوكُّل)) هذا من كلام ابن مسعود. ٤

---

[1] انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١٥٢/٣)، والمفهم (٦٢٨/٥)، ونيل الأوطار للشوكاني (٣٧٢/٧)

[2] مسلم: كتاب الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب.

[3] أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة).

قال ((وَمَا مِنّا إلاّ)) يعني إلا وقد أتى لِقلبه بعض التطير؛ لأن هذا من الشيطان والشيطان يأتي القلوب فيغريها بما يفسدها ومن ذلك التطير، ((وَمَا مِنّا إلاّ)) يعني ويعرض له ذلك. ٣

قوله ((وما منا إلا)) قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: "في الحديث إضمار، والتقدير وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك.[١] " انتهى.

وحاصله: وما منا إلا من يعتريه التطير، ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فَحَذَفَ ذلك اعتماداً على فهم السامع. وقال الخلخالي: "حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة وهذا نوع من أدب الكلام."[٢] ١

يقول: يقع في قلوبنا شيء من الطَيرة، فإذا رأى الإنسان شيئاً يكرهه يقع في نفسه شيء، لأنه لا يقدر على ردِّ هذا، وهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان، كما قال ﷺ: ((إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدَّثتْ بها أنفسها ما لم تتكلّم أو تعمل))، فكونه يقع في نفس الإنسان شيءٌ إذا رأى شيئاً يكرهه، أو يخاف شيئاً ثمّ لا يتأثر ولا يتصرّف تصرُّفاً يخالف ما شرعه الله؛ لا يؤاخذ على هذا. ٤

والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير، فالإنسان يسمع شيئاً فيتشاءم، أو يبدأ في فعل، فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه. ٥

((ولكن الله يُذهبه بالتوكُّل)) هذا هو العلاج، فالمؤمن يتوكل على الله ولا يضره ما وقع في نفسه، ويذهب بإذن الله إذا توكّل على الله. ٤

((وَلَكِنّ الله يُذْهِبُهُ بِالتّوَكّلِ)) لأن حسنات التوكل وإتيان العبد بواجب التوكل يذهب عنه كيد الشيطان بالتطير. ٥

---

[١] انظر الترغيب و الترهيب (٣٣/٤)

[٢] عزاه في مرقاة المصأبيح (٣٩٨/٨) إلى التوربِشْتي

فهذا إشارةٌ إلى ما تُعالجَ به الطيَرة أيضاً وهو: التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، ثم المضي وعدم التردُّد، فإن تأثر بالطيَرة التي وقعتْ في نفسه وقعد عن الخروج، أو فرّ من المكان الذي تطيّر منه؛ فهذا هو الطيَرة المذمومة، لأنها أثّرْت فيه فمضى أو رجع.

وقوله: ((من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) فيه أن التطير الذي يرد ويمنع الإنسان عن حاجته شرك. ٤

فالواجب على العبد إذا عرض له شيء من التشاؤم أن لا يرجع عمّا أراد عمله؛ بل يعظم التوكل على الله جل وعلا؛ لأن هذه الأشياء التي تحصل لا تدل على الأمور المغيبة لأنها أمور طرأت ووافقت هكذا أمام العبد وليس لها أثر فيما يحصل في مستقبلا. ٣

والتوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله، وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به، لأنه سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]. ٥

قوله: "وجعل آخره من قول ابن مسعود". وهو قوله: "وما منا إلا..." إلخ.

وعلى هذا يكون موقوفاً، وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلاماً في الحديث من عنده بدون بيان، ويكون في الإسناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر. ٥

من الأمثلة على التطير أيضاً :

تشاءم بدخول سيارة معينة، أو دخل على موظف لمراجعة في الصباح فنظر إليه ووجده عابساً فتشاءم، فإن كان هذا التشاؤم الذي حصل لهذا الإنسان رده عن عمله فهذا شرك بالله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن معنى هذا أنه جعل هذا الأمر إلاها من دون الله وجعل له قدراً كما لله سبحانه وتعالى، فهذا شرك بالله سبحانه وتعالى. ٩

ولأحمد من حديث ابن عمرو: ((من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك)) قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: ((أن تقول: اللهم لاخير إلا خيرك، ولاطير إلا طيرك، ولا إله غيرك))[1].

وقوله: ((من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) فيه أن التطير الذي يرد ويمنع الإنسان عن حاجته شرك. ٤

هذا الضابط ذكرناه لكم في أول الباب؛ أن ضابط كون الطيرة شركاً أن ترُدَّ المتطير عن حاجته، فإذا لم ترده عن حاجته فإنه لم يستأنس لها فلا حرج عليه في ذلك، إلاّ أن عظمت في قلبه فربما دخلت في أنواع محرماً ت القلوب، والذي يجب أن يذهبه بالتوكل وتعظيم الرّغب فيما عند الله وحسن الظن بالله جل وعلا. ٣

قوله: ((فقد أشرك)). أي: شركاً أكبر إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سبباً فقط فهو أصغر، لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهي: "إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً، فشركه شرك أصغر، لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كونياً أو شرعياً، فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها". ٥

قوله ((من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)) وذلك أن التطير هو التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها عن سفره، وامتنع بها عما عزم عليه، فقد قرع باب الشرك، بل وَلَجَهَ وبرىء من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، فيصير قلبه متعلقاً بغير الله،

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٢/٢٢٠)، والطبراني –كما في مجمع ازوائد (٥/١٠٥)–، وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم٢٩٢)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/٢٠١) وإسناده حسن، وهو حديث صحيح

وذلك شرك، فيفسد عليه إيمانه وحاله، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة، ويقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم ممن هلك بذلك، وخسر الدنيا والآخرة.[1] . ١

"قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: ((أن تقولوا اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك))"

وقوله: "فما كفارة ذلك". أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأنه الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق، فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

وقوله: ((اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك)). يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر، كالمطر والنبات، وغير المباشر، كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك، فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سبباً، وإلا، فكل الخير من الله ـ عز وجل ـ

وقوله: ((فلا خير إلا خيرك)). هذا الحصر حقيقي، فالخير كله من الله، سواء كان بسبب معلوم أو بغيره.

وقوله: ((لا طير إلا طيرك)). أي: الطيور كلها ملكك، فهي لا تفعل شيئاً ، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٢]، فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله، فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يميناً وشمالاً، ولا علاقة لها بالحوادث.

[1] انظر: مفتاح دار السعادة (٢/٢٤٦-٢٤٧)

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان، فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة، فإنه من الله كما أن الخير من الله، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع، بل الشر في المفعول لا في الفعل، بل فعله تعالى كله خير، إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيراً.

فيكون قوله: ((لا طير إلا طيرك)) مقابلاً لقوله: ((ولا خير إلا خيرك)). ٥

((لا طير إلا طيرُك)) يعني لن يحصل إلا قضاؤك الذي قضيته، أو لن يحصل ويُقضى إلاَّ ما قدرته على العبد، والعلم -علم المغيبات- إنما هو عند الله جل وعلا. ٣

قوله: ((ولا إله غيرك)). "لا" نافية للجنس، و"إله" بمعنى: مألوه، كغراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيماً يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيماً له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١] أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله وسميت آلهة، فليست آلهة حقاً لأنها لا تستحق أن تعبد، فلهذا نقول: لا إله إلا الله، أي: لا إله حق إلا الله. ٥

يستفاد من هذا الحديث:

١- أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة، فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ، لأنه مادامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية، فلا تهتم بما حدث.

٢- أن الطيرة نوع من الشرك، لقوله: ((من ردته الطيرة عن حاجته، فقد أشرك)).

٣- أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة، فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: ((وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)).

٤- أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥- انفراد الله بالألوهية، كما انفرد بالخلق والتدبير. ٥

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما: ((إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)) [١].

قوله في حديث الفضل: ((إنما الطيرة)). هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً، أي: ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب ولم ترده ولم يلتفت لها، فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع، إذ الأمر كله بيد الله.

قوله: ((ما أمضاك أو ردك)). أما "ما ردك"، فلا شك أنه من الطيرة، لأن التطير يوجب الترك والتراجع.

وأما "ما أمضاك"، فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال: سأزجر هذا الطير، فإذا ذهب إلى اليمين، فمعنى ذلك اليمن والبركة، فيقدم، فهذا لا شك أنه تطير، لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح، لأنه لا وجه له، إذا الطير إذا طار، فإنه يذهب إلى الذي يرى أن وجهته، فإذا اعتمد عليه، فقد اعتمد على سبب لم يجعله الله سبباً، وهو حركة الطير.

---

[١] الإمام أحمد في "المسند"، وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "في سنده مقال"

الثاني: أن يكون سبب المضي كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له، فإن هذا فأل، وهو الذي يعجب النبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سبباً لإقدامه، فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطاً في طلبه، فهذا من الفأل المحمود.

والحديث في سنده مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه. ٥

هذا حد للطيرة المنهي عنها بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضي لما يريده ولو من الفأل، فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس، فأما أن يعتمد عليه ويمضي لأجله مع نسيان التوكل على الله فإن ذلك من الطيرة، وكذلك إذا رأى أو سمع ما يكره فتشاءم به ورده عن حاجته، فإن ذلك أيضاً من الطيرة. ١

وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ فهو ما فيه نوع بشارة، فيسر به العبد ولا يعتمد عليه؛ بخلاف ما يمضيه أو يرده؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد. فافهم الفرق. ٢

((ما أمضاك)) يعني، ما نفّرك من المكان، أو من الشخص، أو من المرئي الذي رأيته، وفررْت منه تأثراً بالطيْرة فهو شرك.

((أو ردّك)) أي: عن حاجتك، كأن تريد أن تسافر ولَمّا رأيت الثعلب أو الغراب أو فلاناً الذي تكره قلت: هذا سفر ليس بحسن أو طيّب. ورجعت عنه وهذا هو التطيُّر، وهو شرك. والواجب عليك حينما حصل لك هذا الشيء وكرهته في نفسك أن ترفضه متوكِّلاً على الله تعالى وأنْ تمضيَ في حاجتك.

ثم بيّن ﷺ ما تُعالجَ به الطيَرة، وهو ثلاثة أمور:

الأمر الأول: -وهو الأصل- التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلاّ هو سبحانه وتعالى، وهو الذي يأتي بالخير ويدفع الشر، وهو الذي يضرُّ وينفع، وهو الذي يتصرف في الكون فإذا توكّل على الله فإن الطيرة لا تضره.

الأمر الثاني: أنْ يمضيَ في حاجته التي أرادها، ولا يرجع عنها بسبب الطيَرة.

الأمر الثالث: الدعاء، بأن يدعوَ الله بالدعاء الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وهو أن يقول: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلاَّ أنت، ولا يدفع السيّئات إلاَّ أنت، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك)) وهذا دعاءٌ عظيم، فيه توكُّل على الله، وفيه اعتراف بأن الذي يأتي بالحسنات ويدفع السيّئات هو الله تعالى وليست الطيَرة، وأنه لا حول ولا قوة إلاَّ بالله، لا أحد يحوِّل من حال إلى حال إلاَّ الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يقوى على شيء إلاَّ بقوة الله سبحانه وتعالى.

والدعاء الثاني: ((اللهم لا خير إلاَّ خيرك، ولا طير إلاَّ طيرك، ولا إله غيرك)) ((لا خير إلاَّ خيرك)) أي: لا أحد يجلب الخير إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

((ولا طير إلاَّ طيرك)) لا يصيبك شيء إلاَّ بإذن الله وقدره ومشيئته، وبسبب ذنوبك.

((ولا إله غيرك)) لا معبود بحقٍ سواك، وهذا اعتراف بالتّوحيد ونفي للشرك.

فالحاصل؛ أن الطيرة تُعالج بهذه الأمور الثلاثة:

أولاً: التوكُّل على الله.

ثانياً: المضي وعدم التأثر بها، ولا تظهر على تصرُّفاتك، وما كأنها وُجدت.

والثالثة: أن تدعوَ بهذه الدعوات الواردة في الأحاديث، فإذا دعوتَ الله بهذه الدعوات فإن الله يعافيك من الطيرة ويُمدُّك بإعانته ونصره وتوفيقه.

والله تعالى أعلم. ٤

وقفة :

يتلخص مما سبق بيان المنهج الذي يتعامل به المسلم مع هذه الأشياء مما يعرض له؛ ومنه:

الأمر الأول: أن الأصل التوكل على الله في جميع الأمور، فأنت في هذه الدنيا لا تسير نفسك ولا تقدر لنفسك ما شئت، وإنما الأمور تتم بقدر الله سبحانه وتعالى، فعليك أن تتوكل على الله سبحانه وتعالى في كل شيء، ولذلك علمنا الله عز وجل هذا المعنى بما نقرأه في كل ركعة من ركعات الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

الأمر الثاني: وهو ينبني على الأمر الأول، معرفة أن الأمور بيد الله صغيرها وكبيرها، حتى النملة السوداء التي تدب على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء يعلم ربنا -جل وعلا- مسارها، كما يعلم ما يجري في أعماق البحار في الليالي الشديدة السوداء، فالله سبحانه وتعالى بيده الأمور كلها، وهو الذي يحيط بها علماً، فينبني على التوكل على الله سبحانه وتعالى معرفة ان المقادير كلها بيد الله سبحانه و تعالى.

الأمر الثالث: أن سلوك المسلم في حياته كلها يجب أن يكون وفق شرع الله وتعاليمه، فيسافر في أي وقت متى تهيأت له أسباب السفر، ويتزوج إذا تيسرت أسباب الزواج وغيرها من الأعمال من دون تشاؤم أو تعلق بالآخرين ونحو ذلك.

الأمر الرابع: أنه لا مانع من عمل الأسباب؛ كما قال ﷺ: ((اعقلها و توكل))[1] ولا بد من عمل الأسباب.

الأمر الخامس: أنه إذا قُدِرَ خلاف ما عمل الإنسان يطمئن ؛ لأنه عمل ما يستطيع وما عليه، والنتائج بيد الله سبحانه وتعالى، فيعلم العبد أن مقاديره لحكم يعلمها سبحانه. ٩

الأمر السادس: الفأل، وهذا الأمر في غاية الأهمية، فلذلك جاء في الحديث القدسي ((أنا عند حسن ظن عبدي بي))[2]. ٩ بتصرف.

توضيح بعض الإشكالات

---

[1] حسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥١٧)

[2] رواه البخاري (٦٨٥٦) ومسلم (٤٨٣٢)

- ولكن يشكل عليه ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أنس مرفوعاً: ((لا طيرة، والطيرة على من تطير))[1] فظاهر هذا أنها تكون سبباً لوقوع الشر بالمتطير. وجوابه: أن المراد بذلك من تطير تطيراً منهيا عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريده من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه عقوبة له، فأما من توكل على الله، ووثق به

بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاء، وقطعه عن الالتفات إلى غير الله. وقال وفعل ما أمر به، فإنه لا يضره ذلك. وأما من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالاسباب المنهي عنها، فانه لا ينفعه ذلك غالباً، كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به، فإنه كثيراً ما يصاب بما يخشى به.

-وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس انها تدل على جواز الطيرة، منها قوله عليه السلام: ((الشؤم في ثلاث في المرأة والدابة والدار))[2]، وفي رواية: ((لا عدوى، ولا طيرة، والشؤم في ثلاث))[3] الحديث، وفي حديث آخر: ((إن كان؛ ففي الفرس والمرأة والمسكن))[4] رواهما البخاري، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، وقالت: "كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حَدَّثَ بهذا، ولكن رسول ﷺ كان يقول: ((كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة في المرأة والدار والدابة)) ثم قرأت عائشة ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا

[1] رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦/٩٨)، وفي شرح معاني الآثار (٤/٣١٤)، وابن جرير في تهذيب الآثار (رقم٥٢)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٦١٢٣). وإسناده حسن ؛ فيه عتبة ابن حميد ضعفه أحمد وقال أبو حاتم: صالح الحديث، ووثقه ابن حبان، والحديث صححه الطحاوي وابن حبان والضياء المقدسي.

[2] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٢٨٥٨)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٢٥) عن ابن عمر

[3] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٢٧٥٣)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٢٥) عن ابن عمر

[4] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٥٠٩٤)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٢٥) عن ابن عمر

في كتابٍ من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ رواه أحمد وابن خزيمة والحاكم وصححه بمعناه[1].

وقال الخطابي[2]، وابن قتيبة: "هذا مستثنى من الطيرة" [3]، أي: الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه، ولا يقيم على الكراهة والتأذي به فانه شؤم.

وقالت طائفة: لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة، بل علقه على الشرط كما ثبت ذلك في الصحيح، ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد بمفردها، قالوا: والراوي غَلِطَ.

قلت: لا يصح تغليطه مع إمكان حملة على الصحة، ورواية تعليقه بالشرط لا تدل على نفي رواية الجزم.

وقالت طائفة أخرى: الشؤم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير لم تكن مشوؤمة عليه، قالوا: ويدل عليه حديث أنس:

---

[1] رواه الطيالسي في مسنده (رقم ١٥٣٧)، والإمام أحمد في المسند (٦/١٥٠، ٢٤٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (رقم ١٣٦٥)، والطبراني في مسند الشاميين (رقم ٢٧٠٢). وغيرهم من طرق عن عائشة رضي الله عنها وهو حديث صحيح. صححه الطحاوي، وابن خزيمة، والحاكم، والذهبي، وغيرهم.

[2] معالم السنن (٤/٢١٧)

[3] ذكر ابن قتيبة حديث أبي هريرة: (الشؤم في ثلاث) وحديث عائشة في رده وحديث أنس رضي الله عنه في أصحاب الدار التي أمرهم النبي ﷺ بالتحول عنها. ثم قال: وليس هذا بنقضٍ للحديث الأول ولا الحديث الأول بنقضٍ لهذا، وإنما أمرهم بالتحول منها لأنهم كانوا مقيمين فيها على استثقال لظلها واستيحاش بما نالهم فيها، فأمرهم بالتحول، وقد جعل الله تعالى في غرائز الناس وتركيبِهِم استثقال ما نالهم السوء فيه وإن كان لا سبب له في ذلك، وحُبَّ من جرى على يده الخير لهم وغن لم يردهم به، وبغض من جرى على يده الشر لهم وإن لم يردهم به، وكيف يتطير ﷺ والطيرة من الجبت؟! وكان كثير من أهل الجاهلية لا يرونها شيئاً ويمدحون من كَذَّبَ بها، قال الشاعر يمدح رجلاً. إلى آخر كلامه. انظر: تأويل مختلف الحديث (ص /١٠٥-١٠٩)

((الطيرة على من تطير)) وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاءمه سبباً لحلول المكروه، كما يجعل الثقة به، والتوكل عليه، وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يُدفع بها الشر.
وقال ابن القيم: "إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة؛ ليس فيه اثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً منها مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤمٌ ولا شرٌّ. وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدا مشؤوما يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يُعْطاه العبد من ولاية أو غيرها. فكذلك الدار والمرأة والفرس.
والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها، وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوسا ينتحس[1] بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة، ولذذ بها من قاربها[2] من الناس، وخلق ضدها، وجعلها سبباً لألم من قاربها[3] من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون، والطيرة والشركية لون" انتهى.[4]
قلت: ولهذا يُشرع لمن استفاد زوجةً أو أَمَةً أو دابَّةً أن يسأل الله من خيرها وخير ما جُبِلَت عليه، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه[5]، وكذلك ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك

[1] في المطبوع من مفتاح دار السعادة: يتنحس
[2] في المطبوع من مفتاح دار السعادة: قارنها
[3] في المطبوع من مفتاح دار السعادة: قارنها
[4] مفتاح دار السعادة (٢/٢٥٧)
[5] روى البخاري في خلق أفعال العباد (ص/٥٩)، وأبو داود في سننه (رقم ٢١٦٠)، وابن ماجة في سننه (رقم ١٩١٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم٦٠٠). وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أفاد أحدكم المرأة أو الجارية أو الدابة أو الغلام فليقل: أسألك

ولكن يبقى على هذا أن يُقال: هذا جارٍ في كل مشؤومٍ فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟

وجوابه: أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة فخصت بالذكر لذلك، ذكره في شرح السنن.[1]

– ومنها: ما روى مالك عن يحيى بن سعيد قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: "يا رسول الله، دار سكناها والعدد كثير، والمال وافر، فقل العدد، وذهب المال. فقال النبي ﷺ: ((دعوها ذميمة)) رواه أبو داود عن أنس بنحوه.[2]

وجوابه: أن هذا ليس من الطيرة المنهي عنها، بل أمرهم بالانتقال لأنهم استثقلوها واستوحشوا منها، لما لحقهم فيها ليتعجلوا الراحة مما داخَلَهُمْ من الجزع، لأن الله قد جعل في غرائز الناس استثقال ما نالهم الشر فيه، وإن كان لا سبب له في ذلك، وحب من جرى على يديه الخير لهم، وإن لم يردهم به، ولأن مقامهم فيها قد يقودهم إلى الطيرة، فيوقعهم ذلك في الشرك، والشر الذي يلحق المتطير بسبب طيرته، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه، ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن، وتَعَذُّرِ الأرزاق، مع سلامة التوحيد في الرحلة؛ للزم كل من ضاق عليه رزق في بلدٍ أو قلة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها إلى غيرها.

من خيرها وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها ومن شر ما جبلت عليه)). وإسناده حسن. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه النووي في الأذكار: (ص/٢٢٣)

[1] طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ العراقي (١١٧/٨) وحكاه عن أبي العباس القرطبي، وكلامه – رحمه الله– في المفهم (٦٢٩/٥–٦٣٠)، والشيخ سليمان يعني بشرح السنن –فيما أظن– شرح سنن الترمذي للحافظ العراقي. والله أعلم.

[2] رواه مالك في الموطأ (٩٧٢/٢) عن يحيى بن سعيد معضلاً. ورواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٩٢)، وأبو داود في سننه (رقم ٣٩٢٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٤٠/٨) عن أنس ﷺ، وإسناده حسن.

فإن قيل: ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء حيث رخص في الارتحال عن الدار دون موضع الوباء؟

أجاب بعضهم أن الأمور بالنسبة إلى هذا المعنى ثلاثة اقسام:

أحدها: ما لا يقع التطير منه إلا نادراً، أو مكرراً فهذا لا يصغى إليه كنعق الغراب في السفر، وصراخ بومة في دارٍ، وهذا كانت العرب تعتبره.

ثانيها: ما يقع به ضرر، ولكنه يعم ولا يخص، ويَنْدُرُ ولا يتكرر كالوباء، فهذا لا يُقْدِمُ عليه، ولا يفر منه.

وثالثها: سبب يخص، ولا يعم، ويلحق به الضرر لطول الملازمة كالمرأة، والفرس، والدار فيباح له الاستبدال والتوكل على الله، والإعراض عما يقع في النفس. ذكره في شرح السنن.[١]

- ومنها: حديث اللقحة؛ لما منع النبي ﷺ حرباً ومُرَّةَ من حَلْبِهَا وأذن ليعيش رواه مالك.[٢]

وجوابه: أن ابن عبد البر قال: "ليس هذا عندي من باب الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله، وإنما هو من طَلِبِ الفأل الحسن، وقد كان قد أخبرهم عن أقبح الأسماء أنه حرب ومَرَّةٌ، (فالمراد بذلك)[٣] حتى لا يتسمى بهما أحد" [٤].

وقد روى ابن وهب في (جامعه) ما يدل على هذا، فإنه قال في هذا الحديث: "فقام عمر بن الخطاب فقال: أَتَكَلَّمُ يا رسول الله أم أصمت؟ فقال: ((بل اصمت، وأُخْبِرْكَ بما أردت،

---

[١] طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ العراقي (١١٧/٨) وحكاه عن الماوردي عن بعض أهل العلم، ونقله بتمامه أبو العباس القرطبي في المفهم (٦٣٠/٥-٦٣١)

[٢] رواه مالك في الموطأ (٩٧٣/٢)عن يحيى بن سعيد معضلاً، ورواه الطبراني في الكبير (٢٧٧/٢٢)، والحربي في إكرام الضيف (رقم٦٥). وغيرهم عن يعيش ﷺ به. وإسناده صحيح، من صحيح حديث ابن لهيعة وإسناد الطبراني حسن

[٣] في التمهيد، ومفتاح دار السعادة: فأكد ذلك

[٤] التمهيد (٧١/٢٤)، وانظر: الاستذكار (٥١٣/٨)

ظننت يا عمر أنها طيرة، ولا طيرَ إلا طيرُهُ، ولا خير الا خيرُهُ، ولكن أحب الفأل الحسن))
[1]وعلى هذا تجري بقية الأحاديث التي تَوَهَّمَ بعضهم أنها من باب الطيرة. ١

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ﴾ مع قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقوله من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ﴾ مع قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

أي: لكي ينتبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك، فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض في ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق

---

[1] رواه ابن وهب في جامعه (رقم ٦٥٥) وفي إسناده عبد الله بن زياد بن سمعان وهو متروك، وهو مع ذلك مرسل، أرسله محمد بن إبراهيم التيمي –رحمه الله –.

بيان الجمع أن قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ﴾ أن الله هو المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسل، وأن قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ من باب السبب، أي: أنتم سببه. ٥

الثانية: نفي العدوى. وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير، لأن الله قد جعل بعض الأمراض سبباً للعدوى وانتقالها. ٥

الثالثة: نفي الطيرة. أي: نفي التأثير لا نفي الوجود. ٥

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر. وقد سبق تفسيرهما. ٥

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب. تؤخذ من قول النبي ﷺ: ((يعجبني الفأل))، وكل ما أعجب النبي ﷺ، فهو حسن، قالت عائشة ﵂: "كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله" [١]. ٥

السابعة: تفسير الفأل.

فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود، من قول، أو فعل مرئي أو مسموع. ٥

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل. أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له، فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل، لقول ابن مسعود: "**وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل**". ٥

التاسعة: ذكر ما يقوله من وجده.

وسبق أنه شيئاً ن:

---

[١] البخاري: كتاب الوضوء/ باب التيمن في الوضوء والغسل، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور.

أن يقول: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)). أو يقول: ((اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)). ٥

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك. وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب، فهو شرك أصغر. ٥

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة. أي: ما أمضاك أو ردك. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ)

قَالَ البُخَارِيّ فِي صَحِيحِه: قَالَ قَتَادَةُ: "خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً للسَّمَاءِ وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ به." أهـ. وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلَ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا، وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ. وَعَن أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ وابْن حِبَّان فِي صَحِيحِه.

قال الشيخ رحمه الله: "باب ما جاء في التنجيم" أي: ما ورد من الأدلة على تحريم ذلك، والنهي عنه. ٤

التنجيم: مصدر نجم ينجم تنجيماً أي: حرز و حدس بما يعتقده بالنجوم. ٦

والتنجيم المراد به: اعتقاد أن للنجوم تأثيراً في الحوادث وما يجرى في هذا الكون، وقد يُراد بالتنجيم معاني أُخَر يأتي تفصيلها.

وهذا اعتقادٌ قديم كان في قوم نُمرود، الذين بُعث إليهم الخليل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وهم الصابئة الذين يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل وبيوت العبادة، يعتقدون أنها تدبِّر أمر العالم، ولا يزال هذا الشر موجوداً في العالم. ٤

قال شيخ الإسلام: "التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية"[١]

وقال الخطابي: "علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معناها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها تأثيراً في السُّفْليات، وأنها تجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تَحَكُّمٌ على الغيب، وتعاطياً لعلمٍ قد استأثر الله به، لا يعلم الغيب سواه." [٢]

(باب ما جاء في التنجيم) يعني في حكم التنجيم وأنه منقسم إلى جائز ومحرم.

والمحرم منه نوع من أنواع السحر وهو كفر وشرك بالله جل وعلا، فالتنجيم هو ادعاء معرفة المغيبات عن طريق النجوم، هذا التنجيم المذموم المحرم الذي هو من أنواع الكهانة والسحر.

وفيما يتعلمه الناس أو فيما هو موجود عند الناس وعند الخلق التنجيم ثلاثة أنواع:

الأول: التنجيم الذي هو اعتقاد أن النجوم فاعلة مؤثرة بنفسها، وأن الحوادث الأرضية منفعلة ناتجة عن النجوم وعن إرادات النجوم، وهذا تإليه للنجوم، وهو الذي كان يصنعه الصابئة ويجعلون لكل نجم وكوكب صورة وتمثالاً وتَحِلُّ فيها أرواح الشياطين فتأمر أولئك بعبادة تلك الأصنام والأوثان، وهذا بالإجماع كفر أكبر وشرك كشرك قوم إبراهيم. ٣

---

[١] مجموع الفتاوى (١٩٢/٣٥)

[٢] معالم السنن (٢٣٠/٤)

وقد صنف بعض المتأخرين في هذا الشرك مصنفاً [1] وذكره صاحب (التذكرة)[2] فيها. ١
النوع الثاني من التنجيم: هو ما يسمى علم التأثير، وهو الاستدلال بحركة النجوم والتقائها وافتراقها وطلوعها وغروبها الاستدلال بذلك على ما سيحصل في الأرض، فيجعلون حركة النجوم دالة على ما سيقع مستقبلا في الأرض، والذي يفعل هذه الأشياء ويحسنها يقال له المنجم، وهو من أنواع الكهّان؛ لأن فيه أنه يخبر بالأمور المغيّبة عن طريق الاستدلال بحركة الأفلاك وتحرك النجوم، وهذا النوع محرم وكبيرة من الكبائر، وهو نوع من أنواع الكهانة، وهي كفر بالله جل وعلا؛ لأن النجوم ما خلقت لذلك، وهؤلاء تأتيهم الشياطين فتوحي إليهم بما يريدون وبما سيحصل في المستقبل ويجعلون حركة النجوم دليلا على ذلك.
وقد أُبطل قول المنجمين في أشياء كثيرة من الواقع، ونحو ذلك كما في فتح عمّورية في قصيدة أبي تمام المشهورة:
السيف أصدق إنباءً من الكتب ... وغيرها.
النوع الثالث: مما يدخل في اسم التنجيم ما يسمى "بعلم التسيير"؛ علم التسيير وهو أن يعلم النجوم وحركات النجوم لأجل أن يعلم القبلة والأوقات وما يصلح من الأوقات للزرع وما لا يصلح، والاستدلال بذلك على وقت هبوب الرياح، وعلى الوقت الذي أجرى فيه سنته أنه يحصل فيه من المطر كذا ونحو ذلك، فهذا يسمى علم التسيير، فهذا رخّص فيه بعض العلماء، وسبب الترخيص فيه أنه يجعل النجوم وحركتها أو التقاءها أو افتراقها أو طلوعها أو غروبها يجعل ذلك وقتا وزمنا لا يجعله سبباً، فيجعل هذه النجوم علامة على زمن يصلح فيه كذا وكذا، والله جل وعلا جعل النجوم علامات كما قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، فهي علامة على أشياء يحصل طلوع النجم الفلاني يحصل أنه

---

[1] ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/٣٤٠): أن الفخر الرازي ألف كتاباً في مخاطبة النجوم، سحر محض. وانظر نقض المنطق لشيخ الاسلام (ص/٤٥-٤٧)

[2] هو داود بن عمر الأنطاكي، الطبيب. واسم كتابه: (تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب)

بطلوع النجم الفلاني يدخل وقت الشتاء، ليس بسبب طلوعه لكن حين طلع استدللنا بطلوعه على دخول الوقت، وإلا فهو ليس بسبب لحصول البرد وليس بسبب لحصول الحر وليس بسبب للمطر وليس بسبب لمناسبة غرس النخل أو زرع المزروعات ونحو ذلك؛ ولكنه وقتٌ، فإذا كان كذلك فلا بأس به قولا أو تعلُّما لأنه يجعل النجوم وظهورها وغروبها يجعلها أزمنة وذلك مأذون به. ٣

التنجيم: مصدر نجم بتشديد الجيم، أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

١- علم التأثير. ٢- علم التسيير.

فالأول: علم التأثير. وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ. أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر، لأن من ادعى أن مع الله خالقاً، فهو مشرك شركاً أكبر، فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مسخراً.

ب. أن يجعلها سبباً يدعي به علم الغيب، فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا، لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء، لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة لأنه ولد في النجم الفلاني.

فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة، لأن الله يقول: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى أنواع الحصر، لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب، فقد كذب القرآن. ٥

واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك وينبغي أن يقطع بكفره لأنها دعوى لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه. ١

ت. أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه، فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف: ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده))[١]، فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يسلم أن للكسوف تأثيراً في الحوادث والعقوبات من الجدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: ((إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته))، لا في ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً، فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً في هذا، لأن الحديث لا يقتضيه، فالحديث ينص على التخويف، والمخوف هو الله تعالى، والمخوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التيسير. وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية، فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة، فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة، فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

---

[١] البخاري: كتاب الكسوف/ باب الصدقة في الكسوف، ومسلم: كتاب الكسوف/ باب ذكر النداء بصلاة الكسوف.

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني، فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو البحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة، كما سيأتي إن شاء الله. ٥

قال البخاري في "صحيحه": قال قتادة: "خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك اخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به." [١] أنتهى.

قوله "قال البخاري: في صحيحه" هذا الحديث يُعتبر من البخاري رحمه الله من التعليق، والتعليق هو: أن يذكُر الأثر بدون إسناد، فإذا قال: "قال فلان" بدون إسناد؛ فهذا يسمُّونه بالتعليق، وهو على نوعين عند البخاري:

النوع الأول: تعليقٌ بصيغة الجزم، مثل هذا الأثر "قال قتادة"، (قال فلان).

النوع الثاني: تعليقٌ بغير صيغة الجزم، كأنْ يقول: "يُروى عن فلان"، فهذا يسمّى تعليقاً بغير صيغة الجزم، وهو أقل درجة من الأول.

---

[١] علقه البخاري في صحيحه (٣١١٦٨- البغا)، ووصله ابن جرير في تفسيره (٩١/١٤، ٢٩ /٣)، ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ١٦٥٣٦) والحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٤٨٩/٣) وإسناده صحيح

وقد جاء الحافظ ابن حجر رحمه الله فذكر أسانيد هذه المعلّقات التي علقها "البخاري" في صحيحه واستقصاها في كتاب سمّاه "تغليق التعليق"، يتكوّن من ثلاثة مجلّدات ضخمة، وقد طبع الكتاب والحمد لله. ٤

هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه كما قال المصنف، وأخرجه عبدالرزاق، وعَبْدُ بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والخطيب في كتاب (النجوم) عن قتادة، ولفظه قال: "إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهْتَدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وإنَّ ناساً جهلةً بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أَعْرَسَ بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أنَّ أحداً علم الغيب؛ لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه اسماء كل شيء." ١

قوله: "قال قتادة" قتادة هو ابن دِعامة السدوسي، الإمام الجليل في التفسير والحديث وغيره.

"خلق الله هذه النجوم لثلاث" يعني: لثلاث حِكَم.

الفائدة الأولى: "زينة للسماء" كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك:٥] لأنها سُرُج تتلألأ، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)﴾ [الصافات:٦].

الفائدة الثانية: "رجوماً للشياطين" وذلك لأن الشياطين يحاولون استراق السمع من الملائكة في السماء، ويأتون بما يسترقونه إلى الكُهّان من بني آدم، ولكن الله جل وعلا حفِظ السماء بهذه الشهب التي تنطلق من هذه الكواكب فتُحرِق هذا المارد فتُهلكه، خصوصاً عند بعثة

محمد ﷺ فإنها حُرست السماء بالشهب، كما قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠)﴾ [الجن:٩-١٠]، استغربوا هذه الحراسة وهذه الشهب، وكان ذلك مُؤْذِناً ببعثة محمد ﷺ، ولكن بقي من هذا شيء لكنه قليل.

الفائدة الثالثة: "علامات يُهتَدى بها" قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل:١٥-١٦]، فالله جعل للمسافرين علامات يستدلُّون بها في الأرض وعلامات في السماء . والعلامات التي في الأرض: السبل والفِجاج والطرق التي جعلها الله في الأرض والجبال والأعلام الواضحة، وأما في السماء فهي: النجوم والشمس والقمر، فالنّاس يستدلُّون بسيرهم في الطرق، ولاسيما في البحار التي ليس فيها جبال وليس فيها علامات وكذلك في الليل، يسيرون على النجوم، ينظرون إلى النجوم ويعرفون بها الجِهات، فيسيرون إلى الجهة التي يريدونها، وكذلك يُستدل بهذه النجوم والشمس والقمر على القِبْلة في الصلاة، لانهم إذا نظروا إلى هذه النجوم عرفوا الجهات واهتدوا إلى جهة القبلة.

فهذا من حكمة الله سبحانه وتعالى من خلق هذه النجوم، خلقها لهذه النجوم.

أما من أراد أن يزيد على هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها الله في كتابه فكما قال قتادة: "فمن تأول غير ذلك أخطأ"، لان الله لم يخلقها لهذا، لأنه أراد أن يحمِّلها شيئاً لم تُخلق من أجله، كأن يعتقد فيها أنها تدلُّ على حوادث في الأرض، أو هُبوب رياح، أو نُزول مطر، أو موت أحد، أو حياة أحد، أو توفيق في أمر، أو انخذال في أمر؛ فهذا كله من التقوّل والتطاوُل، والخَرْص والتخمين، وادّعاء لعلم الغيب الذي ما أنزل الله به من سلطان.

والنجوم لا تدلُّ على هذا لأنها لم تُخلق لهذا، وإنما هذا يرجع إلى علاَّم الغيوب سبحانه وتعالى: فقوله: تأوّل فيها -يعني: اعتقد فيها غير ذلك من هذه الأمور الثلاثة التي دلّ عليها كتاب الله؛ فقد اخطأ.

"وأضاع نصيبه" يعني: من الدِّين، وهذا يقتضي أنه يكفُر. ٤

قال الداوودي: "قول قتادة في النجوم حسن، إلا قوله (أخطأ وأضاع نصيبه) فإنه قَصَّرَ في ذلك، بل قائل ذلك كافر."[١]. ١

"وتكلّف ما لا علم له به" لأن هذه خَرْصٌ وتخمين وحَدْسٌ وظن لا يُغنى من الحق شيئاً أبداً.

وقوله: "انتهى" يعني: كلام قتادة. ٤

وهذا صحيح؛ لأن النجوم خلق من خلق الله ولا نفهم سرها إلا بما أخبر الله جل وعلا به، فما أخبرنا به أخذناه، وما لم يخبر به فلا يجوز أن نكلف فيه ذلك، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((إذا ذُكر القدر فامسكوا، وإذا ذُكِرَ أصحابي فأمسكوا، وإذا ذُكِرت النجوم فامسكوا))، والمراد هنا بذكر النجوم يعني في غير ما جاء به الدليل، إذا ذكر القدر في غير ما جاءت به الأدلة فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي في غير ما جاء به من فضلهم وحسن صحابتهم وسابقتهم ونحو ذلك من الدليل فأمسكوا، وكذلك إذا ذكرت النجوم وما فيها بغير ما جاء به الدليل فأمسكوا؛ لأن ذلك ذريعة لأمور محرمة. ٣

وقول قتادة رحمه الله يدل على أن التنجيم هذا قد حدث في عصره، فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به، وهذا العلم مما ينافي التوحيد، ويوقع في الشرك؛ لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته، كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣]، وقال ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. ٧

فإن قلت: إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان.

قيل: صدقهم كصدق الكهان؛ يصدقون مرة، ويكذبون مائة، وليس في صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علمٌ صحيحٌ كالكهان.

---

[١] انظر: فتح الباري (٢٩٥/٦)

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم؛ منها قوله ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]

والجواب: أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدي بها الناس في علم الغيب، وإنما المعنى ﴿عَلامَاتٍ﴾ أي دلالات على قدرة الله وتوحيده وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ قال ابن عباس في الآية: "﴿وَعَلامَاتٍ﴾ يعني: معالم الطُّرُقِ بالنهار، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: يهتدون به في البحر في أسفارهم."رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.[1]

فهذا القول ونحوه هو معنى الآية، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يُعْلَمُ فسادُهُ بالاضطرار من دين الإسلام بما لا يدل عليه لا نصاً ولا ظاهراً، وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم وذَمِّهُ، منها حديث ((ومن اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر))[2] الحديث وقد تقدم.

وعن عبدالله بن محيريز التابعي الجليل: أن سليمان بن عبدالملك دعاه فقال: "لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك" فقال: قال رسول ﷺ: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: حَيْفُ الأئمة، وتكذيبٌ بالقدر، وايمانٌ بالنجوم))[3]

وعن رجاء بن حَيْوَةَ أن النبي ﷺ قال: ((مما أخاف على أمتي: التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة))[1] رواهما عبد بن حميد.

---

[1] رواه ابن جرير في تفسيره (٩١/١٤)، وابن أبي حاتم وابن مردويه –كما في الدر المنثور (١١٨/٥) وإسناد ابن جرير ضعيف.

[2] حديث صحيح، سبق تخريجه في (باب بيان شيء من أنواع السحر)

[3] رواه عبدُ بن حميد –كما في الدر المنثور (٣١/٨)–، ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣٩/٢)، وابن بطة في الإبانة (رقم ١٥٣٣)، والثعلبي في تفسيره (٢٢٣/٩) وإسناده حسن إلى ابن محيريز، وهو حديث صحيح بشواهده.

وروى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعاً ((مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأت المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله))[٢] لفظ البخاري.

وفي الباب آحاديث وآثار غير ما ذكرنا. فتبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال.

ومنها: قوله تعالى عن ابراهيم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:٨٩].

والجواب: أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى في الفساد، فأين فيها ما يدل على صحة أحكام النجوم بوجه من وجوه الدلالات؟!!

وهل إذا رفع إنسان بصره إلى النجوم، فنظر إليها، دل ذلك على صحة علم النجوم عنده؟! وكل الناس ينظرون إلى النجوم، فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها، وكأن هذا ما شعر أن ابراهيم عليه السلام إنما بعث إلى الصابئة المنجمين مُبْطِلاً لقولهم، مناظراً لهم على ذلك.

فإن قيل على هذا: فما فائدة نظرته في النجوم؟

قيل: نظرته في النجوم من معاريض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام، كما كان قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الانبياء:٦٣]، فمن ظن أن نظرته في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام، وعَلِمَ أنَّ طَالِعَهُ يقتضي عليه بالنحس؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً، ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصحيح أنه عليه السلام يقول: ((لَسْتُ هُنَاكُمْ)) ويَذْكُرُ ثلاثَ

---

[١] رواه عبدُ بن حميد –كما في الدر المنثور (٣١/٨)–، والبخاري في التاريخ الكبير(١٤٨/١)، وابن بطة في الإبانة (رقم ١٥٢٩) عن يحيى بن أبي كثير عن رجاء به، وأشار البخاري إلى أنه معل، وهو حديث صحيح بشواهده.

[٢] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٤٢٠– البغا)، والإمام أحمد في مسنده (٥٢/٢) وغيرهما.

كذبات كذبهن[1]، وعدها العلماء: قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله لسارة (هي أختي).

فلو كان قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هي من معاريض الأفعال، فلهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾. ذكر ذلك ابن القيم.[2]

لكن قوله "وعدها العلماء": يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد في عَدِّهَا.

وقد رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن وابن جرير وغيرهم، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ((لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات؛ ثنتين في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله في سارة: "هي أختي" [3]لفظ ابن جرير.[4]

وقال قتادة في الآية: "العرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم." [5]

قال ابن كثير: "يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يكذبهم به فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف." ١

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (٧٤١٠)، ومسلم في صحيحه (رقم ١٩٣) عن أنس رضي الله عنه

[2] مفتاح دار السعادة (١٩٨/٢)

[3] رواه البخاري في صحيحه (٣٣٥٨)، ومسلم في صحيحه (٣٣٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[4] رواه الإمام أحمد في المسند (٤٠٣/٢)، والبخاري في صحيحه (٣١٧٩)، ومسلم في صحيحه (٢٣٧١)

[5] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ١٨٢١٦)

هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم، وهو تعلم منازل الشمس والقمر للاستدلال بذلك على معرفة القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه، فما ظنك بذينك القسمين؟!. ١

قوله: "وكره قتادة تعلم منازل القمر". أي: كراهة تحريم بناءً على أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالباً. ٥

وقوله: "ولم يرخِّص ابن عيينة فيه" يعني: سفيان بن عيينة، الإمام الجليل، المحدِّث المشهور. ٤

الله جل وعلا جعل القمر منازل كما قال ﴿وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]، له ثمان وعشرين منزلاً ينزل في كل يوم منزلة منها. ٣

ومنازل القمر المراد بها: المنازل التي ينزلها في الشهر، وهي ثمانية وعشرون منزلة؛ أربع عشرة منزلة يمانية، وأربع عشرة منزلة شامية، ينزل في كل ليلة منزلة[١]، وعلامة هذه المنزلة نجمٌ من النجوم المعروفة يقطعها القمر في شهر، بينما تقطعها الشمس في سنة.

وكل منزلة ثلاثة عشرة يوماً، وواحدة منها أربعة عشر يوماً، وهي القلب. ٤

وقوله: "تعلم منازل القمر" يحتمل أمرين

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الإكليل، فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة، لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم ثمانياً وعشرين وفي تسع وعشرين وثلاثين لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم، أي: يخرج النجم الفلاني، في اليوم الفلاني وهذه النجوم جعلها الله أوقاتاً للفصول، لأنها [٢٨] نجماً، منها [١٤] يمانية، و[١٤] شمالية، فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية. ٥

---

[١] ويستتر في ليلة أو ليلتين حسب تمام الشهر ونقصانه. ويستتر بمعنى أنه يختفي في ضوء الشمس.

قوله: "وذكره حرب". من أصحاب أحمد، روى عنه مسائل كثيرة. ٥
وهل يجوز تعلم هذه المنازل لمعرفتها من أجل الحساب؟
على قولين:
القول الأول: المنع، وهو قول قتادة وسفيان بن عيينة، لأن هذا –وإنْ كان لا شيء فيه في نفسه– إلاَّ أنه وسيلة لأن يُعتقد فيها ما لا يجوز، فهذا من سدِّ الذرائع، فلا يتعلّم منازل القمر عندها، لأنه ربما يتدرّج إلى اعتقاد أنها تؤثِّر في الكون وأنها..، وأنها..، ولأنه زائد على الفوائد الثلاث السابقة.
والقول الثاني: أنه لا بأس بتعلّم منازل القمر، وهذا ما يسمّى بعلم التسيير.
وهو مذهب الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وقول كثير من أهل العلم.
وهذا هو الصحيح –إن شاء الله– لأجل ما فيه من الفوائد وعدم المحذور. ٤
والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر، لأنه لا شرك فيها، إلا أن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء، فهذا لا بأس به. ٥
ورخص فيه طائفة من أهل العلم وهو الصحيح؛ لأنه جل وعلا امتن على عباده بذلك قال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُورًا وقَدَّرَهُ[1] مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ﴾ [يونس:٥] وظاهر الآية أن حصول المنّة به في تعلمه وذلك دليل الجواز. ٣
وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر.[2] قلت: لأنه لا محذور في ذلك.
وعن إبراهيم: أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به. رواه ابن المنذر.[1]

---

[1] الشيخ قال: والقمر قدرناه.

[2] رواه ابن المنذر –كما في الدر المنثور (١١٩/٥)، والخطيب– كما في الدر المنثور (٣٢٩/٣)

قال ابن رجب: "والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله وكثيره. وأما علم التسيير؛ فيتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة، والطُّرُقْ؛ جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين، كما وقع من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً، وذلك يفضي إلى اعتقاد خطإ السلف في صلاتهم وهو باطل." انتهى مختصرا.[٢]

وهل يدخل في النهي وقت الكسوف الشمسي والقمري أم لا؟ رجَّحَ ابن القيم أنه لا يدخل. ١

أما الممنوع فهو علم التأثير، وهو: اعتقاد أن هذه النجوم تؤثِّر في الكون، هذا هو الممنوع، أما معرفة حسابها من أجل الفوائد من غير اعتقاد أنّ لها تأثيراً في الكون؛ فهذا لا بأس به، ولا يزال العلماء يتعلّمونه ويعلِّمونه للناس لفوائده العظيمة.

وعلم التأثير ينقسم إلى ثلاثة أقسام، كلها محرّمة، لكن بعضها أشدّ من بعض.

القسم الأول: اعتقاد أنّ هذه الكواكب هي التي تُحدِث هذه الحوادث الكونية، وأنّ مصدر الحوادث هو حركات الكواكب وتَشَكُّلاتها.

وهذا اعتقاد الصابئة، وهو جُحودٌ للخالق سبحانه وتعالى، واعتقاد أنّ هذه الكواكب هي التي تُحدِث هذه الحوادث، وأنها هي التي بتشَكُّلاتها وأحوالها ينتجُ عنها ما يحدُث في هذا الكون من خير أو شرّ، ومن صحة ومرض، ومن خُصْب وجَدْب، وغير ذلك، فهذا هو اعتقاد الصابئة، وهذا كفرٌ صريحٌ بإجماع المسلمين.

---

[١] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٥٦٤٧) وغيره وإسناده صحيح

[٢] فضل علم السلف على علم الخلف (ص/٣٤)، وانظر: فيض القدير (٢٥٦/٣)

والقسم الثاني: أن لا يعتقد أنها هي التي تُحْدِث هذه الحوادث، ولكن يعتقد أنها سبب للتأثير، وأما الذي يُحدِث هذا الشيء فهو الله سبحانه وتعالى، ولكن هذه أسباب، فينسب إليها الأمور من باب الأسباب.

وهذا -أيضاً- باطل ولا يجوز وهو شرك أصغر، لأن الله لم يجعلها أسباباً، ولا علاقة لها بما يجري في هذا الكون أبداً؛ من نزول مطر، أو هُبوب رياح، أو غير ذلك، وإنما هذا راجعٌ إلى تدبير الله سبحانه وتعالى، لأمره وإذنه سبحانه وتعالى وليس للكواكب علاقة بهذا، غير أنّ الله خلقها للأمور الثلاثة التي سبق بيانها.

والقسم الثالث: الاستدلال بها على الحوادث المستقبَلة.

وهذا من ادّعاء علم الغيب، ومن الكهانة ومن السحر، وهو كفر بإجماع المسلمين.

وكلُّ هذه الأمور الثلاثة اعتقاد أنها هي التي تخلُق هذه الأشياء، واعتقاد أنها أسباب لما يجري في الكون من الحوادث، واعتقاد أنها تدلُّ مجرّد دلالة على أنه سيحصل كذا؛ رُخص أو غلاء، ومن تزوّج في النجم الفلاني فإنه يوفّق، ومن تزوج في النجم الفلاني أو البُرْج الفلاني فإنه يُخْفِق، وما يسمونه بالبَخْت والنَّحْس.

هذا كله باطل، وهذا يُنشر في بعض المجلاَّت التي تصدُر من جهات غير ملتزمة بالإسلام يُنشر فيها أبوابٌ خاصّة بالنجوم، وأنّ في البُرج الفلاني يحصُل كذا من تزوّج فيه، أو باع أو اشترى يربح، والنجم الفلاني نحسٌ ولا يصلح فيه شيء.

هذا من اعتقاد الجاهلية.

وأما علم الحساب المستفاد من منازل القمر لمعرفة مواقيت الصلاة، ووقت بذر الزرع، وغرس الأشجار، وغير ذلك من المصالح. فهذا ليس من الاستدلال بالنجوم على المحرّم، إنما هو من علم الحساب، والله خلق الشمس والقمر للحساب.

وهذه المفكِّرات التي تعلق على الجُدران ويتداولها النّاس لمعرفة مواقيت الصلوات هي من هذا النوع، من العلم المرخّص فيه، والذي رخّص فيه: الإمام أحمد، وإسحاق، وغيرهما، سواء كان

من الحساب الشمسي أو القمري، كله من هذا النوع، لا بأس به لأنه فيه مصالح للناس وليس فيه اعتقاد سيء. ٤

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر)) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي، وتمام الحديث: ((ومن مات وهو مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة؛ نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن))[١].

قال: "وعن أبي موسى" هو الصحابي الجليل عبد الله بن قيس الأشعري، نسبة إلى جماعة في اليمن يقال لهم "الأشعريين."

وأبو موسى هذا من أفاضل الصحابة وأجلاَّئهم وفُضلائهم، قد تولّى أعمالاً جليلة في أيام الرسول ﷺ وفي أيام الخلفاء الراشدين، فله مكانةٌ عظيمة في الإسلام، رضي الله تعالى عنه وأرضاه وكان حسن الصوت بالقرآن واستمع إليه النبي ﷺ وأثنى عليه.

قوله ﷺ: ((ثلاثة لا يدخلون الجنة)) هذا وعيد يُجرى على ظاهره ولا يُؤَوّل ولا يُفَسّر، لأن تفسيره وتأويله يقلِّل من أهميّته، فيُترك على ظاهره للزجر والوعيد، وإن كان أصحاب هذه الجرائم لا يخرجون من الإسلام، ولكن هذا من باب الوعيد الشديد لهم. ٤

---

[١] رواه الإمام أحمد في المسند (٣٩٩/٤)، والطبراني – كما في مجمع الزوائد (٧٤/٥)، وابن حبان في صحيحه (رقم٥٣٤٦) والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١٤٦/٤)، وأبو يعلى في مسنده (رقم ٧٢٤٨) وغيرهم وإسناده حسن، وهو صحيح بشواهده

وفي هذا الحديث كما تقدم في نظائره، كقوله: ((من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)). واختار الإمام أحمد رحمه الله تعالى أن مثل هذه الأحاديث تُمَرُّ كما جاءت من غير تأويل.[١]. ٧

وهم: ((مدمن الخمر)) والمراد بالمدمن: الذي يداوِم على شرب الخمر، ولا يتوب إلى الله منها.

فشرب الخمر كبيرة من كبائر الذنوب، ومن استحلّه فقد كَفر. ٤ إلا إن كان ناشئاً ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك، فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه. ٥

ومن اعتقد تحريمه وشَرِبَه من باب الشهوة النفسانية فقد فعل كبيرة من كبائر الذنوب، ويُعتبر فاسقاً ناقص الإيمان، إذا ثبت عليه الشرب بإقراره أو بشهادة الشهود يُقام عليه الحد ثمانين جلدة، لأن حدّ الخمر شرع لصيانة العقل، الذي هو أشرف شيء في الإنسان، يميّز به الضار من النافع، والطيِّب من الخبيث، وبه يعقل أمور دينه، وبه يُمسك عن الأذى، فإذا فقد العقل صار أحطّ من البهيمة، فيؤذي، ويضيّع أخلاقه ومصالحه ومصالح غيره، فلذلك زجر الله عن شُرب الخمر، ووضع لها حدًّا في الدنيا ووعيداً في الاخرة، وأخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة، فهذا وعيدٌ شديد.

والثاني: ((قاطع الرحم)) والرحم هي: القرابة من جهة الأب، أو من جهة الأم.

وصلة الأرحام واجبةٌ في الإسلام بعد بِرِّ الوالدين، وهم: الأولاد وأولادهم، والإخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمّات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، والآباء والأجداد.

---

[١] قال في ((التيسير)) ص (٣٨٦): "وكان المصنف رحمه الله تعالى يميل إلى هذا القول".وقال المؤلف في ((فتح المجيد)) (٥٣٤/٢): ((وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام، فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه به فقد استوجب العذاب، وإن غفر له، فبفضله وعفوه ورحمته)).

فأول من تَجبُ صلته: الوالدان بالبر بهما، ثمّ الأولاد، ثمّ الإخوة وأولادهم، ثمّ الأعمام والعمّات وأولادهم ثمّ الأخوال والخالات وأولادهم، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء:٣٦]، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء:٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٦].

فالقربى لها حق واجب، ومن قطع هذا الحق فإنه يكون قاطعاً للرحم، وقاطع الرحم مرتكبٌ لكبيرة من كبائر الذنوب، وملعونٌ في القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

والله -جل وعلا- يقول للرحم في الحديث القدسي: ((من وصلكِ وصلته، ومن قطعكِ قطعته))، وفي هذا الحديث: أنه لا يدخل الجنة. وهذا وعيدٌ شديد.

والثالث: ((مصدِّقٌ بالسحر)) وهذا محل الشاهد من الحديث.

فإنْ قلتَ: الحديث في مصدِّق السحر، والباب في باب التنجيم، فما المناسبة؟

قلنا: المناسبة أن التنجيم نوعٌ من السحر؛ لما يأتي في الحديث: ((من اقتبس شُعبة من النجوم فقد اقتبس شُعبة من السحر زاد ما زاد))، فالتنجيم نوعٌ من السحر، فلذلك أورده المصنِّف في هذا الباب.

وأخبر النبي ﷺ أنّ المصدِّق بالسحر -ومنه المصدِّق بالنجوم- أنه لا يدخل الجنة، وهذا وعيدٌ شديد، قد لا يدخل الجنة لكفره، وقد لا يدخلها لمعصيته.

وهذا من أحاديث الوعيد التي تُجرى على ظاهرها ولا تُفسَّر.

والشاهد منه قوله: ((مصدِّقٌ بالسحر)) الذي منه التنجيم. ٤

فإذا قال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به، فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فإن قيل: لماذا لا يجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

أجيب: إن المصدق بما يخبره به السحر من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً، فلا يلحقه هذا الوعيد، إذا لا شك أن للسحر تأثيراً، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصي كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصاً فيجعله يُحِب فلاناً ويبغض فلاناً، فهو مؤثر، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً أو نحو ذلك، فلا شك في دخوله في الوعيد، لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله ـ عز وجل ـ ه

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فيجرون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل، فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أنَّ من في قلبه إيمان وإن قل، فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب، لأن من

استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً، فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، هذه الآية من نصوص الوعيد، فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف، كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد، فيقال: لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعني لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة، فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حَرِيٌّ أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافراً، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال، لأن من مات على الكفر، فلن يدخل الجنة، وهو مخلد في النار، وربما يؤيده قوله: ((لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً))[١]، فيكون هذا قولاً خامساً. ٥

وعلى كل حال؛ فالواجب على المسلم أن يحذَر من هذه المشكلة، وهي مسألة التنجيم التي لا يزال شرها موجوداً في النّاس. ٤

مما يدخل في هذا العصر بوضوح مع غفلة الناس عنه: ما يكثر في المجلات مما يسمونه البروج، يضَعُون صفحة أو أقل منها في الجرائد يجعلون عليها رسم بروج السنة: برج الأسد

---

[١] البخاري: كتاب الديانات/ باب قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا...﴾

والعقرب والثور إلى آخره، ويجعلون أمام كل برج ما سيحصل فيه، فإذا كان المرء أو المرأة مولودا في ذلك البرج يقول سيحصل لك في هذا الشهر كذا وكذا وكذا، وهذا هو التنجيم الذي هو التأثير الاستدلال بالنجوم والبروج على التأثير في الأرض وعلى ما سيحصل في الأرض، وهو نوع من الكهانة، ووجوده في المجلات والجرائد على ذلك النحو وجود للكهان فيها، فهذا يجب إنكاره إنكارا للشركيات ولادعاء معرفة الغيب وللسحر وللتنجيم؛ لأن التنجيم من السحر كما ذكرنا، يجب إنكاره على كل صعيد، ويجب أيضاً على كل مسلم أن لا يُدخله بيته، وأن لا يقرأه ولا يطلع عليه؛ لأنه وإن رأى تلك البروج وما فيها، ولو أن يعرف ذلك معرفة فإنه يدخل في النهي من جهة أنه أتى إلى الكاهن غير منكر له.

فإذا أتى إلى هذه البروج وهو يعرف البرج الذي وُلد فيه؛ ولكن يقول سأطلع ماذا قالوا عني أو ماذا قالوا سيحصل لمن ولد في هذا البرج، فإنه يكون كمن أتى كاهنا فسأله فإنه لا تقبل له صلاة أربعين ليلة.

وإذا أتى وقرأ وهو يعلم برجه الذي وُلد فيه أو يعلم البرج الذي يناسبه وقرأ ما فيه، فهذا سؤال فإذا صدقه به فقد كفر بما أنزل على محمد.

وهذا يدلك على غربة التوحيد بين أهله، وغربة حقيقة هذا الكتاب كتاب التوحيد حتى عند أهل الفطرة وأهل هذه الدعوة، فإنه يجب إنكار ذلك على كل صعيد، وأن لا يؤثِّم المرء نفسه ولا من في بيته بإدخال شيء من الجرائد التي فيها ذلك في البيوت؛ لأن هذا معناه إدخال للكهنة إلى البيوت، وهذا والعياذ بالله من الكبائر، فواجب إنكار ذلك وتمزيقه والسعي فيه بكل سبيل حتى يُدحض أولئك؛ لأن علم التنجيم أهل البروج أولئك هم من الكهنة، والتنجيم له معاهد معمورة في لبنان وفي غيرها، يتعلم فيها الناس حركة النجوم وما سيحصل بحسابات معروفة وجداول معينة، ويخبرون بأنه ما كان من في البرج الفلاني فإنه سيحصل كذا وكذا عن طريق تعلمٍ وهمي يغرهم به رؤوسهم وكهانهم.

فالواجب على طلبة العلم أن يسعوا في تبصير الناس في ذلك بالكلمات وبعد الصلوات وفي خطب الجمع؛ لأن هذا مما كثر البلاء به وأهل الإنكار فيه قليل، والتنبيه عليه ضعيف والله المستعان. ٣

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء.
- ورجوم للشياطين.
- وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمها. ٥

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

لقول قتادة: "من تأول فيها غير ذلك، أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به".

ومراد قتادة في قوله: "غير ذلك" ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة، فلا ضلال لمن تأوله. ٥

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. سبق ذلك ٥

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه، فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل، لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟! ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(٨٢) [الواقعة:٨٢].

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ط أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((أَرْبَعَةٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُوهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ))، وقَالَ: ((النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانَ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ ط قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةَ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: ((هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟))، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعلم، قَالَ: ((قَالَ :أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ)). وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ وَفِيهِ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا، فَأَنزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ –إِلَى قَوْلِهِ– وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

"باب الاستسقاء بالأنواء" أي: طلب السقيا بالنجوم. ما حكمه؟ وما دليله؟. ٤

الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار: طلب المغفرة والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوذ، والاستهداء: طلب الهدايا، لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة في الفعل، مثل: استكبر، أي: بلغ في الكبر غايته، وليس المعنى طلب الكبر، والاستسقاء بالأنواء، أي: أن تطلب منها أن تسقيك. ٥

الأنواء: جمع نوء وهي منازل القمر.

قال ابو السعادات: "وهي ثمانيه وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها، ومنه قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس:٣٩] يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت في الشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة.

وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق، ينوءُ نَوْءاً، أي: نهض وطلع."[١] ١

وكانوا يستسقون بالنجوم وهي الأنواء، وهي ثمان وعشرين نوءاً ينزلها الشمس والقمر في مدارها، القمر في الشهر والشمس في السنة. ٦

والنوء عبارة عن أحد منازل القمر الثمانية والعشرين.

وذلك أن العرب تزعم في الجاهلية أن المطر إنما ينزل بسبب طلوع النجم، وبعضهم يقول: المطر يحصل بسبب غروب النجم الذي يغرب في الفجر. والخلاف بينهم يسير.

المهم أنهم يضيفون نزول المطر إلى طلوع النجم أو غروبه، يظنون أن غروب النجم أو طلوع النجم في الفجر هو الذي يسبِّب نزول المطر، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، مطرنا بنوء الثريا، بنوء القلب، بنوء العُوّاء، بنوء الغَفْر، بنوء الزُّبانة، إلى آخره، هكذا تقول العرب في جاهليتها. ٤

---

[١] النهاية (١٢٢/٥).

والاستسقاء بالأنواء هو نسبة السقيا إلى الأنواء، والأنواء هي النجوم، يُقال للنجم نوء، والعرب والجاهليون كانوا يعتقدون أن النجوم والأنواء سبب في نزول المطر فيجعلونها أسباباً، ومنهم -وهم طائفة قليلة- من يجعل النوء والنجم هو الذي يأتي بالمطر، كما ذكرتُ لك في حالة الطائفة الأولى من المنجمين الذين يجعلون المفعولات منفعلة عن النجوم وعن حركتها.

فقوله رحمه الله (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء) يعني باب ما جاء في نِسْبَة السُّقيا إلى النوء، وعبَّر بلفظ الاستسقاء لأنه جاء في الحديث والاستسقاء بالنجوم.

ومناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب أن بالأنواء نوع من التنجيم لأنه نسبة السقيا إلى النجم؛ وذلك أيضاً من السحر لأن التنجيم من السحر بمعناه العام.

ومناسبة ذلك لكتاب التوحيد أنّ الذي ينسب السقيا والفضل والنعمة الذي أتاه حينما جاءه المطر يَنسب ذلك إلى النوء وإلى النجم هذا ملتفتٌ قلبُه عن الله جل وعلا إلى غيره، ومتعلِّق قلبه بغيره، وناسبٌ النعمة إلى غير الله جل وعلا ومعتقد أن النجوم أسباب لهذه المسبَّبَات من نزول المطر ونحوه، وهذا منافٍ لكمال التوحيد فإن كمال التوحيد الواجب يوجب على العبد أن ينسب النعم جميعاً إلى الله وحده وأن لا ينسب شيئاً منها إلى غير الله ولو كان ذلك الغير سبباً، فينسب النعمة إلى مُسديها ولو كان من أجرى الله على يديه تلك النعم سبباً من الأسباب فإنه لا ينسبها إلى غير الله جل وعلى، كيف وأن النجوم ليست بسبب أصلا، ففي ذلك نوعان من التعدي:

أولا أنها ليست بأسباب.

والثاني أن يجعلها الله جل وعلا أسباباً وتُنسب النعم والفضل السقيا إليها.

وهذا مناف لكمال التوحيد وكفر أصغر بالله جل وعلا. ٣

وهذا الباب يُعتبر نوعاً من أنواع الباب الذي قبله، وهو "باب ما جاء في التنجيم"، فالباب الأول عامٌّ في كلِّ ما يُعتقد في النجوم من الكفر والضلال والباطل من استسقاء وغيره، وهذا الباب خاصٌّ بمسألة واحدة، وهي الاستسقاء بالنجوم.

قول: "باب ما جاء" أي: من الوعيد في الكتاب والسنّة، وبيان أنّ ذلك كفر بالله تعالى، لأنه اعتقادٌ في غير الله في أنه يخلق أو يرزق أو يدبِّر شيئاً من هذا الكون، وهذا كفرٌ بالله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه هو الخالق المتصرِّف المدبِّر لهذا الكون ليس له شريك، وكلُّ هذه المخلوقات كلها مدبَّرةٌ بأمره سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ﴾ الذي هو: التدبير والإيجاد والتصرُّف، ﴿وَالْأَمْرُ﴾ الذي هو الشرع، فكما أنه الخالق فهو الذي يشرع سبحانه وتعالى، ويأمر وينهى، ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

لَمّا قرأ عبد الله بن عمر هذه الآية قال: "من كان له شيء فليطلبه."

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)﴾ [النحل:١٢]، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت:٣٧]، فلا يجوز أن يُعتَقد في مخلوق من المخلوقات أيًّا كان شكله وقوته ونوعه أن يُعتقد فيه أنه يدبِّر مع الله سبحانه وتعالى، وانما يدبِّر بأمر الله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً (٥) ﴾ [النازعات] يعني: الملائكة يدبِّرون بأمر الله سبحانه وتعالى، الله يأمرها وهي تدبِّر ما أمرها به سبحانه. ٤

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر، لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إذا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنوار على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة، لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني:

شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سسبباً مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بوجيه ولا بقدرة، فهو مشرك شركاً أصغر. ٥

وقد شرع الله الاستسقاء به سبحانه، والاستسقاء: الضراعة إلى الله عند وجود الجدب. بدلاً مما عليه أهل الشرك من الطلب من النجوم والتعلق بها والاستغاثة بها. ٦

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

قال علماء التفسير: معنى هذه الآية وتجعلون شكر رزقكم، شكر ما رزقكم الله من النعم ومن المطر أنكم تكذبون بأن النعمة من عند الله بنسبتها لغير الله جل وعلا؛ تارة لنسبتها إلى غير الله جل وعلا. والواجب شكرا لنعم الله جل وعلا، وشكرا لله جل وعلا على ما رزق وأنعم وتفضّل أن تُنسب النعم جميعاً إلى الله، وأن ينسب الفضل إلى الرب وحده دون ما سواه. ٣

والمعنى: تكذبون أنه من عند الله، حيث تضيفون حصوله إلى غيره. ٥

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ هذه الآية في سياق الآيات التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢].

والشاهد في قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾.

وقد ذكر العلماء في تفسيرها قولين: ٤

الأول: أن المراد به رزق العلم، لأن الله قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٣]، أي: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر، وقد روي في ذلك حديث عن النبي ﷺ لكنه ضعيف، إلا أنه صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً. ٥

وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم[1]، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة. ١

والقاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح. ٥

---

[1] انظر تفسير الطبري (٢٠٨/٢٧)، والدر المنثور (٣٠/٨-٣٢)

وقد أكذبهم الله فقال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: المطر ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فتنسبونه إلى الطالع أو الغارب من النجوم، وهذا كذب، لأن الذي ينزل المطر هو الله سبحانه وتعالى، وليس طلوع النجم أو غروبه، فيكذبون على الله سبحانه وتعالى، وينكرون نعمة الله ويجحدونها، وكان الواجب عليهم أن يشكروا نعمة الله، وأن يضيفوا النعمة إلى الله، لكنهم أضافوها إلى غيره، وقالوا: مُطرنا بالنوء الفلاني، فأنكر الله عليهم: قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا وسمّاه الله كذباً، وهو كذبٌ في الاعتقاد، وأشد الكذب هو الكذب في الاعتقاد، قال تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [الزمر:٣٢]، فالذي يكذب على الله وينسب نعمه لغيره، وينسب المطر إلى مخلوق من خلقه فقد كذب على الله أعظم الكذب، بدل أن يشكر الله يكذب عليه، وينسب نعمه إلى غيره، وهذا جُحودٌ للنعمة، وكُفرانٌ بها.

وقد فصّل العلماء حكم ذلك فقالوا: إن اعتقد أنّ النجم هو الذي يوجد المطر؛ فهذا كفرٌ أكبر، وشركٌ أكبر مخرجٌ من الملَّة.

أما إذا اعتقد أنّ المطر ينزل بأمر الله وبتقدير الله سبحانه، ولكنه نسبه إلى النجم، أو إلى الطالع أو الغارب من باب المجاز أو السببية –كما يقولون– فهذا كفرٌ أصغر، وشركٌ أصغر، لكنه وسيلةٌ إلى الشرك الأكبر، لأن الله لم يجعل النجوم سبباً في نزول الأمطار، وإنما الأمطار تنزل بأمره سبحانه وتعالى، فالأمطار إنما تنزل بأمره وبسبب رحمته سبحانه وتعالى كما دلّتْ على ذلك آياتٌ كثيرة من القرآن: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مباركاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)﴾ [ق:٩]، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [إبراهيم:٣٢].

والحاصل؛ أن المنزِّل للمطر هو الله سبحانه وتعالى، والرياح والسحاب إنما هي مخلوقات لله سبحانه وتعالى. ٤

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أربعة في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)) وقال: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)). رواه مسلم.[١]

قوله ﷺ: ((أربع)) أي: أربع خِصال.

((في أمتي)) يعني: أمة الإجابة، لأن أمة الدعوة تشمل كل الثقلين الجن والإنس، لأن الرسول بُعث إليهم.

وأما أمة الإجابة فهم الذين آمنوا به ﷺ وصدّقوه واتّبعوه.

((من أمر الجاهلية)) المراد بالجاهلية: ما قبل الإسلام، سُمي جاهلية من الجهل وهو عدم العلم، لخلو هذا الوقت -وقت الفتْرة- من آثار الرسالات السماوية، لأن بين بِعثة محمد ﷺ وبين عيسى-آخر أنبياء بني إسرائيل- أربعمائة سنة وزيادة، كانتْ قد اندثرتْ فيها آثار الرسالات، ونظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاَّ بقايا من أهل الكتاب انقرضوا قبل البِعثة.

فهذا الوقت الذي قبل الإسلام سمّي بالجاهلية لعدم وجود العلم فيه.

أما ما بعد الإسلام فلا يقال له: جاهلية، لأن الجاهلية زالت والحمد لله بالإسلام، والعلم موجود، ورّثه الرسول لله، فبعد بعثة هذا الرسول زالت الجاهلية العامّة، أما بقايا من الجاهلية أو خصال من أمور الجاهلية فقد تبْقى في أفراد من الناس أو طوائف من الناس المسلمين، لكن أن يقال: الناس كلهم في جاهلية -كما يطلقه بعض الكتّاب الجهال- فهذا باطل.

فقد يُبالغ بعض الكُتّاب الجُهّال فيصفون هذا الوقت بوقت الجاهلية، فيقول بعضهم: "جاهلية القرن العشرين"، وهذا تعبير خاطئ، وقول باطل، كما نبّه على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: "اقتضاء الصراط المستقيم."

---

[١] صحيح مسلم (٢/ ٦٤٤رقم ٩٣٤)

فقوله ﷺ: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية)) دلّ على أنه تبقى أشياء من الجاهلية تتسرّب في الناس، وقد تكون في بعض المؤمنين الصادقين.

وقد تكثُر الجاهلية في بعض الأشخاص وتعظُم، ولكنه لا يخرج بها من الإسلام ما دام أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولم يشرك بالله، ولم يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، فليس كل من فيه جاهلية يكون كافراً.

فالحاصل؛ أن المبالغات في وصف الزمان بأنه جاهلية والناس كلهم في جاهلية؛ فهذا باطل، ولا يصدُر من عالم محقِّق، إنما يصدُر من بعض الجُهّال. ٤

وقوله ((مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيّةِ)) هذا دليل على ذمها وأنها من شعب الجاهلية، ومن المعلوم أنّ شعب الجاهلية جميعاً مطلوب من هذه الأمة أن تبتعد عنها؛ لأن خصال أهل الجاهلية مذمومة كما جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال ((أبغض الرجال إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم ومطلب دم امرئ بغير حقٍّ لِيُهريق دمه، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية)) فكل شعبة من شعب أهل الجاهلية إذ أُرجعت إلى أهل الإسلام بعد أن أنقذهم الله من ذلك ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام وظهور القرآن والسنة وبيان الأحكام فإنه مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية وهو من أبغض الرجال إلى الله جل وعلا. ٣

وقوله: ((من أمر الجاهلية)). إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير، لأن كل إنسان يقال: فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب، إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية، فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١-التنفير.

٢-بيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان، إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها، فالذي يعتني بها جاهل. ٥

وقوله: ((من أمر الجاهلية لا يتركونهن)) دلّ هذا على مسألتين.

الأولى: يُنسب إلى الجاهلية، وعلى أنه محرّم، لأن الرسول ﷺ ذكر هذا من باب الذم والتحذير منه، وقال الله تعالى لنساء نبيه: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب:٣٣]، فكل ما يُنسب إلى الجاهلية فإنه محرّم ومذموم يجب التخلّي عنه والابتعاد عنه.

المسألة الثانية: فيه -أيضاً-: أنه قد يبقى شيءٌ من الجاهلية في بعض المسلمين، فيجب عليه الحذَر منه، والتحذير منه، والتوبة إلى الله ممّن وقع في شيء من ذلك من أمور الجاهلية. وهذه الأربع التي ذكرها النبي ﷺ هي:

الأولى: ((الفخر بالأحساب)) والمراد بالحسَب: شرف الإنسان ومكانته في المجتمع، فلا يفخر بحسبه، لأن الله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فالكرم عند الله هو بالتقوى لا بالحسب.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "إذا كان لا يجوز للإنسان أنه يفخر بعمله هو، فكيف يفخر بعمل أبيه وجده".

قال الشاعر:

لعمرك ما السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

وقال آخر:

وليس على عبد تقيٍّ غضاضة ... إذا حقق التقوى وإنْ حاك أو حجم ٤

والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية، لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالى والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما أزدادت نعم الله عليه ازداد تواضعاً للحق وللخلق. ٥

وروى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً: ((إن الله قد أَذْهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفَخْرَهَا بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم من تراب لَيَدَعُنَّ رجال فخرهم بأقوامٍ إنما هم فَحْمٌ من فَحْمِ جهنم، أو لَيَكونُنَّ أهون على الله من الجِعْلانِ التي تدفع بأنفها النتن)).[1] ١

الثانية من أمور الجاهلية: ((الطعن في الأنساب)) بأن يتنقّص أنساب النّاس.

لأنه يعظّم نفسه، ولأنه يتنقّص الآخرين وكلاهما مذموم. ٤

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مُقطَّعة البظور –وهي شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء–. ٥

بأن ينتقص الناس فيقول فلان نجار وفلان حداد وفيه كذا وكذا على سبيل التنقص والعيب لا على سبيل الخبر فلا بأس فيه. ٦

((والطعن في الانساب)) أي الوقوع فيها بالذم والعيب، أو يقدح في نسب أحد من الناس فيقول: ليس هو من ذرية فلان، أو يُعَيِّرُهُ بما في آبائه من المطاعن، ولهذا لما عير أبو ذر ﵁ رجلاً بِأُمِّهِ قال النبي ﷺ لأبي ذر: ((أَعَيَّرْتَهُ بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية)) متفق عليه.[2]

((وَالطّعْنُ فِي الأَنْسَابِ)) بالطعن في نسب فلان وفلان والتكذيب بنسب فلان وفلان بغير دليل شرعي ومن غير حاجة شرعية، فإن القاعدة التي ذكرها الإمام مالك وغيره من أهل العلم أن الناس مؤتمنون على أنسابهم، فإذا كان لا يترتب على ذكر النسب وأن فلانا ينتسب

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٣٦١/٢، ٥٢٣)، وأبو داود في سننه (رقم ٥١١٦)، والترمذي في سننه (رقم ٣٩٥٥، ٣٩٥٦) وقال: حسن غريب، والبيهقي في السنن الكبرى وغيرهم وإسناده حسن. وانظر: صحيح سنن أبي داود (رقم ٤٢٦٩)

[2] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٣٠) ومسلم في صحيحه (رقم ١٦٦١) واللفظ للبخاري.

إلى آل فلان أو إلى القبيلة الفلانية إذا لم يترتب عليه أثر شرعي إعطاء حق لغير أهله أو بميراث أو بعقد نسبة أو بزواج ونحو ذلك فإنَّ الناس مؤتمنون على أنسابهم، أما إذا كان له أثر فلا بدّ من الإثبات سيما إذا كان مخالفا لما هو شائع متواتر عند الناس. ٣

مسألة: لا بأس أن لا يتزوج من أناس ليسوا ذوي حسب وإن كانت المرأة ذات دين خوفاً من أذى قومه ومضايقتهم له وهذه عادات ولا بأس فيها. بشرط أن لا يكون تركه لهم لتنقصهم واحتقارهم عنده. ٦

الثالثة: ((والاستسقاء بالأنواء)) وهذا محل الشاهد من الحديث.

والاستسقاء (استفعال)، أصله: طلب السقيا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة:٦٠] ﴿اسْتَسْقَى﴾ يعني: طلب السقيا.

والاستسقاء بالنجوم هنا ليس معناه: أنهم يطلبون من النجوم أن تسقيهم، لكن معناه: أنهم ينسبون المطر إلى النجوم، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. ٤

ويشمل أيضاً قوله الاستسقاء بالنجوم يشمل ما هو أعظم من ذلك وهو أن تُطلب السقيا من النجوم كحال الذين يعتقدون أن الحوادث الأرضية تحصل بالنجوم نفسها، وأن النجوم هي التي تُحدث المقدرات الأرضية والمنفعلات الأرضية. ٣

وكما فصّل العلماء: إنْ كان يعتقد أن النجوم هي التي أنزلت المطر وأثّرت؛ فهذا كفر مخرِج من الملّة. وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله، وأن النجوم إنما هي أسباب وأضاف ذلك إليها من باب التساهل في التعبير؛ فهذا يُعتبر شركاً وكفراً أصغر لا يخرج من الملة. ولكنه محرّم شديد التحريم، لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، ولأن الشرك وإن كان أصغر فهو خطير، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

قال العلماء: أما لو قال: سُقينا في نوء كذا، فأتى بـ (في)، فلا بأس بذلك، لأن هذا ليس فيه نسبة المطر إلى النجم، وإنما يقول: سُقينا في هذا الوقت، سُقينا في نوء كذا يعني: في وقت كذا.

الرابعة: قوله ﷺ: ((والنياحة على الميت)) والنياحة: رفع الصوت على الميِّت من باب الجزَع والتسخُّط، وإذا صحبه شقّ للثوب، أو لطم للخد، أو تعداد لمحاسن الميِّت، أو نياحة وندْب وجزَع؛ فهذا كبيرة من كبائر الذنوب.

والواجب عند نزول المصيبة: الصبر والاحتساب لا الجزَع والتسخُّط.

والنياحة دليل على عدم الرضى بقضاء الله وقدره، ودليلٌ على عدم الصبر والاحتساب. وهي من أمور الجاهلية، ويكفي أنها من أمور الجاهلية، لأن أمور الجاهلية محرّمة. ٤

والندب: تعداد محاسن الميت. ٥

قوله: " وقال: ((النائحة إذا لم تتب)) يعني: ترجع عن النياحة، وتندم على ما حصل منها، وتعزم على أن لا تعود إلى النياحة في مستقبلها.

وهذه شروط التوبة:

فالتوبة لغة: الرجوع، وشرعاً هي: الرجوع من معصية الله إلى طاعة الله.

وشروطها ثلاثة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما حصل، والعزم أن لا يعود إليه. فإذا توفّرت هذه الشروط فالتوبة صحيحة، وإذا اختلّ شرطٌ منها فهي توبة غير صحيحة.

ودلّ هذا على أن التوبة تمحو المعصية ولو كانتْ كبيرة، ولو كانت شركاً وكفراً بالله جل وعلا، فالتوبة تَجُبُّ ما قبلها من النياحة وغيرها.

وفي قوله ﷺ: ((قبل موتها)) دليل على أنه عند الموت لا تُقبل التوبة، فإذا بلغت الروح الحُلْقوم فحينئذ لا تُقبل التوبة.

قوله: ((تُقام يوم القيامة)) يعني: من قبرها.

((وعليها سِرْبال)) السِّربال هو: الثوب.

((من قطران)) هو النحاس المذاب.

((ودِرْعٌ من جَرَب)) الدرع كذلك هو: الثوب، والجَرَب: مرض جلدي، يكون في الإبل ويكون في الإنسان. ٤

والمعنى أن كل جلدها يكون جرباً بمنزله الدرع، وإذا أجتمع قطران وجرب زاد البلاء، لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به، فكيف ومعه قطران ؟! ٥

قال القرطبي: "السربال: واحد السرابيل، وهي الثياب والقُمْصُ، يعني: أَنَّهُنَّ يُلَطَّخْنَ بالقَطِران، فيصير لهن كالقميص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادِهِنَّ أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمها بسبب الجرب أشد".[١] ١

والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون في هذة الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

أو من الجهالة التي هى السفة، وهي ضد الحكمة.

وإنما كانت لأمور، هي:

١- أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢- أنها تسخط من قضاء الله وقدره وأعتراض عليه.

٣- أنها تهيج أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله –وهو من علمائنا الحنابلة- أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ

---

[١] المفهم (٥٨٨/٢)

لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، فقال له ابن عقيل رحمه الله: "إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان."

٤- أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو أمرأة. لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها))، أي: إن تابت قبل الموت، تاب الله عليهما، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه، لأنه من كبائر الذنوب والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلا التوبة. ٥

فدلّ هذان الحديثان على مسائل:

أولاً: فيه تحريم أمور الجاهلية وذمها عموماً.

ثانياً: فيه أن أمور الجاهلية لا ترتفع بالكلية، بل يبقى منها شيءٌ في بعض المسلمين.

ثالثاً: وهي مسألة مهمة جدًّا-: أن من كان فيه شيء من أمور الجاهلية لا يقتضي ذلك كفره، لكن يكون هذا ذنباً مذموماً يجب عليه التخلِّي عنه والتوبة منه، لكنه لا يقتضي الكفر، لأنه قال: ((من أمتي))، فمن كان فيه شيء من أمور الجاهلية فهذا لا يقتضي كفره، إلاَّ إذا بلغ مبلغ المكفِّرات كالشرك بالله جل وعلا، أو بلغ ناقضاً من نواقض الإسلام المعروفة فهذا يكفُر به.

رابعاً: فيه دليل على تحريم المسائل الأربع المذكورة: ((الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة))، وأن هذه الأمور من كبائر الذنوب.

والخامسة: فيه دليلٌ على أن التوبة تمحوا ما قبلها.

سادساً: فيه أن قبول التوبة محدّد بما قبل الموت. ٤

٧- ثبوت رسالته ﷺ، لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.

٨- أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليها في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد فى الآخرة، فهو من الكبائر.

٩- أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح، لقوله: ((إذا لم تتب قبل موتها)).

١٠- أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لابد أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً" لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذباً من كبائر الذنوب وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

١١- ثبوت الجزاء والبعث.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: ((هل تدرون ماذا قال ربكم؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب)).

قوله رحمه الله: (ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحهما: "عن زيد بن خالد" الجهني، صحابي جليل مشهور، والجهني نسبة إلى جُهينة القبيلة المعروفة، وهي قبيلة كبيرة من قبائل العرب.

قال: "صلى لنا" المراد: صلى بنا، فاللام هنا بمعنى الباء.

"رسول الله ﷺ صلاة الصبح" يعني: صلاة الفجر، سُمِّيت صلاة الصبح لأنها تجب عند طلوع الفجر، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] يعني: صلاة الصبح.

"بالحديبية" اسم مكان على حدود الحرم من جهة الغرب، قريب من التنعيم، يقال له الآن (الشميسي)، وهو عند مدخل الحرم للقادم من جدّة.

يقال الحديبيةَ -بالتخفيف-، ويقال بالحديبيّة، بالتشديد والمشهور الأول. ٤

"على إثر سماء"

سماء يعني مطر، المطر يطلق عليه سماء؛ لأنه يأتي من جهة العلو ويقال له سماء كما قال الشاعر:

إذا نزل السماءُ بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

يعني إذا نزل المطر. ٣

قوله: "فلما أنصرف" أي: من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: "أقبل على الناس". ٥

"فلما انصرف أقبل على النّاس" لأن هذا من السنّة؛ أن الإمام إذا فرغ من الصلاة فإنه لا يبقى مستقبل القبلة، بل ينصرف إلى النّاس ويُقبِل عليهم بوجهه كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك.

فقال ﷺ: ((أتدرون ماذا قال ربكم؟)) ٤

((هل تدرون؟)) لفظ استفهام، ومعناه التنبيه. وفي رواية النسائي: ((ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟))[1]. ١

قوله: ((هل تدرون ماذا قال ربكم ؟)). الأستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله، لأن الوحي لا ينزل عليهم. ٥

[1] سنن النسائي (١٦٤/٣)، ورواها أيضا: أبو عوانة في مستخرجه على صحيح مسلم (٣٥/١) والحميدي في مسنده (٣٥٦/٢) والإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) وغيرهم وسنده صحيح.

هذا فيه: مشروعية الموعظة بعد الصلاة إذا صار لها مناسبة، كتنبيهٍ على خطأ وقع، أو بيان لواجب، أو موعظةٍ عامة، وحثٍّ على تقوى الله، فإنه ﷺ كان يعظ النّاس أحياناً، ولم يكن يداوم على ذلك، وإنما يفعل ذلك أحياناً خشية المِلَل، فكان يتخوّلهم بالموعظة ﷺ، خصوصاً إذا حصل شيءٌ يحتاج إلى تنبيه، مثل هذه القضية.

وفي هذا مشروعة التعليم من خلال السؤال والجواب، فالمعلِّم يسأل الطالب أوّلاً من أجل أن ينتبه للجواب، لأن هذا يكون أبلغ في التعليم وأنبه للطالب، لأنه إذا سُئل أولاً ثمّ أُجيب فإنه يكون هذا أثبت في ذهنه، بخلاف ما لو أُلقيَ إليه العلم ابتداءً فإنه قد لا ينتبه له تماماً.

قالوا: "الله ورسوله أعلم" هذا فيه أن المسؤول إذا لم يكن عنده علم ولا جواب أنه لا يتخرّص، وإنما يكِل العلم إلى عالمه، فيقول: الله ورسوله أعلم، وهذا في حياته ﷺ، أما بعد موته فيقول: الله أعلم فقط. ففيه: مشروعية تفويض العلم إلى الله سبحانه وتعالى. ٤

هذه من الكلمات التي تقال في حياته عليه الصلاة والسلام، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام فإذا سئل المرء عما لا يعلم فليقل لا أدري أو فليقل الله أعلم، ولا يقل الله ورسوله أعلم؛ لأن ذكر علم النبي عليه الصلاة والسلام مقيد بحياته الشريفة عليه الصلاة. ٣

وفيه أيضاً إشكال معنوى، وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: "ما شاء الله وشئت. قال: ((أجعلتنى لله نداً !))

فيقال: أن هذا أمر شرعي، وقد نزل على الرسول ﷺ.

وأما إنكاره على من قال: ما شاء وشئت، فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ ليس له شأن فى الأمور الكونية.

والمراد بقولهم: "الله ورسوله أعلم" تفويض العلم إلى الله ورسوله، وأنهم لا يعلمون. ٥

فأجاب ﷺ و"قال" أي: الرسول ﷺ ((قال)) أي: الله.

وهذا من الأحاديث القدسية، نسبة إلى القدس وهو الطهارة، والتقديس هو التطهير، سُمي بذلك تشريفاً له لأنه من كلام الله. ٤

قال الحافظ: "وهي تحمل على أن النبي ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة "[1]. ١

فالحديث القدسي من كلام الله لفظه ومعناه.

أما الحديث غير القدسي فهو من كلام الرسول ﷺ، لكن المعنى من الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم:٣-٤].

إلاّ أن الحديث القدسي مع أنه من كلام الله لا يأخذ حكم القرآن من كل وجه، بحيث يُتعبد بتلاوته مثل القرآن، وبحيث لا يمسه إلاَّ طاهر مثل القرآن، أو أنه يُشترط له التواتر مثل القرآن، ومن حيث إنه تجوز روايته بالمعنى. أما القرآن فلا تجوز روايته بالمعنى.

الحاصل؛ أن بين الحديث القدسي وبين القرآن فروقاً كثيرة، وإن كان يجتمع مع القرآن في أنه كلام الله سبحانه وتعالى لفظاً ومعنى.

وفي قوله: ((قال)) إثبات أن الله يتكلّم، فصفة الكلام ثابتةٌ لله، يتكلّم متى شاء إذا شاء سبحانه وتعالى؛ كلاماً يليق بجلاله، ليس مثل كلام المخلوقين، فكيفيّته وكُنْهُه لا يعلمهما إلاَّ الله سبحانه وتعالى، لكنه ثابتٌ لله من صفات الأفعال التي يفعلها الله إذا شاء سبحانه وتعالى.

ففيه :ردٌّ على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين ينفون الكلام عن الله سبحانه وتعالى.

((أصبح من عبادي)) يعني: بسبب نزول المطر.

((مؤمنٌ بي وكافر)) ((مؤمن بي)) بسبب هذه النعمة، ((وكافر)) بسببها.

دلّ على أنّ حصول النعم ابتلاء من الله سبحانه، يبتلي به عباده، فمنهم من يشكر الله فيكون مؤمناً، ومنهم من ينكر نعمة الله فيكون كافراً بنعمه.

---

[1] فتح الباري (٣٢٣/١١)

ثمّ بيّن ﷺ سبب ذلك فقال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: ((فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته))

يعني: نسب النعمة إلى الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: ((فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته)). أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، وفضل: العطاء والزيادة. والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق. ٥

والتفضُّل والرحمة صفتان من صفات الله، فالله هو الذي يتفضل وهو الذي يرحم، ونزول المطر أثرٌ من آثار رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني بإنزال المطر وإنبات النبات.

((فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب)) لأنه لم ينسب نزول المطر إلى طلوع الكواكب أو غروبها، وهو ما يسمى بالنوء.

((وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا)) والنوء سبق لنا أنه هو النجم إذا طلع من المشرق وقت الفجر، أو غاب في المغرب وقت الفجر.

كان أهل الجاهلية ينسبون المطر إلى طلوع النجم أو غروبه، فيزعمون أنه إذا طلع النجم أو غرب ينزل المطر، ويعتقدون أن هذا بسبب الكواكب، ولا ينسبونه لله تعالى. وهذا كفر، لأنهم نسبوا النعمة إلى المخلوق، وهذا شرك بالله سبحانه وتعالى؛ شركٌ في الربوبية، وكل مشرك كافر.

وهذا فيه دليل على كفر من استسقى بالأنواء ونسب نزول المطر إليها، أو أنّ نزول المطر بتأثيرها، لأن نزول المطر إنما هو بقدرة الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزِّله متى شاء وأين شاء ويمنعه متى شاء وأين شاء، ويصرِّفه سبحانه وتعالى.

تطلُع الأنواء ولا يحصل مطر، ويحصل المطر في غير طلوع الأنواء، فيحصل المطر في أيِّ وقتٍ شاءه الله، وهذا شيءٌ مشاهَد أن المطر ينزل في جميع الأحيان ولا يتقيّد بظهور النجم، فهذا دليل على كذب هؤلاء. ٤

هنا قسم العباد إلى قسمين:

مؤمن بالله جل وعلا: وهو الذي نسب هذه النعمة وأضافها إلى الله جل وعلا، وشكر الله عليها، وعرف أنها من عند الله، فشكر ذلك الرزق وحَمِد الله وأثنى عليه به.

والصنف الثاني كافر: ولفظ كافر اسم فاعل الكفر أو اسم من قام به الكفر، وهذا قد يصدق على الكفر الأصغر أو الكفر الأكبر.

فهم انقسموا إلى مؤمنين وإلى كافرين.

الكافرون منهم من كفر كفرا أصغر، ومنهم من كفر كفرا أكبر:

- فالذي كفر كفرا أصغر: هو الذي قال ((مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا)) يعتقد أن النوء و النجم والكوكب سبب في المطر، فهذا كفره كفر أصغر؛ لأنه ما اعتقد التشريك و الاستقلال؛ ولكنه جعل ما ليس سبباً ونسب النعمة لغير الله، وقوله من أقوال أهل الكفر وهو كفر أصغر بالله جل و علا كما قال العلماء.

- والصنف الثاني كافر بكفر أكبر: وهو الذي اعتقد أن المطر اثر من آثار الكواكب والنجوم وأنها هي التي تفضلت بالمطر وهي التي تحركت بحركة لما توجه إليها عابدها فأنزلت المطر إجابة لدعوة عابدها، وهذا كفر أكبر بالإجماع لأنه اعتقاد ربوبية وألهية غير الله جلا وعلا. ٣

إذا اعتقد أن للنوء تأثيرا في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه أشرك في الربوبية والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء. ٢

وكما ذكرتُ لك الباء في قوله ((مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا)) إن كانت للسببية لأن الباء تأتي للسبب مطرنا بسبب نوء كذا وكذا فهذا كفر أصغر، وأما إذا كان المراد أن النوء هو الذي أتى بالمطر إجابة لدعوة عابديه أو لرحمته بالناس هذا كفر أكبر بالله جل جلاله. ٣

قال في فتح المجيد: "يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من كفر النعم؛ لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل :٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: "وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبة إلى إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث، فنهى الشارع عن إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم." انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد – يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير، والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور. ٢

قوله: ((وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا)). الباء للسببية، ((فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب))، وصار كافراً بالله، لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً،

فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يخرج من المللة، لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

لأنه قال: ((مطرنا بنوء كذا))، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا، لأنه لو قال ذلك، لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: ((مطرنا بنوء كذا)) نسبة المطر إلى النوء نسبة أيجاد، لأنه لو كان هذا هو المراد لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا به.

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو الله، لكن النوء هو السبب، فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذى لا يخرج من الملة. ٥

فإن قيل: هذا يدل على أن المراد بالكفر هنا: هو الأكبر.

قيل: ليس فيه دليل؛ إذ الأصغر يصدر من الكفار.

قوله: ((مؤمن بي وكافر)) المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله، وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر، المنزل له، بدليل قوله في الحديث ((فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته)) إلى آخره، فلو كان المراد هو الأكبر لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سببا، وفي رواية: ((فأما من حَمِدَني على سُقْيِاي، وأثنى عليَّ؛ فذاك من آمن بي)) فلم يقل: فأما من قال: إني المنزل للمطر، فذالك من آمن بي، لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك، فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله، وروى النسائي والإسماعيلي نحوه. وقال في آخره: ((وكفر بي أو كفر نعمتي))، وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم: ((قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين))[1]، وله من حديث ابن عباس: ((أصبح من الناس شاكرٌ، ومنهم كافر))[1] الحديث.

---

[1] صحيح مسلم (٨٤/١ رقم٧٢)

وفي حديث معاوية الليثي مرفوعاً: ((يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقا من رزقه فيصبحون مشركين؛ يقولون مطرنا بنوء كذا))[2]رواه أحمد، فَبَيَّنَ الكفر والشرك المراد هنا؛ بأنه نِسْبَةُ ذلك إلى غيره تعالى، بأن يقال: مطرنا بنوء كذا. ١

((مؤمن بالكوكب))

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب، فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا، أي: جاءنا المطر فى هذا النوء أي فى وقته.

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا في نوء كذا، وفرقوا بيهما أن الباء للسببية، و"في" للظرفية، ومن ثم قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ، لأن لفظ الحديث: ((من قال: مطرنا بنوء كذا))، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨]، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس، "في " للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية، كما في قوله ﷺ ((دخلت امرأة النار في هرة)).

---

[1] صحيح مسلم (٨٤/١ رقم٧٣)

[2] رواه الإمام أحمد في مسنده، والطيالسي في مسنده، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، والطبراني في المعجم الكبير، وفي المعجم الأوسط، وسنده حسن

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتى سببية، فهذا جائز، ومع ذلك فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا. ٥

وفيه: مشروعية قول هذا الكلام عند نزول المطر: ((مُطرنا بفضل الله وبرحمته)).

وفيه: التنبيه على شكر الله عند حدوث النعم من الأمطار وغيرها، فكل ما حصل للإنسان نعمة فإنه يجب عليه أن ينسبها إلى الله، وأن يشكر الله عليها، ولا ينسبها إلى غيره، لا إلى حوله وقوَّته، ولا إلى أحدٍ من خلقه، وإنما ينسب الفضل إلى المتفضِّل وهو الله سبحانه وتعالى. ٤

وهكذا يجب على الإنسان أن لا يضيف نعم الله إلى غيره، ولا يحمدهم عليها، بل يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذي أنعم بها على العبد بفضله ورحمته، ولا ينافي ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك، وذِكْرُ ما أَوْلاكَهُ من المعروفِ إذا سَلِمَ لك دينك.

والسر في ذلك والله أعلم أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان لا صُنْعَ له في ذلك، وذلك نوع شركٍ خفيٍّ، فمنع من ذلك. ١

ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبداً، كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم، ويشكروه، فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، والله تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق، الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. ١

وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة: ٤

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل

المجاز. وأيضاً، الباء تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة، لما عرفت من أن هذا باطل. ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة؛ لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه، وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله. فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهي عنه فاسد. فيظهر على هذا: تحريم هذه اللفظة مطلقا لفساد المعنى. وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب الفروع والإنصاف. ٢

وفي هذا الحديث أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد. ٢

فيه: مشروعية الموعظة بعد الصلاة خصوصاً إذا حصل مناسبةٌ لها.

وفيه: مشروعية صلاة الجماعة في السفر كما هي مشروعة في الحضَر.

وفيه: مشروعية التعليم عن طريق السؤال والجواب، لأن ذلك أبلغ في التفهيم وأيسر للتعليم، وقد فعل النبي ﷺ هذا مراراً وتكْراراً.

وفيه -وهو الشاهد من الحديث للباب-: أن نسبة المطر إلى الأنواء كفرٌ بالله ﷺ وشرك، وأن نسبة النِّعم والأمطار إلى الله إيمان بالله وتوحيد.

وفيه: أن حصول النعم ابتلاء وامتحان من الله تعالى؛ ليتبيّن بذلك المؤمن من الكافر.

وفيه: مشروعية قول هذا الكلام عند نزول المطر: ((مُطرنا بفضل الله وبرحمته)) كما كان النبي ﷺ يقول ذلك، ويقول: ((اللهم صيِّباً نافعاً)). ٤

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه[1] وفيه: "((قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا))، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾."

وقوله: "ولهما" أي: للبخاري ومسلم. ٤

قوله: "ولهما". الظاهر أنه سبق قلم، وإلا، فالحديث في " مسلم" وليس في الصحيحين". ٥

ولفظه عن ابن عباس قال: "مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: ((أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا)) قال: فنزلت هذه الآية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]. ١

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه. ٥

هذا مثل الحديث الذي قبله؛ لما نزل عليهم المطر قالوا: ((صَدَق نوء كذا وكذا)) زعموا أن طلوع النجم هو الذي حصل به المطر، فهم نسبوا نزول المطر إلى النوء، فصدّقوه، فأنزل الله تعالى منكراً عليهم قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾. ٤

قوله تعالى: ﴿فَلا﴾ لا هذه نافية، أي ليس الأمر كما زعمتم أنّ نزول المطر بسبب صدق النوء الفلاني، وإنما المطر بفضل الله.

ثمّ أقسم جل وعلا على هذا النفي. ٤

واختلف في النجوم، فقيل أنها النجوم المعروفة، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.٥

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (٨٤/١ رقم ٧٣)، وعلقه البخاري في صحيحه (٥٣/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً

والمشهور-كما اختاره ابن جرير- أن المراد بالنجوم هنا: الكواكب، لأن في طلوعها وغروبها آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى لمن يتدبّر ويتفكّر. ٤

وأقسم الله بها، لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب، فإن السماء عند نزول الوحي ملئت حرساً شديداً وشهباً.

وقيل: إن المراد أجال نزول القران... ٥

والله جل وعلا يقسم بما شاء من خلقه، وهو لا يقسم إلاَّ بشيء فيه سرٌّ عظيم يحتاج إلى تأمُّل، ويحتاج إلى نظر، فلو نظرت إلى تنظيم هذه النجوم في مسارها وتعاقبها، وعدم تخلُّفها عن نظامها وانتظامها، ونظرت إلى زينتها وتلألئها وبهائها في السماء؛ لدلّك ذلك على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظيم صنعته.

فالله أقسم بها لمِا فيها من العجائب.

أما المخلوق فلا يُقسم إلاَّ بالله، كما جاء في الحديث: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك))، فلا يجوز الحلف إلاَّ بالله. ٤

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة:٨٢] معناه: أنكم تنسبون الأمطار إلى الأنواء، سمّى الله ذلك كذباً وباطلاً لأن الأمطار ليستُ من الأنواء وإنما الأمطار من الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزِلها ويقدّرها ويجعل فيها البركة والنماء، فهو الذي ينزِلها سبحانه.

وفي هذا الأثر الذي رواه ابن عبّاس مثل ما سبق:

الرد على الذين ينسبون الأمطار إلى الأنواء، وأن هذا كذبٌ محْض، حيث أقسم الله سبحانه -وهو الصادق- أن هذا كذب، فدلّ على بُطلان الاستسقاء بالأنواء، وأنه يجب نسبة المطر إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى الأنواء، ومن نسبها إلى الأنواء فقد كفر بالله. ٤

والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر، فإنها تشمل المطر وغيره. ٥

هنا تنبيه في هذه المسألة وهو ما يحصل أحياناً من بعض الناس من أنهم يقولون: في الوسم –مثلا– يأتي مطر، والوسم جاء معناه أن الرياح فيه مطر ونجم [السّهِيل] طلع فسيحصل كذا ونحو ذلك، فهذا القول بما علمتَ له حالات:

الحال الأولى أن يقول ذلك لأجل أن النجم أو البرج الذي أتى هو زمن جعل الله سنته فيه أنه يأتي فيه المطر، فإذا كان هذا القول بأن الوسم جاء معناه هذا وقت المطر، وإن شاء الله يجيء المطر ونحو ذلك، فهذا جعل للوسم زمناً وهذا جائز.

وأما إذا قال في ذلك الوسم جاء يأتي المطر أو طلع النجم الفلاني يأتينا كذا وكذا، بجعل هذا الفصل كالبرج أو ذلك النجم سبباً، فهذا كفر، ونسبةٌ للنعمة لغير الله، واعتقاد تأثير أشياء لا تأثير لها.

فينبغي أن نفرق بين ما يستعمله العوام فيه أن المطر والبرد والصيف ونحو ذلك في تعلقه بالنجوم تعلق الزمن ووقت وظرف، وما بين نسبته للشرك والضلال الأفعال للنجوم إما استقلالاً وإما على وجه التسبب. ٣

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت: "وقل أن يخلف نوؤه"، أو: "هذا نوؤه صادق"، وهذا لا يجوز، وهو الذي أنكره الله –عز وجل– على عباده، وهذا شرك أصغر، ولو قال بإذن الله، فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سبباً. ٥

الخلاصة

ما حكم الاستسقاء بالنجوم ؟ الجواب أن نقول: فيه تفصيل.

١– إذا اعتقد المسلم بأن النجوم هي التي تسقي ودعاها من دون الله فهذا بلا شك شرك في الربوبية والألوهية والعبادة.

وإذا اعتقد أن حصول الأمطار والأرزاق يعود إلى هذه النجوم فهي الفاعلة من دون الله فهو شرك في الربوبية. وكلاهما شرك أكبر.

٢- أما إذا اعتقد أن الله هو الذي ينزل المطر، ولكن النجوم سبب بذاتها، فهذا شرك أصغر قد يؤدي إلى الشرك الأكبر.

فالواجب الابتعاد عن هذا، وأن ينسب المطر إلى الله، وأنه هو المقدر، وأنه هو الذي إذا شاء أنزل المطر وإذا لم يشأ لم ينزله، وإذا كان مما جرت العادة به كونا وقدراً مثل: إذا طلع النجم الفلاني فيزرع زرع كذا ونحو هذا، فالمحذور هنا أن لا يعلق الأمر على هذا الشيء ويجعله هو الفاعل، وإنما نزول المطر هو سبب في إنبات الزرع فلا يعلقه على هذا الفعل، وإنما يعلقه بالله سبحانه. ٩

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة.

الخامسة: قوله: ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: ((لقد صدق نوء كذا وكذا)).

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: ((أتدرون ماذا قال ربكم؟)).

العاشرة: وعيد النائحة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة. وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وقد مر تفسيرها. ٥

الثانية: ذكر الأربع من أمر الجاهلية. وهي الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت. ٥

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها. وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في النسب، والنياحة على الميت، كما في حديث: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت))٥

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة. وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن المللة وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك. ٥

الخامسة: قوله: ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر)) بسبب نزول النعمة.

أى: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً، مثال ذلك: رجل غرق في ماء، وكان عنده رجل قوي، فنزل وأنقذه، فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمرُ قدرياً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما أن غرق ويسر الله له، فخرج فقال: إن الولي الفلاني أنقذني، فهذا شرك أكبر، لأنه سبب غير صحيح، ثم أن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه، لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى، فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون، فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به، لأننا نعلم أن هؤلاء

الأولياء لا يستجيبون لهم، لقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]. ٥

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع. وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته ٥

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع. وهو نسبة المطر إلى النوء ٥

الثامنة: التفطن لقوله: (لقد صدق نوء كذا وكذا). وهذا قريب من قوله: ((مطرنا بنوء كذا))، لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده. ٥

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: ((أتدرون ماذا قال ربكم؟)).

وذلك أن يلقي العالم على المتعلم السؤال لأجل أن ينتبه له، وإلا، فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعملون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا، الأمر، فقال: ((أتدرون ماذا قال ربكم؟)) وهذا يوجب استحضار قلوبهم. ٥

العاشرة: وعيد النائحة. وذلك بقوله: ((إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب))، وهذا وعيد عظيم. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾)

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] الْآيَةُ)

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ –إلى قَوْلِهِ تَعَالَى– أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِه﴾ [التوبة:٢٤] الْآيَةُ.

عَنْ أَنَسٍ ط، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) أَخْرَجَاهُ، وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))، وَفِي رِوَايَةٍ: ((لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإيمان حَتَّى ...)) إلى آخِرِه.

وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ م قَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمان وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شيئاً)) رَوَاهُ ابنُ جَرِير، وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قَالَ: الْمَوَدَّةُ.

هذا الباب والأبواب التي بعده شروع من الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في ذكر العبادات القلبية وما يجب من أن تكون تلك العبادات لله جل وعلا، فهذا في ذكر واجبات التوحيد ومكملاته وبعض العبادات القلبية وكيف يكون إفراد الله جل وعلا بها. ٣

جعل المؤلف رحمه الله تعالى الأية هي الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة **باب المحبة.** ٥

أراد الشيخ رحمه الله، بهذا الباب أن يبين أن المحبة نوعٌ من أنواع العبادة، وأن من أحب مع الله غيره فقد أشرك بالله الشرك الأكبر المخرج من المِلة، كما كان عليه المشركون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

ولَمّا كانت المحبة من أنواع العبادة، بل هي أعظم أنواع العبادة، وكان من أحب مع الله غيره مشركاً الشرك الأكبر؛ ناسب أن يذكر الشيخ رحمه الله، هذا الباب في "كتاب التّوحيد"؛ لينبه على هذه المسألة المهمّة. ٤

وابتدأها بباب المحبة وأن العبد يجب أن يكون الله جل وعلا أحب إليه من كل شيء حتى من نفسه، وهذه المحبة المراد منها محبة العبادة، وهي المحبة التي فيها تعلُّقٌ بالمحبوب بما يكون معه امتثال للأمر رغبة واختياراً، ورغب إلى المحبوب، واجتناب النهي رغبة واختياراً، فمحبة العبادة هي المحبة التي تكون في القلب، يكون معها الرغب والرهب، يكون معها الطاعة، يكون معها السعي في مراضي المحبوب والبعد عما لا يحب المحبوب، والموحد ما أتى للتوحيد إلى بشيء وقر في قلبه من محبة الله جل وعلا لأنه دلته ربوبية الله جل وعلا وأنه الخالق وحده وأنه ذو الملكوت وحده وأنه ذو الفضل والنعمة على عباده وحده من أنه محبوب، وأنه يجب أن يُحب، وإذا أحب العبد ربه فإنه يجب عليه أن يوحده بأفعال العبد، أن يوحد الله بأفعاله –يعني أفعال العبد– حتى يكون محباً له على الحقيقة.

لذلك نقول: المحبة التي هي من العبادة هي المحبة التي يكون فيها إتباع للأمر والنهي ورغب ورهب.

ولهذا قال طائفة من أهل العلم المحبة المتعلقة بالله ثلاثة أنواع:

– محبة الله على النحو الذي وصفنا، هذا نوع من العبادات الجليلة، ويجب إفراد الله جل وعلا بها.

– والنوع الثاني محبة في الله وهو أن يحب الرسل في الله عليهم الصلاة والسلام، وأن يحب الصالحين في الله، يحب في الله وأن يبغض في الله. ٣

أو أعمال، كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله. ٥

- والنوع الثالث محبة مع الله وهذه محبة المشركين لآلهتهم؛ فإنهم يحبونها مع الله جل وعلا، فيتقربون إلى الله رغباً ورهباً نتيجة محبة الله، ويتقربون إلى الآلهة رغبا ورهبا نتيجة لمحبتهم لتلك الآلهة.

ويتضح المقام بتأمل حال المشركين وعبدة الأوثان وعبدة القبور في مثل هذه الأزمنة، فإنك تجد المتوجه لقبر الولي في قلبه من محبة ذلك الولي وتعظيمه ومحبة سدنة ذلك القبر ما يجعله في رغب ورهب وفي خوف وفي طمع وفي إجلال حين يعبد ذلك الولي أو يتوجه إليه بأنواع العبادة؛ لأجل تحصيل مطلوبه، فهذه هي محبة العبادة التي صرفها لغير الله جل وعلا شرك أكبر به؛ بل هي عماد الدين؛ بل هي عماد صلاح القلب فإن القلب لا يصلح إلا بأن يكون محبا لله جل وعلا وأن تكون محبته لله جل وعلا أعظم من كل شيء.

فالمحبة؛ محبة الله وحده هذه -يعني محبة العبادة- هذه من أعظم أنواع العبادات، وإفراد الله بها واجب.

والمحبة مع الله محبة العبادة هذه شركية، من أحب غير الله جل وعلا معه محبة العبادة فإنه مشرك الشرك الأكبر بالله جل وعلا.

هذه الأنواع الثلاثة هي المحبة المتعلقة بالله. ٣

وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب، إما لجلب منفعه، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً ، فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام: أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة، إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشراً لا روح فيها، فإذا كان الإنسان في قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته، فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.

ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

ولهذا يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في "النونية:"

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذلٌّ عابده هما قطبان

وعليك فَلَك العبادة دائر ... وما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

ويقول العلماء في تعريف العبادة هي: غاية الذل مع غاية الحب.

فالعبادة تترّكز على ثلاثة أشياء: على المحبة، وعلى الخوف، وعلى الرجاء.

فالمحبة والخوف والرجاء هي ركائز العبادة وأساسها، فإذا اجتمعتْ تحقّقت العبادة ونفعت كالصلاة والحج وسائر العبادات، أما إذا اختلّتْ هذه الثلاثة فإن الإنسان وإن صام وإن صلى وإن حج فإنها لا تكون عبادته صحيحة.

ويقول العلماء: "من عبد الله بالمحبة فقط فهو صوفي"، لأن الصوفية يزعمون أنهم يعبدون الله لأنهم يحبونه فقط، ويقولون: لا نعبده نخاف من ناره ولا نرجو جنته، وإنما نعبده لأننا نحبه. وهذا ضلال.

"ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ" لأن المرجئة يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان.

"ومن عبد الله بالخوف فقط فهو خارجي" لأن الخوارج يكفرون المؤمنين بالمعاصي.

فالمرجئة أخذوا جانب الرجاء فقط، والصوفية أخذوا جانب المحبة فقط، والخوارج أخذوا جانب الخوف فقط.

وأهل السنّة والجماعة جمعوا بين الأمور الثلاثة –ولله الحمد–: المحبة مع الخوف والرجاء والذل والانقياد والطاعة، وبنوا على ذلك سائر أنواع التعبُّد والتقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى. ٥

والمحبة –كما ذكر العلماء– تنقسم إلى قسمين:

– القسم الأول: محبة العبودية، وهذه يجب أن تكون خالصةً لله عزّ وجلّ، ومحبة العبودية هي التي يكون معها ذل للمحبوب. وهذه لا يجوز صرفها لغير الله، كما لا يجوز السجود لغير الله

والذبح لغير الله والنذر لغير الله فإنه لا تجوز محبة غير الله محبة عبودية يصحبها ذلٌّ وخضوع وطاعةٌ للمحبوب، وإنما هذه حقٌّ لله سبحانه وتعالى. ٤

وهي التي توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة، فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة. ٥

وهي محبة العبودية، المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره. فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً كما حققه ابن القيم[1] وهي التي سَوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى في الآية التي ترجم لها المصنف: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً﴾ قال ابن كثير: "يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله أنداداً، أي: أمثالاً ونظراء، يحبونهم كحبه، ويعبدونهم معه، وهو الله الذي لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه"[2]. ١

– النوع الثاني: محبة ليستْ محبة عبودية وهي أربعة أقسام:

القسم الأول: محبة طبيعية كمحبة الإنسان للطعام والشراب والمشتهيات المباحة، كالزوجة والملذات.

القسم الثاني: محبة إجلال ٤ وتعظيم لا عبادة ٥، كمحبة الولد لوالده غير المشرك والكافر، فالولد يحب والده محبة إجلال وتكريم واحترام لأنه والده المحسن إليه والمربِّي له. وهذه محمودة ومأمور بها. ٤ ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير. ٥

القسم الثالث: محبة إشفاق، كمحبة الوالد لولده، فالوالد يحب ولده محبة إشفاق. ٤ والصغار، والضعفاء، والمرضى. ٥

---

[1] انظر: طريق الهجرتين (ص/٤٨٦/٤٨٩)

[2] تفسير ابن كثير (١/٢٠٣)

القسم الرابع: محبة مصاحبة، كأن تحب شخصاً من أجل مصاحبتك له، إما لكونه زميلاً لك في العمل، أو شريكاً في تجارة، أو صاحباً لك في سفر، فأحببته من أجل المشاركة في شيء من الأشياء.

هذه الأقسام ليستْ من أنواع العبادة، لأنها ليس معها ذلّ، وليس معها خضوع. ٤

وهذا أذن فيه الشرع وجائز؛ لأن المحبة فيها ليست محبة العبادة والرغب والرهب الذي هو من العبادة، وإنما هي محبة للدنيا، وذلك كمحبة الوالد لولده والولد لوالده والرجل لزوجته والأقارب لأقربائهم والتلميذ لشيخه والمعلم لأبنائه ونحو ذلك من الأحوال، هذه محبة طبيعية لا بأس بها؛ بل الله جل وعلا جعلها غريزة. ٣

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح، إلا إذا أقترن بها ما يقتضى التعبد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية، كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة، ولهذا "حبب للنبي ﷺ النساء والطيب" من هذة الدنيا، فحبب إليه النساء، لأن ذلك مقتضى الطبيعة ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب، لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر، ولأن الطيبات للطيبين، والله طيب لا يقبل إلا طيباً.

فهذه الأشياء إذا أتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة، قال النبي ﷺ: ((أنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))

وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، قالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد، وهذا أمر متفق عليه. ٥

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:١٦٥]
﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: المشركين، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ﴾ أي: غير الله، ﴿أَنْدَاداً﴾ الند هو: الشبيه والنظير والعديل، سُمُّوا أنداداً لأنهم ساووهم بالله، فصاروا أنداداً لله بمعنى: شركاء مساوين له في اعتقاد المشركين.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ أشركوهم مع الله في محبة العبودية، فعبدوا الأصنام والأوثان لأنهم يحبونها محبة ذل وانقياد وخضوع وطاعة فأشركوا في أعظم أنواع العبادة، وهو المحبة. ٤

قال في شرح المنازل: "أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدا من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم."[1]. ١

وأحد وجهي التفسير في قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يعني يحبّ المشركون الأنداد كحب المشركين لله.

والوجه الثاني من التفسير أن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ معناه يحب المشركون الأنداد كحب المؤمنين لله.

والوجه الأول أظهر، والكاف فيه هنا في قوله ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ بمعنى مثل؛ يعني يحبونهم مثل حب الله وهي كاف المساواة ومثلية المساواة، ولهذا قال جل وعلا في سورة الشعراء مخبرا عن قول أهل النار ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، قال العلماء: سووهم برب العالمين في المحبة بدليل هذه الآية، ولم يسووهم برب العالمين في الخلق والرزق وأفراد الربوبية. ٣

---

[1] قول ابن القيم في مدارج السالكين (٢١/٣)

فهذا هو مساواتهم برب العالمين، وهو العدل المذكور في قوله ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] أما مساواتهم بالله في الخلق والرزق وتدبير الأمور، فما كان أحد من المشركين يساوون أصنامهم بالله في ذلك.

وهذا القول رجحه شيخ الإسلام.[١] ١

والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله، فيجعلونها شركاًء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله، وهذا هو الصواب. ٥

فالمشركون يحبون الله لأنهم يعترفون بربوبيته وخلقه لهم، فهم يحبونه، لكنهم لم يخلصوا محبتهم، بل أشركوا معه آلهةً أخرى يحبونها مع الله محبة عبودية وخضوع وذلٌّ وتقرُّب إليها بالعبادة.

هذا هو الوجه الصحيح في تفسير الآية؛ أن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره من الأصنام والأوثان كما يحبُّون الله، فيعادِلون بين محبة الله ومحبة الأصنام ومحبة الأوثان.

ولا يزال المشركون على هذا، فالذين يعبدون القبور والأضرحة يحبُّونها، ولهذا يغارون ويغضبون إذا قيل لهم إن هذه المعبودات باطلة لا تُغني عنكم شيئاً، ولا تنفعكم بل تضركم فهم يغضبون، بل قد يقاتلون دونها، لأنهم يحبونها ﴿كَحُبِّ اللهِ﴾ أي: كما يحبون الله. ٤

حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر مما يعظم الله ويغار له، فلو قيل: أحلف بالله، لحلف، وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند، لم يحلف، وهو كاذب، وهذا شرك أكبر. ٥

بل إن بعضهم يقدم لهذا الميت عبادات لا يقدمها لله سبحانه عياذاً بالله، فقد تجد بعضهم يقدم الذبائح والأموال لهذه القبور ويتعلق بها إما رغبة وطلباً منها أو خوفاً من شرها. ٩

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ الذين أخلصوا المحبة لله وهم المؤمنون، هؤلاء أشدُّ حبًّا لله من محبة المشركين لله، لأن محبة المؤمنين خالصة ومحبة المشركين مشتركة، والمحبة

---

[١] مجموع الفتاوى (١٨٨/٧)

الخالصة أشدُّ وأقوى من المحبة المشتركة، وهذه المحبة هي التي تنفع، أما محبة المشركين لله فإنها لا تنفعهم ما داموا يحبون مع الله غيره فلم يُخلصوا في محبتهم.

فدلت هذه الآية الكريمة على أن المحبة نوعٌ من أنواع العبادة، بل هي أعظم أنواع العبادة، وأن من أحب مع الله غيره فيها فقد أشرك بالله الشرك الأكبر واتّخذ هذا المحبوب نِدًّا، أي: شريكاً مع الله ومعادِلاً لله ومساوِياً لله، كما يقول أهل النار يوم القيامة لمن أشركوهم مع الله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]. ٤

مناسبة الآية لباب المحبة:

مُنع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله، لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهذا يوجد في بعض العباد وبعض الخدم، فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨]. ٥

ودلت الآية على أن من أحب شيئاً كحب الله فقد اتخذه ندا لله وذلك هو الشرك الأكبر قاله المصنف.

وعلى وجوب إفراد الله بالمحبة الخاصة التي هي غاية توحيد الالهية، بل الخلق والأمر والثواب والعقاب؛ إنما نشأ عن المحبة، ولأجلها، فهي الحق الذي خلقت به السموات والأرض، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي، وهي سر التأله، وتوحيدُها هو شهادة أن لا إله إلا الله، وليس كما زعم المنكرون أن الإله هو الرب الخالق، فإن المشركين كانوا مقرين، بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية الذي هو حقيقة (لا إله إلا الله) فإن

الإله هو الذي تألهه القلوب حباً وذُلّاً وخوفاً ورجاءً، وتعظيماً وطاعة، (إله) بمعنى: مألوه، أي: محبوبٌ معبودٌ، وأصله من التأله، وهو التعبد الذي هو آخر مراتب الحب، فالمحبة حقيقة العبودية.

ودلت أيضاً على أن المشركين يعرفون الله ويحبونه، وإنما الذي أوجب كفرهم مساواتُهُمْ به الأنداد في المحبة، فكيف بمن أحب الأنداد حباً أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب الله أصلاً، ولم يحب إلا الند وحده؟! فالله المستعان. ١

وفي الآية دليل على أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وأن الشرك محبط للأعمال. ١

ومن الأخطاء في المحبة: الغلو في محبة الرسول ﷺ، وفاعله يخشى عليه من الشرك، إذ إنه ﷺ نهى أمته عن الغلو فيه فقال: ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله)).

لا شك أن محبة النبي ﷺ فوق كل محبة سوى محبة الله تعالى، وهي من أوجب الواجبات، ولكن المحذور أن تصل إلى محبة الله. ٩

وقفة

الأسباب الجالبة لمحبة الله لعبده، ومحبة العبد لربه –كما ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين– على النحو التالي:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.
السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.
السابع -وهو- أعجبها: انكسار القلب بين يديه.
الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.
التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك، ومنفعة لغيرك.
العاشرة: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.
فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.[1]

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] الآية.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة:٢٤].

هذه الآية فيها أن من قدّم محبة هذه الأشياء على محبة الله فإنه متوعّد بهذه الوعيد ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ حتى يأتيكم الله بالعقوبة ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤] سمّاهم فاسقين، والفسق هو: الخروج عن طاعة الله جل وعلا، ومعنى ﴿لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني: لا يوفقهم للإيمان، مثل قوله: ﴿لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمين﴾، ﴿لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

[1] ابن قيم (مدارج الساكين) (٣/٩، ١٦-١٨)

فالهداية المنفية هنا: هداية التوفيق، أما هداية البيان والإرشاد فهذه موجودة، فالله هدى كل النّاس، بمعنى: أنه بيّن لهم طريق الخير من طريق الشر، هدى الكفار وهدى المؤمنين بمعنى: بيّن لهم طريق الخير وطريق الشر.

أما هداية التوفيق والإيمان فهي خاصة بالمؤمنين.

وهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ يقول المفسّرون: إنها نزلت في قوم من المسلمين كانوا في مكة، ولَمَّا هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم يهاجروا؛ لأنهم آثروا أن يبقوا في مكة محافظة على أموالهم وعلى مساكنهم وعلى أقاربهم، فهم قدّموا محبة هذه الأشياء على محبة الله ورسوله، فالله توعّدهم.

ويُروى: أنهم لَمّا أرادوا الهجرة تعلّق بهم أقاربهم وقالوا: كيف تدعوننا؟، ولمن تدعوننا؟ ولما تعلّقوا بهم، رقّوا لهم ورحموهم، فأقاموا في مكة وتركوا الهجرة إيثاراً لهذه الأشياء، فالله وبّخهم وتوعّدهم، لأن الواجب عليهم أن يهاجروا، وأن يقدّموا الهجرة إلى الله ورسوله على هذه الأشياء كما فعل ذلك المهاجرون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، فالمهاجرون تركوا هذه المحبوبات طاعة لله ورسوله ومحبة لله ورسوله، وإن كانوا يحبون هذه الأشياء، يحبون أولادهم، ويحبون بلدهم، ويحبون أموالهم، ولكنهم قدّموا عليها محبة الله سبحانه وتعالى فهاجروا، تركوا أموالهم، تركوا ديارهم وأوطانهم، تركوا أولادهم وذرّيتهم، تركوا مساكنهم، تركوا التجارات التي لهم في مكة، كل هذا تركوه لله جل وعلا، أما هؤلاء من المؤمنين فإنهم بقوا في مكة وآثروا أن يبقوا عند أقاربهم، وأن ينمّوا أموالهم وتجاراتهم، وأن يبقوا في مساكنهم في مكة، فتوعّدهم الله، كما قال في الآية الأخرى في الذين لم يهاجروا من المسلمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ [النساء:٩٧] يعني: لِمَ تركتم الهجرة؟، ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠)﴾ [النساء:٩٧-١٠٠]، فالهجرة من أفضل خصال الإيمان، والمهاجر لا يهاجر للنُّزهة أو يهاجر للبلد الذي فيه سعة ورفاهية من أجل الدنيا، ولكنه يهاجر من أرض يحبها ومن بلد يحبها، وقد يترك أمواله وأولاده ويخرج محبة لله ولرسوله، هذا هو المؤمن الصادق في إيمانه.

فقوله في هذه الأشياء إذا كانت ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿أَحَبَّ﴾ يدل على أن محبة هذه الأشياء في الأصل لا حرج فيها، فالإنسان يحب والده، ويحب ولده، ويحب أخاه، ويحب قبيلته، ويحب ماله، ويحب تجارته، ويحب مسكنه. فأصل المحبة لهذه الأشياء مباح لأنه من المحبة الطبيعية، لكن إنما يأتي اللوم إذا قدّم محبة هذه الأشياء على محبة الله فأخّرته هذه الأشياء عن طاعة الله ورسوله، وعن الهجرة إلى الله ورسوله. ٤

هذا يدل على أن محبة الله جل وعلا واجبة، وأنّ محبة الله يجب أن تكون فوق كل محبوب وأن يحب الله أعظم من محبته لأي شيء، قال جل وعلا ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى أن قال ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾، وهذا وعيد، فيدل على أن تقديم محبة غير الله على محبة الله كبيرة من الكبائر ومحرم من المحرمات؛ لأن الله توعد عليه وحكم على فاعله بالفسق والظلال. ٣

فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة إذا فضلت على محبة الله صارت سبباً للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده، فهو يحب أباه أكثر من ربه.

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد في الجوارح، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال: "ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه"، فالجوارح مرآة القلب. ٥

فالواجب لتكميل التوحيد أن يحب العبد الله ورسوله فوق كل محبوب، ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام هي محبة في الله ليست محبة مع الله؛ بل هي محبة في الله لأن الله الذي أمرنا بحب النبي عليه الصلاة والسلام، ومحبته -إذن- في الله؛ يعني في الله لأجل محبة الله؛ فإن من أحب الله جل وعلا أحب رسله. ٣

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروى عن النبي ﷺ، أنه قال: ((اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك))، وكيف للإنسان أن يحب شيئاً وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكناً؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة، كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضى الله عنه للنبي ﷺ: "إنك لأحب إلى من كل شيء إلا من نفسي. قال النبي ﷺ: ((لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.)) قال: الآن والله لأنت أحب إلى من نفسي. فقال النبي ﷺ: ((الآن يا عمر)).

فقد ازدادت محبة عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب، فتعود محبتك إياه. ٥

وأعلم أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١] فلما كثر المدعون لمحبة الله، طولبوا بإقامة البينة، فجاءت هذه الآية ونحوها، فمن ادعى محبة الله وهو يحب ما ذكر على الله ورسولهﷺ، فهو كاذب كمن يدعي محبة الله وهو على غير طريق النبي ﷺ، فإنه كاذب، إذ لو كان صادقاً لكان متبعاً له، قال مبارك بن فضالة عن الحسن قال: "كان ناس على عهد النبي ﷺ يقولون يا رسول الله، إننا نحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه عَلَماً؛ فأنزل الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].[١] ١

عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)) أخرجاه[٢].

وذلك أنه بعد محبة الله تأتي محبة الرسول ﷺ، فالأولى: محبة الله عزّ وجلّ، وهي محبة عبادة، وهي الأصل والقاعدة.

أما محبة الرسول ﷺ فهي تابعةٌ لمحبة الله عزّ وجلّ، تأتي بعد محبة الله وكذا محبة كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال وهذه محبة في الله ولله فالمحبة المشروعة محبة الله والمحبة في الله، والمحبة الممنوعة هي المحبة مع الله. وتقديم ما تحبه النفس على ما يحبه الله. ٤

وهذا يدل على وجوب محبة رسول الله ﷺ محبة تليق به وتقتضي اتباعه وامتثال أمره وترك نواهيه، ولا تكون محبة عبادة بل تابعة لمحبة الله. ٦

قوله في حديث أنس: ((لا يؤمن)). هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود، أي: نفي الأصل.

---

[١] رواه ابن جرير في تفسيره (٣/٢٣٢) وسنده صحيح إلى الحسن البصري

[٢] البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤)

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب، إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان. ٥

لا ليس نفياً لأصل الإيمان، وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان، أي: وقوله: ((لا يؤمن أحدكم)) يكمُل إيمان أحدكم هذا إذا كان يحب الرسول ﷺ ولكن لا يقدم محبته على محبة غيره من الخلق.

أما إذا كان الإنسان لا يحب الرسول ﷺ أصلاً، بل يبِغض الرسول، فهذا كافر، أما الذي يحب الرسول ﷺ، ولكنه يقدِّم محبة ولده ووالده على محبة الرسول ﷺ، فهذا ناقصُ الإيمان، بل لا يكمُل إيمان العبد ولا يتم حتى يكون الرسول ﷺ أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده الذي هو بضْعَةٌ منه وجزءٌ منه، وأحب إليه من والده الذي هو أصله والمحسِن إليه. ٤

قوله: ((ووالده)) يشمل أباه، وجده وإن علا، وأمه، وجدته وإن علت. ٥

وأحب إليه من النّاس أجمعين أيًّا كانوا. ٤

وإذا كان هذا في محبة رسول الله ﷺ، فكيف بمحبة الله تعالى؟ ٥

ويظهر هذا بالعمل فإذا كان يقدم محاب هؤلاء على ما فيه مرضاة الله جل وعلا وعلى ما أمر به عليه الصلاة والسلام، فإن محبته النبي علبه الصلاة والسلام تكون ناقصة؛ لأن المحبة محركة كما قال شيخ الإسلام في كتابه قاعدة في المحبة يقول: المحبة هي التي تحرك. فالذي يحب الدنيا يتحرك إلى الدنيا، والذي يحب العلم يتحرك للعلم، الذي يحب الله جل وعلا محبة عبادة ورغب ورهب يتحرك طالباً لمرضاته ويتحرك مبعداً على ما فيه مساخط الرب جل وعلا، كذلك الذي يحب النبي عليه الصلاة والسلام على الحقيقة فإنه الذي يسعى في إتباع سنته وفي امتثال أمره وفي اجتناب نهيه والاهتداء بهديه والإقتداء بسننه عليه الصلاة والسلام. ٣

وهذا يقتضي أن الإنسان يقدِّم طاعة الرسول ﷺ على طاعة غيره: فإذا أمرك الرسول ﷺ بأمر وأمرك والدك أو ولدك أو أحد من النّاس بأمر يخالف أمر الرسول ﷺ فإنه يجب عليك معصية هذا الآمر وطاعة الرسول ﷺ، وهذا هو الدليل على محبة الرسول ﷺ، أن لا تقدّم على محبته شيئاً ، ولا تقدّم على طاعة الرسول شيئاً ، فإذا أمرك أحد بمخالفة الرسول ﷺ فلا تطعه ولو كان أقرب النّاس إليك ولو كان أحب النّاس إليك، فطاعة الرسول ﷺ مقدَّمة، وهي ثمرة محبته ومن علامات محبة الرسول ﷺ ترك ما لم يشرعه الرسول من البدع والمحدثات لقول النبي ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) أي مردود عليه عمله هذا.

أما الذي يدّعي أنه يحب الرسول ﷺ ويُقيم الموالد والاحتفالات المبتدعة، والرسول ﷺ ينهاه عن البدع والمحدثات، فلا يطيعه، وإنما يطيع المخرّفين والدجّالين في هذا، فهذا كاذبٌ في محبّته للرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ نهى عن البدع والمحدَثات والخُرافات ولو كان النّاس عليها ولو كان عليها أبوك أو ابنك أو أقرب النّاس إليك، فمن كان عنده بدعة ومخالفة للرسول ﷺ وجب عليك معصيته، فإذا أطعته فإن هذا دليل على عدم صدق محبتك للرسول ﷺ.

فالحاصل؛ أنه ليس الدليل على محبة الرسول ﷺ دعوى تُقال، أو احتفال يُقام، لأن الدليل على محبة الرسول ﷺ: متابعته، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلاَّ بما شرع عليه الصلاة والسلام. هذا هو الدليل على محبة الرسول ﷺ، ونحن لا نقبل الدعوى، وإنما نقبل الدليل على الدعوى. ٤

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته، وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور :٤٧][١]

---

[١] مجموع الفتاوى (٨/٣٦٠)

فالذين يعملون بالسنّة ويتركون البدع فهذا دليلٌ على محبتهم للرسول ﷺ، أما الذين يدّعون أنهم يحبُّون الرسول ﷺ ولكنهم يخالفونه فيرتكبون ما نهى عنه ويتركون ما أمر به طاعةً لأنفسهم أو طاعة لغيرهم فإن هذا دليل على عدم صدقهم في محبتهم للرسول ﷺ ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين)) بل ومن نفسه.

فإذا أراد أحدٌ منّا أن يختبر إيمانه فلينظر إلى موقع هذا الحديث منه ويطبِّقه على نفسه، هل هو يحب الرسول، أحب إليه من نفسه، هل يحب الرسول أحب إليه من والده وولده والنّاس أجمعين؟، فإن كان كذلك فهو يحبُّ الرسول ﷺ، والدليل على ذلك -كما ذكرنا-: الموافقة للرسول ﷺ بتنفيذ أوامره وترك نواهيه واجتناب البدع والمحدثات التي نهى عنها رسول الله ﷺ ولو كان عليها أقرب النّاس إليه أو أحب النّاس إليه، يتركها طاعةً لله وطاعةً لرسوله، ومحبةً لله ومحبةً لرسوله ﷺ.

فدل هذا الحديث: على وجوب محبة الرسول بعد محبة الله عزّ وجلّ، وأن محبة الله ومحبة رسوله تقتضيان المتابعة للرسول ﷺ وعدم المخالفة، وأنه لو أمرك أيُّ أحدٍ من الناس بأمر يخالف أمر الرسول ﷺ وجب عليك معصيته ورفض ما يأمرك به، والأخذ بأمر الرسول ﷺ، فكما تجب محبة الله عزّ وجلّ تجب محبة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

قوله: "أخرجاه" يعني: أخرجه البخاري ومسلم. ٤

ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء، فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لِمَا قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره على الأذى في تبليغ الرسالة.
السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:
١- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.
٢- فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال، لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.
٣- أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته، لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ، ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، أي: مبغضك، قالوا: وكذلك من أبغض شريعته ﷺ، فهو مقطوع لا خير فيه.
٤- جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم، لقوله ﷺ: ((أحب إليه من ولده ووالده))، فأثبت أصل المحبة، وهذا أمر طبيعي لا ينكره أحد.
٥- وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس، لأن من لزم كونه أحب من كل أن يكون قوله مقدماً على كل أحد من الناس، حتى على نفسك، فمثلاً: أنت تقول شيئاً وتهواه وتفعله، فيأتي إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك، فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ، فتدع ما تهواه من أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

إذا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا

كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

لكن إذا وجدنا حديثاً يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة، فالواجب التثبت والتأني في الأمر، لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثاً يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي كالجبال في رُسوِّها، فلا تتعجل في قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين، فإنه لا بأس أن يُخَصَّص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة، فالمهم التثبت في الأمر، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التى ظهرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس، فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله، لكانت منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرماً، فإن هذا الحديث وإن كان ظاهر سنده الصحة، لكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يُذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا، فالأمة على خلافه، فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولا نقول: إنها لا يمكن أن تكون صحيحة. ٥

وفيه: أن الأعمال من الإيمان، لأن المحبة عمل، وقد نُفِيَ الإيمان عمَّن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذُكِرْ فدل على ذلك. ١

وفيه: أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها، فإنها لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها، وكل من كان محباً لله فإنما يحب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح، وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب، وما كان فيها ذلك فمحبة مع الله، لما فيها

من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله. فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله، التي هي من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله، لما يتعلق في قلوب المشركين، من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده. ٢

مناسبة هذا الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين، فمحبة الله أولى وأعظم. ٥

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار))، وفي رواية: ((لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى..)) إلى آخره.

"ولهما" أي: البخاري ومسلم.

"عنه" أي: عن أنس رضي الله عنه.

"قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاث)): أي: ثلاث خصال.

((مَنْ كُنّ فيه)): اجتمعن فيه، ووُجدن فيه.

((وجد بهنَّ حلاوة الإيمان)) هذا من ثمرات محبة الله ورسوله.

و((حلاوة الإيمان)) أي: لذّته، لأن الإيمان الصادق له لذّة في النفوس، وله طُمأنينة في القلوب، هذا هو الإيمان الصادق: تجد المؤمن يتلذّذ بالإيمان، ويَطْعَم الإيمان أكثر ممّا يَطْعَم أيَّ أنواع الملذّات.

الخصلة الأولى: ((أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما)) أي: أحب إليه من نفسه، وأحبّ إليه من كل شيء، ومن الوالدين والأولاد والأقارب والأصدقاء وسائر النّاس. وهذا يقتضي تقديم قولهما على قول كل أحد. ٤

فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويسعى في مرضاته ما استطاع، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله، ويمتثل أمره، ويترك نهيه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فمن آثر أمر غيره على أمره، وخالف ما نهى عنه، فذلك علم على عدم محبته لله ورسوله؛ فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه، ومن لا فلا، كما في آية المحبة ونظائرها. والله المستعان. ٢

ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه. والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده. فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان، كما في حديث ابن عباس الآتي. ٢

الخصلة الثانية: ((وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله)) أي: يحب الإنسان من بني آدم ((لا يحبه إلاَّ لله))، لا يحبه من أجل طمع دنيا أو عَرَض عاجل، إنما يحبه لله لأنه مطيعٌ لله، لأنه مؤمن، لأنه تقي. أما الذي يحب الشخص من أجل الدنيا أو من أجل الأطماع أو الشهوات أو الأغراض، فهذه محبة لا تنفعه عند الله شيئاً. ٤

فإن من أحب مخلوقاً لله، لا لغرض آخر، كان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياءه، لأجل قيامهم بمحبوبات الله، لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره. ١

وهذا فيه فضل المحبة في الله بين المؤمنين، والمحبة في الله أوثق عُرى الإيمان -كما في الحديث: ((أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله))، ومن السبعة الذين يظلُّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلاَّ ظله: ((رجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه))، وفي الحديث الصحيح: ((أن رجلاً خرج إلى قرية ليزور أخاً له في الله فأرصد الله على مَدْرَجته)) أي: طريقه ((ملكاً)) ليختبره، فلما مرّ عليه ((قال له الملَك: أين تُريد؟، قال: أُريد قرية كذا وكذا، قال: وما غرضك فيها وما شأنك؟، قال: لأن فيها أخاً لي في الله أحبْبتُ زيارته، فقال له الملَك: هل له عليك نعمة تربُّها؟ "يعني: هل هو قد أحسن إليك وأنت تحبُّه من أجل صنيعه معك ومعروفه معك،" قال: لا، إلاَّ أني أحببته في الله)) يعني: ما زرته ولا خرجتُ إليه إلاَّ لأني أحبه في الله، لا من أجل أنه أحسن إليَّ أو من أجل أنه أعطاني شيئاً أو منّ عليَّ بشيء، ((فقال له الملك: إني رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحبَبْته فيه)).

كثيرٌ من الناس يتحابُّون ويتآلفون من أجل أمور الدنيا، من أجل الرجاء والطمع وغير ذلك، إن أحسن إليه وأعطاه شيئاً أحبه، وإلاَّ فإنه لا يحبه وهذا موجود في البهائم والكلاب والقطط إذا أحسنت إليها فإنها تألفك وتحبك جِبِلّة وطبيعة، فقد جُبِلت القلوب على حب من أحسن إليها، لكن هذا ليس فيه مزيّة، إنما المزيّة أن تحبه لا من أجل شيء أعطاك، وإنما تحبه من أجل الله عزّ وجلّ، هذه هي الدرجة العالية الرفيعة من المحبة في الله.

الخصلة الثالثة: التي يجد بهن العبد حلاوة الإيمان: ((وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يُقذف في النار)). ٤

هذه الصورة في كافر أسلم، فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار، وأنما ذكر هذه الصورة، لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً، فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.

فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار، فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان. ٥

وإنما كره الضد لما دخل قلبه من محبة الله فانكشف له بنور المحبة محاسن الإسلام ورذائل الجهل والكفران. ١

كل النّاس ينفرون من النار -والعياذ بالله- لأنها مؤلمة، ولا أحد يصبر على حرها، فكلٌّ يفرُّ من النار ويبتعد عنها، والكفر نار، والمسلم الذي منّ الله عليه بالإسلام يكره أن يعود إلى الكفر، ويكره الرِّدّة عن دين الإسلام، كما يكره أن يُلقى في النار، هذا هو المؤمن حقًّا، الذي تمكَّن الإيمان من قلبه فلا يساوِم عليه، ولا يتنازل عن شيء منه أبداً مهما كلّفه الأمر، بل يتمسّك بدينه. لأنه وجد حلاوة الإيمان ولذته.

أما الذي يدّعي الإيمان ولكنه يتنازل عن الإيمان -أو عن شيء منه- من أجل الخوف أو الطمع أو غير ذلك فهذا دليل إما على عدم إيمانه أو على نقصان إيمانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، أما المؤمن فإنه يصبر ولو ناله شيء من المكاره، ولو حاول النّاس أن يصرفوه عن دينه، أعطوه أموالاً، وأعطوه ما يعطونه، أو حاولوا صرفه عن دينه، أو التنازل عن دينه بالتخويف والتهديد بالقتل، والتهديد بالتعذيب، فإنه يصبر، ولا يتنازل عن دينه حتى يلقى الله سبحانه متمسِّكاً بدينه، هذا هو المؤمن حقًّا.

وقوله: ((وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النار)) قالوا: هذا فيه دليل على أن المكره إذا صبر على الإكراه وصبر على القتل أنه يكون من هذا النوع – ممّن وجد حلاوة الإيمان، ولَمّا وجد حلاوة الإيمان ما رضيَ أن يتنازل عنها أبداً.

ولهذا جاء في قصة الرجلين اللذين مرَّا على صنم لا يجوزه أحدٌ حتى يقرِّب إليه شيئاً، ((فقالوا لأحدهما: قرِّب))، يعني: اذبح للصنم حتى نتركك تَمُر، ((فقال: ما كنتُ لأقرّب لأحد شيئاً دون الله عزّ وجلّ، فضربوا عنقه. فدخل الجنة))، ((وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ليس عندي شيء أقَرِّب. قالوا: قرِّب ولو ذباباً، فقرّب ذباباً فدخل النار)). الأول أبى أنْ يذبح لغير الله، والثاني استجاب. فالأول قُتل ودخل الجنة، والثاني ذبح لغير الله، فمر مع الطريق ودخل

النار، لأنه رجع إلى الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه، أما الأول فأبى أن يرجع إلى الكفر وصبر على القتل فدخل الجنة، وهذا الإيمان إذا باشر القلب ووجد حلاوته.

فهذا الحديث ميزان يزن العبد به إيمانه:

((أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما)) فإذا عرض شيءٌ من العوارض فإنه يقدِّم محبة الله ورسوله على محبة ذلك العارض.

((وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله)) لا يحبه من أجل طمع الدنيا ومرغِّباتها.

((وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه)) قال العلماء: هذا فيه تكميل المحبة وتفريعها ودفع ضدها.

فتكميل المحبة: أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله.

ودفع ما يضادها: يكره أن يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار.

فهذا حديثٌ عظيم.

قوله: وفي رواية: ((لا يجد أحدٌ طعم الإيمان)) هذه الرواية في "صحيح البخاري" وفائدتها: أنها نَفَتْ بمنظومها وجود طعم الإيمان عمن لم يتّصف بهذه الصفات الثلاث: ((أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه))، أما الرواية الأولى فهي دلّت بالمفهوم -مفهوم المخالفة- على أنّ من لم تكن فيه هذه الخصال فإنه لا يجد طعم الإيمان، وإنْ كان فيه إيمان، لكنه لا يتلذّذ به ويجد طعمه فالرواية الثانية دلّت بالمنطوق، والأولى بالمفهوم، ولهذا ساقها الشيخ رحمه الله، بعد الحديث. ٤

أتى المؤلف بهذه الرواية، لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم. ٥

وفي الحديث من الفوائد: أن الله تعالى يحبه المؤمنون، وهو تعالى يحبهم، كما قال ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤].

وفيه: رد ما يظنه بعض الناس من أنه من ولد على الإسلام أفضل ممن كان كافراً فأسلم، فمن اتصف بهذه الأمور؛ فهو أفضل ممن لم يتصف بها مطلقاً، ولهذا كان السابقون الأولون أفضل ممن ولد على الإسلام.

وفيه: رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مُطْلَقاً، والصواب أنه إن لم يتب كان نقصاً، وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة، وإن كانوا في أول الأمر كفاراً يعبدون الأصنام، بل المنتقل من الضلال إلى الهدى، ومن السيئات إلى الحسنات، يضاعف له الثواب، قاله شيخ الإسلام.[١]

وفيه: دليل على عداوة المشركين وبغضهم، لأن من أبغض شيئاً أبغض من اتصف به، فإذا كان يكره الكفر كما يكره أن يلقى في النار، فكذلك يَكْرَهُ من اتصف به. ١

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كَثُرَتْ صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً." رواه بن جرير[٢].

وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنى المرفوع، لأن ترتيب الجزاء على العمل لا يكون إلا بتوقيف، إلا الأثر ضعيف. ٥

قال رحمه الله: وعن ابن عباس قال: "من أحب في الله" ٤

---

[١] انظر منهاج السنة النبوية (٧/١٣٤-١٣٥)

راه ابن جرير في تفسيره (كما في جامع العلوم والحكم ١/١٠٢- شرح حديث جبريل) من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس، وليث ضعيف، وقد اضطرب فيه..

أي أحب المسلمين والمؤمنين في الله. ١

يعني: من أجل الله، فأحب المؤمنين لأنهم أولياء الله، لا يحبهم من أجل طمع دنيا أو رغبة عاجلة، وإنما يحبهم في الله. ٤

وينبغي لمن أحب شخصاً في الله أن يأتيه في بيته فيخبره أنه يحبه في الله، كما روى الإمام أحمد والضياء عن أبي ذر مرفوعاً ((إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله فليخبره أنه يحبه لله))[1]، وفي حديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب: ((فإنه يجد مثل الذي يجد له))[2]. ١

"وأبغض في الله" أبغض الكفّار والمنافقين والعصاة من أجل الله لا من أجل أنهم ضربوه أو أنهم حرموه من شيء، أو أنهم تعدّوا عليه، أو ظلموه، لا يبغضهم من أجل هذه الأمور، لأن هذا بغض طبيعي ليس بغضاً يتعلّق بأمور العبادة. ٤

قوله: "وأبغض في الله" أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية. ٢

"ووالى في الله" أي: أحب وناصر. فالموالاة: المحبة والمناصرة والمعاونة. ٤

فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام والاحترام، والكَوْنُ مع المحبوبين باطناً وظاهراً. ١

"وعادى في الله" أي: أبغض الكفار والمنافقين والفاسقين من أجل الله، لأن الله يبغضهم. ٤

قوله "وعادى في الله" هذا بيان للازم البغض في الله وهو المعاداة فيه، أي: إظهار العداوة بالفعل، كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً؛ إشارة إلى أنه لا

---

[1] الإمام أحمد في المسند (٥/١٤٥، ١٧٣) وإسناده حسن، وله شاهد صحيح من حديث المقدام بن معدي كرب.

[2] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/٤٨٩)، والخرائطي في اعتلال القلوب (رقم٤٦١)، وغيرهما وإسناده صحيح.

يكفي مجرد بغض القلب، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤] فهذا علامة الصدق في البغض في الله. ١

"فإنما تُنَال ولاية الله" ولاية الله محبته ونصرته. أما الوِلاية -بالكسر-: فهي الإمارة والوظيفة، وِلاية القضاء، وِلاية الملك، وِلاية حسبة، وولاية الله تعني: محبة الله. ٤

فمن اتصف بهذه الصفات أحبه الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]، فإنما تنال محبة الله بطاعة رسوله كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فمن اتّبع الرسول ﷺ أحبه الله، ومن عصى الرسول ﷺ أبغضه الله.

فقوله: "فإنما تُنال ولاية الله بذلك" أي لا يحصل الإنسان على محبة الله ونُصرته إلا بهذه الأمور: المحبة في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله. ٤

قال "فإنما تنال وَلاية الله بذلك" يعني إنما يكون العبد ولياً من أولياء الله بهذا الفعل وهو أن يوالي في الله وأن يعادي في الله جل وعلا. ٣

وفي حديث آخر: ((أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عز وجل)) رواه الطبراني وغيره.[١]. ١

وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً: ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)) رواه أبو داود.[١]١

---

[١] رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٢١٥) من حديث ابن عباس وفي سنده حنشٌ، وهومتروك. وهو حديث حسن بشواهده، فله شواهد من عدد من الصحابة.

أما الذي يتّخذ الدنيا هي المقياس عليها يعادي وعليها يوالي، من أحسن إليه أحبه ولو كان عدوًّا لله عزّ وجلّ. ومن أساء إليه أبغضه ولو كان ولياً لله فهذا لا ينال ولاية الله، ولهذا قال ابن عباس في آخر الحديث: "وقد صارتْ عامّة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا".

فابن عباس يستنكر في وقته أن الناس صاروا يوالون ويعادون من أجل الدنيا فكيف بوقتنا هذا؟، لا شك أن الأمر قد زاد، فكثير من الناس فقدوا هذه الصفات: المعاداة في الله، والموالاة في الله، والمحبة في الله، والبُغض في الله، إلا من شاء الله سبحانه وتعالى، ولكن قلّ هذا في الناس اليوم، لا نقول إنه مفقود، بل هو موجود -ولله الحمد-، ولكنه قلّ، وما دام أنه قليلٌ فليفتّش كل واحد منا عن نفسه بأن لا يكون مع الكثرة التي ضيّعتْ هذا الأصل العظيم كالذين لا يوالون، إلا على الحزبية والمنهجية فمن وافقهم على حزبيتهم ومنهجيتهم أحبوه ولو كان عدو الله ورسوله ومن خالفهم أبغضوه ولو كان ولياً لله ورسوله. ٤

المؤاخاة والمحبة في الدنيا هذه تراد للدنيا، والدنيا قصيرة زائلة وإنما يعتريها أهل الغرور، وأما أهل المعرفة بالله والعلم بالله وأهل كمال توحيده وأهل إكمال الإيمان وتحقيق التوحيد فإنما تكون محابهم مشاعرهم القلبية وأنواع العلوم والمعارف التي تكون في القلب وأنواع العبادات والمقامات والأحوال التي تكون في القلب يكون ذلك كله تبعاً لأمر الله ونهيه ورغبة في الآخرة، أما الدنيا لها أهلون وهي مرتحلة عنهم وهم مقبلون على أمر آخرتهم، ولذلك لن تجدي المحبة في الدنيا على أهلها شيئاً إنما الذي يجدي هو الحب في الله والرغب في الآخرة. ٣

---

[١] رواه أبو داود في سننه (رقم ٤٦٨١) والطبراني في المعجم الكبير ((١٣٤/٨)، وفي الأوسط (٤١/٩)، (٤٩٢/٦) وإسناده حسن، وهو حديث صحيح بشواهده.

المؤاخاة على أمر الدنيا لا يُجْدي على أهله شيئاً ، أي: لا ينفعهم أصلاً بل يضرهم، كما قال تعالى ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] فهذا حال كل خلة ومحبة كانت في الدنيا على غير طاعة الله، فإنها تعود عداوة وندامة يوم القيامة بخلاف المحبة والخلة على طاعة الله، فإنها من أعظم القربات، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قال: ((ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه))[١]

وفي الحديث القدسي الذي رواه مالك وابن حبان في صحيحه: ((وجبت محبتي للمتحابين فِيَّ، وللمتجالسين فِيَّ، وللمتزاورين فِيَّ، وللمتباذلين فِيَّ)).[٢]

فمعنى الحديث: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يوإليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله، فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءاً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباً له ما ذاك في إمكان

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "إذا رأيت النصراني أغمض عيني، كراهة أن أرى بعينى عدو الله". هذا الذي يجد طعم الإيمان، أما –والعياذ بالله– الذى يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ، فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله:

[١] رواه البخاري ومسلم.

[٢] رواه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في المسند، والطبراني في المعجم الكبير والأوسط، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك (١٨٦/٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي –وهو صحيح كما قال ابن عبد البر في الاستذكار (٤٥١/٨)، والنووي في رياض الصالحين.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلام﴾ [آل عمران:١٩] وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] ولكثرة اليهود والنصارى والوثنين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين المسلم وكافر، ولا يدري أن غير المسلم عدو لله عز وجل، بل هو عدو له أيضاً، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. ٥

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

أن لله تعالى أولياء، وهو ثابت بنص القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]، فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

قال شيخ الإسلام: "من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً". والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومن الثانية قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [المائدة : ٥٦].

والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعناية وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. ٥

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال:"المودة."[١]

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء.

وفى اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، ومنه سمي الحبل سبباً، لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وقوله: "قال: المودة". هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح، فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تنقطع بهم، ومنها محبتهم لآصنامهم وتعظيمهم إياها، فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥]، ثم قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

---

[١] رواه ابن جرير في تفسيره (٧١/٢)، وابن أبي حاتم (٢٧٨/١) والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢٩٩/٢)، وغيرهم وإسناده صحيح.

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبة من الإعمال والإشخاص، فإنها نافعة موصلة للمراد، قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ...﴾ [الزخرف: ٦٧]. ٥

لأنّ المشركين كانوا يشركون بآلهتهم ويحبونها ويظنون أنها ستشفع لهم يوم القيامة لأجل مودتهم لها ومحبتهم وستتقطع تلك الأسباب وتلك الحبال المدعاة الموهومة يوم القيامة ولن يجدوا نصيراً، والله جل وجلاله قال ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ يعني كل ما ظنوا سبباً نافعا ينفعهم عند الله فإنه سينقطع يوم القيامة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اُتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]. ٣

هذه نهاية من عبد غير الله يوم القيامة، فعبدة غير الله في الدنيا يحبون ما عبدوه كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وكذلك التابعون في الدنيا يحبون المتبوعين على الضلالة، فتوجد المحبة بين الكفار بعضهم مع بعض، وبين المشركين ومعبوداتهم في الدنيا، لكن يوم القيامة تنعكس الأمور، وتصير هذه المحبة عدواة كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧] يعني: يوم القيامة، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فلا يبقى إلاَّ المحبة التي كانت في الله ولله هي التي تبقى يوم القيامة: ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، ويقول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- للمشركين يحذِّرهم: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أوثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت:٢٥] فهم يوم القيامة يتلاعنون ويتباغضون، لأنهم يقولون لمن أضلوهم أنتم السبب في إضلالنا وإغوائنا وصرفنا عن دين الله.

أما محبة المؤمنين بعضهم لبعض من أجل الإيمان والموالاة في الله والمعاداة في الله فإنها تبقى، بل تزيد يوم القيامة، وتستمرُّ إلى أبد الآباد ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر:٤٧].

فدلّت هذه الآية على أن المحبة التي لغير الله أنها تزول يوم القيامة، وتنقلب عداوة، وأن محبة التابعين على الضلال لأتباعهم وقادتهم ورؤسائهم تنقلب عداوة يوم القيامة فيما بينهم ويتلاعنون ويتلاومون فيما بينهم، من باب التحسُّر -والعياذ بالله- والتألُّم.

فهذا الباب بابٌ عظيم، يجب على المسلم أن يَزِن نفسه به، ولهذا يسمى بباب الامتحان، فكلٍّ يَدّعي الإيمان، وكلٌّ يَدّعي الإسلام، وكلٌّ يدّعي الزهد والورع ولكن الميزان ما ذكر في هذا الباب. ٤

وهذه الآية وإن كانت نزلت في المشركين عباد الأوثان الذين يحبون أندادهم وأوثانهم كحب الله، فإنها عامة، لأن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولهذا قال قتادة: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال: "أسباب الندامة يوم القيامة، والأسباب المواصلة التي يتواصلون بها، ويتحابون بها، فصارت عداوة يوم القيامة يلعن بعضهم بعضا"[١]. رواه عبد بن حميد وابن جرير. فهذا حال من كانت مودته لغير الله فاحذر من ذلك. ١

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

---

[١] رواه ابن جرير في تفسيره (٧١/٢) إسناده صحيح.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانيةأحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة. وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. وسبق ذلك. ٥

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ [التوبة:٢٤] الأية: وسبق تفسيرها. ٥

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

وفي نسخة: "وتقديمها على النفس والأهل والمال".

ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث، وأيضاً قوله: "على النفس" يدل على أنها قد سقطت كلمة تقديم أو وتقديمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فذكر الأقارب والأموال. ٥

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ : "والله إنك لأحب إلى من كل شيء إلا من نفسي. فقال له ((ومن نفسك)). فقال: الآن، أنت أحب إلى من نفسي "قوله: ((الآن)) يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضاً أن نفي الإيمان المذكور في قوله: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده))

لا يدل على الخروج من الإسلام، لقوله في الحديث الآخر: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان))، لان حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله، أي إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود، وذلك مثل: "إيمان لعابد صنم" فإن منع مانع من نفي الوجود، فهو نفي للصحة، مثل ((لا صلاة بغير وضوء))، فإن منع مانع من نفي الصحة، فهو نفي للكمال، مثل: ((لا صلاة بحضرة طعام))، فقوله: ((لا يؤمن أحدكم)) نفي للكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: "لاينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع". ه

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. تؤخذ من قوله: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان))، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا أنتفت هذه الإشياء. ه

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في الله، والعداء في الله.

لا تنال ولاية الله إلا بها، فلو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله، فإنه لاينال ولاية الله، قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي   حبا له ما ذاك في إمكان

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالي من عاداهم.

وقوله: "ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها"مأخوذة من قول ابن عباس: ولن يجد عبد طعم الإيمان ..." إلخ. ه

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الصحابي يعني به ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: "إن عامة المؤاخاة على أمر الدينا"، هذا في زمنه فكيف بزمننا؟! ٥

الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

فسرها بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الإية من صيغ العموم تفسير بالمثال، لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم، فإنما يقصد به التمثيل، أي مثل المودة، لكن حتى الإسباب الأخرى التي يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة، فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً. ٥

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فأشد: اسم تفضيل يدل على الإشتراك بالمعنى مع الزيادة، فقد أشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم. ٥

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

الثمانية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ [التوبة:٢٤].

والوعيد في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى أن الإمر هنا للوعيد. ٥

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر، بدليل ما لهم من العذاب. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ آل عمران.
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة:١٨] الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠] الْآيَةُ. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ط مرفوعاً: ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ)). وَعَن عَائِشَةَ ك: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ ط وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ)) رَوَاهُ ابْن حِبَّانَ فِي صَحِيحِه .

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله في موضوع الخوف.

والخوف من الله هو أحد ركائز العبادة، كما سبق أن المحبة والخوف والرجاء أعظم أنواع العبادة، وهي أعمال قلبية، فلما ذكر المحبة في الباب السابق ذكر في هذا الباب الخوف؛ ليدلّ على أن المحبة لا تكفي وحدها، لأن التعبُّد بالمحبة وحدها منهج الصوفية الضُلاّل، أما منهج الرسل وأتباعهم فإنه ينبني على المحبة والخوف والرجاء، محبة الله سبحانه مع خوفه ورجائه وغير ذلك من أعمال القلوب كالتوكُّل والرغبة والرهبة والخشية كل هذه من أعمال القلوب، وهي عباداتٌ عظيمة. ٤

مناسبة الباب لما قبله.

أن المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف، لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف.

فبالمحبة يكون امتثال الإمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزني لماذا، لقال: خوفاً من الله.

ولو سألت الذي يصلي؛ لقال: طمعاً في ثواب الله ومحبة له.

وكل منهما ملازم للآخرة؛ فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته.٥

ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة وهي أن خوف العبد من الله جل وعلا عبادة من العبادات التي أوجبها الله جل وعلا، فالخوف والمحبة والرجاء عبادات قلبية واجبة وتكميلها تكميل للتوحيد، والنقص فيها نقص في كمال التوحيد. ٣

الخوف من أفضل مقامات الدين وأَجَلِّها، فلذلك نبه المصنف على وجوب إخلاصه لله تعالى.

وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين، قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] وقال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧]، وقال تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، وأمر بإخلاصه له فقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل:٥٢]. ١

وخوف الله تعالى درجات؛ فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه.

والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا؛ فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله.

ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه. ٥

والخوف ثلاثة أنواع: ٤

والخوف من غير الله جل وعلا ينقسم:

إلى ما هو شرك.

وإلى ما هو محرم.

وإلى ما هو مباح. ٣

النوع الأول: خوف السر وهو الخوف الذي يكون معه عبادة لغير الله أو ترك لما أوجب الله .

ومعناه: أن يخاف الإنسان من غير الله من الأصنام والأوثان وما عُبد من دون الله، من القبور والأضرحة، أو يخاف الشياطين والجن، ويتقرّب إليهم بما يحبون من الشرك بالله من أجل أن يسلَم من شرهم، فهذا شركٌ أكبر يُخرج من الملّة. ٤

خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أنَّ ذلك كرامة لِلْمَخوفِ بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً، لأن هذا من لوازم الإلاهية، فمن اتخذ مع الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك. ١

وهو خوف السر؛ يعني أن يخاف في داخله من هذا المخوف منه، وخوفه لأجل ما عند هذا المخوف منه مما يرجوه أو يخافه من أن يمسه سِرَّاً بشيء، أو أنه يملك له في آخرته ضرا أو نفعاً:

- فالخوف الشركي متعلق في الدنيا بخوف السر بأن يخاف أن يصيبه ذلك الإله بشَرّ، وذلك شرك، وربما يأتي تفصيله.
- والخوف المتعلق بالآخرة؛ خاف غير الله، وتعلق خوفه بغير الله؛ لأجل ذلك؛ لأجل أنه والخوف أن لا ينفعه ذلك الإله في الآخرة، فلأجل رغبة في أن ينفعه ذلك الإله في الآخرة وأن يشفع له وأن يقربه منه في الآخرة وأن يبعد عنه العذاب في الآخرة خاف منه، فأنزل خوفه به. ٣

وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم، ولهذا يُخَوِّفون بها أولياء الرحمن، كما خوفوا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال لهم: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شيئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ [الأنعام:٨٠-٨١]. ١

كأنهم توعّدوه بآلهتهم ومعبوداتهم أن تصيبه. فهذا ردٌّ عليهم، كيف لا تخافون من الله وأنتم تهدِّدونني بأن أخاف من معبوداتكم التي لا تُغني عني شيئاً، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨١] هل هو أنا الذي أعبد الله وحده لا شريك له، أو أنتم الذين أشركتم؟

ثمّ ذكر الله الحكم في ذلك فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام:٨٢] والظلم معناه هنا: الشرك، فبيّن أنّ الأمن إنما يحصل لأهل التّوحيد، وأما المشركون فليس لهم أمن، وليس لهم إلاّ العذاب، هذا حكم من الله سبحانه وتعالى.

وكما ذكر الله عن نبيه هود أنّ قومه قالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤]، يخوِّفون هوداً لَمّا دعا إلى التّوحيد وترك عبادة الأصنام يخوِّفونه بالأصنام أن تُصيبه ويهدِّدونه بها. ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (٥٥)﴾ [هود:٥٤-٥٥] وهذا تحدٍّ من فردٍ واحد يتحدّى أمة كاملة، وهذا من المعجزات.

ثمّ قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود:٥٦] أعلن البراءة منها، وتحدّاها وتحدّى جميع الأمة التي تعبدها أن تكيده، وأن تصل إليه بسوء فلا يستطيعون، ثمّ علّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

وكذلك المشركون قالوا لنبينا محمد ﷺ ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦]، فالمشركون يخوّفون الرسول ﷺ، بمعبوداتهم من دون الله فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

فهذا النوع من الخوف يسمّى: خوف السر، وهو خوف العبادة، بأن يخاف من المعبودات التي تُعبد من دون الله عزّ وجلّ، فالمؤمن لا يخاف هذه المعبودات أبداً، لا يخاف من الأصنام، لا يخاف من القبور والأضرحة التي تُعبد من دون الله، لا يخاف من الشياطين والجن أن تصيبه إلاَّ بإذن الله سبحانه وتعالى، وكذلك الخوف من كل مخلوق أن يصيبه بما لا يقدر عليه إلاَّ الله سبحانه وتعالى من الإصابة بالمرض، أو قطع الرزق، أو غير ذلك، وهذا أحد أنواع الشرك الأكبر. ٤

وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت، كما يخافون الله بل أشد. ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان كاذبًا أو صادقاً، فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إنْ كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله.

ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين، بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحدا منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب. وإذا أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله أو ببيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحد، ولم يتعرض له بأذى، حتى إنَّ بعض الناس أخذ من التجار أموالا عظيمة أيام موسم الحج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس، فقام عليه أهل الأموال، فالتجأ إلى قبر في جدة يقال له: المظلوم، فما تعرض له أحد بمكروه خوفاً من سر المظلوم!

وأشباه هذا من الكفر، وهذا الخوف لا يكون العبد مسلماً إلا باخلاصه لله تعالى، وإفراده بذلك دون ما سواه. ١

والآن عُباد القبور يهددون النّاس بهذه الأضرحة، ويقولون الولي الفلاني يصيب من لم يخضع له ويعبده، يصيبه في نفسه أو في ولده، ثمّ الجهال ينخدعون بهذا التخويف، ويتقرّبون إلى هذه القبور وهذه الأضرحة بما يُطلب منهم، وغرض عُبّاد القبور والسَّدَنة: أكل أموال النّاس بالباطل، يهدِّدون النّاس إذا لم ينذروا لهذه القبور ولم يقرِّبوا لها شيئاً من الأموال، فأنها تصيبهم، أو تصيب زروعهم، أو تُصيب حروثهم، أو أولادهم، ثمّ الجهال يتقرّبون إلى هذه الأضرحة بأموالهم، ثمّ يأخذها هؤلاء السدنة وهؤلاء القائمون على هذه الأوثان ويقتسمون هذه الأموال، فالشر باقٍ من قديم الزمان إلى آخر الزمان، وطريقة المشركين واحدة.

وأما أهل الإيمان فإنهم لا يخافون إلاَّ الله تعالى، لأنه هو الذي يملك النفع والضر، وهو الذي بيده الأمور، وأنه لا يصيب المؤمن إلاَّ ما قدّره الله له ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [التوبة: ٥١].

النوع الثاني من أنواع الخوف المذموم: أن يترك الإنسان ما أوجب الله عليه من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من النّاس أن يؤذوه أو يضايقوه أو يعذِّبوه فيترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وبيان الحق خوفاً من النّاس، فهذا شركٌ أصغر، وهو محرّمٌ، وقد جاء في الحديث: ((أن الله يحاسب العبد يوم القيامة: لِمَ لَمْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟. فيقول: يا رب خشيتُ النّاس، فيقول: إيّايَ أحقُّ أن تخشى)). ونعني بذلك: القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقادر على الدعوة إلى الله، أما الذي لا يقدر –أو ليس عنده استطاعة– فهذا معذور. ٤

فهذا محرم، قال بعض العلماء: وهذا من أنواع الشرك. يترك الأمر والنهي الواجب بشرطه خوفاً من ذم الناس أو من ترك مدحهم له أومن وصمهم بأشياء، فهذا خوف رجع على الخائف بترك أمر الله، وهذا محرم؛ لأن الوسيلة إلى المحرم محرمة. ٣

النوع الثالث: الخوف الطبيعي، الذي ليس معه عبادة للمخوف ولا ترك لواجب. كأن يخاف الإنسان من العدو، أو من السَّبُع، أو من الحيَّة، ويخاف الإنسان من أعدائه، أو يخاف من السّباع، أو يخاف من الهوام، فهذا الخوف خوفٌ طبيعي لا يُلام عليه الإنسان لأنه ليس عبادة وليس تركاً لواجب، ولا يُؤاخذ عليه الإنسان. وموسى عليه السلام لَمّا تآمر عليه الملأ ليقتلوه وأُنذر أن يخرج من البلد ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾[القصص:٢١]. ٤

ثمّ أورد الشيخ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ [آل عمران:١٧٥]. ٤

يتبين معنى الآية بذكر ما قبلها. ٨

وهذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥] وذلك أن الرسول ﷺ وأصحابه لَمّا حصلَتْ وقعة أحد، وحصل على المسلمين ما حصل من الابتلاء والامتحان، واستشهد من المسلمين من استُشْهد وانصرف المشركون إلى مكة أرادوا أن يُرعبوا المسلمين، فأرسلوا إليهم يهدِّدونهم ويقولون: إننا سنرجع إليكم، فنقضي على بقيّتكم، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ والمسلمين قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ لم يؤثِّر عليهم هذا التهديد، وأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا وفيهم الجراح، وفيهم التعب بعد المعركة، فنهضوا مسرعين وخرجوا مع الرسول ﷺ، ونزلوا في مكان يُقال له: (حمراء الأسد) ينتظرون المشركين، فلما علِم المشركون بخروج رسول الله ﷺ وخروج المسلمين أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلاَّ وفيهم قوة، فهربوا إلى مكة وألقى الله الرعب في قلوبهم لَمّا صدَق المسلمون وصبروا وتوكّلوا

على الله، ولم يؤثّر فيهم تهديد هؤلاء: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ رجعوا إلى المدينة سالمين غانمين الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أي: ما أصابهم ما يكرهون، بل حصلوا على الأجر والثواب ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: الذي حصل من المشركين من التهديد إنما هو من الشيطان.

والمراد بالشيطان "إبليس اللعين" الذي هو رأس الكفر. ٤

وقوله جل وعلا هنا ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ معناها على الصحيح من التفسير أو على الراجح: يخوفكم أولياءه، يعني يخوف أهل الإيمان أولياء الشيطان، ففاعل (يُخَوِّفُ) محذوف دل عليه السياق، الفاعل هو الشيطان، يخوفُ الشيطانُ الناسَ أولياءَه؛ أولياء الشيطان؛ يعني يجعل الشيطان أهل التوحيد في خوف من أعدائهم، لهذا قال السلف في تفسيرها ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني يخوفكم أولياءه، وهذا الظاهر من الآيات قبلها كقوله ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]. ٣

قال ابن كثير: "أي: يخوفكم أولياءه، و يوهمكم أنهم ذو بأس وذو شدة. قال الله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فإذا سَوَّلَ لكم وَأَوْهَمَكُمْ؛ فتوكلوا عليَّ، والجؤوا إليَّ فإني كافيكم، وناصركم عليهم"[١]

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوِّفكم بأوليائه من الكفار، فالشيطان هو الذي خطّ هذه الخطة من أجل أن يخوِّفكم بأوليائه، يعني: المشركين، لأن المشركين أولياء الشيطان، كما أن المؤمنين أولياء الرحمن، كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾ [البقرة:٢٥٧].

---

[١] تفسير اين كثير (١٧٢/٢)

فمعنى قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: يخوِّفكم أيها المسلمون بأوليائه من الكفّار. ٤

﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ أي: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر؛ فهو من أولياء الشيطان؛ ثم قد يكون النصر في الشرك وما ينافي التوحيد، فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك. ٥

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك ليصدهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية. ٥

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان في نفسك الخوف؛ فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدني الإجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل؛ فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه؟! وكم من جبان قتل في بيته؟!

وانظر إلى خالد بن الوليد، كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، وما دام الإنسان قائماً بأمر الله؛ فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون. ٥

خوف يحمل على فعل معصية الله وترك الواجب وهو الخوف من المخلوق وهو معصية وفيه نزل قوله تعالى ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ ويحمله على ترك الجهاد. ٦

ثمّ قال تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لا تخافوا من الكفّار بل توكلوا على الله، وخافوا من الله، وفي الأثر: "من خاف الله خافه كلُّ شيء، ومن خاف غير الله أخافه من كلُّ شيء". ٤

﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فإذا سَوَّلَ لكم وأوْهَمَكُمْ؛ فتوكلوا علي، والجؤوا إليَّ فإني كافيكم، وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٦-٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] قاله ابن كثير.[١]

وقال ابن القيم: "ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. فأخبر تعالى أن هذا من كيده وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: "يخوفكم بأوليائه"، قال قتادة: "يعظمهم في صدوركم"[٢] ولهذا قال ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم."[٣]

قلت: فأمر تعالى باخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب، ففيه أنَّ إخلاص الخوف لله من الفرائض. ١

قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾... وهذا النهي للتحريم بلا شك؛ أي: بل أمضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء، وإذا كان الله مع الإنسان، فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام، ولهذا قال تعالى: ﴿أنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن أدم منها التخويف من أعدائه، وهذا ما وقع فيه كثير من الناس، وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو اتكلوا على الله وخافوه قبل كل شيء لخافهم الناس. ٥

---

[١] تفسير ابن كثير (٤٣٢/١)

[٢] لم اقف عليه عن قتادة بهذا اللفظ، وإنما وجدته عن السدي، رواه ابن جرير في تفسيره (١٨٤/٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٢٠/٣)

[٣] إغاثة اللهفان (١١٠/١)

﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ هذا نهيٌ من الله سبحانه وتعالى عن خوف أولياء الشيطان، ثمّ أمر بخوفه وحده سبحانه وتعالى:

ومن خاف الله فإن الله يكفيه ويعينه وينصره خلاف العكس: من خاف غير الله وترك طاعة الله من أجل خوف النّاس فإن الله يسلِّط عليه، فالواجب على المسلمين الصادقين في إيمانهم أن لا يخافوا إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وأن لا يخافوا من أعدائهم بل يخافون من ربهم ويخافون من ذنوبهم، أما الكفار وغيرهم فإنهم عبيد، نواصيهم بيد الله سبحانه وتعالى، هو الذي يسلِّطهم، وهو الذي يكفُّهم فنحن لا نخاف من الكفار، وإنما نخاف من الله، ونخاف من عواقب الذنوب، فإذا خِفْنا الله وأصلحنا أعمالنا فإنّ أحداً لن يضرّنا إلاَّ بإذن الله سبحانه وتعالى.

وليس معنى ذلك: أن المسلمين لا يخافون من شر الكفّار ويتركون الأخذ بالأسباب الواقية، بل عليهم أن يستعدوا بالسلاح والقوّة والعُدّة التي يُرهبون بها عدو الله وعدوهم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، وأمر الله المسلمين في صلاة الخوف أن يحملوا معهم السلاح وهم في الصلاة، من أجل أن يدافعوا عن أنفسهم: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]، فالحِذْر وإعداد العُدّة للعدو أمرٌ مطلوب، إنما الممنوع: أن نخافهم الخوف الذي يمنعنا من الجهاد في سبيل الله ومن إعداد العدة، ومن الدعوة إلى الله، هذا هو الممنوع.

والشاهد من الآية: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ نهى عن خوف الكفّار وأولياء الشيطان خوفاً يمنع من الدعوة والجهاد في سبيل الله، والقيام بواجبات الدين، وأمر بخوفه سبحانه وتعالى.

فدلّ على أن الخوف عبادةٌ عظيمة، يجب أن تُخلص لله عزّ وجلّ. ٤

قال: ﴿وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وأمر بالخوف فدل أن الخوف عبادة من العبادات، وتوحيد الله بهذه العبادة توحيد، وإشراك غير الله معه في هذه العبادة شرك ولهذا قال ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

والخوف من الخلق -كما ذكرنا- في ترك فريضة الجهاد إنما يكون من جرّاء الشيطان، فالشيطان وهو الذي يخوف المؤمنين من أوليائه، ويخوف أهل التوحيد وأهل الإيمان من أعداء الله جل وعلا لكي يتركوا الفريضة، فلهذا صار ذلك الخوف محرماً يعني الخوف من الأعداء الذي يترتب عليه ترك فريضة من فرائض الله -من الجهاد وغيره-. ٣

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائة مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك، فهو مناف لأصله، وإلا، فهو مناف لكماله. ٣

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾ [لتوبة: ١٨]

ثمّ قال الشيخ رحمه الله: "وقوله": ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾ [التوبة:١٨] هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)﴾ [التوبة:١٧].

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا يسوغ ولا في جوز للمسلمين أن يمكنوا المشركين من دخول المساجد لأجل أن يتعبّدوا فيها العبادة الشركية، ويدعوا غير الله فيها، فلا يجوز للمسلمين أن يمكّنوا المشركين من إظهار الشرك في المساجد ولا أن يكونوا من عُمّارها والمتردِّدين عليها وهم يُعلنون الشرك بالله تعالى، لأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله وإخلاص الدين له كما قال الله سبحانه وتعالى في المشركين: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤]، فالمشرك ليس له حقٌّ في مساجد الله

سبحانه وتعالى لأن مساجد الله بيوت الله بُنِيَتْ لعبادة الله وحده لا شريك له ولم تُبْنَ لعبادة غيره، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً (١٨)﴾[الجن:١٨]. ٤

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾.

(إِنَّمَا): أداة حصر، والمراد بالعمارة العمارة المعنوية، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي؛ فإن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله؛ لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقة؛ لعدم انتفاعه بهذه العمارة؛ فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الأخر، ولهذا لما أفتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً؛ لأنها موضوع عبادته.

قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾. ﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهى: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، وسمي بذلك، لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيراً ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاءً؛ حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الإخر لا يعمل؛ إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟! ٥

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية للباب. ٤

قال ابن عطية: "يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه"[١]

قلت: لأن النفع و الضر إنما يكون بمشيئته و إرادته، فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن. ٧

قلت: ولهذا قال ابن عباس في الآية: "لم يعبد الا الله"، فإن الخوف كما قال ابن القيم: "عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب" [٢]. ١

أي: لم يخش من غير الله، لا من المعبودات، ولا من سائر المخلوقات، وإنما الخشية حقٌّ لله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يُشرك معه فيها غيره، وهي عملٌ قلبي -من العبادات القلبية-. وهذا حصر للخشية لله سبحانه وتعالى، فلا يخشى الإنسان غير الله عزّ وجلّ، ومن خشيَ غير الله خشية العبادة فقد أشرك بالله. وهذا مثل قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فمن شرط الإيمان: إخلاص الخوف من الله، كذلك من شرط الإيمان: إخلاص الخشية من الله سبحانه وتعالى. ٤

وجه الدلالة من الآية قوله ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وهذا نفي واستثناء ومرّ معنا أن مجيء أداة الاستثناء بعد النفي يدل على الحصر والقصر، فإذن الآية دالة بظهور على أن الخشية يجب أن تكون في الله، وأن الله أثنى على أولئك بأنهم جعلوا خشيتهم في الله وحده دون ما سواه، والخشية أخصّ من الخوف. ٣

والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما:

١ – أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخوف قد يكون من الجاهل.

---

[١] المحرر الوجيز (١٦/٣)، وابن عطية هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، فقيه مفسر. توفي سنة (٥٤٢هـ). انظر تاريخ قضاة الأندلس)) (٥٩٣/١)

[٢] طريق الهجرتين (ص/٣٦٢)

٢ – أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف، فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف. ٥

﴿فَعَسَى أُولَئِكَ﴾ أي: الذين اتّصفوا بهذه الصفات: الإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والخشية من الله وحده، ﴿فَعَسَى﴾ عسى حرف ترجٍّ، ولكنها من الله واجبة، لأنها وعدٌ من الله سبحانه وتعالى، والله لا يخلف وعده، ولهذا يقول العلماء كلُّ "عسى" من الله فهي واجبة. ٤

قال ابن عباس: "عسى من الله واجبة"، وجاءت بصيغة الترجي، لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف. ٥

﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ المهتدين إلى الحق، أما من لم يتّصف بهذه الصفات فليس من المهتدين، بل هو من الضالّين. ٤

هذا فيه بيان أن الخوف من الله والخشية بمعنى واحد، لكن إذا أطلقت الخشية فمعناها: خوف تعظيم لله سبحانه وتعالى. ٩

ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل. ومن أراد أن يصحح هذا المسير، فليتأمل قول الرسول ﷺ: ((وأعلم أن الأمة لو أجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)). ٥

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

هذه الآية في المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويُبطِنون الكفر. ٤

وقوله: ﴿مَنْ يَقُولُ﴾. (مَنْ): مبتدأ مؤخر، والمراد بهؤلاء: من لا يصل الإيمان إلى قرارة قلبه؛ فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان متطرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]، ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ أي: على طرف. ٥

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن قوم من الذين يَدَّعون الإيمان بألسنتهم ولم يَثْبُتِ الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نِقْمُةِ الله بهم، فارتدوا عن الإسلام" [١]

فقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ يقول مجرّد قول ويدّعي، ما ليس له حقيقة.

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾ إذا جاء الامتحان، لأن المؤمنين يُمتحنون، ولا يتركون على قول: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾، فيظهر الصادق في إيمانه من الكاذب، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت:٢] يعني: يُختبرون ويُمتحنون، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت:٣]، فإذا قال: "آمنت بالله" فإنه يُمتحن، بأن يصاب بالأذى من الكفار والمنافقين والفُسّاق، فإن صبر وثبت على إيمانه وتحمّل الأذى في سبيل الله عزّ وجلّ، فهذا دليلٌ على صِدْق إيمانه. أما إنِ انْحرف وذهب مع الفتنة فإنّ هذا دليلٌ على نفاقه.

وموقف المنافقين في الشدائد في زمن رسول الله ﷺ معلوم، كموقفهم يوم غزوة الأحزاب ماذا كان. كان كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢) ﴾ [الأحزاب:١٢]، وفي وقعة أحد انصرفوا ورجعوا مع عبد الله بن أُبي وتركوا رسول الله والمسلمين. فالفتن تكشف المنافقين وتبيّن الصادقين في إيمانهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً (٢٢)﴾ [الأحزاب:٢٢]، فمواقف الفتن والشدائد

[١] تفسير ابن كثير (٣/٤٠٦)

هي التي تبيّن أهل الإيمان الصادق من النفاق الكاذب، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾، فوقت الرخاء كلٌّ يقول: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾، ويتظاهر بالإسلام وبالدين، لكن إذا جاءت الفتن فالمنافق ينعزل، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ يعني: على طَرَف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالفتن والشدائد والمواقف الصعبة هي التي تبيّن الإيمان الصادق من النفاق، والله سبحانه وتعالى حكيمٌ عليمٌ يُجري هذه الابتلاءات وهذه الامتحانات وهذه الهزّات ليتبيّن أهلُ الإيمان الصادق من أهل النفاق: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩]، قال ﷺ: ((أشد النّاس بلاءً: الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ثمّ الأمثل فالأمثل، يُبتلى المؤمن على حَسَب إيمانه))، وقال ﷺ: ((إن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم ((يعني: امتحنهم)) فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط)). والدنيا دار امتحان، ودار ابتلاء، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه أنه يبتلي العباد بعضهم ببعض، ويبتليهم بالمحن والشدائد والخوف ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾ أي: ناله أذى بسبب إيمانه بالله.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: أذاهم. ٤

والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسمي فتنه؛ لأن الإنسان يتفتن به، فَيُصد عن سبيل الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[البروج: ١٠]. ٥

﴿كَعَذَابِ اللهِ﴾ أي: مساوية لعذاب الله، مع الفرق العظيم، لأن فتنة النّاس زائلة ومنتهية وخفيفة، بخلاف عذاب الله -والعياذ بالله- فإن عذاب الله شديد وباق ومستمر، فهو سوّى بين الأمرين، وهذا من جهله وعدم إيمانه.

ومعنى هذا: أنه يُطاوع الكفار، فينسلخ من دينه، لأنه ليس له دين أصلاً وإنما تظاهر به، فإذا جاءت المحن انكشف وتبيّن أنه ليس في قلبه إيمان، أو كان في قلبه إيمان ضعيف، ثمّ زال، ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت:١٠] أي: إذا حصل للمسلمين فرج وحصل لهم خير قال: أنا معكم، أنا مسلم. أما إنْ حصل على المسلمين أذى وامتحان فإنه ينعزل ويصير مع الكفار ويطاوع الكفار. هذه مواقف المنافقين وضِعاف الإيمان عند الشدائد والمحن.

ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره ؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفة من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم، فالآية موافقة للترجمة. ٣

والشاهد من الآية: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ أي: أنه يخشى النّاس ولا يخشى الله سبحانه وتعالى، فهذا هو موضع اللوم. ٤

وهذا ذم لهم وهو أن بعض الناس إذا أوذي لم يصبر بل يحمله الخوف على فعل ما حرم الله وترك طاعة الله وما أمر به، وهذا مذموم لأن الواجب أن يتقي الله، وإذا أوذي في الله أخذ بالأسباب الشرعية من طلب المحاكمة والشكوى إلى ولاة الأمور وغير ذلك. ٦

الشاهد من الآية: قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾؛ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى. ٥

جعل فتنة الناس كعذاب الله بأن خاف منها وترك ما أوجب الله عليه أو أقدم على ما حرم الله عليه خشية من كلام الناس. ٣

قلت: وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب الله؛ هو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة. ١

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا، امتحنه ربه وابتلاه وفتنه. والفتنة: الابتلاء والاختبار؛ ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه. فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه، وابتلي بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم. فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير في الألم الدائم، والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم. فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه "من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً".

فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس

له، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم - جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب. وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله، وغُبِنَ كل الغبن؛ إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق." انتهى.[1]

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله العبد لأجل أن يمحص إيمانة، وذلك على قسمين :

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر، فيكفر ويرتد أحياناً -والعياذ بالله-، وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله -عز وجل- في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً؛ فليكن المسلم على حذر، فالله حكيم يمتحن عباده بما

[1] إغاثة اللهفان (٢/١٨٩)

يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. ٥

عن أبي سعيد ﷺ مرفوعاً: ((إن من ضعف اليقين: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره)).[1]

وحديث أبي سعيد رواه أبو نعيم في "الحلية"، ورواه البيهقي، وهو حديث ضعيف، ولكنّ الشيخ رحمه الله من قاعدته أن لا يذكر الحديث الضعيف إلاَّ إذا كان له ما يؤيّده، وهذا الحديث تؤيّده الآية التي قبله وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ((إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله)).

فالشيخ رحمه الله قد يذكر بعض الأحاديث الضعيفة إذا كان لها ما يؤيّدها من القرآن أو من السنّة.

وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم. ٤

ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: ((وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)). ٢

قال: "عن أبي سعيد ﷺ مرفوعاً" يعني: إلى النبي ﷺ، فالحديث المرفوع: ما نُسب إلى الرسول ﷺ، والحديث الموقوف: ما كان من كلام الصحابي، والحديث المرسل: ما نسبه التابعي إلى رسول الله ﷺ.

((إنّ من ضعف)) بفتح الضاد ويجوز الضم: والضَعف ضدّ القوة.

---

[1] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٦/٥)، وأبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (٦٨-٦٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٢٠٧). وإسناده واه

((اليقين)) واليقين هو أعلى درجات العلم. ٤

واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، كما تقول: تيقنت هذا الشيء، أي: علمته يقيناً لا يعتريه الشك ٥

((أن ترضي النّاس بسخط الله)) هذا من ضعف اليقين. ٤

فمن ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله؛ إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله. ٥

قوله ((أن ترضي الناس بسخط الله)) أي تؤثر رضاهم على رضى الله، فترافقهم على ترك المأمور، أو فعل المحظور، استجلاباً لرضاهم فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك، لأن من قوي يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار، وأنه لا مُعَوَّلُ إلا على رضاه، وليس لسواه من الأمر شيء كائناً ما كان، فلا يهاب أحداً، ولا يخشاه لخوف ضرر يلحقه من جهته، كما قال تعالى ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]. ١

قوله: ((أن ترضى الناس بسخط الله)) أي تؤثر رضاهم على رضا الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده من ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق. ٢

وجه الاستدلال بهذا الحديث قوله ((إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله))، ((من ضعف اليقين)) يعني من أسباب ضعف الإيمان والذي يضعف الإيمان المحرمات لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فدلّ على أن إرضاء الناس بسخط الله معصية وذم

ومحرم؛ لأن هذا الذي أرضى الناس بسخط الله خافهم أو رجاهم، هذا مناسبة إيراد الحديث في الباب. ٣

وهذا مثل ما ذكر في الآية: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، فمن أرضى النّاس بما يُسخط الله إذا طلبوا منه ذلك إرضاءً للناس بما يُسخط الله من المخالفات والمعاصي، فهذا من ضعف اليقين، لأنه لو كان يقينه قويًّا لكان العكس، فكان يُرضي الله سبحانه وتعالى بسخط النّاس. أما إذا جاء العكس فأرضى النّاس بسخط الله، فهذا من ضعْف اليقين. ٤

((وأن تَحْمَدَهم على رزق الله.)) ٤

الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم، لأنه يشمل المدح. ٥

و((رزق الله)): عطاء الله. ٥

أي: ومن ضعف اليقين: أن تَحْمَدَ النّاس على رزق الله، إذا جاءك رزق وجاءك خير تنسب هذا إلى النّاس وتحمدهم عليه، مع أن الرزق من الله سبحانه وتعالى. ٤

أي: إذا أعطوك شيئاً حمدتهم ونسيت المسبِّب وهو الله، والمعنى: أن تجعل الحمد كله لهم متناسياً بذلك المسبب، وهو الله، فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو الله، ولهذا قال النبي ﷺ: ((إنما أنا قاسم والله يعطي)).

أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي منَّ عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذي أعطاك؛ فليس هذا داخلاً في الحديث، بل هو من الشرع، لقوله ﷺ: ((من صنع إليكم معروفاً، فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)). ٥

لكن الحمد كله لله وحده هو الذي هداهم و جعلهم يحنون إليك، فيجب حمد الله أولاً و تخصيصه بذلك، وتشكر المخلوقين على قدر إحسانهم ومعروفهم ((ومن لا يشكر الناس لا

يشكر الله)) ولكن يكون حمد الله أعظم لأنه هو المتسبب في ذلك فحرك قلوبهم إلى الإحسان إليك. ٦

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه، فالمراد بالحمد: أن تحمدهم الحمد المطلق نآسياً المسبب وهو الله –عز وجل–، وهذا ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلي،

وهو الله –عز وجل–، الذي له النعمة الأولى، وهو سفه أيضاً، لأن حقيقة الإمر أن الذي أعطاك هو الله، فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذي خلق ما بيده، وهو الذي عطف قلبه حتى أعطاك، أرأيت لو أن إنساناً له طفل، فأعطى طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلاناً، فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لعدَّ هذا سفهاً، لأن الطفل ليس إلا مرسلاً فقط، وعلى هذا؛ فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء؛ فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الإسباب، وأن الحمد كله لله –عز وجل–، فهذا حق، وليس من ضعف اليقين. ٥

فالواجب: أن تحمد الله لا أن تحمد النّاس، إنما تحمد الله عزّ وجلّ لأنه هو الرزّاق، وإذا كان لأحدٍ من النّاس تسبُّب في هذا الرزق، فإنّ هذا المتسبِّب يُشكر على قدْر ما فعل، لا أن يُنسب الرزق إليه، وإنما يُشكر على قدر سعيه وعلى ما بذل من السبب فقط، مع الاعتراف أن الرزق من الله، وتعتقد أن هذا الشخص إنما هو سبب فقط، وفي الحديث: ((من لا يشكر النّاس لا يشكر الله))، وفي الآخر: ((من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُرَوْا أن قد كافأتموه))، فالنّاس إنما تجري على أيديهم أسباب يُشكرون عليها ويُدعى لهم، أما أن يُنسب الرزق إليهم، ويقال: هذا من فلان، فهذا كفرٌ بنعمة الله سبحانه وتعالى ومن ضعف اليقين، لأن القوي اليقين يعتقد أن الأرزاق بيد الله، فيكون الحمد المطلق لله عزّ وجلّ. ٤

((وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله)) أي: تذم لأنهم لم يصنعوا لك الخير الذي لم يكتبه الله لك. ٦

لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فهو المتفرد بالعطاء والمنع، وهو المقدر لذلك. ٨

أي إذا طلبتهم شيئاً فمنعوك ذممتهم على ذلك، فلو علمت يقيناً أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأن المخلوق مُدَبَّرْ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وأن الله لو قَدَّرَ لك رزقاً؛ أتاك ولو اجتهد الخلق كلهم في دفعه، وإنْ أرادك بمنع لم يأتك مرادُكَ ولو اجتمع الخلق كلهم في إيصاله إليك؛ لقطعت العلائق عن الخلائق وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى، ولهذا قرر ذلك بقوله: ((إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره)) فلا ترض الخلق بما يسخط الله، ولا تحمدهم على رزق الله، ولا تذمهم على ما لم يؤتك الله طلبا لحصول رزق من جهتهم: فـ ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]. ١

((وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله)) يعني: إذا سعيت تطلب شيئاً محبوباً من أمور الدنيا ولم يحصل لك فلا تذمّ النّاس، لأن هذا بيد الله، لو شاء الله لحصل لك، والنّاس ليس بيدهم شيء، وإنما هذا بيد الله، لو أراد هذا لحصل لك، فكونه لم يحصل لك هذا دليل على أن الله لم يُرده لك، فعليك أن ترضى، وربما يكون امتناع هذا الشيء عنك في صالحك، وأنت لا تدري ماذا تكون الخيرة، فأنت تبذل السبب فإن حصل المطلوب فالحمد لله، وإن لم يحصل المطلوب فإنك ترضى عن الله سبحانه وتعالى وتحمده وتحاسب نفسك عن التقصير، وتعلم أنك ما حُرمت هذا الشيء إلاَّ لأحد أمرين: إما لأنك مقصِّرٌ في حق الله سبحانه وتعالى، وأن الله حرَمك هذا الشيء بسبب ذنوبك ومعاصيك، أو أن الله سبحانه وتعالى منعه لمصلحتك، وأنه لو جاءك سبّب لك شرًّا، هذا موقف المؤمن عندما لا يحصل له مطلوبه.

ثمّ قال: ((إن رزق الله لا يجُرُّه حرص حريص، ولا يَرُدُّه كراهية كاره))، مهما حرِص الإنسان وحرصت الواسطة التي عمدها، فالحرص لا يجلب لك المطلوب إذا لم يقدِّره الله سبحانه وتعالى. ٤

و((رزق الله)): عطاؤه لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب، فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازاً في الإرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك. ٥

((ولا يردُّه كراهية كاره))

أي رزق الله إذا قدر للعبد، فلن يمنعه عنه كراهية كاره، فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً. ٥

لو أراد الله لك شيئاً فلو اجتمع أهل الأرض أن يمنعوه لم يستطيعوا كما قال ﷺ: ((وأعلم أن النّاس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك)).

إذاً علِّق قلبك بالله سبحانه وتعالى وأحسِن المعاملة مع الله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٣) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣-٤].

وهذا هو حقيقة التّوحيد؛ أن يكون العبد معتمداً على الله ومتوكِّلاً على الله، ويعتقد أن النّاس مجرّد أسباب، والأسباب إن شاء الله نفعتْ وإنْ شاء لم تنفع، فلا يجعل الحمد والذم للناس، وإنما يجعل الحمد لله سبحانه وتعالى، وإذا لم يحصل له مطلوبه فليصبر وليعلم أن ما قُدِّر له لا بد أن يكون فليحمد الله أيضاً.

وليس معنى ذلك أن الإنسان لا يحرص على طلب الخير، قال ﷺ: ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله))، فجمع بين الأمرين: الحرص والاستعانة. فالحرص ليس مذموماً، وإنما المذموم: الاعتماد على الحرص واعتقاد أنه يحصل به المطلوب. ٤

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: ((من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)) رواه ابن حبان في صحيحه.[1]

لحديث عائشة رضي الله عنها هذا قصة، وهي: أن معاوية رضي الله عنه لَمّا وَلِيَ المُلْك كتب إلى أم المؤمنين يطلُب منها النصيحة، لأنها زوج رسول الله ﷺ، وعندها من العلم الشيء الغزير الذي حملته عن رسول الله ﷺ فهي فقيهة النساء فكتبت إليه: "السلام عليكم، أما بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من التمس رضا الله بسخط النّاس رضي الله عنه وأرضى عنه النّاس، ومن التمس رضا النّاس بسخط الله سخِط الله عليه وأسخط عليه الناس)). ٤

ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: "كتب معاوية إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، والسلام عليك))[2] ورواه أبو نعيم وغيره. ١

---

[1] رواه ابن المبارك في الزهد (ص٦٦)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٢٧٦)، والترمذي في سننه (٤/٦١٠) وإسناد ابن حبان حسن، وهو حديث صحيح.

[2] الترمذي الزهد (٢٤١٤) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/٦٠٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٨٨/٨)، وغيرهم وهو حديث صحيح.

هذا الحديث إذا سار عليه الحكّام وغير الحكّام حصل الخير الكثير، فهو منهج عظيم، وهذه الكلمات اليسيرة منهج تسير عليه الأمة، حُكّامها ومحكوموها، الراعي والرعية، ولذلك نصحت به عائشة معاوية رضي الله عنهما، وهذا من فقهها رضي الله عنها حيث اختارت هذا الحديث لمعاوية لأنه وال وإمام، فهو بحاجة إلى هذا الحديث ليجعله منهجاً له في سياسة المُلْك. ٤

((من التمس رضا الله بسخط النّاس))

((التمس)): طلب، ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر: ((التمسوها في العشر)).

وقوله: ((رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)). هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده، وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. ٥

هذا جزاء الذي أفرد الله بعبادة الخوف، وجزاء الذي لم يُكْمِل التوحيدَ في عبادة الخوف، فالذي التمس رضى الله بسخط الناس هذا عظم الله وخافه، ولم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بل جعل عذاب الله أعظم فخاف الله وخشيه وطمع فيما عنده، ولم يلتفت إلى الناس ولم يرفع بهم رأسا. ٣

قال شيخ الإسلام: "وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة."[1]

قال ((ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)) لأنه ارتكب ذنباً أن خاف الناس وجعل خوفه من الناس سبباً لعمل المحرم أو ترك فريضة من فرائض الله، ولهذا قال ((من التمس رضى الناس بسخط الله)) فكان جزاءه أن سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس. ٣

قلت: وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم، فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفعٍ ولا ضُرٍّ البتة،

---

[1] مجموع الفتاوى: (٥٢/١)

وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب العالمين الذي له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣]. ١

مناسبة الحديث للترجمة:

قوله: ((ومن التمس رضا الناس بسخط الله))؛ أي خوفاً منهم حتى يرضوا عنه، فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى. ٥

هذا حديث عظيم يجب على المؤمن أن يلتمس رضا الله وأن يعتني برضا الله، وأن يأخذ بأسباب رضا الله؛ لأن الله إذا رضي حصل لك به كل خير وإذا سخط حصل لك كل شر، فعليك بالتماس رضاه وطاعة أمره ولو غضب الناس، لكن لا يمنعه ذلك من مداراتهم اتقاء شرهم بالأسباب التي شرعها الله، ولكن ليس ذلك يجيز لك أن ترضيهم بسخط الله، بل عليك أن تؤدي حق الله، وتدع معصية الله وإن سخط الناس، وعليك أن تدفع شرهم بالطرق التي شرعها الله. ٦

وهذا الحديث فيه: أن الإنسان يقدِّم خشية الله على خشية النّاس، ويقدِّم رضا الله على رضا النّاس، كالحديث الذي قبله. ٤

وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين عياذاً بالله من ذلك. فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان.

وفيه شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصي ويستهين بها ولا يرى أثراً لعقوبتها، ولا يدري المسكين بماذا أُصيب؟ فقد تكون عقوبَتُهُ في قلبه، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة:٧٧]. ١

فيستفاد من الحديث ما يلي:

١-وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذي ينفع ويضر.

٢-أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان.

٣-إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل؛ فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الإنتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله –عز وجل- كغضب المخلوقين.

والنقص: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله –عز وجل – الإرادة، وهى ميل النفس إلى جلب منفعه أو دفع مضرة، والرب عز وجل لا يليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق. نقول: والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية، فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأولى: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق، ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثاني: أنه تقول على الله بغير علم؛ لأن الذي يبطل ظاهر النص يُؤَوِّله إلى معنى آخر؛ فيقال له: ما الذي أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله في النفي والإثبات في نفي الظاهر، وفي إثبات ما لم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جناية على النصوص، حيث اعتقد أنها دالة على التشبيه، لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب، فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفراً أو ضلالاً.

الرابع: أن فيها طعناً في الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، لأننا نقول: هذه المعاني التي صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

فإن قالوا: لا يعلمون، فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها، فقد اتهموهم بالتقصير.

فلا تستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها، لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما: التمثيل والتكييف، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فإذا أثبت الله لنفسه وجهاً أو يدين؛ فلا تستوحش من إثبات ذلك، لأن الذي أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً، وهو يريد لخلقه الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له؛ فلا تستوحش من إثباته؛ لأنه ﷺ: أصدق الخلق، وأعلمهم بما يقول عن الله، وأبلغهم نطقاً وفصاحة، وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسول، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب، فيقال: هذا لا ينكره إلا إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا ؛ فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نكلف إلا بما بلغنا، والله يريد لعباده البيان والهدى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]؛ فهو لا يريد أن يعمي عليهم الأمر؛ فيقول: إنه يغضب وهو لا يغضب، وقوله: إنه يهرول وهو لا يهرول، هذا خلاف البيان. ٥

فإذا جمعتْ هذه الآيات وهذه الأحاديث دلّتْ على أن الخوف عبادة يجب إفراد الله تعالى بها، ونعني بالخوف النوع الأول الذي هو خوف العبادة الخوف الذي يترتب عليه العمل بطاعة الله وترك معصية الله، أما الخوف المعكوس الذي تترتب عليه معصية الله لإرضاء النّاس، فهذا مذموم. ٤

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه؛ فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله؛ أنقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس. ٥

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وسبق. ٥

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]، وسبق. ٥

الثالثة: تفسير آية العنكبوت. وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق. ٥

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى. بدليل قوله: ((إن من ضعف اليقين)). ٤

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث. وهي: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله. ٥

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. وتؤخذ من قوله في الحديث: ((من التمس)) الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة على من قدم رضا الناس على رضا الله تعالى. ٥

السابعة: ذكر ثواب من فعله. وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة. ٥

الثامنة: ذكر عقاب من تركه. وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولا ينال مقصوده. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾)

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)﴾ [المائدة: ٣٢])
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)﴾ [الأنفال: ٦٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ م قَالَ": –حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ– قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَالنَّسَائِيُّ .

التوكل هو: التفويض، فالتوكل على الله: تفويض الأمور إليه سبحانه، وهو من أعظم أنواع العبادة. ٤

والتوكل: هو الإعتماد على الله –سبحانه وتعالى– في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له، ولابد من
أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب، نقص توكله على الله، ويكون قادحاً في كفاية الله، فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله ملغياً للأسباب، فقد طعن في حكمة الله، لأن الله جعل لكل شيء سبباً، فمن اعتمد على الله اعتماداً مجرداً، كان قادحاً في حكمة الله، لأن الله حكيم، يربط الإسباب بمسبباتها، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب، فكان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أحد ظاهر بين درعين، أي: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله، ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقى الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضي الله عنه أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجيء بهم إلى عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله، فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين، ولهذا نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فنطلب من الله العون اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِليه أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو وكل إلى نفسه وكل إلى ضعف وعجز ولم يتمكن من القيام بالعباده فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والأعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الإسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك، فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نوفق إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها. ٥

والتوكل على الله شرط في صحة الإسلام، وشرط في صحة الإيمان، فالتوكل عبادة عظيمة، فعقد هذا الباب لبيان هذه العبادة.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شؤونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: "ولا يكون للمعطله أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية"، لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية، لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثم نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. ه

وحقيقة التوكل على الله جل جلاله أن العبد يعلم أن هذا الملكوت إنما هو بيد الله جل وعلا يُصرِّفُه كيف يشاء، فيفوّض الأمر إليه ويلتجئ إليه بقلبه في تحقيق مطلوبه، وفي الهرب من ما يسوغه، يلتجئ في ذلك ويعتصم بالله جل جلاله وحده، فينزل حاجته بالله ويفوض أمره إلى الله، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به.

فحقيقة التوكل في الشرع تجمع: تفويض الأمر إلى الله جل وعلا وفعل الأسباب؛ بل إن نفس الإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها المتوكلون على الله؛ بل إن نفس التوكل على الله جل وعلا سبب من الأسباب.

فالتوكل حقيقته في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة وهي تفويض الأمر إليه والالتجاء إليه، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره ولا بشيء إلا بما قدره وأذن به كونا، ثم فِعل السبب الذي أوجب الله جل وعلا فعله أو أمر بفعله، فترك فعل الأسباب ينافي حقيقة التوكل الشرعية، كما أن الاعتماد على السبب وترك تفويض الأمر إلى الله جل وعلا ينافي حقيقة التوكل الشرعية.

فالمتوكل في الشرع هو من عمل السبب وفوّض الأمر إلى الله جل وعلا في الانتفاع بالسبب وفي حدوث المسبَّب من ذلك السبب وفي بتوفيق الله وإعانته، فإنه لا حول ولا قوة إلا به جل وعلا.

والتوكل كما قال الإمام أحمد: عمل القلب. فالتوكل عبادة قلبية محضة، ولهذا صار إفراد الله جل وعلا بها واجباً، وصار صرفها لغير الله جل وعلا شرك.

والتوكل على غير الله جل وعلا له حالان:

الحال الأولى: أن يكون شركاً أكبر، وهو أن يتوكل على أحد من الخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، يتوكل على المخلوق في مغفرة الذنب، يتوكل على المخلوق في تحصيل الخيرات الأخروية، أو يتوكل على المخلوق في تحصيل ولد له، أو تحصيل وظيفة له، يتوكل عليه بقلبه وهو لا يقدر على ذلك الشيء، وهذا يكثر عند عباد القبور وعُبّاد الأولياء فإنهم يتوجهون إلى الموتى بقلوبهم، يتوكلون عليهم؛ بمعنى يفوضون أمر صلاحهم فيما يريدون في الدنيا والآخرة على أولئك الموتى وعلى تلك الآلهة والأوثان التي لا تقدر من ذلك على شيء.

فهذا عبادة صرفت لغير الله جل وعلا وهو شرك أكبر بالله جل، مناف لأصل التوحيد.

والتوكل على المخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق، وهذا يكثر عند عباد القبور والمتوجهون إلى الأولياء والموتى، هذا شرك مخرج من الملة. ٣

وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار. ٥

وحقيقة التوكل الذي ذكرناه لا يصلح إلا لله جل وعلا؛ لأنه تفويض الأمر إلى من بيده الأمر، والمخلوق ليس بيده الأمر، التجاء القلب وطمع القلب ورغب القلب في تحصيل المطلوب، إنما يكون ذلك ممن يملكه وهو الله جل وعلا، أما المخلوق فلا يقدر على شيء استقلالاً، وإنما هو سبب، فإذا كان سبباً لا يجوز التوكل عليه؛ لأن التوكل عمل القلب، وإنما يجعله سبباً بأن يجعله شفيعاً يجعل واسطة ونحو ذلك، فهذا لا يعني أنه متوكل عليه، فيجعل المخلوق سبباً فيما أقدره الله عليه ولكن يفوض أمر النفع بهذا السبب إلى الله جل وعلا، فيتوكل على الله ويأتي بالسبب الذي هو الانتفاع من هذا المخلوق بما جعل الله جل وعلا له من الانتفاع أو من القدرة ونحو ذلك. ٣

قال شيخ الإسلام: "وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] "[١]

النوع الثاني:

- أن يتوكل على المخلوق فيما أقدره الله جل وعلا عليه، يتوكل على مخلوق فيما أقدره الله عليه، وهذا نوع شرك؛ بل هو شرك خفي وشرك أصغر، ولهذا قال طائفة من أهل العلم: إذا قال توكلت على الله وعليك فإن هذا شرك أصغر، ولهذا قالوا لا يجوز أن يقول توكلت على الله ثم عليك؛ لأن المخلوق ليست له نصيب من التوكل إنما هو تفويض الأمر والالتجاء بالقلب إلى من بيده الأمر وهو الله جل وعلا، والمخلوق لا يستحق شيئاً من ذلك.

فإذن التوكل على المخلوق فيما يقدر عليه هذا شرك خفي ونوع شرك أصغر. ٣

(قلت: ومن ذلك قول العامة: أَتَّكِلُ عليك، فإنه مثل قول القائل توكلت عليك).

- الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، لأنه أعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا فوقه، لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي ابن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه، ووكل أبا

---

[١] الفتاوى الكبرى (٣١٦/٢)، ومجموع الفتاوى (٢٥٧/١٠)

هريرة على الصدقة، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له شاة، وهذا بخلاف القسم الثاني، لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المتوكَّل عليه اعتماد افتقار. ٥

ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وَكَّلَهُ، بل يتوكل على الله، ويعتمد عليه في تيسير ما وَكَّلَهُ فيه كما قرره شيخ الإسلام.[1] ١

لكن ليس له أن يعتمد في حصوله ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب. ٢

لكن لا يقول: توكلت عليه، بل يقول: وَكَّلْتُهُ، فإنه لو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه ٧ فهذا جائز بالإجماع ٧ في ج

ومناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنه لَمّا كان التوكل على الله عبادةً لله عزّ وجلّ وجب إخلاصه لله وترك التوكُّل على مَن سواه، لأن العبادة حقٌّ لله، فإذا صُرفت لغيره صار ذلك شركاً؛ فالتوكُّل على غير الله شرك -كما يأتي بيانه وتفصيله-.

وهذا الكتاب المبارك ألّفه الشيخ رحمه الله لبيان التّوحيد وبيان الشرك؛ فالتوكلُّ على الله وحده توحيد، والتوكُّل على غيره شرك.

فهذا مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد. ٤

ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد. ١

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)﴾ [المائدة: ٢٣]

[1] انظر: الفتاوي الكبرى (٢/٣١٦-٣١٩)

قوله رحمه الله: "بابُ قول الله" أي: تفسير هذه الآيات؛ فهذا الباب يبيِّن فيه تفسير هذه الآيات الكريمات.

فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] هذه الآية في سورة المائدة في قصة موسى عليه السلام مع قومه لَمّا قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة:٢١] يعني: أرض فلسطين، ليخلِّصوها من الوثنيين لأنها كانت بيد الوثنيّين، وموسى عليه السلام أُمر بالجهاد لنشر التّوحيد ومحاربة الشرك والكفر بالله وتخليص الأماكن المقدَّسة من قبضة الوثنيِّين، وهذا من أغراض الجهاد في سبيل الله.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ لأن الله كتب أن المساجد والأراضي المقدَّسة للمؤمنين من الخلق من بني إسرائيل وغيرهم، ﴿كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ شرع أن تكون الولاية عليها للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالوِلاية على المساجد خصوصاً المساجد المبارَكة وهي المسجد الحَرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى وسائر المساجد تكون الولاية عليها للمؤمنين، ولا يجوز أن يكون للكفار والمشركين من الوثنيّين والقبوريّين سلطة على مساجد الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة:١٧-١٨]، وهذا سبق في الباب الذي قبل هذا.

قال تعالى في المسجد الحرام: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

فمساجد الله -خصوصاً المساجد الثلاثة- يجب أن تكون الولاية عليها للمسلمين، ولا يكون للمشركين عليها سلطة، ويجب على المسلمين أن يجاهدوا حتى يخلِّصوا هذه المساجد من أيدي المشركين.

فموسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل يريد تخليص بيت المقدس، ولكن بني إسرائيل كانوا قوماً جبناء: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] يقال كان فيها حينذاك قبيلة يقال لها: العماليق، كانوا شِداداً في خلقهم أقوياء، ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة:٢٢] وهذا منتهى المهانة ومنتهى السُّخرية، لأن الكفار ليسوا بخارجين إلاَّ بالجهاد والجلاد والاستشهاد في سبيل الله.

﴿قَالَ رَجُلانِ﴾ يعني: من بني إسرائيل من أهل الرأي والإيمان والعزيمة.

﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يخافون الله سبحانه وتعالى.

﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمَا﴾ أنعم الله عليهما بالإيمان والعزيمة الصادقة.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ يعني: اعزموا واهجموا عليهم حتى يروا منكم القوة، فإذا رأوا منكم القوة فإنهم يخرجون.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة:٢٣] لا شك أنه إذا حصل هجوم صحيح ودخل المجاهدون عليهم الباب أنه سيقع الرعب في قلوبهم ويخرجون منها، لكن هذا لا يكون إلاَّ من أهل الإيمان وأهل الصدق والعزيمة والبأس كما في رجال محمد ﷺ الذين كانوا يجاهدون ويهجمون على الكفار ويقتحمون الأبواب ويخاطِرون بأنفسهم.

وأيضاً فإنه لا يكفي دخول الباب، بل ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] فهذا لا يحصل إلاَّ بالعزيمة الصادقة، والإقدام في سبيل الله، وتقديم النفس في سبيل الله، مع التوكُّل على الله وعدم الاعتماد على القوة، بل يعتمد على الله مع الأخذ بالقوة المناسبة.

وهذا محل الشاهد من الآية؛ حيث قدّم المعمول وهو الجارّ والمجرور ﴿وَعَلَى اللهِ﴾، وأخّر العامل وهو ﴿تَوَكَّلُوا﴾ ممّا يفيد الحصْر، أي: توكّلوا على الله ولا تتوكّلوا على غيره.

ففيه: وجوب إخلاص التوكُّل على الله عزّ وجلّ، وأنه سببٌ من أسباب النصر على الأعداء مثل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة:٥] قدّم المعمول وأخّر العامل، أصله: نعبدك ونستعين بك، ولكن قدّم المعمول وهو الضمير المنفصل ﴿إِيَّاكَ﴾ في الموضعين على

العامل ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ ليفيد الحصر أي لا نعبد إلاَّ إياك ولا نستعين بغيرك، وهذا هو الإخلاص والتّوحيد.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] هذه الآية فيها الأمر بالتوكل، ولما أمر به علمنا أنه من العبادة، ولما قدم الجار والمجرور في قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ قدمه على ما يتعلق به وهو الفعل ﴿تَوَكَّلُوا﴾ دل على وجوب إفراد الله جل وعلا بالتوكل، وأن التوكل عبادة يجب أن تحصر وتقصر في الله جل وعلا، هذا وجه الدلالة من الآية.

ودليل آخر في هذه الآية وهو قوله ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ جعل الإيمان لا يصحّ إلا بالتوكل، قال ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ يعني أفردوا الله بالتوكل وحده إن كنتم مؤمنين، فجعل الشرط ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأفردوا الله بالتوكل، فجزاء الشرط هو إفراد الله بالتوكل. فصارت دلالة الآية من جهتين. ٣

﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

لأنه من أجمع أنواع العبادة الباطنة، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما في هذه الآية. ٧

بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما تقدم في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولذلك أمر الله به في غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام.

ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه، كما في الآية المترجم لها، وقوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤] وقوله تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقوله ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلً﴾ [المزمل:٩] وقوله ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٢]، وقوله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨]، وقوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩] وغير ذلك من الآيات. ١

وكذلك قوله جل وعلا في آية سورة يونس ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، قال ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أفرد التوكل به جل وعلا وأمر به، فقدم الجار والمجرور بما يفيد الحصر والقصر والاختصاص بالله جل وعلا، ثم جعل إفراد التوكل به جل وعلا شرط في صحة الإسلام فقال ﴿إِنْ كُنْتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

فهذه الآيتان دلتا على أن التوكل عبادة وأن أفراد الله به جل وعلا واجب وأنه شرط في صحة الإسلام وشرط في صحة الإيمان، وهذا كله يدل على أن انتفاءه مُذْهب لأصل التوحيد ومناف لأصله إذا توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله. ٣

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: "فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الآخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد. والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.[١] ٢

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله إلا إن حصل اعتماد كلي على غير الله فهو شرك أكبر ينتفي الإيمان كله. ٥

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم﴾. [الأنفال: ٢] الآية

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى: ما المؤمنون إلا هؤلاء.

---

[١] طريق الهجرتين (ص/٣٢٧-٣٣٠)

وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحدها: قوله ﴿الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. ٥

أي: إذا خُوِّفوا بالله خافوا، وإذا ذكّروا بالله تذكّروا، وإذا قيل لهم: (اتَّقُوا اللهَ) خافوا من الله عزّ وجلّ وأشفقوا من عذابه. ٤

وهذه صفة المؤمن الذي إذا ذكر الله وَجِلَ قلبه، أي: خاف من الله ففعل أوامره، وترك زواجره، فإن وجل القلب من الله يستلزم القيام بفعل المأمور، وترك المحظور، كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠-٤١]، ولهذا قال السُّدِّيُّ في قوله ﴿إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾: "هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يَهُمَّ بمعصية، فيقال له: اتق الله فَيَجِلُ قلبه" رواه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم. ١

إذا وُعظوا وذُكِّروا فإنهم يخشون الله سبحانه وتعالى، بخلاف الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣)﴾ [الصافات:١٣]، وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢)﴾ [الأعلى:١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات:٥٥]، فإن المؤمن ينتفع بالموعظة والتذكير ويخاف من الله سبحانه وتعالى إذا ذُكِّر به وخُوِّف به، وهذه علامة الإيمان؛ أما المنافق فهو وإن ادّعى الإيمان فإنه إذا ذُكِّر بالله ازداد عُتُوًّا ونفوراً وازداد طُغياناً فتأخذه العزّة بالإثم. ٤

الوصف الثاني: قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال:٢]، أي تصديقاً وامتثالاً. ٥

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ القرآنية ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ وهذه علامة الإيمان؛ أن المؤمن إذا تُليت عليه آيات الله وسمع القرآن يزيد إيمانه ويقينه، وينتفع بالقرآن الكريم، خلاف المنافق؛ فإنه إذا تُليَ عليه القرآن لا يستفيد منه شيئاً ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]. ٤

وفي هذا دليل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه كما أمر الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: "كيف أقرا عليك وعليك أنزل؟" فقال: ((إني أحب أن أسمعه من غيري)). فقرأ عليه من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: ((حسبك)). فنظرت، فإذا عيناه تذرفان". ٥

قد استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان ونقصانه.[١] ١

الوصف الثالث: قوله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، أي: يعتمدون على الله لا على غيره، وهم مع ذلك يعملون الأسباب ٥

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية للباب، فهي مثل الآية التي قبلها: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾.

وهنا يقول: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قدم المعمول أيضاً وهو الجار والمجرور على العامل وهو ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ ليُفيد الحصر، وبيان أن التوكّل عبادة يجب إفراد الله سبحانه وتعالى فيها، ولا يجوز التوكُّل على غير الله؛ لأن من توكّل على غير الله فقد أشرك.

وقد جعل سبحانه التوكل شرطاً في صحة الإيمان؛ فقال: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، فمن توكّل على غير الله فليس بمؤمن. ٤

وفي الآية وَصْفُ المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده. ١

---

[١] انظر: تيسير العزيز الحميد فقد سرد الشارح أقوال السلف في هذا.

الوصف الرابع: قوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [الأنفال:٣]، أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس: قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٣]. (من) للتبعيض، فيكون الله يمدح من أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون لبيان الجنس، فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب: أنها لبيان الجنس، وأن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل على الله تعالى في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر، أم أن كان أهله في حاجة أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله، فلا ينبغي أن ينفق ماله عليه. ٥

فوصف المؤمنين بهذه الصفات فدل على أن هذه هي أعظم مقامات أهل الإيمان، وأن هذه العبادات الخمس هي أعظم المقامات، وهذا عظيم التنبه له إذْ كل أمور الدين والعبادات والفروع العملية التي يعملها العبد إنما هي فرع عن تحقيق هذه الخمس التي جاءت في هذه الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] وهذه الصفة تجمع الكلمات الشرعية وتجمع الدين جميعاً؛ لأن ذكر الله فيه القرآن وفيه السنة. ٣

فإن قيل: إذا كان المؤمن حقاً هو الذي فعل المأمور وترك المحظور فلماذا لم يذكر إلا خمسة أشياء؟

قيل: لأن ما ذكر مستلزم لما ترك، فإنه ذَكَرَ وَجَلَ قُلُوبِهِم إذا ذُكِرَ الله، وزيادة ايمانهم إذا تليت عليهم آياتُهُ، مع التوكل عليه، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً، والإنفاق من المال والمنافع، فكان هذا مستلزماً للباقي، فإنَّ وَجَلَ القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه، وذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور، وترك المحظور. وكذلك زيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يقتضي زيادته علماً وعملاً، ثم لا بد من التوكل على الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ومن طاعة الله فيما يقدر عليه، وأصل ذلك الصلاة، والزكاة، فمن قام بهذه الخمس –

كما أمر– لزم أن يأتي بسائر الواجبات، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أُمِرَ فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر. ذكر ذلك شيخ الإسلام.[1] ١

وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ [الأنفال: ٦٤]

قال: "وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ الآية" هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لنبيّه محمد ﷺ. ٤

يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحياناً وبوصف الرسالة أحياناً، فحينما يأمره أن يبلغ ينادية بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة، فالغالب أن يناديه بوصف النبوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]. ٥

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ناداه بصفته الكريمة: (النَّبِيُّ)، والله تعالى لم يناد محمداً باسمه أبداً في القرآن بل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، فيناديه باسم النبوة وباسم الرسالة تكريماً وتشريفاً له ﷺ.

أما الإخبار عنه فإن الله يذكره باسمه، كقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فهذا من باب الإخبار، فإذا جاء باب الإخبار يأتي باسمه ﷺ، وإذا جاء بالنداء فيناديه بصفاته الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

ولذلك: عاب الله على الأعراب الذين وقفوا على الحُجُرات وقالوا: يا محمد؛ اخرج إلينا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾

---

[1] كتاب الإيمان من مجموع الفتاوى (١٩/٧)

[الحجرات:٢-٣]، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إليهمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ [الحجرات:٤-٥] فيجب التأدُّب مع الرسول ﷺ حيًّا وميّتاً.

قوله: ﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾ (حَسْبُكَ) يعني: كافيك، فالحسب هو: الكافي.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين؛ فال (واو) عاطفة، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ معطوف على ضمير المخاطَب المضاف إليه في قوله:

﴿حَسْبُكَ﴾: حسبك وحسب من اتّبعك، فحَذف المضاف في الكلمة الثانية اعتماداً على ما جاء في الأولى من باب الاختصار والإيجاز؛ فقوله: (وَمَنْ) (الواو) عاطفة و(مَن) في محل جر، عطف على ضمير المخاطَب المضاف إليه في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾، هذا هو الصواب الذي رجّحه الإمام ابن القيّم وأبطل ما سواه. ٤

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.[١]. ٧

فليس ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ معطوف على الله، فيكون مرفوعاً. ٤

قال ابن القيم رحمه الله: "أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد، وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون."

قال ابن القيم رحمه الله: "وهذا خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] فَفَرَّقَ بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: اللهُ وأتباعُكَ

---

[١] رسالة في تحقيق التوكل ص (٨٨)

حَسْبُكْ؟! وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله، فكيف يشرك بينه وبينهم في حسب رسوله ﷺ؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧]، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح :٨] فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلق لا يكون إلا له سبحانه وتعالى." انتهى كلامه.[١] ١

ومحل الشاهد من الآية: ﴿حَسْبُكَ اللهُ﴾، فإذا كان حسبك الله فيجب التوكُّل على الله سبحانه وتعالى والاعتماد عليه سبحانه وتعالى وحده. لأنه يكفي من توكّل عليه، كما في الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أي: يفوِّض أمره إلى الله ويعتمد على الله فإن الله حسبه، أي: كافيه جميع الأمور.

أما من لم يتوكّل على الله فإن الله يَكِلُه إلى من اعتمد عليه كما في الحديث: ((من تعلّق شيئاً وُكِل إليه))؛ فمن تعلّق بالله كفاه، ومن تعلّق بغيره خذله الله ووكله إلى ضعيف. ٤

وجه مناسبة هذه الآية لهذا الباب أن الله حَسْب من توكل عليه، قال جل وعلا ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، فالله حسْبُ من توكَّل عليه، فدلّ أن الله جل وعلا أمر عباده بالتوكل عليه حتى يكون كافيهم من أعدائهم وحتى يكون جل وعلا كافي المؤمنين من المشركين.

قال جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾ يعني كافيك الله، ولهذا أعقبها بالآية الأخرى وهي قوله جل وعلا ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. ٣

---

[١] (٣٥/١-٣٦) زاد المعاد

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسوله، وحسب اتباعه. أي: كافيهم وناصرهم، فنعم المولى ونعم النصير، وفي ضمن ذلك أمر لهم بإفراده تعالى بالحسب؛ استكفاء بكفايته تبارك وتعالى، وذلك هو التوكل. ١

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله الله إلى من التفت إليه، كما في الحديث: ((من تعلق شيئاً وكل إليه))[1]. ٢

والتوكل على الله جل وعلا -كما ذكرنا لك- يرجع إلى فهم توحيد الربوبية وإلى عظم الإيمان بتوحيد الربوبية، فإن بعض المشركين قد يكون عنده التوكل على الله الشيء العظيم، والتوكل على الله من العبادات التي تُطلب من المؤمن، ومن العبادات الواجبة والعبادات العظيمة.

لهذا نقول: إن إحداث التوكل في القلب يرجع إلى التأمل في آثار الربوبية، فكما كان العبد أكثر تأملا في ملكوت الله وفي السماوات والأرض وفي الأنفس وفي الآفاق، كان علمه بأن الله هو ذو الملكوت، وأنه هو المتصرف، وأن نصره لعبده شيء يسير جداً بالنسبة إلى ما يجريه الله جل وعلا في ملكوته، فيُعظم المؤمن بهذا التدبر الله جل وعلا، ويُعْظِم التوكل عليه، ويعظِّم أمره ونهيه، وينظر أن الله جل جلاله لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى.٣

وقوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله: "﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾" أي: لا على غيره.

﴿فَهُوَ﴾ أي: الله سبحانه وتعالى.

﴿حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه. ٤

قال ابن القيم: "أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مَطْمَعْ فيه لعدوه، ولا يضره إلا

---

[1] الترمذي الطب (٢٠٧٢)

أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو الظاهر إيذاء، وهو في الحقيقة إحسان إليه، وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يشتفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه. فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن؛ لجعل الله له مخرجاً من ذلك، وكفاه، ونصره." انتهى. [1]

فهذا فيه: ثمرة التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وأن الله يكفي من توكّل عليه، ومن كان الله كافيه فإنه هو الرابح والمفلح في الدنيا والآخرة، ولا يخاف من غيره أبداً، إنما يخاف من الله سبحانه وتعالى. ٤

فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية، فإن الله يكفيه الأذى، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الإذى ولا تحصل له المضرة، لأن الله حسبه، فالنتيجة لمن اعتمد على الله أن يكفيه ربه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خذل، لأن غير الله لا يكون حسباً كما تقدم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله. ٥

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: "قال الله عز و جل في بعض كتبه: ((بعزتي إنه من اعتصم بي، فإن كادته السماوات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجا، ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أَكِلُهُ إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلا، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي

[1] بدائع الفوائد (٢/٧٦٦-٧٦٧) عالم الفوايد

ترفق به منه)).[1] ١

وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار، لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسبا له "ذكره شيخ الإسلام".[2]

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:١١] فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله؛ فهو حسبه، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزا، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكر معناه ابن القيم.[3] ١

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ رواه البخاري[4] والنسائي.

قال: "وعن ابن عباس" هو: عبد الله بن عباس، حَبْرُ الأمة، وترْجُمان القرآن.

قال: ﴿حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾ [آل عمران:١٧٣]

---

[1] رواه الإمام ابن المبارك في الزهد (رقم ٣١٨)، والإمام أحمد في الزهد (ص/٣٥، ٩٦)، وابن أبي حاتم تفسيره (رقم ١٦٥٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨/٤) وإسناده صحيح إلى وهب

[2] جامع الرسائل – رسالة في تحقيق التوكل (ص/٨٨)

[3] الجواب الكافي (ص/١٠)، والفوائد (ص٨٧)، ومدارج السالكين (٤٨٠/٣)

[4] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٥٦٣)

الآية "هذه كلمة عظيمة قالها الخليلان: إبراهيم ومحمد -صلى الله عليهما وسلم- في أضيق الأحوال وأحرج المواقف، وهكذا الأنبياء عند تأزُّم الأمور؛ لا يعتمدون إلاَّ على الله سبحانه وتعالى، ولا يلجئون إلاَّ إليه، وتزيد رغبتهم في الله عند الشدائد، ويُحسنون الظن بالله سبحانه وتعالى دائماً وأبداً.

فالأنبياء وأتباعهم لا يعتمدون إلاَّ على الله، خصوصاً عند المضائق وتأزُّم الأمور؛ يتوكّلون على الله ولا يضعُفون أو يخضعون لغير الله سبحانه وتعالى، أو يتنازلون عن شيء من عقيدتهم ودينهم أبداً.

قوله: "قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار" إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعثه الله في قوم وثنيّين في أرض (بابل)، يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل، وينحتون الأصنام التي على صورها، وكان أبوه يصنع الأصنام، ويبيعها على النّاس ويأكل من ثمنها.

فبعث الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في هذه الأمة الوثنية يدعوها إلى التّوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، ويُنكر عليهم عبادة الأصنام، وبدأ بأبيه وقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شيئاً (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم:٤٢-٤٤]، انظر التلطُّف، يكرِّر: يا أبت، يا أبت. وهكذا الداعية يتلطّف بالمدعو، كما قال تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه:٤٤]، لا يأتيه بعنف وقسوة وشدة، ويقول :هذا غَيْرة لله. ٤

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار

قوله ﴿حَسْبُنَا اللهُ﴾ أي: كافينا فلا نتوكل إلا عليه، كما قال ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] اي: كافيه. كما قال ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكول إليه، المتَوَكَّلُ عليه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨] فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والالتجاء إليه.

قال ابن القيم: "وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمِّنُ خوف الخائف، ويجير المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه، واستنصر به، وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه؛ تولاه، وحفظه، وحرسه، وصانه، ومن خافه، واتقاه؛ أَمَّنَهُ مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع".[١] ١

"حين ألقي في النار" أي: قال هذه الكلمة حينما ألقاه قومه في النار انتصاراً لآلهتهم، فقال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [لأنبياء:٦٩].

والشاهد في قوله: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فهذا فيه: التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وبيان ثمراته، وأن ثمرة التوكُّل على الله حوّلت النار إلى برْدٍ وسلام على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فهذا فيه: فضيلة هذه الكلمة، وثمرة التوكُّل على الله سبحانه وتعالى.٤

وقول ابن عباس ﷺ: "إن إبراهيم قالها حين ألقي في النار" قول لا مجال للرأي فيه، فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل، فيحتمل أنه أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.٥

(تنبيه):

قولنا: "وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل" قول مشهور عند علماء المصطلح، لكن فيه نظر، فإن ابن عباس ﷺ ممن ينكر الأخذ عن بني إسرائيل، ففي "صحيح البخاري" (٥/٢٩١- فتح) أنه قال: "يا معشر المسلمين ! كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي

---

[١] طريق الهجرتين (ص(٣٣١)

أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب؟! فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم".٥

قوله: "وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية" لَمّا حصلت غزوة بدر في السنّة الثانية من الهجرة، وانتصر المسلمون فيها، وقتلوا صناديد الكفُار ورؤساءهم، وغَنِموا أموالهم؛ عند ذلك تشاور المشركون في مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب، وأرادوا غزو رسول الله ﷺ انتقاماً لرؤسائهم الذين قُتلوا في بدر، ولآبائهم ولأموالهم التي أُخذت، فاجتمعوا بقيادة أبي سفيان بن حرب، وجاءوا بجيوش عظيمة -ونزلوا عند أحد، وهو الجبل الذي يقع شمالي شرق المدينة، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه بعد التشاوُر معهم: هل يخرج إليهم، أو يبقى في المدينة؟.

فكان الرسول ﷺ يميل إلى البقاء في المدينة، وهو رأي عبد الله بن أُبي، ولكنّ الصحابة الذين لم يحضروا بدْراً ندِموا ندامة شديدة وعزَموا على الرسول ﷺ أن يخرج إليهم ليخرجوا كما خرج إخوانهم في بدر، ليستدركوا ما حصل وما فات عليهم في بدر.

فالرسول ﷺ نزل على رغبة هؤلاء الصحابة وخرج، وخرج المسلمون معه، ورجع عبد الله بن أبي المنافق مع جماعة من المنافقين، وانخذل من العسكر.

فخرج الرسول ﷺ بأصحابه وعسكر عند أحد، ونظّم أصحابه، وجعل جماعةً من الرُّماة على الجبل ليحموا ظهور المسلمين أن يأتيهم الكفّار من الخلف.

ثمّ دارت المعركة وصار النصر للمسلمين، فصاروا يجمعون المغانم، فلما رأى الذين على الجبل أن أصحابهم يجمعون المغانم ظنوا أن المعركة قد انتهتْ؛ أرادوا النزول من الجبل ليشاركوا في جمع الغنائم، فمنعهم قائدهم عبد الله بن جُبَيْر، لأن الرسول ﷺ قال لهم: ((لا تتركوا الجبل

سواء انتصرنا أو هُزمنا))، ولكنهم ﷺ اجتهدوا ونزلوا من الجبل، وأما رئيسهم فبقي طاعةً لرسول الله ﷺ.

فلما رأى خالد بن الوليد -وكان يومَ ذاك على الشرك- الجبل قد فرغ، وكان قائداً محنَّكاً يعرف السياسة الحربية؛ دار بمن معه من كتيبة الخيل، وانقضّوا على المسلمين من خلف ظهورهم، والمسلمون لم يشعروا، فدارت المعركة من جديد، وعاقب الله المسلمين بسبب هذه المخالفة التي حصلتْ من بعضهم والعقوبة شملت المخالفين وغير المخالفين، لأن العقوبة إذا نزلت تَعُمّ، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

فدارت المعركة من جديد، وأصاب المسلمين ما أصابهم من القرْح، واستُشهد منهم سبعون من خيار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطّلب عم الرسول ﷺ، بل إن الرسول ﷺ أصابه ما أصابه؛ فكُسِرتْ رَباعيّته، وشُجَّ في رأسه، وسقط في حفرة، وأُشيع أنه قد مات. فأصاب المسلمين مصيبة عظيمة، ولكن أهل الإيمان لا يتغيّر موقفهم ولا يتزحزح أبداً مهما بلغ الأمر، لا تضعُف عزيمتهم، اجتمعوا حول الرسول ﷺ يَذُبُّون عنه، ويحمونه من سهام المشركين، والمعركة لا تزال مستمرة، والرسول مشجوج، والمِغْفَر قد هشم على رأسه ﷺ.

ثمّ انتهت المعركة، وأُعلن أنّ محمداً ﷺ لم يُقتل، فحينئذ فرح المسلمون فرحاً شديداً، واغتاظ المشركون غيظاً شديداً.

فانصرف المشركون إلى مكّة، والنبي ﷺ أمر أصحابه أن يدفنوا الشهداء، وأن يدفنوا الاثنين والثلاثة في قبرٍ واحد، لكثرة الأموات، ولضعف المسلمين في هذه الحالة، فدفنوهم في مكان الشهداء المعروف عند أحد، وحملوا الجرْى إلى المدينة.

ولَمْا وصلوا إلى المدينة جاءهم مندوب من أبي سفيان بأنه سيعيد الكرّة عليهم، ويرجع عليهم ويستأصل بقيّتهم، فما زادهم ذلك إلاَّ إيماناً، وأمر الرسولﷺ الذين خرجوا معه إلى أُحُد أن

يخرجوا ولا يخرج معهم غيرهم، فخرجوا مع الرسول ﷺ بجراحهم ونزلوا في مكان يقال له: (حمراء الأسد-قريب من المدينة- ينتظرون الكفّار).

لما بلغ أبا سفيان ومن معه أن الرسول ﷺ خرج في أَثَرهم وفي طلبهم أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلاَّ وفيهم قوة. فمضوا إلى مكة خائفين من الرسول ﷺ، ورجع المسلمون إلى المدينة سالمين.

وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٣].

هذا قول أبي سفيان أننا نأتي ونقضي على بقيّتهم ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]. ٤

والقصة مشهور في السير والتفاسير.[١]

هذه ثمرات التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وهذه ثمرات الاعتماد على الله، كما صارت النار برْداً وسلاماً على إبراهيم؛ صارت هذه المعركة وهذه التخويفات برداً وسلاماً على صحابة رسول الله ﷺ. ٤

و هكذا ينبغي للمسلم أن يقولها عند الشدائد، لكن هذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب لأن النبي قالها وقد لبس الدرع ومحل السلاح ووضع الخوذة على رأسه و كذلك فعل الصحابة. ٦

فإذا تحقق العبد التوكل على الله وحققه في القلب معناه أنه حقق هذا النوع من التوحيد – توحيد التوكل في النفس-، فإن العبد إذا أعظم رجاءه في الله وتوكله على الله فإنه وإن كادته السماوات والأرض ومن فيهن فإن الله سيجعل له من أمره يُسرى وسيجعل له من بينها

---

[١] روى النسائي في الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير، وغيرهما ونحو ذلك عن ابن عباس واسناده حسن، وصححه السيوطي في لباب النقول. وانظر فتح الباري (٢٢٨/٨) فقد صحح أنه مرسل عن عكرمة.

مخرجا، ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ يعني كافينا الله ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يعني ونعم الوكيل ربنا، هذه كلمة عظيمة قالها إبراهيم عليه السلام في الكرب وقالها النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في الكرب لما ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾[آل عمران:١٧٣] وذلك لعظم توكلهم على الرب جل وعلا.٣

فقه الباب وما يُستفاد من النصوص، وذلك في مسائل:

المسألة الأولى: يؤخَذ من هذه الآيات وأثر ابن عباس رضي الله عنهما أن التوكُّل على الله عبادة يجب إخلاصها لله سبحانه وتعالى، وأن التوكُّل من أعظم أنواع العبادة. ٤

وإن التوكل أعظم الأسباب في حصول الخير ودفع الشر في الدنيا والآخرة. ١

المسألة الثانية: التوكُّل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله شركٌ أكبر، كالذين يتوكّلون على الأصنام، أو على أصحاب القبور، أو على الأولياء والصالحين في جَلْب الأرزاق، ودفع المضار، وشفاء المرضى، وغير ذلك.

المسألة الثالثة: يؤخَذ من هذه النصوص: أنّ التوكُّل على الله شرط في صحّة الإيمان لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الأنفال:٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ فدلّ على أن التوكل على الله شرطٌ لصحّة الإيمان.

المسألة الرابعة: يُؤْخذ من هذه النصوص: أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنّة والجماعة خلافاً للمرجئة الذين يقولون: الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص.

وهذه مسألة عظيمة معروفة عند أهل السنّة والجماعة، ومن أدلتها: هذه الآية: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾، فدلّ على أن الإيمان يزيد، وإذا كان يزيد فهو ينقص، لأن كل شيء يزيد فهو ينقص، فمن لازِم الزيادة النُّقصان.

وكما في قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وكذلك قوله ﷺ: ((الإيمان بِضْعُ وسبعون شُعبة، أعلاها :قولُ: "لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق)) دلّ على أن الإيمان يتفاوت، منه ما هو أعلى ومنه ما هو دون ذلك.

وقال ﷺ: ((من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) دلّ على أن الإيمان يضعُف.

وفي الحديث الآخر: ((أنه يُخرج من النار من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان)) فدلّ على أن الإيمان ينقص حتى يصير كوزن الحبة من الخردل، وأنه يزيد حتى يكون كالجبال.

فالإيمان يزيد وينقص، هذا مذهب أهل السنّة والجماعة، وفي ذلك أيضاً رَدٌّ على الخوارج والمعتزلة الذين يكفّرون بالذنوب الكبائر.

المسألة الخامسة: وفي الحديث دليلٌ على وجوب الأخذ بالأسباب مع التوكُّل على الله سبحانه؛ لأنه لَمّا ذكر التوكُّل على الله ذكرت الأعمال، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)﴾ [الأنفال:٣]، فالتوكُّل على الله لا يكفي، لا بد من الأعمال الصالحة، لا بد من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله، وفعل الأسباب التي تنفع مع التوكُّل على الله سبحانه وتعالى. ٤

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم في الشدائد.

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض. ووجهه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، وسبق تفسيرها. ٥

الثانية: أنه من شروط الإيمان. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وسبق تفسيرها.٥

الثالثة: تفسير آية الأنفال. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الأنفال:٢] الآية، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا، فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك. ٥

الرابعة: تفسير الآية في آخرها. أي: آخر الأنفال. وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا الراجح على ما سبق. ٥

الخامسة: تفسير آية الطلاق. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]، وقد سبق تفسيرها. ٥

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم في الشدائد.

يعني قول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]. ٥

وفي الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف، منها:

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب، لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم فوضوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبي ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد. ٥

ارجع إلى كتاب ٩: أسباب معينة على زيادة التوكل عند المسلم -ثمرات التوكل على الله- من مظاهر ضعف التوكل.

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف].

وَقَوْلُهُ:﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٥٦) [الحجر].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فقَالَ: ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ)). وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: ((أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)) رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

هذا الباب اشتمل على موضوعين:

الأول: الأمن من مكر الله.

والثاني: القنوط من رحمة الله. وكلاهما طرفا نقيض. ٥

هذا الباب وضعه المصنف رحمه الله في "كتاب التّوحيد" لأن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته ينقِّصان التّوحيد، ويُنافيان كماله، وهذا الكتاب كله في موضوع التّوحيد ومكمِّلاته وبيان مناقضاته ومنقِّصاته. ٤

المراد بهذه الترجمة التنبيه على الجمع بين مقام الرجاء والخوف، ولذلك ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] هذا هو مقام الأنبياء والصِّدِّيقين، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦] فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف وهذه أركان الإيمان.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]. ١

والمراد بهذا الباب بيان أنّ الجمع بين الخوف والرجاء واجب من واجبات الإيمان ولا يتم التوحيد إلا بذلك، فانتفاء الجمع بين الخوف والرجاء هذا منافٍ لكمال التوحيد، فالواجب على العبد أن يجعل خوفه مع الرجاء وأن يجعل رجاءه مع الخوف وأن لا يأمن المكر كما لا يقنط من رحمة الله جل وعلا. ٣

فالذي يقابل الخوف من الله هو الأمن من مكر الله عز وجل، والذي يقابل الرجاء هو اليأس والقنوط من رحمة الله، وهذان الأمران عظيمان وكبيران وهما من أعظم الذنوب. ٩

قال بعض العلماء: من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجيء، و من عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد. ٨

وحقيقة مكر الله جل وعلا ومعنى هذه الصفة أن الله جل وعلا أنه يستدرج العبد ويُملي له حتى إذا أخذه لم يفلته، ييسر له الأمور حتى يظن أنه في مأمن غاية الأمن، فيكون ذلك استدراجاً في حقه فقال النبي عليه الصلاة والسلام ((إذا رأيتم الله يعطي العبد وهو مقيم على

معاصيه فأعلموا أن ذلك استدراج))[1] وهذا ظاهر من معنى المكر لأن في معنى المكر والكيد وأمثالهما معنى الاستدراج، لا ترادف في اللغة، بل هناك فروق بين المكر والاستدراج، والكيد والاستدراج، ونحو ذلك؛ لكن نقول هذا من جهة التقريب، فالمكر فيه استدراج وفيه زيادة أيضاً على الاستدراج حتى يكون قلب ذلك المستدرج آمنا من كل جهة. ٣

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك. ذكره ابن جرير بمعناه. ٢

والأمن من مكر الله هو ناتج عن عدم الخوف وترك عبادة الخوف، وعبادة الخوف قلبية؛ الخوف خوف العبادة من الله جل جلاله، وهذا الخوف إذا كان في القلب فإن العبد سيسعى في مراضي الله ويبتعد عن مناهي الله، وسيعظِّم الله جل وعلا ويتقرب إليه بالخوف؛ لأن خوف عبادة، ويكون عبادة بمعاني منها:

أن يتقرب إلى الله جل وعلا بالخوف.

وأن يتقرب إلى الله جل وعلا بعدم الأمن من مكر الله، وذلك أن الله هو ذو الجبروت، فعدم الأمن من مكر الله راجع إلى فهم صفات الله جل وعلا وأسماءه التي منها القهار والجبار وهو الذي يجير ولا يجار عليه، ونحو ذلك من صفات الربوبية. ٣

ومكر الله سبحانه وتعالى هو: إيصال العقوبة إلى من يستحقُّها من حيث لا يشعر. وهو عدلٌ منه سبحانه وتعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل:٥٠]؛ فالمكر في حق الله سبحانه وتعالى عدل وجزاء يحمد عليه.

أما المكر من المخلوقين فهو مذموم لأنه بغير حق.

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند، وفي الزهد، وابن أبي الدنيا في الشكر، وابن جرير الطبري في تفسيره. وهو حديث صحيح بطرقه.

والمكر من الله نظير الاستهزاء: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة:١٥]، ونظير السخرية: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]، ونظير الكيد: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً (١٦)﴾ [الطارق:١٥-١٦]، ونظير النسيان في مثل قوله: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

فهذه أمور تُنسب إلى الله جل وعلا لأنها من باب المقابلة والجزاء، فهي عدلٌ منه سبحانه وتعالى حيث إنه ينزِّلها فيمن يستحقُّها، فهي عدلٌ منه سبحانه؛ بخلاف هذه الصفات من المخلوقين فإنها مذمومة لأنها في غير محلها ولأنها ظلمٌ للمخلوقين. ٤

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر

وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل أنها في المقام التي تكون مدحاً يوصف بها وفي المقام التي لا تكون مدحاً لا يوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله بها، فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة، فلا يوصف الله بها مطلقاً لأنها ذم بكل حال، إذ إنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع، فهو كالمكر يوصف به حيث يكون مدحاً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية، لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه. ٥

ومكر الله جل وعلا من صفاته التي تطلق مقيدة، فالله جل وعلا يمكر بمن مكر وأوليائه وأنبيائه وبمن مكر بدينه؛ لأنها في الأصل صفة نقص؛ لكن تكون صفة كمال إذا كانت بالمقابلة؛ لأنها فيها حينئذ إظهار العزة والقدرة والقهر والجبروت وسائر صفات الجلال.
فمكر الله جل وعلا من صفاته التي يتصف بها؛ لكن يكون ذلك على وجه التقييد نقول: يمكر بأعداء رسله يمكر بأعدائه، يمكر بمن مكر به ونحو ذلك. ٣

أراد المصنف "رحمه الله تعالى" أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان، فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل من المحرمات ، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك، وهذا من أعظم الذنوب، وأجمعها للعيوب.٧
واستدل المؤلف للأول بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾.
الضمير يعود على أهل القرى، لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]. ٥
قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ هذه الآية في سِياق ما ذكره الله عن الأمم الكافرة التي أحلّ الله بها عقوباته من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، الذين ذكرهم الله في سورة الأعراف، ثمّ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)﴾ [الأعراف:٩٤]، ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الشدائد من الجوع والخوف والقحط وغلاء الأسعار، يفعل الله ذلك بهم لعلهم يدعونه، ولعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون، ويعلمون أن ما أصابهم بسبب ذنوبهم؛ لكنهم لم يرجعوا.
ثمّ إن الله سبحانه استدرجهم بالنعم، لَمّا لم يرجعوا عند النِّقَم استدرجهم بالنعم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ [الأعراف:٩٥] أي: بدل الشدة والجوع والخوف، بـ﴿الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف:٩٥] وهي: الغناء والسَّعَة والثروة؛ استدراجاً من الله سبحانه لهم.

﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف:٩٥] يعني حتى كثروا وزادت قوتهم ونموا وصار لهم قوة واغتروا بهذه النعمة؛ فهم لم يتوبوا عند النقمة ولم يشكروا عند النعمة.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف:٩٥] قالوا: هذه الأمور تجري عادة، مرّة رخاء ومرّة شدة، لم يُرْجِعوا الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ويعلموا أن ما أصابهم من العقوبات يسبب ذنوبهم وأن ما أصابهم من النعمة فهو فضلٌ من الله؛ بل نسبوا هذا إلى العادة.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:٩٥] هذا هو المكر، وهو: أن الله أخذهم في مأمنهم حيث لم يتوقعوا العقوبة.

وفي هذا تحذير لنا من الله سبحانه وتعالى أننا لا نغتر بهذه النعم، وهذه الثروات، وهذه السَّعَة؛ فنغفلُ عن شكر الله عزّ وجلّ، ولا نعمل بطاعة الله، ولا نخاف من العقوبة ومن زوال هذه النعم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف:٩٦]؛ فالنعم إذا كانت مع المعاصي فهي استدراج، وإذا كانت مع الطاعات فإنها نعمةٌ من الله تعالى وعون على طاعته.٤

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].[١]

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضاً على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق، لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى في رابعة النهار يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم، فهم في الليل نوم،

---

[١] هذه من عندي

وفي النهار لعب، فبين الله –عز وجل– أن هذه من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فالذي يمّن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عري، فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر، لأن هذا من مكر الله بك.٥

ثمّ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ هذا استنكار من الله سبحانه وتعالى على من يغترّ بالنعم وينسى العقوبة أن يأخذهم على غِرّة وهم آمنون منعَّمون، ثمّ ينقلهم من النعمة إلى النِّقْمة، ومن الصحة إلى الألم والمرض، ومن الوجود إلى العدم.

﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ أي: لا يأمن عقوبة الله التي تنزل على خُفْية ومن غير تأهُب ومن غير توقع لها.

﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين حقّتْ عليهم الخسارة التي لا رِبْح معها أبداً ولا نجاة منها أبداً.

والشاهد في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ فهو استفهام إنكار على من يقع منه مثل ذلك.

فالأمن من مكر الله يستلزم عدم الخوف من الله سبحانه وتعالى، كما يستلزم الاستمرار في المعاصي والزيادة منها، ويستلزم ترك التوبة والرجوع إلى الله عزّ وجلّ. وهذه حالة الأشقياء من الخلق. ٤

فالأمن من مكر الله من الكبائر وهو يفضي إلى التساهل في محارم الله لأن من أمن من مكر الله ساءت أعماله وأخلاقه وتصرفاته ولم يخف الله. ٦

قال اسماعيل بن رافع: "من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة". رواه ابن أبي حاتم.[1] ١

والأمن من مكر الله ينافي التّوحيد؛ لأنه يدل على عدم الخوف من الله عزّ وجلّ. ٤

---

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٨٧٧٣) وإسناده حسن إلى إسماعيل.

ويستفاد من هذه الآية:

١- الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجاً، لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم، فأعلم أن هذا من مكر الله.

٢- تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ٥

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ(٥٦)﴾ [الحجر:٥٦].

هذا استفهام إنكار من الله سبحانه وتعالى، وهو بمعنى النفي، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه. ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ التائهون عن الحق. ٤

والقنوط: أشد اليأس، لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل، بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبة. ٥

قال السُّدِّيُّ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ قال: "من ييأس من رحمة ربه" رواه ابن أبي حاتم.[1] ١

قوله: ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾. هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف، والتقدير (رحمة ربه إياه).٥

والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، والضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله سبحانه، مع أنه سبحانه قريب الخيَر، ولهذا جاء في الحديث: ((عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب)) ١

---

[1] الدر المنثور (٥/٨٨)

وأما معنى الآية، فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بغلام عليم قال لهم: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٤-٥٦]. ٥

وهذه الجملة قالها إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لَمّا جاءته الملائكة في صورة أضياف يريدون إهلاك قوم لوط، وكان إبراهيم-عليه الصلاة والسلام- كريماً مِضْيافاً، فلما جاءه هؤلاء الرجال بادر إلى ضيافتهم وجاء بعجل حنيذ - وفي آية أخرى بعجل سمين، وقرّبه إليهم، لكنهم لم يأكلوا لأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون؛ فإبراهيم خاف أنهم أعداء، لكنهم طمأنوه، وأخبروه بمهمتهم، وأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية.

وزادوه -أيضاً- بالبشرى بالولد، وكان لا يُولد له فاستبعد ذلك وقالوا له: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ هذا محلّ الشاهد، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ عن الحق؛ لأن المؤمنين -وخاصّة الأنبياء- يعلمون من قدرة الله سبحانه وتعالى وفضله وإحسانه ما لا يعلمه غيرهم، ويعلمون من قُرب رحمته وفرجه ما لا يعلمه غيرهم.

هذا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء يقول: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ مهما كانتِ الحال من الشدّة ومن الضيق ومن الحرج؛ فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، لأن الله قادرٌ على كل شيء، لا يعجزه شيء، وهو أرحم الراحمين.

ففي هذه الآية: أن الذي يقنط من رحمة ربه يكون من الضالين، والضلال ضدُّ الهدى. ٤

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز، لأنه سوء ظن بالله عز وجل، وذلك من وجهين:

---

[1] الإمام أحمد في "مسنده" (٤/١١، ١٢)، وابن ماجة (المقدمة،١/٦٤)، ابن أب عاصم في "السنة" (٥٥٤)، والآجري في "الشريعة" (ص٩٥) قال الشيخ الإسلام ابن تيميه: "حديث حسن" (الوسطية"، ص ١٣).

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه، لأن من علم الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئاً على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه، لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن برحمة الله سبحانه، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً.

ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبة، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها، فنجاه الله سبحانه: إما بعمل صالح سابق مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤]، أو بعمل لاحق، وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر[١] وليلة الأحزاب[٢]، وكذلك أصحاب الغار[٣]. ٥

وفي هاتين الآيتين: مشروعية الجمع بين الخوف والرجاء؛ فالخوف في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ [الأعراف:٩٩]، وفي الآية الثانية: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] ففيهما وجوب الرجاء وعدم القنوط من رحمة الله؛ فيجب الجمع بينهما، بأن يكون خائفاً راجياً، لا يكون خائفاً فقط، لأن هذا يقنِّطه من رحمة الله سبحانه وتعالى، ولا يكون راجياً فقط، لأن هذا يؤمِّنه من مكر الله؛ فإذا خاف الإنسان وقنِط من رحمة الله لم يتب، وإذا أمِن من مكر الله فإنه لا يترُك المعاصي بل يزيد منها.

ولهذا يقول العلماء: "من عبد الله بالخوف فقط فهو حروري"، يعني: من الخوارج، لأن الخوارج وعيديّة يأخذون بآيات الوعيد –والعياذ بالله–، ويخرجون العاصي من الإسلام ويخلِّدونه في النار، وهذا يأس من رحمة الله، نسأل الله العافية.

---

[١] البخاري: كتاب المغازي/ باب قوله تعالى: (إذا تستغيثون ربكم...)، ومسلم: كتاب الجهاد /باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.

[٢] البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق، ومسلم: كتاب الجهاد/ باب استحباب الدعاء بالنصر.

[٣] بالبخاري: كتاب الأنبياء/ باب حديث الغار، ومسلم كتاب الذكر والدعاء/باب قصة أصحاب الغار.

"ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ" لأن المرجئة هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فطريقة الخوارج فيها يأسٌ من رحمة الله، وطريقة المرجئة فيها أمنٌ من مكر الله.

أما أهلُ السنّة والجماعة فإنهم يجمعون بين الخوف من عذاب الله، مع رجاء رحمة الله؛ فالخوف يمنعهم من المعاصي، ورجاء رحمة الله يحملهم على التوبة والاستغفار والندم على ما حصل منهم؛ هذه طريقة أهل السنّة والجماعة وكما قال الله تعالى في الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ﴿رَغَباً وَرَهَباً﴾ الرغب هو الرجاء، والرهب هو الخوف؛ يعني: يجمعون بين الخوف والرجاء، وكما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧)﴾ [الإسراء:٥٧]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ يجمعون بين الأمرين بين الخوف والرجاء. ٤

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر ٩].٢

قال أهل العلم: "فيجب على المؤمن أن يكون معتدلاً بين الخوف والرجاء، لا يرجو فقط حتى يأمن من مكر الله، ولا يخاف فقط حتى ييأس من رحمة الله، بل يكون معتدلاً".

ويقولون: "الخوف والرجاء للمؤمن كجناحي الطائر، إذا اعتدلا استطاع الطيران في الجو، وإذا اختلّ واحدٌ منهما سقط فلا يستطيع الطيران"[١]، كذلك المؤمن، إذا تعادل فيه الخوف والرجاء استطاع السير إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا اختلّ أحدُ الركنين اختلّ إيمانه. ٤

وفضل بعض العلماء جانب الخوف في حال الصحة لأنه أقدر على المعاصي، وجانب الرجاء في حال المرض لأنه يضعف من الأعمال والطاعات، والأصل أن يكون بينهما. ٦

---

[١] يقول ابن القيم رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومن فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر".

ومن هنا اختلف العلماء أي الخوف أو الرجاء يغلب، هل يغلب العبد جانب الرجاء أو يغلب جانب الخوف؟

والتحقيق أن الحالة تختلف، فإذا كان العبد في حالة الصحة والسلامة فإنه إما أن يكون مسددا مسارعاً في الخيرات فهذا يتساوى -يعني يجب أن يتساوى- في قلبه الخوف والرجاء يخاف ويرجو لأنه من المسارعين في الخيرات.

وإذا كان في حال الصحة والسلامة وعدم دنو الموت من أهل العصيان فالواجب عليه أن يغلِّب جانب الخوف حتى ينكفّ على المعصية.

وأما إذا كان في حال المرض -وهي الحال الثانية- فإنه مرض المخوف فإنه يجب عليه أن يعظم جانب الرجاء على الخوف فيقوم في قلبه الرجاء و الخوف؛ لكن يكون رجاءه أعظم من خوفه وذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام ((لا يمت أحدكم إلا وهو يحسّن الظن بربه تعالى)) وذلك من جهة رجائه في الله جل جلاله.

ومن هنا اختلفت كلمات أهل العلم:

- فتجد أن بعضهم يقول يجب أن يتساوى الخوف والرجاء.
- وبعض السلف يغلّب جانب الخوف على جانب الرجاء.
- وبعض السلف يقول يغلّب جانب الرجاء على جانب الخوف.

وهي أقوال متباينة ظاهراً لكنها متفقة في الحقيقة؛ لأن كل قول منها يرجع إلى حالة مما ذكرنا.

- فمن قال يغلّب جانب الخوف على الرجاء فهو في حق الصحيح العاصي.
- ومن قال يغلب الرجاء على الخوف فهو في حق المريض الذي يخاف الهلاك أو من يخاف الموت.
- ومن قال يساوى بين الخوف والرجاء فنظر إلى حال المسددين المسارعين في الخيرات.

وهذه الحالة التي هي حال المسددين هي التي وصف الله -جل وعلا- أهلها بقوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، ونحوه قوله -جل وعلا- في سورة الإسراء ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وهذا ظاهر من ذلك. ٣

فأما الرجاء مع الإصرار على المعاصي فذاك من غرور الشيطان. ١

فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان؛ ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة؛ خوفاً من الله تعالى، وهرباً من عقابه، وطمعاً في المغفرة، ورجاء لثوابه. ٢

عن ابن عباس م، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: ((الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله)).١

قوله: "وعن ابن عبّاس أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟" أي: عن الذنوب الكبائر؛ جمع كبيرة وهي: العظيمة. ٤

وهذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، وقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم:٣٢]، والكبائر ليست على درجة واحدة، فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة ؟

فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل إنها محدودة، وقد حدها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله، فقال: "كل ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه"، وهذا واسع جداً يشمل ذنوباً كثيرة.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:

قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات، كقوله ﷺ: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة،

---

[1] رواه البزار في مسنده (رقم ١٠٦–كشف الستار)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/١٠٤)–، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٥٢٠١) وإسناده حسن، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر))[1]. وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة[2]، والوضوء من تكفير الخطايا[3]، فهذه من الصغائر.

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة، كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم. ٥

فقال: ((الإشراك بالله)) هذا أكبر الكبائر. فأكبر الكبائر: الإشراك بالله عزّ وجلّ، وهو: عبادة غير الله بأيِّ نوع من أنواع العبادة وأيًّا كان هذا المعبود صنماً أو شجراً أو حجراً أو حيًّا أو ميّتاً أو قبراً أو غير ذلك.

وهذا هو الذي لا يُغفر إلاَّ بالتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وهذا هو الذي يحبط الأعمال جميعها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. ٤

قوله ((الشرك بالله)) هو أكبر الكبائر؛ إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وإلاههم ومالكهم وخالقهم الذي لا إله الا هو، وعدل غيره به، كما قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، ولهذا لا يُغفر إن لم يتب منه، بخلاف غيره من الذنوب، ففي مشيئة الله؛ إن شاء غفرها، وإن شاء عذب بها. ١

قوله: ((الشرك بالله)). ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر، لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقاً.

---

[1] مسلم: كتاب الطهارة/ باب الصلوات الخمس.
[2] البخاري: كتاب العمرة/ باب وجوب العمرة وفضلها، ومسلم: كتاب الحج/ باب فضل الحج والعمرة.
[3] مسلم: كتاب الطهارة/ باب فضل الوضوء.

والشرك بالله بتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته. ٥

قوله ﷺ: ((واليأْس من رَوْح الله)). ٤

اليأس: فقد الرجاء، والرَوْح: بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة. ٥

هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] ؛ فالقنوط من رحمة الله من أكبر الكبائر، لأن فيه إساءة ظنٍّ بالله سبحانه وتعالى، ولأنه يحمل صاحبه على عدم التوبة لأنه يقول: لا يغفر الله لي وإن تبت، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤)﴾ [الزمر:٥٣-٥٤] توبوا إلى الله عزّ وجلّ؛ والتوبة تَجُبُّ ما قبلها مهما كان الذنب الشرك والكفر وقتل النفس والزنا وشرب الخمر وأكل الربا؛ فالتوبة لا يبقى معها ذنب إذا كانت توبة صحيحة، والتائب من الذنوب كمن لا ذنب له: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغفرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فالكفّار إذا كانوا يُغفر لهم ما قد سلف فكيف بُعصاة المؤمنين إذا تابوا؟، هم أولى بالمغفرة؛ فعَفْوُ الله أعظم من ذنوبهم.

قوله ﷺ: ((والأمن من مكر الله)) أي: ومن أكبر الكبائر: الأمن من مكر الله، أي: من عقوبته عند المعصية من حيث لا يشعر. والغفلة عن طاعة الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: ((والأمن من مكر الله)) أي من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك، وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها. ٢

وذكر هذه الثلاث لجمعها للشر كله وبعدها عن الخير كله، وقد وقع فيها الكثير قديماً وحديثاً، نسأل الله العافية في الدنيا و الآخرة. ٧

وجه الشاهد من ذلك أنه جعل اليأس من روح الله -وهو عدم الرجاء؛ ذهاب الرجاء من القلب وعدم أو ترك الإتيان بعبادة الرجاء- جعله من الكبائر، وجعل الأمن من مكر الله -

وهو ذهاب الخوف من الله جل وعلا- من الكبائر، وهي كبائر في القلب، وهي كبائر من جهة أعمال القلوب.

واجتماعهما جميعاً بأن لا يكون عنده رجاء ولا خوف فهذه كبيرة أعظم من ترك الخوف وحده من الله أو ترك الرجاء وحده من الله جل وعلا، ولهذا قرن بينهما في هذا الحديث حيث قال (سئل عن الكبائر؟ فقال: ((الشّرك بالله، واليأسُ من رَوح الله، والأمنُ من مكر الله))) وبهذا يتبين لك الفرق بين اليأس والأمن، اليأس من روح الله أو القنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، من أن اليأس راجع إلى ترك عبادة الرجاء، والأمن من مكر الله راجع إلى ترك عبادة الخوف واجتماعهما واجب من الواجبات، وذهابهما أو الانتقاص منهما نقص في كمال توحيد من قام ذلك بقلبه. ٣

وأعلم أن هذا الحديث لم يرد فيه حصر الكبائر فيما ذُكِرْ، بل الكبائر كثيرة، لكن ذكر ما هو أَكْبَرُها أو من أَكْبَرِها، ولهذا قال ابن عباس: "هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع" رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وفي رواية: "هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار".[١] ١

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك: لأن هناك كبائر غير هذه ولكن الرسول ﷺ يجيب كل مسائل بما يناسب حاله، فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية. ٥

وهذا الحديث رواه البزّار وغيره.

وبعضهم يرى أنه من كلام ابن عبّاس، وأنه موقوف، وبعضهم يضعِّفه.

---

[١] أخرجه اللالكائي في (شرح أصول الاعتقاد) رقم (١٩١٩)

وقد ذكرت لكم أن الشيخ رحمه الله إذا ذكر مثل هذا الحديث الذي في سنده مقال لا يذكره إلاَّ وقبله أو بعده ما يؤيِّده من الآيات أو الأحاديث التي يسوقها في الباب.
وهذا الحديث تؤيِّده الآيتان السابقتان: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ(٩٩)﴾ [الأعراف:٩٩]، ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وكذلك الآيات التي في التحذير من الشرك وأنه أكبر الكبائر.
فالحديث هذا وإن كان في سنده مقال إلاَّ أنه تؤيِّده الأدلة الصحيحة، خصوصاً ما ذكره المؤلف رحمه الله من هاتين الآيتين، وبعضهم أثنى على سنده، فهو ليس مُجْمَعاً على ضعفه.٤
هذا يروى مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف له حكم الرفع لأنه لا يقال بالإجتهاد، وربما قالها ابن عباس عن نفسه اجتهاداً واستدلالاً بالنصوص. والكلام صحيح على كل حال. ٦

وعن ابن مسعود ﷺ قال: "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله". رواه عبد الرزاق.

هذا الأثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود، قال ابن كثير: "وهو صحيح إليه بلا شك" ورواه الطبراني أيضاً.[1] ١
"أكبر الكبائر" هذا فيه دليل على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر والكبائر تختلف، بعضها أكبر من بعض كما في الحديث: أن النبي سُئل أيُّ الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك))، قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: ((أن تقتُل ولدك خشية أن يَطْعَم معك))، قلت: ثمّ أيٌّ؟، قال: ((أن تُزانيَ بحليلة جارك)).
فهذه أعظم الكبائر: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله إلاَّ بالحق، ولاسيّما قتل القريب، مثل: قتل الابن. كذلك: الزنا بحليلة الجار، فالزنا محرّم عموماً، وهو كبيرة، ولكن الزنا بحليلة الجار أشد من الزنا بغيرها لحرمة الجيرة، ومِصْداق ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً

[1] رواه معمر في جامعه (رقم١٩٧٠١)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٥٥/١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٥٦/٩)، وابن جرير في تفسير (٤٠/٥) وغيرهم من طرق عن عبدالله بن مسعود، وهو أثر صحيح كما قال الحافظ ابن كثير والشيخ سليمان.

آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

وقوله: "والأمن من مكر الله" سبق معنى الأمن من مكر الله.

"والقنوط من رحمة الله" هذا سبق أيضاً معناه.

"واليأس من رَوْح الله" القنوط واليأس متقارِبان، وكلاهما فيه استبعادٌ لرحمة الله عزّ وجلّ وسوءُ ظنٍّ بالله عزّ وجلّ. ٤

المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك، لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود. ٥

هنا فصّل في القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله، فجعل القنوط من رحمة الله شيئاً وجعل اليأس من روح الله شيئاً آخر، وهذا باعتبار بعض الصفات لا باعتبار أصل المعنى، فإن القنوط من الرحمة واليأس من الروح بمعنى واحد؛ لكن يختلفان من حيث ما يتناوله هذا ويتناوله هذا، فالقنوط من رحمة الله عام لأن الرحمة أعم من الروح، والرحمة تشمل جلب النعم ودفع النقم، وروح الله جل وعلا يطلق في الغالب في الخلاص من المصائب، ، فقوله "القنوط من رحمة الله" هذا أعم ولهذا قدّمه، فيكون ما بعده من عطف الخاص على العام، أو أن يكون هناك ترادف في أصل المعنى واختلاف في الصفات، أو بعض ما يتعلق باللفظ. ٣

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئاً ن يعوقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب، تجده أن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله، فتجد الإنسان مقيماً على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله، فلا شك أن هذا استدراج. ٥

"واليأس من روح الله" قال الله سبحانه وتعالى على لسانه نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، أما المؤمنون فلا ييأسون من روح الله مهما بلغ بهم الكرب والشدة؛ لعلمهم بالله عزّ وجلّ وأسمائه وصفاته، وقُرب فَرَجِه، وقُرب

رحمته من عباده؛ فهم لا ييأسون من رَوْح الله مهما اشتدت بهم الخُطوب، وضاق بهم الحال. بل كلما اشتد الخطب عظم رجاؤهم بالله.

ومواقفهم معروفة، كموقف إبراهيم عليه السلام، وموقف يعقوب لَمّا فقد أولاده الثلاثة، وموقف أيّوب عليه السلام الذي بلغ منه الضُّرُّ مبلَغاً شديداً، لم ييأسوا من رحمة الله.

ومحمد ﷺ لَمّا أُخْرِجَ هو وصاحبه أبو بكر يوم الهجرة واختفيا في الغار، وجاء المشركون في طلبهما، ووقفوا على الغار والرسول ﷺ وأبو بكر تحت أقدامهم، يقول أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، قال: ((يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟))، فأعمى الله أبصارهم ولم يروا رسول الله وصاحبه، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ [التوبة: ٤٠].

ولَمّا خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله، وردّوا عليه ردًّا قبيحاً، وأغروا عبيدهم وسفاءهم برميه بالحجارة، هو ومولاه زيد بن حارثة؛ ورجع وأهل مكة كلهم أعداء له؛ فجاء من الطائف وقد قابلوه أسوأ مقابلة، وأهل مكة -أيضاً- خرج منهم لشدّة أذاهم، فقال له مولاه زيد بن حارثة: يا رسول الله، كيف ترجع إليهم وهم قد أخرجوك، قال: ((يا زيد، إن الله جاعلٌ لِمَا ترى فرجاً ومخرَجاً)).

هكذا مواقف أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، لا ييأسون مهما بلغ الأمر ومهما بلغت الشدة لعلمهم برحمة الله عزّ وجلّ وقدرة الله عزّ وجلّ وعلم الله عزّ وجلّ بحالهم وأنه لا تخفى عليه خافية ولا تخفى عليه أحوالُ عباده أبداً، ولكنه يبتليهم ويمتحنهم ليكفِّر عنهم سيِّئاتهم وليختبر إيمانهم وليعظُم رجاؤهم بالله عزّ وجلّ وليتوبوا إلى الله عزّ وجلّ. وله الحكمة في ذلك سبحانه وتعالى.

قوله: "رواه عبد الرزاق" عبد الرزاق بن همَّام الصنعاني، الإمام الجليل، شيخ العلماء والمحدِّثين، روى عنها: الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوَيْه، وغيرهما من كبار الأئمة رحمهم الله.

وقوّى إسناد هذا الحديث: ابن جرير الطبري.

فهذه النصوص في هذا الباب يُستفاد منها الأحكام التالية:

أولاً: تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، وأنهما ينقِّصان كمال التّوحيد وقد ينافيان التّوحيد.

ثانياً: أنه يجب على المسلم أن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يخاف فقط ولا يرجو فقط، وإنما يكون خائفاً راجياً دائماً وأبداً، هذا هو التّوحيد، وهو صفة أولياء الله.

ثالثاً: في هذه النصوص أن المعلِّم والداعية يبدأ بالأهم فالأهم؛ لأن الرسول ﷺ لَمّا أراد أن يعلِّم أصحابه الكبائر بدأ بأهمها وهو الشرك بالله عزّ وجلّ، لأن الشرك أكبرُ الكبائر فبدأ به، ثمّ ذكر بعده الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

رابعاً: في الحديثين: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد عرّف العلماء الكبيرة بأنها: "ما رُتِّبَ عليها حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة، أو خُتم بغضب، أو لعنة، أو نار، أو تبرَّأ النبي ﷺ من صاحبها، بأن قال: "ليس منا من فعل كذا"، أو نفى عنه الإيمان كقوله ﷺ: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)). هذه ضوابط الكبيرة.

أما الصغائر فهي ما ليس كذلك مما حرّمه الله ونهى عنه، ولم يصل إلى حدّ الكبيرة.

ولكن لا يحمل هذا الإنسان على أنه يتساهل بالصغائر، لأن الصغائر إذا تُسوهِل بها جرَّتْ إلى الكبائر؛ والصغيرة تعظُم حتى تكون كبيرة مع الإصرار؛ فلا يُتساهل فيها؛ لكن: ليست الذنوب على حدٍّ سواء، بل هي فيها صغائر وفيها كبائر. والصغائر تسمى اللَّمَم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

والصغائر تكفَّر بالأعمال الصالحة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] يعني: الصغائر.

وقال ﷺ: ((الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفّارات لِمَا بينهن إذا اجْتُنِبَتِ الكبائر)).

فالصغائر تُكَفَّر بالأعمال الصالحة، أما الكبائر فإنها لا تكفَّر إلاَّ بالتوبة، إلاّ إذا شاء الله أن يعفوَ عن صاحبها وهي دون الشرك فإنها قابلة للعفو من الله سبحانه وتعالى؛ فهي تكفَّر إما بعفو الله وإما بالتوبة، بخلاف الشرك فإنه لا يكفَّر إلاَّ بالتوبة، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].٤

فيه مسائل:
الأولى: تفسير آية الأعراف.
الثانية: تفسير آية الحجر.
الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.
الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

فيه مسائل: الأولى:

تفسير آية الأعراف. وهي قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقد سبق تفسيرها. ٥

الثانية: تفسير آية الحجر. وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقد سبق تفسيرها. ٥

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله. وذلك بأنه من أكبر الكبائر، كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين. ٥

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط. تؤخذ من الآية الثانية والحديثين. ٥

(بَابُ مِنَ الإيمان باللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدارِ اللَّهِ)

(بَابُ مِنَ الإيمان باللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدارِ اللَّهِ)

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ)). وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مرفوعاً: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)). وَعَن أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ((إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَي، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ)) حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيّ.

مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أن الصبر على أقدار الله من مكمّلات التّوحيد، وأنّ عدم الصبر على أقدار الله يكون من منقِّصات التّوحيد؛ وهذا الكتاب المبارك صنفه الشيخ في بيان التّوحيد ومكمِّلاته وفي بيان منافياته ومنقِّصاته.

فقوله: "بابٌ" مرفوع على أنه مبتدأ محذوف تقديره: هذا بابٌ.

"من الإيمان بالله" أي: من خصال الإيمان بالله، ومن شعب الإيمان بالله -عزّ وجلّ- الصبر على أقداره سبحانه وتعالى، أي: أن ذلك يدخل في الإيمان بالله، الذي هو أول أركان الإيمان الستة.

والإيمان -كما عرّفه أهل السنّة والجماعة- "قول باللسان، وعمل بالأركان" يعني: الجوارح، "واعتقاد بالجَنان" يعني: بالقلب، "يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية." هذا هو الإيمان. ٤

والإيمان له شعب كما أن الكفر له شعب، فنبه بقوله أن (من الإيمان بالله الصبر) على أن من شعب الإيمان الصبر، ونبه في الحديث الذي ساقه عن صحيح مسلم أن النياحة من شعب الكفر، فيقابل كل شعبة من شعب الكفر شعبة من شعب الإيمان، فالنياحة على الميت شعبة من شعب الكفر يقابلها في شعب الإيمان الصبر على أقدار الله المؤلمة. ٣

"الصبر على أقدار الله" الصبر لغة: الحبْس، قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف:٢٨] أي: احبسها مع هؤلاء.

وأما في الشرع فالصبر هو: حبس النفس على طاعة الله سبحانه وتعالى وترك معصيته. ٤

لما كان الله ببديع حكمته، ولطيف رحمته، قضى أن يبتلي النوع الإنساني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم؛ أمرهم بالصبر على ذلك، وافترضه عليهم؛ تسلية لهم، وتقوية على ذلك، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب، كما قال ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] فعلى هذا يكون الصبر ثلاثة أنواع: ١

وذكر العلماء: أن الصبر له ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن محارم الله، وصبرٌ على أقدار الله المؤلِمة.

فالأول: صبرٌ على طاعة الله: بأن يؤدي الإنسان ما أمر الله تعالى به؛ وإن كان فيه مشقّة عليه، وإن كانت نفسه تريد الراحة؛ فإنه يصبر، فيقوم للصلوات الخمس، ويقوم لصلاة الفجر ويترك النوم، ويقوم لصلاة الليل ويترك النوم، ويصوم ويترك الطعام والشراب، ويترك الأهل؛ طاعة لله سبحانه وتعالى، ويجاهد في سبيل الله ويصبر على الجراح وعلى الآلام وعلى ملاقاة الأعداء، ويصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى، لأن الطاعة لابد فيها من تعب. ٤

الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وهذا صبر على طاعة الله. ٥

الثاني: صبرٌ عن محارم الله: فيتجنّب ما نهى الله تعالى عنه، والنفس تنازعه تريد الشهوات المحرَّمة، فهو يصبر على حبسها عنها وإمساكها عنها، وإن كانت تنازعه وتدعوه، وكذلك شياطين الإنس والجن يدعونه ويرغّبونه ويحسّنون له القبيح، لكن يمسك نفسه ويحبسها عن محارم الله.

والثالث: صبرٌ على أقدار الله المؤلِمة. ٤ وهو الذي ذكره المصنف هنا. ٩

فإن أصابه مرض أو أصابته مصيبة في ماله أو ولده أو في قريبه فإنه يصبر ولا يجزع، هذا من الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]، يعرفون أن هذا من الله، وأنه بقضاء الله وقدره؛ فلا يجزعون ولا يتسخّطون.

أما أقدار الله غير المؤلمة التي تلائم النفس فهذه لا تحتاج إلى صبر، لأن النفس تميل إليها. ٤

الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥]، لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: ((مرها، فلتصبر ولتحتسب))[١]. ٥

ويشملها قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢] وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢]. ١

وهذا النوع الأخير-الصبر على أقدار الله المؤلمة- ذكروا أنه ثلاثة أنواع -أيضاً-:

النوع الأول: حبس النفس عن الجزع.

والنوع الثاني: حبس اللسان عن التشكِّي لغير الله سبحانه وتعالى.

والنوع الثالث: حبس الجوارح عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب. ٤

ويقال للصبر الشرعي إنه صبر؛ لأن فيه الحبس وهو حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن السخط، وحبس الجوارح عن إظهار السخط من لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك، فحبس هذه الأشياء هو حقيقة الصبر.

فالصبر -إذن- حبس اللسان عن التشكي، وحبس القلب عن التسخط، وحبس الجوارح عن إظهار التسخط بشق أو نحو ذلك. ٣

---

[١] البخاري: كتاب الجنائز /باب قول النبي ﷺ: "يعذب الميت ببعض بكاء أهله". ومسلم: كتاب الجنائز/باب البكاء على الميت.

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا، فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فتن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة، فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلي الإنسان مائة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة، فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر، إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى، لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي، والصوم فتصوم، والحج فتحج... فيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر على المعصية لأن فيه كفاً فقط، أي: إلزاما للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار، فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلاً ولا تركاً، وإنما هو من قدر الله المحض. ٥

الصبر من المقامات العظيمة والعبادات الجليلة التي تكون في القلب وفي اللسان وفي الجوارح، وحقيقة العبودية لا تثبت إلا بالصبر؛ لأن العبادة أمر ونهي وابتلاء، فالعبادة أمر شرعي أو نهي شرعي، هذا الدين أمر شرعي أو نهي شرعي أو أن يصيب العبد بمصيبة قدرية.

فحقيقة العبادة أن يمتثل الأمر الشرعي وأن يجتنب النهي الشرعي وأن يصبر على المصائب القدرية التي ابتلى الله جل وعلا العباد بها.

ولهذا الابتلاء حاصل بالدين، وحاصل بالأقدار، فبالدين كما قال –جل وعلا– لنبيه ﷺ في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قال: قال رسول الله ﷺ ((قال الله

تعالى: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ)) فحقيقة بعثة النبي عليه الصلاة والسلام الابتلاء، والابتلاء يجد معه الصبر، والابتلاء الحاصل ببعثته بالأوامر والنواهي.

إذن فالواجبات تحتاج إلى صبر، والمنهيات تحتاج إلى صبر، والمنهيات والأقدار الكونية تحتاج إلى صبر، والأقدار الكونية تحتاج إلى صبر. ٣

ويقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: "الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد؛ فلا إيمان لمن لا صبر له".[١]

ويقول الإمام أحمد رحمه الله: "وجدت أنّ الله ذكر الصبر في القرآن في تسعين موضعاً"[٢]؛ مما يدلّ على أهميّته، وعلى عِظَم شأنه. ٤

وقال النبي ﷺ ((والصبر ضياء)) رواه أحمد ومسلم.[٣]

وقال عليه السلام ((ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر)) رواه البخاري ومسلم.[٤]

وفي حديث آخر ((الصبر نصف الإيمان)). رواه أبو نعيم والبهيقي في الشعب [٥].

وقال عمر "وجدنا خير عيشنا بالصبر" رواه البخاري[٦]. والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة. ١

فالصبر له مقامٌ عظيمٌ في الدين، ولابد للمؤمن من الصبر لِمَا يواجه في هذه الحياة من المشاكل ومن المشاق والصعوبات لكنه يصبر عليها طاعة لله سبحانه وتعالى. ٤

---

[١] رواه معمر في جامعه، والعدني في كتاب الإيمان، وابن أبي شيبة في مصنفه، وغيرهم وهو صحيح بطرقه.

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٣٩)، وعدة الصابرين (ص/٥٧).

[٣] رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٤٢، ٣٤٣)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٣) وغيرهما من حديث أبي مالك الأشعري.

[٤] البخاري في صحيحه (رقم ١٤٠٠)، ومسلم في صحيحه (رقم ١٠٥٣).

[٥] رواه أبو نعيم في الحلية (٥/٣٤)، والقضاعي في مسند الشهاب، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن عبدالله بن مسعود موقوفاً وإسناده صحيح.

[٦] علقه البخاري في صحيحه (٥/٢٣٧٥) ووصله ابن المبارك في الزهد (رقم ٦٣٠)، والإمام أحمد في الزهد، وأبو نعيم في الحلية وإسناده صحيح.

ولما كان الصبر على المصائب قليلاً ويظهر عدم الصبر أفرد الشيخ رحمه الله تعالى هذا الباب لبيان أنه من كمال التوحيد ومن الواجب على العبد أن يصبر على أقدار الله؛ لأن التسخط -تسخط العباد وعدم صبرهم- كثيراً ما يظهر في حال الابتلاء بالمصائب، فعقد هذا الباب لبيان أن الصبر واجب على أقدار الله المؤلمة، ونبه بذلك أن الصبر على الطاعة واجب وأن الصبر على المعصية واجب. ٣

وخص المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله، لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية، لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى. ٥

وقوله: "على أقدار الله" أقدار جمع قدر، والقدر: ما قضاه الله سبحانه وتعالى في خلقه، فإن كلَّ شيء يجري في هذا الكون فإنه مقدَّر، ليس هناك شيء يجري بدون تقدير الله سبحانه وتعالى؛ فالله علِمه وقدّره وكتبه ووقّته بوقت يحدُث فيه، فإنه سبحانه وتعالى أول ما خلق القلم قال له: ((اكتب))، قال :ما أكتب؟ قال: ((اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة))، فكتب في اللوح المحفوظ كلَّ شيء؛ فما من شيء يجري إلاَّ وهو مقدّرٌ من الله سبحانه وتعالى ومؤقّتٌ بوقت لا يتقدّم عليه ولا يتأخّر عليه ومكتوب في اللوح المحفوظ.

والإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستّة، كما قال جبريل للنبي ﷺ: أخبرني عن الإيمان؛ قال: ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره))، فجعل الإيمان بالقدر ركناً من أركان الإيمان؛ والله تعالى يقول ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وكما في "الصحيح": ((قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين سشئألف سنة، وعرشه على الماء)).

فما من شيء يجري في هذا الكون من صغير أو كبير إلاَّ وقد قدّره الله سبحانه وتعالى. ٤
وبالنسبة للمقدور، فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضي به، لأنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة، فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد تكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة، فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله، فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فلذلك نرضى بالقضاء ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية، فعليه الرضا لأن الله هو الذي قدر هذا، وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله، فلا يجوز له أن يرضي به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور. ٥

الناس حال المصيبة على أربع مراتب:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب؛ كأن يسخط على ربه ويعترض على قدر الله عليه، وقد يكون باللسان من الدعاء بالويل والثبور ورفع الصوت بالنياحة، وقد يكون بالجوارح كلطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك، وكل هذا من الكبائر، والعياذ بالله.

الثانية: الصبر، فيحبس نفسه ولسانه وجوارحه لكنه يرى هذا الشيء ثقيلاً عليه ويكرهه لكنه يتحمله ويتصبر، فوقوعه وعدمه ليس سواء بل يكرهه لكن إيمانه يحميه من التسخط. وهذه المرتبة واجبة، وهي الصبر والتصبر.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من الصبر، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، فهو ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه فهو راض بها، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من المصيبة؛ حيث يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب

الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب التكفير السيئات وزيادة الحسنات وزيادة الإيمان كما في الصحيحين عن النبي: ((ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها)). وهذه الدرجة هي درجة الأنبياء، كما ذكر الله تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يُكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شاكراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهداه إلى صراط مُسْتَقِيم﴾ [النحل:١٢٠- ١٢١].

الوقفة الرابعة:

إن للصبر على أقدار الله المؤلمة آثاراً إيجابية عظيمة منها:

١- تكفير السيئات كما سبق في الحديث السابق.

٢- رفعة الدرجات.

٣- قوة الإيمان بالله سبحانه.

٤- الطمأنينة في هذه الحياة الدنيا.

٥- استمرار الإنتاج في هذه الحياة؛ مما يكفل عمارة الكون التي يتحقق بها الخلافة في الأرض، وغيرها كثير. ٩

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]

قال علقمة: "هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسَلِّم".[١]

هذا بعض آية من سورة التغابُن، وأولها قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾ [التغابن:١١].

فقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ يعني: أن جميع المصائب التي تنزل بالنّاس من أول الخليقة إلى آخرها، فإن الله قدّرها، ليس هناك مصيبة تحدُث في العالم إلاَّ وقد قّدرها الله سبحانه وتعالى.٤

---

[١] رواه وكيع في نسخته المشهورة (رقم ٥)، وابن جرير في تفسيره (١٢٣/٢٨)، وابن أبي حاتم —كما في تفسير ابن كثير (٣٧٦/٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦٦/٤)، وفي شعب الإيمان، وغيرهم وإسناده صحيح.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

قال ابن عباس في قوله: ﴿إلا بإذن الله﴾: "إلا بأمر الله" [1] يعني: من قدره ومشيئته.[2] ١

﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره؛ لأن إذن الله على نوعين:

إذنٌ قدري كوني، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: بتقديره ومشيئته.

والنوع الثاني: الإذن الشرعي، مثل: قوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢١٣] أي: بشرعه.

قوله: "قال: علقمة" هو: علقمة النخعي التابعي من كبار التابعين، وأحد النَّخَعيِّين الثلاثة الذين هم: علقمة والأسود وإبراهيم من تلاميذ ابن مسعود.

ومعنى قوله: "هو الرجل تصيبه المصيبة" يعني: تنزل به المصيبة، إما في نفسه وإما في ماله وإما في ولده وإما في أهله وإما في أقاربه، فلا يجزع، ولكن يعلم أنها من عند الله، يعلم أن الله قد قدّرها وقضاها، وما قضاه الله وقدّره فلابد أن يقع، فلا يقول: لو أني فعلت كذا، لو أني عملت كذا ما نزلت بيَ المصيبة.

فالمؤمن يعلم هذا فيهون عليه الأمر، يعلم أنها من عند الله فيرضى بقضاء الله، ولا يجزع ولا يسخط، ويسلِّم لله عزّ وجلّ، ولقضاء الله وقدره.

وقد سمّى الله هذا التسليم وهذا الرضى إيماناً، فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾. ٤

والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره. ٥

يعني: يرضى بقضاء الله ويسلِّم له، وهذا هو الشاهد: إن الله سمى الصبر على المصيبة والرضى بقضاء الله وقدره إيماناً. ٤

قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾. يرزقه الطمأنينة. ٥

---

[1] انظر زاد المسير (٢٨٣/٨)، وتفسير ابن كثير (٣٧٦/٤).

[2] تفسير ابن كثير (٣٧٦/٤)

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله؛ جازاه الله تعالى بهداية قلبه التي هي أصل كل سعادة وخير في الدنيا والآخرة. وقد يُخْلِف عليه أيضاً في الدنيا ما أخذه منه أو خيرا منه."[١]

كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] قال ابن عباس: "يهد قلبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه".[٢]

وفي الحديث الصحيح ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن))[٣]. ١

﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فثمرة الرضاء بقضاء الله والصبر والاحتساب: هداية قلبه، لأن الله يجعل في قلبه الإيمان والبصيرة والنور، وهذه ثمرة الصبر على قضاء الله وقدره.

أما الذي يجزع فإن ذلك يسبِّب العكس، يسبِّب عمى قلبه، واضطراب نفسه، فهو يكون دائماً في اضطراب وقلق. أما المؤمن فهو مرتاح، من هذا كله. ٤

وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان، لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر. ٥

وقريب منه تفسير سعيد بن جبير ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: "يسترجع يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون"[٤]. ١

---

[١] تفسير ابن كثير (٣٧٦/٤).

[٢] رواه ابن جرير في تفسيره (١٢٣/٢٨)، وابن المنذر –كما في الدر المنثور (١٨٤/٨)- من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإسناده لا بأس به.

[٣] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

[٤] انظر: تفسير القرطبي (١٣٩/١٨)، وتفسير ابن كثير (٣٧٦/٤).

والمصائب من القدر، والقدر راجع إلى حكمة الله جل وعلا، والحكمة -حكمة الله جل وعلا- هي وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها، فالحكمة بعامة مرتبطة بالغايات المحمودة من وضع الأمر في موضعه، فمن وضع الأمر في غير موضعه فقد ظلم، ومن وضع الأمر في موضعه عدل، وقد يكون غير حكيم عادل؛ ولكن غير حكيم، إذا وضع الأمر في موضعه الموافق للغاية المحمودة منه فذاك هو الحكيم، والله -جل وعلا- منفي عنه الظلم ومُثبت له كمال العدل سبحانه حيث يضع الأمور مواضعها، ومُثبَت له -جل وعلا- كمال الحكمة حيث إنّ وضعه الأمور في مواضعها موافق للغايات المحمودة منها، فنعلم بذلك أن المصيبة إذا أصابت العبد فإن الخير له فيها، إما أن يصبر فيؤجر، وإما أن يتسخط فيؤزر على ذلك، وهذا في حق الخاسرين، فالله جل وعلا له الحكمة من الابتلاء بالمصائب.

والرضى بالمصيبة مستحب وليس بواجب، ولهذا يختلط على كثيرين الفرق بين الرضى والصبر.

وتحرير المقام في ذلك:

أن الصبر على المصائب واجب من الواجبات؛ لأن فيه ترك التسخط على قضاء الله وقدره.

والرضى هذا له جهتان:

- الجهة الأولى: راجعة إلى فعل الله جل وعلا، فيرضى بقدر الله الذي هو فعله، يرضى بفعل الله، يرضى بحكمة الله، يرضى بما قسم الله جل وعلا -يعني بقسمة الله-، هذا الرضى بفعل الله جل وعلا واجب من الواجبات، وتركه محرم ومنافي لكمال التوحيد.

- والرضى بالمقتضى الرضى بالمصيبة في نفسها هذا مستحب، ليس واجباً على العباد أن يرضوا بالمرض، أن يرضوا بفقد الولد، أن يرضوا بفقد المال؛ لكن هذا مستحب، وهو رتبة الخاصة من عباد الله.

ولكن الرضى بفعل الله جل وعلا الرضى بقضاء الله من حيث هو هذا واجب، أما الرضى بالمقتضى فإنه مستحب. ٣

فدلّت الآية على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أن المصائب كلها بقضاء الله وقدره.

المسألة الثانية: أن الرضى بها والصبر عليها من خصال الإيمان، لأن الله سمّاه إيماناً.

المسألة الثالثة: أنّ ذلك يُثمر هداية القلب إلى الخير وقوة الإيمان واليقين. ٤

وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها. ١

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)).

قوله ﷺ: ((اثنتان)) يعني: خَصْلتان.

((في النّاس)) في بني آدم حتى ولو كانوا مسلمين فإنه يوجد في بعض المسلمين بعض خصال الجاهلية وبعض خصال الكفر الذي لا يخرج من الملة. ٤

((هما بهم كفر))

أي هما بالناس كفر، حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علماً وإيماناً يستضيء به. ٢

((هما بهم كفر((هو كفر أصغر، لأن الكفر إذا نُكِّر فإنه يُراد به: الكفر الأصغر، أما إذا عُرِّف بـ (الألف واللام) فإنه يُراد به: الكفر الأكبر، كما في قوله:)) بين العبد وبين الكفر والشرك: تركُ الصلاة)). ٤

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: "بخلاف قول رسول الله ﷺ: ((بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة)) فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة، فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء "كفر" نكرة، فلا يدل على الخروج عن الإسلام. ٥

والقاعدة في فهم ألفاظ (الكفر) التي تأتي في الكتاب والسنة أن الكفر إذا أتى معرفا بالألف واللام فإن المراد به الكفر الأكبر، وإذا أتى الكفر منكّر كفر كلمة هكذا دون الألف واللام

فإنه يدل على أن الخصلة تلك من شعب الكفر ومن خصال أهل الكفر وأن ذلك كفر أصغر، كما قال عليه الصلاة والسلام ((لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض)) يعني لأن ذلك من خصال الكفار، ونحو ذلك قوله ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) هذا في الكفر الأصغر.

وأما الكفر المعرف بالألف واللام فالقاعدة التي حررها الأئمة كشيخ الإسلام وغيرِه أنه أتى فيراد به الكفر الأكبر كقوله عليه الصلاة والسلام ((بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)). ٣

وليس كلٌّ من قام به خصلة من خصال الكفر يكون كافراً خالصاً، وإنما يكون فيه خصلة من خصال الكفر، كما أنه ليس كلٌّ من فيه خصلة من خصال النفاق يكون منافقاً خالصاً، وإنما تكون فيه خصلة من خصال النفاق. ٤

كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان، كالحياء، والشجاعة، والكرم، أن يكون مؤمناً. ٥

فالخصلة الأولى: ((الطعن في النسب)) تقدم الكلام عليه في باب سابق. ٤

أي: العيب فيه أو نفيه، فهذا عمل من أعمال الكفر.٥ أي: التنقص في الأنساب تكبراً وتعاظماً على الناس واحتقاراً لهم. ٦

والخصلة الثانية: ((النِّياحة على الميِّت)) والنياحة معناها: إظهار الجَزَع على الميت، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه. ٤

وهو رفع الصوت بالصياح والنياحة، فلا يجوز. ٦

أي رفع الصوت بالندب، وتعداد فضائل الميت، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك. ٢

قوله: ((النياحة على الميت)). أي: أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام، لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هي الشاهد للباب. ٥

والنياحة مخالفة للصبر، والصبر الواجب فيه حبس الجوارح من لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك، وحبس اللسان عن التشكي والعويل وهذا هو النياحة. ٣

وفيه دليل على أن الصبر واجب لأن النياحة منافية له فإذا حرمت دل على وجوبه. ١

والمطلوب والواجب الصبر على موت الأقارب أو موت الأحباب.

ولا يمنع هذا أن الإنسان يتألّم ويبكي، فالبكاء لا مانع فيه، والنبي ﷺ بكى على ابنه إبراهيم، وقال: ((إن العين تَدْمَع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يُرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون)). وهذا من الرحمة، وأيضاً هذا لا يستطيع الإنسان حبسه.

فالآية دلّت على أن الصبر والرضى من خصال الإيمان، والحديث دلّ على أن الجزع من المصيبة وإظهار الجزع أنه من خصال الكفر؛ فهما متضادّان. ٤

والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: السخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدى إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، وقد يكون باللسان، كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح، كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وأشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مر مذاقه ... لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدرة وإن كان قد يحزن من المصيبة، لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمه أو أصيب بضدها، فالكل عنده سواء، لا

لأن قلبه ميت، بل لتمام رضاء ربه سبحانه وتعالى يتقلب في تصرفات الرب عز وجل، ولكنها عنده سواء، إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون في عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك، قال النبي ﷺ: ((ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفر له بها، حتى الشوكة يشاكها)) [1].

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك. ٥

وهما عن ابن مسعود مرفوعاً: ((ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)).

قوله: "ولهما" أي: البخاري ومسلم.

"عن ابن مسعود مرفوعاً" أي: إلى النبي ﷺ.

((ليس منا)) هذه الكلمة كثيراً ما تأتي عن الرسول ﷺ على معاص تصدُر من النّاس من باب التحذير منها، مثل قوله: ((من غشّنا فليس منا))، وقوله ﷺ: ((ليس منا من تشبّه بغيرنا))، ومنه هذا الحديث.

وهذه الكلمة ((ليس منا)) معناها: البراءة ممّن فعل ذلك، ولكن ليس معناها أنه يخرُج من الإسلام، وإنما معناها: التنفير من هذا العمل. وأحسن ما يُقال فيها: أنها من ألفاظ الوعيد، ولا تُفسّر، لكن مع اعتقاد أنّ هذا لا يدل على الخروج من الدين لأدلّة أخرى دلَّت على أن أصحاب الكبائر التي دون الشرك لا يخرجُون من الدين. ٤

---

[1] البخاري: كتاب المناقب/ باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ومسلم: كتاب الإيمان/باب تحريم ضرب الخدود

قوله ((ليس منا)) هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وقيل: أي: ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، لأن الفاعل لذلك ارتكب محرماً، وترك واجباً. وليس المراد إخراجه من الإسلام، بل المراد المبالغة في الردع عن الوقوع في ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته: "لست مني ولست منك"، فالمراد أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان. ١

والنياحة من الكبائر، لكنها دون الشرك؛ فلا تُخرِج من الدين.

وقوله ﷺ: ((من ضرب الخدود)) ضرب الخدود جزعاً من المصيبة كفعل الجاهلية. لأن المشروع الصبر، وهذا عكسه، وهذا من باب الغالب. ٤

قال الحافظ: "خص الخد بذلك لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله"[١].

قلت: بل ولو ضرب غير الوجه كالصدر، فكما لو ضرب الخد، فيدخل في معنى ضرب الخد، إذ الكل جزع مناف للصبر فيحرم. ١

((وشَقَّ الجيوب)) أي: جيوب الثياب؛ جزعاً من المصيبة. ٤

الجيوب جمع جيب، وهوالذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وكانوا يشقونه حزناً على الميت. ١

((ودعا بدعوى الجاهلية)) يعني: نادى عند المصيبة بالألفاظ التي تقولها الجاهلية. ٤

قال شيخ الإسلام: "هو ندب الميت"[٢]، وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور.

وقال الحافظ: "أي من النياحة ونحوها وكذا الندبةُ كقولهم: واجَبَلاه، وكذا الدعاء بالويل والثبور."[٣]

وقال ابن القيم: "الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء إلى القبائل والعصبية للأنساب، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف، والمشايخ، وتفضيل بعض على بعض في الهوى والعصبية، وكونه منتسباً إليه؛ يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية."[٤]

---

[١] فتح الباري (١٦٤/٣).

[٢] اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٤/١).

[٣] فتح الباري (١٦٤/٣).

[٤] زاد المعاد (٤٧١/٢)

قلت الصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله.١

ومن دعوى الجاهلية: أن يتلفّظ بألفاظ الجاهلية، كأن ينادي ويقول: واعضداه، وانصيراه، واكذا وكذا. وكذا إثارة العصبيات والقوميات والحزبيات، وما إلى ذلك. كل ذلك من دعوى الجاهلية. وكذا التعصب للأقوال والمذاهب التي لا دليل عليها.

قال ابن القيّم رحمه الله: "المراد بدعوى الجاهلية: كل من تعصّب إلى مذهب، أو تعصّب إلى قبيلة". فالعصبية الجاهلية والنخوة الجاهلية كلُّه يدخل في دعوى الجاهلية، فلا يجوز للمسلم أنه يتعصّب لأحد العلماء أو لأحد المذاهب ولا يقبل غير هذا المذهب أو لا يقبل غير هذا الرجل من العلماء، فهذه عصبية جاهلية. أو يتعصّب لقبيلته إذا كانت على خطأ، كما يقول الشاعر:

وهل أنا إلاَّ من غَزِيّة إنْ غَوَتْ .... غَوَيْتُ وإن تَرْشَد غزية أَرْشَد

والواجب على المسلم: أن يَتْبع الحق سواء كان مع إمامه أو مع غيره، وسواء كان مع قبيلته أو مع غيرها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥].

فلا تجوز العصبية للمذاهب، ولا تجوز العصبية للأشخاص، ولا تجوز العصبية للقبائل، وإنما المسلم يَتْبَع الحق مع من كان، ولا يتعصّب، ولا يترك الحق الذي مع خصمه. فالمسلم يدور مع الحق أينما كان، سواءً كان في مذهبه، أو مع إمامه، أو مع قبيلته، أو حتى مع عدوه. والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:١٥٢]، والنبي ﷺ يقول: ((قل الحق ولو كان مُرًّا)). ٤

والمراد بالجاهلية: ما كان قبل بِعْثة الرسول ﷺ في وقت الفترة .فلا يجوز أن نقول بعد بعثة النبي ﷺ: النّاس في الجاهلية، أو النّاس في جاهلية جهلاء. هذا لا يجوز أبداً، لأن الله رفع الجاهلية ببعثة الرسول ﷺ، ولكن: قد تبقى خصالٌ من خصال الجاهلية، فيقال -مثلاً-: هذا من الجاهلية، وهذا من خصال الجاهلية. وليس مَنْ قام به خصلة من خصال الجاهلية يكون من أهل الجاهلية. فلا يجوز إطلاق الجاهلية بعد بِعثة النبي ﷺ. ٤

وذكر هذا الأصناف الثلاثة، لأنها غالباً ما تكون عند المصائب، وإلا، فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وهذه الثلاثة من الكبائر، لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها. ٥

وقد ذكرت لكم أن كلمة ((لَيْسَ مِنّا)) تدل أن الفعل من الكبائر، ولهذا نقول: ترك الصبر وإظهار التسخط كبير من الكبائر. ٣

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر لأنها مشتملة على التسخط على الرب، وعدم الصبر الواجب والإضرار بالنفس؛ من لطم الوجه، وإتلاف المال؛ بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور، والتظلم من الله تعالى، وبدون هذا يثبت التحريم الشديد. ١

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية، مثل ضرب الأب لابنه، لكن يكره الضرب على الوجه للنهي عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة. ٥

فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد؛ لما رواه في مسنده عن أنس: "ان أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته، فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صُدْغَيْهِ وقال: وانَبِيَّاه واخليلاه واصَفِيَّاه".[١]

وكذلك صح عن فاطمة رضي الله عنها: أنها ندبت أباها ﷺ فقالت: "يا أبتاه، أجاب رباً دعاه..." الحديث.[٢]

وأعلم أن الحديث المشروح لا يدل على النهي عن البكاء أصلاً، وإنما يدل على النهي عما ذكر فيه فقط، وكذلك يدل على النهي عما في معناه كالبكاء برنةٍ، وحلق الشعر، وخمش الوجوه ونحو ذلك.

[١] رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى(٢/٢٦٥)، والإمام أحمد في المسند (٦/٣١، ٢١٩). وغيرهم وإسناده حسن.

[٢] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤١٩٣- البغا)، والإمام أحمد في المسند (٣/١٤١)

أما البكاء على وجه الرحمة والرقة ونحو ذلك؛ فيجوز، بل قال شيخ الإسلام: "البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضى بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظِّهِ منه".[1]

قلت: ويدل لذلك قوله عليه السلام لما مات ابنه ابراهيم: ((تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون)) وهو في الصحيح.[2]

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد: "أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه ونفسه تُقَعْقِعْ كأنها شَنَّةٌ، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: ((هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء))".[3] ١

وعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة)) [4]

العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك، لأنها تعقب الذنب، ولكنها لا تقال إلا في المؤاخذة على الشر. ٥

قوله ﷺ: ((إذا أراد الله بعبده الخير)) أي: من علامة إرادة الله بعبده الخير: أن يعجِّل له العقوبة على ذنوبه؛ لأن الذنوب تصدُر من الإنسان بكثرة، ليس هناك أحدٌ معصوم إلاَّ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيما عصمهم الله منه،)) كلكم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون))؛ والإنسان تصدُر منه ذنوب كثيرة ومخالفات؛ فإذا أراد الله بعبده خيراً عجّل له العقوبة على هذه المعاصي في الدنيا حتى يطهِّره، وحتى ينتقل إلى الدار الآخرة ليس عليه ذنوب فيدخل الجنة. ٤

---

[1] مجموع الفتاوى (١٢٣/٥).
[2] رواه البخاري في صحيحه (رقم ١٢٤١- البغا).
[3] رواه البخاري (٥٣٣١) ومسلم (٩٢٣).
[4] رواه الترمذي في سننه (٢٣٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٥٤-٤٢٥٥) وغيرهم وهو حديث صحيح بشواهده.

قوله: ((إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا)) قال شارح «الجامع الصغير»: "أي: بصب البلاء والمصائب عليه جزاء لما فَرَطَ من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة، كما يُعْلَمْ من مُقَابِلِهِ الآتي، ومن فعل ذلك به فقد أعظم اللطف به، حتى يكفر بالشوكة يشاكها، حتى بالقلم يسقط من الكاتب، فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه في دنياه حتى يموت على طهارة من دَنَسِه".[1] ١

وقوله: ((عجل له العقوبة في الدنيا)). كان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة، لأنه يزول وينتهى، ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: ((إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة))[2]. ٥

قلت وفي الصحيح: ((لا يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة))[3]

وفي المسند وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً ((لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)) [4].

قال شيخ الإسلام: "المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، ولأنها تقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم، ولو كان رجلٌ من أفجر الناس فإنه لابد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فيكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه.

فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات، وفعل بعض المحرمات ما يوجب

---

[1] السراج المنير شرح لجامع الصغير للعزيزي (١/٨٨)، وانظر فيض القدير للمناوي (١/٢٥٨).

[2] أخرجه البخاري ومسلم.

[3] رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/٤١) وهو حديث صحيح.

[4] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ١٠٨١١)، والإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٨٧، ٤٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٤٩٤) وغيرهم وإسناده صحيح.

له ضرراً في دينه بحسب ذلك، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب –عز وجل– رحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية على صاحبها، وإن اقترن بها للمؤمن معصية؛ فهذا مما تتنوع فيه أحوال الناس، كما تتنوع أعمالهم في العافية.

فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة عليه في دينه، وحصل له بعد ما كُفِّرَ من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة آية: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات وهذا من أعظم النعم، فاصبر واجب على كل مصاب، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك". انتهى ملخصاً.[١] ١

والعقوبة أنواع كثيرة:

منها: ما يتعلق بالدين، وهي أشدها، لأن العقوبات الحسية قد ينتبه لها الإنسان، أما هذه، فلا ينتبه لها إلا من وفقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأعلم أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومنها العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها العقوبة بالأهل، كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغير ذلك. ٥

وهناك خير أولى من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى، لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة، فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]. ٥

---

[١] مجموع الفتاوى (١٧ / ٢٦-٢٧)

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة، فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطئ أن يقول: أنا لم أخطئ، فهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة، فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنباً تكفره لكنها تلاقي قلباً تمحصه، فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لنظر هل يصبر أو لا؟ ولهذا كان أخشى الناس لله -عز وجل- وأتقاهم محمد ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان منا[1]، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند الفزع ومع هذه الشدة كان ثابت القلب ودخل عليه عبدالرحمن بن أبي بكر وهو يستاك فأمده بصره (يعني ينظر) فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وآلانته للرسول ﷺ، فأعطته إياه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استناناً أحسن منه، ثم رفع يده وقال: ((في الرفيق الأعلى))[2].

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله، وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات. فمن أُصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من مصائبه فإن يُدلّ على ربه بعمله ويُمنّ عليه به؛ فليعذر هذا.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١- أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيئاته وتعجيلاً للعقوبة في الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.

٢- قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. ٥

---

[1] البخاري: كتاب المرضي/ باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ومسلم كتاب البر والصلة /باب ثواب المؤمن.

[2] البخاري: كتاب المغازى/ باب مرض النبي ﷺ.

وقوله ﷺ: ((وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه)) ((أمسك عنه))، أي: ترك عقوبته.
والإمساك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل في شيء ما لحكمة بالغة، ففعله حكمة، وإمساكه حكمة.٥
فلا تنزل به عقوبة، مع أنه يعصي ويزني ويخالف أوامر الله سبحانه وتعالى، ومع هذا يُنَعَّم ويُصَحّ في جسمه، ولا يمرض. وهذه علامة شر، من أجل أن تبقى عليه ذنوبه.
((حتى يوافي به يوم القيامة)) يعني: يرجع إلى الله في الدار الآخرة وذنوبه عليه لم يُحَطُّ عنه منها شيء، فيعذَّب بها يوم القيامة، فدلّ هذا على أن صحّة الإنسان الدائمة ليستْ علامة خير.٤
قلت: وهذا مما يزهد العبد في الصحة الدائمة خوفاً أن تكون طيباته عُجِّلَت له في الحياة الدنيا، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه، بل جعل ثوابهم أن أسكنهم في جواره ورضي عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٤-٥٥]. ١

ودلّ هذا على أن الخير والشر كلُّه مقدَّرٌ من الله -سبحانه وتعالى- وبقضاء الله وقدره، وهو قدّر الشر لحكمة وقدّر الخير لحكمة لا يقدِّر شيئاً إلاَّ لحكمة عظيمة، ابتلاءً وامتحاناً .٤
الله يريد بعبده الخير والشر ولكن الشر المراد لله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبي ﷺ: ((والشر ليس إليك))[١]، ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة. ٥
هذا فيه بيان حكمة الله -جل وعلا- التي إذا استحضرها المصاب فإنه يعظم عنده الصبر ويتحلى بهذه العبادة القلبية العظيمة وهي ترك التسخط والرضى بفعل الله جل وعلا وقضائه؛ لأن العبد إذا أُريد به الخير فإن العقوبة تُعجّل له في هذه الدنيا؛ لأن رفع أثر العقوبة عن العبد يكون بعشْرة أشياء: ومنها أن تعجل له العقوبة في الدنيا، يعني يعاقب في الدنيا بمرض بفقد مال بمصيبة؛ لأن مخالفة أمر الله في ملكوته لا بد أن تقع له عقوبة إنْ لم يغفر الله

[١] مسلم: كتاب الصلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل.

-جل وعلا- ويتجاوز، فإذا كانت العقوبة في الدنيا فإنها أهون من أن تكون في البرزخ أو تكون يوم القيامة، ولهذا جاء في الحديث الآخر الذي رواه البخاري وغيره قال عليه الصلاة والسلام ((من يرد الله به خيرا يُصِبْ منه))، ولهذا كان بعض السلف يتهم نفسه إذا رأى أنه لم يصَب ببلاء أو لم يمرض ونحو ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحمى -مثلا- ((لا تسبوا الحمى فو الذي نفسي بيده إنها لتنفي الذنوب على العبد كما ينفي الكير خبث الحديد)) ففي المصائب نِعم، المصائب فيها نِعم على العبد، والله جل وعلا له الحكمة البالغة فيما يصلح عبده المؤمن. ٣

وفيه من الفوائد: أن البلاء للمؤمن من علامات الخير خلافا لما يظنه كثير من الناس، وفيه الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر، وفيه تنبيه على رجاء الله وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره، وفيه معنى قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].١

وقال النبي ﷺ: ((إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضي، ومن سخط فله السخط)) حسنه الترمذي.[1]

هذا حديث آخر، والمؤلف رحمه الله قرن بينهما لأن راويهما واحد وهو أنس، والذي خرّجهما واحد وهو الترمذي، فلذلك ساقهما المصنِّف سياقاً واحداً.

((إن عِظَم الجزاء)) أي: عند الله سبحانه وتعالى. ٤

((مع عِظَم البلاء)) أي: يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم، لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كُسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحداً، وفيه تسلية المصاب. ٥

[1] رواه الترمذي في سننه (رقم ٢٣٩٦)، وابن ماجة في سننه (رقم ٤٠٣١). وهو صحيح بشواهده.

فإذا اشتد المرض وكثر فيكون التكفير أكثر، وإذا اشتدت المصيبة في المال وغيره صار الجزاء أعظم والثواب أكثر. ٦

في حديث: ((إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها -أو قال: لم ينلها- بعمله؛ ابتلاه الله في جسده، أو في ولده، أو في ماله، ثم صَبَّرَهُ حتى يُبْلِغْهُ المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل))[1]. ١

وذلك أن المبتَلى إذا صبر ورضيَ بقضاء الله وقدره فإن الله يجزيه على ذلك الخير العاجل والآجل، فيجزيه الجزاء العظيم آجِلاً وعاجلاً كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١]، وهذا مع الصبر والاحتساب.

والمراد بالبلاء هنا: الابتلاء والامتحان، فيصاب الإنسان بالشدّة، ويصاب بالمرض ويصاب بضياع المال ويصاب بموت القريب. ومن النّاس من تتكاثر عليه المصائب وتتابع، وهذه علامة خير إذا كان مؤمناً وصبر. ٤

قوله: ((وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم)). أي: أختبرهم بما يُقَدِّرُ عليهم من الأمور الكونية؛ كالأمراض، وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٤] فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر، لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله، كما في الحديث: ((ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله))[2]، فهذا جزاؤه إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. ٥

قوله: ((وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم)) أي: ابتلاهم ليمحص ذنوبهم ويزيل خطاياهم حتى يلقوه سالمون من الذنوب فيدخلون الجنة من أول وهلة ومثل هذا حديث ((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه)) وفي رواية ((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه)) فإذا كان دينه قوياً شدد عليه البلاء. ٦

---

[1] رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٤٧٧/٧)، والإمام أحمد في المسند (٢٧٢/٥) والحديث صحيح بشواهده.

[2] البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم: كتاب الزكاة/باب إخفاء الصدقة.

ولما كان الأنبياء عليهم السلام أفضل الأحباب كانوا أشد الناس بلاء، وأصابهم من البلاء في الله ما لم يصيب أحداً؛ لينالوا بذلك الثواب العظيم، والرضوان الأكبر وليأتسى بهم من بعدهم، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المحن والبلايا فلا يعبدونهم. ١

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى. ٢

فإن قلت كيف يبتلي الله أحبابه؟!

قيل: لما كان أحد لا يخلو من ذنب؛ كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحاديث، وفي أثر إلهي: ((ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب))[1]، ولأنه زيادة في درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة، كما تقدم في حديث: ((إذا سبقت للعبد من الله منزلة...)) الحديث، ولأن ذلك يدعو إلى التوبة، فإن الله تعالى يبتلي العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه؛ ولهذا ذم الله من لا يستكين لربه، ولا يتضرع عند حصول البأساء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦] ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم، فهذه النعمة والتي قبلها من أعظم صلاح الدين، فإن صلاح الدين في أن يعبد الله وحده ويتوكل عليه، وأن لا تدع مع الله إلها آخر لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة.

---

[1] لم أقف عليه مسنداً، وذكره غير واحد من الأئمة قائلين: "وفي أثر إلهي": أو: "روي" ونحو ذلك

فإذا حصلت لك التوبة التي مضمونها أن تعبد الله وحده، وتطيع رسله بفعل المأمور، وترك المحظور؛ كنت ممن يعبد الله، وإذا حصل لك الدعاء الذي هو سؤال الله حاجاتك، فتسأله ما تنتفع به، وتستعيذ به، مما تستضر به؛ كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيرا ما يحصل بالمصائب. واذا كانت هذه النعم في المصائب، فأولى الناس بها أحبابه، فعليهم حينئذ أن يشكروا الله. لخصت ذلك من كلام شيخ الإسلام رحمه الله.[1] ١

وقوله: ((وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم)) هذه -أيضاً- حِكمة أخرى، وهِي أن: وجود الابتلاء والامتحان الذي يصيب المسلمين دليلٌ على محبة الله لهم، ولَمّا أحبهم ابتلاهم من أجل أن يخفِّف عنهم، ومن أجل أن ينتقلوا إليه وهم مخلِّصون من الذنوب.

ومفهوم الحديث: أن الله إذا لم يحب قوماً يُمسك عنهم الابتلاء، من أجل أن ينتقلوا إلى الآخرة بذنوبهم فيعاقَبون عليها. ٤

قوله ((فمن رضي فله الرضى)) أي: من رضي بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء؛ فله الرضى من الله جزاءا وفاقا كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] وهذا دليل على فضيلة الرضى، وهو أن لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولا يكرهه، وقد وصى النبي ﷺ رجلا فقال: ((لا تتهم الله في شيء قضاه لك))[2]، فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر في حكمة الله ورحمته، وأنه غير متهم في قضائه؛ دعاه ذلك إلى الرضى. ١

والرضا هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً؛ محبة لله وثقة به. ٢

قال ابن عون: "أرض بقضاء الله من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، وأعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضى حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك؟! ولعل

[1] مجموع الفتاوى (١١/٢٥٩-٢٦٠).
[2] رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٣١٨)، وابن أبي شيبة في مسنده، وغيرهم وهو حديث صحيح.

ما هويت من ذلك لو وفق لك؛ لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضى"[1]. ١

((فمن رضي((بقضاء الله وقدره))فله الرضا ((من الله سبحانه وتعالى. وهذا دليل على أنّ الجزاء من جنس العمل. ٤

وإذا رضي الله عن شخصاً رضي الناس عنه جميعاً، والمراد بالرضا الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: ((ومن سخط)) فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية. ٥

وقد يستدل به على وجوب الرضا، وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: "ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه"[2]. ٢

فالصبر على المصيبة واجب، والتسخط حرام، والرضا مستحب. ٨

قال شيخ الإسلام: "وأعلى من ذلك، أي: من الرضى أن يشكر الله على المصيبة لما يَرَى من إنعام الله تعالى عليه بها". انتهى.[3]

وأعلم أنه لا تنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم، فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض؛ قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله. ١

((ومن سخِط)) قال ابو السعادات: "السخط: الكراهية للشيء وعدم الرضى به" أي: من سخط أقدار الله؛ فله السخط أي: من الله، وكفى بذلك عقوبة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]. ١

((ومن سخِط)) على قضاء الله وقدره ((فله السخط)) من الله سبحانه وتعالى جزاءً وفاقاً.

---

[1] رواه ابن أبي الدنيا في (الرضا عن الله بقضائه) رقم ٦٩ عن عبدالله بن عون رحمه الله.

[2] نقله ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ١٧١) عن شيخ الإسلام.

[3] مجموع الفتاوي (١١/٢٦٠).

فهذا فيه دليل على أن الجزاء من جنس العمل، فان من رضي بالقضاء والقدر، وصبر على المصائب؛ فإن الله يرضى عنه ويحبُّه، وأن من لم يرضَ بالقضاء والقدر فإن الله يبغضه.

وهذه المصائب إنما هي ابتلاء وامتحان ليظهر الصابر من غير الصابر، وليترتّب الجزاء على ذلك من الله سبحانه وتعالى. ٤

وفيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر. ١

دل قوله ((رَضِيَ فَلَهُ الرّضَى)) يعني الرضى من الله عليه على أن الرضى عبادة؛ لأن رضى الله عن العبد إذْ رضي عنه دال على أن ذلك الفعل محبوب له، وذلك دليل أنه من العبادات، وكذلك الجملة الثانية دليل على أن السخط محرم قال ((وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخَطُ)) يعني من الله جل وعلا.

وحقيقة السخط على الله جل وعلا أن يقوم في قلبه عدم محبة ذلك الشيء وكراهة ذلك الشيء وعدم الرضى به واتهام الحكمة فيه، فمن قامت به هذه الأشياء مجتمعة فقد سخط، يظهر أثر السخط على اللسان أو على الجوارح، يظهر السخط في القلب من جهة عدم الرضى بالأوامر، عدم الرضى بالنواهي، عدم الرضى بالشرع، فيتسخط الأمر، يتسخط النهي، يتسخط الشرع، فهذا كبيرة من الكبائر ولو امتثل ذلك، فإن تسخطه وعدم الرضى بذلك قلباً دليل على انتفاء كمال التوحيد في حقه، وقد يصل بالبعض إلى انتفاء التوحيد من أصله إذا لم يرضَ بأصل الشرع وسخِطَه بقلبه واتهم الشرع أو اتهم الله جل وعلا في حكمه الشرعي. ٣

ويستفاد من الحديث:

- إثبات المحبة والسخط والرضا لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن (إذا) في قوله: ((إذا أحب قوماً)) للمستقبل، فالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفي أخر مبغضاً إلى الله، لأن الحكم يدور مع علته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيؤولون المحبة الرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إدارتها، قالوا لأن إثبات هذه الصفات يقضي النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله عز وجل على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل.

ويجب في كل صفة أثبتها لنفسه أمران:

١- إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢- الحذر من التمثيل أو التكييف. ٥

فيُستفاد من هذه النصوص التي ساقها المصنِّف فوائد كثيرة:

الفائدة الأولى: أن جميع المصائب بقضاء الله وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن:١١].

الثانية: أن الرضى بقضاء الله وقدره من الإيمان: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [التغابن:١١] يعني: يرضى ويصبر، سمى ذلك إيماناً.

الثالثة: أن الإيمان له خصال، منها :الرضى بقضاء الله وقدره، وكما قال ﷺ: ((الإيمان بِضْعٌ وسبعون شُعبة أعلاها: قولُ لا إله إلاَّ الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبةٌ من الإيمان)).

الرابعة: أن الرضى بقضاء الله وقدره يسبِّب هداية القلوب: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١].

الخامسة: يُستفاد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الطعن في الأنساب والنياحة على الميّت من خصال الجاهلية.

السادسة: أنه ليس كلُّ من اتّصف بشيء من أمور الجاهلية يكون كافراً الكفر الأكبر.

السابعة: أن الكفر أنواع؛ كفرٌ أكبر يُخرج من الملة، وكفرٌ أصغر لا يُخرِج من الملّة.

الثامنة: يُستفاد من حديث ابن مسعود: أن شق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية أنها كبائر، لأن النبي ﷺ تبرأ ممّن فعلها.

التاسعة: فيه أنه يجب على المسلم الابتعاد عن خصال الجاهلية، وأنّ كل ما كان من أمور الجاهلية فهو مذموم.

العاشرة: في حديث أنس ﵁: وصفُ الله سبحانه وتعالى بالرضى والسخط؛ وهما صفتان من صفاته سبحانه وتعالى تليقان بجلاله، ليس كرضى المخلوق ولا كسخط المخلوق.

الحادية عشرة: في حديث أنس الأول: أنّ من علامة إرادة الخير بالمؤمن: أن يُصاب في بدنه أو في ماله أو في قريبه، وأن من علامة إرادة الشر به: أن يُمسك عنه فلا يقع به مصيبة حتى يوافي بذنوبه؛ ومن هنا يؤخذ الرد على هؤلاء الذين يقولون: المسلمون لا يزالون متخلِّفين وفيهم تأخُّر، وفيهم..، وفيهم..، وفيهم المصائب. وأما الكفّار فإنهم عندهم تقدُّم وحضارة ورُقي وأسلحة، وإلى آخره. فهذا الحديث يبيِّن أنّه ليست السلامة من المصائب والسلامة من النَّكَبات دليلٌ على رضى الله سبحانه وتعالى، وإنما هذا من باب الاستدراج لهم: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وأما المسلمون فإنهم يصابون بهذه الأمور ليكفِّر الله بها عنهم، ومن أجل أن يحاسبوا أنفسهم ويرجعوا عن أخطائهم. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضي بالبلاء.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيراً مناسباً للباب. ٥

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله. المشار إليه بقوله: (هذا) هو الصبر على أقدار الله.٥

الثالثة: الطعن في النسب. وهو عيبه أو نفيه، وهو من الكفر، لكنه لا يُخرج من الملة. ٥

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية. لأن النبي ﷺ تبرأ منه. ٥

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير. وهو أن يعجل له الله العقوبة في الدنيا. ٥

السادسة: إرادة الله به الشر. أي إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة. ٥

السابعة: علامة حب الله للعبد. وهي الابتلاء. ٥

الثامنة: تحريم السخط. يعني: مما به العبد، لقوله ﷺ: ((ومن سخط، فله السخط))، وهذا وعيد.٥

التاسعة: ثواب الرضي بالبلاء. وهو رضا الله عن العبد، لقوله ﷺ: ((من رضي، فله الرضا)).٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ)

وَقَوْلُ اللَّه تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] الْآيَةُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعاً قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ((أَنا أَغْنَى الشركاَءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مرفوعاً: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟)) قَالُوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: ((الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ.

قول الشيخ رحمه الله: "باب ما جاء في الرياء"

أي: ما جاء فيه من الوعيد، وبيان أنه شرك يحبط العمل الذي خالطه. ٤

المؤلف رحمه الله تعالى أطلق الترجمة، فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه. ٥

ومناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنّ فيه بيان نوعٍ من أنواع الشرك الأصغر، وذلك أن هذا الكتاب صنّفه الشيخ رحمه الله في بيان التّوحيد وبيان ما يضادُّه من الشرك الأكبر أو ينقِّصه من الشرك الأصغر.

ولَمّا كان الشرك على نوعين: شركٌ ظاهر، وشرك خفي.

فالشرك الظاهر هو: ما يكون في الأعمال الظاهرة كالذي يذبح لغير الله أو ينذر لغير الله أو يستغيث بغير الله إلى غير ذلك من أنواع الشرك الأكبر الذي يراه النّاس ويسمعونه.

أما النوع الثاني وهو: الشرك الخفي، فهذا لا يراه النّاس ولا يعلمونه؛ لأنه في القلوب.

فالشرك الأول يكون في الأعمال الظاهرة، وهذا في النيّات والمقاصد القلبية التي لا يعلمها إلاَّ الله سبحانه وتعالى. فلهذا عقد له الشيخ رحمه الله هذا الباب.

فكلُّ ما سبق من أنواع الشرك فهو من الشرك الظاهر، ولهذا يقول العلاّمة ابن القيم رحمه الله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتّخاذ النِّدِّ للرحمن أيًّا... كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثمّ يخافه... ويحبه كمحبة الديّان

فعبادة الأصنام، وعبادة الأضرحة، وعبادة الأشجار والأحجار، كل هذا شرك ظاهر.

أما الرياء فإنه شرك خفي لأنه في المقاصد والنيّات التي لا يعلمها إلاَّ الله سبحانه وتعالى. ٤

تعريف الرياء :

مصدر راءى يرائي، أي: عمل ليراه الناس. ٥

والرياء مأخوذٌ من: الرؤية، وذلك بأن يزيِّن العمل ويُحَسِّنه من أجل أن يراه النّاس ويمدحوه ويُثنوا عليه، أو لغير ذلك من المقاصد، فهذا يسمّى رياءً، لأنه يقصد رؤية النّاس له. ٤

والرياء حقيقته من الرؤية وهي البصرية، وذلك أن يعمل عمل العبادة لكي يُرى أنه يعمل، يعمل العمل الذي هو من العبادة إما صلاة أو تلاوة أو ذكر أو صدقة أو حج أو جهاد أو أمر ونهي أو صلة رحم أو نحو ذلك لا لطلب ما عند الله؛ ولكن لأجل أن يُرى لأجل أن يراه الناس على ذلك فيثنوا عليه به، هذا هو الرياء. ٣

أو ليحصل به غرضاً دنيوياً. ٦

ويقال مراءاة كما يقال: جاهد جهاداً ومجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع، وفي الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: ((من راءى راءى الله به، ومن سَمَّعَ سَمَّع الله به))[1]. ٥ أي: يفضحه.و الجزاء من جنس العمل. ٦

والفرق بين الرياء والسمعة: أن الرياء فيما يُرى من الأعمال التي ظاهرها لله وباطنها لغيره كالصلاة والصدقة. أما السمعة فهي لِمَا يُسْمَع من الأقوال التي ظاهرها لله والقصد منها لغير الله كالقراءة والذكر والوعظ وغير ذلك من الأقوال، وقصد المتكلِّم أن يسمع النّاس كلامه فيثنوا عليه، ويقولوا هو جيِّد في الكلام، جيِّد في المحاورة، جيِّد في الخُطْبة، إنه حسن الصوت في القرآن، إذا كان يحسِّن صوته بالقرآن، لأجل ذلك فإذا كان يُلقي المحاضرات والندوات والدروس من أجل أن يمدحه النّاس فهذا سُمعة.٤ ويدخل فيه أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس. ١

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ١٤٣]. ٥

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق / باب الرياء والسمع، ومسلم: كتاب الزهد / باب تحريم الرياء.

والرياء على قسمين:

القسم الأول: شركٌ أكبر وهو: إذا كان قصد الإنسان بجميع أعماله مراءاة النّاس، ولا يقصد وجه الله أبداً، وإنما يقصد العيش مع المسلمين، وحقن دمه، وحفظ ماله، فهذا رياء المنافقين، وهو شركٌ أكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً (١٤٢)﴾ [النساء: ١٤٣].، وهذا لا يصدر من مؤمن. ٤

رياء المنافقين بأن يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر لأجل رؤية الخلق، وهذا منافي للتوحيد من أصله وكفر أكبر بالله جل جلاله لهذا وصف الله المنافقين بقوله ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ يعني الرياء الأكبر الذي هو إظهار أصل الإسلام وشعب الإسلام وإبطان الكفر وشعب الكفر. ٣

القسم الثاني: قد يصدر من مؤمن، ويكون في بعض الأعمال، وهو: أن يكون العمل فيه قصدٌ لله وفيه قصدٌ لغير الله.

وهذا هو الشرك الأصغر. ٤

الرياء من الشرك الأصغر، لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر، فقال: "مثل يسير الرياء"، وهذا يدل على أن الرياء كثير قد يصل إلى الأكبر. ٥

وذلك الشرك منافي لكمال التوحيد، والله جل وعلا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦] على اختيار من قال إن قوله ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ يدخل فيه الشرك الخفي والأصغر. ٣

وهذا النوع من الرياء له أربعة حالات:

الحالة الأولى: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله، فهذا شرك والعبادة باطلة.٥ فمن صلّى لله وهو يحب أن يُمدح وأن يُثنى عليه، واستمرّ معه الرياء إلى آخر صلاته؛ فهذا لا تُقبل منه صلاته، بدليل الحديث الآتي.

الحالة الثانية: أن يكون أصل العمل لله ثمّ يطرأ عليه الرياء. فهذا إن تاب منه صاحبه في الحال ودفعه، وأخلص العمل لله؛ فإنه لا يضر صاحبه قولاً واحداً، لأن أصل العمل لله وطرأ الرياء، ثمّ دفعه وأخلص العمل لله وعاد إلى الإخلاص، فهذا لا يضرُّه. ٤

لقول النبي ﷺ: ((إن الله تجاوز عن آمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تتكلم))[١].

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه، فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً . ٥

الحالة الثالثة: أن يطرأ في أثناء العمل ويستمر معه. فهذا موضع خلاف بين أهل العلم[٢]؛ منهم من قال: إنه يحبط العمل كالنوع الأول، ومنهم من قال: إنه يثاب على قدر نيّته لله في هذا العمل. ذكر هذا التفصيل الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين. ٤

مثال ذلك رجل عهده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصاً وراءى في الخمسين الباقية، فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة ينبني أخرها على أولها، فهي على حالين.

أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه، فحينئذ تبطل جميع العبادة لأن آخرها مبني على أولها ومرتبط به.

---

[١] البخاري: كتاب العنق/ باب الخطأ والنسيان، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب تجاوز الله عن حديث النفس.

[٢] وذكره ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو عمل مرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج فأما مالا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وانفاق المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج الى تجديد نية.انظر كلام ابن جرير الطبري في: تهذيب الآثار (٢/٨٠٢-٨٠٣)

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فأطمأن لذلك ونزع إليه، فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الرابع: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة، فإنه لا يؤثر عليها شيئاً، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان، كالمن والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. ٥

وعكس الرياء الإخلاص لله تعالى ويعني: إفراده تعالى بالقصد في الطاعة، وتصفيته من ملاحظة المخلوقين. ٩

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضاً أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبي ﷺ ((من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن)) وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: ((تلك عاجل بشري المؤمن))[1]. ٥

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] الآية.

وتمام الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف:١١٠] هذه الآية ختام سورة الكهف.

﴿قُلْ﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾، فالرسول ﷺ بشر، وكلُّ الرسل من البشر.

فالرسل قسمان: رسلٌ من الملائكة ورسلٌ من البشر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

---

[1] الأمام أحمد في "المسند" (١٨/١، ٢٦)، والترمذي (كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة)، والحم وصححه ووافقه الذهبي (١٢٥/١)، وصححه أحمد شاكر (١١٤).

فالرسل من الملائكة يكونون واسطة بين الله وبين الرسل من البشر، لأن البشر لا يطيقون مقابَلة الملك ورؤيته على صورته الملَكية، وإنما يطيقون رؤية البشر الذي هو مثلهم، ولذلك يبعث الله الرسل من البشر إلى البشر، لأن هذا مقتضى رحمته بعباده، من أجل أن يفقهوا عنهم، ويتعلّموا منهم ويألفوهم، ولو كانوا من الملائكة ما استطاعوا أن يروهم، لأن صورة الملَك مخالِفة لصورة البشر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ يعني: ليس لي من الربوبية شيء ولا من العبادة شيء.

﴿أَنَا بَشَرٌ﴾ عبدٌ من عباد الله.

فهذا فيه: ردٌّ على الذين يغلون في حق الرسول ﷺ، ويدعونه من دون الله، ويستغيثون به من دون الله، أو يقولون: إنه مخلوقٌ من نور، أو من كذا وكذا، ولم يُخلق ممّا خُلق منه بنو آدم وأنه مخلوق قبل آدم.

وهذا -والعياذ بالله- من أعظم أنواع الغلو والكفر بالله عزّ وجلّ. ٤

وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِثْلُكُمْ﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية. ٥

ثمّ قال: ﴿مِثْلُكُمْ﴾ يعني: مثلكم في أمور البشريّة، فهو بشر يجوع، ويمرض، ويتعب في السفر مثل البشر وتجري عليه العوارض البشرية كما تجري على البشر، فيُصيبه ﷺ الهم، ويصيبه الحَزَن، ويصيبه ما يصيب البشر: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل:١٢٧]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف:٦]، فهو يهْتَمُّ ويحزن لما يرى من مخالفة النّاس لعبادة الله سبحانه وتعالى، لأنه يريد للناس الخير، ويريد لهم النجاة، فيُحزنه إذا رآهم على سبيل الهلاك لكمال شفقته ﷺ.

وإنما امتاز-عليه الصلاة والسلام- عن البشر بالرسالة والفضيلة وكمال العبودية لله، فهو أكمل الخلق عبودية لله، وأخشاهم لله، وأتقاهم له.

﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ من الله سبحانه وتعالى بواسطة جبريل عليه السلام كغيري من الرسل. فكل ما جاء به من الشرع وحي من الله.

﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني: معبودكم بحق .فالإله معناه: المعبود.

والمعبود بحق هو الله وحده. وما سواه فهو معبود بالباطل كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

فهذا فيه: أن زبْدة رسالة الرسول وأصل دين الرسول والذي جاء به وبدأ به هو: التّوحيد والإنذار عن الشرك، وكلُّ الرسل كذلك أول ما يبدؤون بالدعوة إلى التّوحيد وإنكار الشرك.

وهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون في هذا الزمان: إن الرسل جاءوا لتحقيق الحاكمية في الأرض.

وهذا كلام محدَث باطل، فالرسل جاءوا لتحقيق العبودية بجميع أنواعها لله عزّ وجلّ.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً ﴾ [النساء:٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إليه أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء:٢٥]، هذا هو الذي جاءتْ به الرسل، ويدخل فيه بقية أوامر الدين ومنها الحاكمية، أما أن تُجعل هي الأصل فهذا باطل، وهذا معناه: إهمال التّوحيد وعدم الاهتمام بأمر الشرك وعدم الالتفات إليه، وأن الرسل جاءوا لطلب الحكمة والرئاسة.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ معناه: يخشى ويخاف. ٤

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ أي: من كان يخاف لقاء الله يوم القيامة. ١

قال سعيد بن جبير: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: "من كان يخشى البعث في الآخرة." رواه ابن أبي حاتم[١]. ١

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمل أن يلقي ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة، لأن اللقيا على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ولذلك قال مفرعاً على ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ...﴾ الآية[الانشقاق: ١٠].

---

[١] انظر تفسير ابن أبي حاتم (٢٣٩٥/٧)، والدر المنثور (٤٧٠/٥)

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر بعض أهل العلم. ٥

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: يؤمِّل رؤية الله يوم القيامة، لأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، ويتنعّمون برؤيته ﷺ أعظم مما يتنعّمون بنعيم الجنة." ٤

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ أي: من كان يريد أن يلقي الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه، فليعمل عملاً صالحاً: والعمل الصالح ما كان خالصاً صواباً.

وهذا وجه الشاهد من الآية.٥

لأنه لا يمكن أن تحصُل هذه الرؤية إلاَّ لمن عمل عملاً صالحاً.

والعمل لا يكون صالحاً إلاَّ إذا توفّر فيه شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله عزّ وجلّ من الرياء والسمعة، ومن جميع أنواع الشرك الأكبر والأصغر. ٤

فالخالص: ما قصد به وجه الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: ((أنما الأعمال بالنيات))[1]. ٥

والشرط الثاني: أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، خالياً من البدع والمحدَثات والخُرافات.٤

والصواب: ما كان على شريعة الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد))[2]. ٥

أما إنِ اختلّ شرطٌ من هذين الشرطين فليس عملاً صالحاً، وإنما هو عملٌ باطل. ٤

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال، فالأول: ميزان الأعمال الباطنة. والثاني: ميزان الأعمال الظاهرة. ٥

فإن اختلّ الشرط الأول، صار العمل حابطاً لما دخله من الشرك.

---

[1] بالبخاري: كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب إنما الأعمال بالنيات.

[2] باليخاري: كتاب البيوع/ باب النجش، ومسلم: كتاب الأقضية/باب نقص الآحكام.

وإنِ اختلّ الشرط الثاني صار بدعاً ومحدَثات ومخالَفات فهو مردود باطل، لقوله ﷺ: ((من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))، وفي رواية: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)). ٤
فلا يكون العمل صالحاً إلاَّ إذا توفّر فيه هذان الشرطان كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]. قال الفُضيل بن عياض رحمه الله: "أخلصه وأصوبه"، قالوا :يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟، قال: "أخلصه: أن يكون خالصاً لوجه الله، وأصوبه: أن يكون صواباً على سنة رسول الله، فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، وإنما يُقبل إذا كان خالصاً صواباً".

﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ ومن ذلك: أن يرائي بعمله، أو يسمّع بعمله، فإنه إذا راءى بعمله، أو سمّع به، أبطله الله وردّه عليه. ٤
قال ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ هذا نهي، والنهي هنا عام لجميع أنواع الشرك التي منها شرك الرياء، ولهذا يستدلّ السلف بهذه الآية على مسائل الرياء كما أوردها الإمام رحمه الله تعالى هنا؛ لأنه قال ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ يعني بما يشمل شرك المراءاة، فإن الرياء شرك وقوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ وهذا عموم يعم أنواع الشرك جميعاً؛ لأن ﴿يُشْرِكْ﴾ نكرة جاءت في سياق النهي فعمت أنواع الشرك، وقوله ﴿أَحَدًا﴾ يعم جميع الخلق بمراءاةٍ أو بتسمع أو بغير ذلك. ٣
وقوله: ﴿أَحَداً﴾ نكرة في سياق النهي، تعمُّ كلَّ أحد، فالله لا يقبل أن يُشرك معه أحد لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الأولياء والصالحين، ولا من الأحجار والأشجار، ولا من الجن، ولا من الإنس.
فهذا فيه ردٌ على الذين يقولون: إنما الشرك عبادة الأصنام فقط، أما أن نتقرَّب إلى الله ونتوسّل إلى الله بأولياء وعبادٍ صالحين، فهذا ليس مثل عبادة الأصنام.

وهذا باطل، لأن الله يقول: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾، وهو عام يشمل كلُّ من عبد مع الله، سواءً كان من الجن، أو من الإنس، أو من الملائكة، أو من الأنبياء والرسل، أو من الصالحين والأولياء، أو أيًّا كان، فالله لا يقبل أن يُشرك معه في عبادته أحد كائناً من كان، ولا تفريق في ذلك بين الأصنام وبين الأولياء والصالحين والأضرحة كله داخل في قوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾. ٤

والشاهد من الآية: أن الرياء من الشرك، فيكون داخلاً في النهي عنه.

وفي هذه الآية دليل على ملاقاة الله تعالى، وقد استدل بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤية الله، لأن الملاقاة معناها المواجهة.

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يستحق أن يعبد، لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.٥

وفي الآية دليل على الشهادتين، وأن الله تعالى فرض على نبينا أن يخبرنا بتوحيد الإلهية، وإلا فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه.١

وفيها: أن من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر: أن لا يشرك بعبادة ربه أحداً.

ففيه: التصريح بأن الشرك الواقع من المشركين إنما هو في العبادة لا في الربوبية.

وفيها: الرد على من قال: أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نتشفع بصالح، لأنه قال ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ فليس بعد هذا بيان.١

وفيها: أن أصل دين النبي ﷺ الذي بعث به هو الإخلاص كما في هذه الآية، وقوله ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)﴾ [هود:١-٢] وذلك هو دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إليه أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء:٢٥] وذلك هو الحنيفية الإبراهيمية جعلنا الله من أهلها بِمَنِّهِ وكرمه.١

<u>عن أبي هريرة مرفوعاً: ((قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاًء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)). رواه مسلم.</u>[1]

قوله: "قال الله تعالى" هذا حديث قدسي، والحديث القدسي: ما يرويه النبي ﷺ عن ربّه عزّ وجلّ، والقدسي: نسبة إلى القدْس، وهو التطهير والتنزيه، لأن الله مقدَّسٌ ومنزّهٌ عن صفات النقص.

والحديث القدسي: ما كان من كلام الله عزّ وجلّ لفظه ومعناه ورواه عنه رسوله ﷺ. فالفرق بينه وبين الحديث النبوي:

أن الحديث القدسي: ما كان لفظه ومعناه مرويّاً عن الله سبحانه وتعالى.

وأما الحديث النبوي فهو: ما كان معناه من الله ولكن لفظه من الرسول ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم:٣-٤].

فقوله: "قال الله تعالى" بهذا فيه إثبات أن الله يتكلّم كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

((أنا أغنى الشركاًء عن الشرك)) الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عبادة خلقه، وإنما أمرهم بعبادته لمصلحتهم هم، لأنهم محتاجون إلى الله عزّ وجلّ ولا يقربهم من الله إلاَّ العبادة، فعبادتهم لله من أجل مصلحتهم، من أجل أن يغفر الله لهم، وأن يرزقهم، وأن يُدخلهم الجنة، فالمصلحة من عبادتهم عائدةٌ إليهم، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنما هو النافع الضار، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، ويقول سبحانه وتعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جميعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾ [إبراهيم:٨].

وفي الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه: أن الله سبحانه وتعالى يقول: ((يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخِركم وإنْسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في

---

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٩رقم ٢٩٨٥)

ملكي شيئاً، ولو كان أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً)).

إذاً، فعبادة النّاس لله يرجع ثوابها ويرجع خيرها إليهم، أما الله جل وعلا فهو غنيٌّ عنها، ومن باب أولى: من عمل عملاً أشرك مع الله فيه فإنه سبحانه وتعالى غنيٌّ لا يقبل ما فيه شرك، وإنما يتقبّل الخالص لمصلحة العباد.

وهذا يدخل فيه الرياء، فمن عمل عملاً ودخله الرياء والقصد لغير الله سبحانه وتعالى فإن الله يردُّه عليه ولا يقبله منه.

وهذا وجه الشاهد من الحديث للباب. ٤

قوله: ((أنا أغنى الشركاًء عن الشرك)). قوله ((أغنى)). اسم تفضيل، وليست فعلاً ماضياً، ولهذا أضيفت إلى الشركاًء.

يعني: إذا كان بعض الشركاًء يستغني عن شركته مع غيره، فالله إغنى الشركاًء عن المشاركة. ٥

ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاًء، فقد تقع للمفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه؛ كقوله تعالى ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩] وقوله تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. ١

فالله لا يقبل عملاً له فيه شرك أبداً، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه خالق وحده، فكيف تصرف شيئاً من حقه إلى غيره! فهذا ليس عدلاً، ولهذا قال الله عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فالله الذي خلقك وأعدك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم. ٥

قوله: ((عملاً)). نكرة في سياق الشرط، فتعم أي عمل من صلاة، أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره. ٥

((عَمَلاً)) هذه نكرة جاءت في سياق الشرط فعمت جميع الأعمال -الأعمال البدنية والأعمال المالية والأعمال التي اشتملت على مال وبدن-؛ البدنية كالصلاة والصيام، والمالية كالزكاة والصدقة، والمشتملة على بدن ومال كالحج والجهاد ونحو ذلك، هذا يعم الجميع ((مَنْ عَمِلَ عَمَلاً)) يعني أنشأه، ((أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي))؛ ٣ لما كان المرائي قاصداً بعمله الله تعالى وغيره كان قد جعل الله تعالى شريكاً. ١

جعله لله ولغير الله جميعاً فإن الله جل وعلا أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل إلا ما كان له وحده سبحانه وتعالى. ٣

وفي قوله: ((تركته وشركه)) دليل على أن الشرك يُحْبِط العمل سواءً كان أكبر أو أصغر.

والشاهد منه للباب: أن الرياء نوعٌ من الشرك يرد العمل الذي خالطه على صاحبه، ولا يقبله الله.٤

هذا بيان براءة الله من الأعمال التي فيها شرك و أن الله لا يقبل عملاً فيه شرك لغيره، و في لفظ ((أنا بريئ منها بل هي لمن أشركه))[1] فهذا يدل على وجوب الإخلاص.٦

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله، لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه. ٥

وحديث الضحاك بن قيس مرفوعاً: ((إن الله عز وجل يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذا لله والرحم، فإنها للرحم، وليس لله منه شيء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم، فإنه لوجوهكم وليس لله منه شيء))[2] رواه البزار وابن مردويه والبيهقي بسند قال المنذري "لا بأس به". ١

---

[1] قلت فهذا الحديث يدل على مسائل: منها: أن الشرك ليس فقط محصوراً في الربوبية كما يظنه بعض الناس، بل هو يقع في الأعمال، ثانياً: أن المشرك قد يعبد الله ويعبد معه غيره، وهذا فيه رد على الذي يقول إن المشرك الذي لا يعبد الله أصلاً، وهذا رده مبين في باب إيمان المشركين بالله وعبادتهم له وأن ذلك لم ينفعهم ولم يخرجهم من دائرة الكفر لأنهم لم يأتوا بلازمه من توحيد العبادة.

[2] (٣) رواه البزار في مسنده (رقم ٣٥٦٧)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/٣٢)، والدارقطني في سننه (١/٥١)، وابن مردويه - كما في الدر المنثور (٤٧٢/٥) والبيهقي في الشعب (٣٣٦/٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/٢٨١)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/٩٠) وإسناده صحيح وانظر: الصحيحة (رقم ٢٧٦٤) لكن قوله: «يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله...» إلى آخره ليس من الحديث المرفوع، بل هو مدرج من قول الضحاك ﵁ كما بينه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ورواه موقوفاً: أي أبي شيبة في المصنف (٧/١٣٧)، وابن عساكر (٢٤/٢٨٢) وإسناده

إذا تبين هذا؛ فقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد بالعذاب عليه، قال الله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥)﴾[هود:١٥] والآية بعدها.

وروى مسلم في صحيحه حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: المقاتل ليقال جريء، والمتعلم ليقال عالم، والمتصدق ليقال جواد.[١]

ويستفاد من هذا الحديث :

١- بيان غنى الله تعالى، لقوله: ((أنا إغني الشركاًء عن الشرك)).

٢- بيان عظم حق الله وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله في حقه.

٣- بطلان العمل الذي صاحبه الرياء، لقوله: ((تركته وشركه)).

٤- تحريم الرياء، لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب، وما أوجب الغضب، فهو محرم.

٥- أن صفات الأفعال لا حصر لها، لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولا يزال فعالاً. ٥

وعن أبي سعيد مرفوعاً: ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟)) قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ((الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجل)).[٢] رواه أحمد.

صحيح وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/٢٣): «رواه البزار بإسناد لا بأس به، والبيهقي لكن الضحاك بن قيس مختلف في صحبته، والصواب أنه صحأبي وانظر: الإصابة (٣/٤٧٨).

[١] رواه مسلم في صحيحه (رقم ١٩٠٥).

[٢] رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٠)، وابن ماجه في سننه (رقم ٤٤٢٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (رقم ١٧٨١)، وابن عدي في الكامل (٣/١٧٤)، وابن أبي حاتم- كما في تفسير اين كثير (٩/٣٢٤) -، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ١٨٣٢)، ورواه مختصرا: البزار في مسنده (رقم ٢٤٤٧-كشف الأستار)، والطبري في تهذيب الآثار (٢/٧٩٤ – مسند على)، والحاكم في المستدرك

قوله: "وعن أبي سعيد" أبو سعيد هو أبو سعيد الخدري، مالك بن سِنان الخُدْري الصحابي الجليل المشهور، رضي الله تعالى عنه.

"مرفوعاً" المرفوع: ما كان من كلام النبي ﷺ.

قوله ﷺ: ((ألاَّ أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدّجال؟)) هذا الحديث له سبب وهو: أنّ النبي ﷺ خرج إلى أصحابه وهم يتحدّثون عن الدجال وعن فتنته، وكانوا خائفين منه، فقال: ((ألا أنبِّئكم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ ((الحديث.

فأجابوا و"قالوا: بلى" وهذا فيه: مشروعية التعليم عن طريق السؤال والجواب، لأنه يكون أوقع في الذهن، فإذا أراد أن يعلِّم أصحابه شيئاً مهمًّا ألقاه على طريقة السؤال حتى يتطلّعوا إلى الجواب ثمّ يُلقي عليهم الجواب.

قال: ((الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّن صلاته لِمَا يرى من نظر رجل إليه)) هذا فيه: أن الرياء شركٌ خفي، ووجهُ كونه خفياًّ: أنه في النيّات والمقاصد وأعمال القلوب، وهذه لا يعلمها إلاَّ الله سبحانه وتعالى، لا أحد يعلم النيّات ويعلم المقاصد إلاَّ الله سبحانه وتعالى.
٤

قوله: الشرك الخفي سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله. ٢

على الصحيحين (٤/٣٢٩)، وغيرهم من طريق كثير بن زيد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده رضي الله عنه وصححه الطحاوي والحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٢٣٧)، وهو حديث حسن.

وروى ابن خزيمة في صحيحه معناه عن محمود بن لبيد، قال: خرج النبي ﷺ فقال: ((يا أيها الناس، إياكم وشرك السرائر))، قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر ؟، قال: ((يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر))[١].

وعن شداد بن أوس قال: "كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ: الشرك الأصغر" [٢]رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن جرير في التهذيب والطبراني والحاكم وصححه. فظاهره أنه من الأصغر مطلقاً وهو ظاهر قول الجمهور.

وقال ابن القيم: "وأما الشرك الأصغر؛ فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل (ما شاء الله وشئت)، (وهذا من الله ومنك)، (وأنا بالله وبك)، (وما لي إلا الله وأنت)، (وأنا متوكل على الله وعليك)، (ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا)، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده." انتهى.[٣] ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء فدل على أن كثيره أكبر.

وضد الشرك الأكبر والأصغر: التوحيد والإخلاص، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة باطناً وظاهراً، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[الزمر: ١١] وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر ١٤].١

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلً﴾ [الملك: ٢] قال: "أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن

---

[١]رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٢٧/٢)، وابن خزيمة في صحيحه (رقم ٩٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٣١٤١)، وإسناده صحيح.

[٢]رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص - كما في الدر المنثور: (٤٧٠/٥)، والبزار في مسنده رقم (٣٤٨١)، والطبراني في المعجم الكبير. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وإسناده حسن.

[٣]مدارج السالكين (٣٤٤/١)، وانظر: إغاثة اللهفان (٥٩/١).

صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صوابا، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة. ٢

قوله: ((أخوف عليكم عندي)). أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنه في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك، لأن التخلص منه صعب جداً، ٥

إنما كان الرياء كذلك لخفائه، وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما يزينه الشيطان والنفس الأمارة في قلب صاحبه. ١

ولذلك قال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص"، وقال النبي ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه))[١]، ولا يكفي مجرد اللفظ بها، بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله عز وجل. ٥

هذا فيه بيان أن هذا النوع من الشرك هو أخوف من المسيح الدجال عند النبي ﷺ على هذه الأمة؛ ذلك أن أمر المسيح أمر ظاهر بيّن والنبي عليه الصلاة والسلام بين ما في شأنه وبين صفته وحذر الأمة منه وأمرهم أن يدعوا آخر كل صلاة بالاستعاذة من شرّ المسيح الدجال ومن فتنة المسيح الدجال؛ لكن الرياء هذا يعرض للقلب كثيراً، والشيطان يأتي إلى القلوب، وهذا الشرك يقود العبدَ شيئاً فشيئاً عن مراقبة الله جل وعلا ويتجه إلى مراقبة المخلوقين، لذلك صار أخوف عند النبي ﷺ من المسيح الدجال. ٣

قال الطيبي: "وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يبتلى به العلماء والعباد، والمشمرون عن ساق الجدِّ لسلوك طريق الآخرة، فانهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات؛ عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة

---

[١] البخاري: كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار.

على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العلم والعمل، فوجدت مَخْلَصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ولم يقتنع باطلاَّع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحببت مدحهم، وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل، فأصابت النفس في ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات.

وهو يظن أن حياته بالله تعالى وبعباداته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركَهِا العقول النافدة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة" انتهى كلامه[١]. ١

قوله: ((يقوم الرجل، فيصلي، فيزين صلاته)). يتساوي في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمي مفهوم اللقب، أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: ((فيزين صلاته)). أي: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير ونحو ذلك. ٥

وفي الحديث دليلٌ على خطورته، لأن النبي ﷺ خافه على أفضل هذه الأمة وهم الصحابة، فكيف بغيرهم، وأنه ﷺ يخافه عليهم أشد مما يخاف عليهم من فتنة المسيح الدّجال، لأنه قَلّ من يسلم منه. ٤

ويقول الله يوم القيامة للمرائين: ((اذهبوا إلى من كنتم ترائون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء))[٢] وهذا يدل على خطورة الرياء خاصة على العباد. فخاف على الصحابة وهم أفضل الناس، لأن الرياء يقع في الصالحين ويبتلون به كغيرهم ويتساهلون به.

---

[١] شرح المشكاة للطيبي (١٠/١٢)

[٢] ولفظه: ((إن أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر))، قالوا: و ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: ((الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوكم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟))

والدجال ممكن أن يعرف بعلامات لكن الشرك الخفي أشد منه لانه يكون في القلوب، ولا يطلع عليه الناس لكن قد يعرف بعلامات تظهر على صاحبه ويقول النبي فيما صح عنه ((وأخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) فسئل عنه قال ((الرياء...)). ٦

أما المسيح الدجال مع عِظَم فتنته -وقانا الله وإيّاكم من فتنته- فإنما ضرره على الذين يعاصِرونه ويخرج وهم أحياء، أما الرياء فهذا خطره على الجميع في كل عصر، في كل وقت.

والمسيح الدجّال هو: مسيح الضّلالة الذي يخرُج في آخر الزمان، وخروجه من علامات الساعة، وسُمي بالمسيح لأنه ممسوح العين، أعور، وقيل: سمّي بالمسيح لسُرعة سيره في الأرض، يعني: يمسح الأرض بسرعة، وهو: مسيح الضلالة، الأعور الدجّال، وما من نبي إلاَّ حذّر أمته من الدجّال، وكان تحذير نبيّنا ﷺ أكثر وأشد من تحذير من سبقه، لأنه أقرب إلى عهده ممن سبقه، فهو يخرج في آخر الزمان، ويتبعه اليهود، ثمّ ينزل المسيح عيسى ابن مريم –عليه الصلاة والسلام- مسيح الهداية فيقتل هذا الدّجال بباب لُدٍّ- في فلسطين، وعند ذلك يكفي الله المسلمين شرّه، وعند ذلك ينتصر المسلمون على اليهود، ويظهر حكم الإسلام في الأرض، ويظهر الحق، لكن بعد المحنة وبعد الشدّة.

والنبي ﷺ شرع لنا أن نستعيذ منه في كل تشهُّد أخير في الصلاة، فقال: ((استعيذوا بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)).

فهذه النصوص- الآية والحديثان- يدلان على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: الآية تدلّ على أن الرسول ﷺ بشر، ليس له من الربوبية والألوهية شيء، ففيه: الرد على الذين يغلون في حق النبي ﷺ، ويعتقدون فيه شيئاً من صفات الربوبية، ويتعلّقون به ﷺ من دون الله بالدعاء والاستغاثة وطلب الحاجات، وتفريج الكربات، وهذا شركٌ أكبر.

المسألة الثانية: يُستفاد من الآية مسألة عظيمة وهي: أن الرسول ﷺ بُعث بالدعوة إلى التّوحيد والنهي عن الشرك بالله عزّ وجلّ، كمُهِمّة غيره من الأنبياء والمرسلين. وهذه هي المهمّة العظمى، وهي قضية القضايا.

المسألة الثالثة: تدُلُّ الآية الكريمة على وجُوب الإخلاص في العمل لله، وهذا محل الشاهد منها للباب.

المسألة الرابعة: في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عبادة الخلق، ولو أشرك النّاس كلهم، أو كفروا كلهم، لم ينقُص ذلك من ملكه شيئاً .

المسألة الخامسة: في حديث أبي هريرة: التحذير من الشرك في العمل، وأنه سببٌ لِرَدِّه وعدم قَبوله سواء كان شركاً أكبر أو شركاً أصغر، ومنه الرياء.

المسألة السادسة: فيه إثبات أن الله جل وعلا يتكلّم كما يشاء سبحانه وتعالى، والكلام ثابتٌ له سبحانه، صفةٌ فعليّة كسائر صفاته الفعلية تليق بجلاله، ليس مثل كلام المخلوقين، بل هو كلامٌ يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

المسألة السابعة: في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: التحذير من الرياء، وبيان تفسيره، فإن النبي ﷺ فسّره في قوله: ((يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّن صلاته لِمَا يرى من نظر رجل إليه)).

المسألة الثامنة: في حديث أبي سعيد: أن الشرك ينقسم إلى شرك ظاهر وشرك خفي، حيث قال ﷺ: ((الشرك الخفي)) فهذا دليل على أنّ هناك شركاً ظاهراً، وهو الشرك في الأعمال الظاهرة كالركوع والسجود والدعاء والذبح والنذر. فإذا صرفت هذه العبادات لغير الله صار شركاً ظاهراً.

أما الرياء فإنه شركٌ خفي يكون في القلوب والمقاصِد، ولهذا جاء في الحديث: ((الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صَفاةٍ سوداء في ظُلمة الليل))، وكفّارته أن يقول: ((اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم)).

وكان الصحابة يخافون من هذا الشرك.

وهكذا كلما قويَ إيمان العبد قويَ خوفه من الرياء، وخوفه من جميع الشرك. ٤

وفي الحديث من الفوائد: شفقته ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، والحذر من الرياء، ومن الشرك الأكبر. ١ فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره. ٢

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب، أنه تعالى خير الشركاً.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف. وسبق الكلام عليها. ٥

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله. وذلك لقوله: ((تركته وشركه))، وصار عظيماً لأنه ضاع على العامل خساراً، وفحوص الحديث تدل على غضب الله عز وجل من ذلك. ٥

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى. يعنى الموجب للرد هو كمال غنى الله عز وجل عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه. ٥

الرابعة: أن من الأسباب، أنه تعالى خير الشركاًء. أي: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً، أن الله خير الشركاًء، فلا ينازع من جعل شريكاً له فيه. ٥

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء. وذلك لقوله ﷺ: ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال)). وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه، فالخوف على من بعدهم من باب أولى. ٥

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء، فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال. ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال، لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته. ٥

هناك عدة أمور يمكن أن تكون وقاية بإذن الله عن الوقوع في الرياء، وهي أيضاً علاج لمن وقع فيه وهي كالتالي:

١- أن يعلم الإنسان أنه مخلوق في هذه الدنيا لعبادة ربه جل شأنه، ولم يخلق ليرائي الناس.

٢- أن يجزم أن البشر الذي يرائي من أجلهم عبيد مثله، ولا يملكون شيئاً إلا بإذن الله، وأن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء أو يضروه فلا يملكون ذلك إلا إن قدره الله تبارك وتعالى، كما جاء في الحديث الصحيح: ((وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.)) [1]

٣- أن يدرك حقيقة الشيطان بأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويسعى لإغواء بني آدم، فيحذر أشد الحذر من مزالقه، فالمسلم أقوى منه، ولكن قد يكون الشيطان أطول نفساً.

٤- أن يستشعر المسلم أن العمل إذا خالطه الرياء وسكن له لم يقبل منه عند الله، وقد لا يحمده الناس عليه، ويغفلون عنه، فلم يحصل في الحالين شيء. ٥

---

[1] رواه الترمذي في سننه في صفة القيامة والرقائق، برقم (٢٤٤٠).

٥- أن يشتغل المرء بعيوب نفسه وتقصيرها في الواجبات والمستحبات، ولا يسكن لمراءاة الناس ومديحهم وهو يعرف خاصة نفسه، وليعلم أن العمر قصير والمطلوب كثير.

٦- الحرص على عبادة الخلوات حيث لا يراه الناس، كقيام الليل، وقراءة القرآن، والبكاء من خشية الله، فهي تدرب المسلم على تعلقه بخالقه وطلب ما عنده في الآخرة.

٧- الحرص على مجاهدة النفس في ذلك، ودفعه ما أمكن، ومن المجاهدة الدعاء لله بأن يجعله مخلصاً له تعالى في أعماله وأن يجنبه كيد الشيطان، جاء في الحديث: ((الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم)). ٩

(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإنسان بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا)

(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإنسان بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [هود:١٥-١٦].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ط قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعْسَ وَأَنْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا أَنْتَقَشْ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثٌ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٌ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ)).

"من الشرك" أي: من أنواع الشرك، والمراد: الشرك الأصغر.

"إرادة الإنسان بعمله الدنيا" ومعناه: أن يعمل العمل الذي شرع للآخرة وهو لا يريد به إلاَّ طمع الدنيا، كأن يجاهد من أجل المغنم، أو يتعلم من أجل الرئاسة والوظيفة، أو يحج أو يعتمر من أجل أخذ المال، وهكذا. ٤

وهذا قد يكون من الأكبر فإذا أراد بإسلامه ودخوله الدين الدنيا فهذا شرك أكبر كالمنافقين.٦

والفرق بين هذا الباب والذي قبله: أن الباب الذي قبله في الرياء وهذا في إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وهما يجتمعان في العمل لغير وجه الله، وفي أنهما شرك خفي، لأن الإرادة والقصد من أعمال القلوب، فهما يجتمعان في هذا، لكن يفترقان في أن الرياء يراد به الجاه والشهرة، وأما طلب الدنيا فيراد به الطمع والعرض العاجل، قالوا: والذي يعمل من أجل الطمع والعرض العاجل أعقل من الذي يعمل للرياء، لأن الذي يعمل للرياء لا يحصل له شيء، وأما الذي يعمل من أجل الدنيا فقد يحصل له طمع في الدنيا ومنفعة في الدنيا، ولكن كلاهما خاسر عند الله سبحانه وتعالى، حيث أن كلاً منهما أشرك في نيته وقصده، فهما يجتمعان من وجه ويفترقان من وجه. ٤

(من الشرك) يعني الشرك الأصغر، أن يريد الإنسان بأعماله التي يعملها من الطاعات الدنيا ولا يريد بها الآخرة، وإرادة الإنسان الدنيا –يعني ثواب الدنيا– أعم من حال الرياء، فالرياء حالة واحدة من أحوال إرادة الإنسان الدنيا؛ فهو يصلي أو يزيد ويزين في صلاته لأجل الرؤية ولأجل المدح؛ لكن هناك أحوال أخر لإرادة الناس بأعمالهم الدنيا، لهذا عطف الشيخ رحمه الله هذا الباب على الذي قبله ليبين أن إرادة الإنسان الدنيا تأتي في أحوال كثيرة أعم من حال الرياء بالخاصة؛ لكن الرياء جاء فيه الحديث وخافه النبي عله الصلاة والسلام على أمته فهو في وقوعه كثير والخوف منه جلل. ٣

ويفارق الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً، أراد به عرضاً من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً، كما في الحديث ((تعس عبد الدينار))[1] أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها

---

[1] البخاري الجهاد والسير (٢٧٣٠)، الترمذي الزهد (٢٣٧٥)، ابن ماجه الزهد (٤١٣٦).

شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥- ١٦].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا. ٢

وهذا الباب اشتمل على الحكم بأنّ إرادة الإنسان بعمله الدنيا من الشرك وقوله "إرادة الإنسان" يعني أن يعمل العمل وفي إرادته بعثه على العمل ثواب الحياة الدنيا، فهذا من الشرك بالله جل وجلاله، وسيأتي تفصيل أحوال ذلك. ٣

فإذا أراد الإنسان بعمله الدنيا فهذا شرك، لأنه أشرك مع الله في غايته وهدفه من عمله، ولم يرد ما أعده الله سبحانه وتعالى لمن عمل صالحاً. ٩

وعنوان الباب له ثلاث احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب، لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعاً مستقلاً عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر، لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة، فيقال، هو عابد، ولا يريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصاً له، ولكنه يريد شيئاً من الدنيا، كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعاً في الدنيا، غافلاً عن ثواب الآخرة.

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١- أن يريد المال، كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢- أن يريد المرتبة، كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣- أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه، كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤- أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير.

وهناك أمثلة كثيرة.

تنبيه:

فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟
فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً، فنقول لهم:
أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق، لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.
ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكليات، فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة، فإنها لا تهمه.
ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين -حسني الدنيا وحسني الأخرة-، فلا شيء عليه لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] فرغبه في التقوي بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب.
فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً ؟
أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمراً مادياً، فإخلاصه ليس كاملاً لأن فيه شركاً، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقريب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك، بل أراد شيئاً دنيئاً غيره.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لا يصلي من أجل هذا الشيء، فهذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية، كالبيع، والشراء، والزراعة، فهذا لا شيء فيه، والأصل أن لا نجعل في العبادات نصيباً من الدنيا، وقد سبق البحث في حكم العبادة إذا خالطها الرياء في باب الرياء.

ملاحظة :بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية.

فمثلاً يقولون: في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل، لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر.

وعن الصوم أنه سبب التقوي، فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس، فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي، فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال. ٥

وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥– ١٦] الآيتين.

قوله: "وقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾" أي: من كان يقصد بعمل الآخرة عرض الدنيا.

﴿وَزِينَتَهَا﴾ زينة الدنيا وهي المال والولد، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ هذا جواب الشرط، أي: نعطه من الدّنيا ما أراد وما قصد إذا شئنا ذلك، استدراجاً له، ومعاملةً له بما قصد، كما في قوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]. ٤

والمعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لا يسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش، فقال: ((ما يبكيك ؟)). قال "يا رسول الله! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذا الحال. فقال رسول الله ﷺ: ((أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم)) [1]، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم، لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾: البخس: النقص، أي: لا ينقصون مما يجازون فيه، لأن الله عدل لا يظلم، فيعطعون ما أرادوه. ٥

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ بيان لعاقبتهم، حيث ذكر أنهم يُعطون في الدنيا ما أرادوا وما طلبوا، وأما في الآخرة فإنهم يُحْرَمون من الثواب، لأنهم لم يريدوا الآخرة، والآخرة إنما تحصُل لمن أرادها: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩)﴾ [الإسراء:١٩].

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ما صنعوه في الدنيا. ٤ الحبوط: الزوال، أي: زال عنهم ما صنعوا في الدنيا. ٥

﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البُطلان يكون في الدنيا، والحُبوط يكون في الآخرة، في الدنيا أعمالهم باطلة لأنها بدون قصدٍ خالصٍ لوجه الله، فإذا جاءت الآخرة حبطتْ أعمالهم .٤

فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة. ٥

وهكذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. ٦

---

[1] البخاري: كتاب اللباس / باب ما كان النبي ﷺ يتجور من اللباس، ومسلم: كتاب الطلاق / باب في الإيلاء وأعتزال النساء.

قال قتادة: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطي بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة. ذكره ابن جرير بسنده، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه {أن شفي بن ماتع الأصبحي حدثه، أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس. فلما سكت وخلا قلت: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خاراً على وجهه، واشتد به طويلاً. ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ ((أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقال له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺعلى ركبتي، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم

النار يوم القيامة)) }[١]. ٢

وهذه الآية صريحة في الدلالة على أن الغاية من العمل يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى، ومن عمل عملاً ليقال له: خاشع أو قارئ مجيد أو حسن الصوت أو جواد وكريم أو حاج. وغيرها من العبارات فإن عمله باطل لا ينفع في الآخرة، بل هو نقمة عليه، يعذب في النار بسببه. ٩

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]. ٥

فهي مخصوصة بمن شاء الله جل وعلا قال هنا ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ يعني ممن أراد الله جل وعلا له ذلك، وممن شاءه الله، فهذا العموم الذي هنا مخصوص بآية الإسراء وآية سورة الشورى. ٣

فأن قيل: لماذا لا نجعل آيه هود حاكمة على آية الإسراء ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب: إن هذا المعنى لا يستقيم لأمرين:

أولاً: أن القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخص مقدم على الأعم، وآية هود عامة، لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وفِّي إليه العمل وأعطي ما أراد أن يعطي، أما آية الإسراء، فهي خاصة: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، ولا يمكن أن يُحكَم بالأعم على الأخص.

---

[١] الحديث اخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٦٦/١٥)، وأخرجه الترمذي في جامعه برقم (٢٣٨٢) وحسنه، والحاكم في المستدرك (٥٧٩/١)، وصحح إسناده، وأقره الذهبي، وابن خزيمة فبي صحيحه (١١٥/٤)، وابن حبان في صحيحه (١٣٥/٢) برقم (٤٠٨)، وغيرهم ٧

الثاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء: لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين، فيكون عموم آية هود مخصوصاً بآية الإسراء فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١- قيل: نزلت في الكفار، لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم في شيء من ذلك، ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢- وقيل: نزلت في المرائين، لأنهم لا يعملون إلا للدنيا، فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣- وقيل: نزلت فيمن يريد مالاً بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول، لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]. ٥

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾. فيه حصر وطريقة النفي والإثبات، وهذا يعني أنهم لن يدخلوا الجنة، لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله. ٥

الذين يريدون الحياة الدنيا أصلاً وقصداً وتحركاً هم الكفار، ولهذا نزلت هذه الآية في الكفار؛ لكن لفظها يشمل كل من أراد الحياة الدنيا بعمله الصالح.

ولهذا جمع الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسالة له: أحوال الناس فيها قال السلف تفسيراً لهذه الآية، وجعل كلام السلف يتناول أربعة أنواع من الناس كلهم يدخل في هذا الوعيد:

النوع الأول: ممن ركبوا هذا الشرك الأصغر وأرادوا بعملهم الحياة الدنيا؛ أنه يعمل العمل الصالح وهو فيه مخلص لله جل وعلا؛ ولكن يريد به ثواب الدنيا ولا يريد ثواب الآخرة. مثلاً يتعبد الله جل وعلا بالصلاة وفيها مخلص لله أداها على طواعية واختيار وامتثال لأمر الله؛ لكن يريد منها أن يصح بدنه، أو وصل رحمه وهو يريد منه أن يحصل له في الدنيا الذكر الطيب والصلة ونحو ذلك، أو عمل أعمالاً من التجارة والصدقات وهو يريد بذلك تجارة

لكي يكون عنده مال فيتصدق وهو يريد بذلك ثواب الدنيا، فهذا النوع عمل العبادة امتثالاً للأمر ومخلصاً فيها لله؛ ولكنه طامع في ثواب الدنيا، وليس له همة في الآخرة، ولم يعمل هرباً من النار وطمعاً في الجنة، فهذا داخل في هذا النوع، وداخل في قوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥]. ٣

فمن ذلك العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له في طلب الجنة، والهرب من النار، فهذا يُعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس. ١

مؤمن عمل العمل الصالح مخلصاً لله عزّ وجلّ لا يريد به مالاً أو متاعاً من متاع الدنيا ولا وظيفة، لكن يريد أن يجازيه الله به، بأن يشفيه الله من المرض، ويدفع عنه العين، ويدفع عنه الأعداء. فإذا كان هذا قصده فهذا قصد سيّء، ويكون عمله هذا داخلاً في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥)﴾.

والمفروض في المسلم: أن يرجو ثواب الآخرة، يرجو أعلى ممّا في الدنيا، وتكون همّته عالية. وإذا أراد الآخرة أعانه الله على أمور الدنيا، ويسّرها له: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٣) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣-٤]. ٤

والأعمال التي يعملها العبد ويستحضر فيها ثواب الدنيا على قسمين:

القسم الأول: أن يكون العمل الذي عمله واستحضر فيه ثواب الدنيا وأراده ولم يرد ثواب الآخرة لم يرغِّب الشرع فيه بذكر ثواب الدنيا، مثل الصلاة والصيام ونحو ذلك من الأعمال والطاعات، فهذا لا يجوز له أن يريد به الدنيا ولو أراد به الدنيا فإنه مشرك ذلك الشرك.

والقسم الثاني: أعمال رتب الشارع عليها ثوابا في الدنيا ورغّب فيها بذكر ثوابا لها في الدنيا، مثل صلة الرحم وبر الوالدين ونحو ذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام ((من سرَّه أن يُبسط له

في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه))، فهذا النوع إذا استحضر في عمله حين يعمل هذا العمل استحضر ذلك الثواب الدنيوي، وأخلص لله في العمل، ولم يستحضر الثواب الأخروي، فهو داخل في الوعيد فهو من أنواع هذا الشرك؛ لكن إذا استحضر الثواب الدنيوي والثواب الأخروي معاً، له رغبة فيما عند الله في الآخرة يطمع الجنة ويهرب من النار واستحضر ثواب هذا العمل في الدنيا، فإنه لا بأس بذلك؛ لأن الشرع ما رغب فيه بذكر الثواب في الدنيا إلا للحض عليه ((فمن قتل قتيلاً فله سلبه)) فقتل القتيل في الجهاد لكي يحصل على السلب هذا؛ ولكن قصده من الجهاد الرغبة فيها عند الله جل وعلا مخلصاً فيه لوجه الله، لكن أتى هذا من زيادة الترغيب له ولم يقتصر على هذه الدنيا، بل قلبه معلق أيضاً بالآخرة، فهذا النوع لا بأس به ولا يدخل في النوع الأول مما ذكره السلف في هذه الآية.

النوع الثاني: مما ذكره السلف مما يدخل تحت هذه الآية ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أنه يعمل العمل الصالح لأجل المال، فهو يعمل العمل لأجل ما يحصّله من المال، مثل أن يدرس يتعلم العلم الشرعي لأجل الوظيفة فقط، وليس في همه رفع الجهالة عن نفسه ومعرفة العبد بأمر ربه ونهيه والرغب في الجنة وما يقرب منها والهرب من النار وما يقرب منها، فهذا داخل في ذلك، أو حفظ القرآن ليكون إماماً في المسجد ويكون له الرِّزق الذي يأتي من بيت المال، فغرضه من هذا العمل إنما هو المال، فهذا لم يعمل العمل صالحاً، وإنما العمل الذي في ظاهره أنه صالح؛ ولكن في باطنه قد أراد به الدنيا.

والنوع الثالث: أهل الرياء الذين يعملون الأعمال لأجل الرياء.

والنوع الرابع: الذين يعملون الأعمال الصالحة ومعهم ناقض من نواقض الإسلام، يعمل أعمال صالحة يصلي ويزكي ويتصدق ويقرأ القرآن ويتلو؛ ولكن هو مشرك الشرك الأكبر، فهذا وإن قال إنه مؤمن فليس بصادق في ذلك؛ لأنه لو كان صادق لوحّد الله جل وعلا.[١]

فهذه بعض الأنواع التي ذكرت بتفسير هذه الآية وكلها داخلة تحت قوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ فهؤلاء جميعاً أرادوا الحياة الدنيا وزينتها ولم يكن هَمْ في رضى الله جل وعلا وطلب الآخرة من أصله بذلك العمل الذي عملوه.

هنا إشكال أورده بعض أهل العلم: وهو أنّ الله جل وعلا قال في الآية التي تليها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] وأنّ هذه في الكفار الأصليين أو في من قام به مكفر، أما المسلم الذي قامت به أراد الدنيا فإنه لا يدخل في هذه الآية؟

والجواب: أنه يدخل لأن السلف أدخلوا أصناف من المسلمين في هذه الآية، والوعيد بقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ فيمن كانت إرادته الحياة الدنيا فلم يتقرب إلى الله جل وعلا بشيء، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ فهؤلاء أرادوا الدنيا بكل عمل وليس معهم من الإيمان والإسلام مصحح لأصل أعمالهم، فهؤلاء مخلدون في النار، أما الذي معه أصل الإيمان وأصل الإسلام الذي يصح به عمله فهذا قد يحبط العمل؛ بل يحبط عمله الذي أشرك فيه وأراد به الدنيا، وما عداه لا يحبط لأن معه أصل الإيمان الذي يصحح العمل الذي لم يخالطه شرك.

---

[١] هذا النوع قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره. رواه ابن جرير في تفسيره (١٢/١٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦ /٢٠١٠)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١١٨/٧) بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه.

فإذن فهذه الآية فيها الوعيد، وهذا الوعيد يشمل كما ذكرنا أربعة أصناف، وكما قال أهل العلم: إن العبرة هنا باللفظ لا بخصوص السبب، فهي وإن كانت في الكفار لكن لفظها يشمل من أراد الحياة الدنيا من غير الكفار. ٣

فإذا أراد الإنسان بعمله الدنيا فهذا شرك ؛ لأنه أشرك مع الله في غايته وهدفه من عمله، ولم يرد ما أعده الله سبحانه وتعالى لمن عمل صالحاً.

وفي الآية من الفوائد: أن الشرك محبط للأعمال، وأن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك، وأن الله يجازي الكافر بحسناته، وكذلك طالب الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة، الخامسة: شدة الوعيد على ذلك، السادسة: الفرق بين الحبوط والبطلان. ١

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)).[1]

قال: "وفي الصحيح" أي: في "صحيح البخاري" في باب الجهاد.

"عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((تَعِس)) يعني: هلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ﴾ [محمد:٨] يعني: هلاكاً، فالتعس: الهلاك. ٤

أي: خاب وهلك. ٥

((عبد الدينار، تعس عبد الدرهم)) الدينار هو: النَّقْد المضروب من الذهب، والدرهم هو: النقد المضروب من الفضة.

((عبد الخميصة)) الخميصة: كساءٌ يُلبس، لونه أسود وفيه خطوط حُمُر.

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق / باب ما يتقى من فتنة المال.

((عبد الخميلة)) الخميلة: القطيفة، سُمِّيت خميلة لأنها ذات خُمُل يعني: ذات أهداب، سمّاهم عبيداً لهذه الأشياء لأنهم يعملون لها، فصاروا عبيداً لها، أما الذي يعمل من أجل وجه الله فهو عبدٌ لله سبحانه وتعالى. ٤

سماه عبداً له لكونه هو المقصود بعمله فصار عبداً له؛ لأنه عبده بذلك العمل. ٧

وسماه عبد الدينار، لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال في عبد الدرهم ما قيل في عبد الدينار. ٥

فإن قيل لم سماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم؟

قيل: لما كان هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له، وسعى في تحصيله بكل ممكن حتى صارت نيته مقصورة عليه، يغضب ويرضى له؛ صار عبداً له.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة وعبد الخميصة. وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر وهو قوله: ((تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش))[1]، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذا حال من عبد المال. وقد وصف ذلك بأنه ((إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط))[2] كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده – إلى أن قال:

وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان.

---

[1] ابن ماجه الزهد (٤١٣٦).

[2] البخاري الجهاد والسير (٢٧٣٠)

فمنها ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه. فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً متعمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة))[1] وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان "انتهى ملخصا."[2] ١

وقد أراد المؤلف لهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا، أي: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضي إذا وجدت، ولهذا سمي النبي ﷺ من هذا شأنه عبداً لها، وهذا من يُعنى بجمع المال من الذهب والفضة، فيكون مريداً بعمله الدنيا. ٥

قوله: ((تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة)). وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر، فإذا كان عابداً لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئاً من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟! فهذا أعظم. ٥

أي: تعس من هذا قصده بعمله ودخوله في الإسلام أو عمل ما أظهر من أعمال الإسلام فتعس من كان عمله لأجل النقود وهذا المتاع كالمنافقين وغيرهم، لأنه يذهب ثوابه ويحصل له الإثم والوزر، فدعى عليه بالتعاسة والانتكاسة. ٦

---

[1] البخاري الجهاد والسير (٢٧٣٠)، الترمذي الزهد (٢٣٧٥)، ابن ماجه الزهد (٤١٣٦).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/١٨٠-١٩٠)، وكتاب العبودية (ص/١٠١-١٢٤)

ثم ذكر علامتهم، فقال: ((إنْ أُعطيَ رضي، وإن لم يُعط سخط)) هذه علامة الذي يعمل من أجل الدنيا، أنه إنْ أُعطيَ منها رضي وإن لم يعط منها لم يرض، كما قال الله سبحانه وتعالى في المنافقين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة:٥٨]. ٤

قوله: ((إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط)). يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدرياً، أي: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول: لماذا كنت فقيراً وهذا غنياً؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطاً على قضاء الله وقدرة لأن الله منعه.

والله سبحانه وتعالى يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

والواجب على المؤمن أن يرضي بقضاء الله وقدره، إن أعطي شكر، وإن منع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعي، أي: إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضي إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سمّاه الرسولﷺ عبداً له. ٥

أما المؤمن فإنه إنْ أُعطي شكر، وإن لم يعطَ فإنه يصبر ولا يسخط، لأنه يعمل لله لا يعمل من أجل الدنيا، وبعضهم يحب أن يُعطى من الدنيا شيئاً ، فقد كان بعض الصّحابة لا يرضى أن يُعطى من الدنيا شيئاً ، ولا يطلب شيئاً ، لأنه يريد الدار الآخرة، من باب حفظ أعمالهم ورجاء ثوابها في الدار الآخرة، فلا يحبون أن يتعجّلوا من حسناتهم شيئاً ، ولكن من أُعطي من غير تشوُّف، ومن غير طمع، ومن غير طلب، فإنه يأخذ، كما في الحديث: ((ما جاءك من هذا المال وأنت غير مستشرفٍ له فخذه، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نفسك)).

فالمؤمن سِيَّان عنده؛ يعطى من الدنيا أو لا يعطى، ولا ينقص ذلك من عمله لله شيئاً ، لأنه يحب الله ورسوله، ولهذا كان النبي ﷺ يعطي بعض النّاس وهو يبغضهم من أجل تأليفهم، والخوف عليهم من النفاق والرِّدة، ويمنع ناساً هم أحب النّاس إليه ويَكِلُهم إلى إيمانهم، لأنه واثقٌ من إيمانهم وعقيدتهم، وأنهم لا يتأثّرون إذا لم يُعطوا، وهذه علامة المؤمن: أنه باقٍ على إيمانه ويقينه أعطيَ من الدنيا أو لم يعط، أما صاحب الدنيا فهذا إنْ أُعطي منها رضي وإن لم يعط منها سخط، فهو يرضى لها ويغضب لها.

وهذا هو الشاهد من الحديث: أنه سمّاه عبداً لهذه الأشياء مع أنه مسلم مؤمن، ولكن لَمّا كان يعمل ويريد هذه الأشياء صار عبداً لها، وهذه عبودية شرك، لكنه شركٌ أصغر لا يُخرِجه من الإيمان، ولكنه ينقِّص توحيده وينقِّص إيمانه.

ثم أعاد الدعاء عليه مرّة ثانية فقال: ((تعس وانْتَكَس)) يعني: كلما تماثل للشفاء عاد إليه المرض وعاد عليه الهلاك. ٤

وانتكس، أي: أنتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئاً انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد، ولهذا قال:

((وإذا شيك فلا أنتقش)). أي: إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.٥

((وإذا شيك فلا انتَقش)) أي: أنه يصاب بالعجز حتى إذا ضربته الشوكة في رجله أو في يده لا يستطيع أخذها من العجز الذي أصابه، عقوبةً له في أنه إنما يعمل من أجل الدنيا. ٤

قال الحافظ: "أي: إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش"، قال: "وفي الدعاء عليه بذلك إشارة إلى عكس مقصوده، لأن من عثر فدخلت في رجله الشوكة، فلم يجد من يخرجها يصير عاجزاً عن السعي والحركة في تحصيل مصالح الدنيا".[١]

وقال الطيبي: "المعنى أنه إذا وقع في البلاء لا يُتَرحمُ عليه، فإن من وقع في البلاء إذا تَرَحمَ له الناس ربما هان الخَطْبُ عليه، ويتسلى بعض التسلي، وهؤلاء بخلافِهِ، بل يزيد غيظهم بفرح الأعداء أو شماتتهم"[٢]. ١

---

[١] فتح الباري (٢٥٥/١١)

[٢] شرح المشكاة (٢٨٨/٩)

وهذه الجمل الثلاث يحتمل خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حاله، لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئاً ، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة الله حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له. ٥

ثم بيّن الفرق بين الذي يعمل للآخرة والذي يعمل للدنيا فقال ﷺ: ((طوبى)) قيل: إنها شجرة في الجنة ظلها مسيرة مائة عام منها ثياب أهل الجنة، وقيل: إنها الجنة نفسها، فالجنة يقال لها طوبى، فطوبى من أسماء الجنة أو شجرة فيها.

وهذا دعاء من الرسول ﷺ لهذا الشخص بأن يكون من أهل الجنة. ٤

و((طوبى)) فُعْلى من الطيب، وهي اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعنى: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل إن طوبى شجرة في الجنة، والأول، أعم، كما قالوا في ويل: كلمة وعيد، وقيل: واد في جهنم، والأول أعم. ٥

((لعبد آخذٍ بعِنان فرسه)) العِنان: اللِّجام.

((في سبيل لله)) يعني: للجهاد في سبيل الله، دائماً مُعِدٌّ نفسه ومُعِدٌّ فرسه للجهاد في سبيل الله، يترقّب الغزوات والسرايا، ويحب الجهاد في سبيل الله، ولا يحب الراحة والرفاهية، وإنما يحب الجهاد في سبيل الله، فهذا على أجر وإن لم يجاهد، لأن له ما نوى، ما دام أنه حبس نفسه وفرسه وأعدّ نفسه، فإنه في سبيل الله وإن لم يجاهد، لقوله ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيّات)).٤

قوله: ((في سبيل الله)). ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً إسلامياً يجب الذود عنه، فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعاً عن نفسه أو ماله أو أهله؛ فإن النبي ﷺ قال: ((من قتل دون ذلك، فهو شهيد))، فأما من قاتل للوطنية المحضة، فليس في سبيل الله لأن هذا قتال عصبية يستوي فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه. ٥

((أشعث رأسه، مغبرة قدماه)) هذه الصفة الأولى لهذا العبد المجاهدلم يتفرغ للرفاهية ويعتني بنفسه عليه آثار الجهاد في سبيل الله من الشعث والغبار.

((إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة)) هذه صفة ثانية، أي: أنه لا يبالي بنوع العمل الذي يشتغل فيه، بل يطيع وليّ الأمر وقائد الجيش، سواءٌ أمره أن يكون في الحراسة أو أمره أن يكون في الساقة -يعني: في آخر الجيش-، لا يقول: أكون مع أول النّاس، بل يمتثل الأوامر، ويطيع وليّ أمر المسلمين في الجهاد، ولا ينظر إلى مكانه هل هو مكان مشقة أو مكان راحة، هل هو مكان بروز، أو مكان خُمول، لأنه يجاهد لأجل الله سبحانه وتعالى.

((والحراسة)): حماية الجيش من أن يهجم عليهم العدو، سواء بالليل أو في النهار يتطلّع إلى العدو، ويكون حارساً للجيش أن يُهجم عليه من الجهة المخُوفة .

((والساقة)) آخر الجيش من أجل أن يتفقّد العاجز ويتفقّد من يحتاج إلى إعانة من المجاهدين، لأنه لا يريد لنفسه العز في الدنيا والظهور والبُروز أمام النّاس، ولا يريد لها الراحة والرفاهية، وإنما يريد الجهاد في سبيل الله على أيِّ سبيلٍ كان، لا يهمُّه في أيِّ موقع وقع ما دام أنّ هذا في الجهاد في سبيل الله وفي صالح المسلمين وفي طاعة وليّ الأمر. ٤

وللجمليتن معنيان :

أحدهما: أنه لا يبالي أين وضع، إن قيل له: أحرس، حرس، وإن قيل له: كن في الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثاني: إن كان في الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان في الساقة، والحديث الصالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعاً إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا. ٥

وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال. ٢

وقال الخلخالي: "المعنى ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة."[1]

[1] الكلام بنصه في عمدة القاري للعيني (١٤/١٧٢) فلعله نقله عن الخلخالي.

قلت: وفيه فضل الحراسة في سبيل الله. ١

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان رضي الله وهو يخطب على منبره: إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها))[١]. ٢

وقوله: ((إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)) أي: هو-أيضاً- غير معروف عند النّاس، لأنه لا يحب الظهور أمام النّاس، ولا يحب البُروز، لا يحب المدح، بل يحرص على الاختفاء، لأنه يعمل لله، ولكونه غير معروف إنِ استأذن للدخول على وُلاة الأمور، أو على السلاطين، أو على أصحاب الجاه، لم يُؤذن له، لأنه غير معروف، والنّاس إنما يأذنون للإنسان المعروف الذي له جاه وله مكانة. وهذا لا يضره عند الله سبحانه لأنه معروف عند الله عزّ وجلّ لأن الله يعلمه وبعلم مكانه.

فهذا فيه: فضل عدمُ الظهور، وفضل الاختفاء بالأعمال الصالحة. ٤

وليس معناه: أنه يَنْزَوي ويقعُد في داره في زاوية من الزوايا، بل هو يشتغل ويعمل، ولكنه لا يحب أن يظهر عمله، ولا أن تظهر شجاعته، ولا أن يظهر إقدامه، ولا أن يُعرف جهاده، ولا يرغب هذا، لأنه يعمل من أجل الآخرة، لا يريد مَحْمَدة عند الناس أو مدحاً عند الناس، وإنما يريد ثواب الله سبحانه وتعالى. ٤

((وإن شفع لم يشفع)) إن توسط في قضاء حاجة أحد لم تقبل وساطته. ٤

أي مغمور في الناس غير معروف، وهذا من كمال إخلاصه وصدقه فلا يتحرى مناصب الأمور و معإليها، ولا التقدم عند الملوك والأمراء و الوجهاء ولهذا لا يعرفونه. فهذا له الجنة والكرامة.٦

---

[١] ابن ماجه الجهاد (٢٧٦٦)، أحمد (٦١/١).

قال بعضهم: "قيل إن هذا إشارة إلى عدم إلتفاته إلى الدنيا وأربابها بحيث لا يبتغي مالاً ولا جاهاً عند الناس، بل يكون عند الله وجيهاً، ولم يقبل الناس شفاعته، ويكون عند الله شفيعاً مشفعاً".[1]

وقال الحافظ: "فيه ترك حب الرئاسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع".[2] ١

وفي الحديث: ((رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه))، فهو إنسان ما له هيئة عند النّاس، منظره ليس منظر صاحب هيئة، ومخبره أيضاً غير معروف عند النّاس، لكنه عند الله عزيز لأنه يعمل فيما بينه وبين الله بإخلاص، فلو أقسم على الله – يعني: لو حلف على الله –أن يُعطيه كذا وكذا لأبرّه– يعني: لأعطاه ما طلب مع أنه مدفوع بالأبواب عند النّاس. ٤

هذه صفات هذا المؤمن، وهي باختصار:

أولاً: أنه مُعِدٌّ نفسه للجهاد، والجهاد دائماً يرغب فيه.

ثانياً: أنه لا يتفرغ لإصلاح هيئته من إصلاح شعره ودهنه وتجميل هيئته لأنه مشغول بالجهاد.

وثالثاً: أنه لا يبالي بالعمل الذي يتولاّه في الجهاد سواءً كان شاقًّاً أو غير شاق، سواءً كان بارزاً أو غير بارز، لأنه يعمل لله، ولا يعمل من أجل الظهور، ومن أجل مراءاة النّاس.

رابعاً: أنه غير معروف عند النّاس وعند أصحاب الجاه، إنِ استأذن لم يُؤذن له في الدخول، وإن شفع لم يشفَّع، أي: إن توسَّط لأحد لم تُقبل وساطته، لأنه غير معروف. ٤

وجه الشاهد من ذلك أنه دعا على عبد الدينار وعلى عبد الدرهم وعلى عبد الخميصة، وعبد الدينار هو الذي يعمل العمل لأجل الدينار، ولولا الدينار لما تحركت همته في العمل، ولولا هذه الخميصة لما تحركت همته في العمل، فأراد العمل وعمل لأجل هذا الدينار، لأجل هذه الدنيا، لأجل الدراهم، لأجل الجاه، لأجل المكانة، لأجل الخميصة الخميلة ونحو ذلك، وقد سماه النبي عليه الصلاة والسلام عابداً للدينار، فدل ذلك على أنه من الشرك؛ لأن العبودية درجات منها عبودية الشرك الأصغر ومنها عبودية الشرك الأكبر.

---

[1] انظر عمدة القاري للعيني (١٧٢/١٤)، ومرقاة المفاتيح (١٤/٩)

[2] فتح الباري (٨٣/٦)

فالذي يشرك بغير الله جل وعلا الشرك الأكبر وعابد له أهل الأوثان عبدة الأوثان، وأهل الصليب عبدة للصليب.

وكذلك من يعمل الشرك الأصغر ويتعلق قلبه بشيء من الدنيا فهو عابد لذلك، يقال عبد هذا الشيء؛ لأنه هو الذي حرك همته، ومعلوم أن العبد مطيع لسيده، مطيع له أينما وجهه توجه، فهذا الذي حركته وهمته للدنيا وللدينار وللدرهم عبد لها؛ لأن همته معلقة بتلك الأشياء، وإذا وجد لها سبيلاً تحرك إليها، بدون النظر هل يوافق ذلك أمر الله جل وعلا أم لا يوافق أمر الله جل وعلا وشرعه. ٣

والحديث قسم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هم إلا الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

١- أن الناس قسمان كما سبق.

٢- أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تنقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهى الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد أذية وهي الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣- أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألا تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه، إما في الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

٤- أن دنو الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله عز وجل، فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفّع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ: ((طوبي له))، ولم يقل: إن سأل لم يعط، بل لا تهمه الدنيا حتى يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة. ٥

فيُستفاد من هاتين الآيتين ومن هذا الحديث الشريف فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: التحذير من إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وأنّ ذلك من الشرك في النيّات، وهو: الشرك الخفي، وهذا هو الذي عقد الشيخ رحمه الله هذا الباب من أجله.

الفائدة الثانية: يؤخذ من الآيتين: أن إعطاء الله الدنيا لبعض الناس ليس دليلاً على رضى الله عنهم، ولهذا قال: ﴿نُوَفِّ إليهمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود:١٦]، فهذا دليل على أن هذا العطاء عن غير رضى، وأنّ منع الدنيا عن العبد المؤمن ليس دليلاً على عدم رضى الله عنه، فالدنيا ليست مقياساً لرضى الله وغضبه وجوداً وعدماً.

الفائدة الثالثة: يؤخذ من الآيتين الكريمتين: أن العبرة ليستْ في صورة العمل، وإنما العبرة في نية العامل، فإنْ كانت نيّة العامل خالصة لله عزّ وجلّ فهذا العمل عملٌ صالح، وإن كانت نية العامل غير خالصة لوجه الله عزّ وجلّ فهذا عملٌ فاسد وإن كانت صورته صورة عمل صالح، فلا تنظر إلى كثرة الإنفاق والتبرُّعات والمشاريع، فربما يكون من يتصدّق بشيء قليل مع نيّة صالحة ينال به أجراً عظيماً، كما قال ﷺ: ((اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيِّبة))، فالعمل القليل مع الإخلاص يكون كثيراً، وربما يكون العمل كثيراً لكن فائدته قليلة أو ليس فيه فائدة أصلاً نظراً لنيّة عامله، ولهذا يقول ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))، فمحل نظر الله سبحانه وتعالى إلى القلوب والأعمال؛ أعمال القلوب من المقاصد والنيّات، وأعمال الجوارح أيضاً، فالعبرة ليست بصورة العمل وإنما هي بنية العامل.

الفائدة الرابعة: في الحديث دليل على الفرق بين العبد الذي يعمل لوجه الله والعبد الذي يعمل لأجل الدنيا، لأنه ذكر عبدين: واحداً يعمل لأجل الدنيا وواحداً يعمل لأجل الآخرة، فالذي يعمل لأجل الدنيا إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْطَ لم يرضَ، هذه علامته، بخلاف المؤمن فإنه لا يؤثِّر عليه العطاء وعدم العطاء للإيمان الذي في قلبه، فالحديث فيه: الفرق بين من يعمل من أجل الله ومن يعمل لأجل الدنيا.

الفائدة الخامسة: أن النبي ﷺ سمّى العبد الذي يعمل من أجل مطامع الدنيا عبداً لها، وهذا يقتضي الشرك، ولكنه في حق المؤمن يكون شركاً أصغر ينقِّص توحيده ويبطل أعماله التي خالطها هذا القصد السيء. ٤

الذي يريد بعمله الدنيا لا يخلو من حالين:

أ. أن يكون شركة صريحاً، وهو الذي يجعل الدنيا غايته ويجعلها تسيره، فيترك الصلاة مثلاً من أجل الاتجار بالمال.

ب. أن يكون وسيلة إلى الشرك: وهو أن تكون الدنيا مؤثرة عليه وعلى حياته، فيؤخر الصلاة من أجل أمر دنيوي، ولا يزكي خشية نقص ماله، ولا ينفق على والديه وأولاده وزوجه من أجل الدنيا، فهذا ليس شركاً، ولكن صاحبه على خطر إذ أن فعله هذا من وسائل الشرك، وهذه الحالة توجد عند بعض المسلمين، والواجب على المسلم أن يتفكر في قول النبي ﷺ: ((ومن كانت الدنيا همه فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة))[1].

وبناء على ذلك يجب على المسلم أن يصوغ حياته كلها للوصول إلى الهدف الأسمى وهو العمل للآخرة وما فيها من النعيم المقيم، فيتيسر له أمر الدنيا والآخرة. ٩

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم: عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله ((تعس وانتكس)).

السادسة: قوله: ((وإذا شيك فلا انتقش)).

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

[1] رواه ابن ماجة في كتاب: الزهد (رقم ٤١٠٥) ورواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع برقم (٢٤٦٥) وصححه الألباني في السلسلة برقم (٩٥٠).

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

وهذا من الشرك، لأنه جعل عمل الأخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى على قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة. ٥

الثانية: تفسير آية هود. وقد سبق ذلك. ٥

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم: عبد الدينار والدرهم والخميصة.

وهذه العبودية لا تدخل في الشرك مالم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع أخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله عز وجل ومحبة أعمال الآخرة. ٥

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

هذا تفسير لقوله ﷺ: "عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعاً لهذه الأشياء. ٥

الخامسة: قوله ((تعس وانتكس)).

السادسة: قوله: ((وإذا شيك فلا انتقش)). يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبراً أو دعاء، وسبق شرح ذلك. ٥

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات. فقوله في الحديث: ((طوبى لعبد)) يدل على الثناء عليه، وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب. ٥

(بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)

بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!"[1]وقَالَ الإمام أَحْمَدُ: "عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إلى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكُ"[2] عَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: ((أَلَيْس يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَتُحِلُّونَهُ؟))، فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: ((فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ، والتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ [3].

"بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ"لقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة:٣١]٢ وفسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما سيأتي في حديث عدي. ١

ذكر المصنف -رحمه الله- هذا الباب لبيان نوع من أنواع الشرك، وأن الشرك ليس خاصا بدعاء الأموات وعبادة الأشجار والأحجار وإنما يكون بأشياء أخرى، ومنها طاعة غير الله في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

---

[1] أخرجه أحمد (٣١٢١).

[2] أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٩٧).

[3] أخرجه الترمذي (٣٠٩٤)، وأحمد (٢٥٧/٤ و٣٧٨).

فنبه المصنف –رحمه الله– على وجوب اعتقاد اختصاص الخالق تبارك وتعالى بالطاعة، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا إذا كانت طاعته في غير معصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.٩

لمَّا كانت الطاعة من أنواع العبادة بل هي العبادة فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام؛ نبه المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً.

والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى؛ فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أي: علماءهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة:٣١] وفسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما سيأتي في حديث عدي. ١

هذا الباب والأبواب بعده في بيان مقتضيات التوحيد ولوازم تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي وتستلزم أن يكون العبد مطيعا لله جل وعلا فيما أحل وفيما حرم؛ محلا للحلال ومحرماً للحرام، لا يتحاكم إلا إليه جل وعلا، ولا يُحَكِّم في الدين إلا شرع الله جل وعلا والعلماء وظيفتهم تبيين معاني ما أنزل الله جل وعلا على رسوله ﷺ، وليست وظيفة العلماء التي أذن لهم بها في الشرع أنهم يحللون ما يشاءون أو يحرمون؛ بل وظيفتهم الاجتهاد في فقه النصوص وأن يبينوا ما أحل الله وما حرم الله جل وعلا، فهم أدوات ووسائل لفهم نصوص الكتاب والسنة، ولذلك طاعتهم تبع لطاعة الله ورسوله، يطاعون فيما فيه طاعة لله جل وعلا ولرسوله، وما كان في الأمور الاجتهادية فيطاعون؛ لأنهم هم أفقه بالنصوص من غيرهم، فتكون طاعة العلماء والأمراء من جهة الطاعة التبعية لله ولرسوله.

أما الطاعة الاستقلالية فليست إلا لله جل وعلا حتى طاعة النبي عليه الصلاة والسلام إنما هي تبع لطاعة الله جل وعلا، فإن الله هو الذي أذن بطاعته وهو الذي أمر بطاعة رسوله ﷺ،

وهذا معنى الشهادة له بأنه رسول الله، قال جل وعلا ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال جل وعلا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤] فإذن الطاعة الاستقلالية هذه من العبادة، وهي نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله جل وعلا بها، وغير الله جل وعلا فإنما يطاع؛ لأن الله جل وعلا أذن بطاعته، ويطاع فيما أذن الله به في طاعته، فالمخلوق لا يطاع في معصية الله؛ لأن الله لم يأذن أن يطاع مخلوق في معصية الخالق جل وعلا، وإنما يطاع فيما أطاع الله جل وعلا فيه على النحو الذي يأتي.

إذن هذا الباب عقده الشيخ ليبين أن الطاعة من أنواع العبادة؛ بل إن الطاعة في التحليل وفي التحريم هذه هي معنى اتخاذ الأرباب حيث قال الله جل وعلا ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وما سيأتي من بيان حديث عدي بن حاتم ﷺ. ٣

أراد المؤلف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد واتباع الشريعة وتعظيم أمر الله ونهيه والحذر من تقليد الشيوخ و الأمراء فيما يخالف شرع الله وهو التقليد الأعمى. ٦

قال الشيخ رحمه الله: بابٌ "من أطاع العلماء والأمراء" هذا شرط وجوابه، وذلك لأن التحليل والتحريم حقٌّ لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيه أحد، فمن حلّل أو حرّم من غير دليلٍ من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ فقد جعل نفسه شريكاً لله، ومن أطاعه فقد أشركه مع الله في التشريع. وليس في الآية التي سيوردها المصنف ذكر للأمراء .وإنما هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧)﴾ [الأحزاب:٦٧].وهذا ما يسمى بـ "شرك الطاعة"، لأن العبادة معناها: طاعة الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك: مسألة التحليل والتحريم، فهي داخلة في العبادة، بدليل قوله تعالى لَمّا ذكر ما يفعله المشركون من استباحة ما حرّمه الله من الميتة التي حرّمها وهم يستحلُّونها ويقولون: هي أولى بالأكل من المذَكّاة، لأن المذكّاة أنتم ذبحتموها، وأمّا الميتة فإن الله هو الذي ذبحها، وكانوا تلقّوا هذه المقالة من المجوس، فأنزل الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

(١٢١)﴾ [الأنعام:١١٨-١٢١] أي: إنْ أطعتموهم في استباحة الميتة وخالفتم أمرَ الله سبحانه وتعالى بتركها، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مع الله في التحليل والتحريم.

فطاعة العلماء والأمراء في مثل هذا شرك، في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل الله. فإن كان الذي أطاعهم يعلم أنهم خالفوا أمر الله في ذلك وتعمّد طاعتهم واستباح هذا، فهذا شركٌ أكبر يُخرِج من الملّة.

وإنْ كان الذي أطاعهم يعتقد أن هذا حرام، ويعترف أن هذا خطأ، ولكنه أطاعهم لهوىً في نفسه أو رغبة في نفسه مع اعترافه بالمعصية، فهذا شرك أصغر.

وإن كان أطاعهم وهو لا يعلم أنهم خالفوا شرع الله، بل ظن أنهم على حق، فهذا معذور إن كان مثله يجهل ذلك.

وأما طاعة العلماء والأمراء في غير معصية الله فهذا أمرٌ واجب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فطاعة العلماء وطاعة وُلاة الأمور في غير معصية الله أمرٌ أوجبه الله على الناس.

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ قيل: هم الأمراء، وقيل: هم العلماء.

والصواب: أن الآية تعني العلماء والأمراء معاً، فكلهم من أولي الأمر، فالعلماء يبيِّنون الأحكام الشرعية، والأمراء ينفِّذونها. ٤

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فجعل الله طاعة مستقلة، وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل (أطيعوا)، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء، لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء، لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور، لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ. ٥

قال العلماء: (أولو الأمر) يشمل من له الأمر في حياة الناس في دينهم وهم العلماء وفي دنياهم وهم الأمراء، وقد قال هنا جل وعلا ﴿وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولم يكرر فعل الطاعة، قال ابن القيم وغيره: دل هذا على أن طاعة أولي الأمر ليست استقلالاً وإنما يطاعون في طاعة الله ورسوله ﷺ، فإذا أمروا بمعصية فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص من الكتاب والسنة فإنهم يطاعون في ذلك لما أذن الله به في ذلك ولما في ذلك من المصالح المرعية في الشرع، إذن من أطاع العلماء والأمراء هنا ذكر هذا الباب لأجل أن الطاعة نوع من أنواع العبادة، وهذه العبادة يجب أن يُفرد الله جل وعلا بها، فمن أطاع غير الله على هذا النحو الذي ذكره الشيخ فقد أشرك الشرك الأكبر بالله جل وعلا، قال "من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله" يعني في تحريم الذي أحل الله؛ فيكون هناك حلال في الشرع فيحرمونه يحرمه العالم أو يحرمه الأمير فيطيعه الناس وهم يعلمون أنه حلال؛ لكن يطيعونه في التحريم، والحلال يعني الذي أحله الله، أحل الله أكل الخبز فيقولون الخبز حرام عليكم ديناً، فلا تأكلوا الخبز تَدَيُّناً، ويحرمونه لأجل ذلك، فهذا طاعة لهم في تحريم ما أحل الله، قال "أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً"، "أو تحليل ما حرم الله" يعني أحلوا ما يُعلم أن الله حرمه حرم الله الخمر فأحله العلماء أو أحله الأمراء، فمن أطاع عالما أو أميرا في اعتقاد أنّ الخمر حلال وهو يعلم أنها حرام وأن الله حرمها فقد اتخذه رباً من دون الله جل وعلا.

فليست طاعة وُلاة الأمور ممنوعة مطلَقاً ولا جائزة مطلقاً، بل فيها هذا التفصيل الذي لابد منه. والشيخ رحمه الله خصص تحريم طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال فقال: "من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً "ولم يعمم تحريم طاعتهم". ٤

قوله: "في تحريم ما أحل الله". أي في جَعْله حراماً؛ أي: عقيدة أو عملاً.

"أو تحليل ما حرم الله". أي: في جعله حلالاً عقيدة أو عملاً، فتحريم ما أحل الله لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله، وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك، فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال، لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل وهو الحل ورحمة الله –سبحانه– سبقت غضبه؛ فلا يمكن أن نحرم إلا ما تبين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدد، لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل:

والأصل في الأشياء حل وامنع عبادة إلا بإذن الشارع قوله: "أرباباً". جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدري، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبار التصرف الشرعي، لأنه اعتبرهم مشرعين وأعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به، وبالعكس الأمراء. ٥

إذن هنا في هذا الباب حكم، وهناك شرط:

فالحكم قوله في آخره "فقد اتخذهم أرباباً" فهو جزاء الشرط.

والشرط قوله "من أطاع العلماء والأمراء".

وضابط هذا الشرط ما بينهما وهو قوله "في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرمه" وهذا يستفاد منه –يعني من اللفظ– أنهم عالمون بما أحل فحرموا طاعة عالمون بما حرم فأحلوه طاعة لأولئك.

وقوله في آخره "فقد اتخذهم أرباباً" ذلك لأجل آية سورة براءة قال ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وحديث عدي بن حاتم في ذلك.

والأرباب جمع الرب، والرب والإله لفظان يفترقان؛ لأن:

الرب: السيد الملك المتصرف في الأمر.

والإله: هو المعبود.

وقد سئل المصنف الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عن الفرق بين الإله والرب في مثل هذه السياقات في نحو قوله ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المِلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠]، وفي نحو قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ما معنى: الربوبية هنا؟

قال: الربوبية هنا بمعنى الألوهية، بمعنى المعبود؛ لأن من أطاع على ذلك النحو فقد عبد، لقول النبي ﷺ لعدي عندما قال: "إنا لسنا نعبدهم." فعدي فهم من كلمة ﴿أَرْبَابًا﴾ العبادة، وقال النبي مقررا لذلك: ((أليس يحرمون...)) إلى آخره، فهو إقراراً منه عليه الصلاة والسلام؛ لأن معنى الربوبية هنا العبودية.

فإذن قال الشيخ رحمه الله حينما سئل قال: الألوهية والربوبية أو كلمة الرب والإله من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت؛[1] يعني كلفظ الفقير والمسكين وكلفظ الإسلام والإيمان وكنحوهما، لم؟ لأن الإلهَ يُطلق على المعبود، والرب جاء في نصوص

[1] "فاعلم أن الربوبية، والألوهية: يجتمعان، ويفترقان، كما في قوله ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاس﴾ [الناس:١-٣] وكما يقال رب العالمين، وإلهّ المرسلين؛ وعند الإفراد: يجتمعان، كما في قول القائل: من ربك؟

مثاله: الفقير والمسكين، نوعان في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، ونوع واحد في قوله: ((افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، فترد إلى فقرائهم)) إذا ثبت هذا، فقول الملكين للرجل في القبر: من ربك؟ معناه من إلهّك؛ لأن الربوبية التي أقر بها المشركون، ما يمتحن أحد بها، وكذلك قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج:٤٠]، وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام:١٦٤]وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[فصلت:٣٠-الأحقاف:١٣].

فالربوبية في هذا، هي: الألوهية، ليست قسيمة لها، كما تكون قسيمة لها عند الاقتران؛ فينبغي: التفطن لهذه المسألة."[الدرر السنية الجزء الأول ص١٠٦-١٠٧]".

كثيرة إطلاق الرب على المعبود، كما ذكرنا في الآيات وفي الحديث، وكقوله عليه الصلاة والسلام في مسائل القبر ((فيأتيه ملكان فيسألانه من ربك؟)) يعني من معبودك؛ لأن الابتلاء لم يقع في الرب الذي هو الخالق الرازق المحيي المميت.

فإذن لفظ الأرباب والآلهة إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت، فقد يطلق على الأرباب آلهة، على الآلهة أرباباً، وهل هذا الإطلاق لأجل اللغة -يعني أن أصله في اللغة يدخل هذا في هذا وهذا في ذاك-؟ أم أنه لأجل اللزوم والتضمن؟

الظاهر -عندي- الأخير: يعني أنه لأجل اللزوم والتضمن فإن الربوبية مستلزمة للألوهية، والألوهية متضمنة للربوبية، فإذا ذُكر الإله فقد تضمن ذلك ذكر الرب، وإذا ذكر الرب فاستلزم ذلك ذكر الإله، ولهذا قال جل وعلا هنا ﴿وَلاَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المِلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠] يعني آلهة لاستلزام لفظ الربوبية للإلهية، وكذلك قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ يعني آلهة معبودين كما أتى تفصيله في الحديث. ٣

أورد المصنف -رحمه الله- بعض الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا الباب والتي تبين أن مصدر التشريع ومصدر التلقي هو الوحي وهو الكتاب والسنة، وبناء على ذلك الطاعة المطلقة لله سبحانه ولرسوله ﷺ، فمن صرف هذه الطاعة لغير الله فقد أشرك بالله. ٩

وسوف يأتي بفصيل ذلك إن شاء الله.

وقال ابن عباس: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!" [١]

---

[١] هذا الحديث رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح، وإسناده عن عبد الرزاق عن معمر عن طاووس عن ابن عباس أو نحو ذلك، وقد ذكر إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع من الفتاوى بنصه فذكر الإسناد والمتن،(١) وغالب من خرجوا كتاب التوحيد قالوا إن هذا الأثر لا أصل له بهذا اللفظ، وهذه جراءة منهم حيث أنهم ظنوا أن كل كتب الحديث بين أيديهم، ولو تتبعوا كتب أهل العلم لوجدوا أنّ إسناده والحكم عليه موجود في كتبهم.[٣]

قوله: "وقال ابن عبّاس" هو: حَبْر الأمة، وترجُمان القرآن، عبد الله بن عبّاس بن عبدالمطّلب، ابن عمّ النبي ﷺ.

"يوشِكُ" معناه: يقرُب.

"أن تنزل عليكم حجارة من السماء" عقوبةً لكم كما نزلت الحجارة على من كان قبلكم ممن خالفوا الرسل. ٤

قول ابن عباس: "حجارة من السماء". أي: من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم، ونزول الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل، بل هو ممكن، قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)﴾ [الفيل:٣-٤] وقال تعالى في قوم لوط: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر: ٣٤].

والحاصب: الحجارة تحصبهم من السماء. ٥

"أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون :قال أبو بكر وعمر".

هذا هو السبب الذي يوجِب نزول الحجارة وهو طاعة العلماء والأمراء فيما يخالف شرع الله.٤

أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ : ((إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا)). رواه مسلم[١]، وروي عنه ﷺ، أنه قال: ((أقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر))[٢]، وقال ﷺ: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد))[٣]، ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصاً في رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة

---

[١] مسلم: كتاب المساجد/ باب قضاء الصلاة الفائته.

[٢] الإمام أحمد في "المسند" (٣٨٢/٥)، والترمذي: كتاب المناقب / باب في مناقب أبي بكر وعمر / وابن ماجة في "المقدمة" (٣٧/١).

[٣] الإمام أحمد في "المسند" (١٢٦/٤)، وأبو داود: كتاب السنة /باب في لزوم السنة، وابن ماجة في "المقدمة" (١٥/١)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوي" (٤٩٣/٢٨)، والحاكم ووافقه الذهبي (١-١٥٠)، وابن رجب في "جامع العلوم" (ص٢٤٦).

من السماء، فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر عمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء و الأرض، فيكون هذا أقرب للعقوبة. ٥

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هذه المقالة لَمّا بلغه أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما الخليفتين الراشدين، كانا لا يريان فسخ الحج إلى العمرة، بينما رسول الله ﷺ أمر بفسخ الحج إلى العمرة لمن لم يَسُقِ الهدي.

فهذا عند عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما يدلُّ على وجوب فسْخ الحج إلى العمرة لمن لم يَسُقِ الهدي، عملاً بأمر الرسول ﷺ، لأنه أمر بذلك أصحابه وأكّد عليهم، ولَمّا خالف ذلك الخليفتان الراشدان أبو بكر وعمر، ورأيا أنه لا يجب فسْخ الحج إلى العمرة، بل المضي في الإفراد أفضل، من أجل أن لا يُهْجَر البيت في بقية السنّة، لأن الحاج إذا جمع بين الحج والعمرة في سفر واحد، فهذا مما يسبِّب أن لا يأتي الناس مّرة أخرى للعمرة، بل يكتفون بسفرٍ واحد.

هذه وِجهة نظرهما رضي الله عنهما، وهي مسألة اجتهادية، ولكن الاجتهاد إذا خالف الدليل فإنه لا يجوز العمل به. ٤

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ما هو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى؛ لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: "يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: ((بل للأبد))[1]. والحديث في الصحيحين، وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [النساء: ٥٩].

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما

---

[1] النسائي مناسك الحج (٢٨٠٦)، أحمد (١٧٥/٤).

أهديت، ولولا أن معي الهدى لأحللت))[1] هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها. ولفظه في حديث جابر: ((افعلوا ما أمرتكم به، فلولا أني سقت الهدى لفعلت مثل الذي أمرتكم))[2]. ٢

عن ابن أبي مليكة، أن عروة ابن الزبير قال لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ يأمر الناس بالعمرة في هذا العشر، و ليس فيها عمرة، فقال عروة: فإن أبا بكر و عمر لم يفعلا ذلك، فقال الرجل: من هاهنا هلكتم، ما أرى الله إلا سيعذبكم، أحدثكم عن رسول الله ﷺ!! وتخبروني بأبي بكر وعمر.[3] ٧

في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة، فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء..." الحديث.

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ. وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير. ٢

وهذا الكلام قاله ابن عباس لمن ناظره في متعة الحج، وكان ابن عباس يأمر بها، فاحتج عليه المناظر بنهي أبي بكر وعمر عنها، أي: هما أعلم منك وأحق بالاتباع، فقال هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائناً من كان...

فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر وهما هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي ينتسب إليه؟! ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة، فما وافقه قبله، وما خالفه رده، أو تأوَّله فالله المستعان.

---

[1] أحمد (١/٢٥٤).

[2] البخاري الحج (١٤٩٣)، أحمد (٣/٣٦٦).

[3] زاد المعاد (٢/٢٠٦).

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين[1].

فإن جاءهم فيه الدليل موافقاً لما كان للآباءِ إليه ذهابُ

رَضَوهُ وإلا قيل: هذا مُؤَوَّلٌ ويَرْكَبُ للتأويلِ فيه صِعابُ

ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. ١

فإذا كان ابن عبّاس يُنكر على من أخذ برأي الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر، لأنه اجتهاد مخالف للنص، وأن ذلك يوجِب العقوبة، فكيف بطاعة العلماء والأمراء في التحليل والتحريم من غير دليل؟.

وهذا مما يدل على وجوب احترام سنة الرسول ﷺ، وأنها هي المنتهى بعد كتاب الله عزّ وجلّ، وأنه إذا حصل اجتهاد من المجتهدين يجب عرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما قام عليه الدليل أخذناه، وما خالف الدليل تركناه، وإنْ كان قائله من أفضل الناس، كأبي بكر وعمر، فضلاً عن غيرهما.

والاجتهاد سائغ، وهو "استنباط الأحكام الشرعية من أدلة الكتاب والسنّة"، ولكن عند التطبيق لا يجوز لنا أن نأخذ إلا ما قام عليه الدليل من أقوال أهل العلم، فلا يجوز لنا أن نأخذ ما خالف الدليل إمّا تعصُّباً لصاحبه، وإما لأنه يوافق أهواءنا، ويوافِق رغباتنا، بل المدار على الكتاب والسنّة: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩].

والعامي يسأل أهل العلم، ويأخذ بقولهم، لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل :٤٣]. ٤

الواجب على المسلم أنه إذا سمع حديثا عن النبي ﷺ وعلم فقهه أو بينه له أهل العلم فإنه لا يترك ذلك الحديث والذي فقهه لقول أحد كائنا من كان، إذا كان الحديث ظاهرا في الدلالة

[1] هو الصنعاني صاحب سبل السلام شرح بلوغ المرام، البيتان رقم (٤٠-٤١).

على ذلك، وكان القول الآخر لا دليل عليه، أما إذا كانت المسألة اجتهادية في الحديث من جهة الفهم، فهذا مجاله واسع، وابن عباس رضي الله عنهما يُحمل كلامه هذا على أن هؤلاء الذين قالوا له تلك المقالة، قالوا له: قال أبو بكر وعمر. عارضوا قوله في المتعة بقول أبي بكر وعمر الذي هو مناقض لصريح قول النبي ﷺ، ومعلوم أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا يذهبان إلى أنّ إفراد الحج أفضل من التمتع، وابن عباس كان يوجب التمتع ويسوق الأدلة في ذلك، وقول أبي بكر وعمر أخذ به طائفة من أهل العلم كمالك وغيره؛ بل قال طائفة إن إفراده الحج وسفره مرة أخرى للعمرة خير له من أن يجمع بين حج وعمرة في سفرة واحدة كما هو اختيار شيخ الإسلام واختيار غيره من المحققين.

المقصود من ذلك أن كلام ابن عباس هذا ليس في المسألة الفقهية؛ يعني فقه كلام ابن عباس فيما أراده الشيخ ليس فيما يتعلق بمسألة التمتع والإفراد؛ ولكن في مسألة عموم لفظه وهو أنه لا يعارض قول النبي عليه الصلاة والسلام الظاهر معناه بقول أحد لا دليل له على قوله ولو كان ذلك القائل أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فكيف بمن دونهما من التابعين أو من الصحابة فكيف بأئمة أهل المذاهب وأصحاب أهل المذاهب رحمهم الله تعالى، واحترام العلماء وأهل المذاهب واجب؛ لكن أجمع أهل العلم على أن من استبانت له سنة من سنن الرسول ﷺ لم يكن له أن يتركها لقول أحد كائنا من كان. ٣

قال الشافعي: "أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد". [١]

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع، فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما في الحديث، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو

[١] نقل ذلك عن الشافعي: ابن القيم في إعلام الموقعين (٢/٢٨٢)، وكتاب الروح (ص/٢٦٤)، ومدارج السالكين (٢/٣٣٥)، والسيوطي في مفتاح الجنة (ص/٢٤).

مخصص، ونحو ذلك، فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد. وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين. ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف، ودونوا الأحاديث، وورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين، فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من يبلغه الدليل، فلم يأخذ به -تقليداً لإمامه- فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: "حدثنا أحمد بن عمر البزار"، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: "ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ".

وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائنًا من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه، كما تقدم في كلام الشافعي رحمه الله تعالى. ٢

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنياً على أساس سليم.٥
وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع و الحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع. ٦
وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشاً إذا قيل له: قال رسول الله ﷺ، قال: لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا، فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [القصص: ٦٥]، ولم يقل ماذا أجبتم فلاناً وفلاناً، أما صاحب الكتاب،

فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق، فإنه يدعي له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ، ولا يقال: إنه معصوم، يعارض بقوله قول الرسول ﷺ. ٥

وقال الإمام أحمد: "عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾[النور:٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك"[١].

قوله: "وقال أحمد" هو: الإمام أحمد بن حنبل، إمام أهل السنّة، الصابر على المحنة.

قال رحمه الله: "عجبت" تعجُّب استنكار.

"لقوم عرفوا الإسناد وصحّته" أي: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله. ٥

يعني: عندهم علم بالأدلّة. ٤

أي: عرفوا أنه صحيح إلى النبي ﷺ و الصحابة. ٦

والإسناد هو: سلسلة الرُّواة الذين يروون الحديث عن رسول الله ﷺ من لَدُن الراوي إلى الرسول ﷺ، سواءٌ قصُر السند أو طال، وهو ما يسمى بالعالي والنازل.

والإسناد يحتاج إلى دراسة لمعرفة رُواته من حيث الثقة والحفظ والإتقان، وعدم ذلك، فإذا توفّر في السند أن راويه عدل تام الضبط من بداية السند إلى نهايته مع السلامة من الشذوذ والعلل فهو صحيح وإن نقص شيءٌ من ذلك نزل عن درجة الصحيح إلى الحسن أو إلى الضعيف.

والعلماء هم الذين يميّزون ذلك ويعرفونه، فالذين بلغوا من العلم بحيث أنهم يعرفون صحّة الإسناد إلى رسول الله ﷺ فإنهم يجب عليهم الأخذ بالدليل، لأن صحة الإسناد تدلّ على صحة المسْنَد، فصحة السند تدلُّ على صحة المتن، كما هو مدلول عبارة الإمام أحمد هذه.

---

[١] هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد (رواه ابن بطة في الإبانة (٢٦٠/١ رقم ٩٧)، وانظر مسائل عبدالله (١٣٥٥/٣)، وأبو طالب عن أحمد (ذكر ذلك شيخ الإسلام في الصارم المسلول (١١٦/٢-١١٧).

وفي هذا ردٌّ على بعض المتشدِّقين من بعض العصْريّين العقلانيِّين الذين يقولون: حتى لو صحّ الإسناد فهذا لا يدل على صحة المتن، وينتقدون أحاديث في "صحيح البخاري" صحّتْ أسانيدها لأنها تخالف عقولهم القاصرة.

وهذا لجهلهم، أو لتجرّئهم على كلام رسول الله ﷺ لأنه يخالف أهواءهم ويخالف عقولهم.

يا سبحان الله! كلام رسول الله ﷺ يُخضع للعقول، إنه يجب على من يؤمن بالرسول ﷺ أن يقدِّم قوله ويعتقده ويعمل به بدون مناقشة، وبدون جدال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن معنى شهادة أن محمداً رسول الله: تصديقه فيما أخبر. فمن لم يصدِّق ما أخبر به وإنما يُخضعه لهواه، ويُخضعه لقواعده المنطقية أو العقلية أو للعلم الحديث -كما يسمُّونه-؛ فهذا كأنه لم يؤمن أنه رسول الله ﷺ، فالأمر خطيرٌ جدًّا، مع العلم أن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح، فإن اختلفا ففي أحدهما خلل، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقوله: "يذهبون إلى رأي سفيان" يعني: يتركون ما صحّ به الإسناد عن رسول الله ﷺ ويذهبون إلى رأي سفيان، وهو الإمام الجليل الفقيه الزاهد المتقن، سفيان بن سعيد الثوري، كان فقيهاً، محدِثاً، وله اجتهاد، وله مذهب في الفقه، لكنه انقرض بسبب أنه لم يكن له أتباع يحفظونه ويتدارسونه كما كان للأئمة الأربعة، وقد نقل كثير من مذهبه في موسوعات الفقه، كـ "المغني"، وكـ "المحلّى" لابن حزم، وكتب التفسير، وشروح الحديث، لأنه إمامٌ مجتهد، وله با عٌ طويلٌ في الفقه والحديث والتفسير، رحمه الله[1].

ولكن هو كغيره من الأئمة، لا يجوز أن يقدَّم قوله على قول الرسول ﷺ، وهو رحمه الله لا يرضى بذلك، كغيره من الأئمة لا يرضون بذلك.

ولهذا يقول الإمام مالك: "كلنا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر" يعني: رسول الله ﷺ.٤

وقال مالك: "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ" [2]. ١

---

[1] انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٧/٢٢٩).

[2] انظر: القول المؤمل في الرد إلى الأمر الأول لأبي شامة (ص / ٦٥)، والآداب الشرعية (٢/٢٩٣)، وفتاوي السبكي (١/١٤٨) ى، وقد صح هذا القول عن مجاهد.

ويقول الإمام الشافعي: "إذا صحّ الحديث فهو مذهبي"، ويقول: "إذا خالف قولي قولَ رسول الله ﷺ فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرْض الحائط"[1]، ويقول رحمه الله: "أجمع المسلمون على أنّ من استبانتْ له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائناً من كان".

ويقول الإمام مالك رحمه الله: "أَوَكُلَّما جاءنا رجلٌ أَجْدَلَ من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدل هؤلاء؟."

والإمام أحمد يقول هذه المقالة: "عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحّته يذهبون إلى رأي سفيان".

والإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول: "إذا جاء القولُ عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصّحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال"[2]، لأنه رحمه الله كان من أتباع التابعين، وتتلمذ على التابعين، فأبو حنيفة هو أقدم الأئمة الأربعة، بل يُقال: إنه أخذ عن بعض الصّحابة، ولكن هذا لم يَثْبُت، فهو يقول هذه المقالة، يقدِّم قول الرسول ﷺ على الرأس والعين، ولا يقدِّم عليه قول أحد، ثم بعد قول الرسول ﷺ يقدِّم قولَ الصحابه ولا يعدِل بالصحابي أحداً ممّن جاء بعده، وأما من بعد الصّحابة فيقول: "نحن رجال وهم رجال"، يعني: متساوين في المدارك والعلم. ٤

وفي (روضة العلماء)[3]: "سئل أبو حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة". [4]

---

[1] انظر سير أعلام النبلاء (١٠ / ٣٥)، وقواعد التحديث للقاسمي (ص/٣٥١).

[2] رواه البيهقي في المدخل (رقم ٤٠)، وإسناده حسن. قال السمعاني في قواطع الأدلة (٣٧١/١): "وهذا قول ثابت عنه"، وانظر مفتاح الجنة للسيوطي(ص ٤٥).

[3] روضة العلماء للشيخ أبي علي حسين بن يحيى البخاري الزندويستي الحنفي. انظر: كشف الظنون (٩٢٨/١).

[4] عزاه لصاحب (روضة العلماء الزندستية): ولي الله الدهلوي في ((عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد)) ص٢٢، الصنعاني في ((إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد))ص ١٤٢.

فلم يقل هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له: أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وروى البيهقي في (السنن) عن الشافعي أنه قال: "إذا قلت قولا وكان عن النبي ﷺ خلاف قولي فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أوْلى، فلا تقلدوني". [1]

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول ﷺ، فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت".[2]

ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى. ٢

وكلام الأئمة مثل هذا كثير، فخالف المقلدون ذلك، وجمدوا على ما وجدوه في الكتب المذهبية، سواء كان صوابا أم خطأ مع أن كثيرا من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصاً عليها، وإنما هي تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم، ولسنا نقول إن الأئمة على خطأ بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ، ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول ﷺ، فهو الذي لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ٤)﴾ [النجم:٣-٤] فما العذر في اتباعهم وترك اتباع الذي لا ينطق عن الهوى؟!. ١

هذه مقالاتهم -رحمهم الله- تدلُّ على أن الواجب هو الأخذ بما صحّ عن رسول الله ﷺ، وأن اجتهادات العلماء يُستفاد منها وتُدْرَس، ولكن إذا خالف الدليل شيءٌ منها فيجب الأخذ بالدليل، ولا يجوز التعصُّب لقائله، فإن تعصّب أحدٌ لقولٍ يخالف الدليل وقع في هذا المحظور، وصار من الذين اتّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله. ٤

---

[1] رواه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي (ص٩٣)، وأبو النعيم في الحلية (١٠٦/٩)، وغيرهم وإسناده صحيح.

[2] رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص/٢٠٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨٦/٥١) وغيرهما وإسناده صحيح.

فقوله "يذهبون إلى رأي سفيان" يدل على أن سفيان لم يكن له مستند على ما ذهب إليه، وهو عالم من العلماء وأحد الزهّاد الصالحين المشهورين؛ ولكن قد تخفاه السنة فيكون حكم برأيه أو بتقعيد عنده، لكن السنة جاءت بخلاف ذلك، فلا يسوغ أن يجعل رأي سفيان في مقابل الحديث النبوي على النبي ﷺ. ٣

ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته، ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة؛ إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني فهو لا يقول إلا بعلم، ولا يترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم...

فيقال له: هذا إن صح؛ فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطاً في جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله وعلى رسوله ﷺ، وعلى أئمة العلماء، بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلم معنى ذلك في أي شيء كان؛ أن يعمل به ولو خالفه من خالفه، فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ، وأجمع على ذلك العلماء قاطبة، إلاجهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا منهم: أبو عمر بن عبد البر وغيره.[1]

قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [الأعراف:٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور:٥٤].

فشهد تعالى لمن أطاع الرسول ﷺ بالهداية، وعند جفاة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتدي إنما المهتدي من عصاه، وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك. ١

---

[1] جامع بيان العلم وفضله (٩٩٣/٢)

وقد استدل الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– بقوله ﷺ: ((لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك))، على أن الاجتهاد لا ينقطع. ٧

ونحن لا نرفض الفقه كما يظن بعض الجهال أو بعض المبتدئين، بل نعتبره ثروة عظيمة، فيها علمٌ غزير، فندرسُ الفقه ولكن لا نأخذ منه إلا ما قام دليله، وما علمنا أنه خلاف الدليل حرُم علينا الأخذ به، مع اعتذارنا لقائله، واحترامه، لأنه لم يتعمّد المخالفة، والمجتهد يخطئ ويصيب، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. والخطأ مغفور، كما صحّ بذلك الحديث.

والناس على أربعة أقسام:

القسم الأول: من يستطيع الاجتهاد المطلق بأن يأخذ من الكتاب والسنّة ويستنبط من الكتاب والسنّة ولا يقلِّد أحداً.

وهذا أعلى الطبقات، ولكن هذا إنما يكون لمن توفّرتْ فيه شروط الاجتهاد المعروفة، بأن يكون عالماً بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ، وأن يكون عالماً بلغة العرب التي نزل بها القرآن، وأن يكون عالماً بالمحكم والمتشابه وبالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيَّد، والخاص والعام، ويكون عنده معرفة بمدارك الاستنباط، أعني: لديه مؤهِّلات، فهذا يجتهد. وهذا الصنف كالأئمة الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وسفيان الثوري، والأوزاعي، هؤلاء أعطاهم الله مَلَكة الاجتهاد.

الصنف الثاني: من لا يستطيع الاجتهاد المطلَق، ولكنه يستطيع الترجيح بين أقوال أهل العلم بأن يعرف ما يقوم عليه الدليل وما لا يقوم عليه الدليل من أقوالهم.

فهذا يجب عليه الأخذ بما قام عليه الدليل وترك ما خالف الدليل وهذا العمل يسمى بالترجح ويسمى بالاجتهاد المذهبي.

الصنف الثالث: من لا يستطيع الترجيح.

فهذا يُعتبر من المقلدِّين، ولكن إذا عرف أنّ قولاً من الأقوال ليس عليه دليل

فلا يأخذ به، أما ما دام لا يعرف ولم يتبيّن له مخالفة، فلا بأس أن يقلِّد ويأخُذ بأقوال أهل العلم الموثوقين.

والصنف الرابع: من لا يستطيع الأمور الثلاثة: لا الاجتهاد المطلق، ولا الترجيح، ولا التقليد المذهبي كالعامي -مثلاً.-

فهذا يجب عليه أن يسأل أهل العلم كما قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، فيسأل أوثق من يرى، ومن يطمئن إليه من أهل العلم، ممّن يثق بعلمه وعمله ويأخذ بفتواه.

هذه أقسام الناس في هذا الأمر.

ومن هنا علِمنا أن الأمر ليس بمتروك ومُفْلَت، كل واحد ينصب نفسه منصب الأئمة ومنصب المجتهدين، ويغلِّط العلماء، ويرجّح من غير علم.

أو يزهِّد في الفقه وأقوال الفقهاء، ويعتبرها شيئاً مرفوضاً. وهذا ليس من آداب طلبة العلم المريدين للحق.

والواجب على الإنسان: أن يعرف قدْر نفسه، فلا يجعل نفسه في مكانة أعلى مما تستحقُّها، بل الأمر أخطر من ذلك وهو أن يخاف من الله سبحانه وتعالى لأن الأمر أمر تحليل وتحريم وجنة ونار، فلا يورِّط نفسه في أمور لا يُحسن الخروج منها.

والمجتهد إذا توفّرت فيه شروط الاجتهاد فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجرٌ واحد، لأنه يريد الحق، ولكنه لم يستطع الوصول إليه بعد بذْل مجهوده، بذَل مجهوده وتحرّى الحق ولم يصل إليه، فهو معذور، قال ﷺ: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحد))، لكن مع كونه معذوراً ومأجوراً في الخطأ لا يجوز لنا أن نأخذ بقول نرى أنه خطأ، بل يجب علينا أن نأخذ بالقول الصواب، سواء كان هذا القول الصواب في المذهب الذي نقلّده، أو في مذهب آخر، هذا هو طريق أهل الحق، أنهم لا يقلِّدون على خطأ، بل يأخذون ما ترجّح بالدليل ولو لم يكن عليه إمامهم.

ولهذا –ولله الحمد– إمام هذه الدعوة ومؤلِّف هذا الكتاب الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وتلاميذه ومَن جاء بعده من علماء هذه البلاد ينهجون هذا المنهج، ويقولون: نحن حنابلة، ولكن ليس معنى هذا أننا نأخذ كل ما في المذهب الحنبلي بدون تمحيص، بل إذا قام الدليل على قول من الأقوال أخذنا به ولو لم يكن في المذهب الحنبلي، كالمذهب المالكي، أو المذهب الشافعي، أو المذهب الحنفي، لأننا ننشُد الدليل، ولا يمنع هذا أن يكون الإنسان حنبليًّا وإذا أخذ بقول قام عليه الدليل يخالف قول ابن حنبل أخذ به لأن إمامه أرشده إلى هذا، فقال له: خذ ما قام عليه الدليل، ولا تقلِّدني على خطأ، كلُّ الأئمة يقولون هذا، ما أحد منهم ادّعى العصمة أو ادّعى الكمال أو قال للناس لا تخالِفوا مذهبي أبداً، بل هم يحذِّرون من هذا، فأنت إذا أخذت بالدليل فإنك موافِقٌ لإمامك الذي تقلِّده، أما إذا أخذت الخطأ فأنت مخالفٌ لإمامك وإن كنت تزعُم التعصُّب له.

فهذه مسألة يجب علينا أن نهتمّ بها، فنتجنّب الإفراط والتفريط، لا نكون مع الذين يرفضون الفقه، ويقولون: هذه أقوال رجال، فيضيعون، فلا هم الذين أخذوا بالفقه، ولا هم الذين يُحسنون الاستنباط والاستدلال، فضاعوا وضيعوا من تبعهم.

ولا نحن مع الذين يقلِّدون تقليداً أعمى، ويتعصّبون لمذاهبهم، ويأخذون بقول إمامهم، ولو خالف الحديث، ويقول: آخذ بقول إمامي ولو خالف الدليل، لأن إمامي أعلم بالدليل. فهذان على طرفي نقيض.

والصواب الوسط، أننا نأخذ بالفقه، ونأخذ بأقوال الأئمة، وندرُس الفقه، لأن دراسته طريقٌ إلى معرفة الحق، ولكن لا نقلِّد تقليداً أعمى، وإنما نميِّز بين الأقوال التي عليها دليل والتي ليس عليها دليل، وإذا كنا لا نعرف هذا علينا أن نسأل أهل العلم عن ذلك.

هذا هو الحق والوسط في هذه المسألة التي خاض فيها الناس في وقتنا الحاضر على غير هدى إلا من رحم الله.

قال الإمام أحمد: "والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى وتهديد: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾.

والضمير في ﴿أَمْرِهِ﴾ يرجع إلى الرسول ﷺ، الذي مرّ ذكره في أول الآية. ٤ قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور: ٦٣].

فإن قيل: لماذا عدي الفعل بـ: (عن) مع أن (يخالف) يتعدى بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضمن معنى الإعراض، أي: يعرضون عن أمره زهداً فيه وعدم مبالاة به. ٥ ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فسّرها الإمام أحمد بالزيغ والشرك، قال: "أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا ردّ بعض قوله" أي: بعض قول الرسول ﷺ، "أن يقع في قلبه شيءٌ من الزَّيْغ فيَهْلِك". ٤

﴿فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني نوع شرك، وقد يصل ذلك إلى الشرك الأكبر بالله جل وعلا، إذا كان في تحليل الحرام مع العلم بأنه حرام، وتحريم الحلال مع العلم بأنه حلال. ٣

هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب الذي هو سبب الهلاك في الدنيا والاخرة. ١ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾ [الصف: ٥]. ٢

فإذا كانت إساء الأدب معه في الخطاب سبباً لحبوط الأعمال كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات:٢] فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من الناس كائناً من كان؟!

قال شيخ الإسلام: "فإذا كان المخالف عن أمره قد حُذِّرَ من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مُفْضِياً إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاؤه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من استخفاف بحق الآمر، كما فعل إبليس لعنه الله".[1]

فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ سبب للفتنة التي هي الشرك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة؛ علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة، أو مالك أو غيرهما؛ لهم النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ. ١

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك: ﴿فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، قال: "يطبع على قلبه، فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه."[2] ٢

فمن ردّ قول الرسول ﷺ متعمّداً تَبَعاً لهواه، أو تعصُّباً لشيخه الذي يقلِّده، فإنه مهدّد بعقوبتين:

العقوبة الأولى: الزيغ في قلبه، لأنه إذا ترك الحق ابتُلي بالباطل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة ١٢٧]، لَمّا انصرفوا عن تلقِّي القرآن عند نزوله وتعلُّمه صرف الله قلوبهم عن الحق عقوبةً لهم، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، لَمّا رفضوه أول الأمر عند ذلك ابتلاهم الله بتقليب أفئدتهم وأبصارهم عقوبةً لهم، فلا تقبل الحق بعد ذلك. وهذا خطرٌ شديد، بخلاف الذي يقبل الحق ويرغب فيه، فإن الله يهديه ويزيده علماً وبصيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

---

[1] الصارم المسلول (١١٧/٢)

[2] تفسير ابن جرير (١٨/ ١٧٨)

فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فالمؤمن يَتْبع الدليل ويفرح به إذا حصل عليه، والحق ضالّة المؤمن أنّى وجده أخذه، أما الذي في قلبه زيع أو نفاق فهذا إنما يتّبع هواه ولا يتّبع الدليل، وهذا يُصاب بالزيغ والانحراف في العقيدة والانحراف في الدين والانحراف في الأخلاق وفي كلِّ شيء، عقوبةً له من الله سبحانه وتعالى.

والعقوبة الثانية: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في أبدانهم، بالقتل في الدنيا، بأن يسلِّط الله عليهم من يستأصِل شأْفَتهم ويقتلهم، إما من المؤمنين، وإما من غير المؤمنين، عقوبةٌ لهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، إن ماتوا ولم يُقتلوا بأن يعذبوا في النار. فهذا وعيدٌ شديد على مخالفة أمر الرسول ﷺ.

فترك أمر الرسول ﷺ، والأخذ بأقوال العلماء والأمراء المخالِفة لِمَا قاله الرسول ﷺ في التحليل والتحريم يسبب الفتنة، أو العذاب الأليم.

وهذا هو الشاهد من الآية للباب. ٤

فالوعيد فيمن استحل المحرم بفتوى زيد وهو يعلم أنه خلاف الشرع. ٦

وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعي العلم والمعرفة بالعلوم، ويصنف التصانيف في الحديث والسنن، ثم بعد ذلك تجده جامداً على أحد هذه المذاهب، يرى الخروج عنها من العظائم.

وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يُذَمْ، إنما المذموم المنكر الحرام: الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم؛ ويُنْكِرُ الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرؤا شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإنما يقرؤون تبركاً لا تعلما وتفقها، أو لكون بعض المؤقِفِيْنَ وَقَفَ على من قرأ البخاري مثلاً، فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة، فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ

فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)﴾ [طه:٩٩-١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه:١٢٤] إلى قوله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طه:١٢٧].١

وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصًا ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله. فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله، وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [الأعراف:٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت:٥١]. وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة؛ لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنها، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة هم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم، كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من

تأخروا والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذي قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة:٣١]، كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم.

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء، ونظر فيها، وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا، وتمييزًا للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه، والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر... والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة؛ لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء. ٢

فإن قلت: فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟

قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة، وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية، أما أن تكون هي المقدمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلى التحاكم إليها دون التحاكم إلى الله والرسول ﷺ؛ فلا ريب أن ذلك مناف للإيمان مضاد له، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء: ٦٥]

فإذا كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله ورسوله، ثم إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت الحرج في نفسك، وإن قضى أهل الكتاب بأمر لم تجد حرجاً، ثم إذا قضى الرسول ﷺ بأمر لم

تسلم له، وإن قضوا بأمر سلمت له؛ فقد أقسم الله تعالى سبحانه وهو أصدق القائلين بِأَجَلِّ مقسم به وهو -نفسه تبارك وتعالى- أنك لست بمؤمن...

على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة. ١

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "النبيه الذي سمع اختلاف العلماء و أدلتهم في الجملة عنده ما يعرف به رجحان القول، وأكثر من يميز في العلم من المتوسطين إذا نظر وتأمل أدلة الفريقين بقصد حسن، ونظر تام، وترجح عنده أحدهما، لكنه قد لا يثق بنظره بل يحتمل أن عنده ما لا يعرف جوابه، والجواب على مثل هذا موافقته القول الذي ترجح عنده بلا دعوى منه للاجتهاد."[1]

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ الآية. فقلت له: إنا لسنا نعبدهم قال: ((أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلّون ما حرم الله، فتحلونه؟)) فقلت: بلى. قال: ((فتلك عبادتهم))[2] رواه أحمد، والترمذي وحسنه.

قوله: "وعن عدي بن حاتم": أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ الأحبار: جمع حَبر أو جمع حِبر وهو: العالِم.

﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ جمع راهب، وهو: العابد، والغالب أن الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: يطيعونهم في التحليل والتحريم. ٤

---

[1] الفتوى الكبرى (٦٢٥/٤)

[2] رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٧/٤، ٣٧٨) بنحوه، والبخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧)، والترمذي في سننه (رقم٣٠٩٥)، وابم أبي حاتم في تفسيره (١٧٨٤/٦)، والطبراني في المعجم الكبير.. وهو حديث حسن. محقق ١

قوله: ﴿أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾. أي: مشاركين لله عز وجل في التشريع، لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع. ٥

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ غلوا فيه واتخذوه رباً يعبدونه. ٤

أي: اتخذوه إلهاً مع الله، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي.

قوله: ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾. هو الله عز وجل، وإله، أي: مألوه معبود مطاع، وليس بمعنى آله، أي: قادر على الاختراع، فإن هذا المعنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم، فيكون معنى (لا إله إلا الله) على هذا القول: لا رب إلا الله، وهذا ليس بالتوحيد المطلوب بهذه الكلمة، إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ موحدين، لأنهم يقولون: لا رب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧)﴾ [المؤمنون:٨٦]، وهذه إحدى القرائتين، وهي سبعية. ٥

﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

والتسبيح: التنزيه، أي: تنزيه الله عن كل نقص، ولا يحتاج أن نقول: ومماثلة المخلوقين، لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها، فذلك من باب زيادة الأيضاًح حتى لا يظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى: تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان، فهو متنزه عن كل شرك وعن كل مشرك به. ٥

فسمّاه شركاً، ونزّه نفسه عنه، فدلّ على أنّ طاعة الأحبار والرُّهبان في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرّم الله أنه يُعتبر شركاً بالله عزّ وجلّ، ويعتبر حديث عديّ هذا تفسيراً للآية.

فَلمّا سمع عديّ رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية قال: "إنا لسنا نعبدهم"، فَهِمَ رضي الله عنه أن عبادتهم تعني الركوع لهم والسجود لهم، والذبح لهم فقط.

قال ﷺ: ((أليس يحرّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلون ما حرّم الله فتحلُّونه؟))، قال: بلى، قال: ((فتلك عبادتهم)) فدلّ هذا على أن طاعة الأحبار والرُّهبان في تحريم الحلال وتحليل الحرام عبادة لهم، ويُعتبر هذا من شرك الطاعة، لأن التحليل والتحريم حقٌّ لله سبحانه وتعالى، فليست العبادة قاصرة على السجود والركوع والدعاء والذبح والنذر وغير ذلك مما يفعله الوثنيُّون، بل ويشمل طاعة المخلوقين في معصية الخالق سبحانه وتعالى ومخالفته في تشريعه، يدخل هذا في ضِمْن العبادة، فالعبادة عامة ليست مقصورة على نوع أو أنواع من العبادة، بل هي شاملة لكل ما هو من حق الله، ومن ذلك: التحليل والتحريم. ٤

قوله: "إنا لسنا نعبدهم" أي: لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذرهم لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!".

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبداً، لأنه رسول الله، فما أحله، فقد أحله الله، وما حرمه، فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب على التعليل المذكور بأن قول عدي: "لسنا نعبدهم" يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسى ابن مريم، فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال، لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ...﴾ [النحل: ١١٦].

قوله: ((فتلك عبادتهم)). ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله، فهي عبادة لله، لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت، فلا

تكون قد عبدت أبوك بطاعتك له، ولكن عبدت الله، لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله. ٥

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلاهاً واحداً لا إلاه إلا هو سبحانه عما يشركون﴾، ونظير لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام: ١٢١]

وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم؛ لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك. ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل -والحالة هذه- يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمت بها البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وَهَلُمَّ جرا، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: "هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين" رواه الدارمى.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون. ٢

ويستفاد من الحديث :

١- أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢- أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله، فهي عبادة الله.

٣- أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً. وأعلم أن أتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم، مقدماً له، ساخطاً لحكم الله، فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله فأحبط الله عمله، ولا تحبط الاعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله، فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضياً بحكم الله وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلاً وظيفة، فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله، فينقسم إلى قسمين:

أ. أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه، فهو مفرط أو مقصر، فهو آثم، لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب. أن لا يكون عالماً ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذوراً بذلك، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن ((من أفتي بغير علم، فإنما إثمه على من أفتاه))[١]، لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره، للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.
فإن قيل: لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني ؟

أجيب: إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله. ٥

وطاعة الأحبار في التحليل والتحريم على درجتين:
الدرجة الأولى: أن يطيع العلماء أو الأمراء في تبديل الدين؛ يعني في جعل الحرام حلالاً وفي جعل الحلال حراماً، فيطيعهم في تبديل الدين وهو يعلم أن الحرام قد حرمه الله؛ ولكن

---

[١] الإمام أحمد في "المسند" (٣٢١/٢، ٣٦٥)، وأبو داود: كتاب العلم / باب التوقي في الفتيا، وابن ماجة: كتاب المقدمة / باب اجتناب الرأي: قال الألباني: "إسنادة حسن" (المشكاة ٢٤٢).

أطاعهم تعظيماً لهم، فحلّل ما أحلوه طاعة لهم وتعظيماً وهو يعلم أنه حرام، حلل يعني اعتقد أنه حلال وأمضى أنه حلال وهو حرام في نفسه، أو حرّم تبعا لتحريمهم وهو يعلم أن ما حرموه من الحلال أنه غلط وأن الحلال حلال؛ ولكنه حرم تبعا لتحريمهم، هذا يكون قد أطاع العلماء أو الأمراء في تبديل أصل الدين، فهذا هو الذي اتخذهم أرباباً، وهو الكفر الأكبر والشرك الأكبر بالله جل وعلا، وهذا هو الذي صرف عبادة الطاعة إلى غير الله، ولهذا قال الشيخ سليمان رحمه الله في شرحه لكتاب التوحيد قال: الطاعة هنا في هذا الباب المراد بها طاعة خاصة وهي الطاعة في تحليل الحرام أو تحريم الحلال. وهذا ظاهر.

الدرجة الثانية: أن يطيع الحبْرَ أو يطيع الأمير أو يطيع الرهبان في تحريم الحلال أو في تحليل الحرام من جهة العمل، أطاع، وهو يعلم أنه عاصي بذلك ومعترف بالمعصية؛ لكن اتبعهم عملا وقلبه لم يجعل الحلال حراماً، وقلبه لم يجعل طاعة أولئك في قلبهم الحلال حراماً متعيناً أو سائغاً؛ ولكن أطاعهم حباً له في المعصية أو حباً له في مجاراتهم؛ ولكن في داخله الحلال هو الحلال والحرام هو الحرام فما بدَّل الدين، قال شيخ الإسلام رحمه الله: هذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب.

وهاتان الدرجتان هما من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الآية، هذا وأمثاله له حكم أمثاله من أهل الذنوب والعصيان؛ لأنه ما حرّم الحلال ولا أحلّ الحرام وإنما فعل الحرام من جهة العصيان، وجعل الحلال حراماً من جهة العصيان لا من جهة تبديل أصل الدين.

والرهبان عبادتهم هي عبادة العبّاد، ويريد الشيخ رحمه الله بذكر الرهبان وبإيراده للآية التنبيه على أن الطاعة في تحليل الحرام وتحريم الحلال جاءت أيضاً من جهة الرهبان -من جهة العباد-، وهذا عند المتصوفة والطرق الصوفية وأهل الغلاة وأهل الغلو في التصوف والغلاة في تعظيم رؤساء الصوفية؛ فإنهم أطاعوا مشايخهم والعبّاد والأولياء الذين زعموا أنهم أولياء أطاعوهم في تغيير الملة، فهم يعلمون أن السنة هي كذا وكذا وأنّ خلافها بدعة، يعلمون ذلك، فأطاعوا تعظيماً للشيخ تعظيماً للعابد، أو يعلمون أن هدا شرك في القرآن والدلائل

عليه ظاهرة؛ لكن تركوه وأباحوا ذلك الشرك وأحلوه؛ لأن شيخهم ومقدَّمهم ورئيس طريقتهم أحله، وهذا كان في نجد كثيرا إبان ظهور الشيخ بدعوته، وهو موجود في كثير من الأمصار، وهو نوع من اتخاذ أولئك العباد أرباباً من دون الله جل وعلا.

وهذا المقام أيضاً فيه تفصيل على نحو درجتين اللتين ذكرتهما عن شيخ الإسلام رحمه الله. ٣

قال شيخ الإسلام: "وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله"، وعكسه؛ يكونون على وجهين:

- أحدهما: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله، فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

- الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنما الطاعة في المعروف)).

ثم نقول: اتباع هذا المحلل للحرام والمحرم للحلال إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به رسول الله ﷺ، ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول ﷺ، فله نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبعه في ذلك لهواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافِهِ.

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة. وأما إن قلد شخصاً دون

نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه؛ فهذا من أهل الجاهلية، فإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً؛ كان آثماً كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب؛ فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار".[1] انتهى ملخصاً. ١

فمن أطاع العلماء و الأمراء في تحليل الحرام أو العكس واعتقاد أن هذا جائز مع العلم بأنه خلاف شرع الله فهذا يكون عبادة لهم وكفر، أما إذا اتبعهم جهلاً أو اجتهاداً فهذا لا يكون عبادة لهم، ولا يدخل في الوعيد، لأن الإنسان مطالب بسؤال العلماء، والأخذ بفتواهم فيما لا يعلم مخالفته لشرع الله. ٦

ما يُستفاد من هذه النصوص:

أولاً: تحريم طاعة العلماء والأمراء في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وأنه إن استباح ذلك فهذا هو الشرك الأكبر، وإن لم يستبحه فإنه يُعتبر معصيةً عظيمة من المعاصي، وهو من الشرك الأصغر.

ثانياً: أن طاعة العلماء والأمراء في غير معصية الله واجبة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وذلك لأنه لا يتمّ نظام العالَم وقيام المصالح إلاّ بطاعة وُلاة الأمور ما لم يأمروا بمعصية الله عزّ وجلّ، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق في تلك المعصية، ويُطاعون فيما ليس بمعصية.

ثالثاً: في قول ابن عبّاس رضي الله عنهما أن قولَ العالم إذا خالف قول رسول الله ﷺ فإنه يجب الأخذ بقول رسول الله ﷺ وترك قولَ العالم مهما بلغ من الفضل، كأبي بكر وعمر، وسفيان الثوري. والعالم إذا أخطأ عن اجتهاد فخطأه مغفور، لكن لا يجوز لنا تقليده على خطأ.

رابعاً: يؤخذ من قول الإمام أحمد رحمه الله: أن الذي بلغ رُتبة الاجتهاد ومعرفة صحة الإسناد أنه لا يجوز له أن يقلِّد، بل يجب عليه الاجتهاد للتوصُّل إلى الحق بنفسه، ولا يسعه إلاّ ذلك، لأن التقليد لا يجوز إلاّ عند الحاجة، وهذا غير محتاج للتقليد.

---

[1] مجموع الفتاوى (كتاب الإيمان) (٧/٧٠-٧١)

خامساً: يؤخذ من قول الإمام أحمد: أن من لا يعرف الإسناد وصحته يجب عليه التقليد لمن يثق بعلمه وعمله، لئلا يضيع في دينه.

سادساً: أن صحة الإسناد تدلُّ على صحة المتن خلافاً لمن قال من العقلانيِّين: إنه وإنْ صحّ الإسناد فهو لا يدل على صحة المتن.

سابعاً: يؤخذ من حديث عدي بن حاتم ﷺ أن العبادة ليستْ قاصرةً على الركوع والسجود والدعاء والاستغاثة، بل تشمل طاعة الأوامر وترك النواهي.

ثامناً: أنّ مَن أطاع العلماء والأمراء أو غيرهم في تحريم الحلال أو تحليل الحرام أنه قد اتّخذهم شركاءً لله سبحانه وتعالى في عبادته، وهذا محلّ الشاهد من الآية الكريمة وحديث عدي للترجمة. والله تعالى أعلم. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغيّر الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور. وهي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وسبق تفسيرها. ٥

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ..﴾ [التوبة:٣١] الآية، وقد سبق ذلك. ٥

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه، لكن بيَّن ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال. ٥

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

أي: إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يُعَارَض قول النبي ﷺ بقولهما، فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟! فهو أشد وأقبح، وكذلك مثل الإمام أحمد بسفيان الثوري وأنكر على مَن أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ...﴾ الآية. ٥

الخامسة: تغيّر الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

يقول المؤلف رحمة الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عن الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ... وهذا لا شك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر.٥

قوله (صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال) يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع والعطاء والمنع ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك وهو الشرك.

قوله (وعبادة الأحبار هي العلم والفقه) أي: هي التي تسمى اليوم العلم والفقه المؤلف على مذاهب الأئمة ونحوهم فيطيعونهم في كل ما يقولونه سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لا يعبأون بما خالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلدوه، ويصرحون بأنه لا يحل العمل بكتاب ولا سنة، وأنه لا يجوز تلقي العلم والهدى منهما، وإنما العلم والفقه والهدى عندهم هو ما وجدوه في هذه الكتب.

بل أعظم من ذلك وأطم: رمي كثير منهم كلام الله وكلام رسوله بأنه لا يفيد العلم ولا اليقين في باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده، ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون: القواطع العقلية، ثم يقدمونها في باب الأسماء والصفات والتوحيد على ما جاء من عند الله، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين، وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة أو الكفر. ١

ثم قال: "ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين"، أي: يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبي بكر وعمر. ٥

كاعتقادهم في كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب. ١

ثم قال: "وعبد بالمعنى الثاني": ٥

وذلك كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلدين، فيحسنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم علماء مصلحون: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة:١٢]. ١

وهو الطاعة والاتباع مَن هو من الجاهلين، فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما يوجد في بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية، فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئاً ، فصاروا يعبدون بهذا المعني، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف، فكيف بزماننا؟! وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: ((لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم))[1]، وقال النبي ﷺ للصحابة: ((ومن يعش منكم فسيرى أختلافاً كثيراً))، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدي من عصر من بعدهم.

والناس لا يُحسُّون بالتغير، لأن الأمور تأتي رويداً رويداً، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء، لوجد التغير الكثير المزعج نسأل الله السلامة، فعلينا الحذر، وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يُحمَى وأن يُصان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباداً لله عز وجل تذللاً وتعبداً وطاعة. ه

ويستفاد من هذا الباب: أن العبادة ليست مقصورة على سجود وركوع وصلاة بل هي أعم من ذلك ويدخل فيها الطاعة والدعاء والاستعاذة والاستعانة والذبح ... إلخ.

[1] البخاري: كتاب الفتن / باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه.

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النساء: ٦٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الْآيَةُ .عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرُو م، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ)) قَالَ النَّوَوِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وقَالَ الشَّعْبِيُّ: "كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجلٌ مِنَ اليهود خُصُومَةٌ فَقَالَ اليهوديُّ: نَتَحَاكَمُ إلى مُحَمَّدٍ –لِأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ– وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إلى اليهود. لِعِلْمِهِ أَنَّهُم يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ – فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِناً فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إليه، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الْآيَةُ.وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إلى النَّبِيِّ ﷺ ، وقَالَ الْآخَرُ: إلى كَعْبِ بنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إلى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدهُمَا الْقِصَّةَ. فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

هذا الباب من جنس الباب الذي قبله كلاهما في تغيير شرع الله، لكن هذا الباب يخص التحاكم في الخصومات خاصة والباب الذي قبله في التحليل والتحريم عموماً. ٤

هذا الباب له صلة قوية بما قبله، لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله. ٥

أراد المؤلف بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله في كل الأمور كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، و قال تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) -الفاسقون- الظالمون﴾ [المائدة] فهذه تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله وأنه لا يجوز التحاكم إلى غيره كائناً من كان وهذا أصل مجمع عليه. ٦

هذا الباب من الأبواب العظيمة المهمة في هذا الكتاب؛ وذلك لأن إفراد الله جل وعلا بالوَحدانية في ربوبيته وفي إلهيته يتضمن ويقتضي ويستلزم -جميعاً- أن يُفرد في الحكم، كما أنه -جل وعلا- لا حكم إلا حكمه في ملكوته، فكذلك يجب أن يكون لا حكم إلا حكمه فيما يتخاصم فيه الناس وفي الفصل بين الناس، فالله جل وعلا هو الحَكم وإليه الحُكم سبحانه وتعالى، قال جل وعلا ﴿فَالْحُكْمُ للهِ العَلِيّ الكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢]، وقال جل وعلا ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهْ﴾ [الأنعام:٥٧، يوسف:٤٠، ٦٧]، فتوحيد الله جل وعلا في الطاعة وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله لا يكون إلا بأن يكون العباد محكِّمين لما أنزل الله جل وعلا ورسوله، وترك تحكيم ما أنزل الله على رسوله ﷺ بحكم الجاهلية؛ بحكم القوانين أو بحكم سواليف البادية أو بكل حكم مخالف لحكم الله جل وعلا، هذا من الكفر الأكبر بالله جلّ جلاله ومما يناقض كلمة التوحيد أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

لهذا عقد الشيخ "رحمه الله" هذا الباب أن الحكم بما أنزل الله فرض، وأن ترك الحكم بما أنزل الله وتحكيم غير ما أنزل الله في شؤون المتخاصمين وتنزيل ذلك منزلة القرآن أن ذلك شرك أكبر بالله -جل وعلا- وكفر مخرج من ملة الإسلام.

قال الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم "رحمه الله" في أول رسالته تحكيم القوانين: "إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين ليكون حكماً بين العالمين مناقضة ومحادة لما نزل من رب العالمين". أو نحو ما قال رحمه الله تعالى.

فلا شك أن إفراد الله بالطاعة، إفراد الله بالحكم، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله يقتضي أن لا يحكم إلا بشرعه.

فلهذا الحكم بالقوانين الوضعية أو الحكم سواليف البادية هذا كله من الكفر الأكبر بالله جل وعلا، وتحكيم القوانين كفر بالله جل وعلا لقوله تعالى هنا في هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٦٠].

فإذن مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة وهي أنّ التحاكم إلى غير شرع الله هذا قدح في أصل التوحيد، وأن الحكم بشرع الله واجب فإن تحكيم القوانين أو سواليف البادية أو أمور الجاهلية هذا مناف لشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن من مقتضيات شهادة أن محمداً رسول الله أنْ يطاع فيما أمروا وأن يصدق فيما أخبر وأن يجتنب ما عنه نهى وزجر. وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فالحكم بين المتخاصمين هذا لابد أن يرجع فيه إلى حكم من خَلَقَ المتخاصمين ومن خلق الأرض والسماوات، فالحكم الكوني القدري لله جل وعلا، كذلك الحكم الشرعي لله جل وعلا، فيجب أن يكون العباد ليس بينهم إلا تحكيم أمر الله جل وعلا؛ إذْ ذلك هو حقيقة التوحيد في طاعة الله جل وعلا في مسائل التخاصم بين الخلق. ٣

وقولُ المصنف -رحمه الله تعالى-: "باب قول الله تعالى" يعني: ما جاء في تفسير هذه الآيات ممّا ذكره أهلُ العلم في تفسيرها؛ ممّا يدلّ دَلالة واضحة على أنّ التحاكُم إلى ما أنزل الله من التّوحيد والعبادة، وأنّ التحاكُم إلى غيره شركٌ بالله عزّ وجلّ وكفرٌ به، لأنّ الحكم لله وحده: الحكم القدَري، والحكم الشرعي، والحُكم الجزائي كلّه لله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، ﴿لَهُ الْخَلْقُ﴾، هو الذي خلق، وله ﴿وَالْأَمْرُ﴾، فهو الذي يأمر وينهى، ويحلِّل ويحرِّم، ليس لغيره شركٌ في ذلك .وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

فالتحاكم إلى ما أنزل الله داخلٌ في التوحيد، والتحاكُم إلى غيره من أنواع الشرك، لأنّ من معنى (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) ومقتضاها ومدلولها: التحاكُم إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

ومَن تحاكَم إلى غير كتاب الله وسنّة رسوله فإنّه قد أخلّ بكلمة التّوحيد فأخلّ بمقتضى "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

فمدلول الشّهادتين: أن نتحاكَم إلى كتاب الله وإلى سنّة رسول الله ﷺ في جميع أُمورنا، ليس المراد: التحاكُم في المنازعات فقط، بل التحاكُم في المقالات والاجتهادات الفقهيّة أيضاً، فلابدّ أن نحكِّم كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ في أقوال المجتهدين، ونأخذ منها ما دلّ عليه الدليل، ونترك ما لم يدل عليه دليل، ولا نتعصّب لرأي فلان أو للإمام فُلان، فمن تعصّب لم يكن متحاكماً إلى ما أنزل الله وإلى الرّسول، وإنما تحاكم إلى هذا الشخص الذي تعصّب له وجَمَد على رأيه، مع مخالفته، وهو اجتهاد اجتهد فيه، لكن إذا خالف الدليل فلا يجوز لنا أن نتعصّب لرأي إمام أو لرأي عالم أو لرأي مفت من المفتين، ونحنُ نعلم أنّه مخالِفٌ للدّليل، لكن ذلك العالم معذور لأنّه مجتهِد، ولكنّه لم يصادف الدّليل، فهو معذور له أجرٌ على ذلك، لأنّ هذا منتهى اجتهادِه، أما مَن تبيّن له أن هذا الاجتهاد غير مطابِق للدّليل فلا يسعه أن يأخذ بهذا الاجتهاد، ولا يجوز له. والأئمّة ينهون عن ذلك، ينهوننا أن نأخُذ بآرائهم دون نظرٍ إلى مستندها من كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، وإلاّ كنا -كما سبق في الباب الذي قبل هذا- أطعنا العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله وتحليل ما حرّم الله.

وكذلك التحاكُم في المناهِج التي يسمّونها الآن: مناهج الدّعوة، ومناهج الجماعات هي من هذا الباب، يجب أن نحكِّم فيها كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فما كان منها متمشّياً مع الكتاب والسنّة فهو منهجٌ صحيح يجب السّير عليه، وما كان مخالِفاً لكتاب الله وسنّة رسوله يجب أن نرفُضه وأن نبتعد عنه.

ولا نتعصّب لجماعة أو لحزب أو لمنهج دَعَوِيّ ونحنُ نرى أنه مخالِف لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فالدعاة منهم من هو داعية ضلال.

فالذي يَقْصُر هذا التحاكُم إلى الكتاب والسنّة على المحاكم الشرعيّة فقط غَالِط، لأن المراد: التحاكُم في جميع الأمور وجميع المنازَعات: في الخُصومات وفي الحُقوق المالية، وغيرها،

وفي أقوال المجتهدين، وأقوال الفقهاء، وفي المناهج الدّعويّة، والمناهج الجماعيّة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الشورى:١٠] و﴿شَيْءٍ﴾ نكِرة في سياق الشرط، فتعتمّ كل نزاع وكل خِلاف في شيء، سواءً في الخُصومات، أو في المذاهب، أو في المناهِج. وفي أقوال الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والقدرية.

يجب أنّنا نعرف هذا، لأن بعض الناس وبعض المنتسبين للدّعوة يَقْصُر هذا على وجوب التحاكُم في المنازعات والخُصومات إلى المحاكِم الشرعية، ويقول :يجب تحكيم الشريعة ونَبْذِ القوانين، نعم، يجب هذا، ولكن لا يجوز الاقتصار عليه، بل لابُدّ أن يتعدّى إلى الأُمور الأخرى، إلى تحكيم الشريعة في كلّ ما فيه نزاع، سواءً كان هذا النّزاع بين دُول، أو كان هذا النّزاع بين جماعات، أو كان هذا النزاع بين أفراد، أو كان هذا النّزاع بين مذاهب واتّجاهات، لابدّ من تحكيم الكتاب والسنّة. نحن نُطالِب بهذا في كلّ هذه الأُمور.

أما أن نَقْصُرَهُ على ناحية ونسكُت عن النّاحية الأخرى، فنقول: النواحي الأخرى دعوا الناس إلى رغباتهم، دعوا كلاً يختار له مذهباً، وكلاً يختار له منهجاً.

نقول: هذا قُصور عظيم، لأنه يجب أن نحكِّم الشريعة في المحاكِم، ونحكّمها في المذاهب الفقهيّة، ونحكّمها في المناهج الدّعويّة، لابد من هذا، فلا يجوز لنا أن نَقْصُر كلام الله وكلام رسوله على ناحية ونترُك النواحي الأخرى، لأنّ هذا إمّا جهل وإمّا هوى.

كثيرٌ من النّاس اليوم ينادون بتحكيم الشريعة في المحاكِم وهذا حق؛ لكن هم متنازِعون ومختلفون في مناهجهم وفي مذاهبهم، ولا يريدون أن يحكِّموا الشّريعة في هذه الأمور، بل يقولون: اتركوا الناس على ما هم عليه، لا تتعرّضوا لعقائدهم، لا تتعرضوا لمصطلحاتهم، لا تتعرّضوا لمناهجهم، اتركوهم على ما هم عليه، وهذا ضلال، بل هذا من الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

فهذا أمر يجب التنبُّه له، لأنّ هذه مسألة عظيمة غفل عنها الآن الأكثرون.

فالذين ينادون بتحكيم الشريعة إنما يريدون تحكيمَها في المخاصَمات، في الأموال، والأعراض، والخلافات بين الناس، والأمور الدّنيوية دون العقائد والمذاهب. ومناسبة عقد هذا الباب في كتاب التوحيد: أن التّحاكُم إلى ما أنزل الله هو من التّوحيد والتحاكُم إلى غيره شركٌ بالله عزّ وجلّ، شركٌ في الحكم والتّشريع. ٤

شرح الآية

لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملا على الإيمان بالرسول ﷺ، مستلزماً له، وذلك هو الشهادتان، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً))[1]؛ نبه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذي لا بد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله، فلا بُدَّ من الانقياد لحكم الله، والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ.

فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع، فقد كذب في شهادته.

وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنياً على الشهادتين إذ لا تنفك أحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده؛ نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمداً رسول الله، التي تتضمن حق الرسول ﷺ، فإنها تتضمن أنه عبد لا يُعْبَدْ، ورسول صادق لا يُكَذَّبْ، بل يطاع ويُتَّبَعْ، لأنه المبلغ عن الله تعالى.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٨)، ومسلم في صحيحه (رقم ١٦) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وفي رواية عند مسلم –بدل ذكر الشهادتين–: ((على أن يُوَحَدَّ الله))، وفي رواية عنده أيضاً: ((على أن يُعبدَ الله، ويُكفر بما دونه)).

فله عليه الصلاة والسلام منصب الرسالة، والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله، ومحبته على النفس والأهل والمال والوطن، وليس له من الألهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾ [الجن :١٩] وقال ﷺ: ((انما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله))[١].

ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره، كالمنافقين الذي يَدَّعُون الإيمان به، ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة، وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين.

إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها: إن الله تبارك وتعالى أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها.١

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعجُّب استنكار.

﴿إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]. ٤

وتأمل تصديره سبحانه الآية منكراً لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ، وعلى من قبله ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليه عند النزاع وفي ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: "ألم ترى إلى الذين آمنوا"، فإنهم لو كانوا من اهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يقل فيهم ﴿يَزْعُمُونَ﴾، فإن هذا إنما يقال -غالباً- لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب، أو مُنَزَّلٌ منزلة الكاذب، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها. ١

هل يتّفق هذا مع دعوى الإيمان؟، لا يتّفق، لأنهم يريدون أن يجمعوا بين الإيمان والكُفر، ولا يمكن هذا، فالمؤمن بالله وبرسوله يحكِّم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الذي يدّعي الإيمان

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٣٤٤٥) عن عمر ﵁.

ولكنّه في الحكم لا يرجع إلى الله ولا إلى رسول الله، فهذا ليس بمؤمن، ولهذا قال: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ والزّعمُ هو: أكذبُ الحديث، وهذا يدلّ على أنهم كاذبون في دعواهم الإيمان، والدليل على كذبهم: أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت، ولو كان إيمانهم صادقاً لم يتحاكموا إلاّ إلى كتاب الله وسنّة رسول الله.

فدلّ هذا على أن إرادة التحاكُم إلى غير كتاب الله وسنة رسول الله -مجرّد الإرادة- يتنافى مع الإيمان، فكيف إذا فَعل؟، كيف إذا تحاكَم إلى غير كتاب الله وسنّة رسوله؟، إذا كان مَن نوى بقلبه واستباح هذا الشيء ولو لم يفعل أنّه غير مؤمن، فكيف بمن نفّذ هذا وتحاكَم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله في أموره كلها، أو في بعضها؟.

وقوله: ﴿آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القُرآن.

﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهو: الكُتُب السابقة، لأنّ الإيمان بالكُتُب كلها هو أحد أركان الإيمان الستّة، الإيمان بالكُتب التي أنزلها الله -سبحانه وتعالى- على رُسله، يجب الإيمان بها، ما سمّى الله منها وما لم يسمّ. أما الذي يؤمن بكتابٍ ويكفُر بالكتب الأخرى فهذا كافرٌ بالجميع، فاليهود إذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]، فالذي يقول :لا نؤمن إلاّ بالكتاب الذي نزل على رسولنا فقط، أما الكتاب الذي نزل على غير رسولنا فلا نؤمن به. فهذا كافر بالكتاب الذي نزل على رسوله، لأنّ الكتب مصدرها واحد، يصدِّق بعضها بعضاً، وكلّها من الله سبحانه وتعالى، والرُّسل إخوة، كلّهم -عليهم الصلاة والسلام- إخوة، دعوتهم واحدة، ومنهجهم واحد، فالذي يؤمن بكتاب ويجحد غيره، أو يؤمن بالكتب إلا واحداً منها، أو يؤمن بالرسل ويكفر ببعضهم فهذا كافرٌ بالجميع، ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء:١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)﴾ [الشعراء:١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)﴾ [الشعراء:١٤١]،﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠)﴾ [الشعراء:١٦٠]، مع أنهم لم يكذِّبوا إلا رسولهم، لكن لَمّا كفروا برسولهم صاروا مكذبين

للمرسلين جميعاً، لأنّ الرسل -عليهم الصلاة والسلام- دينهم واحد، ومنهجهم واحد، وهم إخوة، يجب الإيمان بهم جميعاً.

وقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ادّعوا هذا، لكن لَمّا جاء التنفيذ اختلف الفعل عن القول، وتبيّنت حقيقتهم.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ﴾. ٤

قوله: ﴿إلى الطَّاغُوتِ﴾. صيغة مبالغة من الطغيان، ففيه اعتداء وَبغي، والمراد به هنا كل حكم خالف حكم الله ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله، أما الطاغوت بالمعني الأعم، فقد حَدَّه ابن القيم بأنه: "كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع"، وقد تقدَّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد. ٥

قال ابن كثير: "والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ههنا" [1]. ١

قال الشيخ الإمام ابن القيّم: "الطّاغوت: ما تجاوز به العبدُ حدّه من معبود أو متبوعٍ أو مُطاعٍ في معصية الله، والطّواغيتُ كثيرون، ورؤوسهم خمسة: إبليسُ- لعنه الله، ومَن عُبد وهو راضٍ، ومَن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومَن حكم بغير ما أنزل الله، ومن ادّعى علم الغيب".

هؤلاء رؤوس الطواغيت، ومنهم: مَن حكم بغير ما أنزل الله، الذي هو موضوع هذا الباب، وهم الذين يحكمون ويتحاكمون بغير شريعة الله -سبحانه وتعالى- من القوانين والأنظِمَة، والعادات والتقاليد، وأمور الجاهلية والقَبَلِيّة، لأن هناك قوانين وَضْعِيّة وضعها البَشَر، وهناك عادات وتقاليد في المجتمعات، يمشي بعضُ الناس عليها، وهُناك أعرافٌ جاهليّة بين القبائل يسمّونها (السُّلُوم)، وشيوخ القبائل (العوارِف)، كل قبيلة لها عارفة يحكم بينهم، إمّا كاهن، وإمّا ساحر، وإمّا رجل عادي، وهذا كلَّه منبوذ، وكلّه مطروح بعد بِعثَة الرّسول ﷺ، ويَجب الرُّجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وكلّ من حكم بغير كتاب الله وسنّة رسوله مستحلاً

---

[1] تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠)

لذلك فإنه طاغوت يجب الكُفر به. ولهذا قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالإيمان بالله لا يصحّ إلاّ بعد الكفر بالطّاغوت، فالكفر بالطّاغوت ركن الإيمان، فلا يصحّ أن يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالطّاغوت، لأن هذا جمعٌ بين نقيضين، والله قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله. وهذا معنى "لا إله إلاّ الله"، لأنّ "لا إله إلاّ الله" إيمانٌ بالله وكُفرٌ بالطّاغوت، فقولنا: "لا إله "هذا نفيٌ، ينفي جميع المعبودات والطّواغيت، وقولُنا: "إلاّ الله" هذا إيمانٌ بالله سبحانه وتعالى وحده. ٤

﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يعني أن يكفروا بالطاغوت، أن يكفروا بكل تحاكم إلى غير شرع الله –جل وعلا–، فالأمر بالكفر بالتحاكم إلى الطاغوت هذا أمر واجب ومن أفراد التوحيد ومن أفراد تعظيم الله جل وعلا في ربوبيته، فمن تحاكم إلى الطاغوت بإرادته فهذا انتفى عنه الإيمان أصلا كما دلّت عليه الآية. ٣

وقوله تعالى ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي: بالطاغوت، وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان، مضاد له، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به، وترك التحاكم إليه، فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله. ١

فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها...

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكًا في الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ من نفى إيمانهم، فإن "يزعمون" إنما يقال غالبًا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب؛ لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحدًا.

والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه. كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به. ٢

وقوله ﴿يُرِيدُونَ﴾ هذا ضابط مهم وشرط في نفي أصل الإيمان عمن حاكم إلى الطاغوت:

– فإن من تحاكم إلى الطاغوت قد يكون بإرادته وهي الطواعية والاختيار والرغبة في ذلك وعدم الكراهة.

– وقد يكون بعدم إرادته، بأن يكون مجبراً على ذلك وليس له في ذلك اختيار وهو كاره لذلك.

فالأول: هو الذي ينتفي عنه الإيمان، لا يجتمع الإيمان بالله وبما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت، فالإرادة شرط؛ لأن الله –جل وعلا– جعلها في ذلك مساق الشرط، فقال ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ﴾ و﴿أَنْ يَتَحَاكَمُوا﴾ هذا مصدر يعني يريدون التحاكم إلى الطاغوت، والطاغوت اسم لكل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع. ٣

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ بيّن سبحانه وتعالى أنّ عملهم هذا إنما هو إملاءٌ من الشيطان، فهو الذي سوّل لهم هذه الإرادة -إرادة التحاكُم إلى الطّاغوت-، هو الذي سوّل لهم وأملى عليهم هذه الفكرة الخبيثة، يريد أن يُبعدهم ويُغوِيَهم، وليس ضلالاً عاديًّا، بل ﴿ضَلالاً بَعِيداً﴾ عن الحقّ، يُبعدهم غاية البُعد، فلا يكفيه أنّه يتركهم في مكان قريب، لأنّهم إذا كانوا في مكان قريب ربّما يرجعون، لكن يُبعدهم بُعداً لا يرون معه الحق أبداً. هذا الذي يريده الشيطان، فهو الذي يبعد الناس عن تحكيم كتاب الله وسنّة رسوله، لأنّ الشيطان يريد لهم الشّرّ ولا يُريد لهم الخير، ولا يكفيه الانحراف اليسير، لا يرضى إلاّ بالانحراف الكُلِّي والبعيد عن منهج الله سبحانه وتعالى. ٤

يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه إرادة الشيطان.

الثاني: إنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى. ٢

قوله: ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾. أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿بَعِيداً﴾. أي ليس قريباً، لكن بالتدريج شيئاً فشيئاً حتى يوقعهم في الضلال البعيد.٥

وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت، الذي هو ما سوى الكتاب والسنة من الفرائض، وأن المتحاكم إليه غير مؤمن، بل ولا مسلم. ١

ثم -أيضاً- من علاماتهم: أنهم لا يقبلون النّصيحة، لأنّ الشيطان أضلّهم ضلالاً بعيداً، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء:٦١] طُلب منهم ونُصحوا أن يرجعوا إلى الحق لا يقبلون، لأنهم تعمّدوا مخالفة الحق، فهم ما تركوا الحقّ عن جهل، ولكنّهم تركوه عن تعمُّد، فلذلك لا يقبلون النّصيحة، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ [النساء:٦١] يعرضون إعراضاً كلياً. ٤

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨)﴾ [النور:٤٨]. ١

والمنافقون: جمع منافق، وهو: الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر، لأنه لَمّا رأى قوة الإسلام لم يستطع معارضته، فلجأ إلى حيلة وهي أن يُظهِر الإيمان من أجل أن يعيش مع المسلمين ويسلَم على دمه وماله، ويَبقَى على الكفر في باطن أمره، فهو أظهر الإسلام خداعاً ومكْراً، فصار شرًّا من الكافر الخالص، لأنّ الكافر الخالص أخفّ من المنافق، لأنّ الكافر الخالص معلوم ومعروف عداوته، معروف موقفه من الإسلام، لكن هذا موقفه من الإسلام متذبذب، لا هو مع الكفّار ولا هو مع المسلمين ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إلى هَؤُلاءِ وَلا إلى هَؤُلاءِ﴾ [النساء:١٤٣]، إن صارت الغلبة للكفّار فرح وعاش معهم، وإن صارت العزّة والغَلَبة للمؤمنين عاش معهم، فيُريد أن يعيش مع القوي، وهذا أخسّ المذاهب، وأحطّ المذاهِب، لأنّ الإنسان يجب أن يكون صريحاً، لا يخادع، لكن هؤلاء يخادعون، ولذلك صاروا في الدَّرْك الأسفل من النار ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء:١٤٥]. ٤

قال ابن القيم: "هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة، فلم يقبل، وأبى ذلك أنه من المنافقين...".

فإذا كان المعرض عن ذلك قد حَكَمَ الله سبحانه بنفاقهم، فكيف بمن ازداد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه؟! ثم يزعم مع ذلك

أنه إنما اراد الإحسان والتوفيق!؛ الإحسان في فعله ذلك، والتوفيق بين الطاغوت الذي حكمه وبين الكتاب والسنة. ١

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾. إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق، لأن المؤمن حقاً لابد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير، حصل له انتباه. ٥

فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصًا ممن يدعي العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريبًا، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات، وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع، والله المستعان. ٢

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً (٦٢)﴾ [النساء:٦٢] يعني: إذا نزلت بهم كارثة، أو أنزل الله فيهم قرآناً يفضحهم. ٤

الاستفهام هنا يراد به التعجب، أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

فالدنيوية مثل: الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ، فيقولون: أصابتنا هذا المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم، خافوا وقالوا: يا رسول الله! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق. ٥

قال ابن القيم: "قيل المصيبة فضيحتهم إذا أنزل القرآن بحالهم، ولا ريب أن هذا أعظم المصيبة والإضرار، فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ أعظمها مصائب القلب والدين، فيرى المعروف منكراً، والهدى ضلالاً، والرشاد غياً، والحق باطلاً، والصلاح فساداً، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قبله، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفة الرسول ﷺ وتحكيم غيره، قال سفيان الثوري في قوله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] قال: "هي أن تطبع على قلوبهم"[1].[2] ١

﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾.

جاءوا إلى الرّسول يعتذرون، ويحلفون بالله، وهم أكثرُ الناس حلفاً بالله وهم كاذبون، يحلفون على الكذب وهم يعلمون. ٤

أي: ما أردنا إلا إحساناً بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقاً بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان، أي: نمشي معكم ونمشى مع الكفار، وهذه حال المنافقين، فهم قالوا أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين. ٥

---

[1] رواه عبدُ بن حميد – كما في الدر المنثور (٢٣٢/٦)، ومن طريقه الهروي في ذم الكلام (رقم ٣٢٠) وغيرهما عن قبيصة عن سفيان به، وإسناده صحيح.[محقق ١]

[2] انظر مختصر الصواعق المرسلة (ص/٤٥١)، ونحوه في مدارج السالكين (٣٥٣/١).

يقولون: ما أردنا مخالفتك، ولا أردنا مخالفة كتاب الله، ولكن عملنا هذا للمصلحة، وتوفيقاً بين الناس، وهذا ممّا يدلّ على غباوتهم، وعلى قُبْح سجيّتهم، فالاعتذار أخسّ من الفعل، لأنهم يدّعون أن تحكيم غير كتاب الله إحسان وتوفيق، فهذا عذرٌ أقبح من فعل، لأن الإحسان والتوفيق هو باتّباع كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

ولَمّا قالوا في إحدى الغزوات: "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، وأكذب ألسناً، وأجبن عند اللّقاء "يعنون: رسول الله ﷺ وأصحابه، وكان قد حضر مجلسهم واحدٌ من المسلمين فذهب وبلّغ الرسول ﷺ، فلمّا علموا جاءوا يركضون يريدون الاعتذار، فوجدوا الوحي قد سبقهم، فأنزل الله على رسوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥- ٦٦]، ما يزيد الرسول على أن يقرأ هذه الآية، وهم متعلِّقون بناقته ﷺ يعتذرون، ولا يلتفت إليهم. ٤

وفعل المنافقين الذي ذكره الله عنهم في هذه الآية هو بعينه الذي يفعله المحرفون للكلم عن مواضعه الذين يقولون: إنما قصدنا التوفيق بين القواطع العقلية –بزعمهم– التي هي الفلسفة والكلام، وبين الأدلة النقلية، ثم يجعلون الفلسفة –التي هي سفاهة وضلالة– الأصل، ويردون بها ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، زعموا أن ذلك يخالف الفلسفة التي يسمونها القواطع، فتطلبوا له وجوه التأويلات البعيدة، وحملوه على شواذ اللغة التي لا تكاد تُعْرَفْ. ١

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن هذه الآية تنطبق تماماً على أهل التحريف والتأويل في صفات الله، لأن هؤلاء يقولون: إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، يعرضون، ويصدون ويقولون: نذهب إلى فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم، قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع". ذكره رحمة الله في الفتوى الحموية. ٥

ثم بيّن الله أنهم كاذبون، وأنهم يقولون ما ليس في قلوبهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء:٦٣]. ٤

توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع، فالله علام الغيوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [الأنفال: ٢٤] ٥

فهم يعتذرون إليك في الظّاهر ويحلفون في الظّاهر، وما جاءوا تائبين ونادمين، وإنّما جاءوا مخادعين.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تقبل اعتذارهم، لأنّه اعتذارٌ كاذب، وإنما يُقبل الاعتذار من الإنسان النّادم والإنسان التّائب، والإنسان المخطئ من غير تعمّد، أما الإنسان المتعمِّد للباطل فلا يُقبَل اعتذارُه إلاّ إذا رجع إلى الصواب. ٤

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار. ٥

﴿وَعِظْهُمْ﴾ يعني: الواجب عليك تجاههم: الموعظة، بأن تخوِّفهم بالله عزّ وجلّ، وتحذّرهم من النّفاق والكذب، وتأمُرهم بالتّوبة، وتبيِّن لهم عقوبة مَن فعل هذا الفعل. ٤

قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾. أي: ذَكَّرهم وخَوَّفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة. ٥

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ [النساء:٦٣]

قال ابن القيم: "أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء:

أحدهما: الإعراض عنهم إهانة لهم، وتحقيراً لشأنهم، وتصغيراً لأمرهم، لا إعراض متاركة وإهمال، وبهذا يُعلم أنها غير منسوخة.

الثاني: قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ وهو تخويفهم عقوبة الله وبأسه ونقمته إن أصروا على التحاكم إلى غير رسوله ﷺ، وما أنزل عليه.

الثالث: قوله ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ أي: يبلغ تأثيره إلى قلوبهم ليس قولاً لَيِّناً لا يتأثر به المقول له، وهذه المادة تدل على بلوغ المراد بالقول، فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلى نفس المقول له، ليس هو كالقول الذي يمر على الأذن صفحاً. ١

﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: معناه: بيّن لهم ما في أنفسهم، وما يبيّتونه ممّا بيّنه الله لك، وأطلعك عليه. وقيل: معناه: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: قل لهم خالياً بهم وحدهم وأسِرَّ إليهم بالنصيحة. ٤

قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾. أختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:
الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ، أي قل لهم قولا بليغاً في أنفسهم، أي: يبلغ في أنفسهم مبلغاً مؤثراً.
الثاني: أن المعنى: أنصحهم سراً في أنفسهم.
الثالث: أن المعنى: قل لهم في أنفسهم (أي: في شأنهم وحالهم) قولاً بليغاً في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة، لأن اللفظ صالح لها جميعاً، ولا منافاة بينها، وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبيه لها، وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض: فإنه يؤخذ بجميع المعاني. ٥

﴿قَوْلاً بَلِيغاً﴾ يعني: كلاماً جَزْلاً فاصلاً يؤثِّر فيهم، ومعنى هذا: أنّك لا تقابلهم باللّين أو بالكلام اللّيّن أو بالملاطفة، لأنهم ليسوا أهلاً لذلك، ولكن قابلهم بالكلام البليغ الزّاجر المخوِّف المروِّع، لأنهم فعلوا فعلاً قبيحاً لا يناسِب معهم الملاطفة والملايَنة. ٤
وبلاغة القول تكون في أمور :
الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر.
وكان النبي ﷺ إذا خطب، احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشاً، يقول: صبَّحكم ومَسَّاكم [١].
الثاني: أن تكون ألفاظه جزلة مترابطة محدودة الموضوع.

[١] مسلم: كتاب الجمعة / باب تخفيف الصلاة والخطبة.

الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان، بأن يكون كلامه: سليم التركيب، موافقاً للغة العربية، مطابقاً لمقتضى الحال. ٥

وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور:
أحدها: عظم معناه وتأثير النفوس به.
الثاني: فخامة الفاظه وجزالتها.
الثالث: كيفية القائل في إلقائه إلى المخاطب فإن القول كالسهم والقلب كالقوس الذي يدفعه وكالسيف والقلب كالساعد الذي يضرب به. ١

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ [النساء:٦٤] يعني: جميع الرّسل عليهم الصلاة والسلام ومنهم: محمد ﷺ.
﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤] بشرعه ودينه، أو بتوفيقه سبحانه وتعالى، فالواجب: طاعة الرسول ﷺ، وعدم مخالفته، ومن طاعته: التحاكُم إليه. ٤
قال ابن القيم: "هذا تنبيه على جلالة منصب الرسالة، وعظم شأنها، وأنه سبحانه لم يرسل رسله عليهم الصلاة والسلام إلا ليطاعوا بإذنه، فتكون الطاعة لهم لا لغيرهم، لأن طاعتهم طاعة مُرْسِلِهِمْ، وفي ضمنه أن من كذب رسوله محمداً ﷺ؛ فقد كذب الرسل. والمعنى أنك واحد منهم تجب طاعتك، وتتعين عليهم كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين، فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم، فما لهم لا يطيعونك ويؤمنون بك؟!
والإذن ههنا هو الإذن الأمري لا الكوني، إذ لو كان إذناً كونياً قدرياً لما تخلفت طاعتهم، وفي ذكره نكتة وهي أنه بنفس إرساله تتعين طاعته، وإرساله نفسه إذنٌ في طاعته، فلا تتوقف على نص آخر سوى الإرسال يأمر فيه بالطاعة، بل متى تحققت رسالته؛ وجبت طاعته، فرسالته نفسها متضمنة للإذن في الطاعة، ويصح أن يكون الإذن ههنا إذناً كونياً قدرياً،

ويكون المعنى ليطاع بتوفيق الله وهدايته، فتتضمن الآية الأمرين الشرع والقدر، ويكون فيها دليل على أن أحداً لا يطيع رسله إلا بتوفيقه وارشاده وهدايته". ١

ثم بيّن سبحانه وتعالى: أنّ هؤلاء لو تابوا ورجعوا إلى الله لتاب الله عليهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء:٦٤]يعني: لَمّا حصل منهم ما حصل من التحاكُم إلى غير كتاب الله وسنّة رسوله ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء:٦٤] هذا عَرْضٌ للتّوبة. ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:٦٤] لأنّ استغفار الرسول ﷺ شفاعةٌ منه ﷺ. وهذا في حياته ﷺ، فهو يستغفر للمذنبين والمسيئين، ويدعو للمسلمين في قضاء حوائجهم، فهو ﷺ في حياته يستغفر ويدعو للمسلمين، أما بعد مماته ﷺ فلا يُذهب إلى قبره، ولا يُطلب منه الاستغفار ولا الدّعاء، لأنّ هذا انتهى بموته ﷺ، ولكن بقي -ولله الحمد- كتابُ الله وسنّة رسوله ﷺ فيهما الخير، وفيهما البَرَكة، وما كان الصّحابة رضي الله عنهم يذهبون إلى قبره، ويطلبون منه ذلك.

أما الذين يستدلّون بهذه الآية على المجيء إلى قبر الرّسول ﷺ والدعاء عنده، وطلب الاستغفار من الرّسول وهو ميّت، فهذا باطل، لأن الصّحابة رضي الله عنهم لم يفعلوا هذا، وهم أعلم الأمة وأحرص الأمة على الخير، وما كانوا يأتون إلى قبر الرّسول ﷺ إذا أشكل عليهم شيء، أو نزلت بهم نازلة، أو أصابهم قحط، أو انحباس مطر، أو أصابتهم شدّة من الشّدائد، ما كانت القرون المفضّلة يأتون إلى قبر الرّسول ﷺ، وإنما يطلُبون من الله، وإذا كان فيهم أحدٌ من أهل الصلاح أو من قَرابة الرّسول ﷺ طلبوا منه أن يدعوَ الله لهم، كما فعل عمر رضي الله عنه مع العبّاس بن عبد المطّلب -عمّ الرّسول ﷺ- لَمّا انحبس المطر واستسقوْا، قال عمر رضي الله عنه: "اللهم إنّا كنا نتوسّل إليك بنبيّك فتسقينا" يعني: يوم أنْ كان حيًّا -عليه الصّلاة والسلام-، "وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا، ادع يا عبّاس".

هذا عمل الصّحابة ﵃، ما كانوا يأتون إلى قبر الرّسول ﷺ، بل عدَلوا إلى العبّاس لأنّ العباس حيّ موجود بينهم والرّسول ﷺ ميّت، والحي يقدر على الدعاء والاستغفار، والميت لا يقدر، ومن لم يفرّق بين الحي والميت فهو ميّت القلب.

وكذلك معاوية بن أبي سفيان ﵁ لَمّا استسقى، طلب من أبي يزيد الجُرَشي أن يدعوَ الله، فدعا، هذا عمل الصّحابة، وهم أفقهُ الأمة وأعلم الأمة، ما كانوا يأتون إلى قبر الرّسول ﷺ، وإنما كانوا إذا قدِموا من سفر يأتون إلى قبر الرّسول ﷺ للزّيارة والسلام على الرّسول ﷺ ثم ينصرفون، ما كانوا يأتون ويدعون عند القبر، أو يطلُبون من الرّسول ﷺ الشّفاعة، أو يطلُبون منه الاستغفار بعد موته هذا لا يجوز، لأنّه من وسائل الشّرك.

وتدلّ الآية على أن المنافقين لو تابوا تاب الله عليهم، وأنّ مَن تحاكَم إلى غير شريعة الله أنه يجب عليه التّوبة، وإذا تاب تاب الله عليه.

أما المخادَعة، وأما الكلام الفارغ، وأنّنا ما أردنا بهذه الأُمور إلاّ الخير والإصلاح بين الناس، وما أردنا مخالفة الكتاب والسنّة، فهذا لا يُقبل، ولا اعتذار فيه أبداً. وتنميق الألفاظ، وتنميق الاعتذارات والحُجج المزخرفة، كل هذا لا يُقبل إلاّ مع التّوبة الصّادقة، وترْك هذا الذنب العظيم.

كثيرٌ ممّن يحكِّمون القوانين اليوم ممّن يدّعون الإسلام يعتذرون بأعذار باطلة فيقال لهم: إنْ كنتم تريدون الحق فارجعوا عمّا أنتم عليه وتوبوا إلى الله كما عرض الله التّوبة على مَن كان قبلكم. أزيلوا هذه القوانين، وهذه الطاغوتيّة إنْ كنتم صادقين وتوبوا إلى الله، والله يتوب على مَن تاب. أما الاستمرار على الذّنب مع إظهار التّوبة والاستغفار، فهذه مخادَعة لا تجوز، لأن شروط التّوبة: الإقلاع عن الذّنب، والعزم أن لا يعود إليه، والنّدم على ما فات.

ثم قال: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء:٦٥] هذا ردٌّ على دعواهم الإيمان، وهو ردّ مؤكّد بالقسم.

﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] من النِّزاع والاختلاف، وهذا -كما ذكرنا- عامٌّ للاختلاف في الخُصومات الّتي تنشَبُ في الأموال أو غيرها، وفي العقائد، وعامٌّ

في الخُصومات في المذاهب والآراء الفقهية، وعام في الخصومات في المناهج الدّعويّة التي انقسم فيها النّاس اليوم، يجب أن يحكَّم فيها كتاب الله وسنّة رسوله، فإن لم يُفعلوا فليسوا بمؤمنين، لأن الله أقسم سبحانه على نفي الإيمان عن من لم يعمل هذا العمل.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:٦٥] أما مَن تحاكَم إلى الشّريعة ولكنّه قَبِل الحُكم على مَضَض، وهو يجد في نفسه كراهية لهذا الحكم فهذا ليس بمؤمن، لابدّ أن يقبَل هذا الحُكْم عن اقتناع، أما إنْ قَبِلَه مضطرًّا وأغمض عليه إغماضاً فهذا ليس بمؤمن.

ثم قال تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:٦٥] ينقادون انقياداً تاماً.

فهذه ثلاثة أمور:

أولاً: يحكِّموك فيما شَجَر بينهم.

ثانياً: أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً من حكم الله ورسوله.

ثالثاً: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ ينقادون انقياداً لحكم الله ورسوله.

فبهذه الأمور الثلاثة يثبُت الإيمان بها ويتحقّق.

فالذي لا يحكِّم كتاب الله وسنّة رسوله ليس بمؤمن، والذي يحكِّم كتاب الله وسنّة رسوله ولا يرضى به، وإنما يقبَله مجامَلة، أو لأجل غَرضٍ من الأغراض هذا ليس بمؤمن، والّذي لا ينقاد ولا يسلِّم، هذا ليس بمؤمن. ٤

قال ابن القيم: "أقسم سبحانه بأجل مقسم به، وهو نفسه -عز وجل- على أنه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتى يحكموا رسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، في جميع أبواب الدين، فإن لفظة (ما) من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً -وهو الضيق والحصر- من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقبول، لا يأخذونه على إغماضٍ، ويشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضى وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد شاهداً فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿بَلِ الْإنسان عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ(١٥) ﴾ [القيامة:١٤-١٥].

فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير من النصوص، وَبِوُدِّهِمْ أن لو لم ترد، وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجى في حلوقهم من موردها، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾، فذكر الفعل مؤكداً له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعاً ورضىً وتسليماً، لا قهراً أو مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كُرْهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه." انتهى.[١]

وقد ورد في الصحيح[٢] أن سبب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصاري في شِراجِ الحَرَّةِ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإذا كان سبب نزولها مخاصمة في مسيل ماء قضى فيه رسول الله ﷺ بقضاء، فلم يرضه الأنصاري، فنفى تعالى عنه الإيمان بذلك، فما ظنك بمن لم يرض بقضائه ﷺ، وأحكامه في أصول الدين وفروعه؟! بل إذا دعوا إلى ذلك تولوا وهم معرضون، ولم يكفهم ذلك حتى صدوا الناس عنه، ولم يكفهم ذلك حتى كَفَّرُوا أو بَدَّعوا من اتبعه ﷺ وحكمه في أصول الدين وفروعه، ورضي بحكمه في ذلك ولم يبغ عنه حولاً. ا

ثم -أيضاً- ليس المقصود من التحاكُم إلى الشريعة هو مجرّد تحقيق الأمن والعَدالة بين الناس، فهذا لا يكفي، لابدّ أن يكون تحكيم الشريعة تعبُّداً وطاعةً لله، فالّذين يحكِّمون الشّريعة من أجل ما فيها من المصالح والعدل بين الناس فقط، فهذا لا يدلّ على الإيمان، لابد أن يكون

---

[١] الرسالة التبوكية (ص/٢٧-٢٥)، وطريق الهجرتين (ص/٣٢٨)

[٢] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٢٣٥٩، ٢٣٦٠)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٣٥٧) من حديث عبدالله ابن الزبير.

تحكيم الشّريعة صادراً عن إيمان وتعبُّد لله عزّ وجلّ وطاعةً لله عزّ وجلّ، لأنّ هذا من التّوحيد، أمّا الذي لا يقبل من الشّريعة إلا المصالح الدنيويّة والعدالة الحاصلة بين الناس في هذه الدنيا فهذا لا يكفي، بل يحكِّم الشريعة طاعةً وتعبُّداً، وخُضُوعاً لحكم الله سبحانه وتعالى، ولهذا صار تحكيم الشّريعة من التّوحيد.

والشّاهد من الآيات للباب واضح، أنّها تدلّ على أنّ تحكيم الشّريعة والتحاكُم إليها من توحيد الله عزّ وجلّ، وأنّ ترْكَ ذلك من الشّرك بالله ومن صفات المنافقين. ٤

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]

هذه الآية في سياق الآيات التي ذكرها الله في مطلَع سورة البَقرة في المنافقين أي إذا قيل للمنافقين: لا تُفسدوا في الأرض بالمعاصي. ٤

الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي: وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي، فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ* وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إليهمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦]. ٥

ومن أشدّ المعاصي: التحاكُم إلى غير ما أنزل الله، وهذا وجه إيراد الآية في هذا الباب وهو أنّ تحكيم غير شريعة الله من الإفساد في الأرض، وأن تحكيم شريعة الله هو صَلاح الأرض، فكذلك بقيّة الطّاعات، فصلاح الأرض إنّما يكون بطاعة الله عزّ وجلّ وفساد الأرض إنّما

يكون بمعصية الله عزّ وجلّ، فالمعاصي تُحدِثُ الفساد في الأرض من نُضوب المياه، وانحباس الأمطار، وغلاء الأسعار، وظُهور المعاصي والمنكَرات، كلّ هذا فسادٌ في الأرض، ولا صلاح للأرض إلا بطاعة الله عزّ وجلّ، ولا عِمارة للأرض إلاّ بطاعة الله عزّ وجلّ. ٤

وكما ذكرنا: أنّ التحاكُم إلى كتاب الله من الإصلاح في الأرض، والتحاكُم إلى غير كتاب الله من الإفساد في الأرض، فيكون هذا وجه سِياق المصنِّف رحمه الله لهذه الآية في هذا الباب.٤

الإفساد في الأرض بتحكيم غير شرع الله وبالإشراك بالله، فالأرض إصلاحها بالشريعة وبالتوحيد، وإفسادها بالشرك بأنواعه الذي منه الشرك في الطاعة، ولهذا ساق الشيخ هذه الآية تحت هذا الباب لأجل أن يبين لك أن صلاح الأرض بالتوحيد الذي منه إفراد الله – جل وعلا– بالطاعة وأن لا يحاكَم إلا إلى شرعه، وأن إفساد الأرض بالشرك الذي منه أن يُجعل حكم غير الله جل وعلا جائزا في التحاكم إليه. ٣

قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. وهذه دعوى من أبطل الدعاوى، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:١٢]. ٥

فالمنافقون إذا قيل لهم: اترُكوا النّفاق لأنّ النفاق فساد، ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وهذا من فساد الفِطْرة، حيث يعتقدون أنّ ما هم عليه هو الإصلاح، وأنّ ما عليه المؤمنون هو الفساد. وهكذا كلّ صاحب مذهب فاسد، يدّعي أن مذهبه إصلاح في الأرض، وأنّه تقدّم، وأنه رُقيّ، وأنّه حضارة، وأنّه، وأنه، إلى آخره. ٤

انقلبت عليهم الأمور حتى صار الفساد صلاحاً، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. ٦

ومناسبة الآية للباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض. ٥

وفي الآية دليل على وجوب اطِّراح الرأي مع السنة، وإن ادَّعى صاحبه أنه مصلح، وأن دعوى الإصلاح ليس بعذر في ترك ما أنزل الله، والحذر من العجب بالرأي. ١

وقوله: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦، ٨٥] الآية.

هذه الآية من سورة الأعراف.

وهذه كآية سورة البقرة تماماً ومعناها لا تُفسدوا في الأرض بالمعاصي، والشّرك بالله عزّ وجلّ، وتحكيم غير ما أنزل الله، ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب والإيمان بالله -عزّ وجلّ-، فالله أصلح الأرض بإرسال الرُّسل وإنزال الكُتب وحُصول الإيمان فيها، فلا يجوز أن تُغَيَّر نعمةُ الله عزّ وجلّ وتُسْتَبْدَل بضدّها، فيكون بعد التّوحيد الشرك، ويكون بعد تحكيم كتاب الله تحكيم القوانين الوضعيّة والعوائد الجاهليّة، ولا يكون بعد الطّاعات المعاصي والمخالَفات. ٤

قال ابن القيم رحمه الله: "قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك، والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ - هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ فإذا أمر بمعصية وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة.
ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله." انتهى.[1] ١

---

[1] بدائع الفوائد (٥٢٥/٣)

قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾. من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم والوقوف ضد دعوة السلف، والوقوف ضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ من باب تأكيد اللوم والتوبيخ، إذا كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد.٥

﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] والآية التي قبلها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون﴾ [البقرة:١١] ظاهرة في أن من خصال المنافقين أنهم يسعون في الشرك وفي وسائله وأفراده، ويقولون إنما نحن مصلحون، وفي الحقيقة أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون؛ لأنهم إذا أرادوا الشرك ورغبوا فيه وحاكموا وتحاكموا إلى غير شرع الله فإن ذلك هو الفساد، والسعي فيه سعي في الإفساد.٣

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] الآية.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. الاستفهام للتوبيخ. ٥

المراد بالجاهلية: ما كان قبل الإسلام، كان أهل الجاهليّة على ضلالة، ومن ذلك: التّحاكم، كانوا يتحاكمون إلى الكُهّان، وإلى السحرة، وإلى الطّواغيت، وإلى العوارِف القَبَليّة. ٤

الجاهلية يحكم بعضهم على بعض؛ يعني البشر يسنّ شريعة فيجعلها حاكمة، والله جل وعلا هو الذي خلق العباد وهو أعلم بما يصلحهم وما فيه العدل في الفصل بين تخاصماتهم والفصل في أقضيتهم وخصوماتهم، فمن حاكم إلى شرائع الجاهلية فقد حكّم البشر؛ ومعنى ذلك أنه اتخذه مطاعاً من دون الله أو جعله شريكاً لله جل وعلا في عبادة الطاعة، والواجب أنّ العبد يجعل حكمه وتحاكمه إلى الله -جل وعلا- دون ما سواه، والله جل وعلا حكمه هو أحسن الأحكام ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤]. ٣

﴿حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ تحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة، ومنها البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيهما: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذي لا يبنى على العلم يبغون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أو لم تكن، وهذا أعم.

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله، فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع، فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع، فهو جهل، والجهالة هي العمل بالخطأ سفهاً لا جهلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، وأما مَن يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه، لكن عليه أن يتعلم. ٥

فهؤلاء المنافقون الذين ادّعوا الإسلام يريدون حكم الجاهليّة، ولا يريدون حكم الله سبحانه وتعالى، ولا يريدون أن ينتقلوا من حكم الجاهلية إلى حكم الشريعة، بل يريدون البقاء على حكم الجاهلية، وهذا مذهب المنافقين دائماً ومَن سار في رَكْبِهم.

وهذا استنكارٌ من الله سبحانه وتعالى لمن يريد أن يستبدل الشّريعة بالقوانين الوضعيّة، لأنّ القوانين الوضعيّة هي حكم الجاهليّة، لأنّ حكم الجاهلية أوضاع وضعوها ما أنزل الله بها من سلطان، والقوانين الوضعيّة أوضاع وضعها البشر، فهي وحكم الجاهليّة سواء لا فرق، فالذي يريد أن يحكم بين الناس بالقوانين الوضعيّة يريد حكم الجاهليّة الذي أراده المنافقون من قبل.٤

قال ابن كثير رحمه الله: "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم

الياسق وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه. فصارت في بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة.
فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير". [1]

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] (مَنْ) بمعنى: لا، أي: لا أحد أحسنُ من الله حكماً، لأنّ الله سبحانه وتعالى، عليم حكيم خبير، يعلم ما يصلُح به العباد، ويعلم حوائج النّاس، ويعلم ما يُنْهِي النزاعات بين النّاس، ويعلم العواقب وما تؤول إليه، فهو تشريعٌ من عليم حكيم سبحانه وتعالى، لا يستوي هو والقوانين التي وضعها البشر، الذين عقولهم قاصرة وتدخُلهم الأهواء والرّغبات، وعلمهم محدود، إنْ كان عندهم علم، لا يشرّع للبشر إلاّ خالق البشر الذي يعلم مصالحهم، وبعلم ما تنتهي إليه أُمورهم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ﴾ أي: لا أحد أحسنُ حكماً من الله، وأفعل التفضيل هنا على غير بابه، فليس هناك طرفان، أحدهما أفضل من الآخر، فحكم البشر ليس فيه حسن أبداً، وإنما حكم الله هو الحسن وحده. ٤
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فدلَّ على أن حكم غيره إنما هو كما قال طائفة: زبالة أذهان ونحاتة أفكار لا تساوي شيئاً عند من عقل تصرف الله جل وعلا في ملكه وملكوته، وأن ليس ثم حكم إلا حكم الرب جل وعلا. ٣
والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.
فإن قيل يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحُسن في ذلك؟

---

[1] تفسير ابن كثير (٦٨/٢)

أُجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنةً، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى: في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وهذا الحسن في حكم الله ليس بيناً لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وكلما ازداد العبد يقيناً وإيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينة أزداد جهلاً بحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضاً، وعلى هذا، فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]. خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقاً، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وعرفوا حسن أحكام الله تعالى، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد، فلم يرضوا عنها بديلاً. ٥

عن عبد الله بن عمرو ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)) قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح.

قوله ﷺ: ((لا يؤمن أحدُكم)) هذا نفيٌ للإيمان الكامل، وليس نفياً للإيمان كلِّه، لأنّه قد يأتي نفي الإيمان، ويُراد نفي الإيمان الكامل كما في قوله ﷺ: ((لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه

ما يحبّ لنفسه))، ومثل قوله ﷺ: ((لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرِق السّارق حين يسرِق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)) فالمراد بهذَا: نفيُ الإيمان الكامل، لا نفي مطلَق الإيمان، فإنّ الفاسق يكون معه من الإيمان ما يصحّ به إسلامُه، أمّا الذي ليس معه إيمان أصلاً، فهذا كافرٌ خارجٌ من الملّة. وهذا مذهب أهل السنّة والجماعة. أن الفاسق لا يُسْلَب مطلَق الإيمان، ولا يعطى الإيمان المطلَق، فلا يُسلب لمطلق الإيمان بحيث يكون كافراً كما تقوله الخوارج والمعتزلة، ولكنه لا يُعطى الإيمان المطلق كما تقوله المرجئة، وإنما يُقال: "مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته"، أو يُقال: "مؤمنٌ ناقص الإيمان"، لأنّ الذين يقولون: إن صاحب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، هم المرجئة، والذين يقولون: إن صاحب الكبيرة كافرٌ خارجٌ من الإيمان وليس معه من الإيمان شيء، هؤلاء هم الخوارج والمعتزلة.

وأهل السنّة -ولله الحمد- وسط بين هذين المذهبين، فلا يسلِبون مرتكب الكبيرة الإيمان بالكُلِيّة، ولا يُعطونه الإيمان الكامل، وإنما يسمّونه مؤمناً فاسقاً أو مؤمناً ناقص الإيمان. ٤

((لا يؤمن أحدكم)). أي إيماناً كاملاً إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية، فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله، فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ [محمد: ٩]. ٥

وقوله ﷺ: ((حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به)) الهوى مقصور، معناه: تكون محبّته ورغبته تابِعةً لِمَا جئتُ به، فما جاء به الرّسول ﷺ أحبّه، وما خالف ما جاء به الرّسول ﷺ أبغضه، هذا هو المؤمن الذي يحبّ ما جاء به الرّسول ﷺ ويُبغض ما خالفه.

((تبعاً لِمَا جئتُ به)) من الشّريعة والكتاب والسنّة، فهذه علامةٌ واضحة بين أهل الإيمان وأهل الكفر. ٤

وإذا كان هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، لزم من ذلك أن يوافقه تصديقاً بالأخبار، وامتثالاً للأوامر، واجتناباً للنواهي. ٥

وأما مَن لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، فإن كان كارهاً له، فهو كافر وإن لم يكن كارهاً ولكن آثر محبة الدنيا على ذلك، فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان. ٥

قوله: "قال النّووي "الإمام أبو زكريّا يحيى بن شَرَف النّووي، صاحب التصانيف العظيمة في الإسلام كـ "شرح صحيح الإمام مسلم"، "وروضة الطالبين" في الفقه، وغير ذَلك من المصنّفات العظيمة، وقد تُوفّي رحمه الله وهو شابّ في الأربعين من عُمُره. ٤
قوله: "قال النووي: حديث صحيح". صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم، منهم ابن رجب في كتابه "جامع العلوم والحكم"، ولكن معناه صحيح. ٥

وقوله: "رَوَيْنَاهُ في كتاب الحُجّة "وهو كتابٌ لأبي الفتح نصرْ بن إبراهيم المقدِسي الشّافعي، سماه: "الحُجّة على تارك المحَجَّة"، وهو كتابٌ في التوحيد يردّ فيه على المبتدعة وأصحاب المقالات الباطلة في العقيدة، فيُعتبر من كتب العقيدة وهو مطبوع محقق.
"بسند صحيح" الإسناد تؤيّده الأدلّة من الكتاب والسنّة، فإنّ المؤمن يجب أن يكون محبًّا وراغباً فيما جاء به النبي ﷺ، ومبغضاً لِمَا سواه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ﴾ [آل عمران:٦٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣] فالذي لا يأخذ من الشرع إلاّ ما يوافق هواه ويترك ما خالف هواه ورغبته إنّما يتّبع هواه، وقد اتّخذ هواه إلهاً يطيعُه فيما يريد وفيما يكره، أما الذّي يتّخذ الله جل وعلا إلهاً فإنه يتبع ما جاء عن الله سواءً وافق رغبته أو خالف رغبته، فإنّ الله وصف المنافقين بأنهم لا يأخذون إلاّ ما وافق أهواءهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إليه مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾ [النور:٤٨-٤٩] يعني: إذا كان الحكم لهم جاءوا، وإذا كان الحكم عليهم لم يأتوا ولا يقبلون، وهذا نفاق، وفي آخر

الآيات السابقة: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)﴾ [النساء:٦٥].

وهذا كلّه يشهد لهذا الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر ﷺ. ٤

ومطابقة الحديث للباب ظاهرة من جهة أن الرجل لا يؤمن حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، في كل شيء حتى في الحكم وغيره. فإذا حكم بحكم أو قضى بقضاء فهو الحق الذي لا محيد للمؤمن عنه، ولا اختيار له بعده. ١

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد . لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة . وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود . لعلمه أنهم يأخذون الرشوة – فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعببن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

ثم ذكر المؤلّف –رحمه الله تعالى– سببين من أسباب نُزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾

السبب الأول:

قوله: "قال الشّعبي: كان بين رجلٍ من المنافقين ورجل من اليهود خُصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد "لأنّه يعرف أن محمداً ﷺ لا يأخذ الرشوة".

"وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود. لعلمه أنهم يأخذون الرشوة" والرّشوة مثلّث الرّاء، يقال: رِشوة، ورَشوة، ورُشوة، هي: ما يدفعه أحدُ الخصمين للحاكم من أجل أن يقضي له،

وما يدفعه للموظّف أحدُ المراجعين من أجل أن يقدِّم معاملته على معاملة غيره من المستحقِّين، أو من أجل أن يعطيه ويحرِم المستحقِّين، أو من أجل أن يعطيه حقّه الذي ليس فيه ضرر على أحد، فهذه رشوة، سواء كانت للقاضي في المحكمة، أو كانت لموظّف في أحد الدوائر الحُكوميّة، من أجل أن يتلاعب بحقوق المراجعين، ويقدِّم من لا يستحقّ التقديم، ويؤخّر من يستحقّ التقديم، أو يعطي من لا يستحقّ، ويحرِم المستحقّ في الوظائف أو في أيّ شيء من المراجعاً ت.

والرّشوة سُحْتٌ: قال النبي ﷺ: ((لعن الله الراشي والمرتشي)) الراشي هو: الذي يدفع الرّشوة، والمرتشي هو: الذي يأخُذ الرشوة، وقد سمّاها الله سُحْتاً في قوله عن اليهود: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]، والمراد بالسُّحت: الرّشوة، لأنّ الرشوة تُفسد المجتَمَع، فتفسد الحُكّام، والقُضاة، والموظّفين، وتضرّ أهل الحق، وتقدِّم الفُسّاق، ويحصُل بها خللٌ عظيم في المجتمع.

فالرشوة وَباءٌ خطير، إذا فَشَتْ في المجتمع خَرب نظامُه، واستطال الأشرار على الأخيار، وأُهين الحقّ، فهي سُحْتٌ وباطلٌ، وهي من أعظم الحرام -والعياذ بالله- قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨) ﴾ [البقرة:١٨٨] قيل: هذه الآية نزلت في الرّشوة التي تُدفع للحُكّام من أجل أكل أموال النّاس بالباطل، سُمِّيت رشوة؛ مأخوذة من الرِّشاء وهو الحبل الذي يُتَوَصِّل به إلى استنباط الماء من البئر، فكأن مقدِّم الرشوة يريد سحب الحكم أو جذب الحكم لنفسه دون غيره، من ذلك سمّيت رشوة. ٤

قال أهل العلم: "لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطل أو دفع حق، أما مَن بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه، فليست حراماً على الباذل، أما على آخذها، فحرام". ٤

فهذا اليهودي طلب التحاكم إلى الرسول ﷺ لعلمه أن الرسول لا يأخذ الرشوة لأن الرشوة سُحْتٌ وحرام وباطل، والرسول ﷺ جاء بالحقّ والعدل بين الناس.

وأما المنافق -مع أنه يزعُم الإيمان- طلب أن يتحاكم إلى اليهود لعلمه أنّ اليهود يأخذون الرشوة، فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]. ٤

فهذا يدل على أن المنافق أشر من اليهود لأنهم يلبسون على الناس أمرهم ويحصل بهم الضلال فصاروا بذلك في الدرك الأسفل من النار. ٦

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى.

ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان، كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة المنافقين العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان، ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. ٢

"ثم اتّفقا أن يأتيا كاهناً" والكاهن هو الذي يتلقّى عن الشّياطين في استراق السمع، فالكاهن يستخدم الشياطين، وتُخبره بأشياء من الأمور الغائبة، فيُخبِر بها الناس ويكذب معها. ٤

والكاهن: مَن يدَّعي علم الغيب في المستقبل، وكان للعرب كُهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا، فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطؤوا، فإذا أصابوا أدَّعوا علم الغيب، فكان العرب يتحاكمون إليهم. ٥

"في جُهينة" وجهينة: قبيلة معروفة، ويقال: إنها حيٌّ من قُضاعَة، وهي قبيلة كبيرة.

"فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾".

فيكون هذا أحد القولين في سبب نزول الآية الكريمة.

والسبب الثاني لنزول الآية:

أنها: "نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما :نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخَر: إلى كعْب بن الأَشْرف" وكعب بن الأشرف زعيمٌ من زعماء اليهود، وهو عربيّ من قبيلة طَيِّء، ولكن كان أخوالُه من اليهود من بني النّضير، فتهوّد، وكان من ألَدِّ خُصوم رسول الله ﷺ، وهو الذي ذهب إلى أهل مكّة بعد غزوة بدر يرثي قتلى المشركين، ويحرّض أهل مكّة على غزو رسول الله ﷺ، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥٠)﴾ [النساء:٥٠]، ثم رجع إلى المدينة وجعل يُنشد الأشعار في ذمّ رسول الله ﷺ، ويحرِّض الناس عليه، فقال النّبي ﷺ:((مَنْ لي بكعب بن الأشْرَف فقد آذى الله ورسوله؟)) فانتدب محمد بن مَسْلَمة الأنصاري رضي الله عنه، واستأذن رسول الله ﷺ في قتله، فخرج هو ورجالٌ معه إلى كعب بن الأشرَف باللّيل، فدعوه فنزل إليهم، فقتلوه وأراحوا المسلمين من شرّه، لأنّه لَمّا خان الله ورسوله، وصار يؤذي رسول الله ﷺ انتقض عهده، فأهدر النّبي ﷺ دمه، وأَمر هؤلاء بقتله، فقتلوه بأمر النّبي ﷺ، وأراح الله المسلمين من شرّه.

"ثم ترافعا إلى عمر" وكلّ هذا محاولة للابتعاد عن حكم الله ورسوله.

"فذكر له" أحدُهما "القصّة" يعني: سبب مجيئهما.

"فقال:" عمر رضي الله عنه: "للّذي لم يرضَ برسول الله ﷺ: أكذلك؟، قال: نعم. فضربه بالسّيف فقتله "لأنّه مرتدّ عن دين الإسلام، أو لأنّه لم يُسْلِم من الأصل، ولكنّه أظهر الإسلام نفاقاً"، والمنافق إذا ظهر منه ما يعارِض الكتاب والسنّة وَجَب قتلُه دفعاً لشرّه، ولكنّ النبيّ ﷺ لم يقتل المنافقين كعبد الله بن أُبيّ وغيره، درْءاً للمفسدة، لئلاّ يتحدّث الناس أنّ محمداً يقتُل أصحابه. فالرّسول ﷺ ارتكب أخفّ المفسدتين -وهي: ترك قتله- لدفع أعلاهما وهو قول الناس: محمد يقتل أصحابه.

هذا وجه كون الرّسول لم يقتل المنافقين مع عداوتهم لله ولرسوله، لأنّه خشي من مفسدة أكبر.٤

وفي القصتين نظر لكن المعنى صحيح. ٦

قوله: "وقيل". ذكر هذه القصة بصيغة التمريض، لكن ذكر في "تيسير العزيز الحميد": أنها رُويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يُغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها. ٥

وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه. ٥

وتدل قصة عمر أن التحاكم إلى غير شرع الله كفر وردة، ومن كره حكم الله فهو كافر. ٦

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ ؟

أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غَيرته فقتله، لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام، وقد قال النبي ﷺ: ((من بدل دينه فاقتلوه))[١]. ٥

وفي قصة عمر: بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل، كما في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفًا للناس، فإنه قال: ((لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه))[٢]. فصلوات الله وسلامه عليه. ٢

وفي القصة من الفوائد:

أن الدعاء إلى تحكيم غير الله ورسوله من صفات المنافقين، ولو كان الدعاء إلى تحكيم إمام فاضل.

ومعرفة أعداء رسول الله ﷺ بما كان عليه من العلم والعدل في الاحكام.

وفيها: الغضب لله تعالى، والشدة في أمر الله كما فعل عمر رضي الله عنه.

وفيها: أن من طعن في أحكام النبي ﷺ أو في شيء من دينه قُتِلَ كهذا المنافق، بل أولى.

---

[١] البخاري: كتاب استتابة المرتدين/ باب حكم المرتد.

[٢] مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٨٤)، الترمذي تفسير القرآن (٣٣١٥)، أحمد (٣٩٣/٣).

وفيها: جواز تغيير المنكر باليد وإن لم يأذن فيه الإمام، وكذلك تعزير من فعل شيئاً من المنكرات التي يستحق عليها التعزير، لكن إذا كان الإمام لا يرضى بذلك، وربما أدى إلى وقوع فرقة أو فتنة فيشترط إذنه في التعزير فقط.

وفيها: أن معرفة الحق لا تكفي عن العمل والانقياد، فإن اليهود يعلمون أن محمداً رسول الله، ويتحاكمون إليه في كثير من الأمور. ١

التوضيح لهذه المسألة

هذه المسألة وهي مسألة التحاكم إلى غير شرع الله من المسائل التي يقع فيها خلط كثير خاصة عند الشباب؛ وذلك في هذه البلاد وفي غيرها، وهي من أسباب تفرّق المسلمين؛ لأن نظر الناس فيها لم يكن واحداً.

والواجب أن يتحرّ طالب العلم ما دلت عليه الأدلة وما بيَّن العلماء من معاني تلك الأدلة وما فقهوه من أصول الشرع والتوحيد وما بينوه في تلك المسائل.

ومن أوجه الخلط في ذلك أنهم جعلوا المسألة في مسألة الحكم والتحاكم واحدة؛ يعني جعلوها صورة واحدة، وهي متعددة الصور:

فمِن صورها أن يكون هناك تشريع لتقنين مستقل يضاهى به حكم الله جل وعلا؛ يعني قانون مستقل يشرَّع، هذا التقنين من حيث وَضْعُه كفر، والواضع له -يعني المشرّع، والسَّان لذلك، وجاعل هذا التشريع منسوبا إليه- وهو الذي حكم بهذه الأحكام، هذا المشرّع كافر، وكفره ظاهر؛ لأنه جعل نفسه طاغوتا فدعا الناس إلى عبادته وهو راض -عبادة الطاعة-.

وهناك من يحكم بهذا التقنين، هذه الحالة الثانية.

- فالمشرّع حالة.
- ومن يحكم بذلك التشريع حالة.
- ومن يتحاكم إليه حالة.
- ومن يجعله في بلده -من جهة الدول- هذه حالة رابعة.

وصارت عندنا الأحوال أربعة.

المشرّع ومن أطاعه في جعل الحلال حراماً والحرام حلالاً ومناقضة شرع الله هذا كافر، ومن أطاعه في ذلك فقد اتخذه رباً من دون الله.

والحاكم بذلك التشريع فيه تفصيل:

١- فإن حكم مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك، ولم يكن ذلك ديدنا له، وهو يعلم أنه عاص؛ يعني من جهة القاضي الذي حكم يعلم أنه عاص وحكم بغير شرع الله، فهذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب، ولا يكفَّر حتى يستحل، ولهذا تجد أن بعض أهل العلم يقول: الحكم بغير شرع الله لا يكفر به إلا إذا استحل. فهذا صحيح؛ ولكن لا تنزل هذه الحالة على حالة التقنين والتشريع، فالحاكم كما قال ابن عباس: كفر دون كفر ليس الذي يذهبون إليه، هو كفر دون كفر؛ يعني من حكم في مسألة، أو في مسألتين بهواه بغير شرع الله، وهو يعلم أنه عاص ولم يستحل، هذا كفر دون كفر.

٢- أما الحاكم الذي لا يحكم بشرع الله بتاتاً، ويحكم دائماً ويلزم الناس بغير شرع الله، فهذا:

- من أهل العلم من قال يكفر مطلقاً ككفر الذي سنّ القانون؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ﴾ فجعل الذي يحكم بغير شرع الله مطلقاً جعله طاغوتاً، وقال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.
- ومن أهل العلم من قال: حتى هذا النوع لا يكفر حتى يستحل؛ لأنه قد يعمل ذلك ويحكم وهو في نفسه عاصي، فله حكم أمثاله من المدمنين على المعصية الذين لم يتوبوا منها.

والقول الأول: من أن الذي يحكم دائماً بغير شرع الله ويُلزم الناس بغير شرع الله أنه كافر هو الصحيح عندي، وهو قول الجد الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في رسالة تحكيم القوانين؛ لأنه لا يصدر في الواقع من قلبٍ قد كفر بالطاغوت؛ بل لا يصدر إلا ممن عظّم القانون وعظم الحكم بالقانون.

الحال الثالثة: حال المتحاكم، الحالة الأولى -ذكرنا- حال المشرّع، الحال الثاني حال الحاكم.

٣- الحال الثالثة حال المتحاكم؛ يعني الذي يذهب هو وخصمه ويتحاكمون إلى قانون، فهذا فيه تفصيل أيضاً وهو:

- إن كان يريد التحاكم له رغبة في ذلك ويرى أن الحكم بذلك سائغ وهو يريد أن يتحاكم إلى الطاغوت ولا يكره ذلك، فهذا كافر أيضاً؛ لأنه داخل في هذه الآية، ولا يجتمع ذلك كما قال العلماء إرادة التحاكم إلى الطاغوت مع الإيمان بالله؛ بل هذا ينفي هذا والله جل وعلا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾.

- الحالة الثانية: أنه لا يريد التحاكم؛ ولكنه حاكم إما بإجباره على ذلك كما يحصل في البلاد الأخرى أنه يجبر أن يحضر مع خصمه إلى قاض يحكم بالقانون، أو أنه علم أن الحق له في الشرع، فرفع الأمر إلى القاضي في القانون لعلمه أنه يوافق حكم الشرع، فهذا الذي رفع أمره في الدعوة على خصمه إلى قاض قانوني لعلمه أن الشرع يعطيه حقه وأن القانون وافق الشرع في ذلك:

فهذا الأصح أيضاً عندي أنه جائز.

وبعض أهل العلم يقول يشركه ولو كان الحق له.

والله جل وعلا وصف المنافقين بقوله: ﴿وَإِن يَّكُنْ لَهُم الحَقّ يَأْتُوا إليه مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٩]، فالذي يرى أن الحق ثبت له في الشرع وما أجاز لنفسه أن يترافع إلى غير الشرع إلا لأنه يأتيه ما جعله الله جل وعلا له مشروعا، فهذا لا يدخل في إرادة التحاكم إلى الطاغوت، فهو كاره ولكنه حاكم إلى الشرع، فعلم أن الشرع يحكم له فجعل الحكم الذي عند القانوني جعله وسيلة لإيصال الحق الذي ثبت له شرعاً إليه.

هذه ثلاث أحوال.

٤- الحال الرابع: حال الدولة التي تحكم بغير الشرع؛ تحكم بالقانون، الدول التي تحكم بالقانون أيضاً بحسب كلام الشيخ محمد بن إبراهيم وتفصيل الكلام في هذه المسألة في فتاويه قال أو مقتضى كلامه وحاصله: أن الكفر بالقانون فرض، وأن تحكيم القانون في الدول:

- إن كان خفياً نادراً فالأرض أرض إسلام؛ يعني الدولة دولة إسلام، فيكون له حكم أمثاله من الشِّرْكيات التي تكون له في الأرض.

- قال: إن كان ظاهراً فاشياً فالدار دار كفر؛ يعني الدولة دولة كفر.

فيصبح الحكم على الدولة راجع إلى هذا التفصيل:

إن كان تحكيم القانون قليلاً وخفياً، فهذا لها حكم أمثاله من الدول الظالمة أو التي لها ذنوب وعصيان، وظهور أو وجود بعض الشركيات في دولتها.

وإن كان ظاهراً فاشياً -الظهور يضاده الخفاء والفشو يضاده القلة- قال: فالدار دار كفر.

وهذا التفصيل هو الصحيح؛ لأننا نعلم أنه في دول الإسلام صار هناك تشريعات غير موافقة لشرع الله جل وعلا، والعلماء في الأزمنة الأولى ما حكموا على الدار بأنها دار كفر ولا على تلك الدول بأنها دول كفرية؛ ذلك لأن الشرك له أثر على الدار -إذا قلنا الدار يعني الدولة- فمتى كان ظاهراً فاشياً فالدولة دولة كفر، ومتى كان قليلا ظاهرا وينكر فالأرض أرض إسلام والدار دار إسلام، وبالتالي فالدولة دولة إسلام.

وهذا التفصيل يتضح به هذا المقام، وبه تجمع بين كلام العلماء، ولا تجد مضادة بين قول عالم وعالم، ولا تشتبه المسألة إن شاء الله تعالى. ٣

فائدة:

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف :

١- قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]

٢- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وأختلف أهل العلم مع ذلك:

فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، لأن الكافر ظالم، لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وفاسق، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة:٢٠]، أي: كفروا.

وقيل: إنها لموصوفين مُتعدِّدين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فتكون كافراً في ثلاثة أحوال:

أ. إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فكل ما خالف حكم الله، فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حلّ الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب. إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

ج. إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائده:٥٠]، فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين، فمن أدعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مُكذب للقرآن.

ويكون ظالماً: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وانه الواجب تطبيقة، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله، فهو ظالم.

ويكون فاسقاً: إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه مع اعتقادة أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه، أي محبة لما حكم به لا كراهية لحكم الله ولا ليضر أحداً به، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رُشِيَ إياها، أو لكونها قريباً أو صديقاً، أو يطلب

من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق، وإن كان أيضاً ظالماً، لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر، فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذوراً، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضي الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس، فهذا لا شيء فيه.

وهذا لا شك في خطئه، فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا، فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها، فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء، لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الإحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله

وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أو نقص التدبر، وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق، فلابد أن يصل إليه حتى في المعاملات، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه، فإن القرآن بينه بياناً شافياً.

ومن سَنَّ قوانين تخالف الشريعة وأدَّعي أنها من المصالح المرسلة، فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن أعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها، فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمي بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع، فهو مصلحة، وما نفاه، فليس بمصلحة، وما سكت عنه، فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس، فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها، كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذاً للهمم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل، لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه، والذي لا يحي قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحيي قلبه بساعة يؤتي فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار، فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده أولئك العلماء وتوسع فيها، وعليه،

فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن أعتبرها الشرع قبلت، وإلا، فكما قال الإمام مالك: " كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر"، وهنالك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم أن يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام، فلا يتسرع في البت بها خصوصاً في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا رَوِيَّة، مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له، عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة، فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نَجبُن عن تكفير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعَيّن وغير المعَيَّن، فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١- ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢- انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مُكفِّر، فإن كان جاهلاً، فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم، هذا وهو إقامة حد وليس بتكفير، والتحرز من التكفير أولى وأحرى.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١]، ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر، لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان﴾ [النحل:١٠٦]، ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكة: ((اللهم أنت عبدي وأن ربك، أخطأ من شدة الفرح))[١]، فلم يؤاخذ بذلك. ٥

---

[١] البخاري: كتاب الدعوات/ باب التوبة، ومسلم كتاب التوبة/باب في الحض على التوبة.

فدلّت هذه النّصوص في هذا الباب العظيم على أحكام عظيمة:

أوّلاً: في الآيات والحديث: وُجوب التحاكُم إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وأنّ هذا هو مقتضى الإيمان.

ثانياً: وُجوب تحكيم الكتاب والسنّة في كلّ المنازَعات، لا في بعضها دون بعض، فيجب تحكيمها في أمر العقيدة، وهذا أهمّ شيء، وفي المنازعات الحقوقيّة بين الناس، وفي المنازعات المنهجيّة والمذاهب والمقالات، وفي المنازعات الفقهية: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، أما الذي يريد أن يأخُذ جانباً فقط، ويترك ما هو أهمّ منه، فهذا ليس تحاكُماً إلى كتاب الله، فما يقوله دعاة الحاكميّة اليوم ويريدون تحكيم الشريعة في أُمور المنازعات الحقوقيّة، ولا يحكِّمونها في أمر العقائد، ويقولون: النّاس أحرار في عقائدهم، يكفي أنّه يقول: أنا مسلم، سواءً كان رافضيّاً أو كان جهمياً أو معتزليّاً، أو.. أو.. إلى آخره، "نجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذُر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه" هذه القاعدة التي وضعوها، ويسمونها: القاعدة الذهبية. وهي في الحقيقة: تحكيم للكتاب في بعض، وترك له فيما هو أهمّ منه، لأنّ تحكيم الشريعة في أمر العقيدة أعظم من تحكيمها في شأن المنازعات الحُقوقية، فتحكيمُها في أمر العقيدة وهدم الأضرحة ومشاهد الشرك، ومقاتلة المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، هذا أهمّ، فالذي إنما يأخذ جانب الحاكميّة فقط ويُهمِل أمر العقائد، ويُهمِل أمر المذاهب والمناهج التي فرّقت الناس الآن، ويُهمل أمر النّزاع في المسائل الفقهيّة، ويقول: أقوال الفقهاء كلها سواء، نأخذ بأيّ واحدٍ منها دون نظر إلى مستنده. فهذا قول باطل، لأن الواجب أن نأخذ بما قام عليه الدليل، فيحكَّم كتاب الله في كلّ المنازَعات العَقَديّة، وهذا هو الأهم، والمنازَعات الحُقوقيّة، والمنازَعات المنهجيّة، والمنازَعات الفقهيّة، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ هذا عامّ، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ﴾ [الشورى:١٠] هذا عام أيضاً.

وهؤلاء الذين جعلوا الحاكميّة بدل التوحيد غالطون، حيث أخذوا جانباً وتركوا ما هو أعظم منه، وهو العقيدة، وتركوا ما هو مثله -أو هو أعظم منه- وهو المناهج التي فرّقت بين الناس، كلّ جماعة لها منهج، كل جماعة لها مذهب، لم لا نرجع إلى الكتاب والسنّة ونأخذ المنهج والمذهب الذي يوافق الكتاب والسنّة ونسير عليه.

والحاصل؛ أنّ تحكيم الكتاب والسنّة يجب أن يكون في كلّ الأُمور، لا في بعضها دون بعض، فمن لم يحكِّم الشريعة في كلّ الأمور كان مؤمناً ببعض الكتاب وكافراً ببعض شاء أم أبى، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥].

المسألة الثالثة: في هذه النصوص تفسير الطّاغوت، وأنّ من معانيه: كل من حكم بغير ما أنزل الله.

المسألة الرّابعة: في هذه النصوص دليل على أنّ مَن اختار حكم الطاغوت على حكم الله، أو سوّى بين حكم الله وحكم الطّاغوت وادّعى أنّه مخيّر بينهما أنّه كافر بالله خارجٌ من الملّة، لأن الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ [النساء:٦٠] فكذّبهم في دعواهم الإيمان ما داموا يتحاكمون إلى الطّاغوت، لأنّه لا يمكن الجمع بين النّقيضين، فمن اختار حكم الطّاغوت على حكم الله أو سوّى بينهما وقال: هما سواء، إنْ شئنا أخذنا بهذا، وإنْ شئنا أخذنا بهذا، أو قال: تحكيم الطاغوت جائز، أو حَكَم بالشريعة في بعض الأمور دون بعض، فهذا كافر بالله. كالذين يحكِّمون الشريعة في الأحوال الشخصية فقط. أما من حَكَم بغير ما أنزل الله لهوىً في نفسه، وهو يعترف ويعتقد أن حكم الله هو الحق، وحكم غيره باطل، ويعترف أنه مخطئ ومذنب، فهذا يكفر كفراً أصغر لا يخرج من الملّة.

المسألة الخامسة: في حديث عبد لله بن عمرو وفي آخر الآيات: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:٦٥] دليل على أنّ علامة الإيمان: أن يقتنع بحكم الله ورسوله، فإن لم يقتنع وكان في نفسه شيء من عدم الاطمئنان فهذا دليلٌ على ضعف إيمانه، أو على عدم إيمانه، لقوله ﷺ: ((لا يؤمن أحدُكم حتى يكون هواهُ تَبعاً لِمَا

جئتُ به))، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. فمن علامة الإيمان: الاطمئنان لحكم الله ورسوله، سواءً كان له أو عليه، فلا يجد في نفسه شيئاً من التّبرُّم أو الكراهية حتى ولو كان الحكم عليه.

المسألة السّادسة: في سبب نزول الآية: دليل على تحريم الرّشوة، لأنّها من أكل المال بالباطل، ولأنّها تسبّب تغيير الأحكام عن مجراها الصحيح، وأنّها من صفة اليهود، فمن أخذها من هذه الأمّة فقد تشبّه باليهود، وقد قال ﷺ: ((من تشبّه بقوم فهو منهم))، مع ما فيها من أكل المال بالباطل مع ما فيها من إفساد الحكم، ونشر الفوضى في الحُقوق، وهي شرٌّ كلّها.

المسألة السّابعة: في الحديث دليل على وُجوب قتل المنافق إذا ظهر منه ما يعارض الكتاب والسنّة، لأنّه أصبح مفسداً في الأرض، فيجب على ولي الأمر قتله إلاّ إذا ترتب على قتله فساد أكبر.

المسألة الثامنة: في قوله: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾ [النساء:٦٢] أنّه لا يُقبل اعتذار من تحاكَم إلى غير الكتاب والسنّة، لأنّ الله أنكر عليهم ذلك، وهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾، فلا يُقبل اعتذار مَن حكّم غير الكتاب والسنّة، ولو اعتذر بما اعتذر فإنّه لا عُذر له، لأنّ الله لم يقبل منهم هذا الاعتذار.

المسألة التاسعة: في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء:٦٤] فيه: قَبول التّوبة من المرتدّ، فإنّ الله عرَض عليهم التّوبة مع ردّتهم في تحكيم غير ما أنزل الله أنهم لو تابوا تاب الله عليهم.

والمسألة العاشرة: فيه أن طلب الدّعاء من الرّسول ﷺ إنما هو في حال حياته، بدليل أن الصّحابة رضي الله عنهم ما كانوا يأتون إلى قبره ﷺ يطلبون منه الاستغفار والدعاء، وهم القدوة، وخير القرون، وأعلم الناس بتفسير القرآن ولأنه سبحانه قال: ﴿إِذْ ظَلَمُوا﴾ وإذ ظرف لما مضى من الزمان. ولم يقل: "إذا ظلموا" لأن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان.

وما يذكرونه من قصة الأعرابي الذي جاء إلى قبر النبي ﷺ وطلب منه الاستغفار بعدما تلا الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا...﴾، فهي قصة مختلقة لا أصل لها، ولو صحّت لم يجز الاستدلال بها، لأنها فعل أعرابي جاهل مخالف لما عليه الصّحابة، وهم أعلم الأمة بما يُشرع وما لا يُشرع. وديننا لا يُؤخذ من القصص والحكايات، وإنما يُؤخذ من الكتاب والسنّة وهدي السلف الصالح. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾.

الثالثة: تفسير آية الأعراف ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾.

الرابعة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

أي: أنّ الطاغوت هو من يحكُم بغير ما أنزل الله، سمّاه الله طاغوتاً. ٤

أي: أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك، فيشمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع، فالأصنام والأمراء والحكام الذين يُحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.٥

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾.

ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض، لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي. ٥

أي: ومن أعظم الإفساد في الأرض: التحاكُم إلى غير ما أنزل الله. ٤

الثالثة: تفسير آية الأعراف ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾. أي: أن مِن أعظم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها: تحكيم غير الشّريعة. ٤

الرابعة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. أي: أنّ حكم الجاهلية هو الحكم بغير ما أنزل الله، فكلّ حكم يخالف حكم الله فإنّه حكم الجاهلية في أيّ وقت، ولو سُمّي قانوناً، أو نظاماً، أو دستوراً، أو سُمّي ما سُمّي، فإنّه حكم الجاهليّة. ٤

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى. أي: أن الشّعبي ذكر سبب نزول الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، وأنّها نزلت في رجلين أرادا التحاكم إلى غير الرسول ﷺ فنفى الله الإيمان عمن أراد ذلك؛ مجرد نية فكيف إذا نفذ هذا.! ٤

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

أي: أن من الإيمان الصّادق: تحكيم ما أنزل الله عزّ وجلّ، والإيمان الكاذب هو تحكيم الطاغوت ولو ادعى الإيمان بالله. ٤

فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك. ٥

السابعة: قصة عمر مع المنافق. حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحاً لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه. ٥

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسولﷺ. وهذا واضح من الحديث. ٥

(بَابُ مَنْ جَحَدَ شيئاً مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)

(بَابُ مَنْ جَحَدَ شيئاً مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الْآيَةُ .وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟" وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرَ عَنِ ابنِ طَاوُوسَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً أَنْتَفَضَ . لَمَّا سَمِعَ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ، اسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ . فقَالَ: "مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلَكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ" انْتَهى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ: ((الرَّحْمَنَ)) أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

قول الشيخ رحمه الله: "بابُ مَنْ جَحَد شيئاً من الأسماء والصّفات" أي: ما حكمُه؟، وما دليل ذلك؟.

ومناسبة الباب: أنه لَمّا كان التّوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الرُّبوبية، وتوحيد الأُلوهيّة، وتوحيد الأسماء والصّفات، وكان غالبُ هذا الكتاب في النّوع الثّاني وهو توحيد العبادة، لأن فيه الخُصومة بين الرُّسل والأُمم، وهو الذي كثُر ذكره في القرآن الكريم وتقريرُه والدّعوة إليه، فهو الأساس، وهو معنى شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وهو الذي خلق الله الخلْق من أجله كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات:٥٦].

وأما النّوع الأوّل وهو توحيد الرّبوبيّة: فهذا أكثرُ الأُمم مقرّة به، خصوصاً الذين كانوا في وقت نُزول القرآن من كُفّار قريش وكُفّار العرب كانوا مقرّين بتوحيد الرّبوبيّة، فهم يعتقدون أنّ الله هو الخالق الرّازق، المحيي، المميت، المدبّر يعترفون بذلك كما جاءت آياتٌ في القرآن الكريم تبيّن ذلك: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)﴾ [الزخرف:٩]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:٨٦-٨٧]، ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩]، هذا شيءٌ متقرِّر، ولكنّه لا يُدخِلُ في الإسلام، فمن أقرّ به واقتصر عليه ولم يقرّ بالنوع الثّاني وهو توحيد العبادة، ويأت به فإنه لا يكون مسلِماً ولو أقرّ بتوحيد الرّبوبيّة.

أمّا النوع الثّالث: وهو توحيد الأسماء والصّفات، فهو في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية.

ومن أجل هذا؛ بعض العلماء يُجمِل ويجعل التوحيد نوعان:

توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الرّبوبية والأسماء والصّفات وهو التوحيد العلمي.

وتوحيد في الطّلب والقصد وهو التوحيد الطَّلَبي العملي، وهو توحيد الأُلوهيّة.

ولكن لما وجدت طوائف من هذه الأمة افترقت عن مذهب السلف، وصار لها رأي في الأسماء والصفات تخالف الحق؛ جعل هذا قسماً ثالثاً من أجل الرد عليهم وبيانه للناس، فجعل التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، لأن هذا التقسيم تفصيلي، والتقسيم الأول إجمالي.

وقد وجدت نابتة في الآونة الأخيرة على طريقة علماء الكلام تجعل التوحيد قسما واحدا هو: توحيد الربوبية فقط، وتنكر ما عداه، فلم يزيدوا على ما أقر به المشركون، ولم

يعلموا -أو هم يتجاهلون- أن القرآن الكريم قد دل على التوحيد بأقسامه الثلاثة في آيات كثيرة.

وجدت طائفة أخرى تقول: إن التوحيد أربعة أقسام، وتزيد من عندها توحيد الحاكمية، ولم تعلم أن هذا القسم الذي زادوه هو قسم من توحيد الألوهية، وليس قسيماً له. ويجوز اعتباره من توحيد الربوبية من ناحية أن التشريع من اختصاص الرب سبحانه وتعالى.

وقد تكلم الشيخ على توحيد الألوهية في معظم أبواب هذا الكتاب أول باب منه يقول: "كتاب التوحيد"، وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فاعتنى بتوحيد الألوهية، لأنه هو المقصود، وتوحيد الربوبية دليل عليه، وداخل في ضمنه.

ثم ذكر في هذا الباب توحيد الأسماء والصفات، ولم يذكر توحيد الربوبية، لأن توحيد الربوبية معترف به عند جميع الخلق، وتقر به حتى الأمم الكافرة على جاهليتها وشركها، ولكنه خص باب الأسماء والصفات هنا لأن منكريه من هذه الأمة من الفرق الضالة كثيرون.

فأراد بهذا الباب أن يبين حكم هذه الفرق المخالفة في هذا النوع العظيم من أنواع التوحيد.

ولهذا قال: "باب من جحد الأسماء والصفات" أي: بيان حكمه. ٤

وأطلق المؤلف الترجمة ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات وحكمه: كَفَرْ. ٦

"باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات" يعني وما يلحقه من الذم، وأن جحد شيئاً من الأسماء والصفات منافٍ لأصل التوحيد ومن خصال الكفار والمشركين.

وقد ذكرنا لكم فيما سبق أنّ توحيد الإلهية عليه براهين، ومن براهينه توحيد المعرفة والإثبات: وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فمن أدلة توحيد الإلهية توحيد الربوبية كما سبق أن مر معنا في (باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]).

وكذلك توحيد الأسماء والصفات برهان على توحيد الإلهية، ومن حصل عنده ضلال في توحيد الأسماء والصفات، فإن ذلك سيتبعه ضلال في توحيد الإلهية، ولهذا تجد أن المبتدعة الذين ألحدوا في أسماء الله وفي صفاته من هذه الأمة -من الجهمية والمعتزلة والرافضة والأشاعرة والماتريدية ونحو هؤلاء- تجد أنهم لما انحرفوا في باب توحيد الأسماء والصفات لم يعلموا حقيقة معنى توحيد الإلهية؛ ففسروا الإله بغير معناه، وفسروا لا إله إلا الله بغير معناها الذي دلت عليه اللغة ودل عليه الشرع، وكذلك لم يعلموا متعلقات الأسماء والصفات وآثار الأسماء والصفات في ملك الله جل وعلا وسلطانه.

لهذا عقد الشيخ رحمه الله هذا الباب؛ لأجل أن يبين لك أن تعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد، وأن جحد الأسماء والصفات منافٍ لأصل التوحيد، فالذي يجحد اسماً سمى

الله به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ وثبت ذلك عنه وتيقنه، فإنه يكون كافراً بالله جل وعلا، كما قال سبحانه عن المشركين ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد ٣٠].

والواجب على العباد -على أهل هذه الملة- أن يؤمنوا بتوحيد الله -جل وعلا- في أسمائه وصفاته، ومعنى الإيمان بالتوحيد هذا -يعني بتوحيد الله في أسمائه وصفاته- أن يتيقن ويؤمن بأن الله جل وعلا ليس له مثيل في أسمائه، وليس له مثيل في صفاته، كما قال -جل وعلا- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] فنفى وأثبت، فنفى أن يماثل الله شيء -جل وعلا-، وأثبت له صفتي السمع والبصر، قال العلماء: قدم النفي قبل الإثبات على القاعدة العربية المعروفة أن التخلية تسبق التحلية حتى ليتخلى القلب من كل براثن التمثيل ومن كل ما كان يعتقده المشركون الجاهلون من تشبيه الله بخلقه أو تشبيه خلق الله به، فإذا خلى القلب من كل ذلك من براثن التشبيه والتمثيل أثبت ما يستحقه الله -جل وعلا- من الصفات، فأثبت هنا صفتين وهما السمع والبصر، وسبب ذكر السمع والبصر هنا في مقام الإثبات دون ذكر غير السمع والبصر من الصفات أو دون ذكر غير اسم السميع والبصير من الأسماء؛ لأن صفتي السمع والبصر مشتركة بين أكثر المخلوقات الحية، وجل المخلوقات الحية التي حياتها بالروح بالنفس وليست حياتها بالنماء فإن السمع والبصر موجود فيها جميعاً، فالإنسان له سمع وبصر، وسائر أصناف الحيوانات كل له سمع وبصر، الذباب له سمع وبصر يناسبه، والبعير له سمع وبصر يناسبه، وسائر الطيور والسمك في الماء، والدواب الصغيرة والحشرات كل له سمع وبصر يناسبه.

ومن المتقرر عند كل عاقل أن سمع هذه الحيوانات ليس متماثلا، وأن بصرها ليس متماثلا، وأن سمع الحيوان ليس مماثلا لسمع الإنسان، فسمع الإنسان ربما كان أبلغ وأعظم من سمع كثير من الحيوانات، وكذلك البصر.

فإذا كان كذلك كان اشتراك المخلوقات التي لها سمع وبصر في السمع والبصر اشتراك في أصل المعنى، ولكل سمع وبصر بما قُدِّر له وما يناسب ذاته، فإذا كان كذلك ولم يكن وجود السمع والبصر في الحيوان وفي الإنسان مقتضيا لتشبيه الحيوان بالإنسان، فكذلك إثبات السمع

والبصر للملك الحي القيوم ليس على وجه المماثلة للسمع والبصر في الإنسان أو في المخلوقات، فلله -جل وعلا- سمع وبصر يليق به، كما أن للمخلوق سمع وبصر يليق بذاته الحقيرة الوضيعة، فسمع الله كامل مطلق من جميع الوجوه لا يعتريه نقص، وبصره كذلك، واسم الله السميع هو الذي استغرق كل الكمال من صفة السمع، وكذلك اسم الله البصير هو الذي استغرق كل الكمال في صفة البصر.

فدل ذلك على أن النفي مقدّم على الإثبات، والنفي يكون مجملاً والإثبات يكون مفصلاً.

فالواجب على العباد أن يعلموا أن الله -جل جلاله- متصف بالأسماء الحسنى وبالصفات العلى، وأن لا يجحدوا شيئاً من صفاته، ومن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فهو كافر؛ لأن ذلك صنيع الكفار والمشركين.

والإيمان بالأسماء والصفات يقوى اليقين بالله، وهو سبب لمعرفة الله والعلم به؛ بل إنَّ العلم بالله ومعرفة الله -جل وعلا- تكون بمعرفة أسمائه وصفاته وبمعرفة آثار الأسماء والصفات في ملكوت الله -جل وعلا-، وهذا باب عظيم ربما يأتي له زيادة إيضاح عند (باب قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]).

إذن تلخَّص هنا أن قوله (باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات) صلة ذلك بكتاب التوحيد من جهتين:

الجهة الأولى: أن من براهين توحيد العبادة توحيد الأسماء والصفات.

والثانية: أن جحد شيء من الأسماء والصفات شرك وكفر مخرج من الملة إذا ثبت الاسم أو ثبت الصفة وعلم أن الله -جل وعلا- أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ ثم جحدها أصلا -يعني نفاها أصلاً-، فإن هذا كفر؛ لأنه تكذيب بالكتاب وبالسنة. ٣

(باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات)

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحداً أنكر أسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين، فهو كافر بإجماع المسلمين، لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

١- أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية، فهذا لا يُوجب الكفر.

٢- أن لا يكون له مُسَوِّغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] تجري بأراضينا، فهذا كافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً، فهو مُكذِّب.

ولو قال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] المراد بيديه: السماوات والأرض، فهو كفر أيضاً لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، **ولا** هو مقتضى الحقيقة الشرعية، فهو مُنكر ومكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى، قال الشاعر:

وَكَم لِظلام الليل عندك من يَد تُحَدّثُ أنَّ المانَويَّةَ تَكذبُ

فقوله: من يد، أي: من نعمة، لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر...

والمراد بالأسماء هنا أسماء الله عز وجل، وبالصفات صفات الله عز وجل، والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف بها.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول:

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلاماً محضة؛ فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا، فالإنسان يسمي ابنه محمداً وعلياً دون أن يلحظ معنى الصفة، فقد يكون اسمه علياً وهو من أوضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله، لأنها متضمنة للمعاني، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تَضَمُّن، وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلاله مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ١٢]، فَعَلمْنَا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض، وعَلّمنَا العلم من ذلك أيضاً، لأن الخلق لابد فيه من علم، فمن لا يعلم لا يخلق، وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه؟!

المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما أختلف لفظه واتفق معناه، والمتباين: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله عز وجل لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم، كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها، لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير، وهكذا.

المبحث الثالث :

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: ((اللهم! إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك ...)) إلى أن قال: أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[1]، وما أستأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلَم به، وما ليس بمعلوم فليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: ((أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة))[2]، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن مَن أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: ((من أحصاها)) تكميل للجمله الأولى، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مئة فرس أعدتها للجهاد في سبيل الله، فليس معناه: أنه ليس عنده إلا هذه المئة بل معناه أن هذه المئة مُعدَّة لهذا الشيء.

[1] الإمام أحمد في "المسند" (٣٩١/١، ٤٥٢)، وابن حيان (٢٣٧٢)، والطيراني في "الكبير" (١٠٣٥٢)، والحاكم (٥٠٩/١)، الهيثمي (١٣٦/١٠)، وقال: "رجال أحمد وأبي يعلي رجال الصحيح"، وصححه ابن القيم في "شفاء العليل" (٢٧٧)، وأحمد شاكر في المسند (٣٧١٢).

[2] البخاري: كتاب الدعوات/ باب لله مائة اسم غير واحد، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب في أسماء الله تعالى.

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق، فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء، ونؤمن بما تَضَمَّنه من الصفة، ونؤمن بما تَدُلّ عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم معتديا، فمثلاً: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حُكماً وأثراً وهو أنه يسمع به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ج إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾ [المجادلة: ١]، أما إن كان الاسم غير متعد، كالعظيم، والحي، والجليل، فتثبت الاسم والصفة، ولا حكم له يتعدى إليه.

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أُريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى، فهي غير الله عز وجل، وإن أُريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ، فهي المسمى.

فمثلاً: الذي خلق السماوات والأرض هو الله، فالاسم هنا هو المسَمَّى، فليست "اللام، والهاء" هي التي خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله. فكتبت بسم الله، فالمراد به الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً. فضربت زيداً المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلاً، لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم فالمراد الاسم الذي هو غير المسمى.

البحث في صفات الله :

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

الثاني: فعلية.

الثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، مثل: السمع والبصر وهي معنوية، لأن هذه الصفات معانٍ.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل، فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله، فلا يقال هكذا، بل يقال: صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنىً ولا فعلاً، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثاني:

الصفات أوسع من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسماً، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه، فيوصف الله بكلام والإرادة، ولا يسمي بالمتكلم أو المريد.

المبحث الثالث:

إن كل ما وصف الله به نفسه، فهو حق على حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل، فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾ [النمل:٧٤]، والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه، لوجوه ثلاثة:

أحدهما: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقاً، بخلاف التشبيه، فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح، لأن كل مَوجودَيْن فلا بد أن يكون بينهما قَدُر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به، فـ: "الحياة" مثلاً وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهاً، فإذا قيل من غير تشبيه، فَهِمَ هذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف، فلا يجوز أن نُكيِّف صفات الله، فمن كيَّف صفة من الصفات، فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاص لأنه واقع فيما نهي الله عنه وحَرّمه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ [الأعراف: ٣٣] الآية، ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية، لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾ [طه: ١١٠] وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديراً أو بالبيان تحريراً، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء: "الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعه"، وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود، فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية، لكننا لا نعلمها، ففرق بين أن نثبت كيفية معينه ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب، فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يُتَصَوَّر أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لا نعلمها؟

أجيب: إنه متصور، فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها. ٥

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]

قال: "وقول الله تعالى": ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون. ٤

والمراد بهذا كفار قريش أو طائفة منهم فإنهم جحدوا هذا الاسم عناداً أو جهلاً. ١

﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: ينكرون هذا الاسم الكريم، ويجحدونه.

ويوضّح ذلك سبب نزول الآية، وهو: أنّ كُفّار قريش لَمّا سمعوا رسول الله ﷺ يذكُر الرحمن، قالوا: وما الرّحمن؟، لا نعرف الرّحمن إلاَّ رحمن اليمامة. يَعْنُون: مسيلِمة الكذّاب، وذلك عندما صالح النّبي ﷺ المشركين في الحديبيَة، وأراد أن يكتُبَ الصُّلْح، ونادى عليَّ بن أبي طالب ليكتُب الصُّلْح، فقال له: ((اكتب: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ))), قالوا: لا نعرف الرّحمن إلاَّ رحمن اليمامة، ولكن اكتُب باسمك اللهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

وكذلك لَمّا كان النّبي ﷺ في مكّة، وكان يصلّي ويدعو في سُجوده: ((يا الله، يا رحمن))، فقال المشركون لَمّا سمعوه: انظروا إلى هذا يزعُم أنّه يعبُد ربًّا واحداً وهو يدعو ربّين: الله والرّحمن، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]. ٤

وأما كثير من أهل الجاهلية فيقرون بهذا الاسم كما قال بعضهم: وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[1].

بيّن سبحانه أنّ أسماءه كثيرة، وتعدُّد الأسماء لا يدلّ على تعدُّد المسمّى، بل تعدُّد الأسماء يدّل على عظمة المسمّى، والله جل وعلا له أسماء كثيرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾

[1] هذا شطر بيت قاله سلامة بن جندل الطهوي. كما في تفسير الطبري (٥٨/١)

[طه:٨]، وقال تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]، فالله له أسماءٌ كثيرة، كلّها حسنى، يعني: تامّة عظيمة، تشتمِل على معان جليلة.

وفي الحديث الصحيح: أنّ النّبي ﷺ قال: ((إنّ لله تسعة وتسعين اسماً مَنْ أحصاها دخل الجنّة))، وفي دعاء النّبي ﷺ: ((أسألُك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك))، فدلّ على أنّ أسماء الله كثيرة لا يعلمها إلاَّ الله سبحانه وتعالى.

وكثرة الأسماء الحسنى تدلّ على عظمة المسمّى.

فكل اسم يُدعى به ويُطلب منه تعالى ما يتضمّنه ذلك الاسم من الرحمة والمغفرة والتّوبة وغيرها.٤

﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. المراد أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى، فهم يُقرِّون به، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي حديث سهيل بن عمر: "لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: ((اكتب بسم الله الرحمن الرحيم))، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم"[١].٥

(الرحمن)، وهذا اسم من أسماء الله الحسنى، وهو مشتمل على صفة الرحمة؛ لأن الرحمن مشتقٌّ أو فيه صفة الرحمة، ومبني على وجه المبالغة، فالرحمن أبلغ في اشتماله على صفة الرحمة من اسم الرحيم، ولهذا لم يتسمَّ به على الحقيقة إلا الله جل وعلا، فهو من أسماء الله العظيمة التي لا يشركه فيها لأحد، أما الرحيم فقد أطلق الله جل وعلا على بعض عباده بأنهم رحماء وأن نبيه ﷺ رحيم كما قال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الاسم والصفة بينهما ارتباط من جهة أنّ كل اسم لله جل وعلا مشتمل على صفة، أسماء الله ليست جامدة -ليست مشتملة على معانٍ-؛ بل كل اسم من أسماء الله مشتمل على صفة، فالاسم من أسماء الله يدل على مجموع شيئين بالمطابقة وهما الذات والصفة التي اشتمل عليها الاسم، ويدل على أحد هذين -الذات أو الصفة- بالتضمن.

---

[١] البخاري: كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد.

ولهذا نقول: كل اسم من أسماء الله متضمن لصفة من صفات الله، ومطابقة الاسم لمعناه لأنه دال على كل من الذات وعلى الصفة، الذات المتصفة بالصفة، حتى اسم (الله)؛ لفظ الجلالة (الله) الذي هو علم على المعبود بحق جل وعلا مشتق على الصحيح من قولي أهل العلم مشتق؛ لأن أصله الإله ولكن أطلق الله تخفيفاً لكثرة دعائه وندائه بذلك في أصل العربية فهو مأخوذ من الإله وهي العبادة، الله هو المعبود ليس اسماً جامداً بل هو مشتق من ذلك.

وهكذا جميع الصفات التي في الأسماء كلها، وهكذا جميع الصفات التي تتضمنها الأسماء كلها دالة على كمال الله جل وعلا على عظمته.

فالعبد المؤمن إذا أراد أن يكمل توحيده فليُعظم العناية بالأسماء و الصفات؛ لأن معرفة الاسم والصفة يجعل العبد يراقب الله جل وعلا وتؤثر هذه الأسماء والصفات في توحيده وقلبه وعلمه بالله ومعرفته، كما سيأتي في تقاسيم الأسماء والصفات. ٣

و"الرحمن" اسمه وصفته، دل هذا الاسم على أن الرحمة صفته سبحانه، وهي من صفات الكمال، فإن كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة. قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـ ـهم بل حكاه قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً، هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين،

فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات، فشبهوا أولاً وعطلوا ثانياً، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته. وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذي حذوه، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تشبه صفاته صفات خلقه، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، وتناقضوا. فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين، ولله الحمد والمنة.

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت، كالإمام أحمد "رحمه الله تعالى" في رده المشهور، وكتاب السنة لابنه عبد الله، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكناني في رده على بشر المريسي، وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد، وهو بشر المريسي، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني الشافعي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وأبي عمر بن عبد البر النمري، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم[١]، رحمهم الله تعالى. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء. والله أعلم.٢

[١] وخلق من أئمة السنة لا يمكن حصرهم، وكذلك كم بعدهم، كأبن القيم، وابن رجب، والذهبي، وابن كثير، والحافظ ابن عبدالهادي، وغيرهم من أهل السنة والجماعة، وكتبهم مشهورة موجودة بين أهل السنة والجماعة.[٧ بتصرف]

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]

وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يعني: توسّلوا إليه بها في دعائكم، كأن تقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا توّاب تُب عليّ، يا رازق ارزقني... وهكذا.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠] يعني: يُنكرونها، أو ينكرون معانيها ويحرفونها، توّعدهم الله بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

والإيمان بأسماء الله وصفاته هو مذهب أهل السنّة والجماعة من الصّحابة والتّابعين، وأتباعهم إلى يوم القيامة، فأهلُ السنّة والجماعة يؤمنون بأسماء الله وصفاته التي سمّى الله تعالى بها نفسه، أو سمّاه بها رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يؤمنون بها، ويُثبتون معانيها وما تدلّ عليه، ولكنّ كيفيّتها لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

أما الفرقُ الضالّة من الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة ومشتقّات هؤلاء فإنّهم يجحدونها، فمنهم مَن يجحد الأسماء والصّفات وهم الجهميّة، ولذلك كفّرهم كثيرٌ من علماء هذه الأُمة، يقول الإمام ابن القِّيم رحمه الله في "النّونيّة":

ولقد تقلَّدَ كفرهم خمسون ... في عشر من العلماء في البُلدان

يعني: كفّر الجهميّة خمسمائة عالِمٍ من هذه الأُمة، لأنّهم يجحدون الأسماء والصّفات، فلا يُثبتون لله اسماً ولا صفَة.

والمعتزلة أثبتوا الأسماء ولكنهم جحدوا معانيَها، وجعلوها أسماء مجرّدة، ليس لها معاني.

والأشاعرة: اثبتوا الأسماء وبعض الصّفات، وجحدوا كثيراً من الصّفات، فأثبتوا سبع صفات، وبعضهم يُثبت أربع عشرة صفة، والبقيّة يجحدونها ويُنكرونها.

وكلّ هؤلاء فرقٌ ضالّة، وهم يتفاوتون في ضلالهم. ٤

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسماء الله تعالى فإنه يكفر، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية. ٥

بين الله تعالى أن الرحمن هو ربنا إلهنا، وأن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله، فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين، وعليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان.
وسمى إنكارهم الصفة: كفر بالرحمن فدل على كفر من أنكر الصفات. ٦

وقوله ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِليه مَتَابِ (٣٠)﴾ [الرعد:٣٠].
أي: قل يا محمد راداً عليهم في كفرهم بالرحمن تبارك وتعالى ﴿هو﴾ أي: الرحمن عز وجل ﴿رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِليه مَتَابِ﴾ أي: إليه مرجعي وأوبتي، وهو مصدر من قول القائل: تبت متاباً، وتوبة، قاله ابن جرير.[1]
وفي الآية دليل على أن التوكل عبادة، وعلى أن التوبة عبادة، واذا كان كذلك فالتوبه إلى غيره شرك.
ولما قال سارق –وقد قطعت يده – للنبي ﷺ: "اللهم اني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي ﷺ: ((عرف الحق لأهله)) رواه احمد. ١

قوله: ﴿وَإِليه مَتَابِ﴾. أي: إلى الله. و﴿مَتَابِ﴾ أصلها متابي، فحذفت الياء تخفيفاً، والمتاب بمعنى التوبة، فهو مصدر ميمي، أي: وإليه توبتي.

والتوبة: هي الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ولها شروط خمسة:

١- الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد أو محاباته أو شيء من الدنيا.
٢- أن تكون في وقت قبول التوبة، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.
٣- الندم على ما مضى من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.

---
[1] تفسير ابن جرير (١٥٠/١٣)

٤- الإقلاع عن الذنب، وعلى هذا، فإذا كانت التوبة من مظالم الخلق، فلابد من رد المظالم إلى أهلها أو استحلالهم منها.

٥- العزم على عدم العودة، والتوبة التي لا تكون إلا لله هي توبة العبادة، كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنى الرجوع، فإنها تكون له ولغيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نمرقة فيها صور، فوقف بالباب ولم يدخل، وقالت: أتوب إلى الله ورسوله ﷺ ولا لغيره من الخلق بل لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضاً حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه، يقول الابن: أتوب.٥

ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة، لأن الله تعالى سمى جحود اسم من أسمائه كفراً، فدل على أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة، والجهمية والمعتزلة ونحوهم، فله نصيب من الكفر بقدر ما جحد من الاسم أو الصفة، فإن الجهمية والمعتزلة ونحوهم -وإن كانوا يقرون بجنس الأسماء والصفات-؛ فعند التحقيق لا يقرون بشيء، لأن الأسماء عندهم أعلام محضة، لا تدل على صفات قائمة بالرب تبارك وتعالى، وهذا وصف كفر الذين جحدوا اسم الرحمن. ١

وفي صحيح البخاري قال علي: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟".

لفظ البخاري ((أتحب أن يكذب الله و رسوله)) فالمؤلف رواه بالمعنى.

قال: "وفي صحيح البخاري: قال عليّ:" علي بن أبي طالب يخاطِب العلماء، ويقول لهم: "حدِّثوا النّاس بما يعرفون" أي: تكلّموا عندهم بما يعرفون، أي: بما لا تستنكِرُه عقولهم، بل حدِّثوهم بما تتحمّله عقولهم، وتُدركه أفهامُهم، ولا تُسمعوهم شيئاً لا يفهمون معناه، أو يجهلونه، فيبادِرون إلى تكذيبه فتوقعونهم في الحَرَج. ٤

قوله "بما يعرفون" أي :بما يفهمون. ١

قوله: "بما يعرفون". أي بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لا يفتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ، قال: "أنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[١]، ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويداً رويداً حتى تستقر عقولهم، وليس معنى "بما يعرفون"، أي: بما يعرفونه من قبل، لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: "أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!" الاستفهام للإنكار، أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا هذا كذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: قل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك ؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم بطريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويداً رويداً حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس ويستنكروها، فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها، حتى تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها. ٥

وسبب هذا القول –والله أعلم– ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ. فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل، فربما استنكرها بعض الناس وردها، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين ﷺ إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علماً وعملاً، دون

---

[١] البخاري: كتاب النكاح/ باب هل يرجع إذا رأي منكراً في الدعوة.

ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله، فيفضي بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم. ٢

وكأنّه قال هذه المقالة لَمّا كثُر القُصّاص في وقته، وهم: الوُعّاظ، والوُعّاظ يحرصون على أن يخوِّفوا الناس، فيذكُرون لهم كلّ ما قرأوا أو سمعوا من الأخبار والأحاديث، سواءً كانت صحيحة أو غير صحيحة، وسواء كان النّاس يفهمونها أو لا يفهمونها. وهذا أمرٌ لا يجوز، فالحاضرون يحدِّثون بما تتحمّلُه عقولهم، ربما ينفعُهم، أما ذكر الأشياء التي تشوِّش عليهم–وقد تحمِل بعضَهم على التكذيب– فهذا أمرٌ محرّمٍ، فينبغي للقاصّ والواعظ والخطيب والمتحدِّث أن يراعيَ أحوال السّامعين، فيتكلّم معهم بما يُناسِب حالهم: إنْ كان يتكلّم في وسط علماء يتكلّم بالكلام اللاّئق بأهل العلم، وإن كان يتكلّم في وسط عوام فيتكلّم بما يناسبهم وبما تتحملّه عقولهم، ويحرص على ما ينفعهم أيضاً، ويعلِّمهم أُمور دينهم: أمورَ عقيدتهم وصلاتهم، وأُمور عبادتهم، ويحذّرهم من المعاصي ومن المحرمات، ولا يدخُل في المواضيع العلميّة البعيدة عن أفهام العوامّ.

وهذه حكمةٌ عظيمة من أمير المؤمنين ﷺ: أنه أمر أن يراعى أحوال الحاضرين وأحوال السّامعين، فيحدّثون بما يتناسب مع مستواهم العلميّ.

ويا ليت المتحدِّثين في وقتنا هذا والخُطباء يمشون على هذا النّظام وهذه القاعدة التي قالها أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب.

فهذه قاعدة للمتحدِّثين في كل وقت: أنّ المتحدِّث يراعِي أحوالَ السّامعين: إنْ كان في وسطٍ علمي يتحدّث بما يناسِبه، وإن كان في وسط عامِّي يتحدّث بما يناسبه، وإنْ كان في وسط مختَلِط من العلماء ومن الجُهّال ومن العوام فإنه يلاحظ الواقع، فيتحدّث بحديث يستفيدُ منه الحاضرون ويفهمونه من أُمور دينهم، ويدرِّسون العقائد والعلوم شيئاً فشيئاً حتى تتسع لها عقولهم، وتتقبلها أفهامهم.

ولا يدخل في هذا ذكر نصوص الأسماء والصّفات بدليل قول ابن عباس الآتي لما ذكر حديثاً عن النبي ﷺ في الصّفات. وإنما هذا خاص بأحاديث القصاص التي قد تكون مكذوبة أو لا تتحملها عقول الناس. ٤

والمعنى: أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التي يعرفونها والأساليب التي يعقلونها حتى يستفيدوا وينتفعوا. لأن كل قوم لهم أساليب لأنك إذا حدثت قوماً بما لا يفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت. وقد يفهمون غير ما قصدت. سواء في أسماء الله وصفاته أو أحكامه سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأردية أو غيرها، والعرب أنفسهم يختلفون في فهمهم فيحدث كل أناس بما يعرفون من العبارات التي اعتادوها حتى يفهموا ما قلت وحتى لا يكذب الله ورسوله. ٦

قال الحافظ: "وزاد آدم بن أبي إياس في كتاب (العلم) له عن عبدالله بن داود عن معروف في آخره: "ودعوا ما ينكرون" [1] أي: ما يشتبه عليهم فهمه. قال: وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة. ومثله قول ابن مسعود" ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة" رواه مسلم.[2]

قال: "ومن رأى التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان. ومالك في أحاديث الصفات.

وأبو يوسف في ((الغرائب)).

[1] رواه بهذه الزيادة من نفس طريق البخاري: البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص/٣٦٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٠٨/٢)، والسمعاني في أدب الإملاء (ص/٥٩)، و المزي في تهذيب الكمال (٢٦٥/٢٨).

[2] رواه مسلم في مقدمة صحيحه (١١/١).

ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجِرَابَيْن[1]، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة [2].

وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرَنِيّيْنَ[3]، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب". انتهى.[4]

وما ذكره عن مالك في أحاديث الصفات ما أظنه يثبت عن مالك، وهل في أحاديث الصفات أكثر من آيات الصفات التي في القرآن؟ فهل يقول مالك أو غيره من علماء الإسلام: إن آيات الصفات لا تتلى على العوام، وما زال العلماء قديماً وحديثاً من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم يقرؤون آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، بل شرط الإيمان هو الإيمان بالله وصفات كماله التي وصف بها نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فكيف يكتم ذلك عن عوام المؤمنين؟! بل نقول: من لم يؤمن بذلك فليس من المؤمنين، ومن وجد في قبله حرجاً من ذلك فهو من المنافقين. ولكن هذا من بدع الجهمية وأتباعهم الذين ينفون صفات الرب تبارك وتعالى، فلما رأوا أحاديث الصفات مبطلة لمذاهبهم قامعة لبدعهم تواصوا بكتمانها عن عوام المؤمنين لئلا يعلموا ضلالهم وفساد اعتقادهم فأعلم ذلك.[5] ١

[1] روى البخاري في صحيحه (رقم ١٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (حفظت من رسول الله ﷺ وعائين؛ فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم).

[2] عن حذيفة رضي الله عنه قال: "لو حدثتكم ما أعلم لافترقتم على ثلاث فرق: فرقة تقاتلني، وفرقة لا تنصرني، وفرقة تكذبني". رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤٥٤/٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٥١٦/٤) وغيرهما وسنده صحيح.

[3] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٦٤١٧) ومسلم (رقم ١٦٧١) من حديث أنس رضي الله عنه.

[4] فتح الباري (٢٢٥/١).

[5] وانظر للفائدة، وتوجيه كلام الإمام مالك: ((منهج الإمام مالك في توجيه العقيدة)) للدكتور: سعود الدعجان (ص/٢٦٠-٢٦٨).

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش، والتبصرة؛ لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده. والمعصوم من عصمه الله. ٢

وفي الأثر دليل على أنه إذا خشي ضرر من تحديث الناس ببعض ما لا يعرفون فلا ينبغي تحديثم به، وليس ذلك على إطلاقه، فإن كثيراً من الدين والسنن يجهله الناس، فإذا حُدِّثوا به كَذَّبوا بذلك وأعظموه، فلا يترك العالم تحديثهم، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتي هي أحسن.١

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات:

مناسبته ظاهرة، لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا مع ثبوت العلو، فلو حَدّثت العاميّ بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذا أنزل؛ صارت السماوات فوقه وصار العرش خالياً منه، وحينئذ لا بد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فَتُبين لهم أن الله عز وجل ينزل نزولاً لا يماثله نزول المخلوقين مع علوه على عرشه،

وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: ((من يدعوني فأستجيب له...)) الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله عز وجل في هذه الساعة من الليل. ٥

هذا فيه دليل على أن بعض العلم لا يصلح لكل أحد، فإن من العلم ما هو خاص ولو كان نافعاً في نفسه ومن أمور التوحيد؛ لكن ربما لم يعرفه كثير من الناس، وهذا من مثل بعض أفراد توحيد الأسماء والصفات، من مثل بعض مباحث الأسماء و الصفات، وذكر بعض

الصفات لله ــجل وعلاــ فإنها لا تناسب كل أحد، حتى إنّ بعض المتجهين إلى العلم قد لا تطرح عليهم بعض المسائل الدقيقة في الأسماء والصفات؛ ولكن يؤمرون بالإيمان بذلك إجمالاً، والإيمان بالمعروف والمعلوم المشتهر في الكتاب و السنة، أما دقائق البحث في الأسماء والصفات فإنما هي للخاصة ولا تناسب العامة ولا تناسب المبتدئين في طلب العلم؛ لأن منها ما يشكل ومنها ما قد يؤول بقائله إلى أن يكذب الله ورسوله كما قال هنا علي رضي الله عنه "حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله".

فمناسبة هذا الأثر بهذا الباب أن من أسباب جحد الأسماء والصفات أن يحدث المرء الناس بما لا يعقلونه من الأسماء والصفات، الناس عندهم إيمان إجمالي بالأسماء والصفات يصح معه توحيدهم وإيمانهم وإسلامهم، فالدخول في تفاصيل ذلك غير مناسب، إلا إذا كان المخلص يعقل ذلك ويعيه، وهذا ليست بحالة أكثر الناس.

ولهذا الإمام مالك رحمه الله لما حُدِّث عنده بحديث الصورة فنهي المتحدث بذلك؛ لأن العامة لا يحسنون فهم مثل هذه المباحث، وهكذا في بعض المسائل في الأسماء و الصفات لا تناسب العامة، فقد يكون سبب الجحد أن حدثت من لا يعقل البحث فيؤول به ذلك - وهو أن البحث فوق عقله، وفوق مستواه، وفوق ما تقدمه من العلم- أن يؤدى به ذلك إلى أن يجحد شيئاً من العلم بالله جل وعلا، أو أن يجحد شيئاً من الأسماء والصفات.

فالواجب على المسلم وخاصة طالب العلم أن لا يجعل الناس يكذبون شيئاً مما قاله الله جل وعلا أو أخبر به رسوله ﷺ، ووسيلة ذلك التكذيب أن يحدِّث الناس بما لا يعرفون، يحدث الناس بحديث لا يبلغه عقولهم، كما جاء في الحديث الآخر «ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا إذا كان لبعضهم فتنة»، وقد بوب على ذلك البخاري في الصحيح في كتاب العلم لقوله: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقفوا فيما أشد منه.

وهذا من الأمر المهم الذي ينبغي للمعلم وللمتحدث وللواعظ وللخطيب أن يعيه؛ في أن يحدث الناس بما يعرفون وأن يجعل تقوية التوحيد، وإكمال توحيدهم والزيادة في أيمانهم بما يعرفون لا بما ينكرون. ٣

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض . لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك . فقال: "ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه" [1] انتهى.

قال: "وروى عبد الرزّاق" عبد الرزّاق: هو عبد الرزّاق بن همّام الصنعانيّ: الإمام الجليل، صاحب "المصنّف" المسمّى بـ "مصنّف عبد الرزّاق."

"عن معمَر" هو معمَر بن راشد الأزدي: من تلاميذ محمد بن شهاب الزُّهريّ، الإمام الجليل.

"عن ابن طاووس عن أبيه" طاووس هو: طاووس بن كَيْسان، من أئمّة العلم في اليمن. وابنُه هو: عبد الله بن طاووس: كان إماماً جليلاً، يروي عن أبيه طاووس. ٤

قوله: "عن ابن عباس" قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ قال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[2]. وروى عنه أصحابه أئمة التفسير، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، وغيرهم. ٢

"عن عبد الله بن عبّاس: أنّه رأى رجلاً انتفض لَمّا سمِعَ حديثاً عن النبي ﷺ في الصّفات؛ استنكاراً لذلك. ٤

فاستنكره إما لأن عقله لا يحتمله، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره. ١

---

[1] رواه معمر في جامعه (٤٢٣/١١)، وعبدالرزاق في تفسيره (٢٣٩/٣)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٤٨٥) من طريق ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس به، وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم.

[2] البخاري الوضوء (١٤٣)، مسلم فضائل الصحابة (٢٤٧٧)، الترمذي المناقب (٣٨٢٤)، ابن ماجه المقدمة (١٦٦)، أحمد (٣٥٨/١).

قوله في أثر ابن عباس: "انتفض". أي اهتز جسمه، والرجل مبهم، والصفة التي حُدث بها لم تبين، وبيان ذلك ليس مهماً، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيماً لله، وهذا أمر عظيم صعب، لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره. ٥

هذا لما لم يعرف هذه الصفة انتفض لأنه فهم من هذه الصفة المماثلة أو التشبيه فخاف من تلك الصفة، والواجب على المسلم أنه إذا سمع صفة من صفات الله –في كتاب الله أو في سنة النبي ﷺ– أن يجريها مجرى جميع الصفات، وهو أن إثبات الصفات لله جل وعلا إثبات بلا تكييف، إثبات بلا تمثيل، فإثباتنا للصفات على وجه تنزيه الله جل وعلا عن المثيل والنظير في صفاته وأسمائه، فله من كل اسم وصفة أعلى وأعظم ما يشتمل عليه من المعنى، ولهذا قال ابن عباس هنا "ما فَرَقُ هؤلاء؟" يعني ما سبب خوف هؤلاء، لماذا فَرِقُوا؛ خافوا من هذه الصفة ومن إثباتها؟. ٣

فقال: "ما فَرَقُ هؤلاء؟!، يجدون رقّة عند مُحكمه، ويهلكون عند متشابهه".

قوله: "ما فرق". فيها: ثلاث روايات:

١- "فَرَقُ"، بفتح الراء، وضم القاف.

٢- "فرَّق"، بفتح الراء مشددة وفتح القاف.

٣- "فرَقَ"، بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلى رواية "فَرَقُ" تكون "ما" استفهامية مبتدأ، و"فَرَقُ": خبر المبتدأ أي: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله عز وجل كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا ينصب تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه؟. ٥

أي: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها، والمراد الانكار عليهم، فإن الواجب على العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله ﷺ وإن لم يحط به علماً. ولهذا قال الشافعي: "آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله" [١]. ١

وعلى رواية "فَرَّقَ" أو "فَرَقَ" تكون فعلاً ماضياً بمعنى ما فرقهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء:١٠٦]، أي: فرقناه. و"ما" يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟. ٥

قوله: "يجدون رقة عند محكمة". الرقة: اللين والقبول. ٥

قوله: "ويهلكون عند متشابه". أي: متشابه القرآن. ٥

أي: أنهم إذا سمعوا الآيات المحكمات من القرآن والسنة يجدون رقة وخشوعاً، وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم وهلكوا عندها بالجزع والإنكار. ٦

"يجدون رقة عند محكمه" يعني إذا خوطبوا بالمحكم الذي يعرفون، المُحكم هو ما يعلم والذي يعلم هو سامعه، هذا هو المحكم، "يجدون رقة عند محكمه" يعني إذا خوطبوا بما يعلمونه وجدوا في قلوبهم رقة لذلك، "ويهلَكون عند متشابهه" فإذا سمعوا في الكتاب أو السنة شيئاً لا تعقله عقولهم هلكوا عنده وخافوا وفَرَقُوا وأوَّلوا ونفوا أو جحدوا، وهذا من أسباب الضلال.٣
قال الذهبي: "حدث وكيع عن إسرائيل بحديث":"إذا جلس الرب على الكرسي". فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع. وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها. أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية. ٢

---

[١] انظر مجموع الفتاوي (٦/٤، ٣٥٤/٢)

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله، فيحمله على غير معناه، كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته. وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد المتشابه إلى المحكم، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه. ٢

المحكم و المتشابه

والمحكَم من النّصوص هو: الذي يُفهم معناه من لفظه، ولا يحتاج إلى دليل آخر يفسّره. والمتشابه هو: الذي لا يُفهم معناه من لفظه، ويحتاج إلى دليل آخر يفسّره، كالنّاسخ والمنسوخ، والمطلَق والمقيَّد، والعام والخاص، والمجمل والمبيّن.

فقاعدة أهل السنّة والجماعة: أنّهم يردّون المتشابه إلى المحكَم، فيفسّرون بعض النّصوص ببعض، لأنّها كلها كلامُ الله أو كلامُ رسوله ﷺ.

وأمّا أهل الزّيغ فإنّهم يأخذون المتشابهِ، ويتركون المحكَم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فيردّون المتشابه إلى المحكم، ويفسِّرون كلام الله بكلام الله أو بكلام رسوله ﷺ، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ﴾ يعني: المحكَم والمتشابه، ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فيفسّرون بعضه ببعض، فلا يأخذون المتشابه فقط ويتركون المحكَم.

ومنهم: هذا الرجل الذي لما سمع حديثاً في الصّفات استنكره وانتفض خوفاً من ذكره ولا يحدث ذلك منه عند المتشابه. ٤

وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

فقال ابن كثير: "يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات"، أي: بَيِّنَات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم.

فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحَكَّمَ محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله الذي يُرْجَعُ إليه عند الاشتباه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل أشياء أخرى من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ضلال، وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه.

فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافِعٌ لهم، وحجة عليهم، ولهذا قال ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم. انتهى.[1]

وقال ابن عباس: "﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ يعني: أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، وَيُلَبِّسُون فَلَبَّسَ الله عليهم..." رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم[2]. ١

---

[1] تفسير ابن كثير (٣٤٥/١)

[2] رواه ابن المنذر – كما في الدر المنثور (١٤٧/٢)، وابن جرير في تفسيره (١٧٧/٣، ١٨١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٣١٨٥، ٣١٩٧)، وإسناده لا بأس به.

وهنا استعمل ابن عباس رحمه الله ورضي عنه استعمل كلمة (المحكم) وكلمة (المتشابه) يريد بها هنا:
المحكم الذي يُعلم؛ يعلمه سامعه.
والمتشابه الذي يشبه علمه على سامعه.
والقرآن والعلم جميعاً والشريعة كلها محكمة، وكلها متشابهة، ومنها محكم ومنها متشابه، فهذه ثلاثة أقسام:
فالأول المحكم: كما قال جل وعلا ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود:١-٢]، فالقرآن كله محكم، بمعنى أن معناه واضح وأن الله جل وعلا أحكم فلا اختلاف فيه إلا بتباين، وإنما بعضه يصدق بعضا كما قال جل وعلا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].
والقرآن والشريعة أيضاً متشابه كله: بمعنى أن بعضه يشبه بعضا فهذا الحكم وهذه المسألة تشبه تلك لأنها تسري معها في قاعدة واحدة، فنصوص الشريعة يصدق بعضها بعضا ويؤول بعضها إلى بعض، وقد قال جل وعلا ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣]، قال ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ فالقرآن متشابه؛ يعني بعضه يشبه بعضا، هذا خبر في الجنة وهذا خير الجنة، وبعض الأخبار يفصِّل بعضا، هذه قصة وهذه قصة، هذه تصدق وهذه وتزيدها تفصيلاً، وهكذا في كل ما في القرآن.
والقرآن أيضاً والشريعة والعلم منه محكم ومنه متشابه باعتبار ثالث: فالمحكم والمتشابه هنا هو الذي جاء في آية آل عمران ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧]، منه محكم وهو الذي أتضح لك علمه، ومنه متشابه وهو الذي اشتبه عليك علمه، وبهذا نعلم بأن ليس عندنا في عقيدة أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح ليس عندهم شيئاً من المتشابه المطلق الذي لا يعلمه أحد، بمعنى أن ثمة مسألة من مسائل التوحيد أومن مسائل العمل يشتبه علمها على كل الأمة، هذا لا يوجد بل ربما اشتبه على بعض الناس وبعضهم يعلم المعنى، كما قال جل وعلا ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] على أحد وجهي الوقف.

فهذا المتشابه الموجود الذي هو قسيم للمحكم هذا يشتبه على بعض الناس، فإذا اشتبه عليك علم شيء من التوحيد أو من الشريعة فإن الواجب أن لا تفرق عنده وأن لا تخاف، وأن لا تتهم الشرع أو يقع في قلبك شيء من الزيغ لأن الذين يتبعون المتشابه بمعنى لا يؤمنون به فإن هؤلاء هم الذين في قلوبهم زيغ، وهذا هو الذي عناه ابن عباس ﵄ حين قال "يجدون رقة عند محكمة ويهلكون عند متشابهه" يريد به هذا الوجه من أن الذين يهلكون عند المتشابه هم أهل الزيغ الذين قال الله جل وعلا فيهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧]، فأهل الزيغ يستعملون في المتشابه هاتين الطريقتين:

- إما أن يبتغوا بالمتشابه الفتنة.
- وإما أن يبتغوا بالمتشابه التأويل.

والواجب أن يردّ المتشابه على المحكم، فنعلم أن الشريعة تصدق بعضها بعضاً وأن التوحيد بعضه يدل على بعض، كالقاعدة المعروفة في الصفات التي ذكرها عدد من الأئمة كالخطابي وشيخ الإسلام في التدمرية: أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض، وأن القول في الصفات كالقول في الذات يحتذى في حذوه وينهج فيه على منواله. ٣

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفي معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفرداً دون المتشابه، فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١].

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضاً ولا يتناقض، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفي على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] فعلى الوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ يكون المراد بالمتشابه المطلق، وعلى الوصل ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القول الأول: الوقف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا، فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالى في نعيم الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، أي: لا تعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس: "ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء" [١].

والقول الثاني: الوصل، فيقرأ: ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٢]، وعلى هذا، فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابهاً، ولهذا يروى عن

---

[١] ابن حزم في "الفصل" (١٠٨/٢) – وقال "هذا سند غاية في الصحة". وقال المنذري في "الترغيب " (٥٦٠/٤): "رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد".

[٢] هذا هو المروي عن ابن عباس وجماعة من السلف، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس (أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله) رواه ابن جرير في تفسيره، وابن المنذر وابن الانباري كما في الدر المنثور وإسناده صحيح.

وقال مجاهد (والراسخون في العلم) يعرفون تأويله ويقولون (آمنا به)، وكذا قال الربيع بن أنس وغيره رواه عبد بن حميد –كما في الإتقان في علوم القرآن (٧/٢) وابن جرير في تفسيره وإسناده صحيح. انظر تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، والدر المنثور (١٥٢/٢).

ابن عباس، أنه قال: "أنا من الراسخين في العلم الذي يعلمون تأويله"[1]. ولم يقل هذا مدحاً لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه، فالقرآن معانيه بينة، لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعاً بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما، فإنها تحمل عليهما جميعاً. ٥

الأثر لا يدل على أن آيات الصفات من المتشابه

يقول في تيسير العزيز الحميد: "لا أن آيات الصفات هي المتشابه كما تقوله الجهمية ونحوهم، ولا أنَّ في القرآن متشابهاً لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدل على بطلان ذلك، وإنما المراد بالمتشابه، أي: ما يشتبه فهمه على بعض الناس دون بعض، فالمتشابه أمر نسبي إضافي، فقد يكون مشتبهاً بالنسبة إلى قوم بيناً جلياً بالنسبة إلى آخرين.

ولهذا قال النبي ﷺ لما خرج على قوم يتراجعون في القرآن فغضب وقال: ((بهذا ضلت الأمم قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم، وضرب الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، ولكن نزل لأن يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به)) رواه ابن سعد وابن الضريس وابن مردويه.[2]" ١

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه، فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم، إذ ليس من المعقول أن يقول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ثم تستثني الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعاً وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول، لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعاً يكون خفياً، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾،

---

[1] أنظر قوله في: "تفسير الطبري " (١٨٣/٣).

[2] رواه ابن سعد في الطبقات (١٩٢/٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (رقم ٧٤٩). وإسناده حسن.

أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه، إذا لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرؤون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت ... والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم.

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه على جميع الناس. ٥

فدلّ قولهُ ﷺ: "يجدون رِقّة عند محكَمه" على أنّ آيات الصّفات من المحكَم وليست من المتشابه". وفي هذا ردٌّ على أهل الضّلال الذين يجعلون نصوص الصّفات من المتشابهِ، ويفوِّضون معناها إلى الله. وهذا ضلالٌ وغلط، بل هي من المحكَم الذي يُعرف معناه ويفسَّرُ، ولذلك بيّن عبد الله بن عبّاس ﷺ أنها من المحكَم، وهذا هو الحقّ، وهو مذهب السّلف: يقول شيخ الإسلام رحمه الله :"ما وجدتّ أحداً من أهل العلم من السلف جعل آيات الصّفات من المتشابه" على كثرة إطّلاعه وتتبُّعه". ٤

وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان. ٢

فقد تبين ولله الحمد أنه ليس في الآية حجة للمبطلين في جعلهم ما أخبر الله به من صفات كماله هو المتشابه، ويحتجون على باطلهم بهذه الآية، فيقال: وأين في الآية ما يدل على مطلوبكم؟ وهل جاء نص عن الله أو عن رسوله ﷺ أنه جعل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله متشابهاً، ولكن أصل ذلك أنهم ظنوا أن التأويل المراد في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يحتمله اللفظ لدليل يقترن بذلك، وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين، وهو اصطلاح حادث، فأرادوا حمل كلام الله على هذا الاصطلاح، فضلُّوا ضلالاً بعيداً، وظنوا أن لنصوص الصفات تأويلاً يخالف ما دلت عليه، لا يعلمه إلا لله كما يقوله أهل التجهيل، أو يعلمه المتأولون كما يقوله أهل التأويل. ١

هذا يدل على أن هذا من قديم، وأنه في عهد الصحابة، وجد شيء من هذا يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه يعني يجدون رقه عند الأشياء الواضحة، والمعاني الواضحة، وإذا جاءت الأحاديث التي تشتبه عليهم، أو الآيات هلكوا بإنكارها، أو الشك فيها، والريب فيها، فدل ذلك على أن إنكار الصفات، وإنكار ما بينه الله لعباده، أو الشك في ذلك هلاك، وإنما الحياة والحق والصواب الإيمان بما أخبر به الله ورسوله، إن كنت فهمته فالحمد لله، وإن كنت لم تفهم فَكِلْهُ إلى عالمه، وقل الله أعلم بمراده، واسأل أهل العلم، وانظر في الآيات، والأدلة الأخرى حتى تفهم، وإياك والإنكار، وإياك والجزع، وإياك والشك والريب، فإن هذا طريق المنافقين، وطريق الهالكين، أما أهل السنة والجماعة فهم يؤمنون بما جاء في الكتاب والسنة، ويرقون عنده، ويخضعون له، ويعملون به، وإذا اشتبهت عليهم أمور ردوها إلى المحكمات، وردوها إلى البينات، وفسروها بما اتضح من حكم الله في الآيات الأخرى، والأحاديث الأخرى، ولا يضربون كتاب الله، ولا سنة رسول الله بعضها ببعض، ولا يشكون، ولا يرتابون، بل يؤمنون بالمتشابه، وأنه لا يخالف المحكم بل هو من جنس المحكم، ويكلون ما جهلوا من ذلك إلى عالمه؛ كالكيفية فالله هو الذي يعلم كيفية صفاته، وأما معانيها فمعروفة للناس من طريق اللغة العربية التي خاطب الله بها الناس، فالرحمن معروف، والعزيز معروف، والكريم معروف، والعليم معروف، والحكيم معروف، وهكذا صفاته معروفة، وأسماء معروف معانيها، أما كيفية تلك صفاته إلى الله [لا يعلم كيفيتها إلا هو]، ولما سئل مالك بن أنس إمام دار الهجرة في زمانه في القرن الثاني رحمه الله، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] قال السائل: كيف استوى؟ قال رحمه الله: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، يعني الكيفية، فبين رحمه الله أن الاستواء الذي هو الارتفاع، والعلو معلوم، أما كيف استوى لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. ٦

وفي الأثر المشروح دليل على ذكر آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، وأن من رد شيئاً منها أو استنكره بعد صحته؛ فهو ممن لم يفرق بين الحق والباطل، بل هو من الهالكين وأنه ينكر عليه استنكاره. ١

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: (الرحمن) أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ذكر المصنف هذا الأثر بالمعنى، وقد روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال: "هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية" كتب: ((بسم الله الرحمن الرحيم))، فقالوا: "لا نكتب الرحمن ولا ندري ما الرحمن ولا نكتب إلا باسمك اللهم" فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية.[١]

روى ابن جرير[٢] عن قتادة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب: ((هذا ما صالح عليه محمد رسول الله))، فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فقال أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله دعنا نقاتلهم. فقال: ((لا، اكتبوا كما يريدون، إني محمد بن عبد الله))، فلما كتب الكاتب "بسم الله الرحمن الرحيم" قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه. وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم. فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم. قال: ((لا، ولكن اكتبوا كما يريدون.))". ٣

---

[١] وكذلك في جميع كتب التفسير التي وقفت عليها كتفسير البغوي (١٩/٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣٢٩/٤)، والدر المنثور للسيوطي (٦٥٠/٤)، وفتح القدير للشوكاني (٨٣/٣) والسند صحيح إلى ابن جريج.

[٢] في تفسيره (٥٨٠/١٧).

[٣] البخاري الشروط (٢٥٨٣)، أبو داود الجهاد (٢٧٦٥).

وروي أيضاً عن مجاهد قال: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)﴾ [الرعد: ٣٠] قال: "هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشا في الحديبية"، كتب "بسم الله الرحمن الرحيم" قالوا: لا تكتب الرحمن، ولا ندري ما الرحمن، لا نكتب إلا باسمك اللهم، قال تعالى: ﴿وهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾" الآية. ٢

قوله: "ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن". أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية وأمر النبي ﷺ أن يكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال "أما الرحمن، فلا والله ما أدري ما هي: وقالوا: إننا لا نعرف رحماناً إلا رحمن اليمامة. فأنكروا الاسم دون المسمى، فأنزل الله: ﴿وهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، أي بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة، فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾. ٥

فإنكار الصفة أو إنكار الاسم بمعنى عدم التصديق بذلك هذا جحد، وهذا يختلف عن التأويل، فالتأويل والإلحاد له مراتب يأتي بيانها إن شاء الله تعالى. ٣

وفيه دليل على أن من أنكر شيئاً من الصفات فهو من الهالكين، لأن الواجب على العبد الإيمان بذلك سواء فهمه أم لم يفهمه، وسواء قبله عقله أو أنكره، فهذا هو الواجب على العبد في كل ما صح عن الله ورسوله ﷺ، وهو الذي ذكر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يقولون ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. ١

وقوله: "ولما سمعت قريش". الظاهر والله أعلم أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر، صح أن ينسب لهم جميعاً، بل أن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين. ٥

ويُستفاد من نصوص الباب فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن إنكار الأسماء والصّفات كفر لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، ولكنّه كفرٌ فيه تفصيل قد يكون كفراً أكبر مخرج من المِلّة، وقد يكون كفراً أصغر لا يُخرج من الملّة لكنّه ضلال، وهذا بحسب حال النّافي للأسماء والصّفات :هل هو مقلِّد أو غير مقلِّد؟، هل هو متأوِّل أو غير متأوِّل؟.

الفائدة الثانية: في قول عليّ ﷺ:"حدِّثوا الناس بما يعرِفون" فيه: أنه يجب على المتحدِّث في خطبة أو في درس أو في موعظة أو في محاضرة أن يتحدّث بما يناسِب حال المستمعين وما ينفعهم، ولا يأتي لهم بالغرائب والأشياء التي لا يفهمونها، لأنّ هذه الأشياء إن لم تكن صحيحة فقد كذَب على رسول الله ﷺ، كالذي يروِّجه بعضُ القُصّاص من الأحاديث المكذوبة والموضوعة، وإن كانت ثابتة عن الرّسول ﷺ فإنّه يكون قد تسّبب في استنكار الحاضرين لها وجحدهم لها، فيكون هو السّبب الذي حملهم على ذلك.

الفائدة الثالثة: أيضاً في قول عليّ ﷺ طلب التدرُّج في تعليم النّاس، فيبدأ بصغار المسائل، ثم يُنتَقل إلى كِبارها، هذا هو الطّريق الصحيح للتّعليم، أما أن يؤتى بكبار المسائل للمبتدئين فهذا خطأ في طريقة التعليم.

الفائدة الرابعة: في قول ابن عبّاس ﷺ دليلٌ على أنّ نصوص الصّفات من المحكَم، وأنّها تُذكَر عند الناس، لا يُتحاشى من ذكرها، لأنّها واضحة المعاني، لا إشكال فيها، ولذلك جاءت في القُرآن، والقرآن يتلوه العوام ويتلوه المتعلِّمون.

الفائدة الخامسة: فيه دليل على أنّ أهل الزيغ يتبعون المتشابه ويتركون المحكَم.

الفائدة السّادسة: فيه -أيضاً- دليل على إنكار المنكَر، لأنّ ابن عبّاس ﷺ استنكر على هذا الرّجل، وبيّن السبب الذي حمله على ما حصل منه من الرِّعدة، وأنّه من أهل الزّيغ الذين ينكرون المحكَم ويتّبعون المتشابه.

الفائدة السابعة: أنّ أوّل مَن جحد الأسماء والصّفات هم المشركون، فيكونون أئمّة للجهميّة والمعتزلة ومَن نحا نحوَهم، وبئْس الأئمَّة والقُدوة، نسأل الله العافية والسّلامة.

هذا، وبالله التّوفيق. ٤

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه هلك.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

عدم بمعنى انتفاء أي: انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك. ٥

الثانية: تفسير آية الرعد. وسبق تفسيرها. ٥

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع. وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر. ٥

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

وهي أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به يفضي به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس في أشياء كثيرة مما أخبر به النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة، كما أخبر النبي ﷺ:

((إن الأرض يوم القيامة تكون خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفا أحدكم خبزته))[١]، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور لو حدثنا بها إنساناً عامياً لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تبين له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثل ما نعلم الصبي شيئاً فشيئاً .

وقوله: "ولو لم يتعمد المنكر". أي: ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله. ٥

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه هلك.

وذلك قوله: "ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة أي ليناً عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابه فينكرونه؟". ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾)

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ [النحل]).

قَالَ مُجَاهِدُ مَا مَعَناهُ: "هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبائِيَ."وقَالَ عَوْنُ بن عَبْدِ اللَّهِ" يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانُ لَمْ يَكُنْ كَذَا."وقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: "يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا."وقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ – بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...)) الْحَدِيثُ –وَقَدْ تَقَدَّمَ– وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إلى غَيْرِهِ، ويُشْرِكُ بِهِ.قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: "هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقاً، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ".

---

[١] البخاري: كتاب الرفاق/ باب يقبض الله الأرض يوم القيامة، ومسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب منزل أهل الجنة.

هذا الباب ذكره الشيخ رحمه الله بعد باب "مَن جحد شيئاً من الأسماء والصّفات"، لأنّه مِن جنسه، فيه تنقُّصٌ للرُّبوبيّة، فالذي يجحد الأسماء والصّفات قد تنقَّص الربوبيّة، وكذلك الذي يُضيفُ النّعم إلى غير الله سبحانه وتعالى قد تنقّص الرّبوبيّة. ٤

المراد بهذه الترجمة التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ الشركية الخفية كنسبة النعم إلى غير الله فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفي. ١

هذا الباب من الأبواب العظيمة في هذا الكتاب خاصة في هذا الزمن لشدة الحاجة إليه، وترجمه المصنف رفع الله مقامه في الجنة بقوله (باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]) فوصف الكفار في سورة النحل -التي تسمى سورة النِّعم- وصفهم بأنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، وإنكار النِّعمة بأن تنسب لغير الله، إنكارها بأشياء، ومن ذلك أن تُنسب إلى غير الله وأن يجعل المنفصل في النعمة غير الذي أسداً ها هو الله جل جلاله.

فالواجب على العبد أن يعلم: أن كل النعم من الله جل وعلا، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جل وعلا، وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال التوحيد ونوع شرك بالله جل وعلا.

ولهذا تكون مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن ثمة ألفاظاً يستعملها كثير من الناس في مقابلة النعم، أو في مقابلة اندفاع النقم، فيكون ذلك القول منهم نوع شرك بالله جل وعلا؛ بل شرك أصغر بالله جل وعلا.

فنبه الشيخ رحمه الله بهذا الباب على ما ينافي كمال التوحيد من الألفاظ، وأن نسبة النعم إلى الله جل وعلا واجبة. ٣

فهذه الآية التي ذكرها في الترجمة، وهي قولُه سبحانه وتعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ هي من سورة النّحل، وسورة النّحل تسمّى سورة النِّعَم، لأنّ الله سبحانه وتعالى عدّد فيها كثيراً من نعمه على عباده، وقال فيها: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل:١٨]، وأوّل النِّعَمَ التي ذكرها الله في هذه السّورة نعمة إرسال الرُّسل، وإنزال الوحي لهداية عباده.

ثم النعمة بخلق الإنسان، وما جعل فيه من الأعضاء الكبيرة والصغيرة الدّقيقة، وما جعل فيه من بديع الصّنعة.

ثم النّعم في خلق بهيمة الأنعام التي فيها الجمال، وفيها منافعهم من الرُّكوب والحمل والألبان واللحوم، وغير ذلك.

وكذلك: المراكِب البحريّة التي تقطَعُ بهم عُباب الماء.

وكذلك: ما أنبت في الأرض من صُنوف النباتات التي فيها أرزاق العباد وفيها أدويتُهم وفيها مراعي لأنعامهم.

وكذلك: ما جعل فيها من العلامات التي يهتدي بها المسافرون في البرّ والبحر: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل:١٦].

ومن ذلك: نعمة المشارب من الماء واللَّبَن والعسل.

وكذلك: نعمة المساكن التي يسكُنون فيها فتُؤويهم من الحرّ والبرْد، فيتحصّنون بها من عدوّهم: البيوت الثّابتة، والبُيوت المتنقِّلة: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل:٨٠].

وكذلك: نعمة الملابس التي يلبسونها: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١] ملابس الأبدان التي يستُرون بها عوراتهم، ويُجمِّلون بها هيئاتهم، وملابس الدُّروع التي تقيهم من سلاح العدو.

كلُّ هذه النعم من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ [النحل:٨٢-٨٣]. ٤

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.

قوله: ﴿نِعْمَتَ اللهِ﴾. واحدة والمراد بها الجمع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والقاعدة الأصولية: أن المفرد المضاف يعم، والنعمة تكون بجلب المحبوبات، وتطلق أحياناً على رفع المكروهات. ٥

قال ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أنّ لفظ المعرفة إنما يأتي في الذم، وأن النافع هو العلم، وأن المعرفة تستعمل في القرآن وفي السنة غالباً في ما يذم من أخذ المعلومات، كقول الله جل وعلا ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام:٢٠]، قوله في هذه الآية ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

وهذا من جهة الأكثرية، وإلا فقد ورد أن المعرفة بمعنى العلم كما جاء في صحيح مسلم في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال له ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إليه أن يعرفوا الله فإن هم عرفوا الله)) فهذا يدل أن بعض من روى الحديث من التابعين جعل معنى العلم بالمعرفة وهم حجة في هذا المقام، فيدل على أن استعمال المعرفة بمعنى العلم لا بأس به. ٣

والمفسّرون -رحمهم الله- ذكروا أقوالاً في تفسير هذه الآية، وكلّها صحيحة، ولا تناقُض بينها، لأنّها كلّها تدخُل في نعمة الله، وكلٌّ منهم يذكُر مثالاً من هذه النعم. فأقوال المفسّرين لا تناقض بينها، واختلافهم -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-: اختلافُ تنوُّع، وليس هو اختلاف تضادّ، لأنّ الآية -أو الآيات- تحتمِل عدّة معان، فكلّ واحدٍ من المفسِّرين يأخذ معنىً من هذه المعاني، فإذا جمعتها وجدتّ أنّ الآية -أو الآيات- تتضمّن هذه المعاني الّتي قالوها جميعاً.

فمنهم مَن قال: المراد بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾: بِعثة محمد ﷺ، ولا شكّ أنّ هذه النعمة هي أكبرُ النعم، ولذلك صدّر السّورة بذكر بعثة الرُّسل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾ [النحل:٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ومنهم مَن قال :المراد بالنعمة: كلّ ما ذكره الله في هذه السّورة من أصناف النِّعَم.

لأن قوله:﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مفرد مضاف، فيعم جميع النِّعم، فقولُه تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: يعرفون نِعَمَ الله المذكورة في هذه السورة، ولا يجحدونها في قَرارة أنفسهم، فيعرفون بقلوبهم أنّها من الله، ولكنّهم بألسِنَتهم ينسِبونها إلى غير الله سبحانه وتعالى، أو بالعكس؛ يتلفّظون بأنّ هذه النِّعَم من الله ولكنّهم في قلوبهم يعتقدون أنها من غيره.

ولهذا يقولُ العلماء: أركانُ الشكر ثلاثة لا يصحّ الشّكر إلاّ بها:

الركن الأوّل: التحدُّث بها ظاهراً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى:١١].

الركن الثاني: الاعتراف بها باطناً، يعني: تعترِف في قَرارة نفسك أنّها من الله سبحانه وتعالى، فيكون قلبُك موافِقاً للسانك من الاعتراف بأنّها من الله.

الرُّكن الثالث: صرفُها في طاعة موليها ومُسْدِيها وهو الله سبحانه وتعالى، بمعنى: أن تستعين بها على طاعة الله، فإنِ استعنْتَ بها على معصية الله فإنك لا تكون شاكراً لها. ٤

قال ابن القيم: "الشكر مبني على خمسة قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمه، وثناؤه عليه، وألا يستعملها فيما يكره"

﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ المراد بإنكارها: جُحودُها، إما باللّسان وإمّا بالقلب، بأن تُنسَب إلى غير مَن أنعم بها، إما أن تُنسب إلى الأسباب، وإمّا أن تُنسب إلى الأصنام والآلِهة، وإمّا أن تُنسب إلى الآباء والأجداد، وإمّا أن تُنسب إلى كَدِّ العبد وكسبِه وحِذْقِه ومعرِفَته وإما بصرفها في معصية الله. ٤

قوله: ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾. أي: ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله —سبحانه –، وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله، متناسبين الذي خلق السبب فوجد به المسبب. ٥

قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾. أي أكثر العارفين بأن النعمة من الله الكافرون، أي الجاحدون كونها من الله، أو الكافرون بالله عز وجل. ٥

وأما قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ بين المصنف أن جحد نعمة الله من الكفر، وقد قسم أهل العلم الكفر إلى كفرين: كفر أكبر، وهذا يخرج من الملة وسموه أكبر، الثاني: وهو الكفر الأصغر، وهو الذي لا يخرج من الملة، ولا يعني أنه صغير بل هو من أكبر الذنوب والمعاصي، ولكنه صغير نسبة إلى ما هو أكبر منه المخرج من الملة.

فإن كان هذا الجحود للنعمة جحوداً كلياً بمعنى أن يقول إن هذه النعمة ليست من نعم الله إنما هي من فلان، أو هذه النعمة من جهدي وعملي ليس لله فيها شيء، ولم يقدرها، فهذا كفر مخرج من الملة.

أما النوع الثاني وهو الكفر الأصغر وهو أن يعتقد أن المنعم هو الله سبحانه، ولكن ينسبه إلى غيره فيقول: هذا المطر نزل بسبب النجم الفلاني ولم ينسب إلى الله، فهذا كفر أصغر. ٩

فما ذكره الشيخ رحمه الله في هذا الباب إنّما هو أمثلة لكُفران النعمة. ٤

مناسبة هذا الباب للتوحيد :

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره، فقد جعل معه شريكاً في الربوبية، لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد، لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم –سبحانه وتعالى–، فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية. ٥

هذا الباب معقود لألفاظ يكون استعمالها من الشرك أصغر؛ ذلك أن فيها إضافة النعمة لغير الله، والله جل وعلا قال ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِن اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وهذا نص صريح في العموم بأن مجيء النكرة في سياق النفي يدل على الظهور في العموم، فإنْ سُبقت النكرة

بـ(مِنْ) حرف جر -الذي هو شبيه بالزائد- فيكون العموم نصاً فيه، والتنصيص في العموم بمعنى أنه لا يَخرج شيء من أفراده، فدلت الآية على أنه لا يخرج شيء من النعم أيا كان ذلك الشيء -صغيراً كان أو كبيراً عظيماً جليلاً أو حقيراً وضيعاً- لا يكون إلا من الله جل وعلا، فكل النعم صغرت أو عظمت هي من الله جل وعلا وحده، وأما العباد فإنما هم أسباب تأتي النعم على أيديهم، يأتي واحد ويكون سبباً في إيصال النعمة إليه، أو يكون سبباً في معالجتك، أو سبباً في تعيينك، أو سبباً في نجاحك، أو نحو ذلك، لا يدل على أنه هو ولي النعمة وهو الذي أنعم، فإن ولي النعمة هو الرب جل وعلا، وهذا من كمال التوحيد، فإن القلب الموحد يعلم أنه ما ثَم شيئاً في هذا الملكوت إلا والله جل وعلا هو الذي يفتحه وهو الذي يغلق ما شاء، كما قال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر:٢]، فكل النعم من الله جل وعلا والعباد أسباب في ذلك.

فالواجب -إذن- أن تنسب النعمة إلى المسدي لا على السبب لأن السبب لو أراد الله جل وعلا لأبطل كونه سبباً، وهذا السبب إذا كان آدمياً فقلبه بين أصبعين من أصابع الله جل وعلا لو شاء لأصدق عن أن يكون سبباً أو أن ينفعك بشيء، فالله جل وعلا هو ولي النعمة.

قد قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "ما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل." ما من أحد تعلق بمخلوق في حصول شيء له واندفاع مكروه عنه إلا خذل، وهذا في غالب المسلمين، وذلك لأن الواجب على المسلم أن يعلِّق قلبه بالله وأن يعلم أن النعم إنما هي من عند الله، والعباد أسباب يسخرهم الله جل وجلاله، وهذا هو حقيقة التوحيد ومعرفة تصرف الله جل وعلا في ملكوته. ٣

ولا بأس أن يذكر الأسباب مثل: البيع والشراء، الزراعة، المساقاة، لا بأس، لكن ينسب النعم إلى الله وأنها من فضل الله وكرمه، لا بجهده وعمله فقط، ولا بجهد آبائه وأسلافه، ولابشفاعة آلهته كما يقول بعض المشركين. ٦

قال مجاهد ما معناه: "هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي."

قوله: "قال مجاهد" وهو مجاهد بن جَبْر، الإمام التّابعي الجليل. ٤

قوله: "قال مجاهد". هو إمام المفسرين في التابعين، عرض المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما يوقفه عن كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"، أي: كافيك، ومع هذا، فليس معصوماً عن الخطأ.

قوله: "ما معناه". أي: كلاماً معناه، وعلى هذا ف "ما": نكرة موصوفة، وفيه أن الشيخ رحمة الله لم ينقله بلفظه. ٥

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم لفظه كما في الدر قال "المساكن والأنعام وسرابيل الثياب، والحديد يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم"[1]. ١

قوله: "هو قول الرجل". هذا من باب التغليب والتشريف، لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا، فالحكم واحد. ٥

يفسِّر الآية بقول الرجل: "هذا مالي ورثته عن آبائي"، فلا يَنْسب حصول المال إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما ينسِبُه إلى آبائه وأجداده.

وكذلك إذا نسبه إلى كَدِّه وكسبه وحِذْقِه ومعرفته، فإنّ هذا جُحود لنعمة الله، لأنّ المال فضلٌ من الله سبحانه وتعالى، أما الحِذْق والكسب ومعرفة الصنعة فهذه أسباب قد تُنْتِجْ مسبَّباتِها وقد لا تُنْتِج، فكم من حاذِق وكم من عالم وكم من صانع يُحْرَم من الرّزق ولا تُغنيه صنعته شيئاً ، فهذا فضلٌ من الله سبحانه وتعالى، وأما هذه فهي أسبابٌ إن شاء الله نفعتْ وإنْ شاء لم تنفع. ٤

قال ابن القيم ما معناه: "لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد انكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه، غير معترف بها، وهو كالأبرص والأقرع الذيْنِ

---

[1] رواه ابن جرير في تفسيره (١٤/١٥٨)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم – كما في الدر المنثور (٥/١٥٥)– عن مجاهد وإسناده صحيح.

ذَكَّرَهما الملك بنعم الله عليهما؛ فأنكراها، وقالا: ((إنما ورثنا هذا كابراً عن كابر))، وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم، إذ أنعم بها على آبائهم، ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه"[1]. ١

هذا القول "مالي ورثته عن آبائي" منافي لكمال التوحيد ونوع شرك؛ لأنه نَسَب هذا المال إليه ونسبه إلى آبائه، وفي الواقع أن هذا المال أنعم الله به على آبائه ثم أنعم الله به على هذا المؤمن إذْ جعل الله القسمة -قسمة الميراث- تصل إليه، وهذا كله من فضل الله جل وعلا ومن نعمته، والوالد سبب في إيصال المال إليك، ولهذا في قسمة الميراث لا يجوز للوالد أن يقسم الميراث أو لصاحب المال أن يقسم الميراث على ما يريد هو؛ لأن المال في الحقيقة ليس مالاً له، كما قال جل وعلا ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣]، فهو مال الله جل وعلا يقسمه كيف يشاء، إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم.

فالواجب على العبد أن يعلم أن ما وصله من المال أو وصله من النعمة عن طريق آبائهم هو من فضل الله جل وعلا ونعمته، ووالده أو والدته أو قريبه سبب من الأسباب، فيحمد الله جل وعلا على هذه النعمة، ويسأل الله جل وعلا ذلك السبب، ويقابل ذلك السبب بجزائه إما بدعاء وإما بغيره. ٣

قوله: "هذا مالي ورثته عن آبائي". ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائي، فليس فيه شيء لأنه خبر محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذي هو الإرث متناسياً المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله -عز وجل- أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله عز وجل -انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث-، فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم؟! فمن هنا صار هذا القول نوعاً من كفر النعمة.

---

[1] شفاء العليل (ص/٣٦-٣٧)

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق، فلا شيء في ذلك ولهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: "أتنزل في دارك غداً ؟" فقال: ((وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع))[1] فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث.

فتبين أن هناك فرقاً بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبب وهو الله عز وجل. ٥

وقال عون بن عبد الله: "يقولون: لولا فلان لم يكن كذا."

وله: وقال عونُ بن عبد الله، هو: عَوْن بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود الهُذَلي: إمامٌ جليل.

يقولون: لولا فلان لم يكن كذا" وهذا لا يجوز، لأن فيه نِسبة النعمة إلى غير الله، والذي يجوز ما أرشد إليه النّبي ﷺ، أن تقول: ((لولا الله، ثُمَّ فلان))،

لأنّك نسبت النعمة إلى الله، وذكَرْتَ أنّ فلاناً إنّما هو سببٌ فقط، لأنّ (ثُمَّ) للترتيب والتعقيب. ٤

كقول القائل: لولا الطيار لذهبنا في هلكة، لولا السائق كان ماهراً لذهبنا في كذا وكذا، أو يقول: لولا أن الشيخ كان معلِّماً وأفهمنا المسألة لما فهمناها أبداً، أو يقول: لولا المدير الفلاني لفُصِلْتُ، ونحو ذلك من الألفاظ التي فيها تعليق حصول الأمر بهذه الواسطة، والأمر إنما حصل بقضاء الله وبقدره وبفضل الله وبنعمته من حصول النعم أو اندفاع المكروه والنقم.

ولهذا الواجب على العبد أن يوحد فيقول: لو لا الله ثم فلان. فيجعل مرتبة فلان ثانية ولا يجعل مرتبة فلان هي الأولى أو الوحيدة؛ لأن الله جل وعلا هو المسدي بالنعم المتفضل بها.

"لولا فلان لم يكن كذا" هنا قال "فلان" من جهة كثرة الاستعمال، أما في الواقع فقد يأتي "لولا" في استعمالها بالناس أو يتعلق بالجمادات -بيت أو نحو ذلك بسيارة أو طيارة من جهة صناعتها-، أو التعلق ببقاع، أو التعلق بشيء من خلق الله؛ مطر، ماء، سحاب، هواء، ونحو ذلك، فنسبة النعمة إلى إنسان أو إلى بقعة أو إلى فعل فاعل أو إلى صنعة أو إلى مخلوق

---

[1] البخاري: كتاب الحج/ باب توريث دور مكة وبيعها، ومسلم: كتاب الحج/ باب النزول بمكة للحجاج.

كل ذلك من نسبة النعم إلى غير الله، وهو نوع من أنواع الشرك في اللفظ، وهو من الشرك الأصغر بالله جل وعلا، كما سيأتي في الباب بعده إن شاء الله. ٣

قال ابن القيم –ما معناه–: "هذا يتضمن قطع إضافة النعمة عمن لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلًا عن غيره، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب، أجرى الله نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد، وجعله سبباً هو من نعم الله عليه. فهو المنعم بتلك النعمة، وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه، وهو تعالى كما أنه قد ينعم بذلك السبب، فقد ينعم بدونه ولا يكون له أثر، وقد يسلبه سَبَبِيَّتَهُ، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه، فهو وحده المنعم على الحقيقة"[١]. ١

وهذا القول من قائله فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقاً مطابقاً للواقع، فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب، فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سبباً خفياً لا تأثير له إطلاقاً، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا، فهذا شرك أكبر لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفاً في الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سري خفي.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعاً أو حساً، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسي المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً لا شرعاً ولا حساً، فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التوله، والقلائد التي يقال أنها تمنع العين، وما أشبه ذلك، لأنه أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً، فكان مشاركاً لله في إثبات الأسباب.

---

[١] شفاء العليل (ص/٣٧)

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: "لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار"[١]، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيداً لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه، لكنه شرعي حقيقي، فإنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضاح من النار، عليه نعلان يغلي منهما دماغه لا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، لأنه لو يرى أن أحداً أشد منه عذاباً أو مثله هان عليه بالتسلى، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي علي إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم رحمه الله –وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به– قال في القصيدة اليمية يمدح الصحابة:

أولئك أتباع النبي وحزبه ولولا هموا ما كان في الأرض مسلم

ولولا هموا كادت تميد بأهلها ولكن رواسيها وأوتادها هم

ولولا هموا كانت ظلاماً بأهلها ولكن هموا فيها بدور وأنجم

فأضاف (لولا) إلى سبب صحيح. ٥

[س/ كيف نخرّج قول النبي ﷺ **((لولا أنا لكان عمي في الدرك الأسفل من النار))؟**

ج/ قول القائل: لولا فلان لكان كذا. مُنع منه وصار شركاً لفظياً ونوع تشريك؛ لأنه نسبة للنعمة لغير الله جل وعلا، يقول: لولا فلان لأصابني كذا، ولولا فلان أنه كان جيداً معي لكان حصل لي كذا وكذا، أو لو لا السيارة أنها قوية لكان هلكت، أو لو لا كذا لكان كذا. مما فيه تعليق دفع النقم أو حصول النعم لأحد من المخلوقين.

---

[١] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قصة أبي طالب ومسلم: كتاب الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب.

والواجب على العباد أن ينسبوا النعم إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي يسدي النعم، قال جل وعلا في سورة النعم ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إذا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإليه تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] وقال جل وعلا أيضاً في السورة نفسها ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]، فالواجب على العبد المسلم أن ينسب النعم إسداءً وتفضيلا وإنعاما لله جل وعلا، وأن يتعلق قلبه بالذي جعل تلك النعم تصل إليه، والناس أو الخلق و الأسباب إنما هي فضل من الله جل وعلا جعلها أسباباً، ففلان من الناس جعله الله سبباً لكي يصل إليك النفع عن طريقه، أما النافع في الحقيقة فهو الله جل وعلا، إذا اندفعت عنك نعمة فالذي دفعها هو الله جل وعلا بواسطة سبب ذلك المخلوق -إما آدمي وإما غير آدمي-، فيجب نسبة النعم إلى الله جل وعلا، فلا تنسب نعمة لغيره سبحانه، ومن نسبها لغيره سبحانه فهو داخل في قول الله جل وعلا ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

وأما الحديث الذي في الصحيح من أن النبي ﷺ سئل: هل نفعت عمك أبا طالب بشيء؟ قال((هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان من في الدرك الأسفل من النار))، قوله عليه الصلاة والسلام ((لولا أنا)) هذا فيه ذكر لعمله عليه الصلاة والسلام، وافترق عن قول القائل لولا فلان لحصل كذا من جهتين:

الجهة الأولى: أن ذلك القائل هو الذي حصلت له النعمة أو اندفعت عنه النقمة، والنبي ﷺ هنا يخبر عن صنيعه بعمه وأنّ عمه اندفعت عنه النقمة، فذاك في المتحدث الذي تعلق قلبه بالذي نفعه أو دفع عنه الضر، وأما قول النبي ﷺ فهو إخبار عن نفعه لغيره، فليس فيه تعلق للقلب في اندفاع النقمة أو حصول النعمة بغير الله جل وعلا، هذا وجه.

فيكون إذن معنى ذلك أن الوجه الذي نهى عنه للعلة التي من أجلها نهى عن قول (لولا أنا)، أن يكون فيها نسبة النعمة إلى غير الله من جهة تعلق القلب بذلك الذي حصّل له النعمة، وهذا غير وارد في قول النبي عليه الصلاة والسلام ((لولا أنا لكان من الدرك الأسفل من النار)) لأنه عليه الصلاة والسلام ليس هو الذي حصلت له النعمة إنما هو مخبر عن فعله لعمه.

الوجه الثاني في ذلك: أن النبي عليه الصلاة والسلام قد بيَّن أن نفعه لعمه من جهة الشفاعة، فهو يشفع لعمه حتى يكون في ضحضاح من النار، فقوله ((لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)) يعني لولا شفاعتي. ومعلوم بنصوص الشرع أنه عليه الصلاة والسلام يُكرم بالشفاعة ويعطي الشفاعة، فهو سائل وهو سبب من الأسباب، والمتفضل حقيقة هو الله جل وعلا، فكأنه قال عليه الصلاة والسلام بضميمة علمنا أنه يشفع لعمه كأنه قال: لولا أن الله شفعني فيه لكان في الدرك الأسفل من النار.

فليس فيه بالوجهين جميعاً تعليق للقلب بغير الله جل وعلا في حصول النعم أو اندفاع النقم، ممّا يكون في قول القائل: لولا فلان لحصل كذا أو لولا السيارة لحصل كذا أو لولا الطيار لحصل كذا أو لولا البيت كان مُحَصّناً لحصل كذا، ونحو ذلك مما فيه تعلق قلب من حصلت له النعمة بالمخلوقين. ٣

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

قوله: "وقال ابنُ قُتَيْبَة" ابن قُتيبة هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدِّيْنَوَرِي، إمامٌ في النحو، واللّغة، والتّفسير، وله كتبٌ مشهورة، منها: "كتاب التفسير"، وكتاب "المعارِف."

"يقولون: هذا بشفاعة آلِهَتَنا "يعني: يقول المشركون: هذا الذي حصل من الخير ومن النّفع إنما هو بشفاعة آلهتنا. يعني: أنّ آلهتهم شفعتْ عند الله في حصولها، لأنّ المشركين الذين يعبُدون غير الله لا يعتقدون أن معبوداتهم هي التي تخلُق وترزُق، وإنما يعبدونها لاعتقاد أنّها تشفَع لهم عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، وقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، فهم يعتقدون أنّ هذه المعبودات تشفع لهم عند الله، وهذا كذِب، لأنّ الله بيّن الشفاعة الصحيحة، وهي ما توفّر فيها شرْطان: إذْنُ الله للشّافع أن يشفع، ورضاهُ عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التّوحيد.

والمشركون يتقرّبون بأنواع القربات إلى هذه الأوثان، ويذبحون لها، وينذُرون لها، ويطوفون بها، ويقولون: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، مثل حالة عُبّاد القبور اليوم، يذبحون للقُبور، وينذُرون للقبور، ويهتِفون بها، ويستغيثون بها، ويستصرخون بها، ويقولون: نحن لا نعتقد أنها تخلُق وترزُق، إنما هي شفعاء عند الله. وكذَبوا في ذلك، فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يرضى بهذا ولم يكن هؤلاء شفعاء عنده سبحانه وتعالى.

ومن ذلك قولهم: هذا بشفاعة آلِهَتِنا. يقولون: إنّ هذه النعم إنما هي بسبب آلهتنا وبشفاعتها عند الله، كما يقول القبوريّ: هذا بسبب الوليّ فلان، بسبب عبد القادر، بسبب العَيْدَرُوس، بسبب البَدَويّ، وهذا يدخُل في قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] بمعنى: أنهم ينسِبون نعمة الله إلى هذه المعبودات من دون الله عزّ وجلّ. فهذه طريقة المشركين قديماً وحديثاً.٤

"هذا بشفاعة آلهتنا" يعني إذا حصلت لهم نعمة؛ جاءتهم أمطار، جاءهم المال، نجحوا في تجارتهم، إذا حصل لهم ذلك تذكروا أنهم توجهوا للأولياء، أو توجهوا للأنبياء، أو توجهوا للأصنام أو للأوثان، تذكروا أنهم قد توجهوا إليهم فصرفوا لهم شيئاً من العبادة، فقالوا: الآلهة شفعت فلذلك جاءنا هذا الخير، فيتذكرون آلهتهم وينسوْن أن المتفضل بذلك هو الله جل وعلا وأن الله سبحانه لا يقبل شفاعة شركية من تلك الشفاعات التي يذكرونها. ٣

هؤلاء أخبث ممن سبقهم، لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذا النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلاً شفعت عند الله أن ينزل المطر، فهؤلاء أثبتوا سبباً من أبطل الأسباب لأن الله —عز وجل— لا يقبل شفاعة آلهتهم، لأن الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً، والله —عز وجل— لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:

١- الشرك بهذه الأصنام

٢- إثبات سبب غير صحيح ٥

قال ابن القيم: "هذا يتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها"، فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها.

وأقرب الخلق إلى الله، وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له، إذ ليس كل أحد أهلا أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟! قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فالعبد لا خروج له عن نعمة الله وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذم سبحانه من آتاه شيئاً من نعمه فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨][١]. ١

وقال أبو العباس – بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: ((إن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...)) الحديث، وقد تقدم: "وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به."

قوله: "قال أبو العبّاس" أبو العبّاس كنية شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة.

"بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: أنّ الله سبحانه وتعالى قال: ((أصبَحَ مِنْ عبادي مؤمنٌ بي وكافر فأمّا مَنْ قال: مُطِرْنا بفضل الله وبرحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب. وأما مَن قال: مُطِرْنا بنوءِ كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)).

ثم قال أبو العبّاس رحمه الله: "يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به" فكل من أضاف نعم الله إلى غيره فقد كفر نعمة الله، وأشرك به.

وهذا الشرك وكفر النعمة ليس من الكفر والشرك المخرِج من الملّة، إذا كان الإنسان يعتقد أنّ إضافة النعمة إلى الشيء من إضافة المسبّب إلى سببه، وإنّما المنعم هو الله، وأضافها إلى السبب مجرّد مجاز، فهذا كفرٌ أصغر.

---

[١] شفاء العليل (ص/٣٧)

أما إذا اعتقد أنّ النعم من إحداث المخلوق ومن صُنع المخلوق، فإنّ هذا كفرٌ أكبر يُخرِجُ من الملّة.
فالواجب أن تُضاف النعم إلى الله سبحانه وتعالى.
فكلّ مَن أضاف النعمة إلى غير الله، فإنّ هذا كفرٌ بالله، إما أنْ يكون كفراً أكبر، وإما أن يكون كفراً أصغر، بحسَب ما يقوم باعتقاد الشّخص وقَرارة نفسه، فليحاسِب الإنسان نفسه عند ذلك.

ومن ذلك: ما يجري على ألسنة بعض الصحفييّن وكثير من الإعلاميّين الذين ينسِبون الأشياء إلى أسبابها، فيقولون: "المطر ناتج عن انخفاض جويّ، أو عن المناخ" وما أَشبه ذلك. فالذي يُضيف المطر إلى وقته أو إلى الكوكب أو إلى النّوء، فهو من هذا الباب، كما في حديث زيد بن خالد: "أصبَحَ مِن عبادي مؤمنٌ بي وكافر" نعم: المناخ أو الانخفاض الجويّ سبب، لكن الذي ينزِّل المطر ويكوِّن المطر هو الله سبحانه وتعالى، ليس لهذه الأسباب تدخُّلٌ في إيجاد المطر أو إحداث المطر.

وقد حصل -ويحصُل- أنّ هناك مناخات كانت تهطُل فيها الأمطار بكثرة، ولكن يأتي وقتٌ من الأوقات تُقْفِر هذه المناخات وتُجْدِب، فكثير من القارّات وإنْ كانت معروفة بكثرة المطر وتواصُل المطر عليها يحصُل فيها الجدْب، كما يقولون عنه: الجفاف، في أمريكا وفي أوروبّا وفي أفريقيا حصل جفافٌ كثير، وهلكت خلائق كثيرة من الأموال ومن الأنفُس، وما نفعهم المناخ، هذا بيد الله سبحانه وتعالى، وفي تقدير الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: "وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره..." وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذموماً، لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد، كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق، لما يأتي:

١- أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

٢- أن السبب قد لا يؤثر، كما ثبت في "صحيح مسلم" أنه ﷺ قال: ((ليس السنة أن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئاً))[١].

٣- أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف بطلان إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا. ٥

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا. ٢

وذلك من أنواع الشرك في الربوبية كما لا يخفى. ٧

قال بعض السلف: "هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير."

قال المصنف: "قال بعضُ السَّلف" المراد بالسَّلَف: القُرون المفضَّلة، وصَدْر هذه الأمة، وهم محلّ القُدوة، لقُرْب عهدهم من النّبي ﷺ ومن صحابته الكِرام.

وأمّا مَن جاء بعدهم فيُقال لهم: الخَلَف، فمن كان من الخَلَف يسير على منهج السلَف فهو لاحقٌ بهم، ومن تخلَّف عن منهج السَّلَف فإنّه هالك، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمان وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قوله: "هو كقولهم: كانت الريح طيِّبة، والملاّحُ حاذقً" يعني: أن من إنكارهم لنعمة الله أنهم إذا ساروا في البحر في السُّفُن التي كانت تسير بالرِّيح إذا نجوا من البحر وخرجوا إلى البر يُثنون على الرِّيح وعلى الملاّح، ولا يقولون: هذا بفضل الله، بل يقولون :كانت الريح التي حملت السفينة طيّبة.

---

[١] مسلم: كتاب الفتن/ باب في سكني المدينة.

"وكان الملاّح حاذِقاً "الملاّح هو: قائد السفينة، سمّى ملاّحاً لملازمته للماء المِلْح، لأنّ مياه البحار مالحة، فالذي يقود السفينة يقال له: ملاّح، لأنّه يسير على الماء المِلْح والحاذق: الذي يجيد المهنة. ٤

والمعنى أنَّ السفن إذا جَرَيْنَ بريح طيبة بأمر الله جرياً حسناً؛ نسبوا ذلك إلى طِيْبِ الريح، وحذق الملاح في سياسة السفينة، ونسوا ربهم الذي أجرى لهم الفلك في البحر رحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾ [الإسراء:٦٦] فيكون نسبة ذلك إلى طيب الريح وحذق الملاح من جنس نسبة المطر إلى الأنواء. وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره وإنما أراد أنه سبب. لكن لا ينبغي أن يضيف ذلك إلا إلى الله وحده، لأن غاية الأمر في ذلك أن يكون الريح والملاح سبباً، أو جزء سبب. ولو شاء الرب تبارك وتعالى لسلبه سببيته، فلم يكن سبباً أصلاً.

فلا يليق بالمنعم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسى من بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، ويضيف النعم إلى غيره، بل يذكرها مضافة منسوبة إلى موليها والمنعم بها، وهو المنعم على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فهو المنعم بجميع النعم في الدنيا والآخرة وحده لا شريك له، فإن ذلك من شكرها، وضده من إنكارها. ١

وكان الواجب عليهم أن يقولوا: أنّ الله هو الذي نجّانا، وهو الذي سخّر لنا الرّيح الطيِّبة، وهو الذي أقدر قائد السّفينة وألهمه أن يقودها إلى برّ السلامة. أما أن يقولوا: إنّ نجاتنا وخُروجنا إلى البر بسبب طيب الريح وحِذْق القائد، فهذا كفرٌ بنعمة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: "ونحو ذلك ممّا يجري على ألسنة كثير" يعني: نحو هذه الألفاظ ممّا يجري على ألسنة كثيرٍ من النّاس من نِسْبة النِّعَم إلى غير الله سبحانه وتعالى، إمّا من باب التساهُل في التعبير، وإمّا من باب سوء الاعتقاد، فإنْ كان من سوء الاعتقاد فهو كفرٌ يخرج من الملّة، وإنْ كان من باب الإساءة في التعبير مع الاعتقاد بأنّ الله هو الذي أوجد هذا الشيء: فهذا كفرٌ أصغر، يسمّى بكفر النّعمة.

فهذا الباب باب جليل لأنّه يعالِج مشكلة يقع فيها كثيرٌ من النّاس ولا يحسِبون لها حساباً، ويتكلّمون بكلام يظنّونه هيّناً وهو عند الله عظيم: حيث إنّهم ينسبون نعم الله تعالى إلى غيره، ولا يشكرون الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال: "ونحو ذلك ممّا يجري على ألسنة كثير" فهذا تنبيهٌ لنا أن لا نقع في هذه المزالِق، حتى إنّ ابن عبّاس ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] قال: "هو قول الرّجل": لولا الله وفلان"، "ما شاء الله وشئت"، "لولا كُلَيْبَةُ هذا لأتانا اللُّصوص"، "لولا البّط في الدّار لأتانا اللّصوص"، وما أشبه ذلك من الألفاظ وعد هذا من اتّخاذ الأنداد لله تعالى.

فهذه مسائل هي في عُرْف النّاس سهلة، ولكنّها خطيرة جدًّا، لأنها كفرٌ بنعمة الله سبحانه وتعالى وإساءةُ أدبٍ مع جَناب الرّبوبيّة. ٤

وهذا باب ينبغي الاهتمام به وتنبيه الناس عليه؛ لأن نعم الله علينا في هذه البلاد؛ بل نعم الله على أهل الإيمان في كل مكان كثيرة لا حصر لها، ولهذا الواجب أن تنسب النعم إلى الله جل وعلا وأن يُذكر بها وأن يُشكر؛ لأن من درجاته شكر النعمة أن تضاف إلى من أسداً ها هذه أول الدرجات ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]. أول درجات التحديث بالنعمة أن تقول هذا من فضل الله هذه نعمة الله، فإذا التفت القلب إلى مخلوقه فإنه يكون قد أدرك هذا النوع من الشرك المنافي لكمال التوحيد. ٣

ولا ينافي ذلك الدعاء والإحسان إلى من كان سبباً أو جزء سبب في بعض ما يصل إليك من النعم من الخلق. ١

والمقصود من هذا أن الإنسان لا يكل الرزق أو العافية أو الصحة أو ما حصل له من الخير إلى الأسباب، ينسى المنعم، بل يشكر الله، ولا بأس أن يذكر الأسباب، لكن يشكر الله ويقول إنه سبحانه أنعم علينا، يسر لنا كذا، جعل الله الريح طيبة، جعل الله الملاح –من تيسير الله– أنه كان جيدًا وفاهمًا، وهكذا في سائر أحواله، كانت التجارة بحمد لله مربحة ربحنا كذا، الزراعة سلمت بحمد الله، المساقاة سليمة بحمد الله، لا ينسى فضل الله، لا ينسبها إلى أسبابه وآبائه وينسى المنعم جل وعلا، كل شيء منه بفضله كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] فالواجب شكر الله وعدم نسيانه، ولا مانع من ذكر الأسباب. ٦

فيُستفاد من هذه الآية بتفاسير السلف التي ذكرها الإمام رحمه الله مسائل:
المسألة الأولى: أنّ إضافة النعم إلى الله سبحانه وتعالى من الإيمان بالله.
المسألة الثانية: أنّ إضافة النعم إلى غير الله من الكفر بالله سبحانه وتعالى.
المسألة الثالثة: في الآية وأقوال السلف: دليلٌ على عدم جواز نِسبة الأشياء إلى أسبابها، وأنّ ذلك من كفر النعمة، لأنّه معلومٌ أنّ الريح الطيّبة سببٌ لجريَان السفينة، وأنّ حِذْق الملاّح سبب لجريَان السفينة، ولكن إذا أضاف النتيجة الطيّبة إلى هذين السّببين صار ذلك من الكفر بنعمة الله.
المسألة الرّابعة: كما قال الشيخ رحمه الله في مسائل الباب: "فيه: اجتماعُ الضّدين في القلب؛ الكفر والإيمان" أخذاً من قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾، ففيها: اجتماع الإقرار والإنكار، والكفر والإيمان في القلب، فأيّهما غلب على صاحبه صار من أصحابه.
المسألة الخامسة: أنّ كفر النعمة يكثُر وُقوعه في النّاس، ولهذا قال: "مما يجري على ألسنة كثير"، فهذا ممّا يوجِب الحذر منه، وأن الإنسان لا يجري على العوائد المخالفة للشرع. ٤

فيه مسائل:
الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.
الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير.
الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.
الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

فيه مسائل:
الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. وسبق ذلك. ٥

الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير. وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، وما أشبه ذلك. ٥

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة. يعني: إنكاراً لتفضل الله تعالى بها وليس إنكاراً لوجودها، لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها. ٥

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب. وهذا من قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]، فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾)

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة:٢٢])

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: "الْأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ؛ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يا فُلَانُ وَحَيَاتِي، وَتَقُولُ: لَوْلَا كُلَيبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانُ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَاناً هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ" رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَعَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ ط: أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ. وقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "لَأَنْ أَحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً".وَعَنْ حُذَيْفَةَ ط، عَنِ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: ((لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانُ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانُ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخْعِيّ، أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانُ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانُ.

هذا (باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢])، فيه بيان أن هناك ألفاظاً فيها التنديد، والتنديد معناه أن تجعل غير الله نداً له، فيكون التنديد في نسبة النعم إلى غير الله، ويكون التنديد في الحلف بغير الله، ويكون التنديد في قول ما شاء الله وشاء فلان، وغير ذلك من الألفاظ.

فهذا الباب فيه بيان أن التنديد يكون في الألفاظ، والتنديد هنا المراد به التنديد الأصغر الذي هو شرك أصغر في الألفاظ، وليس التنديد الذي هو الشرك الأكبر، وقوله جل وعلا ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا عام يشمل اتخاذ الأنداد في بالشرك الأكبر ويشمل أيضاً اتخاذ الأنداد بأنواع الإشراك التي دون في الشرك الأكبر؛ لأن قوله: ﴿أَندَادًا﴾ هذا يعم جميع أنواع التنديد، والتنديد منه ما هو مخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة.

ولهذا ساق عن ابن عباس أنه قال "الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل" فجعل مما يدخل في هذه الآية الشرك الخفي أو شرك الألفاظ التي تخفى على كثير من الناس. ٣

هذه الآية نزلت في الشرك الأكبر، والسلف يفسرون الشرك الأكبر بالشرك الأصغر أيضاً لأن النص يعم الأمرين، الآيات التي نزلت في الشرك الأكبر تعم ما ورد في الشرك الأصغر، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] قال: هو الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء في الصخرة السوداء في ظلمة الليل، يعني أن كثيرًا من الناس يقع فيه ولا يشعر ولا ينتبه. ٦

فإن قلت: الآية نزلت في الأكبر.

قيل: السلف يحتجون بما نزل في الأكبر على الأصغر، كما فسرها ابن عباس وغيره فيما ذكره المصنف عنه بأنواع من الشرك الأصغر، وفسرها أيضاً بالشرك الأكبر، وفسرها غيره بشرك الطاعة، وذلك لأن الكل شرك. ١

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة من أن حقيقة التوحيد ألا يكون في القلب إلا الله جل وعلا وألاّ يتلفظ بشيء فيه جعلوا غير الله جل وعلا شريكاً له، أو نداً له كمن حلف بغير الله، أو كمن قال ما شاء الله وشاء فلان أو لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ونحو هذه الألفاظ.٣

أعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد، كمن يجري على لسانه ألفاظ من أنواع الشرك الأصغر لا يقصدها. ١

الشرك الأصغر أو الشرك الخفي وهو الذي ركز عليه المصنف في هذا الباب، وهو في الحقيقة ليس صغيراً بل إن صاحبه على خطر عظيم، وإنما سمي بذلك بالنسبة إلى ما هو أكبر منه وهو الشرك الأكبر، ولذلك جعلوا ضابط الشرك الأصغر هو ما كان وسيلة وطريقاً للشرك الأكبر، وهذا الباب فيما يتعلق بالشرك الأصغر في الأقوال، وقد أورد المصنف جملة منها للحذر من الوقوع فيها، وليس لهذا النوع كفارة إلا التوبة وأن يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير، كما ورد في الحديث. ٩

قال الشيخ رحمه الله: "باب قول الله تعالى" أي: ما جاء في تفسير هذه الآية من أقوال الصّحابة. والتّفسير إنّما يُعرف من كلام الله، فكلام الله يفسِّر بعضه بعضاً، أو يُعرف من كلام الرّسول ﷺ أو من كلام أصحابه، أو من كلام التّابعين الذين هم تلاميذ الصّحابة، هذه مصادر التّفسير، لا يفسّر القرآن بالرأي أو بكلام المتأخّرين الذين لم يأخذوا عن الرسول ﷺ ولم يأخذوا عن أصحابه الذين أخذوا عنه، لأنّ الله أنزل القرآن ووَكَل بيانَه إلى الرّسول ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهمْ﴾ [النحل:٤٤] من ربهم.

فالمصدر في تفسير القرآن –كما ذكر العلماء– خمسة أشياء:

المصدر الأوّل: تفسير القرآن بالقرآن، لأن القرآن يفسِّرُ بعضهُ بعضاً.

المصدر الثّاني: تفسير القرآن بكلام الرّسول ﷺ، لأنّه هو المبيِّن.

المصدر الثّالث: تفسير القرآن بتفسير الصّحابة، لأنّهم تلاميذ الرّسول ﷺ.

المصدر الرّابع: عند بعض العلماء تفسير القرآن بأقوال التّابعين، لأنّهم أخذوا عن الصّحابة، وهم أدرى بمعاني القرآن الكريم من غيرهم.

المصدر الخامس: تفسيره بمقتضى اللغة العربية لأنه نزل بها.

فلهذا تجدون المصنف في هذا الباب وفي غيره يسوق في تفسير الآيات كلام الصّحابة أو كلام التّابعين، لأنها من مصادر التفسير. قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا آخرُ آيةٍ من سورة البقرة، وأولها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال العلماء: هذا أوّلُ نداءٍ في المصحف الشريف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾. لأنّ الله سبحانه وتعالى ذكر في مطلَع هذه السّورة انقسامَ النّاس أمامَ القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آمنوا بالقرآن ظاهراً وباطناً، وهم المتّقون المذكورون في قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢-٥].

القسم الثاني: الذين كفروا بالقرآن ظاهراً وباطناً، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة:٦-٧].

الصّنف الثّالث: الذين آمنوا بالقرآن ظاهراً وكفروا به باطناً وهم المنافقون، وهم شرٌّ من الكُفّار الذين كفروا بالقرآن ظاهراً وباطِناً، ولهذا أنزل الله فيهم بِضعَ عشر آية، بينما ذكر في الكفّار آيتين، لأنّهم أخطر من الكُفّار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [البقرة:٨-١٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ

لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، هذه الآيات كلّها في المنافقين، وهم الصّنف الثّالث.

ثم قال بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١] نادى النّاس جميعاً، المؤمن والكافر، والعربي والعجمي، ناداهم جميعاً وأمرهم بعبادته. وهذا دليل على عموم رسالة محمد ﷺ، وأنه بعث إلى النّاس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جميعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١)﴾ [الفرقان:١]، ووصف القرآن بأنه هدىً للنّاس وأنّه هدًى للعالَمين، فرسالتُه ﷺ عامّة لجميع الثّقَلين.

وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

ومعنى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وحّدوا ربّكم، وأفردوه بالعبادة، لأنّ العرب في وقت نُزول القرآن كثيرٌ منهم يعبُدون الله، ولكنّهم يعبُدون معه غيرَه، فإذا كانت العبادة غير خالِصة لله فإنّها تكون عبادة باطلة، ولهذا أمرهم أن يُفردوه بالعبادة، ويُخلِصوا له العبادة.

ثم ذكر الدليل على وُجوب عبادة الله تعالى فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ لأنّ العبادة لا تصلُح إلا للخالِق سبحانه وتعالى، فالذي لا يخلُق لا يصحّ أن يُعبَد، وهذا فيه: إبطال عبادة الأصنام، وعبادة الموتى، وعبادة الأولياء والصّالحين، وعبادة الأشجار والأحجار، لأنّها لا تقدر على الخلْق، وما لا يقدر على الخلق لا يصحّ أن يُعبَد، ولهذا قال في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]، الخالق وهو الذي يستحق العبادة، وهم لا يجحدون هذا، بل يُقرّون بأن الله هو الذي خلق: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا ذكرتم بأنّه هو الخالق لكم ولمن قبلكم، لعلّ تذكُّركم لذلك يبعثكم على تقوى الله سبحانه وتعالى، فتعبدونه وتتقون عذابه، لأنّه لا يقي من عذاب الله إلاّ عبادة الله

سبحانه وتعالى، فهو الذي خلقكم، وخلق لكم المصالح التي تستعينون بها على عبادته سبحانه وتعالى، خلقكم وخلق لكم هذه الأشياء، لستم أنتم خلقتم لأنفسكم شيئاً ، لستم الذين أنبتم الزرع، ولستم الذين أنزلتم المطر، ولستم الذين خلقتم الأرض وجعلتموها صالحة للنبات والإنبات، ولستم الذين خلقتم السماء وجعلتموها سقفاً للعالم، وفيها مصالحُ العباد.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ [البقرة:٢٢] تجلسون عليها، وتنامون عليها، وتعيشون على ظهرها، وتدفنون في بطنها إذا متم، وتبعثون منها: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)﴾ [طه:٥٥]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (٦)﴾ [النبأ:٦].

ثم هذه الأرض الواسعة أثبتها الله وأرساها بالجبال الرواسي من أجل أن لا تميد بالنّاس وتضطرب.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢] يعني: سقفاً، لأنّ السماء فوق الأرض، وجعل الله فيها الكواكِب والشمس والقمر التي بها مصالح العباد، وحفظها من الشياطين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ [الأنبياء:٣٢].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر، والسماء هو السّحاب، لأنّ السماء على قسمين: السماء بمعنى: العلوّ والارتفاع، فكلّ ما علا وارتفع يقال له: سماء، والثّاني: السموات المبنيّة، وهي: الطِّبَاق السبع.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ بهذا المطر.

﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢] هذا المطر ماءٌ واحد ومع هذا يُخرج الله به ثمرات مختلِفة ومتنوّعة، والتُّربة واحدة، ومع هذا يُخرِجُ في هذه التُّربة ومن هذا الماء أصنافاً من الثمرات مختلفة الطُّعوم، ومختلفة الألوان، مختلفة الرّوائح، مَن الذي نظّمها هذا التنظيم؟، هو الله سبحانه وتعالى.

﴿رِزْقاً لَكُمْ﴾ تأكُلون منه قوتاً وتتفكّهون به فواكه متنوّعة، من الذي أوجد هذه الأشياء؟، بل إنّ الجنس الواحد تحته أنواعٌ لا يعلم حصرها إلاّ الله سبحانه. ٤

لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له، لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولا ينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسببية، أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أنداداً. ٥

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ [البقرة:٢٢] هذا نهيٌ من الله سبحانه وتعالى عن الشرك بعد الأمر بالتوحيد. ٤

و﴿لا﴾ هذه ناهية. ٥

والأنداد: جمعُ نِدّ، والمراد به: المثيل، والشّبيه، والنّظير. ٤

والمراد هنا: أنداداً في العبادة. ٥

أي: فلا تجعلوا له أنداداً في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أنداداً في الربوبية، وأيضاً لا تجعلوا له أنداداً في أسمائه وصفاته، لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله –عز وجل-، كاشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة. ٥

أي: فلا تجعلوا لله نُظراء وأمثالاً تشبِّهونهم به، وتُشركونهم معه في العبادة، وهم خلْقٌ مثلُكم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً. ٤

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا نِدّ له سبحانه وتعالى، وتعلمون أنّ أحداً لم يشارك الله في خلقه وفي تدبيره. ٤

قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والمعنى: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له –يعني في الربوبية-، لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أنداداً وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية، فيجعلون له أنداداً، قالوا للنبي ﷺ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ويقولون في تلبيتهم: "لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك"، وهذا من

سفههم، فإنه إذا صار مملوكاً، فكيف يكون شريكاً، ولهذا أنكر الله عليهم في قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، إذ الأنداد بالمعنى العام -بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواماً يقرون بالربوبية- يشمل الأنداد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. ٥

أقام سبحانه وتعالى الدليل في هاتين الآيتين بعدّة أُمور: خلقُه لهم، وجعله الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وإنزال المطر، وإخراج الثمرات، كلّها أدلّة عقليّة واضحة هم يعترفون بها، فهذا من إلزامهم بالحُجّة، على التوحيد. وإبطال الشّرك الذي هم عليه، وبيان أنّه لا بُرهان له ولا دليل عليه، وإنما الدليل والبُرهان على وُجوب عبادة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)﴾ [المؤمنون:١١٧]، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [القصص: ٧٥] لا بُرهان لهم على الشّرك أبداً، وإنما البراهين القاطعة هي على توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة.

ودلَّ ذلك على أن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي، فالذين يقولون: بأنّ التوحيد هو الإقرار بأنّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت.

هؤلاء مخطئون، لم يعرفوا التّوحيد، لأنّ هذا لو كان توحيداً كافياً لكان المشركون موحِّدين، لأنّ الله أخبر بأنهم يعلمون أنّ الله هو الخالق الرّازق الذي ينزّل المطر والذي فعل هذه الأفعال، يعلمون هذا ولم يكونوا موحِّدين، بل أمرهم بعبادته فقال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، فدلّ على أن علمهم بهذه الأشياء لا يكفي حتى يُفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة، إذاً: فالتوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وليس التوحيد هو الإقرار بتوحيد الرّبوبيّة كما يقوله علماء الكَلام الذين لم يفهموا التّوحيد، بل جعلوا كلّ همّهم ومناظَراتهم واستدلالهم على توحيد الرّبوبية، وهذا تحصيل حاصل، وموجود عند أبي لَهب وأبي جهل وغيرهما، فهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت. ٤

قال ابن عباس في الآية:"الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل؛ وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك" رواه ابن أبي حاتم.[1]

هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم كما قال المصنف وسنده جيد. ١

الأول ظاهر وهو تبع للباب قبله؛ يعني كلام ابن عباس على الآية. ٣

قوله: "وقال ابن عباس في الآية". أي: في تفسيرها.

قوله: "هو الشرك". هذا تفسير بالمراد، لأن التفسير تفسيران.

١- تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرداتها.

٢- تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات، فعندنا الآن وجهان للتفسير:

أحدهما: التفسير اللفظي وهو تفسير الكلمات، هذا يقال فيه: معناه كذا وكذا.

والثاني: التفسير بالمراد، فيقال، المراد بكذا وكذا، والأخير هنا هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشياه والنظراء، فهو تفسير بالمعنى وإذا قلنا الأنداد الشركاًء أو الشرك فهو تفسير بالمراد، يقول ﷺ: "الأنداد هو الشرك" فإذاً الند الشريك المشارك لله
-سبحانه وتعالى- فيما يختص به. ٥

الشرك منه نوعٌ جليٌّ واضحٌ كالذبح لغير الله، والنّذر لغير الله، ودُعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، هذا شرك واضحٌ جلي، لأنّه يُرى ويُسمَع.

وهُناك شركٌ خفي، وهو نوعان:

النوع الأول: شركٌ في المقاصد والنيّات، وهذا خفيّ لأنّه في القُلوب، والقُلوب لا يعلم ما فيها إلاَّ سبحانه وتعالى، كالذي يصلِّي، لكن يصلّي رياءً وسُمعة، وهذا لا يعلمُه إلاّ الله.

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦٢/١رقم٢٢٩) وإسناده جيد.[1]

والنوع الثاني: شركٌ خفيّ، لأنّه لا يعلمه كثيرٌ من النّاس، وهو الشرك في الألفاظ دون الاعتقاد، وهو المذكور هنا.

قال ابن عبّاس: "الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلُمة الليل" سُمّي خفياً: لأنه قَلَّ من يتنبّه له". ٤

وقوله: "دبيب". أي: أثر دبيب النمل – وليس فعل النمل.

وقوله: "على صفاة" هي الصخرة الملساء.

وقوله: "سوداء". وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء، لبان أثر السير أكثر.

وقوله: "في ظلمة الليل". وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء. ٥

أي: إن هذه الأمور من الشرك خفية في الناس، لا يكاد يتفطن لها، ولا يعرفها إلا القليل، وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل، فإنه خفي، فكيف إذا كان على صفاة؟ فكيف إذا كانت سوداء؟ فكيف إذا كانت في ظلمة الليل؟ وهذا يدل على شدة خفائه. ١

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا، فتسأل الله أن يعين على التخلص منه، ولهذا قال بعض السلف: "ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص". ويروى عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا، قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: ((قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم))[١]. ٥

ثم ضرب له أمثلة بكلمات يقولها بعض النّاس بألسنتهم.

"وهو أن يقول": والله وحياتِك يا فلان، وقوله: "والله وحياتك". فيها نوعان من الشرك.

الأول: الحلف بغير الله.

---

[١] الإمام أحمد في المسند (٤٠٣/٤).

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: والله! وحياتك! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة، فهو شرك أكبر، وإلا، فهو شرك أصغر. ٥

"وحياتي" فالحلف بغير الله من الشرك الذي يجري على ألسنة كثيرٍ من النّاس، ولا يعلمون أنه شرك، فكثيراً ما يقول بعضهم: والنبي، والأمانة، وحياتك. وقد قال النبي ﷺ: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)).

والحلف بغير الله شركٌ أصغر، إنْ كان لا يقصد تعظيم المحلوف به كما يعظِّم الله.

وإنْ كان يقصد تعظيم المحلوف به مثل ما يعظِّم الله فإن الحلف يكون شركاً أكبر.

والذين يحلفون بالقُبور والأضرحة، ويعظِّمونها كما يعظِّمون الله، هو من هذا النوع.

لأنّ كثيراً منهم يتساهل بالحلف بالله، ولا يتساهل بالحلف بالضريح أو الوليّ، إذا قيل له: احلف بالله؛ بادَر بالحلف، إذا قيل له: احلف بمعبودك وبمعظِّمك وبالوليّ الذي أنت تعظِّمه؛ ارتعد وأبى أن يحلِف، يخاف من البطش من هذا الولي، فهذا شرك أكبر بلا شك. ٤

وقوله: "لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص". كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: "لولا كليبة هذا" يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله عز وجل، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم، فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبي ﷺ قال: ((لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار))، لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب، وهو الله عز وجل.

وقوله: "لولا البط في الدار لأتى اللصوص". البط طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنها يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص. ٥

والواجب نسبة ذلك إلى الله تعالى، فهو الذي يحفظ عباده ويكلؤهم بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢)﴾ [الإنبياء:٤٢]. ١

ومن الشرك في الألفاظ قول الرّجل: ما شاء الله وشئت، لولا الله وفُلان. لأنه لا يجوز، الجمع بين الله وغيره بالواو، لأنّ الواو تقتضي التشريك. ٤

فيه شرك، لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي الله عز وجل في التدبير والمشيئة، فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: "لولا الله وفلان". ٥

فإذا اعتقد التسوية بين الخالق والمخلوق فقد أشرك بالله شركاً أكبر. ٩ بتصرف.

والصواب: ما أرشد إليه النبي ﷺ أن تقول: ما شاء الله، ثُمَّ شاء فلان. لأنّ "ثُمَّ "ليست للتشريك، وإنّما هي للترتيب، وجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير:٢٩]، فالعبد له مشيئة بلا شك، ولكنها تابعة لمشيئة الله سبحانه. ٤

وهكذا قول: لولا الله وفلان، هذا من الله ومن فلان. ٦

وفي هذه الألفاظ اعتماد على غير الله، والله سبحانه هو مسبب الأسباب. ٩

وقوله: "هذا كله به شرك". أي: بالله شرك، وأعاد الضمير على الله؛ لأنه قد تقدم ذكر اسمه عز وجل، فتبين أن هذه الأمور ونحوها من الألفاظ الشركية الخفية، كما نص عليه ابن عباس رضي الله عنهما.١

وقوله: "هذا كله به شرك" المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك. ٥

بين ابن عباس ﷺ أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك. فتنبه لهذه الأمور، فإنها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه؛ لكونه من أكبر الكبائر. وهذا من ابن عباس ﷺ تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.٢

"لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك" يعني لا تقل لولا الله وفلان، قل لولا الله لحصل كذا وكذا، هذا هو الأكمل، فالذي ينبغي في استعمال هذه الألفاظ أن تنسب إلى الله.

فظهر لنا هنا أنّ ثمة درجتين جائزة، وغير ذلك لا يجوز. وهاتان الدرجتان:

الأولى هي الكاملة، وهي أن يقول: لولا الله لما حصل كذا.

والجائز أن يقول: لولا الله ثم فلان لما حصل كذا، هذه جائزة وهي توحيد بجعله مرتبة فلان نازلة عن مرتبة نعمة الله جل وعلا أو إنعام الله؛ لكن هذا ليس هو الكمال، ولهذا قال ابن عباس هنا "لا تجعل فيها فلان".

لأن الكمال أن تقول: لو لا الله لأتانا اللصوص، لولا نعمة الله لما حصل كذا، لولا فضل الله لما حصل كذا هذه هي المرتبة الكاملة.

والجواز أن تقول لولا الله ثم فلان.

وأما الذي لا يجوز والذي قال فيه ابن عباس "كله به شرك" أن يقول: لولا الله وفلان. بالواو لأن الواو تفيد التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه دون تراخٍ في المرتبة، أما (ثُم) فتفيد التراخي في المرتبة أو التراخي في الزمن، هذا ما هو معلومٌ في هذا المبحث في حروف المعاني من النحو.

فلهذا صار قول القائل: لولا الله وفلان. شرك أو ما شاء الله وشاء فلان أن هذا شرك أصغر.

والواجب أن يقول: لولا الله. أو أن يقول: ما شاء الله وحده. كما سيأتي في بابٍ بعد ذلك.

فإذن تحصّل لنا أنّ الكمال أن ينسب ذلك إلى الله جل وعلا، وأنّ الجاهز أن يقول: لولا الله ثم فلان. ٣

هذا ما قاله ابن عبّاس في تفسير هذه الآية ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فالآية نهت عن اتّخاذ الأنداد، وهذا يشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

وابن عبّاس رضي الله عنهما مثّل بالشرك الأصغر لينبِّه به على ما هو أشدّ منه وهو الشرك الأكبر، فإذا كان الشرك الأصغر لا يجوز فكيف بالشرك الأكبر؟، والسّلف يستدلون بالآيات النّازلة في الشرك الأكبر على منع الشرك الأصغر، لأنّه نوعٌ من الشّرك، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ يشمل هذا وهذا.

يُستفاد من هاتين الآيتين مع قول ابن عبّاس رضي الله عنهما مسائل كثيرة:

المسألة الأولى: أن التّوحيد هو أعظمُ مأمورٍ به، لأن الله بدأ به في أوّل نداء في المصحف الشريف.

المسألة الثانية: في الآية دليلٌ على أنّ الإقرار بتوحيد الرُّبوبية لا يكفي في التّوحيد، لأن الله أخبر أنّ المشركين يعلمون هذا فقال: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أنه لا خالق لهذه الأشياء المذكورة وغيرها إلا الله فلماذا تعبدون معه غيره ممن لا يخلق شيئاً .

المسألة الثالثة: في الآيتين الاستدلال بتوحيد الرّبوبيّة على توحيد الإلهيّة، وأنّ توحيد الرّبوبيّة وسيلة وتوحيد الألوهيّة غاية، لأنّه هو المقصود وهو المطلوب من الخلْق، لأنّه لَمَّا أمر بعبادته ذكر توحيد الرّبوبية، ففيه الاستدلال بتوحيد الرّبوبية على توحيد الأُلوهية.

المسألة الرابعة: أنّه لا يكفي الأمر بالتوحيد، بل لابد من النّهي عن الشّرك، لأنّ الله قال في الآية الأولى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، وقال في ختام الآية الثانية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾، فدلّ على أنّه لابد من الجمع بين الأمرين: الأمر بالتوحيد والنّهي عن الشرك، فالذي يقتصر على الأمر بالتّوحيد ولا ينهى عن الشّرك لم يقم بالمطلوب لأن ذلك لا يحقّق شيئاً ، وهذا في القرآن كثير دائماً بجانب الأمر بالتّوحيد النّهي عن الشّرك، قال تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] هذا أمر ونهي، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾

[البقرة:٢٥٦] هذا فيه: الكفر بالطّاغوت، والإيمان بالله، فالإيمان بالله لا يكفي، بل لابد من الكفر بالطّاغوت، وكلّ رسول يقول لقومه: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ [النساء:٣٦]، ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٨٤]، فلا بد من الجمع بين الأمر بالتوحيد والنّهي عن الشّرك.

المسألة الخامسة: أنّ هذه الألفاظ التي ذكرها ابن عبّاس تجري على ألسنة كثيرٍ من النّاس وهي من الشّرك، لكنه شرك أصغر، ويسمّى شرك الألفاظ، ولو لم يقصد بقلبه، وهو من اتّخاذ الأنداد.

المسألة السّادسة: فيه أنّ السلف يستدلّون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر، لأنّ ابن عبّاس استدلّ بالآية على ذلك، لأنّ الشرك الأصغر يجُرُّ إلى الشرك الأكبر، ففيه: الابتعاد عن الشّرك من كلّ الوُجوه، باللّفظ، وبالنّيّة، وبالفعل. ٤

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.[1]

قوله: "وعن عمر". صوابه عن ابن عمر، نبه عليه الشارح في "تيسير العزيز الحميد". ٥

وأما حديث عمر فهو عند أحمد في المسند بلفظ: ((من حلف بشيء دون الله فقد أشرك)) فالحديث ثابت من طريق عمر، ومن طريق ابنه عبدالله بن عمر في بيان أن الحلف بغير الله من الشرك، وهو عند العلماء من الشرك الأصغر. ٦

[1] الإمام أحمد في "المسند" (٣٤/٢، ٨٦)، وأبو داود: كتاب الإيمان/ باب كراهية الحلف بالآباء، والترمذي: كتاب الأيمان/ باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله وحسنه، وابن حبان (١١٧٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١٨/١، ٢٩٧/٤) –وصححه، ووافقه الذهبي– وصححه سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز في "الفتاوي" (٣٠٧/٥).

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر مرفوعاً: ((إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)). [1]

وعن بريدة مرفوعاً: ((من حلف بالأمانة فليس منا))[2] رواه أبو داود والأحاديث في ذلك كثيرة وقد تقدم كلام ابن عباس في عَدِّهِ ذلك من الأنداد.

وقال كعب: "إنكم تشركون في قول الرجل:" كلا وأبيك، كلا والكعبة، كلا وحياتك، وأشباه هذا، احلف بالله صادقاً أو كاذباً، ولا تحلف بغيره". رواه ابن أبي الدنيا في (الصمت)[3]. ١

وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، قال ابن عبد البر: "لا يجوز الحلف بغير الله بالاجماع" انتهى[4].

ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل، وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك بل ذلك محرم.

ولهذا اختار ابن مسعود رضي الله عنه (أن يحلف بالله كاذباً، ولا يحلف بغيره صادقاً).[5]

فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب. مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل، فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات. ١

قوله ﷺ: ((من حلف بغير الله((أي: أقسم بغير الله. ٤

وقوله: ((من حلف بغير الله)). يشمل كل محلوف به سوى الله. ٥

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٢٥٣٣- البغا)، ومسلم في صحيحه (رقم١٦٤٦)

[2] رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥٢/٥)، وأبو داود في سننه (رقم ٣٢٥٣)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٤٣٦٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحن (٢٩٨/٤) وغيرهم وإسناده صحيح؛ صححه الحاكم وابن حبان، والنووي في رياض الصالحين (ص/٣٨٧) وغيرهم.

[3] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (رقم ٣٥٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ١٢٢٨٣) وإسناده صحيح.

[4] التمهيد (٣٦٦/١٤)، وانظر: الاستذكار (٢٠٣/٥).

[5] سيأتي تخريجه وذكر لفظه قريباً.

كأن يقول: والنّبي، أو يقول: والأمانة، أو يقول: وحياتِكَ ما فعلتُ كذا، أو ما أشبه ذلك، بأن يقسم بمخلوق.

فالحلف والقسم: تأكيد شيء بذكر معظّم على وجه مخصوص. ٤ بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء والتاء، والواو. ٥

وهو تعظيمٌ للمُقْسَم به، والتعظيم إنّما يكون لله سبحانه وتعالى، فالمخلوق لا يُقْسِمُ إلاّ بالله أو بصفةٍ من صفات الله سبحانه وتعالى. ٤ لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا، فيجور أن تقول: وعزة الله، لآفعلن كذا. ٥

فاليمين أو الحلف يكون بتأكيد الكلام بمعظم به بالواو أو بالباء أو بالتاء. والواجب أن لا يؤكد الكلام إلا بالله جل وعلا؛ لأن المعظم على الحقيقة هو الله جل وعلا، وأما البشر فليسوا بمعظمين بحيث يُحلف بهم، وإنما ربما عظموا بشيء يناسب ذاتهم، تعظيم البشر اللائق، أما التعظيم الذي يصل إلى الحد الذي يُحلف به، فهذا إنما هو لله جل وعلا.

فإذن الواجب ألا يؤكد الكلام إلا بالله جل وعلا إذا أراد الحلف، إذا أراد أن يكون حالفاً فليحلف بالله، فليؤكد الكلام بالله جل وعلا باستخدام أحد الحرف الثلاثة الواو أو الباء أو التاء. وأما إذا استخدم غير هذه الأحرف كلفظ (في) ونحو ذلك فإنه لا يعد حلفاً، إلا إن كان في قلبه أنه يمين ولكنه أخطأ التعبير فالعبرة ما في التفسير من المعاني، وأما ما في اللفظ فإنه في المقام يؤول إلى ما في القلب. ٣

أمّا الله سبحانه وتعالى فإنّه يُقْسِمُ بما شاء مِن خلقه، أمّا المخلوق فلا يقسِم إلاّ بالله، ولا يجوز له أن يقسم بغيره كائناً مَنْ كان: لا يقسِم بالأنبياء، ولا بالملائكة، ولا بالصالحين، ولا يُقسم بالكعبة، ولا يقسم بأي شيء إلا بالله سبحانه وتعالى.

وفي هذا الحديث: أنّ النبي ﷺ قال: ((مَن حلَف بغير الله)) كائناً مَنْ كان من ملائكة، أو أنبياء، أو أولياء، أو مشاعر مقدّسة، أو غير ذلك. ٤

وقوله: ((بغير الله)). ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع، فهو حلف بالله. ٥

((فقد كفر أو أشرك)) وهذا إمّا شكٌ من الراوي، يعني: هل قال الرّسول: كفر، أو قال: أشرك، أو أنّ (أو) بمعنى (الواو)، لأنّ (أو) تأتي أحياناً بمعنى (الواو) في لغة العرب، يعني: فيكون المعنى: "فقد كفر وأشرك"، يعني: جمع بين الكفر والشّرك، لأنّ بين الشرك والكفر عموم وخُصوص، فكل مشرك كافر وليس كل كافر يكون مشركاً. ٤

قوله: "أو أشرك". شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث "أشرك". ٥

وقوله ((فقد كفر أو أشرك)) أخذ به طائفة من العلماء فقالوا: يكفر من حلف بغير الله كفر شرك، قالوا: ولهذا أمره النبي ﷺ بتجديد إسلامه بقول: لا إله إلا الله، فلولا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك.

وقال الجمهور: لا يكفر كفراً ينقله عن الملة، لكنه من الشرك الأصغر كما نص على ذلك ابن عباس وغيره، وأما كونه أمر من حلف باللات والعزى أن يقول: لا إله إلا الله فلأن هذا كفارة له مع استغفاره كما قال في الحديث الصحيح: ((من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله))[1] وفي رواية ((فليستغفر))[2] فهذا كفارة له في كونه تعاطي صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به، لا أنه لتجديد إسلامه ولو قدر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره. ١

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا، فهو شرك أصغر. ٥

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٥٧٥٦) ومسلم في صحيحه (رقم ١٦٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] وردت هذه اللفظة في رواية من حديث سعد الذي ذكره الشيخ سليمان سابقاً، وخرَّج الرواية: البزار في مسنده (رقم١١٤٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠١/٢) وغيرهما، ولفظ الطحاوي ((اتفل عن يسارك ثلاثاً وقل: لا إلاه إلا الله وحده، واستغفر الله تعالى، ولا تعد)) وهو صحيح.[1]

لكن الذي يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله؛ أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً، فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته، ونحو ذلك، لم يقدم على اليمين به إن كان كاذباً، فهذا شرك أكبر بلا ريب، لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله، وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام، لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته، أو تربته فهو أكبر شركاً منهم، فهذا هو تفصيل القول في هذه المسألة. ١

الحلف الصريح بالأصنام والأوثان وغيرها مما لم يعظمه الشارع، مثل أن يحلف باللات والعزى، فهذا لا خلاف بين العلماء في كونه شركاً أكبر. ٩

قال هنا ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فقد كَفَرَ أو أشْرَكَ)) لماذا كفر أو أشرك؟ لأنه عظم هذا المخلوق كتعظيم الله جل وعلا في الحلف به، وكُفره وشركه شرك أصغر، وقد يصل إلى أن يُشرك بالحلف شركاً أكبر إذا عظَّم المحلوف به كتعظيم الله جل وعلا في العبادة.

فإذن صار حقيقة الحلف بغير الله أنه تعظيم لذلك المحلوف به في الحلف، فإذا انضاف إلى ذلك أن المحلوف به معظم في العبادة صار شركاً أكبر؛ كحلف الذين يعبون الأوثان بأوثانهم فإنه شرك أكبر؛ لأنه يعظم ذلك الوثن أو ذلك القبر أو تلك البقعة أو ذلك المشهد أو ذلك الولي يعظمه كتعظيم الله في العبادة، فيكون حلفه حلفا بمعظم به في العبادة.

فإذن صار هنا الشرك الأصغر حاصل بمجرد الحلف بغير الله، فكل من حلف بغير الله فهو مشرك الشرك الصغر، قد يصل في بعض الأحوال أن يكون مشركاً الشرك الكبر إذا كان يعبد هذا الذي حلف به.

وهناك يمين بغير الله في اللفظ، فهذه أيضاً شرك وإن لم يعقد القلب اليمين، كمن يكون دائما على لسانه استعمال الحلف بالنبي أو بالكعبة أو بالأمانة أو بالولي ونحو ذلك وهو لا يريد حقيقة اليمين، وإنما يجري على لسانه مجرى في اللغو، فهذا أيضاً شرك لأنه تعظيم لغير الله جل وعلا. ٣

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦] أي: الشرك الأكبر ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، يعني: الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، لأن قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ مصدر مؤول، فهو نكره في سياق النفي، فيعم الأصغر والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركاً به أو إشراكاً به. ٥

قسم الله عز وجل بالمخلوقات

وأما قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] وقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها، فالجواب عنه من وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله والله لا يُسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته، فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على الله عز وجل بما تقتضيه من الدلالة على عظمته.

وأما نحن، فلا نقسم بغير الله أو صفاته، لأننا منهيون عن ذلك. ٥

قال الشعبي: "الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق"، قال: "ولأن أقسم بالله فأحنث أحب إليَّ من أن أقسم بغيره فأَبَرَّ".[١]

وقال مطرف بن عبد الله: "إنما أقسم الله بهذه الأشياء لِيُعَجِّبَ بها المخلوقين، ويُعَرِّفَهُم قدرته لعظم شأنها عندهم ولدلالتها على خالقها" [٢] ذكرهما ابن جرير. ١

---

[١] رواه ابن جرير كما في فتح الباري (٥٣٥/١١) ولعله في تهذيب الآثار، وابن أبي حاتم في تفسيره —كما في تفسير ابن كثير (٢٤٧/٤)

[٢] رواه ابن جرير كما في فتح الباري (٥٣٥/١١) ولعله في تهذيب الآثار.

وقد يَرِد سؤال هنا وهو: أنّه جاء في بعض الأحاديث الحلف بغير الله، كقول النبي ﷺ: ((أَفْلحَ وأبيه إنْ صدَق))[1]، مع قوله: ((مَن حلَف بغير الله فقد كفر أو أشرك)). فما الجواب؟.

أجاب عنه العلماء بجوابين:

الجواب الأوّل: أن هذا وأمثاله لا يُقصد به اليمين، وإنما يجري على الألسنة من غير قصد اليمين.

والجواب الثاني: أنّ هذا كان قبل النّهي، فكان في الأوّل يجوز الحلِف بغير الله، وبعد ذلك نُهي عن الحلِف بغير الله، فقوله: ((أفلح وأبيه)) وأمثاله يكون منسوخاً بالنّهي عن الحلف بغير الله، وهذا هو الذي رجّحه في الشرح. ٤

وأما ما ثبت في "صحيح مسلم" من قوله ﷺ: ((أفلح وأبيه إن صدق)).

فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لم تثبت في الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك، فلا تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ، فيكون باطلاً.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة، والأصل: ((أفلح والله إن صدق)).

وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات، "وأبيه" تشبه، "الله" إذا حذفت النقط السفلى.

الثالث: أن هذا مما يجري على الألسنة بغير قصد، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الإيمان﴾ [المائدة: ٨٩]، وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك، فيكون من خصائصه، وأما غيره، فهم منهيون عنه لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه على حذف مضاف، والتقدير: "أفلح ورب أبيه".

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الصلوات التي هي أحد الأركان الإسلام.

السادس: أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل، وهذا أقرب الوجوه.[1] ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي، لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أُذن لهم فيها[2]؟

فالجواب عنه: أن هذا اليمين كان جارياً على ألسنتهم، فتركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه، ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه.

أما بالنسبة للوجه الأول، فضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه صحيح، فإنه لا يجوز إنكاره.

وأما الوجه الثاني، فبعيد وإن أمكن، فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: ((أما وأبيك لتنبأنه))[3].

وأما الوجه الثالث، فغير صحيح لأن النهي وارد مع أنه كان يجري على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهاه النبي ﷺ[4]، ولو صح هذا، لصح أن يقال لمن فعل شركاً اعتاده لاينهى، لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

وأما الرابع، فدعوى الخصوصية تحتاج إلى دليل، وإلا، فالأصل التأسي به.

وأما الخامس: فضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهماً باطلاً، ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلى هذا يكون أقربها الوجه السادس أنه منسوخ، ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووي رحمه الله ارتضى أن هذا مما يجري على اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به، ثم رأيت بعضهم جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخاري مع مخالفة راويها للثقات، فالله أعلم[5]. ٥

---

[1] قال السهيلي: ((أكثر الشراح عليه)) [تيسير العزيز الحميد].

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه زيارة أمه.

[3] مسلم: كتاب الزكاة/ باب أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح.

[4] مسلم: كتاب الزكاة/ باب أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح.

[5] انظر: تيسير العزيز الحميد لمزيد تفصيل.

والحديث دليل على أنه لا تجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقاً، لأنه لم يذكر فيه كفارة للحلف بغير الله ولا في غيره من الأحاديث، فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التوحيد، والاستغفار. ١
والشاهد من الحديث للتّرجمة :أن الحلف بغير الله من اتّخاذ الأنداد لله سبحانه وتعالى، لأنّ النّد معناه: النّظير والشّبيه، فالذي يحلف بغير الله يجعل المحلوف به نِدًّا لله وشبيهاً لله سبحانه وتعالى.٤

وقال ابن مسعود: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً." [١]

قوله: وقال ابن مسعود: " لأن أحلِف بالله كاذباً أحبُّ أليّ من أنْ أحلِف بغيره صادقاً"
الكذب حرام، وكبيرة من كبائر الذّنوب، ولكنّه أسهل من الحلف بغير الله، لأنّ الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله كاذباً محرّم ومعصية، ولكنه دون الشرك، لأن الشرك أكبر الكبائر. وسيِّئة الكذب أخف من سيِّئة الشرك.
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لأن الحلف بالله كاذباً فيه توحيد، والحلف بغير الله صادقاً شرك، وحسنة التّوحيد أعظم من حسنة الصّدق" وسيِّئة الشرك أشدّ من سيِّئة الكذب[٢]. ٤

قوله: "أحب إلي". هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتاً في المفضل وفي المفضل عليه، وأحياناً في المفضل دون المفضل عليه، وأحياناً لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذباً أهون عليه من الحلف بغيره صادقاً، فالحلف كاذباً محرم من وجهين.

---

[١] رواه ابن وهب – كما في المدونة لسحنون (١٠٨/٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (رقم ١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ١٢٢٨١)، والطبراني في الكبير (رقم ٨٩٠٢) وغيرهم وإسناده صحيح.
[٢] الفتاوى الكبرى (٦٢١/٤).

١– أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢– أن هذا الكذب قرن باليمين، واليمين تعظيم لله – عز وجل، فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص الله – عز وجل، حيث جعل اسمه مؤكداً لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذباً عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقاً، فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذباً، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا: إن الحلف بالله كاذباً من اليمين الغموس، لأن الشرك لا يغفر، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وسئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك))[١]، والشرك متضمن للكذب، فإن الذي جعل غير الله شريكاً لله كاذب، بل من أكذب الكاذبين، لأن الله لا شريك له. ٥

وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من اليمين الغموس، وفيه دليل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. ١

فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار، كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثاناً ، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

[١] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إذا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)﴾ [الأعراف: ٣٧] كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونهم من دونه في دار الدنيا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن :١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن:٢٠- ٢] وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر، فخالفوا ما بلغه رسول الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله. ٢

وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ((لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)) رواه أبو داود بسند صحيح.[1]

قوله ﷺ: ((لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا :ما شاء الله، ثُمَّ شاء فلان)). هذا نَهيٌ من الرّسول ﷺ عن الجمع بين الله وبين المخلوق فيالمشيئة بأن يقول: ((ما شاء الله وشاء فلان))، لأنّ (الواو) لمطلق الجمع والتّشريك، فكأنّك جعلت المشيئة صادرة من الله ومن المخلوق، وهذا شركٌ في اللّفظ، وتصحيح العبارة أن يقال: ((ما شاء الله، ثُمَّ شاء فُلان)). ٤

[1] رواه الطيالسي في مسنده (رقم ٤٣٠)، وابن المبارك في مسنده (رقم ١٨٠)، والإمام أحمد في المسند (٥ / ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٨٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٦٦٩٠)، وأبو داود في سننه (رقم ٤٩٨٠)، والنسائي في السنن الكبرى (رقم ١٠٨٢١)، وغيرهم عن عبدالله بن يسار عن حذيفة رضي الله عنه به وإسناده صحيح، والصحيح أن عبدالله بن يسار سمع من حذيفة، وقال البخاري عن هذا الحديث مقارنة بحديث عبدالله بن يسار عن قتيبة - كما في علل الترمذي (ص / ٢٤٥): " أشبه عندي وأصح"، والحديث صححه النووي في رياض الصالحين (ص / ٣٩٥).

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه؛ لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً. وتسوية المخلوق بالخالق شرك، إن كان في الأصغر مثل هذا فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر. كما قال تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨] بخلاف المعطوف بـ "ثم"، فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة. فلا محذور لكونه صار تابعاً. ٢

والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه، فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسوياً مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساو له، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل، فهو شرك أصغر.

قوله: ((ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)). لما نهي عن اللفظ المحرم بين اللفظ المباح، لأن ((ثم)) للترتيب والتراخي، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه. ٥

فالواجب أن ينزه العبد لفظه حتى يعظم الله جل وعلا، والقلب المعظم لله جل وعلا لا يمكن أن يستعمل لفظاً فيه جعل لمخلوق في مرتبة الله جل وعلا في المشيئة أو في الحلف أو في الصفات ونحو ذلك.٣

فالواجب على المؤمن أن يتأدب بالآداب الشرعية وأن يحذر أنواع الشرك كلها صغيرها وكبيرها، فإذا دعت الحاجة إلى شيء في هذا يقول: لولا الله ثم فلان، لولا الله ثم أنت كان هذا، لولا الله ثم شفاعتك، لولا الله ثم قرضك ثم دعمك لنا لكان كذا، بثم لا بأس بهذا، مثل ما في الحديث: ((لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)). ٦

أما بالنسبة لقوله: "ما شاء الله فشاء فلان"، فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم)، فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير بـ (ثم) أولى، لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق. ٥

فهذا فيه مسألتان:

المسألة الأولى: النّهي عن عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق بـ (الواو)، وجواز عطفها بـ (ثُمَّ)، والفرق: أنّ (الواو) تقتضي التشريك، و(ثُمَّ) تقتضي الترتيب والتعقيب، فتجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق ومترتّبةً عليها.

المسألة الثانية: فيه دليل على إثبات المشيئة للمخلوق، رَدًّا على الجبريّة الذين يقولون إنّ المخلوق ليس له مشيئة وإنّما هو مجبَر ومسيَّر، ليس له اختيار ولا مشيئة، وهو مذهبٌ باطل، فالمخلوق له مشيئة، لكنها بعد مشيئة الله قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠)﴾ [الإنسان:٣٠]، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٩)﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] فأثبت سبحانه وتعالى للمخلوق مشيئة، وجعلها بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى، فمشيئة المخلوق مترتّبة على مشيئة الخالق سبحانه وتعالى.

وفي حديث حذيفة مسألة ثالثة: وهو أنّه مَن منع من شيء فإنّه يذكُر البديل الصّحيح عنه إن كان له بديل، لأن النبي ﷺ لَمّا مَنع من هذه العبارة ذكر البديل الصحيح عنها وهو قولُ: ((ما شاء الله ثم شاء فلان)). ٤

أنه ينبغي لمن سد على الناس باباً محرماً أن يفتح لهم الباب المباح، لقوله: ((ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان))، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة، قال: ((لا تفعل ولكن بع الجمع بالدرهم، ثم أشتر بالدراهم جنيباً))[1]، أي: تمراً جيداً. فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم

وفي هذا فائدتان عظيمتان:

الأولى: بيان كمال الشرعية وشمولها، حيث لم تسد على الناس باباً إلا فتحت لهم ما هو خير منه.

---

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب إذا أراد بيع تمر بتمر، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب بيع الطعام مثلاً بمثل.

والثانية: التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم، فعامل الناس بهذا ما استطعت، كلما سددت عليهم باباً ممنوعاً، فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى لا يقعوا في الحرج. ٥

وجاء عن إبراهيم النخعي، أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.[١]

قوله: "عن إبراهيم النخعي". من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث، كما ذكر حماد بن زيد. ٥

"أنه يكره: أعوذ بالله وبك"

العياذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب المحبوب.٥

والاستعاذة -كما ذكرنا- لها جهتان: جهة ظاهرة، وجهة باطنة.

أما الجهة الباطنة: وهي الالتجاء والاعتصام والرغب والرهب وإقبال القلب على المستعاذ به، فهذا لا تصلح إلا لله، والاعتماد في الاستعاذة على المخلوق فيما أقدره الله على هذا جائز؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق ظاهرة فيما أقدره الله عليه ظاهراً هذا جائز، لهذا كان يكره أن يقول أعوذ بالله وبك، والكراهة استعمال السلف يراد غالباً المحرم، وقد ترد لغير المحرم؛ ولكن يستعملونها فيما لا نص فيه.

ومجيء الكراهة بمعنى التحريم في القرآن في قوله تعالى لما ذكر الكبائر في سورة الإسراء ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨]، وفي القراءة الأخرى ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿مَكْرُوهًا﴾ أي: محرماً التحريم الشديد. ٣

الاستعاذة نوعٌ من أنواع العبادة، لا يجوز صرفُها إلاَّ لله سبحانه وتعالى، فلا يجوز أن تقول: "أعوذ بالله وبك"، لأنّك إذا قلتَ هذا شرَّكت بين الخالق والمخلوق، والتجأت إليهما جميعاً، وهذا شرك. ٤

[١] رواه عبدالرزاق عن معمر في جامعه (١٩٨١١-١٩٨١٢)، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (رقم ٣٤٤)

وقوله: "أعوذ بالله وبك" هذا محرم، لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو الواو.٥
لأنّ الواو تقتضي التشريك بالاستعاذة. ٣
لكن تصحيح العبارة أن تقول: "أعوذ بالله، ثُمَّ بك" فتأتي بـ (ثُمَّ)، والفرق بين (ثُمَّ) وبين (الواو): أن (ثُمَّ) تجعل الالتجاء إلى المخلوق بعد الالتجاء إلى الخالق سبحانه وتعالى. ٤
لأن "ثم" تدل على الترتيب والتراخي. ٥
فالمخلوق يلتجأ إليه فيما يقدر عليه، فتذهب إلى شخص وتطلُب منه أنه يمنع عدوّك عنك، إذا كان هذا الشخص حياً يقدر على منع عدوّك عنك. أمّا العياذ المطلَق فإنّه لا يكون إلاَّ بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز العياذ بالميت مطلقاً. ٤
وهذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء. وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر، فلا يقال في حقهم شيء من ذلك، فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه، والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئاً من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه، وبالله التوفيق. ٢

فإن قيل: سبق أن من الشرك الأستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله: أعوذ بالله ثم بك محرماً. أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة، لقوله ﷺ في "صحيح مسلم" وغيره: ((من وجد ملجأ، فليعذبه))[1] لكن لو قال أعوذ بالله ثم بفلان. وهو ميت، فهذا شرك أكبر لأنه لا يقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)): ثم قال رحمه الله: "والاستعاذة لا يكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الأستعاذة لا تكون بكلام مخلوق، بل بكلام غير مخلوق، وهو كلام الله، والكلام تابع للمتكلم به، إن كان مخلوقاً، فهو مخلوق، وإن كان غير مخلوق، فهو غير مخلوق. ٥

[1] سبق تخريجه.

وقوله: "ويقول: لولا الله ثُمَّ فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفُلان" سبق شرحه.

وهذا مما يدل على أنه يجب تعليم النّاس أُمور العقيدة، وما يُخِلُّ بها وما ينقِّصُها، لأنّ أغلب النّاس الآن –إلاّ ما شاء الله– أعرضوا عن تعليم العقيدة وتعلُّمها، ولا يعتنون بها، ولا يدعون إليها إلاّ ما شاء الله، وإلاّ فالأكثر يركِّزون على أمورٍ أخرى جانبيّة لا تُفيد شيئاً إذا اختلّت العقيدة، حتى ولو صحّت هذه الأغلاط الجانبية التي يريدون إصلاحها، لو صلحت وصحّت ما نفعت بدون إصلاح العقيدة، فالعقيدة هي الأساس، يجب أن نتعلّمها أوّلاً، وأن ندعوَ إليها أوّلاً، وأن نصحِّح الأخطاء فيها قبل تصحيح الأخطاء في المعامَلات، وتصحيح الأخطاء في الآداب والأخلاق. وما انتشرت هذه الأُمور في النّاس إلاَّ لَمّا قَلّ تدريس التوحيد وشرح العقيدة والدعوة إليها في المحاضرات والندوات والصُّحف والمجلات فانتشرت هذه الأمور، بسبب شياطين الإنس والجن الذين يريدون إفساد عقائد النّاس، فالاهتمام بأمر العقيدة وتصحيحها هو أمّ المهمّات: ﴿فَأعلم أَنَّهُ لا إله إلا الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] بدأ بالعلم بمعنى (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) قبل العمل والاستغفار، لأنّه هو الأساس الذي تنبني عليه أمور الدين كلّها. ٤

والعلم لا يؤخذ قسراً، وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله:

أخـــي لـــن تنـــال العلـــم إلا بســـتة	سأنبيـــك عـــن تفـــصيلها ببيـــان
ذكـــاء وحـــرص واجتهـــاد وبلغـــة	وإرشـــاد أستـــاذ وطـــول زمـــان

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله، فالله هو الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَة مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيماً﴾. [النساء: ١١٣].

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى من حيث قال:

والجهـــل داء قاتـــل وشفـــاؤه	أمـــران في التـــركيب متفقـــان
نـــص مـــن القـــرآن أو مـــن ســـنة	وطبيـــب ذاك العـــالم الربـــاني
والعلـــم أقســـام ثـــلاث مـــا لهـــا	مـــن رابـــع والحـــق ذو تبيـــان
عـــلم بأوصـــاف الإلـــه وفعـــله	وكذلـــك الأسمـــاء للرحـــمن

والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني. ٢

قال النبي: ((الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل، ألا أخبركم بقول يذهب صغاره وكباره؟ أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم)) هذا القول وقاية بإذن الله من الوقوع في الشرك الأصغر، وينبغي على المسلم المحافظة عليه، ولا سيما إن أحس من نفسه شيئاً من ذلك، ودعاء المسلم لربه من أعظم الوسائل الجالبة لصفاء العقيدة من شائبة الشرك.

والمسلم إذا عظم الله في نفسه وعلم بقدرته سبحانه وأنه أكبر وأعظم من هذه المخلوقات هان عليه أمر الدنيا وما فيها، وقوي تعلقه بالرب سبحانه وتعالى، فدفع عن قلبه الشرك ووقي منه، ومن تعلق بالله فقد كفاه سبحانه. ٥

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً، فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد. وقد سبق. ه

الثانية: أن الصحابة ﷺ يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر.

لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] نازلة في الأكبر، لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر، لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور. ه

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك. لحديث ابن عمر رضي الله عنهما. ه

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً، فهو أكبر من اليمين الغموس.

واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذباً، وقال بعض العلماء وهو الصحيح: أن يحلف بالله كاذباً ليقتطع بها مال أمرىء مسلم. ه

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ. لأن الواو تقتضي المساواة، فتكون شركاً، وثم تقتضي الترتيب والتراخي، فلا تكون شركاً. ه

الأسئلة:

س: ما الفرق بين قوله ولحياتي ولعمري؟

الجواب: لعمري هذه جائزة ما فيها واو، لحياتي لقسمي قسمي بكذا وكذا، كان النبي ﷺ يستعملها واستعملها غيره فهذا لا حرج فيه، أما إذا جاءت الواو أو الباء أو التاء أو الهمزة منع.

س: لعمرك قسم؟

ج: نعم ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

س: ما هي حروف القسم؟

الجواب: أربعة: الواو، والباء، والتاء، والهمزة.

س: عندنا في العمل يحلفون بالنبي وكلمتهم وأعطيتهم كتب؟

ج: تدعو لهم بالهداية، أخذوا عليها اعتادوها، لكن إن شاء الله لا تمل إذا ما ملوا وهم أهل باطل، لا تمل وأنت على الحق انصحهم.

س: أعصيهم إن حلفوا بالنبي؟

ج: لا، تنصحهم تقول ما يجوز هذا، احلفوا بالله، قولوا: والله، وبالله، وتالله، ولا يجوز الحلف بغير الله كائناً من كان، لا بالنبي ولا بغيره.

س: مراده بأن صاحب الشرك الأصغر تحت المشيئة؟

الجواب: لا، الشرك تبع الشرك، ظاهر الأدلة أنه لا يغفر له إلا بالتوبة منه، أو برجحان حسناته.

س: الحلف بالأمانة أي نوع من أنواع الكفر؟

الجواب: من الشرك الأصغر، يقول النبي ﷺ: ((من حلف بالأمانة فليس منا.)).

س: القسم بآيات الله؟

الجواب: لا بأس القرآن كلام الله، إذا أقسم بآت الله يقصد القرآن لا بأس.

س: بعضهم يقول برأسك يعني بأجلك؟

الجواب: لا ما يصح، لا يقول: برأسك، ولا بوجهك، لا يحلف إلا بالله.

س: ليس منا من باب الوعيد؟

ج: من باب الوعيد نعم. ٦

(بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ. وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ))، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

قوله : "باب ما جاء فيمن لم يَقنع بالحلف بالله" يعني: "ما جاء فيه من الوعيد"، وأنّه ينقِّص التّوحيد، لأنّ الذي لا يقنع بالحلف بالله لا يعظِّم الله سبحانه وتعالى حق التّعظيم، لأنّه لو كان يعظِّم الله حقّ التعظيم لرضيَ بالحلف به، فكونه لا يرضى ولا يقنع بالحلف بالله دليلٌ على نُقصان تعظيمه لله، وهذا ينقِّص التوحيد، كما أنّ كمال تعظيم الله كمالٌ في التّوحيد.

هذا وجه المناسبة لعقد هذا الباب في كتاب التوحيد. ٤

والواجب أن يقنع بكلام حلف عليه بالله تعظيماً لجلال الله جل وعلا كما قال: ((آمنت بالله وكذبت عيني)) فيمن حلف له بالله، فالواجب على العبد أنْ إذا حلف له بالله أن يرضى؛ لأن في ذلك تعظيماً للرب جل وعلا. ٣

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الأقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله، لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف، وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله، وهذا ينافي كمال التوحيد، والأقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعي عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضي الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضي بيمينة، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: ((تبرئكم يهود بخمسين يميناً)). قالوا: كيف نرضي يا رسول الله بأيمان اليهود؟"[١]. فأقرهم النبي ﷺ على ذلك. ٥

(باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله):

- لفظ ((لم يقنع)) استفاد منه كثير من الشراح بأن المراد[٢] بهذا الباب ما يكون عند توجّه اليمين على أحد المتخاصمين، فإنه إذا كان في الخصومة وتوجهت في اليمين بالدعوة، فإن الواجب على الآخر أن يقنع بما حَلَف به الآخر بالله جل وعلا، فخصوا ما جاء من الدليل وخص هذا الباب بمسألة في الدعاوي؛ يعني اليمين عند القاضي.
- وقال بعض أهل العلم: إن الحديث عام، والحديث حسنه طائفة من أهل العلم كما ذكر الشيخ رحمه الله، فقوله ((وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ)) هذا عام في كل حلف سواء أن كان عند القاضي أو لم يكن عند القاضي، وهذا القول أوجه وأصوب ظاهراً؛ لأن سبب الرضى بالكلام الذي حلف عليه بالله التعظيم لله جل وعلا، فإن تعظيم الله في قلب العبد يجعله يصدّق من حلف له بالله ولو كان كاذباً؛ لكن له أن لا يبنيَ عليه؛ لكن يصدقه ولا يُظهر تكذيباً له لتعظيم الله جل وعلا، ((مَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ))، فليجعل توحيده وتعظيمه لله جل وعلا له، وكذب ذاك في الحلف بالله عليه.
- وقال طائفة من أهل العلم -وهذا هو الثالث-: إن هذا راجع إلى من عُرف صدقه في اليمين، أما من كان فاجراً فاسقاً لا يبالي إذا حلف أن يحلف كاذباً فإنه لا يجب تصديقه؛ لأن تصديقه والحالة هذه مع قيام اليقين أو القرائن العامة بكذبه ليس بداخل

---

[١] البخاري: كتاب الأدب/ باب إكرام الكبير، ومسلم: كتاب القسامة، باب القسامة.

[٢] سقط من الأشرطة، وقد نقلته عن تفريغ جامع ابن تيمية.

في الحديث، لقوله في أول الحديث ((مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ. وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ)) فتعلق قوله ((وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ)) بما قبلها وهو قوله ((مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ))، فتعلق ((مَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ)) يعني فيمن كان صادقا، ((وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ))، من لم يرض باليمين بالله، ((فَلَيْسَ مِنَ اللهِ))، فيدل على أن فعله من الكبائر؛ لأن قوله ((لَيْسَ مِنَ اللهِ)) هذا ملحق لفعله بالكبائر.

وهذا الباب فيه نوع تردد عند الشراح، والظاهر في المراد منه أن الإمام المصنف رحمه الله ذكره تعظيماً لله جل وعلا، وقد ذكر في الباب قبله (من حلف بغير الله) وأن حكمه أنه مشرك، فهذا فيه أن الحلف بالله يجب تعظيمه، وأن لا يحلف المرء بالله إلا صادقاً، وأن لا يحلف بآبائه، وأن لا يحلف بغير الله، ومن حُلف له بالله فواجب عليه الرضى تعظيماً لاسم الله وتعظيماً لحق الله جل وعلا حتى لا يقع في قلبه استهانة باسم الله الأعظم وعدم اكتراث به أو بالكلام المؤكد به.

فصار عندنا -إذن-:

- أن كثيراً من أهل العلم جعلوا قول المصنف (باب ما جاء في من لم يقنع بالحلف بالله) أنه عند القاضي إذا توجه باليمين على أحد المتخاصمين.
- وأن طائفة من أهل العلم قالوا في قوله ومن حلف له بالله فليرض أن هذا عام في كل من حلف له بالله لأنه يجب عليه الرضى.
- وآخرون قالوا يُفَرَّق بين من ظاهره الصدق ومن ظاهره الكذب.

والله أعلم. ٣

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض. ومن لم يرض فليس من الله))، رواه ابن ماجه بسند حسن.[1]

"ابن ماجه": مَاجَهْ أمه، وآخرها هاء وصلاً ووقفاً، فلا يقال: رواه ابن ماجةَ بسند حسن، أو روى ابن ماجة، هذا غلط.

والصواب أن تقول: وروى ابن ماجه بسند حسن؛ لأن الهاء هنا ليست لأجل السكون في التاء، وإنما هي أصلية في اسم أمه رحمه الله تعالى ورحمها. ٣

لا تحلفوا بآبائكم ((سبق في الباب الذي قبله النهي عن الحلف بغير الله، وأنه شرك أو كفر، كما قال ﷺ: ((مَن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك))، لأنّ الحلف تعظيمٌ للمحلوف به، ومَن عظّم غيرَ الله بالحلف به فإنّ هذا شركٌ بالله عزّ وجلّ، وهو يختلف باختلاف الحالفين: من كان يعظِّم المحلوف به كما يعظِّم الله فهو شركٌ أكبر، ومن كان لا يعظِّمه كتعظيم الله بل عنده نوعُ تعظيم لا يساوي تعظيم الله، فإنّه يكون شركاً أصغر. ٤

((وآباؤكم)): جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم، لأنه شرك، وقد سبق بيانه. ٥

وقوله ﷺ: ((لا تحلفوا بآبائكم)) ليس هذا خاصًّا بالآباء، فالحلف بغير الله لا يجوز، سواء كان بالآباء أو بغيرهم، وسواء كان بالآدميّين من الرُّسل والصالحين، أو كان بالكعبة، أو غير ذلك، فالمخلوق لا يجوز له أن يحلف إلاّ بالله عزّ وجلّ، فذكره الآباء هو من باب ذكر بعض أفراد المنهي عنه، لأنّ عادتهم أن يحلفوا بالآباء. ٤

قوله: ((من حلف بالله فليصدق)) هذا مما أوجبه الله على عباده وحضهم عليه في كتابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال:

[1] رواه ابن ماجه في سننه (رقم ٢١٠١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٨١/١٠) وإسناده حسن كما قال الحافظ في فتح الباري (٥٣٥/١١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٤٣/٢): "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد:٢١] وهو حال أهل البر، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُواۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]. ٢

قوله: ((ومن حلف بالله فليصدُق)) هذا أمرٌ من النبي ﷺ أنّ الحالف بالله يجب عليه أن يصدُق، فلا يحلف بالله كاذباً، لأنّ من حلف بالله وهو كاذب فقد استهان بعظمة الله سبحانه وتعالى، وإذا انضاف إلى ذلك: أن يأخذ مالاً بغير حق بموجب هذه اليمين، فهي يمين فاجِرة، يقتطع بها مال امرئ مسلم.

والحلف بالله كاذباً هي اليمين الغَموس، سُمِّيت بذلك لأنّها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النّار -والعياذ بالله-، كالذي يحلف على السِّلع في البيع والشّراء أنها جيّدة، وهي ليست كذلك، أو أنها سليمة وهي ليست كذلك، أو أن قيمتَها كذا وكذا، ليرغِّب النّاس فيها وهو كاذب، فإذا حلف على أمرٍ ماضٍ كاذباً متعمِّداً فهذه هي اليمين الغَموس، وهي كبيرة من كبائر الذنوب، لأنّ الكذب في حد ذاته كبيرة :قال الله تعالى: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل:١٠٥]، فالكذب في حدّ ذاته كبيرة، فإذا انضاف إليه يمين كاذبة صار أشدّ وأعظم، وجاء في الحديث: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم: المسْبِل، والمنّان، والمنفِّق سلعته باليمين الكاذبة)).

وقوله: ((ومن حُلف له بالله فليرضَ)) هذا محل الشاهد من الحديث للباب، ومعناه: فليرضَ باليمين بالله تعظيماً لله سبحانه، وهذا يدل على كمال التوحيد. ثم الحالف إنْ كان صادقاً فهو على ما حلف، وإنْ كان كاذباً فإثْمه عليه. ٤

قوله ﷺ: ((من حلف بالله؛ فليصدق، ومن حلف له بالله، فليرض)). هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف؛ فقد أُمر أن يكون صادقاً، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله ((من حلف بالله، فليصدق))، أي: فليكن صادقاً في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقاً للواقع أو يكفي الظن؟

الجواب: يكفي الظن؛ فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه؛ كقول الرجل للنبي ﷺ: "والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني". فأقره النبي ﷺ.

الثاني: للمحلوف له، فقد أمر أن يرضي بيمين الحالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني يُنَزّل على ما إذا كان الحالف صادقاً؛ لأن الحديث جمع أمرين: أمراً موجهاً للحالف، وأمراً موجها للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقاً؛ وجب على المحلوف له الرضا.

فإن قيل: إن كان صادقاً فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟

أُجيب: أن اليمين تزيده توكيداً. ٥

قوله ((ومن لم يرض فليس من الله)) ولفظ ابن ماجه: ((ومن لم يرض بالله فليس من الله)) وهذا وعيد كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨] قال ابن كثير: "أي: فقد برىء من الله"[١]. ١

قوله: ((ومن لم يرض فليس من الله)) هذه براءة من الله ممن لم يقنع بالحلف به، وهذا وعيد شديد.٤

قوله: ((ومن لم يرض، فليس من الله)). أي: من لم يرض بالحلف بالله إذا حلف له؛ فليس من الله، وهذا تبرؤ منه يدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب. ٥

فيجب تعظيم اليمين بالله والرّضا بها، سواءً كانت في الخُصومات أو كانت في الاعتذارات، فالمسلم يحسن الظنّ بأخيه المسلم. ٤

---

[١] تفسير ابن كثير (٣٥٨/١)

أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا. وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم، أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما في الأثر عن عمر ﷺ "ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً".

وفيه من التواضع والألفة والمحبة، وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم. وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله، ثم إنه يدخل في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد، كما في الحديث وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم، فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال. وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها. فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك، دل على وفور دينه، وكمال عقله. والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين. والله أعلم. ٢

ولكن لا بد من ملاحظة ما سبق، وقد أشرنا أن في حديث القسامة دليلاً على أنه إذا كان الحالف غير ثقة؛ فلك أن ترفض الرضا به؛ لأنه غير ثقة، فلو أن أحداً حلف لك، وقال: الله؛ إن هذه الحقيبة من خشب. وهي من جلد، فيجوز أن لا ترضي به لأنك قاطع بكذبه، والشرع لا يأمر بشيء يُخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن، وإن كان العقل لا يدرك أحياناً مدى حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فإذا اشتبه عليك حُسن شيء

من أحكام الشرع ؛ فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع، فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله، فهو حق وهو أحسن الأحكام. ٥

وهذا الحديث يدلّ على مسائل:

المسألة الأولى: تحريم الحلف بغير الله، لقوله ﷺ: ((لا تحلفوا بآبائكم)).

والمسألة الثّانية: وُجوب الصدق في الإيمان وعدم الكذب فيها، لأنّ الصدق في الإيمان تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وتعظيمٌ لعهده.

والمسألة الثالثة: وجوب القناعة بالحلف بالله، وتحريم عدم القناعة بالحلف بالله، لأنّ ذلك تعظيمٌ لجانب الله سبحانه وتعالى، وثقةٌ بالحلف به، وأن لا يُستهان باليمين بالله، لا من الحالف ولا من المحلوف له، بل تعظَّم من الجانبين، وهذا من حقوق التوحيد، وعدمُه من نُقصان التّوحيد. ٤

والذي ينبغي للمسلم في هذا المقام ألا يعود نفسه على كثرة الحلف بالله ومن باب أولى ألا يحلف بغير الله، والله سبحانه وتعالى أمرنا بحفظ الإيمان. ٩

فيه مسائل:
الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.
الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.
الثالثة: وعيد من لم يرض

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء. لقوله ((لا تحلفوا بآبائكم))، والنهي للتحريم. ٥

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى. لقوله: ((ومن حلف له بالله، فليرض))، وسبق التفصيل في ذلك. ٥

الثالثة: وعيد من لم يرض لقوله: ((ومن لم يرض، فليس من الله)). ٥

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين، فكيف باليمين؟!

وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء: أنها اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له، فهل يلزمه أن يصدق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس:

الأولى: أن يُعلم كذبه؛ فلا أحد يقول: إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه؛ فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوي الأمران؛ فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجع صدقه، فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه؛ فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية في باب التحاكم، فيجب أن يرضي باليمين ويلتزم بمقتضاها، لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي، وهو واجب. ٥

(بَابُ قول: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ)

(بَابُ قول: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ)

عَنْ قُتَيْلَةَ، أَنَّ يَهُودِياً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إذا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أيضاً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: ((أَجَعَلْتَنِي للهِ نِداً؟ بَلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)). وَلابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليهود، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: ((هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَداً؟)) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا. فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)).

(باب قول ما شاء الله وشئت) وهذه المسألة مر الكلام عليها في (باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]) وأن قول القائل (ما شاء الله وشئت) شرك في اللفظ وتشريك في المشيئة، فهذا من الشرك الأصغر. ٣

هذا الباب له علاقة بالأبواب السابقة، وهي مساواة الخالق سبحانه وتعالى بغيره من الناس والمخلوقات، وهنا المؤلف لم يقل: باب من الشرك قول ما شاء الله وشئت، فلماذا؟ والجواب: لأن الحكم فيها يختلف، فقد تكون شركاً أكبر إن اعتقد أن المعطوف هو مساو لله سبحانه وتعالى. وإن اعتقد أن المعطوف ليس بمساوٍ لله سبحانه، وإنما كان هذا الشخص سبب من الأسباب فهذا شرك أصغر، ووسيلة للشرك الأكبر، إذ أن هذا المتكلم سوى بين مشيئة

الخالق ومشيئة المخلوق، بحرف الواو التي تقتضي المساواة والاشتراك، فلما لم يعتقد هذه المساواة لم تكن اللفظة شركة أكبر، بل صارت أقل وهي شرك أصغر في القول. ٩

قال الشيخ رحمه الله: "باب قول: ما شاء الله وشئت" يعني: ما ورد في ذلك من النّهي، وأنّه شركٌ وتنديد؛ لأنّك إذا قلت ذلك شرَّكْتَ بين الخالق والمخلوق في المشيئة، حيث عطفتَ بالواو، والواو تقتضي التشريك، فهذا شرك في الرّبوبيّة، وهو لا يجوز، وإنْ كان القائل لا يعتقد هذا في قلبه، فهو شركٌ في اللّفظ منهيٌّ عنه، فكيف إذا اعتقد هذا في قلبه؟، فالأمر أشدّ. ٤

الباب واضح من حيث ما اشتمل عليه؛ لكن فيه فائدة أو فيه فوائد: ٣

عن قُتَيْلة، أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ((ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت)) رواه النسائي وصححه[1].

قوله: "عن قُتَيْلة" هي قُتَيْلَة بنت صَيْفِي الأنصاريّة، وبعضُهم يقول: الجُهَنِيَّة.

قوله: "أن يهودياً أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة". ٤

قوله: "أن يهودياً" اليهودي: هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب، فتكون التسمية من أجل النسب، وفي الأول تكون التسمية من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعاً. ٥

هذا اليهودي عرف أنّ هذا شرك، وأقرّه النبي ﷺ على ذلك. ٤

---

[1] رواه النسائي في "عمل اليوم والليلة" (رقم ٩٨٦)، والإمام أحمد في المسند (٣٧١/٦)، وإسحاق في مسنده (رقم ٢٤٠٧-٢٤٠٨)، والترمذي في العلل الكبرى (رقم ٤٥٧). وإسناده صحيح كما قال الحافظ في الإصابة (٧٩/٨). وصححه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (رقم ٢٣٨-٢٣٩).

قوله ((إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت)) هذا نص في أن هذا اللفظ من الشرك، لأن النبي ﷺ أقر اليهودي على تسمية هذا اللفظ تنديداً أو شركاً، ونهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك. ١

ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هذا الكلام. ٥

قوله: "ما شاء الله وشئت". الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساوياً للمعطوف عليه، وهو الله عز وجل حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

قوله: "والكعبة". الشرك هنا أنه حلف بغير الله. ٥

ووجّه أمّته أن يستبدلوا هذه الألفاظ بألفاظٍ صحيحة، فيقولوا ((ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت)). ٤

فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، فيكون القسم بالله. ٤

فقوله: ((قولوا: وربّ الكعبة)) وربُّ الكعبة هو الله سبحانه وتعالى، والكعبة: بَيْتُ الله، فلا يحلف بالكعبة، وإنّما يحلف بربّ الكعبة، هذا هو البديل الصحيح الخالي من الشرك.

وإذا كان الحلف بالكعبة شركاً ومنهياً عنه؛ فكيف بالحلف بغيرها من المخلوقات؟. ٤

وأمرهم أن يقولوا: ((ما شاء الله، ثم شئت)) فيكون الترتيب بثم بين مشئية الله ومشيئة المخلوق، وبذلك يتكون الترتيب صحيحاً، أما الأول، فلأن الحلف صار بالله، وأما الثاني، فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لا مساواة بينهما. ٥

قولوا : "ما شاء الله ثم شئت"، هذا هو اللّفظ الصحيح: أن تأتي بـ (ثُمّ) بدل (الواو)، لأنّ (الواو) للتشريك بين الخالق والمخلوق في المشيئة، أما (ثُمّ) فإنّها للتّرتيب حيث جعلت مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق، لأنّ المخلوق لا يشاء إلاّ إذا شاء الله سبحانه وتعالى، فمشيئته تابعة لمشيئة الله وليست مستقلّة، فهذا هو فرقُ ما بين اللّفظتين لفظة: "ما شاء الله وشئت" وبين: "ما شاء الله، ثُمَّ شئت"، فلفظة" ما شاء الله وشئت" شركٌ، ولفظة: "ما شاء الله، ثُمَّ شئت" توحيد. ٤

وإن كان الأولى قول: "ما شاء وحده" كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره. ١
والمخلوق له مشيئة، خلافاً للجَبْرِيَّة الضُّلَّال الذين يقولون: إنّ المخلوق ليس له مشيئة، بل هو مجبور، يفعل الكفر والمعاصي والشرك من غير اختياره، مثل الآلة التي تُحَرَّك والريشة التي تحرِّكُها الريح، ولو كان كذلك لم يستحقّ العذاب على المعصية، ولم يستحقّ الثواب على الطاعة.
ويقابلهم المعتزلة الذين قالوا: العبد له مشيئة مستقلة لا تتعلّق بمشية الله، فهو يفعل الكفر والمعاصي بغير مشيئة الله، وإنّما بمشيئته مستقلاً بها. تعالى الله عمّا يقولون، وهذا معناه: أنه يحدُث في ملك الله ما لا يشاؤُه .وليس من لازم مشيئة الله: محبته لكل ما يشاؤه سبحانه؛ فهو يشاء كفر الكافر ولا يحبه، وإنما يشاؤه ويخلقه لحِكمة بالغة وهي الابتلاء والامتحان. وإلاَّ ف "لو يشاء الله لهدى النّاس جميعاً" ولكن اقتضت حكمته أن يفاوت بينهم. ٤

وعلى النهي عن قول: "ما شاء الله وشئت" جمهور العلماء، إلا أنه حكي عن أبي جعفر الداودي ما يقتضي جواز ذلك احتجاجاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ونحو ذلك.
والصواب: القول الأول، فإن النبي ﷺ أنكر ذلك، وقال لمن قال له ذلك: ((أجعلتني لله نداً؟!)). وأقر من سماه تنديداً وشركاً على تسميته، ومن المحال ان يكون هذا أمراً جائزاً، وأما ما احتج من القرآن فقد ذكروا عن ذلك جوابين:
أحدهما: أن ذلك لله وحده لا شريك له، كما أنه تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته فكذلك هذا.
الثاني: أن قوله "ما شاء الله وشئت" تشريك في مشيئة الله، وأما الآية فإنما أخبر بها عن فعلين متغايرين، فأخبر تعالى أنه أغناهم وأن رسوله أغناهم. وهو من الله حقيقة، لأنه الذي قَدَّرَ ذلك، ومن الرسول ﷺ حقيقة باعتبار تعاطي الفعل، وكذا الإنعام؛ أنعم الله على زيد

بالإسلام، والنبي ﷺ أنعم عليه بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة في الفعل الواحد، فالكلام إنما هو فيه، والمنع انما هو منه[1].

فإن قلت: قد ذكر النحاة أن (ثم) تقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم كـ (الواو) فلم جاز ذلك بـ(ثم) ومنع منه بـ(الواو). وغاية ما يقال: إن (ثم) تقتضي الترتيب بخلاف الـ(واو)، فإنها تقتضي مطلق الجمع، وهذا لا يغير صورة الاشتراك.

قيل: النهي عن ذلك إنما هو إذا أتى بصورة التشريك جمعاً، وهذا لا يحصل إلا بالـ (واو) بخلاف (ثم)، فإنها لا تقتضي الجمع، إنما تقتضي الترتيب، فإذا أتى بها زالت صورة التشريك، والجمع في اللفظ.

وأما المعنى، فلله تعالى ما يختص به من المشيئة، وللمخلوق ما يختص به، فلو أتى بـ (ثم) وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة فـ(لولا الله ثم فلان —مثلاً– لم يوجد ذلك) فالنهي باق بحاله، بل يكون في هذه الصورة أشد ممن أتى بـ (الواو) مع عدم هذا الاعتقاد، ويشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد، ولهذا أنكره النبي ﷺ على الخطيب لما قال: "ومن يعصهما فقد غوى" فقال له: ((بئس الخطيب أنت)). ١

فيه من الفوائد ما قاله الشيخ رحمه الله في مسائل الباب قال فيه: فهم الإنسان إذا كان له هوى. فهؤلاء اليهود هم أهل الشرك يقولون عزير بن الله ويشركون بالله جل وعلا؛ لكنهم مع كونهم مشركين نقموا على أهل الإسلام أنهم يشركون، وهذا لأجل الطعن فيهم، فالهوى وطلب تنقُّص أهل الإسلام والنقد عليهم، أو مخاطبتهم بما يسوؤهم هذا كان قصدا لهم، ولهذا فهموا من أين يدخلون، فأهل الإسلام أهل التوحيد فقالوا لهم (إنّكُمْ تُشْرِكُونَ) وهم أهل الشرك؛ لكن فيه أن صاحب الهوى قد يفهم الصواب، فإذا فهم الصواب فإن الواجب أن يُقبل منه؛ لأن المؤمن يجب عليه أن يقبل الحق ممن جاء به ولو كان يهودياً أو نصرانياً، فهذا اليهودي –أو النصارى كما سيأتي– هؤلاء توجهوا إلى المؤمنين بالقدح فيهم بالشرك، ولم يمنع

[1] يعني أن الكلام إنما هو في المشاركة، والمنع إنما هو في المشاركة.

النبي ﷺ من قَبول الحق الذي قالوه أنهم يهود؛ بل قبل ما جاء به ذلك اليهودي، فأوصاهم بأن يتركوا ذلك التنديد.

وهذا فيه أن الحق هو ضالة المؤمن أين وجده أخذه، فلا يمنعه من قبول الحق أن قاله مشرك أو قاله كافر أو قاله فاسق أو قاله مبتدع أو قاله ضال إذا كان الكلام في نفسه حقا؛ لأنه كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ((الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها)). ٣

ويُستفاد من الحديث:

- أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه، لأن ما قاله حق.
- مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبه عليه ليس من أهل الحق.
- أنه ينبغي عند تغيير الشيء أن يغير إلى شيء قريب منه، لأن النبيﷺ أمرهم أن يقولوا: ((ورب الكعبة))، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: ((ما شاء الله، ثم شئت)). ٥

وفي الحديث من الفوائد: معرفة اليهود بالشرك الأصغر، وكثير ممن يدعي الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر، بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبح، والنذر لغير الله، ويظن أن ذلك من دين الإسلام، فعلمت أن اليهود في ذلك الوقت أحسن حالا ومعرفة منهم.

وأن المعرفة بالحق لا تستلزم الإيمان ولا العمل.

وإن الحلف بغير الله من الشرك وأن الشرك الأصغر لا يمرق به الإنسان من الإسلام. ١

وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة. وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه. وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة، فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع. فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من

خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً. ٢

إشكال وجوابه:

وهو أن يقال: كيف لم ينبه على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم، فكيف يقرهم؟

فيبقي الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر، فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركاً أكبر ولا يرون عيبهم. ٥

وله أيضاً عن ابن عباس ﭬ: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: ((أجعلتني لله نداً؟ ما شاء الله وحده)).

هذا الحديث رواه النسائي، كما قال المصنف، لكن في (اليوم والليلة) وهذا لفظه: أخبرنا علي بن خشرم عن عيسى عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس: "أن رجلا أتى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: ((أجعلتني لله عدلا؟ قل ما شاء الله وحده)).

ورواه ابن ماجه في الكفارات من (السنن) عن هشام بن عمار، عن عيسى نحوه.

ولفظه: ((إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت...)) الحديث. ١

قوله: ((أجعلتني لله نداً)) هذه رواية ابن مردويه[١]، والرواية عند النسائي وابن ماجه ((أجعلتني لله عدلاً)) والمعنى واحد. ١

قوله في حديث ابن عباس ﭬ: "أن رجلاً قال للنبي ﷺ". الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيماً، وأنه جعل الأمر مُفوضاً لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: ((أجعلتني لله نداً؟!)). الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق نداً، فقد أتي شيئاً عجاباً.٥

---

[١] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٥/٤١) باللفظ المذكور.

الند هو: الشّبيه والمثيل والنّظير، يعني :أجعلتني شبيهاً لله ومثيلاً لله وشريكاً له في المشيئة، ثم أمره أن يستبدل هذه اللفظة بلفظة التّوحيد فيقول: ما شاء الله وحده. ٤

قوله ((بل ما شاء الله وحده)). أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بَعُدَت. ٥

وهذا إرشاد إلى الأكمل أن يقول: ما شاء الله وحده، وإذا قال: ما شاء الله، ثُمَّ شئت. فهذا بيانٌ للجائز، فلا تعارُض بين الحديثين.

وهذا من سدّ الطُرُق الموصلة إلى الشرك، فإنّه ﷺ نهى عن الشرك ونهى عن الطرق التي توصل إليه، فإذا تلفظ بذلك -ولو كان لا يعتقد- فهذا وسيلةٌ إلى الاعتقاد فيما بعد، فيُمنَع اللفظ وإنْ كان لا يعتقد بمعناه لئلا يفضي هذا إلى الاعتقاد. ٤

وقوله: ((أجعلتني لله ندا؟)) فيه بيان أن من سوى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله، شاء أم أبى، خلافاً لما يقوله الجاهلون مما يختص بالله تعالى من عباده، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ((ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)). ٢

قال ابن القيم: "ومن ذلك - أي: من الشرك بالله في الألفاظ- قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال له رجل: "ما شاء الله وشئت" -وذكر الحديث المشروح- ثم قال: هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة، لقوله ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، فكيف بمن يقول: "أنا متوكل على الله وعليك"، "وأنا في حسب الله وحسبك"، "وما لي إلا الله وأنت"، "وهذا من الله ومنك" و "هذا من بركات الله وبركاتك"، "والله لي في السماء وأنت لي في الأرض"، و"الله وحياة فلان"، أو يقول "نذراً لله ولفلان"، و"أنا تائب لله ولفلان"، و"أرجو الله وفلاناً".

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: (ما شاء الله وشئت) ثم انظر أيهما أفحش؛ يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ القائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله نداً بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول ﷺ في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين، فالسجود، والعبادة، والتوكل، والانابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه، من ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وفي مسند الإمام أحمد أن رجلاً أتي به إلى النبي ﷺ، قد أذنب فلما وقف بين يديه قال: "اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد"، فقال: ((عرف الحق لأهله)).[1]

قلت: إذا كان هذا كلامه ﷺ لمن قال له "ما شاء الله وشئت"، فكيف بمن يقول فيه:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول في همزيته:

هذه علتي وأنت طبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء

وأشباه هذا من الكفر الصريح. ١

ولا شك أننا مأمورون بتعظيم النبي ﷺ ومحبته، وتقديم هذه المحبة على جميع المحاب سوى محبة الله سبحانه، بل إنه يجب علينا أن نحب الرسول ﷺ أحب من أنفسنا وأولادنا كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)).

ولهذا حينما قال عمر: إنك يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي قال: ((لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك)) فقال عمر: والله إنك أحب إلي من نفسي، فقال: ((الآن يا عمر)).

---

[1] الداء والدواء لابن القيم (ص ٩٣ -٩٤).

ومحبته ﷺ واجب عقدي، ومن أهم درجات محبته بعد تعظيمه في القلب اتباع ما أمرنا به واجتناب ما نهانا عنه ﷺ.

وهذا الرجل الذي قال هذه اللفظة في الحديث عرف واجب تعظيم النبي ﷺ، ولكنه أخطأ حينما زاد في تعظيمه ﷺ حتى جعله مساوية في اللفظ لله عز وجل، أما ما في قلبه فالله أعلم به، ولا ريب أن هذا غلو في تعظيم النبي ﷺ، ولذلك أنكره عليه الصلاة والسلام حيث جعله لله نداً، والند: النظير والمثيل والمساوي، والرسول ﷺ أشرف عبد وأكرم رسول ولكنه لا يصل إلى منزلة الله تبارك وتعالى.

وهذا الاستفهام الوارد في الحديث هو للإنكار على هذا الفعل.

وهنا قد يقول قائل: إن النبي ﷺ قال: ((إنما الأعمال بالنيات)) فإذا كانت النية سليمة فلا إشكال. فيقال: النية وحدها لا تكفي دون حسن العمل وصوابه، ومن حسن العمل القول واللفظ، فلا يمكن أن يشرك الإنسان بالله عز وجل ويقول: قصدي حسن ونيتي سليمة. ولهذا من شرط قبول العمل أن يكون على وفق ما جاء به النبي ﷺ مع إخلاص العمل لله سبحانه.

ولأن الألفاظ يحاسب عليها الإنسان، لم يقل ﷺ لهذا الرجل ماذا تقصد بهذه اللفظة؟ وما نيتك؟ فدل على أنه ينكر على من قال هذا وإن لم يقصد ظاهر العبارة، ودفعا لإيهام الترتيب والمساواة بين الخالق والمخلوق. ٩

يستفاد من الحديث:

- أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة، فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك، فهو أصغر، وإذا كان هذا شركاً، فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟!

هذا أعظم، لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولكن الله فضله على البشر بما أوحي إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

[الكهف:١١٠]، فهو بشر، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مثلكم﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠]، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلى خصائص الربوبية، فهذا أمر لا يمكن، ومن أدعى ذلك، فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها، ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لا ننزله منزله الرب عز وجل.

- إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر، لقوله ﷺ: ((أجعلتني لله نداً))، مع أنه فعل ذلك تعظيماً للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحنى لك شخص عن السلام، فالواجب عليك الإنكار.
- أن من حسن الدعوة إلى الله عز وجل أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم، لأنه ﷺ لما منعه من قوله: ((ما شاء الله وشئت)) أرشده إلى الجائز وهو قوله: ((بل ما شاء الله وحده)). ه

وهذان الحديثان فيهما فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: ما ذكره الشيخ رحمه الله في مسائله قال: "فيه فَهْمُ الإنسان إذا كان له هوى"، فهذا اليهودي مع كونه يهوديًّا مغضوباً عليه فهم أنّ هذا من الشّرك، لأنّه يريد أن يتنقّص هذه الأُمّة، ومع هذا تقبّل الرّسول ﷺ هذه الملاحظة، وأرشد إلى تصحيحها.

فهذا فيه فائدة ثانية وهي: قَبول الحقّ ممّن جاء به ولو كان عدوًّا.

وفيه فائدة ثالثة: نبّه عليها الشيخ رحمه الله وهي: أن اليهود على ضلالهم يفهمون الشّرك، وبعض علماء هذه الأُمّة لا يفهمون الشرك، ولذلك يرون جواز عبادة الأضرحة والقُبور، ولا

يستنكرونها، ويقولون: هذا من التوسُّل بالصالحين، وليس شركاً، أو هذا يدلّ على محبة الصالحين. ويحبِّذون هذا الشيء، ويرون أنّه ليس بشرك، مع أنه شركٌ مخرجٌ من الملّة، والذي ذكره هذا اليهودي شركٌ أصغر لا يُخرِجُ من الملّة، وبعض المنتسبين إلى العلم من هذه الأمة لا يُنكرون الشرك المخرجِ من الملّة الذي يَعُجُّ الآن في العالم الإسلامي بعبادة غير الله، ففيه أن بعض اليهود أفهم من بعض العلماء المنتسبين إلى الإسلام، نسأل الله العافية والسلامة.

الفائدة الرابعة: النّهي عن قول: (ما شاء الله وشئت)، والنّهي عن الحلف بالكعبة، وبغيرها من المخلوقات، لأنّ الحلف بغير الله شرك، لأنّه تعظيمٌ لغير الله سبحانه وتعالى، ولا يستحقّ التعظيم على الوجه الأكمل إلاّ الله سبحانه وتعالى، ففيه: أن الحلف بغير الله شرك، لأنّ النبي ﷺ أقرّ هذا اليهودي على قوله: "إنكم تُشركون"، فدل على أنّ هذه الألفاظ شرك.

الفائدة الخامسة: التّوجيه أنّ العالِم إذا منع من شيء؛ فإنّه يوجِّهُ إلى البديل الصّالح، لأنّ النبي ﷺ وجّه إلى أن يُقال: "وربّ الكعبة"، وأن يقال: "ما شاء الله، ثُمَّ شئت"، فمن أفتى بتحريم شيء أو بمنع شيء وهُناك له بديلٌ صالح فإنّه يوجِّه إليه، كما فعل النّبي ﷺ.

الفائدة السادسة: وفي حديث ابن عبّاس في الرّجل الذي قال للنّبي ﷺ: "ما شاء الله وشئت، قال له: ((أجعلتني لله نِدًّا)) فيه: إنكار المنكر، فإنّ النبي ﷺ أنكر عليه، لا سيّما إذا كان هذا المنكر شركاً يُخِلُّ بالعقيدة فإنّه لا يجوز السُّكوت عليه، بل يجب أن يبيِّن ويُنبِّه، وهذا يشهد لِمَا قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير الآية التي سبقت، وهي قولُه: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عبّاس هو قولُ الرّجل: "لولا الله وفلان، لو كُلَيْبَة هذا لأتانا اللّصوص، لولا البطّ لأتى اللُّصوص"، ففسّر اتّخاذ الأنداد بهذه الأشياء، وها هو الرّسول ﷺ في هذا الحديث يقول: ((أجعلتني لله نِدًّا؟))، فدلّ على أنّ قول: (ما شاء الله وشئت) اتّخاذ للنِدّ مع الله سبحانه وتعالى وإنْ كان من الشّرك الأصغر. ٤

وفيه: أن النبي ﷺ حمى حِمى التوحيد، وسد طرق الشرك في الأقوال والأعمال. ٧

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: ((هل أخبرت بها أحداً؟)) قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((أما بعد؛ فإن طفيلاً رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها. فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده))[1].

فقد تبين أن هذا الحديث المذكور لم يروه ابن ماجة[2] بهذا اللفظ، لكن رواه أحمد والطبراني بنحو مما ذكره المصنف. ١

قوله: "ولابن ماجه: عن الطُّفيل -أخي عائشة لأمّها"- الطُّفَيل هو: الطُّفَيْل بن عبد الله بن سَخْبَرَة الأَزْدي، نِسْبَةَ إلى الأَزْد؛ قبيلةٌ عربيّة مشهورة، وأبوه: عبد الله بن سَخْبَرَة جاء إلى مكّة قبل البِعْثة وحالَف أبا بكر الصدِّيق، كما كان عليه الأمر في الجاهلية أنهم يتحالفون، ويصبح الحلِيف أخاً لحليفه يدافِع عنه ويناصره ويحميه، بل إذا مات يَرِثُه، ويصبح الحليف مختلطاً بحلفائه كأنّه واحدٌ منهم، ثم نسخ الإسلام الأحْلاف وأبطل الميراث الذي يكون بالحِلْفِ، وقال الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأنفال:٧٥]، فجعل الميراث لأولي الأرحام، يعني: الأقارب دون الحلفاء، ثم مات عبد الله بن سَخْبَرَة، وكانت

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٧٢)، والدارمي في سننه (رقم ٢٦٩٩)، والبخاري في التاريخ الكبير (٤/٣٦٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم٨٧٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (رقم ٢٧٤٣). وغيرهم وإسناده صحيح كما قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/١٣٧).

[2] سنن ابن ماجة (١/٦٨٥) وإسناده صحيح.

زوجته يقال لها: (أُمّ رُوْمَان)، فتزوجها أبو بكر الصدّيق بعد حليفه عبد الله بن سَخْبَرَة، وأنجبت منه عبد الرحمن بن أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر زوج النبي ﷺ، ولهذا كان الطّفيل بن عبد الله أخاً لعائشة من أمها.

"قال: رأيت" يعني: في النّوم. والرؤيا حقّ، وهي جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النّبوّة.

قد ذكر ابن القِيم رحمه الله في كتاب "الروح" أن الرؤيا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حق، وهو ما يجري على يد ملَك الرؤيا، يأتي إلى النائم فيُريه أشياء عجيبة، فيستيقظ النائم وقد رأى هذه الرؤيا فتقع كما رآها.

النوع الثّاني: يكون من الشيطان، وذلك: أنّ الإنسان إذا نام ولم يذكر الله عند النوم، ولم يقرأ آية الكرسي، ولم يقرأ سور الإخلاص والمعوّذتين، ولم يتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، ويأتي بالأدعية المشروعة عند النّوم، فإنّ الشيطان يتسلّط عليه، ويكدِّر عليه نومه، ويُريه أشياء باطلة لا حقيقة لها من أجل أن يكدِّره. والسبب: أنه لم يتحصّن بالله من الشيطان قبل النوم.

النوع الثالث: حديث نفس، وذلك أنّ الإنسان يفكِّر في أشياء في اليَقظة، أو تُهِمُّه أشياء، فإذا نام فإنّ هذه الأشياء تَعْرِضُ له في نومِه، لأنّه كان مهتمًّا بها في اليقظة. وهذا حديث نفس ليس له حقيقة، وإنما هو أضغاث أحلام.

قوله: "كأنِّي أتيتُ على نَفَرٍ من اليهود" النفر: الجماعة ٤ من الثلاثة إلى التسعة. ٥

والنفر: رهط الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع يقع على جماعة من الرجال خاصة، ما بين الثلاثة إلى العشرة، ولا واحد له من لفظه. قاله أبو السعادات[١]. ١

واليهود: هم أتباع موسى-عليه الصلاة والسلام- في الأصل. قيل: إنّهم سُمُّوا باليهود نسبة إلى (يهودا ابن يعقوب)، وقيل: سُمُّوا يهوداً أخذاً من قول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] يعني: تُبْنا إليك، من (الهَوْد) وهو التّوبة والرُّجوع إلى الله سبحانه وتعالى. هذا في الأصل، ثم صار يُطلق لفظ اليهود على المنتسبين إلى إتّباع موسى، وإن كانوا قد

---

[١] النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٩٢)

خالفوه في أشياء كثيرة، وكذبوا عليه، وأَحْدَثوا في دينِه الأشياء القبيحة من الشرك بالله والكلام في حق الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: "لأنتم القوم". كلمة مدح، كقولك: هؤلاء هم الرجال. ٥

قوله: "قلت: إنكم لأنتم القوم" هذا مدحٌ لهم، لأنهم كانوا في الأصل على دين صحيح.

"لولا أنّكم تقولون: عُزير ابن الله" ينسبون الولد إلى الله سبحانه وتعالى، و"عُزَيْر" اسم رجلٍ منهم، قيل: إنّه نبي، وقيل: إنّه رجلٌ صالح وعالِمٌ من علمائهم. ٤

ادعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم معائب كثيرة، لكن خصت هذه، لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم. ٥

"لولا أنكم" يعني: لولا هذه المقولة الكافرة فيكم.

"قالوا" ردًّا على الطُّفيل.

"وأنتم لأنتم القوم" يمدحون المسلمين.

"لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد". ٤

قوله: "ما شاء الله وشاء محمد". هذا شرك أصغر، لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية الرسول ﷺ بمشيئة الله عز وجل باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله جل وعلا. ٥

فيه: أن الإنسان يرى عيب غيره، ولا يرى عيب نفسه، وإن كان عيبه أكبر من عيب غيره. وفيه: قبول الحق ممن جاء به.

قال: "ثم مررت على نفرٍ من النصارى" النصارى: أتباع عيسى عليه السلام في الأصل. قيل سُمُّوا نصارى نسبةً إلى البَلد (الناصرة) بفلسطين، وقيل: سُمُّوا نصارى من قولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [الصف:١٤].

"فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله" وهو عيسى ابن مريم، سُمِّي بالمسيح لأنّه يمسح بيده على ذي العاهة فيبرأ بإذن الله. فالنصارى غلوا في المسيح كما غَلَت اليهود في عُزير. ٤

والشيطان لعب بالنصارى، فقالوا: هو ابن الله، لأنه أتى بدون أب، كما في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١]، قالوا: هو جزء من الله، لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن.

والروح على الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عند الموت وتكفن ويصعد بها ويرها الإنسان عند موته، فالصحيح، أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة ولكن الروح ذات، إذا نقول لهؤلاء النصارى: إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفاً وعظمة. ٥

ثم رد عليه النصارى بمثل ما قاله اليهود، قال طُفيل: "فلما أصبحتُ أخبرتُ بها مَن أخبرت[١]، ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرتُه. ٤

قوله "ثم أتيت النبي ﷺفأخبرته" فيه حسن خلقه ﷺ، وعدم احتجابه عن الناس كالملوك بحيث إذا أراد أحد الوصول إليه أمكنه ذلك بلا كلفة ولا مشقه، بل يصلون إليه ويقضي حاجتهم ويخبرونه بما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم، ويقصون عليه ما يرونه في المنام، بل كان ﷺ يعتني بالرؤيا لأنها من أقسام الوحي، وكان إذا صلى الصبح كثيراً ما يقول ((هل رأى أحد منكم رؤيا))[٢]. ١

---

[١] وفي رواية أحمد (فلما أصبح أخبر بها من أخبر)، وفي رواية الطبراني (فلما أصبحت أخبرت بها أناسا)[١]

[٢] جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه (رقم١٣٢٠) من حديث سمرة بن جندب، ومسلم في صحيحه (رقم٢٢٦٩) من حديث ابن عباس.

قال: ((هل أخبرتَ بها أحداً؟))، قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((أمّا بعد((هذا فيه: دليل على مشروعية حمد الله والثّناء عليه في بداية الكلام، لقوله ﷺ: ((كلّ أمر ذي بال لا يُبدأُ في بالحمد لله فهو أبتر))، ولهذا افتتح الله كتابه العظيم القرآن بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة:٢]، وفيه استحباب الإتيان بأما بعد، وهي كلمة يُؤتَى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر.

"فإن طُفيلاً قد رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنّكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها" قيل: كان يمنع النبي ﷺ الحياء، لأنّه لم ينزل عليه وحيٌ في المنع منها. ٤

وفي رواية أحمد والطبراني ((وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها)). ١

قوله: ((يمنعني كذا وكذا)) أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهي عنها دون أن يأمره الله بذلك. هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق ولكن الحياء أن ينكر شيئاً قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حرمت في سورة المائدة، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين بالنطق بها. ٥

فلما جاء الامر الإلهي بالرؤيا الصالحة أنكرها ولم يستحي في ذلك. ١

هذه المسائل ليست من الشرك الأكبر بل من الأصغر دلّ عليه قوله في آخره ((قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها)) والشرك في الألفاظ أتى بالتدريج بخلاف -يعني نفي الشرك في الألفاظ وتحريم الشرك في الألفاظ- أتى بالتدريج في تاريخ بعثة النبي عليه الصلاة والسلام وتبليغه أمته بالأوامر والنواهي، أما الشرك الأكبر فقد نفاه من أول الرسالة، أما شرك الألفاظ وبعض أنواع الشرك الصغر فأتى بالتدريج، فكان الحلف بالآباء جائزاً ثم نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك، وكذلك قول ما شاء الله وشئت ثم نهاهم عن ذلك.

ولهذا قال المصنف في مسائل كتاب التوحيد: فيه أن الشرك فيه أكبر وأصغر لقوله ((يمنعني كذا وكذا)).

وأما الشرك الأكبر فلا يجوز أن يؤخر إنكاره أو أن يمنع عنه مانع.

أما شرك الألفاظ فقد تكون المصلحة والفقه -فقه الدعوة-، وفق ترتيب الأهم والمهم وتقديم الأهم على المهم أن يؤخر بعضه لتتم المصلحة العظمى.

أما الشرك الأكبر فلا مصلحة تبقى مع وجوده. ٣

((فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده)) لَمّا نبّههم على خطأ هذه الكلمة أرشدهم إلى البديل الصالح منها، وهو أن يقولوا: ما شاء الله وحده. ٤

وهذا الحديث والذي قبله فيه أن يقولوا: ((ما شاء الله وحده)). ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص، وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: "ثم شاء فلان"؛ لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد في كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.٢

وهذا هو طريق كمال التوحيد والبعد عن الشرك، ويأتي في هذا باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

والمقصود أن هذا المقام مقام كمال التوحيد، والبعد عن وسائل الشرك صغيره وكبيره، الشرك الأصغر والأكبر جميعاً، فلا يجوز للمؤمن أن يتعاطى شيئاً من الشرك لا قليله ولا كثيره، بل يجب الحذر من ذلك، ومن الشرك الأصغر: لولا الله وفلان، ما شاء الله وشاء فلان، والحلف بغير الله، كل هذا من أنواع الشرك الأصغر؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك عليه الصلاة والسلام وقال: ((من حلف بشيء دون الله فقد أشرك))، وقال: ((لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان، ولا تقولوا ومحمد وقولوا: ورب محمد)). هكذا المؤمن إذا حلف ولا يقل: والكعبة، ولا وشرف فلان، ولا وحياة فلان، ولا بالأنبياء، ولكن يقول: لولا الله ثم فلان، ما شاء الله ثم شاء فلان، ويقول: والله، والرحمن بالله ولا يحلف بالكعبة ولا بغيرها. ٦

هذا فيه أن صاحب الهوى أو صاحب الملة الباطلة قد يردّ على صاحب الحق بأن عنده باطلاً كما أن عند ذلك باطلاً، فإذا واجهه بذلك فالواجب عليه أن يتجرد للحق وأن لا يرد الحق لأجل أن من أتى به صاحب باطل.

فالقاعدة عند أهل السنة والإيمان أن البدعة لا ترد ببدعة، والباطل لا يرد بباطل، وكثير مما حصل معهم نقص في تاريخ الإسلام وحصلت الشبهات وقويت بعض الضلالات من جهة أن من ووجه بحق وكان الذي واجهه بذلك صاحب باطل أنه ردّ عليه الحق فصار معنى ذلك أنه لا يقبل الحق، ثم صار يوجه الأدلة في لإبطال ذلك الحق، وهذا كما فعله طائفة من أهل البدع والواجب أيضاً أن لا ترد البدعة ببدعة، وأن لا ترد البدعة إلا بحق، وإذا جهل المرء كيف يرد البدعة بحق فيصبر حتى يتعلم أو يسأل أهل العلم، وليس من الواجب عليك أن ترد مباشرة؛ بل إذا ووجهت بحق ولو كان من أضل الضُّلاَّل فاقْبَل، فإبليس؛ الشيطان قُبِل منه بعض الحق الذي جاء به وأرشد إليه أبا هريرة، وهؤلاء اليهود والنصارى في هذين الحديثين قبل منهما يعني من تلك الطائفتين حقا أرشدونا إليه في أعظم المسائل وأجل المطالب وهو توحيد الله جل جلاله. ٣

فهذه القصة فيها فوائد عظيمة ودُروس وعِبَر:

الفائدة الأولى: أن الرؤيا حقّ، ولذلك: لا يجوز الكذب في الرؤيا، وجاء في الحديث الوعيد على ذلك.

الفائدة الثّانية: فيه: فهم الإنسان إذا كان له هوى، فهؤلاء اليهود والنصارى لَمّا كان لهم هوى في حق المسلمين؛ لاحظوا هذه المسألة، لا حُبًّا في الخير أو حِرْصاً على التّوحيد، ولكنّهم يريدون بذلك تنقُّص المسلمين، والتماس عيوبهم، وإن كان في اليهود والنصارى عيوب أكثر منها.

الفائدة الثالثة: قَبول الحقّ ممّن جاء به ولو كان عدوًّا، لأنّ الحق ضالّة المؤمن، والرُّجوع إلى الحقّ فضيلة.

الفائدة الرّابعة: في الحديث دليل: على أنّ من نهى عن شيء أو منع من شيء وكان له بديل صالح أن يأتيَ بالبديل، فالنّبي ﷺ لَمّا منع من هذه الكلمة "ما شاء الله وشاء محمد" أتى بالبديل الصالح الذي ليس فيه محذور وهو أن يقال: ((ما شاء الله وحده)).

الفائدة الخامسة: وهي التي ساق المصنّف الحديث من أجلها-: أنّ كلمة "ما شاء الله وشاء فلان" ولو كان نبيًّا من الأنبياء؛ شركٌ بالله عزّ وجلّ يجب تركُه، ولكنّه من الشّرك الأصغر، بدليل قوله" "يمنعني كذا وكذا"، فإذا كان الإنسان لم يقصد معناه؛ فإنّه شركٌ في الألفاظ، فيجب تركُه واجتنابُه والابتعاد عنه.

الفائدة السادسة: أنه لا يجوز الغلو بالنبي ﷺ وإشراكه مع الله في شيء، ودعاؤه، والاستغاثة به من دون الله عزّ وجلّ لأنه نهى أن يقال "ما شاء الله وشاء محمد" فما بالك بما هو أشد من ذلك من أنواع الغلو. ٤

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله ﷺ: ((أجعلتني لله نداً؟)) فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله ((يمنعني كذا وكذا)).

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

أي: إذا كان له هوى فهم شيئاً، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه، فاليهود مثلاً أنكروا على المسلمين قولهم: "ما شاء الله وشئت" وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزير ابن الله، ويصفون الله تعالى بالنقائض والعيوب.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواء، فتجده يحمل النصوص من الدلالات ما لا تحتمل، كذلك أيضاً بعض العصريين يحملون النصوص ما لا تحمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها، فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه، ثم يكون فهمه تابعاً لها، لا أن يخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده، ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل، لأنك إذا اعتقدت ثم أستدللت ربما يحملك اعتقادك على أن تحرف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل أن الإنسان إذا كان له هوى، فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه. ٥

الثالثة: قوله ﷺ: ((أجعلتني لله نداً؟)) فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده.

وقوله: "فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك..." يشير رحمه الله إلى أبيات للبوصيري في البردة القصيدة المشهورة –، يقول فيها:

يا أكـرم الخلـق مـا لي مـن ألـوذ بـه	سـواك عنـد حلـول الحـادث العمـم
إن لم تكـن آخـذاً يـوم المعـاد يـدي	عفـــواً وإلا فقـــل يا زلـــة القـــدم
فـإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها	ومـن علومـك علـم اللـوح والقلـم

وهذا غاية الكفر والغلو، فلم يجعل لله شيئاً ، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله. ٥

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله ((ريمنعني كذا وكذا)).

لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره. ٥

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: ((الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة))[1] لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان، وهذا ستة أشهر، فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي، كان جزءاً من ستة وأربعين جزءاً، لأن الوحي كان ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة له، والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن الصلاح، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام، فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصها رجل على النبي ﷺ قال: إني رأيت رأسي قد قطع، وإني جعلت أشتد وراءه سعياً. فقال النبي ﷺ: ((لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك))[2]، والغالب أن المرائي المكروهة من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شيئاً إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأي ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: ((أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت. وأن يتحول إلى الجانب الآخر، وأن لا يخبر أحداً))[3]. وفي رواية: ((أمره أن يتوضأ وأن يصلي))[1]. ٥

---

[1] البخاري: كتاب التعبير/ باب الرؤيا الصالحة، ومسلم: كتاب الرؤيا، (٢٢٦٥).

[2] مسلم: كتاب الرؤيا/ باب لا يخبر بتلاعب الشيطان به في المنام

[3] مسلم "كتاب الرؤيا " (٢٢٦٠).

الرؤى والأحلام التي تعرض للنائم على تنقسم في الجملة – إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: الرؤيا، وهي التي تأتي بصورة واضحة ليس فيها تخويف، وليس فيها مزيج من الوقائع والأحداث التي لا أول لها ولا آخر، فهذه رؤيا حق، وهي التي أخبر عنها النبي ﷺ أنها جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة، وهذا النوع يكون إما بشارة بخير أو تحذيراً من شر، والواجب على المسلم هنا أن يحمد – الله ويشكره أن هيأ له ما يبشره أو يحذره، أو ينذره، وعليه ألا يخبر بهذه الرؤيا إلا من يحب ويعرف أن هذا المخبر يحب له الخير، وعليه ألا يسأل عنها إلا من يجيد التعبير لأجل ألا يصرفها عن تعبيرها الصحيح، ومثل هذا النوع رؤيا يوسف عليه السلام حينما قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ [يوسف:٤]
القسم الثاني: وهي التي يأتي بها تخويف أو ترويع للرائي، كأن يرى في المنام أن يسقط من مكان شاهق، أو أن سيارة تصدمه أو أن شخصاً يريد قتله... وهذا النوع لا عبرة به، وعلى المسلم إن رأى شيئاً من ذلك أن ينقلب إلى جنبه الآخر، وينفث عن يساره ثلاثاً، ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شر ما رأى، وإن زاد على ذلك وقام وتوضأ وصلى ركعتين فحسن، ومن قام بهذه الأداب فلا تضره هذه الرؤيا كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وهنا ينبغي للمسلم أن يحرص على تحصين نفسه بالأذكار قبل أن ينام لتندفع عنه الرؤى المنغصة التي يكرهها.
القسم الثالث: وهي الأحلام التي تأتي على شكل قصص لا أول لها ولا آخر، ويدخل في هذا ما يراه الإنسان في الليل مما عمله في النهار، وهذه أضغاث أحلام لا عبرة بها، وغالبا ما يكون النائم قد أكل أو شرب كثيراً، أو يكون مشغول الذهن في النهار بقضية ما فيراها في الليل، فهي صورة انعكست في الليل من عمل النهار.

---

[١] البخاري: كتاب التعبير/ باب القيد في المنام

هذه الأقسام هي مجمل ما يراه النائم. ولا شك أن تأويل الرؤى علم مستقل كما أخبرنا سبحانه بذلك فقال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٢١] ومن المعلوم أن للفراسة دورة فيها، وهي تحتاج للممارسة وتركيب أجزاء هذه الرؤيا، ويدخل في ذلك ظروف الزمان والمكان وظروف الشخص نفسه، ولهذا يرى الإنسان الرؤيا ويراها آخر ويختلف التعبير، لاختلاف حالهما، فرؤيا العالم غير رؤيا التاجر غير رؤيا الأم غير رؤيا الصبي، والرؤيا وقت الحرب غير الرؤيا وقت السلم، ولهذا من الأدب ألا يسأل عن تعبير الرؤى إلا من عرف عنه التعبير الصحيح أو غلب على الظن ذلك، وليس كل من اشتهر أمره بين الناس صار معبراً.

ومما ينبغي التنبيه له في هذا المقام أن بعض الناس تعلقوا بهذه الرؤى، بل إن بعضهم علق عليها أحكاما عامة للأمة، وهذه للأسف فيها شيء من ضعف الإيمان وكيف يكون ذلك؟

والجواب عليه أن يقال: كأننا نقول للناس بلسان الحال لا تعملوا فنحن سننتصر يوم كذا، وسيحل العذاب بالعدو يوم كذا، وقد يرقد كثير من المسلمين ويقعدون عن تحصيل أسباب النصر والظفر على الأعداء، اعتمادا على مثل هذه الرؤى التي كثيرا ما تخطئ، وهذا العمل غير صحيح، بل علينا أن نأخذ بأسباب النصر مثلاً فقد أمرنا بذلك.

وهنا على المسلم ألا تشغل الرؤيا وقته فيكون همه السؤال عما في المنام، ويفرح أشد الفرح بالتعبير المبشر ويغتم من ضده، وكأن هذا التعبير سابق لقدر الله أو أن هذا التعبير واقع لا محالة، بل على المسلم أن يهتم بأمور دينه أولا، ولا مانع من السؤال عن الرؤى أحيانا، نسأل الله للجميع الإعانة والتوفيق. ٩

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: ((إنها رؤيا حق))[١]، وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأي ثابت بن قيس بن شماس، فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت برمة، وعندما فرس يستن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره، فذهبوا إلى المكان

[١] الإمام أحمد في "المسند" (٤٣/٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة / باب كيف الأذن.

ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس[١]، فنفذ أبو بكر وصيته، لوجود القرائن التي تدل على صدقها، لكن لو دلت على ما يخالف الشريعة، فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها، لأنها ليست رؤيا صالحة. ٥

وهذا الأمر مبني في الأصل على التشريع الرباني و ليس قائماً على الرؤيا فقط، لأن الرؤيا بعد انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ لا ينبني عليها أحكام شرعية. ٩

الأسئلة:

س: إذا قال إذا شئت؟

الشيخ: لا، ثم شئت، ما يقال إذا شئت.

س: لا إذا شئت بس؟

الشيخ "إن شئت تعطيني كذا وكذا جزاك الله خيرًا"، إن حبيت تعطيني كذا ما يخالف، أما لو قال: لولا الله وما شاء الله، ما يقول: وشاء فلان.

س: قول النبي ﷺ في شأن الشفاعة لعمه أبي طالب: ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار؟

الجواب: جاء في هذا رواية معروفة: لولا الله ثم أنا فهذه الرواية إما منسوخة، وإلا غلط من بعض الرواة.

س: قول بعض السلف: لولا فلان لذهب علم الحجاز؟

الجواب: لا، الصواب لولا الله ثم فلان.

س: من قال في ذمتي أو في .... رقبتي؟

---

[١] الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٩/ ٣٢٢)، وقال: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح".

الشيخ: ما يصير يمين إلا إذا قال بذمتي بالباء، الحلف بالباء، أو بالهمزة، أو بالواو، أو بالتاء، أما في ما هي من أدوات الحلف.

س: أهل اللغة يرون أن حروف العطف ينوب بعضها عن بعض الفاء والواو وثم؟

الشيخ: تختلف في الترتيب، الواو للجمع، والفاء للترتيب باتصال، ثم للترتيب بانفصال، تختلف وكلها حروف عطف، ولكن تختلف معانيها.

س: اليهودي الذي ... الرسول هل دخل في الإسلام؟

الشيخ:؟

الطالب: اليهودي الذي قال: أنتم تشركون بالله؟

ج: الله أعلم ما ندري عنه، هذا فيه اتهام الإنسان إذا كان له هوى، هم عندهم الشرك بالله الأكبر ولكن لما كان لهم هوى اعترضوا بهذا الاعتراض، فنبه النبي ﷺ. ٦

(بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ)

(بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]. الْآيَةُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) وَفِي رِوَايَةٍ: ((لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ)).

قال الشيخ رحمه الله: "باب من سبّ الدهر". ٤

السب: الشتم والتقبيح والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت. ٥

الدهر هو الزمان؛ اليوم، والليلة، أسابيع، الأشهر، السنون، العقود، هذا هو الدهر، وهذه الأزمنة مفعولَة؛ مفعول بها لا فاعلة، فهي لا تفعل شيئاً وإنما هي مسخرة؛ يسخرها الله جل جلاله، وكلٌّ يعلم أن السنين لا تأتي بشيء، وإنما الذي يفعل هو الله جل وعلا في هذه الأزمنة، ولهذا صار سبّ هذه السنين سبًّا لمن تصرف فيها وهو الله جل جلاله. ٣

السب يكون بأشياء، والسب في أصله التنقص أو الشتم، فيكون بتنقص الدهر، أو يكون بلعنه، أو بشتمه، أو بنسبة النقائص إليه، أو بنسبة الشر إليه، ونحو ذلك، وهنا كله من أنواع سبه، والله جل وعلا هو الذي يقلب الليل والنهار. ٣

كثيرًا من الناس لجهله إذا ضاقه أمر وحزبه أمر سب الدهر، "لا بارك الله في هذه السنة"، "لا بارك الله في هذه الساعة"، "لا بارك الله في هذا اليوم"، أو ما أشبه ذلك لجهله. ٦

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، فهذا جائز، مثل أن يقول: "تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده"، وما أشبه ذلك، لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً لأنه نسب الحوادث إلى غير الله وكل من اعتقد أن مع الله خالقاً فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد، فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده، فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السفه في العقل والضلال في الدين، لأن حقيقة سبه تعود إلى الله سبحانه، لأن الله تعالى هو الذي

يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس الساب يكفر، لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة. ٥

ومعنى: "آذى الله": أن الله سبحانه وتعالى يبغض ذلك ويكرهه، لأنّه تنقُّصٌ لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يتأذّى ببعض أفعال عباده وأقوالهم التي فيها إساءةٌ في حقّه، ولكنّه لا يتضرّر بذلك، لأنه الله لا يضرُّه شيء: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (٥٧)﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإيمان لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٧)﴾ [آل عمران:١٧٧].

وفي الحديث: ((يا عبادي إنّكم لن تبلُغوا ضرّي فتضرّوني((ففرقٌ بين الضرر والإيذاء. ٤

قوله: "فقد آذى الله" لا يلزم من الأذية الضرر، فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك. ٥ ولهذا قال تعالى في من حسد من المؤمنين: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾ [آل عمران :١١١] والإنسان يتأذى من أشياء كثيرة لا تصل به إلى درجة الضرر. ٩

ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي الحديث القدسي: ((يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار))[١]، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شيئاً ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: ((يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني))[٢]. رواه مسلم ٥

[١] يأتي تخريجه إن شاء الله.

[٢] مسلم: كتاب البر والصلة/ باب تحريم الظلم.

ولفظ الأذى في اللغة هو لما خَفَّ أمره، وضعف أثره، من الشر والمكروه. ذكره الخطابي[1].

قال شيخ الإسلام: "وهو كما قال، وهذا بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه، كما قال تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شيئاً﴾ [آل عمران :١٧٦]، فبين سبحانه أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه إذا سبوا مقلب الأمور"[2].١

قال: (فقد آذى الله) ولفظ (آذى الله) لأجل الحديث –حديث أبي هريرة– ((قال اللّهُ تعالى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبّ الدّهْرَ وَأَنَا الدّهْرُ أُقَلّبُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ)) ففيه رعاية للفظ الحديث.٣

ووجهُ كونه يتأذّى بسبّ الدهر: لأن السب يكون متوجهاً إليه، لأنّه هو المتصرِّف الذي يجري في قدَره وقضائه الخير والشّرّ والمكروه والمحبوب، أما الدهر فإنّما هو زمانٌ ووقتٌ للحوادث، لا أنّ الدهر نفسه هو الذي يتصرّف ويُحدِث هذه الحوادث التي تجري فيه، وإنّما الدهر زمانٌ ووقتٌ للأعمال كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً(٦٢)﴾ [الفرقان:٦٢]، بل إنّ الله جعل بعض الأزمان له خاصيّة وفضيلة في مضاعفة الأعمال مثل شهر رمضان، وعشر ذي الحجّة، ويوم عرفة، ويوم الاثنين والخميس من كلّ أسبوع، ويوم الجمعة الذي هو سيّد أيّام الأسبوع وهو عيد الأسبوع، وآخر ساعة من يوم الجمعة، ووقت السّحر. هذه أوقات فاضلة تُضاعَف فيها الأعمال، ويُستجاب فيها الدّعاء أكثر من غيرها، فالدهر في الحقيقة نعمةٌ من الله سبحانه وتعالى لمن حفظه فيما ينفعه، أما مَن ضيّعه فإنّه يكون حَسْرةً عليه يوم القيامة، فالدّهر إنما هو وقتٌ للأعمال، يَجري فيه الخير والشرّ، والطاعة والمعصية، والكفر والإيمان. فلا يتعلّق بالدهر مدح

[1] انظر نحوه في أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطأبي (٣١٢/١) تحقيق: د.محمد بن سعد آل سعود. طبع جامعة أم القرى.عام١٤٠٩هـ.

[2] الصارم المسلول (١١٨/٢-١١٩).

ولا ذم، لأنّه مجرّد زمان ومجرّد وقت للأعمال خيرها وشرّها، ومَن علّق الذم بالدهر فإنّما يذمّ الخالِق سبحانه وتعالى لأنّ الدهر مخلوق لا يخلق ولا يُحْدِث شيئاً ، وإنّما الذي يخلُق هو الله سبحانه وتعالى.٤

سب الدهر -كما ذكرنا- محرم وهو درجات، وأعلاه لعن الدهر؛ لأن توجه اللعن إلى الدهر أعظم أنواع المسبة وأعظم أنواع الإيذاء، وليس من مسبة الدهر وصف السنين بالشدة، ولا وصف اليوم بالسواد، ولا وصف الأشهر بالنحس ونحو ذلك، لأن هذا مقيّد وهذا جاء في القرآن في نحو قوله جل وعلا ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ [فصلت:١٦]، ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ وصف الله جل وعلا الأيام بأنها نحسات، المقصود في أيام نحسات عليهم، وصف الأيام بالنحس؛ لأنه جرى عليهم فيها ما فيه نحس عليهم، ونحو ذلك قوله جل وعلا في سورة القمر ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]، ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أو يقول يوم أسود أو سنة سوداء، هذا ليس من سب الدهر لأن المقصود بهذا الوصف ما حصل فيها كان من صفته كذا وكذا على هذا المتكلم.

وأما سبه أن ينسب الفعل إليه فسب الدهر لأجل أنه فعل به ما يسوؤه، فهذا هو الذي يكون أذية لله جل وعلا. ٣

لهذا عقد هذا الباب بما يبين أن سب الدهر ينافي كمال التوحيد، وأن سب الدهر يعود على الله جل وعلا بالإيذاء؛ لأنه سبٌّ لمن تصرف بهذا الدهر.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهو أن سب الدهر من الألفاظ التي لا تجوز، والتخلص منها واجب، واستعمالها مناف لكمال التوحيد، وهذا يحصل من الجهلة كثيراً، فإنه إذا حصل لهم في زمان شيئاً لا يسرهم سبوا ذلك الزمان، ولعنوا ذلك اليوم أو لعنوا تلك السنة أو لعنوا ذلك النهار ونحو ذلك من الألفاظ الوبيلة، أو شتموا الزمان وهذا لا يتوجه إلى الزمن؛ لأن الزمن شيء لا يَفعل وإنما يُفعل فيه وهو أذية لله جل وعلا. ٣

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية :٢٤]

ثم ساق الشيخ رحمه الله الآية، وهي قولُه تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)﴾ [الجاثية:٢٤]. ٤

المراد بذلك المشركون الموافقون للدهرية بضم الدال على الصحيح عند النسبة، لأنه مما تغير فيه الحركة. ٥

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن قول الدَّهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾".[١]

قال ابن جرير: "أي: ما حياةٌ إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها، لا حياة سواها؛ تكذيباً منهم بالبعث بعد الموت"[٢].١

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن المشركين، الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ أنّهم يُنكرون البعث ويستبعدونه، ويزعمون أنّه لا يمكن حصول البعث لأنّ الأجسام تتفتّت وتضيع وتذهب، فمن أين الإعادة لشيء قد ضاع وتفتّت وذهب: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [يس:٧٨-٧٩]، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١)﴾ [الإسراء:٤٩-٥١]، ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إذا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢)﴾ [النازعات:١١-١٢]، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦)

---

[١] تفسير ابن كثير (١٥١/٤)

[٢] تفسير الطبري (١٥١/٢٥)

أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الصافات:١٦-١٧]، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق:٣-٤]، فيا سبحان الله أين العُقول؟!، فالذي خلقهم من لا شيء، وأوجدهم من العَدَم في أوّل مرّة؛ ألا يقدر على إعادتهم مرّة ثانية؟، بل من ناحية العُقول: أنّ الإعادة أسهل من البداءة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [الروم:٢٧]، مع أن الله لا يصعُب عليه شيء سبحانه وتعالى، لا الإعادة ولا البداءة، الكلّ سهلٌ عليه ويسيرٌ عليه لكن هذا من جهة التصور العقلي.

ثم-أيضاً-: لو لم يكن بعثٌ ونُشور للزِم أن يكون خلق الخلق عبثاً لا نتيجة له، وهذه الأعمال لا نتيجة لها: الإيمان والطاعة والاستقامة والعبادة لا نتيجة لها إذا لم يكن هُناك بعث، الكفر والمعاصي والإلحاد والفُسوق والظُّلم والعُدوان لا نتيجة له، لأنّنا نرى أنّ النّاس يموتون الطائع والعاصي المؤمن والكافر، الكافر يموت على كفره، والمطيع يموت على طاعته، وقد يكون المطيع في هذه الدنيا في فقر وحاجة ومرض وآلام، وقد يكون الكافر في نعيم وفي رفاهية وفي أُبَّهة من العيش مع كفره، إذاً: أين النتيجة؟، لا بدّ أن هناك داراً أُخرى تظهر فيها النتائج، تظهر فيها نتيجة الطّاعة، ونتيجة المعصية، وإلاّ للزِم أن يكون خَلْقُ الخَلْق عبثاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾ [الجاثية:٢١-٢٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ [ص:٢٨]، هذا تأباه حكمة الله سبحانه وتعالى، فكون المطيع الصالح العابد يعيش في هذه الدنيا في ضيق ومرض وفقر

وفاقة؛ لأنّ الله ادّخر له جزاءً يوم القيامة، وكون العاصي والكافر يعيش في سُرور وفي رغَدٍ من العيش مع كفره؛ هذا لأنّ الله أعدّ له النّار يوم القيامة؛ ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ [محمد:١٢]، تأبى حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُضيع أعمال العباد سُدى، وأن يسوّي بين المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، تأبى حكمة أحكم الحاكمين أن تتّصف بذلك، فلولا أنّ هناك بعثاً يحاسَب فيه العباد ويجزى كلُّ عامل بعمله للزم العبث وللزم الجور والظُّلم من الله، تعالى الله عن ذلك، دلّ هذا على أن هناك داراً أُخرى غير هذه الدّار، أخبر الله عنها، وتواترت بها أخبارُ الرُّسل -عليهم الصلاة والسّلام-، لكنّ المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ يستبعدون البعث لجهلهم بقدرة الله سبحانه وتعالى، ويقيسون قدرة الخالق على قدرتهم، ولهذا استصعبوا البعث، ورأوه مستحيلاً؛ أن يبعث الله هذه الأجسام بعد تفتُّتها وضياعها في الأرض، ولكنّ الله سبحانه وتعالى يعلم مستقرّها ومستودَعها ويعلم مصيرها، ولو فنَيتْ وصارت تُراباً فالله يعلم هذه الأجسام وما تحلّل منها وقادرٌ على إعادتها: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق:٤]، بل إنّ كل جسم الإنسان يفنى إلاّ عَجْبَ الذَّنب، وهو: حبّة صغيرة، منها يركَّبُ خلقُ الإنسان يوم القيامة.

فهم ينكرون البعث والنشور ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجاثية:٢٤] ما هناك حياةٌ أُخرى بعد هذه الحياة، ما هناك إلاّ الحياة التي نحن فيها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: يموت ناس ويولَد ناس، كما يقولون: أرحام تدفع، وأرض تبلع. ٤

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ قال ابن كثير: "أي يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدَّوْرِيَّةُ المنكرون للصانع، المعتقدون في كل ستة وثلاثين

ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. زعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا العقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[1]. ١

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته، فالمهلك لهم هو الدهر. ٥

﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: أنّ سبب الموت إنما هو طول العمر طول الحياة، الإنسان يعمّر ثم يَهْرَم ثم يموت، أو سبب الموت هو: حوادث الدهر، فينسبون الهلاك إلى الدهر.

لما أصابهم قحط أو انحباس مطر نسبوه إلى الدّهر، وإذا أصابتهم مجاعة أو أصابهم قتلٌ أو مرض نسبوه إلى الدهر، ويزعمون أنّ هذا من تصرُّف الدهر، ولذلك يهجون الدهر في إشعارهم.

وهذا في الحقيقة إنّما هو ذمٌّ لله سبحانه وتعالى، لأنّ الدهر ليس في مقدوره شيء، فليس هو الذي يصدرُ هذه المجريات، وإنما هي صادرة عن الله سبحانه وتعالى، فمن ذَمّ الدهر فقد ذمّ الله سبحانه. ٤

ولا ريب أن هذا الاعتقاد خاطئ، وشرك أكبر بالله عز وجل كما مر معنا في النوع الأول؛ لأنهم يعتقدون أن الزمن هو الفاعل و الخالق. ٩

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ الواجب أن الإنسان إذا ادّعي دعوى أن يقيم عليها الدليل، وما عندهم دليل، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني: ما لهم دليل على هذا، بل الدليل على العكس، على أن الدهر ليس له تصرُّف وإنّما التصرُّف هو للخالق سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يعتمدون على الظّن، والظن ﴿لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيئاً ﴾ [النجم:٢٨]. ٤

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قال ابن كثير: "يتوهمون ويتخيلون".[2]

---

[1] تفسير ابن كثير (١٥١/٤)

[2] تفسير ابن كثير (١٥١/٤)

الظن هنا بمعنى الوهم، فليس ظنهم مبنياً على دليل يجعل الشيء مظنوناً، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له، فلا حجة لهم إطلاقاً، وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضاً يستعمل بمعنى العلم واليقين، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].٥

هذا هو المنطق الصحيح في لسان المناظرات، أما مجرّد الوهم ومجرّد الظنّ، فلا يُبنى عليه مثل هذا الأمر العظيم، وهو إنكار البعث. ٤

والرد على قولهم بما يلي:

أولاً: قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

وهذا يرده المنقول والمعقول.

أما المنقول، فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده.

وأما المعقول، فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك تراباً لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى فيه ويجازى فيه كل من بلغته الدعوة.

ثانياً: قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، أي: إلا مرور الزمن.

وهذا يرده المنقول والمحسوس:

فأما المنقول، فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإليه تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأما المحسوس، فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة، كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكة الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشباباً يموتون في قوة شبابهم، فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب:

أن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبها إلى الدهر، فسوف يسب الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه. ٥

فإن قلت فأين مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المشركين؟!

قيل المطابقة ظاهرة، لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد. ١

هذه الآية ظاهرة في أنّ نسبة الأشياء إلى الدهر هذه من خصال المشركين أعداء التوحيد، فنفهم منه أن خصلة الموحدين أن ينسبوا الأشياء إلى الله جل وعلا لا ينسبوا الإهلاك إلى الدهر؛ بل الله جل وعلا هو الذي يحيي ويميت. ٣

في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ((قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار))[١] وفي رواية: ((لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر))[٢].

ثم ساق الشيخ الحديث، وهو من الأحاديث القدسيّة، والحديث القدسي: هو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربّه، فهو كلام الله جل وعلا. ٤

قوله: ((قال الله تعالى)). تعالى: من العلو، وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترفعه جل وعلا عن كل نقص وسفل، فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا، لأنها معنى الترفع والتنزه عما يقوله المعتدون علواً كبيراً.

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم٤٥٤٩- البغا)، ومسلم في صحيحه (١٧٦٢/٤) ولفظهما سواء

[٢] هذه الرواية عند مسلم في صحيحه (رقم٢٢٤٦).

قوله: ((يؤذيني ابن آدم)). أي: يلحق بي الأذى، فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها، لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وقدم النفي في هذه الآية على الإثبات لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه، فليس فيه احتمال للتمثيل، إذ لو كان احتمال التمثيل جائزاً في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه، لكان احتمال الكفر جائزاً في كلامه سبحانه وكلام رسوله. ٥
يقول جل وعلا: ((يؤذيني ابن آدم)) الله يتأذّى ببعض أفعال عباده، لكنّه لا يتضرّر بها. ٤

قوله: ((يسب الدهر)). الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها، أي: بكونه يسب الدهر، أي: يشتمه ويقبحه ويلومه وربما يلعنه والعياذ بالله يؤذي الله. ٥

ثم فسّر ذلك الأذى بقوله: ((يسبُّ الدّهر)) والدهر ليس محلاًّ للسّب، فيكون محلّ السب هو الله سبحانه وتعالى، لأنّه هو الذي خلق أو أوجد هذا الأمر الذي يكرهه هذا الإنسان، فإذا سبّ الدهر فقد سبّ الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى. ٤
لأن حقيقة الأمر أن الدهر لا يملك شيئاً ولا يفعل شيئاً ، فسب الدهر سب لله؛ لأن الدهر يفعل الله – جل وعلا – فيه، فهو ظرف للأفعال وليس مستقلاً؛ فلهذا لا يفعل، ولا يحرم، ولا يعطي، ولا يكرم، ولا يهلك، وإنما الذي يفعل هذه الأشياء مالك الملك المتفرد بالملكوت وتدبير الأمر الذي يجير ولا يجار عليه. ٣
قلت: الظاهر أن المشركين نوعان:
– أحدهما: من يعتقد أن الدهر هو الفاعل، فيسبه لذلك فهؤلاء هم الدَّهْرية.
–الثاني: من يعتقد أن المدبر للامور هو الله وحده لا شريك له، ولكن يسبون الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب والحوادث، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء، إلى محله لا لأنه عندهم فاعل لذلك.

والحديث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقاً، سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيراً ممن يعتقد الإسلام. ١

قال في شرح السنة: "حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد – سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل؛ إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها، فنهوا عن سب الدهر." ا هـ باختصار[١]. ٢

والواجب على أهل الإيمان أنه إذا أصابهم ما يكرهون أن يعتبروا أن هذا قضاء من الله وقدر، وأنّه من الله جل وعلا، وأنّه لم يخلُقه عبثاً، وأنّه بسبب الذّنوب والمعاصي، فيتوب المؤمن، ويصبر على المصيبة، ويحتسب الأجر عند الله سبحانه وتعالى، ولا يُطلق لسانه بذمّ الساعة واليوم والوقت الذي حصل فيه هذا المكروه، وإنما يحمد الله ويشكره ويرضى بقضائه وقدَره، ويعلم أنّه ما أُصيب إلاّ بسبب ذُنوبه، فيحاسب نفسه ويتوب إلى الله تعالى. ٤

قوله ((وأنا الدهر)) قال الخطابي: "معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور؛ عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور".
قلت: ولهذا قال في الحديث: ((وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار)) وفي رواية لأحمد: ((بيدي الليل والنهار أَجِدُّهُ وأبليه، وأذهب بالملوك)) وفي رواية له: ((لا تسبوا الدهر،

---

[١] البغوي (شرح السنة) (١٢/ ٣٥٧)

فإن الله قال: إنه الدهر، الأيام والليالي أُجَدِّدُها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك)) قال الحافظ: "وسنده صحيح"[١].

فقد تبين بهذا خطأ ابن حزم في عده الدهر من أسماء الله الحسنى، وهذا غلط فاحش، ولو كان كذلك لكان الذين قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] مُصِيبِينَ. ١

قوله: ((وأنا الدهر)). أي: مدبر الدهر ومصرفه، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولقوله في الحديث: ((أقلب الليل والنهار))، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك، فقد جعل الخالق مخلوقاً، والمقلِّب بكسر اللام مقلَّباً بفتح اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعاً في كلام رسوله وفي اللغة؟

أجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره: وأنا مقلب الدهر، لأنه فسره بقوله: ((أقلب الليل والنهار))، والليل والنهار هما الدهر، ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلِّب هو المقلَّب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رحمه الله، فإنه قال: "إن الدهر من أسماء الله"، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في أسماء الله، فأما مدلول الحديث، فإن السابين للدهر لم يريدوا سب الله، وإنما أرادوا سب الزمن، فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في أسماء الله، أن تكون حسنى، أي: بالغة في الحسن أكمله، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى أسماً جامداً أبداً، لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى حسن أو غير حسن، لكن أسماء الله كلها حسنى، فيلزم من ذلك أن تكون دالة على معان، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن، وعلى هذا، فينتفي أن يكون أسماً لله تعالى لوجهين:

---

[١] فتح الباري (١٠/٥٦٥)

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات.

فلا يحمل المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: ((أقلب الليل والنهار)). ٥

فقوله -إذاً-: ((وأنا الدهر)) فيه نفي نسبة الأشياء إلى الدهر، وأن هذه الأشياء تنسب إلى الله -جل وعلا- فيرجع مسبة الدهر إلى مسبة الله -جل وعلا-؛ لأن الدهر لا ملك له، والله هو الفاعل. ٣

ثم بيَّن معنى قوله: ((أنا الدهر)) فقال: ((أقلّب الليل والنهار))، وليس معناه: أن الله يُسمّى الدهر، فليس الدّهر من أسماء الله، والحديث يفسِّر بعضه بعضاً، فمن زعم أن (الدهر) من أسماء الله فقد غلِط. ٤

((أقلب الليل والنهار))[1]: والليل والنهار هما الدهر، فالله -جل وعلا- هو الذي يقلبهما، فليس لهما من الأمر شيء. ٣

قوله ((أقلب الليل والنهار)). أي: ذواتهما وما يحدث فيهما، فالليل والنهار يقلبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر، لأن حكمة الله أعظم، لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله عز وجل وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحبه هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه. ٥

وفي "رواية": ((لا تسبُّوا الدهر)) هذا نهي، والنّهي يقتضي التحريم. ٤

وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر. ٥

---

[1] البخاري تفسير القرآن (٤٥٤٩)، مسلم الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٦)، أبو داود الأدب (٥٢٧٤)، أحمد (٢٣٨/٢).

ثم علّل ذلك بقوله: ((فإنّ الله هو الدهر)) يعني: مَن سبّ الدهرَ فقد سبّ الله، لأنّ الله هو الخالق سبحانه وتعالى، وهو الذي أجرى هذا الحادث الذي يكرهه العبد ويتألّم منه، فإذا سبّ الدهر فقد سبّ الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى. ٤

وقوله ((فإن الله هو الدهر))، أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المعلل حكماً، فهذه ثلاث فوائد في قرن العلة بالحكم. ٥

قال الشافعي، وأبو عبيد، وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: ((لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر))[١] كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنما إنما سبوا الله سبحانه لأنه فاعل ذلك في الحقيقة؛ فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد.٢

قال ابن القيم: وفي هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

- أحدها سبه من ليس أهلاً للسب، فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله، منقاد لأمره، متذلل لتسخيره، فسابه أولى بالذم والسب منه.
- الثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحَرَمَ من لا يستحق الحرمان. وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جداً. وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.
- الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والارض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر، وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر فرب الدهر هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر

---

[١] مسلم الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٦)، أحمد (٢/٤٩٦)، مالك الجامع (١٨٤٦).

شيء، فمسبتهم الدهر مسبة لله عز وجل، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما: إما مسبة الله، أو الشرك به، فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك، وهو يسب من فعله فهو يسب الله تعالى. انتهى[1].

فهذا يدل على أن سب الدهر أذية لله وإغضاب لله، فلا يجوز سبه لا بالشتم ولا بغيره، لا يقال: لعن الله الدهر أو فعل الله بالدهر، أو أشغلنا هذا الدهر، أو لا بارك الله في هذا الزمان، أو في هذه الليلة، أو في هذه الساعة، أو في هذا الزمان، كل هذا لا يجوز، بل إذا أصابه شيء يكرهه يقول: قدر الله وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، يسأل ربه العافية والسلامة، فالدهر ليس بيده شيء، ليل ونهار مدبران مسيران، فليس في يدهما عطاء ولا منع، ولا شدة ولا رخاء، ولا خير ولا شر، بل هما آيتان من آيات الله سخرهما لعباده جل وعباه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٧-٤٠] فهذه الآيات من أرض وسماء ونجوم، وليل ونهار، كل ذلك من تسخير الله ومن خلق الله لهؤلاء العباد لينتفعوا بشمسهم وقمرهم، وليلهم ونهارهم، وحرهم وبردهم، وسائر ما خلق الله لهم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جميعاً﴾ [البقرة:٢٩]، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جميعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] منه عطاء ونعمة منه وإحسانًا منه إلى عباده، فلا يجوز مقابلة هذا الإحسان وهذا الخير بالسب للدهر، ولكن تقول: قدر الله وما شاء فعل، مثل ما جاء في الحديث الصحيح حديث أبي هريرة يقول النبي ﷺ: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

---

[1] زاد المعاد (٢/٣٥٤-٣٥٥)

المؤمن الضعيف، وفي كل خير))، ثم يقول ﷺ: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان))، وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

هذا هو الحكم الشرعي وهذا هو الأدب الشرعي. ٦

ومن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: ((لا تسبوا الريح)) وهكذا سب الإبل والغنم والبقر وسب كل من لا يستحق السب، فسب هذه نقص في إيمانه وتوحيده. ٦

وأشار ابن أبي جمزة إلى أن النهي عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شيء مطلقاً، إلا ما أذن الشرع فيه لأن العلة واحدة. ١

ونخلص من هذا كله إلى مسائل نستنبطها من هذه الآية، ومن الحديث:

المسألة الأولى: تحريم مسبّة الدهر، ومسبّة الدهر على نوعين:

النوع الأوّل: ما يكون كفراً وشركاً أكبر، وذلك إذا اعتقد أنّ الدهر هو الفاعل، وهو الذي أحدث المصيبة، فذمّه من أجل ذلك، فهذا شركٌ أكبر، لأنّه أثبت شريكاً لله تعالى.

النّوع الثاني: أن يعتقد أنّ الفاعل هو الله ولكنّه ينسِب الأذى إلى الدهر، أو ينسب الذمّ إلى الدهر من باب التساهُل في اللّفظ: فهذا أيضاً محرّم، ويُعتبر من الشّرك الأصغر، حتى ولو لم يقصد المعنى وإنما جرى على لسانه، فيُعتبر من الشرك في الألفاظ.

المسألة الثانية: فيه: أنّ الله سبحانه وتعالى يتأذّى ببعض أفعال عباده السيِّئة، ولكنّه جل وعلا لا يتضرّر بذلك.

المسألة الثالثة: في الحديث بيان معنى أنّ الله هو الدّهر، وأنّ معناه: أنّه هو الذي يخلُق، ويدبِّر ويُجري هذه الحوادث في هذا الزمان، وليس معناه أن الدهر من أسماء الله، والحديث يفسِّر بعضُه بعضاً. ٤

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى لله.

الثالثة: التأمل في قوله: ((فإن الله هو الدهر)).

الرابعة: أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر. لقوله: **((لا تسبوا الدهر))**. ٥

الثانية: تسميته أذى لله. تؤخذ من قوله: **((يؤذيني ابن آدم))**. ٥

الثالثة: التأمل في قوله: ((فإن الله هو الدهر)). فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مقلب الدهر ومصرفه وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك. ٥

الرابعة: أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه.

تؤخذ من قوله: ((يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر)). ولم يذكر قصداً ولو عبر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذياً لله وإن لم يقصده، لكان أوضح وأصح، لأن الله صرح بقول: ((يسب الدهر)). والفعل لا يضاف إلا لمن قصده. ٥

وقد فات على الشيخ رحمه الله بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك. ٥

الأسئلة:

س: هل الدهر من أسماء الله؟

الجواب: لا، خالق الدهر، الدهر هو الزمان الله خالقه، ولهذا قال جل وعلا: أقلب ليله ونهاره.

س: الدنيا إذا سب أحد الدنيا؟

ج: كذلك ما يسب الدنيا، لا يسب الدنيا ولا يسب الدهر، الدنيا ماذا في يدها؟ ما في يدها شيء.

س: يقول أنا الدهر؟

ج: يعني أنا خالق الدهر مثل ما في الحديث: أقلب ليله ونهاره نص الحديث أقلب ليله ونهاره.

س: أليس من صفات الله؟

ج: لا، الدهر هو المخلوق، هو الزمان.

س: قول بعض العامة: الله لا يعيدها من سنة؟

ج: ما يقال، الله لا يعيد هذه الشدة أو هذا الكرب، يبين الله يعافينا من هذا الكرب، ومن هذه الشدة، ومن هذا الدهر يعني الجدب والقحط. ٦

س: هل يشرع مدح الدهر؟

ج: ما يضر هذا، هذا ما هو بسب، لا بأس هذه ساعة مباركة، أو زمن خصب، أو هذا زمن خير، والحمد لله النهي عن السب. ٦

س: سب الدهر من الشرك الأصغر؟

ج: معصية من المعاصي. ٦

(بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ)

(بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ)

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ط، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ))، قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ "شَاهِنْ شَاه"، وَفِي رِوَايَةٍ: ((أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ))، قَوْلُهُ)) أَخْنَعُ)) يَعْنِي أَوْضَعُ.

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان النهي عن الأسماء التي يكون لها تعلق بمشابهة أسماء الله تعالى لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمى بها مثل الرحمن، ومالك الملك، والخلاق، ورب العالمين، وحاكم الحكام، وسلطان السلاطين، ونحوها. لأن من كمال التوحيد وتمام التوحيد عدم التسمي بهذه الأسماء والتسمي بها ينقص التوحيد والإيمان، ودخول فيما لا ينبغي. ٦

هذا الباب مشابهٌ للباب الذي قبله "باب من سبّ الدهر فقد آذى الله"؛ لأن الباب الذي قبله فيه النّهي عن مسبّة الدهر، لأنّ ذلك يؤذي الله سبحانه وتعالى. وهذا الباب في النّهي عن التسمِّي بالأسماء الضخمة التي فيها العَظَمة التي لا تليق إلاّ بالله سبحانه وتعالى، لأنّ هذا يغيظُ الله سبحانه وتعالى، فسبّ الدهر يؤذي الله، وهذا يغيظ الله سبحانه وتعالى، وكلا الأمرين محرّم شديد التحريم.

ثم يأتي بعد هذا الباب: "باب احترام أسماء الله"، وهو كذلك يُشبِه هذين البابين.

فهذه الأبواب الثلاثة بعضُها يشبه بعضاً، لكنّها لَمّا كانت متنوِّعة نوّعها المؤلِّف رحمه الله، من أجل أن يُعرف كلُّ شيء على حِدَته مفصَّلاً، لأنّ أمور التّوحيد لا بدّ فيها من التّفصيل والبيان، ولا يكفي فيها الإجمال والاختصار. ٤

ذكر المصنف "رحمه الله" هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياساً على ما في حديث الباب؛ لكونه شبهه في المعنى، فينهى عنه. ٢

قوله: "التّسمي بقاضي القُضاة ونحوه" يعني: كلّ اسم فيه تعظيمٌ شديد للمخلوق من الألقاب والأسماء التي فيها التعظيم الذي لا يليق إلاّ بالله سبحانه وتعالى، مثل: "مِلِك الأملاك" و"سيِّد السادات"، وما أشبه ذلك من الألقاب الضّخمة التي يتلقّب أو يتسمّى بها بعض الجبابرة أو المستكبرين. ٤

قوله: "باب التسمي بقاضي القضاة". أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره. ٥

أما إذا سماه غيره به فلم يرض فإنه لا يدخل في الذم لعدم الرضى، فإذا سُمي بذلك فيلحق الوعيد المسمي ومن رضي بذلك الاسم. ٣

قوله: "قاضي القضاة". قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة، أي: الحكام، و"أل" للعموم. ٥

وهذا يقع في بعض الدول، وإن كانوا يريدون به قاضي قضاة البلد، لكن إطلاقه غير مناسب ولا ينبغي. ٦

"بقاضي القضاة ونحوه" ونحو قاضي القضاة مثل: ملك الأملاك، شاهان شاه ونحو ذلك. ٣

كأقضى القضاة، وحاكم الحكام، أو سيد الناس، ونحو ذلك. ١

والمعنى: التسمي بحاكم الحكام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان. ٥

وكلُّ هذا محرَّم ومنهيٌّ عنه، لأنّ المطلوب من المخلوق التواضُع مع الله سبحانه وتعالى، وتجنُّب ما فيه تزكيةٌ للنفس أو تعظيمٌ للنفس، لأنّ هذا يحمل على الكِبْر والإعجاب، وخروج الإنسان عن طَوره ووضعه الصحيح.

وكلُّ هذا يُخلُّ بعقيدة التّوحيد، لأنّ عقيدة التّوحيد تدور على توحيد الله سبحانه وتعالى، وعلى تنزيه الله عن المشابَهة والمماثَلة، فمن تسمّى باسم لا يليق إلاّ بالله على وجه التعاظُم فهذا فيه تشبيه بأسماء الله سبحانه وتعالى.

فمثلاً: (قاضي القُضاة) هذا لا يليق إلاّ لله عزّ وجلّ، لأنّ الله سبحانه وتعالى الذي يقضي النّاس يوم القيامة القضاء النهائي، يقضي بين جميع الخلْق، ملوكهم وعامّتهم وعلمائهم وعوامّهم، يقضي بين جميع خلقه سبحانه وتعالى، فالقضاء المطلَق هو لله سبحانه وتعالى، فلا يليق أن يقال للمخلوق: "قاضي القُضاة"، لأنّ الله هو الذي يقضي بين جميع النّاس يوم القيامة، يقضي بينهم بحكمه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ [النمل:٧٨]، فهو الذي يقضي بين النّاس سبحانه وتعالى.

أما القاضي من النّاس فإنه يقضي بين فئاتٍ قليلة من النّاس، لا يقضي بين كلّ النّاس، وإنما يقضي بين عدد قليل محصور، إما في بلد وإما في قضيّة خاصّة، ثم قضاؤه -أيضاً- قد يكون صواباً وقد يكون خطئاً، أما قضاء الله -جل وعلا- فإنّه لا يكون إلاّ حقًّا وصواباً، ولا يتطرّق إليه الخطأ والنقص جل وعلا.

ففي هذه الكلمة "قاضي القُضاة" تعظيم زائد، ومنحٌ للمخلوق لصفةٍ لا يستحقُّها ومرتبة لا يرقى إليها. ٤

فقاضي القضاة لفظ حقيقة معناه الذي يقضي بين القضاة، وهذا إنما هو لله جل جلاله هو الذي يقضي بين العباد بين القضاة وبين العبيد، فهو قاضي القضاة على الحقيقة سبحانه وتعالى، فيُخْبَر عنه بذلك؛ لأن قاضي القضاة ليس من أسماء البشر، فالذي يقضي بين القضاة هو الله جل جلاله. ٣

فالمناسب أن يُقال: "رئيس القُضاة"، بمعنى: أنه يُرجع إليه في أُمور القضاء وتنظيماته ومُجرياته. ٤

أما إذا قُيِّدْ: قاضي قضاة مصر أو مكة، وغير ذلك فهذا أسهل، وتركه أولى، كأن يسمى: رئيس القضاة، أو أمين القضاة مما يبتعد به عن هذه الصفات المطلقة. ٦

وكذلك: "ملِك الأملاك"، لأن الملِك المطلق لله عزّ وجلّ، وهو الملْك الدائم الشامل، أما ملك المخلوق فهو مُلك جزئي ومؤقت.

فالشيخ "رحمه الله" ترجم بقاضي القُضاة لأن كلمة "قاضي القُضاة" تدخل في "مِلِك الأملاك"، فإذا نُهي عن كلمة "مِلِك الأملاك" فإنّ "قاضي القُضاة" تأخُذ حكمها، لأنّ كلَّ من اللّفظتين فيهما التعظيم الزائد عن حقّ المخلوق.

وكذلك ملك المخلوق مِنْحَة من الله سبحانه وتعالى، وعاريّة، لم يملك هذا الملك بحوله ولا قوّته، وإنّما الله هو الذي ملّكه: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦)﴾ [آل عمران:٢٦]، فالذي يملِّك الملوك هو الله سبحانه وتعالى، هو الذي يعطي الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، أمّا ملك الله جل وعلا فإنّه مُلكٌ حقيقيٌّ عام دائم. ٤

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن من تسمى بهذا الاسم، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله فيما لا يستحقه إلا الله، لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله سبحانه وتعالى، فالله هو القاضي فوق كل قاض، وهو الذي له الحكم، ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن. ٥

وقد أورد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لأن التسمي بقاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك أو سلطان السلاطين ونحوها هو من باب الشرك بالله سبحانه وتعالى، إذ هو قادح في أصل التوحيد، فقاضي القضاة وحاكم الحكام هو الله تبارك وتعالى، ومن تسمى بذلك فقد جعل نفسه شريك مع الله تبارك وتعالى فيما لا يكون إلا له. ٩

التوحيد يقتضي من الموحد المؤمن بالله جل وعلا أن يُعَظِّمَه، وأن لا يجعل مخلوقاً في منزلة الله جل وعلا فيما يختصّ به، وتارة يجعل المخلوق من منزلة الله لشُبهة وصفٍ قام به أو شيء يكون عليه، ككون القاضي هو رئيس القضاة أو أعلم القضاة فيُجعل في اللفظ والتسمية قاضياً للقضاة.

فلهذا نبه الشيخ رحمه الله على أن التسمي بالأسماء التي معناها إنما هو لله جل وجلاله أن هذا لا يجوز، والتوحيد يقتضي أن لا يوصف بها إلا الله وأن لا يسمى بها إلا الله جل وعلا، فتسمية غير الله بتلك الأسماء -التي ستأتي- لا تجوز ومحرم؛ بل هي أخنع الأسماء وأوضع تلك الأسماء وأبغض الأسماء إلى الله جل جلاله. ٣

والذين أطلقوا هذه التسمية على كبير القضاة أو على كبير العلماء لا يعنون بها أن ذاك يقضي بين القضاة، وإنما يعنون بها أنه وصل إلى مرتبة في القضاء أو في العلم أعلى من درجة القاضي، فصار قاضي القضاة، كما شاع في الزمن المتأخر في الدولة العثمانية أنهم يسمون المفتي شيخ الإسلام، ووكيل المفتي وكيل شيخ الإسلام تسمية خاصة، وهذا انتشر في بلاد المسلمين -أعني التسمية بقاضي القضاة ونحوه- من نحو القرن الرابع الهجري إلى أوقات متأخرة قريبة من هذا الزمان.

فإذن الواجب على العبد أن لا يجعل هذه التسمية جارية على لسانه، ولا أن يرضى بها.

كذلك مالك الملاك أو شَاهَانْ شَاهْ؛ يعني ملك الأملاك، هذا فيه تسمية البشر بما يختص بالله، فإن الأملاك الذي يملكها هو الله جل وعلا، والأملاك واسعة، وإنما البشر يطلق عليه أنه مالك للشيء المعين، وليس مالكا لكل شيء، فالذي يملك كل شيء هو الله وحده، والبشر يملكون بالإضافة بعض الأشياء، وكذلك الملك بالضم -وهو نفاذ الأمر والسيطرة- فإنه يكون في بعض الأرض وليس في كل الأرض، فالذي يملك يقال عنه ملك أو مالك إذا كان يملك مِلكا أو ملك إذا كان يملك مُلكا بمعنى نفاذ الأمر، ويضاف إلى بقعته، فيقال ملك المملكة العربية السُّعودية، ملك الأردن ونحو ذلك.

وأما الإطلاق العام، ملك الأملاك، أو شَاهَانْ شَاهْ، فإن الأملاك منها ما هو على الأرض، ومنها غير ذلك، وهذا إنما هو لله جل وعلا، فالتوحيد يوجب أن لا يتسمى بذلك أحد وأن لا يُرضى بتسمية أحد بذلك، حتى لو وجدته في بعض الكتب فلا تنقله كما وجدته، قد يغلط بعض الباحثين، وبعض طلبة العلم فينقل قولا عن بعض أهل العلم المتقدمين ممن

يتجوزون في مثل هذه الألفاظ، وفيه قال قاضي القضاة كذا، وكان قاضي القضاة كذا ولا يغيره، والواجب أن يغيره تعظيماً لله جل وعلا، وأمانة النقل الذي يدعون هي في مرتبة دون توحيد الله جل وعلا بكثير كثير، فالواجب تغيير ذلك وهنا من توحيد الله وتغيير اشتراك غير الله اشتراك الخلق مع الله جل وعلا في حقه فيما يزعمه بعض الخلق. ٣

فإن قلت: إذا أضفنا (القضاة) وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضي القضاة في الفقه، أو قاضي قضاه المملكة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه ذلك، فهل يجوز هذا؟

فالجواب: أن هذا جائز، لأنه مقيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد، فحينئذ لا يكون فيه مشاركة لله عز وجل، على أنه لا ينبغي أيضاً أن يتسمى الإنسان بذلك أو يسمى به وإن كان جائزاً، لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضي قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأي بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه، فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله اسماً لنفسه أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به.

فإذا قيد بزمان أو مكان ونحوهما، قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألا يفعل، لكن إذا قيد بفن من الفنون، هل يكون جائزاً؟

مقتضى التقييد أن يكون جائزاً، لكن إن قيد بالفقه بأن قيل: (عالم العلماء في الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))[١]، صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم في الشرع إليه، فهذا في نفسي منه شيء، والأولى التنزه عنه.

---

[١] البخاري: كتاب العلم / باب من يرد الله به خيراً، ومسلم: كتاب الزكاة / باب النهي عن المسالة.

وأما إن قيد بقبيلة، فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبي ﷺ للمادح: ((قطعت عنق صاحبك))[١].

وأما التسمي بـ (شيخ الإسلام)، مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أي أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام، فهذا لا يصح، إذ إن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف، لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه، فلا بأس باطلاًقه.

وأما بالنسبة للتسمية بـ (الإمام)، فهو أهون بكثير من التسمي بـ (شيخ الإسلام)، لأن النبي ﷺ سمى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان.

لكن ينبغي أن ينبه أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع، كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ممن له أثر في الإسلام،

لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة، لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه، قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضاً: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)، فإنها ألقاب حادثة لا تنبغي لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أريد به المعنى الأعم، فلا مدح فيه لأن كل شيء آية لله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص، أي: أن هذا الرجل آية خارقة، فهذا في الغالب يكون مبالغاً فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم مفت، قاض، حاكم، إمام لمن كان مستحقاً لذلك.ه

---

[١] البخاري: كتاب الآدب/ باب ما يكره من التمادح، ومسلم: كتاب الزهد/ باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط.

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: ((إن أخنع اسم عند الله: رجل تسمى مَلِكَ الأملاك، لا مالك إلا الله))[١].

"في الصحيح" يعني: "صحيح مسلم".

"أنّ النبي ﷺ قال: ((إن أَخْنَع)) فسّرها المؤلِّف في آخر الباب: ((أَخْنَع)) يعني: " وْضَع". ٤

((أَخْنَع)) يعني أوْضع وأحقر وأبعد الأسماء عند الله. ٣

وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد، عن أبي عمرو الشيباني، قال عياض: "معناه: أنه أشد الأسماء صَغَاراً، وبنحو ذلك فسره أبو عبيد[٢]. والخانع: الذليل، وخَنَعَ الرجل: ذَلَّ"[٣].

قال ابن بطال: "وإذا كان الاسم أَذَلَّ الأسماء كان من تسمى به أَشَدَّ ذُلاً"[٤].

وقد فسر الخليل ((أَخْنَعْ)): بـ (أَفْجَرَ)، فقال: (الخُنْعُ): الفُجُورُ.

وفي رواية: ((أَخْنَى الأسماء))[٥] من الخَنَا -بفتح المعجمة، وتخفيف النون، مقصورٌ- وَهُوَ الفُحْشُ في القول"[٦]. ١

قوله: ((إن أخنع اسم عند الله: رجل تسمى مَلِكَ الأملاك)). أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة، فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، ولهذا عوقب بنقيض قصده، فصار أوضع اسم عن الله إذا قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأهين، ولهذا كان أحب اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع، مثل: عبد الله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم. ٥

---

[١] البخاري: كتاب الأدب/ باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى، ومسلم: كتاب الآداب/ باب تحريم التسمي بملك الأملاك.

[٢] غريب الحديث (١٨/٢).

[٣] مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢٤١/١)

[٤] شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٥٤/٩).

[٥] هو في صحيح البخاري (رقم ٥٨٥٢).

[٦] انظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض (٢٤٢/١).

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى؛ فهو ملك الأملاك، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، مالك الملك ذو الجلال والإكرام. ٢ ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [التغابن:١]. ٧

وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير. وهو الله تعالى، ينزع الملك من ملكه تارة، وينزع الملك منه تارة، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه. ٢ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٦].٧

وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له، بيده القسط يخفضه ويرفعه، ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى، وما تكتبه الحفظة عليهم، فيجازى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما ورد في الحديث: ((اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله))[١].٢

فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه أن يعظم به الخالق جل وعلا، وما كان مثل ذلك، فينهى عنه كالذي ترجم به المصنف؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق، لأن كلَّ لفظ يقتضي التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره. ٧

فهذه الكلمة إذا أُطلقت على المخلوق ((مِلِك الأملاك)) فإنّها تكون وضيعةً عند الله سبحانه وتعالى، وإن كان مقصود صاحبها الرِّفعة والعُلُوّ، فإنّ الله يجازيه بنقيض قصدِه، ويجعله وضيعاً، كما جاء في الحديث: ((أن المتكبِّرين يوم القيامة يُحشرون أمثال الذّرّ))، وذلك معامَلةً لهم بنقيض قصدِهم.

((رجل تسمّى)) وفي رواية: ((يُسمّى)) بالياء، والفرقُ بينهما ((تَسَمّى)) يعني: سمّى نفسه، و((يُسَمّى)) يعني: سمّاهُ غيرهُ ورضيَ هو بذلك ولم يُنكره.

---

[١] أحمد (٣٩٦/٥).

فهذا فيه سوءُ أدب مع الله سبحانه وتعالى، وتعاظُمٌ ورفعةٌ لا يستحقُّها المخلوق، والله جل وعلا يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾ [القصص:٨٣]، فالمؤمن لا يريد العلوّ في الأرض، وإنما يريد التواضُع لله سبحانه وتعالى، وإن تولّى ومَلَك فإنّه لا يُريد العلو، وإنّما يريد بالوِلاية والمِلك الإصلاح والعدل بين النّاس، فإذا كان هذا قصدُه صار من أحبِّ الخلق إلى الله تعالى، وصار من السّبعة الذين يظلُّهم الله في ظِلِّه يوم القيامة، فالملك العادل من السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم القيامة.

فليس معنى هذا النّهي عن تولِّي المِلك، لأن تولِّي السلطة والحكم مطلوب إذا كان القصد الإصلاح، فلا عيب في ذلك، إنما العيب في القصد السيّء، فإنْ كان قصدُه من تولِّي الملك العَظَمة والكبرياء والتجبُّر صار مُهاناً عند الله عزّ وجلّ، وإن كان قصدُه الإصلاح والعدل وإقامة الحق في الأرض صار مأجوراً عند الله سبحانه وتعالى، بل أجرُه عظيم، ومن الذين تُستجاب دعوتهم عند الله سبحانه وتعالى ولا تُردُّ دعوتُه. ٤

ثم أكد النبي ﷺ التشديد في تحريم التسمي بذلك بقوله ((لا مالك إلا الله)) فالذي تسمى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارتقى إلى ما ليس له بأهل، بل هو حقيق لرب العالمين، فإنه المالك في الحقيقة، فلهذا كان أذل الناس عند الله يوم القيامة. ١

فأنكر النبي ﷺ هذا الاسم لأنه يوهم وصفاً لا يليق به، ولا يليق إلا بالله تعالى فليس الإنسان ملك الأملاك بل هو ليس أهلاً له، وعليه أن يتسمى بالأسماء الأخرى التي تليق به.٦

قوله: ((لا مالك إلا الله)). أي لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

وأيضاً لا ملك إلا الله عز وجل، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿مالك يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، لكي يجمع بين الملك وتمام السلطان، فهو سبحانه ملك مالك، ملك ذو سلطان وعظمة وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

فالله له الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣]، فالاستفهام بمعنى النفي، وقد أشرب معنى التحدي، أي إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦] فيها توكيد وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣]، فـ (الذين: اسم موصول يشمل كل من يدعى من دون الله) ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾، وهذا على سبيل المبالغة، وما كان على سبيل المبالغة، فلا مفهوم له كثرة أو قلة.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦]، وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس:٣١] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].٥

((لاَ مَالِكَ إِلاّ اللّهُ)) وهذا حصر ((لاَ مَالِكَ إِلاّ اللّهُ)) يعني الملك أو المِلك ((لاَ مَالِكَ إِلاّ اللّهُ)) يعني المِلك إنما هو لله وحده.

وهناك فرق بين مَالِك ومَلِك.

فمالك اسم فاعل من المِلْك، مَلَكَ الشيءَ يعني اقتناه وصار مختصاً به؛ من المِلك، وهذا راجع إلى التصرف بالأعيان.

وأما المُلك بالضم، فالاسم منه المَلِك وهو الذي ينفذ أمره ونهيه، فيرجع اسم المَلِك أو المُلْك إلى المعاني.

فصار عندنا مُلكاً ومِلكاً، المِلك راجع إلى الأعيان، والمُلك راجع إلى المعاني، هذا في قول عدد من محققي أهل اللغة. ٣

والفرق بين المَلِكِ والمالِكِ: أن المالك هو المتصرف بفعله، والمَلِكُ هو المتصرف بفعله وأمره، ذكره ابن القيم[1]. ١

قال سفيان: مثل " شَاهَانْ شَاهْ".

"قال سُفيان" هو: سفيان بن عُيينة: الإمام، المحدِّث، الجليل.

"مثل: شاهان شاه" يعني: عند العجم، فمعنى هذا اللقب عندهم: "ملك الملوك". ٤

فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير أملاك ملك، أي: ملك الأملاك، لكنهم في اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه على المضاف. ٥

ومقصود سفيان رحمه الله بهذا أن يبيِّن أنّ هذا اللّقب ممنوعٌ في جميع اللّغات، سواء بالعربيّة أو بالأعجميّة، سواء سُمّي "ملك الملوك" أو "شاهان شاه"، فالمعنى واحد، وكذلك "قاضي القُضاة" أو ما أشبه ذلك، فهذا منهيٌّ عنه في جميع اللُّغات. ٤

فنبه سفيان على أن الاسم الذي ورد الخبر بذمه لا ينحصر في "ملك الأملاك"، بل كل ما أدى معناه بأي لسان كان، فهو مراد بالذم، ذكره الحافظ.

والحديث صريح في تحريم التسمي "بملك الأملاك" ونحوه، ك"ملك الملوك" و"سلطان السلاطين".

قال ابن القيم: لما كان الملك لله وحده لا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضعه عنده وأبغضه له اسم: "شاهان شاه"، أي: "ملك الملوك" و"سلطان السلاطين"، فإن ذلك ليس لأحد غير الله. فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل والله لا يحب الباطل.

وقد ألحق أهل العلم بهذا "قاضي القضاة" وقالوا: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق، وهو خير الفاصلين، الذي ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة:١١٧].

---

[1] بدائع الفوائد (٤/٩٧٢– الباز)

ويلي هذا الاسم في القبح والكراهة والكذب: "سيد الناس" و "سيد الكل"، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ خاصة، كما قال ((أنا سيد ولد آدم))[1] فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: هو سيد الناس.

كما لا يجوز له أن يقول: "أنا سيد ولد آدم عليه السلام"[2]. ا

وقال ابن أبي جمرة: "يلتحق (بملك الأملاك): (قاضي القضاة)" وإن كان قد اشتهر في بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة، وقد سلم أهل المغرب من هذا، فاسْم كبير القضاة عندهم (قاضي الجماعة).

وقد زعم بعض المتأخرين[3] أن التسمي بـ (قاضي القضاة) ونحوها جائز، واستدل له بحديث ((أقضاكم عليٌّ))[4] قال: "فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض يكون أعدل القضاة وأعلمهم في زمانه (أقضى القضاة)، أو يريد إقليمه أو بلده".

وتعقبه العَلَمُ العراقي، فصوب المنع، ورد ما احتج به: "بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به، ومن يلتحق بهم، فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالألف واللام".

قال: "ولا يخفى ما في ذلك من الجرأة وسوء الأدب، ولا عبرة بقول من وُلِّيَ القضاءَ فَنُعِتَ بذلك فَلَذَّ في سَمْعِهِ فاحتال في الجواز، فإن الحق أحق أن يتبع"[5]. ا

وفي رواية: ((أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه))[6]. قوله ((أخنع)): يعني أوضع.

---

[1] جزء من حديث: رواه البخاري في صحيحه (رقم٤٤٣٥)، ومسلم في صحيحه (رقم٢٢٧٨) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] زاد المعاد (٢/ ٣٤٠-٣٤١).

[3] هو ابن المنير كما في فتح الباري (١٠/ ٥٩٠)، وفيض القدير (١/ ٢٢٠).

[4] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٤٨١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[5] فتح الباري (١٠/ ٥٩٠).

[6] رواه مسلم في صحيحه (٢١٤٣).

هذه الرواية رواها مسلم في صحيحه. ١

"وفي رواية: ((أَغْيَظُ)) هذا أفعل تفضيل، والغيظ: شدّة الغضب. ٤

قوله: ((أغيظ)) من الغيظ، وهو مثل الغضب والبغض، فيكون بغيضاً إلى الله مغضوباً عليه. والله أعلم. ٢

((أغيط)): من الغيظ وهو الغضب، أي: أغضب شيء عند الله عز وجل وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سبباً لغضب الله وخبيثاً، فإن التسمي به من الكبائر.

وقوله: ((أغيظ)). فيه إثبات الغيظ لله عز وجل، فهي صفة تليق بالله عز وجل كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب. ٥

قوله: ((أغيظ رجل)) هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل كما تقدم. والباب كله واحد، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة. وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان. ٢

قوله: ((وأخبثه)) وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله، فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه، وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله. ٢

وسبب كونه أغيض رجل وأخبث رجل أنه جعل نفسه مماثلاً لله جل وعلا في الحق بهذه التسمية. ٣

قال ابن أبي جمرة: "وفي الحديث مشروعية الأدب في كل شيء، لأن الزجر عن "ملك الأملاك"، والوعيد عليه يقتضي المنع منه مطلقاً، سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض، أم على بعضها، وسواء كان محقاً في ذلك، أم مبطلاً.

مع أنه لا يخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقاً، ومن قصده وكان فيه كاذباً".[1]

قلت: يعني أن الثاني أشد إثماً من الأول. ١

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم، كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال: خرج معاوية ﵁ على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار))[2] وأخرجه الترمذي أيضاً، وقال حسن.

وعن أبي أمامة ﵁ قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ متكئاً على عصا، فقمنا إليه. فقال: ((لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضا))[3] رواه أبو داود. ٢

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه.

[1] نقله عنه الحافظ في الفتح (٥٩١/١٠).

[2] الترمذي الأدب (٢٧٥٥)، أبو داود الأدب (٥٢٢٩).

[3] أبو داود الأدب (٥٢٣٠)، أحمد (٢٥٣/٥).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

وتؤخذ من قول الرسول ﷺ: ((إن أخنع اسم عند الله -عز وجل- رجل تسمى ملك الاملاك))، والمؤلف يقول: النهي عن التسمي، والنهي شرعاً لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة. فحسب، بل إذا ورد الذم عليه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك، فإنه يفيد النهي، وصيغة النهي ذم أو وعيد أو ما أشبه ذلك، فهو متضمن للنهي وزيادة. ٥

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

والذي: في معناه: قاضي القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه في الفارسية. ٥

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

أي لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضي القضاة، لعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكاً وأحكم قضاء. وإذا سمينا شخصاً بقاضي القضاة أو حاكم الحكام وهو ليس كذلك، بل هو من أجهل القضاة ومن أضعف الحكام، جمعنا بين أمرين: بين الكذب، والوقوع في اللفظ المنهي عنه، وأما إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه، فهذا وإن كان القول مطابقاً للواقع لكنه منهي عنه، مع أن القلب لم يقصد معناه. ٥

الرابعة: التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه.

يؤخذ من قوله: ((لا مالك إلا الله))، فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهي: ((لا مالك إلا الله))، فكيف تقول: ملك الأملاك وهو لا مالك إلا الله عز وجل؟.

الفرق بين ملك ومالك:

ليس كل ملك مالكاً، وليس كل مالك ملكاً، فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لا يكون بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكاً ويتصرف فيما يملكه فقط، فالملك من ملك السلطة المطلقة، لكن قد يملك التصرف فيكون ملكاً مالكاً، وقد لا يملك فيكون ملكاً وليس بمالك، أما المالك، فهو الذي له التصرف بشيء معين، كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك، فهذا ليس بملك، يعني: ليس له سلطة عامة.

ويستفاد من الحديث أيضاً:

١- إثبات صفة الغيظ لله عز وجل، وأنه يتفاضل لقوله: ((أغيظ))، وهو اسم تفضيل

٢- حكمة الرسول ﷺ في التعليم، لأنه لما بين أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: ((لا مالك إلا الله))، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية، قال ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد يستويان

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية، فالأثرية ما كان من كتاب أو سنة أو إجماع، والنظرية: العقلية، أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع. ٥

(بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ)

(بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ)

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإليه الْحُكْمُ))، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إذا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُم، فَرَضِي كِلا الْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ: ((مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَالَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟)) ، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: ((فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟)) قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: ((فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ))، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ.

قولُه رحمه الله: "بابُ احترام أسماء الله" أي: إكرامُها وإجلالُها، وعدم إهانتها، أو استعمالها في شيء يُمْتهن.

والأسماء: جمع اسم، والاسم: ما يوضَع علامةً على الشيء مميّزاً له عن غيره، مأخوذ من السُّمُو وهو الارتفاع، أو من السِّمَة وهي العلامة. ٤

أسماء الله عز وجل هي: التي سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ﷺ. ٥

والله سبحانه وتعالى له أسماء سمّى بها نفسَه في كتابه، وسمّاهُ بها رسوله ﷺ في سنّته، وله أسماء لا يعلمها إلاَّ هو سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، وقال تعالى: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾ [طه:٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠]، وقال تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والنّبي ﷺ في دعائه يقول: ((اللهم إنّي أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك))، فأسماء الله لا يعلمها إلاّ هو سبحانه وتعالى، وكلّها حسنى.

وتعدُّد الأسماء يدلّ على عظم المسمّى، فهي أسماءٌ عظيمة، يجب على العباد: احترامُها، وإجلالُها، ودُعاء الله تعالى بها، والتوسّل إليه تعالى بأسمائه وصفاته، فيقول في الدّعاء: "يا رحمن يا رحيم، يا حيّ يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام"، لأنّ ذلك من أسباب الإجابة، فدلّ على عظمها.

فلا يجوز أن تُمْتَهَن وأن تُبْتَذَل، أو توضَع في أشياء تُستعمَل وتُهان، كأن تُكتب على أشياء تُداس بالأقدام، أو تقع في الشّوارع والقاذورات، ومَن وجد شيئاً من ذلك وجب عليه رفعُه أو إتلافه، أو إزالة اسم الله تعالى منه، فهذا من احترام أسماء الله سبحانه وتعالى. ٤

هناك جملة قواعد وأسس في باب أسماء الله تعالى ينبغي لمسلم معرفتها واستحضارها، ومن هذه القواعد ما يلي:

١- أن لله سبحانه وتعالى أسماء سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله، وهذه الأسماء توقيفية بمعنى أن ليس لنا أن نخترع ونحدث اسم لله سبحانه وتعالى لم يرد في الشرع، بل المرجع هو القرآن وأحاديث النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف :٣٣].

٢- أن أسماء الله تبارك وتعالى في أعلى درجات الحسن، ولهذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠].

٣- أن أسماء الله سبحانه بعضها معلوم لدينا والبعض الآخر مجهول، ولذلك جاء في حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ في الدعاء: ((اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك...)).

وأما قوله النبي ﷺ ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة))، فليس المقصود حصر أسماء الله سبحانه وتعالى في تسعة وتسعين اسماً فقط، بل فيه إثبات التسعة والتسعين اسما لله، ولا ينفي غير هذا العدد، بل هي أزيد كما في حديث ابن مسعود، والظاهر من قوله ﷺ: ((من أحصاها)) أنه ليس المراد من عدها بل المراد من عمل بدلالة هذه الأسماء ودعا الله بها، مثل اسم: الغفور، فتقول يا غفور اغفر لي، ثم تعمل بمقتضى هذا الاسم، فتعمل ما يقتضي رحمة الله سبحانه من الأعمال الصالحة، وتترك ما ينافي الرحمة من الشرك والمعاصي.

٤- أن أسماء الله سبحانه وتعالى دالة على ذاته وهي دالة أيضاً على صفاته جل وعز، فالله سبحانه اسمه الرحمن وهو متصف بالرحمة، وأما المخلوق فاسمه يدل على ذاته فقط، فنقول مثلاً؛ فلان اسمه صالح لكن قد يكون غير صالح، فلا يدل الاسم للمخلوقين على الصفة. ٩

هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

وقلنا: باعتبار دلالتها على الذات، مترادفة، لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله عز وجل، وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمنه الآخر من باب دلالة اللزوم، فمثلاً: (الخلاق) يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفاد من أسم التقدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة (يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة)؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن، فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يسمى محمداً وهو من أشد الناس ذماً، وقد يسمى عبد الله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله عز وجل، وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك، فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم لنا وبعضها غير معلوم بدليل قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في دعاء الكرب: ((أسالك اللهم بكل أسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أستأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي...)). ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله، هل هي محصورة بعدد معين؟

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة)).

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل، ليجتهد الناس في الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظاً.

ثانياً: فهمها معنى.

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب! اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضه هذه الأسماء، فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل الصالح الذي يكون جالباً لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذا افعل ما يكون سبباً في مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك، فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب، لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلاً، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: ((لن يدخل الجنة أحد بعمله)). قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ((ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته))[1].

فلا تغتر يا أخي بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت كذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ [الحجرات: ١٧]، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا، فيجب أن نرى لله المنه والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فنؤمن بأن الله تعالى يجزي الإحسان بالإحسان.

السابع: أسماء الله عز وجل ودلالتها على الذات والصفة جميعاً دلالة مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلالتها على أمر خارج التزام.

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة، ومسلم: كتاب المنافقين/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله.

مثال ذلك: (الخلاق) دل على الذات، وهو الرب عز وجل وعلى الصفة وهي الخلق جمعياً دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودل على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله عز وجل لايتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم متعدياً: الإيمان بالاسم اسماً لله، والإيمان بما تضمنه من صفة وما تضمنه من أثر وحكم فالعليم مثلاً لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير مُتَعَدٍّ، فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة.

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع العليم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قوله: "باب احترام أسماء الله". أي وجوب أحترام أسماء الله، لأن احترامها احترام لله عز وجل ومن تعظيم الله عز وجل، فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يسمى به غيره، وإن سمي وجب تغييره، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله، مثل: الرحيم، والسميع والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض[١]. ٥

و المراد بها هنا –أي في هذا الباب– الأول. ٦

---

[١] للاستزادة انظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين

وقوله: "وتغيير الاسم" أي: إذا سُمّي شيء من المخلوقات باسم من أسماء الله الخاصّة به، كـ (الله) أو (الرحمن) أو ما أشبه ذلك من أسمائه الخاصّة به التي لا يُسمّى بها غيرُه؛ فإنّه يجب تغيير الاسم احتراماً لأسماء الله.

"من أجل ذلك" أي: من أجل احترام أسماء الله تعالى.

أما الأسماء التي يُسمّى بها المخلوق ويسمّى بها الخالق مثل: الملِك، والعزيز، وأشباه ذلك؛ فهذه ليست من هذا الباب، فالله له أسماء تختصّ به، والمخلوق له أسماء تختصّ به، فالله سمّى نفسه: (الرؤوف، الرحيم)، وقال عن نبيّه بأنّه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وسمّى نفسه بالعليم، ووصف وسمّى عبده ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣] وسمّى نفسه بالحليم، وسمّى عبده: ﴿بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]، فهذه أشياء مشتركة يجوز أن يسمّى بها المخلوق، ولكن يُعلم أنّها ليست كأسماء الله سبحانه وتعالى. ٤

فيكون لله ما يليق به وللعبد ما يليق به. ٦

هذا الباب فيه الإرشاد إلى الأدب الذي يجب أن يصدر من قلب الموحد ومن لسانه، فإن الموحد متأدب مع الله جل جلاله، ومتأدب مع أسمائه، متأدب مع صفاته، متأدب مع دينه، فلا يهزل -مثلا- بشيء فيه ذكر الله، ولا يُلقي الكلمة عن الله جل وعلا هكذا دون أن يتدبر ما فيها، وكذلك لا يسمى أحداً بأسماء الله ويغير الاسم لأجل هذا، فأسماء الله جل وعلا يجب احترامها ويجب تعظيمها، ومِن احترامها أن يجعل ما لا يصلح إلا الله منها لله وحده وأن لا يسمى به البشر.

قال (باب احترام أسماء الله تعالى) هذا الاحترام قد يكون مستحباً من جهة الأدب، وقد يكون واجباً، فأسماء الله تعالى يجب احترامها؛ بمعنى يجب أن لا تمتهن، ويستحب احترامها أيضاً فيما كان من الأدب أن لا يوصف به غير الرب جل وعلا، وهذا راجع إلى تعظيم شعائر الله جل جلاله قال سبحانه ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، وقال جل

وعلا ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج:٣٠]، قال أهل العلم: الشعائر جمع شعيرة وهي كل ما أشعر الله بتعظيمه، كل ما أشعر الله؛ يعني أعلم بتعظيمه فهو شعيرة، ومما أشعر الله بتعظيمه أسماء الله جل وعلا فيجب احترامها وتعظيمها.

لهذا يستدل أهل العلم على وجوب أن لا تمتهن أسماء الله من جهة وجودها في الجرائد وفي الأوراق أن ترمى أو أن توضع في أمكنة قذرة يستدلون على وجوب احترام ما فيه اسم من أسماء الله في هاتين الآيتين وبالقاعدة العامة في ذلك.

فإذن (احترام أسماء الله تعالى) من الأدب الذي قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً، (وتغيير الاسم لأجل ذلك). ٣

عن أبي شريح: أنه كان يُكْنَى أبا الحكم؛ فقال له النبي ﷺ: ((إن الله هو الحكم، وإليه الحكم)) فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين فقال: ((ما أحسن هذا، فمالك من الولد؟)) قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: ((فمن أكبرهم؟)) قلت: شريح، قال: ((فأنت أبو شريح))، رواه أبو داود وغيره[١].

ثم ذكر رحمه الله الدليل فقال: "عن أبي شريح" اسمه -على الراجح-: هانئ بن يزيد الكِنْدي، صحابي، له رواية عن الرّسول ﷺ. ٤

جاء وافداً إلى النبي ﷺ مع قومه. ٥

"أنه كان يُكنى"(يُكْنَى)" هي الفصيحة أمّا يُكَنَّى فهذه ضعيفة، تقول فلان يُكْنَى بكذا، أما يُكَنَّى فليست بجيدة لأن يُكْنَى هي التي كان عليها غالب الاستعمال فيما ذكره أهل اللغة. ٣

الكنية: ما صُدِّر بأبٍ أو أُم، كأبي عبد الله، وأمّ هانئ، وما أشبه ذلك٤، أو أخ أو عم أو خال.٥

---

[١] أخرجه أبو داود برقم (٤٩٥٥) والنسائي (٨/٢٢٦-٢٢٧) والحاكم في المستدرك على الصحيحين (رقم ٦٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٤٥).

ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٨/٢٢٧-٢٢٨) وفي الأدب المفرد (رقم ٨١١). وغيرهم وإسناده حسن. محقق ١ بتصرف

والكنية تكون للتشريف والتكريم. ٤

وتكون للمدح كما في هذا الحديث، وتكون للذم كأبي جهل، وقد يكون لمصاحبة الشيء مثل: أبي هريرة، وقد تكون لمجرد العلمية كأبي بكر رضي الله عنه، وأبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لأنه ليس له ولد. ٥

قال بعضهم: "الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل، وأبي المعالي، وأبي الخير، وأبي الحكم، وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سلمة، وأبي شريح، والى ما يلابسه كأبي هريرة، فإنه عليه السلام رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة، وقد تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر"[١]. ١

أما اللَّقب فإنه يكون للمدح وللذّمّ، والغالب أنّه للذمّ، ولذلك يقول الله جل وعلا ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات:١١].

"أبا الحَكَمْ" الحكم هو: الذي يُحكم بين النّاس ويُفصِل النِّزاع، ومنه سُمِّي الحاكم حاكماً لأنّه يفصل بين النّاس، فالحكم -بالألف واللاَّم- لا يُطلق إلاّ على الله سبحانه وتعالى، أما أن يُقال: (حكم) بدون تعريف[٢] فلا بأس، فالله جل وعلا يقول: ﴿فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥]. ٤

((إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْم)).

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: (الحكم). ٥

فهو من أسماء الله تبارك وتعالى كما في هذا الحديث. ١

وأما بالنسبة للعدل، فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: "إن الله حكم عدل" ولا أعرف فيه حديثاً مرفوعاً، ولكن قوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ [المائدة: ٥٠] لا شك أنه متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة. ٥

---

[١] هذا كلام القاري في مرقاة المفاتيح (٢١/٩).

[٢] أي: بالألف واللام.

قال في شرح السنة: "الحَكَمُ هو: الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغيره تعالى"[1] كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١]. ١

الحكم من أسماء الله جل وعلا والله جل وعلا لم يلد ولم يولد، فتكنيته بأبي الحكم غير لائقة: لأن الحكم من أسماء الله، والله جل وعلا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هذا من جهة.

ومن جهة أخرى أن الحَكَم وهو بلوغ الغاية في الحُكم، أنّ هذا فيما فيه فصل بين المتخاصمين راجع إلى من له الحكم وهو الله جل جلاله، وأما البشر فإنهم لا يصلحون أن يكونوا حُكّاما أو أن يكون الواحد منهم حكماً على وجه الاستقلال، ولكن يكون حكماً على وجه التبع، ولهذا أنكر النبي عليه الصلاة والسلام عليه هذه التسمية، فقال له ((إنّ الله هُوَ الْحَكَمْ)) ودخول (هُوَ) بين لفظ الجلالة وبين اسمه (الْحَكَمْ) يدل على اختصاصه بذلك كما هو مقرر في علم المعاني؛ لأن (هُوَ) هذا الضمير عماد أو ضمير فصل لا محل له من الإعراب، فائدته أن يُحْصَر أو أن يُجعل الثاني مختص بالأول.

قال ((وَإليه الْحُكْمُ)) يعني أن الحُكم إليه لا إلى غيره، فلهذا لفظ الحَكم الذي يفيد استغراق صفات الحُكم هذا ليس إلا إلى الله جل وعلا. ٣

وقوله: ((وإليه الحكم)). الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلى هذا يكون راجعاً إلى الله وحده. ٥

وقوله: ((إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْم)) بمعنى: أنّه هو الذي يحكُم بين عباده، في الدُّنيا يحكُم بينهم بوحيه الذي أنزله على رسوله ﷺ من الكتاب والسنّة: قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ﴾ [الشورى:١٠]، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩] والرّدّ إلى الله هو: الرّدّ إلى كتابه، والردّ إلى الرّسولِ ﷺ هو: الرّد إليه في حياته وإلى سنّته بعد وفاته ﷺ. ٤

فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة، وقد يسر

[1] شرح السنة (١٢/٣٤٣).

الله معرفة ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة، فإنها لا تجتمع على ضلالة، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء – يسر له ذلك بفضله ومنه عليه وإحسانه إليه، فما أجلها من عطية، فنسأل الله من فضله. ٢

وكذلك هو الحَكَم في الآخرة الذي يحكُم بين النّاس فيما كانوا فيه يختلفون، ففي الآخِرة ليس هناك حاكم سواه سبحانه وتعالى، هو الذي يتولَّى الفصل بين عباده، ويحكم للمظلومين على الظَّلَمة، ويردّ المظالِم إلى المظلومين، فلا يُنهي النّزاع بين العالَم إلاّ الله سبحانه، أما الحكم الذي في الدّنيا يحكُم به الحُكّام من القُضاة؛ فهذا يُخطئ ويُصيب، والنّبي ﷺ يقول: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجرٌ واحد))، أما إذا لم يجتهد أو اجتهد وهو ليس أهلاً للاجتهاد وحكم فإنه على كل حال مخطئ وآثم، لأنه ليس من حقّه أن يحكم وهو ليس أهلاً للاجتهاد، إلاَّ في مسألة الصُّلْحِ. ٤

وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له، فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]. ٥

فلا أحد يرد المطر ولا يجلبه إذا منعه الله سبحانه، والله سبحانه حكم باختلاف الليل والنهار وتقلبهما، وحكمه أيضاً سبحانه بموت شخص لا راد له، فهو حكم كوني قدري. ٩

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين: مؤمن وكافر، فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر. ٥ أو يقول: إن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله عز وجل.٩

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشوري: ١٠].

وأما قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي، لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعاً للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء. ٥

والنّبي قال: ((إنّ الله هو الحكَم، وإليه الحُكم)) على سبيل الإنكار على أبي شريح.

ثم إنّ ابا شريح أراد أن يبيّن السبب للرّسول ﷺ، وأنّه لم يسمِّ نفسَه بذلك، وإنّما النّاس هم الذين سمّوه به، والسبب في هذا: أنّه إذا اختلف قومُه في شيء رجعوا إليه فحكم بينهم فرضيَ كلاَ الفريقين، بمعنى: أنّه يُصْلِح بينهم برضاهم، وليس في هذا ظلمٌ لأحد، وإنّما فيه إنهاء للنّزاع وقطع للخُصومة وإرضاء لكلا الطَّرَفين، وهذا عملُ خير، ولهذا قال النّبي ﷺ: ((ما أحسن هذا))، والله جل وعلا يقول: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤] وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال النّبي ﷺ: ((الصلح جائز بين المسلمين، إلاّ صلحًا أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً)).

فالإصلاح بين النّاس أمرٌ مرغَّبٌ فيه، وعملٌ صالح، وصدقة من الإنسان على نفسه أن يعدِل بين النّاس ويسوّي الخلافات بين النّاس، بعكس الذي يُثير النّزاع ويُحدث الفتنة بين النّاس، ويحرِّش بعضهم على بعض، فهذا مفسد -والعياذ بالله-، خلاف الذي إذا وجد النّاس مختلفين فإنّه يصلح بينهم ويقارِب بين وجهات نظرهم، ويُذهِب ما في نفوسهم من الكراهية بعضهم لبعض، فهذا مصلِح وله أجرٌ عند الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال النّبيُّ ﷺ: ((ما أحسن هذا!))، تعجُّباً وثناءً على عمل هذا الرّجل، وتشجيعاً له على ذلك، وإنما أنكر التكنّي بأبي الحكم، وأراد تغييره، حيث قال ﷺ: ((فما لَك من الولد؟))، ليجعل له بديلاً صالحاً. ٤

قلت: فعلى هذا يكون حكمه لقومه بعد إسلامه، إذ يبعد أن يكون قاضياً لهم قبل أن يلقى رسول الله ﷺ ويتعلم منه؛ لأن هذه القضية كانت بعد إسلامه بقليل، لأنه كان مع وفد قومه حين أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ.

ولا يُظَنْ أن رسول الله ﷺ يُحسِّنُ أمر حكام الجاهلية. ١

فالمعنى –والله أعلم– أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحر للعدل، بينهم ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين صار عندهم مرضياً، وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى، لا على الإلزام، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة، كما قد يقع اليوم كثيراً، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله، وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم. ٢

وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب ونحوهم، بسوالف آبائهم وأهوائهم، فليس من هذا الباب، لما فيه من النهي الشديد، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا. ٧

قال أبو شريح: "قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله". قال النّبي ﷺ: ((من أكبرُهم؟)). قال: "شُريح". فقال النّبي ﷺ: ((أنت أبو شريح)).

بَدَّل "أبا الحَكَم"، وكنّاه بأكبر أولاده، فدلّ على أنّ الكنية تكون بأكبر الأولاد. ٤

قوله "قال: شريح، ومسلم، وعبدالله" صريح في أن الواو لا تقتضي الترتيب، وإنما تقتضي مطلق الجمع، فلذا سأله رسول الله ﷺ عن الأكبر، إذ لو كانت دالة على الترتيب لم يَحْتَجْ إلى سؤالٍ عن أكبرهم.

قوله: ((فأنت أبو شريح)) أي: رعايةً للأكبَرِ سناً في التكريم والاجلال، فإن الكبير أوْلى بذلك.

قال في شرح السنة: "فيه: أن يُكْنَى الرجل بأكبر بنيه، فإن لم يكن له ابنٌ فبأكبر بناته، وكذلك المرأة تُكْنَى بأكبرِ بنيها، فإن لم يكن لها ابنٌ فبأكبر بناتها"[1]. انتهى. ١

قوله: ((فأنت أبو شريح)). غيره النبي ﷺ، لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله! الثاني: إن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحُكْم، فصار بذلك مطابقاً لاسم الله، وليس لمجرد العلمية المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركاً لله سبحانه وتعالى في ذلك، ولهذا كناه النبي ﷺ بما ينبغي أن يكنى به. ٥

هل حكم بينهم بالشرع أو بما عنده يعني بما يراه؟ الجواب أنه حكم فيهم بما يراه، ولو كان الحكم بينهم بالشرع لجاز إطلاق الحكم على من يحكم بين المتخاصمين بالشرع، أما إطلاقه على الفاصل بين المتخاصمين بغير الشريعة، فإن هذا مخالف للأدب.

بهذا نقول من الأدب أن لا يسمى أحدا بالحَكم أو الحاكم أو نحو ذلك إلا إذا كان منفِّذا لأحكام الله جل جلاله، لهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥]، سّمى المبعوث من هذا وهذا حَكَماً لأنهما يحكمان بالشرع، فالذي يحكم بما حكم به الله الذي هو الحكم يقال له حَكم؛ لأنه حكم يحكم من له الحكم وهو الله جل جلاله، فيسوغ إطلاق ذلك ولا بأس به؛ لأن الله جل وعلا وصف من يحكم بشرعه بأنه حاكم والذين يحكمون بأنهم حكام وهم القضاة قال جل وعلا في سورة البقرة: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إلى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]، قال ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الحُكَّامِ﴾ وهو جمع الحاكم ساغ إطلاق ذلك؛ لأنه يحكم بالشرع.

---

[1] شرح السنة للبغوي (١٢/٣٤٤)

المقصود بذلك أن الأدب في هذا الباب أن لا يسمى أحد بشيء يختص الله جل وعلا به، ولذلك أتبع هذا الباب الذي قبله لأجل هذه المناسبة، فتسمية ملك الأملاك مشابهة لتسمية أبا الحكم من جهة أن في كل منهما اشتراك في التسمية؛ لكن فيها اختلاف أن أبا الحكم راجع إلى شيء يفعله هو وهو أنه يحكم فيرضون بحكمه، وذاك ملك الأملاك ادعاء ليس له شيء ولهذا كان أخنع اسم عند الله جل جلاله. ٣

قوله "رواه أبو داود": ظاهر كلام المؤلف أنه يرى أن الحديث صالح للحجة ولهذا اعتمده واكتفى به. واستدل به أنه لا يسمى بالحكم وأبي الحكم، لأن هذا وصف الله تعالى وهو الحاكم بين عباده وله الحكم في الدنيا بشرعه، وفي الآخرة يحكم بنفسه.

ولكن يرد على هذا ما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة من أسماء كالحكم، والحكيم ولم يغيرها النبي ﷺ وهي أصح من هذه الرواية. وهذا مما يدل على أن الحديث في صحته نظر، لأن النبي ﷺ قد أقر بعض الأسماء كحكيم بن حزام، والحكم بن عمرو الغفاري، وأسماء أخرى ولم يغيرها، ولو كانت منكرة لغيرها.

ولأن الحكم يكون بالشرع بين الناس ولا يضره أن يسمى بذلك، وأن يسمى القاضي والحاكم وما أشبه ذلك. ٦

فهذا الحديث يدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه: احترامُ أسماء الله سبحانه وتعالى، وإجلالُها، وتغيير الاسم من أجل إجلالها، لأنّ النّبي ﷺ غيّر اسم (أبي الحَكَم) إلى (أبي شُريح) احتراماً لأسماء الله سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: في الحديث دليلٌ على تعليم الجاهل، فإنّ النّبي ﷺ علّم أبا شُريح، وبيّن له أنّ هذه الكُنْيَة خطأ.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على أنَّ مَن مَنع من شيء سيّء وله بديلٌ صالح فإنّه يأتي بالبديل، فإنّ النّبي ﷺ لَمّا مَنع من التكنِّي بـ (أبي الحكَم) جعل بديلاً له وهو (أبو شريح).

وهذه قاعدة للمعلِّمين والدُّعاة أنَّهم إذا نهوا النّاس عن شيء محرّم وهناك ما يحلُّ محلَّه من الطيِّب الحلال؛ فإنُّهم يأتون به ويبيِّنونه للنّاس.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على مشروعيّة الصلح بين النّاس فيما يختلفون فيه، وأنّ الصلح مبنيٌّ على التراضي ليس إلزاميًّا فإنَّ أبا شُريح قال: (فرضيَ كلاَ الفريقين)، فالمصلح لا يُلْزم وإنّما يَعْرِض الحلّ النافع، فإن قُبل فالحمد لله، وإلاَّ فإنّ المرَاد إلى كتاب الله وسَنّة رسوله ﷺ لحسم النّزاع. ٤

والإصلاح بينهم أفضل من الحكم لأن الحكم يحصل به حزازات، لكن إذا اصطلحوا عن طيب نفس كان أفضل لزوال ما في النفوس وتحل المودة والمحبة. ٦

أمّا الذي يُلْزِم النّاس بغير حكم الله؛ فهذا طاغوت، كالذي يُلزم النّاس بحكم الأعراف القَبَليّة التي يتحاكم إليها بعض القبائل، فهذا من حكم الجاهلية. ٤

وفيه جواز التحاكم إلى من يَصْلُحُ للقضاء وإن لم يكن قاضياً، وأنه يَلْزَمُ حُكْمُهُ، ولهذا قال النبي ﷺ: ((ما أحسن هذا)). ١

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أنّ الكنية تكون بأكبر الأولاد. ٤

وفيه: تقديم الأَكْبَرِ، وفيه: أن استعمال اللفظ الشريف الحسن مكروه في حق من ليس كذلك، ومنه أن يقول المملوك لسيده: ربي و غيره. نبه عليه ابن القيم[1]. ١

حسن الإنكار والدعوة، والتغيير، فالنبي ﷺ لم يعنفه بل لاطفه بقوله: ((ما أحسن هذا!)) أي: الإصلاح بين الناس، ثم بدأ بالاشتراك معه لإعطاء البديل والمخرج لهذه القضية فقال له: ((فما لك من الولد؟)) ولم يقل: من أكبر أولادك؟ لأن الإنسان حينما يسأل أولاده ويعددهم غالبا ما ينشرح صدره وتنبسط أساريره، ثم يسهل تغيير المنكر، وفي ذلك درس للآباء والأمهات والدعاة والمربين والمسؤولين في حسن التعامل مع الغلط والجهل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال سبحانه

[1] زاد المعاد (٣٥٢/٢، ٤٧٠)

لموسى وهارون في أمر دعوتهما لفرعون الطاغية: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وبلا شك أن الله سبحانه علم أن فرعون لن يؤمن، ولكن ليعلم الدعاة أن هذا هو طريق الدعوة. وقال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهنا نلاحظ كلمة (أحسن) وهي من صيغ التفضيل، وهي تعني أعلى درجات الحسن.

بل إنه ﷺ أمر أمراً عاماً بحسن الخلق مع الناس حتى في غير أمور الدعوة فقال: ((وخالق الناس بخلق حسن))[١]. ٩

ويستفاد من الحديث ما يلي:

١- أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا باباً محرماً أن يبنوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢- أن الحكم لله وحدة لقوله ﷺ: ((وإليه الحكم))، أما الكوني، فلا نزاع فيه إذ لا يعارض الله أحد في أحكامه الكونية.

وأما الشرعي، فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعاً سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساو لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه، فإنه كافر لأنه جعل نفسه نداً لله عز وجل، سواء في العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساو لحكم الله، لأن أحسن اسم تفضيل: معناه لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك، فقد كذب الله عز وجل وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره، وأنه كفر.

فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]

---

[١] رواه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: معاشر الناس (رقم١٩٨٧)

قلنا: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١] وهذا دليل على كفرهم، لأنه قال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾، وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: ((وإليه الحكم)) يدل على أن من جعل الحكم لغير الله، فقد أشرك.

فائدة:

يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظاماً يمشى عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله، فهذا قد يكون كفراً أو فسقاً أو ظلماً.

فيكون كفراً إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له.

ويكون فسقاً إذا كان لهوى في نفس الحاكم.

ويكون ظلماً إذا أراد مضرة المحكوم عليه، وظهور الظلم في هذه أبين من ظهوره في الثانية، وظهور الفسق في الثانية أبين من ظهوره في الثالثة.

تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تضمن أمراً لا ينبغي، كما غير النبي ﷺ بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة. ٥

لا شك أنه يشكل على بعض الناس حكم تصغير اسم الله، فمثلاً:

عبدالرحمن هل يجوز أن تصغيره إلى رحومي؟ أو عبدالمجيد إلى مجودي؟ ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس.

الجواب: أن هذا لا يجوز، لأن التصغير توجه إلى اسم الله سبحانه وتعالى، ولكن ما درج عليه بعض الناس من تسمية عبدالله بعبود أو عبودي فهذا يتجه للعبودية فلا شيء فيه، ولذا لا بأس بتصغير بعض الأسماء التي ليس بها اسم الله مثل تصغير محمد إلى حميد أو محيميد وذلك من باب التمليح. ٩

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

قوله: "ولو لم يقصد معناه" هذا في النفس منه شيء، لأنه إذا لم يقصد معناه، فهو جائز، إلا سمي بما لا يصح إلا الله، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه، فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله، فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط، لأنه لا يكون مطابقاً لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه "الحكم"[١] ولم يغيره النبي ﷺ، لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه "حكيم"[٢] وأقره النبي ﷺ، فالذي يحرم من أسمائه تعالى ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة. ٥

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك. وقد سبق الكلام عليه. ٥

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: ((فمن أكبرهم؟ قال شرح. قال: فأنت أبو شريح)).

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني، لأن النبي ﷺ أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة ولم يأمره النبي ﷺ أن يكنى ابتداء. ٥

---

[١] انظر "الإصابة" لابن حجر (١/٣٤٢)

[٢] انظر "الإصابة" لابن حجر (١ / ٣٤٩)

(بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَسُولِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الْآيَةُ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَ -دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ-: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تبُوك: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُناً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. يَعْنِي رَسُولَ اللَّه ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرّاءَ. فقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ. فَذَهَبَ عَوْفٌ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآن قَدْ سَبَقَهُ. فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ .فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إليه مُتَعَلِّقاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكِبُ رِجْلَيْهِ -وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ- فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾)) مَا يَلْتَفِتُ إليه وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ.

هذا الباب بابٌ عظيم، إذا تأمّله الإنسان وعرَف واقِع النّاس فإنّه ينفعه الله به. ٤

هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ، فيكون معطوفاً على قوله بشيء.٥

وقول الشيخ رحمه الله هنا (باب من هزل بشيء) الباء هذه هل هي التي يُذكر بعدها وسيلة الهزَل؟ أو الباء التي يذكر بعدها ما هزَل فيه؟

الظاهر هو الثاني.

الأول: (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول) يعني ذكر الله هازلا ذكر القرآن بشيء فيه هزل ذكر الرسول بشيء فيه هزل؛ يعني هزل وهو يذكر هذه الأشياء.

والثاني: (من هزل بشيء فيه ذكر الله) يعني كان المستهزأ به أو المهزول به هو ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

ومعلوم أن المعنى هو الثاني؛ لأن الشيخ يريد أن المستهزئ به هو الله أو الرسول أو القرآن تباعاً لنص الآية. ٣

فقوله: "بابُ من هزَل" الهزْل هو: اللعب والاستهزاء، ضدّ الجدّ.

"بشيءْ فيه ذكرُ الله أو القرآن أو الرّسول ﷺ" يعني: من استهزأ بشيء من هذه الأشياء فما حكمُه؟، حكمُه: أنّه يرتدُّ عن دين الإسلام، لأن هذا من نواقِض الإسلام بإجماع المسلمين، سواءٌ كان جادًّا أو هازلاً أو مازحاً، حيث لم يستثن الله إلاَّ المُكْرَه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾ [النحل:١٠٦-١٠٩]، فالأمر شديد جدًّا. ٤

وصفته: أن يتكلم بكلام فيه الهزَل والاستهزاء والعيب إما بالله أو بالقرآن أو بالرسول ﷺ. ٣

فمن استهزأ بالله، أو بكتابه، أو برسوله، أو بدينه: كفر، ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعاً. ١

والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمداً ﷺ، فـ (أل) للجنس وليست للعهد. ٥

التوحيد الخالص في القلب؛ بل أصل التوحيد لا يجامع الاستهزاء بالله جل وعلا وبرسوله وبالقرآن؛ لأن الاستهزاء معارضة والتوحيد موافقة. ٣

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفر كفران:

-كفر إعراض ٥، كمن قال الله فيهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤]. ٣

- وكفر معارضة ٥، وهم المجادلون أو الذين يعارضون بأنواع المعارضات لأجل إطفاء نور الله، ومن ذلك الاستهزاء ونحوه. ٣

والمستهزئ كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط. ٥

فالتوحيد استسلام وانقياد وقبول وتعظيم، والهُزأ والاستهزاء بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول هذا معارضة؛ لأنه مناف للتعظيم، ولهذا صار كفراً أكبر بالله جل وعلا، لا يصدر الاستهزاء بالله أو برسوله ﷺ أو بالقرآن من قلب موحد أصلاً؛ بل لابد أن يكون إما منافقاً أو كافراً مشركاً. ٣

وهذه المسألة خطيرة جداً، ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله عز وجل لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار.

فمن استهزأ بالصلاة ولو نافلة، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج، فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلاً: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة، لأن الرب عز وجل كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

ثم أعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عن الحنابلة، بل يقتل كافراً، ولا يصلى عليه، ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ، لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ جميعاً﴾ [الزمر:٥٣]، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم وهذا هو الصحيح، إلا أن ساب الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله، فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعاً، أما ساب الرسول ﷺ، فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل، غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ألف كتاباً في ذلك اسمه: (الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول)، أو: (الصارم المسلول على شاتم الرسول)، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه، فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقبل منه وأطلقه؟

أجيب: بلى، هذا صحيح لكن هذا في حياته ﷺ، وقد أسقط حقه، أما بعد موته، فلا ندري، فننفذ ما نراه واجباً في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف، لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عمن سبه؟

أجيب: بلى، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: "إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط". ٥

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة؛ وهو أن الهزَل والاستهزاء بالله أو بالرسول أو بالقرآن منافٍ لأصل التوحيد وكفر مخرج من الملة؛ لكن بضابطه وهو ما ذكرناه من أنّ الاستهزاء وهو الاستنقاص واللعب والسخرية يكون بالله جل جلاله أو يكون بالرسول ﷺ أو يكون بالقرآن وهذا هو الذي جاء فيه النص قال جل وعلا ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُن إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ أَبالله وآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]، فمن استنقص الله جل وعلا أو هزَل بذكره لله جل وعلا؛ يعني حينما ذكر الله جل وعلا استهزأ أو هزَل ولم يُظهر التعظيم في ذلك فتنقص الله جل وعلا كما يفعله بعض الفسقة والذين يقولون الكلمة لا يلقون لها بالا تهوي ببعضهم سبعين خريفاً، أو هزل بالقرآن أو استهزأ بالقرآن أو بالسنة؛ يعني بالنبي عليه الصلاة والسلام فإنه كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة. هذا ضابط هذا الباب.

ويخرج عن ذلك ما لو استهزأ بالدين، فإن الاستهزاء بالدين فيه تفصيل: فإن المستهزئ أو السابّ للدين أو اللاعن للدين أو المستهزئ بالدين قد يريد دين المستهزأ به ولا يريد دين الإسلام أصلاً فلا يرجع استهزاؤه إلى واحد من الثلاثة.

ولهذا نقول:

-الكفر يكون أكبر فيمن استهزأ إذا كان بأحد الثلاثة التي ذكرنا ونصت عليها الآية، أو كان راجعاً إلى أحد الثلاثة.

- أما إذا كان استهزاء بشيء خارج عن ذلك فإنه يكون فيه تفصيل:

فإن هزل بالدين فيُنظر هل يريد دين الإسلام أو يريد فلان، مثلاً يأتي واحد من المسلمين ويقول يستهزئ مثلاً بهيئة أحد الناس، وهيئته يكون فيها التزام بالسنة فهل هذا يكون مستهزئاً الاستهزاء الذي يخرجه من الملة؟ الجواب: لا؛ لأن هذا الاستهزاء راجع إلى تدين هذا المرء وليس راجعاً إلى الدين أصلاً، فيعرف بأن هذا سنة عن النبي ﷺ، فإذا علم أنه سنة

وأقر بذلك وأن النبي فعله، ثم استهزأ؛ بمعنى استنقص أو هزأ بالذي اتبع السنة مع علمه بأنها سنة وإقراره بصحة كونها سنة، فهذا رجع إلى الاستهزاء بالرسول.

كذلك الاستهزاء بكلمات قد يكون مرجعها إلى القرآن وقد لا يكون مرجعها إلى القرآن ويكون فيه تفصيل.

فإذاً إذا سمعت الاستهزاء أو قرأته:

- فإذا كان راجعاً إلى الاستهزاء بالله أو بصفاته أو بأسمائه أو بالرسول عليه الصلاة والسلام أو بالقرآن فإن هذا كفر.

- فإن كان الاستهزاء غير ذلك، فتنظر في التفصيل:

إن كان راجعاً إلى أحد الثلاثة فهو كفر أكبر.

وإن كان غير ذلك فإنه يكون محرماً ولا يكون كفرا أكبر. ٣

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. [التوبة:٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة -دخل حديث بعضهم في بعض-: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القرّاء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق. فقال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه -وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب- فيقول له رسول الله ﷺ: ((﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ﴾)) ما يتلفت إليه وما يزيده عليه.[١]

---

[١] ابن جرير الطبري في "تفسيره" (١٦٩١٢-١٦٩١٦)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه كما في "الدار المنثور" (٤/٢٣٠).

وقد بيّن الشيخ أن هذا الحكم في كتاب الله مع سبب نزوله فقال: "وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

ثم ذكر سبب نُزول الآية، فقال: "عن ابن عمر" هو: عبد الله بن عمر.

"ومحمد بن كعب" هو: محمد بن كعب القُرظيّ من بني قُرَيْظة.

"وزيد بن أَسْلم" هو: مولى عمر بن الخطاب.

"وقَتادة" هو: قتادة بن دَعامة بن قَتادة السُّدُوسيّ. ٤

"ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم وقتادة". والثلاثة تابعيون، فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة. ٥

هذا الأثر ذكره المصنف مجموعاً من رواية ابن عمر[1]، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم[2]، وقتادة[3]، وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام[4]. ١

"دخل حديثُ بعضهم في بعض" يعني: كلّ هؤلاء رووا هذا الحديث، ولكن لَمّا كانت ألفاظُهم متقارِبة والمعنى واحد دخل حديثُ بعضهم في بعض، فسِيْق سياقاً واحداً، من باب الاختصار. ٤

قوله: "دخل حديث بعضهم في بعض". أي: إن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلاً، فيجمعون هذا ويجعلون في حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون مثلاً: دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.٥

---

[1] رواه ابن جرير في تفسيره (١٧٢/١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٢٩/٦)، وأبو الشيخ وابن مردويه —كما في الدر المنثور (٢٣٠/٤) وإسناده صحيح.

[2] وهو حديث صحيح كما سبق.

[3] صحيح بشواهده.

[4] انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ (٧١/٢-٧٢).

" أن رجلاً "يعني: من المنافقين.

"كان في غزوة تبوك" تبوك: اسم موضع، شماليّ المدينة من أدنى الشّام.

وغزوة تبوك سبُبها: أنّ الرسول ﷺ بَلغه أنّ الروم يُعِدُّون العُدّة لغزو المسلمين، وكان هذا في الصيف وفي شدّة الحرّ ووقت مَطِيْب الثمار، فالوقت وقتٌ حَرِجٍ جدًّا، والمسافة بعيدة، والعدوّ عدده كبير، والوقت حارّ، ووقت مَطِيب الثمار والنّاس بحاجة إليها، والمسلمون عندهم عُسرة، فليس عندهم استعداد للتجهُّز للغزو، ولذلك سُمّي هذا الجيش بـ "جيش العُسرة"، وسُمّيت هذه الساعة: "ساعة العُسْرة".

وقد جهّز عثمان رضي الله عنه من ماله ثلاثمائة بعير بجميع لوازمها، فهو الذي جهّز جيش العُسرة من ماله الخاصّ، وهذا من أعظم فضائله، رضي الله عنه وأرضاه.

وكذلك شارَك مَن شارك من الصّحابة بما عندهم من مال، فجهّزوا الجيش، وخرجوا، وكانت آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

والمنافقون صاروا يتكلّمون، واعتذروا عن الخُروج، لأنّهم ليس معهم إيمان، والغزوة هذه صعبة، لا يصبر عليها إلاَّ أهلُ الإيمان، وهذه حكمة من الله تعالى، واختبار في آخر عهد الرسول ﷺ، أراد الله أن يختبر المسلمين ليظهَر الصادِق من المنافق، فالصادقون ما تردّدوا ولا تلكّأوا، وأمّا المنافقون فإنهم تلكّأوا وجعلوا يتكلّمون ويقولون: "يحسبون أن غزو بني الأصفر مثل غزو العرب، كأنّنا بهم يقرَّنون في الأصفاد"، وما أشبه ذلك من الكلام القبيح، واعتذروا عن الخُروج، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة:٤٢] لأنّ المسافة بعيدة، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ [التوبة:٤٢-٤٣]. ٤

وكان مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفاً، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أبي بنحو نصف المعسكر، حتى قيل: إنه لا يدرى أي الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟ مما يدل على وفرة النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة. ٥

خرج المسلمون وصبروا على المشقّة وفيهم رسولُ الله ﷺ يصيبُه ما أصابهم من الشدّة ومن الرمضاء ومن الحرّ.

خرجوا وذهبوا ووصلوا إلى تبوك ونزلوا فيه، فلمّا عَلِم العدو بقدومهم إلى تبوك أصابه الرُّعب، وتقهقر.

فنزل النّبي ﷺ أيّاماً في تبوك ينتظر قُدومهم ومجيئَهم، ولكنهم جَبُنوا، وألقى الله الرعب في قلوبهم، ورجع المسلمون سالمين مأجورين، وخاب المنافقون.

وأنزل الله في هذه الغزوة سورةً كاملة هي سورة التوبة التي فضح الله فيها المنافقين وأثنى فيها على المؤمنين، وهكذا حكمةُ الله سبحانه وتعالى يبتلي عبادَه.

فكان للمنافقين كلمات، منها ما في هذا الحديث، حيث قال رجلٌ منهم: "ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء" يعني بالقُرّاء: رسول الله ﷺ وأصحابه. ٤

القراء: جمع قارىء، وهم عند السلف الذين يقرؤون القرآن ويعرفون معانيه، أما قراءته من غير فهم لمعناه؛ فلا يوجد في ذلك العصر، وإنما حدث بعد ذلك من جملة البدع. ١

" أرْغَبَ بطوناً، ولا أكذبَ ألسناً، ولا أجْبَنَ عند اللّقاء"

قوله: "أرغب بطونا" أي: أوسع بطوناً. "الرَّغْبُ والرَّغِيبُ: الواسع. يقال: جَوفٌ رَغِيبٌ، ووادٍ رَغِيبٌ" [١] يصفونهم بسعة البطون وكثرة الأكل. ١

وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة، لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

---

[١] انظر: لسان العرب (٤٢٤/١)

قوله: "ولا أكذب ألسناً". الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولاً، واللسان يطلق على القول كثيراً في اللغة العربية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: بلغتهم.

قوله: "ولا أجبن عند اللقاء". الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه[١] لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه، فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعى واحد: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس لساناً ولا سيما النبي ﷺ وأصحابه، فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

والمنافقون أكذب الناس، كما قال الله فيهم: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق[٢]، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...﴾ [المنافقون: ٤]، فلو سمعوا أحداً ينشد ضالته، لقالوا: عدو عدو، وهم أحب الناس للدنيا، إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمي دماؤهم وأموالهم وأعراضهم. ٥

وهذه الصّفات في الواقع هي صفات المنافقين، لكنّهم وصفوا بها رسولَ الله ﷺ وأصحابَه.

" فقال عوف بن مالك: كذبت".

---

[١] البخاري: كتاب الدعوات/ باب الاستعاذة من الجبن.

[٢] البخاري: كتاب الإيمان/ باب علامة المنافق، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان خصال المنافق.

قوله: "كذبت". أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: "ولكنك منافق". لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تسمى بالإسلام إلا منافق، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ أنه كافر، لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعناً في الله، لأنه طعن في حكمته، حيث أختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه.

وطعناً في الرسول ﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء على دين خليله، والإنسان يستدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

وطعناً في الشريعة: لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسول ﷺ في نقل الشريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة، فلا يوثق بهذه الشريعة. ٥

"ولكنك منافق" فيه المبادرة في الإنكار، والشدة على المنافقين، وجواز وصف الرجل بالنفاق إذا قال أو فعل ما يدل عليه. ١

"ولكنك منافق، لأخبرنّ رسولَ الله ﷺ" وهذا مِن أنكار المنكر، ومن النصيحة لوُلاة الأُمور، فالمسلم يبلِّغهم مقالات المفسدين والمنافقين من أجل أنْ يأخُذوا على أيدي هؤلاء، لئلا يُخِلُّوا بالأمن ويفرّقوا الكلِمة، فتبليغ وُلاة أمور المسلمين كلمات المنافقين ودعاة السوء، الذين يريدون تفريق الكلمة، والتحريش بين المسلمين؛ هو من الإصلاح ومن النَّصيحة، لا من النّميمة.

"فذهب عوفٌ إلى رسول الله ﷺ ليُخبره فوجد القرآن قَدْ سَبَقه" لأنّ الله سبحانه وتعالى سَمِعَ مقالتهم وأنزل على رسوله ﷺ الخبر قبل أن يصل إليه عوف. ٤

والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]. ٥

فهذا فيه: سَعَةُ علم الله سبحانه وتعالى.

وفيه: علامةٌ من علامات النبوّة، وأنّ الرسول ﷺ كان يوحى إليه ويبلُغه الخبر بسرعة.

ثم جاء ذلك الرجل الذي تكلّم بهذا الكلام -والعياذُ بالله-، ووجد النّبي ﷺ:
"قد ارتحل وركِب ناقته" من أجل أن يُفسد على المنافقين خُطّتهم، ومن أجل أن يُنهيَ هذه الخُطّة الخبيثة.
"فقال: يا رسول الله، إنما كنّا نخوض ونتحدّث حديثَ الرَّكْب، نقطع به عناء الطّريق. قال ابن عمر: كأنّي أنظرُ إليه متعلِّقاً بِنِسْعَة ناقة النّبي ﷺ" النِّسْعَة هي الحبل الذي يُشَدُّ به الرحل. ٤
قوله: "والحجارة تنكب رجليه". أي يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه والله أعلم يمشي بسرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال، لأنه يريد أن يعتذر. ٥

وهو يقول: يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب فالرسول ﷺ يرُدُّ عليه بقوله تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦].٤
أراد ﷺ أنه ليس لهم عذر، لأن هذا لا يدخله الخوض واللعب، لأن هذه الأشياء تحترم وتعظم ويخشع عندها إيماناً بالله، وتصديقاً لرسوله ﷺ، وتعظيماً لآياته، وتوقيراً لرسوله ﷺ، فالمقابِلْ لها بالخوض واللعب واضِعٌ له في غير محله، متنقص لله ولآياته ولرسوله، ولا يكون معذوراً.
قوله: "ما يلتفت إليه" فيه الغلظة على أعداء الله، وعدم المبالاة بهم. ١
قوله: "وما يزيده عليه". أي: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله عز وجل، وكفى بالقول الذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخاً. ٥
قوله: "وما يزيده عليه " فيه الاقتصار على النص، والإعراض عن مجادلة المبطلين. ١
فهذا يبين أن المستهزيء بالقرآن أو السنة أو الرسول ﷺ فهو كافر، و لو زعم أنه يقضي بها الوقت أو يتحدث حديث الركب ويقطع الطريق أو أنه غير متعمد لذلك فهو كافر، لأن التلاعب بهذا لا يجوز لا في الطريق ولا في غيره، لأنه يدل على نفاق في قلبه وخبث وحقد على أهله، والمسلم لا يستطيع أن يقول مثل هذا الذي قاله الرجل. ٦

فجاء الرجل يعتذر فلم يكن النبي ﷺ يبالي بما يقول ولا يرد عليه إلا بقوله ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي أنه لم يقبل عذره وبين له أنه كافر بهذا العمل. فهذا يبين أن المستهزئ بالشرع كافر بعد الإيمان إذا تنقص الرسول أو قال أنه جبان أو كذاب أو لم يبلغ الرسالة وما أشبه ذلك مما يدل على التنقص. ٦

فإن قلت: كيف لم يقتلهم ﷺ؟

قيل: لم يكن ﷺ يقتل المنافقين إذا ظهر نفاقهم -وإن كان قتلهم جائز- خشية أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، كما بينه ﷺ، فكان في ترك قتلهم مصلحة تأليف الناس على الإسلام، واستئلاف عشائرهم المسلمين -أيضاً-. ١

فهذه القصّة فيها فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن من استهزأ بالله أو برسوله أو بالقرآن ارتدّ عن دين الإسلام رِدّةً تنافي التّوحيد، وهذا وجه المناسبة من عقد المصنِّف لهذا الباب؛ أنّ مَنِ استهزأ بالله أو برسوله أو بالقرآن، أو استهان بشيء من ذلك؛ أنّه يرتدّ عن دين الإسلام رِدّة تنافي التّوحيد وتُخرج من دين الإسلام، لأن هؤلاء كانوا مؤمنين، فارتدّوا عن دينهم بهذه المقالة، بدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

الفائدة الثانية: أن نواقض الإسلام لا يُعفى فيها عن اللّعب والمزح، سواءً كان جادّاً أو هازلاً، بل يُحكم عليه بالردّة والخُروج من دين الإسلام، لأنّ هؤلاء زعموا أنّهم يمزحون ولم يقبل الله جل وعلا عذرهم، لأنّ هذا ليس موضع لعب ولا موضع مزح.

الفائدة الثالثة: وُجوب إنكار المنكر، لأنّ عوف بن مالك رضي الله عنه أنكر ذلك وأقرّه الرسول ﷺ على ذلك.

الفائدة الرابعة: أنّ مَن لم يُنكر الكفر والشرك فإنّه يكون كافراً، لأنّ الذي تكلّم في هذا المجلس واحد والله نسب هذا إلى المجموع فقال:

﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، لأنّ الراضيَ كالفاعل، وهذه خطورة عظيمة.

الفائدة الخامسة: أنّ إبلاغ وليّ الأمر عن مقالات المفسدين من المنافقين ودُعاة السوء الذين يريدون تفريق الكلمة والتحريش بين المسلمين من أجل الحَزْم يُعَدُّ من النصيحة الواجبة، وليس هو من النّميمة، لأنّ عوف بن مالك ﷺ فعل ذلك ولم يُنكر عليه الرسول ﷺ، فدلّ على أنّ هذا من النّصيحة، وليس من النّميمة المذمومة.

الفائدة السادسة: فيه احترام أهلِ العلم وعدم السخرية منهم، أو الاستهزاء بهم، لأنّ هذا المنافق قال: "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء" يريد بذلك العلماء، والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء، وهم قُدوة الأُمَّة، فإذا طعنَّا في العلماء فإنَّ هذا يُحْدِثُ الخَلْخَلَةَ في المجتمع الإسلاميّ، ويقلِّل من قيمة العلماء، ويُحْدِث التشكيك فيهم.

نسمع ونقرأ من بعض دُعاة السوء من يقول: "هؤلاء علماء حيض، علماء نفاس، هؤلاء عُمَلاء للسلاطين، هؤلاء علماء بغْلَة السلطان"، وما أشبه ذلك، وهذا القول من هذا الباب –والعياذُ بالله– وليس للعلماء ذنب عند هذا الفاسق إلاّ أنهم لا يوافقونه على منهجه المنحرف.

فالوقيعة بالمسلمين عُموماً ولو كانوا من العوامّ لا تجوز، لأنّ المسلم له حُرمَة، فكيف بوُلاة أُمور المسلمين وعلماء المسلمين.

فالواجب الحذر من هذه الأمور، وحفظ اللّسان، والسّعي في الإصلاح، ونصيحة مَن يفعل هذا الشيء.

الفائدة السابعة: في الحديث دليلٌ على معجزة من معجزات الرّسول ﷺ؛ حيث إنّه بلغه الوحي عن القصّة قبل أن يأتيَ إليه عَوفُ بن مالك، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(٤)﴾ [النجم:٣-٤].

الفائدة الثامنة: في الحديث دليلٍ على أنّ نواقِض الإسلام لا يُعذَر فيها بالمزح واللّعب، لأنها ليست مجالاً لذلك، وإنّما يُعذر فيها المكْره على القول خاصة كما في آية النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان﴾ [النحل:١٠٦].

الفائدة التاسعة: في الحديث دليلٌ على وُجوب الغِلْظة على أعداء الله ورسوله من المنافقين والكُفّار ودُعاة الضّلال، وأنّ الإنسان لا يَلِين لهم، لأنّه إنْ لان معهم خدعوه ونفّذوا شرّهم، فلا بُدّ من الحَزْم من وليّ الأمر ومن العالِم نحو المنافقين والكُفّار ودُعاة السوء. ٤

ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه". نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة. ٢

ومن هذا الباب: الاستهزاء بالعلم و أهله وعدم احترامهم لأجله. ٧

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾. الخطاب للنبي ﷺ، أي سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، أي: المسؤولون.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. أي ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونعلب، واللعب يقصد به الهزء، وأما الخوض، فهو كلام عائم لا زمام له.

هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول، فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونعلب.

قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلاً للسخرية؟

قوله: ﴿أَبِاللَّهِ﴾. أي بذاته وصفاته.

قوله: ﴿وَآيَاتِهِ﴾: جمع آية، ويشمل: الآيات الشرعية، كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين والعياذ بالله، أو يستهزئ بشيء من الشرائع، كالصلاة والزكاة والصوم والحج. والآيات الكونية، كأن يسخر بما قدره الله تعالى، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الثمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم؟ استهزاء وسخرية.

قوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾. المراد هنا محمد ﷺ. ٥

لم يعبأ باعتذارهم إما لأنهم كانوا كاذبين فيه، وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذوراً، وعلى التقديرين فهذا عذر باطل،

فإنهم أخطؤوا موقع الاستهزاء.

وهل يجتمع الإيمان بالله، وكتابه، ورسوله، والاستهزاء بذلك في قَلْبٍ؟! بل ذلك عين الكفر، فلهذا كان الجواب مع ما قبله ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. ١

قوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا﴾. المراد بالنهي التيئيس، أي: انهم عن الاعتذار تيئيساً لهم بقبول اعتذارهم قوله ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله. ٥

قال شيخ الإسلام: "فقد أمره أن يقول لهم: كفرتم بعد إيمانكم. وقول من يقول: إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولا بقلوبهم لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر. فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد: إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا ذلك إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق، وتكلموا بالاستهزاء: صاروا كافرين بعد إيمانهم. ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين".

إلى أن قال: "قال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فاعترفوا واعتذروا، ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ﴾ فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر.

فبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف، ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم. ولكن لم يظنوه كفراً، وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه"[1]. ١

هذه الآية نص في أن المستهزئ بالله وبالرسول وبآيات الله جل وعلا -والمقصود بها آيات الله جل وعلا الشرعية القرآن- أن هذا المستهزئ كافر وأنه لا ينفعه اعتذاره بأنه كان في هزل ولعب؛ بل هو كافر لأن تعظيم الله جل وعلا وتوحيده يوجب عليه ألا يستهزئ.

إذن قوله ﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ هو دليل كفر المستهزئ.

وهذه الآية نزلت في المنافقين، وبعض أهل العلم قال: ليست في المنافقين. وهذا غلط وليس بصواب؛ ذلك لأسباب ومنها أن هذه السورة التي منها هذه الآية هي في حال المنافقين؛ ولأن السياق سباقه ولحاقه يدل على أن الضمائر فيها ترجع إلى المنافقين قال جل وعلا قبل هذه الآية في سورة براءة ﴿يَحْذَرُ المنَافِقُونَ أَنْ تَنَزَّل عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُون (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلَتَهُمْ لَيَقُولُن إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٤-٦٥]، فهذه ظاهرة في أن سباقها في المنافقين فالضمير في قوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلَتَهُمْ﴾ يعني من ذُكر قبل هذه الآية وهم المنافقون لقوله: ﴿يَحْذَرُ المنَافِقُونَ﴾ ثم قال بعدها ﴿وَلَئِنْ سَأَلَتَهُمْ﴾، وكذلك ما بعدها من الآيات في المنافقين في قوله جل وعلا ﴿المنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، والأدلة على ذلك كثيرة.

[1] مجموع الفتاوى (٧/٢٧٢-٢٧٣)

فالصواب في ذلك: أنّ المراد بهؤلاء أنهم المنافقون، وأما أهل التوحيد فإنه لا يصدر منهم استهزاء أصلاً، ولو استهزأ لعلمنا أنه غير معظمٍ لله وأن توحيده ذهب أصلاً؛ لأن الاستهزاء يطرد التعظيم، والدليل الذي ذكره في سبب النزول وقصة النزول ظاهرة.

فالواجب على المسلمين جميعاً وعلى طلبة العلم خاصة أن يحذروا من الكلام؛ لأن الكثيرين يتكلمون بكلام لا يلقون له بالاً خاصة في مجالس بعض إهل الخير وطلبة العلم، ربما استهزؤوا أو ربما تكلموا بكلام فيه شيء من الهزل أو شيء من الضحك، وكان في أثناء هذا الكلام فيه ذكر الله أو فيه ذكر القرآن أو فيه ذكر بعض العلم، وهذا مما لا يجوز، وقد يدخل أحدهم في قول النبي عليه الصلاة والسلام ((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفاً)) نسأل الله جل وعلا السلامة والعافية.

فالواجب على العبد أن يعظم الله وأن لا يتلفظ بلسانه إلا بكلام عقله قبل أن يقوله لأن اللسان هو مورد الهلكة، قال معاذ للنبي عليه الصلاة والسلام: أو إنا يا رسول الله مؤاخذون بما نقول؟ قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم -أو قال على وجوههم- إلا حصائد ألسنتهم)) فالله الله في اللسان في أنّه أعظم الجوارح خطرا مِمَّا يسهل أو يتساهل به أكثر الناس، فاحذر ما تقول خاصة فيما يتعلق بالدين أو بالعلم أو بأولياء الله أو بالعلماء أو بصحابة النبي عليه الصلاة والسلام أو بالتابعين، فإنّ هذا مورده خطير، والله المستعان، وقد عظمت الفتنة، والناجي من سلمه الله جل وعلا. ٣

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿نَّعْفُ﴾: ضمير الجمع للتعظيم، أي: الله عز وجل.

وقوله: ﴿عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. هذا جواب الشرط، أي: لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلابد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. الباء للسببية، أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم والعياذ بالله، فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يعفى عنهم. ٥

قال ابن كثير: "أي: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بهذه المقالة الفاجرة"[1]. ١

ويستفاد من الآيتين:

١- بيان علم الله عز وجل بما سيكون، لقوله: ﴿ولئن سألتهم ليقولن﴾، وهذا مستقبل، فالله عالم ما كان وما سيكون، قال تعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ [هود: ١٢٣].

٢- أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿أبالله وآياته...﴾

٣- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر، بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤- أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله أعظم استهزاء وقبحاً، لقوله: ﴿أبالله وآيات...﴾ وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه مابقي إلا أن تستهزؤا بهؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥- أن المستهزئ بالله يكفر، لقوله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾.

٦- استعمال الغلظة في محلها، وإلا، فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة.

٧- قبول توبة المستهزئ بالله، لقوله: ﴿أن نعف عن طائفة...﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفي عنه وهدي للإسلام وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بين على صدق توبته، لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

---

[1] تفسير ابن كثير (٢/٣٦٨).

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ [النساء: ١٤] وهم يستطيعون المفارقة، والنبي ﷺ امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التوبة: ٦٧]، ولا يزيد على هذا أبداً مع إمكان أن يزيده توبيخاً وتقريعاً.٥
وفي الآية دليل على أن الرجل إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك، بل يكفر، وعلى أن الساب كافر بطريق الأَوْلَى نبه عليه شيخ الإسلام[1]. ١

فيه مسائل:
الأولى: وهي العظيمة: أن من هزل بهذا فهو كافر.
الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.
الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.
الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.
الخامسة: أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة: أن من هزل بهذا فهو كافر. أي من هزل: بالله وآياته ورسوله. ٥

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان. أي: سواء كان منافقاً أو غير منافق ثم استهزأ، فإنه يكفر كائناً من كان. ٥

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.

[1] الصارم المسلول (٢/٧٠)

النميمة: من نم الحديث، أي: نقله ونسبه إلى غيره: وهي نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهي من أكبر الذنوب، قال ﷺ: ((لا يدخل الجنة نمام))[1] وأخبر عن رجل يعذب في قبره، لأنه كان يمشي بالنميمة[2]، وأما النصحية لله ورسوله، فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله عز وجل وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة.

ومن ذلك لو أن رجلاً اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به في المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك، فليس هذا من النميمة، بل من النصيحة.ه

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح، لأن الله اشترط ذلك في العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشوري:٤٠] أي: كان عفوه مشتملاً على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهذا تفسير قاصر والصواب أن المراد به أصلح في عفوه، أي كان في عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه إفساداً لا إصلاحاً، فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر، لأن الله قال: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم.

والنبي ﷺ غلظ على هذا الرجل لكونه ﷺ لم يلتفت إليه، ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تنكب رجل الرجل، ولم يرحمه النبي ﷺ ولم يرق له، ولكل مقام مقال، فينبغي أن يكون الإنسان شديداً في موضع الشدة، ليناً في موضع اللين، لكن أعداء الله عز وجل الأصل في معاملتهم الشدة، قال تعالى في وصف الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ

---

[1] البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يكره من النميمة) ومسلم: كتاب الإيمان/ باب غلظ تحريم النميمة.

[2] البخاري: باب الجنائز/ باب عذاب القبر من الغيبة، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب الدليل على نجاسة البول.

وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩] و[التوبة:٧٣]، ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحياناً للدعوة والتأليف قد يكون مستحسناً. ٥

الخامسة: أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل. الأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا المعتذر محسناً، لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه أعتذار باطل، فإنه لا يقبل. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾)

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠] الْآيَةُ.

قَالَ مُجَاهِدُ: "هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ"، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي".

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قَالَ قَتَادَةُ: "عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ". وقَالَ آخَرُونَ: "عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ". وَهَذَا مَعَنى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: "أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ".

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول اللَّه ﷺ يَقُول: ((إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَص، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى. فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إليهمْ مَلَكاً، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبَ عَنِّي الّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً وَجِلْداً حَسَناً، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوِ الْبَقَرُ. شَكَّ إِسْحَاقُ . فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءُ، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا .قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبَ عَنِّي الّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، أَوِ الْإِبِلُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ :بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصَرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إليه بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً؛ فَأَنْتجَ هَذَان وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ أَنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي

صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ. فقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيراً، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ. أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرُكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ. فقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ ((أَخْرَجَاهُ)).

هذا الباب بابٌ عظيم، تقدّم نظيره في باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾.٤

هذا الباب كالأبواب التي قبله في بيان وجوب تعظيم الله جل وعلا في الألفاظ، وأن النعم تُنسب إليه وأن يشكر عليها فتعزى إليه، ويقول العبد هذا أنعم الله علي به، والكذب في هذه المسائل أو أن يتكلم المرء بكلام ليس موافقا للحقيقة، أو هو مخالف لما يعلمه من أن الله جل وعلا أنعم عليه بذلك، هذا قد يؤديه إلى المهالك وقد يسلب الله جل وعلا عليه النعمة بسبب لفظه، فالواجب على العبد أن يتحرز في ألفاظه خاصة بما يتصل بالله جل وعلا أو بأسمائه وصفاته أو بأفعاله وإنعامه أو بعدله وحكمته، هذا ويجب على العبد أن يكون متحرزاً في ذلك، والتحرز في ذلك من كمال التوحيد؛ لأنه لا يصدر التحرر إلا من قلب معظّم لله، مجلّ لله، مخبت لله؛ يعلم أن الله جل جلاله مطّلع عليه، وأنه سبحانه هو ولي الفضل وهو ولي الإنعام وهو الذي يستحق أن يجَلّ فوق كل جليل، ويستحق أن يُحب فوق كل محبوب، وأن يُعظّم فوق كل معظم.

فالله جل جلاله يجب توقيره وتعظيمه في الألفاظ. ٣

المراد -والله أعلم- بهذه الترجمة: التنبيه على أن ما يحصل للعبد من النعم فهو مجرد فضل وإحسان عليه من غير استحقاق من العبد لذلك، وإنما تفضل به الرب عليه جوداً وكرماً وإحساناً فلا يرى العبد نفسه أهلاً لذلك، فإنه إذا عرف نفسه وعلم ضعفها وفقرها وحاجتها وفاقتها واضطرارها إلى فاطرها ومعبودها الذي لا غناء لها عنه طرفة عين، وإن جميع النعم منه وحده منةً منهُ و فضلا وجوداً وكرماً، وأنه لو خُلِّيَ ونفسه لما قدر على شربة ماء فضلاً عن غيرها، ولكن الإنسان لظلمه وجهله لا يعلم ذلك إلا أن يتداركه الله برحمته.

وإن علم ذلك من حيث الإجمال فإنه يغيب عنه عند التفصيل كما يقع لكثير من الناس إذا حصلت له النعمة ظن أن ذلك بتحصيله وكده فنسبها إلى نفسه واستكبر، ونسي فاطره ومولاه الحق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء: ٨٣، فصلت: ٥١]، فإذا علم ذلك استفاد فوائد جليلة منها: محبة الرب على إحسانه وجوده وكرمه. ١

مناسبة الباب لـ "كتاب التوحيد": أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه، ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل، ففيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية. ٥

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ الضمير في ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ ضمير الغائب راجعٌ إلى الإنسان المذكور في الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿لا يَسْأَمُ الْإنسان مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت:٤٩]، والمراد بالإنسان هنا :جنس الإنسان. ٤ وقيل: المراد به الكافر. والظاهر أن المراد به الجنس، إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى: ﴿إليه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شركائي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا

كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْأَمُ الْإِنسان مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت: ٤٧-٤٩]، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة. ٥

﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسان مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾

يعني: لا يملّ الإنسان من طلب الدنيا، (وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ) يعني: إذا أصابته مصيبة في ماله أو في بدنه، ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ يستبْعِد الفَرَج من الله عزّ وجلّ ويقنط من رحمة الله، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ يعني: هذا الإنسان، أي :أعطيناه، ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ عافية وصحّة في بدنه وغنىً من فقره، ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ مسته في بدنه من المرض والمصائب، أو في ماله من الفقر والإعواز. ٤

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره بل أصيب بضراء، كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقة بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿مَسَّتْهُ﴾. أي: أصابته وأثرت فيه. ٥

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس. ٥

ينسى الضرّاء التي مسّته، وينسى من أين جاءت هذه النعم، ويظنّ أنّ ما في يده إنما هو بحوله وقوّته، فيقول: ﴿هَذَا لِي﴾، فلا يشكُر الله عزّ وجلّ ويعترف بنعمته، بل ينسِب هذه النعمة إليه هو وإلى كَدِّه وكسْبه، أو إلى آبائه وأجدادِه. ٤

وفي الآية: أن هذا القول طبيعة من طبيعة بني آدم إلا من عصمه الله، من إنكارهم النعم ونسبتها لنفسه وعدم الاعتراف بها لخالقها عز وجل، فمن شأنه الكفر بالنعم وأن يقول هذا عملي ومن أسبابي وغير ذلك. والمقصود من هذا: الحث على شكر النعم وإسنادها لله وإن كان له أسباب لكن كله بفضل الله، هو الذي أنبت النبات ويسر له التجارة والربح. ولا

مانع أن بسنده إلى سبب من الأسباب لكن يبين أولاً أنها من الله ويشكر ثم لا مانع من ذكر الأسباب لكن أن نسبها إلى أسبابه ونسي المنعم فهذا منكر. ٦

صدر المصنف -رحمه الله- هذا الباب بالآية الكريمة وهي قول الحق عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وفي ذلك إشارة إلى أمر هام وهو أن شكر نعمة الله عز وجل والاعتراف بها وعدم كفرانها ونكرانها يؤدي إلى زيادتها، ولذلك جاء في الآية الأخرى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم :٧].

وهذه النعم الواجبة الشكر تتنوع في جسد الإنسان من سمع وبصر ويد ورجل وقوة وصحة ونشاط في البدن، وتكون في الفكر والعقل، وتكون أيضاً في المال والجاه والأبناء، ونعمة تسخير بعض الناس لبعضهم، ونعمة العمل والإنتاج. هذه كلها من رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان. ٩

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي. ٢

قال مجاهد: "هذا بعملي وأنا محقوق به"[1] وقال ابن عباس: "يريد من عندي."

"قال مجاهد" هو مجاهد بن جَبْر، الإمام الجليل، من كبار التابعين.

"هذا بعملي، وأنا محقوقٌ به" يعني: هذه النعمة إنما حصلتُ عليها بعملي وَكَدِّي وكسبي واحترافي، وأنا محقوق بها، أي: أستحقها، وأنا الذي حصّلتُها، وأنا الذي جمعتُها. ٤

[1] قال في إبطال التنديد -وظني أنه نقله من نسخته من التيسير-: ((رواه عبدُ بن حميد وابن جرير بنحوه)) وعلقه البخاري في صحيحه (١٨١٧/٤ - البغا)، ووصله ابن جرير في تفسيره (٣/٢٥) وإسناده صحيح.

يعني نسب النعمة إلى نفسه أو نسب استحقاق النعمة إليه وأنه يستحق ذلك وأن الله جل وعلا لم يتفضل عليه بهذا الشيء، أو أنه تفضل عليه لأنه مستحق لهذا الإنعام، مستحق للمال، مستحق للجاه، مستحق لرفعة القدر عند الناس، فصار إليه ذلك الشيء؛ من المال والرفعة والسمعة الطيبة لأنه مستحق لذلك الشيء بفعله وجهده ونحو ذلك، مما قد يطرأ على قلوب ضعفاء الإيمان وضعفاء التوحيد.

والواجب أن يعلم العبد أنه فقير غير مستحق لشيء على الله جل وعلا، وأنه الله هو الرب المستحق على العبد أن يشكره وأن يذكره وأن ينسب النعم إليه، وأما العبد فليس مستحقاً في الدنيا لحق واجب على الله جل وعلا، إلا ما أوجبه الله جل وعلا نفسه.

فهذا الذي قال: هذا بعملي وأنا محقوق به. يعني بعد أن أتته رحمة من بعد الضراء قال "هذا بعملي وأنا محقوق به" وهذا يدخل فيه كثير مما يحصل في ألفاظ الناس، كقول الطبيب مثلاً هذا الذي حصل من شفاء المريض هذا بسبب عملي، أو نجاحي وتولي هذا الأمر هذا بسبب جهدي وبسبب تعبي، مما يجعل أن فعل الله جل وعلا فيه ذلك بسبب استحقاقه، أو أن ينسى الله جل وعلا وينسب الأشياء إلى نفسه، ولهذا قال (وقال ابن عباس: "يريد: من عندي".) يعني هذا لي، يقول من عندي أنا الذي أتيت بهذا المال أو بهذه النعمة، وهذا من عندي ولم يُتفضل علي به. ٣

"يريد: من عندي."

يعني: بعملي وبسببي، أنا الذي حصّلتُه وتعبْتُ فيه. ٤ وينسى الله عز وجل. ٥ بتصرف

إذاً فدخل في هذا الوصف الذي جاء في الآية نوعان من الناس:

- من ينسب الشيء إلى نفسه ولا ينسبه إلى الله جل وعلا أصلاً.
- والثاني أن ينسبه إلى نفسه من جهة الاستحقاق، وأنه يرى نفسه مستحقاً لذلك الشيء على الله جل وعلا، كما يحصل من بعض المغرورين؛ أنه لو أطاع الله واتقاه وحصلت له نعمة

فيقول: حصلت لي النعمة من جراء استحقاقي للنعمة فأنا العابد لله جل وعلا، ولا يستحضر أن الله جل وعلا يرحم عباده، ولو حاسبه على عمله لم تقم عباداته وعمله بنعمة من النعم التي أسداً ها الله جل وعلا له.

فالواجب -إذن- على العبد أن ينسب النعم جميعاً لله، وأن يشعر بأنه لا يستحق شيئاً على الله، وإنما الله هو المستحق للعبودية، هو المستحق للشكر، هو المستحق للإجلال، والعبد فقير مذنب مهما بلغ، وأنظر إلى أبي بكر الصديق ﷺ كيف علمه النبي عليه الصلاة والسلام أنه يقول في آخر صلاته: ((اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي)). هذا أبو بكر علمه عليه الصلاة والسلام أن يقول ((اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً))، فكيف بحال المساكين أمثالنا أو أمثال أكثر هذه الأمة؟ كيف يظنون في أنفسهم أنهم يستحقون على الله شيئاً؟

فإذاً تمام التوحيد أن يُجِلَّ اللهَ العبدُ، وأن يعظم العبد ربه تبارك وتعالى، وأن لا يعتقد أنه مستحق للنعم أو إنما أوتيها بجهده وجهاده وعمله وذهابه ومجيئه؛ بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فعل العبد سبب وهذا السبب قد يتخلف وقد يكون مؤثراً، وكان مؤثراً بإذن الله جل وعلا، فرجع الأمر إلى أنه فضل الله يؤتيه من يشاء. ٣

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ قال قتادة: "على علم مني بوجوه المكاسب."[١] وقال آخرون: "على علم من الله أني له أهل."[٢] وهذا معنى قول مجاهد: " أوتيته على شرف" [٣].

---

[١] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٢٣)، وعبدُ بن حميد، وابن المنذر —كما في الدر المنثور(٦/٤٤٠) — ولفظ ابن أبي حاتم: "على خير عندي وعلم عندي".

[٢] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ١٧١٢٥) عند السُّدِّيِّ وإسناده لابأس به.

[٣] رواه ابن جرير في تفسيره (١٢/٢٤)، والفِرْيأبي وعبدُ بن حميد وابن المنذر -كما في الدر المنثور (٧/٢٣٤)- وإسناده صحيح.

في القرآن آيتان: آية قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)﴾ [الزمر:٤٩]، الثانية: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨]، والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية. ٥

قال: وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨]، قال قتادة: "علي علم مني بوجوه المكاسب".

هذا في قصة قارون قال جل وعلا ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وءَاتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] إلى أن قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨]. ٣

قوله: ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾. في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة: "على علم مني بوجوه المكاسب"، فيكون العلم عائداً على الإنسان، أي: عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد علي فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفراً بنعمة الله وإعجاباً بالنفس. ٥

القول الأول معناه: أنّني رجلٌ عالم بالاقتصاد وطُرق الكسب، كما يقوله اليوم الاقتصاديّون، حيث يتباهون بالحِذْق بعلم الاقتصاد، ويظنون أنّ الأموال والثّروات التي يحُصلون عليها بسبب حِذْقهم ومعرفتهم وخِبْرَتهم، ولا ينسبون هذا إلى الله سبحانه وتعالى. ٤

وهذا يحصل لكثير ممن أغناهم الله جل وعلا وصاروا في تجارة عظيمة، ينسب الشيء إلى نفسه، فيقول أنا خبير، أنا أفهم، أنا عندي علم بوجوه المكاسب، ونحو ذلك، وينسى أن الله جل وعلا هو الذي تفضل ولو منع السبب الذي فعله من التأثير لم يصر شيئاً ، فالله جل وعلا هو الذي تفضل عليه، وهو الذي وفقه وهو الذي هداه للفكرة، وهو الذي جعل السبب مؤثرا، فالله هو المنعم ابتداء وهو المنعم ختاماً. ٣

الثاني: قال آخرون: "على علم من الله أني له أهل" ٥، معناه: أن الله أعطاني هذا المال لأنّه يعلم أنيّ أستحقُّه، ولا فضل لله عليّ فيه. ٤

فيكون بذلك مدلاً على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله، أي: أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له. ٥

الثالث: قول مجاهد: "أوتيته على شرف"، وهو من معنى القول الثاني. ٥

أي: أن الله علم أنني رجل شريف وذو مكانة ومنزلة، فالله أعطانيه لمنزلتي، ومعنى هذا: إنكار الفضل من الله سبحانه وتعالى.

قال العلماء: "هذه الأقوال لا تنافيَ بينَها"، لأنّ الآيتين تشملان كلّ هذه الأقوال، فاختلافهم إنّما هو اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تضادّ. ٤

فصار معنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله، لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلاً لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر الله عز وجل، والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله، فهو الذي يسرها حتى حصلنا عليها، بل كل ما نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله، فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، حتى ولو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك، فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة هو الله، ثم أن المهارة أو العلم قد لا يكون سبباً لحصول الرزق، فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلاً؟! ٥

قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إذا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩] يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى

و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا. قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩] فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٠] أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠] أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، كما قال تعالى مخبرًا عن قارون: ﴿إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَاۖ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِيۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ – ٧٨][١]. ٢

﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، فلا تدل كثرة الدنيا على أن صاحبها يستحق رضا الله، فإن الله يعطي الدنيا من يحب و من لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب. ٨

فالواجب -إذاً- أن يتخلّص العبد من رؤية نفسه، وأن يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة.

فهذا الباب معقود لما ذكرنا من تخليص القلب واللسان من ألفاظ اعتقادات باطلة يظن المرء فيها أنه مستحق أشياء على الله جل وعلا، والتوحيد هو أن يكون العبد ذليلاً خاضعاً بين يدي الله، يعلم أنه لا يستحق شيئاً على الله جل وعلا وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. ٣

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

---

[١] تفسير ابن كثير (٤/٥٨)

١- الاعتراف بها في القلب.

٢- الثناء على الله باللسان.

٣- العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه، فهذا لم يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى. ٥

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إنّ ثَلاَثَةً من بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ. فَبَعَثَ إليهمْ مَلَكاً. فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيّ شَيْءٍ أَحَبّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنّي الّذِي قَدْ قَذِرَنِي النّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ. وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً وَجِلْداً حَسَناً. قَالَ: فَأَيّ الْمَالِ أَحَبّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ (أَوْ الْبَقَرُ. شَكّ إِسْحَاقُ)[١] فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ. فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيّ شَيْءٍ أَحَبّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنّي هَذَا الّذِي قَذِرَنِي النّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ. وَأُعْطِيَ شَعَراً حَسَناً.

فقَالَ: فَأَيّ الْمَالِ أَحَبّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً. فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيّ شَيْءٍ أَحَبّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدّ اللهُ إِلَيّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدّ اللهُ إليه بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيّ الْمَالِ أَحَبّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً. فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلّدَ هَذَا. فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ. وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ. وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

قَالَ: ثُمّ إِنّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ. قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي. فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاّ بِاللهِ ثُمّ بِكَ. أَسْأَلُكَ، بِالّذِي أَعْطَاكَ اللّوْنَ الْحَسَنَ

[١] إِلاّ أَنّ الأَبْرَصَ أَوِ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ. وَقَالَ الآخَرُ: الْبَقَرُ. كما في صحيح مسلم.

وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ، بَعِيراً أَتَبَلّغُ بهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ. أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النّاسُ؟ فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللّهُ عزّ وجلّ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً، فَصَيّرَكَ اللّهُ إلى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا. وَرَدّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدّ عَلَىَ هَذَا. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيّرَكَ اللّهُ إلى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَىَ الأَعْمَىَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ. انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي. فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاّ بِاللّهِ ثُمّ بِكَ. أَسْأَلُ، ، بِالّذِي رَدّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَىَ فَرَدّ اللّهُ إِلَيّ بَصَرِي. فَخُذْ مَا شِئْتَ. وَدَعْ مَا شِئْتَ. فَوَاللّهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شيئاً أَخَذْتَهُ لِلّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ. فَإِنّمَا ابْتُلِيتُمْ. فَقَدْ رضِيَ الله عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَىَ صَاحِبَيْكَ.)) أخرجاه[1].

"أخرجاه" أي: البخاري ومسلم. ٢

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. ٥

قال: "عن أبي هريرة ﷺ: إنّ ثلاثةً من بني إسرائيل" بنوا إسرائيل هم ذرية يعقوب، وإسرائيل، ومعناه: عبد الله.

"أبرص" الأبرص: مَن أُصيب بالبَرَص، وهو داءٌ يُصيب الجلد فيتحوّل إلى أَبْيَض كَريه المنظر، وهذا المرض لا يُمكِن علاجه في الطِبِّ البشري، ولذلك كان من معجزة عيسى –عليه الصلاة والسلام– أنه يُبْرِئ الأبرص والأَكمَهْ ويُحيي الموتى بإذن الله، وهذا ما لا يقوى عليه الطب البشري. ٤

وربما توصلوا أخيراً إلى عدم أنتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن. ٥

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم٣٤٦٤)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٩٦٤)

"وأقرع" وهو الذي لا ينبُت لرأسه شعر، لأنّ هذا الشعر الذي ينْبَت على الرأس فيه فوائد عظيمة منها: الجمال، ومنها منافع صحيّة، وغير ذلك، فمن فقد شعر الرأس فإنّه يفقد منافع كثيرة أعظمُها الجمال، ويُصبح كريه المنظر.

وأما "الأعمى" فهو الذي ذهب بصرهُ كلُّه، أمّا الذي ذهب منه بصرُ عينٍ واحدة؛ فهذا يسمّى أعور.

وقوله: ((فأراد الله)) الله جل وعلا يوصَف بالإرادة، والمخلوق- أيضاً- يوصف بالإرادة، ولكنْ إرادةُ الله خاصّةٌ به، وإرادة المخلوق خاصّة به، وإرادة الله تنقسم إلى قسمين: إرادة كونيّة، وإرادة شرعيّة. ٤

والإرادة هنا كونية. ٥

((أن يبتليهم)) يعني: أن يختبرهم. ٤ كما قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].٥

((فبعث إليهم مَلَكاً)) المَلك: واحدُ الملائكة، وهم: خَلْقٌ من خَلْق الله ومن عالم الغيب.٤ خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهو أحد أركان الإيمان الستة. ٥

خلقهم الله جل وعلا لعبادته، وخلقهم -أيضاً- لتنفيذ أوامره تعالى في مُلْكه، فمنهم الموكّل بالوحي، ومنهم الموكّل بالقَطْر والنّبات، ومنهم الموكّل بالنفخ في الصّور، ومنهم الموكّل بالأجنّة، ومنهم الموكّل بحفظ أعمال بني آدم، كُلُّ من الملائكة له عمل: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

((فأتى الأَبْرَص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟، قال: لونٌ حسن، وجِلْدٌ حسن، ويَذْهَبُ عني الذي قد قَذِرَنِي النّاس به)).

قوله: ((قذرني)). أي استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله. ٥

((قال: فمسحه المَلَك)) مسح على هذا الأبرص فبرئ، وعاد إليه لونٌ حسن وجلدٌ حسن، وهذا بقدرة الله تعالى لأنّ المِلك رسولُ الله. ٤

قوله: ((فمسحه)) ليتبين أن لكل شيء سبباً. ٥

((فذهب عنه قذره)): بدأ بذهاب القذر قبل اللون قبل اللون الحسن والجلد الحسن، لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية. ٥

((قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟، قال :الإبل، أو البقر [شكَّ إسحاق])) المراد: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، راوي الحديث، شكّ هل قال الرّسول ﷺ الإبل، أو قال البقر؟، وهذا من التحفُّظ والدِّقة في الرواية. ٤

والظاهر: أنه الإبل كما يفيده السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث. ٥

((فأُعطيَ ناقة عُشراء)) العُشَراء هي: الحامل التي تمّ لها ثمانية أشهر، لأنّها أنفس الأموال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤)﴾ [التكوير:٤]، عند قيام الساعة يذهلون فيتركون أنفس الأموال، ويعطِّلونها من شدّة الهَوْل. ٤

قوله: ((عشراء)). قيل: هي الحامل مطلقاً، وقال في "القاموس": هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله عز وجل وذللها ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها. ٥

((وقال: بارك الله لك فيها)) دعا له بالبركة، ودعوةُ المِلك مستجابة، وهذا بأمر الله سبحانه وتعالى من أجل الامتحان والابتلاء.

((ثم أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟، قال :لونٌ حسن وشعر حسن)) ٤، ولم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعراً حسناً. ٥

((ويَذْهَبُ عني الذي قد قَذِرَنِي النّاس به، فمسحه فذهب عنه قذره، وأُعطِي شعراً حسناً. فقال: أيُّ المالِ أحبُّ إليك؟، قال: البقر، أو الإبل. فأُعْطيَ بقرة حاملاً)) البقرة الحامل هي التي في بطنها جَنين.

((وقال: بارك الله لك فيها)) دعا له مثل الأوّل.

((فأتى الأعمى فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟، قال: يردّ الله إليَّ بَصري فأُبصر به النّاس))
لم يطلب بصراً حسناً كما طلبه صاحباه، وإنما طلب بصراً يبصر به الناس فقط مما يدل على قناعته بالكفاية. ٥

فمسحه فردّ الله إليه بصره.٤ الظاهر أن بصره الذي كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط.٥

((قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟، قال: الغنم))

قوله: ((قال: الغنم)). هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع، لأن السكنية في أصحاب الغنم. ٥

((فأُعطي شاةً والداً)) يعني: قد ولدت حملَها.

((فأنتج هذان)) أنتج أصحاب الإبل والبقر.

((وولّد هذا)) أي: صاحب الشّاة.٤ أي: صار لشاته أولاد. ٥

((فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم)) بسبب بركة دعوة الملِك ولأجل الابتلاء والامتحان.

((ثم إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئَته)) أي: في صورة رجل أبرص، لأنّ الله أعطى الملائكة القُدرة على التشكُّل، فيظهَرون في صور مختلفة.

((فقال: رجلٌ مسكين)) يَعْرِض حالَه عليه ليتصدّق عليه. ٤ والمسكين: الفقير، وسمي الفقير مسكيناً، لأن الفقر أسكنة وأذلة، والغني في الغالب يكون عنده قوة وحركة. ٥

((وابنُ سبيل)) ابنُ السّبيل هو: المسافر الذي انقطع ما معه من الزّاد، وقد جعل الله له حقًّا في الزكاة ما يوصِّلُه إلى بلده، ولو كان غنيّاً في بلده.

((قد انقطعت بيَ الحبال)) يعني: الأسباب، جمعُ حبل وهو السّبب، وفي رواية: ((انقطعت بيَ الحيال)) -بالياء- يعني: الحِيَل. ٤

قوله: ((لا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك)). ((لا)) نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول، ومنه تبليغ الرسالة، أي: إيصالها إلى المرسل إليه، والمعنى: لا شيء يوصلني إلا بالله ثم بك، فالمسألة فيها ضرورة. ٥

ثم ذكّره بحالته الأولى فقال: ((أسألُك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال؛ بعيراً أتبلغ به في سفري)). ٤

قال: ((أسألك بالذي أعطاك))، ولم يقل: أسألك بالله، لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه، ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين، لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكيناً، وكونه ابن سبيل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء. ٥

وقوله: ((بعيراً)). يدل على أن الأبرص أعطي الإبل، وتعبير إسحاق ((الإبل أو البقر)) من باب ورعه. ٥

((فقال: الحقوق كثيرة)) يعني: أن الحقوق التي عليّ كثيرة وينفد المال لو أعطيتك، وأعطيت هذا ممّن لهم عليّ حقوق، وهذا اعتذارٌ منه. ٤

وتناسى والعياذ بالله أن الله هو الذي مَنَّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال. ٥

ثم ذكّره المِلَك مرّة ثانية وقال له: ((كأنِّي أعرِفُك!، ألم تكن أبرص يُقْذُرُك النّاس، فقيراً فأعطاك الله عزّ وجلّ المال؟)). ٤

ذكّره الملك بنعمة الله عليه وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة. ٥

ثم إنه جحد نعمة الله عليه، وجحد هذه الحالة التي مرّت به، وقال: ((إنما وَرِثْتُ هذا المال كابِراً عن كابر)) يعني: هذا ليس بمال جديد كما تقول، بل هو معي من قديم ومع آبائي من قبل، وهذا جُحود لنعمة الله عزّ وجلّ. ٤

و((كابراً)) منصوبة على نزع الخافض، أي: من كابر، أي: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له وهو الجد، وقيل: المراد الكبر المعنوي، أي أننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعاً. ٥

أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص. ٥

فدعا عليه المِلَك، وقال: ((إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كُنت)) يعني: صيّرك الله فقيراً أبرص. ٤

قوله: ((إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت)). ((إن)): شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقاً فأبقى الله عليك النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي بـ ((إن)) الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك، فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذباً وأنك لم ترثه كابراً عن كابر، فصيرك الله إلى ما كنت من البرص والفقر، ولم يقل: "إلى ما أقول"، لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيراً في الأمور المتيقنة، كقوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ومعلوم أنه لا نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته. ٥

((قال: وأتَى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا)) أي: رجل مسكين وابن سبيل... إلى آخره.

((وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا)) قال له: الحقوق كثيرة.

وذكّره المِلَك بحالته من قبل، فأنكر ذلك، فدعا عليه الملك كما دعى على الأبرص بأن يصيره الله إلى ما كان عليه من قبل.

فكلا الرجلين -والعياذ بالله- غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها ولا راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر. ٥

قال: ((وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل، قد انقطعتْ بِيَ الحبال في سفري، فلا بلاغ لِيَ اليوم إلاّ بالله ثم بك، أسأَلُك بالذي ردّ عليك بصرك؛ شاةً أتبلّغ

بها في سفري))، فاعترف الأعمى بنعمة الله وقال: ((كنتُ أعمى فردّ الله عليّ بصري)) ٤، أعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا ٥

((فخذ ما شئتَ)) يعني: خذ الذي تريده.

((فوالله لا أجْهَدُك)) أي: لا أمنعك، ((بشيء أخذته لله)). ٤

الجهد: المشقة، والمعنى: لا أشق عليكم بمنع ولا منة، وأعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه، فيكون دالاً على الشكر بالقلب بالتضمن. ٥

وفي رواية: ((لا أَحْمَدُك على شيء أخذته لله)) لأنّه ليس مالي وإنما هو مالُ الله سبحانه وتعالى.٤

قوله: ((خذ ما شئت ودع ما شئت)). هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: ((لله)). اللام للاختصاص، والمعنى: لأجل الله، وهذا ظاهر في إخلاصه لله فكل ما تأخذه لله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك. ٥

ثم ظهرت نتيجة الامتحان: ((فقال له الملَك: أَمْسِكْ عليك مالك، فإنّما ابتُلِيتُم)) يعني: اختُبِرْتُم أنت وصاحباك. ٤

وظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس، لأن قوله: ((إنما أبتليتم)) يدل على أن عنده علماً بما جرى لصاحبيه وغالباً أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس. ٥

((وقد رضي الله عنك)) بسبب شكرك لنعمة الله عزّ وجلّ.

((وسخِط على صاحبيْك)) بسبب كفرهم بنعمة الله عزّ وجلّ.

فهذا الأعمى فاز برضى الله تعالى وسلم عليه مالُه، أمّا أولئك فعاقبهم الله وسَخِط عليهم، وهذه نتيجة الابتلاء والامتحان.

وهذا عامٌّ في كلِّ من كفر نعمة الله ومَن شكر نعمة الله عزّ وجلّ. ٤

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر: فإن الأولين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها، فحل عليهما السخط. وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها، وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يحب.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة. فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه، لم يشكره أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابّه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له"[1]. ٢

والدلالة من ظاهره أن الله جل وعلا عاف هؤلاء؛ ولكنه لما عافاهم نسبا اثنان منهم النعمة إلى أنفسهم، وثالث نسبها إلى الله فجزى الله الأخير خيرا وأدام عليه النعمة، وعاقب ذينك الرجلين، وهذا فضل الله ينعم ثم يثبت النعمة في من شاء ويصرف النعمة عمن يشاء.

ومن أسباب ثبات النعمة: أن يعظم العبد ربه، وأن يعلم أن الفضل بيد الله، وأن النعمة هي نعمة الله. ٣

ففي هذا وفي الآية الكريمة وفي قول سلفنا السابق، كل هذا فيه دلالة على أنه ينبغي للمؤمن أن يشكر الله على نعمه، وإذا كان الله قد أعطاه نعمة في بدنه أن يشكرها، في ماله أن

---

[1] انظر: مدارج السالكين (٢/٢٤٢)

يشكرها، وأن يحذر الجحود والنسيان فإنه جدير بالعقوبة العاجلة والآجلة، فليتق الله وليشكر الله على نعم المال، ونعم الصحة، ونعم الدين، إلى غير هذا. ولا يكون جحودًا بل يتذكر نعم الله عليه، ويشكر الله بطاعته وترك معصيته والإنفاق في سبيله. ٦

حكم كفران النعمة ؟ فيه تفصيل على النحو الآتي:

قد يكون كفران نعمة الله على العبد قادحاً في أصل التوحيد ومخرجا من الملة، وقد يكون قادحا في كمال التوحيد ولا يخرج من الملة، فإن كان كفران النعمة بإنكار ما أسداً ه الله سبحانه وتعالى لهذا الشخص أو بأن يشرك مع الله غيره فيقول: هذه النعمة ليست من الله وحده بل هي أيضاً من الولي الفلاني أو من القبر الفلاني أو هي من الشخص الفلاني والله سبحانه لا إرادة له في ذلك، فكل ذلك لا شك أنه كفر مخرج من الملة ويقدح في أصل التوحيد.

أما إن كان يقول: إن هذه النعمة من فلان، ولكن لا يقصد أن فلانا صاحب هذه النعمة الأساسي، وإنما يقصد أنه هو الذي عمل وكد وجد وتكلم ثم أتت هذه النعمة دون أن يسندها إلى الله سبحانه وتعالى فهذا نو من كفران النعمة ولكن لا يخرج عن الإسلام، وهذا خطره كبير لأنه وسيلة من الوسائل المفضية إلى الشرك الأكبر بالله عز وجل بعد مضي فترة من الزمن فينسى الإنسان ربه، ولذلك كان قول القائل في النعمة: إنما حصلت عليها بذكائي وعبقريتي، أو أعرف من أين أدخل ومن أين أخرج، من كفران النعمة ؛ وإن كان لا يخرج من الإسلام إن اعتقد أن المنعم هو الله، ولكن قد يصل به الغرور إلى جحود نعمة الله تبارك وتعالى وبذلك يخرج من الإسلام، كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] وقد وصل بذلك إلى درجة كبيرة من الغرور والتكبر على الله عز وجل.

الوقفة الخامسة:

شكر الله تعالى على النعمة لابد أن يكون قائمة على أركان ثلاثة:

الركن الأول: أن يكون الشكر بالقلب، وذلك بأن يعترف بقلبه يقينا أن هذه النعمة من الله سبحانه، فلم يستحقها بذكائه ولا بعبقريته ولا بحيلته ولا بشيء من هذا ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

الركن الثاني: أن يكون الشكر باللسان، وذلك بأن يحمد الله عز وجل بلسانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

الركن الثالث: إشغال هذه النعمة بطاعة الله سبحانه، بأن تشترك الجوارح في شكر النعمة فلا تستعمل في محرم، بل تسخر لطاعة المنعم عز وجل، فمن كفر النعمة أن ترى بعينك حراما، أو تتكلم بلسانك في محرم، أو تمشي برجلك إلى محرم، أو أن تستخدم مالك في محرم ونحو ذلك.٩

ثم في ختام هذا الباب الوصية بأن تكون حذراً في اللسان، حذراً فيما تتكلم به، وأن تعلم أن كل خير إنما هو من الله، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله، ولو سلبك الله العناية منه جل وعلا طرفة عين لكنتَ هالكاً ومن الخاسرين، فإنّ العبد أحوج ما يكون إلى الاعتراف والعلم بأسماء الله وبصفاته وبآثار ذلك في ملكوته، وبربوبيته جل وعلا على خلقه، وبعبادته حق عبادته.٣

فدلّت هاتان الآيتان وهذا الحديث العظيم على مسائل:

المسألة الأولى: فيه: أنّ نسبة النعم إلى الله عزّ وجلّ توحيد، وأنّ نسبتها إلى غيرِه شرك، لكن إن اعتقد أنّ غيرَه هو الذي أوجدَها فهو شركٌ أكبر، وإن اعتقد أنّ غيرَه سبب والله هو الذي أوجدها، ولكن نسبها إلى السبب فهو شركٌ أصغر، لأنّه لا يجوز النِّسبة إلى الأسباب، حتى ولو كانت أسباباً صحيحة، وإنّما تُضاف النّعم إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا مَرّ بنا الحديث: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، أنّه قولُ الرجل: "لولا كُليبة هذا لأتانا اللّصوص، لولا البطّ في الدّار لأتانا اللصوص" لولا كذا، لولا كذا، فلا تجوز النّسبة إلى الأسباب، وإنّما تُنسب النعم إلى مسبِّب الأسباب، وهو الله سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: فيه: أنّ النعم والنِّقَم ابتلاءٌ واختبارٌ من الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

المسألة الثالثة: فيه: أنّ الله سبحانه أعطى الملائكة القُدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، وهذا ثابتٌ من النُّصوص الكثيرة، فتشكُّلُهم لأجل مصالح العباد، لأنَّهم لا يُطيقون رؤية الملائكة. ٤ لكن هذا -والله أعلم- ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى. ٥

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على مشروعيّة ذكر قَصَص الأوّلين من بني إسرائيل وغيرِهم من أجل الاعتبار والاتّعاظ إذا كانت القصص صحيحة.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أنّ من شكر نعمة المال: إخراج الحقوق الواجبة فيه من زكاة وإطعام جائع وكسوة عارٍ، وما أشبه ذلك من الحقوق الواجبة والحقوق المستحبّة، وأنّ البُخْل بحقوق المال من كفر النعمة.

المسألة السّادسة: في الحديث دليل على أنّ الجزاء من جنس العمل؛ فقد رضيَ الله عن هذا الأعمى بسبب إحسانه، وسخِط على صاحبيه بسبب بخلهما بحقوق الفقراء والمساكين.

المسألة السّابعة: فيه وصفُ الله جل وعلا بالرِّضا والسخط، صفتان من صفاته اللاَّئقة به سبحانه وتعالى، ليس كرضى المخلوق ولا كسخط المخلوق. ٤

أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جري، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة.

- بيان قدرة الله عز وجل بإبراء الأبراص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم بمجرد مسح الملك لهم.
- أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحاً أو معاني أو قوى فقط.
- حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.

- أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله أي بالمقضي، لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل على عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:

أ. جزع، وهو محرم.

ب. صبر، وهو واجب.

ج. رضا، وهو مستحب.

د. شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال وهو: كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمة؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب علي هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

وأما قوله ﷺ: ((فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فعليه السخط))، فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله،

فهذا يجب الرضا به لأن الله عز وجل حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي.

والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعيه يجب الرضا بها.

- جواز الدعاء المعلق، لقوله: ((إن كنت كاذباً، فصيرك الله إلى ما كنت))، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٧]، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩]، وفي دعاء الاستخارة: ((اللهم! إن كنت تعلم...الخ)).
- جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصم، لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابراً عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى

هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

- أن البركة لا نهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟

الظاهر أنه قضية عين، وإلا، لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد أستُجيب.

- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها، فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء.

ونظير هذا ما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه، لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

- جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا، فله ذلك.

- أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً يؤخذ من قوله: "فإنما ابتليتم، وقصتهم مشهورة كما سبق.

- فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه، لأن الأعمى كان زاهداً في الدنيا، فكان شاكراً لنعمة الله.

- ثبوت الإرث في الأمم السابقة، لقوله: "ورثته كابراً عن كابر".

- من صفات الله عز وجل الرضا والسخط والإرادة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية، وشرعية.

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوباً لله، فإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون.

وأما الشرعية: فإنه لا يلزم فيها وقوع المراد ويلزم إن يكون محبوباً لله، ولهذا نقول: الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعني المشيئة، فإن قيل: هل الله يريد الخير والشر كوناً أو شرعاً؟ أجيب: أن الخير إذا وقع، مراد لله كوناً وشرعاً، وإذا لم يقع، فهو مراد لله شرعاً فقط، وأما الشر فإذا وقع، فهو مراد لله كوناً لا شرعاً وإذا لم يقع، فهو غير مراد كوناً ولا شرعاً، وأعلم أن الشر لا ينسب إلى فعل الله سبحانه ولكن إلى مخلوقات الله، فكل فعل الله تعالى خير، لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي ﷺ: ((الخير كله في يديك، والشر ليس إليك))[1]، وأما مخلوقات الله، ففيها خير وشر.

وإثبات صفة الرضا لله –سبحانه– لا يقتضي انتفاء صفة الحكمة بخلاف رضا المخلوق، فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلاً فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه في كل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق، فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه.

ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادته، فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معنى ((رضي))، أي: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لا يرضى، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا، لأنهم نفوها نفي جحود، لكن أولوها تأويلاً يستلزم جواز نفي الرضا، لأن المجاز معناه نفي الحقيقة، وهذا أمر خطير جداً.

---

[1] مسلم: كتاب الصلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، خلافاً لمن قال: كل شيء في اللغة مجاز.

- أن الصحابة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة، لقوله: ((وسخط على صاحبيك))، فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس.
- اختبار الله عز وجل بما أنعم عليهم به.
- أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.
- أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن من أجل الاختبار، لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.
- أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة، لقوله: "فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك". ٥
- أن كفران النعمة سبب لذهابها، فهذا الأقرع و الأبرص لما نسبوا نعمة المال لآبائهم، وجحدوا نعمة الله عليهم رجع إليهم المرض ومحق المال و العياذ بالله، أما الأعمى الذي شكر نعمة الله عليه فهذا بارك الله له في ماله واستمر في صحته وعافيته. ٩

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية. وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾، وقد سبق أن الضمير في قوله: ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ يعود علي الإنسان باعتبار الجنس.٥

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾. اللام للاستحقاق، والمعنى: إني حقيق به وجدير به.٥

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾. وقد سبق بيان ذلك. ٥

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا ليس استيعاباً، ومن ذلك الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى، فإن الأبرص والأقرع جحداً نعمة الله عز وجل والأعمى أعترف بنعمة الله، عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة، قال: ((خذ ما شئت))، فدل هذا على جوده وإخلاصه، لأنه قال: ((فو الله، لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل)). وبخلاف الأبرص والأقرع حيث كانوا أشحاء بخلاء منكرين نعمة الله عز وجل. ٥

الأسئلة:

س: هل من شكر النعمة أن الإنسان يتحدث بها يقول: إن الله أنعم علي بكذا، وأنعم علي بكذا؟

الجواب: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] التحدث بها من شكرها على سبيل الشكر، على سبيل الاعتراف بنعم الله، ما هو على سبيل الخيلاء والتكبر.

س: ما حكم الشكر؟

ج: واجب، الشكر واجب، والكفر كفر النعمة محرم من المحرمات الكبيرة، نسأل الله العافية.

س: هل يؤخذ من الحديث اختبار الناس؟

ج: ما أعلم مانعا، إذا رأى ولي الأمر اختبار الناس ما أعلم مانعا حتى يعطى أو يمنع، ما في مانع من الاختبار.

س: هل يحتج بجواز التمثيل بهذه القصة؟

الجواب: هذا ما هو تمثيل، هذا خلقته، جاء بخلقته، يعني ملك على صورته ما قال صورة إنسان أبرص يعني التمثيل، كونه يقول: أنا عمر بن عبدالعزيز، وأنا فرعون، وأنا موسى، يمثلهم هذا التمثيل. ٦

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شركاءَ فِيمَا آتاهُمَا﴾)

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شركاءَ فِيمَا آتاهُمَا﴾ الْآيَةُ).

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: "اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مَعَبَّدٌ لِغَيْرِ اللَّهِ كَعَبْدِ عُمَرَ، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ". وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الْآيَةُ قَالَ: "لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إبلِيسُ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ لَتُطِيعَانِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيْلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنّ . يُخَوِّفُهُمَا . سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتاً، ثُمَّ حَمَلَتْ، فأتاهُمَا، فقَالَ مثل قَوْلِهِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتاً، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلَا لَهُ شركاءَ فِيمَا آتاهُمَا﴾". رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَة قَالَ: "شركاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ". وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالحاً﴾، قَالَ: "أَشْفَقا أَلَّا يَكُونَ إنساناً"، وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

هذا الباب المقصود به: بيان أنّ تعبيد الأسماء لغير الله شرك ينافي كمال التّوحيد، إنْ كان المقصود مجرّد التسمية. ٤

فلا يقال: عبدالنبي، أو الكعبة، أو عبد الحسين وما أشبه ذلك، بل يكون التعبيد لله وحده كعبد الرحمن و عبد الله ... إلخ. ٦

أما إنْ كان المقصود تعبيد التألُّه لغير الله فإنّه شرك أكبر ينافي التّوحيد. ٤

فمناسبة هذا الباب للأبواب قبله أنه وتلك الأبواب بمعنى واحد وذلك المعنى أن شكر النعمة لله جل وعلا فيما أنعم به يقتضي أن تُنسب إليه جل وعلا، وأن يحمد عليها ويثنى عليه بها،

وأن تستعمل في مراضيه جل وعلا، وأن يتحدث بنعمة الله، فالذي ينسب النعم إلى نفسه، هذا لم يحقق التوحيد، فإنه جمع بين ترك تعظيم الله جل وعلا وما بين ادعاء شيء ليس له، كذلك الذي يعتقد في غيره الذي هو المنعم عليه كقول القائل: لو لا فلان لم يكن كذا، أو نحو تلك العبارات التي تدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] وفي قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣]، هذه وأمثالها راجع إلى عدم شكر النعمة، ومن شكر النعم أن الله جل وعلا إذا أنعم على عبد بولد وجعله سليماً معافى ورزقه بتلك النعمة التي هي نعمة الولد أنْ يشكر الله عليها.

ومن عدم شكر النعمة تلك ونسبتها إلى غير الله أن يُعبِّد الولد لغير الله جل وعلا، فإن هذا مضاد للاعتراف بأن المنعم ذلك الولد هو الله جل وجلاله، وقد يصل ذلك إلى حد الشرك الأكبر إذا عَبَّد الولدَ لولي أو لعبد صالح، وهو يعني حقيقة العبودية التي هي أن هذا عبد لذاك؛ لأن ذاك إله، كمن يعبد لبعض المشايخ فيقول عبد السيد ويعنون به السيد البدوي، ويقولون عبد زينب وعبد علي وعبد عمرو، ونحو ذلك من الأسماء التي فيها اعتقادات.

فمن عبد لغير الله جل وعلا فإن هذا ينافي شكر النعمة، ولهذا أتبع الشيخ رحمه الله هذا الباب الأبواب قبله لما يشترك معها في هذا المعنى، وأن الواجب على العبد أن يحقق التوحيد وأن لا ينسب النعم لغير الله جل وعلا، وإن وقعت منه ذلك فيجب عليه أن يبادر بالتوبة وأن لا يقيم على ذلك. ٣

تفسير الآيات

وقولُه رحمه الله: "بابُ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شركاَءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠]" يريد: بيان ما جاء في تفسير الآية. ٤

قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾. الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها، ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. ٥

والآية التي قبلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] يعني آدم وحواء عليهما السلام .٤

قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فيها قولان:
الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة، أي: من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي حواء، لأن حواء خلقت من ضلع آدم.
الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل من جنس آخر، والنفس قد يراد بها الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آلا عمران: ١٦٤]، أي: من جنسهم.
قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إليها﴾. سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:
أولاً: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.
ثانياً: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.٥
﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعني وطئها. ٤
قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾. أي: جامعها، وعبارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] وقال: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]، كأن الاستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطري، ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يصرح به، كما في قوله ﷺ لماعز وقد أقر عنده بالزنى: ((أنكتها لا يكني))[١]، لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتى يتبين الأمر جلياً، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.
وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَى﴾ [الليل: ١] وعبر بقوله: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ ولم يقل: غشيها، لأن تغشى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: ((إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها))[٢]، الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان، و((جهدها)) هذا تغشى. ٥
﴿حَمَلَتْ﴾ يعني: عَلِقَتْ رَحِمُها بالنُّطْفَة.

[١] البخاري: كتاب المحاربين/ باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست.
[٢] البخاري: كتاب الغسل/ باب إذا التقي الختانان، ومسلم: كتاب الحيض/ باب نسخ الماء من الماء.

﴿حَمْلاً خَفِيفاً﴾ هذا شأن الحمل في أوّل أطواره: كونُه نُطفة، ثم عَلَقَة، ثم مُضْغَة، ويكون خفيفاً في هذه الأطوار.

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني: ما أجلسها ولا عوّقها عن العمل، فهي تمرّ وتمشي وتقوم وتقعد.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ يعني: في طور نفخ الروح فيه.

﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء، وطلبا من الله جل وعلا. ٤

قوله: ﴿اللهَ رَبَّهُمَا﴾ أتى بالألوهية والربوبية، لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثاني: جانب الربوبية، لأن في الدعاء تحصيلاً للمطلوب، وهذا يكون متعلقاً بالله من حيث الربوبية. ٥

﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾ رزقتنا مولوداً سَوِيًّا في خِلْقَتِهِ. ٤

وقوله: صالحاً، هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين، أي: لئن آتيتنا بشراً سوياً ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحاً بالدين، فيكون تقياً قائماً بالواجبات؟

الجواب: يشمل الأمرين جميعاً، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من أن يكون شاملاً للأمرين جميعاً.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من القائمين بشكرك على هذا الولد الصالح. ٥

لأنّ هذا هو الواجب في النعمة أن تُشكر.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾ استجاب الله دعوتهما وآتاهُما ولداً إنساناً سوياًّ صالحاً. ٤

﴿جَعَلا لَهُ شركاَءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾

هنا حصل المطلوب، لكن لم يحصل الشكر الذي وعدا الله به، بل جعلا له شركاًء فيما آتاهما. ٥

﴿جَعَلا لَهُ شركاَءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ بأن سمّياهُ (عبد الحارث)، فعبّداهُ لغير الله.

وهذا من الشّرك في التسمية، حيث عبّداه لغير الله. ٤

وقوله: ﴿جَعَلا لَهُ شركاًءَ﴾ أي: لله شركاًء ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: لم يقوما بشكر ذلك على الوجه المرضي، كما وعدا بذلك، بل جعلا لي فيه شركاًء فيما أعطيتهما من الولد الصالح، والبشر السوي، بأن سمياه عبدالحارث، فإن من تمام الشكر أن لا يُعَبَّدَ الاسم إلا لله.

وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبين قطعاً أن ذلك في آدم وحواء عليهما السلام، فإن فيه غير موضع يدل على ذلك.

والعجب ممن يكذب بهذه القصة، وينسى ما جرى أول مرة، ويكابر بالتفاسير المبتدعة، ويترك تفاسير السلف وأقوالهم.

وليس المحذور في هذه القصة بأعظم من المحذور في المرة الأولى. ١

وهذا السياق في ذكر آدم و حواء حيث أطاعا الشيطان في تسميته عبد الحارث.

وقال آخرون: إن المراد بالآية: جنس من بني إسرائيل، وأن هذا وقع في بني إسرائيل. ولكن ظاهر السياق يأبى هذا بل هو كما قال ابن عباس، وغيره من السلف، وإن المعصية قد وقعت منهما، والمعصية قد تقع من الأنبياء إذا كانت صغيره كما قال العلماء.

ويحتمل أنهما حين فعلا ذلك كانا يعتقدان ذلك جائزاً فلهذا فعلاه ولم يعلما أنه منكر، وإنما كرهاه أولاً ثم خضعا لوسوسته وما أراد. ٦

أو لأمر آخر، وهو أن الأمر الذي قاله الشيطان لآدم وحواء لم يثبت أنه قال لهما، وإنما وقع في بني إسرائيل كما قال بعض السلف، والأمر محتمل لكن السياق يقتضي ما قاله ابن عباس وجماعة، والله جل وعلا أعلم. ٦

قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحاً﴾ الضمير هنا يرجع إلى آدم وحواء، والذي عليه عامة السلف أن القصة في آدم وحواء حتى قال الشارح الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: فإن نسبة ذلك إلى غير آدم وحواء هو من التفاسير المبتدعة. والذي يعرفه السلف أن الضمير يرجع إلى آدم وحواء، وسياق الآية لا يقتضي غير ذلك إلا بأوجه من التكلف، ولهذا قال الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله اعتمد هذا الذي عليه عامة السلف ففسر هذه الآية بأن

المراد بها آدم وحواء، ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا﴾ يعني آتى اللهُ آدمَ وحواء صالحاً، وقوله: ﴿صَالِحاً﴾ يعني من جهة الخلقة؛ لأنه كان يأتيهما ولد فيموت أو يكون معيباً فيموت، فالله جل وعلا رزقهما هذا الولد الصالح السليم في خلقته السليم في بنيته، وكذلك هو صالح لهما من جهة نفعهما، قال جل وعلا ﴿جَعَلاَ لَهُ﴾، ﴿جَعَلاَ﴾ يعني آدم وحواء ﴿لَهُ﴾ يعني لله جل وعلا، ﴿شركَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾، وكلمة ﴿شركَاءَ﴾ جمع الشريك، والشريك في اللغة هو المقصود بهذه الآية يعني هذه الآية فيها لفظ الشركاء، والمقصود بها معنى الشركة في اللغة، ومعنى الشركة في اللغة اشتراك اثنين في شيء، فجعلا لله شركاء فيما آتاهما؛ حيث سميا ذلك الولد عبد الحارث، والحارث هو إبليس ذلك أن إبليس كما سمعتم في القصة هو الذي قال إن لم تسمياه عبد الحارث لأفعلن ولأفعلن ولأجعلن له قرني أيِّل وهو ذكر الوعل، وفي هذا تهديد بأن يشق بطن الأم فتموت ويموت أيضاً الولد، فلما رأت حواء ذلك وأنها قد مات لها عدة بطون فأطاعت الشيطان في ذلك، فصارت الشركة شركة في الطاعة، وآدم وحواء عليهما السلام قد أطاع الشيطان من قبل حيث أمرهما بأن يأكلا من الشجرة التي نهاهما الله جل وعلا عنها، فوقوع طاعة الشيطان من آدم وحواء عليما السلام، وقوع ذلك منهما لم يكن هذه هي أول مرة كما جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال ((خدعهما مرتين)) وهذا هو المعروف عند السلف.

فيكون -إذن- قوله ﴿شركَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ من جهة التَّشريك في الطاعة، ومعلوم أن كل عاص هو مطيع للشيطان، وكل معصية لا تصدر من العبد إلا وثَم نوع تشريك حصل في الطاعة، لأنه إما أن يطيع هواه وإما أن يطيع الشيطان، ولهذا قال شيخ الإسلام وغيره من المحققين: إنه ما من معصية يعصي بها العبد ربه إلا وسببها طاعة الشيطان أو طاعة الهوى؛ وذلك نوع تشريك. وهذا الذي حصل من آدم وحواء عليهما السلام فهذا لا يقتضي نقصاً في مقامهما، ولا يقتضي شركاً بالله جل وعلا، وإنما هو نوع تشريك في الطاعة، والمعاصي

جائزة -يعني المعاصي الصغار- جائزة على الأنبياء كما هو معلوم عند أهل العلم، فإن آدم نبي مكلم، وصغار الذنوب جائز على الأنبياء ولا تقدح في كمالهم؛ لأنهم لا يستقيمون عليها بل يسرعون وينيبون إلى الله جل وعلا، ويكون حالهم بعد ما وقع منهم ذلك أعظم من حالهم قبل أن يقع منهم ذلك؛ لأنهم يكون لهم مقامات إيمانية واعتراف بالعبودية أعظم وخضوع بين يدي الله أعظم، ومعرفة بتحقيق ما يجب لله جل وعلا وما يستحب أعظم.

إذن هذه القصة كما ذكرنا صحيحة، وآثار السلف الكثيرة تدل عليها، والسياق أيضاً سياق الآيات في آخر سورة الأعراف يدل عليها.

والإشكال الذي أورده بعض أهل التفسير من المتأخرين في أن آدم وحواء جعلا لله شركاًء هذا نص الآية ولا يمنع؛ ولأن التشريك هنا تشريك كما قلنا فيما يدل عليه المعنى اللغوي ليس شركاً أصغر، وليس -وحاشاهم- شركاً أعظم من ذلك وإنما هو تشريك في الطاعة، كما قال جل وعلا ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان:٤٣]، وكما قال أيضاً في آية أخرى ﴿أَفرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، فكل من جعل هواه متَّبعا فقد جعله مطاعاً، وهذا نوع تإليه؛ لكن ولا يقال عبد غير الله أو أله أشرك أو شرك بالله جل وعلا؛ لكن هو نوع تشريك، فكل طاعة للشيطان أو للهوى فيها هذا النوع من التشريك، إذْ الواجب على العبد أن يعظم الله جل وعلا وأن لا يطيع إلا أمره جل وعلا وأمر رسوله ﷺ.

فإذن ظاهر أن القصة لا تقتضي نقصا في مقام آدم عليه السلام ولا في مقام حواء؛ بل هو ذنب من الذنوب تابا منه كما حصل منهما أول مرة في الأكل من الشجرة.

بل إنّ أكلهما من الشجرة ومخالفة أمر الله جل وعلا أعظم من هذا الذي حصل منهما هنا وهو تسمية الولد عبد الحارث؛ وذلك أن الخطاب الأول كان من الله جل وعلا لآدم مباشرة، خاطبه الله جل وعلا ونهاه عن أكل هذه الشجرة، وهذا خطاب متوجه إلى آدم بنفسه.

وأما هذه التسمية فإنه لم يُنهَ عنها مباشرة، وإنما يفهم النهي عنها من وجوب حق الله جل وعلا، فذاك المقام زاد على هذا المقام من جهة خطاب الله جل وعلا على المباشر لآدم.

وهذا أمر معروف عند أهل العلم ولهذا فسر قتادة كلمة شركاًء بقوله كما نقل الشيخ حيث قال: وله بسند صحيح عن قتادة، قال: "شركاًء في طاعته، ولم يكن في عبادته". وهذا هو الصحيح في تفسير الآية. ٣

قال الإمام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية: "حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: ((لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره)).[1]

قال العماد ابن كثير في تفسيره: "وأما الآثار: فقال: محمد بن إسحاق عن داود ابن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: "كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فتعبدهم لله وتسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت؛ فأتاهما إبليس فقال: أما إنكما لو

---

[1] وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به. ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً.[2]

ورواه الطبراني في الكبير (رقم ٦٨٩٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٨٦٣٧). والذي يظهر لي أن هذا الحديث حسن. وله شاهدان عن أبي ابن كعب ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه. وقد حكى بان جرير الإجماع على أن المراد بالآية آدم وحواء حيث قال في تفسيره (١٤٨/٩): "وأولى القولين بالصواب قول من قال: عنى بقوله ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾: في الاسم لا في العبادة، وأن المعنى بذلك آدم وحواء لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك". محقق كتاب١ بتصرف.

تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾... [الأعراف: ١٨٩]".[١]

وقال العوفي عن ابن عباس: "فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون: أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه لغوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًا، ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شركاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم. وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي وجماعة من الخلف، ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة. ٢

أما الشيخ ابن عثيمين فيرى أن الصواب هو القول الثاني:

وقوله: ﴿جَعَلا لَهُ شركاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، هذا هو جواب "لما".

والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين إتيانه وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أيصلح في دينه في المستقبل أم لا يصلح ؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها، ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)﴾ [التوبة: ٧-٧٦]، وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

[١] أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره رقم (١٥٥١٦)

(١٨٩(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شرکاًءَ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠]، فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر، لأن النذر معاهدة مع الله عز وجل ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: ((إنه لا يرد شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل))[١]، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر، لأن رسول الله ﷺ نهى عنه ونفى أنه يأتي بخير.

إذاً ما الذي نستفيد من أمرٍ نهى عنه الرسول ﷺ وقال إنه لا يأتي بخير؟

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا، فالقول بتحريم النذر قول قوي جداً، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصاً مما نذروا.

فإن قيل: هذا الولد الذي آتاهما الله عز وجل كان واحداً، فكيف جعلا في هذا الولد الواحد شركاً بل شركاًء؟

فالجواب أن نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذي أتي بهذه الولد هو الولي الفلاني والصالح ونحو ذلك، فهذا شرك أكبر لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضاً ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن، فتجد المرآة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله والله أعلم بولايته، فتقول: يا سيدي فلان! ارزقني ولداً.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلاً سلم هذا الولد من الطلق، لأن القابلة امرأة متقنة جيدة، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر، لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسي المسبب وهو الله عز وجل.

---

[١] البخاري: كتاب القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، ومسلم: كتاب النذر/ باب النهي عن النذر.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالماً بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية، فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فكيف تجعل هذا الولد نداً لله في المحبة وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟! ٥

وفي قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ نقد لاذع أن يجعلا في هذا الولد شريكاً مع الله، مع إن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]، أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

ومن تأويل الآية وحدها دالة على أن قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أي: من جنس واحد، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جارياً على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤]، أي: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثاني بأن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أي: آدم، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]: حواء، فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء.

فلما جامع آدم حواء حملت حملاً خفيفاً، فمرت به، فلما أثقلت دعوا أي آدم وحواء الله ربهما: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(١٨(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شركَآءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠]، فأشرك أدم وحواء بالله، لكن قالوا إنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنبين إن شاء الله تعالى وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أي: آدم وحواء، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ انتقل من العين إلى النوع، أي: من آدم إلى النوع الذي هم بنوه، أي: فلما تغشي

الإنسان الذي تسلل من آدم وحواء زوجته... إلخ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الجمع ولم يقل عما يشركان ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، أي: جعلنا الشهب الخارجة منها رجوماً للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣]، أي: جعلناه بالنوع، وعلى هذا فأول الآية في آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فجمع لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل: اقتتلتا، لأن الطائفتين جماعة. ٥

أما هذه المسألة فبين الله عز وجل فيها الحكم، وأنه لا يجوز التشريك في الاسم لغير الله عز وجل، بل يجب أن يكون ذلك لله وحده؛ لأنه ذم من فعل ذلك، قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] فعلم بذلك أنه لا يجوز التعبيد لغير الله، ولهذا قال ابن حزم: اتفق العلماء على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمر، وعبد الكعبة، ونحو ذلك.٦

قال ابن حزم: "اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله؛ كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب".

ثم ذكر عن ابن حزْم، وهو الإمام الجليل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم، الأندلسي، القُرطبيّ، الظاهريّ، له المؤلَّفات العظيمة مثل: "المحلّى" و"الفِصَل في الملل والنِّحل"، و"الأنساب"، و"جوامع السيرة"، فهو إمامٌ جليل خصوصاً في علم الحديث، إلاّ

أنه رحمه الله يؤخذ عليه سلاطة اللسان في ردّه على المخالفين، واعتناقه لمذهب الظاهرية، والظاهرية معناها: الأخذ بظواهر النُّصوص دون النظر في معانيها وأسرارها، وعدم القول بالقياس، وهذا نقصٌ في هذا المذهب.

ولكن على كلّ حال هو إمامٌ جليل، له نفعٌ عظيم في الإسلام، ومؤلَّفاتُه خصوصاً "المحلّى" وما فيه من الآثار والأحاديث والرواية بالأسانيد، ففضائلُه كثيرة رحمه الله. قال: "اتّفقوا" يعني: أجمعوا، وليس المراد الاتّفاق عند المتأخِّرين الذي هو قولُ جماعةٍ من أهل العلم. ٤

يعني أجمعوا، يعني أجمع أهل العلم -فيما علمه هو- أن التعبيد لغير الله محرم؛ لأن فيه إضافة النعمة لغير الله وفيه أيضاً إساءة أدب مع الربوبية والإلهية فإن تعبيد الناس لغير الله جل وعلا هذا غلط من جهة المعنى وأيضاً فيه اهتضام أو نوع اهتضام لمقام الربوبية، ولذلك حَرُم في هذه الشريعة هذه التسمية؛ بل وفي شرائع الأنبياء جميعاً، فاتفق أهل العلم على ذلك وأن كل اسم معبد لغير الله كعبد عمر وعبد الكعبة وعبد علي وغير ذلك من الأسماء فإن هذا محرم ولا يجوز وما أشبه ذلك. ٣

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته، وربوبيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولابد.٢

والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكام، والأدلة هي: الكتاب، والسنة والإجماع، والقياس. ٥

"على تحريم كلِّ اسم مُعَبَّدٍ لغير الله" كـ (عبد الحُسين)، و(عبد الرّسول) و(عبد الكعبة)، و(عبد الحارث) وغير ذلك، لأنّ التعبيد يجب أن يكون لله سبحانه وتعالى، لأنّ الخلْق كلهم عبادُ الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً(٩٣)﴾ [مريم:٩٣]، فكلُّ الخلق عباد الله المؤمن والكافر.

ولكن العبودية على قسمين:

عبوديّة عامّة: وهذه تشمل جميع الخلق المؤمن والكافر كلُّهم عبادُ لله تعالى، بمعنى: أنّهم مملوكون لله، مخلوقون لله، يتصرّف فيهم، ويدبِّرُ أمورَهم، لا يَخرُج عن هذا أحد من الخلق.

النوع الثاني: عبوديّة خاصّة: وهي عبوديّة التألُّه والمحبّة، وهذه خاصّة بالمؤمنين: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣]، ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨)﴾ [الزخرف:٦٨]، فهذه عبوديّة خاصّة بالمؤمنين.

قال: "حاشا" حاشا: كلمة استثناء.

"عبد المطّلب" هو جدّ الرّسول ﷺ، لأنّ الرسول ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطِلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كِلاب، فـ (عبد المطِّلب) هذا استثناهُ ابن حزم من التحريم. ٤

قوله: "حاشا عبد المطلب" هذا استثناء من العموم المستفاد من "كل" وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها؛ لأن أصله من عبودية الرق، وذلك أن المطلب أخا هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه "شيبة" هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن، فلما شب في أخواله وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به. ٢

"حاشا عبدالمطلب" لأن الرسول ﷺ أقر ذلك، فدل ذلك على أن عبدالمطلب مستثنى، ففي الصحابة عبدالمطلب بن ربيعة ولم يغير اسمه النبي عليه الصلاة والسلام فدل على استثنائه؛ لأن أصله تعبيد بالرق كان عبدالمطلب سمي بذلك لأنهم ظنوه عبد للمطلب، ظنوا شيبة وهو عبدالمطلب ظنوه عبدًا لعمه وهو المطلب بن عبد مناف فقالوا عبد المطلب من جهة الرق،

وهو ليس كذلك، لكن لما رأوا وجهه تغير بسبب الشمس والسفر فظنوه عبدا له، ثم أقر في الإسلام عبدالمطلب[1]. ٦

قوله "حاشا عبد المطلب" يعني لم يجمعوا عليه فإن من أهل العلم من قال تكره التسمية بعبد المطلب ولا تحرم؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال في غزوة حنين: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)).

وقالوا جاء في أسماء الصحابة من اسمه عبد المطلب ولهذا قالوا لا يحرم.

ولكن ليس الأمر كما قال رحمه الله فلا يجوز أن يسمّى أحد الآن عبد المطّلب، فلا وجه للاستثناء، وإنّما يقال عبد المطّلب لجد الرسول خاصة، حكاية للماضي، كما يقال؛ (عبد الكعبة) و(عبد شمس)، و(عبد مناف)، حكاية لِمَا مضى.

أما بعد الإسلام فلا يجوز أن يسمّى أحد بهذه الأسماء.

أما حكاية شيء مضى وانتهى فلا بأس بذلك، وقد قال النّبي ﷺ: ((أنا النّبي لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب)) هذا من ناحية.

النّاحية الثانية: يقولون: إنّ عبد المطّلب ليس اسم جد الرسول، وإنما اسمُه: (شَيْبَة الحمد)، ولكن قيل له: عبد المطّلب لأنّ عمّه المطّلب بن عبد مناف جاء به وهو صغير من أخواله بني النجار في المدينة، وكان تأثّر لونه بالسواد بسبب السفر، فظنوه عبداً مملوكاً للمطلب، فقالوا: عبد المطّلب. ٤

وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه، فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))[2].

---

[1] الشيخ ابن باز يأخذ بالقول الذي يقول بجواز تسمية "عبد المطلب"

[2] البخاري: كتاب المغازي/ باب قوله تعالى "ويوم حنين" ومسلم: كتاب الجهاد/ باب غزوة حنين.

فالنبي ﷺ لا يفعل حراماً، فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم رحمة الله، ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: ((أنا ابن عبد المطلب))، فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جداً اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمى عبد المطلب، أو أنه أذن لأحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحداً على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: ((إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد))[1]، وقال ﷺ: ((يا بني عبد مناف))[2] ولا يجوز التسمي بعبد مناف.
وقد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر، فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى، فالصواب أنه لا يجوز أن يعبد لغير الله مطلقاً لا بعبد المطلب ولا غيره، وعليه، فيكون التعبد لغير الله من الشرك. ٥
ولكن بقي إشكال، وهو أن في الصحابة من اسمه عبد المطلب ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب. فالجواب: أما من اسمه "عبد شمس" فغيره النبي ﷺ إلى "عبدالله"، كما ذكروا ذلك في تراجمهم، وأما عبد المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبد البر أن اسمه عبد المطلب، وقال: "كان على عهد رسول الله ﷺ ولم يغير اسمه فيما علمت".[3]
وقال الحافظ: "وفيما قاله نظر، فإن الزبير[4] أعلم من غيره بنسب قريش، ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب، وقد ذكر العسكري أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب، وأما أهل الحديث فمنهم من يقول: المطلب، ومنهم من يقول: عبد المطلب."[5].١

---

[1] البخاري: كتاب المناقب/ باب مناقب قريش.
[2] البخاري: كتاب الوصايا/ باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك﴾.
[3] الاستيعاب (١٠٠٧/٣)
[4] الزبير: هو ابن بكَّار، صاحب كتاب: ((نسب قريش))، انظر: سير أعلام النبلاء (٣١١/١٢)
[5] الإصابة في تمييز أسماء الصحابة (٣٨٠/٤)

وأما تسمية بعض الصحابة بعبد المطلب، فالمحققون من الرواة يقولون إن من سمي بعبد المطلب صحة اسمه المطلب بدون التعبيد؛ ولكن نقلت لعبد المطلب لأنه شاع التسمية بعبد المطلب دون المطلب فوقع خطأ في ذلك، وبحث هذه المسائل ومحله كتب الحديث وكتب الرجال فنمر عن ذلك. ٣

فإن قلت: إذا كان ابن حزم قد حكى الاجماع على جواز التسمية بعبد المطلب، فكيف يجوز خلافه؟ قلت: كلام ابن حزم ليس صريحاً في حكاية الإجماع على جواز ذلك بعبد المطلب، فإن لَفْظَهُ: "اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد العزى، وعبد هبل، وعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب، واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا ما لم يكن اسم نبي أو اسم ملك..."[1] إلى آخر كلامه.

فيحتمل أن مراده حكاية الخلاف فيه، ويكون التقدير: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله حاشا عبد المطلب، أي: فإنهم لم يتفقوا على تحريمه بل اختلفوا.

ويؤيده أنه قال بعده: "واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا..." إلى آخره. ويكون المراد حاشا عبد المطلب فلا أحفظ ما قالوا فيه ويكون سكوتاً منه عن حكاية إجماع، أو خلاف فيه.

وعلى تقدير أن مراده حكاية الإجماع على جواز ذلك؛ فليس كل من حكى اجماعاً يُسَلَّمُ له، ولا كل إجماع يكون حجة أيضاً، فكيف والخلاف موجود، والسنة فاصلة بين المتنازعين؟

وغاية حجة من أجازه قوله عليه السلام: ((أنا ابن عبد المطلب)) ونحوه، أو أن بعض الصحابة اسمه عبد المطلب. وقد تقدم الجواب عن ذلك، وأيضاً فلو كان قوله أنا ابن عبد المطلب حجة على جواز التسمية به لكان قوله ((إنما بنو هاشم وبنو عبد مناف شيء واحد)) حجة على جواز التسمية بعبد مناف، ولكن فرق بين إنشاء التسمية وبين الإخبار بذلك عَمَّنْ هو اسمه. ١

[1] مراتب الإجماع (ص/١٥٤)

وأما قوله ﷺ: ((تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم...)) الحديث، فهذا وصف وليس علماً، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها على ما يرضي الله بالعابد لها، كقولك: عابد الدينار، فهو وصف، فلا يعارض الإجماع. ٥

قال ابن القيم: "لا تحل التسمية بعبد علي، وعبدالحسين، ولا عبد الكعبة".

وقد روى ابن أبي شيبة عن هانئ بن شريح قال: "وفد على النبي ﷺ قوم، فسمعهم يسمون رجلاً (عبد الحجر)، فقال له: ((ما اسمك؟))، قال: (عبد الحجر)، فقال له رسول الله ﷺ: ((إنما أنت عبدالله)).[1] فإن قيل :كيف يتفقون على تحريم الاسم المعبد لغير الله وقد صح عنه ﷺ: ((تعس عبد الدينار)) الحديث. وصح عنه أنه قال: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)).

فالجواب: أما قوله ((تعس عبد الدينار)) فلم يرد الاسم وإنما أراد به الوصف والدعاء على من يعبد قلبه للدينار والدرهم، فرضي بعبوديتهما عن عبودية الله تبارك وتعالى.

وأما قوله: ((أنا ابن عبد المطلب)) فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك، وإنما هو من باب الاخبار بالاسم الذي عرف به المسمى دون غيره، والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يَحْرُمُ، ولا وجه لتخصيص أبي محمد ذلك بعبد المطلب خاصة، فقد كان أصحابه يسمون بني عبد شمس، وبني عبد الدار بأسمائهم، ولا ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك.

فباب الأخبار أوسع من باب الإنشاء، فيجوز فيه مالا يجوز في الإنشاء. انتهى ملخصاً[2]. ١

وأيضاً فقد نص النبي ﷺ على أن التسمية بـ "عبد الحارث" من وحي الشيطان وأمره. ١

لا يقال إن الحارث اسم للشيطان، لأنه وإن كان اسما له، فلا فرق في ذلك بين جميع من اسمه الحارث، فلا يجوز التسمية به، وإن نوى به عبد الحارث بن هشام، أو غيره. ١

---

[1] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٥٩٠١)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم٨١١) وغيرهما وإسناده حسن. محقق ١

[2] تحفة الودود بأخبار المولود (ص/١١٣-١١٤)

إلا أن ((أصدق الأسماء: الحارث، وهمام))[1]. ١

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: "لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن ـ يخوفهما ـ سِّمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلاَ لَهُ شركاَء فِيمَا آتَاهُمَا﴾. رواه ابن أبي حاتم[2].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "فأتاهما" أي آدم وحواء "إبليس". ٤

قوله: "إبليس". على وزن إفعيل، فقيل: من أبلس إذا يئس، لأنه يئس من رحمة الله تعالى. ٥

"فقال: إني صاحبُكما الذي أخرجكما من الجنّة" يشير إلى القصة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه من وَسْوَسَة الشيطان لآدم عليه السلام لَمّا حرّم الله عليه أن يأكُل من شجرة معيَّنة في الجنة، وجاءه الشيطان وزيّنها له وأغراهُ بالأكل منها، فعصى ربَّه وأكل منها، فحصلت المصيبة، وأُخرج من الجنّة بسبب ذلك، وأُهْبِط إلى الأرض. ولكنّ آدم وحوّاء تابا إلى الله -عليهما السلام- تابا إلى الله فتاب الله عليهما.

"لتُطِيعاني" أي: تمتثلان ما آمركما به.

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٣٤٥/٤)، البخاري في الأدب المفرد (رقم ٨١٤)، وأبوداود في سننه (رقم ٤٩٥٠) وهو صحيح بشواهده. وصححه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٩٥/١٤)، وهو حديث طويل. محقق ١ باختصار.

[2] رواه سعيد بن منصور في سننه (رقم ٩٣٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٨٦٥٤) عن ابن عباس وفي إسناده خصيف الجزري وهو صدوق فيه ضعف. ويروى نحوه عن ابن عباس من طرق انظرها في تفسير ابن جرير (١٤٦/١٠-١٤٧) فهو ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما. محقق ١

" أو لأجعلنّ له قرنيْ أيِّل" الأَيِّل هو ذكر الأوعال .

"فيخرج من بطنك فيشقه" يعني: بقرنيه. ٤

والمعنى: انه يخوفهما بكونه يجعل للولد قرني وَعِلٍ، فيخرج من بطنها فيشقه، كما قال "فيخرج من بطنك فيشقه". ١

" ولأفعلنَّ –يخوِّفهما–" من التخويفات والتهديدات. ٤

قوله "سمياه عبد الحارث" قال سعيد بن جبير: "كان اسمه في الملائكة الحارث" [1].

وكان مراده ان يسمياه بذلك، ليكون قد وجد له صورة الإشراك به، فإن هذا باب من كيد إبليس إذا عجز عن الآدمي أن يوقعه في المعصية الكبيرة قنع منه بالصغيرة.

وأيضاً ؛ فإنه يحصل له منهما طاعته، كما أطاعا أول مرة. ١

فلم يلتفتا إليه، ولم يطيعاه لأنه عدوهما.

"فخرج ميّتاً" وهذا من باب الامتحان والابتلاء من الله سبحانه وتعالى.

"ثم حملت فأتاهُما فذكر لهما" ذلك، لأن الشيطان –لعنه الله– يحاوِل مع الإنسان ولا ييأس.

"فأدركهما حُبّ الولد، فسمّياه عبد الحارث". ٤

اختار هذا الاسم، لأنه اسمه، فأراد أن يعبداه لنفسه. ٥

والحارث قيل: هو اسم إبليس، قبل أن تحصل عليه اللعنة، ولكن بعد أن حصلت عليه اللعنة وطُرد من الملأ الأعلى سمّي بإبليس. ٤

"فذلك قولُ الله تعالى: ﴿جَعَلا لَهُ شركاَءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾" أي: هذا تفسير هذه الآية.

هذا والله أعلم من الامتحان، فإن الإنسان لا عزم له، وإن عاين ماذا عساه أن يعاين من الآيات إلا بتوفيق الله تعالى.

---

[1] عزاه في الدر المنثور (٦٢٤/٣) لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وهو عند حاتم في تفسيره (رقم٨٦٤٤) بإسناد حسن، وليس فيه أن إبليس كان يدعى الحارث.

فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه، كما غلبت على الأبوين مرتين، مع ما وقع لهما قبل من التحذير والإنذار عن كيد إبليس وعداوته لهما، ومع ذلك أدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، وكان ذلك شركاً في التسمية وإن لم يقصدا تعبيده للشيطان، بل قصدا به فيما ظنًّا إما دفع شره عن حواء، وإما الخوف على الولد من الموت. ١

وله بسند صحيح عن قتادة قال: "شركاًء في طاعته، ولم يكن في عبادته" [١].

"وله" أي: ابن أبي حاتم. ٤

قوله: "شركاًء في طاعته". أي: أطاعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة لكن عبدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة والعبادة، فلو أن أحداً أطاع شخصاً في معصية لله لم يجعله شريكاً مع الله في العبادة، لكن أطاعه في معصية الله. ٥

قال شيخنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: "شركاًء في طاعته ولم يكن في عبادته". ٢

وهذا دليل على التفريق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

الشرك في العبادة كفر أكبر مخرج من الملة.

أما الشرك في الطاعة فله درجات يبدأ من المعصية والمحرم وينتهي بالشرك الأكبر، فالشرك في الطاعة درجاته كثيرة، ليس درجة واحدة، فيحصل شركاً في الطاعة فتكون معصية، ويحصل شرك في الطاعة فيكون كبيرة، ويحصل شرك في الطاعة ويكون كفر أكبر ونحو ذلك.

أما الشرك في العبادة فهو كفر أكبر بالله جل جلاله.

ولهذا فرق أهل العلم بين شرك الطاعة وشرك العبادة، مع أن العبادة مستلزمة للطاعة، والطاعة مستلزمة أيضاً للعبادة؛ لكن ليس في كل درجاتها. ٣

---

[١] رواه ابن جرير في تفسيره (١٤٩/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٨٦٥٩) وإسناده صحيح.

وشركُ الطاعة شركٌ أصغر لا يُخرِج من الملّة، لاسيّما وأنّهما لم يفعلا هذا قصداً للمعنى، وإنّما فعلاه من باب حُبّ الولد، ومن أجل سلامته فقط، ومع هذا سمّاه الله شركاً، فيكون شركاً ولو لم يقصده الإنسان. فدلَّ هذا على أنَّ مَن تكلَّم بالشّرك أو فعل الشرك فإنّه يسمّى مشركاً، ولو لم يقصده ولم ينوِه، فيُحكَم عليه بأنّ فعله هذا شرك، سواء من الشرك الأصغر أو الشرك الأكبر، ولهذا قال الرّسول ﷺ للذي قال له: ما شاء الله وشئتَ: ((أجعلتني لله نِدًّا؟)) مع أنّ القائل ما أراد أن يجعل لله نِدًّا، ولكن هذا اللّفظ لا يجوز، فهو شرك ولو لم يقصده، فكيف إذا قصده؟

ففيه ردٌّ على من يقول: أن من قال كلمة الشرك أو فعل الشرك لا يُحكم عليه أنه مشرك حتى يعتقده بقلبه كما هو قول مرجئة هذا العصر. ٤ وقد استشكله بعض المعاصرين بما حاصله أنهم قد فسروا العبادة بالطاعة، فيلزم على قول قتادة أن يكون الشرك في العبادة.

والجواب: ان تفسير العبادة بالطاعة من التفسير باللازم، فإن لازم العبادة أن يكون العابد مطيعاً لمن عبده بها، فلذا فسرت بالطاعة.

أو يقال: هو من التفسير باللزوم وإرادة اللازم، اي: لما كانت الطاعة ملزوما للعبادة، والعبادة لازمة لها، فلا تحصل إلا بالطاعة؛ جاز تفسيرها بذلك، وهو أصح، وبالجملة فلا إشكال في ذلك بحمد الله.

فإن قلت: قد سمى النبي ﷺ طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة.

قلت: راجع الكلام على حديث عدي يتضح الجواب. ١

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ قال: "أشفقا ألا يكون إنساناً" [1]، وذكر معناه عن الحسن، وسعيد[2] وغيرهما.

"وله" أي: ابن أبي حاتم.

---

[1] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٨٦٤٨) وإسناده صحيح.

[2] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (رقم ٨٦٤٦)، وإسناده حسن.[محقق١]

قوله: "أشفقا أن لا يكون إنساناً" أي خاف آدم وحواء أن يكون حيواناً أو جنياً أو غير ذلك.٤
يعني خافا أن يكون له كما قال الشيطان له قرنا أيّل أو خلقته مختلفة أو يخرج حيواناً أو قرداً أو نحو ذلك. ٣

قوله "وذكر": أي ذكر ابن أبي حاتم. ١

"وذكر معناه عن الحسن" هو: الحسن البصري.

"وسعيد" هو: سعيد بن المسيّب، وهما من أئمّة التّابعين، أي: ورُوِيَ هذا التفسير عن هذين الإمامين، بل هذا قولُ أكثر المفسِّرين، كما ذكر ذلك الشوكاني في "فتح القدير"، ورجحه شيخُ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله في "تفسيره" وقال: "هو أولى القولين في تفسير الآية الكريمة".

وهو الذي اختاره الشيخ المصنِّف: محمد بن عبد الوهاب، واختاره الشارح الشيخ: سليمان بن عبد الله، وأنّ هذا الشرك المذكور في الآية وقع من آدم وحوّاء، لكنه شركٌ في الطاعة وليس في العبادة.

وذهب بعض المفسِّرين -وهو القول الثّاني-: إلى أنّ الآية من أوّلها إلى آخرها لا تعني آدم ولا حوّاء، وإنّما تعني المشركين من بني آدم، واعتمدوا في هذا على شيئين:

الشيء الأوّل: أنّه لا يجوز أن يقع من آدم وحوّاء مثل هذا، لأنّ آدم -عليه الصلاة والسلام- نبي من أنبياء الله، ولا يقع منه هذا الشيء.

الشيء الثاني: أنّ الله خَتَم الآية بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا لفظُ جمع، فيُراد به المشركون من بني آدم.

واختار هذا القول ابن كثير في تفسيره، وَطَعَنَ فيما روي عن ابن عبّاس، وقال: "لعلّه من الإسرائيليّات".

ولكن الإمام ابن جرير يقول: "أولى القولين هو القول الأوّل" وهو الذي عليه أكثرُ المفسرين.

ويرجّح القولُ الأوّل: أنّ الله سبحانه وتعالى ذكر الضّمير بلفظ التثنية، وأوّل الآية لا شك في آدم وحوّاء، وهو قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾

[الأعراف:١٦٨]، ولا شك أن المراد: آدم وحوّاء، ثم أعاد الضمائر إليهما، وهذا أُسلوب العرب؛ أنهم يذكرون الاسم في الأوّل ثم يعيدون الضمائر إليه، إنْ كان مفرَداً مفرداً، وإنْ كان مثنى مثنى، وإنْ كان جمعاً فجمعاً، هذا الأسلوب العربي.

والضمائر هي: ﴿دَعَوَا﴾، ﴿رَبَّهُمَا﴾، ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَ﴾، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾، ﴿جَعَلا لَهُ شركاَءَ﴾، كلُّ هذه الضمائر ترجع إلى آدم وحوّاء.

أمّا آخِر الآية فهو التفاتٌ إلى الذريّة، وهذا أسلوبٌ عربي معروف في لغة العرب، وذلك أنه لَمّا ذكر قصة آدم وحوّاء وفرغ منها انصرف إلى الذريّة فقال: ﴿فَتَعَالَى اللّه عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: المشركون من العرب الذين بُعث إليهم رسولُ الله ﷺ، فمعظم الآية في آدم وحوّاء، وآخِرُها التفاتٌ إلى ذريّة آدم وحوّاء، فكأنّ الله سبحانه وتعالى يستنكر الشرك من أصله، الشرك الذي وقع من آدم وحوّاء، وهو شركٌ أصغر، والشرك الأكبر الذي وقع من عَبَدَة الأوثان من ذريّة آدم.

فيترجّح القول الأوّل من عِدّة وجوه:

أوّلاً: أن الضمائر كلُّها مثنّاة، والقول بأنّ المراد الذريّة تعسُّفٌ في الألفاظ لا يجوز.

ثانياً: إنّ ما فسّر به ابن عبّاس ورد من عدّة جهات، فهو تفسير صحيح من مجموع طُرُقِه.

ثالثاً: أنّ عليه الأكثر من أهل العلم، كما قال الشوكاني.

رابعاً: أنّه هو المعنى الذي رجّحه الإمام أبو جعفر ابن جرير، شيخ المفسِّرين، حيث قال: "أولى القولين: القولُ الأوّل"، وهذا الذي اختاره المصنِّف في هذا الباب.

أمّا قول المخالفين: أنّ آدم عليه السلام لا يليقُ به ذلك.

فنقول: هذا ليس بشرك أكبر، إنما هو شركٌ أصغر، وهو شركٌ في الطاعة والألفاظ، لا في المعاني والمقاصد والنيّات، وقد يقع من الأنبياء بعض الذنوب الصغار التي عاتبهم الله عليها، ثم يتوبون منها ويتوب عليهم، والعِصمة إنما هي من الذنوب الكبائر، ومن الاستمرار على الصغائر. كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. ٤

ابن عثيمين لا يرى أن المراد بالآية آدم و حواء و يأخذ بالقول الثاني:

قوله: "وذكر معناه عن الحسن". لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" وقال: "أما نحن، فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته" أ. هـ.

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبه موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في أدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله	وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر	وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطاهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك.

الوجه الثالث: أن الأنبياء أنه ثبت معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة[1]. وهو معصية، ولو وقع منه الشرك، لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب أدني أهل الجنة منزلة.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: "أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة"، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: "أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة"، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفاً ولا عدلاً.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: "لآجعلن له قرني أيل" إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه، فهذا شرك في الربوبية لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء، لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا، فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني أدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً، فإن منهم مشركاً ومنهم موحداً. ٥

والحاصل من هذا كله أن القضية وقعت من آدم، أو من بعض بني إسرائيل، وبين الله في كتابه العظيم أنه لا يجوز، وأن الواجب عدم التعبيد لغير الله، وأنه لا يقتدى بمن فعل ذلك لا من الأولين من بني إسرائيل، ولا ما وقع من آدم إن كان وقع من آدم كما هو ظاهر السياق، بل يجب أن تكون التسمية والتعبيد لله وحده لما وقع في بني إسرائيل، أو في عهد آدم وحواء، لا يفعل في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، بل الله منع من ذلك في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام.

وهذا كله من باب كمال التوحيد، وكمال الإيمان، وكمال العبادة لله وحده، وكمال الخضوع له سبحانه وتعالى، وشريعة محمد ﷺ جاءت بغاية كمال التوحيد، وغاية الكمال في تعظيم الربوبية، وغاية الكمال في البعد عن وسائل الشرك، ووسائل التعبد لغير الله سبحانه وتعالى،

فهي أكمل الشرائع وأعظمها وأتمها وأبعدها عن كل شرك، هذه الشريعة المحمدية التي جاء بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. ٦

هذا، ويُستفاد من هذه القصة التي ذكرها الله في القرآن عدّة فوائد:

الفائدة الأولى: بيان الحكمة من خلق الزوجات لبني آدم، وأن المقصود من ذلك السَّكَن والاستيلاد، وغير ذلك من الفوائد، والقوامة من الرجل على المرأة: وصيانتُها، إلى غير ذلك، لكن أهمّ شيء هو السَّكَن، كونُ الإنسان يأتي إلى بيتٍ فيه زوجة طيِّبة ملائِمة يسكُن إليها ويرتاح معها.

الفائدة الثانية: أن حصول الأولاد الأسوياء في خِلْقَتِهم، الصالحين في دِينهِم؛ من أكبر النعم: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل:٧٢] ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٨٩].

الفائدة الثالثة: في الآية دليل على بيان الحكمة من الزواج، وأنّها السكَن والاستيلاء، ويَتْبَعْ ذلك بقية الأغراض من الصيانة، والقوامَة، والنّفقة، وغير ذلك، فالمرأة بلا رجل تكون معذَّبة، والرجل بلا امرأة يكون معذّباً، أما إذا اجتمع زوجان متناسِبان فهذا من تمام النِّعمة.

الفائدة الرابعة: في الحديث دليلٌ على أن تعبيد الأسماء لغير الله شرك.

الفائدة الخامسة: التحذير من كَيْد إبليس، فإذا كان فعل جمع الأبوين ما فعل فإنّه سيفعل مع الذريّة أشدّ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٦٢]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص:٨٢-٨٣]، فهو يهدِّد ويتوعّد.

الفائدة السادسة: أن تعبيد الأسماء لغير الله يُعتبر من الشرك الأصغر، وهو شرك الطّاعة، إذا لم يقصد به معنى العُبودية، فإنْ قصد به معنى العبوديّة والتألُّه صار من الشرك الأكبر، كما

عليه عُبّاد القُبور الذين يسمّون أولادهم: (عبد الحسين) أو (عبد الرَّسول) أو غير ذلك، هؤلاء في الغالب يقصدون التألُّه، لا يقصدون مجرّد التّسمية وإنما يقصدون التألُّه بذلك والتعبُّد لهذه الأشياء لأنهم يعبدونها، فهذا يعتبر من الشرك الأكبر. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبّد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبّد لغير الله.

تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] و﴿إن﴾ هذه شرطية لا تدل على وقوع التنازع، بل إن فرض ووقع، فالمرد إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلى بينة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلاناً يقول: أجمعوا على كذا، أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعي الإجماع، فهو كاذب. ولعل الإمام أحمد قال ذلك، لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون: هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبيد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ ((أنا ابن عبد المطلب)) أنه من قبيل الإخبار وليس إقرار ولا إنشاء، والإنسان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كان معبداً لغير الله، وقد قال النبي ﷺ: ((يا بني عبد مناف))، وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار. ٥

الثانية: تفسير الآية. يعني قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا..﴾ الآية، وسبق تفسيرها. ٥

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

كما ذكرنا: ابن عثيمين يأخذ بالقول الآخر:

وهذا بناء على ما ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية، والصواب: أن هذا الشرك حق حقيقة، وأنه شرك من إشراك بني آدم من آدم وحواء، ولهذا قال تعالى في الآية نفسها: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١]، فهذا الشرك الحقيقي الواقع من بني آدم. ٥

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله: ﴿صَالِحًا﴾، أي: بشراً سوياً، وأتي المؤلف بالبنت دون الولد، لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وإلا، فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم أيضاً، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها. ٥

وذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلها غير سوية، وأن يجعلها من غير الجنس.

فلا ينبغي للرجل أن يتسخط مما وهبه الله له كما يفعل أهل الجاهلية، بل يحمد الله الذي جعلها بشرية سوية، ولهذا كانت عائشة ﵂ إذا بُشِّرت بمولود لم تسأل إلا عن صورته، لا عن ذكوريته وأنوثيته[1]. ١

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

وقبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة، فالطاعة إذا كانت منسوبة لله، فلا فرق بينهما وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله، فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أنني أطعته لا حباً وتعظيماً وذلاً كما أحب الله وأتذلل له وأعظمة، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء على القصة، فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة. ٥

[1] رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٥٦) من طريق كثير بن عبيد قال: كانت عائشة ﵂ إذ ولد فيهم مولود -يعني: في أهلها- لا تسأل غلاماً، ولا جارية، تقول: ((خُلِقَ سوياً؟)) فإذا قيل: نعم. قالت: (الحمد لله رب العالمين) وإسناده حسن.محقق ١

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾)

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الْآيَةُ.

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يُشْرِكُونَ.

وَعَنْهُ: "سَمُّوا اللّاتَ مِنْ الْإِله، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ".

وَعَنِ الْأَعْمَشِ "يُدْخِلُونَ فِيها مَا لَيْسَ مِنْهَا".

هذا الباب في وجوب تعظيم أسماء الله الحسنى، وأن من تعظيمها أن لا يُلحد فيها وأن يدعى الله جل وعلا بها. ٣

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله عز وجل بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي، أي: إثبات الحكم للموَحَد ونفيه عما عداه، فمثلاً إذا قلت: زيد قائم، لم توحده بالقيام، وإذا قلت: زيد غير قائم، لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد، وحدته بالقيام وإذا قلت لا إله إلا الله وحدته بالألوهية وإذا اثبت الله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه، فهذا تعطيل، وإن مثلت، فهذا إشراك. ٥

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله في كتاب التّوحيد من أجل بيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته، ومن أجل أن يبيّن التوسُّل المشروع والتوسُّل الممنوع، لأن مسألة التوسُّل ضلَّ فيها خلقٌ كثير من قديم الزّمان، فالمشركون يعبُدون غيرَ الله ويسمّون معبوداتهم وسائل إلى الله، فيقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، فهم لا يعبدون هذه المعبودات لذاتها، لأنّهم يعلمون أنّها لا تخلُق ولا ترزُق ولا تُحيي ولا تُميت، وإنّما زعموا أنّها تتوسّطُ لهم عند الله سبحانه وتعالى، من باب الوسيلة، فردّ الله تعالى عليهم في القرآن بأنّ هذا التوسُّل وهذا العمل كفرٌ وشركٌ، وأنّه لم يَشْرَعْهُ سبحانه وتعالى لعباده.

وجاء مِن بعدهم القبوريُّون والصوفيّة ومن قبلهم الرّافضة والباطنيّة كلُّهم نَحَوا هذا المنحى الذي نحاه المشركون، فصاروا يعبدون الموتى، ويستغيثون بهم، ويدعونهم من دون الله، ويذبحون لهم، وينذُرون لهم، ويقولون: نحن نعلم أنّهم مخلوقون، وأنهم لا يخلُقون ولا يرزُقون، ولكننّا اتّخذناهم وسائل بيننا وبين الله، وربّما يحتجّون بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧]، وبقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)﴾ [المائدة:٣٥]، فظنّوا أنّ الوسيلة التي أمر الله باتخاذها إليه أنّها جعل وسائط بينهم وبين الله.

وهذا فهمٌ باطل، لم يُرِدْهُ الله سبحانه وتعالى، بل أنكره على المشركين، وحكم بأنّه كُفر، وأنّه شرك، ونزّه نفسَه عنه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:١]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، بيَّن أنّه كفر وأنه شرك، ونزّه نفسَه عنه، فهو لم يَشْرَع لعباده أبداً أن يجعلوا بينه وبينهم وسائط من الخلْق يبلّغونه حاجات عبادِه، وإنما أمر بدعائه مباشَرة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

((ينزل كلّ ليلة إلى سماء الدّنيا حين يبقى ثُلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيَه؟، هل من داعٍ فأستجيب له؟، هل من مستغفرٍ فأغفر له.))

فأمر بدعائه واستغفاره وسؤاله مباشرة، لأنه سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، ويعلم أحوال عبادِه، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إنّما تُتّخذ الوسائل والوسائط عند من لا يعلم أحوالَ النّاس ولا يعلم أحوال الرعيّة من الملوك والرؤساء من البشر الذين تخفى عليهم أحوال الرعايا وأحوال النّاس وحاجات النّاس

ويحتاجون إلى مَنْ يبلِّغُهم، أما الله جل وعلا فإنّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم كلَّ شيء، ويسمع كلَّ شيء، يسمع السر، ويعلم ما في القلب، ولو لم يتكلّم الإنسان، فهو ليس بحاجة إلى اتّخاذ مبلِّغين ومتوسِّطين بينه وبين عباده.

أما استدلالُهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]، وبقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، فالآيتان لم يُرِد منها اتّخاذ وسائط بين الله وبين عباده.

وإنّما معنى التوسُّل في اللغة: التقرُّب، يقال: توسّل إليه: تقرَّب إليه، ووسَل إليه: قَرُب منه، والواسل: اسم فاعل من وسل، هو المتقرِّب، والوسيلة هي: السبب والطريق الذي يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، والذي يوصل إلى الله طاعتُه سبحانه وتعالى، وعبادته، وما شرعه على أَلْسُن أنبيائه ورسله. هذه الوسيلة.

والمخلوق وإن كان له منزلة عند الله كالأنبياء والرُّسل -عليهم الصلاة والسلام- والصالحين والأولياء، لكنّ الله لم يَشْرَعْ لنا أن نسأل بمكانتهم ومنزلتهم عنده، وإنما أمرنا أن نتوسّل إليه بعملنا نحن لا بعمل غيرِنا، بأن نطيع الله ونتقرّب إليه، أما أنّ فلاناً له عند الله مكانة وله جاه، فهذا ليس من عملنا وليس لنا فيه شيء، هذا خاصٌ بهم، والله لم يشرع لنا أن نسأله بجاه أحد، ولا بذات أحد، ولا بمنزلة أحدٍ عنده سبحانه وتعالى، هذا كلُّه باطل.

وإذا تبيَّن أنّ الوسيلة المذكورة في القرآن هي الطّاعة، وهي التي تقرِّب إلى الله عزّ وجلّ وتُدني من الله عزّ وجلّ، وأن اتّخاذ الوسائط من الخلْق بين الله وبين عبادِه لم يَشْرَعْهُ الله ولا رسولُه؛ وجب علينا التقرّب إلى الله بطاعته. والتوسّل بالخلق إن صحِبَه شيءٌ من التقرُّب إلى المخلوق كالذبح له والنّذر له؛ صار شركاً أكبر، وإن لم يصحبه شيءٌ من التقرُّب إلى المخلوق، وإنما هو مجرّد توسُّط بالجاه ونحوه؛ فهذا بدعة ووسيلة إلى الشرك، كالسؤال بالجاه، والسؤال بحقّ النّبي، أو بمنزلة النّبي، أو بالنّبي ذاته.

فهذا يُعتَبر بدعة في الدعاء لم يشرعها الله، وهي وسيلة من وسائل الشرك، لأنّه إذا بدأ يتوسّل بجاه المخلوق أو بمنزلته أو بحقِّه عند الله؛ فإنّه يتدرّج إلى أن يعبُد هذا المخلوق، مثل ما حصل للمشركين قديماً وحديثاً، حيث بدأتْ مسألتهم من مجرّد التوسُّل، وانتهت بالشّرك الأكبر المخرج من المِلّة، نسأل الله العافية والسلامة.

وقد تعلّق بعض المغالطين بكلمة جاءت في بعض رسائل الشيخ :محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، أنه قال: "إن التوسل من مسائل الفقه والاجتهاد التي لا إنكار فيها"، هكذا قالوا!!، ونسبوه إلى الشيخ!!

والواقع أن الشيخ رحمه الله فصّل فقال: "إن التوسّل الخالي من عبادة المتوسِّل به، وإنما هو توسل بحق الشخص، أو جاهه؛ فهذا بدعة، وليس بشرك. وأما التوسل الذي معناه التقرب إلى المتوسِّل به بالذبح له، والنذر له، وغير ذلك من أنواع العبادة؛ فهذا شرك أكبر".

هذا معنى ما قاله الشيخ، وهو ما قرّره المحققون من أهل العلم، وليس المراد: أن التوسل كله من مسائل الفقه؛ لأن منه ما هو شرك أكبر.

وهذا بابٌ عظيم، لأنّ هذه الشبهة ضلّ بها أكثرُ الخلق قديماً وحديثاً، لأنّهم لم يفرقوا بين الوسيلة الممنوعة والوسيلة المشروعة.

فالتوسُّل على قسمين:

توسُّل ممنوع، وهو: التوسُّل بجاه المخلوق، أو بحق المخلوق ومنزلته، أو بذاته وهو إمّا شركٌ، وإما بدعة ووسيلة إلى الشرك.

أما التوسُّل المشروع فهو: الذي جاء في الكتاب والسنّة ذكرُه والأمرُ به، ومن ذلك: هذه الآيةُ الكريمة التي صدّر بها الشيخ هذا الباب: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والتوسُّل المشروع أنواع:

النوع الأول: التوسُّل بأسماء الله وصفاته، تقول: (يا رحمن ارحمني)، (يا غفور اغفر لي)، (يا توّاب تُبْ عليّ)، (يا غنيّ اغنني)، وهكذا، تذكُر في دعائك كلَّ اسم يناسِب حاجتك.

ولا يناسِب أنك تأتي باسم غير مناسب لحاجتك: فلا تقل: اللهم اغفر لي إنّك شديد العقاب.

النوع الثاني: التوسُّل إلى الله جل وعلا بدعاء الصالحين: إذا كان هناك صالحٌ من الصالحين، حيٌّ موجود تأتي إليه وتقول: (ادعُ الله لي أن يغفر لي)، (أن يرزقني)، (أن يشفِيَني)، أو إذا قَحِطّ النّاس طلبوا من الصالحين أن يدعوا الله تعالى لهم بالغيث، فهذا مشروع.

وقد استسقى عمر بن الخطّاب -رضي الله تعالى عنه- بدعاء العبّاس عمّ الرسول ﷺ، وقال: "اللهم إنّا كُنّا نستسقي بنبينا فتسقينا، وإنا نستسقي بعمّ رسولك، قم يا عبّاس فادعو"، فيدعو العبّاس والنّاس يؤمنّون.

وهذا توسُّل بدعاء الصالحين، وكما توسّل معاوية رضي الله عنه بيزيد الجُرْشي، وغيرُهم.

أما الميِّت فلا يجوز أن تطلُب منه شيئاً ، فلا يجوز أن تذهب إلى قبر الرُسول ﷺ أو قبر غيره من الصالحين وتقول: (ادعُ الله لنا)، لأنّ الصّحابة ما كانوا يذهبون إلى قبر الرّسول ﷺ، بل إنّهم لَمّا أجدبوا وما بينهم وبين قبر الرّسول إلاّ أمتار ما ذهبوا إليه، إنّما طلبوا من العبّاس، لأنّ العبّاس حيٌّ حاضر يستطيع أن يدعو، أما الرسول ﷺ فإنّه ميّت، ولا يجوز أن يُطلب من الميّت شيء لا دُعاء ولا غيره.

النوع الثالث: التوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة، مثل حديث أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصّخرة وسدّت عليهم المِخْرَجْ فكلٌّ منهم توسّل إلى الله بالعمل الذي قدّمه لله عزّ وجلّ: هذا توسَّل بعفّته عن الحرام، وهذا توسّل ببرِّه بوالديه، وهذا توسَّل بأمانته وحِفظه لحقّ الأجير حتى جاء وأعطَاه إيَّاه، ففرّج الله عنهم، وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ(١٩٣)﴾ توسّلوا إلى الله بإيمانِهم بالرّسول ﷺ: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾ [آل عمران:٥٣] توسّلوا إلى الله بإيمانهم

وإتّباعهم للرّسول ﷺ. والتوسُّل بالتّوحيد: ((أسألك بأنّك أنت الله لا إله إلاَّ أنت))، وكما توسّل ذو النون –عليه الصلاة والسلام– وهو في بطن الحوت: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]. ٤

قال: وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إخبارٌ من الله جلا وعلا أنّ له الأسماء وأنّها حُسنى. ٤

يبين سبحانه أن له الأسماء الحسنى التي لا يعتريها نقص، بل هي كمال كلها دالة على معاني عظيمة يوصف بها على الوجه اللائق به. ٦

والحسنى: أي: البالغة في الحُسن أعلاه، لا شيء أحسن منها، فالحسنى هي: المتناهِيّة في الحُسن، فكلُّ أسماء الله حسنى. ٤

ومعنى الحسنى، أي: البالغة في الحسن أكمله، لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق، لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقاً مثل زيد الأفضل وقد يكون مقيداً مثل: زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق، لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لا فرضاً ولا احتمالاً.٥

اللام هنا في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ هي لام الاستحقاق؛ يعني الأسماء الحسنى البالغة في الحسن نهايته مستحَقة لله جل وعلا والله مستحق ذلك. ٣

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ففي الآية توحيد الأسماء لله. ٥

والأسماء الحسنى هي الحسنة البالغة في الحسن نهايته، فالخلق يتسمون بأسماء لكن قد لا تكون حسنة أو قد تكون حسنة ولكن ليست بالغة في الحسن نهايته؛ لأن الحُسن في الأسماء يكون راجعاً إلى أنّ الصفة التي اشتمل عليها ذلك الاسم تكون حقا فيمن تسمى بها،

ويكون قد بلغ نهاية ذلك الوصف، والإنسان لو تسمى باسم فيه معنى فإنه لا يُنظر فيه إلى أن المعنى قد اشتملت عليه خصاله، فيسمى صالحاً وقد لا يكون صالحاً، ويسمى خالداً وقد لا يكون خالداً، ويسمى محمداً وقد لا يكون كثير خصال الحمد، وهكذا فإن الإنسان قد يسمى بأسماء لكن قد تكون في حقه حسنى.

والله جل وعلا له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن نهايته، وهي الأسماء المشتملة على الصفات صفات الكمال والجلال والجمال والقدرة والعزة والجبروت وغير ذلك، وله من كل اسم مشتمل على صفة أعلى وأعظم الصفة والمعنى الذي اشتملت عليه الصفة، والناس وأهل العلم إذا فسروا الأسماء الحسنى فإنما تقريب ليدلوا الناس على أصل المعنى، أما المعنى بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله جل جلاله، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في دعائه:((لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)).

فالناس حين يفسرون أسماء الله جل وعلا فإنهم يفسرون ذلك بما يُقَرِّب إلى الأفهام المعنى، أما حقيقة المعنى على كماله فإنهم لا يعونه؛ لأن ذلك من الغيب، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعونها؛ لأن ذلك من الغيب.

فالله جل وعلا له الأسماء الحسنى، والصفات العلا. ٣

ومن الأسماء لا يكون حسناً إلا بقيد

ومن الأسماء ما لا يكون حسناً إلا بقيد مثل الصانع والمتكلم والمريد والفعّال أو الفاعل ونحو ذلك، فهذه الأسماء ولا تكون كمالا إلا بقيد:

في أن يكون متكلماً بما شاء إذا شاء، بما تقتضيه الحكمة وتمام العدل، فهذا يكون محموداً، ولهذا ليس من أسماء الله المتكلم.

كذلك الصانع قد يصنع خيراً، وقد يصنع غير ذلك، والله جل وعلا ليس من أسمائه الحسنى الصانع لاشتماله على هذا وهذا، فإذا أطلق من جهة الخبر فيعني به ما يقيد بالمعنى الذي فيه كمال.

كذلك فاعل أو فعّال، فإن الفعال قد يفعل أشياء لا توافق الحكمة، وقد يفعل أشياء لا يريدها؛ بل مجبر عليها، والكمال أن يفعل ما يريد ولا يكون مجبرا لكمال عزته وقهره، ولهذا قال الله جل وعلا عن نفسه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧، البروج:١٦]، لأن تقييد كونه فعالاً لما يريد هذا هو الكمال.

فيه أشياء كثيرة من ذلك معروفة في مباحث الأسماء والصفات. ٣

قال ابن القيم: "فأسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها.

وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهم، فله من كل صفة كمال أحسن اسم، وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص، فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه. والسميع البصير، دون السامع والباصر.

ومن صفات الإحسان: البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشَّفوق والمِشُوقِ. وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف. وكذلك الكريم، دون السخي. والخالق البارىء المصور، دون الصانع الفاعل المشَكِّلْ. والعفو الغفور، دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسماءه تعالى يجري على نفسه أكملها وأحسنها، ولا يقوم غيره مقامه، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا نعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا نتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ إلى ما وصفه به المبطلون" [١].

ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمريد ونحوها، لأن اللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه، وأخبر به عنها أتم من هذا، وأكمل، وأجل شأناً.

"فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها، فيوصف من الإرادة بأكملها، وهو الحكمة، وحصول كل ما يريد بإرادته، كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لما يُرِيدْ﴾ [البروج: ١٦] وبإرادة اليسر، لا العسر كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾

---

[١] بدائع الفوائد (١/٢٩٥-٢٦٩- دار عالم الفوائد)

[البقرة:١٨٥] وبإرادة الإحسان وتمام النعمة على عباده، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]، فإرادة التوبة له، وإرادة الميل لمبتغي الشهوات، وقوله ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]. وكذلك العليم الخبير أكمل من الفقيه العارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والرحيم أكمل من الشفيق، والخالق البارىء المصور أكمل من الفاعل الصانع؛ ولهذا لم تجىء هذه في أسمائه الحسنى، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات، والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه، ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته. وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته لها دون اللفظ. ولا سيما إذا كان مجملاً، أو منقسماً إلى ما يمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع، فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقاً مقيداً، كما أطلقه على نفسه كقوله ﴿فَعَّالٌ لما يُرِيدْ﴾ ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] وقوله ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨] فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم، فلهذا المعنى -والله أعلم- لم يجيء في الأسماء الحسنى: (المريد)، كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم الآمر الناهي، لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها، وأشرف أنواعها.

ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين، وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسما مطلقاً، وأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق له اسم الماكر، والمخادع، والفاتن، والمضل، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا."[1] انتهى ملخصاً. من كلام الإمام ابن القيم.

وقيل: فصل الخطاب في أسماء الله الحسنى، هل هي توقيفية أم لا؟ وحاصله أن ما يطلق عليه من باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق من باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه، والصانع، ونحو ذلك. ١

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٤٨٤-٤٨٧)

"فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وكذا لا يسأل إلا بها. فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب. فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم." [١]. ١

وأسماء الله الحسنى تنقسم باعتبارات من جهة المعنى.

قال طائفة من أهل العلم:

إن منها أسماء الجمال: وأسماء الجمال لله جل جلاله هي الأسماء المشتملة على حسن في الذات أو حسن في المعنى وبِرٍّ بالعباد والمخلوقين، فيكون من أسماء الجمال صفات الذات، واسم الله الجميل، ويكون من أسماء الجمال: البر والرحيم والودود ونحو ذلك والمحسن وما أشبه ذلك.

ومن أسماء الله ما هو من الجلال: يقال هذه أسماء الجلال، وأسماء الجلال لله هي التي فيها ما يدل على جلال الله، وهو عظمته وعزته جل وعلا وجلاله حتى يُجَلْ مثل: القهار والجبار والقدير والعزيز ونحو ذلك والمقيت وأشباه هذه الأسماء فهذه أسماء الجلال.

وهناك أسماء في تقسيمات مختلفة تُطلب من كلام ابن القيم رحمه الله أو من كلام الشراح.

فإن المقصود -إذن- أنّ العبد المؤمن الموحد أن يتعرَّف إلى الله جل وعلا بأسمائه وصفاته، ولا يتم حقيقة التوحيد في قلب العبد حتى يعلم أسماء الله جل وعلا ويعلم صفات الله جل وعلا، فإن العلم بها تتم به حقيقة التوحيد.

والعلم بها على مراتب:

منها: أن يعلمها إثباتاً؛ يعني يثبت ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ، فيؤمن أن هذا الاسم من أسماء الله، وأن هذه الصفة من صفات الله جل وعلا.

والثاني: أن يسأل الله جل وعلا بأسماء الله وصفاته بما يوافق مطلوبه؛ لأن الأسماء والصفات نتعبد لله جل وعلا بها بأن فادعوه بها -كما جاء في هذه الآية وسيأتي بين ذلك إن شاء الله.

---

[١] بدائع الفوائد (١/٢٨٨-٢٨٩- عالم الفوائد)

الثالث: من الإيمان بالأسماء والصفات أن ينظر إلى آثار أسماء الله وصفاته في الملكوت، فإذا نظر إلى الأسماء والصفات في الملكوت وتأمل ذلك علم أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن الحق الثابت اللازم هو الله جل وعلا، وأن سوى الله هو الباطل وزائل وآيل إلى الهلاك، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]. ٣

أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً، ومنها ما لا يطلق عليه مفرداً.

"ولكن أسماؤه تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً، وهو غالب الأسماء كالقدير، والسميع، والبصير، والحكيم، فهذا يسوغ أن يدعى به مفرداً، ومقترناً بغيره.

فتقول: يا عزيز، يا حكيم، يا قدير، يا سميع، يا بصير، وأن تفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه، والخبر عنه، وبه يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه مفرداً، بل مقروناً بمقابله؛ كالمانع، والضار، والمنتقم، والمذل، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي، والنافع، والعفو، والعزيز، والمعز.

فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بمقابله، لأنه يراد به أنه المتفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم عطاءً ومنعاً، ونفعاً وضراً، وانتقاماً وإعزازاً، وإذلالاً.

فأما الثناء عليه بمجرد المنع والانتقام والاضرار، فلا يسوغ، فهذه الاسماء المزدوجة يجري الاسمان منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه من بعض. ولذلك لم تجىء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فلو قلت: يا ضار، يا مانع، يا مذل، لم تكن مثنياً عليه، ولا حامداً له، حتى تذكر مقابلها." انتهى ملخصاً.[1] من كلام ابن القيم. وفيه بعض زيادة وبه يظهر الجواب عما قد يرد على ما سبق. ١

---

[1] بدائع الفوائد (١/٢٩٤-٢٩٥-عالم الفوائد)

لا يعلم عدد الأسماء إلا الله عز وجل

ولا يعلم عددها إلاّ الله سبحانه وتعالى كما قال النّبي ﷺ: ((أسأُلك بكلّ اسمٍ هو لك سمَّيْتَ به نفسَك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرْتَ به في علم الغيب عندك))، فالله جل وعلا له أسماء كثيرة، منها ما أنزله في كتابه، ومنها ما علّمه بعضَ خلْقه ولم يُنزله في كتابه.

وأمّا قولُه ﷺ: ((إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مَن أحصاها دخل الجنّة)) فليس المراد الحصر، وإنّما هذه التسعة والتسعين موصوفة بأنّ مَن أحصاها دخل الجنّة، وليس المعنى: أنّها منتهى أسماء الله تعالى، وأن أسماء الله محصورة فيها.

ومعنى إحصائها: عَدَّها، ومعرفة معناها، والعمل بمقتضاها. أما مجرّد أنه يكتُبها، أو يعدّها عدّاً فقط، وهو لا يعرف معانيها، أو أنّه يعرف معانيها لكنّه لا يعمَلُ بها فإنَّه لا يحصُل على هذا الوعد الكريم.

أما ما جاء في رواية التّرمذي من عدّ هذه الأسماء، فهذا لم يَثْبُت عن النّبي ﷺ، وإنّما هو مُدْرَجٌ في الحديث من عمل بعض الرواة. ٤

الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات

وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه ومثاله. فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتًا حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهمي، قد اتبع غير سبيل المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

وقال العلامة ابن القيم –رحمه الله تعالى– أيضاً: فائدة جليلة

ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتاً؛ إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس: -ولم يذكره أكثر الناس- وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه "استمجد المرخ والعفار" وأمجد الناقة: علفها. ومنها ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴾ [البروج: ١٥] صفة للعرش؛ لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في الترمذي: ((أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام))[١]، ومنه: ((اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام))[٢] فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسؤول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة

---

[١] الترمذي الدعوات (٣٥٢٤).

[٢] النسائي السهو (١٣٠٠)، أبو داود الصلاة (١٤٩٥).

والأسماء المزدوجة في القرآن. فإن "الغني" صفة كمال، و"الحمد" كذلك، واجتماع " الغني" مع "الحمد" كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله؛ فإنه من أشرف المعارف." [1]. ٢

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟

الثاني: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

الثالث: هل أسماء الله هي الله أو غيره؟

الرابع: أسماء الله توفيقية.

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين.

السادس: أسماء الله إذا كانت متعدية، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة وبالحكم الذي يسمى أحياناً بالأثر، وإن كانت غير متعدية، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

السابع: إحصاء أسماء الله معناه:

١- الإحاطة بها لفظاً ومعنى.

٢- دعاء الله بها، لقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء، فتقول: يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم! وما أشبه ذلك.

٣- أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته، وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير أجتنبت الفعل الذي لا يرضاه. ٥

---

[1] ابن القيم :بدائع الفوائد (١٥٩/١)

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

فهذه الآية تدلُّ: على إثْبات الأسماء لله تعالى رَدًّا على المشركين وعلى الجهميّة ومَن نفى أسماءَ الله سبحانه وتعالى.

وفي الآية: أنها كلُّها حسنى. ٤

قال ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يعني إذا علمتم أن الله هو المستحق لذلك وآمنتم بذلك فادعوه بها وهذا أمر. ٣

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها، لأن لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها.

وهذا خلافاً لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه.

أيريدون أن يعبدوا شيئاً لا أسماء له ولا صفات؟!

أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟! وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا تبحثوا في الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها، والأمر للوجوب، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضاً أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لابد أن لها معاني فلا بد أن نبحث فيها، لأن علمها ألفاظاً مجردة لا فائدة فيه، وإن قدر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ، فإنه لا يحصل به كمال الفائدة. ٥

وفيها: مشروعيَّة التوسُّل إلى الله تعالى بها، ودعائه بها: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يعني: توسّلوا إلى الله بها، بأن تقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا كريم أكرِمني، يا توّاب تُبْ عليّ. إلى آخره، بأنْ تأتي بكل اسمٍ يناسب حاجتك. ٤

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اسألوه، وتوسلوا إليه بها كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم. فإن ذلك من أقرب الوسائل وأحبها إليه، كما في (المسند) والترمذي: ((أَلِظُّوا بـ (ياذ

الجلال والاكرام)))[1]، و في الحديث الآخر: سمع النبي ﷺ رجلا يدعو وهو يقول: "اللهم إني اسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: ((والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى)) رواه الترمذي، وغيره.[2]

وقوله عليه السلام: ((اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)) حديث صحيح، رواه مسلم وغيره.[3]

ومنه: ((اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام)) رواه الترمذي بنحوه واللفظ لغيره[4].

قال ابن القيم: "فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه، وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعا عند السؤال[5]. ١

قوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾. الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم إغفر لي يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة، لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه. ٥

وقوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الدعاء هنا فُسر بالثناء والعبادة وفسر بالسؤال والطلب، وكلاهما صحيح، فإننا ندعو الله بها يعني نحمده ونثني عليه بها، فنعبده متوسلين إليه بهذه الأسماء والصفات، بالأسماء الحسنى واشتملت عليه من الصفات العلا، والثاني أن نسأل بها؛ يعني إذا

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٧/٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٢٨٠/٣)، والنسائي في الكبرى (رقم٧٧١٦) وغيرهم عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه وإسناده صحيح، وله شواهد. محقق ١

[2] رواه عبدالرزاق في مصنفه (رقم ٤١٧٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٩٣٦٩)، والإمام أحمد في المسند (٣٤٩/٥، ٣٥٠، ٣٦٠) وغيرهم عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه وإسناده صحيح. محقق١

[3] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٤٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

[4] رواه ابن المبارك في الزهد (رقم١١٧١)، والإمام أحمد في المسند (١٢٠/٣ وغيرها) وغيرهم عن أنس رضي الله عنه وإسناده حسن، وهو حديث صحيح. واللفظ لأبي داؤد، والنسائي، وزادا: (يا حي يا قيوم). محقق١

[5] بدائع الفوائد (٢٨٢/١- عالم الفوائد).

كان لنا مطلوب نتوجه إلى الله فنسأله بتلك الأسماء بما يوافق المطلوب، فإذا سألنا الله المغفرة نأتي بصفات الجمال، إذا سألنا الله النصرة نأتي بصفات الجلال، وهكذا فيما يتناسب، وهناك تفصيلات أيضاً لهذا الأمر. ٣

وأعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: عن دعائي، فدل على أن الدعاء عبادة.

فمثلاً الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها.

والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله عز وجل بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى.

مثلاً: يا حي، يا قيوم أغفر لي وأرحمني، وقال ﷺ: ((فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم))[١]، والإنسان إذا دعا وعلل، فقد أثني على ربه بهذا الاسم طالباً أن يكون سبباً للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة، فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة. ٥

---

[١] البخاري: كتاب الأذان/ باب الدعاء قبل السلام، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب استجباب خفض الصوت بالذكر.

المقصود أن قوله جل وعلا ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يعني اسألوه بها أو أعبدوه وأثنوا عليه بها جل وعلا، فيشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

والباء في قوله (بِهَا) يعني متوسلين بها، هي باء الوسيلة. ٣

تنبيه:

لا ينبغي دعاء صفات الله، فلا يقال: يا وجه الله، أو يا علم الله افعل كذا. وإنما يدعى الله بأسمائه وصفاته، فيقال: يا رحمن. فالصفات يتوسل بها ولا تُدعى، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على هذا.

ويتوسل بها فيقول: أسألك بعفوك ورحمتك و أعوذ برضاك من سخطك.... إلخ. ٦

ثم قال: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ﴿وَذَرُوا﴾ يعني: اترُكوا.

والإلحاد في اللغة: المَيْل عن الشيء، ومنه سُمي اللحد في القبر لحداً لأنّه مائل عن سَمْت القبر.

أما الإلحاد في أسماء الله :فذكروا له عدّة معانٍ: ٤

النوع الأول: إنكار الأسماء والصفات، أو إنكار بعض ذلك، كما فعلت الجهمية الغلاة فإنهم لا يؤمنون باسم من أسماء الله ولا بصفة من صفات الله إلا الوجود والموجود. ٣ وهذا أعظم الإلحاد فيها، فالذي يقول: "إن الله ليس له أسماء، لأنّ الأسماء موجودة في المخلوقين، فإذا أثبتناها صار تشبيهاً". فهذا جاحدٌ لأسماء الله، ملحِدٌ فيها -والعياذُ بالله- أعظم الإلحاد، وهذا كُفرٌ بالله عزّ وجلّ. ٤

أن ينكر شيئاً من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحاداً أنه مال بها عما يجب لها، إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام. ٥

النوع الثاني: تأويلُها عما دلّت عليه، كما فعلت المعتزلة فإنهم يُثبتون الأسماء ولكنّهم ينفون معانيها وما تدل عليه من الصّفات، لأنّ هذه الأسماء كلُّ اسم منها يدلّ على صفة؛ (الرحمن) يدلّ على الرحمة، (الغفور) يدلّ على المغفرة، (العزيز) يدلّ على العزّة والقوة والمَنَعة والغَلَبة، وهكذا، كلُّ اسم يُشتَقُّ منه صفة من صفات الله تعالى: (السميع يدلّ على

السمع، (البصير) يدلّ على البصر، (العليم) يدلّ على العلم، (القدير) يدلّ على القدرة، وهكذا، كلُّ اسم منها يدلُّ على صفة. فالذي لا يُثْبِتُ الصّفات مُلحدٌ في أسماء الله، لأنّه جحد معانيها، وجعلها ألفاظاً مجرَّدة لا تدلّ على شيء.

والواجب الإيمان بالأسماء والصفات، وإثبات الأسماء والصفات، واعتقاد ما دلت عليه، وترك التعرض لها بتأويل ونحوه، وهذا قاعدة السلف؛ فنؤمن بها ولا نصرفها عن حقائقها بتأويل أو بمجاز أو نحو ذلك، كما فعل المعتزلة وفعلته الأشاعرة والماتريدية وطوائف. ٣

النوع الثالث: تسمية المخلوقين بأسماء الله، مثل ما فعل المشركون من تسمية اللات من اسم الإله، والعُزّى من اسم العزيز، فجعلوا أسماء الله أسماءً لمعبودات المشركين، وهذا من الإلحاد في أسماء الله سبحانه وتعالى. ٤

أن يشتق من هذه الأسماء للأصنام، كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان حتى يلقوا عليها شيئاً من الألوهية ليبرروا ما هم عليه. ٥

النوع الرابع: أن يدخل فيها ما ليس منها. ٤

أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه، كقوله الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله.

وبعضهم يسميه العقل الفعال، فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أباً وهذا إلحاد. ٥

ومن الإلحاد في أسماء الله أن يجعل لله جل وعلا ولد، وأن يضاف المخلوق إليه إضافة الولد إلى والده، كحال النصارى ذا نوع من الإلحاد في أسماء الله جل وعلا وفي صفاته. ٣

خامساً: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء، فيلزم أن تتفق المسميات، ويكن الله سبحانه وتعالى مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات. ٥

"تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابله إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه."[1] ١

ووجه الإلحاد: أن أسماء دالة على معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق. ٥

سادساً: "وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم :إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته"[2]. ١

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشـ ـراك والتعطيل والنكران

وقال رحمه الله: "فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها. حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً. وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا."[3] انتهى. ٢

"وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الاسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئاً من

---

[1] بدائع الفوائد (١/٢٩٧-٢٩٩- عالم الفوائد)

[2] بدائع الفوائد (١/٢٩٧-٢٩٩- عالم الفوائد)

[3] بدائع الفوائد (١/١٦٩)

التشبيه، وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً.

وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من ﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور :٣٥]".[1] ١

فدلّ على أنّ الذي يُنكر أسماء الله، أو يؤوّلها بغير معانيها الصحيحة، أو يدخل فيها ما ليس منها أو يحرّفها إلى مسمّيات الأصنام؛ أنّه ملحدٌ متوعَّدٌ بأشدّ الوعيد. ٤

وإذا تقرر ذلك فيكون الإلحاد -إذن- منه ما هو كفر ومنه ما هو بدعة بحسب الحال الذي ذكرنا.

التأويل وادعاء المجاز في الأسماء والصفات هذه بدع وإلحاد لا يصل بأصحابه إلى الكفر، أما نفي وإنكار وجحد الأسماء والصفات كحال الجهمية فهذا كفر، وهكذا فعل النصارى ومشركي العرب. ٣

﴿وَذَرُوا﴾

والمعنى ذروهم، أي: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم، إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله ﴿ذَرُوا﴾ تهديداً للملحدين. ٤

وهذا يعني أن المسلم واجب عليه أن يبتعد عن حال الذين يلحدون في أسماء الله جل وعلا، والإلحاد في أسماء الله هو الميل والعدول بها عن حقائقها إلى ما لا يليق بالله جل وعلا. ٣

---

[1] بدائع الفوائد (١/٢٩٧-٢٩٩- عالم الفوائد)

ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهو الإلحاد، أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تماماً، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله. ٥

قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل يجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد. ٥

وأعلم أن التعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه، لوجوه ثلاثة:

١- أنه هو الذي نفاه الله في القرآن، فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشوري : ١١].

٢- أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراك في المعنى من بعض الوجوه.

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركاً في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق في أصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣- أن الناس اختلفوا في معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً، فيكون معنى بلا تشبيه، أي: بلا إثبات صفات على اصطلاحهم. ٥

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: "﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾: يشركون."

هذا الأثر لم يروه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، إنما رواه عن قتادة[1]. ١

ثم ذكر عن ابن أبي حاتم رحمه الله، عن ابن عبّاس: "﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يُشركون " أي: يُشركون في أسماء الله. ٤

---

[1] رواه عبدالرزاق في تفسيره (٢/٢٤٤)، وابن جرير في تفسيره (٩/١٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/١٦٢٣) عن قتادة، وإسناده صحيح.

أي: يشركون غيره في أسمائه كتسميتهم الصنم إلهاً، ويحتمل أن المراد الشرك في العبادة، لأن أسماءه تعالى تدل على التوحيد، فالإشراك بغيره إلحاد في معاني أسمائه سبحانه وتعالى لا سيما مع الإقرار بها، كما كانوا يقرون بالله ويعبدون غيره، فهذا الاسم وحده أعظم الأدلة على التوحيد، فمن عبد غيره؛ فقد ألحد في هذا الاسم، وعلى هذا بقية الأسماء. ١

قول ابن عباس: "يشركون". تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها في جهتين:

١- أن يجعلوها دالة على المماثلة.

٢- أو يشتقوا منها أسماء للأصنام، كما في الرواية الثانية عن ابن عباس التي ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة على المماثلة، فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه، فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله عز وجل. ٥

وعنه: "سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز." [١]

وقوله: "وعنه". أي: ابن عباس.

قوله: "سموا اللات من الإله" وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام.٥

"سَمُّوا اللاّت من الإله، والعُزّى من العزيز" أي: أنهم سمّوا الأصنام الكبار المعروفة عند العرب (اللات) و (العُزّى) اشتقّوا لها من أسماء الله. ٤

وعن الأعمش: "يدخلون فيها ما ليس منها."

"وعن الأعمش" هو: سُليمان بن مَهْران، الإمام الجليل في الحديث والفقه والتفسير. ٤

[١] رواه ابن جرير في تفسيره (١٣٣/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٣/٥) بسند مسلسل بالعوفيين عن ابن عباس. وإسناده ضعيف جداً. وروى ابن جرير في تفسيره (١٣٣/٩) بسند صحيح عن مجاهد: ﴿وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾ قال: "اشتقوا العزى من العزيز، و اشتقوا اللات من الله".

هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد، لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع. ٥

لأنّ القاعدة في أسماء الله: أن لا يُسمّى إلاّ بما سمّى به نفسَه، أو سمّاه به رسولُه ﷺ، فما لم يسمِّ الله به نفسَه ولم يسمِّه به رسولُه ﷺ فلا يجوز أن يُطلَق على الله، لكن المشركون سمّوا الله بما لم يسمِّ به نفسَه، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، كما سمّت النصارى الله عزّ وجلّ بالأَبْ. ٤

فمن أدخل اسماً لم يثبت في الكتاب والسنة أنه من أسماء الله فقد ألحد؛ لأنه مال وعدل عن الحق الذي يجب في الأسماء والصفات إلى غيره، والحق هو أن تُثبِت لله ما أثبته لنفسه إذْ لا أحد أعلم بالله من الله جل جلاله وتعاظم شأنه، وكذلك لا أحد أعلم من الخلق بالله جل وعلا من رسوله محمد ﷺ، فمن أدخل فيها ما ليس منها فقد ألحد، كمن قال في أسماء الله الماكر والمستهزئ والصانع وجعل ذلك من الأسماء الحسنى فإن ذلك لا يجوز، وإطلاق هذه الأسماء على الله جل وعلا لا يجوز، ومنها ما يجوز بتقييد في باب الإخبار.

ومباحث هذا الباب طويلة لاتصالها بالأسماء والصفات، وهي معروفة في مبحث توحيد الأسماء والصفات. ٣

فهذه الآية الكريمة وما جاء في تفسيرها عن ابن عبّاس وعن الأعمش تدلّ على مسائل:

المسألة الأولى: بيان التوسُّل المشروع، وهو التوسُّل بأسماء الله وصفاته.

المسألة الثانية: بيان التوسُّل الممنوع، وهو التوسُّل إلى الله بجعل واسطة في الدعاء بين الداعي وبين الله عزّ وجلّ، كأنه يقول: أسألُك بنبيِّك، أو بجاه نبيِّك، أو بمنزلة نبيِّك، أو ما أشبه ذلك.

المسألة الثالثة: فيه إثبات الأسماء الله سبحانه وتعالى.

المسألة الرابعة: أن أسماء الله كلها حسنى، قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، فليس فيها اسمٌ غير حسن.

المسألة الخامسة: فيه: النّهي عن الإلحاد في أسماء الله عزّ وجلّ.

المسألة السادسة: أن أسماء الله توقيفيّة، لا يجوز أن يُذكر فيها ما ليس ثابتاً في كتاب الله ولا سنّة رسوله ﷺ، لأنّ هذا من الإلحاد في أسماء الله، كما قال الأعمش: "يدخلون فيها ما ليس منها". ٤

تتمة:

جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد في آيات الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ في آياتنا لا يَخْفَوْنَ علينا﴾ [فصلت:٤٠]، فقوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ علينا﴾ فيها تهديد، لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بإنَّ.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١- آيات كونية: وهي كل المخلوقات من السماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

فواعجباً كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١. اعتقاد أن أحداً سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

٢. اعتقاد أن أحداً مشارك لله فيها.

٣. اعتقاد أن لله فيها معيناً في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الذين زعمتهم من دون الله لا يملكون مِثْقَال ذرةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ وما لهم فيهِمِا مِنْ شِرْكٍ وما له منهم من ظهير﴾ [سبأ: ٢٢]، ظهير، أي: معين.

وكل ما يخل بتوحيد الربوبية، فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢- آيات شرعية، وهو ما جاء به الرسل من الوحي كالقرآن، قال تعالى: ﴿بَلْ هو آياتٌ بَيِّناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١. تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢. مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام. ٥

وإلحاد ناقص: وهو يقع من بعض المسلمين في عدم انقيادهم إلى الحق على التمام والكمال، فيكون لهم نوع إلحاد، وهو ميل عن الحق، فيفوتهم من الإيمان، ويفوتهم من الإسلام بقدر ما عندهم من الإلحاد.

فالواجب على المؤمن أن يكون منقاداً للحق ثابتاً عليه متصفاً به ملتزماً به حتى لا يزيغ عنه يميناً ولا شمالًا. ٦

٣. التحريف في الإخبار والأحكام.

والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام.

ومنه ما يكون كفراً، كتكذيبها، فمن كذب شيئاً مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبرا به، فهو كافر. ٥

فمن كذب الله أو عبد معه غيره فقد ألحد إلحادًا يجعله من الكافرين، وهكذا من نفى صفات الله وأسمائه كالجهمية ونحوهم ألحد إلحاداً يلحقه بالكافرين عند أهل السنة والجماعة، ومن ألحد في بعض الشيء فأول بعض الصفات فهذا له نصيب من الباطل وعليه وزره في ذلك، ولكن لا يخرجه ذلك عن دائرة الإسلام، بل هو مسلم عنده نقص بسبب ما تأوله من بعض الصفات. ٦

ومنه ما يكون معصية من الكبائر، كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغائر، كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالى في الحرم: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فيه بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عذابٍ أليم﴾ [الحج: ٢٥]، فسمي الله المعاصي والظلم إلحاداً، لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان، إذ الواجب عليه السير على صراط الله تعالى، ومن خالف، فقد ألحد. ٥

فيه مسائل:
الأولى: إثبات الأسماء.
الثانية: كونها حسنى.
الثالثة: الأمر بدعائه بها.
الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.
الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.
السادسة: وعيد من ألحد.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء. يعني لله تعالى، وتؤخذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾، وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حصر لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء.

وأنكر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالى. ٥

الثانية: كونها حسنى. أي بلغت في الحسن أكمله، لأن "حسنى" مؤنث أحسن، وهي أسم تفضيل. ٥

الثالثة: الأمر بدعائه بها. والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة وكلاهما مأمور فيه أن يدعي الله بهذه الأسماء الحسنى، وسبق تفصيل ذلك. ٥

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين. أي: ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نبين لهم، والآية تتضمن أيضاً التهديد. ٥

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها. وقد سبق بيان أنواعه. ٥

السادسة: وعيد من ألحد. وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ٥

[الأسئلة]

س/ نرى عبارة مكتوبة على بعض السيارات: يا رضى الله ورضى الوالدين.

ج/ قوله (يا رضى الله ورضى الوالدين) فيها غلط من جهتين:

الجهة الأولى: أنه نادى رضى الله، ومناداة صفات الله جل وعلا بـ(يا) النداء لا تجوز؛ لأن الصفة في هذا المقام غير الذات في مقام النداء؛ ولهذا إنما ينادى الله جل وعلا المتصف بالصفات، وقد نصّ شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على البكري، وغيرُهُ من أهل العلم على أن مناداة الصفة محرم بالإجماع، فإذا كانت الصفة هي الكلمة -كلمة الله جل وعلا- كان كفراً بالإجماع؛ لأن من نادي الكلمة يعني بها عيسي عليه السلام فيكون تإليها لغير الله - جل وعلا، ورضى الله جل وعلا صفة من صفاته، فلا يجوز نداء الصفة.

والمؤاخذة الثانية: في تلك الكلمة أنه جعل رضى الوالدين مقروناً برضى الله جل وعلا بالواو، والأنسب هنا أن يكون العطف بـ(ثُمّ)، يقول: مثلاً أسأل الله رضاه ثم رضى الوالدين، وإن كان استعمال الواو في مثل هذا السياق لا بأس به؛ لأن الله جل وعلا قال ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤]، وقال جل وعلا ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣] ولأن الواو هنا تقتضي تشريكا في أصل الرضى، وهذا الرضى يمكن أن يكون من الوالدين أيضاً، فيكون التشريك بأصل المعنى لا المرتبة، نعم. ٣

(بَابُ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ)

(بَابُ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ)

فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنّا إذا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانَ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

((لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ)).

مناسبة هذا الباب الكتاب التّوحيد: أنّه لَمّا كان السلام من أسماء الله سبحانه وتعالى فإنّه لا يقال: "السلامُ على الله" لأنّه هو السلام سبحانه وتعالى.

وأيضاً: لَمّا كان معنى السلام الدعاء للمسلَّم عليه بالسّلامة من الآفات، والله جل وعلا منزّه عن أن ينالَه شيءٌ من النقص أو من الآفات أو من المكروهات، فليس بحاجة أن يدعى له سبحانه وتعالى لغِنَاهُ عن كلِّ شيء وحاجة كلِّ شيء إليه سبحانه وتعالى، بل هو المدعو، ولا يُدعى له سبحانه وتعالى، لأنّ الدعاء إنّما يكون للمخلوق المحتاج، أمّا الله جل وعلا فإنّه غنيٌّ لا يحتاج إلى شيء، فمن دعا لله فقد تنقّص الله عزّ وجلّ، وهذا يُخِلُّ بالتّوحيد. ٤

لما كان حقيقة لفظ السلام: السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، فإذا قال المسَلِّمُ: "السلام عليكم" فهو دعاء للمُسَلَّمْ عليه، وطلبٌ له أن يُسْلَمَ من الشرِّ كله، والله هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدْعُوُّ لا المدْعُوَّ له، وهو الغني له ما في السموات وما في الأرض؛ استحال ان يُسَلَّمَ عليه سبحانه وتعالى، بل هو المسَلِّمُ على عباده كما قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل:٥٩]، وقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٨١]، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره، ولا رب سواه. ١

ومناسبة هذا الباب للباب الذي قبله أنّ ترك قول السلام على الله هو من تعظيم الأسماء الحسنى ومن العلم بها؛ ذلك أن السَّلام هو الله جل جلاله والسلام من أسمائه سبحانه وتعالى، فهو المتصف بالسلامة الكاملة من كل نقص وعيب، وهو المنزه والمبعَد عن كل آفة أو نقص أو عيب، فله الكمال المطلق في ذاته وصفاته الذاتية وصفاته الفعلية جل وعلا.

والسلام في أسماء الله معناه أيضاً الذي يعطى السلامة ويجعل السلامة، وأثر هذا الاسم في ملكوت الله أنّ كل سلامة في ملكوت الله من كل شر يؤذي الخلق فإنها من آثار هذا الاسم السلام، فإنه لكون الله جل وعلا هو السلام فإنه يفيض السلامة على العباد.

إذا كان كذلك فالله جل جلاله هو الذي يفيض السلامة، وليس العباد هم الذين يعطون الله السلامة، فإن الله جل وعلا هو الغني عن خلقه، هو الغني بالذات والعباد فقراء بالذات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، فالعبد هو الذي يُعْطَى السلامة والله جل وعلا هو الذي يُسَلِّمْ.

لهذا كان من الأدب الواجب في جناب الربوبية وأسماء الله وصفاته ألا يقال: السلام على الله؛ بل أن يقال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على فلان وعلى فلان، السلام عليك يا فلان ونحو ذلك، فتدعو له بأن يبارك باسم الله السلام أو أن تحل عليه السلامة.

فإذن وجه مناسبة هذا الباب للذي قبله ظاهرة، ومناسبته لكتاب التوحيد أن الأدب مع أسماء الله جل وعلا وصفاته ألا يخاطب بهذا الخطاب، وألا يقال السلام على الله؛ لأن في هذا نقصاً في تحقيق التوحيد، فتحقيق التوحيد الواجب أن لا تُقال هذه الكلمة لأن الله غني عن عباده، والفقراء هم الذين يحتاجون السلامة. ٣

هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفي، وهو محتمل للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك.

والسلام له عدة معان:

١. التحية، كما قال: سلم على فلان، أي: حياه بالسلام.

٢. السلامة من النقص والآفات، كقولنا: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته".

٣. السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]. ٥

و كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر الله ثلاثاً، ويقول: ((اللهم أنت السلام و منك السلام تباركت يا ذا الجلال و الإكرام))[١]. ٨

السلام له معنيان:

١- أي: هو السالم من كل نقص وعيب، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه: في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

٢- المسلِّم لعباده أي: الذي يُعطي السلام. ٦

قوله: "لا يقال السلام على الله". أي: لا تقل: السلام عليكم يا رب، لما يلي:

أ. أن مثل هذا الدعاء يُوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك، إذ لا يعي لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله سبحانه منزه عن صفات النقص.

ب. إذا دعوت الله أن يسلم نفسه، فقد خالفت الحقيقة، لأن الله يدعى ولا يدعى له، فهو غني عنا، لكن يثني عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم....

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة، لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن صفاته عليا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

[١] رواه مسلم (٥٩١)

والمثل الأعلى: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام على الله أوهم ذلك أن الله سبحانه قد يلحقة النقص، وهذا ينافي كمال صفاته.

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة، لأن موضوع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنى لله المتضمنة لصفاته، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها، إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يسلك شيئاً من طرق السفول، فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة.

والرب سبحانه وتعالى يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص.

والسلام اسم ثبوتي سلبي.

فسلبي: أي أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتي: أي يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التي تضمنها وهي السلامة. ٥

في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: ((لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام)).[1]

قال: "في الصحيح" يعني: في "الصحيحين". ٤

عن ابن مسعود ﷺ قال: "كنا مع النبي ﷺ في الصلاة".

[1] البخاري: كتاب الأذان/ باب التشهد في الآخرة، ومسلم: كتاب الصلاة/ باب التشهد في الصلاة.

الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض، لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة، كالاستسقاء. ٥

قوله: "قلنا السلام على الله" أي: يقولون ذلك في التشهد الأخير، كما هو مصرح به في بعض ألفاظ الحديث: "كنا نقول قبل أن يفرض التشهد: السلام على الله، فقال النبي ﷺ: ((إن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله)). ١

قوله: "قلنا: السلام على الله من عباده". أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده، لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنى الدعاء، وله معنيان:

١. اسم السلام عليك، أي: عليك بركاته باسمه.

٢. السلامة من الله عليك، فهو سلام بمعنى تسليم، ككلام بمعنى تكليم.

قوله: "السلام على فلان وفلان". أي: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يكنى بها عن الشخص، وهي مصروفة، لأنها ليست علماً ولا صفة ...

وقد جاء في لفظ آخر: "السلام على جبريل و ميكال"[1] كانوا يقولون هكذا في السلام. ٥

فقال النّبي ﷺ: ((لا تقولوا: السلام على الله، فإنّ الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيَّاتُ لله، والصلوات، والطيِّبات)) إلى آخر الحديث في التشهُّد.

فقولُه: ((لا تقولوا: السلامُ على الله)) هذا نهيٌ منه ﷺ عن هذه الكلمة، والنّهيُ يقتضي التحريم. ٤

وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه عز وجل سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب. ٥

ثم بيَّن ﷺ السبب في هذا النّهي فقال: ((فإن الله هو السلام)) أي: أنّ "السلام" من أسماء الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

---

[1] البخاري: كتاب صفة الصلاة/ باب التشهد في الآخرة.

و"السلامُ "من أسمائه سبحانه وتعالى معناه: السالم من الآفات والعُيوب والنقائص، فالله جل وعلا سالمٌ من الآفات والعُيوب والنقائص لذاتِه سبحانه وتعالى لا أنّ أحداً يسلِّمه، وإنّما هو سالم بذاته سبحانه وتعالى.

وأيضاً: "السلام" هو الذي يُطلَبُ منه السلام، كما كان النّبي ﷺ إذا سلَّم من الصلاة قبل أن ينصرف إلى أصحابه يستغفرُ الله ثلاثاً وهو متوجِّهٌ إلى القبلة، ثم يقول: ((اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام)) ((ومنك السلام)): أنت الذي تمنحُ السلام لعبادِك، وأنت الذي يُطلَب منك السلام، بمعنى: أنّ العباد يسألونك أن تسلِّمهم من الآفات والنقائص والمكاره.

"السلام" من أسماء الله له معنيان كما ذكر أهلُ العلم:

المعنى الأوّل: السالم من النقائص والعيوب.

والثاني: المسلِّم لغيره.

أي :السالم في نفسه، المسلِّم لغيره، سبحانه وتعالى.

فحينما يقول المسلِّم على النّاس: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فمعناه: أنّه يقول: أدعوا لكم بالسَلامة من الله سبحانه وتعالى، أو (السلام عليكم) أي: اسمُ الله عليكم، بمعنى: أن الله يحفظُكم ممّا تكرهون. ٤

قالوها مع كونهم موحدين عالمين بحق الله جل وعلا، قالوها ظناً أنها تحية لا تحوي ذلك المعنى، فجعلوها من باب التحية، والتحية في هذه الشريعة مرتبطة بالمعنى، ف(السلامُ على اللهِ من عِبادهِ) كأنهم قالوا تحية لله من عباده، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً من حيث القصد لكنه ليس صحيحاً من حيث اللفظ؛ لأن هذا اللفظ لا يجوز من جهة أن الله جل وعلا هو السلام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، والعباد مسلَّمون هم الذين سلمهم الله جل وعلا ويفيض عليهم السلام وهم الفقراء المحتاجون، فليسوا هم الذين يعطون الله السلام، فمعنى

(السلامُ على اللهِ) يعني السلامة تكون على الله من عباده، وهذا لا شك أنه باطل، وإساءة في الأدب كما يجب لله جل وعلا في ربوبيته وأسمائه وصفاته، لهذا قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام: ((لا تقولوا السلامُ على اللهِ، فإنّ اللهَ هوَ السلامُ)) نهاهم وهذا النهي للتحريم، ولا يجوز لأحد أن يقول: السلام على الله؛ لأن السلام على الله مُقتضٍ اهتضام جناب الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات. ٣

قال في فتح الباري: "وهذا كله حماية منه ﷺ لجناب التوحيد، حتى يَصْرِفَ لله تعالى ما يستحقه من الأسماء والصفات وأنواع العبادات".[1] ١

إذا كان كذلك فما معنى قولك حين تسلم على أحد: السلام عليك يا فلان، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؟

فهذه تحية المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

قال بعض أهل العلم: إنّ معناها -وهذا هو أحد المعنيين- معنى السلام عليكم يعني كل اسم لله جل وعلا عليكم؛ يعني اسم السلام عليكم، فيكون ذلك تبركا بأسماء الله جل وعلا وصفاته، فاسم السلام عليكم؛ يعني اسم الله عليكم، فيكون ذلك تبركاً بكل الأسماء، ومنها اسم الله جل وعلا السلام.

والثاني: ما قاله آخرون من أهل العلم أن قول القائل السلام عليكم ورحمة الله؛ يعني السلامة التي اشتمل عليها اسم السلام عليكم، نسأل الله أن يفيضها عليكم، أو أن يكون المعنى كل سلامة عليكم منِّي، فإنك لن تجد مني إلا السلامة، وهذا يصدق حين تذكر تقول سلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ يعني كل سلامة مني ستأتيك يعني فلن أخفِرك في عرضك ولن أخفرك في مالك ولن أخفرك في نفسك.

---

[1] فتح الباري (٣٦٤/٢)

وكثير من المسلمين يقول هذه الكلمة وهو لا يعي معناها؛ كيف أنه حين قال لمن أتاه السلام عليكم كأنه عاهده بأنه لن يأتيه منه إلا السلامة ثم هو يخفر هذه الذمة وربما أضره أو تناول عرضه أو تناول ماله أو نحو ذلك.

فهذا فيه التنبيه على فائدة مهمة وهو أن طالب العلم بالخصوص؛ بل عاقل بعامة إذا نطق بكلام لا بد أن يتبين ما معنى هذا الكلام، فكونه يستعمل كلاماً لا يعي معناه هذا من العيب وليس من أخلاق الرجال أصلاً؛ أن يتكلمون بكلام ولا يعون معناه، فيأتي بكلام ثم ينقضه في فعله وفي قوله، هذا ليس من أفعال الذين يعقلون، فضلاً عن أن يكون من أفعال أهل العلم أو طلبة العلم الذين يعون عن الله جل وعلا شرعه ودينه.

فإذاً صار هنا قولان، وكلا القولين صواب، فإن قول القائل السلام عليكم يشمل الأول والثاني، فتبرك بكل اسم من أسماء الله وتبرك باسم الله السلام الذي من آثاره السلامة عليك في دينك ودنياك فهو دعاء لك بالسلامة في الدين وفي الدنيا في الأعضاء وفي الصفات والجوارح إلى آخر ذلك، أو أن تكون بالمعنى الثاني كل منهما صحيح. ٣

اختلف العلماء في معنى السلام المطلوب عند التحية على قولين:

أحدهما: أن المعنى: اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله –عز وجل–، ومعنى الكلام: نزلت بركة اسم ((السلام)) عليكم، وحلت عليكم فاختير في هذا المعنى من أسمائه اسم ((السلام)) دون غيره، ويدل عليه قوله في آخر الحديث: ((قوله فإن الله هو السلام)) فهذا صريح في كون السلام اسماً من أسمائه، فإذا قال المسلم: السلام عليكم؛ كان معناه: اسم السلام عليكم، يدل عليه ما رواه أبو داود، عن ابن عمر: "أن رجلا سلم على النبي ﷺ،

فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم، ورد عليه، وقال: ((إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر))[1] ففي هذا بيان أن السلام ذكر لله وإنما يكون ذكراً إذا تضمنت اسماً من أسمائه.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، لأنه يُنَكَّرُ بلا ألف ولام، فيجوز ان يقول المسَلِّمُ: سلام عليكم، ولو كان اسما من أسمائه تعالى لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه مُعَرَّفاً كما يطلق على سائر أسمائه الحسنى فيقال: السلام، المؤمن، المهيمن، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين، فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده، بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.

ويدل على ذلك عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: (سلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ولأنه لو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستقم الكلام إلاباإضمارٍ، وذلك خلاف الأصل، ولا دليل عليه.

ولأنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال ابن القيم: "والصواب في مجموعهما -أي القولين- وذلك أن من دعا الله بأسمائه الحسنى يسأل في كل مطلوب، ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى كأن الداعي مستشفع إليه، متوسل به، فإذا قال: "رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم الغفور" فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه، وهذا كثير جداً.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى، وهو السلام الذي تُطْلَب منه السلامة.

---

[1] رواه الطيالسي في مسنده (رقم١٨٥١)، وأبو داود في سننه (رقم ٣٣٠)، والنسائي في سننه (١/٣٥-٣٦). وفيه: محمد بن ثابت العبدي شيخ الطيالسي هو ضعيف. وهو حديث حسن فإن له شاهداً من حديث المهاجر بن قنفذ؛ رواه أبو داود في سننه (رقم١٧). وغيرهم وإسناده صحيح.[محقق١]

فتضمن لفظ السلام معنيين:

أحدهما: ذكر الله تعالى، كما في حديث ابن عمر.

والثاني: طلب السلامة وهو المقصود من المسَلِّمِ، فقد تضمن (سلام عليكم) اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه." انتهى ملخصاً[1].١

فهذا الحديث فيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه لا يُقال: "السلام على الله" من عبادِه، لأنّ هذا معناه: الدعاء، والله جل وعلا لا يدعى له.

المسألة الثانية: في الحديث بيان الحكمة في النّهي عن أنْ يقال: "السلام على الله" لأنّ الله جل وعلا هو السلام، يعني: وإذا كان هو السلام فليس بحاجة إلى أن يسلَّم عليه.

المسألة الثالثة: أنّ مَن نهى عن شيء فإنّه يبيِّن السبب في هذا النّهي، لأنّ النّبي ﷺ لَمّا نهى بقوله: ((لا تقولوا: السلام على الله)) بيّن المعنى الذي من أجلِه نهى عنه فقال: ((إن الله هو السلام))، ففيه :بيان الحكم بعِلَّته، لأنّ هذا أثبت في ذِهْنِ السامع وأدعى للامتثال.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على أنّ مَن نهى عن شيء وكان لهذا الشيء بديلٌ صالح فإنه يأتي بالبديل، لأنّ النّبي ﷺ لَمّا نهى عن هذه الصِّيغة أتى بالصيغة اللائقة فقال: ((قولوا: التحيّات)) إلى آخره، ففيه: أنّ مَن نهى عن شيء وله بديلٌ صالح فإنّه يأتي بالبديل، ولا يترُك الشخص لا يدري ماذا يفعل.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على أن الله جل وعلا يحيّي ولا يسلَّم عليه، لأن التحيّة تعظيم له والسلام دعاء له، والله جلّ وعلا يعظَّم ولا يُدعى له.

[1] بدائع الفوائد (٢/٦١٠-٦١٦)

المسألة السادسة: في الحديث دليل: على الفرق بين التحيّة والسلام: التحيّة تُقال في حقّ الله تعالى التحيات لله، وأمّا السلام فلا يقال في حق الله، وقد عرفنا الفرق: أن التحيّة تعظيم، والله مستحقٌّ للتعظيم، وأمّا السلام فإنّه دعاء والله ليس بحاجة إلى الدعاء. ٤

وفيه دليل على جواز السلام على الملائكة، لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: "عليه السلام"[١]. ٥

ويستفاد من الحديث: أنه لايجوز الإقرار على المحرم، لقوله: ((لا تقولوا: السلام على الله))، وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ٥

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

[١] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضل عائشة، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضل عائشة.

فبالنسبة كونه اسماً من أسماء معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف، أي: اسم السلام عليك، أي: اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعني التسليم اسم مصدر كالكلام بمعني التكليم، أي: تخبر خبراً يراد به الدعاء، أي: أسأل الله أن يسلمك تسليماً. ٥

الثانية: أنه تحية. وسبق ذلك. ٥

الثالثة: أنها لا تصلح لله. وإذا كانت لا تصلح له كانت حراماً. ٥

الرابعة: العلة في ذلك.. وهي أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها. ٥

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

وتؤخذ من تكملة الحديث: ((فإذا صلى أحدكم، فليقل: التحيات لله...))، وفيه حسن تعليم الرسول ﷺ من وجهين:

الأول: أنه حينما نهاهم علل النهي.

وفي ذلك فوائد:

١. طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

٢. بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة، لأن العلة حكمة.

٣. القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة.

الثاني: أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يباح لهم، فيؤخذ منه أنه المتكلم إذا ذكر ما ينهي عنه فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها. ٥

(بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ)

(بَابُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ)

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَة، فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ)). وَلِمُسْلِمٍ: ((وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)).

هذا الباب من جنس الباب الذي قبله، لأنّ الذي يدعو الله تعالى يجب أن يعزم الدعاء، ولا يعلِّقه بالمشيئة، لأنّه إذا علّقه بالمشيئة تضمّن ذلك أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ هذا يدلّ على فُتوره في طلب الدعاء من الله سبحانه وتعالى، كأنّه غنيّ عن الله، يقول: إن حصل شيء وإلاَّ ما هو بلازم، فكأنّه فاترٌ في طلبه، وكأنّه غنيّ عن الله سبحانه وتعالى. ٤

حقيقة التوحيد أن يوحِّد العبد ربَّه جل وعلا بتمام الذل والخضوع والمحبة وأن يتضرع إلى الله جل وعلا ويتذلل إليه في إظهار فقره التام إليه وأنّ الله جل وعلا هو الغني عما سواه.

وقول القائل (اللهم اغفر لي إن شئت)، يفهم منه أنه مستغن عن أن يغفر له كما يأتي العزيز أو المتكبر من الناس فيقول للآخر لا يريد أن يتذلل له فيقول افعل هذا إن شئت يعني إن فعلت ذلك فحسن وإن لم تفعل فلست بملحٍّ عليك ولست بذي إكرام فهو مناف، هذا القول مناف لحاجة الذي قالها إلى آخر، ولهذا كان فيها عدم تحقيق للتوحيد، ومنافاة لما يجب على العبد في جناب ربوبية الله جل وعلا أن يظهر فاقته وحاجته لربه، وأنه لا غنى به عن مغفرة الله وعن غنى الله وعن عفوه وكرمه وإفضاله ونِعمه طرفة عين.

فقول القائل (اللهم اغفر لي إن شئت) كأنه يقول: لست محتاجاً، إن شئت فاغفر، وإن لم تشأ فلست بمحتاج. وهذا فعل أهل التكبر وأهل الإعراض عن الله جل وعلا ولهذا حرم هذا اللفظ وهو أن يقول أحد: اللهم اغفر لي إن شئت. ٣

ولا شكّ أن العبد مفتقرٌ إلى الله جل وعلا في كلّ أحواله، لأنّه فقيرٌ إلى الله، ولا ينظُر إلى ما عنده من الأسباب ومن الإمكانيّات، فإنّ هذه الإمكانيّات يمكن أن تزول في لحظة، لا ينظُر إليها ولا يعتمد عليها، فهو فقيرٌ إلى الله مهما كان، ولو كان من أكثر النّاس مالاً وأولاداً ومُلكاً فهو فقيرٌ إلى الله في أن يُبقيَ عليه هذه النعمة وأن ينفعه بها، وإلاَّ فهي عُرضة للزوال في أسرع وقت. هذا معنى.

والأمر الثاني: كأنّه يرى بأن الله جل وعلا قد يُجيب الدعاء وهو كاره، ف "إنْ شئتَ"؛ معناه: أنا لستُ ملزماً لك، أخشى أن يشقّ عليك، لكن إنّ شئتَ اغفر لي وارحمني، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى لأنه تنقص له. والله جل وعلا لا مُكْره له، وهذا المعنى عليه قوله ﷺ: ((فإن الله لا مكره له)). ٤

أراد المؤلف بهذا أن من كمال الإيمان وكمال التوحيد العزم على المسألة وعدم التردد، وأن المؤمن إذا دعا ربه يعزم ولا يتردد، فإن جوده عظيم، وهو الغني الحميد، فلا يليق بالمؤمن أن يستثني، إنما يستثني إذا طلب المخلوق الذي قد يعجز فيقول: أعطني كذا إن شئت أو إن استطعت، هذا في حق المخلوق.

أما الرب جل وعلا فهو الغني الكامل، والقادر على كل شيء، فلا يليق بالفقير –العبد الفقير– أن يستثني في سؤاله فيقول: اللهم اغفر لي إن شئت، أو اللهم أدخلني الجنة إن شئت، كأنه غير محتاج، كأنه ليس بمضطر إلى هذا المسؤول، ولكن يعزم المسألة وليجزم. ٦

عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

قوله: "اللهم". معناه: يا الله، لكن لكثرة الاستعمال حذفت يا للنداء وعوض عنها الميم، وجعل العوض في الآخر تيمناً بالابتداء بذكر الله.

قوله: "اغفر لي". المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه، لأنها مشتقة من المِغْفَرْ، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واق، ويدل له قول الله عز وجل للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة: ((قد سترها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)) [1].

قوله: "إن شئت". أي: أن شئت أن تغفر لي فاغفر، وإن شئت فلا تغفر. ٥

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له)) [2].

"في الصحيح" أي: في "الصحيحين". ٤

سبق الكلام على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، والمراد هنا الحديث الصحيح، لأن الحديث في "الصحيحين" كليهما. ٥

قوله ﷺ: ((لا يقل أحدكم)). لا ناهية بدليل جزم الفعل بعدها. ٥

((اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له))

علّل النّبي ﷺ هذا النّهي بأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ هذا يدلّ على الفُتور من السائل، والمطلوب من السّائل العزم: ((وليعزم المسألة)).٤

قوله: ((ليعزم المسألة)). اللام للأمر، ومعنى عزم المسألة: أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق. و"المسألة": السؤال، أي: ليعزم في سؤاله فلا يكون متردداً بقوله: إن شئت.٥

---

[1] البخاري: كتاب المظالم/ باب قوله تعالى: ﴿إلا لعنة الله على الظالمين﴾، ومسلم: كتاب التوبة/ باب توبة العاقل.

[2] البخاري: كتاب التوحيد/ باب المشيئة، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب العزم بالدعاء.

قوله ((لِيَعْزِمْ المسألةَ)) يعني ليسأل سؤال عازم، سؤال محتاج، سؤال متذلل، لا سؤال مستغنٍ مستكبر، فليعزم المسألة وليسأل سؤال جاد محتاج متذلل فقير يحتاج إلى أن يعطى ذلك، والذي سأل؛ سأل أعظم المسائل وهي المغفرة والرحمة من الله جل وعلا، فيجب عليه أن يعظم هذه المسألة ويعظم الرغبة وأن يعزم المسألة فإن الله لا مكره له، فالله جل وعلا لا أحد يكرهه لتمام غناه وتمام عزته وقهره وجبروته وتمام كونه مقيتاً سبحانه وتعالى، وهذا من آثار الأسماء والصفات. ٣

قال القرطبي: "إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة التهمم بالمطلوب. وكأن هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل والا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة اكتراثه بذنوبه وبرحمة ربه.

وأيضاً فإنه لا يكون موقناً بالإجابة. وقد قال عليه السلام: ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وأعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل)).[1]"[2]. ١

((فإن الله لا مكره له))

الأمر الثّاني: أنّ هذا يُشعر بأنّ السائل يخاف أنّ الله يفعل هذا وهو كارهٌ من باب المجامَلة، والله جل وعلا لا مُكْرِهَ له، يفعل ما يشاء ويختار سبحانه، لا أحد يُكرهه أو يؤثّر عليه، أو أنّه يجامِل أحداً، أو يخافُ من أحد. ٤

---

[1] رواه الترمذي، وابن أبي حاتم، والطبراني في الدعاء، وابن حبان في المجروحين، وابن عدي في الكامل، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، والخطيب. وغيرهم من حديث أبي هريرة، وفي سنده صالح بن بشير المري؛ وهو ضعيف كما في التقريب (ص/٢٧١)، وله شاهد من حديث عبدالله بن عمرو رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٧/٢) وفي سنده: ابن لهيعة وفيه ضعف، فالحديث حسن، وقد حسنه المنذري في الرتغيب والترهيب (٣٢٢/٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٨/١٠)، والألباني في صحيح الترغيب (رقم ١٦٥٣).

[2] المفهم (٢٩/٧-٣٠).

قوله: ((فإن الله لا مكره له)). تعليل للنهي عن قول: ((اللهم أغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت))، أي: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله، لأن الأمر كله لله وحده. ٥

((فإن الله لا مُكره له))[١] بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره. فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام [يقول: كن فيكون]. وفي الحديث: ((يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّه لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقِسْطُ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ))[٢] يعطي تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهو الحكيم الخبير. فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئاً عن كراهة، ولا يمنعه عن عظم مسألة. ٢

وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبدُهُ لوقته المقدر، أو ليعطيَهُ أكثر. فتبارك الله رب العالمين. ٢

ولمسلم: ((وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه))[٣].

وفي رواية لمسلم: ((وليعظِّم الرغبة)) مثل: ((وليعزم المسألة)) يعني: يلحّ على الله في الدعاء. ٤

((وليعظم الرغبة...)) أي: في سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانا.

---

[١] البخاري التوحيد (٧٠٣٩)، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٩) الترمذي الدعوات (٣٤٩٧)، أبو داود الصلاة (١٤٨٣)، ابن ماجه الدعاء (٣٨٥٤)، أحمد (٣١٨/٢)، مالك النداء للصلاة (٤٩٤).

[٢] البخاري تفسير القرآن (٤٤٠٧)، مسلم الزكاة (٩٩٣)، الترمذي تفسير القرآن (٣٠٤٥)، ابن ماجه المقدمة (١٩٧)، أحمد (٣١٣/٢).

[٣] مسلم: كتاب الذكر /باب العزم بالدعاء.

فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه، أي: ليس شيء عنده يعظم، وإن عظم في نفس المخلوق؛ لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس: ٨٢] فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولا رب سواه. ٢

قال بعضهم: والرغبة يعني: الطلبة والحاجة التي يريد.

وقيل: السؤال والطلب، (تعظيم على هذا بالإلحاح)، والأول أظهر أي لسعة جوده وكرمه، لا يعظم عليه إعطاء شيء، بل جميع الموجودات في أمره يسير، وهو على كل شيء قدير، ولهذا أمر عباده بسؤاله الجنة و الفردوس الأعلى، كما قال النبي ﷺ: ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى))[1]، بل أمر الله بسؤاله رضاه، وهو أكبر من ذلك، وهذا هو غاية المطالب، فالاقتصار على الداني في المسألة إساءة ظن بجوده وكرمه. ١

((فإنّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)) يعطي سبحانه وتعالى ما يشاء ما لا يعلمُه إلاّ هو، بلا حصر ولا حساب، ولا تنفد خزائنُه سبحانه، بخلاف المخلوق فإنّه قد يعطي العطاء ولكن هذه العطيّة تكون ثقيلةً عليه وتُجحف بماله، قد يكون معسِراً ليس عنده شيء.

أمّا الله جل وعلا فإنّه غنيّ لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه، ولذلك: يعطي الجنّة التي هي غاية المطالب، ويعطي الدنيا والآخرة سبحانه وتعالى، يعطي بلا حساب، ولا تنفد خزائنه، كما في الحديث القدسي: ((يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلّ واحدٍ ما سألني ما نقص ذلك ممّا عندي إلاّ كما ينقُص المِخْيَط إذا أُدخل البحر، ذلك بأنِّي جواد واجد ماجد عطائي كلام وعقابي كلام، أفعلُ ما أشاء))، هذا شأنه سبحانه وتعالى. ٤

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم٢٦٣٧) وليس عنده: ((الفردوس الأعلى)) بل: ((فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة....)).

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يُشعر بأن الله له مكره على الشيء وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه، فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر.

الثاني: أن قول القائل: "إن شئت" كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشابه لكونه عظيماً عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة، أعطني مليون ريال إن شئت، فإنك إذا قلت له ذلك، ربما يكون الشيء عظيماً يتثاقله، فقولك: إن شئت، لأجل أن تهون عليه المسألة، فالله عز وجل لا يحتاج أن تقول له: إن شئت، لأنه سبحانه وتعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)).

قوله: ((وليعظم الرغبة))، أي: ليسأل ما شاء من قليل وكثير ولا يقل: هذا كثير لا أسال الله إياه، ولهذا قال: ((فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه))، أي: لا يكون الشيء عظيماً عنده حتى يمنعه ويبخل به سبحانه وتعالى كل شيء يعطيه، فإنه ليس عظيماً عنده، فالله عز وجل يبعث الخلق بكلمة واحدة، وهذا أمر عظيم، لكنه يسير عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلْتُم وذلك على الله يسير﴾ [التغابن: ٧] وليس بعظيم، فكل ما يعطيه الله عز وجل لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه، أي: لا يكون الشيء عظيماً عنده حتى لا يعطيه، بل كل شيء عنده هين.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل لا يهمني، ولهذا قال: ((وليعظم الرغبة))، أي: يسأل برغبة عظيمة، والتعليق ينافي ذلك، لأن المعلق للشيءِ المطلوب يشعر تعليقه بأن مستغن عنه، والإنسان ينبغي أن يدعوا الله تعالى وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الأفتقار، وأن الله قادر على أن يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذا من آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم إغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم وفقني، وما أشبه ذلك، وهل يجزم بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائداً إلى قدرة الله، فهذا يجب أن يجزم بأن الله قادر على ذلك، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع، أو عدم توافر الأسباب، فإنك قد تتردد في الإجابة، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله، لأن الله عز وجل قال ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فالذي وفقك لدعائه أولاً سيمن عليك بالإجابة آخراً، لا سيما إذا أتي الإنسان بأسباب الإجابة وتجنب الموانع، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء، كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم.

ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعاً أو قدراً:

فشرعاً كأن يقول: اللهم اجعلني نبياً.

وقدراً بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين النقيضين، وهذا أمر لا يمكن، فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته، وهو محرم، لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهو أشبه ما يكون بالاستهزاء بالله سبحانه. ٥

لهذا لا يجوز في الدعاء أن يواجه العبد ربه بهذا القول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت.

وهذا واضح ظاهر في الدعاء الذي فيه المخاطبة كهذا الخطاب، اللهم اغفر لي إن شئت، هو يخاطب الله جل وعلا فيقول ذلك.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا يتقيد بالدعاء الذي فيه خطاب، أما الدعاء الذي ليس فيه خطاب فيكون التعليق بالمشيئة ليس تعليقا لأجل عدم الحاجة أو منبئا لعدم الحاجة - كهذا الدعاء- بل هو للتبرك، كمن يقول: رحمه الله إن شاء الله، أو غفر الله له إن شاء الله، أو الله يعطيه من المال كذا وكذا إن شاء الله ونحو ذلك، فهذا قالوا: لا يدخل في هذا النوع؛ لأنه ليس على وجه الخطاب وليس على وجه الاستغناء.

ولكن الأدب يقتضي أن لا يستعمل هذه العبارة في الدعاء مطلقاً؛ لأنها وإن كانت ليست بمواجهة فإنها داخلة في تعليق الدعاء والمشيئة، والله جل وعلا لا مكره له، فعموم المعنى المستفاد من قوله ((فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكْرِهَ لَهُ)) عموم هذا التعليل يشمل هذه وهذه، فلا شك أن

قول((اللّهُمّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ)) أعظم، ولكن القول الآخر داخل أيضاً في علة النهي ومعنى النهي، ولهذا لا يسوغ استعماله.

وقول النبي عليه الصلاة والسلام لمن عاده كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما قال لمن عاده وقد أصابته الحمى قال ((طهورٌ إن شاء الله)) قال: بل هي حمى تفور... إلى آخر كلامه، هذا قوله عليه الصلاة والسلام ((طهور إن شاء الله)) هذا ليس فيه دعاء وإنما هو من جهة الخبر، قال يكون طهورًا إن شاء الله، فهو ليس بدعاء وإنما هو خبر، فافترق عن أصل المسألة.

قال طائفة أيضاً من أهل العلم من شراح البخاري وقد يكون قوله ((طهور إن شاء الله)) للبركة فيكون ذلك من جهة التبرك، كقوله جل وعلا مخبراً عن قول يوسف ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩]، وهم قد دخلوا مصر، وكقوله جل وعلا ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تخافون﴾ [الفتح:٢٧]. ٣

فعلى المؤمن أن يكون شديد الرغبة فيما عند الله، شديد التعلق بالله، شديد اللجوء إليه والإنكسار، وأن يسأله سؤال الراغب المضطر لا يستثني، وكذلك إذا دعا لإخوانه لا يقول: غفر الله لك إن شاء، أو رحمك إن شاء الله. بل يجزم ولا يقول إن شاء الله ولو تبركاً فلا يستثني أبداً.

ولا يقول: اللهم اغفرلي ما شئت. ٦

س: إذا قال إن شاء الله للتبرك؟

ج: لا يقولها أبداً. ٦

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الأستخارة: ((اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة

أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به))[١]؟ وكذا ما ورد في الحديث المشهور ((اللهم احيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي))[٢].
فالجواب: أنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم، فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي، فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر، لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك، لأن طول البقاء لا يعلم، فقد يكون خيراً، وقد يكون شراً، ولكن يقال: أطال الله بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيراً بكل حال، وعلى هذا، فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: ((اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي)) لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئة، والنهي إنما هو عما كان معلقاً بالمشيئة.
لكن لو قال: اللهم أغفر لي إن أردت وليس إن شئت، فالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونية، فهي بمعنى المشيئة، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثراً بالحكم. ه
فدلّ هذا الحديث على مسائل:
المسألة الأولى: النّهي عن أن يقول: "اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إنْ شئت"، والنّهي للتحريم.
المسألة الثانية: بيان علّة النّهي، وهي أنّ الله جل وعلا لا مكره له حتى يحتاج إلى أن تقول: "إنْ شئت"، ولا يتعاظمه شيء أعطاه ولو كان كثيراً، فإنّ هذا بالنسبة لله كلا شيء، خزائنُه ملأى لا تغيض مع كثرة الإنفاق، كلّ ما في الدنيا والآخرة فإنّه من جودِه سبحانه وتعالى، ومع هذا لا تغيضُ خزائنُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كلّ

---

[١] البخاري: كتاب الدعوات/ باب الدعاء عند الأستخارة.
[٢] البخاري: كتاب الدعوات/ باب الدعاء بالموت والحياة ومسلم كتاب الذكر والدعاء/ باب كراهة تمني الموت.

ما في الدنيا وكلّ ما في الآخرة وكلّ ما في السموات وكلّ ما في الأرض من الخيرات والنعم فإنّه من خزائن الله سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: في الحديث دليلٌ على كمال غناه سبحانه وتعالى، وأنّ خزائنه لا مع كثرة الإنفاق وإعطاء السّائلين، أرأيتم ماذا أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنّه لم يَغِض ما في يمينه سبحانه وتعالى، كما في الحديث عن النّبي ﷺ. ٤

مناسبة الباب للتوحيد: من وجهين:

١. من جهة الربوبية، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى، لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل إنه لا يسأل عما يفعل، كما قال تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها فكان فيه قدح في جوده وكرمه.
٢. من ناحية العبد، فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف في باب الذي يتعلق بالأسماء والصفات. ٥

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: ((ليعزم المسألة)).

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير ((حجي واشترطي، فإن لك على ربك ما استثنيت)) [1]، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيداً إن أكرمك، فهو كقولك: أكرم زيداً إلا ألا يكرمك، فهو بمعنى الاستثناء في الحقيقة. ٥

الثانية: بيان العلة في ذلك.

وقد سبق أنها ثلاث علل:

١. أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

٢. أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣. أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لآئق وليس من الأدب. ٥

الثالثة: قوله: ((ليعزم المسألة)). تفيد أنك إذا سألت فاعزم ولا تردد. ٥

الرابعة: إعظام الرغبة. لقوله ﷺ: ((وليعظم الرغبة))، أي: ليسأل ما بدا فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله. ٥

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

يستفاد من قوله: ((فإن الله لا يتعاظمه شيء أو لا مكره له)) وقوله: ((وليعظم الرغبة))، وفي هذا حسن تعليم الرسول ﷺ إذا ذكر شيئاً قرنه بعلته.

وفي ذكر علة الحكم فوائد :

الأولى: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه ما من شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان، لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا آما سئل ﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حرام، بل قال: ((أينقص إذا جف؟)). قالوا: نعم. فنهى عنه.[2]

---

[1] البخاري: كتاب النكاح/ باب الأكفاء في الدين، ومسلم: كتاب الحج/ باب جواز اشتراط المحرم.

[2] الإمام أحمد في "المسند" (١/١٧٥، ١٧٦)، وأبو داود: كتاب البيوع/ باب في التمر بالتمر، والترمذي: كتاب البيوع/ باب في النهي عن المحاقة، والنسائي: كتاب البيوع باب اشتراء التمر بالرطب، وابن

والرجل الذي قال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود لم يقل ﷺ الولد لك، بل قال: ((هل لك من إبل؟)) قال: نعم. قال: ((ما ألوانها؟)) قال: حمر. قال: ((هل فيها من أورق الأورق)): الأشهب الذي بين البياض والسواد؟ قال: نعم.

قال: ((من أين؟)) قال: لعله نزعه عرق، قال: ((لعل ابنك نزعة عرق))[1]، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع، فقرن الحكم بالعلة يوجب الطمأنية ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة في الحكم من الأحكام، فليحق بها ما شراكها في العلة.٥

(بَابُ لا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي)

(بَابُ لا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي)

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لا يقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يقُلْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَغُلَامِي)).

المؤلف في كتابه "كتاب التوحيد" ذكر التوحيد، وذكر ما يكون من كماله وتمامه، وذكر ما ينافيه فهو كتاب جامع، ذكر التوحيد، وضده، وذكر ما يكمله، وذكر ما ينافي كماله، وهذا الباب مما ينافي كمال التوحيد؛ فلهذا ذكره. ٦

لما في ذلك من الإيهام من المشاركة في الربوبية، فنهى عن ذلك أدباً مع جناب الربوبية، وحماية لجناب التوحيد. ١

ماجه: كتاب التجارات/ باب بيع الرطب بالتمر، والحاكم في "المستدرك" (٣٨/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر في "المسند" (١٥١٥).

[1] البخاري: كتاب الطلاق/ باب إذا عرض بنفي الولد، ومسلم: كتاب اللعان.

(باب لا يقول: عبدي وأمتي) هذا الباب مع الأبواب قبله وما بعده كلها في تعظيم ربوبية الله جل وعلا وتعظيم أسماء الله جل وعلا وصفاته؛ لأن تعظيم ذلك من كمال التوحيد، وتحقيق التوحيد لا يكون إلا بأن يعظم الله جل وعلا في ربوبيته وفي إلهيته وفي أسمائه وصفاته، فتحقيق التوحيد لا يكون إلا بالاحتراس من الألفاظ التي يكون فيها إساءة أدب مع ربوبيته الله جل وعلا على خلقه أو مع أسماء الله جل وعلا وصفاته، ولهذا عقد هذا الباب فقال (باب لا يقول عبدي وأمتي) العبودية عبودية البشر لله جل وعلا عبوديته حقيقية، وإذا قيل: هذا عبدالله. فهو عبد لله جل وعلا إما قهراً أو اختياراً فكل من في السماوات والأرض عبد لله جل وعلا كما قال ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدا (٩٣) فَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(٩٤)وَكُلُّ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَة فَرْدا﴾ [مريم:٩٣-٩٥] فعبودية الخلق لله جل وعلا ظاهرة؛ لأنه هو الرب وهو المتصرف وهو سيد الخلق وهو المدبّر لشؤونهم، فالله جل وعلا هو المتفرد بذلك سبحانه.

فإذا قال الرجل لرقيقه: هذا عبدي، وهذه أمتي. كان في نسبة العبودية عبودية أولئك له، وهذا فيه منافاة لكمال الأدب الواجب مع الله جل وعلا، ولهذا كان هذا اللفظ غير جائز عند كثير من أهل العلم، ومكروه عند طوائف آخرين.

فإذن سبب النهي عن لفظ (عبدي وأمتي) ما ذكرنا من تعظيم الربوبية وعدم اهتضام عبودية الخلق لله جل وعلا. ٣

هذا الباب عقده المصنِّف رحمه الله كالباب الذي قبلَه، من أجل احترام أسماء الله وصفاتِه، ومن أجل سدّ الطّرق التي تُفضي إلى الشرك وحماية جانب التّوحيد، وذلك: بتجنُّب الألفاظ الموهمة التي قد يُفهم منها شيءٌ من الشرك، ولو كان المتكلِّم بها لا يقصد المعنى، ولكنّه يتجنّب ذلك من أجل سدّ الباب من أصلِه، هذا هو المقصود.

وقد سبق له نظائر في هذا الكتاب من حماية النّبي ﷺ حمَى التّوحيد وسدّ الطُرق التي تُفْضي إلى الشرك، وهذا منها.

ومن ذلك: لا يقُلْ السيِّد والمالك لرقيقه: عبدي وأَمَتي. لأنّ العباد عباد الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣)﴾ [مريم:٩٣]، فليس هناك عبدٌ لأحد إلاّ لله سبحانه وتعالى، فالعبوديّة والتعبيد خاصٌّ بالله سبحانه وتعالى، أما المخلوقون فليس بعضُهم عبيداً للبعض، فالعباد كلّهم عبادُ الله، مؤمنُهم، وكافرُهم، هذه العبوديّة العامّة، أما العبودية الخاصّة فهي خاصّة بالمؤمنين: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨]، ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)﴾ [الزخرف:٦٨]، هذه عبوديّة خاصّة بالمؤمنين، وهي عبوديّة تقرُّب إلى الله تعالى وإنابةٍ إليه، وجزاؤها الجنة. فالعبودية إذا خاصّة لله.

قوله: "أَمَتي": الأَمّة معناها -أيضاً- العبدة، فلا يقال: هذه أَمَة فلان، وإنّما يُقال: هذه أَمَةُ الله،. وهذا تأدُّبٌ مع التّوحيد ومع جناب الرّبوبيّة. هذا وجه عقد المصنّف للترجمة. ٤

هذه الترجمة تحتمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء في ذلك، وسيأتي التفصيل فيه. ٥

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضىء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، وغلامي))[1].

قوله: "في الصحيح" أي: الصحيحين: صحيح البخاري، وصحيح مسلم. ٤

قوله: في "الصحيح". سبق التنبيه على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، وهذا الحديث في "الصحيحين"، فيكون المراد بقوله "في الصحيح"، أي: في الحديث الصحيح، ولعله أراد "صحيح البخاري" لأن هذا لفظه، أما لفظ مسلم، فيختلف عنه. ٥

---

[1] البخاري: كتاب العتق/ باب كراهة التطاول على الرقيق، ومسلم: كتاب الأدب/ باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة.

أن النّبي ﷺ قال: ((لا يقل أحدكم)) هذا نهيٌ من الرّسول ﷺ.

((أطعم ربّك)) أي: ناوِلْه الطعام.

((وضِّئ ربّك)) أي: ائتِه بالوضوء، أو أعنه على الوُضوء. ٤

هذا النهي في هذا الحديث اختلف فيه أهل العلم على قولين:

الأول: أنه للتحريم؛ لأن النهي الأصل فيه للتحريم إلا إذا صرفه عن ذلك الأصل صارف.

وقال آخرون: النهي هنا للكراهة؛ وذلك لأنه من جهة الأدب؛ ولأنه جاء في القرآن من قول يوسف عليه السلام ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف:٤٢]؛ ولأن الربوبية هنا المقصود بما يناسب البشر، فرب الدار ورب العبد هو الذي يملك أمره في هذه الدنيا، فلهذا قالوا النهي للكراهة وليس للتحريم، مع ما جاء في بعض الأحاديث من جواز أو من تجويز إطلاق بعض الألفاظ. ٣

قوله ((لا يقل أحدكم)) هو بالجزم على النهي، والمراد أن يقول ذلك لمملوكه، أو مملوك غيره فالكل منهي عنه. ١

قوله ﷺ: ((لا يقل أحدكم: أطعم ربك... ألخ)) أي: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمر تعاظماً. ٥

وأعلم إن إضافة الرب إلى غير الله تعالى تنقسم إلى أقسام :

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلى ضمير المخاطب، مثل: أطعم ربك، وضيء ربك، فيكره ذلك للنهي عنه، لأن فيه محذورين:

من جهة الصيغة، لأنه يوهم معنى فاسداً بالنسبة لكلمة رب، لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يطعم ولا يطعم، وإن كان بلا شك إن الرب هنا غير رب العالمين الذي يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل، لأنه إذا كان السيد رباً كان العبد أو الأمة مربوباً.

القسم الثاني: أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب، فهذا لا بأس به، كقوله ﷺ في حديث أشراط الساعة، ((أن تلد الأمة ربها))[1]، وأما لفظ ((ربتها))[2]، فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع الله في اللفظ، لأن الله لا يقال له إلا رب، وفي حديث الضالة وهو متفق عليه: ((حتى يجدها ربها))[3]. وقال بعض أهل العلم أن حديث الضالة في بهيمة لا تتعبد ولا تتذلل، فليست كالإنسان، والصحيح عدم الفارق، لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾، وقال في الناس: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ ليس جمعيهم: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، وعلى هذا، فيجوز أن تقول: أطعم الرقيق ربه، ونحوه...

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي، فهل يجوز هذا؟

قد يقول قائل: إن هذا جائز، لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالى عن صاحب يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: سيدي، ولأن المحذور من قول ﴿ربي﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف، لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

القسم الرابع: أن يضاف إلى الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام، فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع، كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك. ٥

ثم بيّن النّبي ﷺ اللفظ الذي يقوله المملوك لمالكه، وهو:((سيدي ومولاي)). ٤

قوله: ((وليقل: سيدي ومولاي)). المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك، لأن مقتضى الحال أن يرشد ما يكون بدلاً عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، ((وليقل: سيدي ومولاي))، ففهم المؤلف رحمة الله كما سيأتي في المسائل أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نهي أن يقول للعبد: أطعم ربك، فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول: أطعمت ربي، وضأت ربي، بل يقول: سيدي ومولاي.

[1] البخاري: كتاب الإيمان/ باب سؤال جبريل النبي ﷺ، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان

[2] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان

[3] البخاري: كتاب اللقطة/ باب ضالة الإبل، ومسلم كتاب اللقطة.

وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال، فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد وجه الخطاب إلى العبد نفسه، فقال: ((وليقل: سيدي ومولاي))، أي عن قوله: أطعمت ربي، وضأت ربي.

وقوله ((سيدي)). السيادة في الأصل علو المنزلة، لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معان، منها: المالك، الزوج، والشريف المطاع.

وسيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا الله عز وجل قال ﷺ: ((السيد الله)).[1]

وأما السيد مضافة، فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، وقال ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة))[2]، والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده، أي: سيد العبد لعبده.

تنبيه: اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلاً: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق، لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: ﴿أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال ﷺ: ((إن النساء عوان عندكم))[3]، أي: بمنزلة الإسير: وقال في الرجل: ((راع في أهله ومسؤول عن رعيته))[4]، فالصواب أن يقال للواحدة أمراة وللجماعة منهن نساء.

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (٢٤/٤، ٣٥) والبخاري في "الإدب المفرد" (٢١١)، وأبو داود: كتاب الأدب/ باب في كراهة التمادح. قال ابن حجر في "الفتح" (١٧٩/٥): رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد.

[2] مسلم: كتاب الفضائل/ باب تفضيل النبي ﷺ على جميع الخلائق.

[3] الإمام أحمد (٧٢/٥)، والترمذي: كتاب الرضاع/ باب في حق المرأة على زوجها، وابن ماجة: كتاب النكاح/ باب حق المرأة على زوجها، ١/ ٥٩٤.

[4] البخاري: كتاب الجمعة/ باب الجمعة في القري: ومسلم: كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل.

قوله: ((ومولاي)). أي: وليقل مولاي، والولاية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله عز وجل لا تصلح لغيره، كالسيادة المطلقة.

وولاية الله نوعان:

النوع الأول: عامة، وهي الشاملة لكل أحد، قال الله تعالى: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٣٠]، فجعل له ولاية على هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وهذه ولاية خاصة، ومقتضى السياق أن يقال: وليس مولى الكافرين، لكن قال: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: لا هو مولى للكافرين ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موالي لهم لأنهم يوم القيامة يتبرءون منهم.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة، فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معان كثيرة، منها الناصر، والمتولي للأمور، والسيد، والعتيق.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤] وقال ﷺ فيما يروي عنه: ((من كنت مولاه، فعلي مولاه)) ﷺ[١]، وقال ﷺ: ((إنما الولاء لمن أعتق))[٢].

ويقال للسلطان ولي الأمر، وللعتيق مولى فلان لمن أعتقه، وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب ملكاً بقوله: مولاي، لأن المراد بمولاي أي متولي أمري، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمورها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. ٥

قال النووي: "المولى يطلق على ستة عشر معنى، منها: الناصر والمولى والمالك، وحينئذ فلا بأس أن يقول: مولاي". [٣] ١

---

[١] الإمام أحمد في "المسند" (٨٤/١).

[٢] البخاري: كتاب العتق/ باب ما يجوز من شرط المكاتب، ومسلم: كتاب العتق/ باب إنما الولاء لمن أعتق

[٣] شرح صحيح مسلم للنووي (٧/١٥).

قال ((وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، ومَوْلاَيَ)) السيادة مع كون الله جل وعلا هو السيد؛ لكن السيادة للإضافة لا بأس بها؛ لأن للبشر سيادة تناسبه، (ومَوْلاَيَ) المولى يأتي على معانٍ كثيرة، وأن يخاطب البشر بقوله مولاي أجازه طائفة من أهل العلم بناء على هذا الحديث قال ((وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي، ومَوْلاَيَ))، وقد جاء في صحيح مسلم النهي عن أن يقول مولاي ((لا تقولوا مولاي إنما مولاكم الله)) أو نحو ذلك[1]، وهذا الحديث أعلّه بعض أهل العلم أنه يقول بالمعنى فهو شاذ من جهة اللفظ وهو معارض لهذا الحديث الذي هو نص في إجازة ذلك. ٣

وجاء في بعض الروايات الأخرى: ((لا يقولن مولاي؛ فإن مولاكم الله)) لكن المحفوظ عند أهل العلم رواية الإذن؛ لأن كلمة مولى مشتركة فقوله جل وعلا: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١]؛ يعني: لا ناصر لهم، بل هم مخذولون بالنسبة إلى من استقام على دين الله، ونصر دين الله، فلا حرج أن يقول: مولاي، قريبي، أو عتيقي، أو معتقي، أو سيدي كما في الحديث هذا. ٦

فيكون إذن الصحيح جواز إطلاق لفظ (مَوْلاَيَ) هنا ((سَيِّدِي، ومَوْلاَيَ)) ونحو ذلك؛ لأن هنالك سيادة تناسب البشر، وقول (مَوْلاَيَ) هناك ما يناسب البشر من ذلك، فليست في مقام ربك أو عبدي وأمتي؛ لأن ذلك أعظم درجة وواضح أن فيها اختصاص العبودية بالله جل وعلا، وإطلاق ذلك على البشر لا يجوز. ٣

قال في التيسير: "فظاهر رواية مسلم معارض لحديث الباب".

وأجيب بأن مسلماً قد بين الاختلاف فيه عن الأعمش، وأن منهم من ذكر هذه الزيادة، ومنهم من حذفها. قال عياض: "وحذفها أصح"[2]، فظهر أن اللفظ الأول أرجح، وإنما صرنا للترجيح للتعارض بينهما والجمع متعذر، والعلم بالتاريخ مفقود، فلم يبق إلا الترجيح.

---

[1] جاء في صحيح مسلم بلفظ: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها/ باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى: ((وَلاَ يَقُلِ الْعَبْدُ لِسَيِّدِهِ: مَوْلاَيَ فَإِنَّ مَوْلاَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ)).

[2] إكمال المعْلِم (١٩٠/٧).

قلت: الجمع ممكن بحمل النهي على الكراهة، أو على خلاف الأولى. ١

ما حكم قول سيدي و مولاي ؟

الجواب: إن في ذلك تفصيلاً و ذلك بحسب قصد الشخص.

فإن أراد السيادة المطلقة والولاية المطلقة فهي لله عز وجل لا يجوز إطلاقها على غيره، ولهذا جاء النهي عنه في الحديث.

وإن أراد السيادة والولاية الجزئية فتجوز على بني آدم؛ كما قال ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم)). وقال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، فالسيادة التي لا تجوز إذا كانت مشتبهة بالسيادة المطلقة. ٩

قوله ﷺ: ((ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)). هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدي وأمتي لمملوكه ومملوكته.

قال: ((لا يقول: عبدي وأمتي))، يعني لا يقول العبد عندما يخاطب جاريته، أو غلامه جاء عبدي، وأمتي تأدبًا مع الله سبحانه وتعالى. ٦

لأننا جميعاً عباد الله، ونساؤنا إماء لله، قال النبي ﷺ: ((لا تمنعوا إماء الله مساجد الله))[١]. ٥

قوله: ((ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)) لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً لا يليق بالمخلوق، وقد بين النبي ﷺ العلة في ذلك.كما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: ((لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك: ربي وربتي، وليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب الله عز وجل)).[٢]

---

[١] البخاري: كتاب الجمعة / باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل، ومسلم: كتاب الصلاة/ باب خروج النساء.

[٢] رواه الإمام أحمد في المسند (٤٢٣/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢١٠)، وأبو داود (رقم ٤٩٧٥)، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت (رقم ٣٦٢) وسنده صحيح.[محقق ١]

ورواه أيضاً بإسناد صحيح موقوفاً فهذه علة له.

وفي رواية لمسلم: ((لا يقولن أحدكم: عبدي و أمتي، كلكم عبيد الله)). ١

فالسيد منهي أن يقول ذلك، لأنه إذا قال: عبدي وأمتي، فقد تشبه بالله عز وجل ولو من حيث ظاهر اللفظ، لأن الله عز وجل يخاطب عباده بقوله: عبدي، كما في الحديث: ((عبدي استطعمتك فلم تطعمني))[١] وما أشبه ذلك.

وإن كان السيد يريد بقوله: "عبدي"، أي: مملوكي، فالنهي من باب التنزه عن اللفظ الذي يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: ((وأمتي)). الأمة: الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية.

والعلة من النهي: أن فيه إشعاراً بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله إلى أن النهي في الحديث ليس على سبيل التحريم، وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلاً. ٥

كما بيّن اللفظ الذي يقوله المالك لمملوكه، وهو: ((فتاي، وفتاتي وغلامي))، لأن هذه الألفاظ لا محذور فيها، فتكون بدائل للألفاظ المحذورة. ٤

قوله: ((وليقل: فتاي وفتاتي)). مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به. ٥

بل يقول فتاي، وفتاتي، وغلامي، خادمي، ونحو ذلك؛ لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله، هذا من باب الكمال، والتأدب مع الله سبحانه وتعالى، والاعتراف بأنه سبحانه هو المالك لكل شيء، وهو رب كل شيء سبحانه وتعالى. ٦

---

[١] مسلم: كتاب البر والصلة/ باب فضل عيادة المريض

حكم قول عبدي وأمتي:

والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان، فهذا جائز قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقال النبي ﷺ: ((ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة))[١].

ذات العبد فلان، أو إماء فلان، فهذا ليس من باب الإضافة إلى نفسه، بل من باب الإخبار.٦

قال في مصابيح الجامع: "النهي إنما جاء متوجهاً إلى السيد" إذ هو في مظنه الاستطالة، وأما قول الغير: هذا عبد زيد، وهذه أمة خالد فجائز، لأنه يقول إخباراً أو تعريفاً، وليس في مظنة الاستطالة. ١

الثاني: أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة، فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة، فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا فلا، لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدي هات كذا، فهذا منهي عنه، وقد اختلف العلماء في النهي: هل هو للكراهة أو التحريم؟ والراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة. ٥

---

[١] البخاري: كتاب الزكاة/ باب ليس على المسلم في عبده صدقة، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه.

هذه الألفاظ المنهي عنها، وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد، وسداً لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم. فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه لذلك. وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ. وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ. وهو قوله ((سيدي ومولاي)) وكذا قوله: ((ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي))؛ لأن العبيد عبيدُ الله، والإماء إماء الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] ففي إطلاق هاتين الكلمتين في حق غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى، وأدبًا وبُعْدًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا: ((فتاي وفتاتي وغلامي)) وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا وإن لم يقصد به. ٢

فتحصل من ذلك أن هذه الألفاظ -كما ذكرنا- يجب أن يُحترز فيها ما لا يكون معه الأدب مع مقام ربوبية الله جل وعلا وأسمائه سبحانه وتعالى.

وعليه فلا يكون جائزاً أن يقول: عبدي وأمتي. أو أن يقول: أطع ربك وضئ ربك.

هذا كله مختص بالتعبير بالربوبية للمكلَّفين، أما إضافة الربوبية إلى غير المكلف فلا بأس بها؛ لأن حقيقة العبودية لا تتصور فيها، كأن تقول رب الدار ورب المنزل ورب المال ونحو ذلك، فإن الدار والمنزل والمال ليست بأشياء مكلَّفة بالأمر والنهي، فلهذا لا تنصرف الأذهان أو

يذهب القلب إلى أن ثمة نوع من عبودية هذه الأشياء لمن أضيفت إليه؛ بل إن ذلك معروف بأنه إضافة ملك؛ لأنها ليست مخاطبة بالأمر والنهي وليست يحصل منها خضوع أو تذلل.

فإذاً يقيد النهي الوارد في ذلك بتعبير المكلف، أو يقال مكلف وضئ ربك أو أنا رب هذا الغلام، أو نحو ذلك من الألفاظ التي لا تناسب الأدب. ٣

قال الخطابي: "وسبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد باخلاص التوحيد لله تعالى، وترك الإشراك به، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، وأما من لا تَعَبُّدَ عليه من سائر الحيوانات والجمادات، فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب".[1]

فدلّ هذا الحديث على مسائل:

المسألة الأولى: فيه ما ترجم المصنِّف من أجلِه، وهو عدم جواز قول "عبدي" و"أَمتي"، لأنّ هذا ورد منصوصاً عليه في الحديث: ((لا يقل: عبدي وأمتي)).

المسألة الثانية :فيه: أنّ لفظ (الرّبّ) لا يُطلق إلاّ على الله، لأنّه هو الرب سبحانه وتعالى الذي له الربوبيّة على عباده: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس:١]، وهكذا لم يَرِد إطلاق لفظ (الربّ) في القرآن إلاّ على الله سبحانه وتعالى، فلا يجوز استعمالُه لغيره، وإنْ كان المتكلِّم لا يقصد المعنى وإنّما يقصد مجرّد الملكيّة والرِّق، لكن من باب سدّ الذرائع- كما سبق- أما إذا قُيِّد لفظ الرب فإنه يجوز إطلاقه على المخلوق مثل رب الدار، وكقوله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

المسألة الثالثة: فيه: القاعدة المعروفة وهو سدّ الذرائع التي تقضي إلى المحذور، كلّ ذريعة ووسيلة تُفضي إلى محذور فإنّها ممنوعة، وهي قاعدة عظيمة، تُسمّى عند الأُصوليّين: "قاعدة سدّ الذرائع"، قد تكلّم عليها بإسهاب الإمام ابن القيِّم في كتابَيْه: "إعلام الموقِّعين" و"إغاثة اللهفان"، وذكر لها تسعة وتسعين مثالاً.

---

[1] أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطأبي (١٢٧١/٢).

المسألة الرّابعة: في الحديث: دليلٌ على أنّ مَن نهى عن شيء وله بديل صالح فإنّه يأتي بالبديل، لأنّ النّبي ﷺ لَمّا نهى عن قول:((عبدي)) و ((أَمَتِي)) قال: ((وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي)) هذا البديل الصّالح الذي لا محذور فيه، فإذا كان هناك بديل يقوم مقام هذا المنهي عنه فإنّه يُؤتى بالبديل الذي لا محذور فيه، مهما أمكن ذلك.

وسبق لهذا نظائر، وتكرّر لهذا أمثلة في الأبواب السّابقة. ٤

وهذه كما هي طريقة النبي ﷺ، فهي طريقة القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤] وهكذا ينبغي لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا على الناس باباً محرماً أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم، لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرم على هؤلاء، لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلاً عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس، فإن الدين الإسلامي يسعه، فلا يحكم على الناس أن يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئاً إلا وفتح لهم ما يغني عنه، وهذا من كمال الشريعة الإسلامية. ٥

المسألة الخامسة: في الحديث: دليلٌ على جواز لفظ ((سيدي ومولاي)) بالنسبة للمخلوق، لأنّهما يحتملان معاني لا محذور فيها، فإذا كان اللفظ له معنى غير محذور فلا بأس به، لأنّ السيّد يُراد به الرّئيس.

والمالك يقال له (سيد)، والزوج يقال له (سيد).

والمولى يراد به المعتق، ويُراد به المناصِر، ويُراد به المحبوب، ويُراد به المالِك، كلّ هذا يقال له: (مولى). ٤

أن الأمر يأتي للإباحة، لقوله: ((وليقل: سيدي ومولاي))، وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتي في مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر في مقابلة شيء ممنوع، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]. ٥

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي. تؤخذ من قوله: ((ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)). وقد سبق بيان ذلك. ٥

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك. تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك.٥

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي. (وهو السيد). ٥

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي. (وهو العبد). ٥

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ. وقد سبق ذلك. ٥

(بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ)

(بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ معروفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْنَ أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

قول الشيخ رحمه الله: "باب لا يُرد مَن سأل بِالله" لأنّ هذا فيه تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وهو من كمال التّوحيد، أمّا إذا رُدّ السائل بالله ففيه إساءة في حقّ الله سبحانه وتعالى.

وفي ردّه نقصٌ في التّوحيد.

والسؤال بالله جائز، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء:١] ومعنى ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ يعني: يسأل بعضُكم بعضاً بالله، وفي هذا الحديث: ((مَن سأل بالله فأعطوه)) فدلّ على جواز السّؤال بالله.

لكن من سُئل بالله لا يجوز له أن يردّ السائل إجلالاً لله سبحانه وتعالى. ٤

هذا الباب مع الباب الذي قبله ومع ما سبق -كما ذكرنا- كلها في تعظيم الله جل وعلا وربوبيته وأسمائه وصفاته؛ لأن تعظيم ذلك من إكمال التوحيد ومن تحقيق التوحيد.

ومن سأل بالله جل جلاله فقد سأل بعظيم، ومن استعاذ بالله فقد استعاذ بعظيم؛ بل استعاذ بمن له هذا الملكوت وله تدبير الأمر بمن كل ما تراه وما لا تراه عبدٌ له جل وعلا، فكيف يرد من جعل مالك كل شيء وسيلة حتى تقبل سؤاله، ولهذا كان من -التعظيم الواجب- أن لا يرد أحد سأل بالله جل وعلا، فإذا سأل سؤالاً وجعل الله جل وعلا هو الوسيلة فإنه لا يجوز أن يُرد تعظيماً لله جل وعلا، والذي في قلبه تعظيم لله جل وعلا ينتفض إذا ذكر الله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] بمجرد ذكر الله تجل القلوب لعلمهم بالله جل وعلا وما يستحق وعلمهم بتدبيره وملكوته وعظمة صفاته وأسمائه جل وعلا.

فإذا سأل أحد بالله فإن قلب الموحد لا يكون راداً له؛ لأنه معظم لله مجل لله جل وعلا، فلا يرد أحداً جعل وسيلته إليه رب العزة سبحانه وتعالى. ٣

قوله: "باب لا يرد". "لا" نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهية، وأن يكون للتحريم. ٥

أهل العلم قالوا: السائل بالله قد تجب إجابته ويَحرم رده، وقد لا يجب ذلك، وهذا القول قول شيخ الإسلام ابن تيمية واختيار عدد من المحققين بعده، وهو القول الثالث في المسألة.

أما القول الأول: فهو من سأل بالله حَرُمَ أن يرد مطلقاً.

والقول الثاني: أن من سأل بالله استحب إجابته وكره رده.

والقول الثالث: ما ذكرنا عن شيخ الإسلام أنه قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً، وقد لا يكون كذلك يعني يكون مباحاً.

تفصيل شيخ الإسلام ظاهر؛ وذلك أنه أراد بحالة الوجوب أن يتوجه السؤال لمعين في أمر معين؛ يعني ألا يكون السائل سأل عدداً من الناس بالله ليحصل على شيء، فلهذا لم يدخل فيه السائل الفقير الذي يأتي ويسأل هذا ويسأل هذا ويسأل هذا ويسأل هذا، أو ممن يكون كاذباً في سؤاله، فيقول: يجب إذا توجه لمعين في أمر معين، أما إذا توجه لفلان وفلان وفلان عدد فإنه لا يكون توجه لمعين، فإنه لا يجب عليه أن يؤتيه مطلبه، ويجوز له أن يرد سؤاله.

وإذا كان كذلك فتكون الحالة على هذه الأحوال تكون ثلاثة:

- حال يحرم فيها رد السائل.
- وحال يكره فيها رد السائل.
- وحال يباح فيها رد السائل بالله.

هذا كلام شيخ الإسلام.

يحرم رد السائل بالله إذا توجه لمعين في أمر معين، خصك بهذا التوجه وسألك بالله أن تعينه، وأنت طبعاً قادر على أن تأتيه مطلوبه.

ويستحب فيما إذا كان التوجه ليس لمعين كان يسأل فلان وفلان وفلان.

ويباح فيما إذا كان من سأل بالله يعرف منه الكذب. ٣

وظاهر كلام شيخ الإسلام: التفريق بين أن يقصد إلزامه بالقسم فتجب إجابته، أو يقصد إكرامَهُ فلا تجب عليه، ولهذا أوجب على المقسم في الأولى الكفارة، إذا لم يفعل المحلوف عليه، دون الثانية، لأنه كالأمر، ولا يجب إذا كان للإكرام لأمر النبي ﷺ أبا بكر بوقوفه في الصف ولم يقف[1]، ولأن أبا بكر أقسم على النبي ﷺ ليخبرنه بالصواب والخطإ لما فسر الرؤيا، فقال النبي ﷺ: ((لا تقسم)) كما في الصحيحين[2] قال: "لأنه علم أنه لم يقصد الإقسام عليه مع المصلحة المقتضية للكتم".[3] ١

فصارت إذن عندنا الأقوال ثلاثة في أصلها:

- يحرم رد السائل ويجب إعطاؤه هذا واحد.
- الثاني يستحب ويكره رده.
- والثالث هو التفصيل، وهذا الثالث هو قول شيخ الإسلام وعدد من المحققين. ٣

وقوله: "من سأل بالله". أي: من سأل غيره بالله، والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

---

[1] جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه (رقم ٦٥٢)، ومسلم في صحيحه (رقم ٤٢١) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه

[2] جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه (رقم ٧٠٤٦)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[3] نقله عنه ابن مفلح في الفروع (٣٤٨/٦).

أحدهما: السؤال بالله بالصيغة، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم في حديث الثلاثة حيث قال الملك: ((أسالك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيراً)).

الثاني: السؤال بشرع الله عز وجل، أي: يسأل سؤالاً يبيحه الشرع، كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسؤول والسائل، وهنا عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف رحمه الله، فتقول أولاً: السؤال من حيث هو مكروه ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحداً شيئاً إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً ، حتى إن عصا أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته، فلا يقول لأحد: ناولينه، بل ينزل ويأخذه.[١]

والمعنى يقتضيه، لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بقيت محترماً عن الناس، وصار لك منعة من أن تذل وجهك لأحد، لأن من أذل وجهه لأحد، فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلى أن يجيبه، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((ازهد فيما عند الناس يحبك الناس))[٢]، فالسؤال أصلاً مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة.

فسؤال المال محرم، فلا يجوز أن يسأل من أحد مالاً إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله في باب الزكاة: "إن من أبيح له أخذ شيء أبيح له سؤاله"، ولكن فيما قالوه نظر، فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال، وقال: ((إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم))[٣]، وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة.

---

[١] مسلم: كتاب الزكاة/ باب كراهة المسألة للناس.

[٢] ابن ماجة: كتاب/ الزهد في الدنيا.

[٣] البخاري: كتاب الزكاة / باب من سأل الناس تكثراً، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب كراهة المسألة.

وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن، فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وأما إجابة السائل، فهو موضوع بابنا هذا، ولا يخلو السائل من أحد أمرين:

الأول: أن يُسأل سؤالاً مجرداً، كأن يقول مثلاً: يا فلان! أعطني كذا وكذا، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه، كالفقير يسأل شيئاً من الزكاة.

الثاني: أن يُسأل بالله، فهذا تجيبه وإن لم يكن مستحقاً، لأنه سأل بعظيم فإجابته من تعظيم هذا العظيم، لكن لو سأل إثماً أو كان في إجابته ضرر على المسؤول، فإنه لا يجاب.

مثال الأول: أن يسألك بالله نقوداً ليشتري بها محرماً كالخمر.

ومثال الثاني: أن يسألك بالله أن تخبره عما في سرك وما تفعله مع أهلك، فهذا لا يجاب لأن في الأول إعانة على الإثم، وإجابته في الثاني ضرر على المسؤول. ٥

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُرَوا أنكم قد كافأتموه)). رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح[1].

قوله ﷺ: ((مَن سأل بالله)) كأن يقول: أسألُك بالله، وهذا معناه: الإقسام بالله عزّ وجلّ، كأنّه قال: والله لتُعطيَنِّي هذا الشيء، لأنّ الباء باء القسم، فإذا قال: أسألُك بالله أي: أُقسم عليك بالله لتعطيَنِّي كذا وكذا.

((فأعطوه)) هذا أمرٌ من النّبي ﷺ بإعطاء مَن سأل بالله، وظاهرُه الوُجوب. ٤

[1] رواه الطيالسي في المسند (١٨٩٥)، والإمام أحمد في المسند(٢/٦٨، ٩٩، ١٢٧)، وعبدُ بن حميد في مسنده (رقم٨٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم٢١٦)، وأبو داود في سننه (رقم ١٦٧٢، ٥١٠٩)، والنسائي في سننه (٥/٨٢) وغيرهم. وهو حديث صحيح، صححه ابن حبان، والحاكم، والنووي في رياض الصالحين (ص/٣٩٠)، والذهبي وغيرهم.

قوله: ((فأعطوه)) الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثماً أو ضرراً على المسؤول، لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيماً لله عز وجل الذي سأل به. ٥

وظاهر الحديث وجوب إعطائه ما سأل ما لم يسأل إثماً، أو قطيعة رحم، وقد جاء الوعيد على ذلك في عدة أحاديث، منها: حديث أبي موسى مرفوعاً: ((ملعون من سَأَلَ بوجه الله، وملعون من يُسْأَلُ بوجهه ثم منع سائله ما لم يسأل هُجْراً)) رواه الطبراني.[١]

قال في (تنبيه الغافلين): "ورجال إسناده رجال الصحيح، إلا شيخه يحي بن عثمان بن صالح، والأكثر على توثيقه، فإن بلغ هذا الإسناد أو إسناد غيره مبلغاً يحتج به كان ذلك من الكبائر"[٢].

وعن أبي عبيدة مولى رفاعة بن رافع مرفوعاً: ((ملعون من سَأَلَ بوجه الله، وملعون من سُئِلَ بوجه الله فَمَنَعَ سائله)) رواه الطبراني أيضاً.[٣]

وعن ابن عباس مرفوعاً: ((ألا أخبركم بشر الناس؟ رجلٌ يُسْأَلُ بالله ولا يُعْطِي به)) رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه.[٤]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أخبركم بشر البرية؟)) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((الذي يُسْأَلُ بالله ولا يُعْطِي)) رواه أحمد.[١]

---

[١] رواه الطبراني في الكبير –كما في مجمع الزوائد (١٠٣/٣)، والروياني في مسنده (رقم ٤٩٥)، والطبراني في الدعاء (رقم ٢١١٢)، وابن بطة في الإبانة (رقم١٩٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٧/٢٦) وغيرهم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وإسناده حسن كما قال العراقي و السيوطي –كما في فيض القدير (٤/٦)، وله شاهد من مرسل أبي عبيد مولى رفاعة بن رافع.

[٢] تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين لابن النحاس (ص/٣٣٧)

[٣] رواه الطبراني في الكبير (٣٧٧/٢٢)، والدولأبي في الكنى (رقم٢٦٢) وإسناده ضعيف. قال الهيثمي في المجمع (١٠٢/٣): "فيه من لم أعرفه" وهو مرسل، إلا أنه حديث حسن لغيره.

[٤] رواه الطيالسي في مسنده (رقم ٢٦٦١)، والإمام أحمد في المسند (٢٣٧/١، ٣١٩، ٣٢٢)، والترمذي في سننه (رقم ١٦٥٢) وحسنه، والنسائي في سننه (٨٣/٥)، والدارمي في سننه (٢٠١/٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٤٤٨/١٧)، وغيرهم وإسناده صحيح.

إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة على إجابة من سأل بالله أو أقسم به، ولكن قال شيخ الإسلام: "إنما تجب على معين، فلا تجب على سائل يقسم على الناس".[2]

وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم، والأول أصح. ١

ولكن هذا فيه تفصيل؛ فإذا سأل بالله شيئاً له فيه حقّ كالذي يسأل من بيت المال؛ فكلّ مسلم له حقٌّ في بيت المال، فإذا سأل بالله وجب إعطاؤه، وكذلك إذا سألك مضطرٌ إلى شيء من طعام أو كسوة أو غير ذلك مضطراً، وأنت عندك فضل زائد عن حاجتك؛ فإنّه يجب عليك أن تُعطيه دفعاً لضرورته، وإنْ لم تعطه فقد عصيتَ الله.

وقد جاء في الحديث الذي سبق في قصّة الأعمى والأقرع والأبرص: أن الله غضب على اللذين سُئِلا في حالة ضرورة ولم يُعطيَا، فسؤال المضطّر والمحتاج من شيء فاضل عن حاجة المسؤول يجب بذلُه له، فإن لم يبذله فقد عصى الله.

حتّى إنّه إذا كان مضطّراً فإنّه له الحق في أنْ يأخُذ من مال غيرِه ما يدفع ضرورته.

أما إذا سأل شيئاً ليس له فيه استحقاق، وهو ليس محتاجاً ولا مضطراً؛ فهذا يستحبّ للمسؤول أن يُعطيَه، فإن لم يعطِه في هذه الحالة الأخيرة يكون فاعلاً لمكروه، وإذا أعطاه كان فاعلاً لمستحبّ. ٤

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال: الملك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: ((أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا)). ٥

وفي حديث ابن عباس عند أحمد وأبي داود: ((ومن سألكم بوجه الله، فأعطوه))[1] ومعناه ظاهر، وهو أن يقول: أسألك بالله، أو بوجه الله، ونحو ذلك: أن تفعل أو تعطيني كذا، ويدخل في ذلك القسم عليه بالله أن يفعل كذا. ١

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (٣٩٦/٢) وفي إسناده: أبو وهب مجهول كما في تعجيل المنفعة (ص/٥٢١)، وأبو معشر نجيح السندي: ضعيف.

[2] نقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية: ابن مفلح في الفروع (٣٠٥/٦)

وقد جاءت عدة أحاديث تدل على كراهة السؤال بالله لما فيه من التشديد على الناس، ولكن متى سأل حقاً له كالزكاة، أو من بيت المال، أو كان مضطراً، وجب أن يعطى. وأما إذا كان على غير ذلك فالأفضل أن يعطى، ولا ينبغي له أن يَسْأَلَ بالله عملاً بالأحاديث الأخرى الدالة على كراهة ذلك. ٦

((ومن استعاذ بالله فأعيذوه))

استعاذ: طلبَ العوذ، وهو: اللُّجوء. ٤

قوله: ((من استعاذ بالله فأعيذوه)) أي: من سألكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم بالله، كقوله: "بالله عليك أن تدفع عني شر فلان، أو شَرَّكَ"، "أعوذ بالله من شَرِّكَ أو شر فلان" ونحو ذلك؛ ((فأعيذوه)) أي: امنعوه مما استعاذ منه، وكفوه عنه لتعظيم اسم الله تعالى. ١

قوله: ((من استعاذ بالله فأعيذوه)). أي قال: أعوذ بالله منك، فإنه يجب عليك أن تعيذه، لأنه استعاذ بعظيم، ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك، قال لها ((لقد عذت بعظيم أو معاذ، الحقي بأهلك))[٢]. ٥

من قال: أعوذ بالله منك. تعظيماً لله جل جلاله تجيبه إلى ذلك وتتركه؛ لأن من استعاذ بالله فقد استعاذ بأعظم مستعاذ به، ولهذا في قصة الجونية التي دخل عليها النبي عليه الصلاة والسلام، فلما دخل عليها واقترب منها عليه الصلاة والسلام قالت له: أعوذ بالله منك. فابتعد عنها عليه الصلاة والسلام وقال ((لقد استعذت بمَعَاذ الحقي بأهلك)). استعاذت بالله منه فتركها عليه الصلاة والسلام. ٣

---

[١] رواه أحمد في مسنده (٢٤٩/١-٢٥٠)، وأبو داود في سننه (رقم ٥١٠٨) وغيرهم وإسناده حسن، فيه أبو نهيك عثمان بن نهيك الفراهيدي، روى عنه جمع من الثقات، ولم يأت بما ينكر عليه، ولم يذكره أحد ممن كتب في الضعفاء. وهو حديث صحيح بشواهده.

[٢] البخاري: كتاب الجنائز/ باب الأمر باتباع الجنائز، ومسلم: كتاب السلام/ باب من حق المسلم للمسلم.

فمن استعاذَ بالله عن شَرِّكَ فإنّه يجب عليك أن تُعيذَه، ولا يجوز لك أن لا تُعيذَه. ٤
لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال أعوذ بالله منك.
وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصياً، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعانته.
وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه وإن لم يقل أستعيذ بالله، فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه، فلا يبايع، ولا يُشْتَرى منه، ولا يؤجر حتى يخرج.
بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم. ٥

((ومن دعاكم))
أي: طلب منكم حضور مناسبة عنده؛ كأن دعاكم إلى حُضور طعام وليمة، فإنه يجب عليكم الإجابة، إلاّ إذا كان هُناك مانع، لأنّ هذا من حقّ الأُخوة.
وظاهرُ الحديث عامٌّ في كلّ دعوة، ولكن العلماء يقولون: إجابة الدعوة إنّما هي خاصّة بوليمة العُرس، أما ما عداها من الولائم فيستحبّ حُضورُها، أمّا وليمة العُرس فيجب حُضورُها لقوله ﷺ: ((شرُّ الطعام طعامُ الوليمة؛ يُدعى إليها الأغنياء ويُمنع منها الفقراء)) وقال: ((ومن لا يجب فقد عصى الله ورسولَه)) الشَّاهدُ في قوله: ((عصى الله ورسولَه))، فدلّ على وجوب الحُضور لولائم الزّواج.
وإن لم يحضُر من غير عُذر يكون آثِماً.
أمّا إذا كان هناك عُذر كأن يكون في الوليمة منكَر ولا يستطيع إزالة هذا المنكر فإنّه لا يحضُر، لأنّ هذا مانع من إجابة الدعوة؛ فإنْ كان يستطيع إزالته وجب عليه الحُضور، حتى

إنّ الصائم يجب عليه الحُضور، ولكن إنْ كان صيامُه واجباً فإنّه يدعو وينصرِف، وإنْ كان صيامُه مستحباً فإنّه يخيّر بين أنْ يُفطِر ويأكُل أو يدعو وينصرف. ٤

وظاهر الحديث: جواب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: ((شر الطعام الوليمة، يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله)).[1]

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

١. أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.

٢. ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة، فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين:

أ. إجابة الدعوة.

ب. وتغيير المنكر.

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور، لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم، فهو إثم.

٣. أن يكون الداعي مسلماً، وإلا لم تجب الإجابة، لقوله ﷺ: ((حق المسلم على المسلم خمس....))، وذكر منها: ((إذا دعاك فأجبه))[2]. قالوا: وهذا مقيد للعموم الوارد.

٤. أن لا يكون كسبه حراماً، لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعاماً حراماً، وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: ما كان محرماً لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطرق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرماً لعينه، كالخمر والمغصوب ونحوهما، وهذا

---

[1] البخاري: كتاب النكاح/ باب من ترك الدعوة فقد عصي الله ورسوله، ومسلم: كتاب النكاح/ باب الأمر بإجابة الداعي.

[2] البخاري: كتاب الجنائز/ باب الأمر باتباع الجنائز، ومسلم: كتاب السلام/ باب من حق المسلم للمسلم.

القول وجيه قوي بدليل أن الرسول ﷺ اشترى من يهودي طعاماً لآهله[1]، وأكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[2]، وأجاب دعوة اليهودي[3]، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوي هذا القول قوله ﷺ في اللحم الذي تصدق به على بريرة: ((هو لها صدقة ولنا منها هدية)).[4]

وعلى القول الأول، فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلَّته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

٥. أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦. أن لا تتضمن ضرراً على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة: هل إجابة الدعوة حق الله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل، فلا إثم عليك، لكنها واجبة بأمر الله عز وجل، ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن لها أن لا يدعوك أيضاً ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلاً من غير اقتناع، فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

مسألة: هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟

---

[1] البخاري: كتاب البيوع/ باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب الرهن.

[2] البخاري: كتاب الهبة/ باب قبول الهدية من المشركين، ومسلم كتاب السلام/ باب السم.

[3] الإمام أحمد في "المسند" (٣/ ٢١٠، ٢١١)

[4] البخاري: كتاب الزكاة/باب إذا تحولت الصدقة، ومسلم كتاب الزكاة/ باب إباحة الهدية للنبي عليه الصلاة والسلام.

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يدري لمن ذهب إليه، فيمكن أن نقول: إنها تشبه دعوة الجفلي لا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه، فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة. ٥

((ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه))

يعني: مَن أحسن إليك بإحسان مالي أو عملي أو قولي.

والمعروف: ضدّ المنكر، والمراد به هنا: الخير، يعني: من أسدى إليك خيراً من مال أو جاه أو كلام طيّب أو غير ذلك، فكلّ هذا من المعروف، فإنّه يجب عليك أن تكافئه، بمعنى: أن تفعل له من المعروف مثل ما عمِل لك، وتقابل إحسانه بالإحسان، وهذا من باب المكافأة من ناحية، وأيضاً فيه قطعٌ للمنّة من ناحية أُخرى، لأنك لو لم تكافئه بقيَ له منّة عليك، ورِقٌّ منك له.

حتى ولو كان صانعُ المعروف كافراً فإنّك تكافئه على معروفه، لأنّ هذا من باب مكارم الأخلاق ومن باب قطع المنّة ومن باب جزاء الإحسان بالإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن:٦٠]، وقال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إليهمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [الممتحنة:٨]، هذا في الكافر الذي يحسن إلى المسلم فالمسلم يكافئه، بل يتأكّد في حقّ المسلم مكافأة الكافر على صنيعهِ ليقطع منّتَهُ عليه، ولا يكون منه رقٌّ للكافر، ولأنّ هذا يدخل في باب الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، فإذا رأى الكفّار من المسلمين هذه الأخلاق الطيّبة والفاضلة كان ذلك مدعاة لدخولهم في الإسلام. ٤

ولكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك والرئيس مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يُدْعَى له، لأنك لو كافأته لرأى أن فيه غضاً من حقه فتكون مسيئاً له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

١. تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢. إن الإنسان يكسر بها الذل حصل له بصنع المعروف إليه، لأن من صنع إليك معروفاً فلابد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: ((اليد العليا خير من اليد السفلى))[١]، واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله عز وجل، لكن بعض الناس يكون كريماً جداً، فإذا كافأته بدل هديته أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعى له، لقوله ﷺ: ((فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له))، وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني، فإنه يدعو له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة، لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ، ولأن به سرور صانع المعروف. ٥

((فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له))

أي: ادعوا له بالخير والتيسير والتوفيق.

((حتى تُرَوْا أنكم قد كافأتموه))

بضمّ التّاء، يعني: تظنُّوا، ويجوز الفتح، بمعنى: تعلَموا.

فدلّ هذا: على أنّ المحسِن يكافأُ على إحسانِه إمّا بالقول وإمّا بالفعل. ٤

يعني من أحسن إليكم أَيَّ إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا في الدعاء له جُهْدَكُمْ حتى تحصل المثلية، ووجه المبالغة أنه رأى في نفسه تقصيراً في المجازاة لعدم القدرة عليها، فأحالها إلى الله، ونعم المجازي هو.

---

[١] البخاري: كتاب الزكاة/ باب لا صدقة إلا عن ظهر غني، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلي.

وقد روى الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعاً: ((من صنع إليكم معروفاً فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء)) [1]. ١

من صنع إليك معروفاً فكافئه؛ كافئه بجنس معروفه؛ إن كان معروفه من جهة المال فكافئه من جهة المال؛ يعني بما يشمل الهدايا المختلفة، إن كان معروفه من جهة الجاه فكافئه من جهة الجاه فيكون من جهة الهدية.

سبب ذلك وصلته بالتوحيد كما قال المحققون أنّ الذي صنع له معروف فيكون في قلبه ميل ونوع تذلل وخضوع في قلبه واستراح لهذا الذي صنع إليه المعروف. ٣

وقد أشار شيخ الإسلام إلى مشروعية المكافآت، لأن القلوب جُبِلت على حب من أحسن إليها، فهو إذا أحسن إليه ولم يكافئه يبقى في قبله نوع تألهٍ لمن أحسن إليه، فشرع قطع ذلك بالمكافآت، فهذا معنى كلامه.[2]

وقال غيره: "إنما أمر بالمكافأة ليخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق".[3] ١

ومعلوم أن تحقيق التوحيد أن يكون القلب خالياً من كل ما سوى الله جل جلاله، وأن يكون ذله وخضوعه وعرفانه بالجميل هو لله جل وعلا.

وتخليص القلب من ذلك يكون بالمكافئة على المعروف، وأنه إذا أدى إليك معروفاً فخلِّص القلب من رؤية ذلك المعروف بأن ترد إليه معروفه، ولهذا قال ((فإِنْ لَمْ تَجِدُوا ما تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتّى تَرَوْا أَنّكُم قَدْ كَافأْتُمُوهُ))، ((حَتّى تَرَوْا أَنّكُم قَدْ كَافأْتُمُوهُ)) لأجل أن يتخلص القلب من أثر ذلك المعروف، فترى أنك دعوت له ودعوت له ودعوت له بقدر ترجو معه بأنك قد كافأته، وهذا لتخليص القلب مما سوى الله جل وعلا وهذه مقامات لا يدركها إلا أرباب الإخلاص وتحقيق التوحيد. جعلنا الله وإياكم منهم. ٣

---

[1] رواه الترمذي في سننه (رقم ٢٠٣٥) وقال ((حسن جيد غريب)). والنسائي في السنن الكبرى –عمل اليوم والليلة (رقم ١٠٠٠٨)، والبزار في المسند (رقم٢٦٠١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم٢٧٥)، والطبراني في المعجم الصغير (١٤٨/٢)، وإسناده حسن– إن شاء الله تعالى–، وصححه ابن حبان في صحيحه (رقم ٤٣١٣)، والضياء المقدسي في المختارة (رقم ١٣٢١) وغيرهما والله أعلم. محقق ١

[2] أي: شيخ الإسلام ابن تيمية.

[3] نقله في فيض القدير (٥٥/٦) عن الشاذلي.

فهذا الحديث فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه ما ترجم له المصنِّف وهو: "لا يُرَدّ مَن سأل بالله"، لقوله: ((من سألكم بالله فأعطوه))، لأنّ في هذا إجلالاً لله سبحانه وتعالى الذي سَأل به، وفي ردِّه إساءة في حقّ الله تعالى ونقصٌ في التّوحيد، وفي إعطائِه احترامٌ لحقّ الله تعالى، وتكميلٌ للتّوحيد.

المسألة الثانية: فيه وُجوب إعاذة من استعاذ بالله وعدم المساس به بمكروه، لأن هذا يكون تعدِّياً على من استجارَ بالله سبحانه وتعالى، وذلك من نقص التّوحيد، وفي إعاذَتِه إكمالٌ للتّوحيد.

المسألة الثالثة: فيه وُجوب إجابة دعوة المسلم لأخيه المسلم، لِمَا في ذلك من جَبْر القُلوب وتثبيت المحبّة وإزالة النُّفرة بين الإخوة، أمّا إذا لم يُجب فهذا يسبِّب العكس، يسبّب النُّفرة ويسبِّب التباغُض بين النّاس والقطيعة.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على وجوب مكافأة صانع المعروف بمثل معروفِه إذا أمكن، فإن لم يمكن فإنّه يكافئه بالدعاء له بالخير.

المسألة الخامسة: في الحديث: النّهي عن عدم مكافأة صانع المعروف، لأنّ ذلك من صفات اللّئيم التي لا تليق بالمسلم. ٤

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: ((حتى ترون أنكم قد كافأتموه)).

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله. وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا يستعيذ عن شيء واجب فعلاً أو تركاً، فإنه لا يعاذ. ٥

الثانية: إعطاء من سأل بالله. وسبق التفصيل فيه. ٥

الثالثة: إجابة الدعوة. وسبق كذلك التفصيل فيها. ٥

الرابعة: المكافأة على الصنيعة. أي: على صنيعة من صنع إليك معروفاً ، وسبق التفصيل في ذلك. ٥

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه. وسبق أنه مكافأة في ذلك، وفيما إذا كان الصانع لا يكافا مثله عادة. ٥

السادسة: قوله: ((حتى ترون أنكم قد كافأتموه)). أي: أنه لا يقصر في الدعاء، بل يدعو له حتى يعلم أو يغلب على أظنه أنه قد كافأه.

وفيه مسائل أخرى، لكن ما ذكره المؤلف هو المقصود. ٥

(بَابُ لَا يُسَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةَ)

(بَابُ لَا يُسَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةَ) عَنْ جَابِرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: ((لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةَ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الشيخ رحمه الله صنع هذا كصنيع البخاري في صحيحه، والبخاري في صحيحه على ثلاثة أصناف:

- تارة يضيف فيقول بابُ كذا.
- وتارة يقول بابٌ وتكمل.
- أو تقول بابْ وتسكت ثم تكمل الكلام.

وهذه ثلاثة أصناف في البخاري جارية في هذا الكتاب. ٣

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله في "كتاب التّوحيد" لأنّ تعظيم صفات الله سبحانه وتعالى من تعظيم الله، وتعظيمُها من التّوحيد، لأنه تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وأمّا عدمُ تعظيمِها فإنّه تنقُّصٌ للتّوحيد، لأنّه تنقُّصٌ لله عزّ وجلّ.

"ووجهُ الله" صفةٌ من صفاتِه سبحانه وتعالى الذّاتيّة، وجه الله جل جلاله صفة ذات من صفاته سبحانه وهو غير الذات، الوجه صفة من الصفات وهو ما يواجَه به، الوجه في اللغة ما يواجه به، وهو مجمع أكثر الصفات في اللغة، الوجه ما يواجه به ويكون مجمعاً لأكثر الصفات. ٣

تواتَرتْ بإثباتِه الأدلّة في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ، وأجمع عليه علماء السنّة والجماعة: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧] فأثبت له وجهاً ووصفه بالجلال ووصفه بالإكرام.

كذلك قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِليه تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨]، فقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن:٢٧].

والسنّة: فيها أحاديث كثيرة في إثبات الوجه لله عزّ وجلّ، مثل الحديث الذي ساقَه المصنِّف: ((لا يُسأل بوجه الله إلاَّ الجنة))، ومثل حديث: ((أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلُمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة)).

ومثل أحاديث في هذا الباب كثيرة، ذكرها علماء السنّة والمصنِّفون في العقائد، الذين يسوقون الآيات والأحاديث، مثل كتاب "التّوحيد" لابن خُزيمة و"كتاب السنّة" للآجري، وكتاب "السنة" لابن أبي عاصم، وغيرها من الكتب المؤلَّفة في التّوحيد، كلُّهم يذكُرون النُّصوص الدّالة على صفاتِ الله سبحانه وتعالى، الصّفات الذّاتية كالوجه واليدين، والصّفات الفعليّة كالاستواء والنُّزول إلى سماء الدُّنيا، وغير ذلك من صفات الأفعال. ٤

فالله جل وعلا متصف بالوجه متصف به على ما يليق بجلاله وعظمته نثبت ذلك إثباتاً نعلم أصل المعنى ولكن كمال المعنى أو الكيفية فإننا نَكِل ذلك إلى عالمه وإلى المتصف به جل جلاله؛ ولكن نثبت على أصل عدم التمثيل والتعطيل كما قال جل وعلا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. ٣

فالوجه من الصّفات الذّاتيّة وهو أعظمُها، ولكن مع العلم واليقين والقطع بأنّ صفاتِ الله ليست كصفات خلْقِه، فالله له وجه والمخلوق له وجه، والله له يدان والمخلوق له يدان، والله جل وعلا له سمع وله بصر، والمخلوق له سمع وله بصر، ولكن صفات الله جل وعلا لائقةٌ به وبعظمتِه، وصفات المخلوقين تليقُ بهم وبخلقتهم، فلا تُشبه صفات المخلوقين صفات الخالق جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم:٦٥]، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص:٤]، كلّ هذا ينفي المماثَلة والمشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوق، فلا تشابُه وإن اشتركَتْ في المعنى، فإنّها لا تشترك في الكيفيّة والحقيقة.

ومَن شَبّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسَه فقد كفَر، كما قال نُعيم بن حماد -شيخ البخاري- وغيرُه علماء السلف: من شبّه الله بخلقه فقد كَفر، لأنّ الله جل وعلا يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ومَن جحد ما وصف الله به نفسَه فقد كفَر، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ويقول: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾، فأثبت له الوجه، فمن نفى ما أثبته الله لنفسه فهو مكذِّبٌ لله، ويكون كافراً بالله عزّ وجلّ، لأنّ الإيمان أنْ تؤمن بالله عزّ وجلّ وملائكته، وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخِر، وبالقدَر خيرِه وشرِّه، ومن الإيمان بالله: الإيمان بأسمائه وصفاتِه سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به.

فالله جل وعلا له وجهٌ كما أثبته لنفسه، ولكنه لا يشبه وجه المخلوق، ولا يدور بخلَد المؤمن -أو في ظنّ المؤمن- هذا الظنّ السيّء وهو المشابهة بين الله وبين خلقه، فمن دار بخلده ذلك فإنّه يكون ناقصَ الإيمان، فإنْ نفى ما وصف الله به نفسَه فإنّه يكون عديم الإيمان، نسأل الله العافية.

ولذلك يقولون: المشبّه يعبُد صنماً، والمعطِّل يعبُد عدماً، والموحِّد يعبُد رباً فَرْداً صمَداً. ٤

مناسبة هذا الباب للتوحيد: أن فيه تعظيم وجه الله عز وجل، بحيث لا يسأل به إلا الجنة. ٤

ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة من أن تعظيم صفات الله جل وعلا -سواء في ذلك صفات الذات أو صفات الفعل- هذا من تحقيق التوحيد ومن كمال الأدب والتعظيم لله جل وعلا، فإن تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم أسمائه وتعظيم صفاته يكون بأنحاء وأشياء متنوعة ومن ذلك أنك لا تسأل بالله أو بوجه الله أو بصفات الله جل جلاله إلا المطالب العظيمة التي أعلاها الجنة، فقال (باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)، (لا يُسأل) هذا نفي، والنفي هنا مضمن النهي المؤكد كأنه قال: لا يَسأل بوجه الله إلا الجنة، أو لا تَسأل بوجه الله إلا الجنة، فعدل عن النهي إلى النفي لكي يتضمن أن هذا منهي عنه وأنه لا يسوغ وقوعه أصلاً (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)، فلو فرض أنه يختار هل سيقع أو لا يقع فإنه ينفى وقوعه أصلا لما يجب من تعظيم الله جل جلاله وتعظيم توحيده وتعظيم أسماء الله جل وعلا وصفاته. ٣

(إلا الجنة) الجنة هي دار الكرامة التي أعدها الله جل وعلا للمكلفين من عباده الذين أجابوا رسله ووحدوه وعملوا صالحاً، وهي أعظم مطلوب؛ لأن الحصول عليها حصول على أعظم ما يسر به العبد، ولهذا كان من غير السائغ واللائق بل كان من غير الجائز أن يُسأل الله جل وعلا بنفسه أو بوجهه أو بصفة من صفاته أو باسم من أسمائه الحسنى إلا أعظم مطلوب، فإن الله جل جلاله لا يُسأل بصفاته الأشياء الحقيرة الوضيعة؛ بل يسأل أعظم المطلوب وذلك لكي يتناسب سؤال مع وسيلة السؤال، وهذا معنى هذا الباب في أن تعظيم صفات الله جل وعلا في أن لا تدعو الله بها إلا في الأمور الجليلة، فلا تسأل الله جل وعلا بوجهه أو باسمه الأعظم أو نحو ذلك في أمور حقيرة وضيعة لا تناسب تعظيم ذلك الاسم. ٣

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)). رواه أبو داود.

قوله: ((لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)).

روي بالنفي[١] والنهي[٢]، وروي بالبناء للمجهول، وهو الذي في الاصل، وروي بالخطاب للمفرد[٣]. ١

اختلف في المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحداً من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحداً من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة فإذاً لا يسألون بوجه الله مطلقاً، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك ذكره بعد "باب لا يرد من سأل بالله".

---

[١] هي رواية البيهقي في الأسماء و الصفات، ولفظه ((لا ينبغي لأحد أن يسأل بوجه الله شيئاً إلا الجنة)).

[٢] وهي رواية البيهقي في السنن الكبرى، والخطيب في الموضِح و لفظه: ((لا تسأل بوجه الله إلا الجنة)).

[٣] كرواية البيهقي و الخطيب السابق ذكرها.

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت من أمور الدنيا، فلا تسأله بوجه الله، لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله، كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، قال: ((أعوذ بوجهك))، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾، قال: ((أعوذ بوجهك))، ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: ((هذه أهون أو أيسر)).[١]

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعاً، لكان له وجه. ٥

قوله: ((إلا الجنة)) كأن يقول: "اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تدخلني الجنة"

وقيل: المراد لا تسألوا من الناس شيئاً بوجه الله، كأن يقول: "أعطني شيئاً بوجه الله"، فإن الله أعظم من أن يُسأل به شيءٌ من الحطام.

قلت: والظاهر أن كلا المعنيين صحيح، قال الحافظ العراقي: "وذكر الجنة إنما هو للتنبيه به على الأمور العظام لا للتخصيص، فلا يسأل بوجهه في الأمور الدنيئة، بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً كما يشير إليه استعاذة النبي ﷺ به".[٢] ١

وقد قال العلماء هنا: إن وجه الله جل جلاله يُسأل به الجنة، ولا يجوز أن يسأل به غيرها إلا ما كان وسيلة إلى الجنة أو كان من الأمور العظيمة التي هي من جنس السؤال بالجنة أو من لوازم السؤال بالجنة كالنجاة من النار وكالتثبيت عند السؤال ونحو ذلك، فالأمر المطلوب الجنة أو ما يقارب إليها من قول أو عمل، والنجاة من النار أو ما يقارب إليها من قول أو عمل، هذا يجوز أن نسأل الله جل وعلا إياه متوسلاً بوجهه العظيم سبحانه وتعالى.

---

[١] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿قل هو القادر﴾.

[٢] طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ العراقي (١٠٣/٣)

وأما غير الوجه من الصفات أو من الأسماء فالأدب أن لا تسأل إلا في المطالب العظيمة، وإذا كان ثم شيء من المطالب الوضيعة أو التي تحتاجها مما ليس بعظيم فلا يكن ثَم توسل بصفات الله الجليلة العظيمة؛ بل تقول: اللهم أعطني كذا، اللهم أسألك كذا، ونحو ذلك.
أما التوسل بصفات الله العظيمة كالوجه وكاسمه الأعظم ونحو ذلك فإن ذلك يختص بالمطالب العالية بما بين الاسم الأعظم والصفات العظمى مع المطالب العالية من المناسبة. ٣
وهذا من كمال التوحيد والإيمان أن لا يسأل بوجه الله إلا الجنة وما يقرب إليها كالعمل الصالح والاستقامة، والعافية من مضلات الفتن. ٦

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند مُنْصَرفه من الطائف حين كذَّبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا النبي ﷺ بالدعاء المأثور: ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي)) وفي آخره: ((أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يحل علي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله)) والحديث المروي في الأذكار: ((اللهم أنت أحق من ذُكر، وأحق من عُبد)) -وفي آخره- ((أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض))، وفي حديث آخر: ((أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت أي رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة)). وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.
فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يُقرب إلى الجنة أو الاستعاذة من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح: ((اللهم إني أسألك الجنة وما يُقرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما

يقرب إليها من قول وعمل)) بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث. كما لا يخفى. ٢

وقوله: ((بوجه الله)). فيه إثبات الوجه لله عز وجل، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف، فالقرآن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، والآيات كثيرة.

والسنة كما في الحديث السابق: ((أعوذ بوجهك)). ٥

لكن هذا الوجه عظيم يعظَّم، ولا يُسأل به الأشياء الحقيرة كمتاع الدنيا وأطماع الدنيا، وإنّما يُسأل به شيءٌ عظيم يليق بعظمتِه وهو الجنّة، لأنّ الجنة هي أعظم المطالِب، وهي غاية المطالب، فهي شيءٌ عظيم، أو ما يوصِّلُ إلى الجنة من الأعمال الصالحة، وفي الحديث ((أسألُك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل)).

فلا يُسأل بوجه الله إلاَّ الجنّة تعظيماً له أن يُسأل به شيءٌ من المحقَّرات.

وكلُّ ما دون الجنّة فإنّه حقير، إلاَّ إذا كان يوصِّل إلى الجنّة من الأعمال الصّالحة، فإنّه يُسأل بوجه الله. ٤

وفيه إثبات الوجه خلافاً للجهمية ونحوهم، فإنهم أَوَّلُوا الوجه بالذات، وهو باطل، إذ لا يسمى ذات الشيء وحقيقته وجهاً، فلا يسمى الإنسان وجهاً، ولا تسمى يده وجهاً، ولا تسمى رجله وجهاً.

والقول في الوجه عند أهل السنة كالقول في بقية الصفات، فيثبتونه لله على ما يليق بجلاله وكبريائه من غير كيف ولا تحديد، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. ١

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى فإنه

صفة كمال، وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها، فوقعوا في أعظم مما فروا منه. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيراً.
وطريقة أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا: الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسول الله ﷺ في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون له ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ وينفون عنه مشابهة المخلوق، فكما أن ذات الله لا تشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال. ٢

واختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلى نفسه: هل هو وجه حقيقي، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشيء الذي يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يعبر به عن الثواب؟
فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقي، لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ولما أراد غير ذاته، قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فـ ﴿ذي﴾ صفة لرب وليست صفة لاسم، و﴿ذو﴾ صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفاً بالجلال والإكرام، فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الذات وحدها، لأن الوجه غير الذات.
وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب، قالوا: ولو أثبتنا لله وجهاً حقيقاً للزم أن يكون جسماً، والأجسام متماثلة، ويلزم من ذلك إثبات المثل لله عز وجل والله تعالى يقول ليس كمثله شيء، وإثبات المثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثيلاً فيما يختص به فهو كافر، فنقول لهم:
أولاً: ما تعنون بالجسم الذي فررتم منه، أتعنون به المركب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث

يفتقر كل جزء منه إلى الآخر؟ إن أردتم ذلك، فنحن نوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية المتصفة بصفات الكمال فلا محذور في ذلك والله تعالى وصف نفسه بأنه أحد صمد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١-٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الصمد: الذي لا جوف له." [١]

ثانياً: قولكم: إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا، فهل جسم الدب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك. فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهي استلزام مماثلة الله لخلقه.

ونحن نشاهد البشر لا يتفقون في الوجوه، فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر.

ويلاحظ أن التعبير بنفي المماثلة أولى من التعبير بنفي المشابهة، لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن، ولأنه ما من شيئين موجودين إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر، فنفي مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله خلق آدم على صورته)) [٢] ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين فيجاب عنه بأنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب عز وجل بإجماع المسلمين والعقلاء، لأن الله عز وجل وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي موضع القدمين كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفاً ولا تخييلاً، ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعاً، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه، وعلى هذا، فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن

---

[١] ابن جرير (٧٤٢/٣٠).

[٢] البخاري: كتاب بدأ الخلق باب ما جاء في صفة الجنة، ومسلم كتاب الجنة ونعيمها/ باب أول زمرة تدخل الجنة.

يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم على صورة الله عز وجل ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: ((إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوء كوكب في السماء))[١]، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر، لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته، أي: صورة آدم، أي: أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضاً يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ: ((على صورة الرحمن)). ٥

ففي هذا الحديث مسألتان:

المسألة الأولى: فيه إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: فيه النّهي عن سؤال الأشياء الحقيرة بوجه الله عزّ وجلّ، وكلّ ما عدا الجنّة فإنّه حقير، فلا يُسأل بوجه الله عزّ وجلّ.

بقي أنّ هذا الحديث رواه أبو داود، وفي إسناده: سليمان بن معاذ، وهو ضعيف، فهو حديث ضعيف فكيف أورده المصنِّف هنا؟.

فنقول: المصنِّف رحمه الله في هذا الكتاب يستدل بالأحاديث الصحيحة أو الأحاديث الحسنة، أو الأحاديث الضعيفة التي لها شواهد تؤيدها، وهذا الحديث له شواهد في إثبات الوجه لله عزّ وجلّ من الكتاب والسنّة. ٤

والحديث وما فيه من اللين ينجبر بما جاء في رواية أخرى من النهي عن السؤال بوجه الله، فيكون هذا خاصا بسؤال الله سبحانه وتعالى بوجهه الكريم الجنة وما يقرب إليها وما يدعو إليها. ٦

---

[١] البخاري: كتاب الاستئذان/ باب بدء السلام، ومسلم: كتاب البر/باب النهي عن ضرب الوجه.

وروى البيهقي في الأسماء والصفات (٩٥/٢) بسند صحيح عن عبدالكريم بن مالك قال: "إن رجلاً جاء إلى عمر بن عبدالعزيز "فرفع إليه حاجته ثم قال: "أسألك بوجه الله تعالى"، فقال عمر رحمه الله: "قد سألت بوجهه فلم يُسأل شيئاً إلا إعطاه إياه"، ثم قال عمر رحمه الله:" ويحك ألا سألت بوجهه الجنة".محقق ١

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته، فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار. ٥

الثانية: إثبات صفة الوجه. وقد سبق الكلام عليه. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨] الْآيَةُ .فِي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلَت لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)).

لو: حرفٌ، يسمِّيه النُّحاة حرف امتناع لامتناع، تقول -مثلاً-: لو جاء زيدٌ لأكرمتُك، لو أطعتني لأكرمتُك، فامتنع الإكرام لامتناع المجيء أو امتناع الطّاعة.

أما دُخول (أل) عليه فليس هو للتعريف، لأنّ الحرف لا يعرَّف، وإنّما التعريف من خواصّ الأسماء، فـ (أل) هنا زائدة، فقولُه: "باب ما جاء في اللو" يعني: من النّهي عن ذلك، وذلك: لأنّ الإيمان بالقدَر هو أحد أركان الإيمان الستة، قال ﷺ: ((الإيمان: أنّ تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيرِه وشرِّه))، فقوله: ((تؤمن بالقدَر خيرِه وشرّه))، دليلٌ على أنّ الإيمان بالقدَر من أركان الإيمان الستّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾ [القمر:٤٩]، كلُّ شيءٍ فإنّ الله خلقه بقدَر، مقدَّرٌ خلقُه ومقدَّرٌ إيجادُه، ومقدَّرٌ كلُّ تفاصيلِه، لا يوجد في هذا الكون شيء إلاّ وهو مقدَّر من خير أو شر، من ضرر أو نفع، من صلاح أو فساد، من كفر أو إيمان، كلُّه مقدّر من الله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث الصحيح: ((إن الله كتب مقادير الأشياء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)).

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي: أنّها مكتوبة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها الله عزّ وجلّ، وقبل أن تحدُث في وقتها، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [التغابن:١١] إِذْنُ الله الكوني القدري، يعني: بقدره ومشيئته سبحانه وتعالى، فكل شيء مقدّر من الله سبحانه وتعالى.

فالإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستّة، وهو داخل في التّوحيد، وعدم الإيمان بالقدر يتنافى مع التّوحيد ويتنافى مع الإيمان، فمن كفر بالقدر فإنّه كافرٌ بالله عزّ وجلّ ولا توحيد له ولا دين له، لأنّه جحد القدر، وهذا سيأتي له بابٌ خاصٌّ سيعقده المصنِّف فيما بعد.

هذا وجه إيراد المصنف لهذا الباب في "كتاب التّوحيد"، أن جحود القدر ينافي التّوحيد، لأنه كفر بالله سبحانه وتعالى.

وكلمة "لو" إذا جاء بها الإنسان في سياق الجزع والسخط على ما يحصل له، فإن هذا نقص في التّوحيد، وجزع من القدر، لأن الواجب على المسلم: أن يرضى بقضاء الله وقدره، ولا يجزع ولا يسخط، وأن يعلم أنه لابد أن يحصل له ذلك شاء أم أبى جزع أم لم يجزع، لابد أن يحصل ما قدره الله سبحانه وتعالى. ٤

المقصود من هذا بيان أنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر، بل يجب التسليم والصبر، وعدم المعارضة للقدر بقوله "لو" عند مرض، أو موت قريب، أو غير ذلك، بل يجب التسليم والصبر والاحتساب. ٦

لما كان من معاني "لو" الاعتراض على القدر كان في ذلك قدح في التوحيد، فمن اعترض عل القدر لم يرض بالله رباً، ومن لم يرض بالله رباً لم يحقق توحيد الربوبية. ٩

أعلم أن من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر مع مباشرة الأسباب، فإذا فعل العبد ما أمر به شرعاً من الأسباب، و لم يأتي الأمر على مراده أو على ما يظنه فالواجب عليه الاستسلام للقضاء والقدر رِضَاً بالله رباً، فإن هذا من جنس المصائب، والعبد مأمور عند

المصائب بالصبر والاسترجاع والتوبة. وقول "لو" لا يجدي عليه إلا الحزن والتحسر مع ما يخالط توحيده من نوع المعاندة للقدر الذي لا يكاد يسلم منها من وقع منه هذا إلا ما شاء الله فهذا وجه إيراده هذا الباب في التوحيد. ١

قلب الموحد؛ قلب المؤمن لا يكون محققا مكمِّلا للتوحيد حتى يعلم أنّ كل شيء بقضاء الله جل وعلا وبقدره، وأنّ ما فعله سبب من الأسباب، والله جل وعلا مضى قدره في خلقه، وأنه مهما فعل فإنه لن يحجز قدر الله جل وعلا، فإذا كان كذلك كان القلب معظِّما لله جل وعلا في تصرفه في ملكوته، وكان القلب لا يخالطه تمني أن يكون شيء فات على غير ما كان، وأنه لو فعل أشياء لتغير ذلك السابق؛ بل الواجب أن يعلم أن قضاء الله نافذ وأن قدره ماضٍ وأن ما سبق من الفعل قد قدره الله جل وعلا وقدر نتائجه، فالعبد لا يمكنه أن يرجع إلى الماضي فيغير، وإذا استعمل لفظ (لو) أو لفظ (ليت) وما أشبهها من الألفاظ التي تدل على الندم وعلى التحسر على ما فات فإن ذلك يُضعف القلب ويجعل القلب متعلقاً بالأسباب منصرفاً من الإيقان بتصريف الله جل وعلا في ملكوته، وكمال التوحيد إنما يكون بعدم الالتفات إلى الماضي، فإن الماضي الذي حصل:

إما أن يكون مصيبة أصيب بها العبد فلا يجوز له أن يقول: لو كان فعلت كذا لما حصل كذا؛ بل الواجب عليه أن يصبر على المصيبة وأن يرضى بفعل الله جل وعلا ويستحب له الرضى بالمصيبة.

وإذا كان ما أصابه في الماضي معصية فإن عليه أن يسارع في التوبة والإنابة، وأن لا يقول لو كان كذا لم يكن كذا؛ بل يجب عليه أن يسارع في التوبة والإنابة حتى يمحو أثر المعصية.

فإن ما مضى من المقدر للعبد ما حالان:

إما أن يكون مصائب، إما أن يكون ذلك الذي مضى مصائب فحالها كما ذكرنا.

وإما أن يكون مصائب ومعاصي، فالواجب عليه أن ينيب وأن يستغفر وأن يقبل على الله جل جلاله، قد قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢]

الشيطان يدخل على القلب فيجعله يسيء الظن بربه جل وعلا وبقضائه وقدره، وإذا دخلت إساءة الظن بالله ضعُف التوحيد ولم يحقق العبد ما يجب عليه من الإيمان بالقدر والإيمان بأفعال الله جل جلاله، ولهذا عقد المصنف هذا الباب؛ لأن كثيرين يعترضون على القدر من جهة أفعالهم؛ يظنون أنهم لو فعلوا أشياء لتغير الحال، والله جل وعلا قد قدّر الفعل وقدّر نتيجة فالكل موافق لحكمته سبحانه وتعالى. ٣

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء، لأن "لو" تستعمل على عدة أوجه:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فَرَأْيُنا خيرٌ من شَرْعِ محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضاً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]، أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضاً، لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه، لأن الندم يكسب النفس حزناً وانقباضاً، والله يريد منا أن نكون في انشراح

وانبساط، قال ﷺ: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان)).[1]

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخسر، فقال لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية، كقول المشركين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، وفي الحديث عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: "لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان"، فهذا تمنى خيراً، وقال الثاني: "لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان" فهذا تمنى شراً فقال النبي ﷺ في الأول: ((فهو بنيته فأجرهما سواء))، وقال في الثاني: ((فهو بنيته، فوزرهما سواء)).[2]

السادس: أن تستعمل في الخبر المحض.

وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، لأحللت معكم))[3]، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل، وهذا هو الظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي.

لكن الظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمني شيئاً قدر الله خلافه. ٥

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الآية الأولى: ٥

---

[1] يأتي تخريجه.

[2] الإمام أحمد (٤/٢٣٠، ٢٣١)

[3] البخاري: كتاب التمني/ باب قول النبي ﷺ: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت))، ومسلم: كتاب الحج/ باب بيان وجوه الإحرام.

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آلعمران:١٥٧]

﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: المنافقين.

وهذه الآية جاءت في سياق غزوة أحد في سورة آل عمران، وما حصل على المسلمين فيها من المصيبة التي حلت بهم من استشهاد كثير منهم وانتصار عدوهم عليهم بسبب أنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ في تنظيم العسكر، فالرسول ﷺ نظم العسكر قبل القتال، وجعل جماعة من الرماة على جبل يحمون ظهور المسلمين، وقال لهم: ((لا تتركوا الجبل سواءً انتصرنا أو هزمنا))، ثم بدأت المعركة فصار المسلمون يقاتلون الكفار وظهورهم محمية، فاندفعوا على الكفار وقتلوا منهم وفتكوا بهم، فكان النصر للمسلمين.

ولما شرعوا في جمع الغنائم رءاهم الذين على الجبل فقالوا: ننزل نشارك في الغنائم، فنهاهم قائدهم عبد الله بن جبير وذكرهم بقول الرسول ﷺ: ((لا تتركوا الجبل سواء انتصرنا أو هزمنا))، فأبوا ونزلوا.

فلما نزلوا جاء الكفار من خلف المسلمين مع الجبل وانقضوا على المسلمين، وما شعر المسلمون إلاّ وهم بين الكفار من هنا وهنا، فدارت المعركة من جديد، وصارت على المسلمين المصيبة بسبب معصيتهم للرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢] يعني: تقتلونهم، ﴿بِإِذْنِهِ حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾، يعني: الرُّماة، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ من النّصر، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ هذا تطمينٌ للمسلمين، بعد العتاب طمأنهم بأنّهم قد عفي عنهم لِمَا لهم من السّوابق والفضل، لكن هذه عقوبة على المعصية، ﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] كان المسلمون في حالة الخوف الشديد، وقد أنزل الله عليهم النّوم، لأنّ النّوم أمان، فصار النوم فارقاً بين المؤمنين وبين المنافقين، المؤمنون أصابهم النوم وهذا أمانٌ من الله سبحانه وتعالى، والمنافقون ما ذاقوا غَمْضاً من الفزع ومن الخوف والجُبُن.

﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ هذا هو السّبب، المؤمن يظنّ بالله ظنّ الحقّ وأنّه قادمٌ على ربّه، وما عند الله خيرٌ له وأبقى، فهو يظنّ بربّه ظنّ الحق يحسِن الظنّ بالله عزّ وجلّ، فلذلك لا يخاف من الموت، لأنّه يؤمن بالله عزّ وجلّ، ويحسن الظنّ بالله وأنّه قادمٌ على ربٍّ كريم ووعدٍ من الله سبحانه وتعالى، فهو مطمئنّ، وأما المنافقون فإنهم يظنون بالله ظن السوء.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ هذا هو محلّ الشّاهد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، أرجعوا سبب القتل إلى أنهم ليس لهم تدبير، ولو كان لهم تدبير ما قُتلوا. ٤

قال ابن كثير: "فَسَّرَ ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عبدالله بن الزبير قال: قال الزبير: "لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا: أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّبِ بنِ قُشَيْرٍ ما أَسْمَعُهُ إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول مُعَتِّبٍ. رواه ابن أبي حاتم [١،٢]. ١

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. هذا من الاعتراض على الشرع، لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضاً على القدر أيضاً: أي لو كان لنا من حسن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فنقتل. ٥

قوله: ﴿مَا قُتِلْنَا﴾. أي: ما قتل بعضنا، لأنهم لم يقتلوا كلهم، ولأن المقتول لا يقول. ٥

---

[١] رواه ابن اسحاق –كما في الدر المنثور (٣٥٣/٢)، والبزار في مسنده (١٨٩/٣)، وابن جرير في تفسيره (١٤٣/٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧٩٥/٣) وإسناده حسن. وعزاه في الدر المنثور (٣٥٣/٢) لإسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

[٢] تفسير ابن كثير (٤١٩/١)

كل هذا على سبيل الذم؛ فدل ذلك على أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر في مرض، أو هزيمة، أو غير ذلك، وأن هذا من شأن المنافقين، فإن قدر الله ماضٍ، وأمره نافذ جل جلاله، وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة.

فالأسباب إذا تعاطها المؤمن، فإذا نزل القضاء فليس له أن يعترض بعد ذلك. ٦

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] فالبقاء في البيوت لا يمنع من الموت، فالذي مكتوبٌ عليه الموت في أيِّ مكان سيخرجُ ويذهب إلى مكانه الذي مكتوبٌ أنه يقتل أو يموت فيه.

فهذا هو محل الشاهد: "لو"، لأنه قال هذه الكلمة من باب الجزع والتسخُّط لقضاء الله وقدره وعدم الرضى بقضاء الله وقدره.

وإذا قيلت "لو" في مثل هذا الحال فإنَّها لا تجوز. ٤

قلت: فتبين وجه إيراد المصنف الآية على الترجمة، لأن قول "لو" في الأمور المقدرة من كلام المنافقين، ولهذا رد الله عليهم ذلك بأن هذا قدر، فمن كتب عليه شيء فلا بد أن يناله، فماذا يغني عنكم قول "لو" و "ليت" إلا الحسرة والندامة؟! فالواجب عليكم في هذه الحالة: الإيمان بالله والتعزي بقدره مع ما ترجون من حسن ثوابه، وفي ذلك عين الفلاح لكم في الدنيا والآخرة، بل يصل الأمر إلى أن تنقلب المخاوف أماناً، والأحزان سروراً وفرحاً، كما قال عمر بن عبد العزيز: "أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر"[1]. ١

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. [آل عمران:١٦٨].

هذه قالها عبد الله بن أُبيّ –رأس المنافقين.–٤

---

[1] انظر: سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم (ص/٩٣)، والكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز لأبي حفص الملاء (٢/٤٣٢–٤٣٣)، وجامع العلوم و الحكم (١/٥١٤ دار ابن الجوزي)

وعن ابن جريج في الآية قال: "هو عبدالله بن أبي: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين خرجوا مع النبي ﷺ يوم أحد". رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.[1] ١

﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني: من المؤمنين الذين خرجوا وقُتلوا في أُحد، وكيف سمّاهم إخوانهم؟، هل يكون المؤمن أخاً للمنافق؟، هذا حسَب الظّاهر، لأنّ المنافق في الظّاهر مؤمن، فهي أُخوّة بحسَب الظّاهر، لأنّ المنافق يعامَل معاملة المؤمن في الظّاهر، وتوكَل سريرَته إلى الله سبحانه وتعالى، فهو سمّاهم إخوانهم بحسب ما أظهروا من الإيمان.

وقيل: إخوانهم في النّسب؛ لأنّ عبد الله بن أُبيّ من قبيلة الأنصار ومن أهل المدينة فهم إخوانهم في النّسب، والله أعلم. ٤

ولو قيل: إنه شامل للأمرين، لكان صحيحاً. ٥

﴿وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾

قال ابن كثير: "لو سمعوا مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج، ما قتلوا مع من قتل".[2] ١

ويكون وصف هؤلاء بأمرين:

- بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

- وبالجبن عن تنفيذ الشرع "الجهاد" بقولهم: ﴿وَقَعَدُواْ﴾، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير "قد"، أي: والحال أنهم قد قعدوا، ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره. ٥

وقد ردّ الله عليه بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨] إذا كنتم تزعمون أنكم تمنعون الموت من هؤلاء فامنعوه عن أنفسكم.

---

[1] رواه ابن جرير في تفسيره (١٧٠/٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨١١/٣) وإسناده صحيح.

[2] تفسير ابن كثير (٤٢٦/١)

﴿قُلْ فَادْرَأُوا﴾ أي: امنعوا، ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من أنهم لو كانوا عندكم ما ماتوا وما قتلوا. ٤

قال ابن كثير: "أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾". [١] ١

قلت: وكان أشار على رسول الله ﷺ يوم أحد بعدم الخروج، فلما قَدَّرَ الله الأمر؛ قال ذلك تصويباً لرأيه، ورفعاً لشأنه، فرد الله عليه وعلى أمثاله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلا تقدرون على ذلك.

فَعُلِمَ أن ذلك بقضاء الله وقدره أي: يستوي الذي في وسط الصفوف والذي في البروج المشيدة في القتل والموت، بل ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] فلا ينجي حذر عن قدر، وفي ضمن ذلك قول (لو) ونحوه في مثل هذا المقام؛ لأن ذلك لا يجدي شيئاً ، إذ المقَدَّرْ قد وقع فلا سبيل إلى دفعه أبداً: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور :٤٨]. ١

فهذه الآية والتي مثلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوماً بشرع الله. ٥

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أُبي في غزوة أحد قال: "فلما انخذل يوم أحد وقال: "يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان؟" أو كما قال – انخذل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقًّا، الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة. وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحنة التي

---

[١] تفسير ابن كثير (٤٢٦/١)

يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيرًا، وينافق كثير منهم. ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا، وقد رأينا -ورأى غيرنا- من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا: آمنا، فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًّا؛ فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب" انتهى.[١]

قوله: وقد رأينا -ورأى غيرنا- من هذا ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان. ٢

الشّاهد في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾، هذا فيه استعمال (لَوْ) في مقام الجزع والتسخُّط وعدم الإيمان بالقدر، فالموت الذي حصل عليهم -بزعمه- ليس هو بقضاء الله وقدره وإنّما هو بسبب الخُروج، وأنّ البقاء في المدينة سببٌ للسلامة، ولا يرجِع هذا إلى القضاء والقدر، والسلامة والقتل كلاهما راجع إلى القضاء والقدر سواء بقوا في المدينة أو خرجوا إلى أُحد، فمن كتب الله أنّه يموت فإنّه سيموت في المدينة أو في أُحد، ومن كتب الله أنّه يبقى فسيبقى سواءً في المعركة أو في المدينة، فالأمر راجع إلى قضاء الله وقدره. ٤

ذكرنا أن قول (لو) في الماضي أن هذا لا يجوز وأن هذا محرم ودليل ذلك من الآيتين، ومناسبة الآيتين للباب ظاهرة وهو أن التحسر على الماضي بالإتيان بلفظ (لو) إنما كان من خصال

[١] مجموع بالفتاوى (٧/٢٨٠)

المنافقين قال جل وعلا عن المنافقين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ وقال ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وهذا في قصة غزوة أحد كما هو معروف، فهذا من كلام المنافقين.

فيكون -إذن- استعمال (لو) من خصال النفاق وهذا يدل على حرمتها. ٣

مناسبة الباب للتوحيد.

أن من جملة أقسام (لو) الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر، فإنه لم يرض بالله رباً، ومن لم يرض بالله رباً، فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضي بالله رباً، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله رباً تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ: ((عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له))[1]، ومهما كان، فالأمر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلاً في سفر ثم أصبت في حادث، فلا تقل: لو أني ما خرجت في السفر ما أصبت، لأن هذا مقدر لابد منه. ٥

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان))[2].

"وفي الصحيح" يعني: في "صحيح مسلم". ٤

---

[1] مسلم: كتاب الزهد/ باب المؤمن أمره كله خير.

[2] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٢٦٦٤)، وأحمد في مسنده (٣٦٦/٢، ٣٧٠) عن أبي هريرة.

والمؤلف رحمه الله حذف منه جملة، وأتى بما هو مناسب للباب، والمحذوف قوله: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)). ٥

قوله: ((المؤمن القويّ)) المراد بالقويّ هنا: قوّة الإيمان أي: القويّ في إيمانه. ٤

ففي إيمانه، يعني: ما يحل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه، يعني: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحزم في العبادات وما أشبه ذلك. ٥

وكذلك القويّ في بدنه ورأيِه وتدبيرِه، فالقوّة تشمل قوّة الإيمان، وهذا هو الأصل والأساس، وقوّة الرأي والتدبير، وقوّة البدن أيضاً، لأنّه ينفع بقوّته، ينفع نفسَه وينفع غيرَه، فنفعُهُ يكون متعدِّياً. ٤

وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه، لأن "القوي" وصف عائد على موصوف وهو المؤمن، فالمراد: القوي في إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر. ٥

قلت: الظاهر أن المراد القوة في أمر الله وتنفيذه، والمسابقة بالخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على ما يصيب في ذات الله ونحو ذلك، لا قوة البدن. ولهذا مدح الله الأنبياء بذلك في قوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥] فالأيدي: القوة، والعزائم، في تنفيذ أمر الله. وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]. ١

((خير وأحب إلى الله))

فهو ((خيرٌ)) أفعل تفضيل، يعني: أكثرُ خيراً. ٤

خير في تأثيره وآثاره، فهو ينفع ويقتدى به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب. ٥

((وأحبُّ إلى الله)) هذا فيه: إثبات المحبّة لله عزّ وجلّ، وأنّه يحبّ المؤمن القويّ. والمحبّة من صفات الله سبحانه وتعالى. ٤

فيه أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب على الحقيقة كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، وفيه أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها فهو القوي، ويحب المؤمن القوي، وهو وِتْرُ يحب الوِتْرَ، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ومحسن يحب المحسنين، وصبور يحب الصابرين، وشكور يحب الشاكرين. ١

((من المؤمن الضّعيف)) الضعيف في إيمانه، وكذلك الضعيف في إرادتِه وتدبيرِه وبدنه، لأنّ نفعَه يكون قليلاً لنفسه ولغيره. ٤

وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن. ٥

قال: ((وفي كلٍّ خير)) المؤمن كلُّه خير، المؤمن القويّ والمؤمن الضعيف، كلّهم فيه خير. ٤

كل من المؤمن القوي والمؤمن الضعيف على خير وعافية؛ لاشتراكهما في الإيمان والعمل الصالح. ولكن القوي في إيمانه ودينه أحب إلى الله. وفيه أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض. ١

لكن المؤمن القويّ خيرهُ متعدٍّ إلى غيره، والمؤمن الضعيف خيرهُ قاصرٌ على نفسه لا يتعدّاه.٤

وهذا النوع من التذييل يسمى عند البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: ((خير وأحب))، لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان ٢٤] مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: ((خير وأحب)) صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: ((وفي كل خير)) رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]. ٥

وقوله: ((احرِص))

بكسر الرّاء، ويجوز الفتح، والحرص معناه: المبالَغة في طلب الشيء.٤ لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا. ٥

ومعنى قوله: ((احرص على ما ينفعك)) يعني: بالغ في طلبهِ، وابذل الوُسع في تحصيلِه، فإنّ النفع مطلوب. ٤

وأفعال العباد بحسب السير والتقسيم لا تخلو من أربع حالات:

١. نافعة، وهذه مأمور بها.

٢. ضارة، وهذه محذر منها.

٣. فيها نفع وضرر.

٤. لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر، إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعاً، ولا يمكن أن تجد شيئاً من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر، إما ذاتي، أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السير والتقسيم.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت))[1]. ٥

قال ابن القيم: "سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على مالا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص؛ فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع"[2]. ١

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهر جداً، لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

و((ما)): اسم موصول بفعل ((ينفع))، والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم الفاعل، كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع، لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهذه الزيادة لابد أن نحرص عليها، لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذلك الوصف، فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره، فتقدم على النافع لوجهين:

١. أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢. أن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

---

[1] البخاري: كتاب الأدب/ باب إكرام الضيف، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الحث على إكرام الجار.

[2] شفاء العليل (ص:١٩)

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار، لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة لقوله: ((احرص على ما ينفعك)). ٥

ثم قال: ((واستعن بالله)) يعني: لا تعتمد على الحرص فقط ولكن مع الحرص استعن بالله سبحانه وتعالى، لأنّه لا غنى لك عن الله، ومهما بذلْت من الأسباب فإنّها لا تنفع إلاّ بإذن الله سبحانه وتعالى، فلذلك جمع بين الأمرين: فعل السبب مع الاستعانة بالله عزّ وجلّ. ٤
لأنه لا يحصل له ذلك، إلا إذا كان مستعيناً بالله. ٧
الواو تقتضي الجمع فتكون الاستعانة مقرونه بالحرص، والحرص سابق على الفعل، فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.
والاستعانة: طلب العون بلسان المقال، كقولك: اللهم أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله" عند شروعك بالفعل.
أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك عز وجل أن يعينك على هذا الفعل، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.
أو طلب العون بهما جميعاً، والغالب أن من استعان بلسان المقال، فقد استعان بلسان الحال.٥
والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه؛ ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد. فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله. ٢
قال ابن القيم: "لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله، ومشيئتة، وتوفيقه؛ أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام ﴿إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين﴾، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده ويستعين به."[١].

[١] شفاء العليل (ص/١٩).

وقال غيره: ((استعن بالله)) أي: "اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله، لا من غيره" [١]، كما قال تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٤] فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل. فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وقد كان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: ((الحمد لله نستعينه ونستهديه)) [٢]، ومن دعاء القنوت: ((اللهم إنا نستعينك)) [٣]، وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) [٤]، وكان ذلك من دعائه ﷺ [٥].

ومنه أيضاً: ((رب أعني ولا تُعِنْ علي)) [٦] وإذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به؛ كان مستعيناً بالله عز وجل، متوكلاً عليه، راغباً وراهباً إليه؛ فيتحقق له مقام التوحيد إن شاء الله تعالى. ١

---

[١] انظر شرح مسلم لنووي (٢١٥/١٦)

[٢] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٨٦٧) عن ابن عباس وليس فيه: ((ونستهديه))، وإنما جائت هذه اللفظة في رواية الشافعي في مسنده (ص/٦٧) والبيهقي في معرفة السنن والآثار (رقم ١٧٤١) وفي إسناده إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي وهو متروك.

[٣] صح عن عمر موقوفاً؛ رواه عبدالرزاق في مصنفه (٤٩٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٧٠٢٧). وغيرهم وورد عن عثمان، وعلي، وابن مسعود، وعن جمع من التابعين

[٤] رواه الإمام أحمد في المسند (٢٤٤/٥، ٢٤٥، ٢٤٧) وعبد بن حميد في مسنده (رقم ١٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٩٠) وغيرهم وإسناده صحيح كما قال النووي في رياض الصالحين

[٥] رواه البزار في مسنده (رقم ٢٠٧٥)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢١١/٢)، وغيرهما من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه وإسناده صحيح.

[٦] رواه الإمام أحمد في المسند (٢٢٧/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (رقم ٢٩٣٩٠)، وعبد بن حميد في مسنده (رقم ٧١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٦٤). وغيرهم. وإسناده صحيح، وقال الحافظ في الأمالي المطلقة (ص/٢٠٦): ((حديث حسن))

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً، فهذا جائز ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، كما لو عجزت عن حمل شيء بيد واحدة، فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى، وعلى هذا، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله ﷺ: ((استعن بالله)). ٥

ثم قال: ((ولا تعجزَن)) بفتح الزاي، ويجوز الكسر، والنون: نون التوكيد الثّقيلة. هذا نهي، نهيٌ عن العجز. ٤

نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً، وفي الحديث: ((الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))[1]. ٢

والعجز معناه: الكسل والإهمال، وليس العجز الجسمي، فالإنسان إذا عجز عجزاً جسميّاً لا يؤاخَذ لأنّه لشيء باختيارِهِ، لكن المراد: عجز الكسل وعجز الإهمال وإيثار الرّاحة هذا هو المنهيّ عنه، لأنّه يفوِّت على المسلم خيراً كثيراً، ولهذا: كان النّبي ﷺ يستعيذ بالله من العجز والكسل ومن الجُبُن والبُخل ومن غلبة الدَّيْن وقهر الرجال. ٤

والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشيء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان، ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي ﷺ: ((صل قائماً، فإن لم تستطع، فقاعداً، فإن لم تستطع، فعلى جنب))[2].

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل، اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل.

---

[1] الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩)، ابن ماجه الزهد (٤٢٦٠).

[2] البخاري: كتاب تقصير الصلاة/ باب إذا لم يطق قاعداً صلي على جنب.

لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدع، لأنك إذا عجَّزت نفسَك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدني من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل ولا سيما النافع ثم أتاه الشيطان فثبطه.

لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار، فيجب عليه الرجوع عنه، لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وذكر في ترجمة الكسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعاماً تريد أن تصعد به حائطاً، كلما صعدت قليلاً سقطت، وهكذا حتى صعدت، فأخذ درساً من ذلك، فكابد حتى صار إماماً في النحو. ٥

قال ابن القيم: "العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجر، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه ومردها إليه".[١] ١

فما أكثر ذلك في الناس، فكم فوت الإنسان على نفسه من الخير، وهو يقدر عليه إذا رغب فيه واستعان بالله فإنه يحصل و لا حول و لا قوة إلا بالله. ٧

((وإنْ أصابك شيءٌ))

هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز وهذه المراتب إليك.

---

[١] شفاء العليل (ص/١٩)

المرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود، فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: ((وإن أصابك))، ففوض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: ((وإن أصابك شيء)). أي: مما لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع. ٥

بعدما تحرص على ما ينفعك وتستعين بالله وتترُك العجز، بعدما تعمل هذه الأسباب إذا أصابك شيء عكس ما تُريد وعكس ما تطلُب فلا تجزع وأعلم أنّ هذا بقضاء الله وقدره، وأنّ الله لو قدّر لك شيئاً لحصل ولكنّه لم يقدِّر لك، ولا تدري ما الخيرة فيه، لعلّ الله حبسه عنك لخير أرادَه بك، ربّما أن الإنسان يحرص على شيء لو حصل له لأهلَكه، فالله يمنعه عنه رحمةً به: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أَمْرٍ أُمِرَ بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز، وأمْرٍ أُصِيبَ به من غير فعله. فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعض العقلاء -ابن المقفع أو غيره-: الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له. فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله. ٢

((فلا تقل: لو أنّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا)) لا ترجع هذا إلى تقصيرِك، ولكن أرجِعه إلى قضاء الله وقدرِه. ٤

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأول: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

الثاني: أن يقول: لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر ما فاتني الربح.

وذكر النبي ﷺ الثاني دون الأول، لأن هذا الإنسان عامل فاعل، فهو يقول: لو أني فعلت الفعل الفلاني دون هذا الفعل لحصلت مطلوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبياً من الأعمال. ٥

((ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل))

((فإذا أصابك شيء فقل قَدَرُ الله وما شاء فعل))، وبعضهم ضبطها: بـ ((قَدَّرَ)) الله وما شاء فعل، أي: قدر هذا الشيء الواقع، جعل قدر فعل ماض، والله فاعل، والمعنى الأول أظهر، يعني هذا الواقع قدر الله، يعني مقدور الله، وما شاء الله فعله. ٦

قوله: ((قَدَّرَ الله)). خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا قدر الله.

وقدر بمعنى مقدور، لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا، لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله أي مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير، لأن المفعول نتيجة الفعل.

المعنى: إن هذا الذي وقع قدر الله وليس إلي، أما الذي إلي فقد بذلت ما أراه نافعاً كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله عز وجل، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي، فإنه لا يلام على شيء ويفوض الأمر إلى الله. ٥

أي: هذا قدر الله، والواجب التسليم للقدر، والرضا به، واحتساب الثواب عليه. ٢

لأن أفعاله تعالى إنما تصدر عن حكمة وعلم وفضل وعدل ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف :٤٩]. ٧

يعني: أرجِع هذا إلى قضاء الله وقدره، فالذي منعه عنك ليس هو فعلُك أو تركك، وإنّما الذي منعه عنك هو الله سبحانه وتعالى، ولا تدري لعلّ الله أراد بك خيراً وصرف عنك شرًّا، فارْض بقضاء الله وقدره.

هذا هو شأن المؤمن الذي يؤمن بالقضاء والقدر، أما المنافق وضعيف الإيمان فإنّه إذا أصابَه شيء يكرهُه جزع وتسخّط وقال: هذا بسبب فلان أو هذا بسبب أنّي ما علمت كذا أو كذا. هذا جُحودٌ للقدر، أو عدم إيمان بالقدر، أو ضعف إيمان بالقدر، وما هكذا المؤمن. ٤

قوله: ((وما شاء فعل)). جملة مصدرة بـ ((ما)) الشرطية، و((شاء)): فعل الشرط وجوابه: ((فَعَلْ))، أي: ما شاء الله أن يفعله فعله، لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [الرعد: ٤١]، وقد سبق ذكر قاعدة، وهي أن كل فعل لله تعالى معلق بالمشيئة، فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقاً بالمشيئة المجردة، لأن الله لا يشرع ولا يفعل إلا الحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد، ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله علي جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ٥

فقول: ((قدر الله وما شاء فعل)) يحلّ عن المسلم مشاكل كثيرة.

ثم قال ﷺ: ((فإنّ لو)) أي: قول: ((لو)).

((تفتح عمل الشيطان)) إذا أرجعتَ هذا إلى غير القضاء والقدر دخل الشيطان، وصار يوسوس لك ويلقي عليك الأوهام ويُلقي عليك القلق النفسي، وتُصبح في همٍّ وغم وحزن، أما إذا أغلقتَ هذا الباب وقلتَ: "قضاءُ الله وقدرُه"، أو "قدَّر الله وما شاء فعل" فإنّك تُغلق باب الشيطان. ٤

((تفتح عمل الشيطان)) أي: من الجزع والعجز واللوم والسخط من القضاء والقدر ونحو ذلك. ١

أي: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضا، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض. ٢

ولهذا من قالها على وجه المنهي عنه، فإنْ سَلِمَ من التكذيب بالقضاء والقدر لم يسلم من المعاندة له، واعتقاد أنه لو فعل ما زعم لم يقع المقدور ونحو ذلك، وهذا من عمل الشيطان. ١

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن، فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شيئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، حتى في المنام يريه أحلاماً مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وحينئذ لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر، فقال ﷺ: ((لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان))[١]، فإذا رضي الإنسان بالله رباً، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لابد أن يقع، أطمأنت نفسه وانشرح صدره. ٥

((فإن لو تفتح عمل الشيطان)) لما فيها من الاعتراض على القدر ؛ ولما تسببه من أضرار لقائلها، وذلك من عدة وجوه:

١. أن اعتراضك على ما حصل اعتراض على قدر الله.

٢. أنها من باب التحسر والندم وهو لا يفيد.

٣. يعود هذا التحسر على نفسية المصاب بالاكتئاب والقلق والقنوط ويفتح باب للشيطان.

٤. يسد قائلها على نفسه أبواب من الخير عظيمة. ٩

---

[١] مسلم: كتاب المساجد/ باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام.

ف "لو" مفتاح لباب الشيطان، و"قدّر الله وما شاء فعل" إغلاق لباب الشيطان، تستريح من شرِّهِ ومن هُمومه وأحزانِهِ ووساوسه. ٤

العبد إذا فاته ما لم يُقَدَّر له فله حالتان: حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى "لو" ولا فائدة في "لو" ههنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة، التي توجب وجود المقدور، وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: ((وإن أصابك شيء)) أي غلبك الأمر ولم يحصل المقصود بعد بذل جهده، والاستعانة بالله فلا تقل: ((لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل)). فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين؛ حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته.

فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب، والاختيار، والقيام بالعبودية باطناً وظاهراً في حالتي حصول المطلوب وعدمه." [١] هذا معنى كلام ابن القيم.

وقال القاضي: "قال بعض العلماء: هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتماً، وأنه لو فعل ذلك لم يُصِبْهُ قطعاً". فأما من رد ذلك إلى مشيئة الله تعالى، وأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله، فليس من هذا، واستدل بقول إبي بكر الصديق في الغار: ((لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا)) [٢].

---

[١] شفاء العليل (ص/١٩).

[٢] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٣٦٨)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٣٨١) عن أنس عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال القاضي: وهذا ما لاحجة فيه، لأنه أخبر عن مستقبل، وليس فيه دعوى لرد القدر بعد وقوعه". قال: "وكذا جميع ما ذكره البخاري فيما يجوز من "الو" كحديث: ((لولا حدثانُ قومك بالكفر، لأتممت البيت على قواعد إبراهيم))[1] و((لو كنت راجماً بغير بَيِّنة لرجمت هذه))[2] و((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك))[3] وشِبْهُ ذلك وكله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر ولا كراهة فيه لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته، فأما ما ذهب فليس في قدرته. ١

يبقى إشكالٌ وهو: أنّ الرسول ﷺ قال لأصحابهِ في حجّة الوداع: ((لو استقبلْتُ من أمري ما استدبرت لَمَا سُقت الهدي ولأحللتُ معكم وجعلتها عمرة)) أليس في هذا استعمال "لو" في شيء تبيّن للرّسول ﷺ أنّه فاته وهو فضيلة التمتُّع بالعْمرة إلى الحج؟، ألاَ يتعارض مع قوله: ((وإنْ أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا وكذا)).

الجواب: لا تعارض، لأنّ "لو أني فعلتُ كذا وكذا لكان كذا وكذا "هذا من باب الجزع على شيءٍ حصل وانتهى، أما ((لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت)) فهو إخبارٌ عن المستقبَل لا عن الماضي، وأنّ الرّسول ﷺ لو تبيّن له فضل العُمرة والتّمتّع بها إلى الحج لتمتّع ﷺ ولَمَا ساق الهدي، فهو إخبارٌ عمّا يفعله في المستقبَل. ٤
فإن قيل ما تصنعون بقوله ﷺ: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة))[4]؟

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ١٥٨٣)، ومسلم (رقم ١٣٣٣) عن عائشة م.

[2] رواه البخاري في صحيحه (٦٨٥٥)، ومسلم في صحيحه (رقم ١٤٩٧).

[3] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٨٨٧)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٥٢).

[4] رواه البخاري في صحيحه (رقم ١٦٥١)، مسلم في صحيحه (رقم ١٢١٨) عن جابر.

قيل: هذا كقوله: ((لولا حدثان قومك بالكفر)) ونحوه مما هو خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر، بل هو إخبار لهم أنه لو استقبل الإحرام بالحج؛ ما ساق الهدي ولا أحرم بالعمرة. بقوله لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة حثا لهم وتطييبا لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره، فليس من المنهي عنه، بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهى عن ذلك في معارضة القدر أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور. ١

فهذا هو الجمع بين الأحاديث؛ فالرّسول ﷺ يُخبر عن مستقبَل، وأيضاً هو يتمنّى عمل طاعة وعمل قُربة إلى الله سبحانه وتعالى، وليس يتجزّع على شيء فات أو شيء مضى، فلا تعارُض بين هذا وهذا. ٤

((لو)) هنا كانت على الماضي ((أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ)) وهذا النهي للتحريم ((لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لكَاَن كذا)) هذا لأنه سوء ظن ولأنه فتح عمل الشيطان، فالشيطان يأتي المصاب فيغريه بـ(لو) حتى إذا استعملنا ضعف قلبه وعجز وظن أنه سيغير من قدر الله شيئاً ، وهو لا يستطيع أن يغير من قدر الله شيئاً ؛ بل قدر الله ماض ولهذا أرشده عليه الصلاة والسلام أن يقول: ((قَدَّرُ اللّهُ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ))؛ لأن ذلك راجع إلى قدره وإلى مشيئته.

هذا كله من النهي والتحريم راجع إلى ما كان من استعمال (لو) أو (ليت) وما شابههما من الألفاظ في التحسر على الماضي وتمني أن لو فعل كذا حتى لا يحصل له ما سبق، كل ذلك فيما يتصل بالماضي.

أما المستقبل أن يقول: لو فعلت كذا وكذا، في المستقبل، فإنه لا يدخل في النهي؛ وذلك باستعمال النبي عليه الصلاة والسلام لذلك حيث قال مثلاً ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة)) ونحو ذلك من الأدلة، فاستعمال (لو) في المستقبل الأصل فيه الجواز إلا إن اقترن بقول القائل (لو) يريد المستقبل: اعتقاد أن فعله

سيكون حاكماً على القدر؛ كاعتقاد بعض الجاهليين: لو حصل لي كذا لفعلت كذا. تكبرًا وأنفة واستعظاماً لفعلهم وقدرتهم، فإن هذا يكون من المنهي؛ لأن فيه تجبراً، وفيه تعاظماً، والواجب على العبد أن يكون ذليلاً؛ لأن القضاء والقدر ماضٍ، وقد يحصل له الفعل، ولكن ينقلب على عقبيه، كحال الذي قال الله جل وعلا فيه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُوُنَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٧٥) فَلَمَّا ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ(٧٦)فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ بِمَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧] فإنهم قالوا: لو كان لنا كذا وكذا وكذا لفعلنا كذا وكذا، فلما أعطاهم الله جل وعلا المال ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، فهذا فيه نوع تحكم على القدر وتعاظم، فاستعمال (لو) في المستقبل إذا كانت في الخير، مع رجاء ما عند الله بالإعانة على أسباب الخير، فهذا جائز.

أما إذا كان على وجه التجبر والاستعظام فإنه لا يجوز؛ لأن فيه نوع تحكُّم على القدر. ٣

أما إذا كان "لو" لبيان ما ينبغي، مثل ما قال ﷺ:((لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت)) هذا ليس للاعتراض، ولكن لبيان الأفضل، مثل لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا، مما يبين للناس أنه الأفضل وأنه الأحرى، ولو علمت أن فلانًا موجودًا لزرته، ولو علمت أن فلانًا مريضًا لعدته، أو ما أشبه ذلك مما يسفر عن أسفه على ما فات عليه، ليس على سبيل الاعتراض، هذا لا خلاف في هذا الباب، وإنما الممنوع هو الاعتراض على القدر، وأما إخباره وأنه لو كان كذا لفعل كذا، لو كان فلانًا موجودًا لقرأت عليه، لو كان العالم موجودًا لقرأت عليه، لو علمت أن فلانًا مريضًا لزرته، لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سفرت إلى كذا، وما أشبه ذلك، ليس هذا من باب الاعتراض. ٦

فإن قيل: ليس في هذا رد للقدر ولا تكذيب به، إذ تلك الأسباب التي تمناها من القدر، فهو يقول: لو أني وفقت لهذا القدر لا ندفع به عني ذلك القدر، فإن القدر يدفع بعضه ببعض.

قيل: هذا حقٌ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، فأما إذا ما وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبب إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر، فهو أولى به من قول: "لو كنت فعلت" بل وظيفته في هذه الحال أن يستقبل فعله الذي يدفع به المكروه، ولا يتمنى مالا مطمع في وقوعه، فإنه عجز محض والله يلوم على العجز، ويحب الكَيْسَ ويأمر به، والكَيْسُ مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده". انتهى ملخصا من كلام ابن القيم.[١]. ١

وفي الباب مسائل:

- وُجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّه الركن السّادس من أركان الإيمان، وهو من علامات التّوحيد. وعدم الإيمان بالقضاء والقدر يتنافى مع التّوحيد وهو من علامات النفاق.
- يُستفاد من الآيتين والحديث: وُجوب ترك "لو" عند نُزول المصائب والمكروهات، لا يقول: "لو أنّي فعلتُ كذا وكذا ما حصلت هذه المصائب"، بل يقول: هذه المصائب مقدَّرةٌ من الله سبحانه وتعالى، فيرضى بقضاء الله وقدره.
- فيه الحثّ على فعل الأسباب، لقوله ﷺ: ((احرص على ما ينفعُك)).
- فيه النّهي عن الاعتماد على الأسباب ووُجوب الاستعانة بالله تعالى: ((واستعن بالله)). ٤ لأن الحرص قد لا يؤدي إلى نتيجة فهو السبب، فلابد من التوكل والاستعانة بالله —عز وجل—؛ فإنه لا مدبر ولا رازق ولا شافي إلا الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله. ٩
- فيه النّهي عن الإهمال والكسل وتعطيل الأسباب.
- فيه علة النّهي عن قول "لو" وهو لأنّها تفتح عمل الشّيطان، وأمّا الاستعانة بالله والحرص على ما ينفع وترك التلوُّم بقول "لو" فإنّ هذا يُغلق باب الشّيطان عن الإنسان.
- فيه فضل المؤمن عموماً، وأن المؤمن القوي أفضل من المؤمن الضعيف. ٤

---

[١] زاد المعاد (٢/٣٥٧-٣٥٨)

- أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير، لقوله: ((وفي كل خير)). ٥
- فيه إثبات محبة الله للمؤمنين وأنها تتفاضل بحسب قوتهم وضعفهم في الإيمان وغيره. ٤
- أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي، ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.[١] ١
- اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه، لقوله: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)).
- زيادة الإيمان ونقصانه، لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص، لأن النقص لم يرد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

والراجح القول الأول، لأنه مع لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: ((ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن))[٢]، يعني: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة ٢٦٠].

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر، زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال، فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

---

[١] ابن القيم (شفاء العليل ٣٣).

[٢] البخاري: كتاب الحيض/ باب ترك الحائض للصوم، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان.

- أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها، لقوله: ((أحرص على ما ينفعك))، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ، فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمراً دنيوياً.
- أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع، لقوله: ((احرص على ما ينفعك)). ٥
- ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا. وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه من غير حرص، فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥] فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى. ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أَزِمَّة الأمور بيده ومصدرها منه ومَرَدّها إليه.[١] ١

- الموقف الصحيح عند حصول المصيبة: عدم الجزع، وأعلم أن ما أصابك إنما هو رفعة لدرجاتك وحط عن سيئاتك، وأن المقادير قد كتبت قبل خلق الخليقة، فما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فلا تعترض على قدر الله بل قل: قدر الله وما شاء فعل. ٩
- أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة، لقوله: ((ولا تعجزن)).

[١] ابن القيم (شفاء العليل) (٣٣)

- أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر، لقوله: ((ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل)). وأما الذي يمكنك، فليس لك أن تحتج بالقدر. وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم عليهما الصلاة والسلام، وقال له: "لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله علي"[1]، فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون القدر يكذبون هذا الحديث، لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت في "الصحيحين" وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج بل احتج بالخروج نفسه. معناه أن فعلك صار سبباً لخروجنا، وإلا فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث. ٥

قال شيخ الإسلام: "لأن موسى قال له: "لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة" فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنباً، وأما كونها لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس- فليس مرادًا بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس، انتهى.[2] ٢

وذهب ابن القيم رحمة الله إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها، فالمشركون لما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كذبهم الله، لأنهم لا يحتجون على شيء مضي ويقولون: تبنا إلى الله، ولكن يحتجون على البقاء في الشرك.

---

[1] البخاري: كتاب القدر/ باب تحاج آدم وموسى، ومسلم: كتاب القدر/ باب حجاج آدم وموسى.

[2] ابن تيمية (رسالة شرح كلمات من فتوح الغيب) (جامع الرسائل) (٢/١٣٤).

- أن للشيطان تأثيراً على بني آدم، لقوله: ((فإن لو تفتح عمل الشيطان))، وهذا لا شك فيه، ولهذا قال النبي ﷺ: ((إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم))[1].

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله عز وجل، كما أن الروح تجري مجرى الدم، وهي جسم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لمة المِلَكْ، فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللمَلَكِ لمة، ومن وفق غلبت عنده لمة المِلَك لمة الشيطان، فهما دائماً يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة بالسوء، وأما النفس اللوامة فهي وصف للنفسين جميعاً.

- حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهي عن قول "لو" ببيان علته، لتتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيماناً وامتثالاً. ٥

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: لو، إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

[1] البخاري: كتاب الاعتكاف/باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ومسلم: كتاب السلام/ باب أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الأولى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨].

الثانية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]، أي: ما أخرجنا وما قتلنا، ولكن الله تعالى: أبطل ذلك بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، والآية الأخرى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨]، فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨]، أي: أن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل، فادرؤوا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد، لكانوا على ضلال مبين. ه

الثانية: النهي الصريح عن قول: لو، إذا أصابك شيء.

لقول الرسول ﷺ: ((فإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا)). ه

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان. فالنهي عن قول "لو" علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن. ه

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن. ويعني قوله: ((ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل)).ه

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله. لقوله ﷺ: ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)). ه

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

لقوله: ((ولا تعجزن))، فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز، فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء، لأنه هو الذي في مقدور الإنسان. ه

(باب النهي عن سب الريح)

(باب النهي عن سب الريح)

عن أبي بن كعب ط أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به)) صححه الترمذي[1].

هذا الباب من جنس الأبواب السابقة التي فيها النّهي عن سبّ الدهر، والنّهي عن قول: "لو" وغير ذلك، والنّهي عن التنجيم، كلّ ما فيه إضافة الأشياء إلى غيرِ الله عزّ وجلّ فإنّه منهيٌّ عنه، لأنّ الأُمور كلّها بيد الله سبحانه وتعالى، وهو خالقُها ومدبِّرها فتُضاف إليه سبحانه وتعالى ولا تُضاف إلى غيره لا إضافة سبّ ولا إضافة مدح، لأنّ في هذا تنقصاً لله عزّ وجلّ وإسناد الأمور إلى غيرِه.

وكما سبق: أنّه إذا اعتقد أنّ هذه الأشياء تصنع هذه الأشياء أو تُحدثها؛ فهذا شركٌ أكبر، لأنّه شركٌ في الرّبوبيّة.

وإنْ كان لا يعتقد ذلك، بل يعتقد أنّ الله هو الخالق المدبِّر، وإنّما نسب هذه الأشياء إلى هذه المخلوقات من باب أنّها أسبابٌ فقط: فهذا يكون محرماً ويكونُ من الشرك الأصغر، حتى إنّ ابن عبّاس -كما سبق- جعل قولَ الرجل: "كانت الريح طيّبة، وكان الملاّح حاذقاً"، جعل هذا من اتّخاذ الأنداد لله عزّ وجلّ، وفسّر به قولَه تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، فرُكّاب السفينة إذا خرجوا من البحر ولم يحصل عليهم مكروه ونسبوا هذا إلى حِذْق الملاّح أو إلى طيب الريح التي وجّهت سفينتَهم فإنّ ذلك من اتّخاذ الأنداد لله عزّ وجلّ،

---

[1] رواه الإمام أحمد في "المسند" (١٢٣/٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٧/٦)، والحاكم في المستدرك (٢٩٨/٢) وصححه على شرط الشيخين. وغيرهم، وقد اختلف في رفعه ووقفه، وهو حديث صحيح مرفوعا وموقوفا، وله شواهد من حديث أبي هريرة، وجابر، وابن عباس.

لأنّ الواجب: أن يشكُروا الله عزّ وجلّ، لأنّه هو الذي سخّر الريح وهو الذي سخّر الملاّح وعلّمه ووفّقه، فتُنسب الأشياء إلى مصدرها وهو الله سبحانه وتعالى. هذا هو التّوحيد.

أما نسبة الأشياء إلى غيرِه فهذا شركٌ إمّا أكبر وإمّا أصغر.

والواجب على المسلمين أن يتنبّهوا لذلك، لأنّه يكثُر على الألسنة الآن مدح الأشياء وأنّه بفضلها حصل كذا وكذا، بفضل الطبِّ بفضل كذا وكذا، بفضل تضافُر الجهود، بفضل المجهودات الفلانية حصل كذا وكذا، والله لا يُذكر أبداً، ولا يُثنى عليه في هذه الأُمور، وهذا خطأٌ كبيرٌ في العقيدة، ويُخشى على مَنْ قالَه من الشّرك الأكبر، هو لا يسلم من الشرك: إمّا الشرك الأصغر وإمّا الشرك الأكبر.

أو يَنسب الأشياء إلى الظّواهر الطبيعيّة، كما يقولون من نِسبة الأمطار إلى المناخ، أو المنخفض الجوي، أو إلى الرّياح، أو ما أشبه ذلك؛ كلّ هذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

نعم؛ الله جعل للأشياء أسباباً، ولكن مَن هو الذي خلق الأسباب ومَن هو الذي سخّرها وأودع فيها الأسرار؟ هو الله سبحانه وتعالى، فالواجب: أن تُسند الأُمور إلى الله عزّ وجلّ، هذه عقيدة المسلم دائماً وأبداً، وهذا هو التّوحيد.

إلاّ الأُمور التي من أفعال الإنسان مثل الطاعات ومثل الكفر والمعاصي والفُسوق والتعدِّي على النّاس؛ فهذه تُنسب إلى المخلوق لأنّها أفعالُه وجنايَتُه، وهو محاسَبٌ عليها، وإنْ كان الله قدّرها سبحانه وتعالى، ولكن الذي فعلها وقام بها المخلوق باختياره وإرادته، فيذمّ عليها، ويعاقَبُ عليها، أو يُثاب عليها إن كانت صالحة، فهي من ناحية القدَر تنسب إلى الله، أمّا من ناحية الفعل فهي تُنسب إلى المخلوق، وهو الذي فعلها وهو الذي قام بها باختياره وإرادته ومشيئَته، وهو يعاقَب أو يُثاب على أفعاله، لا على قدر الله. ٤

المؤلف رحمه الله أطلق النهي ولم يفصح: هل المراد به التحريم أو الكراهية، وسيتبين إن شاء الله من الحديث.

قوله: "الريح". الهواء الذي يصرفه الله عز وجل، وجمعه رياح.

وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب.

وتصريفها من آيات الله عز وجل، فأحياناً تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحياناً تكون هادئة، وأحياناً تكون باردة، وأحياناً حارة، وأحياناً عالية، وأحياناً نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو أجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله عز وجل بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد، فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

الجواب: لا، لأن هذه الريح مسخرة مدبرة، وكما أن الشمس أحياناً تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، فكذلك الريح، ولهذا قال: ((لا تسبوا الريح)). ٥

وهي لا تملك شيئاً ، كالدهر لا يملك شيئاً ولا يدبر أمراً، فسب الريح كسب الدهر، يرجع في الحقيقة إلى أذية الله جل وعلا؛ لأن الله هو الذي يصرِّف الريح كيف يشاء، يأتي بالريح بأمر مكروه فيذكِّر العباد بالتوبة والإنابة، ويذكر العباد بأمر قدرته عليهم وأنه لا غنى لهم عنه جل وعلا طرفة عين، ويأتي بالريح فيجعلها رياحاً، فيسخرها جل وعلا لما فيه من مصلحة العباد، فالريح إذا لا تملك شيئاً، فهذا الباب عقده لبيان تحريم سب الريح كما عقد ما قبله لبيان أنّ سب الدهر لا يجوز ومحرم لأنه أذية لله جل وعلا.

وهذا الباب من جنس ذاك؛ لكن هذا يكثر وقوعه، فأفرده بكثرة وقوعه وللحاجة إلى التنبيه عليه.

قال (بابٌ النهي عن سب الريح) النهي للتحريم، وسب الريح يكون بشتمها أو بلعنها، وكما ذكرنا لكم في باب الدهر ليس من سبها أن توصف بالشدة كقول الله جل وعلا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٦-٧]، ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ هذا وصفٌ لها ووصفها بالشدة أو وصفها بالأوصاف التي يكون فيها شر على من أتت عليه كقوله ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] ليس هذا من المنهي عنه. ٣

لما كان سب الريح وسب غيرها من المخلوقات نقصاً في الإيمان وضعفاً في التوحيد نبه المؤلف على ذلك فجعله في كتاب التوحيد ليعلم المؤمن أن سائر المعاصي مما ينقص توحيده وينقص إيمانه ويضعف إيمانه، فالإيمان يزيد وينقص، والتوحيد يكمل وينقص، فالمعاصي تضعف الإيمان وتنقص كمال التوحيد، والطاعة تزيد الإيمان وتزيد كمال التوحيد، وسب الريح من جملة المعاصي لأنها مخلوق مدبر ترسل بالخير والشر؛ فلا يجوز سبها، ولا يقال: لعن الله الريح، أو قاتل الله الريح، أو لا بارك الله في هذه الريح، أو ما أشبه ذلك، بل يعمل المؤمن ما أرشد إليه النبي ﷺ. ٦

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به)) صححه الترمذي [1].

قال: ((عن أُبيّ بن كعب)) هو: أبو المنذر أبيّ بن كعب الخزرجي الأنصاري، كان مشتهراً بجودة القراءة للقرآن، فهو أقرأ الصّحابة لكتاب الله عزّ وجلّ. ٤

[1] رواه الإمام أحمد في "المسند" (١٢٣/٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٧/٦)، والحاكم في المستدرك (٢٩٨/٢) وصححه على شرط الشيخين وغيرهم، وقد اختلف في رفعه ووقفه، وهو حديث صحيح مرفوعا وموقوفا، وله شواهد من حديث أبي هريرة، وجابر، وابن عباس.

صحابي، بدريٌّ، جليل، وكان من قراء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم، وله مناقب مشهورة، اختلف في سنة موته. ١

"أن رسولُ الله ﷺ قال: ((لا تسبّوا الريح))" هذا نهي من الرّسول ﷺ.

"لا" ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به. ٥

ومعنى: ((تسبّوا)) يعني: لا تشتموا الرّيح وتذمّوها وتلعنوها، كما كان عليه أهل الجاهليّة أنهم يسبّون الريح إذا جاءت على غير رغبتهم. ٤

والسب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهي عن سبها لأن سب المخلوق سب لخالقه فلو وجدت قصراً مبنيّا وفيه عيب فسببته، فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله عز وجل. ٥

لأنها -أي الريح- إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره؛ لأنه هو الذي أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه. كما تقدم في النهي عن سب الدهر، وهذا يشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده، فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء. ٢

((لا تسبوا الريح)) أي لا تشتموها، ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها، فإنها مأمورة مقهورة، فلا يجوز سبها، بل تجب التوبة عند التضرر بها، وهو تأديب من الله تعالى لعباده، وتأديبه رحمة للعباد.

وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: ((لا تلعنوا الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهلٍ رجعت اللعنة إليه)) رواه الترمذي، وقال غريب.[١] ١

والواجب أن الإنسان عندما يصيبُه ما يكره: أن يحاسب نفسَه، لأنّه ما أصابه هذا المكروه إلاّ بسببه وبفعلِه، فيحاسب نفسَه ويتوب إلى الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

[١] رواه أبو داود في سننه (رقم ٤٩٠٨) والترمذي في سننه(رقم ١٩٧٨) وقال: "حسن غريب"، والطبراني في الكبير (رقم ١٢٧٥٧)، والصغير (رقم ٩٥٧) والدعاء (رقم ٢٠٥٠)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٥٧٤٥) والبيهقي في الشعب(٣١٦/٤)، والضياء في المختارة (٢٧/١٠-٢٩)، واسناده صحيح، قال ابن مفلح في الآداب الشرعيه(١١/١) "إسناده ثقات".

فالواجب أنّ الإنسان لا يلوم الرّيح ولا يلوم غيرها وإنّما يلوم نفسَه، بأن يرجع إلى الله ويتوب إلى الله ويعلم أنّ الله ما قدّر عليه هذه المصيبة إلاّ بسبب فعلِه ومعصيته، فيتوب إلى الله عزّ وجلّ ويحاسِب نفسه، ثم ينسب الأشياء إلى الله وأنّ الله هو الذي قدّرها بسبب فعله عقوبة له وأوجدَها وهو الذي أمرها بذلك، فهي مأمورة مدبّرة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف:٥٧]، فالله جل وعلا هو الذي يُرسل الرّياح: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ تلقّح السحاب، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر:٢٢]، ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [الروم:٤٨]، فالرّياح إنّما هي بأمر الله سبحانه وتعالى يُرسلها بالخير، ويُرسلها -أيضاً- بالشرّ والعذاب، كما أرسلها على عاد: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢]، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ هو الذي أرسلها، ليست هي التي جاءت وأهلكتْ عاداً، وإنّما الله هو الذي أرسلها، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر:١٩-٢٠]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، كلّ هذا بأمر الله سبحانه وتعالى. ٤

((فإذا رأيتم ما تكرَهون)) يعني: إذا رأيتم من الرّيح ما تكرهون: رأيتم شدّة الريح وقوّتها وخشيتُم من أنّها تضرّكم أو تضرّ بأموالكم أو تقتلع أشجارَكم أو تهدّم بيوتكم، أو ما تكرهون من برودتها، لأنها قد تكون باردة شديدة البُرودة، أو تكون حارّة شديدة الحرارة، تُهلك النبات وتُهلك الثّمار.

((فإذا رأيتم ما تكرهون)) منها من قوّتها، أو من برودتها، أو من حرارتها فتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى، لا تتوجّهوا إلى الرّيح تذمّونها وتسبّونها، هذا ليس فيه جدوى من ناحية، وهو -أيضاً- شركٌ بالله عزّ وجلّ، ووضعٌ للشيء في غير موضعه. ٤

((وما يكرهون)) قد يكون من جهة صفة الريح، وقد يكون من جهة لون الريح -يعني صفتها من جهة السرعة أو الاتجاه-، وقد يكون من جهة لونها وقد يكون من جهة أثرها، والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا رأى شيئاً في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج ورُئي ذلك في وجهه حتى تمطر السماء فيُسَرَّ عنه ويسر عليه الصلاة والسلام، قالت له عائشة: "يا رسول الله لما ذاك، قال: ((ألم تسمعي لقول أولئك -أو كما قال عليه الصلاة والسلام- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]))[1].

فإذاً الخوف من الله جل جلاله إذا ظهرت هذه الحوادث أو التغييرات في السماء أو في الأرض واجب، والله جل وعلا يتعرّف إلى عباده بالرخاء كما أنه يتعرَّف إلى عباده بالشدة حتى يعرفوا ويعلموا ربوبيته وقهره وجبروته ويعلم حلمه وتردده ورحمته أيضاً لعباده. ٣

((فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا)) هذا هو العلاج.

((اللهم إنّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذُ بك من شرّ هذه الريح، وشرّ ما فيها، وشرّ ما أُمرت به))

هذا هو العلاج: إسنادُ الأُمور إلى الله ودعاءُ الله جل وعلا لدفع المكروه وجلْب الخير. ٤

أمر ﷺ بالرجوع إلى خالقها، وأَمَرَها الذي أَزِمَّةُ الأمور كلها بيده، ومَصْدَرُهَا عن قضائه، فما استجلبت نعمة بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه، والتعوذ به، والاضطرار إليه، والاستنكانة له، ودعائه، والتوبة إليه، والاستغفار من الذنوب. ١

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٣٢٠٦) ومسلم في صحيحه (رقم ٨٩٩)، واللفظ له.

ففي هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان. ٢

قوله: ((وخير ما فيها)). أي: ما تحمله، لأنها قد تحمل خيراً، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شراً، كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.
قوله: ((وخير ما أمرت به)). مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله. ٥

فدلّ على أنّ الريح تؤمَر بالخير وتُؤمر بالشّر، وفي الحديث: ((الريح من رَوْح الله تأتي بالخير وتأتي بالشرّ))، فهي مأمورة من الله سبحانه وتعالى ومدبّرة مرسلة. ٤
هذا يدل على أن الريح يكون فيها أمر، ويكون عليها أمر ونهي، والله جل وعلا يرسل الرياح كيف يشاء، ويَصْرِفُها -أيضاً- جل وعلا عمن يشاء، فهي مسخرة بأمره جل وعلا، والملائكة هي التي تصرّف الريح بأمره جل وعلا، فللريح ملائكة تصرفها كيف شاء ربنا جل وعلا وتقدس وتعاظم، فيها خير وقد يكون فيها عذاب. ٣

قوله: ((ونعوذ بك)). أي: نعتصم ونلجأ.
قوله: ((من شر هذه الريح)). أي: شرها بنفسها، كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.
قوله: ((وشر ما فيها)). أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة وغيرها.

قوله: ((وشر ما أمرت به)). كالإهلاك والتدمير، قال تعالى في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥]، وتيبيس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق، فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: ((ما أمرت به)) هذا الأمر حقيقي، أي: يأمرها الله أن تَهُبْ ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله، قال الله تعالى للأرض والسماء: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وقال للقلم: ((أكتب. قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة)). ٥

فإذاً إذا رأى العبد ما يكره يدع إلى الله واستغاث بالله وسأل الله بقوله ((اللّهُمّ إِنّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرّيحِ وَخَيْرِ ما فِيهَا وَخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ وَنَعْوذُ بِكَ مِنْ شَرّ هَذِهِ الرّيحِ وَشَرّ ما فِيهَا وَشَرّ ما أُمِرَتْ بِهِ)). ٣

وجاء في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ، أرشد بهذا الأمر أن يقال: ((اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به))، وجاء في المعنى أيضاً الدعاء: ((اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً، واجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً)) هذا هو المشروع للمؤمن عند هبوب الريح وشدتها، يسأل الله خيرها ويعوذ بالله من شرها، ويسأله أن يجعلها رياحاً ولا يجعلها ريحاً لأن الله أرسل الريح لهلاك قوم هود، أما الرياح فجعلها الله مبشرات ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم:٤٦] وقد تكون رحمة لقوم، وقد تكون عذاباً لآخرين كما جرى لعاد، فالمؤمن يسأل الله خيرها الذي دبرها وأرسلها، يسأله من خيرها، ويستعيذ بالله من شرها، هذا هو الواجب عند هذا الأمر، وهذا هو من كمال التوحيد ومن مقتضى الإيمان أن يمتثل أمر النبي ﷺ في ذلك، وألا يسب الريح، كما لا يسب غير ذلك من المخلوقات التي لم يشرع الله سبها. ٦

فهذا ما أمر به ﷺ وفعله عند الريح وغيرها من الشدائد المكروهات، فأين هذا ممن يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات، فيقول: يا فلان الزَمْها أو أزِلْها فالله المستعان. ١

يُستفاد من هذا الحديث مسائل:

المسألة الأولى: فيه النّهي عن سبّ الريح، لأنّ ذلك يُخِلُّ بالتّوحيد من حيث إنّه ينسِب الأُمور إلى غير الله عزّ وجلّ.

المسألة الثانية: فيه أنّ الريح مدبّرة مخلوقة، تأتي بالخير وتأتي بالشرّ بأمر الله سبحانه وتعالى، وما دامت كذلك فإنّها لا يُتوجّه إليها لا بذمٍّ ولا بمدح، وإنّما يُتوجّه إلى الله تعالى بالتضرُّع والدعاء عند الشدائد والشُّكر والحمد عند الرخاء والنعمة.

المسألة الثالثة: في الحديث دليلٌ على أنّ المسلمين عند الشدائد يتوجّهون إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرُّع والتّوحيد، ولا يترُكون الدعاء، ولا يتوجّهون إلى غيرِه، كحالة مشركي هذا الزّمان الذين إذا وقعوا في شدّة فإنّهم ينادون بالشّرك، ويدعون غيرَ الله سبحانه وتعالى، يدعون مَن يخلِّصهم من الموتى ومن الأولياء والصّالحين، يهتفون بأسمائهم، ويذكرون أسماءهم حتى يخلِّصوهم، ويتواصون بذلك.

فالواجب على الدعاة: أن يهتمّوا بهذا الأمر، أن يحذِّروا النّاس، وأن يبيِّنوا للناس، وأن يدعوا النّاس إلى توحيد الله، وأن يقوموا بتبليغ هذا الدين إلى النّاس ويوضحوا العقيدة على الوجه الصحيح الخالص، هذا هو الحلّ، فالذي يريد أن يحلّ مشاكل المسلمين هذا هو الحل.

ولو قام بهذا واحدٌ مخلص لأنقذ الله به أمّة من الأمم أو أجيالاً من النّاس، كما حصل على أيدي الدّعاة المخلصين وهم أفراد، والآن هناك جماعات للدعوة وهناك إمكانيّات هائلة وهناك أموال وهناك وهناك، لكن أين الآثار؟، لو كان هناك داعيةٌ واحد يقوم على المنهج الصحيح ويدعو إلى الله على المنهج الصحيح لحصل به النفع الكثير.

والآن كثر الدعاة وكثرت الجماعات وكثرت التنظيمات، ولكن أين الجدوى وأين الثمرة؟، الشر يزيد، والشرك ينتشر، لأنّ الدعوات هذه في الغالب ليست على أساس صحيح، ولو كانت على أساس صحيح ومنهج سليم فواحد من المخلصين يكفي عن ألف داعية، كما هو معروف من سير الدعاة المصلحين السّابقين. ٤

في هذا الحديث أن الإنسان لا يعترض على أقدار الله سبحانه وتعالى، إنما يطلب وجه الخير فيها مثل حادث أو مرض أو خسارة مالية ظاهر ذلك شر ولكن باطنه قد يكون خيراً، لأن العواقب بيد الله سبحانه وتعالى، فيسأل العبد ربه أن تكون العاقبة خيراً، ولذا وجه النبي ﷺ الإنسان لمن يرى الريح ألا يشتم ويسب الريح، وإنما يسأل الله خير هذه الريح. ٩

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح. وهذا للتحريم، لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها. ٥

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره. أي: منها، وهو أن يقول: ((اللهم إني أسألك من خيرها...)) الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضاً، كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها. ٥

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة. لقوله: ((ما أمرت به)). ٥

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر. لقوله: ((خير ما أمرت به، وشر ما أمرت به)).

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلماً لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلماً لأمره الشرعي، لأن هذه المخلوقات لاتملك أن تفعل شيئاً إلا بأمر الله سبحانه وتعالى. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤] الْآيَةُ)

وَقَوْلُهُ: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] الْآيَةُ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: "فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وهَذَا هُوَ الظَّنُّ السُّوءُ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السُّوءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ غَيْرَ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَها الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْها الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَروا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السُّوءِ، وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتاً عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ: هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟ فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً".

هذا بابٌ عظيم، فقولُه رحمه الله تعالى: "باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]. ٤

هذا الباب يمكن أن تسميه (باب الظن بالله عز وجل)، فمن المعلوم أن الله سبحانه قدر الأمور كلها، ومن هذه المقادير ما ظاهره الخير ومنها ما ظاهره الشر، وتقدير الله سبحانه لحكمة بالغة لا يعلمها إلا هو سبحانه، فهل ما ظاهره خير هو دائماً خير؟ وهل ما ظاهره

شر هو دائماً شر؟ وهل حال الإنسان دائماً على حال واحدة؟ لا شك أن الأحوال تختلف؛ فتمر على الإنسان حالات فرح وسرور، وحالات حزن وهم، وهنا يتميز موقف المؤمن الصادق، وهو أن يظن بالله خيراً في جميع الأحوال في الخير والشر، فهذه الحياة مبنية على الكبد والمشقة والإنسان فيها مبتلى، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإنسان فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]. ٩

أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذم الله من أساء الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره، وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله.

وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات لاستلزامها الباقي.

وبالجملة؛ فمن قام بقلبه حقائق معاني أسماء الله وصفاته؛ قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة، لأن كل صفة لها عبودية خاصة، وحسن ظن خاص.

وقد جاء في الحديث القدسي: قال الله تعالى: ((أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني)) رواه البخاري ومسلم[١].

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل)) رواه مسلم وابو داود.[٢]

وفي حديث عند أبي داود وابن حبان: ((حسن الظن من حسن العبادة)) رواه الترمذي والحاكم، ولفظهما: ((حسن الظن بالله من حسن عبادة الله))[٣]. ١

---

[١] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٧٤٠٥)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٢٧٨٨)، وأبو داود (رقم٣١١٣) عن جابر.

[٣] رواه الامام أحمد (٢٩٧/٢، ٣٠٤، ٣٥٩، ٤٠٧، ٤٩١)، وعبد بن حميد في مسنده (رقم ١٤٢٥)، وابو داود في سننه(رقم ٤٩٩٣) وابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله(رقم ٦)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٦٣١) والحاكم (٢٤١/٤)، وصححه على شرط مسلم، والقضاعي في مسند الشهاب

والمقصود من هذا الباب بيان أن كثيراً من الناس لا يسلم لله حكمته، ولا يسلم لله قدره السابق، ولا يسلم لله ما أراده سبحانه من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطائهم حتى يستعدوا وحتى ينتبهوا، بل أساؤوا الظن بالله من وجوه كثيرة:

- منهم من يظن أن ما يقع من الأشياء التي تخالف هواه أنه لم يكن عن حكمة ولا عن قدر سابق.
- ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة فقط.
- ومنهم من يظن أن الله جار على عباده وظلمهم حتى فعل كذا وفعل كذا، ظَلَمَ فلان وأَخَّرَ فلاناً وأصح فلاناً وأمرض فلاناً لماذا؟

فهذه ظنون الناس وهي كثيرة. ٦

مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنّ حسن الظنّ بالله سبحانه وتعالى من واجبات التّوحيد، وسوء الظنّ بالله عزّ وجلّ ينافي التّوحيد، هذا وجه المناسبة لهذا الباب في كتابه التّوحيد. ٤

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أنّ الله جل وعلا موصوف بصفات الكمال وله جل وعلا أفعالُ الحكمة وأفعال العدل وأفعال الرحمة والبر جل وعلا، فهو سبحانه كامل في أسمائه، كامل في صفاته، كامل في ربوبيته، ومن كماله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته أنه لا يفعل الشيء إلا لحكمة بالغة، والحكمة في ذلك هي أنه جل وعلا يضع الأمور مواضعها التي توافق الغايات المحمودة منها، وهذا دليل الكمال، فالله جل وعلا له صفات الكمال وله نعوت الجلال

(١٠٣/٢) عن أبي هريره ﷺ، واسناده حسن، وفي اسناده سمير -وقيل شُتَيْر- بن نهار، روى عنه ثقتان، وذكره ابن حبان في الثقات، وصحح حديثه، وصحح له الحاكم، وقال الامام أحمد: لا اعرفه، وقال الذهبي: "فيه نكره"، وقال الحافظ في التقريب: صدوق.

والجمال، فلهذا وجب لكماله جل وعلا أن يُظنّ به ظن الحق، وأن لا يظن به ظن السَّوء؛ يعني أن يعتقد فيه ما يجب لجلاله جل وعلا من تمام الحكمة وكمال العدل وكمال الرحمة جل وعلا وكمال أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فالذي يظن به جل وعلا أنه يفعل الأشياء لا عن حكمة، فإنه قد ظن به ظن النَّقص وهو ظن السوء الذي ظنه أهل الجاهلية.

فإذاً يكون الظن بالله غير الحق منافٍ للتوحيد، وقد يكون منافياً لكمال التوحيد:

فمنه ما يكون صاحبُه خارج عن ملة الإسلام أصلا، كالذي يظنّ بالله غير الحق في بعض مسائل القدر كما سيأتي.

ومنه ما هو منافٍ لكمال التوحيد بأن يكون غير مؤمنٍ بالحكمة أو بأفعال الله جل وعلا المنوطة بالعلل التي هي منوطة بحكمته سبحانه البالغة.

ولهذا قال جل وعلا ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، في الرد على القدرية المشركية، وقد قال أيضاً جل وعلا ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٥]، فالله جل وعلا موصوف بكمال الحكمة وكمال الحمد على أفعاله؛ لأن أفعال الله جل وعلا قسمان:

- أفعال ترجع إلى الحكمة والعدل.
- وأفعال ترجع إلى الفضل والنعمة والرحمة والبر بالخلق.

فالله جل وعلا يفعل هذا وهذا، وحتى وأفعاله التي هي أفعال بر وإحسان هي منوطة بالحكم العظيمة، وكذلك الأفعال التي قد يظهر للبشر أنها ليست في صالحهم أو ليست موافقة للحكمة فإن ظنَّ الحق بالله جل وعلا أن يُظن به وأن يعتقد أنه ليس ثم شيء من أفعاله إلا وهو موافق لحكمته جل وعلا العظيمة إذ هو العزيز القهار الفعال لما يريد.

إذن فالواجب تحقيقاً للتوحيد أن يُظَن العبد بالله جل وعلا ظن الحق، وأما ظن السَّوء فهو ظن الجاهلية الذي هو مناف لأصل التوحيد في بعض أحواله أو مناف لكمال التوحيد.

فترجم المؤلف رحمه الله بهذا الباب ليبين لك أن ظن السَّوء بالله جل وعلا من خصال أهل الجاهلية وهو منافٍ لأصل التوحيد أو مناف لكماله بحسب الحال. ٣

قولُه: "باب قول الله تعالى" يعني: ما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من آل عمران والآية الثانية من سورة الفتح، كلاهُما في موضوع واحد، وهو: سوء الظنّ بالله سبحانه وتعالى وما توعّد الله عليه من العذاب والعُقوبة، لأنّه ينافي التّوحيد.

والقصّة حصلت في وقعة أُحد لَمّا حصل على المسلمين ما حصل من إدالة العدو عليهم بسبب المخالفة التي حصلت في الجيش.

لَمّا حصل ما حصل تكلّم المنافقون بكلام سيّئ، لأنّ المنافق دائماً ينتهز الفرص التي يرى أنّ فيها غضاضةً على المسلمين ويشغلّها ويفسّرها ويكيّفُها على حسب هواه، دائماً هذا في المنافقين إلى آخر الزمان، كلّما حصل على المسلمين شدّة أو كُربة أو ضائقة فرح المنافقون وجعلوا يفسّرونها ويحلِّلونها بأن المسلمين ليسوا على شيء وأن دينهم ليس بشيء، ويظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية، وظنّ السوء.

ففي سورة آل عمران سمّاه ظنّ الجاهليّة، وفي سورة الفتح سمّاه ظنّ السّوء. ٤

ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولى: قوله تعالى: **﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحْقِّ ظَنَّ الجْاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]**. ٥

وهذه الآية ذكرها الله في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد٢:

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾[آل عمران: ١٥٤].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾

"يعني: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ﷺ، وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[الفتح: ١٢] الآية، وهكذا هؤلاء: اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفاصلة، وأن الإسلام قد باء وأهله.

وهذا شأن أهل الريب و الشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة" [١]. ١

﴿يَظُنُّونَ﴾. الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يتيقنون، وضد الراجح: المرجوح، ويسمى: وهماً.

قوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾، و﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: الحال الجاهلية: والمعنى: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل. ٥

﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ لأنّ الجاهلية عدم العلم، فالذي ظنّ هذا الظنّ الخاطئ سببه عدم العلم بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته وحَمْدِه وحكمته. ٤

فهم يعتقدون أو يسبق إلى أذهانهم لما معهم من الشرك أنّ الله جل وعلا ليست أفعاله أفعال حق، والله سبحانه هو الحق وأفعاله كلها أفعال الحق، وذلك الظن ظن الجاهلية، فكل من ظن بالله غير الحق فقد ظنَّ ظن الجاهلية؛ بمعنى ظن بالله جل وعلا غير الكمال فهذا هو

---

[١] تفسير ابن كثير (٤١٩/١)

ظن الجاهلية، وظن أهل التوحيد والاسم -يعني يعتقدون ويعلمون ويسبق إلى أذهانهم- في أي فعل يحصل لهم أن الله جل وعلا موصوف بالكمال وبالحكمة البالغة.

فسَّر ذلك جل وعلا بقوله ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وهذا فيه إنكار للحكمة أو إنكار للقدر، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، وهذا في حال الرد على هؤلاء المنافقين أو المشركين.٣

والظن بالله عز وجل على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيراً.

الثاني: أن يظن بالله شراً

والأول له متعلقان:

١. متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون، فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله عز وجل فيما يفعله سبحانه وتعالى في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل وبهذا يتبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئاً في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما التعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير، فهذا واقع، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].
٢. متعلق بالنسبة لما يفعله بك، فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك، فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب، فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مفرطاً في الواجبات فاعلاً للمحرماً ت، وظن بالله ظناً حسناً، فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله، إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله سوءً، مثل أن يظن في فعله سفهاً أو ظلماً أو نحو ذلك، فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب، كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن يظن بالله غير الحق.٥

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

والظاهر أن المعنى: إنا أخرجنا كُرْهاً، ولو كان الأمر إلينا ما خرجنا، كما أشار إليه ابنُ أُبَيٍّ بذلك، ولفظه استفهامٌ، ومعناه النفي، أي: ما لنا شيء من الأمر، أي: أمْرِ الخروجِ، وقيل: غير ذلك. ١

مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر. ٥

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي: ليس لكم من الأمر شيء ولا لغيركم، بل الأمر كله لله، فهو الذي إذا شاء شيئاً فلا مرد له. ١

قوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾. أي: فإذا كان كذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره فالله عز وجل يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ﴾ واحد الأمور لا واحد الأوامر، أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾. أي: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق، فيخفي في نفسه مالا يبديه لغيره، لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. أي: في أحد، والمراد بمن "قتل": من استشهد من المسلمين في أحد، لأن عبد الله بن أبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد، وقال: إن محمداً يعصيني ويطيع الصغار والشبان. ٥

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ يعني: أننا مجبورون وليس لنا أمر، ولكن قادنا محمد إلى هذا الأمر حتى وقع ما وقع، وهذا كله من جهلهم وضلالهم، وقلة بصيرتهم وعمى قلوبهم، فلهذا ظنوا بالله ظن السوء، وظنوا أن ما وقع لم يكن عن حكمة بالغة، وظنوا أن الله لا ينصر رسوله، وأن هذا النبي سيضمحل أمره وستكون الدائرة عليه، وظنوا أن ما وقع لم يكن إلا بمجرد المشيئة، فصار ظنهم هذا يجمع بين سوء الظن بالله من جهة أنه لا ينصر أولياءه ولا ينصر رسوله، ومن جهة أنه لا يعمل عن حكمة ولا تقع أفعاله عن حكمة بل لمجرد المشيئة المجردة، فهذا كله باطل، ولهذا بين الله في كتابه العظيم حكمه وأسراره فيما يفعله، وفيما يقضيه، وفيما يشرعه سبحانه وتعالى، وأنه يبتلي عباده بالسراء والضراء والشدة والرخاء ليبتليهم وليمحص ما في قلوب المؤمنين، ويمحق الكافرين، وليتب المؤمنون إليه ويستغفروه، وليعدوا أنفسهم إعدادا عظيما للقائه عز وجل، والقيام بحقه سبحانه وتعالى.

قال جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أعلم بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٥-١٦٧]. فله الحكمة البالغة في

ابتلاء هؤلاء وهؤلاء، فالمؤمنون ابتلوا ليتمحض إيمانهم وتكفر سيئاتهم، وليعدوا العدة من جديد للقاء ربهم والاستقامة على دينه، وليحاسبوا أنفسهم بترك المعاصي والمخالفات، وليبادروا بالتوبة إلى الله عز وجل، والكفار يمحقوا ويدمروا ويقطع دابرهم، والمنافقون ليفضحوا ويظهر خزيهم وباطلهم، فله الحكمة البالغة في كل شيء سبحانه وتعالى، وربك هو الأحكم والأعلم جل وعلا، فمن ظن أنه سبحانه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة فيضمحل معها الحق فقد أساء بالله الظن، أما كون المسلمين قد يقع عليهم هزيمة، قد يبتلون بقتل بعضهم، قد يبتلون بجراحات، هذا واقع ليبتليهم، ليرفع درجاتهم وليكفر سيئاتهم، ويضرعوا إليه وليعدوا العدة ويجتنبوا أسباب الهزيمة، ولهذا جرى عليهم ما جرى يوم أحد، لكن ما استقر ذلك بل نصرهم الله بعد ذلك وأعزهم وقضى على عدوهم وهزمهم يوم الأحزاب، وهزمهم يوم فتح مكة، وصارت الدائرة للمسلمين، والعاقبة للمتقين.

ولكن أعداء الله من المنافقين قد فسدت قلوبهم فلم يعقلوا الحق ولم يفهموه وأساؤوا الظن بالله جل وعلا وبرسوله وبالمؤمنين، وصارت الدائرة على أعداء الله، والهزيمة على أعداء الله، والنصر والتوفيق لأولياء الله كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

وهذا الوعد لا يقدح فيه ما قد يقع من هزيمة في بعض الأحيان، ومن قتل بعض المؤمنين ليتخذهم شهداء سبحانه وتعالى، وليمحص ما في قلوب المؤمنين، فهذا من حكمته سبحانه، ومن فضله على أوليائه أن يمحصهم ويعدهم إعدادًا أكمل، ويتخذهم شهداء، ويرفع درجاتهم في الآخرة، إلى غير هذا من حكمته سبحانه وتعالى.

ولأن الناس لو نصروا دائما ولم يصبهم شيء من الخلل لربما ابتلوا بالعجب والكبرياء وعدم الخضوع لله وعدم الاعتراف بتقصيرهم ونقصهم، وربما لظنوا أن هذا لحيلتهم وقوتهم وأعمالهم، فإذا ابتلاهم الله بهذه الأشياء انكسرت نفوسهم وعرفوا عيوبهم وضرعوا إلى الله وانقادوا لأمره، وتباعدوا عن أسباب غضبه سبحانه و تعالى، والواجب على المؤمن أن يفتش عن نفسه، وأن ينظر ويحاسبها لعله يسلم من هذا البلاء، ولهذا قال المؤلف: ففتش نفسك هل أنت سالم؟. ٦

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. هذا رد لقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وهذا الاحتجاج لا حقيقة له، لأنه إذا كتب القتل على أحد، لم ينفعه تحصنه في بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته، والكتابة قسمان:

- كتابة شرعيه، وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ١٠٣]، وقوله: ﴿يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

-كتابة كونية، وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما في هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]. ٥

قال ابن القيم في تفسير ما سبق من الآيات: "ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كله لله، ولو كان ذلك مقصودهم لما ذموا عليه، ولما حَسُنَ الرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية.

ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل ههنا هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، لكان رسول الله ﷺ وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم، ولما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فَأَكْذَبَهُمُ الله عز وجل في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه: أنهم كانوا قادرين على دفعه، وإن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به قلمه وكتابه السابق.

وما شاء الله كان ولا بد، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاءه الناس أم لم يشاؤوه.

وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شي أو لم يكن لكم، فإنكم لو كنتم في بيوتكم وقد كتب القتل على بعضكم؛ لخرج من كتب عليه القتل من بيته إلى مضجعه ولا بد، سواء كان له من الأمر شيء أو لم يكن. وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية النفاة، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاء الله، وأن يشاء مالا يقع". [1]

قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

أي: قدر الله هذه الهزيمة والقتل؛ ليختبر الله ما في صدوركم بأعمالكم، لأنه قد علمه غيباً فيعلمه شهادةً، لأن المجازاة إنما تقع على ما يُعْلَمُ مشاهدةً، لا على ما هو معلومٌ منهم غير معمول. ١

أي: يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته. فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك. ٥

---

[1] زاد المعاد (٣/٢٣٦-٢٣٧)

أي: ليختبر ما فيها من الإيمان والنفاق، فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا ايماناً وتسليماً، والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه. ١

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

هذه حكمة أخرى، وهي تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يخالطها من تغليبات الطباع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة؛ لم تتخلص من هذه المخالط، ولم تتمحص منه.

فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أنْ قَيَّضَ لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيب بإزالته وتنقيته ممن هو في جسده، وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقَتْلِ من قُتِلَ منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.١

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر، صار في ذلك تمحيص لما في القلب، أي: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غزوة أحد بدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسول ﷺ [1]حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٢] خرجوا إلى حمراء الأسد ولم يجدوا غزواً فرجعوا، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

---

[1] البخاري كتاب المغازي باب الذي استجابوا لله والرسول. مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل طلحة والزبير وأما خروجهم إلى حمراء الأسد فأخرجه ابن كثير في تفسير ٣٣٧/١ وصححه ابن حجر في الفتح ٢٢٨/٨.

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بذات الصدور، والمراد بها القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ولكن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ١٤٦]، فالله لا يخفى عليه شيء فيعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متى يكون وكيف يكون. ٥

قيل: معناه إن الله لا يبتليكم ليعلم ما في صدوركم، فإنه عليم بذلك، وإنما ابتلاكم ليظهر أسراركم. والله أعلم. ١

وقوله: ﴿وَالْمُشركاَتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح :٤٦].

المراد بهم: المنافقون والمشركون، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشركاَتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، أي: ظن العيب، وهو كقوله فيما سبق: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. ٥

﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعني: إساءة الظنّ بالله عزّ وجلّ، وهو يخالف حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، فحسن الظنّ بالله توحيد وسوء الظنّ بالله كفر. ٤

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن القيم رحمهما الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول ﷺ سيضمحل، وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك. ٥

قال ابن كثير: "يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقْتَلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [١].

قال ابن جرير في تفسيره: "الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به.

---

[١] تفسير ابن كثير (١٨٥/٤)

وذلك كان السوء من ظنونهم حتى ذكرها الله في هذا الموضع. يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركاًت الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء. يعني دائرة العذاب تدور عليهم به"[١]. ١

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾. أي: أن السوء محيط بهم جميعاً من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم

وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. الغضب من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيئته ويترتب عليها الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة:

فمنهم من قال المراد بغضبه الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام: قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، ولهذا قال النبي ﷺ ((إنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم))[٢].

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق في اللفظ التوافق في المثلية والكيفية، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. ف ﴿آسفونا﴾: بمعنى أغضوبا ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، فجعل الانتقام مرتباً على الغضب، فدل على أنه غيره.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾. اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾. أي هيأها لهم وجعلها سكناً لهم ومستقراً.

قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. أي: مرجعاً يصار إليه.

و﴿مَصِيرًا﴾: تمييز، والفاعل مستتر، أي: ساءت النار مصيراً يصيرون إليه. ٥

---

[١] تفسير ابن جرير: (٢٦/ ٧٣)

[٢] الإمام أحمد في المسند" (٦١/٣).

قال ابن القيم في الآية الأولى: "فسّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ، وأن أمره سيضمحل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو الظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة

له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجياً.[1]" [2]

ثم ذكر الشيخ رحمه الله كلام ابن القيِّم في تفسير الآيتين، وساقه من "زاد المعاد في هدي خيرِ العباد" باختصار... .٤٠

قوله: "قال ابن القيم". هو محمد ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له رحمهما الله، وقد ذكره في "زاد المعاد" عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التي كانت فيها.

---

[1] هذا البيت رواه ابن المبارك في الزهد(ص ٧٩) وابن سعد في الطبقات(١٥٣/٧)، واسحاق بن ابراهيم الختلي في كتابه الديباج (ص/١٠٧) عن عسعس بن سلامه التميمي، ونسب ابن قتيبة في المعارف (ص:٥٥٧) هذا البيت للاسود بن سريع، وذكر ان الفرزدق سرقه. ورواه الامام أحمد في الزهد (ص/٢٠٧) وابو نعيم في الحليه (٢٤١/٢) من قول صلة بن أشيم.

[2] انظر زاد المعاد (٢٢٨/٣-٢٣٥)

قوله: "في الآية الأولى". يعني قوله ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]. ٥

"فُسِّرَ هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسِّرَ بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. فَفُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتِمّ أمرَ رسولِه ﷺ، وأن يُظهره على الدين كلِّه".

مرَّ معنا في كلام ابن القيم من كلام المصنف أن السلف فسروا هذا الظن السوء بأحد ثلاثة أشياء، وكلها صحيح، فظن السَّوء الذي يظنه الجاهليون يشمل هذه الأشياء جميعاً.

أما الأول: فهو إنكار القدر.

وأما الثاني: فهو إنكار الحكمة.

وأما الثالث: فهو إنكار نصر الله جل وعلا لرسوله ﷺ أو لدينه أو لعباده الصالحين.

فهذه ثلاثة أشياء.٣

يؤخذ هذا التفسير من قولهم. ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾...

فَفُسِّرَ بما يكون طعناً في الربوبية وطعناً في الأسماء والصفات، فالطعن في القدر طعن في ربوبيتة الله عز وجل، لأن من تمام ربوبيته عز وجل أن نؤمن بأن كل ما جرى في الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن في الأسماء والصفات تضمنه الطعن في أفعاله وحكمته، حيث ظننا أن الله تعالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره، لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله، فمعنى ذلك أن إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام عبث وسفه، فما الفائدة من أن يُرسَل رسولاً ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد.

ولا سيما رسول الله ﷺ الذي هو خاتم النبيين، فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة. ٥

إنكار القدر:

وفسّر بـ"إنكار القدر" وهذا -أيضاً- كفرٌ بالله، لأنّ القدر -كما سبق- هو الركن السّادس من أركان الإيمان. ٤

ووجه قوله إنكار القدر ظناً بالله ظن السَّوء: أن تقدير الأمور قبل وقوعها، هذا من آثار عزة الله جل وعلا وقدرته، فإن العاجز هو الذي تقع معه الأمور استئنافاً عن غير تقدير سابق، وأما الذي لا يحصل معه أمر حتى يقدِّرَه قبل أن يوقعَه فيقع على وفق ما قدر، فهو ذو الكمال وهو ذو العزة وهو الذي لا يغالَب في ملكوته، ولهذا قال الشاعر في وصف رجل كامل قال:

لأنتَ تفري ما خلقتَ وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

الخلق هنا التقدير؛ يعني لأنت تقطع ما قدرت، وبعض القوم -وهم الناقصون إما لعدم قدرتهم أو لعدم عزتهم أو لجهلهم- وبعض القوم يخلق؛ يعني يقدِّر الأشياء ثم لا يفري، ثم لا يستطيع أن يقطعها على وفق ما يريد.

إذن فإنكار القدر هو ظن بالله جل وعلا ظن السوء لم؟ لأن فيه نسبة النقص لله جل وعلا، والله جل وعلا هو الكامل في أسمائه، الكامل في صفاته جل وعلا، الذي يجير ولا يجار عليه، والذي له الأمر كله، والذي إليه الأمر كله كما قال هنا ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ﴾، فلهذا كان كل ما يحصل من الرب جل وعلا في بريته هو موافق لقدره السابق الذي هو دليل كمال حكمته وعلمه وخلقه وعموم مشيئته. ٣

إنكار الحكمة:

وأما تفسيره بإنكار الحكمة؛ فلم أقف عليه عن السلف، فهو تفسير صحيح، فمن أنكر أن ذلك لم يكن لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر؛ فقد ظن بالله ظن السوء، وقد أشار تعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة في ذلك في سورة آل عمران فذكر شيئاً كثيراً

منها في الآية المفسرة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فهذا بعض الحكمة في ذلك فمن أنكره؛ فقد ظن ظن السوء بالله وحكمته وعلمه ورحمته لكمال علمه وقدرته ورحمته، ولأن من أسمائه الحق، وذلك هو موجب إلهيته وربوبيته. ١

إنكار الحكمة في أفعاله سبحانه وتعالى، وإنكار الحكمة: كفرٌ وضلال، لأنّ الله وصف نفسَه بالحكمة، وسمّى نفسَه بالحكيم: ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، في كثيرٍ من الآيات، والحكمة: وضعُ الشيء في موضعه. ٤

وحكمة الله جل وعلا ثابتة بالكتاب والسنة وبإجماع السلف، واسم الله (الحكيم) مشتمل على صفة الحكمة، فإنه جل وعلا:

- حكيم بمعنى حاكم.
- وحكيم بمعنى محكِم للأمور.
- وحكيم بمعنى أنه ذو الحكمة البالغة.

فهذه ثلاثة تفسيرات لاسم الله الحكيم، وكلها صحيحة وكلها يستحقها الله جل وعلا:

فإنه جل وعلا حكيم بمعنى حكم وحاكم.

وحكيم بمعنى محكِم كما قال ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:١]، وقال ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣] لأجل إحكامه، وقال سبحانه وتعالى أيضاً ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، ونحو ذلك من دليل إحكامه جل وعلا لما خلق.

والثالث أنه ذو الحكمة، والحكمة في صفة الله جل وعلا تُفَسَّرُ -كما ذكرت لكم-: بأنها وضع الأمور في مواضعها الموافقة للغايات المحمودة منها.

ولهذا نقول: إن أهل السنة والجماعة-أهل الأثر، الفقهاء بالكتاب والسنة- قالوا: إن أفعال الله جل وعلا معللة، وكل فعل يفعله الله جل وعلا لعلة من أجلها فعل، وهذه العلة هي حكمته سبحانه وتعالى، فإن أفعال الله جل وعلا منوطة بالعلل.

وهذا أنكره المعتزلة لأنهم قدرية، وأنكره الأشاعرة لأنهم جبرية، فقالوا: إن أفعال الله جل وعلا ليست مرتبطة بالحِكَم ويفعل لا عن حكمة وهذا سوء ظن بالله جل وعلا.

ولهذا أورد الشيخ رحمه الله هذا الباب ليبين لك أن تحقيق التوحيد وتحقيق كمال التوحيد أن توقن بالحكمة البالغة لله جل وعلا، ومن نفى الحكمة في أفعال الله فهو مبتدع، توحيده قد انتفى عنه كماله؛ لأن بدعته شنيعة، وكل البدع تنفي كمال التوحيد ومنها ما ينفي أصل التوحيد، هذا الثاني. ٣

فمن أنكر حكمة الله فإنّه يكفر بذلك، بخلاف من أثبتها وأوّلها فإنّه يُعتبر ضالاً في هذا التأويل، لأنّ الله جل وعلا حكيم لا يفعل شيئاً إلاّ لحكمة عظيمة، قد تظهر لنا وقد لا تظهر، والله جل وعلا لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يفعل شيئاً لمجرّد المشيئة من غير حكمة، إنّما يفعل الأفعال لحكمة وغايةٍ عظيمة، كلُّ أفعاله سبحانه وتعالى معلّلة وكلُّها لحكمة.

وليس من لازم ذلك: أن تظهر لنا الحكمة أو يظهر لنا التعليل، لكنّنا نقطع ونؤمن ونتيقّن أنّ أفعال الله جل وعلا ليس فيها عبث. ٤

إنكار نصر الله جل وعلا لرسوله ﷺ أو لدينه أو لعباده الصالحين.

وفسّر بـ"إنكار أن يُتِمّ أمرَ رسوله ﷺ، وأن يُظهره على الدين كلِّه، وأن أمره سيضمحل" وهذا هو التفسير الثالث. ٤

هذا تفسير غير واحد من المفسرين، وهو مأخوذ من تفسير قتادة والسُّدِّيِّ، وذكر ذلك عنهما ابن جرير وغيره بالمعنى[1]. ١

التفسير الثالث في ظن أهل الجاهلية وأهل النفاق ظن السوء بالله جل وعلا: أن الله جل وعلا لا ينصر رسوله ﷺ ٣ وهذا تكذيبٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر:٥١].١، وأنه جل وعلا لا ينصر كتابه، أو أنه جل وعلا يجعل رسوله أو دينه في اضمحلال حتى يذهب ذلك الدين، هذا ظن سوء بالله جل وعلا. ٣

---

[1] انظر: تفسير عبدالرزاق (١٣٧/١)، وتفسير ابن جرير (١٤٠/٤ فما بعدها)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧٩٤/٣)، والدر المنثور (٣٥٣/٢-٣٥٤)

قوله: "وأنّ أمرَه سيضمحلّ"

أي: سيذهب جملة حتى لا يبقى له أثر، والاضمحلال: ذهاب الشيء جملة. ١

يعني: أنّ هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ سيزول نهائيّاً ولا يبقى منه شيء، مثل سائر الدعوات والمذاهب الباطلة، تعيش فترة من الزمن ثم تنقطع وتذهب بذهاب أصحابها وذهاب أحزابها وجماعاتها وهذا التفسير باطل، لأن الحق لابد أن يبقى مهما جرى عليه من الامتحان والضعف أحياناً والمداولة لكنِ الحق يبقى ويستمرّ، فمن ظنّ أنّ أمرَ الرّسول ﷺ سيضمحلّ بسبب ما جرى من النكَبات التي جرت على المسلمين، من ظنّ هذا فقد ظنّ بربّه ظنّ السَّوء. ٤

وهذا تكذيبٌ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، والتكذيب لوعد الله كفر. ٤

والله لم يُجرِ هذه النكبات لأجل أن يُزيل أهل الدين ويُزيل الدين، إنّما أجرى هذه النكبات على الدين وعلى أهل الدين ابتلاءً وامتحاناً من أجل الرّجوع إليه سبحانه وتعالى أو لخطأ ارتكبوه ووقعوا فيه، فالله يريد أن ينبِّههم من أجل أن ينقُّوا صفوفهم من الدّخيل ومن الخطأ، فيرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، فيُعيد لهم الله النصر والتمكين، هذه سنّة الله جل وعلا في خلقه.

وكذلك يريد أن يمحِّص الذين آمنوا، يخلِّصهم من الذّنوب والمعاصي ليقدموا على الله مطهّرين ليس عليهم سيّئات.

هذه حكمة الله سبحانه وتعالى، لا يريد بالنكبات التي تجري على عباده المؤمنين أن يُزيلَهم وأن يُزيل حقّهم الذي هم عليه، أبداً، تأبى حكمة الله ذلك، وإنّما يُريد أن يثبِّت هذا الحق وأن يُزيل عنه الدّخيل وأن يُزيل عنه ما أصاب أصحابه من الأُمور المخالفة حتى يرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى ويثوبوا إليه، فعند ذلك تعود إليهم عزّتهم ومكانتُهم.

هذه سنّة الله في خلقه من قديم الخليقة إلى أن تقوم الساعة، كم جرى على الرّسل؟، وكم جرى على أتباعهم من النكبات ومن المعضلات؟، ولكن العاقبة تكون لهم دائماً وأبداً، والحق لا يزال ولله الحمد. ٤

ولهذا كان من براهين النبوات أنّ كل نبي ادَّعى النبوة اضمحل أمره، لم يأتِ نبي يقول: أنا نبي يوحى إلي من السماء. وهو كاذب في دعواه إلا ويخذل إلا ويضمحل أمره، فكان من براهين النبوات عند أهل السنة أن كل نبي قال إنه مرسل من عند الله جل وعلا أُيِّد بالبراهين والآيات والبينات ونُصر على عدوه وجُعل دينه وأهل دينه في عزة على من سواهم، كما قال جل وعلا ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥٩]، وقال جل وعلا ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، فظنُّ الجاهلية أن الخير أو الدين سيضمحل وأنهم إذا بذلوا إطفاء ذلك الأمر وحاربوه بكل ما أتوا من وسيلة وقاوموه فإنه سينتهي، وهذا مع كونه عملا محرماً بما يشتمل على الظلم فإنه أيضاً سوء ظن بالله جل وعلا غرور بالقوة وبالنفس، والله جل وعلا ناصر رسله، والله جل وعلا ناصر عباده المؤمنين؛ ولكن قد يبتلي الله جل وعلا المؤمنين بأن يكونوا في غير نصر زمنا طويلا، قد يبلغ مئات السنين كما حصل في قصة نوح عليه السلام ﴿فَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] ثم نصره الله جل وعلا وهذا يحصل كما ذكر ابن القيم من كثير من أهل الصلاح؛ بل من كثير من الناس؛ بل قد يحصل من بعض المنتسبين إلى العلم في أنواع شتى من سوء الظن بالله جل وعلا، وسبب حصول ذلك الظن السيئ في القلوب عدم العلم بما يستحقه الله جل وعلا وما أوجبه الله جل وعلا من الصبر والأناة ونحو ذلك من الواجبات.

فإذاً المسألة متصل بعضها ببعض فالذي يخالف ما أمر الله جل وعلا به شرعاً فيما يتصل بنصرة الدين فإنه قد يقع في سوء ظن بالله جل جلاله، وهذا مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

فهذه -إذن- ثلاثة أشياء ظنها أهل الجاهلية، وكلها باطلة، وكلام ابن القيم رحمه الله يدور على ذلك، ولهذا يجب عليك أن تتحرز كثيرا، وأن تحترس من سوء الظن بالله جل وعلا. ٣

قوله: "وهذا هو ظن السوء" أي: من نفى القدر، وأن حدوث الأشياء بدون إرادته سبحانه وتعالى، وبدون قدره؛ فقد ظنّ بربّه ظنّ السّوء، ووصف ربّه بالعجز والجهل وعدم العلم، تعالى الله عمّا يقولون. ٤

قوله: "في سورة الفتح"

أي: في قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشركاَتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] إلى قوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح:١٢]. ١

قوله: "وإنّما كان هذا ظنّ السَّوء؛ لأنّه ظنّ غير ما يليق به سبحانه"

ظنّ ما لا يليق به سبحانه وتعالى وهو العَبث. ٤

أي: لأن الذي يليق به سبحانه أنه يظهر الحق على الباطل، وينصره، فلا يجوز في عقل ولا شرع أن يظهر الباطل على الحق، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]. ١

"وما لا يليق بحكمته وحمدِه ووعده الصّادق"

أي: أن الذي يليق بحكمته وحمده أن لا يكون في السموات ولا في الأرض حركة ولا سكون إلا وله في ذلك الحكمة البالغة، والحمد الكامل التام عليها، فكيف بمثل هذا الأمر العظيم الذي وقع على سيد المرسلين ﷺ، وعلى سادات الأولياء رضي الله عنهم؟!

فله سبحانه وتعالى في ذلك الحكمة، وله عليه الحمد، بل والشكر. ومن تأمل ما في سورة آل عمران في سياق القصة؛ رأى من ذلك العجب، فمن ظن بالله تعالى أنه لم يفعل ذلك بقدر وحكمة يستحق عليها الحمد والشكر؛ فقد ظن به ظن السوء. ١

"وما لا يليق بحكمته وحمدِه ووعده الصّادق" لأنّه سبحانه وتعالى محمودٌ على كلّ حال، على ما يكره العباد وعلى ما يحبّون، لأنّه من قِبَل الله محمود، فإيقاعُ العقوبة فيمن يستحقّها عدلٌ منه سبحانه وتعالى يُحمد عليه، وإيقاع الهلاك بالأُمم الكافرة يُحمد عليه سبحانه وتعالى لأنّه جزاء، ونزول النعم بأهل الإيمان والنصر والتوفيق وأهل الإتّباع فضلٌ من الله سبحانه وتعالى، فهو المحمود على كلّ حال على المحامد وعلى المكاره، لأنّه ليس من قِبَله شيء عبث أبداً.

فالذي يعرف الله ويعرف أسماءه وصفاته ومقتضى حمدِه؛ فإنّه لا يقع في هذه الأغلاط أبداً، حتّى ولو بلغ به الأمر والشدّة ما بلغت، لأنّه يعلم أنّ الله لا يفعل إلاّ ما فيه خير له، فيصبر ويرضى بقضاء الله وقدره وينتظر الفرج، ولا ييأس من رحمة الله، بل ينتظر رحمة الله، كلّما اشتدّ الكرب انتظر رحمة الله، بل يزيد الرجاء عند شدّة الكرب، كما قال ﷺ: ((وأعلم أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العُسر يُسراً))، والله جل وعلا يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦)﴾ [الشرح:٥-٦]، ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ [الطلاق:٧]، فكلّما اشتدّ الأمر انفرج.

أما أهلُ النفاق وأهلُ الكفر وأهل الجهل فإنّهم عند الكَرْب يكفُرون بالله عزّ وجلّ ويقنطون من رحمة الله، ولهذا لَمّا أصاب المسلمين في أُحد ما أصابَهم كانت هذه كلماتهم القبيحة. ٤

قوله: "ووعده الصادق" لأن الله تعالى وعد رسوله ﷺ أنه يظهر أمره ودينه على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣، الصف: ٩] فمن ظن به تعالى أن دين نبيه سيضمحل ويَبْطُلُ، ولا يَظْهَرُ على الدين كله، فقد ظن به ظن السوء، لأنه ظن أنه يخلف الميعاد، والله تعالى لا يخلف الميعاد. ١

قال ابن القيِّم: "فمن ظنّ أنّه يُديل الباطل على الحقّ إدالة مستقرّة يضمحلّ معها الحقّ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره".

هذا إعادة من الإمام ابن القيِّم رحمه الله لتقرير هذه المسألة العظيمة. ٤

"من ظنّ أن الله يُديل الباطل على الحق إدالةً مستقرّة"

أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق و يجعل له الغلبة الدائمة فيضمحل ويذهب معها الحق، فهذا ظن المشركين والمنافقين كما في سورة الفتح: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح:١٢]. ٥

فهذا ظن السوء لأنه نَسَبَهُ –أي: سبحانه– إلى ما لا يليق بجلاله، وكمالِهِ ونعوتِهِ وصفاته، فإن حمده وحكمته وعزته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين العادلين به، فمن ظن به ذلك؛ فما عرفه، ولا عرف أسماءه وصفاته وكماله. ١

الله قد يُديل الباطل على الحقّ أحياناً، لكن هذه الإدالة مؤقّتة وليست مستقرّة، وإدالتُه على الحقّ لحكمة، وهي أنّ أهل الحق يتنبّهون ويتداركون الخطأ والنقص الذي حصل فيهم: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:١٤١]، يعني: يطهِّرهم من رجس الذنوب والمعاصي بما نزل عليهم من العُقوبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣]، ولَمّا شقّ على أبي بكر –رضي الله تعالى عنه– قال: "أيُّنا لم يعمل سوءاً يا رسول الله؟"، فقال رسولُ الله ﷺ: ((ألستَ تحزَن؟، ألستَ تَنْصَب؟، ألستَ تُصيبُك اللأوى؟))، قال :بلى، قال: ((فذلك ما تُجزون به)).

فالله جل وعلا قد يُجازي عبدَه المؤمن وهو يحبُّه، ويعاقبه لأنّه يحبّه؛ من أجل أن يخلِّصه من هذا الذنب، حتى يوافيَ ربّه طاهراً نقيًّا ويدخُل الجنّة.

أمّا الكافر عدوُّ الله فإنّ الله يصبُّ عليه النعم للاستدراج ويُمسكُ عنه العُقوبة حتى يوافي القيامة وهو محمّلٌ بالذّنوب فيكون من أهل النّار، هذه حكمة الله سبحانه وتعالى.

بعض النّاس يقول: لماذا الكُفّار ينعَمون بالحضارة والصناعات، والجوّ الطيِّب، والبيئة الطيِّبة، والفواكه، والأشجار، والمحاصيل، والمسلمون في هذه الحالة، ثم يذهب به ظنّ السَّوء إلى أن يظنّ أنّ الكفّار على الحقّ، وأنّ الله راضٍ عنهم، وأنّ المسلمين ليسوا على حق وأنّ الله ساخطٌ عليهم، ثم قد يرتدّ عن الدين.

فالله جل وعلا يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحبّ، وأما الدين فإنّه لا يُعطيه إلاّ لمن يحبّ.

وليس إنزال النعم أو إنزال النِّقَم دليلاً على المحبّة أو على البُغض والكرَاهة وإنّما هو ابتلاء وامتحان، فقد يعاقبُ الله من يحبُّه وقد يُنعم على من يُبغِضُه في هذه الدّنيا: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾ [آل عمران:١٧٨].

فهذا يجب أن يكون من المؤمن على بال، لكن ما يُدرك هذا إلاّ أهل الفقه وأهل العلم وأهل البصيرة وأهل النظر الصّائب. ٤

قوله: "أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره".

أي: فذلك ظن السوء لأنه نسبة له إلى ما لا يليق بربوبيته وملكه وعظمته. ١

" أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحقّ عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجرّدة؛ فذلك ظنُّ الذين كفروا".

قال ابن القيم: "وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة لما يحبه، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثًا ولا خلقها باطلاً: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]". [١]

---

[١] زاد المعاد (٣/٢٢٩)

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره، لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمه بالغة يستحق عليها الحمد، لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعباً وسفهاً، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئاً أو يشرعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافاً كبيراً بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى.

ورأى الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالو: لأنه لا يسأل عما يفعل، وهذا من أعظم سوء الظن بالله، لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمي سفيهاً، فما بالك بالخالق الحكيم؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطلاً ج ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧]، فالظن بأنها خلقت باطلاً لا لحكمة عظيمة ظن الذين كفروا، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩] الذي هو الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالى خلقهما باطلاً لغير حكمة، قال الله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين يظنون أن الله خلقهما باطلاً وعبثاً وسفهاً ولعباً.

قوله: "﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾" [ص: ٢٧]. ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة: للتعظيم، وخبر المبتدأ: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والجار والمجرور ﴿مِنَ النَّارِ﴾ بيان لويل، وفي هذا دليل على أن كلمه ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة وعيد وليست كما قيل: واد في

جهنم، ولهذا نقول: ويل لك من البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد في جهنم اسمه ويل، لكن ويل في مثل هذه الآية كلمة وعيد. ٥

قوله: "وأكثر الناس". أي: من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء، أي: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

قوله: "فيما يفعله بغيرهم". كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسلمين دائماً، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقضتي ذلك.

قوله: "إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده". صدق رحمه الله، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله عز وجل وما له من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفه تحريف وتأويل.

ولهذا حجب المحرفون والمؤولون عن معرفة أسماء الله وصفاته، فتجد قلوبهم مظلمة غالباً، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف، فإن قلبه لا يَرِدُ عليه مثل هذه الاعتراضات التي ترد على قلوب أولئك المحرفين، لأن المحرفين إنما أتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دلَّ ظاهرهما على التمثيل والتشبيه، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما كون كل معطل ممثلاً، فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيئ بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها، فَمَثَّلَ أولاً، وعَطَّلَ ثانياً، ثم أنه إذا عطل صفات الله تعالى خوفاً من تشبيهه

بالموجود، فقد شبهه بالمعدوم، وأما كون كل ممثل معطلاً، فلأن الممثل عطل الله تعالى من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص، وعطل كل نص يدل على نفي مماثلة الخالق للمخلوق.

وعلى هذا، فالذي عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ما جرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، "وعرف موجب حكمة الله"، أي: مقتضى حكمة الله، لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: "موجب". موجب، بالفتح: هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى، وبالكسر: السبب الذي يقتضي الشيء بمعنى المقتضي، والمراد هنا الأول.

فالذي يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة، فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبداً، ولاحظ الحكمة التي حصلت للمسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أحد، فإن في ذلك حكماً عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران والتوبة، فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل ما يجريه الله في الكون، كمنع الإنبات والفقر، فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده، لأنه عز وجل أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس. ٥

ثم قال ابن القيم رحمه الله: "فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا"

اللب: العقل، واللبيب: العاقل. ١

قوله: "اللبيب". على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله: "بهذا". المشار إليه هو الظن بالله عز وجل، ليعتني بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية. ٥

فيتأمّله تأمُّلاً جيِّداً، وهو أمر أفعالِ الله تعالى في عِباده، وليعلم أنّه لا يفعل شيئاً إلاّ لحكمة وقضاءٍ وقدر، ما يجري في هذا الكون شيء إلاّ لحكمة وقضاء وقدر، ولم يعد الله سبحانه وتعالى بوعد إلاّ ولا بدّ أن يقع، ويتأمّل الإنسان نفسه حِيال هذه الحوادث: ماذا تقولُ نفسُه إذا وقع شيء ممّا يكره به أو بغيره، ولهذا يقول الإمام ابن القيِّم: "وأكثر النّاس يظنون بالله ظنّ السَّوء فيما يختص بهم، وفيما يفعلُه بغيرهم". ٤

قوله: "وليتب إلى الله". أي يرجع إليه، لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله: "وليستغفره". أي: يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: "فليتب" وقوله: "وليستغفره" للأمر. ٥

"ولو فتَشتَ من فتّشت؛ لرأيت عنده تعنُّتاً على القدر وملامَة له"

قوله: "تعنتاً على القدر وملامة له". أي: إذا قدر الله شيئاً لا يلائمة تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصاب بالحوائج، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا. ٥

كما كان من إبليس، وما نتج عن تكبُّر إبليس وتعنُّته على الله جل وعلا.

وكذلك بالنسبة لمن تشبّه به في الاعتراض على الله في أفعاله سبحانه وتعالى وفي تصرُّفه في ملكه جل وعلا، وأنّه ينبغي أن يكون كذا وكذا. ٤

قال ابن عقيل في (الفنون): "الواحد من العوام إذا رأى مراكب مُقَلَّدَة بالذهب والفضة، وداراً مُشَيَّدة مملوءة بالخدم والزينة؛ قال انظر إلى ما أعطاهم مع سوء أفعالهم، ولا يزال يلعنهم، ويَذُمُّ مُعْطِيَهُمْ حتى يقول: فلان يصلي الجماعات والجُمَعْ، ولا يؤذي الذَّرَّ، ولا يأخذ ما ليس له، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ولا ينال خَلَّةَ بَقْلَةٍ، وَيُظْهِرُ الإعجابَ كأنه ينطق: إنه لو كانت الشرائع حقاً لكان الأمرُ بخلافِ ما ترى، وكان الصالح غنياً، والفاسق فقيراً". [1]

[1] نقله عنه غير واحد منهم: ابن مفلح في الآداب الشرعية (١٨٦/٢)

قال أبو الفرج ابن الجوزيّ[١]: "وهذه حالةٌ قد شَمِلَتْ خلقاً كثيراً من العلماء والجهال، أَوَّلُهُمْ إبليس فإنه نظر بعقله، فقال: كيف يُفَضِّلُ الطين على جوهر النار؟! وفي ضمن اعتراضه: إنَّ حِكْمَتَكَ قاصرةٌ، وأنا رأيي أَجْوَدُ.

قال ابن الجوزي: "ودخلت على صَدَقَةَ بنِ الحُسَيْنِ الحَدَّادِ[٢]، وكان فقيها غيرَ أنه كان كثير الاعتراض، وكان عليه جربٌ، فقال: هذا ينبغي أن يكون على جملٍ لاعليَّ.

وكان يتفقده بعض الأكابر بمأكول، فيقول: بَعَثَ لي هذا على الكِبَرِ وَقْتَ لا أَقْدِرُ على أَكْلِهِ!

وكان رجل يَصْحَبُني قد قارب ثمانين سنة، كثير الصلاة والصوم، فمرض واشتد به المرض، فقال: إن كان يريد أن أموت فَيُمِيتُني، وأما هذا التعذيب، فماله معنى! والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً!

ورأيت آخر يَتَزَيَّا بالعلم إذا ضاق عليه رزقه يقول: أَيْشٍ هذا التدبير؟!

وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا: ما يريد نُصَلِّي![٣]

وإذا رأوا رجلاً صالحاً مؤذى[٤] قالوا: "ما يستحق" قدحاً في القدر". [٥]

وكان قد جرى في زماننا تَسَلُّطٌ من الظلمة، فقال بعض من تزيَّا بالدين: هذا حُكْمٌ باردٌ. وما فَهِمَ ذاك الأحمق، فإن الله يملي للظالم.[٦]

وفي الحمقى من يقول: أيُّ فائدةٍ في خَلْقِ الحَيَّاتِ والعقارب، وما عَلِمَ أنَّ ذلك أُنْموذَجٌ لعقوبةِ المخالف، وهذا أمرٌ قد شاعَ، ولهذا مَدَدْتُ النَّفْسَ".

---

[١] في كتابه (السر المصون) كما في الآداب الشرعية لابن مفلح (١٨٤/٢)

[٢] انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٦٦/٢١)

[٣] في ب، والآداب الشرعية: ما نريد نصلي، و المثبت من: ض، ولعل ما أثبته هو الأظهر إذ أنهم يعترضون على القدر ويسيؤون الأدب فيتهمون الله بأنه لا يريدهم يصلون لأنه ضيق عليهم أرزاقهم.[محقق١]

[٤] في الآداب الشرعية: "يؤذى"، والمثبت من النسخ الخطية.

[٥] قد جافى القدر في الآداب الشرعية:

[٦] في ض: فإن لله يملي للظالم. والمثبت من: ب، والآداب الشرعية: وهو الصواب.

وفيه: "وأعلم أن المعترض قد ارْتَفَعَ أن يكونَ شريكاً، وعلا على الخالق بالحكم عليه، وهؤلاء كُلُّهُم كفرة، لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة، وإذا كان قد تَوَقُّفُ القلب عن الرضى بحكم الرسول ﷺ، يُخْرِجُ عن الإيمان قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية[النساء:٦٥]، فكيف يَصِحُّ الإيمان مع الاعتراض على الله؟!
وكان في زمن ابن عقيل رجل رأى بهيمة على غاية من السَّقْمِ، فقال: وارحمتي لَكِ، واقِلَّةَ حَيْلَتي في إقامةِ التأويلِ لِمُعَذِّبِكِ.
فقال له ابن عقيل: "إنْ لم تقدر على حمل هذا الأمر لأجل رقتك الحيوانية، ومناسبتك الجنسية، فعندك عقل تعرف به حِكَمَ الصَّانِعِ وحِكْمَتَهُ؛ يوجِبْ عليكَ التَّأْوِيلَ، فإنْ لم تَجِدِ اسْتَطْرَحْتَ لِفَاطِرِ العَقْلِ، حيث خانك العقل عن معرفة الحكمة في ذلك" انتهى[1].

قوله: "فمستقل ومستكثر". "مستقل": مبتدأ، خبره محذوف. و"مستكثر": مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر"، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ف ﴿سعيد﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، ولا يقال بأن ﴿سعيد﴾ معطوف على شقي، لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد. ٥

فيما ذَكر -في آخر الكلام- ابن القيم رحمه الله من أن بعض الناس قد يحصل له الشيء فيرى أنه يستحق أكثر منه، وقد يحصل له الشيء بقضاء الله وبقدره فيظن أنه لا يستحق ذلك الشيء أو أن ذلك المفروض أن يصاب به غيره وأنه لا يصاب بذلك، فينظر إلى فعل الله جل وعلا وقضائه وقَدَره على وجه الاتهام، وقَلَّ من يسلم باطناً وظاهراً من ذلك، فكثيرون قد يسلمون ظاهراً؛ ولكن في الباطن يقوم بقلوبهم ظن الجاهلية واعتقاد السَّوء، ولهذا قال جل وعلا في الآية التي في صدر الباب ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ والظن محله القلب.

---

[1] انظر الآداب الشرعية (٢/١٨٤- ١٨٥)

لهذا يجب على المؤمن أن يخلص قلبه من كل ظن بالله غير الحق وأن يتعلم أسماء الله جل وعلا وأن يتعلم الصفات وأن يتعلم آثار ذلك في ملكوت الله؛ حتى لا يقوم بقلبه إلا وأن الله جل جلاله هو الحق وأن فعله حق، حتى ولو كان في أعظم شأن وأصيب بأعظم مصيبة أو أُهين بأعظم إهانة فإنه يعلم أنه ما أصابه لتمام ملك الله جل وعلا وأنه يتصرف في خلقه كيف يشاء، وأن العباد مهما بلغوا فإنهم يظلمون أنفسهم، والله جل وعلا يستحق الإجلال والتعظيم.

فخلِّصْ قلبكَ أيها المسلم وخاصة طالبَ العلم، خَلِّصْ قلبك من كل ظن سَوء بالله جل وعلا بأن قلتَ: هذا لا يصلح، وهذا الفعل عليه كذا وكذا، ولا يصلح أن يعطى المال، أو أن تحسد فلاناً وفلاناً.

فإن كل ذلك سوء ظن بالله جل وعلا، ولهذا قال العلماء في معنى قول النبي ﷺ ((إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)) قالوا سبب ذلك أن الحاسد ظن أن هذا الذي أعطاه الله جل وعلا ما أعطاه لا يستحق هذه النعمة، فحسده وتمنى زوالها منه فصار في ظن سوء بالله جل وعلا، فلهذا أكل الحسنات ظنُّه كما أكلت النار الحطب.

نسأل الله جل وعلا السلامة والعاقبة من كل ظن بغير الحق فيه جل وعلا، ونسأله أن يجعلنا من المعظِّمين له ومن المبجلين لأمره ونهيه المعظمين لحكمته سبحانه وتعالى. ٣

ثم قال: "وفتِّش نفسَك هل أنت سالم؟"

وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه؟ ومما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟. ٥

يجب على الإنسان أن لا يزكِّي نفسه أبداً، يقول الله جل وعلا: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩)﴾ [النساء:٤٩]، فالإنسان لا يزكِّي نفسه، بمعنى: يمدح نفسه ويُعجب بنفسه، ويظنّ أنه كامل، وأنّه من الأخيار، بل دائماً الإنسان يتّهم نفسَه بالتقصير في حقّ الله تعالى.

أمّا التزكية التي أثنى الله تعالى على أصحابها في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)﴾ [الشمس:٩] فالمراد بتزكية النفس هنا تطهيرُها بالأعمال الصالحة وترك الأعمال السيّئة، هذه تزكية النفس، شغلُها بالأعمال الصّالحة وتجنيبُها للأعمال السيّئة.

فهناك تزكيةٌ منهيٌّ عنها وهي: الإعجاب والمدح للنفس، وهناك تزكية مأمورٌ بها وهي الإصلاح والتوبة والعمل الصالح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)﴾، وتوعّد الله الذين لا يزكون أنفسهم قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت:٦-٧] قال بعض المفسرّين: المراد بالزّكاة هنا: تزكية النفس، لأن الآية مكية، والزكاة بالأموال لم تكن نزلت إلاّ في المدينة، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون:٤] قالوا: والمراد بالزكاة هنا: زكاة النفس، لأنّ الآية مكيّة -أيضاً-، فتزكية النفس بالأعمال الصالحة مطلوبة مأمور بها.

وقوله: "فتِّش نفسك هل أنتَ سالمٌ؟" يعني: لا تشتغل بعيوب النّاس وتنسى نفسك، فتِّش نفسك هل أنت سالم من هذا التعنُّت والملامة على القدر والاعتراض على الله سبحانه وتعالى في الحوادث؟.

قوله: "فإنْ تنجُ منها"

يعني: من هذه المصيبة. ٤

"فإنْ تنجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمة ... وإلاَّ فإنِّي لا إخالُك ناجياً"

وقوله: "من ذي عظيمة". أي: من ذي بلية عظيمة. ٥

قوله: "وإلاَّ فإنّي لا إخالُك ناجياً"

يعني: لا أظنُّك تنجو من هذه الفتنة. ٤

التقدير، أي: وإلا تنج من هذه البلية، فإني لا إخالك ناجياً. ٥

يعني: لا أظنك ناجياً، إن فتش نفسه وجد عندها عيوباً كثيرة، ووجد عندها اعتراض على القدر، ووجد عندها عيوباً في نفسها، وفي أعمالها إلا من عصم ربك، فعلى المؤمن أن يفتش نفسه وأن يجاهدها لعله ينجو، لعله يسلم من هذا البلاء الذي وقع فيه المنافقون، ووقع فيه ضعفاء الإيمان، ووقع فيه الكافرون. وأن يؤمن جازماً أن ربه حكيم عليم، وأن ما يقضيه عن حكمة بالغة، وعن قدر سابق، وله في الحكمة البالغة والأسرار العظيمة من تهيأة عباده المؤمنين لما هو أفضل، ومن رفع درجاتهم واتخاذ شهداء منهم، ومن تكفير سيئاتهم ومن تنبيههم على أخطائهم حتى يستعدوا وحتى يتوبوا إلى غير هذا من الحكم. ٦

فهذا الباب في الحقيقة بابٌ عظيم، وبابٌ جليل، ومن أحب المزيد من هذا الكلام الطيِّب فليراجع "زاد المعاد "في كلامه على غزوة أُحد، وما جرى فيها من المحنة على المسلمين، وما قاله المنافقون في هذه الغزوة. ٤

وكلام ابن القيم مطولاً:

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: في الكلام على ما تضمنته وقعة أحد: "وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حكمة له فيه. ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسول الله ﷺ وأن يظهره على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح؛ حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشركاَتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية –وهو المنسوب إلى أهل الجهل– وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من

كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم. ولجنده بأنهم هم الغالبون. فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبدا. فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة لما يحبه، وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثًا ولا خلقها باطلاً: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيره، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده. فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء، ومن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، لا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملا كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم في أسفل السافلين، ويُنَعم من استنفذ عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر. فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه، بل أراد منهم أن يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع

قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان. فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد. فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتهوكين والحيارى هو الهدى والحق، فهذا أسوأ الظن بالله.

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه كان مُعطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرا، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدا، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأنه

أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربي الأسفل كان كمن قال: سبحان ربي الأعلى. فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلد في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفذ ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن له ولدًا أو شريكا، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوصلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيرًا منه، أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه أولياء، ودعا من دونه ملكًا أو بشرًا حيًّا أو ميتًا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء.

فأكثر الخلق بل كلهم -إلا من شاء الله- يظنون بالله غير الحق وظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه. ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به. ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا (وتعتبًا) على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وإنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم. فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة،

ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فـلا تظنـن بربـك ظـن سـوء	فـإن اللـه أولى بالجميـل
ولا تظنـن بنفسـك قـط خـيراً	فكيـف بظالـم جـان جهـول
وقـل: يـا نـفس مـأوى كـل سوء	أترجـو الخيـر مـن ميـت بخيـل؟
وظـن بنفسـك السـوأى تجـدها	كـذاك، وخيرهـا كالـمستحيل
ومـا بـك مـن تـقى فيهـا وخـير	فتـلك مـواهب الـرب الجـليل
وليـس لهـا ولا منهـا، ولكـن	مـن الرحمن، فاشكـر للدليـل[١].٢

فيُستفاد من هاتين الآيتين وتفسيرهما:

أولاً: أنّ حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ واجبٌ من واجبات التّوحيد.

ثانياً: أن سوء الظنّ بالله سبحانه وتعالى ينافي التّوحيد أو ينافي كمالَه، ينافي أصلَه إذا زاد وكثُر واستمرّ، أو ينافي كمالَه إذا كان شيئاً عارضاً أو شيئاً خفيفاً أو خاطراً في النّفس فقط ولا يتكلّم به بلسانِه، أمّا إنْ تكلّم به بلسانِه فإنّه يكونُ منافياً للتّوحيد.

ثالثاً: فيه: إثبات القضاء والقدر، وأنّ ما يجري من المصائب والمحابّ والمكروهات والملاذ كلُّه بقضاء الله وقدره.

رابعاً: أن النّبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فلا يتعلق به ﷺ، وأنّما يُتعلّق بالله، لأنّ الأمر كلَّه لله جل وعلا، لا للرسول ولا لغيره، قد قال الله جل وعلا له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾ [آل عمران:١٢٨]، لما دعا ﷺ على أقوام من أهل مكّة فعاتبه الله قال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)﴾، وقد تاب الله عليهم وأسلموا، وحسُن إسلامُهم، وصاروا من قُوّاد الجهاد في الإسلام.

---

[١] ابن القيم زاد المعاد (٢٣٦/٢٢٨/٣)

فهذا فيه: أنّ الأمر لله سبحانه وتعالى، فلا يُتعلّق إلاّ بالله جل وعلا، أمّا الرّسول- عليه الصلاة والسلام- فإنّه رسولُ الله، هو مبلِّغٌ عن الله تعالى رسالاته، وهذه وظيفة الرّسل عليهم الصلاة والسلام البلاغ والأمر بيد الله.

خامساً: فيها: إثبات الحكمة في أفعال الله سبحانه وتعالى، وأنّ الله لا يفعل شيئاً عبثاً.

سادساً: فيها: أنّ وعد الله جل وعلا لابدّ أن يتحقّق، ولا يتخلّف وعدُ الله سبحانه وتعالى أبداً، وهو وعد بأنّ هذا الدين سيظهر، وماذا كان الواقع؟، أليس الدين ظهر في المشارق والمغارب؟، أليس بلغ هذا الدين مبلغ الليل والنّهار؟، أليستْ دخلتْ فيه دول الأرض الكبرى: فارس والرّوم وبلاد الشّرق والغرب، هل بقي في الأرض مكان لم يصل إليه هذا الدين؟، هذا وعد الله عزّ وجلّ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩] ولم ينته أمره بوقعة أحد كما ظن ذلك المنافقون. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

وهي قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤] وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين. ٥

الثانية: تفسير آية الفتح. وهي قوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين. ٥

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر. أي: ظن السوء والذي أخبر بذلك ابن القيم رحمة الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به. ٥

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

أي: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب، فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ولا تظنن بربك ظن سَوء ... فإن الله أولى بالجميل

مناسبة الباب للتوحيد:

إن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، فإذا ظن بالله ظن السوء، لم تكن الأسماء حسنى، وقال في الصفات: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وإذا ظن بالله ظن السوء، لم يكن له المثل الأعلى. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي الْقَدَرِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي الْقَدَرِ)

وقَالَ ابْنُ عُمَرَ: "وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ. ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: ((الإيمان أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: "يا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإيمان حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ))، يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فلَيْسَ مِنِّي))، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَم، فقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كائِنٌ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))، وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ:((فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ)). وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: ((لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)). قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيْفَةَ بنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ بنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِه.

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله ليبيّن أنّ الإيمان بالقدَر من الإيمان بربوبية الله، وأنّ مَن أنكر القدر فقد أشرك في توحيد الربوبيّة، فالإيمان بالقدر من الإيمان بالربوبيّة، فالذي لا يؤمن به فإنه لا يؤمن بربوبيّة الله سبحانه وتعالى، لأنّه جَحد قدره وعلمَه وأنكر أن يكون ما يجري في هذا الكون بتقدير الله ومشيئَتِه، ووصف الله تعالى بالجهل وبالعجز، إلى غير ذلك. ٤

ومناسبة هذا الباب للذي قبله ما ذكرنا أن إنكار القدر سوء ظن بالله جل وعلا، ويكون هذا الباب كالتفصيل لما اشتمل عليه الباب الذي قبله.

ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة وهي أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم توحيد العبد حتى يؤمن بالقدر، وإنكار القدر كفر بالله جل وعلا ينافي أصل التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "القدر نظام التوحيد فمن كذَّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه." يعني الإيمان بالقدر هو النظام يعني السلك الذي تجتمع فيه مسائل التوحيد من يقوم عقدُها في القلب، فإذا كذب بالقدر معنى ذلك انقطع السلك فنقض ذلك التكذيب أمور التوحيد، وهذا ظاهر؛ فإن أصل الإيمان أن يؤمن بالأركان الستة التي منها الإيمان بالقدر كما ذكر ذلك الشيخ في حديث ابن عمر. ٣

ذكر المصنف ما جاء من الوعيد فيمن أنكره تنبيها على وجوب الإيمان به، ولهذا عده النبي ﷺ من أركان الإيمان، كما ثبت في حديث جبريل عليه السلام لما سأله عن الإيمان، فقال: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره))، قال: ((صدقت)).[1]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)) قال: ((وعرشه على الماء)).[2]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((كل شيء بقدر حتى العَجْزُ والكَيْسُ)) رواهما مسلم في صحيحه.[3]

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم٥٠) ومسلم (رقم١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم في صحيحه (٨) عن عمر بن خطاب رضي الله عنه.

[2] رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) عن عبدالله بن عمرو.

[3] رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٥).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأَنِّي رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، والبعثِ بعد الموت، ويؤمن بالقدر)) رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم في صحيحه.[1]

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً، قد أفردها العلماء بالتصنيف. ١

قد كان المسلمون في عهده ﷺ قد آمنوا بالقدر وسلموا لله أمره، ثم نبغت نابغة بعد ذلك في آخر عهد الصحابة وبعد ذلك فأنكروا القدر، وقالوا: الأمر أنف، وزعموا أن في إثبات القدر خلافاً للعدل، وكيف تقدر الأمور ثم يعاقب العاصي والكافر على ما فعل جهلاً منهم وضلالاً والتباساً بالأمر عليهم، أما أهل الحق من أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ ومن سار على نهجهم فقد آمنوا بالقدر وصدقوه، وأن الله قدر المقادير وكتبها سبحانه، فلا يقع في ملكه ما لا يريد، بل قدر كل شيء وأحصى كل شيء، وهو العالم بكل شيء.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله يقول في شأن القدرية: ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا، والمعنى قولوا لهم: هل الله يعلم الأشياء قبل وجودها؟ فإذا قالوا: نعم يعلم قبل وجودها فهذا هو القدر، هذا هو القدر أن الله علم الأشياء وكتبها عنده، فهو يعلمها قبل أن تقع، يعلم من يكفر ومن يعصي ومن يؤمن، يعلم كل شيء سبحانه وتعالى، فإن أنكروه وقالوا: لا يعلم كفروا، لأنهم في هذه الحالة نسبوا إلى الله الجهل، والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٥]، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] فمن نسب ربه إلى الجهل وأنه لا يعلم الأشياء فقد طعن فيه غاية الطعن وتنقص فيه غاية النقص، فيكون

---

[1] رواه الطيالسي في مسنده (رقم ١٠٦)، والإمام أحمد في المسند (١/٩٧-١٣٣)، الترمذي في سننه (رقم٢١٤٥)، وابن ماجه في سننه(رقم٨١)، وابن حبان في صحيحه (رقم رقم٢٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين وصححه (١/٣٢-٣٣)، ووافقه الذهبي وهو كما قال.

كافراً، ولهذا ذهب جم غفير من أهل العلم من أهل السنة والجماعة إلى كفر القدرية، وأنهم كفار لأنهم كذبوا بقدر الله وأنكروا علمه بالحقيقة.

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال في حديث عمر لما سأله جبرائيل عن الإيمان قال: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره))، وقد دل على هذا كتاب الله حيث قال جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] فهو سبحانه وتعالى بين كل شيء وقدر كل شيء ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقد دل كتاب الله على سبق علمه بالأشياء، وهذا هو القدر، ودلت السنة على ذلك، فمن أنكر ذلك وزعم أنه لا قدر فهو كافر مكذب لهذه النصوص، متعدٍ لحدود الله، ناسباً إلى ربه الجهل وعدم العلم، ولهذا قال ابن عمر لما بلغوه قال: "إذا لقيتموهم فقل لهم: إن ابن عمر برئ منكم، ولستم مني ولست منكم"، وقال: "لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر"، وهكذا قال زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وحذيفة بن اليمان، وعبدالله بن مسعود، وهكذا قال أهل السنة والجماعة، فالواجب على أهل كل مسلم وعلى كل مكلف يدخل في الإسلام أن يؤمن بالقدر ويصدق بعلم الله في الأشياء. ٦

(بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي الْقَدَرِ)

الإنكار: هو الجحود بحيث يجحد أن تقدير الله سبحانه و تعالى لجميع الأمور. ٩

القدر في اللغة: مصدرُ (قدَرْتُ الشيء أقدره): إذا أحطت بمقداره. ٤

هو التقدير كما هو معروف، وهو وضع الشيء في نحو ما بما يريده واضعه، قدَّر الشيء تقديراً وقدراً. ٣

قال القرطبي: "القدر: مصدر قَدَّرْتُ الشيء -خُفِّفَت الدال- أَقْدِرُهُ وَأَقْدُرُهُ قَدْراً وَقَدَراً إذا أَحَطْتُ بمقداره.

ويقال فيه: قَدَّرْتُ أُقَدِّرُ تَقْديراً -مشدد الدال للتضعيف- فإذا قلنا: إن الله تعالى قَدَّرَ الأشياء، فمعناه: إنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادِهَا، ثم أَوْجَدَ منها ما سبق في علمه أنه يوجِدُهُ على نحو ما سبق في علمه، فلا مُحْدَثَ في العالم العلوي والسفلي إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته، هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين الذي دلت عليه البراهين"[١]. ١

وفي العقيدة: عرَّفه بعض أهل العلم بقوله: إن القدر هو علم الله السابق بالأشياء، وكتابتُه لها في اللوح المحفوظ، وعموم مشيئته جل وعلا، وخلقُه للأعيان والصفات القائمة بها.

وهذا التعريف صحيح؛ لأنه يشمل مراتب القدر الأربعة، فالقدر الإيمان به إيمان بأربع مراتب، وهذه المراتب على درجتين:

الأولى والثانية من المراتب تسبق وقوع المقدَّر:

- وهي الإيمان بالعلم السابق.
- والإيمان بكتابة الله جل وعلا لعموم الأشياء.

كما قال ((إن الله قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخلْق قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) ((قَدَّر مَقَادير الخلق)) يعني كتبها، هذان الأمران الإيمان بالعلم السابق والإيمان بالكتابة تسبق وقوع المقدر، فأنت تؤمن بها وهي سابقة للوقوع.

وأما ما يقارن وقوع المقدر، ما يقارن القضاء فهذا له مرتبتان:

- الأولى منهما هي مرتبة عموم المشيئة، فإن الله جل وعلا ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والعبد لا يشاء شيئاً فيحصل إلا إذا كان الله جل وعلا قد شاءه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

---

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٣٢/١)

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وقال ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]، فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله جل وعلا.

- وكذلك المرتبة الأخيرة التي تقارن وقوع المقدر: الإيمان بأن الله جل وعلا خالق كل شيء للأعيان وللصفات التي تقوم بالأعيان، فالأعيان مثل الذوات هذه الله جل وعلا هو خالقها، هذا باتفاق أهل الإسلام؛ يعني أن الله جل وعلا هو الخالق للإنسان الخالق للحيوان الخالق للسماء للأرض، وكذلك الإيمان أن الصفات التي تقوم بتلك الأعيان الله جل وعلا هو الخالق لها، ومن ذلك أفعال العباد، فأفعال العباد معاني، ففعل العبد داخل في عموم خلقه جل وعلا، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، وكلمة (شَيْءٍ) عندنا تُعَرَّف بأنها ما يصح أن يعلم، فكل ما يصح أن يعلم يقال له شيء ولهذا يدخل في عموم قول ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ العباد وأفعال العباد. ٣

قوله: "القدر". هو تقدير الله عز وجل للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله عز وجل في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيراً أو شراً. ٥

قال البغوي في شرح السنة: "الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية كُلُّها بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية، ووعد عليهما العقاب. قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم :٢٧].[١]

قال: "والقدر سِرٌّ من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مُرْسَلاً، لا يجوز الخوض فيه، والبحثُ عنه بطريق العَقْلِ، بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق، فجعلهم فريقين:

---

[١] شرح السنة (١/١٤٢-١٤٣).

أهل يمين؛ خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال؛ خلقهم للجحيم عدلاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩]". [١]

وقد سأل رجل علي بن أبي طالب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن القدر. قال: "طريقٌ مظلم، فلا تَسْلُكْهُ"، فأعاد السؤال، فقال: "بحرٌ عميق لا تَلِجْهُ"، فأعاد السؤال، فقال: "سِرُّ الله، خَفِيَ عليكَ فلا تُفَتِّشْهُ". [٢]

وقال شيخ الإسلام: "مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد، وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه.

وأنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قَدَّرَ أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون.

---

[١] شرح السنة (١٤٤).

[٢] رواه الآجرى في الشريعة (رقم٤٢٢- الدميجي)، وابن بطة في الإبانة (رقم١٥٨٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ١١٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٥١٢-٥١٣)، (١٥/١٨٢) وغيرهم من طرق عن علي ﷺ، وفي أسانيدها ضعف، وقد روي مرفوعاً من حديث ابن عمر، وأنس، وعائشة، ومن حديث ابن عباس عن عيسى عليه السلام وأسانيده المرفوعة واهية جداً.
وما ورد عن علي ﷺ قد تلقته الأمه بالقبول، وأجمعوا على معناه، قال ابن عبد البر في الاستذكار (٨/٢٦٣): "وقال العلماء والحكماء قديماً: "القدر سر الله فلا تنظروا فيه".

وغلاة القدرية ينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون أنه أمر ونهي وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أُنُفٌ، أي: مُسْتَأْنَفٌ، وهذا القول أَوَّلُ ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في زمن الفتنة التي كانت بين ابن الزبير وبين بني أمية، في أواخر عصر عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس وغيرِهما من الصحابة، وكان أول من ظَهَرَ ذلك عنه بالبصرة مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ.

فلما بلغ الصحابة قول هؤلاء تبرؤوا منهم، وانكروا مقالتهم كما قال عبدالله ابن عمر لمَّا أُخْبر عنهم: "إذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم وأنهم برآءُ مني"[1]، وكذلك كلام ابن عباس وجابر بن عبدالله وواثلة بن الأسقَعِ، وغيرهم من الصحابة.

ثم لما كثر خوض الناس في القدر صار جمهورهم يُقِرُّ بالعلم المتقدم والكتاب السابق، ولكن ينكرون عموم مشيئة الله وعموم خلقه وقدرته، ويظنون أنه لا معنى لمشيئته إلا أمرُهُ، فما شاء فقد أمر به، وما لم يشأ لم يأمر به، فلزمهم أنه قد يشاء مالا يكون، ويكون ما لايشاء.

وأنكروا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد، أو قادراً عليها، أو أن يَخُصَّ بعض عباده من النعم بما يقتضي إيمانهم به وطاعتهم له.

وزعموا أن نعمته التي بها يمكن الإيمان والعمل الصالح على الكفار كأبي جهل وأبي لهب مثل نعمته بذلك على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، بمنزلة رجل دفع إلى والديه مالاً قسمه بينهم بالسَّويَّةِ، لكنَّ هؤلاء أحدثوا أعمالهم الصالحة، وهؤلاء أحدثوا أعمالهم الفاسدة من غير نعمة خصَّ الله بها المؤمنين، وهذا قول باطل، وقد قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧] وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾ [الحجرات]"[2].

---

[1] جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه (رقم٨)

[2] انظر مجموع الفتاوى (٤٤٩/٨-٤٥١)

والقدر يطلق على معنيين.

الأول: التقدير، أي: إرادة الله الشيء عز وجل.

الثاني: المقدر، أي: ما قدره الله عز وجل.

والتقدير يكون مصاحباً للفعل وسابقاً له، فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو الذي قدره الله عز وجل في الأزل، **مثال ذلك:**

خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل، **أي:** تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصاً، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات، لأنه من صفات الكمال لله عز وجل.

والناس في القدر ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منها ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختاراً وبين أن يُلْقَى من السطح مكرهاً.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختيارا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه، فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم. ٥

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال:

((القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)).[1]

وعن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة -وهو ابن اليمان- رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال))[2]. ٢

استدل الأولون الجبرية:

بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والعبد وفعله من الأشياء، وبقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، فنفى الله الرمي عن نبيه حين رمى وأثبته لنفسه، وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ولهم شبه أخرى تركناها خوف الإطالة.

والرد على شبهاتهم بما يلي.

أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاستدلالهم بها معارض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإنابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مجبراً عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فهو حجة عليهم، لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه، فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله عز وجل فكان الحاصل بهما مخلوقاً لله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، فهو حجة عليهم، لأن الله تعالى أضاف الرمي إلى نبيه ﷺ، لكن الرمي في الآية له معنيان:

---

[1] أبو داود السنة (٤٦٩١)، أحمد (٨٦/٢).

[2] أبو داود السنة (٤٦٩٢).

أحدهما: حذف المرمي، وهو فعل النبي ﷺ الذي أضافه الله إليه.

والثاني: إيصال المرمي إلى أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله، إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، فلعمر الله، إنه الحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذي احتجوا بالقدر على شركهم حين قال في الآية نفسها: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قدر الله حق قدره وعرف مقتضى حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب:

قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، فأثبت للعبد إرادة وقولاً وفعلاً وعملاً.

ومن أدلة السنة: قول النبي ﷺ: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوى))، وقوله: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به، فأتوا منه ما أستطعتم))[١].

---

[١] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ، ومسلم: كتاب الفضائل/باب توقيره ﷺ.

ولهذا إذا أكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه، لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختياراً.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر: فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه: فلأنه لو كان العبد مجبراً على عمله، لكانت عقوبة العاصي ظلماً ومثوبة الطائع عبثاً، والله تعالى منزه عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبراً على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل، لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه: فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره، كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره، كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدل الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٥٢] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان:

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله، كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) مَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠]، وكقوله تعالى: في العمل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والنوع الثاني: مطلق، كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...﴾ إلى قوله ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وهذا النوع المطلق يحمل على المقيد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله من كونه مملوكاً لله تعالى يقتضي إثبات شيء في ملك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سمي النبي ﷺ: ((القدرية مجوس هذه الأمة)).

الثالث: أن نقول لهم: هل تقرون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك فنقول: هل وقع فعلهم على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه، قلنا: إذن قد أراده، وإن قالوا: على خلافه، فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة رحمهم الله في القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به، خصموا، وإن أنكروه، كفروا.

وهاتان الطائفتان الجبرية والقدرية ضالتان طريق الحق، لأنهما بين مفرط غال ومفرط مقصر، فالجبرية غلوا في إثبات القدر وقصروا في إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر.

ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة، فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختياراً وقدرة، فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم، فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله عز وجل، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، فإذا شاء العبد شيئاً وفعله، علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول، فأدلتهم على إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر.

وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلاً من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد، فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حكاية:

مما يحكى أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب ابن عباد وكان معتزلياً أيضاً، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنزه عن الفحشاء، فقال أبو إسحاق فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يُعْصَى؟ فقال أبو إسحاق: أَيُعصى ربُّنا قهراً؟ فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى، أحسن إلي أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك، فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء. فأنصرف الحاضرون وهم يقولون: والله، ليس عن هذا جواب. ا.هـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في "العقيدة الواسطية"، فلتراجع هناك.

مراتب القدر:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون، فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقاً أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه.

وأدلة ذلك في الكتاب كثير، منها قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر، فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى.

ولاحظ سعة علم الله عز وجل وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق، فهذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية وظلمة البحر وظلمة السحاب وظلمة المطر وظلمة الأمواج وظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم. ففي هذه الآيات ثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، ففي الآية أيضاً إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته، فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبداً، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

المرتبة الرابعة: الخلق، فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله، لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو صفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١. إرادة جازمة.

٢. قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئاً ن:

١. خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢. مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وقال تعالى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علم كتابه مولانا مشيئته ... وخلقه وهو إيجاد وتكوين. ٥

هذه مراتب القدر الأربع، من آمن بها فقد آمن بالقدر، ومن كذب بشيء منها فقد كذب بشيء من القدر. ٦

فهذه أربع مراتب.

إنكار القدر الذي بوب له الشيخ رحمه الله يصدق على إنكار أي مرتبة من هذه، أنكر المرتبة الأولى فهو منكر، الثانية هو منكر، أو الثالثة أو الرابعة فهو منكر للقدر، ولا يقال لأحد أنه مؤمن بالقدر إلا إذا سلم بها جميعاً وآمن بها جميعاً لدلالة النصوص.

فمنهم من منكري القدر القدرية الغلاة، وإذا قيل القدرية -يعني نفاة القدر- الذين نفوا العلم، أنكروا العلم السابق، فهم كفار ينافي فعلهم أصل التوحيد فمن أنكر العلم السابق هذا أنكر القدر إنكاراً انتفى معه أصل التوحيد.

وكذلك من ينكر الكتابة، فإن إنكار الكتابة السابقة مع العلم بالنصوص الدالة عليها مناف لأصل التوحيد ولا يستقيم معه الإيمان.

وأما المرتبتان الأخيرتان -عموم المشيئة وعموم الخلق- فهذه إنكار عموم خلق الله للأفعال هذا مما جرى من المعتزلة ونحوهم، وبُدِّعوا بذلك وضُلِّلُوا وجُعل لإنكارهم لتلك المرتبة ينافي كمال التوحيد ولا يُحكم عليهم بالكفر والخروج من الإسلام بذلك.

فإذن إنكار القدر صار منه ما هو كفر مخرج من التوحيد مخرج من الملة، ومنه ما هو دون ذلك ويكون منافياً لكمال التوحيد.

بهذا يظهر صلة هذا الباب بكتاب التوحيد. ٣

وهناك تقديرات أخرى نسبية:

منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمة أربعة أشهر يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

ومنها: التقدير الحولي، وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم واستدل له بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فهو كل يوم يغني فقيراً، ويفقر غنياً: ويوجد معدوماً، ويعدم موجوداً، ويبسط الرزق ويقدره، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه، لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعوناً يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه

الأمة أبو عبيده عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله[1].

يعني: أن مضينا في السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلاً قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له شعبتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله؟

وقال أيضاً: أرايت لو رعي الجدبة وترك الخصبة، أكنت معجِّزه؟ قال: نعم. قال: فسر إذن. ومعنى معجزه: ناسباً إياه إلى العجز.

فالإنسان وإن كان يفعل، فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك، لزم أن يكون العاصي معذوراً بمعصيته، لأنه عصى بقدر الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَاۖ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل، لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل، وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر، فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها، فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن، طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها، فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس.

---

[1] البخاري: كتاب الطب/ باب ما يذكر في الطاعون، ومسلم: كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة.

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة، فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج، فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا، فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج، فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب.

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك، فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعدة من النار)). قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: ((اعملوا، فكل ميسر لما خلق له))[1].

فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة فقال اعملوا وهذا فعل أمر فكل ميسرٌ لما خلق له.

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

١. أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢. أنه يوجب صدق الاعتماد على الله عز وجل، لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣. أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطاك لم يكن ليصيبك، اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤. منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه، لأن الله هو الذي من عليه وقدره له، قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿فأما من أعطي وأتقي﴾، ومسلم: كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس

٥. عدم حزنه على ما أصابه، لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦. أن الإنسان يفعل الأسباب، لأنه يؤمن بحكمة الله عز وجل وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطة بأسبابها. ٥

وقال ابن عمر: "والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)). رواه مسلم[1].

قال: "وقال ابن عمر" ابن الخطاب رضي الله عنهما. ٤

حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه (عن يحيى بن يعمر قال: "كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفَّق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلاً في المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قِبَلنا أناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء. والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم قال حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان والإسلام.

أخبرني عن الإسلام. قال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أمارتها قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال فانطلق. فلبث ثلاثا، وفي رواية مَلِيًّا، ثم قال يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلكم دينكم))[1]. ٢

"والذي نفسُ ابن عمر بيده".

أقسم عبد الله بن عمر بالله سبحانه وتعالى لتأكيد الأمر وأهميته.

"لو كان لأحدهم مثلُ أحدٍ ذهباً ثم أنفقَه في سبيل الله ما قبِلَهُ الله منه حتى يؤمن بالقدر"

سببُ مقالة ابن عمر هذه: أنّه لَمّا وُجد في آخر حياته ﷺ مَنْ يُنكر القدَر، وسُئل عن ذلك، أجاب بهذا الجواب.

وذلك أنّه ظهر بالبصرة في آخر عصر الصّحابة بعد عهد الخلفاء الراشدين وبعد خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ وفي آخر حياة ابن عمر وابن عبّاس وغيرِهما من الصّحابة ظهر بالبصرة رجلٌ يُقال له: مَعْبَد الجُهَني، يُنكر القدر، وكان يَحْيَى بن عمر وحُمَيْد بن عبد الرحمن الحِمْيَري: لَمّا ظهرت هذه المقالة بالبصرة قدِما إلى الحجاز حاجّين أو معتمِرين، وقالا: "سنسأَل أوّل مَن نلقى من الصّحابة"، وهكذا المسلمون قديماً وحديثاً إذا أشكل عليهم

[1] مسلم الإيمان (٨)، الترمذي الإيمان (٢٦١٠)، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ابن ماجه المقدمة (٦٣)، أحمد (٢٧/١).

شيء يرجعون إلى علمائهم ويسألونهم، ولا يستقلّون بالأمر، أو يكون لكلّ واحد منهم رأي، أو ينقسمون إلى جماعات وأحزاب، كلٌّ له قول، هؤلاء جاءوا من البصرة إلى مكّة المكرّمة بقصد مسألة واحدة مع ما في ذلك من مشقّة السفر وطول المسافة، لأنّ الأمر عظيم، يجب الرّجوع إلى أهل العلم فيه، فكان أوّل من لقيا: عبد الله بن عمر –رضي الله تعالى عنهما–، وقد وفّقهما الله لهذا الصحابي، العالِم الجليل، لقياه وهو يدخُلِ إلى المسجد الحرام، فأمسكا بكتفَيْه، فقالا: يا أبا عبد الرحمن، حَدَث عندنا في البصرة رجلٌ يقول كذا وكذا.

فكان جواب عبد الله بن عمر: أنّه أقسم بالله: "لو كان لأحدهم" أي: هؤلاء الذين يُنكرون القدر.

"مثل أحد ذهباً" هذا أبلغ تقدير وأكثر تقدير.

"ثم أنفقه في سبيل الله" النفقة في الجهاد في سبيل الله من أعظم النفقات أجراً، فهو مبلغٌ كبيرٌ صُرِف في مصرفٍ عظيم، يُرجى لصاحبِه الأجر العظيم، ولكن هؤلاء إذا أنفقوا هذا المبلغ في هذا المصرِف العظيم وهم يُنكرون القدر فإنّ الله لا يتقبّلُه منهم، لأنّهم لم يؤمنوا بالله عزّ وجلّ، والله لا يقبل إلاّ من المؤمنين: "ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر" فدلّ هذا على كفرهم، لأنهم لم يؤمنوا بالقضاء والقدر. ٤

وابن عمر ﷺ وعن أبيه ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم. ٥

فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: "ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر"، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)).

فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة، فأنت كافر بالجميع لأن الإيمان كل لا يتجزأ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنياً على هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان، سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئاً واحداً من هذه الأركان الستة، صار كافراً، وإذا كان كافراً، فإن الله لا يقبل منه. ٥

ففي هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.... الآية [البقرة: ٨٥]. ٢

هذا قاله ابن عمر لغلاة القدرية الذين أنكروا أن يكون الله تعالى عالم بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منها، وإنما يعلمها بعد كَوْنِهَا منهم كما تقدم عنهم، قال القرطبي: "ولا شك في تكفير من يذهب إلى ذلك، فإنه جحد معلوم من الشرع بالضرورة، لذلك تبرأ منهم ابن عمر، وأفتى بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم، وأنهم كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٥٤]، وهذا المذهب قد تُرِكَ اليوم، فلا يُعْرَفُ من يُنْسَب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين"[١].

فقال شيخ الإسلام لما ذكر كلام ابن عمر هذا: "وكذلك كلام ابن عباس وجابر ابن عبدالله، وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين، وسائر أئمة المسلمين فيهم كثير، حتى قال فيهم الأئمة، كمالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم يكفرون" [٢].١

---

[١] المُفْهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٣٢/١)

[٢] مجموع الفتاوى (٤٥٠/٨)

وقوله: "ثم استدل" إلخ... أي: لم يقل هذا القول من عنده بل لَمّا قال هذه المقالة العظيمة، ذكر دليلَها من سنّة رسول الله ﷺ، فكلُّ مَن قال قولاً في الإسلام فلابدّ أن يذكُر دليلَه من كتاب الله أو من سنّة رسوله ﷺ، فإن لم يكن له دليل فإنْه مردودٌ عليه.

ولذلك ابن عمر لَمّا ذكر هذه المقالة وهذا الجواب ذكر دليلَه من سنّة رسول الله ﷺ فقال: "حدّثني أبي عمر بن الخطّاب ؓ،" قال: ((بينما نحن جلوسٌ عند النّبي ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ سواد الشعر، شديدُ بياض الثّياب، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفُه منّا أحد، فجلس إلى النّبي ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه" يعني: أسند ركبتيه إلى ركبتي النّبي ﷺ مقابِلاً له جلوسَ المتعلِّم من المعلِّم، "ووضع يديه على فخذيه" تأدُّباً مع رسول الله، ((وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟، قال: الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، فقال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصدِّقُه))، لأن من العادة أنّ السائل لا يكون عنده علم، فكونُه قال: ((صدقتَ))، هذا دليلٌ على أنّه كان عالماً بالجواب.

((ثم قال: أخبرني عن الإيمان؟، قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتُبه، ورُسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيرِه وشرِّه، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصدِّقُه.

ثم قال: أخبرني عن الإحسان؟، قال: الإحسان: أن تعبُد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، قال: صدقت، فأخبرني عن السّاعة؟)) يعني: متى قيام السّاعة؟، قال الرّسول ﷺ: ((ما المسؤولُ عنها بأعلم من السّائل)) أي: أنا لا أدري وأنت لا تدري متى تقومُ السّاعة، لأنّ هذا من علم الله سبحانه وتعالى الذي اختصّ به، لا يعلمُه أحد، لا ملَك مقرّب ولا نبيٌّ مرسل، لا أفضل الملائكة وهو جبريل، ولا أفضل البشر وهو محمد ﷺ.

((قال: فأخبرني عن أماراتها؟)) أي: علامات السّاعة التي إذا حصلت فإنّ قيام السّاعة قريب، ((قال: أن تَلِد الأَمَة ربَّتَها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البُنيان. قال: ثم خرج الرّجل، ولبثنا مليّاً، ثم قال الرسول: اطلبوا السّائل، فخرجوا يطلُبونه فلم

يجدوه .قال: ((هذا جبريل أتاكُم يعلِّمكم دينكم)) تمثّل صورة بشرٍ، وجاء من أجل أن يعلِّم الصّحابة دينهم عن طريق السّؤال والجواب بينه وبين رسول الله ﷺ وهم يسمعون.

والشّاهد من هذا الحديث: قولُه: ((أخبرني عن الإيمان)) وذكر في آخره: ((وأن تؤمن بالقدَر خيرِه وشرَّه))، ذكر ستّة أركان للإيمان، وخمسة أركان للإسلام، وركناً واحداً للإحسان.

فأركان الإيمان:

– الإيمان بالله، وهو: التصديق الجازم بوحدانيّة الله سبحانه وتعالى، واستحقاقِه للعبادة وحدَه لا شريك له، وذلك يشمل أنواع التّوحيد الثلاثة: الإيمان بتوحيد الرّبوبيّة، والإيمان بتوحيد الأُلوهية، والإيمان بتوحيد الأسماء والصّفات.

فمن جحد نوعاً من هذه الأنواع لم يكن مؤمناً بالله عزّ وجلّ.

ويدخُل في ذلك: الإيمان بالقدَر، لأنّه من توحيد الرّبوبيّة، ومن أفعال الله سبحانه وتعالى، فهو داخلٌ في توحيد الرّبوبيّة، لكنه أفرده بالذكر تأكيداً له. ٤

والإيمان بالله عز وجل يتضمن أربعة أمور:

١. الإيمان بوجوده.

٢. وبربوبيته.

٣. وبألوهيته.

٤. وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله، فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصاً بها، فهو غير مؤمن بالله. ٥

((وملائكته)):

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١. الإيمان بوجودهم.

٢. الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.

٣. الإيمان بأفعالهم.

٤. الإيمان بصفاتهم.

فممن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خلق عليها له ستمائة جناح، قد سد الأفق، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جداً، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحياناً بصورة بشر فأتى مرة بصورة دحية الكلبي وأتى مرة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب. ٥

تؤمن أنّ لله ملائكة، خلقهم سبحانه وتعالى من نور، خلقهم لعبادته: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء:٢٠]، ينفّذون أوامره سبحانه وتعالى في مُلكه، كلّ نوعٍ من الملائكة له عملٌ خاص في هذا الكون يأمر الله تعالى به، فمنهم من هو موكّل بالوحي، وهو جبريل عليه الصّلاة والسلام، ومنهم من هو موكّل بالقطر والنّبات، وهو ميكائيل، ومنهم من هو موكّل بالنفخ في الصّور، وهو إسرافيل، ومنهم من هو موكّل بالأجنّة في البُطون -بطون الأُمّهات-، وهو الملك الذي يأتي إلى الجنين في بطن أُمِّه حينما يكمل الشهر الرّابع فينفخ فيه الرّوح، ثم يُؤمر بأربع كلمات: بكتْب رزْقِه، وأجلِه، وعملِه، وشقيٌّ أو سعيد.

ومنهم من هو موكّل بحفظ أعمال بني آدم خيرِها وشرِّها، وكتابتها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الأنفطار:١٠-١٢].

ومنهم من هو موكّل بحفظ بني آدم من المؤذيات: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١].

إلى غير ذلك من الأعمال التي لا يعلمُها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

فالإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب، لأننا لا نراهم ولكن الله أخبرَنا عنهم وأخبرنا عنهم رسولُه ﷺ، فنحنُ نؤمن بهم.

ومن لم يؤمن بالملائكة أو لم يؤمن ببعضهم؛ فإنّه كافرٌ بالله عزّ وجلّ.

((وكتبه))

أي: الكتب التي أنزلها على رسله. ٥

وهي: الكتب التي أوحاها الله تعالى إلى رُسله، مثل: التوراة والإنجيل والقُرآن والزَّبور، وصحف إبراهيم، إلى غير ذلك من الكتب التي ينزّلها الله على رسله بواسطة جبريل –عليه الصلاة والسلام–، فيها أوامرُ الله سبحانه وتعالى ونواهيه، وفيها إصلاح البشريّة.

فمن لم يؤمن بالكتب من أوّلها إلى آخرها فإنّه كافر: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ [البقرة:١٣٦]، فلابدّ من الإيمان بجميع الكُتب.

فمن لم يؤمن بالكتب أصلاً وهم الدهريّون والوثنيّون فهم أكفرُ الخلْق.

ومن آمن ببعض الكتب وكفر ببعضها كاليهود والنصارى فهم كفّار أيضاً.

إنّما الإيمان هو: الإيمان بجميع الكتب من أوّلها إلى آخرِها: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:٨٥].

فالذي يكفُر بكتابٍ واحد من كتب الله يكون كافراً بالجميع. ٤

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:

١. الإيمان بأنها حق من عند الله.

٢. تصديق أخبارها.

٣. التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة، لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن، لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤. الإيمان بما علمناه معيناً منها، مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥. الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠] وقال عن يحيي ﴿يا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

تنبيه:

الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان، فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب. ٥

((ورسله))

قوله: ((ورسله)). هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبلغوا شريعة الله. ٥

كذلك يجب الإيمان بجميع الرّسل من أوّلهم إلى آخرهم، من سمّى الله منهم ومن لم يسمِّ، نؤمن بجميع الرّسل -عليهم الصّلاة والسلام.-

فمن آمن ببعضهم وكفرَ ببعضهم فهو كافرٌ بالجميع، كحالة اليهود والنصارى الذين يكفُرون بمحمّد ﷺ، واليهود يكفُرون بعيسى وبمحمَد -عليهما الصّلاة والسّلام-.

وكذلك من لم يؤمن بالرّسل أصلاً كالوثنيين والدهريّين والملاحدة: أغرقُ في الكفر وأبعد في الكفر -والعياذ بالله-. ٤

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي:

١. أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.

٢. أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام، ما لم تنسخ.

٣. أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه، فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله سبحانه وتعالى أرسل لكل أمة رسولاً تقوم به الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورن، لأنهم يقولون: يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، فلابد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١١٩] يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول، فهل قامت عليهم الحجة؟

الجواب: إن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت عليهم الحجة، لأن فيها بقايا، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في "صحيحه": ((إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب))[١]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]. ٥

((واليوم الآخر))

يوم القيامة ٤، اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا في "العقيدة الواسطية"، وهو كتاب مختصر، لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه.

وعلى هذا، فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً بهما من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم، كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

---

[١] مسلم: كتاب الجنة/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة.

ومنها ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالآحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به. ٥

يجب الإيمان باليوم الآخِر، وهو: ما بعد الموت ممّا أخبر الله تعالى به وأخبر به رسولُه ﷺ من أحوال البَرْزَخ، ثم البعث والنُّشور، والقيام من القُبور، ثم الوُقوف في المحشَر، ثم الحساب، ثم الميزان، ثم تطايُر الصحُف فالمؤمن يأخُذ كتابه بيمينِه وغير المؤمن يأخذ كتابه بشمالِه، ثم المرور على الصّراط، ثم الاستقرار في الجنّة أو في النّار، هذا كلُّه يشمله الإيمان باليوم الآخِر.

فمن لم يؤمن باليوم الآخر فإنّه ولو آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إذا جحد البعث واليوم الآخر كان كافراً بالجميع. ٤

قوله: ((وتؤمن بالقدر خيره وشره)).

هذا هو محلّ الشّاهد. ٤

هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف، لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله عز وجل للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله عز وجل قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم لله سبحانه وتعالى مكتوباً، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله عز وجل، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنه مكتوبة. ٥

((وتؤمن بالقدر))

وهو أن تؤمن بقضاء الله وقدره، وأنّه لا يجري في هذه الكون شيءٌ إلاّ وقد علمه الله في الأزَل وكتبه في اللّوح المحفوظ وشاءه وأراده سبحانه وتعالى ثم خلقَه وأوجَدَه.

فالإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الأزَلي بكل شيء، وأنّه يعلم سبحانه وتعالى ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كلُّ ذلك يعلمُه الله سبحانه، لا يخفى عليه شيء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [المجادلة:٧]، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق:١٢]، والله جل وعلا لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥)﴾ [آل عمران:٥]، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [الحديد:٣] فالإيمان بأنّ الله عالمُ بكلّ شيء لابدّ منه. ومن جحد علمَ الله فهو كافر.

المرتبة الثانية: أن الله كتب في اللّوح المحفوظ كلّ شيء. فالذي يُنكر الكتابة في اللّوح المحفوظ لم يكن مؤمناً بالله سبحانه وتعالى ولم يكن مؤمناً بالقدَر.

المرتبة الثالثة: إرادة الله ومشيئتُه للأشياء، فكل شيء يقع ويوجد فهو بإرادة الله.

المرتبة الرّابعة: خلْق الأشياء، فكلّ شيء في هذا الكون فهو من خلْق الله سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات:٩٦]، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾ [الزمر:٦٢]، فكلّ شيء في هذا الكون فهو من خلْقه سبحانه وتعالى، من خيرٍ أو شر، من كفرٍ وإيمان، طاعة ومعصية، غنىً أو فقر، مرض أو صحّةً، حياة أو موت، إلى غير ذلك.

لكنِ الشر بالنسبة إليه لا يكون شرَّاً، لأنّه خلقه لحكمة ووضعه في موضعه، فهو بالنسبة إليه ليس شرَّاً، وإنّما هو شرِّ بالنسبة لمن وقع عليه ومن قُدِّر عليه بذُنوبه ومعاصيه، فإنّه شرٌّ بالنسبة للمحلّ الذي يقع عليه، أما بالنسبة لله فهو خير، لأنّه عدلٌ منه سبحانه.

فالحاصل؛ أنّ كل ما يقع في هذا الكون فهو عدلٌ ورحمةٌ وخيرٌ من الله سبحانه وتعالى وإنْ كان ضرراً وعقوبةً وشرَّاً بالنسبة لمن وقع عليه ذلك.

هذه مراتب الإيمان بالقدر، وأهل السنّة والجماعة يؤمنون بها كلّها.

أمّا القدرية النُّفاة فهم على قسمين -والعياذ بالله-:

القسم الأول: -وهم القدماء منهم- ويسمّون (غُلاة القدريّة): فإنّهم يُنكروا علمَ الله، ويقولون: "إنّ الله لا يعلم الأشياء قبلَ وقوعِها، إنّما يعلمها إذا وقعت وحصلت"، ويُنكرون عِلمَ الله القديم الأزَلي بالأشياء قبلَ كونِها.

فيكونون بذلك: قد كفروا وخرجوا من الملّة، لأنهم أنكروا علم الله سبحانه وتعالى، ومن أنكر علم الله فهو كافر.

القسم الثاني: من يقرّ بعلم الله الأزليّ، لكن يقول: إنّ الله لم يقدِّر هذه الأشياء وإنّما النّاس هم الذين يفعلونها ويستقلّون بإيجادها وخلقها، كلٌّ يخلق فعل نفسه وهؤلاء أخفّ من الأوّلين، لكنّهم ضُلاّل، لأنّهم أنكروا خلق الله، وهم متأخِّروا القدرية.

ولذلك سمّوا ((مجوس هذه الأمة))، لأنّ المجوس يقولون: "إنّ الكون له خالقَان: خالق الخير والشر".

والمعتزلة الذين يقولون: "إنّ الله لم يخلق أفعال العباد، وإنّما هم الذين خلقوها"، أثبتوا خالقِيْن كثيرين، وصاروا شرًّا من المجوس، لأنّ المجوس إنّما أثبتوا خالقَيْن وهؤلاء أثبتوا خالقِيْن كثيرين.٤

إذا تبين هذا فوجه استدلال ابن عمر بالحديث من جهة أن النبي ﷺ عد الإيمان بالقدر من أركان الإيمان فمن أنكره فلم يكن مؤمناً؛ إذ الكافر بالبعض كافر بالكل، فلا يكون مؤمنا متقياً، والله لا يتقبل إلا من المتقين. ١

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يطلع الله عليه أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، إلا ما أوحاه الله عز وجل إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وَما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته، لأننا نقول لهذا الذي عصى الله عز وجل وقال: هذا مقدر علي: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت، أفلا كان الأجدر بك أن تقدر أن الله تعالى قد

كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين. ٥

ولا يجوز للمسلم أن يدخل في تفاصيل القدر ويفتح على نفسه باب الشُّكوك والأوهام، بل يكفيه أن يؤمن بالقدَر كما أخبر الله سبحانه وتعالى وكما أخبر رسولُه ﷺ أنّ كلَّ شيء بقضاء الله وقدره، ولا يدخل في التفاصيل والأسئلة: لماذا كذا ولماذا كذا، لأنّه لن يصل إلى نتيجة، لأنّ الأمر كما يقول عبد الله بن عبّاس -رضي الله تعالى عنهما-: "القدر سِرُّ الله" سِرٌّ لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى.

فالواجب علينا: أن نؤمن به، ولا ندخل في تفاصيله، بل نكتفي بالإيمان به على ما جاء في الدليل من كتاب الله وسنّة رسوله.

وعلينا العمل بطاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه. هذا الذي كلّفنا به، ولم نكلّف بالبحث عن القدر، ولا نترك العمل ونقول: ما قُدّر لنا فسيحصل.

لذلك لَمّا أخبر النّبي ﷺ أنّ كلّ أحد مقرّرٌ مكانه من الجنّة أو من النّار قالوا: يا رسول الله ألاَ نتكل على كتابنا؟، قال ﷺ: ((اعملوا فكلّ ميسّر لِمَا خُلِق له))، وأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)﴾ [الليل:٥-١٠].

فأنت المطلوب منك: العمل والإيمان بالقضاء والقدر، وأنت قادرٌ على العمل، وممكّنٌ من العمل، فعليك أن تعمَل الخير وتترك الشّر، وتتوب من السيّئات وتكثر من الحسنات، هذا المطلوب منك، أمّا البحث في هذه الأمور التي لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى والدّخول في هذه المخاصمات فهذا يؤدِّي إلى الضّلال ويؤدّي إلى التّيه، لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يطلُب

منّا هذه الأشياء، وإنّما أمرنا بالعمل، هذا الذي أمرنا الله به، أمرنا بالإيمان وأمرنا بالعمل، هذا المطلوب من المسلم. ٤

((خير وشره))

فإن قلت: كيف قال ((وتؤمن بالقدر خيره وشره)) وقد قال في الحديث: ((والشر ليس إليك))[١].

قيل: إثبات الشر في القضاء والقدر إنما هو بالاضافة إلى العبد، والمفعول إن كان مُقَدَّراً عليه؛ فهو بسبب جهله وظلمه وذنوبه، لا إلى الخالق، فله في ذلك من الحِكَمِ ما تقصر عنه أفهام البشر.

لأن الشر إنما هو بالذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة، فهو شر بالإضافة إلى العبد، أما بالإضافة إلى الرب سبحانه وتعالى، فكله خير وحكمة، فإنه صادر عن حكمته وعلمه، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولهذا قال: ((والشر ليس إليك)) أي: تمتنع إضافته اليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته وصفاته، ولا أسمائه ولا أفعاله، فإنَّ ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال، ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

وأسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل، لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فتستحيل إضافة الشر إليه، فإنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وعقوباتها، وكونها ذنوباً تأتي من نفس العبد، فإنَّ سبب الذنب: الظلم والجهل، وهما في نفس العبد. فإن ذاته مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارجٌ عن نفسه.

فمن أراد الله به خيراً أعطاه هذا الفضل، فصدر منه الاحسان والبر والطاعة، ومن أراد به شراً أمسكه عنه وخلّاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجب الجهل والظلم

---

[١] هذا جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه (٥٣٥/١رقم٧٧١) عن علي رضي الله عنه.

من كل شر وقبيح، وليس منعه من ذلك شراً، بالنسبة إلى الرب سبحانه، وإنما يقع الشر في القدر بالنسبة إلى العبد لاستحقاقه لذلك، فهو السبب في الشر، ولله في ذلك الحكمة التامة، والحجة البالغة، فهذا عدله، وهو العليم الحكيم وذلك فضله، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]. هذا معنى كلام ابن القيم[١]، وهو الحق.

وحاصله أن الشر راجع إلى مفعولاته، لا إلى ذاته وصفاته، ويتبين ذلك بمثال –ولله المثل الأعلى–: لو أن مَلِكاً من ملوك العدل كان معروفاً بقمع المخالفين وأهل الفساد، مقيما للحدود والتعزيرات الشرعية على أرباب اصحابها، لَعُدَّ ذلك خيرا يُحْمَد عليه الملك، ويمدحه الناس ويشكرونه على ذلك، فهو خير بالنسبة إلى الملك، يُمْدَحُ وَيُثْنُى به، ويُشْكَرُ عليه، وإن كان شراً بالنسبة إلى من أقيم عليه، فرب العالمين أولى بذلك، لأن له الكمال المطلق من جميع الوجوه بجميع الاعتبارات.

وأيضاً فلولا الشر هل كان يُعرف الخير؟ فإن الضِّدَّ لا يُعْرَفُ إلا بِضِدِّهِ، فإن لم تحط به خبرًا فاذكر كلام ابن عقيل[٢] في الباب الذي قبل هذا، وأسلم تسلم. والله أعلم. ١

وقوله: ((خير وشره)). الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر، فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله، فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله؟ فالجواب: أن الشر لا ينسب إلى الله، قال النبي ﷺ: ((والشر ليس إليك))[٣]، فلا ينسب إليه الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكماً، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله

---

[١] طريق الهجرتين (ص/١٦٦–١٦٨)

[٢] كلام ابن عقيل: "إن تقدر على حمل هذا الأمر لأجل رقتك الحيوانية، ومناسبتك الجنسية، فعندك عقل تعرف به حِكَمَ الصانع وحكمته، يتوجب عليك التاويل، فإن لم تجد استطرحت لفاطر العقل، حيث خانك العقل عن معرفه الحكمة في ذلك".

[٣] مسلم: كتاب صلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل.

خير وحكمة، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيمة، وتأمل قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، تجد أن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر كان لما يرجى به من العاقبة الحميدة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي:

ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كي تكويه بالنار، فالكي شر، لكن الفعل خير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محضاً، بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر، صار ذلك شراً بالنسبة له، وقد يكون خيراً له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به، فيكون خيراً، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنباً ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها، لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليائها، فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فخلفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه، ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً،

وصارت حالهم أيضاً بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذكروا بأعيانهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إليه ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، فهذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه، وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله سبحانه وتعالى، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه، فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ ((الخير بيديك، والشر ليس إليك))، ولم يقل: والشر بيديك، فلا ينسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء، فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضي.٥

خير بالنسبة لابن آدم وشر بالنسبة لابن آدم، فالمكلَّف قد يكون عليه قدَر هو بالإضافة إليه خير، وقد يكون عليه القدر بالإضافة إليه شر، وأما بالنسبة لفعل الله جل وعلا فالله جل وعلا أفعاله كلها خير؛ لأنها موافقة لحكمته العظيمة. ٣

ومع ذلك، فهو وإن كان شراً في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضاً، حتى المقضي وإن كان شراً ليس شراً محضاً، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر في محل خير في محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلاً: الجدب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] والرجوع إلى الله عز وجل من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيراً كثيراً، فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب

إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وكم ما أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله عز وجل واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقر، رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له، فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير في غير السارق، فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضاً حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده، امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجداً وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض مالنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من النار

لكنه أجيب في الرد عليه رداً مفحماً، فقيل فيه:

قل للمعري عار أيما عاري جهل ... الفتي وهو من ثوب التقي عاري

يد بمخس مئين عسجداً وديت ... لكنها قطعت في ربع دينار

حماية النفس أغلاها وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري ٥

<u>وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: "يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب، وماذا أكتب؟ قال: أكتب</u>

مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من مات على غير هذا فليس مني))[1].

قوله: "وعن عُبادة بن الصّامت" الصحابي الجليل، من السّابقين الأوّلين إلى الإسلام، وأحد النقباء المعروفين. ٤

وحديثه هذا رواه أبو داود ورواه الإمام أحمد بكماله قال: حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثنى أبي قال: "دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة.)) يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار". ٢

"أنه قال لابنه" وهو الوليد بن عُبادة بن الصامت قال له ذلك عند وفاته لما قال له ابنه الوليد: يا أبت أوصني، فقال: أقعدوني، فأقعدوه، فقال هذا الحديث في القدر.

"يا بني"

---

[1] رواه ابو داود في سننه (رقم ٤٧٠٠)، والطبراني في مسند الشاميين (رقم٥٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٤/١٠)، وصححه الضياء في المختاره (رقم ٣٣٦)، وغيرهم وإسناده صحيح.

ورواه بنحوه الطيالسي في مسنده (رقم٥٧٧)، والإمام أحمد في المسند (٣١٧/٥) والترمذي في سننه (رقم ٢١٥٥، ٣٣١٩) والفريأبي في كتاب القدر (رقم ٤٢٥). وابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٠٧) والآجري في الشريعة (رقم١٨٠، ٣٤٦) وغيرهم وهو حديث صحيح.

(يا): هذه حرف نداء، و(بُني) تصغير (ابن)، وذلك من أجل العطف والشَّفقة، مثل قول لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [لقمان:١٧]. ٤

أفاد حديث عبادة بن الصامت ﵁ أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال "يا بني"، وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر. ٥

فالأب يوصي أولاده بتقوى الله عزّ وجلّ، وبالتمسّك بالدين والعقيدة، هذا من واجب الآباء نحو أبنائهم، أن يوصوهم بتقوى الله وبإصلاح العقيدة وبالتمسُّك بالدين والأخلاق الفاضلة.٤

"إنّك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك".

هذا يفيد أن للإيمان طعماً كما جاءت به السنة، طعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة، فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتي بعدها طعم آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحياناً يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله عز وجل، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة، فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم. ٥

وفيه أن للايمان طعماً، وهو كذلك، فإن له حلاوة وطعماً، من ذاقه تسلى به عن الدنيا وما عليها، وقد قال النبي ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)) الحديث[1] وإنما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمناً بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيمن لا يؤمن بالقدر، بل يُكَذِّبُ به، ويَرُدُّ على الله كلامَهُ، وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر، لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان منكراً للعلم القديم فهو كافر كما تقدم. ١

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ١٦) ومسلم في صحيحه (رقم ٤٣)

طعم الإيمان: حلاوته ولذته، وذلك لأنّ الإنسان إذا آمن أنّ ما يجري عليه فهو بقضاء الله وقدره؛ فإنّه يستريح، لا يجزع عند المصيبة، ولا يفرح فَرَح بَطَرٍ عند النعمة، لأنّه يؤمن أنّ هذا بقضاء الله وقدره، فيرتاح ضميرُه وتطمئنّ نفسُه ولا يجزع ولا يسخط، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)﴾ [التغابن: ١١]، قال علقَمة: "هو الرجل تُصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيرضى ويسلِّم".

فمن آمن بالقضاء والقدر فإنّه يجد طعم الإيمان وراحة الإيمان عند الشدائد والمصائب والمنغِّصات، فلا يكون فيه جزع ولا تسخُّط ولا تضايُق، وإنّما يؤمن أنّ هذا قضاء وقدر وأنّه لابدّ منه. ٤

ويعمل ما شرع الله، ويأخذ بالأسباب وهو مطمئن القلب لن يصيبه إلا ما كتب الله له، فلا يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولا يتعدى حدود ربه، بل يأخذ بالأسباب، ويعمل بالأسباب، ويتقي أسباب الشر، ويعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له. ٦

أمّا الذي لا يؤمن بالقضاء والقدر فإنّه يُصبح في قلق وفي همّ. فإذا أصابه شيء فإنّه يجزع ويسخط ويلوم نفسَه: لماذا لم أعمل كذا؟، ليتني عملت كذا، ليتني فعلتُ كذا، ثم يُصبح في عذاب أشدّ من ألم المصيبة. ٤

وهذا لأن القضاء والقدر قد فُرِغ منه يعني تقدير الأمور قد فرغ منه، والله جل وعلا قد قدر الأشياء وقدر أسبابها، فالسبب الذي سيفعله المختار من عباد الله مقدر كما أن نتيجته مقدرة، ومن الإيمان بالقدر الإيمان بأن الله جل وعلا جعلك مختاراً وأنك لست مجبوراً، فالقول بالجبر منافٍ للقول بالقدر؛ يعني القول بالجبر لا يستقيم مع الإيمان بالقدر، لأنَّ الإيمان بالقدر إيمان معه الإيمان بأن العبد مختار ليس بمجبر؛ لأن التكليف وقع بذلك. ٣

وقد بين عبادة في هذا الحديث كيفية الإيمان بالقدر: "أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه...".

والمعنى: أن العبد لا يؤمن حتى يعلم أن ما يصيبه إنما أصابه في القدر، أي: ما قُدِّرَ عليه من الخير والشر، (لم يكن ليخطئه)، أي: يجاوزه فلا يصيبه، وإنما أخطأه من الخير والشر في القدر، أي: لم يُقَدَّرْ عليه، لم يكن ليصيبه، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢] وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]. ١

قوله: "حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك". قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هذا تحصيل حاصل، لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلابد أن نعرف معنى هذه العبارة، فتحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعاً:

الأول: أن المعنى "ما أصابك"، أي: ما قدر الله أن يصيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة، لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: ما أصابك، فلا تفكر أن يكون مخطئاً لك، فلا تقل: لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا، لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئاً ، وأياً كان، فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلابد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيباً للإنسان، فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان، لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبداً.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فدب بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات، فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير، فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر وأن كل التقدير أو التخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان، وحينئذ

يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك، ذقت حلاوة الإيمان، واطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولهذا كثيراً ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة، فتجده يعمل أعمالاً لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله عز وجل مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

قوله: "وما أخطأك لم يكن ليصيبك". نقول فيه مثل الأول، يعني: ما قدر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحداً سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات، نقول له: ما أخطاك من هذا الريح الذي كنت تعد له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك، لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول ما خلق الله القلم)). ٥

القلم هو: خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، لا يعلم مقداره وصفته وكيفيّته إلاّ الله سبحانه وتعالى، لأنّه من عالم الغيب.

والمكتوب فيه هو: اللوح المحفوظ، ففيه: قلم، وفيه كتابة، وفيه مكتوب فيه وهو اللّوح المحفوظ.٤

وقوله ﷺ: ((إنّ أوّل ما خلق الله القلم)) يدلّ بظاهره على أنّ القلم أوّل المخلوقات، ولكن هناك أحاديث تدلّ على أنّ العرش هو أوّل المخلوقات مثل حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنة وكان عرشُه على الماء))، وكذلك في حديث عِمران بن حُصين في "الصحيحين "وغيرهما ما يدلّ

على أنّ أوّل المخلوقات هو العرش، وهذا الحديث دلَّ على أن أوّل المخلوقات هو القلم، فكيف الجمع بين الأحاديث؟.

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأوّل: أنّ أوّل المخلوقات هو العرش، وأنّ القلم خُلق بعده، فيكون قوله ﷺ: ((إنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب)) أن الكتابة متعقِّبة لخلق القلم، فهي جارية من أوّل ما خلق الله القلم.

والقول الثّاني: العمل بظاهر هذا الحديث، وأنّ القلم هو أوّل المخلوقات مطلقاً، قبل العرش، لأنّ هذا هو ظاهر هذا الحديث، وهذا قولٌ لجمعٍ من أهل العلم.

ولكن الراجح الذي رجّحه شيخُ الإسلام ابن تيمية وابن القيِّم وغيرُهما هو: أنّ العرش هو أوّل المخلوقات، وأنّ القلم بعده. ٤

القلم بالرفع، وروي بالنصب.

فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية النصب، فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له، يعني: خلقه ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا، لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله عز وجل خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لأن الله عز وجل لم يزل ولا يزال خالقاً، وعلى هذا، فيكون: إن

أول ما خلق الله القلم يحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: إن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات، كالسموات والأرض... فهي أولية نسبية، وقد قال ابن القيم في نونيته:

والنـــاس مختلفـــون في القلـــم ... الـذي كتـب القضـاء بـه مـن الـديان

هـل كـان قبـل العـرش أو هـو بعـده ... قـــولان عـــن أبي العـــلا الهمـــذاني

والحـــق أن العـــرش قبـــل لأنـــه ... قبـــل الكتابـــة كـــان ذا أركـــان ٥

وقوله: ((إِنّ أَوّلَ مَا خَلَقَ الله الْقَلَمَ)) معناه على الصحيح عند المحققين: إنه حين خلق الله القلم، فـ(أَوّلَ) هنا ظرف بمعنى حين، و(إِنّ) اسمها ضمير [الشان] محذوف، إنه أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب؛ يعني حين خلق الله القلم قال له أكتب، فيكون قول أكتب هذا من جهة الظرفية؛ يعني حين خلق الله القلم قال له أكتب.

وأما أول المخلوقات، فالعرش سابق في الخلق على القلم كما قال عليه الصلاة والسلام الحديث الذي في الصحيح ((قَدَّرَ الله مَقَادِيرَ الخلْق قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وكان عرشُهُ على الماء)) فهمنا من قوله ((إِنّ أَوّلَ مَا خَلَقَ الله الْقَلَمَ. فقال: أُكْتُبْ)) أنه حين خلق قال له أكتب والعرش كان قبل ذلك.

فإذاً الكتابة كانت بعد الخلق مباشرة –بعد خلق القلم– أما العرش فكان سابقاً والماء كان سابقاً أيضاً.

ولهذا نقول الصحيح: أن العرش مخلوق قبل القلم. ٣

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في مصنفه في (الرد على الجهمية): "حدثنا محمد بن كثير العبدي"، أنبأنا سفيان الثوري، ثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: "إن الله

كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أَوَّلَ ما خلق الله القلمُ، فأمره أن يكتب ما هو كائن، وأن ما يجري على الناس على أمرٍ قد فُرِغَ منه".[1]

وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (الأسماء والصفات) لما ذكر بدء الخلق، ثم ذكر حديث الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه سُئِلُ عن قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧] على أي شيء كان الماء؟ قال: "على متن الريح".[2]

وروى حديث القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه كان يُحَدِّثُ أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أَوَّلَ شيء خلقه الله القلمُ، وأمره فكتب كل شيء يكون))[3].

قال البيهقي: "وإنما أراد- والله أعلم- أَوَّلُ شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش: القلم، وذلك بيِّنٌ في حديث عمران بن حصين" ثم خلق السماوات و الأرض"[4].

قلت: حديث عمران بن حصين الذي أشار إليه، وهو ما رواه البخاري من غير وجه مرفوعاً عنه: ((كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض،

---

[1] رواه عثمان الدارمي في الرد على الجهميه (رقم ٤٤)، والآجري في الشريعة (رقم ٣٥١، ٤٤٤، ٦٦٦)، وابن بطه في الابانة ((رقم ٩٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد (رقم ١٢٢٣)، وغيرهم من طرق عن سفيان الثوري بسنده عن ابن عباس وسنده صحيح.

[2] رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٠٢/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٥٨٤)، وابن أبي شيبه في كتاب العرش(رقم٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره(رقم ١٠٦٩٧) ابن جرير في تفسيره (٥/١٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٣٣٧/٢-٣٤١)، والبيهقي في الاسماء والصفات (٢/ ٢٣٧- ٢٣٨ رقم ٨٠٣) واسناده صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

[3] رواه ابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٠٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (رقم ٨٥٤)، وابو يعلى في معجمه (رقم ٦٩) والطبراني في الأوائل (رقم ٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٨١/٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٩) وفي الأسماء والصفات (رقم ٨٠٣) وغيرهم وإسناده صحيح، وصححه الضياء في المختارة (رقم ٣٦١).

[4] الأسماء والصفات (٢٣٧/٢).

وكتب في الذكر كل شيء)) ورواه البيهقي[1]، كما رواه محمد ابن هارون الروياني في (مسنده) وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما من حديث الثقات المتفق على ثقتهم، عن أبي إسحق الفزاري، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: ((كان الله، ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات و الأرض))[2] وذكر أحاديث وآثاراً، ثم قال ما معناه: "فثبت في النصوص الصحيحة أن العرش خلق أولاً"[3].

وقال ابن كثير: "قال قائلون: خَلَقَ القَلَمَ أولاً، وهذا اختيار ابن جرير[4] وابن الجوزي[5] وغيرهما، قال ابن جرير: "وبعد القلم السحاب الرقيق، وبعده العرش"، واحتجوا بحديث عبادة.

والذي عليه الجمهور: أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في (صحيحه) يعني: حديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي تقدم. قالوا: وهذا التقدير هو كتابَتُهُ بالقلم المقادير، وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كُتِبَ به المقادير، كما ذهب إلى ذلك الجماهير، ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. انتهى بمعناه [6]. ١

((فقال له: اكتب، فقال: ربِّ، وماذا أكتبُ؟))

هذا فيه دليل على مرتبة الكاتبة. ٣

---

[1] رواه البخاري في صحيحه(رقم ٦٩٨٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٩) و غيرهما.

[2] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٣٠١٩)، والروياني في مسنده (رقم ١٤٠)، والدارمي في الرد على الجهمية (رقم ٤٠) وغيرهم.

[3] بغية المرتاد (ص/٢٨٥-٢٩٥).

[4] تاريخ الطبري(١/٣٠).

[5] المنتظم لابن الجوزي (١/١٢١).

[6] البداية والنهاية (١/٨-٩).

قوله: ((فقال له: أكتب)) القائل هو الله عز وجل: يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أي لابد أن تنقادا لأمر الله طوعاً أو كرهاً، فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩-١١] فقد خاطب الله السموات والأرض وأجابتها ودل قوله طائعين على أن لها إرادة وأنها تطيع، فكل شيء أمام الله، فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل. ٥

((فقال له: اكتب مقادير كلّ شيء حتى تقوم السّاعة))

فهذا فيه: أنّ كلّ ما يجري في هذا الكون فهو مكتوبٌ بالقلم -بقلم المقادير- في اللّوح المحفوظ، من أوّل الخلق إلى آخر الخلق، حتّى تقوم السّاعة، لا يخرُج عن هذا شيءٌ في هذا الكون أبداً، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، لا من الخير ولا من الشّر، لا من المحبوب ولا من المكروه، كلّه مكتوبٌ ولابدّ أن يقع. ٤

وفي هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا، فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً، فإن طلب استبانته لا يكون معصية، فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك قال ((رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة))، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولابد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذي يعتبر جماداً بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه، لأن الله إذا أراد شيئاً قا له: كن، فيكون على حسب مراد الله.

و((كل)): من صيغ العموم، فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.
وقوله: ((حتى تقوم الساعة)). الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة، لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة، يعني: الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور. ٥

ثم قال عُبادة ﵁: "يا بُني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من مات على غيرِ هذا فليس مِنّي))". ٤
أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء. ٥
من مات على غير الإيمان بالقضاء والقدر ولم يتب إلى الله سبحانه وتعالى قبل موته فإنّ محمداً ﷺ بريءٌ منه. فهذا وعيدٌ شديد حيث تبرّأ منه رسولُ الله ﷺ. ٤

تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ برىء من كل كافر. ٣

أي: لأنه إن كان جاحدا للعلم القديم فهو كافر، كما قال كثير من أئمة السلف: "ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خُصِمُوا، وإن جحدوه كفروا"[1].

يريدون: أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذَّب بالقرآن، فيكفر بذلك، كما نص عليه الشافعي وأحمد وغيرهما.[2]

وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد، وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية، فقد خُصِمُوا، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه. وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور[3].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٣٤٩/٢٣)، وطريق الهجرتين (ص/٢٤٣)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص/٣٠٢).
[2] انظر: شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٤/٧٠٦-٧١١ رقم ١٣٠٧، ١٣١٩).
[3] انظر: جامع العلوم والحكم (١/١٠٣ – الرسالة).

وبالجملة فهم أهل بدعة شنيعة، والرسول ﷺ بريء منهم، كما هو بريءٌ من الأولين. ١

ويستفاد من هذا الحديث:

١. ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: "يا بني".

٢. أنه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب وسكت، ولكنه أسند إلى رسول ﷺ، فمثلاً: إذا أردت أن تقول لابنك: سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت، فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت: سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت، لأن النبي ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل، وقال: ((إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها))[١]، إذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:

الأولى: أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثيراً ما يغفل عنها، فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة. ٥

وفي هذا الحديث ونحوه: بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر، قال: "القدر قدرة الرحمن"، واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى فضلوا سواء السبيل؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: والناس في باب خلق الرب وأمره، ولِمَ فعل

---

[١] مسلم: كتاب الذكر والدعاء/ باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب.

ذلك، على طرفين ووسط:

فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب تعالى؛ بتنزيهه عما ظنوه قبحاً من الأفعال وظلماً. فأنكروا عموم قدرته ومشيئته، ولم يجعلوه خالقاً لشيء، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. بل قالوا: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشأ، ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم، وتكلموا في التقدير والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق، فضلوا وأضلوا!!. ٢

وفي رواية لأحمد: ((إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة))[١].

رواية أحمد مثل رواية أبي داود والترمذي، وفيها: أنّ الله جل وعلا أمر القلم عندما خلقه أن يكتب مقادير الأشياء، إلاّ أنّ لفظة رواية أحمد: ((إلى يوم القيامة))، والرواية التي قبلها: ((إلى أن تقوم الساعة)) والمعنى واحد، الساعة ويوم القيامة بمعنىً واحد، ولكن هذا من باب التأييد للروايات بعضها ببعض. ٤

هذه الرواية تفيد أمراً زائداً على ما سبق، وهو قوله: ((فجرى في تلك الساعة))، فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى، فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله سبحانه وتعالى كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾، أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

قوله: ((إلى يوم القيامة)). هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة، لقيام أمور ثلاثة فيه:

---

[١] رواه الإمام أحمد في المسند (٣١٧/٥) وغيره كما سبق في التخريج.

الأول قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥-٦].
الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].
الثالث: قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ٥

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: ((فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار))[1].

"ولابن وهب" عبد الله بن وهب: الإمام المحدِّث، من أصحاب الإمام مالك، توفّي على رأس المائة الثّانية، وله مؤلّفات مشهورةٌ في الحديث والرّواية. ٤
قوله: "وفي رواية لابن وهب". ظاهره أن هذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث. ٥
قال رسول الله ﷺ: ((فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنّار))
هذا نوعٌ آخر من الوعيد، وهو أنّ من أنكر القضاء والقدر فإنّ الله يُحرقه بالنّار، فدلّ على أنّ الإيمان بالقضاء والقدر أمرٌ واجب، وأنّ إنكاره موجبٌ لدخول النّار إمّا لكفره وإمّا لبدعته، فالمنكر للقضاء والقدر إنْ كان مع هذا يجحد علم الله جل وعلا فهذا كفر كما عليه غُلاة القدرية، لأنّهم ينكرون علم الله جل وعلا، ويقولون: "إنّ الله لا يعلم الأشياء إلاّ إذا وقعت، والأمرُ أُنُف" يعني: مستأنَف لم يسبق له تقديرٌ ولا علم، هذا كفرٌ صريح.
أمّا إن كانوا يقرّون بالعلم ويُنكرون القدر فهذا بدعة شنيعة والعياذ بالله، قد تقرُب من الكفر، وهو ما عليه متأخِّروهم. ٤
فإن صاحب البدعة متعرض للوعيد كأصحاب الكبائر، بل أعظم. ١

---
[1] رواها ابن وهب في كتاب القدر (رقم ٢٦)، ورواه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (رقم ١١١)، والآجري في الشريعة (ص/٣٧١-٣٧٢) وهو صحيح بطرقه.

وقوله: ((أحرقه الله بالنار)) بعد قوله: ((فمن لم يؤمن)) يدل على أن من أنكر أو شك فإنه يحرق بالنار، لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحان، لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد.

فهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: ((فمن لم يؤمن))، ودخل في هذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي قوله: ((أحرقه الله بالنار)) دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حمما[1]، يعني: فحماً أسود، وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. ٥

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: "أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار.

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار، ومسلم كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية.

قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ."حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه[1].

قال: "وفي المسند والسنن" المسند هو: "مسند الإمام أحمد"، والمراد بالسنن هنا: "سنن أبي داود" و"سنن ابن ماجه".

"عن ابن الدَّيْلَمي" ابن الدَّيْلَمي هو: عبد الله بن فَيْرُوز الدَّيْلَمي، أحد كبار التّابعين، وأبوه فيروز الذي قتل الأسود العَنْسي الذي ادّعى النبوّة في اليمن، والديلمي نسبة إلى جبل الدَّيْلَم في بلاد فارس، فأصلُه فارسيّ، ممّن جاءوا إلى اليمن من الفُرس، وأسلم وحسُن إسلامُه، وابنُه من كبار التّابعين والأئمّة المشهورين رحمه الله.

قال: "أتيتُ أُبيَّ بن كعب" الأنصاري، الصحابيّ الجليل، أقرأ الصّحابة لكتاب الله عزّ وجلّ. ٤

"فقلتُ: في نفسي شيءٌ من القدَر"

أي: شك أو اضطراب يؤدي إلى شك فيه، أو جحد له. ١

هكذا طلبةُ العلم الذين يبحثون عن الحقيقة، ويبحثون عن العلم النّافع إذا أشكل عليهم شيء، لا يَعْتَمدون على رأيِهم، وإنّما يرجعون إلى أهل العلم، فهذا ابن الدّيلمي رجع إلى الصّحابة لَمّا أشكل عليه أمرُ القدر. ٤

قوله: "في نفسي شيء من القدر". لم يفصح عن هذا الشيء لكن لعله لمَّا حَدَثَت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثاً صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا، فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا[2]، حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشبه، فلهذا يقول ابن الديلمي: "في نفسي شيء من القدر". ٥

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند (١٨٥/٥-١٨٩) وأبو داود في سننه (رقم ٤٦٩٩)، وابن ماجة في سننه (رقم٧٧) والطبراني في الكبير (رقم ٤٩٤٠) وابن حبان في صحيحه (رقم ١٨١٧) وغيرهم عن زيد بن ثابت مرفوعاً، وإسناده حسن.

[2] الإمام أحمد في "المسند" (١٧٨/٢)، وصححه أحمد شاكر (٦٦٦٨).

"فحدِّثني بشيء" يعني: أخبرني بشيء عن رسول الله ﷺ، لأنّ أُبيّ بن كعب من خواصّ صحابة الرّسول ﷺ.

"لعلّ الله أن يُذهبُه من قلبي" هذا دليلٌ على أنّ الإشكال يزول بالعلم، وعلى أن الوساوس تزول بالعلم النّافع، لا شفاء لها إلاّ العلم، والعلم إنّما يطلب عند أهله، لا يطلب من المتعالمين والمبتدئين والصحافيّين الذين يعتمدون على قراءة الكتب، هؤلاء قُرّاء، وليسوا علماء، وما يُخطئون فيه أكثر ممّا يصيبون، فلابدّ من الرّجوع إلى أهل العلم الرّاسخون في العلم. ٤

وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة ﷺ، كأبي بن كعب، فلكل داء طبيب. ٥

"فقال: لو أنفقتَ مثل أُحدٍ ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقَدَر"

هذا تمثيل على سبيل الفَرَضِ لا تحديدٌ، إذ لو فُرِضَ إنفاق ملء السموات والأرض كان ذلك. ١

لأنّ العمل وإن كان جليلاً فإنّه لا يُقبل إلاّ إذا صحّت العقيدة، ومن صحّة العقيدة: الإيمان بالقضاء والقدر، لأنّه من أركان العقيدة، كما مرّ في حديث عمر بن الخطّاب في سؤالات جبريل للنّبي ﷺ. ٤

هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الذي لا تقبل منهم النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر ﷺ. ٥

قوله "حتى تؤمن بالقدر" أي: بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها، وحُلْوَهَا ومُرَّهَا، ونفعها وضُرَّهَا، وقليلَهَا وكثيرَهَا، وكبيرَهَا وصغيرَهَا، بقضائه وقدره، وإرادته ومشيئته وأمره، كما ذُكِرُ عن علي ﷺ. ١

قال الإمام أحمد رحمه الله: "القدر قدرة الله." قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٣/٢٥٤-٢٥٥): "يشير إلى أن من أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله، وأنه يتضمن إثبات قدرة الله على كل شيء...".

وقال العماد ابن كثير رحمه الله: "عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره))[1] وكذا رواه الترمذي عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة عن ربعي عن علي فذكره. ٢

"وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك ولو مِتّ على غير هذا لكنتَ من أهل النار".

جزم أبي بن كعب ﷺ بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار، لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها. ٥

هذا- أيضاً- مطابِق لحديث رسول الله ﷺ الذي مرّ قريباً: ((من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنّار)). ٤

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا، فلابد يرتدع ولا بد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ٥

قال : "فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت"

هؤلاء أقطاب من أقطاب العلم، من صحابة رسول الله ﷺ.

ويُروى: أنّ أُبيّ بن كعب أحاله إلى عبد الله بن مسعود، ولَمّا أجابه عبد الله بن مسعود أحاله على حُذيفة بن اليمان، ولَمّا أجابه حُذيفة بن اليمان أحاله على زيد بن ثابت، فكلّ واحد منهم يُحيلُه على أخيه لأجل أن يزول ما في قلبِه.

يقول ابن الديلمي: "فكلهم حدّثني بمثل ذلك عن النّبي ﷺ".

---

[1] الترمذي القدر (٢١٤٥)، ابن ماجه المقدمة (٨١).

الله أكبر!، تطابقت كلمة أبيّ بن كعب مع كلمة ابن عمر ومع كلمة عُبادة بن الصّامت -رضي الله عن الجميع-، لأنّهم يأخذون من مصدر واحد وهو سنّة رسول الله ﷺ، ولا يقولون شيئاً من عند أنفسهم. ٤

أنّ الإيمان بالقضاء والقدر أمرٌ لابدّ منه، ولا يقبل الله من أحدٍ عملاً إلاّ به، ومن لم يؤمن به فهو من أهل النّار، نسأل الله العافية والسّلامة. ٤

المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأبي بن كعب من أهل القرآن ومن كتبة القرآن، حتى إن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿لَمْ يَكُنْ..﴾ البينة، وقال: ((إن الله أمرني أن أقرأها عليك))، فقال: يا رسول الله! سماني الله لك. قال: ((نعم)). فبكى رضي الله عنه بكاء فرح أن الله عز وجل سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة[١].

وأما عبد الله بن مسعود، فقد قال النبي ﷺ: ((من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما أُنْزِل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد))[٢].

وأما زيد بن ثابت، فهو أحد كتاب القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه[٣].

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين[٤]. ٥

ولذلك يجب على المسلم أن يؤمن بالقدر خيره وشره، وأن يعلم أن هذا من عند الله عز وجل.

---

[١] البخاري: كتاب التفسير/ باب تفسير سورة "لم يكن" ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي.

[٢] الإمام أحمد في المسند (٢٦/١)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٢٩٥/٣).

[٣] البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب جمع القرآن.

[٤] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب مناقب عمار وحذيفة.

وإذا تقرر هذا كما قرره النبي ﷺ وصحابته الكرام، نوجه نداء إلى جميع المسلمين فيما يتصل بالقدر، وهذا النداء يتضمن جزء مما قلناه قبل قليل، وهو أن على الإنسان أن يتعلق بالله جل وعلا، فإن أصابه خير ارتاح واطمأن وحمد الله جل وعلا على ما قضاه له من أمور الخير، وهنا يأتي الشكر فإن أصابه سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابه شيء آخر مما ظاهره شر فموقفه أن يؤمن بالله سبحانه وتعالى بأنه قدر هذا الأمر، وما قدره إلا بأن تكون عاقبته خيراً إذا تعامل المسلم معه التعامل الشرعي المطلوب.

والتعامل الشرعي المطلوب تبدأ درجاته بالصبر على ما قضاه الله سبحانه وتعالى مما ظاهره شر، فالحياة مبنية على الكبد و خلق الإنسان كذلك كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى، فإذا كان الأمر كذلك فلن تصفو لأحد، ولو كانت الدنيا تدوم للناس بالخير لدامت لرسول الله ﷺ، لكن أمر الدنيا متقلب بين أفراح وأتراح، فإذا أصيب الإنسان بما ظاهره شر من مرض ومن فقر ومن عدم النجاح في بعض الأمور وبعض المشاريع ومن الخسارة المالية، فعلى المسلم أن يصبر على ما قدر عليه كما جاء عن النبي ﷺ.

ثاني الدرجات: مع هذا الصبر أن يرضى بقضاء الله سبحانه وتعالى وهذا جاء في دعاء النبي ﷺ: ((وأسألك الرضا بعد القضاء))[1]. وهذه درجة أعلى.

والدرجة العليا التي يصل إليها الموفقون هي درجة الشكر تعني أن يجعل المسلم ما أصابه من المحن منحة من الله سبحانه وتعالى، وكيف يكون ذلك؟

يعلم الإنسان أن أعماله قد لا ترقى به إلى الدرجات العليا لكن يقدر الله سبحانه وتعالى عليه من بعض الأمور التي ظاهرها شر، فيحمد العبد ربه على ذلك فتنقلب المحن منحة، ومن هذا يجب أن نربط علاقتنا بالله على أي وجه كانت الأمور، ولا يعني هذا أن يكون الإنسان سبهللاً لا يعنيه الأمر من خير أو شر، ولكن المقصود أن يعلم أن هذه الأمور من الله سبحانه وتعالى فيتعامل معها التعامل الشرعي، رزقنا الله ذلك.

---

[1] رواه أحمد برقم (٢٠٦٧٨)، والنسائي برقم (١٢٨٨)، وذكره الألباني في صحيح النسائي(١٣٠٤).

فإن قال قائل: كيف يمكن أن نفسر قول النبي ﷺ: ((لا يرد القضاء إلا الدعاء)).

الجواب عن هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن القدر المكتوب على الإنسان مما يعلمه الملك الموكل بذلك، فقد يكون القدر على هذا الإنسان أمراً معيناً فيدعو الله فيرد هذا الأمر بدعائه، فيعلم الملك الموكل بأن هذا الإنسان إنما دد قدرة الأول بسبب دعائه.

الوجه الآخر: أن هذا الأمر سبق في علم الله سبحانه أن هذا الإنسان ستصيبه مصيبة مثلاً، ثم يقدر الله عليه أنه سيدعو الله فيرد الله هذه المصيبة بدعاء هذا الإنسان.

وهذا حافز لكل مسلم أن يدعو الله ويكثر اللجوء إليه فإن الأمر كله لله. ٩

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء والصفات؟.

الجواب تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات، ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضاً ظاهر، لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد، فلها تعلق بالقدر، فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة. ٥

فيُستفاد من هذه الأحاديث التي أوردها المصنِّف رحمه الله في هذا الباب فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: وُجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّ ذلك من أركان الإيمان الستّة.

الفائدة الثانية: أنّ الله سبحانه وتعالى كتب مقادير الأشياء في اللوح المحفوظ بعد علمه بها سبحانه وتعالى أزَلاً، ففيه: ثُبوت كتابة القدر في اللّوح المحفوظ.

الفائدة الثالثة: أنّ القلم من أوّل المخلوقات، وهل هو قبل العرش أو بعده؟، على القولين السّابقين، والرّاجح: أن العرش هو السّابق.

الفائدة الرابعة: أنّ من لم يؤمن بالقضاء والقدر فهو إمّا كافر وإمّا مبتدع، إمّا كافر إنْ كان ينكر العلم، أو مبتدع إنْ كان لا يُنكر العلم، وذلك لأُمور:

أوّلاً: أنّ الله لا يقبَلُ منه النفقة في سبيله ولو كثرت.

ثانياً: براءة الرّسول ﷺ منه.

ثالثاً: أنّ الله توعّده بالنّار: ((أحرقه الله بالنّار))، "لو مِتّ على غير هذا لكنت من أهل النّار".

فهذه الأمور الثلاثة كلّها تدلّ على شناعة إنكار القضاء والقدر.

الفائدة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وُجوب الرُّجوع إلى أهل العلم عندما يعرِض للإنسان مشكِلة، فإنّها لا تزول إلاّ بالرجوع إلى أهل العلم، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

الفائدة السادسة: في هذه الأحاديث دليلٌ على أنّ أهل العلم لا يقولون إلاّ بما دلّ عليه الدّليل من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فابن عمر استدلّ بالحديث الذي رواه أبوه في دخول جبريل على النّبي ﷺ وسؤاله إيّاه، وفي آخره: ((وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه))، وحذيفة بن اليَمان يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((من مات على غير هذا فليس مِنّي)).

كذلك الصّحابة الذين ذهب إليهم ابنُ الدّيلمي، وهم: أُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليَمان، وزيد بن ثابت، كلُّهم يحدِّثون عن رسول الله ﷺ، فدلّ على أنّ أهلَ العِلم إذا أفتوا بفتوى أو قالوا مقالاً أو أجابوا بإجابة علميّة أنّهم يُسندونها إلى الدّليل من كتاب الله ومن سنّة رسولِه ﷺ، لاسيّما إذا كانت من أُمور العقائد، فإنّ العقائد توقيفيّة لا يصلُح فيها شيءٌ من الاجتهاد، وإنّما هي أمورٌ توقيفيّة. ٤

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع. ٥

فوائد الإيمان بالقدر:

١. أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢. أن من علم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وسلم لهذا، ذاق طعم الإيمان.

٣. أن الإيمان بالقدر يبعث الطمأنينة والأمان في قلب المؤمن.

٤. أن الإيمان بالقدر يقوي علاقته بالله عز وجل ويبعده عن التحسر والندم على ما فات.

٥. أن الإنسان يزداد من فعل الطاعات واجتناب المنكرات.

٦. الإقدام على العمل وعدم الكسل، إذ أن الإيمان بالقدر دافع للمزيد من العمل فلا يعجز ويتكل. ٩

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. دليله قوله: ((الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)). ٥

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

أي: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر، لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جمعت اختصاراً في بيت واحد، وهو قوله:

علم كتابة مولانا مشيئته ... وخلقه وهو إيجاد وتكوين

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر. ٥

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

تؤخذ من قول ابن عمر: "لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر"، ويتفرع منه ما ذكرناه سابقاً بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل. ٥

الرابعة: الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

أي: بالقدر، وهو كذلك، لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان... إلخ.

وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله عز وجل ويستريح، لأنه علم أن هذا أمر لابد أن يقع على حسب المقدور، لا يتخلف أبداً، ((ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، لأن لو تفتح عمل الشيطان))، ولا ترفع شيئاً وقع مهما قلت. ٥

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله، لأنه ثبت في "صحيح البخاري": ((كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء))[١]، وهذا واضح في الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه على الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد، فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوليته نسبية.٥

---

[١] البخاري: كتاب التوحيد/ باب وكان عرشه على الماء.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

لقوله في الحديث: ((فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)).

وفيه أيضاً من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله، لأن الله وجه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل في الأول وقال: ((ماذا أكتب؟)). ٥

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

لقوله ((من مات على غير هذا، فليس مني))، وهذه البراءة مطلقة، لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة. ٥

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

لأن ابن الديلمي يقول: "فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت" بعد أن أتى أبي بن كعب، فدل هذا على أن عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم.

وفيه أيضاً مسألة ثانية، وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت، لأن ابن الديلمي سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم للتتبع الرخص، فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم، وهذا من شأن اليهود، فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصناً وكثر الزنى في أشرافهم، غيروا هذا الحد، ولما قدم النبي ﷺ المدينة، وزنى منهم رجل بامرأة قالوا: أذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئاً آخر، لأجل أن يتتبعوا الرخص. ٥

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

لقول ابن الديلمي: "كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ، وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله، زالت الشبهة تماماً، لكن تزول عن المؤمن، أما غير المؤمن، فلا تنفعه، فالله عز وجل يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦، ٩٧]، لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته بما

جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: "كان يصيبنا ذلك تعني الحيض، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة"[١] لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن، ولهذا يذكر الله عز وجل إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك، فقال في أدلة العقل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فهذه دلالة عقلية، فالعقل يؤمن إيماناً كاملاً بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى.

وذكر أدلة حسية، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩].

فإذا لا مانع أن تأتي بالأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن تقنع الخصم وتطمئن الموافق.

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة، فلا مانع أيضاً أن تأتي به للاستدلال على ما تقول من الحق لتلزم الخصم به وتطمئن الموافق، وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبي المعالي الجويني مع الهمداني، حيث إن أبا المعالي الجويني غفر الله لنا وله كان يقرر نفي استواء الله على عرشه، فقال له الهمداني: "دعنا من ذكر العرش، فما تقول في هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو". فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

فإذاً الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية.

وأشدها إقناعاً للمؤمن هو الدليل السمعي، لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإن ظنه صاحبه حقاً. ٥

---

[١] البخاري: كتاب الحيض/ باب لا تقضي الحائض الصلاة، ومسلم: كتاب الحيض/ باب وجود قضاء الصوم على الحائض.

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)) أَخْرَجَاهُ، وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ ﵂، أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ))، وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ))، وَلَهُمَا عَنْهُ مرفوعاً: ((مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ)). وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: ((أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّه ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ)).

هذا الباب عقده المصنِّف رحمه الله في "كتاب التّوحيد" لأنّ التصوير سببٌ من أسباب الشّرك، ووسيلةٌ إلى الشّرك الذي هو ضدّ التّوحيد، كما حدث لقوم نوح لَمّا صوّروا صور الصالحين ونصبوها في مجالسهم وآل بهم الأمر إلى أنْ عبدوهم من دون الله، فأوّلُ شركٍ حصل في الأرض كان بسبب الصور وبسبب التّصوير.

وكذلك قوم إبراهيم الذين بعث إليهم الخليل -عليه الصلاة والسلام- كانوا يعبدون التماثيل التي هي صور مجسّمة لذوات الأرواح، وكذلك بنو إسرائيل عبدوا التمثال الذي هو على صورة عجل صنعه لهم السامري.

فدلّ هذا: على أنّ التصوير سببٌ لحُدوث الشرك ووسيلةٌ إلى الشّرك، وذلك أنه إذا صنعت الصورة وعلِّقت أو نُصبت وهي صور للزُّعماء والصّالحين والعلماء فإنّها في النهاية تعظُّم، ثم الشيطان يأتي النّاس ويقول لهم: إنّ هذه الصور فيها نفعٌ لكم، وفيها دفعُ ضرر، فيعظِّمونها ويتبرّكون بها، ويذبحون لها وينذرون لها، حتى تُصبح أوثاناً تعبد من دون الله.

فلهذا السبب عقد المصنِّف رحمه الله هذا الباب في "كتاب التّوحيد"، لأنّ هذا الكتاب في بيان التّوحيد وبيان الشرك ووسائل الشرك، ومن أعظم وسائل الشرك وأسبابِه: التّصوير ونصب الصور وتعليقها.

فقوله رحمه الله: "باب ما جاء في المصوِّرين" يعني: من الوعيد الشديد والنّهي والزّجر عن ذلك.٤

والمصورون جمع تصحيح للمصوِّر، والمصور هو الذي يفعل إحداث الصور؛ يعني هو الذي يقوم بالتصوير، والتصوير معناه التشكيل؛ تشكيل الشيء حتى يكون على هيئة صورة، والصورة قد تكون صورة لآدمي أو لغير آدمي من حيوان أو لنبات أو لجماد أو لسماء أو أرض، فكل هذا يقال له مصور، إذا كان يشكل بيده شيئاً على هيئة صورة –صورة معروفة.

وقوله (باب ما جاء في المصورين) يعني من الوعيد، ومن الأحاديث التي فيها أنهم جعلوا أنفسهم أنداداً لله جل وعلا، وعموم ما ذكرنا في معنى المصور هذا من جهة المعنى، أما من جهة الحكم فسيأتي بيان التفصيل إن شاء الله. ٣

ومناسبة هذا الباب للتوحيد: أن في التصوير خلقاً وإبداعاً يكون به المصور مشاركاً لله في ذلك الخلق والإبداع. ٥

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن التوحيد هو أن لا يُجعل لله ند فيما يستحقه جل وعلا، والتصوير تنديد من جهة أن المصور جعل فعله نداً لفعل الله جل وعلا، ولهذا يدخل الرضى بصنيع المصوِّر في قول الله جل وعلا ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] إذْ ذلك حقيقته أنه جعل هذا المصوِّر شريكاً لله جل وعلا في هذه الصفة، مع أن تصويره ناقص وتصوير الله جل وعلا على جهة الكمال؛ لكن من جهة الإعتقاد مما جعل هذا المخلوق مصوِّرا والله جل وعلا هو الذي ينفرد بالتصوير سبحانه وتعالى –يعني بتصوير المخلوقات كما يشاء– كان من كمال التوحيد أن لا يُرضى بالتصوير وأن لا يفعل أحد هذا الشيء؛ لأن ذلك لله جل وعلا، فالتصوير من حيث الفعل مناف لكمال التوحيد، وهذا هو مناسبة إيراد هذا الباب في هذا الكتاب.

والمناسبة الثانية له أن التصوير وسيلة من وسائل الشرك بالله جل وعلا، والشرك ووسائله يجب وصدها وغلق الباب؛ لأنها تُحْدث في الناس الإشراك أو وسائل الإشراك.

فصار -إذن- التصوير له جهتان:

الجهة الأولى: جهة المضاهاة بخلق الله والتمثّل بخلق الله جل وعلا وبصفته واسمه.

الثانية: أنه وسيلة للإشراك، الصورة من حيث هي وسيلة، قد لا يشرك بالصورة المعينة التي عملت؛ ولكن الصورة من حيث الجنس هي وسيلة -ولا شك- من وسائل الإشراك، وشرك كثير من المشركين كان من جهة الصور، فكان من تحقيق التوحيد أن لا تقرّ الصور لأجل أن الصورة وسيلة من وسائل المشركين في عباداتهم. ٣

يريد المؤلف من هذا الباب بيان أن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص إيمانهم وتضعفه.

والمصورون هم الذين يضاهئون بخلق الله في تصوير الحيوانات سواء باليد أو بأي آلة إذا كان المصَوَّر من ذوي الأرواح. ٦

ذكر فيه المؤلف خمسة أحاديث، كلها صحيحة، كلها عظيمة، كلها مخرجة في الصحيحين ماعدا الأخير فقد انفرد به مسلم. ٦

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)). أخرجاه [1].

قال: "عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله تعالى))

مثل هذا الحديث الذي يرويه النّبي ﷺ عن ربّه يسمّى بالحديث القُدْسي، نسبةً إلى القدس وهو الطهر، لأنّه من كلام الله سبحانه وتعالى الذي رواه عنه رسوله ﷺ.

---

[1] البخاري: كتاب اللباس/ باب نقض الصور، ومسلم: كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم تصوير صور الحيوان.

والأحاديث القدسيّة معروفة عند أهل العلم، وأُلِّفتْ فيها مؤلّفات، جُمعت فيها الأحاديث القدسيّة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو دون ذلك.

وهذا الحديث من الأحاديث القدسيّة الصحيحة لأنّه في "الصحيحين".

فقوله: ((قال الله تعالى)) هذا فيه إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنّه يقول ويتكلّم كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ليس ككلام المخلوق، وإنّما هو كلام الخالق جل وعلا.

((ومن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي))

هذا استفهام إنكار بمعنى النفي، أي: لا أحد أشدُّ ظلماً من المصوِّر، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ [الأنعام:٢١]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إلى الإسلام﴾ [الصف:٧] أي: لا أحد أظلم من هذا، فهو أظلمُ الظّالمين. ٤

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى أنها مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

الثاني: أن الأظلمية نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلاً: من أظلم في مشابهة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في أفتراء الكذب ممن افترى على الله كذباً. ٥

قوله تعالى: ((يخلُق كخلقي))

يعني يصور كتصويري. ٦

يعني بذلك المصوِّر، لأنّ المصور يحاول أن يوجد صورة تشبه الصورة التي خلقها الله سبحانه وتعالى، لأنّ الله جل وعلا تفرّد بالخلْق، وتفرّد بالتّصوير: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر:٦٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإليه الْمَصِيرُ﴾ [التغابن:٣]، فالله جل وعلا هو المصوِّر، فالذي يحاول أن يضع شكلاً يشبه الصورة التي خلقها الله جل وعلا يجعل نفسَه شريكاً لله في التّصوير، ولهذا يجعل الصورة على شكل المصوِّر من إنسان أو حيوان، فيجعل لها رأساً ووجهاً وعينين وأنفاً وشفتين وأُذنين ويدين ورجلين، ثم يلوّنُها بالتلوينات إذا كانت رسماً، وإن كانت بناءً فإنّه يبني تمثالاً مكوّناً من أعضاء وتقاطيع يحاولُ بها مشابهة خلق الله سبحانه وتعالى ومشاركة الله جل وعلا فيما اختصّ به وتفرّد به، فإنّ الله جل وعلا هو الخالق وحدَه، لا أحد يخلُق غيرُه: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شركَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣].

هو يستطيع أن يرسم شكلاً أو يبني تمثالاً، ولكنّه لا يستطيع أن يجعله حيَّاً متحركاً عاقلاً مفكِّراً يأكل ويشرب ويعمل كما يعمل خلقُ الله سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان:١١]. ٤

قوله: ((يخلق كخلقي)). فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب. ٥

وقوله: ((فليخلقوا ذرة))

هذا أمر تعجيز وتحدٍّ، وهو تحدٍّ قائم إلى يوم القيامة. ٤

قوله: "فليخلقوا ذرة". اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور:٣٤] من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار، وأما من قال بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ، لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحاً، وهي من أصغر الحيوانات. ٥

يعني إن كان عندهم قوة فليخلقوا ذرة من هذه الذرات المعروفة، يكون لها صفات هذه الذرة من العقل والشم والمشي وغير ذلك مما هو من خصائصها، وهي حيوان صغير لكن فيها عجائب هذه الذرة وغرائب، فإن كان عندهم قدرة فليخلقوا ذرة. ٦

((أو ليخلُقوا حبّة))

حبّة من النّبات: حبّة بُرّ أو دخن أو غير ذلك من الحبوب. ٤

"أو" للتنويع، أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح. ٥

((أو ليخلقوا حبة)) لها شأنها في الإنبات والنفع للناس، أو شعيرة فإذا كان حتى في الجماد يعجزون عن هذا الشيء فكيف بالحيوانات، فالمقصود أن مخلوقات الرب التي لها خصائصها لا يستطيع خلقها العباد. ٦

((أو ليخلُقوا شعيرة))

يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام، لأن حبة الشعير أخص من الحب. أو تكون "أو" شكاً من الرواي. ٥

فالله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة. ٥

أي: حبّة شعير، هم يستطيعون أن يعملوا صورة حبّة، صورة شعيرة، صورة ذرّة، لكن لا يستطيعون أن يجعلوا فيها الخواصّ التي يجعلها الله في هذا المخلوق، وإنّما عمله أن يستطيع أن يجعل مجرّد شكل ورسم أو تمثال فقط.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام:٩٥]، فالله وحده يجعل حبّة فيها خصائص الحبّة من الحياة والنموّ والطعم، لأنّ الحبّة فيها حياة، ولذلك إذا بُذِرَتْ نبتَتْ، وتسمّى حياة نموّ، أمّا حياة الحيوان فإنّها تسمّى حياة حركة، فالحياة على قسمين: حياةُ حركة، وهذه في ذوات الأرواح، وحياةُ نموّ وهي في الحبُوب والبُذور التي جعلها الله سبحانه وتعالى لإنباتِ الأشياء. ٤

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: ((أو ليخلقوا حبة))، ثم قال: ((أو ليخلقوا شعيرة))، لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، أي: اجتمعوا لخلقه متعاونين عليه وقد هيؤوا كل ما عندهم، ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قال العلماء: لو أن الذباب وقع على هذه الأصنام فامتص شيئاً من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالباً لها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾، أي: العابد والمعبود، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾، أي: الذباب. ٥

((فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً. أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبّةً. أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)) معلوم أن الذرّةَ من حيث هي ذرة، هذا يمكن أن تُعمل بأي شيء وترمى فتراها في الضوء والشمس أنها ذرة، وكذلك الحبة -يعني حبة الحنطة حبة البر أو حبة الرز- ممكن أن تصنع؛ ولكن لا يمكن أن تكون كخلق الله جل وعلا،

وكذلك الشعيرة يمكن أن تصنع شكلاً وأن تصور شكلاً؛ لكن يعجز فيها الحياة، فمثلاً كحب البر أو الشعير أو الرز أو نحو ذلك ينبت فيما إذا وضع في الأرض الذي هو من خلق الله جل وعلا، أما ما صنعه المخلوق فإنه لا تكون فيه حياة، فالرز الصناعي مثلاً الذي تأكلونه لو رُمي في الأرض لما خرج منه ساق ولما خرج له جذر ولَمَا كانت منه حياة، وأما الذي يكون من خلق الله جل وعلا فهو الذي أودع فيه سر حياة ذلك الجنس من المخلوقات.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا على وجه التعجيز، فالذي يخلق كخلق الله جل وعلا هذا من جهة ظنه، أما من جهة الحقيقة فإنه لا أحد يخلق كخلق الله، ولهذا صار ذلك مشبها نفسه بالله جل وعلا، فصار أظلم الخلق. ٣

قال الشيخ سليمان كما في إبطال التنديد للشيخ حمد بن عتيق (صفحه ٢٣٩): "قوله ((فليخلقوا ذره)) هذا تعجيز، أي: فليخلقوا ذرة فيها روح، تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي خلقها الله، وكذلك قوله تعالى ((حبة او شعير)) أي: حبه حنطة فيها طعم تؤكل وتُزرع وتَنْبُتُ، ويوجد فيها ما يوجد في حبه الحنطه والشعير ونحوهما من الحب الذي يخلق الله تعالى، وأنَّى لهم السبيل إلى ذلك؟ بل الله هو المتفرد بذلك، لا خالق غيره، ولا إله سواه".

ولو أن هذا الإنسان الذي يسمّونه الفنّان صرف جهده لأشياء نافعة، صرف جهده لاختراع، صناعة تنفع، ينفع نفسه وينفع النّاس بها لكان هذا عملاً جيِّداً، ومع النيّة والإيمان يكون عبادة ويؤجَرُ عليها.

أمّا أنْ يصرف جُهده ووقته وتعلُّمه في إيجاد هذه الصور ونحت هذه الصور فهذا عبثٌ فارغ وعملٌ محرّم، وهو ملعون على لسان رسول الله ﷺ، وهو أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة، فبئسما اختار لنفسه من هذا الفنّ الممقوت.

((أخرجاه)) أي: أخرجه البخاري ومسلم -رحمهما الله-. ٤

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير، لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهياً لله في صنعه والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون، أي: ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عبثاً، يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي ليهدئه به، فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم: يدخل في الحديث، لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنساناً لبس لبساً يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم، نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك، لو أن أحداً تشبه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه، قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: ((إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم))[١]، فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في "صحيح البخاري": ((إلا رقماً في ثوب))[٢]، إن صحت الرواية هذه، فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

---

[١] البخاري: كتاب اللباس/ باب من كره القعود على الصور، ومسلم: كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صور الحيوان.

[٢] جزء من الحديث السابق.

الحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط، فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً، إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة، فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة، فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أُمِّي لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب، لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعاً ولا مخططاً، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا، فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه، فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور، لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك. وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه، فهذا يكون مباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني، فصوره، فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل في الحديث، أي: حديث الوعيد على التصوير، أما إذ قال: صورني لغرض آخر غير مباح، صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي، فهذا لا بأس به بالاتفاق، لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة، مثل أن يصور الإنسان سيارته، فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامي، كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار، فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو، فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله عز وجل، والحديث عام: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي))، ولأن الله عز وجل تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا، فيكون تصويرها حراماً، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمه الله أعلم التابعين بالتفسير، وقال: إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولاً: العموم في قوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)).

ثانياً: قوله: ((أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة))، وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: ((أحيوا ما خلقتم))، وقوله: ((كلف أن ينفخ بها الروح)) يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: ((أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة))، فذكر على سبيل التحدي، أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه. ٥

ويؤيده قول ابن عباس: "إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر و ما لا نفس له"[1]. ١

ولهما عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول ﷺ قال: ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهؤون بخلق الله))[2].

"ولهما" أي: البخاري ومسلم. ٤

((أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)).

وفي اللفظ الآخر: ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون)) رواه ابن عباس وغيره، وفي اللفظ الآخر: ((إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم أحيوا ما خلقتم)).٦

قوله: ((أشد)). كلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى. ٥

قوله ﷺ: ((أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة)) في الحديث الأوّل: ((ومن أظلم))، وفي هذا أنّهم أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة، فيدلّ على أنّ التصوير حرامٌ مغلّظ التحريم وأنّه كبيرة من كبائر الذُّنوب، فهذا الذي يعتبرونَه فنّاً ويتعلّمونه ويتفاخرون به هو أعظم الذُّنوب.

وهم أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة إن لم يتوبوا إلى الله عزّ وجلّ. ٤

((الذين يضاهئون بخلق الله))

ومعنى يضاهئون، أي: يشابهون ((بخلق الله))، أي: بمخلوقات الله سبحانه وتعالى. ٥

((يضاهئون)) يعني: يحاولون أنْ يوجدوا صورة تشبه خلق الله سبحانه وتعالى، فالمضاهاة معناها: المشابهة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: يشابهون من سبقهم من الكُفّار. ٤

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (٢١١٢- البغا) ومسلم في صحيحه (رقم ٢١١٠)

[2] البخاري: كتاب اللباس/ باب ما وطىء من التصاوير، ومسلم: كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون، فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذا المضاهاة جسمية أو وصفية، فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة، لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق، وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذين يكون وصفاً لخلق الله عز وجل.

هذا الحديث يدل على أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذاباً، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله عز وجل وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتعبد من دون الله، فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئاً ليعبد من دون الله، فإنه حتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقال: اعبدوها، فقد دخل في التحريم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، لأنه أعان على الإثم والعدوان. ٥

فهذا فيه: بيان علّة تحريم التصوير؛ أنّ فيه مضاهاة لخلق الله تعالى وإساءة أدب مع الله عزّ وجلّ. ٤

هذا فيه تنبيه للعلة، وهذه العلة هي المضاهات بخلق الله جل وعلا وهي أحد العلتين اللتين من أجلهما حُرم التصوير، فالتصوير حُرِّم وصار صاحبه من أشد الناس عذاباً لأجل أنه يضاهي بخلق الله جل وعلا؛ ولأن الصورة وسيلة للشرك. ٣

وقوله: ((يضاهئون)). هل الفعل يشعر بالنية بمعنى أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول: المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب: الثاني، لأن المضاهاة حصلت سواء نوى أم لم ينو، لأن العلة هي المشابهة، وليست العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرى مثلاً وما أشبه ذلك، نقول: هذا حرام، لأنه متى حصلت المشابهة ثبت الحكم، لأن الحكم يدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباساً خاصاً بالكفار: إنه يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة، نقول: لكن حصل التشبه، فالحكم المقرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم. ٥

المضاهاة بخلق الله جل وعلا التي رُتِّب عليها بأن يكون فاعلها أشد الناس عذاباً يوم القيامة في هذا الحديث عند كثير من العلماء: أنها ما كانت على وجه الكفر، وتكون المضاهاة في التصوير كفراً في حالتين:

الحالة الأولى: أن يصور صنماً لِيُعْبَد، أو يصور إلهاً ليعبد، أو يصور إلها يعبد في الواقع، فيصور لأهل البوذية صورة بوذا، أو يصور للنصارى المسيح أو يصور أم المسيح ونحو ذلك، فتصوير ما يُعبد من دون الله جل وعلا مع العلم أنه يُعبد هذا كفر بالله جل وعلا؛ لأنه صور وثناً ليعبد وهو يعلم أنه يعبد، فيكون شركاً أكبر وكفراً بالله جل وعلا.

والدرجة الثانية: أن يصور الصورة ويزعم أنها أحسن من خلق الله جل وعلا، فيقول هذه أحسن من خلق الله، أو أنا فُقْتُ في خلقي وتصويري ما فعل الله جل وعلا، فهذا كفر أكبر وشرك أكبر بالله جل جلاله.

وهذا هو الذي حُمل عليه الحديث وهو قوله ((أَشَدّ النّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الّذِينَ يُضَاهِئونَ بِخَلْقِ اللهِ)).

ويدخل فيه أيضاً من ضاهى بالتصوير عامة بما لا يخرجه من الملة؛ كالذي يرسم بيده أو ينحت التمثال وينحت الصورة، مما لا يدخل في الحالتين السابقتين فهو كبيرة من الكبائر وصاحبها ملعون ومتوعد بالنار. ٣

قال النووي رحمه الله: "قيل: هذا محمول على صانع الصور لِتُعْبد، وهو صانع الأصنام ونحوها، فهذا كافر وهو أشد الناس عذاباً، وقيل: هو في من قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى، واعتقد ذلك فهذا كافر أيضاً، وله من شدة العذاب ما للكفار، ويزيد عذابه بزياده قبح كفره، فأما من لم يقصد بها العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق، صاحب ذنب كبير، لا يكفر كسائر المعاصي." [١]

---

[١] شرح صحيح مسلم للنووي (٩١/١٤)

فيستفاد من الحديث:

١. تحريم التصوير، وأنه من الكبائر، لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله عز وجل.

٢. وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله عز وجل، لقوله: ((يضاهئون بخلق الله))، ومن أجل هذا حرم الكِبْرْ، لأن فيه منازعة للرب عز وجل، وحرم التعاظم على الخلق، لأن فيه منازعة للرب سبحانه وتعالى، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله عز وجل في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته، فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: ((أشد الناس عذاباً)) فيه إشكال، لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنباً، كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذاباً، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث على تقدير ((من))، أي: من أشد الناس عذاباً بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: ((إن من أشد الناس عذاباً)).

الثاني: أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم، قال تعالى ﴿أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط، فكيف يسوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟!

الثالث: أن الأشدية نسبية، يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا ولو قيل بهذا لسلمنا من هذه الإرادات وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ: ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)). ه

ولهما عن ابن عباس ﵄: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم))[1].

قوله: "ولهما". أي: البخاري ومسلم. ٥

الحديث في "مسلم" وليس في "الصحيحين". ٥

قوله: ((كل مصور في النار)).

((كل)): من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صور الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: ((يجعل له بكل صورة نفساً)) يدل على أن المراد صورة ذوات النفوس، أي: ما فيه روح. ٥

قوله ((نَفْسٌ)) أفاد أنّ ذلك التصوير وقع لشيء تحله النفس وهو الحيوانات أو الآدمي، ولهذا صار الوعيد منصباً على ذلك.

وقوله ((كُلّ مُصَوّرٍ فِي النّارِ)) هذا يفيد أن التصوير كبيرة من الكبائر. ٣

وقوله: ((كل مصور في النار)) أي: كائن في النار.

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود، لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر، لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبداً، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وأن دخلها لم يخلد فيها. ٥

((يَجْعَلُ))

قال الشيخ سليمان رحمه الله: "هو بفتح الياء التحتية، أي: يجعل الله، وقيل: بضم الياء.

قوله ((بكل صورة)) أي: تعذبه نفس الصورة؛ بأن يُجْعَلَ فيها رُوحٌ، والباء في (بكل) بمعنى: في، أو يُجْعَلُ له بعدد كل صورة شخص يُعَذِّبُهُ، فالباء بمعنى لام السبب"[2].

---

[1] مسلم: كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

[2] إبطال التنديد (ص/٢٤٠)

وقوله ﷺ: ((يُجعل له بكل صورة)) قيل: إنّ الباء سببيّة، أي: بسبب كلّ صورة، وقيل: إنّ الباء بمعنى (في)، أي: في كل صورة نفس يعذب بها. ٤

وقوله: ((بكل صورة صورها)). يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة، فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: أنفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقى في النار معذباً حتى تنتهي هذه الصور. ٥

قوله: ((يعذب بها)). كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. ٥

هذا الحديث -أيضاً- فيه وعيدٌ شديد؛ فقوله: ((كلّ مصوّر)) هذا يشمل جميع أنواع التصوير، سواءً كان نحتاً وتمثالاً، وهو ما يسمّونه: مجسّماً، أو كان رسماً على ورق، أو على لوحات، أو على جُدران، أو كان التقاطاً بالآلة الفوتوغرافية التي حدَثت أخيراً، لأنّ من فعل ذلك يسمّى مصوِّراً، وفعله يسمّى تصويراً، فما الذي يخرج التصوير الفوتوغرافي كما يزعم بعضهم.

فما دام أنّ عمله يسمّى تصويراً فما الذي يُخرِجُه من هذا الوعيد؟.

وكذلك قوله: ((بكل صورة صوّرها)) عامٌّ أيضاً لكل صورة أيًّا كانت، رسماً أو نحتاً، أو التقاطاً بالآلة، غاية ما يكون أنّ صاحب الآلة أسرع عملاً من الذي يرسُم، وإلا فالنتيجة واحدة، كلٌّ من هؤلاء قصده إيجاد صورة، فالذي ينحت أو يبني التمثال قصده إيجاد صورة، والذي يرسم قصده إيجاد صورة، والذي يلتقط بالكاميرا قصده إيجاد الصّورة، لماذا نفرّق بينهم والرّسول ﷺ يقول: ((كلُّ مصوِّرٍ في النّار؟))، ما هو الدليل المخصص إلاّ فلسفة يأتون بها، وأقوالاً يخترعونها يريدون أن يخصّصوا كلام الرّسول ﷺ برأيهم، والمحذور الذي في الصور الفوتوغرافية والتمثاليّة أو المرسومة هو محذور واحد، وهو أنّها وسيلةٌ إلى الشرك، وأنّها مضاهاةٌ لخلق الله تعالى، كلٌّ منهم مصوِّر، والنتيجة واحدة، والمقصود واحد، فما الذي يخصّص صاحب الآلة عن غيره؟، إن لم يكن صاحب الآلة أشد، لأنّ صاحب الآلة يأتي بالصورة أحسن من الذي يرسم، فهو يحمّضُها ويلوّنُها، ويتعب في إخراجها حتى تظهر أحسن من التي تُرسم، فالمعنى واحد، ولا داعي لهذا التكلُّفَ أو هذا التمحُّل في التفريق بين الصور.

ومعلومٌ أنّ كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يجوز أن يخصّص إلاّ بدليل من كلام الله أو كلام رسوله، لا باجتهادات البشر وتخرُّصات البشر وفلسفات البشر، هذا مردود على صاحبه، وهذا معروف من أُصول الحديث وأُصول التفسير أنّ العامّ لا يَخَصَّص إلاّ بدليل، ولا يخصّص العامّ باجتهادات من النّاس يقولونها، هذه قاعدة مسلّمةٌ مجمَعٌ عليها، فما بالُهم تغيب عنهم هذه القاعدة ويقولون: "إن التصوير بالآلة الفوتوغرافية لا يدخل في الممنوع" إلى آخره؟، كلّ هذا كلام فارغ لا قيمة له عند أهل العلم وعند الأُصوليّين. القواعد الأُصولية تأبى هذا كلّه، وهم يعرفون هذا، ولكن –سبحان الله– الهوى والمغالَطة أحياناً يذهبان بصاحبهما مذهباً بعيداً.

يقول الرسول ﷺ: ((كل مصوِّرٍ في النّار)) ويأتي فلان ويقول: "لا، المصوِّر بالفوتوغرافي ليس في النّار".

وقوله: "يُجعل له بكلّ صورة صوّرها نفسٌ يعذّبُ بها في جهنّم" أي: كلّ صورة صوّرها بأي وسيلة إمّا بنحت وإمّا برسم وإمّا بالتقاطٍ بالآلة الفوتوغرافية، كثرت الصور أو قلّت، تحضر هذه الصور التي صوّرها يوم القيامة، ويُجعل في كل صورة نفس يعذّب بها في جهنّم، هذه الصور تصلاه بالعذاب يوم القيامة، كما أنّ صاحب المال الذي لا يزكّيه يجعل الله مالَه ثُعباناً يوم القيامة –أو في القبر– فيسلِّطُه عليه: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]، كذلك الصور هذه تجعل فيها نفوس وتسلّط عليه تعذّبه في نار جهنّم، فما بالُكم بالذي صنع آلات الصّور؟، سيعذّب بها يوم القيامة –والعياذُ بالله– كلِّها. وهل يخلصه الذي يقول: الصورة الفوتوغرافية لا يعذب بها. ٤

ولهما عنه مرفوعاً: ((من صوّر صورة في الدنيا كلّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ))[1].

قوله: "ولهما عنه مرفوعاً: ((من صوّر صورة))" هذا نوعٌ آخر من الوعيد. ٤

قوله: ((كلف)).

أي: أُلْزِمَ، والمكلف له هو الله عز وجل. ٣

((كُلِّف أن ينفُخ فيها الرّوح، وليس بنافخ)) أي: تحضّر الصور كلّها التي صنعها، ويؤمر بأن ينفخ فيها الأرواح. ٤

((وليس بنافخ))

وهل يستطيع أن ينفخ الأرواح؟، ولكن هذا من باب التعجيز والعذاب، بأن يُحمّل ما لا يستطيع وما لا يُطيق –والعياذ بالله– فيطولُ عذابُه. ٤

لأن الروح إنما هي لله جل وعلا.٣

قوله: ((وليس بنافخ)). أي: كلف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه، وعذب بهذا العذاب ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه راحة له، إما باكتساب، إو إرضاء صاحب، أو إبداع صنعة. ٥

ولولا أنّ في التصوير خُطورة وفيه فتنة لَمَا رأيتُم فتنة النّاس به وكثرتُه، لأنّ الشيطان يحثّ عليه ويحرِّض عليه، لأنّ فيه ضرراً على بني آدم، فهو يحثُّهم على فعله وعلى صنعتِه من أجل أن يتحمّلوا هذه الأوزار والعياذُ بالله. ٤

وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صوَّر جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسان مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٧ – ٩]،

---

[1] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٥٩٦٣) ومسلم في صحيحه (رقم ٢١١٠)

فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهئًا لخلق الله. فصار ما صوره عذابًا له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإن كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه. فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس، هو أعظم ذنب عصي الله تعالى به. ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنَجَّى الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. ٢

هذه كلها تدل على أن التصوير من الكبائر، وقد أجمع العلماء على ذلك، أجمع أهل العلم على أن تصوير ذوات الأرواح من الكبائر ومن المحرمات إذا كان له ظل، أما إذا كان لا ظل له كالصور في الجدران وفي الألواح وفي الملابس وفي القراطيس فقد خالف في هذا بعض التابعين، وأجمع الأئمة الأربعة والجمهور على أنه محرم أيضاً كالذي له ظل، وقول الجمهور هو الصواب، فإن الأحاديث عامة تعم ما ظل له وما لا ظل له، وتعم التصوير الشمسي المعروف الآن وهو الفوتوغرافي وتعم غيره، فإنها عامة، وقد دل على عمومها قوله ﷺ لما قدم على عائشة ذات يوم فرأى على مخدع لها ستر فيه تصوير هتكه وغضب وقال: ((إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم)) والستر ليس فيه شيء له ظل، هو من جنس التصوير الشمسي، ويدل عليه أيضاً ما وقع في يوم الفتح من محوه الصور التي في جدران الكعبة، وأخذ الماء الذي قدمه له أسامة أو غيره ومحا الصور التي كانت هناك. ٦

قال النووي: "قال العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام، وهو من الكبائر، لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد، وسواء صنعه لما يمتهن أو بغيره فصنعه حرام بكل حال، سواء كان في ثوب، أو بساط، أو درهم، أو دينار، أو فلس، أو إناء، أو حائط أو غيرها، فأما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام.

قال: وذهب بعض السلف إلى أن الممنوع ما كان له ظل، وأما ما لا ظل له فلا بأس باتخاذه مطلقاً وهو مذهب باطل، فإن الستر الذي أنكره النبي ﷺ كانت الصورة فيه بلا ظل بغير شك، ومع ذلك أمر بنزعه."[1] انتهى.

قال الحافظ: "والمذهب المذكور مرجوح."

وقال ابن العربي: "الصورة إذا كان لها ظل حرم اتخاذها بالإجماع، سواء كانت مما يمتهن أم لا."[2]

قال الحافظ: "لا فرق في تحريم التصوير بين أن تكون الصورة لها ظل أو لا، ولا بين أن تكون مدهونة أو منقوشة أو منحوتة، أو منسوجة خلافاً لمن استثنى النسج، وادعى أنه ليس بتصوير، ونقل الرافعي عن الجمهور: أن الصورة إذا قطع رأسها ارتفع المانع."[3].

فالمقصود: أنه يعم ما له ظل وما لا ظل له، فالواجب الحذر من ذلك، وأن يبتعد المؤمن عن هذه القاذورة، ويحذرها لما فيها من التعرض لغضب الله وعقابه سبحانه وتعالى. ٦

وتتلخص أنواع الوعيد التي وردت في حق المصور فيما يلي: أنه لعنه ﷺ، أنه أشد النّاس ظلماً، أنه أشد النّاس عذاباً، أنه يجعل له بكل صورة صوّرها نفس يعذب بها في النار، أنه يكلّف نفخ الروح بكل صورة صوّرها ويقال له: أحي ما خلقت؟. ٤

[1] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص/١٣٢٩).

[2] فتح الباري (١٠/٤٧٦).

[3] انظر: فتح الباري (١٠/٤٧٦-٤٧٧).

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي عليّ: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته".[1]

قوله: "عن أبي الهيّاج"

الأسدي ٤، حيَّان بنُ حُصين ٢ تابعيّ جليل، وهو كاتب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

"قال: قال لي عليّ: "ألا أبعثُك "

أي: أُرسلك. ٤

البعث: الإرسال بأمر مهم، كالدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل:٣٦]. ٥

"على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟"

أي: أرسلني إليه رسولُ الله ﷺ وكلّفني به، فعليّ رضي الله عنه يريد أن يكلِّف أبا الهيّاج بهذه المهمة التي كلّفه بها رسولُ الله ﷺ. ٤

وقد بعث النبي ﷺ علياً إلى اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع[2]. ٥

"أن لا تدع صورةً "

قوله: "أن لا تدع". "أن" مصدرية، "لا": نافية "تدع": منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل من "ما" في قوله: "على ما بعثني"، لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ. ٥

"صورة" نكرة في سياق النفي، فتعُمّ كلّ صورة مجسّمة أو مرسومة أو ملتقطة بالآلة. ٤

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (رقم ٩٦٩)

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط، لما ورد في "السنن" من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: ((فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة))[1]، وسبق بيان ذلك قريباً. ٥

"إلاَّ طمستَها"

وطمسُها يكون بإتلافها، أو بقطع رأسها، حتى تصبح مجّرد شكل بدون رأس، لأنّ الصورة تتمّ وتتكامل بالرأس والوجه. ٤

إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون أخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه، كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه، فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تعبد من دون الله أو لا. ٥

وليس معنى طمس الصورة كما يفعله بعض الجُهّال أو المتحيّلين أنّه يجعل خطّاً في عُنُق الصورة فيُصبح كالطّوق، لأن الطمس: أن تُزيل الرأس إمّا بقطعهِ، وإمّا بتلطيخِه وإخفائه تماماً.

"ولا قبراً مشرِفاُ إلاّ سوّيته"

المشرف: المرتفع، بأن يُبنى على القبر بناية من أجل تعظيم القبر، كما يفعل من بناء الأضرحة، أو يزاد عليها غير ترابها حتى تصبح مرتفعة أكثر من شبر، أو تجصص القبور ويكتب عليها، وما أشبه ذلك، فهذا كله حرام، لأنّه وسيلة إلى الشرك. ٤

قوله: "إلا سويته". له معنيان:

الأول: أي سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسناً على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، أي: سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان.

والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرفاً بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائل) أو (نصائب)، ونصائب أصح لغة من نصائل.

---

[1] الإمام أحمد في المسند ٢/٣٠٥.

الثاني: أن يبنى عليه، وهذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ: ((لعن المتخذين عليها المساجد والسرج))[1].

الثالث: أن تشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بيناً ظاهراً.

فكل شيء مشرف، أي: ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك. ٥

في هذا الحديث التنبيه على العلة الثانية من علتي تحريم التصوير وهو أنه وسيلة من وسائل الشرك، ووجه الاستدلال من هذا الحديث أنه قرن في الأمر؛ قرن بين الصورة والقبر المشرف، وبقاء القبر المشرف وسيلة من وسائل الشرك، وكذلك للإقتران بقاء الصورة أيضاً وسيلة من وسائل الشرك، فالنبي عليه الصلاة والسلام بعث علياً بأن لا يدع صورة إلا طمسها؛ لأن الصورة من وسائل الشرك، وألا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه لأن بقاء القبور مشرفة يدعو إلى تعظيمها وذلك من وسائل الشرك. ٣

ولاحظوا كون الرسول ﷺ جمع بين طمس الصورة وتسوية البناء على القبور مما يدلُّكم على أنّ من العلل العظيمة في منع التصوير أنّه وسيلة إلى الشرك، فكما أن البناء على القبور وسيلة إلى الشرك، فكذلك التصوير وسيلة إلى الشرك. وأيضاً كون الرسول ﷺ كلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهذه المهمة مما يرد به على الذين يغلون في أهل البيت ويزعمون أن لهم خاصية تسوغ الغلو في قبورهم.

وقوله ﷺ: "ولا قبراً مشرِفاً" يعني: مرتفعاً بالبناء، أو بالتّراب، ففي هذا: الأمر بهدم القباب التي على القبور والأمر بهدم الأضرحة، وأنّ هذا من مهمّة ولاة الأُمور ومن مهمّة كلّ مسلم أن يعمل على إزالة هذا الشيء فإن كان له سلطة وقدرة فيزيله باليد، وإن كان ليس له سُلطة فإنّه يتصل بولاة الأمور ويبلّغ ويبيّن أن هذا أمر يلزمهم إزالته، لأن الرسول ﷺ أمر بإزالته. ويحذر المسلمين من البناء على القبور ويبيّن لهم السنّة في دفن الموتى وما يلزم اتخاذه وعمله نحو القبور مما هو مشروع. ٤

---

[1] تقدم تخريجه

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور:

أن كلاً منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها. ٥

لما صوروا وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، لما صوروا هذه الصور ونصبوها في مجالس أهلها دس عليهم الشيطان أن هؤلاء لهم شأن وأنهم ينفعون من تضرع بهم إلى الله، ومن توسل بهم، وأنه يستسقى بهم، ويستغاث بهم، حتى وقع الشرك نعوذ بالله.

فأصل الصور وسيلة للشرك، وهي مضاهاة لخلق الله. ٦

وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثاناً تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية، وقد أطال الشارح رحمه الله في هذا الباب في البناء على القبور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا ولله الحمد، فإنها سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديم عليها، وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها. ٥

فالواجب الحذر، الواجب على ولاة الأمور وعلى عامة الناس الحذر من هذه الأشياء والبعد عنها طاعة لله ولرسوله، وحذرا من إيقاع الناس في الشرك ووسائله التي وقع فيها من قبلنا من قوم نوح وغيرهم.

"أما ما يتعلق بما وقع فيه الناس اليوم من الحاجة إلى بعض الصور، فهذا يقيد بقيده، من باب الإكراه إذا اضطر إلى ذلك، فيفعله وهو كاره له كالصور لحفيظة النفوس أو ما أشبه ذلك. مما قد يضطر إليه فيأخذ ذلك وهو غير راض وكاره لهذا الشيء لكن عند الضرورة إليها.

وهي أيضاً تمنع دخول الملائكة كما في الحديث الصحيح: ((لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، ولا كلب)) لكن يستثنى من ذلك ما يكون ممتهناً ولا يجوز تصويره ولو ممتهن، ولكن إذا استعمل الممتهن في الفراش لا يمنع من دخول الملائكة، كما أن الكلب الذي للحرث والزرع والماشية لا يمنع من دخول الملائكة لأنه مأذون فيه ومرخص فيه، وهكذا ما يمتهن لا يمنع من دخول الملائكة، لكن لا يجوز تصويره، لا يجوز للمصور أن يصوره، لكن لو اشترى بساطاً وبسطه ونحوه كالوسادة هذا لا يمنع دخول الملائكة لأنه ممتهن. ٦

والمنع في الحديث يشمل الصور التعليمية وغيرها. ٦

قال الشارح (عبدالرحمن بن حسن رحمه الله في شرحه للحديث وقد أطال رحمه الله في هذا الباب في البناء على القبور): وأما تسوية القبور فَلِمَا في تَعْليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله. فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته. ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطًّا لرحال العابدين المعظمين لها فصرفوا لها جُل العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "ومن جمَع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمَر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مُضادًا للآخر، مُناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا. فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله. ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها. ونهى عن أن تُتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي -فذكر حديث الباب- وحديث ثُمَامة بن شُفَيّ وهو عند مسلم أيضاً قال: "كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسُوِّيَ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها"[1] وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه. كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: ((نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يُقْعَد عليه، وأن يُبْنَى عليه))[2]. ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو

---

[1] مسلم في صحيحه الجنائز (٩٦٨)، النسائي الجنائز (٢٠٣٠)، أبو داود الجنائز (٣٢١٩)، أحمد (١٨/٦).

[2] مسلم في صحيحه الجنائز (٩٧٠)، الترمذي الجنائز (١٠٥٢)، النسائي الجنائز (٢٠٢٧)، أبو داود الجنائز (٣٢٢٥)، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٦٣)، أحمد (٣٣٩/٣).

داود في سننه عن جابر أن رسول الله ﷺ ((نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها))[1] قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها. كما روى أبو داود عن جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ ((نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه))[2] وهؤلاء يزيدون عليه الآجُرّ والجص والأحجار.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجُرّ على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذين إياها أعيادًا، الموقدين عليها السُّرُج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها. وهو من الكبائر. وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر؛ ولأن النبي ﷺ قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا)) متفق عليه.[3]

---

[1] رواه أحمد في المسند (٣/٣٣٩)، وعبد بن حميد في مسنده (رقم ١٠٧٥- المنتخب)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/٢٣)، وأبو داود في سننه (رقم ٣٢٢٥)، والترمذي في سننه (رقم ١٠٥٢)، والنسائي في سننه (٤/٨٦) وابن حبان في صحيحه (٧/٤٣٤)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/٣٧٠)، والبيهقي في السنن الكبرى(٤/٤) وسنده صحيح، واصله في صحيح مسلم (رقم ٩٧٠) والحديث صححه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي.

[2] رواه أبو داود في سننه (رقم ٣٢٢٦)، والنسائي في سننه (٤/٨٦)، وفي السنن الكبرى (رقم ٢١٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٤١٠)، وغيرهم وإسناده صحيح.

[3] رواه البخاري في صحيحه (رقم ٤٣٥) ومسلم في صحيحه (رقم ٥٣١) عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها." انتهى.[1]

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا، ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه مناسك حج المشاهد، مضاهاة منه للقبور بالبيت الحرام.

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده، من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها.

ومنها: اتخاذها أعيادًا، ومنها السفر إليها.

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسداً نتها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سداً نتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها. ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرءون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ

---

[1] المغني لابن قدامة (٢/١٩٣)

عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٨] قال الله تعالى للمشركين: ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون﴾ [الفرقان: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أعلم مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾[سبأ: ٤٠-٤١].

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقلَب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيادة القبور سداً للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجْرًا، ومن أعظم الهجر، الشرك عندها قولاً وفعلاً.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((زوروا القبور، فإنها تذكر الموت))[1]

---

[1] مسلم الجنائز (٩٧٦)، النسائي الجنائز (٢٠٣٤)، أبو داود الجنائز (٣٢٣٤)، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٧٢)، أحمد (٢/٤٤١).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: ((السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر))[1] رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: "لن يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"[2]. ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عُوِّضُوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرَّد السلف الصالح التوحيد وحمَوْا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة، وفي الترمذي وغيره: ((الدعاء هو العبادة))[3]، فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم".[4]

---

[1] رواه الترمذي في سننه (رقم١٠٥٣)، والطبراني في المعجم الكبير(رقم ١٢٦١٣)، والضياء المقدسي في الاحاديث المختاره (٥٤١/٩) من طريق قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما به، وقابوس بن أبي ظبيان فيه ضعف، والحديث حسن بشواهده، وقد حسنه الترمذي، ووافقه الضياء المقدسي والنووي.
ولم أقف عليه في كتب الامام أحمد المطبوعه، ولم ارى من عزاه اليه سوى ابن القيم في اغاثه اللهفان، وتبعه الشيخ عبدالرحمن بن حسن. والله أعلم.

[2] نقله عنه غير واحد كالشاطبي في الاعتصام، وابن عبد الهادي في تنقيح التحقيق (٤٢٣/٢)، واستفاده الامام مالك من شيخه وهب بن كيسان، فقد روى ابن عبد البر في التمهيد (١٠/٢٣) عن الامام مالك انه قال: كان وهب بن كيسان يقعد إلينا، ولا يقوم أبداً حتى يقول لنا: "اعلموا أنه لا يصلح اخر هذا الأمر إلا ما أصلح أوله".

[3] رواه الامام أحمد في المسند (٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٧٦) والبخاري في الادب المفرد (رقم ٧١٤)، وأبو داود في سننه (رقم ١٤٧٩)، والترمذي في سننه (رقم ٣٣٧٢)، النسائي في السنن الكبرى (رقم ١١٤٦٤)، وابن ماجه في سننه (رقم ٣٨٢٨) عن النعمان بن بشير، واسناده صحيح، وصححه الترمذي، وابن حبان في صحيحه (رقم ٨٩٠)، والحاكم في المستدرك (٦٦٧/١)، ووافقه الذهبي، والنووي في الأذكار(ص/٣٣٠) وغيرهم.

[4] انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١٩٥/١-٢٠١)

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ((لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم))[1] وإسناده جيد ورواته ثقات مشاهير.

وقوله: ((لا تجعلوا بيوتكم قبورا)) أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجُرْحٍ بميّتٍ إيلامُ.

فمن المفاسد: اتخاذها أعيادًا والصلاة إليها والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الدَّيْن، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ما لا يبلغه أجر من صلى إلى القبلتين.

فتراهم حول القبر رُكعًا سُجدًا يبتغون فضلا من الميت ورضوانًا، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانًا.

---

[1] رواه الامام أحمد في المسند(٢/٣٧٦)، وابن أبي شيبة في المصنف(٢/١٥٠) مختصراً، وأبو داود في سننه (رقم ٢٠٤٢)، والطبراني في المعجم الاوسط (٨/٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٤٩١)، وفي حياة الأنبياء (ص/١٢) وغيرهم بإسناد حسن، وهو حديث صحيح بشواهده، قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم: "إسناده حسن" وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان: "إسناده جيد ورواته ثقات مشاهير".

فلغير الله –بل للشيطان– ما يُراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويُطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين.

ثم أخذوا في التقبيل والاستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟

ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود.

ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن؛ إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق.

وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا.

فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولا بحجك كل عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم.

وكل مَن شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحظور. وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته.[١]

انتهى كلامه رحمه الله تعالى. ٢

[١] إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان (١/١٩١-١٩٤)

عقوبة المصور ما يلي:

١. أنه أشد الناس عذاباً أو من أشدهم عذاباً.

٢. أن الله يجعل له في كل صورة نفساً يعذب بها في نار جهنم.

٣. أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤. أنه في النار.

٥. أنه ملعون، كما في حديث أبي جحيفة في "البخاري" وغيره. ٥

فهذه الأحاديث فيها فوائد ومسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيها إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنه يتكلم، وكلامه سبحانه وتعالى كسائر صفاته، يليق بجلاله سبحانه وتعالى ليس ككلام المخلوق.

المسألة الثانية: في الحديث دليلٌ على تحريم التّصوير بجميع أنواعه، لا يُستثنى شيءٌ من التصوير، لقوله ﷺ: ((كلُّ مصوّرٍ في النار))، ((من صوّر صورة))، "لا تدع صورة"، ((أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة المصورون)) وهذا عام في كل مصور، وكل صورة بأي وسيلة كان إيجادها، لكن ما دعت الضّرورة إليه من التصوير؛ فإنه يرخص فيه، مثل: الصورة التي توضع في الجواز، أو إثبات الشخصية، لأنّ النّاس يُمنعون من حوائجهم ومن أسفارهم ومن وظائفهم، بل حتّى من دخولهم في المدارس والمعاهد إلاّ بهذا، فكان هذا من باب الضّرورة، فيجوز بقدر الضّرورة فقط، وما عداه من التصوير فهو حرام، سواء كان للذكريات–كما يقولون–، أو لأجل الفنّ أو لغير ذلك من الأغراض أو لتجميل الجدران أو ما أشبه ذلك، فكلّه حرام.

المسألة الثالثة: في الأحاديث بيان علّة تحريم التصوير، وهي: أنّه مضاهاة لخلق الله، وأيضاً هو وسيلةٌ من وسائل الشرك وهذه أشّد.

المسألة الرابعة: في الأحاديث: دليل على أنّ التصوير من كبائر الذّنوب، وذلك لأمور:

أوّلاً: الرسول ﷺ قال عن ربِّه: ((من أظلمُ ممّن ذهب يخلُق كخلقي))، هذا يدلّ على أنّ التصوير كبيرة.

وثانياً: وعيدُه بالنّار، والوعيد بالنّار إنّما يكون على كبيرة.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وجوب طمس الصور، والرّسول ﷺ لَمّا رأى في بيت عائشة قراماً فيه تصاوير؛ تغيّظ ﷺ وأبى أن يدخُل البيت حتى هُتِك هذا القِرام وأُزيلت الصور المعلقة.

ففي هذه الأحاديث: وُجوب إتلاف الصّور أو امتهانُها، لأنّ الصورة إذا كانت ممتهنة توطأ وتُداس ويُجلس عليها فإنها تكون ممتهنة، كما إذا كانت في فِراش أو في إناء يُشرب به أو يُطبخ به فإنها ممتهنة لا قيمةَ لها، والرّسول ﷺ لَمّا أُميط القِرام وجُعِل وسائد جلس عليه صارت الصور مهانة.

المسألة السادسة: في الحديث دليل على وُجوب هدم الأضرحة المبنيّة على القُبور، لأنّها وسيلةٌ من وسائل الشّرك فيجب هدمُها، ممن يقدِر على ذلك بسلطتِه، ومن لا سُلطة له فإنّه يبيّن ويدعو إلى هدمِها ويراجع السلطة في هدمِها. ٤

فائدتان:

الأولى: ((كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ)) يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملاً، وعلى هذا، فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس، فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: ((مر برأس التمثال فليقطع))، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس، فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثانية: تؤخذ من حديث علي ﷺ، وهو قوله: "أن لا تدع صورة إلا طمستها".

أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل، فإن اقتناء الصور على أقسام[1]:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور، لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة، لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب الربوبية وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضاً، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حناناً أو تلطفاً، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضاً حرام لِلحُوق الوعيد به في قوله ﷺ: ((إن الملائكة لا تدخل بيتاً في صورة))[2].

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها، كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، فالظاهر أن هذا لا بأس به، لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة، فهو أول.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مهانة ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة، فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهاناً للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

---

[1] يتبين هنا أن مع كون الشيخ رحمه الله يرى جواز التصوير الفوتوغرافي، إلا أنه يبين هنا و يفصل حكم اقتناء هذه الصور.

[2] البخاري: كتاب اللباس/ باب من كره القعود علي الصور، ومسلم: كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان.

الجواب: نقول لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصاً أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيراً ما يسمى بالحفائظ، وهي خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس، فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتهن؟

هي إلى الثاني أقرب، لكن لما كان امتهاناً خفياً وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولى.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء، كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. ٥

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله لقوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)).

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: ((فليخلقوا ذرة أو شعيرة)).

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

فيه مسائل:

الأولى: التغليط الشديد في المصورين. تؤخذ من قوله: ((أشد الناس عذاباً...)) الحديث.٥

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله لقوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)).

فمن ذهب يخلق كخلق الله، فهو مسيء للأدب مع الله عز وجل لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالى، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه. ٥

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: ((فليخلقوا ذرة أو شعيرة)).

لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة. ٥

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً. لقوله: ((أشد الناس عذاباً...)) الحديث. ٥

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

لقوله: ((يجعل له بكل صورة نفس يعذب بها في جهنم)). ٥

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح. لقوله ((كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ))، وهذا نوع من التعذيب من أشق العقوبات. ٥

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

لقوله: "أن لا تدع صورة إلا طمستها".

وتؤخذ من حديث الباب أيضاً: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور، لقوله: "أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته"، لأن في كل منهما وسيلة إلى الشرك.

ويؤخذ منه أيضاً: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل، لأنه يجعل له بكل صورة صورها نفي فتعذبه في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع التكليف في الآخرة بما لا يطاق على وجه العقوبة. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ)) أَخْرَجَاهُ.عَنْ سَلْمَانَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٍ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ)) رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ))، وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينَهُ شَهَادَتُهُ)).قَالَ إِبْرَاهِيمُ:" كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ".

مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد:

أنّ الاستهانة بالحلف بالله تنقِّصُ التّوحيد، كما أنّ تعظيم الحلف بالله من كمال التّوحيد. ٤

أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد. ٥

أن من كمال التوحيد احترام اسم الله وعدم امتهانه بكثرة الحلف؛ لأن ذلك يدل على الاستخفاف به وعدم تعظيمه. ٩

ومن الظاهر والبين أن القلب المعظم لله جل جلاله الذي إذا ذكر الله وَجِلَ قلبه أنه لا يستعمل الحلف، وكثرة الحلف لا تجامع كمال التوحيد، فإن من كَمُل التوحيد في قلبه أو قارب الكمال لا يكون جاعلاً لله جل وعلا في يمينه؛ يجعل الله جل وعلا في يمينه إذا تكلم

تكلم بالحلف وإذا باع باع بالحلف وإذا اشترى اشترى بالحلف ونحو ذلك، فهذا ليس من التعظيم الواجب لله جل وعلا.

فإن الواجب على العبد أن يعظم الله جل وعلا أو لا يكثر اليمين والمقصود باليمين، والحلف هنا اليمين المنعقدة التي عقدها صاحبها، أما لغو اليمين فإن هذا معفو عنه مع أن الكمال فيه والمستحب أن يخلِّص الموحد لسانه وقلبه من كثرة الحلف في الإكرام ونحوه بلغو اليمين.

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة وهي أن تحقيق التوحيد وكمال التوحيد لا يجامع كثرة الحلف، فكثرة الحلف منافية لكمال التوحيد، ولهذا أمر الله جل وعلا بحفظ اليمين، فقال ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩] وهذا الأمر للوجوب؛ لأنه وسيلة لتحقيق تعظيم الله جل وعلا وتحقيق كمال التوحيد. ٣

أراد المصنف -رحمه الله- بهذا الباب ذكر ما جاء في الحلف من الوعيد الشديد. ٩

أراد المؤلف بهذا بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان، ونقص في التوحيد، لأن كثرة الحلف تفضي إلى أشياء: التساهل في ذلك وعدم المبالاة، الكذب، ظن الكذب به، فإن من كثرت أيمانه وقع في الكذب، فينبغي التقلل من ذلك وعدم الإكثار من الإيمان، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]. ٦

وأصل الحلف جائز إذا احتيج إليه، لكن ينبغي عدم التمادي في ذلك وعدم الإكثار منه، لما فيه من الاستهانة بالمحلوف به وهو الله سبحانه وتعالى، ولذا قال تعالى: ﴿واحفظوا أيمانكم﴾.٩

قوله: "بابُ ما جاء" يعني: من الوعيد في حقّ من كثر حلفه.

والحلف -كما سبق- هو: تأكيد شيء بذكر معظَّم بأحد حروف القسم، التي هي: الواو والباء والتّاء. ٤

هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء والواو، والتاء. ٥

فمن أكد وعقد اليمين بالله جل وعلا وأكثر من ذلك وأكثر فإنه لا يكون معظِّماً لله جل جلاله، إذْ الله سبحانه وتعالى يجب أن يصان اسمه ويصان الحلف به واليمين به إلا عند الحاجة إليها، أما كثرة ذلك؛ كثرة مجيئة على اللسان فهو ليس من صفة أهل الصلاح. ٣

وكثرة الحلف معناها الإكثار من الإيمان في كلّ مناسبة، وقد يكون في غير داع لليمين إلاّ التغرير بالنّاس وخداع النّاس كحالة المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم:١٠]، والحلاَّف: كثير الحلف.

والله جل وعلا ذكر ذلك من صفات المنافقين، فقال فيهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧]، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:٢] يعني: سُتْرة يتسترّون بها أمام النّاس ليصدِّقوهم، وكلّما قل الإيمان أو عدم الإيمان في القلب حصل التهاوُن باليمين والحلف. ٤

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

لَمّا ذكر الله سبحانه وتعالى كفّارة الإيمان في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الإيمان فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾ [المائدة:٨٩] جعل في اليمين الكفّارة إذا حَنِثَ فيها وخالَفها ممّا يدلّ على عظمتها، لأنّ الكفّارة لا تكون إلاَّ من ذنبٍ وقع فيه الإنسان، فنقض اليمين يحتاج إلى كفّارة ممّا يدلّ على عِظَم اليمين. ٤

وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط، فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء

ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقاً، فقد بر، وإلا، فهو آثم، لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل. ٥

ثم قال: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ذكر العلماء عدّة تفاسير لهذه اللّفظة:

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ على قولين:

القول الأول: أنّ معنى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾، أي: لا تحلفوا، نهيٌ عن الحلف، فلا يحلف الإنسان إلاّ إذا دعت إلى ذلك حاجة، ويكونُ صادقاً في يمينه، كما قال ﷺ: ((من حلف بالله فليصدُق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله)).

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أمرٌ بحفظها يتضمَّن النّهي عن الحلف إلاّ إذا دعت إلى ذلك حاجة، كأن يطلب منه القاضي اليمين لخصمه، فإذا كان بارًّا وصادقاً فليحلف على نفي ما ادّعاه عليه خصمُه، أو دعت حاجةٌ إلى اليمين ليُزيل شكوكاً حصلت لأخيه فيه، فيريد أن يبرئ نفسَه وأن يُزيل ما في نفس أخيه بأن يحلف له وهو بارٌّ في يمينه فهذا لحاجة، أمّا غير ذلك فإنّه يحفظ يمينه كما يحفظ دينه.

والقول الثاني: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾، أي: بالكفّارة إذا حَنِثْتُم فاحفظوها، يعني: كفِّروا عنها، فالكفّارة حفظٌ لليمين واحترامٌ لها. ٤

إذاً قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعد أن ذكر اليمين والكفارة والحنث، فما المراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي: هل المراد: لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المراد: إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟

الجواب: المراد كلها، فتشمل أحوال اليمين الثلاثة، ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب، لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف، وإليك قاعدة مهمة في هذا، أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معاني لا ينافي بعضها بعضاً ولا مرجح لأحدها، وجب حمله على المعاني كلها.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقوداً ومقصوداً، أما ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله، في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه، لقوله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل، لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: ((إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير))[١]، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيراً، وإلا، فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث.

مثال ذلك: رجل قال: والله، لا أكلم فلاناً. وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم، فهذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة.

مثال آخر: رجل قال: والله، لأعينن فلاناً على شيء محرم. فهذا يجب الحنث فيه والكفارة ولا يعينه، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وإذا كان الأمر متساوياً والحنث وعدمه سواء في الإثم، فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فوراً، لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد، فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة[٢].

١. حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف، تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك في أخباره.

٢. حفظها وسطاً، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثني كما سبق.

---

[١] البخاري: كتاب الإيمان/ باب الكفارة قبل الحنث وبعده، ومسلم: كتاب الأيمان/ باب ندب من حلف يميناً فرأي غيرها خيراً منها أن يأتي الذي هو خير.

[٢] ابن جرير (١٢٥٠٣)

٣. حفظها انتهاء في إخراج الكفارة بعد الحنث.

٤. ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع، وهو أن لا يحلف بغير الله[١]، لأن الرسول ﷺ سمى القسم بغير الله حلفاً. ٥

فقوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ هذا إيجاب بأن يحفظ العبد يمينه، فلا يحلف عاقداً اليمين إلا على أمر شرعي بيّن، أما أن يحلف دائماً ويجعل الله جل وعلا في يمينه فهذا ليس من تعظيم أسماء الله جل جلاله. ٣

هل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

الجواب: نعم، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المجامع في نهار رمضان لرسول الله ﷺ: والله، ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني.

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل، فقيل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

مثاله: فلو قلت: والله، ليقدمن زيد غداً. بناء على ظنك، فلم يقدم، فالصحيح أنه لا كفارة عليك، لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل، كأنك تقول: والله، إن هذا هو ظني، لكن هل يجوز لك أن تحلف على ما في ظنك؟ سبق ذلك قريباً. ٥

ذكر المؤلف رحمه الله هنا أربعة أحاديث وأثراً عن إبراهيم. ٦

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((الحلف مَنْفَقَةٌ للسلعة، ممحقة للكسب)) أخرجاه [٢].

((الحلف))

أي: اليمين. ٤

---

[١] أي: حفظها: بأن لا يحلف بغير الله سبحانه وتعالى

[٢] البخاري: كتاب البيوع/ باب يمحق الله الربا، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب النهي عن الحلف في البيع.

المراد به الحلف الكاذب، كما بينته رواية أحمد: ((اليمين الكاذبة))[1]، أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق. ٥

((مَنْفَقَةٌ للسلعة))

أي: مروِّجة للسِّلْعة وسببٌ لِنَفَاقِها، وهو خُروجها من يد صاحبها إلى الزّبائن، لأنّ النَّفَاق، معناه: الخُروج، ومنه سُمِّيت النفقة نفقة لأنّها تَخْرُج من مُلك صاحبها، ومنه سُمِّي المنافق منافِقاً لأنّه يخرُج من الدِّين. ٤

مأخوذ من النَّفَاق وهو مضي الشيء ونفاذه. ٥

فنَفاقُ السلع: رواجُها وخُروجها من ملك صاحبها بالبَيْع، لأنّ النّاس يصدِّقون صاحبها فيشترونها، فإذا حلف أنّ هذه السلعة من النّوع الجيّد أو حلف أنّ هذه السلعة سميت بكذا وكذا أو حلف أنّه اشتراها بكذا فإنّ هذا سبب لأن يصدِّقه النّاس وأن يشتروها منه، لأنّ المسلمين يعظِّمون اليمين، فيُحسنون الظنّ بهذا الحالف ويثقون به، ويقولون لولا أنّه صادقٌ لَمَا حلف، فيقبلون ما يقول ويعملون به، فيكونُ ذلك سبباً لرواج سلعه. ٤

والحلف على السلعة قد يكون حلفاً على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية. ٥

وقوله: ((مَمْحَقَةٌ للكسْبِ))

وفي اللفظ الآخر: ((ممحقة للربح)). ٦

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (٢/٢٣٥، ٢٤٣، ٤١٣).

المِحْقُ معناه: الإزالة، أي: أنّ اليمين تُزيل الكسْب إمّا بأن تُزيل البركة منه، ولو بقي، ولا ينتفع به صاحبه، وإمّا بأن تُزيل أصل المال بالتلف والآفات، فلا يبقى عنده هذا الكسب بل يمحقُه الله كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فالمحق قد يكون معنوياً بمعنى محْقِ البركة من المال، فلا يكونُ مباركاً على صاحبه ولا ينتفع به ولا يتصدّق منه.

وقد يكون محقاً حسيًّا بأن يُتلف الله المال بآفةٍ، أو بسرقة، أو بنهب، أو بتسلُّط ظالم، أو غير ذلك. ٤

وسبب ذلك أنه نوع عقوبة أنّ هذا الذي يبيع بالحلف فإنه تَنفق سلعته ولكن كسْبُه يُمحق لأن محق الكسب يكون نوع عقوبة لأجل أنه لم يفعل الواجب من تعظيم الله جل وعلا. ٣

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أُعْطِيَ فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً. وما عند الله لا يُنَال إلا بطاعته. وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتُها اضمحلال وذهاب وعقاب. ٢

وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع بها صار والعياذ بالله بخيلاً يعيش عيشة الفقراء وهو غني، لأن البركة قد محقت. ٥

((للكسب))

الكسب الذي يكسبه بسبب اليمين التي هي ليس بارًّا فيها ولا صادقاً، يسِّبْ ذلك محق مالِه، مع ماله عند الله من العُقوبة الآجلة في الدّار الآخرة- كما يأتي في الحديث الذي بعده.٤

وفي اللفظ الآخر يقول ﷺ: ((ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنان بما أعطى، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)). أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر، هذا يدل على أن تنفيق السلع قد يقع بالكذب وقد يقع بالصدق، لكن كثرة الإيمان توقع في الكذب، وربما جره الطمع وساقه الطمع إلى أن يحلف، فالواجب الحذر، ثم هذه الإيمان من أسباب محق البركة ومن أسباب الوقوع فيما حرم الله، فليحذرها المؤمن. ٦

((أخرجاه))

أي: أخرج هذا الحديث الإمام البخاري ومسلم في "صحيحيهما"، فهو متّفقٌ عليه، وهذا أعلى ما يكون من درجات الصحّة. ٤

عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِطُ زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه)) رواه الطبراني بسند صحيح [1].

قوله "وعن سلمان"

هو: سلمان الفارسي: الصحابي الجليل. ٤

"أن رسولُ الله ﷺ قال:

((ثلاثةٌ))

مبتدأ ٤، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم. ٥

---

[1] رواه الطبراني في المعجم الكبير (رقم٦١١١)، وفي الأوسط (٣٦٧/٥)، وفي الصغير (٨٢/٢)، والبيهقي في شعب الايمان (٢٢٠/٤)، وابن نقطة في التقييد (ص:٧٢) من حديث سلمان الفارسي، واسناده صحيح. وصرح بأن الراوي هو سلمان الفارسي: الطبراني في الصغير، وفي الكبير إذ أورده في ترجمته، وابن نقطه في التقييد، والمناوي في فيض القدير (٣٣٢/٣).

((لا يكلِّمهم الله)) إلى آخره، خبر المبتدأ. ٤

التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه، فلا يسمى كلاماً على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولاً بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال عمر ﷺ في قصة السقيفة "زورت في نفسي كلاماً"[١]، أي: قدرته.

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في "الصواعق المرسلة"

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسول ﷺ، وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا، علمنا أن كلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله، فلا شك أنه بحرف يفهمها المخاطب، إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبداً، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله عز وجل يخاطب كل أحد بلغته.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، فما حجب الفجار عن رؤيته إلا ورآه الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقاً لكان الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله عز وجل عن كل أحد، فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه سبحانه أن يكون له آلة كالآدمي، كاللسان، والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلاً تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[الزلزلة:٤-٥]

---

[١] البخاري: كتاب المحاربين/ باب رجم الحبلي من الزنا إذا أحصنت.

وكذا الجلد ينطق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إذا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠] وكذا الأيدي والأرجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، فالأيدي والأرجل والألسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، هذا هو المعلوم لنا. ٥

نفي كلام الرب -تعالى وتقدس- عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم مَن أطاعه. وأن الكلام صفة من صفات كماله. والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه.

وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين: قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل مُتصفًا به. فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً. وذلك في القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإذا قالوا لنا -يعني النفاة- فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به. قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟! ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل.

ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى مُنَزَّه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة. والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة". انتهى.[1]

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم. ٢

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرماً وهم أهل النار؟

---

[1] منهاج السنة النبوية (٢/٣٨٠-٣٨٣)

فالجواب: أن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ، فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه. ٥

والمعنى: لا يكلّمهم الله يوم القيامة كلامَ تكريم وتنعيم، فهم يُحرمون من كلام الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة، وقد جاء في الحديث: ((ما منكم من أحد إلاّ سيكلّمه ربُّه، ليس بينه وبينَه ترجُمان))، أمّا هؤلاء فلا يكلّمهم الله غضباً عليهم، فيحرمهم الله من هذه النعمة العظيمة.

فهذا فيه: إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنّ الله يكلِّم عبادَه، ويتكلّم بما شاء من أمرِهِ سبحانه وتعالى.

والكلام من صفاته سبحانه، وهو من صفات الأفعال التي يفعلُها إذا شاء سبحانه.

وكلامُه قديمُ النّوع حادثُ الآحاد، بمعنى: أنّ نوع كلامه سبحانه قديم بقدمه سبحانه، ليس له بداية كسائر أفعاله، وحادث الآحاد بمعنى: أنه يتكلّم إذا شاء سبحانه وتعالى.

ونُثبتُ ذلك لله عزّ وجلّ، ومن كلامه: القرآن الكريم، فإنّه كلامُ الله جل وعلا. ٤

((ولا يزكيهم))

التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان، لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة. ٥

أي: لا يطهّرهم، لأنّ الزكاة تُطلق على عدّة معانٍ:

منها: النماء، والزيادة في الأموال، فإنّ الزكاة تنمِّي الأموال وتزيدُها.

ومنها: الطهارة قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] أي: تطهّرهم بها من الذُّنوب ومن البخل ومن الشُّحّ، فالزكاة تطهّر صاحبها من الصّفات الذميمة، وتطهِّرُ المال من الآفات ومن سائر الأشياء التي تُخَلُّ به.

كما أنّ الزكاة تدفع البلاء عن المسلم، وهي سببٌ لنُزول الغيث ونزول البركات، فتزيد في أرزاق النّاس، فهي خيرٌ كلُّها، ولذلك سُمّيت زكاة. ٤

((وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))

((عذاب)): عقوبة، و((أليم))، أي: شديد موجع مؤلم. ٥

من (الألم) وهو: الوجع، فمعنى (أليم): مؤلِم.

فهذه ثلاثة أنواع من الوعيد: ((لا يكلّمهم الله، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم)). ٤

هذا من تمام العقوبة عليهم، وفي هذا الوعيد الشديد ما يزجر من له عقل من هذه الأعمال السيئة ونحوها. ٧

ثم بيّنهم ﷺ بعدما أجملهم، وذكر وعيدَهم ولما تطلّعت الأنظار إلى معرفتهم من أجل أن يُجتنب ما هم عليه، لأجل أن لا يكون الإنسان مثلَهم وبينهم.

فقال: ((أُشَيْمِطٌ))

خبر لمبتدأ مقدّر، تقديره: هم أُشيمط إلى آخره. والأُشَيْمِط: تصغير (أَشْمَط)، والأَشْمَطُ هو: الذي بدأَهُ الشَّيْب، وصغّره تحقيراً له. ٤

وقوله: ((أشيمط)). هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه. ٥

((زان))

أصله "زاني" بالياء، ثم حذفت الياء تخفيفاً، وهو صفةٌ لـ (أُشَيْمِط) مرفوع، وعلامة رفعه: الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة، منع من ظهورها الثِّقَل. ٤

والزنى: فعل الفاحشة في قبل أو دبر. ٥

والزنا قبيح، وكبيرةٌ من كبائر الذّنوب، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء:٣٢]، فهو قبيح، مستهجَن، ومرض فتّاك في المجتمعات، مدمِّرٌ للأخلاق، مدمِّرٌ للمجتمع، مضيع للنسل، إلى غير ذلك من الآفات التي في الزنا، وهو موجبٌ لغضب الله، وموجبٌ للعقوبة الآجلة والأمراض الفتّاكة في المجتمع.

فالزّنا قبيح بكلّ معاني القُبح، ولكنّه يقبُح من بعض النّاس أكثر وأكثر، فالزنا من مثل هذا الأُشيمِط قبيح، لأنّ الأُشيمِط لَمّا أصابَه الشيب كان الواجب أن يكون أبعد النّاس عن الزّنا، لأنّه ضعُفت فيه الشهوة وداعي الزنا، وأيضاً هو يتطلّع إلى الموت والانتقال إلى الدّار الآخرة، فكان الواجب عليه التّوبة والاستعداد للآخرة، والاستعداد للقاء الله، فإذا زنى وهو في هذه السنّ فهذا دليلٌ على قُبح أخلاقِه، وعلى أنّ الزنى سجيّةٌ فيه.

أمّا الشّاب وإنْ كان الزنا في حقِّه حرام وقبيح، لكن فيه دافع الشهوة وقوّة الشهوة. ٤

وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنى، ولكنه زنى مما دل على خبث في إرادته، ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه، فالزنى منه غريب، إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله، فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفاً، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، ولكنه خالف مقتضى ذلك، ولهذا صغره تحقير لشأنه، فقال ((أشيمط)) تصغير أشمط. ٥

قوله: ((أشيمط زان)) صغِّر تحقيرًا له وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله. وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهي ويرجع. ٢

فالشاب قد يؤوب إلى رشده، قد يتوب، ولكن الشيخ ما الذي حمله إلا أن هذا شيء قد استقر عليه وبقي في قلبه وعاد عليه، نعوذ بالله من ذلك، تكون الجريمة أكبر وأعظم والإثم أشد. ٦

فيكون إذا في قلبه حب المعصية وليست مسألة غلبة الشهوة، ولهذا كان من أهل هذا الوعيد العظيم. ٣

الثّاني: ((عائلٌ))

المراد به: الفقير. ٤

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحي: ٨]، فالمقابلة هنا في قوله: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بينت أن معنى عائلاً: فقيراً. ٥

((مستكبر))

والاستكبار: الترفع والتعاظم، وهو نوعان:

- استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

- واستكبار على الخلق باحتقارهم وستذلالهم، كما قال النبي ﷺ: ((الكبر بطر الحق وغمط الناس))[1]. ٥

الكبر قبيح، لأنّ الإنسان مطلوبٌ منه التواضُع، والتواضع لربّه سبحانه وتعالى، والتواضُع لخلق الله عزّ وجلّ، فالاستكبار ضدّ التواضع.

والاستكبار يحمل الإنسان على الكفر أحياناً وترك عبادة الله عزّ وجلّ استكباراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، والذي سبّب لإبليس ما سبّب من الخزي والكفر هو الاستكبار ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، استكبر عن السّجود لآدم حسداً لآدم واستكباراً، فسبب عدم سجوده هو الكبر، استكبر عن أمرِ الله عزّ وجلّ.

وقد يستكبِر على عبادِ الله ويرى أنّه فوقهم، وأنّه أعلى منهم، هذا أيضاً من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله عزّ وجلّ، فالكبر كلّه قبيح من كلّ أحد، لأنّ المطلوب من الإنسان التواضع.

ولكنّ الكبر من العائل -أي: الفقير- أشدّ، لأنّه لا داعي للكبر فيه، لأنّ الغني قد يغترّ بمالِه ويستكبر من أجل المال ويرى أنّه له درجة ترفعُه عن النّاس بسبب مالِه، فيحملهُ المال والغنى على الكبر: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإنسان لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق:٦-٧].

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب تحريم الكبر.

لكن العائل ليس عنده سبب للكبر، فاستكبارُه من باب السجيّة القبيحة فيه، لأنّه استكبر من غير سبب، فدلّ على أنّ الكبر سجيّة فيه وطبيعةٌ فيه، لا من أجل سبب خارجيّ، فلذلك صار استكبارهُ أشدّ من استكبار الغنيّ. ٤

فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد. ٥

الفقير لا داعيَ له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته؛ لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم، الذي هو من أكبر المعاصي. ٢

هذا النوع الثاني وهو من جنس الأول، فإن الاستكبار كما قال العلماء يكون إستكباراً للذات ويكون استكباراً للصفات، فإذا كان استكباراً للصفات فهذا محرم ولكنه أهون كمن يكون ذا جاه ورفعة فتكبر لأجل مالَه من الجاه والرفعة، فهذا لا يجوز لكن عنده ما يُوقع في قلبه الشبهة والفتنة بالتكبر أو الاستكبار، أو يكون ذا جمال، أو يكون ذا سمعة ونحو ذلك، فعنده سبب يجعله يتكبر وهذا يكثر في أهل الغنى، فأهل الغنى يكون كثيراً عندهم نوع تكبر على من كانوا من أهل الفقر أو ليسوا من أهل الغنى، فهذا عنده وصف جعله يتكبر؛ لكن الأعظم أن يكون تكبره في الذات؛ لأنْ ليس عنده صفة تجعله متكبراً، وهذا هو النوع الأول وهو استكبار للذات، يرى نفسه كبيراً ويتعاظم وهو ليس عنده شيء من الصفات يجعله كذلك، فهذا يكون فِعله كبيرة من الكبائر العظيمة ويدخل في هذا الحديث، ولهذا قال ((وعائل مستكبر)) لأن العائل وهو الفقير الكثير العيال ليس عنده من الصفات ما يكون الاستكبار شبهة عنده أو لأجل تلك الصفات أو يكون ثَم فتنة عنده إلا لما قام في نفسه الخبيثة من الكبر. ٣

والثّالث: وهو محلّ الشّاهد من الحديث للباب. ٤ وهو ظاهر في أنه مذموم وأنه صاحب كبيرة. ٣

((رجل جعلَ اللهَ بضاعته)) هذا عامٌّ للرجال وللنساء، ولكن ذكر الرّجال من باب التغليب، وإلاَّ فهو عامٌ للرجال وللنّساء.

((جعلَ الله بضاعَته))، جعل ((فعل ماض من الأفعال التي تنصبُ مفعولَيْن: المفعول الأول الحلف بالله والمفعول الثاني: ((بضاعَتَه)).

فمعنى ((جعل الله بضاعتَه)): أنّه لا يشتري إلاَّ بيمينه ولا يبيع إلاَّ بيمينه، كما فسّره ﷺ بقوله: ((لا يشتري إلاَّ بيمينه ولا يبيع إلاَّ بيمينِه)). ٤

أي: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا، لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك، حيث قال: ((لا يشتري إلا بيمينه...))، وإذا كان المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره، فهو أعلم بمراده، وهذا كما في الحديث القدسي: ((عبدي استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني))، فبينه الله عز وجل بقوله: ((عبدي فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه)).

فقوله: ((لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه)) استئنافيه تفسيرية، لقوله: ((جعل الله بضاعته))، ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلباً للكسب، واستحق هذه العقوبة، لأنه إن كان صادقاً، فكثرة إيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالى: ﴿واحفظوا أيمانكم﴾.

وإن كان كاذباً جمع بين أربعة أمور محذورة:

١. استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢. كذبه.

٣. أكله المال الباطل.

٤. أنه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: ((من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان))[1]. ٥

ومحلّ الشّاهد هو الجملة الأخيرة ((ورجلٌ جعلَ الله بضاعَتَه، لا يشتري إلاّ بيمينه ولا يبيع إلاّ بيمينِه))، فهو يُكثر من الحِلف بالله تهاوُناً، فكان جزاؤه هذه العقوبات الثلاث: لا يكلِّمه الله، ولا يزكِّيه، وله عذابٌ أليم -والعياذُ بالله-، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إليهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾ [آل عمران:٧٧].

الواجب على المسلم: أن يصدُق في معاملته مع النّاس في بيعِه وشرائه.

والدّنيا مهما حصّل منها فإنّها لا تُغنيه عن الآخرة، والكسب الحلال وإنْ كان يسيراً فإنّ فيه البركة وفيه الخير، والكسب الحرام وإنْ كان كثيراً فهو ممحوق لا خيرَ فيه. ٤

وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان مُوَحِّدًا فتوحيده ضعيف، وأعماله ضعيفة بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها. ٢

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه، لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا، فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء بل نحن أعظم، ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناه فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضاً بوصفنا ممن آتاهم الله العلم أن نحذر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ، فالنبي ﷺ كان عالماً عاملاً داعياً، أما طالب العلم، فإنه ليس وراثاً للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به من العمل والدعوة، فعلينا أن نحذر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم، لا يبيعون إلا بأيمانهم، ولا يشترون إلا بأيمانهم.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان/ باب قوله الله تعالى: ﴿أن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة.

مناسبة الحديث للباب: أن من جعل الله بضاعته، فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله عز وجل. ٥

فيُستفاد من الآية الكريمة ومن هذين الحديثين المسائل الآتية:

المسألة الأولى: وُجوب تعظيم اليمين بالله عزّ وجلّ، لأنّ تعظيمها كمالٌ في توحيد العبد.

المسألة الثانية: النّهي عن كثر الحلف لأنّ من كثُر حلفه كثُر كذبُه، وكثرة الحلف تدلّ على التهاوُن باليمين، ومن تهاوَن باليمين نقص توحيدُه: قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠)﴾ [القلم:١٠] وقال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]، هذا من صفات أهلِ النّفاق.

المسألة الثالثة: في الحديث دليلٌ على أنّ الصدق وتعظيمَ اليمين سببٌ للبركة، وأنّ الكذب والتهاوُن باليمين سببٌ لمحق البركة.

المسألة الرابعة: في الحديث الثاني دليلٌ على إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنّ الله جل وعلا يتكلَّم بكلامٍ يليقُ بجلالِه، ليس ككلام المخلوقين أو صفة المخلوقين، هذا مذهب أهل السنّة والجماعة، خلافاً للجهميّة والمعتزلة ومَنْ درَج على سبيلهم.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على الوعيد الشديد في حقّ مَن أكثَر من الحلف، وأنّ هذا من الكبائر، لأنّ الله توعّد عليه هذا الوعيد الشديد المغلّط، فدلّ على أنّ كثرة الحلف من كبائر الذّنوب.

المسألة السادسة: في الحديث دليلٌ على أنّ الكبائر بعضُها أشدُّ من بعض، فزنى الأُشَيْمِط أشدّ من زنى الشّاب، والكبر من الفقير أشدّ من الكبر من الغني، فالكبائر تتفاوت بحسب أحوال مرتكبيها. ٤

وفي الصحيح عن عمران بن حصين ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: ((خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن))[1].

قوله: "وفي الصّحيح"

أي: في "صحيح مسلم"، وهو في "صحيح البخاري" بمعناه. ٤

"عن عمران بن حُصين ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: ((خيرُ أمّتي قرني))"

وفي لفظ لهما: ((خيركم قرني))، وفي حديث ابن مسعود عند البخاري: ((خير الناس قرني))، وهذا هو المراد، إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عموماً وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه ﷺ، أنه قال: ((بعثت من خير قرون بني آدم))[2].

وعليه فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وأما قوله: ((خير أمتي)). فإنه يقال: إن الخيرية إذا مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقية الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولى، وقد يقال: إن معنى اللفظين واحد، فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس. ٥

القرن يراد به: الجيل من النّاس، ويُطلق على الزّمان، ومقدار القرن من الزّمان: مائة سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: غيرُ ذلك.

والمراد: أهل القرْن، ليس المراد ذات القرن الذي هو الزّمان. ٤

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم. البخاري المناقب (٣٤٥٠)، مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، الترمذي الفتن (٢٢٢١)، النسائي الأيمان والنذور (٣٨٠٩)، أبو داود السنة (٤٦٥٧)، أحمد (٤/٤٢٧).

[2] البخاري: كتاب المناقب/ باب صفة النبي ﷺ.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء، كالملة، أو السن، أو ما أشبه ذلك.

فمن العلماء من عرفه: بالطائفة كما سبق، ومنهم من عرفه بالزمن وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال: فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمئة، ومنهم من حده بمئة وعشرين سنة.

فعلى الأول يكون معنى: ((خير أمتي قرني)): خير أمتي الصحابة، سواء بلغوا مئة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مئة وعشرة أو مئة وعشرين، فإذا قلنا: مئة وعشرين، فهذه المدة زائدة على المئة، وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مئة وثلاثاً وثلاثين سنة، لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وهذا القرن الأول، أما التابعون، فإن أخرهم مات سنة مائة وثمانين، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعو التابعين، فإن أخرهم مات سنة مئتين وعشرين، وهذا منتهى القرن الثالث.

فقرن الصحابة إن ابتدائه من البعثة صار ثلاثاً وثلاثين ومائة سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار عشرين ومائة سنة.

وقرن التابعين ستون سنة.

وقرن تابعي التابعين أربعون سنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة، فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين، فالقرن قرنهم، وهكذا.

قوله: ((أمتي)). المراد أمة الإجابة، لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير. ٥

((خيرُ أمْتي قرني)) يعني: أفضل أمّة محمد ﷺ هم القرن الذين عاصروا الرَّسول ﷺ. ٤ لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان، والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله، وقلَّ الشرّ فيها وأهله، واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء. ٢

وشدة الإنكار على من خالف الحق وابتدع. ٧

وهذا بإجماع الأمة أنّ قرن الصّحابة أفضل هذه الأُمة، لِمَا امتازوا به من مزايا لا توجَد في غيرِهم ممّن جاء بعدَهم، بل إنّ قرن الرّسول ﷺ خير الأمم على الإطلاق، فأمّة محمد ﷺ أفضلُ الأمم، وأفضلُ أمّة محمد القرن الأوّل لما امتازوا به من الفضائل، التي منها:

أوّلاً: أنهم شاهدوا رسول الله ﷺ رأوه وآمنوا به، فهم أفضل ممّن آمن به ولم يره.

ثانياً: أنّهم جاهدوا مع الرّسول ﷺ وناصروه، ودافعوا عنه بأنفسهم وأموالهم وهاجروا معه.

ثالثاً: أنّهم هم الذين تلقّوا هذا الدين عن الرّسول ﷺ، تلقّوا القرآن وتلقّوا السنّة، وتلقّوا هذا الدين عن رسول الله ﷺ، ثم بلّغوه لمن بعدَهم بأمانة وإخلاص.

رابعاً: أنّهم هم الذين نشروا هذا الإسلام في المشارق والمغارب، في وقت الرّسول وبعد وفاة الرّسول، فهم الذين جاهدوا وفتحوا الفتُوح، ونشروا هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها رضي الله عنهم فلا يحبهم إلاّ مؤمن ولا يبغضهم إلاّ كافر أو منافق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْأِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩)﴾ [الفتح:٢٩]، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة:١٠٠]، قال سبحانه وتعالى في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨)﴾ [الحشر:٨] هذا في المهاجرين، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر:٩].

وقال النّبي ﷺ: ((لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدُكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفَه)).

إلى غير ذلك من الأدلّة الدالّة على فضل صحابة رسول الله ﷺ، فقد أثنى الله عليهم في محكم كتابه، وأثنى عليهم رسولُه ﷺ، وأجمعت الأمة على فضلهم وسبْقِهم، وأنّهم خيرُ القرون، بل خيرُ الأمم، فمن سبّهم أو سبّ أحداً منهم فإنّه يكونُ مكذِّباً لله ولرسوله ولإجماع المسلمين.

قال ﷺ: ((ثم الذين يلونهم))

يعني التّابعين، فجيلُ التابعين لهم فضلٌ عظيم، وهم في المرتبة الثّانية بعد صحابة رسول الله ﷺ، لأنّهم تتلمذوا على الصّحابة، وأخذوا علمَهم عن الصّحابة، فبذلك حصلوا على هذا الفضل العظيم وصاروا في المرتبة الثّانية في الفضيلة بعد صحابة رسولِ الله ﷺ. ٤

فُضِّلُوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه، والراغب فيه والقائم به. وما ظهر فيه من البدع أنكر واستُعْظِمَ وأُزِيلَ، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت، فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عانَد منهم ولم يتب. ٢

"قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرّتين أو ثلاثاً؟"

هذا من تحرِّيه في الرواية رضي الله عنه، وهذه عادتُهم رضي الله عنهم؛ أنّهم لا يقولون ولا يجزمون إلاّ بما يتأكدّون من صحّته وثُبوتِه عن رسول الله ﷺ، وهذا من أمانتهم في الرّواية. ٤

وإذا كان عمران لا يدري، فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور. ٥

لكن المحفوظ مرتين فقط، هذا المحفوظ من حديث عمر رضي الله عنه، وما رواه أحمد في المسند ومن حديث ابن مسعود كما هنا: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)). ٦

الثالث دون الأولين في الفضل؛ لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء.

فقال: ٢

قال ﷺ: ((ثم إنّ بعدكم قومٌ))

((قومٌ)) بالرفع، هذا في كثيرٍ من الروايات، وهو مخالفٌ للوجه اللّغوي، لأنّ الوجه اللّغوي: أنّ يكون بالنصب، لأنّه اسم لـ (إنّ)، و(إنَّ) تنصب الاسم وترفع الخَبَر.

وبعض المحدِّثين يقول: ((قومٌ)) مرفوعٌ بفعلٍ محذوف، تقديره: ((يجيء قومٌ))، فحُذفت (يجيء) ويقيت ((قومٌ)). ٤

وفي البخاري: ((ثم إن بعدكم قوماً)) بنصب ((قوماً))، وهذا لا إشكال فيه، لكن في هذه الرواية برفع ((قومٌ)) فيه إشكال، لأن "قوم اسم إن، وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل على لغة ربيعة: الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف، فصارت ((قومٌ)).

وهذا جواب ليس بسديد، لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن "إن" اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقاً لها بأن المخففة، لأن "إن" المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن

فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة، فاسمها ضمير الشأن محذوف، وعليه يكون ((بعدكم)): خير مقدم، و((قومٌ)): مبتدأ مؤخر، والجملة خبر "إن".

وقيل : "إن" هنا بمعنى، فيكون المعنى ثم نعم قوم، وهذا فيه تكلف.

والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية. ٥

((يشهدون ولا يُستشهدون))

قوله: ((يشهدون)) أي: يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه، لأن الشهادة أخبار الإنسان بما يعلم، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦]، ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلاناً يقول: "إن العشرة في الجنة ولا أشهد". فقال: إن فقد شهد. ٥

أي: يشهدون بدون أن تُطلب منهم الشهادة، بل يبادرون بها، ويتسارَعون بالشهادة من دون أن تُطلب منهم، فهذا دليل على استخفافهم بالشهادة ومسارعتهم إليها لقلّة دينِهم وقلّة أمانتهم، لأنّ الشّاهد يجب عليه أن يكون أميناً في شهادته ولا يشهد إلاّ بالحق: قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ [الزخرف:٨٦] يعلمون ما شهدوا به، ويتيقّنونَه، ولا يشهدون بموجِب الخرْص والظنّ، وإنّما يشهدون بشيء يعلمونه ويتأكّدونه.

ثم أيضاً: لا يسارعون بالشهادة إلاّ إذا طُلبت منهم، فإذا سارعوا بالشهادة قبل أن تُطلب منهم فهذا دليلٌ على استخفافهم بها، وهذا نقضٌ في التّوحيد، فيكون فيه مطابقة للترجمة وهي قول الشيخ رحمه الله: "باب ما جاء في كثرة الحلف" لأنّ الشهادة حلف، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:١-٢]، فسمّى الشهادة يميناً، وهذا يتضمّن كثرة شهاداتهم، لأنّهم ما داموا أنهم مستعدّين للشهادة؛ فهذا دليلٌ على أنّهم ليس عندهم تمنُّع، فتكثُر شهاداتهم، وكثرة شهاداتهم دليلٌ على استخفافهم بالشهادة، وإلاّ فالشّاهد الحقّ لا يشهد إلاّ إذا طُلبت منه الشهادة واحتِيج إليها فحينئذ يشهد. ٤

قوله: ((ولا يستشهدون)). اختلف العلماء في معنى ذلك:

فقيل: ((لا يستشهدون))، أي لا يطلب منهم تحمل الشهادة، فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم فهم شهداء زور.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة، فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يدعى لأدائها، فيكون ذلك دليلاً على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: ((ألا أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها))[1]، فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها بدليل قوله: ((ألا أخبركم بخير الشهداء))، وظاهره: أنه معارض لحديث عمران، فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى، لأن حقوق الله تعالى ليس لها مطالب، فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها، فيكون المراد بهم رجال الأمر بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكأنه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء رجح حديث عمران، لأنه في "الصحيحين" على حديث زيد بن خالد، لأنه في "مسلم".

ولكن إذا أمكن الجمع، فلا يجوز الترجيح لأن مقتضاه إلغاء أحد النصين، والجمع هنا ممكن كما تقدم. ٥

قال ﷺ: ((ويخونون ولا يؤتمنون)).

يخونون أماناتهم وعهودهم، إذا ائتمنوا على شيء من الأشياء فإنّهم لا يحفظون الأمانة.

والخيانة في الأمانة من صفات المنافقين: قال ﷺ: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِن خان))، فالخيانة في الأمانة سواءً كانت هذه الأمانة مالاً أو سرًّا من الأسرار أو عملاً من الأعمال: كموظّف وُكِل إليه أن يقوم بعمل فخان فيه، أو مقاول تعهّد بإقامة عمل أو مشروع من المشاريع فخان فيه وغشّ فيه هذا من الخيانة، فالخيانة قد تكونُ في الأموال وقد تكونُ في الأسرار التي يؤتمنُ عليها، إمّا من الأفراد وإمّا من وُلاة الأُمور.

---

[1] مسلم: كتاب الأقضية/ باب خير الشهود.

وكذلك تكون الأمانة أيضاً في الأعمال والعُهَد التي يتعهّد بها، فيجب عليه أن يفيَ بما التزم به وما عُهد إليه القيامُ به، سواءً كان عملاً وظيفيًّا أو كان عملاً مهنيّاً، عهد إليه بعمل يقوم به من بناء أو غير ذلك أو مقاولة أو غير ذلك، فيجب أن يكون أميناً فيما اؤتمن عليه، فإن خان فإنّ الله سبحانه وتعالى توعّد الخائنين؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢]، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)﴾ [الأنفال:٢٧]، ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) ﴾ [المؤمنون:٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي تعظِّم من شأن الأمانة، وتأمر بحفظها وأدائها كما تحمّلها الإنسان.

فأمر الأمانة أمرٌ عظيم، وصدرُ هذه الأُمّة كانوا أمناء، لكن يجيء بعدَهم قومٌ يخونون في أماناتهم، وهذا من علامات السّاعة: إذا اتُخذت الأمانة مغنَماً يفرح بها من أجل أن يتصرَّف فيها وأن يخون فيها، ولا يعتبر الأمانة حملاً تحمّله وعُهدة تعهّدها، بل يعتبرُها غنيمةً سيقت إليه ليتصرّف فيها حسب هواه ورغبته، فأمرُ الأمانة أمرٌ عظيم قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب:٧٢]. ٤

هذا هو الوصف الثاني لهم، أي: أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس.

وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال: لماذا لم يقل: يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم، فلخيانتهم لا يؤتمنون.

الخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخديعة، فهي مذمومة في حال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت في مقاتلة عدو ماكر خادع لدلالتها على القوة والإيقاع بالعدو من حيث لا يشعر، ولهذا يوصف الله، سبحانه وتعالى بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحاً، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وأما الخيانة، فلا يوصف الله بها أبداً، لأنها ذم بكل حال، ولهذا كان قول العامة: خان الله من خان حراماً، لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم.

قوله: ((ولا يؤتمون)). أي: ليسوا أهلاً للأمانة، فلا يؤمنون على الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض، ولا أي شيء، والظاهر أن هذا في القرن الرابع، فما بالك بالقرن الخامس عشر؟!

وفي حديث آخر: ((ويفشو بينهم الكذب))[١]. ٥

وقوله: ((وينذرون ولا يوفون))

النذر لغة: التزامُ الشيء. وشرعاً: التزام طاعةٍ لله لم تكن واجبةً بأصل الشّرع، فالتزام العبد طاعةً لله لم تكن واجبة بأصل الشرع وإنّما تجب عليه بالنذر.

فإذا التزم عبادةً لله فإنّها تجب عليه، ويجب عليه الوفاء بها لقوله ﷺ: ((مَن نذر أن يطيع الله فليطعه))، وقال سبحانه وتعالى في وصف الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧)﴾ [الإنسان:٧]، قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠]، فالمسلم إذا نذر نذراً لله من صدقة أو صلاة أو صيام أو حجّ أو عُمرة أو أيّ عبادة فإنّه يجب عليه الوفاء به، فإن لم يفِ به كان عاصياً وتاركاً لواجب يعاقَب عليه.

وإنْ كان الدخول في النذر منهيّاً عنه، لأنّه يحرج نفسه ويورّط نفسه وهو في عافية وفي سعة، إنْ شاء فعل وله الأجر، وإنّ شاء ترك ولا إثم عليه، لكنّه إذا نذر فقد ألزم نفسه وأوجب على نفسِه فضاق عليه الأمر إن ترك هذا النذر ولم يفِ كان عاصياً وآثماً وكان قبل ذلك في سعة، ولهذا نهى النّبي ﷺ عن النذر وقال: ((إنّ النذر لا يأتي بخير، وإنّما يُستخرج به من البخيل)).٤

[١] الإمام أحمد في "المسند" (١/١٨).

النذر لا ينبغي، النبي ﷺ نهى عن النذر قال: ((إنه لا يأتي بخير))، وقال: ((لا تنذروا فإن النذر لا يرد من قدر الله شيئاً ، وإنما يستخرج به من البخيل)) فلا ينبغي النذر، ولكن إذا نذر طاعة فعليه الوفاء كأن ينذر لله عليه أن يصلي كذا، أن يصوم كذا، أن يتصدق بكذا، فليبر في نذره إذا أتى نذرا يوافق الشرع طاعة لله عز وجل، أما إذا نذر أن يشرب الخمر، أو يعق والديه، أو يقطع الرحم، أو يقطع الطريق، هذه نذور باطلة لا أصلها، لا يجوز الوفاء بها، والصواب أن فيها كفارة يمين، ولا يجوز الوفاء بهذه النذور التي هي معصية. ٦

فقبل أن ينذر نكره له أن ينذر، والمجال أمامه مفتوح للطّاعات إنْ فعل فله أجر وإن لم يفعل فلا إثم عليه.

لكنّه إذا نذر والتزم فإنّه عاهد الله فيجب عليه الوفاء: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة:٧٥-٧٧]، فالذي ينذر الطاعة ثم لا يفي بها هذه صفته عند الله، ويعتبر كاذباً فيما بينه وبين الله.

فهذا يدلّ على وُجوب الوفاء بالنّذر إذا كان نذر طاعة، وأن ترك الوفاء به من علامات النّفاق، وأن هذا يكْثُر في آخر الزّمان، أنّ النّاس ينذُرون ولا يوفون.

وما أكثر الآن ما يسأل النّاس: "أنا نذرتُ أصوم"، "أنا نذرت أتصدّق" يريد التخلّص من النّذر، يبحث له عن مخارج، وهذا ممّا يدلّ على وقُوع هذه الصفة في آخر الزمان، وإلاّ لو كان قويّ الإيمان صادقاً مع الله ما احتاج إلى أنّه يبحث عن المخارج. ٤

وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله، كنذر العبادة يجب الوفاء به، فهم ينذرون لله ولا يوفون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق. ٥

ثم قال عليه الصلاة والسلام مبيِّناً علامة هؤلاء: ((ويظهر فيهم السَّمَن)). ٤
((السمن)): كثرة الشحم واللحم. ٥
يظهر فيهم سِمَنُ الأجسام، وذلك لأنَّهم يرفِّهون أنفسهم ويشتغلون بملذّاتهم وشهواتِهم وينسون الآخرة وينسون الحساب، فهم يستعجلون ملذّاتهم وشهواتهم ويشتغلون بها عن طاعة الله سبحانه وتعالى، فيصيرون كالبهائم التي تأكُل وتسمَن.
فإذا كان السمَن سببُه هذا فهو مذموم، أمَّا إذا كان السِّمَن ليس من أجل هذا، وإنَّما هو عارضٌ عرض للإنسان مع قيامِه بحقّ الله سبحانه وتعالى، وأدائِه لفرائضِ الله، وعمله لآخرته؛ فهذا ليس مذموماً. ٤
يعني بسبب إقبالهم على الدنيا واجتهادهم في التنعم بنعيمها، يغلب عليهم السمن، يعني سمن الأجسام لعظم الغفلة وكثرة الشهوات والنعم يكثر السمن، وهذا واقع في الناس، ولكن لا يلزم أن يكون كل من كان سمينا أن يكون عاصياً لا، قد يقع السمن في أناس طيبين، لكن مراد النبي ﷺ أنه يغلب على الناس، يكثر فيهم بسبب إقبال الناس على الدنيا وكثرة التنعم فيها، يكثر السمن ويظهر في الناس بسبب هذا الأمر، وهو إشارة إلى الغفلة والإعراض وقلة الاستعداد للآخرة، ولهذا تعظم الأبدان ويكثر السمن في الناس من هذه الحيثية، ولا يلزم من هذا كما تقدم أن يكون كل سمين فيه شر لا، قد يكون سمينًا وقد يكون من خيرة الناس كما وقع في الأولين. ٦
وهذا الحديث مشكل، لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان، فكيف يكون صفة ذم؟
قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها.
أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه، فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه. ٥

يعني تتغير الأحوال بعد القرون المفضلة الثلاث، تتغير الأحوال حتى توجد الخيانة، ويوجد عدم الوفاء بالنذر، ويوجد شهادة الزور، يعني تكثر بعد القرون المفضلة لضعف الإيمان، وكثرة الجهل، وكثرة الأخلاط الذين تضر خلطتهم، فلهذا يوجد شهادة الزور، ويشهد وما استشهد كذباً لطمع أو قرابة أو عداوة، ويخون ولا يؤتمن في أمانته وفي سائر أموره لضعف الإيمان، أو عدم الإيمان، وينذر ولا يبالي ولا يوفي ينذر الطاعات ولكن لا يوفي. ٦

وفي حديث أنس: ((لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم))[١].
قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ.[٢]
فما زال الشر يزيد في الأمة، حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف.
قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظمًا ونثرًا فنعوذ بالله من موجبات غضبه. ٢
فحدث التفرق والاختلاف في الدين، وحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه في المشرق[٣]، لما كان لهم دولة، وبنوا المساجد على القبور، وغلوا في أربابها، وظهرت دولة القرامطة[٤]، وظهر فيهم الكفر والالحاد في شرائع الدين، ومذهبهم معروف، وظهر فيهم من البدع ما يطول عده، وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين، ومازال أهل السنة على الحق، ولكن كثرت البدع والاهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير. ٧

[١] البخاري الفتن (٦٦٥٧)، الترمذي الفتن (٢٢٠٦)، أحمد (١٣٢/٣).
[٢] رواه البخاري في صحيحه رقم (٧٠٦٧)
[٣] سلاله من الديلم (جنوب بحر الخزر) حكمت في غرب ايران والعراق من سنه (٣٢٠ -٤٥٤) أسسها ابو شجاع بويه، شجع البويهيون المظاهر الفارسية في دولتهم، كما حاولوا نشر المذهب الشيعي، قضى عليهم الغزنويون والسلاجقة.
[٤] كان ابتداء امرهم من سنه ٢٧٨ والتمر سنين طوالاً على البغي والإفساد، ومنها سرقة الحجر الأسود من مكة المكرمة إلى (٣٧٥هـ) وهي إحدى فرق الطائفة الاسماعيلية، مؤسسها: حمدان بن الاشعث الذي يلقب بقرمط.

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)) [1].

قال: "وفيه "

يعني: في "صحيح مسلم".

عن ابن مسعود: أن النّبي ﷺ قال: ((خير النّاس قرني)).

في الحديث الأوّل:

((خيرُ أمّتي)) وهنا ((خير النّاس))، أي: جميع النّاس، من هذه الأمّة وغيرِها. ٤

هذا يعم الناس كلهم، خير الناس الصحابة -أصحاب النبي ﷺ- بعد الأنبياء ((ثم الذين يلونهم)) التابعون، ثم أتباع التابعين. ٦

قوله: ((خير الناس)). دليل على أن قرنه خير الناس، فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ. ٥

((ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))

تنبيه:

ساق المؤلف رحمة الله الحديث في بعض النسخ بتكرار قوله: ((ثم الذين يلونهم)) ثلاث مرات، وهو في "الصحيحين" بتكرارها مرتين. ٥

هذا فيه: الجزم بما شكّ فيه عمران رضي الله عنه، وأنّ الرّسول ﷺ ذكر ثلاثة قرون: قرن الصّحابة، ثم قرن التّابعين، ثم قرن أتباع التّابعين.

((ثم يجيء))

يعني: من بعد القرون الثلاثة.

[1] البخاري المناقب (٣٤٥١)، مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، الترمذي المناقب (٣٨٥٩)، ابن ماجه الأحكام (٢٣٦٢)، أحمد (٤٣٤/١).

((قومٌ تَسبق شهادة أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادَتَه))

يعني: لا يبالون بالشهادة، ولا يبالون بالإيمان، بل سابقون إليها، ويسارعون إليها بدون تحفُّظ، وبدون خوفٍ من الله عزّ وجلّ، يحلفون ويشهدون بكثرة.

فهذا فيه: ذمّ كثرة الشهادة، وذمُّ كثرة اليمين، فيكون مطابِقاً للترجمة، لأنّ الرسول ﷺ ساقه مساق الذّم، ففيه: النّهي عن كثرة الشهادة وكثرة الحلف، لأنّ في ذلك: استخفافاً بهما، فيكونُ منقِّصاً للتوحيد. ٤

قوله: ((تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)). يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين، حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

والمعنيان لا يتنافيان، فيحمل عليهما الحديث جميعاً. ٥

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء؛ لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب على الأكثر. والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف. فكن من الناس على حذر. ٢

وقوله: ((ثم يجيء قوم)) يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف، لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، الفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد، فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما أفضل الصحبة، فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة، فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علماً وعبادة. ٥

قال إبراهيم: "كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار".

"قال إبراهيم"

المراد به: إبراهيم النخعي، التّابعي الجليل، من تلاميذ عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

"كانوا يضربوننا "

يعني: السلف الذين أدركهم، قيل: إنّه يريد: أصحاب ابن مسعود خاصّة، وقيل: إنّه يُريد أصحاب ابن مسعود وغيرَهم من السلف. ٤

"على الشهادة والعهد ونحن صغار".

وقوله: "على الشهادة".

أي: يضربوننا عليها إن شهدنا زوراً، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد، وبه فسر ابن عبد البر.

وقوله: و"العهد". إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد. ٥

كانوا يضربون الأطفال إذا سمعوهم يشهدون أو يحلفون، تأديباً لهم ليربُّوهم على تعظيم الشهادة وتعظيم اليمين، حتى ينشأوا على ذلك، لأن الطفل ينشأ على ما عُوِّد عليه، فإذا عُوِّد الالتزام والطّاعة فإنّه ينشأُ على ذلك ويشبُّ عليه "ومن شَبَّ على شيءٍ شاب عليه"، كما قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوّده أبوه

فالتربية لها شأن كبير ولها أثر بليغ، لاسيّما في صغير السنّ، فإنّك إذا نهيتَه عن شيء أو أمرتَه بشيء ينغرسُ هذا في ذاكرَتِه ولا ينساه أبداً، وإذا صحِب هذا تأديبٌ فإنّه يكون أبلغ. ٤

والظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم. ٥

"كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار". وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد،

ولا يقوم الدين إلا به. وفي هذا رغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ٢

هذا فيه تأديب السلف لأولادهم ولذراريهم على تعظيم الله جل وعلا، فإن الشهادة والعهد واجب أن تكون مع التعظيم لله جل وعلا والخوف من لقائه والخوف من الظلم، فكانوا يؤدِّبون أولادهم على ذلك حتى يتمرنوا وينشأوا على تعظيم توحيد الله وتعظيم أمر الله ونهيه.٣

ويقول: وعهد الله، يضربوننا حتى لا يعتاد هذا إذا كبر، ويسهل عليه الإيمان الفاجرة والعهود الظالمة والشهادة الرديئة، يعني يؤدبونهم ويوجهونهم حتى لا يتكلموا بهذا إلا على بصيرة، لأن الصبي إذا اعتاد هذا في صغره قد يتساهل به في كبره، ولا يتحرى الصدق، وهذا من دلائل عناية السلف بالأخلاق الفاضلة، وحرصهم على تربية الأولاد على الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة، وهذا هو الواجب على المؤمنين أن يربوا أولادهم على الأخلاق الفاضلة، وأن يعتنوا بهم حتى لا يعتادوا ما حرم الله عز وجل، وحتى لا يتساهلوا فيما يجب أو يجب اجتنابه. ٦

فهذا فيه: العناية بالنّاشئة وتربيتهم وتأديبِهم.

وفيه أيضاً: أنّ الضرب وسيلةٌ من وسائل التربية، وأنّ السلف كانوا يستعملونَه، بل إنّ الرّسول ﷺ أَمر بالضّرب فقال: ((مُروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربِوهم عليها لعشر))، بل الله جل وعلا أمر بالضرب أيضاً للتأديب في حقّ الزوجات: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤]، وقال ﷺ: ((لا يُضرب فوق عشرة أسواط إلاّ في حدّ من حدود الله))، فالضّرب وسيلة من وسائل التربية، فللمعلِّم أن يضرب، وللمؤدِّب أن يضرب، ولولّي الأمر أن يضرب تأديباً وتعزيراً، وللزوج أن يضرب زوجته على النشوز.

فالذين يُنكرون الضّرب، ويمنعون منه، ويقولون: إنّه وسيلة فاشلة.

هؤلاء متأثّرون بالغرب وبتربية الغرْب، وهم ينقلون إلينا ما تحمّلوه عن هؤلاء، لأنهم تعلّموا على أيديهم.

أمّا ما جاء عن الله وعن رسوله وعن سلفنا الصالح فهو أنّ الضرب وسيلة ناجحة، لكن يكون بحدود، لا يكون ضرباً مبرحاً يشقّ الجلْد أو يكسرُ العظم، وإنّما يكون بقدر الحاجة.٤

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة، لأن قوله: "ونحن صغار"، أي لم يبلغوا، وهذا محل خلاف بين أهل العلم.

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغاً، فإذا تحمل وهو صغير، لم تقبل منه حتى يبلغ.

وقال بعضهم: شهادة الصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملاً وأداء، لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار.

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا في الحال، لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا، وإلا، لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبي على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب. ٥

فيُستفاد من هذين الحديثين مع أثر إبراهيم الذي نقله عن السّلف فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه فضلُ الصّحابة ﷺ، وأنّهم أفضلُ الأمّة، بل أفضل النّاس على الإطلاق.

ففيه ردٌّ على مَنْ يتنقَّصُهم، أو يتنقَّض أمراً منهم، أو يذمُّهم بأيِّ نوعٍ من الذم، لأنّهم صحابة رسول الله ﷺ، وهو خير القرون.

الفائدة الثانية: فيه فضل القرون الثلاثة: قرن الصّحابة، وقرن التّابعين، وقرن أتباع التّابعين، لأنّ هذه القرون يكثُر فيها العلم والعلماء، وقد وُجدَ أكثرُ العلماء في هذه القرون؛ كالأئمة الأربعة، وكذلك كثير من الأئمة كلهم في القرون المفضّلة، الذين جعل الله لهم أثراً باقياً وقدم صِدْقٍ في الأُمّة.

ففيه: فضل القرون المفضّلة الثلاثة، لكثرة العلم فيهم، ولقلّة ظهور البدع فيهم، وما ظهر من البدع في عصرهم فإنّهم يُنكرونه، بل ربّما يقتُلون دُعاة البدع والضلال، بخلاف من جاء بعدهم فإنه يقلّ فيهم الإنكار، كلّما تأخّر الزمان تكثُر البدع ويقلّ الإنكار، بخلاف الإنكار في القرون المفضّلة فإنّه أكثر، وصاحبُ البدعة مغمور ومختفٍ، ولا ينتشر شرُّه.

الفائدة الثالثة: في هذا الحديث: فضلُ السلف على الخلف، وأنّ السلف بما فيهم القرون المفضَّلة - أفضل من الخَلف، في العلم، وفي العمل، وفي السَّمْت والأخلاق، ففي هذا ردٌّ على من يقول: "طريقة السلف أسلم، وطريقة الخَلفِ أعلم وأحكم"، بل: "طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم من طريقة الخلف"، لأنّ الرسول ﷺ أثنى عليهم وذمّ مَن يأتي بعدَهم، وإنّما ينجو مَن جاء بعدهم بإتّباعه لهم وإقتدائه بهم، فلا يسلم من الخَلَف إلاّ من تمسّك بهدي السلف وسار على نهجهم، أمّا من خالفهم فإنّه يهيك، فيكون: السلف أعلم وأسلم وأحكم.

الفائدة الرابعة: في الحديث علَم من أعلام النبوة: حيث إنّه ﷺ أخبر عن حُدوث أشياء وظهرت كما أخبر بها، فإنه بعد القرون المفضّلة كثُر الشرّ والفتن وظهرت البدع وحدث الشرك في الأمّة وبُنيت الأضرحة على القبور ونشأ التصوُّف، وغير ذلك من الشّرور التي لابست الأمّة ولا تزال الأمّة تعاني منها، كلّ هذا حدث بعد القرون المفضَّلة وظهر واشتهر، وصار له أتباعٌ وفِرَقٌ تنشُره وتدعو إليه.

ففي هذا: علَم من أعلام النبوّة.

الفائدة الخامسة: في الحديثين دليلٌ على النّهي عن كثرة الحلف وكثرة الشهادة، وهذا هو الشّاهد من الحديثين للترجمة.

الفائدة السادسة: في الحديثين دليلٌ على وُجوب حفظ الأمانة والنّهي عن الخيانة فيها.

الفائدة السابعة: في الحديثين دليلٌ على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة، لأنّ الرسول ﷺ ذمّ الذين ينذُرون ولا يوفون، وهذا تدلّ عليه الأدلّة الأخرى.

الفائدة الثامنة: في الحديث: ذمٌّ للاشتغال بالشهوات وترفيه النّفس، لأنّ ذلك يكسِّل عن الطّاعة ويثبِّط عن الطّاعة، وعلامته: ظهور السِّمَن على أصحابه.

الفائدة التاسعة: في أثر إبراهيم دليلٌ على وجوب العناية بتربية الأولاد، وأنّ هذه طريقة السلف الصّالح، أمّا الآن فلا رادع ولا وازع للأولاد، يعملون ما يشاءون، ويسرحون ويمرحون في الشّوارع في أيِّ مكان، ويؤذون النّاس، ويترُكون الصلاة، ويتشاتمون، بل قد يتعاطون المحرمات ، بل قد يخالطون الأشرار، ويذهبون مع الأشرار، ولا أحد يسأل عن أولاده، ولو كانت له غنم لرأيته يحافظ عليها ويُغلق الباب عليها ولا يترك شيئاً يخرجُ منها، لكن الأولاد لا يهمُّه أمرُهم، يدخُلون أو يخرُجون، يفسدون أو يصلُحون، لا يحاسبهم ولا يراقبهم.

وبهذا حصل فساد النشأ إلاّ من رحم الله عزّ وجلّ.

الفائدة العاشرة: في الحديث دليلٌ على أنّ الضرب وسيلةٌ من وسائل التربية، ففيه رد على من يمنع من الضّرب، ويقول: إنّه وسيلةٌ فاشلة بل هو وسيلة ناجحة، دينيّة، إسلامية، عمل بها السلف الصّالح، وأمر بها رسولُ الله ﷺ، وأمَر الله بها في كتابه، فهو وسيلةٌ ناجحة، إذا استُعملت على الوجه المشروع، ووُضعت في موضعها. ٤

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الإيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الإيمان. يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾، والأمر وصية. ه

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة. تؤخذ من قوله ﷺ: ((الحلف منفقة للسلعة...)) إلخ. ه

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه. تؤخذ من قوله ﷺ: ((ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه...)) إلخ في ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم. ه

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي. تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني والعائل المستكبر، وغلظ في عقوبتهم، لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندهما. ه

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

ولكن هذا ليس على إطلاقة، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله سبحانه أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف.

في قوله: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣].

وفي قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وفي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

وعليه، فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة، فإنه جائز بل قد يكون مندوباً إليه، كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية، حيث قال: ((وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[1]، فقد وقع موقعاً عظيماً، من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم.ه

---

[1] البخاري: كتاب الحدود/ باب كراهة الشفاعة في الحد، ومسلم: كتاب الحدود/ باب قطع السابق الشريف.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

تؤخذ من قوله ﷺ: ((خير الناس قرني...))، وقوله ((أو الأربعة)) بناء على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

وقوله: "وذكر ما يحدث". لو جعلت هذه المسألة مستقلة، لكان أبين وأوضح، لأن الإخبار عن شيء مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالته ﷺ. ٥

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم. ٥

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: "كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد"، فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضاً عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استناداً إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر يضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب:

الأول: أن يكون الصغير قابلاً للتأديب، فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف في ذلك كمية أو نوعاً أو موضوعاً أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام، لم يكن مؤدباً بل منتصر. ٥

فائدة:

الحلف ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحلف على أمر ماض عامد وهو يعلم كذب نفسه، فهذه هي التي تسمى اليمين الغموس، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ومن ثم في النار، والعياذ بالله. وهذه لا كفارة لها إلا التوبة، وهي التي جاء فيها قول النبي ﷺ: ((الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب)) وهذا للأسف عند الباعة كثير، قال النبي ﷺ: ((من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان))[١].

النوع الثاني: وهو الذي على الألسنة بغير قصد مثل من يقال له: كيف حالك فيقول: والله بخير، والأمثلة عليه كثيرة في حياتنا، فهذا هو الذي يسمى لغو اليمين، فهذه ينبغي عدم التهاون فيها، وهي معفو عنها لكثرة وقوعها ورفع الحرج عن الأمة، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

النوع الثالث: أن يحلف الإنسان على أمر مستقبل يعتقد فعله، ويتبين له خلاف ذلك؛ مثل من يقول: والله لن أذهب غدا لفلان، فهذه اليمين التي إذا نقضها عليه الكفارة، وإذا رأى غيرها خيرا منها عليه أن يأتي بالذي هو خير ويكفر عن يمينه؛ مثل من قال: والله لا أدخل بيت فلان لخصومة بينهما ثم تصالحا فيدخل البيت ويكفر عن يمينه، والكفارة: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ٩

[١] رواه البخاري في كتاب: الخصومات، باب: كلام الخصوم بعضهم في بعض، برقم (٢٢٣٥)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١] الْآيَةُ. عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إذا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً، فقَالَ: ((اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إلى ثَلَاثِ خِصَالٍ . أَوْ خِلَالٍ. فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلام فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إلى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلَوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ. فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي، أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا)) رَوَاهُ مُسْلِم.

"باب ما جاء في ذمّة الله وذمّة نبيّه"

الذِّمّة معناها: العهْد. ٤

الذمة: العهد: وسمي بذلك، لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.

والله له عهد على عبادة: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

وللعباد عهد على الله، وهو لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فهذا عهد الله عليهم، ثم قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة:١٢]، وللنبي ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئاً .

وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما هو خير[١].

والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة في صلح الحديبية. ٥

و"ما جاء" يعني: من النّهي عن نقض العهود من كتاب الله وسنّة نبيّه، وما جاء من الوعيد في ذلك. ٤

"باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه"، يعني باب ما جاء فيه من تعظيمهما والتحذير من إخفارهما، والتحذير أيضاً من جعلهما للناس؛ لأن جعلهما للناس وسيلة إلى إخفارهما، فليس لولاة الأمور أن يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه، ولكن يجعلوا لهم ذمة الأمير، ذمة الرئيس، ذمة الملك وذمة أصحابه دون ذمة الله وذمة نبيه، وهذا من باب تعظيم ذمة الله وتعظيم ذمة نبيه، وهذا من مقام إكمال التوحيد وإكمال الإيمان، ولهذا ذكر المؤلف هذه الترجمة هنا في كتاب التوحيد؛ لأن تعظيم ذمة الله وذمة نبيه من كمال الإيمان ومن كمال التوحيد، ولأن إخفارهما نقص في التوحيد ونقص في الإيمان وضعف في الإيمان ووسيلة للتلاعب. ٦

مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أن نقض العهود فيه نقصٌ في التّوحيد، لأنّه يدلّ على عدم احترام عهدِ الله، ومن لم يحترم عهد الله، فإنّ هذا يدلّ على نقص توحيده، ومن وفى بعهد الله وعظم عهد الله فهذا يدلُّ على كمال توحيده. هذا وجه المناسبة. ٤

---

[١] مسلم: كتاب الإمارة/ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء.

وذِكْرُ الإمام رحمه الله لهذا الباب لأجل حديث بريدة الذي ساقه وفيه ((وإذا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أنْ تَجْعَلَ لهم ذمَّةَ الله وذِمّةَ نَبيّهِ فلا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمّةَ الله وذِمّةَ نَبِيّهِ ولكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمّتَكَ وذِمَة أصْحَابِكَ، فإنّكُمْ أنْ تَخْفِرُوا ذِمّتكُمْ وَذِمَّة أصْحَابِكُمْ أَهْوَنْ مِنْ أنْ تُخْفِرُوا ذِمّةَ الله وذِمّةَ نبيِهِ)) وهذا لأجل تعظيم الرب جل وعلا وتعظيم رسوله ﷺ فإن تعظيم الله جل وعلا في مناجاته وفي سؤاله وفي العبادة له جل وعلا وفي التعامل مع الناس هذا كله من كمال التوحيد، وهذا الباب من جهة التعامل مع الناس كما جاء في الباب الذي قبله، فالباب الذي قبله وهو (باب ما جاء في كثرة الحلف) متعلق بتعظيم الله جل وعلا حين التعامل مع الناس، و(باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه) متعلق بالتعامل مع الناس في الحالات العَسِرة الصعبة وهي حال الجهاد، فنَبَّه على أن تعظيم الرب جل وعلا يكون في التعامل في أعصب الحالات وهو الجهاد فإن العبد يكون موقراً لله مجلاً لله معظماً لأسمائه وصفاته، ومن ذاك أن تعظم ذمة الله وذمة نبيه، والذمة بمعنى العهد وذمة الله يعني عهد الله وعهد نبيه، فإنه إذا كان يعطي بعهد الله ثم يخفر فقد خفر عهد الله جل وعلا وفجر في ذلك، وهذا مناف لكمال التوحيد الواجب؛ لأن الواجب على العبد أن يُعَظِّم الله جل جلاله وأن لا يخفر عهده وذمته؛ لأنه إذا أعطى بذمة الله فإنه يجب عليه أن يوفي بهذه الذمة مهما كان حتى لا يُنسب النقص لعدم تعظيم ذمّة الله جل جلاله ومن أهل الإسلام.

لهذا كان إعطاء مثل هذه الكلمة مثل كثرة الحلف، فلا يجوز أن تجعل في العهد ذمة الله وذمة نبيه ﷺ كما لا يجوز كثرة الإيمان؛ لأن في كل منهما نَقصاً في تعظيم الرب جل جلاله. ٣

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

قال: "وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا﴾"

هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود. ٤

أمر الرباعي من أوفى يوفي، والإيفاء إعطاء الشيء تاماً، ومنه إيفاء المكيال والميزان. ٥

والوفاء: ضدّ الغدر والخيانة.

﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾

العهد في قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾ فُسِّر بالعقد وفُسِّر باليمين:

فالعهد بمعنى العقد كما قال جل وعلا ﴿أَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْد كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:٢٤]، وقال جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، فالعقد والعهد بمعنى؛ فلهذا فسر ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدتُّمْ﴾ بأنها العقود التي تكون بين الناس.

وفُسِّر العهد هنا بأنه اليمين ودلّ عليه قوله بعدها ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

فيجب الوفاء بالعهد ويجب الوفاء باليمين تعظيماً لحق الله جل وعلا، لأن من أعطى اليمين لله فإن معناه أنه أكَّد وفاءه بهذا الشيء الذي تكلم به؛ أكد ذلك بالله جل جلاله، فإذا خالف وأخَّر فمعنى ذلك أنه لم يعظم الله تعظيماً خاف بسببه من أن لا يقيم ما يجب لله جل وعلا من الوفاء باليمين. ٣

المراد به: الميثاق الذي يُعقد بين النّاس، وأضافه إلى نفسه إضافة تشريف؛ ممّا يدلّ على تعظيم العهد، لأن الشيء إذا أضيف إلى الله فهذا دليلٌ على تعظيمه، مثل: بيتِ الله، وناقة الله، وعبدالله، فالإضافة هنا تقتضي تعظيم المضاف، فهي تدلّ على عظم العهد، ووجوب احترامه. ٤

قوله: ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾. يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله، أي: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم، لأن الفاعل إذا كان على وزن فاعل اقتضى المشاركة من الجانبين غالباً، مثل: قاتل ودافع. ٥

﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾

هذا عام في كل عهد وميثاق. ٨

أي: عاهدتم طرفاً آخر من النّاس، وهذا يشمل الذي بين الله وبين خلقه والعهد الذي بين المسلمين وبين الكُفّار، ويشمل العهد الذي بين وليّ أمر المسلمين وبين الرعيّة، ويشمل العهد الذي بين أفراد النّاس بعضهم مع بعض.

فهذه العهود العامّة والخاصّة يجب الوفاء بها، لأنّ نقض العُهود من علامات المنافقين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ [التوبة:٧٥-٧٧]، قال ﷺ: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)).

فنقض العهود من صفات المنافقين، والوفاء بالعهود من صفات المؤمنين. ٤

إذا عاهدتم أحداً فأوفوا، فلو جعل ذمة الله وذمة نبيه فالواجب أن يوفي وإن كان أخطأ في جعل ذمة الله وذمة نبيه لكن عليه أن يوفي بذلك وعليه ألا يخفر، والإخفار النقض، هذا هو الإخفار، أَخْفَرَ: نقض وغدر، فإذا جعل ذمة الله وذمة نبيه فالواجب عليه أن يوفي وألا يخفر ولا يغدر، ولكن ليس له أن يجعل ذمة الله وذمة نبيه كما تقدم. ٦

قوله: ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾. فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء، أي: إذا صدر منكم العهد، فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلا تَنْقُضُوا الإيمان﴾. ٥

ثم نهى سبحانه وتعالى عن نقض العهود، فقال ﴿وَلا تَنْقُضُوا الإيمان﴾. ٤

يعني: العهود، لأنّ العهد يسمّى يميناً. ٤

نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة، لأنه عقد بين المتعاهدين. ٥

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

أي: بعد إبرامها وعقْدِها. ٤

أي لا تنقضوا العهود بعد ما أكدوها بالإيمان الشديدة والمعاهدة بل أوفى. ٦

لأنّها إذا عُقدت وأبرمت وجب الوفاء بها والالتزام بها من الطرفين، حتى ولو كانت مع كفّار، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إليهمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [الأنفال:٥٨] أي: أعلِن لهم أنّك تريد إنهاء العقد الذي بينك وبينهم، حتى يكونوا على بيّنة وعلى بصيرة، ولا تفاجئهم بنقض العهد بدون سابقة إنذار ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، هذا مع الكفّار، فكيف مع المسلمين؟. ٤

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، ويقول النبي ﷺ: ((يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء عند استه ينادى عليه: هذه غدرة فلان ابن فلان))، وهذا وعيد عظيم يدل على وجوب الوفاء بالعهود وتحريم نقض العهود. ٦

قال العماد ابن كثير: "وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الإيمان المؤكدة. ولهذا قال: ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارُضَ بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير. وبين قوله ﷺ في الصحيحين: ((إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها -وفي رواية- وكفرت عن يميني))[١]، ولا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا، وهي ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ؛ لأن هذه الإيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الإيمان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في هذه الآية: يعني الحِلْفَ أي: حِلْفَ الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ ((لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا

---

[١] مسلم الأيمان (١٦٤٩)، النسائي الصيد والذبائح (٤٣٤٦)، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٧٦)، ابن ماجه الكفارات (٢١٠٧).

شدة))[1] وكذا رواه مسلم، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه"[2]. ٢

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ حين استشهدتم الله جل جلاله أو حين حلفتم بالله جل جلاله.٣

الواو: واو الحال، أي: والحال أنّكم إذا عاهدتّم فقد جعلتم الله كفيلاً عليكم.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى ينتقم ممّن نقض العهد، لأنّهم إنّما وثِقوا بكم ووثقتم بهم باسم الله سبحانه وتعالى، فصار الله سبحانه كفيلاً وحسيباً ورقيباً على الجميع، ومن كان الله حسيبَه ورقيبَه ومحاسبه فإنّه لن يفوت على الله جل وعلا، ولا يخفى ما في قلبه وفي نيّته من النّيات الباطلة والغدر، فالله يعلم ما في القلوب، فكيف إذا ظهر ووقع: ﴿إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، هذا الكفيل ليس كغيره من الكفلاء فالكفيل من الخلق قد يغفل وقد يجهل، ولا يعلم بما يحصل من المكفول، ولكنّ الله جل وعلا لا تخفى عليه أفعال خلقه وأعمال عباده، فهو يعلم أفعالكم ونيّاتكم ومقاصدكم وأهدافكم وما ترمون إليه، فاحذروا من الله سبحانه وتعالى، احذروا من هذا الكفيل العليم الخبير القدير الذي لا يخفى عليه شيء ولا يُعجزه شيء. ٤

﴿إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الإيمان بعد توكيدها.[3]

---

[1] مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٠)، أبو داود الفرائض (٢٩٢٥)، أحمد (٨٣/٤).

[2] تفسير ابن كثير (٥٨٤/٢-٥٨٥)

[3] تفسير ابن كثير (٥٨٤/٢-٥٨٥)

ختم الله الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد، لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل، فإنه لا ينقض العهد. ٥

ومناسبة الآية للترجمة واضحة جداً، لأن الله قال: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾، وقال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾. والعهد: الذمة. ٥

فهذه الآية فيها شاهدٌ واضح للترجمة وهي: النّهي عن إخفاء العهد ونقض العهد من غير مسوغ ومن غير سبب يقتضي ذلك. ٤

وعن بُرَيْدَةَ، قال: ((كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جَيْشٍ أو سريَّة أوْصَاهُ في خاصّتهِ بِتَقْوَى الله ومَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خيرَاً، فقال: اغْزُوا بِسْم الله في سبيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله، اغْزُوا ولا تَغلُّوا تغدِروا ولا تُمْثلُوا، ولا تَقْتُلُوا وَليداً، فإذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فادْعُهُمْ إلى ثلاثِ خِصَالٍ (أو خِلاَلٍ) فأيّتهن ما أجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عنْهُمْ، ثم ادْعُهُمْ إلى الإسلام فإن أجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثم ادْعُهُمْ إلى التّحوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إلى دَارِ المُهَاجِرِينَ، وأخْبِرْهُمْ أنهم إن فَعَلُوا ذلكَ فإنّ لَهُمْ ما لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ ما عَلَى المُهَاجِرِينَ، فإنْ أبَوْا أنْ يَتَحَوّلُوا منها فأَخْبِرْهُمْ أنّهُمْ يَكُونُوا كأعْرَابِ المُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله تعالى، ولا يكون لَهُمْ في الغَنِيمَةِ والْفَيءِ شَيْءٌ إلاّ أن يُجَاهِدُوا مع المُسْلِمِينَ، فإنْ هم أبَوْا فاسألهم الجِزْية، فإن هم أجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفّ عنْهُمْ، فإنْ هم أبَوْا فَاسْتَعِنْ بالله وَقَاتِلْهُمْ. وإذا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أنْ تَجْعَلَ لهم ذمَّةَ الله وذِمّةَ نَبيّهِ فلا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمّةَ الله وذِمّةَ نَبيّهِ ولكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمّتَكَ وذِمَة أصْحَابِكَ، فإنّكُمْ أنْ تَخْفِرُوا ذِمّتكُمْ وَذِمّة أصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أنْ تُخْفِرُوا ذِمّةَ الله وذِمّةَ نبيِهِ، وإذا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فأرَادُوكَ أنْ تُنزلهم على حُكْمِ الله فلا تُنْزِلْهُمْ على حُكْمِ الله ولكن أنْزِلْهُمْ على حُكْمِكَ فَإنّكَ لاَ تَدْرِي أتُصِيبُ حُكْمَ الله فيهِمْ أم لا)) رواه مسلم[١].

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (رقم ١٧٣١)

ثم أورد الحديث الذي في "صحيح مسلم" وغيره، فقال:

"وعن بُرَيْدة"

هو بُريدة بن الحُصَيْب الأسلمي، الصحابي الجليل رضي الله تعالى عنه.

((كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة))

النّبي ﷺ كان يعقِد الجيوش والسرايا للجهاد في سبيل الله، بعدما هاجر إلى المدينة وقَوِيَ الإسلام وأمرهُ الله بالجهاد، كان ﷺ يكوِّن الجيوش والسرايا لمحاربة المشركين، امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾ [التوبة:٧٣]، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦]، ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة٢٩]، إلى غير ذلك.

والجيش هو: العسكر العظيم الكثير، وأمّا السرية فهي القطعة من الجيش، تنطلق من الجيش وترجع إليه.

وكان ﷺ يؤمِّر على السرايا، وأمّا الجيوش فكان يقودُها بنفسه في الغالب عليه الصلاة والسلام. ٤

قوله: ((إذا أمَّر)). أي: جعله أميراً، والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة. ٥

فقوله: ((إذا أمّر أميراً)) فيه: أنّه لابدّ من نصب الأمير على الجيوش والسرايا لأجل أن ترجع إليه ولأجل أن يتولّى أمرها ويحلّ مشاكلها ونزاعاتها، لابدّ من الإمارة في الجيوش والسرايا، ولابدّ من الإمامة العظمى للمسلمين، لأنّ الفوضى وعدم وُجود الوُلاة فيه مفاسد عظيمة، وفيه شرٌّ كبير.

وفيه: أنّ تأمير الأمراء سواء على الأقاليم أو على الجيوش أو على السرايا يُرجع فيه إلى وليّ الأمر، هو الذي يؤمِّر وهو الذي يعزل، لأنّ ذلك من صلاحيّاته في حدود ما شرعه الله سبحانه وتعالى. ٤

قوله: ((أو سرية)). هذه ليست للشك، بل للتنويع، فإن الجيش ما زاد على أربع مئة رجل والسرية ما دون ذلك. ٥

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش ما كان أكثر من ذلك.[١]

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ. قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، وقسم ما غنمه كقسمة ما غنم الجيش.

ب. قسم ينفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

ج. قسم ينفذ في الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة، فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس، لأن الجيش وراءها، فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس، لأن الجيش قد ذهب عنها، فالخطر عليها أشد.

وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلى اجتهاد الإمام: إن شاء أعطي وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

((أوصاه بتقوى الله))

الوصية: العهد بالشيء إلى غيره على وجه الاهتمام به. ٥

هذا من عناية الرّسول ﷺ بأمور المسلمين، وهكذا ينبغي لوُلاة أمور المسلمين أن يقتدوا بالرّسول ﷺ فيوصوا أمراءهم ومَن تحت أيديهم بتقوى الله.

---

[١] انظر صحيح مسلم للنووي (٣٧/١٢)

وتقوى الله هي: فعلُ أوامره وترك نواهيه. سُميت تقوى لأنّها تقي من عذاب الله.

فالتقوى معناها: اتّخاذ الوقاية من عذاب الله وسخطه وغضبه، وذلك إنّما يكون بطاعته وترك معصيته خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه. ٤

التقوى: هي امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وقال بعضهم: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

وقال بعضهم:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى

واعمل كماش فوق ... أرض الشواك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى ٥

وهي كلمةٌ جامعة تجمع خصال الخير كلّها، ولذلك أوصى الله بها في كتابه في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١]، وفي كثير من الآيات، فهي كلمة جامعة.

ومن اتقى الله فهو أشرف النّاس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فالتقيُّ هو الكريم عند الله سبحانه وتعالى دون نظرٍ إلى نسبه أو إلى ماله أو إلى جاهه. ٤

وهذه الوصية بالتقوى لأمير الجيش، لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته. ٥

((وبمَن معه من المسلمين خيراً))

أي: ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا: من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم. ٢

أي: وأوصاه بمن معه من المسلمين ممّن تحت يده من السريّة أو الجيش خيراً: بأن ينصح لهم ويتولّى أمرهم ويدبِّر شؤونهم وينظر في مصالحهم، ويحلّ مشاكلهم، ويرفُق بهم، فليست المسألة مسألة إمارة فقط، أو نيل مرتبة فقط، أو نيل لقب. ٤

أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيراً في أمور والآخرة، فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب على من تولى أمراً من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه، فإنه لا يلزم إلا بالواجب. ٥

ثم يقول عليه الصلاة والسلام للأمير وللجيش وللسرية، يقول للجميع:

((اغزوا))

الغزو هو: قصْد العدوّ والذّهاب إليهم.

((باسم الله))

أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له. قلت: فتكون الباء في بسم الله هنا للاستعانة والتوكل على الله. ٢

يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائماً مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله.

والأول أظهر، والثاني أيضاً محتمل، لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله، فهو أبتر. ٥

أي: مستعينين بالله، وهذا فيه: بَدَاءَة الأمور المهمّة باسم الله، وأنّ الإنسان إذا بدأ بشيء فإنّه يبدأ باسم الله، فإذا شَرَع في السفر، أو شرع في الغزو، أو شرع في الأكل أو الشُّرب، أو الدخول في البيت أو المسجد، وحتّى الدخول في محلّ قضاء الحاجة يقول: (باسم الله) قبل

الدّخول، لأن هذا الاسم يعصمه من الشيطان، وتنزل عليه وعلى عمله وعلى فعله الرحمة والبركة، كما يُذكر اسم الله على الذّبائح عند التذكية، بل جاء في الحديث: ((كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبْدأ فيه باسم الله فهو أَبْتَر)) أي: ناقصُ البَرَكة، وتُبدأ به الرسائل والمؤلَّفات، وتُبدأ به الدروس والنصائح، وتُبدأ به سورة القرآن الكريم – ما عدا سورة براءة، فـ (باسم الله) كلمة عظيمة، تُبدأ بها مهامّ الأمور. ٥

((في سبيل الله))

يعني: أن الغزو لا يكون لطلب الملك أو لطلب المال أو التسلّط على النّاس، هذا شأن أهل الجاهلية، إنّما يكون الغزو لمصالح المغزوِّين، وليس للانتقام منهم إذا لم يصرُّوا على الكفر، وإنّما هي لمصالحهم، لأجل إنقاذهم من الكفر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهو في سبيل الله، القصد منه: إعلاءُ كلمة الله سبحانه وتعالى، والمصلحة في هذا عائدة إلى المغزويّن، وإلى الغازين أيضاً، فالغازون يكون لهم أجر الجهاد في سبيل الله وأجر الشهادة والغنيمة، والمغزوّون يكون لهم إخراجهم من الكفر إلى الإيمان ومن الظّلمات إلى النّور، ومن الكفر إلى الإسلام.٤

قوله: ((في سبيل الله)). متعلق بـ ((اغزوا))، وهو تنبيه من الرسول ﷺ على حسن النية والقصد، لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدى الحسنيين ما كان خالصاً لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن فمن قاتل لأنه وطن إسلامي تجب حمايته وحماية المسلمين فيه، فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان القومية أو الوطنية فقط، فهو حمية وليس في سبيل الله.

وقوله: ((في سبيل الله)). تشمل النية والعمل، فالنية سبقت، والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

((قاتلوا من كفر بالله))

قوله: ((قاتلوا من كفر بالله)). ((قاتلوا)): فعل أمر وهو للوجوب، أي يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا، نقاتل من وراءهم، وهكذا إلى أن نخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها. ٥

هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم. وقد خصص منهم من له عهد والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به: ((ولا تقتلوا وليدًا))، وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالبًا. وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري والأولاد. ٢

و((من)): اسم موصول، وصلته ((كَفَرَ))، واسم الموصول وصلته يفيد العلية، أي: لكفر، فنحن لا نقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، نقاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار.

والكفر مداره على أمرين: الجحود، والاستكبار.

أي: الاستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديقة. ٥

القصد من الغزو هو: قتال الكفّار، لكفرهم، لأن الله خلق النّاس لعبادته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات:٥٦]، والمصلحة في العبادة راجعةٌ إليهم، لأنّهم إذا عبدوا الله أكرمهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، أما إذا عبدوا غير الله فقد ضرّوا أنفسهم.

فالمقصود من الغزو في الإسلام هو: إزالة الكفر وإحلال التّوحيد محلّه، هذا هو المقصود من الغزو، ليس المقصود من الغزو الاستيلاء على البلاد، أو أخذ الأموال، أو توسيع الملك، أو ما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

وهذا فيه دليلٌ على أنّ الجهاد يكون بالغزو والهجوم على الكفّار في ديارِهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وليس المقصود منه -كما يقول بعض الكُتّاب العصريّين: إن المقصود به الدفاع، إنّما المقصود من الجهاد هو: إزالة الكفر والشرك من الأرض، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأعلموا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾ [الأنفال:٣٩-٤٠].

فالمقصود من الغزو والجهاد في الأصل: هو طلب الكفّار في بلادهم، ونشر الإسلام، وإزالة الكفر.

أمّا قصة الدفاع فمعناه: أنّنا نبقى في ديارِنا، فإن جاءونا دافعناهم، وإن ما جاءونا تركناهم. وهذا باطل، ولم يأتِ الإسلام بهذا، إنما كان هو موجوداً في أوّل الإسلام لَمّا كان المسلمون قِلّة، ولم يكن للمسلمين دولة فعندما كانوا في مكّة، كانوا منهيّين عن القتال لأنّ المفسدة فيه أعظم من المصلحة، لكن لّمّا قويَ المسلمون ووجُدت دولة المسلمين في المدينة أمر الله المسلمين بالجهاد والغزو وقتال الكفّار وغزوهم في ديارهم وفي بلادهم لنشر الإسلام، ونفّذ ذلك رسول الله ﷺ، فما تُوفّي رسولُ الله ﷺ إلاّ والإسلام منتشر في معظم جزيرة العرب، وجاء النّاس ودخلوا في دين الله أفواجاً قبل وفاته ﷺ، وكاتب الملوك -ملوك الأرض- يدعوهم إلى الإسلام، وكان ذلك مقدَّمة لجهادهم.

وجاء مِن بعده الخلفاء الرّاشدون فواصلوا الجهاد الذي بدأه رسولُ الله ﷺ حتى انتشر الإسلام في مشارق الأرض وفي مغاربها، ودخلت دولة الفُرس ودولة الروم تحت حكم الإسلام، منهم من أسلم ومنهم من خضع لبذل الجزية، وصارت الغلبة والظهور لدين الإسلام كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة:٣٣]، فتحقّق وعدُ الله سبحانه وتعالى وظهر دينُ الإسلام على الدين كلّه، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، بجهاد المجاهدين في سبيل الله. ٤

((اغزوا))

هذا تكرارٌ منه ﷺ للتأكيد. ٤

قوله: ((أغزوا)). تأكيد، وأتي بها ثانية كأنه يقول: لا تحقروا الغزو وإغزوا بجد. ٥

((ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً))

يرسم لهم ﷺ الخُطَّة التي يسيرون عليها في جهادهم، وهي خُطّة العدل والإنصاف والرِّفْق والحكمة.

((ولا تَغُلُّوا))

الغُلول هو: أن يأخذ شيئاً من الغنيمة قبل القِسْمة، فالغنيمة تُجمع ثم يُقْسَم حسب ما شرعه الله: ﴿وَأعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

فمن أخذ شيئاً منها بدون القسمة أو التنفيل الذي يمنحُه القائد لبعض المجاهدين لمزية فيه؛ فمن أخذ شيئاً بدون وجه شرعي من المغانم فهذا الغُلول، وهو كبيرة من كبائر الذّنوب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١)﴾ [آل عمران: ١٦١]، ففي يوم القيامة يأتي الغالّ يحمل ما أخذه في الدنيا، يحمله على ظهره، إن أخذ بعيراً جاء بالبعير على رقبته، وإن أخذ بقرة جاء بها يحملها على رقبته، وإن أخذ مالاً جاء به يحملُه يوم القيامة فضيحةً له في هذا الموقف العظيم.

والغالُّ يؤدَّب بأن يُحْرَقُ رَحْلُه، والأثاث الذي معه، من باب العقوبة بالمال، ولا يصلِّي عليه الإمام إذا مات بل يتركُه يصلِّي عليه النّاس من أجل الردع للنّاس. ٤

قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله، إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، وما فيه روح، لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار. ٥

وحتّى العُمّال الذين يبعثهم وليّ الأمر لجباية الزكاة؛ إذا قبِلوا الهدايا من النّاس فهي غُلول، قال ﷺ: ((هدايا العُمّال غُلول)).

((ولا تَغْدِرُوا))

هذا الشّاهد من الحديث للباب، والغدر هو: الخيانة في العهد. ٤

الغدر: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا، فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد، فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على علي صاح به علي: ما خرجت لأبارز رجلين، فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله علي رضي الله عنه.

وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات.

الحال الأول: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد، فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه، فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم، لقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إليهمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٨].

الحالة الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا، لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إليهمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. ٥

((ولا تُمَثِّلُوا))

التمثيل معناه: تشويه جُثَث القتلى؛ بقطع آذانهم أو أُنوفهم أو أطرافهم، وهذا لا يجوز، لأنّ جُثة الآدمي لها حُرْمة حتى ولو كان كافراً، فلا يجوز التمثيل به. ٤

قوله: "ولا تمثلوا". التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسان وغيرها، وذلك عند أسرهم، لأنه لا حاجة إليه، لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك:

فقيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبي ﷺ لم يستثن شيئاً ، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه، فكيف نمثل به؟

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا، لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا، فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال، عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

فإن قيل: قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله عز وجل يخاطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بأمور جرت في عهد موسى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة:٩٣]، وما أشبه ذلك. ٥

((ولا تقتلوا وليداً))

الوليد معناه: الصّغير من الكُفّار، لأنّه ليس منه خطرٌ على المسلمين ٤، لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يسلم. ٥

وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فان ولا امرأة[١]، إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه[٢].

---

[١] أبو داود: كتاب الجهاد/ باب في دعاء المشركين.

[٢] البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة أوطاس.

كما أنّها لا تُقتل -أيضاً- المرأة من الكُفّار، لأن النساء لسن من أهل القتال، وإنّما الأطفال والنساء يؤخذون أرقّاء للمسلمين، وكذلك الشيخ الكبير الهَرِم لا يُقتل، إلاّ إذا كان له رأي ومشورة في الحرْب، مثَل ما قُتل دُرَيْد بن الصِّمَّة سيِّد هوازِن، وكان رجلاً كبيراً هَرِماً لكن قُتل في غزوة حُنين لأنّه كان يعطي الآراء للكُفّار، لأنّه كان سيِّداً من ساداتهم وشجاعاً من شجعانهم، وقد مارس الحروب وساس المعارك، فعنده خِبرة، وكانوا يرجعون إليه، فقتله المسلمون، لأنّه يصدُر منه ضررٌ على المسلمين، أمّا الشيخ الذي ليس له أهميّة، وكفره قاصرٌ على نفسه، فلا يقتل، إنّما يُقتل الكافر الذي يتعدّى ضرره وكفره إلى النّاس، وكذلك الرُّهبان الذين في الصوامع أيضاً لا يُقتلون، لأنّهم مشغولون بما هم فيه ولا يصدُر منهم أذى للمسلمين وكفرهم قاصر عليهم. ٤

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها "قتال الكفار". ٥

وقوله: ((وإذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خِلال)))

قوله: ((وإذا لقيت عدوك)). أي قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجاً لقتالهم، لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك، فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة:١]، وهذا أبلغ وأعم من قوله في آية أخرى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا اليهود وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٥١]، لكن خص في هذه الآية باليهود والنصارى لأن المقام يقتضيه.

والعدو ضد الولي، والولي من يتولى أمورك ويعتني بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك ويعتدي عليك ما أمكنه.

قوله: ((من المشركين)). يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

قوله: ((خصال أو خلال)). بمعنى واحد، وعليه، ف "أو" للشك في اللفظ، والمعنى لا يتغير.٥
الخصال والخِلال بمعنىً واحد، ولكن هذا شكٌّ من الراوي، وهذا من الدقّة في الرواية، إذا كان الراوي لا يجزم باللّفظة التي قالها رسول الله ﷺ فإنّه يأتي بالكلمة التي تشابهها تحرُّجاً من القول على رسول الله ﷺ ما لم يقل وإنْ كان المعنى صحيحاً، وهذا من احترام كلام رسول الله ﷺ، وأنّ أحداً لا يُضيف إليه شيئاً ، ويقول: قال رسول الله كذا وهو لم يجزم.

((فأَيَّتَهُنَّ))

بالنصب على أنّه مفعول للفعل المتأخِّر وهو ((أجابوك)).٤

((أيتهن)): اسم شرط مبتدأ، ((ما)): زائدة، وهي تزاد بالشرط تأكيداً للعموم، كقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء :١١٠]، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف، والتقدير: فأيتهن ما أجابوك إليه، فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم.٥

((ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم))

إذا قبلوا أيّ واحدة من هذه الخلال الثلاث -أو الخصال- فاقبل منهم إجابتهم وكُفّ عنهم القتال، ولا تقاتلهم.

((ادعهم إلى الإسلام))

قوله في الحديث: ((ثم ادعهم إلى الإسلام)) هذه رواية مسلم: ((ثم))، وفي رواية غير مسلم بحذف ((ثمّ))، وهو الصحيح، ويكون: ((ادعهم إلى الإسلام)) بداية الكلام. ٤

((ثم)) زائدة، كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال: إنها ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من كلام الراوي على تقدير: "ثم قال ادعهم". ٥

هذا فيه: أنّ القتال لا يجوز إلاّ بعد الدعوة إلى الإسلام، ولا تجوز مفاجأتهم وقتالهم وهم لم يسبق لهم دعوة من المسلمين. ٤

ادعهم أولاً إلى الإسلام، ادعهم إلى أن يسلموا، إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ودينوا بالإسلام، هذا أول شيء يدعى إليه الكفار كما أمر النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن أن يدعوهم إلى هذا، هذا أول شيء، فإذا دخلوا في الإسلام علمهم أركانه من صلاة وغيرها. ٦

فالكفّار يجب أن يُدعوا إلى الإسلام أوّلاً، فإنّ قبلوا فالحمد لله، لأنّ هذا هو المقصود، نحن لا نقاتلهم إلاّ لأجل دخولهم في الإسلام، فمن شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله وجب الكفُّ عنه، واعتبرناه من المسلمين، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، إلاّ أن يظهر منه بعد ذلك ما يخالف الشهادتين فنعتبرُه مرتدّاً، ونعامله معاملة المرتدّ، أمّا إذا لم يظهر منه شيء فإنّه يُقبل منه الإسلام، ولو مات بعد نُطقه بالشهادتين عاملناه معاملة المسلم في الميراث والجنازة وغير ذلك. ٤

قوله: "وقول نافع وقد سُئِلَ عن الدعوة قبل القتال"، ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال، قال وهو أن مالكًا قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوْا، ولا تُلْتَمَس غِرَّتُهُمْ إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تُلْتَمَس غِرَّتُهُمْ. وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مُمِيلا لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين. فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزدادون عُتُوّاً وبُغْضاً. ٢

وقوله: ((إلى الإسلام)). أي: المتضمن للإيمان، لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا، افترقا، كما فرق النبي ﷺ بينهما في حديث جبريل.

فإن أجابوا للإسلام، فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبي ﷺ: ((فأقبل منهم)). ٥

ثم إذا قبلوا الإسلام فـ ((ادعهم إلى التحوّل من دارهم))

يعني: من مكانهم الذي يقيمون فيه.

((إلى دار المهاجرين))

وهي المدينة في ذاك الوقت. ٤

وقوله: ((إلى دار المهاجرين)). يحتمل أن المراد بها العين، أي: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس، أي: الدار التي تصلح أن يهاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

ويقوي الاحتمال الثاني وهو أن المراد بها الجنس: أنه لو كان المراد المدينة، لكان الرسول ﷺ يعبر باسمها ولا يأتي بالوصف العام، ويقوي الاحتمال الأول: أن دار المهاجرين الأولى هي المدينة، والظاهر الاحتمال الثاني. ٥

والهجرة في اللغة هي: ترك الشيء، قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾ [المدثر:٥] أي: اترُك الشرك، وقال ﷺ: ((المهاجر: من هجر ما نهى الله عنه)) الهجر هو: التَّرْك. هذا في اللغة.

أمّا في الاصطلاح الشرعي فالهجرة صارت تُطلق على الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين من أجل حفظ الدين.

والهجرة من أعظم الأعمال بعد الإسلام، ولهذا صار للمهاجرين ميزة على إخوانهم من الأنصار، وصاروا يقدّمون في الذّكر لشرفهم، لأنّهم تركوا أوطانهم وديارهم وأموالهم وخرجوا، بل تركوا أولادهم وأزواجهم، وخرجوا إلى المدينة من أجل الدين ومن أجل نُصرة الرّسول ﷺ، فشكر الله لهم ذلك وأثنى عليهم ووعدهم بجزيل الثواب.

والهجرة باقية إلى أن تقوم السّاعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧] هؤلاء الذين تركوا الهجرة عن غير عذر فظلموا أنفسهم بذلك.

فالهجرة واجبة وباقية إلى أن تقوم السّاعة، وفي الحديث: ((لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرُج الشمس من مغرِبها)).

وأمّا قولُه ﷺ: ((لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيّة)) فالمراد به: الهجرة من مكّة، لأنّها بعد الفتح صارت دارَ إسلام، وأمّا الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فهي باقية إلى قيام السّاعة. ٤

وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام. وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم. ٢

والهجرة في هذا الحديث وهي الانتقال من دارهم إلى دار المهاجرين مستحبّة في حقّهم، إذا كانت البلاد بلاداً إسلامية فالانتقال منها إلى بلد أفضل منها مستحبّ، لأن ﷺ هنا خيَّرهم، فدلّ على أن الهجرة هنا غير واجبة عليهم، وإنّما هي أفضل في حقِّهم. ٤

قوله: ((وأَخْبِرْهُمْ أنهم إن فَعَلُوا ذلكَ فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين)).

وهذا تمام العدل، ولا يقال: إن الحق لصاحب البلد الأصلي، فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة. ٥

((فإن أبوا أن يتحوّلوا منها فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين))

يعني: إن آثروا البقاء في بلدهم ولم ينتقلوا إلى المدينة فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، والأعراب: جمع أعرابي، وهو: ساكنُ البادية.

ولا شكّ أن سُكنى الحاضرة الإسلاميّة أفضل من سُكنى البادية الإسلامية لأنّ سُكنى البادية فيها جفاء، أمّا سُكنى الحاضرة الإسلاميّة ففيها في الغالب خير، وفيها تعلُّم العلم النّافع، وفيها مخالطة الصّالحين، فالتعرُّب فيه جهل، وفيه بعدٌ عن العلم، خلاف الهجرة ففيها خيرٌ كثير. ٤

هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا، طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله، لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم، كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧] وهذا أصل في توطين البوادي. ٥

((يجري عليهم حكم الله تعالى))

أي: حكم الإسلام، فيكونون مسلمين، ولكن

((لا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء))

الغنيمة هي: ما يستولي عليه المسلمون من أموال الكُفّار في أثناء القتال.٤ أو ما ألحق به. ٥
وقد تولّى الله تعالى قسمَتها في كتابه فقال: ﴿وَأعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١]، وأربعة الأخماس الباقية توزّع بين المقاتلين: للرّاجل سهم، وللفارس ثلاثة أسهم، سهمٌ له وسهمان لفرسه.
فهؤلاء الذين أسلموا ولكنّهم لم ينتقلوا إلى بلاد الهجرة، وبقوا في البادية؛ ليس لهم من الغنيمة شيء، لأنّهم لم يشاركوا المجاهدين ولم يكونوا في بلد المجاهدين رِدْءاً لهم، لأنّ الذين يقيمون في الحواضر يكونون رِدءاً للمجاهدين إذا احتاجوا إليهم. ٤
والفيء: ما يصرف لبيت المال، كخمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها. ٥

وقوله: ((إلا أن يجاهدوا مع المسلمين)).
من بقي في الأعرابية لم يكن له حق من بيت المال ولا يكن له حق فيما يحصل من الغنائم حتى يجاهد. ٦
يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.
وأما الفيء، فاختلف أهل العلم في ذلك:
فعند الإمام أحمد: لهم حق في الفيء مطلقاً، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا.
وقيل: لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة، إذ ليس من في البلد مستعداً للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.
فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب:
١. التحويل إلى دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.
٢. البقاء في أماكنهم مع الجهاد، فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة وفي الفيء الخلاف.
٣. البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد، فليس لهم من الغنيمة والفيء شيء. ٥

((فإنْ هم أبَوْا فاسألهم الجِزْية))

يعني: أبوا الإسلام، فينتقل معهم إلى الخصلة الثانية، وهي: طلب الجِزْية.

والجزية: مقدارٌ من المال يدفعه الكافر حتى يُحْقَنَ دمه ويعيش تحت ظلِّ الإسلام وحكم الإسلام، ويبقى على كفره، لكن يكون خاضعاً لحكم الإسلام. ٤

والجزية: فعله من جزى يجزئ، وظاهر فيها أنها مكافأة على شيء وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضاً عن حمايته وإقامته بدرانا.

والذمي معصوم ماله وذريته مقابل الجزية، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لابد أن يأتي بها هو.

وقيل: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين.

وقيل: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: أن يعطيك فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتى يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم، وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عن تسلمها منهم. ٥

واختلف العلماء -رحمهم الله- هل تُؤخذ الجزية من كُلِّ كافر كما هو ظاهر هذا الحديث، أو أنّها تُؤخذ من أهل الكتاب فقط لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة: ٢٩]، فخصّ الله في الآية أهلَ الكتاب: اليهود والنصارى، فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وأُلْحِقَ بهم المجوس بسنّة رسول الله ﷺ فقال: ((سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب)) يعني: في أخذ الجزية، فهم يُسَنُّ بهم سنة أهل الكتاب في أَخذ الجزية، أمّا ذبائحهم فهي حرام، بخلاف ذبائح أهل الكتاب، ونسائهم.

فتؤخذ الجزية من أهل الكتاب بنصَ الآية، وتؤخذ الجزية من المجوس بالسنّة النبويّة وفعل الخلفاء الراشدين، ويبقى الخلاف في بقيّة المشركين، فهذا الحديث يدلّ على أخذها منهم أيضاً.

والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: وهو قولُ الإمام مالك رحمه الله، واختيار الإمام ابن القيِّم: أنّها تُؤخذ من كُلِّ كافر، بدليل هذا الحديث، لأنّ النّبي ﷺ عمّم أخذ الجزية، وقال: ((إذا لقيتَ عدوّك من المشركين))، وهذا عامّ يعمّ جميع المشركين.

القول الثّاني: أنّها تؤخذ من كلّ مشرك من العجم. أما مشركو العرب فلا تؤخذ منهم الجزية، فلا يُقبل منهم إلاّ الإسلام أو القَتْل، وهذا قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

القول الثالث: أنّ أخذ الجزية خاصٌّ بأهل الكتاب وبالمجوس فقط من العرب ومن العجم، ومن عداهم من المشركين فلا يُقبل منهم جزية، وهذا قولُ الإمام الشافعي، وظاهر مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

والمسألة مفصّلة في كتب الفقه وفي "كتاب أحكام أهل الذمَّة" للإمام ابن القيِّم، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة في "مجموع الفتاوى". ٤

جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصار والمجوس لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء، فاختلف أهل العلم:

فقيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركي العرب، لأن فيها إذلالاً.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار، لعموم قوله ﷺ: ((من كفر بالله)) ولم يقل: اليهود والنصارى. ٥

قوله: ((فإن هم أبوا فاسألهم الجزية)) فيه حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر: عربيًّا كان أو غيره، كتابيًّا كان أو غيره. وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أن تؤخذ من الجميع، إلا من مشركي العرب ومجوسهم. وقال الشافعي: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا. وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية: فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا على أهل الورق. وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. قال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير. وقال أبو حنيفة رحمه الله، والكوفيون: على الغني ثمانية وأربعون درهمًا، والوسط أربعة وعشرون درهمًا، والفقير اثنا عشر درهمًا. وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله.[1]

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله:

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة المجـوس، فإن هم سلموا الجزية اصدد على الأدون اثني عشر درهمًا افرضن وأربعة من بعد عشرين زَيِّد لأوسطهم حالا، ومن كان موسرا ثمانية مع أربعين لِتُنْقَد وتسقط عن صبيانهم ونسائهم وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعد

وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلم ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم[2]. ٢

والحكمة في أخذ الجزية في مقابل تأمينهم ولإتاحة الفرصة لهم ليتأمّلوا في أحكام الإسلام ويعيشوا تحت حكمه، فتظهر لهم سماحة الإسلام، وفضل الإسلام فيكون ذلك دافعاً لدخولهم فيه، هذا من الحكمة في أخذ الجزية ليتأمّلوا في الإسلام، ويجرّبوا العيش تحت ظلّه وعدله، ويتمكّنوا من سماع القرآن والسنّة، ويكون ذلك دافعاً لهم للدّخول في الإسلام.

وقوله: ((فإن هم أبوا))

يعني: أبوا دفع الجزية.

((فاستعن بالله وقاتلهم))

هذه الخصلة الثاّلثة، وهي المرحلة الأخيرة معهم، وهي: القتال، لأنّهم أبوا الدخول في الإسلام، وأبوا دفع الجزية، فلم يبق إلاّ القتال، وقد بلغتهم الدعوة، وقامت عليهم الحجة،

---

[1] انظر: المغني لابن قدامة (٢٠٩/١٣)، وأحكام أهل الذمة لابن القيم (٢٦/١)

[2] أي: يجب تحويل النائي إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

وانقطعت معذرتهم فلم يبق إلاّ قتالُهم لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، ﴿لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يعني: لا يكون شرك ولا يفتنون المسلمين عن دينِهم، لأنّهم إذا بقوا صاروا دُعاة إلى الكفر، وهم خطرٌ يهدِّد المسلمين لصرفهم عن دينهم، فالكفّار دائماً وأبداً يريدون صَرْف المسلمين عن دينهم: قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:٨٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧]، فالكفّار دائماً في كلِّ مكان وزمان يحاولون صرف المسلمين عن دينهم، وقوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ هذا هو الواجب، لأنّ الله هو الخالق الرازق الرب المدبِّر الذي يستحقّ العبادة، وعبادة غيرِه باطلة، لأنّها بغير حقّ. ٤

وقوله: ((استعن بالله))

بدأ النبي ﷺ بطلب العون من الله، لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه، فإنك مخذول. ٥

هذا دليلٌ على وجوب الاستعانة بالله وعدم الاغترار بالقوّة، وأن المسلمين إنّما يقاتِلون بإعانة الله جل وعلا ويعتمدون على الله، ويطلُبون منه النصر والقوّة، ولا يعتمدون على قوّتهم وعلى كثرتهم، فإنهم إن اعتمدوا على ذلك هُزِموا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شيئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

فالمسلمون يعتمدون على الله، ويتّخذون القوّة والسلاح: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، ولكن هذه القوّة وهذا السلاح إنما هو سبب من الأسباب، وأمّا الاعتماد فهو على الله جل وعلا، فلا يُعتمد على القوّة ولا على الكثرة، فإنّ ذلك لا ينفع إذا لم يساعد الله جل وعلا بنصره وتأييده. ٤

ثم قال ﷺ: ((وإذا حاصرت أهلَ حِصْن))

والمراد بالحِصْن: واحد الحُصون، وهي: الأبنية والقِلاع التي يتحصَّن بها المقاتلون. ٤

والحصن: كل ما يتحصن به من قصور أو أحواش وغيرها. ٥

وأغلب من يتحصّن بالقلاع هم أهل الكتاب وأهل المدن والحضر، أمّا البادية فإنّهم يكونون في الصحراء، ليس لهم قلاع ولا حصون.

والحصار معناه: تطويق الحُصون من كلِّ المنافذ، ومنعهم من الخروج والدخول، ووصول الأمداد إليهم. من الحصر وهو: الحبْس. وهذه خُطَّة من خطط الحرب. ٤

((فأرادوك أن تجعل لهم ذِمّة الله وذِمّة نبيه))

((فأرادوك)). أي طلبوك. ٥

الذمّة: العهد.

((فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه))

هذا نهي عن ذلك؛ احتراماً لذمة الله وذمة نبيه من النقض وعدم الوفاء. ٤

فإذا قال أهل الحصن المحاصرون: نريد أن ننزل على عهد الله ورسوله، فإنه لايجوز أن ينزلهم على عهد الله ورسوله، وعلل النبي ﷺ ذلك بقوله: ((فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون...)).٥

((فإنّكم أن تَخْفِرُوا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تَخْفروا ذمّة الله))

((فإنكم أن تَخْفِرُوا)) تنقضوا، الإخفار معناه: النّقض، والخفر معناه: الحماية. ٤

تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، هذا من الرباعي أخفر يخفر مثل أعلم يعلم وأكرم يكرم، فالإخفار مصدر أخفر مثل إعلام مصدر أعلم وإكرام مصدر أكرم، والإخفار هو نقض العهد بخلاف الخفر الثلاثي فإنه الحماية والنصرة، يقال خفره يخفره ويخفره إذا حماه ونصره، يخفر آل فلان يعني يحميهم وينصرهم ويحوطهم، وإذا جاءت بالألف أخفره يعني أزال حمايته ونقض عهده.٦

قوله: ((أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه)). لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله ((أهون)) من باب اسم التفضيل الذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شيء من هذا المعنى، لأن قوله: ((أهون)) يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه شيء من هذا المعنى، لأن قوله: ((أهون)) يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهوان، والأمر ليس كذلك، لأن إخفار الذمم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين، كله ليس بهين، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته.

فهنا أرادوا أن ينزلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء، بل يعاهدون على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك. ٥

ولا يؤمن ممن أعطى ذمة أن ينقضها، فنقض ذمته أهون من نقض ذمة الله وذمة رسوله.

وفي هذا دليلٌ على أنّ الخطأ يتفاوت، وأنّ الذنب يتفاوت؛ بعضُه أعظم من بعض.

وفيه: الإرشاد إلى أخفّ الضررين، فإنّ نقض عهد الله سبحانه أشدّ من نقض عهد المخلوق، وإن كان الكلّ حراماً، سواء كان مضافاً إلى الله أو مضافاً إلى المخلوق، ولكن نقض عهد الله أشدّ من نقض عهد المخلوق. ٤

ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء للعهد، كجملة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من مُتَعَدٍّ مُعْتَدٍ كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم. ٢

قال الشيخ سليمان –كما في إبطال التنديد-: "وهذا نهي تنزيه، أي: لا تجعل لهم ذمه الله، فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها، بعض الأعراب، وسواد الجيش، ونحو ذلك، فكأنه يقول: إنْ وقع نقض عهد من مُتَعَدٍّ أو جاهلٍ؛ كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الخالق تعالى"[1].

والحديث ظاهر الدِّلالة على ذكرنا؛ ففيه تعظيم الله جل جلاله بأن يعطى العبد الناس بذمة الله وذمة نبيه ﷺ؛ بل أن يعطى بذمته هو. ٣

---

[1] قال الشيخ حمد بن عتيق: "نقلت الكلام على هذا الحديث من خط الشارح، وذكر أنه نقله من القرطبي و النووي".

ثم قال ﷺ: ((وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك)).

قوله: ((وإذا حاصرت)). أي: ضربت حصاراً يمنعهم من الخروج من مكانهم. ((أهل حصن)): أهل بلد أو مكان يتحصنون به.

((فأرادوك)): طلبوا منك.

((حكم الله))، أي: شرع الله.

قوله: ((ولكن أنزلهم على حكمك)). ٥

يعني: على اجتهادك، تقول لهم: أنا أجتهد فيكم فرب الحكم الذي أرى أنّه حق وصواب، فإن وُفِّقت وأصبت فذلك من الله سبحانه وتعالى، وإنْ أخطأتُ فهذا من اجتهادي ولا يُنسب إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا حصل خطأ في اجتهاد البشر فإنه لا يُنسب إلى حكم الله سبحانه وتعالى.

ولهذا قال في ختام الحديث: ((فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا)). ٤

ولا بأس أن يقول أجتهد إن شاء الله وأحرص على موافقة الشرع، ولكن لا أنزلكم على حكم الله لأني قد أغلط. ٦

فإذا أرادوا أن ينزلوا على حكم الله، فإنهم لا يجابون، فإنا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

ولهذا قال: ((أنزلهم على حكمك))، ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة، لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد، فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد. ٥

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل: إن أهل الحصن لا ينزلون على حكم الله، لأن قائد الجيش وإن اجتهد، فإنه لا يدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: بل ينزلون أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: بل ينزلون على حكم الله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط، لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم، إذا من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك، فلا تنزلهم على حكم الله، لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحي، فينزلون على حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صواباً إذا لم يتبين خطؤه، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وهذا أصح، لأنه بحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهراً شرعاً وإن كان قد يخطىء، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: ننزلك على ما نفهم من حكم الله ورسوله، فهو أولى، لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحاً أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هذه العبارة لأنه قد يتغير الاجتهاد، ويأتي أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم، فيقول الكفار: إن أحكام المسلمين متناقضة. ٥

((فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا)).

فالإنسان قد يغلط في حكمه، فلا يقل حكمه الله بل يقول حكمي واجتهادي، وأنا أنظر واجتهد وأنفذ فيكم الشرع من باب الحيطة لئلا يقول حكم الله فيغلط في حكم الله، قد يحكم بحكم لا يوافق حكم الله فيكون في هذا قد كذب على الله عندما يقول حكم الله، ولهذا قال: ((فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا)). هذا أمره النبي ﷺ بهذا من باب الحيطة كما أمر في الذمة بذلك، فالإخفار في ذمة الله أشد، وغلطه في حكم الله أشد، الغلط في حكمه هو أسهل، وهذا من باب الآداب الشرعية في إعطاء العهود والمواثيق وفي إنزال العدو على الحكم، يكون على حكم العبد وعلى اجتهاد ولي الأمر وما يراه موافقاً لشرع الله، لكن لا يقول إن هذا الذي قلته هو حكم الله لأنه قد يغلط في بعض المسائل التي يجتهد فيها. ٦

قال الفقهاء: هذا فيه دليل على الاجتهاد في الأحكام الفقهيّة.

وفيه: دليل على أنّ المصيب من المختلفِين واحد، فليس كلُّ مجتهد مصيباً، وإنّما المصيب يكون واحداً والبقيّة يكونون مخطئين. ٤

الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد. وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حَكَمَ حُكْمًا مُعَيَّنًا في المجتهدات. فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ. ٢

فهذا فيه دليل على أنّ المفتي إذا أفتى بفتوى لا يقول: هذا حكم الله، وإنّما يقول: هذا اجتهادي الذي أراه، لأنّه لا يدري هل أصاب الحقّ أو لا، فلا ينسب إلى الله شيئاً لا يدري هل هو حقّ، أو خطأ.

وهذا في المسائل الاجتهادية.

أمّا المسائل التي نصّ الله على حكمها؛ فهذا لا إشكال فيه، يقال: هذا حكم الله،

تقول: الزنا حرام، هذا حكم الله.

تقول: الرِّبا حرام، هذا حكم الله.

الشرك حرام، هذا حكم الله سبحانه وتعالى.

لأن الحكم في هذا واضح، وهذه أمور ليست من مسائل الاجتهاد، لأنّ الله نصّ على حكمها.

كذلك القاضي الذي يحكم بين النّاس لا يقول: هذا حكم الله، وإنّما يقول: هذا حكمي واجتهادي، وهذا الذي توصّلتُ إليه. ٤

وفي هذا تنبيه عظيم لأهل التوحيد وطلبة العلم الذين يهتمون بهذا العلم ويعرف الناس منهم أنهم يهتمون بهذا العلم ألا يبدُر منهم ألفاظ أو أفعال تدل على عدم تخلقهم بهذا العلم، فإن التوحيد هو مقام الأنبياء والمرسلين، ومقام أولياء الله الصالحين، فأن يتعلم طالب العلم مسائل التوحيد، ثم لا تظهر على لسانه، أو على جوارحه، أو على تعامله لا شك أن هذا يرجع ولو

لم يشعر إلى اتهام ما يحمله من التوحيد والعلم الذي هو علم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فتذَكَّر قول النبي ﷺ هنا ((وإذا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أنْ تَجْعَلَ لهم ذمَّةَ الله وذِمّةَ نَبيّهِ فلا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمّةَ الله وذِمّةَ نَبِيّهِ)) لأجل أنه قد يُدخل على أهل الإسلام وأو على الدين في نفسه من جهة فعلهم، فيخفرون هذه الذمة فيرجه إخفار ذلك إلى اتهام ما حملوه من الإسلام ومن الدين، فهذه مسألة عظيمة فتستحضر أن الناس ينظرون إليك خاصة في هذا الزمان -الذي هو زمان شبه وزمان فتن- ينظرون إليك أنك تحمل سُنّة، تحمل توحيداً، تحمل علماً شرعياً، فلا تعاملهم إلا بشيء يكون معه تعظيم الرب جل وعلا، وتجعل أولئك يعظمون الله جل وعلا بتعظيمك له، ولا تخفر في اليمين ولا تخفر في ذمة الله، أو تكون في الشهادة حائفاً أو في التعامل حائفاً؛ لأن ذلك مُنْقِصٌ لأثر ما تحمله من العلم والدين.

فتذكر هذا، وتذكر أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام هنا ((وإذا حَاصَرْتَ أهْلَ حِصْنٍ فأرَادُوكَ أنْ تُنزلهم على حُكْمِ الله فلا تُنْزِلْهُمْ على حُكْمِ الله ولكن أنْزِلْهُمْ على حُكْمِكَ فَإِنّكَ لاَ تَدْرِي أتُصِيبُ حُكْمَ الله فيهِمْ أم لا أو نَحْوَ هذا)) وذلك حتى إذا كان غلط فيكون الغلط منسوباً إلى من حَكَمَ -إلى هذا البشر-، ولا يكون منسوباً إلى حُكْم الله، فيصد الناس عن دين الله، وكم من الناس ممن يحملون سنة أو علماً أو يحملون استقامة يسيئون بأفعالهم وأقوالهم؛ لأجل عدم تعلمهم أو فهمهم ما يجب لله جل وعلا وما يجب لسنة النبي ﷺ وما يدعوهم إليه الرب الكريم جل وعلا وتعالى وتقدس. ٣

فيؤخذ من الآية والحديث مسائل عظيمة:

١. يؤخذ من الآية تحريم نقض العُهود، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١].

والعهود عامّة، تشمل العهود التي بين العبد وبين ربّه، العهود التي بين الرّاعي والرعيّة، العهود التي بين المسلمين والكُفّار، العهود التي بين المسلمين بعضهم مع بعض كلها يجب الوفاء بها، ويحرم نقضُها بدون سبب صحيح.

٢. في الحديث أنّ تكوين الجيوش والسرايا والغزو والجهاد من صلاحيَّات الإمام، هو الذي يأمر بذلك وهو الذي ينظِّم هذه الأمور ويُرجع إليه فيها، لأنّ النّبي ﷺ كان هو الذي ينظِّم الجيوش والسرايا ويؤمّر الأمراء عليها، ويوصيهم، فدلّ هذا على أن هذا الأمر من صلاحيّات الإمام، وأنّه لا يجوز لأحدٍ من النّاس أن يغزو أو يقاتِل أو يجمّع جماعة في وسط ولاية الإمام ويأمر وينهى ويُصدر أوامر بدون إذن إمام المسلمين، هذا يُعتبر من الاعتداء على صلاحيّات الإمام ومن الفوضى في الإسلام، ويحصل بهذا مفاسد عظيمة.

٣. في الحديث دليلٌ على أنّ الجهاد في الإسلام شرُع من أجل إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام والقضاء على الكفر والشِّرك، لقوله ﷺ: ((قاتلوا مَن كفر بالله)).

٤. في الحديث دليلٌ على تحريم قتل من لا يقاتِل من الكفّار كالطفل الوليد: ((لا تقتلوا وليداً))، وكذلك النساء، وكذلك الشيخ الكبير الهَرِم، وكذلك الرُّهبان في الصوامع، هؤلاء لا يجوز قتلُهم لأنّهم لا يقاتِلون، وكفرهم قاصرٌ على أنفسهم لا يتعدّى إلى غيرهم، أمّا إذا كان هؤلاء لهم رأيٌ ولهم دعوة إلى الكفر فإنّهم يُقتلون دفعاً لشرهم. ٤

٥. تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، ... وقد سبق الكلام عليه. ٥

٦. في الحديث دليلٌ على أنّ الكُفّار لا يقاتَلون إلاّ بعد دعوتهم إلى الإسلام، وأنّه لا تجوز بداءتهم بالقتال قبل الدعوة، لقوله ﷺ: ((ادعهم إلى الإسلام))، وهذا أوّل ما بدأ به ﷺ.٤

وأما ما ورد في "الصحيح" أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلح وهم غارون[1]، فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيها المصحلة.٥

٧. فيه أنّ من أظهر الإسلام ونطق بالشهادتين فإنّه يُقبَل منه ويُكَفُّ عنه، حتى يتبيّن منه ما يناقض الإسلام، فعند ذلك يُحكم عليه بحكم المرتد لقوله ﷺ: ((فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم)).

---

[1] البخاري: كتاب العتق/ باب من ملك من العرب رقيقاً، ومسلم: كتاب الجهاد/ باب جواز الإغارة على الكفار.

٨. في الحديث دليلٌ على مشروعية أخذ الجزية ممّن أبى أن يقبل الإسلام وبَذَل الجزية. ٤

٩. الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان ذلك ما شرعت الجزية، لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس...))[1] الحديث، فهو عام مخصوص بأدلة الجزية. ٥

١٠. في الحديث دليلٌ على أن المسلمين يعتمدون في قتالهم للكفّار على الله سبحانه وتعالى، ولا يعتمدون على حولهم وقوّتهم وكثرة جنودهم ولا يغترون بذلك لقوله ﷺ: ((فاستعن بالله وقاتلهم)). ٤

١١. عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله. ٥

١٢. في الحديث دليلٌ على أنَّ المسلمين لا يُنزلون الكُفّار المحاصرين على ذمّة الله وذمّة رسوله، يعني: على عهد الله وعهد رسوله، وإنّما يُنزلونهم على ذممهم هم، لأنّه إنْ حصل خطأ فإنّه ينسب إليهم ولا ينسب إلى ذمة الله وذمة رسوله.

١٣. فيه دليلٌ على أنّ الذنوب تختلف، بعضها أشدّ من بعض، وذلك أنّ نقض عهد الله أشدّ من نقض عهد المخلوقين، وإنْ كان الكلُّ حراماً، ولكن الذنوب تتفاوت، وارتكاب أخفّ الذنوب أسهل من ارتكاب أعظمها. ٤

١٤. جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

١٥. أنه لايجوز أن ينزلهم على حكم الله، إما في عهد الرسول ﷺ، أو مطلقاً حسب الخلاف السابق. ٥

١٦. في آخر الحديث دليلٌ على مشروعية الاجتهاد في المسائل التي هي مَحَلٌّ للاجتهاد. ٤

١٧. أن المجتهد قد يصيب وقد يخطىء، لقوله: ((فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟)) وقال النبي ﷺ: ((إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب، فله أجران، وأن أخطأ، فله أجر واحد))[2]، وعليه، فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان/ باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس يقولوا لا إله إلا الله.

[2] البخاري: كتاب الاعتصام/ باب أجر الحاكم إذا اجتهد، ومسلم: كتاب الأقضية/ باب بيان أجر اجتهد.

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: كل مجتهد مصيب في الفروع دون الأصول، حذراً من أن نصوب أهل البدع في باب الأصول.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق، فإنه يخطيء ويصيب، ويدل له قول ﷺ: ((فاجتهد فأصاب واجتهد فأخطأ))، فهذا واضح في تقسيم المجتهدين إلى مخطيء ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين، لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين، سواء في علم الأصول والفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكراً تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئاً من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهي ركن من أركان الإسلام ويخرجون أشياء في العقيدة اختلف فيها السلف، يقولون أنها من الفروع، لأنها ليست من العقيدة، ولكن فروع من فروعها، ونحن نقول إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة، فكل الدين أصول، لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة، فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها.

والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمي بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف، فليس بمقبول مطلقاً. ٥

١٨. في الحديث دليلٌ على أنّ الصواب يكون مع واحد من المجتهدين ولا يكون مع جميعهم، بدليل قوله ﷺ: ((فإنّك لا تدري))، وإذا كان هذا خطاباً للصحابة، وهم أقرب النّاس إلى العلم والإصابة، لأنّهم يتلّقون عن الرّسول ﷺ، فغيرهم من باب أولى من المجتهدين، فلا يغترّ الإنسان برأيه وباجتهاده، لأنّه يحتمل أنّه مخطئ وأنّ الصواب مع مخالفه، فلا يغترّ

الإنسان باجتهاده أو يتعصّب لرأيه أو يشتدّ عندما يناقَش، هذا لا يجوز، لأنك مجتهد وهذا مجتهد، والصواب محتمل أن يكون معك وأن يكون معه، فلا يجزع الإنسان من المناقشة ومن المساءلة في المسائل الخلافية، ويقول: هذا اجتهادي وهذا الذي أرى، والإنسان عُرْضة للخطأ، ولا يقول هذا حكم الله في المسألة. ٤

١٩. أن باب الاجتهاد باق، لقوله: ((لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟)) وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثاً في هذا الحكم حتى يتثبت، لأن هذا الحكم قد يكون منسوخاً أو مقيداً أو عاماً وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر في القرآن والسنة لأنك لست أهلاً للاجتهاد، فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح، لا يجوز أبداً أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم، لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس لسخروا بهم، فهذا أيضاً لا يجوز، إذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة، فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدهم وأصولها؟!.

٢٠. فيه إثبات الحكم لله عز وجل، وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ. حكم كوني، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠].

ب. حكم شرعي، وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنه:١٠]. ٥

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله)).

الرابعة: قوله: ((قاتلوا من كفر بالله)).

الخامسة: قوله: ((استعن بالله وقاتلهم)).

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين، لكان أوضح، لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين، محرمة، وجعل ذمة المحاصرين بكسر الصاد ذمة جائزة. ٥

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

لقوله: ((ولكن أجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك...)) إلخ، وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر وهو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما إذا كان لابد من أرتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله عز

وجل صار منهياً عنه، لأن مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضاً العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهي: ترك أدنى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لابد من ترك إحدهما، فإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعاً.

فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما، فخذ بأدناهما. ٥

الثالثة: قوله: ((اغزوا بسم الله في سبيل الله)). يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص والتمشي على شرعه. ٥

الرابعة: قوله: ((قاتلوا من كفر بالله)).

يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال، فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله، قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر. ٥

الخامسة: قوله: ((استعن بالله وقاتلهم)).

يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.٥

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

وفيه فرقان:

١. أن حكم الله يصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

٢. تنزل أهل الحصن على حكم الله ممنوع، إما في عهد الرسول ﷺ فقط أو مطلقاً، وأما على حكم العلماء ونحوه، فهو جائز.

فائدة:

لا ينبغي أن يقال لمفت: ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأي الإسلام في كذا، أو ما رأي الإسلام في كذا، فإنه قد يخطىء فلا يصيب حكم الإسلام، ولا يقول مفت: حكم الإسلام كذا، لأنه قد يخطىء، ولكن يقيد، فيقول: حكم الإسلام فيما أرى كذا وكذا إلا فيما هو نص واضح صريح، فلا بأس، مثل أن يقال: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟ فيقول: حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام. ٥

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا.

وهذا ليس خاصاً بالصحابة، بل حتى من بعدهم، فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم الله عند الحاجة. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ)

عَنْ جُنْدُبَ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) رَوَاهُ مُسْلِمُ .وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ".

"باب ما جاء في الإقسام على الله".

أي باب ما جاء فيه من الوعيد. ٦

الأقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، هي: يمين، وألية، وحلف، وقسم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، أي: يحلفون، وقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [النور: ٥٣]. ٥

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله، ليفعلن الله كذا، أو والله، لا يفعل الله كذا. ٥

الإقسام على الله هو: الحلف على الله، فإن كان هذا الحلف على الله بأنّه لا يرحم عباده ولا يغفرُ لهم ولا يُدخل أحداً منهم الجنّة فهذا محرَّم، وهو سوء أدبٍ مع الله تعالى، لأنّ معناه: الحجّر على الله تعالى، ولا أحدٌ يمنع الله من أن يتصرّف في خلقه، وأن يرحم من شاء ويعذِّب من شاء، وأن يغفر لمن شاء؟.

فالذي يفعل هذا قد أساء الأدب مع الله، وتنقّص الله سبحانه وتعالى، فهذا النوع يُعتبر مُخلاً بالتّوحيد. ٤

فلما كان الإقسام على الله جرأة على الله، ونقصاً في التوحيد، وضعفاً في الإيمان، ذكره المؤلف هنا لأن المقصود فعل ما يكون فيه كمال الإيمان، وترك ما يكون فيه نقص الإيمان. ٦

فلذلك عقد المصنِّف رحمه الله هذا الباب، وأجمل في الترجمة فقال: "باب ما جاء في الإقسام على الله" لأنّ الإقسام على الله له احتمالان أو وجهان:

الاحتمال الأوّل: هو ما ذكرنا، وهذا ممنوع وحرام، ومخلٌّ بالعقيدة.

النوع الثاني من الاقسام على الله: أن يكون على وجه حسن الظنّ بالله أن يفعل الخير، وأن يغفر لعباده وأن يسقيهم المطر، وأن ينصرهم على الأعداء، فهذا لا بأس به، لأنّه حسن ظنٍّ بالله، وقد جاء في الحديث: ((إنَّ مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبَرَّه))، وقال النّبي ﷺ: ((رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين، مدفوع بالأبواب؛ لو أقسم على الله لأبرَّه)). ٤

لكن الإكثار منه والتهاون فيه فهذا مما لا ينبغي، وقد يخل وينقص من تعظيم الله سبحانه وتعالى. ٩

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله، ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضي الله عنهما، "حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع. وهو النضر، فقال: أتكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع. وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي، فقال الرسول ﷺ: ((يا أنس! كتاب الله القصاص))، يعني: السن بالسن. قال: والله، لا تكسر ثنية الربيع"، وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك.

فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا، فقال النبي ﷺ: ((إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره))[1]، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع، فألقى الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر قسمه ولين له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي

[1] البخاري: كتاب الصلح/ باب الصح في الدية، ومسلم: كتاب القسامة/ باب إثبات القصاص في الأسنان.

قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد، ولما استشهد وجد به بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه[1]، وهي الربيع هذه، رضى الله عن الجميع وعنا معهم. ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ: ((رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))[2].

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله عز وجل وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله. ٥

الإقسام على الله يكون على جهتين:

جهة فيها التألي والتكبر والتجبر ورفعة هذا المتألي نفسه حتى يجعل له على الله حق، وهذا مناف لكمال التوحيد، وقد ينافي أصله، وصاحبه متوعد بالعقاب الذي جاء في مثل هذا الحديث، فهذا يتألى فيجعل الله جل وعلا يحكم بما اختاره هو من الحكم، فيقول: والله لا يحصل لفلان كذا. تكبراً واحتقاراً للآخرين فيريد أن يجعل حكم الله جل وعلا كحكمه تألياً واستبعاداً أن يفعل جل وعلا ما ظنه هو، فهذا التألي والإستبعاد نوع تحكم في الله جل وعلا وفي فعله، وهذا لايصدر من قلب معظم لله جل وعلا.

والحال الثانية: أن يقسم على الله جل جلاله لا على جهة التألي؛ ولكن على جهة أنه ما ظنه صحيح، في أمر وقع له أو في أمر يواجهه، فهذا يقسم على الله أن يكون كذا في المستقبل على جهة التذلل والخضوع لله لا على جهة التألي، وهذا هو الذي جاء فيه الحديث ((ومن عباد الله ومن أقسم على الله لأبرَّه)) لأنه أقسم على الله لا على جهة التعاظم والتكبر والتألي؛ ولكن على جهة الحاجه والإفتقار إلى الله، فحين أَقسم أقسم محتاجاً إلى الله وأكد ذلك بالله و أسمائه من جهة ظنه الحسن بالله جل وعلا، فهذا جائز ومن عبادالله من أقسم

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد/ باب قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد.

[2] مسلم كتاب البر والصلة/ باب فضل الضعفاء.

على الله لأبره؛ لأنه قام في قلبه من العبودية لله والذل الخضوع ما جعل الله جل وعلا يجيبه في سؤاله ويعطيه طِلِبَتَه ورغبته.

وأما الحال الأولى فهي حال المتكبر المترفِّع الذي يظن أنه بلغ مقاماً بحيث يكون فعل الله جل وعلا تبعاً لفعله، فتكبر واحتكر غيره.

فبهذا التفصيل يتضح ما جاء في هذا الباب من الحديث. ٣

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد: أن من تألى على الله عز وجل، فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصاً في حقه. ٥

عن جُنْدَبْ بن عبد الله رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ((قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا اغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك)) رواه مسلم[١].

"عن جُنْدَب بن عبد الله"

جندب: بفتح الدّال، ويجوز الضمّ. والمراد به: جندب بن عبد الله البَجَلي، صحابي جليل، رضي الله عنه.

"قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((قال رجل))"

يعني: ممّن كان قبلنا من الأمم. ٤

يحتمل أن يكون الرجل الذي ذكر في حديث أبي هريرة الآتي أو غيره. ٥

((والله لا يغفر الله لفلان))

هذا من النّوع الأوّل، وهو الحلف على الله أن لا يفعل الخير، وهو المحرَّم. ٤

هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند القائل، وإعجابه بنفسه.

---

[١] مسلم: كتاب البر والصلة/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المِغْفَرْ الذي يغطي به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر. ٥

قال الشيخ سليمان كما في ابطال التنديد: "قوله ((والله لايغفر الله لفلان)) ظاهرٌ في قطعه بأن الله لايغفر لذلك الرجل، وكأنه حكم على الله، وحجر عليه لما اعتقد ماله عنده من الكرامة والحظ والمكانة، ولذلك المذنب من الخسة والإهانة، وهذه نتيجة الجهل بأحكام الإلهية والربوبية".

متألي هذا العابد وعظم نفسه وظن أنه بعبادته إلى الله جل وعلا بلغ مقاماً يكون متحكماً فيه بأفعال الله جل وعلا وألا يرد شيء طلبه، أو له أن يتحكم في الخلق، وهذا ينافي حقيقة العبودية التي هي التذلل لله جل وعلا، فالله سبحانه وتعالى عاقبه فقال ((مَنْ ذَا الذِي يَتَأَلَّى عَلَيّ)) يعني يتعاظم ويتكبر عليّ ويحلف علي فيقسم عليَّ. ٣

((فقال الله عزّ وجلّ: من ذا الذي يتألّى عليّ))

يتألّى يعني: يحلف، والأَلِيَّة هي الحَلِف، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة:٢٢٦]، ومعنى ﴿يُؤْلُونَ﴾ يعني: يحلفون. ٤

أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام للإنكار. ٥

قال الشيخ سليمان كما في ابطال التنديد: "قوله: ((من ذا الذي يتألى علي)) استفهام على جهة الإنكار والوعيد، وفي هذا الحديث تحريم الإدلال على الله، ووجوب التأدب معه في الأقوال والأحوال، وأن حق العبد أن يعامل نفسه بأحكام العبودية، ويعامل ربه بما يجب له من أحكام الإلهية والربوبية".

ثم قال جل وعلا: ((إني قد غفرتُ له))

الله جل وعلا يغفر الذنوب، يوفِّق العبد للتوبة ولو قبل الموت بلحظات، ثم يتوب الله عليه ويدخله الجنّة، وقد يكون الإنسان كافراً عدوًّا لله، ثم يمنّ الله عليه بالتوبة والإسلام، ويموت

في لحظته ويدخُل الجنّة، وقد يكون الإنسان على عمل صالح وعلى عبادة ثم يرتد عن الإسلام في آخر لحظة ثم يدخل النّار، فالأعمال بالخواتيم: ((إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيعمل بعلم أهل النّار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها))، فالأعمال بالخواتيم، والمدار على التوبة الصادقة، متى حصلت التوبة الصادقة قبل الغرغرة حصلت المغفرة، مهما كانت الذنوب والخطايا والسيِّئات.

ولهذا جاء في الحديث الآخر: ((أنّ الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنّار مثل ذلك))، ما بينه وبين الجنّة إلاّ أن يموت على الإسلام والتوبة فيدخل الجنّة، وما بينه وبين النّار إلاّ أن يموت على الشرك أو على الذنوب الكبائر فيدخل النار إلاّ أن يعفو الله عمّا دون الشرك.

ولهذا قال المصنِّف رحمه الله في مسائله: "فيه: أنّ الجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والنّار مثل ذلك". ٤

والحديث ورد مبسوطاً في حديث أبي هريرة أن هذا الرجل كان عابداً وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت على رقيباً؟ فقال: والله، لا يغفر الله لك.

وهذا يدل على أن المسرف عنده حسن ظن بالله ورجاء له ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه، لأنه قال: خلني وربي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحاً ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى، فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة، لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له، إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركاً ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]. ٥

وهذا يبين لك عِظم شأن مخالفة تعظيم الله جل وعلا، وعِظم مخالفة توحيد الله سبحانه وتعالى، فهذا الرجل الفاسق، هذا الرجل الطالح، الرجل الفاسق أتاه خير من حيث لا يشعر، وقيلت فيه حقه كلمة بحسب الظاهر أنها مؤذية له، أنها فيها من الإحتقار و الإزدراء له ما يجعله في ضَعَة بين الناس، حيث شهد عليه هذا الصالح بقوله ((وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ))؛ فكانت هذه الكلمة التي ساءته وكان فيها إيذاء له كانت فيها مصلحة عظيمة له أن غفر له ذنبه.

ولهذا نبه الشيخ في مسائل الباب بمسألة معناها أن من الابتلاء والايذاء وكلام الناس في المكلَّف -في الشخص- ما يكون أعظم أسباب الخير له،[1] ولهذا ليست العبرة باحتقار الناس ولا بكلامهم ولا بإيذائهم ولا بتصنيفهم للناس أو بقولهم هذا فلان كذا وهذا فلان كذا، العبرة بحقيقة الأمر بما عند الله جل جلاله.

فالواجب على العباد جميعاً أن يعظِّموا الله وأن يخبتوا إليه وأن يظنوا أنهم أسوء الخلق، حتى يقوم في قلوبهم أنهم أعظم حاجة لله جل وعلا وأنهم لم يوفوا الله حقه.

أما التعاظم بالنفس والتعاظم بالكلام والمدح والثناء ونحو ذلك فليس من صنيع المجلين لله جل وعلا الخائفين من تقلب القلوب، فالله جل وعلا يقلب القلوب ويصرِّفها كيف يشاء، فالقلب المخبت المنيب يحذر ويخاف دائما أن يتقلب قلبُه، فينتبه للفظه، وينتبه لحظه، وينتبه لسمعه، وينتبه لحركاته لعل الله جل وعلا أن يميته غير مفتون ولا مخزي. ٣

قال جلّ وعلا للذي تألّى عليه سبحانه: ((أحبطتُّ عملك))

أي: أبطلته. فهذه الكلمة أبطلت عمله.

ففيه: خطر اللّسان، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: "تكلّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته" يعني: أهلكت دنياه وآخرته. ٤

---

[1] وهي المسألة الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

وهذا للأسف يحصل بين بعض الناس، يرى إنسان إنسانا آخر عليه بعض المعاصي وعليه بعض الأخطاء فيقول: والله لا يغفر الله لفلان، سبحان الله هل أنت علمت سريرته؟ وهل علمت أحواله؟ وهل علمت عظم علاقته بربه؟ وهل علمت عظم خشيته لربه؟ وهل علمت ماذا يقول في السر بينه وبين ربه؟ وهل علمت أعماله؟ هذا تألي على الله، والتألي على الله يدل على عدم حسن الظن بالله سبحانه وتعالى، ولذا قال في الحديث القدسي: ((من ذا الذي يتألي علي ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عمل))). فالذي يتألى على الله يدل على أنه يعجب بعمله، ولا يدري عن حال هذا الشخص الذي قد يكون له عمل جليل غفر الله له بسببه، وربما كان بينه وبين الله سر عظيم إذا خلا مع ربه عز وجل، ربما أنه أصيب ببعض الأمراض والأسقام والمصائب ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى فصبر واحتسب فحصلت له المغفرة، وربما أنه يتذلل لله سبحانه وتعالى ويعظم حدود الله، فيجب على المسلم أن لا يتألى على الله عز وجل فيحبط عمله بسبب إعجابه بنفسه وتطاوله على الله جل وعلا. ٩

قوله: ((وأحبطت عملك)). ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله، لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاماً.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم حسب فهمنا والعلم عند الله: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يمن على الله بعمله، وحينئذ يفتقد ركناً عظيماً من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلابد أن تكون عبداً لله عز وجل بما تعبدك به وبما بلغك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا على رأيهم إذا تبين لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويحرفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبداً فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعاً كاملاً حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى ((أحبطت عملك))، أي: عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالى قال: ((أذهبوا به إلى النار)).

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده فيمن منع الزكاة: ((فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا))[١].

فقوله: ((وشطر ماله))، هل المراد جميع ماله، أو ماله الذي منع زكاته؟

يحتمل الأمرين، فمثلاً: إذا كان عنده عشرون من الإبل، فزكاتهما أربع شياه، فمنع الزكاة، فهل نأخذ عشراً من الإبل فقط مع الزكاة، أو إذا كان عنده أموال أخرى من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟

أختلف في ذلك:

فقيل: نأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة.

وقيل: نأخذ نصف جميع المال.

والراجح أنه راجع إلى رأي الإمام حسب المصلحة، فإن كان أخذ نصف المال كله أبلغ في الردع، أخذ نصف المال كله، وإلا، أخذ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة.ه

هذا معناه التحذير من التألي على الله، والإقدام عليه، وأنه لا يفعل كذا ولا يفعل كذا، والله لا يغفر الله لفلان، والله لا يدخله الجنة، والله لا يوفق ونحو ذلك، هذا منكر لا يجوز، ليس عندك علم من الله، وليس عندك حق عليه، فالواجب حفظ اللسان والحذر من أخطاره، لأن اللسان خطره عظيم، قد يتكلم الإنسان بكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب نسأل الله العافية كما جاء في الحديث، وهذا من هذا الباب، ولو ساء ظنك به، ولو كان صاحب معاصي، لا تقل هذا الكلام، قل: أخشى

---

[١] الإمام أحمد في "المسند" (٢/٥، ٤)، وأبو داود: كتاب الزكاة/ باب زكاة السائمة، والنسائي: كتاب الزكاة/باب عقوبة مانع الزكاة، والحاكم (١/٥٥٥) وصححه على شرطهما ووافقة الذهبي.

عليه، أخاف عليه، اللهم اهده، تدعو له بالهداية، أما أن تقسم على الله أنه ما يدخله الجنة ولا يغفر له، هذا غلط منك، إن ربك حكيم عليم، قد يغفر الله له، قد يتوب الله عليه وأنت لا تدري، الحاصل أن هذا من ظلم اللسان، ومن جور اللسان، ومن خطر اللسان، فالواجب الحذر، وهذا نقص في التوحيد، نقص في الإيمان. ٦

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: "تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته"[١].

وصح من حديث أبي هريرة.

قال البغوي في شرح السنة -وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار- قال[٢]: "دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدًا ولا يدخلك الجنة. قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه. قال فيقول: خَلِّنِي وربي، قال: فوجده يومًا على ذنب استعظمه فقال: أَقْصِرْ، فقال: خَلِّنِي وربي، أبعثتَ عليَّ رقيبًا، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدًا. قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب، قال: اذهبوا به إلى النار)). قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أَوْبَقَتْ دنياه وآخرته"[٣].

ورواه أبو داود في سننه[٤]، وهذا لفظه عن أبي هريرة ﷺ يقول: ((كان رجلان في بني إسرائيل

---

[١] أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٩٠٠)، وأحمد في المسند (٣٢٣/٢، ٣٦٣)، وأبو داود رقم (٤٩٠١)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٥٧١٢) وغيرهم من طريق ضمضم بن جوس عن أبي هريرة ﷺ به وإسناده صحيح.

[٢] القائل هو: ضمضم بن جوسٍ شيخ عكرمة بن عمار، والراوي عن أبي هريرة ﷺ وهو ثقة.

[٣] شرح السنة (٣٨٤/١٤-٣٨٥)

[٤] أبو داود الأدب (٤٩٠١)، أحمد (٣٢٣/٢).

متآخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت عليَّ رقيبًا؟ قال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالِمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار))[1]. ٢

وفي حديث أبي هريرة أنه كان رجلا عابداً، الذي حمله غيرته، حملته عبادته التي كان يتعبدها على أن قال هذا الكلام السيئ، وهذا يفيد أن الإنسان قد يغار غيرة فاسدة قد يجترئ بها على الله، قد يكون عابداً غيورا لله لكن توقعه غيرته في الإثم، قد يكون غيوراً فيتكلم بكلام لا ينبغي مثل هذا الكلام، قد يكون غيوراً فيأمر بمنكر وينهى عن معروف على غير بصيرة، قد يكون غيوراً فينكر منكراً على غير بصيرة، فلا بد من التقيد بالحدود الشرعية في الغيرة في إنكار المنكر، لا بد من الحدود التي حدها الله تلزمها ولا تتعداها. ٦

قوله: "تكلم بكلمة". يعني قوله: والله، لا يغفر الله لك.

قوله: "أوبقت". أي: أهلكت، ومنه حديث: ((اجتنبوا السبع الموبقات))، أي المهلكات.

قوله: "دنياه وآخرته" لأن من حبط عمله، فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته، فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أو بقت دنياه، فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملاً صالحاً، وإلا، فهي خسارة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسان لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]، فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح، فقد خسر دنياه حقيقة، لأن مالها للفناء، وكل شيء فان فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مر عليك وكأنه لم يكن وهذا من حكمة الله عز

[1] أبو داود الأدب (٤٩٠١)، أحمد (٣٦٣/٢).

وجل لئلا يركن إلى الدنيا. ٥

هذه الكلمة أهلكت دنياه وآخرته لأنها خطيرة حيث قال: ((والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: قد غفرت له وأحبطت عملك)) لما اجترأ على الله، هذا وعيد عظيم يفيد الحذر من الجرأة على الله، وأن الإنسان قد يتكلم بكلمة تهلكه. ٦

فهذا الحديث فيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه تحريم الإقسام على الله إذا كان على وجه الحجْر على الله سبحانه وتعالى أن لا يفعل بعباده خيراً، وأنّه مخلٌّ بالتّوحيد.

المسألة الثانية: فيه خطرُ اللّسان، وأنّه قد يزلّ في كلمة تُهلكه في الدنيا والآخرة، فكيف بالذي يتكلّم بكلام كثير من سخَطِ الله؟، ماذا تكون حالته وعاقبته -والعياذ بالله-، كم يتكلمّ الإنسان من الكلام الذي عليه لا له، فلنتحفّظ من ألسنتنا.

المسألة الثالثة: فيه ما أشار إليه المصنِّف: أنّ الجنة أقرب إلى أحدنا من شِراك نعله وأنّ النار مثل ذلك.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على تحريم إعجاب الإنسان بنفسه واحتقاره للآخرين.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وجوب التحفُّظ عند إنكار المنكر من الكلام الذي يكون وبَالاً على صاحبه، لأنّ بعض النّاس عند إنكاره المنكر قد تحمله الغَيْرة فيتكلّم على العُصاة والمخالفين بكلام لا يليق، فيكون إثم ذلك عليه ووبالُه عليه، ففيه: أنّ الإنسان ينكر المنكر بضوابط، ولا يندفع في الإنكار إلى حدٍّ يزلُّ فيه بلسانه أو بيده، فيقع في منكر أشدّ، فإنكار المنكر له ضوابط؛ يقول الله جل وعلا: ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة:٨٣]، ويقول جل وعلا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:١٥٢]، فالإنسان يتكلّم بالكلام الطيِّب الذي له تأثيرٌ حسن على المدعوِّين وعلى العُصاة، ولا يغلِّظ عليه

بكلام يكون منفِّراً ويكون مُغْضِباً لله سبحانه وتعالى، ففيه: أنّه يجب على من يقومون بالإنكار على النّاس والدعوة إلى الله أن يتحفّظوا من الزلاّت التي تُوقعهم في منكر أعظم وتنفر النّاس من القبول. ٤

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة)) إلخ..

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله. لقوله: ((من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان))، وكونه أحبط عمله بذلك. ٥

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المتألي والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم أشار إلى حديث رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه. أن النبي ﷺ قال: ((الجنة

أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك))، ويقصد بهما تقريب بهما الجنة أو النار، والشراك: سير النعل الذي يكون بين الإبهام والأصابع. ٥

الرابعة: فيه شاهد لقوله ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة)) ... إلخ.

يشير المؤلف إلى حديث: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوي بها في النار سبعين خريفاً))[١]، أو ((أبعد مما بين المشرق والمغرب))[٢]، وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان، فقد يسبب الهلاك، ولهذا قال النبي ﷺ: ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة))[٣]، وقال لمعاذ: ((كف عليك هذا)) يعني لسانة. قلت: يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!))[٤].

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدى به، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله، فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة. ٥

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (٢/٢٩٧، ٣٥٥) والترمذي: كتاب الزهد/ باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس (٧/٧٦) وقال: "حسن غريب".

[٢] البخاري: كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان، ومسلم: كتاب الزهد/ باب التكلم بكلمة يهوي بها في النار، ولفظه عند مسلم. ((إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)).

[٣] البخاري: كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان.

[٤] الإمام أحمد في "المسند" (٥/٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة.

فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله ((قد غفرت له)).

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له بشيء هو من أكره الأمور إليه، مثل الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ٥

(بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ)

(بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ)

عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ: نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ وَبِكَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!)) فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ؛ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ)) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

الاستشفاع: طلب الشفاعة.٤

استشفع بالشيء، أي: جعله شافعاً له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعاً، وهي التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه. ٥

والشفاعة: هي الوساطة في قضاء الحوائج عند من هي بيده.

وهي بحسب المشفوع فيه؛ فإن كان المشفوع فيه خيراً فالشفاعة حسنة وفيها أجر، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء:٨٥]، وقال ﷺ: ((اشفعوا تؤجروا)).

أمّا إنْ كانت الشفاعة في أمر محرَّم فإنّها محرَّمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء:٨٥]، كالذي يشفع في إسقاط حد من حدود الله كحدّ الزنا، وحدّ السرقة، وحدّ الشرب، فأراد أحدٌ أن يُبْطِلَه، وذهب إلى الحاكم من أجل أن يترك إقامة الحدّ بعدما تقرّر وثبت؛ فهذه شفاعة محرّمة، قال ﷺ: ((تعافوا الحدود فيما بينكم، وما بلغني من حدٍّ فقد وجب))، وقال: ((إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشّافع والمشفَّع)).

هذا في الشفاعة عند المخلوق:

أمّا الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه: فهذا منكر عظيم، لأنّ المشفوع عنده يكون أعظم من الشّافع، فإذا استشفع بالله إلى أحدٍ من خلقه فمعناه: أن هذا المخلوق عنده أعظم من الله، فهذا تنقُّصٌ لجناب الله سبحانه وتعالى، وهذا مخلٌّ بالتّوحيد. ٤

(باب لا يستشفع بالله على خلقه)

يعني: لا يقول إني أستشفع بالله عليك. ٦

أي: لا يطلب من الله أن يكون شفيعاً إلى أحد، فلا يجعل الله هو الشافع عند أحد. ٩

(لا يستشفع) يعني لا يُجعل الله شفيعاً على الخلق؛ لأن شأن الله جل وعلا أعظم وأجل من أن يستشفع به ويُجعل واسطة للإنتفاع بأحد من الخلق، فالشفاعة المعروفة: تأتي إلى أحد وتطلب أن يكون شفيعاً عند آخر؛ لأن ذلك الآخر هو الذي يملك ما تريد والنفع عنده، وهذا يكون واسطة ولا يستطيع أن ينفعك بنفسه إلا بأن يتوسط، والله جل جلاله لا يجوز أن يظن به ذلك الظن لأن ظن سَوء بالله جل جلاله، والله سبحانه لا يصلح أن يُجعل واسطة لأحد أو إلى أحد من الخلق أو على أحد من الخلق؛ بل هو جل وعلا الذي يملك الأمور جميعاً.

فالاستشفاع بالله على الخلق؛ يعني أن يجعل الله واسطة يتوسَّط العبد بربه على أحد من الخلق هذا منافٍ لكمال التوحيد، وعمل وقول من الأقوال المنافية لتعظيم الله جل وعلا التعظيم الواجب. ٣

قال الشيخ سليمان: "أي إن ذلك حرام، لأنه الكبير المتعال فكيف يشفع عند أحد من خلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً، فإن الشافع إنما يشفع عند من هو أعلى منه، فهذا من أعظم التنقص لرب العالمين، فلذلك استعظمه رسول الله ﷺ."[1]

وأما الاستشفاع بالخلق على الله فالمراد به طلب دعائهم، والمراد بالأحياء منهم كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قم يا عباس فادع الله" [2].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله عز وجل، لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه، إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمراً والله عز وجل لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد، لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد. ٥

هذا الباب في التحذير من الاستشفاع بالله على خلقه، ذكره المؤلف هنا من باب كمال الإيمان، وهذا الكتاب ألف لبيان توحيد الله والإخلاص له وبيان تحريم الشرك وذرائعه ووسائله، وتحريم البدع والتحذير من المعاصي التي تنقص التوحيد وتنقص ثوابه، فهذا مما ينقص ثواب التوحيد، ولهذا ذكره المؤلف هنا رحمه الله، ولأنه من وسائل الشرك وهو الاستشفاع بالله على خلقه. ٦، ٨.

---

[1] إبطال التنديد (صفحه ٢٥٢):

[2] رواه البخاري (١٠١٠) و(٣٧١٠)

عن جبير بن مطعم ﵁ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: نَهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبي ﷺ: ((سبحان الله! سبحان الله!)) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال النبي ﷺ: ((ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)) وذكر الحديث. رواه أبو داود[1].

[1] رواه البخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٢٤) مختصراً، وأبو داود في سننه (رقم ٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٥٧٥ – ٥٧٦) وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ٧١)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش (رقم ١١)، وأبو عوانة في صحيحه (٢/١٢٠)، والطبراني في الكبير (رقم ١٥٤٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره(٨/٢٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد(١/٢٣٩-٢٤٠)، والآجري في الشريعة (٣/١٠٩٠-١٠٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (رقم ١٩٨)، والدارقطني في الصفات(٣٨-٣٩)، وابن منده في التوحيد (رقم٦٤٣-٦٤٤)، والبيهقي في الاسماء والصفات(٢/٣١٧-٣١٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ٦٥٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/١٤١)، والبغوي في شرح السنة (١/١٧٥-١٧٦)، والذهبي في العلو(ص/٤٤)، وغيرهم من طريق محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عتبه بن جبير بن محمد بن جبيرعن أبيه عن جده به.

وأعل بعلتين: عنعنة محمد بن اسحاق لأنه مشهور بالتدليس مع إمامته في المغازي وحسن حديثه في الأحكام، وبجهالة جبير بن محمد بن جبير. وقال الذهبي: "هذا حديث غريب جداً، فَرْدٌ، وابن اسحاق حجة في المغازي إذا أسند وله مناكير وعجائب. فالله أعلم أقال النبي هذا أم لا؟.."، واستغربه ابن كثير في تفسيره (١/٣١٠). وضعفه الالباني. وقال ابن منده: "وهو إسنادٌ صحيح متصل من رسم أبي عيسى والنسائي"، وقواه شيخ الاسلام في مجموع الفتاوى(١٦/٤٣٥)، وحسنه وابن القيم في حاشيته على مختصر سنن أبي داود (١٣/١٢) ودلل على ذلك، ورد على قول المضَعِّفين.

قوله: "جاء أعرابي"

الأعرابي هو: ساكن البادية، والغالب على سُكّان البادية الجهل. ٤

والغالب على الأعراب الجفاء، لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله. ٥

"نَهِكَت الأنفس"

يعني: ضعُفت.

"وجاع العيال، وهلكت الأموال"

أي: من قلة المطر والخصب، فضعف الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيما إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال، لأنها لم تجد ما ترعاه. ٥

وذلك بسبب تأخُّر المطر، لأنّ عيشة البادية على ما ينزّله الله سبحانه وتعالى من الأمطار، والمطر لا يستغني عنه أحد لا أصحاب الحاضرة ولا أصحاب البادية، كلُّهم بحاجة إلى المطر، فإذا تأخّر المطر تضرّر النّاس، وإذا نزل المطر وأنزل الله فيه البركة انتفع النّاس وانتعشوا، فالأمطار فيها خيرٌ للعباد.

ولا يحبسها الله جل وعلا إلاّ بسبب الذنوب والمعاصي: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦)﴾. ٤

"فاستسق لنا ربك"

يعني: اشفع لنا إلى ربك ليسقينا الغيث. ٦

أي: اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به، لأن طلب الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء. ٥

وهذه عادة الصّحابة ﵃، أنهم كانوا إذا تأخّر المطر أو انحبس المطر طلبوا من النّبي ﷺ أن يستسقيَ لهم.

والاستسقاء هو: طلب السُّقيا.

والاستسقاء: سنّة قديمة فقد استسقى موسى عليه الصلاة والسلام لقومه، واستسقى سليمان لقومه، واستسقى نبيُّنا محمد ﷺ لأمّته، فالاستسقاء مشروع.

وذلك بأن يأتوا إلى النّبي ﷺ في حياتِه ويطلبوا منه أن يدعو الله لهم بنزول المطر، فالنّبي ﷺ يُجيبُهم إلى ذلك، تارةً يدعو وهو جالس بين أصحابه، وتارة يدعو في خطبة الجمعة بنزول المطر، وتارة يخرُج إلى المصلَّى في الصحراء فيصلِّي بالنّاس صلاة الاستسقاء، ثم يخطُب ويدعو الله سبحانه وتعالى ويسقيهم الله عزّ وجلّ.

وبعد وفاة النّبي ﷺ كانوا يأتون إلى الخلفاء الراشدين: يأتون إلى عمر فيطلُبون منه أن يدعوَ الله لهم، وعمر يطلب من العبّاس عمّ النّبي ﷺ أن يدعوَ الله لقرابَتِه من رسول الله ﷺ.

كذلك المسلمون يطلُبون من علمائهم ووُلاة أمورهم ومن الصالحين منهم أن يدعو ربّهم بالسقيا، وهذه سنّة ثابتة.

فمجيء هذا الأعرابي إلى النّبي ﷺ وطلبه من الرّسول أن يستسقيَ لهم، أمرٌ معروف مستقرّ.

ولكن هذا الأعرابي لم يقتصر على ذلك بل قال: "فإننّا نستشفع بالله عليك". ٤

أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ. ٥

وهذه هي الكلمة المنكَرة، لأنه جعل الله شافعاً عند الرّسول ﷺ، والشّافع أقلّ درجة من المشفوع عنده، فهذا تنقُّصٌ لله سبحانه وتعالى. ٤

يعني "نَسْتَشْفِعُ بالله" نجعل الله جل وعلا واسطة يتوسط لنا عندك حتى تدعو، والله جل وعلا هو الملك الحي القيوم، الملك الحق المبين، الذي نواصي العباد بيديه يصرفها كيف يشاء، شأن الله أعظم من أن يستشفع به على أحد من خلقه؛ بل الرجل أو المكلف يستشفع بأحد من الخلق عند مخلوق آخر يحتاجه في شيء، والله جل وعلا هو الذي يملك الأشياء جميعاً، وهو الذي يصرف القلوب، هو الذي بيده الملك والملكوت، هو الذي بيده مقاليد السموات

والأرض وبيده خزائن كل شيء ﴿وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

[الحجر:٢١]، فالعباد هم المحتاجون إلى الله، وشأن الله أعظم من ذلك إذِ المخلوق حقير وضيع بالنسبة إلى الرب جل جلاله، وهو -هذا المخلوق- لا يصلح أن يُجعل الله جل وعلا واسطة عنده حتى يقبل هذه الواسطة؛ بل شأن الله جل وعلا أعظم من ذلك.٣

وقوله: "ونستشفع بك على الله"

أي: نطلب منك أن تكون شافعاً لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح. ٥

هذا أيضاً لا إنكار فيه في حياة النّبي ﷺ، لا بعد موته. ومعناه: طلب الدعاء من الرّسول لهم بالسقيا، كذلك طلب الدعاء من الصالحين الأحياء، لا بأس به. ٤

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته، فالمراد به استجلاب دعائه، وليس خاصًّا به ﷺ بل كل حي يُرْجَى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة. ٢

وأما بعد وفاته فلا يجوز الاستشفاع به كما تقدم تقريره في باب الشفاعة وما قبله، والله تعالى نهى عن اتخاذ الشفعاء في مواضع كثيرة من القرآن، ونفاها في حق من سألها من غير الله. ٧

وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي شرع في حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة أي: ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف:٦] فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع

ولا يضر. والصحابة رضي الله عنهم، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أوقات الجَدْب، كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ فأمره أن يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ.

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضرًا. فإنهم في الحقيقة إنما تَوَجَّهُوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يُشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيرًا لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك، وبالله التوفيق. ٢

ثم إنّه ﷺ نزّه الله عن هذا التنقُّص وهذا الجهل الذي وقع من هذا الأعرابي في حقِ الله، وقال: ((سبحان الله! سبحان الله!)). ٤

قال ﷺ استعظاماً لهذا القول، وإنكاراً له، وتنزيهاً لله عز وجل عما لا يليق به من جعله شافعاً بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك. وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب، لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالنقص تجعله ناقصاً، كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل أن السيف أمضى من العصا. ٥

وهذه عادته ﷺ، أنّه كان إذا استنكر شيئاً يسبِّح، أو أعجبه شيء يسبِّح أو يكبِّر. ٤

وهذا من عادته ﷺ إذا سمع ما يكره قال: سبحان الله، سبحان الله، أو الله أكبر الله أكبر، وقد يقول ذلك عند الأمر العظيم أيضاً، وهكذا الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يقولون ذلك، فإنه لما

قال بعض الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال: ((الله أكبر الله أكبر،

قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)) استعظم هذا لأنه من طلب الشرك، استعظم هذا وحذرهم منه بهذا الكلام العظيم الذي يريد الزجر والتحذير، ثم قال: ((الله أكبر)) يبين أن هذا الأمر لا يليق، ولما قال النبي ﷺ: ((إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة)) قال ابن مسعود: فكبرنا، ولما قال: ((أرجو أن تكون ثلث أهل الجنة)) كبرنا، قال: ((إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة)) فكبرنا، من باب تعظيم هذا الأمر والفرح به والسرور به، فهذا التكبير والتعظيم عند ذكر العظيم المحبوب وعند ذكر العظيم المكروه المنهي عنه، فيقال: سبحان الله، والله أكبر، عند هذا وعند هذا، عند المحبوب فرحا به، وعند المكروه إنكارا له. ٦

قوله: "حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابِه"

لَمّا تأثَّر وغضب، غضبوا لغضب الرّسول ﷺ، وتأثّروا من تأثُّر الرّسول ﷺ، وظهر ذلك على وجوههم رضي الله عنهم. ٤

أي: عرف أثره في وجوه أصحابه وأنهم تأثروا بذلك، لأنهم عرفوا أنه ﷺ لا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التنقص لله تعالى، فسبح النبي ﷺ ربه تنزيهاً له عما توهمه هذه الكلمة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه في السفر إذا هبطوا وادياً سبحوا، تنزيهاً لله تعالى عن السفول الذي كان من صفاتهم، وإذا علوا نشزا كبروا، تعظيماً لله عز وجل، وأن الله تعالى هو الذى له الكبرياء في السماوات والأرض. ٥

ثم قال: ((ويحك!))

(ويح) كلمة يُراد بها العِتاب، أو يراد بها الشَّفَقة أحياناً. ٤

قوله: ((ويحك)). ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمك الله ويحك.

وتارة تضاف، فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة، فيقال: ويحاً لك، وتارة ترفع على أنها مبتدأ، فيقال: ويحه أو ويح له.

وهي وويل وويس كلها متقاربة في المعنى.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى ويحك: إني أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله ﷺ لهذا الرجل ترحماً لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله. ٥

((أتدري ما الله؟))

هذا استنكار من النّبي ﷺ وبيان لجهل هذا الأعرابي في حق الله. ٤

فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله. ٧

المراد بالاستفهام التعظيم، أي: شأن الله العظيم، ويحتمل أن المعنى: لا تدري ما الله، بل أنت جاهل به، فيكون المراد بالاستفهام النفي. ٥

((إنَّ شأنُ الله أعظم من ذلك))

أي: إن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا اللفظ. ٥

((إنّه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه))

أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعاً إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه. ٥

لَمّا أنكر ﷺ ذلك ونزّه ربّه علّم هذا الجاهل ما يجب عليه من تعني الله. ٤

هذا يبين أنه لا يجوز أن يقال: أستشفع بالله عليك يا فلان، ولكن يستشفع بالمخلوق على المخلوق، فيقال: يا فلان أنا استشفع بفلان عليك ما في بأس، أما على الله لا، لا يقال: أستشفع بالله عليك يا فلان، لأن شأن الله أعظم من ذلك، ومن شأن المستشفع به إلى

المشفوع إليه أن المشفوع أعظم، وهذا لا يليق، فإن الله فوق الجميع، وأعظم من الجميع سبحانه و تعالى، فلا ينبغي لعاقل أن يستشفع بالله على خلقه. ٦

فالله جل وعلا من علم أسماءه وعلى الصفات المستحقة له جل وعلا فإنه لن يدور بخاطره ظنٌّ سَوْءِ به جل وعلا أو استنقاص له جل وعلا.

إذن هذا الباب فيه كما في الأبواب قبله ما يتحرز به الموحد من الألفاظ التي فيها سُوء ظن بالله جل وعلا وتنقص لمقام الربوبية لله جل جلاله. ٣

وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ: ((من سأل بالله فأعطوه))، وهذا دليل على جواز السؤال بالله، إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزاً لم يكن إعطاء السائل واجباً؟

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المسؤول به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطي.

على أن بعض العلماء قال: "من سألكم بالله"، أي: من سألكم سؤالاً بمقتضى شريعة الله فأعطوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله.

والمعنى الأول أصح، وقد ورد مثله في قول الملك: ((أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن)). ٥

فهذا الحديث فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: في الحديث دليل على مشروعيّة الاستسقاء عند تأخُّر المطر، فهو سُنّة ثابتة، وأن الطّلب من الصالحين الأحياء الحاضرين أن يدعو الله للمسلمين، لا بأس به، أمّا الميت فلا يُطلب منه شيء، لا شفاعة ولا دعاء.

والدليل على ذلك: أنّ الصّحابة ﷺ لَمّا تُوفيّ الرّسول ﷺ لم يكونوا يذهبون إلى قبره إذا أجدبوا أو احتاجوا إلى شيء، ما كانوا يذهبون إلى قبره مثل ما كانوا يأتونه وهو حيّ ويطلبون منه الدعاء، وإنّما عدلوا إلى العبّاس عمّه لأنّه حيٌّ موجود بينهم وطلبوا منه أن يدعو الله لهم.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على إنكار المنكر، فإنّ النّبي ﷺ أنكر على هذا الأعرابي ولم يسكُت عنه.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على تحريم الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه، وأنّ هذا يُخِلُّ بالعقيدة وينقِّص التّوحيد، وفيه إساءةُ أدبٍ مع الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي عقد المصنِّف هذا الباب من أجله.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أنّ طلب الدعاء والاستشفاع بالحيّ جائز، لأنّ النّبي ﷺ لم يُنكر على هذا الأعرابي قوله: "ونستشفع بك على الله"، وإنّما أنكر عليه الجملة التي قبلَها: "إنا نستشفع بالله عليك"، أمّا الاستشفاع بطلب الدعاء من الحي الحاضر فلا بأس بذلك، وهذا فعل الصّحابة مع الرّسول ﷺ ومع غيرِه إذا احتاجوا إلى ذلك.

المسألة الخامسة: فيه مشروعيّة تعليم الجاهل، فإنّ النّبي ﷺ علَّم هذا الجاهل بعدما أنكر عليه ونبهه على الخطأ الذي حصل منه من أجل أن يتجنَّبه.

المسألة السادسة: فيه مشروعية التسبيح والتكبير عند حصول أمرٍ منكر أو أمرٍ عجيب، بدل التصفيق الذي أحدثه من يقلدون الكفار. ٤

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: "نستشفع بالله عليك".

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: "نستشفع بك على الله".

الرابعة: التنبيه على تفسير ((سبحان الله)).

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك. تؤخذ من قوله ((سبحانه الله! أتدري ما الله))، وقوله: ((إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقة)). ٥

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة عظيمة منكرة. ٥

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: "نستشفع بك على الله".

لأنه قال: لا يستشفع بالله على أحد، فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: "نستشفع بك على الله"، وهذا يدل على جواز ذلك، وهنا قاعدة وهي: إذا جاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكر بعضها وسكت عن بعض، دل على أن ما لم ينكر فهو حق، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأنكر قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وسكت عن قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، فدل على أنها حق، ومثلها عدد أصحاب الكهف، حيث قال عن قول: ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَة سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، وسكت عن قول ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. ٥

الرابعة: التنبيه على تفسير ((سبحان الله)).

لأن قوله: ((إن شأن الله أعظم)) دليل على أنه منزه عما ينافي تلك العظمة. ٥

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه، لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه وعبادته، ولهذا لما حصل الجدب في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس، فقال: "اللهم! إن كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا". وتوسلهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو.

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي كان جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليكم يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وإني قد جئت مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم أنصرف، قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: يا عتبي! بشر الأعرابي أن الله قد غفر له.

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها، لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح، لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و"إذ" لما مضى بخلاف "إذا" والصحابة رضي الله عنهم لما لحقهم الجدب في زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم[١].

ومن فوائد الحديث:

١. أنه ينبغي أن يقدم الإنسان عند الطلب الأوصاف التي تستلزم العطف عليه، لقوله: "نهكت الأنفس".

---

[١] البخاري: كتاب الاستسقاء/ باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء.

٢. الترحم على المذنب إذا قلنا: إن "ويح" للترحم. ٥

(بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ)

(بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقُلْنا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: ((السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى))، قُلْنا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: ((قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ)) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.وَعَن أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَاساً قَالَوا: يا رَسُولَ اللَّهِ: يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: ((يا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مِنْزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

سبق بابٌ يشبه هذا، وهو قول الشيخ رحمه الله هناك: "باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التّوحيد، وسدّه كل طريق يوصِّل إلى الشرك"، فما الفرق بين البابين؟.

الفرق بين البابين: أنّ جناب التّوحيد معناه: جانب التّوحيد، وهنا: "حمى التّوحيد" وفرقٌ بين الجانب وبين الحمى، لأنّ الجانب بعض الشيء، وأمّا الحمى فهو ما حول الشّيء.

فهناك أراد المصنِّف رحمه الله أن يبيّن حماية النّبي ﷺ للتوحيد نفسه من أن يقع فيه شرك.

وهنا أراد أن يبيّن أنّ النّبي ﷺ حمى ما حول التّوحيد، بعد حمايته التّوحيد، وهذا من باب العناية التامة بشأن التّوحيد. ٤

تقدم في أول الكتاب (باب ما جاء في حمى النبي جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)، الباب الأول فيما يتعلق بالأعمال، وأنه حمى حمى التوحيد من جهة الأعمال، فنهى عن اتخاذ المساجد على القبور والغلو فيها، لأن هذا من وسائل الشرك، وهنا الحماية حماية التوحيد من جهة الأقوال، والأول من جهة جناب التوحيد، وجنابه جزء منه، والباب الثاني

هذا في حماه، والحمى خارج عن الذات، هذه الترجمة أبلغ فهي تتعلق بالحمى، تتعلق بالأقوال، والترجمة الأولى تتعلق بجزء من التوحيد وجنابه الذي هو جزء منه، وتتعلق بالأفعال وتعم الأقوال أيضاً، فالرسول ﷺ حمى حمى التوحيد وحمى جناب التوحيد أقوالاً وأعمالاً عليه الصلاة والسلام، حمى جنابه يعني حمى ذات التوحيد، وحمى حماه من جهة القول والعمل حتى لا يقع الناس في الشرك، وحتى لا يدنو منه ولا يقربوا منه، وهذا من كمال البلاغ وتمام البلاغ أن يكون الداعي يحذر من الشرك ومن وسائل وذرائعه الموصلة إليه. ٦

قوله: "باب ما جاء" يعني: من الأحاديث.

"في حماية النّبي ﷺ" الحماية معناها: المنع، أي: منع النّبي ﷺ.

"حمى التّوحيد" أي: ما حول التّوحيد.

"وسده طرق الشرك" الطرق هي: الأشياء التي توصِّل إلى الشيء، فالنّبي ﷺ سدّ الوسائل والأسباب التي تؤدِّي إلى الشرك وإن لم تكن هي من الشِّرْك لكن لَمّا كانت تؤدِّي إلى الشرك منع منها النّبي ﷺ احتياطاً للتّوحيد، فقد يكون الشيء مباحاً في نفسه، ولكن إذا كان هذا المباح يُفضي إلى محرَّم فإنّ هذا المباح يُصبح حراماً، لأنّ الوسائل لها حكم الغايات، فالوسيلة إلى المحرّم تكون حراماً، وهذا ما يسمّى عند الأُصوليّين بقاعدة (سدّ الذرائع)، فكلُّ ذريعة توصِّل إلى محظور وإلى حرام فإنّ الشّارع منع منها وحرّمها، وهذا كثيرٌ في الشريعة. ٤

النبي عليه الصلاة والسلام حَمى وحرس جناب التوحيد، وحَمى حمى التوحيد، وسد طرق توصل إلى الشرك، فإن في سنة النبي عليه الصلاة والسلام من الدلائل على قاعدة سد الذرائع ما يبلغ مائة دليل أو أكثر، وأعظم الذرائع التي يجب أن تسد ذرائع الشرك التي توصل إليه، ومن تلك الذرائع قول القائل: "أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا" ونحو ذلك، فإن هذا فيها التعظيم الذي لا يجوز أن يواجَه بشر، فإن النبي ﷺ هو سيد ولد آدم كما أخبر به عليه الصلاة والسلام؛ لكن كره المواجهة كما سيأتي.

إذن فحماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرقَ الشرك:
- كان في جهة الاعتقادات.
- وكان في جهة الأعمال والأفعال.
- وكان في جهة الأقوال.
فإذا تأملت سنته وما جاء في هذا الكتاب -كتاب التوحيد- وجدت أنه عليه الصلاة والسلام:
سد الباب في الإعتقادات الباطلة.
وسد الباب في الأفعال الباطلة كقوله ((اشْتَدّ غَضَبُ اللهِ عَلَىَ قَوْمٍ اتّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)).
وسد الباب أيضاً في الأقوال التي توصل إلى الغلو المذموم فقال ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)).
وهذا الباب أيضاً من ذلك في بيان حمى الرسول ﷺ حمى التوحيد فيما يتعلق بالقول الذي قد يتبعه اعتقاد. ٣
حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله: ((لا تُطْروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله))[١]، وتقدم قوله: ((إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله عز وجل))[٢] ونحو ذلك.

---

[١] البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦١)، أحمد (٥٦/١).

[٢] رواه الطبراني كما في المجْمَعْ (١٥٩/١٠) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. ومدار إسناده على عبد الله بن لهيعة، وقد اضطرب فيه. فمرةً رواه باللفظ المذكور، ومرةً رواه بسنده عن عبادة بن الصامت قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ فقال ابو بكر رضي الله عنه:" قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: ((لا يقام لي إنما يقام لله تبارك وتعالى)) و هذا هو اللفظ المشهور، وقد سبق تخريجه.

ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنسانا: ((ويلك قطعت عنق صاحبك)) الحديث، أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: ((أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له: قطعت عنق صاحبك - ثلاثًا))[1].

وقال: ((إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب))[2] أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

وفي هذا الحديث نهى عن أن يقولوا أنت سيدنا وقال: ((السيد الله تبارك وتعالى)) ونهاهم أن يقولوا: "وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا" وقال: ((لا يستجرينكم الشيطان)). ٢

مناسبة الباب للتوحيد:

لما تكلم المؤلف رحمه الله فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد وعلى ذكر ما ينافيه كماله، ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك. ٥

عن عبد الله بن الشخير ﵁، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: ((السيد الله تبارك وتعالى)). قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً؛ فقال: ((قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان)) رواه أبو داود بسند جيد.

قولُه: "عن عبد الله بن الشِّخِّير"

هو عبد الله بن كعب بن عامر بن الشخِّير العامري نسبةً إلى بني عامر، قبيلة من قبائل العرب معروفة.

---

[1] البخاري الأدب (٥٧١٤)، وفي صحيحه (رقم ٦١٦٢)، مسلم في صحيحه الزهد والرقائق (٣٠٠٠)، أبو داود الأدب (٤٨٠٥)، أحمد (٤١/٥).

[2] مسلم الزهد والرقائق (٣٠٠٢) الترمذي الزهد (٢٣٩٣) أبو داود الأدب (٤٨٠٤) ابن ماجه الأدب (٣٧٤٢)، أحمد (٥/٦).

قال: "انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ".

الظاهر أن هذا وفد قدم على النبي ﷺ في العام التاسع، لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يسمى عام الوفود. ٥

وذلك عام الوُفود، وهو العام التّاسع من الهجرة، فإنّ النّبي ﷺ لَمّا فتح الله عليه مكّة في السنّة الثامنة من الهجرة، دخل النّاس في دين الله أفواجاً، فصاروا يتوافدون على الرّسول ﷺ يعلنون إسلامهم، فسمّيَ هذا العام عامَ الوُفود، وهذا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً (٢)﴾ [الفتح:١-٢]، والفتح المراد به: فتحُ مكّة.

قالوا للرّسول ﷺ يخاطبونه: "أنت سيدنا"

على عادة العرب أنّهم إذا قدِموا إلى كبيرٍ من كبرائهم أو ملكٍ من ملوكهم يمدحونه ويفخِّمونه بالألفاظ، فظنّوا أن النّبي ﷺ كذلك يقال له مثل ما يقال لرؤساء العرب وملوك العرب، فقالوا: "أنت سيدنا وابن سيدنا". ٤

السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظيمة والفخر وما أشبهه. ٥

فقال النّبي ﷺ: ((السيِّد الله تبارك وتعالى))

أراد ﷺ أن يسدّ باب الغلوّ في حقّه ﷺ، قال لهم: ((السيِّدُ الله)) من أجل أن يتركوا هذا اللّفظ.

والسيِّد يطلق ويُراد به: المالِك، كما يقال لمالك العبد: سيِّد، لأنّه يملكُه، فالله جل وعلا هو السيد، بمعنى أنّه هو المالك المطلق الذي له التصرُّف كما يشاء سبحانه وتعالى في عباده، فهو السيِّد والخلق عباده سبحانه وتعالى.

والنّبي ﷺ أراد أن يسدّ هذا المديح خوفاً عليهم من الغلو، كما أن الصّحابة لَمّا آذاهم منافق من المنافقين فقالوا: "قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ"، فقال النّبي ﷺ: ((إنّه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله))، فأراد ﷺ أن يسدّ هذا الباب، وإن كانت الاستغاثة بالمخلوق فيما

يقدر عليه جائزة، كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾، والنّبي ﷺ قادرٌ على أن يردع هذا المنافق ولكنّه أراد أن يعلِّم الأمّة الآداب ويبعدها عن الغلو فقال: ((إنّه لا يُستغاث بي، وإنّما يُستغاث بالله عزّ وجلّ)).

وقال أيضاً: ((لا تُطْرُوني)) أي: لا تزيدوا في مدحي، ((كما أطرت النصارى ابن مريم)) أي: كما غَلَت النصارى في المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام حتى أدّى بهم هذا الغلوّ إلى أن عبدوه من دون الله، وجعلوه إلهاً، ((إنّما أنا عبد، فقولوا :عبد الله ورسولُه)).

إلى غير ذلك من الأحاديث التي ينهى فيها النّبي ﷺ عن الغلوّ في مدحه ﷺ، خوفاً على الأمّة من الوُقوعِ في الشّرك، لأنّ المبالغة في المدح تُفضي إلى الغلو والشرك في الممدوح، لاسيّما إذا كان هذا الممدوح نبيًّا من الأنبياء، أو كان صالحاً من الصالحين، أو عالماً من العلماء أو ممّن كانت لهم مكانةٌ في النّاس، فإنّه لا يجوز الغلوّ في مدحه، لأنّ هذا يؤدِّي إلى الشرك.

وأيضاً: مدح الإنسان في وجهه يسبِّب إعجاب الممدوح بنفسه، فالمبالغة في المدح فيها محذوران.

المحذور الأوّل على المدح نفسه: أن يغلو في الممدوح حتى يعبُده من دون الله.

والمحذور الثّاني في حقِّ الممدوح: فقد يُعجب هذا الممدوح في نفسِه ويرى لنفسه منزلة رفيعة، فيكون ذلك ضرراً عليه ويفسد أعماله، لأنّ الإنسان إذا أُعجب بأعماله وأُعجب بصلاحه وأُعجب بعلمه فإن ذلك يؤدي إلى فساد أعماله، لأنّ الواجب على الإنسان أن يتذلّل لربّه وأن يخضع لربِّه وأن يعرف قدْر نفسه وأنّه ضعيف، وأنّه محتاج إلى الله سبحانه وتعالى، وأنّه مخلوق كسائر المخلوقين ليس له ميزة على غيره من البشر إلاّ بالتقوى والعمل الصّالح، وإلاّ فإنّه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى.

فالنّبي ﷺ قال لهم: ((السيِّد الله)) من أجل أن يسدّ عليهم هذا الطريق الذي كانوا يعتادونه مع رؤسائهم ومع أكابرهم. ٤

هذا من باب التواضع خوفاً عليهم من الغلو، وإلا هو سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، لكن قال هذا لهم ((السيد الله)) من باب التواضع ولئلا يقعوا في الغلو، وهو يدل على أنه إذا خوطب الإنسان بأن يقال له: أنت سيدنا، ينبغي أن يقول: لا، السيد الله حتى لا يقع في قلبه شيء من الترفع والتعاظم، فلا يخاطب أنت سيدنا، فإذا قال له القائل ذلك، ينبغي له أن يقول: يا أخي لا تقل كذا، قل: يا أخي، يا أبا فلان، كما قال النبي ﷺ: ((السيد الله)) من باب التواضع والحذر من وقوع ما قد يقع في النفوس من التكبر والتعاظم. ٦

في هذا الحديث أن إطلاق لفظ (السيد) على البشر هذا مكروه، ومخاطبته بذلك يجب سدُّها، فلا يخاطب أحد بأن يقال له: أنت سيدنا. على جهة الجمع؛ وذلك لأن فيها نوع تعظيم:

- من جهة المخاطبة يعني الخطاب المباشر.
- والجهة الثانية من جهة استعمال اللفظ.

والنبي عليه الصلاة والسلام سيد كما قال عن نفسه ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)) ولكن مخاطبته عليه الصلاة والسلام مع كونه سيداً؛ لكنه كرهها ومنع منها لأنها تؤدي إلى ما هو أعظم من ذلك من تعظيمه والغلو فيه عليه الصلاة والسلام.

فهذا مناسبة هذا الحديث لهذا الباب أنّ في قوله عليه الصلاة والسلام ((السّيّدُ الله تبارك وتعالى)) مع كونه عليه الصلاة والسلام هو سيد ولد آدم ما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام حَمَى حِمى التوحيد وسدَّ الطرق الموصلة إلى الشرك ومنها طريق الغلو في الألفاظ.

والقول للرجل بأنه سيد ونحو ذلك إذا كان على وجه المخاطبة له والإضافة إلى الجمع فهذا أشدُّها، وإذا كان بدون المخاطبة له ولفظ الجمع فإنه أهون منه، ومما ذَكر العلماء أن قوله عليه الصلاة والسلام ((السّيّدُ الله تبارك وتعالى)) أنه يُكره كراهة شديدة أن يقال لبشر إنه السيد هكذا بالألف واللام وكلمة سيد؛ لأن هذا قد يفهم منه استغراق معاني السيادة لأن البشر له سيادة تخصه؛ لكن الألف واللام هنا قد يُفهم منه استغراق ألفاظ السيادة.

ولهذا ترى أن الذين يشركون ببعض الأولياء كالسيد البدوي يعظمون كلمة السيد، ويكثر عندهم التعبير بالسيد ويريدون به السيد البدوي، فيكثر عندهم عبد السيد ونحو ذلك، ولا يريدون به الله جل وعلا ولكن يريدون به ذلك الذي اتخذوه معبوداً، وتوجهوا إليه ببعض أنواع العبادة، فيفهمون من كلمة السيد أنه ذو السيادة وذو التصرف في الأمر، وهذا هو الذي اعتقدوه من أنّ للبدوي ولأمثاله أن لهم تصرفا في الأرض وقبولا للمطالب في الحاجات. ٣

قوله: ((السيد الله)). لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين:
الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من (أل)، لأن (أل) للعموم، والمعنى: أن الذي له السيادة المطلقة هو الله عز وجل، ولكن السيد المضاف يكون سيداً باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد بني فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.
الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه، لأن سيد كل شيء من جنسه.
والسيد من أسماء الله تعالى، وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده[١] وما أشبه ذلك. ٥

قوله: ((تبارك)).
قال العلماء: معنى تبارك، أي: كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله، فلا يقال: تبارك فلان، لأن هذا الوصف خاص بالله.
وقول العامة: "أنت تباركت علينا" لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله عز وجل، وإنما يريدون أصابنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلاً لذلك، قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها: "ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر"[٢]. ٥

---
[١] ابن كثير في "التفسير" (٤/٥٤٠).
[٢] البخاري: كتاب التيمم، ومسلم: كتاب الحيض/ باب التيمم.

قوله: "وأفضلنا".

أي: فضلك أفضل من فضلنا.

قوله: "وأعظمنا طولاً".

أي أعظمنا شرفاً وغنى، والطول: الغنى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥] ويكون بمعنى العظمة، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، أي: ذي العظمة والغنى. ٥

وقوله ﷺ: ((قولوا بقولكم))

يعني القول المعتاد مع الرّسول ﷺ، بأن يقال له: يا رسولَ الله، يا نبيّ الله، هذا القول المعتاد معه ﷺ، وليس فيه غلو.

وقوله: ((ولا يستجرينكم الشيطان))

أي: لا يتّخذكم الشيطان جرياً له، والجري معناه: الرسول، أي: لا تكونوا رسلاً للشيطان يُرسلكم إلى النّاس بالغواية والمديح الكاذب. ٤

يعني لا يجرنكم الشيطان إلى ما لا ينبغي، لا يتخذنكم جرياً أي رسولاً، الجري: الرسول، لا يتخذنكم رسلاً إلى من بعدكم في جرهم إلى الشرك وجرهم إلى الغلو، فالزموا الألفاظ المعتادة: يا أبا القاسم، يا رسول الله، يا نبي الله، ودعوا عنكم الأقوال التي قد تفضي إلى الغلو. ٦

لأن هذا فيه الثناء والمدح بالمواجهة، وهذا من الشيطان، فالشيطان هو الذي يفتح هذا الباب أن يُمدح أحد ويعظَّم في مواجهته، وذلك حتى يعظم في نفسه فيأتيه الخِذلان؛ لأن كل أحد تخلى عن (لا حول ولا قوة إلا بالله) وتخلى عن الإزدراء بالنفس والذل والخضوع الذي يعلمه الله من قلبه فإنه يُخذَل ويأتيه الأمر على غرة، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقال بمثل ذلك القول مواجهة، ونهى عن المدح؛ لأن فيه إضراراً بالمتكلم وأضراراً بالمقول فيه ذلك الكلام. ٣

وقوله ﷺ :((قولوا بقولكم)) الأمر للإباحة[1] والإذن كما سبق وقوله: ((قولوا بقولكم)): يعني قولهم: أنت سيدنا، أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: ((أو بعض قولكم)). يحتمل أن يكون شكاً من الراوي، وأن يكون من لفظ الحديث، أي: اقتصروا على بعضه. ٥

ولم ينههم ﷺ عن قولهم: "أنت سيدنا" بل أذن لهم بذلك، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة، لأن سيدنا خاصة مضافة و"السيد" سيادة عامة مطلقة غير مضافة. ٥

قوله: ((ولا يستجرينكم الشيطان)). استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجري معه، أي: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً، فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغي أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذي لا ينبغي أن يفعل، حماية للتوحيد من النقص أو النقض.

وقال في "النهاية": ((لا يستجرينكم الشيطان))، أي: لا يستغلبنكم فيتخذكم جرياً، أي: رسولاً ووكيلاً.

وعلى التفسيرين، فمراد النبي ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد.

ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، لأنه أعظم الذنوب، وأيضاً باب الزنا حمى حماية عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا، لأن النفوس تطلبه، وفي باب الربا أيضاً حمى الربا بحماية عظيمة، حتى إن الرجل ليعطي الرجل صاعاً طيباً من البر بصاعين قيمتهما واحدة، ويكون ذلك رباً محرماً مع أنه ليس فيه ظلم.

---

[1] ابن عثيمين له رأي مختلف.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم، فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة، فحماه النبي ﷺ حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنى الباب الذي ذكره المؤلف.

تنبيه:

جرى شراح هذا الحديث على أن النبي ﷺ نهاهم عن قول سيدنا: فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: ((أنا سيد ولد آدم))، وقوله: ((قوموا إلى سيدكم))[١]، وقوله في الرقيق: و((ليقل سيدي ومولاي)) بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي بالخطاب، أي: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب، لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئاً أخر، وهو خضوع هذا المتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: ((قوموا إلى سيدكم))، أو على سبيل الغيبة، كقول العبد: قال سيدي ونحو، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلاً، لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)، لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلاً لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً، فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاهاً، وقد جاء في الحديث: ((ولا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل))[٢]، فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور، فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل، فلا يجوز. والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه. ٥

---

[١] البخاري: كتاب المغازي/ باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب.

[٢] الأمام أحمد في "المسند" (٣٤٦/٥)، وأبو داود: كتاب الأدب/ باب لا يقول المملوك ربي وربتي.

وعن أنس رضي الله عنه، أن ناساً قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: ((يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)). رواه النسائي بسند جيد[1].

أما قولهم :"يا رسول الله" فهذا سليم. ٤

هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، أي: لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً، فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، أو: يا نبي الله.

وفي الآية معنى آخر: أي إذا دعاكم الرسول، فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضاً إن شئتم أجبتم وإن شئتم أبيتم، فهو كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وعلى المعنى الأولى تكون ﴿دُعَاءَ﴾ مضافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل. ٥

لكن قولهم: "سيدنا وابن سيّدنا" هذا الذي استنكره النّبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك قولهم: "وخيرنا وابن خيرنا" هذا أيضاً استنكره النّبي صلى الله عليه وسلم، لأن الرّسول صلى الله عليه وسلم لا يريد المدح، وإنّما يريد أن يوصف بما وصفه الله تعالى به من الرّسالة والنبوّة، وكفى بذلك شَرَفاً له صلى الله عليه وسلم. ٤

قوله: "يا خيرنا". هذا صحيح فهو خيرهم نسباً، ومقاماً، وحالاً.

قوله: " وابن خيرنا". أي: في النسب لا في المقام والحال.

وكذلك يقال في قوله: "وابن سيدنا".

قوله: ((قولوا بقولكم)) سبق القول فيه. ٥

---

[1] الإمام أحمد في "المسند" (٢٤١/٣)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٢٤٩، ٢٥٠) وقال ابن عبد الهادي في "الصارم المنكي" (ص ٢٤٦): "إسناده صحيح".

هو عليه الصلاة والسلام كما وصفوه؛ هو خيرهم وهو سيدهم عليه الصلاة والسلام؛ لكنه حمى الجناب جناب التوحيد وحمى حِمى التوحيد حتى لا يستدل أحد بعده عليه الصلاة والسلام بهذا الكلام على أنه يجوز أن يقال لمن ظن الناس فيه ذلك؛ بل سد الباب في نفسه وهو سيد ولد آدم وهو خيرهم عليه الصلاة والسلام وأفضلهم؛ ولكن سد الباب حتى لا يدخل أحد منه بإقراره هذا الفعل فيعظِّم أحد ويدخل الشيطان إلى ذلك المعظم وإلى المضم فيجعل القلوب تتعلق بذلك المعظم حتى يُشرَك به حتى يعظم بما لا يجوز له من التعظيم. ٣

كره ذلك لئلا يكون وسيلة إلى الغلو فيه و الإطراء كما تقدم في قوله: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله)). ٧

كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو. وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للمدوح بمدحه ولو بما هو فيه من عمل الشيطان؛ لما تُفْضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه وذلك ينافي كمال التوحيد؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثمًا، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأساً، والنهي عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أداه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها، وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخالصة، كما في الحديث: ((الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئاً منهما عذبته))[١] وفي الحديث: ((لا يدخل الجنة من كان في

---

[١] مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٢٠)، أبو داود اللباس (٤٠٩٠)، ابن ماجه الزهد (٤١٧٤)، أحمد (٤٢٧/٢).

قلبه مثقال ذرة من كبر))[1]. وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسُلَّمَاً إليها، والعُجْب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيرًا في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه رسول الله ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك. والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح، صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نُصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾... [البقرة: ٥٩] ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات. ٢

قوله ﷺ: ((ولا يستهوينكَم الشيطان)).

((يستهوينَّكم)): يوقعكم في الهوى الذي يضلُّ عن سبيل الله عزّ وجلّ. أو يسهوينّكم: من الهُوِي وهو: الوُقوع في الهلاك، أي: لا يوقعكم الشيطان في الضّلال، أو لا يوقعكم في الهوى الذي يضلّكم عن سبيل الله عزّ وجلّ، فإنّ الشيطان يتدرَّج في بني آدم شيئاً فشيئاً إلى أن يُهلكهم. فعلى المسلم أن يحذر من الشيطان واستدراجه واستهوائه، ولا يتساهل مع الشيطان في شيء ولو كان صغيراً فإنّه يكَبُر ويعظم. ٤

أي: لا يستميلنكم الشيطان فتهوره وتتبعوا طرقه حتى تبلغوا الغلو، ونظير قوله تعالى: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأرضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]. ٥

ثم قال ﷺ: ((أنا محمد؛ عبد الله ورسوله))

هذا ما يمدح به ﷺ العبودية والرسالة. ٤

---

[1] مسلم الإيمان (٩١)، الترمذي البر والصلة (١٩٩٩)، أبو داود اللباس (٤٠٩١)، ابن ماجه المقدمة (٥٩)، أحمد (٤١٦/١)

فإن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف:١] فيلزموا قول: يا رسول الله، يا نبي الله، يا عبد الله ورسوله، ونحو ذلك، والمقصود من هذا سد الذرائع التي قد توصل الناس بالتساهل إلى الشرك، فإنهم إذا قالوا له: أنت سيدنا، وأتوا بالألفاظ الكثيرة التي يأتي بها الناس الآن من الغلو قد تجرهم إلى أن يعبدوه من دون الله، ويدعوه، ويستغيثوا به. ٦

((محمد)) اسمه العلم، ((وعبد الله ورسوله)) وصفان له.

وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١]، ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وكذلك بالنسبة للأنبياء، قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الأسراء: ٣]، وهذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦١،٦٠] قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... فَبُلوا بِرقِ النفس والشيطان

وقال الشاعر:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

قوله: ((ورسوله)). أي: المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً**﴾ [الأعراف:١٥٨].

ورسول الله ﷺ في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، والنبيون فيهم الرسول ﷺ، بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف رحمه الله في الرسول ﷺ: "عبد لا يُعْبَدْ، ورسول لا يُكَذَّبْ".

وقد تطرف في الرسول ﷺ طائفتان:

- طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.
- وطائفة كذبته، وزعمت أنه كذاب، ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك.

وفي قوله: ((عبد الله ورسوله)) رد على الطائفتين. ٥

((ما أُحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ))

"ما" نافية و"أن" وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب، أي: ما أحب رفعتكم إياي فوق منزلتي، لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال. ٥

هذا بيان الحكمة في منعه ﷺ؛ أنّه خشي عليهم في مدحهم له أن يرفعوه فوق منزلته التي أنزله الله وهي العبوديّة والرّسالة، لئلا يعتقدوا فيه جانب الرّبوبيّة، كما حصل للنصارى في حقّ عيسى عليه الصلاة والسلام.

فعبده: فيه منع من الغلوّ.

ورسوله: فيه المنع من تنقص حقه ﷺ.

فلا تعتبره أنّه لا ميزة له على البشر في شيء، كما يقول الكفار: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٥٤]، لأنّه جُحودٌ للرّسالة.

ففي قولنا: "عبده ورسوله" منع من الإفراط ومن التفريط. ٤

قوله: ((التي أنزلني الله)). يستفاد منه أن الله تعالى هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم. ٥

المقصود: أن الواجب على المؤمن أن يحذر شر لسانه وأن يقتصد في قوله، لا مع الرسول، ولا مع غيره، عليه بالتأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل، ومع الصالحين، ومع العلماء، ومع غيرهم حتى يتقيد بالأمر المشروع، وحتى لا يقع في الغلو الذي وقع فيه اليهود والنصارى، وحتى عبدوا أنبياءهم، وحتى استغاثوا بأنبيائهم وصلحائهم، وحتى عبدوا علماءهم، ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر نعوذ بالله. ٦

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى في الألفاظ، ليكون خالصاً من كل شائبة. ٥ هذا الباب كالجامع لما يجب من سد الذرائع الموصلة للشرك، وهذا واجب على المسلم أنَّ كل طريق أو سبيل يجعل نفسه تتعاظم -من نفسه لنفسه أو من الخلق له- يجب عليه أن يسده؛ لأنه أعظم مقامات الشرف لك أن يعلم الله جل وعلا منك أنك متذلل خاضع بين يديه، وأنك خائف وجِلْ تدعوه راغباً راهباً، هذه صفة الخُلَّص من عباد الله جل وعلا الذين وعدهم الله جل وعلا بالخيرات قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، والخشوع نوعان:

- خشوع في القلب.
- وخشوع في الجوارح.

وخشوع القلب بالتطامن والذل والخضوع بين يدي الله.

وخشوع الجوارح بسكونها كما قال جل وعلا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت:٣٩]. ٣

فهذان الحديثان يُستفاد منهما فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه التحذير من الغلوّ في حقِّه ﷺ عن طريق المديح، وأنّه ﷺ إنّما يوصف بصفاته التي أعطاه الله إيّاها: العبوديّة والرِّسالة، أمّا أن يغلى في حقِّه فيوصف بأنّه يفرّج الكروب ويغفر الذنوب، وأنّه يُستغاث به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته، كما وقع فيه كثيرٌ من المخرّفين اليوم فيما يسمّونه بالمدائح النبويّة في أشعارهم كـ "البردة" للبوصيري، وما قيل على نَسْجِها من المخرِّفين، فهذا غلوٌّ أوقع في الشرك، كما قال البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي	فضلاً وإلاّ قل يا زلّة القدم
فإنّ من جودك الدنيا وضرَّتها	ومن علومك علم اللوح والقلم

فهذا غلوٌّ والعياذ بالله أفضى إلى الكفر والشِّرْك، حتى لم يترُك لله شيئاً ، كلّ شيء جعله للرّسول ﷺ: الدنيا والآخرة للرّسول، علم اللوح والقلم للرّسول، لا ينقذ من العذاب يوم القيامة إلاّ الرّسول، إذا ما بقي لله عزّ وجلّ؟. ٤

هكذا أوقعه الغلو في هذا، نسأل الله العافية، حتى قال في حق النبي ﷺ: إنه الذي ينجي يوم القيامة، وهو الذي يأخذ بزلة الناس يوم القيامة، وأن من لا ينجيه النبي ﷺ لا ينجو، وهذا من أعظم الغلو والشرك، نسأل الله العافية، وحتى زعم أنه من جود النبي ﷺ الدنيا وضرتها، من جود النبي ﷺ الدنيا وضرتها، وهي الآخرة، ومن علومه علم اللوح والقلم، يعني النبي ﷺ اطلع على كل شيء، والدنيا في قبضته، والآخرة في قبضته، كل هذا من الغلو الخبيث والكفر البواح، نعوذ بالله. ٦

وهذا من قصيدةٍ يتناقلونها ويحفظونها ويُنشدونها في الموالد.

وكذلك غيرها من الأشعار الكفريّة الشركيّة، خصوصاً ما يُنشد في الموالِد المبتدعة من الأناشيد الشركيّة، كلّ هذا سببه الغلوّ في الرّسول ﷺ.

وأمّا مدحه ﷺ بما وصفه الله به بأنّه عبدٌ ورسول، وأنّه أفضل الخلق، فهذا لا بأس به، كما جاء في أشعار الصّحابة الذين مدحوه، كشعر حسّان بن ثابت، وكعب بن زُهير، وكذلك كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فهذه أشعار نزيهة طيّبة، قد سمعها النّبي ﷺ وأقرّها، لأنّها ليس فيها شيءٌ من الغلو، وإنّما فيها ذكر أوصافه ﷺ.

الفائدة الثانية: في الحديث النّهي عن وصف الرّسول ﷺ بالسيّد، وهذا فيه إشكال عند أهل العلم: حيث إنّه أنكر على من قال له: "أنت سيِّدُنا"، وقال ((السيِّد الله)).

بينما جاءت أحاديث أخرى فيها إطلاق السيِّد عليه ﷺ وعلى غيره، فقد صحَّ عنه ﷺ إنّه قال: ((أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر))، وقال في الحسن بن علي رضي الله عنهما: ((إن ابني هذا سيِّد، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين))، وقال: ((الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنّة))، ولما جيء بسعد بن معاذ رضي الله عنه عام الخندق، قال ﷺ للأنصار: ((قوموا إلى سيّدكم)).

فالعلماء اختلفوا في الجواب على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: تحريم إطلاق لفظ (السيِّد) على المخلوق، فلا يقال السيِّد إلاّ في حقِّ الله سبحانه وتعالى، كما جاء في هذين الحديثين: ((السيِّد الله)) وهذا مرويٌّ عن الإمام مالك رحمه الله.

وأجابوا عن الأحاديث المخالفة بأنها أحاديث متقدّمة، وحديث: ((السيِّد الله)) متأخر لأنّه كان في عام الوفُود في السنّة التاسعة، فيكون ناسخاً للأحاديث التي تدلّ على جواز إطلاق لفظ (السيِّد) على المخلوق.

القول الثّاني: جواز إطلاق السيِّد على المخلوق عملاً بالأحاديث التي فيها ذلك: ((أنا سيِّد ولد آدم))، ((إن ابني هذا سيِّد))، ((قوموا إلى سيِّدكم))، فيجوز إطلاق لفظ السيد على المخلوق كما في هذه الأحاديث.

وأجابوا عن حديث المنع بأنّه محمولٌ على كراهة التنزيه، فيكون النّهي للتنزيه.

والقول الثالث: الجواز مطلقاً بلا كراهة، إلاّ إذا خيف من الغلو، فإنّ النّبي ﷺ خاف عليهم من الغلو، كما في الحديثين المذكورين، فإذا خيف على الإنسان من الغلو يُنهى عن ذلك، أمّا إذا لم يُخفْ عليه من الغلو فلا بأس عملاً بالأحاديث الكثيرة التي جاء فيها إطلاق السيد على المخلوق.

وهناك قولٌ رابع ألمح إليه المشايخ، وهو: أنّه لا يجوز إطلاق السيِّد على الشخص في حضورِه ومواجهته، ويجوز إطلاقُه عليه وهو غائب، لأنّ النّبي ﷺ إنّما استنكر هذا لَمّا واجهوه به ﷺ، فيُمنع مواجهة الإنسان بقول: (أنت السيِّد)، (أنت سيِّدنا) أو ما أشبه ذلك خوفاً عليه من الإعجاب بنفسه، كما نهى النّبي ﷺ من مدح الإنسان حال حضوره.

هذا حاصل الأقوال في هذا المسألة.

تنبيه: الآن لفظ (السيِّد) صار يطلق على من يُعتقد فيهم النفع والضر، مثل من يسمّونهم السادة من أهل البيت أو السادة من الصوفية، وصار يصحب هذا القول اعتقاد في الأشخاص، وهذا لا شكّ في تحريمه.

فإذا أُطلق (السيِّد) على مثل هؤلاء فإنّه محرَّم، لأنّه ينبئ عن اعتقاد باطل وشرك بالله عزّ وجلّ، وأنّ هؤلاء ينفعون ويضرّون وتحلّ البركة منهم.

المسألة الثالثة: فيه ما عقد المصنِّف هذا الباب من أجله، وهو حمايته ﷺ حمى التّوحيد وسدّه الطرق التي تُفضي إلى الشّرك، حيث إنّه منع من وصفه ﷺ بالسيادة وبالفضل وبالطَّوْل من أجل سدّ الوسيلة إلى الغلو وإلى الشرك، ففيه: شاهد للترجمة.

الفائدة الرّابعة: فيه المنع من الغلوّ في مدحه ﷺ سواءً في النثر أو في الشِّعر، والشِّعر أشد، لأنّ الشعر يُحفظ ويُرغب فيه أكثر من النّثر، وبعضهم إذا جاء لزيارة قبر النّبي ﷺ يقف ويدعو النّبي ﷺ يستغفر، ويقول: جئتك تائباً يا رسول الله، يا حبيب الله جئتك تائباً وما أشبه ذلك من الغلو، لأنّ التوبة إلى الله سبحانه وليست إلى الرسول ﷺ. ٤

مما يستنبط من هذا الباب وهذا الحديث تجنب الوسائل الموقعة في المحذور، وهذا يؤيد قاعدة (سد الذرائع) فإذا كان هناك وسيلة تؤدي إلى محاذير كالشرك بالله سبحانه فلا يجوز العمل بهذه الوسائل.

وهنا يسد النبي ﷺ ما يتوصل إلى الغلو في الدين وإنزال الناس غير منازلهم، فيعترض على لفظ (السيد) خشية أن ينزل منزلة الله جل وعلا. ٩

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

الثالثة: قوله: ((ولا يستجرينكم الشيطان)) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي)).

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

تؤخذ من قوله: ((ولا يستجرينكم الشيطان))، ووجهه: أن الرسول ﷺ جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان. ٥

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا. وتؤخذ من قوله: ((السيد الله))، فينبغي أن يقول من قيل له ذلك: ((السيد الله)). ٥

الثالثة: قوله: ((ولا يستجرينكم الشيطان)) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان، فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من استجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنى: قولوا بهذا القول، ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق. ٥

الرابعة: قوله: ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي)).

أي إني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي، وهي العبودية والرسالة، ففيها تواضعه ﷺ. ٥

(بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾)

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٦٧] الْآيَةُ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقَالَ: يا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاواتِ عَلَى إِصْبَعٍ، والْأَرْضينَ عَلَى إِصْبَعٍ، والشَجَر عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، والثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فِيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الْآيَةُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: ((وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فِيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللَّهُ))، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: ((يَجْعَلُ السَّمَاواتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ والثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ)) أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مرفوعاً: ((يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاواتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضينَ السَّبْعَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ)). وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "مَا السَّمَاواتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ".

وقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ))، قَالَ:

وقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﵁: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَا الْكُرْسِيّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيد أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ)).

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: "بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خُمْسُمَائَة عَامٍ، وبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وبَيْنَ السَمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيّ خَمْسِمائَةِ عَامٍ، وبَيْنَ الْكُرْسِيّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، والْعَرْش فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ".

أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيّ عَنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِاللَّهِ وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ عَنِ الْمَسْعُودِيّ عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ. قَالَهُ الْحَافِظُ الذَهَبِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ: "وَلَهُ طُرُقٌ".

وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: ((هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَمَاءِ وَالْأَرْضِ؟)) قُلْنا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعلم قَالَ: ((بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَة سَنَةٍ، ومن كُل سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَكُثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَة سَنَةٍ، وبَيْنَ السَمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلَهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، ولَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ)). أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ .

هذا الباب ختم به المؤلِّف رحمه الله أبواب "كتاب التّوحيد"، لأنه يشتمل على الأسماء والصّفات، لأنّ "كتاب التّوحيد" كلُّه يدور على توحيد الأُلوهيّة، ومكملاته ومنقصاته ومناقضاته، وفي هذا الباب ذكرُ الأسماء والصّفات من أجل أن يتكامل هذا الكتاب فيحتوي على جميع أنواع التّوحيد، لأنّ توحيد الألوهيّة يتضمّن توحيد الربوبيّة، ومن جملة توحيد الربوبيّة: الإيمان بالأسماء والصّفات، ولكن فُصلت الأسماء والصّفات بقسم خاص لوُجود المخالفين فيها؛ من فرق الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة ومَن أخذ بمذهبهم، وقد أنكر عليهم الأئمّة مذهبهم هذا إنكاراً شديداً، وألّفوا في ذلك المؤلَّفات والرُّدود الكثيرة، لأنّ هذا تعطيلٌ لأسماء الله وصفاته، وإلحادٌ في أسماء الله وصفاته، والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالله أثبت لنفسه الأسماء وأثبت له الصّفات، أثبت له السمع، والبصر، والقُدرة، والحياة، والعلم، والوجه، واليدين، وأثبت له سبحانه وتعالى صفات الكمال، فمن نفى ذلك عن الله فقد ألحد في أسماء الله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: اتُركوهم ولا تلتفتوا إلى قولهم، لأنّه مخالف لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

وفي قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ تهديدٌ من الله سبحانه وتعالى لِمَنْ خالف في أسماء الله وصفاته بأنّه سيعذِّبُه.

ولذلكِ عقد المصنف رحمه الله هذا الباب في آخر "كتاب التّوحيد" من أجل تكامل الكلام على التّوحيد. ٤

وخَتْمُه هذا الكتاب بهذا الباب خَتْمٌ عظيم؛ لأن من علم حقيقة ما اشتمل عليه هذا الباب من وصف الله جل وعلا وعظمة الله جل وعلا فإنه لا يملك إلا أن يَذُلَّ ذلا حقيقياً ويخضع خضوعاً عظيماً للرب جل جلاله. ٣

هذا الباب الأخير في الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة، فذكر الآية الكريمة باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] هذه الآية العظيمة تبين عظم قدرته جل وعلا، وأنه الخلاق العليم، وأنه يطوي السماوات ويقبض الأرض، فدل ذلك على عظم قدرته جل وعلا، ومن كان بهذه المثابة فهو حري بأن يعبد ويطاع ويعظم، وهو الذي له الكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه جل وعلا، فالله جل وعلا له الصفات العليا والأسماء الحسنى، وهو سبحانه الخلاق الرزاق، وهو سبحانه أيضاً المستحق للعبادة، فجميع أنواع التوحيد ثابتة له جل وعلا، وهو الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، وهو الحكيم الخبير، السميع البصير، العلي القدير، الحميد المجيد، الموصوف بالصفات العليا وبالأسماء الحسنى جل وعلا.

ومن ذلك يعلم أيضاً أنه المستحق للعبادة، وأنه لا يستحقها سواه لكمال قدرته، وكمال علمه، وكمال أسمائه وصفاته، فمن كان بهذه المثابة فإنه يستحق لأن يعبد ويطاع، لأنه المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، والرزاق لعباده، والقائم بحاجاتهم وأعمالهم. ٦

قوله رحمه الله: "باب ما جاء" يعني: ما ورد عن النّبي ﷺ وعن السّلف الصالح في تفسير هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ وهذه آية عظيمة فيها عبر وعِظات، وأنّ هذا الكون بسمائه وأرضه وجباله وشجره ومائه وثرائه وجميع المخلوقات يجعلها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة على أصابعه ويجمعها في كفيّه سبحانه وتعالى، كمَا صحت بذلك الأدلة، فهذا يدلّ على عظمة الله سبحانه وتعالى، وصغر هذه المخلوقات الهائلة بالنسبة إليه سبحانه وتعالى ويدلّ عل عظمته وكبريائه وجَبَروته سبحانه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظّموه حقّ تعظيمِه. ٤

الضمير يعود على المشركين، و﴿قَدَرُوا﴾: عظموا، أي: ما عظموا، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته. ٥

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني ما عظَّموه حق تعظيمه، ولو عظموه حق تعظيمه لما عبدوا غيره ولما أطاعوا غيره ولعبدوه حق العبادة ولذلوا له ذلا وخضوعا دائما وأنابوا إليه بخشوع وخشية؛ ولكنهم ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني ما عظموه حق تعظيمه الذي يجب لقدره جل وعلا وعظم ذاته سبحانه وتعالى وصفاته. ٣

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: "يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق عظمته،

وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه"[1]

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: "هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره"[2]. ٢

﴿وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

والقبضة: هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال: والأرض في قبضته، لكان تفسيرها بالملك محتملاً.

قوله: ﴿جميعاً﴾. حال من الأرض، فيشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعاً قبضته يوم القيامة. ٥

هذا بيان لعظمته سبحانه وتعالى وسيأتي بيان ذلك في الحديث الذي يسوقه المصنِّف رحمه الله.٤

﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

والسماوات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ٥

من كان يقدر على هذه الأمور فإنّه لا أعظم منه سبحانه وتعالى، كلُّ الكون بمن فيه كلُّه حقير وصغير بالنّسبة إلى خالقه سبحانه وتعالى. ٤

ثم بين جل وعلا شيئاً من صفة ذاته العظيمة الجليلة فقال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فإن عقل الإنسان لا يمكن أن يتحمل صفة الله جل وعلا على ما هو عليه، والله جل وعلا بيّن لك بعض صفاته فقال سبحانه ﴿وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ

---

[1] انظر أَثَري السُّدِّيِّ ومحمد بن كعب في: تفسير ابن جرير (٢٥/٢٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٣٤١/٤)، والدر المنثور (٣١٤/٣).

[2] رواه ابن جرير في تفسيره (٢٥/٢٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٤١/٤) من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وعزاه في الدر المنثور (٣١٣/٣) لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِه﴾ فإذا نظرت إلى هذه الأرض على عِظمها وعلى غرور أهلها فيها، ونظرت إلى حجمها وإلى سعتها وإلى ما فيها فهي قبضة الرحمان جل وعلا؛ يعني في داخل قبضة الرحمان جل وعلا يوم القيامة كما وصف ذلك بقوله ﴿وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فنفهم من ذلك أن كف الرحمان جل وعلا وأن يد الرحمان جل وعلا أعظم من هذا، وكذلك السماوات مطويات كطي السجل في كف الرحمان جل وعلا، كما قال سبحانه هنا ﴿والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وقال في آية سورة الأنبياء ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ الخَلْقِ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فهذه صفات الله جل جلاله هذه صفاته فإن الأرض التي يتعاظمها أهلها والسماوات التي يتعاضمها من نظر فيها هي صغيرة وآيلة في الصغر إلى أن تكون في كف الرحمان جل وعلا، والله سبحانه وتعالى أعظم من ذلك وأجلّ؛ بل هو سبحانه وتعالى الواسع الحميد الذي له الحمد كله وله الثناء كله. ٣

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾. هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: ﴿وَتَعَالَى﴾، أي: ترفع.

قوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. أي: عن كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس. ٥

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هذا يشمل كلّ من تنقّص الله تعالى فإنّه ما قدره حقّ قدره، فيدخل في ذلك الجاحدون المعطِّلون الذين ينفون وُجود الله تعالى، وهم الدهرية الذين يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، يقولون: ليس لنا ربّ يتصرّف فينا، وإنّما هذا الوُجود إنّما هو نتيجة الطّبيعة والصُّدفة ليس له ربٌّ أوجده وخلقه، وإنّما يتفاعل هذا الوُجود بنفسه، فتتكوّن هذه الأشياء من تفاعُل هذا الكون، ويجحدون وُجود الخالق سبحانه وتعالى، وهؤلاء يقال لهم: المعطِّلة الدهريّة.

وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، وردّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، لأن القول لابد أن يكون مستنداً إلى

بُرهان، وأين بُرهانهم؟ لأن البرهان إنما على أنّ هذا الخلْق له خالق، هذا هو البُرهان الذي تقرّه الفطر والعقول.

فلا يُتصوّر ولا يُعقل أن يوجَد مخلوق بدون خالق، فلا عاقل في الدّنيا يتصوّر أنّ هذا الكون وُجد بدون خالق، لأن هذا من باب العبث بالعُقول، هل تجدون مثلاً أنّ قصراً تكوّن بدون عمال وبدون بانٍ؟، هذا محال هل تجدون مثلاً شجرة وُجدت بدون أسباب وبدون بِذار وبدون سقي؟، لابدّ من أسباب لوجودها.

وهذا يقال إنّ الإمام أبا حنيفة رحمه الله جاءه جماعة من الملاحدة وقالوا: نريد المناظرة، فقال لهم رحمه الله: قبل المناظرة بلغني خبرٌ عجيب، قالوا: وما هو؟، قال: بلغني أنّ سفينةً تسير بنفسها في البحر، وتحمَّل نفسها بالبضائع، ثم تأتي وتُفرغ حَمولتها بنفسها بدون عُمّال وبدون قائد، قالوا: هذا مُحال، لا يُتصوّر أنّ سفينة تمشي في البحر وتحمّل نفسها وتُفرغ عن نفسها بدون عمّال وبدون قائد، قال: هكذا بلغني، قالوا: هذا مُحال، قال: يا سبحان الله! إذا كانت سفينة وهي جزئيّة صغيرة في الكون لا يُتصوّر فيها أنّها تعمل هذا الشّيء فكيف بهذا الكون كلّه ليس له خالق وليس له مدبِّر وليس له رب، فانخصموا واندحروا، وأفحمهم بهذه الحُجّة.

وهذه الآية مفحمة لكل ملحد: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ هل يُعقل أنّ الخلق يوجد بدون خالق؟، لا، هذا لا يقولُه عاقل.

وإذا كان الكون لابدّ له من خالق فمن هو هذا الخالق؟، هل هو أنتم؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني: أنتم الذين خلقتم السماء، خلقتم الأرض، خلقتم الشجّر، خلقتم البحار، بيّنوا لنا الذي خلق هذه الأشياء، وضِّحوا لنا، لا يستطيع أحد مهما بلغ من الكفر والإلحاد، لا يستطيع أن يدّعي أنّه خلق السماء، وخلق الأرض، ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٠]، ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان:١١]، فكلّ الكفرة والمشركين لا أحد منهم ادّعى أنّ معبوده من دون الله خلقَ شيئاً من هذا الكون، أبداً، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شركاَءَ

خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد:١٦].

فالله جل وعلا هو المنفرد بالخلْق، ولا أحد نازعَ الله في ذلك من الجبابرة والمتكبِّرين والكَفرة والملحدين، لا أحد ادّعى أنه خلق بعوضة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]، هذا تحدٍّ من الله سبحانه وتعالى، تحدٍّ لجميع الخلق بمن فيهم المهَرة والمهندسون والخُبراء أن يخلُقوا ذباباً، ولا يزال التحدِّي قائماً إلى يوم القيامة، فهذا دليل على أنّ الخالق هو الله.

أوّلاً: الخلْق لابدّ له من خالق، هذه بداهة عقلية لا ينازع فيها إلاّ مكابر.

ثانياً: ما أحد ادّعى أنّه خلق شيئاً من السموات ولا من الأرض، والتحدِّي قائم إلى يوم القيامة.

فالملاحدة ما قدروا الله حقَّ قدره، الذين نفوا وُجود الله ووجود الخالق.

وكذلك المشركون الذي أقرّوا أن الخالق الرّازق المحيي المدبِّر هو الله سبحانه وتعالى، واعترفوا بتوحيد الرّبوبية، ولكنّهم خالفوا في العبادة، وخالفوا في توحيد الألوهيّة، فعبدوا مع الله غيره من الأصنام والأحجار والأشجار والقبور والأضرحة، هؤلاء ما قدروا الله حقّ قدره، حيث إنّهم أشركوا معه غيرَه في عبادته، ممن لا يخلُق ولا يرزق ولا يملك نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً، هؤلاء ما قدروا الله حقّ قدره، حيث سوّوا به خلقاً من خلقه، وجعلوهم معبودين معه، يذبحون لهم، وينذُرون لهم، ويتبرّكون بهم، ويطوفون بقبورهم، ويتبرّكون بالأحجار والأشجار، ويعبدون الأصنام، جعلوا هذه الأصنام والجمادات، وجعلوا هؤلاء الأموات الرُّفات في القبور جعلوهم شركاًء لله في العبادة، هؤلاء ما قدَروا الله حقّ قدره سبحانه وتعالى.

وكذلك ما قدر الله حقّ قدره مَن جحد الأسماء والصّفات، فمن أنكر الأسماء والصّفات الّتي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسولُه ﷺ أو تأوّلها على غير معناها وألحد فيها؛ ما قدَر الله حقّ قدره، فالذي قال: "إنّ الله لا يوصف بصفات، ولا يسمّى بأسماء، وإنّما هذه مجازات لا حقيقة لها، فلا يوصف الله عنده بأنّ له يدين، ولا أنّ له وجهاً، ولا يوصف الله بأنّه في العلو عالٍ على خلقه مستوٍ على عرشه"، ثم راح يؤوِّل هذه الصّفات إلى معانٍ لا تحتملُها، فهذا ما قدَر الله حقّ قدره سبحانه وتعالى، حيث إنّه ألحد في أسمائه، وألحد في صفاته، ما قدر الله حقّ قدره، ويدخُل في ذلك الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة والماتوريديّة، وكلّ من ألحد في الأسماء والصّفات أو جحد بعضها أو شيئاً منها فإنّه ما قدَر الله حقّ قدره ولا عظّمه حقّ تعظيمه، ويدخل في ذلك كلّ من خالف في الأسماء والصّفات فإنّه ما قدَر الله حق قدره ولا عظّمه حق تعظيمه ولا تأدّب مع ربه سبحانه وتعالى، بل صار يكذِّب بما وصف الله به نفسه وسمّى به نفسه، فيقول: هذا غير صحيح، هذا مجاز، هذا ليس بحقيقة، إلى غير ذلك من مقالاتهم الباطلة، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

كذلك ما قدر الله حقّ قدره من نفى القدر: فالقدريّة ما قدروا الله حقّ قدره، حيث نفوا القدر، وقالوا: "إنّ الأشياء توجد بدون قدر الله وأنّها أُنف- يعني: تحدُث بغير قدر الله، وإنّما العبد هو الذي يخلق فعل نفسه دون أن يكون لله قدرٌ سابق وعلمٌ سابق بهذه الأشياء، ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

ويدخل في ذلك كلّ من ألحد في القدر من الجبرية ومن القدريّة، كلّهم ما قدروا الله حقّ قدره.

أيضاً: ما قدر الله حقّ قدره مَن عصى الله وارتكب ما حرّم الله من المعاصي وترك ما أوجب الله من الطّاعات، ما قدر الله حقّ قدره، لأنّه خالف أمره سبحانه وتعالى، ولا شك أن من عصى مخلوقاً فقد تنقّصه فكيف بمن عصى الخالق، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل:٦٠] لو أنّ إنساناً تمرّد على أوامر ملِك من الملوك وأبى أن ينفِّذ ما آمر به، فيكون ما قدر ذلك الملِك حق قدره، بل تنقّص هذا الملِك حيث إنّه لم يلتزم بأوامره ونواهيه، فكيف بالذي

خالف أمرَ الله سبحانه وتعالى، وخالف نواهيه، وارتكب المنهي وترك الواجب؟، هل يكون هذا مقدِّراً لله حقّ قدره؟.

إذاً فكلّ مخالف لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وأحكامه فإنّه ما قدر الله حقّ قدره، حيث لم يمتثل شرعَ الله، ومن لم يمتثل شرع الله فإنّه لم يقدُره حقّ قدره.

كذلك من حكم بغير ما أنزل الله، وجعل القوانين الوضعيّة بديلاً عن الأحكام الشّرعية التي شرعها الله لعباده ما قدر الله حقّ قدره، يقول -بلسان الحال أو بلسان المقال-: إنّ شرعك لا يصلُح للبشر، وإنّما يصلُح للبشر القوانين البشرية التي وضعها المخلوق، هكذا، ما قدر الله حقّ قدره سبحانه.

والنّاس يتفاوتون في هذا، فمنهم من خالف مخالفة كبيرة ومنهم من هو دون ذلك بحسب مخالفتهم، كلّ من خالف الله أي نوع من المخالفة فإنّه ما قدر الله حقّ قدره، وإنّما قدر الله حقّ قدره من امتثل أوامره ونواهيه وحكم بكتابِه وعبد الله وحده ولم يُشرك به شيئاً ، هذا هو الذي قدَر الله حق قدْره، امتثل أمره واجتنب نهيه وآمن به سبحانه وتعالى ووصفه بما وصف به نفسَه وسمّاه بما سمّى به نفسه أو وصف وسمّى به رسولُه ﷺ، هذا هو الذي قدر الله حقّ قدره.

كذلك من جحد الرّسالة وقال: إنّ الله لا يبعث رسولاً من البشر فهذا ما قدر الله حقّ قدره، لأنّه اتهم الله سبحانه وتعالى بأنّه ترك عباده بدون هداية ولا بيان، ولا بيّن لهم طريق الحقّ من طريق الباطل، ولا وضّح لهم، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ [الأنعام:٩١]، فالذي يجحد الرّسالة ويقول: "لا يمكن أن يبعث الله بشراً"، وإنّما يقترح على الله أن يبعث الملائكة إلى البشر؛ فهذا ما قدر الله حق قدره.

وكذلك من جحد البعث، وزعم أن الله لا يبعث عبيده ليجازيهم بأعمالهم: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾ [النجم:٣١]، فهذا ما قدر الله حق

قدره، ووصفه بالعبث، وأن الله خلق الخلق عبثاً، وتركهم سدىً، يعملون بلا نتيجة، لا فرق بين المحسن والمسيء والمطيع والعاصي، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكذلك من جحد كلام الله وقال: "إنّ الله لا يتكلّم، وهذا الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل والقرآن والزَّبور وغيرها من كتب الله ليس هو كلامُ الله، لأنّ الله لا يتكلم، وإنّما هو كلامُ البشر"، ومنهم من يقول: "المعنى من الله واللّفظ من البشر"، هذا ما قدَر الله حقّ قدره.

الحاصل؛ أنّ هذا بابٌ واسع، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يشمل كلّ من خالف في أمور العقائد وأمور الأحكام فإنّه ما قدَر الله حقّ قدره.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ تفسير هذه الآية في هذه الأحاديث والآثار التي ذكرها المصنِّف في هذا الباب. ٤

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف وذكر حديث ابن مسعود، كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب. ٢

ومذهب أهل السنة والجماعة في مثل هذه النصوص إثباتها على ما جاء في صحيح السنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وأن لها معاني حقيقة، وكل ذلك على حد قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. ٩

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك.

فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية)) متفق عليه.[1]

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: "جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع والسماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية".

وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طريق الأعمش به.[2] ٢

الحَبر بفتح الحاء، ويجوز الكسر، هو: العالِم، وأغلب ما يُطلق ذلك على علماء اليهود قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ [التوبة:٣١] الأحبار في اليهود والرُّهبان للنصارى. ٤

الحبر هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحياناً يسمى بالحبر وأحياناً بالبحر. ٥

"فقال: يا محمد".

اليهود يخاطبونه بهذا الخطاب، وأحياناً يقولون: يا أبا القاسم، ولا يقولون: يا نبيَّ الله، أو يا رسول الله، لأنّهم يجحدون رسالته ويحسدونه عليه الصلاة والسلام، وإنْ كانوا يعترفون بأنّه رسول الله وأنّه نبيُّ الله في قَرارة أنفسهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة:١٤٦]، فهم يعلمون أنّه رسول الله، وأنّه نبيُّ الله، ولكنّهم جحدوا هذا تكبُّراً وحسداً لرسول الله ﷺ، وحسداً للعرب، لأنّهم يريدون أن تكون النبوّة في بني إسرائيل ولا يريدونها أن تكون في بني إسماعيل، ولكنّ الله يختصّ برحمته من يشاء.

---

[1] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى: ﴿لم خلقت بيدي﴾، ومسلم: كتاب المنافقين/ باب صفة القيامة.

[2] سبق تخريجه أول الباب، وانظر مسند الإمام أحمد (٣٧٨/١)

قال الحبر :"إنا نجد" ٤

أي: في التوراة. ٥

يجدون ذلك في التّوراة. ٤

"أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع"

الأرضين: جمع أرض.

"والشجر على إصبع"

شجر الدنيا، شجر البر والبحر، فالشجر اسم جنس يشمل كلّ الشجر الذي في الدنيا.

"والثرى على إصبع"

الثرى يعني: التراب: قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦)﴾ [طه:٦] أي: تحت التُّراب.

"وسائر الخلْق على إصبع"

يعني: باقي المخلوقات.

فهذه خمسة أصابع عليها جميع المخلوقات العلوية والسفلية، كلّ إصبع عليه خلْقٌ من خلقه سبحانه وتعالى. ٤

"فيقول: أنا الملك"

هذه الجملة تفيد الحصر، لأنها اسمية معرفة الجزئين، ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بارِزُونَ لا يخفى على اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمنِ الْمُلْكُ اليَوْم لِلَّهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلاً، وبهذا يظهر ملكوت الله عز وجل في ذلك اليوم ظهوراً بيناً، لأنه سبحانه ينادي: لمن الملك اليوم، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. ٥

ولا أحد ينازع في هذا، فدلّ على انفراده سبحانه بالمُلْك يوم القيامة، يقول الله جل وعلا: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ولا أحد ينازع في هذا فيدّعي شيئاً من ملك السماوات والأرض، لأنّه لا أحد يملك السماوات والأرض إلاّ الله سبحانه وتعالى.

أمّا المِلك المؤقت في الدنيا والملك الذي يُعطى لبعض النّاس فهذا عارية، ليس مُلكاً حقيقيًّا وإنّما هو عاريّة وامتحان يزول؛ ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

فالأملاك ترجع إلى الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يرث الأرض ومن عليها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم:٤٠]. ٤

وقوله: "الملك". أي: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو، وأما "المالك" فدون ذلك، ولهذا يمتدح نفسه تعالى بأنه الملك، وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] فيها قراءتان: "مَلِكِ ومالك"، ليتبين بذلك أنه ملك مالك.

فملك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره، فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكاً لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك. ٥

قوله :"فضحك النّبي ﷺ"

أي: لما سمع كلام هذا الحَبْر ضحك ﷺ سروراً بهذا، لأنّ هذا إقرارٌ بما جاء في القرآن، وإقرارٌ بما جاء به الرّسول ﷺ. ٤

ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكاراً، لأن من حدثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: "تصديقاً لقول الحبر"، فكانت إقراراً لاغير، ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا

قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾ الآية: فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه واستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سرور، حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجده هذا الحبر في كتبه، لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن، فإن الرسول ﷺ سوف يسر به، وإن كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البينات مما يقوي الشيء، أرأيت أسامة بن زيد وأبوه زيد بن حارثة؟ هل كان عند النبي ﷺ شك في أن أسامة ابن لزيد؟

الجواب: ليس عنده في ذلك شك، ولما مر بهما مجزز المدجلي وهو من أهل القيافة وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما، فقال: إن الأقدام بعضها من بعض، فسر النبي ﷺ سروراً عظيماً حتى دخل على عائشة مسروراً تبرق أسارير وجهه، وقال: ((ألم تري أن مجززاً المدجلي دخل فرأى أسامة وزيداً وعليهما قطيفة، قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض))[1]، فالمهم أن الرسول ﷺ دخل تبرق أسارير وجهه، لأن في ذلك تأييداً للحق، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما، فكان أسامة أسود شديد السواد وأبوه زيد شديد البياض، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون في ذلك، واختلاف اللون لا يوجب شبهة إلا لذي هوى، فلعل المخالف في اللون نزعة عرق. ٥

"حتى بَدَتْ نواجذُه"

النواجذ هي: أوائل الأضراس. ٤

ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس. ٥

كان ﷺ إذا ضحك يتبسّم فقط، وإذا بالغ في التبسُّم بدت نواجذه ﷺ. ٤

وهذا الضحك من النبي ﷺ تقرير لقول الحبر، ولهذا قال ابن مسعود: "تصديقاً لقول الحبر"، ولو كان منكراً ما ضحك الرسول ﷺ ولا استشهد بالآية، ولقال له: كذبت كما كذب

---

[1] البخاري: كتاب الفرائض/ باب القائف، ومسلم: كتاب الرضاع/ باب العمل بإلحاق القائف الولد.

الذين ادعوا أن الذين يزني لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقاً لقول الحبر وسروراً بأن ما ذكره موافق لما جاء به القرآن الذي أوحي إلى محمد ﷺ. ٥

"ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾"

تلاها تصديقاً له. ٦

فهذا شيء جاء به القرآن كما جاءت به التّوراة، والقرآن والتوراة والإنجيل والزَّبور وصحف إبراهيم وموسى وكتب الأنبياء كلها من عند الله سبحانه وتعالى، وما دخل في التّوراة والإنجيل من التحريف فإنّما هو من اليهود والنصارى بعد الأنبياء. وقد بيّن الله تحريفهم في القرآن وفضح سرائرهم. ٤

هذا معنى الآية التي لا تحتمل غيره، وأن السماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه، أي: يده تبارك وتعالى، لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن في الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

وأما تفسير أهل التحريف، فيقول بعضهم: ﴿قَبْضَتُهُ﴾، أي: في قبضته وملكه وتصرفه، وهو خطأ، لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

وقول بعضهم: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾، أي: تالفة وهالكة، كما تقول أنطوى ذكر فلان، أي: زال ذكره.

و﴿بِيَمِينِهِ﴾، أي: بقسمه، لأنه قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٦- ٢٧] فجعلوا المراد باليمين القسم. إلى غير ذلك من التحريفات التي يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله، حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصارا ينكرون ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسول وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججاً.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟

إن قالوا: نعم، كفروا، وإن قالوا: لا، قلنا هل أنتم أفصح في التعبير عن المعاني من الله؟

إن قالوا: نعم، كفروا، وإن قالوا لا، خصموا، وقلنا لهم: إن الله بين ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والرسول ﷺ أقر الحبر على ما ذكر فيما يطابق الآية: وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله ؟ فسيقولن: لا.

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام، وأصدقه، وأبينه، وأعلم بما يقول لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقه التي أراده الله بها.

ومن فوائد الحديث:

إثبات الأصابع لله عز وجل لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله عز وجل، كاليد، وليس المراد بقوله: "على إصبع" سهولة التصرف في السماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ((إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن))[1].

وقوله: ((بين أصبعين)) لا يلزم من البينية المماسة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، ونقول: عنيزة بين الزلفى والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة وجمادى، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة جمادى، ويلزم أن يكون موالياً له، فتبين أن البينية لا تستلزم الاتصال في الزمن أو المكان، وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله سبحانه وتعالى يكون قبل وجه المصلي[2]، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي يصلي إليها، فهو قبل وجهه وإن

---

[1] مسلم: كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء.

[2] البخاري: كتاب الصلاة/ باب حك البزاق باليد في المسجد، ومسلم: كتاب الزهد.

كان على عرشه، ومثال ذلك: الشمس حين تكون في الأفق عند الشروق أو الغروب، فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك وهي في العلو.

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم، فقد ضل.

ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر، فهو:

أولاً: فيه تناقض، لأنهم قالوا طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم، لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانياً: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل ؟

ثالثاً: يلزم منه أن يكون هؤلاء المخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحاب، لأن طريقة السلف هي طريقة النبي ﷺ وأصحابه.

رابعاً: أنها قد تصل الكفر، لأنها تستلزم تجهيل النبي ﷺ وتسفيهه، فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحاً، لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها، فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذين ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق النبي ﷺ حين قال: ((هلك المتنطعون))[1]، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا، لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف، حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة أمه العجوز التي لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم: ها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

---

[1] مسلم: كتاب العلم/ باب هلك المتنطعون.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبداً، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا على عقيدة سليمة، وإلا ابتلي بالشك والقلق والحيرة، وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام، وما بالك والعياذ بالله بالشك عند الموت يختم للإنسان بضد الإيمان.

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرى عليه السلف، ونقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشوري:١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، لأنه أقر هذا الكلام، فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريق القرآن.

والحاصل أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله عز وجل اعتماداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل قد ضلوا ضلالاً مبيناً، فالصحابة رضي الله عنهم هل ناقشوا الرسول ﷺ في هذا؟ والذي نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له، فيجمعون بين الإثبات وبين النفي.

إذا موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله عز وجل أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل نقرؤه ونقول: المراد به أصبع حقيقي يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة، فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلى الله سبحانه وتعالى. ٥

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله[١].

في هذه الرواية زيادة الجبال. ٤

---

[١] مسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب صفة القيامة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: "مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السماوات على ذه -وأشار بالسبابة- والأرض على ذه، والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾"، وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به، وقال: حسن صحيح غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه[1].

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك أين ملوك الأرض))[2] تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.[3]

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأَرْضَيْنَ على إصبع، وتكون السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك))[4] تفرد به أيضاً من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر[5]. ٢

---

[1] رواه الامام أحمد في المسند (١/٢٥١، ٣٢٤)، والترمذي في سننه (رقم ٣٢٤٠)، وابن جرير في تفسيره (١٨/٢٤)، وابن أبي عاصم في السنه (رقم ٥٤٥)، والطبراني في الأوسط (رقم ٤٦٨٩)، وابن خزيمة في التوحيد (رقم ١٠٦) وفيه عطاء بن السائب، وكان قد اختلط، ولكنه حديث صحيح بشواهده، لذلك قال الترمذي: "حسن غريب صحيح".

[2] البخاري تفسير القرآن (٤٥٣٤)، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧)، ابن ماجه المقدمة (١٩٢)، أحمد (٢/٣٧٤)، الدارمي الرقاق (٢٧٩٩).

[3] صحيح مسلم (٢٧٨٢).

[4] البخاري التوحيد (٦٩٤٧)، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧)، ابن ماجه المقدمة (١٩٢)، أحمد (٢/٣٧٤)، الدارمي الرقاق (٢٧٩٩).

[5] صحيح مسلم (رقم ٢٧٨٨).

"ثم يهزُّهن".

يحرِّكهنُّ سبحانه وتعالى. ٤

قوله: "ثم يهزهن". أي: هزاً حقيقياً، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض أصابعه ويبسطها، فصار المنبر يتحرك ويهتز[1] لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى. ٥

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر: "أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به" [2]. ٢

فإن قلت: هل نفعل أيدينا كما فعل النبي ﷺ؟

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه، فليس كل ما شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل، فينبغي أن نكف لأن هذا ليس بواجب حتى نقول: يجب علينا أن نبلغ كما بلغ الرسول ﷺ بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول المعنى إلى غير الحقيقة، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول ﷺ.

فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

---

[1] أخرجه الإمام أحمد ومسلم بمعناه.

[2] البخاري التوحيد (٦٩٧٧)، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨)، ابن ماجه الزهد (٤٢٧٥) أحمد (٧٢/٢).

[النساء: ٥٨] وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك[١]، فهذا الإنسان الذين يقول: إن الله سميع بلا سمع بصير بلا بصر نقول له هكذا.
وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السماوات بيمينه، ومعنى قبضته، أي: في تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول ﷺ.
فالمقام ليس بالأمر بالسهل، بل هو أمر صعب ودقيق للغاية، فإنه يخشى من أن يقع أحد في محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول ﷺ في جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء أشد ضرراً، كما أخر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفاً من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثاً [٢]. ٥
"فيقول: أنا الملِك، أنا الله"
هذا فيه: بيان عظمته، وربوبيّته ومُلكه سبحانه وتعالى، وعظيم قدْرته جل وعلا وتقرير انفراده بالملك. ٤

وفي رواية للبخاري: ((يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع)) أخرجاه [٣].

((والماء والثرى على إصبع)). هذا لا ينافي قوله: ((الأرضين على إصبع))، لأنه يقال: ((الماء والثرى على إصبع))، أي: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذي قبله: ((الشجر على أصبع والماء على أصبع، والثرى على أصبع))، إذا النكرة كررت بلفظ النكرة، فالثاني غير الأول غالباً، وإذا كررت بلفظ المعرفة، فالثاني هو الأول غالباً، وفيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على أصبع وسكت عن الباقي، إما اختصاراً أو اقتصاراً. ٥

---

[١] أبو دواد/ كتاب السنة/ باب في الجهمية، والحاكم (١/٣٥) وقال: "صحيح، ولم يخرجاه".
[٢] البخاري: كتاب الحج/ باب فضل مكة وبنياها، ومسلم: كتاب الحج/ باب نقض الكعبة.
[٣] البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

ذكر هنا أن أصابعه سبحانه استوعبت كلَّ الخلْق وأن يقبض السماوات والأرضين بيديه وهذا من عظمته سبحانه وتعالى .٤

يعني أنه سبحانه يحمل هذه المخلوقات على أصابعه الخمسة جل وعلا، فمع عظمتها وسعتها هذه السماوات مع عظمتها وهذه الأرض مع ما فيها من الجبال والشجر وغير ذلك وهذه المخلوقات العظيمة هو سبحانه وتعالى يأخذها بيده جل وعلا على أصابعه الخمسة ويهزها ويقول: أنا الملك، أنا الجبار، أين الجبارون؟ أين ملوك الأرض؟ هذا كله يبين لنا عظمته وقدرته العظيمة. ٦

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف انتهى.

قال الإمام ابن خزيمة الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء. قال: فالإمساك على الأصابع قبل تبديل الله الأرض غير الأرض. انتهى بمعناه. ٤

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: ((يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون)).[1]

تقدّم بيان معنى هذا من الآية والأحاديث، وأنّ الله سبحانه وتعالى يطوِي السماوات فيأخذها بيده اليُمنى، ويطوي الأرضين السبع فيأخذهن بشمالِه، ثم يقول: ((أنا الملِك)). إلى آخره، وفي هذا الأثر ما يوافق ما سبق. ٤

((يطوي الله السماوات)).

سبق معنى هذا الحديث، وأن المراد بالطي الطي الحقيقي.

((ثم يقول: أنا الملك)).

---

[1] مسلم: كتاب صفات المنافقين/ باب صفة القيامة.

يقول ذلك ثناء على نفسه سبحانه، وتنبيهاً على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كِلا جُزْأَيْهَا معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد.

((أين الجبارون؟)).

الأستفهام للتحدي. ٥

هذا تحدٍ منه سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين يتجبّرون في الدّنيا. ٤

فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم. ٥

والجبّارون: جمع جبّار، وهو المتعالي على النّاس بالقَهْر والغَلَبة والظُّلم والبَطْش بغير حق.

أمّا الجبّار من أسمائه سبحانه، فمعناه: المتعالي بحقّ.

((أين المتكبِّرون؟))

جمع متكبِّر، والمتكبِّر من الخلق هو: المتعالي، الذي يتعالى على النّاس بالظّلم والبَطْش، وكذلك يتعالى على الحق فلا يقبله. والمتكبر من أسماء الله الحسنى الكاملة يدل على العظمة والجلال والتنزه عن النقائص والعيوب ويتضمن صفة الكبرياء قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية:٣٧]. ٤

قوله: ((يطوي الأرضين السبع)).

أشار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحاً في القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد، لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السنة، فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: ((ثم يأخذهن بشماله)).

كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إن ثقة ولكنه قالها من تصرفه.

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في "صحيح مسلم" أن الرسول ﷺ قال: ((المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين))، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة "شمال" محفوظة، فهي عندي لا تنافي ((كلتا يديه يمين))، لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليمنى، فقال: ((كلتا يديه يمين))، أي: ليس فيها نقص، ويؤيد هذا قوله في حديث آدم: ((اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة))[1]، فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال، يعني: النقص في هذه اليد دون الأخرى، قال: ((كلتا يديه يمين))، ويؤيده أيضاً قوله: ((المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن))، فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم، وأنهم على يمين الرحمن سبحانه.

وعلى كل، فإن يديه سبحانه اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ، فنحن نؤمن بها، ولا منافاة بينها وبين قوله: ((كلتا يديه يمين)) كما سبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها. ٥

---

[1] مسلم: كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل.

وروي عن ابن عباس، قال: "ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم"[1].

قوله: "في كف الرحمن".

هكذا ساقه المولف، والذي في ابن جرير "في يد الله". ففيما ساقه المؤف إثبات الكف لله تعالى، إن كان السياق محفوظاً وإلا ففيه إثبات اليد. أما الكف فقد ثبت في أحاديث أخرى صحيحة.

قوله: "إلا كخردلة".

هي حبة نبات صغيرة جداً، يضرب بها المثل في الصغر والقلة، وهذا يدل على عظمته سبحانه، وأنه سبحانه لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام. ٥

أي: أنّه سبحانه وتعالى يطوي السماوات السبع ويقبضُها بيده اليُمنى، ويطوي الأرَضين السبع فيأخذهنّ بشماله، فتكون في كفِّه سبحانه وتعالى كخردلة، والخردلة هي: أصغر شيء يُضرب المثل بصغيرِها.

فهذه السماوات العظيمة في كَفِّ الرحمن والأرضون الواسعة وما فيها في كفِّ الرحمن كالخردلة في يد واحدٍ منّا، هذا تشبيه لصغر هذه المخلوقات بالنسبة إلى الله، كصغر حبّة الخردل في يد المخلوق، وليس هو من تشبيه الله سبحانه وتعالى أو صفة من صفاتِه بصفات المخلوقين، وإنّما هو تشبيه لصغر المخلوقات بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى بصغر حبّة الخردل بالنسبة ليد المخلوق.

وهذا من باب ضرب الأمثال التي تقرب بها المعاني ويوضح المقصود.

---

[1] ابن جرير (٢٥/٢٤) من طريق عمرو بن مالك النكري عن أبي الجوزاء – وهو أوس بن عبد الله الربعي: ثقة – عن ابن عباس، وإسناده متصل لا بأس به، عمرو بن مالك: صندوق في نفسه، وإنما جاءت المناكير من قِبَلِ ابنه يحيى، وهذا ليس من رواية ابنه عنه.

قال شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسيره: "أضواء البيان" فيحصل من هذا البحث أن الصّفات من باب واحد وأن الحق فيها متركب من أمرين:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ إثباتاً أو نفياً وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] والسلف الصالح رضي الله عنهم ما كانوا يشكون في شيء من ذلك ولا كان يشكل عليهم .إلاّ ترى إلى قول الفرزدق وهو شاعر فقط وأما من جهة العلم فهو عامي:

وكيف أخاف النّاس والله قابض ... على النّاس والسبعين في راحة اليد

ومراده بالسبعين: سبع سموات وسبع أرضين. فمن علم مثل هذا من كون السموات والأرضين في يده جل وعلا أصغر من حبة خردل فإنه عالم بعظمة الله وجلاله لا يسبق إلى ذهنه مشابهة صفاته لصفات الخلق ومن كان كذلك زال عنه كثير من الإشكالات التي أشكلت على كثير من المتأخرين، وهذا الذي ذكرنا من تنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به والإيمان بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ هو معنى قول الإمام مالك رحمه الله: الاستواء غير مجهول. والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة. ويروى نحو قول مالك عن شيخه ربيعة وأم سلمة رضي الله عنهما والعلم عند الله تعالى."انتهى كلامه رحمه الله.٤

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:٦٧] تلاها تصديقاً له في هذا إثبات الصفات، وأن له يمينا وشمالا، وأن كلتا يديه يمين كما في الحديث الآخر ((كلتا يدي ربي يمين مباركة)) سمى إحداهما يمين، وسمى إحداهما شمالاً من حيث الاسم، ولكن من حيث المعنى والشرف كلتاهما يمين مباركة، ليس في شيء منهما نقص، وكذلك الكف، ما السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدنا، هذا يبين لنا عظمته سبحانه وسعة جوده وكبريائه، وأنه الخلاق العليم، وأنه المالك لكل شيء، وأنه المستحق لأن يعبد جل وعلا دون كل ما سواه، من كان بهذه الصفات وهذه القدرة وهذا الكمال فهو المستحق لأن يعبد

ويطاع، ولهذا خلق الخلق ليعبدوه، وأمرهم بذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]. وأرسل الرسل لهذا الأمر وبين أسماؤه وصفاته لعباده ليعظموه ويذلوا له وينقادوا لأوامره وينتبهوا لعظمته ويجتهدوا في طاعته ويحذروا مناهيه سبحانه وتعالى. ٦

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرْس)).

"وقال ابن جرير".

هو الإمام المفسِّر: محمَّد بن جرير، صاحب التفسير المشهور الذي يُعتبر أُمّ التفاسير. ٤

وله تفسير أثري يعتمد فيه على الآثار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثار، وأتى بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضاً، وكأنه رحمه الله أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولاً إلى القارئ، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية، ويمحصه، ولكن لم يتيسر ذلك.

قوله: ((ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)).

الكرسي: موضع قدمي الله تعالى، هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما، والدراهم: جمع درهم، وهو النقد من الفضة، والترس: شيء من جلد أو خشب يحمل عند القتال يتقي به السيف والرمح ونحوهما. ٥

السماوات السبع: السماء الدنيا والتي تليها إلى السماء السّابعة على عظمتها وسَعَتها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات:٤٧]، هذه السموات السبع العظيمة الواسعة بطِباقها وتباعُد ما بينها هناك مخلوقٌ أعظم منها وهو الكُرسي.

والكُرسي مخلوق: قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فهو مخلوقٌ من مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

وهو فوق السماوات والسماوات بالنسبة إليه كسبعة دراهم أُلْقِيَت في تُرْس.

والتُّرْس هو: القاع المستدير من الأرض، فلو ألقيت سبعة دراهم في قاعٍ من الأرض ماذا تكون نسبة هذه الدراهم السّبعة إلى هذا القاع الواسع؟، تكونُ صغيرة جدًّا.

وقد يُراد بالتُّرْس: الصفحة من الفُولاذ التي يتّخذها المقاتِل وقايةً بينَه وبين السّلاح يتترّس بها.

ولكن الظّاهر المعنى الأوّل، وهو أنّ المراد به: القاع المستدير.

فالسماوات السبع بالنسبة للكرسي تكون كالدراهم السبعة إذا أُلقيت في القاع الواسع المستدير، فتكون نسبتُها ضئيلة، ممّا يدلّ على أنّ الكرسيَّ أعظمُ من السموات، وأنّها بالنسبة إليه صغيرة، والله جل وعلا يقول: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فمصداقُ هذا في كتاب الله سبحانه وتعالى.

فدلّ على وُجود الكرسي، وأنّه مخلوق، أعظم من السماوات، وفي هذا ردٌّ على من فسّر الكرسي بالعلم، والصّواب: أنّ الكرسي غير العلم.

وفيه ردٌّ أيضاً على من فسّر الكرسي بالعرش، لأنّه سيأتي أنّ العرش غير الكرسي.

وقد جاء في الحديث: أن الكرسيَّ موضعُ القدمين، فهو مخلوقٌ مستقل، عظيم، أكبر من السموات على سعتها، وأعظم من السموات على عظمتِها. ٤

قال: وقال أبو ذر ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض)).[١]

"وقال أبو ذرّ" الصحابي الجليل، الزاهد، التّقي، الورع، العالِم، العابِد، الذي له سَبْق في الإسلام فهو من السّابقين الأوّلين، ومن المهاجرين رضي الله تعالى عنه.

---

[١] ابن جرير الطبري في التفسير (٥٧٩٤)، والبيهقي في "الأسماء والصفات" (٥١٠)، وقال ابن حجر: "صححه ابن حبان وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح"، الفتح (١٣/٤١٠)

رواه ابن جرير في تفسيره، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٥٨٧) وفي إسناده عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو واه، ولكن له طرق أخرى تغني عنه فهو صحيح، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني (رقم ١٠٩).

"سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما الكرسي في العرش))

أي: بالنسبة إليه. ٥

الكرسي سبق لنا أنّه مخلوق مستقلّ، وأنّه أعظم من السموات، لكن هناك مخلوق أعظمُ منه وهو العَرْش.

والعرش هو: شَقْفُ المخلوقات، وأعلى المخلوقات، وأعظمُها. ٤

والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الرحمن ولا يقدر قدره إلا الله عز وجل. ٥

((إلاّ كحلقة أُلْقِيَتْ بين ظهراني فلاةٍ من الأرض))

والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهي صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلى فلاة الأرض. ٥

والكرسي بالنسبة إلى العرْش كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهراني فلاةٍ من الأرض، والفلاة هي: المكان المتّسع من الأرض، لو ألقيتَ فيها حَلْقة من حديد، فماذا تكون نسبة الحلْقة إلى هذه الفلاة الواسعة؟، قد لا تُرى أو تكون شيئاً ضئيلاً، فكذلك الكرسي بالنسبة لعرش الرّحمن كحلقة من حديد أُلْقِيَت في فلاةٍ واسعة من الأرض.

فهذا يدلّ على وُجود العرْش، وأنّه مخلوق من مخلوقات الله، وأنّه أكبر من الكُرْسي، وأنّ الكرسي أكبر من السماوات، فهذا يدلّ على عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي هذه مخلوقاتُه العظيمة الهائلة.

وفي هذا رد على من فسّر العرش بالملك أو غير ذلك من التفاسير الباطلة. ٤

وهذا الحديث يدل على عظمته عز وجل، فيكون مناسباً لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب. ٥

وعن ابن مسعود قال: "بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم".[1]
أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمه عن عاصم عن زر عن عبدالله ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.
قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى، قال: وله طرق [2].

ثم قال :"وعن ابن مسعود"

حديث ابن مسعود هذا يبيِّن المسافات التي بين السماوات والأرض والمسافة التي بين السماوات والكُرْسي، والمسافة التي بين الكرسي وبين العرش. ٤

قال الشيخ سليمان كما في إبطال التنديد (ص ٢٥٦): "وأخرج أثر ابن مسعود الثاني: عبد الله بن أحمد في كتاب السنة، وابن المنذر، والطبراني، وأبو الشيخ، وأبو عمر الطلمنكي، واللالكائي، وابن عبد البر، والبيهقي وغيرهم."

هذا الحديث على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضى الله لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات. ٥

قال: "بين السمّاء الدنيا"

---

[1] رواه عثمان الدارمي في الرد على الجهميه (رقم ٨١)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد (رقم ٥٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير (رقم ٨٩٨٧)، وابو الشيخ في العظمة (رقم ٢٠٣، ٢٧٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٩٠)، وابن عبد البر في التمهيد (١٣٩/٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد (رقم ٦٥٩)، وابن قدامة في "إثبات العلو" (ص ١٠٤- ١٠٥)، والذهبي في العلو (ص٤٥)، وعزاه في الدر المنثور (١/ ١٠٩) الى ابن المنذر، وابن مردويه – وإسناده حسن، وقال الذهبي في كتاب العرش (رقم ١٠٥): "رواه اللالكائي، والبيهقي، بإسناد صحيح عنه".

[2] الذهبي في "العلو" (ص ٤٦).

يعني: القريبة من الأرض، الموالية للأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك:٥].

فبين الأرض والسماء الدنيا خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السّابعة والكُرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام وكثف كل سماء من السماوات السبع خمسمائة عام.

إذاً تكون المخلوقات: أوّلاً: الأرض، ثم فوقها السماوات السّبع، ثم فوق السموات السّبع الكرسي، ثم فوق الكرسي بحر ما بين أعلاه وأسفلِه خمسمائة عام، وفوق الماء عرْش الرّحمن سبحانه وتعالى، والله جل وعلا فوق العرش، هذا ترتيب هذه المخلوقات حسبما جاءت به النصوص، وهي متباعِدة فيما بينها، فبين السماء الدنيا والأرض خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء والتي تليها -يعني-: السماء الثّانية والسماء الثّالثة والرّابعة والخامسة والسّادسة والسّابعة بين كلِّ سماء وسماء خمسمائة عام.

وكثف كل سماء خمسمائة عام.

وبين السماء السّابعة والكرسي -الذي مرَّ بنا أنّه أعظم من السموات، وأنّها بالنسبة إليه كالدّراهم في التُّرْس- بينهما خمسمائة عام، ثم فوق الكرسي بحر ما بين أسفلِه وأعلاه خمسمائة عامّ، ثم فوق الماء عرشُ الرّحمن سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]، فكما أن في الأرض بحراً يغمرها فكذلك في السماء بحر آخر غير البحر الذي في الأرض، وهذا البحر الذي في السماء بحر هائل عمقه خمسمائة عام، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

فالعرش فوق هذا البَحْر، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

إذاً يكون العرش هو أعظم المخلوقات، أعظم من هذا البَحْر، وأعظم من الكُرْسي، وأعظم من السموات، وأعظم من كلِّ المخلوقات، فالعرش هو أعظم المخلوقات، وأوسعُها، وأعظمُها، والله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)﴾

[البروج:١٥] ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦] فتمدح سبحانه وتعالى به وذلك لأنّه خلْقٌ عظيم، وخَلْقٌ فيه عبرٌ عظيمة يدل على عظمة خالقه. ٤

ثم قال: ((وبين السماء السّابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام))

وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: ((إن كثف كل سماء خمسمائة عام))[1]، وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله عز وجل بعيداً جداً.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة؟

يقال في الجواب: أنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فإنا نضرب بما عارضها عرض الحائط، لكن إذا قدر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا، ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأي طريق من طرق الجمع.

الثاني: إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث، لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئاً حسياً واقعاً أبداً، كما قال شيخ الإسلام في كتابه "العقل والنقل": "لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبداً، لأن تعارضها يقتضي إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين، وهذا مستحيل، فإن ظن التعارض بينهما، فإما أن لا يكون الخطأ من الفهم، وإما إن يكون أحدهما ظنياً والآخر قطعياً".

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه مخالفاً لظاهر شيء من الكتاب أو السنة، فإن ظاهر الكتاب يؤول حتى يكون مطابقاً للواقع، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، أي: في السماوات.

[1] يأتي تخريجه.

والآية الثانية أشد إشكالاً من الآية الأولى، لأن الأولى يمكن أن نقول: المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هى المشكلة جداً، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس في السماء نفسها، بل هو في فلك بين السماء والأرض.

والجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مرصع في السماء كما يرصع المسمار في الخشبة دلالة قطعية، فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحاً، بل وصلوا جرماً في الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحاً في ذلك، وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السماء، فآية الفرقان قال الله فيها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، فيمكن أن يكون المراد بالسماء العلو، كقول تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الرعد :١٧] والماء ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهذا التأويل للآية قريب.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، فيمكن فيها التأويل أيضاً بأن يقال: المراد لقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ في جهتهن، وجهة السماوات العلو، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع. ٥

"والعرش فوق الماء".

أي فوق هذا البحْر. ٤

"والله فوق العرش"

قوله: "والله فوق العرش". هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علواً ذاتياً وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ. علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠].

ب. علو الذات، وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام، فيقولون كل العلو الوارد المضاف إلى الله به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: ((والله فوق العرش))، أي: في القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته.

ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل في الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ. من قال: إن الله بذاته في كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.

ب. من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا العدم، ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شيء تنكره النصوص والعقول والفطر. ٥

فهو سبحانه وتعالى فوق مخلوقاتِه، عالٍ على خَلْقِه سبحانه وتعالى، العليُّ الأعلى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إليه﴾ [المعارج:٤]، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وأدلّة علوّ الله جل وعلا على خلْقه كثيرة في الكتاب والسنّة والعقْل والفطرة حتى قال بعضُهم: "إنّها بلغت ألف دليل"، وقد ألّف الحافظ الذهبي رحمه الله كتاباً مستقلاً في العلو سمّاه: (العلوُّ للعليِّ الغفّار)، وهو مطبوع ومتداوَل، ذكر فيه النّصوص الدالّة على علوّ الله على خلْقه، وقد أجمع أهلُ السنّة والجماعة على علوّ الله سبحانه وتعالى بذاتِه على خلقه، ولهذا قال: "والله فوق العرش"، يعني: إذا كان العرش فوق المخلوقات والله فوق العرش، فدلّ على أنّ الله جلا وعلا هو العليُّ الأعلى فوق مخلوقاته جل وعلا، وأنّ المخلوقات كلُّها بالنسبة إلى كف الرحمن سبحانه كالخرْدَلة في يد أحدِنا كما سبق فيما ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

قوله: "لا يخفى عليه شيء من أعمالكم"

أي: مع علوِّه على خلْقه لا يَتصوّر أحدٌ أنّه بعيدٌ عن عبادِه، بل له هذا العلوّ، ومع هذا لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم، فهو سبحانه وتعالى فوق العرْش وعلمُه في كلِّ مكان، لا يخفى عليه شيء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) ﴾ [آل عمران:٥]، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [الحديد:٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: بعلمه سبحانه وتعالى وإحاطته، لا تخفون عليه، ولا تخفى عليه أعمالُكم خيرُها وشرُّها، وكلُّ ما يصدر من عباده فإنّه يعلمُه سبحانه وتعالى من الطّاعات والمعاصي والخير والشّرّ، كلّه يعلمه سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾ [يونس:٦١].

فلا يتصوّر أحدٌ أنّ الله إذا كان في العلوّ أنّه يكون بعيداً عن عبادِه، وأنّه لا يعلم أعمالهم، فيتصوّر أنّ الخالق مثل المخلوق، إذا كان في مكان مرتفع فإنّه لا يعلم ما تحتَه، ولا يدري ما يحدُث بما تحته، هذا في حق المخلوق، أما الله جل وعلا فإنّه لا يخفى عليه شيء، والمخلوقات كلها على عظمها وسعتها ما هي بالنسبة إليه بشيء سبحانه وتعالى فهو محيطٌ بها، يعلمُها ويراها، ويسمع ما يحدُث فيها، ويرى ما يحدُث فيها، هو بكلِّ شيء عليم سبحانه. ولا يحدث فيها شيء إلاَّ بقضائه وقدره وأمره.

فهذا فيه: الجمع بين العلوّ والعلم والإحاطة. ٤

قوله: "لا يخفي عليه شيء من أعمالكم". يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منها والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى. ٥

وعن العباس بن عبد المطلب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((هل تدرون كم بين السماء والأرض؟)) قلنا: الله ورسوله أعلم قال: ((بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم)). أخرجه أبو داود وغيره.[١]

---

[١] أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (رقم ٢٢٩٢)، والامام أحمد في المسند (١/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وأبو داود في سننه رقم (٤٧٢٣)، والترمذي في سننه (رقم ٣٣٢٠)، وابن ماجه في سننه (رقم ١٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٥٨٩)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش (رقم ١٠، ٩) وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ٧٢)، والبزار في مسنده (رقم ١٣١٠)، وأبو يعلى في مسنده (رقم ٦٧١٣)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٧)، والآجري في الشريعة (رقم ٦٦٣ –٦٦٥)، وابن منده في التوحيد (رقم ٢١)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٠٠)، والعقيلي في الضعفاء (٢ /٢٨٤)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ٦٥٠)، والحاكم في المستدرك(٢/٢٨٨، ٤١٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٥، ٣١٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/١٤٠)، والجورقاني في الأباطيل (١/٧٧)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٢٤)، وغيرهم من طريق سِماك بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس به.

وعبد الله بن عميرة في جهالة كما قال الذهبي، وقال البخاري: "لا يُعْرَفُ له سماع من الأحنف بن قيس". قال الترمذي: "حسن غريب"، وصححه الحاكم، وخالفه الذهبي لضعف سند الحاكم، وصححه الجورقاني في كتابه "الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير"، والضياء في الاحاديث المختاره (رقم ٤٦٠– ٤٦٤)، وقال أبو بكر ابن العربي في عارضة الأحوذي (١٢/ ٢١٧): "حسن صحيح". وقال الذهبي في كتاب العرش (رقم ٢٤): "وإسنادٌ حسن وفوق الحسن".

وقواه شيخ الإسلام في الفتاوى(٣/ ١٩٢) حيث قال: "إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خُزيْمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يُحْتَجُّ فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولاً إلى النبي ﷺ، والاثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، ولم ينفِ معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مُقَدَّماً على نفي غيره

ساقه المصنف رحمه الله مختصراً.

والذي في سنن أبي داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: "كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: ((ما تسمون هذه؟)) قالوا: السحاب قال: والمزن قالوا: والمزن. قال: والعنان قالوا: والعنان. قال أبو داود: لم أتقن العنان جيدًا قال: هل تدرون ما بعد ما بين السماوات والأرض؟ قالوا: لا ندري قال: إن بُعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التي فوقها كذلك، حتى عد سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم ورُكَبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك)) وأخرجه الترمذي وابن ماجه [1] وقال الترمذي: "حسن غريب":

وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: ((ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام)) ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد؛ لأنه يصح أن يقال:

وعدم معرفته"، وابن القيم في حاشيته على مختصر سنن أبي داود (٨/١٣)، وقالت الصواعق المرسلة (٢/ ٢٠٧ – مختصرها): "إسناد جيد".

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في قرة عيون الموحدين (ص ٢١٣): "وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القران، فلا عبرة بقول من ضعفه".

تنبيه: معظم من خرج حديث العباس لم يذكروا المسافة التي ذكرها في المتن، وإنما: (إما واحد، وإما اثنان، وإما ثلاثة وسبعون سنة) ورواية (خمسمائة سنة) هي رواية الحاكم، والإمام أحمد في مسنده، وأبي يعلى، ورواية لابن أبي شيبة، وابن عدي من طريق يحيى بن العلاء وهو كذاب يضع الحديث، وهذا اللفظ له شاهد من حديث أبي هريرة، ومن حديث أبي ذر، سيأتي تخرجهما، ومن قول عبد الله بن مسعود، وقد سبق تخريجه.

[1] الترمذي تفسير القرآن (٣٣٢٠)، أبو داود السنة (٤٧٢٣)، ابن ماجه المقدمة (١٩٣).

بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه. هذا آخر كلامه [1]. ٢

"وعن العبّاس"

عمّ النّبي ﷺ. ٤

يقال: العباس، وعباس، و(أل) هنا لا تفيد التعريف، لأن عباس معرفة لكونه علماً، لكنها للمح الأصل، كما يقال: الفضل: لفضله، والعباس لعبوسه على الأعداء، قال ابن مالك:

وبعض الأعلام عليه دخلاً ... للمح ما قد كان عنه نقلاً. ٥

قوله ﷺ: ((هل أتدرون كم بين السماء والأرْض؟))

((هل)): استفهامية يراد بها أمران:

أ. التشويق لما سيذكر.

ب. التنبيه إلى ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، هذا تنبيه وتشويق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]

هذا تنبيه وتشويق على شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [الكهف: ١٠٣] تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦] تنبيه وتحذير.

واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا، فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشيء. ٥

هذا فيه: السؤال يراد به التعليم والإرشاد، وليس هو من السؤال الذي يطلُب السّائل من المسؤول أن يُخبره عن شيء لا يعلمُه، وإنّما هو من باب التقريب وإحضار الذّهن، لأنّ التعليم إذا جاء عن طريق السؤال والجواب كان أثبت. ٤

---

[1] العرش: (٢/٣٣).

قوله: "قلنا: الله ورسوله أعلم".

جاء العطف بالواو، لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يعلمه بما لا يدركه البشر.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وما قاله ﷺ في الشرع فهو كقول الله وليس هذا كقوله: "ما شاء الله وشئت"، لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول ﷺ مشاركاً لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ (ثم)، والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية، فلا.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:١٠٥] بعد موت الرسول ﷺ وتعذر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله لا يرى، فلا تجوز كتابته لأنه كذب عليه ﷺ. ٥

قال ﷺ: ((بينهما مسيرة خمسِمِائَةَ سنة))

الميم الثانية في خمسمائة مكسورة والألف لا ينطق بها. ٥

أي: بين السماء الدنيا والأرض خمسمائة عام.

((وبين كلِّ سماء إلى سماء خمسمائة عام))

((وكثف كلِّ سماء))

هذه هي الزيادة التي جاء بها هذا الحديث عما قبله، أي: غِلَظ كلّ سماء وسمكها. ٤

((وبين السماء السّابعة والعرْش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض))

هذا بيان عمق البحْر. ٤

وذلك خمسمائة سنة. ٥

((والعرش فوق الماء))

وهذا سبق، وهو في الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧].

((والله تعالى فوقَ ذلك))

هذا كما سبق أنّ الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقه بذاته سبحانه وتعالى. ٤

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، ولا عبرة بقول مَن ضعَّفه؛ لكثرة شواهده التي يستحيل دفعُها وصرفُها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله وعِظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسول الله ﷺ وعلى كمال قدرته وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه. ٢

قال الشيخ سليمان كما في إبطال التنديد قوله: ((والله فوق ذلك)) أي: فوق جميع المخلوقات مستوٍ على عرشه سبحانه وبحمده، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، علو الذات وعلو القهر وعلو القدر: هذا مذهب أهل السنة والجماعة الذي اجتمعوا عليه وبدعوا وضللوا من خالفه من الجهمية النافية ؛ وعليه يدل الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة وذكر ابن القيم له مائة دليل من القرآن في كافيته، واستدل عليه بأحد وعشرين وجهاً، وذكر عليه إجماع المرسلين، وليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا جاء عن أحد من السلف المقتدى بهم حرف واحد يخالفه. قال تعالى: ﴿إليه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠] وقال تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ في ستة مواضع: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧] ونظائر هذا لا تُحصى إلا بكلفة، وفي الأحاديث قصة المعراج، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه، وقوله في حديث الأوعال: ((والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه))، وحديث الجارية: ((أين الله؟ قالت في السماء. قال:

من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة))[1]، وفي حديث قبض الروح: ((حتى يعرج بها إلى السماء التي فيها الله))[2] إلى غير ذلك من الأحاديث التي بعضها يكفي من طلب الإنصاف، وأراد الله به خيراً.

قال ابن قتيبة: "ما زالت الأمم عربها وعجمها في جاهليتها وإسلامها معترفة بأن الله في السماء".[3]

وروى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن عبد الله بن المبارك أنه قيل له: "بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه".[4]

وروى ابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية عن سعيد بن عامر الضبعي –إمام أهل البصرة علماً وديناً، من شيوخ الإمام أحمد– أنه ذُكِرَ عنده الجهمية فقال: "هم أشرُّ قولاً من اليهود والنصارى؛ وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان على أن الله على العرش، وقالوا هم: ليس عليه شيء. [5]

وقال محمد بن إسحاق بن خُزَيمة إمام الأئمة: "من لم يقل إن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه؛ وجب أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم ألقي على مزبلةٍ من المزابل لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة." ذكره عنه الحاكم بإسناد صحيح.[6]

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (رقم٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم الأسلمي رضي الله عنه.

[2] رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٦٤)، وابن ماجه في سننه (رقم ٤٢٦٢)، والنسائي في السنن الكبرى (رقم ١١٤٤٢)، وغيرهم وإسناده صحيح كما قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٢٥٠).

[3] تأويل مُختلف الحديث(ص/٢٧٢).

[4] سبق تخريجه.

[5] علقه البخاري في خلق أفعال العباد(ص/٣١)، ووصله ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية –كما في العلو للذهبي (ص/١٥٨) وفي سنده انقطاع.

[6] انظر: العلو للذهبي (ص٢٠٧)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص١١٧).

وفي كتاب (الفقه الأكبر) المشهور المروي عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، قال: سألت أبا حنيفة عمن يقول: "لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض، قال: "قد كفر لأن الله يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وعرشه فوق سمواته. "فقلت: إنه يقول: أقول على العرش استوى ولكن لا أدري العرش في السماء أو في الأرض. فقال: "إذا أنكر أن الله في السماء فقد كفر"، روى هذا أبو إسماعيل صاحب (الفاروق)[١].

وقال الموفق ابن قدامة: بلغني أن أبا حنيفة –رحمه الله – قال: "من أنكر أن يكون الله عز وجل في السماء فقد كفر".[٢]

وروى عبد الله بن أحمد عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك بن أنس: "الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء". [٣]

وروى أبو الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ ؛ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحَضاء ثم قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مُبْتَدِعاً فأُمِرَ بِهِ أن يُخْرَجْ". [٤]

وروى شيخ الإسلام أبو الحسن الهكاري عن أبي شعيب وأبي ثور كلاهما عن محمد بن إدريس الشافعي –رحمه الله– قال: "القول في السنة التي أنا عليها، وأدركت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وأن الله على عرشه في سمائه، يَقْرُبُ من خلقه كيف شاء، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء." وذكر سائر الاعتقاد.[٥]

[١] الفقه الأبسط (ص/٤٩). وانظر: شرح الفقه الأبسط لأبي ليث السمرقندي(ص/١٧)، ومجموع الفتاوى (٥/٤٨)، والعلو للذهبي (١٠١).

[٢] إثبات صفة العلو (ص/١١٦-١١٧)، وأورده الذهبي في العلو (ص/١٠١-١٠٢) وعزاه لابن قدامة.

[٣] رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة (رقم١١) وغيره وإسناده صحيح.

[٤] سيأتي تخريجه وبيان أنه صحيح.

[٥] انظر: إثبات العلو لابن قدامة (ص/١٢٣-١٢٤)، وكتاب العلو للذهبي (ص/١٦٥).

وروى الخلال في كتاب السنة حدثنا يونس بن موسى قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: "قال لي أبي: ربنا تبارك وتعالى فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه، وقدرته وعلمه بكل مكان". [1]

وقال الإمام أبو محمد بن أبي زيد المغربي القيرواني شيخ المالكية في وقته في أول رسالته المشهورة في مذهب مالك: "وأنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته، وأنه في كل مكان بعلمه".

قال الإمام أبو بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد لما ذكر قوله: "وأنه تعالى فوق عرشه المجيد"، معنى ﴿فوق﴾ و﴿علا﴾ واحدٌ عند جميع العرب، ثم ساق الآيات والأحاديث إلى أن قال: وقد تأتي لفظة ﴿في﴾ في لغة العرب بمعنى فوق كقوله: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، قال أهل التأويل: يريد فوقها، وهو قول مالك مما فهمه عن التابعين مما فهموه عن الصحابة مما فهموه عن النبي ﷺ: أن الله في السماء يعني: فوقها، فلذلك قال الشيخ أبو محمد: إنه فوق عرشه، ثم بين أن علوه فوق عرشه إنما هو بذاته بائن عن جميع خلقه، بلا كيف، وهو بكل مكان بعلمه، لا بذاته، فلا تحويه الأماكن لأنه أعظم منها" انتهى كلام الشارح.[2]

هذا دليل على العلو العظيم لله عز وجل، وأنه سبحانه فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه، فإنه سبحانه لا يوصف بأنه في جهة تحيط به، لأن ما فوق السماوات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال: إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

ولهذا جاء في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقاً، وينكرون العلو ظناً منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر.

وليس كذلك، لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثم إلا الله، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبداً.

---

[1] انظر إثبات العلو لابن قدامة (ص/١١٦)، وشرح أصول الاعتقاد (رقم٦٧٤).

[2] إبطال التنديد (ص ٣٢٢).

فالجهة إثباتها لله فيه تفصيل، أما إطلاق لفظها نفياً وإثباتاً فلا نقول به، لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، ولكن نفصل، فنقول: إن الله في جهة العلو، لأن الرسول ﷺ قال للجارية: ((أين الله؟)) وأين يستفهم بها عن المكان، فقالت: في السماء.

فأثبتت ذلك، فأقرها النبي ﷺ عليه، وقال ((أعتقها، فإنها مؤمنة))[1].

وأهل التحريف يقولون: ((أين)) بمعنى ((من))، أي: من الله؟ قالت: في السماء، أي: هو من السماء، وينكرون العلو.

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله في كتبه ومنها "النونية" وقال لهم: اللغة العربية لا تأتي فيها أين بمعنى، "من"، وفرق بين "أين و من".

فالجهة لله ليست جهة سفل، وذلك لوجوب العلو له فطرة وعقلاً وسمعاً، وليست جهة علو تحيط به، لأنه تعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، وهو موضع قدميه، فكيف يحيط به تعالى شيء من مخلوقاته؟!

فهو في جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال: إن شيئاً يحيط به، لأننا نقول: إن ما فوق العرش عدم ليس ثم إلا الله سبحانه، ولهذا قال :((والله تعالى فوق ذلك)). ٥

((وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم))

ومع علوِّهِ سبحانه – على مخلوقاته فإنّه يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا يخفى عليه شيءٌ ممّا يحدُث في هذا الكون في أعلاه وفي أسفله، وجميع أعمال بني آدم على كثرة بني آدم وتفرُّقهم في الأرض واختلاف أمكنتهم فإنّ الله يعلم جميع ما يصدُر منهم: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)﴾ [الرعد:١٠]، فالله جل وعلا لا يخفى عليه شيء على كثرة العباد، وتفرُّقهم في الأرض، واختلاف أمكنتهم، وتبايُن ما بينهم وخفاء أعمالِهم فإنّ الله جل وعلا يعلمُها: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧] أي أخفى من السّرّ، بل يعلم ما في النّفس وما في القلب قبل أن يتكلّم الإنسان

[1] مسلم: كتاب المساجد/باب تحريم الكلام في الصلاة.

فالله يعلم ما يختلج في نفسك وما يدور في فِكْرك قبل أن تتكلّم وقبل أن تعمل، فالله جل وعلا لا يخفى عليه شيء، وهو العليُّ الأعلى فوقَ مخلوقاتِه سبحانه. ٤

وقوله ((أعمال)) إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب، وهي هنا مفردة، فتشمل كل ما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم في المستقبل، فهو يعلم ما يكون فضلاً عما كان، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه: ١١٠]، أي: ما يستقبلونه وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾، أي: ما شأنها ؟ قال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾، أي: محفوظة، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾: لا يجهل، ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١- ٥٢] لا يذهل عما مضى سبحانه وتعالى.

والنبي ﷺ صدر هذا الأمر بهل الدالة على التشويق والتنبيه من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة، وهو أنه تعالى فوق كل شيء بذاته، وأنه محيط بكل شيء علماً، لقوله: ((وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم))، فإذا علمنا ذلك، أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته، لأنه فوقنا، فهو عال علينا، وأمره محيط بنا.

وفي الحديث صفتان لله: ثبوتية، وهي العلو المستفاد من قوله: ((والله فوق ذلك)).

وسلبيه المستفاد من قوله: ((ليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم))، ولا يوجد في صفات الله عز وجل صفة سلبية محضة، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لثبوت ضدها على وجه الكمال، فينفى عنه الخفاء لكمال علمه، وينفى عنه اللغوب لكمال قوته، وينفى عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك.

فإذا نفى الله عن نفسه شيئاً من الصفات، فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، السنة: النعاس، والنوم: الإغفاء العميق، وذلك لكمال حياته وقيوميته، إذ لو كان ناقص الحياة لحتاج إلى النوم، ولو نام ما كان قيوماً على خلقه، لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم ولهذا كان أهل الجنة لا

ينامون لكمال حياتهم، ولأن النوم في الجنة يذهب عليهم وقتاً بلا فرح ولا سرور ولا لذة، لأن السرور فيها دائم، ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها.

وليس في صفات الله محض، لأن النفي المحض عدم لا ثناء فيه ولا كمال، بل هو لا شيء، ولأن النفي أحياناً يرد لكون غير قابل له، مثل قولك: الجدار لا يظلم.

وقد يكون نفي الذم ذماً، كما في قوله :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا ... يظلمون الناس حبة عجزهم وضعفهم.

وقال آخر:

لكــن قــومي وإن كــانوا ذوي عــدد	ليسـوا مـن الشـر في شـيء وإن هـانا
يجزون مـن ظلـم أهـل الظلـم مغفـرة	ومـن إسـاءة أهـل السـوء إحسـانا
كـــأن ربـــك لم يخلـــق لخشـــيتيه	سـواهم مـن جميـع النـاس إنسـانا
فليـــت لي بهمـــو قومـــاً إذا ركبـــوا	شـــنوا لا غـــارة ركبـــاناً وفرســـانا

فنفى أن يكون يد في الشر، وبين أن ذلك لعجزهم عن الانتصار لأنفسهم، وتمنى أن يكون له قوم خير منهم وأقوى. ٥

هذان الحديثان من أحاديث الصفات، ومن أحاديث العلو، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله سبحانه في العلو فوق العرش، فوق جميع الخلق، وعلمه في كل مكان، والأدلة على هذا أكثر من أن تحصر من الكتاب والسنة، فقد جاء في القرآن الكريم من الآيات الكثيرات ما يشهد لهذا، وأنه فوق العرش كآيات الاستواء وكغيرها ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥] ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إليه﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿إليه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] في آيات كثيرات، وهكذا السنة، ومن ذلك حديث ابن مسعود هذا، وهو حديث صحيح جيد، وحديث ابن عباس وإن كان في سنده بعض الانقطاع لكنه منجبر، وإلا بعض أهل العلم أعله بالانقطاع، والرواية الأخرى ((بين السماء الدنيا والتي تليها

إحدى وسبعين سنة، أو ثنتان وسبعون، أو ثلاث وسبعون سنة)) قال بعض أهل العلم: الجمع بينهما أن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلى سير الأحمال والجري بالأقدام والسير العادي، وثلاث وسبعون سنة ونحوها بالنظر إلى سير البرد، السير الخفيف القوي فإنه يكون بمقدار سدس بالنسبة إلى الأحمال والمثقلات أو حول ذلك.

فالحاصل أن هذا على كل تقدير يدل على علو الله جل وعلا، وأنه فوق العرش، وأنه فوق جميع الخلق أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم مع علوه وفوقيته سبحانه و تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالنا.

وفيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات وسعة ما بينها بهذه المسافات العظيمة، وربك هو الخلاق العليم جل وعلا، هذه السماوات شأن عظيم، وهذا الفضاء الذي بيننا السماء وهكذا بين كل سماء، سواء كان خمسمائة عام كما في حديث ابن مسعود، أو ثلاث وسبعون عاما كما في رواية ابن عباس بالنظر إلى سير البرد والمراكب المستعجلة، وهو يدل على سعة ما بين هذه المخلوقات، وبعد ما بين هذه المخلوقات، والذي خلقها سبحانه وتعالى أعظم منها وأكبر جل وعلا، فهو المستحق لأن يعبد ويعظم، مع الإيمان بعلو وفوقيته، وأنه لا تخفى عليه خافية سبحانه و تعالى من عباده، يعلم ما في قلوبهم ويعلم السر وأخفى، ولا يغيب عن علمه شيء مع كونه فوق جميع هذه المخلوقات سبحانه وتعالى. ٦

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته. وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها. إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقًّا بلَّغه أمينُه أمتَه، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين. وتلقى الصحابة -رضي الله عنهم- عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله ﷺ ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السماوات مستو على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إليه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ [النساء: ١٥٨]

وقوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إليه﴾. [المعارج ٣-٤]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جميعاً ثُمَّ

اسْتَوَىٰ إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ﴾. [البقرة:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس: ٣]. فذكر التوحيدين في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ [طه ٤- ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان: ٥٨- ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة: ٤-٥].

وقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد: ٤] فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾ [الملك: ١٦-١٧] وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت: ٤٢] وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [الجاثية: ٢].
وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦)﴾ [غافر: ٣٦]. انتهى كلامه رحمه الله.[١]

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين. فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ [طه:٥] قالت: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر" رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما[٢] بأسانيد صحاح[٣].

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق"[٤].

---

[١] مجموع الفتاوى (١٢/٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص/٩٦).

[٢] رواه ابن منده في كتاب التوحيد (رقم ٨٨٧)، والصابوني في عقيدة السلف (ص ١٧٩)، واللالكائي في السنة (رقم ٦٦٣)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ١٦٢- ١٦٣- كتاب الرد على الجهمية)، وابن قدامة في إثبات العلو (رقم ٨٢)، والذهبي في العلو (ص ٨٠-٨١) وغيرهم، وفي إسناده: محمد بن اشرس الكوفي قال الذهبي: "لا يصح؛ لأن أبا كنانة ليس بثقة، وأبو عُمير لا أعرفه"، وقال في الميزان (٤٨٥/٣): "متهم في الحديث، تَرَكَهُ أبو عبد الله الأخرم الحافظ وغيره".

[٣] عبارة الذهبي في كتاب العرش (ص/٢٨٢): "بأسانيد صحاح عن محمد بن أشرس أبي كنانة الكوفي، وهو واهٍ".

[٤] رواه ابن بطة في الإبانة (٣/ ١٦٣- ١٦٤- كتاب الرد على الجهمية) واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ٦٦٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (رقم ٨٦٨)، وابن قدامة في إثبات صفة العلو (رقم ٩٠).

وقال ابن وهب: "كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء[١]، وقال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾، كما وصف نفسه ولا يقال كيف؟ و"كيف" عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة. أخرِجوه"، رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب.[٢]

ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظه قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في صحيحه: "قال مجاهد: ﴿اسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش" [٣].

وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ أي: ارتفع.[٤]

---

[١] الرُّحضاء: عَرَقٌ يَغْسِلُ الجلد لكثرته، وكثيراً ما يُستعمل في عَرَقِ الحُمَّى والمرض. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٢٠٨).

[٢] رواه البيهقي في الأسماء والصفات (رقم ٨٦٦). وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٤٠٦، ٤٤٧) "رواه البيهقي بسند جيد". وله طرق أخرى منها: طريق يحيى بن يحيى وسيأتي، ومنها: طريق جعفر بن عبد الله وهو ثقة عن رَجُلٍ، رواه عثمان الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ١٠٤)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ٦٦٤)، والصابوني في عقيدة السلف (رقم ٢٥، ٢٦) وابن قدامة في إثبات صفة العلو (رقم ٨٨) بإسقاط رجل، وهو متواتر عن مالك، وتلقته الأمة بالقبول. والله أعلم.

[٣] ذكره البخاري في صحيحه: (٨/ ٥٣٣) باب: "وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم" مُعَلَقاً، ورواه الفريأبي في تفسيره – كما في تغليق التعليق (٥/ ٥٤٣) بسند صحيح عن مجاهد.

[٤] رواه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في المطالب العالية (رقم ٣٠١١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (رقم ٦٦٢) عن بشر بن عمر قال: سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)) قال: على العرش استوى: ارتفع.

وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ أي: علا وارتفع[١].

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينا.[٢]

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناده إلى علي بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: "نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية".

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه" [٣].

---

[١] تفسير ابن جرير (١/١٩٢، ١٣/٩٤، ١٩/٢٨)

[٢] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العِيال (رقم ٥٧٢) بسندٍ حسنٍ عن يزيد بنِ الهاد، وابن أبي الدنيا في منازل الأشراف (٢٣٨) بسندٍ فيه ضعف عن عكرمة، وابن أبي الدنيا في كتاب العيال (رقم ٥٧٣)، بسندٍ حسنٍ، وابن قدامة في إثبات العلو (ص ١٠٠) بسند صحيح عن نافع، وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ٨٢) بسندٍ حسنٍ عن قدامة بن إبراهيم كلهم عن عبد الله بن رواحة مرسلاً، وهناك طرق أخرى لم أذكرها كلها مرسلةٌ. وهذه المرسلات تدل على شهرة القصة، فبتعدد مخارجها وبهذه الطرق تكون صحيحة.

قال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (٣ /٩٠٠): "وقصته مع زوجته في حين وقع على أَمَتِهِ مشهورة، رويناها من وجوهٍ صحاح". والله أعلم.

[٣] رواه عثمان الدارمي في الرد على الجهميه (رقم ٦٧، ١٦٢) وفي الرد على المريسي (ص ١٠٣)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ١١١، ١٧٤، ٣٠٧)، وابن منده في التوحيد (رقم ٨٩٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٣٥- ٣٣٦)، وابن بطة في الإبانة (رقم ١١٢). وأبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف (رقم ٢٨)، وابن عبدالبر في التمهيد (٧/١٤٢)، وابن قدامة في العلو (رقم ٩٩/ ١٠٠)، وغيرهم وإسناده صحيح.

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن اللهَ تعالى ذِكْرُهُ بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة.[1]

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته"[2].

وقال في هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء وعلمه في كل مكان.

ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء". وهذا لفظه في كتابه[3].

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يُمَثِّلوا ولم يُكيّفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق العرش: هو الجعد بن درهم. وكذلك أنكر جميع الصفات. وقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة.[4]

فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتجَّ لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين. فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة، ومالك والليث بن سعد والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى.

---

[1] رواه البيهقي في الأسماء والصفات (رقم ٨٦٥)، وابن بطة في الشرح والإبانة (ص/ ٢٢٩)، والذهبي في سِيَرِ أعلام النبلاء (١٢٠/٧ -١٢١)، وفي تذكرة الحفاظ (١٨١/١) وإسناده صحيح كما قاله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى -الفتوى الحموية الكبرى- (٣٩/٥)، والإمام ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ١٣١).

[2] انظر كتاب العلو للذهبي (ص/٢٤٦).

[3] المصدر السابق.

[4] انظرها في الرد على الجهمية لعثمان الدارمي(رقم١٢-١٣، ٣٧٠، ٣٨٨)، وانظر: البداية والنهاية (١٤٧/١٣-١٤٩-التركي).

فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري ببغداد، حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول: "كنا –والتابعون متوافرون– نقول: إن الله فوق عرشه. ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقي في الصفات، ورواته أئمة ثقات[1]".[2]

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات لا يسعُ أحدًا رَدُّهَا ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] انتهى من فتح الباري[3]. ٢

الأحاديث التي أوردها المصنف تدل دلالة واضحة على عظمة الباري سبحانه وتعالى وقدرته، وعظم مخلوقاته وعجائبها وأنه المتصرف بها كيف يشاء، وكذلك فيه ضعف عقول من ترك عبادته أو أشرك معه فكيف بهذا الخالق القادر سبحانه تُتْرَك عبادته أو يتوجه إلى قبر أو ضريح ويدعى من دون الله، مع علم هؤلاء الناس أن المعبودين خلق مثلهم، محتاجون لخالقهم تبارك وتعالى.

إن من تفكر بهذه الأحاديث وتعقل معانيها علم أنه لهذا الكون خالق ومدبراً لها، ومصرفاً لشؤونه، وأنه وحده المستحق للعبادة، فهذه السموات السبع إذا قارناها بالكرسي كانت السموات مثل الدرهم الذي يلقى في ترس، فتكون النسبة بينهما كبيرة.

هذا الكرسي الذي يضع الرب سبحانه و تقدس قدميه عليه على كبره إذا قارناه بالعرش كان هذا الكرسي مثل الحلقة من حديد إذا ألقيت في صحراء كبيرة واسعة الأطراف.

---

[1] سبق تخريجه

[2] كتاب العرش للذهبي (ص/٢٩٨-٢٩٩)

[3] فتح الباري (١٣/٤٠٦)

وما بين السموات وبين الكرسي أمر لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

فوجب على العبد أن يلجأ إلى الله سبحانه ويعبده حق عبادته ويقدره حق قدره. ٩

ويبين لك ذلك؛ يبين لك عظمة الرب في ذاته وعظمة الرب جل وعلا في صفاته إذا تأملت هذه الأحاديث، فإنك إذا نظرت في هذه الأرض، ونظرت سعة هذه الأرض، وغرور أهل الأرض بها غرور أهل الأرض في الأرض بهذه الأرض وبسعتها وبقواهم فيها، نظرت إلى أن الأرض بالنسبة إلى السماء أنها صغيرة، وأن بين الأرض وبين السماء الأولى مسيرة خمسمائة سنة في مسير الراكب السريع، وكذلك بين السماء الأولى والسماء الثانية مسيرة خمسمائة سنة، وهكذا حتى تنتهي السبع السماوات، والأرض بالنسبة للسماوات صغيرة، ولهذا مثَّل السماوات السبع النبي عليه الصلاة والسلام في الكرسي الذي هو فوق ذلك وهو أكبر بكثير من السماوات، بقوله ((إن السماوات السبع كدراهم سبعة ألقيت في ترس)) يعني هذه السماوات صغيرة جداً بالنسبة إلى الكرسي؛ بل كدراهم سبعة ألقيت في ترس، والترس مكتنفها متقوس عليها، فهي صغيرة فيه وهو واسعها كما قال جل وعلا عن الكرسي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالأرض التي أنت فيها، وأنت فيها في نقطة صغيرة صغيرة هي بالنسبة إلى السماء هذا وصفها، والأرض والسماوات بالنسبة للكرسي هذا وصفه، والكرسي أيضاً فوقه ماء، وفوق ذلك العرش عرش الرحمان جل وعلا، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، فهو متناهي الصغر بالنسبة إلى عرش الرحمان الذي الرحمان جل وعلا مستو عليه وهو فوقه سبحانه وتعالى.

ولو تأملوا صفة الرب جل وعلا وما يجب له من الجلال وما هو عليه سبحانه وتعالى من صفات الذات ومن صفات الفعل وما هو في ذلك على الكمال الأعظم، فإنهم سيحتقرون أنفسهم، وسيعلمون أنه ما ثَم ينجيهم ويشرفهم إلا أن يكونوا عبيدا له وحده دون ما سواه.

فهل يعبد المخلوقُ المخلوقَ؟ الواجب أن يعبد المخلوقُ هذا الذي هو متصف بهذه الصفات العظيمة، فهو الحقيق بأن يذل له، وهو الحقيق بأن يطاع، وهو الحقيق أن يجل، وهو الحقيق بأن يسأل، وهو الحقيق بأن يبذل كل ما يملكه العبد في سبيل مرضاته جل وعلا، إذ هذا من قدره حق قدره ومن تعظيمه حق تعظيمه.

فإذا تأمل العبد صفات الربوبية وصفات الجلال وصفات الجمال لله جل وعلا، وأن ذات الله جل وعلا عظيمة، وأنه سبحانه وتعالى مستو على عرشه بائن من خلقه على هذا العظم، وجد أنه ما ثَم إلا أنه يتوجه إليه بالعبادة وألا يعبد إلا هو، وأن من عبد المخلوق الحقير الوضيع فإنه قد نازع الله جل وعلا في ملكه ونازع الله جل وعلا في إلهيته، ولهذا يحق أن يكون من أهل النار المخلدين فيها عذابا دائما؛ لأنه توجه إلى هذا المخلوق الضعيف وترك الرب العلي القادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

ثم إذا تأملتَ ذاك تأملتَ ربك العزيز الحكيم المتصف بصفات الجلال وهو جل وعلا فوق عرشه يأمر وينهى في ملكوته الواسع -الذي الأرض كَشِبْه لا شيء في داخل ذلك الملكوت- يفيض رحمته ويفيض في نعيمه على من شاء، ويرسل عذابه على من شاء، وينعِّم من شاء، ويصرِف البلاء عن من شاء، وهوسبحانه ولي النعمة والفصل، فترى أفعال الله جل وعلا في السماوات وترى عبودية الملائكة في السماوات؛ تراها متجهة إلى هذا الرب العظيم المستوي على عرشه كما قال عليه الصلاة والسلام «أَطّتِ السّمَاءُ وَحُقّ لَهَا أَنْ تَئِطّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلاّ وَمَلَكٌ قائم أو مَلَكٌ راكع أو مَلَكٌ سَاجِد» وهذا لأجل تعظيمهم لأمر الله، فتنظر إلى نفوذ أمر الله في ملكوته الواسع الذي لا نعلم منه ما هو لنا من هذه الأرض وما هو قريب منها؛ بل نعلم بعض ذلك، والله جل وعلا هو المتصف.

ثم تنظر إلى أن الله جل وعلا هذا الجليل العظيم المتصف بهذا الملك العظيم أنه يتوجه إليك أيها العبد الحقير الوضيع فيأمرك بعبادته وهي شرف لك لو شعرت، ويأمرك بتقواه فهو شرف لك لو شعرت، ويأمرك بطاعته وذاك شرف لك لو شعرت، فإنه إذا علمت حق الله وعلمت

صفات الله، وما هو عليه من العلو المطلق في ذاته وصفاته جل وعلا، وفي نفوذ أمره في هذه السموات السبع التي هي في الكرسي كدراهم ألقيت ترس، ثم ما فوق ذلك، والجنة والنار وما في ذلك، وجدت أنك لا تتمالك إلا أن تخضع له جل وعلا خضوعا اختياريا، وأن تذل له، وأن تتوجه إلى طاعته، وأن تتقرب إليه بما يجب، وأنك إذا تلوت كلامه تلوت كلام من يخاطبك به ويأمر وينهى به، فيكون حينئذ التوقير غير التوقير ويكون التعظيم غير التعظيم.

ولهذا كان من أسباب رسوخ الإيمان في القلب وتعظيم الرب جل وعلا أن يتأمل العبد ويتفكر في ملكوت السموات والأرض كما أمر الله جل وعلا بذلك حين قال ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، وقال جل وعلا ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا [1] فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وقال أيضاً جل وعلا في وصف الخُلَّص من عباده ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٢] إلى آخر دعواتهم وهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم يتفكرون، ومع ذلك سيسألون النجاة من النار، فهم في ذل وخضوع لما عرفوا من أثار توحيد الربوبية ولما عرفوا من أثار توحيد الألوهية في القلب وفي النفس. ٣

يُستفاد من هذه النصوص فوائد عظيمة جليلة:

أوّلاً: فيه قَبُول الحقِّ مِمَّن جاء به، فإنّ النّبي ﷺ قبِل الحق من هذا اليهودي وفرح به -عليه الصلاة والسلام-.

[1] وقال في الآية قبلها: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف:١٨٤].

ثانياً: في هذه النّصوص مشروعيّة التحدُّث عن آيات الله الكونيّة، من أجل الاعتبار والاتّعاظ، وتعظيم الله سبحانه وتعالى وإفرادِه بالعبادة، وليس التحدُّث بهذه الأمور هو من باب الاستطلاع أو زيادة المعلومات فقط، وإنّما هو من أجل الاعتبار والاتّعاظ والاستدلال على استحقاق الله جل وعلا للعبادة دونما سواه، هذا هو المطلوب.

ثالثاً: فيها إثبات اليدين لله جل وعلا، والكف، والأصابع، ووصف يديه باليمين والشِّمال، وفي حديثٍ آخر: ((وكلتا يديه يمين))، فهي شِمال لكنّها ليست كشِمال المخلوق، فشِماله يمين، خلاف المخلوق فإنّ شِماله لا تكون يميناً، وإنّما هذا خاصٌّ بالله تعالى بأن ((كلتا يديه يمين))، فله يد يمين وله شِمال كما في هذه الأحاديث، فهي يمين لا تُشبه يمين المخلوقين وشمالٌ لا تشبه شمال المخلوقين، وله أصابع سبحانه لا تُشبه أصابع المخلوقين، بل تليق به سبحانه وتعالى.

رابعاً: في هذه النّصوص بيانُ المسافات التي بين هذه المخلوقات: المسافات بين السماء والأرض، المسافات بين السموات، المسافات بين السموات والكرسيّ، المسافات بين الكرسي والماء، وهذه مسافات عظيمة متباعِدة، ممّا يدلّ على عظمة هذا الكون، وعظمة هذا الكون يدلّ على عظمة خالقِه سبحانه وتعالى.

وفيها: الردُّ على أصحاب النظريّات الحديثة الذين لا يؤمنون بوجود السموات، ولا بوجود هذه المخلوقات العُلْويّة، وإنّما يظنّون أنّ هذا فضاء خارجي، وعندهم: أن الكون هو المجموعة الشمسيّة، ويعتبرون أنّ الشمس هي المركز لهذه المجموعة، وأنّ هذه الأفلاك بكواكبها تدور عليها -بما فيها الأرض، وهذا من الكذب على الله سبحانه وتعالى، والقول على الله بلا علم، والتحرُّص الذي ما أنزل الله به من سلطان، والنّبي ﷺ بيَّن هذه المخلوقات في هذه الأحاديث: أوّلاً: الأرض، ثم فوقها السموات السّبع، ثم فوق السموات السّبع الكرسي، ثم فوق الكرسي البحر، ثم فوق البحر العرش، والله جل وعلا فوق العرْش، فيجب الإيمان بذلك، وتكذيب هذه النظريّات الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان. فالله أخبر أن الأرض قرار وأن الشمس تجري وأصحاب النظريات يقولون بالعكس.

خامساً: في هذه النّصوص إثبات أنّ الأرضين سبع كالسموات، والله جل وعلا لم يذكر في القرآن عدد الأرضين، ولكنّه أشار إلى هذا في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، يدلّ على أنّ الأرضين سبع، وجاء مصرَّحاً بذلك في السنّة كما في الأثر الأوّل، وقوله ﷺ: ((من اقتطع شِبْراً من الأرض طُوِّقَه يومَ القيامة من سبع أَرَضين))، فدلّ هذا على أنّ الأَرَضين سبع.

سادساً: فيها بيان كيفيّة هذه المخلوقات، وأنّ بعضَها فوق بعض، فالأرض أوّلاً ثم السموات، ثم الكرسيّ، ثم البَحْر، ثم العَرْش، وأنّ العرش هو أعظم هذه المخلوقات وفيها رد على من يقول إن العرش هو الملك وأن معنى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى على الملك.

سابعاً: فيها أنّ الكرسي غير العرش، وأنّه مخلوق مستقل، ردّاً على من زعم أنّه العرْش، أو أنّ المراد به العلم.

ثامناً: في هذه النّصوص إثبات علوّ الله على عرشِه، ردًّا على الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة ونُفاة العلوّ الذين ينفون علوَّ الله على عرشِه.

تاسعاً: فيها إثبات إحاطة علمِ الله -جلّ وعلا بكلِّ شيء-، وأنّه لا تخفى عليه أعمال عباده صغيرُها وكبيرُها.

عاشراً: فيها وُجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، لأنّه إذا كانت هذه المخلوقات العظيمة حقيرةٌ بالنسبة إليه سبحانه وتعالى، وصغيرة بالنسبة إليه، وأنّه يتصرّف فيها جل وعلا، ويعلم ما يجري فيها وما يكونُ فيها؛ فهو المستحقُّ للعبادة، وبُطلان عبادة ما سواه ممّن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً.

وبهذا انتهى شرح هذا الكتاب المبارَك: "كتاب التّوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد".

والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. ٤

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ، صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ، لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: ((كخردلة في كف أحدكم)).

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماوات.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشر: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشر: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشر: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشر: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشر: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشر: كثف كل سماء خمسمائة عام.

التاسعة عشر: أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقد تقدم من حديث ابن مسعود، حيث أقر النبي ﷺ الحبر على أن الله يجعل السماوات على إصبع... إلخ. ٥

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.

كأنه يقول: إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها، لأنهم لم يكذبوها ولم يتأولوها، وجاء قوم من هذه الأمة، فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة، فكأنه يقول: اليهود خير منهم في هذا وأعرف بالله. ٥

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ، صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

ظاهر كلام المؤلف بقوله: "ونزل القرآن" أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك، لأنه في حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك. ٥

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ، لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

ففيه دليل على جواز الضحك في تقرير الأشياء، لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهة. ٥

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: "في الأخرى" لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة التالية، وهي: ٥

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال. وقد سبق الكلام على ذلك. ٥

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك. ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن، فليقوموا بذلك. ٥

الثامنة: قوله: ((كخردلة في كف أحدكم)).

يعني بذلك قوله في الحديث: ((ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدهم))، هكذا قال المؤلف رحمه الله ((في كف أحدكم)) وقد ساق الأثر بقوله ((كخردلة في يد أحدكم))، وأنظر (ص ٣٧٦) وكلامنا على الأثر هناك. ٥

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماوات. حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس. ٥

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي. لأنه جعل الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش. ٥

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء. ولم أر من قال: إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي، لحديث: ((إن الله يضع كرسيه يوم القيامة))[1]، وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم، فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾، أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذين استوى عليه الرحمن سبحانه، والعلم صفة في العالم يدرك بها المعلوم. ٥

الثانية عشر: كم بين كل سماء إلى سماء. وهو خمسمائة عام. ٥

الثالثة عشر: كم بين السماء السابعة والكرسي. وهو خمسمائة عام.

الرابعة عشر: كم بين الكرسي والماء. وهو خمسمائة عام.

الخامسة عشر: أن العرش فوق الماء. وهي ظاهرة.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش. وهي ظاهرة.

السابعة عشر: كم بين السماء والأرض. وهو خمسمائة عام. ٥

---

[1] الحاكم في "المستدرك" (٢/٣٩٦).

الثامنة عشر: كثف كل سماء خمسمائة عام.

التاسعة عشر: أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة.

وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها.

ويستفاد من أحاديث الباب:

١. أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

٢. التحذير من مخالفة الله عز وجل.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وأسال الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين. ٥

الخاتمة

أسأل الله جل وعلا في ختام هذا الكتاب أن يجزى عنا مؤلفه الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب خير الجزاء، أن يجزيه عن المسلمين خير الجزاء، وكل من ساهم في شرح هذا الكتاب بما أفهمنا من معانيه، فإنه والله لكتاب عظيم إشتمل على ما به نجاة العباد لو شعروا، وقرّب الإمام رحمه الله فيه من نصوص الكتاب والسنة وأفهمنا دلائلها بما جازوا منه النجاة بعفو الله جل وعلا وكرمه.

هذا ووصية أخيرة نختم بها هذا المجلس المبارك وهذا الدرس المبارك الذي يعزّ عليّ أن أفارق فيه هذه الأوجه وطلبة العلم، أوصي بالعناية بهذا الكتاب عناية عظيمة من جهة حفظه ومن جهة[1] دراسته ومن جهة تأمل مسائله ومن جهة معرفة ما فيه؛ فإنه الحق الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم من صالح عباد الله.

[1] وبكى الشيخ –حفظه الله–، جمعنا الله وإياه في الفردوس الأعلى. آمين.

هذا واعتنوا رحمكم الله بذلك أعظم العناية، فإن فيه خيركم لو تعقلون، ووالله إن الانصراف عنه لنذير سوء، وإن الإقبال عليه لنذير بشرى ومؤذن بالخير والبشرى.

وهذا وأسأل الله أن ينفعني وإياكم بما سمعنا، وأن يغفر لنا زللنا وخطأنا، وأن يعفو عنا ما أخطأنا فيه، وأن يجعلنا من المعفو عنهم، ونسأل الله التسامح، وأن يجعلنا من المحققين لتوحيده وأنه لا حول لنا ولا قوة لنا إلا به.

اللهم فكن لنا يا كريم، اللهم فكن لنا يا كريم، اللهم فكن لنا يا كريم.

هذا وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد. ٣

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعَينَ

فهرس جامع شروحات كتاب التوحيد